تجارب الأمم
وتعاقب الهمم

تأليف

أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه

المتوفى سنة ٤٢١ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الأول

يحتوي على أخبار ملوك الفرس السابقين على الإسلام، وعلى الحوادث التي جرت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، ثم خلافة الحسن بن علي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3414-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبد الله النبي العربي الأميّ الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

وبعد

فإن الكتابة التاريخية بشكل عام ليست نشاطاً فكرياً محايداً، على الرغم من الشروط التي حددها علماء الاجتماع والتاريخ لتكون الكتابة التاريخية علماً قائماً بذاته.

وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه السياسية وارتباطه ذاتيّاً أو موضوعياً بأحد أطراف الصراع، باعتبار أن التاريخ بشكل أساسي هو تاريخ الصراعات، فكيف بصاحب القراءة (التاريخية ـ السياسية ـ الاجتماعية) الذي يجد مادته الأساسية في نصوص التاريخ الموضوعة، وكذلك كيف بالمؤرخ الذي يكتب ما يراه ويتفاعل معه شخصياً ويعايشه، بالإضافة إلى ارتباطه شخصياً بأبطال تاريخه.

والواقعة التاريخية إن كانت قائمة بذاتها موضوعياً، فإنها في المتناول تلك الصورة التي يقدمها ذهن ما لتلك الواقعة، أو بتعبير آخر: ليست هناك واقعة تاريخية، بل هناك وعي ما لتلك الواقعة، وهذا الوعي متعدد بتعدد القائمين به. وهكذا فإننا بانتقالنا التدريجي من التاريخ البحت، إلى التاريخ السياسي، إلى الاجتماع السياسي، إلى القراءة والكتابة السياسية الاجتماعية، نبتعد بشكل واضح عن «الحياد العلمي» لندخل في دائرة «الرأي»، و«وجهة النظر».

هذه المقدمات تنطبق بشكل واضح على الكتاب الذي بين أيدينا «تجارب الأمم» لأبي علي مسكويه. ولقد صرّح مسكويه في بداية ذكر حوادث سنة ٣٤٠هـ، حيث قال: «أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة (أي سنة ٣٤٠هـ) فهو مشاهدة وعيان، أو خبرٌ محصّل، يجري عندي خبره مجرى ما عاينته، وذلك أن مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد ـ رضي الله عنه ـ خبّرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبّره، وما اتفق له فيها، فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثقة به، والسكون إلى صدقه، ومثل أبي محمد المهلبي ـ رحمه الله ـ خبّرني بأكثر ما جرى في أيامه، وذلك

بطول الصحبة وكثرة المجالسة، وحدّثني كثير من المشايخ في عصرهما بما يستفاد منه تجربة. وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذكره منه وما شاهدته وجرّبته بنفسي، فأحكيه أيضاً بمشيئة الله تعالى».

وهذا الكتاب «تجارب الأمم» ينشر للمرة الأولى بكامل نصه، حيث اعتمدنا في هذه الطبعة على النسخة الإيرانية الصادرة عن «دار سروش للطباعة والنشر» طهران ١٣٦٦هـ/ ١٩٨٧ م. وهذه الطبعة صدرت في مجلدين فقط وهي تشمل بدء الكتاب أي من مقدمة المؤلف حتى حوادث سنة ١٠٣هـ. وكذلك اعتمدنا الطبعة المصرية الصادرة عن دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. وهذه الطبعة صدرت في ثلاثة مجلدات، وهي تبدأ بذكر حوادث سنة ٢٩٥هـ، حتى حوادث سنة ٣٦٩هـ وهو آخر ما كتبه أبو علي مسكويه، وأضيف إليه «ذيل تجارب الأمم» لظهير الدين أبي شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الروذراوري. وهذا الذيل يشمل حوادث سنة ٣٦٩هـ حتى حوادث سنة ٣٨٩هـ. وأضيف كذلك إليهما قطعة من تاريخ أبي الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي الكاتب. وهذه القطعة تحتوي على حوادث خمس سنين أولها سنة ٣٨٩هـ، وآخرها سنة ٣٩٣هـ.

أما حوادث الفترة الممتدة ما بين سنة ١٠٤هـ حتى آخر سنة ٢٩٤هـ، فقد قام المحقّق سيد كسروي حسن بنسخها عن المخطوطات وتحقيقها.

وقد اعتمد المحقق في نسخ حوادث هذه الفترة على مخطوطتين؛ الأولى النسخة الإيرانية المحفوظة في «كتابخانة آستان»، والثانية النسخة البغدادية المحفوظة في مكتبة جامعة الحكمة في بغداد. وفي الصفحات التالية صور عن هاتين المخطوطتين.

وبهذا نكون قد أصدرنا كتاب «تجارب الأمم» بكامل نصه، حيث أسهمنا في سد الفراغ الذي طالما شغل بال الكثيرين من المعنيين بالدراسات التاريخية الإسلامية.

ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.



کتابخانه آستان قدس

اسم کتاب تجارب الامم ...... عربی ...... جلد دوم

مؤلف ابو علی احمد بن محمد بن مسکویه اصفهانی

خط نسخ ۲۰ سطری

سال تحریر ...... عدد اوراق ۲۵۷

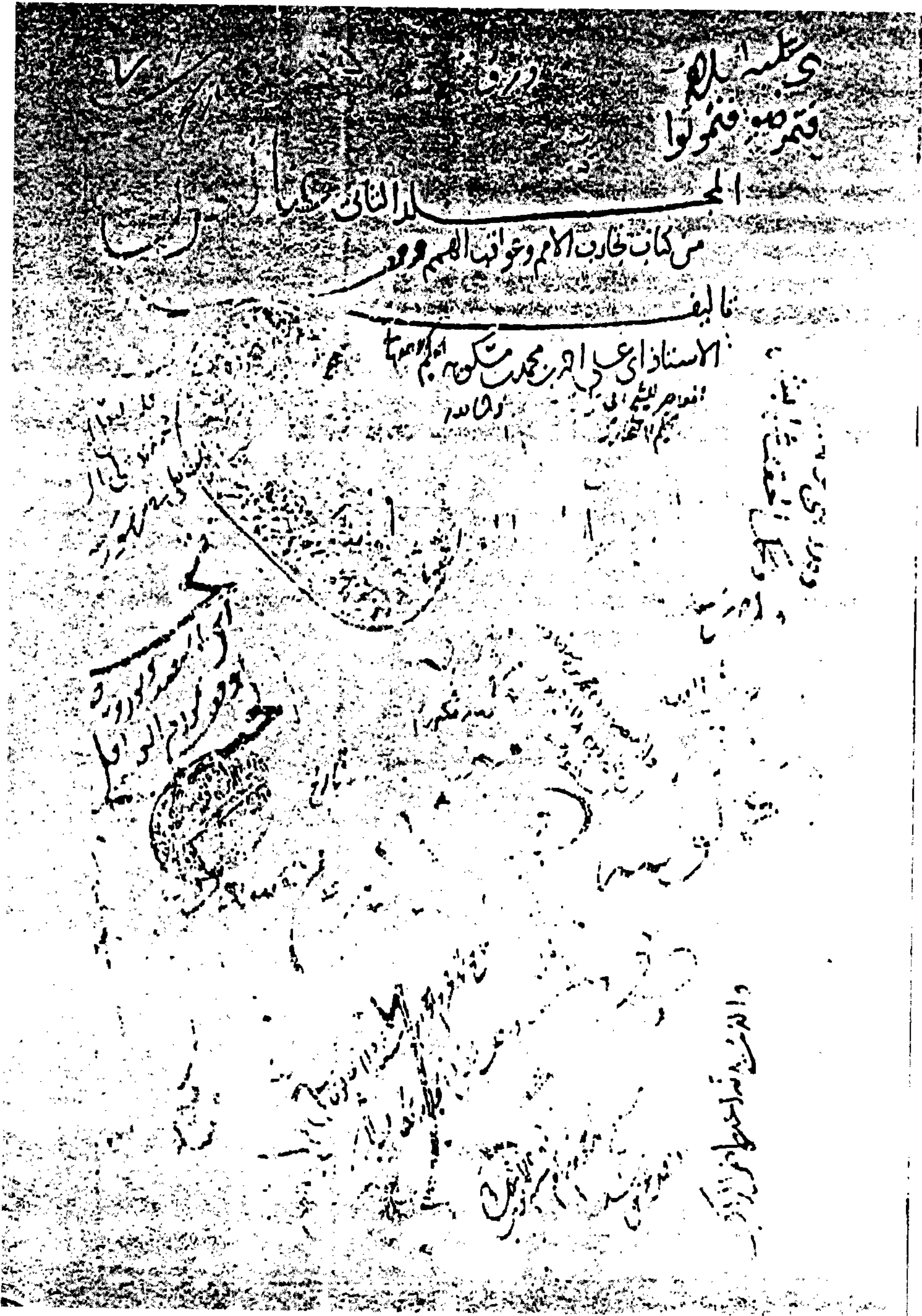
جزء کتب تاریخ ...... شماره

شماره عمومی ...... شماره ثبت

واقف ابن خاتون ...... تاریخ وقف

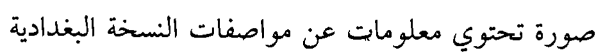
طول ...... عرض

صورة فيها مواصفات النسخة الإيرانية



صورة عنوان المجلد الثاني من النسخة الإيرانية

صورة من النسخة الإيرانية وفيها بداية سنة إحدى ومائة



صورة تحتوي معلومات عن مواصفات النسخة البغدادية

صورة لوحة من النسخة البغدادية وفيها خرم في الصفحة الثانية استُدرك من النسخة الإيرانية

مقدمة في علم التاريخ

قال التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧١: التاريخ في اللغة تعريفُ الوقت. فقيل: هو قلب التأخير. وقيل: هو بمعنى الغاية، يقال: فلان تاريخ قومه أي ينتهي إليه شرفهم. فمعنى قولهم فعلت في تاريخ كذا فعلت في وقت الشيء الذي ينتهي إليه. وقيل: وهو ليس بعربي، فإنّه مصدر المؤرِّخ، وهو معرَب ماه روز. وأمّا في اصطلاح المنجّمين وغيرهم فهو تعيين يومٍ ظهر فيه أمرٌ شائع من ملّة أو دولة أو حدث فيه هائل كزلزلة وطوفان ينسب إليه، أي إلىّ ذلك اليوم ما يراد تعيين وقته في مُستأنَف الزمان أو في متقدمه. وقد يُطلق على نفس ذلك اليوم وعلى المُدّة الواقعة بين ذلك اليوم والوقت المفروض، كذا في شرح التذكرة. والبُلغاء يُطلقونه على اللفظ الدّال بحساب الجُمل بحسب حروفه المكتوبة على تعيين ذلك اليوم، على ما في مجمع الصنائع، حيث قال: **التاريخُ عندَ البلغاء: هو أن يعمدَ الشاعِرُ إلى أنْ يجمعَ حروفاً لواقعة أو أمر في كلمة، أوْ مِضراعاً بحسابِ الجمل موافقاً للتاريخ الهجري، فتكون الكلمة أو المصراع بحسب مقدار حروفها بحساب الجمل هي تاريخٌ لتلك الواقعة، وأحسن أنواع التاريخ أنْ يكون الكلامُ مناسباً للموضوع كما في المثل التالي: فقد بنى إبراهيم خان مسجداً في بلاد البنغال وضع أحدهم تاريخاً لذلك بهذا المصراع: «بناى كعبهء ثاني نهاد ابراهيم» أي وضع إبراهيم بناء الكعبة الثانية انتهى.**

إعلم أن التواريخ بحسب اصطلاح كلّ قوم مختلفة. فمنها تاريخ الهجرة [ويسمى بالتاريخ الهجري أيضاً] وهو أولّ المُحَرَّم من السّنة التي وقع فيها هجرةُ النبي ﷺ من مَكَّةَ إلى المدينة. وشهورُ هذا التاريخ معروفة مأخوذة من رؤية الهلال، ولا يزيد شهرٌ على ثلاثين يوماً ولا ينتقص من تسعة وعشرين يوماً. ويمكن أن يجيء أربعةُ أشهر ثلاثين يوماً على التّوالي، لا أزيْدَ منها، وأن يجيء ثلاثة أشهر تسعةً وعشرين يوماً على التّوالي لا أزيدَ منها. وسنوهم وشهورهم قمرية حقيقية، وكلّ سنة فهو اثنا عشر شهراً. والمنجّمون يأخذون للمحرَّم ثلاثين يوماً وللصّفر تسعةً وعشرين يوماً وهكذا إلى الآخر، فسنوهم وشهورهم قمرية اصطلاحية. ويجيء تفصيله في لفظ السّنة.

وسبب وضع التاريخ الهجري أنه كتب أبو موسى الأشعري[1] إلى

(١) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضر بن حرب، أبو موسى الأشعري. ولد باليمن عام ٢١ ق. =

عمر[١] رضي الله تعالى عنه أنّا قد قرأنا صَكّاً من الكتب التي تأتينا من قِبل أمير المؤمنين، رضي الله تعالى عنه، وكان محلُّه شَعبان، فما ندري أيّ الشعبانَين هو الماضي أو الآتي، فجمع أعيانَ الصَّحابة واستشارهم فيما تُضْبَطُ به الأوقات، وكان فيهم مَلِك أهواز[٢] اسمه الهرمزان[٣] وقد أسلم على يَدِه حين أُسِرَ، فقال: إنّ لنا حِساباً نسمّيه ماه روز، أي حساب الشهور والأعوام، وشَرَحَ كيفية استعماله، فأمر عمر بوضع التاريخ. فأشار بعض اليهود إلى تاريخ الروم فلم يقبله لما فيه من الطول. وبعضهم إلى تاريخ الفرس فردّه لعدم استناده إلى مبدأ معيَّن، فإنهم كانوا يجدّدونه كلّما قام ملك ويطرحون ما قبله، فاستقرَّ رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك. ولم يصلح وقتُ المَبْعث لكونه غيرَ معلوم ولا وقتَ الولادة للاختلاف فيه. فقيل: إنه قد وُلِد ليلةَ الثاني أو الثامن أو الثالث عشر من ربيع الآخر سنة أربعين أو اثنتين وأربعين أو ثلاثة وأربعين من ملك أنوشيروان، ولا وقت الوفاة لتنفّر الطبع عنه. فجُعل مبدأ الهجرة من مَكّة إلى المدينة إذ بها ظهرت دولةُ الإسلام. وكانت الهجرة يوم الثلاثاء لثمانٍ خَلَوْنَ من ربيع الأوّل، وأوّلُ تلك السنة يومُ الخميس من المحرَّم بحسب الأمر الأوسط، وكان اتفاقهم على هذا سنة سبعَ عَشرةَ من الهجرة.

ومنها تاريخُ الروم ويسمّى أيضاً بالتاريخ [الرومي][٤] الإسكندري، ومبدؤه يوم الإثنين بعد مضي اثنتي عشرة سنة شمسية من وفاة ذي القرنين إسكندر بن فيلقوس[٥] الرومي الذي استولى على الأقاليم السبعة. وقيل: بعد مضي ست سنين من جلوسه. وقيل:

= هـ/ ٦٠٢ م وتوفي بالكوفة عام ٤٤هـ/ ٦٦٥ م. صحابي جليل، شجاع، من القادة الفاتحين، تولى التحكيم بين علي ومعاوية. وله أخبار مشهورة، راوٍ للحديث، إمام في القراءة. الأعلام ٤/ ١١٤، طبقات ابن سعد ٤/ ٧٩، غاية النهاية ١/ ٤٤١، صفة الصفوة ١/ ٢٢٥، حلية الأولياء ١/ ٢٥٦.

(١) هو الخليفة عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص. ولد عام ٤٠ ق. هـ/ ٥٨٤ م وتوفي عام ٢٣هـ/ ٢٤٤ م. ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين. صحابي جليل، شجاع عدل حازم. أسلم قبل الهجرة. فُتح العراق والشام على عهده وكذلك فلسطين ومصر. وكانت له مواقف مشهودة في تاريخ الدعوة الإسلامية. وهو أول من دوَّن الدواوين في الإسلام. مات قتلاً بخنجر من أبي لؤلؤة الفارسي. الأعلام ٥/ ٤٥، ابن الأثير ٣/ ١٩، الطبري ١/ ١٨٧، اليعقوبي ٢/ ١١٧، صفة الصفوة ١/ ١٠١، حلية الأولياء ١/ ٣٨، تاريخ الخميس ١/ ٢٥٩، البدء والتاريخ ٥/ ٨٨.

(٢) هي الاسم العربي لكورَة ـ أي صُقع ـ خوزستان، وتقع بين البصرة وفارس، والجبال. ثم عرب اسم الكورة (الأهواز) على إحدى مدنه وقَصَبته، وهي سوق الأهواز، فهي المرادة في كلام المتأخرين. معجم البلدان ١/ ٢٨٤، الأنساب ١/ ٣٩١، تقويم البلدان ٣١٦، الأمصار ذوات الآثار ٢٢٤.

(٣) هو اسم لقائد فارسي معروف، وقع في أسر المسلمين أيام عمر بن الخطاب، ثم أسلم ظاهراً.

(٤) الرومي (+ م).

(٥) هو الإسكندر الأكبر المقدوني ذو القرنين إسكندر بن فيلقوس أو فيليپوس. حكم من سنة ٣٣٦ ـ ٣٢٣ ق. م. وقد بنى مدينة الإسكندرية فنسبت إليه ودفن فيها. وذكر المسعودي أن قبره كان لا يزال بها حوالي سنة ٣٢٢هـ. أخبار الحكماء ٢٦، خطط المقريزي ١/ ١٥٠، دائرة المعارف الإسلامية مادة الإسكندر، طبقات الأطباء والحكماء ٢٨ هامش ١٠.

مبدؤه أوّل ملكه. وقيل: أوّل ملك سولوقس[١] وهو الذي أمر ببناء أنطاكية[٢] وملك الشام والعراق وبعض الهند والصين. ونسب بعده إلى إسكندر واشتهر باسمه إلى الآن. وقيل: مبدؤه مقدّم على مبدأ الهجري بثلاثمائة وأربعين ألفاً وسبعمائة يوم. وذكر كوشيار[٣] في زيجه الجامع أنّ هذا التاريخ هو تاريخ السريانيين، وليس بينهم وبين الروم خلاف إلاّ في أسماء الشهور وفي أوّل شهور السنة، فإنه عند الروم كانون الثاني باسم رومي على الترتيب. وأسماء الشهور في لسان السريانيين على الترتيب هي هذه: تشرين الأول تشرين الآخر كانون الأول كانون الآخر شباط آذار نيسان أيار حزيران تموز آب أيلول. والمشهور أن هذه الأسماء بلسان الروم وأن مبدأ سنتهم أوّل تشرين الأول ووقته قريب من توسّط الشمس الميزان على التقديم والتأخير. والسنة الشمسية يأخذون كسرها ربعاً تامّاً بلا زيادة ونقصان. وأيام أربعةِ أشهر منها وهي تشرين الآخر ونيسان وحزيران وأيلول ثلاثون ثلاثون، وشباط ثمانية وعشرون، والبواقي أحد وثلاثون أحد وثلاثون. ويزيدون يوم الكبيسة في أربع سنين مرة في آخر شباط فيصير تسعة وعشرين. وقيل: في آخر كانون الأول ويسمّون تلك السنة سنة الكبيسة فسنوهم [وشهورهم] شمسية اصطلاحية. ومنها تاريخ القبط المحدَث. وأسماء شهوره هذه: توت بابه هثور كيهك طوبه أمشير برمهات برموزه بشنشد بونه ابيب مسري. وأيام سنتهم كأيام سنة الروم، إلاّ أنّ أيام شهورهم ثلاثون ثلاثون، والخمسة المستَرَقة تُزاد في آخر الشهر الأخير وهو مسري، والكبيسة مُلحقة بآخر السنة. وأوّل سنتهم وهو التاسع والعشرون من شهر آب الرومي إلاّ أنْ يكون في سنة الروم كبيسة فإنّه حينئذٍ يكون أول السنة هو الثلاثون منه. ومبدأ هذا التاريخ حين استولى دقلديانوس[٤] ملك الروم على القبط، وهو

---

(١) سولوقس، قائد مقدوني يوناني من قواد الإسكندر (٣٥٥ ـ ٢٨٠ ق. م) أرسل إلى الجهة الشرقية من إمبراطورية الإسكندر حاكماً على بابل. ثم أسّس المملكة السلوقية بعد الإسكندر، فحكم منطقة الشرق ولقّب بسولوقس الأول. أعقبه سولوقس الثاني حتى السادس حوالي ٩٥ ق. م.

(٢) مدينة بالشام على ساحل البحر. قالوا: وكل شيء عند العرب من قبل الشام فهو إنطاكية. وقد مدحها العرب والجغرافيون لحسن موقعها. بناها بطليموس من ملوك اليونانيين. ثم اتّخذها النصارى مركزاً للعبادة، ودعوها مدينة الله ومدينة الملك وأم المدائن. وقد وصفها العلماء في كثير من الكتب وذكروا ما فيها من ينابيع وأشجار وغير ذلك. الروض المعطار ٣٨، نزهة المشتاق ١٩٥، مروج الذهب ٢/ ٨٢، صبح الأعشى ٤/ ١٢٩، معجم البلدان إنطاكية ـ تقع اليوم ضمن تركيا ـ.

(٣) هو أبو الحسن كوشيار بن لبان باشهري الجبلي. من أجلّة الرياضيين والمنجمين في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس. ومن آثاره الباقية: كتاب الأسطرلاب، عيون الحقائق في علم أحكام النجوم، مجمل الأصول. انظر عنه: م. معين، جهار مقالة، ص: ٢٠٢ ود. ذبيح الله صفا، تاريخ الأدب في إيران ج ١، ص: ٣٣٦.

(٤) دقلديانوس (٢٤٥ ـ ٣١٣ م) حكم الإمبراطورية الرومانية بين (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) جندي فلاح الأصل من إقليم الليريا المطل على البحر الأدرياتيكي. بذل جهوداً فذة في القيادة والتنظيم والإدارة فأدخل مركزية الحكم وقسّم الولايات تقسيماً جديداً فاصلاً السياسة عن السلطة العسكرية، جعل نفسه إمبراطوراً مستبداً مدّعياً حقوقاً إلهية، ووضع تحته أداة إدارية يديرها جمع كبير من فئات الموظفين المدنيين المتسلسلي الرتب. قسّم إمبراطوريته إلى أربع جهات ليسهل =

مؤخّر عن مبدأ تاريخ الروم بمائتين وسبعة عشر ألف يوم ومائتين وأحد وتسعين يوماً. وأوله كان يوم الجمعة وعلى هذا التاريخ يعتمد أهل مصر وإسكندرية.

ومنها تاريخ الفرس، ويسمّى تاريخاً يزدجردياً وقديماً[١] أيضاً. إعلمْ أنّ أهل الفرس كانوا يأخذون كسر السنة الشمسية أيضاً رُبعاً تاماً كالروم. وأول وضعِه كان في زمن جمشيد[٢]. ثم كانوا يجدّدون التاريخ في زمان كلّ سلطان عظيم لهم. وأيام شهورهم ثلاثون ثلاثون. وأسماء شهورهم هذه: فروردين ماه أردى بهشتماه خردادماه تيرماه مردادماه شهريورماه مهرماه آبان ماه آذرماه ديماه بهمن ماه اسفندارمذماه. لكن يُقَيَّدُ جميعها بالقديم بأنْ يُقال فروردين ماه القديم الخ. وهذه الأسماء بعينها أسماء شهور التاريخ الجلالي، إلاّ أنّها تقيَّد بالجلالي. ثم إنّهم كانوا يزيدون في كل مائة وعشرين سنة شهراً فتصير شهور السنة ثلاثة عشر ويسمُّونه باسم الشهر الذي أُلحق به، وينقلون الشهر الزائد من شهر إلى شهر، حتى إذا تكرَّر فروردين في سنة تكرّر ارديبهشت بعد مائة وعشرين سنة وهكذا إلى أن تصل النوبة إلى اسفندارمذ، وذلك في ألفٍ وأربعمائة وأربعين سنة، وتسمّى دور الكبيسة، ويزيدون الخمسة المسترَقة في سنة الكبيسة في آخر الشهر الزائد، فيصير خمسة وثلاثون يوماً. وفي السنين الأخرى يزيدونها في آخر الشهر الذي وافق اسمه اسم هذا الشهر. فإذا تمَّت مائة وعشرون سنة أخرى ووقعت كبيسة أخرى وصار اسم الشهر الزائد موافقاً لاسم شهرٍ آخر يزيدونها على آخر هذا الشهر وهكذا. وكان مبدأ السنة أبداً هو الشهر الذي يكون بعد الخمسة. ولمّا جدّدوا التاريخ ليزدجرد[٣] كان قد مضى تسعمائة وستون سنة من دور الكبيس، وانتهى الشهر الزائد لى آبانماه والمسترَقة كانت في آخره. ثم لمّا ذهبت دولة الفرس على يده في زمن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، حيث انهزم من العرب عند محاربتهم إيّاه ولم يقم مقامه مَنْ يُجدّد له التاريخ، اشتهر هذا التاريخ به من بين سائر ملوك الفرس، وبقيت الخمسة تابعة لآبانماه من غير نقل ولا كبس. وكان كذلك إلى سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين يزدجردية، وقد تَمَّ الدّور حينئذٍ، وحلّت الشمس أوّل الحمل في أوّل فروردين ماه، فنقلت الخمسة بفارس إلى آخر اسفندارمذماه، وتركت في بعض النواحي إلى

= الدفاع عن كل منطقة وهي منطقة ألمانيا، إيطاليا، سرميوم ـ بلغراد ـ نيقوميديا ـ ازمت ـ قرب اسطنبول وأقام في الأخيرة مراقباً أوضاع الشرق المضطربة، كما أقرّ بدعة جديدة بقيام قيصرين في الحكم هو ومكسيميانوس، وأعقبهما قسطنطين الذي أدخل النصرانية على الإمبراطورية، علماً أن النصارى لقوا اضطهاداً شديداً في عهد دقلديانوس الوثني.

(١) قديماً (م).

(٢) اسم علم لأحد ملوك إيران الأقدمين، وهو مشهور بالكأس التي كان يرى فيها أحداث المستقبل، ولذلك عرف باسم: جام جم.

(٣) لقب يطلق على بعض ملوك آل ساسان. ويزدجرد أيضاً اسم على تقويم إيراني تَمَّ إصلاحه في عهد أحد ملوك السلاجقة، وعرف بالتقويم الجلالي، وذلك على يد المنجم عمر الخيام المشهور.

آخر آبانماه، لأنهم كانوا يظنّون أنّ ذلك دين المجوسة، لا يجوز أن يبدَّل ويغير. ولمَّا خلا هذا التاريخ عن الكسور حينئذٍ، صار استعمال المنجّمين له أكثر من غيره. وأوّل هذا التاريخ يوم الثلاثاء أوّل يوم من تلك السنة فيها يزدجرد، وهو مؤخّر عن مبدأ الهجري بثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وعشرين يوماً.

ومنها التاريخ المَلَكي ويسمّى بالتاريخ الجلالي أيضاً وهو تاريخ وضعه ثمانية من الحكماء لمّا أمرهم جلال الدين ملك شاه السلجوقي[١] بافتتاح التَّقويم من بلوغ مركز الشمس أوّل الحَمَل. وكانت سِنُو التواريخ المشهورة غيرَ مطابقة لذلك، فوضعوا هذا التاريخ ليكون انتقال الشمس أوّل الحمل أبداً أوّل يوم من سنتهم. وأسماء شهورهم هي أسماء الشهور اليزدجردية، إلاّ أنها تقيّد بالجلالي. وأوّل أيام هذا التاريخ كان يوم الجمعة، وكان في وقتِ وضْعِه قد اتّفق نزول الشمس أوّل الحَمَل في الثّامن عشر من فروردينماه القديم، فهم جعلوه أوّل فروردينماه الجلالي، وجعلوا الأيام الثمانية عشر كبيسة. ومن هذا تسمعهم يقولون إنّ مبدأ التاريخ الملكي هو الكبيسة الملك شاهية، وهو متأخّر عن مبدأ التاريخ اليزدجردي بمائة وثلاثة وستين ألف يوم ومائة وثلاثة وسبعين يوماً.

ومنها التاريخ الإيلخاني وهو كالتاريخ الملكي مبدأ وشهوراً بلا تفاوت. وكان ابتداؤه في سنة أربع وعشرين ومائتين من التاريخ الملكي وكان أوّل هذا التاريخ يوم الاثنين.

ومنها تاريخ القبط القديم وهو تاريخ بخت نصَّر الأول[٢] من ملوك بابل[٣]. وأيّام سنة هذا التاريخ ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بلا كسر. وأسماء شهوره هذه: توت فاوفي اتور خوافي طوبى ماخير فامينوث فرموت باخون باويتي ابيفي ماسوري. وأيام كل شهر ثلاثون. والخمسة المستَرَقة تَلحق بالشهر الأخير. وأوّل هذا التاريخ كان يوم الأربعاء من أول جلوس بخت نصر. ومبدؤه مقدّم على مبدأ تاريخ الروم بمائة وتسعة وخمسين ألف يوم ومائتي يوم

---

(١) هو السلطان الكبير جلال الدولة، أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان محمد بن جفر بيك السلجوقي التركي. تملّك بعد أبيه، كان ذا هيبة وسطوة، وبسط نفوذه على كثير من الممالك. وكان حسن السيرة، واهتمّ بالعمران، وبنى في بغداد جامعاً كبيراً. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٤، المنتظم ٩/ ٦٩، الكامل في التاريخ ١٠/ ٧٦، وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٣، العبر ٣/ ٣٠٩، البداية والنهاية ١٢/ ١٤٢، شذرات الذهب ٣/ ٣٧٦.

(٢) رجل من العجم كان في خدمة لهراسب الملك حيث وجّهه إلى الشام وبيت المقدس ليجلي اليهود عنها، فسار إليها ثم انصرف. ثم وجّهه بهمن الملك ليجلي اليهود عن بيت المقدس مرة أخرى، فسار إليهم وقاتلهم وسبى ذراريهم وهدم البيت وانصرف إلى بابل. تاريخ الطبري ٢/ ٥٤١، ط. دار المعارف.

(٣) حاضرة من حواضر العراق القديم. قيل: إن الضحاك أول من بناها، وسكنها العمالقة ودخلها إبراهيم عليه السلام. ويقال: إن بها هاروت وماروت المذكورين في القرآن الكريم. وذكر أنها أقدم بناء بُني بعد الطوفان، ثم هدمها كسرى الأول ملك الفرس، واشتهرت بحدائقها المعلّقة. وورد ذكرها كثيراً لدى العلماء في كتبهم. الروض المعطار ٧٣.

ويومين. وعلى هذا التاريخ وضع بطليموس[١] أوساط الكواكب في المِجَسْطي.

ومنها تاريخ اليهود وسنوه [كسني تاريخ الروم كما يفهم من زيج إيلخاني]، شمسية حقيقية وشهوره قمرية. وأسماء شهورهم هي هذه: تسري مرخشوان كسليو طيبث شفط آذر نيسن ايَرسيون تموز آب أيلول. وسبب وضعه أنّ موسى عليه السلام لمّا نجا من فرعون وقومه وغرقوا، استبشر بذلك اليوم وأمر بتعظيمه وجعله عيداً. وكان ذلك في ليلة الخميس خامس عشر شهر نيسن، وقد طلع القمر مع غروب الشمس في ذلك الوقت، وكان القمر في الميزان والشمس في الحَمَل، وكانوا يفركون سنبل الحنطة بأيديهم. وذلك يكون في المصر بقرب أوائل الحمل. فاحتاجوا إلى استعمال السَّنة الشمسية والشهور القمرية وكبس بعض السنين بشهر زائد لِئَلّا يتغير وقت عبادتهم. وسمّوا سنة الكبيسة عبّوراً وغير الكبيسة بسيطة، وكبسوا تسع عشرة سنة بسبعة أشهر قمرية على ترتيب بهزيجوج كبائس. لكنّ العرب كانوا يزيدون الشهر الزائد على جميع السنة، واليهود أبداً يكرّرون الشهر السادس وهو آذر، فيصير في السنة آذران، آذر الكبس فيعدونه زائداً وبعده آذر الأصل ويعدّونه من أصل السنة وبعدهما نيسن. وأول سنتهم يكون متردّداً بين أواخر آب وأيلول من سنة الروم. وأمّا الشهور بين أواخر آب وأيلول من سنة الروم. وأمّا الشهور فبعضهم يأخذونها من رؤية الأهلّة ولا يتلفتون إلى التفاوت الواقع في الأقاليم كالمسلمين، وكان في زمن موسى عليه السلام كذلك. وبعضهم يأخذون بعض الشهور ثلاثين وبعضها تسعة وعشرين، على ترتيب أهل الحساب حتى لا يتغيّر ابتداءَ الشهور في جميع العالم. فالشهور تكون قمرية وسطية. لكنهم يجعلون كُلاً من البسيطة والكبيسة ناقصة ومعتدلة وكاملة. فالبسيطة الناقصة شنجه يوماً. والمعتدلة شند. والكاملة شنه. والكبيسة الناقصة شفد يوماً. والمعتدلة شدد. والكاملة شنه. فأيام كل من تشري وشفط ونيسن وسيون وأوب ثلاثون. وكذا أيام آذر الكبس. وأيام كل من طيبث وآذر الأصل وأير وتموز وأيلول تسعة وعشرون. وأيام مرخشوان في السنة المعتدلة تسعة وعشرون. وأيام كسليو فيها ثلاثون. وأيامها في السنة الزائدة ثلاثون ثلاثون، وفي الناقصة تسعة وعشرون تسعة وعشرون. والحاصل أنهم رتّبوا الشهور في السنة البسيطة إلى آخرها وفي السنة الكبيسة إلى الشهر الزائد كترتيب الشهور العربية، أعني جعل الشهر الأول ثلاثين والثاني تسعة وعشرين، وعلى هذا إلى آخر السنة البسيطة. وأمّا في الكبيسة فيتغيّر ترتيب شهرين فقط وهما الخامس والسادس المكبوس، فإنّ كلَّ واحد منهما ثلاثون يوماً. وفي

---

(١) هو بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس (أي محب أخيه). ولد في قونية ٣٠٩ ق. م. وحكم من سنة ٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق. م. ملك بعد الإسكندر وكان حريصاً على العلم مولعاً به كثير البحث. وله العديد من الكتب الفلسفية والطبية، وفي الحكمة. ومنها كتاب المجسطي في الفلك والهيئة والجغرافيا. عيون الأنباء ١/ ٧٢، مختصر الدول ٩٨، اليعقوبي ١٠٧، خطط المقريزي ١/ ١٥٤، طبقات الأطباء والحكماء ٣٥، أخبار الحكماء ٩٩.

السنة الناقصة من البسيطة والكبيسة يكون كلّ من الشهرين الثاني والثالث تسعة وعشرين يوماً. وفي الكاملة كلّ واحد منهما يكون ثلاثين يوماً. ويشترطون أنْ يكون أوّل أيام السنة أحد أيام السبت والاثنين والثلاثاء والخميس لا غير، وأنْ يكون الخامس عشر من نيسن الذي هو عندهم هو الأحد أو الثلاثاء أو الخميس أو السبت لا غير، ويكون حينئذٍ الشمس في الحَمَل والقمر في الميزان، وهو إمّا يوم الاستقبال أو اليوم الذي قبله أو بعده. وقد تزحفان إلى أوائل الثور والعقرب بسبب الكبس وهو نادر. ويجعلون مبدأ تاريخهم من هبوط آدم عليه السلام ويزعمون أنّ بين هبوطه وزمان موسى عليه السلام أي زمان خروج بني إسرائيل من مصر وهو زمان غرق فرعون ألفين وأربعمائة وثمان وأربعين سنة، وبين موسى وإسكندر ألف سنة أخرى.

ومنها تاريخ الترك وسنوه أيضاً شمسية حقيقية. ويقسمون اليوم بليلته اثني عشر قسماً، كل قسم يسمى چاغا يقسم ثمانية أقسام يسمّى كل قسم ركهاً لهاً. وأيضاً يقسمون اليوم بليلته بعشرة آلاف قسم، يسمّى كل قسم منها فنكاً. والسنة الشمسية بحسب أرصادهم ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وألفان وأربعمائة وستة وثلاثون فنكاً. ويقسمون السنة بأربعة وعشرين قسماً متساوية خمسة عشر يوماً وألفان ومائة وأربعة وثمانون فنكاً وخمسة أسداس فنك. ومبدأ السنة يكون عند وصول الشمس إلى الدرجة السادسة عشر من الدّلو. وكذا مبادىء الفصول الباقية تكون في أواسط البروج الباقية. وأما شهورهم فتكون قمرية حقيقية، ومبدأ كل منها الاجتماع الحقيقي. وأسماء الشهور هذه: آرلم آى ايكندي آى جونج آى دونج آى بيشخ آى اليتخ آى شكيسح آى طوفتج آى لوترنج آى ان پيرنج آى چغشاباط آى. ويقع في كل شهر من الشهور القمرية قسم زوج من أقسام السنة يكون عدد ضعف عدد ذلك الشهر. فإن لم يقع في شهر قسم زوج وهو ممكن، لأن مجموع قسمين أعظم من شهر واحد، فذلك الشهر يكون زائداً ويسمّى بلغتهم شون آى. وإنما يزيدون هذا الشهر ليكون مبدأ الشهر الأول أبداً في حوالي مبدأ السنة، وهذا الشهر هو الكبيسة. وترتيب سني الكبائس عندهم كترتيبها عند العرب، أعني أنهم يكبسون أحد عشر شهراً في كلّ ثلاثين سنة قمرية على ترتيب بهزيجوج أدوط، لكن لا يقع شهر الكبيس في موضع معيّن من السنة، بل يقع في كل موضع منها. وعدد أيام الشهر عندهم إما ثلاثون أو تسعة وعشرون. ولا يقع أكثر من ثلاثة أشهر متوالية تاماً، ولا أكثر من شهرين متواليين ناقصاً. وإذا أسقط من السنين الناقصة اليزدجردية ستمائة واثنان وثلاثون، وطرح من الباقي ثلاثون ثلاثون إلى أن يبقى ثلاثون أو أقل منه، فإنْ وافقت إحدى السنين المذكورة للكبيس فكبيسة وإلاّ فلا. وأمّا أنّ هذا الشهر يكون بعد أيّ شهر من شهور السنة فذلك إنّما يعرف بالاستقراء وحساب الاجتماعات. واعلم أنّ لهم أدواراً: الأول منها يُعرف بالدور العشري ومدته عشر سنين، لكل سنة منها اسم بلغتهم، والثاني يعرف بالدور الاثني عشري ومدّته اثنتا عشرة سنة، وكل سنة منها

تنسب إلى حيوان بلغتهم، وهذا الدور هو المشهور فيما بين الأمم. والثالث الدور الستوني ومدته ستون سنة وهو مركب من الدورين الأولين، فإنه ستة أدوار عشرية وخمسة أدوار اثنا عشرية. وأول هذا الدور يكون أول العشري وأول الاثني عشري جميعاً. وبهذه الأدوار الثلاثة يعدون الأيام أيضاً كما يعدّون السنين بها. ولهم دور آخر يسمّى بالدور الرابع والدور الاختياري يعدّون به الأيام فقط ومدته اثنا عشر يوماً، وهو مثل أيام الأسابيع عندهم، وكل يوم منه ينسب إلى لون من الألوان، ويسمّى باسم ذلك اللون بلغتهم. وبعض هذه الأيام عندهم منحوس وقريب منه. وبعضها مسعود وقريب منه، وفي الاختيارات يعتمدون على ذلك. وإذا بلغ هذا الدور إلى أول قسم فردٍ من أقسام السنة يكرّر يوم هذا الدور أعني بعد اللازم الأول من هذا القسم واليوم الذي قبله في هذا الدور واحداً. ولكل قسم من أقسام السنة وكذا لكل يوم من أيام الأدوار الأربعة اسم بلغتهم وتفصيل ذلك يطلب من كتب العمل. ويجعلون مبدأ تاريخهم ابتداء خلق العالم، وقد انقضت بزعمهم في سنة ستين وثمانمائة يزدجردية من ابتداء خلق العالم ثمانية آلاف وثمانمائة وثلاثة وستون قرناً وتسعة آلاف وتسعمائة وخمس وستون سنة، ويزعمون أنّ مدة بقاء العالم ثلاثمائة ألف قرن، كل قرن عشرة آلاف سنة. هذا كله خلاصة ما في شرح التذكرة وغيره. وإن شئت زيادة التوضيح فارجع إلى الزيجات.

وقال حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٢٧١: التاريخ في اللغة تعريف الوقت مطلقاً يقال: أرّخت الكتاب تأريخاً وورخته توريخاً كما في الصحاح. قيل: هو معرب من ماه روز وصرفاً هو تعيين وقت لينسب إليه زمان يأتي عليه أو مطلقاً يعني سواء كان ماضياً أو مستقبلاً. وقيل: تعريف الوقت بإسناده إلى أول حديث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة أو أمر هائل من الآثار العلوية والحوادث السفلية مما يندر وقوعه جعل ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين وقيل: عدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر وإلى ما بقي. وعلم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم. والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين كذا في مفتاح السعادة. وقد جعل صاحبه لهذا العلم فروعاً كعلوم الطبقات والوفيات لكن الموضوع مشتمل عليها فلا وجه للإفراز والتفصيل في مقدمة الفذلكة من مسودات جامع المجلة.

ترجمة أبي علي مسكويه[1]

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٢/ ٣ ـ ١٠:

هو أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ، الْمُلَقَّبُ مَسْكَوَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ الْخَازِنُ، صاحبُ التَّجَارِب، مَات فيما ذكرهُ يَحْيَى بْنُ مَنْدَةَ، في تاسع صَفَر، سنة إحْدى وعشرين وأربعِمِائةٍ. قال أَبو حَيَّان في كتاب الإِمْتاع، وقد ذكَرَ طائفةً من مُتَكَلِّمي زمانِهِ، ثُمَّ قال: وأَما مَسْكَوَيْهِ، ففقيرٌ بين أغنياءَ، وغنيٌّ بين أنبياء، لأنَّه شاذٌّ، وإنما أعطيتُهُ في هذه الأيام، صفوَ الشَّرح لإيساغُوجي، وقَاطِيغُوريَاس، مِن تنصيف صديقنا بالرَّيِّ. قال الوزيرُ[2]: ومن هو؟ قُلْتُ: أبو القاسم الكاتبُ، غلامُ أبي الْحَسَن العامريِّ، وصحَّحَهُ مَعِي، وهو الآن لائذٌ بِابْنِ الخَمَّار، وربَّما شاهدَ أبا سُلَيْمَانَ المَنْطِقِيَّ، وليس له فراغٌ، لكنَّه مُحبٌّ في هذا الوقت، للحسْرةِ التي لحقتهُ ممَّا فاته من قبلُ. فقال: يا عَجَباً لرجلٍ صحب ابن الْعَمِيد، وأبا الفَضْلِ، ورَأى ما عندهُ، وهذا حظُّه! قلت: قد كان هذا، ولكنَّه كان مشغولاً بطَلَبِ الكِيمياءِ، مَعَ أبي الطَّيِّب الكيميائي الرَّازي، منهوكَ[3] الهمَّة في طلبه والحِرْص على إصابته، مفتوناً بكتبِ أبي زَكَرِيَّا، وجابرِ بنِ حيَّان، ومع هذا، كان إليه خِدمة صاحبه في خزانةِ كتُبه، هذا مع تقطيع الوقت في الحاجاتِ الضَّرورية والشَّهوية، والعمرُ قصيرٌ، والساعات طائرةٌ، والحركات دائمةٌ، والفُرَصُ بروقٌ تأتَلِقُ[4]، والأوطارُ في عرضِها تجتمعُ وتفترقُ، والنفوسُ عن فوائتِها[5] تَذُوبُ وتحترقُ، ولقد قطن العامري الرَّيَّ خمس سنين، ودرَّسَ وأملى، وصنَّفَ وروى، فما أخذَ عنه

---

(١) انظر ترجمته في:
١ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي ٢/ ٣ ـ ١٠.
٢ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ٥/ ٧٣.
٣ ـ الوافي بالوفيات، للصفدي ٢/ ٢٦٩.
٤ ـ تتمة يتيمة الدهر، للثعالبي ٥٠/ ١١٥ ـ ١١٩.
٥ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ص: ٣٣٠.
وقد ذكر مسكويه أيضاً أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة، والمقابسات، ومثالب الوزيرين، والصداقة والصديق، وكذلك أبو سليمان المنطقي في صوان الحكمة، وأبو بكر الخوارزمي في رسائله، وبديع الزمان الهمذاني في رسائله، والقفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

(٢) هو ابن سعدان.

(٣) وفي الأصل: مملوك، ولعل الصواب ما ذكرناه.

(٤) أي تلمع كالبرق.

(٥) وفي الإمتاع: «قرابتها».

مَسْكَوَيْهِ كلمةً واحدةً، ولا وعى مسألةً، حتَّى كأنَّه كان بينهُ وبينهُ سدٌّ، ولقد تجرَّع على هذا التواني الصَّابَ والعلقمَ، ومضغَ لقمةَ حنْظَلِ النَّدامةِ في نفسِهِ، وسمِعَ بأُذُنِهِ، قوارعَ الْمَلامةِ[(١)] من أصدقائِهِ، حين ما ينفع ذلك كلهُ. وبعدَ هذا، فهو ذكيٌّ، حسنُ الشعر، نقي اللَّفظِ، وإن بقيَ فعساه أن يتوسَّطَ هذا الحديث، ما أرى ذلك معَ كلفِهِ بالكيمياءِ، وإنفاقِ زمانِه، وكَدِّ بدنِهِ وقلبِهِ في خِدمة السّلطان، واحتراقِهِ في البخل بالدَّانقِ والقيراطِ، والكِسرةِ والخِرْقةِ، نعوذُ باللَّهِ من مدح الجودِ باللِّسان، وإيثارِ الشحِّ بالفعلِ، وتمجيدِ[(٢)] الكرم بالقول، ومفارقتِهِ بالعملِ. قالَ أبو منصورِ الثَّعالبي: كان في الذِّروة العليا من الفضلِ والأدبِ، والبلاغةِ والشعرِ، وكان في ريعانِ شبابِهِ متصلاً بابن الْعَميد، مختصّاً به، وفيه يقولُ: [البسيط]

لاَ يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ الْقَصْرِ تَنْزِلُهُ فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا
لَوْ زِيدَتِ الشَّمْسُ فِي أَبْرَاجِهَا مِائَةً مَا زَادَ ذَلِكَ شَيْئاً فِي فَضَائِلِهَا

ثمَّ تَنَقَّلت بهِ أحوالٌ جليلةٌ، في خدمة بني بُوَيْهِ، والاختصاصِ ببهاءِ الدولةِ، وعظُمَ شأْنُهُ، وارتفع مقداره، فترفَّع عن خدمة الصاحب، ولم يَرَ نفسهُ دونهُ، ولم يخلُ من نوائب الدَّهْر، حتى قالَ ما هو متنازع بينه وبين نفرٍ من الفُضلاء: [الخفيف]

مَنْ عَذِيرِي[(٣)] مِنْ حَادِثَاتِ الزَّمَانِ وَجَفَاءِ الإِخْوَانِ وَالْخِلَّانِ

قالَ: وَلَهُ قصيدةٌ في عَمِيدِ الملك تَفَنَّنَ فيها، وهنَّأه باتِّفاق الأضحى، والمهرجان في يوم، وشكا سوءَ أثر الهرم، وبلوغَهُ إلى أرذلِ العمر: [البسيط]

قُلْ لِلْعَمِيدِ: عَمِيدِ الْمُلْكِ وَالأَدَبِ أَسْعِدْ بِعِيدَيْكَ: عِيدِ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ
هَذَا يُشِيرُ بِشُرْبِ ابْنِ الْغَمَامِ[(٤)] ضُحًى وَذَا يُشِيرُ عَشِيّاً بِابْنَةِ الْعِنَبِ[(٥)]
خَلاَئِقُ خُيِّرَتْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ فَلَوْ دَعَاهَا لِغَيْرِ الْخَيْرِ لَمْ تُجِبِ
أَعَدْنَ شَرْخَ شَبَابٍ[(٦)] لَسْتُ أَذْكُرُهُ بُعْداً وَرَدَّتْ[(٧)] عَلَيَّ الْعُمْرَ مِنْ كَثَبِ
فَطَابَ لِي هَرَمِي وَالْمَوْتُ يَلْحَظُنِي لَحْظَ الْمُرِيبِ وَلَوْلاَ أَنْتَ لَمْ يَطِبِ
فَإِنْ تَمَرَّس[(٨)] لِي خَصْمٌ تَعَصَّبَ لِي وَإِن أَسَاءَ إِلَيَّ الدَّهْرُ أَحْسَنَ بِي

---

(١) وفي الإمتاع والأصل الذي في مكتبة إكسفورد: «الندامة».
(٢) وفي الإمتاع والنسخة التي في مكتبة إكسفورد «محتد».
(٣) عزيري: يعذرني.
(٤) ابن الغمام: المطر.
(٥) ابنة العنب: الخمر.
(٦) شرخ الشباب: فتوته.
(٧) نون النسوة وتاء التأنيث، لحقتا أعاد، ورد، لعودهما إلى الخلائق في البيت السابق، ومن كثب: أي من قرب «عبد الخالق».
(٨) تمرس: أي تعرض لي بالشر.

ومِنْهَا:

وَقَدْ بَلَغْتُ إِلَى أَقْصَى مَدَى عُمْرِي ... وَكَلَّ غَرْبِيَ[١] وَاسْتَأْنَسْتُ بِالنُّوَبِ

إِذا تَـمَلأْتُ مِنْ غَيْظٍ عَلَى زَمَنِي ... وَجَدْتَنِي نَافِخاً فِي جَذْوَةِ اللَّهَبِ

وَمِنْهَا:

وَإِنْ تَمَنَّيْتَ عَيْشَ الدَّهْرِ أَجْمَعَهُ ... وَأَنْ تُعَايِنَ مَا وَلَّى مِنَ الْحِقَبِ[٢]

فَانْظُرْ إِلَى سِيَرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَضَوْا ... وَالْحَظْ كِتَابَتَهُمْ مِنْ بَاطِنِ الْكُتُبِ

تَجِدْ تَفَاوُتَهُمْ فِي الْفَضْلِ مُخْتَلِفاً ... وَإِنْ تَقَارَبَتِ الأَحْوَالُ فِي النَّسَبِ

هَـذَا كَـتَـاجٍ عَـلَـى رَأْسٍ يُـعَـظِّـمُـهُ ... وَذَاكَ كَالْبَعَرِ الْجَافِي[٣] عَلَى الذَّنَبِ

قال المؤلِّفُ: وكان مجوسياً وأسلم، وكان عارِفاً بعلُوم الأوائلِ معرفةً جيدةً، وله في ذلك: كتاب **الفَوْزِ الأكْبَرِ**، كتاب **الفَوْزِ الأصغَرِ**. وصنَّفَ كتبَ تَجَارِبِ الأُمَمِ في التَّاريخ، ابتداؤه من بعد الطوفان، وانتهاؤه إلى سنةِ تسع وستِّين وثلاثمائةٍ. وله: كتاب أُنْسِ الفَريد، وهو مجموعٌ يتضمَّن أخباراً وأشعاراً، وحكَماً وأمثالاً، غيرُ مبوَّبٍ، وكتاب **تَرتيب العاداتِ**، وكتاب **المُستَوْفِي**، أشعارٌ مختارةٌ، وكتاب **الجامع**، وكتاب **جَاوَزَانَ فُرْدَ**، وكتاب **السِّيَرِ** أَجادهُ، ذكر فيه ما يُسَيِّرُ به الرجلُ نفسه من أُمور دُنَياه، مزجه بالأثر، والآية، والحكمة، والشعر. وللبديع الهَمَذَانيِّ إلى أبي عَلِيٍّ مَسْكَوَيْهِ، يعتذرُ من شيءٍ بَلَغَهُ عنه، بعد مودةٍ كانت بينهما: [الطويل]

وَيَا عَزَّ: إِنْ وَاشٍ وَشَى بِي عِنْدَكُمْ ... فَلاَ تُمْهِلِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ: مَهْلاَ

كَمَا لَوْ وَشَى وَاشٍ بِعَزَّةَ عِنْدَنَا ... لَقُلْنَا: تَزَحْزَحْ لاَ قَرِيباً وَلاَ سَهْلاً[٤]

بَلَغَنِي ـ أطالَ اللَّهُ بقاء الشَّيخ ـ، أَنَّ قَيضةَ[٥] كلبٍ وافتْهُ بأحاديثَ لم يُعرها الحق نورَهُ، ولا الصدقُ ظهورهُ، وأن الشَّيخ أذن لها على حجابٍ[٦] أُذنه، وفسح لها فناء ظنِّه، ومعاذَ الله أن أقولها، وأَستجيزَ معقولها، بلى[٧] قد كانَ بيني وبينهُ عِتاب لا ينزعُ كنفه[٨]، ولا يجدِفُ[٩] أنفه، وحديثٌ لا يتعدى إلى النَّفس وضميرها، ولا تعرفُهُ[١٠]

---

(١) غرب كل شيء حده، يريد لسانه.

(٢) الحقب: السنين.

(٣) من جفا على الشيء: ثقل، فهو يرى أن الفضل الذي في الناس مختلف، نوع كالتاج على رأس ذوي الفضل، وآخر يشبه بالبعر على الذنب ثقيل عليه، ومحقر لصاحبه «عبد الخالق».

(٤) في الرسائل: «أهلا».

(٥) القيضة: العظمة.

(٦) في الرسائل: «مجال».

(٧) في الرسائل: «بل».

(٨) وفي الرسائل: «ينزل كتفه».

(٩) وفي الرسائل: «يجذف» والمعنى قطعه، والفعل من باب ضرب وتجده بالذال والذال «عبد الخالق».

(١٠) وفي الرسائل: تعرف.

الشفةُ وسميرُها[١]، وعربَدَة كعَربدةِ أهل الفضلِ، لا تتجاوزُ الدَّلالَ والإدلال، ووحشةٌ يكشفها[٢] عِتابُ لحظةٍ كغناء[٣] جحظة، فسُبحانَ من ربَّى هذا الأمر، حتَّى صَارَ أمراً وتأبط شرّاً، وأوحشَ حُرّاً، وأوجبَ عُذراً، بل سُبحان من جعلني في حيِّز العُذرِ[٤] أشِيمُ بارقَتَهُ[٥]، وأَستقبلُ صاعقته، وأنا المساءُ إليهِ، والمَجْنِيُّ عليه، والمستخفُّ به، لكن من بُلِيَ من الأعداءِ كما بُليتُ، ورُمِيَ من الحَسَدَةِ بما رُمِيتُ، ووقفَ من الوجْدِ والوَحدةِ حيث وقفتُ، واجتمعَ عليه من المكارهِ ما وصفتُ، اعتذرَ مظلوماً، وأحسنَ ملوماً، وضحِك مَشتوماً، ولو عَلِمَ الشيخ عددَ أبناء الحدَدِ[٦]، وأولادَ العَدَدِ، بهذا البلدِ، ممَّن ليس له هِمَّة إلا في شكاية أو حكاية، أو سعاية أو نكاية، لضَنَّ بِعِشرة غريب إذا بَدَرَ، وبعيد إذا حَضَرَ، ولصَانَ مجلسهُ عمَّن لا يصونُهُ عما رَقِيَ إليه، فهبْنِي قلت ما حُكِيَ له، أليسَ الشاتمُ من أسمَعَ[٧]؟ أليسَ الجاني من أبلغ؟ فقد بَلَغَ من كَيْدِ هؤلاء القوم، أنَّهم حين صادفوا من الأستاذ نفساً لا تستفزُّ، وحَبْلاً لا يهز، دسُّوا إليه حديثَهُ بما حَرَّشوا بِهِ نارَهم[٨] وردَّ عليَّ مما قالوه، فما لبثت أن قُلْتُ: [الطويل]

فَإِنْ يَكُ حَرْبٌ بَيْنَ قَوْمِي وَقَوْمِهَا فَإِنِّي لَهَا فِي كُلِّ نَائِبَةٍ سِلْمُ

فليعلم الشيخُ الفاضلُ، أنَّ في كبدِ الأعداءِ مني جمرةً، وأنَّ في أولادِ الزِّنَا عندنا كثرةً، قُصَارَاهُم نارٌ يشبُّونَها، أو عقربٌ يُدَبِّبُونَهَا، أو مكيدةٌ يطلبونها، ولولا أن العُذْرَ إقرارٌ بما قيل، وأكرهُ أن أستقيلَ، بسطْتُ في الاعتذارِ شاذَرْوَاناً، ودخلتُ في الاستقالةِ ميداناً، لكنهُ أمرٌ لم أُضِعْ أوَّله، فلا أتداركُ آخرَهُ، وقد أبَى الشيخ أبو مُحَمَّدٍ، إلا أن يُوصِل هذا النَّثْرَ الفاترَ بنظم مثلِهِ، فَهَاكَهُ[٩] يَلْعَنُ بَعْضُهُ بَعْضاً: [السريع]

مَوْلاَيَ إِنْ عُدْتُ وَلَمْ تَرْضَ لِي أَنْ أَشْرَبَ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ
إِمْتَطِ خَدِّي وَانْتَعِلْ نَاظِرِي وَصِدْ بِكَفِّي حُمَةَ[١٠] الْعَقْرَبِ
بِاللَّهِ مَا أَنْطِقُ عَنْ كَاذِبٍ فِيكَ وَلاَ أُبْرِقُ عَنْ خُلَّبِ[١١]

---

(١) لعل سمير الشفة: اللسان.
(٢) في الرسائل: لا يكشفها.
(٣) وفي الرسائل: «كتاب».
(٤) وفي الرسائل: جنب العدو.
(٥) أي أرى أوائله، وكان في الأصل مكان أستقبل: أستحيل، فجعلتها كما ذكرنا للمناسبة، ولأنه لا معنى لما في الأصل «عبد الخالق».
(٦) في الرسائل: الجدد، وعند شارح الرسائل: أنه جمع جديد. والصواب الحدد: بمعنى الباطل.
(٧) وفي الرسائل: «أسمع الناس».
(٨) وفي الرسائل: وشوا إلى خدمه بما أرثوا نارهم، ومعنى أرثوا النار: أوقدوها.
(٩) وفي الرسائل: «فهاكه» بدل: فكاهة التي كانت في الأصل هذا، وقد أصلحناه كما في الرسالة.
(١٠) ما تلدغ به.
(١١) البرق الخلب: ما خلا من المطر وفي الرسائل: «فيك» بدل «فيه» التي كانت بالأصل قبل الإصلاح.

فَالصَّفْوُ بَعْدَ الْكَدَرِ الْمُفْتَرَى   كَالصَّحْوِ بَعْدَ الْمَطَرِ الصَّيِّبِ[١]
إنْ أَجْتَنِ الْغِلْظَةَ مِنْ سَيِّدِي   فَالشَّوْكُ عِنْدَ الثَّمَرِ الطَّيِّبِ
أَوْ نَفَقَ[٢] الزُّورُ عَلَى نَاقِدِ   فَالْخَمْرُ قَدْ تُغْضَبُ بِالثَّيِّبِ[٣]

ولعلَّ الشيخ أبا مُحَمَّدٍ يقومُ من الاعتذارِ، بما قَعَدَ عنه القلمُ والبيانُ، فنِعم رائد الفضل هو، والسَّلام.

وَجَاءَ الْجَوَابُ مِنْ أَبِي عَلِيٍّ: [الرَّمل]

وَإِذا الْوَاشِي أَتَى يَسْعَى لَهَا   نَفَعَ الْوَاشِي بِمَا جَاءَ يَضُرْ

فَهِمْتُ خطاب الشيخ الفاضلِ، الأديب البارع، الذي لو قلتُ: إنهُ السحرُ الحلالُ، والعذبُ الزلالُ، لنقصته حظَّهُ، ولم أوفِهِ حقَّهُ، أما البلاغاتُ التي أومأ إليها، فواللّٰهِ ما أذِنتُ لها، ولا أذنتُ فيها، وما أذهبني عن هذه الطريقة، وأبعدني عنها! وقد نزَّه اللّٰهُ لسانه عن الفحشاءِ، وسمعي عن الإصغاءِ، وما يتَّخِذُ العدوُّ بينهما مجالاً. وأما الأبياتُ فقد تكلَّفتُ الجوابَ عنها، لا مساجلةً له، ولكنْ لأبلغ المجهودَ في قضاء حقِّهِ: [السريع]

يَا بَارِعاً فِي الأَدَبِ الْمُجْتَنَى   مِنْهُ ضُرُوبُ الثَّمَرِ الطَّيِّبِ
لَوْ قُلْتُ: إنَّ الْبَحْرَ مُسْتَغْرَقٌ   فِي بَحْرِكَ الْفَيَّاضِ لَمْ أَكْذِبِ
إذا تَبَوَّأْتَ مَحَلاًّ فَمَا   نَزَلْتَ إلاَّ مَنْزِلَ الْكَوْكَبِ
أَحْمَدْتَنِي الشِّعْرَ وَأَعْتَبْتَنِي[٤]   فِيهِ وَلَمْ أَذْمُمْ وَلَمْ أَعْتِبِ
وَالْعُذْرُ يَمْحُو ذَنْبَ فَعَّالِهِ   فَكَيْفَ يَمْحُوهُ وَلَمْ يُذْنِبِ
أَنَا الَّذِي آتِيكَ مُسْتَغْفِراً   مِنْ زَلَّةٍ لَمْ تَكُ مِنْ مَذْهَبِي
وَأَنْتَ لاَ تَمْنَعُ مُسْتَوْهِباً   مَالاً فَهَبْ ذَنْباً لِمُسْتَوهِبِ

قال أَبُو حَيَّان في كتاب **الوَزِيرَيْنِ**: فإنَّ ابن السيِّد اتَّخذه خازناً لكتبِهِ، وأرادَ أيضاً أن يقدحَ ابنَهُ به، ولم يكن من[٥] الصَّنائعِ المقصودةِ والمهمَّات اللازمة وكان يحتمل ذلك لبعض العَزَازةِ بظلِّه، والتظاهر بجاهِهِ.

نُسْخَةُ وَصِيَّةِ أَبِي عَلِي مَسْكَوَيْه

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ»: هَذَا مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ آمِنٌ فِي

(١) أي الهتون وفي الرسائل: بدل «بعد» «عقب».
(٢) كانت في الأصل: نفذ، وأصلحت.
(٣) قال شارح الرسائل: تطلق الثيب على الخمر، إذا خالطها الماء، يريد أن الخمر على ما فيها من المزايا، لا يضرها اسم الثيب. والعضب مصدر من عضب كضرب، من معانيه: الشتم، والتناول بمعنى القذف.
(٤) أي جعلت لي العتب.
(٥) لعله: عنده.

سِرْبِهِ، مُعافًى في جسمِهِ، عندهُ قُوتُ يَومِه، لا تدعوه إلى هذه المُعاهدة، ضرورةُ نفس ولا بدن، ولا يريد بها مُراءاةَ مخلوقٍ ولا استجلابَ منفعةٍ ولا دفع مضرةٍ منهم، عاهده على أن يجاهدَ نفسه، ويتفقَّد أمرَهُ، فيعفَّ، ويشجع، ويحكم. وعلامة عِفَّتِه: أن يقتصد في مآرِبِ بدنِهِ، حتى لا يحمله الشَّرَهُ على ما يضرُّ جسمَهُ، أو يهتِكَ مُروءته. وعلامة شجاعته: أن يحارب دواعي نفسه الذميمةَ، حتى لا تقهره شهوةٌ قبيحةٌ، ولا غضب في غير موضعِهِ. وعلامةُ حكمتِهِ: أن يَستبصِرَ في اعتقاداتِه، حتى لا يفُوتَهُ بقدرِ طاقتِهِ شَيْء مِنَ العلوم والمعارف الصالحة، ليصلحَ أولادَ نفسِهِ[1] ويُهذِّبها، ويحصلَ له من هذه المُجاهدة ثمرتها، التي هي العدالةُ، وعلى أن يتمسَّكَ بهذهِ التذكرة، ويجتهدَ في القيام بها، والعملِ بموجبها، وهي خَمْسَةَ عشر باباً: إيثارُ الحقِّ على الباطلِ في الاعتقاداتِ، والصِّدقِ على الكذبِ في الأقوالِ، والخيرِ على الشرِّ في الأفعالِ، وكثرةِ الجهادِ الدائم، لأجل الحربِ الدائم، بين المرءِ وبين نفسِهِ، والتَّمسكِ بالشريعة، ولزوم وظائفها. وحِفْظِ المواعيدِ حتى ينجزَهَا، وأولُ ذلك، ما بيني وبينَ اللَّهِ جلَّ وعزَّ. وَقلةُ الثِّقةِ بالناسِ بتركِ الاسترسالِ. ومحبَّةُ الجميلِ لأنَّهُ جميلٌ لا لغيرِ ذلكَ. والصَّمتُ في أوقاتِ حركاتِ النَّفسِ للكلام، حتَّى يُستشارَ فيهِ العقلُ. وحفظُ الحال التي تحصلُ في شيءٍ حتى تصير ملكةً، ولا تَفسدَ بالاسترسالِ. والإقدامُ على كلِّ ما كانَ صواباً. والإشفاقُ على الزَّمانِ الذي هو العمرُ، ليستعملَ في المهمِّ دونَ غيرِهِ. وتركُ الخوفِ من الموتِ والفقرِ لعمل ما ينبغي. وترك التَّواني. وتركُ الاكتراثِ لأقوال أهلِ الشرِّ والحسَدِ، لئلا يشتغلَ بمقاتلتِهِمْ. وتركُ الانفعال لهم. وحسن احتمالِ الغنى والفقرِ، والكرامةِ والهوانِ بجهةٍ وجهةٍ. وذِكْرُ المرضِ وقتَ الصحةِ، والهمِّ وقت السرورِ، والرِّضا عند الغضبِ، ليقلَّ الطغيُ والبَغْيُ. وقُوَّةُ الأملِ، وحُسْنُ الرَّجاءِ. والثِّقَةُ باللَّهِ عزَّ وجلَّ، وَصَرْفُ جَميعِ الْبَالِ إِلَيْهِ.

وقال الثعالبي في تتمة يتيمة الدهر ٥/ ١١٥ ـ ١١٩: أبو علي مسكويه الخازن في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان في ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصاً به وفيه يقول هذين البيتين ووقعا في اليتيمة بلا ثالث[2]:

لا يعجبنكَ حسن القصر تنزله ... فضيلة الشَّمس ليسَتْ في منازلِها
لو زيدَتَ الشَّمسُ في أبراجها مائة ... ما زاد ذلك شيئاً في فضائِلِها

ثم تنقّلت به أحوال جليلة في خدمة بني بويه والاختصاص ببهاء الدولة وعظم شأنه وارتفع مقداره وترفع عن خدمة الصاحب ولم ير نفسه دونه ولم يخلُ من نوائب الدّهر حتى قال ما هو متنازع بينه وبين نفر من الفضلاء:

---

(١) أولاد النفس: كناية عن الأماني والآمال.
(٢) اليتيمة ج ٣، ص: ٧.

من عذيري من حادثات الزّمان وجفاء الإخوان والخلّانِ
شاب رأسي وقلّ مالي وصدّتْ عني البيض والتحى غلماني

وله من قصيدة في عميد الملك تفنن فيها وهناه بإتقان الأضحى والمهرجان في يوم وشكا سوء أثر الهرم وبلوغه أرذل العمر:

قُلْ للعميد عميد الملكِ والأدب اسعد بعيدَيْك عيد العُجْم والعربِ
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحًى وذا يشير عشياً بابنةِ العنبِ

ومنها:

خلايقٌ خيّرت في كلّ صالحةٍ فلو دعاها لغير الخير لم تجِبِ
هي التي غمستني في مودّته بالجسم والرّوح أفديهن لا بأبي
أعذْنَ شرخَ شبابٍ لست أذكره بعداً وردّت عليّ العمر من كثبِ
فطاب لي هرمي والموت يلحظني لحظَ المريبِ ولولاهنّ لم يطبِ
فإنْ تمرّس بي خصمٌ تعصّب لي وإنْ أساءَ إليّ الدّهرُ أحسن بي

ومنها:

أدركْتُ بالقلم الخطّي من قصبٍ ما ليس يدرك بالخطيّ والقضب(١)
ونلت بالجِدّ والجدّ اللّذين هما أمنيتا كلّ نفسٍ كلّ مطّلب
فلو أدرتَ رحى(٢) الدّنيا مفوّضةً إليك أقطارها دارت بلا قطب

ومنها:

وقد بلغت إلى أقصى مدى عمري وكلَّ غربيَ(٣) واستأنست بالنوبِ

ومنها:

إذا تملأت من غيظي(٤) على زمني وجدتني نافخاً في جذوة اللّهبِ

ومنها:

ما الدّهرُ إلاّ كيوم واحدٍ غدهُ كأمس يومك والماضي كمرتَقبِ
فإنْ تمنّيتَ عيشَ الدّهر أجمعه وإنْ تعاين ما ولّى من الحقَبِ
فانظرْ إلى سير القوم الّذين مضَوْا والحَظ كتائبهم من باطنِ الكتبِ
تَجد تفاوتهم في الفضل مختلفاً وإنْ تقاربتِ الأحوالُ في النّسبِ
هذا كتاجٍ على رأسٍ تعظّمه وذاك كالشّعرِ الجافي على الذّنبِ

---

(١) بالخطّي والقضب: بالرماح والسيوف.
(٢) رحى: الطاحون.
(٣) كلّ غربي: ضعف شبابي ونشاطي.
(٤) غيظي: غضبي.

والناس في العين أشباهٌ وبينهم ما بين عامر بيتِ الله والخربِ
في العود ما يقرب المسك الذّكيّ به طيباً وفيه لقًى ملقًى مع الحطبِ
لا تطلبوا المال من حولٍ ومن حيلٍ فربّما جاء مطلوبٌ بلا طلبِ
يأتي الفتى رزقه المقسوم عن سببٍ بادٍ يراه وقد يأتي بلا سببِ
واستخصموا الفلكَ الدّوّار يلقكم بحجتي رغبٍ إنْ شاء أو رهبِ
أراه يسكن عني وهو يركض بي ركضَ الفوارس بالتقريب والخببِ[1]
كالنّار تأكل ما تحيى به لهماً وليس تفرق بين النَّبع والغربِ
أصبحت أجرد والأحداث تجردني دأبَ الجراد إذا استولى على العشبِ
وصرت ديناً على الدّنيا لآخرتي رسل المنايا تقاضاها وتمطل[2] بي
قاسيت أحوال هذا الدّهر مرتكباً أهوالها وصريعاً غير مرتكبِ
ومَنْ تعوّد عضّ السيف هامتُهُ هانت على إليتيه عضّة القببِ[3]

وهي طويلة وكأنّه جمع إحسانه فيها، وكتب إلى أبي العلاء بن حسول قصيدة منها:

ولقد نفضت بهذه الدّ نيا يدي وحسمتُ دائي
ماذا يغرّني الزّما ن وقد قضيت به قضائي
أو بعد ما استوفيت عمـ ـري واطّلعت على فنائي
أصطاد بالدّنيا وينـ ـصب لي بها شرك الرَّجاءِ
هيهات قد أفضيت من صبح الحياة إلى المساءِ
وبلغت من سفري إلى أقصاه مذموم العناءِ

وله من قصيدة في أبي العباس الضبي كأنّها قول ابن الرّومي:

ما كان أغنى أبا العباس عن شرهٍ إلى لحوم سباعٍ كُنَّ في الأجمِ
يسترجع القوت أمضاه سواه لنا لوماً ويبذله للشاء والنِّعمَ
صبرت حَوْلاً على مكروه نقمته فليصبرِ الآن لي حولاً على النّقمَ
سيعلم الوغد إنْ لم تؤت فطنتهُ من كثرة الهمّ أو من قلّة الفَهَمَ
إني لألقاه مما أستعدّ لهُ بكلّ عجراء[4] لكن ليس من سلمَ
إذا خبطت بها عرض امرىءٍ لججَتْ[5] في سمعه يده شوقاً إلى الصَّممِ

---

(١) الخبب: نوع من الجري، وخباب الماء والرمل: معظمه أو طرائقه أو فقاقيعه.
(٢) تمطل: تؤجّل وتسوّف.
(٣) القبب: ما بين الوركين أو الإليتين من اللُّجم.
(٤) عجراء: العقدة في الخشبة أو في الجسد.
(٥) لججت: علقت، وبرمت.

ومنها:

إذا اضطجعْتُ أتاني الشِّعرُ يقدح لي ... من ناره وأتاني الليل بالفحم
وصائغ الشعر لا يرضى سبيكته ... حتى يفرّغها في قالب الحكم
يُصبُّ في مسمَعَيْه ما أذيبَ له ... كالقطر أفرغه الباني على الرّدمِ
إذا تورم غيظاً ضاق مضرطه ... حتّى يوسعه الإطراق للنّدمِ
إني وإنْ كنت لا أرضى الخنى[1] لفمي ... ولا أحطّ لقول فاحشٍ هممي
ليستريح إليّ القول أحوجه ... حرّ السكوت إلى الترويح بالنّسم
إنّ القوافي كفتني نظم أنفسها ... فهنّ ينظمْنَ لي من كلّ منتظمِ
تدنو شواردها حتى يغصّ لها ... ذهني فأنفضها منه على قلمي
خُذْها إليكَ أبا العباس جامعةً ... شنعاءَ[2] توقدُ نار الهجرِ في علمِ
لقيتني بوقار العلم محتشماً ... وهِجتني فَالْقَ جهلي غير محتشمِ

ومنها في هجاء الصاحب بعد موته بزمان:

لا كان أيْر ابن عبّاد وغلمته ... ما كان أسرعه في كلّ مغتلم
دمى جبين أبي العباس فهو يرى ... تقيير كلّ جبينٍ واضح بدم
أحفاه بالقلم الحافي وعلّمه ... خلاف ما علّم الرّحمٰن بالقلم
قد كان أهوج رثَّ العقل مقتحماً ... على الدّنيّات وقّافاً لدى التُّهم
ومَنْ يدر مثل عيني طيشه لمماً ... لم يرض من فخذ الأحداث باللّمم[3]
لأهدينَّ لأفواه الرّواة له ... لحماً تمضّغه الأفواه عن بشم[4]

وختم القصيدة بقوله للضبي:

ما زلت مذ كنت سلاحاً على كمر النّـ ... ـازي[5] عليك وبوّالاً على القدم

عصر مسكويه وبيئته

عاش مسكويه حوالي مائة سنة، ووصل إلى أرذل العمر الذي امتدَّ سنة ٣٢٠هـ على الأقوى، إلى التاسع من صفر سنة ٤٢١هـ بالتحديد على ما ذكره ياقوت نقلاً عن يحيى بن مَندة.

وأمّا الدلائل أو الأمارات الموجودة لتحديد مولد مسكويه فهي:

(١) الخنى: الكلام الفاحش البذيء.
(٢) شنعاء: قبيحة فاضحة.
(٣) اللّمم: اليسير من الذنب، وفخذ الأحداث أي أنه يعبّره بارتكاب الآثام مع الفتيان.
(٤) عن بشم: عن تخمة وسأم.
(٥) النازي: الميّال إلى الفساد، ونزا: وثب.

١ ـ ما قاله مسكويه نفسه في تجارب الأمم في مقدمة حوادث سنة ٣٤٠ فصاعداً وذكر مصادره في تقرير تلك الحوادث. قال: «أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة، [أي بعد سنة ٣٤٠هـ] فهو عن مشاهدة وعيان، أو خبر محصَّل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته. وذلك أنَّ مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد ـ رضي الله عنه ـ خبَّرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبَّره وما اتَّفق له فيها، فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثِّقة والسُّكون إلى صدقه، ومثل أبي محمد المهلَّبي ـ رحمه الله ـ خبَّرني بأكثر ما جرى في أيّامه، وذلك بطول الصحبة وكثرة المجالسة، وحدَّثني كثير من المشايخ في عصرهما بما يستفاد منه تجربة وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذكره، وما شاهدته وجرَّبتُه بنفسي فسأحكيه أيضاً بمشيئة الله».

٢ ـ ما قاله مسكويه في تجارب الأمم أيضاً عن نفسه (انظر حوادث سنة ٣٤١)، وذلك عند ذكر معزّ الدولة بالحدَّة والبذاءة وموقف الوزير المهلَّبي من أخلاقه. قال مسكويه: «وكان معزّ الدولة حديداً سريع الغضب بذيءَ اللسان، يُكثر سبَّ وزرائه والمحتشمين من حشمه، ويفتري عليهم، فكان يلحق المهلَّبي ـ رحمه الله ـ من فحشه وشتمه عِرضَة ما لا صبر لأحدٍ عليه، فيحتمل ذلك احتمال مَنْ لا يكترث له وينصرف إلى منزله، وكنتُ أُنادمه في الوقت، فلا أرى لما يسمعه فيه أثراً، ويجلس لأُنسه نشيطاً مسروراً. . .».

أمّا في الدليل الأوّل فيحدِّثنا مسكويه عن «طول الصحبة وكثرة المجالسة» الّتي كانت بينه وبين الوزير المهلبي، وفي الدليل الثاني يقول: «وكنت أُنادمه في الوقت».

والمعروف أنَّ المهلَّبي قد تولّى الكتابة لمعزِّ الدولة سنة ٣٣٩هـ وخوطب بالوزارة سنة ٣٤٥هـ، وتَوفِّي في شعبان سنة ٣٥٢ (انظر التجارب، حوادث سنوات ٣٣٩، ٣٤٥، ٣٥٢)، والفترة الواقعة بين سنتي ٣٣٩ و٣٥٢ هي التي كانت فيها تلك المنادمة والصحبة والمجالسة التي وصفها مسكويه بالكثرة والطول. نعم صحيحٌ أنَّه «قد صحب الوزير المهلّبي في أيّام شبيبته» ـ كما صرّح به أبو سليمان أيضاً في الصِّوان (ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧) ـ لكنَّ مسكويه في هذه الشبيبة، لا يمكن أن تكون سنُّه أقلَّ من ٢٥ سنة، وخاصَّةً بالنظر إلى أنَّه «كان من خواصِّه ووجوه المختصِّين به» ـ كما أضاف أبو سليمان ـ وكان من الحنكة والبصيرة على مستوًى جعل المهلّبي يتخذه نديماً له و«يُخبره بأكثر ما جرى في أيّامه»، كما جعل مسكويه يعدُّ نفسَه مصدراً من مصادر تاريخ سنة ٣٤٠ فصاعداً، وذلك في قوله: «وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذِكرُه، وما شاهدتُه وجرَّبتُه بنفسي، فسأحكيه بمشيئة الله». فبذلك لا يصحّ أن يكون مولده بعد سنة ٣٢٠. كما تكون منادمته وصحبته الطويلة ومجالسته الكثيرة للوزير المهلّبي ابتداءً من عام ٣٤٥ أي دون احتساب الخمس السنوات الأولى (٣٣٩ ـ ٣٤٤هـ) من وزارة المهلَّبي وذلك

لبعض الاحتمالات السلبيَّة الَّتي قد تعتري هذا الافتراض.

٣ ـ وهناك دليل آخر، وهو دليل على طول عمره أكثر من كونه دليلاً على تحديد سنواته أو تحديد ميلاده، وهو أنَّ لمسكويه أبياتاً يشكو فيها «سوء أثر الهرم وبلوغه أرذلَ العمر» (انظر الثعالبي، التتمَّة ص ٩٦).

فبهذا لا نستبعد أن يكون مسكويه قد عُمِّر مائةَ سنة كاملة (٣٢٠ ـ ٤٢١) إن لم نقل أكثر من ذلك وعاش قرناً كاملاً هو ألمع القرون الإسلامية حضارةً، وهو عصر النّهضة في الإسلام كما سمّاه آدم متز. وإذا عرفنا أنَّ دولة البويهيين قد بدأت هي أيضاً في سنة ٣٢٠هـ، فيكون مسكويه والدولة البويهية، تِرْبَيْنِ، أو لِدَيْنِ، تعاصرا قرناً كاملاً. والسنوات المائة هذه كانت قِمَّة ازدهار تلك الدولة. وأمّا السنوات المتبقِّية من عمر الدولة (٢٧ = ٤٢١- ٤٤٨هـ) فهي سنواتٌ تنحدر الأسرة البويهية فيها، إلى حضيض الضعف والاضمحلال. فبذلك يُصبح مسكويه وثيقةً حيّةً من أوثق وثائق تلك الحقبة التاريخية التي لها خصائص وميزات في تاريخ الفكر والعلم الإسلاميين، وإن كانت بالنسبة للخلافة العباسية عصر تفكُّك وتعدُّدٍ في مراكز الحكم، وهذا بالذات، أدّى إلى تعدّد مراكز العلم أيضاً، كما أدّى إلى ازدهار تلك المراكز، ونبوغ العلماءِ المنتمين إلى مختلف أرجاءِ العالم الإسلامي آنذاك، وذلك لتنافس الأمراءِ وتفاخرهم فيما بينهم باجتذابِ العلماءِ والأدباءِ إلى بلاطاتهم. فنبغ في غضون ذلك رجال علم وحكمة وأدب وسياسة عاصرهم مسكويه وعاصروه، وكان مسكويه على اتّصالٍ وثيقٍ بكثيرٍ منهم.

دولة بني بويه

ابتدأ الدور الثاني للخلافة العباسية في أيام المستكفي بالله الذي تولى الخلافة، أو أسند إليه منصب الخلافة، أسنده إليه القائد «توزون» الديلمي بعد أن غدر بالخليفة المتقي لله (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ ـ ٢٠ صفر سنة ٣٣٣).

وكان الخلفاء من بني العباس يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية في تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف، ولم يبق للخليفة العباسي في بغداد من الخلافة إلاّ اسمها، أي أنه أصبح رمزاً للسلطة الدينية فحسب يُدعى باسمه على المنابر، وليس له شيء من الأمر أو النهي، بل لم يبق له وزير يدبّر شؤون الدولة باسمه، وإنما كل ما كان له كاتب يدبر شؤونه المالية ويحصي نفقاته ودخل إقطاعاته لا غير.

أما ما عدا ذلك من شؤون الحرب والسياسة وتدبير أمر الرعية، فلم يكن لخليفة بني العباس منها قليل أو كثير.

وقد ظهر بنو بويه (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) وفي تلك الفترة أُسندت الخلافة الاسمية إلى

خمسةٍ من خلفاء بني العباس، هم: المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطىء بحر الخزر «بحر قزوين».

وقد ظل الديالمة على وثنيتهم حتى بعد أن فتح المسلمون بلادهم، وأمّنوهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، على الرغم من أن بلاد طبرستان التي كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالإسلام، وكان بينهم وبين الطبريين سلم وموادعة.

وظلّ الديالمة على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الأطروش الذي أقام بينهم مدة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العشر، ويدفع عنهم عدوهم، حتى تبعه منهم خلق كثير، ودخلوا في الإسلام، وبنى في بلادهم المساجد لإقامة الصلاة.

وقد ساد من بني بويه ثلاثة أشقاء استطاعوا ببسالتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش، وأن يجمعوا حولهم القلوب، وأن ينشروا سلطانهم على بقعةٍ كبيرةٍ من الدولة الإسلامية، حتى كانت لهم دولة مزدهرة في تاريخ الإسلام حكمت مدة طويلة (٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ)، (٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م).

وكان أبوهم بويه بن فناخسرو المُكنّى بأبي شجاع يَدّعي أنه من نسل ملوك ساسان القدماء ليكسب لأسرته نفوذاً في هذه البلاد، وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة ٣٨٤هـ، فقد قال في كتابه «التاجي» أن بني بويه يرجعون في نسبهم إلى بهرام جور بن يزدجرد الملك الساساني، وأن بويه هو ابن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سستان شاه ابن سسن بن شيروزيل بن سسناد بن بهرام جور الملك ابن يزدجرد بن هرمز.

وتدل الروايات على أن الصابي حين كان يكتب كتابه «التاجي» لم يكن متمتعاً بتمام حريته، وأنه حمل عليه حملاً، فقد ذكر ابن خلكان أن الصابي كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة، وعن عز الدولة بختيار ابن معز الدولة ابن بويه الديلمي.

وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بما يؤلمه، فحقد عليه، فلمّا قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله في سنة ٣٦٧هـ، وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة، فشفعوا فيه، ثم أطلقه سنة ٣٧١هـ، وكان قد أمره أن يضع له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فعمل «الكتاب التاجي» فقيل لعضد الدولة أن صديقاً للصابي دخل عليه فرآه في شغل شاغلٍ من التعليق والتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل، فقال: «أباطيل

أنمقها، وأكاذيب ألفقها». فحركت ساكنه، وهيّجت حقده، ولم يزل مبعداً في أيامه[١].

فهل نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا النسب كما رواه الصابي!

ليس من المعقول أن يصدَّق قول الصابي «أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» على كل ما كتب الصابي بل المعقول أنّ في «التاجي»، بل أن أكثر ما فيه صحيح، فقد كتب على أرض الأحداث، وفي مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها، ولكن الأسباب الضاربة إلى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد، ومجال كبير للحدس والتأليف، لا سيما أن تلك الأمم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب، ولم يكن يعرف شيء من ذلك أي من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أبناؤه ملوكاً وحكّاماً.

على أن هذا النسب الذي ذكره أو اخترعه أو أمر بذكره واختراعه لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان، وطعن بعضهم في أخباره، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقات منهم أبو القاسم علي بن محمد الكرخي. وكان شديد الاختصاص بالصاحب، أن الصاحب كثيراً ما كان يقول: «كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع» يعني الصاحب به نفسه.

ويقول ياقوت بعد ذلك: فأما الترجيح بين هذين الصدرين، أعني الصاحب والصابي في الكتابة، فقد خاض فيه الخائضون وأطنب المحصلون[٢]، ومن أشفى ما سمعته في ذلك[٣] أن الصاحب كان يكتب كما يريد، وأبو إسحاق يكتب كما يؤمر، وبين الحالتين بون بعيد[٤].

ثم إننا لم نرَ إجماعاً على صحة هذا النسب إلى ملوك آل ساسان القدماء، فقد اختلف المترجمون في بهرام الذي رفع إليه نسب بويه، فقد قال القائلون بنسبه إلى الفرس هو بهرام جور بن يزدجرد بن سابور[٥]، وقال آخرون بنسبته إلى العرب، وقالوا عن بهرام إنه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن إد[٦].

ويرى البيروني أن هذا النسب مختلف لأن الأنساب قَلَّ أن تحفظ بالتوالي إذا طال الزمان وامتدّت الأيام، ويقول إن السبيل إلى معرفة صحة الانتماء إلى أصل ما من باطله اتفاق الكافة وإجماع الجيل على ذلك، كسيّد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٠٩.
(٢) حصل الكلام: رده إلى مفاده ومعناه.
(٣) أي ممّا يشفي الغلة في هذا الباب.
(٤) معجم الأدباء ١٥/ ٥٢.
(٥) ابن الأثير ٨/ ٩١.
(٦) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني ٣٨.

وقال ابن خلدون: إن هذا النسب مصنوع تقرّب إلى بني بويه به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود، وأستبعد أن يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رياسة على الديلم، كما أستبعد أن يختفي نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين يزدجرد وانقطاع الملك إلاّ ثلاثمائة سنة، فيها سبعة أجيال أو ثمانية[١].

وبقي بعد ذلك أن بني بويه كانوا من الديلم، والباحثون عن تاريخهم القديم يختلفون في أصل هذا الشعب كلّه، فيذهب بعضهم إلى أنهم من ولد ضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية الشمالية من بلاد نجد بجوار بني تميم، وأنهم قد هاجروا إلى هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل الأخرى، وأنهم افترقوا فرقتين لأنهم كانوا ينتسبون إلى أخوين «ديلم» و«جيل» فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين منسوبة إليه[٢]، ومعنى ذلك أنهم يرجعون إلى أصل عربي، وقد تشكك في هذا القول أكثر المؤرخين.

وذهب آخرون إلى أن الديلم من أصل فارسي كما مرّ في حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنساً مستقلاً، وأن المناطق التي كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هي مواطنهم الأصلية، وأن لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبائعهم المتميّزة التي جعلت لهم شخصية مستقلة وهم شعب بدوي يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلّة المبالاة كما يقول الإصطخري[٣]، ولمّا أراد الحجاج أن يفتح بلادهم، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها، أمر برسم مصور لها، فلمّا عرف الديلميون ذلك قالوا: «صدقوك عن بلادنا، هذه صورتها، غير أنهم لم يصوّروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو تكلّفته[٤]»، ولمّا علم الخليفة العباسيّ المعتضد خبر دخول أحد الديالمة قزوين، وصفهم بأنهم شر أمة في الدنيا، وأتمهم مكراً، وأشدّهم بأساً وأقواهم قلوباً . . . والله لو ملكوا قزوين لنبعوا عليَّ من تحت سريري هذا، واحتووا على دار المملكة»[٥].

وقد ألحق بويه أولاده في خدمة قوّاد الدولة، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب «شذور العقود» أن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخواه البلاد[٦]، وفي حديث صاحب «تجارب الأمم» عن ركن الدولة الحسن بن بويه أنه كان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٢٦.
(٢) المنتزع من كتاب «التاجي». الورقة ١.
(٣) مسالك الممالك للإصطخري ص: ٢٠٣.
(٤) مختصر كتاب البلدان لابن القيم ص: ٢٨٣.
(٥) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي ص: ١٥٥.
(٦) وفيات الأعيان ٢/ ٧٥.

تلافيه وردهم عنه، وكان مضطراً إلى فعل ذلك، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمتثل جميع أمره، وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه، ومسامحة في أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور[١]، والذي يستفاد من كل هذا أن بني بويه قد صنعوا أمجادهم بأنفسهم، وبنوا ملكهم بسواعدهم وحرابهم وسيوفهم وسخائهم وواسع حيلتهم.

وأولاد بويه الذين سُمِّيَت دولتهم «دولة بني بويه» أو «الدولة البويهية» ثلاثة هم:

١ ـ عماد الدولة، علي بن بويه، الذي كان يحكم فارس والأهواز، وكان أكبر بني بويه، ولذلك كان يُلَقب «أمير الأمراء».

٢ ـ ركن الدولة، الحسن بن بويه، الذي كان يحكم الجبل والريّ وجرجان وطبرستان.

٣ ـ معز الدولة، أحمد بن بويه، الذي حكم العراق وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة: عماد الدولة، وركن الدولة، ومعز الدولة على الإخوة الثلاثة في يومٍ واحدٍ، وكان الذي أطلقها عليهم هو الخليفة العباسي «المستكفي بالله».

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم جنوداً في جيش (ما كان بن كالي) ولكنهم ارتقوا بسرعة إلى مرتبة الأمراء، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا إلى قائد ديلمي آخر هو (مرداويج بن زياد) الذي خرج على (أسفار بن شيرويه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج، فزاد نفوده حوالي ٣٢٠هـ، وتحبَّب إلى الرعية، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قوّاده، وامتدّت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيادية، وعزم على أن يستولي على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب[٢].

ولما استقرّت قدم «مرداويج» على هذا النحو، قدم عليه أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قواداً في جيش (ماكان بن كالي) وفارقوه لمّا ضاقت بهم الحال، وكان معهم جماعة من قواد (ماكان). وقد رحب مرداويج بأبناء بويه فخلع على عليّ والحسن، وولى القوّاد الذين جاؤوا معهم النواحي، وولّى علي بن بويه بلاد الكرج، وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الريّ، وبها «وشمكير» أخو مرداويج، ومعه وزير مرداويج «الحسين بن محمد» الملقب بالعميد. وصادف أن كان لابن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون، فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار، فعرضت على العميد فأخذها ونقد

(١) تجارب الأمم ٦/٢٧٩.
(٢) الأدب في ظل بني بويه ص: ٢٤.

ثمنها، فلمّا حمل إلى عليّ أخذ منه عشرة دنانير، وردّ الباقي ومعه هدية جميلة، فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ولكن مرداويج أحس بالخطأ فيما فعل، وندم على ما كان من اطمئنانه إلى هؤلاء، فكتب إلى أخيه «وشمكير» وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القوّاد عن المسير إلى أعمالهم، وإن كان بعضهم قد خرج يرد.

ولكن الكتب كانت تصل إلى العميد فيقرؤها قبل وشمكير، ثم يعرضها عليه. فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى عليّ بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله، ويطوي المنازل، فسار ابن بويه من ساعته.

ولمّا أصبح العميد عرض كتاب مرداويج على وشمكير، فمنع سائر القوّاد من الخروج إلى الريّ، واستعاد التوقيعات التي كانت معهم.

وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يرده، فقال العميد: «إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده، ويخرج من طاعتنا» فتركه ووصل علي بن بويه إلى الكرج، وأحسن إلى الناس، ولطف بعمال البلاد، فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه، ويصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته، وصرف كثيراً في استمالة الرجال بالصلات والهبات، فشاع ذكره، وقصده الناس وأحبوه.

ولمّا كان مرداويج بالريّ أطلق مالاً لجماعة من قواده على الكرج، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم، فوصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه، وأحبوا طاعته، وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القوّاد، فكتب إليهم وإلى عليّ بن بويه يستدعيهم إليه، وتلطّف بهم في هذا الاستدعاء ما استطاع.

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه واشتغل بأخذ العهود على قواده، وخوّفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعاً، فجبى مال الكرج، واستأمن إليه «شيرازاد» وهو من أعيان قواد الديلم، فقويت نفسه، وسار بمن معه إلى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت.

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه، وبلغ مرداويج فأقلقه، وخاف على ما بيده من البلاد، واغتم لذلك غماً شديداً، ولكن مرداويج أراد أن يحتال فكتب إلى ابن بويه يعاتبه ويستميله، ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد، ولا يكلّفه سوى الخطبة باسمه في مساجد البلاد التي يستولي عليها. وفي الوقت نفسه جهز مرداويج أخاه وشمكير في جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة، فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين، وتوجّه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت، فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال، وقصد رامهرمز، فاستولى عليّ على أرجان سنة ٣٢٠هـ واستخرج منها أموالاً قوّى نفسه بها.

وقد جاءته وهو برامهرمز كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يشير عليه بالمسير إلى شيراز، ويهوّن عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال، وكثرة مؤونته ومؤونة أصحابه، وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم، فتردد عليّ أوّلاً، ثم عزم على المسير، فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١هـ فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها، ثم سار منها إلى اصطخر، خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج، لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه، فقابله ياقوت بجيوشه، فكان النصر لعليّ، وانهزم ياقوت ومن معه.

وكان أحمد بن بويه ممّن ظهر أثره في ذلك اليوم، وهو صبي لم تنبت لحيته، وكان عمره ١٩ سنة. وبعد هذا الانتصار عامل عليّ الأسرى أحسن معاملة، وخيّرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم وأحسن إليهم.

ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها، ونادى في الناس بالأمان، واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه، وثبت ملكه.

وعند ذلك أحسّ عليّ بن بويه بحاجته إلى قوة روحية تسنده، وتثبت سلطانه، فأرسل إلى خليفة بغداد (الراضي بالله) وإلى وزيره (ابن مقلة) يعرِّفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد، وسار إلى أصبهان للتدبير عليه، وبها أخوه وشمكير، فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للاستيلاء عليها، ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده، فلا يبقى له طريق إلى الخليفة، ويقصده هو من ناحية أصبهان وسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج في رمضان، ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٣٢هـ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه ياقوتاً.

ولمّا بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز كاتب نائبه يستميله إليه، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج، ففعل واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويج، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة، وأنفذ إليه أخاه الأوسط الحسن بن بويه، ليكون رهينة بين يديه.

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويج الأتراك تمردوا عليه، لأنه كان كثير الإساءة إليهم، يفضِّل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره، فاتفقوا على اغتياله فقتلوه سنة ٣٢٣هـ.

وكان رؤوساء المتألبين على مرداويج من الأتراك «بجكم» و«توزون» وهما اللذان

توليا إمرة الأمراء بالعراق، و«ياروق» و«ابن بغرا» و«محمد بن ينال» الترجمان.

ولمّا تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش، فأما الأتراك فافترقوا فرقتين: فرقة منهم لحقت بابن بويه، وفرقة سارت نحو الجبل مع «بجكم». وأما الديلم فقد ذهبوا إلى وشمكير أخي مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده، وسار إلى أخيه بفارس.

وعلى هذا صارت القوى الكبرى التي تتنازع بلاد العجم ثلاثاً: قوة علي بن بويه بفارس، وقوة وشمكير بالريّ: وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر.

أما ياقوت الذي كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادراً على الاحتفاظ بما معه فضلاً عن مصادمة غيره.

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعاً هي قوة ابن بويه الذي سيَّر أخاه الأوسط «الحسن بن بويه» إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نوّاب وشمكير، وبقي هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد، وهي: أصبهان، وهمذان، وقم، وقاشان، وكرج، والريّ، وكنكور، وقزوين وغيرها، حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة، حتى استطاع أن يجلي عنها نواب وشمكير.

خطر ببال عليّ بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق، لمّا علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد، وكان هو مشغولاً بإدارة إقليم فارس، وكان أخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل، أما أخوهما الأصغر «أحمد» فلم يكن له شغل، فسيّره عليّ إلى الأهواز، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين «بجكم الرائقي» وانهزم بجكم إلى واسط.

فتح العراق:

كان من أهم ما يتطلع إليه ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط، فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها، حتى كاتبه قوّاد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد، وقد استجاب لهذا الطلب، فسار إلى بغداد حتى وصل إليها يوم ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ، وكان الخليفة بها هو «المستكفي بالله» الذي قابله واحتفى به، وبايعه أحمد، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة، وذاك بالسلطنة.

وفي ذلك اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب: فلقّب علياً صاحب فارس «عماد الدولة» وهو أكبرهم.

ولقّب الحسن صاحب الريّ والجبل «ركن الدولة».

ولقّب أحمد صاحب العراق «معز الدولة» وهو أصغرهم[١].

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية «عصر الدولة العبّاسية» ٣/ ٣٧٨.

ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم بني بويه في الإشراق واللمعان، وإن أخذت الدولة في التدهور والانحلال، واختلّت أحوال الرعايا أمام أحداث كثيرة لا مجال لتفصيلها في هذه العجالة.

ولقد خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس، ويوليها خليفة علوياً، لأن البويهيين كانوا شيعة زيدية، قد وصلت إليهم التعاليم الإسلامية على يد الحسن بن زيد، ثم على يد الحسن الأطروش، وكلاهما زيدي. فكانوا يعتقدون أن بني العبّاس قد غصبوا الخلافة من مستحقيها، وهم أبناء عليّ. ولقد حاول معز الدولة ذلك لولا أن بعض خواصه أشار عليه ألاّ يفعل، وقالوا له: «إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، متى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا»!

فأعرض عمّا كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العبّاس، وانفرد هو بالسلطان، ولم يبق بيد الخليفة شيء ألبتة إلاّ ما أقطعه معز الدولة ممّا يقوم بحاجته[١].

وعلى الرغم من أن بني بويه قد سلبوا السلطة كلها من يد خليفة بني العباس، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا الهوان، لم يسلموا من سوء معاملة البويهيين وظلمهم، ففي سنة ٣٣٤ ذهب معز الدولة إلى دار الخلافة، وذهب إليها سائر الناس على عاداتهم، فلما جلس المستكفي على سريره ووقف الناس على مراتبهم، دخل الأمير فقبّل الأرض على رسمه، ثم قبّل يد المستكفي، ووقف بين يديه يحدّثه، ثم جلس على كرسيّ، فتقدم اثنان من الديلم، ومدّا أيديهما إلى المستكفي، وعلا صوتهما بالفارسية، فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فمدها إليهما، فجذباه بها، وطرحاه على الأرض، ووضعا عمامته في عنقه وجرّاه.

فنهض معز الدولة، واضطرب الناس، وارتفعت الزعقات، وافتتنت دار السلطان، وضربت الأبواق. وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة حيث خلع، وسملت عيناه، وأُقيم مكانه المطيع خليفة[٢].

وطوال القرن الذي وصل فيه نفوذ البويهيين إلى أقصاه (٩٤٥ ـ ١٠٥٥ م) واصل البويهيون سياستهم من عزل الخلفاء وتوليتهم وفق هواهم. وكان لهم في بغداد قصور عدة فخمة كان يجعلها باسم دار المملكة.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٥.
(٢) تجارب الأمم ٦/ ٨٦.

ولم تعد بغداد السيدة التي تحرك العالم الإسلامي بل زاحمتها، وطغت عليها في ذلك شيراز، وغزنة، والقاهرة، وقرطبة، التي كانت كلها تتقاسم السيادة الدولية في العالم الإسلامي[١].

وكانت مدة ملك معز الدولة في العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ ببغداد ودفن في داره، ثم نقل إلى مشهد له بُني له في مقابر قريش[٢].

وولي المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة، وتزوج الخليفة الطائع ابنته «شاه زمان» على صداق مبلغه مائة ألف دينار. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه منافسات في الملك أدّت إلى التنازع وأفضت إلى المحاربة، فالتقيا يوم الأربعاء ١٨ شوال سنة ٣٦٧هـ، فقتل عز الدولة وكان عمره ستاً وثلاثين سنة[٣].

وقد وصلت قوة البويهيين إلى أقصاها في عهد عضد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢هـ)، (٩٧٩ ـ ٩٨٣ م). ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهيين فحسب بل كان أيضاً أعظم حاكم في زمانه. لقد طوى تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التي ظهرت في عهد الحكّام البويهيين في فارس والعراق، فألّف من المجموع إمبراطورية كادت تصل في الاتساع إلى إمبراطورية هارون الرشيد، وقد تزوج من ابنة الخليفة (الطائع)، وحمل الخليفة على الزواج من ابنته، وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق في الخلافة نفسها.

وكان عضد الدولة أول حاكم في الإسلام حمل لقب (شاهنشاه)[٤] ولم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً، وكان عاقلاً فاضلاً، حسن السياسة، شديد الهيبة بعيد الهمة، ثاقب الرأي محباً للفضائل، واهباً باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في مواضع الحزم، ناظراً في عواقب الأمور، وهو الذي بنى على مدينة الرسول ﷺ سوراً إلاّ أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللعب واللهو، وكان شاعراً أديباً، ومن شعره:

ليس شرب الكأس إلاّ في المطر   وغناء من جوار في السحر

---

(١) فيليب حتي (تاريخ العرب) ٢/ ٦١٠.
(٢) هي مقبرة مشهورة ببغداد ومحلة فيها خلق كثير، وبها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأول من دفن بها جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠هـ. والمنصور هو أول من جعلها مقبرة لما ابتنى مدينة بغداد سنة ١٤٩هـ.
(٣) وفيات الأعيان ٢/ ١١.
(٤) شاهنشاه كلمة فارسية معناها «ملك الملوك» وقد صيغت غرار اللقب القديم للملكية. (انظر تاريخ العرب ٢/ ٦١١).

غانيات سالبات للنهى ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير[١]. وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التي كانت قد طمست وأقام في كثيرٍ من المدائن المساجد والمستشفيات والمباني العامة، وخصّص جزءاً من أموال الدولة لأعمال الخير والإحسان، ومن المباني الهامة التي شيّدها «مشهد الإمام علي».

ولكن أشهر مبانيه على الإطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسمى «البيمارستان العضدي» وكلّف الخزانة مائة ألف دينار. وكان يعالج المرضى في المستشفى أربعة وعشرون طبيباً كانوا أيضاً بمثابة هيئة تدريس في كليته الطبية.

وكثيراً ما تغنّى الشعراء من أمثال المتنبي[٢] بمدح عضد الدولة، كما أهدى إليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوي المشهور أبي علي الفارسي الذي ألّف كتاب «الإيضاح» ورفعه إليه[٣].

وولي الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة الذي اجتمع القوّاد بعد وفاة أبيه على بيعته. وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات: فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة «بفارس» وعمّه «مؤيد الدولة أبو منصور بويه» بجرجان.

وقد مكث صمصام الدولة قائماً بأمر العراق في جوّ مضطرب من جرّاء خلاف أخيه شرف الدولة عليه، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل، فانتهز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس، وتجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق، فسار بجيشه سنة ٣٧٥هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه «أبي الحسن الملقب بتاج الدولة» ثم سار إلى البصرة فملكها، واصطلح الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق، وسيّرت إليه الخلع من الطائع لله، فلمّا وردت عليه الرسل بذلك ليحلّفوه رجع عن الصلح، وسار إلى واسط فملكها، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند، فقرّ رأيه على اللحاق بأخيه والدولة في طاعته، فسار إليه، وقبض عليه شرف الدولة، وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٦٧هـ. وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ٣/٣٩٦.
(٢) أبو الطيب أحمد بن حسن المتنبي، ولد بالكوفة من أبوين فقيرين، ولما ظهرت مخايل ذكائه سافر به أبوه وهو صغير إلى الشام، يردده في القبائل، ويسلمه إلى المكاتب، وعلائم نبوغه ناطقة بفضله. توفي مقتولاً سنة ٣٥٤هـ. (المختار من تاريخ الأدب العربي ١/١٠٣).
(٣) تاريخ العرب ٢/٦١١.

وفي عهد صمصام الدولة توفي عمّه «مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة» صاحب جرجان، وتولى أخوه فخر الدولة علي بن ركن الدولة على بلاده باختيار القوّاد، والوزير الكبير «الصاحب ابن عباد».

ونقف عند هذا من أخبار بني بويه، ولكن وجب علينا أن نشير إلى عناية بني بويه بالعلم والأدب، وحبّهم للعلماء والأدباء، على الرغم من الأحداث والاضطرابات التي وقعت في عصرهم.

أدب بني بويه:

كان بنو بويه يحبون العلم والأدب، ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب، فكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمّالهم أو قضاتهم أو كتّابهم، كابن العميد، والصاحب ابن عباد، وسابور بن أدرشير. فضلاً عن الأدباء من العمال والقضاة وكتّاب الدولة، على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر[١].

وأشهر بني بويه في ذلك عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢هـ، وكان كما يقول الثعالبي[٢] على ما مكن له في الأرض، وجعل إليه من أزمة البسط والقبض، وخصّ به من رفعة الشأن، وأوتي من سعة السلطان يتفرّغ للأدب، ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء، ويقول شعراً كثيراً.. ووصف الصاحب ابن عباد بعض شعره في قوله: «وأما قصيدة مولانا فقد جاءت معها عزّة الملك، وعليها رواء الصدق، وفيها سيما العلم، وعندها لسان المجد، ولها صيال الحق».. وفي قوله: «الأغر وإذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين وقعت على مثله، ولا أذن سمعت بشبهه».. وقوله: «لو استحق شعر أن يعبد لعذوبة مناهله، وجلالة قائله، لكانت قصيدته هي: ألا إني اتخذتها عند امتناع ذلك قبلة أوجه إليها صلوات التعظيم، وأقف عليها طواف الإجلال والتكريم».. وفي قوله: «شعر قد حبس خدمته على فكره، ووقف كيف شاء على أمره، فهو يكتب في غرّة الدهر، ويشدخ جبهتي الشمس والبدر» وقال أبو بكر الخوارزمي: كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء الظرفاء، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات، ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما إلا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شعراً حسناً. فبينما هو ذات يوم معه على المائدة ينشد كعادته «بهطة أرز يطبخ باللبن والسمن» فنظر عضد الدولة كالآمر إيّاه بأن يصفها، فأرتج عليه، وغلبه سكوت معه خجل، فارتجل عضد الدولة وقال:

---

(١) جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» ٢/ ٢٢٤.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢/ ٢١٦.

بهطة تعجز عن وصفها يا مدعي الأوصاف بالزور
كأنها في الجام مجلوّة لآلىء في ماء كافور

ومن شعره في وصف الخيري[١]:

طيب رائحةٍ من نفحة الخيري إذا تمزّق جلباب الدياجير
كأنما رشّ بالماورد أو عبقت فيه دواخن ند عند تبخير
كأن أوراقه في القد أجنحة صفر وحمر وبيض من دنانير

وألّف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكملة على النحو، وقصده فحول الشعراء في عصره كالمتنبي والسلامي وغيرهما.

ومن شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي مطلعها:

علوّ في الحياة وفي الممات لَحَق أنت إحدى المعجزات

ومن نكاته الأدبية أن «أفتكين التركي» صاحب دمشق كتب إليه: «إن الشام قد صفا وصار في يدي.. وإن قويتني بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم»! فكتب عضد الدولة جوابه كلمات متشابهة في الخط لا تقرأ إلاّ بعد الشكل والنقط والضبط وهي «غرّك عزّك، فصار قصار ذلك دلّك، فاخش فاحش فعلك، فعلّك بهذا تهدا»!

ومن آدب بني بويه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار ابن معز الدولة، ومن شعره:

فيا حبذا روضتا نرجس تحيي الندامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا عقاراً بكأس كأجفانها
ومسنا من السكر ما بيننا نجرّر ريطاً[٢] كقضبانها

ومن خمرياته قوله:

اشرب على قطر السماء القاطر في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درّاً نثيراً بين نظم جواهر
من كفّ أغيد يستبيك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر
والماء ما بين الغصون مصفق مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعره الغزلي:

وفاؤك لازم مكنون سرّي وحبّك غايتي والشوق زادي

(١) نبات ذو زهر عبق الرائحة.
(٢) الريط: جمع ريطة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين.

وخالك في عذارك في الليالي سوادٍ في سوادٍ في سواد

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة، ويقال: إنه كان آدب آل بويه وأشعرهم وأكرمهم، وكان يلي الأهواز، فأدركته حرفة الأدب، فأدّت إلى نكبته وحبسه من جهة أخيه أبي الفوارس، وكان شعره رائقاً عذباً جميلاً، ومنه قوله:

سلام على طيفٍ ألمّ فسلّما وأبدى شعاع الشمس لما تكلما
بدا فبدا من وجهه البدر طالعاً لدى الروض يستعلي قضيباً منعما
وقد أرسلت أيدي العذارى بخدّه عذاراً من الكافور والمسك أسحما[1]
وأحسب هاروتاً أطاف بطرفه فعلّمه من سحره فتعلّما
ألمّ بنا في دامس الليل فانجلى فلما انثنى عنّا وودّع أظلما

وأنشد له بديع الزمان الهمذاني هذين البيتين:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ومن لي بما أنفقت في الحبس من عمري

ومن شعره الفاخر الحماسي:

ألا شفيت علتي من العداة بالتي
وصارم مهند ماضٍ رقيق الشفرة
وليلة أحييتها منوطة بليلة
كأنما نجم الثريا في الدجى ومقلتي
جوهرتا عقد على نحر فتاة طفلة
أفكر في بني أبي وفعل بعض إخوتي
تظن أني أحمل الضيم فأين همتي
تقنع بالأهواز لي وواسط والبصرة
لست بتاج الدولة سليل تاج الملة
إن لم تزر بغداد بي عمّا قليل كبّتي[2]
وعسكر عرمرم يملك كل بلدة
حشو الجبال والفلا مواكب من غلمتي
نصرتهم مني ومن ربّ السماء نصرتي

ومن قوله في النكبة:

(١) العذارى: جمع عذراء وهي البكر، والعذار جانب اللحية، والسحمة السواد، والأسحم الأسود.
(٢) الكبة: بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء الدفعة في القتال والجري، والحملة في الحرب، والزحام، وإفلات الخيل.

حتى متى نكبات الدهر تقصدني　　لا أستريح من الأحزان والفكر
إذا أقول مضى ما كنت أحذره　　من الزمان رماني الدهر بالغير
فحسبي الله في كل الأمور فقد　　بدلت بعد صفاء العيش بالكدر

ويكفي هذا القدر من الاستشهاد لهذا الشعر الرائع الجميل، يتفجّر من شاعرية مطبوعة، ومن شعراء بني بويه أبو العبّاس خسرو بن فيروز بن ركن الدولة، أنشد له الثعالبي في اليتيمة هذه الأبيات من خمرياته:

أدر الكأس علينا　　أيها الساقي لنطرب
من شمول[1] مثل كأس　　في فم الندمان تغرب
فحكت حين تجلّت　　قمراً يلثم كوكب
ورد خديه جنيّ　　لكن الناطور عقرب[2]
فإذا ما لدغت فالـ　　ـيق درياق مجرّب[3]

ولا شك أن ملوكاً هذا أدبهم، وتلك آثار شاعريتهم، لجدير بالأدب أن يزدهر في دولتهم، وأن يعزّ بنصرتهم، وأن يطلب الزلفى به إليهم، كل صاحب موهبة وفن، وهكذا كان.

مؤلفات مسكويه

١ ـ **ترتيب السعادات ومنازل العلوم**. والكتاب شرحٌ لمراتب السعادة الثلاث وتحديد دقيق لمراتب العلوم حسب مدرسة أرسطو وقيمتها في الرُّقيّ بالإنسان نحو السعادة والكمال الإنسي (التهذيب: ١٥).

٢ ـ **الفوز الأصغر**. وقد يسمّى الكتاب باسم آخر هو: كتاب الجواب عن المسائل الثلاث. اختصر إقبال اللاهوري نظام مسكويه الفلسفي من خلال الفوز الأصغر، وقال: «إنّي أطرح الفلسفة الأولى لمسكويه التي لا شك أنها أكثر انتظاماً من فلسفة الفارابي، كما أستبدل الفلسفة الأفلاطونية الحديثة لابن سينا، بالخدمة الأصيلة التي أداها مسكويه تجاة فلسفة بلاده».

٣ ـ **الهوامل والشوامل**. وقد استعار أبو حيَّان التوحيدي كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التي تنتظِر الجواب (١٧٥ مسألة) واستعمل مسكويه كلمة الشوامل في الإجابات التي أجابه بها، فضبط بها هوامل أبي حيَّان الَّتي كانت كالإبل المسيَّبة؛ لأنَّ الشوامل هي

---

(١) الشمول: الخمر.
(٢) الناظر والناطور حافظ الكرم.
(٣) الدرياق ـ بالدال ـ والترياق ـ بالتاء ـ بالكسر فيهما دواء السموم، وهو فارسي معرب.

الحيوانات الَّتي تضبط الإبل الهوامل فتجمعها.

٤ ـ **تهذيب الأخلاق** = (كتاب طهارة النفس، طهارة الأعراق). أما تهذيب الأخلاق اسمٌ أطلقه مسكويه أيضاً في كتابه الآخر جاويدان خرد. وقد اتخذ اسم الكتاب أشكالاً مختلفة في مخطوطات الكتاب. نقله نصير الدين الطوسي إلى الفارسية وسمَّاه: أخلاق ناصري؛ كما قال فيه وفي مؤلِّفه أبياته الأربعة المعروفة، إعجاباً بهما. ونقله أبو طالب الزنجاني إلى الفارسية أيضاً. والكتاب يتألف من ستِّ مقالات هي: الأولى في مبادىء الأخلاق؛ والثانية في الخلق وتهذيبه والكمال الإنساني وسبيله؛ والثالثة في الخير وأقسامه والسعادة ومراتبها؛ والرابعة في العدالة؛ والخامسة في المحبة والصَّداقة؛ والسادسة في صحّة النفس وحفظها.

٥ ـ **الفوز الأكبر** = (الكبير) ليس للكتاب أثرٌ في فهارس الكتب المطبوعة. بيد أن هناك رأياً قائلاً بكون الفوز الأكبر وتهذيب الأخلاق كتاباً واحداً، على أنَّ أبا سليمان أورد العنوانين لكتابين مختلفين (انظر الصوان: ٣٤٧).

٦ ـ **فوز السعادة** = (نور السعادة)، نرجح أن يكون الشبه القريب بين «فوز» و«نور» قد أدَّى إلى تصحيف جعل صاحب ريحانة الأدب (٨: ٢٠٨) يعدّهما عنوانين لكتابين مختلفين وهما كتابٌ واحدٌ. كما أنَّ موضوع الكتاب يظهر من عنوانه بجلاء.

٧ ـ **رسائل فلسفية**. محفوظة في مجموعة راغب باشا تحت رقم ١٤٦٣. وهذه الرسائل مختصرة تبلغ صفحاتها ٣٢ صفحة وتتراوح بين صفحة واحدة و١٦ صفحة وعناوينها هي: أ. رسالة في اللَّذات والآلام. ب. رسالة في الطبيعة. ج. رسالة في جوهر النفس والبحث عنها: د. رسالة في العقل والمعقول؛ هـ. رسالة في النفس والعقل؛ و. رسالة في إثبات الصور الروحانية التي لا هيولى لها؛ ز. ما الفصل بين الدهر والزَّمان.

٨ ـ **رسالة في ماهيّة العدل**. العنوان الكامل لها كما جاء في مستهلّ المخطوطة الموجودة في مشهد (١: ٤٣، ١٣٧/٤٤) هو: رسالة الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه إلى علي بن محمد أبي حيَّان الصوفي، في ماهيّة العدل وبيان أقسامه.

٩ ـ **جاويدان خرد**. قال مسكويه عنه: «... فهذه جملٌ نُحكمها قبل تفصيلها بالجزئيات، ولولا أنَّا قد أحكمنا لك الأصول كلّها في كتابنا الموسوم بتهذيب الأخلاق، لأوجبنا لك إيرادها ها هنا، ولكن هذا، كتابٌ غرضنا فيه إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماءِ من كلِّ أمَّةٍ ونحلةٍ، وتبعنا فيه صاحب كتاب جاويدان خرد [أحد ملوك الفرس الأقدمين] كما وعدنا به في أوّله، ولأنَّ موضوع الكتاب الأوَّل كتاب فارسيٌّ، وجب أن نبدأ

بآداب الفرس ومواعظهم، ثمَّ نتبعها بآداب الأمم الآخرين». فإذن، القسم الأوَّل للكتاب بُنِي على جاويدان خرد من تأليف قدامى الفرس، والقسم الثاني هو آداب الأمم الأخرى، بدأها بآداب الفرس المتأخرين (إلى ما قبل الإسلام). وأمّا آداب الأمم الأُخرى فهي: آداب الهند، آداب العرب، آداب الروم (منها لغز قابس)، حكم الإسلاميين.

١٠ ـ **آداب الدنيا والدين**. وقال المحقّق النَّراقي في كتابه الخزائن: قال ابن مسكويه في كتاب آداب الدنيا والدين: والفرق بين السرف والتبذير، أنَّ السرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق انتهى». ثمَّ قال صاحب الروضات: «وظنّي أنَّ الغالب على كتابه هذا الذي لم نذكره في المتن، متون اللغة، وأصول المعرفة مع شيء من مراسم الشريعة وأحاديث العلم والحكمة، فيلاحظ إن شاء الله منه».

١١ ـ **أنس الفريد**. قال ياقوت: «وله كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمّن أخباراً وأشعاراً وأمثالاً غير مبوَّب». وقال القفطي: «فمن تصانيفه كتاب أنس الفريد وهو أحسن كتاب صُنِّف في الحكايات القصار والفوائد اللِّطاف».

١٢ ـ **الخواطر** = (أنس الخواطر؟). ذكره أبو سليمان في الصوان باسم الخواطر ونقل منه قطعةً تدلُّ على أن الكتاب في النفس وأنّها جوهرٌ بجهة وعرض بجهة وما إلى ذلك.

١٣ ـ **حقائق النفوس**. وهو مجال آخر لدراسات مسكويه النفسيّة.

١٤ ـ **كتاب السياسة للملك**.

١٥ ـ **المستوفى في الشِّعر**.

١٦ ـ **الرسالة المسعدة**. ذكره مسكويه في التهذيب بنفس العنوان. وعنوان الرسالة ينطق بكونها دراسة في مسألة السعادة، لا سيّما بالنظر إلى ما نعرفه عند مسكويه من الاهتمام بموضوع السعادة.

١٧ ـ **فوز النجاة**. ذُكر الكتاب عند بعض من درس مسكويه هامشيّاً بعنوان: فوز النجاة في الاختلاف= (الأخلاق). يمكن أن يكون عنواناً ثانياً لكتابه الآخر المسمَّى فوز السعادة، ولكنَّنا لا نستبعد أن يكون عنواناً لكتابٍ على حدةٍ، بالنظر إلى كثرة ما كتبه مسكويه خصيصاً في علم النفس والأخلاق.

١٨ ـ **كتاب السِّيَر**. ذكره ياقوت (٥: ١٠) كما عرّفه باختصار قائلاً: «... وكتاب السير، أجاده، ذكر فيه ما يُسيِّر به الرجل نفسَه من أمور دنياهُ. مزجه بالأثر، والآية، والحكمة والشِّعر». هذا كلّ ما أورده ياقوت.

١٩ ـ **كتاب الجامع**. ورد بنفس العنوان عند كلٍّ من ياقوت (٥: ١٠) والعاملي (١٠: ١٤٦) ويمكن القول: إنّه أجمع من كتاب الرازيّ المسمَّى بالحاوي، لأنّ مسكويه درس

الرازي وأكبَّ على كتبه. ثمَّ كتب هذا الكتاب في ضوءِ اجتهاداته بعد تلك الدراسة.

٢٠ ـ **كتاب في تركيب الباجات من الأطعمة**= (كتاب الطبيخ: انظر ابن أبي أصيبعة ص: ٣٣٥). قال القفطي (ص: ٣٣٢) وذلك عند إحصائه لكتب مسكويه الطبيَّة: «. . . وكتاب في تركيب الباجات من الأطعمة، أحكمه غاية الإحكام، أتى فيه من أصول علم الطبيخ وفروعه بكلِّ غريبٍ حسنٍ».

٢١ ـ **كتاب الأشربة**. ذكره ابن أبي أصيبعة (ص: ٣٣٥) بنفس العنوان، كما ذكره العاملي (١٠: ١٤٦) بقوله: «كتاب الأشربة وما يتعلق بها من الأحكام الطبّيّة».

٢٢ ـ **كتاب في الأدوية المفردة**. هذا الكتاب تفرّد بذكر اسمه القفطي (ص: ٣٣٢) فلم يذكرهُ غيره من المترجمين لمسكويه، من أمثال ابن أبي أصيبعة الّذي ذكر بعض آثاره في الطّبِّ والعلاج.

٢٣ ـ **مختصر النّبض**. كتاب في الطّب كُتب لعضد الدولة البويهي، وهو متنازع فيه بين ابن سينا وبين أبي علي مسكويه، أو أبي علي مندويه. أمّا انتساب الكتاب إلى ابن سينا فمردود، لأنه كان طفلاً عمره سنتان عندما مات عضد الدولة، ولذلك ذهب فيلسوف الدولة صاحب كتاب مطرح الأنظار إلى أنَّ الكتاب لأبي علي مسكويه أو لأبي علي مندويه (انظر الگود، تاريخ پزشكي إيران ص: ٢٨).

٢٤ ـ **تفصيل النّشأتين وتحصيل السعادتين**. قال في الذريعة: «ذكر هذا العنوان صاحب الريحانة ولم نجد غيره. قال صاحب الريحانة [عند ذكره لآثار مسكويه]: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين في الأخلاق، وللراغب الأصفهاني أيضاً كتب في معرفة النفس بهذا العنوان».

٢٥ ـ **أحوال الحكماء وصفات الأنبياء السلف**.

٢٦ ـ **المختصر في صناعة العدد**.

٢٧ ـ **فقر أهل الكتب**. وهو كتاب قد يكون طريفاً. لأنَّ مسكويه ربما يعرض فيه نتائج تجربته الخاصّة مع هذه الفئة الّتي احتكَّ بها، والّتي ينتمي إليها بحكم كونه خازناً لمكتبات الأمراءِ والوزراءِ البويهيين.

٢٨ ـ **رسالة في دفع الغمّ من الموت**. ونُسبت إلى ابن سينا عندما نشرت ضمن رسائل ابن سينا في الحكمة المشرقية (ليدن ١٨٩٤ انظر محقق ص: ٢٠٩ ـ ٢٣٠) كما نقلها إلى الفارسية البرقعي القمي في ٧٣ صفحة تحت عنوان: چرا از مرگى بترسم؟ لماذا أخاف من الموت؟ (قم، ط ٢، ١٣٢٧ ش ـ انظر مشار).

٢٩ ـ **تعاليق على الكتب المنطقية**.

٣٠ ـ وصيّة له. أوردها مسكويه نفسه في جاويدان خرد (نشرة بدوي ص: ٢٨٥ ـ ٢٩٢) أولها: «يا طالب الحكمة طهِّر لها قلبك. . .» وختامها: «بلا حاجةٍ إلى تفكير وتمييز وتطلّب».

٣١ ـ وصيّة أبي علي مسكويه (عهده مع نفسه). أوردها ياقوت (٥: ١٧ ـ ١٩) ونقل عنه العاملي (١٠: ١٩٨ ـ ١٩٩)، أولها: «هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد وهو يومئذٍ آمنٌ في سربه. . .» وختامه: «وصرف جميع البال إليه».

٣٢ ـ مراسلة بينه وبين بديع الزمان الهمذاني. للبديع رسالة اعتذار إلى مسكويه، أجاب عليها مسكويه. تجد الرسالة والجواب عند ياقوت (٥: ١١ ـ ١٧).

٣٣ ـ شعر مسكويه. نقل الثعالبي (التتمة ٩٦ ـ ١٠٠) ونقل عنه ياقوت (٥: ٧ ـ ١٧) نماذج من شعره. وأثنى عليه الثعالبي بقوله: «وكان في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشِّعر».

٣٤ ـ نزهت نامه علائي. ذكره العاملي (١٠: ١٤٥) وصاحب الريحانة (٨: ٢٠٨) ونسباه إلى مسكويه. كما ذكره صاحب الذريعة (٢٤: ١٣٠) ونسبه إلى شهمردان ابن أبي الخير الرازي قائلاً: «وقد نسبه إسماعيل باشا (هدية ١: ٧٣) خطأً إلى «ابن» مسكويه وعنه أخذ في أعيان الشيعة وكذلك أخطأنا نحن في الناسب ـ ص: ٢٨. فإذن الكتاب ليس لمسكويه.

٣٥ ـ تجارب الأمم. وهو الكتاب الّذي بين يدي القارىء، كتاب جليل في التاريخ، ومصدر لا يُستغنى عنه في الدراسات التاريخيَّة، لم يُنشر حتَّى الآن ـ مع الأسف ـ إلاّ بعض أجزائه، فأخذنا على عاتقنا تحقيق نصِّه ونشره بكامل أجزائه.

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ٥/ ٧٣، المؤلفات التالية لمسكويه:

١ ـ آداب العرب والفرس.

٢ ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم، في التاريخ.

٣ ـ ترتيب السعادات.

٤ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.

٥ ـ جاويدان خرد. فارسي.

٦ ـ الفوز الأصغر، في أصول الديانات.

٧ ـ الفوز الأكبر.

٨ ـ فوز النجاة في الأخلاق.

٩ ـ كتاب السياسة.

١٠ ـ مجموعة أنس الخاطر.

١١ ـ مختار الأشعار.

١٢ ـ نديم الفريد.

١٣ ـ نزهت نامه علائي. فارسي كتبه باسم علاء الدولة الديلمي.

كتاب تجارب الأمم

بنظرة إلى مقدمة **كتاب تجارب الأمم**، يتَّضح أنَّ التاريخ في رأي مسكويه، يشتمل على أحداث يمكن للإنسان أن يستفيد منها تجربة في الحياة الفردية والاجتماعية، في أمور لا تزال يتكرَّر مثلها، ويُنتظر حدوث أشباهها، وإذا عرف الإنسان تلك الأحداث وقيمتها التجريبيَّة ثم اتَّخذها إماماً لنفسه، يقتدي به، فهذا يجعله يحذر ممَّا ابتُلي به قومٌ، ويتمسَّك بما سعدوا به. والنظرة هذه تبتنى على رأيه القائل: إنَّ أمور الدُّنيا متشابهة وأحوالها متناسبة. فباستطاعة الإنسان أن يُقارن الحاضر بالماضي، ويهتدي بهدي التجارب الَّتي حصلت فيه للأسلاف. ثمَّ إنَّ ما يحفظه الإنسان من التاريخ، كأنَّه تجارب له، باشَرَها بنفسه، فأصبح خبيراً بالأمور الَّتي لم يجرِّبها فعلاً في حياته، حتَّى إنَّه يعرفها بعد ذلك قبل وقوعها، فيستقبلها استقبالَ الخَير، فيفعل في علاجها الأنسب والأجدى، فيحلُّ مشاكلَهُ وينجح في مشاريعه نجاح الخبير الواعي.

بيد أنَّ مسكويه لاحظ أنَّ تلك الأخبار التاريخية الحقَّة مغمورةٌ بالأسماء، متبدِّدةٌ في الخرافات والأساطير الّتي ليست لها فائدةٌ إلاً استجلاب النَّوم بها، والتأنُّس بالمستطرف منها، فأخذها بالنقد واستخراج ذات القيمة منها، وضرب صفحاً عمَّا لم يجد فيها قيمةً تاريخيةً تجريبيَّة وتركها وهو يرى أَنَّ للأحداث التاريخيَّة الحقَّة أيضاً أنس السَّمَر الَّذي يوجد في الخرافات والأساطير. إنَّ مسكويه لم يثق بروايات ما قبل الطوفان، لفقدانها القيمة التاريخية التي ينشدها هو، كما لم يجد في المعجزات تجربةً إنسيَّةً يستطيع الجميع أَن يمارسوا مثلَها، أَو يعتبروا بها، وهذا لا يعني أنَّه ترك ما كان للأنبياءِ من تدابيرهم البشريّة الَّتي ليست مقرونةً بالإعجاز، لأَنَّ النّمط من أخبارهم وارد في صميم ما اهتمَّ به مسكويه في كتابة التاريخ. مع العلم بأَنَّ لمسكويه كتاباً في صفات الأنبياءِ السالفين تحت عنوان: أحوال الحكماءِ وصفات الأنبياءِ السالفين.

وأخيراً، عمد مسكويه إلى أَحداث تجري على البخت والاتِّفاق، ممَّا هو خارج عن نطاق تدبير الإنسان وقدرته، حتَّى تكون في حسبانه، ولا تسقط من ديوان الحوادث عنده، وما يُنتظر وقوع مثله، وإن لم يستطع تحرُّزاً من مكروهه.

إنّه لن ينسى ما ضمنه في مقدمة الكتاب، بل نراه يؤكِّد هنا وهناك، وبمناسبات

شتّى، على أغراضه ويُصرُّ على المضيّ في النَّهج الَّذي نهجه لنفسه في عمله. فحيناً نراه يبرِّر تركه ذكر بعض الأشياءِ بقوله: «لخروجها عمَّا بنينا عليه غرض هذا الكتاب»، وحيناً يؤكِّد على هذا الغرض حتَّى في عنوان حديث أراد ذكره، ففي عنوان الحديث عن الشورى يقول: «ذكر ما يجب ذكره من حديث الشورى وما يليق منه بهذا الكتاب». وكذلك وبعد أن ينقل الحوار الذي جرى بين الإمام علي بن أبي طالب والزبير: الحوار الذي أثَّر في الزُّبير حتّى أقسم أن لا يحارب عليّاً ـ لولا وسوسة ابنه له واقتراحه التكفير عن اليمين بعتق غلام له، يقال له: مكحول ـ وبعد إيراده هذا الحدث نراه يقول: «وإنَّما حكينا هذه الحكاية لأنَّ فيها تجربة تستفاد، وإن ذهب على قوم فإنّا نُنَبِّهُ عليه، وذلك أنَّ المحنق ربما سكن بالكلام الصَّحيح، والساكن ربما أُحنق بالزُّور من الكلام، وذلك بحسب تأتّي من يريد ذلك، وإتيانه من وجهه». ولا يهمّه في ذلك شخصية القائل أو الفاعل، ولا ينظر إلى من قال أو فعل، بل يهمُّه مغزى ما قال أو فعل، من حيث تلاؤمه وأغراضه في كتابه تجارب الأمم. فنراه يستحسن موقفاً من مواقف الضَّحاك الشَّهير بالسفك والقتل والظُّلم، وينقل كلاماً منه حيث قال في الإجابة على أمّه البذيئة: «فلما هممتُ بالسطوة بهم أي: بكابي الأصفهاني وأصحابه عندما زاروه للتأتّي له واستعطافه وقف الحقّ بيني وبينهم كالجبل، فحال بيني وبين ما أردتُ»، ثمَّ يعلِّق مسكويه على هذا الكلام بقوله: «فهذا ما استحسن من فعل الضَّحاك وقوله ولا يعرف له شيءٌ مستحسنٌ غيره». إنَّ هذا الالتزام الواعي الذي يبديه مسكويه تجاه منهجه، هو ما لا نراه عند كثير من المصنِّفين، فمسكويه، كما قال روزنتال (١٩٦، ١٩٧) يمثِّل مستوًى عالياً في الكتابة التاريخيَّة، فهو قلَّما يهتمُّ بالأمور التافهة، بل يدرك كلَّ ما له قيمةٌ تاريخيَّة جوهريَّة، ويعرض الأحداث الهامَّة بشكل معقولٍ متماسك.

إنَّ المؤرخين المسلمين ـ ومعظمهم ممَّن تأخَّر عن مسكويه وربما تأثَّر به بالذات ـ نظروا إلى التاريخ من حيث هو درس وعظة وعبرة، ولكنّ مسكويه، السابق في هذا المضمار، هو المؤرِّخ الوحيد الَّذي نهج منهج الاستدلال الفلسفي مع ما كان له من نظرة أخلاقية علميَّة برغماتية (Pragmatic) إلى حوادث التاريخ (زرياب: ١١٨ ـ بتصرّف) إنّك لا تجد بين المؤرِّخين المسلمين مؤرِّخاً عمد إلى التاريخ عن وعي وجدٍّ، نشداناً للفوائد الَّتي تنطوي عليها أحداثه، بالمستوى الَّذي عمد إليه مسكويه، إنّه حكيم أخلاقيّ، ومصنِّف كتابٍ حكيم باسم تجارب الأمم. كما هو رائد في الكتابة العلميَّة للتاريخ، وأوَّل من شقَّ الطريق إلى فلسفة التاريخ ليكون أسوة حسنةً فيما بعد، لأمثال، رشيد الدين فضل الله (٦٤٥ ـ ٧١٨هـ) في جامع التواريخ، وابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٦هـ) في مقدمته، ثم الكافيجي (القرن التاسع) في كتابه: المختصر في علم

التاريخ، والسخاوي (٨٣٠ ـ ٩٢٠عبد الرحمٰن هـ) في كتابه: إعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ أهل التاريخ، ومسكويه خلافاً لسلفه الشَّهير الطبري الذي استهدف ـ أساساً ـ جمع الموادِّ التاريخيَّة، وعَرْضَها على ترتيبٍ تاريخيٍّ لائق، عزم على أن يصنِّف تاريخه كبناءٍ عضويٍّ يكون الفكر الأساسي المحدَّد عنصراً بنَّاءً في الكتاب بأسره، رابطاً كلَّ أجزاءِ التصنيف بعضها ببعض. يرى القارىء على صفحات هذا الكتاب عنصراً شخصياً لا يجده في المصنَّفات التاريخيَّة الأخرى المؤلَّفة في تلك الحقبة.

إنَّ تجارب الأمم ـ وبصورة جليّة ـ عمل فكريٌّ نتج عن ذهن استدلاليٍّ بنَّاءٍ، يسوده انطباعٌ سامٍ من غرض المؤرِّخ وواجبه، وبهذا يُبدي مسكويه فضلاً كبيراً على من سبقه أو عاصره من المؤرِّخين الَّذين كتبوا آثارهم باللغة العربية. إنّه لا يُرضيه مجرَّد جمع المادة التاريخيَّة وعرضها في ترتيب تاريخيٍّ، لأنَّه يعتقد أنَّ أحداث الماضي تترابط في ما بينها بشبكة من المصالح الإنسيَّة. وفي الحقيقة، فإنَّ التاريخ ـ كما يراه مسكويه ـ ليس غير هذا، كما يرى العاقل في رواية التاريخ الحقَّة ينبوعاً من العلم الثمين.

مصادر مسكويه في كتابة التاريخ

صرَّح مسكويه بأنَّه لمَّا قرأ أخبار الأمم، وسير الملوك، وأخبار البلدان، وكتب التواريخ (انظر المقدمة) وجد فيها ما تستفاد منه تجربة... وهذا دليل واضح على تعدّد مصادره، في كتابة التاريخ. بيد أنّه اعتمد اعتماداً كليّاً على الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)، كما اعتمد على المصادر الأخرى التي تتنوَّع وتختلف، حسب الفترات التاريخيّة الّتي أرّخها في تصنيفه، وحسب مصادر كانت في متناوله، بحيث لا يمكن عدُّها وحصرها إلاَّ بعَدِّ المصرَّح منها في الكتاب، وحصر غير المصرَّح منها بإرجاعِ نُقول مسكويه إلى أصولها وأصحابها، وهذا يتطلَّب دراسةً مستقلةً قد تأخذ وقتاً طويلاً. فمصادر مسكويه حسب هذه العجالة هي:

١ ـ **تاريخ الطبري**: عوَّل مسكويه أوّلاً وقبل كلّ شيء، على الطبري. وذلك بحذف كثير من موادِّ الطبري، من مكرَّره وما لم يدخل في إطار منهج مسكويه في كتابة تاريخه، فمسكويه يوازي الطبري ابتداءً من العصر الفيشداذي وذكر أوشهنج بالذّات، أو ممَّا بعد الطوفان حسب تصريحه؛ إلى سنة ٢٩٥هـ، مع العلم بأنَّ الطَّبري استمرّ في تاريخه حتى سنة ٣٠٢هـ. ومسكويه ليس المؤرِّخ الوحيد الّذي ينهل من مناهل الطبري ويعول عليه في تصنيفه. فمن هو الذي لم يعوّل على الطبري؟ فها هو ابن الأثير يصرِّح في مقدمته (ص: ٣) قائلاً: «فابتدأت بالتاريخ الكبير الَّذي صنَّفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو المعوَّل عند العامَّة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه. فأخذتُ ما فيه من جميع تراجمه، لم أخلّ بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث رواياتٍ

ذات عددٍ، فقصدتُ أتمَّ الرّوايات، وأضفتُ إليها من غيرها ما ليس منها. . . فلمّا فرغتُ منه أخذتُ غيره من التواريخ المشهورة [منها تجارب الأمم] فطالعتُها، وأضفتُ منها إلى ما نقلتُه من تاريخ الطبري ما ليس فيه. . .» .

هذه هي الحالة عند جلّ المؤرِّخين منهم ابن خلدون أيضاً (العبر: ٤: ١١٤٠)، إنَّهم وجدوا تاريخ الطبري ينبوعاً ثرّاً يتدفّق منه ذلك الحجم الهائل من الموادِّ التاريخيَّة، والروايات المختلفة الكثيرة، الَّتي أوردها فيه دون نقدٍ أو تعديل، أو تعليق، واعياً عامداً ما يفعله، كما صرَّح به في مقدّمته. ولكن المؤرِّخين صاغوا ما أخذوه عن الطبري في قوالب ارتضوها لتصانيفهم، كلٌّ على شاكلته، ومن هؤلاءِ مسكويه، الَّذي أخذ بدوره عن الطبري أَخْذَ نقدٍ واختيارٍ وتعديل وتمحيص وحذفٍ وإضافة من مصادر أخرى، وفقاً لأغراضه الَّتي تحدَّث عنها في مقدمة تجارب الأمم.

والجدير بالذكر أنَّ هناك مناسبة خاصَّة بين مسكويه والطبري يمتاز بها مسكويه من بين سائر المؤرِّخين، حيث يُعتبر مسكويه تلميذاً غير مباشر للطَّبري في استماع تاريخه عن صاحبه، وقراءة كتابه عليه، والحصول على الإجازة منه. قال مسكويه بهذا الصَّدد (انظر التجارب ٢٤٣، ٦): «وفيها [أي في سنة ٣٥٠هـ] مات أبو بكر أحمد بن كامل القاضي، رحمه الله، ومنه سمعتُ كتاب التاريخ لأبي جعفر الطبري، وكان صاحب أبي جعفر، قد سمع منه شيئاً كثيراً، ولكنّي ما سمعت منه عن أبي جعفر غير هذا الكتاب، بعضه قراءة عليه، وبعضه إجازة لي، وكان ينزل في شارع عبد الصمد، ولي معه اجتماعٌ كثير».

٢ ـ نفائس المكتبات: لم يكتف مسكويه بالطبري، حتَّى بالنسبة إلى القسم الذي قلنا إنّه عوَّل فيه عليه تعويلاً كليّاً (العصر الفيشداذي إلى سنة ٢٩٥)، بل أورد في تاريخه نصوصاً إيرانيَّةً عديمة النَّظير لا تجدها عند الطبري ولا عند غيره من كبار المؤرِّخين من أمثال المسعودي وابن الأثير ومن إليهما، ونخصُّ بالذكر عهدَ أردشير الَّذي يُعتبر من أقدم النصوص الإيرانية المدوّنة الَّتي وصلت إلينا، وكذلك السيرة الذاتية لأنوشروان، وخطبته المشحونة، اللَّتين نقلهما مسكويه عن كتاب كتبه أنوشروان نفسه في سيرته.

من أين أتى مسكويه بهذه النصوص وغيرها ممَّا تفرَّد بنقلها بين المؤرِّخين؟ إنَّه كان خازناً لمَكتبات البويهيين من أمثال ابن العميد، وابنه أبي الفتح، وعضد الدولة. لقد دامت صحبته أو خزانته سبع سنين لابن العميد فقط (٣٥٠، ٦)، وكان لفهرس مكتبة ابن العميد ١٠٥٦ ورقة = (٤٤ كرَّاسة لكلٍّ منها ٢٤ ورقة ـ متز ١: ٢٩٧) ولم يثبت في هذا الفهرس إلا أسماء الكتب، وقد اجتمعت في تلك المكتبة كلّ أنواع العلوم والحكم والآداب، تحمل على مائة وقر وزيادة. وعن مكتبة عضد الدولة حكى لنا المقدسي (الذي كان يختلف إليها، فلا جرم أنّه زار مسكويه أيضاً) حيث قال عند وصفه لدار

عضد الدولة بشيراز وغرفها وعجائبها: «. . . وخزانة الكتب، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلاّ وحصَّله فيها، وهي أَزَجٌ طويل، في صُفَّةٍ كبيرة، فيه خزائن من كلّ وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدَّفاتر منضَّدة على الرفوف، لكلّ نوعٍ بيوتٌ وفهرستاتٌ، فيها أسامي الكتب لا يدخلها إلاّ وجيهٌ. . .». فلا شكَّ أنَّ مسكويه استفاد من هذه المكتبات كثيراً من علمه والموادّ التاريخية الّتي أوردها في كتابه ممَّا لا يوجد عند سائر المؤرِّخين سواءٌ ما أضافه في تاريخ ما قبل الإسلام مستمدّاً من مصادر إيرانية قديمة موجودة في تلك الخزانات، أو ما أضافه إلى تاريخ ما بعد الإسلام أخذاً عن مصادر إسلامية كانت فيها.

٣ ـ ثابت بن سنان: هناك فترة تاريخية تبدأ من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٤٠هـ يعتمد مسكويه فيها على مصادر مستقاةٍ عن الطبري، منها: تاريخ ثابت بن سنان (المتوفى سنة ٣٦٣هـ) ابن ثابت بن قرّة الصابي الحرّاني (٢٢١ ـ ٢٨٨هـ) خال أبي إسحاق هلال بن محسن الصَّابي. كتب ثابت بن سنان تاريخه ابتداء من خلافة المقتدر (من سنة مائتين ونيّف ـ القفطي) إلى سنة ٣٦٠هـ. فكتب أبو إسحاق هلال بن محسَّن تتمّةً لتاريخ ثابت بن سنان وصلت إلى سنة ٤٤٧. ومن دلائل كونه مصدراً لمسكويه ما جاء في التجارب حيث قال: «. . . وحكى ثابت بن سنان في كتابه أن. . .» فهذا تصريح من مسكويه أنّه أخذ في تاريخ هذه الفترة عن ثابت بن سنان أيضاً.

وهناك قول بكون أبي إسحاق هلال الصابي أيضاً من مصادر مسكويه، لا يمكن الاطمئنان إليه. قال الروذراوري في الذيل (ص: ٢٣): «وعمل أبو إسحاق الكتاب الّذي سمّاه: التاجيّ في الدولة الديلميّة. وهو كتاب بديع الترصيف حسن التصنيف. . ووجدنا آخره موافقاً لآخر كتاب تجارب الأمم، حتّى إنَّ بعض الألفاظ تتشابه في خاتمتهما، وانتهى القولان في التاريخ بهما إلى أمدٍ واحدٍ، والكتاب موجودٌ يُغني تأمُّله عن الإخبار عنه». فكيف نطمئنُّ إلى هذا القول ونحن نعلم أنَّ أبا إسحاق الصَّابي كتب تاريخه حتى سنة ٤٤٧هـ. في حين أنَّ تجارب الأمم لا يتجاوز سنة ٣٦٩ كما أقرّ به صاحب الذيل أيضاً (انظر الذيل) وافتراض أنَّ لتجارب الأمم أجزاء أخرى أيضاً لم تصل إلينا وما هو موجود ناقص. فهذا الافتراض أيضاً مردود. لأنَّ مسكويه لم يعش بعد سنة ٤٢١هـ. اللهمَّ إلاّ أن يكون الأمر قد اختلط للروذراوري، أو كان الّذي قصده، هو ثابت بن سنان الصابي الذي وصل تاريخه إلى سنة ٣٦٠هـ، أو إلى آخر حياته (سنة ٣٦٣هـ) حسب قولين يذكران بصدد نهاية كتابه. بيد أنَّ هذا أيضاً غير مقبول، لأنَّ

تاريخ مسكويه وصل إلى سنة ٣٦٩هـ، فكيف يمكن أن يكون آخر الكتابين أمداً واحداً. وأمّا هلال الصابي لو صح نقل مسكويه عنه، فهو يصل بحوادث أوائل كتابه أي من سنة ٣٦٤ (ابتداء تاريخ هلال) إلى سنة ٣٦٩ أي انتهاء تجارب الأمم بيد أنَّ هذا أيضاً، مرفوضٌ. لأنَّ مسكويه في هذه الفترة، يكتب التاريخ عن مشاهدة وعيان، ويعتبر مصدراً لنفسه.

٤ ـ **مسكويه مصدراً**: مهما يكن من أمر الفترة السابقة، أي الَّتي تنتهي إلى سنة ٣٤٠هـ، فإنَّ مسكويه بشهوده وعيانه تارةً، وبسماعه من الأصدقاءِ والزملاءِ الساسة المشايخ تارة أخرى، يُعتبر مصدراً حيّاً لكتابة تاريخه. لقد صرَّح مسكويه بذلك في بداية ذكر الحوادث لتلك السنة حيث قال:

«أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة (٣٤٠هـ) فهو مشاهدة وعيان، أو خبرٌ محصَّل، يجري عندي خبره مجرى ما عاينتُه، وذلك أنَّ مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد ـ رضي الله عنه ـ خبرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبَّره، وما اتفق له فيها، فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثِّقة به، والسكون إلى صدقه، ومثل أبي محمد المهلَّبي ـ رحمه الله ـ خبَّرني بأكثر ما جرى في أيّامه، وذلك بطول الصحبة وكثرة المجالسة، وحدَّثني كثيرٌ من المشايخ في عصرهما بما يستفاد منه تجربة، وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذكره منه وما شاهدته وجرَّبته بنفسي، فسأحكيه أيضاً بمشيئة الله».

وهكذا يصل تاريخه إلى سنة ٣٦٩هـ مع أنَّه عاش حتى ٤٢١هـ أي لمدة نصف قرن، تاركاً كتابة تاريخ تلك المدَّة. وبالرغم من ذلك فإنَّ تجارب الأُمم عُرف كمصدرٍ أساس لا يستغنى عنه لدراسة القرن الرابع الهجري والعصر البويهي الذي يعتبر ألمع العصور الإسلاميّة علماً وحضارةً.

ترجمة أبي شجاع ظهير الدين الروذراوري[1]

قال الذهبي في تاريخ الإسلام، في ترجمة سنة ٤٨٨: محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير، ظهير الدين، أبو شجاع الروذراوري، وزر للمقتدي بالله بعد عزل عميد الدولة منصور بن جهير سنة ٧٦، وصرف سنة ٨٤، وأعيد ابن جهير، ولما عزل قال:

تــولاّهــا ولــيــس لــه عــدو   وفـارقـهـا ولـيـس لـه صـديـق

ثم إنه حج وجاور بالمدينة إلى أن مات بها كهلاً، وكان ديناً عالماً من محاسن الوزراء.

قال العماد الكاتب: لم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين والشرع مثله، وكان عصره أحسن العصور رحمه الله. وقال صاحب المرآة: ولما ولي وزارة المقتدي كان سليماً من الطمع في المال لأنه كان يملك حينئذٍ ستمائة ألف دينار فأنفقها في الخيرات والصدقات. قال أبو جعفر الخرقي: كنت أنا واحداً من عشرة نتولى إخراج صدقاته فحسبت ما خرج من يدي فكان مائة ألف دينار، وكان يبيع الخطوط الحسنة ويتصدّق بها، ويقول: أنا أحب الأشياء إليّ الدينار والخط الحسن فأنا أتصدق بمحبوبيّ لله.

وجاءته قصة بأن امرأة وأربعة أيتام عرايا فبعث من يكسوهم وقال: والله لا ألبس ثيابي حتى ترجع، وتعرّى، فعاد الغلام وهو يرعد من البرد.

وكان قد ترك الاحتجاب ويكلم المرأة والصبي، ويحضر مجالسة الفقهاء، والعوام لا يمنع أحداً. وأسقطت المكوس في أيامه، وألبس أهل الذمة الغيار.

ومحاسنه كثيرة وصدقاته غزيرة وتواضعه أمر عجيب فرحمه الله.

ولد ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري سنة ٤٣٧هـ، وتوفي سنة ٤٨٨هـ، وله ديوان شعره، وذيل على تجارب الأمم لمسكويه في التاريخ.

---

(١) انظر ترجمته أيضاً في:
١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٩١.
٢ ـ تاريخ الإسلام، للذهبي، وفيات سنة ٤٨٨هـ.
٣ ـ كشف الظنون، لحاجي خليفة ٦/ ٧٧.

ترجمة هلال بن المحسن الصابي[1]

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٥/ ٥٩٩ ـ ٦٠١:

هو هِلَالُ بْنُ ٱلْمُحَسِّنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هِلَالِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ زَهْرُونَ بْنِ حَيُّونَ ٱلصَّابِىءُ ٱلْحَرَّانِيُّ أَبُو ٱلْحَسَنِ، وَهو حَفيدُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِىءِ الكاتب المشهور. وكان هِلَال هذا أديباً كاتباً فاضلاً له معرفةٌ بالعربية واللغة، أخذ عن أَبِي عَلِي الْفَارسي وأبي عِيسَى الرُّمَّانيِّ وأَبي بكرٍ أَحْمَدَ بْنِ الجَرَّاح الخَرَّاز، وكان صابئاً ثم أسلمَ في آخرِ عُمُرِهِ وحسن إسلامُهُ، وكتَبَ عنه الخطيب البغداديُّ وقال: كان ثقةً صدوقاً، وصنَّف كتاب **الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان**، جمَعَ فيه أخباراً وحكايات مستطرفةً ممَّا حُكِيَ عن الأعيان والأكابر وهو كتاب ممتعٌ، ومما يستحسن من تلك الأخبار قال: حدَّث القاضي أَبُو الحُسَيْنِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عيَّاشٍ: أَنَّ رَجُلاً اتَّصلَتْ عُطْلَتُهُ وانقطعت مدَّته، فزوَّر كتاباً عن الوزير أبي الحَسَن بْنِ الفراتِ إلى أبي زنبور المادِرَائي عامل مصْرَ يتضمَّنُ الوصاية به[2] والتأكيد في الإقبال عليه والإحسانِ إليه، وخرَجَ إلى مصرَ فلقيه به، فارتاب أبو زنبور في أمره لتغيُّر الخطاب على ما جرت به العادة وكون الدعاءِ أكثر ممَّا يقتضيه محلُّهُ، فراعاه مراعاةً قريبةً ووصله بصلةٍ قليلةٍ، واحتبسه عنده على وعد وعده به، وكتب إلى أبي الحسن بن الفراتِ يذكر الكتاب الوارد عليه وأنفذه بعينه إليه واستثبته فيه، فوقفَ ابن الفراتِ على الكتاب المزوَّر فوجد فيه ذكر الرجلِ وأنَّه من ذوي الحرمات والحقوق الواجبة عليه، وما يقالُ في ذلك[3] ممَّا قد استوفى الخطاب فيهِ، فعرَضَ ابْنُ الفُراتِ الكتاب على كُتَّابِهِ وعرَّفهم الصورة فيه، وعجب إليهم منها ومما أقدم عليه الرجل وقال لهم: ما الرأيُ في أمر هذا الرجل عندكم؟ فقال بعضُهم: تأديبُهُ أو حبْسُهُ. وقال آخر: قطعُ إبهامِهِ لئلا يعاودَ مثل هذا، ولئلا يقتدي به غيرُهُ فيما هو أكثرُ من هذا. وقال أحسنهم محضراً: يكشفُ لأبي زنبورٍ قصته ويرسم له طرده وحرمانه.

---

(١) انظر ترجمته في:
١ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ٥/ ٥٩٩ ـ ٦٠١.
٢ ـ كشف الظنون، لحاجي خليفة، ٦/ ٥١٠.
٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ١٩٢.
٤ ـ تاريخ الإسلام، للذهبي، وفيات سنة ٤٨٨.

(٢) راجع نشوار المحاضرة، وكتاب الوزراء.

(٣) أي في هذا المعنى.

فقال ابنُ الفراتِ: ما أبعدكم عن الحرية والخيريَّة وأنفرَ طباعكم عنها، رجلٌ توسَّل بنا وتحمَّل المشقَّة إلى مصر في تأميل الصَّلاح بجاهنا واستمدادِ صنع الله عزَّ وجلَّ بالانتسابِ إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيبَ ظنِّه وتخييب سعيهِ؟ واللَّهِ لا كان هذا أبداً، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقَّع على الكتاب المزوَّر: هذا كتابي ولست أعلمُ لم أنكرتَ امرَهُ واعترضتك شبهةٌ فيه؟ وليس كُلُّ من خدمنا وأوجبَ حقّاً علينا تعرفه، وهذا رجلٌ خدمني في أيَّام نكبتي، وما أعتقدُهُ في قضاء حقِّه أكثر مما كلَّفتك في أمره من القيام به، فأحسنْ تفقده، ووفِّر رِفْدَهُ، وصرِّفْهُ فيما يعود عليه نفعه، ويصل إلينا بما يتحقَّق به ظنُّه ويتبين موقعه! وردَّ الكتاب إلى أبي زنبورٍ عامل مصر من يومِهِ، فلمَّا مضت على ذلك مدَّةٌ طويلةٌ دخل يوماً على الوزير أبي الحسن بن الفراتِ رجلٌ ذو هيئةٍ مقبولةٍ وبزَّةٍ جميلةٍ وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويبكي ويقبِّل الأرض، فقال ابنُ الفراتِ: من أنتَ باركَ الله فيكَ؟ وكانت هذه كلمته ـ فقال: أنا صاحبُ الكتاب المُزوَّر إلى أبي زنبور عامل مصر، الَّذي صحَّحه كرم الوزير وتفضُّله فَعَلَ الله به وصنَعَ، فضحِك ابن الفرات وقال: كَمْ وَصَلَ إليكَ منهُ؟ قال: وَصَلَ إليَّ من مالِهِ وتقسيطٍ قَسَّطَهُ على عُمَّاله ومعامليه، وعملٍ صرَّفني فيه عشرون ألف دينارٍ. فقال ابنُ الفراتُ: الحمدُ للَّهِ، ٱلْزَمْنَا فإنا نعَرِّضُك لمَا يزدادُ به صلاحُ حالكَ! ثمَّ اختبره فوجده كاتباً سديداً، فاستخدمه وأكسبه مالاً جَزيلاً. انتهى.

مات هلال بن المحسن، ليلة الخميس سابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وكانت ولادته سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ٦/ ٥١٠، مؤلفات هلال بن المحسن الصابي، وهي:

١ ـ الذيل على تاريخ ثابت بن قرة، من وقائع سنة ٣٦٤هـ، إلى سنة ٤٤٧هـ.

٢ ـ كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان، في الأخبار والنوادر.

تجارب الأمم / الجزء الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

الحمدُ للّه ربِّ العَالَمِين حَمدَ الشّاكِرينَ، وصَلَواتُه على محمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ أجمعين.
قد أنعمَ اللّهُ علينا، معاشرَ خَدَمِ مولانا المَلِكِ السَّيِّد الأجلِّ، ولَيِّ النِّعم ـ أطال اللّهُ بَقَاءَهُ، وأكبَّ أعداءَهُ، وحَرَسَ مُلكَه، وأعزَّ سُلطَانَهُ ـ لمّا أخرَجَنا في زمَانِهِ، وأَنشأنَا في أيّامه، وبوَّأنا ظِلَّهُ، وأَنزلَنا كَنَفهُ، وجَعَلنا من خاصِّ خدَمِه. فَنَحنُ نَتَقَلَّبُ مِن نِعَمِهِ فيما لا شكرَ لَهُ غَيرَ الدُّعاءِ، وَلاَ ثَمَنَ لَهُ غَيرَ الثَّناءِ، فَنَسألُ اللّهَ بأخلَصِ نِيَّةٍ وأصدَقِ طَوِيَّةٍ، إدامَةَ أيّامِه، والإمتاعَ بِما خَوَّلَناهُ من إنعامِه، إنّه جَوادٌ كريمٌ.

وإنّي لمّا تصفّحتُ أخبارَ الأمَمِ، وسِيَرَ المُلُوكِ، وَقَرأتُ أخبارَ البُلدانِ، وكُتُبَ التَّواريخِ، وَجَدتُ فيها ما تُستفادُ منه تَجرِبةٌ في أمورٍ لا تزالُ يتكرَّرُ مثلُها ويُنتظرُ حُدوثُ شبهِها وشَكلِها: كَذِكرِ مَبادئِ الدُّولِ، ونشءِ الممالك، وذكرِ دُخولِ الخَلَلِ فيها بعدَ ذلك، وتَلافي مَن تَلافاه وتَداركه إلى أن عادَ إلى أحسنِ حالٍ، وإغفالِ من أغفَلَهُ واطَّرحه إلى أن تأدّى إلى الاضمحلال والزَّوالِ، وذكرِ ما يتَّصلُ بذلكَ مِنَ السِّياسات في عمارَةِ البُلدانِ، وجمع كَلِم الرَّعيَّةِ، وإصلاح نيّاتِ الجُندِ، وحِيَلِ الحُرُوبِ ومَكائِدِ الرِّجال، وما تمَّ منها على العدوِّ، وما رَجعَ على صاحبِه، وذكر الأسباب الَّتي تقَدَّم بها قومٌ عند السُّلطانِ، والأحوالِ الَّتي تأخَّرَ لها آخَرُونَ، ومَا كَانَ منها محمودَ الأوائلِ مَذمُومَ العَواقِبِ، وما كانَ بضدِّ ذلك، وما استمرَّ أوَّلُه وآخِرُهُ على سَنَنٍ واحدٍ؛ وذكرِ سياساتِ الوزراءِ، وأصحابِ الجيوش، ومن أُسنِدَ إليهِ حَربٌ وسياسةٌ، أو تدبيرٌ أو إيالةٌ، فَوَفَى بذلك وتأتّى له، أو كانَ بخلافِ ذلك.

ورأيتُ هذا الضَّربَ من الأحداثِ، إذا عُرف لَهُ مِثالٌ مِمّا تقدَّم، وتجربَةٌ لِمَن سَلف، فاتُّخذ إماماً يُقتدى به، حُذر ممّا ابتُلِيَ به قومٌ، وتُمُسِّك بما سَعدَ به قومٌ. فإنَّ أمورَ الدُّنيا مُتشابهةٌ، وأحوالَها مُتناسِبَةٌ، وصَارَ جميعُ ما يَحفَظُه الإنسانُ من الضَّربِ كأنَّه تجاربُ لَهُ، وقد دُفع إليها، واحتُنِك بها، وكأنَّه قد عاش ذلك الزَّمان كُلَّه، وبَاشَرَ تلكَ الأحوالَ بنفسِه، واستقبلَ أمورَه استقبالَ الخَبِرِ وعَرَفها قبلَ وُقوعِها، فجعلَها نُصبَ عينه وقُبالةَ لحظِه، فأَعَدَّ لها أقرانَها وقابلها بأشكالِها. وشتّانَ بين مَن كانَ بهذه الصُّورةِ وبينَ

من كان غِرّاً غُمراً لا يَتَبَيَّنُ الأمرَ إلاّ بعدَ وُقوعه، ولا يلاحظه إلاّ بعين الغريب منه، يُحيِّره كلُّ خَطبٍ يستقبلُه، ويدهشُه كُلُّ أمرٍ يَتَجَدَّدُ لَهُ.

وَوَجَدتُ هذا النَّمط مِنَ الأخْبَارِ مغموراً بالأخْيارِ الَّتي تجري مَجرى الأسمارِ والخُرافاتِ الَّتي لا فائِدة فيها غَيرَ استجلابِ النَّومِ بها، والاستمتاع بأنسِ المُستطَرفِ منها، حتّى ضاعَ بينَها، وتبدَّدَ في أثنائها، فبطلَ الانتفاعُ به، ولم يَتَّصِلِ لِسَامِعِهِ وقارِئه اتِّصالاً يَربطُ بعضُه بعضاً، بل تُنسى النُّكتةُ منها قَبلَ أن تَجيءَ أختُها، وتتفلَّتُ من الذِّهنِ قبلَ أن تُقيِّدها نظيرتُها ويشتغِلُ الفِكرُ بِسِياقَةِ خَبَرِها دونَ تحصيلِ فائدَتِها.

فَلِذٰلِكَ، جَمَعْتُ هذا الكتابَ، وسَمَّيْتُه تَجارِبَ الأمَمِ. وأكثرُ النّاسِ انتفاعاً به وأكبرُهم حَظًّا مِنهُ، أوفرهُم قِسطاً من الدّنيا، كالوُزراءِ، وأصحابِ الجيوشِ، وسُوّاسِ المُدخنِ، ومُدَبِّري أمرِ العامَّةِ والخاصَّةِ، ثمَّ سائر طَبَقاتِ النّاسِ. وأقلُّ النّاسِ حَظًّا، لا يَخلو أن يَنتفِعَ به في سِيَاسَةِ المنزلِ، وعِشرةِ الصَّديقِ، ومُداخَلةِ الغريب، ولا يَعدَمُ معَ ذلكَ، أنسَ السَّمرِ الَّذي يُوجَدُ في القسمِ الآخر الَّذي اطَّرحناهُ.

وبَعدُ، فَلَو كانَ الخادم لا يَتَقَرَّبُ إلاّ بما يَعزُّ وُجودُه عندَ سلطانِه، ولا يَلطف في الخدمةِ إلاّ بما لا يُجدُ مثلَه، لانقَطَعَتْ أَسبابُ الهَدايا والتُّحفِ، وارتفَعَتِ الملاطَفاتُ بالآدابِ والطُّرَفِ، ولا سِيَّما عندَ مَن كانَ في عُلوِّ الهِمَّةِ، وتَوَقُّدِ القَريحةِ، وحِفظِ الآدابِ، وسِيَاسَةِ المُلكِ والرَّعيَّةِ في الخيرِ، على ما عليهِ المَلِكُ السَّيِّدُ، أدامَ اللّه سلطانَهُ.

وأنَا مُبتَدِئٌ بِذِكرِ اللّه ومِنَّتِهِ، بِمَا نُقِلَ إلينا مِنَ الأخبارِ بَعدَ الطُّوفانِ، لِقِلَّةِ الثِّقَةِ بما كَانَ منها قَبْلَهُ، ولأنَّ ما نُقِلَ إلينا أيضاً لا يُفيدُ شيئاً ممّا عَزَمْنا على ذكره وضَمِنّاه في صَدرِ الكتابِ. ولهذا السَّببِ بعينِهِ، لم نَتَعَرَّضْ لِذِكرِ مُعجزاتِ الأنبياءِ ـ صَلَواتُ اللّهِ عليهِم ـ وما تَمَّ لَهُمْ مِنَ السِّياساتِ بها. لأنَّ أهلَ زَمَانِنا لا يستفيدونَ منها تَجرِبةً فيما يَستَقْبِلُونَهُ من أمورِهم، اللّهمَّ إلاّ ما كانَ منها تَدبيراً بَشَرِيًّا لاَ يَقْتَرِنُ بالإعْجاز.

وقَدْ ذَكَرنا أشياءَ مِمّا يَجري على الاتّفاقِ والبَخْتِ، وإن لم يكن فيها تَجرِبةٌ، ولا تُقصَدُ بإرادَةٍ. وإنَّما فَعَلنا ذلك لِتكونَ هي وأمثالُها في حِسابِ الإنسان وفي خَلدِهِ ووَهمِه، لِئَلاَّ تَسْقُطَ من ديوانِ الحوادثِ عندَهُ وما يُنتظَرُ وقوعُ مِثلِه، وإن لم يَستطِعْ تَحَرُّزاً من مكروهِه إلاّ بالاستعانَةِ باللّه، وَلاَ تَوَقُّعاً لِمَحْبُوبِه إلاّ بِمَسْأَلَتِه التَّوفيقَ، وَهُوَ ـ عَزَّ اسْمُهُ ـ خَيْرُ مُوَفِّقٍ ومُعينٍ.

الفيشداذية ومن عاصرهم

أُوشْهَنج

فأوّل مَن يُحفظ اسمُه وسيرتُه من الملوكِ أوشهنجُ وأنا ذاكره والملوك بعدَه على توالٍ ونسقٍ. فإن كان لواحدٍ منهم سيرةٌ محمودةٌ أو تدبيرٌ مرضيٌّ، ذكرتُه وذكرتُ سائرَ ما ضمِنْتُه في صَدرِ الكتاب، ومَنْ لم يُحفظ له سيرةٌ، ذكرت اسمه فقط، ليكونَ نِظامُ التّارِيخ محفوظاً، فأقول: إنَّ أوشهنجِ هذا هو الَّذي خَلفَ جدَّه جَيُومَرْت وجَمعَ الأقاليمَ السَّبعةَ، ورتَّبَ المُلكَ، ونَظمَ العمّالَ، ولُقِّب بـ «فيشداذ»، وتفسيره بالعربية: أوّلُ سِيرة العدلِ. ويُقالُ: إنَّه كان بعدَ الطُّوفان بمائتي سنة. وهو أَوّلُ من عُرِفَ قَطعَ الشجرَ، وبَنى به، واستخرجَ المعادنَ وبنى مدينتَيْ بابِلَ والسُّوسَ. وكان فاضلاً سائساً محموداً. ونزل الهند. ثمَّ تنقَّل في البلاد، وعقد التّاج، وجلس على السَّرير. وكان من حسن سياسته أن نفى أهل الفساد والدَّعارة من البلدان إلى البراري، وألجأهم إلى رؤوس الجبال وجزائر البحار، وطهَّر منهم الممالكَ، واستخدم من كان يستصلحه منهم، وسمّاهم الشَّياطينَ والعفاريتَ، وقرّب أهلَ الصَّلاح، وأحسن رعايةَ الأمورِ، إلى أن انتهى مُلكه إلى طهومَرْت بعده.

طَهُومَرْت

وهو من وُلد أوشهنج، وبينهما عدَّة آباء، وسلك سيرة جدِّه، وتنقّل في البلدان، وبنى الموضعَ الَّذي جدَّده بعد ذلك سابور من فارس، ونزله، وطلب الدُّعّار ونفى الشَّياطينَ أعني الأشرارَ. وهو أوّل من كَتب بالفارسيَّة. وسلك سبيلَ جدِّه، فاستمرَّ نظامُ المُلكِ على حالٍ واحدةٍ من عموم الصَّلاح، واستقامة أحوال الجُند والرَّعيَّة، إلى أن ملك بعدَه جمَّ شِيذ.

جمَّ شِيذ

وهو أخو طَهُومَرْت، وتفسير «شِيذ» الشُّعاعُ. لأنّه كان وضيئاً، جميلاً. وملك الأقاليمَ، وسلك السِّيرةَ المتقدِّمة، وزاد عليها بأن صنَّف النّاس وطبَّقهم ورتَّب منازل الكتّاب، وأمر أن يلزم كلُّ أحد طبقتَهُ. وعمل أربعةَ خواتيمَ: خاتَماً للحروب والشُّرَط، وكتب عليه «الأناة»، وخاتماً للخَراجِ، وجِباية الأموال، وكتب عليه «العِمارة»، وخاتماً

للبريد، وكتب عليه «الوَحا» وخاتماً للمظالم، وكتب عليه «العَدْل». فبقيت هذه الرُسوم في ملوك الفُرسِ إلى أن جاءَ الإسلام، وألزم مَن غلبه من أهل الفَساد والشَّياطين الأعمالَ الصَّعبةَ، وأذلَّهم بقَطعِ الحِجارة والصُّخورِ من الجبالِ، وعَمَلِ الكِلْس والجِصِّ والبناء والطِّين، وعمل المعادنَ، وغير ذلك من الأمور الصَّعبة. فحسنت سيرتُه، وخافه أهلُ العيث والفَساد، بما ألزمهم من الأعمال الشّاقَّة. وأحدث النَّوروزَ، وجعلَه عيداً وأمر النّاس بالتّنعُّم فيه. ثُمَّ إنَّه بعدَ ذلك، بدَّل سيرتَه. فكان من نتيجةِ فِعلِه وسوء عاقبته، أن دخلَ الوَهنُ في الممالكِ، وتَجاسَر أهلُ الفسادِ عليه.

فمِمّا حُكي من تبديلِ سيرتِه، إظهارُ الكِبر والجبريةِ على وزرائه وكُتّابه وقُوّادِه، وإيثارُ التَّخلّي والإغرام باللَّذّاتِ، وتركُ مراعاةِ كثير من السِّياسات الَّتي كان يتولاّها بنفسه. فأحسَّ بذلك بيوراسب ـ وهو الَّذي تسمّيه العربُ الضحّاك ـ وعَلِمَ استيحاشَ النّاس منه، وتَنَكُّرَ خَواصِّ أصحابِه لَه، فدسَّ إلى رجالِه من استصلحه لنفسه، ودبَّر عليه حتّى قَوِيَ، ثمَّ قصدَه، فهرب منه جمٌّ وتبعَه حتّى ظفرَ به، فنكل به، وأشره بمئشار. وقد كان جمٌّ تنقَّلَ في البلدان قبل ذلك، إلى أن جرى عليه ما جرى.

وكان الضّحاك هذا ـ على ما تزعم الفرسـ ـ من ولد جيومرت، وبينه وبين جيومرت من الآباء «تاج» وإليه تنتسب العربُ، فيُقالُ لهم: «تاجي» وهم يُلقِّبون بيوراسِب بِـ«الأزدَهاق». وقومٌ منهم يَزعمونَ أنَّ جمَّ شيذ زوَّج أختَه من بعضِ أشرافِ أهلِ بيتِه وملَّكه اليمنَ، فولدت له الضّحّاكَ. وأمّا العربُ فينسبون الضّحّاك غيرَ هذه النِّسبةِ. وزعم قومٌ أنَّه نُمرود. وزعم آخرون أنَّ نُمرودَ كان عاملاً من قِبَلِه على كثير من أعماله، ولا ينبغي أن نذكرَ من أمرِه فيما قصدنا له، أكثر من هذا النّبذ، لئلاّ ننقطعَ عن غَرضنا.

بيوراسِب وما جرى بينَه وبينَ كابي الأصبهاني

ولمّا ملك بيوراسبُ ظهر منه خُبثٌ شديدٌ وفُجورٌ كثيرٌ، وملك الأرضَ كُلَّها، فسار فيها بالجور والعَسْف، وبسطَ يَده بالقتل والصَّلبِ، لِيَهابَه النّاسُ، وليمحُوَ عن صُدور النّاسِ سياسةَ مَن تقدَّمه وذِكرَهم وسنَّتَهم. فَسنَّ العُشور، واتَّخذ المغنِّين والمُلهين. وكان على منكبه سِلعتان يُحرِّكُهما إذا شاء، كما يَحرِّكُ يديه. فادَّعى أنَّهما حيَّتانِ، تهويلاً على ضُعَفاء النّاسِ، وأغبيائهم، وكان يسترهما بثيابِه.

فلمّا طالت أيّامه وعمَّ النّاسَ جَورُه، كان من سوءِ عاقبةِ ذلك أن ظهر بأصبَهان رجلٌ يقال لَهُ: «كابي» من أثناءِ العامَّة، وكان الضحّاك قتل له ابنين. فلمّا بلغ الجزعُ من كابي هذا على وَلَدَيه ما بلغ، أخذ عصاً، فعلَّق بطرفها جِراباً. ـ ويقال: إنَّه كان حَدّاداً وإنّ الَّذي علَّقه نَطعٌ كان يتوقّى به من النّار ـ فجعله عَلماً ودعا النّاسَ إلى مجاهدة

بيوراسب، فأجابهُ خلقٌ كثير، لِما كانوا فيه من البلاءِ وفُنونِ الجَور. فاستفحلَ أمرُه وقَوِي، وتفأَّلَ الفُرسُ بذلك العَلم، وعظَّموا أمرَهُ، وزادوه ورصَّعوه بعد ذلك بالجواهر، حتّى جعله مُلوكُ العجمِ علمَهم الأكبرَ الّذي يتبرّكونَ بِه، وسمَّوهُ «درَفْشِ كابِيان». فكانوا لا يسيِّرونه إلاّ في الأمورِ العِظام.

ولمّا استعلى كابي الأصبهاني، وأشرف على بيوراسب، هرب عن منازله. واجتمع أشراف النّاس على كابي، وناظروهُ في المُلك. فقال لهم كابي: إنّه لا يتعرَّض لِلمُلك، لأنّه ليس من أهله. وأمرهم أن يُملّكوا بعضَ وُلْدِ جمّ. وكان أفريذون بنُ أثفيانَ مستخفياً من الضَّحّاك في بعضِ النّواحي، فوافى هُو ومَن معه إلى كابي، فاستبشر النّاس به، لأنّه كان مرشَّحاً لِلمُلكِ. فصار كابي أحدَ أعوان أفريذون حتّى احتوى على منازلِ بيوراسبَ، وحتّى تبعَه وأسره بِدُنباوَند، فقتله.

ولم يُسمع من أمور الضَّحّاك بشيءٍ يُستحسن، ولا نُقل من أخباره ما يُكتب غير شيءٍ واحدٍ. وهو أنَّ بليَّته لمّا اشتدَّت، وطالت أيّامه وتراسلَ وجوهُ النّاس في أمره، وأجمعوا على المصيرِ إليه من البُلدان، وافى بابه العظماءُ والوجوهُ من النّواحي والأقطار، وتناظروا في الدُّخول عليه والتّأتّي لهُ واستعطافِه، وأجمعوا على تقديم كابي الأصبهاني، وذلك لِما رأوا من تحرُّقِه على ولديه، وجُرأتِه على الكلام. فلمّا اجتمعوا ببابه أُعلِم بمكانهم، فأذِن لهم، فدخلوا يقدُمهم كابي. فمثُل بين يديه، وأمسك عن السّلام، ثُمّ قال:

ـ «أسلِّم عليكَ سلامَ من يملكُ الأقاليمَ كلَّها، أم سلامَ مَن يملكُ هذا الإقليمَ؟».

فقال: «بل سلِّم سلامَ مَن يملِكُ الأقاليمَ كُلَّها، فإنِّي ربُّ الأرض».

فقال له كابي: «فإن كنتَ مالِكَ الأقاليم كلِّها، فما بالُك خَصَصتَ بتحاملك ومُؤنِك وإساءَتك ناحيةَ كذا؟ وهلاّ قسمتَ أمرَ كذا بينَ الأقاليم؟».

ثمَّ عدَّد أشياءَ، وجرَّد له الصِّدقَ، حتّى انخزل له الضّحّاكُ وأقرَّ، ووعَدَ النّاسَ بما يُحبّون، وأمرَهُم بالانصرافِ لِيتَّدِعُوا، ثُمَّ يَعُودوا إليه ليقضيَ حاجاتِهم.

وكانت له أمٌّ فاحشةٌ بذيئةٌ جبّارةٌ، وكانت تسمع كلامَهم لمّا دخلوا عليه، فاغتاظت منهم وأنكرت إقرارَه للقوم. فكلّمت بيوراسب منكرة عليه وقالت:

ـ «هلاّ دمَّرتَ عليهم وأمرتَ بهم؟».

فقال لها الضَّحّاكُ على عُتُوِّه:

ـ «إنَّكِ لم تُفكِّري في أمرٍ، إلاّ وقد سُبِقتِ إليه. إنَّ القوم بدهوني بالحقِّ. فلمّا

هَمَمتُ بالسَّطوةِ بهم، وقفَ الحقُّ بيني وبينهم، واعترضَ كالجبلِ، فحال بيني وبينَ ما أردتُ».

فهذا ما استُحسِنَ من فِعلِ الضَّحّاكِ وقولِه، ولا يُعرف له شيءٌ مستحسنٌ غيرهُ.

ثُمَّ ملَكَ أَفريذُون

وهو من ولد جَمٍّ. ويقال: إنَّه كان التّاسعَ مِن وُلده. فردَّ مظالمَ النّاس، وأمر بالإنصافِ والإحسانِ، ونظر إلى ما غصب عليه الضَّحّاكُ من الأرضين وغيرِها، فردَّها كلَّها على أهلِها، إلاّ ما لم يَجد له أهلاً، فإنَّه وقفه على المساكين ومصالح العامّة. وكانَ مُوثِراً للعلم وأهلِه، وكان صاحبَ طبٍّ ونجومٍ وفلسفةٍ. وكان له ثَلاثَةُ أولادٍ: سَرْم، وطُوج، وإِيرَج. فَخَشِيَ ألاّ يتّفقوا بعدَهُ، وأن يبْغيَ بعضهم على بعضٍ. فظنَّ أنَّه إذا قَسَم المُلكَ بينَهم أثلاثاً في حياته، بَقِيَ الأمرُ بعده على انتظام وصَلاحٍ. فجعل الرُّومَ وناحيةَ المغربِ لسرم، والتُّركَ والصّينَ لطوجٍ، والعِراقَ والهِندَ لإيرجَ وهو صاحب التّاجِ والسَّريرِ. فلمّا ماتَ أفريذون، وثَبَ طوج وسرم بإيرج، فقتلاهُ، ومَلَكا الأرضَ بينَهما.

وأفريذونُ أوّلُ مَنْ تَسمّى بِـ«كَي». فكان يُقالُ له: كَيْ أفريذون، وهي كلمة تعني التَّنزيه، أي: رُوحانِيُّ، أي: هو منزَّهٌ متَّصلٌ بالرُّوحانيّة. وكان جسيماً وسيماً حسنَ البَهاء، مِحرَباً عظيمَ القوَّة.

ويقال: إنَّ بيوراسب قال له لمّا ظفر به.

ـ «لا تقتلني بجدِّك جَمٍّ».

فقال له أفريذون منكراً لِقوله:

ـ «لقد سَمَت بِكَ نفسُك وهِمَّتُك، وعَظُمتَ في نَفسِك، حينَ قَدَرتَها لهذا. جدّي كان أعظمَ قدراً من أن يكون مِثلُك كُفؤاً له في القَوَدِ، ولكنّي أقتُلك بِثَور كان في دارِ جدّي».

وأفريذون أوّلُ من عُرِفَ ذلَّلَ الفِيَلَةَ، وقاتَلَ بها الأعداءَ. ثُمَّ قسّم الأرض كما ذكرنا بينَ أولاده. ولأجل ما صار بين أولاده من العداوة، بقيت الذُّحولُ بينَ التُّركِ، ومُلوكِ إيرانشَهرْ، والرّوم، وطلبَ بعضُهم بعضاً بالدِّماء والتِّراتِ.

وكان إبراهيمُ النّبيُّ ـ ﷺ ـ في أيّام الضَّحّاك. ولذلك زعم قوم أنّه نُمرود وأنّ نُمرودَ عاملٌ من عُمّالِه. ولم يُنقَل من أخبارِه ـ عليه السَّلام ـ شيءٌ من النَّمط الّذي هَمَمنا بإيراده في هذا الكتاب، إلاّ أشياءَ حكاها ماني، وهي بعيدةٌ من الحقِّ، فلذلك لم أُورِدها، ولم أتعرَّض لذكرها.

مَنوشِهْر

فكان من سوءِ عاقبة وثوب وطوج وسرم بإيرجَ وقتلِهما إيّاهُ، أن نَشَأَ ابنٌ لإِيرج بن أفريذون يقال له: منوشهر حقد على طوج، فدبَّر عليه، إلى أن قاومهُ، وتغلَّب على ملك أبيه إِيرج. ثمَّ نشأ وَلَدٌ لطوج التُّركي، فنفى منوشهر عن بلاده. وكانت بينهما حروبٌ لم يُنقل منها شيءٌ يُستفادُ منه تجربةٌ. ثُمَّ أُديل منه منوشهر، فنفاه عن بلاده، وعاد إلى مُلكه.

وكان منوشهر موصوفاً بالعدل والإِحسان. وهو أوّلُ من عُرِفَ خَندَقَ الخنادقَ وجمع آلَةَ الحروب، وأوّلُ مَن وَضع الدَّهقنة، فجعل لكل قرية دهقاناً، وجعل أهلَها عبيداً وخوَلاً، وألبسهم لباسَ المذلَّة، وأمرهم بطاعته. ولمّا قوي سار نحو التُّرك وطلب دم جدِّه إيرج بن أفريذون، فقتل طوج بن أفريذون وأخاه سرماً، وأدرك ثأره وانصرف.

ثمّ نشأ فراسياب بن تُركِ الّذي يُنسب إليه التُّرك من ولد طوج بنِ أفريذون، فحارب منوشهر، وحاصره بطبرستان. ثُمَّ إنّ منوشهر وفراسياب اصطلحا، وضربا بينهما حدًّا لا يُجاوزه واحدٌ منهما، وهو نهر بلخ ـ والفرس تحكي في ذلك حكايات لا فائدة في إِيرادها ـ فانقطعتِ الحربُ بينَ فراسياب ومنوشهر.

خُطبةُ مَنُوشهرَ

فَمِمّا حكى ونقل من تدابير منوشهر أنّه لمّا مضى من مُلكه نحو ثلاثين سنة، تناولت الأتراك أطراف أعماله، فجمع قومه، ووبَّخهم، ثُمَّ خطب عليهم، وهذه أَوّل خطبةٍ عرفناها، ونقلت إلينا. قال:

«أيُّها النّاس: إنّكم لم تلدوا النّاس كُلَّهم. وإِنّما النّاس ناسٌ ما حفظوا أنفسهم، ودفعوا العدوَّ عنهم، وقد نالت التُّرك منكم، ومن أطرافكم، وليس ذلك إلاّ من ترككم جِهادَ عدوِّكم، وقلَّةِ المُبالاة، وإنّ اللّه تعالى أعطانا هذا المُلك ليبلوَنا: أنشكر فيزيدنا، أم نكفر فيعاقبنا؟ ونحن أهل بيت خير، ومعدِنُ المُلك. فإذا كان غداً فاحضروا».

فاعتذر النّاس، وواعدوه الحضور. فلمّا كان من غدٍ، أرسل إلى أهل بيت المملكة وأشرافهم، وإلى الأساورة وكبارهم، فدَعاهم، وأذِن للرُّؤساءِ من النّاس ودعا «مُوبَذان مُوبَذ»، وأقعده على كرسيٍّ مقابلَ سريره، ثمّ قام على سريره خطيباً. فقام أشراف النّاس، وأهلُ بيت المملكة والأساورة، فقال: اجلسوا. فإِنّي إِنّما قُمت لأُسمِعَكم. فجلسوا، فقال:

«أيُّها النّاس، إنَّما الخَلق للخالق، والشُّكرُ للمُنعم، والتَّسليمُ للقادر، ولا بُدَّ مِمّا هو كائن، وإنّه لا أضعفَ من مخلوق، طالباً كان أو مطلوباً، ولا أقوى من خالق، ولا أقدرَ مِمَّن طِلبته في يده، ولا أعجزَ مِمَّن هو في يد طالبه».

«ألا وإنّ التَّفكُّرَ نورٌ، والغفلةَ ظُلمةٌ، والجهالةَ ضلالةٌ. وقد وَرَدَ الأوَّل، ولا بُدَّ للآخر من اللُّحوق بالأوّل، وقد مضت قبلنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاءُ فرعٍ بعد ذهاب أصلِه، وإنّ اللّه ـ عزّ وجلّ ـ أعطانا هذا المُلكَ، فله الحمد، ونسأله إلهام الرُّشد والصِّدق واليقين».

«ألا وإنَّ لِلمَلِك على أهل مملكته حقًّا، ولأهل مملكته عليه حقًّا. فحقُّ الملك على أهل مملكته، أن يُطيعوه ويُناصِحوه ويقاتلوا عدوَّه؛ وحقُّهم على الملك أن يُعطيهم أرزاقَهم في أوقاتها، إذ لا مُعْتَمَدَ لهم على غيرها، وإنّه تجارتهم وحقّ الرَّعيَّة على الملك، أن ينظرَ لهم، ويَرفُقَ بهم، ولا يُحمِّلَهم ما لا يطيقون. فإن أصابتهم مصيبةٌ تَنقص من ثمارهم، لآفة أو ضرر من السَّماءِ أو الأرض، أن يُسقِطَ عنهم خَراجَ ما نَقص وإن اجتاحتهم مصيبةٌ، أن يُعوِّضَهم ما يُقوّيهم على عمارتهم، ثُمَّ يأخذَ منهم بعد ذلك على قدر ما لا يُجحَفُ بهم في سنةٍ أو سنتين. والجُند لِلمَلِك بمنزلة جناحَي الطَّير. فهم أجنحة المَلِكِ. ومتى قُصَّ من الجناح رِيشةٌ، كان ذلك نقصاناً منه، وكذلك المَلِكُ، إنَّما هو بجناحه وريشه».

«وإنَّ المَلكَ ينبغي له أن يكون فيه ثلاثُ خِلال: أوّلها أن يكون صدوقاً فلا يكذب، وأن يكون سخيًّا فلا يبخل، وأن يملك نفسَه عند الغضب، فإنَّه مسلَّطٌ، ويَدُه مبسوطةٌ، والخراج يأتيه. فينبغي له أن يَستأثِرَ عن جنده ورعيّته، بما هم أهل له، وأن يُكثِر العفوَ. فإنَّه لا مُلكَ أبقى من مُلكٍ فيه العفوُ، ولا أهلَك من مُلكٍ فيه العقوبة. وإنّ المرءَ لأن يخطئ في العفو، خيرٌ له من أن يُخطئَ في العُقوبة. فينبغي له أن يَتَثَبَّتَ في الأمر الَّذي فيه قتلُ النَّفس وبَوارها. وإذا رُفع إليه من عاملٍ من عُمّاله ما يَستوجبُ به العقوبةَ، فلا ينبغي له أن يُحابيه، وليجمع بينه وبين المتظلِّم، فإن صحَّ عليه للمظلوم حقٌّ خرج إليه منه، وإن عجز عنه أدّى المَلكُ عنه، وردّه إلى موضعِه، وأخذه بإصلاح ما أفسد. فهذا لكم علينا. ألا ومن سفك دماً بغير حقٍّ، أو قطع يداً بغير حقٍّ، فإنّي لا أعفو عن ذلك إلاّ أن يعفوَ عنه صاحبه. فخذوا هذا عنّي».

«ألا وإنَّ التُركَ قد طمعت فيكم فاكفونا، فإنَّما تكفون أنفسكم. وقد أمرت لكم بالسِّلاح والعُدَّة، وأنا شريككم في الرّأي. وإنَّما لي من هذا المُلك اسمه مع الطّاعة

منكم. ألا وإنَّ المَلك مَلكٌ إذا أُطيع، فإذا خولف، فذلك مملوكٌ وليس بمِلكٍ. ومهما بَلَغَنا من الخِلاف، فإنّا لا نقبله من المُبلغ، حتّى نتيقَّنَهُ. فإذا صحَّت معرفةُ ذلك، أنزلناه منزلةَ المُخالف».

«ألا وإنّ أكمل الأداة عند المصيبات، الأخذُ بالصَّبر، والرّاحةُ إلى اليقين. فمن قُتل في مجاهدة العدوِّ، رَجَوتُ له الفوزَ برضوان اللّه. وأفضل الأمور التَّسليمُ لأمر اللّه، والرّاحةُ إلى اليقين، والرِّضا بقضائه. أين المهربُ مِمّا هو كائنٌ، وإنّما نتقلَّب في كفّ الطالب. وإنَّما هذه الدّنيا سَفَرٌ. أهلها لا يَحلّون عُقَدَ الرِّحالِ إلاّ في غيرها. إنَّما بُلغَتُهم فيها بالعواري. فما أَحسنَ الشُّكرَ للمنعم، والتَّسليمَ لِمَرِّ قضاءِ الحقِّ، ومن أحقُّ بالتَّسليم لمن فوقه مِمَّن لا يجد مَهرَباً إلاّ إليه ولا معوَّلاً إلا عليه. فَثِقوا بالغلبة إذا كانت نيّاتُكم أنَّ النَّصرَ من عندِ اللّه. وكونُوا على ثقةٍ من دَرَكِ الطَّلِبة إذا صحَّت نيّاتكم. واعلموا أنَّ هذا الأمرَ لا يقوم إلاّ بالاستقامة، وحسن الطّاعة، وقمع العدوِّ، وسدِّ الثّغور، والعدل لِلرَّعيَّة، وإنصافِ المظلوم. فشفاؤكم عندكم، والدَّواءُ الَّذي لا داءَ فيه الاستقامةُ والأمرُ بالخير والنَّهيُ عن الشَّرِّ، ولا قوَّة إلاّ باللّه».

«انظروا للرَّعيَّة فإنَّها مَطعمُكم ومشربُكم، ومتى عدلتم فيهم، رغبوا في العمارة، فزادَ ذلك في خراجكم، وتبيَّن في زيادة أرزاقكم. وإذا حِفتم على الرَّعيَّة زهدوا في العمارة وعطّلوا أكثرَ الأرض، فنقص ذلك من خراجكم، وتبيَّنَ في نقص أرزاقكم. فتعاهدوا الرَّعيَّة بالإنصاف. وما كان من الأنهارِ، والبُثوقِ، مِمّا نفقته على السّلطان، فأسرعوا فيه قبلَ أن يكبر. وما كان من ذلك على الرّعيّة، فعجزوا عنه، فأقرِضوهم من بيت مال الخراج، فإذا جاءت أوقات خراجهم، فخذوا من خراج غلاّتهم على قدر ما لا يُجحف بهم. ذلك رُبعٌ في كلِّ سنة، أو ثلثٌ، أو نصفٌ، لكيلا يتبيَّن عليهم.

هذا قولي وأمري. يا مُوبَذ مُوبَذان، الزم هذا القولَ، وجِدَّ في الّذي سمعتَ في يومك. أسمعتم أيّها النّاس؟».

قالوا: «نعم».

وأثنوا عليه، ودَعَوا له. ثمّ أمر بالطَّعام. فَوُضع، وأكلوا وشربوا، وخرجوا وهم له شاكرون. ثمّ كان من أمره ما كان مِمّا ذكرناه.

منوشهر والرّايش بن قيس

وفي أيّامه غزا الرّايش بن قيس بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قَحطان من ملوك اليمن. وكان اسم الرّايش الحارث. غزا الهند، فغنم غنائمَ عظيمةً، فأنفذ رجلاً من أصحابه يعرف بشمر بن العطّاف، فدخل التّركَ من أرض أذربيجان، وهي يومئذٍ في

أيديهم، فقتل وسبى وغنم.

وغزا بعده ذو منار بن الرّايش بعد أبيه، وإنّما سُمِّيَ ذا منار لأنّه غزا بلاد المغرب، فوغل فيها برًّا وبحراً، وخاف على جيشه الهلاك عند قفوله، فبنى المنارَ ليهتدوا بها. ثُمَّ وجَّه ابنَه إلى أقاصي المغربِ، فغنم، وأصابَ مالاً، وقدم عليه بسبيٍ لهم خِلقةٌ منكرة، فذُعِرَ النّاسُ منهم، فسمّوه ذا الأذعار.

وإنّما ذكرتُهم في هذا الموضع، لاتّصال ذلك بذكر منوشهر، وأنّ الفرسَ تدّعي أنّ ملوك اليمن كانت عمّالاً لملوك الفرس بها، وأنّ الرّايش كان من قِبَلِ منوشهر يغزو التُّركَ وغيرَهم. والعربُ تنكر ذلك، وتزعم أنّ مُلكهم لم يكن قطُّ من قِبَلِ أحدٍ، وإنّما كانوا برؤوسهم.

ظهور موسى في أيّام منوشهر

وفي أيّام منوشهر ظهر موسى - ﷺ - ويقال: إنّ عمره - عليه السّلام - كان مائةً وعشرين سنة، منها في أيّام أفريذون عشرون سنة، وفي أيّام منوشهر مائة سنة. وكان من حديث موسى مع فرعون وما أنزل اللّه من الآيات على يده، ما هو مشهورٌ. وقد اعتذرنا من ذكر هذه الأخبار وتركِها.

ثُمَّ كان من حديث التّيه ما كان، إلى أن أخرَجَ بني إسرائيل منه يوشعُ بنُ نون بعد موت موسى، وغزا الكنعانيّين، ونفاهم إلى السَّواحل، وافتتح مدينةَ الجبّارين. فيقال إنّ إفريقس بن قيس بن صيفي بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان مَرَّ بهم متوجِّهاً إلى إفريقية، فاحتملهم من سواحل الشّام، حتّى أتى بهم إفريقيةَ، فافتتحها، وقتل مَلِكَها جرجيراً، وأسكنها البقيَّة الّتي كانت بقيت من الكنعانيّين الّذين كان احتملهم من سواحل الشّام، فهم البرابرة. وإنّما سُمُّوا بذلك لأنَّ إفريقس قال لهم: «ما أكثَرَ بربَرَتَكم!» فسمُّوا بذلك «بربراً».

وكان إفريقس هذا عاملاً لمنوشهر على ما تزعم الفرس. وكان تدبير يوشع أمرَ بني إسرائيل، من لدن مات موسى إلى أن تُوفِّي يُوشعُ في زمان منوشهر، عشرين سنةً، وفي زمان فراسياب سبع سنين. ولمّا هلك منوشهر، تغلّب فراسياب على مملكة فارس، وطلب بالذُّحول. وصار إلى أرض بابل وأقام بمِهرجاقذق، وأكثر الفساد، وخرَّب ما كان عامراً، ودفن الأنهارَ والقُنِيَّ، فقَحِطَ النّاسُ في سنة خمسٍ من مُلكه، إلى أن أُخرج، ورُدَّ إلى بلاد التُّرك. فغارت المياه في تلك السِّنين، وحالت الأشجار المثمرة.

زَوُّ بنُ طَهماسبَ

ولم يزل النّاس في أعظم بليَّةٍ إلى أن ظهر زَوّ بن طهماسب، ويقول بعضهم: زاغ،

وبعضهم: زاب، وبعضهم: زاسب، وهو من أولاد منوشهر، وبينه وبينه عدَّةُ آباء.

فلمّا ظهر زَوُ طرد فراسيابَ عن مملكة فارس، حتّى ردّه إلى التّرك بعدَ حروبٍ كثيرة جرت بينهما لم يُذكر لنا منها ما نستفيد منه تجربةً. وكانت غلبةُ فراسياب على إقليم بابل اثنتَي عشرةَ سنةً من لدن تُوُفِّي منوشهر إلى أن طرده زَوُ بن طهماسب، إلى تركستان.

ثمّ ابتدأ زَوَ في عمارة ما خرَّبه فراسيابُ. فأمر ببناءِ ما هدم من الحصون وإعادة ماطمَّر وعوَّر من الأنهار والقُنِيِّ وكرى ما كان اندفن من المياه حتّى عاد جميع ذلك إلى أحسن ما كان، ووضع عن النّاس الخراجَ سبع سنين. فعَمرت البلادُ في أيّامه، وكثرت المياه، ودرَّت معائش النّاس، واستخرج بالسَّواد نهراً، وسمّاه: الزّاب، وبنى على حافتيه مدينةً، وهي الّتي تسمَّى: المدينةَ العتيقةَ، وكوَّرها كورةً، وجعلها ثلاث طساسيج: الزّاب الأعلى، والزّاب الأوسط، والزّاب الأسفل، ونقل إليها بذورَ الرَّياحين وأصولَ الأشجار من الجبال. وزَوُ هذا أوّل من عُرِفَ اتَّخذ ألوانَ الطَّبيخ، وأصنافَ الأطعمة، وأعطى جنودَه مِمّا غنم بالخيل، ومِمّا أوجف عليه من أموال التُّرك وكان وزيرُهُ «كرساسفُ» من أولاد طوج بن افريذون. وقد حُكي أنَّ زَوًّا وكرساسفَ، اشتركا في المُلك. والصَّحيح من أمره أنه كان وزيراً لِزَوٍ ومُعيناً له. فكان جميع ملك زَوٍّ ثلاث سنين.

الكينية ومن عاصرهم

كَيقُباذُ بنُ زَوٍّ

ثُمَّ ملك بعدَه كيقباذ بنُ زَوٍّ، وسلك سبيل أبيه. فكوَّر الكُوَرَ، وبَيَّنَ حدودَها وحريمَها، وأمر النّاس بالعِمارات، وأخذ العُشرَ من الغلاّت لأرزاق الجند، وكان حريصاً على العمارة، ومانعاً لحوزته. والملوكُ الكَيِّيَّةُ من نسله. وجرت بينه وبين التُّرك حروبٌ كثيرة. وكان مقيماً في الحدّ الّذي بين مملكةِ الفُرس والترك بناحية بلخ، يمنع التُّركَ من تطرّفِ شيءٍ من حدود فارس. فجميع هذه العَداوات والحروب سببها سوء نظرِ مَن قسّم المُلكَ بين أولاده، ثُمَّ وثوبُ من وثب من الإخوة بأخيه، واستمرار الشَّحناء بعد ذلك والعداوات.

وأمَّا القيّم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع، فكان كالب بن توفيل، ثُمَّ حزقيل الَّذي يُقالُ له: ابن العجوز ـ وكانت لهما أخبار مشهورة تركنا ذكرها لأنَّها معجزات لا تستفاد منها تجربةٌ ـ وحزقيل هو صاحب القوم ﴿ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] لأنّهم ودُّوا لو ماتوا فاستراحوا من بلاءٍ كان أصابهم: إمّا طاعون، أو ما أشبهه، فخرجوا فراراً من ذلك.

ثُمَّ إلياس، ثُمَّ اليسع، ثُم إيلاف. وفي خلال هؤلاء، كان يتملّك عليهم قوم من الكنعانيّين وغيرهم، فيسومونهم البلايا والعظائم، وليس في ذكرهم فائدة. إلى أن جاءهم شَموِيل النّبيُّ. وكان من خبره مع جالوت وطالوت ما ذكره اللّٰه تعالى. وملكَ داود لمّا كان منه من مبارزة جالوت. والخبر مشهور مقرون بمعجزة الأنبياءِ. ثُمَّ ملك سليمان، وأخباره ومعجزاتُه مذكورةٌ.

كَيقابُوسُ وما جرى على ابنه سياوخش

ثُمَّ ملك بعد كيقباذ، كيقابوس بنُ كيبنةَ بنِ كيقباذَ الملك. فتشدّد على أعدائه وقتل خلقاً من عظماء البلاد، مِمَّن كان يُنكر أمرُهم وسكن بلخَ. ووُلِدَ له ابنٌ لم يُرَ مثلُه في عصره جمالاً وتمام خِلقةٍ، وسمّاه «سِياوَخشَ»، وضمَّه إلى «رُسْتَم» الشَّديد بنِ دَستان من وُلدِ كرساسفَ الَّذي ذكرناه قُبيلُ، وكان إصبهبذَ سجستانَ وما يليه من قِبَله، وأمره بتربيته وأوصاه به. فأخذه رستم، ومضى به إلى سجستانَ وتَخَيَّر له الحواضنَ والمرضعاتِ، حتّى أدرك، فجمع له المعلِّمين، وأدَّبه، ثُمَّ علَّمه الفروسة، حتّى فاق

فيها، وقدم على والده رجلاً كاملاً، فامتحنه كيقابوس والدُه، فوجده كاملاً نافذاً بارعاً.

وكان لكيقابوس زوجةٌ بارعةُ الجمال، يُقال: إنَّها بِنتُ فراسياب ملك التُّرك، ويقالُ: إنَّها بنتُ ملك اليمن. فَهوِيَت سِياوَخشَ، وهَوِيَها. والفرس تحكي أموراً طويلةً، وتزعم أنَّها كانت ساحرةً وأنَّها سحرته. إلاّ أنَّ آخرَ أمرِها آلَ إلى أن عَلِمَ كيقابوسُ بما يجري بينَهما.

فكان من عاقبة ميلهما إلى الهَوى، وظَنِّهما أنَّ ذلك ينكتم، أن تغيَّر كيقابوسُ لابنه سياوخش، وأشفق سياوخش على نفسِه. فسأل رستَم أن يسألَ أباهُ توجيهَه لحربِ فراسيابَ. وكان قد تجدَّدت وحشةٌ بين كيقابوسَ وفراسيابَ. وأراد سياوخشُ بذلك البُعد مِن والِده، والتَّنحِيَ عما تَكيدُه به امرأةُ أبيه. ففعل ذلك رستم وخاطب أباه فيه، واستأذن له في جندٍ يضمُّهم إليه. فأذِنَ له، وضمَّ إليه جنداً كثيفاً وأشخص سياوخشَ إلى بلاد التُّرك. فلمّا التقى سياوخشُ وفراسيابُ، جرى بينهما صلحٌ. وكتب بذلك سياوخش إلى أبيه يُعلمه ما جرى بينه وبين فراسيابَ.

فكتب إليه أبوه بإنكار ذلك، وأمره بمناهضته ومُناجَزَتِه الحرب. فرأى سياوخشُ أنّ في فِعلِه ما كتب به أبوه من محاربة فراسياب ـ بعد الَّذي جرى بينهما من الصُلح والهُدنة، من غير نقضِ فراسيابَ شيئاً من أسباب ذلك ـ عاراً ومنقصةً. فامتنع من إنفاذ أمرِ أبيه في ذلك. ورأى أنَّه يُؤتى في كُلِّ ذلك من زوجةِ أبيه. فمال إلى الهَرَبِ من أبيه. فراسل فراسيابَ في أخذ الأمانِ لنفسِه منه، واللِّحاقِ به وفِراقِ والِده. فأجابه فراسيابُ إلى ذلك. وكان السَّفيرُ بينهما رجلاً من عظماءِ التُّرك يقال له: فيران. فلمّا فعل ذلك سياوخش، انصرف عنه من كان معه من جند أبيه، إلى أبيه. وأكرم فراسيابُ سياوخشَ، وزوَّجه ابنةً له، وهي أمُّ كيخسرو، ولم يزل على إكرامه، إلى أن ظهر له من أدب سياوخش وإربه وكماله، ونجدته ما أشفق منه، وضَرَّبَ بينهما أخٌ كان لفراسيابَ وابنان له حذراً على مُلكهم. وله خبرٌ طويل في ذلك، إلى أن قُتِلَ وامرأةُ سياوخش ـ وهي ابنة فراسياب ـ حاملٌ منه، بابنه كيخسرو. فطلبوا له الحيلةَ، لإسقاطها ما في بطنها، فلم تُسقِط.

ثُمَّ إن فيرانَ الَّذي توسَّط الصُلحَ بين سياوخش وبين فراسياب، أنكر ما جرى من فِعلِ فراسياب، وحذَّرهُ عاقبةَ الغَدرِ والطَّلبِ بالثَّأرِ، وأشار عليه أن يدفع ابنتَه إليه، يعني: زوجةَ سياوخشَ، لِتكونَ عنده إلى أن تَضعَ، ثُمَّ إن أراد قتْله قتَله. ففعل فراسياب ذلك. فلمّا وضَعَت، امتنع فيران من قتلِ الوَلَدِ، وسَتَرَ أمرَهُ حتّى بَلغَ المولودُ، وهو كيخسرو.

ويُحكى: أنَّ كيقابوس بعث بيبَ بنَ جُوذَرز إلى بلادِ التُّرك، وأمره بالبحثِ عن

أمر المولود الَّذي لِسياوخش، والتّأتّي لإخراجِه مع أمّه. ففعل بيبٌ ذلك، وبقي زماناً طويلاً يبحث عن أمرِه، إلى أن وقف على خبره. فاحتال فيه وفي أمّه، حتّى أخرجهما من أرضِ التُّرك. فاستقبلهما رُستَمُ الشَّديدُ في جندٍ عظيمٍ من أولي البأسِ والنَّجدةِ، وطلب التُّرك أثر كيخسرو، فجرت بينهم وبين رُستَم حروبٌ ظفر فيها رُستمُ.

فللفرس ههنا خُرافاتٌ، وتزعم أنّ الشّياطين كانت مُسخَرةً لكيقابوس، وقومٌ يزعمون أنَّ سليمان بن داود ـ عليهما السَّلام ـ أمرهم بذلك، في خرافاتٍ كثيرةٍ ظاهرةِ الإحالة، من الصُّعود إلى السَّماءِ، وبناءِ مدينةِ كَنكِرز بأسوار ذهبٍ وفضَّةٍ وحديدٍ ونُحاسٍ، وأنَّها بين السَّماء والأرض، وأشباهِ ذلك مِمّا لا فائدةَ في ذكره.

إلاّ أنَّ جملةَ أمره، أنّه تجبَّرَ لَمّا تمَّ له أكثرُ ما كان يقصده. وسار من خراسانَ حتّى نزل بابلَ، وترك ما كان يسوسه بنفسه، ويباشره برأيه. وأوحشَ النّاسَ بالحُجّابِ والتَّعظُّمِ، وآثَرَ الخلوة. فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه مُلكُه، وكثرتِ الملوكُ في النّواحي، حتّى كان يغزوهم بعد ذلك ويغزونه، فيظفَر مرّةً ويُنكب أخرى، إلى أن غزا بلادَ اليمن والمَلِكُ يومئذٍ بها ذو الأذعارِ بن أبرهةَ بنِ ذي المنارِ بن الرّايش. فلمّا أظلَّه كيقابوسُ، خرج إليه ذو الأذعار في جموع حمير وَوُلدِ قحطان، فَظَفِرَ بكيقابوسَ، وأسرهُ واستباحَ عَسكَرَهُ، وحبسه في بئر وأَطبَقَ عليها طبقاً.

فخرج من سَجِستَانَ رُستَمُ الشَّديدُ في من أطاعه من النّاس. وأمّا الفرس فتحكي حكاياتٍ لا فائدةَ فيها عن شدَّة رُستمَ وبأسِه، وأنّه وَغَلَ في البلادِ بلادِ اليمنِ، واستخرجَ كيقابوسَ من محبسه. وأمّا اليمن فتزعمُ أنّه لم يكن من ذلك شيءٌ، وأنّ ذا الأذعار لَمّا بلغه إقبالُ رستمَ، خرج إليه في جنودٍ عظيمةٍ، وخَندقَ كلُّ واحدٍ منهما على نفسه وعسكرِه، وأنَّهما أشفقا من البوار على جنديهما، وتخوّفا ـ إن تَزاحَما ـ أن لا يكونَ لهما بقيَّةٌ. فاصطلحا على دفع كيقابوسَ إلى رستم ووَضعِ الحربِ. فانصرفَ رستمُ بكيقابوسَ إلى بابل، فكتب له كيقابوسُ كتاباً بالعِتق، وأقطعه سَجستانَ وزابُلستانَ. وكانتِ الكُتُب يومئذٍ والرسائلُ يسيرةً نزرةَ الكلام، لا يُذكر فيها الأسبابُ والعِللُ. ونسخة الكتابِ:

«من كيقابوسِ بنِ كيقباذَ، إلى رُستم.

إنّي قد أعتقتُكَ من العُبودة، ومَلَّكتُك على بلادِ سجستانَ. فلا تُقِرَّنَّ لأَحدٍ بِعُبودةٍ. وامِلِك سجستانَ كما أمرتُكَ. واجلِس على سريرٍ من فِضَّةٍ مُمَوَّهةٍ بالذَّهبِ. والبَس قَلَنسُوَةً منسوجةً بالذّهبِ متوَّجةً».

ومِمّا يدلُّ على صدقِ ما حكيناه من أمر كيقابوسَ، قولُ الحسن بن هاني:

وقَاظَ قابُوسُ في سَلاسِلِنا سِنينَ سَبعاً وَفَت لِحاسِبِها

ثُمَّ مَلَك كيخسرو بن سياوخشَ بنِ كيقابوسَ

فعقد التّاج على رأسه، وخطب رعيَّته خُطبةً بليغةً، أعلَمَهُم فيها أنَّه على الطَّلبِ بدمِ أبيه سياوخشَ قِبَلَ فراسيابَ. ثُمَّ كتب إلى جُوذَرزَ بأصبهان وكان إصفهبذَهُ على خراسان، يأمره بالمصير إليه، وأمره أن يَعرِضَ جندَه وأن يَنتَخِب ثلاثينَ ألفَ رجلٍ، وضمَّهم إلى «طوس»، وكان في من أشخص معه بُرزافُرةُ عمُّ كيخسرو، وابنٌ لجُوذرزَ، وجماعةٌ من إخوته. وتقدَّم كيخسرو إلى طوس أن يكون قصدُه لفراسيابَ وطراخِنَتِه، وحذَّره من ناحيةٍ ببلادِ التُّرك فيها أخٌ له يقال له: فُروذ بن سياوخش، من بعضِ نساءِ الأتراك، كان سياوخش تزوَّجها أيامَ صار إلى فراسياب، فولدت له فُروذَ، وأقام بموضعه إلى أن شَبَّ.

فكان من غلط طوس أن خالف كيخسرو. وذاك أنَّه لمّا صار بالقرب من المدينة الَّتي فيها فروذ، هاجت الحرب، وقُتل فروذ. واتَّصل خبرُه بكيخسرو. فكتب إلى بُرزافُرَةَ عمِّه كتاباً غليظاً يُعلمه فيه ما ورد عليه من خبر طوس، ومحاربتِه فروذ، وقتلِه إيّاه. وأمره بتوجيه طوس إليه مقيَّداً مغلولاً. وتقدَّم إليه في القيام بالعسكر، والتَّوجُّهِ إليه لوجهِهِ. ففعل برزافرة ذلك، وتولّى أمر العسكر، وعَبَرَ النَّهر المعروف بـ«كاسرود»، وانتهى خبره إلى فراسياب. فوجَّه إلى بُرزافُرة جماعةً من إخوته وطراخنته لمحاربته. فالتقَوا وفيهم «فيران» وإخوتُه. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وظهر من بُرزافُرَةَ في ذلك اليوم فشلٌ لَمّا اشتدَّ الحربُ، وكَثُرَ القتلى فَهَرَبَ وانحاز بالعَلَم إلى رؤوس الجبال، واضطرب على وُلدِ جوذرزَ أَمرُهم، فقُتل منهم في تلك الملحمة، في وقعةٍ واحدةٍ سبعون رجلاً، وقُتِل بشرٌ كثيرٌ.

وانصرف بُرزافُرة ومن أَفلَتَ معه إلى كيخسرو. فَرُئيت الكآبةُ في وجهه، وامتنع من الطَّعام والشَّراب، إلى أن مضت أيّامٌ. ثُمَّ راسل جوذرزَ. ولمّا دخل عليه شكا إليه برزافُرة، وأعلمه أنَّه كان سبَب الهزيمة بالعَلَم وخذلانِه وُلدَهُ. فقال كيخسرو: «إنَّ حقَّك لازم لَنا لخدمتك أبانا، وهذه جنودنا وخزائننا مبذولةٌ لك. فاطلُب تِرَتَكَ، واستعِدَّ وتهيَّأ لِلتَّوجُّهِ إلى فراسيابَ».

فنهض جوذرزُ، فقبَّل يده وقال: «أيُّها الملك، نحن رعيَّتُك وعبيدُك. فإن كانت آفةٌ، أو نازلةٌ، فلتكن بالعبيد، دون الملوك. وأولادي المقتولون فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسيابَ والاشتفاء من التّرك».

وكتب كيخسرو إلى رؤساء أجناده ووجوه عسكره يأمرهم بموافاته في صحراءَ تُعرفُ بـ«بشاه اسطون» من كورةِ بلخ، في وقتٍ وقَّتَهُ لهم. فَوافت رؤساء الأجناد في

ذلك اليوم، وشخص إليه كيخسرو بإصبهبذيه وأصحابِهم وفيهم بُرزافُرةُ عَمُّه، وجوذرزُ وبَقِيَّةُ وُلدِه. فتولّى كيخسرو بنفسه عَرضَ الجندِ، حتّى عَرَفَ مبلغَهم، وفَهِمَ أحوالهم. ثُمَّ دعا بجوذرزَ وثلاثةِ نفرٍ معه، فأعلمهم أنّه يُريد إدخالَ العساكر على التّرك من أربعةِ وجوه، حتّى يحيطوا بهم برًّا وبحراً، وقوَّد على تلك العساكر، وجعلَ أعظمَها إلى جوذرزَ وجماعةٍ من الإصبهذين كثيرة. ودفع إليه يومئذٍ العلمَ الأكبرَ الّذي يُسمّونهُ «دَرفش كابِيان»، ولم يكن يُدفع قبل ذلك إلى أحدٍ من القوّاد، وإنّما كانوا يسيِّرونه مع أولاد الملوك، وأمر أحدَ القوّاد بالدُّخول مما يلي الصّين، وضمّ إليه جماعةً كثيرةً، وأمر آخَرَ بالدّخولِ من ناحيةِ الخَزَر، وضَمَّ إلى آخر ثلاثين ألفَ رجلٍ وأمرهم بالدُّخول من طريقٍ بين جوذرز، وبين الّذي دخل من طريق الصّين.

ودخل جوذرزُ من ناحيةِ خراسانَ، وبدأ بفِيرانَ. فالتحمت بينهما حربٌ مذكورةٌ، تحكي فيها الفرسُ عجائبَ، بارزَ فيها بيژَنُ بنُ بيب حمان وهو أخو فيران، فقتله مبارزةً وقتل جوذرز فيران مبارزةً أيضاً. وقصد جوذرزُ فراسيابَ، وألحّت عليه العساكرُ من كلّ وجه، واتّبع القومَ كيخسرو بنفسه، وجعل قصدَه للوجهِ الّذي كانَ فيه جوذرزُ، وصيَّر مدخَلَه مِنه. فوافى عسكَر جوذرزَ، وقد أثخن في القتل. وقتل فيرانُ إصبهبذَ فراسيابَ والمرشّحَ لِلمُلكِ بعدَه، وجماعةً كثيرةً من إخوته وأولادِه، وأسر بروينَ قاتلَ سياوخشَ، وَوَجد جوذرزَ قد أحصى القتلى والأسرى وما غنم من الكُراع والأموال، فوجد مبلغَ ما في يدِه من الأسرى ثلاثين ألفاً ومن القتلى خمسمَائةِ ألفٍ ونيّفاً وستين ألفاً على ما تزعمُ الفرسُ، وحاز من الكُراع والأموال ما لا يُحصى كثرةً، وأمر كلَّ واحدٍ من الوجوه الّذين كانوا معه، أن يجعلَ أسيرَهُ أو قتيلَهُ عند علَمِه، لِيَنظُرَ إليه كيخسرو عند موافاته.

فلمّا وافى كيخسرو العسكَر موضعَ الملحمة، اصطَّفت الرّجالُ له وتلقّاه جوذرزُ. فلمّا دخل العسكَر، جعل يمُرُّ بعَلَم عَلَم. فكان أوّلُ قتيلٍ رآه جثّةَ فيرانَ. فنظر إليه، وخاطبه بما يجري مَجرَى الاشتفاءِ، ولمَ يَزَل يفعلُ ذلك حتّى وقف على علم بيبِ بنِ جوذرز، ووجدَ تحتهُ بروينَ حيًّا أسيراً، فسأل عنه، فأُخبر أنّه قاتِلُ سياوخش الّذي مَثَلَ به بعد قتله. فقرُبَ منه كيخسرو، ثمَّ طأطأ رأسَه بالسُّجودِ، ثُمَّ قال: «الحمد للّه الّذي أمكنني منك». ووبَّخه طويلاً. ثُمَّ أمر بقطعِ أعضائه حيًّا. فلمّا لم يَبقَ له طابقٌ ذَبَحَهُ. ثُمَّ استقرَّ في مضربه، وأجلس عمّه عن يمينه، ودعا بجوذرز، فأحسن صلتَه ومخاطبَته، وحمد ما كان منه، وفوَّض إليه الوزارة الّتي يقال لها: برزج فَرمَذار، وهو مرتبة الوزارة، وجعل إليه مع ذلك أصبهانَ وجرجانَ، وفعل مِثلَ ذلك من الحباء والكرامةِ بكلٍّ من أبلى من قُوّاده ورجاله.

ثُمَّ أَتَتْهُ الأخبار من الوجوهِ الثّلاثةِ الأُخَرِ: أنّهم قد أحاطوا بفراسيابَ. وبَرَزَ

فراسيابُ، وما كان بقي من ولده إلاَّ «شِيذَه»، فتوجَّه نحو كيخسرو بعُدَّةٍ وعَتادٍ. فيقال: إنَّ كيخسرو أشفقَ يومئذٍ، وهابَهُ، وظنَّ أن لا طاقة له به، وأنَّ القتال بقي متَّصلاً بينهما أربعةَ أيّام، إلى أن انهزم شيذه واتَّبعه كيخسرو، فَلَحِقه وضربه بالعمودِ على رأسه فخرَّ مَيِّتاً، وغَنِم كيخسرو مالَه.

وبلغ الخبرُ فراسيابَ. فأقبل في جمع عظيم. فلمّا التقى مع كيخسرو، نَشبت بينهما حربٌ يقال: إنَّه لم يُرَ مثلُها قطُّ على وجه الأرض، حتّى اختلط رجالُ إيرانشهرَ برجال التُّرك. ثُمَّ انهزم فراسيابُ وكَثُرَ القتلُ. فتزعمُ الفُرس أنَّه بلغ عددُ القتلى أمراً عظيماً، لم أستحسن ذِكره لكثرته. وجدَّ كيخسرو في طلبه، حتّى لحقه بأذربيجان، فظفر به واستوثق منه بالحديد. ثُمَّ وبَّخه، وسأله عن سبب قتله سياوخشَ. فلم تكن له حُجَّةٌ، فذبحه كما ذبح سياوخشَ. ثمّ انصرف غانماً مسروراً.

وكان لفراسياب أخٌ يقال له: كي شواسف، صار إلى بلاد التُّرك بعد أخيه، وكان له ابنٌ يقال له: خرزاسف، فملك البلاد بعدَ أبيه كي شواسفُ، وهو ابنُ أخي فراسيابَ الّذي حاربَ منوشهرَ.

ولمّا فرغ كيخسرو من المطالبةِ بوترِه، واستقرَّ في ملكه، زَهِدَ في الملك، وتنسَّك وأعلَمَ الوجوه من أهل بيته ومملكته، أنَّه على التَّخلّي. فاشتدَّ جَزَعُهم، وتضرَّعوا إليه، وراوَدُوهُ على المُقامِ على تدبيرِ مُلكهم. فأبى عليهم، ولمّا يئسوا، قالوا: «فإذا قمتَ على ما أنتَ عليه، فَسَمِّ مَن يقوم به». وكان لهراسفُ حاضراً، فأشار بيده إليه، وأعلمهم أنَّه خاصَّتهُ وَوصيُّه. فَقَبِلَ لهراسفُ الوصيةَ، وأقبَل النّاسُ عليه، وفُقِدَ كيخسرو. فبعض النّاس يقول: إنّه غاب للتَّنسُّكِ، ولا يُدرى أينَ ماتَ. وبعضهُم يقول غيرَ ذلك. وكان مُلكُه ستّين سنةً. ثُمَّ مَلَكَ بعدَه لهُراسبُ.

لهُراسب وما كان من أمر بُختَنَصَّر

ويُقال: إنّه ابن أخي كيقابوس. واتَّخذ سريراً من ذهبٍ مكلَّلاً بالجوهر، للجلوس عليه. وبُنيت له بأرض خراسان مدينةُ بلخ وسمّاها: «الحسناء». وهو أوّلُ من دوَّنَ الدّواوينَ، وقوّى مُلكه بانتخابِ الجنودِ لنفسه وعَمَرَ الأرضَ. وذلك أنَّ الأتراك اشتدَّت شوكتُهم في زمانه، فجعل منزلَه بلخ ليقاتل الأتراك. ووجَّه بُختَنَصَّر إصبهبذاً لما بين الأهواز إلى أرض الرّوم من غربيِّ دِجلةَ. ويقال: إنّ اسمَه بالفارسية: «بُختَ نَرسِي». فشخص حتّى أتى دمشق، فصالحه أهلها. ووجَّه قائداً له، فأتى بَيتَ المَقدِس، فصالح ملك بني إسرائيل، وهو رجلٌ من ولدِ داود، وأخذ منه رهائن وانصرف، فلمّا بلغ طبرية وثبتْ بنو إسرائيل على مَلكهم، فقتلوه وقالوا: «داهنتَ أهلَ بابل وخذلتَنا»، واستعدّوا للقتال.

فكان من عاقبة جنايتهم على مَلكهم أن كتب قائد بختَنصَّر إليه بما كان. فكتب إليه يأمره أن يُقيم بموضعه حتّى يوافيهُ، وأن يضرب أعناقَ الرّهائن الّذين معه، وسار بختَنصَّر، حتّى أتى بيت المقدس، فأخذ المدينة عَنوةً، وقَتَلَ المقاتلة، وسَبَى الذُّرِّية، وهرب الباقون إلى مصر.

فكتب بختنصَّر إلى مَلِكِ مصر: «إنّ عبيداً لي هربوا مِنّي إليك. فَسَرِّحهم إليَّ، وإلاّ غزوتُك وأوطأتُ بلادَك الخيلَ».

فكتب إليه ملك مصر: «ما هم عبيدك، ولكنَّهم الأحرارُ أبناءُ الأحرارِ».

فغزاه بُختنَصَّر، فقتله، وسَبى أهلَ مصرَ. ثُمّ انصرف بسبيٍ كثيرٍ من أهل فلسطينَ والأردنِ فيهم دانيالُ النّبيّ وغيرُه من أبناءِ الأنبياء، وخرب بَيتُ المَقدِسِ منذُ ذاك.

وكان لهُراسفُ بعيدَ الهِمّة، طويلَ الفكر، شديدَ القَمعِ للملوكِ المحيطةِ بإيرانشهرَ. وكانت ملوكُ الرّوم والمغربِ والهند يحملون إليه في كُلِّ سنةٍ وظيفةً معروفةً وإتاوةً معلومةً، ويُقِرُّون له أنَّه مَلِكُ المُلوكِ هيبةً له. وكان بختَنصَّر حمل إليه من بيتِ المَقدِسِ خزائنَ وأموالاً عظيمةً. ثُمّ كَبُرت سِنُّه، وأحسَّ بالضَّعف. فملَّك ابنَه بُشتاسِفَ، واعتزلَ المُلكَ، وكان عمره ومُلكه فيما ذكر مائةً وعشرين سنةً.

وقد قيل: إنَّ بُختَنصَّر كان في خدمةِ لهراسفَ، وتوجَّه من قِبَلِه إلى الشّام وبيتِ المَقدِس، ليُجلِيَ اليهودَ عنها، ففعل، ثُمَّ انصرف. ثُمَّ كان في خدمةِ ابنه بُشتاسفَ، ثُمَّ في خدمة ابنه بهمنَ، وإنَّ بَهمنَ أقامَ ببلخ الَّتي كانت تسمَّى الحسناءَ، وأنفذ بختَنصَّر إلى بيتِ المَقدِسِ لإجلاءِ اليهود، وإنَّ السَّببَ في ذلك كانَ وثوبَ صاحبِ بيتِ المقدِس على رُسُلِ بهمنَ وقتلِه بعضهم. فمضى بُختنصَّر، فَسَبى وهَدَمَ بيتَ المقدِسِ وانصرف إلى بابِلَ، وملَّك «متنيا» وسمّاهُ: «صِدقيا». فلمّا صار بختَنصَّر ببابلَ، خالَفَهُ صدقيا. فغزاه بختَنصَّر ثانياً، وظفِر به. فأخربَ المدينةَ والهيكلَ وأوثقَ صدقيا وحَمَلَهُ إلى بابل، بعد أن ذبحَ ولدَه وسَمَلَ عينيه. فمكث بنو إسرائيل ببابل، إلى أن رجعوا إلى بيتِ المقدس. فكانت غلبةُ بُختَنصَّر ـ وهو بُختَ نَرسي ـ إلى أن ماتَ، في هذا القولِ الّذي حكيناه آنفاً، أربعينَ سنةً.

ثُمَّ قامَ بعدَه ابنٌ له يقال له: نَمرُوذ، ثُمَّ ابنٌ له يقال له: بُلتَنَصَّر، فخلَّط، ولم يرتضِ بهمنُ أمرَه، فعزلهُ، وملَّك مكانَه:

كيرُش

وتقدَّم إليه بَهمنُ أن يرفقَ ببني إسرائيل، ويُطلِقَ لهم النّزولَ حيثُ أحبُّوا، والرُّجوعَ إلى أرضهم وأن يُولِّيَ عليهم مَن يختارونَه، فاختاروا دانيالَ النَّبيَّ ـ عليه السَّلام ـ فولاّه أمرهم. وكان مُلكُ كيرُشَ ومدَّةُ سِنيه معدودةً من خرابِ بيت المقدِسِ، منسوبةً إلى بُختَنصَّر

ومبلغُها سبعون سنةً. ثُمَّ مَلكَ بابلَ وناحيتَها من قِبل بهمن رجلٌ من قرابته يقال له:

اخشَوارِسُ

ابن كيرُشَ بنِ جاماسِبَ المُلقَّبُ بـ«العالم».

وَوُلِدَ لإخشَوارِسَ وَلدٌ من امرأةٍ مِن سَبي بني إسرائيل يقال لها: أَشيرُ، صُنعاً من اللَّه لِبَني إسرائيل، فسمّاهُ:

كيرُش

فملك بعد أبيهِ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وعلَّمه خالُه التَّوراة، وفَهِم أمرَ دانيالَ ومن كان معه: مثل حَنَنيا، وعازَريا، وعُزَير. وتأدَّب وعَلِمَ العلومَ. وسألَه بنو إسرائيل أن يأذَنَ لهم في الخروج إلى بَيتِ المقدِس فأبى وقال:

«لو كان معي منكم ألفُ نبيٍّ، ما فارقني، ما دمتُ حيًّا».

وَوَلّى دانيالَ القضاءَ، وأمره أن يُخرجَ كلَّ شيءٍ في الخزائن ممّا كان بختَنصَّر أخذه مِن بَيتِ المقدِس، فبُنِيَ وعُمِرَ في أيّامِ كيرُشَ، وماتَ بهمنُ لِثلاثَ عشرةَ سنةً خلت مِن قيام كيرُشَ ببابلَ.

وقد حكى أهلُ التَّوراةِ في أمرِ بُختَنصَّر أقوالاً مختلفةً تركنا ذكرها. إلاّ أنَّهم ذكروا أنَّ بُختنصَّر لمّا خرَّب بيت المقدِس، أمَرَ جنودَه أن يَملأ كلُّ رجلٍ منهم تُرسَهُ تراباً، ثُمَّ يقذِفَه في بيتِ المقدس. فَقَذَفُوا فيه من التُّراب ما ملأهُ. ولمّا انصرفَ إلى بابلَ، اجتمعَ مَعَهُ سبايا بني إسرائيلَ، وأمرَهُم أن يَجْمَعوا مَن كان في بيتِ المقدس كلَّهم. فاجتمع عنده الكلّ، فاختار منهم سبعين ألفَ صبيٍّ. فلمّا خرجت غنائمُ جندِه، سألوه أن يَقسِمَ فيهم الصِّبيان. فَقَسَمَ في الملوك منهم، فأصاب كلّ رجلٍ منهم أربعة. فكان من أولئك الغِلمةِ: دانيالُ النَّبيّ، وحننيا، وميشايل، وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود، وأحدَ عَشَر ألفاً من سِبطِ آسرِ بن يعقوبَ، وعلى ذلك سائر أولادِ يعقوبَ الأسباطِ.

ثُمَّ غزا بُختَنصَّر العرب. وذلك في زمن مَعدّ بن عدنانَ. فوثب على مَن كان في بلاده من تُجّار العرب، وكانوا يقدِمون عليه بالتّجاراتِ، ويمتارون من عندِهم الحبَّ والتَّمرَ والثِّيابَ وغيرها. فجمع من ظَفِرَ به منهم، وبَنى لهم حَيراً على النَّجف، وحصَّنه، وضمَّهم فيه، ووكَّل بهم حرساً. ثُمَّ نادى في النّاس بالغزوِ، فتأهَّبوا لذلك، وانتشر الخبرُ في من يليهم من العرب، فخرجت إليهم طوائفُ منهم مسالمين فأحسن إليهم، وأنزلهم بُختَنصَّر شاطئ الفراتِ، فابتَنوا موضعَ معسكرهم، وسمَّوه: «الأنبار» وخلّى عن أهل الحيرة، فاتَّخذوها منزلاً مدّة حياة بختَنصَّر. فلمّا مات انضمُّوا إلى أهل الأنبار وبقي ذلك الحَيرُ خراباً.

وملك كَي بشتاسِفُ بنُ كَي لُهراسِفُ

فبنى مدينة فَسًّا، وهو أوّل من عُرِف بَسَطَ دَواوين الكتّاب، لا سِيَّما ديوان الرَّسائل، وأمر الكُتّاب أن يُطيلوا كتب الرَّسائل، ويذكروا فيها الأسباب والعلل. وكان له ديوانان: أحدهما ديوان الخراج، والآخر ديوان النَّفقات. فكان كلُّ ما يردُ، فإلى ديوان الخَراج، وكلُّ ما يخرُجُ من جيشٍ وغيره، فإلى ديوان النَّفقات. وكان من رسم الوزير - واسمهُ: «بُرُزج فَرمَذار» - أن يكون له خليفة يسمّى: «إيرانمارغَر»، يصل إلى المَلِكِ، ويعرض عليه وينوبُ عن الوزير. فأمّا المتقلِّدُ لديوانِ الرَّسائل فيُسمّى: «دَبيرفَذ»، وكان له كاتبٌ موكّلٌ بدار المملكة، فإن وقع على أحدٍ تقصيرٌ في منزلةٍ، أو حَطٌّ في درجةٍ، رجعَ إلى ذلك الكاتبِ حتّى يُبيِّن حالَ مَرتَبَته، فَيُجرى على رَسمِه.

ظُهورُ زَردُشت

وظهر في أيّامه زردشت، وأراده على قبول دينه، فامتنع من ذلك، ثُمَّ صدَّقه، وقَبِلَ ما دعاه إليه وأتاه به، من كتابٍ يُكتبُ في جلدِ اثني عَشَرَ أَلفَ بَقَرةٍ، حفراً في الجلود، ونقشاً بالذَّهب. وصيَّر بُشتاسِفَ ذلك بإصطخرَ ووكّل به الهرابِذَة، ومَنعَ تعليمَه العامَّةَ، وبنى ببلاد الهند بيوتاً للنّيران، وتنسَّك واشتغل بالعبادة. وهادَنَ خرزاسف بن كي سواسف ابن أخي فراسياب ومَلَكَ التّركَ على ضربٍ من الصُّلح. وفي شريطة الصُّلح أن يكون ببلاد خرزاسف دابّةٌ موقوفةٌ في منزلة الدَّوابِّ الّتي تكون على أبواب الملوك، فأشار زردشت على بشتاسف، بنقض الهدنة، ومفاسدة مَلكِ التُّرك. فَقَبِلَ منه، وبعث إلى الدّابَّةِ، والموكَّلِ بها، أن ينصرفَ، وأظهر الغدر. فغضب خرزاسف، وكتب إليه كتاباً غليظاً، وأمره بتوجيه زردشت إليه، وأقسم - إن امتنع - أن يغزوَه حتّى يسفكَ دمَه ودماءَ أهل بيته.

فلمّا ورد الرَّسول بالكتاب، كَتَبَ كتاباً أغلظَ منه جواباً عن كتابه، وآذَنَه بالحرب، وأعلَمه أنَّه غير مُمسِكٍ عنه إن أَمسَكَ، فسار بعضُهما إلى بعضٍ، ومع كُلٍّ واحد منهما إخوتُه وأهلُ بيته. فقُتِل بينهما خلقٌ كثير، وأحسن الغناءَ ابنُ بشتاسف إسفنديار، وقُتل بيدرفشُ السّاحرُ بيده مبارزَةً. فصارت الدَّبَرةُ على التُّرك، فقُتِلوا قتلاً ذريعاً، ومضى خرزاسِفُ هارباً على وجهه، ورجع بُشتاسفُ إلى بلخ.

فلمّا مَضَت لتلك الحرب سِنون، سعى على اسفنديار رجلٌ يقال له: فَرُّوخ. فأفسد قلبَ بُشتاسفَ عليه. وذاك أنَّه أعلمه: أنَّه يَنتَدِبُ لِلمُلك، ويزعُم أنَّه أحقُّ به، وأنَّ النّاسَ مائلون إليه. فصدّق بُشتاسفُ بذلك، وتَرَكَ الرِّفقَ ومعالجةَ الأمور على تُؤدةٍ،

وأخذ في أن يندبَه لحربٍ دون حرب. فكان ينجح فيها كلِّها، ثُمَّ أمر بتقييده، وصيَّرهُ في الحصن الَّذي فيه حبسُ النِّساء. وصار بشتاسف إلى جبلٍ يُقال له: «طَميذَر»، لدراسة دينه، والتّنسُّكِ هناك، وخلّف أباه لهراسفَ في مدينة بلخ شيخاً هَرِماً قد أبطله الكِبَرُ، وترك خزائنَهُ وأموالَه على امرأته.

فكان من عاقبة ذلك، أن حَمَلتِ الجواسيسُ خَبَره إلى خرزاسف، فَجَمعَ جنوداً لا يُحصَونَ كثرةً، وشخَصَ من بلاده نحوَ بلخ. فلمّا انتهى إلى تُخوم مُلكِ فارِسَ، قدَّم أمامَه جوهَرمَز أخاه ـ وكان مرشَّحاً لِلمُلكِ ـ في جماعةٍ من المقاتلة كثيرةٍ، وأمرهم أن يُغِذّوا السَّير، حتّى يتوسَّطوا المملكة، ثُمَّ يُوقعوا بأهلِها ويُغيروا على المدن والقُرى. ففعل جَوهرمزُ ذلك، وسفك الدِّماء، واستباحَ الحُرَمَ، وسبى ما لا يُحصى كثرةً، واتّبعه خرزاسف، فأحرق الدّواوين، وقتل لهراسف والهرابذةَ، وهَدَمَ بيوتَ النّيران، واستولى على الأموالِ والكنوز، وسبى ابنتينِ لبُشتاسفَ، وأخذ فيما أخذ «درَفش كابيان»، وشخص يتبع بشتاسف، فهرب منه بشتاسف، حتّى تحصَّن في الجبل الّذي يُعرف بِطَميذَر مِمّا يلي فارِسَ، ونزلَ بِبُشتاسفَ ما ضاق به ذَرعاً ونَدِمَ على ما صَنَعَهُ بإسفنديار.

فيقال: إنَّه وجَّه إليه بجاماسِفَ، حتّى استخرجه من محبسه، وصار به إلى أبيه. فلمّا دخل عليه، اعتذر إليه ووعده عقدَ التّاج على رأسه، وأن يَفعلَ به مثلَ الّذي فعَل به لهراسف، وقلَّده عسكره، وأمره بمحاربة خرزاسف. فلمّا سمع إسفَنديارُ كلامَ أبيه، طابت نفسُهُ، وكفَّر بين يديه، وتولّى الأمرَ، وتقدَّم فيما احتاج إليه.

ثُمَّ عَبّى ليلتَهُ أصحابَهُ، فلمّا أصبح، أمرَ بنفخ القُرون، وسار بالجنود نحو عسكر التُّرك. فلمّا رأت التُّرك عسكَره، خرجوا إليه على وجوههم يتسابقون وفي القوم جَوهَرمَزُ وأندَرمان. فالتحمت الحرب بينهم، وانقضَّ إسفنديار وبيده الرُّمح كالبرق، حتّى خالط القوم، وأَكبَّ عليهم بالطَّعنِ. فلم تكن هُنيهةً حتّى ثَلمَ في القوم ثُلمَةً عظيمةً، وفَشا في التُّرك أنَّ إسفنديار قد أُطلِقَ من الحبس، فانهزموا لا يلوُونَ على شيءٍ، وانصرف إسفنديارُ وقد ارتجعَ العَلَمَ الأكبَر، وحُمِل معه منشوراً.

فلمّا دَخَلَ على بشتاسف، استبشر بظفَرِه، وأمره باتّباعِ القوم وقتلِ خرزاسف إن قدر عليه، بلهراسف، وبقتلِ جوهرمز وأندرمان، بمن قُتلَ من ولَده، وبهدم حصون التُّركِ وبحرق مُدُنِها وبقَتلِ أهلَها، بمن قُتِلوا من حملة الدّين، وباستنقاذ السَّبايا، ووجَّه معه من القُوّاد والعظماءِ خلقا كثيراً. فدخل إسفنديارُ بلادَ التُّركِ، ورام ما لم يَرُمه أحدٌ، واعترض ـ على ما تزعُم الفرسُ ـ العنقاءَ المذكورة، ورماها، ودخل مدينةَ الصُّفر عَنوةً، حتّى قتل مَلِكَها وإخوتَه ومقاتِلتَه، واستباح أموالَهُ، وسَبى ذَرارِيَّهُ ونساءَه واستنقذ أُختيه، وكتب بالفتح إلى أبيه.

ياسر أنعُم

فأمّا ملوك اليمن، فقد كتبناهم إلى عهد سليمانَ وأيّامِه. ثُمَّ صار المُلك إلى ياسر بن عمرو الّذي يقال له: ياسرُ أنعُم، لإنعامِه على العرب. وكان سار غازياً نحو المغرب. حتّى بلغ وادياً يقال له: «وادي الرَّمل»، ولم يكن بلغه أحدٌ قبلَه، ولم يجد وراءَه مَجازاً لكثرة الرَّمل. فبينا هو مقيمٌ إذا انكشف الرَّملُ. فأمر بعضَ أهل بيته أن يعبُرَ هو وأصحابُه. فعَبَروا، ولم يرجعوا. فأمر بِصَنَم من نُحاسٍ، فصُنع ثُمَّ نُصبَ على صخرةٍ عظيمةٍ على شفير الوادي، وكتب في صدره بالمُسنَدِ:

«هذا الصَّنم لياسر أنعم الحميري، ليس وراءَه مذهبٌ، فلا يتكَلَّفنَّ ذلك أحدٌ فَيَعطَب».

تُبَّع

ثُمَّ ملك بعدهُ تُبَّعٌ. وهو تُبانٌ، وهو أسعدُ، وهو أبو كربِ بنِ مليكيكربَ، تبَّع بنِ زيد بنِ عمرو بنِ تُبَّعٍ ذي الأذعارِ بنِ أبرهةَ تُبَّعٍ ذي المنارِ بنِ الرّائشِ بنِ قيسِ بنِ صَيفي بنِ سبأ.

وكان تُبَّعٌ هذا في أيام بشتاسف وأردشير بهمن بن إسفنديار بن بشتاسف، خَرَجَ وغزا، وبلغ الأنبار، والموصل، ثُمَّ أذربيجانَ، ولَقِيَ بها التُّرك، فهزمهم، وقتل بها المقاتِلةَ، وسَبى الذُّرِيَّةَ، فأقام بها دهراً، وهابَتهُ الملوك، وأهدت إليه، وقدِم عليه رسول ملك الهند بالهدايا والطُّرَفِ من الحرير والمسك، وسائر الطُّرَفِ، فرأى ما لا يُرى مثلُه.

فقال: «ويحك! أكُلُّ هذا في بلادكم؟».

فقال: «أبيت اللَّعن، هذا أقلُّ ما ترى في بلادنا، وأكثره في بلاد الصّين».

ووصف له بلادَ الصّين، وسِعَتَها، وخِصبَها. فَآلى: لَيَغزُونَّها، وسار بِحِميَر، حتّى أتى الصّين في جمع عظيم، حتّى دخلها، فقتل مقاتِلتَها، واكتسح ما وجد فيها. ويزعمون أنَّ مَسيرَهُ إليها كان ـ ومقامُه بها ورجعتُه منها ـ في سبع سنين. وخلّف بالتُّبَّتِ اثنَي عشرَ ألفَ فارسٍ من حِميرَ، فهم أهلُ التُّبَّتِ اليوم، ويزعمون أنَّهم عربٌ، وخِلَقُهم وألوانُهم خِلَقُ العربِ وألوانهم.

أردَشير بَهْمَن

وملك بعد بشتاسف أردشير بهمن. وانبسطت يده، وتَناولَ الممالكَ بقُدرةٍ حتّى ملك الأقاليم. وابتنى بالسَّواد مدينةً وهي المعروفةُ بـ«هُمَينيا» وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان أبي الفُرس الأخير أردشير بن بابك وولده. وكان بهمنُ بنُ إسفنديار كريماً،

متواضعاً، مرضياً. وكانت تخرج كُتُبُه: «من أردشير بهمن عبدِ اللّه، وخادمِ اللّهِ، والسّائسِ لأمركم».

ويقال: إنَّهُ غزا الرُّوميةَ الدّاخِلةَ، في ألفِ ألفِ مقاتلٍ. ولم تزل ملوك الأرض تحمِل إليه الإتاوة، إلى أن هلك، وابنه دارا الأكبر في بطنِ أمّه. فملَّكوا خُماي بنتَه شُكراً لأبيها. وكان من أعظم ملوك الفُرس شأناً، وأفضلهم تدبيراً. وله كتبٌ ورسائل تفوق كتبَ أردشير وعهدَه. وتفسير «بَهمَن» بالعربيّة: «الحَسَنُ النّيّةِ».

خُماي

ثُمَّ ملكت خُماي بِنتُه. لأنَّها حملت منه دارا الأكبر، وسألته أن يعقدَ التّاجَ له في بطنها، ويُوثرَه بالملك، ففعل بهمنُ ذلك. وكان ساسانُ بنُ بهمن في ذلك الوقت رجلاً يتصنَّع لِلملك، لا يشكّ فيه. فلمّا رأى ساسانُ ما فعل أبوه، شَقَّ عليه، فَلحِقَ بإصطخر، وتزهَّد، وخرج من الحِلية، واتَّخذ غُنَيمةً، فكان يتولّى ماشيتَه بنفسِه، واستشنعتِ العامّةُ ذلك من فعله، وقالوا: «صار ساسانُ راعياً»، وسَبُّوه به ثُمَّ لمّا كبر دارا حَوَّلَ التّاجَ إليه. وكانت خماي ضَبَطَتِ الحكم بِنَجدَةٍ ورأيٍ وحصافةٍ، وأغزتِ الرّومَ جيشاً، وأوتيت ظفراً. فقمعتِ الأعداءَ وشغلتهم عن تَطَرُّفِ شيءٍ من بلادها، ونال رعيَّتَها في تدبيرها خفضٌ ورفاهةٌ، إلى أن مُلِّكَ ابنُها:

دارا بن بَهمَن

فنزل بابل، وكان ضابطاً لِمُلكِه، قاهراً لِمَن حولَه مِنَ الملوكِ يُؤَدُّون إليه الخراجَ. ابتنى بِفارِسَ مدينةً، وسمّاها: «دارا بجِرد». وحذف دَوابَّ البريد ورَتَّبَها. وكان مُعجَباً بابنِه «دارا»، وبلغ مِن حُبِّه إيّاه أن سمّاه باسم نفسِه، وصيَّر له المُلكَ مِن بعدِه. وكان له وزيرٌ يسمّى: «رُشتين» محموداً في عقله. فشجر بينه وبين غلام تربّى مع دارا الأصغر يقال له: «بِيرى»، شرٌّ وعداوةٌ. فَسَعى رُشتين عليه عند الملك. فيقال: إن الملكَ سقى بيرى شربةً فمات، فاضطغنَ دارا الأصغرُ على رُشتينَ، وعلى جماعةٍ كانوا عاوَنُوه.

دارا الأصغر

فلمّا مَلَكَ دارا بنُ دارا بنُ بهمنَ، كانَ أوَّل ما تكلَّم به حين عَقدَ التّاجَ على رأسه، قال:

ـ «لن نَدفعَ أحداً في مَهوى الهَلَكَةِ، ومن تردّى فيها، لم نكفُفه عنها».

واستكتب أخابيرى، واستوزره، رعايةً لحقِّ أخيه، وأُنساً به، ولم يكن في موضع

الوزارة، ولا كان له كفاية رُشتين.

فكان من عاقبة ذلك، أن أَفسَدَ قلبَه على أصحابه، وحَمَلهُ على قتل بعضهم، فاستوحشت منه الخاصّة والعامّة، ونَفَرُوا عنه، وكان حقوداً جبّاراً. فعرفَ خبرَهُ الإسكندرُ فغزاه وقد ملَّه أهلُ مملكته، واستوحش جندُه، وأحبَّ الجميعُ الرّاحةَ منه. فلحق كثيرٌ من وجوه أصحابه وأعلام جنده بالإسكندر، فأطلعوه على عَورةِ دارا وقَوَّوهُ عليه، فلمّا التقيا ببلاد الجزيرة، اقتتلا سنةً. ثُمَّ إنَّ رجالاً من أصحاب دارا وثبوا به، فقتلوه، وتقرَّبوا بذلك إلى الإسكندر، فأمَرَ بقتلهم وقال:

ـ «هذا جزاء من اجترأ على مَلِكِه».

وتزوّج ابنتَه: روشَنَك. ثُمَّ غزا الهند ومشارقَ الأرض، فملكها. ثُمَّ انصرف وهو يُريد الإسكندريّة، فهلك بناحية السَّواد، فَحُمِلَ في تابوتٍ من ذهبٍ إلى أمِّه. وكان مُلكه أربع عشرةَ سنةً. واجتمع مُلك الرُّومِ وكان قبل الإسكندر متفرّقاً، وتفرَّق مُلكُ فارِس وكان مجتمعاً.

مِمّا يُحكى عَنِ الإِسكندرِ وحِيَلِه

الإسكندَرُ ودارا

وقد كان فِيلِفُّوسُ أبو الإسكندر، صالحَ دارا، على خراجٍ يحمله إليه في كُلِّ سنةٍ. فلمّا هلك الأبُ، وملك الإسكندر، وطَمعَ في دارا، منعه الخَراجَ الّذي كان يحمله أبوه إليه. فأسخَطَ دارا، فكتب إليه يؤنِّبهُ بسوءِ صنيعه في تركه حَملَ ما كان أبوهُ يحمله من الخراج، وأنّه إنّما دعاه إلى حبس ذلك الصّبى والجهلُ، وبَعَثَ إليه بِصَولَجانٍ وكرَةٍ وبقفيزٍ من السِّمسِمِ: يُعلمه بذلك أنّه إنّما ينبغي أن يلعَب مع الصِّبيان بالصَّولَجان، ولا يتقلَّدَ المُلكَ، ولا يتلبَّسَ به، ويُعلمه أنَّه إن لم يقتصر على ما أمره به، وتعاطى المُلكَ، بعث إليه من يأتيه به في وثاقٍ، وأنَّ عِدَّة جنودِه الّذين يبعث بهم، كعِدَّة حَبِّ السِّمسِمِ الَّذي بعث به إليه.

فكتب الإسكندرُ في جواب ذلك، أن قد فَهِمَ ما كتب به، ونظر إلى ما أرسله من الصَّولَجان والكُرة، وتيمَّنَ به، لإلقاءِ المُلقى الكرةَ إلى الصَّولجان واجترارِه إيّاها، وأنَّه شبّه الأرض بالكرة، وتفأَّل بملكه إيّاها، واحتوائه عليها، وأنّه يجترُّ مُلكَ دارا إلى مُلكِه، وبلادَه إلى حيِّزه من الأرض، وأنَّ نَظَرَهُ إلى السِّمسِم الّذي بعث به، كنظره إلى الصَّولجان والكرةِ، لِدَسمه وبُعدِه من المَرارة والحرافة. وبعث إلى دارا مع كتابه بصُرَّة من «خَردل»، وأعلمه في ذلك الجواب: أنّ ما بعث به إليه قليلٌ، غير أنّ ذلك مثل الّذي بعث به في القُوَّةِ، والحرافة، والمرارة، وأنَّ جنودَه فيما وصف به منه.

فلمّا وصل إلى دارا جواب كتاب الإسكندر، جمع إليه جُندَه، وتأهَّب لمحاربة الإسكندر، وتأهّب له الإسكندر، وسار نحو بلاد دارا. فلمّا التقيا، وجرى ما جرى من أمر القائدين اللّذَين تقرَّبا إلى الإسكندر وطلبا الحظوَةَ عندَه والوسيلةَ، وكان نادي الإسكندر ألاّ يُقتَلَ دارا، وأن يُؤسَرَ أسراً، فلمّا أُعلِمَ الإسكندرُ بما جرى، سار حتّى وقف عنده، فرآهُ يجود بنفسِه. فنزل الإسكندر عن دابّتِه، حتّى جلس عند رأسه، وأخبره أنّه ما همَّ بقتله، وأنّ الّذي أصابه لم يكن عن رأيه.

وقال له: «سَلني ما بَدا لَك فإنّي أسعِفُكَ بِه».

فقال له دارا: «لي حاجتان: إحداهما أن تنتقم لي من الرَّجلين اللّذين فَتَكَا بي - وسَمّاهُما - والأخرى أن تتزوَّجَ ابنتي: روشَنك».

فأجابه إلى الحاجتين، وأمر بصلب الرَّجلين اللّذين انتَهكا من مَلِكِهما ما انتهكا، وتزوَّج روشنك وملكَ الأرضَ كلَّها.

ويُقالُ: إنّ الرَّجلين اللّذين قتلا دارا، إنّما فَعَلا ذلك بأمر الإسكندر، وكانَ شَرَطَ لهما شرطاً. فلمّا طعناه، دفع إليهما حُكمهما، وَوَفى لهما بشرطهما، ثُمَّ قال:

- «قد وفيتُ لَكُما بالشَّرط، ولم تكونا شرطتُما أنفسكُما، وأنا قاتِلُكُما، فإنَّه ليس ينبغي لِقَتَلَةِ الملوك أن يُستَبقَوا، إلاّ بذمَّةٍ لا تُخفَرُ»؛ فَقَتَلَهما وَصَلَبَهما.

ويُقالُ: إنَّ الإسكندر في الأيّام الَّتي نازل فيها دارا كان يصير إليه بنفسِه على أنَّه رسولٌ. فيتوسَّطُ العسكَر، ويعرف كثيراً مِمّا يحتاج إليه. فكان إذا وصله دارا، أُعجب به واستحسن سَمتَهُ، ومجاراتَه. إلى أن اتَّهمه وأحسَّ الإسكندر، فهَرَبَ.

ذِكرُ حيلةٍ للإسكَندَر

فلمّا تواقفت الخيلان يوم الحرب، خرج الإسكندر من صفِّ أصحابه وأمر مَن ينادي:

- «يا معشر الفُرس! قد علمتم ما كتبنا لكم من الأماناتِ. فمن كان منكم على الوفاء، فليعتزل عن العسكر، وله مِنّا الوَفاءُ بما ضَمِنّاهُ».

واتَّهمتِ الفرسُ بعضُها بعضاً. فكان أوّل اضطرابٍ حَدَثَ فيهم.

حيلة أخرى

ومِمّا يُحكى من حِيَلِهِ في الحروب: أنّه لمّا شَخَصَ عن فارس إلى أرض الهند، تلقّاه فُورٌ مَلِكُها في جمع عظيم، ومعه ألف فيلٍ عليها السِّلاح والرِّجال، وفي خراطيمها السُّيوف والأعمدة، فلم تقف دوابُّ الإسكندر وانهزم. فلمّا حصل في مأمنه، أمر باتِّخاذِ

فِيلَةٍ من نُحاسٍ مجوَّفَةٍ، ورَبَطَ خيلَه بين تلك التَّماثيل حتّى أَلِفَتها، ثُمَّ أمر فمُلئت نفطاً وكبريتاً، وألبسها الدُّروعَ، وجُرَّت على العَجَل إلى المعركة، وبين كلِّ تمثالين منها جماعةٌ من أصحابه. فلمّا نشبت الحرب، أمر بإشعال النّيران في أجواف التَّماثيل، فلمّا حميت، انكشف أصحابه عنها، وغشيتها الفِيَلةُ، فضربتها بخراطيمها، فنشطت وولّت مُدبرةً راجعةً على أصحابها، وصارت الدَّبرَة على ملك الهند.

حيلة أخرى له

ومِمّا يُحكى أيضاً عنه: أنَّه كان نزل على مدينةٍ حصينةٍ. فتحصَّن منه أهلُها وعرف خبرها، فأعلم أنَّ فيها من المِيرةِ والعيونِ المنفجرة كفايتهم. فدسَّ تُجّاراً متنكِّرين، وأمرهم بدخول المدينة، وأمدّهم بمالٍ على سبيلِ التِّجارةِ، وتقدَّم إليهم ببيع ما معهم، وابتياعِ ما أمكنهم من الميرة، والمغالاة بها. ففعل التُّجار ذلك، ورحل الإسكندرُ عنهم. فلم يزلِ التُّجارُ يشترون الميرةَ، إلى أن حصلَ في أيديهم أكثرُهُ. فلمّا علم الاسكندرُ ذلك، كتب إليهم أن أحرقوا الميرةَ الَّتي في أيديكم واهرُبوا. ففعلوا ذلك، وزحف الإسكندر إليها، فحاصرهم أيّاماً يسيرةً، فأعطوه الطّاعةَ، ومَلَكَ المَدينةَ.

وكان أيضاً إذا انصرف عن مثل هذه المدينة، شرَّد مَن حولَها مِن أهل القُرى، وتهدَّدَهم بالسَّبي، حتّى خرجوا هاربين معتصمين بالمدينة، فلا يَزال بذلك حتّى يعلمَ أنَّه قد دخلها أضعافُ أهلِها وأسرعوا في الميرة، فيرجع حينئذٍ، فيحاصرهم، ويفتح المدينة.

الإسكندر وأرسطوطالِس

ومِمّا يُحكى عنه: أنَّه كتب إلى أرسطوطالس يُخبره: أنّ في عسكره مِن الرُّوم جماعةً من خاصَّتهِ، لا يأمنهم على نفسه، لِما يَرى من بعدِ هِمَمِهم وشَجاعَتِهم وكثرةِ آلَتِهم، ولا يَرى لهم عقولاً تفي بتلك الفضائل، ويَكرَهُ الإقدامَ بالقتلِ عليهم بِالظِّنَّة، مع وجوب الحُرمةِ.

فكتب إليه أرسطوطالِسُ:

ـ «فَهمتُ كتابَكَ، وما وصفتَ به أصحابَكَ. فأمّا ما ذكرتَ من بُعدِ هِمَمِهم فإنّ الوفاءَ من بُعدِ الهِمّة. وأمّا ما ذكرتَ من شَجاعتِهم ونقصِ عقولِهم عنها، فمن كانت هذه حالُه، فَرَفِّههُ في معيشته، واخصُصه بحسان النِّساء. فإنَّ رَفاهَةَ العيشِ تُوهي العَزمَ، وتحبِّب السَّلامة، وتُباعدُ من رُكوب الخطأ والغَرَرِ. وليكُن خُلقُك حسناً تخلُص لكَ النّيّاتُ، ولا تتناول مِن لذيذِ العيشِ ما لا يُمكن أوساطَ إخوتِك مثلُه. فليسَ مع الاستيثارِ محبَّةٌ، ولا معَ المواساة بغضةٌ. واعلم أنَّ المملوك إذا اشتُرِيَ لا يَسأل عن مالِ مولاه وإنَّما يَسأل عن خُلقه».

وكان الإسكندر في الأيّام الّتي لقي فيها دارا، وَجِل من محاربته، ودعاه إلى الموادَعةِ، لِما رأى كثرة عُدَّتِه وعَتاده وعددِ جنده. فاستشار دارا أصحابه في أمره، فغشُّوه، وزيَّنوا له الحربَ، لفسادِ قلوبهم عليه، وكاتبوا الإسكندر، وأطمعُوهُ فيه. وكان ملك دارا أربعَ عشرةَ سنةً. فهدّم الاسكندر حصونَ الفرس، وبيوتَ النّيران، وقتل الهرابذةَ، وأحرق كُتُبَهم، ودواوينَ دارا.

وكاتب معلّمهُ ووزيرَهُ أرسطوطالسَ يُعلِمُهُ: أنّه شاهَدَ بإيرانشهر رجالاً ذَوي أصالةٍ في الرّأي، وجَمالٍ في الوجوه، لهم مع ذلك صرامةٌ وشَجاعةٌ، وأنّه رأى لهم هَيآتٍ وخِلَقاً، لو كان عَرَفَ حقيقتَها، لَما غزاهم، وأنّه إنّما ملكهم بحسن الاتّفاق والبَختِ، وأنّه لا يأمَنُ ـ إن ظَعَنَ عنهم ـ وُثُوبَهم، ولا تسكُنُ نفسُه إلاّ ببوارهم.

فكتب إليه أرسطوطالِس:

ـ «فَهِمتُ كتابَكَ في رجالِ فارس. فأمّا قتلُهم فهو من الفساد في الأرض ولو قتلتَهم لأنبتَ البلدُ أمثالَهم لأنَّ إقليمَ بابِل يُولِّد أمثالَ هؤلاءِ الرِّجال، من أهلِ العقولِ والسَّدادِ في الرَّأي، والاعتدالِ في التّركيب، فصاروا أعداءَكَ وأعداءَ عقِبِك بالطَّبع، لأنَّك تكونُ قد وَتَرتَ القومَ، وكثرت الأحقاد على أرضِ الرّوم منهم ومِمَّن بعدَهم، وإخراجُك إيّاهم في عسكرك مخاطَرةٌ بنفسِك وأصحابِك. ولكنّي أُشيرُ عليكَ برأيٍ هو أبلغُ لكَ في كلِّ ما تُريد من القتل، وهو أن تستدعيَ أولادَ الملوكِ منهم، ومَن يُستصلحُ لِلمُلك ويَتَرَشَّحُ له، فتُقَلِّدَهُم البُلدانَ، وتولِّيَهُم الولايات، لِيصيرَ كُلُّ واحد منهم مَلِكاً برأسِه، فتتفرَّقَ كلمتُهم، ويجتمعُوا على الطّاعةِ لكَ، ولا يؤدِّيَ بعضُهم إلى بعضٍ طاعةً، ولا يتَّفِقوا على أمرٍ واحدٍ، ولا تَجتمعَ كلمتُهم».

ففعل الإسكندرُ ذلك، فتمَّ أمرُه، وأمكنه أن يتجاوزَ مُلكَ الفُرسِ فسار قُدُماً إلى أرض الهند، حتّى قتل ملكَها مبارزةً، بعدَ حروبٍ عظيمةٍ هائلةٍ، وفَتَحَ مُدُنَها، ثُمَّ صار إلى الصِّين، وصنع بها كصنيعِه بأرضِ الهندِ، ثُمَّ طاف مما يلي القُطبَ الشَّماليَّ، ورجعَ إلى العراق، وخرج منها بعدَ أن ملَّك ملوكَ الطَّوائف، فمات في طريقه بشهرزور، ويقال: بَل في قرية مِن قُرى بابِل، وكان عمرُه ستًّا وثلاثين سنةً، وملك منها ثلاثَ عشرةَ سنةً وأشهراً. وقَتَل دارا في السَّنة الثّالثةِ من مُلكِه.

الإسكندرُ ومَلِكُ الصِّين

وفي الرّواية الصَّحيحة أنَّ الإسكندر لَمّا انتهى إلى بلاد الصّين، أتاهُ حاجبُه وقد مَضى من اللَّيل شطرهُ، فقال: «هذا رسول مَلكِ الصّين بالباب يستأذن في الدُّخول عليك». قال: «أدخِله». فأدخَلَهُ. فوقف بين يَدَي الإسكندر، وسلَّم، ثُمَّ قال: «إن رأى

المَلِكُ يستخليني». فأمر الملكُ مَن بحضرته أن ينصرفُوا، فانصرفُوا كُلُّهم وبقيَ حاجبُه. فقال: «إنَّ الَّذي جئتُ له، لا يحتمل أن يسمعَه غيرُك». قال: «فَتِّشوه». فلم يوجَد معه سِلاحٌ. فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مسلولاً وقال له: «قِف بمكانكَ وقُل ما شئتَ». وأخرَجَ كُلَّ مَن كان بَقِيَ عنده.

فقال: «أنا مَلِكُ الصّين، لا رسولُه، جئتُ أسألك عَمّا تُريده، فإن كان مِمّا أمكن عملُه، ـ ولو على أصعبِ الوُجوهِ ـ عَملتُه، وأغنيتُكَ عن الحرب».

فقال له الإسكندر: «ما الَّذي آمَنَكَ منّي؟».

قال: «عِلمي بأنَّك عاقلٌ حكيمٌ، ولم تَكُ بيننا عداوةٌ، ولا مطالبَةٌ بِذَحلٍ، وأنَّكَ تَعلم، إن قتلتَني، لم يكن ذلك سبباً لتسليم أهل الصّين إليك مُلكَهم، ولم يمنعهم قتلي من أن يَنصِبوا لأنفسهم مَلِكاً، ثُمَّ يُنسَبُ إلى غير الجميلِ، وضدِّ الحزم».

فأطرق الإسكندرُ، وعلم أنَّه رجلٌ عاقلٌ، ثُمَّ قال له: «الَّذي أريد منك ارتفاع مملكتِك لِثلاث سنين عاجلاً، ونصفُ ارتفاع مملكتك لكُلِّ سنةٍ».

قال: «هل غير هذا؟».

قال: «لا».

قال: «قد أجبتُكَ، ولكن سَلني: كيف تكون حالي بعد ذلك؟».

قال: «قُل، كيف تكون حالك؟».

قال: «أكون أوّلَ قتيلٍ من محاربٍ، أو أوّلَ أكيلةِ مفترسٍ».

قال: «فإن قنعتُ منك بارتفاع سنتين، كيفَ تكونُ حالُك؟».

قال: «تكون أصلحَ قليلاً وأفسح مدّةً».

قال: «فإن قنعتُ منك بارتفاع سنةٍ؟».

قال: «يكون في ذلك بقاءٌ لِمُلكي، وذهابُ جميعِ لَذّاتي».

قال: «فإن قنعتُ منكَ بارتفاعِ الثُّلثِ، كيف تكون حالك؟».

قال: «يكون السُّدس للفقراءِ ومصالح البلاد، ويكون الباقي لجيشي ولسائر أسبابِ المُلكِ».

فقال: «قد اقتصرتُ منك على هذا».

فَشكَرَهُ وانصرف. فلمّا طلعتِ الشَّمسُ، أقبلَ جيشُ الصّين، حتّى طَبَّقَ الأرضَ، وأحاطَ بجيشِ الإسكندر، حتّى خافوا الهَلاكَ. وتواثَب أصحابُه حتّى ركبوا الخيلَ، واستعدُّوا للحربِ بعدَ الأمنِ والطُّمأنينةِ إلى السِّلم. فبينا هم كذلك، إذ طلع مَلِكُ الصّين وعليه التّاج وهو راكبٌ. فلمّا تراءى الصَّفّان، ورأى الإسكندرُ مَلِكَ الصّين، قدَّر أنَّه

حَضر للحرب.

فصاح به: «أغدرتَ؟».

فترجَّلَ، وقال: «لا، واللّهِ».

قال: «فادنُ مِنّي».

فَدَنَا وقال: «ما هذا الجيشُ الكثير؟».

قال: «إنّي أردتُ أن أُريَكَ أنّي لا أطيعك من قِلَّةٍ وضعف، ولكنّي رأيتُ العالم العلوي مقبلاً عليك، مُمَكّناً لك مِمَّن هو أقوى منك وأكثرُ عدداً، ومن حارب العالَمَ العلويَّ غُلب، فأردتُ طاعتَهُ بطاعتِك، والتذلُّلَ له بالتَّذلُّلِ لَكَ».

فقال له الإسكندر: «ليس مثلُكَ من يُسامُ الذُّلَّ، ولا مَن يُؤدِّي الجزيةَ، فما رأيتُ بيني وبينَك مِنَ الملوك، من يستحِقُّ التَّفضيلَ والوصفَ بالعقلِ، غيرَك، وقد أعفيتُك من جميع ما أردتُه منك، وأنا منصرفٌ عنك».

فقال مَلِكُ الصّين: «فَلستَ تخسَر».

ثُمَّ انصرف عنه الإسكندر، فبعث إليه مَلِكُ الصّين بضِعفِ ما قرَّره معه.

وبنى الإسكندر اثنتَي عشرةَ مدينةً، وسمّاها كُلَّها «الإسكندريّة»، منها: مدينة «جيٍّ» بأصبهان، وثلاثُ مدنٍ أخرى بخراسان، وهي: هراة، ومرو، وسمرقند. وبنى بأرض بابلَ مدينةً لِروشنك، وبنى بأرض يونان سبعَ مدنٍ.

البَطالِسة

وعُرض على ابنٍ للإسكندر المُلكُ بعد وفاة أبيه، فأبى واختار النُّسكَ، ملَّكتِ اليونانيةُ على رواية أكثرِ النّاس بطليموسَ. ثُمَّ ملك عدّةٌ متواليةٌ يُقالُ لكل واحدٍ منهم: «بطليموس»، كما يقال لملوك الفرس: «الأكاسرةُ» وتغلّب قومٌ مِنَ اليونانيّين بعدَه على نواحي مصرَ والشّام.

الأشغانية ومن عاصرهم

واختلف أهل الرّواية في عدد ملوك الطّوائف الّذين ملكوا إقليم بابل، إلى أن قام بالمُلك أردشير بابكان، فنظم مُلك الفُرس. فبعضهم يزعم أنّ آشك ـ وهو ابن دارا الأكبر ـ جمع جمعاً كثيراً وسار إلى أنطيخس، وكان مقيماً بسواد العراق من قِبَلِ الرّوم، وزحف إليه أنطيخُس. فالتقيا ببلاد الموصل، فقُتِلَ أنطيخس، وغلب آشك على السَّواد، وصار في يده من الموصل إلى الرَّي وأصبهان، وعظَّمه سائرُ ملوك الطَّوائف لشرفه، وما كان من فعله، وبدأوا به على أنفسهم في كُتُبِهم، وبدأ فيما كان يكتب إليهم بِنفسِه، وسمَّوه ملكاً، وأهدوا إليه، من غير أن يعزل أحداً منهم، أو يستعمله.

ثُمَّ ملك جُوذَرزُ بنُ أشكان

وهو الّذي غزا بني إسرائيل المرّة الثّانية. وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكريّا. فسلَّطه اللّه عليهم، فأكثر القتلَ فيهم، فلم تَعُد لهم جماعةٌ بعدَ ذلك ورفع اللّه عنهم النُّبوَّةَ، وأنزل بهم الذُّلَّ.

وكان من سُنَّة الفرس بعد الإسكندر، أن يَخضعُوا لِمَن مَلَكَ بلادَ الجَبَلِ. فخضعوا للأشغانيَّةِ، وأوّلهم: أشكُ بنُ أشكانَ، ثُمَّ سابورُ بنُ أشكانَ ـ وفي أيامِه ظهر عيسى ابنُ مريم بأرضِ فلسطين ـ ثُمَّ ملك جوذرز بنُ أشغانانَ الأكبر، ثُمَّ بيرى الأشغاني، ثُمَّ جوذَرزُ الأشغاني، ثُمّ نَرسى الأشغاني، ثُمَّ هُرمزُ الأشغاني، ثُمَّ أردوانُ الأشغاني، ثُمَّ كسرى الأشغاني، ثُمّ بلاشُ الأشغاني، ثُمَّ أردوانُ الأصغر الأشغاني، ثُمَّ أردشيرُ بنُ بابك. فكان مدّةُ هؤلاء إلى أن وثب أردشير على الأردوان، فقتله وجمع أمرَ الفرس، مائتين وسِتًّا وسِتّينَ سنةً. ولم يقع إلينا شيءٌ من تدابيرهم يُستفاد منه تجربةٌ إلا خبرٌ لبعض الرّوم، وهو:

ذِكرُ حيلةٍ لبعضِ ملوكِ الرّومِ

كان أحد ملوك الفرس وَجَّهَ رجلاً من جِلَّةِ قُوَّادِه في جيشٍ إلى مَلكِ الرُّوم، فحاربه، فأجلاه الفارسيُّ عن أكثر بلاده، حتّى فتح أنطاكيةَ، وجاوزها وأوغل في بلاد الرّوم. فجمع مَلكُ الرّوم رؤساءَ قومِه، فشاوَرَهم. فأشاروا بأمورٍ مختلفةٍ، حتّى انفرد له رجلٌ من أهل مملكته، ولم يكن من أبناء الملوك.

فقال: «إنّ عندي رأياً أُشيرُ به. فإن رزق اللّه الظّفر، فما لي عندك؟».

قال الملك: «سَل حاجتك».

قال: «إنّي أرى الرّأيَ الصّحيح، وأخاطر فيه بنفسي، فاجعل لي المُلكَ من بعدِك».

قال: «نعم»، فوثّق له به.

فقال الرّومي: «إنّ الفُرسَ قد طمعت في مُلكنا، فلم يبقَ منهم نجدٌ ولا ذو رأيٍ إلاّ وجّهوه في وجوهنا، وقد ضعُفنا عنهم، وقد حملوا ذراريّهم إلى الشّام والجزيرة. فالرّأي أن تأذنَ لي فأنتخبَ من عسكركَ خمسةَ آلافِ رَجُلٍ ثمّ أحملَهم في البحرِ، وأصيرَ من خَلفِهم، فأوكِلَ بمضائق الطُّرقِ، وصعابِ العِقابِ، رجالاً من أصحابي من أهل البأس والنّجدة، فإنّ خبري إذا بلغهم، فتَّ في عَضُدِهم ونُخِبَت قُلوبُهم، ورجعوا إلى عيالاتهم وأموالهم متقطّعين، فَلا يَمُرُّ بالمواضع الّتي وَكّلتُ بها، أحدٌ من الفرسِ إلاّ قُتِلَ، فلا يَسلم إلاّ القليل الّذين إذا صاروا إلى الشّام أتيتَ عليهم وتُشرِّدُهم أنت من خلفِهم».

فأجابه الملكُ إلى رأيه، وأنفذه إلى الشّام. فلمّا بلغ الفرسَ أنَّ الرّوم قد خلفتهم في أموالهم، وأهاليهم، خرج أكثرهم على وجوههم متقطّعين لا يَلوُونَ على شيءٍ، ومرّوا بمضائق الطُّرق، فقُتِل أكثرهُم، وخرج مَلِكُ الرّوم إلى مَن بَقِيَ منهم، فهزمهم، فلم يسلم منهم إلاّ القليل. فتحَوّلَ المُلكُ بذلك السّبب من أهل بيت المملكة بالرّوم، إلى قومٍ ليسوا من أهل بيتها، بل هُم مِن أهلِ إرميناقس، فبقي فيهم إلى هذه الغاية.

ذكرُ سبَبِ طَمعِ العربِ في أطرافِ الفُرسِ

كُنّا حكينا من أمر بختَنصَّر أنّه أَنزلَ الحيرةَ من العرب جماعةً، فانتقلوا بعد موته إلى الأنبار، وبقي الحَيرُ خَراباً يباباً، زماناً طويلاً، لا تطلع عليهم طالعةٌ من بلاد العرب، ولا يطمع أحدٌ فيهم من الرّيف، بعدما قصدهم بُختَنَصَّرُ. فلمّا غلب الإسكندرُ على مملكةِ الفرس، وجعلها مقسومةً في ملوك الطّوائف، ضعف كُلُّ واحدٍ منهم في نفسه، وصار عدوُّه بالقرب منه من الأرضِ، ولكلِّ واحدٍ خَندَقٌ يقصدُه الآخَرُ، فيُغير بعضُهم على بعضٍ، ثُمَّ يرجع كالخَطفةِ.

وقد كان كَثُرَ في ذلك الزّمانِ أولادُ معدّ بن عدنان، ومَن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بِلادَهم من تِهامَةَ وما يليهم، وحدثت بينهم أحداثٌ وحروبٌ، فتفرَّقوا، وخرجوا يطلبون متّسعاً في بلاد اليمن ومشارف الشّام، وأقبلت منهم قبائلُ حتّى نزلوا البحرينَ وبها جماعةٌ من الأزدِ، وكانوا نزلوها في زمانِ ابن ماء السّماءِ، وتحالف القوم الّذين خرجوا من تهامة على التّنوخ بالبحرين ـ والتُّنوخُ: المُقام ـ وكان منهم قومٌ من

قُضاعةَ، وقومٌ من معدٍّ، وقومٌ من إِياد. فتعاقَدُوا على التَّوازرِ والتَّناصر، وصارُوا يَداً على النّاس وصار اسمهم: «تنوخ».

ثمّ لمّا بلغهم انتشارُ أمرِ الفرس واختلافُ كلمتِهم، تطلَّعت نفوسُهم، إلى ريف العراق، وطَمِعُوا في الفرس وفيما يلي بلاد العرب من أعمالهم، أو مُشاركتِهم فيها، واهتَبلوا ما وقع بين ملوكِ الطّوائف من الاختلاف، فأجمع رؤساؤهم على المسير إلى العراق. فلمّا ساروا، وجدوا الإرمانيّين - وهم القومُ الّذين بأرضِ بابلَ وما يليها إلى ناحية الموصل - يقاتلون الأردوانيّين، وهم: ملوكُ الطّوائفِ، وهم فيما بين نِفَّر - قرية من سوادِ العراق - إلى الأُبلَّةِ وأطرافِ البادية. فلم تَدنِ لهم، فدفعوهم عن بلادهم. وإنّما قيل: «الإرمانيّين» لأنَّه كان يقال لعادٍ: «إرَمُ»، فلمّا هلكت، قيل لثمود: «إرَمُ»، ثُمَّ سُمُّوا: «الإرمانيّين» وهم بقايا «إرَم»، وهم نَبطُ السَّواد. ويُقال لِدمشق: «إرم».

ثُمَّ طلع قومٌ من تَيم اللّه، وغطفان في من تَنخَ معهم من الحُلفاءِ والعشائر على الأنبار، على مُلك الإرمانيّين. وطلع قومٌ من كِندَة وبَني فَهم مع من حالفهم. وتَنخَ بعضهم على نِفَّر على مُلكِ الأردوانيّين، فأنزلوا الحَيرَ، فلم تزلْ طالعةُ الأنبار وطالعةُ نِفَّر على ذلك، لا يدينون للأعاجم، ولا تدين لهم الأعاجم، حتّى قدِمَها تُبَّعٌ - وهو أسعدُ بنُ مليكيكرب - في جيوشه، فخلَّف بها من لم تكن به قُوَّةٌ ومن لم يَقوَ على الغَزوِ معه، ولا الرُّجوعِ إلى بلادِه. فانضمّوا إلى أهل الحيرةِ، وخرج تُبَّعٌ في حِميَر سائراً، ثُمَّ رجع إليهم، فأقرَّهم على حالهم، وانصرف إلى اليمن وفيهم من كُلِّ القبائل من بني لحيانَ - وهم بقايا جُرهُم - وطيِّءٍ، وكلبٍ، وتميم وغيرِهم، واتَّصلت جماعتُهم وقَوُوا، وكانوا بين الأنبار والحيرَة إلى طفِّ الفَراتِ في المَظالِّ والأبنية، وكانوا يُسمّونَ: «عَربَ الضّاحية».

من عاصر الأشغانيّين من مُلوك العرب

فكان أوّل من مَلَكَ منهم:

مالك بن فَهم، وملوكُ الفرس طوائفُ، وقد دخل الوهُن عليهم، وطُمع فيهم.

ثُمَّ ملك أخوه عمرُو بنُ فَهم.

ثُمَّ جَذيمةُ الأبرشُ بنُ مالكِ بنِ فهم، فَقَوِيَ أمرُه، وكان جَيِّد الرَّأيِ، شديدَ النِّكاية في الأعداءِ بعيدَ المُغار. فاستجمع لهَ المُلكُ بأرضِ العراق، وضمَّ إليه العربَ، وغزا بالجيوش، وعظَّمتهُ العربُ، وكَنَت - عَن برصٍ بِه - بـ «الأبرشِ» وبِـ«الوَضّاحِ»، فكان تَفِد عليه الوُفود، وتُجبى إليه الأموالُ.

وكان عنده غلامٌ من إيادٍ يقال له: عَديُّ بنُ نصرِ بنِ ربيعةَ، وضيءٌ، لهُ جمالٌ

وظَرَفٌ، يَلي شرَابه. فعَشِقَتهُ أختُ جَذيمةَ رَقاشُ، وما زالت تحتال، وتواطِئُه، حتّى زوَّجها الملكُ بِعَديٍّ في سُكرِه. فوطِئَها من ليلته وعَلِقت منه. فلمّا أصبح جَذيمةُ وعرف الخَبَر، نَدِمَ ندامةً شديدةً. وعَرَفَ عَديُّ الخَبَر، فهرَب، ولحق بإياد حتّى هلك. واشتملت رَقاش على حَبَلٍ، فولدت غلاماً وسمّته عَمراً. فترعرعَ الغلام وحَسُنَ وبَرَعَ، فألبسته وحلَّته، وأزارته خالَه جَذيمةَ، فأُعجبَ بِه، وأحبَّهُ، وخَلَطَه بِوُلدِه، وأَمَر فطُوِّقَ، وهو أوّلُ عربيٍّ أُلبِسَ طَوقاً. ثُمَّ تزعُم العربُ أنّ الجنَّ استهوته زماناً إلى أن عاد إلى جَذيمةَ. وله خَبَرٌ.

عمرُو بن ظَرِبٍ

وكان قد مَلَكَ بأرضِ الحيرة ومشارف بلادِ الشّام، عمرُو بن ظَرِب بنِ حَسّانِ العِمليقي. فجمع جَذيمةُ جموعَه من العَرب ليغزُوَه. وأقبل عمرُو بن ظَرِبٍ بجموعه من الشّام. فالتقَوا، واقتتلُوا قتالاً شديداً، فقُتل عمرُو بن ظَرِب، وفُضَّت جموعُه، وغَنِمَهُ جَذيمةُ وانصرفَ موفوراً. فملكت من بعده ابنَتُهُ:

الزّبّاءُ

واسمُها نائلةُ. وكان جنودُها بقايا من العَماليقِ، والعاربةِ الأولى، وقبائلَ من قُضاعةَ. فلمّا استحكم حُكمُها، أجمعت على غزوِ جَذيمةَ الأبرشِ تطلبُ بثأر أبيها. واستشارت أهلَ الرَّأي، فأُشيرَ عليها بالعدولِ عن الحرب إلى المكر، وأعلموها أنَّها امرأةٌ، والحربُ سِجالٌ بينَ الرّجال، وأنّها لو قد هُزِمَتْ كان البَوارُ، وأعلموها من غِبِّ مُباشَرَةِ مِثلِها للحرب، ما كَرِهَتهُ.

وأشارت عليها أختها «زنيبة» وكانت ذاتَ دهاءٍ وإربٍ ـ أن تأتيَ الأمرَ من جِهةِ الخَدعِ والمكرِ، وأن تكتبَ إلى جَذيمة تدعوهُ إلى نفسها ومُلكِها. فقبلت ذلك وكتبت إليهِ أنَّها لم تجد مُلكَ النِّساءِ إلاّ إلى قُبح في السَّماع، وضعفٍ في السُّلطان وقلَّةِ ضبطٍ للمملكةِ؛ وأنَّها لم تجد لِمُلكِها موضعاً، ولا لنفسها كُفؤاً «غيرَك. فهَلُمَّ إليَّ، واجمع مُلكي إلى مُلكِكَ، وصِل بلادي ببلادك، وتَوَلَّ تدبيري كُلَّه وأمري، لِتموتَ الضَّغائنُ والأحقادُ، وتزولَ عن قلوبِ النّاس ما خامَرها من العَداوات».

فلمّا انتهى كتابُ الزَّباء إلى جَذيمة، وقَدِمَ عليه رُسُلُها، بمخاطباتٍ شبيهةٍ بهذا المعنى، استخفَّه ما دَعَتهُ إليه، ورغِبَ فيما أطمعتهُ فيه، وجمع أهلَ الرّأي من أصحابه، فاستشارهم. فأَجمعَ رأيُهم على أن يسيرَ إليها، ويَستَوليَ على مُلكِها. وكان فيهم رجلٌ يقالُ له:

قصيرُ بنُ سَعدٍ

وكان سعدٌ هذا تزوَّج أَمَةً تخدم لِجَذيمَةَ، فولدت له قصيراً، وكانَ حازماً، أريباً،

أثيراً عند جَذيمةَ. فخالفهم في ما أشاروا به عليه، وقال:

- «رأيٌ فاترٌ وغَدرٌ حاضرٌ». - فذهبت مثلاً.

فنازعوه الرّأي، فقال لِجَذيمةَ: «اكتب إليها: فلتُقبِل إليك إن كانت صادقةً. فإن لم تفعل، فلم تَسِر إليها مُمَكّناً إيّاها من نفسك وقد وَترتَها، وقتلتَ أباها».

فلم يوافق جَذيمةُ ما أشارَ بِه عَلَيهِ قصيرٌ، وقال جَذيمةُ:

- «أنت امرُؤٌ رأيُك في الكِنّ، لا في الضحِّ» - فذهبت مثلاً.

ودعا جَذيمةُ ابنَ أختِه عمرَو بنَ عديٍّ، فاستشاره، فشجَّعَهُ على المسير، وقال:

- «هناك نُمارة قومي، ولو قد رَأوكَ، صاروا معك».

فأطاعه وعَصى قصيراً. فقال قصيرٌ:

- «لا يُطاعُ لقصيرٍ أمرٌ».

وفي ذلك يقول الشُّعراءُ ما حذَفناه طلبَ الإيجاز.

واستخلف جَذيمةُ عمرَو بنَ عَديٍّ على مُلكِه وسُلطانه. وسار في وجوهِ أصحابه، فأخذ على الفرات من الجانب الغربيّ. فلمّا نزل رَحبةَ مالكِ بن طوقٍ - وكان تُدعى في ذلك الزّمان «الفُرضَةَ» - دعا قصيراً، فقال:

- «ما الرَّأي؟» فقال:

«بِبِقَّةَ تركتَ الرَّأيَ» - فذهبت مثلاً.

واستقبلتهُ رُسُلُ الزَّبّاءِ بالهَدايا والألطافِ، فقال:

- «يا قصيرُ كيف تَرى؟» قال:

- «خَطَرٌ يَسيرٌ في خطبٍ كبيرٍ - فذهبت مثلاً - وستلقاكَ الخيلُ، فإن سارت أمامَك فإنّ المرأةَ صادقة، وإن أخذت جَنبَتيكَ، فالقومُ غادرون، فاركبِ العصا، فإنّي مُسايركَ عليها».

وكانت العصا فَرساً لِجَذيمة لا تُجاري، فلِقَيتهُ الخيولُ والكتائبُ، فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصيرٌ مولّياً على متنِها، فقال:

- «ويل أمِّةِ حزماً على ظَهر العصا» - فذهبت مثلاً.

ونجا قصيرٌ، وأُدخِلَ على الزَّبّاءِ. فلمّا رأته كشفت له عن إسبِها، فإذا هو مضفورٌ. فقالت:

- «يا جذيمةُ! أدأب عروسٍ ترى؟» - فذهبت مثلاً.

فقال: «بَلَغَ المَدى، وجفَّ الثَّرى، وأمرَ غَدرٍ أرى». - فذهبت مثلاً.

فتمَّت حيلتُها على جَذيمةَ، حتّى قَتَلَته بأن قطعت راهِشَيه، في خبرٍ طويلٍ، وأمثالٍ محفوظةٍ. فهلك جَذيمةُ، وخرج قصيرٌ حتّى قَدِمَ على عمرو بنِ عديٍّ وهو بالحيرة.

فقال له قصير: «أَداثِرٌ، أم ثائرٌ؟» فقال: ـ «بل ثائرٌ سائرٌ». ـ فذهبت مثلاً.

ذكر حيلةٍ لقصيرٍ على الزّبّاءِ تمَّت له عليها

كانت الزّباء قد سألت الكهنةَ والمنجِّمين عن أمرها ومُلكِها، فقالوا:

ـ «نَرى هَلاكَكِ بسبب غلامٍ مهين غير أمين».

ووصفوا قصيراً وعَمرو بن عديٍّ، وقالوا:

ـ «لن تموتي إلاّ بيده. ولكنَّ حتفَكِ بيدِكِ، ومن قِبَلِه ما يكون».

فحذرت عَمراً، واتَّخذت نفقاً من مجلسها الّذي كانت تجلس فيه، إلى حِصنٍ لها داخلَ مدينتِها، وقالت: إن فَجِئَني أمرٌ دخلتُ النَّفقَ إلى حِصني.

ثُمَّ دَعَت مَصوِّراً حاذقاً فجهَّزتهُ، وقالت:

ـ «سِر حتّى تَقدِم على عمرو بن عديٍّ متنكِّراً فتخلو بحَشَمِه وتخالطهم بما عندك من التّصوير، ثُمَّ أثبِت عمروَ بن عديٍّ معرفةً، فصوِّرهُ جالساً، وقائماً، وراكباً، ومتفضِّلاً، ومتسلِّحاً بهيئَتِه، ولِبسَتِه، وثِيابه، ولونِه، فإذا أحكمتَ ذلك، فأقبِل إليَّ».

فانطلق المصوِّر، حتّى قَدِمَ على عمرو بن عديّ وبَلَغَ جميعَ ما وصَّتهُ به، ثُمَّ رجع إليها بما وجَّهتهُ له من الصُّور. فعرفت عمراً على جميع هيئاته، وحَذرته.

ثُمّ إنّ قصيراً قال لعمرو: «اجدع أنفي، واضربِ ظَهري، ودَعني وإيّاها».

فقال عمرو: «وما أَنا بفاعلٍ، ولا أنت بمستحقٍ مِنّي لذلك».

فقال قصير: «خَلِّ عَنّي إذاً وخلاكَ ذَمٌّ». ـ فذهبت مثلاً.

فقال له عمروٌ: «فأنتَ أبصرُ». فَجَدَعَ قصيرٌ أنفَ نفسِه، وأثَّر بظَهره، وقيلت فيه الأشعار، وخرج قصيرٌ كأنّه هاربٌ، وأظهرَ أنّ عَمراً فعلَ بِه ذلك، وأنّه يزعم أنّه مَكرَ بخاله جَذيمةَ، وغرَّه من الزَّبّاء.

فسار قصيرٌ حتّى قَدِم على الزّبّاء. فقيل لها: «إنّ قصيراً بالباب».

فأمرت به، فأُدخِلَ عليها، فإذا أنفه قد جُدِع وظهرُهُ قد ضُربَ.

فقالت: «ما الّذي أرى بك يا قصيرُ؟».

قال: «زعم عمرٌو أنّي غَرَرتُ خالَهُ، وزيَّنتُ له المسيرَ إليكِ، وغَشَشتُهُ، ومالأتُكِ عليه، ففعَلَ بي ما تَرَينَ، فأقبلتُ إليكِ، وعَرَفتُ أنّي لا أكُونُ مع أحدٍ هو أثقلُ عليه منكِ».

فأكرمتهُ، وأصابت عنده حزماً ورأياً وتجربةً ومعرفةً بأمورِ الملوك. فلمّا علم أنّها قد وَثِقَت به، واسترسلت إليه، قال لها:

- «إنَّ لي بالعراق أموالاً كثيرةً، وبها طرائفُ وثيابٌ وعِطرٌ، فابعثني إلى العراق لأحمِل مالي، وأحمِلَ إليك مِن بُزوزِها، وطرائفِ ثيابِها، وصنوفِ ما يكون بها من الأمتعةِ، والطِّيب، والتِّجارات، فتُصيبينَ ما لا غَناءَ لِلملوكِ عنه، مع أرباحِ عظيمةٍ، فإنَّه لا طرائفَ كطرائف العراق».

فلم يزل بها يزيِّنُ لها ذلك، حتّى سرَّحَته، ودفعت إليه أموالاً، وجهَّزت معه عيراً، وقالت:

- «انطلق إلى العراق، فَبِع بها ما جهَّزناك به، وابتغْ لنا طرائفَ ما يكون بها».

فسار قصيرٌ، وأتى الحيرةَ متنكِّراً، فَدَخَلَ على عمروٍ، وأخبره بالخبر، وقال:

- «جَهِّزني بالبَزِّ والطُّرَفِ من الأمتعة، لعلَّ اللّهُ يمكِّنُ مِنَ الزَّبّاءِ، فتصيبَ ثأرَكَ، وتقتُلَ عدوَّك».

فأعطاه حاجتَه، وجهَّزه بصنوف الثّياب وغيرها. فرجع بذلك كُلِّه إلى الزَّبّاءِ فعرضَه عليها. فأعجبها ما رَأَتْ، وازدادت به ثِقةً، وإليه طُمأنينةً. ثُمَّ جهَّزته بأكثرَ مِمّا كانت جهّزته به. فسار حتّى قَدِمِ العراق، ولقي عَمرو بنِ عديٍّ، وحمل من عنده ما ظنَّ أنّه موافقٌ للزّبّاء، ولم يترك جهداً ولا حيلةً في طُرفةٍ ولا مَتاعٍ قَدَرَ عليهِ إلاّ حملَه إليها.

ثُمَّ عاد الثّالثةَ إلى العراق. فقال لعمروٍ:

- «اجمع إليَّ ثقاتِ قومِك وأصحابِك وجندِك، وهَيِّئ لي الغَرائرَ والمُسوحَ».

وحَمَلَ كلَّ رجلين في غرارتين، وجَعَلَ معقَدَ رؤوس الغرائر من باطِنها، وقال:

- «إذا دخلنا مدينةَ الزَّبّاء، أقمتُك على باب نَفَقِها، وخرجتِ الرِّجالُ من الغرائر، فصاحوا بأهلِ المدينةِ، فَمن قاتلهم قتلوهُ، وإذا أقبلتِ الزّباء تُريدُ النَّفق، حلِّلتَها بالسَّيفِ».

ففعل عمرُو بن عديّ جميعَ ذلك. فلمّا قرب من المدينة، تقدَّم قصيرٌ إليها، وبشَّرها، وأعلمها كثرةَ ما حمل إليها من الثِّياب، وسألها أن تخرجَ فتنظرَ إلى قُطُراتِ تلك الإبلِ، وما عليها من الأحمال. وكان قصير يَكمُنُ النَّهارَ ويسير باللَّيل. فخرجت الزّبّاء فأبصرت الإبلَ. فلمّا توسَّطتِ الإبلُ المدينةَ أُنيخت، ودلَّ قصيرٌ عمراً على باب النّفق، وخرجتِ الرّجالُ من الغرائر، وصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السِّلاح. وقام عمرُو بنُ عديٍّ ببابِ النَّفَقِ، وأقبلتِ الزّبّاء مبادرةً تريد النَّفقَ لتدخله. فأبصرت عمراً قائماً، فعرفته بالصُّورة الّتي صوَّرها المُصوِّرُ، فمصَّت خاتَمَها وكان فيه سمٌّ، وقالت:

ـ «بيدي، لا بيدِكَ يا عمرُو!».

فحلَّلها بالسَّيف، فقتلها وأصابَ ما أصابَ، وانكفأ سالماً.

عمرُو بنُ عَديٍّ

وصار المُلكُ بعد جذيمة لعمرو بن عديّ بن نصرِ بن ربيعةَ بن الحارث بنِ مالك بنِ عمرو بنِ نُمارَةَ بن لَخم، وهو أوّلُ من اتَّخذ الحيرةَ منزلاً من ملوكِ العرب، وإليه تُنسب ملوكُ آلِ نصر، ومات وهو ابنُ مائةٍ وعشرين سنةً، لا يَدين لملوك الطَّوائف، ولا يَدينون له، حتّى قَدِم أردشيرُ بن بابك في أهلِ فارِسَ، فكان من أمرهم ما كان.

ولم يكن لملوك اليمن نِظامٌ قبلَ آلِ نصر، وإنّما كان الرَّئيسُ يكونُ مَلِكاً على مخلافه ومَحجَرِه، لا يتجاوزُه، فإن نَبغَ منهم نابغٌ مثل تُبَّع وغيرِه، فتجاوزَ ذلك، فإنَّما هو عن غيرِ نظامٍ ولا مُلكٍ مُوَطَّدٍ لهُ ولا لآبائه، ولا لأبنائه، ولكن كالَّذي يكونُ من بعضٍ من تشرَّدَ، فيُغير عند الغِرَّةِ، فإذا قصده الطَّلبُ، لم يكن له ثباتٌ. فكذلك كان أمر ملوكِ اليمن كان الواحدُ منهم بعد الواحد، في قديم الدَّهر، يخرج من مخلافه ومحجره أيّاماً، فيُصيبُ ما مرَّ بِه، ثُمَّ يتشمَّرُ عند الطَّلب راجعاً إلى موضعه من غير أن يَدينَ له أحدٌ من غير أهل مخلافه ومحجره بالطّاعةِ، أو يؤدّيَ إليه خرجا إلاّ ما يُصيبُ على جِهةِ الغارة، حتّى كان عمرُو بن عديّ، ابن أختِ جَذِيمةَ، فإنَّه اتَّصل له ولِعَقبِهِ ولأسبابه المُلكُ على من كان بنواحي العراق، وباديةِ الحجاز، باستعمالِ ملوكِ فارسَ إيّاهُم واستكفائهم أمرَ منَ وليهُم من العرب.

طَسْمٌ وجَديسٌ

ومِمَّن أساء السّيرةَ فاصطُلِمَ، طسمٌ وجديسٌ، وكانوا في أيّام ملوك الطَّوائف. فأمّا طسمٌ فكان المَلِكُ فيهم، وكانوا ساكني اليَمامةَ، وهي إذ ذاك من أخصب البِلاد وأعمرها وأكثرها خيراً، لهم فيها صنوفُ الثِّمار، ومعجِباتُ الحدائقِ والقصورِ الشّامخةِ. وكان ملكُهم ظلوماً غشوماً راكباً هواه. فكان مِمّا لَقُوا من ظلمه: أنَّه أمَرَ ألاّ تُهدى بِكرٌ من جَديسٍ إلى زوجها حتّى تدخُلَ عليه فيفترعَها. فَغَبَرَ على ذلك دهراً، حتّى أنِف منهم رجلٌ يقال له: الأسودُ بن عفار.

فقال لرؤساءِ قومه:

ـ «قد ترون ما نحن فيه من العار والذُّلّ، الَّذي ينبغي لِلكِلابِ أن تَعافَه، وتمتعِضَ منه، فأطيعوني، فإنّي أدعوكم إلى عزِّ الدَّهر ونَفي الذُّلّ».

قالوا: «وما ذاك؟».

فأخذ عهودَهم إلى أن وَثِقَ ثُمَّ قال:

ـ «إنّي صانعٌ لِلملك طعاماً، فإذا حضر نهضنا إليهم بأسيافنا، فانفردتُ به فقتلتُه، وأجهز كلُّ رجلٍ منكم على جليسه».

فأجابوه إلى ذلك، واجتمع رأيهم عليه. فاتَّخذ طعاماً وأمر قومَه، فانتضَوا سيوفَهم ودفنوها في الرَّملِ، وقال:

ـ «إذا أتاكم القومُ يرفلون في حُلَلهم فخذوا سيوفكم ثُمَّ شُدُّوا عليهم قبلَ أن يأخذوا مجالسَهم، ثمّ اقتلوا الرُّؤساءَ، فإنَّكم إذا قتلتموهم لم تكن السَّفِلةُ شيئاً».

وحضر الملك، فقُتِلَ وقُتِلِ الرُّؤساءُ، ثُمّ شَدُّوا على البقيّة، فأفنوهم.

فهرَب رجلٌ من طَسم يقال له: رياح بن مُرَّة، حتّى أتى حسّانَ بن تُبَّع، فاستغاثَ به. فخرج حسّان بن تُبَّع في حِميرٍ، فلمّا كان من اليمامة على ثلاثٍ، قال لهَ رياحٌ:

ـ «أبيتَ اللَّعن، إنَّ لي أختاً متزوِّجةً في جَديسٍ يُقالُ لها: اليمامة، ليس على وجه الأرض أبصرَ منها. إنَّها لَتُبصر الرّاكبَ من مسيرةِ ثلاثٍ، وإنّي أخاف أن تُنذِرَ القومَ، فمُرْ أصحابَك، فَليقطع كلُّ رجلٍ منهم شجرةً فيجعلها أمامَه».

ففعلوا ذلك، فأبصرتهم، فقالت لجَديس:

ـ «لقد سارت حِميرٌ».

فكذَّبوها وقالوا:

ـ «ما الَّذي تَرَيْنَ؟».

قالت: «أرى رجلاً في شجرٍ معه كَتِفٌ يتعرَّقُها أو نعلٌ يخصفها».

فلم يستمعوا منها، واستهانوا، فكان كما قالت. وصبَّحهَم حسّان فأبادَهم وأخربَ بِلادَهم، وهدَّم قصورَهُم وحصونَهم. وأتى حسّان باليمامةِ فَفَقَأَ عينَها، وقالتِ العربُ في ذلك الأشعارَ، وهي معروفةٌ.

الساسانية ومن عاصرهم

أردشيرُ بنُ بَابك

ثُمَّ لما استولى أردشيرُ بن بابك على الإرمانيّين (وهم ملوك العراق وأنباطُ السَّوادِ، وكان كلُّ واحدٍ منهم يُقاتل صاحبَه، فاستولى أردشيرُ عليهما، وقَتَلَ الأردوانَ ـ ويُسمّى «شاهنشاه») كَرِهَ كثيرٌ من تَنُوخَ أن يُقيموا في مملكتِه، فخرجُوا فَلحِقوا بالشّام، وانضمُّوا إلى مَن كان هناك وكان ناسٌ من العرب يُحدِثونَ الأحداثَ لو تضيق بهم المعيشة، فيخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرةَ على ثلاثةِ أثلاثٍ: الثُلثُ الأوّل: «تَنوخُ»، وهو مَن كانَ يسكنُ المظالَّ وبيوتَ الشَّعر والوَبَرِ في غربيِّ الفراتِ فيما بين الحيرة والأنبار وما فوقَها. والثُّلثُ الثّاني: «العُبّادُ»، وهم الّذين سكنوا الحيرةَ وابتَنوا بها. والثُّلثُ الثّالث: «الأخلافُ»، وهم الَّذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم مِمَّن لم تكن من تنوخِ الوَبَرِ ولا مِنَ العُبّادِ الَّذين دانوا لأردشيرَ. وكانتِ الحيرةُ والأنبارُ جميعاً بُنِيَتا في زمن بختنصَّرَ، فخَربتِ الحيرةُ لمّا تحوَّل أهلُها عند هلاكِ بختنصَّرَ إلى الأنبار، وعَمَرتِ الأنبارُ خَمسَمائةٍ وخمسينَ سنةً إلى أن عَمَرَتِ الحيرةُ في زمنِ عمرو بن عديٍّ باتّخاذِه إيّاها مَنزلاً، فَعَمَرَتِ الحيرةُ خمسمائةٍ وبضعاً وثلاثينَ سنةً، إلى أن وُضعت الكوفةُ، ونَزلها المسلمون.

ودبّر أردشيرُ أمرَ الفُرسِ والعَرب، وردَّ نِظامَ المُلكِ، وكان حازماً أريباً كثيرَ الاستشارةِ طويلَ الفكرِ، معتمداً في تدبيره على رجلٍ فاضلٍ من الفرس يُعرف بـ«تَنسَر»، وكان هِربَذاً. فلم يزل يدبِّر أمرَه ويجتمع معه على سياسة الملك، إلى أن أطاعه مَن جاوره مِن مُلوك الطّوائفِ، وعرفُوا فضلَه، ودخلُوا تحتَ رايته رَهبةً ورَغبةً، وحارب مَن امتنع منهم عليه.

وله مكائدُ وحروبٌ يطولُ الكتابُ بذكرها. فمن أحسن ما حُفظ له عهدُه إلى الملوك بعدَه، وهذه نسختُه:

عَهدُ أردَشير

ـ «باسم وليِّ الرَّحمةِ. مِن مَلِكِ المُلوكِ أردشيرَ بن بابَكَ، إلى من يخلُفُه بِعَقِبِهِ من مُلوك فارسَ. السَّلامُ والعافيةُ. أمّا بعدُ، فإنَّ صِيغَ الملوكِ على غير صِيغِ الرّعيَّة، فالمَلكُ يطبَعُه العِزُّ والأمنُ والسُّرورُ والقدرةُ، على طِباع الأنَفَةِ والجُرأةِ والعَيثِ والبَطَرِ.

ثُمَّ كلَّما ازدادَ في العُمر تَنَفُّساً وفي المُلك سلامةً، زادَهُ في هذهِ الطَّبائع الأربع، حتّى يُسلِمَهُ إلى سُكرِ السُّلطان الَّذي هو أشدُّ مِن سُكرِ الشَّرابِ، فَيَنسى النَّكَباتِ والعَثراتِ والغِيَرَ والدَّوائرَ وفُحشَ تسلُّطِ الأيّام، ولُؤمَ غَلبةِ الدَّهرِ، فَيُرسلُ يَدَه ولِسانَه بالفعلِ والقولِ. وقد قال الأوَّلون مِنّا: عندَ حُسنِ الظَّنِّ بالأيّام تحدُث الغِيَرُ. وقد كان من الملوكِ مَن يُذكِّره عِزُّه الذُّلَّ، وأمنُهُ الخَوفَ، وسُرورُه الكَآبَةَ، وبَطَرُهُ السُّوقَةَ، وقُدرَتُه المعجزَةَ، ولا حزمَ إلاّ في جميعها».

ـ «اعلموا أنَّ الَّذي أنتم لاقُون بعدي، هو الَّذي لَقِيني من الأمورِ، وهي بعدي واردةٌ عليكم بِمِثلِ الَّذي وَرَدَت به عليَّ، فيأتيكم السُّرور والأذى في المُلك من حيثُ أتَياني، وأنَّ منكم من سيركبُ المُلكَ صَعباً فيُمنى مِن شماسه وجِماحه وخَبطه واعتراضِه بمثلِ الَّذي مُنيتُ به. ومنكم من سَيرِثُ المُلكَ عَنِ الكُفاةِ المذلِّلِينَ لهُ مَركبَهُ، وسيجري على لسانه ويُلقى في قلبهِ أن قد فُرِغَ له، وكُفِيَ، واكتفى وفَرَغَ للسَّعي في العَبَثِ، والملاهي، وأنَّ مَن قَبلَه من الملوك إلى التّوطيد له أجرَوا، وفي التَّمكينِ له سَعَوا، وأن قد خُصَّ بما حُرِموا، وأُعطِيَ ما مُنِعوا، فَيُكثِرُ أن يقولَ مُسِرّاً ومُعلناً: خُصُّوا بالعملِ وخُصِصتُ بالدَّعَةِ، وقُدِّموا قبلي إلى الغَرَرِ، وخُلِّفتُ في الثِّقةِ».

وهذا الباب من الأبواب الَّتي تَكسِرُ سُكورَ الفسادِ، ويُهاج بها قُرُباتُ البَلاء، ويُغني البصيرَ اللّطيفَ ما يَنتَهِك من الأمور في ذلك. فإنّا قد رأينا المَلِكَ الرَّشيدَ السَّعيدَ المنصورَ المَكفِيَّ المظفَّرَ الحازمَ في الفُرصة، البصيرَ بالعورة، اللَّطيف لِلشُّبهة المبسوطَ له في العلم والعُمرِ؛ يجتهد فلا يعدو صلاحُ مُلكه حياتَه، إلاّ أن يشبَّه به متشبِّهٌ. ورأينا الملكَ القصيرَ عُمرُه، القريبةَ مُدَّتُه، إذا كان سعيُهُ بإرسال اللِّسان بما قال، واليدِ بما عملت، بغير تدبيرٍ يُدرِكُ، أفسدَ جميعَ ما قُدِّم له من الصَّلاح قبلَه، ويُخلِّف المملكةَ خراباً على مَن بعدَه.

ـ وقد علمتُ أنَّكم سَتُبلونَ مع المُلكِ بالأزواجِ والأولادِ والقُرَناءِ والوزراءِ والأخدانِ والأنصارِ والأصحابِ والأعوانِ والمتنصِّحينَ والمتقرِّبينَ والمُضحكينَ والمُزَيِّنين: كلُّ هؤلاء ـ إلاّ قليلاً ـ أن يأخذَ لنفسه أحبُّ إليه من أن يُعطِيَ منها، وإنّما عمله لِسُوق يَومه وحياةِ غدِه. فنصيحتُهُ الملوكَ فَضلُ نصيحتِه لنفسِه، وغايةُ الصَّلاح عندهُ صلاحُ نفسِه، وغايةُ الفسادِ عندهُ فسادها. يجعل نفسَه هي العامَّةَ والعامَّةَ هي الخاصّةَ: فإن خُصَّ بنعمةٍ دون النّاس فهي عندهُ نعمةٌ عامَّة، وإذا عَمَّ النّاس بالنَّصر على العَدوِّ، والعدلِ في البيضةِ، والأمنِ على الحريم، والحفظِ للأطراف، والرأفةِ من المَلِك، والاستقامةِ من المُلكِ، ولم يُخصَص من ذلك بما يُرضيه، سَمّى تلك النِّعمةَ نعمةً خاصّةً. ثُمَّ أكثَرَ شكيَّةَ الدَّهر، ومَذَمَّةَ الأمور. يقيمُ لِلسُّلطانِ سُوقَ المَودَّةِ ما أقام له

سُوقَ الأرباحِ، ولا يَعلمُ ذلك الوزيرُ والقرينُ أنَّ في التماسِ الرِّبح على السُّلطانِ فسادَ جميعِ الأمورِ، وقد قال الأوَّلون منّا: رَشادُ الوالي خَيرٌ للرَّعيَّةِ من خِصبِ الزَّمانِ.

ـ واعلموا أنّ المُلكَ والدّينَ أخوانِ تَوأمانِ، لا قِوامَ لأحدِهما إلا بصاحبه، لأنَّ الدّين أُسُّ المُلك وعماده. وصار الملكُ بعدُ حارسَ الدّين، فلا بُدَّ لِلمُلكِ من أُسِّه، ولا بُدَّ لِلدِّين من حارسه، فإنَّ ما لا حارسَ له ضائعٌ، وإنّ ما لا أسَّ له مهدومٌ. وإنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرةُ السَّفِلةِ إيّاكم إلى دِراسةِ الدّين وتلاوتِه والتَّفقُّهِ فيه، فتحملكُمُ الثِّقةُ بقُوَّةِ السُّلطان على التَّهاونِ بهم، فتحدثَ في الدّين رئاساتٌ مُستَسِرّاتٌ في مَن قد وَتَرتُم وجَفَوتُم وحَرَمتُم وأخَفتُم وصَغَّرتُم مِن سَفِلَةِ النّاس والرَّعيّةِ وحشوِ العامَّة، ولم يجتمع رئيسٌ في الدّين مُسِرٌّ، ورئيسٌ في المُلكِ مُعلنٌ، في مملكةٍ واحدةٍ قطُّ، إلاّ انتزعَ الرَّئيسُ في الدّينِ ما في يَدِ الرَّئيسِ في المُلك، لأنّ الدّين أُسُّ والمُلكَ عمادُ، وصاحبُ الأُسِّ أولى بجمع البُنيانِ من صاحبِ العِماد.

ـ وقد مضى قبلَنا ملوكٌ كان المَلِك منهم يتعهَّدُ الجملةَ بالتفسيرِ والجماعاتِ بالتَّفصيلِ، والفَراغَ بالأشغالِ، كتعهُّدِه جَسَدَهُ بقصِّ فضولِ الشَّعر والظُّفرِ وغَسلِ الدَّرَنِ والغَمَرِ، ومداواةِ ما ظهرَ من الأدواءِ وما بطنَ. وقد كان من أولئك الملوكِ من صِحَّةُ مُلكِه أحبُّ إليه من صحَّةِ جَسَدِه، وكان بما يُخلِّفه من الذِّكر الجميل المحمود، أفرحَ وأبهجَ منه بما يسمعه بأُذُنه في حياته. فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنَّهم مَلِكٌ واحدٌ، وكأنَّ أرواحهم روحٌ واحدة، يُمكِّنُ أوَّلُهم لآخرهم، ويصدِّق آخرهم أوَّلهم بجميع أنباءِ أسلافهم، ومواريث آرائهم، وصياغات عقولهم، عند الباقي منهم بعدهم، فكأنَّهم جُلوسٌ معه، يُحدِّثونه ويشاورونه، حتّى كان على رأسِ دارا بنِ دارا ما كان، وغلبةُ الإسكندر على ما غلب من مُلكِنا. فكان إفسادُهُ أمرَنا، وتفريقُه جماعتَنا، وتخريبُه عُمرانَ مملكتنا، أبلغَ له في ما أراد من سفك دمائنا. فلمّا أذِن اللَّه في جمعِ مملكتِنا ودولةِ أحسابِنا، كان من ابتعاثه إيّانا ما كان، وبالاعتبار تُتَّقى الغِيَرُ، ومن يخلُفنا أوجدُ للاعتبار، مِنّا، لِما استدبروا من أعاجيب ما أتى علينا.

ـ اعلموا أنَّ سلطانكم إنّما هو على أجسادِ الرَّعيَّة، وأنّه لا سلطانَ للملوك على القلوب. واعلموا أنّكم إن غَلبتم النّاسَ على ذات أيديهم، فَلَن تغلبوهم على عقولهم. واعلموا أنّ العاقل المحروم سالٌّ عليكم لسانَه، وهو أقطع سيفيه، وإنَّ أشدَّ ما يضربكم به من لسانه، ما صَرَفَ الحيلةَ فيه إلى الدّين: فكأنَّ بالدّين يحتجُّ وللدّين ـ فيما يُظهر ـ يغضب، فيكون للدّين بكاؤه، وإليه دعاؤه، وهو أوجدُ التّابعين والمصدّقين، والمناصحين والمؤازرين منكم. لأنّ بِغضةَ النّاس هي موكَّلةٌ بالملوكِ، ومحبَّتَهم ورحمتَهم موكَّلةٌ بالضُّعفاءِ المغلوبين. وقد كان مَن قبلَنا مِن المُلوك يحتالون لِعقولِ من يحذَرون، بتخريبها،

فإنّ العاقلَ لا تنفعه جَودَةُ نحيزته إذا صُيِّرُ عقلُه خراباً مواتاً، وكانوا يحتالون للطّاعنين بالدّين على الملوك، فيُسمُّونَهم المبتدعين. فيكونُ الدّينُ هو الّذي يقتلهم ويُريح الملوكَ منهم. ولا ينبغي لِلمَلِكِ أن يعترفَ للعبّادِ والنُسّاكِ والمُتبتِّلين أن يكونوا أولى بالدّين، ولا أحدبَ عليه، ولا أغضبَ لهُ منه. ولا ينبغي للملك أن يَدَعَ النُسّاكَ بغير الأمر والنَّهي لهم في نسكِهم ودينهم فإنَّ خروجَ النُسّاكِ وغيرِ النُسّاكِ منَ الأمرِ والنَّهي عيبٌ على الملوك، وعيبٌ على المملكةِ، وثُلمةٌ يَتَسَنَّمُها النّاسُ بنيَّةِ الضّررِ للملكِ ولِمَن بعدَه.

واعلموا أنَّ مصيرَ الوالي إلى غير أخدانه، وتقريبَه غير وزرائه، فتحٌ لأبواب الأنباءِ المحجوب عنه عِلمُها. وقد قيل: إذا استَوحشَ الوالي مِمّن لم يُوطِن نفسَه عليه، أطبقت عليهِ ظُلَمُ الجَهالةِ، وقيل: أخوَفُ ما تكون العامَّةُ آمن ما يكون الوزراءُ.

- «اعلموا أنّ دولتَكم تُؤتى من مكانين: أحدُهما غلبةُ بعض الأمم المخالفةِ لكم، والآخرُ فسادُ أدبكم. ولن يزالَ حريمُكم من الأمم محروساً، ودينُكم من غلبة الأديانِ محفوظاً، ما عُظِّمتْ فيكم الوُلاةُ، وليس تعظيمُهم بتركِ كلامِهم، ولا إجلالُهم بالتَّنحّي عنهم، ولا المحبَّةُ لهم بالمحبَّةِ لِكُلِّ ما يُحبُّون. ولكن تعظيمُهم تعظيمُ أديانِهم وعُقولِهم، وإجلالُهم إجلالُ منزلتِهم من اللّهِ، ومحبَّتُهم محبَّةُ إصابتِهم، وحكايةُ الصَّوابِ عنهم».

- «واعلموا أنّه لا سبيلَ إلى أن يُعظَّمَ الوالي إلاّ بالإصابةِ في السِّياسةِ، ورأسُ إصابةِ السِّياسةِ أن يَفتحَ الوالي لِمَن قِبَلَه من الرَّعيّةِ بابين: أحدُهما بابُ رِقَّةٍ ورحمةٍ ورأفةٍ وتضرُّعٍ وبذلٍ وتحَنُّنٍ وإلطافٍ ومواساةٍ ومؤانسةٍ وبِشرٍ وتهلُّلٍ وعفوٍ وانبساطٍ وانشراحٍ؛ والآخرُ: بابُ غِلظةٍ وخشيةٍ وتَعَنُّتٍ وتسدُّدٍ وإمساكٍ ومباعدةٍ وإقصاءٍ ومخالفةٍ ومَنعٍ وقُطوبٍ وانقباضٍ وتضييقٍ وعقوبةٍ ومحقَرةٍ إلى أن يبلغَ القتلَ. واعلموا أنّي لم أُسَمِّ هذين البابين بابَ رِفقٍ وباب عُنفٍ، ولكنّي سمّيتهما جميعاً «بابَي رِفقٍ»، لأنَّ فتحَ باب المكروهِ مع باب الشُرور هو أوشكُ لِغَلقه، حتى لا يُبتَلى بِه أحدٌ. وفي الرَّعيَّةِ مِن الأهواءِ الغالبةِ للرَّأيِ والفجورِ المستثقل للدّينِ والسَّفِلة الحَنقةِ على الوجوهِ بالنَّفاسَةِ والحسدِ، ما لا بُدَّ معه أن يُقرَنَ ببابِ الرَّأفةِ بابُ الغَلظة، وبباب الاستبقاءِ بابُ القتلِ، وقد يُفسِد الوالي بعضَ الرَّعيَّة من حرصه على صَلاحِها، ويَغلُظُ عليها من رِقّتِه لها، ويقتل فيها من حِرصه على حياتها».

- «واعلموا أنَّ قِتالَكم الأعداءَ مِنَ الأمم قَبلَ قِتالِكم الأدبَ مِن أنفُسِ رعيَّتِكم، ليس بحفظٍ، ولكنَّه إضاعةٌ. وكيف يُجاهَد العدوُّ بقلوبٍ مختلفةٍ، وأيدٍ متعاديةٍ. وقد علمتُم أنَّ الّذي بُنِيَ عليه النّاسُ وجُبلت عليه الطِّباعُ، حُبُّ الحياةِ وبُغضُ الموتِ، وأنّ الحربَ تُباعدُ مِن الحياة، وتُدنى من الموتِ، فلا دفعَ ولا منعَ ولا صبرَ ولا محاماةَ مع

هذا، إلا بأحد وجهين: إمّا بنيَّةٍ، والنّيَّةُ ما لن يَقدرَ عليهِ الوالي عِندَ النّاس بعدَ النّيّةِ الّتي تكون في أوّل الدّولة، وإمّا بِحُسنِ الأدب وإصابةِ السّياسة».

«واعلموا أنّ بدءَ ذهابِ الدّولِ مِن قِبَلِ إهمالِ الرّعيةِ بغير أشغالٍ معروفةٍ، ولا أعمالٍ معلومةٍ. فإذا فشى الفَراغُ في النّاس، تولّد منه النَّظرُ في الأمور، والفكرُ في الأصولِ. فإذا نظروا في ذلك، نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ، فتختلِفُ بهم المذاهبُ، ويتولَّدُ من اختلافِ مذاهبِهم، تَعادِيهم وتَضاغُنُهم وتطاعُنُهم، وهم في ذلك مجتمعون ـ في اختلافهم ـ على بُغضِ الملوك، لأنّ كلَّ صِنفٍ منهم إنَّما يَجري إلى فجيعةِ المَلِكِ بمُلكِه، ولكنّهم لا يَجِدون سُلَّماً إلى ذلك أوثَقَ مِن الدّين، ولا أكثرَ أتباعاً، ولا أعزَّ امتناعاً، ولا أشدَّ على النّاس صَبراً. ثُمَّ يتولَّد من تعاديهم أنّ المَلِكَ لا يستطيع جَمعَهم على هوًى واحدٍ، فإذا انفرد ببعضهم، فهو عَدُوُّ بَقيّتِهم، ثُمَّ تتولَّدُ من عداوتِهم لِلمَلِكِ كثرتُهم، فإنّ من شأنِ العامّةِ الاجتماعَ على استثقال الوُلاةِ والنَّفاسَةِ عليهم. لأنّ في الرَّعيّة المحرومَ، والمضروبَ، والمُقامَ عليهِ وفيهِ وفي حميمِه الحدودُ، والدّاخلَ عليهِ بعِزِّ المَلِكِ الذُّلُّ في نفسِه وخاصّتِه. فكلُّ هؤلاءِ يجري إلى متابعةِ أعداء المَلِك. ثُمَّ يتولَّدَ مِن كثرتِهم أن يَجبُنَ المَلِكُ عَنِ الإقدام عليهم، فإنّ إقدامَ المَلِكِ على جميع الرَّعيّةِ تغريرٌ بمُلكِه ونفسِه، ويتولَّدُ من جُبن الوُلاةِ عن تأديب العامّةِ تضييعُ الثُّغور الّتي فيها الأُمم من ذوي الدّين والبأس، لأنَّ المَلِكَ إن سدَّ الثُّغورَ بخاصّتِه المناصحينَ له، وخَلَت به العامّة الحاسدةُ المعاديةُ، لم يَعدُ بذلك تدريبهم في الحرب، وتقويتَهم في السّلاح، وتعليمَهم المكيدَةَ مع البِغضةِ، فهم عند ذلك أقوى عدوٍّ وأضرُّه، وأحنقُه، وأحضرُهُ، وأخلقهُ بالظّفر، ولا بُدَّ مِن استطرادِ هذا كُلِّه إذا ضُيعَ أوّلُه».

ـ «فمَن ألفى منكم الرَّعيّةَ بَعدي وهي على حالِ أقسامها الأربعةِ الّتي هي: أصحابُ الدّين، والحربِ، والتّدبير، والخدمةِ ـ من ذلك: الأساورة صنفٌ، والعُبّادُ والنُّساكُ وسَدَنة النّيران صنفٌ، والكُتّابُ والمنجِّمون والأطبّاءُ صنفٌ، والزُّرّاعُ والمُهّانُ والتُّجارُ صنفٌ ـ فلا يكونَنَّ بإصلاح جَسَدِه أشدَّ اهتماماً منه بإحياءِ تلك الحالِ، وتفتيشِ ما يحدُثُ فيها من الدَّخلات، ولا يكوننَّ لانتقاله عن المُلكِ بأجزعَ مِنه من انتقالِ صنفٍ من هذه الأصناف إلى غير مرتبته. لأنَّ تنقُّلَ النّاسِ عن مراتبهم سريعٌ في نقل المَلِك عن مُلكه: إمّا إلى خلعٍ، وإمّا إلى فَتكٍ. فلا يكونَنَّ مِن شيءٍ مِنَ الأشياء أوحشَ بتّةً من رأسٍ صار ذَنَباً، أو ذَنَبٍ صارَ رأساً، أو يدٍ مشغولةٍ أحدثت فراغاً، أو كريمٍ ضريرٍ، أو لئيم مرحٍ. فإنّه يتولَّدُ من تَنقُّلِ النّاس عن حالاتهم، أن يلتمسَ كُلُّ امرئ منهم أشياءَ فوقَ مرتَبتِه. فإذا انتقل أوشكَ أن يَرى أشياءَ أرفعَ مِمّا انتقلَ إليه، فَيَغبط ويُنافِس. وقد علمتم أنّ مِنَ الرَّعيّةِ أقواماً هم أقربُ النّاسِ من الملوكِ حالاً. وفي تنقُّلِ النّاسِ عَن حالاتهم

مطمعةٌ لِلّذين يَلُونَ المُلوكَ في المُلكِ، ومطمعةٌ لِلّذين دونَ الّذين يَلُونَ الملوكَ في تلك الحال، وهذا لِقاحُ بَوارِ المُلكِ».

ـ «ومن ألفى منكم الرَّعيَّة وقد أضيعَ أوّلُ أمرِها، فألفاها في اختلافٍ من الدّينِ، واختلافٍ من المراتبِ وضياعٍ من العامّةِ، وكانت به على المكاثرةِ قُوَّةٌ، فليُكاثِر بقوَّته ضَعفَهم، وليبادِر بالأخذِ بأكظامِهم قبلَ أن يبادروا بالأخذ بكَظَمِه، ولا يقولَنَّ: أخاف العَسفَ. فإنّما يخاف العسفَ من يخافُ جريرةَ العسفِ على نفسه، فأمّا إذا كان العسفُ لبعضِ الرَّعيَّةِ صلاحاً لبقيَّتِها، وراحةً لهُ ولِمَن بَقيَ معهُ من الرَّعيَّة، مِن النَّغَل والدَّغَلِ والفساد، فلا يكوننَّ إلى شيءٍ بأسرعَ مِنهُ إلى ذلك، فإنّه ليس نفسَه ولا أهلَ موافقته يَعسفُ، ولكنّما يَعسفُ عدوَّهُ».

ـ «ومن ألفى منكم الرَّعيَّة في حال فسادِها، ولم يَرَ بنفسه عليها قُوَّةً في إصلاحها، فلا يكونَنَّ لقميصٍ قَمِلٍ بأسرعَ خلعاً منه لِما لَبِس من ذلك المُلكِ، وليأتِه البوارُ ـ إذا أتاه ـ وهو غير مذكورٍ بِشُؤمٍ، ولا مُنوَّهٍ به في دنياهُ، ولا مَهتوكٍ به سترُ ما في يَدَيه».

ـ «واعلموا أنَّ فيكم مَن يستريح إلى اللَّهوِ والدَّعَةِ، ثُمَّ يُديم من ذلك ما يُورثه خُلقاً وعادةً. فيكون ذلك لِقاح جِدٍّ لا لهوَ فيه، وتعبٍ لا خَفضَ فيه، مع الهُجنةِ في الرّأيِ والفضيحةِ في الذِّكرِ. وقد قال الأولون مِنّا: لَهُو رَعيّةِ الصِّدقِ بتقريظِ الملوكِ، ولَهُو ملوك الصِّدق بالتَّودُّدِ إلى الرَّعيَّةِ».

ـ «واعلموا أنّ مَن شاءَ منكم ألاّ يسيرَ بسيرةٍ إلاّ قُرِّظت له فَعلَ، ومن شاءَ منكم بعثَ العيونَ على نفسِه فأذكاها، فلم تَكُنِ النّاسُ بِعيبِ نفوسِهم بِأعلَمَ مِنهُ بعيبِه».

ـ «ثُمَّ إنَّه ليس منكم مَلِكٌ إلاّ كثيرَ الذِّكر لِمَن يَلِي الأمرَ بعدَه، ومن فساد الرَّعيَّةِ نَشرُ أمور وُلاةِ العهودِ، فإنَّ في ذلك من الفساد أنَّ أوَّله دخولُ عداوةٍ مُمضَّةٍ بينَ المَلِك، ووليِّ عهده، وليس يتعادى متعاديان بأشدَّ من أن يسعى كُلُّ واحدٍ منهما في قطعِ سُؤلِ صاحبِه. وهكذا المَلكُ، ووليُّ عهدِه: لا يَسُرُّ الأرفعَ أن يُعطَى الأوضعُ سُؤلَه في فنائه، ولا يَسُرُّ هذا الأوضعَ أن يُعطَى الآخَرُ سؤلَه في البقاء، ومتى يَكُن فرحُ أحدِهما في الرّاحةِ مِن صاحبِه، تدخل كُلَّ واحدٍ منهما وحشةٌ من صاحبه في طعامِه وشرابِه، ومتى تداينا بالتُّهمةِ، يَتَّخذ كُلُّ واحدٍ منهما أحبّاءَ واخداناً وأهلاً، ثُمّ يدخل كُلَّ واحدٍ منهما وغَرٌ على أحبّاءِ صاحبه. ثُمَّ تَنساقُ الأمور إلى هلاكِ أحدِهما لِما لا بُدَّ منه مِن الفَناءِ، فتُفضِي الأمور إلى الآخر وهو حَنِقٌ على جيلٍ من النّاس، يَرى أنّه موتورٌ إن لم يَحرمهم، ويَضَعْهم، ويُنزِلْ بهم الّتي كانوا يُريدون إنزالَها به لَو وَلُوا. فإذا وَضعَ بعضَ الرّعيَّة وأسخطَ بعضاً على هذه الجِهةِ، تَولَّدَ من ذلك ضِغنٌ وسَخَطٌ من الرّعيَّةِ، ثُمَّ تَرامى ذلك إلى بعض ما أحذرُ عليكم بَعدي. ولكن ليَختَرِ الوالي مِنكم لِلّهِ، ثُمَّ لِلرَّعيَّة،

ثُمَّ لنفسه، وَليًّا للعَهد من بعدِهِ، ثُمَّ ليكتب اسمَه في أربع صَحائفَ، فيختمها بخاتَمه، فيضعها عند أربعةِ نفرٍ من خِيارِ أهلِ المملكةِ. ثُمّ لا يكونَنَّ منه في سرٍّ ولا في علانيةٍ أمرٌ يُستدلُّ به على وليّ ذلك العهدِ، لا في إدناءٍ وتقريبٍ يُعرف به، ولا في إقصاءٍ وتنكُّبٍ يُستَرابُ لَهُ، ولْيَتَّقِ ذلك في اللَّحظةِ والكلمةِ. فإذا هلك، جُمِعت تلك الكُتب الّتي عند الرّهط الأربعة، إلى النُسخة الَّتي عند الملك، ففُضِضنَ جميعاً، ثُمَّ نوِّه بالّذي وُضع اسمُهُ في جميعهنَّ. فيَلقى المُلكَ ـ إذا لَقِيَه ـ بحداثةِ عهده بحال السُّوقة، فلبس ذلك المُلكَ ـ إذا لبسه ـ ببصرِ السُّوقة، وسمعِها، ورأيِها. فإنّ في سُكر السُّلطانِ الّذي سَيَنالُه، ما يكتفي به له من سُكر ولاية العهدِ مع سُكر المُلك. فيصُمُّ ويعمى قبلَ لقاء المُلك لصَمَمِ الملوك وعماهم، ثُمَّ يَلقى المُلكَ، فيزيدُهُ صَمَماً وعمًى مع ما يَلقى في ولاية العهدِ مَن بَطَر السُّلطان، وحيلةِ العُتاة، وبغي الكذّابين وتَرقيةِ النَّمّامين وتحميل الوُشاة بينه وبين مَن فوقَه».

ـ «ثُمَّ اعلموا أنَّه ليس لِلملك أن يبخلَ، لأنّه لا يخاف الفقرَ، وليس له أن يكذبَ، لأنه لا يَقدرُ أحدٌ على استكراهِه، وليس له أن يَغضبَ، لأنّ الغضبَ والعداوةَ لِقاحُ الشَّرِّ والنَّدامةِ، وليس له أن يلعبَ ولا يعبثَ، لأنَّ العبثَ واللَّعبَ من عمل الفُرّاغ، وليس له أن يَفرُغَ، لأنَّ الفَراغَ من أمر السُّوق، وليس له أن يَحسُدَ إلاّ ملوكَ الأمم على حُسن التَّدبير، وليس له أن يَخافَ، لأنّ الخوفَ من المُعور، وليس له أن يتسلَّطَ، إذ هُوَ معورٌ».

ـ «واعلموا أنَّ زَينَ الملوك، في استقامةِ الحال: أن لا تختلفَ مِنه ساعاتُ العملِ والمباشَرة، وساعاتُ الفراغِ والدَّعَةِ، وساعاتُ الرُّكوب والنُّزهةِ، فإنَّ اختلافَها منه خِفَّةٌ، وليس للملكِ أن يَخفَّ».

ـ «اعلموا أنّكم لَن تَقدِرُوا على خَتم أفواهِ النّاسِ مِن الطَّعنِ والإزراءِ عليكم، ولا قدرةَ بكم على أن تجعلوا القبيحَ حَسَناً».

ـ «واعلموا أنّ لِباسَ الملكِ ومطعمَه مُقاربٌ لِلباسِ السُّوقةِ ومطعمِهم، وبالحريِّ أن يكونَ فرحُهما بما نالا من ذلك واحداً. وليس فضلُ الملك على السوقةِ إلاّ بقدرتِه على اقتناءِ المحامِد واستفادةِ المكارم. فإن المَلِك إذا شاءَ أحسنَ، وليس السُّوقة كذلك».

ـ «واعلموا أنّه يحقُّ على المَلِكِ منكم أن يكونَ ألطفَ ما يكون نظراً، أعظم ما يكون خطراً، وألاّ يُذهبَ حُسنَ أثرِه في الرّعيّةِ خَوفُه لها، وألاّ يستغنِيَ بتدبيرِ اليوم عَن تدبيرِ غدٍ، وأن يكونَ حذرُه للمَلاقين أشدَّ من حَذَرِه للمباعدين، وأن يتّقيَ بطانةَ السّوءِ أشدَّ من اتّقائه عامَّة السّوء، ولا يطمعنَّ مَلِكٌ في إصلاح العامّةِ إذا لم يبدأ بتقويم الخاصَّةِ».

ـ «واعلموا أنَّ لكُلِّ مَلِكٍ بطانَةً، وأنَّ لِكُلِّ رجلٍ من بطانَتِه بِطانةً، ثُمَّ لكلِّ امرئٍ مِن بطانةِ البطانةِ بِطانةً، حتّى يجتمع في ذلك جميعُ أهلِ المملكةِ! فإذا أقام المَلِكُ بطانَته

على حالِ الصّواب، أقامَ كُلُّ امرئ منهم بطانَتَه على مثلِ ذلك حتّى يجتمعَ على الصّلاح عامَّةُ الرَّعيَّةِ».

ـ «اعلموا أنّ الملكَ منكم قد تَهُونُ عليه العيوبُ، لأنّه لا يَستقبل بها وإن عمِلَها حتّى يرى أنّ النّاسَ يَتَكاتَمُونَها بينَهم كُمكاتَمتِهِم إيّاه تلكَ العيوبَ. وهذا من الأبواب الدّاعية إلى طاعة الهَوى، وطاعةُ الهوى داعيةٌ إلى غلبته، فإذا غلب الهوى اشتدَّ عِلاجُه من السُّوقة المغلوبِ فضلاً عن المَلِكِ الغالب».

ـ «اتّقوا باباً واحداً طالَما أَمِنتُه فضرَّني، وحَذِرتُه فَنفعَني: احذَرُوا إفشاءَ السِّرِ عندَ الصِّغارِ مِن أهليكُم وخَدَمِكم، فإنّه لا يصغُر أحدٌ منهم عن حملِ ذلك السِّرَّ كاملاً! لا يقول منه شيئاً حتّى يَضَعَه حيثُ تكرهونَ، إمّا سَقَطاً وإمّا غِشًّا، والسَقَطُ أكثرُ ذلك. اجعلُوا حديثَكم لأهلِ المَراتِب، وحِباءَكم لأهلِ الجهادِ، وبِشرَكم لأهلِ الدّين، وسِرَّكم عندَ مَن يلزمُهُ خيرُ ذلك وشرُّه وزينُه وشَينُهُ».

«واعلموا أنّ صِحَّة الظُّنونِ مفاتيحُ اليقينِ، وأنّكم ستَستيقنونَ مِن بعضِ رعيَّتِكم بخيرٍ وشرٍّ، وستظنّونَ ببعضهم خيراً وشرًّا، فمَن استيقنتم منه بالخير والشَّرِّ، فليستيقِن منكم بهما، ومن ظننتمُوهُما به، فليظنَّهما بكم في أمرِه، فعند ذلك يَبدُو مِنَ المُحسنِ إحسانُه، فيخالفُ الظَّنَّ فَيغتَبِط، ومن المُسيءِ إساءتُه، فيصدُق الظَّنّ به فيندَم».

ـ «واعلموا أنّ للشَّيطانِ في ساعاتٍ من الدّهر طمعاً في السُّلطان عليكم، منها: ساعاتُ الغَضبِ والحرصِ والزَّهوِ، فلا تكونوا له في شيءٍ من ساعات الدّهر أشدَّ قتالاً منكم عندهنّ حتّى يَتَقَشَّعنَ. وكان يُقال: اتّق مقارنةَ الحريصِ الغادرِ، فإنّه إن رآك في القُرب، رأى منك أخبثَ حالاتِكَ، وإن رآك في الفضول، لم يَدَعك وفضولَك».

أسعدوا الرّأي على الهَوى، فإنَّ ذلك تمليكٌ لِلرَّأي. واعلموا أنَّ من شأن الرَّأيِ الاستخذاءَ للهوى، إذا جرى الهوى على عادتِه. وقد عرفنا رجالاً كانَ الرَّجلُ منهم يؤنِس مِن قُوَّةِ طباعِه، ونبالةِ رأيه ما تُريهِ نفسه أنّه على إزاحة الهوى عنه، وإن جرى على عادته، ومعاودتِه الرَّأيَ، وإن طال به عهدُه، قادرٌ، لثقةٍ يجدها بقوَّة الرَّأي. فإذا تمكّن الهوى منه، فسخ عزمَ رأيِه، حتّى يُسمِّيه كثيرٌ من النّاسِ ناقصاً في العَقلِ. فأمّا البُصراءَ فيستبينون من عقلِه عندَ غلبةِ الهوى عليه ما يُستبان مِن الأرضِ الطَّيِّبةِ المواتِ.

ـ «واعلموا أنّ في الرَّعيَّة صِنفاً من النّاسِ هم بإساءَة الوالي أفرحُ منهم بإحسانِه، وإن كانَ الوالي لم يَتِرْهُم، وكان الزّمانُ لم ينكُبهم، وذلك لاستطرافِ حادثاتِ الأخبارِ، فإنَّ استطراف الأخبارِ معروفٌ من أخلاق حَشوِ النّاس. ثُمَّ لا طُرفةَ عندهم فيما اشتَهر، فجمعوا في ذلك سرورَ كلِّ عدوٍّ لهم ولعامَّتِهم مع ما وَترُوا به أنفسَهم ووُلاتَهم. فلا دواءَ لأولئك إلاّ بالأشغال. وفي الرَّعيَّة صِنفٌ وَتَرُوا النّاس كُلَّهم وهم الّذين قَوُوا على جَفوَةِ

الوُلاة، ومن قَوِي على جفوتِهم فهو غيرُ سادٍّ ثَغراً ولا مُناصحٌ إماماً، ومن غَشَّ الإمامَ فقد غشَّ العامَّة وإن ظنَّ أنّه للعامَّة مناصحٌ، وكان يُقال: لم ينصح عملاً مَن غَشَّ عامِلَهُ».

«وفي الرّعيّةِ صنف تركوا إتيان الملوكِ من قِبلِ أبوابِهم وأتَوهُم من قِبَلِ وُزرائهم. فليَعلم المَلكُ منكم أنَّ مَن أتاهُ مِن قِبَلِ بابِه فقد آثَرَهُ بنصيحته إن كانت عنده، ومن أتاه من قِبَلِ وُزرائه فهو موثِرٌ للوزير على المَلِكِ في جميع ما يقول ويفعل».

«وفي الرَّعيَّة صنفٌ دَعَوا إلى أنفسهم الجاهَ، بالإباءِ والرّدِّ له، ووجدوا ذلك عند المُغَفَّلين نافقاً، ورُبَّما قرَّب المَلِكُ الرّجُلَ من أُولئك لغير نُبلٍ في رأيٍ، ولا إجزاءٍ في العمل، ولكنَّ الإباءَ والرّدَّ أغرَياهُ به».

- «وفي الرَّعيَّة صنف أظهروا التَّواضعَ، واستشعَروا الكِبَر. فالرّجلُ منهم يَعِظُ الملوكَ زارياً عليهم بالموعِظةِ، يَجدُ ذلك أسهلَ طريقَي طعنِه عليهم ويسمّى هو ذلك - وكثيرٌ مِمَّن مَعَهُ - تحرّياً للدّين. فإن أراد المَلِكُ هَوانَهم لم يعرف لهم ذَنباً يُهانون عليه؛ وإن أرادَ إكرامَهم فهي منزلةٌ حَبَوا بها أنفسَهم على رغم الملوكِ، وإن أراد إسكاتَهم كان السَّماعُ في ذلك أنَّه استثقلَ ما عندَهم مِن حفظِ الدّين؛ وإن أُمِروا بالكلام قالوا ما يُفسِدُ ولا يُصلح. فأولئك أعداءُ الدُّول وآفاتُ الملوكِ. فالرّأيُ للملوك تقريبُهم من الدّنيا، فإنَّهم إليها أجرَوا، وفيها عَمِلوا، وَلَها سَعَوا، وإيّاها أرادُوا. فإذا تَلوَّثُوا فيها بَدَت فضائحُهُم، وإلا فإنَّ فيما يُحدِثون ما يجعل للملوك سُلَّماً إلى سَفكِ دمائهم. وكان بعض الملوك يقول: القتل أقلُّ لِلقتلِ».

- «وفي الرَّعيَّةِ صِنفٌ أتَوا الملوكَ مِن قبلِ النّصائح لهم، والتمسوا صلاحَ منازِلِهم بإفسادِ منازلِ النّاس. فأولئكَ أعداءُ النّاس وأعداءُ الملوك، ومن عادى الملوكَ وجميعَ الرَّعيَّةِ، فقد عادى نفسَه».

- «واعلموا أنَّ الدَّهرَ حاملكُم على طبقاتٍ، منهنَّ: حالُ السَّخاء حتّى تَدنو من السَّرَفِ، ومنهنَّ: حالُ التَّقتير حتّى تقربَ من البُخلِ، ومنهنَّ: حالُ الأناةِ، حتّى تصيرَ إلى البلادةِ، ومنهنَّ: حالُ المناهَزةِ للفرصة حتّى تدنوَ مِنَ الخِفَّةِ، ومنهنَّ حالُ الطّلاقةِ في اللِّسان حتّى تدنوَ من الهَذرِ، ومنهنَّ: حال الأخذ بحكم الصَّمتِ حتّى تدنوَ مِنَ العِيِّ. فالمَلِكُ منكم جديرٌ أن يبلغَ من كلّ طبقةٍ في محاسنها حدَّها، فإذا وقَفَ على الحدودِ الّتي ما وراءَها سَرَفٌ، ألجمَ نفسَه عَمّا وراءَها».

- «واعلموا أنَّ المَلِكَ منكم ستعرض له شهواتٌ في غير ساعاتها. والملكُ إذا قَدّرَ ساعةَ العملِ، وساعةَ الفَراغ، وساعةَ المطعم، وساعةَ المشربِ، وساعةَ الفضيلةِ، وساعةَ اللّهو، كان جديراً ألاّ يُعرَفَ منه الاستقدامُ بالأمور، ولا الاستيخارِ عن ساعاتِها. فإنَّ اختلافَ ذلك يُورث مضرَّتين: إحداهما السُّخفُ، وهي أشدُّ الأمرين، والأخرى

نقصُ الجسدِ، بنقص أقواتِه وحركاتِه».

ـ «واعلموا أنّ مِن ملوككم من سيقول: لي الفضلُ على مَن كانَ قبلي مِن آبائي وعُمومتي ومَن ورثتُ عنه هذا الأمر، لبعض الإحسانِ يكون منه. فإذا قال ذلك، سُوعِدَ عليه بالمتابَعة له. فليَعلَم ذلك المَلِكُ والمتابِعون: إنَّما وضعوا أيديَهم وألسنتهم في قَصبِ آبائه مِنَ الملوكِ وهم لا يشعُرونَ. وَلَبِالحَرِيّ أن يشعُرَ بعضُ المتابعين له فَيُغمِّض على ما لا يحزنُه من ذلك».

ـ «واعلموا أنَّ ابنَ الملكِ وأخاهُ وعمَّه وابنَ عمِّه كلَّهم يقول: كدتُ أن أكُونَ مَلِكاً، وبالحريِّ ألاّ أموتَ حتّى أكون مَلكاً، فإذا قال ذلك، قال ما لا يَسُرُّ المَلِكَ. فإن كتمه، فالدّاءُ في كُلِّ مكتومٍ، وإن أظهرهُ كَلَمَ في قلبِ الملكِ كَلماً يكونُ لِقاحاً للتَّبايُنِ والتَّعادي. وستجدون القائلَ ذلك من المتابعين والمحتملينَ والمتمنِّين، ما تمنّى لنفسِه ما يُريده، إلاّ ما اشتاق إليه شوقاً. فإذا تَمَكَّنَ في صدره الأملُ، لم يَرجُ النَّيلَ له، إلاّ في اضطرابِ من الحَبل، وزَعزعةٍ تدخلُ على المَلِك وأهلِ المملكة. فإذا تمنّى ذلك فقد جعلَ الفَسادَ سُلَّماً إلى الصَّلاح، ولم يكن الفساد سُلَّماً إلى صلاحٍ قطُّ. وقد رسمتُ لكم في ذلك مِثالاً لا مَخرجَ لكم منه إلاّ به. اجعلوا أولادَ الملكِ مِن بنات عُمومَتِهم. ثُمَّ لا يصلح من أولاد بنات الأعمام، إلاّ كاملٌ غير سخيفِ العقل، ولا عازبُ الرَّأي، ولا ناقص الجوارح، ولا معيوب عليه في الدّين. فإنكم إذا فعلتم ذلك، قلَّ طلاّبُ المُلكِ، وإذا قلَّ طلاّبُه استراح كلُّ امرئ على جديلته، وعرف حالَه، وغضَّ بصرَه، ورضِيَ بمعيشته واستطاب زمانَه».

ـ «واعلموا أنّه سيقول قائلٌ من عُرض رعيَّتِكم، أو من ذوي قرابتكم: ما لأحدٍ عليَّ فضلٌ ولو كان لي مُلكٌ، فإذا قال ذلك فإنّه قد تمنّى المُلكَ وهو لا يشعرُ، ويُوشِكُ أن يتمنّاهُ بعد ذلك وهو يشعُرُ. فلا يَرى ذلك من رأيه خطلاً، ولا من فعله زَللاً، وإنّما يستخرجُ ذلك فراغُ القلبِ واللِّسان مِمّا يُكلِّف أهلَ الدّين والكُتّابَ والحُسّابَ، أو فراغُ اليدِ مِمّا يكلِّفُ الأساورة، أو فراغُ البَدَنِ مِمّا يكلّف التُّجارَ، والمهنَةَ، والخَدَمَ. واعلموا أنّ الملك ورعيَّته جميعاً يحقّ عليهم ألاّ يكونَ لِلفراغِ عندهم موضعٌ، فإنَّ التَّضييعَ في فَراغِ المَلِكِ، وفسادَ المملكةِ في فراغِ الرَّعيّة».

ـ «واعلموا أنّا على فضلِ قُوّتِنا، وإجابةِ الأمورِ إيّانا، وحِدَّةِ دولتنا، وشدّةِ بأسِ أنصارِنا، وحسنِ نيَّةِ وُزرَائنا، لم نستطع إحكامَ تفتيشِ النّاسِ، حتّى بلغنا من الرّعيَّة مكروهها، ومن أنفسنا مجهودَها».

ـ «واعلموا أنه لا بُدَّ من سَخَطٍ سيحدُث منكم على بعض أعوانكم المعروفين بالنّصيحة لكم، ولا بُدَّ من رضًى سيحدثُ لكم من بعضِ أعدائكم المعروفينَ بالغِشّ

لكم، فلا تُحدثوا، عندما يكون من ذلك انقباضاً عن المعروفِ بالنصيحة، ولا استرسالاً إلى المعروفِ بالغِشّ.

- «قد خلَّفتُ لكم رأيي، إذ لم أستطع تخليفَ بدَني، وقد حَبوتُكم بما حَبَوتُ به نَفسي وقضيتُ حقّكَم فيما آسَيتُكم به من رأيِ. فاقضُوا حقّي بالتَّشفيع لي في صلاح أنفسكم والتَّمسُّكِ بِعَهدي إليكم. فإنّي قد عَهِدتُ إليكم عَهدي، وفيه صلاحُ جميع مُلوكِكُم وعامَّتِكم وخاصَّتِكم. ولَن تَضِيعُوا ما احتفظتُم بِما رسمتُ لكم ما لم تَصنَعُوا غيرَه. فإذا تمسَّكتم به، كان علامةً في بقائكم ما بَقِيَ الدَّهرُ».

- «ولولا اليقينُ بالبوار النّازل على رأس الألف من السِّنين، لَظننتُ أنّي قد خلَّفتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به، كان علامةً في بقائكم ما بقي الدّهرُ، ولكنّ القضاء إذا جاءت أيّامه، أطعتم أهواءَكم، واستثقلتم وُلاتَكم، وأمِنتُم وتنقّلتم عن مراتبكم وعصيتُم خِيارَكم وأطعتم شِرَارَكم وكانَ أصغرُ ما تُخطِئون فيه سُلَّماً إلى أكبر منه حتّى تفتُقُوا ما رتَقنا، وتُوهُوا ما وثَّقنا، وتُضيِّعُوا ما حَفِظنا. والحقُّ علينا وعليكم ألاّ نكونَ للبوار أغراضاً، وفي الشُّؤم أعلاماً. فإنّ الدّهرَ إذا أتى بالّذي تنتظرون، اكتفى بوحدته. ونحن ندعو اللّهَ لكم بنماءِ المنزلة، وبقاء الدّولةِ، دعوةً لا يُفنيها فناءُ قائِلها حتّى المنقَلبِ، ونسألُ اللّهَ الّذي عجَّل بنا وخلَّفكم، أن يَرعاكُم رِعايةً يَرعى بها ما تَحتَ أيديكم وأن يَرفعَكم رِفعةً يَضعُ بها من عاداكم، ويُكرِمَكُم كَرامةً يُهينُ بها من ناوأكم. ونستودعكم اللّهَ وديعةً يكفيكُم بها الدّهرَ الّذي يُسلِّمكم إلى زِيالِه وغِيَره وعثراته وعداوتِه، والسَّلام على أهلِ المُوافقَةِ مِمَّن يأتي عليهِ العهدُ من الأُمَمِ الكائنةِ بَعدي».

ثُمّ انتهى المُلكُ إلى سابور بن أردشير

فمن وجوه المكائد الغريبة ما تمَّ على رجلٍ من الجرامقة يقال له: السّاطرون، وهو الّذي تُسمّيه العرب: «الضَيزنَ»، وكان ينزل بجبالِ تكريتَ بين دجلةَ والفرات في مدينةٍ يقالُ لها: الحَضرُ. وزعم هشام بن الكلبي أنّه من العرب من قُضاعة وأنّه ملَكَ أرضَ الجزيرةِ، وكان معهُ من قبائلِ قُضاعةَ ما لا يُحصى، وبلغ مُلكه الشّامَ.

ثُمَّ إنّه تطرَّف بعضَ السّواد في غيبةٍ لسابور إلى ناحيةِ خراسان. فلمّا قدِمَ من غيبته، شَخصَ إليهِ حتّى أناخ على حصنِه، وتحصَّنَ الضَّيزنُ، كما قال الأعشى ميمونُ بنُ قيسٍ، سنتين، لا يَقدِر سابورُ على الوصولِ إليه، وهو قوله:

أَلَـم تَـرَ لِـلـحَـضـرِ إذ أهـلُـه ... بِنُعمى، وهَل خالدٌ مَن نَعِم
أقـامَ بِـه شـاهَـبـورُ الـجُـنُـو ... دِ حولَينِ يضرِبُ فيه القُدُم

وكان لِلضّيزنِ هذا ابنةٌ يقال لها: النَّضيرة، عركت فأخرِجت إلى رَبَضِ المدينةِ -

وكذلك كان يُفعل بالنِّساءِ إذا عركنَ ـ وكانت من أجمل نِساءِ زَمانِها، وكان سابورُ أيضاً من أجملِ رجالِ زمانِه. فاطّلعت عليه يوماً، فرأته، فَعشِقته، وأرسلت إليه:

ـ «ما تجعل لي، إن دَلَلتُك على ما تهدم به سُوَر هذه المدينة، وتقتل أبي؟» قال:

ـ «حُكمكِ، وأرفعُكِ على نسائي، وأخصُّكِ بنفسي دونَهنَّ». فاحتالت للحرس حتّى سَقَتهم الخمرَ وصرَّعتهم، وأظهرت علامةَ ذلك لِسابُور. فَنَصَبَ السُّور حتى تسوَّرَ وفَتَحها عَنوةً، وقَتلَ الحرسَ والضَّيزَنَ، وأبادَ قُضاعةَ الّذين كانوا مع الضَّيزنِ، فلم يَبقَ منهم باقٍ يُعرفُ إلى اليوم، وأخربَ سابورُ المدينة. وفي ذلك يقول عمرو بن إله:

أَلـم يـحـزُنـكَ والأنـبـاءُ تَـنـمـى ... بـمـا لاقَـت سَراةُ بَـنـي الـعَـبـيـدِ
ومـصـرعُ ضَـيـزنٍ وبَـنـي أبـيـهِ ... وأحـلاسُ الـكـتـائـبِ مِـن تَـزيـدِ
أتـاهُـم بـالـفُـيُـولِ مُـجَـلـلاتٍ ... وبـالأبـطـالِ سـابُـورُ الـجُـنُـودِ
فـهدَّم مِن أَواسي الحِصنِ صَخراً ... كـأنَّ ثِـفـالَـه زُبَـرُ الـحَـديـدِ

واحتمل سابورُ النّضيرةَ بنتَ الضَّيزنِ، فأعرسَ بها بعين التَّمر. فذُكر أنَّها لم تَنَم، وتضوَّرت ليلتَها من خشونةِ فُرُشِها وهي من حرير، محشُوَّةً بالقَزِّ. فالتُمس ما كان يُؤذيها. فإذا ورقةُ آسٍ مُلتزِقةٌ بِعُكنةٍ من عُكَنِها قد أثَّرت فيها من لين بَشَرَتِها.

فقال لها سابورُ: «وَيحكِ! بأيِّ شيءٍ كان يَغذُوكِ أبوكِ؟».

فقالت: «بالزُّبدِ، والمخِّ، وشَهدِ الأبكار من النَّحلِ، وصَفوِ الخَمرِ».

قال: «وأبيكِ لأنَا أحدثُ عهداً بكِ وأوتَرُ لكِ من أبيكِ الّذي غذّاكِ بما تذكرين».

فأمر رجلاً، فركب فرساً جموحاً، ثُمَّ عَصبَ غدائرَها بِذَنَبِه، ثُمَّ استركضَها، فقطَّعها قِطَعاً. وقد أكثر الشُّعراءُ في ذكر الضَّيزن هذا، وإيّاه عَنى عديُّ بنُ زيدٍ بقوله:

وأخـو الـحَـضـرِ، إذ بـنـاه وإذ دِجـ ... ـلـة تُـجـبـى إلـيـه، والـخـابـورُ
شـادَهُ مَـرمَـراً، وجـلَّـلَـهُ كِـلـ ... ـساً، فـلِـلـطَّـيـرِ فـي ذُراه وُكـور
لـم يَـهَـبـهُ رَيـبُ الـمَـنـونِ فَـبـادَ الـ ... ـمُـلـكُ عَـنـهُ، فـبـابُـه مـهـجـور

توالي سِتَّة مُلُوكٍ

ومضت أيّامُ سابور، وهي ثلاثونَ سنةً، حميدةً. وفي أيّامه ظهر ماني الزِّنديق، وكذلك أيّامُ ابنِه هرمزَ الملقَّبِ بالبطلِ والجريءِ. وكان عظيمَ الخَلق جَريئاً. له حكاياتٌ عظيمةٌ جدًّا، وَكَوَّرَ مدينةَ «رامهُرمُز» وملكَ سنةً. ثُمَّ مضت أيّامُ ابنِه بهرامَ بنِ هرمزَ كذلك، وقتل ماني وسلخَهُ. ومضت أيّامُ ابنِه بهرامَ بنِ بهرامَ، ثمّ أيّامُ ابنِه بهرامَ بنِ بهرامَ بنِ بهرامَ، ثُمَّ أيّام نَرسي بنِ بهرامَ أخي بهرامَ الثّالثِ، ثُمَّ أيّام هرمزَ بنِ نَرسي، وكان فَظًّا، إلاّ أنَّه رَفِقَ بالرّعيّة، وسار بأعدلِ سيرةٍ فيهم، وحرص على العِمارة وانتعاش

الضُّعَفاء، ثُمَّ هلك وببعضِ نسائه حَبَلٌ. فبعضُ النّاس يزعم أنَّه وصّى بالمُلك لِذلك الحملِ في بطنِ أُمِّه، وبعضهم زعم أنَّ النّاسَ لمّا شقَّ عليهم موتُ هرمزَ، سألُوا عن نِسائه. فلمّا عرفوا أنَّ ببعضِهنَّ حَبَلاً، عقدوا التّاجَ عليه في بَطنِ أمِّه. ثُمَّ وُلِدَ:

سابور الملقَّبُ بِذي الأكتافِ

وهو سابورُ بنُ هرمزَ بنِ نَرسي بنِ بهرامَ بن بهرامَ بن هرمز بن سابور بن أردشير. فكتب إليه النّاسُ الكتبَ من الآفاق، ووجَّه البُرُدَ إلى الأطراف، وقلَّدَ الوزراءَ والكُتّابَ، والعُمّالَ، الأعمالَ الّتي كانوا يعملونها في مُلك أبيه.

فمِمّا حدث في أيّامه: أنَّ خَبَرَهُ لمّا فشا وشاع، وعلمَ أصحابُ الأطراف أنَّ مَلِكَ الفُرسِ صبيٌّ يُدبِّرُ، ولا يُدرى ما يكونُ مِنه، طمع فيهم وفي مملكتهم الرّومُ، والتُّرك والعربُ. وكانت أدنى بلادِ الأعداءِ إلى فارس بلاد العرب، وكانوا من أحوج الأمم إلى تَناولِ شيءٍ من المعايش، لسوءِ حالهم وشَظَفِ عيشهم. فسار جمعٌ عظيمٌ منهم في البحر، من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة، حتّى أناخوا براشهر وسواحل أردشير خُرّه، وأسياف فارس، وغلبوا أهلَها على مواشيهم وحُروثهم ومعايشهم، وأكثروا الفسادَ في تلك البلادِ، ومكثوا بذلك حيناً لا يغزوهم أحدٌ من الفرس لِقلَّةِ الهيبةِ، وانتشارِ الأمرِ، وكثرةِ المدبِّرين، ولأنَّ المَلِكَ طفلٌ، حتّى ترعرع سابورُ، وجعلَ الوزراء يَعرِضون عليه أمرَ الجنود الّتي في الثغور، ووردتِ الأخبارُ بأنَّ أكثرهم قد أحلَّ. وعظَّموا عليه الأمرَ بعدَ الأمرِ. وكان ممّا عُرِضَ عليه، أمرُ الجنودِ الّتي في الثّغور، ومَن كان منهم بإزاءِ الأعداء، وأنَّ الأخبارَ وردت بإحلالِ أكثرِهم. وهوَّلوا عليه الخطبَ في ذلك.

فقال لهم سابور: «لا يكبرنَّ عليكم هذا فإنَّ الحيلةَ فيه يسيرة».

وأمر بالكِتابِ إلى أولئك الجنود بأنّه:

- «انتهى إليَّ طولُ مكثكم في النّواحي الّتي أنتم فيها، وعِظَمُ غناءِكم عن إخوانكم وأوليائكم، فمن أحبَّ منهم الانصراف إلى أهله، فَلينصرف مأذوناً له في ذلك، ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصَّبر في موضعه عُرِف له ذلك».

وتقدّم إلى من اختار الانصراف، في لزوم أهلِه وبلادِه إلى وقتِ الحاجةِ إليه.

فلمّا سمع الوزراءُ ذلك من قولِه ورأيِه، استحسنُوهُ وقالوا: «لو كان هذا قد أطال تجربةَ الأمور وسياسةَ الجند، ما زاد رأيه على ما سمعنا منه». ثُمَّ تتابعت آراؤه في تقويم أصحابه وقمع أعدائه، حتّى إذا تمَّت له ستَّ عشرةَ سنةً، وأطاق حَملَ السِّلاح وركوبَ الخيل، واشتدَّ عَظمُه، جَمعَ إليه رؤساءَ أصحابه وأجنادِه، ثُمَّ قامَ فيهم خطيباً. فذكر اللَّهَ عزّ وجلّ، وذكر ما أنعم به عليه وعليهم بآبائه، وما أقاموا من إربهم، ونَفَوا من

أعدائهم، وما اختلَّ من أمورهم في الأيّام الَّتي مضت من أيّام صباهُ، وأعلمهم: أنّه يستأنف العَمَلَ في الذَّبِّ عن البيضة، وأنه يُقدِّر الشُّخوصَ إلى بعض الأعداءِ لمُحاربته، وأنّ عدَّةَ من يشخص معه من المقاتلة ألفُ رجلٍ. فنهض إليه القوم داعين متشكِّرين، وسألوه أن يُقيمَ بموضعه ويوجِّه القُوّادَ والجنود لِيَكفُوهُ ما قدَّر من الشُّخوص فيه. فأبى أن يجيبَهم إلى المقام. فسألوه الازدياد على العدّة الَّتي ذكرها، فأبى. ثُمَّ انتخب ألفَ فارسٍ من صناديد جُندِه وأبطالِهم وأغنيائهم، وتقدَّم إليهم في المُضِيِّ لأمره، ونَهاهُم عن الإبقاءِ على العربِ وعلى من لَقُوا منهم، ووصّاهُم ألاّ يُعرِّجوا على مالٍ ولا غنيمةٍ ولا يلتفتوا إليه.

ثُمَّ سار بهم، حتّى أوقع بمن انتجع بلاد فارس من العربِ وهم غارّون. فقتل منهم أبرحَ القتلِ، وأسر أعنفَ الأسرِ، وهرب بقيتُهم. ثُمَّ قطع البحرَ في أصحابه فَوَرَدَ الخَطَّ، واستبرى بِلادَ البحرين. فجعل يقتل أهلَها ولا يقبل فِداءاً ولا يُعرِّج على غنيمةٍ. ثُمَّ مضى على وجهه، فَوَرَدَ هَجَر وبها ناسٌ من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس. فسفك فيهم من الدِّماءِ سفكاً سالت كسيلِ المطر، حتّى كانَ الهاربُ منهم يَرى أن لَن يُنجِيَه غارٌ ولا جَبَلٌ ولا بحرٌ ولا جزيرةٌ. ثُمَّ عَطَفَ إلى بلادِ عبد القيس، فأباد أهلَها إلاّ مَن هرب منهم. فلحق بالرِّمال، ثُمَّ أتى اليَمامَةَ، فقتل بها مثل تلك المقتلة. ولم يَمُرَّ بماءٍ من مياه العرب إلاّ عوَّره ولا جُبٌّ من جِبابِهم إلاّ طَمَّهُ. ثُمَّ أتى قُربَ المدينةَ، فقتل من وجد هنالك من العرب وأَسَر. ثُمَّ عطفَ نحوَ بلاد بكرٍ وتغلبَ وفيما بين مملكة فارس ومَناظِرِ الرُّوم بأرضِ الشّام. فقتل مَن وجد بها من العرب وسبى وطَمَّ مياههم.

ثُمَّ أسكن قوماً من بني تغلبَ ومَن سكن منهم البحرين، دارينَ والخطَّ؛ ومن كان من عبدِ القيس وطوائِف تميم، هَجَرَ؛ ومَن كان مِن بكر بن وائلٍ، كَرمانَ؛ - وهم الّذين يُدعَون بكرَ إياد - ومن كانَ منهم من بني حنظلة، بالرُّمَيلةِ من بلاد الأهواز. وبَنى بالسَّواد مدينة بُزُرج سابُور، وبنى الأنبارَ، وبنى السُّوس والكرخَ. وغزا بعدَ ذلك أرضَ الرُّوم، فسبى سَبياً كثيراً. وبنى بخراسانَ نيسابورَ. ثُمَّ هادن قسطنطين مَلِك الرّومِ الَّذي بَنى قُسطنطينيّة، وهو أوّلُ من تنصَّر من ملوكِ الرُّوم.

ذِكرُ حيلةِ لِقُسطَنطينَ

كان قسطنطينُ لمّا ملك الرّومَ كبرت سِنُّه، وساء خُلُقه، وظهر به وَضَحٌ. فأرادت الرّوم خلعه وكاشفتهُ وقالت:

- «اعتزِلِ المُلكَ، فإنَّ لكَ مِن المالِ ما لا تفقدُ معه شيئاً مِمّا أنتَ فيه مِن نِعمتك».

فشاور نُصَحاءَهُ فقالوا له:

ـ «لا طاقةَ لك بالقوم، فقد اجتمعت كلمتهم على خلعك».

قال: «فما الحيلة؟».

قالوا: «تحتال بالدّين ـ وكانت النّصرانيّةُ قد ظهرت وهي خفيّةٌ ـ وذلك بأن تستأذنَ في زيارةِ بيت المَقدِس، وتستمهلَهم مُدَّةَ ما تَعُودُ. فإذا حَصَلتَ بها دخلتَ في هذا الدّين النَّصرانيّ تحمل النّاس عليه، فإنَّهم يفترقون فرقتين، فتقاتل بمن أطاعك مَن عصاك، وما قاتل قومٌ على دينٍ قطُّ إلاّ غَلبوا».

ففعل قسطنطين ذلك، فظفر بالرُّوم. فأحرق كُتُبهم وحكمتَهم، وبنى البِيعَ، وحملَ النّاسَ على النّصرانيّة، ونقلَهم من الرّوميّةِ وكانت دارَ مملكتهم، وبَنى قُسطَنطينيّةَ ولم يَزلِ المُلكُ محروساً بالنَّصرانيّةِ، وغَلبَ على الشّام، إلى أن ظهرَ الإسلام.

ثُمَّ ملك من الرُّوم لليانوس

وكان يدين بملةِ اليونانيّةِ القديمةِ الّتي كانت قبلَ النّصرانيّةِ. فلمّا مَلَكَ، أظهر مِلَّته، وأعادها كهيئَتِها، وأمر بهدم البِيعِ، وجمع جموعاً من الرّوم والخزر ومن كان في مملكته من العرب.

عاقبة سَرَفِ سابُور في القتل

فكان من عاقبة ذلك السَّرف الَّذي أقدم عليه سابور من قتل العرب: أن اجتمع في عسكر لُليانوس مِنَ العربِ مائةٌ وسبعونَ ألفَ مقاتلٍ. فوجَّهَهم مع بَطريقٍ له في مقدّمتِه. وأقدموا على فارسَ حَنِقينَ مَوتورينَ. وذلك أنَّ سابور لم يقتصر على الانتقام مِمَّن أذنبَ وتجاوزَ حدَّهُ، حتّى قتلَ البَريءَ، وسفكَ من الدّماءِ ما لا يُحصى.

فلمّا انتهى إلى سابُورَ كثرةُ مَن معَ لليانوسَ من الجنودِ، وشِدَّةُ بصائِرهم، وحَنقُ العربِ، وعددُ الرّومِ والخزرِ، هالَهُ ذلك، ووجَّهَ عُيوناً تأتيهِ بأخبارهم، ومبلغ عددِهم، وشَجاعَتِهم، وعُدَّتِهم. فاختلفت عليه أقاويلُ أُولئك العيونِ في ما أَتَوهُ به من الأخبار عن لليانوسَ وجُندِه. فتنكّر سابورُ، وسار في ثِقاتِه لِيُعاينَ عسكرَهم.

تخلُّصه بحسن الاتّفاق

فكان ممّا جنى فيه على نفسه وتخلّص منه بحسن الاتّفاق: أنّه لمّا قرب من عسكر البَطريق الَّذي كان على المقدَّمة وكان اسمه يوسانوس ومعه العربُ والخزرُ، وجَّه قوماً ليتجسَّسوا الأخبارَ ويأتوهُ بحقائقها. فَنَذِرَت بهم الرّومُ، فأخذوهم ودفعوهم إلى يوسانوسَ. فأقَرَّ من جملتهم رجلٌ واحدٌ، وأخبر بالقصَّةِ على وجهها وبِمكانِ سابور،

وسألهُ أن يوجِّهَ معه جُنداً فيدفعَ إليهم سابور. فأرسل يوسانوسُ رجلاً من بِطانته إلى سابور يُعلمه ما أُلقِيَ إليه من أمره ويُنذِرُه. وإنّما فعل ذلك لِميلِه إلى النّصرانية الّتي قصدها لليانوس. فارتحل سابور من الموضع الّذي كان فيه وصار إلى عسكره. ثمّ زحف لُليانوس بمسألة العربِ إيّاه، فقاتل سابورَ وفضّ جَمعَه، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وهربَ سابورُ في من بَقيَ من جنده، واحتوى لليانوسُ على مدينةِ طيسبونَ محلّةِ سابور، وظَفِر ببيوت أمواله وخزائنه فيها. ثُمّ اجتمع إلى سابور من آفاق بلاده جنودُه، وحاربَ لُليانوس، واستنقذ منه طيسبون، واختلفت الرُسُل بينه وبين لُليانوس.

سوءُ تحفُّظ لُليانوس

فكان من سوءِ تحفُّظ لُليانوس في تلك الحال واسترساله: أن كان يوماً جالساً في حُجرةٍ مِن فُسطاطه، والرُسل تختلفُ بينه وبينَ سابور، فجاءَه سَهمٌ غَرِبٌ فأصاب مقتلَه من فؤادِه، فسقط ومات، وأسقِطَ في روع جُنده وهالَهم ما نزل به، ويئسوا من التّقصّي في بلاد فارسَ، فصاروا نشَراً لا مَلِكَ عليهم. فطلبوا إلى يوسانوس أن يتولّى المُلكَ لهم ليُملّكوهُ عليهم. فأبى ذلك، وألَحّوا عليه، فأعلمهم أنّه على مِلّة النّصرانيّةِ، وأنّه لا يلي قوماً هم له مخالفون في دينه. فأخبرتهم الرّوم أنّهم على ملّته، وأنّهم كتموها مخافَة لُليانوسَ. فأجابهم حينئذٍ، فلمّا ملّكوه أظهروا النّصرانيّة.

ثُمّ إنّ سابور لمّا علم بهلاك لُليانوس، أرسل إلى قُوّاد جُنودِه الرّوم يقول:

ـ «إنّ اللّهَ قد أمكننا منكم، وأدالَنا عليكم، ونرجو أن تَهلكوا ببلادنا جوعاً من غيرِ أن نهزّ لقتالكم سيفاً، أو نشرعَ له رُمحاً، فسرِّحوا إلينا رئيساً إن كنتم رأستموه عليكم».

فعزَم يوسانوس على إتيان سابور لِما كان بينَهُ وبينَهُ، لِما أَنذره ومَنَّ عليه. فلم يُتابعه أحدٌ من قُوّادِ جُندِه. فاستبدّ برأيه، وجاء إلى سابور في ثمانينَ رجلاً من أشرافِ مَن كان في عسكرِه وجُندِه، وعليه تاجُهُ. فبلغ سابورَ مجيئُهُ إليه، فتلقّاه، وتساجدا، فعانقه سابور شكراً لما كان منه في أمرِه، وطَعِم عنده يومئذٍ ونَعِمَ. وإنّ سابورَ أرسل إلى قُوّاد جند الرّوم وذوي الرئاسة فيهم يُعلمهم: أنّهم لو ملّكوا غيرَ يوسانوس، لجرى هلاكُهم في بلادِ فارسَ، ولكن تمليكهم إيّاه يُنجيهم من سطوتِه. ثُمّ قوّى أمرَ يوسانوسَ بكلّ جهدٍ، وقال له عند مُنصَرفه:

ـ «إنّ الرُوم قد شنُّوا الغارة على بلادنا، وقتلوا بشراً كثيراً، وقطّعوا بأرض السَّواد من الشَّجر والنَّخلِ ما كان بها، وخَرَّبوا عُمرانَها، فإمّا أن تدفعوا إلينا قيمةَ ما أفسدوا وخرّبوا، وإمّا أن تُعوِّضُونا من ذلك نصيبين وحيِّزها.

فأجاب يوسانوسُ وأشرافُ جُندِه سابورَ إلى ما سأل من العِوض، ودفعوا إليه

نصيبين. فبلغ ذلك أهلها، فجلَوا عنها إلى مُدنٍ للرّوم، خوفاً على أنفسهم من مَلكٍ مخالفٍ مِلَّتَهم. فبلغ ذلك سابورَ، فنقل اثني عَشَرَ ألفَ أهلِ بيتٍ من أهل اصطخرَ وأصبهانَ وكُوَرٍ أُخر، من بلادِهِ إلى نصيبين، فأسكنهم إيّاها. وانصرفَ يوسانوسُ إلى الرّوم وملكَها يسيراً ثمّ هلك.

وضَرِيَ سابورُ على قتل العرب، ونزعِ أكتافِ رؤسائهم زماناً طويلاً، فَسَمَّتهُ العرب «ذا الأكتاف». ثمّ إنَّه استصلح العربَ وأسكنَ من بعضِ تَغلبَ وعبدِ القيسِ وبكرٍ، كرمانَ وتَوَّجَ والأهوازَ. وبنى مدينةَ نيسابورَ ومدائنَ أُخَر بالسِّند وسجستان، ونقل طبيباً من الهند، فأسكنه السُّوسَ، فَوَرِث طِبَّه أهلُ السُّوس. وهلك سابور بعدَ اثنتينِ وسبعينَ سنةً من ملكه.

أردشير بن هُرمز

وقام بالمُلك بعد سابور، أخوه أردشير بن هرمز بن نرسي بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك. فلمّا استقرَّ به المُلكُ ظَهَر منه شرٌّ، وقَتَلَ مِن ذوي الرِّئاسةَ والعظماء خلقاً كثيراً، فخلعه النّاس بعد أربعِ سنينَ من مُلكه، وملَّكوا:

سابور بن سابورَ ذي الأكتاف

فاستبشرت الرّعيّةُ به وبرجوع مُلكِ أبيه إليه. فأحسن السِّيرةَ ورفق بالرَّعيَّةِ، إلى أن سقط عليه فسطاطٌ كان ضُرِبَ عليه، فمات ومُلِّك بعدَه أخوه:

بهرام بنُ سابورَ ذي الأكتاف

وكان يُلقَّب بِكرمان شاه، لأنّ سابور ولاّه «كرمانَ»، فمضت أيّامُه محمودةً، وكان جميل السِّياسةِ مُحبَّباً. ثُمّ قام بالملك:

يزدجردُ المعروفُ بالأثيم ابنُ بهرام بنِ سابورَ ذِي الأكتافِ

ومن الفرس من يقول: هو أخو بهرام وهو يزدجردُ بنُ سابورَ ذي الأكتافِ. وكان فظًّا غليظاً ذا عيوبٍ كثيرةٍ، وكان من أشدِّ عيوبه وضعُه ذكاءَ ذهنٍ وحُسنَ أدبٍ كانا فيه، غيرَ موضِعهما. وذلك أنَّه كان كثيرَ الرؤية في الضّارِ من الأمورِ، واستعمل عِلمَه الَّذي أوتيَهُ، في الدَّهاءِ والخَتلِ، واستخفّ بكُلِّ علمٍ كان عند النّاس، واحتقر آدابَهم واستطالَ بما عنده، وكان مع ذلك معجَباً، غَلِقاً، سَيِّيء الخُلق، رديءَ الطِّعمة، حتّى بلغ من شدَّة غلَقِه وحدَّته أن يستعظِم صغيرَ الزّلاّت ولا يرضى في عقوبتها إلاّ بِما لا يُستطاعُ أن يبلغ مِثلَها. ثُمَّ لم يقدر أحدٌ من بطانته ـ وإن كان لطيف المَنزِلة منه ـ أن يشفع لمن ابتلي به، وإن كان ذنب المبتلى به يسيراً. ولم يكن يأتمن أحداً على شيءٍ من الأشياء. ولم

يكن يُكافِئ على حسن البَلاءِ. وكان يعتدُّ بالخسيس من العُرفِ إذا أولاهُ ويستجزل ذلك. فإن جَسرَ على كلامه أحدٌ في أمرٍ قال له:

ـ «ما قدرُ جعالتك في هذا الأمر الّذي كلّمتَنا فيه، وما الّذي بُذِلَ لَكَ؟»

وما أشبه ذلك. فلقي النّاس منه عَنَتاً. فلمّا اشتدّت بليّتُه، وكثُرَ إهانتُه للعظماءِ، وحمل على الضُعفاءِ، وأكثر من سفكِ الدِّماء، اجتمعوا وتضرَّعوا إلى ربِّهم في تعجيل إنقاذهم منه.

فتزعم الفرس: أنّه كان مطَّلعاً من قصره ذات يوم إذا رأى فرساً عائراً لم يُرَ مِثلُه قطُّ في الخيل، حُسنَ صورةٍ وتمامَ خَلقٍ، حتّى وقف على بابه، فتعجّب النّاس منه، لأنّه كان متجاوز الأمر. فأمر يزدجرد أن يُسرَج ويُلجَم ويُدخَل عليه. فحاول ساستُه وأصحابُ مراكِبه إلجامَهُ وإسراجَه، فلم يمكّن أحداً منهم من نفسه. فخرج بنفسه إلى الموضع الّذي فيه الفرسُ، فألجمه بيده وأسرجهُ وليّنَه فلم يتحرّك، فلمّا استدار به ورفع ذَنَبه لِيُثفره، رَمَحَهُ الفَرسُ على فؤاده رَمحةً هلك منها مكانَه. ثُمّ لم يعايَن ذلك الفرسُ. فأكثرت الفُرسُ في حديثه وظَنّتِ الظُّنونَ. وكان أحسنهم مذهباً مَن قال: «إنّما استجابَ اللّه دعاءَنا».

ثُمَّ ملك بعد يزدجرد الأثيم ابنهُ:

بَهرام جُور

وكان أسلمه يزدجرد إلى المنذر بن النّعمان لِيربِّيهُ في ظَهر الحيرةِ، لصحّةِ التُّربةِ والهَواء، ولِيتعلَّمَ هناك الفروسيّةَ. وتكفَّله النُّعمانُ وعظَّم يزدجرد المنذرَ بن النّعمان، وشرَّفه، وملَّكهُ على العربِ، وسار به المنذرُ، فربّاهُ، واستدعى له الحواضنَ من الفُرسِ والعرب، ثُمَّ أحضرهُ المؤدِّبينَ، وحرص بهرام على الأدب.

فتحكي عنه حكاياتٌ من النَّجابة في صِغَرِه، فمنها أنّه قال للمنذر بن النُّعمان وهو ابنُ خَمسِ سنينَ:

ـ «أحضرني مؤدِّبين ليُعلِّموني الكتابة والفقه والرَّمي والفروسيّة».

فقال له المنذر: «إنَّك بعدُ صغيرُ السِّنِّ، ولم يأنِ لَكَ ذلك بعدُ».

فقال له بهرام: «أما تعلمُ أيّها الرَّجلُ، أنّي من وُلد الملوك، وأنّ المُلك صائرٌ إليَّ، وأولى ما كُلِّف به الملوكُ وطلبوهُ، صالحُ العلم، لأنّه زينٌ لهم وركنٌ، وبه يفوقون؟ أما تعلمُ أنَّ كلَّ ما يُتقدَّم في طلبه يُنالُ وقتَهُ، وما لَا يتقدَّم فيه، بل يُطلبُ في وقتِه، يُنالُ في غيرِ وقتِه، وما يُفرَّطُ فيه وفي طَلبِه، يَفوتُ فلا يُنال؟ عَجِّل عليَّ بما سألتُك!».

فوجَّه المنذرُ ساعةَ سَمعَ مقالةَ بهرام، إلى بابِ الملكِ مَن أتاه برهطٍ من المعلِّمينَ

والفقهاءِ ومُعلِّمي الرَّمي والفروسيّةِ، وجمعَ له حكماءَ الروم وفارِسَ ومحدِّثي العرب، فألزمهم إيّاهُ، ووقف أوقاتاً لِكُلِّ قومٍ منهم. فتفرَّغَ بهرامُ لِتَعلُّم كُلِّ ما سَأَلَ أن يُعلَّمَ، واستمعَ مِن أهلِ الحكمةِ، ووَعى ما سَمِعَ، وثَقِفَ كلَّ ما عُلِّم بأيسرِ سَعيٍ، وبلغ أربعَ عشرةَ سنةً وقد فاق معلِّميه، واستفادَ كُلَّ ما أفيدَ وحَفِظ وفاقَ. ثُمّ حرص على انتخاب الأفراس العربيةِ وركوبها وإحضارها والرَّمي عليها، فَبَرَع في ذلك. وتحكي الفُرس عنه حكاياتٍ عظيمةً جدًّا.

ثُمَّ أعلم المنذر أنّه على الإلمام بأبيه، فشخص، وكان أبوه لا يحفل بوَلَدِ له، فاتَّخذ بهرامَ للخدمةِ، ولقي بهرام من ذلك عَنَتاً. واتَّفَقَ أن وَرَدَ على يزدجردَ وفدٌ من قيصر ـ وفيهم أخو قيصر ـ في طلب الصُّلح والهُدنة، فسأله بهرامُ أن يكلِّم يزدجردَ في الإذنِ له في الانصراف إلى المنذرِ. فأذن له أبوه وانصرف إلى بلاد العرب وقد عرَّض بأبيه ورأى قِلَّةَ نفاقِ أدبِه عليه، ولقي شِدَّةً وهواناً. فأقبل على التَّنعُّم والتَّلذُّذِ، إلى أن هلكَ أبوهُ يزدجردُ وبهرامُ غائبٌ.

فتعاقد قومٌ من العظماء ألاّ يُملِّكوا أحداً من نسلِ يزدجردَ، وأظهروا: أنَّ وُلدَ يزدجردَ لا يحتملون المُلكَ، وليس فيهم نجيبٌ غير بهرام، وبهرامُ لم يتأدَّب بأدبِ الفُرس، وإنَّما أدبُه أدبُ العرب، وأخلاقُه أخلاقُهم، لِنَشئه في ما بينهم وبين أظهُرهم، واجتمعت كلمةُ العامَّة معهم على صرفِ المُلك عن بهرامَ إلى رَجُلٍ من عترةِ أردشيرَ بنِ بابك يُقال له:

كِسرى

فملَّكوه، وانتهى هلاكُ يزدجرد وما كان من تمليكهم كِسرى إلى بهرام. فدعا بالمنذرِ وبالنّعمان ابنِه وناسٍ من عليةِ العرب. فذكَّرهم إحسانَ والدِه إليهم وإنعامَه عليهم مع فظاظته وشدَّتِه على الفُرس، وأخبرهم بموتِ والدِه وما كان من الفُرس من تمليك غيره، ومنّاهُم من نَفسِه ووَعدَهُم بما أنِسوا به. فقال المنذر:

ـ «لا يَهُولنَّكَ ذلك حتّى ألطُفَ لِلحيلة».

ثُمَّ إنّ المنذر جهّز عشرة آلافٍ من فرسان العرب مع ابنه إلى طيسبون وبهأردَشير مَدينتَي المُلكِ، وأمرهُ أن يُعسكر قريباً منهما، وأن يُغيرَ على ما والاهُما، وإن تحرّك أحدٌ لقتاله قاتله. وأذِنَ لهُ في الأسرِ والسَّبي، ونهاهُ عنِ القتلِ.

فسار النُّعمان حتّى نزل قريباً من المدينتين، ووجَّه طلائعُه إليهما واستعظم قتالَ الفُرسِ. فاجتمع رأيُ العظماء وأهلِ البيوتات على إنفاذ جُواي على تأدية رسالةٍ ـ وجواي هذا صاحبُ رسائلِ يَزدجردَ ـ إلى المنذرِ ويستكفونَهُ أمر النُّعمانِ ابنِه، ويُخوِّفونه

مِن عُقبى جنايته عليه.

فلمّا ورد حواي على المنذر قال له: «إلقَ الملكَ بهرامَ».

ووجّه معه مَن يُوصله إليه. فلمّا دخل عليه راعه منظر بهرام وما رأى من وَسامَتِه. فكلّمه بهرامُ ووعدَهُ ومنّاهُ وردَّهُ إلى المنذرِ، ورسمَ له أن يُجيب عمّا كُتبَ إليه.

فقال المنذر لحواي: «قد تدبّرتُ ما جئتَني به، وقرأتُ الكتابَ ولستُ صاحبَ النُعمان، وإنّما صاحبُه الملكُ بهرام، وهو الّذي وجّهه إلى ناحيتكم، ورسم له ما هو لا محالةَ متمثِّلُهُ، لأنّ المُلكَ صار له بعدَ أبيه، ولا حظَّ لغيره فيه».

فلمّا سمع حواي مقالتَهُ، وتذكّر ما عاينَ من بهاءِ بهرامَ ورُوائه وحُسنِ كلامِه، عَلِمَ أنَّ جميعَ مَن يشاورُ في صرفِ المُلكِ عنه مخصومٌ محجوجٌ. فقال للمنذر:

- «إنّي لست محيراً جواباً، ولكن سر - إن رأيت - إلى محلَّة الملوكِ فيجتمع إليك مَن بها من العظماء وأهلِ البيوتات، وأتِ في الأمر ما يَجمُلُ، فإنّهم لَن يُخالفوكَ في شيءٍ مِمّا تُشير به».

فردّ المنذرُ حواي، واستعدَّ، وسارَ بعدَه بِيوم مع بَهرامَ في ثلاثين ألفَ رجلٍ من فرسانِ العربِ وذوي البأسِ والنّجدةِ منهم إلى مدينتَي الملك. فلمّا ورَدَهما، جمع النّاسَ وجلسَ على منبرٍ من ذهبٍ مكلّلٍ بالجوهر، وجلس المنذرُ عَن يمينِه، وتكلّم عظماءُ الفرس، وفَرَشُوا للمنذرِ بكلامِهم فظاظةَ يزدجردَ كانت وسوءَ سيرتِه، وأنّه أخرب الأرضَ وأكثر القتلَ ظلماً حتّى قلّ النّاس. وذكروا أموراً فظيعةً، وذكروا أنّهم إنّما تعاقدوا على صرف الملك عن وُلد يَزدجردَ لذلك. وسألوا المنذرَ ألاّ يُجبِرَهم في أمر المُلكِ على ما يكرهونه.

فقال المنذر لبهرام: «أنت أولى بإجابة القوم».

فقال بهرامُ: «إنّي لستُ أُكذِّبكم في شيءٍ ممّا نسبتم إلى يَزدجردَ لِما استقرَّ عندي من ذلك. ولقد كنتُ مُنكراً سوءَ هَديِه متنكباً طريقتَه، ولم أزل أسألُ اللّه أن يُفضِي بالمُلك إليَّ فأُصلحَ كُلَّ ما أفسدَ، وأرأَبَ ما صَدَعَ، وسأُعيد الأمورَ بمشيئة اللّه إلى أتمِّ ما كانت عليه في وقتٍ من الأوقات انتظاماً، وأعمُرُ البلادَ، وأُرفِّهُ الرَّعيَّة، وأوسعُ لهم، وأوطِّىء جانبي، وأُدِرُّ أرزاقَ الجُنودِ وأهلِ الطّاعةِ، وأَسُدُّ الثّغور، وأنفي أهلَ الفسادِ. فإن أتت لِمُلكي سنةٌ ولم أفِ لكم بهذه الأمورِ الّتي عددتُ عليكم، تبرّأتُ من المُلك طائعاً، وأُشهدُ اللّه بذلك وملائكتَه ومُوبَذان مُوبَذ».

فسمع أكثرُ النّاس ورَضُوا، وتكلّمت طائفةٌ كان رأيُها مع كسرى.

فقال بهرام: «فإنّي على ما ضَمِنتُه لَكُم، واستيجابي لِلمُلكِ، وأنّه حقٌ لي. قد

رضيتُ أن يوضع التّاجُ والزّينةُ بين أسدينِ مُشبلينِ، فَمَن تناولَهُ فهو المَلِك».

بهرام يتناولُ التّاجَ والزّينة من بين أسدين مُشبلين

فلمّا سمع القوم هذه المقالةَ، مع ما وعد من نفسه، سكنوا، وأظهروا الاستبشار والرضايةَ، وقالوا:

ـ «إنّا إن تمّمنا صرفَ الملك عن بهرام، لم نأمن هلاكَ الفُرس على يده بمن يرىٰ رأيَه ولكثرة من استجاش من العرب. وقد عَرضَ علينا ما لم يَدعُهُ إليه أحدٌ، لولا ثقتُهُ ببطشه وجُرأتِه. فإن لم يكن على ما وصف به نفسَه، فليس الرأيُ إلاّ تسليمَ المُلكِ إليه والسَّمع والطّاعة، وإن يهلك ضعفاً وعجزاً فنحن براء منه، آمنون لِشرِّه وغائلته».

فتفرَّقوا على هذا الرّأي، وجلس بهرام من الغد في مثل مجلسه بالأمسِ، وحضر من كان يُحادُّه فقال:

ـ «إمّا أن تجيبوني عَمّا تكلَّمت به أمسِ، وإمّا أن تسكتوا باخعين لي بالطّاعة».

فقال القوم: «قد رضينا بحكمك، وأن يُوضَعَ التاجُ والزّينةُ بين الأسدين كما ذكرتَ بحيثُ رسمتَ، وتُنازِعاهُما أنتَ وكسرى».

فَأُتِي بالتّاجِ والزّينة. وتولّى مُوبَذان مُوبَذ الّذي كانَ يعقد التّاج على رأسِ كلِّ ملكٍ يَملِك، فوضعهما ناحيةً، وجاء أصبهبذٌ مع ثقاتِ القوم بأسدينِ ضاريين مُجوَّعين مُشبِلَينِ. فوقف أحدهما عن جانبِ الموضعِ الّذي وُضع فيه التّاجُ والزّينةُ، والآخر بحذائه، وأُرخِيَ وثاقُهما.

ثم قال بهرام لكسرى: «دونَكَ التاجَ والزّينة!».

فقال كسرى: «أنت أولى بالبدءِ مِنّي، لأنّك تطلب المُلكَ بوراثةٍ، وأنا فيه دخيلٌ».

ولم يَكره بهرامُ قولَه لِثقتِه بنفسِه، وحمل جُرزاً وتوجَّه نحو التّاج والزّينة.

فقال له مُوبَذان مُوبَذ: «استماتتك في هذا الأمر الّذي تُقدم عليه هو تطوُّعٌ منك، لا عن رأيي، ولا عَن رأي أُحدٍ من الفُرسِ، ونحن بُرءَاءُ إلى اللّه من إتلافِك نفسَك».

فقال بهرام: «نعم، أنتم بُرَءَاءُ، ولا وِزرَ عليكم».

ثمَّ أسرع نحو الأسدين. فلمّا رأى مُوبَذان مُوبَذ جِدَّه، هتف به وقال:

ـ «بح بذنوبكَ وتُب منها، ثمَّ أقدِم إن كنتَ لا محالةَ مُقدماً».

فباح بهرام بما سلف مِن ذنوبه، ثُمَّ مَشىٰ نحو الأسدينِ، فَبَدَر، أحدُهما، فلمّا دَنا من بهرام، وثب وثبةً، فإذا هو على ظهر الأسدِ، وعَصَر جَنبَي الأسدِ بفَخِذَيهِ حتّى

أثخنه، فجعل يضرب على رأسه بالجُرزِ، ثمّ قرب من الأسد الآخر. فلمّا تمكّن منه قبض على أُذُنيه وعَرَكَهُما بكلتي يديه، ولم يزل يضرب رأسَه برأسِ الأسدِ الّذي كان ركِبَ ظَهرَه، حتّى دَمَغهما، ثُمّ قتلَهما ضرباً على رأسهما بالجرز، وذلك كُلُّه بمشهدٍ من جميع مَن حَضَر ذلك الموضعَ وبمرأى من كسرى. فتناولَ بهرامُ التّاجَ والزّينةَ، وكان كسرى أوّل مَن هتف به وقال:

- «عمّرك اللّه بهرام، الّذي يَسمعُ له مَن حولَه ويطيع، ورزقه اللّه مُلكَ أقاليمِ الأرض السَّبعة».

ثمّ هتف النّاس وجميع من حضر ذلك المجلس، وقالوا:

- «أذعنّا لِلملك بهرام ورضينا به مَلكاً».

وكثر الدّعاء والضَّجيج. ولقي الرُؤساءُ المُنذرَ بعد ذلك وسألوه أن يُكلّم بهرامَ في التَّغمُّدِ لإساءتِهم والصّفح عنهم. فسأله المنذرُ وأسعَفَهُ المَلِكُ. ثمّ جلسَ بهرامُ - وهو ابن عشرين سنةً - سبعةَ أيّام متواليةٍ للجندِ والرّعيّة، يَعِدُهم الخيرَ من نفسه ويحضُّهم على تقوى اللّه وطاعتِه، وغَبَرَ زماناً يُحسنُ السّيرةَ ويعمرُ البلادَ ويُدِرُّ الأرزاق.

ثُمَّ آثَرَ اللّهوَ على ذلك، وكثرت خلواتُه بأصحاب الملاهي والجواري، حتّى كثرت ملامةُ رعيّتِه إيّاهُ على ذلك، وطمع مَن حولَه من الملوك في استباحة بلاده والغلبةِ على بلاده.

وكان أوّلُ مَن سَبَقَ إلى مُكاثَرَتِه ومُغالَبتِه خاقانَ مَلِكَ التركِ. فإنّه غزاه في مائتين وخمسين ألفاً من الأتراك. فبلغ الفُرسَ إقبالُ خاقانَ في هذا الجمع العظيم فهالهم وتعاظَمهم، ودخل إليه من عظمائهم قومٌ من أهل الرّأي فقالوا:

- «أيّها الملك، قد أزِفَك من بائقة هذا العدّو ما يَشغَلكَ عمّا أنت فيه من اللّهو والتلذُّذ، فتأهَبْ له، كَي لا يلحقَك منه أمرٌ يَلزمك فيه مسبّةٌ وعارٌ».

فكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه، يُجيب القوم: بأنّ اللّه ربّنا قويٌّ ونحنُ أولياؤه، ثُمّ يُقبل على المُثابَرةِ واللّزوم لِما فيه من اللّهو والصيّد.

حيلةُ بَهرام جُور على خاقان

إلى أن أظهر ذات يوم التّجهز إلى آذربيجان لِينسُكَ في بيتِ نارِها ويتوجّهَ منها إلى إرمينية ويطلبَ الصّيدَ في آجامها، ويلهوَ في مسيرِه، في سبعةِ رهطٍ مِن العلماءِ وأهلِ البيوتات وثلاثمائةِ رجُلٍ من رابِطتِه، ذوي بأسٍ ونَجدَةٍ. واستخلف أخاً له يقال له: «نَرسى»، على ما كان يُدبِّرُ من مُلكِه. فلم يشكَّ النّاس حين بلغهم مسيرُ بهرام في مَن سار بهم، واستخلافُه أخاه على ما استخلف، في أنّ ذلك هربٌ من عَدوِّه، وإسلامٌ

لِمُلكِه. وتَوامَروا في إنفاذ وفدٍ إلى خاقان، والإقرارِ له بالخراج، مخافةً منه، لاستباحةِ بِلادِهم، واصطلامِه مقاتلتَهم ووجوهَهُم، إن هم لم يفعلوا ذلك ويبادروا إليه. فبلغ خاقانَ الّذي أجمع عليه الفُرسُ من الانقيادِ والخضوعِ. فَأَمنهَم وتودَّعَ وتَرَكَ كثيراً من الجِدِّ والاستعداد، وآثر أيضاً ذلك. وأتى بهرامَ عين لهَ من جِهة خاقانَ، فأخبره بحاله، وحالِ جُندِه، وفتورهم عن الجِدِّ الّذي كانوا عليه.

فسار بهرام في العِدَّة الّذين كانوا معه، فَبَيَّتَ خاقانَ وقتله بيده، وانهزم مَن سلم من القتل منهم، وخلّفوا عسكرهم وأثقالَهم. فأمعن بهرامُ في طلبهم يَقتلُهم، ويحوي الغنائمَ ويَسبي الذّراريَّ، وانصرف هو وجندُه سالمين، وظَفِرَ بتاج خاقانَ وإكليله، وبَخِعَ له أهلُ البلاد المتاخِمةِ لَما غَلَبَ عليه، بالطّاعةِ. وسألوهُ أن يَحُدَّ لهم حداً بينه وبينهم فلا يتعدّوه. ثُمَّ بعث قائداً له إلى ما وراءَ النّهر. فأثخنهُم وأقرُّوا له بالعُبوديّةِ وأداء الجزيةِ. وانصرف بهرام بالغنائم العظيمةِ والتّاج والإكليلِ وما فيهما من الياقوتِ الأحمرِ وسائرِ الجواهر فنحلها بيتَ النّارِ بآذربيجان، ورفع الخراجَ عن النّاس ثلاث سنين، وقسم في الفقراء مالاً عظيماً، وفي البيوتاتِ وأهلِ الأحساب عشرينَ ألفَ ألفِ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وكتب كتباً إلى الآفاق يذكر فيها أنّ الخبرَ كان ورد عليه بوُرودِ خاقان بلادَه وأنّه مجَّد اللّه وتوكّلَ عليه، وسار في سبعةِ رهطٍ من أهل البيوتات، وثلاثمائة فارسٍ من نُخبةِ رابطتِه على طريقِ آذربيجان، وجبلِ القَبق، حتّى نفذ إلى براري خوارزمَ ومفاوزِها، وأبلاهُ اللّه أحسنَ بلاءٍ، وذكر في الكتاب ما وَضَعَهُ عن النّاس من الخراج، وهذا الكتابُ كان بليغاً، والفُرس يحفظونَهُ.

ويُقال: إنَّ بهرام تَرَكَ من حقِّ بيتِ المال مِن الخراج سبعينَ ألفَ ألفِ ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دِرهمٍ بقسطِ تلكَ السَّنَةِ، وكان هذا مقدارَ ما بَقي مِنهُ. ثُمَّ أمر بترك الخراج ثلاثَ سنين أُخَر.

ثُمَّ إنَّ بهرام لَمّا انصرف من غَزوِه خاقان مظفَّراً قَصَدَ الهِندَ، فيُحكى له حكاياتٌ عظيمةٌ وأمورٌ كبارٌ تولاّها، وغَلبَ عليها، وزوَّجه مَلِكُ الهند ابنتَهُ ونَحَلَهُ الدَّيبُلَ ومُكرانَ وما يليها، فضمَّها بهرامُ إلى أرضِ الفُرسِ، وحُمِلَ خراجُها إلى بهرام.

ثُمَّ أغزى بهرامُ «مِهرنَرسى» إلى بلاد الرّوم في أربعين ألفَ مُقاتلٍ، وأمره أن يقصد عظيمَها ويُناظِرَه في أمرِ الإتاوة وغيرِها. فتوجَّهَ مهرنرسي في تلكَ العُدَّةِ، ودخل قسطنطينيَّة، ومُقامُه مشهورٌ هناك، فهادنَه مَلكُ الرّوم، وانصرف بجميع ما أرادَ بهرام - وكان مهرنرسى هذا من وُلدِ بهمن بن اسفندياذ بن بشتاسف، وربَّما خُفِّفَ اسمُه، فقيل: «نَرسى» - وبلغ مبلغاً، وكُلُّ ذلك بهيبةِ بهرامَ وما تمكّن له في قلوب الملوكِ وأهلِ الأطرافِ والجُندِ من جَودةِ الرّأي وحسنِ التَّدبير والشَّجاعةِ ونفاذِ العزيمةِ، وقلّةِ الاتّكال على غيرِه.

وذُكر أنَّ بهرامَ بعد فراغه مِن أمرِ خاقانَ وأمرِ ملوكِ الرّوم والسِّندِ مضى إلى بلاد السُّودان من ناحيةِ اليمن، فأوقعَ بِهم، وقتل منهم مقتلةً عظيمَةً، وسَبى منهم خلقاً، وانصرف إلى مملكته وهلك بعد ذلك في «ماه» وذلك أنّه توجَّه إليها للصّيد فشدَّ على عَيرٍ وأمعن في طلبه فارتطم في ماءٍ في سَبخَةٍ وغرقَ هناك. فسارت والدتُه إلى ذلك الموضعِ بأموالٍ عظيمةٍ، فأقامت قريبةً منها، وأمرت بإنفاقِ تلك الأموالِ على مَن يُخرِجُه. فنقلوا طيناً عظيماً وحَمأةً كثيرةً، وجمعوا مِنهُ إكاماً عِظاماً، ولم يَقدِروا على جُثَّةِ بهرام. وكان مُلكُه ثلاثاً وعشرين سنةً. ثم مَلَكَ بعدَه:

يزدجردُ بنُ بَهرام جُور

فكان يَسيرُ بسيرةِ أبيه، ولم يزل قامعاً لَعُدوّه رؤوفاً برعيَّته وجنودِه. وكان له ابنان: أحدهما يُسمّى هُرمُزَ، والآخرُ فيروزَ. فغلب هرمز على المُلكِ بعد أبيه يَزدجردَ، وهَرَبَ فيروز منه ولحِقَ ببلاد الهَياطِلة، وأخبر مَلِكَها بقِصَّتِه وقصةِ أخيه هُرمزَ، وأنَّه أولى بالمُلك منه، وسأله أن يُمِدَّه بجيشٍ يقاتل بهم أخاه. فأبى عليه مَلِكَ الهياطلة وقال:

- «سأَعلَمُ عِلمه ثمَّ أُمِدُّك إن كنت صادقاً».

فلمّا عَرفَ ملكُ الهياطلة أنّ هرمز مَلِكٌ ظلومٌ غشوم، قال:

- «إنّ الجَورَ لا يرضاه اللَّهُ، ولا يَصلحُ عليه المُلكُ، ولا تقوم به سياسةٌ، ولا يَحترِفُ النّاسُ في مُلكِ المَلِكِ الجائر إلاّ بالجور، وفي هذا هلاكُ النّاس وخرابُ الأرضِ».

فَأَمدَّ فيروزَ، ودفع إليهِ الطّالقان. فأقبل فيروز من عندِه بجيشٍ طخارستانَ وطوائف خراسان، وسار إلى أخيه هرمزَ بنِ يَزدجردَ وهو بالرَّيِّ، وكانت أُمُّهما واحدةً، وكانت بالمدائن تدبِّر ما يليها مِنَ المُلكِ، فظفِر فيروز بأخيه، فَحَبَسه وأظهرَ العدلَ وحُسنَ السّيرة، وكان يتديَّن، إلاّ أنه كان مُحارفاً مشؤوماً على رعيَّته، وقَحِطَ النّاسُ في زمانه سبعَ سِنينَ، فأحسنَ فيها إلى النّاس، وقَسَمَ ما في بُيوتَ الأموالِ، وكفَّ عن الجِباية، وساسَهم أحسنَ سِياسةٍ.

ويُقال: إن الأنهار غارت في مُدَّةِ هذه السَّبع السِّنين، وكذلك القُنِيُّ والعيونُ، وقَحِلتِ الأشجارُ والغِياض، وتَماوتَتِ الوُحوش والطيُّورُ، وجاعتِ الأنعامُ والدّوابُ، حتى كانت لا تُطيقُ أن تحملَ حمولةً، وعَمَّ أهلَ البلادِ الجَهدُ والمَجاعة.

حُسنُ سِياسَةِ مِن فيروز

فبلغ مِن حُسنِ سياسةِ فيروزَ لذلك الأمر أن كتب إلى جميع أهلِ رعيَّتِهِ: أنّه لا خَرَاجَ عليكم ولا جِزيةَ ولا سُخرةَ، وأنَّه قد مَلَّكَهُم أنفُسَهم وأمَرَهم بالسَّعي فيما يقوتُهم ويصلحهم. ثُمَّ كتب إليهم في إخراج الهُوى والطَّعام والمطامير لِكُلِّ مَن كان يَملِكُ شيئاً

مِن ذلك مِمّا يقوتُ النّاسَ، والتّآسي فيه، وتَركِ الاستيثارِ به، وأن يكونَ حالُ الفَقرِ والغِنى وأهلِ الشرفِ والضِّعةِ في التّآسي واحدةً، وأخبرهم أنّه إن بَلَغَه أنَّ إنسيًا ماتَ جُوعاً، عاقبَ أهلَ تلك المدينةِ أو القَريةِ أو الموضع الّذي يموت فيه ذلك الإنسيُّ، ونكّلَ بهم أشدَّ النّكال.

ويقال: إنّه لم يهلك في تلك اللّزبةِ والمجاعةِ أحدٌ من رعيَّتِه إلاّ رجلٌ من رُستاقِ كورةِ أردشير خُرّة.

ثمَّ إنَّ فيروزَ لمّا حَيِيَت بِلادُهُ، وأغاثه اللّهُ بالمطرِ، وعادت المِياهُ، وصَلُحتِ الأشجارُ، واستوسق له المُلكُ، أثخن في الأعداءِ وقهرهم، وبنى مدناً: إحداها بالرَّيِّ، والأخرى بين جُرجانَ وصُولٍ. والأخرى بناحيةِ آذربيجانَ. ثُمَّ سارَ بِجنودِه نحوَ خراسانَ مُريداً حربَ أُخْشُنواز مَلِكِ الهياطلةِ، لأشياءَ كانت في نفسه، ولأنَّ هؤلاء القوم كانوا يأتون الذُّكرانَ ويرتكبون الفواحشَ، فتأوَّل بها وسار إليهم. فلمّا بلغ أُخشُنوازَ خَبَرُهُ اشتدَّ منه رُعبُه وعَلِم أن لا طاقَةَ له بِه.

حِيلَةٌ تمَّت لِمَلِكِ الهَياطلةِ على فيروز

فكان مِمّا تَمَّ له على فيروز من الحيلة حتّى قَهَرَهُ وقَتَلَهُ وقَتَلَ عامَّةَ مَن كان معه: أنَّ رجلاً مِن أصحابِ أُخشُنواز، لَمّا علم أنَّ مَلِكَهُ قد بَعِلَ، وأنّه قد أشرف على الهلاك هو وأهلُ بِلاده، تنصحَ إليه وقال:

- «إنّي رجلٌ كبيرُ السِّنِ قريبُ الأجَلِ وقد فديتُ الملكَ وأهلَ مملكتِه بنفسي، فاقطعْ يَدَيَّ ورجلَيَّ وأظهِر في جسمي وجَنبي آثارَ السِّياط والعقوبات، وألقني في طريقِ فيروزَ، وأحسِن إلى وَلدي وعِيالي بَعدي، فإني أكفيكَ أمرَ فيروزَ».

ففعل ذلك أُخشُنواز بذلك الرّجل، وألقاه في طريق فيروز. فلمّا مرّ به أنكر حالَه ورأى شيئاً فظيعاً. فسأله عَن أمرِه، فأخبَرهُ: أنَّ أُخشُنوازَ فَعَلَ به ذلك، لأنّه قال له: «لا قِوام لك بالمَلِك فيروز وجنودِه»، وأشار عليه الانقياد له والعُبودة.

فرقَّ له فيروز، ورحمهُ، وأمر بحملِه معه، فأعلمه على وجه النُّصح، أَو في ما زعم، أنّه يَدُلُّه على طريقٍ قريبٍ مختصرٍ لم يدخل أحدٌ منه قَطُّ إلى أُخشُنواز على طريق المفازة. وسأله أن يَشتفي له منه. فاغترَّ فيروز بذلك منه وأخذ الأقطعُ بالقوم في الطريق الّذي ذكره له، فلم يزل يَقطعُ بهم مَفازةً بعد مَفازةٍ. فلمّا شَكوا عَطَشاً أعلمهم أنَّهم قد قربوا من الماء ومن قطع المَفازةِ، حتّى بلغ بهم موضعاً عَلِمَ أنَّهم لا يقدرون فيه على تقدُّمٍ ولا تأخرٌ، بيَّنَ لهم أمرَهُ.

فقال أصحابُ فيروز لِفيروز:

ـ «قد كنّا حذَّرناك، أيُّها المَلِكُ، فلم تحذَر، فأمّا الآنَ فلا بُدَّ منَ المُضِيِّ قُدُماً، فإنَّه لا سبيلَ إلى الرُّجوعِ، فلعلَّك توافي القومَ على الحالات كُلِّها».

فمضوا لوجوههم وقَتَلَ العطشُ أكثرَهم، وصار فيروز بمن نجا معه إلى عدوّهم. فلمّا أشرفوا عليهم ـ وهم بأسوإ حالٍ من الضُّرِّ والضَّعفِ ـ دَعَوا أُخشُنواز إلى الصُّلح، على أن يُخلِّي سبيلَهم حتّى ينصرفوا إلى بلادِهم، على أن يَجعلَ له فيروز عَهد الله وميثاقَه ألاّ يَغزُوَهم ولا يَرومَ أرضَهم ولا يبعثَ إليه جُنداً يقاتلونَهم، ويجعلَ بينَ المملكتين حدًّا لا يجوزُه. فَرضِيَ أُخشُنواز بذلك، وكتب له كتاباً مختوماً وأشهد له على نفسِه شهوداً، ثُمَّ خلّى سبيلَه وانصرفَ. فلمّا صار إلى مملكته حَمَلَهُ الأنَفُ على مُعاوَدَةِ أُخشُنوازَ.

عاقبةُ غدره

فكان من عاقبةِ غَدرِه: أنّه غزاه بعد أن نهاه وزراؤه وخاصَّتُه عن ذلك، لما فيه من نقض العهد، فلم يقبل منهم وأبى إلا ركوبَ رأيِه. وكان في مَن نهاه عن ذلك رجلٌ يخصُّه ويجتبي رأيَهُ يقال له: مربوذ. فلمّا رأى لجاجَتَه، كتب ما دار بينهما في صحيفةٍ، وسألَه الختمَ عليها. ومضى فيروزُ لوجهه نحو بلاد أُخشُنواز. فلمّا بلغ فيروزُ منارةً كان بناها بهرام جور في ما بين تخوم بلادِ خراسان وبلادِ التُّرك ـ لِئَلاّ يجوزَها التُّركُ إلى خراسان، لميثاقٍ كان بين التُّرك والفُرس على تَركِ الفريقينِ التَّعدِّي لها، وكانَ فيروزُ عاهد أُخشُنواز أن لا يجاوزها إلى بلاد الهياطلة ـ أمَرَ فيروز فَصُمِدَ فيها خمسون فيلاً وثلاثمائة رجلٍ، فَجُرَّت أمامَه جراً واتّبعها، وزعم أنّه يُريد بذلك الوفاءَ، وتركَ مُجاوَزَةِ ما عاهَدَ عليه.

فلمّا بلغ أُخشُنواز ذلك من فعلِ فيروز، أرسل إليه يقول له: «إن اللّه عَزَّ وجلَّ لا يُخادِع ولا يُماكر، فانتَهِ عمّا انتهى عنه أسلافُك، ولا تُقدِم على ما لم يُقدِموا عليه». فلم يحفل فيروز لقوله، ولم يكترِث برسالته، وجعل يستطعم مُحاربَةَ أُخشُنواز ويَدعوهُ إليها، وجعل أُخشُنوازُ يمتنع من محاربته ويتكرّهها لأنَّ جُلَّ محاربةِ التُّركِ إنّما هو بالخِداع والمكر والمكائد.

ثم إنّ أُخشُنواز أمر فَحُفِرَ خَلفَ عسكره خندقٌ عرضُه عشرة أَذْرع وعُمقُهُ عشرون ذراعاً، وغُمّي بِخُشُبٍ ضِعافٍ، وألقى عليه التُّراب. ثُمَّ ارتحل في جُندِه ومضى غيرَ بعيدٍ. فَبلَغَ فيروزَ رحلةُ أُخشنُواز بِجندِهِ مِن مُعسكرِه، فلم يشكَّ أنَّ ذلك هزيمةٌ منهم وأنَّه قد انكشف وهرب. فأمر بضرب الطُّبول، وركب في جنده في طَلَبِ أُخشنواز وأصحابه وأغَذّوا السَّيرَ. وكان مَسلَكُهم على ذلك الخندق. فلمّا بَلغوهُ اقتحموهُ على عَمايةٍ، فتردّى فيها فيروزُ وعامّةُ جُندِه، وهلكوا من آخرهم. وعطف أُخشُنواز إلى عسكر فيروز واحتوى على كُلِّ شيءٍ فيه، وأَسَرَ مُوبَذان موبذَ، وصارت فيروزدُخْت بنتُ فيروز في مَن صار في يده من نساءِ فيروزَ.

ثُمَّ قام بالمُلكِ بعد فيروزَ بنِ يزدجردَ ابنُه:

بلاشُ بنُ فيروز بنِ يزدَجردَ بنِ بهرام جور

وكان حَسَنَ السّيرةِ، حريصاً على العِمارة. وبلغَ مِن حُسنِ نَظَره أنّه كان لا يبلُغُه أنَّ بيتاً خرب وجلا أهلُه عنه، إلاّ عاقبَ صاحبَ القريةِ الّتي فيها ذلك البيتُ، على تَركِه إنعاشهم وسدَّ فاقتِهم، حتّى لا يُضطَرُّوا إلى الجلاءِ عن أوطانِهم.

ثم ملك قباذ بن فيروز أخو بلاش

وكانَ صارَ إلى خاقانَ يستنصرُهُ على أخيه بلاش ويَذكر أنّه أحقُّ بالمُلكِ منه. فبقي هناك أربعَ سنين، ثُمَّ جَهَّزَهُ خاقان. فلمّا عاد وبلغ نيسابورَ بلغهُ موتُ أخيه بلاشَ. وكان في وقتِ اجتيازِه تزوَّج ابنةَ رجلٍ من الأساورةِ متنكِّراً، وواقعها، فحملت بأنوشروان. ولمّا عاد في هذا الوقت الّذي ذَكرناه، سَأَلَ عن الجارية، فأُتِيَ بها وبابنِه أنوشروانَ. فتبرَّك به وبها. ولما بلغ حدودَ فارِسَ والأهوازِ بَنى مدينةَ أرجان، وبني حُلوانَ، وبني قباذخُرَّه، وعدةَ مُدنٍ أُخَرَ.

من آرائه الجيّدة

فكان من آرائه الجيِّدةِ وعزائمه النّافذة، قبضُه على خالِه «سُوخرا». وكان سببُ ذلك أنّ فيروز لمّا جرى عليه ما جرى من الهياطلة كان سوخرا يخلفه على مدينةِ المُلكِ بالمدائن. فجمع جموعاً كثيرةً من الفرس، وقصد أُخشُنواز مَلِكَ الهياطلةِ وحاربهُ وانتقَمَ منه وتحكّم عليه. وكان وقع في يده دفاترُ الدّيوان الّذي صحب فيروز. فتقاضى بجميع ما كان في خزائِنه وخزائن قُوادِه وأهلِه، وطلب الوجوهَ من الأسارى الّذين بَقَوا في يَدِ أُخشُنواز. ولم يزل يحاربُ أُخشُنواز ويكيده ويبلغ منه ما يتحكّم به عليه، حتّى استنقذ من يدِه عامَّةَ الفُرس، وأكثرَ ما احتوى عليه من خزائن فيروز.

فكان له أثرٌ حسنٌ عند الفُرسِ وعند ابنَي فيروزَ، أعني: بلاش وقباذ. فَعظَّموهُ ورفعوا منزلتَه إلى حيثُ ليس بينه وبين المَلِكِ إلاّ مرتبةٌ واحدةٌ. فتولّى سياسة الأمر بحُنكةٍ وتجربةٍ، واستوى على الأمر، ومالَ إليه النّاسُ واستخفّوا بِقُباذ، وتهاونوا به. فلم يحتمل قباذُ ذلك، وكتب إلى سابور الرّازي ـ الّذي يُقال للبيت الّذي هو منه مهران، وكان اصبهبذَ البلاد ـ في القدوم عليه في من قِبَلَهُ من الجُند، فقدِمَ بهم سابورُ، فواضعَه قتالَ خالِه سوخرا، وأمره فيه بأمره، على لطفٍ وكتمانٍ شديدٍ خَفِيٍّ. فغدا سابورُ على قُباذ، فوجد عندَه سوخرا جالساً. فَمشى نحو قباذ مجاوزاً له، وتغفّل سوخرا. فلم يَأبَه سوخرا لإرب سابورَ، حتّى ألقىٰ وَهَقاً كان معه في عُنقِه، ثُمَّ اجتذبه، فأخرجه، وأوثقه، واستودعه السِّجنَ. فحينئذٍ ضَربت الفرسُ المثَل بأن قالوا: «نَقَصت ريحُ سوخرا، وهَبَّت

ريح مِهران». ثم قتل قباذُ سوخرا. فكان هذا رأياً تَمَّ على سكون، ولم يضطرب فيه أمرٌ.

سوء تدبير قباذ عند ظهور مزدك وزوال مُلكه

وكان ممّا أساءَ فيه التَّدبيرَ والرأيَ حتى اجتمعت كلمةُ مُوبَذان مُوبَذ وجماعةُ الفرس على حبسِه وإزالةِ مُلكِه عنه، أنَّه اتَّبع رجلاً يُقالُ له «مَزدَك»، مع أصحابٍ له يُقال لهم: «العدلية».

قالوا: «إنَّ اللَّه جعل الأرزاق في الأرض مبسوطةً ليقسمها عباده بينهم بالتآسي، ولكنّ الناسَ تظالموا».

وزعموا: أنّهم يأخذون للفقراءِ من الأغنياءِ ويَرُدُّون مِن المُكثِرينَ على المُقلّين؛ وأنّه مَن كان عنده فَضلٌ في المالِ والقوتِ، أو النّساءِ والأمتعةِ، فليس هو أولى بِهِ مِن غيره.

فافترص السَّفِلة ذلك واغتنموهُ، وكانفوا مزدك وأصحابَه حتّى قَويَ أمرهُم. فكانوا يدخلون على الرَّجل في داره، فيغلبونَه على مالِه ونِسائه، فلا يستطيعون الامتناعَ منهم. وقوّاهُم قبولُ المَلِكِ رأيَهم، ودخولهُ معهم. فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتّى صار الرَّجل لا يعرفُ أباه، ولا الأبُ ولَدَه، ولا يَملكُ أحدٌ شيئاً ممّا يَتَّسِعُ به. وصيَّروا قباذَ في مكانٍ لا يَصِلُ إليه غيرُهم فيه. فأجمَعَتِ الفرس ـ حين رأوا فسادَ المُلكِ ـ على تَمليكِ أخيه جاماسفَ بنِ فيروزَ.

وقد حُكي أيضاً: أنّ المزدكية هم الَّذين أجلسوا جاماسفَ ليكونَ الملكُ من قِبَلِهم لا مِنَّةَ لغيرهم عليهم، إلاّ أنَّ الحكايةَ الأولى أشبهُ بالحقّ.

ذِكرُ حيلةٍ تَمَّت لأُختِ قباذَ حتّى أخرجتهُ من الحَبسِ

ثُمَّ إن اختاً لِقُباذ أتَت الحبسَ الَّذي كان فيه قباذ. فحاولتِ الدّخولَ إليه، فمنعها الموكَّل الَّذي كانَ ثِقةً عليه، وطمع أن يفضحَها بذلك السَّبب وألقى طَمَعَه فيها. فأخبرتهُ أنَّها غيرُ مخالفةٍ له في شيءٍ مِمّا يهواه منها. فأذِن لها حتّى دخلتِ السجّنَ وأقامت عند قباذ يوماً. ثُمَّ أمرت فَلُفَّ قباذُ في بِساط، وحُمِلَ على عاتق غُلامٍ قَويٍّ ضابطٍ كان معه في الحبس. فلمّا مرَّ الغلامُ بوالي الحبس، سألَهُ عمّا يحمِلُهُ. فأفحمَ، فاضطربَ. فلَحِقَتهُ أختُ قُباذَ فأخبرته أنَّه فِراشٌ كانت افترشَتهُ في عِراكِها، وأنَّها إنَّما خَرَجت لِتَتَطهَّرَ وتنصرفَ. فصدَّقَها ولم يَمَسَّ البساطَ، ولم يَدنُ منه استقذاراً له على مذهبهم، وخلّى عن الغُلام الحاملِ لِقباذَ. فمضى به، وخرجت في أَثَرِه، وهرَبَ قباذُ، فلَحِق بأرضِ الهياطلة، ليستمدَّ مَلِكَها فيحاربَ مَن يُخالِفُه.

فَيُقال: إنّه نزل في مسيره بِـ «أَبرَشهرَ» على رجلٍ مِن عظمائها. فتزوّج ابنةً له مُعصِراً، وإنَّها أُمُّ كِسرى أنو شروانَ وإنَّ نِكاحَه لأمِّ أنو شروان في سفره هذا. ثُمَّ إنّ قباذ

رجع من سفره هذا بابنه أنوشروان. وغلب أخاه جاماسف بعد أن ملك ستَّ سِنينَ. ثم غزا الرُّوم وافتتح آمِدَ وبنى مُدناً منها: أرجانُ وغيرُها، وملَّكَ ابنَه كسرى أنوشروان وأعطاه خاتَمهُ. وهلك قباذ وكان مُلكه بِسني مُلكِ أخيه ثلاثاً وأربعين سنة.

سببُ هَلاكِ قُباذ

وكان سبب هلاكه سوءُ رأيِه، وفسادُ عقيدته، وضعفُ مُلكه. وذلك أنه لمّا التَقى الحارث بن عمرو بن حجرِ الكِنديّ والنّعمان بن المنذر بن امرئ القيس، قتله، وأفلت المُنذرُ بن النُّعمان الأكبر، ومَلكَ الحارث بن عمرو الكِندي ما كان يملك النّعمان. فبعث قباذُ بن فيروزَ مَلِكُ فارِسَ إِلى الحارث بن عمرو الكنديّ أنّه: «قد كان بيننا وبين المَلِك الّذي كان قَبلَكَ عهدٌ وإنّي أحبُ لِقاءَك». وكان قباذ زنديقاً يُظهرُ الخيرَ، ويكرهُ سفكَ الدِّماءِ، ويُداري أعداءَه في ما يكرهُ من سفكِ الدِّماءِ، وكَثُرتِ الأهواءُ في زمانِه واستَضعفه النّاسُ.

فخرج إِليه الحارثُ بنُ عمرو في عَدَدٍ وعُدَّةٍ، حتّى التَقيا بقنطرةِ الفَيُّوم. فأمر قباذُ بطَبَقٍ من تَمرٍ. فنزعَ نَواهُ، وأمرَ بطبقٍ آخَرَ، فَجُعِلَ فيه تَمرٌ بِنَواهُ. ثُمَّ وُضِعا بين أيديهما، وجُعِل الَّذي فيه النَّوى بين يَدَيِ الحارث بن عمرو، والَّذي لا نَوىٰ فيه بين يَدَيِ المَلِكِ قُباذَ. فكان الحارثُ يأكُلُ التَّمرَ ويُلقِي النَّوىٰ، والملكُ يأكلُ التَّمرَ ولا يَحتاجُ إِلى إِلقاءِ النَّوى.

فقال للحارث: «ما لك لا تأكل كما آكلُ؟»

فقال الحارث: «إنّما يأكُل النّوى إبلُنا وغَنَمُنا».

وعلم أنّ قباذ يَهزَأ بِه. ثم افترقا على الصُّلح وعلى أن لا يتجاوزَ الحارثُ وأصحابُه الفراتَ. إلاّ أنَّ الحارث استضعفَهُ وطمعَ فيه. فأمر أصحابَهُ أن يعبروا الفراتَ ويُغيروا على قُرى السَّوادِ. فأتى قباذ الصّريخُ وهو بالمدائن، فقال: «هذا من تحت كنف ملكهم».

ثُمَّ أرسلَ إِلى الحارث بن عمرو: أنَّ لصوصاً من العرب قد أغاروا على السَّواد وأنّه يحُب لقاءه.

فلقيه، فقال قباذ كالعاتب:

ـ «لقد صنَعَتَ صنيعاً ما صَنعهُ أحدٌ قبلَكَ».

فَطَمعَ الحارثُ في لينِ كلامِه فقال:

ـ «ما علمتُ ولا شعرتُ، ولا أستطيع ضبَطَ لُصوصِ العربِ، وما كُلُّ العربِ تحتَ طاعتي، وما أتمكَّنُ منهم إلاّ بالمالِ والجنودِ».

فقال له قباذ: «فما الَّذي تُريد؟»

قال: «أريد أن تُطعِمَني من السَّواد ما أتَّخِذُ به سِلاحاً».

فأمَرَ له بما يلي جانبَ الغربِ من أسفلِ الفرات وهي ستَّةُ طَساسيجَ.

فأرسل الحارث بن عمرو الكندي إلى تُبع وهو باليمن:

ـ «إنّي قد طمعتُ في مُلك الأعاجم، وقد أخذتُ منه ستَّةَ طساسيجَ، فأجمع الجنود وأقبِل، فإنَّه ليس دون مُلكِهم شيءٌ، لأنّ المَلِكَ عليهم لا يأكل اللّحمَ، ولا يَستحِلُّ هراقةَ الدّماءِ، وله دينٌ يمنعه من ضبَطِ المُلكِ، فبادِر بُعدَّتِك وجُندِك».

فجمع تُبَّعُ الجنودَ، وسار حتى نَزَلَ الحيرةَ، وقَرُبَ من الفُراتِ، فآذاه البَقُّ، فأمر الحارثَ بنَ عمرو أن يَشقَّ له نهراً إلى النَّجف، ففعل، وهو نهر الحيرة، فنزل عليه، ووجَّهَ ابنَ أخيه شمراً ذا الجَناح إلى قُباذ. فقاتله، فَهَزَمَهَ شمرٌ، حتى لحق بالرَّيِّ، ثم أدركه بها فقتله.

ذكر ما تمَّ لِتُبَّع وابنِ أخيه شمر وابنِه حسّانٍ بَعدَ احتوائهم على مملكةِ الفُرسِ

ثُمَّ إن تُبَّعاً أمضى شمراً ذا الجناح إلى خُراسان، ووجَّه ابنَه حَسّان إلى السُّغدِ وقال:

ـ «أيُّكما سَبَقَ إلى الصيِّن فهو عليها».

وكان كلُّ واحدٍ منهما في جيشٍ عظيم يُقالُ: إنَّهما كانا ستَّمائةِ ألفٍ وأربعين ألفاً. وبعث ابنَ أخيه الآخرَ واسمهُ: «يَعفُرُ» إلى الرّوم. فأمّا يَعفُر فإنّه سار حتّى أتى قسطنطينية. فأعطوه الطّاعةَ والإتاوةَ. ثُمَّ مضى إلى روميَّةَ فحاصرها. ثُمَّ أصابهم جوعٌ، ووقع فيهم طاعون فَرقُّوا. وعلم الرّوم بذلك، فوثبوا عليهم فلم يُفلِت منهم أحدٌ.

وأمّا شمرٌ ذو الجناح فإنّه سار حتّى انتهى إلى سمرقند، فحصرها، فلم يظفر منها بشيءٍ. فلمّا رأى ذلك، أطاف بالحَرَسِ حتّى أخذ رجلاً من أهلها، فاستمال بقلبه، ثُمَّ سأله عن المدينة ومَلِكِها.

فقال: «أمّا مَلِكُها فأحمقُ النّاسِ ليس له همٌّ ألاّ الشُّربُ والأكلُ والجِماعُ، ولكن له بنتُ هي الَّتي تَقضي أمرَ النّاسِ».

فمنّاه ووَعَدَهُ حتّى طابت نفسُه. ثُمَّ بعث معه هديَّةً إليها وقال:

ـ «أخبِرها أنّي إنّما جئتُ من أرض العرب لِلَّذي بلغني من عَقلِها، لِتُنكِحني نفسَها، فأُصيبَ منها غلاماً يملكُ العرَبَ والعَجَم، وأنّي لم أجيء إلتماسَ المالِ، وأنَّ معي من المال أربعةَ آلافِ تابوتٍ ذهباً وفِضَّةً ها هُنا، وأنا أدفعها إليها وأمضي إلى الصِّين، فإن كانت لي الأرض، كانت امرأتي، وإن هلكتُ كان المال لها».

فلمّا انتهت رسالتُه إليها قالت: «قد أجبتُهُ. فَليبعث بالمالِ».

فأرسَلَ إليها بأربعةِ آلافِ تابوتٍ، وفي كُلِّ تابوتٍ رجلان. وكان لسمرقندَ أربعةُ أبوابٍ، على كُلِّ بابٍ منها أربعةُ آلافِ رجلٍ. وجعل شمرٌ العلامةَ بينه وبينهم أن يَضرِبَ لهم بالجُلجُلَ. وتقدَّم في ذلك إلى رُسُله الَّذين وجَّه معهم. فلمّا صاروا في المدينة ضرب لهم بالجلجل. فخرجوا، فأخذوا بالأبواب ونَهَدَ شمرٌ في النّاس فدخل المدينةِ، وقتلَ أهلَها وحَوىٰ ما فيها.

ثُمَّ صار إلى الصيّن. فلقي زحوفَ التُّركِ فهزمهم، وانتهى إلى الصيّن. فوجد حسَّانَ بن تُبع قد كان سبقه إليها ثلاثَ سِنين. فأقاما بها ـ في بعض الرّوايات ـ حتى ماتا، وكان مُقَامهما إحدى وعشرين سنةً. وفي بعض الرِّوايات ـ وهو المُجمعُ عليه ـ : أنَّ شمراً وحَسّاناً انصرفا في الطَّريق الّتي كانا أخذا فيه، حتى قَدِما على تُبعٍ بما حازا من الأموال بالصِّين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبي، ثمَّ انصرفوا جميعاً إلى بلادهم. وذلك أنّه كانت هِمّةُ ملوكِ العربِ الغزوَ والغنيمةَ ولم يطمعوا في الملك الثّابتِ. وكان أحدُهم إذا ملأ يَدَه من الغنائم وأرضى جُندَهُ وظَفِروا بما في نفوسهم، انكفَأُوا إلى بلادهم. وكانت وفاة تُبع باليمن ولم يَخرج أحدٌ من مُلوكِ اليمن بعدَه غازياً إلى شيءٍ من البلاد. وكان مُلكه مائَةً وإحدى وعشرين سنةً.

وأمّا في الرّواية الأخرى: فإنّه أقام تُبعٌ وَوٰطَأَ ابنَ أخيه شمراً وابنَه حسَّاناً أن يملِكا الصّين، ويَحمِلا إليه الغنائم، ونَصَبَ بينَه وبينَهم المنارَ. فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقدوا النّارَ، فأتى الخبرُ في ليلةٍ. وكان جعل آيةَ ما بينَهُ وبينهم أنّه: «إن أَنَا أوقدتُ نارَين مِن عندي فهو هلاك يَعفُرَ، وإن أوقدتُ ثلاثاً فهو هلاكُ تُبع. وإن كانت مِن عندِهم نارٌ فهو هلاكُ حسّانٍ، وإن كانت نارَينِ فَهُوَ هلاكُهُما». فمكثوا بذلك. ثُمَّ إنّه أوقَدَ نارَين فكان هلاك يَعفُرَ، ثُمَّ أَوقد ثلاثاً فكان هلاكُ تُبع.

وقد ذكر بعض الرُّواة: أنَّ الّذي سار إلى المشرقِ من التَّبابعةِ، تُبعٌ الآخِرُ وهو: تُبعٌ تبان أسعدُ أبو بكر بن مليكيكرب بن زيد بن عمرو ذي الأذعار وهو أبو حَسّانٍ.

وقام بالمُلكِ بعدَ قُباذ ابنُه كِسرىٰ أنوشِروان

فَاستقبلَ الأمرِ بِجِدٍّ وسِياسةٍ وحَزم. وكان جَيِّدَ الرَّأي، كثيرَ النظَر، صائبَ التَّدبير، طويلَ الفِكر ثُمَ الاستشارة. فجدَّدَ سيرةَ أردشير، ونَظَرَ في عَهدِه، وأخذ نفسه به، وأدَّب به رعيَّتَهُ وبِطانَتَهُ، وبحث عن سياسات الأمم، واستصلحَ لِنفسِه منها ما رَضِيَهُ، ونظر في تدابير أسلافِه المُستحسنةِ فاقتدى بها.

وكان أوَّل ما بَدأَ بِه أن أبطَلَ مِلَّةَ زرداشت الثّاني الذي كان من أهل فَسّاء، وكان

مِمَّن دعا إليها مزدكُ بن فامارد، وكان مِمّا أمَنَ به النّاسُ ـ لِما زيَّنه لهم وحثَّهم عليه ـ التَّآسِي في أموالِهم وأهاليهم. وذكر أنَّ ذلك من البرِّ الَّذي يَرضاه الله ويُثيبُ عليه أحسنَ الثَّواب، وأنَّه لو لم يكن الَّذي أمَرَهُم به من الدّين، لكان مكرمةً في الفَعال ورِضًى في التَّفاوض. فحضَّ السَّفلةَ بذلك على الأشراف واختلط أجناس اللُّؤماءِ بعناصر الكُرَماءِ. وسهَّل سبيلَ الظَّلمةِ إلى الظُّلم، والعُهّارِ إلى قضاء نَهمتِهم وإلى الوُصولِ إلى الكرائم. فشمل النّاسَ بَلاءٌ عَظيمٌ.

فلمّا أبطل المَلكُ أنوشروانُ ملَّةَ هذين، وقتل عليه بشراً كثيراً، وسفك من الدِّماءِ ما لا يُحصى كثرةً مِمَّن لا ينتهي، وقتل قوماً من المانوية وثَبَّتَ ملّة المجوسيّةِ القديمة؛ كتب في ذلك كُتُباً بليغة إلى أصحاب الولايات والإصبهذين، وقَوَّى المُلك بعدَ ضَعفِه بإدامة النّظر، وهَجَر الملاذَّ وتَرك اللَّهوَ إلاّ في أوقاتٍ حتّى نَظَّمَ أمورَه وقَوّى جنودَه بالأسلحة والكُراع، وعَمَّر البِلادَ، وحَفظَ الأموال، وفَرَّقَ منها ما لا يَسعُ حِفظُهُ من الأرزاق والصِّلاتِ الموضوعةَ مواضعَها، وسدَّ الثُّغورَ، وردّ كثيراً من الأطراف الّتي غَلَبَ عليها الأمَمُ بعِللٍ وأسباب شَتّى، منها: السِّندُ، والرُّخجُ، وزابلستان، وطُخارِستان، ودَروِستان وغيرها. وقتل أمَّةً يقال لها: البافرز، واستبقى منهم من فَرَّقَهم واستعبدهم واستعان بهم في حروبه. وأُسرت له أمَّةٌ يقال لهم: صول، وقُدِمَ بهم عليه، فقتلهم واستبقى ثمانين رجلاً من كُماتِهم، وعَمِلَ أعمالاً عظيمةً منها: بنيانُه الحصونَ والآطامَ والمَعاقِلَ لأهلِ بِلادِه، يكون حِرزاً لهم يلجأون إليها من عدوٍّ إن دَهَمَهم.

من ثمرة أعماله

فكانَ مِن ثَمَرَةِ هٰذِهِ الأعمال: أنَّ خاقانَ ـ واسمهُ سنجوا ـ كان في ذلك الوقت أمنعَ التُركِ وأشجَعَهم. وهو الَّذي قاتل «وَرزَ» مَلِكَ الهياطلة، غيرَ هائبٍ كثرَة الهياطلةِ ومنَعَتهم، وبأسَهم. فقتل وَرزَ وعامَّة جُندِه، وغنم أموالَهم واحتوى على بِلادهم إلاّ ما كان كسرى غلبَ عليه منها. وأقبَلَ في جُموعِه مع أمَم استمالهم، وهُم: أبجَرُ، وبَنجرُ، وبَلَنجرُ. وبلغت عِدَّةُ الجميعِ مائةَ ألفٍ وعشرةَ آلافِ مُقاتلٍ أنجادٍ.

فأرسل إلى كسرى يتوعَّدهُ ويطلب منه أموالاً، وأنَّه إن لم يُعجِّل بالبعثةِ إليه ما سأله، وَطِىءَ بلادَه وناجزه. فلم يحفل كسرى به ولم يُجِبهُ إلى ما سأل، لتحصينِه نواحِيَهُ لا سِيَّما ناحية صول الّتي أقبلَ منها خاقان، ولِمَنَاعَةَ السُّبُلِ والفِجاج، ولمعرفتِه بمقدرتِه على ضَبطِ ثغرِ إرمينية. فأقدم خاقانُ على ناحية صُول من نواحي جرجان، فرأى من الحُصُون والرِّجالِ الّذين أعدَّهم كسرى ما لا حيلة له فيه، فانصرف خائباً.

فأمّا تدبيرُه للمزدكيَّةِ وردُّه المظالمَ وما دبَّر في أمر النِّساءِ المغلوبات على أنفسهنَّ وتدابيره الأُخرى

فإنَّه ضرب أعناقَ رؤسائهم، وقسم أموالَهم في أهل الحاجةِ، وقَتَلَ جماعةً كثيرةً مِمَّن كان دخل على النّاس في أموالهم وأهاليهم مِمَّن عُرِفَ، وردَّ الأموال إلى أربابها، وأمر بكُلِّ مولودٍ اختلِفَ فيه، أن يُلحقَ بِمن هو في سيما ذلك منهم إذا لم يُعرف أبوه، وأن يُعطى نصيباً من مال الرّجل الّذي يُسنَد إليه، إن قبله الرّجل، وبِكُلِّ امرأةٍ غُلِبَت على نفسها أن يُؤخَذَ الغالبُ لها حتّى يَغرمَ لها مهرَها ويُرضِيَ أهلَها، ثُمَّ تُخيَّرَ المرأةُ بين الإقامة عَليه وبين تزويج غيرِه، إلاّ أن يكونَ لها زَوجٌ أوّلُ فَتُردّ إليه. وأمر بِكُلِّ مَن كان أضرَّ بِرَجُلٍ في ماله، أو ركب أحداً بمظلمةٍ أن يُؤخَذَ منه الحقّ ثُمَّ يُعاقَبَ الظّالمُ بعد ذلك بِقَدرِ جُرمِه. وأمر بعيالِ ذوي الأحساب الَّذين مات قَيِّمهم فكتبوا له، فأنكحَ بناتِهم الأكفاءَ، وجَعَل جهازَهم من بيتِ المال، وأنكح بَنيهِم من بيوتات الأشراف وأغناهم، وأمرهم بملازمة بابه ليُستعانَ بهم في أعماله. وخَيَّرَ نساءَ والِدِه أن يَقُمن مع نِسائه فيواسَين ويُصيَّرن في الإجراء أمثالهنَّ، أو تُبتغى لَهنَّ أكفاؤهن من البعولة. وأمر بِكَري الأنهار وحَفرِ القُنِيِّ وإسلاف أصحاب العمارات وتقويتِهم. وأَمَرَ بإعادة كُلِّ جسرٍ أو قنطرةٍ خُرِّبت أن تُرَدَّ إلى أحسن ما كانت عليه. وأمر بتسهيل سُبُلِ النّاسِ، وبنى في الطُّرُق القُصورَ والحصونَ، وتخيَّر الحُكّامَ والعُمّالَ، وتقدَّمَ إلى مَن وَلّى منهم أبلغ التَّقدُّم، وتقدَّم بكُتُبِ سِيَرِ أردشير ووصاياهُ، فاقتدى بها وحَمَلَ النّاسَ عَليها.

فتوحُ أنوشروان

فلمّا انتظمت له هذه الأمورُ واستوسق مُلكُه ووَثِق بِجُندِه وقُوَّتِه، سار نحو أنطاكية فافتتحها وأمر أن تُصَوَّرَ له المدينةُ على ذرعِها وطُرُقِها وعِدَّةِ منازلها، وأن يُبنى على صورتِها له مدينةٌ إلى جانب المدائنِ، فَبُنيتِ المدينة المعروفة بالرُّوميّة. ثُمّ حَمَلَ أهلَ أنطاكيَّة حتّى أسكنهم إيّاها. فلمّا دخلوا بابَ المدينة مضى أهلُ كُلِّ بيتٍ منهم إلى ما يُشبهُ منازلَهم الّتي كانوا فيها بأنطاكية. ثُمَّ قصد لمدينة هِرَقلَ فافتتحها، ثُمّ الإسكندرية، وأذعنَ له قيصرُ، وحَمَلَ إليه الفِديةَ.

ثُمَّ انصرف من الرّوم وأخذ نحو الخَزَرِ، فأدرك فيهم تَبلَهُ، وما كانوا وتروه به في رعيَّتِه، ثُمَّ نحو عَدَن، فَسَكر هناك ناحيةً من البحر بين جبلين بالصُّخور وعُمُدِ الحديد. ثُمَّ سار إلى الهياطلةِ مطالباً لهم بدم فيروز، بعد أن صاهَرَ خاقان واستعان به. فأتاهم، فقتل مَلِكَهم، واستأصل أهلَ بيته، وتجاوز بلخَ وما وراءَها، وأنزل جنودَه فرغانةَ. ثُمَّ انصرف إلى المدائن، وبعث قوماً إلى الحبشةِ في جُندٍ من الدَّيلم. فقتلوا مسروقاً الحبشي باليمن. وأقامَ مظفَّراً منصوراً يَهابُه جميعُ أُمرائهم، ويحضرُ بابَه وفودُ التُّركِ والصّينِ. والخزرِ ونظرائهم. وكان مُكرِماً للعلماءِ. وقد كان غزا بُرجانَ. ثُمَّ رجع فبنى

البابَ والأبوابَ. وفي زَمانه وُلِدَ عبدُ اللّه أبو النّبيّ - ﷺ -. والنَّبيُّ أيضاً - عليه السَّلام - وملك ثماني وأربعين سنةً. أمّا عبد اللّه بن عبد المطّلب فإنّه وُلِد لأربع وعشرين سنةً من مُلكه. وبعث إلى المنذر بن النُّعمان - وأمُّه ماء السَّماء امرأةٌ مِن اليمن - فملّكه الحيرةَ وما كان يليه آلُ الحارثِ بنِ عمرو، ورَدَّ الأمرَ إلى نِصابه.

تدابير أنوشروان لاستغزارِ الأموالِ وتثميرِها

ومن أحسن ما دَبَّره أنوشروانُ في استغزارِ الأموال وتثميرِها أنَّه بعدَ فَراغِه من الثُّغور وملوك الأطراف، وتوظيفِه الوظائفَ على أقاصي الملوك من التّرك والخَزر والهند وغَيرِهم، وبَيعِه مُدُنَ الشّام ومِصرَ والرُّوم على مَلِكِ الرُّوم بأموالٍ عظيمةٍ، وإلزامِه جزيةً يحملُها في كُلِّ سنةٍ على ألاّ يغزُوَ بلادَه؛ نَظَر في الخراج وأبواب المالِ الّتي كان يستأديها الملوكُ قبلَه مِن بِلاده. فإذا رسومُ النّاس كانت جاريَةً على الثُّلثِ من الارتفاع خراجاً، ومن بعضِ الكُوَرِ الرُّبع، ومن بعضِها الخُمس، ومن بعضِها السُّدس، على حسَبِ شربها، وعمارتِها، ومن جزيةِ الجَماجم شيئاً معلوماً.

وكان الملك قباذُ بن فيروز تقدَّم - في آخر مُلكِه - بِمَسح الأرض سهلِها وجَبَلِها، لِيَصحَّ الخَراجُ عليها، فَمُسحت. غَيرَ أنَّ قباذ هَلَكَ قَبلَ أن يستحكمَ له أمر تلك المِساحة. فلمّا ملك أنوشروان أمر باستتمامِها وإحصاءِ النَّخلِ والزّيتونِ وغير ذلك، والجَماجِم. ثُمَّ أَمَرَ الكُتّابَ فأخرجوا جُمَلَ ذلك غيرَ مفصَّلةٍ، وأذِنَ للنّاسِ إذناً عامًّا، وأمر كاتِبَ خَراجِه أن يقرأ عليهم الجُمَلَ المستخرجَةَ من أصنافِ الغلاّتِ وعدَدِ النَّخلِ والزَّيتون والجَماجِم. فَقرأ ذلك عليهم.

ثمّ قال لهم كسرى:

«إنّا رأينا أن نَضعَ على ما أُحصِيَ من جُربان هذه المِساحة ومن النّخل والزّيتون والجماجِم وضَائعَ، ونأمر بإنجامِها في السَّنةِ في ثلاثة أنجُم. ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ما لَو أتانا عن ثَغرٍ من الثُّغور، أو طَرفٍ من الأطراف، فتقٌ أو شيءٌ نَكرَهُه واحتجنا إلى تداركِه أو حَسمِه بِبَذلِنا فيه مالاً؛ كانتِ الأموالُ عِندَنا مُعَدَّةً موجودةً، ولم نُرد استئنافَ اجتبائها على تلك الحالِ. فما تَرَونَ في ما رأينا من ذلك وأجمعنا عليه؟».

فلم يُشِر عليه أحدٌ منهم بمَشورةٍ ولم يَنبس بكلمةٍ. فكرَّرَ كِسرى هذا القولَ عليهم ثلاثَ مرّاتٍ.

فقامَ رجلٌ من عُرضِهم وقالَ لكسرى:

- «أتَضعُ أيها الملكُ - عَمَّرك اللّه خالداً - من هذا الخراجِ على الفاني من كَرمٍ يموتُ، وزَرعٍ يَهيج، ونَهرٍ يَغيضُ، وعينٍ أو قناةٍ ينقطعُ ماؤها؟».

فقال له كسرى: «يا ذا الكُلفةِ المشؤوم! من أيِّ طبقات النّاس أنت؟».

قال: «أنَا رَجُلٌ مِنَ الكُتّاب».

فقال كِسرى: «اضربوه بالدُّوِيِّ حتّى يموتَ».

فضربوه بها الكُتَّاب خاصَّةً تَبَرِّياً منه إلى كسرى من رأيِه وما جاءِ منه حتّى قَتَلُوهُ.

وقال النّاس:

- «نحن راضونَ أيُّها الملكُ بما أنت مُلزِمُنا مِن خَراجٍ».

وإنّ كِسرى اختارَ رجالاً من أهلِ الرّأي والنّصيحة. فأمرهم بالنَّظَرِ في أصنافِ ما ارتفعَ إليه من المساحةِ وعددِ النّخلِ والزَّيتونِ ورؤوسِ الجِزية، وَوَضعِ الوَضائع على ذلك بقدر ما يَرَونَ أنَّ فيه صَلاحَ الرَّعيَّةِ ورفاغةَ معايشهم، ورَفْعِ ذلك إليه.

فتكلَّم كُلُّ امرئ منهم بمبلغ رأيه في ذلك وفي قدرِ الوضائع، وأداروا الأمرَ بينَهم، فاجتمعت كلمتهُم على وضع الخراج على ما يعصِم النّاس والبهائم وهو: الحنطةُ، والشَّعيرُ، والأرزُ، والكَرمُ، والرِّطابُ، والنَّخلُ، والزّيتون. وكان الَّذي وضعوا على كلِّ جريبِ أرضٍ من مزارع الحنطةِ والشَّعير درهماً، وعلى كُلِّ جريب كرم ثمانيةَ دراهمَ، وعلى كُلِّ جريب أرضِ رطابٍ سبعةَ دراهمَ، وعلى كُلِّ أربعِ نخلاتٍ فارسيةٍ درهماً، وعلى كُلِّ ستِّ نخلاتِ دَقَلٍ مثلَ ذلك، وعلى كُلِّ سِتَّةِ أصول زيتونٍ مثلَ ذلك. ولم يَضَعُوا إلاّ على كُلِّ نخلٍ في حديقةٍ، أو مجتَمعٍ غير شاذٍّ، وتركوا ما سوى ذلك من الغَلاّتِ السّبع.

فَقَوِيَ النّاسُ في معايشهم، وألزموا النّاسَ الجزيَةَ ما خلا أهلَ البيوتاتِ، والعظماءَ، والمقاتلةَ، والهرابذةَ، والكُتّابَ، ومَن كان في خدمةِ الملك. وصيّروها على طبقاتٍ: اثني عشر درهماً، وثمانيةً، وسِتَّةً، وأربعةً، على قدر إكثارِ الرَّجلِ وإقلالِه. ولم يُلزِموا الجزيةَ مَن كان أَتى له من السِّنين دون العشرين، أو فوقَ الخمسين. ورَفعوا هذه الوَضائعَ إلى كسرى. فَرَضِيَها، وأمرَ بإمضائها، والاجتباءِ عليها في ثلاثة أنجُم كُلَّ سَنَةٍ، وسمّاها «أبراسيار» - وتأويلُه: الأمرُ المتراضى به - وهي الوضائع الَّتي اقتدى عُمر بن الخطّاب - رضي اللّه عنه بها حين افتتح بلادَ الفُرس، وأمر باجتباءِ النّاس من أهل الذِّمَّةِ عليها. إلاّ أنّه وَضعَ على كُلِّ جريبٍ غامرٍ على قدر احتماله مثلَ الَّذي وَضَعَ على الأرض المزروعة، وزاد على كُلِّ جريب أرضٍ - مزارع حنطةٍ أو شعيرٍ - قفيزاً من حِنطةٍ إلى القفيزين، ورزق منه الجندَ. ولم يخالِف بالعراقِ خاصّةً وضائعَ كِسرى على جُربانِ الأرضِ وعلى النّخلِ والزَّيتون والجَماجم، وألغى ما كان كِسرى ألغاه في معايش النّاس.

ذكرُ قِطعةٍ من سيرةِ أنوشروانَ وسياساتِه كتبتُها على ما حكاه أنوشروانُ نفسُه في كتابِ عَمِلَهُ في سيرتِه وما ساسَ به مَملكتَهُ

وقرأتُ فيما كتبه أنوشروانُ من سيرةِ نفسِه قال:

رجلٌ اخترطَ السَّيفَ وأرادَ الوُثوبَ علينا

«كُنتُ يوماً جالساً بالدَّسكرة، وأنا سائرٌ إلى همذان لنُصيف هناك وقد أُعدَّ طعامٌ للرّسُل الّذين بالباب من قِبَلِ خاقانَ، والهَياطلةِ، والصّينِ، وقيصرَ وبغبورَ، إذ دخل رجلٌ من الأساورةِ مُخترطاً سيفَه حتّى وصل إلى السِّترِ. فقطع السِّترَ في ثلاثةِ أماكنَ، وأراد الدُّخولَ حيثُ نحنُ، والوثوبَ علينا. فأشار عليَّ بعضُ خَدَمي أن أخرجَ إليهِ بسيفي. فعلمتُ أنّه إن كان إنّما هو رجلٌ واحدٌ، فسوف يُحال بَينَنا وبَينَه، وإن كانوا جماعةً فإنّ سيفي لا يُغني شيئاً، فلم أَخَف ولم أتحرّك من مكاني. فأَخَذَهُ بعضُ الحرسِ، فإذا هو رجلٌ رازيٌّ من حَشَمِنا وخاصّتِنا فلم يشكُّوا أنَّ مَن هو على رأيه كثيرٌ، فسألوني ألاّ أجلسَ ولا أحضرَ الشُّربَ في جَماعةٍ حتّى أستبينَ الأمرَ. فلم أُجِبهُم إلى ذلك لِئلاّ يَرى الرُّسُلُ منّي جُبناً، فخرجتُ لِشُربي، فلمّا فرغنا هدّدتُ الرّازيَ بقطع اليمينِ والعُقوبات، وسألت أن يَصدُقَني عن الّذي حمله على ذلك، وأنّه إن صدَقني لم تَنَلهُ عقوبةٌ بعد ذلك. فذكر أنَّ قوماً وَضَعوا مِن قِبَلِ أنفسهم كُتُباً وكلاماً، وذكروا أنّه من عندِ اللّه، أشاروا عليه بذلك وأخبرُوهُ أنَّ قتلَه - إنْ قَتَلَني - يُدخِلُه الجنَّةَ. فلمّا فَحَصتُ عن ذلك وجدتُه حقًّا، فأمرتُ بتخليةِ الرّازي وبِرَدِّ ما أُخِذَ منه من المالِ، وتقدَّمتُ بضربِ رِقابِ أُولئك الّذين انتحلوا الدّين، وأشاروا به عليه حتّى لم أدَع منهم أحداً».

وقال أنوشروان:

استحلالُ قَتلي

إنّي لمّا أحضَرتُ القومَ الّذين اختلفوا في الدّين وجمَعتهم للنَّظَرِ فيما يقولونه، بلغ من جُرأتِهم وخُبثِهم وقُوَّةِ شياطينِهم أن لم يُبالوا بالقَتلِ والموتِ في إظهارِ دينهم الخبيثِ، حتّى أنّي سألتُ أفضَلَهم رجلاً، على رؤوسِ النّاس، عن استحلالِه قتلي فقال:

- «نَعَم! أستحِلُّ قتلَكَ وقتلَ من لا يُطاوعُنا على ديِننا».

«فلم آمُرْ بقتلِه حتّى إذا حَضَرَ وقتُ الغَداءِ، أمرتُ أن يُحتَبَسَ للغَداءِ، وأرسلتُ إليه بظرفٍ من الطّعام، وأمرتُ الرّسولَ أن يُبلِّغَهُ عَنّي: أنَّ بقائي أنفَعُ له مِمّا ذكَرَ. فأجابَ رسولي: أنّ ذلَكَ حَقٌّ، ولكن سألَني الملكُ أن أصدُقَهُ ذاتَ نفسي ولا أكتمهُ شيئاً مِمّا أدين به، وإنّما أدينُ بِما أَخَذتُه من مُؤَدِّبي».

وقال أنوشروان:

تصدّقتُ على مساكين الرُّوم

«لَمَّا غَدَرَ بي قيصرُ وغَزَوتُهُ فَذَلَّ وطَلَبَ الصُّلحَ وأنفَذَ إليَّ بمالٍ وأقرَّ بالخَراجِ والفِديةِ، تَصَدَّقتُ على مساكين الرّومِ وضُعَفاءِ مُزارعيها مِمّا بَعَثَ إليَّ قيصر بعشرةِ آلافِ دينارٍ وذلك في ما وَطِئتُه من أرضِ الرّومِ دون غيرها».

وقال:

تخفيف الخراج لعمارة الأراضي

«لمّا هَمَمتُ بتصفُّحِ أمرِ الرَّعيَّة بنفسي، ورفع البَلاءِ والظُّلم عنهم، وما ينوبهم من ثقل الخَراجِ - فإنَّ فيه مع الأجرِ تزيينَ المملكة، وغِناهم، وقُدرةَ الوالي على ما يجب أن يَستخرِجَ منهم، إن هو احتاج إلى ذلك، وقد كان في آبائنا مَن يَرى أنَّ وضعَ الخراجِ عنهم للسَّنَةِ والسَّنتين والتَّخفيف أحياناً، مِمّا يقوّيهم على عِمارة أرَضِيهم - فجمعتُ العُمّالَ ومن يؤدّي الخَراجَ، فرأيتُ مِن تخليطِهم ما لم أرَ له حيلةً إلاّ التَّعديلَ والمُقاطَعَةَ على بلدةٍ بلدةٍ، وكورةٍ كورةٍ، ورُستاقٍ رستاقٍ، وقريةٍ قريةٍ، ورجُلٍ رَجُلٍ، واستعملتُ عليهم أهلَ الثِّقةِ والأمانةِ في نفسي، وجعلتُ في كُلِّ بلدٍ مع كُلِّ عاملٍ أمَناءَ يحفظون عليه، وولَّيت قاضيَ كُلِّ كورةِ النَّظَرَ في أهل كورتِه، وأمرتُ أهلَ الخراجِ أن يرفعوا ما يحتاجون إلى رفعه إلينا، إلى القاضي الّذي ولَّيتُهُ أمرَ كُوَرِهم، حتّى لا يَقدِرَ العاملُ أن يزيدَ شيئاً، وأن يؤدُّوا الخراجَ بمشهدٍ من القاضي، وأن يُعطِيَ به البراءَة، وأن يَرفَعَ خراجَ مَن هلك منهم، ولا يُرادَ الخراجُ مِمَّن لم يُدرِك منَ الأحداثِ، وأن يَرفعَ القاضي وكاتبُ الكورةِ وأمينُ أهلِ البلدِ والعامِلُ، محاسبتَهم إلى ديوانِنا، وفرّقتُ الكتبَ بذلك».

وقال:

ما رَفعَ إلَينا مُوبَذان مُوبَذ

«رَفعَ إلينا مُوبَذان مُوبذ: أنَّ قوماً سمّاهم من ذوي الشَّرف - بعضُهم بالبابِ كان شاهداً وبعضُهم ببلادٍ أُخَرَ - دينُهم مخالفٌ لِمَا وَرِثنا عن نَبيِّنا وعلمائنا، وأنَّهم يتكلَّمونَ بدينهم سِرًّا ويدعُون إليه النّاسَ، وأنَّ ذلك مَفسَدَةٌ للمُلكِ، حيث لا تقومُ الرَّعيَّةُ على هوًى واحدٍ: فيُحرِّمون جميعُهم ما يُحَرِّم المَلِكُ ويستحلُّون ما يستحِلُّ المَلِك في دينه، فإنّ ذلك إذا اجتمع لِلمَلِك، قَوِيَ جنده لأجل الموافَقَةِ بينَهم وبينَ الملك، فاستُظهِرَ على قِتالِ الأعداءِ. فأحضرتُ أولئك المختلفين في الأهواءِ ثُمَّ أمرتُ أن يُخاصَموا حتّى يَقِفُوا على الحقّ ويُقرّرُوا به، وأمرت أن يُقصَوا عن مدينتي وعن بِلادي ومملكتي، وبتتبعِ كُلِّ من هُوَ عَلَى هَواهُم، فيُفعَل به ذلك».

وقال:

ما سألتهُ التركُ ومَسيرُنا إلى باب صُول

«إنّ التُّركَ الَّذين في ناحية الشّمال، كتبوا إلينا بما قد أصابَهم مِنَ الحاجةِ، وأنَّهم لا يجدون بُدًّا ـ إن لم نُعطِهم شيئاً ـ مِن أن يَغزُونا، وسألوا خِصالاً، أحدها: أن نتَّخِذَهُم في جُندِنا ونجريَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرضِ الكَنج وبَلَنجَرَ وتلك النّاحية، ما يتعيَّشون منه. فرأيت أن أسيرَ في ذلك الطَّريق إلى باب صول، وأحببتُ أن تَعرِفَ الملوكُ من قِبَلِنا هناك نَشاطَنا للأسفار وقُوَّتَنا عليها متى هَمَمنا، وأن يَرَوا ما رأوا مِن هيبة المُلوكِ، وكثرة الجنودِ، وتَمامِ العُدَّةِ، وكمالِ السِّلاحِ ما يَقوونَ به على أعدائهم ويعرفون به قُوَّةَ من خَلَفهم إن هُم احتاجوا إليه، وأحببنا ـ بمسيرنا ـ أن يُجرى لهم على أيدينا الجوائزُ والحُملانُ، والقُربُ من المجلس واللُّطفُ في الكلام، لِيزيدَهم ذلك مودّةً لنا، ورغبةً فينا، وحرصاً على قتالِ أعدائنا. وأحببتُ أيضاً التَّعَهُّدَ لحصونِهم، وأن أسألَ أهلَ الخراج عن أمرهم في مسيرنا، فَسِرتُ في طريق همذانَ وأذربيجان. فلمّا بلغتُ بابَ الصُّولِ ومدينة فيروز خُسرُه، رمَمتُ تلك المدائنَ العتيقة والحدود، وأمرتُ ببناءِ حُصونٍ أُخَر».

«فلمّا بلغ خاقانَ الخزرِ نُزولُنا هناك، تخوَّف أن نَغزُوَهُ. فكتب: أنّه لم يزل ـ منذ ملكتُ ـ يُحِبُّ مُوادَعتي، وأنّه يرى الدُّخولَ في طاعتي سعادةً، ورأى بعضُ قُوّادِه لمَّا شاهَدَ حالَه تَرْكَهُ، فأتانا في ألفين من أصحابه، فقبلناه، وأنزلناه مع أساورتنا في تلك النّاحِية، وأجريتُ عليه وعلى أصحابه الرِّزق، وأمرتُ لهم بحصنٍ هناك، وأمرتُ بِمُصلى لأهلِ ديننا، وجعلتُ فيه مُوبذاً وقوماً نُسّاكاً، وأمرتُهم أن يعلِّموا من دَخَلَ في طاعَتِنا من التُّركِ، ما في طاعة الوُلاة من المنفعة العاجلةِ في الدُّنيا، والثَّوابِ العاجلِ في الأخرى، وأن يَحُثُّوهم على المَودَّة والصِّحَّةِ والعَدلِ والنَّصيحةِ ومجاهَدةِ العدوِّ، وأن يُعَلِّموا أحداثَهم رأيَنا ومَذهبَنا. وأقمتُ لهم في تلك التّخوم الأسواقَ وأصلحتُ طُرُقَهم، وقوَّمتُ السِّكَك، ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرِّجال، فإذا بحيثُ لَو كانَ في وسط فارِسَ، لَكانَ مَنزِلُنا بِها فاضلاً». قال:

تجديدُ النَّظر في أمرِ المملكة

«ولمّا أتى لِمُلكِنا ثَمانٍ وعشرون سنةً جَدَّدتُ النَّظرَ في أمر المَملكةِ والعَدلِ على الرّعيّة، والنَّظَرَ في أمرهم وإحصاء مظالمهم وإنصافهم، وأمرتُ موبذَ كُلِّ ثَغرٍ ومدينةٍ وبَلَدٍ وجندٍ بإنهاءِ ذلك إليَّ، وأمرتُ بعرض الجُندِ مَن كان منهم بالبابِ، بمشهدٍ مِنّي ومن غابَ في الثّغور والأطراف، بمشهدِ القائد وباذوسبانَ والقاضي وأمينٍ مِن قِبَلِنا،

وأمرتُ بجمع أهلِ كُوَرِ الخراج في كُلِّ ناحيةٍ من مملكتي إلى مصرها، مع القائدِ وقاضي البَلَدِ والكاتبِ والأمينِ، وسرَّحتُ من قِبَلي من عرفتُ صحَّتَه وأمانتَه ونُسكَه وعِلمَهُ، ومن جرَّبتُ ذلك منه إلى كُلِّ مصرٍ ومدينةٍ، حيث أولئك الغلمان والعُمّال وأهل الأرض، ليجمعوا بينهم وبين أهلِ أرَضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرفعَ الأمرُ كُلُّه على حقِّه وصِدقه: فَما نُفِّذ فيه لهم أمرٌ ـ لو صَحَّ فيه القضاءُ ورضي به أهلُه ـ فَرَغوا منه هنالك، وما أشكل عليهم رفعوه إلَيّ. وبلغ اهتمامي بتفقُّد ذلك ما لولا الَّذي أداري من الأعداءِ والثُّغور، لباشرتُ أمرَ الخراج والرَّعيَّةِ بنفسي قريةً قريةً، حتّى أتعهَّدها وأُكلِّم رجلاً رجلاً من أهلِ مملكتي، غيرَ أنّي تخوَّفتُ أن يضيع بذلك السَّببِ أمرٌ هو أعظم منه، والأمر الّذي لا يُغني فيه غَنائي ولا يقدر على إحكامِه غَيري، ولا يَكفينيهِ كافٍ، مع الَّذي في الشُّخوصِ إلى قَريَةٍ قَريَةٍ، من المؤونة على الرَّعيَّةِ من جندِنا، ومن لا نَجدُ بُدًّا من إشخاصِه معنا. وكرهنا أيضاً إشخاصَهم إلينا، مع تخوّفنا أن يَشغَلَ أهلَ الخراج عن عمارة أرَضيهم، أو يكونَ فيهم من يَدخلُ عليه في ذلك مؤُونةٌ في تكلُّف السَّير إلى بابِنا، وقد ضيعَ قُراهُ وأنهارَهُ وما لا يَجدُ بُدًّا من تعهُّدِه في السَّنَةِ كُلِّها في أوقات العمارةِ. ففعلنا ذلك بهم، ووكَّلنا موبذان موبذَ وكتبنا به الكُتُب وسرّحنا مَن وثِقنا بِه ورَجَونا أن يَجريَ مجرانا، وشخَّصنا وقلَّدناه ذلك».

قال:

جلوسنا مع أهل الكُوَر للفحص عن الرَّعيّة وأمناء الخراج

«ولَمّا آمَنَ اللّهُ جميعَ أهلِ مملكتنا من الأعداء. فلم يبقَ منهم إلاّ نحوٌ من ألفي رجُلٍ من الدَّيلم الَّذين عسر افتتاحُ حصنِهم لصعوبة الجبال عليها؛ لم نَجدِ شيئاً أنفعَ لمملَكتنا من أن نفحص عن الرَّعيَّةِ وأولئك الأمناءِ الّذين وصَّيناهم بإنصاف أهل الخراج، وكان بلغَنا أنَّ أولئك الأُمَناءَ لم يُبالغوا على قدرِ رأينا في ذلك، فأمرتُ بالكُتبِ إلى قاضي كورةٍ كورةٍ: أن يجمعَ أهلَ الكورةِ بغير عِلمِ عاملهم وأولي أمرهم، فيسألَهم عن مظالمهم وما استخرجَ منهم، ويفحَصَ عن ذلك بمَجهود رأيِهِ، ويبالغَ فيه، ويكتُبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم، ويختمَ عليه بخاتَمِه وخاتَم الرِّضا من أهلِ تلك الكورة، ويَبعثَ به إليَّ، ويُسرِّحَ مِمَّن يجتمعُ رأيُ أهلِ الكورةِ عَليه بالرِّضا نَفراً، وإن أحبُّوا أن يكونَ في من يَشخَصُ، بعضُ سَفَلتِهم أيضاً؛ فَعِلَ ذلك».

«فلمّا حضروا جلست للنّاسِ وأذِنتُ بمشهدٍ من عُظماء أرضنا ومُلوكِهم، وقُضاتِهم وأحرارِهم وأشرافهم، ونظرتُ في تلك الكُتُب والمظالم. فأيةُ مظلمةٍ كانت من العُمالِ ومن وكلائنا، أو من وكلاءِ وكلائنا، ونسائنا، وأهل بيتنا، حَطَطنا عنهم بِغيرِ بيِّنةٍ، لِعلمِنا بِضَعفِ أهلِ الخراج عنهم وظُلم أهلِ القُوَّةِ من السّلطانِ لهم (كذا)، وأيّةُ مظلمةٍ

كانت لبعضِهم من بعضٍ ووضحت لنا، أمرتُ بإنصافِهم قبل البراح، وما أشكل، أو وجب الفحصُ عنه، بشهود البلد وقاضيها، سَرَّحتُ معه أميناً من الكُتّابِ، وأميناً من فقهاء دينِنا، وأميناً مِمّن وثِقنا به من خَدَمِنا وحاشيتنا، فأحكمتُ ذلك إحكاماً وثيقاً، ولم يجعلِ اللّهُ لذوي قرابتنا وخدمنا وحاشيتنا منزلةً عندنا دونَ الحقِّ والعدلِ، فإنَّ من شأنِ قرابةِ المَلِكِ وحاشيتِه أن يستطيلوا بعِزَّةٍ وقوَّةٍ. فإذا أهملَ السُّلطانُ أمرَهم هلك من حاوروهُ إلاّ أن تكون فيهم متأدِّبٌ بأدبِ مَلِكِه، محافظٌ على دِينِه، شفيقٌ على رعيَّته، وأولئك قليلٌ. فدعانا الّذي اطّلعنا عليه من ظلم أولئك، إلى أن لا نطلبَ البيِّنَة عليهم في ما ادُّعِيَ قِبَلَهم، ولم نُرِد ظُلمَ أحدٍ أيضاً مِمَّن كان عزيزاً بنا، ومنيعاً بمكانه ومنزلته عندنا، فإنّ الحقَّ واسعٌ للضُّعفاءِ والأقوياءِ، والفقراءِ والأغنياءِ، ولكنّا لمّا أشكلتِ الأمورُ في ذلك علينا، كان الحَملُ على خواصِّنا وخَدَمِنا، أحبَّ إلينا من أن نحمِلَ على ضُعفاءِ النّاسِ ومساكينهم وأهلِ الفاقةِ والحاجةِ منهم. وعَلِمنا أنَّ أُولئكَ الضُّعفاءَ لا يَقدِرون على ظلم من حولَنا وعَلمنا مع ذلك أنَّ الّذين أعدينا عليهم مِن خاصَّتِنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا إلى ما لا يرجع إليه أُولئك الضُّعفاء. ولَعمري، إنَّ أحبَّ خواصِّنا إلينا، وأبَرَّ خَدَمِنا في أنفُسِنا، الّذين يحفظون سيرتَنا في الرّعيَّة، ويرحمون أهلَ الفاقَةِ والمسكنة، ويُنصِفونهم، فإنَّه قد ظَلَمَنا من ظَلَمهم، وجار علينا مَن جارَ عليهم، وأرادَ تعطيلَ ذِمَّتِنا الَّتي هي حِرزُهم وملجأُهم».

قال:

ما كتبه إلينا أربعةُ أصنافٍ من تُركِ الخَزَر

«ثُمَّ كتب إلينا على رأسِ سبع وثلاثينَ سنةً من مُلكِنا أربعةُ أصنافٍ من التُّركِ من ناحيةِ الخزر، ولكلِّ صنفٍ منهم مَلِكٌ، يذكرون ما دَخَلَ عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظِّ في عبودتِنا، وسألوا أن نأذَنَ لهم في القدوم بأصحابهم لخدمتنا والعملِ بما نأمرُهم به، ولا نحقدَ عليهم ما سلفَ منهم قَبلَ مُلكِنا، وأن نُنزِلَهم منزلةَ سائرِ عبيدِنا، فإنّا سَنرى في كُلِّ ما نأمرهم به من قِتالٍ وغيرِه كأفضلِ ما نَرى مِن أهل نصيحتِنا».

«فرأيتُ في قبولي إيّاهم عدَّةَ مَنافِعَ، منها: جَلَدُهم وبأسهم، ومنها: أنّي تخوَّفتُ أن تحملَهم الحاجةُ على إتيانِ قيصرَ أو بعضِ الملوك فقووا بِهم علينا. وقد كان في ما سلف يستأجر قيصرُ منهم لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرةِ، فكان لهم في ذلك القتالِ بعضُ الشَّوكة بسبب أُولئك الأتراك، ولأنَّ التُّركَ ليس عندهم لذَّةُ الحياةِ، فهو الّذي يُجَرِّيهم مع شقاءِ معيشتهم على الموت».

فكتبتُ إليهم: أنّا نقبَلُ من دَخَلَ في طاعتِنا ولا نبخلُ على أحدٍ بما عندنا. وكتبتُ إلى مرزبانِ البابِ آمُرُه أن يُدخِلَهم أوَّلاً فأوَّلاً.

«فَكَتَب إِليَّ أنّه: قد أتاه منهم خمسون ألفاً بنسائهم وأولادهم وعيالاتهم، وأتاه من رؤسائهم ثلاثة آلافٍ بأهل بيتهم ونسائهم وأولادهم وعيالاتهم».

«ولمّا بلغني ذلك أحببتُ أن أُقرِّبَهم إليّ، ليعرفوا إحساني إليهم في ما أُكرمهم به، وأُعطيهم ولِيَطمَئِنُّوا إلى قُوّادِنا حتّى إذا أردنا تسريحَهم مع بعضِ قُوّادنا، كان كُلُّ واحدٍ بصاحبه واثقاً. فَشَخَصتُ إلى أذربيجان. فلمّا نزلتُ أذربيجان أذِنتُ لهم في القدوم، وأتاني عِندَ ذلك طرائفُ من هدايا قيصر، وأتاني رسولُ خاقان الأكبر ورسولُ صاحبِ خوارزم، ورسولُ ملك الهند، والدّاور، وكابلشاه، وصاحب سرنديب، وصاحب كَلَه، وكثيرٌ من الرّسل، وتسعةٌ وعشرون ملكاً في يوم واحدٍ، وانتهيتُ إلى أُولئك الأتراك الثّلاثة والخمسينَ الألفِ، فأمرتُ أن يُصفَّفوا هنَاك، وركبتُ لذلك، فكان يومَئذٍ من أصحابي، ومن قَدِمَ عليَّ، ومن دخلَ في طاعتي وعُبودتي، مَن لم يَسَعهم مَرَجٌ كان طولُه نَحوَ عشرة فراسخ. فحمدت اللّه كثيراً، وأمرت أن يَصنَّفَ أُولئك الأتراك في أهل بيوتاتهم على سَبعِ مراتب ورأستُ عليهم منهم، وأقطعتُهم، وكسوتُ أصحابَهم، وأجريتُ عليهم الأرزاق، وأمرتُ لهم بِالمياهِ والأرَضينَ، وأسكنتُ بعضَهم مع قائدٍ لي بِبُرجانَ، وبعضَهم مع قائدٍ لي باللاّن، وبعضَهم بأذربيجان، وقسمتُهم في كُلِّ ما احتجنا إليهم من الثُّغور، وضَمَمْتُهُم إلى المرزبان. فلم أزل أرى من مناصَحتِهم واجتهادهم في ما نُوَجِّهُهُم له ما يَسُرُّنا في جميع المدائن والثُّغورِ وغيرِها».

قال:

خاقان الأكبر يَعتذرُ إِليَّ ويسأل التّجاوز

«وكتب إِليّ خاقان الأكبر يعتذرُ إِليَّ من بعض غَدَراتِه، ويسألُ المراجَعَة والتَّجاوزَ، وذكر في كتابه ورسالته: أنّ الّذي حَملَه على عداوتي وغَزوِ أرضي مَن لم ينظر له، وناشَدَني اللّهَ أن أتجاوزَ عنه، ويُوثِّقَ لي بِما أطمئنُّ إليه، وذكر أنّ قيصَرَ قد أرسل إليه، وزعم أنّه يستأذنني في قبول رُسُلِه، وأنّه لا يعمل في قبولِ رُسُلِ أحدٍ إلاّ بما أمرتُه، ولا يجاوزُ أمري، ولا يَرغَبُ في الأموال ولا في المودّات لأحدٍ إلاّ برضايَ. وكان دسيسٌ لي في التُّرك كاتبني بِنَدَمِ خاقان ونَدَمِ أصحابه على غَدرِه وعداوته إيّايَ».

«فأجبته: إنّي لعمري لا أبالي أبطبيعة نفسك وغريزتك غَدَرتَ بنا، أم أطعتَ غيرَكَ في غدرك بِنا، وما ذنبكَ في طاعة من أطعت في ذلك إلاّ كذنبك في ما فعلتَه برأي نَفسِك، وأنّك قد استحققت أشدَّ العقوبة. ـ وكتبتُ: ـ أنّي لا أظنُّ شيئاً مِمّا وجب بيني وبينكم إلاّ وقد كنتُ صَنَعتُهُ، ولا أظنُّ شيئاً من الوثيقة بقي لكم إلاّ وقد وثّقتَ لَنَا بِه قبل اليوم ثمّ غَدَرتُم، فكيف نطمئنُّ إليك ونثقُ بقولك، ولسنا نأمنُكَ على مثلِ ما فعلتَ من الغَدرِ ونقضِ العهدِ والكذبِ في اليمين؟ وذكرتَ أنّ رُسُلَ قيصر عندك، ووقفنا على

استيذانك إيّانا فيهم، وإنّي لستُ أنهاكَ عن مودّة أحدٍ. وكرهتُ أن يرى أنّي أتخوّفُ مصادقَتَهُ وأهابُ ذلك منه، وأحببت أن أعلِمَهُ أنّي لا أبالي بشيءٍ ممّا يجري بينهما».

«ثُمَّ سرّحتُ لِمَرمَّة المدائن والحصون الّتي بخراسان وجمعِ الأطعمة والأعلاف إليها ما يحتاج إليه الجند، وأمرتُهم أن يكونوا على استعدادٍ وحَذَرٍ، ولا يكونَ من غَفلتِهم ما كان في المرّة الأولى وهم على حال الصُّلح».

قال:

المقاتِلةُ وأهلُ العمارة سَواءٌ

«وكان شُكري للّه تعالى لِما وهب لي وأعطاني متَّصلاً بِنِعَمِهِ الأُوَلِ الّتي وَهَبَها لي في أوّلِ خلقِه إيّاي، فإنّما الشُّكر والنِّعَمُ عِدلانِ ككفَّتَي الميزان، أيُّهما رَجَحَ بصاحبِه احتاجَ الأخفُّ إلى أن يُزادَ فيه حتّى يعادِلَ صاحبَهُ. فإذا كانت النِّعمُ كثيرةً والشُّكرُ قليلاً، انقطع الحِملُ وهَلَكَ ظَهرُ الحاملِ، وإذا كان ذلك مستوياً استَمَرَّ الحامِلُ. فكثيرُ النِّعم يحتاج صاحبُها إلى كثير الشُّكر، وكثير الشُّكر يجلب كثيرَ النِّعَم. ولمّا وجدتُ الشُّكرَ بعضَه بالقول، وبعضَه بالعمل؛ نظرتُ في أحبِّ الأعمالِ إليه، فوجدتُه الشَّيءَ الّذي به أقام السَّماواتِ والأرض، وأرسى به الجبالَ، وأجرى به الأنهارَ، وبَرَأَ به البَرِيَّةَ، وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتُه، ورأيتُ ثمرَةَ الحقِّ والعَدلِ عِمارة البُلدان الّتي بها معاشُ النّاس والدّوابِّ والطّيرِ وسكّانِ الأرضِ».

«ولمّا نظرتُ في ذلك، وجدتُ المقاتلةَ أُجَراءَ لأهل العمارة، ووجدتُ أيضاً أهلَ العمارة أُجراءَ للمقاتلة. وأمّا المقاتلة فإنّهم يطلُبون أُجورَهم من أهل الخراج وسُكّانِ البُلدان لمدافعتهم عنهم، ومجاهدتهم من ورائهم. فحقٌّ على أهل العِمارةِ أن يوفّوهم أجورهم. فإنّ عمارتَهم تَتِمُّ بِهم، وإن أبطأُوا عليهم بذلك أوهَنُوهم، فَقَوِيَ عدوُّهم. فرأيت من الحَقِّ على أهل الخراج ألاّ يكونَ لهُم من عمارتِهم إلاّ ما أقام معايشَهم، وعَمرُوا به بُلدانَهم. ورأيتُ أن لا أجتاحَهم واستفرِغَ ذاتَ أيديهم للخزائن والمقاتلةِ، فإنّي إذا فعلتُ ذلك ظَلَمتُ المقاتِلة مع ظلم أهلِ الخراجِ، وذلك أنّه إذا فَسَدَ العامِرُ فَسَدَ المعمورُ، وذاك أهلُ الأرضِ والأرضُ، فإنّه إذا لم يكنْ لأهلِ الخراج ما يُعيشُهم ويَعمرُون به بِلادَهم، هَلكتِ المقاتلةُ الّذين قوَّتُهم بعمارةِ الأرض وأهلِ العمارةِ. فلا عمارةَ للأرض إلاّ بفضلِ ما في يَدِ أهل الخراج، فمِنَ الإحسان إلى المقاتلة، والإكرام لهم أن أرفُقَ بأهلِ الخراجِ وأعمُرَ بِلادَهم وأدَعَ لهم فضلاً في معايِشِهم. فأهلُ الأرض وذوُو الخراجِ أيدي المقاتِلَةِ والجندِ، وقُوَّتُهم، والمقاتلةُ أيضاً أيدي أهلِ الخراج وقُوَّتُهم».

«ولقد فكَّرتُ وميَّزتُ ذلك جَهدي وطاقتي، فما رأيتُ أن أُفضِّلَ هؤلاء على

أولئك ولا أُولئك على هؤلاءِ، إذ وجدتُهما كاليدين المتعاونتين، وكالرِّجلين المترافدتين. ولعمري ما أعفىٰ أهلَ الخراج من الظُّلم من أضرَّ بالمقاتلة، ولا كفَّ الظّلم عن المقاتلةِ من تعدّى على أهل الخراج، ولولا سَفهاءُ الأساورةِ لأبقَوا على الخراج والبِلاد إبقاءَ الرَّجُلِ ضَيعتَه الّتي منها معيشتُه وحياتُه وقُوّتُه. ولولا جُهّال أهلِ الخراج لَكَفُّوا عن أنفسهم بعضَ ما يحتاجون إليه من المعايش إيثاراً للمقاتلة على أنفسهم».

قال:

أقبلنا بعدَ ذلك على السِّيَر والسُّنَن

«ولمّا فرغنا من إصلاح العامَّة والخاصَّةِ بهذين الرُّكنين من أهل الخراجِ والمقاتلة، وكان ذلك ثمرة العدلِ والحَقِّ الّذي به دَبَّر اللّٰهُ العظيم خلائقَه، وشكرتُ اللّٰه على نِعَمِه في أداءِ حقِّه على مواهبه، وأحكمنا أمورَ المقاتلة وأهلِ الخراج يبسط العدلِ؛ أقبلنا بعد ذلك على السِّيَر والسُّنَنِ. ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم نفعاً لَنا والأكبر فالأكبر عائدةُ على جُندِنا ورعيَّتِنَا. ونظرنا في سِيَر آبائنا من لدن بُشتاسفَ، إلى مُلكِ قبَّاذَ أقربَ آبائنا مِنّا، ثم لم نترك صلاحاً في شيء إلاّ أخذناه، ولا فساداً إلاّ أعرضنا عنه، ولم يَدعُنا إلى قبول ما لا خيرَ فيه من السُّنَنِ حُبُّ الآباءِ، ولكنّا آثرنا حُبَّ اللّٰهِ وشكرَه وطاعتَهُ».

«ولمّا فرغنا من النَّظَر في سِيَر آبائنا، وبدأنا بهم، وكانوا أحقَّ بذلك، فلم نَدَع حقّاً إلاّ أكثرناه، ووَجَدنا الحقَّ أقربَ القرابة؛ نَظَرنا في سِيَرِ أهل الرّوم والهند، فاصطفينا محمودَها، وجعلنا عِيَار ذلك عقولَنا، وميَّزناه بأحلامِنا، فأخذنا من جميع ذلك ما زَيَّن سلطانَنا، وجعلناه سُنَّةً وعادةً، ولم تُنازعنا أنفُسنا إلى ما تميلُ إليه أهواؤنا، وأعلمناهُم ذلك وأخبرناهم به، وكتبنا إليهم بما كَرِهنا لهم مِن السِّيَر ونَهيناهُم عنه، وتقدّمنا إليهم فيه، غيرَ أنّا لم نُكره أحداً على غير دينه وملَّتِه ولم نَحسُدهُم ما قِبَلَنا، ولا مع ذلك أَنِفنا مِن تعلُّم ما عِندَهُم، فإنَّ الإقرارَ بمعرفة الحقِّ والعلم، والاتّباعَ له، مِن أعظم ما تزيَّنت به الملوك، ومِن أعظم المضرّةِ على الملوك الأَنَفَةُ مِن التّعلُّم، والحميّةُ من طلبِ العلم، ولا يكونُ عالِماً مِن لا يتعلَّمُ».

ولمّا استقصيتُ ما عند هاتين الأمَّتين من حكمة التَّدبير والسِّياسة، وصلتُ بين مكارم أسلافي، وما أحدثتُه برأيي، وأخذتُ به نفسي، وقبلتُه عن الملوكِ الذين لم يكونوا منّا وَثَبَتُّ على الأمر الّذي نلتُ به الظَّفَر والخيرَ. ورفضتُ سائرَ الأمم، لأنّي لم أجد عندهم رأياً ولا عقولاً، ولا أحلاماً، ووجدتُهم أصحابَ بَغيٍ وحسدٍ وكَلَبٍ وحِرْصٍ وشُحٍّ وسوءِ تدبير وجَهالةٍ ولؤمِ عهدٍ وقلَّةِ مكافأةٍ. وهذه أمورٌ لا تصلح عليها ولايةٌ، ولا تَتِمُّ بها نعمةٌ».

وقرأتُ مع هذه السّيرة في آخر هذا الكتاب، الّذي كتبه أنوشروان في سيرة نفسه، أنّ أَنوشروان لمّا فرغ من أمور المملكة وهذّبها، جمع إليه الأساورة مع القُوّاد والعظماءِ والمرازبةِ والنُّساك والمَوابِذةِ وأماثلَ النّاس معهم، فخطبهم فقال:

خُطبةُ أنوشِروانَ

«أيّها النّاسُ! أحضِروني فهمكم، وأرعوني أسماعَكم وناصِحوني أنفُسَكم، فإنّي لم أزل واضعاً سيفي على عُنُقي ـ مُنذُ وَليتُ عليكم ـ غَرَضاً للسُّيوفِ والأسنَّة، كُلُّ ذلك للمدافعة عنكم والإبقاء عليكم، وإصلاح بِلادكم مرّةً بأقصى المشرقِ. وتارةً في آخر المغرب، وأخرى في ناحيةِ الجنوب، ومثلها في جانب الشّمال. ونقلتُ الّذين اتَّهمتُهم إلى غيرِ بِلادهم، ووضعتُ الوضائعَ في بلدان التُّرك، وأقمتُ بُيوتَ النّيرانَ بقسطنطينيّة، ولم أزل أصعد جبلاً شامخاً وأنزل عنه، وأطأُ حُزُونَه بعد سهولِه، وأصبر على المخمصةِ والمخافة، وأكابد البردَ والحرَّ، وأركب هَولَ البحرِ وخَطَرَ المفازةِ، إرادةَ هذا الأمر الّذي قد أتمَّهُ اللّه لكم مِن الإثخانِ في الأعداء، والتّمكين في البلاد، والسَّعة في المعاش ودركِ العِزِّ، وبلاغ ما نِلتُم. فقد أصبحتم بحمد اللّهِ ونعمته على الشَّرَفِ الأعلى، من النّعمةِ والفَضلِ الأكبر من الكرامة والأمن، وقد هزم اللّهُ أعداءَكم وقَتَلَهُم، فهُم بين مقتولٍ هالكٍ، وحيٌّ مطيع لكم سامع.

«وقد بقي لكم عَدُوٌّ عددُهم قليلٌ، وبأسُهم شديدٌ، وشوكتُهم عظيمةٌ، وهؤلاءِ الّذين بَقوا، أخوَفُ عندي عليكم، وأحرىٰ أن يهزموكم ويغلبوكم، من الّذين غَلَبتُمُوهُم مِن أعدائكم أصحابِ السُّيوفِ والرِّماح والخُيول. فإن أنتم ـ أيّها النّاسُ ـ غلبتُم عدوَّكم هذا الثاني غَلَبَتَكُم لِعدوّكم الّذين قاتلتُم وحاصرتُم، فقد تَمَّ الظَّفَرُ والنَّصرُ، وتَمَّت فيكم القوّةُ وتَمَّ لكم العِزُّ، وتمَّت عليكم النّعمةُ، وتَمَّ لكم الفَضلُ، وتمَّ لكم الاجتماعُ والأُلفَةُ والنَّصيحةُ والسّلامةُ. وإن كنتُم قصَّرتُم ووَهنتُم، وظفرَ هذا العَدوُ بكم، فإنَّ الظَّفَر الّذي كان منكم على عَدوِّكُم بالمغربِ والمشرقِ وفي الجنوب والشّمال، لم يكن ظفراً مِنكم، فاطْلُبُوا أن تقتلوا من هذا العدوِّ الباقِي مِثلَ الّذِي قتلتُم مِن ذلك العَدُوِّ الماضي، وَلْيَكُنْ جِدُّكم في هذا واجتهادُكم واحتشادُكم أكبرَ وأجلَّ وأحزمَ وأعزمَ وأصحَّ وأسدَّ. فإنَّ أحقَّ الأعداءِ بالاستعداد له أعظمُهم مَكيدةً وأشدُّهم شوكةً، وليس الّذي كنتم تخافون من عدوِّكم الّذي قاتلتُم، بقريبٍ من هؤلاءِ الّذين آمُرُكُم بقتالهم الآنَ، فاطلبوه، وَصِلُوا ظَفراً بظَفَرٍ، ونصراً بنصر، وقُوَّةً بقُوَّةٍ، وتأييداً بتأييد، وحزماً وعزماً بِحَزم وعَزم، وجهاداً بجهادٍ. فإنَّ بذلك اجتماعَ صلاحِكم، وتمامَ النّعمةِ عليكم، والزّيادةَ في الكرامة من اللّهِ لكم، والفوزَ برضوانِه في الآخرةِ».

«ثم اعلموا أنَّ عَدُوَّكم من التُّرك والرُّوم والهندِ وسائرُ الأُمم، لم يكونوا لِيَبلُغوا

منكم ـ إن ظهروا عليكم وغلبوكم ـ مثلَ الَّذي يبلغ هذا العدوُّ منكم، إن غلبكم وظهر عليكم. فإنّ بأسَ هذا العدوَّ أشدُّ وكيدُه أكبرُ، وأمرُهُ أخوَفُ مِن ذلك العدوِّ».

«يا أيها النّاسُ، إنّي قد نَصِبتُ لكم كما رأيتُم، ولقيتُ ما قد علمتم بالسَّيف والرُّمح والمفاوزِ والبحارِ والسُّهولةِ والجبالِ أقارعُ عدوًّا عدوًّا، وأكالب جنداً جنداً، وأكابِدُ مَلِكاً مَلِكاً، لم أتضرَّع إليكم هذا التَّضَرُّعَ في قتالِ أُولئك الجنودِ والملوكِ، ولم أسألكم هذه المسألةَ في طلبِ الجدِّ والاجتهاد والاحتفال والاحتشادِ، وإنّما فعلتُ هذا اليومَ لِعِظَمِ خَطَرِهِ، وشِدَّةِ شوكتِه ومخافةِ صولتِه بِكم، وإن أنا ـ أيُّها النّاسُ ـ لم أغلب هذا العدوّ وأنفِه عنكم، فقد أبقيت فيكم أكبرَ الأعداءِ، ونفيتُ عنكم أضعفَها. فأعينوني على نفي هذا العدوِّ المخوفِ عليكم، القريبِ الدّارِ منكم. فأُنشِدُكم اللّه ـ أيّها النّاسُ ـ لَمّا أعنتموني عليه حتّى أنفيَهُ عنكم وأخرجَه مِن بينِ أظهرِكم، فيتمَّ بلائي عندكم، وبلاءُ اللّهِ فيكم عندي، وتتمَّ النّعمةُ عليَّ وعليكم، والكرامةُ من اللّهِ لي ولكم، ويتمَّ هذا العزّ والنَّصرُ وهذا الشَّرفُ والتّمكينُ، وهذا الثروةُ والمنزلةُ».

«يا أيُّها النّاس! إنّي تفكّرتُ بعدَ فراغي من كتابي هذا وما وصفتُ من نعمة اللّهِ علينا في الأمر الَّذي، لمّا غلب «دارا» الملوكَ والأمَمَ، وقهرَها واستولىٰ على بلادِها، ثم لمَّا لم يُحكم أمرَ هذا العدوِّ؛ هلك [بِسَبَبِه] وهلكت جنودُه، بعدَ السَّلامةِ والظَّفَرِ والنَّصرِ والغَلَبَةِ. وذلك أنه لم يرضَ بالأمرِ الَّذِي تمَّ له به المُلكُ، واشتدَّ به له السُّلطان وقويَ به على الأعداءِ، وتمَّت عليه بِهِ النِّعمة، وفاضت عليه من وجوه الدُّنيا كلُّها الكرامةُ، حتّى احتيلَ له بوجوه النَّميمةِ: البغيِ، فدعا البغيَ، والحَسَدِ، فتقوّىٰ به وتمكّنَ. ودعا الحسَدَ بعضُ أهلِ الفقرِ لأهلِ الغنىٰ، وأهل الخمولُ لأهلِ الشّرف. ثمَّ أتاهم الإسكندرُ على ذلك مِن تفرُّق الأهواءِ، واختلافِ الأمور، وظهورِ البغضاء، وقُوَّةِ العَداوةِ فيما بينَهم، والفسادِ منهم. ثم ارتفع ذلكَ إلى أن قتلُه صاحبُ حَرَسِهِ وأمينُهُ عَلى دَمِه، لِلَّذي شَمَلَ قلوبَ العامَّةِ من الشَّرِّ والضَّغينةِ، وثَبَتَ فيها مِنَ العَداوةِ والفُرقِة، فكفى الإسكندرَ مؤنَةَ نَفسِه. وقد اتَّعظتُ بذلك اليوم فَذَكَرتُهُ».

«يا أيّها النّاسُ! فلا أسمعَنَّ في هذه النِّعمةِ تفرُّقاً ولا بَغياً ولا حَسَداً ظاهراً ولا وشايَةً ولا سِعايةً، فإنَّ اللّهَ قد طَهَّر من ذلك أخلاقَنا ومُلكَنا وأكرمَ عنه ولايَتنا. وما نِلتُ ما نِلتُهُ ـ بنعمة ربِّنا وحمدِه ـ بشيءٍ مِن هذه الأمورِ الخبيثةِ الَّتي نَفَتها العُلماءُ، وعَافَتها الحُكمَاءُ، ولكنّي نِلتُ هذِهِ الرُّتَبَ بالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والحُبِّ للرَّعِيَّةِ، والوفاءِ والعدلِ والاستقامةِ والتُّؤَدَةِ. وإنّما تَرَكنا أن نأخُذَ عن هذه الأُمَمِ الَّتي سمَّيناها أعني: مِنَ التُّركِ والبَربَر والزَّنج والجبالِ وغيرهم مِثل ما أخذنا عن الهند والرّوم، لظهورِ هذه الأخلاقِ فيهم وغَلَبَتِها عليهم. ولم تصلح أمَّةُ قطُّ ولا مَلِكُهَا عَلَىٰ ظهورِ هذه الأخلاقِ فيها. وإنَّ

أوَّل ما أَنَا نافٍ وتاركٌ مِن هذِه الأمورِ، هذه الأخلاقُ الَّتي هي أعدى أعداءِكم».

«يا أيُّها النّاس! إنَّ فيما بَسطَ اللّهُ علينا بالسَّلامَةِ والعافيةِ والاستصلاح، غِنًى لَنا عمَّا نطلب بهذه الأخلاقِ المُردِيَةِ المشؤومةِ. فاكفُوني في ذلك أنفُسَكم فإنَّ قَهرَ هذه الأعداءِ أحبُّ إليَّ وخيرُ لَكُم مِن قهرِ أعدائكم من التُّركِ والرُّوم. فأمَّا أنَا ـ يا أيها النّاسُ ـ فقد طِبتُ نفساً بترك هذه الأمورِ ومَحقِها وقَمعِها ونَفيِها عنكم، لا حاجةَ لي بما فيها، ولا بالَّذي عليَّ منها، فطيبوا أنفُساً بالَّذي طِبتُ به نفساً منكم».

«يا أيُّها النّاسُ! إنّي قد أحببتُ أن أنفَي عنكم عدوَّكم الباطِنَ والظّاهِرَ، فأمَّا الظّاهِرِ منهما، فإنّا بحمد اللّهِ ونعمتهِ، قد نفيناه وأعانَنَا اللّه عليه وخَضَد لنا شوكتَه، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسَيتُم وأجهدتم. فافعلُوا في هذا العَدُوِّ كما فعلتم في ذلك العدوِّ، واعملوا فيه كالّذي عملتم في ذلك، واحفظوا عنّي ما أوصيكم به، فإنّي شفيقُ عليكم ناصحُ لكم».

«أيُّها النّاسُ! من أحيى هذه الأمورَ فينا، فقد أفسد بلأَه عندنا بقتاله مَن كان يقاتلنا من أعدائنا، فإنّ هذه أكثر مضرّةً وأشدُّ وأعظم بليّةً وأضرُّ تَبِعَةً. واعلموا أنَّ خيركم ـ يا أيّها النّاسُ! مَن جَمعَ إلى بلائهِ السّالِفِ عندنا، المَعونةَ لنا على نفسِه في هذا الغابِرِ. واعلموا أنَّ مَن غَلَبَهُ هذا غَلَبَ عليه ذاك، ومن غَلَبَ هذا فقد قَهَرَ ذاك. وذلك أنَّ بالسَّلامة، والأُلفةِ، والمَودَّةِ، والاجتماع، والتَّناصح منكم يكونُ العِزُّ والقُدرةُ والسلطانُ، ومع التّحاسُدِ، والبغي، والنَّميمة، والتَّشتُّتِ، يكون ذهابُ العزِّ وانقطاعُ القُوَّةِ، وهلاكُ الدُّنيا والآخرةِ. فعليكم بما أمرناكم به، واحذروا ما نهيناكم عنه، ولا قُوَّةَ إلا باللّه. عليكم بِمُواساةِ أهلِ الفاقةِ وضيافةِ السّائلةِ. وأكرِموا جِوَارَ من جاوَرَكم، وأحسِنُوا صُحبَةَ مَن دَخلَ من الأُمَمِ فيكم، فإنَّهم في ذِمَّتِي، لا تَجَبّهوهم، ولا تَظلِموهم، ولا تَسلَّطوا عليهِم، ولا تُحَرجُوهم، فإنّ الإحراجَ يدعو إلى المَعصِيَةِ، ولكن اصبِرُوا لهم على بعضِ الأذىٰ، واحفظوا أمانَتكم وعهدَكم واحفظوا ما عهدتُ إليكم من هذه الأخلاق، فإنّا لم نَرَ سلطاناً قطُّ ولا أُمَّةً هلكوا إلاّ بترك هذه الأخلاق، ولا صَلحُوا إلاّ مَعَها. وباللّهِ ثِقَتُنَا في الأمور كُلِّها».

ثُمّ هلك أنوشروان بعد ثمانٍ وأربعين سنة من مُلكِه، وملك ابنُه:

هُرمُزُ بنُ أنوشِروانَ

وكانت أمُّه بنتَ خاقان الأكبر، وكان كثير الأدبِ، حَسَنَ النِّيَّةِ، في الإحسان إلى الضُّعفاءِ والمساكين، إلاّ أنّه كان يحمل على الأشراف، فعادَوه وأبغضُوه فعلم بذلك منهم، فكان في نفسه منهم مثلَ ما في أنفسهم منه.

من سيرتِه المرتضاةِ

وكان من سيرته المرتضاة: أنّه تحرّى الخيرَ والعدلَ على الرّعيَّة، وتشدَّدَ على العُظَماء المستطيلين على الضُّعفاءِ، وبلغ من عدله أنّه كان يسيرُ إلى الـ«ماه» ليُصيفَ هناك، فأمر فنودي في مسيره ذلك في مواضع الحروث أن يُتحامَى، ولا يسيرَ فيها الرّاكب لئلاّ يُضِرُّوا بأحدٍ ووكَّلَ بتعهُّدِ ما يجري في عسكره، ومعاقبةِ من تعدّى أمرَه، وتغريمِه عِوَضاً لصاحب الحرث.

وكان ابنُه كسرى في عسكره، فَعَار مركبٌ من مَراكِبه، ووَقعَ في مَحَرَثةٍ من المَحارثِ الَّتي كانت على طريقه، فَرَتَعَ فيها، وأفسد منها. فأُخِذَ ذلك المركبُ، وَرُفِعَ إلى الرَّجُلِ الَّذي وكَّله هرمزُ بمعاقبةِ مَن أَفسَدَ هو أَو دابَّتُه شيئاً مِن المحارِث وتغريمِه، ولم يَقدِرِ الرَّجُلُ على إنفاذ أمرِ هُرمُز في كسرى ابنِه، ولا أحدُ مِن حَشَمِهِ. فَرَفعَ ما رأىٰ من إفساد ذلك المركبِ إلى هُرمُزَ، فأمرَهُ أن يَجدَع أُذُنيه، ويُبَتِّرَ ذَنَبَهُ، ويُغَرِّمَ كِسرَىٰ. فخرجَ الرَّجلُ لإنفاذ الأمر. فَدَسَّ له كسرى رهطاً من العُظماءِ ليسألوه التَّغبيبَ في أمرِه، فلقُوهُ وكلَّموهُ في ذلك، فلم يُجِب إليه، فسألوهُ أن يؤخِّرَ ما أمر به هرمزُ في المركبِ حتّى يُكلِّموهُ. فأمَر بالكفِّ عنه، فَفُعِلَ. فلقي أُولئك الرَّهطُ هرمزَ، وأعلموهُ أنَّ بذلك [المركب] الّذي عار، زعارَةً، وأنّه أُخِذَ لِلوقتِ. وسألوه أن يأمُرَ بالكفِّ عن جَدعه وتبتيره لِما فيه من سوءِ الطِّيَرَةِ. فلم يُجِبهم إلى ما سألوه، وأمر بالمركب، فَجُدِعَ أُذُناه وبُتِّرَ ذَنَبُهُ وغُرِّمَ كِسرى كما يُغرَّمُ غيرهُ في هذا الحَدِّ، ثُمَّ ارتَحلَ.

وأيضاً: ركبَ ذاتَ يوم في أوان إيناعِ الكَرمِ إلى ساباط المدائن وكان مَمَرُّهُ على بساتينَ وكُروم. فاطَّلع بعضُ أساورته في كَرمٍ، فرَأىٰ فيه حِصرِماً فأصابَ منها عناقيدَ، ودَفَعَها إلى غلَامه وقال:

- «اذهب بها إلى المنزل، واطبُخها بِلَحم، واتَّخِذ منها مَرَقةً، فإنَّها نافعةٌ في هذا الإبَانِ». فأتاه حافظُ ذلك الكَرمِ، فلَزِمَهُ وصَرَخَ. فبلغ إشفاقُ الرّجلِ من عقوبةِ هرمزَ على تناولِه من ذلك الكرم، أن دفع إلى حافظ الكَرمِ مِنطَقةً مُحلاّةً بذهبٍ كانت عليه، عِوَضاً له من الحِصرمِ الّذي رَزَأَهُ من كرمِه، وافتدى بها نفسَهُ، ورأى أنَّ قَبضَ الحافظِ إيّاها منه، وتَخلِيَتَهُ عنهَ، مِنَّةٌ منَّ بها عليه.

فهذه كانت سيرة هُرمزَ في العدلِ والضَّبطِ والهَيبةِ، وكان مظفّراً منصوراً لا يَمُدُّ يَدَهُ إلى شيءٍ إلاّ وأتاهُ، وكان مع ذلك أديباً، أريباً، داهياً، إلاّ عِرقاً قد نزعه أخوالُه من التُّركِ. فكان لذلك مُقصِياً لِلأشرافِ وأهلِ البيوتاتِ والعلماءِ.

وقيل: إنّه قَتَل ثَلاثَةَ عَشَرَ ألفَ رَجُلٍ وستَّمائةِ رجلٍ. ولم يكن [له رأيٌ] إلاّ في

[تألّفِ] السَّفِلَةِ واستصلاحِهم. وحَبَسَ خَلقاً من العظماءِ، وحَطَّ مَراتِبَ خلقٍ، وقَصَّر بالأساوِرَةِ، [ففسدت] عليه نِيّاتُ جُندِه من الكُبَراءِ، [واتَّصلَ] ذلك بما جَناهُ على بَهرام شُوبين مِمّا سَنَحكيهِ. فكان ذلك سببَ هلاكِه.

ذِكرُ سوءِ اختيارِه جُندَهُ وبَهرامَ جوبينَ حتّى هَلَكَ

خرج على هرمز خَوارِجُ منها: «شابة ملكُ التُّركِ الأعظم في ثلاثمائة ألفِ مقاتل. وصار إلى باذغيس، وذلك بعد إحدى عشر سنةً من مُلكِه، وخرجَ عليه مَلِكُ الرّوم في ثمانين ألف مقاتلٍ قاصداً له، وخرج عليه مَلكُ الخزر حتّى صار إلى بابِ الأبواب، وخرج عليهِ من العربِ خلقٌ نزلوا في شاطئ الفراتِ، وشنّوا الغارةَ على أهلِ السَّوادِ واجتَرَأَ عليه أعداؤه، وغزَوا بِلادَه».

فأمّا شابة مَلِكُ التُّركِ فإنّه أرسل إلى هُرمز وإلى عظماءِ الفُرسِ، يُؤْذِنُهُم بإقباله ويقول:

ـ «رُمُّوا لي قناطِرَ أنهارٍ وأوديةٍ أجتازُ عليها إلى بلادِكم، واعقِدُوا القناطرَ على كُلِّ نهرٍ لا قَنطَرةَ له، وافعلوا ذلك في الأنهار والأودية الَّتي عليها مَسلَكي مِن بِلادِكم إلى بلادِ الرُّومِ، فإنّي مُجمعُ على المسير إليها مِن بلادِكُم».

فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك، فشاور فيه، فأُجمعَ له على قصدِ مَلكِ التُّركِ وصَرفِ العنايةِ إليه. فوجَّه إليه رجلاً من أهلِ الرَيِّ يقال له: بهرام بن بهرام جُشنَس ويُعرف بِـ«جوبين». فاختار بهرامُ من الجُند اثنَي عشر ألفَ رجُلٍ على عَينَيهِ من الكهولِ دون الشَّبابِ، وكانت عدَّةُ من يشتمل عليه الدّيوان سبعينَ ألفَ مُقاتِلٍ.

فمضى بهرامُ بجدٍّ وإغذاذٍ، حتّى حاز هراةَ وباذغيسَ، ولم يشعرُ شابة ببهرامَ حتّى نزل بالقربِ منه معسكِراً. فجرت بينهما حروبٌ ورسائلُ، إلى أن قَتَلَ بهرامُ شابَةَ برميةٍ رماها إيّاه، فاستباح عسكَره، وأقام موضِعَه، فوافاهُ بَرموذةُ بنُ شابةَ، وكان يُعدَلُ بأبيه، فحارَبَه، فهزمَه، وحَصرُه في بعضِ الحصونِ، ثُمَّ ألحَّ عليه حتّى استسلم له، فوجَّهَه أسيراً إلى هُرمُز، وغَنِمَ كنوزاً عظيمةً.

فيقال: إنه حَمَلَ إلى هرمز من الأموالِ والجواهر والأواني وسائر الأمتعة مِمّا غَنِمَهُ وِقرَ مائتينِ وخمسينَ ألفَ بعيرٍ في مُدَّة تلك الأيّام. فشكره هرمز على ذلك، إلاّ أنّه أرادَ منه أن يتقدَّمَ بِمَن معهُ إلى بلادِ التُّرك، وكاتَبَهُ في ذلك، فلم يَرَ بهرامُ ذلك صَواباً. ثُمَّ خاف بهرامُ سطوةَ هُرمزَ. وحُكِيَ له: أنَّ الملكَ يستقلُّ ما حمله إليه من الغنائم في جَنبِ ما وصلَ إليه وأنّه يقولُ في مجالسه: «بهرامُ قد تَرَفَّهَ، واستطابَ الدَّعَةَ». وبلغ ذلك الجُندَ، فخافوا مثلَ خوفِه.

فيقال: إنَّ بهرامَ جمع ذات يوم وجوه عسكره، فأجلسهم على مَراتِبِهِم، ثُمَّ خَرَجَ عليهم في زِيِّ النِّساءِ، وبيدِه مِغزَلُ وقُطْنُ، حتى جلس في موضِعه، وحُمِلَ لِكُلِّ واحدٍ من أولئك القومَ مِغزلٌ وقُطنٌ، فَوُضِعَ بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروهُ. فقال بهرام:

«إنّ كِتابَ الملكِ وَرَدَ عَلَيَّ بذلك، ولا بُدَّ من امتثالِ أمرِه إن كنتم طائعين».

فأظهَروا أَنَفَةً وَحَمِيَّةً، وخَلَعُوا هرمزَ، وأظهروا أنّ ابنَه أبَرويز أصلحُ للمُلكِ مِنهُ، وساعَدَهُم على ذلك خَلقٌ كثيرٌ مِمَّن كان بحضرةِ هُرمزَ.

وأنفذ هرمزُ جيشاً كثيفاً مع آذينجشنس لمحاربة بَهرام، وأشفق أبرويزُ من الحديثِ وخافَ سطوةَ بهرامَ، فَهَرَب إلى أذربيجان. فاجتمع إليه هناك عِدّةُ من المرازبة والإصفهبذينَ، فأعطوه بيعَتهم. ولم يُظهر أبرويز شيئاً، وأقام بمكانه إلى أن بَلَغَهُ قتلُ آذينجُشنَسَ الموجَّهِ لِمحاربةِ بهرام جوبين، وانفضاضُ الجمعِ الّذي معه، واضطرابُ أمرِ أبيه هُرمزَ.

وكَتَبَت إليه أختُ أذينخشنس ـ وكانت تِربهُ ـ تُخبره بِضعفِ أبيهِ هُرمزُ، وأعلمتهُ أنّ العظماءَ والوجوهَ قد أجمعوا على خَلعِه، وأعلمته أنَّ جوبين ـ إن سَبَقَهُ إلى المدائن ـ احتوى على المُلكِ. ولم تَلبَثِ العُظماءُ بذلك أن وَثَبَت على هرمز وفيهم بُندويه وبَسطام خالا أبرويز. فَخَلَعُوهُ وسملوا عَينَيهِ وتَركوهُ تحرُّجاً مِن قَتلِه. فلمّا بلغ ذلك أبرويز، بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين، وتتوَّج وجَمعَ إليه الوجوه والأشرافَ، وجَلَسَ لهم على سريره، ومَنّاهُم ووعَدَهم وقال:

ـ «إنَّ هُرمُزَ كان لهم قاضياً عادلاً ومن نِيَّتِنا البِرُّ والإحسانُ، فعليكم بالسَّمع والطّاعةِ». فَاستبشَرَ له النّاسُ، ودَعَوا لَهُ.

فلمّا كان اليومُ الثّاني، أتى أباه، فَسَجَدَ له وقال: «عمّرك اللّهُ أيُّها المَلِكُ، إنَّك تعلم أنّي بَريءٌ مِمّا آتاه إليك المنافقون، وإنّما هَرَبتُ خوفاً منك».

فصدَّقَهُ هرمز وقال له:

ـ «يا بُنَيّ! لي إليك حاجتانِ، فأسعِفني بهما: إحداهما أن تنتقِم مِمَّن عاوَن على خَلعي والسَّملِ لِعَيني، ولا تأخذك بهم رأفةٌ، والأُخرى أن تؤنِسَني كُلَّ يومٍ بثلاثة نَفَرٍ لهم أصالةُ رأيٍ، وتأذنَ لهم في [الوُصول] إليّ».

فتواضع له أبرويز وقال:

ـ «عمّرك اللّه أيُّها المَلِكُ، إنّ المارقَ بِهرامَ قد أظلّنا ومعه الشجاعةُ والنَّجدةُ، ولسنا نقدرُ أن نَمُدَّ يداً إلى مَن أتى إليك ما أتى، فإنَّهم وُجوهُ أصحابِك. ولكن إن أدالَني اللّهُ مِن المنافق، فأنَا خليفتُك وطوعُ أمرِك».

ذكرُ الحيلةِ الّتي تَمَّت لأبَرويزَ حتّى أفلتَ مِن بهرامَ بعدَ ظَفَرِه بِه ورجُوعِه بعدَ ذلك وقَتلِه إيّاه ببلادِ التُّركِ واستيلائه على المُلكِ

إنَّ أبرويز خَرجَ إلى النَّهروانِ، لمَّا وَرَدَها بهرام، وواقفه وجَعَلَ النَّهرَ بينَهُ وبينَهُ، ودار بينَهُما كلامٌ كثيرٌ، كلُّ ذلك يدور على استصلاح بهرام، فلا يَرُدُّ عليه بَهرامُ إلاّ ما يسوؤُهُ، حتى يَئِسَ مِنهُ وأجمع على حربِه. ولهما أخبارٌ كثيرةٌ وأحاديثُ طويلةٌ آخرها: أنّ أبرويز ضعف عنه بعد أن قتلَ بيدِه ثلاثةَ نفرٍ من الأتراكِ كانوا وثَّقوا بهرامَ مِن أبرويز، وضمِنَ لهم عليه مالاً عظيماً، وكان هؤلاءِ الثَّلاثةِ مِن أشدِّ الأتراك وأعظمِهم أجساماً وشجاعةً. ثُمَّ رأى أبرويزُ من أصحابه فتوراً وحرَّضَ أصحابَه فتبيَّنَ منهم فشلاً. فصار إلى أبيه وشاورهُ، فرأى له المصيرَ إلى مَلِكِ الرُّوم فأحرزَ نِساءَهُ، وشَخَصَ في عِدّةٍ يسيرةٍ فيهم: بُندُويَه، وبَسطام، وكُردي أخو بهرام، لأنّ كُردِي هذا كان ماقِتاً لأخيه، مُعادِياً له، شديدَ الطّاعة والنَّصيحةِ لأبرويزَ. فلمّا خرجوا، مِن المدائن خاف القوم مِن بهرام وأشفقوا أن يَردَّ هُرمزَ إلى المُلكِ، ويكاتِبَ مَلِكَ الرّومِ عَن هُرمزَ في ردِّهم، فَيَتلفُوا. فأعلموا أبرويزَ ذلك واستأذنوا في إتلافِ هرمزَ فلم يُحرِ جواباً. فانصرف بندويةُ وبسطام وطائفة معهما إلى هُرمزَ حتّى أتلفُوه خنقاً، ثُمَّ رَجَعُوا إلى كسرى وقالوا:

ـ «سِر على خيرِ طائر».

فحثُّوا دَوابَّهم، وصاروا إلى الفراتِ، فقطعوهُ، وأخذوا طريق المفازةِ، بدلالةِ رجلٍ يُقَال له: خُرشِيذان، وصاروا إلى بعض الدّيارات في أطرافِ العمارةِ. فلمّا أُوطِنوا الرّاحةَ، لحقتهم خَيلُ بهرامَ. فلمَّا نَذِروا بهم، أنبَه بُندُويَه أبرويزَ مِن نومِه وقال له:

ـ «احتَل لنفسِك، فإنَّ القومَ قد أظَلُّوكَ».

فقال كسرى: «ما عندي حيلةٌ».

فقال بُندُويَه: «فإنّي سأحتالُ لك بأن أبذلَ نفسي دونك».

قال: «وكيف ذلكَ؟».

قال: «تدفع إليَّ بِزَّتك وزينتَكَ لأعلُوَ الدَّيرَ وتنجوَ أنتَ ومَن مَعَكَ مِن وراءِ الدَّيرِ، فإنّ القومَ إذا وصلوا إليَّ ورأوا هيئَتَك عَليَّ، اشتغلوا عَن غيري وطاولتُهم حتى تَفوتَهم».

ففعلوا ذلك وبادَرُوهم حتى توارَوا بالجَبَل. ثُمَّ وافاهم خَيلُ بَهرام وعليهم قائدٌ له يقال له: بهرام بن سياوَش. فاطّلع عليهم بُندُويَه من فوقِ الدَّيرِ وعليهِ بِزَّةُ أبرويزَ،

وَأَوهَمَهُ أنّه هو، وسَأَلَه أن يُنظِرَهُ إلى غَدٍ لِيَصِيرَ في يَدِهِ سِلماً، ويَصِيرَ بِهِ إلى بَهرام جوبين. فأمسكَ عنه وحَفِظ الدَّيرَ بالحَرَسِ ليلَتَهُ.

فلمّا أصبح اطّلعَ عليه في بِزَّتِه وحِليتِهِ وقال:

ـ «إنَّ عليَّ وعلىٰ أصحابي بقيَّةَ شُغلٍ من استعدادٍ لصلواتٍ وعباداتٍ، فَأَمهِلنا».

ولم يَزل يُدافع حتى مضى عامَّةُ النَّهارِ. وأمعنَ أبرويزُ وعلم أنّه قد فَاتهم. فَفَتَحَ البابَ حينئذٍ، وأعلَمَ بهرامَ بأمره. فانصرف به إلى جوبين فحبسه في يَدِ بهرام بن سياوش.

فأمّا بَهرام جوبين فإنَّه دخلَ المدائنَ، وجلس على سريرِ المُلكِ، وجَمعَ العُظَماء، فَخَطَبَهُم وذمَّ أبرويز، ودار بينهم كلامٌ. فكان كُلُّهم منصرفاً عنه إلاَّ أنَّ بهرامَ تَتوَّجَ وانقاد له النّاس خوفاً.

ثُمَّ إنَّ بهرامَ بنَ سِياوش واطَأَ بُندويه على الفتك بجوبين وظهر جوبين على ذلك فقتله، وأفلت بُندُويَه ولحق أذربيجان. وسار أبرويز حتّى أتىٰ أنطاكيةَ، وكاتب مَلِكَ الرُّوم عنها وراسَلَهُ بجماعةٍ مِمَّن كانَ معه، وَسَأَلَهُ نُصرتَه، فأجابه إلى ذلك وانساقت الأمورَ بالمقادير، إلى أن زوَّجه ابنَتَهُ مَريَمَ وحملها إليه، وبعث إليه بـ«تياذوس» أخيه ومعه ستّون ألفَ مقاتلٍ، عليهم رَجلٌ يقال لَه: سرجس يتولّى تدبيرَ أمرهم، ورجلٌ آخر يقال له: «الكمّي» ـ كان يُعدَلُ بألف رجلٍ ـ معظَّمٌ في الرُّوم، وسأله تَركَ الإتاوة الّتي كان آباؤه يسألونَها مُلوكَ الرُّوم، إذا هو مُلِّكَ. فاغتبط بهم أبرويَزُ، وأراحَهُم خمسةَ أيّام، ثُمَّ عَرَضَهُم وعَرَّف عليهم العُرفاءَ، وفي القوم تِياذوسُ، وسرجسُ، والكميُّ الّذي وصفناه، وسار بهم حتى نَزَلَ من أذربيجان في صحراء تُدعى الدَّنَق، فوافاهُ هناك بندويه ورجلٌ من إصبهبذي النّاحية ـ ويقال له: موسيل ـ في أربعين ألفَ مقاتلٍ وانفضَّ إليه النّاسُ بالخيل من إصبهانَ وخراسانَ وفارسَ، وانتهى إلى بَهرامَ مكانُه بصحراء الدَّنقِ، فشخص نحوَه من المدائنِ، فجَرَتْ بينَهما حربٌ شديدةٌ قُتِلَ فيها الكَمِيُّ الروميُّ بضربةٍ ضَرَبَهُ بِها بعضُ الفُرسِ على رأسِه، فَقَدَّ رأسَهُ ويَدَهُ، وعار فَرَسُه بنصفِ بَدَنِه الباقي إلى معركةِ أبرويزَ ومُعَسكرِه، فاستضحك أبرويز، وعظَّمَ ذلك على الرُّومِ حتّى كثر الكلامُ فيه، وعُوتِبَ أبرويزُ، وقيل له:

ـ «هذا جزاؤنا منك، يُقتل كَمِيُّنا وواحدُ عصرِه في طاعتِكَ، وبينَ يَدَيكَ، فتضحكُ؟»، فاعتذر بأن قال:

«إنّي واللّهِ ما ضحكتُ لِمَا تَكرهُونَ. ولقد شَقَّ عَليَّ أن فقدتُ مِثلَه أكثَرَ مِمَّا شقَّ عليكم، ولكنّي رأيتُكُم تستصغرون شأنَ بَهرام جوبين، وتُنكرون هَرَبي منه، فذكرتُ ذلك من قولكم الآنَ، وعلمتُ أنّكم بِرُؤيتِكم هذه الضَّربَةَ وأثَرَها على هذا الكَمِيِّ

تَعذرونَنِي وتَعلمون يقيناً أنَّ هَرَبي إنَّما كانَ من أمثال هؤلاءِ القومِ الَّذين هذا مبلغُ نكايَتِهُم في الأبطالِ».

ويُقال: إنّ أبرويز حاربَ بهرام منفرداً عن العسكرِ بأربعة عَشَرَ رجلاً منهم كُردِي أخو بهرام، وبندويه وبسطامُ حرباً شديدةً وَصَلَ فيها بعضُهم إلى بعض، والمجوسُ تحكي حكاياتٍ عظيمةً لا فائدةَ في ذكرها مع امتناعِها، وجُملتُها: أنَّ أبرويز استظهر استظهاراً أَيس معه بهرامُ جوبين، وعلم أنّه لا حيلةَ له فيه، فانحازَ عنهُ نحوَ خراسانَ، ثُمَّ صار إلى التُّركِ، وصار أبرويز إلى المدائن بعدَ أن فَرَّقَ في الجنودِ من الرُّوم أموالاً عظيمةً وصَرَفَهم إلى ملكِ الرُّوم.

وَلَبِثَ بهرامُ في التُّركِ مُكرَّماً عندَ المَلِكِ، حتّى احتال عليه أبرويزُ بتوجيه رجلٍ يقالُ له هُرمُز: إلى التُّرك بجوهرٍ نفيسٍ وغيرِه، حتّى احتال لخاتون امرأةِ المَلِكِ، ولاطَفَها بذلك الجوهر وغيرِه مِن الهَدَايَا حتَّى دَسَّت لِبهرامَ مَن قَتَلَهُ. فاغتَمَّ خاقانِ لِموتِهِ، وأرسَلَ إلى أختِه كُردِيَّةَ وامرأتِه يُعلِمها بلوغ الحادث ببهرام منه، ويسأل أن يتزوَّجها وطَلَّقَ امرأته خاتونَ بهذا السَّبَبِ، فأجابتهُ كُرديةُ جواباً لَيِّناً، وضمَّت مَن كان مع أخيها مِن المقاتلةِ إليها، وخرجت بهم من بِلادِ التُّركِ إلى حدودِ مملكة فارِسَ فأتبَعَهما مَلِكُ التُّرك أخاهُ بُطراً في اثنَي عَشَر ألفَ فارسٍ.

فيُقال: إنَّ كُرديةَ قاتَلَت، وقَتَلت بُطراً بِيَدِها ومَضَت لِوَجهِها، حتّى تلقَّتها خيولُ الفُرسِ من الحدودِ، وكَتَبت إلى أخيها كُردى، فأَخَذَ لها أماناً من أبرويزَ. فلمَا قَدِمت عليه اغتبطَ بِها، وتزوّج بها أبرويزُ.

ذِكرُ سوءِ سِيَاسَةٍ اتَّفق على أبرويز في جُندِه حتّى ظَهَرَ الرُّومُ عليه

لم يَزَلَ أبرويزُ يُلاطفُ مَلِكَ الرُّوم. الَّذِي كان نَصَرَهُ، ويُهادِيه، إلىٰ أن وَثَبَتِ الرُّومُ عليهِ في شَيءٍ أنكروهُ مِنهُ، فَقَتَلُوهُ، وملَّكُوا غيرَهُ. فبلغ ذلك أبرويزَ، فَامتَعَضَ، وأخذتهُ الحفيظةُ، فآوىٰ ابنَ المَلِكَ المقتولِ اللاّجِئ إليه، وتَوّجَهُ، ومَلَّكَهُ على الرّوم، وَوَجَّهَ معهُ جُنوداً كثيفةً مع شَهربَراز، فَدَوَّخَ بهم البِلادَ، ومَلَكَ صاحبُ كِسرىٰ بيتَ المقدس، وأخذ خشبة الصَّليبِ، وبعث بها إلى كِسرىٰ في أربعِ وعشرينَ سنَةً من مُلْكِه. ثُمَّ احتوىٰ على مِصرَ، والإسكندريةِ، وبلادِ نوبةَ، وبعثَ مَفاتيحَ مدينة الإسكندريةِ إلى كِسرىٰ في سَنَةِ ثمانٍ وعشرين من مُلكِه. وقصدَ قسطنطينيةَ، فأناخ على ضَفَّةِ الخليج القريبِ منها، وخيَّم هناك. فَأَمَرَ كِسرىٰ فخرَّبَ بلادَ الرُّوم، غضباً مِمّا انتهكوا من مَلِكِهِم وانتقاماً له، ولم يخضع لابنِ مَلِكِهم المقتولِ أَحَدٌ، ولا مَنَحُوا الطّاعَة، غير أنَّهم

قتلوا المَلِكَ الَّذِي ملَّكُوهُ بعدَ أبيه المسمّى فُوقاً لما ظَهَرَ من فُجورِه وسوءِ تدبيرِه، وملّكوا عليهم رجلاً يقال له: هِرَقل. فلمّا رأى هِرَقل عظيمَ ما فيه بلادُ الرُّومُ مِن تخريبِ جنودِ فارِسَ إيّاها، وقتلِهم مقاتِلَتَهُم، وسَبيهِم ذراريَّهم، واستباحتِهم أموالَهم؛ تَضرَّعَ إلى اللَّه، وأكثَرَ الدُّعاءَ والابتهالَ.

فيقال: إنّه رأى في مَنامِه رجلاً ضَخمَ الجُثَّة رفيعَ المجلسِ، عليه [بِزَّةٌ، قائماً في ناحيةٍ عنه]، فدخل عليهما داخلُ، فألقى ذلك الرَّجلَ عَن مجلسِهِ وقال لِهِرَقل:

ـ «إنّي قد سلَّمتُه في يَدِك».

فلم يقصُص رُؤياهُ تلك في يقظتِه على أحدٍ حتّى توالَت عليه أمثالُه. فرأى في بعضِ لَياليه: كَأَنَّ رجلاً دخل عليهما وبيدِه سلسلةٌ طويلةٌ، فألقاها في عُنُقِ صاحبِه، أعني صاحِبَ المجلس الرَّفيع عليه، ثمَّ دفعه إليه وقال له:

ـ «ها قد دفعتُ إليك كِسرىٰ برُمَّتِه».

فلمّا تتابعت هذه الأحلامُ، قصَّها على عظماءِ الرّوم وذوي العلم منهم، فأشارُوا عليه أن يَغزُوَهُ. فاستعدَّ هِرَقلُ، واستخلفَ ابنَه على مدينةِ قسطنطينية، وأخذَ عن الطَّريق الَّذي فيه شهريار صاحبُ كِسرى، وسارَ حتّى وغل في بلادِ إرمينية، ونزل نصيبين سنةً، وقد كان صاحب ذلك الثَّغر مِن قِبلِ كسرى، قد استُدعي لِموجَدةٍ كانت من كسرى عليه. وأمّا شهربَراز فقد كانت كُتُب كِسرى تَرِدُ عليه في الجثوم على الموضعِ الذي هُوَ به [وتَركِ البَراحِ منه]. ثم بَلغ كِسرىٰ تساقُط هِرَقلَ في جنودِه إلى نَصيبين. فوجَّه لمحاربةِ هِرَقل رجلاً من قُوّادِهِ يُقالُ لَهُ: راهزاذ في اثني عَشَرَ ألفَ رجلٍ من الأنجادِ، وأمرَهُ أن يُقيمُ بنِينوىٰ ـ وهي الّتي تُدعى الآنَ المَوصِل ـ على شاطئ دجلةً، ويَمنعَ الرّومَ أن يَجُوزوها.

وكان كِسرىٰ بلغه خبرُ هِرَقلَ، وأنَّه مُغِذٌّ، وهو يومئذٍ مُقيمٌ بدسكرةِ المَلِكِ، فنفذ راهزاذُ لأمرِ كِسرى، وعَسكَرَ حيثُ أمرَهُ. فقطع هِرَقلُ دِجلةَ في مَوضعَ آخرَ، إلى النَّاحية الّتي كان فيها جُندُ فارس. فأذكى راهزاذُ العيونَ عليهِ، فانصرفُوا إليه، فأخبروهُ أنَّه في سَبعينَ ألفَ مُقاتلٍ، فأيقنَ راهزاذُ ومن معهُ مِنَ الجُندِ، أنَّهم عاجزون عن مناهَضَتِه. فكتب إلى كِسرىٰ غيرَ مَرَّةٍ، دَهمَ هِرَقلَ إيّاه بِمَن لا طاقةَ لهُ ولِمَن معهُ بِهم، لكثرتِهم وحُسنِ عُدَّتِهم. كُلُّ ذلك يُجيبُهُ كِسرىٰ بأنَّهُ إن عَجَزَ عَنِ الروم فلن يَعجَزَ عن استقتالِهم وبذلِ دمائهم في طاعتِه.

فلمّا تَتابَعت على راهزاذَ جواباتُ كِسرى بذلك، عَبّى جُندَه وناهض الرّومَ بِهم. فقتلت الرّومُ راهزاذ وَسِتَّةَ آلافِ رجلٍ، وانهزمت بقيَّتُهُم وهَربُوا علىٰ وجوهِهم. وبلغ كِسرى قَتلُ الرُّومِ راهزاذَ وما نالَ هِرَقلُ مِنَ الظَّفرِ، فَهَدَّهُ ذلك، وانحازَ مِن دسكرةِ المَلِكِ

إلى المدائنِ، وتحصَّن بها لعجزه كان عن محاربة هِرَقلَ، وسار هِرَقلُ حتى كان قريباً من المَدائن. فلمَّا تساقط إلى كِسرى خَبَرُهُ واستعدَّ لِقِتَالِه انصرف إلى أرضِ الرُّوم. وكتب كِسرىٰ إلى قُوَّاد الجندِ الَّذِينَ انهزموا، يأمُرهم أن يَدُلُّوه على كُلِّ رجلٍ منهم ومِن أصحابِه، مِمَّن فَشِلَ في تلك الحَربِ ولم يُرابِط مركزَه فيها؛ فأمر بأن يُعاقَب بِحَسبِ ما استوجَبَ. فأحوَجَهُم بهذا الكتابِ إلى الخِلافِ عليه وطَلَبِ الحِيَلِ لِنجَاةِ أنفُسِهم منه. وكتب إلى شَهربَراز يأمره بالقُدوم عليه ويستعجله في ذلك، ويَصِفُ له ما نال هِرَقلُ منه ومن بِلادِه.

وقد حُكِي: أنَّ كسرى عرف امرأةً في فارِسَ لا تَلِدُ إلاّ الملوكَ الأبطالَ، فدعاها وقال:

ـ «إني أريد أن أبعثَ إلى الرّومِ جيشاً، وأستعملَ عليهم رجلاً من بنيك، فَأَشيري: على أيّهم أستعملُ؟».

فوصفت أولادَها فقالت:

ـ «هذا فرّخانُ أنفذُ من سَنانٍ، وهذا شهربَرازُ أحكم من كذا، وهذا فلان أروغُ مِن كذا».

فاستعمل شهربَرازَ. فَسارَ إلى الرُّوم، فظَهَر عليهم وهزمَهم وخَرَّبَ مدائنَهم. فلمّا ظهرت فارسُ على الرّومِ، جلس فرّخان يشربُ، فقال لأصحابه:

ـ «لقد رأيتُ كَأني جالسٌ على سَرير كِسرىٰ».

فبلغت كِسرىٰ، وكَتَبَ إلى شهربَراز:

ـ «إذا أتاك كتابي هذا، فابعث إليَّ برأسِ فرّخان».

فكتب إليه:

ـ «أيُّها الملكُ إنَّك لَن تَجِدَ مِثلَ فرّخانٍ، فإنَّ له نكايةً في العَدُوِّ وصوتاً، فلا تفعل».

فكتب إليه:

ـ «إنَّ في رجالِ فارِسَ خلفاً منه، فعجّل علَيَّ برأسه».

فراجعه، فغضب كِسرىٰ ولم يُجبه. وبعث بريداً إلى أهل فارِس:

ـ «إنّي قد نَزَعتُ عنكم شهربَراز، واستعملتُ عليكم فرّخان».

ثُمَّ دفع إلى البريد صحيفةً صغيرة وقال:

ـ «إذا وَلِيَ فَرُخان المُلكِ، وانقاد له أخوه، فَأَعطِهِ».

فلمّا قرأ شهربَرازُ الكتابَ قال:

- «سمعاً وطاعةً».

ونزل عن السرير، وجَلَسَ فرّخان، ودَفَعَ الصَّحيفَةَ إليهِ، فقال:

- «إيتوني بشهربَراز».

فقدّمه ليضرب عُنُقَه، فقال:

- «لا تَعجَل، حتّى أكتبَ وَصِيَّتي».

قال: «افعل!».

فدعا بِسَفَطٍ وأعطاهُ ثَلاثَ صَحائفَ، وقال:

- «كُل هذا راجعتُ فيك كسرى وأنتَ أَردتَ أن تقتلَني بكتابٍ واحدٍ!».

فَرَدَّ المُلكَ على أخيه.

فكتب شهربَراز إلى قيصر مَلِك الرّوم:

- «إنّ لي حاجةً لا تحملها البُرُدُ ولا تُبَلِّغُهَا الصُّحُفُ. فَالْقَني، ولا تَلقَني إلاّ في خمسينَ رُومِيّاً، فإنّي أيضاً ألقاكَ في خمسين فارِسيّاً».

فأقبل قيصَرُ في خمسمائةِ رُوميٍّ، وجعل يَضعُ العُيُونَ بين يَدَيهِ في الطّريقِ، وخافَ أن يكونَ قد مَكَرَ به حَتّى أتاه عيونُه أنّه: ليس معه إلاّ خمسونَ رجلاً. ثُمَّ بُسِطَ لَهُمَا، والتَقَيا في قُبَّةِ ديباجٍ ضُرِبَت لهما، واجتمعا ومع كُلِّ واحدٍ منهما سِكين ودَعَوا تَرجماناً بينَهما فقال شهربَراز:

- «إنَّ الَّذِينَ خَرَّبُوا مَدِينَتَك، وبَلَغُوا مِنكَ ومِن جندِك ما بَلَغُوا أنا وأخي بشَجاعَتِنا وكيدِنا، وإنَّ كِسرىٰ حَسَدَنَا، فأراد أن أقتُلَ أخي فأبَيت، ثُمَّ أمرَ أخي أن يقتُلَني. فقد خَلَعناهُ جميعاً، فنحن نقاتلُه مَعَكَ».

قال: «قد أصَبتُما وَوُفِّقتُما».

ثمَّ أشار أحدُهما إلى صاحبه: أنّ السِّرَّ إنّما يكونُ بين اثنين، فإذا جاوزَ اثنينِ فَشَا.

قال صاحِبُه: «أجل!».

فقاما جميعاً إلى التّرجمان بسِكّينِهما، فقتلاهُ! واتَّفقَا على قِتالِ كِسرىٰ.

فَمِمّا اتَّفَقَ في أيّامِ كِسرىٰ مِن الحَوادِثِ الَّتي تُستفادُ منها تجربةٌ ما كان مِن يَومِ ذي قارٍ وحربِ العرب والفُرسِ

وكان سبب ذلك قتل النُّعمان بن المنذر اللَّخمي، قَتَلَهُ كِسرىٰ لأسبابٍ نَذكُرُ

جُمَلَها إن شاءَ اللَّهُ: كان عديُّ بنُ زيدِ العِباديِّ وابنُه زيد بنِ عَدِيٍّ سببَ ولايةِ النُّعمانِ وسبَبَ هلاكِه جميعاً.

قتلُ النُّعمانِ بنِ المُنذرِ وأَسبابُه

وذلك أنَّ عَديّاً وأخَوَيهِ ـ وهُما: عمّارُ، وعمروُ، ويُعرَفُ عَمّارُ بـ«أُبَيٍّ»، وعمرٌو بـ«سُمَيٍّ» ـ كانوا في خدمةِ الأكاسِرة، وَلَهُم مِن جِهتِهم قطائعُ. وكان قابوس الأكبرُ عَمُّ النُّعمانِ وإخوتِه، بَعَثَ إلى كسرى أبرويزَ بعديّ بنِ زيدٍ وأخَوَيهِ، لِيكُونُوا في كُتّابه يُترجِمون له.

فلمّا ماتَ المُنذرُ بنُ المنذر تَرَكَ مِن أولادِه اثني عَشَرَ رجلاً، وهُمُ الأشاهب، سُمُّوا بذلك لِجمالِهم، وفيهم يقولُ الأعشى:

فَبَنُو المُنذِرِ الأَشاهِبُ بِالحيـ ـرَةِ يَمشُونَ غُدوةً كالسُّيُوفِ

فجعل المنذرُ ابنَهُ النُّعمانَ في حجرِ عَدِي، وجَعَلَ ابنَهُ الأسودَ في حجرِ رجلٍ يقال له: عَدِيُّ بنُ أوسِ بنِ مَرينا. وبنو مرينا قومٌ لهم شَرَفٌ وهم من لخمٍ، وبنو المنذِرِ الباقونَ، وهم عَشرةٌ، مستقلّونَ بأنفسهم.

وكان المنذرُ جَعَلَ على أمرِه كُلِّه، إياسَ بنَ قبيصةَ الطّائي، فكان في مكانِه أشهراً يُدبِّرُ أمرَ العربِ كُلِّه. وطَلَبَ كِسرىٰ مَن يُمَلِّكُهُ على العربِ، فدعا عديَّ بنَ زيد فقال له:

ـ «مَن بَقِيَ مِن بني المنذرِ، ومَا هُم، وهل فيهم خيرُ؟».

فقال: «بقيَّتُهم من وُلدِ هذا الميِّتِ ـ يعني المنذرَ بنَ المنذر ـ وهم رجالٌ نُجباءُ».

فكُتب إليهم فقدِموا عَليهِ، فأنزلَهم على عديِّ بنِ زيدٍ، فكان عَدِيُّ يُفَضِّلُ إخوةَ النُّعمانِ عليه في النُّزُلِ، ويُريهم أنَّه لا يَرجوهُ، ويخلو بهم رجلاً رجلاً، ويقول لهم:

ـ «إن سألكم المَلِكُ: أتكفونني العَرَب؟ فَقُولُوا: نكفيكَهم إلاّ النُّعمان».

وقال للنُّعمان:

ـ «إن سألَكَ المَلِكُ عَن إخوتِكَ، فقل: إن عجزتُ عنهم فإنّي عَن غيرِهِ أعجزُ».

وكان عديُّ بنُ أوسِ بنِ مَرينا داهيةً أريباً، فكان يُوَصّي الأسودَ بن المنذر ويقول لهُ:

ـ «قد عَرفتَ أنّي لك راجٍ، وأنَّ طلبتي ورَغبتي إليك أن تخالفَ عديَّ بنَ زيدٍ في ما يُشيرُ به عليك، فإنّه واللّه لا ينصح لك أبداً».

فلم يلتفت الأسودُ إلى قولِه. فلمّا أمَرَ كِسرى عَدِيَّ بنَ زيدٍ أن يُدخِلَهم عليه، جَعَلَ يُدخلُهم رجلاً رجلاً فيُكلِّمُه. فكان الملك كِسرىٰ يَرىٰ رجالاً قَلَّ ما رأى مِثلَهم.

فإذا سألهم:

ـ «هل تكفُونَني ما كنتم تَلونَ؟».

قالوا: «نكفيك العربَ إلا النُّعمانَ».

فلمّا دخل النّعمان عليه، رأى رجلاً دَميماً قصيراً أحمَرَ، فَكَلَّمَه، وقال:

ـ «أتستطيع أن تكفيني العَرَبَ؟».

قال: «نعم».

قال: «وكيف تصنعُ بإخوتِكَ؟».

قال: «أيّها الملك، إن عَجَزتُ عنهم، فَأَنَا عن غيرهم أعجَزُ».

فمَلّكَهُ، وكَساهُ، وألبَسَهُ تاجاً قيمتُهُ سِتُّونَ ألفَ دِرهم فيه اللُّؤلُؤ والذهبُ، فلمّا خرجَ وهو مَلِكٌ على العَربِ، قال عَدِيُّ بنُ أوسِ بنِ مَرِينا للأسودِ:

ـ «دونَكَ، فإنّك خالفتَ الرّأيَ».

ثمَّ إنَّ عديَّ بنَ زيدٍ صَنَعَ طعاماً في بيعةٍ، وأرسَلَ إلى ابن مَرينا أن: ائتِني معَ مَن أحببتَ، فإنَّ لي حاجةً. فأتاه في ناسٍ، فتغدَّوا في البيعة غَداءَهم المُعَدَّ، وَشَرِبوا. فقال عَدِيُّ بنُ زيدٍ لِعَديِّ بنِ أوسٍ:

ـ «يا عَدِيُّ! إنّ أحقَّ مَن عَرَفَ الحقَّ ثُمَّ لم يَلُم عليه، مَن كان مِثْلَكَ. إنّي عَرَفتُ أنَّ صاحِبَكَ الأسودَ بنِ المنذرِ كان أحبَّ إليك أن يَملِكَ مِن صاحبي النُّعمان، فلا تلُمني على شيءٍ كنتَ على مثلِه، وأنا أحِبُّ ألاّ تحقِدَ عَلَيَّ شيئاً لو قَدَرتَ عليه رَكِبْتَهُ، وأحبُّ أن تُعطِيَنِي من نفسِكَ ما أُعطيك من نفسي، فإنّ نَصيبي مِن هذا الأمر ليس بأوفَرَ من نَصِيبِكَ».

فقام عديُّ بنُ زيدٍ إلى البيعةِ، فَحَلَفَ ألاّ يهجوَهُ، ولا يَبغيَهُ غائلَةً أبداً، ولا يَزوِي عنه خيراً، فلمّا فرغ عَدِيُّ بنُ زيدٍ، قام ابنُ مَرينا فحلفَ على مِثلِ يَمينِه ألاّ يَهْجُوهُ أبداً، ويبغيَه الغوائل ما بَقِيَ.

وخرج النّعمان حتّى نَزَلَ منزلَه بالحيرةِ، وافترق العَديّانِ على وحشة كما ذكرتُ.

حيلةٌ لِعَدِيٍّ بنِ أَوسٍ علىٰ عَديٍّ بن زَيدٍ

فقال عَدِيُّ بنُ مَرينا للأسود:

ـ «وإذا لم تظفر، فلا تعجزُ أن تطلبَ بثأرك مِن هذا المعدّى الّذي عَمِلَ بك ما عَمِلَ. فقد كنتُ أخبرك أنَّ مَعَدّاً لا يَنامُ مكرها، وأمرتُ أن تخالِفَهُ فَعَصيتني».

قال: «فما تريدُ؟».

قال: «أريدُ أنّ لا تأتيكَ فائدةُ من مائِكَ وأرضِك إلاّ عرضتَها عَلَيَّ».

فَفَعَلَ. وكان ابنُ مرينا كثيرَ المالِ واسعَ الضّيعَةِ. لم يَمُرَّ به يومُ إلاّ بَعَثَ فيه إلى النُّعمان هديَّةً أو تُحفةً. فلمّا توالى ذلك وكَثُرَ عند النّعمان هدايا ابن مَرينا صار من أكرم النّاسِ عَليهِ، وكانَ لا يقضي في مُلْكِهِ شيئاً إلاّ بأمرِ ابن مرينا، وكانَ إذا ذُكِرَ عَدِيُّ بنُ زيدٍ عِندَهُ أحسنَ ابنُ مرينا الثَّناءَ عليه، وذكر فَضلَهُ وقال:

ـ «إنّه لا يصلح المَعَدّيُّ إلاّ أن يكون فيه مَكرٌ وخَديعَةٌ».

فلمّا رأى من يُطيفُ بالنُّعمان منزلةَ ابنِ مرينا عنده، لزموه وتابعوه، فَجَعَلَ يقول لمن يثِقُ به من أصحابه:

ـ «إذا رأيتموني أذكرُ عديَّ بن زيدٍ عند المَلِكِ بخير، فَقُولُوا: إنَّه لكما يقول، ولكنَّهُ لا يَسلَمُ عليه أحدٌ، وإنَّه يقول: إنَّ المَلِكَ ـ يعني النُّعمانَ ـ إنَّما هو عاملُهُ، وإنَّه هو الَّذي ولاّه ما ولاّهُ».

ولم يزالوا بهذا وأشباهِهِ، حتّى أَضغَنُوهُ عليه. ثُمَّ إنَّهم كتبوا كتاباً عن عَدِيٍّ إلى قَهرَمانٍ كان له، ودسُّوا له حتّى أُخِذَ الكتابُ، وأُتِيَ به النُّعمانِ، فَقَرَأَهُ وأغضبَهُ.

فأرسَلَ إلى عديّ بن زيدٍ: «عَزَمْتُ عَلَيك إلاّ زُرتَني، فإنّي قد اشتَقتُ إليك»، وهو عِندَ كِسرى.

فاستأذَنَ كِسرىٰ، فأذِنَ لَهُ. فلمّا أتاه، لم ينظُر إليه، حتى حُبِسَ في محبسٍ لا يدخلُ عليهِ فيهِ أحدٌ. فَجَعَلَ عديُّ بن زيدٍ يَقول الشِّعر، ويُبلغُهُ النُّعمان، وكان أوَّلَ ما قاله في السِّجنِ:

ليتَ شِعري عَنِ الهُمام وَيَأتِيـ	ـكَ بِخُبْرِ الأَنباءِ عَطفُ السُّؤَالِ

وقال أشعاراً كثيرةً، وكانَ كُلَّما قال عديُّ من الشِّعرِ شيئاً بلغ النُّعمانَ وسَمِعَه، فَنَدِمَ على حَبسِه إيّاه، وعَلِمَ أنَّه كِيدَ فيه. فكان يرسِلُ إليه، ويَعِدُهُ ويُمَنِّيه، ويَفرَقُ أن يُرْسِلَهُ فيبغِيَهُ الغوائلَ. فلمّا طال سِجنُ عَدِيٍّ وأعياهُ التَّضَرُّعُ إلى النُّعمانِ بالأشعارِ الّتي يستَعطِفُه فيها مَرَّةً ويُخبِرُه فيها بِمَا كيدَ به مَرَّةً، ومَرَّة يُذَكِّره بالموتِ، ويُخبِرُهُ بِهلاكِ مَن هَلَكَ قَبلَهُ، كتب إلى أخيه أُبيٍّ وهو معَ كِسرى:

أَبـلِـغْ أُبَـيَّـا عَـلـىٰ نَـأيِـه	فَهَل يَنفعُ المَرءَ مٰا قَد عَلِم
بِـأَنَّ أخٰـاكَ شَـقـيـقَ الـفـؤا	دِ كُـنـتَ بـه واثِـقـاً مـا سَـلِـم
لَـدىٰ مَـلِـكٍ مُـوثَـقٌ في الحـديـ	ـد إمَّـا بـحـقٍّ وإمّـا ظُـلِـم
فـلا أعـرِفَـنـكَ كـذاتِ الـغُـلا	م مٰا لَـم تَـجِد عـارِماً تَـعتـرِم
فـأرضَـكَ أرضَـكَ إن تـأتِـنـا	تَـنَـم نَـومَـةً لـيـس فـيـهـا حُـلُـم

فكتب إليه أخوه:

إن يَكُنْ خانَكَ الزَّمانُ فَلاعْا ... جزُ قوم وَلاَ أَلفُ ضعيفُ
ويَميـنُ الإلٰهِ لَو أنّ جَأْوا ... ءَ طَحُوناً تضيءُ فيها السُّيوفُ
ذاتَ رِزٍّ مُجتابةً غَمرَةَ المَو ... تِ صَحيحٌ سِربالُها مَكفُوفُ
كنتُ في حَميِها لَجِئتُك أسعىٰ ... فاعلَمَن لو سَمِعتُ إذ تَسْتَضيفُ
إن تَفُتني واللَّهِ ألفَ جَزوعاً ... لا يُعَفِّيكَ ما يصوتُ الخريفُ
فلعمري لئن جَزعتُ عليه ... لَجَزُوعٌ على الصَّدِيقِ أسوفُ
وَلَعَمْري لَئن مَلَكتُ عَزائي ... لقليلُ شَرواكَ في ما أطوفُ

كِسرىٰ يكتب في إرسالِ عَديٍّ وعَديُّ يُقتَلُ

ويقال: إنَّ عَديًا لمّا كاتب أُبَيًا، قام أُبَيُّ، فدخَلَ على كسرىٰ، فكلَّمه، فكتب له وبعث مَعَهُ رجلاً، وأذِنَ له في المسير لاستنقاذ أخيه. فكتب خليفة النّعمان المُقيم بباب الملكِ إليه أنَّه: قد كُتِبَ إليك في أمر عديٍّ. فأتاه أعداء عَدِيٍّ من غسّان، فأشاروا على النّعمان بقتل عديٍّ.

وقالوا: «افرُغ منه السّاعَةَ».

فأبَىٰ عليهم، وجاءَ الرَّجل، وكان تقدَّم أَخو عديٍّ إليه فَرَشاهُ، وأَمَرهُ أن يَبدأ بِعَديٍّ. فدخَلَ عليه وهو محبوسٌ وكان قال له:

ـ «ابدأ بالدُّخول إليه في الحَبس فانظر ما يأمرك به».

فلمَّا دَخَلَ الرَّسولُ على عَدِيٍّ قال له:

ـ «إنّي قد جئتُكَ بإرسالِك فما عندك؟».

قال: «عندي الَّذي تُحِبُّ».

وَوَعَدَهُ، وسألَهُ ألاّ يخرجَ مِن عِنده، وقال:

ـ «أعطني الكتابَ حتى أرسِلَ به أنا، فإنّك إن خرجتَ مِن عندي، قُتِلَتُ».

فقال الرَّسول: «لا أستطيع إلاّ أن آتِيَ النُّعمانَ بالكتابِ فأوصِلَهُ بنفسي إليه».

فانطلق مُخبِرٌ، فأَتى النُّعمانَ، فقال:

ـ «إنَّ رسولَ كسرى قد دَخَلَ على عديٍّ وهو ذاهبُ به، وإن فَعَلَ لم يَستَبقِ مِنّا أحداً، ولم تَنجُ أنتَ ولا غيرُك».

فبعث إليه النّعمان بأعدائِهِ، فَغَمُّوه حَتّى مَاتَ، ثُمَّ دَفَنُوهُ.

ودخل الرّسول على النّعمانِ بالكتابِ.

فقال: «نَعَم وكرامةً وسمعاً وطاعةً».

وبعث إلى الرّسولِ بأربعة آلافِ مِثقالِ ذهباً، وجاريةٍ، وقال له:

ـ «إذا أصبحتَ فادخل عليه وأخرِجه أنتَ بنفسِك».

فلمّا أصبح رَكبَ، فَدَخَلَ السِّجنَ، فقال له الحرس:

ـ «إنّه قد ماتَ منذ أيّام، فلم نجترِئ على أن نُخبِرَ المَلِكَ النُّعمانَ فَرَقاً مِنهُ، لِعلمِنا بكراهِيَتِه لذلك».

فرجع الرَّسول إلى النّعمان فقال:

ـ «إنّي كنتُ بدأت به، فدخلتُ إليه وهو حَيٌّ».

فقال النعمان: «يَبعثُكَ الملكُ إليَّ فتدخُلُ إليهِ قَبلي! كذبتَ ولكنّكَ أردتَ الرَّشوَةَ والخبث».

وتهدَّدَه. ثُمَّ إنّه استدعاهُ بعدَ ذلك، وزادَهُ جائزةً وكسوةً، وأكرَمَهُ واستوثق منه أن لا يُخبِرَ الملك، إلاّ أنّه قد مات قَبل أن يَقدمَ عَليهِ. فَرَجعَ الرَّسولُ إلى كسرىٰ، فقال:

ـ «إنّه مات قَبلَ أن أدخُلَ عليه».

زَيدُ بنُ عَديٍّ يَخلفُ أباهُ عند كِسرى

ونَدِمَ النُّعمان على قتلِ عديٍّ ندامةً شديدةً، واجترأ أعداءُ عديٍّ على النُّعمان، وهابَهم النُّعمانُ هيبةً شديدةً، فخرج النّعمان في بعضِ صيدِه ذاتَ يومٍ فلقي ابناً لعديٍّ يُقالُ له: زيدٌ. فلمّا رآه عَرَفَ شَبَهَهُ، فقال:

ـ «من أنت؟».

فقال: «أنَا زيدُ بنُ عديٍّ بن زيدٍ».

فكلّمه، فإذا غلامُ ظريفُ، فَفَرِحَ بِه فرحاً شديداً، وقَرَّبَهُ، واعتذر إليه من أمرِ أبيه، ثُمّ جهَّزَهُ وكَتَبَ إلى كِسْرَىٰ:

«إنَّ عديّاً كان مِمَّن أُعِينَ به المَلِكُ في نُصحِه ولُبِّه، فأصابَه ما لا بُدَّ منه وانقضت مُدَّتُه وانقطعَ أجَلُه، ولم يُصَب به أحدٌ أشدَّ من مصيبتي، وأمّا المَلِكُ فلم يَكُن ليفقِدَ رجلاً مِن عبيدِه إلاّ جعل اللّهُ له منه خلفاً لما عظّم اللّهُ من مُلكِه وشأنه، وقد أدرك له ابنُ ليس دونه وقد سَرَّحتُه إلى المَلِكِ. فإن رأىٰ أن يجعَلَه مكانَ أبيه ويُصرفَ عَمَّهُ إلى عملٍ آخَرَ فَعَلَ».

فكان هو الّذي يلي ما يكتب به إلى أرضِ العرب وخاصّةِ المَلِكِ، وكانت لهُ من العَرَبِ وظيفةُ في كُلِّ سنةٍ من الأفراسِ المِهارة، ومن الكَمأَةِ الرّطِبة واليابسةِ، والأَقِطِ، والأُدُمِ، وسائرِ تجاراتِ العرب. وكذلك كان عديُّ بن زيدٍ له هذه الرُّسومُ.

فلمّا وقَع عند الملك هذا الموقع سألَ كِسرىٰ عن النُّعمان، فأحسنَ الثَّنَاءَ عَلَيهِ، فمكثَ سنواتٍ بمنزلة أبيه، وأُعجِبَ به كِسرىٰ وكان يُكْثِرُ الدُّخول إليه.

فُرصةٌ انتهَزَها زَيدٌ

فلمّا كان في بعضِ دخلاته على كسرى جَرىٰ حديثُ النِّساءِ، وطَلَبَ المَلِكُ امرأةً لها صفاتٌ ونعوتٌ مكتوبةٌ عند المُلوكِ. وكان مِن رسم الملوك أن يُطلَبَ لهم جاريةٌ تَجمعُ تلكَ النّعوتَ في ممالكهم، فكُتبت تلك الصِّفةُ. فدخل زيدٌ على كِسرىٰ فكلَّمه في ما دَخَلَ فيه، ثمَّ قال:

ـ «إنِّي رأيتُ المَلِكَ كَتَبَ في نسوة يُطلَبنَ له، فقرأتُ الصِّفَةَ، وأنَا خبيرٌ بآلِ المنذر، وعند عبدك النُّعمانِ مِن بَناتِهِ وبناتِ عَمِّه وأهلِه أكثَرُ مِن عشرين امرأةً على هذه الصِّفَةِ».

قال: «فتكتب فيهنَّ».

فقال: «أيّها المَلِك، إنَّ شرَّ شيءٍ في العربِ، وفي النُّعمان أنَّهم يتكرَّمون ـ زعموا في أنفسهم ـ عن العَجَم. فأنا أكرهُ أن يُغَيِّبَهُنَّ، وإن قدمتُ أنا عليه على معرفتي، لم يقدِر على تَغييبِهنَّ، فابعَثني وابعث معي رجلاً يَفقَهُ العربيّةَ».

فبعث معه رجلاً جَلداً حصيفاً، فخرج به زيدٌ، فَجَعَلَ يُكرِم ذلك الرَّجلَ ويُلطِفُه حتّى بلغ الحيرةَ. فلمّا دَخَلَ عليه، أعظَمَ المَلِكَ وقال:

ـ «إنّه قد احتاج إلى نساءٍ لأهلِه وولدِه، وأراد كرامتَكَ وَبَعَثَ إليك».

فقال: «وما هؤلاءِ النِّسوةُ؟».

فقال: «هذه صِفَتُهنَّ قد جِئنا بها».

صِفة جارية أهداها المنذر الأكبر إلى أنوشِروانِ

وكانت الصِّفَةَ أنّ المنذِرَ الأكبرَ أهدى إلى أنوشروانَ جاريةً كان أصابَها لمّا أغار على الحارث الأكبر الغَسّانيِّ ابن أبي شَمِرٍ، فكتب إلى أنوشروان يَصِفُهَا لَهُ:

«هي معتدلةُ الخَلقِ، نَقيَّةُ اللَّونِ، والثَّغرِ، بيضاءُ، قَمراءُ، وطفاءُ، دَعجاءُ، حَوراءُ، عيناءُ، قَنواءُ، شَمّاءُ، زجّاءُ، برجاءُ، أسيلةُ الخَدّ [شَهيّة المُقَبَّلِ] جثلةُ الشَّعرِ، عظيمةُ الهامةِ، بعيدةُ مَهوَى القُرطِ، عَيطاءُ، عريضةِ الصَّدرِ، كاعِبُ الثَّدي، ضَخمةُ مُشاشَةِ المَنكِبِ والعَضُدِ، حسنةُ المِعصَم، لطيفةُ الكَفِّ، سَبطةُ البَنانِ، لطيفةُ طَيِّ البطنِ، خميصةُ الخَصرِ، غَرثَى الوِشَاحِ، رَادحُ القُبُلِ، رابيةُ الكَفَلِ، مُفْعَمةُ السّاقِ، لفّاءُ الفَخِذينِ، رَيّا الرَّوادِفِ، ضَخمَةُ المَأكَمتين، عَظيمةُ الرُّكبةِ، مُشبَعَةُ الخلخالِ، لطيفةُ

الكَعبِ والقَدَم، قَطوفُ المَشي، مِكسَالُ الضُحَى، بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ، شَموعٌ لِلسَّيِّدِ، ليست بخَنساءَ ولا سَفعاءَ ذليلةُ الأَنفَ، عزيزة النَّفسِ، لم تُغذَ في بؤسٍ، حَيِيَّةٌ، وزَينَةٌ، حَليمةٌ، ركينةٌ، كريمةُ الخالِ، تقتصِرُ بِنَسَبِ أبيها دونَ فَصيلَتِها، وبفصيلتِها دونَ جماعِ قبيلتِها، قد أَحكَمَتها التّجاربُ في الأدب، فرأيُها رأيُ أهلِ الشَّرفِ، وعَمَلُها عَمَلِ أهلِ الحَاجَةِ، صنّاعُ الكَفَّينِ، قطيعةُ اللِّسانِ، رَهوَةُ الصَّوتِ، تَزينُ البَيتَ وتشينُ العدوَّ، إن أَرَدتَها اشتهتْ، وإن تَرَكتَها انتهتْ، تحملِقُ عيناها، وتَحمَرُ وجنتاها، وتُذَبذِبُ شفتاها وَتُبَادِرُكَ الوَثبَةَ».

فقبلها أنوشروان، وأمر بإثبات هذه الصِّفة في ديوانِه، فلم يزالوا يتوارثونَها، حتى أفضى ذلك إلى كِسرىٰ بن هرمز.

فقرأ عليه زيدُ هذه الصِّفَة، فشقَّ عليه، فقال لزيدٍ ولِلرَّسُولِ:

ـ «أمٰا في عِينِ السَّوادِ وفارِسَ ما تبلغون بِهِ حاجتكم!».

فقال الرّسول لِزَيدٍ: «ما العِين؟».

فقال: «البَقَرُ».

فقال زيدٌ للنّعمان «إنّما أراد كرامتَك، ولو عَلِمَ أنَّه يَشقُّ عليكَ لم يكتب به إليكَ».

فأنزلهما يومين، ثم كَتَبَ إلى كسرى: «إنّ الّذي طلب المَلِكُ ليس عندي».

وقال لزيد: «اعذرني عندَهُ».

فلمّا رجعا إلى كسرى، قال زيدُ للرَّسولِ الّذي جاءَ معه:

ـ «أصدُقِ المَلِكَ الّذي سَمِعتَ منه، فإنِّي سأحدّثُه بِحَدِيثِك، ولا أُخٰالِفُكَ فيه».

فلمّا دخَلاَ على كِسرىٰ قال زيدُ: «هذا كتابُه». فقرأه عليه.

فقال كسرى: «فأين ما كنتَ خبَّرتني بِهِ؟».

فقال: «قد كنتُ أخبرتُك بضَنِّهِم بنِسائهم على غيرِهم، وإنّ ذلك مِن شقائهم: اختيارهم الجوعَ والعُرَى على الشَّبعِ والرِّياشِ، واختيارهم السُّمومَ والرّياحَ علىٰ طيب أرضِك هذه، حتّىٰ إنّهم لَيسمُّونَها السِّجنَ، فَسَل هذا الرّسولَ معي عن الّذي قال، فإنّي أكرَهُ أن أحكِيَ لِلمَلِك قَولَهُ أو أَرُدَّ عليه ألفاظَهُ».

فقال للرَّسول: «ما قال؟».

قال: «إنّه قال ـ أيّها المَلِك ـ: أما في بقر السَّواد ما يكفيهِ حتّى يطلبَ ما عندَنا؟».

فَعُرِفَ الغَضَبُ في وَجهِهِ، وَوَقع في قلبِه منه ما وَقَعَ، ولكنّه قالَ:

ـ «ربَّ عبدٍ قد قال هذا، فصار أمرُه إلى التَّبابِ».

كِسرىٰ يَدعُو النُّعمانَ وهو يَحملُ السِّلاحَ

وشاع هذا الكلامُ، فَبَلَغَ النّعمانَ وسكتَ كسرى على ذلك أشهراً، وجَعَلَ النُّعمانُ يستعِدُّ ويتوقَّعُ حتّى أتاهُ كِتابَهُ أن:

ـ «أقبِل، فإنَّ لِلمَلِكِ إليكَ حاجةً».

فانطلق حين أتاه كتابُه، فَحَمَلَ سِلاحَهُ وما قَوِيَ عليه، ثُمَّ لَحِقَ بِجَبَلَي طَيِّىء، وكانت عِندَهُ فرعةُ بنتُ سعدِ بن حارثَةَ بنِ لأم وقد ولَدَت له رجلاً وكانت عنده أيضاً زينب بنتُ أوسِ بنِ حارِثَةَ. فأراد النُّعمان طيّئاً علىٰ أن يُدخلوهُ ويَمنَعُوهُ، فأبَوا ذلك وقالوا:

ـ «لولا صِهرُك لقاتلناكَ، فإنَّه لا حاجة لنا في معاداةِ كسرىٰ».

فأقبلَ ليس أحدٌ من النّاسِ يَقبَلُهُ حتّى نزلَ بذي قارٍ، في بني شيبانَ سِرّاً، فلَقِيَ هانِئَ بنَ قبيصةَ بنِ هانئ بنِ مسعود، وكان سيِّداً منيعاً، وكان كسرى قد أطعم قَيسَ بنَ مسعود الأُبُلَّةَ فَكَرِهَ النّعمانُ لذلك أن يدفعَ إلَيهِ أهلَهُ، وعَلِمَ أنَّ هانئاً مانِعُهُ مِمّا يمنعُ مِنه نفسَهُ، فأودَعَهُ سِلاحَهُ، وتوجَّه بنفسِهِ إلى كِسرىٰ، فلَقِيَ زيدَ بنَ عديٍّ على قنطرةِ ساباط.

فقال: «أُنجُ نُعَيمُ!»

فقال: «أنتَ يا زيدُ فعلتَ هذا، أما واللّهِ لئن انفلَتُّ لأفعَلَنَّ بك ولأصنَعَنَّ».

فقال له زيدٌ: «امضِ نُعَيمُ! فقد ـ واللّه ـ وَضَعتُ لَكَ عنده أخيّةً لا يقلعُها المُهْر الأرِنُ».

فلمّا بلغ كسرى أنّه بالبابِ، بعثَ إليه، فقيَّدَهُ، وأنفذه إلى خانقين، فلم يَزَل في السِّجن حتّى وَقَعَ الطّاعونُ، فماتَ فيه، والنّاسُ يظنُّونَ أنَّهُ ماتَ بساباط، لبيتٍ قاله الأعشى. والصَّحيح ما قُلناه.

إياسٌ وما أَدَّىٰ إلىٰ يوم ذي قارٍ

وأمر كسرى إياسَ بنَ قبيصةَ الطّائيَ أن يضمَّ ما كان النُّعمان ينظر فيه، ويجمع مالَه ويبعث به إليه. فبعثَ إياس إلى هانئ أن:

ـ «أرسِل ما استودَعَك النُّعمان من السِّلاحِ وغيرِهِ».

وكان ثمانمائةِ درعٍ. فأبى هانئ أن يُسلِّمَ خُفارتَهُ.

فلمّا مَنَعَها هانئ غَضبَ كِسرىٰ، وأظهَرَ أنّه يستأصِلُ بَكر بنَ وائلٍ وعندَه يومئذٍ النّعمانُ بنُ زُرعةَ التَّغلبي ـ وهو يُحِبُّ هلاكَ بكرِ بنِ وائلٍ ـ فقال لكسرى:

ـ «يا خيرَ المُلوكِ، أدُلُّكَ على غِرَّةِ بكرِ بن وائل؟».

قال: «نَعَم».

قال: «أمهلها حتّى تَقِيظَ، فإنَّهم يجتمعون إلى مَآلِهم يُقالُ له: ذو قار، فيتساقطون عليه تَساقُطَ الفَراشِ في النّار، فتأخذهم كشف شئت، وأنا أكفيكَهُم».

فَتُرجِمَ له، فأقَرَّهُم، حتّى إذا قاظُوا جاءَت بكرُ بن وائل، فنزلت، حِنوَ ذي قارٍ، وهو على ليلةٍ مِن ذي قار. فأرسل إليهم كِسرى النعمان بنَ زُرعةَ أن: اختاروا واحداً من ثلاث خصالٍ. فنزل النُّعمان على هانئ وقال:

ـ «أنَا رسولُ المَلِكِ إليكم، أخَيِّرَكم في ثلاثِ خِصالٍ: إمّا أن تُعطُوا بِأيديكم فيحكُمَ المَلِكُ فيكم بما شاءَ، وإمّا أن تَدَعُوا الدّيارَ، وإمّا أن تأذَنوا بحربٍ».

فتآمروا، فولَّوا أمورَهُم حنظَلَة بن ثعلبَة بن سيّارِ العَجَلي، وكانوا يتيمَّنون به، فقال:

ـ «لا أرى إلاّ القتالَ، لأنَّكم إن أعطيتُم بأيديكم، قُتِلتُم، وسُبِيَت ذَراريكم، وإن هَرَبْتُمْ قَتَلكُمُ العطَشُ، وتلقَاكم تميمٌ فَتُهلِكُكُم، فآذِنُوا المَلِكَ بحربٍ».

فبعث المَلِكُ كسرىٰ إلى إياسٍ، وإلى الهامُرزِ التُّستَري، وكان مَسلَحُهُ بالقُطقُطانيّة وإلى جَلابزين وكان مَسلَحُهُ ببارقٍ. وكتب إلىٰ قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجَدَّين ـ وكان كِسرىٰ استعمَلَهُ على طَفِّ سَفوان ـ أن يُوافوا إياساً، فإذا اجتمعوا، فإياسُ على النّاس. وجاءت الفرسُ ومَعَها الجنودُ والفيولُ عليها الأساورة، وقد بُعث النّبيُّ ـ ﷺ ـ.

فقال ـ عليه السلام ـ:

ـ «أليومَ انتَصَفَتِ العَرَبُ مِنَ العَجَمِ».

فَحُفِظَ ذلك اليَومُ، فإذا هُوَ يومُ الوقعةِ.

رأيٌ جيّدٌ رَآهُ قيسُ بنُ مَسعُودٍ لِهانِئٍ

لَمّا دَنت جُيوشُ الفُرسِ بِمَن معهم انسَلَّ قيس بن مسعود ليلاً، فأتى هانئاً فقال:

ـ «أعطِ قومَكَ سِلاحَ النُّعمان فَيَقووا، فإن هلكوا كان تَبَعاً لنفوسهم وكنتَ قد أَخذتَ بالحَزمِ، وإن ظَفِروا ردُّوه عليك».

ففعل، وقسم الدُّروع والسِّلاح في ذَوِي القُوى والجَلَدِ مِن قَومِهِ، فلمَا دَنا الجمعُ مِن بكرِ بن وائلٍ، قال لهم هانئٌ:

ـ «يا معشر بكر، إنّه لا طاقَةَ لكم بجنودِ كِسرىٰ ومَن معهم من العلاب، فاركَبُوا الفَلاةَ».

فتسارع النّاسُ إلى ذلك، فوثب حنظلةُ بنُ ثعلبةُ بن سيّار. فقال:

ـ «إنّما أراد نجاتَنا، فلم يزد على أن ألقانا في الهَلَكةِ».

فَرَدَّ النَّاسَ، وقَطَعَ وضُنَ الهَوادِجِ، لَئِلاَ تستطيع بَكرٌ أن تَسوقَ نِساءَها إن هَرَبُوا، فَسُمِّيَ: «مُقطِّعَ الوُضُنِ».

فضَرَبَ حنظلةُ على نفسِه قُبَّةً ببطحاءِ ذي قارٍ، وآلى: لا يَفِرّ حَتَّى تَفِرَّ القُبَّةُ. فمضى من مضى من النّاسِ، ورجَعَ أكثرهم، واستُقرى ماءٌ لِنِصفِ شهرٍ. فَأَتتهم العَجَمُ، فقاتلتهم بالحِنوِ، فجزِعَتِ العجَمُ مِنَ العطشِ، ولم تقم لمحاصَرَتِهم فهربت إلى الجُبابات فتبعتهمُ بَكرُ وعِجلٌ أوائلُ بكرٍ، فتقدَّمَت عجلٌ، وأبلت يَومئذٍ بلاءً حسناً، واضطمَّتَ عليهم جنودُ العجم، فقال النّاسُ: هَلَكَت عجلٌ. ثمَّ حملت بكرُ، فوجدت عِجلاً ثابتةً تُقاتل، وامرأةٌ تقول:

إن يظفَروا يُجوِّزوا فينا الغُرَل ... إيـهـاً فـداءً لَـكُـم بَـنـي عِـجـل

وتقول أيضاً:

إن تَـهـزِمـوا نُـعـانِـقْ ... ونَـفـرِشِ الـنَّـمـارِق
أو تَـهـرُبـوا نُـفـارِق ... فِـراقَ غَـيـرِ وامِـق

فقاتلوهم بالجبابات يوماً، فعطشَ العجمُ، فمالوا إلى بطحاءِ ذي قارٍ.

فأرسلت إيادُ إلى بكرٍ سِرّاً ـ وكانوا مع إياسٍ عَوناً على بكرٍ:

ـ «أيُّ الأمرين أعجب إليكم: أن نَطيرَ تحتَ ليلتِنا فنذهبَ، أو نُقيمَ، ونَفِرَّ حينَ تتلاقون؟».

قالوا: «بل تُقيمون، فإذا التقى القومُ انهَزَمتُم بهم».

فصبَّحتهم بكرُ بن وائلٍ والظُّعُنُ واقفةٌ يذمُرن الرِّجالَ على القتلِ. فقال: يزيدُ بنُ حمارِ السّكوني وكان حليفاً لبني شيبان:

ـ «يا بني شيبان، أطيعوني واكمُنوا لهم كميناً».

ففعلوا، فكمنُوا في مَكانٍ مِن ذي قارٍ يُسمّى إلى اليوم «الخَبءَ». فاجتلدُوا على ميمنةِ إياس بن قبيصةَ وفيها الهامُرزُ، وعلى ميسرته وفيها الجَلابزينُ، وعلى ميمنةِ هانئ بن قبيصةَ رئيسِ بكرٍ يَزيدُ بنُ مُسْهِر الشّيباني، وعلى ميسرتِه حنظَلَةُ بنُ ثعلبة بنِ سيّار العجلي وحنظلةُ يرتجزُ ويقول:

قـد شـاع أشـيـاعُـكُـمُ فَـجِـدُّوا ... مـا عِـلَّـتـي وأنـا شَـيـخٌ جَـلـد
والـقـوسُ فـيـهـا وَتَـرٌ عَـرُدٌّ ... مِـثـلَ ذِراعِ الـبَـكـرِ أو أَشَـدُّ

ثُمَّ صَيَّروا الأمرَ بعد هانئ إلى حنظلةَ. فمالَ إلى ماريةَ ابنتِه وهي أُمُّ عشرةِ نفر،

فَقَطَعَ وَضينَها، فوقعَت على الأرضِ، وقَطعَ وُضُنَ النِّساءِ، فَوَقَعنَ على الأرضِ. ونادَت بنتُ القرينِ الشَّيبانية حينَ وقعتِ النِّساءُ إلى الأرض.

وَيهاً بني شيبان صَفّاً بَعدَ صَفّ إن تُهزَمُوا يُصَبِّغُوا فينا القُلَف

فَقَطع سبعمائةٍ من بني شيبانَ أيديَ أقبيتِهم مِن قبل مناكبهم، لتخفَّ أيديهم بالضَّربِ، فجالَدُوهم، ونادى الهامُرزُ لمَّا رأى جِدَّ القومِ وثباتَهم للحرب وصَبرَهم للموتِ:

ـ «مَرْد وَمَرْد!»

فقال بُردُ بن حارثةَ اليشكري: «ما يقول؟».

قال: «يدعو إلى البِراز ويقول: رَجُل ورَجُل».

فقال: «وأبيكم لقد أنصفَ».

وبرز لهُ بردُ، فلم يَلبَثْ بُردٌ أن تمكَّن مِن الهامُرزِ فَقَتَلَهُ، ونادىٰ حنظلةُ بنُ ثعلبَة:

ـ «يا قوم، لا تقفوا لهم فيستغرقَكم النُّشّابُ».

فحملت ميسرةُ بكر ـ وعليها حنظلةُ ـ على ميمنةِ الجيش، وقد قُتِلَ الهامُرزُ رئيسُهم، قَتَلَهُ بُردٌ، وحملت ميمنةُ بكر ـ وعليها يزيدُ بنُ مُسهِر ـ على ميسرة الجيش، وعليهم الجلابزينُ، وخرج الكمينُ من خَبءِ ذي قارٍ من ورائهم [وعليهم] يزيدُ بنِ حمارٍ، فشدّوا على قلبِ الجيش، وفيهم إياسُ بنُ قبيصةَ وَوَلَّت إيادُ منهزمةً كما وعدتهم. وانهزمت الفُرسُ واتّبعوهم يسعون، لم ينظروا إلى سَلَبٍ ولا إلى شيء حتى تعارفوا «بأدَم» ـ موضع قريب من ذي قارٍ ـ فَوُجِدَ ثلاثون فارساً، من عِجلٍ ومن سائرِ بكر سِتّون فارساً وقتلُوا جلابزينَ، قَتَلَهُ حنظلةُ بنُ ثعلبة، وذلَّتِ الفرسُ بعد ذلك، وذَلَّ أمرُهم.

ذكر حيلةٍ لأبرويزَ على مَلِكِ الرُّوم

كان أبرويزُ وجَّهَ رجلاً من جِلَّةِ أصحابِه في جيش جرّار إلى بلاد الرّوم فنكا فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشّاماتِ وبلغ الدّربَ في آثارهم فَعَظُمَ أمرهُ وخافَهُ أبرويز. فكاتَبه بكتابين أمرُه في أحدهما أن يستخلفَ على جيشِه مَن يثِقُ به ويُقبِل إليه، ويأمرُه في الآخر أن يُقيمَ بموضعه، فإنّه لمّا تدبَّر أمرَه وأجالَ الرَّأيَ، لم يَجِد من يَسِدُّ مسدَّه، ولم يأمَن الخَلَلَ، إن غابَ عن موضعه، وأرسلَ بالكتابين رسولاً مِن ثقاتِه وقال له:

ـ «أوصِل الكتابَ الأوّلَ بالأمر بالقُدوم، فإن خَفَّ لذلك فهو ما أردتُ، وإن كَرِهَ وتثاقَلَ عن الطّاعةِ، فاسكُت عليه أيّاماً، ثُمَّ أَعلِمهُ أنَّ الكتابَ الثّاني وَرَدَ عليك، وأوصِلهُ إليه لِيُقِيمَ بموضعه».

فخرج رسولُ كسرىٰ حتّى وردَ على صاحبِ الجيشِ ببلاد الشّامِ، فأوصل الكتابَ

إليه، فلمّا قرأه قال:

ـ «إمّا أن يكونَ كسرى قد تغيَّر لي وكَرِهَ مَوضعي، أو يكونَ قد اختلط عقلُه بصرفِ مِثلي وأنَا في بحرِ العَدُوِّ».

فدعا الأصحابَ وقرأ عليهم الكتاب فأنكروهُ. فلمّا كانَ بعدَ ثلاثةِ أيّام، أوصلَ الكتابَ الثّاني بالمُقام، وأوهَمَهُ أنَّ رسولاً وَرَدَ بِه. فلمّا قرأه قال: «هذا تخليط». ولم يقع منه مَوقِعاً، وَدَسَّ إلى مَلِكِ الرّوم مَن ناظَره في إيقاعِ صُلح بينَهما، على أن يُخلّيَ الطّريقَ لِمَلك الرّومِ، حتى يَدخَلَ بِلادَ العراق على غِرَّةٍ من كِسرى، وعلى أنّ لملك الرّوم ما تغلَّبَ عليه مِن دونِ العراقِ، وللفارسيِّ ما وراءَ ذلك إلى بلادِ فارِس.

فأجابه مَلِكُ الرُّوم إلى ذلك وتنحّى الفارسيُّ عنه في ناحيةٍ من الجزيرة، وأخذ أفواهَ الطُّرُقِ، فلم يعلم كِسرى حتّى وردَ خبرُ مَلِكِ الرّومِ من ناحية قَرقيسِيٰاء، وكسرى غيرُ مُعدٍّ، وجندُه متفرِّقون في أعمالِه. فوثبَ من سريرِه مع قراءةِ الخبر، وقال:

ـ «هذا وقتُ حيلةٍ لا وقتُ شِدَّةٍ».

وجعل ينكتُ في الأرضِ مَليّاً. ثُمَّ دعا بِرَقٍّ، وكتب فيه كتاباً صغيراً بخطٍّ دقيقٍ إلى صاحبِه بالجزيرةِ يقول فيه:

«قد علمتَ ما كنتُ أمرتُك بِهِ مِن مواصلةِ صاحبِ الرّوم، وإطماعِه في نفسِك وتخليةِ الطّريقِ له حتّى إذا تولَّجَ في بِلادِنا أخذتُه مِن أمامه وأخذتَه أنتَ ومَن نَدَبناهُ لذلك مِن خلفِه، فيكونَ ذلك بَوارَه، وقد تَمَّ في هذا الوقتِ ما دبَّرناهُ وميعادُكَ في الإيقاعِ بِهِ يومَ كذا!».

ثُمَّ دعا راهباً كان في دَيرٍ بجانبِ مدينتِه وقال له:

ـ «أيّ جارٍ كنتُ لك؟».

قال: «أفضل جار».

قال: «قد بَدَت لنا إليك حاجةٌ».

قال الرّاهبُ: «الملك أجَلُّ مِن أن يكونَ له حاجةٌ إلى مثلي، ولكن عندي بذلُ نفسي في الّذي يأمر به الملكُ».

قال كسرى: «تحملُ لي كتاباً إلى فلانٍ صاحبي؟».

قال: «نعم».

قال كسرى: «فإنّك تجتاز بأصحابك النّصارىٰ، فَأَخفِه».

قال: «نعم».

فلمّا وَلّى عنه الرّاهب قالَ له كسرى:

ـ «أعلمتَ ما في الكتاب؟».

قال: «لا».

قال: «فلا تحمله حتّى تعلَمَ ما فيه».

فلمّا قرأهُ أدخلَهُ في جَيبِه ثُمَّ مَضى.

فلمَّا صار في عسكر الرُّوم ونَظَرَ إلى الصّلبان والقِسّيسين وصَجيجِهم بالتقديس والصَّلواتِ احترق قلبُه لهم وأشفق مِمّا خاف أن يَقَعَ بهم. وقال في نفسه:

ـ «أنَا شَرُّ النّاسِ إن حَملتُ بيدي حَتفَ النّصرانيّة. وهلاكَ هؤلاء الخلقِ».

فصاح: «أنَا لم يُحمّلني كِسرى رِسالةً ولا معي كِتابٌ».

فأخذوه ووجدوا الكتابَ معهُ.

وقد كان كِسرى وجَّهَ رسولاً قبلَ ذلك اختصرَ الطّريق حتّى مَرَّ بعسكرِ الرُّومِ وكَأَنَّه رسولُ إلى كسرى مِن صاحبِه الّذي طابَقَ مَلِكَ الرُّومِ ومعهُ كتابٌ فيه:

«إنَّ المَلِكَ كان قد أمرني بمقاربة ملك الرّوم وأن أختدِعَهُ وأخلّيَ له الطريقَ، فيأخذَهُ الملكُ من أمامِه، وآخُذَه أنَا مِن خلفِه وقد فعلتُ ذلك، فرأى الملكِ في إعلامي وقتَ خرُوجه إليه».

فأخذ ملك الرُّوم الرّسولَ وقرأ الكتابَ وقال:

ـ «قد عجبتُ أن يكونَ هذا الفارسيُّ أدهَنَ على كسرى».

ووافاه أبرويز في من أمكنه مِن جُندِه، فوجد مَلِكَ الرُّوم قد ولّى هارباً، فاتَّبعَهُ يقتلُ ويَأسِر مَن أدرَكَ، وبلغَ صاحبَ كسرى هزيمةُ الرُّومِ، فأحبَّ أن يُجَلّي نفسَه ويستُرَ ذنبَهُ لِما فاته ما دبَّر، فخرج خلفَ الرُّوم الهاربين، فلم يسلم منهم إلاّ القليلُ.

ذكر سببِ هَلاكِ أبرويز وقتله

كان سبب هلاك أبرويز وقتلِه تَجبُّرُه، واحتقارُه العظماءَ، وعُتُوُّهُ. وذاك أنّه استخفَّ بما لا يستخفُّ به الملكُ الحازمُ. وكان قد جَمعَ من المالِ ما لم يجمعُه أحدٌ مِن الملوكِ، وبلغت خيلُه قسطنطينيَّةَ وإفريقيَةَ، وكانت لَهُ اثنتا عشرةَ ألفَ امرأةٍ وجاريةٍ، وألفُ فيلٍ إلاّ فيلٌ واحدٌ، وخمسونَ ألفَ دابَّةٍ، ومِنَ الجواهرِ، والآلاتِ والأواني ما يليقُ بذلك. وأمرَ أن يُحصَىٰ ما اجتُبِيَ من خراج بِلادِه وسائرِ أبوابِ المالِ سنةَ ثماني عشرةَ من مُلكِه. فَرُفِعَ إليه: أنَّ الّذي اجتُبِيَ في تلك السَّنةِ مِن الخراجِ وسائرِ الأبوابِ ستُمائة ألفِ ألفِ [٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠] دِرهَمٍ. وأمر فَحُوِّلَ إلى

بيتِ مالِ بُنِيَ بمدينةِ طيسبونَ مِن ضربِ فيروزَ بنِ يزدجردَ وقباذَ بن فيروز اثنتا عشرةَ ألفَ [١٢,٠٠٠] بدرةٍ في أنواعٍ من الجواهر والكُسِيِّ وغير ذلك. فَعَتَا واستهان بالنّاس والأحرار.

وبلغ من جُرأته أنّه أَمَرَ رجلاً كان على حرسِ بابه الخاصّة يقال له: زاذا نُفرُوخ، أن يُقتل كُلَّ مَقيَّدٍ في سجنٍ مِن سجونِه. فَأُحصوا، فَبَلَغوا ستّةً وثَلاثينَ ألفاً. فلم يُقدِم زاذا نفرُوخ على قتلهم، وتقدَّم بالتَّوقُّفِ عَمَّا أَمَرَ به كسرى وَأَعَدَّ عِلَلاً له في ما أَمَرَ به فيهم.

فكان هذا أحدُ ما كسب به كِسرى عداوةَ أهلِ مملكته.

والثاني: احتقارُه إيّاهم واستخفافه بعظمائهم.

والثالث: أنّه سلَّطَ عِلجاً يقال له: «الفرّخان زاد» عليهم، حتّى استخرج بقايا الخراج بعُنفٍ وعذابٍ، وكان ضَمِنَ من ذلك مالاً عظيماً، فسلَّطه على النَّاسِ.

والرّابع: إجماعُهُ على قتل الفَلِّ الَّذين انصرفوا إليه من قِبلِ هِرَقلَ.

فمضى قومٌ مِنَ العظماءِ إلى عقرِ بابل وفيه شيرى بن أبرويزَ مع إخوتِه بها، وقد وُكِّل بهم مؤدبون وأساورةٌ يحولون بينهم وبين براح ذلك الموضع، فأقبلوا به، ودخلوا مدينة بَهرسير ليلاً. فخلّى عَمَّن كان في سُجونِها وأخرج مَن كان فيها، واجتمع إليه الفَلُّ الَّذين كانوا علموا بأمرِ كِسرى بقتلهم. فنادَوا: «قُباذ شاهنشاه»، وصاروا حين أصبحوا إلى رحبةِ كِسرىٰ، فهَرَبَ الحَرَسُ من قصرِ أبرويزَ، وانحازَ كسرى بنفسِه إلى باغ له قريبٍ من قَصرِه يُدعى: «باغَ الهِندُوان» فارّاً. فأخِذَ وحُبِسَ خارجاً عن دارِ المملَكةِ في دارِ رجُلٍ يقال له: مارِسفند. إلى أن قُتِلَ، بعدَ حديثٍ طويلٍ ومراسلاتٍ بينَه وبينَ شيرى بمواطأة العظماءِ، وبعدَ تقريعٍ كثيرٍ وتوبيخٍ على ما كان منه في أشياءَ عدَّدُوها عليه. فأجاب عَنِ الكُلِّ بجواباتٍ مُقنِعَةٍ صحيحةٍ لَم نذكرها لخروجِها عَمّا بَنينا عليهِ غَرَضَ هذا الكتابِ.

وكان هلاكُه بعدَ ثمانٍ وثلاثين سنةً. ولِمُضِيِّ اثنين وثلاثين سنةً وخَمسةَ عَشَرَ يوماً من مُلكِه، هاجر النَّبيُّ - ﷺ - من مكّةَ إلى المدينة.

وخلَّف في بيتِ المال يومَ قُتِلَ من الوَرِقِ أربعمائةِ ألفِ [٤٠٠,٠٠٠] بدرةٍ، سوى الكنوزِ والذّخائرِ والجواهرِ وآلاتِ المُلكِ، وفي تلك الكنوزِ «كنزباذ آورد».

ثُمَّ ملك شيرويةُ بنُ أبرويزَ.

ذكر عاقبة شِيرُويَة بن أبرويز

قَتَلَ شيرويةُ أباه، وقَتَلَ سبعةَ عشر أخاً له ذوي آدابٍ وشَجاعةٍ، بمشورةِ وزرائه، فابتُلِيَ بالأسقام، وانتقض عليه بَدَنُهُ، فلم يلتذَّ بشيءٍ مِن لَذّاتِ الدُنيا،

وجزع بعد قتلِ إخوتِه جَزَعاً شديداً، وكان يبكي إلى أن رَمىٰ بالتّاج عَن رأسِه، وعاشَ ما عاشَ مهموماً حزيناً مُدنِفاً. وكان الطّاعون فشا في أيّامه، فأهلكَ أكثرَ الفُرسِ، وكانَ مُلكُه ثمانيةَ أشهُر.

ثم مَلكَ أردشيرُ بنُ شِيروية

وكان طفلاً، وقيل: إنّه كان ابنَ سبعِ سنينَ، لأنّه لم يوجَد غيرُه من أهلِ بيتِ المملكةِ، وحَضَنَهُ رجلٌ يقال له: مِهاذَر جُشنَس، فأحسنَ سياسةَ المُلكِ فبلغَ مِن إحكامِه ذلك أنّه: لم يُحَسَّ بحداثةِ أردشير سوى أنّه غلط في أمرِ شهربَرازَ المقيم بثغرِ الرُّومِ.

ذكر غَلَطِه في ذلكَ واستهانتِه بأمرِه حتّى كان سببَ هلاكِه

كان شهربَراز في جندٍ ضمَّهم إليه كسرى، وكان كسرى وشيرويةُ لا يزالان يكتبان إليه في الأمر يُهِمُّهما ويستشيرانه. فلمّا لم يشاوِره عظماءُ الفُرسِ في تمليكِ أردشير، ولم يكاتبُه أيضاً مهاذر جشنس، تعنّت الفُرسَ، وتبغّىٰ عليهم، وبسطَ يدَه، وجعله سبباً لِلطَّمع في المُلكِ، واستطال، واحتقر أردشيرَ لحداثةِ سنِّه، ودعا النّاسَ إلى التّشاورِ في المُلكِ، ثُمَّ أقبل بجندِه وقد عمد مهاذر جشنَس، فحصَّن سورَ مدينةِ طيسبونَ وأبوابِها، وحوّل أردشيرَ ومَن بَقِيَ مِن نسلِ الملوكِ ونسائهم، وما كانَ في بيتِ مالِ أردشيرَ مِن مالٍ، وخزائنَ وكراعٍ، إلى مدينةِ طيسبونَ.

فلمّا ورد شهربراز أناخ إلى جانب مدينة طيسبون، وحاصر من فيها، ونصب المجانيقَ عليها، فلم يصِل إليها، فلمّا رأى عجزَه عن افتتاحها أتاها من قِبَل المكيدة، فلم يَزل يخدع رجلاً يقال له: نِيُو خُسرَو، ورجلاً، ورجلاً كان أصبهبذَ نيمروزكان، حتّى فتحا له بابَ المدينة، فدخلها، وأخذ جماعةً من الرّؤساء، فقتلهم، واستصفى أموالهم، وقتل أردشير بن شيروية. وكان مُلكُه سنةً وستّةَ أشهر.

ثُمَّ مَلكَ شَهربَراز

ولم يكن من أهل بيتِ المملكةِ ودعا نفسَه مَلِكاً، ولمّا جَلسَ على سريرِ المُلكِ ضَرَبَ عليه بطنُه، وبلغ من شدَّة ذلك عليه أنّه لم يقدِر على إتيان الخلاء، فدعا بالطَّستِ، فوُضِعَ أمام ذلك السَّرير، ومُدَّ في وجهِه ما سَتَرَه، فَتَبَرَّزَ في الطَّستِ!

ثمَّ امتعض رجلٌ يقال له «بُسفَرُّوخ» وأخوين له، مِن قَتلِ شهربراز أردشيرَ بنَ شِرُويَةَ، وغَلَبَتِهِ على المُلكِ، فتحالفوا على قتلِه، وكان من السُّنَّةِ، إذا ركب المَلِكُ أن يَقِفَ له حَرَسُه سماطين عليهم الدُّروعُ، والبيضُ، والتِّرسةُ، والسُّيوفُ، وبأيديهم الرماحُ، فإذا حاذاهُمُ المَلِكُ وضعَ كُلُّ رجلٍ منهم تُرسَهُ على قربوسِ سَرجِه، ثُمَّ وضع جَبهَتَه عليه كهيئة السُّجود. وإنّ شهربراز ركِبَ بعدَ أن مَلَكَ بأيّامٍ، فوقف له بُسفرُّوخ،

ثُمَّ طعنَه أخواهُ، فسقطَ عَن دابَّتِه، فشدّوا في رِجلِه حَبلاً وجَرُّوهُ إقبالاً وإدباراً ساعةً، وساعَدَهُم قومٌ مِن العُظماء وقتلوا عِدَّةً عاوَنُوا في الفتكِ بأردشيرَ، وملَّكوا بُورانَ بنتَ كِسرىٰ، وكان جميعُ ما مَلَكَ شهربرازُ أربعينَ يوماً.

ومَلَكَت بُورانُ بنتُ كسرى أبرويزَ

فأحسنتِ السّيرةَ، وبَسَطَتِ العدلَ، وأمرت بِرَمِّ القناطِرِ والجسورِ وإعادةِ العِماراتِ، وَوَضَعَتِ بقايا الخَراجِ، وكتبت إلى النّاس عامّةً كُتُباً تُعلِمُهم ما هي عليه مِنَ الإحسانِ، وأنَّها ترجو أن يُرِيَهُمُ اللَّهُ مِن الرّفاهةِ والاستقامةِ بمكانها، ومِنَ العدلِ وحفظِ الثُّغورِ ما يعلمون به أنّه ليس ببطشِ الرِّجالِ تُدوَّخ البِلادُ، ولا بِبأسِهم تُستباحُ العساكرُ، ولا بمكائدهم يُنال الظَّفَرُ، وتُطفأُ النّوائرُ، ولكنَّ ذلك كُلَّه باللَّهِ عَزَّ وجلَّ، وحسنِ النِّيَّةِ، واستقامةِ التّدبير. وأمرت بالمناصحةِ وحسنِ الطّاعة، وَرَدَّتْ خشبةَ الصَّليب على مَلكِ الرُّوم. وكان مُلكُها سنةً وأربعةَ أشهُر.

ثُمَّ مَلَكَ بعدَها رجلٌ يقالُ له: جُشْنَسبَنْدَهْ

وكان مُلكُه أقلَّ مِن شَهرٍ، ولم يَظهَر له أَثَرٌ تستفاد منه تجربةٌ.

ثُمَّ ملكت آزرمي دُخت ابنةُ كسرى أبرويزَ

كانت آزرمي دُخت من أجملِ نساءِ دَهرِها، وكان عَظيم فارسَ يَومئذٍ «فَرُّخ هُرمُز» إصهبذ خُراسانَ، وأرسلَ إليها: يسألها أن تزوِّجَه نفسَها، فأرسلت إليه:

- «إنّ التَّزويجَ لِلملكةِ غيرُ جائز، وقد علمتُ أنَّ إربَك فيما ذهبت إليه قضاءُ حاجتِك مِنّي، فَصِر إليَّ ليلةَ كذا وكذا».

ففعل [فرّخ هرمز]، وركب إليها في تِلك اللّيلةِ، وتقدَّمت آزرمي دخت إلى صاحب حَرَسِها أن يترصَّدَه في اللَّيلةِ الَّتي تواعدا الالتقاءَ فيها، حتى يَقتُلَهُ. فنفذ صاحبُ حَرسِها لأمرِها، وأَمَرَ به فَجُرَّ برجلِه. وطُرح في رَحبَةِ دارِ المَملكةِ. فلمّا أصبحَ النّاسُ ورأَوهُ، علموا أنّه لم يُقتل إلاّ لِعَظيمةٍ، فأمرت بِجُثَّتِهِ فَغُيِّبَت.

وكانَ رستُم بنُ فَرُّخ هرمزَ هذا عظيمَ البأسِ قويّاً في نفسه وهو رُستمُ صاحبُ القادسيّةِ الّذي تَولّى قِتالَ العربِ مِن قَبلَ يزدجردَ في ما بعدُ، وسنحكي خَبَرَهُ هناك. فلمّا بَلغهُ ما صُنعَ بِأبيه، أقبل في جندٍ عظيم، حتّى نزلوا المدائنَ، وسَمَلَ عَينَي آزرمي دُخت، وَقتلَها، وكان مُلكُها ستَّة أشهر. واختُلفَ فيمن مَلَكَ بعدَ آزرمي دخت، فقيل: أُتِيَ برجلٍ من عَقِبِ أردشيرَ بنِ بابكَ، كان ينزل الأهوازَ يقال له:

كسرى بن مِهرجُشنس

فلَبِس التّاجَ وقُتِلَ بعدَ أيّامٍ. ويقالُ: بل كان رجلاً يسكن ميسانَ يقال له:

فيروز

فملّكوهُ كُرهاً، كان ضَخمَ الرَّأسِ. فلمّا تُوِّجَ قال:

ـ «ما أضيقَ هذا التّاجَ!».

فتطيَّر العظماءُ من افتتاحِ كلامِه بالضِّيقِ، وقَتَلُوهُ. ثم أُتي برجلٍ من أولادِ كِسرى كانَ لَجَأَ إلى مَوضعٍ مِن المغرِبِ قريبٍ من نصيبين يُقالُ له: «حِصنُ الحجارة»، حين قُتِلَ شيروية بن كسرى، يقال له:

فَرُّخ باذخُسرو

فانقاد له النّاسُ طوعاً زَمَناً يسيراً، ثُمَّ استعصَوا عليه وخالفوه وكان مُلكُه سِتَّةَ أشهر وكان أهلُ إصطخَر ظَفِروا بيزدجردَ بنِ شهريارَ بنِ أبرويزَ بإصطخرَ، قَد هَرَبَ إليها حين قَتَلَ شيرويةُ إخوتَه، فلمّا بلغ عظماءَ إصطخر أنَّ من بالمدائن خالفوا فرّخ زاد خسرو، أتَوا بيزدجردَ بيتَ نارٍ يُدعىٰ: «بيتَ نارِ أردشير»، فَتَوَّجُوهُ هناك وملّكوه وكان حَدَثاً. ثُمَّ أقبلوا به إلى المدائن، وقتلوا «خره ذاد خسرو» بحيلٍ احتالوها له وساغ الملك لِيزدَجردَ.

مُلكُ يَزدجردَ بنِ شهريارَ بنِ أبرويزَ

فَمَلَكَ يزدجردُ. غيرَ أنَّ مُلكَهُ كانَ عند مُلكِ آبائه كالخيالِ وكالحُلُم، وكانت العظماءُ والوُزراءُ يُدبِّرون مُلكَه لِحداثةِ سِنِّه، وكان أشدّهم نَباهةً في وزرائه وأذكاهم رئيس الخَوَلِ. وضعُفَ أمرُ مملكةِ فارِسَ، واجترأ عليهِ أعداؤهُ مِن كُلِّ وجوهٍ، وتطرَّفوا بِلادَه، وأخربوا منها، وغَزَتِ العربُ بِلادَه بعدَ أن مَضىٰ مِن مُلكِه ثلاث أو أربع سنينَ، وكان عُمره كُلُّه إلى أن قُتِلَ بِمَرو عِشرينَ سنةً.

وله أحاديثُ وسِيَرٌ، سنذكرها بعدَ فَراغِنا مِن الأحوالِ، الّتي تَمَّت مِن جهة الرَّأيِ والتَّدبيرِ في أيّام النَّبيِّ ﷺ والخُلفاءِ من بعدِه، إلى أن يَتَّصل بذكر يَزدجردَ، وما كان منه.

ممّا جَرى في غزوات الرّسول ﷺ

من تدابيره البشريّة في غزوة الخندق

فممّا جرىٰ في غَزواتِ رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ مِن التدابير البشرية والحيل الإنسانيّة ما كان منه ـ عليه السّلام ـ في غزوةِ الخندق. وذلك أنّ النبيَّ ـ ﷺ ـ لمّا أجلى اليهودَ من بني النَّضير عن ديارهم، اجتمع رؤساؤهم، وفيهم سلامُ بن أبي الحقيق وحُيَيُّ بنُ أخطب وغيرهما، فقدِموا مكّةَ، ودَعَوهم إلى حرب رسول اللّه ـ ﷺ ـ وحزّبوا الأحزابَ الّتي ذكرها اللّه تعالى، وطمِعوا في استيصالِ النّبيّ ـ ﷺ ـ فنشطت قريشٌ لذلك، وتذكَّروا أحقادَهم ببدرٍ، فخرجوا وقائدُهم أبو سفيان بن حربٍ. وخرجت غطفانُ وقائدُهم عُيينةُ بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ، وبنو فزارة وغيرُهم مِن الأحزاب.

فأشار سلمانُ على رسول اللّه ـ ﷺ ـ لمّا رآه يَهُمُّ بالمُقام بالمدينةِ، ويُدبِّر أن يتركَهم حتّى يَرِدُوا، ثمَّ يحاربَهم على المدينة وفي طُرقِها؛ أن يُخَندِقَ. ففُعِلَ ذلك، ووردت قُريش بعَددها وعُدَّتها، ووردت الأحزابُ، وكثر النّاسُ والأعداءُ على رسول اللّه ﷺ وكان قد وادع بني قُريظَة وهم أصحابُ حُصونٍ بالمدينة، وصاحبُ عَقدِهم وعَهدِهم كعبُ بن أسدٍ القُرظيّ.

فاحتالَ حُييُّ بنُ أخطب لكعب بن أسدٍ حتّى وصل إلى حِصنه، فأغلق كعبُ دونَه بابَ الحصن، وقال:

ـ «بيني وبين محمَّدٍ عَقدٌ، ولن أنقُضَ ما بيني وبينه».

قال: «افتح البابَ أكلِّمك».

فقال: «ما أَنَا بِفاعلٍ».

فقال: «واللّه إن أغلقتَ دوني البابَ إلاّ على جَشيشتِك أن آكُلَ معك منها».

فأحفظَ الرَّجلَ حتّى فتح له. فقال:

ـ «ويحك يا كعب! جئتُكَ بقريشٍ على قادتِها وسادتِها حتّى أنَختُهم بالمدينةِ، وجِئتُكَ بغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهَدوني ألاّ يبرحُوا حتّى يستأصلوا محمَّداً ومَن معه».

فتأبى كعبٌ، ولم يزل به، يفتِلُه في الذّروة والغارب، حتّى أعطاهُ عهداً من اللّهِ وميثاقاً أن يكون معه. ونَقضَ كعبُ ما بينه وبين رسول اللّه ﷺ وبَرِئ ممّا كان عليه له.

فلمّا صحّ عند رسول اللّه ـ ﷺ ـ ذلك، ضاق ذرعاً وخَشِيَ أن يفُتَّ ذلك في أعضاد المسلمين. فعظمُ البلاءُ، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومِن أسفَلَ منهم حتّى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ ونجم النِّفاقُ مِن المؤمنين، وكثر الخوضُ، وأقام رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ وأصحابُه في ما وصف اللّه من الخوف والشِّدَّة، لِتظاهُرِ الأعداءِ عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفلَ منهم، حتّى أتاه نعيمُ بن مسعود بن عامر بن أُنيف بن ثعلبةَ الغطفاني مسلِماً، فقال:

ـ «يا رسولَ اللّه، إنّي قد أسلمتُ وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فَأمرْني بما شئتَ، أنتَهِ إليه».

فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ:

ـ «إنّما أنت رجلٌ واحدٌ فينا، وإنّما غَناؤك أن تُخذِّلَ عنّا ما استطعتَ، وعليك بالخِداع، فإنَّ الحربَ خدعةٌ».

فخرج نُعيمُ بن مسعودٍ حتّى أتىٰ بني قريظةِ وكان نديماً لهم، فقال:

ـ «يا بني قريظة، قد عرفتُم وُدّي إيّاكم وخاصَّةَ ما بيني وبينكم».

قالوا: «صدقتَ، لستَ عندنا بمتَّهمٍ».

فقال لهم:

ـ «إنَّ قريشاً وغطفانَ ومن التفَّ معهم، جاؤُوا لحرب محمَّدٍ، فإن ظاهرتموهم عليه، فليسوا [كهيئَتكم]، وذاك أنّ البلدَ بلدُكم، به أموالكم وأولادكم ونساؤكم، لا تقدرونَ أن تتحوَّلوا إلى غيره. فأمّا قريشُ وغطفانُ فإنّ أموالَهم وأبناءَهم ونساءَهم ببلادٍ غير بلادكم، فإن رأوا نُهزةً وغنيمةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا بينكم وبين الرَّجلِ، والرَّجلُ ببلادكم لا طاقة لكم به. وإن خلا بكم فلا تقاتلوا القومَ حتّى تأخذُوا منهم رُهُناً مِن أشرافهم يكونونَ بأيديكم ثقةً لكم، على أن يُقاتِلوا معكم محمَّداً حتّى يُناجزوه».

قالوا: «لقد أشرتَ علينا برأيٍ ونُصحٍ».

ثُمَّ خرج حتّى أتىٰ قريشاً. فقال لأبي سفيان بن حربٍ ومَن معه:

ـ «يا معشرَ قريشٍ! قد عرفتم وُدّي إيّاكم وفِراقي محمَّداً، وقد بلغني أمرٌ رأيتُ حقّاً عليّ أن أُبلغَكم نُصحاً لكم، فاكتموا عليَّ».

قالوا: «نفعل».

قال: «اعلموا أنّ معشرَ يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمّدٍ وقد أرسلوا إليه أن قد ندِمنا على ما صنعنا، فهل يُرضيك عنّا أن نأخذَ من القبيلتين: مِن قريشٍ وغطفانَ، رجالاً من أشرافهم وكُبرائهم ونعطيَكم فتُضربَ أعناقُهم، ثمَّ نكونَ معك على مَن بَقِيَ منهم. فإن بَعثت إليك يهودُ يلتمسون منكم رُهُناً مِن رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً».

فوقع ذلك مِن القوم.

وخرج حتّى أتىٰ غطفانَ. فقال:

- «يا معشَرَ غطفانَ! أنتم أصلي وعشيرتي، وأحبُّ النّاس إليَّ، ولا أراكم تتَّهِموني».

قالوا: «صدقتَ». قال: فاكتموا عليَّ. قالوا: «نفعلُ».

ثمَّ قال لهم مِثلَ ما قالَ لقريشٍ، وحذَّرهم مثلَ ما حذَّرهم.

اتّفاقٌ جيّدٌ

فكان مِنَ الاتّفاق الجيّدِ أن أرسلَ بعد ذلك أبو سفيان ورؤوسُ غطفانَ إلى بني قريظةَ عكرمةَ بن أبي جهلٍ في نَفَرٍ مِن قُريشٍ وغطفانَ. فقال لهم:

- «إنّا لسنا بدارِ مُقامٍ، وقد هلك الخُفُّ والحافِرُ، فأغدُوا للقتالِ حتّى نُناجزَ محمَّداً ونفرغَ ممّا بينَنا وبينه».

فأرسلوا إليه:

- «إنَّ اليومَ السَّبتُ - وكان اتَّفق ذلك - وهو يومُ لا نعمل فيه شيئاً، ومع ذلك فلسنا نقاتل معكم حتّى تعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتّىٰ نُناجز محمَّداً، فإنّا نخشىٰ - إن ضَرَستكم الحربُ واشتدَّ عليكم القِتالِ - أن تُشمِّروا إلى بلادكم، وتتركونا والرَّجلَ في بلدنا، ولا طاقةَ لنا بذلك مِن محمَّدٍ».

فلمّا رجعتِ الرُّسلُ بالّذي قالت بنو قريظة، قالت قريشٌ وغطفانُ:

- «واللّه إنّ الّذي حدَّثكم نعيم بن مسعودٍ لحقٌّ».

فأرسلوا إلى بني قريظةَ:

- «إنّا واللّه ما ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا. فإن كنتم تريدُون القتالَ فاخرُجوا فقاتلوا».

فقالت بنو قريظة حين أدّت إليهم الرُّسُل:

- «إنَّ الذي ذكر لكم نُعيمُ بن مسعودٍ لحقٌّ. ما يُريد القوم إلاّ أن يُقاتلوا. فإن

وجدوا فرصةً انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرَّجلِ».

فأرسلوا إلى القوم:

ـ «إنّا واللّهِ لا نقاتل معكم حتّى تعطونا رُهناً».

وتخاذل القوم. واتّهم بعضهم بعضاً، وذلك في زَمَنٍ شاتٍ وليالٍ باردةٍ كثيرةِ الرِّياح تَطرحُ أبنيتَهم، وتَكفأُ قدورَهم. وضاق ذرعُ القوم وبلغ رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ اختلاف القوم وما هم فيه من الجَهدِ. فدعا حُذيفةَ بن اليمان. فبعثُه إليهم لِينظُرَ ما فعلَ القومُ ليلاً. فذهب حذيفة بن اليمان. حتّى دخل في القوم. قال حذيفة: فذهبتُ فرأيتُ من الرِّياح أمراً هائلاً لا يُقِرُّ لهم ناراً ولا بِناءاً.

فقام أبو سفيان بن حرب، فقال:

ـ «يا معشرَ قريشٍ، لِيَنظُر امرُؤ جليسَه».

قال: فبادرتُ وأخذتُ بيد الرَّجل الّذي إلى جانبي، فقلتُ: «مَن أنت؟» قال: «أنا فلانُ بنُ فلان».

ثمَّ قال أبو سفيان:

ـ «إنّكم يا قوم ما أصبحتم بدارِ مُقام. لقد هلك الكُراعُ والخُفُّ، وأخلفتنا بنو قُريظةَ، وبلغَنا عنهم ما نَكرَه، ولقينا مِن الجَهدِ والشِّدَّةِ وهذه الريح ما تَرَونَ. فارتحِلوا، فإنّي مرتحِلٌ».

ثمَّ قام إلى جَمَلِه، وقام النّاسُ معه. وسمعت غطفانُ بما فعلت قريشُ، فانصرفوا إلى بلادهم، وتفرَّق ذلك الجمعُ من غير قِتالٍ، إلاّ ما كان مِن عدَّةٍ يسيرة اتّفقوا على الهجوم على الخندقِ، يُحكى أنّ فيهم عَمرو بن عبدِ وَدٍّ، فقُتلوا. أمّا عَمرو فقتلَهُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ مبارزةٍ لمّا اقتحم عليه الخندقَ. وانتقض ذلك الجمعُ والتّدبير كُلُّه.

ومن ذلك ما كان يومَ حُنين وفيه ذكرٌ لدُرَيد بن الصِّمَّة وبعض آرائه

ومن ذلك أنّه لمّا افتتح رسول اللّه ـ ﷺ ـ مكّةَ، وأقام خمسةَ عَشَرَ يوماً، جاءت هوازنُ وثقيفُ لمحاربته، فنزلوا بِحُنينٍ. وذاك أنّهم كانوا قبل ذلك قد جمعوا له حين سَمِعُوا بمخرجه من المدينة، وظنّوا أنّه يُريدهم. فلمّا قصد مكّةَ أقبلوا عامدين إليه، ومعهم الأموال والنِّساءُ والصِّبيان، ورئيس هوازن يومئذٍ مالك بن عوفٍ. وأقبلت معهم ثقيفٌ، ونَصر، وجُشَم. ولم يشهد معهم من هوازن كعبٌ ولا كلابٌ. وفي جُشَم

دُريدُ بنُ الصِّمَّة وهو شيخ كبيرٌ، لا شيءَ فيه إلاّ أنَّهم يتيمَّنونَ برأيِه ومعرفتِه بالحربِ ودُربَتِه بها.

فلمّا نزل بأوطاسٍ، اجتمعَ النّاسُ إلى رئيسهم مالك بن عوفٍ وفيهم دريدُ بنُ الصِّمَّة يُقادُ به وهو في شجار له. فقال:

ـ «بأيِّ وادٍ أنتم؟».

قالوا: «بأوطاسٍ».

قال: «نعم، مجالُ الخيل، لا حَزنٌ ضَرِسٌ، ولا سَهلٌ دَهِسٌ. ما لي أسمعُ رُغاءَ البعيرِ، ونُهاقَ الحميرِ، ويُعارَ الشّاءِ، وبُكاءَ الصَّغيرِ؟».

فقالوا له: «ساق مالكُ بنُ عوفٍ مع النّاس أبناءَهم، ونساءَهم، وأموالَهم».

فقال: «أين مالكٌ؟».

فدُعِيَ له، فقال:

ـ «يا مالكُ، إنَّك قد أصبحتَ رئيسَ قومِك، وإنّ هذا يومٌ له ما بعدَه مِن الأيّام، مالي أسمعُ رغاءَ البعيرِ، ونُهاقَ الحميرِ، وبُكاءَ الصَّغيرِ، ويُعارَ الشّاءِ؟».

قال: «سُقتُ مع النّاس أبناءَهم، ونساءَهم، وأموالَهم».

قال: «ولِمَ؟».

قال: «أردتُ أن أجعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهلَه ووَلَده ومالَه، ليُقاتِل عنهم».

قال: فأنقَض به. ثم قال:

ـ «راعى ضأنٍ واللَّهِ. ويحك! هل يَرُدُّ المنهزمَ شيءٌ؟ إنّها إن كانت لك، لم ينفعكَ إلاّ رجلٌ بسيفِه ورُمحِه، وإن كانت عليكَ، فُضِحتَ في أهلك ومالِكَ. ما فَعَلت كَعبٌ وكلابٌ؟».

قالوا: «لم يَشهدها منهم أحدٌ».

قال: «غابَ الجِدّ والحَدُّ؛ لو كان يومَ علاءٍ ورِفعةٍ لم تَغِب عنه كعبٌ ولا كِلابٌ؛ فمن شهدها منكم؟».

قالوا: «عمرو بن عامرٍ، وعوفُ بنُ عامرٍ».

قال: «ذانك الجَذَعان مِن بني عامرٍ لا ينفعانِ ولا يَضُرّانِ. يا مالكُ إنَّك لن تصنعَ بتقديم البيضةِ، بيضةِ هوازن، إلى نحور الخيلِ شيئاً، ارفعهم إلى متمنع بِلادِهم وعُليا قومِهم، ثمَّ ألقَ هؤلاءِ الصُّباءَ على مُتونِ الخيلِ، فإن كانت لك، لَحِقَ بك مَن وَراءَك، وإن كانت عليك قد أحرزتَ أهلَك ومالَكَ».

قال: واللّه لا أفعلُ ذلك، إنّك قد كبرتَ وكبر علمُك، واللّه لَتطيعُنّي يا معشرَ هَوازن، أو لأتّكِئَنّ على سَيفي هذا حتّى يَخرجَ من ظَهري.

وَكرِهَ أن يكون فيها لدُريدٍ ذِكرٌ ورأيٌ.

فقال دُريد: «هذا يومٌ لم أشهدهُ ولم يَفُتني».

يا لَيتَني فيها جَذَع أخُبُّ فيها وأَضع
أَقُودُ وَطفاءَ الزَّمع كأنَّها شاةٌ صَدَع

وكان دُريدٌ رئيسَ قومِه بني جُشَم وسيِّدَهم وأوسطَهم مع شجاعتِه ودُربتِه وتجاربِه، ولكنّ السِّنّ أدركته حتّى فَنِيَ.

ثم قال مالكٌ للنّاس:

ـ «إذا رأيتم القَومَ فاكسِروا جفونَ سُيوفِكم، وشُدُّوا شِدَّةَ رَجلٍ واحدٍ عليهم».

فلمّا استقبل خيلُ رسول اللّه، ﷺ ـ وكان يومئذٍ اثني عشر ألفاً، منهم عشرة آلافِ فتحوا مكّةَ، وألفانِ ممّن أسلمَ وانضافَ إليهم بوادي حُنين ـ انحدروا في وادٍ من أودية تهامةَ أجوف، إنّما ينحدرون فيه انحداراً، وذلك في عَمايَةٍ مِنَ الصّبح، وكان القومُ قد سبقوا إلى الوادي، فكمنوا في شِعابِه وأحنائه ومَضايقِه، وتهيّأوا وأعدّوا. فما راعَ خيلَ رسولِ اللّه ـ عليه السّلام ـ وهم منحطّون، إلاّ الكتائبُ، قد شدّت عليهم، فانشَمروا لا يلوي أحدٌ على أحدٍ. وانحازَ رسول اللّه ـ ﷺ ـ ذاتَ اليمين وصاح:

ـ **«أيّها النّاسُ، أين؟ هَلُمُّوا إليّ، أنا رسولُ اللّهِ، أنا محمّد بنُ عبدِ اللّه»**.

وبَقِي مع النّبيِّ ـ ﷺ ـ نَفَرٌ من أهلِ بيته، فيهم عليُّ بنُ أبي طالب، والعبّاسُ، وابنُه الفَضلُ، وجماعةٌ من المهاجرين.

فقال رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ للعباس:

ـ **«اصرخ: يا معاشرَ الأنصار، يا أصحابَ السّمُرةِ»**.

فأجابوهُ مِن كلِّ ناحيةٍ وحَمَلوا على النّاس فكانت إيّاها. وقَتلَ عليّ بنُ أبي طالبٍ ـ عليه السّلام ـ صاحبَ الرّايَةِ، وقُتلِ خيلُ مالكِ بنِ عَوفٍ كلَّ مَقتَلةٍ، وغَنِم المسلمون تلكَ الأموالَ، وسَبَوا النِّساءَ والأولادَ، وقُتِلَ دُريدٌ. وكان عدَّةُ السَّبي يومئذٍ من هوازن ستَّةَ آلافٍ من النِّساءِ والأولاد. فلمّا قدِمت وفودُ هوازن على النّبيِّ ـ عليه السّلام ـ مسلمين، أعتَقَ لهم أبناءَهم ونساءَهم كلَّهم، في حديثٍ طويلٍ.

ومن ذلك ما كان بعد ظهورِ الأسودِ العَنسيّ الكذّاب

ومن ذلك: أنّه لمّا ظهر الأسودُ العَنسيّ الكذّاب مُتنبّئاً باليمن وحَضرموت

وصَنعاء، حاربهُ شهرُ بنُ باذام، وكان رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ استخلفه بعد أبيه باذام على الأبناءِ وعلى بعض أعمالِ أبيه. فهزمه الأسودُ، وفرّق الأبناءَ عنه، وظفِر به بعدُ، فقتلهُ وغلبَ على صنعاء، وهربَ عُمّالُ رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ وجعل أمرُ الأسودِ الكذّابِ يعلُو ويستطير استطارةَ الحريقِ. وكانَ جَعَلَ عمرَو بنَ مَعدي كرب خليفتَه في مذحج بعدَ أن ارتدَّ عمَرٌو، وجَعَلَ أمرَ جُندِه إلى قيسِ بنِ عبدِ يغوثَ، وأسندَ أمرَ الأبناء إلى فيروز الدَّيلمي ودادَوَيه، وكان شَهرٌ قد تزوّج بنتَ عمِّ فيروز، وكانت جميلةً، فلمّا قُتِل شهرٌ تزوّج بها الأسود.

فأنفذ رسول اللّه ـ ﷺ ـ إلى فيروز، وإلى جُشنس، وغيره من الأبناءِ يأمرهم بالقيامِ على دينِهم، وأن ينهضوا في الحربِ والعملِ في الأسودِ، إمّا غيلةً وإمّا مُصادَمةً.
فألقى كتابُ رسول اللّه ـ ﷺ ـ إلى أصحابه، تَغَيُّرَ الأسودِ لقيسِ بن عبد يغوث.

فقال أصحاب رسول اللّه ـ عليه السّلام ـ:

ـ «إنّ قيساً يَخافُ على دَمِه، وهوَ لأوّل دعوةٍ، فَهَلُمَّ ندعوهُ».

فاجتمعوا لذلك ثمّ دَعَوهُ، وأَبَثُّوهُ أمرَهم، وأبلغوهُ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ وكأنّما وَقَعوا عليهِ من السَّماءِ، لأنّه كانَ في غَمٍّ وضيقٍ بأمرِه، فأجابهم إلى ما أحبُّوا.

ثمّ إنّ عامرَ بنِ شهرِ بنِ باذام اعترض في قوم منهم: ذو مرّانٍ، وذو الكلاعِ، وذو ظَليم. فكاتبوا أصحابَ النّبيِّ ـ ﷺ ـ وبذلوا لهم النُّصرَ، وكانَ النّبيُّ ـ ﷺ ـ قد كاتبهم، فكانَ أصحابُ النّبيِّ في سِرٍّ قد اتّفقوا عليه، فأجابوا القومَ بالتّوقُّفِ. وذاك أنّ الأمرَ كان استتبَّ للأسودِ واستفحلَ، فهابوهُ هيبةً شديدةً.

ثمّ إنّه دخلَ جُشنَسُ الدّيلميّ على آزاذ ـ وهي امرأةُ الأسودِ الّتي خَلفَ عليها شهرَ بنَ باذام ـ فقال:

ـ «يا ابنةَ عمٍّ، قد عرفتِ بلاَ هذا الرّجلِ عند قومِكِ. قَتَلَ زوجَكِ وطأطأ في قومِكِ القتلَ، وسفَكَ بالإباحة دماءَ مَن بَقِيَ منهم، وفَضح النِّساءَ، فهل عندك ممالأة عليه؟».

فقالت: «وعلى أيِّ أمره؟».

قال جُشنَسُ:

فقلت: «إخراجُه».

فقالت: «أو قتلُه؟».

قلت: «أو قتلُهُ».

قالت: «نعم. واللّه، ما خلق اللّه شخصاً أبغضَ إليَّ مِنهُ، ما ينتهي عن حرمةٍ

للّه. فإذا عزمتُم فأَعلِموني أُخبركم بِمَأتى هذا الأمرِ».

قال جشنس:

فأَخرُجُ فإذا فَيروز وداذويه ينتظراني، وإذا قيسٌ قد دعاهُ الأسودُ. فدخل إليه في عشرةٍ مِن مَذحج وهَمدان.

فقال له الأسودُ: «يا قيس! ألم أفعل بِكَ، ألم أصنع؟».

يعتدُّ عليه بنعمتِه.

فقال: «بلى».

قال: فإنَّه يقولُ ـ يعني الشّيطان الَّذي معه ـ:

ـ «إنَّ قيساً عَلى الغَدرِ بِكَ، إيهٍ، يا سَوءَة، يا سَوءَة، إلاّ تَقطع مِن قَيسٍ يَدَه، يَقطع قُنَّتَكَ العُليا».

حتّى ظنَّ أنّه قاتِلُه. فقال:

ـ «كذبِكَ وذِي الخمار، فإمّا قتلتَني، فإنّها مَوتةٌ مُريحةٌ أهونُ عليَّ مِن مَوتاتٍ أموتُ بها كلَّ يوم، خوفاً وفَرَقاً، وإمّا صدّقتَني. فواللّه لأنت أهيبُ وأجلُّ في نفسي، مِن أن أحدِّثَها بغَدْرٍ لكَ».

فَرَقَّ له، وأخرجَه.

قال:

فخرج قيسٌ علينا وطوانا، غيرَ أنّه قال:

ـ «اعمَلوا عَمَلَكُم».

ثمّ خرج الأسودُ علينا، فَقُمنا مُثولاً بينَ يديهِ بالبابِ، فقال:

ـ «يا فيروزُ، أحقٌّ ما بَلَغني عنكَ؟ ـ وهيّأ له الحربةَ ـ لقد هَممتُ أن أنحرَك».

فقال فيروزُ:

ـ «اخترتَنا أيُها الملِكُ لِصهرِكَ، وفضّلتَنا على الأبناءِ، ولو لم تكن نبيًّا ما بِعنا نصيبَك ونصيبَنا منك بشيءٍ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمرُ آخِرةٍ وأولى، لا تقبَلَنَّ علَينا أمثالَ ما يبلُغُكَ، فإنّا بحيثُ تُحبُّ».

ثمَّ ذَبحَ الأسودُ مئةً من بين بقرةٍ وبعيرٍ غير محبَّسةٍ ولا معقَّلة، بحربتِه، وقال لِفيروز:

ـ «إقسم هذه، فأنتَ أعلمُ بِمَن هاهنا».

قال فيروز:

ففعلتُ هذا ولحقتُه قبلَ أن يصلَ إلى دارِه، فإذا رجلٌ يسعى إليه بي، فأستمع له وهو يقول:

ـ «أنا قاتلُه غداً وأصحابَه، فاغدُ عليَّ».

ثمَّ التَفتَ فإذا هو بفيروز، فقال:

ـ «مَه؟».

قال: «قد قسمتُها كما أمرتَني».

قال: «أحسنتَ».

وضرب دابَّتَه ودخل. فرجع فيروزُ إلى أصحابه، فأخبرَهم بالخَبَرِ.

قال جُشنَس:

فأرسلنا إلى قيسٍ فجاءَنا. فاجتمع مَلَؤُهم أن أعودَ إلى المرأة فأخبرَها بعزيمتنا لِتُشير علينا برأيها. فأتيتُ المرأةَ وقلتُ:

ـ «ما عندكِ؟».

قالت: «هو متحرِّزٌ محترسٌ، وليس مِنَ القصرِ شيءٌ إلاّ والحرسُ مُحيطونَ بِه غيرَ هذا البيتِ، فإنَّ ظَهرَهُ إلى مكانِ كذا وكذا مِنَ الطَّريقِ، فإذا أمسيتُم فانقُبوا عليه، فإنكُّم مِن دونِ الحرسِ، وليسَ دونَ قتله شيءٌ».

وقالت: «إنكُّم ستجدون فيه سِلاحاً وسِراجاً وهو علامةٌ لكم».

فخرجت من عندها وتلقّاني الأسودُ خارجاً مِن بعض منازِله، فقال:

ـ «ما أدخلكَ عليَّ؟».

ووجَأَ رأسي حتّى سقطتُ، وكان شديداً، وصاحتِ المرأةُ ـ فأدهشته عنِّي، ولولا ذلك لقتلَني ـ وقالت:

ـ «ابنُ عمِّي جاءَني زائراً، فقصَّرتَ بي».

فقال: «اسكتي لا أبًا لكِ! فقد وهبتُه لكِ».

فتحاملتُ وأتيتُ أصحابي فقلتُ:

ـ «النَّجاءَ، الهربَ».

وأخبرتُهم الخبرَ. فإنّا على ذلك حَيارى إذ جاءَني رسولُها يقولُ:

ـ «لا تَدعَنَّ ما فارقتُك عليه، فإنِّي لم أزَل به حتّى اطمأنَّ واعتذر».

فقُلنا لفيروز: «إيتِها وتَثبَّت، فأمّا أَنَا فلا سبيلَ لي إلى الدّخول بعدَ النَّهي».

ففعل. وكان فيروزُ أفطَنَ مِنّا. فلما أخبرتُه الخبرَ قال:

ـ «وكيف ننقُبُ على بيوتٍ مبطَّنة الأبواب؟ ينبغي لنا أن نقلع بِطانةَ الباب».

فدخلا، فاقتلعا البِطانَةَ، ثمَّ أغلقاه وجلسا عندَها كالزائر. فدخل عليها فاستخفّته غيرةً وأخبرته برضاع وقرابةٍ، مِثلُها محرّمٌ. فصاح به وأخرجه وجاءَ بالخبر. فلمّا أمسَينا عمِلنا في أمرِنا وقد كنّا واطأنا أشياعَنا، ولكن عجَّلنا عَن مراسَلتهم. فَنَقَبنا البيتَ مِن خارج، ثمَّ دَخلناهُ، وفيه سِراجٌ تحتَ جَفنةٍ، واتّقينا بِفيروز لأنّه كانَ أنجدَنا وأشدَّنا، فقُلنا:

ـ «انظُر ماذا تَرى وأينَ موضعُه؟».

فدخل ونحن بينَهُ وبينَ الحرسِ الّذين معهُ في مقصورته. فلمّا دَنا مِن بابِ البيتِ سَمع غطيطاً شديداً، فإذا المرأة جالسةٌ. فلمّا قام على الباب فتح عينيهِ فقال أيضاً:

ـ «ما لي وما لك يا فيروز!».

فخشي أن يرجعَ لأخذِ السِّلاح وإعلامِنا فنهلَك وتَهلكَ المرأةُ فعاجلهُ ـ وكان مِثلَ الجَملِ ـ فأخذ برأسِه فدقَّ عُنقَهُ ووضعَ رُكبتهُ في ظَهره فدقّه، ثم قام ليخرجَ. فأخذَتْ بثوبه وهي تَرى أنّه لم يقتلهُ، وقالت:

ـ «أينَ تَدَعُني؟».

قال: «لا بأس، أُخبرُ أصحابي وأعودُ معهم».

فأتانا وقُمنا معه فأردنا حزَّ رأسِه. فتحرّكَ واضطربَ فلم نضبطه، فقلتُ:

«اجلسوا على صدره».

فجلس الاثنان على صدره وأخذت المرأةُ بشعرِه، وسمعنا بَربَرَةً، فألجمَتهُ بميلاة، وأُمرُّ الشَفرةَ على حَلقِه، فخار كَأشدِّ خُوارٍ مِن ثَورٍ سَمِعتُه قطُّ.

فابتدَرَ الحرسُ البابَ وهم حَولَ المقصورة:

ـ «ما هذا، ما هذا؟».

فقالتِ المرأة: «النّبيّ يوحى إليه، اهدأوا!».

فخمد. ثم سهرنا لَيلَتنا ونحن نأتمر: كيف نُخبر أشياعنا ليس غيرنا ثلاثتنا: أنا وفيروز وقيس. فأجمعنا على النّداء بشَعارِنا الّذي بيننَا وبين أشياعنا، ثم ننادي الأذان. فلمّا طلع الفجرُ فعلنا ذلك فتجمّع الحرس فناديتُهم:

ـ «أشهَدُ أنَّ محمداً رسولُ اللّهِ وأنَّ عَبهَلةَ كذّابٌ».

وألقينا إليهم برأسِه، وخلصت صَنعاءُ والجَنَدُ، وأعزّ اللّه الإسلام، وتنافسنا الإمارةَ، وتراجع أصحابُ رسولِ اللّهِ - ﷺ - إلى أعمالهم فاصطلحوا على معاذٍ، فكان يصلّي بِنا. وكتبنا إلى رسول اللّه - ﷺ - بالخبر، وذلك في حياته فقدمَت رُسُلنا وقد ماتَ النّبيُّ - ﷺ - صبيحةَ اللّيلةِ الّتي فَتَكنا فيها بالأسود فأجابَنا أبو بكرٍ رضي اللّه عنه.

أسماءُ كُتَّابِ النّبيِّ ﷺ

كانَ عليّ بنُ أبي طالبٍ وعثمانُ بنُ عفّان يكتبانِ الوحيَ، فإن غابا كتبهُ أبيُّ بنُ كعبٍ وزيدُ بن ثابتٍ، فإن لم يشهد هؤلاءِ كتبهُ سائرُ الكُتّاب، وهم: عُمر بن الخطّابِ، وطلحةُ، وخالدُ بنُ سعيدٍ، ويزيدُ بنُ أبي سُفيان، والعلاءُ الحضرمي، وأبو سلمةَ بنِ عبدِ الأشهلِ، وعبدُ اللّه بنِ أبي سرحٍ، وحُوَيطِبُ بنُ عبدِ العُزّى، وأبو سفيان بنُ حربٍ، ومعاويةُ، وعُثمان، وأبانُ: ابنا سعيدٍ، وحاطبُ بنُ عمروٍ، وجُهَيمُ بنُ الصَّلتِ.

وكان خالدُ بن سعيدٍ بنِ العاصِ ومعاويةُ بنُ أبي سفيان يكتبانِ بينَ يديهِ في حوائجه. وكانَ المغيرةُ بنُ شعبةَ والحُصينُ بنُ نُميرٍ يكتبانِ بينَ النّاسِ ويَنوبانِ عن خالدٍ ومعاويةَ، إذا غابا. وكان عبدُ اللّه بنُ الأرقم ربما كتب إلى الملوك عن النّبي - عليه السّلام - وكان زيد بن ثابتٍ مع ما يكتبه من الوحي، يكتب إلى الملوك، وكان يُحسن بالفارسيّة وبالرّومية وبالحبشيّة. وكان حنظلةُ بنُ الرّبيع خليفةَ كلِّ كاتبٍ من كُتَّابِ النّبيّ - عليه السّلام - غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب من بينهم. وكان النّبيُّ - عليه السّلام - يَضعُ عندَه خاتَمَه، وقال له:

- «الزمني وأَذكرني بِكلِّ شيءٍ لثالثةٍ».

فكان لا يأتي على مالٍ ولا حاجةٍ ثلاثةُ أيامٍ إلاّ ذكّره به، فلا يبيت - عليه السّلام - وعنده منه شيءٌ.

فأمّا عبدُ اللّهِ بن سعد بن أبي سَرحٍ، فإنّه ارتدَّ بعد كتابته للنّبيِّ - عليه السَّلام - وكان يتكلّم، فَسمِعه رجلٌ من الأنصار، فحلف باللّه: لئن أمكنَهُ اللّه مِنهُ لَيضرِبَنَّهُ بالسَّيف. فلمّا كان يومُ فتحِ مكّة، جاء به عثمان - وكان بينَهما رِضاعٌ - فقال:

- «يا رسولَ اللّه، هذا عبدُ اللّه، أَقبلَ تائباً».

فأعرضَ عنه، والأنصاريُّ حاضِرٌ بيدِه السَّيفُ. فأعادَ عليه عثمان القولَ. فأعرض عنه. فلمّا أعاد الثّالثة مدّ - ﷺ - يَدَهُ، فبايَعَهُ وقال للأنصاري:

- «لقد تلوّمتَ أن تُوَفّيَ بِنَذرِكَ».

فقال: «فهلاّ أومضتَ إليّ؟».

فقال: «إنّه لا يَنبَغي للنَّبيِّ أن يُومِضَ».

مِمَّا حدث في خلافةِ أبي بكر

وَمِن صَرامَةِ الرَّأيِ وحَصافَتِه ما كانَ
مِن أبي بكرِ رضي اللّهُ عنه

وذلك أنَّه لمّا مات النَّبيُّ ـ ﷺ ـ ارتدَتِ العربُ واضطرمتِ الأرضُ واشتغل النّاس بالمرتدّين وتروخي عن مسيلمةَ وطُليحةَ. فاستغلظَ أمرهما وارتدّت من كل قبيلةٍ عامَّةٌ وخاصَّةٌ إلا قُريشاً وثَقيفاً. فتشدَّد أبو بكر وكان فيه لينٌ، إلاّ أنّه حَزُمَ وحَصفَ وخالفَ النّاسَ، وكانوا أشاروا عليه بالمقاومة. وذلك أنَّ أسامةَ بنَ زيدٍ كانَ غائباً بالجيش الّذي جهَّزه رسولُ اللّه ـ عليه السّلام ـ معه إلى حيث. قُتل فيه أبوه زيدٌ، وكان أهلُ المدينة في قلّةٍ، وكان طليحةُ قد قَوِيَ بأَسَدٍ وغَطفان وطيِّءٍ. فبعثوا وفوداً إلى أبي بكرٍ ـ رضي اللّه عنه ـ مِن كلِّ قبيلةٍ، ونزلوا على وجوهِ النّاس على أن يُقيموا الصَّلاةَ ولا يؤتُوا الزَّكاةَ. فَجرَّدَ أبو بكرِ العزيمةَ وقال:

ـ «لَو مَنعوني عِقالاً لَجاهدتُهم عَليهِ».

فرجعوا فأخبروا عشائرَهم بقِلَّةٍ من أهلِ المدينةِ وأطعَمُوهُم فيها.

فكانَ مِن حَصافَةِ أبي بكرٍ أن جَعلَ على أنقابِ المدينة بعدَ خروجِ الوفدِ عَليًّا والزّبيرَ وطلحةَ ونَفَراً مَعَهم. وأخذَ أهلَ المدينةِ بِحضورِ المَسجدِ، وقال لهم:

ـ «إنَّ الأَرضَ كافِرَةٌ، وقد رَأى وَفدُهم منكم قِلَّةً، وَأنَّكم لا تَدرُونَ أَلَيلاً تُؤتَونَ، أم نهاراً؟ وَأدناهُم مِنكُم على بَريدٍ وَقَد كانَ القَومُ يأملونَ أن نُوادِعَهم، وَنقبلَ مِنهُم. وقد أَبَينا عَلَيهِم، وَنَبَذنا إلَيهِم فاستَعدُّوا وأَعِدُّوا».

فما لبثوا إلاّ ثلاثاً حتّى طَرَقُوا المدينَةَ غارَةً مع اللّيل وخلّفوا رِدءاً لهم بِذي حُسًى، فوافَوا الأنقابَ وعليها المقاتلةُ ودونهم أقوامٌ يدرجون. فنهنهوهم وأرسلوا إلى أبي بكرٍ بالخبر. فخرج أبو بكر في أهل المسجد على النّواضح إليهم فانهزموا واتّبعهم المسلمون على إبلهم حتّى بلغوا ذا حُسًى. فخرج عليهم الرِّدءُ بأنحاءٍ قد نفخوها وجعلوا فيها الجبالَ، ثم دهدهوها بأرجلهم في وجوه الإبل فَتَدَهدَهَ كلُّ نَحي في طِوَلِه فنفرت الإبلُ إبلُ المسلمين وهم عليها، ولا تنفرُ من شيءٍ نفارها من الأنحاءِ. فعاجت بهم ما يملكونها حتّى دخلت بهم المدينة، إلا أنّه لم يُصرَع مسلمٌ ولم يُصَب، وظَنَّ القومُ بالمسلمين الوهنَ فبعثُوا إلى النّاس بالخبر فقدموا عليهم أعماراً.

وبات أبو بكر ليلته يتهيَّأ، فعبّى النّاس، ثم خرج في تعبئتِه من أعجاز ليلتِه يمشي، فما طلع الفجر إلاّ وهم مع العدوّ في صعيدٍ واحدٍ. فما سمعوا لأحدٍ من المسلمين همساً ولا حِسًّا حتّى وضعوا فيهم السُّيوف. فما ذرَّ قَرنُ الشَّمس حتّى ولُّوهم الأدبارَ وغَلبُوهم على عامَةِ ظَهرِهم، وقُتل رئيسُهم حِبالُ وكان صاحبَ طُليحةَ، واتّبعهم أبو بكرٍ ـ فكان أوَّلَ فتح ـ فلمّا بَلغَ ذا القصَّة وَضعَ بها النّعمانَ بن مُقرّنٍ في عدَدٍ، وَرَجعَ إلى المَدينةِ، فذلَّ المُشركونَ وعزَّ المسلمونَ بوقعة أبي بكر ـ رضي اللّه عنه ـ فوثب بنو ذُبيانَ وعبسٌ على مَن فيهم من المسلمين فقتلوهم كلَّ قتلةٍ، وفَعل مَن وراءَهم فِعلَهم. فحلف أبو بكرٍ ليقتُلَنَّ في كل قبيلةٍ قَتَلَةَ مَن قُتِلُوا ولَيزيدنّ وَلَيفعلَنَّ ولَيصنعَنَّ.

فوفى بذلك، فازدادَ المسلمون ثَباتاً على دينهم وتفرَّق أمرُ المشركينَ، وطرقَت المدينةَ صدقاتُ صفوانٍ والزّبرقان وعديٍّ. فاستَبشَرَ لذلك أبو بكر والمسلمونَ، وذلك لستِّين يوماً من خروجِ أُسامةَ.

ثم قدم أسامةَ واستخلفَهُ أبو بكرٍ على المدينةِ وقال له ولجنده: «أَريحُوا واستَريحُوا».

ثمّ خرج بنفسه مع الّذين كانوا على الأنقاب، فقال له المُسلمونَ:

ـ «ننشدك اللّهَ أن تُعرِّضَ نفسَكَ، فإنَّك إن تُصَب لم يكن لِلنّاسِ نِظامٌ. ومُقامُكَ أشدُّ على العدوِّ. فابعَث رَجُلاً إن أُصيبَ أمَّرتَ آخرَ».

فقال: «لا وَاللَّه حَتّى أُواسِيَكم بِنَفسي».

فخرَجَ في تعبئته إلى ذي القصّة وَالنُّعمانُ وأصحابُه على ما كانوا عليه، حتّى نزل على أهلِ الرَّبذه بالأبرقِ. فاقتتلوا، فَهُزِم القومُ وأخِذَ الحُطَيئَةُ أسيراً، وطارت عبسٌ وبنو بكرٍ. فأقام أبو بكرٍ على الأبرقِ أيّاماً وقد غَلَبَ بني ذُبيانَ على البلادِ، وقال:

ـ «حرامٌ على بني ذبيان البلاد أن يطأُوها بعد أن غَنَّمَناها اللّهُ».

فلمّا غُلِبَ أهلُ الرِّدَّةِ وَدَخَلوا فيما خرجوا منه، جاءت بنو ثعلبةَ ومَن كان ينازلُهم. فَمُنِعُوا منها فأَتوه في المدينةِ فقالوا:

ـ «عَلامَ نُمنعُ مِن لُزومِ بِلادِنا؟».

فقال: «كذِبتم، ليست لكم ببلادٍ».

عَقدُ أحدَ عشرَ لِواءَ لِمحاربة أهل الرِّدَّةِ

ثمّ حَمِيَ بلادَ الرَّبذةِ كلَّها لِصدقاتِ المُسلمينَ وجاءَت الصَّدقاتُ الكثيرةُ. فلمّا أراحَ أسامةُ وجنودُه ظهورَهم وجَمُّوا، عَقَدَ أبو بكرٍ أَحدَ عشرَ لِواءَ وقَطعَ عليها البعوثَ: عَقَدَ لخالدِ بنِ الوليدِ وأمره بطُليحةَ بن خُويلِدٍ، فإذا فَرغَ منه سارَ إلى مالك بن نُويرةَ

بالبِطاحِ إن قامَ لَهُ؛ وَعَقَدَ لعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ وأَمَرَهُ بمسيلمةَ؛ وَعَقَدَ للمهاجرِ بنِ أبي أميّةَ وأَمَرَهُ بجُنودِ الأسودِ العَنسي ومَعُونَةِ الأَبناءِ على قيسِ بنِ المكشوحِ وَمَن أَعانَهُ مِنَ اليَمنِ عَلَيهِم، ثم يمضي إلى كندةَ بحضرموت؛ وَعَقد لخالد بنِ سعيد بن العاصِ وكانَ قَدِمَ من اليَمنِ، وتَرَكَ عملَه؛ ولعمرو بن العاص إلى جُمّاعِ قضاعةَ ووديعةَ والحارثِ؛ ولحذيفَة بنِ مِحصَنٍ، وأَمَرَهُ بأهلِ دَبا؛ ولعرفجةَ بنِ هرثمةَ، وأَمَرَهُ بمَهرَة؛ ولشرحبيلِ بنِ حسنةٍ على قضاعة؛ ولطُرَيفَة بن حاجزٍ، وأَمَرَهُ ببني سُلَيم وهوازن؛ ولسويدِ بنِ مُقرّن وأَمَرَهُ بتِهامةِ اليمنِ؛ وللعلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين.

ففصل الأمرَ من ذي القصّة وقد كتب لهم عهدَهم، فلحق بكلِّ أميرٍ جندُه. وكَتَبَ إلى جميع المُرتدَّةِ كتباً بليغةً بالإعذارِ والإنذارِ والتّرغيبِ والتَّرهيبِ، ونَفَذَتِ الرُّسُلُ أمامَ الجنودِ بالكتبِ ونفذ خالدٌ إلى طُليحةَ، فهزمَه وفَضَّ خَيلَه.

وكان طُلَيحةُ ارتَدَّ في حَياةِ رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ وادَّعى النّبوَّةَ. فوجَّه النَّبيُّ ـ ﷺ ـ ضرارَ بن الأزوَر عاملاً على بني أَسَدٍ وأَمَرهم بالقيام في ذلك على كلِّ مَن ارتدَّ فأشجَوا طُليحةَ وأخافوهُ ونقص أمره، حتّى لم يبقَ إلاّ أخذُه سِلماً. سوى أنّه كانَ ضُرِبَ ضَربةً بالجُراز، فَنَبا عنه. فشاعت في النّاس وأَتَى المسلمينَ ـ وهم على ذلك ـ موتُ نبيِّهم. وقال ناسٌ:

ـ «إنَّ السِّلاحَ لا يَعملُ في طُلَيحَة».

فَقَوِيَ أمرُهُ ونقصَ أمر المسلمين لذلك، حتّى إنّهم قالوا عرفنا ذلك في أَنفسنا يَومَ وَرَدَ علينا الخبرُ بوفاةِ رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ.

وقامَ عُيينةُ بن حِصنٍ بنَصرِه، وقام في غطفان فقال:

ـ «ما أَعرِفُ حُدُودَ غطفان منذُ انقطعَ ما بيننا وبين بني أَسَدٍ، وإنِّي مجدِّدُ الحِلفَ الّذي كان بينَنا في الجاهليةِ، ومُتابعٌ طُلَيحةَ، واللّهِ لأن نَتَّبعَ نَبيًّا مِن الحَليفينِ أحبُّ إلينا من أن نتَّبعَ نبيًّا مِن قُريشٍ».

وقد مات رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ وبقي طُليحةُ، فطابقوه على رأيه. فلمّا قَوِيَ أمرُ طليحة واستفحلَ، هَرَبَ ضرارٌ وأصحابُ النّبيِّ ـ ﷺ ـ وطارُوا كُلَّ مَطارٍ.

قال ضرارُ بنُ الأزوَر: «فما رأيتُ أحداً ـ لَيسَ رسُولَ اللّهِ ـ أَملأَ لِحَربٍ شَعواء من أبي بَكرٍ، لَجَعلنا نُخبِرهُ ولكأنّما نُخبرُهُ بما لَهُ، لا عليه».

صَرامة عُمر وحَصافتُه في هذا الوقت

وَمِمّا ظَهَرَ مِن عُمَرَ ـ رَضِيَ اللّه عَنهُ ـ في هذا الوقتِ صَرامةٌ وحَصافَةٌ: أنَّ عَمرو بنَ العاصِ كانَ بِعُمان. فلمّا ماتَ رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ أقبل حتّى انتهى إلى

البحرين، وسارَ في بني تميم، وفي بني عامرٍ، حتّى قَدِمَ المدينةَ، فأطافت به قريشٌ وسأَلُوهُ. فأخبرهم أنَّ العساكِرَ معسكِرةٌ من دَبا إلى حيثُ انتهيت إليكم. وأخبرهم من اضطرابِ الإسلام وقوّةِ الأعداءِ ما كسرَهم. فتفرَّقُوا وتحلَّقوا حَلَقاً. وأقبل عُمرُ بنُ الخطّابِ يُريد التَّسليم على عمروٍ. فمرّ بحلقةٍ وهم في شيءٍ مِمّا سَمِعُوا مِن عمرو، وفي تلك الحلقةِ عثمانُ وعليٌّ وطلحةُ والزّبيرُ وعبدُ الرحمان بنِ عوفٍ وسعدٌ. فلمّا دَنا عمرُ منهم سكتوا.

فقال عمرُ: «فيم أنتم؟».

فلم يُخبروهُ، فقال: «ما أعلمني بالَّذي خلَوتُم له».

فغَضِبَ طلحةُ وقال: «يا ابنَ الخطّابِ أُتخبرنا بالغيب؟».

فقال: «لا يعلم الغيبَ إلاّ اللَّهُ، ولكن أَظُنُّ أنّكم قُلتم: ما أخوفَنا على قريشٍ، من العَرَبِ وأخلقَهم ألاّ يُقِرُّوا بِهذا الأَمرِ».

قالوا: «صدقتَ».

قال: «فلا تخافوا هذه المنزلةَ. أَنَا واللَّه مِنكم عَلَى العَرب أخوفُ منِّي عَلَيكم مِنَ العَرَبِ، واللَّه لَو تدخُلونَ معاشرَ قريشٍ جُحراً لدَخلَته العَرَبُ في آثارِكم. فاتَّقُوا اللَّهَ فيهم».

ثم مَضى عُمَرُ إلى أبي بكر واجتمع مع عمرو.

إسلام طُليحةَ بعدَ ارتدادِه وادِّعائه النّبوَّةَ

فأمّا طُليحةُ، فإنّه لما هُزم أصحابُه، هَرَب حتّى نزل على كَعبٍ على النَّقع. فأسلم، ولم يَزَل مُقيماً في كَلبٍ حتّى مات أبو بكرٍ. وإنّما أَسلمَ هنالك حتّى بَلغهُ أَنَّ أسداً وغطفانَ وعامراً قد أسلموا. فلمّا ماتَ أبو بكرٍ، أتى عُمَرَ للبَيعةِ، فقال له عُمَر:

ـ «أنتَ قاتلُ عَكاشةَ وثابتٍ، واللَّهِ لا أُحبُّك أبداً».

فقالَ يا أمير المُؤمنينَ، ما تنقم عليَّ من رجلين أكرمَهُما اللَّهُ بيدي وَلَم يُهِنّي بِأَيديهِما.

فبايعَه عُمرُ. ثمَّ قال له خُريم:

ـ «ما بَقِيَ من كهانَتِكَ؟».

قال: «نَفخةٌ أو نفخَتانِ بالكِير».

ثُمَّ رجع إلى دار قومِه، وأقام بها حتّى خرج إلى العراقِ.

وَلَمّا أعطى أهل بُزاخة من أسدٍ وغطفانَ وطيِّئ بأيديهم على الإسلام، لم يقبل

خالدٌ من أحدٍ منهم ولا من هوازنَ وسُلَيم إلاّ على أن يأتُوا بالّذين حرقوا ومثّلوا وعدَوا على أهلِ الإسلام في حال رِدّتِهم. فأتَوهُ بهم، فقتلَ منهم إلاّ قُرَّة بن هُبَيرة ونفراً معه أوثَقَهم، ومثَّل بالّذين مثَّلوا بالمسلمين، وأحرقهم بالنِّيران، ورضخهم بالحجارة، ورَمى بهم من الجِبالِ، ونَكَّسَهُم في الآبارِ، وخرق بعضَهم بالنِّبالِ، وكَتب بخبرهم وما صَنعَ، إلى أبي بكر.

فكَتبَ إليه أبو بكر:

«ليزِدك اللّهُ ما أنعم به عليك خيراً، فاتّقِ اللّهَ، ولا تظفَرنَّ بأحدٍ قَتلَ المسلمينَ إلاّ قَتلتَه ونَكلتَ به غيرَه، وإن كُنتَ أحيَيتَ مِمّن حادَّ اللّهَ وضادَّهُ فاقتُلهُ».

فأقام خالدٌ شَهراً على بُزاخةَ يصعّدُ ويُصَوِّبُ ويرجع في طلبِ القوم، فمنهم مَن يُحرِقُ، ومنهم من يرضخُه، ومنهم مَن يرمي به من الجبل.

مكيدةُ للفُجاءَةِ تمَّت عليه

وقدم الفُجاءة بنُ إياسِ بن عبدِ ياليل على أبي بكرٍ، فقال:

ـ «أعِنّي بِسِلاحٍ، ومُرني بما شِئتَ، ومَن شِئتَ مِن أهلِ الباديةِ».

فأعطاه سِلاحاً، وأَمَرَهُ أمرَهُ، فحالفَه، وخَرجَ، ونَزلَ الجِواءَ، وبعث نجبة بن أبي الميثاءِ، وأمرَهُ بالمسلمين، فشنَّها غارةً على كلِّ مسلم في سُليم وهوازنَ، وبَلغَ ذلك أبا بكرٍ، فأرسلَ إليه مَن حاربَه بالجواءِ حرباً شديداً، فقُتِل نجبةُ، وهَربَ الفُجاءةُ، فلَحِقَهُ من أَسَرَه وبَعَثَ به إلى أبي بكرٍ، فأُوقِدَ له في مُصلَّى المدينةِ حَطَبٌ كثيرٌ، ثُمَّ رُمِيَ به في النّار مقموطاً.

قتلُ مُسَيلمةَ في حَديقةِ المَوتِ ومكيدةٌ لمُجَاعةَ على خالدٍ

وَمِن وُجُوهِ المَكائدِ في الحَربِ أنَّ خالداً لمّا مَضى نحوَ اليَمامَةِ قاصداً مُسَيلمةَ، فضرب بها عسكره، خرج أهلُ اليَمامةِ معَ المُسَيلمةِ. ثمَّ التقى النّاسُ، ولم تلقهم حربٌ قَطُّ مِثلُها من حربِ العرب. فاقتتلَ النّاسُ قِتالاً شديداً حتى انهزم المسلمونَ، وخاضوا إلى فُسطاطِ خالدٍ، فَزالَ خالدٌ عنه، وأسلمَ امرأته أمَّ تميم. فَرَعبَلوا الفُسطاطَ بالسُّيوفِ.

ثمَّ إنّ المسلمينَ تداعَوا وتبرَّأُوا إلى اللّهِ مِمَّن انهزَمَ، وجالَدُوا حتى قُتِلَ زيدُ بن الخطّابِ وعدَّةٌ من خِيار النّاسِ، وخَلَصُوا إلى مُحَكَّم اليَمامةِ، وكان سيِّداً فيهم، فقاتلَ قِتالاً شديداً حتّى قُتِل، وزحف المسلمون، واشتدّ القِتال. فكانت يومئذٍ سجالاً إنّما يكونُ مَرَّةً على المسلمين، ومرَّةً على الكافرين. واستحرَّ القتالُ في المهاجرين والأنصار، وثَبَتَ مسيلمةُ، ودارت رَحَاهم عليه.

فعرف خالدُ بنُ الوليدِ أنّها لا تركُد إلاّ بقتلِ مُسيلمةَ، ولم تحفِل بنو حنيفَة بقتلِ مَن قُتِلَ منهم. فبرزَ خالدٌ حتّى إذا كان أمامَ الصَّفِّ دَعا إلى البراز، وانتمى وقال:

ـ «أنَا ابن الوليدِ العود، أنَا ابنُ عامرٍ وزيدٍ».

فَجَعَلَ لا يبرز له أحدٌ إلاّ حطَّمه وقَتَلَهُ. ودارت عليه رَحى المسلمين فطَحنت.

ثمَّ دنا خالدٌ من مُسيلمةَ، فدعاهُ منادياً بأعلى صوته ليطلب غِرَّتَه، وذلك لما علم أنّ الحربَ لا تزولُ إلاّ بِزوالِه، فأجابه مُسيلمةُ. فعرَضَ عليه أشياءَ ممّا يشتهي مُسيلمةُ، ثمَّ قال له:

ـ «إن قبلنا النّصف، فأيُّ الأنصاف تُعطينا؟».

فكان إذا همَّ بجوابِه، أعرضَ عنه مستشيراً شيطانَهُ، فكان شيطانُه ينهاه أن يَقبَلَ، فأعرضَ بوجهِه مرّةً من ذلك، فركِبَهُ خالدٌ فأرهَقَهُ، فأدبَرَ، وزالوا، فذَمَرَ خالدٌ النّاسَ، وقال:

«دُونَكم لا تُقيلوهُم».

فاقتحمُوا حديقةَ المَوتِ، فاقتحم النّاسُ عليهم، فقَتلُوا منهم عشرةَ آلاف، وقُتِلَ مُسيلمةُ. قتلَهُ وحشيٌّ بِحَربته، وأَعانَه رجُلٌ من الأنصارِ.

وكان خالدٌ ظَفِرَ قبلَ هذه الوَقعةِ بمُجَاعَةَ مع نَفَرٍ معه كانوا خرَجُوا في سَرِيَّةٍ لَهُم، وكان ظَنَّ أنَّهُم استقبلوه. فلمّا سألهم صَدَقوه. ولو عرفوا خَبَرَه لقالوا: إنّما استقبلناك، فسلموا. فعرضهم على السَّيف، فقتلهم عَن آخِرهم إلاّ مُجَاعة، فإنَّه استحياه طمعاً في الانتفاع به. فلمّا فُرغ من قتلِ مسيلمةَ وأُخبرَ به أُخرِجَ مُجَاعة يرسُف في الحديدِ ليدُلَّه على مسيلمةَ، فجعل يكشفُ له القتلى حتّى مرَّ بمُحكَّم اليمامة، وكان وسيماً حَسَناً. فلمّا رآه خالدٌ قال:

ـ «هذا صاحبكم؟».

قال: «لا، هذا واللّهِ خيرٌ منه وأكرمُ، هذا محكَّم اليمامة».

ثم مَضى خالدٌ يكشف له القتلى. فإذا رُويجل أصفر أخَينِس، فقال مُجَاعةُ:

ـ «هذا صاحبكم، قد فرغتم منه».

فقال خالدٌ لمُجَاعةَ: «هذا فعل بكم ما فَعَل».

قال: «قد كان ذلك يا خالدُ، وإنّه واللّه ما جاءَكَ إلاّ سَرَعانُ الخيلِ، وإنّ الحصونَ لَمَملُوءَةٌ رِجالاً، فهلُمَّ أصالحكَ على قومي».

يقول ذلك لِرجلٍ قد نهكتهُ الحربُ، وأصيب معه من أشراف النّاس مَن أصيبَ،

فقد رقّ، وأحبّ الدَّعة والصُّلح.

فقال: «هلُمَّ أصالحك. فصالَحَهُ على الصّفراءِ والبَيضاءِ والحَلقة ونِصفِ السّبيِ».

ثمَّ قال: «فآتِي القومَ فأعرِضُ عليهم ما قد صنعتُ».

قال: «انطلِق إليهم».

فذهب وقال للنِّساءِ ـ وليس في الحصون إلاّ النِّساء والصِّبيان ومَن ليس به طِرق من الشّيوخ:

ـ «البَسنَ الحديدَ، ثمَّ أشرِفنَ على الحُصونِ، وانشُرنَ شُعورَكنَّ».

ثمَّ كرَّ نحوَ خالدٍ وقال:

ـ «أبوَا ما صالحتُك عليه، ولكن صالِحني على رُبع السَّبيِ لأعزمَ على القومِ».

قال خالدٌ: «قد فعلتُ». فسرّحه وقال:

ـ «أنتم بالخيار ثلاثاً، واللّهِ لئن لم تُتِمّوا ولم تَقبلوا، لأنَهدنّ إليكم، ثمَّ لا أقبلُ منكم خَصلةً أبداً إلاّ القتلَ».

فكان خالدٌ إذا نظر إلى الحصونِ رَآها مملوءَة الحيطانِ بالسّلام والسّواد، فيراها رجالاً وإنّما هي النِّساءُ.

فلمّا رجع مجّاعة إليهم قال: «فأمَّا الآن فاقبَلُوا».

ورجع إلى خالدٍ، وقال: «بعد شرٍّ ما قَبِلوا، اكتُب كتابَك».

فكتب:

«هذا ما قاضى عليه خالدُ بنُ الوليدِ مُجّاعَةَ بنَ مرارةَ وفلاناً وفلاناً، قاضاهم على الصَّفراءِ، والبيضاءِ، ورُبع السَّبيِ، والحَلقةِ، والكُراع، وحائطٍ مِن كلِّ قريةٍ ومَزرعةٍ، على أن تُسلموا، ثمَّ أنتم آمِنون بأمان اللّهِ ولكم ذِمَّةُ خالدِ بن الوليدِ، وذمَّةُ أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ وذِمَمُ المُسلمين على الوَفاءِ».

فلمّا فرغ خالد بن الوليد من هذه الوقعةِ والصّلح، فُتحتِ الحصونُ، فإذا ليس فيها إلاّ النّساءُ والصّبيانُ! فقال خالدٌ لمجّاعة:

«وَيحكَ، خدعتَني!».

قال: «قومي، ولم أستطع إلاّ ما صنعتُ».

ولمّا فرغ خالدٌ من هذه الوقعة أمَرهُ أبو بكرٍ بالمسير إلى العِراق، وكان ما كانَ مِن أمرِه مع الفُرس، ولم أجد في تلك الحروب والوقَعات مع عِظَمِها وشدَّتِها موضعَ حيلةٍ، ولا موقعَ تدبيرٍ تُستفادُ منه تجربةٌ إلاّ اليَسير مِمّا سنذكرُهُ، وباقيه كلُّه جهادٌ من القَوم

ونصرٌ مِنَ اللَّهِ واجتهادٌ مِن المسلمين، وخذلانٌ لِلفُرسِ، وانصرامٌ لِمُدَتِهم، وانقضاءٌ لمُلكهم. وكانَ شَرطنا في أوّلِ الكتاب ألاّ نُثبِتَ من الأخبار إلاّ ما فيه تدبيرٌ نافعٌ للمستقبَل، أو حيلةٌ تمّت في حَربٍ، أو غيرها، ليكونَ مُعتَبَراً وأدباً لِمَن يَستأنِفُ مِنَ الأمرِ مثلَه، فلذلك تركنا إثباتَ هذه الوقائع، وعلى أنّا سنذكُرُ الجُمَلَ الّتي فيها أدنى تنبيهٍ على موضعِ فائدةٍ، ولأجل ذلك، تركنا ذِكرَ أكثَرِ مغازي رسولِ اللّه - ﷺ - ووقعاته، لأنّها كلَّها توفيقُ اللَّهِ ونَصرُهُ وخذلانُ أعدائه، ولا تجربةَ في هذا، ولا تُستفادُ منه حيلةٌ، ولا تدبيرٌ بَشريّ.

ومن الآراءِ السَّديدةِ ما كان من خالدٍ بالشّام يومَ اليرمُوك

وذلك أنّ خالداً افتتح السّوادَ الّذي بينه وبين دجلةَ، وحازَ غربيَّ دجلةَ كلَّها بوقائعَ كثيرةٍ وحروبٍ عظيمةٍ، وشُغِل الفرسُ عن أمر المُلك. فإنّ أردشيرَ بنَ شيرى ماتَ وقد كانَ هَلكَ العُظماءُ وأهلُ بيتِ كسرى بما أفناهم شيرى، وبغزواتِ خالدٍ للعظماءِ، وتفرَّغ أبو بكرٍ للشّام، وكانَ أمَرَ خالداً ألاّ يَقتحِمَ على الفُرسِ، لأنَّ مسالحَ لهمّ كانت مِن وراءِ المسلمين. فَخشِيَ أن يُؤتَوا مِن ورائهم، وقد كان المسلمون أشرفوا على الهلاكِ بالشّامِ لكثرةِ جُنودِ الرُّوم. فكتب أبو بكرٍ إلى خالدٍ يأمرُهُ أن يستخلِفَ على جُنده، ويسيرَ في عددٍ وافرٍ إلى إخوانِه المسلمين بالشّام.

ولمّا اهتمَّ بأمر الشّام كَتبَ إلى عَمرو بنِ العاصِ، وإلى الوليدِ بن عُقبةَ، وكانا على عملٍ من الصَّدقاتِ. أمّا عمرٌو فكان على صدقاتِ هُذَيم وعُذرةَ ومَن لفَّ لِفَّها. وأمّا الوليدُ فكانَ على النِّصفِ من صدَقاتِ قُضاعةَ. فكتبَ أبو بكرٍ إليهما يُرَغِّبُهُما في الجِهاد ويُخَيِّرهُما بين أعمالِهما وما ندبَهُما إليه، فكتَبا بإيثارِ الجهادِ، فكتب أبو بكرٍ بأن يَندُبا مَن يليهِما، ويستخلِفا على أعمالِهما. ثمَّ نَدَبَ أبو بكرٍ مَن كان اجتمعَ إليه، وقوّى بهم عَمراً، وأمَّره على فلسطين وأمره بطريقٍ سمّاها له. وولّى الوليدَ الأردنَ، وأمدَّه ببعضِ من كان اجتمع إليه. ودَعا يزيدَ بنَ أبي سفيانَ فأمَّره على جُندٍ عظيم هُم جُمهورُ مَن انتدبَ له، وفي جُندِه سُهيل بن عَمرو، وأشباهه. واستعملَ أبا عُبيدَةَ وأمَّره على حِمصٍ مع جُندٍ.

وكان قد قدّم خالدٌ سعيدَ بن العاصِ، وأمَره أن يأتي تَيماءَ، ويُقيم بها، فلا تتجاوزَها، وينتدِبَ إليه مَن حولَه ويتقوّى به، حتّى تأتِيهُ الجنودُ. وسمّي ليزيدَ بنِ أبي سفيان دِمَشقَ، ولشُرحبيل بن حسنة الأردنَ. فتوافَى الجندُ أطرافَ الشّام مع الأمراءِ الأربعةِ، وهم سَبعةٌ وعشرونَ ألفاً. وأمَّر أبو بكرٍ معاويةَ وشرحبيل على ثَلاثة آلافٍ، وكان عِكرمةُ بن أبي جهلٍ رِدءاً لهم في ستّةِ آلاف. وكان في ثغر الرّوم أبو عُبيدةَ،

فشَجِيَ بالرّوم وكثُروا عليه، فكتب إلى أبي بكرٍ يستمِدُّ، وأمدّهم بخالد بن الوليد من العراق في عشرة آلافٍ، فكانوا ستّةً وأربعين ألفاً، وكان قتالُهم على تساندٍ: كلُّ جندٍ وأميرهم، لا يجمعُهم أميرٌ واحدٌ حتّى قدم عليهم خالدُ بنُ الوليد مِنَ العراقِ.

فلمّا قدِم خالدٌ، وجدَ الرّومَ في جمع عظيم وقد استمدّوا المستعربةَ ونصارى العربِ ومَسالحَ الفُرسِ، فكانُوا في مائتي ألْفِ مُقاتلٍ على حَنقٍ شديدٍ، وهم يُقاتلون بنشاطٍ واجتماعٍ. ورَأى المسلمينَ متساندين، يُقاتل كلٌّ قوم مع أميرِهم.

فقال لهم: «هل لكم يا معشرَ الرّؤساءِ في أمرٍ يُعزّ اللّهُ به الدّينَ، ولا يدخلكُم منه نقيصةٌ ولا مكروهٌ؟».

قالوا: «وما ذلك؟».

قال:

ـ «إنَّ هذا يومٌ من أيّام اللّه، لا ينبغي فيه الفَخرُ ولا البَغيُ، أخلصِوا جِهادَكم وأريدوا اللّهَ بعملكم، فإنَّ هذا يومٌ له ما بعدَه، ولا تقاتِلوا قوماً على نِظام وتعبئةٍ على تساندٍ وانتشارٍ فإنّ ذلك لا ينبغي ولا يَحِلُّ، وإنّ مَن وراءَكم لو يعلمُ علَمَكم، حالَ بينكم وبينَ هذا. فاعمَلُوا في ما لم تؤمَروا به، بالّذِي تَرَونَ أنّه الرّأيُ من واليكم ومحبّتُه».

قالوا: «هاتِ ما الرَّأي؟».

قال:

ـ «إنّ أبا بكرٍ لم يبعثنا إلاّ وهو يَرى أنّا سنتياسَرُ، ولو علم بالّذي كان ويكون لقد جمعكم. إنّ الّذي أنتم فيه أشدّ على المسلمين مِمّا غَشِيَهم، وأنفع للمشركين مِن أمدادهم. ولقد علمتُ أنّ الدّنيا فرّقت بينكم، فاللّهَ اللّهَ في دينكم، فقد أفرد كلُّ رجلٍ ببلدٍ من البُلدان لا ينتقصُه منه إن دانَ لأحدٍ من أمراءِ الجُنودِ، ولا يزيدُه إن دانُوا له. إنَّ تأميرَ بعضِكم لا ينقصُكم عند اللّهِ ولا عندَ خليفةِ رسول اللّهِ، هَلُمُّوا، فإنّ هؤلاءِ قد تهيَّأُوا، وهذا يومٌ له ما بعدَهُ. إن ردَدنا القومَ إلى خندقهم اليومَ لم نَزل نَرُدّهم. وإن هزمُونا لم نُفلح بعدَها. فهَلُمُّوا، فلنتعاوَر الإمارة، فَلَيَكُن عليها بعضُنا اليومَ، والآخَرُ غداً، والآخَرُ بعدَ غَدٍ حتّى يتأمّرَ كلُّنا. دَعوني أَلِكُمُ اليومَ».

فأمّروه وهم يَرونَ أنّها كخرجاتهم قبل قُدومِ خالدٍ وأنّ الأمرَ طويلٌ والإمارة تصل إلى كلٍّ واحدٍ منهم.

فخرجت الرّوم في تعبئةٍ لا يكون أحسن منها، ولم يَرَ المسلمون مثلَها قطُّ. وخرج خالدٌ في تعبئةٍ لم تُعبِّ مثلها العربُ. وذلك أنّه لمّا رأى كثرةَ عددِ الرّوم، قال:

ـ «إنّه ليس في التّعبئة تعبئةٌ أكثر من رأيِ العين من الكراديس. فجعلَ القلبَ كراديسَ كثيرةً، وأقام فيها أبا عُبيدةَ؛ وجعلَ الميمنةَ كراديس، وعليها عمرٌو بن العاص؛ وجعل الميسرة كراديسَ، وعليها يزيدُ بن أبي سفيان، وجميعُها ستةٌ وثلاثون كُردُوساً. وفي الجماعة ألفُ رجلٍ من أصحابِ رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ فيهم نَحوٌ من مائةٍ من أهلِ بَدرٍ. وكان أبو سفيان يدورُ ويُحرِّض النّاسَ».

فقال رجلٌ لخالدٍ: «ما أقلَّ المسلمينَ وأكثرَ الرّوم!».

فقال خالدٌ: «ما أكثرَ المسلمينَ وأقلَّ الرّومَ، إنّما تكثُر الجنودُ بالنَّصرِ، وتَقِلُّ بالخِذلانِ، لا بعددِ الرّجالِ. واللّهِ، لودِدتُ أنّ الأشقرَ بَراءٌ مِن تَوَجِّيه، وأنَّهم أُضعِفوا في العَددِ».

وكان فرسُه قد حَفِيَ في مسيرهِ.

ثمّ أنشبَ القتالَ والتَحم النّاسُ وتَطاردَ الفُرسانُ. فإنَّهم على ذلك، إذ قدِمَ البَريدُ من المدينة. فأخذته الجنود، وسألوه الخبرَ. فلم يُخبرهم إلاّ بسلامةٍ، وأخبرهم عن أمدادٍ، وإنّما جاء بموتِ أبي بكرٍ وتأمير أبي عُبيدةٍ، فأبلغوهُ خالداً، فأخبرهُ الخبرَ، وأسرَّه إليه، وأخبره بما قال للجُندِ، فقال: «أحسنتَ، فقِف».

وأخذ الكتابَ، فجعله في كنانتِه وخاف ـ إن أظهر ذلك ـ أن ينتشرَ أمرُ الجندِ. وجدَّ خالدٌ في القتالِ، وصلّى النّاسُ الأولى والعصرَ إيماءاً، وتَضعضعَ الرّومُ، ونهد خالدٌ بالقلب، حتّى كان بين خَيلهم ورَجلهم.

وكان موضعهم الّذي اختاروهُ للقتالِ واسعَ المطّرِد، وضَيِّق المَهربِ. فلمّا وجدت خيلُهم مهرباً ذهبوا وتركوا رَجلَهم في مصافِّهم، وخرجت خيلُهم تشتدّ بِهم في الصّحراءِ. ولمّا رأى المُسلمونَ خيلَ الرّوم توجّهت للهرَبِ، أفرجوا لها ولم يُحرِجوها. فذهبت متفرِّقةً في البلاد، وأقبل خالدٌ والمسلمون على الرَّجلِ، ففضُّوهم. فكأنّما هُدِمَ بِهم حائطٌ، فاقتحموا في خندقهم فاقتحم عليهم فعمدوا إلى الواقوصةِ حتّى هَوى فيها المقترنون وغيرهُم، فمن صبرَ من المقترنين للقتالِ هَوى به من جشِعَت نفسُه، فيهوى الواحدُ بالعشرةِ لا يُطيقونه، كلّما هَوى اثنان كانت البقيَّةُ أضعفَ. فتهافتَ في الواقوصةِ عشرون ومائة ألف إنسانٍ منهم ثمانون ألف مقترنٍ وأربعون ألفَ مُطلَقٍ، سوى مَن قُتل في المعركة من الخيل والرَّجل، وتجلّل أخو ملك الرّوم وأشرافٌ مِن أشرافهم بَرانِسَهُمْ وقالوا:

ـ «لا نحبُّ أن نرى يومَ السّوءِ إذ لم نستطع أن نرى يومَ السُّرور، وإذ لم نستطع أن نمنعَ النّصرانيّةَ».

فأصيبوا في تزمُّلهم.

وقد كان عِكرمة بن أبي جهلٍ في بعض جَولاتِ الرّوم نَزَل عن فرسِه وقال:

ـ «قاتلتُ عن رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ في كلِّ موطنٍ وأفرُّ اليومَ!».

ثمّ نادى:

ـ «من يُبايع على الموتِ؟».

فبايعه ضِرارُ بن الأزوَر في أربعمائةٍ مِن وجوهِ النّاس والفرسان، فقاتلوا قُدّامَ فُسطاط خالدٍ، حتّى أُثبِتوا جميعاً جراحاً، وقُتلوا إلاّ مَن بَرأ ومنهم ضِرارٌ.

وقاتل النِّساءُ يومئذٍ وجُرحت جُويريةُ بنتُ أبي سفيان، وكانت مع زوجها، بعد قِتالٍ شديدٍ، وكان الأشتر مِمَّن شهد هذا اليومَ ـ وهو اليَرمُوك ـ فأبلى بلاءاً حسناً.

ولمّا فرغ خالدٌ مِن حربِ القوم نعى إلى النّاس أبا بكرٍ وقال:

ـ «الحمدُ للّه الّذي قضى على أبي بكرٍ الموتَ، وكان أحبَّ إليَّ مِن عمرَ؛ والحمد للّهِ الّذي ولّى عمرَ وكان أبغضَ إليَّ من أبي بكرٍ، ثمَّ ألزمَني طاعتَه».

وانتهت الهزيمةُ إلى هِرَقل وهو دون حِمص، وبلغه قتلُ أخيه مع الصّناديد وعامة الخيلِ والرَّجلِ، فارتحل وصار الأمرُ لأبي عُبيدة.

من عجيبِ ما رَكِبَهُ خالدٌ

ومن عجيب ما ركبه خالد بن الوليد في سفرته هذه الّتي خرج فيها من العراق لمعاونة أبي عبيدة على الرُّوم، أنُّه: لمّا هَزمتِ الرُّوم خالد بن سعيد بن العاص، وقتلوا ابنَه وقتلوا الجيشَ الّذي معه، واجتمعت الرُّوم باليرموك، قالوا:

ـ «واللّه لنَشغَلنَّ أبا بكرٍ والعربَ في أنفسهم عَن تورُّدِ بلادِنا». ثمَّ نزلوا الواقوصة مستعلين.

فبلغ ذلك أبا بكرٍ، فقال:

ـ «واللّه لأُنسِيَنّ الرُّومَ وساوسَ الشّيطانِ بخالد بنِ الوليد».

فكتب إليه أن: «سِر حتّى تأتيَ جموعَ المسلمين باليرموك، فإنّهم قد شَجُوا بالرُّوم، وإنّه لم يُشجِ الجموع من النّاس بعون اللّه شجاك، ولم ينزع الشَّجا من النّاس نزعَك، فلتَهنئك ـ أبا سليمان ـ النّيّةُ والحظوةُ، فأتمِم ـ تمَّم اللّه لَكَ ـ ولا يدخُلنَّكَ عُجبٌ فتخسرَ وتُخذلَ، وإيّاك أن تُدِلَّ بعملٍ، فإنَّ اللّه لهُ المَنُّ وهو وليُّ الجَزاءِ. فاستخلِفِ المثنّى بنَ الحارثة بالعراق، فإذا فتح اللّه على المسلمين الشّامَ فارجع إلى عملك بالعراق».

فقال خالدٌ: «كيفَ لي بطريقٍ أخرج فيه من وراءِ جموعِ النّاس».

فَجَمع الأدِلاَّءَ وأهلَ الخِبرةِ، فكُلُّهم قالوا:

ـ «لا نعرف إلاّ طريقاً لا يحمِل جيشاً، يأخذُه الفذُّ والرّاكب».

ونَهَوه أن يُغَرِّرَ بالمسلمين. فعزم عليه، ولم يُجِبهُ أحدٌ إلاّ رافع بن عُميرة على تَهيُّبٍ شديدٍ. فقام فيهم وقال:

ـ «يا قوم لا يخلفنّ هَديُكم، ولا يضعُفَنّ يقينُكم، واعلموا أنَّ المؤونةَ تأتي على قدر النِّيّة، والأجرَ على قدرِ الحسبة».

فأجابه نفرٌ، وقالوا لخالدٍ: «أنت رجلٌ مَصنوعٌ لك، فشأنك».

فطابَقوه ونَوَوا، واحتسبوا.

فقال لهم رافعٌ: «ترَوَّوا لِلشَّفةِ لِخِمسٍ».

فظَمَّأ كلُّ قائدٍ من الإبل الشُّرفِ الجِلالِ ما يكتفي به، ثمَّ سقَوها العَلَّ بعدَ النَّهَلِ، ثمَّ صَرُّوا آذان الإبل وكعَّموها وخلَّوا أدبارَها.

ثمَّ رَكبوا من قُراقر مفوِّزين إلى سوى وهي إلى جانبها الآخر ممّا يلي الشّامَ. فلمّا ساروا يوماً افتظُّوا لكلِّ من الخيل كُروشَ عَشر مِن تلك الإبلِ فمزجُوا ما في كُروشِها بما كان من الألبانِ. ثمَّ سقَوا الخيلَ وشرِبوا للشّفةِ جُرَعاً، فعلوا ذلك أربعة أيّامٍ. فلمّا نزلوا بسُوى وخشِيَ أن يفضحَهم حَرُّ الشّمس نادى خالدٌ رافعاً:

ـ «ما عندك يا رافع؟».

قال: «خَيرٌ، أدركتم الرِّيَّ وأنتم على الماءِ». وكان يشجِّعهم وهو متحيِّرٌ به رَمَدٌ.

ثمَّ قال: «أيُّها النّاس، انظُروا عُلَيمَين كأنَّهما ثَديان».

فأتَوا عليهما وقالوا: «عَلَمان».

فقام عليهما فقال: «اضربوا يَمنةً ويَسرةً لِعَوسَجةٍ كقِعدَةِ الرَّجلِ».

فقالوا: «لا نَرى شيئاً».

فقال: «إنّا للّهِ، هلكتم وهلكت معكم، انظروا».

فنظروا فوجدوا جِذمَها، فقالوا: «جِذم، ولا نرى شجرةً». فقال:

«احتفروا حيث شئتم».

فاستثاروا أوشالاً وأحساءً رَواءً. فقال رافعٌ:

ـ «أيّها الأمير، ما وردتُ هذا الماءَ منذ ثلاثين سنةً، وما وردتُه إلاّ مرَّةً وأنا غلامٌ مع أبي».

فانحاز خالدٌ من سُوى على مُضَيَّح بَهراءَ، وإنّهم لغارُون وناسٌ منهم يشربون خمراً لهم في جفنةٍ قد اجتمعوا عليها ومغنّيهم يقول:

ألا عَلِّلاني قَبلَ جَيشِ أبي بكرِ　　لَعلَّ مَنايانا قَريبٌ وَما نَدري
أظُنُّ خُيولَ المسلمينَ وخالداً　　سيَطرقُكم قَبلَ الصَّباحِ مِنَ البِشرِ
فهل لَكُمُ في السَّير قَبلَ قِتالِهم　　وقَبلَ خُروجِ المُعصِراتِ مِنَ الخِدرِ

فيزعمون أنَّ مُغنِّيهم قُتل، وسالَ دمُه في الجَفنةِ عند الغارة. وقال شاعرُ المسلمين:

لـلَّـهِ عَـيـنـا رافـعٍ أنّـى اهـتـدى　　فَـوَّزَ مِـن قُـراقِـرٍ إلـى سُـوى
خِمساً إذا ما سارهُ الجَيشُ بكى　　مـا سـارهـا قـبـلَـك إنـسـيٌّ أرى

فلمّا انتهى خالدٌ إلى سُوى أغار على أهله وقد خلَّف ثغورَ الرُّوم وجنودَها مِمّا يلي العراق، فصار بينهم وبين اليرموك، ثمَّ صمد لهم الطَّريقَ حتّى صار إلى دمشق، ثمَّ مَرَج الصُّفر. فلقيَ غسّان وعليهم الحارث بن الأيهَم، فانتسف عسكرَهم وعيالاتِهم وبعث بالأخماس إلى أبي بكرٍ، ثمّ خَرج حتّى نزل مياه بُصرى، فكانت أوَّل مدينةٍ فتحها خالدٌ من الشّام بمن معه من جُنود العراق، فخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصةِ في عشرة آلافٍ.

ولمّا تراءى العسكران بعثَ القيقلار أخو ملكِ الرُّوم ـ وهو صاحب الجيش ـ رجلاً عربيًا من قُضاعةَ وقال له:

ـ «ادخُل في هؤلاءِ القوم، فأقِم فيهم يوماً وليلةً، ثمَّ ائتِني بخبرهم».

فدخل في النّاس رجلٌ عربيٌّ لا يُنكَر، فأقام فيهم، ثمَّ أتاه.

فقال: «مَهْ، ما وراءَك؟».

قالَ: «هُم رهبانٌ باللّيل فرسانٌ بالنَّهار، لو سرق ابنُ مَلِكهم قَطعوا يدَه، ولَو زنى رجمُوه إقامةً للحدِّ».

فقال القيقلارُ: «لئن كنتَ صادقاً لبطنُ الأرضِ خيرٌ من لِقاءِ هؤلاءِ على ظَهرِها».

المثنّى بنُ الحارثة والفُرس

فأمّا المثنّى بن حارثة، فكان مِن حديثِه بعدَ خالدِ بن الوليد: أنّ الفُرسَ اجتمعوا على شهربراز بن أردشيرَ بنِ شهريارَ بن أبَرويزَ، وجَدوهُ بميسان، فوجَّهَ إلى المثنّى جُنداً عظيماً عليهم هُرمُزُ المعروف بِجاذُوية في عشرةِ آلافٍ، ومعه فيلٌ، فكتبتِ المَسالحُ بإقبالِه، فخرج المثنّى مِن الحيرةِ، وضمَّ إليه المَسالحَ.

وكتب شهربَراز إلى المثنّى:

ـ «إنّي قد بعثت إليك جُنداً من وَحشِ أهل القُرى إنّما هم رُعاةُ الدَّجاجِ

والخنازير، وَلَستُ أقابلك إلاّ بِهم».

فأجابَهُ المثنّى:

«من المثنّى إلى شهربَراز، إنّما أنت أحدُ الرّجلين: إما باغ، فذلك شرٌ لك وخيرٌ لَنا، وإمّا كاذبٌ، فأعظم الكاذبين فضيحةً وعُقوبةً عند اللّهِ والنّاسِ المُلوكُ، وأمّا الّذي يَدُلُّنا عليه الرَّأيُ، فإنّكم إنّما اضطُرِرتم إليه، فالحمدُ للّهِ الّذي ردّ كيدَكُم إلى رُعاةِ الدَّجاج والخَنازير».

فلمّا وقف الفُرسُ على كِتابه جزِعوا وقالوا:

- «إنّما أُتِيَ شهربراز مِن لُؤم منشأتِهِ».

وقالوا لَهُ: «جرَّأتَ علينا عدُوَّنا بما كتبتَ إليه، فإذا كاتبتَ أحداً فاستَشر».

ثمَّ التَقَوا ببابِل، فاقتتلوا بعُدوَةِ الصَّراة الدنيا قتالاً شديداً.

ثمَّ إنّ المثنّى وناساً مِنَ المسلمين اعتَوَرُوا الفيلَ، وكان يفرِّقُ بين الصُّفوف والكَراديس، فأصابوا مقتلَه، فقتلوه، وهزموا أهلَ فارسَ واتَّبعَهم المسلمون يقتلونهم حتّى جازُوا بهم مسالحهم، وطلبُوا الفَلَّ حتّى بلغوا المدائنَ. ومات شهربرازُ مُنهزَمَ هرُمُز جاذوية، واختَلف أهلُ فارِسَ بعدَه، وأبطأ خبرُ أبي بكرٍ على المسلمين لِمَرَضِه.

فخرَجَ المثنّى نحوَ أبي بكرٍ لِيُخبرهُ خبر المسلمين ويستأذنَه في الاستعانة بمن ظهرت تَوبتُه من أهل الرِّدَّةِ - وكانَ أمَرَ أبو بكرٍ ألاّ يُستعانَ بِهم - ولِيُخبِرَه أنّه لم يُخلِّف أحداً أنشطَ لقتالِ فارس ومعونة المهاجرين منهم. فقدم المدينةَ واستخلف على عسكره بشير بن الخصاصيّة فوجَد أبا بكر - رضي اللّه عنه - مريضاً مرضَه الّذي مات فيه، فأخبرهُ الخبرَ.

فدعا أبو بكرٍ عُمرَ - وكان قد عقَدَ لَهُ - فقال:

- «يا عُمرُ، اسمع ما أقول لك، ثمَّ اعمل عليه. إنّي أظنُّ أن أموتَ مِن يومي هذا - وذلك يوم الاثنين - فإن أنَا مِتُّ، فلا تُمسِيَنَّ حتّى تندُبَ النّاسَ معَ المثنّى، ولا تشغلنّكم مُصيبةٌ - وإن عظُمت - عن أمرِ دينكم، ووصيّةِ ربّكم، وقد رأيتَني متوفّى رسولِ اللّه - ﷺ - وما صنعتُ، ولم يُصَبِ الخَلقُ بمثلِه. وباللّهِ لَو أنّي أنِي عن أمرِ اللّهِ لخُذِلنا ولاضطرمتِ المدينةُ ناراً. وإن فتح اللّهُ على أمرائنا فارُدد أصحابَ خالدٍ إلى العراقِ، فإنّهم أهلُه وَوُلاةُ حدِّه، وأهل الضَّراوَة بهم، والجرأةِ عليهم».

ومات أبو بكرٍ رضي اللّهُ عنه مع اللّيلِ، ونَدبَ عُمرُ النّاسَ مع المثنّى. وقال عمر:

- «كأنَّ أبا بكرٍ عَلِمَ أنّه يَسُوءُني أن أؤمِّر خالداً على العراق حينَ أمرني بِصَرفِ

أصحابِه، وتَرَكَ ذِكرَهُ».

وتشاغل أهلُ فارِسَ فيما بينهم عن إزالة المسلمين عن السَّوادِ فيما بين خِلافة أبي بكرِ إلى قِيامِ عُمر، ورُجوعِ المثنّى مع أبي عُبيدٍ إلى العراقِ، وكان جُمهورُ جُندِ العراق بالحيرةِ بالسِّيبِ والغاراتُ تنتهي بهم إلى شاطئ دجلةَ، ودجلةُ حجازٌ بين العربِ والعَجَم.

أسماءُ كُتّابِ أبي بَكرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

كتب لأبي بكرِ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ: عثمانُ بنُ عُفّان، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وعبدُ اللَّهِ بنُ الأرقمِ، وحنظلةُ بن الرَّبيع.

مِمّا حدث في خلافة عمر

عُمر يُقاسم خالداً مالَهُ

فلمّا استُخلِفَ عُمرُ كان أوّل ما تكلَّم به عزل خالد بن الوليد. وكتبَ إلى أبي عُبيدة بتأميره عليه، وقال له:

ـ «ادعُ خالداً، فإن أكذَبَ نفسَه في حديثٍ تكلَّم به خالدٌ فهو أميرٌ على ما هو عليه، وإن لم يُكذِب نفسَه فأنت الأميرُ. ثمَّ انزع عمامتَه عن رأسِه، وقاسِمهُ مالَهُ نِصفين».

فلمّا ذكر ذلك أبو عبيدة لخالدٍ قال:

ـ «أنظِرني أستشِر في أمري».

ففعَلَ أبو عبيدةَ. فدَخَلَ خالدٌ على أختِه فاطمةَ بنتِ الوليد، وكانت عند الحارث بن هشام، فذكر لها الحديث، فقالت:

ـ «واللّهِ لا يُحبّك عُمرُ أبداً، وما يُريدُ إلاّ أن تُكذبَ نفسَك ثُمَّ ينزعك».

فقبّلَ رأسَها وقال:

ـ «صَدَقتِ».

وتمَّ على أمرِه وأبى أن يُكذِبَ نفسَه.

فقام بلالٌ مولى أبي بكرٍ، فقال:

ـ «ما أمِرتَ به في خالدٍ؟».

قال: «أمِرتُ أن أنزعَ عمامَتَهُ وأقاسِمَهُ مالَهُ».

ففَعلَ، وقاسَمَهُ مالَهُ حتّى بقيت نَعلاهُ. فقال أبو عبيدةَ:

ـ «إنّ هذا لا يصلح إلاّ بهذا».

فقال خالدٌ: «أجل، وما أنَا بالّذي أعصي أميرَ المؤمنين. فاصنع ما بَدا لَكَ».

فأخذَ نَعلاً وأحذاهُ نعلاً.

ثمَّ قدم خالدٌ المدينةَ على عُمرَ. فكان كلّما مرَّ بخالدٍ، قال:

ـ «يا خالدُ أخرِج مالَ المسلمينَ مِن تحتِ إستِكَ».

فيقول: «واللّهِ ما عِندي مالٌ لهم».
فلمّا أكثر عليه عُمرُ قال لهُ خالدٌ:
- «يا أمير المؤمنين، قيمةُ ما أصبتُ في سلطانكم أربعونَ ألفَ درهمٍ».
قال عمرُ: «قد أخذتُ ذلك منك».
قال: «هُوَ لك».
قال: «أخذتُه».

ولم يكن لخالدٍ مالٌ إلاّ عُدّةٌ ورقيقٌ. فحُسِبَ ذلك، فبلغت ثمانينَ ألفَ درهمٍ، فناصفه عمرُ على ذلك وأعطاهُ أربعينَ ألفَ درهمٍ وأخَذَ مالَه.

فقيل: «يا أمير المؤمنين، لَو رَدَدتَ على خالدٍ مالَه».
فقال: «إنّما أنا تاجرٌ للمسلمين. واللّه لا أرُدُّه عليه أبداً».
فكان عمرُ يَرى أنّه قد اشتفى مِن خالدٍ حينَ صَنعَ به ذلك.

من حديث خالدٍ وفتحِ دِمَشق

وكانَ خالدٌ قبل أن ينقضِيَ حربُ الرُّوم، على مقدِّمةِ خيلِ أبي عُبيدة، وهو الّذي فتحَ دِمَشق بيتَ المملكة. وكانَ مِن حديثِه أنّ عُمرَ كاتَبَ المسلمين عندما هزَموا الرُّومَ باليرموك: أن يقصدوا لدِمشق، فإنها مَقَرُّ عِزِّ الرُّوم، وأن يشغَلُوا أهلَ فِحلٍ وفلسطين، وأهلَ حمصٍ بخيلٍ تكون بإزائهم. فإن فتَحَها اللّهُ قبلَ دِمَشق فذاك؛ وإن تأخَّرَ فتحُها حتّى تفتحَ دمشق، فلينصرِف أبو عُبيدة وخالدٌ إلى حِمصٍ، وعَمرٌو إلى فلسطين. وكان أبو عُبيدة بعثَ ذا الكَلاعِ لِيكونَ بين دِمَشق وحمصٍ رِدءاً. فَفَعَل أبو عُبيدة كما أمرَهُ، وقدَّم خالداً - وهِرَقلُ يومئذٍ بحِمص - فحاصرَ أهلَ دِمشق حِصاراً شديداً نحواً من سبعينَ ليلةً، وقاتلوهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة، يرجُون الغياثَ مِن هِرَقل. وجاءت خُيولُ هِرَقل مغيثةً لأهلِ دمشق، فأشجَتها خُيولُ ذي الكلاعِ وشغَلَتها عن النّاسِ.

فلمّا أيقنَ أهلُ دمشق أنّ الأمداد لا تصل إليهم فشلوا، وطمع فيهم المسلمون، وكانوا يَرَونَ أنّها كالغارات قبلَ ذلك إذا هَجَم البردُ قَفَلَ النّاسُ، فسقط النَّجمُ والقوم مُقيمون. فعند ذلك انقطع رجاؤهم ونَدِموا على دُخول دِمَشق.

اتِّفاقٌ جيِّدٌ لِلمُسلِمينَ

وكان من الاتّفاقِ الجيِّدِ للمسلمين: أن وُلِدَ للبطريق الّذي على أهلِ دمشق مَولودٌ. فصنعَ طعاماً، فأكل القومُ وشرِبوا، وغفَلوا عن مواقفهم، ولا يشعُر بذلك أحدٌ مِنَ المسلمينَ إلاّ ما كانَ مِن خالدٍ، فإنّه كان لا يَنام ولا يُنيمُ، ولا يخفى عليهِ شيءُ مِن

أمورِهم، عُيونُه ذاكيةٌ، وجواسيسُه مُفرَّقةٌ، وهو مَعنِيٌ بما يليه. وكانَ كلُّ جانبٍ من المدينةِ إلى قوم. وكانَ قد اتَّخذَ خالدٌ حِبالاً كهيئة السَّلاليم وأوهاقاً. فلمّا أمسى ذلك اليَوم وعَرفَ خَبرَ القومِ نهد هو ومَن مَعه مِن جُندِه الَّذين قدِمَ بهم، وتقدَّمَهُم هو والقعقاعُ بنُ عَمرٍو ومَذعورُ بنُ عَدِيٍّ وأمثاله مِن أصحابه في أوّلِ نومةٍ وقالوا:

ـ «إذا سَمِعتُم تكبيرَنا على السُّورِ فَارقَوا إلينا وانهدوا للبابِ».

فلمّا انتهى إلى البابِ الَّذي يَليه هو وأصحابُه المتقدِّمونَ، رَمَوا بالحِبالِ الشُّرَفَ وعلى ظهورِهم القِربُ الَّتي قطعوا بها خَندقَهُم. فلمّا ثَبَتَ لَهُم وَهَقانِ تسلَّق فيهما القَعقاعُ ومَذعورٌ. ثمَّ لم يَدَعا أحبولةً إلاّ أثبَتاها والأوهاقَ بالشُّرَف، وكان المكان الَّذي اقتَحَمُوا منه أحصَنَ مكانٍ بدِمَشق، أكثَرَهُ ماءاً وأشدَّه مَدخلاً. ولم يَبقَ مِمَّن خَرَج مع خالدٍ تلك اللّيلةَ أحدٌ إلاّ رَقِي أو دَنا من الباب، حتّى إذا استَوَوا عَلى السُّور حَدَرَ عامَّةَ أصحابه وانحَدَرَ معهُم، وخلَّف مَن يَحمي ذلك المكانَ لِمَن يَرتَقِي، وأمرَهُم بالتَّكبير. فكبَّر الّذين عَلَى السُّور، فَنَهَدَ المسلمونَ إلى البابِ، ومالَ إلى الحِبالِ بَشَرٌ كثيرٌ فَوَثَبُوا فيها. وانتهى خالدٌ إلى أوّل مَن يَليهِ، فأنامَهم، وانحدرَ إلى البابِ، فقَتَلَ البَوّابين، وثارَ أهلُ المدينةِ، وفزِعَ سائر النّاسِ، فأخَذُوا مَواقِفَهم ولا يَدرُونَ ما الشَّأنُ، وتشاغل كُلُّ ناحيةٍ بما يَليهم، وقطع خالدُ بنُ الوليدِ ومَن معهُ أغلاقَ البابِ بالسُّيوفِ، وفَتَحُوا للمسلمين، فأقبَلوا عليهم من داخل، حتّى ما بَقِيَ ممّا يلي بابَ خالدٍ مقاتلٌ إلاّ أُنيمَ.

ولمّا شدَّ خالدٌ على مَن يليه، وبَلغَ منهم ما أرادَ عَنوةً، وأَرَزَ مَن أفلت إلى أهلِ الأبواب الَّتي تلي غيرَه، دَعَوا المسلمين إلى الصُّلحِ. فأجابُوهُم وقَبِلوا منهم ولا يَدرون بما كان مِن خالدٍ. ففتحوا لَهم الأبوابَ وقالوا:

ـ «ادخُلوا، وامنعونا من أهلِ ذلك الباب».

فدَخَلَ أهلُ كُلّ بابٍ، بِصُلح من يَليهِم، ودخَل خالدٌ بما يليهِ عَنوةً. فالتقى خالدٌ والقُوّادُ في وَسَطِها، هذا استعراضاً وانتهاباً، وهذا صلحاً وتَسكيناً. فأجرَوا ناحيةَ خالدٍ مُجرَى الصُّلح.

ولمّا فرغ المسلمون من فتح دِمشق، ساروا إلى فِحلٍ وبَيسان، ولاقَوا حرباً شديداً، وافتَتَحُوها بعدَ شدائدَ وبأسٍ كثيرٍ.

عُمرُ وانتدابُ أبي عُبيد للخروج إلى فارس

فأمّا خبرُ فارِسَ، فإنّ عُمَرَ نَدبَ النّاسَ معَ المُثنّى بن حارثة، وقد ذَكَرنا فيما تقدَّم قُدومَ المثنّى على أبي بكرٍ وَوَصاةَ أبي بكرٍ عُمَرَ به. فلم ينتدِب أحدُ معَ المثنّى. وذاك أنّ هذا الوجهَ أعني فارِسَ كانت أكرهَ الوُجُوهِ إلى النّاس، لِشدَّةِ بأسِ الفُرسِ وعِظَمِ

شوكتِهم، وقهرِهم الأُمَمَ.

فكانَ المثنى يُحَرِّضُ النَاسَ ويقول:

«أيُّها النّاسُ، إنّا قد غلبناهُم على نِصفِ السَّوادِ، وقد ضَرِيَ مَن قِبَلنا، واجترأنا عليهم، ولنا مِن بعدُ ما ينتظِرُهُ المسلمُ مِن الكافرِ».

وقام عُمَرُ في النّاسِ، وخَطبَهُم، وحضَّهُم وأذكَرَهُم وَعدَ اللَّهِ في كتابه أن يورِثَهم الأرضَ، وقولَه عزّ وجلّ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التّوبة: ٣٣] أين «عبادُ اللَّهِ الصّالحون؟».

فكانَ أوَّلَ مَن انتدبَ أبو عُبيد بن مسعودٍ الثَّقفي، وقال: «أنا لَها». ثمَّ سَليطُ بنُ قيسٍ.

فلمّا اجتمع ذلك البَعثُ قيل لِعُمَرَ:

- «أمِّر عليهم رجلاً من المهاجرين والأنصارِ».

قال: «لا واللَّهِ لا أفعلُ. إنّما رفعكم اللَّهُ بسَبقِكُم إلى الجهادِ، وسُرعتِكم إلى العدُوّ. فإذا جَبُنتُم وكَرِهْتُمُ اللِّقاءَ، واثّاقَلتُم إلى الأرض، فأولى بالرئاسةِ مِنكم مَن سبقَ إلى الدَّفعِ، وأجابَ إلى الدُّعاءِ. لا واللَّهِ، لا أؤمّرُ عليهم إلاّ أوّلَهم انتداباً».

ثمَّ دَعا أبا عُبيدٍ وقال له:

- «اسمع مِن أصحابِ رسُول اللَّهِ - ﷺ -، وأشرِكهُم في الأمرِ. ولا تُسرِعَنَّ حتّى يتبيَّنَ. فإنَّها الحربُ، والحربُ لا يَصلحُ لَها إلاّ الرَّجُلُ المَكيثُ الَّذي يَعرِفُ الفُرصةَ».

وقال لأبي عبيدٍ:

- «إنَّه لم يَمنعني أن أؤمِّرَ سَليطاً إلاّ سُرعتُه إلى الحربِ، وفي التَّسرُّعِ إلى الحَربِ ضَياعٌ إلاّ عَن بَيانٍ».

قُدومُ أبي عُبيدٍ مع المثنّى بعد استخراج الفرس يَزدجردَ وتتويج بوران رُستَمَ

فقدِمَ أبو عُبيدٍ ومعهُ المثنّى بنُ حارِثة، وقد استَخرجَ الفُرسُ يزدجردَ. وكانت بورانُ عَدلاً في ما بينَهم، لمّا افتتنت الفُرسُ وقُتل الفَرُّخزاذُ بنُ البِندوان. وكان سياوخشُ قَدِم، فقتل آزَرمى دُختَ. وذلك في غيبةِ المثنّى. وكان شُغلُ الفُرسُ طُولَ غيبتِه في ما بينَهم. وكانت بُورانُ دَعَت رُستَمَ، وشكَت إليه تضَعضعَ فارسَ، ودعتهُ إلى القيامِ بأمرِهم، وتوَّجَتهُ.

فقال رُستَمُ: «أنَا عَبدٌ سامعٌ مُطيعٌ».

فوَلّتهُ أمرَ فارِسَ وحَربَها، وأمرت فارِسَ أن يَسمعوا لهُ ويُطيعُوا. فقتَل رُستَمُ سياوَخشَ، ودانت له الفُرسُ، وذلك بعد قُدومِ أبي عبيدٍ.

ثمَّ إنّ عُمَرَ لمّا فَصَل المثنّى وأبا عُبيدٍ، استعجَلَهُما، وقال لهما:

ـ «النَّجا، النَّجا، بمَن معكم، فإنّي مُمِدُّكم بالنّاسِ».

ثمَّ ندبَ أهلَ الرِّدَّةِ، وأذِنَ لهُم في الغَزوِ، ورَمى بهم العِراقَ والشّامَ.

فقدِمَ المثنّى قبلَ أبي عُبيدٍ بنصفِ شَهرٍ، ونزلَ خَفّانَ لئلاّ يُؤتى مِن خَلفِه بِشَيءٍ يكرهُه. وكتبَ رُستَمُ إلى دَهاقين السَّوادِ: أن يَثُوروا بالمسلمين. ودَسَّ في كُلِّ رُستاقٍ رَجُلاً ليثورَ بأهلِه. وبلغ ذلك المثنّى، وعَجِل جابان، وكان اجتمعَ إليه بَشرٌ كثيرٌ، بالنَّمارقِ، ولحقَ أبو عبيدٍ، فأجمَّ النّاسَ، ثمَّ تعبّى: فجعلَ المثنّى على الخَيل، وعبَّى الميمنةَ والميسرةَ. فنزلوا على جابانَ بالنَّمارقِ. فقاتَلهم قتالاً شديداً، ثمَّ انهزم جابان، فأُسِرَ. فكان آمَنَهُ مَن أسَرَهُ، فخلّى عنه أبو عبيدٍ. فأخبَروُهُ أنّه مَلِكٌ. فأشاروا بقَتلِه. فأبى أبو عُبيدٍ، وقال:

ـ «إنَّ المسلمينَ في التَّوادِّ والتَّناصُر كالجَسَدِ الواحدِ، ما لزمَ بعضَهُم فقد لزم كلَّهم».

قالوا: «إنّه مَلِكٌ».

قال: «وإن كان، لا أغدِرُ».

فتَرَكَهُ، وقَسَم الغَنائمَ، وكان فيها مالٌ وعِطرٌ كثيرٌ، وبَعَثَ بالأخماسِ إلى عُمَرَ.

السَّقاطيَة بِكَسْكَر

وثار نَرسِي بِكَسْكَر، وكان رُستَمُ أمرهُ بذلك. ونَرسي هذا ابن خالة كِسرى، وكانت كسكرُ قطيعةً لهُ، وكان النّرسيان لهُ يَحميه لا يأكلُه ولا يشربُه ولا يغرسُه غير آلِ كِسرى إلاّ مَن أكرموهُ بشيءٍ منه.

فلمّا انهزمت الفُرسُ يومَ النّمارق اجتمعت الفالَّة إلى نَرسي، وهو في عسكره، ونادى أبو عُبيدٍ بالرَّحيلِ، وقال للمُجرَّدةِ:

ـ «اتّبعوا الفالَّةَ حتّى تُدخلوهُم عسكرَ نَرسي أو تُبيدوهُم».

ومَضى أبو عبيدٍ حين ارتحل من النَّمارقِ حتّى ينزِلَ على نَرسي بكسكر ـ ونَرسي يَومَئذٍ بأسفَلِ كسكر، والمثنّى معهُ في تعبئتِهِ الّتي قاتل فيها جابان؛ ونَرسي على مُجَنَّبَتَيهِ ابنا خالِه وهما: ابنا خالِ كِسرى بِندويه وتيرويه ابنا بَسطام؛ وأهلُ بارُوسما ونَهر جوبَر والزَّوابي معه إلى جُندِه.

وكان قد أتى الخبرُ بورانَ ورُستَمَ بهزيمةِ جابانَ. فبعثوا الجالِنوس، وبلغَ ذلك نَرسي ومَن معَهُ، فَرَجَوا أن يَلحقَ قبلَ الوقعةِ، وعاجَلهم أبو عُبيدٍ، فالتَقَوا أسفلَ من كسكر في مكانٍ يُدعى السَّقاطية، فاقتتلوا في صَحارِي مُلسٍ قِتالاً شديداً.

ثمَّ انهزم نَرسي، وقُتِلَ أصحابُه، وغُلبَ على عسكرِهِ وأرضِه، وجَمعَ أبو عُبيدٍ الغنائمَ. وهناك رأى المسلمونَ مِن الأطعمةِ ما لم يَرَوا مثلَهُ، وأُخِذت خزائنُ نَرسي. فلم يكونوا بشيءٍ أفرحَ منهم بالنّرسيان. لأنَّه كانَ حِمًى، فاقتسموه، وجَعَلوا يُطعمونه الفلاّحين، وبَعَثوا بخُمسِهِ إلى عُمَرَ، وكتبوا إليه:

«إنَّ اللَّهَ أطعمَنا مطاعِمَ كانت الأكاسِرة يَحمُونَها، وأحببنا أن تَروها، وتشكُروا إنعامَ اللَّهِ وإفضالَهُ».

وأقام أبو عبيدٍ، وسرَّحَ المثنّى إلى باروسْما، وعاصماً إلى نهرِ جوبَر. فأخرَبُوا، وسَبَوا، وهربَ ذلك الجندُ إلى الجالنوس. وسار أبو عُبَيدٍ واستقبلَهُ الجالِنوس، فنهد إليه أبو عُبيدٍ في المسلمين على تعبئتِه. فهزمَهُم المسلمون، وهرب الجالنوسُ، وأقام أبو عُبيدٍ قد غلبَ على تلك البلادِ.

ولمّا رجع الجالنوس إلى رُستَم ومن أفلت معه قال رستم:

- «أيُّ العجمِ أشدُّ على العرب؟».

قال: «بهمن جاذَوَيه».

وهو ذو الحاجب. فوجَّههُ ومعه فِيَلَةٌ، وردَّ معهُ الجالنوس، وقال لَهُ:

- «قدِّمِ الجالِنوسَ، فإن عاد لِمثلِها فاضرب عُنقَه».

فأقبلَ بَهمنُ جاذَوَيه ومعَه «دِرَفش كابِيان»، وكانت مِن جُلودِ النّمرِ، عَرضَ ثَماني أذرُعٍ، وطولَ اثنَي عَشرَ ذِراعاً. وأقبل أبو عبيدٍ، ونزل المَروحَةَ موضعَ البرجِ والعاقولِ.

فبعث إليه بَهمَن جاذَوَيه: «إمّا أن تعبُروا إلينا ونَدَعكم والعُبورَ، وإمّا أن تَدَعُونا نعبُر إليكم».

فقال النّاسُ: «لا تعبُر يا با عُبَيدٍ! ينهاك عَنِ العُبورِ، قل لهم: فليعبروا!».

وكان مِن أشدِّ النّاسِ عليه في ذلك سَليطٌ.

فلجَّ أبو عبيدٍ، وقال: «لا يكونون أجرأ على الموتِ مِنّا، بل نعبرُ إليهم».

فعبَروا إليهم في منزلٍ ضَيِّقِ المُطَّردِ. فاقتتلوا يوماً، حتّى إذا كان آخر النَّهارِ، واستبطأ رجلٌ من ثقيفٍ الفتحَ، ألَّفَ بين النّاسِ، فتصافحُوا بالسُّيوفِ في أهل فارِسَ، وأصيبَ منهم ستَّةُ آلافٍ في المعركةِ ولم يَبقَ إلاّ الهزيمة. فحَمَل أبو عبيدٍ على الفيلِ،

وضرَبَهُ، فخبطَ الفيلُ أبا عبيدٍ، وقام عليه وجال المسلمون جولةً، ثمّ تَمُّوا عليها وركبهُم أهلُ فارِسَ.

خَطأٌ في الرَّأي

فكان من خَطأ الرَّأيِ والعجلةِ فيه أن بادر رجلٌ من ثقيفٍ الجِسرَ فقطعَهُ. فانتهى النّاسُ إليه، والسّيوف تأخذهم مِن خلفِهم، فتهافتوا في الفُراتِ. فأصابوا يومئذٍ مِن المسلمين أربعةَ آلافٍ بين غريقٍ أو قتيلٍ، وحَمَى النّاسَ المثنى وعاصمُ ومذعورٌ، وقد كان سليطٌ ـ كما قدّمنا الخَبَرَ عنهُ ـ يناشِدُ أبا عبيدٍ مع وُجوهِ النّاسِ، ويقولون:

ـ «إنّ العربَ لم تَلقَ مُذ كانوا، مِثلَ جنودِ فارِسَ، وقد حفلوا لَنا واستقبلونا من الزُّهاءِ والعُدَّةِ، بما لم يَلقَنا به أَحدٌ قبلُ، وقد نزلتَ منزلاً لنا فيه مجالٌ ومرجعٌ مِن فَرَّةٍ إلى كرَّةٍ».

عبيدٍ، وخبطه وقامَ عليه. وتتابع سبعةٌ من ثقيفٍ كلُّهم يأخُذُ اللواءَ فيقاتلُ حتّى يموتَ. ثمّ أخذ اللّواءَ.

فقال سليطٌ: «أنَا واللّه أجرأ منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرَّأيِ، فستعلم».

رؤيا رَأَتها امرأةُ أبي عُبيدٍ

وكانت امرأةُ أبي عُبيدٍ رأت رؤيا وهو في المروحة: أنَّ رجلاً نزل من السَّماءِ بإناءٍ فيه شرابٌ، فشرِبَ أبو عبيدٍ وابنُه وجماعةٌ من أهلِ بيتِه.

فأخبرت أبا عبيدٍ، فقال:

ـ «هذه الشَّهادةُ».

وعَهِدَ أبو عبيدٍ إلى النّاسِ، فقالَ:

ـ «إن قُتلتُ فعلَى النّاسِ فلانٌ، فإن قُتِلَ فعليكم فلانٌ».

إلى أن أمّر الّذين شربوا من الإناءِ على الولاءِ.

ـ ثمّ قال: «إن قُتِلَ أبو القاسِمِ فعليكم المثنّى».

ثمَّ نهدَ بالنّاسِ وعَبَرَ، وعضّلَت الأرضُ بأهلِها، والتَحمتِ الحربُ. فلمّا نظرت الخيولُ إلى الفِيَلَةِ عليها النّخلُ، والخَيلِ عليها التّجافيفُ، والفُرسانِ عليهم الشُّعُرُ؛ رأت شيئاً مُنكَراً لم تَرَ مثلَه. فجَعَل المسلمون إذا حَمَلُوا لم تُقدِم خيلُهم، وإذا حمَلُوا على المسلمين بالفِيَلَةِ والجَلاجِل فرّقت بين كراديسِهم لا تقومُ لها الخيلُ إلاّ على نفارٍ. وخَرقَهم الفُرسُ بالنُّشّاب، وعَضّ المسلمين الألمُ، وترجَّل أبو عُبيدٍ، وترجَّل معه النّاسُ، فصافحُوهم بالسُّيوفِ، فصارت الفِيَلَةُ إذا حملت دَفعتهُم.

فنادى أبو عبيدٍ:

ـ «احتوشوا الفِيَلَةَ وقطِّعوا بُطُنَها، واقلبوا عنها أهلَها».

وواثبَ هو الفيلَ الأبيضَ، فتعلَّق ببطانِه فقطَّعه، ووقع الّذين عليه. وفعل القومُ مثلَ ذلك: فما تركوا فيلاً إلاّ حطّوا رَحلَهُ وقتلوا أصحابَهُ. وأهوى الفيلُ لأبي عُبيدٍ، فنفَحَ مشفره بالسَّيفِ، فاتّقاهُ الفيلُ بيدِه ووقع، فخَبَطهُ الفيلُ. وأخذ اللِّواءَ، الَّذي كان أمَّره بعدَه. فقاتَل الفيلَ حتّى تنحّى عنهُ، فأجترَّهُ إلى المسلمين، وأحرزُوا شِلوَه. ثمَّ تَجَرثَمَ الفيلُ واتّقاه بيدِه، دأبَ أبي عبيدٍ، خبطه وقامَ عليه. وتتابع سبعةٌ من ثقيفٍ كلُّهم يأخُذُ اللِّواءَ فيقاتلُ حتّى يموتَ. ثمَّ أخذ اللِّواءَ المثنى وهَربَ عنه النّاسُ. فلمّا رأى عبدُ اللّه بنُ مَرثَدٍ الثَّقفيّ ما يصنعُ النّاسُ، بادرهُم الجِسرَ، فقَطَعَهُ. فلمّا توافاهُ النّاسُ تهافتوا في الفُراتِ، فغرِقَ مَن لم يَصبِر، وقُتِلَ مَن صَبَرَ. وهذا الخبرُ تصديقٌ لِدُريدٍ حيثُ قال: «إنّ المنهزِمَ لا يردُّه شيءٌ». ونادى:

ـ «أيّها النّاس! أنَا دونَكم، فاعبُروا».

وعقَدَ لهم الجِسرَ وقال:

ـ «لا تَدهَشوا اعبُروا على هِينتِكُم، فإنّا لن نَدعَ الموضِعَ ولَن نزايلَ حَتّى نراكُم من ذاك الجانب».

وأُتِيَ بعبدِ اللّه بن مَرثَدٍ، وكان يمنعُ النّاسَ مِن العُبورِ. فضَرَبَه المثنّى وقال:

ـ «ما حَمَلَكَ على ما فَعلتَ؟».

قال: «ليُقاتِلوا».

فلمّا ضُمَّتِ السّفنُ، وعَبَرَ النّاسُ كان آخِر مَن قُتِلَ عندَ الجسرِ سليط بنُ قيسٍ. وعَبَر المثنّى، وحَمي جانِبَهُ، واضطربَ عسكرُهُ، وارفضَّ عنهُ أهلُ المدينةِ، حتّى لَحِقوا بالمدينةِ، وتركَها بعضُهُم فنزلوا البَوادي، وبقِيَ المثنّى في قلّةٍ. ورامَهم ذو الحاجبِ فلم يقدِر عليهم لاعتراضِ الفراتِ، وقَطعِ الجسرِ.

وهلك يومئذٍ من المسلمين أربعة آلاف من بين قتيلٍ وغريقٍ، وهرب ألفانِ، وبقِيَ مع المثنّى ثلاثةُ آلافٍ، فكأنّ الجميعَ كانوا تسعةَ آلافٍ. وجُرِح المثنّى جراحةً شديدةً، وأثبِتَ فيه حَلَقٌ مِن دِرعِه هتكهُنَّ الرُّمحُ.

ولـمّا بلغ عُمرَ ما صنعَهُ أهلُ المدينةِ، وأُخبرَ عمّن سار في البلادِ استحياءاً من الهزيمةِ اشتدَّ عليه، ورحمهم، وقال:

«اللّهمّ إنّ كُلَّ مُسلمٍ في حِلٍّ مِنّي، أَنَا فئةٌ لكُلِّ مُسلمٍ، يرحم اللّهُ أبا عبيدٍ، لَو انحاز إليَّ لكنتُ فئةً لَهُ».

فبينا ذو الحاجب يرومُ أن يعبرَ إلى المسلمين أتاه الخَبرُ باضطراب الفُرسِ. فرجع بعدَ أن أرفضَّ عنهُ جندُهُ، وأتاهُ الخبرُ أنَّ النّاسَ في المدائن ثاروا بِرُستَم، ونَقضُوا ما بينَهم وبينَهُ، وصاروا فرقتين: الفَهلوج على رُستَم، وأهلُ فارِسَ على الفَيرزان.

ثمَّ إنَّ جابان ومَردانشاه خَرَجا حتّى أخذا بالطَّريق وهم يَروَنَ أنَّهم سيرفَضُون ولا يشعُرون بما جاء ذا الحاجب من فُرقةِ أهلِ فارِسَ.

وبلغ المثنّى فعلة جابان ومَردانشاه. فاستخلف على النّاسِ عاصِمَ بن عَمروٍ، وخرج في جريدةِ خَيلٍ يُريدهما وظنّا أنَّه هاربٌ، فأخذهما أسيرَين، وخَرجَ أهلُ أُلّيسٍ على أصحابهما، فأتَوه بهم أسرى، وعقد المثنّى لهم بها ذمّةً وقدَّمهُما وضرب أعناقَهما وأعناقَ الأسرى، ثمَّ رجع إلى عسكرِه. وكان جَرير بن عبد اللّه البجلي يسألُ قديماً في بَجيلة أن تُلتقطَ من القبائل، وكان النَّبيُّ ـ ﷺ ـ وَعَدَهُ ذلك، فلمّا ولي عُمرُ دعاه بالبيِّنةِ، فأقامَها. فكتب له إلى عُمّالِه في العربِ كلِّها مِمَّن كان فيه أحدٌ يُنسبُ إلى بجيلة في الجاهليةِ، وثبت عليه في الإسلام بغير ذلك، فأخرجوه إلى جَرير. فلمّا أُعطِيَ جَريرٌ حاجَتَه في استخراج بَجيلة من النّاسِ وجمعِهم، أُخرِجوا إلى المثنّى مدداً لَهُ. وكتبَ عُمرُ يستنفِر النّاسَ مِن أهلِ الرِّدّةِ وغيرهم، فلم يَرِد عليه أحدٌ إلاّ رَمى به المثنّى.

يَوم البويبِ

وبعث المثنّى بعد الجِسرِ في من يليه من المُمِدِّين، فتوافَوا إليه في جمعٍ عظيم. وبلغ رُستم والفيرزان ذلك، وأَتتهم العيونُ به، وبما ينتظرون من الأَمداد، فاجتَمعا علَى أن يَبعثا بمهران الهمذاني حتّى يريا من رأيِهما ويجتمعَ أمرُهُما. فخرجَ مهران في الخُيولِ، وأمْرهُ بالحِيرةِ. وبلغ المثنّى الخبرُ وهو مُعسكِرٌ بين القادسيّةِ وخَفّان في الّذين أمدّوه من العرب. فاستبطَن فراتَ بادقلى، وأرسل إلى جَريرٍ وعِصمةَ، وإلى كلِّ قائدٍ أظلّه أنّه:

ـ «جاءَنا أمرٌ لم نستطع معه المقامَ حتّى تقدِموا علينا، فعجِّلوا اللّحاقَ بِنا، ومَوعِدُكم البُوَيبُ».

وسلك المثنّى وسطَ السَّوادِ، وسلك جَريرٌ على الجوفِ ومَن كان معه، حتّى انتَهوا إلى المثنّى وهو على البُويبِ، ومهرانُ من وراءِ الفرات بإزائه، وكان عُمرُ عَهِدَ إليهم ألاّ يعبُروا بحراً ولا جِسراً إلاّ بعدَ ظَفَرٍ. فاجتمعوا بالبُويب، واجتمع العسكرُ على شاطئ البُويبِ الشّرقيِّ. وكان البويبُ مَغيضاً للفراتِ أيامَ المُدُودِ أزمان فارس يصبُّ في الجوفِ.

وقدِمَ على عُمرَ غُزاة بني كنانة، والأزد، فأمّر على بني كنانة غالبَ بن عبدِ اللّهِ،

وعلى الأزدِ عرفَجَةَ بن هرثمةَ، وأمرهم بالعراقِ. فقدموا على المثنّى، وقدِمَ عليه هِلالٌ بنُ عُلفةَ فيما اجتمع إليه من الرِّباب. فأمره عُمرُ وسرَّحَهُ، فقَدِم على المثنّى، وكذلك فَعل بغُزاةِ كُلِّ قبيلةٍ من جُشم وخثعم وبني حنظلة وبني ضبَّة وغيرِهم. فاجتمعوا عند المثنّى.

واجتمع رُستَم والفَيرُزان معاً، واستأذنا بورانَ ـ وكذلك كانا يعملانِ إذا أرادا شيئاً استأذنا من حجّابها ـ فكلّماها به، فأخبراها بعددِ الجيش وكثرتِه الّذين يُنفذون مع مهران، وكانت فارِسُ لا تُكثر البعوثَ.

فقالت بوران: «ما بالُ فارِس لا يخرجون إلى العربِ كما كانوا يخرجون قبلَ اليوم؟».

قالا: «إنّ الهيبةَ كانت قبلَ اليومِ مع عدوِّنا وإنّها اليومَ فينا».

فعرفت رأيَهم واستصوَبَتهُ.

ولمّا نزل مهرانُ في جُندِه وراءَ الفُراتِ ـ والفراتُ بينَهما ـ قال:

ـ «إمّا أن تعبرُوا إلينا، وإمّا أن نعبُرَ إليكم».

فقال المسلمون: «اعبرُوا إلينا».

فعبروا، وأقبلوا إلى المسلمين في صُفوفٍ ثلاثةٍ مع كلِّ صفٍّ فيلٌ، ورَجْلُهم أمامَ فيلهم، وجاؤوا ولَهم زَجَلٌ. فقال المثنّى للمسلمين:

ـ «إنَّ هذا الزَّجَلَ وَجَلٌ!».

قالوا: «أجل».

قال: «فالزموا الصَّمت وائتَمِروا هَمساً».

فدَنَوا من المسلمين وجاؤوهم من قِبَلِ نهرِ بني سُلَيم اليومَ. فلمّا دَنَوا زحفُوا، وركب المثنّى فرسَهُ الشَّموسَ، وكان لا يركبُه إلاّ إذا قاتَلَ. وَدُعِيَ الشَّموس للِين عَريكتِه وطهارتِه. فوقف على الرّايات يحُضُّهم ويذكر أحسنَ ما فيهم ويقولُ:

ـ «إنّي أرجو ألاّ يُؤتَى العربُ اليومَ من قِبلكُم، واللّه ما يسرُّني اليومَ لنفسي شيءٌ إلاّ وهو يسرُّني لعامَّتكم».

فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم المثنّى بالقولِ والفِعلِ، وخلَط النّاسُ في المكروهِ والمحبوبِ، فلم يَستطع أحدٌ منهم أن يَعيب له قَولاً ولا عَملاً.

ثُمَّ قال:

ـ «إنّي مُكبِّرٌ ثلاثاً، فتهيَّأوا، ثمَّ احمِلوا مع الرّابعةِ».

فلمّا كبَّروا أوّلَ تكبيرةِ أعجلَهم فارِسٌ، فعاجَلُوهم وخالَطُوهم مع أوّلِ تكبيرةٍ. وركدتِ الحربُ مليًّا. فرأى المثنّى خَللاً في بعض صُفوفِه، فأرسل إليهم:

ـ «الأميرُ يقرأُ السَّلام ويقول: لا تفضَحُوا المسلمين اليومَ».

فقالوا: «نَعم». واعتدَلوا.

وكانوا يَرَونَهُ قبلَ ذلك وهو يمُدُّ بلحيتِه لِما يَرى منهم! فلمّا أعتبوه رأوه يضحك فرحاً.

فلمّا طالَ القِتالُ، نظرَ المثنّى إلى نفرٍ مِن التّغلبيِّينَ نَصارى وفيهم جُلاّبُ خَيلٍ قَدِموا مع أَنَسِ بنِ هليلٍ. فقال:

ـ «يا أَنَسُ، إنّك امْرُؤٌ عربيٌّ وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حَمَلتُ على مهرانَ، فاحمِل معي».

وقال لابنِ مِردَى الفِهر مثلَ ذلك. فأجابوه إليه. فحمَل المثنّى على مهرانَ حتّى أزالَه، فدخل في ميمنتِه. ثمَّ خالَطوهم واجتمع القَلبانِ، وثارَ الغُبارُ والمُجَنَّباتُ تقتتِلُ، لا يفرغون لِنَصرِ أمرائهم، ولا يستطيعونَ ذلك، لا المشركون ولا المسلمون. وقَتَل غلامٌ تغلبيٌّ نصرانيٌّ مهرانَ. ووقف المثنّى عند ارتفاع الغبار حتّى أسفَره وقد فنيَ قلبُ المشركين. فأمّا المجنَّبات فهي بحالِها، فجعل المثنّى يَدعو لهم، ويُرسِلُ إليهم من يذمرهُم ويقولُ:

ـ «المثنّى يقولُ: عادتَكم في أمثالهم!».

حتّى هزموهُم. فسابَقَهم المثنّى إلى الجِسرِ، فسبقهم وأَخذَ الأعاجم يفترقون بشاطئ الفُراتِ مُصعِدين ومصوِّبين، واعتورتهم خُيولُ المسلمين فجعلَهم جُثاءاً.

فما كانت بين العَربِ والعَجم وَقعةٌ كانت أبقى رِمَّةً منها، كانوا يَحرُزُونَها مائةَ ألفٍ، وما عفى عليها إلاّ ادِّفانُ البُيوتِ.

فيحكي أهلُ تلك النّاحيةِ: أنّهم كانوا يأتون البُويبَ، فيَرَونَ في ما بينَ موضع السَّكونِ اليومَ وبني سُليم عظاماً بيضاً تُلُولاً تلوحُ من هامِهم وأوصالِهم، يُعتبَرُ بها. وسُمِّي يومُ البويبِ يومَ الأعشارِ: أحصَى مائةُ رجُلٍ قتَلَ كلُّ واحدٍ منهم عشرةً يومَئذٍ.

ونَدِم المثنّى على أخذه الجسرَ، وقال:

ـ «قد عجَزتُ عجزةً وَقَى اللّهُ شرَّها بمسابقتي القَومَ إلى الجِسر حتّى أَحرجتُهُم وإنّي غيرُ عائدٍ. فلا تَعُودوا ولا تقتدُوا بي أيُّها النّاسُ، فإنّها كانت زلَّةً، ولا ينبغي إحراجُ أحدٍ إلاّ مَن لا يقوى على امتناعٍ».

وكان المثنّى أصابَ نُزلَ مهرانَ غنماً، وبقراً، ودقيقاً، فبعثُوا إلى عيالاتِ النّاسِ،

وكانوا خلّفوهنّ بالقوادِسِ مع عمرِو بنِ عبدِ المسيح بنِ بُقيلةَ. فلمّا رُفعِوا للنّساءِ فرأين الخَيلَ، تَصايَحنَ وحَسِبنَها غارةً. فقُمنَ دون الصِّبيانِ بالحجارةِ والعُمُدِ. فقال عَمروٌ:

ـ «هكذا يَنبغي لنساءِ هذا الجيشِ أن يكُنّ». وبشّرهُنّ بالفُلحِ.

وعقد المثنّى الجِسرَ، وسرَّح في طَلبِ المنهزمين أصحابَ الجسرِ، فأصابُوا غنائمَ كثيرةً وتَبَعوهُم. وكتبَ القُوّادُ والرُّؤساءُ منهم إلى المثنّى:

ـ «إنّ اللّه سلَّم ووَجَّه لنا ما رأيتَ، وليس دون القومِ شيءٌ، أفتأذنُ لنا في الإقدام».

فأذِن لهُم. فأغاروا حتّى بلغوا ساباطَ، وتحصَّنَ منهم أهلُ ساباطَ، واستمكنُوا من الغارةِ على من بينَهم وبين دِجلةَ، ومَخَرُوها لا يَخافونَ كيداً، وانتقضت مَسالحُ العَجمِ، فرجعت إليهم، واعتصَموا بساباطَ.

ثمَّ إنّ المثنّى بلغَهُ خَبرُ قريةٍ يأتيها تُجّار مدائن كِسرى والسَّوادِ، ويجتمعون بها في كلّ سنةٍ مرّةً ومعهم فيها من الأموالِ كبيتِ المالِ، وتِلك أيّام سُوقِهم. فاستدعى المثنّى مَن وثِقَ به مِن أهلِ الحيرةِ فاستشارَهُ.

فقال له:

ـ «إن أنتَ قَدَرتَ أن تغير عليهم وهم لا يشعُرون، أصبتَ فيها مالاً فيهِ غنى المسلمين دَهرَهم وقَوُوا على أعدائهم أبداً».

قال: «وكم بينها وبين مدائن كسرى؟».

قال: «بعض يومٍ أو عامّةُ يَومٍ».

قال: «فكيفَ لي بِها؟».

قالوا: «نُشير عليكَ أن تأخُذَ طريقَ البَرّ حتّى تَنتَهِيَ إلى الخَنافِسِ، فإنّ أهلَ الأنبارِ يَضرِبون إليها ويُخبِرونَك فيأمَنُون، وتأخُذُ دَهاقين الأنبارِ بالأدِلاّءِ، وتَسيرُ سَوادَ لَيلتِك حتّى تأتيَهم صُبحاً، فتُصَبّحُهُم غارةً».

ففعل المثنّى ذلك، فلمّا انتهى إلى الأنبار، تحصَّن منه صاحبُها وهو لا يَدري مَن هُوَ، وذلك ليلاً. فلمّا عرفَه نزلَ إليهِ، فأطعمَهُ المثنّى واستكتَمَه وسألَهُ الأدِلاَّ إلى بغداد حتّى يعبُرَ منها إلى المدائن.

قال: «أنا أجيءُ معك».

قال: «لا أريدُكَ معي، ابعث معي مَن هُوَ أدَلُّ مِنك».

فزوَّدَهُم الأطعِمةَ والأعلافَ، وبعث معهم الأدِلاّءَ، فساروا.

فلمّا كانوا بالنِّصفِ، قال المثنّى:

ـ «كَم بيني وبينَ هذه القَريةِ بَغداد؟».

قال: «خمسةُ فراسخَ».

فندب مِن أصحابِه جماعةً للحرسِ، وبعثَ طلائع فحبَسُوا النّاسَ لئلاّ يسبِق الخبرُ وقال:

ـ «أيّها النّاسُ، اطعمُوا وتوضّأوا وتهيَّأوا».

ثمَّ سَرى آخر اللّيلِ فصبَّحَهُم في أسواقِهم، فوضع فيهم السَّيفَ، فأخذوا ما شاؤوا.

وقال المثنّى:

ـ «لا تأخذوا إلاّ الذّهبَ والفِضّةَ والحُرَّ مِن كُلِّ شَيءٍ».

ثمَّ انكَفأَ راجعاً حتّى نزل بِنَهرِ السَّيلَحين بالأنبارِ، فسمع همساً في ما بينَ النّاس:

ـ «ما أسرَعَ القومَ في طَلبِنا».

فخطبَهُم وقال:

«أيُّها النّاسُ، احمَدوا اللّهَ وتناجَوا بالبِرِّ والتَّقوى، ولا تَناجَوا بالإثم والعُدوانِ، انظُروا في الأمُورِ وقَدِّروها، ثمَّ تكلَّمُوا. ما بَلغَ النَّذيرُ مدينتَهم بَعدُ، ولَو بلغَهم لَحالَ الرُّعبُ بينَهم وبينَ طلبكم إنَّ لِلغاراتِ رَوعاتٍ تنتشِر عليها يوماً إلى اللَّيل. ولَو طلبكم المَحاميرُ مِن رأي العينِ ما أدركوكُم وأنتم على العِرابِ، حتّى تنتَهُوا إلى عَسكرِكُم وجَماعتِكم؛ ولو أدرَكُوكُم لقاتَلتُهُم ورجَوت النَّصرَ والأجرَ. فثِقُوا باللّهِ، وأحسِنوا به الظَّنَّ، فقد نَصَرَكُمُ اللّه عليهم في مواطِنَ كثيرةٍ وهُم أعَدُّ منكم، وسأُخبِركم عنّي أنَّ أبا بكرٍ أوصانا أن نُقَلِّلَ العُرجةَ ونُسرعَ الكَرَّةَ في الغارات».

ثمَّ أقبلَ بِهم ومعهم الأدِلاّءُ حتّى انتهى بهم إلى الأنبارِ.

ثمَّ إنَّ المثنّى أغار على حيٍّ مِن تَغلِبَ على دِجلةَ، وعلى قَومٍ كانوا بِتَكريت، وأصابوا ما شاؤوا من النِّعم.

القادسيّة وأيّامُها

فقال أهلُ فارِسَ لِرُستَم والفَيرزان:

ـ «إنَّه لم يَبرح منكما الاختلافُ حتّى أوهنتُما أهلَ فارِسَ، وأطعمتُما فيهم عَدُوَّهُم، ولم يبلغ مِن خَطَركُما أن نُقِرَّكما على هذا الرَّأيِ وأن تعرِّضا فارِسَ للهَلَكَةِ. ما بعدَ بغداد وساباطَ وتكريت إلاّ المدائن، واللّهِ لَتَجتمعانِ أو لَنَبدَأنَّ بِكُما قبلَ أن يشمت

شامِتٌ، ونَشفِيَنَّ نفوسَنا مِنكُما».

فاجتمع رُستم والفيرزان عند بورانَ وقالا لها:

ـ «اكتُبي لنا نساءَ كِسرى وسَرارِيَّهُ» ـ ففعلت.

فأرسلوا في طَلَبِهِنَّ، فلم تَبقَ امرأةٌ إلاّ أتَوا بِها، فأخذوهُنَّ بالرِّجالِ، ووَضَعُوا عليهِنَّ العَذابَ يَستدِلُّونَ على ذَكرٍ من أبناءِ كِسرى. فلم يُوجد عندهُنَّ أحدٌ.

فقالت إحداهُنَّ:

ـ «لم يَبقَ إلاّ غُلامٌ يُدعى يَزدجِرد من وُلد شهريار بنِ أبرويز، وأمُّهُ مِن أهلِ بادُورَيا».

فأرسلوا إليها، فأخذوها بِه، وكانت قد أنزلَتهُ في أيّام شيرى حين جمعَهُنَّ في القَصرِ الأبيضِ، وقَتَلَ الذّكورَ إلى أخوالِه وكانت واعَدَتهم، ثمَّ دلَّته إليهم في زَبيلٍ. فلمّا أخذت أمُّهُ بِه، دلَّتهم عليهِ، فأرسلُوا، فجاؤوا بِهِ، فملَّكُوهُ وهو ابن إحدى وعِشرين سَنةً، واجتمعُوا عليه واطمأنّت فارِسُ، واستَوسَقُوا، وتبارَى الرُؤساءُ في طاعتِهِ ومَعُونتِه. فسمَّى الجُنودَ لِكُلِّ مَسلَحةٍ كانت لِكِسرى أو موضعِ ثَغرٍ. فسمّى جُندَ الحيرةِ وجُندَ الأنبارِ والأُبُلَّةِ والمسالحِ، وأظهروا الجِدَّ والنَّصيحةَ.

وبلغ ذلك مِن أمرِهِم واجتماعِهِم المثنّى والمسلمين، فكتبوا إلى عُمرَ بما ينتظِرون منهم. فلم يَصِل الكتابُ إلى عُمرَ، حتّى كَفَرَ أهلُ السَّوادِ كُلُّهم: مَن كانَ لهُ عَهدٌ ومَن لم يكن لهُ عَهدٌ.

فكتبَ عُمرُ إليهم:

ـ «فأخرجوا مِن بين ظَهرانيِّ الأعاجم، وتفرَّقوا في المياه الّتي تَليهم على حُدودِ أرضِهم، ولا تَدَعُوا في ربيعةَ أحداً ولا مُضرَ ولا خلفاءَهم مِن أهل النّجداتِ، ولا فارِساً، إلاّ اجتلبتموه، فإن جاءَ طائعاً، وإلاّ حشرتُمُوهُ. احمِلوا العَربَ على الجِدِّ إذا جَدَّ العَجمُ».

فَنزلَ المثنّى بذي قارٍ، ونَزلَ النّاسُ بالحَلِّ، وبشرافٍ إلى غُضيٍّ ـ وغُضَيٌّ جَبَلُ البَصرةِ فكان في أمواهِ العربِ مِن أوّلِها إلى آخرِها مَسالحُ ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ ويُعينُ بعضُهم بعضاً إن كانَ كَونٌ. وذلك في ذي العقدة من سنةِ ثلاثَ عَشرَةَ للهِجرةِ.

وكتبَ عُمرُ إلى عُمّالِ العَربِ على الكُوَرِ والقبائلِ أن:

ـ «لا تَدَعُوا أحداً لهُ سِلاحٌ أو فرسٌ أو نَجدةٌ إلاّ انتخبتمُوهُ، ثمَّ وجِّهتُمُوهم إليَّ، والعَجَل العَجَل».

فمَضَتِ الرُسُلُ، ووافاهُ هذا الضَّربُ مِن القبائل، وأخبروهُ عمَّن وراءَهم بالحثِّ والجِدِّ.

وخَرجَ عُمرُ في أوّلِ يوم مِن المحرَّم سنة أَربعَ عَشْرة حتّى نزل ما يُدعى صِراراً، فعَسكرَ بهِ ولا يَدري النّاسُ ما يُريد. وكان عثمانُ أجرأ عليه، فقال لهُ:

ـ «ما بَلغَك؟ ما الّذي تُريدُ؟».

فنادى: «الصَّلاة جامعةً».

فاجتمع إليه النّاسُ، فأخبرهُم الخبرَ، ثمَّ نَظرَ ما يقُولُ النّاسُ.

فقال العامّةُ: «سِر وسِر بنا معك!».

فَدَخلَ معَهُم في رأيهم، وكَرِه أن يَدَعَهُ حتّى يُخرجَهم منه في رِفقٍ، فقال:

ـ «استعِدُّوا، فإنّي سائرٌ، إلاّ أن يجيء رأيٌ هو أمثلُ من ذلك».

ثمَّ جَمعَ أهلَ الرَّأيِ ووُجوهَ أصحابِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ فقالَ:

ـ «أحضِروني الرَّأيَ».

فأجمعَ مَلأُهُم أن يُقيمَ، ويَبعثَ رجلاً مِن أصحابِ رسُولِ اللّه، ويَرميَه بالجُنودِ.

فنادى عُمرُ: «الصَّلاةُ جامِعَة».

فاجتمع إليه النّاسُ. فأرسل إلى عَليٍّ، وكان استخلفَهُ عَلَى المدينةِ، فأتاهُ، وإلى طلحة، وكان على مقدِّمته، فرَجعَ إليه، وإلى الزُّبيرِ وعبدِ الرَّحمن بن عَوفٍ، وكانا في المُجَنِّبَتينِ.

ثمَّ قام فيهم، فقال:

ـ «إنَّ اللّهَ جَمعَ على الإسلام أهلَهُ، فألّفَ بينَ القُلوبِ وجعلَهُم فيه إخواناً، فالمسلمون فيما بينهم كالجَسَدِ، لَا يَخلُو مِنهُ شَيءٌ مِمّا أصابَ غيره، وكذلك يَحِقُّ عليهم أن يكُونُوا وأمرُهم شُورى بينَهم. فالنّاسُ تَبعٌ لِمَن قام لهذا الأمرِ ما اجتمعُوا عليه، ورَضُوا به، وما رَآهُ أولو الرَّأيِ لزِمَ النّاسَ، وكانوا له تَبعاً، فمَن قام بهذا الأمرِ فهو تَبعٌ لأولي الرَّأيِ. أيُّها النّاسُ! إنّي كنتُ كرجلٍ منكم، حتّى صَرَفَني ذَوُو الرَّأيِ عَنِ الخروجِ، فقد رأيتُ أن أُقيمَ وأبعثَ رَجُلاً وقد أحضرْتُ هذا الأمرَ مَن قَدَّمتُ ومَن خلَّفتُ».

فكان طلحةُ مِمَّن تابعَ وعبدُ الرحمان مِمَّن نَهاه وقال:

ـ «بأبي أنتَ وأمّي.».

قال عبد الرحمن: فما فَديتُ أحداً بأبي وأمّي بعدَ النّبيِّ ﷺ غيرَهُ، وقلتُ:

ـ «اجعَل عَجزَها بي، وأقِم، وابعث جُنداً، فقد رأيتَ قَضاءَ اللّهِ لك في جُنودِكَ فإن يُهزَم جَيشُكَ فلَيسَ كهزيمتِكَ، وإنَّكَ إن تُقتَل أو تُهزَم في أنف الأمرِ

خَشِيتُ على المسلمين».

قال عُمرُ:

ـ «فأشيروا عليَّ بِرجلٍ!».

قال عبدُ الرَّحمانِ: «وجدتَه».

وكان وَرَدَ كتابُ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ وهم في تلك الحالِ جَواباً عن كتابِ عُمرَ:

ـ «إنّي قد انتخبتُ لَكَ ألفَ فارِسٍ كاملٍ كلُّهم له نجدةٌ ورأيٌ وصاحبُ حِيطةٍ يَحوطُ حَريمَ قومِه ويمنعُ ذِمارَهم، إليه انتهت أحسابُهم ورأيُهم فشأنك بهم».

ووافق كتابُه مشورتَهم.

وقال عبدُ الرَّحمنِ: «وجدتَهُ لك».

قال: «مَن؟».

قال: «الأسدُ عادياً، سعدُ بنُ مالِكٍ».

فأرسلَ إليه، فقدِمَ، فأمَّرهُ على حَربِ العِراقِ، وأوصاهُ، وقال:

ـ «يا سعدُ سعدَ بني وُهيبٍ! لا يَغُرَّنَّك مِن اللّهِ أن قيل: خالُ رسولُ اللّهَ! ليسَ بينَه وبينَ أحدٍ نَسَبٌ إلاّ طاعَتهُ. فالنّاسُ شريفُهم ووضيعُهم في ذات اللّهِ سَواءٌ: أللّهُ ربُّهم وهم عبادهُ، يتفاضَلون بالعافيةِ، ويُدركون ما عندَهُ بالطّاعةِ. فانظر الأمرَ الّذي رأيتَ رسولَ اللّهِ ـ ﷺ ـ مُنذُ بُعِثَ إلى أن فارقَنا ـ عليه، فالزَمهُ، فإنَّهُ الأمر. هذه عِظَتي إيّاك إن تركتَها ورَغبتَ عنها حَبِطَ عَملُك وكنتَ مِن الخاسرين».

فسار سَعدٌ، وماتَ المثنّى من انتِقاضِ جراحته قبلَ أن يصِلَ إليه سَعدٌ. وذاك أنَّ جُرحَهُ كان يَنتقِضُ ويَبرأُ حتّى مات. وقَدِمَ سعدٌ، فأغار في ما يَليهِ، ولم يَزل كذلك، إلى أن ألَحَّ يَزدَجِردُ على رُستَم، وقال:

ـ «لا بُدَّ أن تَلِيَ حَربَ العَربِ بنفسِك».

فخرج رُستَم في العُدَّةِ والعَديدِ والخُيولِ والفُيولِ، وراسَلَهُ سَعدٌ بالمغيرةِ بن شُعبةَ وغيرِه مِن دُهاةِ العَربِ وأصحابِه من ذوِي الهَيئاتِ والآراءِ، فجَرت بينَهم مخاطباتٌ، لا تجربةَ فيها ولا فائدة في المُستأنَفِ، فتركنا ذِكرَها.

إلى أن صافَّهُم رُستمُ وعَبرَ إليهم. وكان في القلبِ الّذي فيه رُستمُ ثَمانيةَ عشرَ فيلاً عليها الصَّناديقُ والرِّجالُ، وفي المُجَنَّبتَين ثمانيةٌ وسبعةٌ عليها الصّناديقُ والرِّجالُ، وأقامَ الجالِنوسُ بينَهُ وبينَ مَيمَنتِه، والفَيرزان بينَهُ وبين مَيسَرتِه، وبقيتِ القنطَرة بين خيلينِ من خُيولِ المسلمين والمشركين.

تدبيرٌ دبره يَزدجِرد للإسراع في تسلّم أنباءِ الحرب يَومَ أرماثٍ

وكان يَزدجِردُ وَضعَ بينَه وبين رُستَم رِجالاً: فأوَّلُهم على بابِ إيوانِه والآخرُ على دَعوةٍ منه، بحيث يسمعُهُ، والآخرُ كذلك إلى أن انتَظَمَ بينَهُ وبينَ رُستَم بالرِّجالِ. فلمّا نَزَل رُستَم بِساباط قال الرَّجُلُ الّذي بِساباط: «نَزَلَ!». وقال الّذي يليهِ، ثمَّ الّذي يليه، حتّى يقولَهُ مَن يَلي الإيوانَ ويسمعَهُ يَزدجِردُ. فكان كلَّما ارتَحلَ، أو نَزَلَ، أو حَدَثَ أمرٌ، جَرَى الأمرُ فيه على ما شرحتُه، وتَرَكَ البُرُدَ. وكان ذلك شأنَه إلى أن انقضى الحربُ.

وكان بِسعدٍ حُبونٌ وخُراجاتٌ يَومَئذٍ لا يستطيع أن يركبَ. فإنما هو على وجهِه، في صدرِه وسادةٌ وهو مُكِبٌّ عليها، مُشرِفٌ على النّاسِ مِنَ القَصرِ، يَرمِي بالرّقاعِ فيها أمرُهُ ونَهيُهُ إلى خالدِ بن عرفطة، وكان الصَّفُّ إلى جانبِ القصرِ. فشغَّب قومٌ مِن وجوه النّاسِ على سَعدٍ، ولم يَرضَوا بما صنَعَ خالدٌ. فهمَّ بهم سَعدٌ وشَتَمهُم. ثمَّ خَطبَهم، واعتذر إليهم، فَرَضُوا، وأمرَ الرُّؤساءَ حتّى خطَبُوا في من يلونَهم، ففَعَلُوا، وتَحاضُّوا وتَواصَوا.

فأمّا الفُرسُ فإنّهم تعاهَدُوا، وتواصَوا، واقترنُوا بالسَّلاسِلِ. فكان المقترِنون ثلاثينَ ألفاً، وجُملتُهم مائةٌ وعشرونَ ألفاً، وثلاثون فيلاً عليها المُقاتِلةُ، وفِيَلَةٌ عليها المُلوكُ وُقوفٌ لا تقاتِلُ.

وأمر سَعدٌ فقُرِئَ سورةُ الجِهادِ. وقال سَعدٌ:

- «إنّي مكبِّرٌ، فإذا سمعتم التّكبيرة الأولى فشُدُّوا شُسُوعَ نِعالِكم، فإذا كبَّرتُ الثّانيةَ فتَهيَّأوا، فإذا كبرَّتُ الثّالثةَ فشُدُّوا النّواجِذَ علَى الأضراسِ واحمِلوا».

فلمّا فَرَغَ القُرّاءُ، كبَّر سَعدٌ وكبَّر النّاسُ، ثمَّ ثَنّى فتهيَّأَ النّاسُ، ثم ثَلَّثَ فبَرزَ أهلُ النَّجداتِ فأنشَبُوا القِتالَ.

وخَرجَ أمثالُهم من أهلِ فارِسَ، فاعتوروا الضَّربَ والطَّعنَ. وخرج هُرمُز إلى غالبِ بنِ عبدِ اللّهِ - وكان هُرمُز مِن مُلوك البابِ متوَّجاً - فأسرَهُ غالبٌ أسراً، وجاءَ به إلى سَعدٍ، فأدخِلَ، وانصرف إلى المطارَدةِ. فبينا النّاسُ ينتظرون التَّكبيرةَ الرّابعةَ، قام صاحبُ رجّالة بني نَهدٍ، فقال:

- «يا بني نَهدٍ، إنّما سُمِّيتُم نهداً لِتفعَلوا».

فَبعثَ إليه سَعدٌ خالد بنَ عَرفَطَةَ:

- «واللّهِ لَتكُفَّنَّ، أو لأوَلِّيَنَّ عَملَكَ غيرَكَ».

ولمّا تطاردتِ الفُرسانُ خرجَ رجلٌ يُنادي:

ـ «مَرد وَمَرد».

فانتدبَ لَهُ عمرو بنُ معدي كرب، فرماهُ الفارسيُّ بنُشّابةٍ، فما أخطأتِ سِيَةَ قوسِه ـ وكان متنكِّبها ـ فحمَلَ عليهِ عَمرو، فاعتنقَهُ، ثم أخذ مِنطَقتَهُ فاحتملَهُ فوضعَهُ بينَ يدَيه. ثمَّ جاءَ بِه حتّى إذا دَنا مِنّا كَسَرَ عُنقَهُ، ثمَّ وضع سيفَهُ على حَلقِه فذَبَحَهُ، ثمَّ ألقاهُ.

ثمَّ قال: «أنَا هكذا، فاصنَعُوا بهم، إنّما الفارسيُّ إذا فقد قوسَهُ يئسَ!».

فقلنا: «يا باثورِ مَن يَستطيعُ أن يصنعَ كَما تَصنع؟».

وخرج إلى طُليحة عَظيمٌ مِنهُم، فبارَزَه، فمّا لبَّثَهُ طُليحةُ أن قتلَهُ. وقامَ الأشعثُ بنُ قيسٍ، فقال:

ـ «يا مَعشرَ كِندَةَ! للّهِ درُّ بني أسدٍ، أيَّ فَريٍ يَفرُون، وأيَّ هَذٍّ يَهُذّون!».

وكذلك كانوا، لأنّهم حَبَسُوا الفِيلَةَ بالضَّربِ والطَّعنِ.

ـ «يا مَعشَرَ كِندةَ! أراكُم تنتظرونَ مَن يَكفيكُم النّاسَ، العربُ مُنذ اليومِ يُقاتِلون وأنتم جُثاةٌ على الرُّكَبِ تنتظرُونَ».

فوَثَبَ إليه عدَّةٌ، وقالوا:

ـ «عثر جَدُّكَ إنك لَتُوبِّخُنا ونحنُ أحسنُ النّاسِ مَوقِفاً، ها نحنُ معك».

فَنَهدَ ونَهَدُوا فأزالوا مَن بإزائهم. ولمّا رأى فارِسُ ما تلقَى الفيلةُ مِن كتيبةِ أسَدٍ، رَمَوهم بحَدِّهم كُلِّه، وبَدَرُوا الشَّدَّةَ على المسلمين عليهم ذو الحاجبِ والجالِنوسُ والمسلمون ينتظرون التَّكبيرةَ الرّابعةَ من سَعدٍ. فاجتمعت حِلبة فارِس على أسدٍ ومعهم الفِيَلَةُ قد ثَبَتوا لهم. وكبَّرَ سَعدُ الرّابعةَ، فزَحفَ إليهم المسلمونَ ورحى الحرب تَدورُ على أسدٍ، وحَملتِ الفُيولُ على المَيمنةِ والميسرةِ على الخُيولِ، فكانت الخُيولُ تحجُم عنها وتَحيدُ.

فأرسل سعدٌ إلى عاصم بن عُمرَ، فقال:

ـ «يا مَعشرَ بني تميمٍ. ألَستُم أصحابَ الإبلِ والخَيلِ، أما لكُم لهذِهِ الفِيَلَةِ مِن حيلَةٍ؟».

قالوا: «بَلى واللّهِ».

ثمَّ نادى في رجالٍ مِن قومِه رُماةٍ، وآخَرين أهلِ ثَقافةٍ، فقال لَهُم:

ـ «يا مَعشر الرُّماة ذُبُّوا رُكبانَ الفِيَلةِ بالنَّبلِ».

وقال: «يا مَعشرَ أهلِ الثّقافةِ استدبروا الفِيَلة، فقَطّعوا وُضنَها».

وخَرجَ يحميهم والرّحى تَدورُ على أسدٍ وقد جالتِ الميمنةُ والميسَرَةُ غيرَ بعيدٍ وأقدم أصحابُ عاصم بنِ عَمرو على الفِيَلةِ، فأخذوا بأذنابِها وأذنابِ تَوابِيتَها، فقطّعوا وُضُنَها وارتفعت عن ظُهورِها. فما بَقيَ لهم يَومَئذٍ فيلٌ إلاّ عُرِّيَ وقُتِلَ أصحابُها، ونُفِّسَ عَن أسدٍ، فَردُّوا عنهم فارِسَ إلى مواقفِهِم، ولم يَزالُوا يَقتتِلُون حتّى غربتِ الشَّمسُ، ثمَّ حتّى ذَهبت هدأةٌ مِن اللّيلِ. ثمَّ رجع هؤلاءِ ورجع هؤلاءِ، وأُصيبَ في أسدٍ تلكَ العَشِيَّةَ خَمسُمائةٍ، وكانوا ردءاً لِلنّاس. وكان عاصِمٌ عادِيَةَ النّاسِ وحاميتَهم. فهذا يَومُها الأوّلُ وهو يَومُ أرماث.

يَومُ أغواثٍ

ولمّا أصبح القَومُ على تَعبئةٍ مِن غدٍ وَقَفُوا. ووكَّل سَعدٌ رجالاً بنقلِ الشّهداءِ إلى العُذَيب، وإسلامِ الرَّثيثِ إلى النِّساءِ، يَقُمنَ عليهم، والنّاسُ ينتظرون بالجملةِ نَقلَ الرَّثيث. فلمّا استقلَّت بهم الإبلُ، وتوجَّهت بهم نحو العُذيب، طلعت بَوادِي الخَيلِ من الشّام، الَّذين صرفَهم عُمَرُ بعدَ دِمَشق إلى العِراقِ. وكان أبو عُبيدة، لمّا قَدِمَ عليه كتابُ عُمَرَ: أن يصرِفَ أهلَ العراقِ أصحابَ خالد بن الوليدِ ولم يذكر خالداً؛ ضنَّ بخالدٍ، واحتبسَهُ عِنده، وسرَّحَ الجيش ـ وهم ستّةُ آلافٍ وأمَّر عليهم هاشِمَ بنَ عُتبةَ بنِ أبي وقّاص، وعلى مقدّمته القعقاعَ بنَ عمرٍو. فعجَّلَهُ أمامَهُ، فانجذبَ القعقاعُ وطَوى وتَعجَّلَ، فتقدَّم على النّاسِ يَومَ أغواثٍ، وقد عَهِدَ إلى أصحابه وهم ألفٌ، أن يَتقطَّعُوا أعشاراً: فكلَّما بلغ عشرةٌ مَدَى البَصرِ، سَرَّحُوا في آثارِهم عَشرةً. فتقدّم القَعقاعُ أصحابَه في عشرةٍ، فأتى النّاسُ، فسلَّمَ عليهم، وبشّرهم بالجُنودِ، وقال:

ـ «أيُّها النّاسُ! إنّي قد جئتُكم في قومٍ واللّهِ لو كانوا بِمكانِكم ثُمَّ أحسُّوكُم، لحَسدُوكُم بِحُظوتها، وحاوَلوا أن يظفرُوا بها دُونكم. فاصنعُوا كَما أصنعُ».

فنادى: «مَن يُبارز؟».

فسكن النّاس، وتذاكروا قَولَ أبي بكرٍ فيه: «لا يُهزم جَيشٌ فيه مثلُ هذا».

فَخرجَ إليه ذو الحاجب، فقال له القَعقاعُ:

ـ «مَن أنتَ؟».

قال: «أنَا بهمنُ جاذُويه».

فنادى: «يا لَثاراتِ أبي عبيدٍ وسليطٍ وأصحابِ الجِسرِ».

ثمَّ اجتلدا، فقتله القعقاع.

وجَعلت خيلُ القعقاعِ تَرِدُ قِطَعاً إلى اللّيلِ وينشطُ النّاسُ، فكأن لم يكُن بالأمسِ مصيبةٌ، وكأنَّها استقبلوا قتالَهم بقتلِ الحاجبيّ ولِلحاقِ القِطعِ، وانكسرتِ الفُرسُ لذلك.

ونادى القعقاعُ أيضاً: «مَن يُنازلُ؟».

فخرج إليه رجلان أحدُهما الفيرزان والآخر البندوان. فانضمَّ إلى القعقاع الحارثُ بن ظبيان، فبادرَ القعقاعُ الفيرزانَ فضربَهُ، فإذا رأسُه مطروحٌ؛ وبادر ابنُ ظبيان البندوان فضربَهُ، فإذا رأسهُ كذلك، وتورَّدهم فرسانُ المسلمين، وجَعَل القعقاعُ يقول:

ـ «يا معشرَ المسلمين باشِروهم بالسُّيوفِ فإنَّما يُحصَدُ النّاسُ بِها».

فتواصى النّاسُ واجتلدوا بها حتّى المَساءِ. فلم يَرَ أهلُ فارِسَ في هذا اليوم شيئاً مِمّا يُعجِبُهُم، وأكثرَ المسلمون فيهم القتلَ، ولم يُقاتلوا في هذا اليومِ على فيلٍ، لأنَّ توابيتَها تكسَّرت بالأمسِ، فاستأنَفوا علاجَها حين أصبحوا، فلم تَرتفِع حتّى كان من الغَدِ. وفي هذا اليوم حَمَل بنو عمِّ القَعقاعِ عَشرةً عَشرةً مِن الرَّجّالةِ على إبلٍ قد ألبَسُوها، فهي مُجلَّلَةٌ مُبَرقَعَةٌ، وأطافت بهم خيولُهم فَحَمَوهم، وأمرَهُم أن يَحمِلوُها على خيلِهم بينَ الصَّفَّينِ يتشبَّهُون بالفِيَلَةِ، ففَعلُوا بهم يومَ أغواثٍ كما فعَلت فارِسُ يَومَ أرماثٍ. فجعلت الإبلُ لا تَصمد لقليلٍ ولا كثيرٍ إلاّ نفرت خيلُهم، وركبتهم سيوف المسلمين. فلمّا رأوا ذلك استَنُّوا بهم، فلَقِيَ أهل فارِسَ مِن الإبلِ يومَ الأغواثِ أعظمَ مِمّا لقي المسلمون مِن الفِيَلَةِ يَومَ أرماثٍ.

وجَعَل رجلٌ من بني تميمٍ يتعرَّضُ للشَّهادةِ، فابطأت عليه حتّى تعرَّضَ لِرُستم يُريدُه، فأصيبَ دونَهُ.

وخرج رجلٌ من فارِسَ يُنادي: «مَن يُبارِز؟».

فبرزَ لَهُ علباءُ، فأسجَدَهُ ونَفَحَهُ الفارسيُّ فأمعاهُ، فلم يستطع القيامَ، فعالجَها، فلم يتأتَّ لهُ حتّى مرَّ به رجلٌ من المسلمين، فقال:

ـ «يا هذا أعِنِّي على بَطني».

فَأدخَلَهُ له، فأخذ بصفاقيهِ، ثمَّ زحفَ نحوَ صفِّ فارِسَ ما يَلتفِتُ على المسلمين، فأدركهُ الموتُ على رأسِ ثلاثينَ ذراعاً مِن مَصرعِه إلى صَفِّ فارِس، وقال:

أرجُو بِها مِن رَبِّنا ثَواباً   قَد كُنتُ مِمَّن أحسَنَ الضِّرابا

وخَرجَ رجلٌ مِن أهلِ فارِسَ يُنادي: «مَن يبارِز؟».

فَبرزَ له الأعرفُ بنُ الأعلم العقيلي، فقتلَهُ، ثمَّ بَرزَ لهُ آخرُ من فارِسَ، فقتلَهُ، ثمَّ بَرزَ آخرُ، فقتلَهُ، فأحاطت به فَوارسُ منهم، فصرَعُوهُ، ونَدَرَ سلاحُه عنه، فأخذوهُ، فجعل يغبِّر في وُجوهِهم بالتُّراب حتّى رجع إلى أصحابِه وقال:

وَ إن تأخُذُوا بَزِّي، فإنِّي مجرَّبٌ   خَروجٌ مِنَ الغَمّاءِ، مُحتَضِرُ النَّصرِ

وإنِّي لَحامٍ مِن وراءِ عَشيرَتي   رَكُوب لآثارِ الهَوى مُحفِلُ الأمرِ

وَحَمَل القعقاعُ يَومَئذٍ ثلاثين حملةً، كُلَّما طَلعت قِطعَةٌ من الخيلِ حَملَ حَملةً

فيُصيبُ فيها. فقتلَ في يَومِ أغواث ثلاثين فارِساً، وكانَ آخرهُم بُزُرجمِهر الهَمدانيّ، وقال القعقاعُ فيه:

حَبَوتُه جيّاشةً بالنّفسِ هَدّارَةً مِثلَ شُعاعِ الشّمسِ
في يَومِ أغواثِ قليل الفُرسِ أنخُسُ بالقَومِ أشَدَّ النَّخسِ
حتّى تَفيظَ مَعشري ونَفسي

واقتتل النّاس صَتيتاً حتّى انتصف اللّيلُ. فكانت ليلةُ أرماثٍ تُدعَى «الهَدأَةَ»، وليلةُ أغواثٍ تُدعَى «السَّوادَ». ولم يَزَلِ المسلمونَ يرون الظَّفَرَ يومَ أغواثٍ في القادسية، وقتلوا عامّةَ أعلامِهم، وجالت فيهم خيلُ القَلبِ، وثَبَتَ رَجلُهُم، فلولا أنَّ خيلَهُم كَرَّت، لأُخِذَ رُستَم أخذاً. وانتمى المسلمون لَدى أمسَوا. فلمّا أمسى سعَدٌ وسَمعَ ذلك نامَ، وقال لِبَعضِ مَن عندَهُ:

ـ «إن تمَّ النّاسُ على الانتماءِ فلا تُوقِظني، فإنّهم أقوياء على عَدُوِّهِم، فإن سكتُوا ولم يَنتَمِ الآخَرون فلا توقِظني، فإنَّهُم على السَّواءِ؛ وإن سَمِعتَهُم يَنتَمُون، فأيقِظني، فإنَّ انتماءَهُم لِشرٍّ».

قصّة أبي مِحجَنٍ مع سَلمى وسعدٍ

فلمّا اشتدَّ القِتالُ بالسَّوادِ، سَأَلَ أبو مِحجَنٍ سَلمى بِنتَ خصفةَ، وكان محبوساً مُقيَّداً في القَصرِ. فقال:

ـ «يا ابنةَ خَصفةَ، هَل لَكَ إلى خيرٍ؟».

قالت: «وما ذاك؟».

قال: «تُخَلِّينَ عَنّي وتُعِيرينَني البلقاءَ. فلِلّهِ عليَّ، إن سلَّمنيِ اللّهُ أرجع إليكِ حتّى أضَعَ رِجلَيَّ في قَيدي»!

فقالت: «وما أَنَا وذاك؟».

فجَعَلَ يَرسُفُ في قيده وقالَ:

كفى حَزَناً أن تَردِيَ الخَيلُ بالقَنا وأُترَكُ مَشدُوداً عَلَيَّ وَثاقِيا
إذا قُمتُ عَنّانِي الحَديدُ وغُلِّقَت مَصاريعُ مِن دُوني تُصِمُّ المُنادِيا

قالت سَلمى: «إنّي استخرَتُ اللّهَ، ورَضيتُ بَعهدِكَ».

فأطلقتهُ وقالت:

ـ «أمّا الفَرَس فلا أعيرُها».

فرجعت.

فَاقتادَها رُويداً، وأخرجَها مِن بابِ القصرِ، فركبَها. ثمَّ دَبَّ عليها حتّى إذا كان بحِيال المَيمنةِ. ثمَّ حَمَلَ على المَيسرةِ ميسرةِ الفُرسِ، يَلعبُ بِرُمحِه وسِلاحِه بين الصَّفَّين - وقد حُكي أنّ الفَرَسَ كانت عرياً، وحُكِيَ أنّها كانت بِسَرجِها - ثمَّ رجع من خَلفِ صفِّ المسلمين إلى الميسرةِ، فكبَّر، وحَمَلَ على ميمنةِ القَوم، يَلعب بينَ الصَّفَّين بِرُمحِه وسِلاحِه. ثمَّ رَجعَ مِن خَلفِ المسلمين إلى القلبِ، فبدر أمامَ النّاسِ، فحَمَلَ على القومِ يَلعبُ بين الصَّفَّينِ برمحِه وسِلاحِه. فكان يقصِفُ النّاسَ لَيلتَئذٍ قصفاً منكراً، وتعجَّبَ النّاسُ منه وهم لا يعرِفُونَه ولم يَرَوهُ بالنَّهارِ.

فقال بعضُ النّاس: «هذا مِن أوائل أصحاب هاشمٍ، أو هاشمٌ نَفسُهُ».

وانتَبَه سعدٌ وهو منكبٌ مُشرِفٌ مِن فوق القَصرِ، فقال:

- «واللّهِ لولا محبس أبي مِحجنٍ لَقلتُ: إنّه هو وهذه البلقاءُ».

وقال بعضُ النّاسِ: «إن كان الخضِرُ يَشهَدُ الحُروبَ فهذا الخضِرُ».

وقال بَعضُهم: «لَولا أنَّ الملائكةَ لا تُباشِرُ القِتالَ، لَقُلنا: مَلَكٌ بينَنا!».

فلمّا انتصَفَ اللَّيلُ حاجَزَ أهلُ فارِسَ، وتَراجعَ المُسلمون، وأقبلَ أبو مِحْجَنٍ حتّى دَخَلَ القَصرَ من حيثُ خرج مِنهُ، ووَضعَ عن نَفسِه وعن دابّتِه، وأعادَ رِجليهِ في قَيدِه، وقال في أبياتٍ:

لقد عَلِمَت ثقيفٌ غير فَخرٍ	بأنّا نحنُ أكرمُهُم سُيُوفا
وأكثَرُهم دُرُوعاً سابِغاتٍ	وأصبَرُهُم إذا كَرِهُوا الوُقُوفا
وأنّا وفدُهُم في كُلِّ يَومٍ	فإن عَمِيُوا فَسَل بِهِمُ عَريفا
ولَيلةَ قادِسٍ لم يَشعُرُواْ	ولم أُشعِر بمَخرَجِيَ الزُّحُوفا
فإن أُحبَس فذلِكُمُ بَلائي	وإن أُترَك أذيقُهُمُ الحُتُوفا

وإنّما حُبِسَ في أبياتٍ قالَها وهِيَ:

إذا مِتُّ، فادفِنّي إلى أصلِ كَرمَةٍ	... ...

فلمّا أصبحت سَلمى أتَت سَعداً، وكانت مُغاضِبةً لَهُ، وصالَحَته وأخبرتهُ خَبَرَها مع أبي مِحْجَنٍ. فدعا بِه، وأطلقَهُ، وقال:

- «اذهب، فما أنَا مُؤاخِذُكَ بِشَيءٍ تقُولُهُ، حتّى تفعَلَهُ».

قال: «لا جَرَمَ واللّهِ، لا أُجيبُ لِساني إلى صِفَةِ قبيحٍ أبداً».

يَومُ عِماسٍ

أصبحَ النّاسُ اليومَ الثّالثَ على مَواقِفِهم وبينَهم كالرِّجلةِ الحمراءِ ميلٌ في عَرضِ الصَّفّينِ، وقد قُتِلَ مِن المسلمين ألفانِ، ومِن المشركين عَشرةُ آلافٍ، وكانَ أهلُ الدّين

يجمعونَ القَتلى يحمِلونَهم إلى المقابِرِ ويبلِّغون الرَّثيثَ إلى النِّساءِ والصِّبيانِ، والنِّساءُ والصِّبيانُ يحفِرون القُبُورَ في اليَومَين: يَوم أغواثٍ ويوم أرماثٍ. وباتَ القَعقاعُ ليلتَهُ كلَّها يُسَرِّبُ أصحابَه إلى المكانِ الَّذي فارقَهُم بالأمسِ. ثمَّ قَال لَهُم:

ـ «إذا طلعتِ الشَّمسُ فأقبِلُوا مائةً مائةً، كلَّما تَوارت مائةٌ فَليَتَّبِعها مائةٌ. فإن جاءَ هاشمٌ فذاكَ، وإلاّ جَدَّدتُم لِلنّاسِ رجاءاً وجِدًّا».

ففعَلُوا ولا يشعُرُ بذلك أحدٌ.

فأصبحَ النّاسُ على مَواقِفهم قد أحرزُوا قتلاهُم: فأمّا قتلى المشركين فقد أُضيعُوا، لأنَّهم لا يَعرِضون لأمواتِهم، وكان ذلك مِمّا صَنعَ اللّهُ لِلمسلمين مكيدةً لِيشدَّ بِها أعضادَهم.

فلمّا ذَرَّ قرنُ الشَّمس والقعقاعُ يُلاحظ الخيلَ طَلَعت نَواصيها. فكبَّر، وكبَّر النّاسُ وقالوا: «جاءَ المَدَدُ» وقد كانَ عاصِمُ بنُ عمرٍو أَمرَ أن يُصنعَ مِثلُها. فجاؤوا مِن قِبَلِ خَفّان. فما جاءَ آخر أصحابِ القعقاعِ حتّى انتهى لهم هاشمٌ في سبعِمائةٍ، فأخبروهُ برأيِ القعقاعِ وما صنع في يَومَيهِ، فعبّى أصحابَهُ سَبعينَ سَبعينَ.

فلمّا نَجز أصحابُ القعقاعِ خرجَ هاشمٌ في سَبعينَ مَعَهُ، فيهم قيسُ بن هُبيرةِ، حتّى إذا خالَطَ القَلبَ كبَّرُوا، وقد أَخذَ المسلمينَ الفَرَحُ، فكبَّروا جميعاً وقد أصلحَ المشرِكون توابيتَ الفِيَلَةِ معها الرَّجّالةُ يحمونَها أن تُقطعَ وُضُنُها ومع الرَّجّالةِ فُرسانٌ يَحمونَهُم، إذا رأوا كتيبةً دَلَفُوا إليها بفيلٍ واتباعِهِ لينفروا به الخَيلَ. فلم يكن ذلك منهم كما كان بالأمسِ، لأنَّ الفيلَ إذا كان وحدَهُ ليس معه أحدٌ، كانَ أوحش وأهوَلَ، وإذا طاف به النّاسُ كانَ آنَسَ. فكان القتالُ كذلك. وكان يوم عِماسٍ من أوّلِه إلى آخره شديداً، العَجمُ والعربُ فيه سَواءٌ، ولا يكونُ بينَهم لَفظةٌ إلاّ تعاوَرَها الرِّجالُ حتّى تبلغَ يزدجردَ، فكان يبعث إليهم بأهلِ النَّجداتِ مِمَّن بقِيَ عِندَهُ فيقوَون بِهم، وتجيئُهُمُ الأمدادُ على البُرُدِ. فلولا الَّذي صنَعَ القَعقاعُ في اليومين، ومجيءُ هاشم بعَقِبه كَسَرَ ذلك المسلمين، وما كان عامّةُ جُنَنِ المسلمين إلاّ براذعَ الرِّحالِ، قد أعرضُوا فيها الجريدَ، ومَن لم تكن لَهُ وقايةٌ لرأسِه، عَصَّبَ رأسَهُ بالأنساع. وأبلى يَومَئذٍ قَيسُ بنُ هبيرةِ بنِ مَكشوحٍ.

وقال عمرو بنُ معدي كرب:

ـ «إنّي حامِلٌ على الفيلِ بإزائهم، فلا تَدَعوني أكثر من جزرِ جَزورٍ، فإن تأخّرتُم فَقَدتُم أبا ثورٍ، وأينَ لكُم مِثلُ أبي ثَورٍ، وإن أدركتموني وجدتُموني وفي يَدي السَّيف»!

فَحَمَلَ، فما انثَنى حتّى ضَربَ فيهم، وسَتَرَهُ الغُبارُ. فقال أصحابُهُ:

ـ «ما تنتظرون؟ ما أنتم بخُلَقاءَ أن تُدركوهُ، وإن فقدتُموهُ فَقدَ المسلمون فارِسَهم».

فحمَلُوا، فأفرجَ المشركون عنهُ بعدَما صَرَعُوهُ وطَعَنُوه وإنَّ سيفَهُ لَفي يَدِه يُضاربُهم بهِ، وقد طُعِنَ فرسُهُ. فلمّا انفرج عنه أهلُ فارِسَ أخذ بِرجلِ فَرَسٍ عليه فارِسيٌّ، فحرّكهُ الفارسيُّ، فاضطربَ الفَرَسُ، فالتَفتَ إلى عَمرٍو، فَهَمَّ به، فغشيَهُ المسلمونَ. فنزل عنه، وحاضر إلى الفُرسِ، وقال عَمروٌ لأصحابِه:

ـ «أمكِنُوني مِن لجامِه».

فأمكَنُوهُ منهُ فركبَهُ.

اتِّفاقٌ جَرى يَومَ عِماسٍ ويُحذَرُ أن يَقعَ مثلُه

ومِن الاتّفاقِ الَّذي جَرى في يوم عِماسٍ ويُحذَرُ أن يَقعَ مثلُه: أنّ رجلاً من الفُرسِ خَرجَ بينَ الصَّفَّين فهَدَرَ وشَقشَقَ ودَعا إلى البِرازِ.

قال: فبرز رجلٌ مِنّا يُقالُ لَهُ: شبَر بنُ علقمةَ، وكان قصيراً دَميماً، وقال:

ـ «يا مَعشَر المسلمين! قد أنصفكُم الرَّجُلُ».

فلم يُجِبهُ ولم يَخرُج إليه أحدٌ.

فقال: «أما واللّهِ، لولا أن يَزدرُوني لخَرجتُ إليه».

فلمّا رأى أنّ المسلمين لا يَمنَعُونَهُ أخذ سيفَهُ وحَجفَتَهُ، وتقدَّم. فلمّا رَآهُ الفارِسيُّ نَزَلَ إليه، فاحتملَهُ، وجَلَسَ على صَدرِه وأخذ سيفَهُ ليذبَحَهُ وقد كان شدَّ مِقوَدَ فَرَسِه بِمنطَقَتِهِ. فلمّا سَلَّ السَّيفَ حاصَ الفَرَسُ حَيصَةً، فجذبَهُ المِقوَدُ، فقَلَبَهُ عنه. فأقبلَ عليه وهو يُسحَبُ، فافترشَهُ. وجَعلَ أصحابُه يَصيحون به، فقال:

ـ «صِيحُوا ما بَدا لَكُم، فواللّهِ لا أفارِقُهُ حتّى أقتُلَهُ وأسلُبَهُ».

فذبَحَهُ وسَلَبَهُ، ثم أتى بِه سَعداً، فقال:

ـ «إذا كان حينُ الظهرِ فائتِني».

فَوافاهُ، فحمِدَ سعدٌ اللّهَ، وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «إنّي قد رأيتُ أن أنفِّلَهُ إيّاه، وكلُّ مَن سلبَ سلباً فهُوَ لَهُ».

فباعَهُ باثنَي عَشرَ ألفاً.

ما جرى في يوم أَرماثٍ

ولمّا عادتِ الفِيلَةُ لِفعلِها يَومَ أرماثٍ تُفرِّقُ بَينَ الكتائب، راسَلَ قوماً مِمَّن أسلموا مِن الفُرسِ، فدخَلُوا عليه، فسألَهُم عَنِ الفِيلَةِ: «هَل لَها مَقاتِلُ؟».

قالوا: «نَعم! المَشافِرُ والعُيُون. لا يُنتفعُ بِها بعدَها».

فأرسَلَ إلى القَعقاع وعاصِم ابني مذعورٍ: «اكفياني الأبيضَ». وذاك أنَّ الفِيَلَةَ كانت تألفُهُ، وكان بإزائهما؛ وأرسَلَ إلىّ حَمّالٍ والرِّبِّيل: «اكفياني الأجرَبَ» وكان بإزائهما.

فأمّا القعقاعُ وعاصِمٌ فإنَّهما أخذا رُمحينِ أصَمَّين لَيِّنَين، ثمَّ دَبّا في خَيلٍ ورَجلٍ، وقالا:

ـ «اكتنفُوهُ لِتُحَيِّرُوهُ».

فَنَظَر الفيلُ يَمنَةً ويَسرَةً وهُما يُريدانِ أن يتخبَّطَ. فحمَلَ القعقاعُ وعاصِمُ ـ والفيلُ متشاغِل بِمَن حَولَه ـ فوضعَا رُمحَيهِما في عَينَي الفيلِ الأبيضِ، فقَبعَ، ونَفَضَ رأسَهُ، فطَرَحَ ساسَتَهُ، ودَلّى مِشفَرَهُ، فبادرَهُ القَعقاعُ، فنفحَهُ بالسَّيفِ، فرمى به، وأقعى الفيلُ، فقتلُوا مَن كان عليه.

وأمّا حَمّالُ والرِّبِّيلُ فإنَّهما قالا:

ـ «يا معشرَ المسلمين، أيُّ الموتِ أشدُّ؟».

قالوا: «أن يُشَدَّا على هذا الفيلِ».

قال: فنَزَّقا فَرَسَيهِما حتّى إذا قاما على السَّنابك ضَرباهُما على الفيلِ الَّذي بإزائهم. فطَعَن أحدُهُما عينَهُ فوطِئَ الفيلُ مَن خَلفَهُ، ويَضربُ الآخرُ مِشفَرَهُ، فيضربُه سائس الفيلِ ضَربةً شائنَةً في وجههِ بالطَّبرزين، فأفلتَ بها هو والرِّبِّيلُ، فبقي الفيلُ متلَدِّداً بين الصَّفَّينِ كلّما أتى صَفَّ المسلمين وَخَزُوهُ، وإذا أتى صَفَّ المشركين نَخَسُوهُ، وصاحَ الفيلانِ صِياحاً عظيماً. ثمَّ ولّى الأجربُ الَّذي عُوِّرَ، فوثب في العَتيقِ فاتّبعته الفِيَلَةُ فَخَرَقَت صفَّ الأعاجم، وعَبَرتِ العَتيقَ في إثرهِ، فبيَّتتِ المدائن في توابيتِها، وهَلَكَ مَن فيها، وخلص المسلمون بأهلِ فارِسَ، ومالَ الظِّلُّ، فتزاحفُوا، واجتلدوا بالسُّيوفِ حتّى أمسوا. فلمّا طعَنُوا في اللّيلِ اشتدَّ القتال وصَبَرَ الفريقان، ولم يسمع إلا الغَماغِمُ مِن هؤلاءِ وهؤلاءِ، فسُمِّيت «ليلةَ الهرير» لم يكن بعدَها قِتالُ بليلٍ بالقادسِيَّةِ.

ثمَّ إنَّ سَعداً وجَّهَ طُليحةَ وعمرَو بنَ مَعدي كربٍ إلى مخاضةٍ كانت أسفَلَ مِنهم، وخَشِيَ أن يُؤتى المسلمونَ مِنها بعبورِ الفُرسِ، وَوَصّاهُمَا أن يقِفا هناكَ، فإن أحسّا بكيدٍ أنذَرا المسلمينَ. فانتَهَيا إلى هناك، فلم يجد أحداً. فأمّا طُليحةُ فرأى أن يَعبُرَ، وأمّا عَمروٌ فقال: «ما أمِرنا بذلك». فعَبَر طُلَيحةُ حتّى إذا صار وَراءَ صَفِّ المشركين كبَّرَ ثلاثَ تكبيراتٍ، فدهشَ القومُ، وكفُّوا عَنِ الحَربِ لينظروا ما هو، وطلبوهُ فلم يَدرُوا أينَ سلك! وسفَلَ حتّى غاصَ، وأقبلَ إلى العسكر فأتى سعداً خَبَرُهُ، فاشتدَّ ذلك على الفُرسِ، وفرح المسلمون. وقال طُليحةُ لِلفُرسِ:

ـ «لا تعدَمُوا أمراً ضَعضَعَكُم».

ثمَّ إنّهم عادُوا، وجدَّدوا تعبئةً، وأخَذوا في أمرٍ لم يكونُوا عليه في الأيّام الثّلاثةِ والمسلمونَ على تعبيتِهم. فطارَدَهُم فُرسانُ العربِ، فإذا القومُ لا يَشدُّون، ولا يُريدون إلاّ الزَّحفَ فقدَّمُوا صفًّا له أذنانٍ، واتَّبَعُوا آخَرَ وآخَرَ حتّى تمَّ صفوفُهم ثلاثةَ عشرَ صفًّا في القَلبِ والمجنِّبَتَينِ. فرماهم فُرسانُ العَسكرِ فلم يَعطِفهم ذلك. ثمَّ لَحِقت بالفرسانِ الكتائبُ، فحمَل القعقاع على ناحيتِه الّتي رُمِيَ بِها مُزدَلِفاً. فقاموا على ساقٍ والنَّاسُ على راياتِهم، بغيرِ إذنِ سَعدٍ.

فقال سَعدُ: «اللّهمَّ اغفرها لَهُ وانصُرهُ، واتميماه سائر اللّيلَةِ».

ثم قال: «إنّ الرّأيَ ما رَآهُ القعقاعُ. فإذا كبَّرتُ ثلاثاً فاحمِلوا».

فلمّا كبَّروا واحدةً حملت أسدٌ فقال: اللّهمَّ اغفِرها لهم وانصُرهُم. وا أسداه سائر اللّيلَةِ».

ثمَّ حمل النّاسُ وعَصَوا سَعداً. فقام قيسُ بنُ المكشُوحِ في مَن يَليهِ ـ وَلَم يَشهَد شيئاً من لَياليها إلاّ تلك اللّيلَةَ، لأنَّهُ كان آخَرَ مَن وَرَدَ مع هاشمٍ ـ فقال:

ـ «إنَّ عَدوَّكم قد أبى إلا المزاحفةَ، والرَّأيُ رأيُ أميرِكم، وليس بأن تَحمِلَ الخَيلُ ليس مَعَها الرَّجلُ».

قال القومُ: «إذا زحَفُوا وطارِدَهم عدوُّهُم على الخَيل لا رجالَ معهم عَفَروا بهم، ولَم يُطيقوا أن يُقدِمُوا عَليهم. تَيسَّروا لِلحَملةِ، وانتظِروا التّكبيرَ، وإنَّ نُشّابَ الأعاجمِ لَتجوزُ صفَّ المسلمين».

فتكلَّم الرُّؤَساءُ. فقال دُرَيدُ بنُ كعبِ النَّخَعي ـ وكان مَعهُ لِواءُ النَّخعِ ـ:

ـ «إنَّ المسلمين قد تَهيَّأوا للمزاحفةِ، فاستَبِقوا المؤمنين اللّيلةَ إلى اللّهِ والجِهادِ. نافِسُوهُم الشَّهادة، وطِيبُوا نفساً بالموتِ، فإنَّه أنجى مِن المَوتِ إن كُنتُم تُريدونَ الحَياةَ الآخِرَةَ، وإلاّ فالآخِرةُ ما أردتُم».

وتكلَّم الأشعثُ بنُ قيسٍ، فقال:

ـ «لا يَنبغي أن يكونَ هؤلاءِ أجرأَ على المَوتِ مِنّا، ولا أسخى نَفساً عَن الدُّنيا، لا تجزَعوا مِن القَتلِ، فإنَّه أمانيُّ الكِرام، ومَنايا الشُّهداءِ».

وتَرجَّلَ وتكلَّم طُليحةُ فقال مِثلَ ذلك، وتكلَّم غالِبٌ وحَمّالُ وأهلُ النّجداتِ، فقالوا قريباً مِن ذلك، وفعلُوا فِعلَهُم. وقامت حَربُهم على ساقٍ، حتّى الصبّاح. فتِلكَ ليلةُ الهَرير.

وحَكى أنسُ بنُ الحُليسِ، قال: شهدتُ لَيلةَ الهَرير، فكان صَليل الحَديدِ فيها كصَوتِ القُيُونِ ليلتَهم حتّى الصَّباحِ، أفرِغَ عَليهم الصَّبرُ إفراغاً، وباتَ سَعدُ بلَيلَةٍ لم يَبِت

بمثِلِها، ورأى العَربُ والعَجَمُ أمراً لَم يَرَوا مِثلَهُ قَطُّ، وانقطعت الأصواتُ عن رُستَم وسَعدٍ. فبعث سَعدُ نجّاراً ـ وهو غلامُ ـ إلى الصَّفّ لم يَجدِ رَسُولاً، فقال:

ـ «انظر ما ترى من حالِهم».

فرجع، فقال: «ما رأيتَ يا بُنَيّ؟»

قال: «رأيتُ قوماً يَلعَبُون ويَجِدُّون».

فأوّلُ شيءٍ سَمعهُ سعدٌ لَيلَتَئِذٍ مِمّا يُستدَلُّ بِه على الفَتحِ في نِصفِ اللَّيلِ الأخير، صَوتُ القَعقاعِ بن عمرٍو، وهو يقول:

نَحنُ قَتَلنا مَعشراً وَزائدا   أربَعةً وخَمسَةً وواحِدا
تَحسِبُ فَوقَ اللِّبدِ الأَساوِدَا   حتّى إذا ماتُوا دَعَوتُ شاهِدا
اللّه رَبِّي واحتَرَدتُ جاهِدا

وأصبَحُوا لَيلَةَ القادِسيَّةِ ـ وهي لَيلةُ الهَرير. سُمِّيت بلَيلة القادسيَّة مِن بَينِ تلك اللَّيالي والأيام ـ والنّاسُ حَسرى لم يُغمِّضوا ليلتَهُم كلَّها. فسار القَعقَاع في النّاسِ، فقال:

ـ «إنَّ الدَّبرَةَ بَعدَ ساعةٍ لِمَن بَدأ اليومَ، فاصبِروا فإنّ النَّصرَ مع الصَّبرِ».

فاجتمع إليهِ جماعةٌ مِن الرُؤساءِ، فصمدوا لِرُستَم حتّى خالَطُوا الَّذين دُونَهُ. ولمّا رَأت ذلكَ القَبائلُ قام فيها رِجالٌ، فقام قَيسُ بن عبدِ يَغُوثَ المكشُوح، والأشعثُ بنُ قيسٍ، وعمرُو بنُ مَعدي كربٍ، وأشباهُهُم، فَحَضُّوا النّاسَ وحَرَّضُوا.

فكان أوّل مَن زال حينَ قام قائمُ الظَّهيرةِ الهُرمُزان والبِندُوان، فتأخّرا وثَبَتا حيثُ انتَهَيا. وانفرج القلبُ، ورَكَدَ عَليهِم النَّقع، وهبّت ريحٌ عاصِفٌ، فقلعت طَيّارةَ رُستَم عَن سَريرِهِ، فهَوَت في العتيق وهي دَبُورٌ، ومالَ الغُبار عليهم. وانتهى القَعقاعُ وأصحابُه إلى السَّرير، فعبَرُوا بِه، وقد قامَ رُستَم حين طارت الرِّيحُ بالطّيارةِ إلى بِغالٍ قَدِمَت عليه بمالٍ يَومَئذٍ فهي واقفةٌ. فاستظلَّ في ظِلِّ بَغلٍ وحِملِه. فقصدَهُ هِلالُ بنُ عُلَّفة، ووَلّى عنه رُستَم، فاتَّبعَهُ هلال، فرَماهُ رُستَم، فشَكَّ قدمَهُ في الرِّكابِ، وقال بالفارسيَّة:

ـ «بِپّاي» ـ يقول: «كما أنت ارفُق».

فحَمَلَ عليه هلالُ، فضَربهُ ضَربةً نفحت مسكاً. ومضى رُستَم نحو العتيق، فرمى بنفسِه فيه، واقتحمَهُ هِلالٌ عَليهِ، فتناوَلَهُ وقد عامَ وهلالٌ قائمٌ. فأخذَ رِجلَهُ، ثمّ خَرجَ بِه، وضربَ جبينَهُ بالسَّيف حتّى قَتلهُ، ثمَّ جاءَ به حتّى رمى به بين يَدَي رَحلَه وأرجلِ البِغالِ، وأخذَ سلبَهُ، ثمَّ صَعدَ السَّريرَ، ونادى:

ـ «قتلتُ رُستَمَ ورَبِّ الكعبةِ، إليَّ إلي»!

فأطافوا بِه، وكبَّرُوا وما يُحسُّونَ السَّريرَ، ولا يَرَونَهُ، وانهزمَ المشركون.

وقام الجالِنوسُ على الرَّدم ونادى أهلَ فارِسَ إلى العُبورِ، وأسفرَ الغُبارُ. فأمّا المقترنون فإنَّهُم جَشِعُوا. فتَهافَتواْ في العَتيقِ، فوخزَهُم المسلمون بِرماحِهم، فما أفلتَ منهم مُخبرٌ وهُم ثلاثون ألفاً.

دِرَفشُ الكابيان وغيرُه من الأسلاب

وأخذ ضِرارُ بنُ الخَطّابِ دِرَفشَ الكابيان، فعَوّض منها ثَلاثينَ ألفاً ٣٠,٠٠٠ وكانَت قيمَتُها ألفَي ألفِ ومائتَي ألفِ ٢,٢٠٠,٠٠٠. وجُمعت الأسلابُ والأموالُ، فجُمعَ مِنها شَيءٌ لم يُجمع قبلَه ولا بعدَه.

وأرسلَ سَعدٌ إلى هلالٍ، فدُعِيَ، فقال:

ـ «أينَ صاحبُك»؟

قال: «رَمَيتُ به تَحتَ أبغُلٍ كانت هنالكَ».

قال: «اذهب، وجِئ به».

فأمضى له سلبَهُ. وبَعَثَ زهرةَ بنَ الحُوَيَّة يتبع الجالنوس ومَن لَحِقَ به، وأمر القعقاع بمن سَفلَ، وشرحبيلَ بِمَن عَلا. وأمرَ بِدَفنِ الشّهداء. فخرجَ زُهرةُ بن الحُوَيَّة في آثارِهم. فلمّا انتهى إلى الرَّدمِ وَجَدَه مبثوقاً، لِيَمنَعُوهم مِن الطَّلبَ. فقال زُهرة:

ـ «يا بُكيرُ ـ وكان معه ـ أقدِم فَرسَكَ»! وكان بُكيرٌ يقاتِلُ على الإناثِ، وقال:

ـ «ثِبِي أطلالُ»!

فتجمَّعت ووَثبت. وأوثَبَ زُهرةُ فَرسَهُ ـ وكان على حِصانٍ ـ فاتّبعه وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارِسٍ. ونادى زُهرةُ حين كاعَتِ الخيلُ:

ـ «خُذُوا أيُّها النّاسُ على القَنطَرةِ فعارضونا»!

ففعلَ النّاسُ ذلكَ ومَضى زُهرةُ، فلَحِق الفُرسَ، وقد نَزلُوا الخرَّارةَ وطعِمُوا، وهم يتعجَّبُون من رَميهِم وأنّهُ لم يَعمَل في العَربِ. وكان الجالنوسُ قد رُفع له كُرَةٌ، فهو يَرميها ويَشُكُّها بالنُّشّابِ. فشدَّ زُهرةُ على الجالنوسِ، فقَتلهُ، وانهزمتِ الفُرسِ.

وقد قيل: إنّ الجالنوسَ كان راكباً يحمي الفُرسَ حين لَحقهُم زُهرةُ، فشاولَهُ، واختلفا ضَربَتينِ سَبَقَهُ زُهرةُ، فقَتلهُ.

وأمّا القَعقاعُ وشُرحبيل فإنّهما خرجا في طَلبِ مَن ارتفعَ وسفل، فقتلوهُم في كلِّ قريةٍ وأجمةٍ وشاطئ نَهر، ورجعُوا. فتَوافَوا عند صَلاةِ الظّهر، وهنَّأَ النّاسُ بعضُهم بَعضاً، وأثنى سَعدٌ على كلِّ حيٍّ، وذَكَرَ خيراً.

وتدرّعَ زُهرةُ ما كان على الجالنوس، فبلغَ بِضعةً وسبعين ألفاً. فلمّا رجعَ إلى

سَعدٍ نَزعَ سَلبَهُ وقال:

ـ «ألا انتظرتَ إذني»؟

فكتَبَ عُمرُ إلى سَعدٍ:

ـ «تَعمدُ إلى مِثل زُهرة وقد صَلِيَ بما صَلِيَ به وقد بَقِيَ مِن حَربِك ما بَقِيَ، تَكسِرُ قُوَّته، وتُفسِدُ قَلبَهُ! أمضِ لهُ سَلبَهُ، وفَضِّلهُ عند العطاءِ بخمسِمائةٍ».

وقد حُكِيَ أنّ عامَّةَ مَن شَهِدَ القادسيَّةَ فُضِّلُوا عِند العَطاءِ بخمسِمائةٍ. وأمّا أهلُ الأيّام، فإنَّهم فُضِّلُوا على أهلِ القادسيَّةِ، فإنَّهم فُرِض لَهُم على ثَلاثةِ آلافٍ. فقيل لِعُمَرَ:

ـ «لو ألحقتَ بِهم أهلَ القادسيَّةِ، أو فضَّلتَ مَن بَعُدت دارُهُ على مَن قاتلهم بفَنائه».

فقال: «كيف أفضِّلُهم وهم شَجَى العَدُوّ، فهلاّ فَعلَ المهاجِرُون بالأنصارِ إذ قاتلُوا بفَنائهم مثلَ هذا».

فحُكيَ عن رَجلٍ مِن عبسٍ قال:

أصابَ أهلَ فارِس يَومَئذٍ بعدَما انهزمُوا ما لم يُصِبِ النّاسَ قبلَهم. لقد كان الرَّجُلُ مِن المسلمين يَدعُو الفارِسَ منهم وعليه السِّلاحُ التّامُّ، فيأتيهِ حتّى يقومَ بين يَدَيهِ فيضربَ عُنقَهُ ويأخذَ سِلاحَهُ، ورُبّما قَتلَهُ بِسِلاحِه، ورُبّما أمَرَ الرَّجلين أحدَهما بِصاحبِه، وكذلك في العِدَّةِ. وكان مِمَّن هَرَبَ: الهُرمُزانُ، وقارِنُ، وأهودُ. وكانَ مِمَّن استقتَلَ: شهريار بن كنارا، وابن الهِربذ، والفَرُّخان، وخُسروشنوم. وباعَ هلال بن عُلّفة سَلبَ رُستم ـ وكان تَخفَّفَ لما وقعَ في الماءِ ـ بسبعين ألفاً، وكانت قيمةُ قلنسُوَتِه مائةَ ألفِ ١٠٠,٠٠٠ لَو ظُفِرَ بِها. وجاءَ نَفرٌ مِن العباد حتّى دخلُوا على سَعدٍ، فقالُوا:

ـ «أيُّها الأميرُ، رأينا جَسَدَ رُستَم على بابِ قصرِكَ، وعَليه رأسُ غيره».

وكان الضَربُ قد شوّهَهُ، فضحِكَ.

وأمّا جُندُ الشّام فإنَّ حِمصَ افتُتحت، وتوجَّهَ علقمةُ إلى غَزَّة، وتَوجَّهَ معاويةُ إلى قَيسارِيَّةَ، وصمد عَمرو بنُ العاصِ إلى الأرطبون بأجنادين، وكانَ الأرطبونُ أدهَى الرُّوم، أبعدُها غوراً، وأذكاها فعلاً، وكان على الرُّومِ، وقد وضعَ بالرَّملةَ جُنداً عظيماً، وكتبَ عَمرو إلى عُمرَ بِالخبر فقال عُمرُ: «قد رمَينا أرطبون الرُّوم بأرطبون العَربِ، فانظروا عمّا تنفرج».

ذِكرُ خَديعَةِ عَمرو لأَرطَبُون

وجعل عَمرو ينفُذُ إلى الأَرطَبُون رُسُلاً فلا يَشفُونَه. ولا يقدرون مِن أرطَبُون على

سَقطةٍ. فعزم على أن يتولاّه بنفسِه، فدخلَ عليه كأنّه رسولٌ. فأبلغَهُ ما يُريدُ، وسَمعَ كلامَهُ، وتأمّلَ حُصُونَه حتّى عرف ما أراد.

وقال أرطبون في نفسِه:

ـ «واللّهِ إنَّ هذا لَعَمرٌو، أو الّذي يأخذُ عمرٌو برأيِه، وما كنتُ لأُصيبَ القَومَ بأعظَمَ عليهم مِن قتلِه».

ثمَّ دَعا حَرَسيًا، فسارّهُ بقتلِهِ، وقال:

ـ «اخرُج بمكان كذا وكذا، فإذا مَرَّ بِكَ هذا فاقتُلهُ».

وفطَنَ له عَمرٌو فقال:

ـ «قد سَمِعتَ مِنّي وسَمِعتُ مِنكَ. فأمّا ما قُلتَ فقد وقع مِنّي مَوقِعاً، وأنا واحدٌ من عَشرة بعثَنا عُمرُ بنُ الخطّابِ مع هذا الوالي لنُكاتِفَهُ ويُشهِدَنا أمورَهُ. فأرجعُ، فآتيك بِهِم الآن. فإذا رَأوا في الّذي عَرضتَ مِثلَ رَأيي فقد رَآهُ أهلُ العَسكرِ والأميرُ، وإن لم يَرَوهُ ردَدتَهم إلى مَأمَنِهِم، وكنتَ على رأسِ أمرِك».

فقال: «نعم».

ودَعا رجُلاً، فسارَّهُ وقال:

ـ «اذهَب إلى فلانٍ فرُدَّهُ إليَّ».

فرجع الرَّجلُ. وقال لعمرو:

ـ «انطلِق، فجِئ بأصحابِك».

فخَرجَ عمرٌو ورَأى ألاّ يَعودَ لِمثلِها، وعَلِمَ الرُّومي أنَّهُ قد خَدَعَهُ. فقال:

ـ «خدعني الرَّجلُ. هذا أدهَى الخلقِ».

فبلغَت عُمَرَ فقال:

ـ «خَدَعَهُ عَمرٌو وغَلَبَهُ. للّهِ عَمرٌو».

سعد بن أبي وقّاص يُقدِّم زُهرةَ إلى بهرسير

ثمَّ إنّ سعدَ بنَ أبي وقّاص قَدَّم زُهرةَ إلى بَهرسير. فمَضى زُهرةُ مِن كُوثى في المقدِّماتِ حتّى نزل بَهرسيرَ، فتلقّاه شِيرزادُ بِساباط بالصُّلح وتأديةِ الجزي. فأمضاه إلى سَعدٍ، فأقبلَ مَعهُ وتبعتهُ المجنَّباتُ. وخَرجَ هاشمٌ وخَرجَ سَعدٌ في إثرِه وقد فَلَّ زهرةُ كتيبةَ كِسرى بَورانَ حولَ المُظلِم، وانتهى هاشمٌ إلى مُظلم ساباط، ووقف لسعدٍ حتّى لَحِقَ به، وكانت به كتائب كِسرى تُدعَى: «الأسود»، يحلِفونَ باللّهِ كلَّ يومٍ:

ـ «لا يَزولُ مُلكُ فارِسَ ما عِشنا».

فتنادَوا ورئيسُهم المُقرَّطُ. وقالَ المُقرَّطُ:

ـ «إليّ إليّ».

وذلك لمّا انتهى إليه. فنزل إليه هاشمٌ فقتَلَهُ. فقبّل سعدُ رَأسَ هاشم، وقبّلَ هاشمٌ قَدَمَ سَعدٍ. وقَدِمَ سَعدٌ إلى بَهُرسير، فنزلَ إلى المُظلم وقرأ: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ثم ارتَحلَ فنزل بَهُرَسير. وجَعلَ المسلمون كلّما قامت طائفة على بهرسير، وقفوا، ثمَّ كبّروا كذلكَ، حتّى انجرَّ آخرُ مَن مع سَعدٍ، فكان مُقامُه على بَهُرسير شَهرَينِ. وعَبَرُوا في الثّالث، وذلك أنّهم أقامُوا شهرَين يَرمونَهُم بالمَجانيقِ، ويَدُبُّون إليهم بالدَّبّاباتِ، ويقاتلونَهُم بكُلِّ عُدَّةٍ. وكان سَعدٌ استصنعَ شيرزاد عشرين مَنجنيقاً، فشغلوهُم بِها. وكانتِ العربُ مُطيفةً ببهُرَسِير والعَجَمُ متحصِّنةٌ فيها. ورُبّما خرج الأعاجِمُ يَمشُون على المُسَنَّياتِ المُشرفةِ على دِجلةَ في العُدَّةِ والعَديدِ لقتالِ المسلمين، فلا يقومُون لهُم. فكان آخر ما خَرجُوا في رَجّالةٍ ، وناشِبةٍ تجَرَّدُوا لِلحربِ، وتبايَعُوا على الصَّبرِ، فقاتلهُم المسلمون ولم يُلَبِّثوهُم، فكذِبوا وتولَّوا.

ذِكرُ استِهانةٍ في الحربِ عادت بِهَلَكةٍ

هكذا وَجدتُ في التّاريخ وهو سَهوٌ، لأنّ زُهرةَ بنَ الحُويَّة عاشَ بعد هذا، وشَهِدَ مواقِفَ كثيرةً، وسَيَرِدُ جميعُهُ على الأثرِ. ولعلّ هذا زُهرةُ بنُ خالِدٍ، فليُنظَر في ذلك.

كان في ذلك اليَوم على زُهرةَ بنِ الحويَّة دِرعٌ مَفصُومةٌ، فقيل له:

ـ «لو أمرتَ بهذا الفَصمِ فَسُرِدَ».

فقال: «ولِمَ»؟

قال: «نَخافُ عليك مِنهُ».

قال: «إنّي لَكريمٌ على اللّهِ، إن تَرَكَ سَهمُ فارِسِ الجندَ كُلَّهم، ثمَّ أتاني مِن هذا الفَصم حتّى يَثبتَ فيَّ».

فكان أوّلَ رَجُلٍ مِن المسلمين يَومَئذٍ أصيبَ هُوَ بنُشّابَةٍ ثَبَتَت فيه مِن ذلك الفَصمِ.

فقال بعضُهم: «انزَعُوها عنه».

فقال: «دَعُوني، فإنّ نفسي مَعي ما دامَت فيَّ، لَعلّي أصيبُ مِنهُم بطعنةٍ، أو ضربةٍ، أو خَطوةٍ».

فمضى نحوَ العَدوِّ، فضربَ بسيفِه شهربراز مِن أهلِ إصطخر، فقتلَهُ، وأحيط بِهِ فقُتِلَ، وانكشَفُوا. وتَنادى أهلُ بَهُرَسير، فعبَرُوا. فلمّا رَآهم سَعدٌ والمسلمون يعبرُون، زحفُوا إلى السُّورِ والمجانيقِ تأخُذهُ. فناداهم رَجُلٌ:

ـ «الأمانَ».

فآمَنُوهُ، فقال:

ـ «أيّ شَيءٍ ترمون؟ ما بَقِيَ في المدينةِ أحدٌ».

فتسوَّروا، ودخَلُوا بَهُرَسير، وفتحُوا أبوابَها، وتحوَّل العَسكَرُ إليها، وحاوَلُوا العُبورَ، فوجدوهم قد ضَمُّوا السُّفُنَ إليهم في ما بين البَطائح وتكريت.

بهرسير وأبيضُ كِسرى

ولمّا دخَلَ المسلمون بَهُرَسيرَ لاحَ لهُم الأبيضُ. فقال ضِرارُ بنُ الخطّاب:

ـ «أللّهُ أكبر، وهذا ما وعد اللّهُ ورسُولُه: أبيضُ كِسرى».

واللّهِ لتتابَعُوا بالتّكبير حتّى أصبحُوا. وخَبَّرهم ذلك الرَّجُلُ الّذي نادى بالأمانِ: أنّكم حَصَرتُمُ القَومَ حتّى أكلُوا الكِلابَ والسَّنانير.

ولمّا نزل سعدُ بَهُرَسير ـ وهي المدينةُ الّتي كان فيها مَنزلُ كِسرى ـ طلب السُّفُنَ ليَعبرُ بالنّاسِ إلى المدينةِ القُصوى، فلم يَقدِر على شيءٍ، وأقامَ أيّاماً يُصَعِّدُ ويُصَوِّبُ. فأتاه أعلاجٌ يَدُلُّونَه على مَخاضَةٍ تُخاضُ إلى صُلبِ الوادي، فأبى وأبقى على المسلمينَ وفَجِئَهُم المَدُّ، فرأوا أمراً هائلاً في سَنةٍ جَودُ صَيفِها متتابعٌ.

فجَمعَ سَعدٌ النّاسَ وخَطبَهم وقال بَعدَ حَمدِ اللّه:

ـ «إنَّ عدُوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحرِ، فلا تخلُصونَ إليه معَه، وهم يخلُصُون إليكم إذا شاؤوا فَيُناوِشُونَكم في سُفُنِهم، وليس وراءَكم شيءٌ تخافون أن تُؤتَوا مِنهُ، وقد كفاكموهُم أهلُ الأيّام، وعطّلُوا ثغورَهُم، وأفنوا ذادَتَهم. وقد رأيتُ أن تُبادِروا جِهاد العدُوّ بنيّاتِكم قبل أن تَحصُدَكم الدُّنيا، ألا إنّي قد عَزمتُ على قطعِ هذا البحرِ إليهم».

فقالوا جميعاً:

ـ «عزم اللّهُ لنا ولك على الرُّشدِ».

فندبَ سَعدٌ النّاسَ إلى العُبور، فقال:

ـ «من يبدأُ ويَحمي لنا الفِراضَ حتّى لا يَتلاحَقُوا ويلحقَ النّاسُ، فلا يَمنَعُوا مِنَ الخُروج عَنِ الماءِ»؟

فانتدبَ له عاصِمُ بنُ عمرو وجماعةٌ من ذوي البأسِ. ثمَّ انتدبَ بعدهم سِتُّمائةٍ مِن أهلِ النّجداتِ. فاستعملَ عليهم عاصِماً، فَسار فيهم حتّى وقف على شاطئِ دِجلة، وقال:

ـ «من ينتدبُ مَعي لِمَنعِ الفِراضِ مِن عَدوِّكم لنَحميَكم حتّى تعبرُوا»؟

فانتدبَ له ستُّون، فجعلَ نِصفَهم على خُيُولِ إناثٍ، ونِصفَهم على ذكُورةٍ. ثُمَّ

اقتحموا دجلةَ، واقتحم بقيَّةُ السِّتمائةِ على أثرِهم. فكان أوّل مَن فصل من السِّتمِائة، رَجلٌ يُعرف بأصمِّ التَّيم وشُرحبيل وعدَّةُ مَن معه.

فلمّا رآهُم الفُرس وما صنَعُوا، أعدُّوا للخَيلِ الَّتي عبرت مثلَها، فاقتحموا دِجلةَ فأعامُوها إليهم. فقال عاصِمٌ وقد لَقُوهُ في السَّرَعانِ وقد دَنا مِن الفُرضةِ:

ـ «الرِّماحَ، الرِّماحَ أشرِعوها، وتوخَّوا بها العُيونَ».

فالتَقَوا، وتوخّى المسلمون عُيونَهم. فوَلَّوا بأجمعهم والمسلمون يُشمّصون بهم خيلَهم ما يملكُ رِجالُها منعَ شيءٍ منها، فلحقُوهم في الجُدِّ، فقتلُوا عامَّتَهم، ونَجا مَن نَجا مِنهم عُوراناً، وتزلزلت بهم الخَيلُ، وتَلاحقَ السِّتمائة بأوائلهم السِّتِّين غيرَ متَعتِعين، وأذِنَ سَعدٌ لِلنّاسِ في الاقتحام وأمرهُم بالاقترانِ، فتلاحق عُظمُ الجُندِ، فرَكِبوا من دِجلةَ اللُّجَّةَ وإنّها لَترمي بالزَّبدِ وهي مسودَّةٌ، وإنَّ النَّاسَ لَيَتحدَّثُون في عَومِهم، وقد اقترنوا ما يَكتَرِثون، كما يتحدَّثون في مسيرِهم على الأرضِ. ففَجئُوا أهلَ فارِسَ بما لم يكن في حسابِهم، فأعجَلُوهُم عَن جُمهورِ أموالِهم.

وكان يزدجرد قَد قدَّمَ عِيالَه وما خفّ مِن ذخائره معَهم حينَ نزل المسلمون بَهُرَسير إلى حُلوان، وبلغ ذلك سَعداً. جاءَه بالخبرِ بعضُ الأعلاجِ وقال:

ـ «ما تنتظِرُ إذا كان بعدَ ثلاثٍ لم يَبقَ بالمدائن مالٌ لِكِسرىٰ، ولا لأهلِهِ.

فكان ذلك مِمّا هيَّج سَعداً وحَمَلَهُ على ما فَعَل. فكان قرين سَعدٍ الّذي يُسايِرُهُ في الماءِ سلمان الفارسيّ، وكان سفيرَهم، والمترجِمَ لَهُم وعَنهُم.

وحُكِيَ: أنَّ الخَيلَ عَبَر بأجمعِهِ، وقد اسودَّت منه دِجلةُ حتّى ما يُرى الماءُ، فسَلِمُوا بأجمعِهم، ما فقدُوا رَجُلاً واحداً، ولا أداةً. غيرَ أنَّ رجلاً كانت له علاقةٌ في قدحٍ رَثَّةٌ، فانقطعت، وذهبَ القَدَحُ في الماءِ، والتقطَهُ رجلٌ مِن الماءِ كانَ أسفَلَ، تناوَلَهُ برمحِه، وجاءَ به إلى العَسكرِ يعرِّفُهُ، فأخذَهُ صاحِبُهُ.

وزال رجلٌ من بارقٍ يَومَئذٍ يُدعىٰ غَرقَدَةَ عَن ظهر فرسٍ لَهُ شَقراءَ، فنظرَ إليها المسلمون عُرياً تنفضُ أعرافَها والغَريقُ طافٍ، فثنَى القعقاعُ بنُ عَمرو عِنانَ فرسِه إليه، فأخذ بيدِه، وجَرَّهُ حتّىٰ عَبَرَ، وكان البارِقيُّ مِن أشدِّ النّاسِ، فقال: أعجَزتِ الأَخَواتُ أن يَلِدنَ مِثلَك يا قَعقاعُ؟» وكان للقعقاعِ فيهم خُؤُولَةٌ.

وما زالت حُماة فارِسَ يُقاتلونَ على الفِراضِ حتّى أتاهُم آتٍ فقال:

ـ «عَلامَ تُقاتلون، ولِمَ تَقتُلونَ أنفسَكم؟ فوَاللَّهِ ما في المدائن أحدٌ».

مُبادرة يزدجرد إلى حُلوان

وبادر يَزدجِردُ إلى حُلوان، وخلَّف مهران الرّازي والنخيرجان ـ وكان على بيت

المال بالنَّهروان ـ وخرجتِ الفرسُ بِما قَدرت عليه مِن حر المتاع وخَفيفِه وبالنِّساءِ والذَّراريّ، وتركوا في الخَزائنِ مِن الثِّيابِ، والأمتعةِ، والآنيةِ، والفُضولِ، والألطافِ، والعِطر، ما لا يُدرى: ما قيمتُه. وخلَّفوا ما كانوا أعدُّوا للحِصار مِن الأطعمةِ، والأشربةِ، وأصنافِ المأكولِ والحيوان من البَقرِ، والغَنَم.

دخول المدائن

فدخل المسلمون المدائن، وأخذوا في سِكَكِها لا يَلقَون فيها أحداً ولا يُحسُّونَه، إلاّ مَن كان في القصر الأبيضَ. فأُحيطَ بِهم ودَعَوهُم. وكانوا قد اتَّعظُوا بأهل بَهُرَسير. وذلك أنَّ المسلمين لمّا نزلوا عليهم أجّلُوهُم ثلاثاً، ودَعَوهم إلى ثلاثِ خصال: إمّا الإسلام، وإمّا الجِزيَةُ، وإمّا الحَربُ. فلمّا لم يُجيبوا في اليوم الثّالِث أَبادُوهُم. ولمّا دَعَوا أهلَ القصرِ الأبيضِ إلى مِثلَ ذلك اختاروا الجِزية. وكان المخاطِبُ لهم سَلمانَ الفارسي.

وملك المسلمون الغَنائمَ، واحتوىٰ سَعدٌ على بُيوت المالِ، فوجَدَ فيها ثلاثةَ آلافِ أَلفِ أَلفِ ٣٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠. فنزل سَعدٌ القَصرَ الأبيضَ، واتَّخذ الإيوانَ مُصلًى. وقدَّم جيشاً إلى النَّهروان، عليهم زُهرةُ، وتراجعَ إلى المدائنِ أهلُها على الأمانِ والرِّضا بالجِزيةِ.

وَوَجدُوا بالمدائن قباباً تُركيَّةً مَملوءةً سِلالاً مختَّمةً بالرَّصاصِ، قالوا: فما حَسِبناها إلاّ طعاماً مِن حَلواء، فإذا هِيَ آنِيهُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ! وقُسِمت بعدُ في النّاس.

قال حَبيبٌ: لقد رأيتُ رجلاً يطوفُ ويقولُ:

ـ «مَن مَعهُ بَيضاءُ بِصَفراء».

ولقد أتَينا على كافور كثير. فما حَسِبناه إلاّ مِلحاً، فجعلنا نعجُن بِهِ الدَّقيقَ حتّىٰ وجدنا مَرارتَهُ في الخبزِ!

ولمّا انتهىٰ زُهرةُ في المقدمةِ إلى النَّهروان وَجدَهُم قد ازدَحَموا، فوقع بَغلٌ في الماءِ كَلِبُوا عليه. فقال زُهرةُ:

«إنّي أُقسم باللّهِ إنَّ لهذا البغلِ لشأناً ما كَلِبَ عَليه القومُ، ولا صَبَروا لِلسُّيوفِ بهذا الموقفِ الضَّنكِ إلاّ لأمرٍ».

وإذا الّذي عَليه خَرزاتُ كِسرىٰ وَوَشائحُهُ، وعَليها مِن الجَواهِرِ ما لا تُعرفُ قيمتُهُ، وكانَ يَجلِسُ فيها يَومَ المُباهاة.

فترجَّلَ زُهرةُ يَومئذٍ حتّىٰ أزاحَهُم عَنِ البَغلِ، فاحتملَهُ هُوَ وأصحابُه، وجاؤوا بِما عَليهِ إلى صاحبِ الأقباضِ، لا يَدرُون ما عليهِ حتّىٰ فُتح هناك.

تاجُ كِسرىٰ وأدراعهُ

وحَكَىٰ هبيرةُ بنُ الأشعثِ عن جَدِّه قال:

كنتُ مِمَّن خَرجَ في الطَّلبِ، فإذا بِبَغلَين فذادَ راكباهُما عَنهُما بالنُّشّاب، ونَظرتُ، وإذا لم يَبقَ مَعَهما غير نُشّابَين. فألحَحتُ بِهما، فاجتمعا، فقال أحدُهما لِصاحبه:

ـ «على ما أرىٰ، ارمِهِ وأحميك، أو أرميه وَاحمِني»!

فحمَى كُلُّ واحدٍ منهما صاحبَهُ حتّىٰ رَمَيا بهما. ثُمَّ إنّي حَملتُ عَليهِما، فقَتلتُهُما، وجِئتُ بِالبَغلَينِ ما أدري ما عَليهِما، حتّىٰ أتَيتُ بِهما صاحِبَ الأقباضِ وإذا هو يَكتُبُ ما يأتي به النّاسُ وما يَجمعُ مِن الخزائن والدّور، فقال:

ـ «على رِسلِك حتّى نَنظُر ما مَعَك»!

فأطَلتُ الوُقُوفَ بعدما حَصَلتُ عنهُما، فإذا سَفَطانِ على أحَدِ البَغلينِ فيهِما تاجُ كِسرىٰ مُفَسَّخاً، وكان لا يَحمِلُهُ إلاّ أُسطُوانَتانِ، وفيهما الجَوهَرُ، وإذا على الآخرِ سَفَطانِ فيهِما ثيابُ كِسرىٰ منسوجةً بالذَّهبِ المنظوم بالجوهَرِ.

وخرج القعقاعُ بن عَمروٍ يَومَئذٍ في الطَّلبِ، فلحق بفارسيٍّ يحمي النّاسَ، فاقتتلا، فَقَتَلَهُ، وإذا مع المقتُولِ جَنيبَةٌ عَليها عَيبَتان وغِلافان، وفي أحدِ الغِلافين خَمسةُ أسيافٍ، وفي الآخر ستّةُ أسيافٍ، وإذا في إحدى العَيبَتَينِ أدراعٌ: دِرعُ كِسرىٰ، ومَغافِرهُ، وساقاه، وساعدُه، ودرعُ هِرَقلٍ، وفي الآخرِ دِرعٌ سِياوَخشَ، ودِرعُ خاقانَ، ودِرعُ داهِرَ، ودِرعُ بَهرام شُوبينَ، ودِرعُ النُّعمانِ، وكان الفُرسُ استلبوها مِن أربابها أيّامَ خالَفوا كِسرىٰ.

وحَكىٰ عاصم بن الحارث قال:

خَرجتُ في الطَّلبِ. فأخذتُ طريقاً مَسلوكاً، وإذا حِمارٌ. فلمّا رَآني صاحبُه حَثَّهُ، فلحق بآخَرَ أمامَهُ، فمالا، وحثّا حِمارَيهما، فانتَهَيَا إلى جدولٍ قد كُسِرَ جِسرُهُ، فَثَبَتا حتى أتَيتُهما، ثـمَّ تفرَّقا ورَماني أحدُهُما، فألظَظتُ حتّىٰ قتلتهُ، وأفلت الآخَرُ، ورجعتُ إلى الحِمارين، فأتَيتُ بهما صاحبَ الأقباضِ. فَنظَرنا، فإذا على أحدِهما سَفَطانِ، في أحدِهما فَرَسٌ مِن ذَهَبٍ مُسرج بِسرجٍ مِن فِضّةٍ، على ثفرهِ ولَبَبِهِ الياقوتُ والزُّمُرُّدُ منظوماً على الفِضَّةِ، ولجامُه كذلك، وفارِسٌ مِنَ فِضَّةٍ مكلَّلٌ بالجَوهَرِ؛ وإذا في الآخر ناقَةٌ مِن فِضَّةٍ عَليها شليلٌ مِن ذَهَبٍ، وبِطانٌ مِن ذَهَبٍ، ولها شِناقٌ أو زمامٌ مِن ذَهَبٍ، وكُلُّ ذلك منظومٌ بالجَوهرِ؛ وإذا عليها رَجلٌ مِن ذَهَبٍ مكلَّلٌ بالياقوتِ كان كِسرىٰ يَضَعُهُما إلى أُسطُوانَتَي التّاج.

وحَكىٰ غَيرُهُ: أنّ رَجُلاً أقبلَ بِحقٍّ معَهُ، فدفَعَهُ إلى صاحبِ الأقباضِ، فقال هو والّذين معه:

ـ «ما رأينا مِثلَ هذا قَطُّ، ما يَعدِلُهُ ما عِندنا ولا يُقارِبُهُ».

ثمَّ سألُوهُ عَن نَفسِه، فأبىٰ أن يُخبِرَهُم، وقال:

ـ «لا واللَّهِ، لا أخبِرُكم لِتَحمدوني، ولا لِتُقرِّظُوني، ولكنّي أحمدُ اللَّهَ وأرضىٰ بثوابه».

وقال سَعدٌ:

ـ «لَولا ما سَبَقَ بِهِ أهل بدر، لَقُلتُ: إنَّكم أفضَلُ مِنهم وأكرمُ وأيمُ اللَّهِ، لقد تُتُبِّعت مِن أهلِ بدرٍ هنّاتٌ وهنّاتٌ فيما أحرَزوا، وما أحِسُّها ولا أسمعُها مِن هؤلاءِ القومِ.

وقال جابرُ بنُ عبد اللَّهِ:

ـ «واللَّهِ الَّذي لا إلٰه إلاّ هُوَ، ما اطَّلَعنا على أحدٍ مِن أهل القادسيَّةِ أنَّهُ يُريد الدُّنيا مع الآخرَةِ. ولقد اتَّهمنا ثلاثة أنفُسٍ فما رأينا كأمانَتِهم وزُهدِهِم ووَرَعِهِم: طليحة بن خُوَيلدٍ، وعمرو بن مَعدي كربٍ، وقيس بن المكشُوح».

عمرُ وتاجُ كسرىٰ

ولمّا قُدِمَ على عُمرَ بنِ الخطّابِ بتاجِ كِسرىٰ وبِزَّتِه، وزبرجِه، ومِنطَقتِه، وسلاحه، قال:

ـ «إنّ قوماً أدّوا هذا لَذُو أمانةٍ».

فقال عليٌّ صلوات اللَّه عليه:

ـ «إنَّكَ عَفَفتَ فعفَّتِ الرَّعيَّةُ».

ولمّا قسم سَعدٌ الفَيءَ أصابَ الفارِسَ اثنا عشر ألفَ درهم، وكلُّهم كانَ فارِساً يَومَ المدائن، وليسَ فيهم راجلٌ، وكانتِ الجنائبُ كثيرةً. ولمّا نزلَ سَعدٌ المدائنَ بعث إلى العِيالاتِ، فأنزلَهم الدُّورَ وفيها المرافِقُ، فأقاموا بالمدائن حتى فرغُوا من جَلولاء، وحلوان، وتكريت، والمَوصِل، ثمَّ تحوَّلُوا إلى الكوفة».

بِساط يُساوي جَريباً

ولمّا قسّم سعدٌ الفيءَ أخذ يسألُ بعدَ القسمِ وإخراج الخُمسِ القِطفَ، فلم تعدل قيمتُه، فقال للمسلمين:

ـ «هل لكم في أن نطيبَ نَفساً عن أربعة أخماسِه ونبعثَ به إلى عُمرَ، فيضعَهُ حيث يَرى، فإنّا لا نراهُ يُنفَقُ بيننا»؟

فقالوا: «نعم، هاءِ اللَّهَ إذاً».

فبُعثَ. وكان سِتّين ذراعاً في سِتّين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدارَ جريبٍ، فيه: طُرُقٌ كالصُّورِ، وفُصوصٌ كالأنهار، وخلالَ ذلك كالدّير، وفي حافاتِه كالأرضِ المزروعةِ المُبقِلةِ بالنّبات، وعليه ما كانوا يُعِدُّونَهُ في الشّتاءِ، إذا ذهبت الرّياحين، وكانوا إذا أرادوا الشّرب شربوا عليه، وكأنّهم في رياضٍ، لأنّ الأرضَ ـ أرضَ البِساطِ ـ مُذهَّبٌ، ووَشيهُ فُصوصٌ، وعليه قُضبانُ الذّهبِ، عليها أنوارٌ مِنَ الذّهَب والفِضّةِ، وأوراقٌ كذلك من حَريرٍ قد أجريَ فيه ماءُ الذّهبِ وكانت العربُ تُسمّيه القطف.

فلمّا قُدِم بِه على عُمرَ جَمعَ النّاسَ، وخطبَهُم، واستَشارَهم في البِساطِ، وأخبرهُم خَبَرهُ. فاختلف عليه النّاسُ، فمِن مُشيرٍ بقَبضِه وآخَرَ مُفَوِّضٍ إليه، وآخَرَ مُرقّقٍ.

فقام عليٌّ عليهِ السّلامُ فقال:

ـ «لِمَ تجعَلُ عِلمَكَ جهلاً، ويقينَكَ شَكًّا؟ إنّك إن تَقبلهُ على هذا، اليومَ، لم تَعدمَ في غَدٍ مَن يَستَحِلُّ به ما لَيسَ لَهُ».

فقال: «صَدَقتَني ونَصَحتَني».

فقَطعَهُ وقَسمَهُ. وأصابَ عَليًّا قِطعةٌ مِنهُ باعَها بعِشرينَ ألفاً، وما هي بأجوَدِ تلك القِطعِ.

ولما عُرِضَ على عُمرَ ـ رضي اللّه عنه ـ حُلِيُّ كِسرى وزِيُّهُ في المُباهاةِ ـ وكانَت لَهُ عِدَّةُ أزياءٍ لِكُلِّ حالةٍ زِيٌّ ـ قال:

ـ «عَلَيَّ بِمُحَلِّم».

وكانَ أجسَمَ عَربيٍّ يَومَئذٍ بالمدينةِ، فألبِسَ تاجُ كسرى على عمودين من خشب وصُبَّ عليه أوشِحَتُهُ وقلائدُهُ وثِيابُه، وأجلِسَ لِلنّاسِ. فنظر إليه عُمر والنّاسُ، فرأوا أمراً عظيماً من أمرِ الدُّنيا وفِتنَتِها. ثمَّ أُقيمَ عن ذلك، وألبِسَ زِيَّه الآخَر، فنظروا إليه، ثمَّ كذلك في غير نَوعٍ حتّى أتى عليها كُلّها، ثمَّ ألبَسَهُ سِلاحَه، وقلّدَه سَيفَهُ، فنظَروا إليه في ذلك.

فقال عُمرُ:

ـ «إنّ أقواماً أدّوا هذا لَذَوُو أمانةٍ».

قال: «أحمق بامرئٍ مِن المسلمين غَرَّتهُ الدُّنيا، هَل يَبلُغَنَّ مَغرورٌ مِنها إلاّ دُونَ هذا؟ وما خَيرُ امرِئٍ مُسلِمٍ سَبقَهُ كِسرى فيما يَضُرُّهُ ولا ينفعُهُ. إنّ كِسرى لم يَزِد على أن تشاغَلَ بِما أوتِيَ عَن آخِرتِه، فجَمعَ لِزَوجِ امرأَتِهِ، أو زَوجِ ابنَتِه، أو امرأةِ ابنِه، ولم يقدِّم لِنفسِه، فقدَّم امرُؤٌ لِنفسِه، ووَضعَ الفُضُولَ مواضِعَها تحصل له، وإلاّ حصلت لِلثّلاثةِ بَعدَهُ، وأحمَقُ مَن جَمعَ لهم أو لِعدُوٍّ جارفٍ».

وَقعَةُ جَلُولاءَ

ثمَّ إنَّ سَعداً أتاه الخبرُ بأنّ مِهرانَ قد عسكر بِجَلُولاء وخندقَ عليه، وأنَّ أهلَ المَوصِل قد عَسكَرُوا بتكريت. وكتب إلى عُمرَ بذلك. فكتب إليه عُمرُ:

ـ «قَدِّم هاشِماً إلى جَلُولاَ في اثني عشر ألفاً مِن وجوهِ المهاجرين والأنصارِ وأعلام العَربِ مِمَّن ارتَدَّ، ومَن لم يرتَدَّ، واجعَل على مقدّمتِه القعقاعَ بن عَمرو».

وكان الفُرسُ لمّا انتهَوا بعد الحَربِ من المدائن إلى جَلُولاَ، رأوا الطَّريق يفترق بأهل أذربيجان والباب وبأهلِ الجبالِ وفارِسَ. فتذامَروا، وقال بَعضُهم لِبَعضٍ:

ـ «يا معشر الفُرسِ، إن افترقتُم لم تجتمعُوا أبداً، هذا مكانٌ يفرّق بيننا، فهَلُمّوا، فَلنجتمع لِلعَربِ بِهِ، وَلنُقاتِلهم بجميع عزائمِنا. فإن كانت لَنا فهو الّذي نُريدُ، وإن كانت الأخرى، كُنّا قد أبلَينا العُذرَ».

فاحتفَروا الخَندَقَ، واجتمعُوا فيه، على مِهران، ونَفَذَ يَزدجِردُ إلى حُلوانَ، ورَماهُم بالرِّجالِ، وخلَّفَ فيهم الأموالَ. فأقامُوا في خَندقِهم وقد أحاطوا به الحَسكَ مِن الخَشَبِ إلاّ طُرُقَهم.

فلمّا قَدِم هاشِمُ أحاط بِهم، وطاوَلَهُم أهلُ فارِسَ، وكانوا لا يخرجون إلاّ إذا أرادُوا. وزاحفَهم المسلمون بجلُولاء ثمانين زحفاً كُلَّ ذلك يُنصَرُ المسلمون، ويُغلَبُ المشركون، حتّى غلبوهُم على حَسَكِ الخَشَبِ، فاتخذُوا حَسَكَ الحديدِ، وتَركوا للمجالِ وَجهاً. فخرَجُوا على المسلمين منه، واقتتلُوا قِتالاً شديداً لم يَقتَتِلُوا مثلَهُ ولا ليلة الهَرير، إلاّ أنّه كان أكمشَ وأعجلَ، ولم يَرَ المسلمون ولا المشركون مِثلَهُ في موطِنٍ قَطُّ حتّى أنفدُوا النَّبلَ، وقصفُوا الرِّماحَ، وصارُوا إلى السُّيوفِ والطَّبرزِيناتِ، فكانُوا بذلك إلى بين الصَّلاتَين، وصلَّى النّاسُ إيماءاً.

ثمَّ خَنست كتيبةٌ للمُشركينَ وجاءَت أخرى، فَوقَفَت مكانَها، ثمَّ كذلك، فكسر المسلمين ما رَأوا.

فقال القعقاعُ بن عَمرو:

ـ «أيّها النّاسُ، أهالتكم هذهِ»؟

فقالوا: «وكيف لا يَهُولُنا ونَحنُ مُكِلّونَ وهم مُريحُون».

فقال القعقاعُ: «اصبِرُوا إلى ساعةٍ، فإنّي حامِلٌ عليهم، فاحتمِلوا معي ولا يُكَذِّبَنَّ أحدٌ حتّى يَحكمُ اللّهُ بيننا».

ثمَّ حَمَلَ، وحَمَلَ مَعهُ النّاسُ، وانتهى بالقعقاعِ وجهُهُ الّذي زاحفَ فيه إلى بابِ

خندقِهم، فأخذَهُ. وأَمرَ مُنادياً فنادى:

ـ «يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخلَ الخَندقَ وأخذَ بِه، فأقبِلوا إليه، ولا يمنعكم مَن بينكم وبينَهُ مِن دُخولِهِ».

وإنّما أمَر بذلك لِيُقوِّيَ المسلمين بهِ، ولئلاّ يتحاجزُوا. فحَمَلَ المُسلمون ولا يشكُّون إلاّ أنّ هاشِماً في الخَندَقِ. فلم يقم لِحملتِهم شيءٌ، حتّى انتهَوا إلى بابِ الخَندقِ فإذا هم بالقعقاع قد أخذ بِه، والمشركون يَمنةً ويَسرةً على المجالِ الّذي بحيالِ خَندقِهم. فهَلَكوا فيما أَعَدُّوا للمسلمين مِن الحَسَكِ، وعُقِرت دَوابُّهم وعادُوا رَجّالةً، ويتَّبِعُهم المسلمون. فلم يُفلِت إلاّ مَن لا يُعدُّ، وقُتِلَ منهم يَومئذٍ مائة ألفٍ أو يَزيدون، فجلَّلت القتلى المَجالَ وما بين يَديهِ وما خَلفَهُ، فسُمِّيت: «جَلُولاء الوقيعة».

واقتسمَ النّاسُ في جَلُولاء مِثل ما اقتسمُوا في المدائن. ويُقال: إنَّهم اقتسمُوا على ثلاثينَ ألفَ ألفِ ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ وكان الخُمس منه ستَّة آلافِ ألفِ ٦,٠٠٠,٠٠٠. واقتسم السَّبايا، فاتُّخِذنَ، ووَلَدنَ في المسلمين.

استيذان عُمر في الانسياح

ولمّا بَلغتِ الهزيمةُ يَزدَجِرد، سارَ مِن حُلوانَ نحوَ الجَبلِ، وقدِم القعقاعُ حُلوانَ. وكوتِبَ عُمرُ بِفتح جَلولاء ونزول القعقاعِ حُلوانَ، واستأذَنوه في اتّباعِهم، فقال:

ـ «ودِدتُ أنّ بينَ السَّوادِ وبينَ الجَبلِ سَدًّا مِن نار لا يخلُصون إلينا ولا نخلُصُ إليهم. حَسبُنا مِن الرِّيفِ السّوادُ. إنّي قد آثَرتُ سَلامةَ المسلمين عَلى الأنفالِ».

وبُعثَ بالأخماسِ مع جَماعةٍ فيهم زيادُ بن أبي سفيان، وكان هو الّذي يكتب للنّاس ويدوِّنهم. فلمَّا قدموا على عمر، كلَّم زِيادٌ عُمرَ فيما جاءَ لَهُ مِن الاستيذان في التّقدُّم، ووصفَ لَهُ الحالَ.

فقال عُمرُ: «هل تَستطيعُ أن تقومَ في النّاسِ بمثل الّذي كلَّمتَني به»؟

فقال: وَاللّهِ، ما على الأرضِ شَخصٌ أهيَبُ في صَدرِي مِنكَ، فكيف لا يقوى على هذا مِن غيرك»!

فقام في النّاسِ بما أصابُوا، وبما صنَعُوا، وبجميعِ ما يستأذنون فيه مِن الانسياحِ في البِلادِ.

فقال عُمرُ: «هذا الخَطيبُ المِصقعُ».

وقال: «إنَّ جُندَنا بالفَعالِ أطلقُوا ألسِنَتنا بالمَقالِ».

ثمّ إنّ عُمرَ لمَّا نَظَرَ إلى الأخماسِ المحمولةِ من جَلُولاء قال:

ـ «واللَّهِ، لا يُجِمَّنَّهُ سَقفُ بَيتٍ حتّى أقسِمَهُ».

فباتَ عبدُ الرَّحمٰن بنُ عَوفٍ، وعبد اللَّه بن الأرقم يحرسانه في سَقفِ المسجدِ. فلمّا أصبحَ جاء في النّاس، فكُشِف عنه الأنطاعُ. فلمّا نظر إلى ياقوتِه، وزبَرجَدِهِ، وجَوهَرِهِ، بَكى.

فقال له عبد الرَّحمٰن:

ـ «ما يُبكيكَ يا أميرَ المؤمنين؟ فَوَاللَّهِ، إنَّ هذا لَمَوطِنُ شُكرٍ وسُرورٍ».

فقالَ عُمرُ: «ما ذاكَ يُبكيني. واللَّهِ، ما أعطَى اللَّهُ هذا قَوماً إلاّ تحاسَدُوا، وتباغضُوا. ولا تَحاسَدُوا إلاّ وَقعَ بأسُهم بينَهم».

ولمّا فَرضَ عُمرُ العَطاءَ، قال قائل:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، لَو تَركتَ في بُيُوتِ الأموالِ عُدَّةً لِكَونٍ إن كانَ».

فقال: «كلمةٌ ألقاها الشَّيطان على فِيكَ، وَقانِي اللَّهُ شرَّها، وهِيَ فِتنةٌ لِمَن بَعدي. بَل أعِدُّ لَهم ما أعدَّ اللَّه ورسولُه: طاعةَ اللَّهِ ورسُولِهِ، فهُما عُدَّتُنا الّتي بها أفضَينا إلى ما تَرَون».

ما عامَلَ بِهِ عُمرُ خالدَ بنَ الوليد

وفي سنةِ سَبعَ عَشرةَ، أدرَبَ خالدُ بنُ الوليد وعياضٌ، وكان خالدُ على قنّسرين مِن تحت يَدِ أبي عُبيدةَ، فأصابوا أموالاً عظيمةً. فانتجعَ خالداً رجالٌ. وكان الأشعثُ بنُ قيسٍ فيمن انتجع خالداً بقِنَّسرين، فأجازَهُ بعَشرةِ آلافٍ، وكان عُمرُ لا يخفى عليه شيءٌ في عَملِه، فكتب إليه بخُروج مِن خرج في تلك الغَزاة مِن الشّام، وبجائزةِ مَن أُجِيزَ.

فدَعا البريدَ وكتبَ معه إلى أبي عُبيدة: أن يُقيم خالِداً ويعقِلَهُ بعِمامته، وينزِعَ عنهُ قلنسُوَتَهُ حتّى يُعلِمَكم مِن أينَ أجاز الأشعثَ: أمِن مالِه، أم مِن إصابةٍ، فإن زعَم أنّها مِن إصابةٍ أصابَها، فقد أقرَّ بخيانةٍ، وإن زعم أنّها مِن مالِه، فقد أسرفَ، فاعزِلهُ على كُلِّ حالٍ، واضمُم إليك عمَلَهُ.

فكتب أبو عبيدة إلى خالدٍ، فقدِم عليه. ثمّ جمع النّاسَ وجلس لهم على المنبر، فقام البَريدُ، فقال:

ـ «يا خالدُ! أمِن مالِكَ أجَزتَ بعشرةِ آلافٍ، أم مِن إصابة»؟

فلم يُجِبهُ حتّى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقُولُ شيئاً.

فقال بلالٌ بعد أن قام إليه:

ـ «إنّ أميرَ المؤمنين أمر بكذا وكذا».

وتناول عمامتَه فنقضهما، لا يمنَعُهُ سمعاً وطاعةً. ووضَع قلنسُوَتَهُ، ثمّ أقامَهُ،

فعقَلَهُ بعِمامتِه وقال:

ـ «ما تَقُولُ، أمِن مالِك، أم مِن إصابةٍ»؟

قال: «لا. بَل مِن مالي».

فأطلَقهُ، وأعادَ قلنسُوَته، ثمّ عَمَّمَهُ بيدِه وقال:

ـ «نَسمع ونُطيعُ لِوُلاتِنا، ونُفَخِّمُ ونَخدِمُ مَوالِينَا».

وأقام خالِدٌ متحيِّراً لا يَدرِي: أمَعزولٌ أم غيرُ معزولٍ. وجعل أبو عَبيدةَ يُكرِمُهُ ويزيدُهُ تفخيماً ولا يُخبِرُهُ. فلمّا طالَ على عُمرَ أن يقدَمَ خالدٌ، ظَنَّ الّذي كانَ.

فكتبَ إليهِ بالإقبالِ.

فأتى خالدٌ أبا عبيدة، فقال:

ـ «رحمِكَ اللّهُ، ما أردتَ إلى ما صَنعتَ؟ كتَمتَنِي أمراً كُنتُ أحبُّ أن أعرِفَهُ قبلَ اليوم». فقال أبو عُبيدةَ: «إنّي واللّهِ ما كُنتُ لأرُوعَكَ: ما وَجدتُ بُدًّا، وقد علمتُ أنّ ذلكَ يَروعُكَ». فرجع خالِدٌ إلى قِنّسرينَ فَخطبَ أهلَ عَمَلِه، وودّعَهُم، وتَحمَّلَ، ثمّ خرج نحوَ المدينةِ حتّى قَدِم على عُمرَ، فشكاهُ، وقال:

ـ «لقد شكوتُك إلى المسلمين، وباللّهِ، إنَّكَ في أمري غيرُ مُجمِلٍ يا عُمرُ».

فقال له عُمرُ:

ـ «مِن أينَ هذا الثّراءُ»؟

قال: «مِن الأنفالِ والسُّهمانِ».

ثمَّ أخذ منه عشرين ألفَ دِرهم، فأدخلَها بَيتَ المالِ. ثمَّ قال:

ـ «يا خالدُ، واللّهِ إنَّكَ عَليَّ لَكريمٌ، وإنَّكَ إليَّ لَحبيبٌ، ولَن تُعاتِبَني بعدَ اليومِ على شَيءٍ».

وكَتَبَ عُمرُ في الأمصارِ:

ـ «إنّي لم أعزلِ خالداً عَن سَخَطٍ ولا خِيانةٍ ولكنّ المسلمين فُتِنُوا به، فَخِفتُ أن يوكَلُوا إليه ويُبتَلوا بِه وأحبَبتُ أن تعلَمُوا أنّ اللّهَ هو الصّانعُ، وألاّ نكونَ بعرَضِ فِتنَةٍ».

وحجّ عُمرُ في هذه السَّنةِ، وبَنى المسجدَ الحرامَ، ووسَّعَ فيه، وأقام بمَكَّةَ عِشرين لَيلةً، وهَدَم على أقوامٍ أبَوا أن يَبيعُوا، ووضعَ أثمانَ دُورِهم في بَيتِ المالِ حتّى أخذُوها.

علاءُ بن الحضرمي وعاقبة عصيانه

وكان عَلاءُ بن الحَضرَمي بالبَحرينِ والياً مِن قِبلِ أبي بكرٍ ثُمّ مِن قِبَلِ عُمرَ وكان

يُباري سَعداً، فطال العَلاءُ على سعدٍ في الرِّدّةِ بالفضل. فلمّا ظَفِرَ سَعدٌ بالقادِسيَّةِ، وأزاحَ الأكاسِرَةَ، وأخذَ حُدودَ ما يَلي السَّوادَ وغيرَها، واستعلى، وجاءَ بأعظمَ مِمّا كانَ العَلاءُ جاءَ بِه؛ أحبَّ العَلاءُ أن يَصنعَ شيئاً في الأعاجِم، ورَجا أن يُدالَ كما قد أُدِيلَ.

ولم ينظُر العَلاءُ في ما بينَ فضلِ الطّاعَةِ والمعصيةِ بِجِدٍّ. وكان عُمرُ لمّا ولاّهُ نَهاهُ عَنِ البَحرِ، فلم يُفكِّر في الطّاعَةِ والمَعصية وعواقِبِهما، وطمعَ في فارِسَ مِن جِهتِه، فندبَ أهلَ البحرين إلى فارِسَ، فتسَرَّعوا إلى ذلك، وفرَّقَهُم أجناداً على أحدِها الجارودُ بن المُعَلّى، وعلى الآخَر السَوارُ بنُ هَمّام، وعلى الآخرِ خُلَيدُ بنُ المُنذرِ بنِ ساوى، وخليدٌ على جَماعَةِ النّاسِ، فحمَلَهم في البحر إلى فارِسَ بغير إذنِ عُمَرَ. فعبرت تِلك الجُنُودُ مِن البحرين إلى فارِسَ، فخرجوا في إصطخر وبإزائهم أهلُ فارِسَ وعلى أهلِ فارِسَ الهِربَذ، اجتَمعوا عليه، فَحالوا بين المسلمين وبين سُفُنِهِم.

فقام خُليدٌ في النّاسِ فقالَ:

ـ «أمّا بَعدُ، فإنّ اللّه إذا قضى أمراً جَرت به المقاديرُ حتّى يُصيبَهُ، وإنّ هؤلاءِ القومَ لم يَزيدوا بِما صَنَعُوا على أن دَعَوكم إلى حَربِهم، وإنّما جِئتُم لِمُحارَبَتِهم والأرضُ والسُّفنُ لِمَن غَلبَ، فاستَعينُوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ».

فأجابوه إلى ذلك وصلّوا الظُّهرَ، ثمَّ ناهَدوهُم في موضعٍ يُقالُ له: طاؤوس. فقُتِلَ جماعةٌ مِن المسلمين فيهم السَوارُ والمنذر بنُ الجارودِ. وتزجَّلَ خُليدُ بنُ المنذر وارتجزَ:

يا لَتميمٍ جَمِّعُوا النُّزولُ قد كاد جَيشُ عُمَرٍ يَزُولُ
وكُلُّكُم يَعلَمُ ما أقولُ

ـ «انزلُوا»!

فنَزلُوا، فقاتَلوا القَومَ، فقُتِلَ أهل فارِسَ مقتَلَةً لم يُقتَلُوا مِثلَها، وهُزِمَ الباقونَ. ثمّ خرجوا يُريدون البصرةَ، فغرقت سفنُهم ولم يَجِدُوا إلى الرُّجوعِ سبيلاً. فوجَدُوا سُهرَكَ قد أخذ على المسلمين بالطُّرُقِ، فعَسكَروا وامتنَعُوا في نشُوبِهم ذلك وبلغ عُمَرَ ما صَنَعَ العَلاءُ مِن بعثِه ذلك الجيشَ في البحر، فألقِيَ في رُوعِه نحوٌ من الّذي كان. فاشتدَّ غضَبُه على العَلاءِ، وكتَبَ إليه بَعزلِه، وتَوعَّدَهُ، وأمَرهُ بأثقلِ الأشياءِ عَليهِ، وقال له:

ـ «الحَق بسعدِ بنِ أبي وقّاصٍ في مَن قِبَلَكَ، فهو أميرٌ عليك».

فخَرجَ بِمَن مَعهُ نحو سَعدٍ.

وكَتبَ عُمرُ إلى عتبة بن غَزوانَ:

ـ «إنّ العلاء بنَ الحضرمي حمَل جُنداً مِن المسلمين، فأقطَعَهُم أهل فارِسَ

وعَصاني، وأظُنُّه لم يُرِد اللَّهَ بذلك، فخشيتُ عليهم ألاّ يُنصَروا، وأن يُغلَبُوا، وينشَبُوا. فاندُب إليهم النّاسَ واضمُمهُم إليكَ من قَبلِ أن يُجتاحوا».

فندبَ عُتبةُ النّاسَ إليهم وأخبرهُم بكتابِ عُمرَ. فانتدبَ عاصِمُ بن عَمرٍو وعرفجةُ وجَماعةٌ يَجرُون مَجراهم كالأحنفِ بنِ قَيسٍ، وسَعدِ بن أبي العَرجاء، وصَعصَعةَ بنِ مُعاويةَ، فخرجوا في اثني عَشَرَ ألفاً على البِغالِ يَجنُبون الخَيلَ وعليهم أبو سَبرةَ بنِ أبي رُهم. فسار أبو سَبرةَ بالنّاسِ، وساحَلَ لا يَلقاهُ أحدٌ ولا تعرض له حتّى التقى مع خُليدٍ، بحيثُ أخِذَ عليهم الطَّريق غِبَّ وَقعةِ القوم بِطاؤوس، وإنّما كانَ ولي قِتالهُم أهلُ إصطخَر والشُّذّاذُ مِن غيرِهم، وقد كان أهلُ إصطخَر حيثُ أخذوا بالطُّرُقِ على المسلمين وأنشَبُوهم، واستصرخُوا أهلَ فارِسَ كُلُّهم، فضربوا إليهم مِن كُلِّ وجهٍ وكورةٍ.

فالتقَوا هُم وأبو سَبرةَ بعدَ طاؤوسٍ وقد توافت إلى المسلمين أمدادُهم، وإلى المشركين أمدادُهم، وعلى المشركين سُهرَكُ. فاقتتلُوا، ففتح اللَّهُ على المسلمين، وقَتَلَ المشركينَ وأصاب المسلمونَ مِنهم ما شاؤوا، وهي الغزاةُ الّتي شرفت فيها نابتة البصرةِ وكانوا أفضلَ نوابتِ الأمصارِ، ثمّ انكَفَأُوا بِما أصابوا. وكتبَ إليهم عُتبةُ بالحثِّ وقِلَّةِ العُرجةِ، فانضمُّوا إليه بالبَصرةِ، وقبلَ ذلك ما فتح عُتبةُ الأهوازَ، وقاتل فيها الهُرمُزان حتّى ظَفِرَ به بِتُستَر بَعدَ وقعاتٍ أسِرَ في آخرها الهُرمُزانُ وأعطى بِيَدِه على الرِّضا بِحكمِ عُمرَ. وقتلَ الهُرمُزانُ بيدِه البَراءَ بنَ مالِكٍ ومَجَزأةَ بنَ ثورٍ.

إرسال الهُرمُزان إلى المدينةِ

ووَفَدَ أبو سَبرةَ وفداً فيهم أنَسُ بنُ مالكٍ، والأحنفُ بنُ قيسٍ. فأرسلَ الهُرمُزانَ معَهُم فقدموا مع أبي مُوسى البَصرة، ثمَّ خرجُوا نحو المدينةِ.

فلمّا دخَلُوها هَيَّأُوا الهُرمزانَ في هيأتِه، وألبَسُوهُ كِسوتَهُ مِن الدّيباجِ الّذي فيه الذّهبُ، ووضَعُوا على رأسِه تاجاً يُدعى: الـ«آذينَ» مُكَلَّلاً بالياقوتِ، وعليه حَليتُهُ كَي ما يَراهُ عُمرُ والمسلمون. ثمَّ خرجُوا به عَلى النّاسِ يُريدون عُمرَ في منزله، فلم يَجِدُوهُ. فسألُوا عنه، فقيل لهم: «جَلَسَ في المَسجدِ». ولم يَرَوهُ. فلمّا انصرَفوا، مَرُّوا بغلمانٍ مِن أهلِ المدينةِ يلعبون.

فقالوا لهم:

ـ «ما تَلدُّدكُم، تريدون أمير المؤمنين؟ فإنَّهُ نائمٌ في مَيمنةِ المسجدِ، مُتوسِّدٌ بُرنسَهُ».

وكان عُمرُ جَلَسَ لوفدِ الكوفةِ في بُرُنسٍ. فلمّا فرغ من كلامِهم وارتفعُوا عنه وأخلَوهُ، نَزعَ بُرُنسَهُ، ثمَّ تَوسَّدَهُ فنامَ.

فانطلقوا ومعهُم النظّارةُ، حتّى إذا رَأَوهُ جَلَسُوا دُونَه، وليس في المسجدِ نائمٌ ولا يَقظانُ غيرهُ، والدِّرّةُ في يَدِه مُعلّقُها.

فقال الهُرمُزانُ: «أينَ عُمَرُ»؟

قالوا: «ها هو ذا»!

وجعلَ الوفد يُشيرونَ إلى النّاسِ: أنِ اسكُتُوا عَنهُ. وأصغى الهُرمُزانُ إلى الوفدِ، فقال:

ـ «أينَ حَرَسُهُ وحُجّابُهُ عنه»؟

قالوا: «ليس له حاجبٌ ولا حارِسٌ ولا كاتبٌ ولا ديوانٌ».

قال: «فينبغي أن يكونَ نَبيًّا».

فقالوا: «لا، ولكنّهُ يَعملُ عَملَ الأنبياءِ».

وكثُرَ النّاسُ وكلامهُم، فاستيقظ عُمرُ بالجَلَبَةِ، فاستوى جالساً. ثمَّ نَظَرَ إلى الهُرمُزانِ، فقال: «الهُرمُزانُ»؟

فقالوا: «نعم»!

فتأمّلَهُ، وتأمّل ما عليه، ثمّ قال:

ـ «أعوذُ باللّهِ مِن النّارِ، الحمدُ للّهِ الّذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعَهُ. يا معشَرَ المسلمين! تَمسَّكُوا بهذا الدِّين، واهتَدُوا بِهَديِ نَبيِّكُم، ولَا تُبطِرَنّكُم الدُّنيا، فإنّها غرّارَةٌ».

فقال الوفدُ: «هذا مَلِكُ الأهواز، فكَلِّمهُ!»

قال: «لا، حتّى لا يَبقى عليه مِن حِليتِهِ شَيءٌ».

فَرُمِيَ عنهُ بِكُلِّ شيءٍ إلاّ ما يَستُرُهُ، فألبَسُوهُ ثوباً صَفيقاً.

فقال عُمرُ: «هِي يا هُرمُزان! كيف رأيتَ وبَالَ الغَدرِ وعاقِبَةَ أمرِ اللّهِ»؟

فقال: «يا عُمرُ! إنّا وإيّاكم في الجاهليّةِ كان اللّهُ خَلّى بينَنا وبينَكُم، فغَلَبناكم، إذ لم يكن معَنا وَلا معَكُم؛ فلمّا صارَ معَكُم غَلَبتُمُونا».

فقال عُمرُ: «إنّما غَلَبتُمُونا في الجاهليّةِ باجتماعِكم وتَفَرُّقِنا».

ذِكرُ خَديعةٍ لِلهُرمُزانِ وحِيلةٍ لَهُ حتّى آمَنَهُ عُمرُ

ثمّ قال عُمرُ: «ما عُذرُك وما حُجّتُكَ في انتقاضِك مَرّةً بَعدَ مَرّةٍ»؟

فقال: «أخافُ أن تقتُلَني قَبلَ أن أخبرك».

قال: «لا تَخَف ذلك».

واستسقى ماءً، فأُتِيَ بِه في قَدَحٍ. فقال:

ـ «لَو مِتّ عطَشاً لم أستطعِ الشُّربَ في مِثلِ هذا».

فأتِيَ به في إناءٍ يَرضاهُ. فجَعلت يَدُهُ ترعَدُ؛ وقال:

ـ «إنّي أخافُ أن أُقتَلَ وأنَا أشربُ».

فقال له عُمرُ: «لا تَخَف، فلا بأسَ عليكَ حتّى تشرَبَهُ».

فَألقاهُ. فقال عُمرُ:

ـ «أعيدوا عليه، ولا تَجتَمِعُوا عليه القَتلَ والعَطَشَ».

فقال: «لا حاجَةَ لي في الماءِ، إنّما أردتُ أن أستأمِنَ بِه»!

فقال لَهُ عُمرُ: «إنّي قاتِلكَ».

قال: «قد آمَنتَني».

فقال: «كَذِبتَ»

فقال أنَسٌ: «صَدَقَ يا أميرَ المُؤمنين»!

فقال: «وَيحكَ! أنَا أُومِنُ قاتِلَ مَجزأَةَ والبَراء؟ لَتَأتِيَنّي بِمَخرجٍ ما قُلتَ»!

قال: «قُلتَ له: لا بأسَ عليكَ حتّى تُخبِرني. وقُلتَ: لا بأسَ عليك حتّى تشرَبَهُ».

وقال جِلَّةُ الصَّحابة مِمَّن حَوَلَهُ مِثلَ ذلك.

فأقبل على الهُرمُزانِ وقالَ: «تَكلَّم بِحُجَّتِكَ».

قال: «كلامَ حيٍّ أم كلامَ مَيِّتٍ؟»

قال: «بَل كلام حَيٍّ».

قال: «قد آمنتَني ثالثةً».

قال عُمرُ: «خدعتَني! لا واللَّهِ، لا أومِنُك إلاّ أن تُسلِمَ».

فقيل لَهُ: «أسلِم! وإلاّ قُتِلتَ».

فأسلَمَ، فَفَرضَ لَهُ على ألفَين، وأنزَلَهُ المدينةَ.

عُمرُ واللغةُ الفارسيَّة

وكان المغيرة بن شُعبةَ يُترجِمُ بينَهُما إلى أن حَضَرَ التَّرجُمانُ.

فقال عُمرُ للمُغيرةِ: «سَلهُ: من أيَّةِ أرضٍ أنتَ»؟

فقال المغيرةُ: «أزكُذام أرضِيه»؟

فقال: «مِهرجانيُّ».

وكان المُغيرةُ يَفقَهُ شيئاً من الفارسيَّة.

فقال له عمر: «ما أراكَ حاذِقاً بِها. ما أحسَنَها منكم أحدٌ إلاّ خَبَّ، وما خَبَّ إلاّ دَقَّ. إيّاكُم وإيّاها، فإنَّها تَنقُصُ الاعرابَ».

وأقبلَ زيدٌ بعدَ ذلك، فَجَعلَ يُترجِمُ بينَهُما.

ذِكر رَأيٍ صَحيحٍ لِلأحنفِ بنِ قَيسٍ

وقال عُمرُ للوَفدِ: «لَعلَّ المسلمينَ يُفضونَ إلى أهلِ الذِّمَّةِ بِأذَىً، أو بِأمورٍ لَها ما ينتَقِضُونَ بِكُم».

فقالوا: ما نَعلمُ إلاّ حُسنَ مَلَكةٍ».

قال: «فكيف هذا»؟

فلم يَجد عِندَ أحدٍ ما يَشفيه ويُبصِرُ به مِمَّا يَقُولون، إلاّ ما كان مِن الأحنفِ فإنَّهُ قال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، أُخبِرُكَ أنَّكَ نَهَيتَنا عَنِ الانسياحِ في البلاد، وأمرتَنا بالاقتصادِ عَلى ما في أيدينا، وأنَّ مَلِكَ فارِسَ حَيٌّ بين أظهُرِهم، وأنَّهم لا يَزالون يُساجِلُوننا ما دام مَلِكُهم فيهم، ولم يَجتَمع مَلِكانِ حَتّى يُفنِيَ أحدُهما صاحِبَهُ. وقد رأيتُ أنّا لم نأخُذ شيئاً بَعدَ شيءٍ إلاّ بانبعاثِهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وأنَّ مَلِكَهم هو الّذي يَبعثُهم. ولا يَزالونَ هذا دأبُهم حتّى تأذنَ لنا فنَسيحَ في بِلادِهم، حتّى نُزيلَهُ عن بِلادِهم، ونُخرجَهُ مِن مَملكتِه وعِزِّ أمَّتِه، فهناكَ يَنقَطِعُ رجاءُ أهلِ فارِسَ ويُضرِبوا جأشاً».

فقال عُمرُ: «صدقتني واللّهِ، وشرحتَ لِيَ الأمرَ عَن حَقِّه».

فكان هذا سَببَ إذنِه لَهُم في الانسياحِ.

يزدجرد يمضي إلى إصطخر وسياه يشترط للإسلام

ومَضى يزدَجِردُ بِمشورَةِ الموبَذِ إلى إصطخر فيَنزِلُها، لأنّها دار المَملكةِ ويوجِّهُ الجُنودَ. فلمّا بلغ أصبهان أقامَ أيّاماً وقدم سِياهُ لينتخِبَ مِن كلِّ بَلدةٍ مَرَّ بِها مَن أحبَّ. فمضى سِياه واتَّبعَهُ يَزدجِردُ حتّى نزلوا بإصطخرَ، ووَجَّه سِياهَ إلى السُّوسِ. ولم يَزل كذلك حتّى قَدِمَ عمارُ بنُ ياسر وأبو موسى يَومَئذٍ بِتُستَرَ.

سياه يَرى الدخولَ في الإسلام

فدَعا سِياهُ الرُّؤساءَ الذين كانوا خَرجُوا معه من إصبهان، وقال:

ـ «قد عَلمتم أنّا كنّا نَتحدَّثُ أنَّ هؤلاءِ القومَ أهلَ الشقاءِ وَالبؤسِ، سَيغلِبون على هذه المَملكةِ، وتَروثُ دَوابُّهم في أبوابِ إصطخر ومَصانعِ المُلوكِ، ويشدُّونَ خيلَهم بِشَجَرِها، وقد غَلَبُوا على ما رأيتُم، وليسَ يَلقَون جُنداً إلاّ فَلُّوهُ، ولا يَنزِلُونَ بحصنٍ إلاّ فَتَحُوه. فانظُروا لأنفُسِكم».

قالوا: «رأيُنا رأيُكَ».

قال: «فليَكفِني كُلُّ رَجُلٍ مِنكم حَشَمَهُ والمنقطِعين إليه، فإنّي أرى أن نَدخُلَ في دينِهم».

ووجَّهُوا شيرُويَه في عَشرةٍ مِن الأساورةِ إلى أبي مُوسى يأخذُ لَهم شروطاً على أن يَدخُلوا في الإسلام.

فقَدِم شيرُويَه على أبي مُوسى فقال:

ـ «إنّا قد رَغِبنا في دينِكم على أن نُقاتِلَ مَعكم العَجمَ ولا نقاتِلَ معكم العَربَ؛ وإن قاتَلَنا أحدٌ مِن العَربِ مَنَعتُمُونا مِنهم، ونَنزِلُ حيثُ شِئنا، ونكونُ في مَن شِئنا منكم، وتُلحقوننا بأشرفِ العَطاءِ، يعقد لنا بذلك الأمر، الَّذي هُو فَوقَكَ».

فقال أبو موسى: «لَكُم ما لَنا، وعَليكم ما عَلَينا».

قالوا: «لا نَرضى».

وكتب أبو موسى إلى عُمرَ بِذلك. فقالَ: «أعطِهم ما سأَلُوكَ».

فكتبَ لهم أبو مُوسى فأسلمُوا، وشَهِدُوا معه حصارَ تُستَرَ. فلم يكن أبو مُوسى يَرى مِنهم جِدًا ولا نكايةً.

فقال لِسِياهَ: «يا أعوَرُ، ما أنتَ وأصحابُكَ كما كُنّا نَرى قبلَ اليَوم»!

قال: «لَسنا مِثلَكُم في هذا الدّينِ، ولا بصائرُنا كَبَصائركُم، ولَيسَ لَنا فيكم حَرَمٌ نُحامي عنهُنَّ، ولم تُلحِقونا بأشرَف العَطاءِ، ولَنا سِلاحٌ وكُراعٌ وأنتُم حُسَّرٌ».

فَكتبَ أبو موسى في ذلكَ إلى عُمرَ. فكتب إليه عُمرُ أن:

ـ «ألحِقهُم على قدرِ البَلاءِ في أفضل العَطاءِ، وأكثر شَيءٍ أخذَهُ أحدٌ مِنَ العَربِ». فَفرضَ لمائةٍ مِنهُم في ألفَين ألفَين، ولسِتَّةٍ مِنهم في ألفَين وخَمسمائةٍ: لِسِياهَ وخُسرَو ـ ولقبُه مِقلاصٌ ـ وشهريارَ، وشيرُويَه، وسارُويَه، وأفريذون.

ذِكرُ مَكيدَةٍ في فَتح حِصنٍ

فأمّا سِياهُ فمشى إلى حِصنٍ. ويُقال: إنّه تَستَّر في زيِّ العجَم، حتى رَمى بنفسِه إلى جنبِ الحِصنِ ونضح ثيابَه بِالدَّم. فأصبح أهلُ الحِصنِ، فرأوا رَجُلاً في زيِّهم صَريعاً، فظَنُّوهُ مِنهم أصيبُوا به، ففتحُوا بابَ الحِصن لِيُدخِلوهُ، فثارَ وقاتَلَهم حتّى خلَّوا عن بابِ الحِصن وهرَبُوا. ففتح الحِصنَ وحدَهُ ودَخَلهُ المسلمون. وأمّا خُسرَو فمشى إلى حِصنٍ آخَرَ حاصَروهُ، فأشرف عَليه رَجلٌ رَئيسٌ منهم، فكلَّمَهُ، ثُمَّ رَماهُ خُسرَو بِنُشّابةٍ فقَتلَهُ.

ذِكرُ حيلَةِ قَومٍ في الحِصار خَرَجُوا بِها مِن حِصارِهِم وسِياسةٍ لِعُمَرَ

وأمّا جُنديسابورَ فإنَّ أبا سَبرةَ لَمّا فرغَ مِن السُّوسِ خرج في جُندِه حتّى نَزَلَ عَليها، وحاصَرَهُم أيّاماً يُغادونَهُ ويُراوحونَهُ القِتال. فَرُمي إليهم بِأمانٍ مِن عَسكرِ المسلمينَ وفُتحَ بابُها. فلم يَفجَأ المسلمين إلاّ أبوابها تفتح. ثُمَّ خرج السَّرحُ وخرجَتِ الأسواق وانبثَّ أهلُها.

فأرسلَ المسلمون أن: «ما لَكُم»؟

قالوا: «رَميتُم إلَينا بالأمانِ فقَبِلناهُ وأقررنَا لكم بالجِزي على أن تمنَعُونا».

فقالوا: «ما فَعَلنا».

فقالوا: «ما كَذِبنا».

فتَساءَلَ المسلمون فيما بينَهم، فإذا عبدٌ يُدعى مُكنِفاً كانَ أصلُه منها هو الّذي كتَبَ لَهُم.

فقالوا: «إنَّما هو عَبدٌ».

فقالوا: «نحن لا نَعرفُ حُرَّكم مِن عَبدِكُم، قد جاءَنا أمانٌ، فنحنُ عَليهِ، قد قَبلناهُ ولم نُبدِّل. فإن شِئتُم فاغدِرُوا».

فأمسكُوا عنهم وكَتبُوا بذلك إلى عُمرَ. فكتب إليهم:

ـ «لم تَكُونوا أوفياءَ، حتى تَفُوا على الشَّكِّ، أَجيزُوهُم وفُوا لَهُم».

ـ «ثمَّ عَمِلَ عُمرُ برأيِ الأَحنفِ، وعَقدَ الألويةَ للأُمراءِ والجُنودِ من أهلِ الكوفةِ وأهلِ البَصرةِ. فكانَ لِواءُ الأحنفِ على خُراسانَ».

يوم نهاوند: فَتح الفُتوح

ولمّا خرج يَزدجِردُ مِن الجَبَلِ، وَصارَ إلى مَروٍ، وكاتَبَ الجُيُوشَ بالأطرافِ،

فَكتبَ إلى أهلِ الجِبالِ، مِمَّن بَينَ البابِ والسِّندِ وخُراسانَ وحُلوانَ، فتحرَّكُوا وتَكاتَبُوا وركبَ بَعضُهم إلى بعضٍ، فأجمَعُوا أن يُوافُوا نَهاوندَ، ثمَّ يُبرمُوا فيها أمورَهُم، فتَوافى إليها مَن بَينَ حُلوانَ وخُراسانَ ومَن بَينَ البابِ وحُلوانَ، ومَن بَينَ سَجِستانَ إلى حُلوان. فاجتمعت حَلبةُ فارِس والفهلوج وأهلُ الجِبالِ وهم مائةٌ وخَمسونَ ألفاً.

ثمَّ تآمَر الرُّؤَساءُ عِند الفَيرُزان وكانَ عليهم، فقالوا:

ـ «إنّ محمّداً الَّذي جاءَ العَربَ بالدّينِ لم يعرض عرضَنَا. ثمَّ ملكَهُم أبو بكرٍ مِن بَعدِه، فلم يعرض عرضَ فارِسَ إلاّ في غارَةٍ تعرَض لَهُم فيها، وإلاّ في ما يَلي دِيارَهُم. ثمَّ مَلَكَ عُمرُ فَطالَ مُلكُهُ وعَرُضَ حتّى تناولكم، وأخذ السَّوادَ كُلَّهُ، والأهوازَ: ثمّ لم يَرضَ حتّى أتى أهلَ فارِسَ والمملكة في عُقرِ دارِهِم. وَهُم آتيكُم إن لم تأتُوهُ. وقد أخربَ بيتَ مَملكتكم، واقتحم بِلادَ مُلكِكُم، وليس بِمُنتَهٍ حتّى تُخرِجوا مَن في بِلادِكم مِن جُنُودِه، وتقطعُوا هذين المِصرَينِ وتَشغَلُوهُ في بِلادِه وقرارِه».

فَتعاهَدُوا وتَواثَقُوا. وكتبوا بينَهم على ذلك كتاباً، وتمالأُوا عليه.

وبَلغَ الخبرُ سَعداً، وخرج عُمرُ لِيُشافِهَهُ بِذلك، ولأنَّ قَوماً مِن جُندهِ شغبوا عليه، وسَعَوا بِه إلى عُمرَ، فاستخلفَ عبدَ اللَّهِ بنَ عَبدِ اللَّهِ بنِ عتبان. فكتبَ عبدُ اللَّه بنِ عبدِ اللَّهِ إلى عُمرَ أنّه:

«قد تجمّعتِ الفُرسُ مائةَ وخمسينَ ألفاً مُقاتلةً مُستميتينَ، فإن جاؤُونا قبل أن تبدرَهُم الشِّدَّةُ ازدادوا جُرأةً وقُوَّةً، وإن نحنُ عاجَلناهُم كان ذلك لَنا عليهم».

وكان الرَّسولُ بذلك قريبَ بن ظَفَرٍ. ولمّا قَدِم الرَّسولُ بالكتابِ على عُمرَ وبالخَبرِ قرأَهُ، وسَمعَ مِنهُ، وقال:

ـ «ما اسمُك؟».

قال: «قريبٌ».

قال: «ابنُ مَن؟».

قال: «ابنُ ظَفَرٍ».

فتفأَّل بِذلكَ وقال:

ـ «ظَفرٌ قَريبٌ، إن شاءَ اللَّهُ، ولا قُوَّةَ إلاّ باللَّهِ».

ذِكرُ آراءِ صحَّ منها واحِدٌ

ونُودِيَ في النّاسِ: «الصَّلاة جامعةٌ».

فاجتمع النّاسُ ووافاه سَعدٌ فقال:

ـ «إليَّ سَعدَ بنَ مالك!».

وقامَ عُمرُ على المِنبرِ خطيباً، فأخبر النّاسَ الخَبَرَ، واستشارَهُم، وقال:

ـ «هذا يومٌ له ما بَعدَهُ، فاسمَعُوا لي، ثُمَّ أجيبُوني، وأوجِزوا، ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولا تُكثِرُوا ولا تُطيلُوا فتفشغَ لكم الأمور، ويلتَويَ عليكم الرَّأي، إنّي قد رأيتُ أن أَسيرَ في مَن قِبَلي ومَن قَدَرتُ عليه حتّى أنزلَ مَنزلاً من هذينِ المِصرَينِ وَسَطاً، ثُمَّ أستَنفِرَهُم، ثُمَّ أكونَ لَهُم رِدءاً، حتّى يفتحَ اللّهُ عليهم ويَقضِيَ ما أَحبَّ».

فقام طلحةُ بنُ عُبَيدِ اللّه فقالَ:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، قد أحكمتكَ التّجاربُ، وأنتَ وشأنَكَ ورأيكَ».

في كلامٍ طَويلٍ يُشبِهُ هذا، ثَمَّ جلس.

فعاد عُمرُ فقال:

ـ «هذا يَومٌ له ما بَعدَهُ من الأيام، فتكلَّمُوا».

فقام عثمانُ بنُ عفّان، فَتَشَهَّدَ، وقال:

ـ «أرى ـ يا أمير المؤمنين ـ أن تكتُبَ إلى أهلِ اليَمَنِ، فَيَسرُوا مِن يَمَنِهم، وإلى أهلِ الشّامِ فَيَسرُوا مِن شامِهِم، وتَسيرَ أنتَ بأهلِ الحَرَمينِ إلى الكوفة والبَصرةِ، فتلقى جميعَ المشركين بِجميعِ المسلمين، فإنّكَ إذا سِرت بِمَن مَعَكَ وعِندَكَ، قَلَّ في نَفسِكَ ما قد تكاثَرَ مِن عَددِ القومِ، وكُنتَ أعزَّ عِزًّا. يا أمير المؤمنين، إنّك لا تستَبقي مِن نفسِكَ بَعدَ العربِ باقيةً، ولا تمتنعُ من الدُّنيا بِعزيزٍ، ولا تلوذُّ مِنها بحريزٍ. إنّ هذا يَومٌ لَهُ ما بَعدَه من الأيّام فاشهَده برأيك وأعوانِك ولا تَغِب عنه، فتكلَّمُوا».

فقام عليُّ عليه السَّلامُ فقال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنَّكَ إن أشخَصتَ أهلَ الشّام من شامِهم، سارَتِ الرُّومُ إلى ذَرارِيِّهِم؛ وإن أشخصتَ أهلَ اليَمَنِ مِن يمَنِهم، سارَتِ الحبشةُ إلى ذراريِّهم؛ وإنّكَ إن أشخَصتَ أهلَ الأرض انتقضت عليك العَربُ من أطرافِها وأقطارِها، حتّى تكون ما تَدَعُ وراءَكَ أهمَّ إليكَ مما بين يَديكَ مِن العَوراتِ والعِيالات. أقِرر هؤلاءِ في أمصارِهم، واكتب إلى أهلِ البَصرةِ، فَليفترِقُوا ثَلاثَ فِرَقٍ: فلتَقُم فِرقَةٌ في أهل عَهدِهم لِئَلاّ ينتقِضُوا عليهم؛ ولتَسِر فِرقةٌ إلى إخوانِهم بالكُوفةِ مَدَداً لهم، لأنَّ الأعاجمَ أن ينظروا إليك ويَقُولوا: هذا أميرُ العَربِ وأصلُ العَربِ؛ كانَ أشدَّ لِكَلبِهِم، وأَلَبتَهُم عَلَيكَ. فأمّا ما ذَكرتَ من مسير القَومِ، فإنّ اللّهَ هُوَ أكرهُ لِمَسيرهم مِنك، ولَهُوَ أقدرُ على تَغييرِ ما يَكرَهُ؛ وأمّا ما ذَكرتَ من عَدَدِهم، فإنّا لم نَكُن نُقاتِلُ فيما مضى بالكَثرةِ، ولكِنّا كُنّا نُقاتِلُهُم بالنَّصر».

فقال عُمرُ:

ـ «أجل، هذا الرَّأي. واللَّهِ أينَ سِرتُ لينتقِضَنَّ عليّ الأرضُ مِن أطرافِها وأكنافِها، ولئن نَظَرَت إليَّ الأَعاجِمُ لا يُفارقُوا العرصَةَ وليُمِدَّنَّهم مَن لم يُمِدَّهُم، وليَقُولُنَّ: هذا أصلُ العرب، فإن اقتطعتُموهُ فقد اقتطعتُم أصلَ العربِ. فأشيرُوا عَليَّ بِرَجُلٍ أُولِّهِ ذلك الثَّغرَ، واجعَلُوهُ عِراقيًّا».

فقالوا: «أنتَ أعلمُ يا ـ أميرَ المؤمنين ـ بِجُندِك وأهلِ عراقِكَ، فقد وفدوا عَليكَ، ورأيتَهم وكلَّمتَهم».

ابتداء وقعة نهاوند

وكان النّعمانُ بنُ مُقرّن على كَسكَر، ولاّهُ سَعدٌ الخراجَ بِها. فكتب إلى عُمرَ:

ـ «إنّ مَثَلي ومَثلَ كسكرَ مَثَلُ رَجُلٍ شابٍّ إلى جنبِهِ مُومِسةٌ تَلَوَّنُ لَهُ وتَعَطَّرُ، فأُنشِدَكَ اللَّه لمَا عَزلتَني وبَعثَني إلى جيشٍ من جُيوشِ المسلمين».

فلمّا كان هذا اليوم الّذي خَطَبَ فيه عُمرُ، وجرى ما جرى مِمّا كتبتُهُ، قال عُمرُ:

ـ «أما واللَّه لأُوَلِّينَ أمرَهُم رَجُلاً ليكونَنَّ أوّلَ الأسِنَّةِ إذا لَقِيَها غَداً».

فقيل: «مَن، يا أميرَ المؤمنين؟».

فقال: «النُّعمان بنُ مُقرّن».

قالوا: «هو لها».

فكتبَ إليهِ عُمرُ أن: «ائتِ نَهاوندَ، فأنتَ عَلَى النّاسِ بِها».

فلمّا التقوا كانَ أوّلَ قتيلٍ. وسنحكي خَبَرَهُ في مَوضِعِه.

ورَدَّ عُمرُ قريبَ بنَ ظَفَر، وردَّ مَعَهُ السّائبَ بن الأقرع وكان السّائبُ يَومَئذٍ مندوباً للأمانةِ وقِسمةِ الفَيءِ، لأنّه كانَ كاتباً حاسِباً، كما كان محمدُ بنُ مسلمةَ مَندُوباً لتتبعِ العُمّالِ والطّوافِ عليهم.

وقال عُمرُ للأقرعِ:

ـ «إن فتح اللَّهُ عَليكم فاقسِم ما أفاء اللَّهُ عليهم، ولا تخدَعني، ولا ترفع إلَيَّ باطلاً، وإن نُكِبَ القَومُ، فلا تراني ولا أراكَ، فَبطنُ الأرضِ خيرٌ لَكَ مِن ظَهرِها».

فقدما الكوفةَ بكتابِ عُمرَ بالاستحثاثِ. وكانَ أسرعَ أهلِ الكوفة إلى ذلك الرَّوادِفُ، ليُبلُوا في الدّين، وليُدركُوا حَظًّا.

ذِكرُ خَديعَةٍ لِلهُرمُزانِ ما تَمَّت لَهُ على عُمَرَ
وما جرى بعد ذلك

كان عُمرُ بنُ الخطّابِ استدعَى الهُرمُزانَ حين آمَنَهُ، فقال:

ـ «انصح لي فقد آمَنتُكَ».

قال: «نعم. إنّ الفُرسَ اليوم رأسٌ وجَناحانِ».

قال: «فأين الرّأسُ».

قال: «بِنَهاوَند مع بندار، ومعه أساورةُ كِسرى وأهلُ أصبهان».

قال: «فأين الجَناحانِ؟».

فذكر مكاناً. قال الهُرمُزان:

ـ «فاقطعِ الجناحَينِ يَهِنِ الرّأسُ».

فقال عُمرُ: «كَذِبتَ يا عَدوَّ اللّهِ بَل أعمَدُ إلى الرَّأسِ، فأقطعُه، فإذا قَطَعَهُ اللّه لم يقبض عليه الجناحان».

فكتَبَ إلى أبي موسى أن: سِر بأهلِ البَصرةِ، وإلى حُذَيفةَ أن: سِر بأهلِ الكوفة. وبَعَثَ بعثاً من المدينةِ فيهم ابنُهُ عَبدُ اللّهِ بنُ عُمرَ، وفيهم المهاجِرونَ والأنصارُ، وقال:

ـ «إذا التَقيتُم فأميرُكم النّعمانُ بنُ مُقَرِّنٍ».

فخرج حذيفَةُ بنُ اليَمانِ بالنّاسِ ومَعه نعيم بن مُقَرِّن حتّى قَدِمُوا على النّعمان بِالطّزَرِ وجعَلوا بِمَرجِ القلعة خيلاً عَليها النُّسيرُ، وقد كَتَبَ عُمرُ إلى سَلمَى بن القَينِ وحرمَلَةَ وزِرِّ بنِ كُليبٍ وقُوّادِ المسلمين الّذين كانوا بينَ فارِسَ والأهواز أن:

ـ «اشغَلُوا فارِسَ عن إخوانكم، وحُوطُوا بذلك أمَّتَكم وأرضَكُم، وأقيموا على حُدودِ ما بين الأهوازِ وفارِسَ حتّى يأتيَكُم أمري».

وبَعَثَ مجاشعَ بنَ مسعودِ السُّلَميّ إلى الأهواز، وقال له: انصُل منها على ماه. فلمّا صارَ بُغضَى شجر ناحية مرج القلعة، أمره النّعمان أن يُقيمَ بِمكانِه ونَصَلَ سُلميٌّ وحرمَلة وزِرٌّ، فكانُوا في تُخومِ أصبَهان وفارِسَ، فقطَعُوا بذلك عن أهل نَهاوند الأَمدادَ من فارِسَ.

وورد على النّعمانِ، وهو بِطَزَر، كتابُ عُمَر:

ـ «إنَّ معك حدَّ العرب ورِجَالُهم فاستعِن بهم وبِرأيِهم، وسَل طُليحةَ وعَمراً، ولا تُوَلِّهم شيئاً».

فَبعثَ من الطَّزرِ طُلَيحةَ، وعَمراً، وعَمرَو بنَ أبي سلمى لِيُؤاتُوه بالخبر. فأمّا عَمرٌو وعمرٌو فإنَّهما رَجَعا من الطّريقِ آخرَ اللَّيلِ.

فقال طُليحةُ: «ما الّذي يُرجعُكُما؟».

قالا: «سِرنا يَوماً وليلةً ولم نَرَ شيئاً، وخِفنا أن يُؤخذَ علينا بالطَّريقِ».

ولم يحفِلِ بِهِما. ومضى طُليحةُ حتّى انتهى إلى نَهاوندَ، وبينها وبينَ الطَّزرِ بِضعةٌ وعشرون فرسخاً.

فقالَ النّاسُ: «ارتدّ الثّانية».

فلمّا عَلِمَ طليحةُ عِلمَ القَومِ، رَجعَ حتّى إذا انتهى إلى الجُمهورِ كبَّر النّاسُ.

وقالَ: «ما شأنُ القَومِ؟».

فأخبروه بالّذي خافُوا عَليهِ.

فقال: «واللّهِ لو لم يَكُن دين إلاّ العربيَّة فقط، ما كُنتُ لأُجزِرَ هذه العربَ العاربةَ لِهذِه العَجمِ الطَّماطِمةِ».

فأتَى النُّعمانُ، فدخل إليه، وأخبَرَهُ أن ليسَ بينَهُ وبينَ نَهاوندَ شَيءٌ يَكرهُه.

فنادى النّعمانُ بالرَّحيلِ وعبَّأهُم، وجَعَلَ على المُجرَّدَةِ القعقاعَ بنَ عَمرٍو، وكذلك جَعلَ على ميمنتِه ومَيسرتِه ومقدَّمتِه أهلَ النّجداتِ.

فلمّا اجتمعوا بِنهاوندَ أرسلَ إليهم الفُرسُ أن: أرسِلُوا رَجلاً نُكلِّمهُ. فأرسلُوا المغيرةَ بنَ شُعبةَ.

فلمّا رَجعَ سألُوه عَمّا جرى.

فقال: وجدتُ العِلجَ قد استشار أصحابَهُ.

- «بأيّ شيءٍ تأذنونَ لهذا العَربيّ، بالشّارةِ والبَهجةِ أو بتقشُّفٍ له؟».

فاجتمع رأيُهم على أفضل ما يكون مِن الشّارةِ والعُدَّةِ. فتهيَّأُوا بها. فلمّا أَتَيناهُم كادت تِلكَ الحرابُ والنَّيازِكُ يلتمعُ منها البَصرُ، وإذا هم على رأسِه مثل الشَّياطين، وإذا هو على سَريرٍ من ذَهَبٍ، على رأسِه التّاجُ.

قال: فَمَضيتُ كما أَنَا، ونَكَّستُ رَأسي. فدُفِعتُ، ونُهيتُ.

فقلتُ: «الرُّسُلُ لا يُفعَلُ بِهِم هذا!».

فقالوا: «إنّما أنت كَلبٌ».

فقلتُ: «معاذ اللّهِ، لأَنَا في قَومي أشرفُ من في قومِه».

فانتَهَرُوني وقالوا:

ـ «اجلس!».

فأجلَسُوني، ثُمّ قال ـ وتُرجِمَ لي قولُهُ ـ:

ـ «إنّكم معشرَ العَربِ أبعدُ النّاسِ من كُلِّ خيرٍ، أطولُ النّاسِ جُوعاً، وأشقاهُم شَقاءاً، وأقذرُهم قَذراً، وأبعدُهم داراً، وما منَعَني أن آمُرَ هؤلاء الأساورةَ حَولي أن يَنتظِمُوكم مِن النُّشابِ بِمثلِ شَوكِ القُنفُذِ، إلاّ تَنجُّساً لِجِيَفكُم، فإنّكم أرجاسٌ. فإن تَذهَبُوا نُخَلِّ عنكُم، وإن تأبَوا، نُرِكُم مَصارِعَكم».

قال: فَحَمدتُ اللّهَ وأثنيتُ عليه، ثُمّ قُلتُ:

ـ «واللّهِ، ما أخطأتَ مِن صِفَتِنا شيئاً. إن كُنّا لَكَذلك، حتّى بَعثَ اللّهُ إلينا رَسُولاً، فوعَدنا النّصرَ في الدُّنيا، والجَنّةَ في الآخِرة. فواللّهِ ما زِلنا نتعرَّفُ مِن رَبِّنا، مُنذُ جاءَ رَسُولُهُ، الفَتحَ والنّصرَ حتّى أتيناكم. وإنّا واللّهِ لا نَرجِعُ إلى ذلك الشّقاءِ أبداً، حتّى نَغلِبَكُم على ما في أيديكم، أو نُقتَلَ بأرضكم».

فقال: «واللّه لقد صدقكم الأعورُ ما في نفسِه».

فَقُمتُ وقد أرعَبتُ العِلجَ. فأرسلَ إلينا العِلجُ.

ـ «إمّا أن تعبُرُوا إلينا، وإمّا أن نعبُرَ إليكم».

فقال النّعمانُ: «اعبُرُوا».

وكانوا قد انتهَوا إلى الإسبيذهان وهم وقوف دُونَ وادي خُرد على تعبيَتِهم، وأمرُهُم إلى الفيرُزان، وقد جُعِلَ بَهمن جاذويه مكانَ ذي الحاجبِ، فهو على مُجنّبَتِه، وقد توافى إليه كُلُّ مَن غابَ عَنِ القادسيّةِ والأيّامِ مِن أهلِ الثغورِ، وأمرائها، وأعلامِهم. وأنشبَ النّعمانُ بعدَ ما حَطَّ الأثقالَ وضُرِب الفُسطاطُ لِلقتالِ، فاقتتَلُوا يومَ الأربعاءِ ويَومَ الخميسِ وهم كأنّهم جبال الحديد، وقد تواثَقُوا ألاّ يَفِرُّوا من العربِ وألقَوا حَسَكَ الحديدِ خلفَهم وقالوا: مَن فَرَّ مِنّا عَقَرهُ حَسَكُ الحَديدِ.

فقال المُغيرةُ حينَ رأى كثرتَهم: «لَم أَرَ كاليوم فَشَلاً، إنّ عدوَّنا يُترَكُونَ يتأهَّبونَ لا يُعجَلُونَ، أَم واللّهِ لو أنَّ الأمرَ إليَّ لأعجلتُهم».

وكان النّعمانُ رجلاً ليِّناً، فقال:

ـ «قد كان اللّهُ يُشهِدُك أمثالَها، فلا يُخزيكَ. إنّه واللّهِ ما مَنَعَني من المناجزةِ إلاّ شيءٌ شَهِدتُهُ مِن رَسُولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ إذا غزا فلم يُقاتِل أوّلَ النّهارِ، ولم يُعجل حتّى تحضرَ الصّلاةُ وتَهُبَّ الأرواحُ ويطيبَ القتالُ، فما مَنَعَني إلاّ ذلك. اللّهمَّ إنّي أسأَلُكَ أن تُقِرَّ عيني بفَتحٍ يكونُ فيه عِزُّ الإسلام وذُلُّ الكُفّارِ، ثُمّ اقبَضني إليكَ على الشّهادة. ائمَنُوا

يرحمكم اللّه».

فأَمِنّا وبَكينا. ثُمَّ أقدَم بعد الصَّلاةِ للقتالِ.

قال: ولمّا كان يومَ الجمعةِ انجَحروا في خنادقِهم، وذلك لمّا رأَوا صبرَنا أنّا لا نبرَحُ العَرصةَ فصبَرُوا معَنا. ثمَّ إنَّهُم لم يَصبِرُوا، فحَصرَهُم المسلمونَ، فأقامُوا عليهم ما شاءَ اللّهُ والفُرسُ بالخيار لا يخرجون إلاّ إذا أرادُوا. فاشتدَّ ذلك على المسلمين حدًّا، وخافوا أن يَطولَ أمرُهُم.

ذكرُ آراءٍ صحَّ أحَدُها على طَريقِ المَكيدَةِ

حتّى إذا كان ذاتَ يوم في جُمعةٍ مِنَ الجُمعِ، تجمَّعَ أهلُ الرَّأيِ مِنَ المسلمين، فتكلَّمُوا، وأتَوا النّعمانَ، وقالُوا:

ـ «نَراهُم بالخيارِ والقُوَّةِ».

وهو يُرَوِّي فيما رَوَّوا فيه. فقال:

ـ «عَلى رِسلِكُم، لا تبرَحُوا».

وبعث إلى مَن بقيَ من أهلِ النّجداتِ والرَّأيِ في الحرب، فتوافَوا إليه.

فتكلَّم النّعمانُ فقال:

ـ «قد تَرَون المشركين واعتصامَهم بالحُصونِ من الخنادقِ والمَدائنِ، وأنَّهم لا يخرُجونَ إلا إذا شاؤُوا، ولا يقدِرُ المسلمون على إنغاضِهم وابتعاثِهم قَبلَ مَشيئَتِهِم، وقد تَرَون الّذي فيه المسلمون من التّضايُقِ الّذي هُم فيه وعَليهِ من الخروجِ. فما الرَّأيُ الّذي به نَحمِشُهُم ونستخرِجُهُم إلى المنابذةِ وتَركِ التطويلِ؟».

فتكلَّم عَمرُو بنُ أبي سَلمى وكان أسَنَّ القَومِ، فقال:

ـ «التّحصُّنُ أشدُّ عليهم من المُطاولةِ عليكم، فدعهُم ولا تُحرِجهم وطاوِلهُم وقاتِل مَن أتاكَ مِنهم».

فَرَدُّوا جميعاً عليه رأيَه، وقالوا:

ـ «إنّا على يَقينٍ من إنجازِ ربِّنا وعدَهُ لَنا».

وتكلَّم عمرُو بنُ معدي كربٍ، فقال:

ـ «ناهِدهُم ولا تخَف وكاثِرهُم».

فَرَدُّوا جميعاً عليه رأيَهُ، وقالُوا:

ـ «إنّما نُناطحُ الجُدرانَ».

وتكلَّمَ طُليحةُ فقال:

ـ «قد قالا ولم يصيبا تفسيرَ ما أرادا. فأمّا أَنَا فأرى أن تَبعثَ خيلاً مؤديةً فيُحدقوا بِهم، ثُمّ يَرمُوهم ليُشِبُّوا القتالَ ويَحمِشُوهم، فإذا استحمشُوهُم واختلطُوا بهم وأرادُوا الخُروجَ أَرِزُوا إِلينا استطراداً، فإنّا لم نستطرِدْ لَهُم في طولِ ما قاتلناهُم إِلى اليوم، فإنَّهم إذا أرادُوا ذلكَ طَمِعُوا في هَزيمَتنا ولم يشُكُّوا فيها، وخَرجوا، فجادُّونا، وجَادَدناهُم حتّى يقضِيَ اللّهُ بيننا».

فأمر النّعمانُ بن عمرو، وكان على المجردَّةِ بذلك، ففعل، وأنشبَ القِتالَ بعدَ احتجازٍ مِن العَجم، وأنغضَهم، فلمّا خرجُوا نكصَ، ثمَّ نكصَ، واغتنمها العَجمُ. ففَعلُوا كما ظَنَّ طُليحة، وقالوا: «هِي، هي». فخرجُوا، فلم يَبقَ أحدٌ إلاّ مَن يَقُومُ لهم على الأبوابِ، وجعَلُوا يَركبونَهم حتّى أَرَز القعقاعُ إِلى النّاسِ وانقطع القَومُ عن حِصنِهم بعضَ الانقطاعِ والنّعمانُ بنُ مُقرِّن والمسلمونَ على تَعبئتهم. وفي يَوم جُمعةٍ وفي صَدرِ النّهار، وقد عَهَدَ النّعمانُ عَهدَه وقال: إن أُصِبتُ فَفُلانٌ، فإن أُصيبَ فَفلانٌ. وأمرَهم أن يَلزَموا الأرضَ ولا يقاتِلوا حتّى يأذنَ لهم. ففَعلُوا واستَتَرُوا بالجحفِ من الرّمي، وجَعلَ المشركون يَرمونَهم حتّى أفشَوا فيهم الجراحاتِ، وشَكا بعضُ النّاسِ ذلك إلى بَعضٍ ثُمّ قالوا لِلنّعمانِ:

ـ «ألا تَرى ما نحن فيه؟ ائذَن لنا في الحَملةِ».

فقال لهم النّعمانُ: «رُويداً رويداً».

قالوا ذلك مِراراً، فأجابَهم بِمثلِ ذلك.

فقال المُغيرةُ: «لَو إِليَّ هذا الأمر، عَلمتُ ما أصنعُ».

فقال: «رُويداً، تَرى أمرَكَ وقد كُنتَ تَلِي الأَمرَ فتُحسِنُ، فلا يخذُلنا اللّهُ ولا إيّاك، ونحنُ نَرجُو في المَكثِ مِثلَ ما تَرجُو في الحَثِّ».

وانتظر النّعمانُ أحبَّ الأوقاتِ كان إِلى رَسولِ اللّه ـ ﷺ ـ.

فلمّا كانَ قريباً مِن تِلكَ السّاعةِ وهِيَ الزَّوالُ، سار فَوقَفَ على الرّايات، ومدَحَهم، وحضَّهم. ثُمَّ عادَ إِلى موقفِه، وكبَّر الأولى والثّانيةَ والثّالِثةَ والنّاسُ على غايَةِ السَّمعِ والطّاعَةِ. وحمَلَ النّعمانُ والنّاسُ معَه، فالتقَوا بالسُّيوفِ، فاقتتَلُوا قِتالاً شديداً لَم يَسمعِ السّامعون بِوقعةٍ قَطُّ كانت أشدَّ منها، لا يومَ القادِسيةِ لا غيرَها مِمّا تقدَّمَ، قتَلُوا فيها من الفُرسِ فيما بينَ الزَّوالِ والإعتامَ ما طبَّق أرضَ المعركة وما يزلَق فيه النّاسُ والدَّوابُّ، وزلَق بالنّعمانِ فرسُه وصُرِعَ، فأُصيبَ. وتناوَلَ الرّايَةَ أَخُوهُ نُعيمُ بنُ مُقرّنٍ، وسَجّى النّعمانَ بِثوبٍ، وأتى حُذَيفةَ بالرّاية، وكانَ عَهِدَ إِليه بَعدَه، فأقامَ اللّواءَ. وقال المغيرةُ:

ـ «اكتُموا مُصابَ أميرِكم حتّى تنظروا ما يصنعُ اللّهُ فينا لِكَيلا يَهِنَ النّاسُ، واقتِلوا».

فلمّا أظلمَ اللّيلُ انكشف المشركون، وتَركُوا قصدَهُم، وأخذوا نحوَ اللّهبِ الّذي كانُوا نزلُوا دونَه بإسبيذَهانَ. فوقَعُوا فيه، وجَعلَ لا يَهوي فيه أحدٌ إلاّ قال: «واي خُرد»، فسُمّيَ بذلك «وايَه خُرد» إلى اليَوم. فماتَ فيه منهم نحوُ مائةِ ألفٍ، وقُتلَ في المَعركةِ أعدادُهُم، ولم يُفلِت إلاّ الشّريدُ. ونَجا الفيرُزان من الصَّرعى في المعركةِ، فهرَبَ نحوَ همذانَ في ذلك الشَّريدِ، فاتَّبعَهُ نُعيم بنُ مقرِّنٍ، وقدَّم القعقاعَ قُدّامَهُ، فأدركَهُ حين انتهى إلى ثِنية همذان، وكانت الثّنيةُ مَشحونةً مِن بِغالٍ وحَميرٍ موقَّرةٍ عَسَلاً، فَحبسَتهُ الدَّوابُّ على أَجَلِه. فلمّا غَشِيَهُ القَعقاعُ وهو لا يَجِدُ طريقاً فتوقَّل في الجبل، توقّلَ القَعقاعُ في أثره حتّى أخذَهُ، ومضَى الفُلاّلُ حتَّى انتهَوا إلى مدينةِ همدان والخَيلُ في آثارِهم، فدَخلوها. وسُمّيتِ الثّنيةُ: ثنيةَ العَسَلِ، وقالَ المُسلمونَ:

ـ «إنَّ لِلَّهِ جُنوداً مِن عَسَلٍ».

واستاقُوا العَسلَ وما خالَطَهُ مِن سائر الأحمال.

دخول نَهاوَند

ودخلَ المسلمون بعد هَزيمةِ الفُرسِ نَهاوندَ، واحتووا على ما فيها، وجَمَعُوا الأسلابَ إلى صاحبِ الأقباضِ السّائبِ بن الأقرعِ. فبَينا هم كذلك، أقبلَ الهِربذُ صاحبُ بيت النّارِ على أتانٍ، فأُبلغَ حُذَيفة؟

فقال: «أتومِنُني على أن أُخبِرك بِما أعلَمُ؟».

قال: «نعم!».

فقال: «إنّ النّخيرجان وضَعَ عندي ذخيرةَ كِسرى، وأنَا مُخرِجها لَكَ على أماني وأمانِ مَن شِئتُ».

فأعطاه ذلك، وأخرج له الذَّخيرةَ سَفطَينِ عَظيمين ليس فيهما إلاّ اليواقيتُ واللُّؤلُؤ. فلمّا فرغ السّائبُ من قسمةِ الأموالِ اجتمع رأيُ المسلمين على دفعِها إلى عُمرَ.

قال السائب: فأصابَ سَهم الفارِس ستَّة آلافٍ، والرّاجل ألفانِ. فلمّا فَرغتُ قَدِمتُ على عُمرَ ومعي السَّفَطانِ، فقال:

ـ «ما وراءَكَ يا سائبُ!».

فقلت: «خيرٌ يا أميرَ المؤمنين، فتح اللّه عليك ـ فأعظَمَ الفتحَ ـ واستُشهِدَ النّعمان بن مُقرّنٍ».

فقال عُمرُ: «إنّا لِلّهِ وإنّا إلَيهِ راجِعُونَ».

ثُمّ بكى فنَشجَ حتّى إنّي لأنظرُ إلى فُروعِ مَنكِبَيهِ من فَوق كَتدِهِ.

قالَ: فلمّا رأيتُ ما لَقِيَ قلتُ:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، ما أصيبَ بعدَهُ رَجلٌ يُعرفُ وجهُهُ».

فقال: «المستضعفون من المؤمنينَ، لكنّ الّذي أكرمَهُم بالشّهادَةِ يَعرِفُ وُجُوهَهُم، وأنسابَهُم، وما يصنعُون بِمَعرفةِ ابنِ أمِّ عُمَرَ».

ثُمَّ قامَ لِيدخُلَ، فقلتُ:

ـ «إنّ معي مالاً عظيماً جِئتُ به».

ثُمَّ أخبرتُه الخبرَ عن السَّفَطَين، فقال:

ـ «أدخِلهُما بَيتَ المالِ حتّى ننظُرَ في شأنِهما، والحَق بجندِك».

قال: فأدخلتُهما بيتَ المالِ، وخرجتُ سَريعاً إلى الكوفةِ، وباتَ تلك اللّيلةَ الّتي خرجتُ فيها. فلمّا أصبحَ بَعَثَ في أثري رَسُولاً، فواللّهِ ما أدركني حتّى دخلتُ الكوفة فأنَختُ بَعيري، وأناخَ بَعيرَهُ على عُرقوبَي بَعيري، وقال:

ـ «الحَق بأمير المؤمنين، فقد بَعَثَني في طَلَبِكَ ولم أقدِر عليك إلاّ الآنَ».

قال: قلتُ: «ويلك! ولماذا؟».

قال: «لا أدري واللّهِ».

فركبتُ معَهُ حتّى قَدِمتُ عليه. فلمّا رآني قال:

ـ «ما لي ولابنِ أمّ السّائب، بل ما لابنِ السّائب وما لي!»،

قال: قُلت:

ـ «وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟».

قال: «ويحك! واللّهِ، إن هُوَ إلاّ نمتُ في تلك اللّيلة الّتي خرجتَ فيها، فباتَت مَلائكةُ اللّهِ تسحبني إلى ذَينِكَ السَّفَطينِ يَشتعِلانِ ناراً، يقولون: لَنكوينّك بِهما؛ فأقولُ: إنّي سأقسِمُهما بينَ المسلمين، فخُذهُما عَنّي لا أباً لك، فالحَق بِهما، فَبِعهُما في أعطِيَةِ المسلمين وأرزاقِهم».

قال: فخرجتُ بِهما حتّى وضعتُهما في مسجدِ الكوفة وغَشِيَني التُّجارُ فابتاعَهُما مِنّي عَمرُو بنُ حُريثٍ المخزومي بألفَي ألفِ دِرهَم، ثُمَّ خرج بِهما إلى أرضِ الأعاجِمِ فباعَها بأربعةِ آلافِ ألفِ درهم. فما زال أكثرَ أهلِ الكوفةِ مالاً بَعدُ.

وقَسَمَ حذيفةُ لأهلِ المسالح جميعاً في نَهاوندَ، مِثلَ الّذي قَسَمَ لأهلِ المعركة،

لأنّهم كانوا رِدءاً للمسلمين لِئلاّ يُؤتَوا مِن وجهٍ من الوُجُوهِ، وكانَ خلَّفَ قوماً على قلاعٍ يُحاصِرونَ مَن فيها لِئلاّ ينزِلوا فَيُؤتَى المسلمون من قِبَلِهِم، فَقَسَمَ لَهُم أيضاً.

وسُمِّي يومُ نَهاوندَ فَتحَ الفُتوحِ، ولم تكُن لِلفُرسِ بعدُ قائمةٌ.

ومن عجيبِ ما مرَّ لهم في حصارِ نَهاوندَ أنَّ رجلاً يُقالُ لَهُ: جَعفرُ بنُ راشِدٍ، قال لِطُليحةَ:

ـ «لَقد أخذتنا خَلّةٌ، فهل بَقِيَ من أَعاجيبِكَ شيءٌ تَنفعُنا بِه؟».

فقال: «كما أنتُم، حتّى أنظرَ»فأَخذَ كساءاً، فتقنَّعَ بِهِ غيرَ كثيرٍ، ثُمّ قال:

ـ «البَيان، البَيان، غَنمُ الدّقّانِ في البُستانِ، مَكانَ أروبان».

فدخَلوا البُستانَ، فوجَدُوا الغَنم مُسمنَةً.

ثُمَّ جاءَ دينارٌ إلى حُذَيفةَ، فصالحَهُ عَن ماه، فنُسِبَ إليه ماهٌ. فكانَ يُوافي الكوفةَ كُلَّ سَنةٍ. فَقَدِمَ الكوفةَ في إمارةِ مُعاويةَ، فقام في النّاسِ جميعاً، فقال:

ـ «يا مَعشرَ أهلِ الكوفةِ، إنّكم أوّلَ ما مَررَتُم بنا كُنْتُم خِيارَ النّاسِ، فَغَبَرتُم بذلك زمانَ عُمرَ وعُثمانَ، ثُمَّ تغيَّرتُم وفَشَت فيكم خِلالٌ أربع: بُخلٌ، وخِبٌّ، وغَدرٌ، وضِيقٌ، لم تكن فيكم واحدةٌ مِنهنَّ. فنظرتُ في ذلك، فإذا ذلك في مُوَلَّديكُم، فَعَلِمتُ من أين أتى، فإذا الخِبُّ من قِبَلِ النَّبطِ، والبُخلُ مِن قِبَلِ فارِسَ، والغدرُ من قِبَلِ خراسان، والضِّيقُ مِن قِبَلِ الأهواز».

فتح الرَّيِّ

ثُمَّ إنّ نُعيمَ بنَ مُقرِّنٍ فَتحَ همذانَ، وسارَ إلى الرَّيِّ، وكانَ بالرَّيِّ يومَئذٍ سياوخش مَلِكاً عَليها وهو سياوخشُ بنُ مهرانَ بن بهرام شوبين. فاستمدَّ أهلَ دنباوندَ، وطبرستانَ، وقُومِسَ، وجُرجانَ، وقال: «قد عَلمتُم أنَّ هؤلاء إن حَلُّوا بالرَّيِّ إنّه لا مُقامَ لكُم». فاحتشدُوا لَهُ فناهَدَهَ سياوخشُ، فالتقَوا في سَفحِ جبلِ الرَّيِّ إلى جنبِ مَدينتِها، فاقتتَلُوا بهِ. وكان الزَّينبيُّ مستوحشاً من سياوخش، فكاتبَ نُعيم بنُ مقرّنٍ، وصالحَهُ وعاوَنَهُ، وكان الزَّينبيُّ قال لنُعَيم:

ـ «إنّ القومَ كثيرٌ وأنتَ في قِلَّةٍ، فابعث مَعي رَجُلاً أدخُل بِهم مدينَتَهم من مَدخلٍ لا يشعُرون به، وناهِدهُم أنتَ، فإنّهم إذا خَرجُوا عليهم لم يثبُتُوا لذلك».

فبعث مَعه خيلاً من اللّيلِ عَليها ابنُ أخيه المنذرُ بن عَمرو. فأدخَلَهم الزَّينبيُّ المدينةَ ولا يشعُرُ القَومُ، وبيَّتَهم نُعيمٌ بياتاً، فشغلَهُم عن مدينتهم، فاقتتَلُوا، وصَبرُوا حتّى سمِعُوا التّكبير من ورائهم. ثُمَّ إنّهم انهزمُوا فقُتِلوا مَقتَلةً عَظيمةً، فأفاءَ اللَّهُ على المسلمين بالرَّيِّ نَحواً من فيءِ المَدائنِ، وصالحه الزّينبيُّ على أهل الرَّيِّ ومَرزَبَهُ عليهم.

وكتب نُعيمٌ بالفتح وبعثَ بالأخماسِ إلى عُمرَ.

وكان بُكيرُ بنُ عَبدِ اللّهِ قد توجَّهَ إلى أذربيجان، فأمدَّه نُعيمٌ بعدَ فَتحِ الرَّيِّ بسماك بن خَرَشَةَ الأنصاري. فأمّا المصمَغان ـ وهو مَردانشاهُ صاحبُ دنباوندَ والخزرِ والأرز والسَّرو ـ فإنَّه راسَل نُعيماً في الصُّلحِ على شيءٍ يفتدي مِنه بِه، من غيرِ أن يسألَهُ النَّصرَ والمنعَه. فقبِلَ مِنه، وكتَبَ على غير نَصرٍ ولا مَعونةٍ على أحدٍ، فجَرى ذلك لَهُم.

فتح قُومِس

وقدَمَ سُويدُ بنَ مقرّنٍ أخاهُ بأمرِ عُمرَ إلى قُومِس، فلم يَقُم له أحدٌ، وأخذَها سِلماً، وكتب لَهُم أماناً، وقَبِلَ جِزيَتَهم.

فتح جُرجان وطبرستان

ثُمَّ كاتبَ ملكَ جُرجانَ رُزبان صول. ثُمَّ صارَ إليها، فبادرهُ بالصّلح، وتَلقّاه، فدخَلَ معه جُرجانَ، وعَسكرَ بِها، وجُبِيَ إليه الخَراجُ، وسَمّى لَهُ فروجَها، فسدَّها بتُركِ دِهَستانَ. فرفع الجِزي عمَّن أقام بمنعَتِها، وأخذ الخراجَ من باقي أهلِها، وكتب بينهم كتاباً بالأمانِ وقبول الجِزيَةِ ما نَصَحُوا وقَرَوا المسلمين، وعلى أنّ من سَبَّ مُسلِماً بلغ جُهده، ومَن ضَربه حَلَّ دَمُه. وراسَلَهُ الإصبهبذُ في الصُّلح أن يَتَوَادَعا ويجعَلَ له شيئاً على غير نَصرٍ ولا مَعونةٍ على أحدٍ. فكتبَ لَهُ بذلك كتاباً على ألاّ يُؤوُوا للمسلمين بغيةً، ولا يسلُّوا لهم إلى عدوٍّ، ولا يُدخَل عليه إلاّ بإذنِه، وكذلك سبيلُهم.

فتح أذربيجان

وكان بكير سارَ حينَ بُعثَ إلى أذربيجان حتّى إذا طلع بجبال خرشدانَ طلعَ عليهم اسفندياذُ بن الفرّخزاذ مَهزُوماً من واج رود. فكانَ أوّل قتاله لَقيَهُ بأذربيجان، فاقتتلُوا، فهزمَهُ، وأخذ بُكيرُ اسفندياذ أسيراً.

فقال له اسفندياذ: «الصُّلحُ على أذربيجان أحَبُّ إليك أم الحربُ؟».

قال: «بل الصُّلح».

قال: «فأمسكني عندك. فإنَّ أهل أذربيجان إن لم أُصالح عليهم أو أجِيء لم يُقيمُوا، وجَلَوا إلى الجبالِ الّتي حولَها من القَبجِ والرّوم. ومَن كان على التحصُّنِ تحصَّنَ إلى يوم ما».

فأمسكه عندَه، فأقامَ وَهُوَ في يَدِه، وصارت البِلادُ إليه إلاّ ما كان من حِصنٍ. وقدِمَ عليه سِماكُ بنُ خَرشَة، وقد صارَ اسفندياذ في إسارِه. وفتح عتبة بن فرقد من جهتِه ما يَليه، فقال بُكيرٌ لِسِماكِ بنِ خَرَشَة كالمُمازِح:

ـ «ما الَّذي أصنعُ بك وبعُتبة؟ أريدُ أن أمضِيَ قُدماً فأخَلِّفَكما، فإن شِئتَ فاذهب مَعي، وإن شِئت أتيتَ عُتبةَ، فقد أذنتُ لك».

وكاتبَ عُمرَ في ذلك. فكتب إليه في الإذنِ على أن يتقدّم نحوَ البابِ، وأمره أن يستخلِفَ على عَمَلِه. فاستخلف عُتبةَ على أن يتقدّم نحوَ البابِ، وأمره أن يستخلِفَ على عَمَلِه. فاستخلف عُتبةَ على ما افتتح. ومضى قدماً، وقدّم اسفندياذ إلى عُتبةَ، وأقَرَّ عتبةُ سِماكَ بن خَرَشةَ، وليس بأبي دُجانة، على عَمِلِ بُكير الّذي كان افتَتَحَ.

وجَمعَ عُمرُ أذربيجانَ كُلَّها لِعتبة، وقد كان بهرامُ بنُ الفرّخان أخذ بطريقِ عُتبة بنِ فرقد، وأقام له في عَسكرِه حتّى قدِمَ عليه عُتبةُ، فهزمَهُ عتبةُ وهربَ بهرامُ.

فلمّا بلغ خبر هزيمة اسفندياذ وهو في الإسارِ عند بكير قال:

ـ «الآن تمَّ الصُّلحُ وطَفِئتِ الحربُ وعادت أذربيجان سِلماً».

فبعث بالأخماسِ. وكان بُكيرٌ سبق عُتبةَ بِفتحِ ما وَلِيَ، وتمَّ الصُّلحُ بعدما هزم عُتبةُ بهرامَ. فكتبَ عُتبةُ بَينَهُ وبينَ أهل أذربيجان كتاباً ـ حيثُ جُمع له عَملُ بكير إلى عَملِه ـ بالأمانِ وشُروطِ الجِزيةِ وقِرَى المسلمين وغيرِ ذلك.

فتح الباب والفتوح الّتي كانت بعدَه

وأَنفذَ عُمرَ سُراقَةَ بن عَمروٍ ـ وكان يُكنّى ذا النّونِ ـ إلى الباب وجعل على مُقدّمتِه عبد الرَّحمن بن ربيعة، وسُمِّيَ لإحدى مُجنِّبتيهِ حذيفةُ بنُ أسدٍ، وسُمِّيَ لِلأخرىٰ بُكَيرُ بنُ عُبيدِ اللّهِ اللّيثي، وهو الّذي كان بإزاءِ البابِ قبلَ قدومِ سُراقَةَ عليهِ. فلمَّا قَدِمَ سُرَاقَةُ قَدَّم بكيراً في أدانِي البابِ، فدخلَ بكيرٌ بِلادَ البابِ والملكُ يَومئذٍ شهربراز، الّذي أفسدَ بني إسرائيلَ وأعرى الشامَ مِنهُم.

فكاتب عبدُ الرَّحمنِ شَهربرازَ، واستأمَنَهُ على أن يأتيَهُ. ففعل، فأتاهُ، فقال لَهُ:

ـ «إنّي بإزاءِ عَدوٍّ كَلِبٍ وأُمَمٍ مُختلفةٍ لا ينسبُون إلى أَحسابٍ، وليس ينبغي لِذي الحَسَبِ والعَقلِ. أن يُعينَ هؤلاء ولا يَستعينَ بِهم على ذوي الأحسابِ والأصولِ، وذُو الحَسَبِ قريبُ ذِي الحَسَبِ حيثُ كانَ، ولستُ مِن الأرمَنِ في شَيءٍ ولا مِنَ القَبق، وإنّكم قد غلبتُم على بِلادي وأُمّتي، وأنا اليومَ مِنكم، ويَدِي مع أيديكم، وصَفوي مَعَكُم، وجِزيتنا إليكم، والنَّصرُ لَكُم، والقيامُ بما تُحبُّونَ، فلا تُذِلّونا بالجزيةِ فتوهِنونا لِعَدُوِّكُم».

فقال عبد الرَّحمنِ: «فوقى أميرٌ قد أظلَّكَ، فَسِر إليهِ فَجَوِّزهُ».

فسار إلى سُراقةَ، فلقيَهُ بمِثلِ ذلك.

فقال سُراقةُ: «قد قَبِلتُ ذلك مِمَّن كان مَعكَ على هذا ما دامَ عليه، ولا بُدَّ مِن

الجزىٰ مِمَّن يُقيمُ ولا يَنهَضُ».

فقبِلَ ذلك، وكتبَ سُراقة إلى عُمرَ بن الخطّابِ بذلكَ، فأجازَهُ، وحَسَّنَهُ، وصارت سُنَّةً فيمن يُحاربُ العَدوَّ مِن المُشركين وفيمَن لم يَكن عِندَه الجِزىٰ أن يُستَنفَروا، ثمَّ يُوضَعَ عنهم جِزىٰ تِلكَ السَّنَةِ.

وَوَجَّهَ سُراقةُ بعد ذلكَ بُكيرَ بنَ عَبدِ اللَّهِ، وحَبيبَ بنَ مَسلَمَة، وحُذيفةَ بنَ أسيدٍ، وسلمانَ بنَ ربيعة إلى الجبالِ المُطيفةِ بأرمينيّة، ووَجَّه بُكيراً إلى مُوقانِ، وحبيباً إلى تفليسَ، وحُذيفَةَ إلى جبال اللاّنِ، وسلمانَ إلى الوجهِ الآخَرِ، وكتبَ سراقةُ بالفَتحِ وبمَن وجَّهَ مِن هؤلاءِ النَّفرِ. فأتىٰ عُمرَ بنَ الخطّاب أمرٌ لم يَكُنْ يَرىٰ أنَّه يَستمِرُّ بتلك السُّرعةِ بغير مؤونةٍ. فلمّا استوسق الأمرُ بتلك النّاحية واستحلّوا عدلَ الإسلامِ مات سُراقةُ واستخلَفَ عبدَ الرَّحمن بنَ ربيعة.

فأقرَّ عُمرُ عبدَ الرَّحمنِ على فرج البابِ، وأمره بغزو التُّركِ. فخرج عبدُ الرَّحمن بالنّاسِ حتّى قطعَ البابَ.

فقال له شهربراز: «ما تُريدُ أن [تصنع]؟».

قال: «أريدُ بَلنجرَ».

قال: «إنّا لَنَرضىٰ منهم أن يَدَعُونا مِن دون الباب».

قال: «لكِنّا لا نَرضىٰ منهم بذلك حتّى نأتِيَهُم في ديارِهم. واللَّهِ إنّ معَنا لأقواماً لو يأذنُ لنا أميرُنا في الإمعانِ لَبَلَغتُ بهم الرُّوم».

قال: «وما هم؟».

قال: «قومٌ صَحِبُوا رَسولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ ودخَلوا في هذا الأمر بِنيَّةٍ، كانوا أصحابَ حياءٍ وتكرُّمٍ في الجاهليّةِ، فازدادَ حياؤُهم وتكرُّمُهُم، فلا يزالُ هذا الأمرُ دائماً لَهُم، ولا يزال النّصرُ معَهُم حتّى يُغَيِّرهُم أمرٌ، أو يُلفَتُوا عَن حالِهِم بِمَن يُغَيِّرُهم».

فغزا بَلنجَر ـ غزاه في زمن عُمرَ ـ لم تَئِم فيها امرأةٌ، ولا يَتِمَ فيها صَبيٌّ. وبلغت خيلُه البيضاءَ على رأسِ مائتي فرسخٍ من بَلنجرَ، ثمَّ غزا فسلِمَ أيضاً، وغزا [غزوات] في زَمَنِ عثمان، وأصيبَ عبدُ الرَّحمنِ حين تبدَّلَ أهلُ الكوفة في إمارةِ عثمانَ، لما استعملَ مَن كان ارتدَّ واستعانَ بِهِم، فسادَ مَن طلب الدُّنيا، وعضّلوا بعثمانَ حتّى كان يتمثَّلُ:

وكنتُ وَعَمراً كَالمُسمِّنِ كَلبَهُ فخدَّشَهُ أنيابُه وَأظافِرُهُ

وكانَ عبدُ الرَّحمن بن رَبيعةَ لمّا غزا التُّركَ، قالوا «ما اجترأ علينا هذا الرَّجل إلاّ ومعهم الملائكةُ يمنعُهُم مِن المَوتِ». فتحصَّنُوا مِنه، وهرَبُوا. فرجع بالغُنم.

فلمّا كان بعدَ ذلكَ غزا تِلكَ الغزواتِ الأُخَرَ على تِلكَ العادةِ، حتّى إذا كانَ في

زمَنِ عثمانَ بعدَ السِّنين السِّتِّ مِنهُ، غزا غزوةً. وكان من التُّرك طائفةٌ في الغياضِ مختفينَ، فرمىٰ رَجلٌ منهم مُسلِماً على غِرَّةٍ، فقتلهُ وهرب عنهُ أصحابُه، فتجاسَروا بعدَ ذلك وتنادَوا.

فأمّا عبدُ الرَّحمنِ فقُتِلَ، واشتدَّ القِتالُ، وأخَذَ الرّايَةَ سلمانُ بنُ ربيعة، وخَرج بالنّاسِ على جيلانَ إلى جُرجانَ، واجترأ التُّرك بعدَها، ولم يمنعَهُم ذلك مِن اتّخاذِ جَسَدِ عبد الرحمنِ، فهم يَستسقُون به حتّى الآن.

ما جرى بين يزدجرد وآبان جاذويه في الرَّيّ

ولمّا انتهى يَزدَجِردُ في مَسيرِهِ بعدَ جلُولاء إلى الرَّيّ كان عَليها أبان جاذويه، فوثَبَ عليه، فأخذَهُ، فقال:

ـ «يا أبان جاذُويَه، تغدِرُ بي؟».

قال: «ولكنّك تَركتَ مُلكَكَ وصارَ في يَدِ غيرِكَ وأريد أن أكتتبَ على ما كانَ لي مِن شيءٍ، وما أردتُ مِن غير ذلك».

وأخذ خاتَم يزدجرد وكتَبَ الصِّكاكَ على الأُدُم، وسَجَّلَ السِّجلاَّتِ بِكلّ ما أَعجَبَهُ، ثمَّ ختم عليها، وردَّ الخاتَم، ثمَّ أتىٰ بَعدُ سعداً فردَّ عليه كُلَّ شيءٍ في كتابه. واستوحشَ يَزدجِردُ مِن أبانَ وكَرِهَهُ. فخرج هارباً إلى أصبهانَ ومعه النّار، وأرادَ كرمان. ثمَّ عزم على خراسانَ ليستمِدَّ التّركَ والصّينَ وهو قريبٌ مِنهُم. فأتى مَروَ، فنزلَها، وبَنىٰ لِلنّارِ بيتاً، واطمأنَّ في نَفسِه.

غزو خراسان وهزيمة يزدجرد في بلخ

وخرج عبدُ اللّهِ بن عامرٍ مِن البَصرةِ في هذهِ السَّنة، وهي سنة إحدى وثلاثين، غازياً إلى خراسانَ، ففتح نَيسابُورَ وطُوسَ ونسا، حتّى بَلغ سَرخسَ، وعلى مُقدِّمتِهِ الأحنف بنُ قيسٍ، فلقيَهُ الهياطِلَةُ، وهُم أهلُ هراةَ، فهزمَهم الأحنف، فبعثَهُ ابنُ عامرٍ إلى طخارِستانَ. فلمّا دَنا الأحنفُ مِن مَرو الشّاهجان خَرجَ منها يَزدَجِردُ نَحوَ مَروِ الرُّوذِ، فنزلَها، ونزلَ الأحنف مَروَ الشّاهجان، وكتب يَزدَجِردُ إلى خاقانِ مِن مَروِ الرُّوذِ يَستمِدُّهُ، وكتب إلى مَلِكِ الصُّغدِ يَستَمِدُّهُ. فخرج رسولُه إليهما، وكتبَ إلى مَلِكِ الصِّين يستعينُه.

وخرج الأحنف من مَروِ الشّاهجان، واستخلف عليه بعدَ ما لَحِقَتهُ الأمدادُ مِن أهلِ الكوفةِ قاصداً مَروَ الرُّوذِ. فلمّا بلغ مَسيرُهُ يَزدَجِردَ خرج إلى بَلخ. ونَزلَ الأحنفُ مروَ الرُّوذِ، وقَدِمَ أهلُ الكوفة، فسارُوا إلى بلخ، واتَّبَعَهُم الأحنف، فالتقىٰ أهلُ الكوفةِ ويَزدَجِردُ بِبلخ، فهُزم يَزدَجِردُ، وتوجَّهَ في أهلِ فارِسَ إلى النّهر، فَعَبَر، ولحق الأحنفُ بأهلِ الكوفة وقد فتَحُوا بلخَ، وعادَ الأحنفَ إلى مَروِ الرُّوذ.

وكَتبَ عُمرُ إلى الأحنفِ:

«أمّا بَعدُ، فلا تَجُوزوا النَّهرَ، واقتصِرُوا على ما دُونَهُ».

وبلغ رسُولاً يَزدَجِردَ خاقان وعارك، فلم يَستَتِبَّ لهم إنجادُهُ، حتّى عَبَر إليهم النَّهرَ مهزوماً. فأنجَدَهُ خاقان، فأقبلَ في التُّركِ، وحشر أهلَ فرغانَة والصُّغدِ، حتى خرج بِهم راجعاً إلى خراسان. فعَبَرَ إلى بلخ، وعبر معَه خاقانِ، فأرَزَ أهلُ الكوفةِ إلى مَروِ الرُّوذِ، إلى الأحنفِ.

ذِكرُ رأيٍ صحيحٍ في وقتِ شدَّةٍ

فاستشارَ الأحنفُ المسلمين. فاختلفُوا، فَبينَ قائلٍ يقولُ: «نرجع إلى أبرَشهر»؛ وقائلٍ يقولُ: «نُقيمُ ونستمِدُّ». وقائلٍ يقولُ: «نُناجِزُهم».

وخرج المشركون مِن بَلخ حتّى نزلُوا على الأحنفِ مَروَ الرّوْذِ. وكان الأحنف حين بَلغَهُ عُبورُ خاقانَ نَهرَ بلخ غازياً له، خرج من عَسكرِه ليلاً يتسمَّعُ: هل يَسمَعُ برأيٍ ينتفِع بِه؟ فلمّا خرج مَرَّ بِرَجُلَيْنِ يُنَقِّيَانِ عَلَفاً، إمّا تِبْناً، وإمّا شعيراً، وأحدُهما يَقُولُ لِصاحبه:

- «الرَّأيُ للأميرِ أن يلقَى العدوَّ حَيثُ لقِيَهُم أوّلاً، فإنَّهُ أرعَبُ لَهُم».

فقال له صاحبُه: «أخطأتَ الرَّأيَ، إن لَقِيَ العَدُوّ مُصحِراً في بلادِهم لقي جمعاً كثيراً بعَدَدٍ قليلٍ، فإن جالُوا جَولةً اصطَلَمونا. ولكنَّ الرَّأي للأمير أن يُسنِدَنا إلى هذا الجبلِ، ليكونَ النَّهرُ بينَنا وبينَ عدُوِّنا خندَقاً، وكانَ الجَبلُ في ظُهُورِنا، نأمَن أن نُؤتىٰ مِن خَلفِنا، وكان قِتالُنا مِن وجهٍ واحدٍ، [و] رجَونا أن ينصُرَنا اللّٰهُ».

فرجعَ، واجتزأ بِها. وذلك في لَيلةٍ مُظلِمةٍ. فلمّا أصبحَ جمع الناسَ، ثمَّ قالَ:

- «إنّكم قليلٌ، وعدوُّكم كثيرٌ، فلا يَهُولنَّكم: فكَم مِن فِئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرةً بِإذنِ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ معَ الصّابِرينَ. ارتحِلُوا مِن مَكانِكم، فاستنِدُوا إلى هذا الجَبَل، فاجعَلُوه في ظُهُورِكُم، واجعَلوا النَّهرَ بينَكم وبينَ عَدُوِّكم، وقاتِلوهُ مِن وجهٍ واحدٍ».

فَفَعَلُوا، وقد أعدُّوا ما يُصلِحُهُم في عشرةِ آلافٍ مِن أهلِ البَصرةِ، وأهلُ الكوفةِ نحوٌ مِنهم. وأَقبلتِ التُّركُ ومَن اجتلبت من الصُّغدِ وغيرِهم حتّى نزلُوا بِهِم. فكانوا يُغادونَهُم ويُراوِحُونَهم ويَتَنَحَّونَ عنهم باللّيل ما شاءَ اللّٰه.

وطلبَ الأحنفُ عِلمَ مكانِهم باللّيلِ. فخرجَ ليلةً بعدَ ما عَلِمَ عِلمَهم طَليعةً لأصحابِه حتّى كان قريباً من عَسكرِ خاقان، فوقف. فلمّا كان في وجهِ الصُّبحِ خرج فارِسُ التُّركِ بطَوقِه، وضَرَبَ بِطَبلِهِ، ووقف مِنَ العسكَرِ مَوقفاً يَقِفُهُ مِثلُهُ. فحملَ عليه الأحنفُ، فاختلفا طَعنتَينِ سَبَقَهُ الأحنفُ، فقتلَهُ. قال الأحنفُ: فارتَجزتُ:

إنّ عَلـيّ الـرَّئيسِ حَـقّـاً حَـقّـاً   أن يَخضِبَ الصَّعدةَ أو تندَقّا

ثمَّ وقفَ موقِفَ التّركيِّ، وأخذ طوقَه، وخرج آخَرُ مِن التّرك، فَفَعَلَ فِعلَ صاحبِه، فحمَلَ عليه الأحنفُ، فقَتَلَهُ. ثم وقف موقف التّركيِّ الثّاني. قال الأحنف: فارتجزتُ:

إنّ الـرَّئـيـسَ يَـرتَـبـي ويَـطـلـع   ويَـمـنـعُ الـخِـلاء إمّـا أربَـعُـوا

وأخذ طوقَ التّركيِّ، ثمّ خرج ثالثٌ، فَفَعَلَ فِعلَ الرَّجلينِ، ووقَفَ دونَ الثاني مِنهُمَا، فَحَملَ عليه الأحنفُ، فقَتَلَهُ، قال: وارتجزتُ:

جَرْيَ الشَّموسِ ناجِزاً بِناجِزِ   مُـحـتـفِـلٍ فـي جَـرْيِـهِ مُـشـارِزِ

ثمَّ انصرف إلى عَسكرِهِ ولا يَعلمُ بذلك أحدٌ. وكان من شيمةِ التُّركِ أنّهم لا يخرجون حتّى يخرجَ ثلاثةٌ مِن كُبرائهم وفُرسانِهم يضربون بالطُّبولِ. ثمّ يخرجون بعد خروج الثّالث. فخرجتِ التُّركِ لَيلَتَئذٍ بعد الثّالث على فُرسانهم مُقَتَّلينَ، فتَشَاءَمُوا، وتَشاءَمَ خاقانُ وتطَيَّر وقال:

ـ «قد طالَ مقامُنا وأصيبَ هؤُلاءِ القومِ بِمكانٍ لم يُصَب بِمثلِه أحدٌ مِنّا، ما لَنا في قتالِ هؤلاءِ القومِ مِن خيرٍ انصرفوا بِنا».

فكان وُجُوهُهم راجعين، وارتفع النَّهار للمسلمينَ ولا يَرونَ شيئاً. وأتاهم الخبَرُ بانصرافِ خاقانَ إلى بَلخ، وقد كان يزدَجِردُ تَرَكَ خاقانَ بِمَروِ الروذ، وخرج إلى مَروِ الشاهجان فتحصَّنَ منه حارثة بنُ النّعمان خليفةُ الأحنفِ، فحَصَرَهُم واستخرج خزائنَهُ مِن موضِعها وخاقان ببلخ ينتظِرُهُ مُقيمٌ له.

فقال المسلمون: «نحنُ نَتّبع خاقان».

فقال: «بل أقيمُوا مكانَكم».

ولمّا جمع يَزدَجِردُ ما كان في يَدَيهِ مِمّا وضع بِمَروَ وأُعجِلَ عنه، وأراد أن يَستقِلَّ منها، حاولَ أمراً عظيماً من خزائن أهلِ فارسَ، وكان أراد اللِّحاق بخاقان.

فقال أهلُ فارِسَ: «ما تُريدُ أَن تصنع؟».

قال: «أريد اللِّحاقَ بخاقان فأكون معه أو بالصّين».

فقالوا له: «مَهلاً، فإنَّ هذا رأيُ سُوءٍ. إنَّكَ إنّما تأتي قَوماً في مَملكتِهم وتَدَعُ أرضَكَ وقومَكَ، ولكن ارجِع بِنا إلى هؤلاءِ القومِ فنصالحهم، فإنَّهم أوفياءُ وأهلُ دينٍ، وهم يَلُونَ بِلادَنا، وإنّ عَدُوّاً يلينا في بلادنا أحبُّ إلينا مِن عَدُوٍّ يلينا في بِلادِه، ولا دينَ لهم، فلا نَدري ما وفاؤُهُم».

فأبىٰ عليه، فأبَوا عليه. قالوا:

ـ «فَدَع خَزائِننَا نَردّها إلى بلادنا ومَن يَليها، لا تُخرجها من بِلادِنا إلى غيرها».

فأبىٰ. فقالوا: «فإنّا لا نَدَعُكَ».

فاعتزلُوا وتركوهُ في حاشيتِه. ثمَّ اقتتلُوا، فهزمُوه، وأخذوا الخزائنَ واستَولَوا عَليها، ونَكَبُوه، وكتبُوا إلى الأحنفِ بالخبرِ، فاعترضَهم المسلمونَ والمشركونَ بِمَرو، فقاتَلُوهُ، وأصابُوه في آخرِ القومِ، وأعجَلُوه عَنِ الأثقالِ ومَضىٰ حتّى قطعَ النَّهرَ إلى فَرغانَة والتُّرك، فلم يَزَل مَقيماً زمانَ عُمرَ كُلَّهُ يُكَاتِبُهم ويُكاتِبونَه إلى زَمانِ عُثمان.

فأقبل أهلُ فارس إلى الأحنفِ، فصالَحُوهُ، وعاقَدُوهُ، ودفَعُوا الخزائنَ والأموالَ، وتراجَعُوا إلى بلدانِهم وأموالِهم، على أفضلِ ما كانوا في زمانِ الأكاسرةِ، فكانوا كأنّهم في مُلكِهم. إلاّ أنّ المسلمين أوفىٰ لهم وَأعدلُ عليهم.

وأصاب الفارِسُ يومَ يَزدَجِرد كسهمِ الفارِسِ يومَ القادِسيّةِ.

ولمّا سَمِعَ خاقان ما لَقِيَ يَزدَجِرد وخروجَ المسلمين مع الأحنفِ مِن مَروِ الرّوذ نحوَه، تَركَ بَلخَ وعَبَرَ النّهر، وأقبلَ الأحنفُ حتّىٰ نزل بَلخ، وأنزلَ أهلَ الكوفة في كُورِهَا الأربعِ، ثمَّ رَجَعَ إلى مَروِ الرُّوذِ، فنزَلَ بِها، وكَتَبَ بفتحِ خاقانَ ويَزدجِردَ إلى عُمرَ، وبَعثَ إليه بِالأخماسِ، وَوَفَدَ الوُفودَ إليه.

حوارٌ بين خاقان ورسول يزدجرد

ولمّا عبر خاقانُ النّهر، وعَبرَ معه حاشِيَةُ آلِ كِسرىٰ مع يَزدجردَ لَقُوا رسُولَ يَزدَجِرد الّذِي كان نفذ إلى ملك الصِّين، فسألُوهُ عَمّا وراءَهُ.

فقال: لمّا قَدِمتُ عليه بالكتابِ والهَدايا كافأنا بما تَرونَ. ـ وأراهُم هَديّتَه وجوابَهُ عن كتابِ يزدجرد إليه ـ قال لي:

ـ «قد علمتُ أنّ حَقّاً على المُلوكِ إنجادُ المُلوكِ على مَن غلبَهم، فَصِف لي صِفَةَ هؤلاءِ القَومِ الّذين أخرجُوكم مِن بلادِكم، فإنّي أراك، تَذكرُ قِلّةً مِنهم وكثرةً مِنكم، ولا يَبلغُ أمثالُ هؤلاءِ القليلِ الّذين تصف [مِنكم] مع ما أسمعُ من كَثرتِكم إلاّ بخيرٍ عِندَهُم وشَرٍّ فيكم».

فقلتُ: «سَلني عَمّا أحببتَ أخبِركَ».

قال: «أيوفونَ بالعَهدِ؟».

قلت: «نعم».

قال: «وما يقُولُونَ لَكُم قبلَ أن يُقَاتِلُوكُم؟».

قلت: «يَدعونَنا إلى واحدةٍ مِن ثلاثٍ: إمّا دينِهم، فإن أجبناهُم أجرَونا مجراهُم، أو الجِزيةِ والمنعَةِ، أو المُنَابَذَةِ».

قال: «فكيف طاعتُهم أمرَاءَهُم؟».

قلتُ: «أطوعُ قَوم لِمُرشِدِهِم».

قال: «فما يُحرِّمونَ وما يُحِلّونَ؟».

فأخبرتُه.

قال: «أفيُحِلُّونَ ما حُرِّمَ عَليهِم، أو يُحَرِّمُونَ ما حُلِّلَ لَهُم؟».

قُلتُ: «لا».

قال: «فإنَّ هؤلاءِ القومَ لا يهلكونَ أبداً حتّى يُبدِّلُوا».

ثمَّ قال: «أخبرني عن لِباسِهم»، فأخبرتُه: «وعَن مَطاياهُم» فقلت:

ـ «الخيلُ العِرابُ». ووَصفتُها.

فقال: «نِعمتِ الحُصونُ هذه».

ووَصَفتُ لَهُ الإبِلَ وبُروكَها وانبعاثَها بِحِملِهَا.

فقال: «هذه صِفةُ دَوابِّ طِوالِ الأعناقِ».

وكتبَ معه إلى يزدجرد:

ـ «إنَّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيشٍ أَوَّله بمرو، وآخره بالصّين، الجَهالةُ بما يَحِقُّ عَليَّ، ولكنَّ هؤلاءِ القومَ الّذين وصفَ لي رَسُولُكَ صِفتَهم لَو يُحاوِلون الجِبالَ لَهَدُّوها، وَلَو خُلِّي سَربُهم أزالوني ما داموا على ما وُصِفَ، فَسالِمهُم وارضَ منهم بالمُساكنةِ، ولا تُهجهُم ما لَم يُهيجوكَ».

وأقام يزدجرد وآل كسرى بفرغانةَ معهم عهدٌ بخاقان، ثمَّ جرَىٰ ما جرى مِن قِبَلِ عُمرَ، رضِيَ اللَّه عنه.

ذِكرُ كُتّابِ عُمرَ وجُمَلٍ مِن سِياسَتِه

■ كان يكتُب لعُمرَ زيدُ بنُ ثابتٍ، وعبدُ اللَّهِ بنُ الأرقم، وعبدُ اللَّهِ بنُ خلفٍ الخُزاعي أبو طلحة الطّلحات على ديوانِ البَصرةِ، وأبو جُبيرة بن الضَّحاك الأنصاري على ديوانِ الكوفة. فأمّا زيدُ بن ثابتٍ فإنّه كان كاتِبَ النّبيِّ ـ ﷺ ـ فكانَ يخلُو به عُمرُ.

فقال له يوماً: «إنّي استصحَبتُكَ لِكَتبِ أسراري الّذي رأيتُ رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ يفعَلُه بك. فأخبرني عن كُتُبِه كيفَ كانت إلى الملوك وغيرِهم».

فقال زيدُ: «اعفِني يا أميرَ المؤمنين».

فقال لَهُ: «مِمّا ذاكَ؟».

قال زيدُ: «إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال لي: يا زَيدُ! إنِّي انتَخَبتُكَ، فاحفَظ أسراري، واكتُم ما استحفظتُكَ. فضَمِنتُ له ذلك».

فأَمسَكَ عمرُ عن مُعاوَدته، لكن كان يُملي عليه ويَستعينُ بِرأيه. وكانَ زيدٌ ذا رأيٍ ونفاذٍ.

■ وكان عُمرُ يقول لِكُتَّابِهِ ويكتُب إلى عُمَّالِه: «إنّ القُوَّةَ عَلَى العَمَلِ أن لا تُؤخِّروا عَمَلَ اليوم لِغَد، فإنَّكم إذا فَعلتُم ذلك تَداكَّتِ الأعمالُ عليكم، فلا تَدرُون بأيِّها تَبدَأونَ، وأيَّها تُؤَخِّرونَ».

■ وكان عُمرُ أولَ مَن دوَّنَ الدَّواوينَ مِن العربِ، وكان سبب ذلك أنّ أبا هُريرَة قَدِمَ عليه مِن البحرين ومعه مالٌ، فلقي عُمرَ. فقال له عُمرُ:

ـ «ماذا جَبَيتَ؟».

قال: «خمسمائةِ ألفِ دِرهم».

فقال عُمرُ: «أتدري ما تقول؟».

قال: «نعَم، مائة ألفٍ، ومائة ألفٍ، ومائة ألف، ومائة ألفٍ، ومائة ألفٍ».

فصعِدَ المنبرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأثنىٰ عليه، ثم قال:

ـ «أيّها النّاسُ، قد جاءَ مالٌ عظيمٌ، فإن شِئتُم كِلنا كَيلاً، وإن شِئتُم أن نُعَدَّ عدَدنا».

فقامَ رجلٌ فقال: «يا أمير المؤمنين، هؤلاءِ الأعاجِمُ يَضبِطُونَ هذا بالدّيوان».

قال: «فدَوِّنُوا الدَّواوينَ».

وكانَ عمرُ بَعثَ بَعثاً بعدَ أن آمَنَ الفَيرُزان وحضَرَهُ فقال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، هذا البعثُ قد أَعطيتُ أهلَهُ الأموالَ، فإن تخلَّفَ مِنهم رَجُلٌ وأَخلَّ بمكانِهِ ما يُدري صاحبَك به؟».

وأشارَ عليه بالدِّيوانِ وفسَّرهُ له، فوضع عُمرُ الدِّيوانَ.

■ وكان أبو موسى الأشعري كتبَ إلى عُمرَ رضي اللَّه عنه:

ـ «إنّ المالَ كثُرَ وكثُرَ مَن يأخذَهُ، فلسنا نُحصيه إلاّ بالأعاجم، فاكتُب إلينا برأيك».

فكتبَ إليه عُمرُ: «لا تُعدهُم في شَيءٍ سَلَبَهُم اللَّه إيّاهُ، أنزِلُوهُم حيثُ أنزلَهُم اللَّهُ وتعلَّمُوا».

فاستكتب أبو موسى زياداً، وكتبَ عُمرُ إلى أبي موسى يستقدِمُه. فاستخلف زيادُ

عمرانَ بن حُصين وقَدِمَ عليه. فقال عمرُ:

ـ «لئن كان أبو موسى استخلفَ حدثاً لقد استخلفَ الحدثُ كهلاً».

ثمَّ دعا بزيادٍ وقال: «اكتب إلى خَليفتِكَ بِما يَحبُ أن يعمل به».

فكتب إليه كتاباً ودفَعه إلى عُمَرَ، فنظر فيه، ثمَّ قاد: «أعِد»، فكتب غيرَه، ثمّ قال: «أعِد»، فكتبَ الثالثَ.

فقال عُمرُ بعد ذلك:

ـ «لقد بلغ ما أردتُ في الكتاب الأولِ، ولكنّي ظَننتُ أنّه قد روّىٰ فيه؛ ثمّ بَلَغَ في الثاني ما أردتُ، فكَرِهتُ أن أعلِمَهُ ذلك لِئَلاّ يَدخلَهُ العُجبُ، فوضعت منه لَئلاّ يهلِكَ».

■ وكان عُمرُ يُملي على كاتبٍ بين يَديهِ وزيادٌ حاضِرٌ. فكتب الكاتبُ غيرَ ما قالَ عُمرُ.

فقال له زِيادٌ: «يا أمير المؤمنين، إنّه يكتُبَ غيرَ ما قُلتَ له».

فقال عُمرُ: «أنّىٰ علمتَ هذا».

فقال: «رأيتُ رَجعَ فيكَ وخَطَّهُ؛ فرأيتُ ما أجارَت كفُّهُ غير ما رجعتَ به شَفَتَيكَ».

فاستحسنَهُ عُمرُ.

■ ثم قالَ لَهُ يوماً: «يا زيادُ، هل أنت حامِلٌ كتابي إلى أبي موسىٰ في عَزلِكَ عن كِتابَتِهِ؟».

قال: «نَعَم، يا أميرَ المؤمنين. ولكن أعَن عَجزٍ أم خيانةٍ؟».

قال: «لا عن واحدٍ منهما، ولكنّي أكرهُ أن أحملَ فضلَ عَقلِك على الرَّعِيَّةِ».

■ وكان عُمرُ أوّلَ مَن كتب التّاريخ مِن الهِجرةِ، لأنّ أبا مُوسى كتَبَ إليه أنّه: «تأتينا منك كُتبٌ ليس فيها تاريخٌ». ـ وكانت العربُ تؤرِّخُ بعامِ الفيل. فَجمعَ عُمرُ النّاسَ للمشورةِ.

فأشار بَعضُهم: أن يؤرخ بِمَبعثِ النّبيّ ـ ﷺ ـ.

وقال بعضُهم: «بمهاجرتِه». فأَرَّخَ به. وكان ذلك في سَنَةٍ سبع عشرةَ، أو ثماني عشرَ مِن الهِجرةِ.

ثمَّ قالوا: «بأيِّ الشُّهور نَبدأ؟».

فقال بَعضُهم: «بشهر رمضان».

فقال عُمرُ: «بَل بالمُحرَّم، فهو منصرَف الناسِ مِن حَجِّهِم، وهو شهرٌ حرامٌ».

فأجمعُوا على المحرَّمِ.

■ ودخل كاتبٌ لعمروِ بن العاصِ على عُمرٍ، فحاوَرَهُ فأحسنَ الكلامَ، فقال عُمرُ:

ـ «ألستَ ابنَ القَينِ بمكّة؟»

فقال: بَلىٰ.

فقال عُمرُ: «لا يَلبثُ القَلمُ، أو يُلغَ بصاحبه».

■ وكان عُمرُ إذا استعمل عاملاً كتبَ له عَهداً، وأشهدَ عَليهِ رَهطاً مِن المهاجرين والأنصار واشتَرَطَ عَليهِ ألاّ يركبَ برذَوناً، ولا يأكُلَ ما لا يقدِرُ عليه أوساطُ رَعِيَّتِه، ولا يلبسَ دقيقاً، ولا يتّخِذَ باباً دون حاجاتِ النّاسِ.

■ وهُوَ أوّلُ مَن خُوطِبَ بِـ «أمير المؤمنين» وذاك أنّ أبا بكرٍ خُوطِبَ بِـ«خليفةِ رسُولِ اللّه» ـ ﷺ ـ فلمّا خلَف عُمرُ خوطِبَ بِـ«خليفةِ خليفةِ رسولِ اللّهِ».

قال عمر: «أمرٌ يَطُولُ إذا جاءَ خليفةٌ آخَرُ قلتُم: «خَليفَة خَليفَة خَليفَة رسولِ اللّهِ»، بل أنتم «المؤمنون» وأنا «أميرُكم».

■ وهو أوّلُ مَن جمعَ النّاسَ على إمام [يُصلّي بهم التَراويح] في شهرِ رمضانَ، وكتبَ به إلى البُلدانِ وأمرَهُم بذلك، وزاد في مصابيح المساجِدِ.

■ وهو أوّلُ من حَمَلَ الدِّرَّة وضَرَبَ بِها.

فمن ذلك ما رَوَيناهُ أنّ عُمرَ بنَ الخطابِ ـ رَضِيَ اللّهُ عنه ـ أُتِيَ بمالٍ، فجعل يقسِمُه بينَ النّاسِ، فازدحَموا عليه. فأقبلَ سعدُ بن أبي وقّاصٍ يزاحِمُ النّاسَ حتّى خَلصَ إليه، فعلاه عُمرُ بالدِّرَّةِ، وقال:

ـ «إنَّك أقبلتَ لا تَهاب سُلطانَ اللّهِ في الأرضِ، فأحبَبتُ أن أعلِمَك أنَّ سلطانَ اللّهِ لا يَهابُك».

■ ورَأَتِ الشّفاءُ بِنتُ عَبدِ اللّهِ قوماً يقصِدون في المشيِ، ويتكلّمون رُويداً.

فقالت: «ما هذا؟».

قالوا: «نُسّاكٌ».

فقالت: «كان واللّهِ عُمرُ إذا تكلَّم أسمعَ، وإذا مَشىٰ أسرع، وإذا ضَرَبَ أوجَعَ. هو وَاللّهِ النّاسِكُ حقّاً».

■ وذكر قومٌ رجلاً بين يدي عُمرَ، ووصفوهُ وقالوا:

ـ «هو فاضِلٌ لا يعرِفُ الشَّرَّ».

قال: «أَجدَرُ له أن يَقعَ فيه».

■ واستعمل عُمرُ عُتبةَ بنَ أبي سفيانَ على كنانة، فقَدِمَ عليه بِمالٍ. فقال عُمرُ:

ـ «ما هذا يا عتبة؟».

قال: «هذا مالٌ خرجتُ بِه معي فتجرتُ فيه».

قال: «وما لك تُخرجُ المالَ مَعَك في هذا الوجهِ، فصَيِّرَهُ في بيتِ المالِ».

فلمَّا وَلِيَ عثمانُ قال لأبي سفيانَ:

ـ «إن طلبتَ ما أخذَ عُمرُ مِن عُتبةَ رَددتُه عَليكَ».

فقال أبو سفيانَ: إنّكَ إن خالفتَ صاحبَك الّذي تقدّمك ساءَ رأي النّاسِ فيك، إيّاكَ أن تردَّ على مَن قَبلَكَ فَيَرُدَّ عَليكَ مَن يَجيءُ بعدَك.

■ وكان عُمرُ يُكثر الخَلوةَ بقوم مِن الفُرسِ يَقرَأون عليه سياساتِ المُلوكِ وسِيَّما ملوكِ العَجم الفُضلاءِ، وسِيَّما أنوشروانَ؛ فإنّه كانَ مُعْجباً بِها، كثيرَ الاقتداءِ بِها. وكانَ أنوشروانُ مقتدِياً بسيرةِ أردشِيرَ آخِذاً نفسَهُ بِها، وبَعهدِه الّذي كتبناهُ فيما مَضىٰ، مُطالباً به غيرَهُ. وكان أردشيرُ مُتَّبِعاً لِبَهمَنَ وكورس، مُقتدياً بِهِما. فهؤلاء جِلَّةُ مُلوكِ الفُرسِ وفُضلاؤهُم الَّذين ينبغي أن يُقتدىٰ بأفعالِهم وسِيَرِهم وتُتَعَلَّمَ سِياساتُهم ويُتَشبَّهَ بِهم.

■ ورَوَينا عَن عُمرانَ بن سَوادةَ أنّه قال: دخلتُ على عُمرَ، فذكرتُ أشياءَ مِمّا عابَهُ بِها النّاسِ فأصغَىٰ إليَّ: وَضع رأسَ دِرَّتِه في ذَقَنِه، ووضع أسفَلَها على فَخذِهِ يَستمع إلى ما أقول، إلى أن قُلتُ:

ـ «وإنَّ الرَّعيَّة يشكونَ مِنكَ عُنفَ السِّياقِ».

فَشَرَعَ الدِّرَّةَ، ثمَّ مَسَحَها حتّى أتى على آخرِها، ثم قال:

ـ «أَم واللّهِ، إنّي لأَرتعُ فأُشبِعُ، وأَسقي فأُروِي، وأَنهُز العروضَ وأؤدِّبُ (أؤرب؟) قَدري، وأزجرُ اللقوفَ، وأَسُوقُ خَطَري، وأَضُمُّ الهَيُوبَ، وأَلحَقُ العطوفَ، وأُكثِرُ الزجرَ، وأُقِلُّ الضَّربَ، وأَشهَرُ العَصا، وأدفعُ باليَدِ».

فبلغ ذلك معاوية بَعدُ، فقال: «كانَ واللّهِ عالِماً بِرَعِيَّتِه».

خلافة عثمان بن عفان

ذِكرُ ما يَجِبُ ذِكرُهُ مِن حَديثِ الشُورى وَمَا يَليقُ مِنهُ بِهذا الكِتابِ

لمّا قُتِلَ عُمرُ بنُ الخَطّابِ ـ رضي اللّه عنهُ ـ قيلَ لَهُ حينَ طُعِنَ:

ـ «استَخلِف».

فأبىٰ أن يُسمّيَ رَجُلاً بِعينِهِ وقال:

ـ «عليكم هؤلاءِ الرَّهطِ الَّذينَ توفّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وهُوَ عَنهُم راضٍ: عليٌّ، وعثمانُ ابنا عبدِ منافٍ، وعبد الرَّحمنِ، وسَعدٌ خالا رَسولِ اللّه ﷺ والزُّبَيرُ بنُ العوام حَوارِيُّ رسولِ اللّه وابنُ عمَّتِه، وطلحَةُ الخير. فليختارُوا رجُلاً مِنهم، ويُشاوِرُوا ثلاثَةَ أيّام، وَليُصَلِّ بالنّاسِ صُهَيبٌ، ولاَ يأتِيَنَّ اليومُ الثّالِثُ إلاّ وعَليكم أميرٌ مِنكم، ويَحضرُ عبدُ اللّهِ بنُ عُمرَ مُشيراً، ولا شَيءَ لَه مِن الأمرِ، وطَلحةُ شريكُكُم في الأمرِ، فإن قَدِمَ في الأيّامِ الثّلاثةِ فأحضِرُوه أمرَكُم، وإن مَضَتِ الأيامُ الثّلاثَةُ قبلَ قُدومِه فاقضُوا أمرَكُم».

وقال لأبي طَلحَة الأنصاري: «إنّ اللّه تعالىٰ طالَ ما أعزَّ الإسلام بِكم، فاختَر خَمسينَ رجُلاً مِن الأنصارِ، فاستحِثَّ هؤلاءِ الرَّهطِ حتّىٰ يختارُوا رجُلاً».

وقال لِصُهَيبٍ: «صَلِّ بالنّاسِ ثلاثةَ أيّام، وأدخِل عليّاً، وعثمانَ، والزّبير، وسعَداً، وعبدَ الرحمن بنِ عَوفٍ، وطَلحةَ ـ إن قَدِمَ ـ وأحضِر عبدَ اللّه بنِ عُمرَ، ولا شَيءَ له مِن الأمر، وقُم على رُؤوسِهم. فإنِ اجتَمع خَمسةٌ ورَضُوا منهم واحداً وأبىٰ اثنان فاضرب رُؤوسَهُما؛ وإن رَضِيَ ثلاثةٌ منهم رجُلاً واحداً وثلاثةٌ رجُلاً مِنهم فحَكِّمُوا عبدَ اللّهِ بنَ عُمرَ، فأَيَّ الفَريقينِ حَكَمَ فليختارُوا رجُلاً مِنهم، فإن لَم يَرضَوا بحكم عَبدِ اللّه بنِ عُمَر، فكونُوا معَ الَّذينَ فيهم عبدُ الرَّحمانِ بنُ عَوفٍ، واقتُلُوا الباقينَ إن رَغِبُوا عَمّا اجتمع عَليه النّاسُ».

فخرجوا من عِندِه، فقال لِعليٍّ قَومٌ كانوا معَهُ مِن قريشٍ: «ما ترىٰ؟».

فقال عَليٌّ: «إن أطيعَ فيكُم قَومُكم، لَم تُؤَمَّرُوا أبَداً».

وتَلقّاه العبّاسُ فقال لَهُ عَليٌّ: «عُدِلَت عَنّا».

قال: «وما علمُكَ؟».

قال: «قَرنَ بي عثمانَ وقال: كونُوا مع الأكثرِ، فإن رَضِيَ رجُلانِ رجُلاً، ورجلان رجلاً فكُونُوا مع الّذين فيهم عبدُ الرَّحمن بنُ عَوفٍ. فسعدٌ لا يخالِفُ ابنَ عمِّه عبدَ الرَّحمنِ، وعبدُ الرَّحمن صِهرُ عُثمانَ لا يختلفونَ: فَيُولِّيها عثمانَ أو يُوَلِّيها عثمانُ عبدَ الرّحمن، فلو كانَ الآخران مَعي لم ينفَعاني، بَلهَ أنّي لا أرجُو إلاّ أحدَهُما».

فقال العَبَّاسُ: «لَم أدفعكَ في شَيءٍ إلاّ رَجَعتَ إليَّ مُستَأخراً لِما أكرهُ، أشرتُ عَليكَ عِندَ وفاةِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ أن تسألَهُ فيمَن هذا الأمر، فأبَيتَ، ثُمَّ أشَرتُ عَليكَ بعدَ وفاتِه أن تعاجِلَ الأمرَ، فأبيتَ، ثُمَّ أشَرتُ عَليكَ حينَ سَمّاك عُمرُ في الشُّورىٰ ألاّ تدخُلَ معَهُم، فأبيتَ. احفظ عَنّي واحدةً: كُلَّما عَرَضَ عليك القَومُ، فقُل: لا، إلاّ أن يُولُّوك، واحذَر هؤلاء الرَّهطَ، فإنَّهم لا يَبرَحُونَ يَدْفَعُونَنَا عَن الأمر حتّى يَقُومَ به غيرُنا، وأيمُ اللّهِ، لا نَنالُه إلاّ بشَرٍّ لا يَنفعُ معه خيرٌ».

فأجابَهُ عَليٌّ بِما سُمعَ بعضُه ولم يُسمع بعضُهُ، وتمثَّلَ بأبياتٍ. والتفت، فَرَأىٰ أبا طلحةَ، فكرِهَ مكانَه. فقال أبو طَلحَة:

- «لم تُرَع أبا الحسنِ».

وكان خلع عبدُ الرَّحمن نَفسَهُ، ورَضُوا أن يكونَ هُوَ الّذي يختار للمسلمين، وقد كانَ جاءَ عَمرُو بن العاص والمغيرةُ بن شعبةَ والقوم في البيتِ يتشاوَرُونَ، فجلَسا بالبابِ فحصبَهُما سعدٌ وأقامَهُما.

ولمّا كان اليومُ الرّابعُ صَعدَ عبدُ الرَّحمن المنبرَ في الموضعِ الّذي كان يَجلسُ فيه رسول اللّهِ - ﷺ - ثمّ قال:

«أيها النّاسُ، إنّي قد سألتكم سِرًّا وجَهراً عَن إمامكم، فلم أجِدكم تعدلونَ بأحدِ الرَّجُلين: إمّا عليٌّ وإمّا عثمانَ. فقُم إليَّ يا عليُّ!».

فوقف تحتَ المِنبرِ، وأخذ عبدُ الرّحمن بِيدِه، فقال:

- «هل أنت مُبايِعي على كتاب اللّهِ وسنّةِ نَبيِّه وفِعلِ أبي بكرٍ؟».

قال: «اللّهُمَّ لا، ولكن على جهدي وطاقتي».

قال:

فأرسلَ يَدَهُ، ثمّ نادى: «قُم يا عثمانُ!».

فَأخذَ بِيدِه وهو في موقِفِ عَليٍّ الّذي كان فيه، فقال:

- «هل أنت مُبايعي على كتاب اللّهِ وسنّة نبيِّه وفِعلِ أبي بكرٍ؟».

قال: «اللّهمَّ نعم».

فرفع رأسَهُ إلى سقفِ المسجدِ وَيدُه في يَدِ عُثمانَ، ثم قال:

ـ «اللّهُمَّ اسمع واشهَد، اللّهم اسمع واشهَد: إنّي جَعلتُ ما في رَقَبتي مِن ذاك في رقَبَةِ عثمانَ».

فازدحَمَ النّاسُ يبايعونَ عثمان، وكان عبدُ الرَّحمن قعد مقعَدَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ من المنبر، وأقعَدَ عثمان على الدَّرجةِ الثّانية.

قال:

وجَعلَ النّاسُ يبايعونه، وتلَكَّأ عليٌّ، فقال: عبدُ الرَّحمن: «وَمَن نكثَ، فإنّما يَنكُثُ عَلى نَفسِهِ، وَمَن أوفى بِما عَاهَدَ اللَّهَ عَلَيهِ فَسَنُؤتيهِ أجراً عَظيماً».

فرجع عليٌّ يَشقُّ النّاسَ حتَّى بايع عثمان وهو يقولُ:

ـ «خدعةٌ وأيمّا خُدعَةٍ».

ذِكرُ هذِهِ الخُدعَةِ

كان سببُ قولِ عليٍّ: «خُدعةٌ». أنّ عَمرو بنَ العاصِ كان لَقِيَ عليًا في ليالي الشُّورى فَقال:

ـ «إنّي أحبُّكَ وأريدُ نُصحَكَ: إنّ عبدَ الرَّحمن رجلٌ مجتهِدٌ، ومَتى أعطيتَهُ العزيمةَ كان أزهَدَ له فيكَ، فلا تُظهِر كُلَّ الرَّغبةِ، ولا تبذُل لَهُ مِن نفسِكَ إلاّ الجهدَ والطّاقةَ، ولا تَضمَن لَهُ كُلَّ ما يسألُكَ وأَومِ إلى التّواضعِ».

ثُمَّ أتى عثمان، فقال له:

ـ «إنّ عبدَ الرَّحمنِ ليس واللّهِ يُبايُعكَ إلاّ بالعزيمةِ، فاقبل ما يعطيكَ، وأَعطِه ما يسألكَ».

فلذلك قال عليٌّ: «خُدعةٌ».

وقد قيل: إنّ عَليًا قال ذلك لأجل ما ذكرناه مِن اقترانِ عثمان وعبدِ الرَّحمنِ.

قال: ثمَّ انصرف عثمان إلى بيتِ فاطمَةِ بنتِ قيسٍ، والنّاسُ معه، فقام المغيرةُ بن شعبة خطيباً، فقال:

ـ «يا أبا محمدٍ، الحمدُ للّهِ الّذي وفّقكَ. ما كان لنا غير عثمانَ وعليٌّ جالسٌ».

فقال عبد الرَّحمن:

ـ «يا بن الدَّبّاغِ، ما أنتَ وذاك، واللّهِ ما كنتُ أبايعُ أحداً مِن هؤلاءِ إلاّ قُلتَ فيه هذه المَقالَةَ».

وكانَ أوّل ما كتبَه عثمانُ إلى أمراءِ الأجنادِ في الفُروجِ:

«أمّا بعدُ، فإنّكم حُماةُ المسلمين، وذادَتُهم، وقد وضعَ عنكم عُمرُ ما لم يغِب عنّا، بَل كانَ عَن مَلأٍ مِنّا، فلا يبلُغنّي عَن أحدٍ منكم تغييرٌ ولا تبديلٌ، فيغيّر اللّهُ ما بكم، ويَستبدل بكم غيرَكم».

وكتبَ إلى عُمّالِ الخراج كتاباً يُحضُّهُم فيه عَلى العَدلِ، وكتاباً إلى العامَّةِ يأمُرُهُم فيه بالطّاعَةِ والاقتداءِ وترك الابتداع.

مَقتلُ يَزدجِردَ وَما تَمَّ عَليهِ مِنَ الاتّفاقاتِ الطَّريفَةِ

إن يَزدجِردَ لمّا وقع إلى أرضِ فارِسَ بَقِيَ سِنينَ. ثُمَّ أتى كرمانَ، فأقامَ بِها مِثلَ ذلكَ. فطلبَ إليه دِهقانُ كرمانَ شيئاً، فلم يُجِبهُ إليه، فطَرَدَهُ عَن بِلادِه. ثمّ أجمع أن ينزِل خراسانَ، فأتى سَجِستان، فأقام بها. ثمّ سار إلى مَرو، ومعه الرُهُن مِن أولادِ الدَّهاقينَ، ومعَهُ من رُؤسائهم فَرُخزاد.

فلمّا قدِم مَرو، واستغاث منها بالملوكِ، وكتب إليهم يَستمدُّهم مثلَ صاحبِ الصِّينِ، ومَلِك فَرغانةَ، ومَلِك كابُلَ، وملِك الخَزرِ، كان الدِّهقانُ بِمَرو ماهويه، وكان له ابنٌ يُسمّى نزارٌ، فوكَّل ماهويه ابنَهُ نزار بمدينةِ مَرو، وتقدّم إليه وإلى أهلِ المدينةِ ألاّ يَفتحوا البابَ ليَزدجِرد، وقال لهم:

ـ «ليس هذا لكم بملكٍ لأنّه قد سلّم بِلادَه وجاءَكم مفلولاً مجروحاً، ومرو لا تَحتملُ ما تحتملُ غيرُها من الكُورَ. فإذا جِئتُكم غداً فلا تفتحُوا البابَ».

فلمّا أتاهم فعلوا ذلك.

وانصرف فرُخزاذ، فجَثا بينَ يدي يَزدجردَ وقال:

ـ «استصعبت عليك مروُ، وهذه العربُ قد أتَتكَ».

قال: «فما الرَّأيُ؟».

قال: «أن تلحقَ ببلاد التُرك، فتُقيمَ بها، حتّى يَتبيَّنَ لنا أمرُ العرب. فإنّهم لا يَدَعُون بلدةً إلاّ دخلُوها».

قال: «لستُ أفعلُ، ولكن أرجعُ عَودي على بَدئي».

فعصاه ولم يقبل رأيَهُ. فسار يَزدجردُ، وأتى نزار دهقان مرو، وأجمع على صَرفِ الدَّهقنَةِ عن ابنِه نَزار إلى سنجان ابنِ أخيه.

فبلغ ذلك ماهويه وهو أبو نزار وعمل في هلاكِ يَزدجردَ، وكتبَ إلى نيزك طرخان يُخبرهُ أنّ يَزدجردَ وقع إليه مفلولاً، ودَعاهُ إلى القُدوم عليه، ليكونَ أيديهما معاً في أخذه والاستيثاقِ منه، فيقتلُوهُ، ويُصالحوا عليه العربَ، وجعل له في كُلِّ يَومٍ ألفَ درهمٍ،

وسألَه أن يكتبَ إلى يَزدجرد مُماكِراً لهُ لِيُنَحِّيَ عامَّةَ جُنده، ويَحصلَ في طائفةٍ من خواصِّه، فيكون أضعفَ لِرُكنِه وأَهونَ لِشَوكتِه، وقال:

ـ «تُعلِمُه في كتابك إليه الّذي عزمتَ عليه في مُناصحته ومَعُونتِه على العرب: أن يشتقَّ لك اسماً من أهلِ الدَّرجاتِ بكتابٍ مختومٍ بالذَّهبِ، وتُعلِمُه أنكَ لستَ قادماً عليه حتّى تُنَحِّيَ عنه فرُّخزاد».

فكتب نيزكُ بذلك إلى يَزدجرد، فلمّا وردَ عليه كِتابُه بعثَ إلى عظماءِ مَرو، فاستشارهُم.

فقال له سنجان: «لَستُ أرى أن تُنَحِّيَ عنك أصحابَك ولا فرُّخزاد لِشَيءٍ».

وقال نزار: «بل أرى أن تبايِعَهُ يعني نيزكَ وتُجيبَه إلى ما سألَ».

فقبلَ رأيَه، وفرَّق عنه جُنودَه، وأمرَ فرُّخزاد أن يأتيَ لأجمة سَرخس. فصاح فرُّخزاد، وشقّ جَيبَهُ وتناول عموداً بين يَديه يُريد ضربَ نَزار به، وقال:

ـ «يا قَتَلَةَ الملوكِ، قتلتُم مَلِكينِ، وأظنُّكم قاتِلي».

هذا، ولم يبرح فرُّخزاد حتّى كتبَ لَهُ يزدجردُ كتاباً بخطِّ يَدِه، نُسخَتُه:

«هذا كتابٌ لفرّخزاد إنّكَ قد أسلمتَ يَزدجردَ وأهلَه وولدَه وحاشيَتَهُ وما معه، إلى ماهويه دهقانِ مرو، واشهَد عليه بذلك».

فأَقبَلَ نيزكُ إلى موضعٍ مِن مَرو يقال له حلبندان. فلمّا أجمعَ يزدجردُ على لِقائه والمسيرِ إليه أشار عليه أبو نَزار ألاّ يَلقاهُ في السِّلاح فيرتابَ به وينفر عنه، ولكن يَلقاهُ بالمَلاهي والمزاميرِ. ففعَل، وسارَ إليه كذلك، وتقاعَس عنه أبو نزار، وكردَسَ نيزكُ أصحابَه كراديسَ.

فلمّا تدانَيا استقبله نَيزكُ ماشياً ويزدجردُ على فرسٍ له. فأمرَ لِنيزك بِجنيبَةٍ من جَنائبه، فركبها، فتوسَّطَ عسكرَه، فتواقفا. فقال له نيزكُ في ما يقول: «زَوِّجني إحدى بناتِك لأُناصِحَكَ وأقاتلَ مَعكَ عدوَّكَ».

فقال له يزدجردُ: «عَليَّ تَجترِئُ يا كلبُ!».

فعلاهُ نيزك بِمخفَقَتِه. وصاحَ يزدجردُ:

ـ «غَدرَ الغادرُ».

وركض منهزماً، ووَضعَ أصحابُ نيزك سيوفَهم فيهم، فأكثَرُوا القتلى.

يَزدجِرد والطَّحان

وانتهى يزدجردُ في هزيمته إلى مكان من أرضِ مَرو، فنزلَ عن فرسه، ودخلَ بيتَ

طَحّانٍ مكث فيه ثلاثة أيّام.

فقال له الطَّحّان: «أيُّها الشَّقيُّ أخرج فاطعَم شيئاً فإنّكَ جائعٌ منذ ثلاثٍ»

قال: «لستُ أصِلُ إلى ذلك إلاّ بِزَمزَمةٍ».

كان رجلٌ مِن زَمازِمَةِ مَرو قريباً منه، فأتاهُ الطَّحّانُ، وسألهُ أن يُزمزِمَ عليه ليأكُلَ. ففعل ذلك. فلمّا انصرف إلى مَرو سَمعَ أبا نزار يذكر يَزدجردَ ويطلبُه، فأتاهُ، فسأله وأصحابَه عن حِليته. فوصفُوه. فأخبرهم أنّه رَآهُ في بيت طحّانٍ وهو رجلٌ جَعدٌ مقرونٌ حَسَنُ الثَّنايا مُقرَّطٌ مُسوَّرٌ.

فوجَّه إليه رجلاً من الأساورة، وأمره أن يخنقَهُ بوَتَرٍ ويَطرحَهُ في نهر مَرو. فلقوا الطَّحان، فضربُوه لِيُدلَّ عليه، فلم يفعل وجَحَدَهم أن يعرف أين يتوجَّهُ. فلمّا أرادوا الانصرافَ عنه، قال رجلٌ منهم:

- «إنّي أجدُ ريح المِسك فلو تتبَّعته».

فنظر إلى طَرفِ ثوبٍ من ديباج في الماءِ، فاجتذبَهُ إليه، فإذا هو يزدجردُ، فسأله ألاّ يقتلَه ولا يدلَّ عليه؛ ويجعل لَهُ خاتَمه وسِوارَه ومنطقتَه.

فقال: «أعطني أربعةَ دراهم وأُخلّي عنك».

قال: «ويحك! خاتمي لك وثمنُه لا يُحصى!».

فأبى عليه.

قال يزدجرد: «قد كنتُ أُخبرتُ أنّي سأحتاجُ إلى أربعة دراهم، وأُضطَرُّ إلى أن يكونَ أكلي أكلَ الهرِّ، فقد عانَيتُه».

ثمَّ انتزع أحدَ قُرطَيه، وأعطاهُ الطَّحّانَ مكافأةً لكتمانِه عليه، ودنا منه كأنّه يُكلِّمه بِشيءٍ، فأنذر الرَّجلُ أصحابَه، وأتَوه، فطلبَ إليهم يزدجردُ ألاّ يقتلُوه، وخوَّفهم ما عليهم في دينِهم من ذاك. وقال:

- «آتوني الدّهقانَ أو سرِّحوني إلى العرب، فإنَّهم يستحيون مِثلي من الملوك».

فأخذوا ما كان عليه من الحُليِّ، فجعلوه في جرابٍ، وختَموا عليه، ثمّ خنقُوه بِوَتَرٍ، وطرحوهُ في نهر مَرو، فجرى به الماءُ حتّى انتهى إلى فوهةِ الدُّريق، فتعلّق بُعودٍ، فأُخِذَ مِن هناك. ثمَّ تفقَّد أبو نزار أحدَ قُرطَيهِ، فأخذ الَّذي دلّ عليه، فضربَه حتّى أتى على نَفسه، وبعث بما أصيب له إلى الخليفةِ يومَئذٍ، فأغرم الخليفةُ الدّهقانَ قيمةَ القُرطِ المفقودِ.

روايةٌ أخرى في ذلك

وقد حُكي في رواية أخرى: أنّ نزار وسنجان كانا متباغضَين متحاسدَين، وخصَّ

به نزارَ فحسده سنجانُ، فظهر ذلك لنزار، فجعَل يُوغِرُ صدرَ يَزدجِردَ ويسعى في قتلِه، ولم يَزل يُغري يزدجرد بسنجان حتّى عزم على قتلِه، وأفشى ما كان عليه عزمَ من ذلك إلى امرأةٍ من نسائه كان نزارُ واطأَها. فأرسلت إلى نزارَ تُبشِّر بإجماع يَزدجردَ على قتلِ سنجان، وفَشا الحديثُ وبلغ سنجانَ. فجمع جُموعاً وتوجَّه نحو القصر الَّذي فيه يزدجرد، وبلغ ذلك نزارَ، فنكص عن سنجان لكثرة جَمعِه، وأرعبَ ذلك يزدجرد. فخرجَ ذاهباً على وجهه راجلاً ينجُو بنفسِه، فمشى نحواً من فرسخين حتّى وقع إلى رَحًى من ماءٍ، فدخل بيتَ الرَّحى، فجلس فيه كالاً لَغِباً، فرآه صاحبُ الرَّحى ذا هيئةٍ، وطُرَّةٍ، وبِزَّةٍ كريمةٍ. ففرش له وأتاهُ بطعام. فطعِم ومكث عنده يوماً وليلةً. فسأَلَهُ صاحبُ الرَّحى أن يأمُرَ لَهُ بشيءٍ، فبذل له مِنطقتَه، وكانت مكلَّلةً بجَوهر. فأبى صاحب الرَّحى أن يقبلَها وقال:

«إنّما يُرضيني من هذه المِنطقةِ أربعةُ دراهم آكُلُ بِها وأشربُ».

فأخبرَهُ ألاّ وَرِقَ معه، فتملَّقَهُ صاحبُ الرَّحى حتّى إذا أغفى، قام إليه بفأسٍ، فضرب بها هامَتَه، فقتله، وأخذ ما كان عليه من ثِيابٍ وحُلِي، وألقى جيفتَه في النَّهر وبقَر بطنَه، فأدخَل فيه من أصولِ طَرفاءَ كانت نابتَةً على النَّهر ليحبس جُثَّتَه في الموضع الَّذي ألقاها فيه، فلا ينتقِلَ فيُعرفَ ويُطلبَ وما أخِذَ مِن سَلَبِه، وهربَ على وجهِه.

وبلغ قتلُ يزدجردَ رجلاً من أهلِ الأهواز كان مطراناً على مَرو يُقالُ له: إيليا، فجمع مَن كان قِبلَهُ من النّصارى، وقال:

ـ «إنّ مِلكَ الفُرسِ قُتل وهو ابن شهريار بن كِسرى وإنّما شهريارُ وَلدُ شيرينَ المؤمنة الَّتي عرفتم حقَّها وإحسانَها إلى أهل مِلَّتِها وكانت بنتَ قيصَر. ثمّ لهذا الملكِ عنصرٌ في النَّصرانيّة مع ما نال النّصارى في مُلكِ جَدِّه مِن الشّرفِ، حتّى بنى لهم البِيَعَ، وشدَّ مِلَّتهم، فينبغي أن نجزيَ هذا الملكَ بقدرِ طاقتنا من الكرامةِ، وقد رأيتُ أن أبنيَ له ناووساً وأحملَ جُثَّتَه في كرامةٍ، حتّى أجعلَها فيه».

فقال النّصارى: «أمرُنا لأَمرك تَبعٌ».

فأمرَ المطرانُ، فبُني له في جَوف بُستانه بمَرو ناووسٌ، ومضى بنفسِه ومعه نصارى مَرو حتّى استخرج جُثَّةَ يَزدجردَ، وكفّنها في تابوتٍ، وحمله ومن كان معه من النّصارى على عواتِقهم حتّى أتَوا به النّاوُوسَ، ووارَوهُ فيه، وردَمُوا بابَه.

وقيل: بل حمله إلى إصطخر فوُضع في النّاوُوسِ هناك. وذلك في سنة إحدى وثلاثين للهجرةِ.

وكان مُلكُ يزدجرد عشرين سنةً منها أربعُ سِنينَ في دَعَةٍ وستُّ عشرة سنةً في تَعبٍ

من مُحاربةِ العرب إيّاهُ، ومحنتِه بهم، وغِلظتِهم عليه. وكان آخِرَ مَلِكٍ مَلَكَ مِن آل أردشيرَ بنَ بابك، وصفا المُلكُ بعدَه للعربِ.

ما جرى في خلافة عثمان مِمّا تُستفادُ منه تجربةٌ

وقد كُنّا ذكرنا ما يجبُ ذِكرُه من خلافة ـ عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ وما تمَّ منه على الوجه الّذي اقتصَصناهُ.

ثمّ جرى بعد ذلك مِمّا تُستفاد منه تجربةٌ أنَّ قوماً من المسلمين أنكروا منه أشياءَ، فكانوا يتذاكرونَها بينَهم، وذلك بالعراق خاصَّةً وبالمدينةِ دون غيرِهما. ثمّ انتشر منهم طائفةٌ في سائر الأعمالِ يَنعَون على عثمان أموراً ويُشنِّعون عليه. فسيَّر عثمانُ منهم نفراً إلى الشّام ليُذِلَّهم بمعاويةَ، وجرى لهم معه خَطبٌ طويلٌ. ثمّ تكاتَبُوا بعدَ ذلك، وجميعُ ذلك شبيهٌ بالسِّرّ. إلى أن شربَ الوليد بن عُقبة، وهو والٍ على الكوفة خمراً وشَهِد عليه به مَن لم يمكن ردُّ شهادته، فاستقدمه عثمان المدينة وجَلدَهُ الحدَّ، وردَّ مكانَه سعيدَ بنَ العاصِ، فوردَ سعيدٌ، وأمر بغسلِ المنبر من مقامِه، فكلَّمه في ذلك قومٌ من قريشٍ، فأبى عليهم، وغَسَلَ الموضعَ وداری النّاسَ، فلم يتمَّ له ما أراد، وشغَّب عليه النّاس.

ثمَّ أجمعَ رأيُ النّاسِ على أن يبعثُوا إلى عثمان رجلاً يُكلِّمه ويُخبرهُ بأحداثِه. فأرسلُوا إليه عامرَ بنَ عبدِ القيسِ التّيمي، وكان يُعَدُّ من النُّسّاك. فأتاهُ فدخل عليه فقال:

ـ «إنّ ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً، فاتّقِ اللَّهَ، وتُب إليه، وانزع عنها».

فقال عثمانُ: «انظروا إلى هذا، فإنّ النّاسَ يزعمون أنّه قارِئٌ، ثمّ يَجيء فيكلِّمني في المُحقّرات ويزعم أنَّها عظائم، فواللَّه ما يَدري أين اللَّه».

قال عامرٌ: «أنَا لا أدري أين اللَّهُ؟».

قال: «نعم، واللَّهِ لا تدري أين اللَّه».

قال عامرٌ: «بلى واللَّه، إني لأَدري أنّ اللَّهَ لك لبالمرصادِ».

فأرسل عثمان إلى معاويةَ بن أبي سفيان، وإلى عبد اللَّه بن سعد بن أبي سَرح، وإلى سعيد بن العاص، وإلى عمرو بن العاص وأمثالهم، فجمعهم يُشاورهم ويُخبرُهم بما بلغ منه. فلمّا اجتمعوا عنده قال:

ـ «إنّ لكلِّ امرِئٍ وُزراءَ نُصحاءَ، وإنكّم وُزرائي ونُصحائي وأهلُ ثقتي، وقد صنع النّاسُ ما رأيتم، وطلبوا إليَّ أن أعزِلَ عُمّالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يُحبّون. فاجتهدوا لي رأيَكم ثم أشيروا عليَّ».

فقال عبد اللَّه بن عامرٍ:

ـ «رأيي لك يا أميرَ المؤمنين أن تأمرهُم بجهادٍ يشغلهم عنك، وأن تُجمِّرهم في المغازي حتّى يذلُّوا لك، فلا تكون همَّة أحدِهم إلاّ نَفسه، وما هو فيه مِن دَبرِ دابَّته وقَملِ فَروتِه».

ثمَّ أقبل على سعيد بن العاص فقال: «ما رأيُك؟».

قال: «يا أمير المؤمنين، إن كنتَ تُريد رأيَنا فاحسِم عنّا الدّاءَ، واقطعَ ما تخاف من الأصلِ، واعمَل برأيي».

قال: «وما هُوَ؟».

قال: «إنّ لكلِّ قومٍ قادةً متى تَهلك تفرَّقوا ولا يجتمع لهم أمرٌ».

فقال عثمان: «إنّ هذا الرَّأيُ لولا ما فيه».

ثمَّ أقبل على معاوية، فقال: «ما رأيُكَ؟».

قال: «رأيي يا أمير المؤمنين أن تردَّ عُمّالَك على الكفاية لِما قِبَلَهم، وأنَا ضامنٌ لما قِبَلي».

ثمَّ أقبلَ على عبد اللّه بن سعدٍ، فقال: «ما رأيُكَ؟»

قال: «يا أمير المؤمنين، النّاس أهلُ طمعٍ، فأعطِهم من هذا المالِ تعطِف عليك قلوبَهم».

ثمَّ أقبلَ على عمرو بن العاص، فقال: «ما رأيُك؟».

قال: «أرى أنّك قد ركبتَ النّاس بما يكرهونَ فاعتزم أن تعتزلَ، فإنّك قد ولَّيتَ النّاسَ بني أميَّة وحملتَهم على أرقابِهم، فاعتزِل، فإن أبيتَ فامضِ قُدُماً».

فقالَ له عثمان: «مالَكَ، قَمِلَ فَروُك مُذ عزلتكَ، أهذا الجِدُّ منكَ؟».

فسكت عنه عَمروٌ حتّى إذا تفرَّقَ القومُ قال عَمروٌ:

ـ «لا واللّهِ يا أمير المؤمنين، لأَنتَ أعزُّ عليَّ من ذلك، ولكن قد علمتُ أنّ النّاسَ قد عَلِموا أنّك جَمعتَنا لِتَستَشيرَنا، وسيبلُغُهم قولُ كُلِّ رجلٍ منّا. فأردتُ أن يبلغَهم قولي فَيثِقُوا بي لأقودَ إليك خيراً، وأدفعَ عنك شرًّا».

فردّ عثمان عُمّالَه على أعمالِهم، وأمرهم بالتَّضييق على مَن قِبَلَهُم، وأمرهم بتجمير النّاس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليُطيعُوهُ ويحتاجوا إليه. ورُدَّ سعيدُ بن العاص أميراً على الكوفة.

أهل الكوفة يردّون سعيدَ بن العاص

فخرج أهلُ الكوفة عليهم السِّلاح يقدُمهم مالك بن الحارث الأشتر، فتلقَّوهُ

ورَدُّوهُ وقالوا:

ـ «لا، واللّه، لا تَلي علينا حُكماً، ولا تدخلها علينا ما حملنا سيوفَنا».

فرجع سعيد وقال للنّاسِ:

ـ «أما اختلفتم إلاّ لي؟ إنّما كان يكفيكم أن تبعثُوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وتَضَعُوا لي رجلاً، وهل يخرج الألفُ لهم عقولٌ إلى رَجُلٍ؟».

ومضى سعيدٌ حتّى قدِمَ على عثمان فأخبره الخبر.

فقال عثمان: «ما يريدون، أخَلَعُوا يداً عن الطّاعة؟».

قال: «أظهروا أنّهم يُريدون البدلَ».

قال: «فمَن يُريدون؟».

قال: «أبا موسى».

قال: «أثبتنا أبا موسى عليهم. واللّه لا نجعل لأحدٍ منهم عذراً، ولا نترك لهم حُجَّةً، ولنصيرنَّ كما أُمرنا حتّى يبلغ اللّه ما يُريد».

وكان يزيد بن قيسٍ لمّا استغوى النّاسَ على سعيد بن العاص، خرج منه ذكر قبيحٌ لعثمان. فأقبل إليه القعقاعُ بن عَمرو حتّى أخذه.

فقال: «ما تريدُ يا قعقاعُ، ألك علينا في أن نستعفيَ سبيلٌ».

قال: «وهل إلاّ ذاك؟» قال: «لا».

وإنمّا قال ذلك لما لم يتمّ له جميع ما يُريد ـ فقال له القعقاع:

ـ «فأمسِك عن الكلام واستَعفِ كيفَ شئتَ».

كثر النّاسُ على عثمان وكلَّمُوا عليًا فيه

فلمّا كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحاب رسول اللّه ـ ﷺ ـ بعضهم إلى بعضٍ أن: «اقدَمُوا، فإن كنتم تُريدون الجهاد فعندنا الجهاد». وكثر النّاسُ على عثمان ونالوا منه أقبح ما نِيلَ مِن أحدٍ وأصحابُ رسولِ اللّه يَرَون ويسمَعون، ليس منهم أحدٌ يذبُّ ولا ينهى.

فاجتمع النّاسُ فكلّموا عليَّ بن أبي طالبٍ عليه السّلام. فدخل عليٌ على عثمان فقال:

ـ «إنّ النّاسَ ورائي، وقد كلّموني فيك، وواللّه ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تَجهلُه، ولا أدُلُك على أمرٍ لا تعرفُه، إنَّك لَتَعلمُ ما نَعلم، ما سبَقناك إلى شيءٍ فنُخبرك عنه، ولا خَلونا بشيءٍ فنُبلِّغَكَهُ وما خُصِصنا بأمرٍ دونك. قد رأيتَ وسمعتَ

وصحبتَ رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ ونِلتَ صِهرَهُ، وما ابنُ أَبي قُحافةَ بأولى بِعمل الحقّ منكَ، ولا ابنُ الخطّابِ بأولى بشيءٍ من الخير منك وأنتَ أقربُ إلى رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ رَحِماً. فاللّهَ اللّهَ في نفسك. فإنّك واللّه ما تُبَصَّرُ مِن عَمًى ولا تُعلَّم مِن جهلٍ، وإنّ الطّريقَ لَواضِحٌ بَيِّنٌ، وإنّ أعلامَ الدّين لقائمةٌ. تَعلمُ يا عثمانُ، أنّ أفضلَ عبادِ اللّه عند اللّه إمامٌ عادلٌ هُدِيَ وهَدى، واستقام وأقامَ سنَّةً مَعلومَةً، وأماتَ بدعةً معلومةً. فواللّه إنّ كُلاًّ لَبَيِّنٌ، وإنَّ السُّنَنَ لَقائمةٌ لَها أعلامٌ، وإنّ البِدعةَ لَقائمةٌ لها أعلامٌ. وإنّي أُحذِّرك اللّهَ وسطوتَه ونقَماتِه، وأحذِّرك أن تكونَ إمامَ هذه الأمّة الّذي سَمعنا به، فإنّه كان يُقال: يُقتلُ في هذه الأمّة إمامٌ يُفتح به عليها القتلُ والقتال إلى يَوم القيامةِ، ويَلبسُ عليهم أمورَهم، ويتركهُم شِيَعاً لا يُبصرون الحقَّ لِعُلُوِّ الباطلِ، يَموجونَ فيها موجاً».

قال عثمانُ: «قد واللّه علمتُ أنّك تقول الّذي قالوه أما واللّه لَو كنتَ بمكاني ما عنَّفتُك، ولا أسلمتُكَ، ولا عِبتُ عليك، وإنّي ما جئتُ مُنكراً إن وَصلتُ رَحِماً، وسدَدتُ خُلَّةً، وأَويتُ ضائعاً، ووَلَّيتُ شبيهاً بمن كان يُولّي عُمرُ. أُنشدك اللّه يا عليُّ، هل تعلمُ أنَّ مُغيرة بن شُعبة ليس هناك؟ قال: «نعم».

قال: «فتعلم أنّ عُمرَ وَلاّهُ».

قال: «نعم».

قال: «فلِمَ تلومُني أن وَلَّيتُ عبدَ اللّه بن عامرٍ في رَحِمِهِ وقَرابتِه؟»».

قال عليٌّ: سأخبركَ. إنّ عُمرَ كان كلّ من ولّى فإنّما يَطَأُ على صِماخِه، إن بلغَه حرفٌ خلَعَه، ثمّ بلغ أقصى الغاية، وأنت لا تفعل. ضعُفتَ ورققتَ على أقربائك.

قال عثمانُ: «هم أقرباؤك أيضاً».

قال عليٌّ: «أجل. لعَمري إنَّ رَحِمَهم مِنّي لَقَريبةٌ، ولكنَّ الفضلَ في غيرهم».

قال: «هل تَعلم أنَّ عُمرَ ولّى معاويةَ خِلافتَه كلَّها، فقد ولّيتُه».

قال عليٌّ: «أُنشدُكَ اللّهَ، هل تعلم أن معاوية كان أخوفَ مِن عُمرَ، من يَرفأَ غلامِ عُمرَ، منه؟»».

قال: «نعم».

قال عليٌّ: «فإنّ معاويةَ يَقطعُ الأمرَ دونَك، وأنت تعلمُ؛ فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغكَ، فلا تُغيِّر على معاوية».

ثمَّ خرج عليٌّ مِن عندِه وخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فقال:

أما بعدُ، فإنّ لكلِّ شيءٍ آفةً ولكل أمرٍ عاهةً، وإنّ آفة هذه الأمّة وعاهةَ هذه النِّعمة عيّابون طعّانون يرونكم ما تُحبُّون ويُسرُّون ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال

النَّعام يتبعون أوّلَ ناعقٍ، أحبُّ مواردها إليها البعيدُ، لا يشربون إلاّ تبرُّضاً ولا يَرِدون إلاّ عَكراً، لا يقوم لهم رائدٌ، قد أعيتهُم الأمورُ، وتعذّرت عليهم المكاسبُ، ألا! واللَّه عِبتم عليَّ بما أقررتُم لابن الخطّاب بمثله، ولكنَّه وطئَكم بِرجلِه، وضربكم بيده، وقمَعكم بلسانِه فَدِنتم له على ما أحببتُم أو كرهتُم، ولِنتُ لكم، ووطَّأتُ لكم كَتِفي، وكففتُ يدي ولِساني، فاجترأتُم عليَّ. أما واللَّه، لأَنَا أعزُّ نفراً، وأقربُ ناصراً، وأكثر عدداً وأقمَنُ. إن قلتُ هَلُمَّ أُتِيَ إليّ، ولقد أعددتُ لكم أقرانكم، وأفضلتُ عليكم فُضولاً، وكشرتُ لكم عن نابي، وأخرجتم خُلُقاً لم أكن أُحسنُه، ومنطقاً لم أنطِق به. فكفُّوا عليكم ألسنتَكم وطعنَكم وعيبَكم على وُلاتكم، فقد كفَفتُ عنكم مَن لو كان هو الَّذي يكلِّمكم لرضيتُم منه بدون منطقي هذا إلاّ ما تفقدون مِن حقِّكم. واللَّه ما قصَّرتُ في بلوغ ما كان يبلغُ مَن قبلي، ومَن لم تكونوا تختلفون عليه. فَضَلَ فَضلٌ مِن مالٍ. فمالي لا أصنع في الفضلِ ما أريد، فَلِمَ كنتُ إماماً؟

فقام مروانُ بن الحكم فتكلَّم، فقال عثمان:

ـ «أسكُت لا سكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقكَ في هذا، ألم أتقدَّم إليك ألاّ تَنطقَ بحَرفٍ؟».

فسكت مروانُ ونزل عثمانُ.

ثمّ دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين

فيها كان ظهورُ السَّبائيَّة وخروجُ أهلِ مِصرَ إلى المدينة لقتلِ عثمان

وكان سبب ذلك أنّ عبد اللَّه بن سَبأ كان يهوديًا من أهل صنعاء، وأمّه سوداء. فأسلم أيّامَ عثمان، ثمَّ تنقّل في بلدان المسلمين يحاول بدعةً. فبدأ بالحجاز، ثمّ بالبصرةِ، ثم بالكوفة، ثمّ بالشّام. فلم يجتمع له أمرٌ على ما يُريدُ، فمضى نحوَ مِصرَ.

فلمّا أتاها، قال لأهلِها في ما يقول:

ـ أنا أعجَبُ مِمَّن يصدِّق بأنَّ عيسى يرجعُ، ويكذِّبُ بأنَّ محمّداً لا يرجعُ، وقد قال اللَّه: «إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ. فمحمّدٌ أحقُّ بالرُّجوع. فوضع لهم الرّجعة».

ثمَّ قال: «ما مِن نبيٍّ إلاّ ولَهُ وصيٌّ، وعليٌّ وصيُّ محمدٍ».

ثم قال: «مَن أظلمُ ممَّن لم يُجز وصيَّة رسولِ اللَّه ـ ﷺ ـ ووثب على حقٍّ ليس له، وتناول أَمر الأُمَّة؟».

ثم قال: «هذا عثمان قد غصب عليًا، وغيَّر وبدَّل، وكانَ وكانَ، فانهضُوا في الأمر، وأظهِروا الأمرَ بالمعروف والنّهيَ عن المنكر، واطعَنوا على أمرائكم تَجِدوا مَقالاً، وادعُوا إلى هذا الأمرِ».

وبثَّ دُعاةً في الأمصار، وكاتب مَن استفسدهُ في الأمصار وكاتبوهُ. ودعَوا في السِّرِّ إلى ما عليه رأيُهم، وأظهروا الأمرَ بالمعروفِ، وتكاتب أهلُ الأمصار، حتّى أوسعُوا الأرضَ إذاعةً، وتناولوا المدينة.

فدخل قومٌ على عثمان، فقالوا:

ـ «يا أمير المؤمنين، أيأتيك ما يأتينا؟».

قال: «لا، ما جاءَني إلاّ السَّلامةُ».

قالوا: «فإنّا قد أتانا كيتَ وكيتَ».

قال: «فأشيروا عليَّ».

قالوا: «نُشيرُ عليك أن تبعثَ رجالاً ممَّن تَثِقُ بهم إلى الأمصار حتّى يرجعُوا إليك بأخبارهم».

فدعا جماعةً من وجوه الصَّحابةِ فيهم عمّارُ بنُ ياسرٍ، فأرسل أحدَهم إلى الكوفة، وأرسلَ آخَرَ إلى البصرةِ، وأرسلَ عمّاراً إلى مصر، وأرسل ابنَ عُمرَ إلى الشّام، وفرَّق الباقين في البلاد. فرجعوا جميعاً قبلَ عمّارٍ فقالوا:

ـ «أيّها النّاسُ، ما أنكرنا شيئاً ولا أنكرهُ أعلام المسلمين، ولا عَوامُّهم، والنّاسُ ساكتون قارُّون».

فاستبطأ النّاس عمّاراً، فلم يفجأهم إلاّ كتابٌ من عبد اللّه بن أبي سرحٍ يُخبرُهم: أنّ عمّاراً قد استمالَه قومٌ بِمصرَ، وقد انقطعوا إليه، منهم: عبد اللّه بنُ السَّوداء، وسودانُ بن حمران، وفلانٌ وفلانٌ.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّي آخِذ العُمّال بمُوافاتي في كلِّ مَوسمٍ، فاقدمُوا عليَّ».

فقدِمَ عليه عبد اللّه بن عامرٍ، ومعاويةُ، وعبدُ اللّهِ بنُ سعدٍ، وأدخل في المشورةِ سعداً وعَمراً. فقال:

ـ «ويحكم! ما هذه الشّكاةُ، وما هذه الإذاعةُ؟ إنّي واللّه لَخائفٌ أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعصَب هذا إلاّ بي».

فقالوا: «لا واللّهِ، ما صدقوا ولا بَرُّوا، ولا يجِلُّ الأخذ بها، والانتهاءُ إليها».

قال: «فأشيرُوا عليّ».

قالوا: «هذا أمرٌ يُصنع في السِّرّ، ثمَّ يُلقى إلى غير ذي المعرفة، فيُخبرُ به، فيتحدَّثُ بِهِ النّاسُ في مجالِسهم».

قال: «فما دواءُ ذلك؟».

قالوا: «طَلبُ هؤلاءِ القومِ، ثمّ قَتلُ الّذين يخرج هذا من عِندِهم».

وقال معاويةُ: «ولَّيتَني، فولَّيتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلاّ الخيرُ».

قال: «فما الرَّأيُ؟».

قال: «حُسنُ الأدبِ».

قال: «فما تَرى يا عمرُو؟».

قال: «أرى أنَّكَ قد لِنتَ لهم، وأرخَيتَ عنهم، وزِدتَهم على ما كان يصنع عُمرُ، فأرى أن تصنع كما كان يصنعُ عُمرُ».

فتكلَّم عثمان بكلام ليِّنٍ ونَفَّر، فشخص معاويةُ وعبدُ اللَّه بن سعدٍ، ورجع ابن عامرٍ وسعيدٌ معه، وردَّ سائر الأمراءِ إلى أعمالهم.

وكان معاويةُ قد قال لعثمان غداة ودَّعه:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، انطلِق معي إلى الشّامِ قبلَ أن يهجمَ عليك مَن لا قِبَلَ لكَ به، فإنّ أهلَ الشّام على الأمر، لم يَزولُوا».

فقال: «أنَا أبيعُ جِوارَ رسولِ اللَّه ـ ﷺ ـ وإن كان فيه قطع خيط عنقي؟».

قال: «فابعث إليكَ جُنداً منهم يقيم بين ظَهرانيّ أهلِ المدينةِ لنائبةٍ إن نابَت».

قال: «أنَا أُقتِّر على جيرانِ رسولِ اللَّه ـ ﷺ ـ الأرزاقَ بجُندٍ يُساكنُهم وأضَيّق على دار الهجرةِ والنُّصرة!».

قال: «واللَّه يا أميرَ المؤمنين لتُقاتَلنَّ، ولتُغزَيَنَّ».

قال: «حسبي اللَّهُ ونعم الوكيلُ».

فقال معاويةُ: «يا أيسارَ الجَزورِ، وأينَ أيسارُ الجزورِ!».

ثمَّ خرج.

ثمَّ إنَّ السَّبائيَة كاتَبوا أهلَ الأمصار أن يتوافَوا المدينةَ لِينظروا في ما يُريدون، وأظهروا أنَّهم يأمرونَ بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياءَ لِتطيرَ في النّاس، ولِتحقَّقَ عليه. فتوافَوا المدينة، وأرسل عثمان رجلين فقال:

ـ «انظرا ما يُريدون، واعلَما عِلمَهم».

فأتَياهُم ودَاخَلاهُم حتّى أمِنوهُما، فأخبروهما بما يُريدون، فقالا:

ـ «مَن معكم مِن أهلِ المدينة»؟

قالوا: «ثَلاثةُ نفرٍ».

قالا: «فهل إلاّ قالوا: لا».

قالوا: «فكيف تُريدون أن تصنعوا»؟

قالوا: «نُريد أن نذكر له أشياءَ قد زرعناها في قلوب النّاس، ثم نرجع إليهم فنقول: إنّا قرَّرناهُ بها. فلم يخرج منها ولم يتب، ثمّ نخرج بعد ذلك كأنّا حُجّاجُ حتّى نقدم فنحيط به فنختلعه، فإن أبى قتلناهُ فكانت إيّاها».

فرجعا إلى عثمان بالخبر، فضحكَ وقال:

ـ «اللّهمّ سلِّم هؤلاءِ النَّفر، أمّا عمّار فحملَ عليَّ ذنبَ غيري وعركه بي، وأمّا محمَّد بنُ أبي بكر، فإنّه رجلٌ مُعجَبٌ يَرى أنّ الحقوق لا تلزمُه، وأمّا ابن سهله فإنّه يتعرّضُ للبلاء».

ثمّ خطب عثمان، فجمع أهلَ المدينة وأهلَ الكوفة وأهلَ البصرة، وخبّرهم بما جاء به الرَّجلان، واعتذر مِمّا تجني النّاسُ عليه، واستشارهم. فأشار قوم بقتلهم، ولانَ عثمان، فأبى أولئك إلاّ قتلَهم، وأبى إلاّ تَركَهم.

فرجعوا إلى بِلادهم وفي نيّاتهم أن يغزوهُ مع الحُجّاج كالحُجاجُ. فتكاتبوا وقالوا: موعدُهم في ضواحي المدينة في شوّال. فلمّا كان الوقتُ اجتمعوا، فنزلوا قربَ المدينة ـ وذلك سنة خمسٍ وثلاثين ـ وعدّتُهم ألفا رجلٍ، ينقصون قليلاً أو يزيدون، من أهل البصرة والكوفة. وخرج أهل مصر ومعهم ابنُ السَّوداءِ، وكنانة بنُ بشرٍ، وسودان بن حمران، وفي أهل الكوفة زيد بن صوحان، والأشتر النخعي، وفي أهل البصرة حكيمُ بنُ جبلة وبشر بن شريح وأميرُهم حرقوص بن زهير، ثمّ تلاحق بهم النّاسُ.

فأمّا أهل مصرَ فإنَّهم كانوا يشتهون عليًّا، وأمّا أهل البصرةِ فإنَّهم كانوا يشتهون طلحةَ، وأمّا أهل الكوفة فإنّهم كانوا يشتهون الزّبير. وكان خروجُهم جميعاً، وقلوبُهم شَتّى في مَن يختارون، ولا تشكُّ فرقةٌ إلاّ أن الفُلج معها، حتّى إذا كانوا من المدينة على ثلاثٍ، تقدّم ناسٌ من أهل البصرةِ، فنزلوا ذا خُشُبٍ، وناسٌ من أهل الكوفة، فنزلوا الأعوصَ، وجاءَهم ناسٌ مِن أهل مصر وتركوا عامَّتَهم بذي المَروةِ، وقالوا:

ـ «لا تَعجَلوا ولا تُعجلونا! حتى ندخلَ المدينةَ ونرتادَ، فإنّه بلغنا أنّهم قد عسكروا لنا فواللّه إن كان أهلُ المدينة استحلّوا قتالَنا، وهم لم يعلموا عِلمنا لهم إذا علموا عِلمَنا

أشدُّ وإنَّ أمرَنا هذا لَباطِلٌ، وإن لم يستحِلُّوا قتالَنا، ووَجَدنا الَّذي بلغَنا باطلاً لنرجعنّ إليكم بالخبر».

قالوا: «فاذهبوا»!

فدخل رجلان، فلقيا أزواجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ وطلحةَ، والزّبيرَ، وعليًّا، وقالوا:

ـ «إنَّما نَؤُمُّ هذا البيتَ، ونستعفي هذا الواليَ من بعضِ عُمّالِنا، ما جِئنا إلاّ لذلك».

واستأذَناهُم للنّاس بالدُّخول، فكُلُّهم أبى ونَهى.

فاجتمع قومٌ من أهل مصرَ، فأتَوا عليًّا، ونفرٌ من أهلِ البصرةِ، فأتَوا طلحةَ، ونفرٌ من أهل الكوفة، فأتَوا الزُّبيرَ.

فأمّا المِصريُّون فإنّهم لمّا أتَوا عَليًّا وجدوهُ في عسكرِ عند أحجارِ الزّيتِ، فسلّم المِصريّون على عَليٍّ وعَرَّضوا، فصاحَ بهم، وطردَهُم، وقال:

ـ «ارجعوا لا صحبكم اللّه».

فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتَى البصريُّونَ طلحةَ وهو في جماعةٍ أخرى إلى حيثُ هُوَ، وقد أرسل ابنَيهِ إلى عثمان. فسلَّم المصريون عليه، وعرَّضُوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال قريباً مِمَّا قال عليٌّ.

وأتى الكوفيُّونَ الزُّبيرَ وهو في جماعةٍ وقد سرّح ابنَه عبد اللّه إلى عثمان، فسلّموا عليه، وعرَّضُوا له، فصاحَ بهم وقال مثلَ ما قال صاحباه.

فانصرف القوم إلى عساكرهم وهي على ثلاث مراحل كي يفترقَ أهل المدينة، ثم يَكرُّوا راجعين. فافترق أهل المدينة وكرُّوا راجعين. فلم يفجأ أهل المدينة إلاّ والتكبير في نواحي المدينة، فنزلوا في مواضع عساكرهم. وأحاطوا بعثمان وقالوا: «مَن كفَّ يَدَهُ فهو آمِنٌ». وصلّى عثمان بالنّاس أيّاماً، ولزم النّاس بُيوتَهم، ولم يمنعوا أحداً من الكلام. فأتاهم النّاسُ فكلّموهم وفيهم عليٌّ. فقال:

ـ «ما ردَّكم بعدَ ذهابكم»؟

قالوا: «أخذنا مع بريدٍ كتاباً بقتلنا». وأتاهم طلحةُ، فقالوا له مثل ذلك. وأتاهم الزّبيرُ فقالوا له مثل ذلك. وأجمعوا على أن يعتزلَ عثمان، وهو في ذلك يصلّي بهم، وهم يُصلُّون خلفَه، ويغشى عثمان من شاء وهم في عينه أدقُّ من التّراب.

وكتب إلى أهلِ الأمصار يستمدهم، ويشكو ما يلقى، بكتابٍ بليغ. فأتاهم الكتاب،

وخرجوا على الصَّعب والذَّلولِ. فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفِهري، وبعث عبدُ اللّهِ بن سعدٍ معاويةَ بنَ حُديج السّكوني، وخرج من أهل الكوفة القعقاعُ بن عَمرو.

وكان بالكوفة جماعةٌ يُحضِّضُون على إغاثة أهل المدينةِ مثل حنظلة بن الرَّبيع وأشباهه من أصحاب النَّبيِّ ـ ﷺ ـ فكانوا يطوفون على مجالسها ويقولون:

ـ «يا أيُّها النّاس، إنَّ الكلامَ اليوم وليس به غداً، وإنَّ النَّظر يحسن اليوم ويقبح غداً، انهضوا إلى نُصرة خليفتكم».

وقام بالبصرةِ عمران بن الحُصين وأنسُ بن مالك في أمثالهما من أصحاب النَّبيِّ ـ ﷺ ـ يقولون مثل ذلك؛ وقام بالشّام عُبادةُ بن الصّامت، وأبو الدَّرداءِ في أمثالهما من أصحاب النَّبيِّ ـ ﷺ ـ يقولون مثل ذلك؛ وقام بمصرَ خارجة في أشباهٍ له.

ولمّا جاءت الجمعةُ الّتي على أثر نزول المصرين مسجدَ الرَّسولِ خرج عثمان، فصلّى بالنّاسِ، ثمّ قام على المنبرِ، فقال:

ـ «اللَّهَ اللَّهَ يا معشَرَ الغُزَّى! فامحُوا الخطأ بالصَّوابِ».

فقام محمد بن مَسلمة فقال: «أنَا أشهد بذلك».

ـ فأخذه حكيم بن جَبَلة، فأقعدهُ.

فقام زيدُ بنُ ثابتٍ، فقال: «أَبغِني الكتابَ».

فثار إليه محمد بنُ أبي بكرٍ فَنَتَرهُ وأقعدَهُ وقال: «اقطع»!

وقام النّاس بأجمعهم ثائرين بأهل المدينةِ، فحصبَوهم، حتّى أخرجوهم من المسجد، وحصَبوا عثمانَ حتّى صُرع عن المنبر مغشيًّا عليه، فاحتُمل وأُدخِلَ دارَه.

وكان المصريون لا يطمعون في مساعدة أحدٍ من أهل المدينة إلاّ في ثلاثةٍ فإنَّهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفرٍ، وعمّار بن ياسر.

وسار ناسٌ مستقتلين منهم: سعدُ بنُ مالك، والحسنُ بنُ عليٍّ، وأبو هريرة، وزيد بن ثابتٍ، فبعث إليهم عثمان بعزمه لمّا انصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل عليٌّ وطلحةُ والزُّبيرُ حتّى دخلُوا على عثمان يعودونه من صَرعتِه، ثمّ رجعوا إلى منازلهم. وكان النّاس قبل ذلك وافقوه على أشياء وجد فيها اعتذاراً، وعلى أشياء لم يجد فيها مقالاً، فقال:

ـ «أستغفِر اللّه وأتوب إليه».

وأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ألاّ يشقُّوا عصاً، ولا يفارقوا جماعةً ما قام لهم بِشرطهم.

ثمّ قالوا: «نُريد ألاّ يأخذَ أهلُ المدينة عَطاء، فإنّما هذا المال لِمَن قاتلَ عليه، ولهؤلاءِ الشُّيوخ من أصحاب محمد».

فرَضُوا، وأقبلوا معه حتّى خَطبَ عثمان، وقال:

ألا مَن كان له زَرعٌ فليلحَق بزرعه، ومَن كان له ضَرعٌ فَليحلِب، ألا! إنّه لا مالَ لكم عندنا، إنَّما هذا المالُ لِمَن قاتل عليه، ولهؤلاءِ الشُّيوخِ مِن أصحاب محمّدٍ ـ ﷺ ـ».

فغضب النّاسُ وقالوا:

ـ «هذا مكر بني أميَّة».

راكبٌ له شَأنٌ

ورجع وفد المصريين راضين، فبيناهم في الطَّريق إذا هم براكبٍ يتعرَّضُ، فمرَّةً يَرونَه، ومرَّةً يغيب عنهم، فقالوا: «إنَّ لِهذا الرَّجل لَشأناً».

فأخذوهُ، وقرَّرُوهُ، فقال: «أنَا رسولُ أمير المؤمنين إلى عامله بمصر».

ففتَّشوهُ فإذا هم بكتابٍ على لسان عثمان، عليه خاتَمُهُ، إلى عامِله بمصر، قد جُعل في إداوَةٍ يابسةٍ يأمر بأنْ يقتُلَهم، أو يقطعَ أيديهم وأرجُلَهم، أو يَصلبَهم.

فأقبلوا حتّى قدمُوا المدينة، فأتَوا عليًا، فقالوا:

ـ «ألَم تَرَ إلى عَدوِّ اللَّه! إنّه كتبَ فينا بكذا وكذا، بعد الميثاق الّذي بيننا وبينَهُ، وإنّ الله قد أحلّ اللَّه لَنا دَمَهُ، قُم معَنا إليه».

قال: «واللَّه لا أقومُ معكم»!

قالوا: «فَلِمَ كتبتَ إلينا»؟

قال: واللَّهِ ما كتبتُ إليكم كتاباً قَطُّ».

فنظر بعضُهم إلى بعض، ثمّ قال بعضُهم لبعضٍ:

ـ «ألِهذا تقاتلون؟ أم لهذا تغضبون»؟

فخرج عليٌ من المدينةِ إلى قريةٍ، وانطلق القومُ حتّى دخلوا على عثمان، فقالوا:

ـ «كتبتَ فينا بكذا وكذا».

فقال عثمان: «إنّما هُما ثِنتان: إمّا أن تُقيموا عليَّ رَجُلينِ من المسلمين، أو يَميني باللَّه، الّذي لا إلٰهَ إلاّ هُو، ما كَتَبتُ، ولا أملَلتُ، ولا عَلِمتُ. وقد علمتُم أنَّ الكتابَ يُكتَبُ على لسانِ الرَّجلِ، ويُنَقشُ الخاتَمُ على الخاتَم.

فقالوا: «لئن كنتَ كاذباً في يمينكَ فقد أحلّ اللَّهُ دَمَكَ، ولئن كنتَ صادقاً لقد

ضَعفتَ عن الأمرِ، حينَ لا تَضبطُ من أمرك هذا المقدارَ».

وقد حاصروهُ، وقد ذكر النّاس في هذه الرّوايات أشياءَ شنِعةً لم نذكرها.

وقد كان عثمان لمّا أحسَّ بانصرافِ المصريّين إليه من الطّريقِ، أتى عَليًّا في منزله، فقال:

ـ «يا ابنَ عمّ! إنّه ليس لي منزلٌ، وإنّ قرابتي قريبةٌ، ولي حقٌّ عظيمٌ عليك، وقد جاءَ ما ترى من هؤلاءِ القوم، وهم مُصَبِّحيَّ، وأنَا أعلمُ أنَّ لك عند النّاسِ قدراً، وأنّهم يستمعون منك، فأنَا أُحبُّ أن تركبَ إليهم، فتردَّهم عنّي. فإنّي لا أُحبُّ أن يدخلوا عليَّ، فإنَّ تلك جُرأةٌ منهم عَليَّ، ويسمع بذلك غيرُهم».

فقال عليٌّ: «عَلى ما أردُّهم»؟

قال: «عليّ أن أصيرَ إلى ما أشرتَ بِه عليَّ، ورأيتَهُ لي، ولستُ أخرجُ من يديكَ».

فقال عليٌّ: «إنّي قد كنتُ كلَّمتُك مرَّةً بعدَ مرَّة، وكلُّ ذلك تخرُج فتتكلّم وتقولُ وتقولُ، وذلك كلّه فعلُ مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وعبد اللّه بنِ عامر، ومعاوية، تُطيعُهم وتَعصيني».

قال: وأمر النّاسَ المهاجرين والأنصارَ، فركبوا معه، وأرسل عثمانُ إلى عَمّار بن ياسر، فكلَّمهُ أن يركبَ مع عَليٍّ، فأبى. ومضى عليٌّ في المهاجرين والأنصار، وهم ثلاثون رجلاً. فكلَّمهم عليٌّ ومحمد بن مَسلمة حتى رجعوا.

فلمّا رجع عليٌّ إلى عثمان وأعلمه أنَّهم رجعوا، وكلَّمه عليٌّ كلاماً كان في نفسه، وخرج إلى بيته، مكث عثمان ذلك اليوم حتى إذا كان الغد جاءَهُ مروانُ بنُ الحكم، فقال لَهُ:

ـ «تكلَّم، وأعلِم النّاسَ أنّ أهلَ مصرَ عَلموا أنَّ ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، وقد رجعُوا، فإنّ خطبَتَك تسير في البلاد قبل أن يتحلَّبَ النّاسُ عليك من أمصارهم، فيأتيك أمرٌ لا تستطيع دفعَه».

فأبى عثمان، ولم يزل به مَروانُ حتّى خرج، فجلس على المنبر، فحمد اللّهَ وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمرٌ، فلمّا تيقَّنُوا أنَّه باطلٌ رجعوا إلى بلادهم».

فقال له عمرُو بنُ العاص:

ـ «اتّقِ اللّهَ يا عثمان! فإنَّك قد ركبتَ نهابيرَ وركبناها معك، فتُب إلى اللّه نَتُب معك».

فناداه عثمان: «وإنّك هناك يا ابن النابغة قَمِلت جُبَّتك منذ عزلتُكَ عن العَملِ».

فنودِيَ من ناحيةٍ أخرى: «أظهِرِ التّوبةَ يا عثمان يكفّ النّاسُ عنك».

ونودي من ناحيةٍ أخرى بمثل ذلك.

فرفع عثمان يَدَهُ واستقبل القبلة، فقال:

ـ «اللّهمَّ إنّي أوّل تائبٍ إليك».

ورجع إلى منزله.

ثمَّ إنّ عليًّا جاءَه، فقال له:

ـ «تكلّم كلاماً يسمعه النّاسُ عامَّةً ويشهد اللّهُ على ما في قلبك من النزوع والإنابةِ، فإنّ البلاد قد تمخّضت عليك، فلا آمَنُ ركباً آخرَ يقدَمون من الكوفة أو البصرةِ، فتقول لي: اركب إليهم، فلا أركبُ، ولا أسمعُ لك عُذراً، وتَراني قد قطعتُ رَحِمكَ واستخففتُ بحقِّكَ».

فخرج عثمان، فخطب الخطبةَ المشهورة الّتي يقول فيها:

ـ «إنّي نَزَعتُ وتُبتُ ممّا فعلتُ، إذ التّوبةُ خيرٌ من التّمادي في الهَلَكةِ، واللّهِ أيّها النّاسُ، لئن رَدَّني الحقُّ عبداً، لأذِلَّنَّ ذلَّ العبدِ، ولأكُونَنَّ كالمرقوقِ الّذي إن مُلكِ صَبرَ، وإن عَتقَ شكر. فليأتِني وجوهُكم. فواللّهِ لأنزِلَنَّ عند رأيكم، ولأنتهِيَنَّ إلى حُكمكم».

فرقّ له النّاسُ وبكى مَن بكى منهم، وعَلَتِ الأصواتُ بالنَّشيج.

فقال له سعيدُ بن زيدٍ:

ـ «اتَّقِ اللّهَ يا أمير المؤمنين في نفسِكَ، وأتمِم على ما قُلتَ».

فلمّا نزل عثمان وجد في منزله مَروانَ، وسعداً، ونفراً من بني أميّة لم يَشهدوا الخطبة.

قال مروان: «يا أمير المؤمنين، أتكلَّمُ، أم أصمتُ»؟

فقال بعض أهلِه: «لا، بل اصمت، فأنتم واللّهِ قاتلوه، إنّه قال مقالةً مشهورةً لا ينبغي أن ينزعَ عنها».

فأقبل عليها مروان بكلامٍ قبيحٍ إلى أن سكّتها عثمانُ. ثمّ قال مروان: «أتكلّم، أم أصمتُ»؟

قال: «بل تكلّم».

فقال مروانُ: بأبي وأمّي، لَوَددتُ أنّ مقالتَكَ هذه كانت وأنت ممتنع منيعٌ، وكنتُ أوّل مَن رضي بها، وأعان عليها، ولكنّك قلتَ حين بلغ الحِزامُ الطُّبيَينِ، وحين أعطى

الخُطَّةَ الغليظةَ الذليلُ، واللّه لإقامةٌ على خطيئةٍ تستغفر منها، أجملُ من توبةٍ تُجبَرُ عليها، وقد اجتمع بالباب مثلُ الجبالِ من النّاسِ».

فقال عثمانُ: «فاخرُج إليهم، فكلِّمهم، فإنّي أستحي أن أكلِّمَهم».

فخرج مروانُ إلى الباب والناس يركبُ بعضهم بعضاً، فقال:

- «ما شأنُكم؟ قد اجتمعتُم كأنّكم جِئتُم لِنَهبٍ، كُلُّ إنسانٍ آخذٌ بأُذُنِ صاحبِه، شاهَتِ الوُجُوهُ، ألا، مَن أريد؟ جِئتُم أن تنزعُوا مُلكَنا مِن أيدينا؟ اخرجوا عَنّا، أما واللَّه لئن رُمتُمُونا لَتلقَونَ ما لا يَسُرُّكُم ارجعوا، فواللَّهِ ما نحنُ بمغلوبين على ما في أيدينا».

فرجع النّاسُ إلى عليٍّ يشكون إليه. فجاءَ عليُّ مغضباً حتى دخل على عثمان، فقال:

- «أما رضيتَ من مَروان ولا رَضِيَ منك، إلاّ بإخراجك عن دينك وعقلك، مثل جَملِ الظَّعينة، يُقادُ حيثُ شاء ربّتُه!. واللّه ما مَروانُ بذي رأيٍ في دينه، ولا في نفسه، وإنّي لأراهُ سَيُورِدُك ولا يُصدرك، وما أنَا بعائدٍ بعد هذا لِمُعاتبتِك، فقد أكثرتُ وأكثرتَ. أذهبَ شرفَكَ وغُلبتَ على أمرك».

فلمّا خرج عليُّ دخل إليه بعضُ أهله فقال:

- «إنّي سمعتُ قولَ عليٍّ لك، وإنَّه ليس يعاودك، فقد خالفتَه مراراً وأطعتَ مَروانَ».

قال: «فما أصنعُ؟»

قال: «تتّقي اللَّهَ وحدَه وتُطيعُه يُرشدكَ، فإنّ مَروانَ ليس له عند النّاس قدرٌ، ولا هيبةٌ، ولا محبَّةٌ، وأراهُ سيقتُلك، فأرسِل إلى عليٍّ واستصلحهُ، فإنَّه يعطف عليك ولا يُعصى، وقولُه مقبولٌ».

فأرسل عثمانُ إلى عليٍّ، فأبى أن يأتيَهُ وقال:

- «قد أعلمتُه أنّي غير عائدٍ إليه».

ومكث عثمانُ لا يخرج ثلاثة أيّامٍ حياءاً من النّاس. ثمّ ذهب عثمان بنفسِه حتّى أتى عليّا في منزله ليلاً، وجعل يقولُ:

- «إنّي غيرُ عائدٍ، وإنّي فاعلٌ، وإنّي فاعلٌ».

فقال له عليُّ: «أبعدَ ما تكلّمتَ به على منبر رسولِ اللّهِ - ﷺ - وأعطيت من نفسِكَ، وبكيتَ حتّى اخضَلّت لحيتُكَ بالدّمع، وأبكيتَ النَّاسَ، ودخلتَ منزلَكَ. وخرج مروانُ إلى النّاسِ يَشتمُهم على بابكَ، ويتلقّاهم بما يكرهونَهُ»؟

وانصرف من عند عليٍّ، ولم يزل عليٌّ متنكِّباً عنه، لا يفعل ما كانَ يفعل، إلاّ أنّه لمّا مُنعَ الماءَ وحُصِرَ امتعضَ لَهُ وغضِبَ غضباً شديداً، وكلَّمَ طلحةَ وغيرَهُ حتّى دخلتِ الرَّوايا إلى عثمانَ.

ولمّا رأى عثمان ما نزل به وما قد انبعث عليه من النّاس كَتَبَ إلى معاوية، وهو بالشّام، يسألُه أن يَبعثَ له مُقاتِلةَ الشّام على كُلِّ صَعبٍ وذَلولٍ. فلمّا جاءَ معاويةَ كتابُه تربَّص، وكرهَ إظهارَ مخالفةِ أصحاب النّبيِّ ـ ﷺ ـ فلمّا أبطأَ نصرهُ على عثمان كتبَ إلى أهلِ الشام يستنفِرُهُم، ويُعظِّم حقَّه، ويذكرُ أمرَ الخلفاء، وما أمر اللّهُ به من طاعتهم ويقول:

ـ «العجل، العجل، فإنّ القومَ مُعاجِليَّ».

فقام قومٌ يُحضِّضون على نصره، وانتدب خلقٌ كثيرٌ.

وكتبَ عثمان إلى عبد اللّه بن عامرٍ بالبصرة: أن اندُب إليَّ أهلَ البصرةِ؛ وكتب إلى أهلِ البصرةِ نسخةَ كتابه إلى الشّام. فقامت الخُطباءُ من أهلِ البصرةِ بحضرةِ عبد اللّه بن عامر يحضّون على نصرِ عثمان، وعلى المسيرِ إليه، فيهم مُجاشعُ بن مسعودٍ، وهو يومئذٍ سيِّدُ قيسٍ في البصرةِ. فتسارع النّاسُ، وكان أشار مروانُ على عثمانَ بمقاربة مَن حولَه من أهلِ مصر وغيرهم حتّى يَقوى، وقال له:

ـ «أعطِهم ما سألوك، وطاوِلهم ما طاوَلوك، وأرسِل إلى عليٍّ يُكلِّمهم».

فراسَلَ عليًّا وقال:

ـ «إنَّ الأمر بلغ القتلَ، فاردُدِ النّاسَ عنّي، فإن اللّهَ لهم أن أُعتِبَهُم من كُلِّ ما يَكرهون؛ وأُعطيهم الحقَّ من نفسي وغيري، وإن كان في ذلك سَفكُ دمي».

فراسله عليٌّ بأنَّ:

ـ «النّاس إلى عَدلكَ أحوج منهم إلى قتلكَ، وإنّي لأرى قوماً لا يرضَون إلاّ بالرِّضا، وقد كنتَ أعطيتَهم في المرّة الأولى من العهود ما نقضتَهُ، ولم تَفِ بِه لَهُم».

فقال عثمان: «أعطِهم اليومَ ما يُحبُّون، فواللّهِ لأَفِينَّ».

فخرج عليٌّ إلى النّاسِ، فقال:

ـ «أيّها النّاس! إنّكم إنّما طلبتُم الحقّ وقد أُعطِيتُموهُ. إنَّ عثمان يزعم أنه مُنصِفُكم من نفسه ومن غيره، وراجعَ عن جميع ما تكرهون، فاقبلُوا منه».

قال النّاس:

ـ «قد قبلنا، فاستوثِق لَنا، فإنّا لا نرضى بقولٍ دونَ فعلٍ».

فقال عليٌّ: «ذلكم لكم».

وأخبر عثمانَ الخبرَ، فقال عثمان: «اضرب بيني وبينهم أجلاً تكون لي فيه مهلةٌ، فإنّي لا أقدرُ على ردِّ ما كَرِهُوا في يومٍ واحد».

فقال عليٌّ: «ما حضرَ بالمدينةِ فلا أجَلَ فيه، وما غاب، فأجَلُهُ وصولُ أمرِك».

قال: «نعم، ولكن أجِّلني في ما في المدينة ثلاثة أيّامٍ».

فقال عليٌّ: «نعم».

فخرج عليٌّ، وكتبَ بينهم وبين عثمان كتاباً على الأجل، شَرَطَ فيه أن يَرُدَّ كلَّ مَظلمةٍ، ويعزِلَ كلَّ عاملٍ كرِهَهُ المسلمون، ثمَّ أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ اللّه على أحدٍ من خلقه من عهدٍ أو ميثاقٍ، وأشهدَ ناساً مِن وجوهِ المهاجرين والأنصار. فكفَّ المسلمون عنه، ورَجَوا أن يَفِيَ لهم بما أعطاهم.

يَومُ الدّار

فجعل يتأهَّب للقتال، ويستعِدُّ بالسِّلاح، وكان اتّخذ جُنداً عظيماً من رقيق الخُمسِ. فلمّا انقضت الأيّام الثّلاثة، وهو على حاله، لم يُغَيِّر شيئاً مِمّا كرِهُوهُ، ولا عزل عاملاً ثار به النّاسُ وهجموا. فدخلوا يومئذٍ وما سلَّموا عليه بالخلافة، وقالوا:

ـ «سلامٌ عليكُم».

فقال مَن حضرهُ: «عليكم السّلامُ».

فتكلَّم النّاسُ، وذكروا ما صنع عبد اللّه بن سعدٍ بمصر من استيثاره بغنائم المسلمين، وتَحامُلِه عليهم وعلى أهل الذِّمَّةِ، فإذا قيل له في ذلك، قال:

ـ «هذا كتابُ أمير المؤمنين».

ثمَّ ذكروا ما أحدثه بالمدينة وأطالوا، وقالوا:

ـ «إنّا رحلنا من مصر، لا نُريدُ إلاّ دَمَك أو تنزع الخلافة، فردّنا عليٌّ ومحمّد بنُ مَسلمة، وضَمِنَّا له النُّزوع عن كلِّ ما تكلَّمنا فيه. (ثمَّ أقبلوا على محمَّدٍ وقالوا: «هل قلت لنا ذلك؟» قال محمّدٌ: «نعم»). . فرجعنا إلى بلادنا حتّى إذا كنّا بالبُويب، أخذنا غلامَكَ على راحلةٍ من صدقات المسلمين ومعه كتابك وخاتَمُكَ إلى عبد اللّه بن سعدٍ تأمره فينا بِجَلدِ ظهورنا والمُثلةِ بنا بالقطعِ والحبس الطّويل، وهذا كتابك، ثمّ فعلتَ وفعلتَ».

فحمد اللّه عثمانُ وأثنى عليه وقال: «واللّه ما كتبتُ ولا أمرتُ ولا شُوورتُ».

قالوا: «فمن كتبَهُ»؟

قال: «لا أدري».

قالوا: «فيُجترأُ عليك، ويُبعثُ بغلامك، وجملٍ من صدقاتِ المسلمين، ويُنقَشُ خاتَمُكَ، ويُكتبُ إلى عاملك في إعلام المسلمين بهذه العظائم وأنت لا تعلم! ليس مثلُك مَن يَلي الخلافةَ، اخلع نفسَكَ من هذا الأمرِ كما خلعك اللّهُ منه».

فأبى وقال: «لا أنزع قميصاً ألبسنيهِ اللّهُ، ولكنّي أتوبُ مِن كلِّ ما تكرهون».

قالوا: «قد فعلتَ ذلك وكذبتَ، وقد وقعت عليك التُّهمة مع ما بَلَونا منك في مرّاتٍ كثيرةٍ، من الجورِ في الحكم والأثَرةِ في القَسم، والعقوبةِ لِمَن أمرَ بالمعروف، وإظهارك التّوبةَ مرَّةً بعد مرَّةٍ، ثمّ رجوعكِ إلى كلّ مُنكَرٍ. ولقد كنّا رجعنا عنك وما كان لنا أن نرجع حتّى نخلعَك ونستبدلَ بك مَن نرضاهُ، ومَن لم نجرِّب عليه ما جرَّبناهُ عليك، فاردُد خلافتنا».

فأجابهم عثمانُ بجوابه الأوّل، فآذَنوه بالحرب، وشدَّدوا عليه الحصار، فصعِدَ بعضُ عَبيدِ عثمان إلى سطح داره، فدلّى منه حجراً، فقتل رجلاً يُقال له: دينار.

فأرسلوا إلى عثمان أن:

ـ «أمكِنّا مِن قاتِلِه».

فقال عثمان: «واللّه ما أعرفُ قاتِلَه».

فباتُوا تلك اللّيلةَ. فلمّا أصبحُوا، وهو يومُ الجمعة، أحضروا ناراً ونفطاً، ودخلوا من ناحية الحرم، فأضرمُوا جوانبَ الدّار، فاحترقت.

فقال عثمان لأصحابه:

ـ «ما بعدَ الحريق شيءٌ، فمَن كانت لي عليه طاعةٌ فَليُمسِك يَدَهُ، فإنّما يُريدُني القومُ، ولو كنتُ في أقصاكم لَتخطّوكُم إليّ، ولَو وَجَدُوني في أدناكم ما تَخَطّوني إليكُم».

فأبى مروانَ وقال: «واللّه لا وَصَلُوا إليكَ وفِيَّ رُوحٌ».

وخرج إلى النّاس بسيفِه وعليه دِرعٌ. فناوَشوهُ القتال. ثمَّ خرج إليه غلامٌ شابٌ طُوالٌ، فضربهُ مَروانُ على ساقِه، وضرب الغلامُ مروانَ على رقَبتِه، فسقط لا ينبض منه عِرقٌ، وقُتِلَ المغيرة بنُ الأخنس، وجُرح عبدُ اللّهِ بن الزُّبير، وانهزم مَن في الدّار، وخرجوا هُرّاباً في طُرقِ المدينة، وخُلِصَ إلى عثمان، فقُتِلَ قبلَ أن يلحقَه الغَوثُ مِن الأمصار.

أسماءُ كُتّابِ عُثمان

كتبَ له مروانُ بن الحكم، وكتب له عبد الملك بن مروان على ديوان المدينةِ، وأبو جُبيرة على ديوانِ الكوفةِ، وعبد اللّه بن الأرقم على بيت المالِ، وكتبَ أهيبُ

مَولاهُ، وكتب له حُمران مولاه، فأنكر عليه شيئاً، فنفاه إلى البصرةَ، فلم يزل بها حتّى قُتل عثمان.

سَبَبُ سُقوطِ هذا الكاتبِ مِن عَينِ عثمان

وكان سبب نفيه إيّاهُ أنَّ عثمان اشتكى شكاةً، فقال له:

ـ «اكتب العهدَ بعدي لعبد الرَّحمٰن بن عوفٍ».

فانطلق حُمران إلى عبد الرَّحمٰن بن عوفٍ فقال له:

ـ «البُشرى»!

فقال: «لك البُشرى، فماذا»؟

فأخبرهُ الخبر. فصار عبد الرَّحمٰن إلى عثمان، فأخبرهُ بما قال حُمران، فقَلِقَ عُثمان، وخاف أن يَشيعَ، فنفاهُ لذلك.

ذِكر تَدبيرٍ تَمَّ لِعُثمانَ بِمُعاوَنَةِ عَليٍّ رضي اللّٰه عنه وَرَأيِهِ لمّا حُصر عثمان الحصارَ الأول

كان عليٌّ بخيبر، فلمّا قدم أرسل إليه عثمان. فذهب إليه، فكلَّمهُ عثمان، وأذكره بحقِّه من الإسلام والقرابة والصِّهر، وما لَهُ في عُنُقهِ من العهد. ثمّ قال له:

ـ «ولو لم يكن من هذا شيءٌ، ثمّ كُنّا نحن في جاهليّة، لكان عيباً على عبد منافٍ أن يبتزَّهم أخو بني تيم مُلكَهم».

يعني طلحةَ، وقد كان اجتمع إلى طلحة قومٌ وطمع فيها.

فتكلَّم عليٌّ. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «أما بعدُ، فكلّ ما ذكرتَ من حَقِّكَ عليَّ كما ذكرتَ، وأمّا قولُك: لو كُنّا في جاهليّةٍ لكان عيباً على عبد منافٍ أن يبتزَّهم أخو بني تيم؛ فصدقتَ وسيأتيك الخبرُ».

ثمَّ خرج فدخل المسجد، فرأى أسامة جالساً، فدعاهُ، واعتمد عليه، وخرج يمشي إلى طلحة. فلمّا دخل عليه، وجد دارَه ممتلئةً بالرِّجال، فقام عليه وقال:

ـ «يا طلحة! ما هذا الأمر الَّذي وقفتَ فيه»؟

فقال: يا أبا حَسَنٍ، أبعدَ ما مسَّ الحزامُ الطُّبيين»؟

فسكت عليُّ وانصرف حتّى أتى بيتَ المال، فقال:

ـ «افتحوا هذا البابَ».

فلم يقدر على المفاتيح، وتأخّر عنه صاحبُ المفاتيح، فقال:

«اكسروه».

فكُسِرَ بابُ بيتِ المال، وقال:

ـ «أخرجوا المالَ».

وجعل يُعطي النّاسَ فبلغ الّذين في دارِ طلحة ما صنع عليٌّ، فجعلوا يتسلّلُون إليه، حتى تُرك طلحةُ وحدَه، وبلغ الخبر عثمان، فَسُرَّ به، ثمَّ أقبل طلحة عامداً إلى دار عثمان. فقال بعض الصَّحابةِ:

ـ «واللّهِ لأَنظرنَّ ما يقول هذا».

قال:

فتبعتُه، فاستأذن على عثمان. فلمّا دخل عليه، قال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، أستغفر اللّهَ وأتوبُ إليه. أردتُ أمراً، فحال اللّهُ بيني وبينه».

فقال عثمان:

ـ «إنَّك واللّهِ، ما جئتَ تائباً، ولكنَّك جئتَ مغلوباً، اللّهُ حسيبُكَ يا طلحةُ».

خلافة الإمام عليّ

ذكرُ بَيعةِ عَلّي بن أبي طالبِ عَليهِ السَّلامُ

لمّا قُتل عثمان اجتمع عامَّة المهاجرين والأنصار على عليٍّ، فأتَوه، فتأبّى عليهم، وقال:

ـ «أنا وزيراً خيرٌ لكم مِنّي أميراً».

فارتدّ النّاس عنه وأتَوا طلحةَ والزُّبير فتكلَّما في قتل عثمان بما ظنّوه توعّداً. فقالوا لِطلحة والزّبير.

ـ «إنّ كلامكما لَوَعيدٌ».

ثمّ انصرفوا عنهما وقال بعضهم لبعضٍ:

ـ «إن رجع النّاس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقُم بعدُ قائمٌ بهذا الأمرِ، لم نأمن اختلافَ النّاسِ وفسادَ الأمّةِ».

فعادُوا إلى عليٍّ وخاطبوه. فأخذ الأشترُ بيد عليٍّ، فقبضها عليٌّ.

فقال الأشتر: «ما لَكَ تَتَعسَّرُ، وأنتَ ترى ما في النّاسُ؟».

فقال عليٌّ: «أَبعدَ ثلاثةٍ؟».

فقال لهُ الأشتر: «أما واللّهِ لئن تركتَها لَتَعصِرنَّ عَينَيكَ عليها حيناً». فبايعوه.

وفي ما رواه صاحب التّاريخ، قال:

اجتمع أهلُ الأمصار وقالوا:

ـ «دونكم يا أهلَ المدينةِ، فقد أجّلناكم ثلاثاً، فواللّه لئن لم تفرغوا لنفعلنَّ ولنفعلنَّ».

فغشي النّاسُ عليًا وقالوا:

ـ «ترى ما نزل بالنّاسِ وما ابتلينا به من بين تلك القُرى؟».

فقال عليٌّ: «دَعُوني والتمِسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وُجوهٌ. لا تقوم له القُلوب، ولا تثبت عليه العُقول».

فقالوا: «ننشدك باللّهِ. ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الفتنة؟ أما تخافُ اللّهَ؟».

قال: «اعلمُوا أنّي ـ إن أجَبتكُم ـ ركبتُ بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنَا كأحدكم، ألا، إنّي أسمَعُكم، وأطوَعُكم لمن ولّيتُموهُ».

فافترقوا على ذلك، واتّعدُوا لِغدٍ، وتشاور النّاسُ في ما بينهم، وقالوا:

ـ «إن دخل طلحةُ والزُّبيرُ فقد استقامت».

فبعث المصريُّون بصريًّا إلى الزّبير وقالوا: «احذَر لا تُحابِه» ـ وكان رسولهم حكيم بن جبلة في نفرٍ ـ فجاؤوا يحدونَه بالسّيف. وبَعثوا إلى طلحة كوفيًّا وقالوا: «احذر لا تُحابِه». وبَعثُوا بنفرٍ، فجاؤوا يحدونه بالسّيفِ. وبعثوا الأشتر إلى عليٍّ، وأهلُ الكوفة وأهلُ البصرة شامتون بصاحبيهم، وأهل مصرَ فرحونَ بما اجتمع عليه أهل المدينة، وقد صار أهلُ الكوفة والبصرةِ كالأتباع، وهم جشعون.

فلمّا أصبحوا يومَ الجمعة حضر النّاسُ المسجدَ. وجاءَ عليٌّ حتّى صعد المنبر، فقال:

ـ «يا أيّها النّاسُ، عن ملأ وإذنٍ، إنّ هذا أمركم ليس لأحدٍ فيه حقٌّ إلاّ مَن رضيتُم وأمّرتُم، وقد افترقنا بالأمسِ على أمرٍ، فإن شئتُم قعدتُ لكم، وإلاّ فلا أحَدَ على أَحَدٍ».

قالوا: «نحن على ما افترقنا عليه بالأمسِ».

وقام الأشتر، فقدَّم طلحةَ، وقال له:

ـ «بايع».

فقال: «أمهِلني أنظر».

فجرَّد سيفَهُ وقال: «لَتُبايِعَنَّ، أو لأَضعَنَّهُ بين عينيك».

فقال طلحة: «وأينَ المذهب عن أبي حسنٍ».

فصعدَ المنبرَ، فبايَعهُ. فنظر رجلٌ من بعيدٍ يقتاف، فقال:

ـ «إنّا لِلّهِ، أوّلُ يَدٍ بايَعت أميرَ المؤمنين يَدٌ شلاّءُ، لا يَتِمُّ هذا الأمرُ أبداً».

وكان طلحةُ وقى رسولَ اللّهِ بيده حين رأى سَهماً أقبل نحو وجهِه، فأصابَ السَّهم يَدَهُ، وشُلَّت يَدُه.

ثُمَّ قُدِّم الزُّبير، فبايع، وفي الزُّبير خلافٌ، ثمَّ تتابع النّاسُ بالبيعة لا يكرهُها أحدٌ، وذلك يومَ الجمعةِ لِخمسٍ بقين من ذي الحجَّة سنة خمسٍ وثلاثين.

وخطبَ عليٌّ ـ رضي اللّه عنه ـ خطبتَه المشهورة؛ واجتمع إلى عليٍّ عدَّةٌ من الصَّحابة فيهم طلحة والزُّبير، فقالوا:

ـ «يا عليُّ، إنّا اشترطنا إقامةَ الحدود، وإنّ هؤلاءِ القومِ قد اشتركوا في قتل هذا

الرَّجل، وأحلُّوا بأنفسهم».

فقال لهم: «يا إخوتاه، إنِّي لستُ أجهلُ ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقومٍ يملكوننا ولا نملكُهم. ها هُم هؤلاءِ، وقد ثارت معهم عبيدُكم، وثابَت إليهم أعرابُكم، وهم خِلالَكم، يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترونَ موضعاً لقدرةٍ على شيءٍ ممّا تُريدون؟».

قالوا: «لا».

قال: «فإنّي واللّه لا أرى إلاّ رأياً ترونَه، إلاّ أن يَشاءَ اللّهُ. إنّ النّاسَ من هذا الأمرِ ـ إن حُرِّك ـ على أمورٍ: فرقةٌ تَرى ما تَرَون، وفرقةٌ لا تَرى ما تَرونَ، وفرقةٌ لا تَرى هذا ولا هذا، حتّى يهدأ النّاسُ وتقعَ القلوبُ مواقعَها، وتُؤخذَ الحقوقُ. فاهدَأوا عنّي، وانظروا ماذا يأتيكم، ثمّ عُودوا».

ثمّ إنّ بني أميَّةَ تهاربت وخرجت عن المدينة. فاشتدَّ عليُّ ـ عليه السّلام ـ على قريشٍ وحال بينهم وبين الخروج على حالها تِلكَ.

ثمّ خرج عليٌّ في اليوم الثّاني فقال:

ـ «يا أيُّها النّاس، أخرجوا عنكم الأعرابَ»، وقال:

ـ «يا أيّها الأعرابُ، الحَقُوا بمِياهِكم».

فأبتِ السَّبائية، وأطاعَهم الأعراب. ودخل عليُّ بيتَه، ودخل عليه عدّةٌ من أصحاب رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ فيهم طلحةُ والزّبيرُ.

فقال لهم عليٌّ: «دونكم ثأركم، فاقتُلُوهُ».

فقالوا: «قد عَسَوا عن ذلك».

فقال لهم: «هم واللّه بعدَ اليوم أعسى». وتَمثَّلَ:

وَلَو أنَّ قَومِي طاوَعَتني سَراتُهم أمرتُهُمُ أمراً يُديخُ الأعادِيا

وقال طلحةُ: «تَدَعُني، فآتي البصرةَ، فلا يفجؤوك إلاّ وأنا في خيلٍ».

وقال الزُّبير: آتِي الكوفةَ، فلا يفجؤوك إلاّ وأنا في خيلٍ».

فقال: «حتّى أنظُرَ».

وسمع المغيرة بذلك المجلس.

ذِكرُ رأيٍ جيّدٍ للمُغيرة

فجاءَ المغيرة حتّى دخل على عليٍّ ـ عليه السّلامُ ـ فقال:

ـ «إنّ حولك مَن يُشيرُ ويَرى، ولك عَلَيَّ حقُّ الطّاعةِ، وأنَّ النُّصحَ رخيصٌ، وأنت

بقيَّة النّاس، وأنا لك ناصحٌ. واعلم أنّ الرَّأي اليومَ تحوز به ما في غدٍ، وأن الضَّياع اليومِ يضيع به ما في غدٍ. أقرِر معاويةَ على عَمَلِه، وأقرِر ابنَ عامرٍ على عمله، واردُد عُمّالَ عثمانَ عامَكَ هذا، واكتُب بإثباتِهم على أعمالِهم، فإذا بايَعُوا لك واطمأنَّ الأمرُ عزلتَ من أحببتَ، وأقررتَ مَن أحببتَ».

فقال عليٌّ: «واللَّه، لو كان ساعة من نهارٍ لاجتهدتُ فيها رأيي، ولا ولَّيتُ أمثالَ هؤلاء ولا مِثلُهم يُولّى، وما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلّينَ عَضُداً».

فقال المغيرةُ: «فإذ قد أبيت فاترك معاوية، فإنَّ له جرأةً، وأهلُ الشّام يُطيعونَه، ولك حُجَّةٌ في إثباتِه، كان عُمر بنُ الخطّابِ قد ولاّهُ الشّامَ كُلَّها».

فقال عليٌّ: «لا واللَّهِ لا أستعمله يومَين».

فقام المغيرة وانصرف، ثُمَّ عاد إليه بعد ذلك، فقال:

ـ «إنّي أشرتُ عليك أوّل مرَّةٍ بالّذي أشرتُ، وخالفتني. ثمَّ رأيتُ بعد ذلك رأياً، وأنَا الآنَ أرى أن تصنعَ الّذي رأيتَ، فتنزعهم، وتستعين بمن تثِقُ به، فقد كفى اللَّه أمرَهم، وهم أهونُ شوكةً من ذاك».

رأيٌ لابن عبّاسٍ وما أشارَ بِه على عليٍّ

وخرج المغيرةُ، وتلقّاه ابن عباسٍ خارجاً. فدخل إلى عليٍّ، فقال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، أخبرني عن شأنِ المغيرة، ولِمَ خَلا بِكَ؟».

قال: «إنَّه جاءَني بعد مقتل عثمان بثلاثة أيّام وقال: أخلِني. ففعلتُ: فقال: كيتَ وكيتَ. فأجبتُه بكيتَ وكيتَ. فانصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنّه يَرى أنّي مُخطِئٌ. ثُمّ عاد إليّ الآن، فقال: كيت وكيتَ».

فقال ابن عبّاسٍ: «أمّا في المرَّةِ الأولى فقد نصحكَ، وأمّا في المرَّة الأخرى فقد غشَّكَ».

قال له: «وكيف نَصَحَني؟».

قال ابن عبّاسٍ: «لأنَّك تعلم أنّ معاوية وأصحابَه أهلُ دُنيا، فمتى تُثبتهم، لا يُبالون مَن ولي هذا الأمر؛ ومتى تعزلهم، يقولوا: أخذ الأمرَ بغير شُورى وهو قَتلَ صاحبَنا؛ وحمَّلكَ ما قدر عليه من الذَّنب، فتنتقض عليك الشّامُ. ولا آمَنُ طلحةَ والزُّبير أن يكرّا عليك».

فقال عليٌّ: «أمّا ما ذكرتَ مِن إقرارِهم، فواللَّه ما أشُكُّ أنَّ ذلك خيرٌ في عاجل الدُّنيا لإصلاحها، وأمّا الّذي يلزمني من الحقّ، والمعرفة بعُمّالِ عثمان، فواللَّه لا أُولِّي

منهم أحداً أبداً، فإن أقبلَوا فذلك خيرٌ، وإن أدبروا بذلتُ لهم السَّيفَ».

قال ابنُ عبّاسٍ: «فأطِعني، وادخُل دارَك، والحَق بمالك بِيَنبع، وأغلِق بابَك. فإنَّ العربَ تجول جَولةً وتضطربُ، ولا تَجدُ غيرَك. فإنّكَ واللّهِ لو نهضتَ مع هؤلاءِ القومِ لَيُحمِّلنَّكَ النّاسُ غداً دَمَ عثمان».

فأبى عليٌّ وقال لابن عبّاسٍ:

ـ «سر إلى الشّام، فقد ولَّيتُكَها».

فقال ابنُ عبّاسٍ: «ما هذا واللّهِ برأيٍ. معاويةُ رجلٌ من بني أميَّة، وهو ابنُ عمّ عثمان، وعاملُه على الشّام، ولستُ آمَنُ أنْ يضربَ عُنُقي بعثمان، أو أدنى ما هو صانعٌ أن يحبسَني فيتحكَّمَ عليَّ».

قال عليٌّ: «ولِمَ تظُنُّ ذلك؟».

قال: لِقرابة ما بيني وبينَكَ، ولأنّ كلَّ ما عليك فهو عليَّ؛ ولكن اكتُب إلى معاوية، فَمَنِّه، وعِدْهُ.

فقال عليٌّ: «إنَّ هذا ما لا يكونُ أبداً». وتمثّل:

فما مِيتَةٌ، إن مِتُّها غَيرَ عاجزٍ بعارٍ، إذا ما غالَتِ النَّفسَ غُولُها

فقال ابنُ عبّاسٍ: «أنتَ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ رجلٌ شجاعٌ، ولَست بأَرِبٍ في الحرب. أما سمعتَ رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ يقول: الحربُ خُدعةٌ؟».

قال: «بَلى».

قال ابن عَبّاسٍ: «أنَا واللّهِ، لَئن أطعتَني لأَصدُرَنَّ بهم بعدَ وِردٍ، ولأَتركنَّهم ينظرونَ في دُبُر الأمور، ولا يعرفون ما كان وجهُها، في غير نُقصانٍ عليك ولا إثمٍ لك».

فقال عليٌّ: «يا ابنَ عبّاسٍ، لستُ مِن هُنَيّاتِك وهُنَيّاتِ مُعاوية في شيءٍ، تُشيرُ عليَّ وأرى، فإذا عصيتُكَ فأطِعني».

فقال ابن عبّاسٍ: «أفعل، إنّ أيسرَ مالَكَ عِندي السَّمعُ والطّاعةُ».

عليٌ يفرّق عُمّالَه على الأمصار

وفرّق عليٌ ـ عليه السَّلامُ ـ عُمّالَه في سنةِ سِتٍّ وثلاثين. فبعث عثمانَ بن حُنيفٍ على البصرةِ، وعُمارةَ بن شهابٍ على الكوفة، وعُبيدَ اللّهِ بنَ عبّاسٍ على اليمن، وقيسَ بنَ سعدٍ على مِصرَ، وسهلَ بنَ حُنيفٍ على الشّام.

فأمّا سهلٌ، فإنَّه خرج حتّى إذا كانَ بتبوك لَقِيتهُ خيلٌ.

فقالوا: «من أنت؟».

قال: «أميرٌ على الشّام».

فردُّوهُ، ولم يَدَعُوهُ يتجاوزُها.

وأمّا قيسُ بن سعدٍ، فإنّه لمّا انتهى إلى أيلةَ، لَقِيتهُ خيلٌ».

فقالوا: «مَن أنتَ؟».

فقال: «مِن فالَّةِ عثمان، أطلُبُ مَن آوِي إليه، وأنتصِرُ به».

قالوا: «فمَن أنتَ؟».

قال: «قيسُ بن سعدٍ».

قالوا: «امضِ».

فدخل مِصرَ فاقترنَ النّاسُ: فبعضهم دخل في الجماعة وكانوا معه، وفِرقةٌ اعتزلت وقالت:

- «إن قُتِلَ قَتَلَةُ عثمان فنحن معكم، وإلاّ فنحن على جَديلتنا».

وأمّا عثمان بن حُنيف، فإنّه سار، ولم يردَّهُ أحدٌ عن دُخولِ البصرةِ، ولم يُوجَد لابنِ عامرٍ في ذلك رأيٌ ولا تدبيرٌ، وافترق النّاسُ بالبصرةِ كما افترقوا بِمصرَ.

وأمّا عُمارةُ، فلمّا صار بزُبالةَ، لَقِيَهُ طُليحةُ بن خُويلدٍ، وكان خرج يطلبُ بدمِ عثمان. وقال له:

- «ارجع، فإنّ النّاسَ لا يُريدون بأميرِهم بَدَلاً، وإن أبيتَ ضربتُ عُنقَكَ».

فرجع وهو يقولُ: «أحرز الخطر ما تماسَك الشَّرُّ خير من شرٍّ منه» - فصار مثلاً.

وعلقه عمّار بن ياسرٍ إلى أن قُتِلَ.

وانطلق عُبيدُ اللّه بنُ عبّاسٍ إلى اليمن. فجمع يعلى بن أميَّة كلَّ مال كان جَباهُ، وخرج وسار على حاميتِه إلى مكّة، فقدمَها بالمال.

فدعا عليٌّ طلحةَ والزّبير فقال:

- «إنّ الَّذي كُنتُ أحدِّثكم به قد وقع وإنّما هي فتنةٌ كالنّارِ، كلّما سُعِّرت ازدادت واستنارت».

فقالا له: «ائذن لنا نخرج من المدينة».

فقال: «سأُمسِكُ الأمرَ ما استمسكَ، فإذا لم أجد بُدًّا فآخِر الدّاءِ الكَيُّ».

وكتب إلى أبي موسى، وهو بالكوفة، وإلى مُعاوية، وهو بالشّام. فأمّا أبو موسى

فكتب إليه بطاعة أهلِ الكوفة، وبَيَّنَ الكارِهَ منهم لما كان، والرّاضيَ بما كان، حتّى كان عَليٌّ على الواضحة من أمر أهلِ الكوفة.

وأمّا معاوية فلم يكتب بشيءٍ، ولم يُجبِ الرَّسولَ، وجعل يُردِّدُهُ. وكان كلّما تنجَّزهُ تمثلُ بشعرٍ لا يحصل منه على بيِّنةٍ، حتى أحكم أمرَ نفسه، وواطأ من أرادَ. وأتى على الرَّسولِ ثلاثةُ أشهرٍ. ثمّ دعا بأحدِ ثِقَاتِه ووصّاهُ، ودفع طوماراً مختوماً إليه، عنوانه: «من معاوية إلى عليٍّ».

وقال: «إذا دخلتَ المدينة فاقبض على أسفل الطُّومار لِيقرأ النّاسُ العنوانَ».

ثمّ أوصاه بأشياء يفعلها، ويقولُها، وسرَّح رسولَ عليٍّ معه.

فلمّا دخلا المدينة رفع رسولُ معاوية الطومارَ، فتفرّق النّاس إلى مَنازلهم وقد علموا أنّ معاوية مُمتنعٌ، ومضى الرَّسولُ حتّى دخل على عليٍّ، فدفع إليه الطُّومار، ففضَّ خاتَمه، فلم تجد في جوفه كتاباً.

فقال للرَّسولِ: «ما وراءَك؟».

قال: «آمِنٌ أنَا؟».

قال: «نعم، لَعَمري إنَّ الرُّسُلَ لآمِنةٌ».

قال: «ورائي أنّي تركتُ قوماً لا يَرضَون إلاّ بالقَوَدِ».

قال: «مِمَّن؟».

قال: «مِن خيطِ رقبتكَ، ولقد تركت سِتّين شيخاً يبكي تحتَ قميص عثمان وهو منصوبٌ لهم، قد ألبَسُوهُ منبَر دمشق».

فقال: «مِنّي يطلبون دَمَ عثمان، ألستُ موتوراً كَتِرةِ عُثمان؟ اللّهمَّ إنّي أبرأُ إليك من دَمِ عثمان، نَجا واللَّهِ قَتلةُ عثمان إلاّ أن يشاءَ اللَّهُ، فإنّه إذا أرادَ أمراً أمضاه، اخرُج».

قال: «وأنَا آمِنٌ؟».

قال: «وأنتَ آمِنٌ».

فخرجَ وصاحبُ السَّبائية واقفٌ. فقالوا:

ـ «هذا الكلبُ وافِدُ الكلابِ، اقتلُوهُ».

فنادى: «يا آلَ مُضَرَ، يا آل قيس، الخيلَ والنَّبلَ! احلفُ باللَّهِ ليردَّنّها عليكم أربعةُ آلافِ خَصِيٍّ، فانظروا كَم الفُحولةُ والرُّكّابُ».

فتَغاوَوا عليه، ومنعتهُ مُضرُ، وجعلوا يقولون له:

ـ «اسكت لا أباً لَكَ».

فيقول: «واللّهِ، لا أُسكتُ، فلقد أتاهم ما يوُعدون».

فيقولون له: «اسكت».

فيقولُ: «لقد حلَّ بهم ما يَحذرون، انتهت واللّهِ أعمارهم، ذهبت واللّهِ ريحُهم».

ولم يزل بذلك حتّى تبيَّنَ الذُلُّ فيهم، وتمَّ لمعاوية تدبيرُهُ هذا.

عليٌّ يُدبِّرُ لِقتالِ أهلِ الفُرقةِ بالشّام

واستأذنَ طلحةُ والزبيرُ في العُمرةِ، فأذنِ عليٌّ لهما، فلحقا بمكة، وأحبَّ أهلُ المدينة أن يعلموا ما رأيُ عليٍّ في مُعاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيَهُ في قِتالِ أهلِ القبلةِ، أيُقدمُ عليه، أم يجزعُ منه. وكان بَلَغَهم أنّ الحسنَ ابنَهُ دخل عليه، وحذَّرهُ، ودعاه إلى القعودِ وترك النّاسِ. فدَسُّوا زياد بن حنظلةَ التّميمي، وكان منقطعاً إلى عليٍّ، فدخل عليه وجلس إليه ساعةً. ثمّ قالَ له عليٌّ:

ـ «يا زيادُ، تيسَّر».

قال: «لأيّ شيءٍ؟».

قال: «لِغَزوِ الشّام».

قال زيادُ: الأناةُ والرِّفقُ أمثلُ، وقال:

ومَن لا يُصانع في أُمورٍ كَثِيرَةٍ   يُضَرَّس بأنيابٍ ويُوطَأ بِمَنسم

فتمثَّلَ عليٌّ وكأنّه لا يُريدُهُ:

مَتى تجمعِ القلبَ الذَّكِيَّ وصارِماً   وأنفاً حَمِياً تَجتَنِبكَ المظالِمُ

فخرج زيادٌ على النّاسِ وهم ينتظرونَه، فقالوا:

ـ «ما وراءَك؟».

قال: «السّيفُ يا قومِ».

فعرفوا رأيَ عليٍّ.

ودعا عليٌّ محمد ابنَ الحنفيّة، فدفع إليه اللِّواءَ، ووَلّى عبيدَ اللّه بنَ عبّاسٍ مَيمنتَهُ، وعُمرَ بنَ أبي سلمةَ ميسرتَه، وجعلَ على مقدمته عُمرَ بن الجرّاح ابنَ أخي أبي عبيدةَ بنِ الجرّاح، ولم يُوَلِّ أحداً مِمّن خرج على عثمان.

واستخلف على المدينة قُثَمَ بنَ العبّاس، وكتب إلى أبي موسى، وإلى قيس بن سَعدٍ، وإلى عثمانَ بنِ حُنيفٍ أن يندبوا النّاسَ إلى الشّام، وأقبلَ يتجهَّز، وخطب النّاسَ، فدعاهم إلى النُّهوضِ، وحضَّهم على قتالِ أهلِ الفُرقة.

ابتداء وقعةِ الجَمَل

طلحة والزُّبير يريدانِ البصرةَ للإصلاح!

فبينا هو على ذلك، إذ أتاهُ من مكّة عن عائشةَ أمِّ المؤمنين وطلحةَ والزُّبير شيءٌ آخرُ بخلافِ ما هو فيه. ثمَّ أتاه عنهم أنّهم يُريدون البصرةَ للإصلاح. فقال:

ـ «إن فعلوا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المُقام فينا مؤونةٌ ولا إكراهٌ».

فتعبَّأ للخروج نحوَهم، وخطبَ ونَدبَ النّاسَ، فتثاقَلُوا.

ولمّا رأى زيادُ بنُ حنظلة تَثاقُلَ النّاس على عليٍّ انتدب وقال:

ـ «من تثاقَلَ عنكَ يا أميرَ المؤمنين، فإنّا نُقاتل معك ونخِفُّ بين يَديكَ ما حملت أيدينا سيوفَنا». وأجابه رجلان مِن أعلامِ الأنصارِ.

عائشة تريد طلحة

ولمّا هرب بنو أميّة لحِقوا بِمكّةَ، فاجتمعُوا إلى عائشةَ، وكانوا ينتظِرونَ أن يَليَ الأمرَ طلحةُ، لأنّ هَوى عائشةَ كان معه، وكانت من قبلُ تُشنِّعُ على عثمان، وتَحُضُّ عليه، وتخرج راكبةً بغلَةَ رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ ومعها قميصُه وتقول:

ـ «هذا قميصُ رسولِ اللّه، ﷺ، ما بَليَ وقد بلي دينُه، اقتُلوا نعثَلاً، قتلَ اللّه نعثلاً». فلمّا صار الأمرُ إلى عليٍّ كَرِهته وعادت إلى مكّة بعدَ أن كانت متوجّهةً إلى المدينة، ونادت:

ـ «ألا، إنّ الخليفة قُتلِ مظلوماً، فاطلُبوا بدمِ عُثمان».

من استجابَ لعائشة ومن اعتزَلَ

فأوّلُ من استجابَ لها عبدُ اللّهِ بنُ عامرٍ، ثُمَّ قام سعيدُ بنُ العاصِ والوليدُ بنُ عُقبة وسائر بني أميّة. وكان قِدمَ عبدُ اللّه بنُ عامرٍ قريباً، ويعلى بن أميّة من اليمن، واجتمع رأيهم بعدَ نظرٍ طويلٍ، وخِطابٍ كثير، على البصرةِ، وقالوا:

ـ «معاويةُ قد كفاكُمُ الشّامَ».

وكان مع يعلى ستّمائة بعيرٍ، وستّمائة ألف درهم، فأنفقها في ذلك الوجه، وشتَمُوا عبدَ اللّه بن عامرٍ، وقالوا:

ـ «لا أنتَ مُسالمٌ ولا أنت محاربٌ، هَلاّ أقمتَ بالبصرةِ فمنعت حَوزتَكَ كما منع معاوية، أو هَلاّ أرفدتَنا اليومَ بِمالِكَ كما فعلَ يَعلى بن أميّة».

فتكلّم بما لم يَرضَوه في جوابهم. وسأل النّاسُ غيرَ عائشة من أزواج النّبيّ - ﷺ - فأرادت حَفصةُ الخروج، فأتاه عبدُ اللّه بن عُمر بن الخطّاب، فطلبَ إليها أن تَقعدَ، فقعدت. وبعثت أمُّ الفضل بنتُ الحارث بن عبدِ المطّلب رجلاً من جُهَينة، واستأجرته على أن يطويَ ويأتيَ عليًا بكتابها، فقدِم من جهتِها بالخبر على عليٍّ.

فأمّا المغيرة بنُ شُعبة وسعيدُ بن العاص، فإنّهما خرجا من مكّةَ مرحلةً مع القَومِ، ثمّ تَشاوَرُوا. فقال المُغيرةُ:

ـ «عندي أنّ الرَّأيَ لنا أن نعتزلَ الجميعَ، فأيُّهم أظفرهُ اللّه أتيناهُ وقلنا، كان هَوانا معكَ وصَغْونا إليك».

فاعتزلا وعادا إلى مكّة ومعهما غيرهُما.

موقف آخر لسعيد بن العاص

ويقال: إنّ سعيدَ بنَ العاصِ أتى طلحة والزّبيرَ فقال:

ـ «إن ظفرتُما، لِمَن يكون الأمرُ؟».

قالا: «لأحدِنا، أيّنا رَضيَهُ المسلمون».

قال: «لا، بل اجعلُوهُ لولد عثمان، فإنّكم خرجتم تطلبون بدمه».

قالا: لا واللّهِ، ما نَدَعُ مشايخ المهاجرين والأنصار ونجعل الخلافة في أبنائهم.

فقال: «ما أراني أسعى إلاّ في إخراجها من ولدِ عبدِ منافٍ».

سُؤالٌ وتنازُعٌ حَولَ الإمرة

فرجعَ مع مَن رجعَ، واستمرَّ بالقومِ المسير. فلمّا نزلوا ذاتَ عِرقٍ أذّن مَروانُ، ثمّ جاء حتّى وقف عليهما، فقال:

ـ «على أيّكما أسلِّمُ بالإمرةِ وأؤذّن بالصّلاة؟».

فقال ابنُ الزُّبيرِ: «على أبي».

وقال ابنُ طلحة: «على أبي».

وتنازعا. فأرسلت عائشة إلى مروان:

ـ «ما لَكَ يا مَروانُ! تريدُ أن تفرّق جماعتنا، لِيُصلِّ ابنُ أختي بالنّاس».

فكان يُصلّي بهم عبد اللّه بن الزُّبير حتّى قدِمُوا البصرة. فكانوا يقولون:

ـ «لو ظَفِرنا لافتتنّا، وما كان لِيُخلّي الزُّبيريُّون الأمرَ لِطلحةَ، ولا الطّلحِيُّون الأمرَ للزّبيرِ».

وإنّ عليًّا تجهّز في مَن خفّ معه، يُبادرُهم لِيعترضَ عليهم دونَ البصرةِ، وخرج معه تسعمائة رجلٍ في التعبئة الّتي كان تَعبأ بها إلى الشّام، حتّى انتهى إلى الرَّبذةِ، وبلغهُ مَمرُّهم وقد فاتُوهُ. فأقامَ هُناك يأتمِرُ.

اتّفاقٌ في ذلك الوجه

فممّا اتّفقَ في ذلك الوجه، أنَّ صاحبَ الجمل ـ الّذي يقال له: «عسكر» وخبرُه مشهورٌ حكى أنّه: لمّا اشتُري منه الجملُ بِحكمِه وركبتهُ عائشةُ سألوهُ عن الطّريقِ، وهَل هُو خَبِرٌ؟

قال، فقلتُ: «أنا أهدى مِنَ القَطا».

فأعطَوني دنانيرَ، وتقدَّمتُهم، وكانوا يسألُونَني عن كُلِّ ماءٍ، حتّى نزلوا الحَوءَب، فكان الحديث المشهور، فبينا نحنُ كذلك، إذا بابن الزّبير يركضُ ويُنادي:

ـ «أدركَكُم عليّ بنُ أبي طالبٍ، النّجا النَّجا».

وشَتَمُوني ورحَلُوا، وانصرفتُ. فما سِرتُ إلاّ قليلاً حتّى لقيتُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ومعه رَكبٌ، فقال:

ـ «عَلَيَّ بالرَّاكب».

فأتيتُه.

فقال: «أين لقيتَ الظَّعينةَ؟».

فقلتُ: «مكان كذا، وقد بعتُهم جَمَلي وأعطَوني ناقتَها وهي هذه تحتي، وأعطَوني كيتَ وكيتَ».

قالَ: «وقد رَكِبَتَهُ؟».

قلتُ: «نعم. وسرتُ معهم إلى الحوءَب وكانَ من أمرهم كذا وكذا، وارتحلوا وأقبلتُ».

قال عليٌّ: «فهَل لك دَلالةٌ بذي قارٍ؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «سِر مَعَنا».

عليٌّ يستشير النّاسَ والحسنُ يَذكرُ له ما كانَ قد أشار به عليه قبلُ

فَسِرنا حتّى نزلنا بذي قارٍ. فأمرَ عليٌّ بِجُوالَقينِ، فضمَّ أحدَهما إلى صاحبه، ثمَّ

جيءَ بِرَحلٍ، فوُضعَ عليه، ثمّ صَعِد عليه، وخطب النّاسَ وأعلَمهم الخبرَ. ثمّ استشارهم، فقام الحسن، فبكى، وقال:

ـ «أشرتُ عليك فعصيتَني، فتُقتلُ غداً بِمَضيعةٍ لا ناصِرَ لك».

فقال له عليٌ: «إنّك لا تزالُ تَحِنُّ حنينَ الجارية، وما الّذي أشرتَ به عَلَيَّ فعصَيتُك؟ تكلّم به لِيسمَعَهُ النّاسُ».

قال: «كنتُ قُلتُ لك يومَ أحيط بعُثمان: أن تخرجَ من المدينةِ فلا تَشهدَ قَتلَهُ فأبيتَ. وقلتُ لَكَ يومَ قُتِلَ: لا تُبايع حتّى يأتيكَ وفودُ العرب وبيعةُ أهلِ الأمصارِ؛ فأبيتَ. ثمَّ قلتُ لك حينَ فَعلَ الرَّجلان ما فعلا أن: تجلِسَ في بيتِكَ حتّى يصطلحَ النّاسُ، فإن كان فسادٌ كان على يَدَي غيرِك فعصيتني في ذلك كُلِّه».

فقال: «أي بُنَيَّ! أمّا قولُك: لو خرجتَ من المدينةِ، فواللّه لقد أحيط بنا كما أحيط به. وأمّا قولُك: انتظِرهُ حتّى يأتيكَ الوفود وأهلُ الأمصار، فإنَّ الأمر أمرُ أهلِ المدينةِ، وعقدُهم جائزٌ على المسلمين، وكرِهنا أن نُضيعَ هذا الأمرَ فتكونَ فِتنةٌ. وأمّا قولك حين خرج طلحة والزّبير أن اجلِس في بيتكَ، فإنّ ذلك كان وهناً على أهلِ الإسلام لو فعلتُه. وواللّه ما زلتُ مقهوراً منذ وُلدتُ، منقوصاً لا أصِلُ إلى حَقّي، ولا إلى شيءٍ مِمّا يَنبغي لي. وأمّا قولُك: اجلِس في بَيتِكَ فكيف لي بما لزمني؟ أتريدُ أن أكونَ كالضَّبع الّتي يُحاط بها ويُقال: دابِ دابِ، أمّ عامرٍ ليست ههنا، حتّى يحلّ عرقوباها. إذا لم أنظر في ما لَزِمَني ويَعنيني فمَن ينظر فيه، فكُفَّ عليك يا بُنَيّ. إنّ النّبيَّ ـ ﷺ ـ قُبضَ وما أرى أحقَّ بهذا الأمرِ منّي، فبايع النّاسُ أبا بكرٍ، فبايعتُ كما بايَعُوا. ثمّ هلك أبو بكرٍ وما أرى أحقَّ بهذا الأمر منّي، فبايعَ النّاس عُمرَ، فبايعتُ كما بايعُوا. ثمّ هلك عُمرُ وما أرى أحقَّ بهذا الأمرِ منّي، فجعَلَني سَهماً من ستّة أسهُم. ثمَّ عُدل عنّي إلى عثمان، فبايعتُ كما بايع النّاسُ. ثمّ سار النّاسُ إلى عثمان، فقتلوهُ، وأتَوني طائعين غيرَ مُكرَهين، فبايعوني. فأنَا مقاتلٌ بِمَن اتّبعَني مَن خالَفَني حتّى يحكم اللّهُ بيننا وهو خير الحاكمين».

ولمّا قربت عائشةُ ومَن معها من البصرةِ قدَّمت عبد اللّه بن عامرٍ وقالت:

ـ «أنت لك صنائع فاذهب إلى صنائعك، فليَلقوا النّاسَ».

وكتبت إلى رجالِ البصرةِ كالأحنف بن قيس وضبرة بن شيمان ووجوه النّاس، وأقامت بالحفير تنتظر الجوابَ.

عثمانُ بنُ حُنيفٍ يَبعثُ رَسولَين إلى عائشة وطلحة والزُّبَير

ولمّا بلغ الخبرُ البصرة دعا عثمان بن حنيف عِمران بنَ الحُصين، وكانَ رجلَ

عامّةٍ، وأبَا الأسود الدُّئلي وكان رجلَ خاصّةٍ وقال:

ـ «انطلقا إلى هذه المرأة واعلما عِلمَها وعِلمَ مَن معها».

فانتهَيا إليها والنّاسُ بالحفيرِ، واستأذنا فأُذِن لهما، فسلّما وقالا:

ـ «إنّ أميرَنا بعثَنا إليكِ نسألكِ عَن مَسيركِ، فهل أنتِ مخبرتنا؟».

فقالت: «واللّه ما مِثلي يَسيرُ بالأمرِ المكتوم، ولا يمئي لِبنيه الخبر، إنّ الغوغاءَ، ونُزّاعَ القبائل غَزَوا حرمَ رسولِ اللّه، ونالوا من قَتل الإمام، ما استحقُّوا به لعنةَ اللّهِ، وفعلوا وفعلوا. فخرجتُ في المسلمين إلى هذا المصر، لأعلمَهم ما فيه النّاسِ وراءَنا، وما ينبغي لهم بأن يأتُوهُ من الإصلاح، وقرأت: لا خيرَ في كثيرٍ من نَجواهُم إلاّ مَن أمَرَ بِصَدَقةٍ، أو إِصلاحٍ بين النّاسِ، فهذا شأننا، نأمُرُكم بالمعروف ونَحُضُّكم عليه، وننهاكُم عن منكرٍ، ونحُثُّكم على تغييرِه».

فخرجا مِن عندها، وأتَيا طلحةَ، فقالا ما قالا لِعايشةَ وسألاه: ما الّذي أقدمه؟

قال: «الطّلبُ بِدمِ عثمان».

قالا: «ألَم تُبايع عليّاً».

قال: «بلى، واللجُّ في عُنقي، وما أستقيل علّياً، إن هو لم يَحُل بيننا وبين قَتلةِ عثمان».

ثمّ أتَيا الزّبيرَ، فقالا: «ما أقدمَكَ؟».

قال: «الطَّلب بدم عثمان».

قالا: «ألَم تبايع علياً؟».

قال: «بلى، واللجُّ في عُنقي، وما أستقيل علياً إن لم يُحامِ على قتلة عثمان».

ومضى الرَّجلان، حتّى دَخَلا على عثمان بن حُنيفٍ. فبدر أبو الأسود عمرانَ وأنشد:

يا ابنَ حُنيفٍ قد أُتيتَ فانفِر وطاعِنِ القومَ وجالِد واصبر
وابرُز لهم مستلئماً وشَمِّر

فقال عثمانُ بنُ حُنيف: «إنّا للّهِ وَإنَّا إليه راجعُون. دارت رَحى الإسلام وربِّ الكعبة. فانظر أيَّ زيفان تَزيفُ».

فقال عِمران: «إي واللّهِ، لَتعركَنَّكم عركاً طويلاً».

قال: «فأشِر عَليَّ يا عمران».

قال: «إنّي قاعِدُ، فاقعُد».

قال: «بل أمنعهم حتّىٰ يأتيَ أمير المؤمنين».

فانصرف عمرانُ، وقام عثمان في أمرِه، ونادىٰ في النّاسَ، وأمرَهم بالتَّهيُّؤ. فلبسوا السّلاح، واجتمعوا في المسجد الجامع، وأقبل عثمانُ بن حنيف على الكيد.

كيدٌ كادَ به عُثمانِ بنُ حُنيفٍ

فمِمّا كادَ بِه لينظر ما رأى النّاس: أن دسَّ رجلاً إلى النّاسِ كوفيّاً قيسيّاً يقال له: قيسُ بن العقدية، فقام وقال:

ـ «أيُّها النّاسُ، إنّ هؤلاءِ القوم الَّذين جاؤُوكم إن كانوا جاؤُوا خائفين، فقد جاؤُوا من مكانٍ بعيدٍ يأمَنُ فيه الطّيرُ؛ وإن جاؤوا يطلبون بدمِ عثمان، فما نحنُ بقتلة عثمانَ، أطيعوني في هؤلاءِ القوم، فرُدُّوهم من حيثُ جاؤوا».

فقال الأسودُ بن سريع: «أَوَ زعموا أنّا قَتَلَةُ عُثمانَ. إنّما فزِعُوا إلينا يستعينون بنا على قَتلةِ عثمان مِنّا ومن غيرِنا».

فتكلّم القيسيُّ فحصبَه النّاسُ. فعرف عثمانُ أنّ لَهُم بالبصرةِ ناصراً مِمَّن معَهُ. فكَسره ذلك.

انتهاءُ عائشة ومَن معها إلى المِربَد

وأقبلت عائشةُ في مَن معها، حتّى انتَهوا إلى المِربَدِ، فدخلوا مِن أعلاهُ، وَوَقَفُوا حتّى خرج عثمانُ في مَن معه، وخرج إليها مَن أرادَ أن يكونَ مَعها. واجتمعَ النّاسُ بالمِربَدِ، وجعلُوا يتوثّبون، واغتصَّ المكانُ بالنّاسِ.

فتكلَّم طلحةُ وهو في مَيمنةِ المربد، وعثمان في ميسرته، فأَنصتُوا، فذكر فضلَ عثمان، والبلد، وما استحلّوا منه، وعظّم ما أُتي إليه، ودَعا إلى الطَّلب بدمِه، وقال في آخر كلامِه:

ـ «إنّه حدُّ مِن حدودِ اللّهِ، فإن فعلتُم أصبتُم، وعادَ أمرُكم، وإن تركتُم لم يَقُم لكم سلطانٌ، ولم يكن لكم نِظامٌ».

فقال مَن في ميمنةِ المِربَدِ: «صَدَقا وبَرّا».

وقال مَن في الميسرةِ: «فجرا وغَدَرا. قد بايعا، ثمّ جاءا يقُولانِ ما يقُولانِ».

وتَحاصبَ النّاسُ، وتكلَّموا. فتكلَّمت عايشةُ. وكانت جَهيرةَ الصَّوتِ؛ فحضَّت على الطَّلب بدمِ عثمانَ والأخذِ بالكتاب الَّذي يُدعَونَ إليه. وأقبل جاريةُ بنُ قدامَة السَّعديّ، فقال:

ـ «يا أمَّ المؤمنين، لَقتلُ عثمانَ أهونُ من خُروجِكِ مِن بَيتِكِ عُرضةً للسِّلاحِ. فقد كانَ

لكِ سِترٌ مِن اللَّهِ وحرمةٌ: فهتكتِ سِترَكِ، وأبحتِ حُرمَتكِ. إنّ مَن رأىٰ قِتَالَكِ فهو يَرىٰ قَتلَكِ. فإن كُنتِ خرجتِ طائعةً فارجِعي إلى بيتِكِ، وإن خرجتِ كارهةً فاستعيني بالنّاسِ».

وخرج رئيسُ كُلّ طائفةٍ، فتكلّم. فقال بعضهم:

ـ «أمّا أنتَ يا زُبيرُ، فحواريُّ رسولِ اللَّه ـ ﷺ ـ؛ وأمّا أنتَ يا طلحة فوَقيتَ رسولَ اللَّه بيدِك، وأرىٰ أُمّكُما معكما، فهَل جِئتُما بنسائكما؟».

قالا: «لا».

قال: «فما أنَا منكما».

واعتَزَلَ.

قِتالٌ وتوادُعٌ

وأَقبَلَ حكيمُ بنُ جَبَلَةَ فأَنشبَ القتالَ، فاقتتلوا إلى اللّيل، وقُتِلَ خَلقٌ. ثمّ إنّهم تَوادَعُوا على أن يكتُبوا إلى المدينة، ويستعلموا النّاسَ: هل بايعا مُكرَهَين؟ فإن بايَعا مُكرَهَين خرج عثمانُ بنُ حُنيفٍ، وإن كانا بايَعا طائعَينِ خرج طلحةُ والزُّبيرُ.

فجرىٰ خَطبٌ طويلٌ بالمدينةُ لمّا وردَ الرّسولُ من البصرةِ، ليس لِذِكرِهِ وَجهٌ في ما نحن بِسبيلِه.

وكان النّاسُ كتبوا بينَهم كتاباً شُرِطَ فيه ألاّ يُضارَّ أحدٌ بأحدٍ في سوقٍ ولا طريقٍ إلى أن تعودَ الرُّسُلُ. إلاّ أنّ محمّد بنَ طلحةَ قام يوماً في المسجد مقامَ عثمانَ بن حُنيفٍ، فتعرَّض له عثمان، وجاءَ بعضُ الحرس، فنحّاهُ، وظنَّ أنّه جاء في شرٍّ.

ووصل كتابُ عثمانُ بن حُنيفٍ إلى عليٍّ بما كان من النّاس. فكتبَ عَليٌّ ـ رضي اللَّهُ عنه ـ يُعجِّزهُ ويقول:

ـ «ما أُكرِها علىٰ فُرقةٍ وإنّما أُكرِها على جَماعةٍ، فإن كانا يُريدان الخلعَ، فلا عُذرَ لهُما».

ما جرَىٰ على عثمان بن حُنيفٍ

فقدِمَ الكتابُ على عثمان، واتّفقَ أن تأخّر ابن حُنيفٍ عن الصَّلاةِ، فقدَّما عبد الرَّحمن بن عتّابٍ، فشهرَ الزُّطُّ السِّلاحَ ومنعُوهُ. ثمّ اقتتلُوا في المسجد، وصبرَ الرّجّالةُ لهم، فقتلوهم عن آخِرِهم وهم أربعون رجلاً. وأدخلُوا الرّجالَ على عثمان؛ فما وصل إليه إلاّ بعد أن لحقه مكروهُ عظيمٌ.

وأرسلوا إلى عائشة يستشيرونَها في أمره. فأمرت بقتلِه، فناشدَها قومٌ فيه، وأَذكَرُوها بصحبتِهِ رسولَ اللَّه ـ ﷺ ـ فأشار مجاشعُ بنُ مسعود بضربِه فضربُوه أسواطاً،

ونَتفُوا شَعر لِحيَتِه ورأسِه حتّى حاجِبَيهِ وعَينَيه، وأشفار عَينَيه. ثمّ حبَسُوهُ. فغضب لهُ قومٌ، وثارَ حكيمُ بن جَبلةَ، وأصبح بيتُ المال والحرس في يَدَي طلحةَ والزُّبير.

وقال حكيم بن جبلة: «لستُ أخاف اللّهَ إن لم أنصر عثمانَ بنَ حُنيفٍ».

فجاء في جماعةٍ من عبد القيس وبكر بن وائل، فأتى ابنَ الزُّبير في مدينة الرِّزق. فقال:

ـ «ما لَكَ يا حكيم، ما تُريد؟».

قال: «أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تُخلُّوا عثمانَ، فيقيم في دار الإمارةِ على ما كتبتُم بينكم حتّى يقدم عليٌّ. وأيمُ اللّه لو أجِدُ أعواناً لأُلحقنَّكم بمن قتلتُم. فقد أحلّ الله لَنا دِماءَكُم بمن قتلتُم مِن إخوانِنا. أما تخافون اللّهَ، بِمَ تستحلُّون سفكَ الدِّماء؟».

قال: «بِدَم عثمان».

قال: «فالّذين قتلتموهم قَتَلَةُ عثمان! أما تخافون اللّهَ ومقتَهُ وعُقوبتَهُ؟».

فقال ابن الزُّبير: «لا نرزقكم من هذا الطَّعام، ولا نُخَلّي سبيلَ عثمان بن حنيفٍ حتّى نخلَع عليّاً».

قال حكيمُ: «اللّهمّ إنّك حَكَمٌ عَدلٌ».

ثمّ قال لأصحابه: «إنّي لستُ في شكٍّ مِن قتالِ هؤلاءِ القوم».

قتال شديدٌ ضرب فيه رجل ساقَ حكيم

فاقتتلوا قتالاً شديداً. وضرب رجلٌ ساقَ حكيم، فقطعَها. فأخذ حكيم ساقَهُ ورَماهُ بها، فأصابَ عُنقَهُ، فصَرَعَهُ. ثمَّ حبَا إليه فقتلَهُ واتّكئ عليه، فانتهى إليه رجلٌ وقال له: «مَن قتلكَ؟» قال: «وسادتي». وقُتلَ سبعونَ رجلاً مِن عبدِ القيس. وقال حكيمُ حين قُطعت رجلُه:

يــا فَــخِــذِ لَــن تُــراعــى إنَّ مَـــعـــي ذِراعـــي
[أحـمـي بـهـا كُـراعـي]

فاحتمل الرَّجلُ حكيماً وضمَّهُ في ستّين مِن أصحابه. فتكلّم يَومئذٍ وإنَّهُ لَقائمٌ على رجلٍ ـ وإنَّ السُّيوفَ لتأخذهُم ـ لا يُتعتعُ:

«إنّا خلّفنا هذين، وقد بايَعا عليًّا، وأعطيَاهُ الطّاعةَ، ثمَّ أقبلا مُخالِفَين يطلبان بدمِ عثمان، وهما كاذبان؛ وإنّما أراغا المالَ والإمرَةَ».

وأخذتهُ السُّيوف، فأُنيمَ، وأُنيمَ أصحابُه، وأفلت حرقوصُ بن زهير وحده.

ونادىٰ مُنادي عايشة:

ـ «ألا مَن كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممَّن غزا المدينة، فليأتنا بهم».

فَجِيءَ بهم كما يُجَاءُ بالكلابِ، فقُتِلُوا. فما أفلتَ منهم غير حرقوصٍ. فخشَّنُوا صدورَ بني سعدٍ، وإنّهم لعثمانيةٌ، حتّى انفردُوا. وغضب عبد القيس لِمَن قُتِل منهم بعدَ الوقعةِ، ثمّ أمرا للنّاسِ بأعطياتهم، وفضَّلا أهلَ السّمع.

فخرجت عبد القيس وكثيرٌ مِن بكر بنِ وائلٍ. فبادرُوا إلى بيت المال، وركبهم النّاس، وخرجُوا حتّى نزلوا على طريق عليٍّ، وأقامَ طلحةُ والزُّبير بالبصرةِ ليس معهما مخالفٌ.

وكتبوا إلى أهلِ الشّام بما صنعوا، وقَصُّوا القصَّةَ وأطالوا، وذكروا أنَّهم أقامُوا حدّ اللّهِ، وأنَّهم قد أعذَروا، وقَضَوا ما عليهم، فنناشِدُكم اللّهَ في أنفسكم إلاّ نهضتُم بمثلِ ما نهضنا به. وكتبوا إلى أهلِ الكوفة بمثلِ ذلك. وإلى أهلِ اليمامة بمثلِه. وكتبت عائشة إلى أهلِ الكوفة كتاباً بليغاً طويلاً تحضُّهم على إقامة كتابِ اللّهِ، وتذكر لهم ما صنعوا بالبصرةِ. وكتبت إلى رجالٍ بأسمائهم وقالت:

ـ «ثَبِّطُوا النّاسَ عن نصرةِ هؤلاءِ القوم، والزَمُوا بُيوتَكم».

ولمّا قتلوا حكيماً وأصحابَه همُّوا بقتلِ عثمان بن حُنيفٍ فقال لهم عثمان:

ـ «ما شِئتُم، إنّ أخي سهلاً بالمدينة مع عليٍّ، وهو والٍ بها، فإن قتلتموني انتصَرَ». فخلَّوا عنه، وصلّى بالنّاسِ عبدُ اللّهِ بن الزُّبير.

وكتبت عايشة بنتُ أبي بكرٍ إلى زيد بن صُوحان:

«مِن عايشةَ أمِّ المؤمنين وحبيبةِ الرّسولِ إلى ابنِه الخالصِ زيدِ بن صُوحان.

أما بعدُ، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم وانصرنا على أمرنا، فإن لم تفعل فخذِّلِ النّاسَ عن عليِّ بنِ أبي طالب».

فكتب إليها زيدُ بن صُوحان:

«إلى عايشةَ بنتِ أبي بكرٍ. أمّا بعدُ، فأنا ابنُك الخالِصُ إنِ اعتزلتِ من هذا الأمرِ، ورجعتِ إلى بيتِك، وإلاّ فأنَا أوّلُ مَن نابَذَكِ».

وقال: «رحم اللّهُ عايشةَ. أُمِرت أن تلزمَ بيتَها، وأُمِرنا أن نُقاتِلَ، فتركت ما أُمرت بِه، وأمرتنا به، وصنَعت ما أُمِرنا بِه ونَهتنا عنه».

وكان علي ـ عليه السّلام ـ حين انتهىٰ إلى الرَّبذةِ، أقام، وأرسلَ، إلى أهلِ الكوفة، وكاتبهم، واستدعىٰ من المدينة ما أحبَّ مِن سلاحٍ وغيره. وقدِم عثمانُ بن حُنيفٍ الرَّبذة علىٰ عَليٍّ منتوفَ شعرِ الوَجهِ كلِّه، وقال:

ـ «يا أميرَ المؤمنين بعثتَني ذا لحيةٍ، وجِئتُكَ أمردَ».

قال: «أصبتَ خيراً وأجراً، اللّهم احلُل ما عَقَدا، ولا تُبرِم ما أحكما، وأرِهما المساءَة في ما عَمِلا».

ماذا يجري في الكوفة؟

فأمّا أهلُ الكوفةِ، فلمّا انتهىٰ إليهم رسولُ عليٍّ استشارُوا أبا موسى. فقال لهم:

ـ «إنّما هُما أمرانِ: القعودُ سبيلُ الآخرةِ، والخروجُ سبيلُ الدّنيا».

وجَعَلَ يُثبِّطُ النّاسَ. إلى أن أنفذَ عليٌّ ـ عليه السّلام ـ ابنَ عبّاسٍ والأشترَ، فلم يُغنيا، وكان بعث بهاشم بن عُتبة إلى أبي موسى يستنفرُ النّاسَ. فكتب إليه هاشمُ:

ـ «إنّي قدمتُ على رجلٍ مُشاقٍّ ظاهر الغِلِّ».

فبعث عليٌّ الحسنَ وعمّاراً، وكتب إلى أبي موسى:

ـ «أمّا بعد، فكُنتُ أرىٰ أنّ بُعدَكَ من هذا الأمرِ الّذي لم يجعلِ اللّٰهُ لك فيه نصيباً سيمنعُك مِن رَدِّ أمري. وقد بعثتُ الحسنَ بنَ عليٍّ، وعمّارَ بنَ ياسرٍ، وبعثتُ قرظة بن كعبٍ والياً. فاعتزِل عمَلَنا مذموماً مدحوراً».

فقدم الحسنُ بنُ عليٍّ وعمّارُ بن ياسرٍ. فلطف الحسن وقال:

ـ «أيّها النّاسُ! أجيبُوا أميرَكم، وسيرُوا إلى إخوانكم. فإنّه سيُوجَدُ لهذا الأمرِ مَن ينفِرُ إليه. فواللّٰهِ أن يليَهُ أهلُ النُّهىٰ أمثلُ في العاجلةِ، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبُوا دعوتَنا، وأعينُونا على ما ابتُلينا به وابتُليتُم».

فقام زيد بن صُوحان فقال:

ـ «يا قومِ! سيروا إلى أمير المؤمنين وسيِّد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين».

فقام القعقاعُ بنُ عمرو، فقال:

ـ «أيُّها النّاسُ! إنّي لكم ناصحٌ وعليكم شفيقٌ، ولأقولنَّ لكم قولاً هو الحقُّ، أنّه لا بُدَّ لَنا مِن إمارةٍ تنظم النّاسَ، وتردَعُ الظّالِمَ، وتُعِزُّ المظلوم؛ وهذا عليُّ وَلِيَ ما وَلِيَ، وقد أنصفَ في الدُّعاءِ، وإنّما يدعُو إلى الإصلاح، فانفِروا، وكونوا مِن هذا الأمر بِمرأى ومسمعٍ».

ثمّ تكلّم سيحانُ، وقال مثلَ قولِ القعقاعِ، وتكلّم عديّ بنُ حاتم في قومِه لمّا بلغه كلامُ الحسن وجوابُ النّاسِ وقال:

ـ «قد بايعنا هذا الرّجلَ، ودَعانا إلى أمرٍ جميلٍ، ونحنُ سائرون».

وتكلّم هندُ بن عمرو، وحجرُ بن عديٍّ، والأشترُ، وقالوا مثلَ ذلك، وقال الحسن:

ـ «أيّها الناسُ! إنّي غادٍ، فمن شاءَ منكم أن يخرج معي على الظّهرِ، ومَن شاءَ فليخرج في الماءِ».

فنفر معه تسعةِ آلافِ رجل، ورُوِيَ أيضاً أنّهم كانوا اثني عشر ألفاً، وأُخرج أبو موسى من القصرِ، وشدَّد عليه الأشتر.

عليٌّ يُرسِلُ القعقاعَ إلى أَهلِ البَصرة

فلمّا وردوا على عليٍّ ذا قارٍ، تلقّاهم عليٌّ، فرحّب بهم، وأثنىٰ عليهم. ثمّ دعا القعقاعَ بن عَمرٍو، فأرسلهُ إلى أهلِ البصرةِ، وقال:

ـ«الق هذين الرّجلين، فادعُهما إلى الألفةِ والجماعةِ، وعظّم عليهما الفرقةَ».

ووصّاه بما أراد.

ثم قال له:

«كيف أنتَ صانعٌ في ما جاءَك منهم ممّا ليس عندك وَصاةٌ منّي؟».

قال: «نلقاهم بالّذي أمرتَ به. فإذا جاءَنا منهما أمرٌ ليس عندنا منك فيه وَصاةٌ اجتهدنا الرَّأيَ، وكلَّمناهُم على قدر ما نسمع منهم ونَرىٰ أنّه ينبغي».

قال: «أنتَ لها».

فخرج القعقاعَ حتّى قَدِمَ البصرةَ. فبدأ بعائشةَ. فسلَّم عليها، ثمَّ قال:

ـ «أي أمّه! ما أشخصكِ. وما أقدمَكِ؟».

قالت: «أي بُنَيّ! الإصلاحُ بين النّاس».

قال: «فابعَثِي إلى طلحة والزّبير، حتّى تسمعي كلامي وكلامَهما».

فبعثَت إليهما، فجاءا. فقال: سألتُ أمَّ المؤمنين: ما أشخَصَها وأقدمَها هذه البلاد؟ فقالت:

ـ «الإصلاح بين النّاس».

[فقلتُ]: «فما تقولان أنتما: متابعان، أم مخالفان؟».

قالا: «مُتابعان».

قال: «فأخبِراني ما وجهُ هذا الصَّلاحِ؟ فواللّهِ لَئن عرفناه لَنُصلِحَنَّ، وإن أنكرناهُ لا نُصلِحُ».

قالا: «قَتَلَةُ عثمان. فإنّ هذا إن تُرِك كان تَركاً للقرآن، وإن عُمل به كان إحياءاً للقرآن».

قال: «قد قتلتم بالبصرة مَن زعمتم أنّهم قَتَلَةُ عثمان، وأنتم كنتمُ قبلَ قتلهم أقربَ إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتُم ستّمائةٍ إلاّ رجلاً فغضِبَ لهم ستّةُ آلافٍ، فاعتزَلُوكم، وخرجوا من بين أظهُرِكم، وطلبتُم ذلك الواحدَ الّذي أفلتَ - يعني حرقوص بن زهير - فمنعه ستّة آلاف وهم على رجلٍ. فإن تركتموهم كنتم تاركينَ لما تقولُون، وإن قاتلتُمُوهم والّذين اعتزلُوا فأُديلوا عليكم، فالّذي حذِرتُم وقوّيتُم به هذا الأمرَ أعظمُ ممّا أراكم تكرهُونَ؛ وإن أنتم أحميتُم مُضَرَ وربيعَةَ مِن أهلِ هذه البلادِ، فاجتمعوا على حربِكم وخِذلانِكم نصرةً لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهلِ هذا الحدثِ العظيم والذّنب الكبير».

قال: أقول: «إنّ هذا الأمر دَواؤه التسكين، فإذا سكن احتلجوا. فإن أنتم تابعتمونا فعلامةُ خيرٍ، وتباشيرُ رحمةٍ، ودركٌ بثأرِ هذا الرَّجل، وعافيةٌ لهذه الأمّة. وإن أبيتُم إلاّ مكاثَرَة هذا الأمرِ واعتسافَه كانت علامةَ شرٍّ، وذَهابَ هذا الثّأرِ، وفناءَ هذه الأمّة فآثِروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيحَ خيرٍ كما كنتم تكونون، ولا تتعرَّضُوا لِلبَلاءِ ولا نتعرَّض له فيصرعكم ويصرعنا. إنّ هذا الأمرَ الّذي أنتم فيه، أمرٌ ليس يُقدَّر، وليس كالأمور، ولا كقتلِ الرَّجُلِ الرَّجُلَ، ولا النَّفَرِ الرَّجُلَ، ولا القبيلةِ الرَّجُلَ.

فقالوا: «إذاً أحسنتَ وأَصبتَ المقالةَ. فارجع، فإن قَدِم عليٌّ وهو على مِثلِ رأيِك صلح هذا الأمرُ».

فرجع إلى عليٍّ، فأخبره الخبرَ، فأَعجبَهُ ذلك، وأشرفَ القومُ على الصُّلحِ كَرِهَهُ مَن كَرِهَهُ، ورَضِيَهُ مَن رَضِيَهُ. وأقبلت وُفود البصرةِ نحوَ عليٍّ حين نزلَ بذي قارٍ. فجاءَ وفدُ تميم وبكرٍ قبلَ رجوع القعقاع لِيَنظروا ما رأىُ إخوانهم من أهلِ الكوفةِ وعلى أيّ حالٍ نهضوا [إليهم] ولِيُعلموهم أنّ الّذي عليه رأيُهم الإصلاحُ، ولا يخطُر قِتالُهم على بالِهم.

فلمّا لَقُوا عشائرَهم من أهلِ الكوفة بالّذي بَعثَهم فيه عشائرُهم مِن أهلِ البصرةِ، وقالوا لهم مِثلَ مقالتِهم، فأدخَلوهم إلى عليٍّ، فأخبروهُ بِخبرِهم. فسألَ عليٌّ جريرَ بنَ شَرِسٍ عَن طلحة والزُّبير، وعن نِيّاتِهما، فأخبَرَهُ بدقيق أمرِهما وجَليلِه، وحتّى تمثَّل له [طلحة]:

ألا أبـلـغ بَـنـي بَـكـرٍ رسـولاً ... فليس إلى بَني كعبٍ رَسُول
سيرجعُ ظُلمَكم مِنكُم عَلَيكُم ... طويلُ السّاعِدَينِ لَهُ فُضول

فتمثّل عليٌّ عِندَها:

أَلَم تَعلَم أبا سَمعان أَنّا ... نَرُدُّ الشَّيخَ مِثلَكَ ذا الصُّداعِ
ونُذهِلُ عقلَهُ بالحرَبِ حَتّىٰ ... يَقُومَ، فيستجيبَ بغيرِ داعِ
فدافعَ عن خُزاعةَ جمعُ بكرٍ ... وما بِكَ يا سُراقةُ من دِفاعِ

وتحدَّث النّاسُ بهذِه الأبياتِ، وتداولُوها، لأنّ طلحةَ كان يُديمُ إنشادَ البَيتينِ الأوَّلَين.

ورجع القعقاعُ من عند أُمّ المؤمنين وطلحة والزّبير بمثلِ رأيهِم. فجمع عليٌّ النّاسَ، ثمَّ قام على الغرائر، فخطبَ، وذكر الجاهليَّةَ وشَقاءَها والإسلامَ والسَّعادةَ، وإنعام اللّهِ على الأُمَّةِ بالجماعةِ، وحضَّ النَّاسَ على الأُلفةِ. ثم قال:

ـ «إنّ قوماً حَسَدوا هذه الأُمَّةَ الّتي أفاء اللّهُ عليها ما أفاءَه على الفضيلةِ، وأرادوا رَدَّ الأمورِ على أدبارِها، واللّهُ مُصيبٌ أمرَه، وبالغٌ ما أراد. ألا وإنّي راحِلٌ غداً، فارتحِلُوا. ويرحَلَنَّ أحدٌ أعانَ على عثمان بِشَيءٍ، في شَيءٍ من أمورِ النّاسِ، وَليُغنِ سُفهاؤهم عَنّي أنفسَهُم».

ذِكرُ السَّببِ في نَقضِ ما أشرفَ عَليهِ القومُ من الاصطلاحِ

فاجتمع نفرٌ منهم: علباءُ بنُ الهَيثم، وعَدِيُّ بنُ حاتَم، وشُريحُ بن أوفىٰ، والأشترُ، وغيرُهم مِن طبقتِهم مِمَّن سارَ إلى عثمان، أو رَضِيَ بسَيرِ مَن سارَ، وجاءَهم ابنُ السَّوداء، وخالدُ بنُ مُلجَمٍ، ومعهم المِصريُّون، فتشاوروا.

ذِكرُ آراءِ هؤلاء، وما تقرَّرَ عَلي الرَّأيُ في ما اجتمعوا عليه، ودَبُّوا لَهُ من الحيلةِ في نقضِ الصُّلح

فقال القومُ: «هذا واللّه عليٌّ، وهو أعلمُ وأبصَرُ بكتابِ اللّه مِمَّن يطلبُ قَتلَة عثمان، وأقربُهم إلى العمل بذلك، وهو يقولُ ما يقولُ، ولم ينفِر إليه إلاّ هُم، والقليلُ من غيرِهم. فكيف به إذا شامَّ القوم وشامُّوهُ، ورَأَوا قِلَّتنا في كثرتهم. أنتم واللّهِ تُرادُونَ، وما أنتم بأنجى مِن شيءٍ».

فقال الأشتر:

ـ «أمَّا طلحةُ والزُّبير فقد عرفنا أمرهُما. وأمّا عليٌّ فلم نعرف أمرَهُ حتى كان اليوم، ورأَيُ النّاسِ فينا واحدٌ، وإن يَصطلِحُوا مع عليٍّ فعلىٰ دِمائنا. فهَلُمُّوا نَتَوثب علىٰ عليٍّ فتعود فتنةٌ يُرضىٰ مِنّا فيها بالسّكوتِ».

فقال عبدُ اللّهِ بنُ السَّوداءِ:

ـ «بِئسَ الرَّأيُ رأيتَ. أنتم يا قتلةَ عثمان مِن أهلِ الكوفة بذي قارِ ألفانِ وخمسمائة. وهذا ابن الحَنظليّة في خمسة آلافِ بالأشواقِ إلى أن يَجِدوا إلى قتالِكم سبيلاً فَارقَ على ظَلعِكَ».

وقال عِلباءُ بنُ الهيثم:

ـ «انصَرِفُوا بِنا ودَعُوهم، فإن قَلُّوا كانَ أقوىٰ لِعَدُوِّهم عليهم، وإن كثروا كان أحرىٰ أن يصطلِحُوا عليكم، ارجعوا فتعلَّقُوا ببلدٍ من البلُدانِ، وامتنعُوا من النّاسِ».

فقالَ ابنُ السَّوداءِ:

ـ «بئس ما رأيتَ، وَدَّ ـ واللَّهِ ـ النّاسُ أنّكم على جَديلةٍ، ولم تكونوا مع قوم بُرَءاءَ، ولو كان ذلك الّذي تقول لَتخطَّفَكم كُلُّ شَيءٍ».

فقال عَديُّ بنُ حاتمٍ:

ـ «واللَّهِ ما رضيتُ، ولا كرِهتُ. ولقد عَجِبتُ مِن تَردُّدِ مَن تَردَّدَ عن قتلِه في خوض الحديثِ. فأمّا إذا وقعَ ونزل من النّاسِ بهذهِ المنزلةِ، فإنَّ لَنا عِناقاً مِن خيولٍ، وسِلاحاً محمولاً. فإن أَقدمتُم أَقدمنا، وإن أمسكتُم أَمسكنا».

فقال ابن السَّوداءِ: «أحسنتَ».

وقال سالمُ بنُ ثَعلبةَ:

ـ «مَن كان أرادَ بما أتى الدُّنيا، فإنّي لم أُرِد ذلك. واللَّهِ لئن لقيتُهم غداً لا أرجعُ إلى شيءٍ، ولئن طالَ بقائي إذا أنَا لاقَيتُهم لا يردُّ عليَّ جزر جزورٍ. وأحلفُ باللَّهِ، إنَّكم لتفرَقون السَّيفَ فَرَقَ قَومٍ لا تَصيرُ أمورُهم إلاّ إلى السَّيفِ».

فقال ابن السَّوداء: «قد قالَ قولاً».

وقال شُريحُ بنُ أوفىٰ:

ـ «أبرِمُوا أموركم، ولا تُؤَخِّرُوا أمراً ينبغي لكم تعجيلُه، ولا تُعجِّلوا أمراً ينبغي لكم تأخيرُهُ، فإنا عِند النّاسِ بِشرِّ المَنازِل، فلا أدري ما النّاسُ صانعون غداً إذا هم التقَوا».

وتكلَّم عبدُ اللَّه بنُ السَّوداء فقال:

ـ «يا قوم، إنَّ عِزَّكُم في خُلطَةِ النّاسِ، فصانِعُوهُم. وإذا التَقَى النّاسُ غداً فأنشِبُوا القِتال، ولا تُفَرِّغُوهُم للنَّظَرِ الطَّويلَ، فإنَّ مَن أنتُم معه لا يَجدُ بُدّاً مِن أن يَمتنعَ ويشغلَ اللَّه عليّاً وطلحةَ والزُّبيرَ، ومَن رَأَىٰ رأيَهُم، عمّا تكرهون، فأبصِرُوا الرَّأيَ وتفرَّقُوا عليه والنّاسُ لا يَشعُرُون».

وأصبح عليٌّ علىٰ ظَهرٍ. فَمضىٰ ومَضى النّاسُ حتّى انتهىٰ إلى عبد القيس فنزلَ بهم والنّاسُ يتلاحقون به وقد قطعَهُم. ولمّا بلغ أهلَ البصرةِ نزولُ عليٍّ حيثُ نزلَ اجتمعوا إلى طلحة والزُّبير، وأشارُوا عليهما أن يبعثا خَيلاً فتُبيِّتَ عليّاً قبل أن يجتمعَ النّاسُ إليه.

فنهى الزُّبيرُ وقال:

ـ «نرجُو الصُّلحَ، وقد رَدَدنا وافِدهم ـ يعني القعقاعَ ـ على أمر، وأرجو أن يتمَّ».

فقام ضَبرةُ بنُ شيمان إلى طلحةَ فقال:

ـ «يا طلحة! أيتهزَّأُ بنا هذا الرَّجل؟ إنَّ الرَّأيَ في الحربِ خير مِن الشدَّةِ».

فقال:

ـ «يا ضَبرةُ! إنّا وهم مسلمون، وهذا أمرُ حدث، ولم يكُن قبلَ اليوم، ولَسنا ننتظر نُزولَ قرآنٍ فيه، ولا فيه مِن رسولِ اللّهِ ـ ﷺ ـ سُنَّةٌ، وهُو عليٌّ ومَن معه».

فأمّا أصحابُ عليٍّ فتحرّكوا. وقام عليٌّ فقال:

ـ «إنّ الّذي نَدعُو إليه من إقرار هؤلاء، هو شَرُّ، وهو خيرٌ مِن شرٍ منه وهو كامنٌ، وقد كاد يبين لنا، وجاءَت الأحكامُ مِن المسلمين بإيثار أعمِّهما منفعةً وأحوَطِهما».

وأقبل كعبُ بنُ سُورٍ، فقال:

ـ «ما تنتظِرونُ يا قومِ بعدَ توردكم أوائلَهم؟ اقطعُوا هذا مِن العُنُقِ».

فقالوا:

ـ «يا كعبُ! إنّ هذا أمرٌ بينَنا وبين إخواننا، وهو أمرٌ ملتبسٌ، وإنّ الشّي يحسُنُ عندنا اليومَ، ويقبحُ عند إخوانِنا. فإذا كان مِن الغدِ قبحَ عندنا وحسُن عندَهم، وإنّا لَنَحتجُّ عليهم بالحُجّةِ، فلا يَرَونَها حُجَّةً، ثمّ يحتجُّون بها علىٰ أمثالِنَا. ونحنُ نرجو الصُّلحَ إن أجابونا إليه، وإلاّ فإنّ آخرَ الدّاءِ الكَيُّ».

ذِكرُ فتوى لِعَلِيٍّ بنِ أبي طالبٍ عَليه السَّلامُ في تِلكَ الحالِ

وقام إلى عليٍّ ـ عليه السَّلامُ ـ جماعةٌ من أهلِ الكوفة يسألونَه عن إقدامِهم على القومِ، وسألُوهُ: ما الّذي يَرى.

فقالَ عَليٌّ: «الإصلاحُ وإطفاءُ النّائرة، لعلّ اللّهُ يَجمعُ شملَ هذه الأمّة بنا، ويَضعُ حَربَهم. فقد أجابوني».

قالوا: «فإن لم يُجيبُوا؟».

قال: «تَرَكناهُم ما تَرَكُونا».

قالوا: «فإن لم يَترُكُونا؟»

قال: «دفعناهُم عَن أنفُسِنا».

وقام إليه أبو سلامةَ الدَّلاَني فقال:

- «أترَىٰ لِهؤلاءِ القومِ حجَّةً في ما اجتمعوا لَهُ وطلبُوهُ مِن هذا الدَّمِ؟».

قال: «نعم».

قال: «فترى لك حُجَّةً بتأخيرك ذلك؟».

قال: «نعم. إنَّ الشيءَ إذا كان لا يُدرَكُ، فالحُكمُ فيه أحوَطُه وأعمُّه نفعاً».

فقال: «ما حالُنا وحَالُهم إن ابتُلينا غداً؟».

قال: «إنِّي لأرجو ألاّ يُقتَلَ أحدٌ مِنّا ومنهم تَقيٌّ قلبُه للّهِ بما يصنعُ إلاّ دَخَلَ الجنَّةَ».

عليٌ يخطب سائلاً كفَّ الألسن والأيدي

وقام عليٌّ فخطبَ وقال:

- «أيُّها النّاسُ! كُفُّوا ألسِنَتكم عَن هؤلاءِ وأيديَكم، فإنَّهم إخوانُكم، وإيَّاكم أن تَسبِقُونا. فإنَّ المخصومَ مَن خُصِمَ اليومَ».

ثمَّ ارتحلَ على تعبئةٍ، حتّىٰ إذا أطلَّ على القَوم بعثَ إليهم.

- «إن كنتُم على ما فارقتُم القعقاعَ بنَ عمروٍ، فكُفُّوا حتّى ننزِلَ وننظُرَ في هذا الأمرِ».

فأقامُوا ثلاثةَ أيّامٍ لم يكن بينَهم قِتال.

قال:

فَكُنّا نُرسِلُ إليهم ونَدعُوهم. وبعث عليٌّ تلك العَشِيَّةَ عبدَ اللّهِ بنَ عبّاسٍ إلى طلحةَ والزُّبيرِ. وبعثاهُما مِن العَشيِّ محمَّدَ بنَ طلحة إلى عليٍّ وأن يكلِّم كلَّ واحدٍ صاحبَهُ.

فأرسل عليٌّ إلى رؤساءِ أصحابه ما خلا أولئك الَّذين ساروا إلى عثمان، وأرسلَ طلحةُ والزُّبيرُ إلى رؤساءِ أصحابِهما وباتُوا على الصُّلحِ بليلةٍ لم يبيتُوا بمثلها سُروراً بالعافيةِ مِمّا أشرفوا عليه، وباتَ الّذين أثارُوا أمرَ عثمان بشَرٍّ ليلةٍ باتُوها قطُّ، قد أشرفوا على الهَلكةِ، وجعلوا يتشاورُون ليلتَهم كلَّها حتّى اجتمعوا على إمضاءِ ما كانُوا همُّوا بهِ مِن إنشاءِ الحربِ في السِّرِّ، واستَسَرُّوا بهِ خوفاً مِن أن يُفطَنَ لهم. فغَدَوا مع الغَلَسِ وما يُشعِرُ بهم. فانسَلُّوا انسلالاً وعليهم ظُلمةٌ. فخرجَ مُضَريُّهُم إلى مُضَريِّهم، ورَبَعيُّهم إلى رَبَعيِّهم، ويَمانيُّهُم إلى يَمانيِّهم. فوضعُوا فيهم السِّلاح، فتنادىٰ أهلُ البَصرةِ، وثار قومٌ في وجوهِ أصحابِهم الّذين نهَوهُم.

وخرج طلحةُ والزّبيرُ، ووجوهُ النّاس من مُضر، وبعثا إلى الميمنَةِ والمَيسرةِ فَعبَّوهُما، وقالا:

ـ «ما هذا؟».

قالوا: طَرَقَنا أهلُ الكوفة ليلاً.

فقالا: «قد علمنا أنَ عليًا غير مُنتهٍ حتّى يسفِك الدِّماءَ ويستحلَّ الحُرمَةَ، وأنّه لَن يُطاوِعَنا».

ورجعا بأهلِ البصرةِ [وقصف أهل البصرة أولئك] حتى رَدُّوهم إلى عسكرهم. فسمع عليٌّ وأهلُ الكوفة الصَّوتَ. وقد كان ابنُ السّوداء، والأشتر، وأصحابُهما قد وضَعُوا رجلاً قريباً مِن عليٍّ، ووَصَّوهُ بما يُريدون. وقالوا:

ـ «إذا سمعتَ عليًا يسألُ عن الخبر، فتقدَّم وقُل كيتَ وكيتَ».

فلمّا قال علي: «ما هذا؟» قال ذلك الرَّجلُ:

ـ «ما فَجِئنَا إلاّ وقومٌ منهم قد بيَّتُونا، فرددنَاهُم من حيثُ جاؤوا، فوجدنا القومَ على رِجلٍ فركبوا وثارَ النّاسُ».

وقال عليٌّ لصاحبِ مَيمنتِه: «إيتِ الميمنةِ». وقال لصاحب ميسرته: «إيتِ الميسرةَ».

وقال: «فلقد علمتُ أنّ طلحةَ والزّبيرَ غيرُ مُنتهِيينِ حتّى يسفكا الدَّمَ ويستحِلاّ الحُرمةَ، وأنّهما لَن يُطاوعانا».

والسبائيةُ لا تفتُرُ [إنشاباً].

فنادىٰ عليٌّ: «يا أيُّها الناسُ كُفُّوا، فلا شَيءَ!».

وكان يُحبُّ أن يُبدأَ لِتكونَ الحجةُ على القومِ.

وخرج الأحنف بن قيسٍ وبنو سعدٍ مشمّرين قد بعثوا حرقوصَ بن زهيرٍ إلى عليٍّ، فقال:

ـ «يا عَليُّ، إنَّ قومَنا بالبصرةِ يزعمون أنّك إن ظهرتَ عليهم غداً، إنّك تقتل رجالَهم وتسبي نساءَهم».

فقال: «ما مثلي يُخافُ هذا منه. فهل أنتَ مُغنٍ عنّي قومَكَ؟».

قال: «نعم. واختَر مِنّي واحداً مِن اثنين: إمّا أن آتيَكَ، فأكونَ معك بنفسي، وإمّا أن أكفَّ عنكَ عشرةَ آلافَ سَيفٍ».

قال: «بل اكُففِ عَنّي عشرةَ آلافِ سيفٍ».

فرجعَ، ودعا قومَهُ إلى القُعودِ والكفِّ، ففعلُوا.

ما جَرى بينَ عليٍّ وطلحةَ والزُّبيرِ من حَديثٍ

ثُمَّ إنّ الزُّبير خرج على فرسٍ له، عليه سِلاحٌ، فقيل لِعليٍّ:

ـ «هذا الزُّبيرُ».

قال: «أما إنّه أحرى الرَّجلين إن ذُكِّرَ باللّهِ أن يَذكُرَ».

وخرج طلحةُ، فخرج إليهما عليٌّ، ودَنا مِنهما حتّى اختلفت أعناقُ دَوابِّهما فقال عليٌّ:

ـ «لَعَمري لَقد أعددتُما سِلاحاً، وخيلاً، ورجالاً، إن كنتُما أعددتُما عُذراً عند اللّه فاتَّقِيا اللّهَ، ولا تكونا ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢] ألم أكُن أخاً لَكُما في دينكما تُحرِّمان دَمي وأحرِّم دَمَكُما؟ فهل من حَدثٍ أحلَّ لكُما دَمي؟».

قال طَلحةُ: «ألَّبتَ على عثمان».

قال عليٌّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٥] يا طلحةُ، تطلبُ بدم عثمان، فلعنَ اللّهُ أشدَّنا كان عليه. يا زُبيرُ! أتذكر يومَ مَررتَ معَ رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ في بَني غَنم، فنظر إليَّ وضَحِكَ وضَحِكتُ إليه، فقلتَ: لا يَدَعُ ابنُ أبي طالبٍ زَهوَه؛ فقال لَك رسول اللّه: مَه! إنّهُ ليس كذلك، وَلتُقَاتِلَنَّهُ وأنتَ لَهُ ظالِمٌ؟

فقال: «اللّهم نَعم، ولو ذكرتُ، ما سِرتُ مَسيري هذا. واللّهِ لا أقاتِلُك أبداً».

فانصرف عليٌّ، وحكى ذلك لأصحابه. ورجع الزُّبير إلى عائشة فقال لها:

ـ «ما كُنتُ في مَوطنٍ مُذ عَقلتُ وأنَا أعرفُ فيه أمري غيرَ مَوطني هذا».

قالت: «ما تُريدُ أن تَصنعَ؟».

قال: «أُريدُ أن أدَعَهم وأذهبَ».

قال له ابنُه عبدُ اللّهِ: «جمعتَ هذين الغارّين حتّى إذا جرَّد بعضُهم لبعضٍ أردتَ أن تَتركَهم وتذهبَ. أحسستَ راياتِ ابن أبي طالبٍ وعلمتَ أنّها فِتيةٌ أنجادٌ».

فغضبَ الزّبيرُ حتّى أرعِدَ، ثمّ قال:

ـ «ويحكَ! إنّي قد حلفتُ ألاّ أقاتِلَهُ».

قال: كَفِّر عن يَمينِكَ.

فدعا غلاماً له يُقال له: مَسحولٌ فأعتَقَه. فقال عبد اللّه بن سليمان التّيميُّ:

لــم أَرَ كــالــيَــومِ أخــا إخــوانِ أعــجــبَ مــن مُــكــفِّــرِ الأَيــمــانِ
بالعِتقِ في مَعصِيةِ الرَّحمانِ

وإنّما حكينا هذه الحكايةَ، لأنَّ فيها تجربةً تُستفادُ، وإن ذهبَ ذلك على قوم، فإنّا نُنبِّهُ عليه، وذلك أنَّ المُحنقَ رُبّما سُكِّنَ بالكلام الصَّحيح، والسّاكنَ رُبّما أُحنِقَ بالزُّورِ من الكلام، وذلك بحسبِ تأتي من يُريدُ ذلك، وإتيانِه مِن وجهِه.

ما يُحفَظُ مِن كلامِ الأَحنَفِ في الاعتِزالِ وحَضِّ النّاسِ عَليهِ

إنّه لمّا رجع مِن عندِ عليٍّ لَقِيَهُ هِلالُ بنُ وَكيعٍ، وهو سَيِّدُ رَهطِه، فقال:

ـ «ما رأيُك؟».

قالَ: «مكاتفةُ أمِّ المؤمنين. أفَتَدَعُنا؟ وتعتزِلُ عَنّا؟ وأنتَ سَيِّدُنا».

قالَ: «إنّما أكونُ سَيِّدَكم غداً إذا قُتِلتَ وبَقيتُ».

فقالَ هِلالٌ: «سبحانَ اللّهِ تقولُ هذا وأنتَ شيخُنا؟».

فقالَ: «أَنَا الشَّيخ المَعصِيُّ وأنتَ الشّابُّ المُطاعُ».

ولمّا ابتدأَ القِتالُ قال عليٌّ لأصحابه:

ـ «أيُّكم يعرضُ عليهم هذا المصحفَ ويَدعُوهُم إلى ما فيه، فإن قُطِعَت يَدهُ أَخَذَهُ بيدِه الأُخرى، فإن قُطِعت أَخَذَهُ بأسنانِه؟».

فقال فتًى شابٌّ: «أَنَا».

فطافَ على أصحابه يَعرِضُ ذلك عليهم، فلم يَقبَلْهُ إلاّ ذاكَ الفتى.

فقالَ له عليٌّ:

ـ «اعرِض عليهم هذا وقُل: هو بينَنا وبينَكُم من أوّلِه إلى آخرِه، فاللَّهَ اللَّهَ في دِمائنا ودِمائكم».

فحملَ القومُ على الفَتى وبيدِه المُصحفُ، فقُطعت يَداهُ، فأخَذَهُ بأسنانِه حتّى قُتلَ. فقال عليٌّ لأصحابه:

ـ «قد طابَ لكمُ الضِّرابُ».

فقاتَلُوهُم، فالتحمتِ الحربُ، واشتدّ القتالُ إلى العصرِ. ثمّ انهزمَ أصحابُ الجملِ وعائشةُ يومئذٍ في هَودَجِها على الجملِ الّذي يُقال له: «عَسكَر». وانهزمَ الزُّبيرُ نحو وادي السّباع، وتشاغلَ النّاسُ عنه، واتّبعَهُ قومٌ. فلمّا رأى الفُرسان تَتبعُهُ، كرَّ عليهم. فلمّا عرفُوه رجعُوا عنه، وتركوهُ. وكان عليٌّ وصّاهُم ألاّ يَتبَعُوا مُدبِراً، ولا يُجهِزُوا على جريحٍ.

وأصابَ طلحةَ سَهمٌ، فَشَكَّ رُكبَتَهُ بِصفحةِ الفَرس، فامتلأ مُوزَجُهُ دَماً وضَعُف.
فانتهى إليه القعقاعُ في نَفَرٍ وهو يقول:
ـ «إليَّ عبادَ اللّه! الصَّبرَ الصَّبرَ».
فقال له:
ـ «يا أبا مُحمدٍ! إنّكَ لَجريحٌ، وإنّك عَمّا تُريد لَعليلٌ، فادخُلِ الأبياتِ».
فقال: «يا غلام! أدخِلني، وأبغِني مكاناً».
فأُدخِلَ ومعه غلامٌ ورجلان. واقتتلَ النّاسُ بعدَه، وأقبلَ النّاس في هزيمتهم. فلمّا انتهوا إلى الجملِ، عادُوا قلباً كما كانوا حيثُ التَقَوا؛ وعادُوا في أمرٍ جديدٍ، ووقفتِ الميمنَةُ والميسرةُ.
وقالت عائشةُ لكعبِ بن سورٍ وهو آخذٌ حطامَ الجملِ:
ـ «يا كعبُ: خَلِّ عنِ البعيرِ، وتقدَّم بكتابِ اللّه، فادعُهُم إليه».
ودفعت إليهم مُصحفاً. فاستقبلهم بالمُصحفِ. وكانت السّبائيَّةُ أَمامَ النّاسِ يَخافون أن يَجريَ الصّلحُ. فاستقبلَهم كعبٌ بالمصحفِ، وعليٌّ يَزَعُهم، ويأبَون إلاّ إقداماً، فرشَقُوا كعباً رَشقاً واحداً، فقتلُوهُ، ورَمَوا الهَودَجَ. فجعلت عائشةُ تُنادِي:
ـ «البقيّة، البقيّة يا نَبيَّ اللّهِ!».
فيأبَون إلاّ إقداماً.

أوّلُ ما أحدثَته عائشةُ

فكان أوّل ما أحدثته عائشة حين رأت النّاس يأبَون إلاّ قتالها أن قالت:
«أيّها النّاسُ! العَنُوا قتلةَ عثمان وأشياعَهم».
وأقبلت تدعو، وضجّ أهلُ البصرةِ بالدُّعاءِ. وسمع عليٌّ الدُّعاءَ، فقال:
ـ «ما هذه الضَجّةُ؟».
قالوا: «عائشة تدعُو ويدعون معها على قَتَلَةِ عُثمان».
فأقبلَ عليٌّ يدعُو ويقول:
ـ «اللّهمَّ العن قتلةَ عُثمان وأشياعَهم».
وذمرت عائشةُ النّاسَ لمّا رأت أنّ النّاسَ لا يُريدون غيرها ولا يكفّون. فازدلفت مُضَرُ البصرةِ، فقصفت مُضَرَ الكوفةِ حتّى زوحم عليٌّ. فكانت الحربُ صبيحةَ هذا اليومِ مع طلحة والزّبير، فلمّا انهزم الزّبيرُ، وأصيب طلحةُ، وذلك بعد الظّهر، صارت الحربُ مع عائشة.

قال محمدُ ابن الحنفيَّة: دفع أبي إليّ اللِّواءَ، وقال:

ـ «احمل!».

فحملتُ حتّى لم أرَ موضعاً لحملةٍ وقد كان زوجِمَ عليٌّ.

فنخس عليٌّ قفا محمّدٍ، وقال: «تقدَّم!».

وقال: فلم أجد متقدَّماً إلاّ على سنانٍ فقلت:

ـ «لا أجد متقدَّماً».

فَتَنَاوَلَ الرُّمحَ مِن يَدي مُتناوِلٌ لا أدري مَن هو، فنظرتُ، فإذا أبي بين يَدَيَّ. واقتتلت المجنَّبتان حين تزاحَفَتا قِتالاً يُشبهُ ما فيه القلبان، وارتجز الفُرسان، وكثُرَ القَتلى وتَنادى الكُماةُ في عسكر عليٍّ وعسكرِ عائشة، لمّا رَأَوا الصَّبر الشديدَ:

ـ «يا أيّها النّاسُ! طَرِّفُوا إذا فُرِغَ الصَّبرُ ونُزِع النَّصرُ».

فجعلوا يتوخَّون الأطرافَ: الأيديَ والأرجُلَ، فما رأيتُ وقعةً قطُّ قبلَها ولا بعدَها، ولا سُمع بها، أكثرَ يَداً مقطوعةً ورجلاً مقطوعةً منها، لا يُدرى صاحبُها. فكان الرَّجلُ من هؤلاءِ وهؤلاءِ إذا أُصيبَ بشَيءٍ مِن أطرافِه استقتل إلى أن يُقتل.

ونادت عائشةُ من هودَجِها بصوتٍ عالٍ فيه كسرةٌ.

ـ «إيهٍ، للَّهِ أنتم. جالِدُوا جِلاداً يُتفادى منه، بخٍّ بخٍّ، سُيوفٌ أبطحيّةٌ، وسيوفٌ قُرشيّةٌ». ونادت بنُو ضبَّة: «ويهاً جمرة الجَمراتِ».

وأحدقوا بِجَمَلها حتّى أسرع فيهم القتلُ ورقُّوا. وكانت عائشةُ تقول:

ـ «ما زال رأسُ الجمل معتدلاً حتّى قُتلت بنو ضبَّة حَولي».

وضَربُوا ضَرباً ليس بالتّقدير، حتّى إذا كثر القتلى وظهرَ في العسكر التّطريفُ كره بعضُهم بعضاً، وارتدّتِ المُجَنَّبتانِ، فصارتا في القلبِ. ثمّ تلاقَوا جميعاً بقلبيهم. فأخذ ابن يثربي برأسِ الجَملِ، وارتجز وادّعى قتلَ علباء بن الهيثمِ، وزيد بن صوحان، وهند بن عمرو، فقال:

أَنَا لِمَن يُنكِرُني ابنُ يَثرِبي قاتِلُ عِلباءَ وهندِ الجَمَلِ
وزيدِ صوحانٍ عَلَى دينِ عليٍّ

فناداه عَمّارٌ: «لقد لُذتَ بِحريزٍ وما إليكَ من سبيلٍ، فإن كُنتَ صادقاً فاخرج من هذِه الكتيبةِ إليَّ».

فترك الزّمامَ، وبَرزَ حتّى كان بينَ صفِّ عائشةَ وصفِّ عليٍّ، وأقبلَ إليه عَمّارٌ، وهو يَومَئذٍ ابنُ تسعين سنةً وقد شَدَّ وسطَهُ بحبلٍ، وعليه فَروٌ. فضربَهُ ابنُ يثربي فَنَحا لَهُ

دَرَقَته، فنشب السيفُ فيها، وأسفّ عمّارٌ لرجليه، فضربَهُ فقطعهما، فوقع على استِه، وحماه أصحابُه فارتُثَّ بَعدُ، فأُتِيَ به عليُّ بنُ أبي طالبٍ. فقال:

ـ «استبقني يا أميرَ المؤمنين».

فقال: «بعدَ ثلاثةٍ تضربُ وجوهَهم بسيفِك؟».

وأمَرَ بِه، فضُربت عُنُقُهُ.

وتتابع النّاسُ على زمامِ الجَمَلِ حتّى قُتِلَ أربعون رجلاً يرتجزون ويأخذون الخِطامَ فيقتلُون.

فحدّث عبد اللّه بنُ الزّبير قال:

أمسيتُ يومَ الجمل وبي سبعٌ وثلاثون جراحةً من طعنةٍ وضربةٍ، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قطُّ، ما ينهزم منّا أحدٌ وما يأخذ بخِطامِ الجمَلِ أحدٌ إلاّ قُتِلَ. فأخذتُ بالخِطام، فقالت عائشةُ:

ـ «مَن أنتَ؟».

قلت: «ابنُ الزّبير».

قالت: «واثُكل أسماءَ».

ومرَّ بي الأشتر، فعرفتُه، وعانقتُه، وسقطنا جميعاً، وناديتُ:

ـ «اقتلوني ومالكاً».

فجاءَ ناسٌ مِنّا، فقاتَلُوا عنا حتّى تَحاجزنا، وضاع مِنّي الخِطامُ. فسمعتُ عليًا وهو يُنادي:

ـ «اعقرُوا الجَمَل، فإنّه إن عُقرَ تفرّقُوا».

فضربه رجلٌ، فسقط، فما سمعتُ قطُّ أشدَّ مِن عَجيجِ الجَمل.

وفي روايةِ أبي بكرِ بنِ عَيّاشٍ عن عَلقمةَ أنّه قال:

قلتُ للأشتر: «قد كنتَ كارهاً لِقتلِ عثمان، فما أخرجك بالبصرةِ؟».

قال: «إنَّ هؤلاءِ بايعُوهُ، ثمّ نكثوا، وكان ابن الزّبير هو الّذي هزَّ عائشةَ على الخُروجِ فكُنتُ أدعُو اللّهَ أن يُلَقِّينيهِ، فلقيني كفَّةً لكفَّةٍ. فما رضيتُ لِشدَّةِ ساعدي أن قُمتُ في الرِّكابِ، فضربتُه ضربةً على رأسِه فصرعتُهُ».

قُلتُ: «فهو القائلُ: اقتلوني ومالكاً؟».

قال: «لا. ما تركتُه وفي نفسي مِنهُ شَيءٌ. ذاك عبدُ الرَّحمن بن عَتّابِ بنِ أسيدٍ، لَقِيَني، فاختلفنا ضربتين، فصرعني وصرعتُه، فجعل يقولُ: نحنُ مُصطرِعُون، اقتلوني

ومالكاً، والنّاسُ لا يعلمون مَن مالكٌ، فلَو يعلمون لَقَتَلُوني».

ثُمَّ قال أبو بكر بن عَيّاشٍ: «هذا كأنَّك شاهدُه».

وتحدَّث عوفُ بنُ أبي رجاء قال: رأيتُ رجلاً قد اصطلمت أُذُنُه فقلت:

ـ «أخِلقةٌ، أم شيءٌ أصابَكَ؟».

قال: أحدِّثُكَ: بَينا أَنَا أمشي بين القتلى يومَ الجملِ، فإذا رجلٌ يفحصُ برجله، وهو يقول:

لقد أوردَتنا حَومةَ المَوتِ أُمُّنا ولـم نَـنصـرِف إلاّ ونـحـنُ رِواءُ

قال: قلت: «يا عبدَ اللّه قل: لا إله إلاّ اللّهُ».

قال: «ادنُ مِنّي، وَلَقِّني، فإنّ في أُذُني وقراً».

قال: فَدَنَوتُ مِنه، فقال لي:

ـ «ممّن أنتَ؟».

قُلتُ: «رجلٌ مِن أهل الكوفة».

قال:

فوثَبَ عَليَّ، واصطلم أُذُني كما تَرى وقال:

ـ «وإذا رجعتَ إلى أمّكَ، فأخبِرها أنّ عُميرَ بن الأهلب الضَّبِّي فَعَلَ بِكَ هذا».

وتمامُ أبياتِ عُميرِ بنِ الأهلبِ:

أطَعنا بني تَيم بنِ مُرَّةَ شَقوَةً وهَـل تَـيـمٌ إلاّ أَعـبُـدٌ وإمـاء

لقد كان عَن نَصر ابنِ ضبَّةَ أُمَّهُ وشـيـعـتَـهـا مَـنـدوحـةٌ وغَـنـاء

ورُوي عن الصَّعبِ بن عطيّة قال: كان مِنّا رجلٌ يُدعى الحارثَ، قال يومئذٍ:

ـ «يا آلَ مُضَرَ، علامَ نقتلُ بعضُنا بعضاً؟».

فنادَوا: «لا ندري، إلاّ أنّا إلى قضاءٍ، وما يكفُّون».

وقال القعقاع بعد ذلك: ما رأيتُ شيئاً أشبهَ بشيءٍ من قتال القلب يوم الجمل بقِتالِ صفّين. لقد رأيتُنا نُدافعهم بأَسِنّتِنا، ونتَّكىءُ على ازِجَّتِنا، وهم مثل ذلك، حتّى لو أنَّ الرِّجال مَشَت عليها لاستقلّت بِهِم.

وقال عبدُ اللّه بنُ سنان الكاهلي: لمّا كان يوم الجمل تراميَنا بالنّبل حتّى فنيت، وتَطاعَنّا بالرِّماح حتّى تشبّكت في صُدورنا وصُدورهم، حتّى لو سُيِّرت عليها الخيل لَسارت. ثمّ قال عليٌّ:

ـ «السّيوف يا أبناءَ المهاجِرين».

قال الشيخ: فما دخلتُ دار الوليد بالبصرةِ وسمعتُ صوت القصّارين يضرِبون إلاّ ذكرتُ ذلك اليوم، وما شبَّهتُ هودج عائشة إلا بالقُنفُذ.

ثمّ أمر عليُّ عليه السّلام بحملِ الهَودج من بين القتلى. وقد كان القعقاعُ وزُفرُ بن الحارث أنزلاهُ عن ظهر البعير، فوضعاهُ إلى جنب البعير. فأقبل محمَّد بن أبي بكر ومعه عمّارٌ حتّى احتملاهُ، وأدخلَ محمدٌ يَدَهُ.

فقالت: «مَن أنتَ، ويلك؟».

قال: «أنَا أخوكِ محمدٌ».

قالت: «بل مُذمَّمٌ!».

قال: «يا أخيَّةَ! هل أصابك شَيءٌ؟».

قالت: «ما أنت من ذاك؟».

قال: «فمَن إذاً الضُلاّلُ؟».

قالت: «بل الهُداةُ».

وانتهى إليها عليُّ فقال: «كيف أنتِ أمّه؟».

قالت: «بخيرٍ».

قال: «يغفر اللّهُ لَكِ».

قالت: «وَلَكَ».

وأمّا الزُّبيرُ فإنّه تبعه ابنُ جُرموزٍ فقتلَهُ. وأمّا الأحنفُ فقصد عليًا ومعه ابنُ جرموزٍ.

فقال عليُّ للأحنفِ: «تربَّصتَ».

فقال: «ما كنتُ أراني إلاّ قد أحسنتُ، وبأمرِك كان يا أميرَ المؤمنين، فارفُق، فإنَّ طريقَكَ الَّذي سلكتَ بعيدٌ، وأنتَ غداً أحوج منك أمسِ، فاعرِف إحساني، واستصفِ مَوَدَّتي، ولا تقُولَنَّ مِثلَ هذا. فإنّي لم أزل لك ناصحاً».

وحُملت عائشةُ إلى دارِ عبد اللّه بن خلف الخُزاعي. وكان عبد اللّه هذا قُتِلَ يومَ الجمعةِ مع عائشة، وقُتلَ عثمان أخُوهُ مع عليٍّ. وأمّا الجرحى فإنَّهم انسلُّوا في جوف اللَّيلِ، ودخلوا البصرةَ مَن كان يُطيق الانبعاث.

وسألت عائشةُ عن عدّةٍ ممَّن كانوا مَعها وممَّن كانوا عليها. فكُلّما نُعِيَ واحدٌ منهم قالت: «رحمه اللّه». فأمّا عليُّ فصلّى على قتلى هؤلاء، وجمع الأسلابَ إلى المسجد بالبصرةِ، ونادى: «مَن عَرَفَ شيئاً فليأخُذهُ، إلاّ سلاحاً كان في الخزائنِ عليها سِمَةُ السُّلطان».

وصلّى عليٌّ في المسجد، ثمّ دخل البصرةَ، فأتاهُ النّاسُ. ثُمَّ راحَ إلى عائشة على بغلتِه، وهي في دار عبد اللّه بن خَلفٍ، وهي أعظم دارٍ بالبصرةِ. فوجَدُوا النِّساءَ يَبكينَ على عبد اللّه وعثمان ابنَي خلفٍ، وصفيَّةُ بنتُ الحارثِ مختمِرةٌ تَبكي، فلمّا رأتهُ قالَت:

ـ «يا عليُّ، يا قاتِلَ الأحبَّة، يا مُفَرِّقَ الجمع، أيتمَ اللّهُ مِنكَ بَنيكَ كما أيتمتَ وُلدَ عبد اللّه».

فلم يَرُدَّ عليها شيئاً، ولم يَزل على حالِه، حتّى دخل على عائشةَ. فسلَّمَ عليها، وقَعَدَ عِندَها. ثُمَّ قال: «جَبَهَتنا صَفيّةُ. أمّا إنّي لم أرَها منذ كانت جاريةً حتّى اليوم».

فلمّا خرج عليٌّ أقبلت عليه، فأعادت عليه الكلامَ. فكفَّ بغلَتَهُ ثمّ قال:

«لهَمَمتُ ـ وأشار إلى بابٍ من أبواب الدّارِ ـ أن افتحَ هذا البابَ وأقتُلَ مَن فيه، ثُمَّ هذا، وأقتلَ مَن فيه».

وكان ناسٌ من الجرحى لجَأُوا إلى عائشة. فأُخبرَ عليٌّ بمكانهم فتغافَل عنهم. فسكتت صفيّةُ، وخرج عليٌّ.

فقال له رجلٌ مِنَ الأزدِ: «ما تُفلتُنا هذه المرأةُ».

فغضبَ وقال: «مَه! لا تَهتِكُنَّ سِتراً، ولا تَدخُلُنَّ داراً، ولا تُهيجنَّ امرأَةً بأذًى وإن شَتمنَ أعراضَكم، وسفَّهنَ أمراءَكم وصُلَحاءَكم، فإنّهنَّ ضِعافٌ. ولقد كُنّا نُؤمَرُ بالكفِّ عنهنَّ وهُنَّ مُشركاتٌ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيُكَافِئُ المَرأَةَ ويتناوَلُها بالضَّربِ، فيُعَيَّرُ به عَقِبُهُ من بعدِه. فلا يبلُغَنّي عَن أحدٍ عَرضٌ لامرأةٍ، فأُنكِّلِ به شِرَارَ النّاسِ».

ومَضى عليٌّ، فلَحِقَ به رجُلٌ فقال: «يا أميرَ المؤمنين، قامَ رجلان مِمَّن لقيتُ على الباب فتناوَلا مَن هو أمضُّ لك شتيمةً مِن صَفيَّة».

قال: «ويحكَ، لعلَّها عائشةُ!».

قال: «نَعَم».

فبعث القعقاعَ بن عَمرٍو إلى البابِ. فأقبل بمَن كان عليه. فأَحالُوا على رَجُلين.

فقال: «أَضرِب أعناقَهما».

ثمَّ قال: «بَل أُنهِكهما عُقوبةً».

ثُمَّ قال: «لا، بل أُضرِبهما مائةً وأُخرِجهما من ثيابهما».

ثُمَّ بايع أهلُ البصرة حتّى الجرحى والمستأمِنة. فلمّا فرغ مِن بيعتهم نظر في بيت المال، فإذا فيه ستّمائة ألفٍ. فقسمها على مَن شهد معه. فأصاب كلَّ رجلٍ منهم خمسمائة.

فقال لهم: «لَكُم إن أظفَرَكُم اللّه بالشّام، مثلُها إلى أعطياتكم».

فخاض في ذلك السَّبائيّة وطعنوا على عليٍّ مِن وَراءُ وَراءُ.

سيرة عليّ في من قاتل يوم الجمل

وكان من سيرة عليٍّ ألاّ يقتلَ مُدبراً، ولا يُذفِّف على جريحٍ، ولا يكشفَ سِتراً، ولا يأخذَ مالاً.

فقال قومٌ يومئذٍ:

ـ «ما يُحلُّ لَنا دماءَهم، ويُحرِّمُ علينا أموالَهم؟».

فقال عليٌّ: «القومُ أمثالُكم. من صفح عنّا فهو مِنّا ونحن منه؛ ومَن لجَّ حتّى يُصابَ فقِتالُه مِنّي على الصَّدرِ والنَّحرِ، وإنَّ لكم في خُمسِه لَغِنًى».

فيومئذٍ تكلَّمت الخوارجُ.

وكتب كتابَ البشارةِ إلى عامله بالمدينة. وكان زيادُ بنُ أبي سفيان ممَّن اعتزلَ. فلمّا انجلتِ الحربُ، ذكَرَهُ عليٌّ، واستبطأَهُ. فقال ابن أخيه عبد الرَّحمن بن أبي بكرة، وكان ورد مستأمِناً:

ـ «هو مستأمنٌ يا أمير المؤمنين».

فقال: «امش أمامي، فاهدِني إليه».

ففعلَ. فلمّا دخل عليه قال: «تقاعدتَ وتربَّصتَ».

فاعتذر زيادٌ. فقبِلَ عُذرَه، واستشارَهُ في من يولِّيه البصرةَ، وأرادَهُ عليها.

فقال: «يا أمير المؤمنين، رجلٌ من أهلِ بيتكَ يسكُنُ إليه النّاسِ، فإنّه أجدرُ أن يطمئنُّوا إليه، وسأكفيه وأشيرُ عليه».

فافترقا على ابن عبّاسٍ، ووَلّى زياداً الخراجَ وبيتَ المالِ.

السَّبائيَّةُ ترتحل بغير إذن عليّ

وأَعجلتِ السبائيّة عليًا عن المقام، وارتحلوا بغير إذنه. فارتحل على آثارِهم ليقطعَ عنهم أمراً إن كانُوا أرادُوهُ. وقد كان له مُقامٌ لَولاهُم.

وكان عدّةُ القتلى يومَ الجمل عشرة آلافٍ من الفريقين.

وتحدَّث النّاسُ:

إنَّ أهلَ المدينة علموا بيومِ الجملِ يومَ الخميس قبلَ أن تغربَ الشَّمسُ، وفيه كان القتالُ، وذلك مِن نسرٍ مرَّ بماءٍ حَولَ المدينة معه شَيءٌ متعلِّقٌ، فتأمَّلهُ النّاسُ، فوقع، فإذا كفٌّ فيها خاتَم نقشُه: «عبد الرَّحمن بن عتّابٍ». ثمّ جعلَ مَن بينَ مكّةَ والمدينةِ ممّن

قرب من البصرةِ أو بَعْدَ، قد عَلِمُوا بالوقعة ممّا تنقُلُ إليهم النُسور من الأيدي والأقدام.

تجهيزُ عليٍّ عائشةَ

وجهَّز عليٌّ عائشةَ لغُرَّةِ رجب سنة ستٍّ وثلاثين بكُلِّ شيءٍ ينبغي لها، وأخرجَ معها كلَّ من نَجا مِمَّن خرج معها إلاّ مَن أحبَّ المُقامَ. واختار مِن نِساءِ البصرةِ المعروفاتِ أربعين امرأةً، وأَمَرَ أخاها محمَّداً بالخروجِ معها، وخرج في تشييعِها أميالاً، وسرَّح بَنيه معها يوماً.

ما جَرى بينَ مُعاويةَ وقيسٍ

وكان عليُّ بن أبي طالبٍ ولّى قيسَ بنَ سعد بن عُبادةَ مِصرَ لمّا قُتل عثمان، فسار إليها، وبايع أهلها لعليِّ بن أبي طالبٍ، وداری النّاسَ. فاستجابَ له أهلُ مصرَ إلاّ أهل قريةٍ يقال لها: «خَرِنبا»، فإنَّ أهلَها أعظموا قتلَ عثمان، وكانوا نحو عشرةِ آلاف رجلٍ من الوجوه الفرسانِ فكَرِهَ قيسٌ أن يُهَيِّجَهُم، فراسَلَهم قيسٌ وراسلُوه يقولون:

ـ «إنّا لا نقاتِلُكَ، فابعث عُمّالَك، فالأرضُ أرضُكَ، ولكن دَعنا عَلى حالِنا حتّى ننظرَ إلى ما يصيرُ أمرُ النّاسِ».

فأمسك عنهم. وأرسلَ إليهم عُمّالَهُ، فجباهم، ثُمَّ توثَّبَ عليه قومٌ بمصرَ، فداراهُم. وكان قيسٌ ذا حزمٍ ورأيٍ. فجبى الخراجَ لا يُنازعه أحدٌ.

وخرج أمير المؤمنين إلى أهلِ الجمل وهو على مِصرَ، ورجع إلى أرضِ الكوفة من البصرةِ وهو بمكانه. فكان أثقلَ خلق الله على معاويةِ لقربه من الشّام مخافة أن يُقبِلَ إليه عليٌّ في أهل العراق ويُقبِلَ إليه قيسٌ في أهلِ مِصرَ فيقعَ معاويةُ بينَهما.

فكتبَ إليه معاوية وعليُّ بن أبي طالبٍ بالكوفةِ يومَئذٍ، يُعظِّم عليه قَتلَ عثمان، ويذكر لهُ أنَّ صاحبَه أغرى به النّاسَ، وحملهم على قتلِه، ويحمل قيساً على مُتابعتِه، ويضمن له سلطانَ العراقين إذا ظهر، ما بَقي، ويشترط له سلطانَ الحجاز يولّيه مَن شاءَ مِن أهلِه، ويقول له بعد ذلك:

ـ «وسَلني غير هذا ممّا تُحبُّ، فإنّك لا تسألُني شيئاً إلاّ أجبتُكَ إليه».

فأجابه قيسٌ بالاعتذار من قتل عثمان، وأنّه لم يشهدهُ ولا صاحبُه أمير المؤمنين، ولا رَضيَهُ، واستمهله ممّا عرض عليه من متابعته، وقال:

ـ «لي فيه نظرٌ ورأيٌ».

فلمّا نظر في كتابه معاويةُ وقَرأهُ لم يَرَهُ إلاّ مباعداً، ولم يأمَن أن يكونَ مُكائداً. فكتبَ كتاباً آخر يقول له:

ـ «لم أرَكَ تَدنُو فأعُدَّكَ سِلماً، ولَم أرَكَ تُباعِدُ فأعُدَّكَ حَرباً، وليس مِثلي مَن يُصانعُ بالخداعِ ومعي أعنّة الخيل، وعددُ الرّجال».

فلمّا قرأ قيسٌ كتابَه ورأى أنّه لا يقبلُ منه المدافعة، أظهر له ذات نفسِه وكتبَ إليه:

ـ «العجبُ من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطِك رأيي، تَسومُني الخروجَ من طاعةِ أَولَى النّاسِ بالإمارةِ، وأقوَلِهم بالحقّ، وأقربِهم إلى الرَّسولِ، وأهداهُم سبيلاً، وتأمرُني بالدُّخولِ في طاعتِكَ، طاعةِ أبعدِ النّاسِ من هذا الأمرِ، وأقولِهم بالزُّورِ، وأضَلِّهم سبيلاً، وأبعدِهم من اللّهِ ورسولِه وسبيلِه، وَلَدِ ضالّينَ مُضِلّينَ، طاغوتٍ من طَواغيتِ إبليسَ، فأمّا قولُكَ: إنّي مالئٌ عليكَ خيلاً ورجلاً، فواللّه إن لَم أشغلكَ بنفسِكَ حتّى تكونَ نفسُكَ أهمَّ إليكَ، إنّكَ لَذُو جَدٍّ والسّلام».

فلمّا أتى معاوية كتابُ قيسِ بن سعدٍ هذا. يَئِسَ منه، وثقُلَ عليه مكانُه، وأخذ في طريق الحيلةِ عليه، والمكيدةِ له.

ذكرُ مَكيدةِ مُعاويةَ لِقيسٍ وما تمَّ لهُ عليه

فأخذ معاويةُ يكيدُ قيساً من قِبَل عليٍّ، فيُظهر مرّةً كتاباً يفتعله مِن قيس إليه بأنّه: منكرٌ لِقتلِ عثمان، تائبٌ إلى اللّه منه، وأنّ هَواهُ ومَيلَهُ معهُ، في أشياء تُشبِهُ هذا الكلام؛ ومرَّةً يُظهرُ رسولاً يزعمُ: أنّه مِن قِبَلِه ويُلَقِّنُه ما يُقوّي به قلوبَ شيعتِه من أهل الشّام؛ ومرَّةً يَقولُ لِثقاتِه: لا تَسُبُّوا قيس بنَ سعدٍ، فإنَّه لنا شيعةٌ تأتينا نصيحتُه سِرًّا، ألا تَرَونَ ما يفعل بإخوانكم من أهلِ حزبنا يُجرى عليهم أرزاقهم. ويُؤمِن سربَهم ويُحسن إلى كل راكبٍ قَدِم عليه منكم؟

فسمع جواسيس أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ وعُيُونُه ذلك، فكتبُوا إليه به. ولم يزل معاويةُ بأمثالِ هذا المكائد حتّى اتّهم عليٌّ قيساً، وجمع ثقاته، وقال لهم ما كتب إليه من أمرِ قيسٍ، فقالوا:

ـ «يا أمير المؤمنين، دع ما يُريبُك إلى ما لا يُريبك. اعزل قيساً، وابعث بثقتك مكانَه».

فقال عليٌّ: «إنّي واللّهِ ما أصدّقُ هذا على قيسٍ».

فقال عبد اللّه بن جعفر: «اعزله يا أميرَ المؤمنين، فوالله، لئن كان هذا حقًّا لا يعتزل لك». فبينا هُم كذلك إذ جاء كتابٌ من قيس بن سعدٍ يُخبرهُ:

ـ «إنّ رجالاً قد سألوني أن أكفَّ عنهم وأدعَهُم حتّى يستقيمَ أمرُ النّاس فنرى ويَرَوا، فرأيتُ أن أكفَّ عنهم، وألاّ أتعجَّلَ حربَهم، فلعلَّ اللّهُ يعطفُ بقُلوبهم».

فقال عبد اللّه بن جعفر: «يا أمير المؤمنين، ما أَخوفَنَي أن يكون هذا ممالأةً منه لهم. فمُرهُ بقتالهم».

فكتب إليه عليٌ:

ـ «أما بعدُ، فَسِر إلى القوم الّذين ذكرتَ، فإن دخلوا في ما دخل فيه المسلمون، وإلاّ فناجِزهم، والسّلام».

فلمّا أتى قيسَ بن سعدٍ الكتاب، لم يَتَمالك أن كَتَبَ:

ـ «أمّا بعدُ، يا أميرَ المؤمنين، فقد عجبتُ لأمرِك بقتالِ قوم كافّينَ عَنكَ مُفرّغيكَ لقتالِ عدُوّك، وإنّك متى حاربتَهم ساعَدُوا عليك عدوَّك. فأطِعنّي يا أميرَ المؤمنين، واكفُف عنهم، فإنَّ الرَّأيَ تركُهم».

فلمّا أتى عليًا كتابُ قيسٍ قرأهُ على أصحابه. فقال عبد اللّه بن جعفر:

ـ «ابعَث محمّد بن أبي بكرٍ على مِصرَ يَكفِكَ، فقد بلغني عن قيسٍ هَناتٌ وأقوالٌ» يعني ما كان يُشيعُه معاويةُ عنه.

فكتبَ عليٌ عهد محمَّد بن أبي بكرٍ على مصر. فلمّا قدم محمَّدٌ مصر، خرجَ قيسٌ، فلحق بالمدينة. فأخافه مَروان والأسودُ بن البَختَري حتّى إذا خافَ أن يُقتَلَ، ركبَ راحلتَهُ وطَمَر إلى عليٍّ. وبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى مَروان والأسود يتغيَّظُ عليهما ويقول:

ـ «أمدَدتُما عليًا بقيس بن سعدٍ ورأيهِ ومكانتِه، واللّهِ لو أنّكما أمددتُماهُ بمائة ألفِ مُقاتل ما كان ذلك بأغيظَ لي من إخراجِكما قيسَ بن سعدٍ إلى عليٍّ».

ولمّا قدِم قيسٌ على عليٍّ وباثَّهُ، ثمَّ جاءَهُم قتلُ محمّد بن أبي بكرٍ، عَرفَ أنَّ قيسَ بنَ سعدٍ كان يُداري أموراً عِظاماً من المكاره، وأنّ مَن كان يَحمله على عزلِ قيسٍ لم يكن ينصحُ له. فأطاع عليٌ قيسَ بن سعدٍ بعد ذلك في الأمر كلّه.

ابتداءُ وقعةِ صِفّين قميصُ عُثمان وأَصابعُ نائلة

وكان أهلُ الشّام قدِمَ عليهم النُّعمان بنُ بشيرٍ بقميصِ عثُمان الّذي قُتِلَ فيه مخضَّباً بدمه، وبأصابع زوجتِه «نائلة»، مقطوعَة البراجم: إصبعان منها مع شيءٍ من الكفّ، وإصبعان مقطوعتان من أصولِهما، ونصف الإبهام. فكان معاويةُ يضعُ القميص على المنبر، ويُعلّق منه الأصابع، ويُشَنِّع به، ويكاتبُ الأجنادَ. فثاب إليه النّاس وبَكَوا سنةً والقميصُ بتلكَ الحالِ. وآلى رجالٌ من أهل الشّام ألاّ يأتُوا النِّساءَ، ولا يَمسَّهم الماءُ لِلغسلِ إلاّ مِن الاحتلام، ولا يَناموا على الفَرشِ، حتّى يقتُلُوا قَتَلَةَ عثمانَ، ومَن عرض دونَهم بِشيءٍ، أو تَفنى أرواحُهم.

خُروجُ عليّ بن أبي طالبِ إلى صِفّين

وبلغ عليًّا خبرُ معاويةَ وما يصنعهُ، فبعث إليه بِرُسُلٍ، وخرج من الكوفة، فعسكَر بالنُّخَيلة، وقدِمَ عليه عبدُ اللّه بنُ عبّاسٍ بِمَن نَهضَ معه من البصرةِ، وتهيَّأ منها إلى صِفّين، واستشار النّاسَ. فأشار عليه قومٌ أن يبعث الجنودَ ويُقيم، وأشارَ آخرون بالمسيرِ، فأبى إلاّ المباشرةَ فجهَّز النّاسَ.

وبلغ الخبرُ معاويةَ، فدَعا عمرو بن العاص واستشاره.

فقال: إذا بلغك أنّه يَسيرُ فَسِر بنفسِكَ ولا تَغِب عنه برأيك ومكيدتك».

قال معاويةُ: «فجهِّز الناسَ».

فخرج عمرو إلى النّاس، وحضَّهم وضعَّف عليّاً وأصحابَه وقال:

ـ «إنّ أهلَ العراقِ قد فرَّقوا جمعَهم، وأوهنُوا شوكتَهم وقطعُوا حدَّهم. ثمّ إنّ أهلَ البصرةِ مخالفون لِعليٍّ وقد قتلَهُم، ووَتَرهَم، وتَفانَت صنَاديدُهم يومَ الجمل، وإنّما سار علي في شِرذمةٍ قليلةٍ، منهم مَن قَتلَ خليفَتَكم، فاللّه في حقِّكم أن تُضَيِّعُوهُ، وفي دَمِكم أن تُبطِلُوهُ».

وبعث عليٌ بن أبي طالبٍ زيادَ بنَ النَّضر طليعةً في ثمانية آلاف وبعث معه شريحَ ابنَ هانِئٍ، ووَجَّهَ مِن المدائن مَعقِلَ بنَ قيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يأخذَ على المَوصِل حتّى يوافيَهُ، وسار بنفسه حتّى انتهى إلى الرَّقّة، وقال لأهلها:

ـ «اجسِروا لي جِسراً حتّى أعبرَ مِن هذا المكان إلى الشّام».

فأبوا. وكانُوا ضمُّوا إليهم السّفن. فنهض عليٌّ من عندِهم ليعبُرَ مِن جسرِ منَبج، وخلَّف عليهم الأشتر، ورحل لِيمضِيَ بالنّاس ويَعبُرَ بِهم.

فنادى الأشترُ: «يا أهل هذا الحصنِ، إليَّ، إنِّي أقسِمُ باللّه، لئَن مَضىٰ أمير المؤمنين ولم تَجسرُوا لَهُ عندَ مَدينتِكم جِسراً حتّىٰ يَعبُرَ، لأُجرِّدَنَّ فيكم السَّيفَ، ثُمَّ لأَقتُلَنَّ الرِّجالَ، وأَخربنَّ الدِّيارَ، ولأنهَبنَّ الأموالَ».

فلقِيَ بعضُهم بعضاً، فقالوا: «هو الأشترُ، ويَفي بما حلفَ عليه، ويأتي بما هو شَرٌّ منه».

فنادَوهُ: «نعم، إنا ناصِبونَ لكم جِسراً، فأقبِلُوا».

فجاءَ عليٌّ، فنصبُوا له الجِسرَ، فعبَرَ عليٌّ بالأثقالِ والرِّجالِ. ثمَّ أمر عليٌّ الأشترَ، فوقفَ في ثلاثةِ آلافِ فارسٍ حتّى لم يبقَ مِن النّاسَ أحدٌ إلاّ عبرَ، ثُمَّ عبر آخِرَ النّاس رجلاً.

فأمّا زيادُ بن النَّضر وشريحُ بن هانِىء، فسارا أمامَ عليٍّ ـ كما ذكرنا ـ من

الكوفة، آخِذَين على شاطِئ الفراتِ مِن قبلِ البَرِّ ممّا يلي الكوفةَ، حتّىٰ بَلَغَا عاناتٍ، فبلغهما أخذُ عليٍّ عَلىٰ طريقِ الجزيرةِ، وإِنَّ معاويةَ قد أقبلَ مِن دمشق في جنودِ أهلِ الشّامِ، فقالا:

ـ «واللّهِ ما هذا لنا برأيٍ: أن نسيرَ وبينَنا وبينَ المسلمين وأميرِ المؤمنين هذا البحرُ، وما لَنا خيرٌ في أن نَلقىٰ جُنودَ الشّام بِقِلَّةٍ مَن معنا منقطِعينَ مِن المَددِ.

فذهبُوا لِيَعبرُوا مِن عاناتٍ، فمنعهم أهلُ عاناتٍ، وحبسُوا عنهم السُّفُنَ. فأقبلُوا راجعين حتّى عَبرُوا مِن هِيت، ثُمَّ لَحِقُوا عليًّا، فقال عليه السّلام:

ـ «مُقدِّمتي تأتيني مِنْ وَرائي!».

فتَقدَّم إليه زيادٌ وشُريحٌ، وأخبراهُ بِما رَأيا. فقال: «سُدِّدتُما».

ثمَّ مَضىٰ، فلمّا عبر الفرات قدَّمَهُما أمامَه. وأرسل معاويةُ أبا الأعور السُّلَمي في جندٍ عظيم من أهل الشام، فأرسلا إلى عليٍّ:

ـ «إنّا قد لَقينا أبا الأعور السُّلَمي في جمع أهل الشام ودَعوناهُم، فلم يُجِبنا منهم أحدٌ، فَمُرنا بأمرِك».

وكان عليٌّ أمرهما ألاّ يَبدَءا بقتالٍ حتّىٰ يدعُوا إلى الحقِّ، ويكونَ مبدأ القتال مِن غيرهما فأرسل عليٌّ عليه السَّلام الأشتر، فقال:

ـ «يا مالِ، إنَّ زياداً وشُريحاً أرسلا إلى أنهمّا لَقِيا أبا الأعور السُّلَمي في جمع من أهل الشّام، وأخبرني الرّسُولُ أنّهم متوافقون، فالنَّجا إلى أصحابك النَّجا، فإذا قدِمتَ عليهم فأنتَ عليهم، وإيّاك أن تبدأهُم، ولا يجرمنّك شنآنُهم على قتالهم قبلَ دعائهم مرّةً بعدَ مرّةٍ، ولا تَدنُ منهم دُنُوَّ مَن يُريدُ أن يُنشب الحربَ، ولا تُباعِد منهم بُعدَ مَن يَهابُ النّاسَ، حتّىٰ أقدِمَ عليك، فإنّي حثيث السَّير في أثرك إن شاءَ اللّه».

وكتب إلى زيادٍ وشُريح بالسمع له والطّاعةِ. فخرج الأشتر، والتَقىٰ مع القوم، وكفَّ عن القتالِ إلى أن حملَ أبو الأعور، فثبتُوا لهُ. ثمَّ انصرف أهلُ الشّام في تلك اللّيلة لمّا أدركهم المساءُ، وأقبل مِن الغَدِ، وجاءَ الأشترُ من المكان الّذي كانَ فيه، ولم يَزل يزحَفُ حتّىٰ وقف في المكان الّذي كان فيه بالأمسِ أبو الأعور.

فقال الأشتر لِسنانِ بن مالك: «انطلق إلى أبي الأعور، فادعُهُ إلى المبارزة».

فقال: «إلى مبارزتي، أو إلى مبارزتك؟»

فقال الأشتر: «لو أمرتُكَ بمبارزتِه فعلتَ؟».

قال: «نعم، واللّه لو أمرتَني أن أعترضَ صفَّهم بسيفي، ما رَجعتُ حتّىٰ أضربَ فيهم بسيفي».

فقال له الأشتر: «يا بنَ أخي، أطالَ اللّه بقاءك، قد ـ والله ـ ازدَدتُ فيك رغبةً. لا، ما أمرتُكَ بمبارزته، وإنّما أمرتُكَ أن تدعُوَهُ إلى مبارزتي. إنّه لا يَبرُز إلا لِذَوي الأَسنانِ والكفاءةِ والشَّرفِ، وأنت ـ ولربّك الحمدُ ـ مِن أهلِ الشّرفِ والكفاءةِ، غيرَ أنَّك في حَدَثِ السِّنّ. وليس بمبارزِ الأحداثَ، ولكن ادعُهُ إلى مبارزتي».

فأتاهُ ونادىٰ: «آمِنوني، فإني رسولٌ».

فأومِنَ حتّى جاءَ إلى أبي الأعورِ.

قال: فدنوتُ مِنه وقُلتُ «إنّ الأشتر يَدعوكَ إلى المبارزة».

قال: فسكت عنّي طويلاً ثمّ قال: «إن خفّةَ الأشتر، وسُوءَ رأيِه حمله على إجلاءِ عُمّال عثمان بن عفّان من العراقِ، ومِن خفّة الأشتر أن سار إلى ابن عفّان في دارِه حتّى قتلَهُ في مَن قتلَهُ، فأصبح مُتبعاً بدمه. ألا، لا حاجة لي في مبارزته».

قال: قلتُ له: «إنّك قد تكلّمتَ، فاسمع مِنّي أُجِبكَ».

قال: «لا حاجةَ لي في الاستماع منك ولا في جوابك، اذهب عنّي».

وصاح بي أصحابُه، فانصرفتُ عنه، ولو سَمع إليَّ لأجبتُه بِحجّةِ صاحبي. فرجعتُ إلى الأشتر، فأخبرتُه أنّه قد أبى المبارزة. فقال:

ـ «لنفسِه نَظَر».

القتال على الماءِ

وأقمنا متحاجزين يومنا ونتحارس ليلتَنا. فلمّا أصبحنا نظرنا فإذا القومُ قد انصرفوا مِن تحتِ ليلتِهم، ويُصَبِّحنا عليٌّ غُدوةً، فقدّم الأشتر في مَن كان معه في تلك المقدّمةِ. وجاء عليٌّ في أثره حتّى لَحِقَ بالأشترِ وانتهى إلى معاوية.

قال: فلمّا انتهينا إلى معاويةَ وجدناهُ قد عَسكرَ في مَوضعٍ سَهلٍ أفيحَ، قد اختارهُ قبل قُدومِنا، إلى جانبِ شريعةِ الفُراتِ، ليس في ذلك الصُّقع كُلِّهِ شريعةٌ غيرها، وجَعلَها في حَيِّزِه، وبعث عليها بالأعورِ يَمنعُها ويَحميها.

قال: فارتَفَعنا على الفُراتِ رجاءَ أن نَجدَ شريعةً غيرها نَستغني بها عن شَريعتِهم، فلم نَجدها.

قال: فأتينا عَليًّا، فأخبرناهُ بعطشِ النّاسِ، وقال له الأشتر:

ـ «إنّ القومَ قد سبقوكَ إلى الشريعةِ وإلى سُهُولة المنزل، فإن رأيتَ سِرنا حتّى نجوزَهُم إلى القريَةِ الّتي خرجُوا منها، فتنزلَ في مَنزلِهم، فإنَّهم يشخصون في إثرنا، فإذا لحقونا نزلنا فَكُنّا نحن وهم على السَّواءِ».

فكره ذلك عليٌّ وقال: «ليس كلُّ النّاس يقوى على المَسيرِ».

ونزل بهم، فقال عليٌّ: «قاتلوهُم على الماءِ».

وبعث إلى معاويةَ برسولٍ يقول:

ـ «إنّا سِرنا إليك، ومِن رأيِنا الكفُّ، إلى أن تنظُرَ لنفسك، ونَنظُرَ، وامتنعنا من قتالِك، فبدأتَنا، وهذا الماءُ تمنعُنا منه، فخلِّ بين النّاس وبين الشّريعة حتّى ننظرَ وإن كان الأَعجب إليك أن نتركَ ما جئنا له، ونتركَ النّاسَ يقتتلون على الماءِ، حتّىٰ يكونَ الغالبُ هو الشّارب».

فقال مُعاويةُ لأصحابه: «ما تَرونَ؟».

فأمّا أكثر النّاسِ قال: «ولا نُعمي عينٍ، نمنعهم الماء كما منعوهُ عُثمان؛ فإن رَجعُوا كان ذلك فَلاً لهم».

فقال عَمرٌو: «خَلِّ بينَهم وبينَ الماءِ، فإنَّ القَومَ لَن يَعطَشوا وأَنت ريَّان ولكن بغير الماءِ، فانظُر في ما بينَكَ وبينَهم».

فارتفع الصِّياحُ مِن كلِّ جانبٍ:

ـ «امنعُوهم الماءَ، منَعَهُمُ اللّٰهُ يومَ القيامةِ».

وكان الرّسول صعصعة بن صوحان، فقال صعصعة:

ـ «إنّما يَمنعُهُ اللّٰهُ يومَ القيامةِ الكفرَةَ، والفسقَةَ شَرَبَةَ الخَمرِ: ضَرْبَكُم مِن النّاسَ».

فتواثَبُوا إليه يشتمونه ويتهدَّدونَهُ.

فقال معاويةُ: «كُفُّوا عنِ الرَّجلِ فإنّه رسولٌ».

قال صعصعةُ: «فخرجتُ مِن عندِه ومِن رأيِه مَنعُ الماءِ. فما انتهيتُ إلى عليٍّ حتّى رأيتُ الخيلَ تُسرَّبُ إلى أبي الأعور لِيكُفَّنا عَنِ الماءِ. فأبرزنا عليٌّ إليهم وقال:

ـ «قاتِلوهم على الماءِ».

فارتمينا، ثُمَّ اطَّعَنَّا، ثمَّ تَجالَدنا بالسُّيوف، إلى أن انهزمُوا، وصار الماءُ في أيدينا.

قال: فقُلنا: «لا واللّه، لا نُسقيهُمُوهُ بعد أن غلبنا عليه بالسَّيف».

فأرسَل إلينا عليٌّ أن: «خُذُوا مِن الماءِ حاجتَكم، وارجِعوا إلى عَسكرِكُم، وخَلُّوا عنهم، فإنَّ اللّٰهَ قد نصركم عليهم بِبَغيِهم وظُلمِهم».

ثُمَّ أقبلَ عليٌّ يأمُرُ ذا الشّرفِ من النّاسِ، فيَخرج ومعه جماعةٌ، ويُخرجُ معاويةُ إليهِ مثلَهُ، فيقتتلان في خيلهما، ثُمَّ ينصرِفان، وأخذُوا يكرهون أن يلقَوا بجميع أهل العراقِ أهلَ الشّامِ لِما يتخَوَّفُونَ أن يكونَ في ذلك من الاستيصالِ والهلاكِ، إلى أن

تقضي شهرُ ذي الحجة.

فلمّا دخل المحرَّمُ توادعَ عليٌّ ومعاويةُ إلى انقِضائه طمعاً في الصُلحِ، وتردَّدت الرُّسُلُ، وطالَ الكلامُ بينَهما، فما استقام بينَهما الصُلحُ. وانقضىٰ المحرَّم فأمر عليٌّ مرثدَ بن الحارث الجُشميَّ، فنادىٰ أهلَ الشام عند غروبِ الشّمسِ:

ـ «ألا، إنَّ أميرَ المؤمنين يقولُ لكم: إنّي استدمتُكم لِتراجِعوا الحَقَّ وتُنيبُوا إليه، واحتججتُ عليكم بكتابِ اللّهِ، ودَعَوتُكم إليهِ، فلَم تَناهوا عَن طُغيانٍ، ولم تُجيبُوا إلى حقٍّ، وإنّي قد نَبذتُ إليكم على سَواءٍ، إنّ اللّهَ لا يُحبُّ الخائنين».

ففزع أهلُ الشام إلى أمرائهم، وخرج معاويةُ وعَمرٌو في النّاسِ يُكتبانِ الكتائبَ، ويُعَبِّئانِ النّاسِ، وأوقَدُوا النّيرانَ، وباتَ عليٌّ ليلتهُ كُلَّها يُعبِّئُ النّاسَ، ويُكتِّبُ الكَتائبَ، ويَدورُ في النّاسِ، ويحرِّضُهم.

مِن وصايا عليٍّ لأصحابه يَومَ صِفّين

وكان في ما يُوصِّيهِم:

ـ «إذا قاتلتُموهم وهَزمتُموهُم، فلا تَقتُلُوا مُدبراً، ولا تُجهِزوا على جَريحٍ، ولا تكشِفُوا عَورةً، ولا تَمثُلُوا بقتيلٍ، فإذا وصَلتم إلى رجالِ القَوم فلا تهتكُوا سِرًّا، ولا تدخُلُوا داراً إلاّ بإذنٍ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما وَجَدتُم في عَسكرِهم، ولا تُهيجوا امرأةً بأذىً وإن شتَمنَ أعراضَكم وسَبَبنَ أمراءَكم وصلحاءَكم، فإنَهنَّ ضعيفاتُ القُوى».

كانَ هذا كلامه في يَومِ الجمل، وصفّين، ويَوم النّهروان، وكان يُحرِّض فيقول:

ـ «عبادَ اللّه، غُضُّوا الأبصارَ، واخفِضُوا الأصواتَ، وأقِلُّوا الكلامَ، وَوَطِّنُوا أنفُسكُم على المُنازَلةِ والمُبارزةِ، والمُبالطةِ، والمُعانقةِ، واثبُتُوا، واذكُرُوا اللّه كثيراً، لَعلّكم تُفلِحُون، ولا تَنازَعُوا فَتَفشَلُوا، وتَذهَبَ ريحُكم، واصبِرُوا إنَّ اللّهَ معَ الصّابِرين، اللّهمَّ ألهِمهُم الصَّبرَ وأنزِل عليهم النَّصرَ، وأعظِم لهم الأجرَ».

اقتتلُوا ولِكُلِّ فِئَةٍ أَحدَ عشر صفاً

ولمّا أصبح عليٌّ في ميمنتِه وميسرتِه، ومعاويةُ في مثل ذلك، وبايع رجالٌ من أهل الشّام على الموتِ؛ فعقلوا أنفسَهم بالعمائم. فكان المُعقَّلُون خمسة صُفوفٍ، وكانوا يخرجون ويَصفّون أحد عشر صفاً، ويخرج أهلُ العراق أحد عشر صفاً.

فخرجوا أولَ يوم مِن صَفَر، واقتتلُوا، وعلى مَن خرج يَومئذٍ من الكوفةِ الأشترُ، وعلى أهل الشّامِ حبيبُ بن مَسلمة، وذلك يومَ الأربعاءِ، فاقتتلُوا عامّةَ نهارِهم. ثمَّ

تراجَعوا وقد انتصف بعضُهم مِن بعضٍ. فلَما كان اليوم الثاني، خرج هاشمُ بن المِرقال. وخرج إليه أبو الأعور السُّلَمي في خَيلهما ورجالِهما، فاقتتلُوا عامّة نَهارِهم، وصبرَ بعضُهم لبعضٍ. وخرج اليومَ الثالثَ عمّارُ بنُ ياسرٍ. وخرج إليه عمرُو بنُ العاص في خيلِهما ورَجلِهما فاقتتلُوا كأشدّ ما يكون القِتالُ، وكانَ مع عَمّارٍ زيادُ بنُ النّضر على الخَيل، فأمره عمّار أن يحمِلَ، فحمل في خيلهِ وصبر له النّاسُ، وشدّ عمارٌ في الرّجال، فأزال ابنَ العاصِ عن مَوقفِه، ثمّ انصرف كلُّ واحدٍ عن صاحبهِ وتراجع النّاس.

وخرج اليومَ الرّابع محمدُ بنُ عليٍّ، وهو ابن الحنفيّة، فخرج إليه عبيد اللّه بن عمر في جَمعين عظيمين، فاقتتلُوا كأشدّ القتالِ.

فأرسلَ عُبيدُ اللّه إلى ابن الحنفية، أن: «خرُج إليَّ!».

فقال: «نعم!».

وخرج يمشي. وبَصُرَ بِهِ عليٌّ، فقال: «من هذان المتبارزان؟».

فقيلَ لهُ: «ابنُك وعبيدُ اللّه بن عُمر».

فحرَّكَ دابّتَهُ، ثمّ نادىٰ محمّداً، فوقفَ لهُ.

فقال: «أَمسِك دابتي!».

فأمسكها.

ثمّ مَشىٰ إليه عليٌّ وقال: «أَبرُزُ [لك]، فهلُمَّ إليَّ!».

فقال: «ليست لي في مبارزتكَ حاجةٌ».

قال: «بَلىٰ، هلُمَّ!».

قال: «لا».

فرجع ابن عُمَر، وأخذ محمَدُ ابن الحنفيّة يُعاتبُ أباهُ في منعِه، ثُمَّ خُروجِه بنفسِه، إلى مَن ليس [كفؤاً له] هو ولا أبوهُ. فجرىٰ بينهما كلام مذكور. ثمّ تحاجز النّاسُ.

فلمّا كان اليومُ الخامس خرج عبد اللّه بن العَبّاس، وخرج إليه الوليدُ بن عُقبةَ، فاقتتلُوا قتالاً شديداً، ودنا ابن العبّاس مِن الوليد بن عُقبة والوليدُ يشتم بني عبدِ المطلب. فأرسل إليه ابن عبّاسٍ أن: ابرُز لي! فأبىٰ. وقاتلَ ابن عبّاسٍ قتالاً شديداً، وغَشِيَ النّاسَ بنفسِه.

وخرج اليومَ السّادسَ قيسُ بنُ سعدِ الانصاري. فخرج إليه ابن ذي الكُلاع الحِميري، فاقتتلا قِتالاً شديداً، ثمّ انصرفا، وذلك بعد قتلٍ كثيرٍ في الفريقين.

وخرج الأشتر في اليوم السّابع. وعاد إليه حبيبُ بن مَسلمة، وذلك يومَ الثلاثاء،

فاقتتلا كأشدِّ ما يكون مِن قتالٍ، ثمّ انصرفا، عند الظُّهرِ وكُلٌّ غيرُ غالبٍ.

ثمّ إنَّ عليًّا قال: «حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعِنا؟».

فقام في النّاسِ عَشيةَ الثلاثاءِ ليلةَ الأربعاء بعدَ العصرِ، فخطبهم فقال: ـ «الحمد للَّه الّذي لا يُبرمُ ما نقضَ، ولا يُنقضُ ما أبرَمَ، ولو شاءَ ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعتِ الأمّةُ في شيءٍ مِن أمرِه ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفضلِ فَضلَهُ، وقد ساقَتنا وهؤلاءِ القومَ الأقدارُ، فلفّت بينَنا في هذا المكان، فلَو شاءَ عجَّلَ النِّعمةَ، وكان منه التَّغييرُ حتّى يُكذَّبَ الظالِمُ ويُعلمَ الحقُّ أين مَصيرُهُ، ولكنَّه جَعَلَ الدُّنيا دار الأعمالِ، وجَعلَ الآخِرةَ هي دارَ القرارِ، لِيجزيَ الّذينَ أساؤوا بِمَا عَمِلُوا، ويَجزيَ الّذينَ أَحسنوا بالحُسنىٰ. ألا، إنكّم لاقُو القَومِ غداً، فاطلبُوا وجهَ اللّه بأعمالِكم، وأطيلُوا اللّيلةَ القيامَ، وأكثِروا تلاوةَ القرآن، وسَلُوا اللّه الصّبرَ والنّصرَ، والقَوهُم بالجِدِّ والحزمِ، وكُونوا صادقين».

فوثب النّاسُ إلى سُيوفِهم ورِماحِهم ونِبالِهم يُصلِحونها. ومرَّ بِهم كعبُ بنُ جُعَيل التَّغلبي وهو يقولُ:

أصبَحَتِ الأُمَّةُ في أَمرٍ عَجَب والمُلكُ مَجموعٌ غداً لِمَن غَلَبَ

فقُلتُ قولاً صادِقاً غَيرَ كَذِب إنَّ غَداً يهلِكُ أعلامُ العَرَب

ولمّا كان من اللّيلِ، خرج عليٌّ يُعبِّئُ النّاسَ ليلَتَهُ كلَّها حتّى إذا أصبحَ زحف النّاسُ، وخرج إليه معاويةُ في أهلِ الشّام. فجعل عليٌّ يقول: «مَن هذه القبيلةُ»، وَ «مَن هذهِ الكتيبةُ؟» فتُنسَبُ له، حتّى إذا عَرَفَهُم ورأىٰ مراكِزَهم، قالَ لِلأزدِ: «اكْفُوني الأَزد». وقال لِخَثعمَ: اكفُوني خَثعَم». وأمر كلَّ قبيلةٍ أن تَكفيهُ أختَها، وإذا لم يَجدِ لقبيلةٍ منهم أُختها سَمّىٰ لها قبيلةً أخرىٰ. ثمّ تَناهضَ النّاسُ يومَ الأربعاء، فاقتتلُوا نَهارَهُم كُلَّهُ، وانصرفوا عِندَ المساءِ وكُلٌّ غيرُ غالبٍ.

حتى إذا كان يوم الخميس، وهو التّاسعُ، صلّىٰ عليٌّ بِغَلَسٍ، فيقال: إنّه لم يُغلِّس أشدَّ مِن تغليسِه يَومَئذٍ. ثمَّ خرج بالنّاسِ. وكان عليٌّ ـ عليه السّلام ـ يبدأُ القومَ بالمَسير إليهم. فإذا رَأَوهُ وقد زحف استقبلُوهُ بوجوههم.

فلمّا صلّى عليٌّ، دَعا دُعاءاً كثيراً، وقال في آخر دعائه:

«اللّهمَّ إن أظهرتَنا عَلىٰ عَدُوِّنا فجَنِّبنا البَغيَ، وسدِّدنا لِلحَقِّ، وإن أظهرتَهم علينا فارزُقني الشَّهادة، واعصِم بقيَّةَ أصحابي مِن الفِتنةِ».

ثمَّ خرج وعلى مَيمنتِه عبدُ اللّهِ بنُ بُدَيلٍ، وعلى مَيسرتِه عبدُ اللّهِ بنُ العبّاسِ وقُرّاءُ أهلِ العِراقِ مع ثلاثةِ نَفرٍ: مع عَمّار بنِ ياسرٍ، ومع قيس بن سَعدٍ، ومع عبد اللّهِ بنِ

بُديلٍ، والنّاسُ على راياتِهم وعليٌّ في القلبِ في أهلِ المدينةِ بين أهلِ الكوفة وأهلِ البَصرةِ وأكثرُ مَن مَعه من أهلِ المدينةِ، الأنصارُ. ثمَّ زحف إليهم بالجمع.

ورفع مُعاويةُ قُبّةً عظيمةً وقد ألقىٰ عليها الكرابيسَ، وبايعهُ عُظمُ أهلِ الشام على الموتِ، وبعثَ إلى خيل أهل دِمَشق، فأحاطت بِقُبّتِهِ، وزحف عبدُ اللّه بنُ بُدَيلٍ في الميمنةِ نحو حَبيبِ بنِ مَسلَمة، فلم يَزَل يَحُوزُهُ ويكشِف خيلَهُ مِن الميسرةِ حتّى اضطَرّهم إلى قُبّةِ معاويةَ عند الظُهرِ، وحضّ عبدُ اللّهِ بنُ بُدَيلٍ أصحابَه، وحرّضهم، وذكَّرَهُم باللّهِ، وأثنى عليه، وعَضَّ مِن معاويةَ وسَبَّهُ، وقاتل قِتالاً شديداً، وحضَّ عليٌّ أصحابَه.

خطبةٌ في حَضٍّ على حَربٍ ووَصايا فيها

فقال:

ـ «إنّ اللّهَ قد دلَّكُم على تِجارةٍ تُنجيكم مِن عذابٍ أليم، وأخبَركم أنّه يُحِبُّ الّذين يُقاتِلون في سَبيلِه صَفًّا كأنَّهم بُنيانٌ مَرصوصٌ. فَسَوُّوا صُفوفَكم، وقَدِّموا الدّارِعَ، وأخِّروا الحاسِرَ، وعَضُّوا على الأضراسِ، فإنّه أنبى للسُّيوفِ عن الهام، والتَوُوا في أطرافِ الرِّماح، فإنَّهُ أمورُ لِلأسِنَّةِ، وغُضُّوا الأبصارَ، فإنَّه أربطُ للجأشِ، وأميتُوا الأصواتَ، فإنّه أطردُ لِلفَشلِ، وأولى بالوقارِ، راياتِكم، فلا تُميلوها، ولا تَجعلُوها إلاّ بأيدي شُجعانكم. أجزَأَ امرُؤ وقذَ قِرنَهُ وآسى أخاهُ بنفسِه، ولم يكِل قِرنَهُ إلى أخيه، فيكسبَ به لائمةً ودناءَةً، وكيف لا، وهذا يُقاتِلُ اثنين وهذا مُمسِكٌ يَدَهُ قائماً ينظر إليه؟ مَن يفعل ذلك، يَمقُتهُ اللّهُ. قال اللّه لقومه: لَن يَنفعَكُمُ الفِرارُ إن فَرَرتُم مِن المَوتِ أَو القَتلِ، وإذاً لا تُمَتَّعُونَ إلاّ قَليلاً، استعينُوا بالصِّدق والصّبرِ، فإنّ اللّهَ يُنزِلُ بعدَ الصَّبرِ النَّصرَ».

خطبةُ يَزيدَ بنِ قيسٍ الأرحَبيّ

وخطب يزيدُ بنُ قيس الأرحبيّ، فقال بعدَ حمدِ اللّه.

ـ «إنَّ هؤلاءِ القومَ، واللّه، لا يقاتلونَنا على إقامةِ دينٍ رأونا ضَيَّعناهُ، وإحياءِ حقٍّ رأونا أمتناهُ؛ ولَن يقاتِلونا إلاّ على هذه الدُّنيا ليكونوا جبابرةً فيها ملوكاً. فلو ظهروا عليكم ـ ولا أَراهمُ اللّهُ ذلك ـ لزموكم بمثلِ سعيدٍ، والوليدِ، وعبدِ اللّه بن عامرٍ السَّفيهِ الضّالِّ، يُجيز أحدُهم في مجلِسِه بمثلِ دِيَتِه ودية أبيهِ وجَدِّه، ثم يقول: «هذا لي، ولا إثمَ عليَّ»! كأنَّما أعطى تُراثَهُ عَن أبيه وأمِّهِ! وإنّما هُو مالُ اللّه أفاءَهُ اللّهُ علينا. فقاتِلوا ـ عِبادَ اللّهِ ـ القومَ الظّالمين الحاكمين بغير ما أنزل اللّهُ؛ ولا تأخذكم في جهادِهم لَومَةُ لائم، فإنّهم مَن عرفتُم وخبرتُم. واللّه ما ازدادُوا إلى يومِهم هذا إلاّ شَرًّا».

ابن بُديلٍ ينتهي إلى قُبّة معاوية

وقاتَلَهُم عبدُ اللّهِ بنُ بُدَيلٍ في الميمنةِ حتّى انتهى إلى قُبّةِ معاويةَ. ثمَّ إنّ الّذين

تبايَعُوا على الموتِ، أقبلوا إلى مُعاويةَ، فأمرهم أن يصمدُوا لابنِ بُديلٍ. وبعث حبيبَ بنَ مَسلمةَ في ميسرته، فحمل بهم وبمَن كان معه على ميمنةِ النّاسِ، فهزمَهم، وانكشف أهلُ العِراقِ مِن قِبَلِ الميمنةِ حتّى لم يَبقَ منهم إلاّ ابن بُدَيلٍ في مائتين إلى الثّلاثمائةِ من القُرّاءِ قد أسند بَعضُهم على بعضٍ ظهرَهُ، وانجفلَ النّاسُ. فأمرَ عليٌّ سهلَ بنَ حُنيفٍ؛ فاستقدمَ في مَن كان معه مِن أهلِ المدينةِ، فاستقبلَتهُم جموعٌ لأهلِ الشّام عظيمةٌ، فاحتملتهم حتّى ألحقتهم بالمَيمنةِ إلى موقفِ عليٍّ في القلبِ، فمرّ عليٌّ ومعه بَنوهُ نحوَ الميسرةِ.

قال:

فواللّهِ، إنّي لأرى النّبلَ يَمُرُّ بين عاتقِهِ ومنكبِه، وما مِن بَنيهِ واحدٌ إلاّ يَقيهِ بنفسِه، فيتقدّم فيحول بين أهلِ الشّام وبَينَهُ، فيأخذُ بِيدِه إذا فعل ذلك فيُلقيهِ بين يديهِ أو مِن ورائه. فبصُرَ به أحمرُ مولى أبي سفيان أو عثمان، فعرفَهُ.

فقال عليٌّ: «وربِّ الكعبةِ، قتلَني اللّهُ إن لم أقتلكَ أو تقتُلني».

كلامٌ بين عليّ والحسن أثناءَ القتال

فأقبل نحوَه، وخرج إليه كيسان مولى عليٍّ، فاختلفا ضربتين، فقتله مولى بني أميّة، وينتهزه عليٌّ، فتقع يَدُه في جَيبِ دِرعِه، فجبذهُ، ثم حمله على عاتقِه. فكأنّي أنظرُ إلى رجليه تختلفان على عنقِ عليٍّ، ثمّ ضربَ به الأرضَ، فكسر مِنكبَهُ وعَضدَهُ، وشَدَّ ابنا عليٍّ: الحسينُ ومحمّدٌ عليه، فضرَباهُ بأسيافهما، حتّى إذا قتلاهُ، أقبلا إلى أبيهما والحسنُ قائمٌ معه.

قال له: ـ «يا بُنَيّ، ما منعَكَ أن تفعلَ كما يفعلُ أَخَواك؟».

فقال: «كَفَياني يا أميرَ المؤمنين!».

ثمَّ إن أهلَ الشّام دنَوا منه، فواللّهِ ما يزيدُهُ قربُهم منه سرعةً في مَشيِه.

فقالَ لهُ الحسنُ: «ما ضرَّكَ لو سَعيتَ حتّى تنتَهِيَ إلى هؤلاءِ الّذين قد صَبروا لِعدوِّك مِن أصحابك؟».

فقال: «يا بُنَيّ، إنّ لأبيك يوماً لا يَعدُوهُ، ولا يُبطئُ به السَّعيُ، ولا يعجَلُ به إليه المشي، وإنّ أباكَ لا يُبالي: وَقعَ على المَوتِ، أو وقع عليه الموتُ».

مالِكٌ يحُضُّ المنهزمين على الصّمود

ولمّا أقبل عليٌّ نحو الميسرةِ، مرَّ بِه الأشترُ يركضُ نحوَ الفزعِ قِبلَ الميمنةِ.

فقال له عليّ: «يا مالِ!».

قال: «لبّيك يا أميرَ المؤمنين!».

قال: «ائتِ هؤلاءِ، فقُل لَهُم: أين فِراركم مِن الموتِ الّذي لا تُعجزونه إلى الحياةِ الّتي لا تبقى لكُم؟».

فمضى، واستقبلَ النّاسَ منهزمين، فقال لهم هذه الكلمات الّتي أمره عليٌّ بها.

ثمّ قال: «إليَّ، أيّها النّاسُ إليَّ! أَنَا مالك بن الحارث.».

ثمّ ظَنَّ أنّه بالأشتر أعرفُ في النّاسِ، فقال: «أَنَا الأشترُ، إليَّ، إليَّ!».

فأقبلت طائفةٌ إليه وذَهبت عنه طائفةٌ، فقال:

ـ «عَضِضتُم بِهنِ آبائكم، ما أقبحَ ما قاتلتُم منذ اليَومِ! يا أَيُّها النّاسُ، أخلِصُوا إليَّ مذحجاً».

فأقبلت مذحجٌ، فقال:

ـ «عضِضتُم بِصُمِّ الجندلِ، ما أرضيتُم ربَّكم، ولا نصحتُم له في عدوِّكم، وكيف ذلك وأنتم أبناءُ الحربِ، وأصحابُ الغاراتِ وفِتيانُ الصَّباحِ، وفُرسانُ الطِّراد، وحُتوفُ الأقرانِ، ومذحجُ الطِّعانِ الّذين لم يكونوا يُسبقونَ بثأرهم، ولا تُطَلُّ دِماؤُهم، ولم تُعرفوا في مَوطنٍ بخسفٍ، فأنتم حدُّ أهل مصرِكم، وما تَفعَلوا في هذا اليوم فإنّه مأثورٌ بعدَ اليومِ، فاتَّقُوا مأثورَ الحديثِ، واصدُقُوا عدوَّكم اللِّقاءَ، فإنَّ اللّهَ مع الصّادِقين. فوالّذي نَفس مالكٍ بِيده، ما مِن هؤلاء ـ وأشار بيدِه إلى أهلِ الشّام ـ رجلٌ على مثلِ جناح بعوضةٍ مِن محمّدٍ ـ ﷺ ـ إنّكم ما أحسنتُم القِراعَ، فاجلُوا سوادَ وَجهي يَرجع في وجهي دمي. عليكم بهذا السَّوادِ الأعظم، فإنَّ اللّهَ لَو قد فَضَّهُ تَبعَهُ مَن بجانِبَيهِ كما تَبع مُؤخَّرُ السَّيلِ مُقدَّمَهُ».

قالوا: «خُذ بِنا حيثُ أحْببتَ».

فصمد نحو عُظمِهم مِمّا يَلي الميمنةَ، وأخذ يزحفُ إليهم وَيُردُّهُم، ويستقبلُهُ شبابٌ مِن هَمدانَ، وكانت همدانُ يومئذٍ ثمانمائة مقاتلٍ. فانهزموا آخِر النّاسِ، وكانوا صَبَروا في الميمنةِ، حتّى أصيبَ منهم مائةٌ وثمانون رجلاً، وقُتل منهم أحدَ عشرَ رئيساً يتتابعون على الرّايةِ. فمَرُّوا بالأشترِ وهم يقُولون:

ـ «ليتَ لنا عِدَّتَنا مِن العربِ يُحالفونَنا على الموتِ، ثمّ نستقدم نحن وهم، فلا ننصرف حتّى نُقتَلَ أو نظهر».

فقال لهم الأشتر: «إلَيَّ، أنا أُحالفكم وأُعاقدكم على أن لا نرجعَ أبداً حتّى نظفرَ أو نَهلِكَ».

فأتَوهُ، فوقفُوا معه، وزحف الأشترُ، وثابَ إليه النّاس، وأخذ لا يَصمدُ لِكتيبةٍ إلاّ

كشفَها، وبيدِه صفيحةٌ يمانيةٌ إذا طَأطَأها خِلتَ فيها ماءاً مُنصَبًّا، وإذا رفَعَها كاد يَغشى البَصَرَ شُعاعُها، وجعلَ يضربَ بسيفِه ويقول:

«الغَمراتِ ثمَّ ينجلينا».

فبصُرَ به الحارثُ بن جَهمان والأشترُ مُقنَّعٌ في الحديدِ، فلم يعرفه. فدَنا مِنه وقال:

ـ «جزاك اللّهُ خيراً منذ اليوم عن أمير المؤمنين وجماعةِ المسلمين».

فعرفهُ الأشتر فقال: «يا بن جَهمان، إنَّ مثلَكَ لا يتخلَّفُ عَن مثل مَوطِني هذا الّذي أَنَا فيه».

فعرفهُ ابن جَهمان لمّا تكلَّم، وكانَ مِن أعظم الرِّجالِ وأطولِهم، فقال له:

ـ «جُعلتُ فِداك، لا واللّه، ما عَلمتُ بمكانك إلاّ السّاعةَ ولا أُفارقُك حتّى الموتِ».

ورآه منقذٌ وحِميرٌ ابنا قيس النّاعِطيّان.

فقال منقذٌ لحِمير: «ما في العرب مثلُ هذا إن كان قتالُه عن نيّة».

فقال له حمير: «وهل النِّيّةُ إلاّ ما تَراهُ يَصنعُ».

قال: «إنّي أخافُ أن يكونَ يُحاوِلُ مُلكاً».

وحملَ الأَشتر في بعض حملاته، فكشف أهلَ الشّامِ حتّى ألحقَهُم بِصفوفِ مُعاويةَ، وذلك بينَ صَلاةِ العَصرِ والغربِ، وانتهى إلى عبدِ اللّه بنِ بُديلٍ، وهو في عُصبةٍ مِن القُرّاءِ بينَ المائتين إلى الثّلاثمائةِ، وقد لَصِقوا بالأرضِ كأنّهم جُثًى، فكشف عنهم أهلَ الشّام، فأبصَرُوا إخوانَهم قد دَنوا منهم.

فقالوا: «ما فعلَ أميرُ المؤمنين؟».

قالوا: «حَيٌّ صالحٌ يُقاتِلُ في المَيسرةِ، ويقاتل النّاسُ أمامَهُ».

فقالوا: «والحمد للّهِ، قد كُنّا ظَنَنّا أن قد هَلَكَ وهَلكتُم».

ابن بديل يعصي مالكاً ويُقتل

وقال عبدُ اللّه بنُ بُديلٍ لأصحابه:

«استقدموا بِنا، رحمكم اللّه!».

فأرسل إليه الأشتر أن:

«لا تفعَل، اثبت لِلنّاسِ، وقاتِل، فإنّه خَيرٌ لَهُم، وأبقى لك ولأصحابِك».

فعَصاهُ ومَضى كما هُوَ نحوَ مُعاوية، وحولَهُ كأمثال جبالِ الحديد، وفي يَدِه سيفان، وقد خرجَ. فهو أمامَ أصحابِه. فأخذ كلّما دَنا منه رَجُلٌ قتلَهُ، حتّى قَتلَ تِسعةً، ودنا مِن معاوية، فنهض إليه النّاسُ مِن كُلِّ جانبٍ، وأُحيطَ بِه حتّى قُتِلَ ناسٌ مِن أصحابِه، ورَجعت طائفةٌ قد خرجُوا مُنهزِمينَ.

فبعث الأشترُ ابن جهمان، فحملَ على أهلِ الشّام الّذين يتّبعون مَن كان نَجا مِن أصحاب ابن بُديلٍ، حتّى نَفّسُوا عنهم، وانتهوا إلى الأشتر. فقال لهم:

ـ «ألم يكُن رأيي خيراً لكم مِن رأيِكم لأنفسكم؟ أَلَم آمُركم أن تثبُتوا مع النّاس؟».

وكان معاويةُ لمّا رَأى عبدَ اللّه بنَ بُدَيلٍ يضرب قُدماً، قال:

ـ «أترونَهُ كبشَ القومِ!».

فلمّا قُتل أرسَلَ إليه لِينظُرَ: مَن هو؟ فلم يَعرفهُ أحدٌ. فأقبل إليه حتّى وقف عليه، فقال:

ـ «بلى، هذا عبدُ اللّه بنُ بُديلٍ، هذا واللّهِ كما قال»:

أخو الحربِ إن عضّت بِه الحربُ عَضَّها وإن شمّرت يوماً لهُ الحربُ شَمَّرا

ثمّ إنّ الأشتر حملَ حملةً أزال أهل الشّام عن موقِفهم، حتّى ألحَقهم بالصُّفوف الخمسة المُعقَّلةِ بالعمائم حول مُعاوية، ثمّ شدّ عليهم شَدَّةً أخرى، فصرع الصُّفوفَ الأربعة المُعقَّلين، حتّى انتَهوا إلى الخامسِ حولَ معاوية. فدعا معاويةُ بِفرسِه، فركبَهُ.

وكان يقول:

ـ «أردتُ أن أنهزمَ فذكرتُ قولَ ابنِ الإطنابةِ:

أبَت لي عِفَّتي، وأبى بَلائي وأخذِي الحَمد بالثَّمنِ الرَّبيح
وإجشامي عَلَى المَكروهِ نَفسي وإقدامي عَلَى البطَلِ المُشيح
وقَولي كُلّما جَشَأت وجاشَت مَكانَكِ، تُحمَدى، أو تستريحي

فمَنعَني من الفِرار».

وإنَّ عليًا لمّا رَأى ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافِّها، وكشفت مَن بإزائها، أقبلَ حتّى انتهى إليهم، فقال:

ـ «إنّي قد رأيتُ جولتَكم، وانحيازَكم عن صفوفكم، تَحوزُكم الجُفاةُ الطَّغام، وأعراب الشَّام، وأنتم لَهاميم العرب، والسَّنام الأَعظم، وعُمَّار اللَّيل بتلاوة القرآن، وأَهلُ دعوة الحقّ إذ ضلَّ الخاطئون. فلولا إقبالُكم بعد إدباركم، وكرُّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المُولّي يومَ الزَّحف دُبُرَهُ، وكنتم من الهالكين، ولكن هوَّنَ وَجْدي، وشَفى بعضَ أُحاحِ نفسي أنّي رأيتُكم بِأَخرةٍ حُزتُموهم، كما حازوكم،

وأزلتُموهم عن مَصافِّهم كما أزالوكم، تَحُسّونهم بالسّيوف، يركب أُولاهم أُخراهم، كالإبل المطرودةِ الهِيم. فالآن، فاصبروا نزلت عليكم السَّكينة وثبّتكم اللّه باليقين وإنَّ الفارَّ لا يزيد في عمره ولا يُرضي ربَّه، فموتُ المرءِ مُحقًّا قبلَ موجدة اللّه، والذُّلِّ اللأّزم، والعارِ الباقي، واغتصابِ الفَيْءِ من يده، وفساد العيش، خيرٌ من الرِّضا بالتَّأنيس لهذه الخِصال، والإقرار عليها».

فصبر القوم، وقُتل الفُرسانُ من الجانبين. فقُتل ذو الكَلاع وعُبيد اللّه بن عمر، وتنادت ربيعةُ ـ حيث انتهى إليها عليٌّ ـ بينَها: أن:

ـ «أُصيبَ عليٌّ فيكم، وقد لَجأَ إليكم، افتضحتم آخر الدَّهر، وتشاءَم بِكُم المسلمون».

وقال لهم شقيق بن ثَورٍ:

ـ «يا معشر ربيعة، لا عُذر لكم في العرب إن وصل إلى عليٍّ فيكم ومنكم رجلٌ حيٌّ».

فقاتل القوم قتالاً شديداً حين جاءَهم عليٌّ، لم يكونوا قاتلوا مثلها. ففي ذلك قال عليٌّ عليه السَّلام:

لِمَن رايةٌ سَوداءُ يَخفِقُ ظِلُّها ... إذا قيل: قَدِّمْها حُضَينُ، تَقدَّما
يُقدِّمُها في الموتِ حتّى يردَّها ... حِياضَ المَنايا تَقطُرُ الموتَ والدَّما
أذَقنا ابنَ هِندٍ ضَرْبَنا وطِعانَنا ... بأرماحِنا حتّى تولّى وأحجَما
جَزَى اللّهُ قَوماً قاتَلوا في لِقائهم ... لَدَى الموتِ، قَوماً ما أعفَّ وأكرما

مقتل عمّار بن ياسر

قال: وسمعتُ عمّاراً يقول: «واللّه، إنّي لأَرى قوماً يضربونكم ضرباً يرتابُ منه المبطلون، وأَيمُ اللّه، لَو ضربُونا حتّى يبلّغونا سَعفات هَجَر، لَعلمنا أنّا على الحقِّ، وأنّهم على الباطل».

ثمّ حَمل حتّى وصل إلى عمرو بن العاص، فقال له:

«لقد قاتلتُ هذه الرّايةَ ثلاثاً مع رسول اللّه ـ ﷺ ـ وهذه الرّابعةُ، ما هي بِأَبر ولا أَتقى».

قال:

ورَأَيت عمّاراً جاءَ إلى هاشم بن عُتبة، وهو صاحبُ رايةِ عليٍّ، فقال:

ـ «يا هاشمُ، الجنّة تحت ظِلالِ السّيوف، أليومَ، أَلقى الأَحبَّة، محمَّداً وحزبَه».

فحَمَلا، ولم يرجعا.

ولمّا قُتِلَ عَمّارُ، قال عليٌ لربيعة وهمدان:

«أنتم دِرعي ورُمحي».

فانتدب له نحوٌ من اثنَي عشر ألفاً، وتقدّمهم عليّ على بَغلتِه، فحمَل وحَمَلُوا معه، حملةَ رجلٍ واحدٍ، فلم يبقَ لأهل الشّام صَفٌّ إلاّ انتقضَ، وقتلوا كُلَّ من انتهى إليه، حتّى بلغوا مُعاويةَ.

عليٌ يُبارز مُعاوية

ثمّ نادى عليٌ مُعاويةَ:

ـ «يا مُعاويةُ، لِمَ تقتل النّاس بينَنا؟ هلُمَّ أُحاكِمك إلى اللّه، فأيُّنا قتلَ صاحبَه استقامت له الأُمورُ».

فقال له عَمرٌو:

ـ «أنصفك الرّجلُ».

فقال معاويةُ:

ـ «ما أنصَفتَ، وإنّك لَتعلم أنّه لم يُبارزْهُ أحدٌ قطُّ إلاَ قتَلَهُ».

فقال عمرٌو:

ـ «ما يجمُل بك إلاّ مبارزتُه».

قال معاويةُ:

ـ «طمِعتَ فيها بعدي».

ما دبَّره عليٌ لإزالة كتيبةٍ

ومرَّ عليٌّ بكتيبةٍ فرءَاهم لا يزولون. فحرَّض عليهم وقال:

ـ «إنّ هؤلاءِ لا يزولون إلاّ بضربٍ دِراكٍ يفلقُ الهامَ، ويُطيح العِظامَ، وتسقط منه المعاصمُ والأَكُفُّ، وحتّى تُصدَعَ جِباهُهم بِعُمُدِ الحديد، وتَنتَثِرَ حَواجِبُهم على الصُّدور. أينَ أهلُ الصَّبرِ وطُلاّبُ الأجر؟».

فثابت إليه عصابةٌ. فدعا ابنَهُ محمَّداً، فقال:

ـ «امشِ نحوَ أهلِ هذه الرّاية مشياً رُويداً على هينتك، حتّى إذا أشرعتَ في صُدورهم الرِّماحَ، فأمسِكْ حتّى يأتيَكَ أمري».

ففعل، وأعدَّ عليٌ مِثلَهم. فلمّا دَنا منهم محمَّدٌ، فأشرعَ الرِّماحَ في صُدورهم، أمرَ عليٌّ

الَّذين أَعدَّهم، فشدُّوا عليهم، فنهض محمَّدٌ بمَن معهم في وجوههم، فزالوا عن مواقفهم، وأَصابوا منهم. ثمَّ اقتتلوا بعد المغرب قتالاً شديداً. فما صَلّى أكثر النّاس إلاَّ إيماءاً.

العالي مَن جعل المعركة خلفَ ظَهره

وقُتل عبد اللّه بن كعب المراديّ. فمرَّ به الأَسودُ بن قيس المُراديّ، فقال:

ـ «يا أَسود!».

فقال:

ـ «لَبَّيكَ».

وعرفه، وكان بآخر رمقٍ.

فقال:

ـ «عَزَّ عَليَّ بِمَصرعك. أَما واللّه، لَو شهدتُكَ لَآسَيتُكَ، ولَدافعتُ عنكَ».

ثمَّ نزل إليه وقال:

ـ «أَما واللّه، إن كان جارُك، لَيَأمَن بِوائقَك. ولقد كنتَ من الذّاكرين اللّهَ كثيراً، أَوصِني ـ رحِمَك اللّهُ».

فقال:

ـ «أُوصيك بتقوى اللّهِ، وأَن تُناصحَ أَمير المؤمنين، وتُقاتل معه المُحلّين حتّى يظهرَ أَو تلحقَ باللّه. وأَبلِغهُ عنّي السّلام، وقُلْ له: قاتِلْ على المعركة حتّى تجعلَها خلفَ ظهرِك، فإنَّه مَن أَصبح غداً والمعركةُ خلفَ ظهرِه، كان العاليَ».

ثمَّ لم يلبث أَن ماتَ.

فأَقبل الأسود إلى عليٍّ، فأَخبرهُ، فقال:

ـ «رَحمهُ اللّهُ، جاهدَ فينا عدُوَّنا في الحياة، ونصح لَنا في الوفاة».

واقتتل النّاس تلك اللّيلة كلَّها حتّى الصَّباح ـ وهي ليلةُ الهَرير ـ حتّى تقصَّفت الرِّماحُ، ونفد النَّبلُ، وصار النّاسُ إلى السُّيوف، وأَخذ عليٌّ يسير في ما بين الميمنة والميسرة، ويَأمرُ كلَّ كتيبةٍ من القُرّاءِ أَن تُقدمَ على الّتي تَليها، ولم يزل يفعل ذلك ويقوم بهم، حتّى إذا أصبح كانت المعركة كلُّها خلفَ ظهره، والأشترُ في ميمنة النّاس، وابن عبّاسٍ في الميسرة، وعليٌّ في القلب، والنّاس يقتتلون من كُلِّ جانبٍ، وذلك يوم الجمعة.

الظَّفر يلوح للأَشتر ومعاويةُ يلتمس حيلةً

وكان عليٌّ يُراسل الأشتر ويرفده، وكان الأَشتر تولّى القتالَ عشيَّةَ الخميس وليلة

الجمعة كلّها ويومَ الجمعة إلى ارتفاع النّهار، وقد كَلَّ النّاسُ، وأخذ يقول لأَصحابه:

ـ «ازحفوا قيدَ الرُّمح».

وزحف بهم نحو أَهل الشّام. فإذا فعلوا، قال:

ـ «ازحفوا قابَ هذا القوسِ».

فإذا فعلُوا، سأَلهم مثلَ ذلك، حتّى مَلَّ النّاسُ الإقدامَ. فلمّا رأى الأَشتر ذلك، قال:

ـ «أعيذُكم باللّه أَن ترضعوا الغَنم سائرَ اليوم».

ثمَّ دعا بِفرسِه، وترك رايَتَهُ مع حيّان بن هَوذَة، وخرج يسير في الكتائب ويقولُ:

ـ «مَن يشري نفسَهُ للّهِ ويقاتِلُ مع الأَشتر، حتّى يَظهرَ، أَو يلحقَ باللّه؟».

فلا يزال رجلٌ من النّاس قد خرج إليه وحيّانُ بنُ هوذة واقفٌ بالرّاية، فلمّا اجتمع إليه ناسٌ كثيرٌ، أَقبل حتّى رجع إلى المكان الَّذي كان فيه من الميمنة. ثم قال لأصحابه:

ـ «شدَّةً ـ فِدًى لكُم عمِّي وخالي ـ تُرضُون بها الرَّبَّ، وتُعِزُّون بها الّدين، إذا شَدَدتُ، فشُدُّوا».

ثمَّ نزل فضرب وجهَ دابَّتِه وقال لصاحب رايته:

ـ «أقدم بها».

ثمَّ شدَّ على القوم شِدَّةً، وشَدَّ معه أَصحابه. فضرب أَهلَ الشّام حتَّى انتهى إلى عسكرهم. ثمَّ قاتلوهُ عند العسكر قتالاً شديداً، فقُتل صاحب رايته، ولاح له الظَّفرُ بما اضطرب من صفوف معاوية. ونظر عليٌّ، فرأى الظَّفر من قِبله، ، فأَخذ يُمدّه بالرِّجال.

فالتَفت معاوية إلى عَمرو بنِ العاص، فقال:

ـ «أَما تَرى أَهلِ العراق قد استعلَوا؟».

فقال عَمرٌو:

ـ «هذا الهلاكُ. فهلمَّ حيلةً».

قال:

ـ «قُل، ما عندك»

ذِكرُ مكيدةِ عمرِو بنِ العاص

قال:

ـ «قد رأَيتُ أَمراً إن قبلتَهُ لا يزيدُنا إلاّ اجتماعاً، ولا يزيدُهم إلاّ فُرقةً».

قال:

ـ «نعم».

قال:

ـ «نرفع المصاحفَ على الرِّماح، ثمَّ نقول: ما فيها حكمٌ بينَنا وبينَكم. فإن أَبى بعضهُم إلاّ القتال، وجدتَ فيهم من يقولُ: لا نقاتل حتّى ننظر ما يحكم القرآنُ. فتقع بينَهم الفُرقةُ؛ فإن قالوا بأَجمعهم: نقبل حكُمَ القرآن؛ رفعنا هذه الحربَ، ودافعناها إلى أجلٍ وحين».

فرفعوا المصاحف بالرماح، وقالوا:

ـ «عِبادَ اللّه! هذا كتاب اللّهِ بينَنا وبينَكم، مَن لثُغورِ الشّام بعدَ أَهل الشّامِ، مَن لثُغور العراق بعدَ أَهلِ العراق؟».

فلمّا رأَى النّاسُ المصاحفَ، وسمعوا هذا الكلامَ، رقَّت قلوبُهم، وقد كان مَسَّهم النَّصَبُ والمَلالُ. فقالوا:

ـ «نُجيب إلى كتاب اللّه».

فلمّا رأَى عليٌّ الفُتورَ في أصحابه بعدَ الجِدِّ، صاحَ بِهم:

ـ «عبادَ اللّه، امضُوا على حَقِّكم، وصِدقكم، وقتال عدوِّكم. فإنَّ معاويةَ، وعمرو بنَ العاص، وابنَ أَبي سَرحٍ، والضَّحّاكَ بن قيسٍ، ليسوا بأَصحاب دينٍ وقُرآنٍ. أَنا أَعرف بهم منكم، وصَحبتهُم أَطفالاً ورجالاً. ويحكم! واللّهِ، إنَّهم ما رفعوا المصاحفَ. إنَّهم لا يعرفونَها، ولا يعلمون ما فيها؛ وما رفعوها إلاّ خديعةً ومكيدةً حينَ عَلَوتُموهُم».

فقالوا:

ـ «ما يَسَعُنا أَن نُدعى إلى كتاب اللّهِ، فنأبى أَن نقبلَهُ».

فقال لهم عليٌّ:

ـ «ويحكم! فإنّي إنَّما أُقاتلهم لِيدينوا بِحكم اللّهِ، ويعملوا بالقُرآن، فإنَّهم قد عَصَوا اللّهُ في ما أَمرهم، ونَبَذوا كتابَه، ونَسُوا عهدَهُ».

القُرَّاءُ يُهدِّدُون عليًا ويطالبون ترك القتال

فقال له مسعَر بن فَدكى، وزيدُ بن حصنِ الطّائي، ثمَّ السِّنبِسيّ في عصابة معهما من القُرّاءِ الَّذين صاروا خوارجَ بعد ذلك:

ـ «يا عليُّ، أَجِبْ إلى كتاب اللّه إذا دُعيتَ إليه، وإلاّ دفعناكَ برُمَّتِك إلى القوم، أَو

نفعل بك ما فعلنا بابن عفّان. واللّه، لَتَفعلنّها، أو لَنَفعلنّها بك».

قال:

ـ «فاحفظوا عنّي مقالي، فإنّي آمُركم بالقتال، وإن تعصوني، فافعلوا ما بَدا لكم».

قالوا له:

ـ «فابعثْ إلى الأشتر! إمّا لا، فَلْيَأتِك».

فأمسك عليٌّ. فنزل قومٌ فأحدقوا به.

فبعث إلى الأشتر يزيد بن هانئ السَّبيعي: أَن ائتِني. فذهب، فأبلغه.

فقال:

ـ «إِئْتِهِ، فقُل له: ليس هذه، السّاعةَ الّتي ينبغي أَن تُزيلَني فيها عن موقفي. إنّي قد رجوتُ أَن يفتحَ اللّهُ لي، فلا تُعجلني».

قال:

فرجع يزيد بن هانئ إلى عليٍّ، فأَخبرهُ. فما هو إلاّ أن انتهى إلينا، فارتفع الرَّهج، وعَلتِ الأَصواتُ من قِبلِ الأشتر.

فقال له القوم:

ـ «واللّه ما نَراكَ إلاّ أَمرتَه أن يُقاتلَ».

فقال عليٌّ:

ـ من أَين ينبغي أَن تَرَوا ذلك؟ رأيتموني سارَرْتُه؟ أَليس إنّما كلَّمتُه على رُؤوسكم علانيةً وأنتم تسمعون؟

قالوا:

«فابعث إليه بعزيمتك فَليأتِكَ، وإلاّ ـ واللّه ـ اعتزلناك».

قال:

ـ «ويحكَ يا يزيدُ! عُدْ إليه فقُل له: أَقبِلْ إلينا، فإنَّ الفتنة قد وقعتْ».

فأَتاهُ، فقال له ذلك.

فقال الأَشتر:

ـ «أَلِرفع المصاحف؟».

قال:

ـ «نعم، أَما واللّه، لقد ظننتُ حين رُفعت، أَنَّها ستُوقع اختلافاً وفُرقةً. إنَّها مشورة

ابنِ العاهرة. أَلا تَرى أَنَّ الفتح قد وَقع؟ أَلا تَرى إلى ما صنع اللَّهُ لَنا؟ أَينبغي أَن أَدعَ هؤُلاءِ وأَنصرفَ عنهم؟».

قال يزيدُ بنُ هانئٍ.

ـ «أَتُحبُّ أَنَّكَ قد ظهرتَ هاهنا وأمير المؤمنين يُقتلُ بمكانه، أَو يُسلَّم إلى عدُوِّه؟».

فقال:

ـ «لا واللَّه، سبحان اللَّه!».

قال:

ـ «فإنَّهم قد قالوا: لَتُرسِلَنَّ إلى الأَشتر، فَلْيأتكَ، أَو لَنَقتلنَّكَ كما قتلنا ابنَ عَفّان».

مالكٌ يَضع القتالَ ويُقبل، بعدَ أن رأَى النَّصرَ

فأَقبلَ معي الأَشتر حتّى انتهى إليهم، فقال:

ـ «يا أَهلَ العراق، يا أَهلَ الذُلِّ والوَهنِ! أَحينَ عَلَوتُم القَومَ ظفراً، وظنُّوا أَنَّكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يَدعونكم إلى ما فيها؟ وقد ـ واللَّه ـ تركوا ما أَمر اللَّه به فيها، وسَنَّةُ مَن أُنزِلت عَليه، فلا تُجيبوهم، يا قوم، أَمهلوني عَدْوَ الفرس، فإنِّي قد رأَيتُ النَّصرَ».

قالوا:

ـ «إذاً ندخل معك في خطيئتك».

قال:

ـ «فحدِّثوني عنكم، وقد قُتلَ أَماثِلكُم، وبقي أَراذِلُكم، متى كنتم مُحقِّين؟ أَحينَ كنتم تُقاتلون وخيارُكم يُقتلون؟ فأَنتم الآن إذا أَمسكتم عن القتال مُبطلون، أَمِ الآن أَنتم مُحقُّون؟ فقتلاكم الَّذين لا تُنكرون فضلَهم وكانوا خيراً منكم، في النّار إذاً!».

قالوا:

ـ «دَعنا منكَ يا أَشتر، قاتَلناهم في اللَّه، ونَدَعُ قتالَهم للَّهِ. إنّا لَسنا مُطيعيكَ ولا صاحِبَك، فاجتنِبْنا».

فقال:

ـ «خُدِعتم واللَّه، وانخدعتم، ودُعيتُم إلى وَضع الحرب بعد أَن غَلبتُم، فأَجبتُم. يا أَصحابَ الجِباهِ السُّودِ، كُنّا نظُنُّ صَلاتَكم زهادةً في الدُّنيا، وشَوقاً إلى لقاءِ اللَّه! فلا أَرى فِرارَكم إلاّ إلى الدُّنيا من الموت. أَلا قُبحاً لكم. يا أَشباهَ النِّيبِ الجَلاّلَةِ! ما أَنتم

برائين بعدَها عِزًّا أَبداً. فابعدوا كما بعُد القومُ الظالمون».

فسَبُّوهُ، وسبَّهُم، وضربُوا وجهَ دابَّته بسِياطهم، وأَقبل يضربُ وُجوهَ دَوابِّهم بِسَوطِه، وصاح بهم عليٌّ، فكَفُّوا.

قبولُ النّاسِ التَّحكيم، واستعلامُ معاوية

وتنادى النّاس:

ـ «قد قبلنا أن نجعلَ القُرآن بينَنا وبين هؤُلاءِ القوم حَكماً».

فجاء الأشعثُ بن قيسٍ إلى عليٍّ وقال:

ـ «ما أَرى النّاسَ إلاّ قد رَضُوا، وسرَّهُم أَن تُجيبُوا القوم إلى ما دعَوهم إليه من حكم القرآن. فإن شِئتَ أتيتُ معاويةَ فاستعلمتُه ما يُريد، فنظرتَ فيه».

قال:

ـ «ائتِهِ إن شِئتَ، فسَلْهُ».

فأَتاهُ وقال:

ـ «يا معاوية، لأيِّ شَيءٍ رفعتم المصاحف؟».

قال: «لِنرجعَ نحن وأَنتم إلى ما أَمر اللّه فيها، تبعثون منكم رجلاً ترضَون به، ونبعث منّا رجلاً نرضى به، نأخذ عليهما أَن يعملا بما في كتاب اللّه لا يَعدُوانِه، ثمَّ نتبع جميعاً ما اتَّفقا عليه».

فقال له الأَشعثُ:

ـ «هذا الحقُّ».

ثمَّ انصرف إلى عليٍّ بما قال معاويةُ.

فقال النّاس:

ـ «قد رضينا وقبلنا».

قال أَهلُ الشّام.

ـ «فإنّا قد اخترنا عمرَو بن العاص».

وقال الأشعث وأُولئك القوم الَّذين صاروا خَوارجَ بعدُ:

ـ «فإنّا قد رضينا بأَبي موسى الأَشعري».

عليٌّ لا يَرضى بِأَبي مُوسى والنّاس يأبون إلاّ إيَّاهُ

قال عليٌّ:

فإنّكم قد عَصيتموني في أَوّل الأَمر، فلا تعصوني الآن. إنّي لا أرى أَن أُولّيَ أَبا موسى.

قال الأشعثُ وزيدُ بن حصنٍ الطّائي ومسعر بن فَدكى:

ـ «لا نَرضى إلاّ بِه، فإنَّه قد كان يُحذِّرُنا ما وقعنا فيه».

قال عليُّ:

ـ «فإنَّه ليس لي بِثقةٍ، قد فارقني، وخذَّل النّاسَ عنّي، ثمَّ هرب منّي حتّى آمنتُه بعدَ أَشهُرٍ، ولكن هذا ابنُ عبَّاسٍ، أُولّيه ذلك».

قالوا:

ـ «واللّه ما نُبالي: أَنتَ كنتَ، أَم ابن عبَّاس. ما نُريد إلاّ رجلاً هو منكَ ومن معاويةَ سَواءٌ».

قال عليُّ:

ـ «فإنّي أَجعله الأَشتر».

فقال الأشعثُ:

ـ «وهل سعَّر الأَرضَ غيرُ الأَشتر، وهل نحن إلاّ في حُكم الأشتر؟».

قال عليّ:

ـ «وما حُكمُه؟».

قال:

ـ «أَن يضربَ بعضُنا بعضاً بالسُّيوف حتّى يكونَ ما أردتَ».

قال:

ـ «فقد أَبَيتُم إلا أَبا موسى».

قالوا:

ـ «نعم».

قال:

ـ «فاصنعوا ما بَدا لكم».

فبعثوا إليه وقد اعتزل القِتالَ وهو يُعرِّضُ. وأَقبل الأَشتر حتَّى جاءَ إلى عليٍّ فقال له:

ـ «أَلِزَّني بعمرِو بن العاص، فواللّه الّذي لا إله إلاّ هو، لئن مَلأتُ عيني منه لأَقتلنَّه».

وجاءَ الأَحنف بن قيسٍ، فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إنَّك رُميتَ بحجر الأَرض، وبمَن حارب اللَّهَ ورسولَه أَنْفَ الإسلام، وهذا الرَّجل ـ يعني أَبا موسى ـ قد عجَمتُه وحَلبتُ أَشطُرَهُ، فوجدتُه كليل الشَّفرة، قريبَ القعر، وإنَّه لا يصلح لهؤلاءِ القوم إلاّ رجلٌ يدنُو منهم، حتّى يصير في أَكفِّهم، ويبعدُ، حتّى يصيرَ بمنزلة النَّجم منهم، فإن أَبيتَ أن تجعلَني حَكماً، فاجعلني ثانياً، أَو ثالثاً، فإنَّه لن يعتقدَ عُقدةً إلاّ حَلَلْتُها، ولن يحُلَّ عُقدةً إلاّ عقدتُ لك أُخرى أَحكَمَ منها».

فأَبى النّاسُ إلاّ أَبا موسى.

فقال الأَحنفُ:

ـ «فإن أَبيتُم إلاّ أَبا موسى فادفِئوا ظَهرَه بالرِّجال».

ثمَّ كتبوا: «هذا ما تقاضى عليه أَمير المؤمنين».

فقال عَمرٌو:

ـ «اكتُبوا اسمَه واسمَ أَبيه. هو أَميرُكم، فأَمّا أَميرُنا، فلا».

ذكرُ رَأيٍ للأَحنف

فقال الأَحنفُ:

ـ «لا تَمحُ اسمَ أَمارة أَمير المؤمنين، فإنّي أَتخوَّفُ إن مَحَوتَها، لا ترجع إليكَ، وإن قتل النَّاسُ بعضُهم بعضاً».

فأبى عليٌّ مَليًّا من النَّهار.

ثمَّ إنّ أَشعث بن قيسٍ قال:

ـ «امحُ هذا الاسمَ، تَرَحَهُ اللَّهُ».

فمُحي، فقال عليٌّ:

ـ «اللَّه أَكبرُ، سُنَّةٌ بسُنَّةٍ، ومَثلٌ بمَثلٍ، واللَّهِ، إنّي لَكاتبُ رسولِ اللَّه يومَ الحديبيَّة، إذ قالوا: لا نشهدُ لك أَنَّكَ رسولُ اللَّه، فامحُ هذا، واكتب اسمَكَ واسم أَبيك. فكتبَهُ».

فقال عمرٌو بن العاص:

ـ «نُشَبَّهُ بالكُفّار ونحن مؤمنون».

فقال له عليٌّ:

ـ «يا ابن النّابغة، ومَتى لم تكن للفاسقين وليًّا، وللمسلمين عدُوًّا، وهل تُشبهُ إلاّ

أمًا دفعت بِكَ؟».

فقام وقال:

ـ «لا يجمع بيني وبينَك مجلسٌ أبداً بعد هذا اليوم».

فقال عليٌ:

ـ «وإنِّي لأَرجو أن يُطهِّر اللَّهُ مجلسي منك ومن أَشباهكَ».

فقال الأَحنف:

ـ «أيُّها الرَّجلُ، إنَّه مالَكَ ما كان لرسول اللَّهِ، وإنًّا ـ واللَّه ـ ما حابيناكَ ببيعتنا، ولو علمنا أَحداً من النّاس أَحقَّ بهذا الأمرِ منكَ لَبايعناهُ، ثمَّ قاتلناك، وإنِّي أُقسمُ باللَّه، لَئن محوتَ هذا الاسمَ عنكَ، والَّذي بايعكَ النّاسُ عليه وقاتلتَهم، لا يعودُ إليكَ أبداً».

قال الحسنُ البصريُّ:

وكان ـ واللَّه ـ كما قال، وقلَّ ما وُزن رَأيُه بِرأيِ رجلٍ إلاّ رجح به.

مالكٌ يَأبى أن يُخطَّ اسمُه في صحيفة التَّحكيم

وكُتب الكتابُ، وشهد فيه نفرٌ من أصحاب عليٍّ ونفرٌ من أَصحاب معاوية.

ودُعيَ له الأَشترُ، فقال:

ـ «لا صَحبَتْني يميني، ولا نَفَعتْني شِمالي إن خُطَّ لي في هذه الصَّحيفةِ اسمٌ على صلحٍ، ولا مُوادَعةٍ. أَوَلستُ على بيِّنةٍ من أَمري، ومن ضلالِ عدوّي؟ أَوَلَستم قد رأَيتم الظَّفرَ، لَو لَم تُجمِعُوا علَى الجَورِ؟».

فقال له الأشعثُ بن قيسٍ:

ـ «إنَّكَ واللَّه ما رأَيتَ ظفراً، ولا جوراً. هَلُمَّ بكَ إلينا، فإنَّه لا رغبةَ لك عنًا».

فقال:

ـ «بَلى واللَّه، الرَّغبة لي عنك في الدُّنيا للدُّنيا، وفي الآخرةِ لِلآخرة. ولقد سفك اللَّه بيدي دماءَ رجالٍ ما أَنتَ عندي خيرٌ منهم، ولا أَحرَمُ دَماً».

قال عُمارةُ:

فنظرتُ إلى ذلك الرَّجل، وكأَنَّما قُصعَ على أَنفِه الحُمَمُ ـ يعني الأَشعثَ.

ثمَّ خرج الأشعث بالكتاب يقرأُهُ على النّاس ويعرضه عليهم، حتّى مرَّ بِهِ عُروةُ بن أُذَيَّةِ ـ وهو أَخو بلالٍ ـ فقرأَهُ عليهم.

فقال عُروةُ:

ـ «تُحكِّمون في أَمر اللَّه الرِّجالَ؟ لا حُكم إلاّ للَّهِ».

وشدَّ بسيفِه، فضرب عَجُزَ دابَّتِه ضَربةً خفيفةً، واندفعتِ الدّابَّة. فصاح به أصحابُه: أن املِكْ يَدَيكَ. فرجع، وغضب للأَشعث أصحابُه وقومُه. فمشى إليه الأحنفُ بن قيسٍ، ومسعود بن فدكى، وخَلقٌ من بني تميمٍ، فتنصَّلوا إليه واعتذرُوا. فقبل، وصفح.

ذكرُ خديعةٍ أَجازها معاويةُ على نفسه

وكان أَسر معاويةُ في اسارى كثيرين، رجلاً من أَوْدٍ، يُقال له: عمرُو بن أَوْسٍ، قاتل مع عليٍّ، فهمَّ بقتل الجميع.

فقال له عمرُو بن أَوسٍ:

ـ «إنَّك خالي، فلا تَقتلْني».

وقامت بنو أَوْدٍ، فقالوا:

ـ «هَبْ لنا أَخانا».

فقال:

ـ «دَعُوهُ. لَعَمري، لئن كان صادقاً، لَيَستغنَينَّ عن شفاعتكم، ولئن كان كاذباً لَتأتينَّ شفاعتُكم من وَرائه».

فقال له:

ـ «مِن أَينَ صِرتُ خالَك، وما كان بينَنا وبين أَودٍ مصاهرةٌ؟».

قال:

ـ «فإن أَخبرْتُك، فهو أَماني عندك؟».

قال:

ـ «نعم».

قال:

ـ «أَلستَ تعلم أَن أُمَّ حبيبة بِنتَ أَبي سفيان زوجَ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ أُمُّ المؤمنين؟».

قال:

ـ «بلى».

قال:

ـ «فإنّي ابنُها، وأَنتَ أَخوها، فأَنتَ خالي».

قال مُعاويةُ:

ـ «ما له للّهِ أبوهُ، أما كان في هؤلاءِ، مَن يفطن لها غيرُه؟».

ثمَّ قال لِلأَوْديّين:

ـ «أستغني عن شفاعتكم، فخَلُّوا سبيلَه».

وتمّت لِمعاويةَ، وخُوطبَ: «خال المؤمنين».

وكان عمرُو بن العاص أسر أيضاً أَسارى كثيرةً، فراسله مُعاويةُ:

ـ «خلِّ سبيل أُسرائكَ، فلولا الأَوديُّ لَوَقعنا في قبيحٍ من الأُمور».

فما شعر النّاس إلاّ بأُسرائهم قد خُلِّيَ سبيلُهم.

ما قاله عليُّ بن أَبي طالبٍ لأَصحابه

فأما عليُّ بن أَبي طالبٍ فإنّه قال لأصحابه:

ـ «لقد فعلتم فعلةً ضعضعتْ قُوّةً، وأَسقطتْ مُنَّةً، وأَورثتْ وَهناً وذِلّةً. ولمّا كنتم الأَعلَينَ، وخابَ عدوُّكم، ورأى الاجتياحَ، واستحرَّ بهم القتلُ، ووجدُوا أَلَمَ الجراحِ، رفعوا المصاحفَ، ودعَوكُم إلى ما فيها لِيفتؤوكم عنها، ويقطعوا الحربَ في ما بينَكم وبينَهم، ويتربَّصُوا رَيبَ المنون، خديعةً، ومكيدةً، فأَعطيتُموهُم ما سأَلوكُموهُ، وأَبيتم إلاّ أن تُدهِنوا وتجوروا. وأَيمُ اللّه، ما أظُنُّكم بعدها تُوافقون رَشَداً، ولا تُصيبون بابَ حَزمٍ».

ذكر حيلةٍ للمغيرة بن شُعبة لِيعلمَ: أَيجتمع الحكمان، أم يفترقان

كان الحكمان ـ وهما أبو مُوسى وعمرُو بن العاص، اتّفقا على أن يجتمعا بأذرح ويحضرَ وجوهُ أَصحاب عليٍّ، ووجوهُ أَصحاب مُعاوية، ويحضر عليٌّ ومُعاوية في أربعمائة، ومدَّة الأَجل إلى أن يَفصلا الحكمَ، ويَرفعا ما رفع القرآنُ، وأَن يختارا لأُمَّة محمّدٍ ـ ﷺ ـ في ثمانية أَشهرٍ، أَوّلُها النِّصف من صفر، وآخرها انقضاءُ شهر رمضان.

فلمّا اجتمع الحَكمان، وافاهم المغيرة بن شعبة في مَن حَضرَ، وعبدُ اللّه بن عُمر، وعبدُ اللّه بن الزُّبير، في رجالٍ كثير ووافى معاوية في العدَّة المذكورة، وأَبى عليٌّ أَن يُوافِيَ.

فقال المغيرة بن شُعبة لِرجالٍ من ذَوي الرَّأي من قُريش:

ـ «هل تَرون أَحداً من النّاس برأيٍ يبتدعُه، يستطيع أن يَعلَمَ: أَيجتمعُ الحكمان، أَم يفترقان؟».

قالوا:

ـ «لا نَرى أَحداً يعلم ذلك».

قال:

ـ «فواللّه، إنّي لأَظُنُّ، أنّي سأَعلمه منهما، حينَ أَخلُو بهما، وأُراجِعهُما».

فدخل على عَمرو بن العاص، وبدأ فقال:

ـ «يا أبا عبدِ اللّه، أَخبرني عمّا أسأَلك عنه: كيف تَرانا مَعشرَ المعتزلة؟ فإنّا قد شَككنا في الأمر الّذي تبيّن لكم من هذا القتال، ورأَينا أن نَستأنيَ ونَتثبَّتَ، حتى تجتمع الأُمّة».

قال:

ـ «أراكم معشرَ المعتزلة خلفَ الأَبرار، وأَمامَ الفُجّار في سخط اللّه».

فانصرف المغيرةُ، ولم يَسأَلْهُ عن غير ذلك. حتّى دخل على أَبي موسى، فقال له مثلَ ما قال لِعمرِو.

فقال أَبو موسى:

ـ «أَراكم أَثبتَ النّاس رأياً فيكم بقيّة المسلمين».

فانصرف المغيرةُ، ولم يَسأَلْهُ عن غير ذلك. فلقى الّذين قال لهم ما قال، من ذوي الرَّأي من قُريشٍ، فقال:

ـ «لا يجتمع هذان أَبداً على أَمرِ واحدٍ».

فلمّا اجتمع الحَكمان وتكلّما قال عمرو بن العاص:

ـ «يا أبا موسى، أَرأَيتَ أَوّل ما تقضي به من الحقّ أَن تقضيَ لأَهل الوفاءِ بوفائهم، وعلى أهل الغَدر بِغدرِهم».

قال أَبو موسى:

ـ «وما ذاك؟».

قال عمرٌو:

ـ «أَلستَ تعلمُ أَنّ معاوية وَفى، وقدِمَ للموعد الّذي واعدناهُ؟».

قال:

ـ «نعم».

قال:

ـ «اكتبها».

فكتبَها أبو موسى.

ذكر الخديعة الَّتي خدع بها عمرٌو أبا موسى

قال عَمرٌو:

ـ «يا أبا موسى، أنتَ على أن تُسمِّي رجلاً يَلِي أَمرَ هذه الأُمَّةِ، فسَمِّ لي، فإنِّي أَقدر أَن أتابعَك، منك، على أَن تتابعني».

قال أَبو موسى:

ـ «أُسمِّي لك عبدَ اللَّه بن عُمر».

وكان ابن عمر في مَن اعتزله.

فقال عمرٌو:

ـ «فأَنَا أُسمّي لك معاويةَ بن أبي سفيان».

روايةٌ أُخرى في ذلك.

وفي رواية أُخرى: أَنَّ عَمراً قال لأَبي موسى:

ـ «أَلستَ تعلم أَنّ عثمان قُتل مظلوماً؟».

قال:

ـ «أَشهدُ».

قال:

ـ «أَلستَ تعلمُ أَنّ معاويةَ وَليُّ دَم عثمان؟».

فقال:

ـ «بَلى».

قال:

ـ «فإنَّ اللَّه قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. فما يمنعك من مُعاوية وليّ دم عثمان، وهو مَن عرفتَ بيتَه في قريش، وهو الحَسنُ السِّياسة، الصَّحيح التَّدبير، وهو أَخو أُمّ حبيبة، أُمّ المؤمنين، وهو أَحدُ الصَّحابة وكاتب الوحي.

فقال له أَبو موسى:

«أَمّا ما ذكرت من شرفه وبيته، فإنَّ هذا الأَمر ليس بالشّرف يُولاّه أَهلُه، ولو كان

بالشَّرف، كان لآلِ أبرهة بنِ الصَّباح، إنَّما هو لأهل الدِّين والفضل».

قال:

ـ «فاخلع صاحبَكَ، حتَّى أَخلعَ صاحبي، ثمَّ نتَّفق».

فاجتمعا على ذلك، وخرجا إلى النّاس، وقالا:

ـ قد اتَّفقنا.

فقال أَبو موسى لِعمرو:

ـ «تقدَّمْ، فاخلعْ صاحبَكَ بحضرةِ النّاس».

فقال عَمرٌو:

ـ «سبحان اللّه! أَتقدَّم عليك وأنتَ في موضِعِكَ وسِنِّك وفضلك؟ تقدَّمْ أَنتَ».

فقدَّمهُ، فقال أَبو موسى:

ـ «إنّا ـ واللّه، أَيُّها النّاس ـ قد اجتهدنا رَأْيَنا، ولم نَأْلُ الإسلامَ وأَهلَه خيراً، ولم نَرَ أَصلحَ لهذه الأُمّة من خلع هذين الرَّجلين، وقد خلعتُ عليًّا ومعاويةَ كخلع خاتَمي هذا».

فقام عمرٌو، فقال:

ـ «لكنِّي خلعتُ صاحبَهُ عليًّا كما خَلعَ، وأَثبتُّ معاويةَ».

فلم يبرحا حتَّى استبَّا.

ذكر من خالف عليَّ بن أَبي طالبٍ في رأيه، وأَشار بالحرب عليه، وما كان من جوابه واعتذاره

لمّا انصرف عليُّ بن أبي طالبٍ من صفّين، كثر خوضُ النّاس، وخالفه القومُ الّذين صاروا خوارج، وكانوا طولَ طريقهم يتدافعون، ويتضاربون بالسِّياط. فلمَّا صاروا إلى النُّخيلة ورَأَوا سورَ الكوفة لقيه عبد اللّه بن وديعة الأَنصاري، ودَنا منه، وسلَّم عليه، وسايَرَهُ، فقال له:

ـ «ما سمعتَ النَّاس يقولون في أَمرنا؟».

قال:

ـ «منهم المعجَب به، ومنهم الكارِهُ لَهُ، كما قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

فقال له:

ـ «فما قولُ ذي الرَّأي فيه».

فقال:

ـ «أمّا قولُ ذي الرَّأي فيه، فيقولون: إنَّ عليًا كان له جمعٌ عظيمٌ ففرَّقه، وكان له حصِنٌ حَصينٌ فهَدَمه. فحتَّى مَتى يبني ما هدم، وحتَّى مَتى يجمع ما فرَّقَ. فلَو كان مضى بمن أطاعَه إذ عصاهُ مَن عصاه، فقاتل حتّى يظهَرَ، أو يهلك، كان ذلك الحزم».

فقال عليٌّ:

ـ «أَنَا هَدمتُ أَم هَدَمُوا، أنَا فرَّقتُ أم فرَّقُوا؟ أَمَا قولُهم: إنَّه لو كان مضى بمن أَطاعه إذ عصاهُ من عَصاهُ، فقاتل حتَّى يظهر، أو يهلك كان ذلك الحزمُ؛ فواللَّه ما غَبِيَ ذلك عليَّ، وإنِّي كنت سَخيًا بنفسي عن الدُّنيا طيِّب النَّفسِ بالموت. ولقد هَمَمتُ بالإقدام على القوم، فنظرتُ إلى هذين قد ابتدراني ـ يعني الحسنَ والحُسين ـ ونظرتُ إلى هذين قد استقدماني ـ يعني محمد بن عليٍّ وعبد اللَّه بن جعفرٍ ـ فعلمتُ أَنَّه إن هلكا انقطع نسلُ محمَّدٍ، فكرهتُ ذلك، وأَشفَقتُ على هذين أَن يهلكا. وأَيمُ اللَّه، لئن لقيتُهم بعد يومي هذا لأَلْقَيَنَّهم وليس معي أَحدٌ منهم».

بُكاءُ النِّساءِ على القتلى وما قالهُ عليٌّ لابن شُرحبيل

ثمَّ مضى غير بعيد، فمرَّ بالشِّباميين، فسمع رجَّةً شديدةً وبُكاءاً كثيراً، فوقف، فخرج إليه حربُ بن شُرحبيل الشِّبامي، فقال له عليٌّ:

ـ «أَيغلبكم نساؤكم؟ أَلا تنهنهونهنَّ عن هذا الرِّنين؟».

فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، لو كانت داراً أو دارَين، قَدَرنا على ذلك، ولكنَّه قُتل من هذا الحيِّ مائةٌ وثمانون قتيلاً، ليس دارٌ إلاّ فيها بكاءٌ. فأَمّا نحن معاشرَ الرِّجال، فإنَّا لا نبكي، ولكنَّنا نفرح، أمَّا نفرح بالشَّهادة».

فقال:

ـ «رحمَ اللَّه قتلاكم وموتاكمْ».

فأَقبل يمشي معه وعليٌّ راكبٌ. فوقف وقال له:

ـ «ارجعْ، فإنَّ مَشْيَ مِثلِك معي فتنةٌ للوالي، ومذلَّةٌ لِلمُؤمن».

مُرورُهُ بالنّاعطيِّين، وما قاله فيهم

ثمَّ مضىٰ. حتَّى مرَّ بالنَّاعطيِّين، فسمع رجلاً منهم يُقال له عبد الرَّحمن بن مزيدٍ، يقول لآخر:

ـ «واللَّه ما صنع عليٌّ شيئاً: ذَهبَ، ثم انصرفَ في غير شَيْءٍ».

فلمّا نظروا إلى عليٍّ أَبلسُوا، فقال:

ـ «وجوهٌ ما رأَوا الشَّامَ».

ثمَّ أقبل على أَصحابه، فقال:

ـ «قَومٌ فارَقْناهُم آنِفاً، خيرٌ من هؤلاءِ».

ثمَّ أَنشد:

أَخُوكَ الَّذي إن أجرضَتْكَ مُلِمَّةٌ من الدَّهرِ، لم يَبْرَحْ لِبَثِّك واجما
وليس أَخوكَ بِالَّذي إِن تشعبَّتْ عَليكَ أُمورٌ ظَلَّ يَلْحاكَ دائما

ثمَّ مضى، فلم يزل يذكر اللَّه، حتَّى دخل القصر.

تَشاتُمُ القَومِ واضطرابُهم بالسِّياط

ثمَّ إنَّ القوم الَّذين كانوا معه يتشاتمون طول طريقهم، ويضطربون بالسِّياط، ويقول بعضُهم لِبعضٍ:

ـ «أَدهنتم في أمر اللَّه، وحكَّمتُم».

ويقول قومٌ:

ـ «فرَّقتُم جَماعتَنا، وفارقتُم إمامَنا».

مُفارقة الخوارج عليّاً نزولهم بحروری وعدمُ دخولهم الكوفة مع عليٍّ

لم يدخلوا معه الكوفة حتَّى أتوا حَروریٰ، فنزل بها منهم اثنا عشرَ أَلفاً.

فنادیٰ مُناديهم:

ـ «إنَّ أَميرَ القتال شَبَثُ بن رَبَعي، وأَمير الصَّلاة عبد اللَّه بن الكَوَّاء، والأَمر شُوریٰ بعد الفتح، والبَيعةُ للَّهِ، والأَمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر»

ما دار بين شيعة عليٍّ والخوارج عند دخوله الكوفة

ولمّا دخل عليٌّ الكوفة، وفارقتهُ الخوارج، وثبت إِليه شيعتُه وقالوا:

ـ «في أعناقنا لك بيعةٌ ثانية. نحن أَولياءُ مَن واليتَ، وأَعداءُ مَن عاديتَ».

فقالت بقيَّة الخوارج:

ـ «استبقتم أَنتم وأَهلُ الشَّام في الكفر، كفَرَسَي رهانٍ، بايع أَهل الشَّام معاويةَ على ما أَحبُّوا وكرهوا، وبايعتُم عليّاً على أَنَّكم أَولياءُ مَن والیٰ، وأَعداءُ مَن عادیٰ».

فقال لهم زياد بن النَّضر:

«واللّه يا قوم، ما بسطَ عليٌّ يدَهُ فبايعناهُ قطُّ، إلاّ على كتاب اللّه وسُنَّة نبيِّه، ولكنَّكم لمَّا خالفتُموهُ جاءَتْهُ شيعتُهُ، فقالوا: نحنُ أَولياءُ مَن واليتَ، وأَعداءُ مَن عاديتَ. ونحن كذلك، وهو هادٍ، ومَن خالفَهُ ضالٌّ».

ذكرُ احتجاجِ الخوارجِ معَ عليٍّ عليه السَّلام

أَتىٰ عليَّ بنَ أَبي طالبٍ رجلان من الخوارج: زُرعةُ بن البرج الطَّائي، وحُرقوصُ بن زُهير السَّعدي، فدخلا عليه، فقالا له:

- «لا حُكمَ إلاَّ للّهِ».

فقال عليٌّ:

- «لا حُكمَ إلاّ للّهِ».

فقال حُرقوص:

- «فتُبْ من خطيئَتِكَ، وارجع عن قضيَّتِكَ، واخرج بِنا إلى عدوِّنا نُقاتلهم، حتّى نَلقى ربَّنا».

فقال عليٌّ:

«قد أَردتُكم على ذلك فعَصيتُموني. وقد كتَبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشُروطاً، وأَعطينا عليها عهودَنا ومَواثيقَنا، وقد قالَ اللّه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

فقال له حُرقُوص:

- «ذلك ذَنبٌ ينبغي أَن تتوبَ منه».

فقال عليٌّ:

- «ما هو ذَنبٌ، ولكنَّه عَجزٌ من الرَّأي، وضَعفٌ في العقلِ، وقد تقدَّمتُ فنَهيتُكُم عنه».

فقال له زُرعةُ:

- «أَما واللّهَ، يا عليّ، لَئن لم تَدَعْ تحكيم الرجال في كتاب اللّه، لأُقاتِلنَّكَ».

فقال عليٌّ:

- «يُوسىٰ لَكَ، ما أشقاكَ كَأَنّي بك قتيلاً تَسفَى عليك الرِّيح».

قال:

ـ «وَددْتُ أَن قد كانَ ذاك».

فخرجا من عنده يُحكّمان.

صياحٌ أَثناءَ خُطبته

ثُمَّ إنّ عليّاً خطبَ ذاتَ يومٍ. فإنّه لفي خُطبتِه، إذ صاح صائحٌ من جانب المسجد:

ـ «يا عليُّ، لا حُكمَ إلاّ للّهِ».

فقال عليٌّ:

ـ «أَللّهُ أكبَرُ، كلمَةُ حَقٍّ يُرادُ بها باطِلٌ. إن سكتوا غَممناهم، وإن تكلّموا حَجَجْناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم».

فوَثَبَ يزيد بن عاصم المُحاربي، فقال:

ـ «الحمد للّهِ، أَللّهُمَّ إنّا نعوذ بك من إعطاء الدَّنيَّة في ديننا. يا عليٌّ، أَبِالقَتلِ تُخوِّفُنا؟ أمَا واللّهِ، إنّي لأَرجو أن نضربكم بها عمّا قليلٍ، غير مصفّحاتٍ، ثمّ لَنعلَمُ أيُّنا أَولَىٰ بِها صِليّاً».

فقال عليٌّ:

ـ «أما إنَّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا لا نَمنعُكم»:

- «لا نَمنعُكم مَساجدَ اللّه أن يُذكرَ فيها اسمُهُ».
- «ولا نَمنَعُكم الفَيْءَ، ما دامت أَيديكم فيه مع أَيدينا».
- «ولا نقاتِلُكم حتّى تَبدَأُونا».

ثمَّ رجع إلى مكانه الّذي كان فيه من خطبته.

وخرج الرَّجلان يُحكّمان، واجتمع معهم قومٌ. فبعثَ عليٌّ عبدَ اللّه بن العبّاس، وقال له:

ـ «لا تعجل إلى جوابهم حتّى آتيَكَ».

ذكر ما جرى بينَهم من الجدال ورُجوعهم مع عليٍّ وهذه الدّفعةُ الأولى من خروجهم

فخرج ابن عبّاسٍ إليهم، فأَقبلوا يُكلّمونه. فلم يصبر حتّى راجعهم، فقال:

ـ «ما الّذي نقمتم من الحكمين؟ وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ [النساء: ٣٥]؛ فكيف بأُمّة

محمَّد ﷺ؟».

فقالت الخوارج:

ـ «أمَّا ما جعل حُكمه إلى النَّاس وأمرهم بالنَّظر فيه والإصلاح له، فهو إليكم كما أمرَ به، وأمّا ما حَكَمَ فأَمضاهُ، فليس للعِباد أن ينظروا فيه، حَكَم في الزّاني مائةَ جلدةٍ، وفي السَّارق بقطع يَدِهِ، وليس لأمثال هذا أن يَنظرَ فيه مخلوقٌ».

قال ابن عبَّاسٍ:

ـ «فإنّ اللّه يقول: يَحكمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ منكم».

فقالوا له: «أَو تجعل الحكمَ في الصَّيد والحدَثِ يكون بين المرأة وزوجها، كالحُكم في دِماءِ المسلمين؟».

وقالت الخوارج:

ـ «قلنا له، فهذه الآية بيننا وبينك. أَعَدلٌ عندك ابن العاص، وهو يُقاتلنا، ويَسفِكُ دِماءَنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا عدلاً، وقد حكَّمتم في أَمر اللّه الرِّجالَ، وقد أَمضى اللّه حُكمَه في معاويةَ وحِزبِه أن يُقتَلُوا. ثمَّ كتبتُم بينكم وبينهم كتاباً جعلتم نيَّتَكم الموادعةَ والاستفاضة، وقد قطع اللّه تعالى الاستفاضة والموادعةَ بين المسلمين وأهلِ الحربِ، إلاّ مَن أَقرَّ بالجزية».

ثمَّ خرج عليٌّ حتّى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عبّاسٍ، فقال:

ـ «انتهِ عن كلامهم! أَلم أَنهَكَ ـ رحمك اللّه؟».

ثمَّ تكلَّم، فحمد اللّه وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال:

ـ «اللّهمَّ، إنَّ هذا مقامٌ ، مَن فلج فيه، كان أَولى بالفُلج يومَ القيامة؛ ومَن نطف فيه، أو وعث، فهو في الآخرة أعمىٰ وأَضلُّ سبيلاً».

ثمَّ قال:

ـ «مَن زعيمكم؟».

قالوا:

ـ «ابن الكوّاءِ».

قال عليٌّ:

ـ «فمن أَخرجكم علينا».

قالوا:

«حكومتكم يوم صفين».

قال:

ـ «أُنشدكم اللّه، هل تعلمون أنَّهم حيث رفعوا المصاحف، فقلتم: نجيبكم إلى كتاب اللّه؛ قلت لكم: إنّي أعلم بالقوم منكم، إنَّهم ليسوا بأصحاب دينٍ ولا قرآن، صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً. امضُوا على حقِّكم وصدقكم، فلمّا رفع القوم لكم المصاحف خديعةً ودَهناً ومكيدةً، فرددتم عَليَّ رأيي وقلتم: لا بل نقبل منهم؛ فقلت لكم: اذكروا قولي ومعصيتكم إيَّاي. فلمَّا أبيتم إلاّ الكتاب اشترطتُ على الحَكَمين أن يُحييا ما أَحيى القرآنُ، وأن يُميتا ما أَماتَ القرآنُ. فإن حَكَما حُكمَ القرآن فليس لنا أن نخالفَ حُكمَهُ، وإن أَبينا، فنحن منه بُرَءَاءُ».

فقالوا له:

ـ «فخبِّرنا: أَتراهُ عدلاً تحكيمَ الرِّجال في الدِّماءِ؟».

فقال:

ـ «إنّا لَسنا الرِّجالَ حكَّمنا، إنَّما حكَّمنا القرآنَ، وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مسطورٌ بين دفَّتين لا ينطق، إنّما يتكلَّم به الرِّجال».

قالوا:

ـ «فخبِّرنا عن الأجل: لِمَ جعلتَه في ما بينكَ وبينهم؟».

قال:

ـ «لِيعلمَ الجاهلُ، ويثبتُ العالمُ. ولعلَّ اللّه يُصلح في هذه المُدَّة هذه الأُمَّة، ادخُلوا مصرَكم، رحمكم اللّهُ».

فدخل القومُ من عند آخرهم.

ابتداءُ يوم النَّهر

ثمَّ اجتمعوا بالكوفة، وتذاكروا أَمرَهم، وكاتَبوا إخوانَهم بالبصرة، وتَواعَدوا لِيوم يخرجون فيه إلى المدائن، ومنها إلى النَّهر. ففعلُوا ذلك، واستعرضوا النّاسَ، وقتلوا عبدَ اللّه بن خبَّاب بن الأرت، وبلغ ذلك عليّاً، فسار إليهم. ثمَّ لمّا اجتمعوا كلَّمهم واستعطفَهم. فأَبَوا إلاّ قتالَه، وجَرتْ بينَهم مخاطَباتٌ تركتُ ذكرَها.

ثمَّ تنادَوا أَن:

ـ «دَعُوا مخاطبةَ عليٍّ وأَصحابِه، وبادِرُوا إلى الجنّة».

فصاحُوا:

ـ «الرَّواح الرَّواح إلى الجنَّة!».

عليٌّ يعبّئ ويرفع رايةَ أمانٍ

فعبّى عليٌّ ـ عليه السّلام ـ أصحابَه، ورفع رايةَ أمانٍ مع أبي أيّوبِ الأنصاري، فناداهم أبو أيّوب فقال:

ـ «مَن جاءَ هذه الرّاية منكم، ممَّن لا يقتُل ولا يَستعرضُ، فهو آمِنٌ؛ ومَن انصرف منكم إلى الكوفة، أو المدائن، وخرج من هذه الجماعة، فهو آمِنٌ إنّه لا حاجةَ لَنا ـ بعدَ أن نُصيبَ قتَلَةَ إخواننا منكم ـ في سَفك دِمائكم».

فقال فروة بن نَوفَلٍ الأشجعي:

ـ «واللّهِ ما أدري: على أيِّ شَيْءٍ أُقاتلُ عليَّ بن أبي طالبٍ».

فانصرف في خمسمائة فارسٍ. وخرج إلى عليٍّ منهم نحو ذلك. وكانوا أربعة آلافٍ، ورئيسُهم عبد اللّه بن وهبٍ الرّاسبي.

وكان عليٌّ قدَّم الخيلَ دون الرِّجال، وصفَّ النّاسَ وراءَ الخيل صَفَّين، وصفَّ المُرامية أمامَ الصَّفِّ الأوَّل، وقال لأصحابه:

ـ «كُفُّوا عنهم حتّى يبدأُوكم، فإنّهم لو قد شدُّوا عليكم وخَلْفَهم رجالٌ، لم ينتهُوا إليكم إلاّ لاغبين، وأنتم له قارُّون حامُّون».

فأقبل الخوارج وهم يتنادَون:

ـ «الرَّواح الرَّواح إلى الجنّة».

وشَدُّوا، فلم تثبت خيلُ عليٍّ لِشدَّتهم، وافترقت الخيلُ فرقتين: فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرِّجال، فاستقبلت المُرامية وجوهَهم بالنَّبل، وعطفت عليهم الخيلُ من الميمنة والميسرة، ونَهض إليهم الرِّجال بالرِّماح والسُّيوف، فما لبّثوهُم أن أناموهم عن آخرهم.

قال حكيم بن سعد:

ما هو إلاّ أن لقينا أهلَ النّهر، فما لبّثناهم، كأنّما قيل لهم: موتوا! فماتوا.

ولم يُقتلْ من أصحاب عليٍّ إلاّ سبعةٌ، واستُخرج ذو الثُّدَيَّة، على الحكاية المعروفة، وخبرُهُ مشهورٌ. وانصرف عليٌّ إلى مُعَسكره بالنُّخيلةِ من ظاهر الكوفة، وأمر النّاسَ أن يسيروا على تعبِئَتِهم إلى الشّام.

استبدال الشّام بالنّهر

وقد كان عليٌّ همَّ بالخروج إلى الشّام قبلُ. فلمّا عظمت الشّوكة من الخوارج.

وأَخذوا في الاستعراض، وقتلوا الصالحين، قال النّاسُ:

ـ «يا أميرَ المؤمنين، علامَ تُخلِّف هؤلاءِ المارقةَ وراءَنا، يَخلُفوننا في أَبنائنا، ونسائنا بالقتل، فنبدأُ بهم».

ولمّا انصرف إلى مُعسكره بالنُخيلةِ، أَمرهم أَن يُوطِّنُوا أَنفسهم على الجهاد، وأَن يسيروا إلى عدوِّهم. فتسلَّلُوا من معسكرهم، فدخلوا إلاّ رجالاً قليلاً من وُجوه النّاس، وتُرِك المعسكرُ.

فلمّا رأىٰ ذلك عليٌّ، دخل الكوفةَ، وانكسر عليه رأيُه في المسير، وذلك في سنة ثمانٍ وثلاثين.

ثمَّ جرت بين عليٍّ وأصحابه خطوبٌ ومخاطباتٌ يستنهضُهم ويَأبَونَ، ويخطبُ فيهم ويستمدّهم، ويستدعي نصرَهم، ويستبطئُهم، فيتثاقلون، وخُطَبُه مشهورةٌ معروفةٌ.

إلى أَن طمع معاوية في العراق، وبَثَّ دُعاته سِرّاً وجهراً إلى البصرة يطلب دمَ عثمان، وسرَّبَ خيلَه في أَطراف عليٍّ ـ عليه السَّلام ـ فأَنفذ النُّعمان بن بشيرٍ في أَلفَيْ رجلٍ إلى عينِ التَّمرِ، وبها مالكُ بنُ كعبٍ في أَلفِ رجلٍ، من قِبلِ عليٍّ. فلمّا سمع القوم به، تسلَّلُوا إلى الكوفة حتّى بقي مالك في مائة رجُلٍ، وكتب إلى عليٍّ يُخبِرُهُ، واستمدَّهُ.

فخطب عليٌّ، وأمرهم بالخروج، فتثاقلوا. فواقعهم مالكٌ في من تبعه، وأَمر أَصحابَه أَن يجعلوا حيطان المدينة في ظُهورهم ويُقاتلُوا. وكتب إلى محنف بن سليمٍ أَن يُمدَّه وهو قريبٌ منه وقاتلهم ابن كعبٍ في العصابة الَّتي معه أشدَّ قتالٍ يكون.

اتِّفاقٌ جيِّدٌ وقع لِمالكٍ حتّى هزم النُّعمان ومن معه

ووَجَّه محنفٌ ابنَه إليه، عبدَ الرَّحمن، في خمسين رجلاً. فانتهوا إلى مالكٍ وأصحابه وقد كسروا جُفون سيوفهم واستقتلوا. فلمّا رَآهم أهلُ الشّام، وذلك عند المساءِ ظنُّوا أَنَّ لهم مدداً، فانهزموا، واتَّبعهم مالكٌ، فقَتلَ منهم ثلاثةَ نفرٍ، ومَضَوا على وُجوههم. فأَمّا غيرُه من سرايا معاوية، فإنَّهم كانوا يظفرون ويقتلون ويغنمون وينصرفون.

وأَمَّا مَن حصل من قبلُ بالبصرة لأَجلِ التَّضريب بينَ النَّاس، فإنَّه بلغ ما أَراد، ووقعت الفتنة والعَصبيَّة، فطمع أهلُ فارِس، وكرمان، في عُمَّالِ عليٍّ، فغلب أَهلُ كُلِّ ناحيةٍ على ما يليهم، فأخرجوا عُمّالَهم.

فاستشار عليٌّ أصحابَه في مَن يضبط به فارس وكرمان. فقال ابن عباسٍ:

ـ «أَدلُّكَ على رجلٍ صليب الرَّأيِ عالمٍ بالسِّياسةِ، كافٍ، وليٍّ».

قال: «من هو؟».

قال: «زيادٌ».

قال: «هُوَ لها».

فتوجَّه ابنُ عباسٍ إلى عَمله بالبصرة. وكان زيادٌ يخلفُهُ بها. فضمَّ إليه أربعة آلاف رجلٍ، وولاّهُ فارس، فدوَّخها حتّى استقاموا.

ذِكرُ سياسة زيادٍ لهذا الوَجه

حدَّثَ قومٌ من أهل فارس قالوا:

ـ ورد زيادٌ نواحي فارس، وهي تضطرم. فلم يزل يبعث إلى رُؤَسائها، يَعِدُ مَن نَصَرهُ ويُمَنِّيه، ويُخوِّفُ مَن خالَفَهُ ويُوعِده، ويُضَرِّبُ بعضَهم ببعض، ويُداري مَن يَرَىٰ مداراتَه، حتّى دلَّ بعضُهم على عورة بعضٍ، وهَرَبَتْ طائفةٌ، وأقامت طائفةٌ، يقتُلُ بعضُها بعْضاً، حتَّى صَفَتْ له فارس، فلم يلْقَ فيها جمعاً، ولا حرباً، ولم يَقِفْ موقفاً واحداً للقتال. وفعل مثل ذلك بكرمان حتّى صَفَتْ أيضاً له.

فقال النّاسُ:

«ما رأينا سيرةً أَشبهَ بسيرة كسرى أنوشروان، من سيرةِ هذا العربيِّ، في اللِّينِ، والمُداراةِ، والعلمِ بما يأتي».

دخول بُسرِ بنِ أَرطأة المدينةَ ومكَّةَ وهُروب عمّالِ عليٍّ

ثمَّ كثرت غاراتُ مُعاوية على أطراف عليٍّ، ووجَّه بُسرَ بنَ أَرطاة إلى الحجازِ. فدخل المدينةَ ومكّةَ، وهرب عُمَّال عليٍّ، وقتل شيعةَ عليٍّ. ومضى نحوَ اليمن، وكان على اليمنِ عبيدُ اللّه بن العباس، فهرب إلى الكوفة، واستخلف عبدَ اللّه بن عبد المُدان، فأَتاهُ بُسرٌ، فقتله، ولَحِقَ ثَقَلَ عبدِ اللّه وفيه ابنانِ له صغيران، فقتلهما، وبلغ ذلك علياً، فوجَّهَ جاريةَ بنَ قُدامةَ في أَلفَين، ووهَبَ بنَ مسعودٍ في أَلفَين.

فسارَ جاريةُ حتّى أَتىٰ نجرانَ، وقتل خَلقاً من شيعة عثمان، وهرب بُسرٌ منه، وتبعَهُ حتَّى دخل مكَّة والمدينةَ، وأَرجف النَّاسَ بموت عليٍّ. فأَخذ النَّاسَ ببيعة الحسنِ بنِ عليٍّ، فأَبَوا، ثمَّ خافُوهُ، فبايعُوهُ، فأَقَامَ مُدَّة، ثمَّ انصرف إلى الكوفة.

العراق لعليٍّ، والشَّام لِمُعاوية

ثمَّ جرت مكاتباتٌ كثيرةٌ بين عليٍّ ـ عليه السَّلام ـ وبين معاوية، استقرَّ آخرها على وضع الحرب بينَهما، ويكون لعليٍّ العراقُ، ولمعاويةَ الشَّامُ، لا يدخل أَحدُهما على

صاحبه في عمله بجيشٍ، ولا غارةٍ ولا غَزوةٍ، وأَن يَضعَا السَّيفَ، ولا يُريقا دِماءَ المسلمين، فتراضَيا على ذلك.

تَحالُفُ الخوارجِ لِقتلِ عليٍّ، ومعاويةَ، وعمرِو بن العاص

واجتمع بعد ذلك نفرٌ ممَّن يرىٰ رَأي الخوارج، فتذاكروا أَصحابَ النَّهرِ، وترحَّموا عليهم، وعابُوا وُلاتَهم، وقالوا:

ـ «ما نصنعُ بالبَقاءِ بعدَهم؟ فلو قَتلْنا أَئِمَّةَ الضَّلال، لَرَجونَا الأَجرَ والثَّوابَ».

فتحالف عبد الرَّحمن بن مُلجم، والبُرَك بن عبدِ الله، وعَمرُو بنُ بكرِ التَّميميُّ أَن يأتيَ كلُّ واحدٍ منهم واحداً من الأئمَّة الثَّلاثة يعنون: عليّاً، ومعاويةَ، وعمرَو بنَ العاص، فيغتالونهم.

فأمّا ابن مُلجم فقال:

ـ «أَنَا أكفيكُم عليَّ بن أَبي طالبٍ».

وكان من أَهل مصر.

وقال البُرَكُ بن عبد اللّٰه:

ـ «أَنَا أَكفيكُم مُعاويةَ».

وقال عَمرُو بنُ بكرٍ:

ـ «أَنَا أَكفيكم عمرَو بن العاص».

فتعاهدوا، وتواثقوا، وأَخذوا أَسيافَهم وسَمُّوها، واتَّعدُوا لِسبع عشرة من شهر رمضان، أَن يَثِبَ كلُّ واحدٍ منهم على صاحبه الَّذي توجَّهَ له.

ما جرىٰ بين ابن مُلجم وقَطامِ في الكوفة وتعاونهما علىٰ قتلِ عليٍّ

فأَمّا ابنُ مُلجم، فإنّه دخل الكوفة، ورَأى امرَأَةً يقال لها: قَطام، وكان عليٌّ قَتلَ أَباها وأَخاها يومَ النَّهر، وكانت فائقةَ الجمال، فالتبستْ بعقله، ونَسِيَ حاجتَهُ الَّتي جاءَ لها، فخطَبَها، فقالت:

ـ «لا أَتزوَّجُكَ حتّىٰ تشترطَ إليَّ».

فقال:

ـ «ما شَرطُكِ؟».

قالت:

«ثلاثةُ آلافٍ، وعبدٌ، وقَينةٌ، وقتلُ عليٍّ!».

قال:

ـ «هو لَكِ، واللَّه ما وَرَدتُ إلاّ لِقتلِ عليٍّ».

قالت:

ـ «فأَنَا أَلتمسُ لك مَن يُساعدك على أَمرِكَ».

فطلبتْ له رجلاً من قومها، والتمس عبدُ الرَّحمن آخَرَ، فصاروا ثلاثةً، وأَخذوا أسيافَهم في اللَّيلة الَّتي واعَدَ عبدُ الرَّحمن بن مُلجمٍ أصحابَهُ، وجلسُوا مُقلبي السُّدَّة الَّتي يخرجُ منها عليٌّ لِلصَّلاة.

فلمَّا خرج، ضربه ابن مُلجم، وأَقرَنهُ، وهرب، وتصايحَ النّاسُ، فأُخِذَ ابنُ مُلجَم، وحُمل إِلىٰ عليٍّ.

فلمّا رَآهُ، قال:

ـ «أَيْ عدُوَّ اللَّهِ! ألم أُحسن إليكَ؟».

قال:

ـ «بَلىٰ».

قال:

ـ «فما حَمَلكَ على هذا؟».

قال:

ـ «شَحذتُه أَربعين صباحاً، فسأَلتُ اللَّه أَن يَقتلَ به شَرَّ خلقِهِ».

فقال عليٌّ:

ـ «لا أَراكَ إلاّ مقتولاً به، ولا أَراكَ إلاّ شرُّ خلقِ اللَّهِ».

ثمَّ مات عليٌّ بن أَبي طالب، ـ عليه السَّلام ـ وذلك في شهر رمضان سنة أربعين.

قتلُ ابن ملجمٍ وحرقُه

وأَحضر الحسن بن عليٍّ بن أَبي طالب ـ عليهما السَّلام ـ ابنَ مُلجَمٍ فلمّا دخل عليه، قال:

ـ «هل لك في خصلةٍ؟ إنِّي واللَّه ما أَعطيتُ اللَّهَ عهداً إلاّ وَفَيتُ به، وكنتُ أَعطيتُ

اللَّهَ عهداً عند الحطيم، أن أقتلَ معاويةَ وعليّاً، أو أموتَ دونَهما، فإن شِئتَ خلَّيتَ بيني وبينَه، ولك اللَّهُ عليَّ إن لم أقتُلْهُ، أو قتلتُه ثمَّ بقيتُ، أن آتِيَكَ حتّى يَدي في يَدِك».

فقال له الحسن:

ـ «أما واللَّه، حتّى تُعايِنَ النّارَ فلا!».

ثمَّ قدَّمه، فضربَ عُنقَهُ، ثمَّ أخذهُ النّاسُ، فأدرجوهُ في بَواريَّ، ثمَّ أحرقوهُ بالنّارِ.

ما كان من أمر بُرَك ومعاوية

وأمَّا البُرَك، فإنَّه قعد لمعاوية، فلمّا خرج للصَّلاةِ، ضربه بالسَّيفِ، فوقع في أَلْيَتِه، فأُخِذَ فقال:

ـ «إنَّ عندي خبراً أَسُرُّكَ به، فإن أَخبرتُك، أينفعني ذلك؟».

قال:

ـ «نعم».

قال:

ـ «إنَّ عليًا قتله أَخٌ لي في هذه اللَّيلةِ».

وحدَّثهُ الحديثَ.

قال:

ـ «فلعلَّه لم يقدر على ذلك».

قال:

ـ«بلىٰ، إنَّ عليًا يخرج وحده، وليس معه مَن يحرسه».

فأمر به معاويةُ، فضُربت عُنُقُهُ.

ما كان من أمرِ عمرو بن بكر، وعمرو بن العاص

وأَمَّا عمرُو بنُ بكرٍ فجلس لعمرو بن العاص، وكان اشتكىٰ بطنه، فأمرَ خارجةَ بن أَبي حبيبة، وكان على شُرَطِه، لِيُصَلّيَ بالنَّاس، فخرج، وشدَّ عليه ابن بكرٍ، وهو يَرى أَنَّه عَمرٌو، فضربه فقتله، فأَخذهُ النّاس، فانطلقوا به إلى عَمروٍ، وسلَّموا عليه بالإمرةِ، فقال:

ـ «مَن هذا؟».

قالوا:

ـ «عَمرٌو».

قال:

ـ «فمَن قتلتُ؟».

قالوا:

«خارجة».

قال:

«واللّه يا فاسق، ما ظننتُه غيرَكَ».

قال عمرُو:

ـ «أردتَني، وأراد اللّه خارجةَ».

وقدَّمَهُ عمرٌو، وقتله.

ما قالته عائشةُ في قتل عليّ

ولمّا انتهىٰ إلى عائشة قتلُ عليٍّ، قالت:

فألقَتْ عَصاها واستَقَرَّتْ بِها النَّوىٰ كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسافرُ

وقالت:

«مَن قتلَهُ؟».

قيل:

ـ «رجلٌ من مرادٍ».

قالت:

فإنْ يَكُ نائياً، فَلَقَدْ نَعاهُ نُعاةٌ ليسَ في فيها التُّرابُ

أسماءُ كُتّاب عليٍّ بنِ أبي طالبٍ صَلواتُ اللّهِ عليه

كتب له سعيد بن نَمران الهمداني، وكان يكتب له عبد اللّه بن جعفر أيضاً، وعُبيد اللّه بن أبي رافع.

وحُكِيَ عن عُبيد اللّه أنّه قال: كتبت بينَ يدي عليّ عليه السّلام ـ فقال:

ـ «ألق دواتَكَ، وأَطِلْ شنَّيْ قلمِكَ، وفَرِّج بين السُّطُور، وقَرمِطْ بين الحروف».

وكُنّا ذكرنا أنَّهُ استكتب زياداً على خراج البصرة وديوانها لمّا استخلف ابن عبّاسٍ عليها.

ولِزياد سياساتٌ يصلح أن تُذكرَ في هذا الكتاب، فإنّا إنّما نذكرُ كُتّابَ الخلفاءِ لأَجلِ ما عَزَمْنَا علىٰ ذكر سياستِهم، ولم يمضِ إلىٰ هذا الوقتِ أحدٌ منهم عُرفتْ له سياسةٌ غير زيادٍ، ونحن نذكر ذلك في آخر أَيَّام مُعاوية، إن شاءَ اللّهُ.

بيعة الحسن بن عليّ

وبُويعَ الحسن بالخلافة في سنة أَربعين، وأَوّل مَن بايعهُ قيسُ بن سَعدٍ، وكان قيسٌ على مقدِّمة أَهلِ العراق، ويقالُ: إنَّهم كانوا أربعين أَلفاً، بايعُوا عليًّا على الموتِ.

نزع قيسٍ وتأمير عُبيد اللّه بن عبّاسٍ

ولمّا قُتل عليٌّ، واستخلف أَهلُ العراق الحسنَ، كان الحسنُ لا يُريدُ القِتالَ، ولكنَّه يُريدُ أَن يأخُذَ لنفسه ما استطاع من مُعاوية، ثمَّ يَدخُلَ في الجماعة. وعرف الحسنُ أَنّ قيس بن سعدٍ لا يُوافقُهُ على رَأيه، فنَزعَهُ، وأَمَّرَ عُبيد اللّه بن عبّاسٍ، وعلم عُبيد اللّه بالّذي يُريدُ الحسنُ أن يأخذَ لِنفسِه. فكتب إلى مُعاوية يَسألُهُ الأَمانَ ويشترطُ لِنفسه على الأَموالِ الّتي أَصابَ، فشرط له ذلك معاويةُ

ذكر مَكيدةٍ لِمُعاوية

يُقال: إنَّ مُعاوية دسَّ إلى عسكر الحسنِ بن عليٍّ، حين نزل المدائنَ، وعلى مقدِّمته قيسُ بن سعدٍ في اثنيْ عشرَ أَلفاً، وذلك قبلَ أَن يَنزعَهُ، وكان مُعاويةُ أَقبل من الشّام، فنزلَ مَسكِنَ، فدسّ مُعاويةُ مَن نادى في عَسكر الحسن: .

ـ «أَلا إنَّ قيس بنَ سعدٍ قد قُتِلَ، فانفروا!».

فنفروا بسرادق الحسن، حتّى نازعُوهُ بِساطاً كان تَحتَهُ، وجَرحُوهُ، فخرج الحسن حتّى نزل المقصورةَ البيضاءَ بالمَدائن.

كتابٌ كتبه الحسن إلى معاوية في الصُّلح

وكتب حينَئذٍ الحسن بن عليٍّ إلى مُعاوية يطلب الأَمان، فقال الحسنُ للحسين وعبد اللّه بن جعفر: .

ـ «إنّي كتبتُ إلى معاوية في الصُّلح».

فقال له الحسين: .

ـ «أنشدك اللّهَ أَن تصدِّقَ أُحدوثةَ معاويةَ، وتُكذِّبَ أُحدوثةَ عليٍّ».

فقال الحسن: .

ـ «اسكُتْ، فإنّي أَعلمُ بالأَمر منكَ».

واشترط الحسن على معاوية:

- على أن يجعلَ له ما في بَيت مالِه.
- وخراجَ دارابْجرد.
- وعلى أن لا يُشتمَ عليٌّ وهو يَسمعُ.

وكان الَّذي في بيت المال بالكوفة خمسة آلافِ أَلفٍ ٥٠٠٠,٠٠٠

ذكرُ حيلةٍ واتِّفاقٍ طريفٍ في هذا الشَّرط

كان معاويةُ أَرسلَ قبلَ أن تَرِدَ عليه صحيفةُ الحسن بالشَّرطِ، بصحيفةٍ بَيضاءَ مختُومٍ على أَسفلها، وكتب إليه أن:

«اشترطْ في هذه الصَّحيفة الَّتي خَتمتُ أَسفلَها ما شِئتَ، فهو لكَ».

ولمَّا أَتتِ الحسنَ هذه الصَّحيفةُ، اشترطَ فيها أَضعافَ الشُّروطِ الَّتي كان سَأَلَها قبلَ ذلك، وأَمسكها عندهُ، وأَمسك معاويةُ صحيفةَ الحسن الَّتي كان كتبَها. فلمّا التقى معاويةُ والحسنُ، سَأَلَهُ الحسنُ أن يُعطِيَهُ الشُّروطَ الَّتي في السِّجِلِّ الَّذي ختمهُ مُعاويةُ في أَسفله، فأبى مُعاويةُ أَن يُعطِيهُ، وقال:

ـ «ما لَكَ إلاّ ما سَأَلتَنيه بخطِّكَ».

فاختلفا، وتنازعا، ولم يُنفِّذ للحسن من تلكَ الشُّروط شيئاً.

مُعاويةُ يُكايدُ قيسَ بن سعدٍ

ثمَّ إنَّ النّاس اجتمعوا إلى قيس بن سعدٍ، وتعاقدوا على قتال معاوية. فلمّا فرغ معاوية من عُبيد اللّه والحَسن، خلص إلى مُكايَدةِ رجلٍ هو أَهمُّ إليه، وأَبلغُ مكيدةً، ومعه أَربعون أَلفاً. فراسَلهُ يُذكِّرُهُ باللّهِ، ويقول لهُ:

ـ «على طاعة مَن تُقاتلُ؟ قد بايعني الَّذي أَعطيتَهُ طاعتَكَ».

وأَبى قيسٌ أن يَلينَ لهُ حتَّى بعث إليه مُعاوية بِسجِلٍّ ختم في أَسفله، وقال:

ـ «اكتبْ ما شِئتَ في هذا السِّجلِّ، فهو لك».

واشترط قيسٌ لهُ ولشيعة عليٍّ الأَمانَ، على ما أَصابُوا من الدِّماءِ، والأَموال، ولم يَسأَلْ معاويةَ في سِجلّه ذلك مالاً، فأَعطاهُ معاويةُ ذلك.

الدُّهاة الخمسة

وكان قيسٌ يُعدُّ في الدُّهاةِ، وكانوا خمسةً يومئذٍ، وهم: مُعاويةُ، وعمرو بنُ العاصِ، والمغيرةُ بن شُعبة، وقيسُ بنُ سَعدٍ، وعبدُ اللّهِ بن بُديلٍ. وكان قيسٌ

وعبدُ اللّه بن بُدَيلٍ مع عليٍّ، والمغيرةُ بن شعبةَ معتزلاً بالطّائف، حتّى حُكْم الحَكَمان.

ما قاله الحَسن بن عليٍّ في خُطبتِهِ بعدَ الصُّلح وقبل أن يغادر الكوفة إلى المدينة

ولمّا تمَّ الصُّلح بين الحسن ومعاوية، قام الحسنُ في النّاسِ خطيباً بالكوفة، فقال:

ـ «يا أَهلَ العراق! إنّهُ سَخّى بنفسي عنكم ثلاثٌ: قتلُكم أَبي، وطَعنُكم إيّايَ، وانتهابكم مَتاعي».

وَبَرأَ الحسنُ مِن جراحته، فتحوَّلَ إلى المدينةِ، وحال أَهلُ البَصرةِ بَينَهُ وبينَ خراج دارابجرد، وقالوا:

ـ «فَيْئُنا».

ولمّا دخل المدينةَ، تلقّاهُ ناسٌ، فصاحوا:

ـ «يا مُذِلَّ العَرَبِ!».

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني

وأوله: تجارب العصر الأموي: أيام معاوية بن أبي سفيان

فهرس المحتويات

تجارب الأمم

وتعاقب الهمم

تأليف

أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه
المتوفى سنة ٤٢١ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الثاني

يحتوي على حوادث العصر الأموي من خلافة معاوية بن أبي سفيان
إلى آخر خلافة مروان بن محمد

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3414-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تجاربُ العصر الأمويّ

أيّام معاوية بن أبي سفيان

ذكر مُماحَكةٍ جرت بينَ المُغيرة بنِ شُعبةَ وبينَ عمرو بنِ العاص

استعمل معاويةُ عبدَ اللّه بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاهُ المغيرة بن شُعبة، فقال:

- «استعملتَ عبدَ اللّه بن عمرو على الكوفة، وأباهُ عمراً على مصر، تكون أنت بين لَحيَي الأَسد».

فعزله عنها واستعمل المغيرةَ على الكوفة. وبلغ عمراً ما قاله المغيرة لِمعاوية، فدخل عمرٌو على مُعاوية، فقال:

- «أتستعملُ المغيرة على خراج الكوفة، فيَغتال المالَ، ويذهب به، فلا تستطيع أَن تأخذَهُ منه؟ استعمِل علَى الخراج رجلاً يَهابُك، ويَتَّقيكَ».

فعزل المغيرةَ عن الخراج، واستعملهُ على الصَّلاةِ. فَلَقِيَ المغيرةُ عمراً، فبدأ عَمرٌو وقال:

- «أَنتَ المُشير على أَمير المؤمنين بما أَشرتَ، في عبدِ اللّهِ؟» قال:

- «نَعَمْ». قال:

- «فهذه بِتِلكَ!».

المغيرة بن شعبة يَختارُ الدَّعة

ولمَّا وَلِيَ المغيرةُ بن شُعبة الكوفةَ، أَتاها، وترك التَّشَدُّدَ، وإثارةَ النَّاسِ عن أَهوائهم، وأَحبَّ السَّلامةَ، واختارَ الدَّعةَ، فكان يُرى، فيُقالُ له: فلانُ بنُ فلانٍ يَرى رَأيَ الشِّيعة، وفلانٌ يَرى رَأيَ الخوارج، فكان يقول:

ـ «قَضَى اللّهُ أن لا تَزالُوا مُختلفين، وسيَحكُمُ بين عِبادِه».

فأَمِنَهُ النّاس.

فكان عاقبة هذا الفعل منه

أن لَقِيَتِ الخوارج بعضُها بعضاً، ورَأَوا أَنَّ في جهاد النَّاس الفَضلَ والأَجرَ. ففَزِعُوا إلى رُؤَسائهم، وتجمَّعُوا، وتمَّت آراؤهم، واجتمع أَمرهم، وبايعُوا المستوردَ بنَ عُلَّفَة، وكان زيادٌ متحصِّناً بِفارِس، قد عمر قلعة إصطخر. فكان معاويةُ يُكاتبهُ، ويُطالبه بالمالِ، ويَستقدمهُ، فيأبى.

فأَرِقَ مُعاويةُ ذاتَ ليلة، فلمَّا أَصبح، دعا بالمغيرة بن شُعبة، فقال له:

ـ «كيفَ أَنتَ بِسرٍّ أَستودعُكَ؟».

فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إن تَستودِعْني، تَستودِعْ ناصحاً، شفيقاً، وَرِعاً، وَثيقاً».

رَأيٌ لِمُعاوية وتدبيرٌ صَحيحٌ

قال:

ـ «ذكرتُ زياداً واعتصامَهُ بأَرض فارِس، وامتناعَهُ بالقلعةِ، فلم أَنَمْ لَيلَتي».

فأَراد المغيرةُ أَن يُطَأْطِئَ من زيادٍ، فقال:

ـ «ما زيادٌ هناك، يا أَميرَ المؤمنين».

قال: «بئْسَ الوطاءُ العَجزُ، داهيةُ العرب معه الأَموال، مُتحصِّنٌ بقلاعِ فارِس، يُدبِّرُ، ويُربِّض الخَيلَ. ما يُؤْمِنُني أَن يُبايعَ لِرجُلٍ من أهل هذا البَيتِ، فإذا هوَ قد أَعادَ الحربَ جَذَعةً».

فقال المغيرةُ:

ـ «أَتأذنُ لي، يا أَميرَ المؤمنين، في إتيانِهِ؟».

قال:

ـ «نَعَمْ، وتَلَطَّفْ!».

كان المغيرة يحفظ يداً لِزيادٍ عندَهُ، فأَتى المغيرةُ زياداً. فقال زيادٌ لمَّا رَءَاهُ:

ـ «أَفلحَ الزَّائرُ».

فقال المغيرةُ:

ـ «إليك ينتهي الخبر، أَنَا المُغيرةُ، إنَّ مُعاويةَ استخفَّهُ الوَجلُ، حتّى بَعَثَني إليك.

ولم يكن يعلمُ أَحداً يَمدُّ يدهُ إلى هذا الأمر، غيرَ الحسن، وقد بايع معاويةَ، فخُذْ لِنفسكَ قبل التَّوطين، فيستغني معاويةُ عنكَ».

قال:

ـ «أَشِرْ عَلَيَّ، وارمِ الغرضَ الأَقصى، ودَعْ عنكَ الفُضولَ، فإنَّ المستشار مُؤتَمنٌ».

فقال المغيرةُ:

ـ «في محض الرَّأيِ بَشاعة، ولا خَيرَ في التمذيق، أرى أن يصلَ حَبلُكَ بِحبلِه، وتَشخَصَ إليه».

قال:

ـ «أرى، ويقضي اللّهُ».

وأَقام زيادٌ في القلعةِ، وجعلَ يَرْتَأي ويمكُرُ.

ذكر حيلةٍ لِزيادٍ على معاويةَ

فَسنحَ لِزيادٍ من الرَّأيِ أَن دَعا بعضَ ثِقاتِه، وبَذَلَ له، ومَنَّاهُ ووَعَدَهُ، وقال:

ـ «امضِ، حتّى تَأتِيَ مُعاوية، فإنَّهُ سَيدعُوكَ، ويسأَلُكَ عَنِّي، فقُلْ له: إنَّك قد أَمهلتَهُ، وأَضربتَ عنهُ، معَ ما قد احتجبهُ من الأَموالِ، وارتكبهُ من الأُمور، حتّى قد شاعَ في النَّاسِ: أَنَّكَ إنَّما تُرخِي له الحبلَ، وتُساهِلُهُ، للنَّسَبِ بينَكما. فإذا قال: وما ذاكَ؟ فقُلْ: يقول النَّاسُ: إنَّه أَخوكَ، وإنَّكَ قد عرفتَ ذاكَ له».

فذهب الرَّجلُ، حتّى أَتى معاويةَ، فجرى بينهما ما لقَّنَهُ زيادٌ.

فقال معاويةُ:

ـ «أَوَقد تحدَّثَ النَّاسُ بذلك؟» قال:

ـ «نعم».

فسكت معاويةُ، وخرج الرَّجلُ من عندِه، وشاع المَجلسُ، وقال النَّاسُ:

ـ «زياد بن أَبي سُفيان».

ثُمَّ كاتبَ زيادٌ مُعاويةَ، وأَجابَهُ، واستقرَّتِ المكاتبةُ بينَهما، إلى أَن وَرَدَ على مُعاويةَ، على أَن يرفعَ إليه حساباً بما صار إليه من الأَموالِ، ويَصدُقَهُ في ما خرج منهُ إلى أَميرِ المؤمنين، وما بقِيَ عندهُ.

فخرجَ إليه زيادٌ، فأَخبرهُ بما حملهُ إلى عليِّ بنِ أَبي طالبٍ ـ عليه السَّلام ـ وما فرَّقَهُ في الأَرزاقِ، والحَمالاتِ، وبقَّى بَقيَّةً، وقال:

ـ «قد أَودعتُها عند قومٍ».

فصدَّقه معاويةُ، ومكث يُرَدّدُهُ بذلك.

ثمَّ كتب زيادٌ كُتُباً إلى قومٍ.

ـ «قد علمتم ما لي عندكم من الودائع، وهي الأَمانةُ التي يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية، فاحتفِظُوا بما قِبَلَكُم».

وسمَّى في الكُتبِ بالَّذي أَقرَّ لِمعاويةَ، ودَسَّ الكُتبَ مع رسولِه، وأَمرهُ أَن يتعرَّضَ لِبعضِ من يبلغ معاوية، فتعرَّضَ الرَّسولُ حتّى أُخِذَ، فأُتِيَ به معاوية.

فقال معاوية لِزيادٍ:

ـ «لَئِن لم تكن مكرتَ بِي، إنَّ هذه الكُتب لَمِن حاجتي».

فقرأها، فإذا هي بمثلِ ما أَقرَّ بِه لِمعاوية.

فقال معاويةُ:

ـ «أَخافُ أَن تكونَ مكرتَ بي، فصالِحني عليها».

فصالَحَهُ على شَيءٍ، مِمَّا ذَكر أَنَّهُ عندَهُ، فحمله.

ذِكرُ حيلةٍ لِعَبدِ اللّهِ بنِ خازمٍ

كان عبدُ اللّهِ بنُ عامرٍ، والياً على البصرةِ، من قِبلِ معاويةَ، فأَنفذ إلى خُراسانَ قيسَ بن الهيثم، واستبطَأَهُ في بعض الأَحوالِ، وكتبَ إليه، يَستَحِثُّه حملَ المالِ.

وكان عبد اللّه بن خازمٍ حاضِراً، فقال لابنِ عامرٍ:

ـ «إنَّكَ قد وجَّهتَ إلى خراسان رجلاً ضعيفاً، وإنِّي أَخافُ: ـ إن لَقِيَ حَرباً ـ أَن يَنهزِمَ بالنَّاسِ، فتهلكَ خُراسان، وتَفتَضِحَ أَخوالُكَ».

قال ابن عامر:

ـ «فما الرَّأيُ؟» قال:

ـ «تكتبُ لِي عَهداً ـ إن هو انصرفَ عن عدُوٍّ ـ قمتُ مقامَهُ».

فكتب له، وسار عبدُ اللّهِ بن خازم إلى خُراسانَ فجاشَتْ جماعةٌ من طخارستان فشاور قيس بن الهيثم النَّاس، فأَشار عليه ابنُ خازمٍ أَن ينصرفَ، حتّى يجتمع إليه أَطرافُه، فانصرف. فلمَّا سارَ مرحلةً أَو مرحلتين، أَخرج ابن خازمٍ عهدَهُ، وقامَ بِأَمر النَّاسِ، ولَقِيَ العَدُوَّ، فهزمهم. وبلغ الخبر المِصرَين، والشَّامَ، فغَضِبَتِ القيسيَّةُ وقالوا:

ـ «خَدعَ قيساً وابنَ عامرٍ».

وأَكثروا في ذلك على معاوية، حتّى بعث إلى عبدِ اللّه بن خازمٍ، فقَدِمَ بِه واعتذر مِمَّا قيل فيه.

فقال معاويةُ:

ـ «فإذا كان غداً، فقُمْ في النَّاسِ، واعتذِر!».

فرجع ابنُ خازمٍ إلى أَصحابه، فقال:

ـ «قد أُمِرتُ بالخطبةِ، ولَستُ صاحبَ كلامٍ، فاجلِسوا حولَ المنبر، فإذا تكلَّمتُ، فصدِّقُوني».

فقام من الغَدِ، فحمد اللّهَ، وأَثنى عَليهِ، ثمَّ قال:

ـ «إنَّما يتكلَّفُ الخطبةَ، إمَّا من لا يجِد بُدًّا منها، وإمَّا أَحمق يهمر رأسَه، لا يبالي ما خرج منه، ولستُ بواحدٍ مِنهما، وقد علم مَن عَرفني أنِّي بصيرٌ بالفُرَصِ، وَثَّابٌ عليها، وَقَّافٌ عند المَهالكِ، أَنفذ بالسَّريَّةِ، وأَقسم بالسَّويّةِ. أَنشُدكم باللّهِ، من كان يعرف ذلك مِنّي، لمَّا صدَّقني».

فقال أَصحابُه حولَ المنبر:

ـ «صَدقتَ».

فقال:

ـ «يا أَميرَ المؤمنين، إنَّكَ مِمَّن نَشدتُكَ، قُلْ ما تَعلمُ!».

فقال:

ـ «صَدقتَ».

ذكر تدبيرٍ نَفَذَ لِلمغيرة بن شُعبة على زيادٍ

قدم زيادٌ الكوفةَ من عند مُعاويةَ، ونزل في دار سَلمى بن ربيعةَ الباهليِّ ينتظرُ أَمر معاوية، أَن يُجيبَهُ إمرتَهُ على الكُوفة. فبلغ المُغيرةَ بن شُعبة ـ وهو أَميرٌ على الكوفة ـ أَنَّ زياداً يَنتظرُ الإمرةَ. فدعا قطنَ بن عبد اللّه الحارثيَّ، فقال:

ـ «هَلْ فيك من خيرٍ: تكفيني المؤونةَ حتَّى آتيكَ من عند أَمير المؤمنين؟».

قال:

ـ «ما أَنَا بصاحب ذا».

فدَعا عُتيبة بن نَهَّاسٍ، فعرض عليه ذلك، فقَبِلَ.

فخرج المغيرةُ، فلمَّا قدِم على مُعاوية، سأَله أَن يَعزِلَه، وأَن يُقطعَ له مَنازلَ

بِقِرقيسا بينَ ظَهرَي قيسٍ. فلمّا سمع معاوية ذلك، خافَ بائقتَهُ، وقال:

ـ «واللّهِ، لَتَرجِعَنَّ إلى عَملك يا أبا عبدِ اللّهِ».

فأَبى عليه، فلم يَزِدْهُ ذلك إلاّ تُهمةً له، فردَّه إلى عَملِه، فطَرقَ المغيرةُ الكوفةَ ليلاً.

قال معبدُ بنُ خالدِ البَجَليّ: «فواللّهِ إنّي لَفوقَ القصرِ أَحرسه، إذا قَرعَ الباب، فأَنكرناهُ، فلمّا خافَ أَن نُدلّي عليه حجراً، تَسَمَّى لنا. فنزلتُ إليه، وسلّمتُ، فتمثّل بِقولِ القائلِ:

بِـمِـثْـلِـي فَـاقـرَعِـي يَـا أُمَّ عَـمـرِو إذَا مَـا هَـاجَـنـي الـسَّـفَـرُ الـنَّـفُـورُ

ـ «اذهب إلى ابن سُمَيَّةَ، فَرَحِّلْهُ، حتّى لا يُصبحَ إلاّ من وراءِ الجَيشِ».

فخرجتُ، فأَتيناهُ، فأَدخَلناهُ، حتّى طَرحناهُ، قبلَ أَن يُصبحَ من وراءِ الجيش.

ذِكرُ سياسةِ زيادِ العِراقَ حتّى صَلحَ بعدَ الفَساد

إنَّه بلغ معاويةَ فسادُ أَهلِ البصرةِ، وكثرةُ العَيثِ، وضعفُ السُّلطانِ بها عن ضَبط النّاسِ، وكان والي البصرةِ عبد اللّه بن عامرٍ، وكان فيه لِينٌ وكَرمٌ. فكان إذا أُشير عليه بقَطع السّارقِ، عَفا عنهُ، وإذا أُشيرَ بِقتلِ مَن يَستحقُّ القتلَ، قال:

ـ «أَنَا أَتأَلَّفُ النّاسَ، وأَتحبَّبُ إليهم، فكيفَ أَنظرُ في وَجهِ مَن قتلتُ أَباهُ، أَو أَخاهُ، أَو قَطَعتُهُ».

فكثر الفَسادُ بالبصرةِ، فعزلهُ معاويةُ، وكتبَ إليه يَستَزيرُهُ، ووَلّى حارثَ بن عبدِ اللّهِ الأَزديَّ، فتركهُ أَربعة أَشهرٍ، ثمَّ عَزلهُ بزيادٍ.

وإنّما أَرادَ معاويةُ أَن يُولّي زياداً، فَوَلّى الحارثَ كالفَرسِ المُجَلَّلِ، فقَدِمَ زيادٌ البصرةَ، فخَطبَ خُطبَتَهُ البَتراءَ، ثمَّ قال:

الخُطبَةُ البَتْراءُ

ـ «أَمّا بعدُ، فإنَّ الجَهالةَ الجَهلاء، والضَّلالةَ العَمياءَ، والعجزَ المُوقِدَ لأَهلِه النّارَ، الباقيَ عليهم سَعيرُها، ما يَأتي سُفَهاؤكم، ويَشتملُ عليه حُلماؤكم من الأُمور العِظام، يَنبُتُ فيها الصَّغيرُ، ولا يَتَحاشى منها الكبيرُ كَأَنْ لم تسمعُوا بِآيِ اللّهِ، ولم تقرَأُوا كتابَ اللّهِ، ولم تَسمعوا ما أَعدَّ اللّهُ من الثّوابِ الكريم لأَهلِ طاعتِهِ، والعذابِ الأَليم لأَهل مَعصِيتِهِ، في الزّمن السّرمدِ الّذي لا يَزُولُ. أَتكُونُون كَمَن طَرفَتْ عَينَهُ الدُّنيا، وسدَّت مَسامعَهُ الشَّهَواتُ، واختارَ الفانيةَ على الباقية، ولا تذكُرون، أَنّكم أَحدثتُم في الإسلامِ الحدَثَ الّذي لم تُسبَقُوا إليه مِن تَرككُم هذه المواخر المنصوبة، والضَّعيفة المسلوبة، في النّهار المُبصر، والعَددُ غير قليلٍ».

- ألم تكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواةَ عن دَلج اللَّيلِ، وغارةِ النَّهارِ؟ قرَّبتُمُ القَرابةَ وباعدتُم الدِّينَ، تَعتذِرُون بغير العُذرِ، وتُغَطُّون على المختلس كلُّ امرِئٍ منكم يَذُبُّ عن سَفيهِهِ، صُنعَ مَن لا يَخافُ عاقبةً، ولا يرجُو معاداً، فلم يَزلْ بهم ما يَرونَ مِن قِيامِكُم دُونَهم، حتَّى انتهكُوا حُرمةَ الإسلامِ، ثمَّ أطرقُوا وَراءَكُم كُنُوساً في مَكانِسِ الرِّيَبِ. حرامٌ عَليَّ الطَّعامُ والشَّرابُ حتَّى أُسوِّيَها بالأرضِ، هدماً وإحراقاً، فإنِّي رأيتُ آخِرَ هذا الأمرِ، لا يصلح إلاَّ بما يصلح أوَّله: لينٌ في غير ضَعف وشدَّةٌ في غير جَبريَّةٍ وعُنفٍ.

- «وإنِّي أُقسمُ باللَّهِ، لآخُذَنَّ الوَليَّ بالوَليِّ، والمُقيمَ بالظَّاعِنِ، والمُقبلَ بالمُدبِرِ، والصَّحيحَ منكم بالسَّقيم، حتَّى يَلقَى الرَّجلُ منكم أخاهُ فيقول: أُنجُ سَعدٌ، فقد هلك سَعيدٌ. أو تستقيم لي قَناتُكم. إنَّ كِذبةَ المنبر بَلقاءُ مشهورةٌ، فمن تعلَّق لي بكذبةٍ، فقد جلَّت لهُ مَعصيتي. مَن بُيِّتَ منكم فأنَا ضامنٌ لِما ذهبَ لهُ. إيَّايَ ودَلجَ اللَّيلِ! فإنِّي لا أُوتي بِمُدلجٍ إلاَّ سفكتُ دَمَهُ، وقد أجَّلتكُم في ذلك بقدر ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكم، وإيَّايَ ودَعوى الجاهليَّةِ! فإنِّي لا أجدُ أحداً دَعا بها إلاَّ قطعتُ لِسانَهُ»..

- «لقد أحدثتم أحداثاً، وقد أحدثنا لها عُقوباتٍ، فمن غرَّقَ قوماً غرَّقناهُ، ومَن حرَّق على قومٍ حرَّقناهُ، ومَن نَقَبَ على قوم نقبتُ قلبَهُ، ومَن نبشَ قبراً دفنتُهُ حَيًّا. فكُفُّوا أيديَكُم وألسنتَكُم، أكفُفْ يَدي وأذايَ. لا يظهر من أحدٍ منكم خلافُ ما عليه عامَّتُكم إلاَّ ضَربتُ عُنقَهُ».

- «وقد كانت بيني وبين قوم أحَنٌ، فجعلتُ ذلك دَبَرَ أُذني، وتحتَ قدمي. فمن كان منكم مُحسناً، فليزدْ إحساناً، ومَن كان مُسيئاً، فلْينزعْ عن إساءَتِه. إنِّي لو علمتُ أنَّ أحدكُم قد قتلَهُ السِّلُّ من بُغضي، لم أكشفْ لهُ قِناعاً، ولم أهتكْ له سِتراً حتَّى يُبديَ لي صحيفتَهُ. فإذا فعلَ، لم أُناظِرْهُ، فاستأنِفُوا أُمورَكم، وأعينُوا على أنفسكم، فرُبَّ مُبْتَئِسٍ بقُدومِنا سَيُسرُّ، ومسرورٍ بقُدومِنا سَيبتئسُ».

- «أيُّها النَّاس، إنَّا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً، نسوسُكم بسلطان اللَّهِ الَّذي أعطانا، ونذودُ عنكم بِفَيْءِ اللَّهِ الَّذي خوَّلَنا. فَلَنا عليكم السَّمعُ والطَّاعةُ في ما أحببنا، ولكم علينا العدلُ في ما وَلينا، فاستوجِبوا عدلَنا وفَيْئَنا بمناصحتكم».

- «واعلمُوا أنِّي مَهما قصَّرتُ عنهُ، فإنِّي لا أقصِّرُ عن ثَلاثٍ: لَستُ مُحتجِباً عن طالبِ حاجةٍ منكم، ولو أتاني طارقاً، ولا حابساً عطاءاً عن إبَّانِهِ ولا مُجمِّراً لكم بَعثاً فادعُوا اللَّهَ بالصَّلاح لأئمَّتِكُم، فإنَّهم ساستُكم المُؤدِّبون، وكَهفُكُم الَّذي إليه تأْوُون، ومتى تصلُحوا، يصلُحوا، ولا تُشربُوا قلوبَكم بُغضَهم، فيشتدَّ لذلك غيظُكم، ويطولَ له حُزنُكم. ولا تُدركوا حاجتَكم، مع أنَّه لو استُجيبَ لكم، كان شرًّا لكم».

- «أسألُ اللَّهَ أن يُعينَ كُلاً على كُلٍّ، وإذا رأيتُموني أُنفِذُ فيكم أمراً، فأنْفِذوهُ على

إذلالِهِ، وأَيمُ اللّهِ إنَّ لي فيكم لَصرعى كثيراً، فَلْيحذَرْ كُلُّ امرِئٍ منكم أن يكونَ من صَرعايَ».

وأمهل النَّاسَ حتَّى بلغ الخَبرُ الكوفةَ، وعاد إليه وصولُ الخبرِ منها. فكانَ يُؤَخِّر العِشاءَ الآخرةَ حتَّى يكونَ آخرَ مَن يُصلّي. ثُمَّ يُمهِلُ بقدرِ ما يرى أَنّ الإنسانَ يبلغ أَقصى البصرةِ مِن أَدناها، ثمَّ يأمرُ صاحبَ شُرطتِه بالخروج، فلا يَرى إنساناً إلاَّ قتلهُ.

ذكرُ قَتلِه البَريءَ

فأَخذَ ذات ليلةٍ أعرابيًا، فأتى به زياداً، فقال:

«هل سمعت النّداء».

قال:

ـ «لا، واللّه، إنَّما قدمتُ بحَلوبةٍ لي، وغَشِيَني اللَّيلُ، فاضطررتُها إلى مَوضعٍ، وأَقمتُ لأُصبحَ، ولا عِلمَ لي بما كان من الأَمير».

قال:

ـ «أَظُنُّكَ صادقاً واللّهِ، ولكن في قتلك صلاح الأُمَّة»!

ثمَّ أمر بِهِ فضُربت عُنقهُ.

ضبطُهُ البصرةَ بِشدَّةٍ وتأكيدُهُ المُلكَ لِمُعاوية

وكان زيادٌ أَوَّلَ مَن سدَّد أَمرَ السُلطانِ، وأكَّد المُلكَ لِمعاوية، بعد أَن كادتِ البصرةُ خاصَّةً تخرج عن حدِّ الضبْطِ، وتخرج بخروجها المُلكُ كُلُّه. فتقدَّم زيادٌ في العُقوبةِ، وجرَّد السَّيفَ، وأَخذ بالظِّنَّةِ، وعاقبَ على الشُّبهةِ، وخافهُ النَّاسُ خوفاً شديداً، حتّى أَمِنَ النَّاسُ بعضهُم بعضاً، وحتّى كان الشَّيْءُ يسقط من الرَّجل أو المرأةِ، فلا يعرض له أَحدٌ، حتَّى يأتيه صاحبه فيأخذه وتَبيتُ المرأَةُ لا تُغلِقُ عليها بابَها. وساس النَّاس سياسةً لم يُرَ مثلُها، وهابَهُ النَّاسُ هيبةً لم يهابُوها أحداً قبلهُ وأَدرَّ العطاءَ.

وقيل لِزياد:

ـ «إنَّ السُّبُلَ مَخوفةٌ».

فقال:

ـ «لا أُعاني شيئاً وراءَ المِصر، حتّى أَغلبَ على المِصر وأُصلحَهُ، فإن غلبني المصر، فغيرُهُ أَشدُّ غلبةً».

فلمّا ضبطَ المِصرَ، تكلّف ما وراءَ ذلكَ، فأَحكمهُ.

وكل يقولُ:

ـ «لَو ضاعَ حَبلٌ بيني وبين خراسان، علمتُ مَن أَخذه».

وكتَب خمسمائةِ رجلٍ من مشيخة أَهل البصرةِ في صحابته، فرزقهم ما بين الثّلاثمائةِ إلى الخمسمائةِ، واستعان بعدَّةٍ من أصحاب رسول اللّهِ، ﷺ.

وزيادٌ أَوّلُ من سِيرَ بين يَديهِ بالحربة، ومُشِيَ بين يَديهِ بالعُمُدِ الحديدِ، واتَّخذ الحرسَ رابطة خمسمائة، فكانوا لا يبرحون المسجد، وجعل خراسان أَرباعاً، فولّى كُلَّ رُبعٍ رجلاً كافياً.

قطع أَيدي الحاصبين في الكوفة

ولمّا ماتَ المغيرةُ بن شُعبة، كَتبَ معاويةُ إلى زيادٍ بعهدِهِ على الكوفةِ، فكان أَوَّلَ من جُمعتْ له البصرةُ والكوفةُ، واستخلف على البصرةِ سمرةَ بن جندبٍ، وشخص إلى الكوفةِ، وكان زيادٌ يُقيمُ ستَّةَ أشهرٍ بالبصرةِ، وستَّةَ أَشهرٍ بالكوفة.

فلمَّا دخل الكوفة صعد المنبر، وقال في خُطبتِه:

ـ «إنّي أَردتُ أن أشخصَ إليكم في أَلفَين من شُرَطِ البصرة، ثمَّ ذكرتُ أَنَّكم أهل حقٍّ، وأَنَّ حقَّكم طال ما دمغَ الباطلَ، فأَتيتُكم في أهلِ بيتي».

فلمَّا فرغ من خُطبتِه، حُصِبَ على المنبر، فجلس، حتَّى أَمسكُوا. ثمَّ دَعا قوماً من خاصَّتِه، فأمرهم أَن يأخُذوا أبوابَ المسجد، ثمَّ قال:

ـ «لِيَأْخُذْ كلُّ امرئٍ منكم جليسَهُ، ولا يقُولَنَّ: لا أدري مَن جليسي».

ثمَّ أَمر بكرسيٍّ، فَوضعَ له بباب المسجد، فدعا أَربعةً أَربعةً، يحلفون باللّهِ:

ـ «ما مِنَّا مَن حَصَبَكَ».

فمن حَلفَ خلاَّهُ، ومن لم يحلفْ، حَبسهُ وعزله، حتَّى صار إلى ثمانين، فقطع أيديَهم على المكان.

قال الشَّعبي: فواللّهِ ما تعلَّقنا عليه بكذبةٍ، وما وَعدَنا خيراً أو شرًّا إلاَّ أَنفذَهُ.

ولـمَّا قدم الكوفةَ، أتاهُ عُمارة بن عُقبةَ بن أبي مُعيطِ، فقال: ـ «إنَّ عمرو بن الحَمِق يجمع من شيعة أَبي تُرابٍ».

فقام إليه عمرو بن الحارث فقال:

ـ «ما يدعوك إلى رفع ما لا تتيقَّنه، ولا تَدري ما عاقبتُه».

فقال زيادٌ:

ـ «كلاكُما لم يُصِبْ: أَنتَ حيثُ تكلِّمني في هذا علانيةً، وعمرٌو حينَ يردُّك عن كلامِكَ. قوما إلى عمرو بن الحَمِق، فقولا لهُ: ما هذه الزَّرافاتُ الَّتي تجتمع إليكَ؟ مَن أَرادك، وأَردتَ كلامَهُ، ففي المسجد».

استخلاف زيادٍ سمُرةَ على الكوفة وتشدُّده في أَمر الحروريَّة

ثمَّ استخلف زيادٌ على الكوفة سَمُرةَ بن الجندب، وهو من أَصحابِ رسولِ اللّهِ - ﷺ - وخرج زيادٌ إلى البصرةِ، وعاد إلى الكوفة، وقد قتلَ سمرة ثمانيةَ آلافٍ من النَّاس، فقال له زيادٌ:

- «هل تخاف أن تكون قتلتَ أحداً بريئاً؟».

قال:

«لَو قتلتُ إليهم مِثلَهم، ما خَشيتُ ذلك»!

وكان زيادٌ قد تشدَّدَ في أَمر الحَروريَّةِ، وأَوصى سمرة بذلك، وكان سمرةُ يخلُفُه على البصرةِ، إذا خرج إلى الكوفة، وعلى الكوفة، إذا خرج إلى البصرةِ، فقتل سمرة منهم خلقاً كثيراً.

ذِكرُ حيلةٍ لِلمُهلَّبِ بِخُراسانَ

كان زيادٌ ولَّى الحكم بن عَمرِو ناحيةً من خراسان، وكتب إليه:

- «إنَّ أهلَ خُتَّل سلاحُهم اللُّبودُ، وآنِيَتُهُمُ الذَّهبُ».

فغزاهُم، حتَّى إذا تَوسَّطَهُم، أخذوا عليه بالشِّعابِ والطُّرُقِ، وأحدقُوا به فعيَّ بالأَمرِ، فتولَّى المهلَّبُ الحربَ، وولى المغيرة بن أَبي صفرة أَمرَ العسكر، ولم يَزلِ المهلَّبُ يحتالُ، حتَّى أَخذَ عظيماً من عظماءِ الأعاجم فقال له:

- «إختَرْ بينَ أَن أَقتلَكَ، وبينَ أن تُخرِجَنا مِن هذا المضيقِ».

فقال لهُ:

- «أَوقِدِ النَّارَ حِيالَ طريقٍ مِن هذه الطُّرق، وَمُرْ بالأَثقالِ فَلْتُوجَّهْ نحوَهُ، حتَّى إذا ظَنَّ القومُ أَنَّكم قد دخلتُم الطريقَ لِتَسلُكُوهُ، فإنَّهم سيجتمعون لكم، ويُعرون ما سواهُ من الطُّرق، إلاَّ مَن لا يبالي به، فبادِرُوهم إلى غيرِه، فإنَّهم لا يُدركونكم حتّى تخرُجوا منه».

ففعلُوا ذلك، ونَجَوا، وغنموا غنيمةً عظيمةً، والقومُ كانوا أَتراكاً.

أَسماءُ كُتَّابِ مُعاوية

كتَب له على الرَّسائل عُبيد اللّه بن أُوسٍ الغَسَّاني، ثمَّ تولَّى له ديوانَ ما بالعراق من صوافي كِسرى وآلِ كِسرى، وكتب لهُ على الخراج سرجَون بن مَنصورِ الرُّوميّ.

وكان لِمعاوية كاتبٌ يقال له: عبد الرَّحمان بن الدُّرَّاج، كان من مواليه، فقلَّدهُ خراج العراق لمَّا قلَّد المغيرةَ الحرب بها، وطالبَ أهلَ السَّوادِ بأن يُهدوا إليه في النَّوروز، والمهرجان. ففعلوا ذلك، فبلغ عشرة آلافِ ألفِ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهمٍ في سنةٍ.

ثمَّ دعا بالدَّهاقين، فسألَهم عمَّا كان من صوافي كِسرى، فعُرِّفَ أنَّ الدِّيوان بحُلوان، فبعث، فأُحضرَ، ثمَّ استخرج ما كان فيه، فكان أوَّل ذلك كلواذي للأساورةِ، والكُتَّابِ، والحاشية.

وكان كسرى لا يُقطع الكُتَّابَ أكثر من ثلاثين جريباً. فكتب ابن الدُّرّاج إلى معاوية بذلك، فكتب إليه معاوية: أن استَصفِها، واستخرج ما فيها. ففعل، فبلغت صوافي معاوية على يَدِهِ خمسينَ ألفَ ألفِ ٥٠,٠٠٠,٠٠٠.

وكان عمرُو بن سعيد بن العاص يكتب له على ديوان الجند.

وكان معاوية أوَّل مَن اتخذَ ديوان الخاتَم. وكان سبب ذلك أنَّهُ كتبَ لعمرو بن الزُّبير بمائة ألف ١٠٠,٠٠٠ درهم إلى زيادٍ، وهو عاملُه على العراق، ففضَّ عمرٌو الكتابَ، وجعلها مائتَيْ ألفِ ٢٠٠,٠٠٠ درهمٍ.

فلمَّا رفع زيادٌ حسابَهُ قال له معاوية:

ـ «ما كتبتُ له إلاَّ بمائة ألفِ».

وقال معاويةُ:

ـ «المائة الألف ينبغي أن تُؤخذَ منه».

فحبسه مَروانُ، فصار عبد اللَّه بن الزُّبير إلى مَروان، وهو على المدينة، فأخبرهُ بِقِصَّته، فقال مروان:

ـ «فإنَّ الخبر كيتَ وكيتَ».

فقال عبدُ اللَّه:

ـ «أرأيتَ ـ إن أعطيناكها ـ ألَكَ عليه سبيلٌ؟» قال:

ـ «لا». قال:

ـ «فابعثْ، فَخُذْها».

ففَعلَ. واتَّخذ معاويةُ ديوانَ الخاتم، وقلَّدهُ عبدَ اللَّهِ بن مُجمّر، وكان قاضياً.

من سيرة زياد

وكان زيادٌ يجلس في كلِّ يوم، إلاَّ يَوماً في الجمعة، فيبدأُ بِرسل عُمَّاله، فينظر في ما قَدِمُوا لَهُ، ويَسألُهم عن بلادِهِم، ويُجيبُهم عن كُتُبِهم، ثمّ ينظر في نفقاتِه، وفي

أَعطياتِ رجالِه، ثمَّ في ما دخل من البياعات، وفي الأَسعارِ، ويَسأَل عن الأَخبار، وينظر في ما يحتاج إليه من حفر نَهرٍ، وإصلاحِ قنطرةٍ، أَو تسهيل عَقَبَةٍ، أَو نقلِ طريقٍ إلى غيره، ثمَّ يأخُذ في كُتبِ العُمَّالِ، فيُمليها بنفسِه، فكان معاوية يفعل مثل ذلك سواءاً، ولا يخالفُهُ حتَّى كبر. وكان الضَّحَّاكُ بن قيسٍ يُملي وهو يسمع.

وخلا زيادٌ يَوماً على كاتبه أَسراراً له، وبِحضرته عُبيد اللَّه ابنُه. فنَعسَ زيادٌ، فقام لِيَنامَ، وقال لعبيد اللَّهِ.

ـ «تَعهَّدْ هذا، لا يُغَيِّرْ شيئاً مِمَّا رسمتُه لهُ».

فعرض لِعُبيد اللَّهِ حاجةٌ إلى البَولِ، واشتدَّ به ذلك، وكرِهَ أَن يُنبِهَ أَباهُ، وكرِهَ أَن يقومَ عن الكاتب ويُخلِّيَهُ، فشدَّ إبهامَيهِ بخيطٍ، وختمهما، وقام لِحاجته، فاستيقظ زيادٌ قبلَ عَودِه. فلمَّا نظر إلى الكاتب سأَلَهُ عن خبره، فأَخبرهُ، فأَحمد ذلك من فِعلِ عبيد اللَّهِ.

وأَهدى زيادٌ إلى معاوية هدايا كثيرةً، وكان فيها عقد جوهرٍ نفيس، فأُعجب به معاوية. فلمَّا رأى ذلك زيادٌ، قال له:

ـ «يا أَمير المؤمنين، دوَّختُ لك العراق، وجَبيتُ لك بَرَّها وبَحرَها، وغَثَّها وسمينَها، وحملتُ لك لُبَّها وقِشرَها».

فقال له يَزيدُ:

ـ «أَينَ فعلتَ ذلك؟ لقد نقلناك من ولاءِ ثقيفٍ إلى عزِّ قُريشٍ، ومن عُبيدٍ إلى أَبي سفيان، ومن القلم إلى المنابر، وبعد، فما أَمكنك شَيْءٌ ممَّا اعتددتَ به، إلاَّ بِنا».

فقال معاويةُ:

ـ «حسبُكَ! وَرِيَتْ بك زنادي».

وقلَّد معاويةُ عبد الرَّحمان بن زيادٍ خراسانَ بعد مَوتِ أَبيه، وكان سَخيًّا، فلم يزلْ عليها إلى أَن وَلِيَ يزيدُ، وقتلَ الحسينَ بن عليٍّ ـ عليهما السَّلام ـ واستخلف على عمله قيس بنَ الهيثم، وأَقبلَ إلى يَزيدَ، فأَنكر قُدومَهُ، ثمَّ رضي عنه، وسأله عمَّا حصل له، فاعترف له بعشرين أَلفَ أَلفٍ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهمٍ، فسوَّغها إيَّاها، وكان معه من العُروض أكثر منها.

فقال يوماً لكاتبه إصطفانوس:

ـ «ويحكَ! كيف يجيئُني النَّومُ وهذا المالُ عندي؟».

فقال له:

ـ «وكم مبلغُه؟»، فقال:

ـ «قدَّرتُ منه لِمائة سنةٍ، في كلِّ يومٍ أَلف درهم، لا أَحتاج منه إلى شراءِ رقيقٍ، ولا كُراعٍ، ولا عَرَضٍ من الأَعراض».

فقال له إصطفانوس:

ـ «أَنام اللَّهُ عينَك أَيُّها الأَميرُ، لا تعجبْ من نَومِك وعندك هذا المالُ، ولكن أعجَبْ من نَومِكَ إن ذَهبَ، ثمَّ نمتَ».

قال: واللَّهِ، لقد ذهبَ ذلك المالُ كلُّه، أَودعَ بعضَه فجُحِدَ، وأَنفقَ بعضَهُ، وسرقَ أَسبابُه بعضَهُ، فآلَ أَمرُهُ إلى أَن باعَ فضَّةً كانت حِليةَ مصحفِه، وكان يركبُ حماراً صغيراً تنالُ رجلُه الأَرضَ عليه.

فلقيه مالكُ بن زيادٍ، فقال له:

ـ «ما فعلَ المالُ الَّذي كنتَ تقولُ فيه ما تقولُ؟» فقال:

ـ «كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ، إلاَّ وَجْهَهُ، يا أبا يحيى!».

وكتب معاويةُ إلى سعيد بن العاص: أن:

ـ «اقبضْ أموالَ مَروان، واهدِمْ دارَهُ».

فأَمسك سعيدٌ عن ذلك. ثمَّ كاتبهُ في ذلك ثانياً، فراجعه سعيد، فقال:

ـ «يا أَمير المُؤمنين، قرابةٌ قريبةٌ».

فكتب إليه ثالثاً، بقبض أَمواله، وهَدمِ دارِه، فلم يفعلْ. فعزل سعيداً، ووَلَّى مَروانَ، وكتب إليه أَن:

ـ «إهدِمْ دارَ سعيدٍ».

فأَرسلَ الفَعَلةَ، وركب ليهدمَها، فقال له سعيدٌ:

ـ «يا أبا عبدِ المَلِكِ، أَتهدمُ داري؟» قال:

ـ «نعم! كتب إليَّ أَمير المُؤمنين، ولو كتب إليك، لَفعلتَ». قال:

ـ «ما كنت لأَفعلَ». قال:

ـ «بَلى واللَّهِ، لو كتبَ إليكَ لَفعلتَ». قال:

ـ «كلاَّ، يا أبا عبدِ المَلك».

وقال لِغلامه:

ـ «انطلقْ، وجِئْني بكُتبِ معاوية».

فجاءَ بها، فقرأها عليه في ما كتب في هَدمِ داره.

فقال مَروانُ:

ـ «يا أبا عثمان! وَردتْ عليك هذِه الكُتبُ في هَدمِ داري، فلم تفعل، ولم تُعلِمْني!» قال:

ـ «ما كنتُ لأَهدمَ دارَك، ولا أَمُنُّ عليك، وإنَّما أَرادَ معاويةُ أَن يُحرِّضَ بَينَنا».

فقال مَروانُ:

ـ «بأَبي أَنتَ، واللَّه أكثرُ مِنَّا ريشاً وعَقباً».

ورجع ولم يهدِمْ دارَ سعيدٍ.

وقدِمَ سعيدٌ على معاوية، فقال:

ـ «يا أبا عثمان، كيف تركتَ أَبا عبدِ الملك؟» قال:

ـ «تركتُهُ ضابطاً لأَعمالك، منفِّذاً لأَمرك». قال:

ـ «إنَّهُ لَصاحب الخُبزةِ كُفِيَ نُضجَها، فأَكَلَها». قال:

ـ «كلاَّ، واللَّهِ يا أَمير المؤمنين، إنَّه مع قوم لا يجمل بهم السَّوطُ، ولا يحلُّ لهم السَّيفُ، يتهادَون كوقع النَّبلِ، سَهمٌ لَكَ، وسَهمٌ عَليكَ». قال:

ـ «ما الَّذي باعدَ بينَكَ وبينَهُ؟» قال:

ـ «خافني على شَرَفِه، وخفتُه على شرفي». قال:

ـ «فماذا لَهُ عندك؟» قال:

ـ «أَسُرُّهُ غائباً، وأَسوءُهُ شاهداً». قال:

ـ «تركتَني يا أبا عثمان، في هذه الهَناتِ؟» قال:

ـ «إنَّكَ تحمَّلتَ الثِّقلَ، وكُفيتَ الحرمَ، وكنتَ قريباً، فلَو دَعوتَ لأُجبتَ، ولَو وهيتَ لَرُقِعتَ».

كلامٌ واقعٌ ارتَفعَ بِه صاحبُهُ

ومن الكلام الواقع الَّذي ارتفع به صاحبُهُ، كلامُ عُبَيد اللَّه بن زيادٍ لِمُعاوية. وذلك أَنَّهُ وفد على معاوية، بعد مَوتِ أَبيه، فقال له معاويةُ:

ـ «مَنِ استخلفَ أَخي على عَمَلِه؟».

قال عُبَيدُ اللَّهِ:

ـ «استخلفَ خالدَ بن أسيدٍ على الكوفة، وسَمُرةَ بن الجُندبِ على البصرة».

فقال له معاويةُ:

ـ «لو استعملك أَبُوكَ، لاَستعملتُك».

فقال عُبيدُ اللَّهِ:

ـ «أَنشُدُكَ اللَّهَ، أَن يقولَها لي أَحدٌ بعدَكَ: لَو وَلاَّكَ أبوك، أَو عَمّكَ، وَلَّيتُكَ».

وكان معاوية لا يُولِّي أحداً حتَّى يَمتحنَهُ بولاية الطَّائفِ، فإن أَحسنَ الولايةَ، ولاَّهُ مَكَّةَ، فإن وفى، ولاَّهُ معها المدينَةَ، ثمَّ يُرتِّبُهُ كذلك، فلمَّا قال عُبيد اللَّه بن زيادٍ ما قال، استرجَحَهُ، وعَهِدَ إليه، ووَصَّاهُ، وولاَّهُ مكانَ أَبيه. فغزا خراسانَ، وفتحَ رامين، ونصف، وبيكند، وهي من بُخارى. فقدم بِأَلفَينِ من سَبي بُخارى، وكلُّهم جَيِّدُ الرَّمي بالنُّشَّاب.

وكان معاويةُ ولَّى البصرةَ عبدَ اللَّهِ بن عَمرو بن غيلان، فاحتال له أَهلُ البصرة، حتَّى عزله عنهم.

ذِكرُ حيلتهم هذه

خَطبَ عبدُ اللَّهِ بن عَمرو بن غيلان، على منبر البصرةِ، فحَصَبَهُ رجلٌ من بني ضَبَّة، فأمر به، فقُطعت يَدُهُ، فأَتَتْهُ بَنو ضَبَّة، فقالوا:

ـ «إنَّ صاحبَنا جنى ما جنى، وقد بلغ الأَميرُ في عُقوبتِه، ولا نأمن أَن يبلغَ خبره أَميرَ المؤمنين أَنَّه قُطعَ على فاحشةٍ، ونسأَلُكَ أَن تكتبَ إلى أمير المؤمنين أَنَّه قُطع على تبرئةٍ، وأَمرٍ لم يَصحَّ».

فكتب لهم إلى معاوية بما سأَلوهُ، فأَمسكُوا الكتابَ عندهم، حتَّى بلغ رأسُ السَّنةِ. ثمَّ وافوه، فقالوا:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إنَّهُ قَطع صاحبَنا، وهذا كتابُهُ بإقراره على غير ذَنبٍ».

فقرأَ الكتابَ، وقال:

ـ «أَمَّا القَوَدُ من عُمَّالي، فلا سبيلَ إليه، ولكن، إن شئتُم، وَدَينا صاحبَكم».

قالوا:

ـ «فَدِهْ».

فَوَداهُ من بيت المالِ، وعزلَ عبدَ اللَّهِ، ووَلَّى عُبيدَ اللَّه بن زيادٍ.

ذكر بعض سيرة مُعاوية، وآرائه، ودَهائه

ما قاله عُمر فيه

كان عُمرُ بن الخَطّاب كثيراً ما يقولُ:

ـ «تَذكُرون كِسرى وقَيصرَ ودَهْيَهُما، وسياستَهما وعندكم معاوية».

بينَ معاوية وعَمرو بن العاص

فمِمَّا يَحضُرنا من ذلك: أَنَّ عَمرو بنَ العاص، كان وَفَدَ إلى مُعاويةَ ومعه أَهلُ مِصرَ، فقال لهم عَمرٌو:

ـ «انظُروا، إذا دخلتُم على ابن هندٍ، فلا تُسلِّمُوا عليه بالخلافة، فإنَّهُ أَعظم لكم في عَينِه، وصَغِّرُوهُ ما استطعتم».

فلمَّا قدِمُوا عليه، قال معاوية لحاجبه:

ـ «كأَنِّي بِابنِ النَّابغةِ، قد صَغَّر شَأني عند القوم، فإذا دخل الرَّجلُ، أَو الوَفدُ، فَتَعتِعُوهُم أَشدَّ ما يكونُ، فلا يبلغنِّي رجلٌ منهم، إلاَّ وقد أَهمَّتْهُ نفسُهُ».

فكان أَوَّل مَن دخلَ عليه رجلٌ من مصر، يقال له: ابن خَيَّاط، فدخل وقد تُعتع، فقال:

ـ «السَّلامُ عَليكَ، يا رسُولَ اللَّهِ!».

فتتابع القومُ على ذلك، فلمَّا خرجوا من عندِه، قال لهم عَمرٌو:

ـ «لعنكم اللَّهُ، نَهيتُكُم أن تُسلِّموا عليه بالإمارةِ، فسلَّمتُم عليه بالنُّبوَّة!».

وكان معاويةُ قد لبس ذلك اليومَ أَبهى لِباسِه، واكتحل، وكانَ من أَجمل النَّاس، إذا فعل ذلك.

بينه وبين عُمر بن الخطَّاب

ومن ذلك أَنَّ عُمر بن الخطَّاب، كان خرج إلى الشَّام، فرأَى معاويةَ في موكبٍ يتلقَّاهُ، ثمَّ راح إليه في موكبٍ.

فقال له عُمرُ:

ـ «يا معاويةُ! تغدُو في موكبٍ، وتروحُ في مِثلِه. ويَبلغُني أَنَّك تتصبَّح في منزلك، وذَوُو الحاجات ببابِكَ». فقال:

ـ «يا أَميرَ المؤمنين، العدوُّ بها قريبٌ، ولهم عُيونٌ وجَواسيسُ فأَردتُ أَن يَرَوا لِلإسلام عَزًّا».

فقال عُمر:

ـ «إنَّ هذا لكَيدُ رجلٍ لَبيبٍ، أَو خدعةُ رجلٍ أَريبٍ».

فقال معاويةُ:

ـ «يا أَمير المؤمنين مُرْني بِما شئتَ أَصِرْ إليه». قال:

ـ «وَيَحكَ! ما ناظرتُكَ في أَمرِ أَعتِبُ عليكَ فيه، إلاَّ تركتَني لا أَدري: آمُرُكَ، أم أَنهاكَ!».

ما كان بينه وبين المغيرة

ومن ذلك أَنّ المغيرةَ كتب إلى معاوية:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإنّي كَبرتُ، ودَقَّ عَظمي، وشَنِفتْ لي قُريشٌ، فإن رأيتَ أَن تعزلَني، فاعزِلْني».

فكتب إليه معاويةُ:

ـ «جاءَني كتابُك تذكرُ أَنَّه كبرتْ سِنُّك، فلعَمري، ما أَكلَ عُمرَكَ غَيرُكَ، وتذكر أَنَّ قريشاً شَنِفتْ لك، ولَعَمري، ما أَصبتَ خيراً إلاَّ مِنهُم، وتسأَلُني أن أعزلَكَ، فقد فعلتُ، فإنْ تَكُ صادقاً فقد شفَّعتُكَ، وإن تَكُ مخادعاً، فقد خادعتُكَ».

فلمَّا ورد المغيرةُ بابَ مُعاوية، ذهبَ كاتبُه إلى سعيد بن العاص، وأَشار عليه أن يخطب ولايةَ الكوفة، ودَلَّهُ على وُجوهِ من الرَّغائب. فلمَّا بلغ ذلك المغيرةَ، شقَّ عليه، ودخلَ على يزيد بن معاوية، وعرَّض له بالبيعةِ، فدخل يَزيدُ على أَبيهِ، فأَعلمه ذلك، فدَعا مُعاويةُ المغيرةَ، ورفقَ به، وردَّهُ إلى الكوفة، وسأَلهُ أَن يَأخذَ بيعةَ يَزيدَ على النَّاس.

وقال عَمرُو بنُ العاص:

ـ «ما رَأَيتُ مُعاويةَ مُتَّكئاً قطُّ، واضِعاً إحدى رِجلَيهِ على الأُخرى، كاسِراً عَينَهُ، يقولُ لِرَجُلٍ: تكَلَّمْ، إلاَّ رَحِمتُهُ».

بين معاوية وهانئ

حَكى الشَّعبيُّ: أَنَّ وفد الكوفة قدِمُوا على مُعاوية لما أَراد البيعةَ لِيزيدَ، وفيهم هانِئ بن عُروةَ المرادي. فَبَينا أَنَا جالسٌ إذ قال هانِئُ بنُ عُروة:

ـ «العَجَبُ من معاويةَ، يُريدُ أَن يَقسِرَنا على بيعة ابنِه يَزيدَ، وحالُهُ حالُهُ، وما ذاك بكائنٍ».

وغلامٌ من قريش قاعدٌ في حلقتِه، فقام، فدخل على مُعاوية، فأَخبرهُ بِقول هانِئ، فقال له:

ـ «أَنتَ سمعتَ هانئاً يقولُهُ؟» قال:

ـ «نعم». قال:

«فاخرُجْ من هذا البابِ وائتِ حلَقَتَهُ من بابٍ من أبواب المسجد، غيرَ بابك الَّذي خرجتَ منه، فقل له إذا خَفَّ مَن عندَهُ».

«أيُّها الشَّيخ! قد سمعتُ مقالتَكَ، ولَستَ في زَمنِ أَبي بكرٍ ولا عُمر، ولا أُحبُّ لك أَن تتكلَّمَ بهذا الكلام، فإنَّهم بنو أُميَّة، وجُرأَتُهم جُرأَتُهم، وإقدامُهم ما قد علمتَ».

ثمَّ قال لهُ معاوية:

- «. إذا فرغتَ من كلامِكَ، فقلْ له:».

- إنَّهُ لم يَدْعُني إلى هذا، إلاّ النَّصيحةُ لك.

ثمَّ احفَظْ عَليهِ ما يَقولُ.

فأَقبل الفَتى إلى مجلس هانِئ، فلمَّا خَفَّ مَن عندَهُ، دَنا منه، فكلَّمَهُ بهذا الكلام.

فقال له:

- «يا بنَ أَخي، واللَّهِ ما بلغتْ نصيحتُكَ لي كُلَّ هذا، وإنَّ هذا الكلامَ لَكلامُ مُعاويةَ، أَعرفُه، وأَشهدُ به».

فقال الفتى:

- «ما أَنَا ومعاوية! واللَّهِ ما يَعرفُني، ولا يَدري مَن أَنَا». قال:

- «يا بن أَخي، فلا عليك، ولكن إذا لَقيتَهُ فقُلْ له: يقول لك هانِئٌ: لا واللَّهِ، لا إلى ما أَردتَ من سبيلٍ. انهض يا بنَ أَخي!».

فذهب الفتى، فأَعلم معاويةَ ما قال، فقال:

- «باللَّهِ نستعين عليه».

ثمَّ أَذِن لِلوفد، وقال لهم:

- «ارفعوا حوائجكُم».

ففعلُوا، فلمَّا عُرض كتابُ هانئٍ على معاويةَ، قال:

- «يا هانئُ ما صنعتَ شيئاً، فَزِدْ».

فزاد هانئٌ ومعاويةُ يقول:

- «ما صنعتَ شيئاً، هاتِ حوائجَكَ!».

حتَّى لم يَدَعْ حاجةً لمن يهتمُّ به إلاّ رفعها وقضاها. ثمَّ قال:

- «يا هانِئُ لم تصنعْ شيئاً». فقال:

- «يا أَميرَ المؤمنين، قد بقيتْ حاجةٌ». قال:

- «وما هِيَ؟» قال:
- «بيعة يزيد، أَتَولاَّها له بالعراقِ». قال:
- «هِيَ إليك».

فقَدِمَ هانِئٌ، فقام بأَمر يزيد، وتولَّى المغيرة بن شعبة البيعةَ.

من تشبَّه بمعاوية في ذلك

وتشبَّهَ بمعاوية عبدُ الملك، وذلك أَنَّهُ لمَّا أَرادَ البيعة للوليد، وجَّهَ الوليدَ إلى القَين، وعامِلَةَ، فأَصلحَ بينهم، وكانت بينَهما دِماءٌ، فاحتملها. فكانت القَينُ وعامِلَةُ أَوَّلَ مَن دَعا إلى الوليد.

ثمَّ أَراد الوليدُ ذلك لِعبد العزيز ابنِه، فوجَّههُ إلى قيس بن غَسَّان، وكانت بينَهما دِماءٌ، فأَصلح بينَهم، واحتمل دِماءَهُم، فكانت قيسٌ وغَسَّان أَوَّل مَن دعا إلى عبد العزيز.

ثمَّ صنَعَ ذلك سُليمانُ لمَّا وقع بين قيسٍ وحِمير بدِمَشق من الدِّماءِ ما وقعَ. وَجَّهَ ابنَهُ أَيُّوبَ، فأَصلح بينَهم، واحتمل دماءَهم، وماتَ أَيُّوب قبلَ أَن تظهَرَ له بيعةٌ.

ثمَّ صنع ذلك يزيدُ بن عبد الملك. كتب إليه ابن هُبَيرة من الجزيرة، يُشير عليه: أَن يوجِّه الوليد بن يزيد، لِيُصلحَ ما بينَ قيسٍ وتَغلبَ. فوجَّهَهُ، فأَصلح بينَهم، واحتمل دِماءَهم، فكانوا أَوَّلَ مَن تكلَّم في أَمرِ الوليد، وذلك في حياة أَبيه، حتَّى بايع بعد هشام له.

كلامٌ لِمُعاويةَ

وقال معاويةُ:

- «إنِّي لأَرفعُ نَفسي، أَن يكونَ ذَنْبٌ أَعظَمَ مِن عَفوي، أَو جَهلٌ أَكبَرَ مِن حِلمي، أَو عَورةٌ لا أُواريها بِسِتْري، أَو إساءَةٌ أَكثَرَ مِن إحساني».

أيام يزيد بن معاوية وما جرى فيها من الأحداث التي يليق ذكرها بهذا الكتاب

وصايا معاوية ليزيد

كان مُعاويةُ وَطَّأَ لابنِه يزيدَ الأُمورَ، وأَخذ على الوفود له البيعةَ. فلمَّا مرِضَ المرضةَ الَّتي تُوفِّي فيها، دَعا به وقال:

-

ـ «إنِّي لا أَتَخَوَّفُ عليكَ أَن يُنازعَكَ هذا الأَمر الَّذي استتبَّ لك، إلاَّ أَربعة نفرٍ من قُريشٍ: الحُسين بن عليّ بنُ أَبي طالب، وعبد اللَّهِ بن عُمر، وعبد اللَّهِ بن الزُّبير، وعبدُ الرَّحمانِ بن أَبي بكرٍ».

ـ «فأَمَّا عبد اللَّهِ بن عُمر، فرجلٌ قد وَقَذَتْه العبادةُ، وإذا لم يبقَ أحدٌ غيرُه، بايعكَ».

«وأَمَّا حسينُ بنُ علي، فإنَّ أهلَ العراق لن يَدَعُوهُ، حتّى يُخرجوه، فإن خرج عليك، فظفِرتَ عليه، فاصفحْ عنه فإنَّ له رَحِماً ماسَّةً، وحقًّا عظيماً»

ـ «وأَمَّا ابن أَبي بكرِ، فرجلٌ ليستْ له هِمَّةٌ إلاَّ في النِّساءِ، واللَّهوِ».

«وأَمَّا الَّذي يجثم عليك جُثومَ الأَسدِ، ويُراوغُكَ رَوغانَ الثَّعلب، فإذا أَمكنَتهُ فُرصةٌ، وثبَ، فذاك ابنُ الزُّبيرِ، فإنْ هو فَعَلها بِكَ، فقدَرتَ عليهِ، فقطِّعْهُ آراباً».

فلمَّا مات معاويةُ امتنع هؤلاءِ من البيعة، وخرج عبدُ اللَّهِ بن الزُّبير، والحُسين، إلى مكَّةَ لمَّا أَخذهُما عامل يزيد بالبيعةِ، وكانا يَومَئذٍ بالمدينة. وأَمَّا عبد اللَّهِ بن عُمر، فلم يتشدَّدْ عليه، وكذلك عبد الرَّحمان بن أَبي بكرٍ.

فلمَّا قدِمَ عبد اللَّهِ بن الزُّبير والحسين مكَّةَ، اجتمع النَّاس على الحسين، وابنُ الزُّبير قد لَزِم جانبَ الكعبةِ، فهو قائمٌ يُصلِّي عندها عامَّةَ نهاره ويَطوفُ، ثمَّ يأتي الحسينَ في مَن يأتي، ولا يزالُ يُشير عليه بالرَّأي، وهو أَثقلُ خَلقِ اللَّهِ على ابن الزُّبير، قد عرف أَنَّ أَهلَ الحجاز لا يُطيعونهُ، ولا يُبايعونهُ أَبداً، ما دام الحسينُ بالبلدِ، وأَنَّ الحسينَ أَعظم في نُفوسهم، وأَعيُنهِم منهُ، وأَطوعُ في النَّاسِ منه.

وبلغ أهلَ العراقِ امتناعُ الحسين من البيعة ليزيد، وأنّه لَحِقَ بمكّة، فأرجَفُوا بيزيد.

ذكر رَأيٍ أُشيرَ بِه عَلَى الحُسينِ بنِ عَليٍّ عَلَيهما السّلام

كان عبدُ اللّه بنُ مُطيعٍ لقي الحسين، وهو يُريدُ مكّةَ، فقال:

ـ «جعلني اللّه فِداءَك، أَين تُريد؟».

قال:

ـ «أَمَّا الآن، فإنِّي أُريدُ مكّة، وأَمَّا بعدُ، فإنِّي أَستخيرُ اللّهَ عزّ وجلّ».

قال:

ـ «خار اللّهُ لك، وجعلَنا فداءَك، فإذا أَتيتَ مكّةَ، فإيّاك أَن تقربُ الكوفةَ، فإنّها بلدةٌ مَشؤومةٌ قُتل بها أَبوك، وخُذِل فيها أَخوك، واغتيل بطعنةٍ كادتْ تأتي على نفسِه. الزَمِ الحرمَ، فإنّكَ سيِّد العرب، لا يَعدِلُ بك أَهلُ الحِجاز أَحداً، ويتداعَى النّاس إليك من كُلِّ جانبٍ».

ذِكرُ رَأيٍ آخر أُشيرَ به عليه

فأمّا محمّد ابن الحنفيّة، فإنّهُ أَتاهُ، فقال:

ـ «يا أَخي، أَنتَ أَعزُّ خلقِ اللّهِ عليَّ، ولستُ أَدَّخِركَ نصيحتي، تَنحَّ عن الأَمصار ما استطعتَ، ثمّ ابعث رُسلَكَ إلى الشّام، فادْعُهم إلى نفسِكَ فإن بايَعوك، حمدتَ اللّهَ عليه، وإن اجتُمعَ على غيرك، لم ينقص اللّهُ بذلك دينكَ، ولا عقلَكَ، ولا يُذهبُ به مرُوءَتَكَ، ولا فضلَكَ. إنّي أَخافُ أَن تأتيَ مصراً من الأمصار، فيختلِفَ النّاسُ بينَهم، فمنهم طائفةٌ معك، والأُخرى عليكَ، فيقتتلُوا، فتكونَ لأوّل الأَسنّةِ، فإذا خَيرُ هذه الأُمّةِ نَفساً، وأَباً، وأُمّاً، أَضيَعُها دَماً، وأَذلُّها أَهلاً».

فقال له الحسينُ:

ـ «فأينَ أَذهبُ يا أَخي؟» قال:

«انزل مكّةَ، فإنِ اطمأَنّتْ بك الدّار فسبيلُ ذلك، وإن نَبَتْ لكَ، لحقتَ بالرِّمالِ، وشَعَفِ الجبال، وتَنقّلتَ من بلدٍ إلى بلدٍ حتّى يَفرُقَ لك الرَّأيُ، فتَستقبلَ الأُمورَ استقبالاً، وتَستدبِرها استدباراً».

فقال:

ـ «يا أَخي، قد نصحتَ وأَشفَقتَ».

ما كتبه إليه أهلُ الكوفة

ثمَّ إنَّ أَهلَ الكوفة، من شيعةِ أَمير المؤمنين عليّ بن أَبي طالبٍ عليه السَّلامُ اجتمعوا، فكاتَبُوا الحسين بن عليٍّ:

ـ «إنَّا قد اعتزلنا النَّاسَ، فلسنا نُصلِّي بِصَلاتهم، ولا إِمامَ لَنا، فلَو أَقبلتَ إلينا رَجَونا أَن يجمعَنا اللَّهُ لك على الإيمان».

ثمَّ اجتمع رُؤساءُ الشِّيعة مثل سليمان بن صُرَد، والمسيَّب بن نَجَبَة وأَشباههم، وكتبوا إليه:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ»

«لِحُسين بنِ عليٍّ من شيعتِه المؤمنين. أمّا بعدُ، فَحَيَّ هَلا، فإنَّ النَّاسَ ينتظِرونَكَ، لا رَأيَ لَهُم في غيرِكَ، فالعَجَلَ، ثمَّ العَجَلَ، والسَّلام».

ثمَّ اجتمعوا ثالثةً، فكتبُوا إليه:

ـ «مِن شبث بن رِبعيٍّ، وحجَّار بن أَبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعَمرو بن الحجَّاج، ومحمَّد بن عُميرٍ. أمَّا بعدُ، فقد اخضرَّ الجنابُ، وأَينَعَتِ الثِّمارُ، وطَمَّتِ الجمامُ، فإذا شئتَ فاقدَمْ على جُنودٍ مُجنَّدةٍ لك، والسَّلام».

فاجتمعت الرُّسُلُ كُلُّهم عند الحسين، وقرأَ الكُتُبَ، وسأَلَ الرُّسُلَ عن أَمرِ النَّاسِ، ثمَّ كتب أَجوبةَ كُتبِهم، وأَنفذ مسلم بن عقيل بن أَبي طالب إليهم، وقال له:

ـ «اذهبْ، فاعرِفْ أَحوالَ النَّاسِ، وانظرْ ما كتبوا به، فإن كان صحيحاً قد اجتمع عليه رُؤَساؤُهم، وتابعهم مَن يُوثَقُ به، خرجنا إليهم».

فسار مُسلمٌ إلى الكوفة، وبها النُّعمان بنُ بشيرٍ الأَنصاري أَميراً من قِبلِ يزيد. فلمَّا تحدَّث النَّاسُ بِمقدمِه دَبُّوا إليه، فبايعه منهم اثنا عشر أَلفاً. فقام عبد اللَّه بن مسلم الحضرمي إلى النُّعمان بن بشير، فقال له:

ـ «إنَّك ضعيفٌ، أَو متضَعِّفٌ، قد فسد البلاد، وليس يُصلح ما ترى إلاَّ الغَشمُ».

فقال النُّعمان:

ـ «لأَن أكونَ ضعيفاً وأَنا في طاعة اللَّهِ، أحبُّ إليَّ من أَن أكونَ قويًّا، وأَنا في معصية اللَّهِ، وما كنتُ لأَهتكَ سَتراً سَترَهُ اللَّهُ».

فَكُتبَ بِقولِ النُّعمان إلى يزيد وقيل له:

ـ «إن كانت لك حاجةٌ في الكوفة، فابعَثْ إليها رجلا قوياً يُنفِّذُ أَمرَك، ويعملُ مثلَ

عملِك، فإنَّ النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ إمَّا ضعيفٌ، أو مُتضعِّفٌ».

فدعا يزيدُ كاتبَهُ سَرجُون، وكان يستشيرهُ، فأخبرهُ الخبرَ.

ذكر رأيٍ أَشارَ به هذا الكاتب على يزيد

قال له:

ـ «أَكُنتَ قابلاً من معاوية لو كان حيًّا». قال:

ـ «نعم». قال:

ـ «فاقبَلْ مِنِّي، فإنَّهُ ليس لِلكوفة إلاَّ عُبيد اللَّهِ بن زيادٍ، فوَلِّهِ».

وكان يزيدُ ساخطاً عليه، وهمَّ بِعزلِهِ عن البصرةِ. فكتب إليه برضاهُ عنهُ، وأَنَّهُ قد ولاَّهُ الكوفةَ مع البصرةِ، وكتبَ إليه أَن يَطلبَ مسلمَ بنَ عقيلٍ، فيقتُلَهُ.

فأَقبل عُبيدُ اللَّهِ في وُجوهِ أَهل البصرةِ، حتَّى قدم الكوفة مُتلثِّماً، فلا يَمُرُّ على مجلسٍ من مَجالسهم فيُسلِّمُ، إلاَّ قالُوا:

ـ «وعليك السَّلامُ يا بْنَ بنتِ رسول اللَّهِ».!

وهم يظنُّون أَنَّه الحسين بن عليٍّ، حتَّى نزل القصرَ، واجماً كئيباً لِما رَأَى.

ثمَّ جمع النَّاسَ فخطبهم، وأَعلمَهم نيةَ يزيد في الإحسانِ إلى سامِعهم ومُطيعِهم، والشِّدَّةِ على مُريبِهم وعاصيهم، ووَعدَ، وأَوعدَ، وختَمَ الخطبةَ بأَن قال:

ـ «لِيُبق امرُؤٌ على نفسه، الصِّدقُ ينبئُ عنك لا الوعيد».

ثمَّ أَخذ العُرفاءُ أَخذاً شديداً، ودعا النَّاس، فقال:

ـ «اكتبوا إلى العرفاءِ، ومَن فيكم من طَلِبةِ أَمير المؤمنين، وأَهلِ الرِّيب، الَّذين رَأْيُهم الخلاف والشِّقاقُ، فمَن كتبَهم لَنا، فهو بَرِيْءٌ، ومَن لم يكتبْ لَنا أَحداً، فَلْيَضمنْ لَنا ما في عرافتِه: أَن لا يُخالفنا منهم مخالفٌ، ولا يبغي علينا فيهم باغٍ، فمَن لم يفعَلْ ذلك، فبَرِئت مِنه الذِّمَّة وحلالٌ علينا دمُهُ ومالُهُ. وأَيُّما عريفٍ وُجد في عرافتهِ مِن بُغيةِ أَميرِ المؤمنين أحدٌ لم يَرفعْهُ إلينا، صُلبَ على باب دارِه، وأُلقيتْ تلك العرافةُ من العَطاءِ».

ذِكرُ تَلافي عُبيد اللَّهِ مُلكَ يَزيدَ بعدَ أَن أَشرف على الذَّهاب، وما كانَ من حِيلِه ومَكائده

ثمَّ إنَّ عبيد اللَّه دَعا مَولًى له، فأَعطاهُ ثلاثةَ آلافِ درهم، وقال له:

ـ «اذهب، حتَّى تسأَلَ عن الرَّجلِ الَّذي يُبايع أَهلَ الكوفة، فأَعلِمْهُ: أَنَّكَ رجلٌ من أَهلِ حِمص جِئْتَ لهذا الأَمرِ، وهذا مالٌ تدفعه إليه، لِيتقوَّى بِه».

فلم يزلْ يتلطَّفُ، ويرفقُ، ويسترشدُ، حتَّى دُلَّ على شيخٍ من أَهل الكوفة يأْخذُ البيعةَ، فلقيهُ، فأَخبرهُ.

فقال الشَّيخ:

ـ «لقد سرَّني لِقاؤُك، وساءَني. أَمَّا ما سرَّني من ذاك، فما هداك اللَّهُ لهُ، وأَمَّا ما ساءَني، فإِنَّ أَمرَنا لم يَستحكمْ بعدُ».

قال:

فأَدخلهُ عليه، وقبض منه المالَ، وبايعَهُ، ورجع الرَّجلُ إلى عُبيد اللَّهِ، فأَخبرهُ.

وانتقل مُسلمٌ، حين وافى عُبيدُ اللَّهِ، إلى منزلِ هانئٍ بنِ عُروةَ المُراديِّ، وكتب إلى الحسين يُخبرهُ ببيعةِ بضعة عشرَ أَلفاً من أَهلِ الكوفة، ويأْمُرهُ بالقُدوم عليه.

وقال عبيدُ اللَّهِ لِوُجوهِ أَهل الكوفة:

ـ «إنِّي أَعلمُ أنَّه قد سار معي، وأَظهرَ الطَّاعة لي مَن هُو عَدوٌّ لِلحسينِ، حين ظَنَّ أَنَّ الحسينَ قد دخل البَلدَ، وغلبَ عليه، وواللَّهِ، ما عرفتُ منكم أَحداً».

وقدم شريكُ بن الأَعورُ من البصرةِ، وكانَ من شيعة عليٍّ عليه السَّلام.

ذِكرُ مَكيدةٍ بَليغةٍ لِشَريكٍ ما تمَّتْ لهُ

فقال لِهانئٍ:

ـ «مُرْ مُسلماً يكون عندي، فإِنَّ عبيدَ اللَّهِ يعودُني».

وقال شريكٌ لِمُسلم:

ـ «أَرأَيتكَ، إن أَمكنَتْكَ من عبيد اللَّهِ، تضربُه بالسَّيفِ؟» قال:

ـ «نعم واللَّهِ».

وأَظهر شريكٌ زيادةً على ما به من الشَّكاةِ، وهو نازلٌ في دار هانئ. وجاء عُبيدُ اللَّه يعود شريكاً في منزل هانئٍ.

فقال شريكٌ لِمسلم:

ـ «إذا تمكَّن عبيدُ اللَّه، فإِنِّي مُطاولُه الحديثَ، فاخرجْ إليه بسيفكَ، واقتُلْه، فليس بينكَ وبين القصر مَن تحولُ دونَهُ، وإن شفاني اللَّهُ كفيتُكَ البصرةَ».

فقال هانئٌ:

ـ «إنِّي لأَكَرهُ قتلَ رجلٍ في منزلي».

وشجَّعهُ شريكٌ، وقال:

ـ «هي فرصةٌ لك، وإيَّاك أَن تُضيِّعَها، فانتهزْها فيه، فإِنَّهُ عَدوُّ اللَّهِ، وعلامتُك أن أَقولَ: اسقوني ماءاً».

وجاءَ عُبيد اللَّهِ بن زيادٍ، فدخلَ، وجلسَ، وسأَل شريكاً عن وَجَعِه، وقال:

ـ «ما الَّذي تَجدُ، ومتى اشتكيتَ؟».

فلمَّا طال سُؤالُه إيَّاهُ، ورَأى أَنَّ أَحداً لا يخرج، خَشِيَ أَن يفوتَهُ، فأَخذَ يقول:

ـ «اسقُوني وَيحَكُم ماءاً، ما تنتظرون بنفسي لن تُحيُوها، اسقونيه وإن كانت نفسي فيه».

فقال ذلك مرَّتين، أَو ثلاثاً.

فقال عُبيد اللَّه:

ـ «ما شأنُه؟ أَو تَرونه يهجر؟».

فقال هانئٌ:

ـ «نعم، أصلحك اللَّه، هذا دَيدنُه منذ الصُّبحِ».

ففَطنَ مَولًى لِعُبيد اللَّهِ قائمٌ على رأسِه، فغَمزَهُ، فقام عبيدُ اللَّهِ.

فقال شريكٌ:

ـ «انتظِرْ، أَصلحك اللَّهُ، فإنِّي أُريدُ أَن أُوصِّي إليكَ».

فقال:

ـ «أَعودُ».

فلمَّا خرج، قال شريكٌ لِمُسلمٍ:

ـ «ما منعكَ من قتلِه؟» قال:

ـ «خَصلتانِ: أَمَّا إحداهما، فكراهةُ هانئٍ أَن يُقتلَ في دارِه رجلٌ. والأُخرى، فحديثٌ سَمعتُه من عليٍّ عن النَّبيِّ ـ ﷺ ـ أَنَّ الإيمانَ قيَّدَ الفَتكَ، فلا يَفتكُ مُؤمنٌ».

فلبث شريك بن الأَعور بعد ذلك ثلاثاً وماتَ.

هانئٌ يُطلب إلى القصر

ودَعا عُبيدُ اللَّه هانئَ بنَ عُروةَ، فأَبى أَن يُجيبَهُ إلاَّ بأَمانٍ، فقال:

ـ «ما لَهُ ولِلأَمان، هل أَحدثَ حدثاً؟».

فجاءَهُ بنو عمِّه، ورُؤَساءُ العشائر، فقالوا:

ـ «لا تجعل على نفسكَ سبيلاً، وأَنتَ بَريءٌ».

وأُتيَ بِه، فقال عُبيد اللّهِ:

ـ «إيهِ يا هانئ، ما هذه الأُمورُ الّتي تَربَّصُ في دُورك لأمير المُؤمنين، وعامَّةِ المسلمين؟» قال:

ـ «وما ذاك، يا أميرَ المؤمنين!» قال:

ـ «جِئتَ بمسلم بن عقيلٍ، وأدخلتَهُ دارَكَ وجمعتَ السِّلاحَ، والرِّجالَ في دورِ حَولِكَ، وظننتَ أنَّ ذلك يخفى». فقال:

ـ «ما فعلتُ، وما مُسلمٌ عندي». قال:

ـ «بلى، قد فعلتَ». قال:

ـ «لا، ما فعلتُ». قال:

ـ «بلى».

فلمّا كثر ذلك، وأبى هانئ إلاّ مُجاحَدتَهُ، دعا عبيدُ اللّهِ ذلك الدَّسيسَ الّذي دسَّهُ، وحَمَلَ على يَدِه المالَ، وكان قد أَنِسَ بهم، وداخَلَهم، وجعل ينقُلُ كلَّ ما يكون منهم، إليه. فلمّا رَءَاهُ هانِئ، قال له عُبيدُ اللّهِ:

ـ «هل تَعرفُ هذا؟».

فعلم هانئ أنَّه كان عَيناً عليهم، فسُقطَ في خَلَده ساعةً، ثمّ إنَّ نفسَهُ راجَعتْهُ، فقال لهُ:

ـ «اسمعْ منِّي، فإنِّي، واللّهِ الّذي لا إلهَ إلاّ هُو أَصدُقكَ: ما دعوتُهُ، ولكن نزل عليَّ، فاستحييتُ من ردِّهِ، ولَزِمَني ذمامُه، فأَدخلتُه، وأَضَفْتُهُ، وآويتُهُ. فإن شِئتَ، أَعطيتُكَ موثِقاً، وما تطمئنُّ إليه، لا أَبغيك سُوءاً ولا غائلةً، وإن شئتَ أَعطيتُكَ رهينةً تكون في يدك حتّى آتيَكَ، وأَنطِلقَ إليه، فآمُرَهُ أن يَخرجَ من داري إلى حيثُ شاءَ من الأَرض، فأَخرُجَ من ذمامِه وجِواره».

فقال:

ـ «واللّهِ، لا تُفارقني أبداً، حتّى تأتِيَني بِه». قال:

ـ «واللّهِ، لا أَجيئُكَ به أبداً، أَنَا أَجيئُكَ بِضَيفي تقتلُه؟».

قال:

ـ «واللّهِ، لَتأتِيَنِّي به».

وقام النّاسُ إليه، يُناشدونهُ في نفسه، ويقولون:

ـ «إنَّه سلطانٌ، وليس عليكَ في دفعه إليه عارٌ، ولا نقيصةٌ». فقال:

ـ «بَلى واللّهِ، عليَّ في ذلك، الخِزيُ والعارُ: أَدفع جاري وضيفي إلى قاتله، وأَنَا

صحيحٌ، أَسمع، وأَرى، شديدُ السَّاعدِ، كثيرُ الأَعوانِ!».

فقال عبيدُ اللَّهِ بن زيادٍ:

ـ «أدنُوهُ مِنِّي!».

فأُدنِيَ منه، ولهُ ضَفيرتانِ قد رَجَّلهُما. فأَمرَ بِضَفيرَتَيْهِ، فأُمسِكَ بِهما، واستعرضَ وجهَهُ بقضيبٍ في يَدِه، فلم يزلْ يضربُ أَنفَهُ، وجَبْهَتَهُ، وجَبينَهُ، حتَّى نَثَرَ لَحمَ خدَّيهِ، وهشَمَ أَنفَهُ. وتلوَّى هانئ، وضرب بِيدِه إلى قائمِ سيفِ شُرطيٍّ مِمَّن حَضرَ، فمانَعهُ الرَّجلُ، ومُنعَ.

فقال عُبيدُ اللَّهِ:

ـ «أَحروريٌّ سائر اليوم؟ حلَّ لَنا قتلُك».

فقام أَسماء بن خارجةَ، فقال:

ـ «أَرُسُلٌ غُدُرٌ نحنُ منذ اليوم؟ أَمرتَنا أن نجيئَكَ بالرَّجلِ، حتَّى إذا جِئناكَ به، فعلتَ به ما تَرى، وزعمتَ أَنَّك تقتُلُهُ».

فقال عبيدُ اللَّهِ:

ـ «إنَّكَ هاهُنا».

وأُمِرَ، فَلُهِزَ، وتُعتعَ ساعةً، ثمَّ تُرك، فجلس، وسكت النَّاسُ.

وأَمرَ بهانئٍ، فَجُعلَ في بيتٍ، ووكَّلَ به من يحرسُهُ. وبلغ ذلك مذحجاً، فأَقبلتْ إلى القصرِ، فقيلَ لِعُبيد اللَّه:

ـ «هذه مذحجٌ، قد اجتمعت بالباب».

فقال لِشُريحٍ القاضي:

ـ «أُدخلْ على صاحبهم، فانظُرْ إليه، ثمَّ اخرجْ، فأَعلمهم أَنَّهُ حَيٌّ».

فخرج إليهم شُريحٌ، فأَعلمهم أَنَّهُ رَءَاهُ وهو حَيٌّ سالمٌ، وإنَّما عاتَبَهُ كما يعاتب الأَميرُ رعيَّتَهُ. فانصرفُوا.

مُسلمٌ يُقبِلُ نحوَ القَصرِ بالمُبايعين

وبعثَ مسلمُ بن عَقيلٍ مَن يأتيهِ بالخبر. فأَتَوهُ بالخَبرِ على وَجهِه، وأَمرَ أَن يُنادي بشِعاره:

ـ «يا منصورُ أَمِتْ».

وكان قد بايعهُ ثمانية عَشرَ أَلفَ ١٨,٠٠٠ رجلٍ. فاجتمعوا إليه، فعقد لجماعةٍ

على الأَرباعِ، وقدَّم أَمامَهُ صاحبَ رُبع كِندةَ، وأَقبلَ نحو القَصرِ، فتحرَّز عُبيدُ اللَّه، وغلَّقَ الأَبوابَ. وسار مسلمٌ حتَّى أَحاطَ بالقصر، وتداعى النَّاسُ، واجتمعوا، حتى امتلأ المسجدُ والسُّوقُ، وما زالُوا يتوثَّبون حتَّى المساءِ.

فضاق بعبيد اللَّهِ أَمرُه، وكان أكبر همِّهِ أَن يتمسَّك بباب القصرِ، وليس معه في القصر إلاَّ ثلاثون رجلاً من الشُّرَط، وعشرون رجلاً من أَشراف النَّاسِ، وأَهل بيته، وجعل من القصر يُشرفون فيشتمهم النَّاس، ويفتَرُون على ابن زياد وأَبيه، ويتَّقون أن يرمُوهم بالحجارةِ. ففتح عُبيدُ اللَّهِ البابَ الَّذي يلي دارَ الرُّوميِّين ليدخلَ إليه مَن يأتيه، ودعا كثيرَ بن شهابٍ، فأَمرهُ أَن يخرجَ في مَن أَطاعَهُ من مذحج، فيُخذِّل النّاسَ عن مسلم بن عقيلٍ، ويُخوِّفهم عقوبةَ السُّلطانِ، وغائلة أَمرِهم، وأَمرَ محمَّد بنَ الأَشعث بمثلِ ذلك، في مَن أَطاعَهُ من كِندةَ، أَن يرفعَ رايةَ أَمانٍ لِمَن جاءَهُ من النَّاسِ، وقال لِمثل هؤُلاءِ من أَهل الشَّرف مثلَ ذلك.

فخرجُوا، وجاؤوا بعِدَّةٍ، فحُبِسُوا، ورجع إليه الرُّؤَساء من ناحية دار الرُّوميِّين، فدخلوا القصر، فقال لهم عُبيدُ اللَّهِ:

ـ «أَشرفوا على القصرِ فَمَنُّوا أَهلَ الطَّاعةِ، وخوِّفُوا أَهلَ المعصيةِ».

فتكلَّم القومُ، وقالوا:

ـ «أَيُّها النَّاس! الحقُوا بِأَهاليكُم، ولا تُعجِّلوا الشَّرَّ، ولا تتعرَّضُوا لِلقتلِ، فإنَّ أَميرَ المؤمنين، قد بعث جُنودَهُ من الشَّام، وقد أَعطى اللَّهَ الأَميرُ عهداً لَئن تَمَّمتُم على حربكم، ولم تنصرفوا من عشيَّتكم، أَن يَحرمَ ذرِّيَّتكم العَطاءَ، ويُفرِّقَ مُقاتلتَكم في مغازي الشَّام على غير طمعٍ، وأَن يأخذ البَريءَ بالسَّقيم، والشّاهِدَ بالغائبِ، حتَّى لا يبقى له فيكم بقيَّةٌ من أَهلِ المَعصيةِ، إلا أذاقَها وبالَ أَمرها».

فأَخذ النَّاسُ ـ كما سمعوا هذا وأَشباهَهُ من رُؤَسائهم ـ يتفرَّقون. فكانت المرأَةُ تأتي إلى ابنِها، وأَخيها، فتقولُ:

ـ «انصرف، فإنَّ النَّاسَ يكفونكَ».

ويَجيء الرَّجلُ إلى ابنِه، وأَخيه، فيقول:

ـ «غداً يأتيكَ جنودُ الشَّامُ، فما تصنع بالحرب؟».

فينصرف به.

فما زال النَّاس يتفرَّقون، حتَّى أَمسى مسلمُ بن عقيلٍ، وما معه إلا ثلاثون رجلاً حين صُلِّيتِ المغربُ، فصلَّى بهم مسلمٌ. فلمَّا رَأَى أَنَّه قد أَمسى وليس معه إلاَّ أُولئك، خرج متوجِّهاً نحو كندة، فما بلغ الأَبوابَ ومعه منهم عشرةٌ. ثمَّ خرج من الباب، فإذا

ليس معه إنسانٌ، والتفتَ فإذا هو لا يُحسُّ أَحداً يدُلُّه على الطَّريق، ولا على منزلٍ، ولا يُواسيه بنفسِه إن عرض له عدُوٌّ. فبقي متلدِّداً في أَزِقَّةِ الكوفة، لا يدري أين يذهبُ.

فمشى حتَّى انتهى إلى بابِ امرأَةٍ يُقال لَها: طَوعةُ كانت أُمَّ ولدٍ لِلأَشعث، فزوَّجها أَسيداً الحَضرَمي، فولدتْ له بِلالاً. وكان بِلالٌ خرج مع النَّاسِ، وأُمُّه قائمةٌ تنتظر، فسلَّمَ مسلمٌ عليها، فردَّتْ عليه، فقال لها:

- «يا أَمةَ اللَّهِ، اسقيني ماءاً».

فدخلتْ، فسَقتْهُ، فجلسَ، فقالتْ:

- «يا عبدَ اللَّهِ، اذهبْ إلى أَهلك».

فسكت، ثمَّ عادتْ، فسكتَ، فقالت:

- «سبحان اللَّهِ! قُمْ إلى أَهلكَ، فما يصلح الجلوسُ على بابي، ولا أُحلُّه لكَ».

فقال:

- «يا أَمةَ اللَّهِ، ما لي في هذا المصر منزلٌ، ولا عشيرةٌ، فهل لَكِ في أَجرٍ ومعروفٍ، ولعلِّي أُكافئُكِ بِه بعدَ اليوم». قالتْ:

- «وما ذاك؟» قال:

- «أَنَا مسلم بنُ عقيلٍ، كذبني هؤلاءِ القوم، وغرُّوني». قالتْ:

- «ادخُلْ!».

ولم يكنْ بأَسرعَ من أَن جاءَ ابنُها. فقالت:

- «يا بُنَيَّ، مكرمةٌ وافَتكَ».

وأَخذتْ عليه الأَيمانَ، أن لا يُخبِرَ أحداً، فحَلفَ، فأَخبرتْهُ الخبرَ، فاضطجعَ وسكتَ.

وأَخذ ابنُ زيادٍ لا يسمع لأَصحابِ ابن عقيلٍ صَوتاً، فقال لأَصحابه:

- «أَشرِفوا، فانظروا ما بالُهم؟».

فأَشرَفوا، فلم يَرَوا أَحداً. قال:

- «فانظروا، فلعلَّهمُ تحتَ الظِّلالِ قد كمنوا لكم».

فجعلوا يخفضون شُعَلَ النَّارِ في أَيديهم، وينظرون: هل في الظِّلال أحدٌ؟ فكانت أَحياناً تُضِيءُ لهم، وأَحياناً لا تُضيءُ، كما يُريدون. فدَلَّوا أَنصافَ الطِّنان تُشدُّ بالحِبالِ، ثمَّ تُجعَلُ فيها النِّيرانُ، ثمَّ تُدلَّى إلى الأَرضِ. ففعلُوا ذلك من أَقصى الظِّلالِ وأَدناها، فلم يَرَوا شيئاً. فعلموا أَنَّ القوم انصرفُوا نادمين.

فأعلمُوا ابنَ زيادٍ، فأمرَ بفتح باب السُّدَّةِ الَّتي في المسجد، ثمَّ خرج فصعد المنبر، وخرج أَصحابُه، فجلسُوا حَولَهُ قبلَ العُتمة، ونادى:

ـ «بَرِئَتِ الذِّمّةُ من رجلٍ من الشُّرطة، أو العُرفاءِ، أو المناكب والمقاتلة، صلّى العُتمةَ إلاَّ في المسجد!».

فلم تكن إلاَّ ساعةً حتَّى امتلأَ المسجدُ.

فقال الحصينُ بن تميم:

ـ «إن شئتَ، صلَّى غيرُكَ، ودخلتَ القصرَ، فإنِّي لا آمَنُ أن يغتالَكَ بعضُ أعدائكَ». فقال:

ـ «مُرْ حَرَسي أن يقومُوا ورائي، وزِدْ فيهم، فإنِّي لستُ بداخلٍ بعد أن آثرتُ الخروجَ».

فصلَّى بالنَّاس، ثمَّ قال:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّ ابنَ عقيلٍ السَّفيهَ الجاهلَ، قد أتى ما رأيتُم من الخلافِ والشِّقاق، فَبَرِئَتِ الذِّمَّةُ من رجلٍ وجدناهُ في داره، ومن جاءَ به فله دِيَتُهُ».

ثمَّ توعَّد الناسَ، وحضَّهم على الطَّاعةِ، وخوَّفهم الفرقةَ والفتنةَ. ونادى حُصين بن تميم، فأجابه، وكان على شُرَطِهِ، فقال:

ـ «ثكلتْكَ أُمُّكَ، إن ضاعَ بابُ سكَّةٍ من سِكَكِ الكوفة، أو خرجَ هذا الرَّجلُ، ولم تأتني به. فابعث مراصدَ على أفواه السِّككِ، وأصبحْ غداً واستَبْرِئ الدُّورَ، وجُسَّ خلالَها حتَّى تأتِيَني بهذا الرَّجل».

ثمَّ نزل ابن زيادٍ، ودخل القصرَ، وأَصبح ابنُ تلكَ العجوزِ، وهو بلال بن أسيد، فغدا إلى عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأشعث، فأخبرهُ بمكان ابن عقيل عندهُ، وكان محمَّد بن الأَشعث قد باكرَ ابنَ زيادٍ، وهو عندهُ. فأقبل عبد الرَّحمن حتَّى أتى أَباهُ، فدَنا منه، وسارَّهُ.

فقالَ ابن زياد:

ـ «وما يقول ابنكَ؟» فقال:

ـ «يقول: إنَّ ابن عقيلٍ في دارٍ من دُورِنا».

فنخس بالقضيبِ في جَنبِه، وقال:

ـ «قُمْ، وائتني بِهِ السَّاعة».

وبعث إلى خليفته، وهو في المسجد أَن:

ـ «ابعثْ مع ابن الأَشعث سبعين رجلاً من قيسٍ».

وإنَّما كرهَ قومَهُ لأنَّه علم أَنَّ قومَهُ يكرهون أَن يُصاب فيهم مثلُ ابن عقيلٍ. ففعلَ ذلك، وسارَ محمَّد بنُ الأَشعث، حتَّى أَطافَ بالدَّارِ.

فلمَّا سمع مُسلمٌ وقعَ الحوافرِ، بادَرَ إلى سيفه، وخرج إليهم، فاقتحمُوا عليه، فردَّهم، ثمَّ عادُوا، فردَّهم، حتَّى ضربه رجلٌ منهم بسيفه، فقطع شفَتَهُ، وثناياهُ، وضَربهُ مسلمٌ بأَعلى رَأسِه، كادت تأتي عليه، ولكن سَلِمَ. فلمّا رأَى النَّاسُ ذلك، أَخذوا يرمُونه من فوق البيتِ.

فأقبل عليه محمَّد بن الأَشعث، فقال:

ـ «إنَّك أُثخنتَ، وعجزتَ عن القِتال، فلِمَ تقتُل نفسَكَ، أَقبِل إليَّ، ولك الأَمان».

فقال: «آمِنٌ أَنا؟».

قال: «نعم».

وقال القوم: «أَنت آمِنٌ».

فأَمكن من نفسه، فدَنَوا منه، وحملوهُ. فقال:

ـ «يا محمَّد بن الأَشعث، أَراك ستعجز عن أَماني».

وذلك أَنَّه نزعَ سيفَه من عاتقِه، فاستوحش.

ـ «. فهل لك في خيرٍ؟ تستطيع أَن تبعثَ رجلاً من عندكَ على لِساني يُبلغُ حسيناً ـ فإنِّي أَراهُ قد خرجَ، أَو هو خارجٌ غداً ـ فيقول له: إنَّ ابن عقيلٍ بعثني، وهو أَسيرٌ، لا يَرى أَنَّه يُمسي وهو يُقتَلُ، وهو يقول لك: ارجع بأَهلِ بيتكَ، ولا يَغُرَّك أَهل الكوفة، فإنَّهم أَصحابُ أَبيكَ، الَّذي كان يتمنَّى فِراقَهم بالموتِ، أَو القتل، إنَّ أَهل الكوفة قد كذبوك، وكذبوني، وليس لِكَذوبٍ رأيٌ».

فقال ابن الأَشعث:

ـ «واللَّه، لأَفعلَنَّ، ولأُعلِمَنَّ الأَميرَ عُبيدَ اللَّهِ. أَنِّي آمنتُكَ».

وذهب به إلى ابن زيادٍ، وأَنفذ رجلاً على راحلةٍ إلى الحسين بما قال مُسلمٌ.

فلمّا دخل بِه على ابن زيادٍ، قال:

ـ «إنِّي آمَنتُه». قال:

ـ «وما أَنتَ والأَمان، كأنَّما أَرسلناك لِتُؤمِنَهُ، إنَّما أَرسلناك لِتأتينا بِه».

فسكت، وانتهى بمسلم إليه. فقال:

ـ «إيهٍ يا ابن عقيلٍ، أَتيتَ النَّاسَ، وأَمرُهم جميعٌ، وكلمتهُم واحدةٌ، لِتُشتِّت

بينهم، وتحملَ بعضهم على بعضٍ». قال:

ـ «كلاً! لَستُ لذلك أتيتُ، لكنَّ أهلَ المصر زعموا أنَّ أباك قتلَ خِيارَهم، وعملَ فيهم أعمالَ كِسرى وقيصرَ، فأتيناهُم لِنأمُرَ بالمعروف والعدل، وندعو إلى حكم الكتاب».

وتراجَعا الكلامَ إلى أن قال له ابنُ زيادٍ:

ـ «قتلني اللَّهُ، إن لم أقتلْكَ قتلةً لم يُقتَلْها أحدٌ في الإسلام». قال:

ـ «أما إنَّك أحقُّ مَن أحدثَ في الإسلام، ما لم يكن فيه، وإنَّكَ لا تدَعُ سوءَ القتلةِ، وقُبحَ المُثلةِ، وخُبثَ السَّريرةِ، ولؤمَ الغَلبةِ، لا أحدَ من النَّاس أحقُّ بها منك».

وأخذ ابن زيادٍ يشتمه، ويشتم حسيناً وعليًّا، وأمسك مُسلمٌ لا يُكلِّمه.

ثمَّ قال:

ـ «اصعدُوا به فوقَ القصرِ، فاضربوا عُنقَهُ، ثمَّ أتبِعُوا جسَدَهُ رَأسَهُ».

فصعد وهو يقول:

ـ «اللّهمَّ احكم بيننا وبين قوم غرُّونا، وخَذَلُونا».

وأُشرِف به على موضع الحذَّائين اليوم، فضُربتْ عُنقُه، وأُتبعَ جَسدُه رأسَهُ.

ثمَّ أَمر بهانئٍ بعد قتل مسلم، أن يُخرجَ إلى السُّوقِ، فتضربَ عُنقُه. فأُخرِج إلى حيثُ تُباعُ فيه الغَنم، وهو مكتوفٌ، فجعل يقول:

ـ «وامذَحجاه، ولا مَذحجَ لي اليومَ».

ولا ينصرهُ أحدٌ، حتَّى قُتِلَ.

وأمر بكلِّ مَن عرفه مِمَّن خرج مع مُسلم، فأُتي به إلى قومِه، فضُربت عُنقُه فيهم، وبعث برؤُوس مَن قتل منهم إلى يزيدَ وكتبَ بالقصَّة.

ولَحِقَ رسولُ مسلم الَّذي أشخصهُ محمَّد بن الأشعث، الحسينَ، وهو بِزُبالةَ لأربع ليالٍ، فأخبرهُ الخبرَ وبلَّغهُ الرِّسالةَ.

فقال له الحسين:

ـ «كلُّ ما حُمَّ نازلٌ، وعند اللَّه نحتسبُ أنفسَنا، وفَسادَ أُمَّتنا».

الحسين وآراءُ المشيرين عليه ذكر رأيٍ أُشيرَ به على الحسين عليه السَّلام

لَقيَهُ عُمر بن عبد الرَّحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، فقال له، وقد قَدِمت عليه كُتبُ العراق:

- «يا بنَ عمٍّ إنّي أُتيتُ لحاجةٍ أُريدُ ذِكرَها لك نصيحةً، فإن كنت ترى أنَّك مُستنصِحي، قلتُها، وأدَّيتُ ما عليَّ من الحقِّ فيها، وإن ظننتَ أنَّكَ لا تستنصِحني، كفَفتُ عمَّا أُريدُ أن أقول».

قال: فقال:

- «قُلْ، فواللَّهِ ما أَستغِشُّكَ، وما أَظنُّك بِشَيْءٍ من الهَوى لِقبيحٍ من القولِ والفعلِ».

قال: قلت:

- «بلَغني أنَكَ تُريدُ السَّيرَ إلى العراق، وإنّي أُشفقُ أن تأتيَ بلداً فيه عُمَّالُه وأُمراءُهُ، ومعهم بيوتُ الأموال. وإنَّما النَّاسُ عَبيدٌ لِهذهِ الدَّراهمِ والدَّنانيرِ، فلا آمَنُ أن يُقاتِلَك مَن وَعدَك بنصرِه، ومَن أنتَ أحبُّ إليه مِمَّن يقاتلكَ معه».

فقال الحسين:

- «جزاكَ اللَّهُ خيراً يا بن عمٍّ، مَهما يُقضَ، يَكُنْ، وأَنتَ عندي أَحمدُ مُشيرٍ، وأَنصحُ ناصحٍ».

رأيٌ أشار به عبدُ اللَّه بنُ عبَّاس على الحسين

وأَتاهُ عبدُ اللَّه بن عبَّاس، فقال:

- «يا ابنَ عمٍّ، إنّه قدِ أَرجف النَّاسُ أَنَّك سائرٌ إلى العراق، فَبَيِّنْ لي ما أَنتَ صانعٌ».

فقال له:

- «إنّي قد أَجمعتُ السَّيرَ إلى العراقِ في أَحد يَومَيَّ هذين إن شاءَ اللَّه».

فقال له ابن عبَّاس:

- «فإنّي أُعيذُك باللَّهِ من ذلك، أَخبِرْني - رحمك اللَّهُ - أَتسير إلى قوم قد قتلُوا أَميرَهم، وضبطُوا بِلادَهَم، ونَفَوا عَدُوَّهم؟ فإن كانُوا قد فعلوا ذلك، فَسِرْ إلَيهم، وإن كانوا إنَّما دعوك إليهم، وأَميرُهم عليهم، قاهرٌ لَهُم، وعُمَّالُه يجبون بلادَهم، فإنَّهم دعوك إلى الحرب، ولا آمَن أن يغرُّوكَ، ويكذبوك، ويخذُلوك، ويُستنفروا إليك، فيكونوا أَشدَّ النَّاسِ عليك».

فقال له الحسين:

- «فإنّي أَستخير اللَّهُ، وأَنظر».

فجاءَهُ من الغدِ ابنُ عبَّاسٍ، وقال له:

- «ابنَ عمٍّ، إنّي أَتصبَّرُ، ولا أَصبِرُ، إنّي أَتخوَّفُ عليك في هذا الوجهِ الهلاكَ. إنَّ

أهلَ العراقِ قومٌ غُدُرٌ، فأَقِمْ بهذا البَلدِ، فإنَّك سيِّدُ أهلِ الحجاز. فإن كانَ أَهلُ العراق يريدونكَ كما زعمُوا، فاكتُبْ إليهم، فلينفُوا عدوَّهم، ثمَّ اقدَم عليهم، فإن أَبيت إلاَّ الخُروجَ، فَسِرْ إلى اليمن، فإنَّ بها حُصوناً وشِعاباً، وهي أَرضٌ عَريضةٌ طويلةٌ، ولأَبيك بها شيعةٌ، وأنتَ في عُزلةٍ عن النَّاس، فتكتبُ وتَبُثُّ دُعاءَك، فإنِّي أَرجو أن يأتيكَ ما تُحبُّ في عافيةٍ».

فقال له الحسين:

ـ «يا ابنَ عمٍّ، إنِّي أَعلمُ أَنَّك ناصحٌ شفيقٌ، ولكنِّي قد أَجمعتُ على المسير».

فقال له ابن عبَّاسٍ:

ـ «فإن كنتَ سائراً، فلا تَسِرْ بنِسائكَ، وصِبيَتِكَ، فَوَاللَّهِ إنِّي أَخافُ أن تُقتلَ كما قُتلَ عثمانُ، ونساؤُهُ ووُلدُه ينظرون إليه، وواللَّهِ الَّذي لا إلهَ إلاَّ هُوَ: لَو أَعلمُ أَنِّي إذا أَخذتُ بِشَعرِكَ وناصيتِكَ، حتَّى تجتمع عليَّ وعليك النَّاسُ، أطعتَني وأَقمتَ؛ لَفَعلتُ».

فلمَّا أَبى عليه، قال له:

ـ «قد أَقررْتَ عينَ ابنِ الزُّبيرِ بتخليتِكَ إيَّاهُ والحجازَ، وهو اليومَ لا يُنظَرُ إليهِ معك».

وخرج من عند الحسين، ومرَّ بعبد اللَّهِ بن الزُّبير، فقال:

ـ «قرَّتْ عينُكَ يا بن الزُّبير!».

ثمَّ قال:

يـا لَـكَ مـن حُـمَّـرةٍ بِـمَـعْـمَـرِ خَلا لَكِ الجَوُّ، فَبِيضي وَاصفِري
ونَـقِّـري مـا شِئـتِ أَنْ تُـنَـقِّـري

قال:

ـ «وما ذاكَ؟».

قال:

ـ «هذا الحسينُ يخرج إلى العراقِ، ويُخَلِّيكَ والحجازَ».

خرُوجُ الحُسينِ إلى العِراق «لِقاءٌ بين الحُسين والفَرزدق»

وخرج الحسينُ في أَهل بَيتِه، ونِسائه، وصِبيتِه. فلقي الفرزدق الشَّاعر بالصِّفاح، فتواقفا، فقال له الحسين:

ـ «بيِّن لَنا نَبأَ النَّاس خلفَكَ».

فقال له الفرزدق:

ـ «الخبيرَ سأَلتَ. قلوب النّاس معك، وسيوفُهم مع بني أُميَّة، واللَّهُ يفعل ما يشاءُ».

فقال له الحسين:

ـ «صدقتَ، الأَمرُ للَّهِ، يفعل ما يشاءُ».

ثمَّ حرَّك راحلتَه، وقال: «السلام عليك».

وافترقا.

ما كان من أَمر رسوله قيس بن مُسهِر

وقد كان وصل إلى الحسين كتابُ مسلم بن عقيلٍ، قبلَ أن يُقتلَ بأَيَّامٍ، يقول فيه:

ـ «أمَّا بعد، فإنَّ الرَّائدَ لا يكذبُ أَهلَه. إنَّ جميعَ أَهل الكوفة معك، فأَقبِلْ حين تقرأُ كتابي، والسَّلام».

فأَقبل الحسين بصبيانه ونسائه لا يَلوِي على شَيْءٍ، ولا يسمعُ قولَ أَحدٍ، حتَّى بلغَ الحاجرَ من بطن الدُّومةِ، وبعث قيس بن مُسهِر إلى الكوفة بكتابٍ يعرِّفُهم فيه أَنَّه شخص إليهم، لِما عرفه من اجتمعِ مَلئهم على نصرِه، والطَّلبِ بحقِّه.

فلمَّا انتهى قيسٌ إلى القادسيَّة، وجد خَيلَ ابنِ زيادٍ منظومةً ما بينها وبين الكوفة، فأَخذهُ الحصين بنُ تميم، فبعث به إلى ابن زيادٍ.

فقال له ابن زيادٍ:

ـ «اصعد القصرَ، فَسُبَّ الكذَّابَ بنَ الكذَّابِ».

فصعد قيس بن مُسهِر القصرَ، فحمد اللَّهِ، وأَثنى عليه، ثمَّ قالَ:

ـ «أَيُّها النَّاسُ، هذا حسين بن عليٍّ خيرُ خلق اللَّهِ، ابنُ فاطمةَ بنتِ رسول اللَّهِ، وأَنَا رسولُه إليكم، وفارقتُه بالحاجر، فأَجيبُوهُ!».

ثمَّ لعن زياداً وابنَهُ، واستغفر لعليٍّ بن أبي طالبٍ. فأَمر به عُبيدُ اللَّهِ فرُمِيَ به من فوق القصر، فماتَ.

خَيلُ الحُرِّ بنِ يَزيد

وأَقبل الحسينُ، حتَّى نزل شراف، وأَمر فِتيانَه فاستقوا من الماءِ، ثمَّ ساروا صَدرَ يومِهم. فقال رجلٌ:

ـ «أَللَّهُ أَكبرُ».

فقال الحسين:

ـ «أَللَّهُ أكبرُ، مِمَّ كبَّرتَ؟» قال:

ـ «رأيتُ النَّخلَ».

فقال رجلان أَسديَّان كانا معه:

ـ «إنَّ هذا مكانٌ ما رأَينا به نخلاً قطُّ».

قال الحسين:

ـ «فما تَرَيانِه رَأَى». فقالا:

ـ «نَراهُ واللَّهِ رَأيَ هَوادي الخَيل». فقال:

ـ «وأَنَا، واللَّه، أَرى ذلك».

فقال الحسين:

ـ «أَما لَنا مَلجأٌ نعدل إليه؟» نجعلُه في ظهورنا ونستقبل القومَ من وجهٍ واحدٍ؟

قال: فقلنا له:

ـ «نعم، هذا ذو حُسُمٍ إلى جَنبك، تميل إليه عن يسارك».

فأَخذ إليه، ومال أَصحابُه معه. فما كان بأَسرعَ من أَن طلعت علينا هوادي الخيل، فتَبيَّنَّاها، وعدلنا. فلمَّا رأَونا قد عدلنا عن الطَّريق، عَدلوا، كأَنَّ أَسنَّتَهم اليَعاسيب، وكأَنَّ راياتِهم أَجنحةُ الطَّير، فسبقناهم، فنزل الحسين، وضُربت أَبنيتُه، وجاءَنا القوم وهُم أَلفُ رجلٍ، مع الحُرِّ بن يزيد التَّميمي.

فأَقبل حتَّى وقف هو وخيلُه مقابلَ الحسينِ وأَصحابِه في حَرِّ الظَّهيرةِ، فأَمر الحسين أَن يُسقى القومُ، فقام فِتيانهُ يَسقون الخيلَ بالأَتوار والطِّساسِ حتَّى أَروَوها.

فكان سبب تقدُّم الحُرِّ في أَلفِ رجلٍ أَنَّ عُبيدَ اللَّهِ بن زيادٍ بعث الحُصين بن تميم، وكان على شُرَطِه، على أَن ينزل القادسيَّة، وينظِّم ما بين القطقطانية وخفَّان بالمَسالح. فقدَّمَ الحُرَّ هذا بين يديه في أَلف رجلٍ يستقبل الحسين، ويكون معه يُسايرهُ، ويحفظُه إلى أَن يردَ عليه الخبر.

فحضرت الصَّلاةُ، فأَذَّن مُؤذِّنُ الحسين، ثمَّ أَقامَ. فخرج الحسين في إزارٍ ونعلينِ، وقال:

ـ «أَيُّها النَّاس، معذرة إلى اللَّهِ، وإليكم. إنِّي لم آتِكم حتَّى أَتَتني كُتُبكم، وقدِمتْ عليَّ رسائلُكم أَنِ اقدَمْ علينا، فإنَّهُ ليس لَنا إمامٌ. فإن كنتم على ذلك، فقد جِئتُكم، فإن تُعطوني ما أَطمئنُّ إليه من عُهودكم أَقدَمُ مصرَكم، وإن كنتم لِمقدمي كارهين، انصرفتُ عنكم إلى المكان الَّذي أَقبلتُ منه إليكم».

فسكتوا عنه.

فقال الحسين لِلحُرِّ:

ـ «أتريدُ أن تُصلِّي بأَصحابك؟» قال:

ـ «لا، بل تُصلِّي أنتَ ونُصلِّي بصلاتكَ».

فصلَّى بهم الحسين، وانصرف الحُرُّ إلى مكانه، وأخذ كلُّ رجلٍ منهم بِعِنان دابَّته، وجلس في ظلِّها. فلمَّا كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيَّأوا للرَّحيل، ففعلوا. ثمَّ إنَّه خرج، فأمر مناديه، فنادى بالعصر، واستقدم الحسينُ، فصلَّى بالقوم، ثمَّ سلَّم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد اللَّهُ وأثنى عليه، وأعاد على القوم قريباً من مقالته الأُولى.

فقال الحُرُّ:

ـ «إنَّا، واللَّهِ، لا ندري هذه الكتب، والرُّسل الَّتي تذكر».

فدعا الحسين بخُرجَينِ مَملُوَّينِ كُتُباً فنشرها بين أيديهم. فقال له الحُرُّ:

ـ «لَسنا من هؤُلاءِ الَّذين كتبُوا إليكَ، إنَّما أُمرنا، إذا نحن لقيناك، ألاَّ نُفارقَكَ حتَّى نُقدمك الكوفةَ على عُبيدِ اللَّه بن زيادٍ».

فقال له الحسين:

ـ «الموتُ أدنى إليكَ من ذلك».

ثمَّ قال لأَصحابه:

ـ «انصرفوا بِنا».

فلمَّا ذهبوا لينصرفوا، حال القَوم بينَه وبين الانصراف.

فقال الحسين لِلحُرِّ:

ـ «ثكلتْكَ أُمّكَ، ما تُريدُ؟».

قال:

ـ «أَما واللَّهِ، لو غيرك من العرب يقولُها ما تركتُ ذكر أُمِّه، كائناً مَن كان، ولكن لا سبيل إلى ذكر أُمِّكَ، إلاَّ بأَحسنِ ما نقدر عليه».

فقال له الحسين:

ـ «فما تُريدُ؟» قال:

ـ «أَن أنطلق بك إلى عُبيدِ اللَّه بن زيادٍ».

فقال له الحسين:

ـ «إذاً لا أتبعُكَ».

فقال له الحُرُّ:

ـ «إذاً لا أدعُك».

فترادًا القول: فلمّا طال الكلام، قال الحُرُّ:

ـ «إنّي لم أُومَرْ بقتالك، إنّما أمرتُ ألاّ أُفارقَكَ حتّى تقدم الكوفة. فإذا أتيتَ حيطانَها، فخُذْ طريقاً لا يُدخلك المدينة، ولا يُؤَدِّيك إليها، ولا يَرُدُّك عنها يكون بيني وبينكَ نَصفاً، وتكون بالخيارِ، بين أَن تكتبَ إلي يزيد إن أَردتَ، أو إلى ابن زيادٍ، إن أردتَ، فلعلَّ اللّهُ يأتي بأمرٍ يرزقني فيه العافية أن أبتليَ بشيْءٍ من أمرك».

فتراضيا، وتَياسرَ الحُرُّ عن طريق القادسيَّة، وسايَرَهُ الحسين. وأخذ الحسينُ يخطب القومَ ويذكِّرهم اللّهَ، ويدلُّهم على نفسه ومكانه عن النُّبُوَّةِ والحكمة، واستحقاقِه للإمامةِ دون الفجَرةِ الفَسقة.

فقال له الحرُّ، وهو يُسايرُهُ:

ـ «يا حسين! أذكِّرك اللّهَ في نفسكَ، فواللّهِ، لئن قاتلتَ لَتُقتلَنَّ».

فقال له الحسينُ:

ـ «أَبالموت تُخوِّفني؟».

وأَنشدهُ أَبياتاً، وهي أبياتٌ تمثَّلَ بها:

سَأَمضِي، فَما بِالمَوتِ عارٌ على الفَتى ... إذا ما نَوى حَقًّا وَجاهَدَ مُسلما

وآسَى الرِّجالَ الصَّالحينَ بِنفسِه ... وفارقَ شَرًّا أن يَعيشَ ويُرغَما

فكان يسير الحُرُّ ناحيةً، والحسينُ ناحيةً. فبينا هم كذلك، فطلع عليهم أربعةٌ من الفُرسان، فعدلُوا إلى الحسين، فسلَّمُوا عليه، فمنعهم الحُرُّ أن يسيرُوا معه.

فقال الحسينُ:

ـ «ما لَكَ تمنعهم؟».

فقال الحُرُّ:

ـ «هؤلاءِ لم يأتُوا معك، وإنّما هم أَهلُ الكوفة».

قال الحسينُ:

ـ «هم بمنزلة مَن جاءَ معي، فإنّهم أَنصاري وأَعواني، وقد أَعطيتَني أَلاّ تعرضَ لي بشَيْءٍ، حتّى آتِي الكوفة. فإن تمّمتَ على ما كان بيني وبينَكَ، وإلاّ ناجزتُك».

قال: وكفَّ عنهم الحُرُّ.

فقال الحسين لِلقوم:

ـ «أَخبروني خَبرَ النَّاسِ وراءَكم».

فقالوا:

ـ «أمَّا أشرافُ النَّاس، فقد أُعظِمت رشوتُهم، ومُلِئت غرائرُهم، واستُميلَ وُدُّهم، واستُخلصتْ نصيحتُهم، وهُم أُلَبٌ عليك، وأَمَّا سائر القومِ، فأَفئدتُهم معك، وسيوفُهم غَداً مشهورةٌ عليك».

قال:

ـ «فخَبِّروني عن رسولي إليكم». فقالُوا:

ـ «مَن هو؟» قال:

ـ «قيسُ بنُ مسهر الصَّيداوي». فقالوا:

ـ «نعم، أَخذهُ الحُصَين بنُ تميم، فبعث به إلى ابن زيادٍ، فأَمرهُ ابن زيادٍ بِلعنِك، ولَعنِ أَبيك، فصَلَّى عليكَ وعلى أَبيكَ، ولَعَنَ ابنَ زيادٍ وأَباهُ، ودعا النَّاسَ إلى نُصرتك، وأَخبرهم بمقدمِكَ فأَمر به ابنُ زيادٍ، فأُلقي من طمار القصر، فماتَ».

فتَغَرغَرتْ عينا الحسين بالدُّموع، ولم يملكْ دمعَهُ، ثمَّ قال:

ـ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ما قاله الطِّرمَّاحُ بن عَديّ للحسين

فقالُوا له بعدَ ما دَنَوا منه:

ـ «واللَّهِ، إنَّا لَنَنتَظِرُ، فما نَرى معك أَحَداً، ولَو لم يُقاتلك إلاَّ هؤُلاءِ الَّذين نراهم مُلازِميكَ، لَكفى بهم، فكيفَ وقد رأَينا قبلَ خُروجنا من الكوفة ما لم نَرَ قَطُّ مِثلَهم ناساً في صَعيدٍ واحدٍ عُرِضُوا لِيُسرَّحُوا إليك، فننشدُكَ اللَّهَ إن قدرتَ أَلاَّ تَقدَّم شِبرًا إلاَّ فعلتَ، فهاهنا بلدٌ منعك اللَّهُ به، حتَّى ترى رَأيَك، فسِر بِنا حتَّى نُنزلَكَ جَبلَنا الَّذي يُدعى أَجأً، امتنعنا به واللَّهِ من ملوكِ غَسَّانٍ، وحِمْيَرَ، ومن النُّعمان، ومن الأَسودِ والأَحمر، واللَّهِ ما دخل علينا ذُلُّ قطُّ، ثمَّ تبعث الرِّجال إلى مَن ينزلُ أَجأً، وسَلمى من طَيِّءٍ، فيأتيك الرِّجال، وأَنَا زعيمٌ لك بعشرين أَلفَ طائيٍّ يضربون بين يديك بالسُّيوف».

فقال الحسين:

ـ «جزاكَ اللَّهَ وقومَكَ خيراً. إنَّه قد كان بينَنا وبين هؤُلاءِ القومِ من أَهل الكوفة قولٌ لَسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علامَ تنصرف بنا وبهم الأُمورُ في العاقبة».

فودَّعوهُ وقالوا:

ـ «قد حملنا ميرةً من الكوفة لأَهلينا، فنحن نحملها إليهم، ونعود إليكَ»

نزول الحسين بنينوى وقدومَ راكبٍ بكتابٍ من ابن زيادٍ

وسار الحسين، فجعل يتياسرُ، فيأتيه الحرُّ بن يزيد، فيردُّهُ وأصحابَه، فجعل إذا ردَّهم إلى الكوفة ردًّا شديداً امتنعوا عليه. فلم يزالوا كذلك، حتَّى انتهوا إلى المكان الَّذي نزل به الحسين ـ عليه السَّلام ـ فإذا راكبٌ على نجيبٍ له، وعليه السِّلاحُ متنكِّباً قوسَهُ، مُقبلٌ من الكوفة، فوقفوا جميعاً ينتظرونه. فلمَّا انتهى إليهم، سلَّم على الحُرِّ وأَصحابه، ولم يُسلِّم على الحسين وأَصحابه، ودفع إلى الحُرِّ كتاباً من عُبيد اللَّهِ بن زيادٍ، فإذا فيه:

ـ «أَمَّا بعدُ، فجَعجعْ بالحسين وأَصحابِه حيثُ يبلغكَ كتابي، ويقدم عليك رسولي، فلا تُنزِلْهُ إلاَّ بالعَراءِ في غير حِصنٍ وعلى غير ماءٍ. وقد أمرتُ رسولي أَن يلزمَك حتَّى تردَّهُ بإنفاذِ أَمري، والسَّلام».

فلمَّا قرأَهُ الحرُّ، قال:

ـ «هذا كتابُ الأَميرِ عبيدِ اللَّه، يأمُرني أَن أُجَعجعَ بكم في المكان الَّذي يأتيني كتابُه، وهذا رسولُه وقد أَمرني أَلاَّ يُفارقني حتَّى أُنفذَ أَمرَهُ».

وأَخذ الحرُّ يُريدُهم على النُّزل هناك على غير ماءٍ، ولا في قريةٍ. فقالوا:

ـ «دَعْنا ننزلْ في هذه القرية ـ يعنون الغاضريَّة ـ أَو تلك ـ يعنون نينوى ـ أَو تلك، أَو تلك».

فقال:

ـ «لا واللَّه، ما أستطيع هذا. أَما تَرونَ الرَّجلَ قد بعثَهُ عيناً عليَّ».

فقال زُهيرُ بن القَينِ وكان مع الحسين:

ـ «يا ابنَ بنت رسولِ اللَّهِ، إنَّ قتالَ هؤلاءِ السَّاعةَ أَهونُ علينا مِن قِتال مَن يأتينا مِن بعدهم، فلَعمري لَيأتينا مِن بعد مَن ترى مَن لا قِبَلَ لَنا به».

فقال الحسين:

لا أَبدأُهم بالقتال.

فقال زُهيرٌ:

ـ «فسِرْ بِنا إلى هذه القرية القريبةِ حَتَّى ننزلَها، فإنَّها حَصينَةٌ، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالُهم اليومَ أهونُ من قِتالِ مَن يجيءُ بعدَهم».

فقال الحسين:

ـ «وأَيَّةُ قريةٍ هي؟» قال:

ـ «العَقرُ».

فقال الحسين، عليه السَّلام:

ـ «أَللَّهمَّ أعوذُ بك من العَقر!».

ثمَّ نزلَ، وذلك يومَ الخميس الثَّاني من المحرَّم سنة إحدى وستِّين.

عمر بن سعد والخيار الصَّعب

وكان عُبيدُ اللَّه بن زيادٍ قد ولَّى عُمر بنَ سعدِ بنِ أبي وقَّاص الرّيِّ، وكتبَ عهدَه عليها، وجهَّز معه أَربعةَ آلافٍ، لأَنَّ الدَّيلَمَ كانوا غلبوا على دَسْتَبى، فخرج عمرُ بن سعدٍ، وكان قد عسكر بحمَّام أَعين.

فلمَّا كان من أَمرِ الحسين ما كان، كتب عُبيدُ اللَّهِ بن زيادٍ إلى عُمرَ بن سعدٍ أَن:

ـ «سِرْ إلى الحسين، فإذا فرغنا مِمَّا بيننا وبينَه، سِرتَ إلى عملك».

فكتب إليه عُمرُ بن سعدٍ:

ـ «إن رأَيتَ أَن تُعفيني، فعلت».

فقال عُبيدُ اللَّهُ:

ـ «نعم، على أَن تردَّ إلينا عهدَنا».

فاستعظم عُمرُ بن سعدٍ أَمرَ الحسين، وكان يستشير نُصَحاءَهُ، فلا يُشير عليه أَحدٌ به، ثمَّ حَلا في قلبه الإمارة، فاستجاب وأَقبلَ في أَربعة آلافٍ حتَّى نزل بالحسين في غد يومٍ نزل فيه الحسين بالمكان الَّذي ذكرناهُ.

فبعث عمرُ بن سعدٍ مَن يسأَلُه: ما الَّذي جاءَ به. فجاء الرَّسولُ حتَّى سلَّم على الحسين، وأَبلغه رسالة عمر.

فقال الحسين:

ـ «كتبَ إليَّ أَهلُ مِصرِكم أَن اقدَم. فأَمَّا إذا كرهتموني، فأَنَا أَنصرف عنهم».

فانصرف إلى عمر بجوابه. فقال عمرُ بن سعدٍ!

ـ «إنِّي لأَرجو أَن يعافيني اللَّهُ من حَربِه».

وكتب إلى عُبيدِ اللَّهِ بذلك.

اشتدادُ العطش على الحسين وأَصحابه

واشتدَّ على الحسين وأَصحابه العطش، فدعا العبّاسَ بن عليٍّ، فبعثه في ثلاثين

فارساً وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرينَ قِربةً. فدَنَوا من الماءِ ليلاً.

فقال عمرو بن الحجّاج الزُّبيديُّ، وكان قد أَرسله عمرُ بن سعدٍ في خمسمائةٍ على الشَّريعة يمنعون الحسينَ وَأَصحابَه من الماءِ بِكتابٍ ورد عليه من عُبيد اللَّهِ:

- «مَن الرَّجلُ، وما جاءَ بك؟» قال:

- «جئنا نشرب من هذا الماءِ الَّذي حلأَّتمونا عنه». فقال:

- «اشربْ هنَّأَك اللَّهُ». قال:

- «لا واللَّهِ، ما أَشربُ والحسين ومَن ترى من أَصحابه عِطاشٌ». فقال:

- «لا سبيل إلى سقي هؤُلاءِ، إنَّما وُضعنا بهذا المكان لِنمنعَهم الماءَ».

فلمَّا دَنا أَصحابُه قال لِرَجَّالته:

- «املؤوا قِرَبَكم».

وشَدَّ على القوم مع أَصحابه فملأُوا قِرَبَهم، وثار بهم عمرُو بن الحجَّاج، فقاتلهم العبَّاس وأَصحابه، حتَّى انصرف أَصحابُ القِرَب بالقِرَب، فأَدخلوها على الحسين وأَصحابه.

التقاءٌ بينَ الحسين وعُمر بن سعدٍ

وبعث الحسينُ إلى عُمر أَن:

- «إلقَني اللَّيلةَ، بين عسكري وعسكرك».

فخرج إليه عمرُ بن سعدٍ في نحوٍ من عشرين فارساً، وأَقبل الحسينُ في مثل ذلك. فلمَّا التقيا، أَمَرَ الحسين أَصحابَه أَن يتنحَّوا، وأَمر عُمر بن سعدٍ أَصحابَه بمثل ذلك، فانكشفَتا عنهما حيث لا تُسمع أَصواتُهما، فتكلَّما، فأَطالا، حتَّى ذهب هزيعٌ من اللَّيل. ثمَّ انصرف كُلُّ واحدٍ إلى أَصحابه، وتحدَّث النَّاسُ بينَهم بالظُّنون ولا يدرون حقيقة شَيْءٍ. ثمَّ التقيا بعد ذلك مراراً ثلاثاً وأَربعاً.

كتاب ابن سعدٍ إلى ابن زياد في ما دار بينه وبين الحسين

فكتب عُمر بن سعدٍ إلى عبيد اللَّه بن زيادٍ:

- «أَما بعدُ، فإنَّ اللَّهَ قد أَطفأَ النَّائرة، وجَمعَ الكلمةَ، وأَصلح أَمرَ الأُمَّة. هذا الحسينُ قد أَعطاني:

أَن يرجع إلى المكان الَّذي أَتى منه.

أَو أَن نُسيِّرهُ إلى أَيِّ ثغرٍ من الثُّغور شِئنا، فيكون رجلاً من المسلمين: له ما لهم، وعليه ما عليهم.

أَو أن يأتيَ أَمير المؤمنين يزيدَ، فيَضع يدَه في يده، فيرى فيه رأيَه، وفي هذا لكم رِضًى، ولِلأُمَّة صلاحٌ».

فلمَّا قرأَ عبيدُ اللَّه الكتابَ، قال:

ـ «هذا كتابٌ ناصحٍ لأَميرِه، وشفيقٍ على قومه، قد قَبِلتُ».

ما أشار به شمرٌ على ابن زيادٍ

فقام إليه شَمِرُ بنُ ذي الجوشن، فقال:

ـ «تَقبلُ هذا منه، وقد نزل بِأَرضكَ وإلى جَنبك؟ فإنَّما وافى لِيُزيلَ سلطانَكَ. واللَّهِ، لَئن رحلَ من بلادك ولم يضعْ يدَه في يدك، لَيكونَنَّ أَولى بالقُوَّة والعِزِّ، ولَتكونَنَّ أَولى بالضَّعف والعجز، فلا تُعطِه هذه المنزلةَ، فإنَّها من الوهن، ولكن لِينزل على حُكمك، فإن عاقبتَ، فأَنتَ أَولى بالعقوبة، وإن عَفوتَ، كان ذلك لَكَ. ولقد بلغني أَنَّ الحسينَ وعُمرَ بن سعدٍ يجلسان، فيحَدَثان عامَّةَ اللَّيلِ».

فقال عبيدُ اللَّه بن زياد:

ـ «نِعمَ ما رأَيتَ، الرَّأي رَأْيُكَ».

ثمَّ قال ابن زيادٍ:

ـ «اخرج أَنتَ بجواب كتاب عمر بن سعدٍ. فليعرض على الحسين وأَصحابه النُّزولَ على حكمي، فإن فعلوا، فليبعث بهم إليَّ سِلماً، وإن أَبَوا، فقاتِلُوهم. فإن فعلَ عمر بنُ سعدٍ، فاسمعْ منه وأَطِعْ، وإن أَبى، فأَنت الأَميرُ على النَّاسِ، وثِبْ عليه، واضربْ عنُقَهُ، وابعثْ إليَّ برأسه».

جواب ابن زيادٍ لكتاب ابن سعدٍ

ثمَّ كتب إلى عُمَر بن سعدٍ:

ـ «أَمَّا بعد، إنِّي لم أَبعثكَ إلى الحسين لِتُطاوله، وتكُفَّ عنه، ولا لِتُمنِّيَهُ السلامةَ والبقاءَ، ولا لتقعُدَ له شافعاً عندي. انظرْ: إن نزل الحسينُ وأَصحابُه على حُكمي واستسلموا، فابعث بهم، وإن أَبَوا، فازحف إليهم حتَّى تقتلَهم وتمثِّلَ بهم، فإنَّهم لذلك مستحقُّون. فإن أَنتَ فعلتَ جزيناكَ خيراً، لأَنَّك السَّامعُ المُطيعُ، وإن أَنتَ أَبيتَ، فاعتزلْ عمَلَنا وجُندَنا، وخَلِّ بينَ شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنَّا قد أَمرناهُ بأَمرنا، والسَّلام».

قدومُ شَمِرٍ بالكتاب

فقدم شَمِرٌ بالكتاب، فقرأَهُ عُمر، وقال لِشمرٍ:

ـ «ما لَك ويلك! لا قرَّب اللَّهُ دارَكَ! وقبّح اللَّهُ ما قدِمتَ به! إنَّكَ أَنتَ ثنَّيتَهُ عمَّا كتبتُ به إليه، وقد ـ واللَّهِ ـ أَفسدتَ علينا أُموراً رجونا معه الصَّلاحَ، واللَّهِ يا شَمرِ! لا يستسلم حسينٌ، إنَّ نفسَه نفسٌ أَبيَّةٌ».

فقال له شمرٌ:

ـ «أَخبرني ما أَنت صانعٌ، تَمضي لأَمر أَميرك، وإلاَّ فخَلِّ بيني وبين العسكر».

قال:

ـ «لا، ولا كرامةَ لك! أَنَا أَتولَّى ذلك». قال:

ـ «فدونك!».

فركب عمر بن سعدٍ في النَّاس، ثمَّ زحف نحوَهم، والحسين جالسٌ أَمامَ بيتِه مُحتَبٍ بسيفه.

فقال له العباس بن عليٍّ:

ـ «يا أَخي أَتاك القومُ، أَما تراهم؟».

وكان الحسين قد خفق برأسه على رُكبتَيه، فنهضَ ثمَّ قال:

ـ «يا عبَّاسُ اركب ـ بنفسي أَنتَ يا أَخي ـ حتَّى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسأَلهم عمَّا جاءَ بهم».

فأَتاهُم العبَّاسُ، واستقبلهم في نحو عشرين فارساً، فقال لهم:

ـ «ما جاءَ بكم؟ وما بدا لكم؟» فقالوا:

ـ «إنَّ أَمر الأَمير قد جاءَ بكيتَ وكيتَ». قال:

ـ «فلا تعجلوا حتى أَرجع إلى أَبي عبدِ اللَّه، فأَعرِضَ عليه ما ذكرتم».

فانصرف العبَّاسُ يركُضُ نحو الحسين، يُخبرُهُ الخبرَ، وتركَ أَصحابَه يخاطبون القومَ. ثمَّ أَقبل العبَّاس يركُضُ، فقال:

ـ «إنَّ أَبا عبدِ اللَّهِ يسأَلكم أَن تنصرفوا هذه العشيَّة حتَّى ننظُرَ في هذا الأَمر، فإنَّ هذا الَّذي جِئتُم به، لم يَجرِ بينكم وبينه فيه منطقٌ، فإذا أَصبحنا التقينا، فإمَّا رضيناهُ فاستسلمنا، وإمَّا كرهناهُ فرددنا».

وكان الحسين قال لِلعبَّاس:

ـ «ارجع إليهم، فإن استطعت أَن تُؤَخِّرَهم إلى غُدوةٍ وتدفعهم عنَّا العشيَّة، لَعلَّنا نُصَلِّي لِرَبِّنا ونستغفرهُ، ونُوصي إلى أَهلنا».

فجاءَهم رسولُ عُمر، فقام بحيث يسمعون الصَّوتَ، وقال:

ـ «قد أجَّلناكم إلى غدٍ، فإن استسلمتم سرَّحناكم إلى أميرنا، وإن أبيتُم، فلَسنا تاركيكُم».

فجمع الحسينُ أَصحابَه، وحمد اللّهَ، وأَثنى عليه، ودَعا دُعاءاً كثيراً، وقال:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنِّي لا أَعرفُ أهلَ بيتٍ أبرَّ، ولا أَوصَلَ من أَهلِ بيتي. فجزاكم اللّهُ عنِّي خيراً، وإنِّي لا أَظُنُّ يومَنا من هؤلاءِ إلاَّ غداً، وإنِّي قد أَذنتُ لكم، فانطلِقُوا جميعاً في حِلٍّ، ليس عليكم مِني ذِمامٌ. هذا اللَّيلُ قد غشيكم فاتخذوهُ جملاً، لِيأَخذْ كُلُّ رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أَهل بيتي، وتفرَّقُوا بسوادكم ومدائنكم، فإنَّ القومَ إنَّما يطلبونني، ولَو قد أَصابوني، لَهَوا عن طلب غيري».

فقال له إخوتُه:

ـ «لِمَ نفعلُ ذلك؟ لِنبقى بعدَك؟ لا أَرانا اللّهُ ذلك أَبداً، قبّح اللّهُ العيشَ بعدَك».

وتكلَّم أَهلُه كلُّهم مثل ذلك.

ثمَّ قام مسلم بنُ عَوسجة الأَسديُّ فقال:

ـ «نحن نُخلِّي عنك، ولم نُعْذرْ فيك! واللّهِ، لو لم يكن معي سلاحٌ، لقذفتُهم بالحجارةِ دونكَ حتَّى أَموتَ، ويعلم اللّهُ أَنَّا حفظنا غيبةَ رسول اللهِ ـ ﷺ ـ واللّه، لو علمتُ أَنِّي أُقتلُ، ثمَّ أُحيى، ثمَّ أُقتلُ، ثمَّ أحرقُ، ثمَّ يُذرى بي، يُفعل بي ذلك سبعين مرَّةً، ما فارقتُك. فكيف وإنَّما هي قتلةٌ واحدةٌ، ثمَّ هي الكرامة الَّتي لا انقضاءَ لها أَبداً».

ثمَّ قام زهير بن القين، فقال مثل ذلك، وتكلَّم جماعةُ أَصحابه بمثل ذلك، وأَشبهَ كلامُ بعضهم كلامَ بعضٍ، وكانوا اثنينِ وثلاثين رجلاً من الفُرسان وأَربعين راجلاً.

ثمَّ أَوصى الحسين، وقال لأُختِه:

ـ «يا أُخيَّةُ، أُقسم عليك، فَبَرِّي قَسَمي، لا تَشُقِّي عليَّ جيباً، ولا تَخمشي وجهاً، ولا تَدعي عليَّ بالويل والثُّبور إذا أَنَا هلكتُ».

فبكت، فارتفعت الأَصواتُ من جهة النِّساءِ، ولهنَّ الرِّقَّةُ والجزعُ.

وقالت أُخته:

ـ «بأَبي وأُمِّي أَبا عبد اللّه! استقتلتَ؟».

فردَّد غُصَّتَهُ، ثم قال:

ـ «لَو تُركَ القَطا لَنامَ». فقالت:

ـ «يا ويلتي! أفتُغصَبُ نفسُكَ اغتصاباً؟ فذلك أَروعُ لِقلبي، وأَعظم لِبلائي».

ثمَّ لطمت وجهَها مغشيًّا عليها، فصبَّ الحسين على وجهها الماءَ، وعزَّاها بكلامٍ طويلٍ.

وحرسهم باللَّيل أَصحاب عمر بن سعدٍ. فلمَّا أَصبحوا ـ وذلك يومَ الجمعة، وقيل: يومَ السَّبت، وكان يوم عاشورا ـ خرج الحسين، فعبَّى أَصحابَه، وأَمر بأَطناب البيوتِ، فقُرِنت حتّى دخل بعضُها في بعضٍ، وجعلوها وراءَ ظهورهم لتكون الحربُ من وجهٍ واحدٍ، وأَمر بِحطبٍ وقصَبٍ كانوا جمعوهُ وراءَ البُيوت، وكان من ورائهم موضعٌ منخفضٌ كأَنَّها ساقيةٌ، فأَمر، فحفروهُ من اللَّيل في ساعةٍ، وجعلوهُ كالخندق، وطُرح ذلك الحطبُ والقصبُ فيه، وأُلقِيَ فيه النَّارُ، وقال:

ـ «لا نُؤتى من ورائنا».

قال الشَّعبي: ففعلوا ذلك، وكان لهم نافعاً.

وأَمر الحسين بمسكٍ، فمِيثَ في جفنةٍ عظيمةٍ، واطَّلى، وركب دابَّته، ودَعا بمصحفٍ فوضعه أَمامَه، واقتتل أَصحابُه بين يديه قتالاً شديداً.

جاء الحُرُّ تائباً

فحرَّك الحُرُّ دابَّتَه، حتَّى استأمن إلى الحسين، وقال له:

ـ «بأَبي أَنتَ وأُمِّي، ما ظننتُ الأَمر ينتهي بهؤلاءِ القوم إلى ما أَرى، وظننتُ أَنَّهم سيقبلون منك إحدى الخصال الَّتي عرضتَها عليهم، فقلتُ في نفسي: لا أُبالي أَن أُطيعَ القَوم في بعض أُمورهم، وأَمَّا الآن فإنِّي جئتُ تائباً ومُواسياً لك بنفسي حتَّى أَموتَ بين يديك، أَترى لي ذلك توبةً؟» قال:

ـ «نعم. يتوب اللَّهُ عليك ويغفر لك. انزل!» قال:

ـ «أَنَا فارساً خيرٌ لك منِّي راجلاً، أُقاتلهم على فرسي ساعةً، وإلى النُّزول ما يصيرُ آخر أَمري».

ثمَّ بارز، فقتل واحداً بعد آخر.

فلم يزل يُبارز الواحد من أَصحاب الحسين، فيقتل عدَّةً من أَصحاب عمر بن سعدٍ.

فقام عَمرو بن الحجَّاج رافعاً صوتَه:

ـ «يا حمقى، أَتدرون مَن تقاتلون؟ تقاتلون فرسانَ المصرِ، وقوماً مُستميتين. واللَّهِ، لا يبرز لهم منكم أَحدٌ إلاَّ قُتل، لا تبرزوا لهم! فإنَّهم قليلٌ، وقلَّ ما يبقون، وقد جهدَهم العطشُ».

فقال عمرُ بن سعدٍ:

ـ «صدقتَ».

وأَرسل في النَّاس، فعزم عليهم أَن:

ـ «لا يبارِزْ منكم رجلٌ رجلاً منهم».

فأَخذت الخيلُ تحمل، وأَصحابُ الحسين تَثبتُ، وإِنَّما هم اثنان وثلاثون فارساً.

فقال عمر:

ـ «لِيتقدَّمِ الرُّماةُ إلى هذه العدَّة اليسيرة، فليرشُقوهم بالنَّبل».

فتقدَّموا، فلم يُلبِّثوهم أَن عقروا خيلَهم، فصاروا كلُّهم رجَّالةً. وقاتلوا قتالاً لم يُرَ أَعظمُ منه ولا أَشدُّ، إلاَّ أَنَّهم كانوا إذا صُرِعَ الواحدُ منهم أَو الاثنان تبيَّن ذلك عليهم، وإذا قتلوا أَضعافَ عدَّتهم من أُولئكَ لم يتبيَّنْ عليهم.

ووصل النَّاس إلى الحسين، وقاتل بين يديه كلُّ مَن استهدف لِلنَّبل، فُرمِيَ يميناً وشمالاً، حتَّى سقطوا، وجعل أَصحابه يستقتلون بين يديه، ويسلِّمون على الحسين، ويودِّعونه، ثمَّ يقاتلون حتَّى يُقتلوا.

فكان أَوّل مَن قُتل من بني أَبي طالبٍ عليُّ الأكبر بن الحسين بن عليٍّ، ثم عبد اللَّهِ بن مسلم بن عقيلٍ، ثمَّ محمَّد بن عبد اللَّهِ بن جعفر بن أَبي طالب، ثمَّ جعفر بن عقيل بن أبي طالبٍ.

قال: ثمَّ رأَينا غلاماً كان وجهه شقَّة قمرٍ، في يده سيفٌ، وعليه قميص ونعلان، وقد انقطع شِسعُ أَحدهما. فحمل عليه رجلٌ، فضربه بالسيفِ على رأسه، فوقع الغلام لوجهه، وصاح:

ـ «يا عمَّاه!».

فجلَّى الحسين كما يُجلِّي الصَّقرُ، ثمَّ شدَّ على الرَّجل بسيفه، فاتَّقاهُ فضرب ساعَده، فأَطنَّها من المرفق وتنحَّى عن الغلام، وانجلت الغبرةُ، فرأَيتُ الحسين قائماً على رأس الغلام، والغلامُ يفحص برجله الأَرضَ، والحسين يقول:

ـ «بُعداً لِقوم قتلوك، ومَن خَصمُهم جَدُّك».

ثمَّ قال:

ـ «عزَّ، واللَّه، على عمِّكَ أَن تدعوَهُ، فلا يُجيبك، أَو يجيبك، ثمَّ لا ينفعك».

ثمَّ احتمله، فكأنِّي أَنظر إلى رِجلَيِ الغلام يخطَّان في الأَرض، وقد وضع الحسينُ صدرَه على صدرِه.

قال: فقلتُ في نفسي: ما يصنع به؟ فجاءَ به حتَّى أَلقاهُ مع ابنه عليّ بن الحسين والقتلى حولَه من أَهل بيته، فسألتُ عن الغلام، فقيل لي: القاسمُ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ـ صلوات اللّهِ على جميعهم.

ومكث الحسين طويلاً من النّهار، وكلَّما انتهى إليه رجلٌ انصرف عنه وكره أن يتولّى قتلَه، حتَّى أَتاهُ مالك بن النُّسَير، فضربه على رأسِه بالسَّيف، فقطع بِرنسَ خَزٍّ كان عليه، وأدمى رَأسَه، فألقى ذلك البرنسَ، ودعا بقلنسوةٍ، فلبسَها واعتمَّ، وكان قد أَعيى وبلَّد، ولم يبق له قوّةٌ، وجَهدَهُ العطش. فدنا إلى الماءِ لِيشربَهُ، فرماهُ حُصين بن تميم بسهم، فوقع في فمه يتلقّى الدَّمَ مِن فيه، فيرمي به إلى السَّماءِ ثمّ حمد اللّه وأثنى عليه، ثمَّ جَمع يَدَهُ وقال:

ـ «أَللَّهمَّ أَحصِهم عدداً، واقتلهم بدَداً، ولا تذَرْ منهم أحداً».

ثمَّ أَقبل إليه شمر بن ذي الجوشن في نحوِ من عشرةٍ من رَجّالة أَهلِ الكوفة، وطلب منزل الحسين الَّذي فيه ثِقلُه. فمشى نحوَهم، فحالُوا بينه وبين رحله.

فقال الحسين:

ـ «ويلكم! إن لم يكنْ لكم دينٌ، فكونوا في دنياكم أَحراراً، امنعوا أَهلي مِن طَغامِكم وجُهَّالكم».

قال ابن ذي الجوشن:

ـ «ذلك لك».

وأَقدم عليه بالرَّجَّالة.

قال عبد اللّه بن عماد: فلقد رأَيتُه وهو يحمل على مَن في يمينه فيطردهم، وعلى مَن في شماله فيطردهم وعليه قميصُ خَزٍّ وهو مُعتَمٌّ، فواللّهِ، ما رأيتُ مكثوراً قُتل ولدُه وأهل بيته وأَصحابُه، أَربطَ جَأْشاً منه، ولا أَمضى جَناناً، ولا أَجرأَ مُقدَماً. واللّه، ما رأيتُ قبله ولا بعدَه مثلَه، إن كانت الرَّجالةُ لَتنكشفُ عن يمينه وشمالِه انكشاف المِعزى إذا شدَّ فيها الذِّئبُ. فكأَنّي بزينب أُختِه وهو على تلك الحال، قد خرجت وأَنا أَنظُرُ إلى قرطها يجول بين أُذنها وعاتقها وهي تقول:

ـ «ليتَ السَّماءُ انطبقت على الأَرض».

وكان قد دَنا عمرُ بن سعدٍ من الحسين، فقال:

ـ «يا بن سعدٍ أَيُقتلُ أَبو عبدِ اللّه وأَنت تنظُر إليه؟».

وكأَنّي أَنظر إلى دموع عُمر بن سعدٍ تسيلُ على خدَيهِ ولحيته، وصرف وجهَه عنها.

فنادى في النَّاس شمرٌ:

ـ «ويحكم! ما تنتظرون بالرَّجل؟ اقتلوهُ، ثكلتكم أُمَّهاتكم!».

فحُمل عليه من كلِّ جانب، وضُرب على كتفه وطُعن.

فقال شمرٌ لخَولي بن يزيد الأَصبحي:

ـ «إنزل، فاحتزَّ رأسَه».

فضعف وأُرعد.

فقال له سنان بن أَنسٍ وهو الَّذي طعنه:

ـ «فتَّ اللَّه عضدَيك!».

فنزل، فذبحه وأَخذ رأسَه.

سَلبُ الحسينِ وانتهابُ نسائه

وسُلب الحسين حتَّى سراويلُه، وتُرك مجرَّداً، ومال النَّاس على الإبل والمتاع، فانتهبوه وانتهبوا نساءَه، فإن كانت المرأَةُ لَتُنازع ثوبَها عن ظَهرها حتَّى تُغلب عليه، فيذهب به، حتّى جاءَ عمرُ بن سعدٍ، فقال:

ـ «لا يدخلنَّ بيتَ هؤلاءِ النِّسوة أَحدٌ، ولا يعرضنَّ لهذا الغلام المريض».

يعني عليَّ بن الحسين، وكان مريضاً.

وقُتل من أَصحاب الحسين عليه السَّلام اثنان وسبعون رجلاً، وسُرِّح برأسِه إلى ابن زيادٍ.

عند ابن زيادٍ

فحدَّث حميدُ بن مُسلمٍ، قال: كنتُ واقفاً عند ابن زيادٍ حين عُرض عليه عليُّ بن الحسين عليهما السَّلام، فقالَ:

ـ «ما اسمُك؟» قال:

ـ «عليُّ بن الحسين». قال:

ـ «أَولم يقتلِ اللَّهُ عليَّ بن الحسين؟».

فسكتَ.

فقال له ابن زيادٍ:

ـ «ما لَكَ لا تتكلَّم؟» قال:

ـ «قد كان لي أَخٌ يُقالُ له عليُّ بن الحسين أَيضاً، فقتله النَّاس». فقال:

ـ «قد قتله اللّه».

فسكتَ. .

فقال ابن زيادٍ:

ـ «ما لكَ لا تتكلّمُ؟» قال:

ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قال:

ـ «أنتَ واللّه منهم، ويحكم انظُروا هذا قد أدرك، واللّه إنّي لأحسبُهُ رجلاً».

فكشف عنه بعض أَصحاب ابن زيادٍ، فقال:

ـ «نعم، قد أدرك»، فقال:

ـ «اقتلْه».

فقال عليٌّ:

ـ «فوكِّل بهؤلاءِ النِّسوة مَن يكون مَحرماً لهنَّ يسير معهنَّ إن كنتَ مُسلماً».

فقال ابن زيادٍ:

ـ «دعوهُ، سِرْ أَنت معهنّ».

وبعث بهنَّ معه إلى الشّام.

ما قاله يزيد بعد تسلّم كُتُبِ البشارة

فيقال: إنَّ يزيد لمَّا وردت عليه كُتب البشارة، دمعت عينُه وقال:

ـ «كنتُ أَرضى من طاعتهم بدون قتل الحسين؛ لعن اللّه ابن سُميَّة، أَمَّا إنِّي لو كنتُ صاحبه لَعفوتُ عنه».

ولمَّا وُضعت الرُّؤُوس بين يَدَي يزيد، قال يزيد:

نُفلِّق هاماً من رجالٍ أَعزَّةٍ عَلَينا، وهم كانوا أَعقَّ وأَظلَما

ثمَّ جهَّز النِّساءَ وعليَّ بن الحسين، وضمَّ إليهم جيشاً حتَّى ردَّهم إلى المدينة.

ذكر حِيَلِ ابنِ الزُّبير

كان ابن الزُّبير يُظهر أَنّه عائذٌ بالبيت، ويُبايع النَّاسَ سِرًّا. وبلغ ذلك يزيد بن معاوية، فأَعطى اللّهَ عهداً: لَيُوثَقنَّ في سلسلةٍ. فبعث بسلسلةٍ من فضَّةٍ وعمرو بن العاص يومئذٍ عامل مكَّة، وكان شديداً عليه، ولكنَّه كان كثير المداراة رفيقاً. فلمَّا ورد البريدُ بالسِّلسلةِ رفق حتَّى ردَّهُ ردًّا جميلاً. وخطب النَّاسَ، وعابَ أَهلَ الكوفة خاصَّةً،

وأهلَ العراق عامَّةً بقتل الحسين، وبكى وقال:

ـ «لقدِ كان لأَبي عبد اللَّه ـ رضي اللَّهُ عنه ـ في ما جرى على أَبيه وأَخيه من هؤلاءِ القوم ناهٍ، ولكنَّه ما حُمَّ نازلٌ».

ثمَّ عظَّم ما جرى عليه واستفظعه، وقال في كلامه:

ـ «لقد قتلوهُ كثيراً صيامُه بالنَّهار، طويلاً صلاتُه باللَّيلِ، ما كان يُبدل بالقرآن غناءاً، ولا بالصيام شُربَ الخمر، ولا بالمجالس في حَلَق الذِّكر الرَّكضَ في طلب الصيَّد».

يُعرِّض بيزيد. فثار إليه أَصحابُه وقالوا له:

ـ «أَيُّها الرَّجلُ! أَظهِرْ بيعتَك، فلم يَبقَ بعد الحسين أَولى بهذا الأمر منك». فقال:

ـ «لا تعجلوا!».

وعلا أَمرُه بمكَّة، وكاتبه أَهلُ المدينة وقالوا:

ـ «أَمَّا إذا هلك الحسين فليس أحدٌ يُنازع ابنَ الزُّبير».

وبلغ ابنَ الزُّبير أَنَّ مروان تمثَّل لمَّا اجتاز به البريد ومعه سلسلةٌ من فضَّةٍ وجامعة يجعل فيها ابن الزُّبير:

فخُذها، فليستْ لِلعزيز بخُطَّةٍ ... وفيها مَقالٌ لامرىءٍ متذلِّل

أَعامِرُ إنَّ القوم سامُوك خُطَّةً ... وذلك في الجيران، غزلاً بمغزل

أراك إذا قد صرتَ لِلقوم ناصحاً ... يُقال له بالغرب: أدبِرْ وأَقبِل

وأَرسل مروانُ ابنيه وقال:

ـ «اذهبا فتعرَّضا لابن الزُّبير، ثمَّ تَمثَّلا بهذه الأَبيات إذا بلَّغته الرُّسل الرِّسالة».

ففعلا، فلمَّا تعرَّضا لِيُنشداهُ، بادر ابن الزُّبير وقال:

ـ «إي بني مروان، قد سمعتُ ما قال أَبوكما، فاذهبا، فأَنشِداهُ»:

إنِّي لَمِن نَبعةٍ صُمٌّ مَكاسِرُها ... إذا تناوَحَتِ القصباءُ والعُشَرُ

فلا أَلينُ لغير الحقِّ أَسألُهُ ... حتَّى يَلينَ لِضِرسِ الماضغِ الحَجَرُ

عزل عَمرو بن سعيد

ثمَّ إنَّ يزيد اتَّهم عَمرو بن سعيدٍ وظنَّ أَنَّه يقدر على أَخذ ابن الزُّبير وليس يفعل، فعزله، وولَّى الوليدَ بن عُقبة. وخرج عمرٌو حتَّى قدم على يزيد، فرحَّب به يزيد، وأَدنى مجلسَه، ثمَّ عاتبه في أَشياء كان يأْمر بها في ابن الزُّبير فلا يُنفذها. فقال:

«يا أَمير المؤمنين، الشَّاهد يَرى ما لا يرى الغائب، وإنَّ جُلَّ أَهل مكَّة قد كانوا مالوا إليه، وأَعطوهُ الرِّضا، ودعا بعضُهم بعضاً إليه سِرًّا وجَهراً، ولم يكن معي جندٌ

أَتقوَّى بهم عليه لو ناهضتُه، وقد كان يحذر منِّي ويتحرَّز، وكنت أَنَا أَرفق به وأُداريه لِئلاً يستوحش، فإذا استمكنتُ منه وثبتُ عليه، مع أَنِّي ضَيَّقتُ عليه، ومنعتُه من أَشياء لو تمكَّن منها كانت معونةً له، وجعلتُ على مكَّة وطُرقِها وشعابها رجالاً لا يَدَعون أَحداً يدخلها حتَّى يكتبوا لي اسمه، واسم أَبيه، وما جاءَ فيه، وما الَّذي يُريد. فمن كان من أَصحابه أَو ممَّن أَتَّهمه، رددتُه صاغراً، وقد بعثتَ الوليد، وسيأتيك من أَثره وعَملِه ما تعرف به مُبالَغتي في أمرك، ومناصحتي لك».

فعذَرهُ يزيد، وتلقَاهُ بجميلٍ، ولبث الوليد مدَّةً بمكَّة، ثمَّ عزله يزيد، وولَّى عثمان بن محمَّد بن أبي سفيان. فكان حَدَثاً، فلم يضبط الأَمرَ، ولا كان له رأيٌ.

وظهر في المدينة أَنَّ يزيد بن معاوية يشرب الخمر حتَّى يترك الصَّلاة، وصحَّ عندهم ذلك، وصحَّ غيرُه مِمَّا يُشبهُه، فجعلوا يجتمعون لِذلك حتَّى خلعوهُ، وبايعوا عبدَ اللَّه بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمَّد بن أَبي سفيان ومَن معه من بني أُميَّة ومَن يَرى رَأيَهم، فنفَوهم وكانوا أَلف رجلٍ. فخرجوا حتَّى نزلوا دارَ مروان بن الحكم، فحاصرهم النَّاس حصاراً ضعيفاً، فتولَّى تَدبيرَهم مروانُ، لأَنَّ عثمان بن محمَّدٍ كان غِرًّا لا يرُجع إلى رأيه.

وكتب مروان إلى يزيد كتاباً من جماعة بما جَرى عليهم ويطلبون الغوثَ منه. قال الرَّسول: فلمَّا وردتُ على يزيد، قال:

ـ «أَما تكون بنو أُميَّة ومواليهم أَلف رجلٍ بالمدينة؟» قلتُ:

ـ «بَلى». قال:

ـ «فما استطاعُوا أن يُقاتلوهم ساعةً من نَهارٍ؟» فقلتُ:

ـ «اجمع النَّاس كلُّهم عليهم، فلم تكن لهم بهم طاقةٌ».

فكتب إلى عبيد اللَّه بن زيادٍ أَن اغزُ ابن الزُّبير، فقال:

ـ «واللَّه لا أَجمعهما للفاسق أَبداً: أَقتل ابن رسول اللَّه وأَغزو البيتَ؟».

وندب مسلم بن عُقبة المرّي، وهو شيخٌ كبيرٌ مريضٌ، للمدينة، فخرج ونادى أن:

ـ «سيروا إلى الحجاز على أَخذ أَعطياتكم كَمَلاً، ومعونةِ مائة دينارٍ توضع في يد الرَّجل من ساعته».

فانتدب له اثنا عشر أَلف رجلٍ. ووصَّاهُ يزيدُ، إذا ظفر، أَن ينهب المدينة ثلاثة أَيَّام، وذلك في سنة ثلاثٍ وستِّين.

وكان معاويةُ وصَّى يزيدَ:

ـ «إذا أَرابك من أَهل المدينةِ ريبٌ، فارمِهم بمسلم بن عُقبة». ولمَّا بلغ أهلَ المدينة خبرِ مسلمٍ ومَن معه، أَخذوا على بني أُميَّة المحصورين في دار مروان العهودَ والمواثيق، ألاَّ يدلُّوا على عورةٍ لهم، ولا يبغونهم غائلةً. وأَخرجوهم، فلقوا مسلم بن عُقبة بوادي القُرى مع أثقالهم، فسأَل مسلمٌ عمرو بن عثمان بن عَفَّان عن القوم واستشارهُ، فقال:

ـ «عليَّ عهدٌ ألاّ أَدلَّ على عورةٍ».

فانتهرهُ مسلم وقال:

ـ «واللَّه، لولا أَنَّك ابن عثمان، لضربتُ عُنقَك، واللَّه، لا أُقيلها قُرشيًا بعدَك».

وبلغ ذلك النَّاسَ، فهابُوهُ.

وقال مروان لابنه عبد الملك:

ـ «ادخل قبلي إلى مسلمٍ لعلَّه يجتزي بك منِّي».

فدخل عليه عبد الملك، فقال:

ـ «هاتِ ما عندك، أَخبرني خَبرَ النَّاسِ، وكيف تَرى؟».

ذكر رأي عبد الملك وما ظهر من حزمه

قال:

ـ «نعم، أَرى أَن تسيرَ بمن معك، فتركبَ هذا الطريق إلى المدينة، حتَّى إذا انتهيت إلى أَدنى نخلٍ بها نزلتَ، فاستظلَّ النَّاس بظلِّه، وأَكلوا من صفوه، حتَّى إذا كان الليلُ، أَذكيتَ الحرسَ اللَّيلَ كُلَّه عُقباً بينَ أَهل عسكرك، حتَّى إذا أَصبحتَ وصلَّيت الصبحَ، مضيتَ بهم، وتركتَ المدينة ذاتَ اليسار، ثمَّ أَدرتَ بالمدينة، حتَّى تأتيَهم من قِبل الحرَّة مُشرِّقاً، ثمَّ تستقبل القوم، فإذا استقبلتم، أَشرقت الشَّمس عليهم، وطلعت من أَكتاف أَصحابك، فلا تُوذيهم، وتقع في وجوههم فتوذيهم، ويَرون ما دمتم مُشرِّقين ايتلاق بيضكم، وحرابِكم، وأَسنَّةَ رماحِكم وسيوفِكم ودروعكم وسواعدِكم، ما لا ترونه أَنتم لِشَيءٍ من سلاحهم ما داموا مغرِّبين، ثمَّ قاتِلْهم، واستعنِ اللَّهَ عليهم».

فقال له مسلمٌ:

ـ «للَّهِ أَبوك، أَيَّ امرئٍ ولد إذ وَلَدَك، لقد رأى بك خَلفاً».

ثمَّ إنَّ مروانَ لَقيَهُ، فقال له:

ـ «إيهٍ». فقال:

ـ «أَليس قد لقيك عبد الملك؟» قال:

ـ «بلى، وأَيُّ رجلٍ عبد الملك! قلَّ ما كلَّمتُ من رجال قريشٍ شبيهاً به».

وقعة الحرَّة وإباحة المدينة ثلاثاً

ثمَّ ارتحل، وعمل برأي عبد الملك، فكانت وقعة الحرَّة، وذلك في سنة ثلاثٍ وستِّين، وهي من أَعظم الوقائع وأَشدِّها. هزم فيها مسلم بن عُقبة مِراراً، وأهلُ المدينة مِراراً، وكثر القتلى في الفريقين، ولم يكن في اقتصاص الحديثِ بأَسرِه فائدةٌ، إلاَّ أَنَّ آخِرهُ كان قَتل عبد اللّه بن حنظلة الغسيل، وخَلقٍ من أَهل المدينة وصالحيهم، وانهزم الناس.

فأَباحَ مسلمٌ المدينة ثلاثاً يقتلون الناسَ ويأخذون الأَموال.

بايع أَهل المدينة ليزيد بن معاوية على أَنَّهم خَوَلٌ له

وجِيء بيزيد بن وهب بن ربيعة ـ وهو من وجوه قريشٍ ـ فقال له:

ـ «بايع!» فقال:

ـ «أُبايع على سنَّة أبي بكرٍ وعُمرَ». قال:

ـ «اقتلوهُ!» قال:

ـ «فإنّي أُبايع». قال:

ـ «لا واللّه! لا أُقيلُك عثرتَك».

فقام مروان بن الحكم وكلّمه، لصهرٍ كان بينهما، فأَمر بمروان، فوُجِئَتْ عُنقُه، ثمَّ قال:

ـ «بايعوا على أَنَّكم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية».

ثمَّ أَمر بقتل يزيد بن وهبٍ.

هذا، وبلغ أَهل مكَّة ما جرى على أَهلِ المدينة، وما ارتكب منهم. ففتَّ ذلك في أعضادهم، وجاءَهم منه أَمرٌ عظيم، وعرفوا أَنَّه نازلٌ بهم.

ذكر اتِّفاق حسنٍ اتَّفق لمسلم بن عُقبة في مسيره إلى أَهل المدينة وحيلةٍ لأَهل المدينة ما تمَّت

كان بعث أَهل المدينة إلى كلِّ ماءٍ بينهم وبين أَهل الشَّام، فصبُّوا فيه زِقًّا من قطران، وعُوِّر، فأَرسل اللّهُ عليهم السَّماءَ حتَّى لم يحتاجوا أَن يَستقُوا بدلو، حتَّى وردوا المدينة.

موت مُسلم بن عُقبة ورمي الكعبة وإحراقها وابن الزبير مُحاصَرٌ فيها

واستخلف مسلمٌ على المدينة رَوح بن زنباع متوجِّهاً إلى مكَّة، يُريد ابنَ الزُّبير.

فلمَا كان ببعض الطريق هلك، وذلك في آخر المحرَّم من سنة أَربعٍ وستِّين.

ولمَّا حضرهُ الموتُ، دعا الحُصين بن نُمَير السَلولي، وقال له:

ـ «يا برذعة الحمار، واللّه، لولا أَنَّ أَمير المؤمنين عهد إليَّ ـ إن حدث بي حدثٌ ـ أَن أَستخلفك لَما ولَّيتُك، ولكن انظر وصيَّتي، وإيَّاك والمخالفة! خُذْ عنِّي أَربعاً: أُسرعِ السيرَ، وعجِّلِ الوقائع، وعَمِّ الأَخبار، ولا تمكِّن قريشاً من اذنك».

ومات.

وخرج الحصين بن نمير إلى مكَّة، وقد بايع أَهلُ مكَّة ابن الزُّبير، وقدم عليه نجدة بن عامرٍ مع الخوارج يمنعون البيتَ، فحاصرهم الحصين، وأَخرج ابنُ الزُّبير إليهم أَخاه المنذرَ بن الزُّبير. فلمَّا اشتدَّ القتال، دَعوه إلى المبارزة، فخرج وقُتل، وقُتل معه عِدَّةٌ من وُجوه أَصحاب ابن الزُّبير، ولم يزل القتال دائماً بينهم طولَ صفر، ولمَّا مضت ثلاثة أَيَّام من شهر ربيع الأَوَّل، نصبوا المجانيق على البيت، ورَمَوهُ بالحجارة والنَّار، وأَخذوا يرتجزون ويقولون:

خطَّارةٌ مِثلَ الفنيقِ المُزبِدِ   نرمي بها أَعوادَ هذا المَسجِدِ

واحترقت الكعبة، وتصدَّع منها ثلاثةُ أَمكنة، واحترق ما كان فيها من خَشبٍ، وما عليها من كسوةٍ.

وقد قيل: إنَّما احترقت، لأَنَّ أَصحاب ابن الزُّبير كانوا يوقدون حولَها، فطارت إليها شَررُه ليلةَ ريحٍ، فاحترقت.

خلافة معاوية بن يزيد

ولم يزل الحِصار والقتال واقعاً على ابن الزُّبير ـ وهو يُصابر ـ إلى أن وَردَ نَعيُ يزيد بعد أربعةٍ وستِّين يوماً من الحصار، وذلك في جُمادى الأُولى سنة ثلاثٍ وستِّين، ويُقال: أَربع وستِّين، وكانت ولايتُه ثلاثَ سنين وكسراً، وبايع الناس مُعاوية بن يزيد بن معاوية بالشأم، وبايعوا عبد اللَّه بن الزبير بالحجاز.

ذكر سوءِ رأي ابن الزُّبير وضعف تدبيره، ومخالفته مَن أَشار عليه بالصواب حتَّى فاتته الخلافة

مكث أَهل الشام مع الحصين بن نُمير يقاتلون ابن الزُّبير، وليس عندهم خَبرٌ وقد ضيَّقوا على ابن الزبير، فبلغ ابن الزبير موتُ يزيد، فصاحَ:

«إنَّ طاغيتكم قد هلك، فمن شاءَ منكم أَن يدخُلَ في ما دخل فيه الناسُ، فليفعلْ، ومَن كره، فليلحقْ بالشام».

فلم يسمع النَّاس منه.

فدعا ابن الزبير الحصين بن نُمير، وقال:

ـ «ادنُ منِّي!».

فخرج أَحدهما إلى الآخر، فطاوله الحديث، إلى أَن دُعي الَّذي أَخبر ابن الزُّبير بالخبر، وكان دَيِّناً فاضلاً، وبينه وبين الحصين صهرٌ، فلمَّا سمع الحصين كلامَه، عرف صحَّة الخبر، فقال لابن الزّبير:

ـ «إن يكُ هذا الرَّجل هلك، فأَنت أَحقُّ مَن أَرى بهذا الأَمر، هلمَّ فلنُبايعْك، على أَن تخرج معي إلى الشَّام، فإنَّ هذا الجند الَّذي معي، هم وجوه الناس، وفرسانهم، فواللَّه، لا يختلف عليك اثنان، وتُؤمن النَّاس، وتهدر هذه الدماءَ الَّتي كانت بيننا وبينك، والَّتي كانت بيننا وبين أَهل الحَرَّة».

فأَبى ابن الزُّبير أَن يخرج إلى الشَّام، وكان ذلك من جدِّ مروان وإقباله، وإدبار ابن الزُّبير.

وكان من ردِّ ابن الزُّبير على الحصين أَن قال:

ـ «أَنا أَهدر تلك الدماءَ، حتَّى أَقتل بكلِّ رجلٍ عشرةً».

فأَخذ الحصين يُكلِّمه سرًّا، وهو يُجيبه جهراً.

فقال الحصينُ بن نُمير:

ـ «قبح اللَّه من يعدُّك بعد هذا داهياً، أَو أَريباً. قد كنت أُظنُّ أَنَّ لك رأياً، أَلا، أَراني أُكلِّمك سرًّا وتُكلِّمني جهراً، وأَدعوك إلى الخلافة، وتوعدني بالقتل، وأَبذلُ لك طاعةً في مَن معي، وتهدِّدهم بالهلاك».

ثمَّ خرج من عنده، وصاح في الناس بالرَّحيل، وخرج إلى المدينة. وقدم ابن الزبير، فأَرسل إليه:

ـ «أمّا خروجي إلى الشَّام، فلا يمكن، فإنِّي أَتبرَّكُ بالبيت، ولكن بايعوا لي هناك، فإنِّي بعد ذلك أَو مِنكُم، وأَقدَم عليكم».

فردَّ عليه الحصين، وقال:

ـ «إن أَنت لم تقدَم بنفسك، وجدنا مَن نُبايعُه هناك».

وأقبل بأَصحابه نحو المدينة. فاستقبله عليُّ بن الحسين بن عليٍّ، عليهم السلام، فسلَّم عليه، ولم يكد يلتفت إليه أَحدٌ، واجترأَ أَهل المدينة وأَهل الحجاز على أَهل الشَّام، وذَلُّوا حتَّى كان لا ينفرد منهم رجلٌ إلاَّ أَخذ بلجام دابَّته، ونكّس عنها. فكانوا يجتمعون في عسكرهم، ولا يتفرَّقون.

فاجتمعت إليهم بنو أُميَّة، وقالوا:

ـ «لا نبرح حتَّى تحملونا».

ففعلوا. فخرج بنو أُميَّة بنسائهم وعيالاتهم، ومضى ذلك الجيش، حتَّى دخل الشام.

ولم يلبث معاوية بن يزيد إلاَّ ثلاثة أَشهر، حتَّى مات ويقال: بل مكث أَربعين يوماً، وكان أَقرَّ عُمَّالَ أَبيه.

خطبة ابن زياد بالبصرة بعد انتهاءِ موت يزيد بن معاوية إليها

وبلغ موت يزيد بن معاوية عبيدَ اللَّه بن زيادٍ بالبصرة، فصعد المنبر، وخطب النَّاس، وقال:

ـ «يا أَهل البصرة! قد علمتم قيامي بأَمركم، وجبايتي الأَموالَ، وتفرقتها، وانسبوني، فواللَّه، تجدوني مهاجراً إليكم، ووالدي ومولدي فيكم وداري. ولقد وليتكم، وما أُحصيَ ديوان مقاتلتكم إلاَّ سبعين أَلفاً، ولقد أُحصي اليوم ثمانين أَلفاً، وما كان ديوان عيالكم إلاَّ سبعين أَلفاً، وقد أُحصي اليوم مائة أَلفٍ وأَربعين أَلفاً، وما تركتُ

لكم ذا ظِنَّةٍ أَخافُه عليكم، إلاّ وهو في سجنكم. وقد توفِّي أمير المؤمنين يزيدُ، واختلف أَهل الشّام، وأَنتم اليوم أَكثر الناس عدداً، وأُوسعهم بلاداً. فاختاروا رجلاً ترضَونه وتجتمعون عليه، إلى أن يجتمع أَهل الشّام، فإن اختاروا مَن ترضونه دخلتم في ما دخلوا فيه، وإن كرهتم ذلك، كنتم على جديلتكم، فما بكم إلى أحدٍ من أَهل البلدان حاجةٌ، وما يستغني النّاس عنكم».

ذكر طمع عُبيد اللّهِ في الخِلافة وما احتال فيه

وكان عبيد اللّه قد أَنفذ باللّيل إلى شقيق بن ثور، ومالك بن مسمع وحُصين بن المنذر، وفرَّق فيهم مالاً كثيراً. فلمّا خطبهم هذه الخطبة، قام هؤلاءِ، وهم رؤساء النّاس، فقالوا:

ـ «ما لَنا غيرك، ولا نعرف أَحداً هو أَقوى على هذا الأَمر منك».

وبايعه هؤلاءِ، وبايعه النّاس. فجعل الرَّجل إذا خرج من عنده، مسح يَدَهُ على الحائط ويقول:

ـ «أَظنَّ ابن مرجانة أَنّا نُولّيه أَمرنا في الفُرقة، كما تولاّه إلى اليوم؟»».

فلم تمضِ بعبيد اللّه أَيّامٌ حتّى جعل سلطانُه يضعف. فكان يأمر بالأَمر، فلا يُمتثلُ، ويرتأي الرَّأيَ، فلا يُقبل ويُردُّ عليه، ويأمر بحبس الظّنين، فيُحال بين أَعوانه وبينه. فبينا هو كذلك، إذ ظهر رجلٌ بالبصرة، يدعو إلى ابن الزُّبير، وكثر الناس معه. فبلغ ذلك عبيدَ اللّه، وأَراد أَخذه، فامتنع عليه، وكثُف جمعُه، وقعد الناس عن عبيد اللّه، وقال في خُطبته:

ـ «يا أَهل البصرة، قد عرفتم بيعتي في أَعناقكم، وحرصي على ضبط أُموركم، وقد تقاعد عنّي من يُريد فُرقتكم، وأَن يضرب بعضكم وجوه بعضٍ آخر بالسَّيف. وواللّه يا أَهلِ البصرة، لقد لبسنا الخزَّ واليُمنةَ واللَّيِّن من الثّياب، حتّى لَقد أَجمتهُ جلودُنا، فما نُبالي أَن نلبس الحديدَ أَيّاماً».

فما لبث أَن رُمي بجماع النّاس، فقال لهم:

ـ «أَيُّها الناس، إنَّ هذا المال فيكم، فخذوا أَعطياتكم، وأَرزاق ذراريّكم».

وأَمر الكُتّابَ بتحصيل النّاس، وتخريج الأَسماءِ، واستعجلهم حتّى وكَّلَ بهم مَن يحبسهم في ديوانٍ، وأَسرج لهم الشُّموعَ، فكانوا يأخذون المالَ، ويتقاعدون عنه، فكفَّ عن إخراج المال، وكان في بيت مال البصرة يومئذٍ أَلف أَلف درهم، فنقل ما بقي منها إلى مَن أَودعَها عنده.

ودعا عُبيدُ اللَّه محاربة السلطان وأَرادهم على القتال. فقال له أَخوه عبد اللَّه بن زيادٍ: .

ـ «قد علمتَ أَنَّ الحرب دِوَلٌ، فلعلَّها تدول عليك، وقد اتَّخذنا أَموالاً بين أَظهر هؤلاءِ القوم، فإن ظفروا بك أَهلكونا، ثمَّ أهلكوها، فلم تبقَ لك باقيةٌ».

وقال له:

ـ «واللَّه لئن قاتلتَ القوم لأَعتمدنَّ على ظُبة سيفي حتَّى يخرُج من صُلبي».

فلمَّا رأَى عبيدُ اللَّه ذلك، همَّ بالهرب، فاحتال باللَّيل حتَّى فرَّ مستخفياً إلى مسعود بن عمرٍو، وكان سيِّد الأَزد، حتَّى حصل في داره.

ذكر حيلته في ذلك

وجَّه عُبيد اللَّه إلى الحارث بن قيس الأَزدي، وذكَّره بيدٍ له عنده، وسأَلهُ أَن يحمله إلى منزله، ويكتم أَمرَه، حتَّى يجتمع النَّاس.

فقال له الحارث:

ـ «إنَّ مسعود بن عَمرٍو سيِّد الأَزد، وإن طَلبك عندي لم أَقدرْ على الامتناع منه، ولكن سأَحتال لك من قِبل امرأَته، فإنَّها بِنت عَمِّه».

فقال له ابن زيادٍ:

ـ «فخُذ معك مالاً تُطمِعها فيه». قال:

ـ «هاتِ».

فحمل معه مائة أَلف درهم، فخرج بها الحارث حتَّى أَتى بها امرأَة مسعودٍ، ومعه عُبيد اللَّه، وعبدُ اللَّه ابنا زيادٍ، فاستأذن عليها، فأَذنت له، ودخل.

ثمّ قال لها الحارث:

ـ «قد أَتيتكِ بأَمرٍ تسودين به نِساءَك، وتُظهرين به فضلَ قومِك، وتتعجَّلين الغِنى في دنياكِ، هذه مائة ألف دينارٍ، خُذيها وضُمّي عُبيدَ اللَّه». فقالت:

ـ «أَخاف أَلاَّ يرضى مسعودٌ».

فقال الحارث:

ـ «أَلبِسيه ثوباً من ثيابه، وأَدخليه بيتَكِ، وخلِّي بيننا وبين مسعودٍ».

فقبضت المال، وفعلت، ودخل الحارث على مسعودٍ، وأَخذ يحدِّثه بحديث عُبيد اللَّه، فقال:

ـ «إنَّه كان يتعوَّد من طارق الشَّرِّ، وإنَّك من طوارق الشَّرِّ».

وقام حتَّى دخل على ابنة عمِّه، وأَخذ برأسها لِيضربها، فخرج عبيد اللَّه، وقال:

ـ «واللَّه لقد أَجارتني ابنة عمِّك عليك، وهذا ثوبك عليَّ، وطعامُك في مذاخري، وقد التفَّ عليَّ بيتك».

وشهد له الحارث. ولم يزالا به حتَّى سكن ورضيَ.

ثمَّ ركب مسعودٌ من ليلته، ومعه الحارث، وجماعةٌ من قومه، فطاف في الأَزد ومجالسهم، وقال:

ـ «إنَّ ابن زيادٍ قد فُقد، ولا نأمن اضطرابَ النَّاس، وأَن يلطِّخوكم به».

فقد كان أَبوه زيادٌ استجار بهم ومنعوه، فأَصبحوا في السِّلاح، فلمَّا أَصبح النَّاس، وفقدوا ابن زياد، قالوا:

ـ «أَينَ توجَّه؟».

فقالت عجوزٌ من بني عقيلٍ:

ـ «أين تَرونَه توجَّه؟ اندحس، واللَّه، في أَجمة أَبيه».

فقال النَّاس:

ـ «صدقتِ. ما هو إلاَّ في الأَزد».

ثمَّ اجتمع النَّاس على عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطَّلب، وهو الَّذي يلقَّب بَبَّة، على أَن يقعد لهم، حتَّى يجتمع أَمر النَّاس، فتولَّى الأَمرَ.

واضطرب النَّاس بالبصرة، ووقعت الفتنة بين الأَزد وتميم، وتأَدَّى إلى الحرب، فبعث مسعود مع ابن زيادٍ مائة من الأَزد حتَّى خرجوا به إلى الشامَ.

ذكر ما حُفظ على ابن زيادٍ في طريقه من الآراءِ

قال عبيد اللَّه ذات ليلةٍ:

ـ «إنَّه قد ثقل عليَّ ركوب الإبل، فوطِّئوا لي على ذي حافرٍ».

قال: فأُلقيتُ له قطيفةٌ على حمارٍ، فركبه، وإنَّ رجليه لَتكادان تخُدَّان في الأَرض.

قال بشَّار بن شريح اليشكري: فإنَّه يسير ويحدِّثني، إذ سكت سكتةً طويلةً، فقلتُ: واللَّه ما سكت إلاَّ لِشيءٍ في نفسه. فدنَوتُ منه، فقلتُ:

ـ «أَنائمٌ أَنتَ؟» قال:

ـ «لا». قلتُ:

ـ «فما أَسكتكَ؟» قال:

ـ «كنتُ أَحدِّث نفسي».

قال، قلتُ:

ـ «أَفلا أَحدِّثكَ ما كنتَ تحدِّثُ به نفسَك؟» قال:

ـ «هاتِ، فواللَّه ما أَراكَ تصيبُ، ولا تكيس». قلتُ:

ـ «تقول: ليتني لم أكن قتلتُ حسيناً». قال:

ـ «وماذا؟» قلتُ:

ـ «تقول: ليتني لم أَكن قَتلتُ مَن قَتلتُ». قال:

ـ «وماذا؟» قلتُ:

ـ «تقول: ليتني لم أَكن بنيتُ البيضاءَ». قال:

ـ «وماذا؟» قلتُ:

ـ «تقول: ليتني لم أكن استعملتُ الدَّهاقين على العرب». قال:

ـ «وماذا؟» قلتُ:

ـ «تقول: ليتني كنتُ أَسخى ممَّا كنتُ».

فقال لي:

ـ «واللَّه، ما نطقتَ بصوابٍ، ولا سكتَّ عن خطأ:».

أَمَّا الحسين، فإنَّه سار إليَّ يُريدُ قتلي، فاخترتُ أَن أَقتله على أن يقتلني، وأَمَّا البيضاء، فإنِّي اشتريتُها من عبد اللَّه بن عثمان الثَّقفي، فأَرسل يزيد بأَلف أَلف ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم، فأَنفقتُها عليها، فإن بقيتُ فلأَهلي، وإن هلكت لم آسَ على ما لم أغرم عليه.

وأَمَّا استعمال الدَّهاقين، فإنَّ ابن أَبي بكرة وزاذا نفرُّوخ رفعا عليَّ عند معاوية، حتَّى ذكرا قشورَ الأَرزِّ، وبلَّغا خراجَ العراق مائةَ ألف أَلف ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ يضمنانها، فخيَّرني معاويةُ بين الضّمان والعزل، فكرهتُ العزلَ، فكنتُ إذا استعملتُ العربَ كسروا الخراجَ، وإن أَقدمتُ على الرَّجل منهم أَوغرتُ صدورَ عشيرته، وإن أَغرمت قومَه أَضررتُ بهم، وإن تركتُه ضاعَ لي حقٌّ وأَنَا أَعرف مكانَه، فوجدتُ الدَّهاقين أعرف

بالجباية، وأَوفى بالأَمانة، وأَهونُ على المطالبة منكم، مع أَنّي قد جعلتُكم أُمناءَ عليهم.

وأَمّا قولك في السَّخاءِ، فما كان لي مالٌ أجودُ به عليكم، ولو شئتُ لأَخذتُ بعض مالِكم، فخصصتُ به بعضَكم دونَ بعضٍ، فتقولون: ما أَسخاه! ولكن عممتُكم به، وكان عندي أَنفع لكم.

ولكنّي سأُخبرك بما حدَّثتُ به نفسي:

قلتُ: ليتني قاتلتُ أَهلَ البصرة، فإنَّهم بايعوني طائعين، وأَيمُ اللَّه، إنّي حرصتُ على ذلك، ولكن إخوتي أَتوني، وقالوا: إن قاتلتَهم، وظهروا عليك، لم يُبقُّوا منّا أَحداً، وإن تركتهم تغيَّب الرَّجل مِنّا عند أَخواله وأَصهاره. فرقَّ لهم قلبي. وكنتُ أقول: ليتني أَخرجتُ أَهل السِّجن، فضربتُ أَعناقَهم. وأَمّا إذ فاتتني هاتان الخصلتان، فليتني أَقدَم الشامَ ولم يُبرموا أَمراً.

خلافة مروان بن الحكم

كان لا يُريد الخِلافة ولكن ابن زيادٍ أَطمعه فيها

وقدم عبيد اللَّه بن زيادٍ الشَّامَ، وكان قدمها الحُصين بن نُمير ومَن معه، وهمَّ مروان بن الحكم أَن يسير إلى ابن الزبير فيبايعه، واجتمع النّاس على ذلك. فذهب عبيد اللَّه حتَّى لقي مروانَ، وقال:

- «استحييتُ لك ممَّا تُريد، أنت كبير قريشٍ وسيِّدها تَصنع ما تَصنع؟».

فقال:

- «ما فات شيءٌ بعدُ».

واجتمع إليه بنو أُميَّة ومواليهم، وتجمَّع إليه أَهلُ اليمن، وهو يقول:

- «ما فات شيءٌ بعدُ».

كالمعتذر إليه.

المروانيُّون والزُّبيريُّون واحتجاجاتهم

وكان الضَّحَّاك بن قيسٍ بدمشق لمَّا قدم عبيدُ اللَّه بن زيادٍ، وكان يَهوى هَوى ابن الزُّبير، والنُّعمانُ بن بشيرٍ بِحِمص يُبايع لابِن الزُّبير، وزُفر بن الحارث بقنَّسرين يبايع لابن الزُّبير.

وكان حسّان بن مالك بن بحدل الكلبي يرى الأَمر لبني أُميَّة، ويَهوى هواهم، لأَنَّه كان خالَ خالد بن يزيد بن معاوية، فهو يحبُّ أَن يبايعِ له، وكان بالأردن، فجمع النَّاس وخطبهم، وقال:

- «أَيُّها الناس، ما شهادتكم على ابن الزُّبير، وعلى قتلى أَهل الحَرَّةِ؟» قالوا:
- «نشهد أَنَّ ابن الزُّبير منافقٌ، وأَنَّ قتلى أَهلِ الحرَّة في النَّار». قال:
- «فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرَّة؟» قالوا:
- «نشهد أَنَّ يزيد مؤمنٌ، وأَنَّ قتلانا في الجنَّة». قال:
- «وأَنا أَشهدُ - لئن كان دين يزيد بن معاوية حقًّا يومئذٍ - إنَّه اليوم وشيعتَه على حقٍّ، وإن كان ابن الزُّبير يومئذٍ وشيعته على باطلٍ، إنَّه اليوم وشيعته على باطلٍ». قالوا:

ـ «صدقتَ، نحن نبايعك ونقاتل معك مَن خالفَك على أن تُجنِّبَنا عبدَ اللّه وخالداً ابنَي يزيد، فإنّهما غلامان، ونكرهُ أن يأتيَنا النّاسُ بشيخٍ ونأتيَهم بصبيٍّ».

فكتب حسّان بن مالكٍ إلى الضَّحّاك بن قيس:

ـ «إنّك تُبايع ابنَ الزُّبير، وقد عرفتَ حقوق بني أُميّة عليك».

وعظم عليه الفرقة، ودعاهُ إلى الجماعة. وكتب جماعة بني أُمية بمثل ذلك. فأَبى الضَّحّاك بن قيسٍ، ومَن يَرى رأيَهُ.

واجتمعت بنو أُميّة ومَن يَرى رَأيَهم، فبايعوا مَروان لسنّه، وذلك في المحرَّم سنة خمسٍ وستّين.

وكان مروانُ لا يحدِّث نفسَه بذلك، ولا يحلم به، حتّى قدِمَ عليه عُبيد اللّه بن زيادٍ من البصرةِ، فأَطمعه، واتّفق ما حكيناهُ من أَمر حسّان، وجوابِ أَهل الشّام له.

وكان الحصينُ بن نُمير لقي مروان، فشرط عليه شروطاً أَجابه مروانُ إليها، فكان يهوى هواهُ. فلقي مالك بن هُبيرة الحُصين بن المنذر، وقال له:

ـ «هلمَّ نُبايع هذا الغلام الّذي نحن ولدنا أَباه وهو ابن أُختنا، فقد عرفتَ منزلتنا كانت من أَبيه وهو غداً يحملنا على رقاب العرب».

يعني خالد بن يزيد.

فقال حُصين:

ـ «لا، لَعَمري ما تأتينا العرب بشيخٍ فنأتيهم بصبيٍّ».

فقال مالكٌ:

ـ «هذا، ولمّا نَردْ تهامةَ، ولمّا يبلغ الحزام الطُّبيين».

فقال الحصين:

ـ «مهلاً يا أبا سليمان!».

فقال له مالكٌ:

ـ «اسمع كلامي، واللّه لئن استخلفت مروانَ وآل مروان، ليحسدنَّك على سوطك، وشراك نعلك، وظلِّ شجرةٍ تستظلُّ بها. إنَّ مروان أَبو عشرةٍ، وأَخو عشرةٍ، وعمُّ عشرةٍ، فإن بايعتموهُ كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أُختكم خالدٍ».

فأَبى النّاس إلاّ شيخاً، فاجتمعوا على مروان، وقالوا:

ـ «مروان خليفتُنا، على أَن يكونَ الأمر بعده لخالد بن يزيد».

فلمّا اجتمع رأي النّاس رضي حسّان بن بَحْدَل أَيضاً، وتمَّ الأَمر لمروان، وسار

إلى الضَّحَّاك، والتقيا بمرج راهط، فاقتتلا قتالاً عظيماً، وقُتل من أَهل الشَّام مقتلةً عظيمةً لم يُقتلوا مثلَها قطُّ، وقُتل الضَّحَّاكُ.

وخرج نعمان بن بشير، لمّا بلغه مقتل الضَّحَّاك، هارباً من حمص ليلاً، ومعه امرأَتُه وثقلُه، فتحيَّر ليلتَه كلَّها، وطلبه قومٌ، فظُفر به، وحُزَّ رأسُه، وجيءَ به إلى مروان.

وأَطبق أَهل الشَّام على مروان واستوسقوا له، فجاءَ إلى مصر، وعليها عبد الرَّحمن بن جَحدر القرشيُّ، يدعو إلى ابن الزُّبير، فقاتله فقتله، وآمن النَّاسَ، وبايعه أَهلُها، فرجع إلى دِمَشق.

أَسماءُ كتَّاب يزيد ووزرائه

كتب ليزيد عبيدُ اللَّه بن أَوس الغَسَّاني كاتب معاوية. وكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور، وهو الَّذي أَشار عليه، لما بلغه مسير الحسين إلى الكوفة بأَن يولِّيَ عبيدَ اللَّه بن زياد، وقد مرَّ ذكره، وكتب إليه عن يزيد:

- «أَمّا بعدُ، فإنَّ المحبوب مسبوبٌ يوماً ما، والمسبوبَ محبوبٌ يوماً ما، وقد انتميتَ إلى منصب كما قال الأَوَّل:

رُفِعْتَ فجاوَزْتَ السَّحابَ وفَوقَهُ ... فَما لَكَ إلاَّ مَرقَبِ الشَّمسِ مرقَبٌ

وقد ابتُلي بالحسين زمانُك بين الأَزمان، وبلدُك بين البُلدان. وبُليتَ به من بين العُمَّال، فإمَّا أَن تُعتَقَ، أَو تعود عبداً، والسَّلام».

وقلَّد سلمة بن حريد الأَزدي من كتاب فلسطين الخراجَ بمصر، وكان يكتب لعبد اللَّه بن الزُّبير، ويقوم بجميع أُموره، إلى أن قُتل. واجتمع النَّاسُ على عبد الملك بن مروان، وفيهم عبدُ اللَّه بن صفوان بن أُميّة بن خَلف.

وأَمّا عبيدُ اللَّه بن زياد، فكتب له مهران الترجمان، وقام بأَمره كُلِّه، ولم يزل معه إلى أَن مات يزيد، فأَخرجه أَهلُ البصرة من بلادهم.

وقلَّد يزيد بن معاوية سلمَ بن زيادٍ خراسانَ، وكان يكتب له اصطفانوسُ، فأقام بها، إلى أَن ظهر ابن الزُّبير، وتُوفِّي يزيد. فاستخلف سلمٌ على خراسان عبدَ اللَّه بن حازم، وانصرف في سنة أربعٍ وستِّين، وتباطأَ في مسيره ليعلم على ما تستقرُّ الأُمورُ، فوردَ البصرةَ في سنة خمسٍ وستِّين.

فدعا سلمٌ يوماً بإصطفانوس، وسلَّم اثني عشر ألف ألف ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وقال له:

- «احتفظ به، فما فيه قيمة درهمٍ ظُلم فيه مُسلمٌ ولا مُعاهَدٌ».

فقال اصطفانوس بالفارسيّة:

ـ «فمن أين هذا كلُّه!».

فقال:

ـ «من هدايا العُمَّال وأهلِ الكُوَر والدَّهاقين».

وكان أهلُ خراسان أحبُّوا سَلماً محبَّةً ما أَحبُّوها والياً قطُّ، وسُمِّي باسمِه أيَّامَ ولايته، أكثرُ من عشرين ألف مولودٍ، ثمَّ ثاروا به حين بلغهم موتُ يزيد حتَّى استخلف عليهم، وخرج، وهلك مروان بن الحكم بعد تسعة أشهرٍ من ولايته، وجعل وليَّ عهدِه ابنَه عبدَ الملك، وبعدَه سليمان، وكان سبب هلاكه أَنَّ النَّاس أشاروا عليه أن يتزوَّج أُمَّ خالد بن يزيد لِيغضَّ منه، لأَنَّ النَّاس كانوا يتشوَّفونه، وينتظرون بلوغَه.

ذكر حيلة مروان بن الحكم الَّتي عادت بهلاكه

فتزوَّج مروان أُمَّ خالدٍ، فدخل يوماً على مروان وعنده جماعةٌ كثيرةٌ، فمشى بين الصَّفَّين، فالتفت مروان إلى مَن حولَه، فقال:

ـ «إنَّه ما علمتُ لأَحمق، تعالَ يا بنَ الرَّطبةِ الإست».

يُقصِّرُ به لِيُسقطَهُ من عين النَّاس.

فرجع إلى أُمِّه، وبكى بين يديها، وقال:

ـ «خاطبني بحضرة النَّاس بكذا».

فقالت له أُمُّه:

ـ «لا تُعرِّفنَّ أَحداً، ولا يَعرِفنَّ هو منك، واسكتْ فإنِّي أَكفيكَهُ».

فدخل عليها مروان، وقال لها:

ـ «هل قال لك خالدٌ فيَّ شيئاً؟».

فأَنكرته، وبسطتْ له وجهَها، وقالت:

ـ «وأَيُّ شيءٍ يقول خالدٌ فيك؟».

ثمَّ مكثت أيَّاماً حتَّى أَنس مروان، فنام عندها، فغطَّته بوسادةٍ وأَمسكته عليه حتَّى مات.

أيام عبد الملك بن مروان

وكان مروان قبل هلاكه بعث بعثين: أَحدهما إِلى المدينة، عليهم حبيش بن دلجة، والآخر إِلى العراق، عليهم عبيد اللّٰه بن زيادٍ.

فأَمَّا عبيدُ اللّٰه، فسار حتَّى نزل الجزيرة، وأَتاه الخبر بها بموت مروان، وخرج إليه الشِّيعة من الكوفة، وهم الَّذين تسمَّوا بالتَّوَّابين، يطلبون بدم الحسين بن عليٍّ، وسنذكر من أَخبار التوَّابين وأَخبار أَهل المدينة، ما يليق ذكره بهذا الكتاب.

خبر التَّوَّابين

فأَمَّا خبر التَّوابين، فإِنَّه لمَّا قُتل الحسين بن عليٍّ، عليهما السلام اجتمعت الشِّيعة بالكوفة، ولامَ بعضُها بعضاً، ورَأَوا أَنَّهم جَنَوا جنايةً عظيمةً باستدعائهم الحسين إِلى الكوفة، ثمَّ تقاعدِهم عنه، إِلى أَن جرىٰ عليه ما جرىٰ، وأَنَّه لا يغسل عنهم هذا العارَ، ولا يمحو عنهم هذا الإِثم، إلاَّ الخروج والتَّوبة إلى اللّٰه، والطلب بدمه، إِلى أَن يَقتلُوا قاتليه أو يُقتلوا قبلَ ذلك.

فاجتمع الكلُّ إلى خمسةٍ من الرُّؤساءِ، وهم: سليمان بن صُرد، والمسيَّب بن نَجَبة، وعبد اللّٰه بن سعد بن نُفيل الأَزدي، وعبد اللّٰه بن والٍ التَّيميّ، ورفاعة بن شدّاد البجليّ.

ثمَّ اجتمع هؤُلاءِ الخمسة على سليمان بن صُرد، وكانت له صحبةُ من النَّبيِّ ﷺ، فرأَسوه، وقالوا:

ـ «لا بدَّ من رئيسٍ واحدٍ تكون له راية يُحَفُّ بها، ورأيٌ يُصدَر عنه».

فرضُوا بسليمان بن صُرد، وخطبهم سليمان خطبةً طويلةً، قال في آخرها:

ـ «كونوا كتوَّابي بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيُّهم: إِنَّكم ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكم باتِّخاذِكُمْ العِجْلَ، فتُوبُوا إِلىٰ بارئكم، فاقتُلُوا أَنفسَكم، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ عندَ بارئُكم. وإِنِّي أَرىٰ أَنَّ اللّٰه قد سخط عليكم ممَّا أَتيتمُوه في أَمر ابن نبيِّكم، فلا يُرضيه شيءٌ أَو تُبيروا قَتلَة الحسين، فلا تَهابُوا الموتَ، فواللّٰه ما هابه أَحدٌ إلاَّ ذَلَّ».

وتكلَّم كلاماً كثيراً يُشبه هذا.

فقال خالد بن سعد:

ـ «أَمَّا أنا، فواللَّه، لَو أَعلم أَنَّ قَتلِي نفسي يُخرجني من ذنبي، ويُرضي عنّي ربّي، لَقتلتُها، ولكن هذا الَّذي ذكرتَه من قتل الأَنفس إنَّما أُمِرَ به قومٌ، فأَشهد اللَّه ومَن حضرَ، أَنَّ كل مالٍ أَملكُه، سوىٰ سلاحي الَّذي أُقاتل به، صدقةٌ على المسلمين، أُقوّيهم به على قِتال القاسطين».

وقام جماعةٌ، فتكلَّموا بمثل ذلك.

فقال سليمان:

ـ «حسبُكم، مَن أَراد من هذا شيئاً، فليأتِ بمالِه عبدَ اللَّه بن والٍ التَّيمي، فإذا اجتمع عنده ما يكفي جهَّزنا به ذوي الخَلَّة من أَشياعكم».

وكتب سليمان بن صرد إلى المدائن، وبها جماعةٌ من الشِّيعة، ورأسُهم سعدُ بن حُذيفة بن اليمان، بما اجتمع عليه رأيُ القوم من إخوانهم، وذكَّر بمقتل حُجرٍ وأَصحابه، وبما يُقاسيه الشِّيعة من الذُّلِّ، وحضَّهم على التَّوبة، واستقدمهم.

فلمَّا قرأ سعد بن حُذيفة الكتابَ على الشِّيعة الَّذين كانوا بالمدائن، أَجابوهُ بالسَّمع والطَّاعة. فأَجاب سليمانَ بن صُرد، بما وَجَدَ عند الشِّيعة من الحرص، وأَنَّهم جادُّون ينتظرون الدَّاعيَ، فإذا جاءَ الصريخُ أَقبلنا ولم نعرِّج، إن شاءَ اللَّه.

وكتب سليمان إلى أَهل البصرة، وإِلىٰ مَن يتشيع بها بمثل ذلك، فجاءَهُ الجوابُ بمثل ما أَجابَهُ أَهلُ المدائن.

ولم يزل النّاس في الاستعداد إلى أَن هلك يزيد، وقام بالأَمر مروان، ومدّة ذلك ثلاث سنين وشهران.

وهلك يزيد، وأَميرُ العراقِ عبيدُ اللَّه بن زيادٍ، وهو بالبصرة، وخليفتُه بالكوفة عمرُو بن حُريثٍ، واجتمعت الشِّيعة إلى سليمان بن صرد، وقالوا:

ـ «قد مات هذا الطاغية، وهم اليوم مضطربون مشغولون، فقُمْ بِنا نَثِبْ على عَمرو بن الحُريث، ثمَّ نُظهر الطَّلبَ بدم الحسين، ونتتبع قَتلتَه فنقتلهم، وندعو النَّاس إلى أهل البيت المدفوعين عن حقوقهم».

ذكر رأي سليمان بن صُرد في ذلك

فلمَّا أَكثرَ النَّاسُ، وأَطالوا عليه، قال لهم سليمان:

ـ «رويداً، لا تعجَلوا، إنّي قد نظرتُ في ما تذكرون، فرأَيتُ أَنَّ قتلةَ الحسين هم أَشراف الكوفة، وفُرسان العرب، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تُريدون علموا أَنَّهم المطلوبون، فكانوا أَشَدَّ شيءٍ عليكم. وقد نظرت في من معي منكم، فعلمت أَنَّهم لو خرجوا لم يُدركوا ثأرَهم، ولم يُشفُوا نفوسَهم، ولم يَنكَأُوا في

عدوِّهم، وكانوا لهم جَزراً، ولكن بُثُّوا دعاتَكم، فإنِّي أرجو أن يكون النَّاس أَسرعَ استجابةً حيث هلك هذا الطاغية».

قدوم المختار، وما زعم

ففعلوا، وخرجت منهم دُعاة يدعون النَّاس، فاستجاب لهم ناس كثيرٌ بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك. فلمَّا كان بعد ذلك، قدم المختار بن أَبي عُبيد، فزعم أنَّه من قبلِ المهديِّ محمَّد ابن الحنفيَّة يدعوهم إلى الطَّلب بدمِ الحسين. فكانت الشِّيعة قد انقادتْ لِسليمان بن صُرد. فكان المختار، إذا خاطب الشِّيعة، ودعاهم إلى نفسه، قالوا:

- «هذا سليمان بن صُرد شيخ الشِّيعة».

فيقول المختار:

- «هذا ليس لكم بصاحب، إنَّما يريدُ أَن يخرجَ فيقتلَ نفسَه، ويقتلَكم، ليس له بصرٌ بالحرب، ولا علمٌ بها».

فلا يقبلُ منه.

قدوم عَبد اللَّه بن يزيد وإبراهيم بن محمَّد من قبل ابن الزُّبير

وقدم الكوفة عبد اللَّه بن يزيد أميراً على حربها وثغرها، وقدم معه من قبل ابن الزُّبير إبراهيم بن محمَّد بن طلحة بن عبيد اللَّه، أَميراً على خراج الكوفة، فبلغهما أَنَّ الشِّيعة خارجةٌ وأنَّهم طائفتان: طائفةٌ كثيرةٌ مع سليمان بن صُرد، وطائفة يسيرةٌ مع المختار، وأُشير على عبد اللَّه بن يزيد أن يجمع الشُّرطةَ والمقاتلةَ ووجوهَ النَّاس وينهض إليهم، وقيل له:

- «إذا صِرتَ إلى منزله، دعوته فإن أَجابك حبستَهُ، وإن قاتلكَ، وقد جمعتَ له وعبَّأت وهو مغترٌّ».

وقيل له:

- «إن لم تفعل بذاك، خرج عليك، وقد اشتدَّت شوكته، وتفاقم أَمرُه».

ذكر رأي عبد اللَّه بن يزيد

فنظر عبد اللَّه بن يزيد، فإذا القوم يطلبون غيرَه بدم الحسين، فكره أَن يستَحضَّهم. فقال لمن أَشار عليه بما حكيناه:

- «حدِّثوني ما يُريدون» قال:

ـ «يذكرون أَنَّهم يطلبون بدم الحسين».

فقال:

ـ «أنا قتلتُ الحسين؟ لعن اللّه قاتل الحسين».

وقال:

ـ «أَللّه بيننا وبين هؤلاءِ القوم، إن تركونا لم نطلبهم».

ثمَّ خطب النَّاسَ، فحمد اللّه وأَثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «فقد بلغني أَنَّ طائفة من أَهل هذا المصر، أَرادوا أن يخرجوا علينا، فسأَلتُ عن السَّبب الَّذي دعاهم إلى ذلك ما هو؟ فقيل لي: إنَّهم يطلبون بدم الحسين بن عليٍّ. فرحم اللّه هؤلاءِ القوم، قد ـ واللّه ـ دُللتُ على أَماكنهم، وأُمرت بأخذهم، وقيل لي: ابدأ بهم، قبل أَن يبدأُوك، فأَبيت ذلك، وقلت: إن قاتَلوني قاتلتُهم، وإن تركوني لم أَطلبهم. وعلامَ يُقاتلونني؟ فواللّهِ ما أَنا قتلتُ حسيناً، ولا أَنا ممَّن قاتَلَهُ. ولقد أُصبتُ بمقتله، رضي اللّه عنه. هؤلاءِ القوم آمنون، فليخرجوا، ولينتشروا ظاهرين، ثمَّ ليسيروا إلى قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، وأَنا ظهيرٌ لهم. هذا ابن زيادٍ قاتل الحسين، وقاتل أَخياركم، وأَماثلكم، قد توجَّه إليكم عهدُ العاهدِ به، على مسيرة ليلةٍ من مَنبج، فقتاله والاستعداد له أجزى وأَرشدُ من أَن يجعلوا بأسَكم بينكم، فيسفك بعضكم دماءَ بعضٍ، فيلقاكم العدوُّ غداً وقد رققتم، وتلك أُمنيَّة عدوِّكم، فإنَّه قد أَقبل إليكم، أعدىٰ خلق اللّهِ لكم مَن وليَ عليكم هو وأَبوهُ سبع سنين لا يُقلعان عن قتل أَهل العفاف والدِّين، ومَن قَتلَ مَن تبغون دَمَهُ قد جاءَكم، فاستقبِلوهُ بحدِّكم وشوكتكم، واجعلوها به، ولا تجعلوها بأَنفسكم، فإنِّي لم آلُكم نُصحاً. جمع اللّهُ كلمتنا، وأَصلح له أئمتنا».

فخرج أَصحاب سليمان بن صُرد ظاهرين، يشترون السلاحَ، ويتجهَّزون بما يُصلحهم.

وأَمَّا النَّفَر الَّذين مع المختار، فإنَّهم سكتوا، لأَنَّ المختار كان يُريد أَلاَّ يُهيجَ أمراً حتَّى ينظر: إلى ما يصير أَمر سليمان بن صُرد. ورجا أَن تستجمع له الشِّيعة، فيكونَ أَقوى على درك ما يطلب.

اجتماع الأَمر لسليمان بن صُرد

واجتمع لسليمان أَمرُه في سنة خمسٍ وستِّين، وكان قد واعد أَصحابه، وكاتب أَهلَ المدائن وغيرَهم لِغُرَّةِ شهر ربيع الأَوَّل، فخرج في تلك اللَّيلة إلى المعسكر بالنُّخيلة، ودار في النَّاس ووجوه أَصحابه، فلم تُعجبه عدَّةُ النَّاس. فبعث حكيم بن منقذ في خيلٍ، وبعث الوليد بن حُصين في خيلٍ، وقال:

ـ «اذهبا حتَّى تدخلا الكوفة، فناديا: يا لَثاراتِ الحسين! وابلُغا المسجد الأَعظم، فنادِيا بذلك».

فخرجا، فكأَنَّ خلق اللَّهِ دَعَوا: يا لَثاراتِ الحسين. وكثر المستجيبون وكثر البكاءُ والنَّحيب. وكان الرَّجل إذا سمع هذا النِّداءَ، فارق أَهلَه وولدَهُ، وتركهم يبكون، ووثب إلى سلاحه وودَّعهم، ثمَّ خرج.

قال:

فلم يُصبح حتَّى جاءَهُ نحوٌ ممَّن كان في عسكره حين دخله، ثمّ دعا بديوانه حين أَصبح، فوجد مَن جاءَ أَربعة آلاف رجلٍ من جملة ستَّة عشر ألفاً كانوا بايعوهُ، فقال:

ـ «سبحان اللَّه! أَما هؤلاءِ بمؤمنين؟ أَما يخافون اللَّه؟ أَما يذكرون ما أعطَوا من العهود والمواثيق؟»

وجعل يبعث ثقاته إلى من تخلَّف عنه يُذكِّرهم اللَّه. فخرج إليه نحوٌ من أَلف رجلٍ. فحمد اللَّهَ، وأَثنَىٰ عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَيُّها النَّاس، إنَّه ما ينفعنا المُكرَهُ، وإِنَّما ينفعنا ذو النِّيَّة، فمَن كان يُريد حَرثَ الدنيا، فواللَّه ما يأتي فَيئاً، ولا غنيمة، ما خلا رضوان اللَّهِ، وما معنا ذهبٌ ولا فضةٌ، ولا خزٌّ، ولا حرير، وما هو إلاّ سيوفنا في عواتقنا، ورِماحُنا في أكفّنا، وزادٌ قدر البُلغةِ إلى لقاءِ عدوِّنا، فمن كان ينوي هذا غير هذا، فلا يصحبنا».

فأجابه النَّاس:

ـ«إنَّما خرجنا للَّهِ، ولِلتَّوبةِ إليه مِن ذنبنا، والطَّلبِ بدم ابن بنت رسول اللَّه، وإنَّما نُقدم على حدِّ السيوف، وأَطراف الرِّماح».

ذكر آراءِ أُشير على سليمان ورأيٍ رَءَاهُ وحدَه

أَمَّا أَكثر النَّاس، فأَشاروا على سليمان أن يقصدوا الكوفةَ، وقالوا:

ـ «إنَّا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقَتَلةُ الحسين كلُّهم بالكوفة: عُمر بنُ سعدٍ بن أبي وقَّاصٍ، ورؤوس الأَرباع، وأَشراف القبائل، فأَينَ نذهب وندع الأوتادَ. واللَّه، ما نلقىٰ، إنْ مضينا نحو الشَّام، وهذه الخيل الَّتي أَقبلت، إلاَّ عبيدَ اللَّه وحدَهُ ممَّن نطلبه، ووراءَكم أَلدُّهم بالكوفة، مثل عبيد اللَّه».

فقال سليمان بن صرد:

ـ «واللَّه، لقد جِئتم برأيٍ، فهلمُّوا أيُّها الناس بجميع ما عندكم».

فلمَّا سمع هذا وأمثالَه، قال:

ـ «لكن أَنَا لا أَرى لكم ذلك».

ذكر الرَّأي الَّذي رآه سليمان

قال:

ـ «إنَّ الَّذي قتل صاحبكم هو الَّذي عبَّى إليه الجنودَ فألزم الناسَ المسيرَ إليه كارهين، وهدَّدهم». ثمَّ قال:

ـ «لا أَمان له عندي دون أن يستسلم، فأَمضي فيه حكمي، هذا الفاسق، ابن الفاسق، ابن مرجانة، عبيد اللّه بن زيادٍ. فإن يُظهر اللّه عليه كان مَن بعدَه أهونُ شوكةً، ورجونا أَن يدين لكم مَن وراءَكم من أهل مصركم، فينظرون مَن شرك في دم الحسين، فيقتلونه، وإن قاتلتم الآن أهل مصركم، ما عدم الرجلُ أَن يرى رجلاً غداً وقد قتل أخاه، أَو أَباه، أَو حميمَه، أَو رجلاً لم يكن يريد قتلَه، فيكثر أَعداؤكم. فاستخيروا اللّهَ وسيروا».

فتهيَّأَ النَّاس للخروج.

ذكر رأيٍ آخر رَآه أَمير الكوفة عبد اللّه بن يزيد

لمّا بلغ عبد اللّه بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة أَنَّ سليمان خارجٌ بأَصحابه نحو عُبيد اللّه بن زيادٍ، رأَيا أن يأتياهم، فيعرضا عليهم الإقامة، وأَن تكون أَيديهم واحدةً، فإن أَبَوا إلاّ الشُّخوص، سأَلوهم النَّظَر حتَّى يجهِّزوا معهم جيشاً، فيقاتلوا عدوَّهم بكَتَفٍ وحَدٍّ.

فراسلا سليمان بن صُرد وقالا:

ـ «إنَّا نريد أَن نجيئك لأَمرٍ عسى الله أَن يجعل لنا ولك فيه صلاحاً».

فقال سليمان للرَّسول:

ـ «قُل لهما، فليأتيانا».

وأَحسنَ سليمان تعبئةَ النَّاسَ. وجاءَ عبد اللّه بن يزيد، في أَشراف أَهل الكوفة، وجاءَ إبراهيم في جماعةٍ من أَصحابه. وكان عبد اللّه بن يزيد قال لِكلِّ رجلٍ معروفٍ علم أَنَّه شرك في دم الحسين: لا تصحبني؛ مخافة أَن ينظروا إِليه، فيعدُوا عليه.

وكان عمر بن سعدٍ طول تلك الأَيَّام الَّتي كان سليمان فيها مُعسكراً بالنُّخيلة، لا يبيت إلاّ في قصر الإمارة مع عبد اللّه بن يزيد مخافة أَن يأتيه القوم وهو غافل، فيُقتل.

ولمَّا دخل عبد اللّه بن يزيد إلى سليمان، حمد اللّه، وأَثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «إنَّ المسلم أَخو المسلم، لا يخونه، ولا يغشُّه، وأَنتم أهل مصرنا، وأَحبُّ النَّاس إلينا ، فلا تفجعونا بأَنفسكم، ولا تستبدُّوا علينا برأيكم، ولا تنقصُوا عددَنا بخُروجكم، وأقيموا معنا حتَّى نتيسَّر ونتهيَّأ، فإذا علمتم أَنَّ عدوَّنا قد شارف بلادَنا خرجنا إليهم بجماعتنا، فقاتلناهم».

وتكلَّم إبراهيم بنحوِ من هذا.

فتكلَّم سليمان، وحمد اللَّهَ، وأثنى عليه، وقال:

ـ «قد علمتُ أَنَّكما قد محضتُماني النَّصيحة، واجتهدتما في المشورة، ونحن فقد خرجنا على نِيَّةٍ، ولن ننقضَها، ونسأَل اللَّهَ العزيمة، والَّشديدَ».

فقالا:

ـ «فأَقيموا حتَّى نُجهِّزَ معكم جيشاً كثيفاً، فتلقوا عدوَّكم بكتفٍ وجمعٍ وحدٌ».

فقال سليمان:

ـ «تنصرفون ونرى رأيَنا».

فعرضا عليه الصَّبرَ عليهما، حتَّى يجعلا له ولأَصحابه خراج جُوخى دون النَّاس.

فأبى سليمان وقال:

ـ «ما خرجنا للدُّنيا».

وإنَّما فَعَلا ذلك، لِما داخلهم من إقبال عبيد اللَّه بن زيادٍ نحو العراق.

وأَبطأَ على سليمان أَصحابه من أَهل البصرة والمدائن، فخرج من عسكره بالنُّخيلة، ومرَّ نحو الأَقساس، وتخلَّفَ عنه ناسٌ كثيرٌ.

فقال سليمان:

ـ «لَو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خَبالاً، لأَنَّ اللَّهَ كرِهَ انبعاثهم، فثبَّطهم».

ثمَّ خرج حتّى صبَّح قبر الحسين. فلمَّا انتهى النَّاس إليه، صاحوا صيحةً واحدةً، وبكَوا. فما رُوي يومٌ كان أكثر باكياً منه، وجعلوا يدعون اللَّهَ، ويسألونَه أَن يتوب عليهم، وأَحسن النَّاسُ بالمنطق، وزادهم ذلك بصيرةً، وشحذ رأيهم، ووطَّنوا أَنفسهم على الجهاد، وحبِّ الشهادة.

كتاب عبد اللَّه بن يزيد إلى سليمان بن صُرد
وما كان من جوابه

ثمَّ ساروا، فلحقهم كتابٌ من عبد اللَّه بن يزيد، وهم بالقيَّارة، مع المُحلّ بن خليفة الطائيّ.

قال المُحلّ:

فلقيتُه، وأَبلغتُه السَّلامَ والكتابَ، فاستقدم أَصحابَه حتَّى ظنّ أَن قد سبقهم، وأَشار إلى النَّاس، فوقفوا، ثمّ قرأ الكتابَ، فإذا فيه:

ـ «بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم، من عبد اللّه بن يزيد إلى سليمان بن صُرد ومَن معه من المسلمين. سلام عليكم، أمَّا بعدُ، فإنَّ كتابي هذا كتاب ناصحٍ، وكم مِن ناصحٍ مُستغِشّ، ومِن غاشّ مُستنصحٍ، إنَّه قد بلغني أن قد أَقبل من الشَّام، جموعٌ عظيمةٌ، وأَنتم تريدون أن تلقَوهم بالعددِ اليسير، وإِنَّه مَن يُرِدْ أَن ينقل الجبالَ عن مراتبها، تَكِلُّ مَعاولُه، وينزع، وهو مذموم الفعلِ والعقلِ. يا قومَنا، لا تُطمعوا عدوَّكم في أَهل بلادكم، فأَنتم خيارٌ كلُّكم، ومتى يُصبكم عدوُّكم، أَطمعهم ذلك في مَن وراءَكم من أَهل مصركم. يا قومَنا، إِنَّهم إنْ يَظهرُوا علَيكُم، يَرْجُمُوكُم، ويُعيدُوكم في مِلَّتِهم، ولَنْ تُفلحُوا إذاً أبداً، يا قومَنا، إنَّ أَيديَنا، وأيديَكم واحدةٌ، وعدوّنا وعدوّكم واحدٌ، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدوّنا، ومتى تختلفْ تهُنْ شوكتُنا. يا قومَنا، لا تستغِشُّوا نُصحي، ولا تخالفوا أَمري، وأقبِلُوا حين يُقرأ عليكم كتابي، أَقبل اللّه بكم إلى طاعته، والسَّلام».

فلمَّا قرأ الكتابَ، قال ابن صُرد للنَّاس:

ـ «ماذا تَرونَ؟» قالوا:

ـ «ماذا نرى؟ قد أَبينا هذا عليهم، ونحن في مصرنا، وأَهلنا، والآن حين خرجنا، ووطَّأنا أَنفسنا على الجهاد، نفتأُ عزيمتَنا؟ ما هذا برأيٍ».

ثمَّ نادَوهُ:

ـ «أَخبرنا برأيك!».

قال: «رأيي أن لا ننصرف عمَّا جمعَنا اللّهُ علينا، لأنَّا وهؤلاءِ مختلفون، لأنَّهم لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزُّبير، ونحن لا نرى الجهاد مع ابن الزُّبير، إلاّ ضلالاً، وإن ظهرنا رددنا الأمر إلى أَهله، وإن أصبنا، فعلى نيَّتنا، تائبين من ذنوبنا، لأنَّ لنا شكلاً، ولابن الزُّبير شكلاً».

فانصرف النَّاس معه حتَّى نزلوا هيتَ.

وكتب سليمان جواب الكتاب ولاطفه، وأَثنى عليه، واعتذر إليه، بأَنَّهم تائبون خرجوا على نيَّة الجهاد، وتوجَّهوا لأَمرٍ لا ينقضونه.

فلمَّا أَتى هذا الكتاب إلى عبد اللّه بن يزيد، قال:

ـ «استمات القوم. أَوَّل كتابٍ يَردُ عليكم يكون بقتلهم».

بين سليمان بن صرد وزُفر بن الحارث في قرقيسيا

وسار القوم إلى قرقيسيا، وبها زُفَر بنُ الحارث بن كلابٍ، قد تحصَّن بها من القوم، ولم يخرج إليهم. فبعث سليمان إلى المسيَّب بن نَجبه، فقال له:

- «إيتِ ابنَ عمِّك هذا، فقل له: فليُخرِجْ لنا سُوقاً، فإنَّا لسنا إيَّاهُ نريد، إنَّما صمدنا لهؤلاءِ المُحلِّين».

فانتهى المسيَّب إلى الحصن، وانتسب، واستأذن. فقيل:

- «هذا رجلٌ حسن الهيئة يستأذن عليك، ويزعم أنَّه المسيَّب بن نجبة».

فقال زُفَر بن الحارث:

- «هذا فارس مُضَر، وهو بعدُ رجلٌ ناسك له دين، فأْذِنُوا له».

وجاءَ، فأَجلسه إلى جانبه، وسائلَهُ، وأَلطفَهُ في المسألة.

ثمَّ خاطبه المسيَّب، وقال:

- «مِمَّ تَحصَّنُ، إنَّه واللَّه، ما إيَّاكم نُريد، وما قصدنا إلاَّ هؤلاءِ الظَّلمةَ المُحلِّين. فأَخرِجْ لنا سوقاً، فإنَّا لا نُقيم بساحتك إلاَّ يوماً أَو بعض يومٍ».

فقال له زُفَر بنُ الحارث:

- «إنَّا لم نُغلقْ أَبواب المدينة إلاّ لِنَعلم: إيَّانا اعتريتم، أَم غيرنا. وما نعجز عن النَّاس ما لم تدهمنا حيلةٌ، وما نحبُّ أَنَّا بُلينا بقتالكم، وقد بلغَنا عنكم صلاحٌ وسيرةٌ حسنةٌ جميلةٌ».

ثم دعا ابنَه، وأَمر أَن يضعَ لهم سُوقاً جامعةً، وأَمر للمسيَّب فرسٍ، وأَلف درهمٍ.

فقال المسيَّب:

- «أَمَّا المال، فلا حاجة لي فيه، ولا له خَرَجْنا، وأَمَّا الفرس، فإنِّي أَقبلَهُ، فلعلِّي أَحتاج إليه إن غمز فرسي تحتي».

وخرج حتَّى أَتى أَصحابه، وأُخرجت لهم السُّوق، وبعث إلى المسيَّب بعشرين جَزوراً، وإلى سليمان بن صُرد مثل ذلك. وكان سأَل عن وجوه العسكر، فاخرج إلى كلِّ واحدٍ منهم بعشر جزائر وعلفٍ كثير، وطعام واسع، وأَخرج إلى العسكر عيراً عظيمةً، وشعيراً كثيراً.

وقال غلمان زُفَر للنَّاس:

- «هذه عيرٌ، فاجتزروا منها ما أَحببتم، وهذا شعيرٌ، فاحتملوا ما أَردتم، وهذا

دقيقٌ، فتزوّدوا ما أَطقتم».

فأَخصب القوم، ولم يحتاجوا إلى كثير شيءٍ من السُّوق الّتي أُخرجت لهم. وبعث إِليهم زفر بن الحارث:

ـ «إِنّي خارجٌ إِليكم، ومُشيِّعُكم، ومُشيرٌ عليكم برأيٍ عندي، واللّه موفِّقكم».

ذكر رأي أَشار به زفَرُ بن الحارث على سليمان بن صُرد وأَصحابه

ثمّ إنّ زُفَر خرج إليهم من الغد، وقد خرجوا على تعبئةٍ، فسايرهم، وقال لسليمان:

ـ «إنّه قد بُعث بخمسةٍ من الأَمراءِ، وقد فَصّلوا من الرقّة الحُصين بن نُمير، وشُرحبيل بن ذي الكُلاع، وأَدهم بن مُحرز الباهلي، وربيعة بن المُخارق الغَنوي، وحملة بن عبد اللّه الخثعمي، وقد جاؤوكم مثل الشّوك والشّجر، أَتاكم واللّه عددٌ كثيرٌ، وحدٌّ حديدٌ، وأَيمُ اللّه، لَقلَّ ما رأَيتُ رجالاً أَحسنَ هيئةً ولاعُدَّةً، ولا أخلقَ بكل خيرٍ، مِن رجالٍ أَراهم معكم، ولكنّه قد بلغني أَنّهُ قد أَقبلت إِليكم عدَّةٌ لا تُحصىٰ».

قال ابن صُرد:

ـ «على اللّه توكّلنا، وعليه فليتوكّل المتوكّلون».

فقال لهم زُفَرُ:

ـ «فهل لكم في أمرٍ أَعرضه عليكم؟ لعلَّ اللّه أَن يجعل لنا ولكم فيه خيراً».

قال سليمان:

ـ «وما هو؟».

قال:

ـ «نفتح لكم مدينتنا، فتدخلونها، فيكون أَمرنا واحداً، وأَيديكم مع أَيدينا».

فقالوا:

ـ «لا نفعل ذلك».

قال زُفر:

ـ «فتنزلون على باب مدينتنا، ونخرج، ونُعسكر إلى جانبكم، فإذا جاءَنا هذا العدوُّ قاتلناه جميعاً».

فقال سليمان لِزُفَر:

ـ «قد أرادنا أَهلُ مدينتنا على مثل ما ذكرتَ، ثمَّ كتبوا إلينا به بعد ما فصلنا، فلم نفعل».

قال زُفر:

ـ «فلو ضممتُم رأيَنا إلى رأيهم، وأَقمتم معنا، وكاتبتم أَهل مصرِكم، فبادروا إِليكم بما عرضوا عليكم لَرجونا أن يصل إِلينا عدوُّنا ونحن مجتمعون بحدٍّ واحدٍ، وشوكةٍ واحدةٍ، فكانت الدَّبرةُ عليهم».

فقالوا:

ـ «فإِنَّا لا نفعل».

فقال زُفَر:

ـ «فانظروا الآن ما أُشير به عليكم، فاقبلوهُ، وخذوا به، فإِنّي عدوُّ القوم، وأُحبُّ أن يجعل اللَّه الدائرة على القوم، وأَنَا لكم وادٌّ، أُحبُّ أَن يحوطكم اللَّه بالعافية. إنَّ القوم قد فصلوا من الرَّقَّة، فبادرهم إلى عين الوردة، فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاقُ والماء والمادّة في أَيديكم، وما بين مدينتنا وبينكم فأَنتم له آمنون. واللَّه، لَو أَنَّ خيولي كرجالي، لأَمددتُكم، اطوُوا المنازلَ الساعةَ إلى عين الوردة، فإِنَّ القوم يسيرون سير العساكر، وأَنتم على خُيول، واللَّه، لَقلَّ ما رأيتُ جماعةَ خيلٍ أكرم منها. تأهبُّوا إليها من يومكم هذا، فإِنّي أَرجو أَن تسبقوهم إليها، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة، فلا تقاتلوهم في فضاء تُرامونهم، وتطاعنونهم، فإِنَّهم أكثر منكم، فلا آمنُ أن يُحيطوا بكم، ولا تقفوا لهم تُرامونهم، وتطاعنونهم، فإِنَّه ليس لكم مثل عددهم، وإن استهدفتم لهم لم يُلبِّثوكم أَن يصرعوكم، ولا تصفُّوا لهم حين يلقونكم. فإِنّي لا أَرىٰ معكم رجالاً، ولا أَرى جميعكم إلاّ فُرساناً، والقوم لاقوكم بالرِّجال والفرسان، فالفرسان تحمي رجالَها، والرِّجالُ تحمي فُرسانَها، وأنتم لا رجال لكم تحمي فُرسانكم، فالقوم في المقانب والكتائب. ثمَّ بُثُّوها في ما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كُلِّ كتيبةٍ كتيبةً إلى جانبها، فإِن حُمل على إحدى الكتيبتين، ترجَّلت الأَخرى، فنفَّست عنها الخيلِ والرِّجالُ، ومتى ما شاءت كتيبةٌ ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبةٌ سفلت، ولو كنتم في صفٍّ واحدٍ، فزحفت إليكم الرِّجال، فدفعتم عن الصَّفِّ انتقض، فكانت الهزيمة».

ثمَّ وقف، فودَّعهم، فأثنى النَّاس عليه، ودعَوا له، وقالوا له خيراً.

وقال له سليمان:

ـ «نعم المنزول به أَنتَ أكرمتَ النُّزُلَ، وأحسنتَ الضِّيافة، ونصحتَ في المشورة».

موقعة عين الوردة

ثمَّ إنَّ القومَ جدُّوا في السَّير، فجعلوا كلَّ مرحلتين مرحلةً، حتَّى انتهوا إلى عين الوردة، وسبقوا القومَ إليها، ونزلوا في غربيِّها، فأقاموا خمساً، لا يبرحون، فاستراحوا فأراحوا خيلَهم، ثمَّ خطبهم سليمان، فأطال خطبته، وذكر الدُّنيا، فزهَّد فيها، والآخرةَ فرغَّب فيها، ثم قال:

ـ «أمَّا بعدُ، فقد أتاكم اللَّه بعدوِّكم الَّذي دأبتم له في السَّير آناءَ اللَّيل والنَّهار، تريدون في ما تُظهرون التَّوبةَ النَّصوحَ، ولقاءَ اللَّه مُعذرين. فقد جاؤوكم، بل أنتم جئتموهم في دارهم وحيِّزهم، فإذا لقيتموهم، فاصدقوهم، واصبروا، ولا يولِّيَنَّهم أحدٌ دُبُرَهُ إلاَّ متحرِّفاً لقتالٍ، أو متحيزاً إلى فئةٍ، ولا تقتلوا مُدبراً، ولا تُجهزوا على جريحٍ، ولا تقتلوا أسيراً إلاَّ أن يكون من قتلة إخواننا بالطَّفِّ، فإنَّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ في أهل هذه الدَّعوة».

ثمَّ قال سليمان:

ـ «إن قُتلتُ، فأمير النَّاس المسيَّب بن نجبة، فإن أُصيبَ، فأمير النَّاس عبد اللَّه بن سعد بن نُفيل، فإن أُصيب، فأمير النَّاس عبد اللَّه بن والٍ، فإن أُصيب، فأميرهم رفاعة بن شدَّادٍ».

ثمَّ بعث المسيَّب بن نجَبة في أربعمائة فارسٍ، وقال له:

ـ «سِرْ حتَّى تلقى أوَّل عسكرٍ من عساكرهم، فشُنَّ فيهم الغارةَ، فإنَّ رأيتُ ما تحبُّ، وإلاَّ فانصرفْ إليَّ، وإيَّاك أن تنزلَ، أو ينزلَ أحدٌ من أصحابك».

فمضى المسيَّب، حتَّى لقي رجلاً أعرابيّاً يسوف أَحمِرةً. فقال:

ـ «عليَّ بالرَّجل».

فأُتِي به، فقال:

ـ «كم بيننا وبين أدنى هؤلاءِ القوم؟»

قال:

ـ «أدنىٰ عسكرهم إليك عسكرُ ابنِ ذي الكُلاع، وبينه وبين الحُصين بن نُمير اختلاف، ادَّعىٰ حُصينُ أنَّه على جماعة النَّاس، وقال ابن ذي الكلاع: ما كنتَ لِتُولَّى عليَّ. وقد تكاتبا في ذلك إلى عبيد اللَّه، فهما ينتظران أمرَه فهذا عسكر ابن ذي الكُلاع على رأس ميل».

قال:

فتركنا الأَعرابيَّ، ومضينا مُسرعين، فواللَّه ما شعروا بشيءٍ حتَّى أَشرفنا عليهم وهم غارّون فحملنا إلى جانب عسكرهم، فواللَّه، ما ثبتوا وانهزموا، وخلّوا لنا معسكرهم، فقتلنا منهم، وجرحنا، وأخذنا من المعسكر ما خفَّ علينا، وصاح المسيَّب فينا:

ـ «الرّجعة، الرّجعة، إنكم قد نُصرتم وغنمتم وسلمتم، فانصرفوا».

فانصرفنا إلى سليمان.

عُبيد اللَّه بن زياد يُسرِّح الحصين بن نمير لدفع سليمان

وأُتي الخبرُ عبيداللَّه، فسرَّح إلينا الحصين بن نُمير مُسرعاً، حتَّى نزل في اثني عشر ألفاً، فخرجنا إليه وقد عبَّى سليمان ميمنتَه وميسرته، ووقف في القلب، فلمَّا دنَوا منَّا دعَونا إلى الجماعة مع عبد الملك بن مروان، وإلى الدُّخول في طاعته، ودعَوناهم إلى أن يدفعوا إلينا عبيد اللَّه بن زيادٍ فنقتله ببعض مَن قتله من إخواننا، وأَن يخلعوا عبد الملك بن مروان، وإلى أَن نُخرج من بلادنا من آل الزُّبير، ثمَّ نردَّ الأَمر إلى أَهل بيت نبيِّنا الَّذين هم أَولى بالأَمر، فأَبى القوم، وأَبينا.

ثمَّ حملت ميمنتُنا على ميسرتهم فهزمتهم، وحملت الميسرةُ، وحمل سليمان في القلب فهزمناهم حتَّى اضطررناهم إلى عسكرهم، فكان الظَّفر لنا حتَّى حجز اللَّيلُ بيننا وبينهم، وقد أَحجزناهم في عسكرهم.

فلمَّا كان من الغد، صبَّحهم ابنُ ذي الكُلاع في ثمانية آلافٍ، أَمدَّهم بها عُبيد اللَّه بن زيادٍ، وكان عبيد اللَّه أَنفذ إليه يشتمه، ويقول:

ـ «عملتَ عملَ الأَغمار، وضيَّعت مَسالحك وعسكرك. سِرْ إلى الحصين بن نُمير، حتَّى توافيه، فهو أَميرٌ للنَّاس».

فجاءَهُ مدداً، وغادَيناهم القتالَ، فاقتتلنا قتالاً لم يَرَ الشِّيب والمُردُ مِثلَه، وكان فينا قُصّاصٌ يقصُّون، ويحضُّون، ويقولون:

ـ «أَبشِروا عبادَ اللَّه، فحُقَّ لِمَن ليس بينَه وبين لقاءِ اللَّه، والرّاحة من أَبرام الدُّنيا، وأَذاها، إلاَّ فراق هذه النَّفس الأَمَّارة بالسَّوءِ؛ أن يكون سخيّاً بفراقها، مسروراً بلقاءِ ربِّه».

فاقتتلنا اليوم الثَّاني كقتال أمسِ، ثمَّ اقتتلنا اليوم الثَّالث مثل ذلك، إلى أَن كثَرنا أَهلُ الشَّام، وانعطفوا علينا من كلِّ جانبٍ.

فلمَّا نظر سليمان إلى ذلك، قال:

ـ «عبادَ اللَّه، من أَراد البكورَ إلى ربِّهِ، والتَّوبةَ من ذنبه، والوفاءَ بعهده، فإليَّ».

وكسر جفنَ سيفه، ففعل معه ناسٌ كثيرٌ مثل ذلك، ومشى النَّاس بالسُّيوف، مُصلتين، فقتلوا من أَهل الشَّام مقتلةً عظيمةً، وجرحوا فيهم فأكثروا.

مقتل سليمان بن صُرد

فلمّا رأى الحصينُ بن نمير صَبَرنا وبأسَنا، بعث رجالاً ترمي بالنَّبل، واكتنفهم الخيلُ والرِّجالُ. فقُتل سليمان، وأخذ الرايةَ المسيَّبُ بن نجبة، فقاتل وأحسنَ وصَبَرَ صبراً لم يُرَ مثلُه، وقاتل قتالاً لم يُسمع بمثله، وما ظنَّ أحدٌ أن رجلاً واحداً يقدر أن يُبلي ما أَبلى، إلى أن قُتل، وأَخذ الرايَة عبدُ اللَّه بن سعد.

قال:

فبينا نحن نُقاتل معه إذ جاء فرسانٌ ثلاثةٌ أنفذهم أهلَ المدائن على خيولٍ مُقلَّمة تطوي المنازلَ يبشِّروننا بخروج أصحابنا من المدائن وخروج المثنَّى به محربة في أَهل البصرة، والجميع نحوٌ من خمسمائة فارسٍ.

فقال عبد اللَّه بن سعدٍ لمّا قالوا له: أبشر بمجيءِ إخوانكم:

ـ «ذلك لو جاؤونا ونحن أَحياءٌ».

قال:

فنظروا إلى ما أَساءَ أَعيُنَهم، ولم يلبثوا أَن قُتل عبد اللَّه بن سعدٍ، ونادَينا عبد اللَّه بن والٍ، وكان قد استُلحم في عصابةٍ معه إلى جانبنا، فحمل عليهم رفاعةُ بن شدَّاد، فكشفهم عنه، ثمَّ أقبل إلى رايته، فأَخذها، ونادىٰ النَّاس:

ـ «يا عبادَ اللَّه، مَن أَراد الحياة الَّتي لا وفاةَ لها، والراحةَ الَّتي لا نصَبَ بعدَها، والسُّرور الَّذي لا حُزنَ فيه، فإليَّ».

ثمَّ قاتلناهم، وكشفناهم، ثمَّ انعطفوا علينا، وكثرونا من كلِّ جانبٍ حتى ردُّونا إلى مكاننا الَّذي كُنَّا به. (قال: وكنَّا بمكانٍ لا يقدرون أَن يأتوا فيه، إلاَّ من وجهٍ واحدٍ) وحَملتْ علينا خيلٌ عظيمة فيها أَدهم بن مُحرز عند المساءِ، فقُتل عبد اللَّه بن والٍ، فنادينا رفاعةَ، وقُلنا:

ـ «أَمسكْ رايتَك». فقال:

ـ «لا أُريدُها». قلنا:

ـ «إنَّا للَّه، ما لَكَ؟» قال:

ـ «ارجعوا بنا، فلعلَّ اللَّه يجمعنا ليوم شرٍّ لهم».

فوثب إليه عبد اللَّه بن عوف بن أحمر.

ذكر رأيٍ رَآهُ ابن أَحمر

فقال:

ـ «أَهلكتَنا، واللَّه، لئن انصرفتَ ليركبُنَّ أكتافنا، فلا نبلغ فرسخاً حتَّى نهلك من عند آخرنا، فإن نَجا مِنَّا ناجٍ أَخذه الأَعرابُ وأَهل القُرىٰ فتقرَّبوا به إِليهم، فيقتلُ صبراً. ننشدك اللَّه أن تفعل. هذه الشمس قد طفلت للمغيب، وهذا اللَّيلُ قد غشيَنا هلمَّ نقاتلهم على حالنا هذه، فإنَّا الآن مجتمعون ممتنعون، فإذا غسق اللَّيل ركبنا خُيولَنا أَوَّل اللَّيل، فرمينا بها، فكان ذلك أَوَّل شأن حتَّى نُصبحَ، فنسير على مهل، ويحمل الرجلُ منَّا جريحَه، وينتظرَ صاحبَه، ويسيرَ العشرة والعشرون، معاً، ويعرف النَّاس الوجه الذي يأخذون، فيتَّبعَ بعضهم بعضاً. ولو كان ما ذكرتَ لم تقف أُمٌّ على ولدٍ، ولم يعرف رجلٌ وجه صاحبه، ولم نُصبح إلا ونحن بين مقتولٍ ومأسورٍ».

فقال له رفاعةُ:

ـ «نعم ما رأَيتَ».

وأخذ يُحمِّل.

فقال ابن أَحمر:

ـ «قاتل معنا ساعةً واحدةً رحمك اللَّه، ولا تُلقِ بيدك إلى التَّهلكة».

وما زال يناشده حتَّى احتبس عليه، وتحدَّث النَّاس بما عزم عليه رفاعة من الرُّجوع، وكان لا تزال الجماعة تنادي:

ـ «عبادَ اللَّه، روحوا إلى ربِّكم، واللَّه، ما في شيءٍ من الدُّنيا خلفٌ من رضا اللَّه. قد بلغنا أَنَّ طائفةً منكم يريدون الرُّجوع إلى ما خرجوا منه، وأَن يركنوا إلى الدُّنيا الَّتي قليلاً ما يلبثون فيها». ثم يحملون، فيقاتلون حتَّى يُقتلوا.

فلمَّا أمسى النَّاس ورجع أَهل الشَّام إلى معسكرهم، نظر رفاعة إلى كلِّ رجلٍ قد عُقر به، وإلى كلِّ جريح لا يعين على نفسه. فدفعه إلى قومه. ثمَّ سار بالنَّاس ليلتَه كلَّها حتَّى عبر الخابور، وقطَع المعابر كلَّها وكان لا يمرُّ بمعبرٍ إلاَّ قطعه. وأَصبح الحصين، فوجدهم قد ذهبوا، وكان رفاعة قد خلَّف وراءَهم أَبا الجُويريَّة في سبعين فارساً يسيرون وراءَ النَّاس فإذا سقط رحْلٌ حمله، وإذا سقط متاعُ قبضه حتَّى يعرِّفه، فلم يزالوا كذلك حتَّر مرُّوا بقرقيسيا، فبعث إليهم زفرُ من الطَّعام والعلف مثلَ ما كان بعثه في المرَّة الأولى، وأَرسل إِليهم الأَطبَّاءَ، وقال لهم:

ـ «أَقيموا ما أَحببتم، فلكم عندنا الكرامة والمواساة».

فأَقاموا ثلاثاً ثمَّ تزوَّدوا ما أَحبُّوا، ورحلوا.

فاستقبلهم مددهم من البصرة، ومن المدائن، فتباكوا، وتناعَوا إخوانَهم، وانصرف أَهل البصرة والمدائن إلى بلدانهم، وقدم النَّاس الكوفة والمختار محبوسٌ.

ووردت البشارة على عبد الملك بن مروان، فأَظهر سروراً عظيماً، وقال للنَّاس:

ـ «لم يبق بعد هؤلاءِ أَحدٌ عنده دفاعٌ ولا امتناعٌ».

ذكر ما كان من المختار بعد التَّوابين

لمَّا انصرف النَّاس إلى الكوفة إذِ المختارُ محبوسٌ، فكتب من حبسه إلى رفاعة بن شدَّاد:

ـ «أَمَّا بعدُ، فمرحباً بالعُصَب الَّذين عظَّم اللَّه لهم الأَجر، ورضي انصرافهم حين قفلوا. إنَّ سليمان قد قضىٰ ما عليه، وتوفَّاهُ اللَّهُ، فجعل روحَه مع أَرواحِ الأَنبياءِ والصدِّيقين والشهداءِ والصَّالحين، ولم يكن بصاحبكم الَّذي به تُنصرون. إنِّي أَنا الأَمين المأمون المأمور، أَنَا أَمير الجيش، وقاتل الجبَّارين، والمنتقم من الأَعداءِ، والمقيد من الأَوتارِ. فأَعِدُّوا، واستعِدُّوا، واستبشروا، وأَبشروا. أَدعوكم إلى كتاب اللَّه وسنَّة نبيِّه، وإلى الطَّلب بدماءِ أَهل البيت، والدَّفع عن الضعفاءِ وجِهاد المحلِّين، والسَّلام عليك».

وتحدَّث النَّاس بهذا من أمر المختار، فبلغ ذلك عبد اللَّه بن يزيد وإبراهيم بن محمَّد، فخرجا في النَّاس حتَّى أَتَيَا المختارَ، فأَخذاهُ.

وفي هذه الأَيَّام اشتدَّت شوكة الخوارج بالبصرة، وقُتل نافع بن الأَزرق.

ذكر السَّبب في اشتداد شوكة الخوارج وما كان من أَمرهم

لمّا اشتغل أَهل البصرة بالاختلاف الَّذي كان بين الأَزد وربيعة وتميم، بسبب مسعود بن عمرو، وكثرت جُموع نافع بن الأَزرق، فأَقبل حتَّى دنا من الجسر، فبعث إليه عبدُ اللَّه بن الحارث مسلمَ بن عُبيس بن كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمسٍ في أَهل البصرة، فخرج إليه، فأَخذ يحوزه عن البصرة ويرفعه عن أَرضها، حتَّى بلغ مكاناً من أَرض الأَهواز يقال له: دُولاب. فتهيَّأَ النَّاس بعضهم لبعضٍ وتزاحفوا، فجعل مسلم بن عُبيس على ميمنته الحجَّاجَ بن باب الحميريّ، وعلى ميسرته حارثةَ بن بدر التميميّ، وجعل ابن الأَزرق على ميمنته عُبيدةَ بن هلال اليشكريّ، وعلى ميسرته الزُّبير بنَ الماحوزَ التَّميميَّ، ثمَّ التقوا، فاضطربوا، واقتتل النَّاس قتالاً لم يُرَ قطُّ أَشدُّ منه، فقُتل مسلمُ بن عبيسٍ أَمير أَهل البصرة، وقُتل نافع بن الأَزرق رأسُ الخوارج، وأَمَّر أَهلُ البصرة عليهم الحجَّاجَ بن بابٍ، وأَمَّرت الأَزارقةُ عليهم عبدَ اللَّه بن الماحوزَ، ثمَّ عادوا، فاقتتلوا أَشدَّ قتالٍ، فقُتل الحجَّاجُ بن بابٍ أميرُ أَهل البصرة، وقُتل

عبدُ اللَّه بن الماحوز أَميرُ الأزارقة. ثمَّ إنَّ أَهل البصرة أَمَّروا عليهم ربيعة بن الأَحرم التَّميميّ، وأمَّرت الأَزارقة عليهم عُبيد اللَّه بن الماحوز، ثمَّ عادوا فاقتتلوا حتَّى أمسَوا وقد كره بعضهم بعضاً وملُّوا القتالَ. فإنَّهم لمتواقفون متحاجزون إذ جاءت الخوارجَ سريَّةٌ لهم جامَّةٌ لم تكن شهدت القتالَ، فحملت على النَّاس، فانهزموا، وقاتل أَمير البصرة ربيعةُ بن الأَحرم، فقُتل، وأَخذ الرَّايةَ حارثةُ بن بدرٍ، فقاتل ساعةً وقد ذهب عنه الناس، فقاتلَ من وراءِ النَّاس في حُماتِهم وأَهلِ الصَّبرِ منهم. ثمَّ أَقبل بالنَّاس حتَّى نزل بهم منزلاً بالأَهواز، وبلغ ذلك أَهلَ البصرة، فهالهم، وراعهم، وامتنع نومُهم.

وبعث ابن الزُّبير الحارثَ بن عبد اللَّه بن أبي ربيعة القرشيّ على تلك الحزَّة، فقدم، وعزل عبد اللَّه بن الحارث، فأقبلت الخوارج نحو البصرة ليس دونها كبيرٌ مانعٍ.

ذكر اتِّفاق جيِّدٍ اتَّفق لأَهل البصرة وهم في تلك الحال

فبينا النَّاس على حالهم تلك من الخوف والشدَّة، إذ قدم المهلَّب بن أَبي صُفرةِ مِن قِبل عبدِ اللَّه بن الزُّبير معه عهدُه على خراسان.

فقال الأَحنفُ للحارث بن عبد اللَّه بن أَبي ربيعة والنَّاس عامَّةً:

ـ «أيُّها النَّاس، لا واللَّه، ما لهذا الأَمر إلاَّ المهلب، فاخرجوا بنا إليه نكلِّمه».

فخرج ومعه أَشراف النَّاس، فكَّلموه في أَن يتولَّى قتال الخوارج، فقال:

ـ «لا أَفعل. هذا عهدُ أَمير المؤمنين معي على خراسان، ولم أَكن لأَدعَ وجهي وأُقاتلَ دونكم». فدعاه ابن أَبي ربيعة، فكلَّمه في ذلك، فقال له مثل ما قاله القوم للقوم ولم يُجبْه.

ذكر رأيٍ صحيحٍ وحيلةٍ تمَّت لأَهل البصرة حتَّى حارب عنهم المهلَّب

ثمَّ اجتمع النَّاس، فأَداروا بينهم الرَّأيَ، فاتَّفقوا مع ابن أَبي ربيعة، أَن يكتبوا على لسان ابن الزُّبير:

«بسمِ اللَّهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيم»

ـ «من عبد اللَّهِ بن الزُّبير عبدِ اللَّه أَمير المؤمنين، إلى المهلّب بن أبي صُفرة، سلامٌ عليك، فإنّي أَحمد إليك اللَّهَ الَّذي لا إله إلاَّ هو».

أَمَّا بعدُ، فإنَّ الحارث بن عبداللَّه كتب إليَّ يذكر الأَزارقةَ المارقةَ، وأنَّهم أصابوا جنداً للمسلمين كان عددهم جمّاً، وأَشرافهم كثيراً، وذكر أَنَّهم قد أَقبلوا نحو البصرة، وقد كنتُ وجَّهتك إلى خراسان، وكتبتُ لك عليها عهداً، وقد رأيتُ حيثُ ذُكر أَمرُ هذه

المارقة أن تخرجَ إليهم، وتلي قتالَهم، ورجوتُ أن يكون ميموناً طايرُك، مباركاً على أهل مصرك، والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خراسان، فَسِرْ إليهم راشداً، فقاتِل عدوَّ اللّه وعدوَّك، ودافع عن حقِّك وحقوق أهل مصرك، فإنّه لن يفوتك من سلطاننا خراسانُ، ولا غيرُ خراسان، إن شاءَ اللّه، والسَّلام عليك ورحمة اللّه وبركاته».

فأُتي المهلَّب بذلك الكتاب فقرأه، فلمّا فهمه، قال:

ـ «فإنّي واللّه لا أسير إليهم إلاّ أن تجعلوا لي ما غلبتُ عليه، وتُعطوني من بيت المال ما أتقوّىٰ به، ومن معي، وأنتخب من فرسان النّاس ووجوههم وذوي الشَّرف مَن أحببتُ».

فقال جميع أهل البصرة:

ـ «ذلك لَكَ».

قال:

ـ «فاكتبوا على الأخماس بذلك كتاباً».

ففعلوا، إلاّ ما كان من مالك بن مِسمع، وطائفةٍ من بكر بن وائلٍ، فاضطغنها عليهم المهلَّب. فقال الأحنف وعُبيد اللّه بن زيادِ بن ظَبيان وأشراف أهل البصرة للمهلّب:

ـ «وما عليك أن لا يكتبِ لك مالكُ بن مِسمع، ولا مَن تابعه من أصحابه إذا أعطاك الّذي أردتَ جميعُ أهل البصرة، وهل يستطيع مالكٌ خلاف جماعة النّاس، أو له ذلك؟ انكمِشْ أيُّها الرَّجل، واعزمْ على أمرك، وسِرْ إلى عدوّك».

ففعل ذلك المهلَّب، وأمَّر على الأخماس. فأمَّر عبيد اللّه بن زياد بن ظبيان على خُمس بكر بن وائلٍ، وأمَّر الحريش بن هلال السَّعدي على خُمس بني تميم.

وجاءَت الخوارج حتّى انتهت إلى الجسر الأصغر عليهم عبيد اللّه بن الماحوز، فخرج إليهم المهلّب في أشراف النّاس وفُرسانهم ووجوههم، فحاربهم عن الجسر ودفعهم عنه، فكان أوّل شيءٍ دفعهم عنه البصرة، ولم يكن بقي لهم إلاّ أن يدخلوها، فارتفعوا إلى الجسر الأكبر. ثمّ عبّى لهم، فسار في الخيل والرِّجال، فلمّا رأوا أن قد أظلَّ عليهم وانتهى إليهم ارتفعوا فوق ذلك مرحلةً أُخرى، فلم يزل يحوزهم مرحلةً بعد مرحلةٍ، ومنزلةً بعد منزلةٍ، حتّى انتهوا إلى منزلٍ من منازل الأهواز يقال له: سُلّى وسُلّبرى، فأقاموا به.

ولمّا بلغ حارثة بن بدر الغُداني أنّ المهلّب قد أُمِّر على قتال الأزارقة، قال لمن اتّبعه وبقي معه من النّاس:

كَـرِبُـوا ودَولِـبُـوا وحيثُ شِئتُم فاذهبُوا
قد أُمِّرَ المُهلَّبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة، فصرفهم الحارث بن عبد اللّه بن أَبي ربيعة إلى المهلَّب. ولمَّا نزل المهلَّب بالقوم، خندق عليه، ووضع المسالحَ، وأذكى العيون، وأَقام الأَحراس، ولم يزل الجند على مصافِّهم والنَّاس على راياتهم وأخماسهم، وأبوابُ الخنادق عليها رجالٌ موكَّلون بها، فكانت الخوارج إذا أرادوا بيت المهلَّب وجدوا أمراً مُحكماً وثيقاً شديداً، فرجعوا ولم يُقابلهم إنسانٌ قطُّ كان أَشدَّ عليهم منه، ولا أَغيظَ لقلوبهم منه.

فمن ذلك أَنَّهم بعثوا عُبيدةَ بن هلالٍ والزُّبيرَ بن الماحوز في خيلين عظيمين ليلاً إلى معسكر المهلَّب، فجاء الزُّبيرُ من جانبه الأيمن، وعبيدةُ من جانبه الأيسر، ثمَّ كبَّروا وصاحوا بالنَّاس، فوجدوهم على تعبئتهم ومصافِّهم حَذِرين مُعَدِّين. فلمّا ذهبوا ليرجعوا، ناداهم عُبيد اللّه بن زياد بن ظبيان، فقال:

وَجَـدتُـمـونـا وُقُـراً أَنـجـاداً لا كُـشُـفـاً خُـوراً ولا أوغـادا

فردُّوا عليه وتشاتموا. فلمَّا أصبح النَّاس أخرجهم المهلَّب على تعبئتهم، وأَخماسهم، ومواقفهم، وخرجت الخوارج على مثل ذلك من التَّعبئة، إلاَّ أَنَّهم أَحسنُ عُدَّةً، وأكرم خيولاً، وأكثر سِلاحاً من أَهل البصرةِ، وذلك أَنَّهم مخروا الأرض وجرَّدوها، وأكلوا ما بين كرمان إلى الأَهواز، فجاؤوا وعليهم مَغافر تُضرب إلى صدورهم، وعليهم دُروعٌ يسحبونها، وسوقٌ من زَردٍ يشدُّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم، والتقى الناسُ، وقاتلوا كأَشدِّ القتال، فصبر بعضُهم لبعضٍ عامَّة النَّهار.

ثمَّ إنَّ الخوارج شدَّت على النَّاس أَجمعِها شدَّةً مُنكرةً، فأَجفل النَّاس وانصاعوا منهزمين لا يلوي امرُؤ على ولدٍ، حتَّى بلغ البصرة هزيمةُ النَّاس، وخافوا السَّبيَ، وأَسرع المهلَّبُ حتَّى سبقهم إلى مكانٍ يفاعٍ في جانب سَنَنِ المنهزمين، ثمَّ نادى النَّاسَ:

ـ «إليَّ إليَّ عبادَ اللّه!».

فثاب إليه جماعة من قومه، وثاب إليه ساريةُ بن عمان، حتَّى اجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف رجلٍ. فلمَّا نظر إلى من اجتمع، رَضِيَ جماعتَهم، فحمد اللّهَ وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّ اللّه يَكِلُ الجمعَ الكثير إلى أنفسهم فيُهزمون، ويُنزل النَّصرِ على الجمعِ اليسير فيَظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلَّةٍ، إنِّي لجماعتكم لَراضٍ، ولأَنتم واللّه أَهلُ الصَّبر وفرسانُ أَهل المصر، وما أُحبُّ أَنَّ أَحداً ممَّن انهزم معكم. لو كانوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالاً. عزمتُ على كلِّ امرئٍ منكم لمَّا أَخذ عشرة أَحجارٍ معه، ثمَّ

امشوا بنا نحو معسكرهم، فإنّهم الآن آمنون وقد خرجت خيلُهم في طلب إخوانكم، فواللّه إنّي لأَرجو أَلاّ ترجع خيلُهم حتَّى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم».

فقبلوا منه وفعلوا ما أَمرهم به، ثمّ أَقبل بهم زحفاً، فلا واللّه ما شعرت الخوارج إلاّ بالمهلّب يضاربهم في جانب عسكرهم، ثمّ استقبلوا عبيد اللّه بن الماحوز وأَصحابَه وعليهم السّلاح والدُّروع كاملاً، فيأخذ الرَّجل من أصحاب المهلّب يستعرض وجه الرَّجل بالحجارة فيرميه حتَّى يُثخنه، ثمّ يطعنه برمحه، ويُضاربه بسيفه، فلم يُقاتلهم إلاّ ساعةً حتَّى قُتل عبيداللّه بن الماحوز، وضرب اللّه وُجوهَ أصحابه، وأَخذ المهلّبُ عسكرَ القوم وما فيه، وقُتل الأَزارقة قتلاً ذريعاً، وأَقبل من كان في طلب أَهل البصرة منهم راجعاً وقد وضع لهم المهلّب خيلاً ورجالاً في الطَّريق تختطفهم وتقتلهم. فانكفأوا راجعين مفلولين مغلوبين، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصبهان. وأَقام المهلّب بالأَهواز، وانصرف الخوارج على تلك الحال من الفلول وقلّة العدد حتَّى جاءتهم مادَّةٌ لهم من قِبل البحرين، فخرجوا نحو كرمان وأصبهان، وأَقام المهلّب، فلم يزل ذلك مكانه حتَّى جاءَ مصعبٌ إلى البصرة، وعزل الحارث بن عبد اللّه بن أَبي ربيعة عنها، وكتب المهلّب بالفتح كتاباً بليغاً.

احتيال المختار وهو في المحبس

وفي هذه المدَّة الَّتي جرىٰ ما حكيناه، كان المختار يحتال من محبسه ويُراسل الشِّيعة، حتَّى اجتمعوا له، فراسله وُجوههم مثل رفاعة بن شدَّادٍ، والمثنَّى بن محرَمة، وسعد بن حُذيفة بن اليمان، ويزيد بن أَنسٍ، وأَحمر بن شُميطٍ، وعبد اللّه بن شدَّادٍ، وقالوا له:

ـ «نحن لك بحيث يسرُّك، فإن شئتَ أَن نأتيك حتَّى نُخرجكَ، فعلنا».

فسُرَّ المختارُ باجتماعهم له وقال:

ـ «لا تُريدُوا هذا، فإنّي خارج في أَيَّامي هذه».

قال:

وكان المختارُ قد بعث غُلاماً له يُدعىٰ رزيناً، إلى عبد اللّه بن عُمر يسأَله أَن يشفع له، فكتب له عبد اللّه بن عُمر كتاباً لطيفاً إلى عبد اللّه بن يزيد وإبراهيم بن محمَّدٍ يقول فيه:

ـ «قد علمتما ما بيني وبين المختار بن أَبي عُبيدٍ من الصِّهر، فأَقسمتُ عليكما بحقِّ ما بيني وبينكم لمَّا خلَّيتما سبيلَه».

فلَمَّا قَرَءَا كتابَه، أَرسلا إلى المختار وكفَّلاه من قومٍ، وحلَّفاه بالَّذي لا إله إلاّ هو

عالم الغيب والشَّهادة، لا يبغيهما غائلةً، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فَعلَ فعليه أَلفُ بدنةٍ ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكُهُ كلُّهم ذَكَرُهم وأُنثاهم أحرارٌ. فحلف لهم بذلك.

فكان المختار بعد ذلك يقول:

ـ «قاتلهم اللَّه، ما أَحمقهم حين يَرونَ أَنّي أَفِي لهم باليمين الَّتي حلَّفونيها. أمّا يميني لهم باللَّه، فإنَّه ينبغي لي إذا حلفتُ على يمينٍ، فرأيتُ ما هو خيرٌ منها، أَن أَدعَ ما حلفتُ عليه، وآتِيَ الَّذي هو خيرٌ، وأُكفِّرَ عن يميني، وأَمَّا هذه البدنةُ فأَهون عَليَّ من بَصقةٍ، وما ثمن أَلف بدنةٍ مِمَّا يَهولُني، وأَمَّا عِتقُ مَوالِيَّ، فواللَّه، لَوددتُ أَنَّه قد استتبَّ لي أَمري ثمَّ لم أَملِك مملوكاً أَبداً».

ثمَّ اختلفت الشِّيعة إلى المختار، ولم يزل يُبايعُ له ويَقوىٰ أَمرُه حتَّى عزل ابنُ الزُّبير عبدَ اللَّه بن يزيد، وإبراهيم بن محمَّد، وبعث عبدَ اللَّه بن مُطيع على عملهما إلى الكوفة، فقدِمَ عبد اللَّه بن مُطيع، وطلب المختار، وبعث إليه من يَثِقُ به لِيأتيه به، فتمارض المختار، وأَلقى عليه قطيفةً وجعل يتقفقفُ. فأَقبل صاحبُ عبد اللَّه بن مُطيع وأَخبرهُ بعلَّتِهِ، فصدَّقهُ، ولَهىٰ عنه. وبعث المختار إلى أَصحابه، فأَخذ يجمعهم في الدُّور حولَهُ ويُواطِئُ أَصحابَه على الوثوب بالكوفة في المحرَّم ويدعوهم إلى المهديِّ محمّد ابن الحنفيَّة، ويزعم أَنَّه وزيرُه وخليلُه والشِّيعةُ مجتمعةٌ له.

فتلاقى القومُ يوماً، فاجتمع رُؤَساؤُهم في منزل سعر بن أَبي سعر الحنفيِّ وفيهم عبد الرحمن بن شُريحٍ، وكان عظيم الشَّرف، وسعيدُ بن مُنقذٍ، والأَسودُ بن جراد، وقدامةُ بن مالك الجُشَمِيُّ، وقالوا:

ـ «إنَّ المختار يُريد أَن يخرج بنا وقد بايعناه، ولا ندري: أَرسله إلينا محمَّد ابن الحنفيَّة أَم لا؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفيَّة، فَلنُخبره بما قدم علينا وما دعانا إليه، فإن رخَّص لنا في اتِّباعه اتَّبعناهُ، وإن نهانا عنه اجتنبناه».

فخرجوا، فلحقوا بابن الحنفيَّة وإمامُهم عبد الرَّحمن بن شُريح.

قال الأَسود بن جراد: فقلنا لابن الحنفيَّة:

ـ «إنَّ لنا إليك حاجةً».

قال:

ـ «أَفَسِرٌّ هي، أَم علانيةٌ؟».

فقلنا:

ـ «لا، بل هي سِرٌّ».

قال:

ـ «فرويداً إذاً».

فمكث قليلاً، ثمَّ تنحَّى عن مجلسه، وانفردَ، فدعانا، فقُمنا إليه، فبدأ عبد الرَّحمن بن شُريح، فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّكم أهل بيتٍ خصَّكم اللَّه بالفضيلة، وشرَّفكم بالنُّبُوَّة، وعظَّم حقَّكم على هذه الأمَّة، فلا يجهل حقَّكم إلاَّ مغبون الرَّأي، منحوس النَّصيب، وقد أُصِبتم بالحسين ـ رحمة اللَّه عليه ـ فخَصَّتكم مصيبتُهُ وقد عمَّت المسلمين. وقدم علينا المختار يزعم أنَّه قد جاءَنا من تلقائكم، ودعانا إلى كتاب اللَّه وسنَّة نبيِّه، وإلى الطَّلب بدماءِ أهل البيت، والدَّفع عن الضُّعفاء، فبايعناهُ على ذلك، ثمَّ رأينا أن نأتيَكَ فنذكر لكَ ما دعانا إليه، فإن أمرتَنا باتِّباعه اتَّبعناهُ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناهُ».

ثمَّ تكلَّمْنا واحداً واحداً وهو يستمع، حتَّى إذا فرغ من الاستماع وفرغنا من الكلام، حمد اللَّهَ وأثنىٰ عليه، وصلَّى على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ ثمَّ قال:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّكم ذكرتم ما خصَّنا اللَّه به من فضله، وإنَّ اللَّهَ يُؤتيهِ مَن يشاءُ واللَّهُ ذو الفَضلِ العظيم، فله الحمدُ. أمَا ما ذكرتم من مصيبتنا بالحسين، فإنَّ ذلك كان في الذِّكر الحكيم، وهي مَلحَمَةٌ كُتبت عليه، وكرامةٌ أهداها اللَّه له، رفع اللَّه بما كان منها درجاتِ قوم عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر اللَّه قدراً مقدوراً. وأمَّا ما ذكرتم مِن دُعاءِ مَن دَعَاكم إلى الطَّلب بدمائنا، فواللَّه، لَودِدْتُ أنَّ اللَّه انتصر لَنا من عدوِّنا بمن شاءَ من خلقه، أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم».

قال: فخرجنا من عنده ونحن نقول: قد أَذن لنا، ولو كره لَقال: لا تفعلوا!.

قال: فجِئنا وقومٌ من الشِّيعة، ينتظرون مقدمِنا مِمَّن كُنّا أعلمناهُ مَخرجَنا وأطلعناهُ على ذات أنفسنا ممَّن كان على رأيِنا من إخواننا، وقد كان بلغ المختارَ مَخرجُنا، فشقَّ ذلك عليه، وخَشِيَ أن نأتيه بأمرٍ يخذِّل الشِّيعةَ عنه، وكان قد أرادهم على أن ينهض بهم قبل مقدمنا فلم يتهيَّأ له ذلك، فلم يكن إلاَّ شهراً وزيادة شيءٍ حتَّى أقبل القوم على رواحلهم، ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم، فقال لهم:

ـ «ما وراءَكم؟ قد فُتِنتم وارتبتم؟».

فقالوا له:

ـ «قد أُمرنا بنصرتك».

فقال:

ـ «اللَّه أكبر، أَنا أبو إسحاق، اجمعوا لي الشّيعة».

فجُمع له منهم من كان قريباً، فقال:

ـ «يا معشر الشِّيعة، إنَّ نفراً منكم أَحبُّوا أَن يعلموا مصداقَ ما جئتُ به، فرحلوا إلى إمام الهدىٰ، والنَّجيب المرتضىٰ، وابن خير من مشىٰ، حاشى النَّبيّ المصطفىٰ، فسألوهُ عمَّا قدمت له عليكم، فنبَّأهم أَنّي وزيرُه وظهيرُه ورسولُه وخليلُه وأَمركم باتِّباعي وطاعتي».

فقام عبد الرحمن بن شريح فقال:

ـ «يا معشر الشِّيعة، إنَّا كُنّا أَحببنا أَن نستثبت لأَنفسنا خاصَّة، ولجميع إخواننا عامَّةً، فقدمنا على المهديِّ بن عليٍّ، فسأَلناهُ عن حربنا، وعمَّا دعانا إليه المختار منها، فأَمرنا بمظاهرته ومؤازرته، فأَقبلنا طيِّبةً أَنفسُنا، منشرحةً صدورُنا، قد أَذهب اللَّه منها الشَّكَّ والغِلَّ والرَّيب، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدوِّنا، فليبلُغ هذا شاهدُكم غائِبكم، واستعدُّوا، وتأَهَّبوا».

ثمَّ جلس وقُمنا رجلاً رجلاً، فتكلَّمنا بنحوِ من كلامه، فاستجمعت له الشِّيعة، وحدبتْ عليه.

ذكر رأيٍ سديدٍ أُشير به على المختار وما كان مِن تأَتّي المختار له حتَّى تمَّ له كما أَحبَّ

قال عامرٌ الشَّعبي: كنتُ أَنَا وأَبي أَوّل من أَجاب المختار، فلمَّا تهيَّأَ أَمره ودَنا خروجه. قال له أَحمر بن شُميطٍ، ويزيد بن أَنسٍ، وعبد اللَّه بن شدَّادٍ:

ـ «إنَّ أَشراف أَهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع، ونحن نضعف عنهم، فلو جاءَ مع أَمرنا إبراهيم بن الأَشتر رجونا بإذن اللَّه، القُوَّةَ علىٰ عدوِّنا، فإنَّه فتًى بئيسٌ وابن رجلٍ شريفٍ بعيد الصَّوت، وله عشيرة ذات عزٍّ وعددٍ».

فقال لهم المختار:

المختار يُرسل إلى ابن الأَشتر ويدعوه

ـ «فالقَوهُ وادعُوه وأَعلِمُوه ما أُمرنا به من الطَّلب بدم الحسين».

قال الشَّعبي: فخرجوا إليه وأَنَا فيهم وأَبي وتكلَّم يزيد بن أَنسٍ، فقال له:

ـ «إنَّا قد أَتيناك في أَمرٍ نعرضه عليك وندعوك إليه، فإن قبلتَه كان خيراً لك، وإن تركته فقد أَدَّينا إليك النَّصيحة، ويجب أَن تكون عندك مستوراً».

فقال له إبراهيم بن الأَشتر:

ـ «مِثلي لا تُخاف غائلتُهُ وسِعايتُهُ، ولا التَّقرُّب إلى السُّلطان باغتياب النَّاس، وإنَّما

أُولئك، الصِّغار الأَخطار الدِّقاق هِمَماً».

فقالوا له:

ـ «إنَّا ندعوك إلى أَمرٍ قد أَجمع رأيُ الملأ من الشِّيعة، كتاب اللّه، وسنّة نبيِّه، والطَّلب بدماءِ أَهلِ البيت، والدَّفع عن الضُّعفاءِ».

وتكلَّم أَحمر بن شُميط، فقال له:

ـ «إنِّي ناصحٌ ولِحظِّكَ مُحبُ، وإنَّ أَباك قد هلك وهو سيِّد النَّاس، وفيك منه خلفٌ إن رَعيتَ حقَّ اللّه وقد دعوناك إلى أَمرٍ إن أَجَبتَنا إليه عادت لك منزلةُ أَبيك في النَّاس، وأحييتَ أَمراً قد مات. إنَّما يكفي مثلك اليسير حتَّى يبلغ الغايةَ الَّتي لا مذهبَ وراءَها».

ثمَّ أَقبل عليه القوم يدعونه ويُرَغِّبونَهُ.

فقال لهم إبراهيم:

ـ «فإنِّي أُجيبكم إلى الطَّلب بدم الحسين وأَهل بيته على أَن تولُّوني الأَمر».

فقالوا:

ـ «أَنت لذلك أَهلٌ ولكن ليس إلى ذلك سبيلٌ. هذا ـ قد جاءَنا من قِبل المهديِّ، وهو الرَّسول والمأمور بالقتال، وقد أُمرنا بطاعته».

فسكت عنهم ابن الأَشتر ولم يُجبْهم، وانصرفنا من عنده إلى المختار وأَخبرناهُ، فغبر ثلاثاً.

ثمَّ إنَّ المختار دعا بضعة عشر رجلاً من وُجوه أَصحابه ـ قال الشَّعبي ـ وأَنا وأَبي فيهم، فسار بنا، ومضىٰ أَمامنا يقدُّ بنا بيوت الكوفة قدّاً لا ندري أين يُريد، حتَّى وقف بنا على باب إبراهيم بن الأَشتر، فاستأذنَّا عليه، فأَذن لنا وأُلقيت لنا وَسائدُ، فجلسنا عليها، وجلس المختار معه على فراشه.

فقال المختار بعد أَن حمد اللّه وأَثنى عليه، وصلَّى على محمَّدٍ ﷺ:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإنَّ هذا كتابٌ إليك من المهديِّ محمدً بن عليٍّ أَمير المؤمنين الرِّضا، وهو اليوم خير أَهل الأَرض، وابنُ خير أَهل الأَرض كلِّها قبل اليوم بعد الأَنبياءِ، وهو يسأَلك أَن تنصرنا وتؤازرنا، فإن فعلتَ اغتبطت، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجَّةٌ عليك، وسيُغني اللّه المهديَّ محمَّداً وأَولياءَهُ عنك».

قال الشَّعبي: وكان المختار قد دفع الكتاب إليَّ حين خرج من منزله، فلمَّا قضىٰ كلامَه قال لي:

- «دفع الكتاب إليه».

فدفعتُه إليه، فدعا بالمصباح، وفضَّ خاتمَهُ، ثمَّ قرأ فإذا هو:

- «بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم، من محمَّد المهديِّ إلى إبراهيم بن الأشتر، سلامٌ عليك، فإنِّي أحمد إليك اللّه الَّذي لا إلَه إلا هو. أمّا بعدُ، فإنِّي قد بعثتُ إليكم بوزيري وأميني ونجيبي الَّذي ارتضيتُ لنفسي المختارَ، وقد أمرتُه لقتالِ عدوِّي والطَّلب بدماءِ أهلِ بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومَن أطاعك، فإن نصرتني وأجبتَ دعوتي وساعدتَ وزيري كانت لك به فضيلةٌ عندي، ولك بذلك أعِنَّةُ الخيل، وكلُّ جيشٍ غازٍ، وكلُّ مِصرٍ ومنبرٍ وثغرٍ ظهرتَ عليه في ما بين الكوفة وأقصى بلاد الشَّام، عليَّ بالوفاءِ به، عهدُ اللّه وميثاقُه، فإن فعلتَ نِلتَ به عند اللّه أفضل الكرامة، وإن أبيتَ هلكتَ هلاكاً لا تستقيله. والسَّلام».

فلمَّا قرأ إبراهيم الكتابَ، قال:

- «قد كتبَ إليَّ محمَّد ابن الحنفيَّة وكتبتُ إليه قبل اليوم، فما كان يكتب إليَّ إلاَّ باسمه واسم أبيه».

قال له المختار:

- «إنَّ ذلك زمانٌ وهذا زمانٌ».

قال إبراهيم:

- «فمَن يعلم أنَّ هذا كتاب محمَّد ابن الحنفيَّة إليَّ؟».

فقال له يزيد بن أنسٍ وأحمر بن شُميطٍ وعبد اللّه بن كاملٍ وجماعةٌ.

- «نشهدُ كُلُّنا أنَّ هذا كتابُ محمَّد ابن الحنفيَّة».

إبراهيم بن الأشتر يبايع المختار

قال الشَّعبيُّ: فشهدوا كلُّهم إلاّ أنَا وأبي. قال: فتأخَّر عند ذلك إبراهيم عن صدر الفراش، وأجلس المختارَ عليه، وقال:

- «ابسطْ يدَكَ أُبايعك».

فبسط المختار يَدَهُ، فبايعه. قال الشَّعبي: ثمَّ دعا لَنا بفاكهةٍ، فأصبنا منها، ودَعا لَنا بشرابٍ من عسلٍ، فشربنا، ثمَّ نهضنا وخرج معنا ابن الأشتر، فركب المختار، وركب معه حتَّىٰ دخل رحلَهُ.

فلمَّا رجع إبراهيم منصرفاً أخذ بيدي، فقال لي:

- «انصرف بنا يا شعبيُّ».

قال: فانصرفتُ معه، ومضى بي حتَّى دخل رحلَه، وقال:

ـ «يا شعبيُّ، إنِّي قد حفظتُ أنَّك لم تشهدْ أنت ولا أبوك أفترى هؤلاءِ شهدوا على غير حقٍّ؟».

قال، فقلت:

ـ «قد شهدوا على ما رأيت، وهم سادةُ القُرَّاءِ، ومشيخة المصر، وفرسان العرب، ولا أرىٰ مثل هؤلاءِ يقولون إلاَّ حقّاً».

قال:

فواللّه، لقد قُلْتُ هذه المقالة وأَنَا لهم مُتَّهِمٌ على شهادتهم، غير أَنِّي يُعجبني الخروجُ وأَنَا أرىٰ رأيَ القومِ، وأُحِبُّ تمامَ ذلك الأمرِ، فلم أُطْلِعْهُ على ما في نفسي من ذلك.

فقال لي إبراهيم بن الأَشتر:

ـ «اكتبْ لي أَسماءَهم، فإنِّي ليس كلَّهم أَعرفُ».

ودعا بصحيفةٍ، ودواةٍ، فكتب فيها:

ـ «بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم. هذا ما شهد عليه السَّائب بن مالكٍ الأَشعري، وزيد بن أَنسٍ الأَسديّ، وأَحمر بن شُميطٍ الأَحمسيّ، ومالك بن عَوفٍ النَّهدي.. (حتَّى أَتىٰ على أسماءِ القوم، ثمَّ كتبَ:) شهدوا أَنَّ محمَّد بن عليٍّ كتب إلى إبراهيم بن الأَشتر يأمرهُ بمؤازرة المختار ومظاهرته على قتال المُحِلِّين، والطَّلب بدماءِ أَهل البيتِ، وشهد على هؤلاءِ النَّفر الّذين شهدوا بهذه الشَّهادة شراحيل بن عبد اللّه، وهو أَبو عامر الشّعبيُّ الفقيه، وعبد الرَّحمن بن عبد اللّه محمَّد النَّخعيّ، وعامر بن شراحيل الشعبيّ».

فقلت:

ـ «ما تصنع بذلك ـ رحمك اللّه ـ فقال:

ـ «دَعْهُ يكونُ».

قال: ودعا إبراهيم عشيرتَه وإخوانه ومَن أَطاعه، وأَقبلَ يختلف إلى المختار».

خروج المختار

قال هشامٌ، قال أَبو مخنفٍ:

فكان إبراهيم يروح كلَّ عشيَّةٍ عند المساءِ إلى المختار، فيمكثُ عندهُ حتَّى تصوبَ النُّجوم، ثمَّ ينصرف. فمكثوا بذلك يدبِّرون أَمرهم، حتَّى اجتمع رأيُهم على أن يخرجوا

ليلة الخميس لأَربع عشرة من ربيع الأَوَّل سنة ستٍّ وستِّين، ووَطَّنَ على ذلك شيعتَهم ومَن أَجابهم.

فلمَّا كان عند غروب الشَّمس، قام إبراهيم بن الأشتر، فأَذَّنَ، ثمَّ استقدم، فصلَّى بنا المغربَ، ثمَّ خرج بنا بعد المغرب حين قلت: أخوكَ أو الذِّئبُ، وهو يريد المختار، فأَقبلنا علينا السِّلاحُ.

ما كان من قِبل عبد اللَّه بن مطيع

وقد كان أَتىٰ إياسُ بن مضاربٍ عبدَ اللَّه بن مطيعٍ، فقال له:

ـ «إنَّ المختار خارجٌ إحدى اللَّيلتين».

فخرج إياسٌ في الشُّرطة، وكان إياسٌ أَشار على ابن مطيع، فقال له:

ـ «قد بعثتُ ابني إلى الكُناسة، فابعث في كلِّ جبَّانةٍ عظيمة بالكوفة رجلاً من أَصحابك في جماعةٍ من أَهل الطَّاعةِ لِيهابَ المريبُ الخروجَ عليك».

فبعث ابن مطيعٍ عبدَ الرَّحمن بن سعيد بن قيسٍ إلى جبَّانة السُّبَيع، وقال:

ـ «اكفِني قومَكَ، ولا أُوتَيَنَّ من قِبَلِكَ».

وبعث بجماعةٍ يجرون مجراهُ إلى الجبابين ووصَّاهم أَن يكفيه كلُّ رجلٍ قومَهُ، وأَن يحكم الوجه الَّذي وجَّهه فيه، وبعث شبث بن ربعي إلى السَّبخة، وقال:

ـ «إذا سمعتَ صوت القوم توجَّهْ نحوهم».

فكان هؤلاءِ قد خرجوا يوم الاثنين، فنزلوا الجبابين، وخرج إبراهيم بن الأَشتر من رحله بعد المغرب يريد إتيان المختار وقد بلغه أَن الجبابين قد حُشِيتْ رجالاً وأَنَّ الشُّرَطَ قد أَحاطت بالسُّوق والقصر.

فقال حميد بن مسلم ـ وكان صديقاً لإبراهيم بن الأَشتر يصير كلَّ ليلةٍ إلى المختار:

خرجتُ مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلة الثَّلاثاءِ حتَّى مررنا بدار عمرو بن حُريثٍ ونحن مع ابن الأَشتر كتيبةٌ نحو مائةٍ، علينا الدُّروعُ قد كفَّرنا عليها بالأَقبية ونحن متقلِّدو السُّيوف ليس معنا سلاحٌ غيره، فقلت لإبراهيم:

ـ «خُذ بِنا في الأَزقَّة وتجنَّبِ السُّوقَ».

وأَنا أَرى أَنَّه يأخذ على ناحية بجيلة ويخرج إلى دار المختار، فلا يلقانا مَن نكترث له.

وكان إبراهيم فتًى حدثاً شجاعاً فكان لا يكره أَن يلقاهم، فقال:

ـ «واللّه، لأَمُرَّنَّ على دار عمرو بن حُريثٍ إلى جانب القصر وسط السُّيوف، فلأُرعِبَنَّ عدوَّنا ولأُرينَّهم هوانهم علينا».

قال: فأَخذنا على باب الفيل. ثمَّ على دار عمرو بن حُريثٍ حتَّى إذا جاوزناها لقِيَنا إياسُ بن مُضاربٍ في الشُّرطة مُظهرين السِّلاحَ، فقال لنا:

ـ «من أَنتم؟» فقال:

ـ «إبراهيم بن الأَشتر».

فقال له ابن مضاربٍ:

ـ «ما هذا الجمع الَّذي معك، وما تُريد؟ واللّه إنَّ أَمرك لمريبٌ، ولقد بلغني أَنَّك تمرُّ كلَّ عشيَّةٍ، هاهنا، وما أَنَا بتاركك حتَّى آتي بك الأَميرَ، فيرى فيك رأيَهُ».

فقال إبراهيم:

ـ «لا أَباً لغيرك، خلِّ سبيلَنا». قال:

ـ «كلاَّ واللّه، لا أَفعل».

ومع إياسٍ رجل من هَمْدان يُقال له: أبو قَطَنٍ كان يصحب أُمَراءَ الشُّرطة، فهم يكرمونه ويوثرونه وكان صديقاً لابن الأَشتر، فقال ابنُ الأَشتر:

ـ «يا أبا قَطَنٍ، ادْنُ منِّي».

ومع أَبي قَطَنٍ رمح طويل، فدَنا أَبو قطن منه ومعه الرُّمح وهو يَرىٰ أَنَّ ابن الأَشتر يطلب إليه أَن يشفع له إلى ابن مضارب، لِيُخلِّيَ سبيلَهُ. فقال إبراهيم، وتناول الرُّمح من يده:

ـ «إنَّ رمحك هذا لطويلٌ».

ثمَّ حمل به إبراهيم بن الأَشتر على ابن مضارب، فطعنه في ثغرة نَحرِه، فصرعه، وقال لرجلٍ من قومه:

ـ «انزل، فاحتزَّ رأسَه».

فنزل إليه، فاحتزَّ رأسَه، وتفرَّق أَصحابُه، ورجعوا إلى ابن مطيع. فبعث ابن مطيعٍ ابنَه راشداً مكانَ أَبيه على الشُّرط، وبعثَ مكان راشد بن إياسٍ سُويدَ بن عبد الرَّحمنِ المنقريّ تلك اللَّيلة، وأَقبل إبراهيم الأَشتر إلى المختار ليلة الثُّلاثاء، فدخل عليه، فقال له إبراهيم:

ـ «إنَّا اتَّعدنا للخروج ليلةَ الخميس وقد حدث أَمرٌ لا بُدَّ من الخروج اللَّيلةَ».

قال المختار:

ـ «وما هو؟» قال:

ـ «عرض لي إياسُ بن مضارب في الطَّريق ليحبسني بزعمه، فقتلتُه وهذا رأسُهُ مع أَصحابي على الباب».

فقال المختار:

ـ «فبشَّرك اللَّه بخيرٍ، فهذا طائرٌ صالحٌ، وهو أَوَّل الفتح، إن شاءَ اللَّهُ».

ثم قال المختار:

ـ «قُم يا سعيد بن منقذ، فأَشعِل النَّارَ في الهراديِّ، ثمَّ ارفعها للمسلمين، وقُمْ يا عبدَ اللَّه بن شدَّادٍ، فنادِ: يا منصورُ أَمِتْ، وقُمْ أَنت يا قدامة بن مالك، فنادِ: يا لَثاراتِ الحسين».

ثم استدعى المختار دِرعَه وسِلاحَه، فأُتِيَ به، فلبسه.

فقال إبراهيم للمختار:

ـ «إنَّ هؤلاءِ الرُّؤوس الَّذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين، يمنعون إخواننا أَن يأتونا ويُضَيِّقون عليهم، فلو أَنِّي خرجتُ بمن معي حتَّى آتِيَ قومي فيأتيني كلُّ مَن بايعني منهم، ثمَّ سِرتُ بهم في نواحي الكوفة، ودعوتُ بشعارنا، فخرج إليَّ من أَرادَ الخروج إلينا، ومن قدر على إتيانك من النَّاسِ، فمَن أَتاك من النَاس حبستَه عندك إلى مَن معك، ولم تفرِّقْهم، فإن عُوجِلتَ وأُتيتَ، كان معك مَن تمتنع به، وأَنَا لو قد فرغتُ من هذا الأَمر عجلتُ إليك في الخيل والرِّجال».

قال له:

ـ «فاعجلْ، وإيَّاك أَن تسيرَ إلى أَميرهم تُقاتله، ولا تُقاتل أَحداً وأَنت تستطيع أَلاَّ تُقاتل، واحفظْ ما وصَّيتكَ به، إلاَّ أَن يبدأَك أَحدٌ بقتالٍ».

فخرج إبراهيم بن الأَشتر من عنده في الكتيبة الَّتي أَقبل فيها حتَّى أَتىٰ قومَه، فاجتمع إليه جُلُّ مَن كان بايعه وأَجابه. ثمَّ إنَّه سار بهم في سكك الكوفة طويلاً وهو يتجنَّب السِّكك الَّتي فيها الأُمراء حتَّى انتهى إلى مسجد السَّكون. فعجلت إليه خيلٌ لزَحْر بن قيسٍ، فشدَّ عليهم إبراهيم وأَصحابُه، فكشفوهم حتَّى انتهوا إلى زَحْر بن قيسٍ، فانصرف عنهم وركب بعضهم بعضاً كلَّما لقيهم زقاقٌ دخل فيه منهم طائفة، فانصرفوا يسيرون، ثمَّ خرج إبراهيم يسير حتَّى انتهى إلى جبَّانة أُثيرَ، فوقف فيها طويلاً ونادىٰ أَصحابُه بشعارهم، فبلغ سويد بن عبد الرَّحمن المِنقري مكانَهم في جبانة أُثيرَ، فرجا أَن يُصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيعٍ، فلم يشعر ابن الأَشتر إلاَّ وهم معه في الجبّانة.

فلمَّا رأَى ذلك ابن الأَشتر قال لأصحابه:

ـ «يا شُرطة اللَّه انزلوا إلى هؤلاءِ الفُسّاق الَّذين خاضوا في دماءِ أَهل بيتِ

رسول اللّه ﷺ».

فنزلوا، ثمّ شدّ عليهم إبراهيم فضربهم حتّى أخرجهم إلى الصّحراءِ، وولّوا منهزمين يركب بعضهم بعضاً وهم يتلاومون، فيقول قائلٌ منهم:

ـ «إنّ هذا لأَمرٌ يُراد، ما يلقَون لنا جماعةً إلاّ هزمونا».

ولم يزل إبراهيم يهزمهم حتّى أَدخلهم الكناسة.

وقال أَصحاب إبراهيم لإبراهيم:

ـ «اتّبعهم واغتنم ما قد دخلهم من الرُّعب، فقد علم اللّه إلى مَن تدعو وما تطلب، وإلى ما يدعون وما يطلبون». قال:

ـ «لا، ولكن سيروا بنا إلى صاحبنا حتّى يؤمن اللّه بنا وحشتَه ويكون من أمره على علم، ويعرفَ هو أَيضاً ما كان من غَنائنا فيزدادَ هو وأَصحابه قوّةً وبصيرة إلى قُواهم وبصائرهم، مع أنّي لا آمَنُ أن يكون قد أُتِيَ».

فأَقبل إبراهيم في أَصحابه، فلمّا أَتى دارَ المختار وجد الأَصوات عاليةً والقوم يقتتلون وقد جاء شبث بن ربعي من قِبَلِ السَّبخة، فعبّى له المختار والنّاس يقتتلون، وجاءَ إبراهيم من قِبَل القَصر، فبلغ حجّاراً وأَصحابَه أَنّ إبراهيم قد جاءَهم من ورائهم، فتفرّقوا قبل أن يأتيهم إبراهيم وذهبوا في الأَزقّة والسِّكك، وحملت طائفةٌ من أَصحاب المختار على شبث بن ربعيٍّ وهو يقاتل يزيد بن أَنسٍ، فخلّى لهم الطّريق حتّى اجتمعوا جميعاً. ثمّ اضطُرّ شبثٌ إلى أن ترك لهم السِّكّة.

وأقبل شبثٌ حتّى أَتى ابن مطيع، فقال له:

ـ «ابعث إلى أُمراءِ الجبابين ليأتوك، فاجمع إليك جميع النّاس، ثمّ انهد إلى هؤلاءِ القوم فقاتلهم، وابعث إليهم مَن تَثِقُ به فليكفِكَ قتالَهم، فإنّ أَمر القوم قد قوي وقد ظهر المختار، واجتمع له أَمره».

وبلغ ذلك المختارَ من مشورة شبثٍ على ابن مطيع، فخرج في جماعةٍ من أَصحابه حتّى نزل في ظهر دير هندٍ ممّا يلي بُستانَ زائدةَ في السَّبَخَةِ، وخرج أَبو عثمان النَّهدي، فنادى في شاكرٍ وهم مجتمعون في دورهم يخافون أَن يظهروا في الميدان لِقرب كعب بن أبي كعب منهم. وكان كعبٌ هذا قد أَخذ عليهم بأَفواه السِّكك حين بلغه أَنّهم يخرجون، وسدّ طرقَهم. فلمّا أَتاهم أَبو عثمان النَّهدي في عصابةٍ من أَصحابه، نادىٰ:

ـ «يا لَثاراتِ الحسين، يا منصورُ أَمِتْ، يا أَيُّها الحيُّ المهتدون، أَلا إنّ أَمين آل محمّدٍ قد خرج، فنزل دير هندٍ، وبعثني دعياً ومبشِّراً، فاخرجوا إليه، رحمكم اللّه».

فخرج القوم من الدُّور يتداعون:

ـ «يا لَثاراتِ الحسين».

ثمَّ ضاربوا كعب بن أَبي كعبٍ حتَّى خلَّى لهم الطَّريق، فأَقبلوا إلى المختار حتَّى نزلوا معه في عسكره، وخرج عبد اللَّه بن قُرادٍ في جماعة من خثعم نحو المائتين، حتَّى لحق بالمختار، ونزلوا معه في عسكره وقد كان عرض لهم كعب بن أَبي كعبٍ، فلمَّا عرفهم ورأى أَنَّهم قومُه خلَّى عنهم ولم يُقاتلهم، وخرجت شبامٌ إليهم فتوافىٰ إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائةٍ من جملة اثني عشر أَلفاً كانوا بايعوه، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر، فأَصبح وقد فرغ من تعبئَته.

ثمَّ إنَّ ابن مطيع بعث إلى أَهل الجبابين، فأَمرهم أَن ينضمُّوا إلى المسجد، وقال لراشد بن إياس بن مضاربٍ:

ـ «نادِ في النَّاس فليأتوا المسجد».

فنادى المنادي:

ـ «أَلا برئَتِ الذِّمَّةُ من رجلٍ لم يحضر المسجد اللَّيلَة».

فتوا في النَّاس في المسجد، فلمَّا اجتمعوا، بعث ابن مطيع شَبثَ بن ربعيٍّ في نحو ثلاثة آلافٍ إلى المختار، وبعث راشد بن إياسٍ في أَربعة آلافٍ إلى المختار، وبعث راشد بن إياسٍ في أَربعة آلافٍ من الشُّرَط.

فسرَّح المختار إبراهيم بن الأَشتر قبل راشد بن إياسٍ في تسعمائة مقاتلٍ، ويقال: في ستِّمائَة فارسٍ وستِّمائَة راجلٍ، وبعث نُعيم بن هُبيرة أَخَا مَصقَلة بن هُبيرة في ثلاثمائَة فارسٍ وستِّمائة راجلٍ نحو شبثٍ، وقال لهما:

ـ «امضيا حتَّى تلقيا عدوَّكما، وإذا لقيتماهم، فانزلا في الرِّجال وعجِّلا القِراعَ، وابدآهم بالإقدام، ولا تستهدفا لهم فإنَّهم أَكثر منكم، ولا ترجعا إليَّ حتَّى تَظهرا، أَو تُقتَلا».

فتوجَّه إبراهيم بن الأَشتر إلى راشدٍ وقدَّم ـ يزيد بن أَنسٍ في تسعمائَةٍ، أَمامه، وتوجَّه نُعيم بن هُبيرة قِبَل شبثٍ.

فقال سِعْر بن أَبي سِعْر: لمّا انتهينا إلى شبثٍ قاتلناهُ قتالاً شديداً، فجعل نعيم بن هبيرة يُضاربهم حتَّى أَشرقت الشَّمس، وضربناهم حتَّى أَدخلناهم البيوتَ، فسمعتُ شبث بن ربعيّ ينادي أَصحابه:

ـ «يا حُماة السُّوءِ، بِئسَ فُرسان الحقائق أَنتم، أَمن عبيدكم تهربون؟».

قال: فثابت إليه منهم جماعةٌ، فشدَّ علينا وقد تفرَّقنا وهُزمنا. فصبر نعيم بن هبيرة فقُتل، ونزل سِعْر بن أَبي سِعر فأُسِر، وأُسِرتُ أَنَا وأُسر خُليدٌ مولى حسَّان، وأُسِر أَبو سعيد الصَّيقل.

قال: فسمعتُ أَبَا سعيد الصَّيقل هذا يقول: سمعتُ شبث بن ربعي يقول لخليدٍ:

- «مَن أنت؟». قال:

- «خُليدٌ مولى حسَّانٍ».

فقال له شبثٌ:

- «يَابنَ المَتكاءِ، تركتَ بيعَ الصِّحناءِ بالكناسة، وكان جزاءُ مَن أَعتقك أَن تعدوَ عليهم بسيفك تضرب رقابهم. اضربوا عُنُقَه».

فقُتل، ورأَى سِعراً الحنفيَّ، فعرفه، فقال:

- «أَخو بني حنيفة؟»، فقال:

- «نعم». فقال:

- «ويحك! ما أَردتَ إلى اتِّباع هؤلاءِ السَّبائيَّة، قبّح اللّه رأيَك؟ دَعُوا إذا».

فقلتُ في نفسي: قتلَ المولىٰ وترك العربيَّ، إن علم أَنّي مولى قَتَلَني، فلمَّا عُرِضَتُ عَليهِ، قال: «مَن أنتَ؟» فقُلتُ:

- «مِن بني تيم اللّه»، قال:

- «أعربيٌّ أنتَ أَم مولى»، فقلتُ:

- «لا، بل عربيٌّ، أَنَا من آلِ زياد بن أَبي حفصة»، فقال:

- «ذكرت الشَّرفَ المعروفَ، الحَقْ بأَهلك».

فأَقبلتُ حتَّى انتهيت إلى الحمراءَ، وكانت لي بصيرةٌ في قتال القوم، فجئتُ إلى المختار، وقد وضعتُ في نفسي أَن آتي أصحابي حتَّى أُقتل معهم أَو أَظفر بِظفرهم.

قال: فأَتيتُه وقد سبقني إليه سعرٌ الحنفيّ وجاءَهُ قتلُ نُعيم وأقبلتْ إليه خيل شبث، فدخل من ذلك أَصحابَ المختار أَمرٌ كبيرٌ.

قال: فدنوتُ من المختار، فأَخبرته بما كان من أَمري، فقال لي:

- «اسكت، فليس هذا بمكان الحديث».

وجاءَ شبثٌ حتَّى أَحاط بالمختار وبيزيد بن أَنسٍ، وكان ابن مطيع أَنفذ ابن رُوَيم في ألفَين من قِبل سِكَّة لحَّام، فوقفوا في أَفْواه تلك السِّكك، وجعل المختار يزيدَ بنَ أَنسٍ على خيله، وخرج هو في الرَّجَّالة.

قال: فحملتْ علينا خيلُ شبث حملتين فما يزول رجلٌ منا من مكانه، فقال يزيد بن أَنسٍ لَنا:

ـ «يا معشر الشّيعة، قد كنتم تُقتلون، وتُقطع أَيديكم وأَرجُلكم وتُسمل عُيونكم، وتُرفعون على جذوع النَّخل في حُبِّ أَهل بيتِ نبيِّكم وأَنتم مقيمون في بيوتكم وطاعةِ عدوِّكم، فما ظنُّكم بهؤلاءِ القوم إن ظهروا عليكم اليوم، إذاً واللّه لا يَدَعون منكم عيناً تَطرفُ، ولَيقتُلُنَّكم صبراً، ولَتَرُونَّ في أَولادكم وأَزواجكم وأَموالكم ما الموتُ خيرٌ منه. واللّه، لا يُنجيكم منهم إلاّ الصِّدقُ والصَّبرُ والطَّعنُ الصَّائب في أَعينهم، والضَّربُ الدِّراكُ على هامِهم، فتيسَّروا لِلشِّدةِ، وتهيَّأُوا للحملة، فإذا حرَّكتُ رأسي مرَّتين فاحمِلوا».

فتهيَّأنا، وجثَونا على الرُّكب، وانتظرنا أَمرَه.

وكان إبراهيم بنِ الأَشتر حين توجَّه إلى راشدٍ، لقيه في مُرادٍ، فإذا معه أربعة آلافٍ، فقال إبراهيم لأَصحابه:

ـ «لا يهولنَّكم كثرةُ هؤلاءِ، فواللّه لَرُبَّ رجلٍ خير من عشرةٍ، ولَرُبَّ فِئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةٍ بإذن اللّه، واللّه مع الصَّابرين».

ثمَّ قال:

ـ «يا خُزيمة بن نصرٍ، سِرْ إليهم في الخيل».

ونزل هو يمشي في الرِّجال، واقتتل النَّاس، فاشتدَّ قتالهم، وبصر خُزيمة بن نصر العبسيَّ براشد بن إياسٍ، فحمل عليه فطعنه فقتله، ثمَّ نادى:

ـ «قتلتُ راشداً وربِّ الكعبة».

وانهزم أَصحاب راشدٍ، وأَقبل إبراهيم بن الأَشتر نحو المختار، وبعث إليه مَن يُبشِّره بالفتح عليه. فلمَّا جاءَهم البشير، كبَّروا، واشتدَّت أنفسُهم، ودخل أَصحابَ ابن مطيعِ الفشلُ، وسرَّح ابن مطيع حسَّان بن قائد بن بُكير العبسيّ في جيشٍ كثيفٍ، فاعترَض إبراهيمَ ليردَّه بالسَّبخةِ، فقدَّم إبراهيمُ خزيمة بن نصرٍ إلى حسَّان بن قائدٍ في الخيل، ومشىٰ إبراهيم نحوه في الرِّجال، فانهزموا، وتخلَّف حسَّان بن قائدٍ في أُخريات النَّاس يحميهم، وحمل عليه خزيمة، فلمَّا رَآه عرفه، فقال له:

ـ «يا حسَّان، قد عرفتك، فالنَّجا».

فعثر لحسان فرسُه، فوقع، فقال:

ـ «لعاً لك أَبا عبد اللّه».

وابتدره النَّاس، فأَحاطوا به، فضاربهم ساعةً بسيفه.

فناداه خُزيمة:

ـ «إنَّك آمنٌ يا عبد اللّه، لا تقتل نفسك».

وجاءَ حتَّى وقف عليه، ونَهْنَهَ النَّاسَ عنه، ومرَّ به إبراهيم.

فقال خزيمة:

ـ «هذا ابن عمّي، وقد آمنتُه».

فقال إبراهيم:

ـ «أحسنت».

وأمر خزيمة بفرسه حتَّى أُتِيَ به فحمله عليه، وقال:

ـ «الحقْ بأهلك».

وأَقبل إبراهيم نحو المختار وشبثٌ محيطٌ بالمختار ويزيد بن أَنسٍ. فلمَّا رَءَاهُ يزيد بن الحارث وهو على أَفواه السِّكك الَّتي تلي السَّبخة، أَقبل نحوه ليصدَّه عن شبث وأَصحابه. فبعث إبراهيم طائفةً من أصحابه مع خزيمة بن نصر، فقال:

ـ «أغن عنَّا يزيد بن الحارث».

وصمد هو في بقيَّة أصحابه نحو شبث بن ربعيّ. فلمَّا رَءَاه أَصحاب شبثٍ، أَخذوا ينكصون وراءَهم رويداً رويداً، فلمَّا دَنا إبراهيم من شبثٍ وأَصحابه حمل عليهم، فانكشفوا حتَّى انتهوا إلى أَبيات الكوفة، وحمل خزيمة بن نصر على يزيد بن الحارث بن رُويم، فهزمه، وازدحم القوم على أَفواه السِّكك فوق البيوت، وأَقبل المختار في جماعة النَّاس إلى يزيد بن الحارث. فلمّا انتهى أَصحاب المختار إلى أَفواه السِّكك، رَمَتْهُ تلك المراميةُ بالنَّبل، فصدُّوهم عن دخول الكوفة، ورجع النَّاس من السَّبخة منهزمين إلى ابن مطيع، وجاءَ قتل راشد بن إياسٍ، فسُقط في يديه، فقال عَمرُو بن الحجَّاج الزُّبيدي لابن مطيع:

ـ «أَيُّها الرَّجل لا تُسقط في خلدك ولا تُلق بيديك، اخرج إلى النَّاس فاندبهم إلى عدوِّك، فإنَّ النَّاس كثير عددهم وكلُّهم معك إلاَّ هؤلاء الطَّائفة الَّتي خرجت عليك، واللَّهُ مُخزيها وأَنَا أَوَّل منتدبٍ، فاندبْ معي طائفةً ومع غيري طائفةً».

فخرج ابن مطيعٍ، فخطب النَّاس وحضَّهم، وقال في خطبته:

ـ «أَيُّها النَّاس، قاتلوا عن حرمكم وعن مصركم، وامنعوا مِن فَيْئكم، واللَّه لئن لم تفعلوا لَيُشاركنَّكم في فَيئكم مَن لا حقَّ له فيه، واللَّه لقد بلغني أَنَّ فيهم من مُحرَّريكم خمسمائة رجل عليهم أَميرٌ منهم، وإنَّما ذهابُ عِزِّكم وسلطانكم حين يكثرون».

ثمَّ نزل.

وكان يزيد بن الحارث منعهم أَن يدخلوا الكوفة، ومضى المختار من السَّبخة حتَّى

ظهر إلى الجبَّانة، وقال:

ـ «نِعمَ مكانُ المُقاتل هذا».

فقال له إبراهيم بن الأَشتر:

ـ «قد هزمهم اللّه وفلّهم، وأَدخل الرُّعبَ قلوبَهم وتنزل هاهنا، سرْبِنا، فواللّه ما دون القصر أحدٌ يمنع، لِيَقُمْ هاهنا كلُّ شيخ ضعيفٍ وذي عِلّةٍ، وضَعُوا ما كان لكم من ثَقَلٍ ومتاعٍ بهذا الموضع حتّى نسير إلى عدوِّنا».

ففعلوا. واستخلف المختار عليهم أبا عثمان النَّهديَّ، وقدَّم إبراهيم الأَشتر أَمامَه، وعبَّى أصحابَه على الحال الّتي كانوا عليها في السَّبخة، وبعث عبدُ اللّه بن مطيع عَمرَو بن الحجَّاج في ألفي رجلٍ، فخرج عليهم من السِّكّة المعروفة بالثَّوريِّين، فبعثَ المختار إليهم أَن:

ـ «اطوِه، ولا تَقُمْ عليه».

فطواه إبراهيم، ودعا المختار يزيد بن أَنسٍ، فأَمره أَن يصمد لعمرو بن الحجَّاج، فمضى نحوه، ومضى المختار في أثر إبراهيم، وأَمره أَن يدخل الكوفة من قِبل الكُناسة، فمضى وخرج إليه من سكّة ابن مُحرِزٍ، وأَقبل شَمِرُ بنُ ذي الجوشن في أَلفين، فسرَّح المختار إليه سعيدَ بن منقذ الهَمْدَاني، فواقعه، وبعث إلى إبراهيم أَنْ:

ـ «إطوِه وامضِ على وجهك».

فمضى حتّى انتهى إلى سكّة شبث وإذا نَوفل بن مُساحقٍ في نحو خمسة آلاف رجلٍ وقد أَمر ابن مطيعٍ، فنودي في النَّاس أَن:

ـ «الحقوا بابن مُساحقٍ».

واستخلف شبث بن ربعيّ على القصر، وخرج ابن مطيعٍ حتَّى وقف بالكناسة.

فقال حصيرة بن عبد اللّه: إنّي لأَنظر إلى ابن الأَشتر حين أَقبل في أَصحابه، حتّى إذا دَنا منهم، قال لهم:

ـ «انزلوا».

فنزلوا. فقال:

ـ «اقرنوا خيولكم بعضها إلى بعضٍ، ثمَّ امشوا إليهم مُصلتين، ولا يهولنَّكم أن يُقال: جاءَكم شبث بن ربعيّ، وآل عُتَيبة بن النهاس، وآل الأشعث، وآل فلانٍ، وفلانٍ...».

حتّى سمَّى بيوتاً من بيوتات أَهل الكوفة، وقال:

ـ «إنَّ هؤلاءِ لو وَجَدَ أَوَّلُهم حرَّ السَّيف لَرأيتم قد انصفقوا عن ابن مطيعٍ انصفاق المِعزىٰ عن الذِّئب».

قال حصيرة: فإنِّي لأَنظر إليه وإلى أَصحابه حتَّى قرنوا خيولهم وحتَّى أُخذ ابن الأَشتر أَسفل قَبائِه، فأَدخله في منطقةٍ له حمراء من حواشي البُرد وقد شدَّ بها على القباءِ وقد كفَّر بالقَباءِ على الدِّرع، ثمَّ قال لأَصحابه:

ـ «شُدُّوا عليهم فدى لكم عمِّي وخالي».

قال: فواللَّه ما لبَّثهم أَن هزمهم، فركب بعضهم بعضاً على فم السِّكَّة، وازدحموا، وانتهى ابن الأَشتر إلى ابن مُساحقٍ، فأَخذ بلجام دابَّته ورفع عليه السَّيفَ، فقال له ابن مساحق:

ـ «يا ابن الأَشتر، أُنشدك اللَّه، أَتطلبني بثأرٍ، هل بيني وبينك من حِنَةٍ؟».

فخلَّى سبيلَه وقال:

ـ «أَذكرها».

فكان يذكرها له.

وأَقبلوا حتَّى دخلوا الكناسة في آثار القوم حتَّى دخلوا المسجد وحصروا ابن مطيعٍ ثلاثاً.

وجاءَ المختار حتَّى نزل جانب السُّوق، وولَّى حصارَ القصر إبراهيم بن الأَشتر، ويزيد بن أَنسٍ، وأَحمر بن شُميط، فلمَّا اشتدَّ الحصار على ابن مطيعٍ كلَّمه الأَشراف، وكان يفرِّق فيهم الدَّقيق من القصر.

فقام إليه شبث بن ربعيّ فقال له:

ـ «أَصلحك اللَّه، انظر لنفسكَ ومن معك، فواللَّه ما عندنا غَناءٌ عنك ولا عَن أَنفسهم».

قال ابن مطيعٍ:

ـ «هاتوا، أَشيروا عليَّ برأيكم».

قال شبثٌ:

ـ «الرَّأي أَن تأخذ لنفسك من هذا الرَّجل أَماناً وتخرج ولا تهلك نفسك ومَن معك» قال ابن مطيع:

ـ والله إنِّي لأَكرهُ أَن آخُذَ منه أَماناً والأُمور مستقيمةٌ لأَمير المؤمنين بالحجاز كلِّه وبالبصرة».

قال:

ـ «فتخرج ولا يشعر بك أَحدٌ حتَّى تنزل منزلاً بالكوفة عند مَن تثق به، فلا يُعلم بمكانك حتَّى تخرج فتلحق بصاحبك».

فقال لأسماء بن خارجة ولغيره من أَشراف النَّاس:

ـ «ما ترون في ما أَشار به عليَّ شبثٌ؟».

فقالوا:

ـ «ما نرى الرَّأي إلاَّ ما أَشار به عليك».

قال:

ـ «فرويداً حتَّى أُمسيَ».

فلمَّا أَمسىٰ جمعهم، وحمد اللَّه، وأَثنى عليهم وردُّوا عليه مثلَه، وقال:

«جزاكم اللَّه خيراً، أخذ امرؤٌ حيث أحبّ».

ثم خلّى عن القصر، وخرج من نحو درب الرُّوميّين حتَّى أَتى دار أَبي موسى، ففتح أَصحابه الباب ونادَوا:

ـ «يا ابن الأَشتر، آمنون نحن؟».

قال:

ـ «أنتم آمنون».

فخرجوا، وبايعوا المختار، وجاءَ المختار حتَّى دخل القصر، فباتَ وأَصبح، فخطب النَّاس وحضَّ على البيعة، وقال:

ـ «أَيُّها النّاس، لا والَّذي جعل السَّماءَ سقفاً محفوظاً، والأرض فجاجاً سُبُلاً، ما بايعتم بعد بيعة عليِّ بن أبي طالبٍ وآل عليٍّ أَهدى منها».

ثمَّ نزل، فدخل ودخل النَّاس وأَشرافهم، فبسط يدَه، وابتدره النّاس فبايعوه، وجعل يقول:

ـ «تُبايعون على كتاب اللَّه، وسنَّة نبيِّه، والطَّلب بدماءِ أَهل البيت، وجهاد المُحلِّين، والدَّفع عن الضُّعفاء، وقتال من قاتلنا، ومسالمة من سالمنا، والوفاءِ ببيعتنا، لا نُقيلكم، ولا نستقيلكم».

فإذا قال الرَّجل: نعم، بايعه.

وأَقبل المختار يمنِّي النَّاس، ويستجرُّ مودَّتهم ومودَّة الأَشراف، ويحسن السِّيرة جَهدَه. وجاء ابن كاملٍ، وكان على شرطته، فقال:

ـ «إنَّ ابن مطيعٍ في دار أبي موسى، وقد عرفتُ ذلك بالصِّحَّة».

فلم يُجْبهُ بشيءٍ، فأعادها عليه، فلم يُجبه، فظنَّ ابن كاملٍ أنَّ ذلك لا يُوافقه، وكان ابن مطيعٍ قبلُ للمختار صديقاً. فلمَّا أمسى بعثَ إلى ابن مطيعٍ بمائة ألف [١٠٠,٠٠٠] درهم، وقال له:

ـ «تجهَّز بهذه واخرج، فإنِّي قد شعرتُ بمكانك، وظننتُ أنَّه لم يمنعك من الخروج إلاَّ أنَّه ليس في يدك ما يُقوِّيك على الخروج».

وأصاب المختار في بيت مال الكوفة تسعة آلاف ألف [٩,٠٠٠,٠٠٠] فأعطى أصحابَه الَّذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر، وهم ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل، خمسَمائةٍ كلَّ رجلٍ، وأعطى ستَّةَ آلاف من أصحابه أتوه بعد ما أحاط بالقصر، وأقاموا معه تلك الأيَّام الثّلاثة مائتين مائتين، واستقبل النَّاس بخيرٍ، ومنَّاهم، وأحسن السيرة وأدنى الأشراف.

ثمَّ ولَّى الولايات، وعقد الألوية، فأوَّل رجلٍ عقد له المختار رايةً عبد اللَّه بن الحارث أخو الأشتر، عقد له على آذربيجان، وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على حُلوان، وكان معه ألفا فارس ورزقه ألف درهم في كلِّ شهر، وأمره بقتال الأكراد وإقامة الطُّرق، وكتب إلى عُمَّاله على الجبال أن يحملوا أموال كُورَهم إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بحلوان، وبعث عبد الرَّحمن بن سعيد بن قيسٍ إلى الموصل وبها محمَّد بن الأشعث بن قيس من قِبل الزُّبير، فتنحَّىٰ له عن الموصل، ثمَّ شخص إلى المختار مع أشراف قومه وغيرهم، فبايع له ودخل في ما دخل فيه أهل بلده.

ثمَّ وثب المختار بمن كان معه بالكوفة من قتلة الحسين عليه السلام، والمتابعين على قتله، فقتل مَن قدر عليه وهرب بعضهم فلم يقدر عليه.

وكان سبب ذلك أنَّ مروان بن الحكم لمَّا استوسقت له الشَّام بالطاعة، بعث عُبيد اللَّه بن زياد إلى العراق، وجعل له ما غلب عليه، وأمره أن ينهب الكوفة إذا ظفر بأهلها ثلاثاً.

وقد كُنَّا ذكرنا من أمر التَّوَّابين وابن زيادٍ ما كان بعين الوردة.

ثمَّ بعد ذلك مرَّ بأرض الجزيرة وبها قيسُ عيلان على طاعة ابن الزُّبير، فلم يزل عُبيد اللَّه مشتغلاً بهم عن العراق نحواً من سنة، ثمَّ أقبل إلى الموصل، وكتب عبد الرَّحمن بن سعيد بن قيسٍ عامل المختار على الموصل إلى المختار:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنِّي أُخبرك أيُّها الأمير، أنَّ عبيد اللَّه بن زياد قد دخل أرض الموصل، ووجَّه قِبلي خيلَه، ورجالَه، وأنِّي قد انحزتُ إلى تكريت حتَّى يأتيني رأيك

وأَمرك، والسَّلام».

فكتب إليه:

ـ «قد أَصبتَ، فلا تبرحنَّ مكانَك حتَّى يأتيك أَمري».

ثمَّ بعث المختار إلى يزيد بن أنس، فدعاه وقال:

ـ «يا يزيد، إنَّ العالم ليس كالجاهل، وإنِّي أُخبرك خبر مَن لم يَكذِبْ ولم يُكذَبْ، أَنا صاحبُ الخيل الَّتي تجرُّ جعابَها وتضفر أَذنابَها حتَّى توردها منابت الزَّيتون، أُخرج إلى الموصل حتَّى تنزل أَدانيها، فإني مُمدُّك بالرِّجال».

فقال يزيد بن أَنس:

ـ «سرِّح معي ثلاثة آلاف من الفرسان أَنتخبهم وخلِّني والفرج الَّذي توجِّهني له، فإن احتجت إلى الرِّجال فسأكتب إليك».

وقال المختار:

ـ «فاخرج وانتخب على اسم اللَّه من أَحببتَ».

فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس، وخرج معه المختار، وانصرف وقال له:

ـ «إذا لقيت عدوَّك فلا تُناظرهم، وإذا أَمكنتك الفرصة فلا تُؤَخِّرها، ولْيكُنْ خبرك عندي كلَّ يوم، وأَنَا مُمِدُّك وإن لم تستمدَّ، لأَنَّه أَشدُّ لِعضدك، وأَعزُّ لجندك، وأَرعب لعدوِّك».

فقال له يزيد بن أَنس:

ـ «لا تمدني إلاَّ بدعائك، فكفىٰ به مدداً».

فقال النَّاس:

ـ «صحبك اللَّه، وأَدَّاك وأَيَّدك».

وودَّعوه. فقال لهم:

ـ «سلوا اللَّهَ لي الشَّهادة. وأَيم اللَّه لئن لقيتُهم ففاتني النَّصر، لا تفوتني الشَّهادة إن شاءَ اللَّه».

وكتب المختار إلى عبد الرَّحمن بن سعيد بن قيس:

ـ «أَمَّا بعدُ، فخلِّ بين يزيد وبين البلاد إن شاء اللَّه، والسَّلام عليك».

وخرج يزيد بن أَنس، فبات بالمدائن، ثمَّ اعترض أَرضَ جوخى، حتَّى خرج بهم في الرَّاذانات، وحتَّى قطع بهم إلى الموصل ونواحيها، وبلغ مكانُه ومنزلُه عُبيدَ اللَّه بن زيادٍ، وسأَل عن عِدَّتهم، فأَخبرتْهُ عيونُه أَنَّه خرج معه من الكوفة ثلاثة آلاف فارسٍ.

فقال عبيد اللّه:

ـ «فأنَا أبعث إلى كلّ ألفٍ ألفين».

وبعث إليه ربيعةَ بن المخارق وعبدَ اللّه بن حَملة كلّ واحد منهما في ثلاثة آلاف، ثمّ قال:

ـ «أيُّكما سبق فهو أميرٌ على صاحبه».

فسبق ربيعة بن المخارق، ونزل بيزيد بن أَنس وهو بباتليّ، فخرج إليه يزيد بن أَنس وهو مريضٌ مُضْنًى، فطاف في أَصحابه على حمارٍ معه الرِّجال يُمسكونهُ، فجعل يطوف على الأَرباع، ويقف على ربعٍ ربعٍ، ويقول:

ـ «يا شُرطةَ اللّه، اصبروا، وصابروا عدوَّكم تَظفروا، وقاتلوا أَولياء الشَّيطان إنَّ كيدَ الشَّيطان كان ضعيفاً. إن هلكتُ فأَميركم ورقاءُ بن عازب الأَسديّ، فإن هلك فأَميركم عبد اللّه بن ضمرة العَدَويّ، فإن هلك فأَميركم سِعر بن أبي سِعرٍ الحنفيّ».

قال: ونحن نرى في وجهه أَنَّ الموتَ قد نزل به. ثمَّ عبَّى ميمنةً وميسرةً، وجعل ورقاء بن عازبٍ على الخيل، ونزل هو بين الرِّجال على السَّرير، ثمَّ قال:

ـ «ابرزوا لهم بالعراءِ، وقدِّموني في الرِّجال، ثمَّ إن شئتُم فقاتلوا عن أَميركم، وإن شئتم ففرُّوا عنه».

قال: فأَخرجناهُ وذلك يوم عرفة سنة ستٍّ وستِّين. فأَخذنا نُمسك أَحياناً ظَهرهُ، فيقول: اصنعوا كذا، اصنعوا كذا. فيأمر بأَمره، ثمَّ لا يكون بأَسرع من أَن يغلبه الوجع، فيوضع هنيهةً ويقتتل النَّاس، فحملت ميمنتُنا على ميسرتهم، وميسرتُنا على ميمنتهم، وحمل ورقاء بن عازب ومعه الخيل من ميسرتنا، فهزمهم، فلم يرتفع الضُّحىٰ حتَّىٰ هزمناهم وحوينا عسكرَهم، وانتهينا إلى ربيعة بن المخارق صاحبهم وقد انهزم عنه أَصحابه وهو نازلٌ يُنادي:

ـ «يا أَولياءَ الحقِّ، يا أَهل السَّمع، والطَّاعة، إليَّ إليَّ، أَنَا ابن المخارق».

فحمل عليه عبد اللّه بن ورقاء الأَسدي، وعبد اللّه بن ضمرة العَدَوي، فقتلاهُ.

قال: وأَتى يزيد بن أَنس بثلاثمائة أَسير وهو في السُّوق، فأَخذ يُومي بيده أَن:

ـ «اضربوا أَعناقهم».

فقُتلوا من عند آخرهم، وما أَمسى يزيد بن أَنس حتّى مات، وكان أَوصى بأَنَّ الأَمير بعده ورقاء بن عازبٍ، فصلَّى عليه ودفنه.

ذكر رأي رَآهُ ورقاءُ بن عازب

ثمَّ إنَّ ورقاءَ بن عازب دعا رؤوس الأَرباع وفرسانَ أَصحابه، فقال لهم:

ـ «يا هؤلاءِ، ماذا ترون في ما أَخبرتُكم، إنَّما أَنا رجلٌ منكم».

وكان أَعلمهم أَنَّ عُبيد اللّه أَقبل في ثمانين أَلفاً من أَهل الشَّام.

فقال ورقاء:

ـ «لستُ بأَفضلكم رأياً، فأَشيروا عليَّ. هذا الرَّجل قد جاءَكم في جِدِّه وحدِّه، ولا أَرى لنا بهم طاقةً على هذه الحال، وقد هلك يزيد بن أَنس أَميرنا، وتفرَّقت عنَّا طائفةٌ مِنَّا، فلو انصرفنا اليوم من تلقاءِ أَنفسنا قبل أَن نلقاهم وقبل أَن نبلغهم، فيعلموا إنَّما ردَّنا عنهم هلاكُ صاحبنا فلا يزالوا هائبين لنا ولقتلنا أَميرَهم، ولأنَّا إنَّما نعتلُّ لانصرافنا بموت صاحبنا، فإنَّا إن لقيناهم اليوم لم ينفعنا هزيمتنا إيَّاهم قبل اليوم إذا هزمونا».

فقالوا:

ـ «فإنَّك واللّه نعم ما رأيت، انصرف بنا، رحمك اللّه».

فبلغ مُنصرَفهم المختارَ وأَهلَ الكوفة، ولم يعلموا كيف كان الأَمر.

فكان رأي ورقاء الأَوَّل صواباً وتركُه إنفاذَ الكتب بالبشارة وتعريفه صاحبَه الصُّورةَ خطأً

فأَرجف النَّاسُ أَن يزيد بن أَنس هلك، وأَنَّ النَّاس انهزموا وما أَشبه ذلك، فقَلِقَ المختارُ، وبعث المختار عيناً له، فعاد إليه بالخبر.

فدعا المختار إبراهيم بن الأَشتر، فعقد عليه على سبعة آلاف رجلٍ وقال له:

ـ «سِرْ حتَّى إذا لقيت جيشَ ابن أَنس فارددْهم معك، ثمَّ سِرْ بهم حتَّى تلقى عدوَّك فتُناجزهم».

فخرج إبراهيمُ وعَسكرَ بحمَّام أَعيَن.

ذكر اضطراب النَّاس على المختار وطمعهم فيه بعد خروج إبراهيم الأَشتر

لمَّا خرج إبراهيم كثر إرجافُ النَّاس بالمختار، وقالوا:

ـ «تأَمَّر علينا بغير رضى منَّا ولا ولايةٍ من محمَّد بن عليٍّ، وقد أَدنىٰ موالينا، فحملهم على رقابِنا وغصبنا عبيدَنا، فحَرَبَ بذلك أَيتَامَنا وأَرامِلَنا».

واتَّعدوا منزل شبث بن رِبعيّ. وكان شبثٌ إسلاميّاً جاهليّاً. وقالوا:

ـ «هو شيخُنا».

فأَتَوه، فذاكروه هذا الحديث. ولم يكن في جميع ما عمله المختار شيءٌ أعظمَ على النّاس من أن جعلَ للمواليَ نصيباً من الفَيْءِ.

فقال لهم شبثٌ:

ـ «دعوني حتَّى أَلقاهُ».

فلقيه، فلم يَدَعْ شيئاً ممَّا أنكره أَصحابه إلاَّ ذاكره به، فكان لا يذكر لهم خصلةً إلاَّ قال المختار له:

ـ «أُرضيهم، وآتي كلَّ شيءٍ أُحبُّوا».

حتَّى ذكر المواليَ والمماليك، فقال:

ـ «عمدتَ إلى موالينا وهم فَيْءٌ أفاءَهم اللّٰه علينا وهذه البلادُ كلُّها، فأَعتقنا رقابَهم نَأْمُلُ الأَجر من اللّٰه والشُّكر منهم، فلم ترضَ بذلك، حتَّى جعلتَهم شركاءَ في فيئنا».

فقال المختار:

ـ «إنَّا سنتركهم لِمواليهم، فهل تجعلون لي على أَنفسهم ـ إن أَنَا فعلتُ ذلك ـ عهدَ اللّٰه وميثاقه، وما أَطمئنُّ إليه من الأَيمان، أَن يُقاتلوا معي بني أُميَّة وابن الزُّبير؟».

فقال شبث:

ـ «ما أَدري، حتى أَخرج إلى أَصحابي فأُذاكرهم ذلك».

فخرج ولم يرجع، وأَجمع رأي أَشراف الكوفة على قتال المختار.

فركب شبثٌ وشمر بن ذي الجوشن ومحمَّد بن الأَشعث وغيرهم حتَّى دخلوا على كعب بن أَبي كعب الخثعميّ، وذكروا ما اجتمع عليه رأيهم من قتال المختار، وقالوا:

ـ «تأَمر علينا بغير رضى منَّا، وزعم أَنَّ ابن الحنفيَّة بعثه إلينا، وقد علمنا أَنَّه لم يبعثه، وفَعلَ وصَنعَ، وأَخذ عبيدَنا وموالينا، وأَطعمَهم فيئَنا».

وسأَلوه أَن يُجيبَهم إلى ما سأَلوه من قتاله معهم. فرحَّب بهم كعبٌ وأَجابهم إلى ما دَعوه إليه. ثمَّ دخلوا على عبد الرَّحمن بن مخنف، فدَعوه إلى ذلك

ذكر رأيٍ صحيحٍ لعبد الرَّحمن

فقال لهم:

ـ «يا هؤلاءِ، إن أَبيتُم إلاَّ أَن تخرجوا لم أَخذُلْكم، وإن أَطعَتم لم تخرجوا».

فقالوا:

- «ولِمَ؟» فقال:

- «لأنّي أَخاف أَن تتفرَّقوا، وتختلفوا، وتتخاذلوا، ومع الرَّجل واللّه شجعَاؤكم وفرسانكم من أَنفسكم. أَليس معه فلانٌ وفلانٌ؟ ثمَّ معه عبيدُكم ومواليكم، وكلمة هؤلاءِ واحدةٌ، وهؤلاءِ أَشَدُّ حنقاً عليكم من عدوِّكم، فهو يُقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم، وإن انتظرتموه قليلاً كفيتمُوه بقدوم أَهل الشَّام، أَو مجيء أَهل البصرة فتكونوا قد كفيتموه بغيركم ولم تجعلوا بأسكم بينكم».

فقالوا:

- «ننشدك اللّه أَن تخالفنا وتُفسد علينا».

قال:

- «فأَنَا رجل منكم فإذا شئتم فاخرجوا».

فلقي بعضهم بعضاً، وقالوا:

- «ننتظر حتَّى يذهب عنه ابن الأَشتر».

فأَمهلوا حتَّى إذا بلغ إبراهيم ساباط خرجوا إلى جبابينهم بجماعة الرُّؤساء، فلمَّا بلغ المختارَ اجتماعُ النَّاس عليه مثل شمر بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعيٍّ، وحسان بن قائدٍ، وربيعة بن ثروان، وحجَّار بن أَبجر ورُؤيم بن الحارث، وعمرو بن الحجَّاج الزُّبيدي، وغيرهم ممَّن ذكرناهم قبلُ، ومَن لم نذكرهم، بعث رسولاً يركض إلى إبراهيم الأَشتر وهو بساباط أَن:

- «لا تَضعْ كتابي من يدك حتَّى تُقبل بمن معك».

وبعث إليهم في ذلك اليوم:

- «أَخبروني ما تُريدون فإنِّي صانعٌ كلَّ ما أَحببتم».

قالوا:

- «فإنَّا نريد أن تعتزلنا، فإنَّك زعمتَ أَنَّ ابن الحنفيةَّ بعثك ولم يبعثك».

فأَرسل إليهم المختار أَن:

- «ابعثوا إليه من قِبلكم وفداً، وأَبعثُ من قِبلي وفداً، ثمَّ انظروا في ذلك حتَّى تتبيَّنوه».

وهو يُريد أَن يُريِّثهم بهذه المقالة. لِيقدم عليه إبراهيم الأَشتر وقد أَمر أَصحابه فكفُّوا أَيديهم، وأَخذ أَهل الكوفة عليهم بأفواه السِّكك، فليس شيءٌ يصل إلى المختار ولا إلى أَصحابه من الماءِ إلاَّ القليل يجيئُهم إذا غفلوا عنه.

ثمَّ إنَّ شمر بن ذي الجوشن أتى أهل اليمن، فقال لهم:

ـ «إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنَّبتين ونقاتل من وجهٍ واحد، فأنا صاحبكم، وإلاّ فلا، واللّه لا أقاتل في سكّةٍ واحدة ضيّقةٍ ونقاتل من غير وجهٍ».

وانصرف إلى جماعة قومه في جبّانة بني سَلولٍ، ولمّا بلغ المختارَ ذلك، جعل يواصل مكاتبة إبراهيم، فلمّا بلغ إبراهيمَ بن الأشتر خبرُه، نادى من يومه في النّاس، وسار بقيّة عشيّته تلك، ثمّ نزل سُوَيعةً، فتعشّى هو وأصحابه، وأراحوا دوابّهم شيئاً كلا شيءٍ، ثمّ سار بقيّة ليلته كلّها وصلّى الغداة بسورا، ثمّ سار من يومه وصلّى صلاة العصر على باب الجسر من الغد، ثمّ سار حتّى بات ليلتَه في المسجد. ولمّا كان اليوم الثّالث من مخرجهم على المختار خرج المختار إلى المنبر فصعده وكان شبث بن ربعيٍّ بعث إليه ابنَه يقول له:

ـ «إنّما نحن عشيرتك وكفُّ يمينك، واللّه لا نقاتلك أبداً فثِقْ بذلك منّا، وكان كارهاً لقتاله، ولمّا حضرت الصّلاة واجتمع أهل اليمن كره كلُّ رأسٍ أن يتقدّمه صاحبه».

فقال لهم عبد الرّحمن بن مخنفٍ:

ـ «هذا أوّل الخلاف، قدّموا الرّضا فيكم، فإنّ فيكم سيّد قرّاءِ أهل المصر، فليصلِّ بكم رفاعة بن شدّادٍ».

ففعلوا، فلم يزل يُصلّي بهم حتّى كان يوم الوقعة.

ثمّ إنّ المختار لمّا نزل، عبّى أصحابه، فقال إبراهيم بن الأشتر:

ـ «إلى أيِّ الفريقين أحبُّ إليك أن نسير».

فنظر المختار وكان ذا رأيٍ، فكره أن يسير إلى قومه، فلا يبالغ في قتالهم، فقال:

ـ «سِرْ إلى مُضَر بالكُناسة، وكان عليهم شبث بن ربعيٍّ، وأنا أسير إلى أهل اليمن».

ففعلا. ثمّ إنّ القوم اقتتلوا كأشدِّ قتالٍ اقتتله قومٌ، وانكشف من أصحاب المختار أحمر بن شُميط وعبد اللّه بن كامل وأصحابهما، فلم يُرع المختار إلاّ وقد جاءَه الفلُّ قد أقبل فقال:

ـ «ما وراءَكم؟» فقالوا:

ـ «هُزمنا». قال:

ـ «فما فعل أحمر بن شُميط؟» قالوا:

ـ «تركناه قد نزل عند مسجد القُصَّاص وقد نزل معه ناسٌ من أَصحابه».

وقال أَصحاب ابن كاملٍ:

ـ «ما ندري ما فعل».

فصاح بهم أَن انصرفوا، ثمَّ أَقبل معهم قطعةٌ، ثمَّ بعث عبد اللَّه بن قُراد الخثعمي، وكان على أَربعمائة من أَصحابه، فقال:

ـ «سِرْ في أَصحابك إِلى ابن كامل، فإن يكن هلك، فأَنت مكانه، وإِن تجده حيّاً، فَسِرْ في مائةٍ من أَصحابك كلُّهم فارس، وادفعْ إِليهم بقيَّة أَصحابك، ومُرْهم بالجدِّ معهم والمناصحة، ثمَّ امضِ في المائة حتَّى تأتي جبَّانة السُّبيع».

فمضى، فوجد عبد اللَّه بن كاملٍ واقفاً عند حمَّام عمرو بن حُريث معه ناسٌ من أَصحابه قد صبروا وهو يقاتل القوم، فدفع إليه ثلاثمائة من أَصحابه، ثمَّ مضى حتَّى نزل جبَّانة السُّبيع، وأَخذ في السِّكك حتَّى انتهى إلى مسجد عبد القيس، فوقف عنده، وقال لأَصحابه:

ـ «ما تَرونَ؟».

وهم مائةٌ خيارٌ. قالوا:

ـ «أَمرُنا لأَمرك تَبعٌ». فقال:

ـ «واللَّه إِنِّي لأُحبُّ أن يظهر المختار، وواللَّه إِنِّي لَكارِهٌ أن يهلك أَشراف قومي وعشيرتي اليوم، وواللَّه لأَن أَموتَ أَحَبُّ إِليَّ من أن آتيهم من ورائهم فيهلكون على يدي».

ثمَّ وقف، وبعث المختار مالك بن عمرٍو النَّهديّ ـ وكان من أَشدِّ النَّاس بأساً ـ في مائتي رجلٍ، وبعث عبد الرَّحمن بن شريك في مائتي فارسٍ إلى أَحمر بن شميط، وثبت هؤلاءِ مكانه، فانتهوا إليه وقد عَلاهُ القومُ وكثروا عليه، فاقتتلوا عند ذلك كأَشدِّ القتال.

ومضى الأَشتر حتَّى لقي شبث بن ربعيٍّ وخلقاً من مُضَر كانوا معه، فقال لهم إبراهيم:

ـ «ويحكم انصرفوا، فواللَّه ما أُحبُّ أَن يُصابَ أَحدٌ من مُضَر على يدي، فلا تُهلكوا أَنفسكم».

فأَبوا، فقاتلوه، فهزمهم، وجاءَت البشرى إلى المختار من قِبل إبراهيم بهزيمة مُضَر، فبعث المختار بالبشرىٰ إلى أَحمر بن شميطٍ وإلى ابن كاملٍ والنَّاس على أَحوالهم كلّ سكَّةٍ منهم قد أَغنتْ ما يليها، واجتمعت شبام وقد رأَسوا عليهم أَبا القَلوص، وقد

أَجمعوا أَن يأتوا أَهل اليمن من ورائهم، فقال بعضهم لبعضٍ:

ـ «أَما واللّٰه، لو جعلتم حدَّكم هذا على من خالفكم من غيركم، لكان أصوبَ. فسيروا إلى مُضَر وإلى ربيعة فقاتلوهم».

وشيخهم أَبو القَلوص ساكتٌ لا يتكلّم، فقالوا:

ـ «ما رأيك؟» فقال:

ـ «قال اللّٰه عزَّ وجلَّ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]. قوموا!» فقاموا، فمشى بهم قيسٌ رُمحين أَو ثلاثةً، ثمَّ قال:

ـ «اجلسوا».

فجلسوا. ثمَّ مشىٰ بهم الثانية أَنفس من ذلك شيئاً، ثمَّ الثالثة كذلك، ثمَّ قعدَ، فقالوا له:

ـ «يا أبا القلوص، واللّٰه إنكَ عندنا لأَشجع العرب، فما يحملك على الَّذي تصنع؟» قال:

ـ «إنَّ المجرَّب ليس كمن لم يجرِّب. إنِّي أَردتُ أَن ترجع إليكم أنفسكم، وكرهتُ أَن أَحملكم على القتال وأَنتم على حال دَهَشٍ». قالوا:

ـ «أَنت أَبصر بما صنعتَ. فلمَّا خرجوا إلى جبَّانة السُّبيع استقبلهم قومٌ، فهزموهم وقتلوا رئيسهم ودخلوا الجبَّانة في آثارهم يتنادَون:

ـ «يا لَثاراتِ الحسين».

فأَجابهم ابن شُميطٍ:

ـ «يا لَثاراتِ الحسين».

وقاتل يومئذٍ رفاعة بن شدَّاد حتَّى قُتل، وقُتل خلقٌ من الأَشراف واستُخرج من دُور الوادعيِّين خمسمائة أَسير. فأُتِي بهم المختار مكتَّفين، فأَخذ رجلٌ من بني نهدٍ من رؤساءِ أَصحاب المختار يقال له عبد الله بن شريكٍ لا يخلو بعربيٍّ إلاّ خلَّى سبيله. فرُفع ذلك إلى المختار، فقال المختار:

ـ «اعرِضوهم عليَّ، فانظروا كلَّ من شهد منهم قتلَ الحسين فأَعلموني به».

فأَخذوا لا يمرُّ عليه رجلٌ شهد قتل الحسين إلاّ قالوا له:

ـ «هذا مِمَّن شهد قتله».

فقدَّمه، فيضرب عنقه، حتَّى قتل منهم قبل أَن يخرج مائتين وأَربعين قتيلاً، وأَخذ أَصحابُه كلَّما رأَوا رجلاً قد كانوا تأَذّوا به، وكان يُماريهم، أَو يضُرُّ بهم، خلّوا به

فقتلوهُ، حتَّى قُتل ناسٌ كثيرٌ منهم، وما يشعر بهم المختار.

ثمَّ أُخبر به المختار من بعدُ، فدعا بمن بقيٍ من الأَسارىٰ فأَعتقهم وأخذ عليهم المواثيق ألاَّ يُجامعوا عليه عدوَّه ولا يبغُوه ولا لأَصحابه غائلةً، إلاَّ سراقة بن مرداس البارقيّ، فإنَّه أمر به أَن يُساق معه إلى المسجد، ونادىٰ منادي المختار مَن أَغلق عليه بابه فهو آمِنٌ إلاَّ رجلاً شرك في دَم آل محمَّدٍ.

وكان يزيد بن الحارث بن رؤيم وحجَّار بن أَبجر بعثا لهما رسلاً، فقالا لهم:

ـ «كونوا قريباً من أَهل اليمن، فإن ظهروا، فلتكنْ علامتكم كذا وإن ظُهِرَ عليكم فلتكنْ علامتكم كذا.

فلمَّا هُزم أَهلُ اليمن أَتتهم رُسُلهم بعلامتهم، فقاما جميعاً فقالا لقومهما:

ـ«انصرفوا إلى بيوتكم».

فانصرفوا.

فأَمَّا عمرو بن الحجَّاج الزُّبيدي، فإنَّه كان مِمَّن شهد قتلَ الحسين، فركب راحلتَه، ثم ذهب عليها، فأَخذ طريق شرافٍ وواقصةٍ، فلم يُرَ حتَّى السَّاعة، ولا يُدرىٰ أَرضٌ لَحستْه، أَم سماءٌ حَصبتْهُ!

مقتل شمر بن ذي الجوشن

وأَمَّا شَمِرُ بنُ ذي الجوشن، فإنَّ المختار أَنفذ في طلبه غلاماً يُدعىٰ رزيناً. فحدَّث مسلم بن عبد اللّه الكِنانيّ. قال: تَبعَنا رزينُ غلام المختار فلحِقَنا، وقد خرجنا من الكوفة على خيولنا مضمَّرة، فأَقبل يتقطَّرُ به فَرسُه. فلمَّا دَنا منه قال لنا شَمِرٌ:

ـ «اركضوا وتباعدوا، فلعلَّ العبدَ يطمع فيَّ».

قال: فركضنا وأَمعنَّا، وطمع العبدُ في شمر، وأَخذ شمرٌ يستطرد له، حتَّى إذا انقطع عن أَصحابه حمل عليه شمرٌ، فدقَّ ظَهرَهُ، وأُتِيَ المختارُ فأُخبر بذلك، فقال:

ـ «بُؤساً لِرزينٍ، أَما لو يستشيرني ما أَمرتُه أَن يخرج لأَبي السابغة».

ومضى شمرٌ حتَّى نزل ساتيدَما، فنزل إلى جانبٌ قريةٍ يُقال لها: الكلبانية على شاطئ نهرٍ إلى جانب تَلٍّ، ثمَّ أَرسل إلى تلك القرية، فأَخذ منها عِلجاً فضربه، ثمَّ قال:

ـ «النَّجا بكتابي إلى مصعب بن الزُّبير».

وكتب عنوانه: للأَمير المصعب بن الزُّبير من شمر بن ذي الجوشن. فمضى العلج حتَّى دخل قريةً فيها بيوتٌ وفيها أَبو عَمره، وكان المختار بعثه في تلك الأَيّام إلى تلك القرية لتكون مسلحةً في ما بينه وبين أَهل البصرة، فلقي ذلك العلجُ علجاً من تلك

القرية، فأَقبل يشكو إليه ما لقي من شمرٍ، فسأَلوا العلج عن مكانه، فأَخبرهم به، فإذا ليس بينهم إلاّ ثلاثة فراسخ فساروا إليه:

قال: وكُنَّا قُلنا لشمرٍ تلك اللَّيلة:

ـ «لَو أَنَّك ارتحلتَ بنا من هذا المكان، فإنَّا نتخوَّف به». فقال:

ـ «أَكلُّ هذا فَرَقاً من الكذَّاب، واللَّه لا أَتحوَّل منه ثلاثة أَيَّام، ملأَ اللَّه قلوبكم رُعباً».

فواللَّه ما شعرنا إلاَّ وقد أَشرفوا علينا من التَّلِّ، فكبَّروا، ثمَّ أَحاطوا بنا وخرجنا نشتدُّ على أَرْجُلنا وتركنا خَيلَنا، وأُعجل شمرٌ عن لبس سلاحه.

قال: فأَمرُّ على شمرٍ وإنَّه لَمُؤْتَزرٌ بَبُردٍ يُقاتلهم، وكان أَبرص، فكأَنّي أَنظر إلى بياض ما بين كشحيه وهو يُطاعن الأَقوام، فما هو إلاَّ أَن أَمعنت ساعةً إذ سمعتُ التكبير وقائلاً يقول:

ـ «قتل اللَّه الخبيثَ».

سراقةُ حَلَفَ أَنَّه رأَى الملائكة

فأَمَّا سراقة بن مرداس البارقيّ، فإنّه حلف واجتهد في اليمين أَنَّه رَأَى الملائكةَ معهم تُقاتل على خُيولٍ بُلْقٍ، وقال لهم:

ـ «أَنتم أَسرتموني؟ ما أَسرني إلاَّ قومٌ على دواب لهم بُلْقٍ، عليهم ثيابٌ بيضٌ».

فقال المختار:

ـ «أُولئك الملائكة، اصعدِ المنبر، فأَعلِم النَّاسَ ذلك».

فصعد واجتهد في اليمين وأَخبرهم بذلك. ثمَّ نزل فخلا به المختار وقال:

ـ «إنِّي علمتُ أَنَّك لم تَرَ الملائكةَ، وإنَّما أَردتَ ما قد عرفتُ: أَلاَّ أَقتلَكَ، فاذهبْ عنِّي حيث أَحببتَ، لا تُفسد عليَّ أَصحابي».

فخلَّى عنه، وذهب حتَّى لحق بمصعب بن الزُّبير، وقال:

أَلا أَبــلــغْ أَبــا إســحــاقَ أَنِّــي ... رأيتُ الـخَـيـلَ دُهـمـاً مُـصـمـتَـات

أُرِي عَــيْــنَــيَّ مــا لــم تَــرأَيــاهُ ... كِــلانــا عــالــمٌ بــالــتُّــرهــاتِ

وانجلت وقعة السُّبيع عن سبعمائةٍ وثمانين قتيلاً وكانت يوم الأَربعاءِ لِستٍّ ليالٍ بقين من ذي الحجَّة سنة ستٍّ وستِّين.

وخرج أَشراف النَّاس، فلحقوا بالبصرةِ، وتجرَّد المختار لقتلى الحسين، وقال:

ـ «ما من ديننا تَركُ قومٍ قتلوا الحسين أَحياءاً يمشون في الدُّنيا آمنين. ناصرُ آلِ

محمَّدٍ إذاً أَنا في الدُّنيا، أَنا إذاً الكذَّاب ـ كما سمَّوني ـ أَلحمد للَّه الَّذي جعلني سيفاً ضربهم به، ورُمحاً طعنهم به. وطالَبَ وِترهم، والقائمَ بحقِّهم، سمُّوهم، ثمَّ تتبَّعوهم، حتَّى تُفنوهم. إنَّه لا يسوغ لي طعامٌ ولا شرابٌ حتَّى أَطهِّر الأَرض منهم وأَنَقِّي المصرَ منهم».

ودلَّ عبد اللَّه بن دَبَّاسٍ على نفرٍ ممَّن قتل الحسين. منهم: عبد اللَّه بن أَسيد بن النّزال الجهنيُّ، ومالك بنُ النُّسير البَدِّيُّ وحَمَل بن مالك المحاربيُّ. فبعث إليهم المختار، فأُخذوا وأُدخلوا عليه عشاءاً.

فقال لهم المختار:

ـ «يا أَعداء اللَّه وأَعداء كتابه وأَعداءَ رسوله وآل رسوله! قتلتم مَن أُمرتُم بالصَّلاة عليه في الصَّلاة». فقالوا:

ـ «رحمك اللَّه، بُعثنا ونحن كارهون، فامنُنْ علينا، واستَبقْنا».

قال المختار:

ـ «فهلاَّ مَننتُم على الحسين ابن بنت نبيِّكم واستَبقيتُمُوهُ وسقيتمُوهُ».

ثمَّ قال المختار لِلبَدِّي:

ـ «أَنتَ صاحبُ برنسه؟» فقال عبد اللَّه بن كاملٍ:

ـ «نعم، هو هو».

فقال المختارُ:

ـ «اقطعوا يَدَ هذا ورجلَيه، ودعُوهُ يضطرب حتَّى يموت».

ففَعل به ذلك، وأَمر بالآخَرَين فقُتلا.

ثمَّ بعث رجالاً كانوا معه يُقال لهم: الدَّبَّابة، إلى دارٍ في الحمراءِ فيها عبد الرَّحمن بن أَبي خُشكارة، وعبد الرَّحمن بن قيس الخولاني وغيرهما فجئنا بهم حتَّى أَدخلناهم عليه، فقال لهم:

ـ «يا قتلة الصَّالحين، يا قتلة سيِّد شباب أَهل الجنَّة، أَلا ترون اللَّهَ قد أَقادَ منكم اليوم؟ لقد جاءَكم الورسُ بيومِ نحسٍ».

وكانوا أَصابُوا من الورسِ الَّذي كان مع الحسين، أَخرجوهم إلى السُّوق، فضربوا رقابَهم، ففُعل ذلك بهم وكانوا أَربعةً.

وأَخذَ السَّائب بن مالك الأَشعريّ ـ وكان في خيلٍ للمختار ـ ثلاثة نفرٍ ممَّن شهد قتلَ الحسين، فانتهىٰ بهم إلى المختار، فأَمر بهم فقُتلوا في السُّوق.

وبعث المختار عبد اللّه بن كامل إلى عثمان بن خالدٍ، وإلى أبي أَسماء بسر بن أَبي سمطٍ، وكانا ممّن شهدا قتلَ الحسين وفي سلبه، فأَحاط عبد اللّه بن كاملٍ عند العصر بمسجد بني دَهمان، ثمّ قال:

«عليّ مثل خطايا بني دهمان منذ خُلقوا إلى يوم يُبعثون إن لم أُوتَ بعثمان بن خالد، إن لم أَضرب أَعناقكم من عند آخركم».

فقلنا له: «أَمهلنا حتّى نطلبه».

فخرجوا مع الخيل في طلبه، فوجدوهما جالسَين في الجبّانة يريدان أَن يخرجا إلى الجزيرة، فأُتي بهما عبدُ اللّه بن كامل، فضَرب أَعناقهم، ثمّ رجع فأَخبر المختارَ خبرهما، فأَمره بأَن يرجع فيحرقهما بالنّار، وقال:

ـ «لا يُدفَنا، بل ليُحرقا بالنّار».

وبعث أَبا عمرة صاحبَ حرسه حتّى أَحاطوا بدار خولي بن يزيد الأَصبحيّ وهو صاحب رأس الحسين ـ عليه السّلام ـ فاختبئ في مخرجه، فخرجت امرأته إليهم، فقالوا لها:

ـ «أَين زوجُكِ؟» فقالت:

ـ «لا أَدري، أَين هو...».

وأَشارت بيدها إلى المخرج. فدخلوا، فوجدوه وقد وضع على رأسه قوصرةً، وأَخرجوه.

وكان المختار خرج يسير بالكوفة ومعه ابن كامل، فأَخبروه الخبر، وأَقبل حتّى قتله إلى جانب أَهله، ثمّ دعا بنارٍ فحرّقه.

وكانت امرأَته نصبت له العداوة حين جاءَ برأس الحسين.

وكان عبد اللّه بن جعدة بن هُبيرة أَكرم خلق اللّه على المختار لقرابته بعليٍّ، فكلّم عمرُ بن سعد عبدَ اللّه بن جَعدة، وقال:

ـ «خذ لي من هذا الرّجل أَماناً».

فكتب له:

«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم»

ـ «هذا أَمانٌ من المختار بن أَبي عُبيد لعمر بن سعد بن أَبي وقّاص. إنَّكَ آمِنٌ بأَمان اللّه على نفسك ومالك وأَهلك وأَهل بيتك وولدك، لا تُؤاخذُ بحَدَثٍ كان منك قديماً ما سمعتَ وأَطعتَ، ولزمتَ رحلَك ومِصرَك وأَهلَك، ولم تُحدث حدثاً. فمَن لقي عمر بن سعد مِن شُرطة اللّه وشيعة آل محمّدٍ ومن غيرهم من النّاس، فلا يعرض له

إلاَّ بخيرٍ. شهد السَّائب بن مالكٍ، وأَحمر بن شُميط، وعبد اللَّه بن شدَّادٍ، وعبد اللَّه بن كاملٍ».

«وجعل المختار على نفسه عهد اللَّه وميثاقه لَيفيَنَّ لعمر بن سعدٍ بما أَعطاه من الأَمان، إلاَّ أَن يحدث حدثاً، وأَشهد اللَّه على نفسهَ وكفى باللَّه شهيداً».

فكان أَبو جعفر محمَّد بن عليّ الباقر عليه السَّلام يقول:

ـ «أَمَّا أَمان المختار لعمر بن سعد: إِلاَّ أَن يحدثَ حدثاً، فإِنَّه كان يريد: إذا دخل الخلاء وأَحدث».

فقال المختار ذات يوم وهو يحدِّث جُلساءَه:

ـ «لأَقتلنَّ رجلاً عظيم القدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسرُّ قتلُه المؤمنين والملائكة المقرَّبين».

فكان الهيثم بن الأَسود النَّخعي عند المختار، فسمع هذه المقالة، فوقع في نفسه أَنَّ الَّذي يُريده عمر بن سعد بن أَبي وقَّاص. فلمَّا رجع إلى منزله دعا ابنه العريان، فقال:

ـ «القَ عمر بن سعدٍ اللَّيلَةَ، فخبِّرْه بكذا وكذا وقُلْ له: خُذْ حِذرَك».

قال: فأَتاه فاستخلاه، ثمَّ حدَّثه الحديث.

فقال له عمر بن سعدٍ:

ـ «جزى اللَّه أَباك عن الإخاء خيراً، كيف يريد هذا بي بعد الَّذي أَعطاني من العهود والمواثيق».

ثمَّ خرج من ليلته حتَّى أَتىٰ حمَّامَه، وأَخبر مولًى له بما أُريد به، فقال له:

ـ «وأَيُّ حدثٍ أَعظم ممَّا صنعتَ، إنَّك تركتَ رحلَك وأَهلك، ارجع إلى رحلك، لا تجعلْ للرَّجل عليك سبيلاً».

فرجع إلى منزله، وأُتي المختارُ بخبر انطلاقه، فقال:

ـ «كلاَّ، إنَّ لي في عُنقه سلسلةً سترُدُّه».

فلمَّا أَصبح المختار بعث أَبا عمرة وأَمره أَن يأتيه به. فجاءَ حتَّى دخل عليه، فقال:

ـ «أَجبْ».

فقام عمر، فعثر في جبَّةٍ له ويضربه أَبو عمرة بسيفه فقتله، وجاءَ برأسه في أَسفل قبائه حتَّى وضعه بين يدي المختار.

فقال المختار لابنه حفص بن عُمر، وهو جالسٌ عنده:
ـ «أَتعرف هذا الرَّأس؟».
فاسترجع، وقال:
ـ «نعم، ولا خير في العيش بعده».
قال له المختار:
ـ «صدقتَ، فإنَّك لا تعيش بعدَه. أَلحقوا حفصاً بأَبي حفصٍ!».
فقُتل، فإذا رأسُه مع رأس أَبيه.
ثمَّ قال المختار:
ـ «هذا بالحسين، وهذا بعليِّ بن الحسين ولا سواء. واللَّه لو قتلتُ به ثلاثة أَرباع قريش ما وفوا أَنملةً من أَنامل الحسين».
وبعث المختار برأسيهما إلى محمَّد ابن الحنفيَّة، وكتب إليه:
«بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم»
«للمهديِّ محمَّد بن عليٍّ من المختار بن أَبي عُبيد. سلامٌ عليك أَيُّها المهديُّ، فإنِّي أَحمد اللَّه إليك الَّذي لا إلٰه إلاَّ هو. أمَّا بعد، فإنَّ اللَّه بعثني نقمةً على أَعدائكم، فهم بين أَسيرٍ وطريدٍ وقتيلٍ وشريدٍ، فالحمد للَّه الَّذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثتُ إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا ممَّن شرك في دم الحسين وأَهل بيته ـ رضي اللَّه عنهم ـ كلَّ مَن قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقي ولستُ بمُنجم عنهم حتَّى لا يبلغني أَنَّ على أَديم الأَرض منهم أَرماً، فاكتبْ إليَّ أَيُّها المهديّ برأيكَ أَتَّبعْهُ وأَكُنْ عليه، والسَّلام عليك أيُّها المهديُّ ورحمة اللَّه وبركاته».
وطلب المختار كلَّ من ذكر له من قتلة الحسين وشيعته، وأَعدائه، فقتلهم وأَحرقهم، ومن هرب ولم يقدر عليه هدم دارَهُ.
ثمَّ إنَّ المختار بلغه أَنَّ أَهل الشَّام قد أَقبلوا نحو العراق، فعرف أَنَّه يُبدَأ به، فخشي أَن يأتيه أَهل الشَّام من المغرب، ويأتيه مصعب بن الزُّبير من قبل البصرة، فأَخذ يُداري ابن الزُّبير ويكايدُه. وكان عبد الملك بن مروان قد بعث عبد الملك بن الحارث بن الحَكم بن أَبي العاص إلى وادي القُرىٰ.

ذكر مكيدةٍ للمختار على ابن الزُّبير لم يتمَّ له

كتب المختار إلى ابن الزُّبير:
ـ «أَمَّا بعدُ، فقد بلغني أَنَّ عبد الملك بن مروان بعث إليك جيشاً، فإن أَحببتَ أَن

أُمِدَّك بمددٍ فعلتُ».

فكتب إليه عبد اللّه بن الزبير:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإن كنتَ على طاعتي فلستُ أكره أَن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي النَّاس قِبَلك، فإذا أَتتني بيعتُك صدَّقتُك في مقالتك، وعجِّل إليَّ بتسريح الجيش، ومُرْهم أَن يسيروا إلي من بوادي القُرىٰ من جند ابن مروان، فيقاتلوهم، والسَّلام».

فدعا المختار شرحبيل بن ورس بن همدان، فسرَّحه في ثلاثة آلافٍ أَكثرهم الموالي، ليس فيهم من العرب إلاَّ سبعمائة رجلٍ، فقال:

ـ «سيروا مع شرحبيل وأَطيعوه».

وقال لشُرحبيل:

ـ «إذا دخلتَ المدينة فاكتب إليَّ حتَّى يأتيك أَمري».

وهو يريد: إذا دخلوا المدينة أَن يبعث عليهم أَميراً من قِبله، ويأمر ابنَ ورسٍ أَن يمضي إلى مكَّة حتَّى يحاصر ابن الزُّبير، ويقاتله. فخرج يسير قِبل المدينة.

وخشي ابن الزبير أَن يكون المختار إنَّما يكيده. فبعث من مكَّة إلى المدينة عبَّاس بن سهلٍ في أَلفين، وأَمره أَن يستنفر الأَعراب، وقال له ابن الزُّبير:

ـ «إن رأيت القوم في طاعتي، فاقبل منهم، وإلاَّ فكايِدْهم حتَّى تُهلكهم».

ففعلوا:

ـ «وأَقبل عبَّاس بن سهل حتَّى لقي ابن ورسٍ وقد عبَّى ابن ورسٍ أصحابَه ميمنةً وميسرةً. فدعا وسلَّم عليه، ونزل هو يمشي في الرَّجَّالة وميمنته وميسرته على الخيول».

وجاءَ عبَّاسٌ مع أصحابه وهم متقطِّعون على غير تعبئةٍ، فيجدُ ابن ورسٍ على الماءِ قد عبَّى أصحابه تعبئة القتال، فدنا منه، فسلَّم عليه، ثمَّ قال له:

ـ «اخلُ معي».

فخلا به، فقال:

ـ «رحمك اللّه، أَلستَ في طاعة ابن الزُّبير؟».

فقال له ابن ورسٍ:

ـ «بلىٰ». قال:

ـ «فسِرْ بنا إلى عدوِّ اللّه وعدوِّه الّذي بوادي القُرىٰ، فإنَّ ابن الزُّبير أَنَّه إنَّما أَشخصكم صاحبكم إليه».

قال ابن ورسٍ:

ـ «ما أُمرتُ بطاعتكم. إنَّما أُمرتُ أَن آتي المدينة، فإذا تركتُها كاتبتُ صاحبي».

فقال عبَّاس بن سهلٍ:

ـ «إن كنتَ في طاعة ابن الزُّبير، فقد أَمرني أَن أَسير بك وبأَصحابك إلى عدوِّنا بوادي القُرىٰ».

فقال ابن ورسٍ:

ـ «ما أُمرتُ بطاعتك وما أَنا بمتَّبعكَ دون أَن أَدخل المدينة، ثمَّ أَكتب إلى صاحبي، فيأمرني بأَمره».

فلمَّا رأى العبَّاس لَجاجَه عرف خلافه، وكره أَن يُعلمه أَنَّه فطن له، فقال:

ـ «فرأيك أَفضل، اعمل بما بدا لك، فأَمَّا أَنا فإنِّي سائرٌ إلى وادي القُرىٰ».

ذكر مكيدة عبَّاس بن سهلٍ بأَصحاب المختار

ثمَّ جاءَ عبَّاس بن سهلٍ، فنزل بالماء، وبعث إلى ابن ورسٍ بجُزُرٍ كانت معه، فأَهداها له مع دقيقٍ وغنمٍ مسلَّخةٍ، وكان ابن ورس وأَصحابه قد هلكوا جوعاً، وبعث عبَّاسٌ إلى كلِّ عشرةٍ منهم شاةً، فذبحوها واشتغلوا بها، وتركوا تعبئتهم، واختلطوا على الماءِ.

فلمَّا رَأَىٰ عبَّاس بن سهلٍ أَنَّهم قد شُغلوا، جمع من أَصحابه نحواً من أَلف رجلٍ من ذوي البأس والنَّجدة، ثمَّ أَقبل نحو فسطاط شُرحبيل بن ورسٍ، فلمَّا رَآهم ابن ورسٍ مُقبلين إليه، نادىٰ في أَصحابه، فلم تتوافَ إليه مائة رجلٍ. حتَّى انتهىٰ إليه عبَّاسٌ وهو يقول:

ـ «يا شُرطةَ اللَّه، إليَّ إليَّ، قاتلوا المُحلِّين أَولياءَ الشَّيطان الرَّجيم، فقد غدروا، وفجروا».

قال: فواللَّه ما اقتتلنا إلاَّ شيئاً ليس بشيءٍ، حتَّى قُتل ابن ورسٍ في سبعين من أَهل الحفاظِ، ورفع ابنُ سهلٍ رايةَ الأَمان لأَصحاب ابن ورسٍ فأَتوها إلاَّ نحواً من ثلاثمائة رجلٍ انصرفوا مع سلمان بن حُميدٍ الهَمْدانيّ.

فلمَّا وقعوا في يد عبَّاس بن سهل أَمر بهم فقُتلوا إلاَّ نحواً من مائة رجلٍ كَرِهَ ناس مِمَّن دُفعوا إليهم قَتْلَهم، فخلُّوا سبيلهم، فرجعوا، فماتَ أَكثرهم في الطَّريق.

وبلغ المختارَ أَمرُهم، فخطب النَّاسَ وقال:

ـ «أَلا، إنَّ الفُجَّار الأَشرار قَتلوا الأَبرار الأَخيار».

ثم كتب إلى محمَّد ابن الحنفيَّة مع صالح بن مسعود الخثعمي:

«بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم»

ـ «أَمَّا بعد، فإنِّي كنتُ بعثتُ إليك جُنداً لِيُذِلُّوا لك الأَعداءَ، وليحوزوا لك البلادَ،

فساروا حتَّى إذا أَظلُّوا على طَيبةَ، لقيهم جُند الملحد، فخدعوهم باللَّه، وغرُّوهم، فلمَّا اطمأنُّوا إليهم وثبوا بهم فقتلوهم، فإن رأَيت أَن أَبعثَ إلى المدينة من قِبلي جُنداً كثيفاً وتبعث إليهم من قِبلكَ رُسُلاً حتَّى يعلم أَهل المدينة أَنِّي في طاعتك، وإِنَّما بعثت الجندَ عن أَمرك، فافعلْ، فإنَّكَ ستجدهم أَعرفَ بحقِّكم أَهلَ البيت، وأَرأَفَ بكم منهم بآل الزُّبير والملحدين، والسَّلام».

فكتب إليه محمَّد ابن الحنفيَّة:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإنَّ كتابك لمَّا بلغني قرأتُه وفهمته، وعرفتُ تعظيمكَ لحقِّي وما تنوي به من سُروري، وإنَّ أَحبَّ الأُمور إليَّ ما أُطيع اللَّهُ فيه، فأَطع اللَّهَ ما استطعتَ في ما أَعلنتَ وأَسررتَ. واعلمْ أَنِّي لو أَردتُ القتالَ لوجدتُ النَّاس إليَّ سِراعاً، والأَعوان لي كبيراً، ولكنِّي أَعتزلهم وأَصبر حتَّى يحكم اللَّه لي وهو خير الحاكمين».

فأَقبل صالح بن مسعودٍ إلى ابن الحنفيَّة، فودَّعه، وسلَّم عليه، وهو كان حامل كتاب المختار، فأَعطاه جواب الكتاب، وقال:

ـ «قُلْ له: فليتَّقِ اللَّه، وليكففْ عن الدِّماءِ».

قال: فقلت له:

ـ «أَصلحك اللَّه، أَو لم تكتبْ إليه بهذا؟».

قال ابن الحنفيَّة:

ـ «قد أَمرتُه بطاعة اللَّه، وطاعة اللَّه تجمع الخيرَ كُلَّه، وتنهىٰ عن الشَّرِّ كُلِّه».

فلمَّا قدم كتابُه على المختار، أَظهر للنَّاس:

ـ «إِنِّي قد أُمرتُ بأَمرٍ يجمع البِرِّ واليُسرَ، ويَضرحُ الكفرَ والغَدَر».

ذكر رأيٍ رَآهُ ابن الزُّبير بعد حبسه محمَّد ابنَ الحنفيَّة ومَن معه بزمزم

ثمَّ إنَّ عبدَ اللَّه بن الزُّبير حبس محمَّد ابن الحنفيَّة ومَن معه من أَهل بيته وسبعة عشر رجلاً من أَهل الكوفة بِزَمْزَم كرهوا البيعةَ لمن لم تجتمع عليه الأُمَّة وهربوا إلى الحَرم، وتوعَّدهم القتلَ والإحراقَ، وأَعطى اللَّهَ عهداً ـ إن لم يُبايعوا أَن يُنفِذَ فيهم ما توعَّدهم به، وضرب لهم في ذلك أَجَلاً.

فأَشار بعضُ من كان مع ابن الحنفيَّة عليه أَن يبعثَ إلى المختار وإلى مَن كان بالكوفة رسولاً يعلمهم حالَهم وحالَ مَن معهم وما توعَّدهم به ابنُ الزُّبير، فوجَّه ثلاثة نفرٍ من الكوفة حين نام الحرس على باب زَمْزَم، وكتب معهم إلى المختار وأَهل الكوفة

يُعلمهم حالَه وحالَ من معه وما توعَّدهم به ابن الزُّبير من القتل والحرق بالنَّار، ويسألهم ألا يخذُلوهُ كما خذلوا الحسينَ وأهل بيته.

فقدموا على المختار، ودفعوا إليه الكتاب. فلمّا قرأهُ قال:

ـ «هذا كتاب مهديِّكم وصريخ أهل بيت نبيِّكم! قد حُظر عليهم كما يُحظَرُ على الغنم، ينتظرون القتلَ والتَّحريقَ بالنَّار في آناءِ اللَّيلِ وتاراتِ النَّهار، ولستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزَّراً».

ووجَّهَ أبا عبد اللَّه الجدليَّ في سبعين رجلاً من أهل القوَّة، ووجَّه ظبيان بن عثمان التَّميمي في أربعمائةٍ، وأبا المعتمر في مائةٍ، وهانىءِ بن قيس في مائةٍ وعمير بن طارقٍ في أربعين، ويونس بن عمران في أربعين، وكتب إلى محمَّد بن عليٍّ بتوجيه الجنود إليه، فخرج النَّاس بعضهم في أثر بعضٍ.

وجاءَ أبو عبد اللَّه الجدليُّ في سبعين راكباً حتَّى نزل ذاتَ عِرقٍ ولَحقَهُ عُقبةُ في أربعين، ويونس في أربعين، فتمُّوا مائةً وخمسين فارساً. فسار بهم حتَّى دخلوا مسجد الحرام ومعهم الكافر كوباتُ وهم ينادون:

ـ «يا لِثَاراتِ الحسين».

حتَّى انتهوا إلى زمزم وقد أعدَّ ابن الزُّبير الحطب ليُحرقهم وقد كان بقي من الأجلِ يومان. فطردوا الحرسَ، وكسروا أعوادَ زَمزَم، ودخلوا على محمَّد ابن الحنفيَّة، فقالوا له:

ـ «خلِّ بيننا وبين عدوِّ اللَّه ابن الزُّبير!».

فقال لهم:

ـ «إنِّي لا أستحلُّ القتال في حرم اللَّه».

فقال ابن الزُّبير:

ـ «أتحسبون أنِّي مُخَلٍّ سبيلهم دون أن يبايع وتُبايعوا؟».

فقال أبو عبد اللَّه الجدليّ:

ـ «إي وربِّ الرُّكن والمقام، لَتُخلِّينَّ سبيلَه أو لنُجالدنَّك بأسيافنا جِلاداً يرتاب منه المبطلون».

فقال ابن الزُّبير:

ـ «ما هؤلاءِ إلاَّ أكلة رأسٍ، واللَّه لو أذنتُ لأصحابي لَقُطِفَتْ رُؤُوسُهم في ساعةٍ».

فقال له قيس بن مالكٍ:

- «إن رُمتَ ذلك، رجوتُ أَن يُوصل إليك قبل أَن ترى ما تحبُ».

فكفَّ ابن الحنفيَّة أَصحابه وحذَّرهم الفتنة.

ثمَّ قدم أَبو المعتمر وبقيَّة النَّاس ومعه المال حتَّى دخلوا المسجد فكبَّروا:

- «يا لِثَاراتِ الحسين».

فلمَّا رآهم ابن الزُّبير خافهم، وخرج محمَّد ابن الحنفيَّة ومن معه إلى شِعْب عليٍّ وهم يسبُّون ابن الزُّبير، ويستأذنون محمَّد ابن الحنفيَّة فيه، ويأبى عليهم. واجتمع في الشِّعب مع محمَّد بن عليٍّ أَربعة آلاف رجلٍ، فقسم بينهم ذلك المال.

ذكر ما كان من المختار بعد وقعة السُّبيع بالكوفة

ثمَّ إنَّ المختار بعد أَن فرغ من قتال مَن ذكرناهم في وقعة السُّبيع، ما ترك إبراهيم بن الأَشتر إلاَّ يومين حتَّى أَشخصه إلى الشَّام لحرب عبيد اللَّه بن زيادٍ، وأَخرج معه وجوهَ أَصحابه مِمَّن شهد الحروبَ وجرَّبها، وخرج المختار يُشيِّعه ويوصيه ومعه الكرسيّ ويليه قومٌ كالسَّدَنةِ. وسنذكر خبر الكرسيِّ إن شاءَ اللَّه.

وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمَّامِ أَعيَن، فلمَّا أَراد أَن ينصرف عنه قال لابن الأَشتر:

- «خُذْ عنِّي ثلاثاً: خفِ اللَّهَ في سِرِّ أَمرِك وعلانيته، وعجِّل السَّيرَ، وإذا لقيتَ عدوَّك فناجزهم ساعةَ تلقاهم، وإن لقيتَهم ليلاً فاستطعتَ أَلاَّ تُصبح حتَّى تُناجزهم فافعل، وإن لقيتَهم نهاراً فلا تنتظر بهم اللَّيلَ». ثمَّ قال:

- «هل حفظتَ ما أَوصيتُك به؟» قال:

- «نعم». قال:

- «صحبك اللَّه».

ثمَّ انصرف.

خبر الكرسيِّ

كان طفيل بن جعدة بن هُبيرة قد ضاقت يَدُهُ، وكانت أُمُّه أَم هانئ بنت أَبي طالب أُخت عليٍّ عليه السَّلام لأَبيه وأُمِّه، وكان المختار يطالب آل جَعدة بكرسيِّ عليّ بن أَبي طالبٍ، فيقولون:

- «لا واللَّه، ما هو عندنا».

فيقول المختار:

- «لا تكونوا حَمقىٰ» - ويتوعدهم.

قال طفيلٌ: فاحتَزتُ يوماً وأَنا على إضاقتي تلك، فرأيتُ كرسيّاً عند جارٍ لي زيَّاتٍ قد ركبه الوسخ. فخطر ببالي أَن لو قلتُ للمختار: هذا كرسيٌّ علي بن أَبي طالبٍ؛ لَقبِلَه. فأرسلتُ إلى الزَّيَّات أَن:

ـ «ابعث إليَّ بكرسيِّكَ».

فأَرسل به إليَّ، فأَتيتُ المختار، فقلت له:

ـ «إنِّي كنت أَكتُمكَ أَمر الكرسيِّ الَّذي كنت تلتمسه، وقد بدا لي أَن أُظهرهُ، لأَنَّ جعدة بن هبيرة كان يجلس عليه كأَنَّه يَرىٰ أَنَّ فيه أَثَرَة من علم». فقال:

ـ «سبحان اللَّه! فأَخَّرتَ هذا إلى اليوم! ابعث به!».

قال: وقد كنتُ تقدَّمتُ بغسله وقد غسل، فخرج عُودَ نُضارٍ، وقد كان تشرَّبَ الزَّيتَ، فخرج أبيضَ، وقد غُشِّيَ، فأَمرَ لي المختار باثنَي عشر أَلفاً، ثمَّ دعا:

ـ «الصَّلاة جامعة».

وخطب، فقال:

ـ «إنَّه لم يكن في الأُمم الخالية أَمرٌ إلاَّ هو كائنٌ في هذه الأمَّة مثله، فإنَّه كان في بني إسرائيل التَّابوت، فيه بقيَّةٌ ممَّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وإنَّ هذا فينا مثل التَّابوت، اكشفوا عنه».

فكشفوا عنه أَثوابَه، وقامت السَّبائيَّة، فكبَّروا ثلاثاً. فلمَّا خرج المختار مع إبراهيم بن الأَشتر لوجه عُبيدِ اللَّه بن زيادٍ، أَخرج الكرسيَّ على بغلٍ يُمسكه عن يمينه سبعةٌ وعن يساره سبعةٌ. فقُتل أَهل الشَّام مقتلةً لم يُقتَلوا مثلَها، فزادهم ذلك فتنةً، فارتفعوا فيه حتَّى غَلَوا، وكان أَوَّل من سَدَنَهُ موسى بن أَبي موسى الأشعري، ثمَّ حَوْشب البرشمي، فكانوا يرون أَنَّ المختار يتكلَّم عنه بوحيٍ، وأَشباه هذا».

فأَمَّا إبراهيم بن الأَشتر، فإنَّه سار من يومه مُسرعاً لا ينثني، يريد أَن يلقى عبيد اللَّه بن زيادٍ وأَهل الشَّام قبل أَن يدخلوا أَرض العراق، فسبقهم إلى أَرض الموصل، وأَسرع إليه السَّيرَ حتَّى لقيه بخازر إلى جنب قريةٍ يقال لها: باربيثا بينها وبين الموصل خمسة فراسخ، وأَخذ ابن الأَشتر لمَّا دَنَا من ابن زيادٍ لا يسير إلاَّ على تعبئَةٍ ويسير بهم جميعاً لا يفرِّقهم إلاَّ أنه يبعث الطُّفيل بن لقيط في الطَّلائع، وكان شجاعاً بئيساً.

ثمَّ أَرسل عُمير بن الحُباب السُّلمي إلى ابن الأَشتر أَني معك وأُريد لقاءَك اللَّيلة، فأَرسل إليه ابن الأَشتر أَن: القَني إذا شئت.

فأَتاه عميرٌ ليلاً، فبايعه وأَخبره أَنَّه على ميسرة صاحبه، وواعده أَن ينهزم بالنَّاس، فقال له ابن الأَشتر:

ـ «فإنّي أَستشيرك في أَمرِ فأَشِرْ عليَّ». قال:

ـ «نعم». قال:

ـ «أترىٰ أن أُخندق عليَّ وأتلوَّم يومين أو ثلاثةً؟».

قال عُمير بن الحباب:

ـ «لا تفعل، إنّا للّه، وهل يريد القوم إلاّ هذه، إن طاولوك وماطَلوك هو خير لهم هم كثيرٌ أضعافكم، وليس يُطيق القليلُ الكثيرَ في المطاولة، ولكن ناجز القوم، فإنّهم قد مُلئوا منكم رُعباً وإنّهم إن شامُّوا أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم ومرَّة بعد مرَّةٍ، أَنِسوا بهم واجترأوا عليهم».

قال إبراهيم:

ـ «الآن علمتُ أَنَّك لي مناصحٌ، صدقتَ الرَّأيَ وما رأيتَ. أَمّا إنَّ صاحبي، بهذا الرَّأي أمرني».

قال عُمير:

ـ «فلا تعدُون رأيَهُ، فإنَّ الشَّيخ قد ضرَّسته الحروبُ، وقاسىٰ منها ما لم تُقاسِ، ناهِضِ الرَّجلَ إذا أصبحتَ».

وانصرف عُميرٌ، وأَذكى ابن الأَشتر حرسَهُ تلك اللَّيلةَ، اللَّيلَ كلَّه، ولم يدخل عينَه غُمضٌ حتَّى إذا كان في السَّحر الأَوَّل عبَّى أَصحابَه ميمنةً وميسرةً، وأَلحقَ أَميرَ الميمنة بالميمنة، وأَمير الميسرة بالميسرة، وأَمير الرَّجَّالة بالرَّجَّالة، وضمَّ الخيلَ وعليها أَخوه لأَمِّه عبدُ الرَّحمن بن عبد اللّه، فكانت وسطاً من النَّاس، ونزل إبراهيم يمشي، وقال للنَّاس:

ـ «ازحفوا».

فزحف النَّاس معه رويداً رويداً حتَّى أَشرف على تلٍّ عظيمٍ مُشرفٍ على القوم، فجلس عليه، وإذا أُولئكَ لم يتحرَّكْ منهم أَحدٌ بعدُ فدعا ابن الأَشتَر بفرسٍ له فركبه، ثمَّ مرَّ بأَصحاب الرَّايات، فكلَّما مرَّ على رايةٍ وقف عليها وقال:

ـ «يا أَنصارَ الدِّين وشيعةَ الحقِّ وشرطةَ اللّه! هذا عُبيد اللّه بن مرجانة قاتلُ الحسين بن عليِّ ابنِ فاطمة بنتِ رسول اللّه ﷺ، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته، وبينَ الفرات أَن يشربوا منه وهم ينظرون إليه، ومنعه أَن يأتي ابنَ عمِّه فيصالحه، ومنعه أَن ينصرفَ إلى رحله وأَهله، ومنعه الذَّهاب في الأَرضِ العريضة، حتَّى قتله وقتلَ أَهل بيته، قد جاءَكم اللّه به، وجاءَه بكم. وواللّه إنِّي لأَرجو أَنَّه ما جمع بينكم في هذا الموطن وبينه، إلاّ ليشفي صُدورَكم، ويسفك دَمَهُ على أَيديكم».

وسار في ما بين الميمنة والميسرة، فرغَّبهم في الجهاد، وحرَّضهم على القتال.

ثمَّ رجع حتَّى نزل تحت رايته، وزحف القوم إليه، وقد جعل ابن زياد على ميمنته الحصين بن نمير السَّكوني، وعلى ميسرته، عمير بن الحباب وشرحبيل بن ذي الكُلاع على الخيل، وهو يمشي في الرِّجال.

فلمَّا تدانى الصَّفَّان حمل الحصين بن النُّمير في ميمنة أَهل الشَّام على ميسرة أَهل الكوفة وعليها عليّ بن مالكٍ الجُشَمي، فثبت له هو بنفسه، فقُتل، ثمَّ أَخذ رايتَه قُرَّة بن عليٍّ، فقُتل أَيضاً في رجال أَهل الحِفاظ، وانهزمت الميسرة، فأَخذ الرَّاية عبد اللّه بن ورقاء السَّلُوليّ، فاستقبل المنهزمين وقال:

ـ «يا شرطة اللّه، إليَّ إليَّ».

فأقبل جلُّهم إليه، فقال:

ـ «هذا أَميركم يُقاتل، إلى أَين؟ سيروا بِنا إليه».

فأَقبل حتَّى أَتاهُ، فإذا هو كاشفٌ عن رأسه يُنادي:

ـ «إليَّ إليَّ، أَنا ابن الأَشتر، إنَّ خير فُرَّارِكم كُرَّارُكم، ليس مُسيئاً من أَعتب».

فثاب إليه أَصحابُه. وأَرسل إلى صاحب الميمنة:

ـ «احملْ على ميسرتهم».

وهو يرجو أَن ينهزم لهم عمير بن الحباب كما زعم.

فحمل عليه سفيان بن يزيد بن المغفَّل صاحب الميمنة، فثبت لهم عُمير بن الحباب وقاتله قتالاً شديداً، فلمَّا رأى إبراهيم ذلك، قال لأَصحابه:

ـ «أُمُّوا هذا السَّواد الأَعظم، فواللّه لو قد فضضناهُ لا نجفل من ترون منهم يمنةً ويسرةً انجفالَ طيرٍ زُعِقَ بها فطارت».

قال ورقاءُ بن عازبٍ: فمشينا إليهم حتى إذا دنونا منهم اطَّعَنَّا بالرِّماح قليلاً، ثمَّ صرنا إلى السُّيوف والعُمُد فاضطربنا بها مليّاً. فواللّه ما سمعتُ من وقع الحديد على الحديد إلاّ مَياجِنَ قصَّارى دار الوليد بن عُقبة بن أَبي مُعيطٍ. ثمَّ انهزموا، فسمعتُ إبراهيم بن الأَشتر يقول لصاحب رايته:

ـ «انغمس برايتكَ فيهم». فيقول له:

ـ «جُعلت فداءَك، إنَّه ليس متقدَّم». فيقول:

ـ «بلىٰ، فإنَّ أصحابك يقاتلون، وإنَّ هؤلاءِ يهربون».

فإذا شدَّ إبراهيم بسيفه، فلا يضرب أَحداً إلاّ صرعه، وكردَ إبراهيمُ بن الأَشتر الرِّجالَ بين يديه كأَنَّهم الحُملان، وإذا شدَّ، شدَّ أَصحابُه معه شدَّة رجلٍ واحدٍ.

فلمَّا انهزم أَهل الشام، قال ابن الأَشتر:

- «إِني قد ضربتُ رجلاً فقتلتُه ووجدتُ منه رائحة المسك، ضربةً شرَّقتْ يدَيه وغرَّبت رجليه، تحت رايةٍ منفردة على شاطئ جازر وأَظنُّه طاغيتهم، فالتمِسوهُ».

فالتَمسوهُ، فإذا هو عبيد اللّه بن زيادٍ قتيلاً، ضربهُ فقطَّهُ.

وحمل شريك بن جرير على الحصين بن نُمير السَّكوني وهو يحسبه ابن زيادٍ، فاعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، ونادىٰ شريكٌ:

- «اقتلوني وابنَ الزَّانية».

فقُتل ابن نُمير.

وكان شريك بن جرير مع عليٍّ أُصيبت عينُه معه، فلمَّا انقضت حربُ عليٍّ لَحِقَ ببيت المَقدِس، فلمَّا جاءَه قتلُ الحسين قال:

- «أُعاهد اللّه، لئن وجدتُ من يطلب بدم الحسين أُقبل إليه، ولأَقتلنَّ ابن مرجانة، أَو لأَموتنَّ دونه».

فلمَّا بلغه خروج المختار يطلبُ بدم الحسين، جاءَهُ، فوجَّهه مع ابن الأَشتر.

وقُتل ابن ذي الكُلاع، وتبع أَصحابُ إبراهيم أَهلَ الشَّام المنهزمين فكان من غرقَ أَكثَر ممَّن قُتل. وأصابوا من عسكرهم كلَّ شيءٍ من الغنائم.

ومضى ابن الأَشتر إلى الموصل، وبعث عُمَّاله، فبعث أَخاه عبد الرَّحمن بن عبد اللّه على نصيبين، فغلب على سِنجار ودارا وما والاهما من أَرض الجزيرة، وخرج من أَهل الكوفة كلُّ من كان قاتل المختار وهزمهم، فلحقوا بمصعب بن الزُّبير بالبصرة وفيهم شَبث بن ربعيّ. وكان المختار قال لأَصحابه:

- «سيأتيكم الفتح من قِبل إبراهيم بن الأشتر. قد هزموا أَصحاب ابن مرجانة».

وخرج المختار من الكوفة، واستخلف عليها السَّائب بن مالك الأَشعري، وخرج بالنَّاس، فنزل ساباط، وقال للنَّاس:

- «أَبشروا، فإنَّ شرطة اللّه قد حسُّوهم بالسُّيوف يوماً إلى اللَّيل بنصيبين أَو قريباً منها».

قال: ودخلنا المدائن واجتمعنا إليه، فصعد المنبر، فواللّه إنَّه ليخطبنا، ويأمر بالجدِّ والاجتهاد والثَّبات على الطاعة والطَّلبِ بدماءِ أَهل البيت، إذ جاءَته البُشرىٰ تترىٰ، يتبع بعضُها بعضاً بقتل عُبيد اللّه بن زيادٍ وهزيمةِ أَصحابه، وأَخذِ عسكرِه، وقتلِ أَشراف أَهل الشَّام، فقال المختار:

ـ «يا شرطة اللّه، أَلم أُبشِّركم بهذا قبل أَن يكون؟» قالوا:

ـ «بلىٰ واللّه، لقد قلتَ ذلك».

قال الشَّعبيُّ: فيقول لي رجلٌ من بعض جيراننا:

ـ «أَتؤمن الآن يا شعبيُّ؟».

قال: قلت:

ـ «بأَيِّ شيءٍ أومنُ؟ بأَنَّ المختار يعلم الغيب؟ لا أُومنُ بذلك أبداً». قال:

ـ «أَو لم يقُلْ لنا أَنَّهم انهزموا؟» فقلتُ:

ـ «بلىٰ، ولكن زعم أَنَّهم هُزموا بنصيبين من أَرض الجزيرة، وإِنَّما هو بخازر من أَرض الموصل». فقال:

ـ «واللّه لا تُؤمن حتَّى ترى العذابَ الأَليم».

ذكر مسير مُصعَبٍ إلى المختار وحربه

لمَّا قدم شبثٌ على مُصعب بن الزُّبير كان تحته بغلةٌ له قد قُطع ذنبها وقُطع طرفُ أُذنها، وشقَّ قباءُه وهو يصيح:

ـ «يا غوثاه، يا غوثاهُ!».

فعُرِّف مُصعبٌ أَنَّ بالباب رجلاً صفته كذا وكذا، فقال لهم:

ـ «نعم، هذا شبث بن ربعيّ، ولم يكن لِيفعلَ هذا غيرُه، أَدخلوهُ».

فأُدخل إليه، وجاءَه أَشراف النَّاس من أَهل الكوفة، فأَخبروه بما أُصيبوا به من وُثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وشكوا إليه، وسأَلوه النَّصرَ لهم والمسيرَ إلى المختار معهم. وقدم عليهم محمَّد بن الأَشعث بن القيس، ولم يكن شهد وقعة الكوفة، وإِنَّما كان يُقَصُّ له. فلمَّا بلغه هزيمةُ النَّاس، تهيَّأَ للشُّخوص، وسأَل عنه المختار، فأُخبر بمكانه، فسرَّح وراءَهُ قوماً، فلم يلحقوه، ومضى إلى مُصعبٍ، فأَدناه مُصعبٌ وقرَّبه وأَكرمه لشرفه، وهدم المختار دار ابن الأَشعث.

ثمَّ قال مُصعبٌ لمحمَّد بن الأَشعث لمَّا أَكثر عليه النَّاس:

ـ «إِنِّي لا أَسير حتَّى يأتيني المهلَّب بن أَبي صفرة».

فكتب مُصعبٌ إلى المهلَّب وهو عامله على فارس أَن:

ـ «أَقبلْ إِلينا لتشهد أَمرنا وتسير معنا إلى الكوفة».

فتباطأَ عنه المهلَّب كراهةً للخروج، واعتلَّ بشيءٍ من الخُراج، فأَمر مُصعبٌ

محمَّد بن الأَشعث بن قيسٍ في بعض ما كان محمَّد يستحثُّه:

ـ «إيتني بالمهلَّب».

فخرج محمَّد بكتاب مُصعبٍ إلى المهَّلب، فلمَّا قرأه، قال:

ـ «مثلك يا محمَّد في شرفك يأتي بريداً؟ أما وجد المُصعبُ بريداً غيرك؟».

قال محمَّد:

ـ «إنّي، واللَّه، ما أَنا ببريدٍ لأَحدٍ، غير أَنَّ نساءَنا وأَبناءَنا وحُرَمنَا غَلَبنَا عليهم عبداننا وموالينا».

فخرج المهلَّب بجموع كثيرة وأَموالٍ عظيمةٍ معه في هيئةٍ وعُدَّة وجموعٍ ليس بها أَحدٌ من أَهل البصرة. ولمَّا ورد بابَ مُصعب صادفه وقد أَذن للنَّاس، فحجبهُ الحاجب وهو لا يعرفه، فرفع المهلَّب يدَه وكسر أَنفَه. فدخل الحاجب إلى المُصعب وأَنفُه يسيل دماً، فقال له:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «ضربني رجلٌ ما أَعرفه».

ودخل المهلَّب، فلمَّا رآه الحاجب، قال:

ـ «هُو ذا».

فقال له مُصعبٌ:

ـ «عُدْ إلى مكانك».

ثمَّ عسكر مُصعبٌ عند الجسر الأَكبر، وقدَّم أَمامه عَبَّاد بن الحصين الحبطيّ من بني تميم على مقدِّمته، وبعث عُمر بن عبد اللَّه بن مَعمَر على ميمنته، وبعث المهلَّب على ميسرته، وبعث على الأَخماس مالك بن مِسمعٍ ومالك بن المنذر، والأَحنف بن قيسٍ، وزياد بن عَمرو الأَزديّ، وقيس بن الهيثم.

وبلغ ذلك المختارَ، فقام في أَصحابه، فحمد اللَّه وأَثنى، وقال:

ـ «يا أَهلَ الدِّين وأَعوانَ الحقِّ وأَنصارَ الضَّعيف وشيعة آل الرَّسول! إنَّ فُرَّاركم الَّذين بغَوا عليكم فهزمتموهم، أَتَوا أَشباههم من الفاسقين، فاستغوَوهم عليكم ليمصحَ الحقُّ ويُنعش الباطل، ويُقتل أَولياءُ اللَّه. واللَّه لو هلكتم ما عُبد اللَّه في الأَرض إلاَّ بالفَري على اللَّه واللَّعن لأَهل بيت نبيِّه ﷺ، انتدبوا مع أَحمر بن شُميطٍ».

فعسكر بحمَّام أَعين. ودعا المختارُ رؤوس الأَرباع الَّذين كانوا مع ابن الأَشتر، فبعثهم مع ابن شُميط، لأَنَّهم فارقوا ابن الأَشتر لما رأوا من تهاونه بأَمر المختار، فبعثهم

المختار مع ابن شُميط، وبعث معه جيشاً كثيفاً.

وسار أَحمر بن شُميطٍ حتَّى ورد المذارَ وجاءَ مُصعبٌ حتَّى عسكر قريباً منه، ثمَّ عبّى كلُّ واحدٍ منهم جنده، وجعل أحمرُ بن شميط على ميمنته عبد اللّه بن كاملٍ، وعلى ميسرته عبد اللّه بن وهبِ بن نضلة، وعلى الخيل رزين بن عبد اللّه السَّلوليّ، وعلى الرَّجَّالة كثير بن إسماعيل الكنديّ، وجعل أَبا عمرة على الموالي وكان مولًى لِعُرينَة.

مكيدةٌ لعبد اللّه بن وهبٍ على الموالي

فجاءَ عبد اللّه بن وهبٍ وكان على الميسرة، إلى ابن شُميطٍ وقد أَخلاهُ، فقال له:

ـ «إنَّ الموالي والعبيد إلى خَورٍ عند المصدوقةَ، وأَنَّ معهم رجالاً كثيراً على الخيل وأَنتَ تمشي، فمُرْهم لينزلوا معك، فإنَّ لهم بك أُسوةً، وإنِّي أَتخوَّف إن طُردوا ساعةً فطُوعِنوا وضوربوا، أَن يطيروا على متونها، ويُسلموك، وإنَّك إن أَرجلتَهم لم يجدوا من الصَّبر بُدّاً».

وإنَّما غشَّ المواليَ والعبيدَ لما كان لَقِيَ منهم بالكوفة، فأَحبَّ ـ إن كانت عليهم الدَّبرةُ ـ أَلاَّ يكونوا فُرساناً بل رجَّالةً، فلا ينجو منهم أَحدٌ. ولم يتَّهمه ابن شميط، وظنَّ أَنَّه إنَّما أَراد بذلك نصيحته ليصبروا ويقاتلوا فقال:

ـ «يا معشر الموالي، انزلوا معي، فقاتلوا».

فنزلوا معه ثمَّ مشَوا بين يديه وبين يدي رايته.

وجاء مصعب بن الزُّبير وقد جعل عبَّاد بن الحصين على الخيل، وأَقبل عبَّادٌ حتَّى دَنَا من ابن شُميط وأَصحابه فقال:

ـ «إنَّا ندعوكم إلى كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ، وإلى بيعة أَمير المؤمنين عبد اللّه بن الزُّبير».

فقال الآخرون:

ـ «إنَّا ندعوكم إلى كتاب اللّه، وسنَّة رسوله ﷺ وإلى بيعة الأَمير المختار، وإلى أَن يجعل الأَمر شُورى في آل الرَّسول، فمن زعم من النَّاس أَنَّ أَحداً ينبغي أَن يتولَّى عليهم بَرِئْنا منهم وجاهدناه».

فانصرف عبَّادٌ إلى مُصعب فأَخبره فقال له:

ـ «ارجع، فاحمل عليهم».

فحمل على ابن شميط، فلم يَزُلْ منهم أَحدٌ. ثمَّ انصرف إلى موقفه، وحمل المهلَّب على ابن كاملٍ، فجال أَصحابُه بعضهم في بعض، فنزل ابن كامل، وانصرف

عنه المهلَّب، ثمَّ وقف ساعةً، وقال لأَصحابه:

ـ «احملوا حملةً صادقةً، فقد أَطمعوكم».

يعني جولتهم الَّتي جالوها. فحمل عليهم حملةً منكرةً، فولَّوا، وصبر ابن كامل في رجال همدان، فأَخذ المهلَّبُ يسمع اتّصال القوم:

ـ «أَنَا الغلام الشَّاكريّ، أَنَا الغلام الشَّباميّ، أَنَا الغلام الثَّوريّ».

وحمل عمر بن عبد اللَّه بن مَعمر على عبد اللَّه بن أَنس، فقاتل ساعةً ثمَّ انصرف عنه، وحمل النَّاس جميعاً على ابن شميط، فقاتل حتَّى قُتل، وتنادى أَصحابه:

ـ «يا معشر بجيلة وخثعم، الصَّبر الصَّبر».

فناداهم المهلَّب:

ـ «الفرار الفرار، فهو اليوم أَنجىٰ لكم، علامَ تقتلون أَنفسكم مع هذه العِبدان، أَضلَّ اللَّهُ سعيَكم».

ثمَّ نظر إلى أَصحابه فقال:

ـ «واللَّه ما أَدري استحرار القتل إلاَّ في أَصحابي وقَومي».

ومالت الخيل على رجَّالة ابن شُميط فانهزمت وأَخذت في الصَّحراءِ، فبعث مُصعب بن الزُّبير عبَّاد بن الحصين على الخيل وقال:

ـ «إيَّما أَسِير أَخذتَه فاضربْ عُنقَه».

وسرَّح محمَّد بن الأَشعث في خيلٍ عظيمةٍ من خيل أَهل الكوفة ممَّن كان المختار طردهم، فقال:

ـ «دونَكم ثَأرَكم».

فلم يكن على المنهزمين قومٌ أَشدَّ عليهم منهم، كانوا لا يعفون عن أَسيرٍ إنَّما هو القتل، فلم يَنجُ من ذلك الجيش إلاَّ طائفةٌ من أَصحاب الخيل، وأَما رجالتهم، فأُبيدوا.

فتحدَّث عبد الرَّحمن بن أَبي عُمير الثَّقفي، قال: واللَّه إنِّي لجالسٌ عند المختار حين أَتاه هزيمة القوم، فأَصغى إليَّ برأسه وقال لي:

ـ «قُتلت واللَّه العبيدُ قتلةً ما سمعتُ بمثلها قطُّ».

ثمَّ قال:

ـ «وقُتِل ابن شميطٍ وابن كاملٍ، وفلان وفلان...».

فسمَّى قوماً من العرب ورجالاً كان الواحد منهم خيراً من أُمَّةٍ من النَّاس.

قال: فقلت:

ـ «إنَّا للَّهِ، هذه واللَّه مصيبةٌ».

فقال لي:

ـ «ما من الموت بُدٌّ، وما من ميتةٍ أموتُها أَحبّ إليَّ من مثل ميتة ابن شميط، حبَّذا مَصارع الكِرام».

قال: فعلمتُ أَنَّ الرجل قد حدَّث نفسه إن لم يُصب حاجتَه، أَن يُقاتل حتَّى يموتَ.

وأَقبل مصعبٌ حتَّى قطع من تلقاءِ واسط القَصَب، ولم تكن واسطُ هذه بُنيتْ بعدُ، وأَخذ في كَسكَر، ثمَّ حمل الرِّجال وأَثقالهم وضعفاءَ النَّاس في السُّفن، فأَخذوا في نهرٍ يُقال له: نهر خُرشيذ، ثمَّ خرجوا من ذلك النَّهر إلى الفرات، وكان أَهل البصرة يخرجون فيجرُّون سفنهم ويقولون:

عوَّدنا المُصعَبُ جَرَّ القَلسِ والزَّنبريَّات الطِّوال القُعْسِ

ولمَّا بلغ المختارَ أَنَّهم قد أَقبلوا إليه في البرِّ والبحر، سار حتَّى نزل السَّيلحين، ونظر إلى مجتمع الأَنهار: نهر الحيرة، ونهر السَّيلحين، ونهر القادسيَّة، ونهر يوسف، فسكر الفرات على مجتمع الأَنهار، فذهب ماءُ الفرات كُلُّه في هذه الأَنهار، وبقيت سفُن أَهل البصرة في الطِّين.

فلمَّا رأَوا ذلك، خرجوا من السُّفن يمشون، وأَقبلت خيلُهم تركض حتَّى أَتَوا ذلك السّكر، فكسرُوه.

غلطُ المختار في ذلك

فكان غلط المختار في ذلك، أَنَّه حيث سكر الماءَ وقطعه عن القوم، وجب أَن يخلِّف على السَّكر جيشاً قوياً، فصمد القوم لمَّا كسروا السُّكر صَمدَ الكوفة، فلمَّا رأَى المختار ذلك أَقبل إليهم حتَّى نزل حَرُورا، وحال بينهم وبين الكوفة، وقد كان حصَّن قصرَه والمسجد، وأَدخل في قصره عُدَّة الحصار، واستعمل على الكوفة عبد اللَّه بن شدَّاد.

وجاءَ مُصعبٌ في جيشه، وخرج إليه المختار، وقد جعل على ميمنته سليم بن يزيد الكندي، وعلى ميسرته سعيد بن منقذ الهَمْداني ثمَّ الثَّوري، وكان على شرطته عبد اللَّه بن قُراد الخثعمي، وعلى الخيل عمر بن عبد اللَّه النَّهديّ، وعلى الرِّجال مالك بن عَمرِو النَّهديّ.

وجعل مُصعبٌ على ميمنته المهلَّب بن أَبي صفرة، وعلى ميسرته عمر بن عبد اللَّه بن مَعمر التَّيميّ، وعلى الخيل عبَّاد بن الحصين الحبطيَّ وعلى الرِّجال

مقاتل بن مِسمع الكنديّ، ونزل هو يمشي، وجعل على الكوفة محمَّد بن الأَشعث. فجاءَ محمَّد حتَّى نزل بين مُصعبٍ والمختار مقرباً مُيامناً، فلمَّا رَأى ذلك المختارُ بعث إلى كلِّ خُمسٍ من أَخماس البصرة رجلاً من أَصحابه في خيلٍ، ووقف في بقيَّة أَصحابه، وزاحف النَّاس ودَنا بعضُهم من بعضٍ، وحمل سعيدُ بن منقذ وعبدُ الرَّحمن بن شريح على بكر بن وائل، وعبد القيس، وهم في الميسرة عليهم عبدُ اللَّه بن مَعمرٍ، فقاتلهم ربيعةُ قتالاً شديداً وصبروا لهم، وأَخذ سعيد بن منقذ وعبد الرحمن بن شريح لا يُقلعان، إذا حمل أَحدهما فانصرف، حَمَلَ الآخرُ، وربما حملا جميعاً.

فبعث مصعبٌ إلى المهلَّب:

ـ «ما تنتظر أَن تحملَ مَن بإزائك؟ أَلا ترى ما يلقى هذان الخُمسان اليوم؟ احمِلْ بأَصحابك».

فقال المهلَّب:

ـ «إنِّي لَعمري ما كنتُ لأُجزر الأَزدَ وتميماً خشيةَ أَهلِ الكوفة حتَّى أَرى فرصتي».

وبعث المختارُ إلى عبد اللَّه بن جعدة أَن:

ـ «احملْ على مَن يليك».

فحمل عليهم، فكشفهم حتَّى انتهوا إلى مُصعب. فجثا مُصعبٌ على رُكبتيه، ولم يكن فرَّاراً، فرمى بأَسهمه، ونزل النَّاس، فقاتلوا ساعةً، ثمَّ تحاجزوا.

فبعث مُصعبٌ إلى المهلَّب وهو في خُمسين من الأَخماس جامَّين كثيري العددِ والفرسان:

ـ «لا أَبَا لك ما تنتظر أَن تحمل على القوم؟».

فمكث غير بعيد. ثمَّ إنَّه قال لأَصحابه:

ـ «قد قاتل القوم منذ اليوم وأَنتم وُقوفٌ، وقد أَحسنوا، وبَقِيَ ما عليكم، احملوا واصبروا واستعينوا باللَّه».

فحملوا حملةً عظيمةً، فحطَّموا أَصحاب المختار حطمةً مُنكرة فكشفوهم. وقال عبد اللَّه بن عمرو النَّهديّ، وكان من أَصحاب صفِّين:

ـ «أَللَّهمَّ إنِّي على ما كنتُ عليه ليلةَ الخميس بصفِّين، اللّهم إنِّي أَبرأُ إِليك من فعل هؤلاءِ المنهزمين».

وجالدَ بسيفه حتَّى قُتل:

وأُتي مالك بن عمرو النَّهدي بفرسه، وكان على الرَّجَّالة، فركبه وانقصف أَصحاب

المختار انقصافةً شديدةً كأنّهم أَجمةٌ فيها حريقٌ. فقال مالك حين ركب:

ـ «ما أَصنع بالرُّكوب؟ واللّه لأن أُقتَلَ هاهنا أَحبُّ إليّ من أن أُقتل في بيتي. أينَ أَهل البصائر؟».

فثاب إليه نحوٌ من خمسين رجلاً.

ذكر ظفرٍ بعد هزيمةٍ

وذلك عند المساءِ، فكرَّ على أَصحابه محمَّدُ بن الأَشعث وكان إلى جانبه، فقُتل محمَّد بن الأَشعث هو وعامَّةُ أَصحابه. وانتهى المختار في أَصحابه إلى محمَّد بن الأَشعث قتيلاً ومالك بن عَمرٍو يحسُّهم بالسَّيف، فقال:

ـ «يا معشر الأَنصار، كرُّوا على الثَّعالب الرَّوَّاغة».

فحملوا عليهم، وانهزم أَصحاب مُصعبٍ وطلع القمرُ.

وأَمر المختار منادياً فنادى:

ـ «يا محمَّدُ!».

وكان علامةً بينه وبين أَصحابه، فحملوا على مُصعبٍ، فهزموه وأَدخلوهُ عسكره، ولم يزل المختار وأَصحابه يُقاتلونهم حتَّى أَصبحوا وأَصبح المختار وليس عنده أَحدٌ.

ذكر اتِّفاق سَيِّءٍ بعد الظَّفر لأَجل عجلةٍ وسوءِ تثبُّتٍ

وكان أَصحابه قد وغلوا في أَصحاب مُصعبٍ، فقال له بعض من كان معه:

ـ «أَيُّها الأَمير، ما تنتظر؟ قد هُزم أَصحابك وما بقِي معك أَحدٌ انصرف إلى القصر».

قال المختار:

ـ «واللّه ما نزلتُ وأَنا أُريد الرُّكوب، فأَمَّا إذا انصرف أَصحابي فقدِّموا فرسي».

فركب حتَّى دخل القصر منهزماً، وانصرف أصحاب المختار حين أَصبحوا، فوقفوا مليّاً، فلم يَروا المختار، فقالوا:

ـ «قد قُتل».

فهرب منهم طائفةٌ ممَّن أَطاق الهرب، واختفوا في دور الكوفة وتوجَّه منهم نحو القصر نحو من ثمانية آلافٍ لم يجدوا مَن يقاتل بهم وكانوا في الأَصل عشرين أَلفاً فلمَّا أَتوا القصر وجدوا المختار في القصر، فدخلوا معه.

وأَصبح مُصعب فأَقبل يسير بمن معه من أَهل البصرة ومَن خرج إليه من أَهل

الكوفة، فأَخذ بهم نحو السَّبخة، فمرَّ بالمهلَّب.

فقال له المهَّلب:

ـ «يا له فتحاً ما أَهنأَهُ! لو لم يكن محمَّد بن الأَشعث قُتل». قال:

ـ «صدقتَ، فرحم اللَّه محمداً».

ذكر قتل عُبيد اللَّه بن عليّ بن أبي طالب

ثمَّ قال:

ـ «يا مُهلَّبُ!» قال:

ـ «لبَّيك أَيُّها الأَمير». قال:

«هل علمتَ أَنَّ عبيد اللَّه بن عليّ بن أبي طالبٍ قد قُتل؟» قال:

ـ «إنَّا للَّهِ، وإنَّا إليه راجعون».

قال مصعب:

ـ «أَما إنِّي كنتُ أُحبُّ أن يرى هذا الفتح، ثمَّ لا نجعل أَنفسنا أَحقَّ بشيءٍ ممَّا نحن فيه منه. أَتدري من قتله؟ إنَّما قتله مَن يزعم أَنَّه لأَبيه شيعةٌ. أما إنَّهم قتلوهُ وهم يعرفونه».

مُصعبٌ يُحاصِرُ قصرَ المختار وهو فيه

ثمَّ مضى حتَّى حاصر المختار، وقطع عنهم الماءَ والمادَّة، وبعث عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأَشعث، فنزل الكناسة، وبعث إلى الجبابين ليقطع عن المختار وأَصحابه الماءَ والمادَّة، فأَصابهم جهدٌ شديدٌ. وكان المختار ربما خرج هو وأَصحابه، فقاتلوا قتالاً ضعيفاً، وكان لا تخرج له خيلٌ إلاَّ رُميتْ بالحجارة من فوق البيوت ويُصبُّ عليهم الماءُ القذر، فاجترأَ النَّاس عليهم. فكان أَفضل معايشهم من نسائهم. وذلك أَنَّ المرأَة كانت تخرج من منزلها معها الطَّعام واللَّطفُ والماءُ قد التحفت عليه، فتخرج كأَنَّها تريد المسجد الأَعظم للصَّلاة أَو تزور قرابةً لها، فإذا دَنتْ من القصر فُتح لها، فدخلت على حميمها بطعامه وشرابه ولَطَفِه، وإنَّ ذلك لَيبلغ مُصعباً.

وكان المهلَّبُ ذا حُنكة وتجربةٍ، فقال:

ـ «أَيُّها الأَمير، اجعل عليهم دروباً حتَّى يمكنك أَن تمنع ما يأتيهم من جهة أَهليهم وتدعَهم في حصنهم حتَّى يموتوا فيه».

وكان القوم إذا اشتدَّ عليهم العطش استقَوا ماءَ البئر، وطرحوا فيه العسل لِيُغَيِّر طعمَه، فأُخذ ثلاث نسوةٍ في الشَّباميِّين أَتين أَزواجهنَّ في القصر، فبُعث بهنَّ إلى مُصعبٍ

ومعهنّ الطّعام والشّراب، فردّهنّ مُصعبٌ ولم يعرض لهنّ.

فقال المختار يوماً لأصحابه:

ـ «وَيْحَكُمْ! إنّ الحصار لا يزيدكم إلاّ ضعفاً، انزلوا بنا، فلنُقاتلْ حتّى نُقتَلَ كراماً إن قُتلنا، واللّه ما أنا بيائسٍ، إن أنتم صدقتموهم، أن ينصركم اللّه».

فضعفوا وعجزوا، فقال لهم المختار:

ـ «أما أنا واللّه لا أُعطي بيدي، ولا أُحكِّمهم في نفسي».

ولمّا رأى عبد اللّه بن جعدة بن هبيرة ما يُريد المختار، تدلّى من القصر، فلحق بأُناسٍ من إخوانه، فاختبأ عندهم.

مقتل المختار وما قاله في أَمره

ثمّ إنّ المختار أزمع الخروج حين رأى من أصحابه الضّعف والفشل. فأرسل إلى امرأته أُمّ ثابتٍ بنت سَمُرَة بن جُندب، فأرسلتْ إليه بطيبٍ كثيرٍ، فاغتسل وتَحنّط، ثمّ وضع ذلك الطّيب على رأسه ولحيته، ثمّ خرج في تسعة عشر نفساً فيهم السّائب بن مالك الأشعريّ، وكان خليفته على الكوفة إذا خرج، ولمّا خرج المختار من القصر قال للسّائب:

ـ «ماذا ترى؟» قال:

ـ «أنا أرىٰ، أم اللّه؟» قال:

ـ «بل اللّه، ويحكَ أحمقُ أنت. إنّما رجلٌ من العرب لمّا رأيتُ ابن الزُّبير انتزىٰ على الحجاز، ورأيتُ نجدة انتزىٰ على اليمامة، ورأيتُ مروان انتزى على الشّام، لم أكنْ دون أحدٍ من رجال العرب، فأخذتُ هذه البلاد، وكنتُ كأحدهم، إلاّ أنّي قد طلبتُ بثأر أهل بيت النّبيّ ﷺ وعليهم، إذ نامت عنه العرب، فقتلتُ مَن شرك في دمائهم، وبالغتُ في ذلك إلى يومي هذا. فقاتِلْ على حَسَبك إن لم تكنْ لك نيّةٌ».

ـ «قال: إنّا للّهِ، وإنّا إليه راجعون، وما كنتُ أصنع أن أُقاتل على حَسَبي؟».

فتمثّل المختار عند ذلك بشعر غيلان بن سلمة الثّقفيّ:

وَلَو يراني أبو غيلان إذ حَسَرتْ ... عَنّي الهُموم بأمرٍ ما له طَبَقُ
لَقالَ رُهباً ورُعباً يُجمَعان معاً ... غُنمُ الحياة، وهول الموت والشَّفَقُ
إمّا يُسفّ على مجدٍ ومكرمةٍ ... أو أُسوةٌ لك في مَن يُهلك الوَرِقُ

ثمّ خرج في تسعة عشر رجلاً، فقال للنّاس:

ـ «أتؤمنوني وأخرجُ إليكم؟» فقالوا:

ـ «لا، إلاّ على الحكم». فقال:

ـ «لا أُحكِّمكم في نفسي أَبداً».

فضارب بسيفه حتَّى قُتلَ.

ذكر رأي المختار في تلك الحال وكان صواباً

كان المختار قال لأَصحابه حين أَتوا أَن يبايعوا على الخروج:

ـ «إذا أَنا خرجتُ فقُتلتُ لم تزدادوا إلاَّ ضعفاً وذُلاَّ، فإن نزلتم على حكمهم وثب أَعداؤكم الَّذين وترتموهم. يقول كلُّ رجلٍ منهم لبعضكم: هذا عنده ثأري، فيُقتل ويَنظر بعضكم إلى بعضٍ فيرى مصرعَه ومصرعَ أَحبَّته، فيقولون: يا ليتنا كنَّا أَطعنا المختار وعملنا برأيه، ولو أَنَّكم خرجتم معي، كنتم إن أَخطأتم الظَّفرَ، مُتُّم كراماً، وإن هرب منكم هاربٌ فدخل في عشيرته اشتملت عليه عشيرته، أَنتم غداً أَذلُّ مَن على ظهر الأرض».

فكان الأَمر على ما قال.

ولمَّا كان من الغد، قال لهم بجير بن عبد اللَّه:

ـ «يا قوم، قد كان صاحبكم أَمسِ أَشار عليكم بالرَّأي لو أطعتموه، يا قوم، إنَّكم إن نزلتم على حكم القوم ذُبحتم كما تُذبح الغنم، اخرجوا بأَسيافكم حتَّى تموتوا كراماً إن قُتلتم».

فقالوا:

ـ «قد أَمرَنا بهذا مَن كان أَطوعَ عندَنا وأَنصح لنا منك فعصيناه، أَفنحنُ نطيعك؟».

فأَمكنوا القوم من أَنفسهم ونزلوا على الحكم. فبعث إليهم مُصعبٌ عبَّادَ بن الحصين، فكان يخرج بهم مكتَّفين، فأَدركتهم النَّدامةُ حينئذٍ، فقُتلوا من عند آخرهم.

ذكر كلامٍ لهؤلاءِ المسلمين واستعطافٍ حين أَحسُّوا بالقتل

قال بُجير بن عبد اللَّه المسلّي حين أُتي به مصعبٌ ومعه ناسٌ كثيرٌ منهم:

ـ «الحمد للَّه الَّذي ابتلانا بالإسار وابتلاك بالعفو، وهما منزلتان، في إحديهما رضا اللَّه، وفي الأُخرى سخطُه، مَن عفا عفا اللَّه عنه وزاده عزّاً، ومَن عاقَبَ لم يأمن القصاص، يابن الزُّبير، نحن أَهل قبلتكم وعلى ملتكم ولَسنا تُركاً ولا ديلماً، خالفنا إخوانَنا من أَهل مصرنا، فإمَّا أَن نكونَ أَصبنا وأَخطأوا، وإمَّا أَن نكون أَخطأنا وأَصابوا، فاقتتلنا كما اقتتلَ أَهلُ الإسلام بينهم فقد اختلفوا واقتتلوا، ثمَّ اصطلحوا واجتمعوا. لقد ملكتم فأَسجحوا، وقدرتم فاعفوا».

فلم يزل بهذا القول ونحوه حتَّى رقَّ لهم النَّاس، ورقَّ مصعبٌ أيضاً، وأَراد أَن يخلِّي سبيلَهم.

فقال عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأَشعث:

ـ «تخلّى سبيلَهم يابن الزُّبير؟ اخترنا، أَو اخترهم!».

ووثب محمّد بن عبد الرَّحمن بن سعيد بن قيسٍ، فقال:

ـ «قُتل أَبي وخمسمائة من همدان وأَشراف العشيرة، ثمَّ تخلّى سبيلهم ودماؤنا ترقرق في أَجوافهم، اخترنا أَو اخترهم».

ووثب كلّ قوم وأَهل بيت كان أُصيب منهم رجلٌ، فقالوا نحواً من هذا القول. فلمّا رأَى مصعبٌ ذلك، أَمر بقتلهم، فنادَوه بأَجمعهم:

ـ «يا ابن الزُّبير، لا تقتلْنا، اجعلنا على مقدَّمتك إلى أَهل الشَّام غداً، فواللّه ما بك ولا بأَصحابك عنّاً غداً غِنًى إذا لقيتم عدوّكم، فإن قُتلنا لم نُقتل حتَّى نُرِقَّهم، وإن ظفرنا بهم كان ذلك لك ولمن معك».

فأَبى عليهم وتبع رضا أَصحابه.

فقال بُجير المسلّي:

ـ «إنَّ حاجتي إليك أَلاَّ أُقتلَ مع هؤلاءِ، إنِّي أَمرتُهم أَن يخرجوا بأَسيافهم فيقاتلوا حتَّى يموتوا كراماً، فعصَوني».

فقُدِّم ناحيةً فقُتل.

كلامٌ آخر بنحو آخر من الاستعطاف

ثمَّ إنَّ مسافر بن سعيد بن نِمران قال لمصعب:

ـ «يا ابن الزُّبير، ما تقول للّهِ إذا قدمت عليه وقد قتلتَ أُمَّةً من المسلمين صبراً حكَّموك في دمائهم وكان الحقُّ في دمائهم أَلا تقتل نفساً مسلمةً بغير نفس، فإن كنّا قتلنا عدَّة رجالٍ منكم فاقتلوا عدَّةَ من قتلنا منكم وخلُّوا سبيلَ بقيَّتنا وفينا رجالٌ كثيرٌ لم يشهدوا موطناً من حربنا وحربكم يوماً واحداً كانوا في الجبال والسَّواد يجبون الخراجَ ويُؤمنون السُّبُل».

فلم يستمع له. فقال:

ـ «قبح اللّه قوماً أَمرتهم أَن يخرجوا ليلاً على حرس سِكَّةٍ من هذه السِّكك فنطردهم ثمَّ نلحق بعشائرنا، فعصوني حتَّى نموتَ الآن ميتة العبيد، فأَنا أَسأَلُكَ أَلاَّ تخلط دمي بدمائهم».

فقدِّم ناحيةً فقُتل. فكان عدد مَن قُتل صَبراً ستَّة آلافٍ سوى مَن قُتل في المعركة.

توبيخٌ من عبد اللّه بن عمر لمصعبٍ على فِعله هذا

فلقي مصعب بن الزُّبير يوماً عبد اللّه بن عُمر، فسلَّم عليه، فأَعرض عنه ابن عمر، فقال:

ـ «أَنا ابن أَخيك مصعبٌ».

فقال:

ـ «نعم، أَنت القاتل سبعة آلاف من أَهل القبلة في غداة واحدةٍ. عِش ما استطعت!».

فقال مصعبٌ:

ـ «إنَّهم كانوا كفرةً فَجرةً».

فقال ابن عمر:

ـ «واللَّه لو قتلتَ عددَهم غنماً من تراث أَبيك، لكان ذلك سرفاً».

كفُّ المختار سُمِّرت إلى جنب المسجد

ثمَّ إنَّ مصعباً أَمر بكفِّ المختار فقُطعتْ، ثمَّ سُمِّرَتْ بمسمار حديد، إلى جنب المسجد، فلم يزل على ذلك حتَّى قدم الحَجَّاج بن يوسف، فنظر إليها، فقال:

ـ «ما هذه؟» قالوا:

ـ «كفُّ المختار».

فأَمر بنزعها.

كتب مُصعبٌ إلى ابن الأَشتر يدعوه إلى طاعته

وبعث مصعبٌ عُمَّاله على الجبال والسَّواد. ثمَّ كتب إلى ابن الأَشتر يدعوه إلى طاعته ويقول له:

ـ «إن أَنت أَجبتني ودخلتَ في طاعتي، فلك الشَّام، وأَعِنَّةُ الخيل، وما غلبتَ عليه من أَرض المغرب وما دام لآل الزُّبير سلطانٌ».

وكتب إليه عبد الملك بن مروان من الشَّام يدعوه إلى طاعته ويقول:

ـ «إن أَجبتني ودخلت في طاعتي، فلك العراق».

فاستشار إبراهيم أَصحابه، فاختلفوا عليه، فقال إبراهيم:

ـ «لو لم أَكن أَصبتُ عُبيدَ اللَّه بن زياد ورؤساءَ الشَّام، لأَجبتُ عبد الملك مع أَني لا أَختار على أَهل مصري مصراً، ولا على عشيرتي عشيرةً».

فكتب إلى مصعب، فأَجابه مصعب: أَن أَقبِلْ، فأَقبلَ إليه، وبعث المهلَّبَ إلى عمله، وهي السَّنة التي نزل فيها المهلّب على الفرات.

ما جرى على عَمرةَ امرأَةِ المختارِ

ثمَّ إنَّ مُصعباً بعث إلى عَمرة بنت النّعمان بن بشيرٍ وهي امرأَة المختار، فقال لها:

ـ «ما تقولين في المختار؟».

فقالتْ:

ـ «رحمه اللّه، كان عبداً من عباد اللّه الصالحين».

فرفعها مصعبٌ إلى السّجن، وكتب إلى أخيه عبد اللّه أنّها تزعم أنّه نبيٌّ. فكتب إليه أن اقتُلْها. فأخرجها بعد عَتَمةٍ، وسلّمها إلى مَطَرٍ، فضربها ثلاث ضرباتٍ بالسَّيف، فقالتْ:

ـ «يا أبتاه، يا أهلاه، يا عشيرتاه!».

فسمع بها أبَان بن النّعمان بن بشير، فلطمه وقال له:

ـ «يا ابن الزّانية، قطعتَ نَفسَها قطع اللّه يمينَك».

ولزمه مطرٌ حتّى رفعه إلى مصعب، فقال:

ـ «إنَّ أُختي مسلمةٌ».

وادّعى شهادةَ بني قَفلٍ، فلم يشهد له أحدٌ، فقال مصعبٌ:

ـ «خلّوا سبيلَه فإنّه رأى أمراً فظيعاً».

فقال عمر بن أبي ربيعة:

إنَّ من أعجبِ العجائب عِندي ... قتلُ بيضاءَ حُرّةٍ عُطبولِ
قُتلتْ هكذا على غير جُرم ... إنَّ للّهِ درَّها من قتيلِ
كُتب القتلُ والقِتال علينا ... وعلى المحصنات جَرُّ الذُّيولِ

حصار عبد اللّه بن خازم رجالَ بني تميم بخراسان

وفي هذه السَّنة كان حصار عبد اللّه بن خازم مَن كان بخراسان من رجال بني تميم بسبب مَن قَتلَ منهم ابنَه محمَّداً. وذلك أنَّ بني تميم تفرَّقوا بخراسان أيّام ابن خازم. فأتى قصراً يُعرف بِفَرْتَنَا عدّةٌ من فرسان بني تميم وأنجادهم مثل عثمان بن بشير، وشعبة بن ظهير النّهشلي، وورد بن العلقَ، وزهير بن ذُؤيب العدويّ، وجبهان بن مشجعة الضَّبّي، ورقبة بن الحرّ، والحجّاج بن ناشب، فأتاهم ابن خازم فحصرهم، وخندقَ على نفسه خندقاً حصيناً لئلاً يبيّتوه، فكانوا يخرجون ويقاتلونه ثمَّ يرجعون إلى القصر. فخرج ابن خازم يوماً على تعبئةٍ من خندقِه في ستَّة آلاف، وخرج أهل القصر، فقال عثمان بن بشير:

ـ «لا أظن لكم اليوم بهم طاقة، فانصرفوا».

فقال زهير بن ذُؤيب العدوي: امرأته طالقٌ إن يرجع حتى ينقض صفوفهم. وكان

إلى جنبهم نهرٌ يدخله الماءُ في الشِّتاءِ، ولم يكن يومئذٍ فيه ماءٌ، فاستبطنه زهير، فسار فيه ولم يشعر به أَصحاب ابن خازم حتَّى حمل عليهم، فحطَّم أَوَّلَهم على آخرهم واستداروا وكرَّ راجعاً واتبعوهُ على جنبتي النَّهر يصيحون به ولا ينزل إِليه أَحدٌ حتَّى انتهى إلى الموضع الَّذي انحدر منه، فخرج، وحمل عليهم، فأَفرج له القوم حتى رجع.

فقال ابن خازم لأَصحابه:

ـ «إذا خرج إليكم زهيرٌ فطاعنتموه فاجعلوا في رماحكم كلاليب، فاعلقوها في أَداته ودرعه».

فالتفت إليهم ليحمل عليهم، فخلَّوا رماحهم، فجاءَ يجرُّ أَربعة أَرماحٍ حتَّى دخل القصر، فأَرسل ابن خازم إلى زهير:

ـ «أَرأَيتَك إن آمنتُكَ وأَعطيتُك مائة أَلفٍ وجعلتُ لك باشان طعمةً تناصحني؟».

فقال زهير للرَّسول:

ـ «ويحك! كيف أُناصح قوماً قتلوا الأَشعث بن ذُؤيب؟».

فرجع الرَّسول فأَسقط بها عند موسى بن عبد اللَّه بن خازم. فلمَّا أَطال عليهم الحصار، أَرسلوا إلى ابن خازم أَن:

ـ «خلِّنا نخرج فنتفرَّق». فقال:

ـ «لا، إلاَّ أَن تنزلوا على حكمي». قالوا:

ـ «فإنَّا ننزل على حكمك».

فقال لهم زهير:

ـ «ثكلتكم أَمَّهاتكم، واللَّه ليقتلنَّكم عن آخركم، فإن طبتم بالموت نفساً فموتوا كراماً، اخرجوا بنا جميعاً، فإمَّا أَن تموتوا جميعاً، وإمَّا أن ينجُوَ بعضُكم ويهلك بعضٌ. وأَيم اللَّه، لئن شددتم عليهم شدَّةً صادقةً لَيُفرجنَّ لكم عن مثل طريق البريد، فإن شئتم كنتُ أَمامَكم، وإن شئتم كنتُ خلفَكم».

قال: فأَبوا عليه، فقال:

ـ «أَمَا إنِّي سأُريكم».

ثمَّ خرج هو ورقبة بن الحُرِّ ومع رقبة غلامٌ له تركيٌّ، وشعبة بن ظهير، فحملوا على القوم، فأَفرجوا لهم، فمضوا. فأَما رقبة وغلامُه وشُعبة فمضوا على وجوههم، وأَمَّا زهير فرجع إلى أَصحابه حتَّى دخل القصر، فقال لأَصحابه:

ـ «قد رأَيتم، فأَطيعوني». فقالوا:

ـ «إنَّ فينا من يضعف عن هذا ويطمع في الحياة». قال:

ـ «أَبعدكم اللَّه، واللَّه لا أكون أجزعكم من الموت».

ففتحوا القصر، ونزلوا على حُكمه، فأرسل إليهم، فقيَّدهم، ثمَّ حُملوا رجلاً رجلاً، فأراد أن يمنَّ عليهم، فأَبى ابنه موسى وقال:

ـ «واللَّه، لئن عَفَوتَ عنهم لأَتَّكئَن على سيفي حتّى يخرج من ظهري».

فقال له عبد اللَّه:

ـ «أَما واللَّه، إنِّي لأَعلم أَن الغيَّ في ما يأمرني به».

فقتلهم جميعاً إلاّ ثلاثةً: الحجَّاج بن ناشبٍ ـ كلَّمه فيه رجالٌ من بني تميم كانوا معتزلين من عَمرٍو؛ وحنظلة، وجبهان بن مسجعة، وهو الَّذي كان أَلقى نفسَه على ابنه محمَّد يوم قُتل، فقال ابن خازم خَلُّوا عن هذا البغل الدّيرج؛ ورجل من بني سعدٍ، وهو الَّذي قال يومَ لحقوا ابن خازم: انصرفوا عن فارس مُضر.

فأَمَّا زهير بن ذُؤيبٍ، فأَرادوا حمْلَه مقيَّداً، فأَبىٰ وأَقبل يَحجِل في قيده حتَّى جلس بين يديه، فقال له ابن خازم:

ـ «كيف شُكرُك إن أَطلقتُك وجعلتُ لك باشان طعمةً؟» قال:

ـ «لو لم تصنع بي إلاّ حقن دَمي لشكرتُك».

فقام ابنه موسى، فقال:

ـ «تقتل الضَّبع وتترك الذِّيخ؟ تقتل اللَّبوءَةَ وتترك اللَّيثَ؟» قال:

ـ «ويحك! يُقتل مثل زهيرٍ؟ مَن لِقتال عدوِّ المسلمين، مَن لِنساءِ العرب؟».

قال:

ـ «واللَّه لو شركت في دم اخي لقتلتُك».

فقام رجلٌ من بني سُلَيم إلى ابن خازم، فقال:

ـ «أُذكِّرك اللَّه في زهيرٍ».

فقال له موسى:

ـ «اتخذه فحلاً لبناتك!».

فغضب ابن خازم، وأَمر بقتله، قال زهيرٌ:

ـ «فإنَّ لي حاجةً: لا تخلط دمي بدماءِ هؤلاءِ اللِّئام، فقد نهيتُهم عمَّا صنعوا، وأَمرتُهم أَن يموتوا كراماً، وأَن يخرجوا عليكم مُصلتين السُّيوف، واللَّه لو فعلوا لشغلوا

بُنيَّك هذا بنفسه عن طلب الثَّأر بأَخيه».

وأَمر به فنُحِّي ناحيةً وقُتِلَ.

فما أَشبه هذا الرّأي برأي المختار حتَّى كأَنَّ أَحدَهما أَخذ عن صاحبه، ولعلَّ الوقتين كان واحداً، فإن الزَّمان متقاربٌ.

رجوعُ الأَزارقة

وفي هذه الأَيَّام الَّتي شُغل فيها النَّاس بعضهم ببعضٍ، رجعت الأَزارقة إلى قرب الكوفة، وذلك في سنة ثمانٍ وستِّين.

وكان عبد اللَّه بن الزُّبير ردَّ أَخاه مُصعباً على العراق أَميراً بعد أَن كان عزله بابنه حمزة وظهر من ابنه حمزة خفَّةٌ فعزله. فلمَّا ردَّ مُصعباً، بعث مُصعبٌ الحارث بن أَبي ربيعة على الكوفة أَميراً، وصار هو إلى البصرة، وكانت الأَزارقة قد لحقت بفارس وكرمان ونواحي أصبهان بعدما أَوقع بهم المهلَّب بالأَهواز، فلمَّا أَشخص المهلَّب إلى الموصل كان عُمر بن عبيد اللَّه بن مَعمر على فارس، فانحطَّت الأَزارقة مع ابن الزُّبير ابن الماحوز على عمر بن عبيد اللَّه، فلقيهم، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثمَّ ظفر بهم وانهزموا، وتبعهم عمر بن عبيد اللَّه، وكتب بالفتح إلى مُصعبٍ ولحقهم بإصطخر وقد ثبتوا له، فلقيهم وقاتلهم قتالاً شديداً وقتل ابنه. ثمَّ إنَّه ظفر بهم وقطعوا قنطرة طَمَسْتان. وارتفعوا إلى أصبهان وكرمان، فأَقاموا بها حتَّى اجتبروا، وقَوُوا، واستعدُّوا وكثروا.

ثمَّ إنَّهم أَقبلوا حتَّى مرُّوا بفارس، وفيها عُمر بن عُبيد اللَّه بن مَعمر، فقطعوا أَرضه من غير الوجه الَّذي كان فيه أَخذوا على سابور، ثمَّ خرجوا على أَرجان، فلمَّا رأى عمر بن عُبيد اللَّه أَنَّ الخوارج قد قطعتْ أَرضَه موجَّهةً إلى البصرة خشي أَلاَّ يحتملها له مُصعبٌ، فشمَّر في آثارهم مُسرعاً حتَّى أَتى أَرجان، فوجدهم حين خرجوا موجّهين إلى الأَهواز. وبلغ مُصعباً إقبالُهم، فخرج، فعسكر بالنَّاس بالجسر الأَكبر وقال:

ـ «واللَّه، ما أَدري ما الَّذي أَغنى عَنِّي أَن وضعتُ عُمر بن عبيد اللَّه بن مَعمر بفارسٍ، وجعلتُ معه بها جُنداً أُجري عليهم أَرزاقهم في كلِّ شهر، وأُوفِّيهم أَعطياتِهم في كلِّ سنةٍ، وآمُرُ لهم من المعاون كلَّ سنة بمثل الأَعطيات، قَطعَ أَرضَه الخوارج إليَّ، وقد أَزحتُ عِلَّته، وقد أَمددتُه بالرِّجال، وقوَّيتُهم، واللَّه، لو قاتلهم ثمَّ فرَّ لكان أَعذر له عندي، وإن كان الفارُّ غير مقبول العذر، ولا كريم الفعل».

إقبال الخوارج وعليهم الزُّبير

وأَقبلت الخوارج وعليهم الزُّبير بن الماحوز حتَّى نزلوا الأَهواز. فأَتتهم عيونهم أَن عمر بن عُبيد اللَّه في أَثرهم، وأَنَّ مُصعباً قد خرج من البصرة.

فقام الزُّبير خطيباً وقال بعد حمد اللّه:

ـ «أَما بعدُ، فإنَّ من سوءِ الرَّأي والحين وقوعكم بين هاتين الشَّوكتين، انهضوا بنا إلى عدوِّنا، فلنَلْقَهم من وجهٍ واحدٍ».

فسار بهم حتَّى قطع بهم الأَرض إلى جُوخىٰ، ثمَّ أَخذ على النَّهراوانات، ثمَّ لزم شاطئ دجلة حتَّى خرج على المدائن، فشنَّ بها الغارات، وقَتل الولدان والنِّساءَ والرِّجال، وبقر بطونَ الحبالى. وانتهوا إلى ساباط، ففعلوا ذلك، وقتلوا نُباتة بنتَ أَبي يزيد بن عاصم الأَزديّ، وكانت من أَجمل نِساءِ دهرها، وكانت قرأت القرآن، وهي أَفصح امرأةٍ، غشوها بالسَّيف، قالتْ:

ـ «وَيْحَكم هل سمعتُم بأَنَّ الرِّجال كانوا يقتلون النِّساءَ؟ وَيْحَكم، هل سمعتم بقتل امرأةٍ؟ وَيْحكم أَتقتلون مَن لا يبسط إليكم يداً ولا يُريد بكم ضَراً، ولا يملُك لنفسه نفعاً؟ أَتقتلون مَن ينشأُ في الحِلية وهو في الخصام غير مُبين؟».

فقام رجلٌ منهم:

ـ «لَو تركتموها!» فقال له آخرُ:

ـ «أَعجبك جمالُها يا عدوَّ اللّه! كفرتَ وافتتنتَ».

وانصرف الآخر عنه وتركهم، قال: فظنَنَّا أَنَّه فارقهم. وحملوا عليها فقتلوها.

خروج الحارث بن أَبي ربيعة من الكوفة ومعه ابن الأَشتر

ثمَّ إنَّ النَّاس بالكوفة أَتوا الحارث بن أَبي ربيعة، فصاحوا إليه وقالوا:

ـ «اخرجْ، فإنَّ هذا عدوَّنا قد أَظَلَّ علينا».

فتقاعد إلى أَن أَكثروا الصِّياح فخرج حتَّى نزل النُّخيلة، فأقام بها أَيَّاماً.

فوثب إبراهيم بن الأَشتر، فحمد اللّه وأَثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإنَّه قد سار إلينا عدوٌّ ليست له بقيَّةٌ، يُخيف السُّبُلَ ويخرِّب البلاد، فانهض بنا إليه».

فأَمر بالرَّحيل، فخرج حتَّى نزل دير عبد الرَّحمن، فأَقام فيه حتَّى دخل شبث بن ربعيٍّ، فكلمه بنحوِ ما كلَّمه به ابن الأَشتر، فارتحل، ولم يكدَّ، فرجز به الناس وكان يلقَّب بالقُباع:

سارَ بِنَا القُباعُ سيراً نُكراً   يسير يوماً ويُقيم شهرا

فأَشخصوه من ذلك المكان. فكلَّما نزل بهم منزلاً أَقام، يصيح به النَّاس وينادونه حول فسطاطه. فلم يبلغ الصراةَ إلاَّ في بضعة عشر يوماً وقد انتهى إليها طلائع العدوِّ،

وأَوائلُ الخيول. فلمَّا أَتتهم العيون بأَن جماعة أَهل المصر قد أَتوهم قطعوا الجسر بينهم وبين النَّاس.

فقال إبراهيم بن الأَشتر للحارث بن أَبي ربيعة:

ـ «اندُبْ معي النَّاسَ حتَّى أَعبر إلى هؤلاءِ الأَكلب فأَجيئك برؤوسهم».

فقال شبث بن ربعيّ، وأَسماء بن خارجة، ومحمَّد بن عُمير:

ـ «أَصلح اللَّه الأَمير، دَعْهم، فليذهبوا، لا تبدأْ بهم».

وكانوا حسدوا إبراهيم بن الأَشتر. فلمَّا أَتَتْ أَيَّامٌ اجتمع النَّاس فقالوا:

ـ «يا أَيُّها الأَمير، ما قُعودُنا بهذا الجسر، فليُعَدْ، ثمَّ اعبُرْ بنا إليهم، فإنَّ اللَّه سيُريكَ ما تُحِبُّ».

فأَمر بالجسر، فأُعيدَ وعبر النَّاسُ إليهم، فطاروا إلى المدائن، فتبعهم المسلمون، فخرجوا، فأَتبعهم الحارثُ بن أَبي ربيعة، عبدَ الرَّحمن بن مخنفٍ في ستَّةِ آلافٍ ليُخرجهم من أَرض الكوفة، فإذا وقعوا في أَرض البصرة خلاَّهم، فاتبعهم حتَّى وقعوا في أَرض البصرة، ثمَّ وقعوا إلى أصبهان، فانصرف عنهم من غير قتالٍ، ومضَوا حتَّى نزلوا بعتَّاب بن ورقاء بِجيٍّ، وحاصروهُ. فكان يخرج إليهم فيقاتلهم ولا يطيقهم. وكانت أصبهان يومئذ طعمة لإسماعيل بن طلحة بن مصعب بن الزُّبير، فبعث عَتَّاباً، فصبر لهم عَتَّابٌ، فكان يقاتلهم على باب المدينة، ويرمون من السُّور النُشَّاب والحجارة. فلمَّا طال الحصار ونفدتِ الأَطعمة هلك كراعهم وأَصابهم الجهد الجهيد.

ذكر رأيٍ لعتَّاب بن ورقاء صحيح

فدعاهم عتَّابٌ بن ورقاء، فحمد اللَّه وأَثنىٰ عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاس، فإِنَّه قد أَصابكم من الجَهد ما تَرَون. فواللَّه، إن بقي إلاَّ أَن يموت أَحدكم على فراشه، فيحيى أَخوه فيدفنه إن استطاع، وبالحريِّ أَن يضعفَ عن ذلك، ثمَّ يموت هو، فلا يجد من يدفنه ولا يصلِّي عليه، فاتَّقوا اللَّهَ، فواللَّه ما أَنتم بالقليل الَّذي تهون شوكتُهم، وإنَّ فيكم لفرسان أَهل المصر وإنَّكم لصُلحَاء مَن أَنتم منه، اخرجوا بنا إلى هؤلاءِ القوم، وبنا حياةٌ وقوةٌ، قبل أَن لا يستطيع رجلٌ أَن يمتنعَ من امرأةٍ لو جاءَتْهُ. فقاتَلَ رجلٌ عن نفسه وصبَرَ وصدقَ، فواللَّهِ إنِّي لأَرجو، إن صدقتموهم، أَن يُظفركم اللَّهُ بهم».

فناداه النَّاس من كلِّ جانبٍ:

ـ «وُفِّقتَ وأَصبتَ، اخرج بِنا إليهم».

فجمع إليه النّاس من اللّيل، وأَمر لهم بعشاء كثير، فتعشَّى النَّاسُ عنده.

ثُمَّ إنّه خرج بهم حتَّى أَصبح على راياتهم، فصبَّحهم في عسكرهم، وهم آمنون أَن يُؤْتَوا في عسكرهم، فأَخلَوا لهم حتَّى انتهوا إلى الزُّبير بن الماحوز، فقاتل في عصابةٍ نزلوا معه حتَّى قُتل.

وانحازت الأَزارقة إلى قطريٍّ، فبايعوه، فمشوا إلى قطريٍّ مُصلتين للسُّيوف، فارتحلوا منهزمين، فكان آخر العهد بهم.

ذكر رأيٍ رَآهُ الأَحنف للخوارج وهو يُعَدُّ من سَقَطاته

يُقال: إنَّ الخوارج دسُّوا إلى الأحنف مَن جلس إليه، وذاكَره بهم، فقال:

ـ «إنَّ هؤلاءِ إن ركبوا بناتِ سحّاج، وقادوا بناتِ صهَّال، ونزلوا اليوم أَرضاً وغداً أُخرىٰ، فبالحريِّ أَن يبقوا».

فلمَّا بلغ ذلك قَطريّاً، ذهب وخلاَّهم، ومضى نحو كرمان، فأَقام بها حتَّى اجتمعت إليه جموعٌ كثيرةٌ، وأَكل الأَرض، واجتبى المال، وقوي، ثمَّ أَقبل حتَّى أَخذ في أَرض أصبهان، ثمَّ خرج من شعب ناشط إلى إيذج وأَرض الأَهواز، والحارث بن أَبي ربيعة عامل مُصعبٍ على البصرة. فكتب إلى مُصعبٍ:

ـ «قد تحدرت الخوارج إلى الأَهواز، وليس لهم إلاّ المهلَّب».

فبعث إلى المهلَّب، وهو على الجزيرة والموصل وأَمره بقتالِ الخوارج والمسير إليهم، وبعث إلى عمله إبراهيم بن الأَشتر. وجاءَ المهلَّب حتَّى قدم البصرة، وانتخب النَّاسَ وسار بمن أَحبَّ. ثمَّ توجَّهَ نحو الخوارج، وأَقبلوا إليه حتَّى التقوا بسولاف، فاقتتلوا بها ثمانية أَشهر أَشدَّ قتالٍ يكون.

ذكر توبيخٍ للخوارج المهلَّبَ على طريق المكيدة

ثمَّ إنَّه بلغهم أَنَّ مُصعباً قد قُتل، ونحن نذكر خبره في ما بعدُ، وذلك قبل أَن يبلغ المهلَّبَ وأَصحابه. فناداهم الخوارج:

ـ «أَلا تُخبروننا ما قولكم في مُصعبٍ؟» قالوا:

ـ «إمام هُدًى». قالوا:

ـ «هو وليُّكم في الدُّنيا والآخرة». قالوا:

ـ «نعم». قالوا:

ـ «وأَنتم أَولياؤه أَحياءاً وأَمواتاً». قالوا: «نعم». قالوا:

ـ «فما قولكم في عبد الملك بن مروان؟» قالوا:

ـ «ذاك ابن اللّعين نحن منه براءٌ إلى اللّه، هو عندنا أُحِلُّ دماً منكم» قالوا:

ـ «فأَنتم منه براءٌ في الدنيا والآخرة». قالوا:

ـ «نعم، كبرائنا منكم». قالوا:

ـ «وأَنتم له أَعداء أَحياءاً وأَمواتاً». قالوا:

ـ «نعم، كعداوتنا لكم». قالوا:

ـ «فإنَّ أَمامكم مُصعباً قتله عبد الملك، ونراكم ستجعلون غداً عبدَ الملك إمامَكم، وأَنتم اليوم تَبرَّأُون منه وتلعنونه». قالوا: «كذبتم يا أَعداءَ اللّه».

فلمَّا كان من الغد تبيَّن لهم قتلُ مُصعبٍ، فبايع المهلَّب النَّاس لعبد الملك بن مروان. فأَتتهم الخوارج فقالوا لهم:

ـ «ما تقولون في مُصعبٍ؟» قالوا:

ـ «يا أَعداءَ اللّه، لا نُخبركم ما قولُنا فيه». قالوا:

ـ «فقد أَخبرتمونا أَمسِ أَنَّه وليُّكم في الدُّنيا والآخرة، وأَنَّكم أولياؤه أحياءاً وأَمواتاً، فأَخبرونا ما قولكم في عبد الملك؟». فقالوا:

ـ «ذاك إمامَنا وخليفتنا».

ولم يجدوا ـ إذ بايعوه ـ من أَن يقولوا هذا القول بُدّاً. فقالت لهم الأَزارقة:

ـ «يا أَعداءَ اللّه أَنتم أَمس تبرَّأون منه في الدُّنيا والآخرة، وتلعنونه، وهو اليوم إمامُكم وخليفتكم. وقد قتل إمامكم الَّذي كنتم تولُّونه، فأَيُّهما المُحِقُّ، وأَيُّهما المبطل، وأَيُّهما المهتدي، وأَيُّهما الضَّالُّ!» فقالوا لهم:

ـ «يا أَعداءَ اللّه، رضينا بذاك إذ كان يلي أُمورَنا ونرضى بهذا كما كُنَّا رضينا بذاك». قالوا:

ـ «لا واللّه، ولكنَّكم إخوان الشَّياطين وعبيد الدُّنيا». وتشاتموا.

ذكر مسير عبد الملك إلى مُصعبٍ

كان لا يزال عبد الملك يخرج من دمشق ومُصعبٌ من الكوفة. فإذا تدانيا هجم الشِّتاء، فانصرف كلُّ واحدٍ إلى مكانه حتَّى إذا كان سنة تسعٍ وستِّين ـ وقد قيل سنة سبعين ـ خرج عبد الملك من دمشق نحو العراق يُريد مصعَب بن الزُّبير، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأَشدق:

ـ «إنَّك تخرج إلى العراق وقد كان أَبوك وَعَدَني هذا الأَمرَ من بعده، وعلى هذا، جاهدتُ معه وقد كان من بلائي معه ما لم يَخْفَ عليك، فاجعلْ لي هذا الأمر من بعدك».

فلم يُجِبْهُ إلى شيءٍ من ذلك. فانصرف عمرٌو إلى دمشق، فغلب عليها. ورجع عبد الملك في أثره وإنَّ عَمراً اجتمع النَّاسُ إليه، فصعد المنبر فخطبهم، وقال بعد حمد اللّه والثّناءِ عليه:

ـ «أيُّها النّاس إنّه لم يَقُمْ أَحَدٌ من قريشٍ قبلي على هذا المنبر، إلاّ زعم أنَّ له جَنَّةً وناراً يُدخل الجنّة من أطاعَه، والنّارَ من عَصاهُ. وإنّي أُخبركم أنَّ الجنّة والنّار بيد اللّه، وأنّه ليس إليَّ من ذلك شيءٌ. غيرَ أنَّ لكم عليَّ حُسنَ المواساة والعطيّة».

ثمَّ إنَّ عبد الملك وعَمراً اقتتلا أيّاماً على باب دمشق وتأدّى الأمر بينهما إلى الموادعة والصُلح، وكتبا بينهما كتاباً وآمنه عبد الملك.

فيقال: إنَّ عمرو بن سعيدٍ جاءَ في خيلٍ متقلّداً قوساً، وأقبل حتّى أوطأ فرسه سرادقاتِ عبد الملك، فانقطعت الأطناب وسقط السُّرادق، ونزل عَمرو فجلس وعبد الملك مُغضَبٌ، فقال لعمرٍو:

ـ «يا أبا أُميّة، كأنَّ تَشبَّهُ بتقلُّدك هذه القوس بهذا الحيِّ من قيسٍ». فقال:

ـ «لا، ولكنّي أتشبَّهُ بمن هو خيرٌ منهم: العاص بن أُميّة».

ثم قام مُغضباً والخيل معه حتّى دخل دمشق، ودخل عبد الملك أيضاً دمشق. فبعث إلى عمرٍو أن:

ـ «أعط النّاس أرزاقهم».

فأرسل إليه عمرٌو:

ـ «إنَّ هذا ليس لك ببلدٍ، فاشخَصْ عنه».

ذكر استهانةٍ بعدوٍ عادت بهلكةٍ

فلمّا كان بعد أيّام، بعث إلى عمرو أن:

ـ «إيتِني أُخاطبك».

فلمّا أتىٰ رسولُه عَمراً يدعوه، صادف الرَّسولُ عبدَ اللّه بن يزيد بن معاوية عند عمروٍ، فقال عبد اللّه لعمرٍو:

ـ «يا أبا أُميّة، لأنتَ أحبّ إليَّ من سمعي وبصري، وقد أرى هذا الرَّجل بعث إليك أن تأتيَهُ، وأنا أرىٰ لك ألا تفعلَ». فقال عمرٌو:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «لأنّه يقال: إنَّ عظيماً من ولد إسماعيل يُغلقُ أبوابَ دمشق، ثمَّ يخرج منها، فلا يلبث إلاّ أن يُقتل». فقال له عمرو:

ـ «واللّه لو كنتُ قائماً ما تخوَّفتُ أَن لا يُنَبِّهني ابن الزَّرقاءِ، ولا كان ليجترئ على ذلك منِّي».

رواح عمرو إلى عبد الملك وما جرى عليه

وقال عمرٌو للرَّسول:

ـ «أَبلغه عنِّي السَّلام وقُلْ له: أَنَا رائحٌ إليك العشيَّة».

فلمَّا كان العشيُّ، لبس عمرٌو درعاً حصينةً بين قَباءٍ قوهيٍّ وقميصٍ، وتقلَّدَ سيفَه. فلمَّا نهض متوجِّهاً عثر بالبساط، فقال حُميدٌ:

ـ «أَما واللّه لئن أَطعتني لم تأته».

وقالت له امرأَتُه تلك المقالة، فلم تلتفت ومضى في مائة رجلٍ من مواليه، وقد بعث عبد الملك إلى بني مروان، فاجتمعوا عنده. فلمَّا بلغ عبدَ الملكَ أَنَّه بالباب، أَمر أَن يُحبَسَ مَن كان معه، وأَذن له. فدخلٍ ولم يزل أَصحابه يُحبسون عند كلِّ بابٍ حتَّى دخل عمرٌ قعر الدَّار وليس معه إلاَّ وصيفٌ له. فرمى عمرو ببصره، فإذا حولَه بنو مروان وفيهم حسَّان بن بحدل الكلبي، وقبيصة بن ذؤَيب الخُزاعي. فلمَّا رأى جماعتهم أَحسَّ بالشَّرِّ، فالتفت إلى وصيفه، فقال:

ـ «انطلِقْ ويحك إلى يحيى بن سعيدٍ يعني أخاهُ، فقُلْ له يأتني».

فقال له الوصيف ولم يفهم ما قال له:

ـ «لبَّيك». فقال له:

ـ «اغربْ في حرقِ اللّه وناره».

وقال عبد الملك لحسَّان وقبيصة:

ـ «إذا شئتما، فقوما فالتقيا وعَمراً في الدَّار».

فقال عبد الملك لهما كالممازح:

ـ «ليطمئن عمرٌو! أَيُّكما أَطول؟»

فقال حسَّانٌ:

ـ «قبيصة أَطول منِّي يا أَمير المؤمنين بالإمرة».

وكان قبيصة على الخاتم. ثمَّ التفت عمرٌو إلى وصيفه، فقال:

ـ «انطلق إلى يحيى فمُرْهُ أَن يأتيني». فقال له:

ـ «لبَّيك». ولم يفهم عنه.

فقال له عمرٌو:

ـ «اغربْ عنِّي».

فلمَّا خرج حسَّان وقبيصة، أَمر بالأَبواب فأُغلقت، ودخل عمرٌو، فرحَّب به عبد الملك، وقال:

ـ «هاهنا يا أبا أُميَّة رحمك اللَّه».

فأَجلسه معه على السَّرير وجعل يحدِّثه طويلاً ثمَّ قال:

ـ «يا غلامُ خذ السَّيف عنه».

فقال عمرٌو:

ـ «إنَّا للَّه، يا أَمير المؤمنين».

فقال عبد الملك:

ـ «أَو تطمع أَن تجلس معي متقلّداً سيفك!»

فأَخذ السَّيف عنه، ثمَّ تحدَّثا ما شاءَ اللَّه، ثمَّ قال له عبد الملك:

ـ «يا أَبا أُميَّة!» فقال:

ـ «لبَّيك يا أَمير المؤمنين!» فقال:

ـ «إنَّكَ حيث خلعتني آليتُ بيمينٍ أَنّي إن ملأتُ عيني منك وأنَا مالكٌ لَكَ، أَن أَجمعك في جامعةٍ».

فقال له بنو مروان:

ـ «ثمَّ تُطلقُه يا أَمير المؤمنين؟» قال:

ـ «ثمَّ أُطلقُه. وما عسيتُ أَن أَصنع بأبي أُميَّة».

فقال بنو مروان:

ـ «أَبِرَّ قَسَم أَمير المؤمنين».

قال عمرٌو:

ـ «فإنِّي أُبِرُّ قسم أَمير المؤمنين».

فأَخرج من تحت فراشه جامعةً فطرحها إليه، ثمَّ قال:

ـ «يا غلامُ قُمْ فاجمعه فيها».

فقام فجمعه فيها، فقال عمرٌو:

ـ «أُذكِّرك اللَّه يا أَمير المؤمنين أَن تخرجني فيها على رؤوس النَّاس». فقال عبد الملك:

ـ «أمكراً يا أبا أُميَّة وأنت في الحديد! لاها اللَّه، ما كُنّا لنُخرجك في جامعةٍ على رؤوس النَّاس ولا نخرجها منك إلا صُعداً».

ثمَّ اجتبذهُ اجتباذةً أَصابَ فَمُهُ منها السَّرير فكسر ثنيَّته. فقال عمرٌو:

ـ «أُذكِّرك اللَّه يا أمير المؤمنين، أَن يدعوك كسرُ عظمٍ منِّي إلى أَن تركب ما هو أَعظم منه».

فقال له عبد الملك:

ـ «واللَّه لو أَعلم أَنك تبقِّي عليَّ أَو تفي لي وتصلح قريش لأَطلقتُك، ولكن ما اجتمع رجلان في بلدةٍ على مثل ما نحن عليه إلاَّ أَخرج أَحدُهما صاحبَه».

فلمَّا رأَى عمرٌو ما يُريدُ قال:

ـ «أَغدراً يابن الزَّرقاءِ؟».

وأَذَّن المؤذِّن العصر، فخرج عبد الملك يصلِّي بالنَّاس، وأَمر عبدَ العزيز بن مروان بقتله. فقام إليه عبد العزيز بالسَّيف، فقال له عمرٌو:

ـ «أُذكِّرك اللَّه والرَّحم، دَعْني يتولَّ قتلي من هو أَبعد رحماً منك».

فألقى عبد العزيز السَّيف، وجلس وصلَّى عبد الملك صلاةً خفيفةً، ودخل وغُلِّقت الأَبواب. ورأَى النَّاس عبدَ الملك حيث خرج وليس معه عمرٌو، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيدٍ، فأَقبل في النَّاس حتَّى حلَّ بباب عبد الملك ومعه أَلفُ عبدٍ لعمرٍو وأُناسٍ من أَصحابه كثيرٌ، فجعل مَن معه يصيحون:

ـ «أَسمِعْنا صوتَك يا أبا أُميَّة!».

وأَقبل مع يحيى جماعةٌ فكسروا باب المقصورة، وضربوا النَّاسَ بالسُّيوف، فضُرب الوليد بن عبد الملك ضربةً على رأسه، واحتمله إبراهيم بن عربيٍّ صاحبُ الدِّيوان، فأدخله بيتَ القراطيس. ولمَّا دخل عبد الملك دارَهُ وجد عَمراً حيّاً بعدُ. فقال لعبد العزيز:

ـ «ما منعك من قتله؟» قال:

ـ «إنَّه ناشدني اللَّه والرَّحم، فرققتُ له».

فقال عبد الملك:

ـ «أَخزى اللَّه أُمَّك البوَّالةَ على عقبها، فإنَّك لم تُشبهْ غيرها».

ولم يكونا من أُمٍ واحدةٍ.

ثمَّ قال عبد الملك:

ـ «يا غلام ائتني بالحربة».

فأَتاهُ بها فهزَّها، ثمَّ طعنه بها فلم تجزً، ثمَّ ثنّى فلم يجزً. فضرب بيده إلى عضد عَمرو، فوجد مَس الدِّرع، فضحك، ثمَّ قال:

ـ «ودارِعٌ أَيضاً إن كنتَ لمُعِداً. يا غلام ائتني بالصَّمصامة».

فأَتاه بسيفه، ثمَّ أَمر بعمرٍو، فصُرع وجلس على صدره، فذبحه وهو يقول:

يا عَمرُو إنْ لا تَدَعْ شَتمي ومنقصتي أضربْكَ حيثُ تقول الهامةُ اسقُوني

وانتفض عبد الملك رعدةً فوضع على سريره.

ودخل يحيى بن سعيد ومن معه على بني مروان، فخرجوا هم ومَن معهم من مواليهم، فقاتلوا يحيى وأَصحابه. وقام عبد العزيز، فأَخذ المال في البُدور، وجعل يُلقيها إلى النَّاس. فلمَّا نظر النَّاس إلى الأَموال ورأَوا رأسَ عَمرٍو، وكان أُلقِيَ إليهم، تفرَّقوا وانتهبوا المال. ثمَّ أَمر عبد الملك بعد ذلك بتلك الأَموال، فجُبيتْ حتى عادتْ كلُّها إلى بيت المال.

وفقد عبدُ الملك ابنَه الوليد، فجعل يقول:

ـ «ويْحَكم اين الوليد؟ وأَبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أَدركوه ثأرَهم».

فأَتاه إبراهيم بن عربيٍّ، وقال:

ـ «هذا الوليد عندي ليس به بأَسٌ».

ثمَّ أُتي عبدُ الملك بيحيى بن سعيد، فأَمر بقتله، فقام إليه عبد العزيز فقال:

ـ «جعلني اللَّه فداءك يا أَمير المؤمنين. أَتُراك قاتلاً بني أُميَّة في يوم واحدٍ؟».

فأَمر به فحُبس. وأُتِيَ عبد الملك بجماعةٍ منهم فحبسهم، وكان همَّ بقتلهم، فأُشير عليه أَن يُسيِّرهم إلى عدوِّه، فإن هم قُتلوا، كُفِيَ أَمرهم، وإن سلموا رأَيتَ رأيَك، ولا يكون قد آثرت على نفسك قوماً هم اليوم معك.

فأَلحقهم بمصعبٍ. فلمَّا قدموا عليه ودخل إليه يحيى بن سعيد، قال له ابن الزُّبير:

ـ «أَفلتَّ وانحصَّ الذَّنَبُ». فقال:

ـ «واللَّه إنَّ الذَّنَب لَبِهُلْبِهِ».

ذكر سبب العداوة والشَّحناءِ بين عبد الملك وبين عمرو بن سعيدٍ

كان الشَّرُّ بينهما قديماً، لأَنَّ ابني سعيد وابني مروان أَعني: محمَّد بن سعيد وعمرو بن سعيد؛ ومعاوية بن مروان، وعبد الملك بن مروان، كانوا وهم غِلمانٌ

لا يزالون يأتون أُمَّ مروان بن الحكم الكنانيّة يلعبون عندها، فكانت تصنع لهم الطَّعام، ثمَّ تأتيهم به وتضع بين يدي كلٍّ واحدٍ صحفةٍ على حدِة، ثمَّ تُؤرِّش بين معاوية بن مروان وبين محمَّد بن سعيد وبين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد، فيقتتلون، وربّما تصارموا الحين لا يكلِّم بعضُهم بعضاً. فكان ذلك دأبهما كلَّما أتَوها حتَّى ثبتت الشَّحْناء في صدورهم على الصَّبيٰ، ثمَّ نشأت تلك العداوة معهما.

فذُكر أَنَّ خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك ذات يوم:

ـ «عجبٌ منك ومن عمرو بن سعيدٍ كيف أَصبت غرَّتَهُ فقتلتَهُ!».

فقال عبد الملك:

أَدنَيتُهُ مِنّي لِيسكُن ذُعرُهُ فأَصُول صولَة حازم مستمكن

ثمَّ إن ولد عمرو بن سعيد دخلوا على عبد الملك بعد الجماعة وهم أربعةٌ: أُميَّة، وسعيد، وإسماعيل، ومحمَّد. فلمَّا نظر إليهم عبد الملك، قال:

ـ «إنَّكم أَهل بيتٍ لم تزالوا ترَون أنَّ لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله اللَّه لكم، وإنَّ الَّذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً، بل كان قديماً في أَنفس أوَّليكم على أوَّلينا في الجاهليَّة».

فأُقطع بأُميَّة بن عمرو وكان أكبرهم سنّاً وأَنبلهم وأَعقلهم، فلم يتكلَّم بشيءٍ. فقام سعيد بن عمرٍو، وكان الأوسطَ، فقال:

ذكر كلامٍ نَفعَ عند سلطانٍ حقودٍ

ـ يا أمير المؤمنين، ما تبغي علينا أمراً كان في الجاهليَّة، وقد جاء اللَّه بالإسلام فهدم ذلك، ووعد جنَّةً، وحذَّر ناراً. فأمَّا الَّذي بينك وبين عمرو، فإنَّ عمراً ابنُ عمِّك، وأنت أَعلم وما صنعت، وقد وصل عمروٌ إلى ربِّه وكفى باللَّه حسيباً. ولعمري لئن أَخذتنا بما كان بينك وبينه لَبطنُ الأَرض خيرٌ لنا من ظهرها».

فرقَّ لهم عبد الملك رقَّةً شديدةً، وقال:

ـ «إنَّ أباكم خيَّرني بين أن أَقتلَه أَو يقتلَني، فاخترتُ قتْلَه على قتلي. فأمَّا أَنتم فما أَرغبني فيكم، وأَوصلني لقرابتكم، وأَرعانيٰ لحقِّكم!».

فأَحسن جائزتَهم.

مسير عبد الملك إلى العراق لحرب مُصعبٍ

ثمَّ سار عبد الملك من الشَّام إلى العراق لحرب مُصعب وذلك في سنة سبعين. وكان قال له خالد بن عبد اللَّه بن خالد بن أسيد:

ـ «إن وجَّهتني إلى البصرة مستخفياً في موالي وأتبعتني خيلاً يسيرةً، رجوتُ أن أغلبَ لك عليها».

فأنفذه عبد الملك. فقدِمَها في مواليه، ونزل على عمرو بن أصمع، ولم يتمّ له ما أراد، وعُلِمَ به، فهرب بعد أن أثار فتنةً، وقاتل مدّةً. وبادَرَ مُصعبٌ إلى البصرة، فوجد خالداً قد خرج بمن معه، فأتبعه بخِداش بن يزيد، فأدرك مُرَّةَ بن محكان، فأخذه وقتله.

وكتب عبد الملك إلى المروانيّة من أهل العراق، فأجابه كلُّهم، وشرط كلُّ واحدٍ ولاية أصبهان، فأنعم بها لهم: حجّار بن أبجر، وعتّاب بن ورقاء، والغضبان بن القبعثرى، وزحر بن قيس، ومحمّد بن عُميرٍ، وغيرهم.

وسار عبد الملك وعلى مقدّمته محمّد بن مروان، وعلى ميمنته عبد اللّه بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد، وسار مصعبٌ وقد خذله أهل الكوفة، وأشار رؤساء أهل الشّام على عبد الملك أن يُقيم ويقدِّم الجيوش، فإن ظفروا، فذاك. وإن لم يظفروا أمدَّهم بالجيوش خشيةً على النّاس، وإن أُصيب في لقائه مُصعباً لم يكن وراءَه مَلِكٌ.

فقال عبد الملك:

ـ «لا يقوم بهذا الأمر إلاّ قرشيٌّ له رأيٌ، ولعلّي أبعث مَن له شجاعةٌ وليس له رأيٌ، وإنّي أجد في نفسي أنّي بصيرٌ بالحرب، شجاعٌ بالسّيف إن أُلجيتُ إليه، ومُصعبٌ في بيت شجاعة، أبوه شجاع قريشٍ وهو شجاعٌ ولا علم له بالحرب، ومعه مَن يخالفه، ومعي مَن ينصح لي».

فسار عبد الملك حتّى نزل مَسْكِن، وسار مُصعبٌ إلى باجُمَيرا، وكتب عبد الملك إلى أهل العراق، فأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبد الملك مختوماً لم يقرأهُ، فدفعه إلى مُصعبٍ، فقال له مُصعبٌ:

ـ «ما فيه؟» قال:

ـ «ما قرأتُه».

فقرأه، فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولايةَ العراق، فقال لمصعبٍ:

ـ «إنّه واللّه ما كان أحدٌ آيَس منه منّي. ولقد كتب إلى أصحابك كلّهم بمثل ما كتب إليّ. فأطعني فيهم واضرب أعناقَهم». قال:

ـ «إذاً لا يناصحنا عشائرهم». قال:

ـ «فأوقِرْهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هنالك، ووكّل بهم مَن إن غُلبتَ، ضرب أعناقهم، وإن غَلبتَ مننتَ بهم على عشائرهم». فقال:

ـ «يا أبا النّعمان، أَنَا لفي شغل عن ذلك، يرحم اللّه أَبا بحرٍ، إن كان لَيُحذِّرني غدرَ أَهل العراق، كأَنَّه كان ينظر إِلى ما نحن فيه».

وتمثَّل مُصعبٌ:

وإِنَّ الأُولىٰ بالطَّفِّ مِن آل هاشمٍ تَـأَسَّـوا، فَسَنُّوا للكِرامِ التَّأَسِّيا

فعلم النَّاس أَنَّه قد استقتل.

مقتل إِبراهيم الأَشتر

ولمَّا تدانى العسكران تقدَّم إِبراهيم بن الأَشتر، فحمل على محمَّد بن مروان فأَزاله عن موضعه، وهرب، فوجَّه عبد الملك عبدَ اللّه بن يزيد بن معاوية، والتقى القوم، فقُتل إِبراهيم بن الأَشتر، وقُتل مسلم بن عَمرو الباهليّ، وهرب عتَّاب بن ورقاء، وكان على الخيل مع مُصعبٍ. فقال مُصعبٌ لقَطَن بن عبد اللّه الحارثيّ:

ـ «أَبا عثمان قدِّم خيلَك». قال:

ـ «ما أَرىٰ ذلك». قال:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «أَكرهُ أَن تُقتلَ مذحج في غير شيء».

فقال لحجَّار بن أَسيد:

ـ «قدِّم رايَتَك». قال:

ـ «إِلى هذه العذرة؟» قال:

ـ «ما تتأَخَّر إِليه، واللّه أَنتَنُ وأَلأَمُ».

وقال لعبد الرَّحمٰن بن سعيد بن قيس مثل ذلك. فقال:

ـ «ما أَرى أَحداً فعل ذلك فأَفعلَه».

فقال مُصعبٌ:

ـ «يا إِبراهيم، ولا إِبراهيم لي اليوم».

ولمَّا أُخبر ابن حازم وهو بخراسان مَسيَر مُصعب إِلى عبد الملك، قال:

ـ «أَمعه عُمر بن عبيد اللّه؟» قيل:

ـ «لا، استعمله على فارس». قال:

ـ «أَمعه، المهلَّبُ» قيل:

ـ «استعمله على الموصل». قال:

ـ «أَمعه، عبَّاد بن الحصين؟» قيل:
ـ «لا، استخلفه على البصرة». فقال:
ـ «وأَنا بخراسان». ثمَّ تمثَّل:

خُذيني، فجُرِّيني ضبَاعِ وأَبشري بلَحْم امرئٍ لم يَشهدِ اليومَ ناصرُه

وقال مُصعبٌ لابنه عيسى بن مُصعبٍ:
ـ «يا بُنَيّ اركبْ أَنت ومَن معك إِلى عمِّك بمكَّة، فإِنّي مقتولٌ». وأَخبره بما صنع أَهل العراق.
فقال ابنُه:
ـ «واللَّه لا أُخبر قريشاً عنك أَبداً، ولكن الحَقْ أَنت بالبصرة فإِنَّهم على الجماعة، أَو الحَقْ بأَمير المؤمنين».
فقال مصعب:
ـ «لا واللَّه، لا أَفِرُّ، ولكن أُقاتل. فلعمري ما السَّيف بعارٍ وما الفرار لي بعادةٍ».

مقتل مصعب بن الزُّبير وابنه عيسى بن مصعب

ثمَّ أَرسل عبد الملك إِلى مُصعب مع أَخيه محمَّد بن مروان:
ـ «إِنَّ ابن عمِّك يُعطيك الأَمان».
فقال مُصعبٌ:
ـ «إِنَّ مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إِلاَّ غالباً أَو مغلوباً».
فلمَّا أَبى مصعبٌ قبولَ الأَمان، نادى محمَّد بن مروان عيسى بنَ مُصعبٍ، وقال:
ـ «يا بن أَخي، لا تقتل نفسَك، لك الأَمانُ».
فقال له مُصعبٌ:
ـ «قد آمَنك عمُّك، فامض إِليه».
قال:
ـ «لا تحدَّثُ نساء قريش أَنّي أَسلمتُك للقتل».
وتقدم بين يدي مصعبٍ، فقاتل حتَّى قُتل. وأُثخن مصعبٌ، ونظر إِليه زائدة بن قُدامة، فشدَّ عليه، فطعنه، وقال:
ـ «يا لَثارات المختار».
فصرعه، ونزل إِليه عبيد اللَّه بن زياد بن ظبيان، فاحتزَّ رأسَه، فأَتى به عبدَ الملك، فأمر له بأَلف دينارٍ، فأَبى أن يأخذَهُ، وقال:

ـ «إنّي لم أقتله على طاعتك. إنّما قتلتُه على وترٍ صنعه بي».

يعني بذلك أخاه، لأنَّ مُصعباً أُتي بالنَّابئ بن زياد بن ظبيان ورجلٍ من بني نمير قد قطعا الطَّريق، فقتل النَّابئ وضرب النُّميري بالسِّياط وتركه.

وحدَّث ابن عبَّاس عن أبيه قال: إنَّا لوُقوفٌ مع عبد الملك وهو يحاربُ مصعباً إذ دَنا منه زيادٌ بن عمرٍو، فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين، إنَّ إسماعيل بن طلحة كان لي جارَ صدقٍ وقلَّ ما أرادني مصعبٌ بسوءٍ إلاَّ دفعه عنّي. فإن رأيتَ أن تؤمنه على دمه». قال:

ـ «هو آمنٌ».

فمضى زيادٌ، وكان ضخماً وعلى ضخمٍ حتَّى صاح بين الصَّفَّين:

ـ «أين أبو النَّحتري إسماعيل بن طلحة»؟

فخرج إليه. فقال:

ـ «إنّي أُريد أن أذكر لك شيئاً».

فدنا حتَّى اختلفت أعناقُ دَوابِّهما، وكان النَّاس يتنطَّقون بالحواشي المحشوَّة. فوضع زيادٌ يدَه في منطقة إسماعيل، ثمَّ اقتلعه عن سرجه وكان نحيفاً، فقال:

ـ «أنشدك اللّه يا أبا المغيرة، فإنَّ هذا ليس بالوفاءِ لمصعبٍ». فقال:

ـ «هذا أحبُّ إليَّ لك من أن أراك غداً مقتولاً».

ولمَّا قُتل مصعبٌ وابنه عيسى، قال عبد الملك:

ـ «وارُوهُ، فقد كانت الحُرمة بيننا قديمةً، ولكنَّ هذا الملك عقيمٌ».

وكان عبد الملك ومصعبٌ يتحدَّثان إلى حُبَّى، وهما بالمدينة. فلمَّا قيل لها: قُتل مصعبٌ، قالت:

ـ «تَعِسَ قاتله». قيل:

ـ «فإنَّما قتله عبد الملك». قالت:

ـ «بأبي القاتلُ والمقتول».

وقد روي أن مقتل مُصعبٍ والحربَ بينه وبين عبد الملك كان في سنة اثنتين وسبعين.

ومن المقامات المشهورة مقامٌ تقدَّم فيه رجلٌ بالأدب

لمَّا دخل عبد الملك الكوفة، وجاءته القبائل تُبايعه، خاطب كلاًّ بما بسطه حتَّى تقدَّم إليه عَدَوان. قال معبد بن خالد الجدلي: فقدَّمنا رجلاً وسيماً جميلاً، وتأخَّرتُ ومَعبدٌ كان دميماً.

فقال عبد الملك: «مَنْ»؟

فقال الكاتب: «عَدَوان».

فقال عبد الملك:

غـديـر الـحـيِّ مـن عَـدَوا ... نَ كـانـوا حـيَّـة الأرضِ
بـغـى بـعـضُـهُـم بـعـضـاً ... فـلـم يـرعـوا عـلـى بـعـضِ
ومـنـهـم كـانـت الـسَّـادا ... تُ والـمـوفـون بـالـقـرضِ

ثم أقبل على الرَّجل، فقال:

ـ «إيهِ». فقال:

ـ «لا أدري». فقلتُ مِن خلفِه:

ومـنـهـم حَـكَـمٌ يـقـضـي ... فـلا يُـنـقَـضُ مـا يـقـضـي
ومنهم مَن يجيز الحَجْـ ... ـجَ بـالـسُّـنَّـةِ والـفـرض
وهـم مَـن وَلَـدُوا أشـبَـوا ... بـسـرِّ الـحـسـب الـمـحـض

قال: فتركني عبد الملك، ثمَّ أقبل على الجميل، فقال:

ـ «مَن يقول هذا»؟ قال:

ـ «لا أدري». فقلتُ مِن خلفه:

ـ «ذو الإصبع».

ـ «فأقبل على الجميل»، فقال:

ـ «لم سمُّي ذا الإصبع»؟ فقال:

ـ «لا أدري». فقلتُ مِن خلفه:

ـ «لأن إصبعه قُطعت يوم الكُلاب».

فقال للجميل:

ـ «وما اسمه»؟ فقال:

ـ «لا أدري». فقلتُ مِن خلفه.

ـ «حُرثان بن الحارث».

فأقبل على الجميل فقال:

ـ «من أيِّكم كان»؟ قال:

ـ «لا أدري». فقلتُ من خلفه:

ـ من بني تاجٍ، وهو يقول:

أبعِدْ بني تاجٍ وسعيَك بينهم فلا تُتبعَنْ عينيك مَن كان هالكا
إذا قلتُ معروفاً لأُصلحَ بينهم يقول وُهيبٌ: لا أُصالحُ ذلكا
فأضحى كظَهر العير جُبَّ سنامُه يطيف به الولدان أحدَبَ باركا

ثمَّ أقبل على الجميل، فقال:

ـ «كم عطاؤك»؟ فقال:

ـ «سبعمائة».

وقال لي:

ـ «في كم أنتَ»؟ قلتُ:

ـ «في ثلاثمائة».

فأقبل على الكاتِبَين فقال:

ـ «حُطَّا من عطاءِ هذا أربعمائة، وزيداها في عطاءِ هذا».

فرجعتُ وأنا في سبعمائة وهو في ثلاثمائة.

ثمَّ فرَّق عبد الملك عُمَّالَه ولم يفِ لأحدٍ شرط عليه ولايةَ أصبهان.

وفي هذه السَّنة، وجَّه عبد الملك بن مروان الحجَّاجَ بن يوسف لحرب عبد اللَّه بن الزُّبير.

توجيه عبد الملك بن مروان الحجَّاجَ بن يوسف لحرب عبد اللَّه بن الزُّبير

وكان السَّبب في توجيهه دون غيره أنَّ عبد الملك لمَّا أراد الرُّجوع إلى الشَّام، قام الحجَّاج بن يوسف، فقال:

ـ «يا أمير المؤمنين، إنِّي رأيتُ في منامي أنِّي أخذتُ عبد اللَّه بن الزُّبير فسلختُه، فابعثني إليه، وولِّني قتالَه».

فبعثه في جيشٍ من أهل الشَّام كثيفٍ. فخرج ولم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق، فنزل بالطَّائف، وكان يبعث البعوث فيقتتلون هناك. فكلُّ ذلك تُهزم خيلُ ابن الزُّبير، وترجع خيلُ الحجَّاج بالظّفر.

ثمَّ كتب الحجَّاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم عليه وحِصاره، وأخبرهُ أنَّ شوكتَه قد كلَّت وتفرَّق عنه أصحابه. فأذن له. وكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه من الجُند، بالحجَّاج وكان بالبصرة والياً عليها. فسار في

خمسة آلافٍ من أصحابه حتَّى لحق بالحجَّاج وذلك في شعبان سنة اثنتين وسبعين.

حصر ابن الزُّبير ومقتله

فلمَّا دخل ذو القعدة، رحل الحجَّاج من الطَّائف حتَّى نزل بئر ميمون، وحصر ابن الزُّبير، وقدِم عليه طارقٌ لهلالِ ذي الحجَّة، ولم يطُفْ بالبيت، ولم يصل إليه، وكان يلبس السِّلاحَ، ولا يقرب النِّساءَ ولا الطِّيبَ، إلى أن قُتل ابن الزُّبير ولم يحجَّ ابن الزُّبير ولا أصحابه في هذه السَّنة لأنَّهم لم يقفوا بعرفة.

وحجَّ الحجَّاج بالنَّاس في هذه السَّنة، ثمَّ حصر ابن الزُّبير ثمانية أشهر، ونصب المجانيق على البيت. فلمَّا رمى البيتَ رعدت السَّماء وعلا صوتُ الرَّعد والبرق صوتَ الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشَّام وأمسكوا أيديَهم. فرفع الحجَّاج برقَّة قبائه فغرزها في منطقته، ورفع الحجرَ فوضعه في المنجنيق، ثمَّ مدَّه وقال لأصحابه:

ـ «ارموا»!

ورمى معهم. فلمَّا أصبحوا جاءَت صاعقةٌ تتبعها أُخرى، فقتلتْ من أصحابه اثنَيْ عشر رجلاً. فانكسر أهل الشَّام، فقال الحجَّاج:

ـ «يا قوم، لا تُنكروا ذلك، فإنِّي ابن تهامة وهذه صواعقُها، وهذا الفتح قد حضرنا، فأبشروا، إنَّ القوم سيصيبهم مثل ما أصابكم».

فصعِقتْ من الغد، فأُصيب من أصحاب ابن الزُّبير عدَّةٌ. فقال الحجَّاج:

ـ «ألا تَرون أنَّهم قد أُصيبوا وأنتم على الطَّاعة وهم على الخلاف»؟

فتفرَّق عامَّة من كان مع الزُّبير، وخرجوا إلى الحجَّاج في الأمان حتَّى بلغ عدَّة المستأمنة عشرة آلافٍ. وكان في من خرج إلى الحجَّاج ابنا عبد اللّه بن الزُّبير: حمزة وخُبيب، بعد أن أخذا أماناً لأنفسهما.

فدخل على أُمِّه أسماء بنت أبي بكر، فقال:

ما قالته لابن الزُّبير أُمُّه أسماءُ بنتُ أبي بكر

ـ «يا أمّه، قد خذلني النّاسُ حتى ولدي وأهلي، فلم يبقَ إلاَّ اليسير، مَن ليس عنده من الدَّفع إلاَّ صبر ساعة. والقوم يُعطونني من الدُّنيا، فما رأيُك»؟ فقالت:

ـ «أنتَ واللّه يا بُنَيَّ أعلمُ بنفسك. إن كنتَ تعلم أنَّك على حقٍّ فامضِ له، فقد قُتل عليه أصحابُك، ولا تمكِّن من رقبتك تَلعَّب بها غلمانُ بني أُميَّة، وإن كنتَ إنَّما أَردتَ الدُّنيا فبئس العبد أنتَ. أهلكتَ نفسك، ومَن قُتل معك. فإن قلتَ: إنِّي كنتُ على حقٍّ، فلمَّا وَهَنَ أصحابي، ضعُفتُ. فهذا ليس فعلُ الأحرار ولا أهل الدِّين، وكم

خُلودك في الدُّنيا. القتلُ أحسن».

فدنا ابن الزُّبير، فقبَّل رأسَها، وقال:

- «هذا رأيي، ولكنِّي أحببتُ أن أعلم رأيَك، فزِديني بصيرةً، فانظُري يا أُمَّه، إنِّي مقتول من يومي هذا، فلا يشتدَّ حزنُك، وسلِّمي لأمر اللَّه، فإنَّ ابنك لم يتعمَّدْ إتيانَ مُنكر، ولا عمِلَ بفاحشةٍ، ولم يجُرْ في حُكم، ولم يتعمَّدْ ظُلمَ مسلمٍ ولا مُعاهَدٍ. اللَّهم، إنِّي لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، ولكن تعزِّيةً لأُمِّي لِتسلوَ عنِّي».

فقالت أُمُّه:

- «إنِّي لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً. اخرُجْ، حتَّى أنظرَ إلى ما يصير أمرُك». قال:

- «يا أُمَّه، لا تدعي لي الدُّعاءَ قبلُ وبعدُ». قالت:

- «لا أدَعه أبداً».

ثمَّ قالت:

- «اللّهم ارحم طول ذلك القيام في اللَّيل الطَّويل، وذلك النَّحيب والظَّمأَ في هواجر المدينة ومكَّة وبرِّه بأبيه وبي. اللَّهم إنِّي قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ، فائتِني في عبد اللَّه ثواب الشَّاكرين الصَّابرين».

ثمَّ دَنا عبد اللَّه فقبَّلها، فقالت:

- «هذا وداعٌ فلا تبعد».

وكان عليه الدِّرع. فلمَّا عانقها وجدتْ مَسَّ الدِّرع، فقالت:

- «ما هذا صنيع مَن يُريد ما تُريد». قال:

- «ما لبسته إلاَّ لأشدَّ منكِ». قالت:

- «فإنَّه لا يشدُّ منِّي».

فنزعَها، ثمَّ أَدرج كمَّيه، وأدخل أسفل قميصه وجبَّة خَزٍّ عليه في أسفل المنطقة، وهو يقول:

إنِّــي إذا أعــرف يَــومــي أصــبــرُ ... إذْ بـعـضـهُـم يـعـرفُ ثُـمَّ يُـنـكـر

قال بعضهم: واللَّه لقد رأيتُ ابن الزُّبير يخرج وقد كثره النَّاس، فيحمل فلا يبقى بين يديه أحدٌ، وينهزم النَّاس، فيقف بالأبطح ما يدنو منه أحدٌ، حتَّى ظننتُ أنَّه لا يُقتَلُ.

وكان الحجَّاج وطارق بن عَمرٍو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروَة والبابين، لِكلِّ طائفةٍ منهم بابٌ. فمرَّةً يحمل عبد اللَّه بن الزُّبير في هذه النَّاحية ومرَّةً في هذه

النَّاحية ولَكأنَّه أسدٌ في أجَمةٍ، ما يُقدم عليه الرِّجال فيعدو في أثرهم، ثمَّ يصيح:

ـ «أبا صفوان ويل أمِّهِ فتحاً لو كان له رجالٌ، لـو كـان قِـرنـي واحـداً كُـفـيـتُـه»

فقال أبو صفوان:

ـ «إي واللَّه وألف».

فلمَّا كان يوم الثلاثاء، وقد أُخذت علينا الأبواب، أذَّن المؤذِّن فصلَّى بأصحابه، وقرأ نون والقلم حرفاً حرفاً، ثمَّ سلَّم وقام وحمد اللَّه وأثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «اكشفوا وجوهَكم حتَّى أنظر».

وعليهم المغافر والعمائم. فكشفوا وجوههم فقال:

ـ «يا آل الزُّبير، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كُنَّا أهل بيتٍ من العرب اصطُلمنا، لم تُصبنا ربّانيَّةٌ. أمَّا بعدُ، يا آل الزُّبير، فلا يُرعْكم وقعُ السُّيوف، فإنِّي لم أحضر موطناً قطُّ إلاّ ارتُثِثتُ فيه بين القتلى، وما أجد من دواءِ جراحها أشدَّ ممَّا أجد من ألم وَقْعِها. صونوا سيوفَكم كما تصونون وجوهَكم، لا أعلم أمرأً كسر سيفَه واستبقى نفسَه، فإنَّ الرَّجل إذا ذهب سِلاحُه فهو كالمرأة. غُضُّوا أبصاركم عن البارقة، وليشغلْ كلُّ امرئ منكم قِرنَه، ولا يُلهينَّكم السُّؤالُ عنِّي. فلا تقولُنَّ: أين عبد اللَّه بن الزُّبير؟ ألا مَن كان سائلاً فإنِّي في الرَّعيل الأوَّل. احملوا على بركة اللَّه».

ثمَّ حمل حتَّى بلغ الحجون، فرُمي بآجُرَّةٍ، فأصابت في وجهه، فأُرعش لها، ودَمِيَ وجهُه. فلمَّا وجد سخونة الدَّم تسيل على وجهه ولحيته، قال:

فلسنا على الأَعقاب تَدمى كُلُومُنا ولكنْ على أقدامِنا تقطر الدِّمَا

وتَمثَّلَ أيضاً:

عن أيِّ يـومَـيَّ مـن الـموتِ أَفِـرّ أيـومَ لـم يُـقـدَرْ، أمْ يـومَ قُـدِر

وصاحت مولاة لآل الزُّبير مجنونةٌ:

ـ «وا أمير المؤمنيناه»!

فأشارت لهم إليه، فقُتل.

وجاء الخبر إلى الحجَّاج، فسجد وجاءَ هو وطارق حتَّى وقفا عليه، فقال طارق:

ـ «ما ولدتِ النِّساءُ أذكر من هذا».

فقال الحجَّاج:

ـ «أتمدحُ من يخالف طاعة أمير المؤمنين»؟ قال:

ـ «نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذرٌ. إنّا لَمُحاصروهُ وهو في غير

خندقٍ ولا حِصنٍ ولا مَنَعةٍ منذ سبعة أشهرٍ، ينتصف منَّا بل يفضل علينا في كلِّ ما التقينا».

فبلغ كلامُهما عبدَ الملك، فصوَّب طارقاً.

ثمَّ دخل الحجَّاج مكَّة، فبايع مَن بها من قريشٍ، وبعث برأسِ ابن الزُّبير وجماعةٍ من أهله إلى المدينة، فنُصبت بها، ثمَّ ذهب بها إلى عبد الملك بن مروان.

وبعث عبد الملك إلى عبد اللَّه بن خازم، وهو بخراسان يُقاتل بحير بن ورقاء الصَّريمي يدعوه إلى طاعته ويقول له:

ـ «إنَّ خراسان لك طعمة سبع سنين، فبايع لي».

وكان عبد الملك بعث برأس ابن الزُّبير، فغسله وحنَّطه وكفَّنه وبعث به إلى أهله بالمدينة. وحلف لا يُعطي عبد الملك طاعةً أبداً.

فقال ابن خازم للرَّسول:

ـ «لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقتل، لأَمرتُ بضرب رقبتك، ولكن كُلْ كتابَهُ». وأكَلَهُ.

مقتل ابن خازم في مَرو

وكتب عبد الملك إلى بُكير بن وَساج أحد بني عوف بن سعدٍ، وكان خليفة ابن خازم على مَرو بعهده على خراسان، ووعده ومنَّاهُ. فخلع بُكير عبد اللَّه بن الزُّبير ودعا إلى عبد الملك بن مروان، فأجابه أهل مرو، وبلغ ابن خازم، فخاف أن يأتيه بُكير بأهل مرو، فيجتمعَ عليه أهل مرو، وأهلُ أبرَشهر الَّذين مع بَحير. فأقبل إلى مرو أن يأتي ابنَه بالترمِذ، فاتبعه بَحير فلحقه بقريةٍ يقال لها: شاه مَرْغَنْد، بينها وبين مرو ثلاثة فراسخ. فقاتله ابن خازن، فقُتل عبد اللَّه بن خازم، وكان الَّذي ولي قَتله وكيع بن عُميرة القُريعي، اعتَونَ عليه بَحير بن ورقاء وعمَّار بن عبد العزيز الجُشَمي ووكيع، فطعنوه وصرعوه، فقعد وكيعٌ على صدره فقتله.

فقال بعض الولاءة لوكيعٍ:

ـ «كيف قتلتَ ابن خازم؟» قال:

ـ «غلبتُه بفضل القنا. لمَّا صرُع قعدتُ على صدره، فحاول القيام، فلم يقدر عليه، وقلتُ: يا لثاراتِ. دُوَيلةَ».

ودُويلةُ أخٌ لوكيع من أمِّه، قُتل في تلك الأيَّام.

قال: فتنخَّم في وجهي، وقال:

ـ «لعنك اللَّه، تقتل كبش مُضَر بأخيك: عِلجِ لا يُساوي كفًّا من نَوى ـ أَو قال: ـ

من تراب؟».

قال: فما رأيتُ أحداً أكثر ريقاً منه على تلك الحال عند الموت، لقد ملأ وجهي منه. فذكر ابن هُبيرة يوماً هذا الحديثَ، فقال:

ـ «هذه واللّه البسالة».

وبعث بُحير ساعة قُتل ابن خازم رجلاً من بني غُدانة إلى عبد الملك بقتل ابن خازم، ولم يبعث بالرّأس، وأقبل بُكير بن وساج في أهل مرو حين قُتل ابن خازم، فأراد أخذَ رأس ابن خازم. فمنعه بَحير، فضربه بُكير بعمودٍ، وأخذ الرّأسَ، وقيَّدَ بَحيراً وحبسه. وبعث بُكير بالرّأس إلى عبد الملك، وكتب إليه يُخبره أنَّه هو الّذي قتله.

ولاية المهلّب حَرْبَ الأزارقة من قِبل عبد الملك

وفي هذه السَّنة وجَّهَ عبد الملك أخاه بشر بن مروان من الكوفة إلى البصرة والياً عليها. ثمّ كتب إليه:

ـ «أمّا بعدُ، فابعث المهلّب في أهل مصره إلى الأزارقة لينتخب من أهل مصره ووجوههم وفرسانهم أولي الفضل والتّجربة منهم، فإنّه أعرفُ بهم، وخَلِّهِ ورَأْيَه في الحرب، فإنّي أوثق شيءٍ بتجربته ونصيحته للمسلمين، وابعثْ من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً، وابعث عليهم رجلاً معروفاً حسيباً شريفاً يُعرف بالبأس والنَّجدة والتَّجربة للحرب، ثمّ انهضْ إليهم أهلَ المصرين، فَلْيتبعوهم أيَّ وجهٍ ما توجَّهوا حتَّى يُبيرَهم اللّه ويستأصلهم، والسَّلام عليك».

فدعا بشرٌ المهلَّبَ، فأَقرأه الكتاب، وأمره أن ينتخب مَن شاءَ. فبعث بجُذَيع بن قبيصة وهو خال ابنه يزيد، فأمره أن يأتي الدّيوان، فينتخب النَّاس، فشقَّ على بشر أنَّ إمرة المهلَّب جاءَتْ من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره. فأوغرتْ صدره عليه حتَّى كأنَّ له إليه ذنباً. ودعا بشرُ بن مروان عبدَ الرَّحمٰن بن مخنف، فبعثه على أهل الكوفة، وأمره أن ينتخب فُرسان النَّاس ووُجوههم وأُولي الفضل منهم والنَّجدة.

قال عبد الرَّحمٰن بن مخنف: قال لي بشر:

ـ «إنّك قد عرفت منزلتَك منّي وأَثَرتَك عندي، وقد ولَّيتُك هذا الجيش لِلّذي عرفتُ من جرأتك وغَنائك وشرفك وبأسك، فكُنْ عند أحسن ظنّي بك، انظر هذا الكذّاب ـ يعني المهلَّب وَوَقعَ فيه وسبَعَهُ ـ (كذا) فاستبِدَّ عليه بالأمر، ولا تقبلَنَّ له مشورةً ولا رأياً».

وتنقَّصه وقصَّر به.

قال عبدُ الرَّحمٰن: فترك أن يوصيني بالجندِ وقتال العدوِّ والنَّظر لأهل الإسلام،

وأقبل يغريني بابن عمّي حتّى كأنّي سفيهٌ من السُّفهاءِ، أو ممَّن يُستصبى ويُستجهل. ما رأيتُ شيخاً في مثل سنّي ومنزلتي طُمع منه في مثل ما طمع فيه هذا الغلام منّي. شبَّ عمرٌو عن الطَّوق.

قال: ولمّا رَآني لستُ بالنَّشيط إلى جوابه قال:

ـ «مالك؟» قلتُ:

ـ «أصلحك اللّه، وهل يسعني إلاّ أن أنقادَ لأمركَ في كلِّ ما أحببت أو كرهتَ؟» قال:

ـ «امضِ راشداً».

فودَّعته وخرجت من عنده.

وخرج المهلَّب حتّى نزل رامهُرمُز، فلقي الخوارج، فخندق عليه، وأقبل عبد الرَّحمٰن بن مخنف بأهل الكوفة، فنزل قريباً من المهلَّب على ميلٍ، أو ميلٍ ونصفٍ، حيث يتراءى العسكران برامهرمز، فلم يلبث النّاس إلاّ عشراً حتّى أتاهم نعي بِشرٍ، وتُوفّي بالبصرة، وارفضَّ النّاس من أصحاب المهلَّب وأصحاب عبد الرَّحمٰن بن مخنف، وهم رؤساءُ أهل البصرة والكوفة، وبقيا في قلَّةٍ. وكان بشرٌ استخلف خالد بن عبد اللّه ابن أسيدٍ، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُريثٍ، وكان ممَّن انصرف من أهل الكوفة: زحر بن قيس، وإسحاق بن محمَّد بن الأشعث، ومحمَّد بن عبد الرَّحمن بن سعد بن قيس. فبعث عبد الرَّحمن ابنَه جعفراً في آثارهم، فردَّ إسحاقَ ومحمَّداً، وفاتَهُ زحر بن قيسٍ، فحبسهما يومين، ثمَّ أَخذ عليهما أَلاّ يفارقاه. فما لَبِثا إلاّ يوماً حتّى انصرفا ولحقا بزحر بن قيسٍ بالأهواز، فاجتمع بها ناسٌ كثيرٌ ممَّن يريد البصرة، فبلغ ذلك خالد بن عبد اللّه، فكتب إلى النّاس كتاباً، وبعث رُسُلاً تضرب وُجوهَ النّاس وتردُّهم. فقدم مولًى له، فقُرئَ الكتاب على النّاس وقد جمعوا له، وكان فيه حضٌّ على الجهاد وتوبيخٌ للرُّؤساءِ، وتهديدٌ لعامَّة النّاس، ويقول في آخره:

ـ «أيُّها النّاس، اعلموا على مَن اجترأتم ومَن عصيتم. إنه عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الّذي ما فيه غميزةٌ، ولا عنده رُخصةٌ على من خالفه وعصى أَمرَه، وإنَّما سوطُه سيفُه، فلا تجعلوا على أَنفسكم سبيلاً، فإنّي لم آلُكم نصحيةً. اذهبوا إلى مكتبكم وطاعة خليفتكم، ولا ترجعوا عاصين مخالفين، فأُقسم باللّه لا أَثقَفُ عاصياً بعد كتابي هذا إلاّ قتلتُه والسَّلام».

فلم يلتفت النّاس إلى ما في الكتاب، وأَقبل رؤساءُ الكوفة حتّى نزلوا إلى جانب الكوفة في قريةٍ لآل الأشعث، وكتبوا إلى عَمرو بن حُريثٍ:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّ النَّاس لمَّا بلغهم وفاة الأمير رحمه اللَّه، تفرَّقوا فلم يبق معنا أحدٌ، فأقبلنا إلى الأمير، وإلى مصرنا، وأحببنا، ألاّ ندخلَ الكوفة إلاّ بإذن الأمير وعلمه، والسَّلام».

فكتب إليهم:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّكم تركتم مكتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين، فليس لكم عندنا أمانٌ ولا إذنٌ». فلمَّا أتاهم كتابه انتظروا حتَّى إذا كان اللَّيل دخلوا إلى رحالهم، فلم يزالوا مقيمين حتَّى قدم الحجَّاج بن يوسف.

سبب عزل بكير بن وساج عن خراسان

وفي هذه الأيَّام عزل عبدُ الملك بكيرَ بنَ وساج عن خراسان، وولاَّها أُميَّة بن عبد اللَّه بن خالد بن أسيد. وكان سبب ذلك أنَّ نميماً اختلفت بخراسان، فصار منهم قومٌ يتعصَّبون لبَحير ويطلبون بكيراً، وصار منهم يعذرون بُكيراً ويتعصَّبون له. فخاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ويقهرهم عدوّهم من المشركين. فكتبوا إلى عبد الملك أنَّ خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلاّ على رجلٍ من قريشٍ لا يحسدونه.

فوجَّهَ عبد الملك أُميَّة بن عبد اللَّه، وكان يحبُّه ويقول:

ـ «هو لِدَتي».

وكان بَحير كما كتبنا في ما تقدَّم من خبره، في حبس بُكيرٍ لما كان منه في رأس ابن خازم حين قتله. فلم يزل محبوساً عنده حتَّى استعمل عبد الملك أُميَّة بن عبد اللَّه بن خالد بن أسيد. فلمّا بلغ ذلك بُكيراً أرسل إلى بَحيرٍ ليصالحه، فأَبى عليه وقال:

ـ «ظنَّ بُكيرٌ أنَّ خراسان تبقى له في الجماعة».

فمشى بينهم السُفراء، فأَبى بَحيرٌ.

ذكر رأيٍ صوابٍ أُشير به على بحيرٍ فقبله

ثمَّ دخل عليه ضرار بن حصن الضَّبِّي، فقال:

ـ «إنِّي لا أراك مائقاً، يرسل إليك ابن عمِّك يعتذر إليك وأنت أَسيرٌ في يده فلا تقبل منه! لو قتلك ما حَبَقتْ فيه عنزٌ. ما أَنت بموفَّقٍ، اقبل الصُّلح، واخرج وأنت على أمرك».

فقبل مشورته وصالح بُكيراً.

قال: فأَرسل إليه بُكيرٌ بأربعين ألفاً، وأَخذ على بَحيرٍ ألاّ يغتاله. فلمَّا بلغ بَحيراً أنَّ أُميَّة قاربَ أَبرَشهر، قال لرجل من عجم مرو:

ـ «دُلَّني على طريقٍ قريبٍ لا أَلقى الأَمير قبل قدومه ولك كذا وكذا».

وأَجزل له العطيَّة. وكان عالماً بالطريق. فخرج إِلى أَرض سرخس في ليلةٍ، ثمَّ مضى به إِلى نيسابور.

فوافى أُميَّة حتَّى قدم أَبرَشهر، فلقيه، فأَخبره عن خراسان وما يُصلح أَهلها ويُحسن طاعتهم ويخفُّ على الموالي مؤونتهم، ورفع على بكيرٍ أموالاً قد أصابها، وحذّره غدره، وسار معه حتَّى قدم مرو. وكان أميَّة سيِّداً كريماً. فلم يعرض لبُكير ولا لعمَّاله، وعرض عليه أن يولِّيه شُرطتَه، فأَبى بكيرٌ، فولاَّها بَحيراً. وقد كان لام بُكيراً رجالٌ من قومه وقالوا:

ـ «أبيت أَن تليَ حتَّى ولاَّها بَحيراً، وقد عرفتَ ما كان بينكما». قال:

ـ «كنتُ أَمسِ والي خراسان تُحمل الحراب بين يديَّ وأَصبر اليوم على الشُّرطة أَحمل الحربة!».

وقال أُميَّة لبُكيرٍ:

ـ «اختَرْ ما شئتَ من عمل خراسان». قال:

ـ «طخارستان» قال:

ـ «هي لك».

قال: فتجهَّز بُكيرٌ، وأَنفق مالاً كثيراً، فقال بَحيرٌ لأُميَّة:

ـ «إن أَتى بكيرٌ طخارستان خلعك».

فلم يزل يُحذِّره حتَّى حَذِرَه، وأَمره بالمقام.

ذكر تولية عبدِ الملك الحجَّاج بن يوسف العراق وسيرة الحجَّاج

ولمّا توفِّي بشر بن مروان، كاتب عبدُ الملك الحجَّاجَ بن يوسف وهو بالمدينة وولاَّهُ العراقَ. فأَقبل في اثني عشر راكباً على النَّجائب، حتَّى دخل الكوفة حين انتشر النَّهار. فجاءَه، وكان بشرٌ بعث المهلَّب إِلى الحروريَّة، وانصرف كثيرٌ من النَّاس عنه بعد وفاته. وقد كتبنا أَمرَه في ما تقدَّم. فبدأَ الحجَّاجُ بالمسجد، فدخله، ثمَّ صعد المنبر وهو متلثِّم بعمامةٍ حمراءَ خزٍّ، فقال:

ـ «عليَّ بالنَّاس».

فحسبوهُ وأَصحابَه خارجةً. فهمُّوا به، حتَّى إِذا اجتمع إِليه النَّاس قام فكشف عن وجهه، ثمَّ قال:

«أَنـا ابـنُ جَـلا وطَـلاَّعُ الـثَّـنـايـا مَـتى أَضعِ الـعِـمـامَـةَ تَـعرفُـوني

أَما واللَّه، إِنِّي لأَحمل الشَّرَّ محملَه، وأَحذوهُ بنعله وأجزيه بمثله، وإِنِّي لأرى رؤوساً قد أَينعت، وحانَ قِطافُها، وإِنِّي لأَنظر إِلى الدِّماءِ ترقرق بين العمائم واللِّحى. قد شمَّرتْ عن ساقها تشميراً.

هـذا أَوانُ الـشَّـدِّ، فـاشـتَـدِّي زِيَـمْ قـد لـفَّـهـا الـلَّـيـل بـسـوَّاقٍ حَـطِـم
لـيـس بـراعـي إبـلٍ ولا غَـنَـمْ ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظـهـر وَضَـمْ
قـد لـفَّـهـا الـلَّـيـلُ بـعَـصْـلَـبِـيِّ مـهـاجـرٍ لـيـس بـأعـرابـيِّ

إِنِّي واللَّه، يا أَهل العراق ما أُغمز تَغمازِ التِّين، ولا يُقعقعُ لي بالشِّنان، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاءٍ وفُتِّشتُ عن تجربةٍ، وجريتُ من الغاية. إِنَّ أمير المؤمنين نثل كنانته، ثمّ عجم عيدانَها، فوجدني أَمرها عوداً وأصلبَها مكسراً فرماكم بي. فإِنَّكم طال ما أوضعتم في الفتن وسننتم سُنَنَ الغيِّ. واللَّه لأَلحونَّكم لَحْوَ العود، ولأعصبنَّكم عَصْبَ السَّلَمة، ولأَضربنكم ضَرْبَ غرائب الإبل. إنِّي واللَّه لا أَعِدُ إلاّ وفيتُ، ولا أَخلق إلاّ فريت، فإِيَّاي وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً وما يقول وفيم أَنتم وذاك، واللَّه لتستقيمُن على سبل الحقِّ، أَو لأَدعنَّ لكلِّ رجلٍ منكم شغلاً في جسده. من وجدناه بعد ثالثةٍ من بعث المهلَّب سفكتُ دمه وأَنهبت مالَه».

ثمَّ دخل منزله ولم يزد على ذلك.

ويُقال: إِنَّه لمَّا طال سكوته تناول محمَّد بن عُمير حصًى ليحصبه بها، وقال:

ـ «قاتله اللَّه، ما أَعياهُ وآدامه!».

فلمَّا تكلَّم الحجَّاج جعل الحصى ينتشر من يده ولا يعقل به.

ثمَّ دعا الحجَّاج بالعرفاءِ، وقال:

ـ «الحقوا بالمهلَّب وائتوني بالبراءَات بموافاتهم، ولا تغلقنَّ أَبواب الجسر ليلاً ونهاراً، فقد بلغني رفضكم للمهلَّب وإِقبالكم إلى مصركم عُصاةً مخالفين. وإِنِّي لأُقسم لكم باللَّه ما أَجد أَحداً بعد ثلاثة إلاّ ضربت عنقه».

فلمَّا كان اليوم الثالث سمع تكبيراً في السُّوق، فخرج حتَّى جلس على المنبر، فقال:

ـ «يا أَهل العراق وأَهل الشِّقاق ومساوئ الأخلاق، إِنِّي سمعتُ تكبيراً لا يُراد به اللَّه في التَّرغيب، ولكنَّه تكبيرٌ يراد به التَّرهيب. وقد عرفت أَنَّها عَجاجةٌ تحتها قصفٌ. يا بني اللُّكيعة وعبيدَ العصا وأَبناء الأيامى، إِن لا تربع رجل على ظلعه ولا يحسن حقن دمه ويبصر موضعَ قدمه، فأُقسم باللَّه لأُوشك أن أُوقع بكم وقعةً تكون نكالاً لما قبلَها وأَدباً لما بعدَها».

فقام إليه عمير بن ضابئ التّميميّ ليتكلم بعُذره فقال:

- «أسمعتَ كلامنا بالأمس؟» قال:

- «نعم»، قال:

- «ألستَ الَّذي غزا أَمير المؤمنين عثمان؟» قال:

- «بلى». قال:

- «فما حملك على ذلك؟» قال:

- «حبس أَبي وكان شيخاً كبيراً». قال:

- «أَو ليس الَّذي يقول:

هَمَمْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتني ... تركتُ على عثمان تبكي حلائلُه

إِنِّي لأَحسب في قتلك صلاح المصرين. قم إليه يا حَرَسيُّ فاضرب عُنقَه».

فقام إليه الحرسيُّ، فأَخرجه وضرب عنقَه، وأَنهبَ مالَه، وأَمر منادياً فنادى:

- «أَلا إِنَّ عميراً أَتى بعد ثالثةٍ وقد كان سمع النِّداءَ، فأَمرنا بقتله. أَلا إِنَّ ذمَّة اللَّه بريئةٌ ممَّن بات اللَّيلة من جند المهلَّب».

فخرج النَّاس، فازدحموا على الجسر، فعبر في تلك اللَّيلة أَربعة آلاف مذحجٍ. وخرج العرفاء إِلى المهلَّب وهو برامهرمز، فأَخذوا كُتُبه بالموافاة.

وقال المهلَّب لأَصحابه:

- «قدم العراقَ أَميرٌ ذَكَرٌ، اليومَ قوتل العدوُّ».

قال عمرو بن سعيد: فواللَّه إِنِّي لأَسير بين الكوفة والحيرة إِذ سمعتُ زجراً مضريًا، فعدلتُ إِليه وقلتُ:

- «ما الخبر؟» قالوا:

- «قدم علينا رجلٌ من شرِّ أَحياءِ العرب، من هذا الحيِّ، من ثمود، أَسقف السّاقين، أَشرح الجاعرتين، أخفش العينين. فقدَّم سيِّد الحيِّ عمير بن ضابئ فضرب عنقه».

ولقي ابن الزُّبير إِبراهيم بن عامر، فسأله عن الخبر، فقال وذلك في السُّوق:

أَقـول لإِبـراهـيـم لـمَّـا لـقـيـتـه ... أَرى الأَمر أَضحى مُنصِباً متشعّبا

تجهَّزْ وأَسرعْ فالحَقِ الجيشَ، لا أَرى ... سوى الجيش، إِلاَّ في المهالك مذهبا

تَـخـيَّـرْ فـإِمَّـا أَن تـزور ابـن ضـابـئ ... عُـمـيـراً وإِمَّـا أَن تـزور الـمـهـلَّـبـا

هما خُطَّتا حتفٍ نجاؤك منهما ... ركوبُك حوليًا من الثَّلج أَشهبا

فأمسى ولو كانت خراسان دُونه رَآها مكان السُّوق، أو هي أقربا

ولمَّا قتل الحجاج عمير بن ضابئ، خرج من فوره حتَّى قدم البصرة، فقام فيهم بخطبةٍ، مثل الَّتي قام بها في أَهل الكوفة، وتوعَّدهم مثل وعيده إيَّاهم. فأُتيَ برجلٍ من بني يشكر، وقيل له:

ـ «هذا عاصٍ». فقال:

ـ «إنَّ لي فتقاً، وقد رَآهُ بشرُ فعذرني، وهذا عطائي مردود في بيت المال».

فلم يقبل منه، وقدَّمه فضرب عنقه. ففزع أهل البصرة، فخرجوا حتَّى تداكُّوا على العارض برامهرمز، فقال المهلَّبُ:

ـ «جاءَ النَّاس أمرٌ ذَكَرٌ».

ذكر وُثوب النَّاس بالحجَّاج

خرج الحجَّاج بالنَّاس حتَّى نزل رستقباذ، ومعه وجوه أَهل البصرة، وكان بينه وبين المهلَّب ثمانية عشر فرسخاً. فقام في النَّاس، فقال:

ـ «إنَّ ابن الزُّبير زادكم في أَعطياتكم زيادة فاسقٍ منافقٍ ولستُ أُجيزها».

فقام إليه عبد اللَّه بن الجارود العبدي، فقال:

ـ «ولكنَّها زيادة أَمير المؤمنين عبد الملك، وقد أَثبتها لَنا».

فكذَّبه وتوعَّدهُ، فخرج ابن الجارود على الحجَّاج، وبايعه وجوهُ النَّاس. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتِل عبد اللَّه بن الجارود وجماعةٌ ممَّن ثار معه، وبعث الحجَّاج برأسه ورؤوس عدَّةٍ من أَصحابه إلى المهلَّب، ونصب برامهرمز ثمانية عشر رأساً من وجوه النَّاس. فساءَ ذلك الخوارجَ، وكانوا رجَوا أن يكون من النَّاس فُرقةٌ واختلافٌ. وانصرف الحجَّاج إلى البصرة، وكتب إلى المهلَّب وإلى عبد الرَّحمن بن مخنف:

ـ «أمَّا بعدُ إذا أَتاكم كتابي هذا، فناهضوا الخوارج. والسّلام».

فناهض المهلَّب وعبد الرَّحمن الأزارقة، فأَجلَوهم عن رامهرمز من غير قتالٍ شديدٍ، ولكنَّهم زحفوا إليهم حتَّى أَزالوهم، وخرج القوم كأَنَّهم على حاميةٍ، حتَّى نزلوا بكازرون.

ذكر توانٍ لعبد الرَّحمن حتَّى قُتل وقُتل معه خلقٌ

وسار المهلَّب وعبد الرَّحمن حتَّى نزلوا بهم، فخندق المهلَّب ولم يخندق عبد الرَّحمن، فقال المهلَّب لعبد الرَّحمن:

ـ «إن رأَيت أَن تخندق عليك فعلتَ». فقال أَصحاب عبد الرَّحمن:

ـ «خندقُنا سيوفنا».

فلمَّا كان اللَّيل زحف الخوارج إلى المهلَّب ليبيِّتوهُ، فوجدوه قد أَخذ حِذْرَه، فمالوا نحو عبد الرَّحمن، فوجدوه لم يخندق. فنهض عبد الرَّحمن وقاتلهم وانهزم عنه أَصحابه، ونزل في جماعةٍ من أهل الحِفاظ والصَّبر، فقاتلوا حتَّى قُتل عبد الرَّحمن وقُتلوا كلُّهم حولَه.

فلمَّا أَصبح المهلَّب جاءَ حتَّى دفنه وصلَّى عليه، وكتب بمصابه إلى الحجَّاج، فكتب الحجَّاج بذلك إلى عبد الملك ونَعى عبد الرَّحمن وذمَّ أَهل الكوفة. وبعث الحجَّاج على عسكر عبد الرَّحمن بن مخنف، عتَّابَ بن ورقاء، وأَمره إذ ضمَّتها الحرب أن يسمع للمهلَّب ويطيعَ. فساءَهُ ذلك ولم يجد بدًّا من طاعة الحجَّاج، ولم يقدر على مراجعته. فجاءَ حتَّى أَقام في ذلك العسكر، وقاتل الخوارج، وأَمرُهُ إلى المهلَّب، وهو في ذلك يعني أُمورَهُ ولا يكاد يستشير المهلَّبَ في شيءٍ. فلمَّا رأَى المهلَّبُ ذلك اصطنع رجالاً من أَهل الكوفة فيهم بسطام بن مصقلة، فأغراهم بعتَّابٍ.

فلمَّا كان ذات يوم، أَتى عتَّابٌ المهلَّبَ يسأَله أَن يرزق أَصحابَه. فأَجلسه المهلَّب معه على مجلسه، فسأَله عتَّابٌ سؤالاً فيه تجهُّمٌ وغِلظةٌ وترادَّا الكلامَ حتّى قال له المهلَّبُ:

ـ «يابنَ اللَّخناء».

وذهب ليرفع القضيب عليه، فوثب إليه ابنُه المغيرة، فقبض على القضيب وقال:

ـ «أَصلح اللَّه الأميرَ، شيخٌ من أَشياخ العرب وشريفٌ من أَشرافهم. إن سمعتَ منه ما تكرهُ فاحتمله».

فقبله وقام عتَّابٌ، فاستقبله بسطام بن مصقلة يشتمه ويقع فيه فلمَّا رأى عتَّابٌ ذلك كتب إلى الحجَّاج يشكو إليه المهلَّبَ ويخبرهُ أَنَّه أَغرى به سفهاءَ أَهل البصرة ويسأله أن يضمَّه إليه، ووافق ذلك حاجةً من الحجَّاج إليه في ما لقي من شبيب، وما لقيه أيضاً أَشرافُ الكوفة منه. وسنذكره من خبره ما يليق بهذا الكتاب إن شاءَ اللَّه. فبعث إليه الحجَّاج أَن:

ـ «اقدم واترك أَمر ذلك الجيش إلى المهلَّب».

فبعث المهلَّب ابنَه حبيباً، وأَقام المهلَّب يقاتلهم سنةً.

ذكر ما كان من شبيب بن يزيد وما لقي الحجَّاجُ وأَشرافُ الكوفة منه

كان ابتداء أَمر شبيب صحبته لرجلٍ يعرف بصالح بن مسرّح، وكان صالحٌ يرى

رأي الصُفريَّة وكان ناسكاً مُصفَرَّ الوجه صاحب عبادةٍ، وله أصحابٌ يُقريهم القرآن ويفقِّهُهُم ويقصُّ عليهم، ويقدَم الكوفة فيقيم بها الشَّهرَ أو الشَّهرين، وكان بأرض الموصل والجزيرة، وله قَصص محفوظٌ وكلامٌ مستحسن، وكان إذا فرغ من التَّحميد والصَّلاة على محمَّدٍ ذكرَ أَبا بكرٍ فأثنى عليه، وثنَّى بعمر، وذكر عثمان وما كان من أَحداثه، ثمَّ عليًا وتحكيمه الرِّجالَ في أمر اللّه، ويتبرَّأُ من عثمان وعليٍّ، ثمَّ يدعو إلى مجاهدة أَئمَّة الضَّلال ويقول:

ـ «تيسَّرُوا يا إخواني للخروج من دار الفناءِ، إلى دار البقاءِ، واللَّحاق بإخواننا المؤمنين الَّذين باعوا الدُّنيا بالآخرة، ولا تجزعوا من القتل في اللّه، فإنَّ القتل أيسر من الموت، والموتُ نازلٌ بكم عندما تُرجَمُ الظُّنون، فيفرِّق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدَّ لذلك جزعكم. ألا، فبيعوا أَنفسكم طائعين وأموالكم، تدخلوا الجنَّة».

وأشباه ذلك من الكلام. وكان في من يحضره من أَهل الكوفة سُويد والبُطين. فقال يوماً لأصحابه:

ـ «ما تنتظرون؟ ما يزداد أَئمَّة الجور إلاَّ عُتُوًّا وعُلُوًّا وتباعداً من الحقِّ، وجُرأَةً على الرَّبِّ. فراسلوا إخوانَكم حتَّى يأتوكم وننظرَ ما نحن صانعون وأيَّ وقتٍ إن خرجنا نحن خارجون».

فبينا هو كذلك، إذ أَتاه المحلّل بن وائلٍ بكتاب شبيبٍ وقد كتب إلى صالح:

ـ «أَمَّا بعدُ، فقد كنتَ دعوتني إلى أَمرٍ استجبتُ له، فإن كان ذلك، فإنَّك شيخ المسلمين، ولم نعدل بك منَّا أحداً، وإن أَردت تأخير ذلك، أعلمتني، فإنَّ الآجال غاديةٌ ورائحةٌ، ولا آمَنُ أَن تخترمني المنيَّةُ ولمَّا أُجاهد الظَّالمين. جعلنا اللّهُ وإيَّاك ممَّن يُريد اللّه بعمله، والسَّلام عليك».

فأَجابه صالحٌ بجوابٍ جميلٍ يقول فيه:

ـ «إنَّه لم يمنعني من الخروج مع ما أَنا فيه من الاستعداد إلاَّ انتظارك، فاقدَمْ علينا ثمَّ اخرج بنا، فإنَّك ممَّن لا تُقضَّى الأُمورُ دونَه، والسَّلام».

فلمَّا ورد كتابه على شبيب دَعا نفراً من أَصحابه فجمعهم إليه، منهم: أَخوه مَصاد بن يزيد والمحلّل بن وائل، والصّفر بن حاتم، وإبراهيم بن حجر، وجماعة مثلهم. ثمّ خرج حتّى قدم على صالح بن مسرّح، وهو بدارا من أَرض الموصل. فبثَّ صالحٌ رُسُلَه، وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأَربعاءِ سنة ستٍّ وسبعين. فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عنده في تلك اللّيلة.

فتحدّث فروة بن لقيط قال: إنِّي لمعهم تلك اللّيلة وكان رأيي استعراض النَّاس لما رأيت من المنكر والفساد في الأَرض. فقمتُ إليه، فقلت:

ـ «يا أَمير المؤمنين، كيف ترى السّيرة في هؤلاءِ الظَّلَمة؟ أَنقتلهم قبل الدُّعاءِ أَم ندعوهم قبل القتال؟ فإِنِّي أُخبرك برأيي فيهم قبل أَن تخبرني برأيك فيهم. إنا نخرج على قوم طاغين باغين، قد تركوا أَمر اللَّه، أَو راضين بذلك؟ فأَرى أن نضع فيهم السَّيف». فقال:

ـ «لا، بل ندعوهم، فلعمري، لا يجيبك إلاَّ مَن يرى رأيَك، وليُقَاتلنَّك من يُزري عليك، والدُّعاءُ أَقطع لحجَّتهم، وأَبلغ في الحجَّة لك عليهم».

قال: فقلت له:

ـ «فكيف ترى في من قاتَلَنا فظفرنا به، وما تقول في دمائهم وأَموالهم؟» فقال:

ـ «إِن قاتلنا وغنمنا فَلنا، وإِن تجاوزنا وعفَونا، فموسعٌ علينا ولَنا».

فأَحسنَ لنا القولَ.

ثمَّ قال صالحٌ لأَصحابه ليلته:

ـ «اتَّقوا اللَّه عبادَ اللَّه، ولا تعجلوا إِلى قتال أَحدٍ من النَّاس إِلاَّ أن يكونوا يُريدونكم، فإِنَّكم خرجتم غضباً للَّه حيث انتُهكت مَحارمُه، وعُصي في الأَرض، وسُفكت الدِّماءُ بغير حقِّها، وأُخذت الأَموال غصباً، فلا تعيبوا على قوم أَعمالاً ثمّ تعملوا بها. وهذه دوابُّ لمحمد بن مروان في هذا الرُّستاق، فابدأُوا بها، فاحملوا رجْلكم وتقوَّوا بها على عدوِّكم».

ففعلوا ذلك وتحصَّن منهم أَهل دارا، وبلغ خبرهم محمَّد بن مروان، وهو يومئذٍ أَمير الجزيرة، فاستخفَّ بأَمرهم، وبعث إِليهم عديّ بن عُميرة في خمسمائة، وكان صالحٌ في مائةٍ وعشرةٍ، فقال عديٌ:

ـ «أَصلح اللَّه الأَمير، تبعثني إِلى رأس الخوارج ومعه رجالٌ سُمُّوا لي، وإِنَّ الرَّجل منهم خيرٌ من مائة فارس في خمسمائةٍ». فقال له:

ـ «فإِنِّي أَزيدك خمسمائةٍ، فسِرْ إِليهم في أَلف فارس».

فسار من حَرَّان في أَلف رجلٍ وكأنَّما يُساق إِلى الموت. وكان عديُّ رجلاً يتنسَّك. فلمَّا نزل ذوغان نزل بالنَّاس وأَنفذ إِلى صالح بن مسرّح رجلاً دسَّهُ إِليه. فقال له:

ـ «إنَّ عديًا بعثني إليك يسألك أن تخرج من هذا البلد وتأوي بلداً آخر وتقاتل أهله، فإنَّ عديًا للقائك كارهٌ».

فقال صالح:

ـ «ارجع إليه، فقُلْ له: إن كنت ترى رأينا فأرِنا من ذلك ما نعرف، ثمَّ نحن مدلجون عنك، وإن كنت على رأي الجبابرة وأئمَّة السُّوءِ، رأينا رأينا. فإمَّا بدأنا بك، وإمَّا رحلنا إلى غيرك».

فانصرف إليه الرَّسول، فأبلغه فقال عديٌّ:

ـ «ارجع إليه فقل له: إنّي واللّه لا أرى رأيك، ولكنّي أكرهُ قتالَك وقتالَ غيرك من المسلمين، فقاتل غيري».

ذكر مكيدة صالحٍ على عديٍّ

فقال صالحٌ لأصحابه: اركبوا. فركبوا. وحبس الرَّجلَ عنده حتَّى خرجوا، ثمَّ تركه ومضى بأصحابه حتَّى أتى عديًا في سوق ذوغان وهو قائمٌ يصلِّي الضُّحى، فلم يشعر إلاَّ والخيل طالعةٌ عليهم. فلمَّا دَنا صالحٌ منهم رَآهم على غير تعبئةٍ، وقد تنادَوا، وبعضُهم يجول في بعضٍ. فأمر شبيباً، فحمل عليهم في كتيبةٍ، ثمَّ أمر سُويداً، فحمل في كتيبة، وكانت هزيمتهم. وأُتي عديٌّ بدابَّته فركبها، ومضى على وجهه، واحتوى صالحٌ على عسكره وما فيه، وذهب فلُّ عديٍّ حتَّى لحقوا بمحمَّد بن مروان. فغضب، ثمَّ دعا خالد بن جَزءٍ السُّلمي، فبعثه في ألفٍ وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة فبعثه في ألفٍ وخمسمائة، وقال لهما:

ـ «اخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجِّلا. فأيُّكما سبق فهو الأمير على صاحبه». فخرجا، وأغذَّا السَّير، وجعلا يسألان عن صالحٍ، فقيل له:

ـ «توجَّهْ نحو آمد».

فاتَّبعاه حتَّى انتهيا إليه بآمد، فنزلا ليلاً وخندقاً وهما يتساندان كلُّ واحدٍ منهما على حدته. فوجَّه صالحٌ شبيباً إلى الحارث بن جعونة في شطر أصحابه، وتوجَّه هو نحو خالد السُّلَمي، فاقتتلوا أشدَّ قتالٍ اقتتله قوم، حتَّى حجز بينهم اللَّيل وقد انتصف بعضهم من بعضٍ.

فتحدَّث بعض أصحاب صالح قال: كنَّا إذا حملنا عليهم استقبلتنا رجَّالتهم بالرِّماح، ونضحتنا رماتهم بالنَّبل وخيلهم تُطاردنا في خلال ذلك، فانصرفنا عند اللّيل وقد كرهناهم وكرهونا. فلمَّا رجعنا وصلَّينا وتروَّحنا وأكلنا من الكسر دعانا صالحٌ وقال:

ـ «يا أخلاَّئي ماذا تَرون؟».

فقال شبيبٌ:

ـ «أَنا أَرى إِن قاتلنا هؤلاء وهم معتصمون بخندقهم لم نَنلْ منهم طائلاً. والرَّأي أَن نرحل عنهم».

فقال صالحٌ:

ـ «أَنا أَرى ذلك».

فخرجوا من تحت ليلتهم حتَّى قطعوا أَرض الجزيرة وأرض الموصل، ومضَوا حتَّى قطعوا الدَّسكرة. فلمَّا بلغ ذلك الحجَّاجَ سرَّح إِليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف. فسار، وخرج صالحٌ نحو جَلُولا وخانقين، واتَّبعه الحارث حتَّى انتهى إِلى قرية يُقال لها: الرّيح وصالح يومئذٍ في تسعين رجلاً. فعبَّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنةً وميسرةً، وجعل صالحٌ أَصحابه كراديس ثلاثةً، فهو في كرِدُوسٍ وشبيب في ميمنته في كردوس، وسُويد بن سُليم في كردوس من ميسرته، وفي كلِّ كردوسٍ منهم ثلاثون رجلاً. فلمَّا شدَّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سُليم وثبتَ صالح، فقتل، وضارب شبيبٌ حتّى صُرع عن فرسه، فوقع في رجاله، فجاءَ حتّى انتهى إِلى موقف صالحٍ، فوجده قتيلاً، فنادى:

ـ «يا معشر المسلمين».

فلاذوا به، وقال لأَصحابه:

ـ «ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهره إِلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوَّه إِذا أَقدم عليه حتَّى ندخل هذا الحصن ونرى من رأينا».

ففعلوا ذلك حتَّى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عُميرة مُمسياً، وقال لأَصحابه:

ـ «أَحرقوا الباب، فإذا صار جمراً فدعوه، فإِنَّهم لا يقدرون على خروجهم حتَّى تصبِّحهم فتقتلهم».

ففعلوا ذلك بالباب، ثمَّ انصرفوا إِلى معسكرهم. فقال شبيب لأصحابه:

ـ «ما تنتظرون يا هؤلاءِ؟ فواللَّه، لئن صبَّحوكم إنَّه لَهلاكُكم». فقالوا:

ـ «مُرنا بأَمرك» فقال لهم:

ـ «بايعوني إن شئتم، أو مَن شئتم منكم، ثمَّ اخرجوا بنا حتَّى نشدَّ عليهم في عسكرهم فإنَّهم آمنون منكم، فإِنِّي أَرجو أَن ينصركم اللَّه». قالوا:

ـ «فابسطْ يدَك».

فبايعوه. فلمَّا جاؤوا إلى الباب وجدوه جمراً، فأتوا باللُّبود، فبلُّوها بالماءِ، ثمَّ أَلقَوها عليه، وخرجوا، ولم يشعر الحارث بن عُميرة إلاَّ وشبيبٌ وأَصحابه يضربونهم بالسُّيوف في جوف عسكرهم. فضارب الحارث حتَّى صُرِع، واحتمله أَصحابُه وانهزموا وخلَّوا لهم العسكرَ وما فيه، ومضَوا حتَّى نزلوا المدائن. وكان ذلك الجيش أوَّل جيشٍ هزمه شبيبٌ.

فأَمَّا صالح بن مسرّح فإنّه أُصيب من سنةٍ كما حكينا من أَمره، ثمَّ ارتفع في أَداني أَرض الموصل، ثمَّ ارتفع نحو أذربيجان يجبي الخراج.

وكان سفيان بن أبي العالية قد أُمر أن يدخل في خيلٍ معه طبرستان، فأمر بالقفول، فصالح صاحب طبرستان، وأقبل في نحو من ألفٍ، وورد عليه كتاب الحجّاج:

ـ «أَمَّا بعدُ، فأَقم بالدسكرة في من معك حتَّى يأتيَك جيش الحارث بن عُميرة من ذي الشّغار، وهو الَّذي قتل صالح بن مسرّح، ثمّ سِرْ إلى شبيب حتَّى تناجزه».

ففعل سفيان ذلك ونزل الدَّسكرة، ونودي في جيش الحارث بن عُميرة بالكوفة والمدائن:

ـ «برئت الذِّمَّةُ من رجلٍ من جيش الحارث بن عميرة لم يوافِ ابن العالية بالدسكرة».

قال: فخرجوا حتَّى أَتَوه، وارتحل سفيان في طلب شبيب، ثمَّ ارتفع عنهم كأنَّه يكره لقاءَهم وقد أكمن لهم مصاداً في خمسين رجلاً في هزمٍ من الأَرض. فلمَّا رأوهُ جمع أصحابه، ثمَّ مضى في سفحٍ من الجبل مشرقاً. فقالوا:

ـ «هرب عدوُّ اللّٰه». واتَّبعوه.

ذكر رأيٍ رآه عديّ بن عُميرة في تلك الحال فلم يُقبَلْ حتَّى هلك الجيش

فقال لهم عديُّ بن عُميرة الشّيباني:

ـ «أَيُّها النَّاس، لا تعجلوا عليهم حتَّى نضرب في الأَرض فنستبرئها، فإن يكونوا كمنوا كمناً حذرناه، وإلاَّ كان طلبهم بأيدينا، لن يفوتنا».

فلم يسمع منه النَّاس، وأَسرعوا في آثارهم. فلمَّا رأى شبيبٌ أَنَّهم قد تجاوزوا الكمين خرجوا إليهم. فحمل شبيبٌ من أَمامهم، وصاح بهم الكمين من ورائهم. فلم يقاتل أَحدٌ وكانت الهزيمةُ وثبت ابن أبي العالية في نحو مائتي رجلٍ، فقاتلهم قتالاً

شديداً حتَّى انتصف من شبيبٍ، فقال سويد بن سليم:

ـ «أمنكم من يعرف أَمير القوم ابنَ أَبي العالية؟».

فقال شبيب:

ـ «أنا من أَعرف النَّاس به. أما ترى صاحبَ الفرس الَّذي دونه المرامية، فإنه هو. فإن كنت تريده فأَمهله قليلاً».

ثمَّ قال:

ـ «يا قعنب، اخرجْ في عشرين، ثمَّ ائتهم من ورائهم».

فخرج قعنبٌ في عشرين، فارتفع عليهم. فلمَّا رأَوه يريد أن يأتيهم من ورائهم جعلوا ينقصون ويتسلَّلون. وحمل سويد بن سُليم على سفيان بن أَبي العالية، فطاعنه، فلم يصنع رُمحاهما شيئاً، ثمَّ اضطربا بسيفيهما، ثمَّ اعتنق كلُّ أَحدٍ منهما، فوقعا إِلى الأَرض يعتركانِ، ثمَّ تحاجزا، وحمل عليهم شبيبٌ، فانكشف من كان معه. ونزل غلامٌ لسفيان، يُقال له غزوان نَزَل عن بِرذَونِه، وقال لسفيان:

ـ «اركبْ يا مولاي».

فركب سفيان وأَحاط به أَصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتَّى قُتل، وكانت معه رَايَتُه. وأَقبل سفيان بن أَبي العالية منهزماً حتَّى انتهى إِلى بابل مهروذ، فنزل بها، وكتب إِلى الحجَّاج، وكان الحجَّاج أَمر سَورة بن أَبجر أَن يلحق بسفيان، فكاتب سَورة سفيانَ وقال: انتظرني. فلم يفعل، وعجَّل نحو الخوارج. فلمَّا عرف الحجَّاج خبر سفيان، وقرأ كتابَه، قال للنَّاس:

ـ «مَن صنع كما صنع هذا وأَبلى كما أَبلى، فقد أَحسنَ».

ثمَّ كتب إِليه يعذرهُ ويقول له:

ـ «إِذا خفَّ عليك الوجع، فأَقبل مأجوراً إِلى أَهلك».

وكتب إِلى سَورة:

ـ «أَمَّا بعدُ، يابن أُمّ سورة، فما كنتَ خليقاً أن تجتزئَ على ترك عهدي وخذلان جندي، فإذا أَتاك كتابي فابعث رجلاً ممَّن معك صليباً إِلى المدائن، فلينتخبْ من الخيل الَّتي بها خمسمائة رجل، ثمَّ لْيقدمَ بهم عليك، ثمَّ سِرْ بهم حتَّى نلقى هذه المارقة، وأَخبرني في أَمرك، وكِدْ عدوَّكَ، فإِنَّ أَفضل أَمرِ الحربِ المكيدة. والسَّلام».

فلمَّا أَتى سَورةَ كتاب الحجَّاج، بعث عديّ بن عميرة إِلى المدائن وكان بها أَلف فارس، فانتخب منهم خمسمائة رجلٍ، ثمّ رحل بهم حتَّى قدم على سَورة ببابل مهروذ.

فخرج في طلب شبيبٍ، وخرج شبيبٌ يجول في جُوخى، وسورة في طلبه. فجاءَ شبيبٌ إِلى المدائن وتحصَّن منه أَهلها وهي أَبنية المدائن الأولى. فدخل المدائن وأَصابَ دوابَّ من دوابِّ الجند، وقتل مَن ظهر له، ولم يدخلوا البيوت، فأُتي فقيل:

ـ «هذا سَورةُ بن أَبجر قد أَقبل إِليك».

فخرج في أَصحابه حتَّى انتهى إِلى النَّهروان، فنزل به، وتوضَّأَ هو وأَصحابُه، ثمَّ أَتوا مصارع إِخوانهم الَّذين قتلهم عليّ بن أبي طالب، رضي اللّه عنه، فاستغفروا لإِخوانهم، وتبرَّأُوا من عليٍّ وأَصحابه، وبكوا فأَطالوا البكاءَ، ثمَّ عبروا جِسر النَّهروان، فنزلوا من جانبه الشَّرقي، وجاء سَورةُ حتَّى نزل بقطراثا، وجاءَته عيونه، فخبَّرته بمنزل شبيبٍ بالنَّهروان.

ذكر سوءِ رأي سَورةَ في الإقدام حتَّى هُزم وفلَّ

فدعا سورة رؤساء أصحابه، فقال لهم:

ـ «إِنَّهم قلَّ ما يلقون مُصحرين أَو على ظهيرةٍ إلاّ انتصفوا، وقد حُدِّثْتُ أَنَّهم لا يزيدون على مائة رجلٍ، وقد رأيتُ أن أنتخبكم وأَسير في ثلاثمائة رجلٍ منكم من أَقويائكم وشجعانكم فأُبيِّتهم، فإِنَّهم آمنون لِبياتِكم. فإِنِّي واللّه أرجو أن يصرعهم اللّه مَصرعَ إِخوانهم بالنَّهروان من قبل» فقالوا:

ـ «اصنع ما أحببتَ».

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعاءِ أَصحابه، ثمَّ أَقبل بهم حتَّى قرب من النَّهروان، وبات وقد أَذكى الحرسَ ثمَّ بيَّتهم. فلمَّا دَنا أَصحاب سَورةَ منهم نذِروا بهم. فاستوَوا على خيولهم، وتعبَّوا بتعبئَتهم. فلمَّا انتهى إِليهم سَورةُ وأَصحابُه أَصابوهم قد حذِروا. فحمل عليهم سَورةُ، ثمَّ صاح شبيبٌ بأَصحابه، فحمل عليهم حتَّى تركوا العرصة، وحمل شبيبٌ وجعل يضرب ويقول:

مَـنْ يَـنَـكِ الـعَـيْـر يَـنَـكْ نـيَّـاكـا جَـنْـدَلَـتـانِ اصـطَـكَّـتـا اصـطـكـاكـا

ورجع سَورةُ إِلى أَصحابه مفلولاً قد هزم فُرسانه وأَهل القُوَّة من أَصحابه. فضحك بهم وأَقبل نحو المدائن، وتبعهم شبيبٌ حتَّى انتهى سَورةُ إِلى بيوت المدائن، ودُفع شبيبٌ إِليهم وقد دخل النَّاس، وخرج ابن أَبي العُصَيفِر، وهو أَميرٌ على المدائن، فرماهم النَّاس بالنَّبل ومن فوق البيوت بالحجارة، ثمَّ سار إِلى تكريت. فبينا ذلك الجند بالمدائن إِذْ أَرجف النَّاسُ بينهم فقالوا:

ـ «هذا شبيبٌ قد أَقبل يُريد أَن يُبيِّتَ أَهلَ المدائن».

فارتحل عامَّة الجند، فلحقوا بالكوفة، وإنَّ شبيباً لَبتكريت، ولمَّا أَتى الحجَّاجَ

خبرُهُ، قال:

- «قبّح اللّه سورةَ، ضيَّع العسكر، وخرج يُبَيِّت الخوارج. واللّه لأَسوءَنَّه».

ثمَّ دعا الحجّاجُ الجَزْلَ وهو عثمان بن سعيد، فقال له:

- «تيسَّرْ للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتَهم، فلا تعجل عجلةَ الخَرِق النَّزِق، ولا تُحجم إِحجامَ الواني الفَرِق. هل فهمتَ؟» قال:

- «نعم، أصلح اللّه الأمير، قد فهمتُ ما قال». قال:

- «فاخرج فعَسكِرْ بدير عبد الرَّحمن حتَّى يخرج إليك النَّاس». فقال:

- «أَصلح اللّه الأَمير، لا تبعثَنَّ معي أحداً من الجند المفلول المهزوم، فإنَّ الرُّعبَ قد دخل قلوبهم، وقد خشيتُ أن لا ينفعَك والمسلمين منهم أَحدٌ». قال:

- «ذلك لك ولا أَراك إلاَّ وقد أحسنتَ الرَّأيَ ووُفِّقتَ».

ثمَّ دعا أَصحابَ الدَّواوين، فقال:

- «اضربوا على النَّاس بالبعث، فأَخرجوا أربعة آلافٍ من النَّاس وعَجِّلوا».

فجُمعتِ العرفاءُ، وأُجلس أصحاب الدَّواوين، وضربوا البعثَ وأَخرجوا أَربعة آلاف. فأمرهم بالعسكر، ثمَّ نودي فيهم بالرَّحيل. ثمَّ ارتحلوا ونادى منادي الحجَّاج أَنْ:

- «برئت الذِّمةُ من رجلٍ أَصبناه من بعث الجَزْل متخلِّفاً».

فمضى الجزل بهم حتَّى أَتى المدائن، فأقام بها ثلاثاً، ثمَّ خرج وبعث إليه ابن أبي عصيفر بفرسٍ وبرذونٍ وأَلفَي درهم، ووُضع للنَّاس من الجزر والعلف ما كفاهم ثلاثة أيَّام، وأَصابَ النَّاس من ذلك ما شاؤوا.

ثمَّ إنَّ الجَزْلَ خرج بالنَّاس في أَثر شبيبٍ، فطلبه في أَرض جوخى، فجعل شبيبٌ يُريه الهيبة، فيخرج من رستاقٍ إلى رستاقٍ، ومن طسُّوجٍ إلى طسُّوجٍ يُريد بذلك أن يفرِّقَ الجزلُ أَصحابَه، ويتعجَّل إليه فيلقاه في عددٍ يسيرٍ على غير تعبئةٍ.

فجعل الجَزْلُ إلاَّ على تعبئةٍ، ولا ينزل إلاَّ خَنْدَقَ على أَصحابه. فلمَّا طال ذلك على شبيبٍ دعا يوماً أَصحابه، وهم مائةٌ وستُّون رجلاً، فجعل على كلِّ أَربعين منهم رجلاً، فهو في أَربعين، ومُصادٌ أَخوهُ في أَربعين، وسويد بن سُليم في أَربعين، والمحلّل بن وائلٍ في أربعين، وقد أَتَتْهُ عيونُه أَنَّ الجَزْلَ بن سعيدٍ قد نزل بئر سعيد، فقال لأخيه وللأُمراءِ الّذين ذكرناهم:

- «إنِّي أُريدُ أَن أُبيِّتَ اللّيلة هذا العسكر، فائتِهم أَنت يا مُصادُ من قبل حلوان،

وسآتيهم أنا من أَمامهم من قِبل الكوفة، وائتِهم أَنت يا مجلّل من قِبل المغرب، ولْيُلحَّ كلُّ امرئ منكم على الجانب الَّذي يحمل عليه، ولا تُقلعوا عنهم حتَّى يأتيكم أمري».

قال فروة بن لقيط: وكنت أَنا في الأَربعين الَّذين كانوا معه، فقال لجماعتنا:

ـ «تيسَّرُوا، ولْيسِرْ كلُّ امرئ منكم أميره، ولينظُرْ ما يأمر به أَميرُه فَلْيَتَّبِعْهُ».

فلمَّا قَضمتْ دوابُّنا، وذلك أَوَّل ما هدأَت العيونُ، خرجنا حتَّى انتهينا إلى دير الخرَّارة، فإذا للقوم مَسلحةٌ عليهم عياضُ بن أبي لينة فما هو إلاَّ أن رَآهم مُصادٌ أَخو شبيبٍ حتَّى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان أَمام شبيب، أَراد أَن يرتفع عليهم حتَّى يأتيهم من ورائهم كما أمره. فلمَّا لقي هؤلاء قاتلهم، فصبروا ساعةً، وقاتلوهم. ثمَّ إنَّا دُفعنا إليهم جميعاً فهزمناهم، وأَخذوا الطَّريق الأَعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يَزْدَجِرد إلاَّ نحو ميلٍ. فقال لنا شبيبٌ:

ـ «اركبوا معاشر المسلمين أكتافَهم حتَّى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم».

فاتَّبعناهم مُلظِّين بهم، مُلحِّين عليهم، ما نُرفِّه عنهم وهم منهزمون، ما لهم همَّةٌ إلاَّ عسكرهم. ومنعهم أَصحابهم أَن يدخلوا عليهم ورشقوهم بالنَّبل، وكانت لهم عيونٌ قد أَتتهم فأَخبرتهم بمكاننا. وكان الجَزْلُ قد خَندقَ عليه وتحرَّز، ووضع هذه المسلحة الَّذين لقيناهم، ووَضع مسلحةً أُخرى ممَّا يلي حُلوان. فلمَّا اجتمعت المسالح، ورشقوهم أَصحابهم بالنَّبل، ومنعونا من خندقهم، نظر شبيبٌ أَنَّه لا يصل إليهم، فقال لأَصحابه:

ـ «سيروا ودعوهم».

فلمَّا سار عنهم أَخذ طريق حلوان حتَّى كان منهم على سبعة أَميال. قال لأَصحابه:

ـ «انزلوا، فأَقضموا دوابّكم وقِيلوا وتروَّحوا، وصلُّوا ركعتين، ثمَّ اركبوا».

ففعلوا. ثمَّ أَقبل بهم راجعاً إلى عسكر أَهل الكوفة، وقال:

ـ «سيروا على تعبئَتكم الَّتي عبَّأْتُكم عليها أَوَّلَ اللَّيل، وأَطيفوا بعسكرهم كما أَمرتكم».

فأَقبلنا معه، وقد أَدخل أَهل العسكر مسالحهم إليهم، وقد أَمنوا، فما شعروا حتَّى سمعوا وقْعَ حوافر خيولنا، فانتهينا إليهم قبل الصُّبح، وأَحطنا بعسكرهم، ثمَّ صِحْنا بهم من كلِّ ناحيةٍ، فإذا هم يقاتلوننا ويرموننا بالنَّبل من كلِّ جانب، فقال شبيب لأَخيه مُصادٍ:

ـ «خلِّ لهم سبيل الكوفة».

وكان يقاتلهم من ذلك الوجه، فلمَّا راسله أخوه شبيبٌ بهذا، أَقبل إليه، وجعلنا

نقاتلهم من الوجوه الثّلاثة، فلم نقدر أن نستفلَّ منهم أَحداً. فسِرْنا، فتركناهم، وخرج الجَزْلُ مع الصّبح يتّبعهم ويطلبهم، وجعل لا يسير إلاَّ على تعبئةٍ، ولا ينزل إلاَّ على خندقٍ، وكان شبيبٌ يدَعه ويضرب في أَرض جوخى وغيرها يكسر الحجّاج، فطال ذلك على الحجّاج.

ذكر عجلةٍ للحجّاج وسوءِ رأيٍ له حتّى أهلك ذلك العسكر

فكتب الحجّاج إلى الجَزْلِ كتاباً قُرئ على النّاس، نسخته:

ـ «أَمّا بعدُ، فإنّي قد بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه النّاس، وأمرتُك باتّباع هذه المارقة وأن لا تُقلع عنها حتّى تقتلها أو تفنيها. فوجدتَ التّعريس في القُرى والتّخييم في الخنادق أَهون عليك من المُضِيِّ لمناهضتهم ومناجزتهم».

فشقَّ ذلك على الجَزْل.

قال: فأَرجفنا بأَميرنا وقلنا: يُعزل. فما لبثنا أن بعث الحجّاج على ذلك الجيش سعيد بن المجالد وعهد إليه أنّه، إذا لقي المارقة، أن يزحف إليهم ولا يناظرهم ولا يطاولهم ولا يصنع صنيع الجزل. وكان الجزل يومئذٍ قد انتهى في طلب شبيبٍ إلى النّهروان وقد لزم عسكرَه وخندق عليه.

وجاء سعيد حتّى دخل عسكر أَهل الكوفة أَميراً. فقام فيهم خطيباً. فحمد اللّه وأَثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «يا أَهلِ الكوفة، إنّكم قد عجزتم ووهنتم وأَغضبتم عليكم أَميرَكم. أَنتم في طلب هذه الأَعاريب العُقف منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم وكسروا خراجكم وأَنتم حذرون في جوف هذه الخنادق ولا تزايلونها إلاّ أن يبلغَكم أَنّهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلداً سِوى بلدكم. اخرجوا على اسم اللّه إليهم».

فخرج وأَخرج النّاس معه، وجمع إليه خيولَ أهل العسكر، فقال له الجَزْل:

ـ «ما تُريد أن تصنع؟» قال:

ـ «أُريد أن أُقدم على شبيبٍ في هذه الخيل». فقال له الجزل:

ـ «أَقم أَنتَ في جماعة النّاس فارسِهم وراجِلهم ودعني أُصحر له، ولا تفرّق أَصحابَك، فإنَّ ذلك شرُّ لهم وخيرٌ لك». فقال له:

ـ «قِفْ أَنتَ في الصّفّ». فقال:

ـ «يا سعيد بن مجالدٍ، ليس في ما صنعتَ رأيٌ، أَنَا بريءٌ من رأيك هذا سمع اللّه ومن حضر من المسلمين». فقال:

ـ «هو رأيٌ إن أصبتُ فاللّه وفّقني، وإن يكن غير صواب فأنتم منه بُرءاءٌ».

قال: فوقف الجزلُ في صفٍّ أَهل الكوفة، وقد أَخرجهم من الخندق. وجعل على ميمنتهم عياض بن أبي لينة الكندي، وعلى ميسرتهم عبد الرَّحمن بن عوف أَبا حميد الرَّاسبي. ووقف الجزل في جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالدٍ، فخرج وأَخرج النّاسَ معه وقد أَخذ شبيب إلى براز الرُّوز، فنزل قطيطا، وأمر دهقانها أن يشتري لهم ما يصلحهم ويتخذ لهم غذاءً.

ففعل. فدخل مدينة قطيطا، وأَمر بالباب فأُغلق، فلم يفرغ من الغداءِ حتَّى أَتاه سعيد بن مجالدٍ في أَهل العسكر. فصعد الدِّهقان ثمَّ نزل قد تغيَّر لونه، فقال:

ـ «ما لك؟» قال:

ـ «قد واللّه جاءك جمعٌ عظيم». فقال:

ـ «بلغ شواؤك؟» قال:

ـ «لا». قال:

ـ «دَعْهُ».

قال: ثمَّ أشرف إشرافةً أُخرى، فقال:

ـ «قد أَحاطوا بالجوسق». قال:

ـ «هات شواءَك».

فجعل يأكل غير مكترثٍ لهم. فقال لمَّا فرغ:

ـ «قوموا إلى الصَّلاة».

وقام وتوضّأ وصلّى بأَصحابه الأُولى، ولبس درعه وتقلّد سيفَه وأَخذ عمودَ حديدٍ، ثمَّ قال:ـ «أَسرجوا لي البغلة». فقال أَخوه مصادٌ:

ـ «أَخي هذا اليوم تُسرج بغلةٌ؟» قال:

ـ «نعم، أَسرجوها».

فركبها، ثمَّ قال:

ـ «يا فلان أَنت على الميمنة، وأَنت يا فلان على الميسرة». وقال لمصادٍ:

ـ «أَنت على القلب».

وأَمر الدِّهقان، ففتح الباب في وجوههم، فخرج إليهم وهو يحكِّم. فجعل سعيدٌ وأَصحابه يرجعون القهقرى حتَّى صار بينهم وبين الدَّير ميلٌ، وجعل سعيد يصيح:

ـ «يا معشر هَمْدان، أَنا ابن ذي مُرّان، إِليَّ إِليَّ».

ونزع سرابانةً كانت عليه. فنظر شبيبٌ إِلى مُصادٍ فقال له:

ـ «استعرضهم استعراضاً، فإِنَّهم قد تقطّعوا. فإِنِّي حاملٌ على أَميرهم، وأثكلنيك اللَّه إِن لم أُثكلْ ولدَه».

ففعل مُصادٌ ما أَمره به وحمل هو على سعيد بن مجالدٍ، فعَلاهُ بالعمود، فسقط ميّتاً وانهزم أصحابه، وما قُتل منهم يومئذٍ إِلاّ قتيلٌ واحدٍ. وانكشف أَصحاب سعيد بن مجالد حتَّى انتهوا إِلى الجَزْلِ، فناداهم الجَزْل:

ـ «أَيّها النَّاس، إِليَّ إِليَّ».

وناداهم عياض بن أبي لينة:

ـ «أيّها النَّاس، إن تكن أميركم هذا القادم هلك، فهذا أميركم الميمون النَّقيبة أَقبِلوا إِليه».

فأَقبَلوا إِليه. فمنهم من أقبلَ إِليه، ومنهم مَن ركب رأسَه منهزماً. وقاتل الجَزْلُ قتالاً شديداً حتَّى صُرع، وقاتل عنه خالد بن نهيك وعياض بن أبي لينة حتَّى استنقذاهُ وهو مرتثٌ. وأَقبل النَّاس منهزمين حتَّى دخلوا الكوفة، وأُتي بالجزل حتَّى دخل المدائن، وكتب إِلى الحجَّاج بن يوسف:

ـ «أمَّا بعدُ، فإِنِّي أُخبر الأَمير، أَصلحه اللَّه، أَنِّي خرجت من الجُند الَّذي وجَّهني فيه إِلى عدوِّه، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأَمير إِليَّ فيهم ورأْيَهُ. فكنتُ أَخرج إِليهم إذا رأيتُ الفرصة، وأَحبس النَّاس عنهم إِذا خشيتُ الورطة، فلم أَزَلْ كذلك وقد أَرادني العدوُّ بكلِّ ريدةٍ، فلم يُصِبْ منِّي غِرَّةً حتَّى قدم عليَّ سعيد بن مجالدٍ رحمه اللَّه، فأَمرتُه بالتُّؤدة، ونهيتُه عن العجلة، وأَمرتُه أَلاَّ يقاتلهم إِلاَّ في جماعة النَّاس عامَّةً فعصاني وتعجَّل إِليهم في الخيل، وكنتُ أَشهدتُ اللَّهَ عليه وأَهلَ المصرين، وإِنِّي بريءٌ من رأيه الَّذي رأى، وإِنِّي لا أهوى ما صنع. فمضى، تجاوز اللَّه عنه، ودُفع النَّاسُ إِليَّ، فنزلتُ ودعَوتهم إِليَّ، ورفعتُ لهم رايتي، وقاتلتُ حتَّى صُرعتُ فحملني أَصحابي من بين القتلى، فما أَفَقتُ إِلاَّ وأَنا في أيديهم على رأس ميلٍ من المعركة، فأَنا اليوم بالمدائن في جراحاتٍ قد يموت الإنسان من دونها، ويعاني من مثلها. فَلْيسأل الأمير، أَصلحه اللَّه، عن نصيحتي له ولجندهِ، وعن مكايدتي عدوَّهُ، وعن موقفي يوم البأس. فإِنَّه يستبين له عند ذلك أَنِّي قد صدقتُه ونصحتُ له. والسَّلام».

فكتب إِليه الحجَّاج:

«أَمَّا بعدُ، فقد أَتاني كتابك وقرأته وفهمت كلَّ ما ذكرته فيه من أَمر سعيدٍ وأَمر

نفسك وقد صدَّقتك في نصيحتك لأَميرك، وحيطتك على أَهل مصرك، وشدَّتك على عدوِّك وقد رضيتُ عجلةَ سعيد وتؤدتَك. فأَمَّا عجلته فإنَّها أَفضت به إلى الجنَّة وأَمَّا تؤدتك فإنَّها ما لـم تَدَعِ الفرصةَ إذا أمكنتْك، وتركُ الفرصة إذا لـم تكن حزمٌ، وقد أَحسنتَ وأَصبتَ وأَجرتَ، وأنت عندي من أَهل السَّمع، والطاعة والنَّصيحة، وقد أَشخصتُ إليك حيَّان بن أَعسَر ليداوِيَك ويعالجَ جراحتك، وبعثتُ إليك بألفي درهمٍ، فأَنفِقْها في حاجتك وما ينوبك. والسَّلام».

وبعث عبد اللّه بن أَبي عصيفر إلى الجَزل بألف درهم، وكان يعوده ويتعاهده باللُّطَفِ والهديَّة. وأَقبل شبيب حتَّى قطع دجلة عند الكرخ، وبعث إلى سوق بغداد، وكان ذلك اليومُ يومَ سوقهم، فآمنهم، وكان بلغه أَنَّهم يخافونه، وهو وأَصحابه يريدون أن يشتروا من السُّوق دوابَّ وثياباً وأشياءَ ليس لهم منها بدٌّ، ثمَّ أَخذ بهم نحو الكوفة، فساروا، وبلغ الحجَّاجَ مكانُه بحمّام أَعين فبعث إلى سُويد بن عبد الرَّحمن السَّعدي، فجهَّزه في أَلفي فارس نقاوة وقال له:

ـ «اخرج إلى شبيب، فالقَهُ واجعل ميمنةً وميسرةً، ثمَّ انزل إليهم في الرِّجال، فإن استطرد لك فدعهُ ولا تتَّبعْهُ».

فخرج، فعسكرَ بالنَّاس بالسَّبخة، وبلغه أَنَّ شبيباً قد أَقبل. فسار نحوَه وكأَنَّما يُساقون إلى الموت. وأمر الحجَّاج عثمانَ بن قَطَن فعَسكرَ بالنَّاس في السَّبخة، ونادى:

ـ «أَلا، بَرئت، الذِّمَّة من رجلٍ من هذا الجند بات اللَّيلة بالكوفة ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَنٍ بالسَّبخة».

فبينا سويد بن عبد الرَّحمن يسير في الأَلَفين الَّذين معه وهو يعبِّئُهم ويحرِّضهم، إذْ قيل له:

ـ «قد غشيك شبيبٌ».

فنزل، ونزل معه جُلُّ أَصحابه، وقدَّم رايتَه، فأُخبر أَنَّ شبيباً لـمَّا أُخبر بمكانك، تركَكَ، ووجد مخاضةً فعبر الفراتَ يُريد الكوفة من غير الوجه الَّذي أنتَ به. ثمَّ قيل لهم:

ـ «أَما تراهم؟».

فنادى في أَصحابه، فركبوا في آثارهم وإنَّ شبيباً أَتى دار الرِّزق، فنزلها، فقيل له:

ـ «إنَّ أَهلَ الكوفة بأجمعهم مُعسكرون».

فلمَّا بلغ مكانُ شبيب، ماجَ بعضهم في بعضٍ، وجالوا وهمُّوا بدخول الكوفة حتَّى قيل لهم: ـ «هذا سويدُ بن عبد الرَّحمن في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتلهم في الخيل».

ومضى شبيبٌ حتَّى أَخذ على شاطئ الفرات، ثمَّ أَخذ على الأَنبار، ثمَّ دخل

وقُوفاً، ثمَّ ارتفع إلى أداني أذربيجان. فتركه الحجَّاج، وخرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة عروة بن شعبة. فما شعر النَّاس بشيءٍ حتَّى جاءَ كتاب ماد رواسب دهقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة أنَّ تاجراً من تُجَّار أَهل بلادي أَتاني يذكر أَنَّ شبيباً يُريد أن يدخل الكوفة في أَوَّل هذا الشَّهر المستقبل، وأحببتُ إعلامَك لترى رأيَكَ ثمَّ لم ألبثْ أن جاءَني جائيانِ من جيراني، فحدَّثاني أنَّه قد نزل خانيارَ.

فأَخذ عُروة كتابه، فأَدرجه وسرَّح به إلى الحجَّاج بالبصرة. فلمَّا قرأه الحجَّاج أَقبل جادًّا إلى الكوفة، وأَقبل شبيبٌ حتَّى انتهى إلى قريةٍ يُقال لها: حزى، على شاطئ دجلة، فعبر منها، وقال لأَصحابه:

ـ «يا هؤلاءِ، إنَّ الحجَّاج ليس بالكوفة وليس دون الكوفة شيءٌ إن شاء اللَّه، فسيروا بنا».

فخرج يبادر الحجَّاج إلى الكوفة.

وكتب عُروة إلى الحجَّاج:

«إنَّ شبيباً أَقبل مُسرعاً يُريد الكوفة، فالعجلَ العجل».

فطوى الحجَّاج المنازل، واستَبَقا إلى الكوفة: فنزلها الحجَّاج صلاةَ العصر، ونزل شبيبٌ السَّبخة صلاةَ المغرب والعشاءِ الآخرة، ثمَّ أصاب هو وأصحابه من الطَّعام شيئاً يسيراً، ثمَّ ركبوا خيولهم. فدخل الكوفة، وجاء شبيبٌ حتَّى انتهى إلى السُّوق. ثمَّ شدَّ حتَّى ضربَ باب القصر بعموده.

قال: فحدَّثني جماعةٌ أَنَّهم رأَوا ضربة شبيب بابَ القصر، ثم أقبل حتى وقف عند المِصطَبَّة وقال:

وكأَنَّ حافِرَها بكلِّ خميلةٍ فَرقٌ يكيلُ به شحيحٌ مُعدِمِ

ثمَّ اقتحم أَصحابُه المسجد، وكان لا يفارقه قوم يصلُّون فيه، فقُتل جماعةٌ. ومرَّ بدار حوشَب وهو على الشُّرط، فوقفوا على بابه وقالوا:

ـ «إنَّ الأَمير يدعو حوشباً».

فأَخرج ميمون غلامه برذون حَوشَبٍ فكأنَّه أَنكرهم وأَراد أَن يدخل إلى صاحبه، فقالوا له:

ـ «كما أَنتَ حتَّى يخرجَ صاحبك».

فسمع حوشبٌ الكلام، فأَنكر القوم، فلمَّا رأَى جماعتَهم أَنكرهم وذهب ليصرف فعجَّلوا نحوه، ودخل وأَغلق البابَ وقتلوا غلامه ميموناً وأَخذوا برذونَه ومضَوا. حتَّى مرُّوا بالجحَّاف بن بسيط الشَّيباني من رهط حَوشَب. فقال له سُويدٌ:

ـ «انزل إلينا». فقال:

ـ «ما تصنع بنزولي؟» قال سويدٌ:

«انزل أَقضِكَ ثمن البكرة التي كنتُ ابتعتُها منك بالبادية».

فقال له الجحَّاف:

ـ «بئس ساعة القضاء هذه السَّاعة، وبئس المكان لقضاءِ الدَّين، أما ذكرت أداءَ أَمانتك إلاَّ واللَّيل مُظلمُ وأنتَ على متن فرسك! قبَّح اللَّه ديناً لا يصلح ولا يتمُ إلاَّ بقتلٍ وسفكٍ لدماءِ أهل القبلة».

ثمَّ مرُّوا بمسجد بني ذُهل، فلقوا ذُهل بن الحارث، وكان يُصلِّي في مسجد قومه فيُطيل الصَّلاة، فصادفوه منصرفاً إلى منزله، فقتلوهُ. ثمَّ خرجوا متوجِّهين نحو الرّدمة، وأَمر الحجَّاج فنُودي:

ـ «يا خيل اللَّه اركبي وأَبشري».

وهو فوق القصر وهناك مصباحٌ مع غلام له قائم. فكان أوَّل من جاءَ من النَّاس عثمان بن قَطَنٍ ومعه مواليه وناسٌ من أهله، فقال:

«أَعلموا الأَمير مكاني، أَنا عثمان بن قطن، ليأمرني بأمره».

فناداه ذلك الغلام:

«قِفْ مكانَك حتَّى يأتيك أَمر الأَمير».

وجاءَ النَّاس من كلِّ جانبٍ، وبات عثمان في مَن اجتمع إليه من النَّاس حتَّى أَصبح.

وكان عبد الملك بن مروان قد بعث محمَّد بن موسى بن طلحة على سجستان، وكتب له عليها عهدَهُ، وكتب إلى الحجَّاج:

«إذا قدِم عليك محمَّد بن موسى بن طلحة فجهِّزْ معه أَلفَي رجلٍ، وعجِّل سراحَه إلى سجستان».

فلمَّا قدم محمَّد بن موسى الكوفة جعل يتحبَّس ويتجهَّز. فقال له نُصحاؤه:

ـ «تعجَّلْ أَيُّها الرَّجل إلى عملك، فإنَّك لا تدري ما يحدث».

فأَقام على حاله وحدثَ من أَمر شبيب ما حدثَ.

حيلة الحجَّاج على محمَّد بن موسى حتَّى حارب الخوارجَ وقُتل

فقيل للحجَّاج:

ـ «إن سار هذا إلى سجستان مع نجدته وصهره لعبد الملك فلجأَ إليه ممَّن تطلب

أَحدٌ منعك منه؟» قال:

- «فما الحيلة؟» قالوا:

تأتيه فتسلِّم عليه وتذكر نجدتَه وبأسَه وأَنَّ شبيباً في طريقه وقد أَعياك ، وأَنَّك ترجو أن يُريح اللَّه منه على يديه، فيكون له ذكر ذلك وشهرتُه».

فكتب إِليه الحجَّاج:

- «إِنَّك عاملٌ على كلِّ بلدٍ مررتَ به، وهذا شبيبٌ في طريقك تجاهدُ ومَن معه ولك ذِكره وصيتُهُ، ثمَّ تمضي إِلى عملك». فاستجاب له.

ثمَّ إِنَّ الحجَّاج بعث بشر بن غالبِ الأَسريّ في أَلفي رجلٍ، وزيادةَ بن قدامة في أَلفين، وأَبا الضُّريس مولى تميم في أَلفٍ من الموالي، وأَعينَ صاحب حمَّام أَعين مولى بشر بن مروان في أَلفٍ، وجماعَةً غيرهم. واجتمع تلك الأُمراءُ في أسفل الفرات، فترك شبيبٌ الوجهَ الَّذي فيه جماعة أُولئك القُوَّاد، وأَخذ نحو القادسيَّة فوجَّه الحجَّاج زَحر بن قيسٍ في جريدة خيلٍ نُقاوة أَلفٍ وثمانمائة فارس، وقال له:

- «اتَّبِعْ شبيباً حتَّى تواقعه حيث ما أَدركتَه ما لم يعطف عليك وينزل فيقيم لك فلا تبرح حتَّى تواقعه».

فخرج زحرٌ حتَّى انتهى إِلى السيلحين، وبلغ شبيباً مسيره إِليه، فأَقبل نحوه فالتقيا، فجعل زحرٌ على ميمنته عبدَ اللَّه بن كناز اليهوديّ، وكان شجاعاً وعلى مسيرته عديَّ ين عميرة الكنديّ، وجمع شبيب خيلَه كلَّها كبكبةً واحدة، ثمَّ اعترض بها الصَّفَّ يُوجف وجيفاً حتَّى انتهى إِلى زحر بن قيس. فنزل زحرٌ فقاتل حتى صُرِع وانهزم أَصحابه. فظنَّ القوم أَنَّهم قتلوهُ. فلمَّا كان في السَّحر وأَصابه البرد قام يمشي حتَّى دخل قريةً فبات فيها وحُمل منها إِلى الكوفة وبوجهه أَربع عشرة ضربةً، فمكث أَيَّاماً ثمَّ أَتى الحجَّاج وعلى وجهه القُطنُ، فأَجلسه معه على السَّرير.

وقال أَصحاب شبيبٍ لشبيبٍ، وهم يظنُّون أَنَّهم قتلوا زَحْراً:

- «وقد هزمنا لهم جُنداً، وقتلنا أَميراً من أُمرائهم عظيماً. انصرفْ بنا الآن وافرين». فقال لهم:

- «إِنَّ قتْلَنا هذا الرَّجلَ وهزيمتنا هذا الجند قد أَرعبت هذه الأُمراءَ، فاقصدوا بنا قصدَهم، فواللَّه لئن نحن قتلناهم، ما دونَ قتلِ الحجَّاج وأَخذِ الكوفة شيءٌ». فقالوا:

- نحن طوع أَمرك، فرأيك».

قال: فانقضّ بهم جواداً حتَّى أَتى نجران الكوفة بناحية عين التَّمر، ثمَّ استخبر عن القوم فعُرِّف اجتماعَهم بِرُوذآباد في أَسفل الفرات على رأس أَربعةٍ وعشرين فرسخاً من

الكوفة، وبلغ الحجّاجَ مسيرُ شبيب إليهم، فبعث إليهم يقول لهم:

ـ «إن جمعكم قِتالٌ، فأميرُكم زايدة بن قدامة».

قال عبد الرحمن: فانتهى إلينا شبيب وفينا سبعة أُمراء، على جماعتهم زايدة بن قدامة، وقد عبّى كلُّ أمير أَصحابَه على حِدةٍ وهو واقفٌ في أَصحابه. فأشرف على النّاس شبيب وهو على فرسٍ له كُميتٍ أغرَّ، فنظر إلى تعبئتهم، ثمَّ رجع إلى أصحابه، فأقبل في ثلاث كتائب يوجفون، حتَّى إذا دنا من الناس مَضتْ كتيبةٌ فيها سُويد بن سليم، فيقف في ميمنتنا، وفيها زياد بن عَمرو العَتَكيّ، ومضتْ كتيبةٌ فيها مُصادٌ أَخو شبيب، فوقفت بإزاءِ مسيرتنا، وفيها بشر بن غالبِ الأَسدي، وجاءَ شبيبٌ في كتيبة حتَّى وقف مقابل القلب.

قال: فخرج زايدة بن قدامة يسير في النّاس بين الميمنة والميسرة يُحرِّض النّاسَ ويقول:

ـ «عبادَ اللّه، إنكم الطيِّبون الكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون. اصبروا، جُعلتُ لكم الفداءَ لكرّتين أَو ثلاثٍ، ثمَّ هو النَّصر، ليس دونه شيءٌ إلاّ ترونَهم. والله ما يكونون مائتي رجلٍ، إنَّما هم أَكلةُ رأسٍ، وهم السُّرَّاق المُرَّاق، إنَّما جاؤوكم ليُهريقوا دماءَكم ويأخذوا فَيئَكم، فلا يكونوا علَى أَخذه أَقوى منكم على منعه، وهم قليلٌ وأنتم كثيرٌ، وهم أقل فُرقةٍ وأَنتم أَهل جماعةٍ، وغُضُّوا الأَبصارَ واستقبلوهم بالأَسنَّة، ولا تحملوا عليهم حتَّى آمُرَكم».

ثمَّ انصرف إلى موقفه.

وحمل سُويد بن سُليم على زياد بن عَمرو، فانكشف صفُّهم، وثبتَ زيادٌ في جماعة، ثمَّ ارتفع عنهم سُويدٌ قليلاً، ثمَّ كرَّ عليهم ثانيةً.

قال فروة بن لقيط: اطَّعنَّا ساعةً وصبروا لَنا حتَّى ظَننتُ أَنَّهم لن يزولوا. وقاتل زياد بن عَمرو قتالاً شديداً. فلقد رأَيتُ سويدَ بن سليم يومئذٍ وإنَّه لأَشدُّ العرب قتالاً وأَشجعهم وما يَعرِض لهم. قال: ثم ارتفعنا عنهم، فاذا هم يتقوَّضون، فقال لنا أَصحابُنا:

ـ «أَلا تراهم يتقوَّضون؟ احملوا عليهم».

فراسلَنا شبيبٌ:

ـ «خَلُّوهم حتَّى يخفُّوا».

فتركوهم قليلاً، ثمَّ حمل عليهم الثَّالثة، فانهزموا. فنظرتُ إلى زياد بن عَمرو وإنَّه لَيُضربُ بالسُّيوف، وما من سيفٍ يُضرب به إلاّ نبا عنه، ولقد اعتوره أكثر من عشرين

سيفاً وهو مجفَّف، فما ضرَّه شيءٌ منها. ثمَّ إنَّه واللَّه انهزم. ثمَّ انتهينا إلى محمَّد بن موسى بن طلحة عند المغرب، فقاتلنا قتالاً شديداً وصبَرنَا. ثمَّ إنَّ مُصاداً حمل على بشر بن غالبٍ في الميسرة، فصبرَ وأَبلى وكرُمَ، ونزل معه رجالٌ من أَهل الصَّبر نحو خمسين، فضاربوا بأَسيافهم حتَّى قُتلوا. فلمَّا قُتلوا انهزم أَصحابه.

قال: وشددنا على أبي الضُّريس فهزمناهُ حتَّى انتهى إلى موقف أَعين. ثمَّ شددنا عليه وعلى أَعين فهزمناهم حتَّى انتهوا إلى زايدة بن قُدامة. فلمَّا انتهوا إليه، نزل ونادىٰ:

ـ «يا أَهل الإِسلام، الأَرضَ الأَرضَ، إِليَّ إِليَّ. لا يكونوا على كُفرهم أَصبرَ منكم على إيمانكم».

فقاتل عامّة اللَّيل إلى السَّحر.

ثمَّ إنَّ شبيباً شدَّ عليه في جماعةٍ من أَصحابه، فقتلَهُ ورِبْضةً حولَه من أَهل الحِفاظ.

وقال شبيب لأَصحابه:

ـ«ارفعوا السَّيف عن النَّاس وادعوهم إلى البيعة».

فدَعَوهم عند الفجر إلى البيعة. قال عبد الرَّحمن بن جُندَب: فكنتُ ممَّن قُدِّم فبايعتُه وهو اقفٌ على فرسٍ وخيلُه واقفةٌ دُونَه. فكلُّ مَن جاء ليبايعه نُزع سيفُه عن عاتقه وأُخذ سِلاحُه، ثمَّ يُدنى من شبيبٍ فيُسلِّم عليه بأمير المؤمنين، ثمَّ يبايع. فإنَّا لكذلك، إذْ أَضاءَ الفجر، ومحمَّد بن موسى بن طلحة في أَقصى العسكر مع أَصحابه قد صبروا. وأَمر مؤذِّنَه فأَذَّن، فلمَّا سمع الأَذان قال:

ـ «ما هذا؟» قالوا:

ـ «هذا محمَّد بن موسى بن طلحة، لم يبرح». قال:

ـ «ظننتُ أَنَّ حُمقه وخُيلاءه سيحمله على هذا. نَحُّوا هؤلاءِ عنَّا، وانزلوا بنا فلْنُصلِّ».

فنزل، وأَذَّن هو، ثمَّ استقدم، فصلَّى بأَصحابه، فقرأ: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، و﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ ﴾ [الماعون: ١]. ثمَّ سلَّم وركبوا.

فأَرسل شبيبٌ إلى محمَّدٍ:

ـ «إنَّك امرؤ مخدوعٌ، قد اتَّقى بك الحجَّاج وأَنتَ جارٌ لي، ولك حقٌّ. فانطلق لِما أُمرتَ به ولك اللَّهُ أَلاَّ أُريبَك».

فأَبى إلاَّ محاربته. فأَعاد إليه الرَّسولَ، فأَبىٰ إلاَّ قتالَه. فقال له شبيبٌ:

ـ «كأنّي بأَصحابك لو التقتْ حلَقَتا البِطانِ، لأَسلموك، فصُرعتَ مَصرَعَ أَصحابك فأَطِعني وانطلقْ لشأنك، فإِنّي أنفَسُ بك عن القتل».

فأَبى ودعا إِلى البراز، فبرز له البُطين، ثمَّ قَعنبٌ، ثمَّ سُويدٌ، فأَبىٰ إلاّ شبيباً. فقالوا لشبيبٍ:

ـ «قد رغب عنّا إِليك». قال:

ـ «فما ظنُّكم؟ هم الأَشراف».

فبرز له شبيبٌ، وقال:

ـ «أنشدُك اللّه في دمك، فإِنَّ لك جواراً».

فأَبىٰ. فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثني عشر رطلاً. فهشَمَ بيضةً عليه ورأسَه، ثمَّ نزل إِليه فكفنه ودفنه. وابتاع ما غنموا له من عسكره، فبعث به إِلى أَهله واعتذر إِلى أَصحابه. قال:

ـ «هو جاري بالكوفة، ولي أن أَهبَ ما غنمتُ لأَهل الرِّدَّة». فقال له أَصحابه:

ـ «ما دون الكوفة أَحدٌ يمنعها».

فنظر، فإِذا أَصحابه قد جُرحوا. فقال لهم:

ـ «ما عليكم أَكثر ممَّا فعلتم».

وخرج بهم إِلى نِفر، ثمَّ خرج بهم إِلى بغداد نحو خانيجار، فأَقام بها. ولمَّا بلغ الحجَّاج أَنَّ شبيباً قد أَخذ نحو نِفَّر، ظنَّ أَنَّه يريد المدائن وهي باب الكوفة، ومَن أَخذ المدائنَ كان ما في يديه من أَرض الكوفة أَكثر. فهال ذلك الحجَّاجَ، وبعث إِلى عثمان ابن قطن، وسرَّحه إِلى المدائن وولاَّهُ مِنبرها والصَّلاة ومعونةَ جُوخىٰ كلّها وخراجَ الإِستان. فخرج مسرعاً حتَّى نزل المدائن، وعزل الحجَّاجُ ابنَ أَبي عُصيفر، وكان بها الجزل مُقيماً يداوي جراحاته، وكان ابن أَبي عُصيفر يعودُه ويُكرمه ويُلطِفُه. فلمَّا قدم عثمان بن قَطَنٍ لم يكن يتعاهدهُ ولا يُلطِفُه بشيءٍ. فكان الجزل يقول:

ـ «أَللّهم زِدْ ابنَ أَبي عُصيفر جوداً، وزِدْ عثمان بن قَطَنٍ ضيقاً وبُخلاً».

ثمَّ إِنَّ الحجَّاج دعا عبدَ الرَّحمان بن محمَّد بن الأَشعث، فقال له:

ـ «انتخب النَّاس».

وأَخرج من قومه ستّمائةٍ من كِندة، ومن سائر النَّاس ستَّة آلافٍ، واستحثَّه الحجَّاج، فعسكر بديرِ عبد الرَّحمان. فلمَّا أَراد الحجَّاج إِشخاصَهم كتب إِليهم كتاباً قرِئَ عليهم:

- «أمَّا بعدُ، فقد اعتدتُمْ عادةَ الأذِلاَّءِ وولَّيتم الدُّبُرَ يومَ الزَّحف دأبَ الكافرين. وإنِّي قد صفحتُ عنكم مرَّةً بعد مرَّةً، وتارةً بعد أخرىٰ. وإنِّي أُقسم لكم باللَّه قسماً صادقاً، لئن عُدتم لذلك لأُوقِعَنَّ بكم إيقاعاً أكون به أشدَّ عليكم من هذا العدوِّ الَّذي تهربون منه في بطون الأَودية والشِّعاب، وتستترون منه بأفناءِ الأَنهار وألواذ الجبال. فخاف مَن كان له معقولٌ على نفسه، ولم يجعل عليها سبيلاً، وقد أعذر من أنذر، والسَّلام».

وارتحل عبد الرَّحمان في النَّاس حتَّى مرَّ بالمدائن، فنزل بها يوماً حتَّى تشرَّىٰ به أَصحابُه حوائجَهم، ثم نادى في النَّاس بالرَّحيل، فارتحلوا. ثمَّ أَقبل حتَّى دخل على عثمان بن قَطَنٍ، ثمَّ أَتى الجزلَ، فسأَلَهُ عن جراحته. وحدَّثه ساعةً. فقال له الجزل:

- «يا بن عمِّ، إنَّك تسير إلى فرسان العرب، وأَبناءِ الحرب، وأَحلاس الخيل واللَّه لكأنَّما خُلقوا من ضلوعها، ثمَّ بُنُوا على ظهورها، ثمَّ هم أُسُدُ الأَجَم الفارس منهم أشدُّ من مائة، إن لم يُبدأ به بَدَأَ، وإن هُجْهجَ أقدمَ. وإنِّي قد قاتلتُهم وبلَوتُهم، فإذا أَصحرتُ لهم انتصفوا منِّي وكان لهم الفضل عليَّ وإذا خندقتُ عليَّ أو قاتلتُهم في مضيقٍ نِلتُ منهم ما أُحبُّ، وكان لي عليهم، فلا تَلقَهم وأَنتَ تستطيع، إلاَّ في تعبئةٍ أو خندقٍ».

ثمَّ ودَّعه. وقال له الجزل:

- «هذه فرسي الفُسيفِساءُ، خُذها فإنَّها لا تُجارىٰ».

- فأَخذها ثمَّ خرج بالنَّاس نحو شبيب، فلمَّا دَنا منه ارتفع عنه شبيبٌ إلى دقوقا وشهرزور. فخرج عبد الرَّحمٰن في طلبه حتَّى إذا كان على التُّخوم، أقام، وقال:

- «إنَّما هو في أَرض الموصل، فليقاتلوا عن بلادهم أو لِيدَعوا».

فكتب إليه الحجَّاج:

- «أمَّا بعدُ، فاطلبْ شبيباً واسلُكْ في أَثره أَين سلَكَ، حتَّى تُدركه فتقتلَه، أو تنفيَه. فإنَّما السُّلطان سُلطانُ أمير المؤمنين، والجُندُ جُندُه. والسَّلام».

فخرج عبد الرَّحمٰن حتَّى قرأ الكتاب في طلب شبيبٍ. فكان شبيبٌ يَدعَهُ حَتَّى إذا دَنا منه يُبيِّتُهُ فيجده قد خندق، وحذِر، فيمضي ويَدَعُه، فيتبعُه عبد الرَّحمٰن. فإذا بلغه أنَّه قد تحمَّل، وأنَّه يسير، أَقبلَ في الخيل. فإذا انتهى إليه، وجده قد صفَّ الخيلَ والرَّجَّالةَ المراميةَ، فلا تُصيب له غِرَّةً ولا غفلةً، فيمضي ويَدَعُه. ولمَّا رأى شبيبٌ أنَّه لا يُصيبُ غِرَّتَه، ولا يصل إليه، جعل يخرج، كلَّما دَنا منه عبد الرَّحمان حتَّى يَنزل على مسيرة عشرين فرسخاً منه، ثمَّ يُقيم في أرضٍ غليظةٍ خشنةٍ، فيجيءُ عبد الرَّحمان في خيله وثَقَله، حتَّى إذا دَنا من شبيبٍ ارتحل عنه شبيب، فسار خمسة عشر فرسخاً أَو عشرين

فرسخاً، فنزل منزلاً غليظاً خشناً. ثم يقيم حتَّى يدنو عبد الرَّحمان . فكان شبيبٌ قد عذَّب ذلك العسكرَ، وشقَّ عليهم، . وأَحفىٰ دوابَّهم، ولقُوا منه كلَّ بلاءٍ. فلم يزل عبد الرَّحمن يتبعه حتَّى مرَّ به على خانقين، ثمَّ جَلُولاء، ثمَّ تامرّا، ثمَّ أَقبل إِلى البَتِّ ونزل بها، وعلى تخوم الموصل، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاَّ نهر حَوْلايا. وجاء عبد الرَّحمن حتَّى نزل شرقيَّ حَوْلايا وهو في راذان الأَعلى من أَرض جُوخىٰ، ونزل في عواقير من النَّهر، ونزلها عبد الرَّحمن حيث نزلها وهي تُعجبه، يرى أَنَّها مثل الخندق والحصن، وأَرسل إِلى عبد الرَّحمن:

ـ «هذه الأَيَّامُ أَيَّامُ عيدٍ لَنا ولكم، فإِن رأَيتم أَن توادعونا حتَّى تمضي هذه الأَيَّامُ فعلتم».

فأَجابه عبد الرَّحمن إِلى ذلك ولم يكن شيءٌ أَحبَّ إِلى عبد الرَّحمن من المطاولة والموادعة.

فكتب عثمان بن قَطَنٍ إِلى الحجَّاج:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإِنّي أُخبر الأَمير، أَصلحه اللَّه، أَنَّ عبدَ الرَّحمن بن محمَّد بن الأَشعث قد حفر جوخىٰ كلَّها خندقاً واحداً، وخلَّى شبيباً، وكسر خراجَها، فهو يأْكُلُ أَهلَها. والسَّلام».

وكتب إِليه الحجَّاج:

ـ «قد فهمتُ ما ذكرتَ، وقد ـ لَعَمري ـ فعل عبد الرَّحمن غير مَرضيٍّ، فسِرْ إِلى النَّاس، فأَنت أَميرُهم، وعاجلِ المارقة حتَّى تلقاهم».

وبعث الحجَّاج إِلى المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتَّى قدم على عبد الرَّحمن ومَن معه وهم معسكرون على نهر حَوْلايا قريباً من البَتِّ وذلك يوم التَّروية عشاءاً. فنادى النَّاسَ وهو على بغله:

ـ «أَيُّها النَّاس، اخرجوا إِلى عدوِّكم».

فوثب إِليه النَّاس فقالوا:

ـ «انشدك اللَّه، هذا المساءُ قد غشينا، والنَّاس لم يوطِّنوا أَنفسهم على القتال. فَبتِ اللّيلةَ، ثمَّ اخرج على تعبئةٍ».

فجعل يقول:

ـ «لأُناجزنَّهم، فليكونَنَّ الفرصة لي أَو لهم».

فأَتاهُ عبد الرَّحمن، فأَخذ بعنان بغلته وناشده اللَّه لمّا نزل، وقال له عقيل بن شدَّاد السَّلولي:

ـ «إنَّ الَّذي تريد من مناجزتهم السَّاعةَ، أَنت فاعله غداً وهو خيرٌ لك وللنَّاس. إنَّ هذه ساعة ريحٍ وغَبرةٍ وقد أَمسيتَ، فانزِلْ، ثمَّ ابكرْ بنا غدوةً».

فنزل، فسفت عليه الرِّيح، وشقَّ عليه الغبار، ودعا صاحب الخراج العُلوجَ، فبنَوا له قُبَّةً وبات فيه. ثمَّ أَصبح وخرج بالنَّاس، فاستقبلهم ريحٌ شديدة وغبرة. فصاح النَّاس إِليهم وقالوا:

ـ «ننشدك اللَّه أَن تخرج بنا في هذا اليوم، فإِنَّ الرِّيح علينا».

فأَقام ذلك اليوم، وكان شبيب يخرج إِليهم. فلمَّا رآهم لم يخرجوا إِليه أَقام. فلمَّا كان من الغد خرج عثمان يعبِّئُ النَّاس على أَرباعهم، وسأَلَهم:

ـ «مَن كان على ميمنتكم وميسرتكم؟» قالوا:

ـ «كان خالد بن نَهيك بن قيس الكندي على ميسرتنا، وعقيل بن شدَّاد السَّلولي كان على ميمنتنا». فقال لهما:

ـ «قِفا مواقفكما الَّتي كنتما بها، فقد ولَّيتُكما المجنَّبتين، فاثبتا ولا تفِرَّا، فواللَّه لا أَزول حتَّى تزول نخيلُ راذان عن أُصولها». فقالا:

ـ «فنحن واللَّه الَّذي لا إِله إِلاَّ هو، لا نفرُّ حتَّى نظفرَ أَو نُقتلَ». فقال لهما:

ـ «جزاكما اللَّه خيراً».

ثمَّ أَقام حتَّى صلَّى بالنَّاس الغداة، ثمَّ خرج بالخيل، ونزل يمشي في الرِّجال.

وخرج شبيبٌ وهو يومئذٍ في مائةٍ وأَحدٍ وثمانين رجلاً. فقطع إِليهم النَّهر، وكان هو في ميمنة أَصحابه، وجعل على ميسرته سُويد بن سُليم، وجعل في القلب مُضاداً أَخاه، وزحفوا. وكان عثمان بن قَطَنٍ يقول فيُكثر:

ـ ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٦].

ثمَّ قال شبيبٌ لأَصحابه:

ـ «إِنيِّ حاملٌ على ميسرتهم ممَّا يلي النَّهر، فإِذا هزمتُها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم، ولا يبرح صاحب القلب حتَّى يأتيه أَمرى».

وحمل في ميمنة أَصحابه ممَّا يلي النَّهر على ميسرة عثمان بن قَطَن، فانهزموا، ونزل عقيل بن شدَّاد مع طائفةٍ من أَهل الحِفاظ، فقاتل حتَّى قُتل، وقُتلوا معه. ودخل شبيبٌ عسكرهم، وحمل سُويد بن سُليم في ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطن، فهزمها وعليها خالد بن نهيك الكندي. فنزل خالدٌ فقاتل قتالاً شديداً، وحمل عليه

شبيب من ورائه، فلم يَنْثَنِ حتَّى علاه بالسَّيف فقتله. ومشى عثمان بن قَطَنٍ، وقد نزلت معه العرفاء وأشراف النَّاس والفرسان نحو القلب، وفيه أخو شبيبٍ في نحو من ستِّين رجلاً. فلمَّا دَنا منهم عثمان بن قَطَنٍ شدَّ عليهم في الأشراف وأهلِ الصبّر، فضربوهم حتَّى فرَّقوا بينهم. وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل، فما شعروا إلاَّ والرِّماح في أكتافهم يُكبُّهم لوجوههم. وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله، ورجع مُصادٌ وأصحابه، وقاتل عثمان بن قطن، فأحسن القتال. ثمَّ إنَّهم شدُّوا عليه، فأحاطوا به، وحمل عليه مُصادٌ أخو شبيب، فضربه ضربةً بالسَّيف استدار لها، وقال:

ـ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ثمَّ إنَّهم قتلوهُ، وقُتل معه العُرفاءُ ووجوه النَّاس، فقُتل من كندة يومئذٍ مائةٌ وعشرون رجلاً، وقُتلِ من سائر النَّاس نحوَ من ألف، ووقع عبد الرَّحمن بن محمدً بن الأشعث، فعرفه ابن أبي سبرة، فنزل وناوَله الرُّمح وقال له: اركبْ، فركب وارتدف ابن أبي سبرة وقال له عبد الرَّحمن:

ـ «نادِ في النَّاس: الحقوا بدير ابن أبي مريم».

فنادى. ثمَّ انطلقا ذاهبين، وأمر شبيبٌ أصحابه، فرفعوا عن النَّاس السَّيف ودعاهم إلى البيعة، فأتاهُ من بقي من الرِّجال، فبايعوه. وبات عبد الرَّحمن بدير النَّعار، فأتاهُ فارسان. فخلا أحدهما بعبد الرَّحمن طويلاً يناجيه، وقام الآخر قريباً منهما، ثم مضى مع صاحبه، فكان النَّاس يتحدَّثون أنَّ ذاك كان شبيباً وأنَّه كان كاتبه. ثمَّ خرج عبد الرَّحمن آخر اللَّيل، فسار حتَّى أتى دير ابن أبي مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضع لهم ابن أبي سَبْرةَ صُبَرَ الشَّعيرِ والقَتُّ كأنَّها القُصُور ونَحَرَ لهم من الجزر ما شاؤوا، واجتمع النَّاس إلى عبد الرَّحمن فقالوا له:

ـ «إن علم شبيبٌ بمكانك أتاك وكنتَ له غنيمةً، قد تَفرَّق عنك النَّاسُ وقُتل خيارهم، فالحقْ أيُّها الرَّجل بالكوفة».

فخرج،وخرج معه النَّاس، وجاءَ حتَّى اختبأ من الحجَّاج، إلى أن أُخذ له الأمان بعد ذلك.

ثمَّ إنَّ شبيباً اشتدَّ عليه الحرُ وعلى أصحابه، فأتى ماه بهراذان، فتصيَّف بها ثلاثة أشهر. وأتاه ناس ممَّن كان يطلب الدُّنيا كثير، ولحق به ناس ممَّن كان يطلبهم الحجَّاج بمالٍ وتباعاتٍ. فمنهم رجلٌ يقال له: الحرّ بن عبد اللَّه بن عوفٍ، كان قَتلَ دهقانين من أهل دَرقيط كانا ضيفين عليه، ولحق بشبيب حتَّى شهد معه مواطنه، حتَّى قتل شبيبٌ، وله مقامٌ عند الحجَّاج وكلامٌ سَلِمَ به من القتل يجب أن نُثبتَهُ. وهو أنَّ الحجَّاج، لمَّا آمَنَ بعدَ قتل شبيبٍ كلَّ من خرج إليه من أصحاب المال، خرج إليه الحُرُ في من خرج.

فجاءَ أَهل الدِّهقانين يستَعدُون عليه الحجَّاج. فأُتي به.

كلامٌ للحُرِّ، لمَّا أُتِيَ به ليُقتلَ، سَلِمَ به

فقال له الحجَّاج:

ـ «يا عدوَّ اللَّه قتلتَ رجلين من أَهل الخراج؟» فقال له:

ـ «قد كان ـ أصلحك اللَّه ـ منّي ما هو أَعظم من هذا». قال:

ـ «وما هو؟» قال:

ـ «خروجي من الطَّاعة وفِراقي الجماعة. ثمَّ إِنَّك آمنتَ كلَّ مَن خرج إِليك وهذا أَماني وكتابك لي».

فقال له الحجَّاج:

ـ «قد لعَمري فعلتُ أَولىٰ لك».

وخلَّى سبيلَه.

رجَعنا إِلى حديث شبيبٍ. ثمَّ إِنَّه لمَّا انفسخ الحرُّ عن شبيب خرج من ماهٍ في نحو من ثمانمائة رجلٍ. فأَقبل نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة. فجاءَ حتَّى نزل قناطر حُذيفةَ بن اليمان. فكتب ماذرواسب، وهو عظيم بابل مهروذ، إِلى الحجَّاج يُخبره خبر شبيب. فقام الحجَّاج في النَّاس، فحمداً للَّه وأَثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَيُّها النَّاس، لَتُقاتلنَّ عن بلادكم وعن فيئكم أَو لأَبعثنَّ إِلى قوم هم أَطوعُ وأَسمع وأَصبر على البلاءِ منكم، فيقاتلون عدوَّكم ويأكلون فيئكم».

فقام إِليه النَّاس من كلِّ جانبٍ يقولون:

ـ «نحن نقاتلهم ونُعتبُ الأَميرَ، فليندبنا إِليهم، فإِنَّا حيثُ سرَّهُ».

وقام إِليه زَهرةُ بن حُويَّة. وهو يومئذٍ شيخٌ كبيرٌ، لا يستتمُّ قائماً حتَّى يُؤخذَ بيده، فقال:

ـ «أَصلحَ اللَّه الأَميرَ. إِنَّك إِنَّما تبعث النَّاس متقطِّعين، فاستنفر النَّاس إِليهم كافَّةً، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً، محرباً مجرَّباً ممَّن يرى الفرارَ هضماً وعاراً، والصَّبرَ مجداً وكرماً».

فقال له الحجَّاج:

ـ «فأَنت ذاك. فاخرجْ!» فقال له:

ـ «أَصلح اللَّه الأَمير. إِنَّما يُصلح النَّاسَ في هذا رجلٌ يحمل الرُّمح والدِّرعَ، ويهزُّ السَّيفَ ويثبت على متن الفرس، وأَنا لا أُطيق من هذا شيئاً. قد ضَعُفتُ وضعف

بصري، ولكن أَجري في النَّاس مع أَميرٍ، فإِنِّي إِنَّما أثبتُ على الرِّحالة، فأَكون مع الأَمير في عسكره وأُشير عليه برأيٍ».

فقال له الحجَّاج:

ـ «جزاك اللّه عن الإِسلام والطَّاعة في أَوَّل الإِسلام وآخره خيراً. فقد نصحتَ وصدَقتَ. أنا مُخرج النَّاس كافَّةً، أَلا، فسيروا أَيُّها النَّاس».

فانصرف النَّاس وجعلوا يتيسَّرون، ولا يدرون مَن أَميرهم.

ذكر رأيٍ سديدٍ للحجّاج

وكتب الحجَّاج إِلى عبد الملك بن مروان:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإِنِّي أُخبر أَميرَ المؤمنين، أكرمه اللّه، أَنَّ شبيباً قد شارف المدائن، وإِنَّما يريد الكوفة، وقد عجز أَهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلِّها تُقتل أُمراؤهم وتُفلُّ جنودهم. فإِن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إِليَّ أَهلَ الشَّام فيقاتلوا عدوَّهم ويأكُلُوا بِلادَهم، فليفعلْ».

فلمّا أَتى عبدَ الملك كتابُه، بعث إِليه سفيان بن الأبرد في أَربعة آلافٍ، وبعث إِليه حبيب بن عبد الرَّحمن بن مذحج في أَلفين، فسرَّحهم حين أَتاه كتاب الحجَّاج، وكان بعث الحجَّاج إِلى عتَّاب بن ورقاء ليأتيه، وكان على خيل الكوفة مع المهلَّب وهم الجيش الَّذي كان بشر بن مروان بعث عليهم عبد الرَّحمن بن مخنف إِلى قَطري، وقد أَخبرنا في ما مضى بمقتل عبد الرَّحمن بن مخنف. فبعث الحجَّاج عتَّابَ بن ورقاء على ذلك الجيش الَّذي أُصيب فيهم عبد الرَّحمن، وكان جرى لعتَّاب مع المهلَّب كلامٌ تأدَّى إِلى وحشةٍ.

فلمَّا أَن جاءَ في هذا الوقت كتاب الحجَّاج إِلى عتَّاب بن ورقاء بأَن يأتيه، سُرَّ بذلك، ودعا الحجَّاج أَشراف الكوفة، فيهم، زهرة بن حُويَّة، وقبيصة بن والقٍ، فقال:

ـ «مَن تَرونَ أَن أَبعث على هذا الجيش؟ فقالوا:»

ـ «رأيك أَيُّها الأَمير أَفضل».

ـ «فإِنِّي قد بعثتُ إِلى عتَّاب بن ورقاء، وهو قادمٌ عليكم اللَّيلة، فيكون هو الَّذي يسير في النَّاس».

قال زَهرة بن حُويَّة:

ـ «أصلح اللّه الأمير، رميتَهم بحجرهم، لا واللّه، ما يرجع إِليك حتَّى يظفرَ أَو يُقتلَ».

ذكر رأيٍ جيّدٍ رآه قبيصة بن والقٍ

فقال قبيصة بن والق:

- «إنِّي أُشير عليك برأيٍ اجتهدتُه نصيحةً لأَمير المؤمنين، وللأمير ولعامَّة المسلمين. إنَّا قد تحدَّثنا وتحدَّث النَّاس. إنَّ جيشاً فَصَل إليك من أَهل الشَّام، وإنَّ أَهل الكوفة قد هزموا، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة، فقلوبهم كأنَّما هي في قوم آخرين. فإن رأيتَ أَن تبعث إلى جيشك الَّذي أُمدِدتَ به من أهل الشَّام فيأخذوا حِذرهم، ولا يلبثوا إلاَّ وهم يرون أَنَّهم ميّتون، فعلتَ. فإنَّك تُحارب حُوَّلاً قُلَّباً، طعَّاناً رحَّالاً، وقد جهَّزتَ إليه أَهل الكوفة، ولستَ واثقاً بهم كلَّ الثِّقة وإنَّما إخوانهم هؤلاء القوم الَّذين بُعثوا إليك من الشَّام. إنَّ شبيباً، بينا هو في أرضٍ، إذْ هو في أرضٍ أخرى، ولا آمَنُ أن يأتيهم وهم غارُّون. وإن يهلكوا نهلك وتهلك العراق».

فقال:

- «للَّهِ أنتَ! ما أَحسن ما رأيتَ لي، وما أحسن ما أَشرتَ به عليَّ».

فبعث إلى مَن أَقبل إليه من الشَّام، فأتاهم كتاب الحجَّاج وقد نزلوا هيتَ، فقرأُوه، فإذا فيه:

- «أَمَّا بعدُ، فإذا حاذيتم هيت فدعوا طريق الفرات والأَنبار وخذوا على عين التَّمر حتَّى تقدمَوا الكوفة إن شاء اللَّه».

فأَقبل القوم سِراعاً، وقدِم عتَّاب بن ورقاء في اللّيلة الّتي قال الحجَّاج إنَّه قادم. فأمره الحجَّاج، فخرج بالنَّاس وعسكر بحمَّام أعين، وأَقبل شبيبٌ حتَّى انتهى إلى كَلواذى، فقطع منها دجلةَ. ثمَّ أَقبل حتَّى نزل مدينة بَهُرَسير، وصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة، فقطع مطرّفٌ الجسر، وبعث إلى شبيب أن ابعث رجالاً من وجوه أصحابك.

مكيدةُ للمطرّف بن المغيرة كاد بها شبيباً حتَّى حبسه عن وجهه

وأظهر مطرّف أنّه يريد أَن يدارسهم القرآن وينظر في ما يدعو إليه، فإن وجده حقًّا تبعه. فبعث إليه شبيبٌ رجالاً فيهم قَعنب وسويد والمحلّل، ووصَّاهم شبيبٌ أَلاَّ يدخلوا السَّفينة حتَّى يرجع رسوله من عند مطرّف، وبعث إلى مطرّف أَن:

- «ابعث إليَّ من أصحابك بعدَّة أصحابي يكونوا رُهُناً في يدي حتَّى ترد على أَصحابي» فقال مطرّف لرسوله:

- «القَهُ وقُلْ له: كيف آمنك على أَصحابي إذا بعثت بهم الآن وأنتَ لا تأمنني على

أصحابك». فأبلغه الرّسول، فقال شبيبٌ:

ـ «إنّك قد علمتَ أنّا لا نستحلُّ الغدرَ في ديننا، وأنتم تستحلُّونه وتفعلونه».

فبعث إليه مطرّفٌ جماعةً من وجوه أصحابه. فلمّا صاروا في يد شبيب، سرَّح إليه أصحابه. فأتَوا مطرّفاً، فمكثوا أربعة أيّام يتناظرون، ثمّ لم يتّفقوا على شيءٍ. فلمّا تبيَّن لشبيبٍ أن مطرّفاً غيرُ تابعِه، تعبّى للمسير، وجمع أصحابه وقال لهم:

ـ «إنَّ هذا الثّقفيَّ قطعني عن رأيي منذ أربعة أيّام. وذاك أنّي هممتُ أن أخرج في جريدةٍ من الخيل حتّى ألقى هذا الجيش المقبل من الشّام، رجاءَ أن أُصادف غِرَّتَهم قبل أن يحذروا، وكنتُ ألقاهم متقطّعين عن المصر ليس عليهم أميرٌ كالحجّاج يستندون إليه، ولا مصر كالكوفة يعتصمون به، وقد جاءتني عُيونٌ أنَّ أوائلهم قد دخلوا عين التّمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة. وجاءتني أيضاً عيوني من نحو عتّاب أنّه قد نزل بجماعة أهل الكوفة والبصرة. فما أَقربَ ما بيننا وبينهم. فتيسّروا بنا للمسير إلى عتّاب بن ورقاء».

وكان عتّابٌ يومئذٍ قد أخرج معه جماعةَ أهل الكوفة مقاتلتهم وشُبّانَهم، فوافى معه أربعون ألفاً من المقاتلة، وعشرة آلافٍ من الشّباب. فكانوا خمسين ألفاً. وهدّدهم الحجّاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة، وتوعّدهم.

وعرض شبيبٌ أصحابه في المدائن، فكانوا ألف رجل، فخطبهم، وحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «يا معشر المسلمين، إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد كان ينصركم وأنتم مائةٌ ومائتان، وأنتم اليوم مئون ومئون. ألا، إنّي مُصلٍّ الظُّهرَ ثمّ سائرٌ بكم إن شاء اللّه».

فصلّى، ثمّ نودي في النّاس، فأخذوا يتخلّفون ويتأخرون.

قال فروة بن لُقيط: فلمّا جاز بنا ساباط، ونزلنا معه قصَّ علينا، وذكّرنا بأيّام اللّه وزهّدنا في الدُّنيا، ورغّبنا في الآخرة. ثمّ أذّن مؤذّنه، فصلّى بنا العصر، ثمّ أقبل حتّى أشرف بنا على عتّاب بن ورقاء. فلمّا رآهم نزل من ساعته، وأمر مؤذّنه فأذّن، ثمّ تقدّم، فصلّى بهم المغرب، وخرج عتّاب بالنّاس كلّهم، فعبّأهم، وكان قد خندق أوّل أيّام نزل. وكان يُظهر أنّه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن. فلمّا صفَّ عتّابٌ النّاسَ بعثَ على مِيمنته محمّد بن عبد الرّحمن بن سعيد بن قيس، وقال له:

ـ «يا ابن أخي، إنّك شريفٌ، فاصبِرْ وصابِرْ». فقال له:

ـ «أمّا أنا فواللّه لأُقاتلنَّ ما ثبتَ معي إنسانٌ».

وقال لقبيصة بن والقٍ:

ـ «اكفِني الميسرة». فقال:

ـ «أَنا شيخٌ كبيرٌ. غايتي أَن أَثبت تحت رايتي».

وكان يومئذٍ على ثُلث بني تغلب.

ـ «أَما تراني لا أَستطيع القيام، إِلاَّ أَن أُقامَ؟ وأَخي نُعيم بن عُليم وهو ذو جَزْءٍ وغَناءٍ».

فبعثه على ميسرته، وبعث حنظلة بن الحارث، ابنَ عمِّ عتَّابٍ وشيخ أَهل بيته على الرَّجَّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف فيه الرَّجَّالة معهم السُّيوف، وصفٌّ هم أَصحاب الرِّماح، وصفٌّ فيه المرامية. ثمَّ سار بين الميمنة والميسرة، ويمرُّ بأَهل رايةٍ رايةٍ، فيحثُّهم على الصَّبر ويقصُّ عليهم. وقال في ما حُفظ من كلامه:

ـ «إِنَّ أَعظمَ النَّاس نصيباً في الجنَّة الشُّهداءُ، وليس اللَّه لأَحدٍ من خلقه بأَحمدَ منه للصَّابرين. أَلا ترون أَنَّه يقول: اصبروا، إِنَّ اللَّه مع الصَّابرين»؟ وليس اللَّه لأَحدٍ أَمقتَ منه لأَهل البغي. أَلا ترون أَنَّ عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرون ذلك إِلاَّ قربةً لهم عند اللَّه، فهم شرار أَهل الأَرض وكلاب أَهل النَّار. أَين القُصَّاصُ؟

قال ذلك مراراً، فلم يُجبْه أَحدٌ منَّا. فلمَّا رأَى ذلك، قال:

ـ «أَينَ من يروي شعر عنترة؟»

قال: فلا واللَّه ما ردَّ عليه أَحدٌ كلمة. فقال:

ـ «إِنَّا لِلَّه، كأَنِّي بكم قد فررتم عن عتَّاب، وتركتموهُ تُسفى في إِسته الرِّيحُ».

ثمَّ أَقبلَ حتَّى جلس في القلب معه زهرة بن حُويَّة جالسٌ وعبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأَشعث. وأَقبل شبيبٌ وهو في ستمائةٍ وقد تخلَّف عنه من النَّاس أَربعمائةٍ، فقال:

ـ «ما تخلَّف عنِّي إِلاَّ مَن لا أُحبُّ أَن أَراهُ فينا».

فبعث سُويد بن سُليم في مائتين إِلى الميسرة، وبعث المجلّل بن وائل في مائتين إِلى القلب. ومضى هو في مائتين إِلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاءِ الآخرة حين أَضاءَ القمر فناداهم:

ـ «لمن هذه الرَّايات؟» قالوا:

ـ «رايات ربيعة».

فقال شبيبٌ:

ـ «راياتٌ طال ما نصرتِ الحقَّ، وطال ما نصرتِ الباطلَ، لها في كلٍّ نصيبٌ. أَنَا أَبو المدلَّهِ، اثبتوا إِن شئتم».

ثمَّ حمل عليهم وهم على مسنَّاة أَمام الخندق، ففضَّهم، وثبت أَصحاب رايات قبيصة بن والق. فجاءَ شبيب حتَّى وقف عليه، وقال لأَصحابه:

ـ «مثل هذا ما قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥]».

ثمَّ حمل على الميسرة وفيها عتَّاب بن ورقاء، وحمل سُويد بن سُليم على الميمنة، وعليها محمَّد بن عبد الرَّحمن، فقاتل في الميمنة في رجال تميم وهمدان، فأَحسن القتالَ. فما زالوا كذلك حتَّى أَتَوا، فقيل لهم:

ـ «قُتل عتَّاب بن ورقاءِ».

قال: فانفضُّوا، ولم يزل عتَّابٌ جالساً على طَنْفَسَةٍ في القلب هو وزهرة بن حويَّة، إذ غشيهم شبيبٌ، فانفضَّ عنه النَّاس وتركوه. فقال عتَّابٌ:

ـ «يا زهرة، هذا يومٌ كثر فيه العدَد وقلَّ فيه الغَناءُ. لَهفي على خمسمائة فارسٍ معي من وجوه النَّاس من نحو رجال تميم. أَلا صابرٌ لِعدوِّه! أَلا مواسٍ بنفسه؟»

فمضى النَّاس على وجوههم. فلمَّا دنا منه شبيبٌ وثب في عصابةٍ قليلةٍ صبرتْ معه، فقال له بعضهم:

ـ «أَصلحك اللَّه، إنَّ عبد الرَّحمن بن محمَّد قد هرب عنك وانصفق معه ناسٌ كثيرٌ» فقال:

ـ «قد فرَّ قبلَ اليوم، وما رأَيتُ ذلك الفتى يُبالي ما صنع».

ثمَّ قاتلهم ساعةً وهو يقول:

ـ «ما رأيتُ كاليوم قطُّ موطناً لم أُبْلَ بمثله أَقلَّ ناصراً ولا أَكثر هارباً خاذلاً».

فرآهُ رجلٌ من بني تغلب من أَصحاب شبيب، وكان أَصاب دماً في قومه، ولحق بشبيبٍ، فقال لشبيبٍ:

ـ «واللَّه، إنِّي لأَقتلنَّ هذا المتكلِّم عتَّابَ بن ورقاء».

فحمل عليه وطعنه، فوقع ووطئت الخيلُ زهرةَ بن حُويَّة. فأَخذ يذبُّ بسيفه وهو شيخٌ كبير لا يستطيع أن ينهض. فجاءَه الفضل بن عامرٍ الشَّيباني، فقتله، وانتهى إليه شبيبٌ، فوجده صريعاً، فعرفه وقال:

ـ «مَن قَتلَ هذا؟» فقال الفضل:

ـ «أَنا قتلتُه» فقال شبيبٌ:

ـ «هذا زُهرة بن حُويَّة. أَما واللَّه، لئن كنتَ قتلتَ على ضلالةٍ لَرُبَّ يومٍ من أَيَّام

المسلمين قد حَسُنَ فيه بلاؤك، وعظم فيه غناؤك، ولرُبَّ خيلٍ للمشركين هزمتَها وسريَّةٍ له ذعرتَها، ومدينةٍ لهم فتحتها، ثمَّ كان في علم اللَّه أن تُقتلَ ناصراً للظَّالمين».

وقُتل وُجوهُ العرب في المعركة، واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر، فقال:

ـ «ارفعوا عنهم السَّيف!»

ودعا إلى البيعة. فبايعه النَّاسُ من ساعتهم، وأَخذ شبيبٌ يبايعهم ويقول:

ـ «إلى ساعة يهربون».

فلمَّا كان في اللَّيل هربوا، واحتوى شبيبٌ على ما في العسكر وبعث إلى أَخيه وهو بالمدائن، فأَتاه وأَقام شبيب ببيت قُرَّة يومين وقد دخل سفيان بن الأبرد وحبيب بن عبد الرَّحمن من مذحج في من معها، فشدُّوا ظَهر الحجَّاج، واستغنى بهم عن أَهل الكوفة. فصعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَمَّا بعدُ، يا أَهل الكوفة، فلا أَعزَّ اللَّه من أَراد بكم العِزَّ، ولا نَصَرَ من أَراد منكم النَّصرَ، اخرجوا عنَّا، فلا تشهدوا معنا قتالَ عدوِّنا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنَّصارى، ولا يقاتلن معنا إلاَّ مَن كان عاملاً لَنا ومَن لم يشهد قتالَ عتَّاب بن ورقاء».

ثمَّ إنَّ شبيباً خرج يريد الكوفة، فانتهى إلى سورا، فقال لأَصحابه:

ـ «أَيُّكم يأتيني برأس عامل سورا؟».

فانتدب إليه بَطين وقَعنب وسويد ورجلان من أَصحابه، وساروا مُغذِّين، حتَّى انتهوا إلى دار الخوارج والعُمّال في سَمَّرجَه، وكادوا النَّاسَ بأَن قالوا:

ـ «أَجيبوا الأميرَ!» فقال النَّاس:

ـ «أَيَّ الأُمراءِ» فقالوا:

ـ «أَميرٌ قد خرج من قبل الحجَّاج يريد هذا الفاسق شبيباً».

فاغترَّ بذلك العامل منهم. فلمَّا قربوا شهروا السُّيوف وحكَّموا حين وصلوا إليه، فضربوا عُنُقَه، وقبضوا ما وجدوا من مالٍ، ولحقوا بشبيبٍ. فلمَّا رأى شبيبٌ المالَ، قال:

ـ «أَتيتمونا بفتنة المسلمين؟ هلمَّ الحربة يا غلام!».

فحزَّتْ بها البُدور، وأَمر أن تُنخس الدَّوابُ الَّتي كانت عليها. فمرَّت والمال يتناثر من بُدوره حتَّى وردت الصَّراة، فقال:

ـ «إن كان بقي شيءٌ فاقذفوه في الماءِ».

ذكر دخول شبيبٍ الكوفة دَخْلتَهُ الثَّانية

وإنَّ أبا سفيان بن الأبرد أتى الحجَّاج فقال:

ـ «ابعثني إليه حتَّى أَستقبله قبل أن يأتيك». فقال:

ـ «ما أُحبُّ أن نفترق حتَّى أَلقاه في جماعتكم الكوفة في ظهورنا والحصن في أَيدينا».

وأَقبل شبيبٌ حتَّى نزل موضع حمَّام أَعين، ودعا الحجَّاجُ الحارث بن معاوية بن أَبي زرعة بن مسعود الثقفي، فوجَّهه في ناسٍ من الشُّرط لم يكونوا شهدوا يوم عتَّابٍ، ونحو من مائتي رجل من أهل الشَّام، فخرج في أَلف رجلٍ. فنزل زرارة. وبلغ ذلك شبيباً فتعجَّل إليه. فلمَّا انتهى إليه، حمل عليه فقتله وانهزم أَصحابه وجاؤُوا حتى دخلوا المدينة، وأَقبل شبيبٌ حتَّى قطع ودَنا من الكوفة، فبعث البُطينَ في عشرة فوارس يَرتادُ له منزلاً على شاطئ الفرات في دار الرِّزق. فوجَّه الحجَّاجُ حَوشَب بن يزيد في جمعٍ من أَهل الكوفة، فأَخذوا بأَفواه السِّكك، فقاتلهم البُطين، فلم يَقْوَ عليهم. فبعث إلى شبيبٍ، فأَمدَّهُ بفوارس، فعقروا فرس حَوشبٍ وهزموه، ونجا ومضى البُطين إلى دار الرِّزق في أَصحابه وعسكر على شاطئ الفرات، فلم يُوجِّهْ إليه الحجَّاجُ أَحداً. فمضى شبيبٌ حتَّى نزل السَّبخة وأَقام ثلاثاً لا يوجِّه إليه الحجَّاج أَحداً، فابتنى مسجداً في أَقصى السَّبخة عند الإيوان، وكانت امرأَتُه غزالةُ نذرت أَن تُصلِّي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآلَ عمران. فجاءَ شبيب مع امرأته حتَّى وفتْ بنذرها في المسجد.

وأُشير على الحجَّاج أن يخرج بنفسه، فقال الحجَّاج لقُتيبة بن مسلمٍ:

ـ «اخرجْ، فإنِّي خارجٌ، وارتَدْ لي معسكراً».

فخرج ثمَّ رجع إليه فقال:

ـ «وجدت المدى سهلاً، فسِرْ على اسم اللَّه والطَّائر الميمون».

فخرج بأصحابه، فأَتى على مكانٍ فيه بعض القَذر والكُناسات فقال:

ـ «القوا لي ههنا». فقيل له:

ـ «إنَّ الموضع قَذِرٌ». فقال:

ـ «ما تدعونني إليه أَقذر الأَرض، تحته طيِّبةٌ والسَّماءُ فوقَه طيِّبةٌ»

وأَخرج الحجَّاج مولًى له يقال له: أَبو الورد عليه تجفاف، وأَخرج مُجفَّفةً كثيرةً وغِلماناً له وقالوا:

ـ «هذا الحجَّاجُ!»

فحمل عليه شبيبٌ فقتله، ثمّ قال:

ـ «إن كان هذا الحجّاج، فقد أَرحتكم منه».

ثمَّ إِنَّ الحجّاج أَخرج إِليه طَهمان في مثل ذلك من العُدَّة والعَدَد والهيئَة. فحمل عليه شبيبٌ، فقتله، وقال:

ـ «إِن كان هذا الحجّاج فقد أَرحتكم منه».

ثمَّ إِنَّ الحجّاج دلف إِليه بنفسه وعلى ميمنته مطر بن ناجية وعلى ميسرته خالد بن عتّاب بن ورقاء وهو في زُهاءِ أَربعة آلافٍ. فقيل له:

ـ «أَيُّها الأَمير، لا تُعرِّفْه موضعَك».

فتنكَّرَ وأَخفى مكانَه وغفَّل له مولًى له، فنظر إِليه شبيب وظنَّه الحجّاج، فحمل عليه وضربه بعمودٍ فقتله، فغفَّل له أَعين صاحب حمّام أَعين بالكوفة، فقتله. فقال الحجّاجُ:

ـ «عليَّ بالبَغلة!»

فأُتي ببغلٍ محجَّلٍ، فقيل له:

ـ «أَصلح اللّه الأَمير، إِنَّ الأَعاجم تتطيَّر أَن تركب في مثل هذا اليوم مثلَ هذا البغل». فقال:

ـ «ادنوه منّي، فإِنَّ اليوم يومٌ أَغرُّ محجَّلٌ. فركبه ودَنا، ثمَّ طُرحت له عباءَةٌ فنزل وجلس، ودعا بكرسيٍّ له، ثمَّ نادى:

ـ «يا أَهل الشَّام، يا أَهل السَّمع والطَّاعة، لا يغلبَنَّ باطل هؤلاء الأَرجاس حقَّكم، غُضُّوا الأَبصار، واجثُوا على الرُّكَب، واستقبلوا القوم بأَطراف الأَسنَّة».

فجثوا على الرُّكب وكأَنَّهم حَرَّةٌ سوداء. فأَقبل إِليه، شبيبٌ حتَّى إِذا دَنا منهم عبَّى أَصحابَه ثلاثة كراديس: كتيبة معه وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المحلِّل بن وائلٍ. فقال لسويد:

ـ «احمل عليهم في خيلك».

فحمل عليهم فثبتوا له حتَّى إذا غشي أَطراف الأَسنَّة وثبوا في وجهه ووُجوه أَصحابه، فطعنوهم قُدماً، حتَّى انصرف، وصاح الحجّاجُ:

ـ «يا أَهل السَّمع والطَّاعة، هكذا فافعلوا! قدِّم كرسيَّ يا غلام».

وأَمر شبيبٌ المحلِّل بن وائل، فحمل عليهم، ففعلوا به مثل ما فُعل بسويدٍ. فناداهم الحجّاج:

ـ «يا أَهل السَّمع والطَّاعة، هكذا فافعلوا! قدِّمْ كُرسيَّ».

ثمَّ إنَّ شبيباً حمل عليهم في كتيبته، فثبتوا له حتَّى إذا غشي أطراف الأسنَّة وثبوا في وجهه، فقاتَلَهم طويلاً. ثمَّ إنَّ أهل الشَّام طاعنوهُ قُدماً، حتَّى ألحقوه بأصحابه. فلمَّا رأى صبرهم نادى:

ـ «يا سويد احملْ في خيلك على هذه السِّكَّةِ ـ يعني سكَّة لحَّام بن حرير ـ لعلَّك تُزيل أهلها، فتأتي الحجَّاجَ من ورائه ونحمل نحن من أمامه».

فانفرد سويد بن سليم، فحمل على أهل تلك السِّكَّة، فرُمي من فوق البيوت وأفواه السِّكك. فانصرف وقد كان جعلِ الحجَّاج عُروة بن المغيرة بن شعبة في نحوِ من ثلاثمائة رجلٍ من أهل الشَّام رِدْءاً له ولأصحابه، لئَلاً يُؤتى من ورائه.

ثمَّ إن شبيباً قال لأصحابه:

ـ «يا أهل الإسلام، إنَّما شرينا للَّهِ، ومَن شَرى لِلَّهِ لم يكن عليه ما أصابه من أذى وألمٍ، الصَّبرَ الصَّبرَ، شَدَّةً كشَدَّاتكم في مواطنكم الكريمة».

ثمَّ جمع أصحابه وقال:

ـ «الأَرضَ الأَرضَ، دِبُوا تحتَ تِراسكم حتَّى إذا كانت أَسنَّتهم فوقها فأدلفوها صُعُداً، ثمَّ ادخلوا تحتها لتستقبلوا أقدامَهم وهي الهزيمة بإذن اللَّه».

فأقبلوا يدبُّون إليهم.

رأيٌ جيّدٌ رَآهُ خالد بن عتَّابٍ

فقال خالد بن عتَّاب بن ورقاء للحجَّاج:

ـ «ائذن لي في قتالهم، فإنِّي موتور وأنا مِمَّن لا يتَّهم في نصيحةٍ». قال:

ـ «فقد أذنتُ لك». قال:

ـ «فإنِّي آتيهم من ورائهم حتَّى أُغير على عسكرهم» فقال له:

ـ «افعل ما بدا لك».

فخرج معه بعصابةٍ من أهل الكوفة مع مواليه وشاكريَّتِهِ حتَّى دخل عسكرهم من ورائهم، فقتل مصاداً أخا شبيبٍ، وقتلَ غزالةَ امرأته، وحرق في عسكره. وأتى ذلك الخبر الحجَّاجَ وشبيباً والتفتوا فرأوا النَّار في بيوتهم. فأمَّا الحجَّاجُ وأصحابه فكبَّروا، وأمَّا شبيبٌ فوثب هو وكلُّ راجلٍ معه على خيولهم. وقال الحجَّاج لأصحابه:

ـ «شُدُّوا عليهم، فقد أتاهم ما أرعبهم قلوبَهم».

فشدُّوا عليهم فهزموهم. وتخلّف شبيبٌ في حامية النَّاس حتَّى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجَّاج.

قال: فجعل يخفق برأسه. قال أَصغر الخارجي: كنت معه لمَّا انهزم فقلتُ:

ـ «يا أَمير المؤمنين، التفتْ فانظر مَن خلفَك».

قال: فالتفتَ غير مكترثٍ، وجعل يخفق برأسه. قال: فدنَوا منَّا فقلتُ:

ـ «يا أَمير المؤمنين، قد دَنَوا منك».

قال: فالتفت ـ واللَّه ـ غير مكترث وجعل يخفق برأسه. فبينا هو كذلك إذ بعث الحجَّاج إلى خيله أَن:

ـ «دَعوهُ في حرق اللَّه».

قال: فتركوه ورجعوا.

ومضى شبيبٌ ومَن معه حتَّى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً هنالك وخالدٌ يقفوهم، فحصرهم في الدَّير، فخرجوا عليه فهزموهُ نحواً من فرسخين فأَلقى خالدٌ نفسَه بفرسه، فمرَّ به ولواؤه في يده.

قال شبيب:

ـ «قاتله اللَّه فارساً وفرسَهُ. هذا أَشدُّ النَّاس، وفرسُهُ أَقوى فرسٍ في الأَرض».

فقيل له:

ـ «هذا خالد بن عتَّاب». فقال:

ـ «مُعْرَق له في الشَّجاعة واللَّه، لو علمتُ لأَقحمت خلفه ولو دخل النَّار».

وإن الحجَّاج دخل الكوفة حين انهزم شبيبٌ، ثمَّ صعد المنبر، فقال:

ـ «واللَّه ما قوتل شبيبٌ قطُّ قبلَها مثلها. ولَّى هارباً، وترك امرأَتَهُ يُكسَّرُ في استها القصبُ».

ثمَّ دعا حبيب بن عبد الرّحمن الحكمي، فبعثه في أَثره في ثلاثة آلاف من أَهل الشَّام. وقال له الحجَّاجُ:

ـ «احذر بياته، وحيث ما لقيتَه فنازِلْه، فإن اللَّه قد فلَّ حدَّهُ وقصم نابَهُ».

ـ فخرج حبيبٌ في أَثر شبيبٍ حتَّى نزل الأنبار.

وبعث الحجَّاج إلى العمَّال أَن:

ـ «دُسُّوا إلى أَصحاب شبيب: أَنَّ من جاءَنا منكم فهو آمِنٌ».

فكان كلُّ من ليست له بصيرة ممَّن هَدَّهُ القتالُ يجيءُ فيؤمَنُ. وقبل ذلك ما كان الحجَّاج نادى فيهم يوم هربوا أَنَّ:

ـ «مَن جاءَ منكم فهو آمِنٌ».

فتفرَّق عنه ناس كثير من أَصحابه.

وبلغ شبيباً مُنزَل حبيب بن عبد الرَّحمن الأَنبارَ، فأَقبل بأَصحابه حتَّى دَنا من عسكرهم ونزل، فصلَّى بهم المغرب.

قال أَبو زيد السَّكسَكي: أَنا واللَّه في أَهل الشَّام ليلةَ جاءَ شبيبٌ، فبيَّتَنا، قال: فلمَّا أَمسينا، جمعنا حبيب بن عبد اللَّه، فجعلنا أَرباعاً وعلى كلِّ رُبعِ أَميرٌ، وقال لكلِّ ربعِ منَّا:

ـ «ليُجزِئ كلُّ ربع جانبَه، فإن قُتل هذا الرُّبع فلا يُعنْهُم هذا الرُّبعُ الآخَر. فإنَّه بلغني أَنَّ الخوارج منَّا قريبٌ، فوطِّنوا أَنفسكم على أَنَّكم مُبيَّتون ومقاتلون».

فما زِلنا على تعبئتنا حتَّى جاءَنا شبيبٌ، فبيَّتنا، فشدَّ على ربعِ منَّا، فضاربَهم طويلاً. فما زالت قَدَمُ إِنسانٍ منهم، ثمَّ تركهم وأَقبل إِلى الرُّبع الآخر، فقاتلهم طويلاً، فلم يظفر بشيءٍ. قال: ثمّ أَطاف بنا يحمل علينا حتَّى ذهب ثلاثة أَرباع اللَّيل، وأَلزَّ بِنا حتَّى قُلنا: لا يفارقنا. ثمَّ نازلَنا راجلاً طويلاً، فسقطت واللَّه بيننا وبينهم الأَيدي والأَرجل، وفُقئت الأَعيُن، وكثر القتلى. قتَلْنا منهم نحواً من ثلاثين، وقتلوا منَّا نحواً من مائةٍ، وواللَّه لو كانوا يزيدون على مائة رجلٍ لأَهلكونا، وأَيمُ اللَّه على ذلك ما فارقونا حتّى مللناهم وملُّونا، وكرهناهم وكرهونا. ولقد رأَيتُ الرَّجلَ ما يضرب الرَّجلَ منهم فما يَضُرُّهُ شيئاً من الإِعياءِ والضَّعف. ولقد رأَيتُ الرَّجلَ منَّا يُقاتل جالساً ينفح بسيفه، ما يستطيع أن يقوم من الإِعياءِ. فلمَّا يئسوا ركب شبيبٌ وقال لمن كان نزل معه.

ـ «اركبوا!».

وتوجَّه منصرفاً عنَّا.

قال فروة بن لقيط ـ وكان شهد معه مواطنَه كلَّها ـ قال لنا ليلتَئذٍ، وقد رأَى بنا كآبةً ظاهرةً، وجراحةً شديدةً:

ـ «ما أَشدَّ هذا الَّذي بنا، لو كُنَّا إِنَّما نطلب الدُّنيا، وما أَيسر هذا في طاعة اللَّه وثوابه».

فقال أَصحابه:

ـ «صدقتَ يا أَمير المؤمنين».

قال: فما أَنسى منه إِقبالَه على سُويد بن سليم، ولا مقالتَه له:

ـ «يا سُويد! قتلتُ أَمسِ منهم رجلين: أَحدهما أَشجع النَّاس والآخر أَجبن النَّاس. خرجت عشيَّةَ أَمس طليعةً لكم، فلقيتُ منهم ثلاثة نفرٍ دخلوا قريةً يشترون منها

حوائجهم، فاشترى أحدهم حاجتَه، ثمَّ خرج قِبَلَ أَصحابه، وخرجتُ معه»، فقال لي:

- «كأَنَّك لم تشتر علَفاً». فقلتُ:

- «إنَّ لي رفقاءَ قد كَفوني ذلك».

فقلت له:

- «أَين ترى عدوَّنا هذا؟» فقال:

- «بلغني أَنَّه نزل قريباً منَّا، وأَيمُ اللَّه، لوددتُ أَنِّي قد لقيتُ شبيبَهم هذا» قلتُ:

- «فتُحبُّ ذاك؟» قال:

- «نعم». قلتُ:

- «فخُذ حِذْرَك، فأَنَا واللَّه شبيبٌ»

وانتضيتُ سيفي، فخرَّ واللَّه ميِّتاً. فقلتُ له:

- «ارتفعْ ويحك!».

وذهبت أَنظُر، فإِذا هو قد ماتَ. فانصرفتُ راجعاً، فاستقبل الآخر راجعاً من القرية، فقال:

- «أَينَ تذهب هذه السّاعةَ، وإِنَّما يرجع النَّاس إِلى عسكرهم».

- فلم أُكلِّمه، ومضيتُ يُقرِّب بي فرسي، واتَّبعني حتَّى لحقني، فعطفتُ عليه، وقلتُ له:

- «ما لَكَ؟» قال:

- «أَنتَ واللَّه من عدوِّنا». فقلتُ:

- «أَجلْ واللَّه» فقال:

- «إِذاً لا تبرح واللَّه حتَّى أَقتلكَ أَو قتلتَني».

وحملتُ عليه، فحمل عليَّ، فاضطربنا بسيفنا ساعةً، فواللَّه ما فَضَلتُه في شدَّة نفسٍ ولا إِقدام، إِلاَّ أَنَّ سيفي كان أَقطعَ من سيفه فقتلتُهُ.

ذكر مكيدة لشبيب

بلغ شبيباً أنَّ جند الشَّام الَّذين مع حبيبٍ حملوا معهم حجراً وحلفوا أَلاَّ يفرُّون من شبيب حتّى يفرَّ هذا الحجر. فلمَّا سمع شبيبٌ ذلك أَراد أَن يكيدهم. فدعا بأَربعة أَفراسٍ وربط في أَذنابها تِرَسَهُ في ذنب كلِّ فرسٍ تُرسَين، ثمَّ ندب معه ثمانية نفر من أَصحابه ومعه غلام له يُقال له: حيَّان، كان بئيساً شجاعاً، وأَمرهُ أَن يحمل معه إِداوةً من ماء، ثمَّ

سار حتَّى يأتي ناحيةً من العسكر، فأَمر أَصحابه أَن يكونوا في نواحي العسكر، وأن يجعلوا مع كلّ رجلين فرساً، ثمّ يُمسُّوها الحديدَ حتّى يجد حَرَّه ويخلُّوها في العسكر، وواعدهم تلعةً قريبةً من العسكر، فقال:

ـ «مَن نَجا منكم فإنّ موعده هذه التَّلعة».

وكره أَصحابه الإِقدام على ما أَمرهم به. فنزل حيث رأى ذلك منهم حتَّى صنع بالخيل مثل الَّذي أَمرهم به. ثمّ وغلَتْ في العسكر، ودخل هو يتلوها محكِّماً، فضربَ النّاسَ بعضَهم ببعضٍ وماجوا.

فقام حبيب بن عبد الرَّحمن فنادى:

ـ «أَيُّها النَّاس إنَّ هذه مكيدةٌ، فالزموا الأَرض حتَّى يبينَ لكم الأَمرُ».

ففعلوا، وبقي شبيبٌ في عسكرهم، فلزم الأرض حيث رَآهم قد سكنوا، وقد أَصابته ضربة عمودٍ أوهنه. فلمَّا هدأَ النَّاسُ، ورجعوا إلى أَبنيتهم خرج في غمارهم حتَّى أتى التَّلعة، فإذا هو بحيَّان فقال:

ـ «أَفرغ على رأسي من الماءِ يا حيَّان».

فلمَّا مدَّ رأسَهُ ليصبَّ عليه من الماءِ، هَمَّ حيَّان بضرب عُنُقه وقال لنفسه:

ـ «لا أَجد مكرمةً لي ولا ذكراً أَرفعَ من قتل هذا في هذه الخلوة، وهو أَماني عند الحجَّاج».

فأَخذتْهُ الرّعدة حيث همَّ بما همَّ به. فلمَّا أَبطأَ بحلِّ الإداوة، قال:

ـ «ما يُبطئُك بحلِّها».

وتناولَ السِّكين من مُوزَجِه، فخرقها به، ثمَّ ناوله إيَّاها، فأَفرغ عليه من الماءِ.

قال حيَّان: منعني واللّه الجُبنُ وما أَخذني من الرّعدة أَن أضرب عُنقَه بعد ما هممتُ به، وما كنتُ أَعهد نفسي جباناً.

ثمّ خلا شبيبٌ بأَصحابه وعسكره.

ذكر هلاك شبيبٍ في هذه السَّنة باتِّفاقٍ سَيِّئٍ

ثمَّ إنَّ الحجَّاج أَخرج النَّاس إلى شبيب، وقسم فيهم أَموالاً عظيمةً، وأَعطى الجرحى خاصَّةً، وكلَّ ذي جَزْءٍ وبلاءٍ، وأَمر سفيان بن الأَبرد أَن يسير بهم. فبلغ ذلك حبيب بن عبد الرَّحمن، فشقَّ عليه، وقال:

ـ «تبعث سفيان إلى رجل قد فللتُه وقتلتُ فُرسانَه!».

وكان شبيبٌ قد أَقام بكرمان حتّى حبروا واستراش هو وأَصحابُه. ومضى سفيان

بعد شهرين واستقبله شبيبٌ بجسر دُجيل الأَهواز، فعبر شبيب إِلى سفيان، فوجد سفيان قد نزل في الرِّجال، وبعث مُصاصَ بن صَيفي على الخيل، وبعث على ميمنته بشر بن حسَّان الفِهري، وعلى ميسرته عُمر بن هُبيرة الفزاري. وأَقبل شبيبٌ في ثلاثة كراديس: هو في كتيبةٍ، وسُويدٌ في كتيبةٍ، وقَعنبٌ في كتيبةٍ، وخلّف المحلِّلَ في عسكره. فلمَّا حمل سُويدٌ وهو في ميمنته، على ميسرة سفيان، وقعنبٌ وهو في ميسرته، على ميمنة سفيان وحمل هو على سفيان، اضطربوا مليًّا حتَّى رجعت الخوارج إِلى المكان الَّذي كانوا فيه.

قال يزيد السَّكسكيُّ: واللَّه لقد كرَّ علينا هو وأَصحابه أكثر من ثلاثين كرَّةً كلّ ذلك لا نزول من صفِّنا.

فقال لنا سفيان:

ـ «لا تفرَّقوا، ولكن لِيزحفِ الرِّجالُ إِليهم زحفاً».

ففعلنا وما زلنا نُطاعنهم حتَّى اضطررناهم إِلى الجسر. فلمَّا انتهى شبيبٌ إِلى الجسر، نزل ونزل معه نحوٌ من مائة رجلٍ، فقاتلناهم إِلى المساءِ أَشدَّ قتالٍ يكون لقوم قطُّ. فما هو إِلاَّ أَنْ نزلوا أَوقعوا لنا من الطَّعن والضَّرب شيئاً ما رأَينا مثلَه قطُّ، ولا ظَنَنَّاهُ يكون. فلمَّا رأَى سفيان أَنَّه لا يقدر عليهم ولم يأمَنْ ظفرَهم، دعا الرُّماةَ فقال:

ـ «ارشُقوهم بالنَّبل».

وذلك عند المساءِ. وكان التقاؤهم نصف النَّهار، فرماهم أَصحابُ النَّبل، وقد كان صفَّهم سفيان بن الأَبرد على حِدةٍ وعليهم أَميرٌ. فلمَّا رشقوهم شدُّوا عليهم. فلمَّا شدُّوا على رُماتنا شَدَدْنا عليهم فشغلناهم عنهم. فلمَّا رأَوا ذلك ركب شبيبٌ وأَصحابه، ثمَّ كرُّوا على أَصحاب النَّبل كرَّةً صَرعوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً، ثمَّ عطف علينا يطاعننا حتَّى اختلط الظَّلام ثمَّ انصرف عنَّا.

فقال سليمان بن الأَبرد لأَصحابه:

ـ «أَيُّها النَّاس، دعوهم، لا تتبعوهم حتَّى نُصبِّحهم».

قال: فكففنا عنهم وليس شيءٌ أَحبَّ إِلينا من أَن ينصرفوا عنَّا.

قال فروة بن لقيط: فما هو إِلاَّ أَن انتهينا إِلى الجسر، فقال:

ـ «اعبروا معاشر المسلمين، فإِذا أَصبحوا باكرناهم إِن شاء اللَّه».

فعبرنا أَمامَه وتخلَّف في آخِرنا، فأَقبل على فرسٍ وكانت بين يديه فرس أُنثى ماذيانةٌ، فنزا فرسُه عليها وهو على الجسر، فاضطربت الماذيانةُ، وزلَّ حافر فرس شبيبٍ عن حرف السّفينة، فسقط في الماءِ. فلمَّا سقط قال:

ـ «ليقضِيَ اللّهُ أَمراً كان مَفعُولاً».

واغتمس في الماءِ. ثمَّ ارتفع فقال:

ـ «ذلك تَقديرُ العَزيزِ العَليم».

فهذا حديث أكثر النَّاس. وقد قال غيره من أَصحابِ شبيب إنَّه كان معه رجال كثيرٌ ممَّن أَصاب من عشائرهم وساداتهم. فلمَّا تخلَّف في أُخريات النَّاس من أَصحابه، قال بعضهم لبعض:

ـ «هل لكم أن نقطع به الجسر فنُدرك ثأرَنا السّاعةَ؟».

فقطعوا الجسر، فمالت به السُّفُنُ، ففزع الفرس ونفر ووقع في الماء فغرق. والحديث الأوَّل أشهر.

فتحدَّث جماعةٌ من أَصحاب سفيان، قالوا: لمَّا سمعنا صوتَ القوم: «غرِقَ أَمير المؤمنين»، عبرنا إِلى عسكرهم، فإِذا ليس فيه صافرٌ ولا آثرٌ. فنزلنا فيه فإذا أكثر عسكر خلق اللّه خيراً. فطلبنا شبيباً حتَّى استخرجناهُ وعليه الدِّرع فسمعت النَّاس يزعمون أَنَّه شُقَّ عن بطنه وأُخرج قلبُهُ. فكان مجتمعاً صُلباً كأَنَّه صخرةٌ وأنّه كان يُضرب به الأَرضُ فيثِبُ قامةَ الإِنسان.

فيُحكى أَنَّ أُمَّ شبيبٍ كانت لا تصدِّق أَحداً نعاهُ إِليها. وكان قيل مراراً: «قُتِلَ» فلا تقبل. فلمَّا قيل: إِنَّه غرق، قَبلتْ وبَكتْ. فقيل لها في ذلك، فقالت:

ـ «إِنِّي رأيتُ في المنام حين ولدتُه أَنّه خرج من قُبُلي شهابُ نارٍ، فعلمتُ أَنَّه لا يطفئُه إِلاَّ الماء».

ذكر ما كان من المهلَّب والأزارقة

كان المهلَّب مقيماً بسابور يقاتل قطرياً في الأَزارقة بعدما صرف الحجَّاجُ عتَّابَ بن ورقاءٍ عن عسكره نحواً من سنةٍ. ثمَّ إِنَّه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديداً، وكانت كرمان في أَيدي الخوارج، وفارسُ في يد المهلَّب. وكان لا يأتيه من فارس مادَّةٌ، فضاق الأَمر عليه. فحازهم المهلَّب حتَّى خرجوا إِلى كرمان، وتبعهم المهلَّب حتَّى نزل بجيرُفْت وقاتلهم أكثر من سنةٍ قتالاً شديداً حتّى حازهم عن فارس كلِّها. فلمَّا صارت فارس كلُّها في يد المهلَّب، بعث الحجَّاجُ عليها عُمَّالَهُ وأَخذها من المهلَّب.

فبلغ ذلك عبد الملك فكتب إِلى الحجَّاج:

ـ «أَمَّا بعدُ، فدع بيد المهلَّب خراجَ فارسَ وحيالِها، فإِنَّه لا بُدَّ للجيش من قُوَّةٍ، ولا لصاحب الجيش من معونةٍ، ودَعْ له كورةَ فَسًّا ودرابجرد، وكورةَ إِصطخر».

فتركها للمهلَّب: فبعث المهلَّب عليهما عُمَّالَه وكانَتا قُوَّةً له، وأَقام المهلَّب على قتال الأَزارقة.

ذكر اختلاف كلمة الخوارج إلى أَن هلكوا بأَجمعهم

فلم يزالوا يقتتلون إلى أَن بعث قطريٌّ عاملاً له على ناحية كرمان يقال له المُقَعطَر، فقَتل رجلاً كان ذا بأسٍ من الخوارج، فوثبت الخوارج إلى قطريٍّ، فذكروا ذلك له وقالوا له:

ـ «أَمكِنَّا من المقعطَر نقتله بصاحبنا». فقال لهم:

ـ «ما أَرى أَن أَفعلَ. رجلٌ تأَوَّل فأَخطأَ في التَّأويل. ما أَرى أَن تقتلوه وهو من ذوي الفضل والسّابقة فيكم». قالوا:

ـ «بلى» فقال لهم:

ـ «لا!».

فوقع الاختلاف بينهم. فولّوا عبد ربّ الكبير وخلعوا قطريًّا، وبقي مع القطريّ عصابة نحوٌ من رُبعهم. وبلغ ذلك الحجَّاجَ فكتب إلى المهلَّب:

ـ «أَمَّا بعدُ، فقد بلغني كتابُك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها. فإذا أَتاك كتابي فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم، قبل أن يجتمعوا فتكون مؤونتهم عليك أَشدَّ. والسَّلام».

فكتب إليه:

ـ «أَمَّا بعدُ، فقد بلغني كتاب الأَمير وكلَّ ما فيه قد فهمتُ، ولستُ أَرى أَن أَقاتلهم ما دام بعضُهم يقتل بعضاً، وينقص بعضُهم عددَ بعضٍ، فإن تمُّوا على ذلك فهو الَّذي نُريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلاّ وقد رقَّق بعضهم بعضاً، فأُناهضهم على بقيَّة ذلك وهم أَوهى ما كانوا شوكةً إن شاء اللّه».

فكفَّ عنه الحجَّاج وتركهم المهلَّبُ، فقاتَلوه قتالاً شديداً. ثمَّ إنَّه فلَّهم وقتلَهم، فلم ينجُ منهم إلاّ قليلٌ وسباهم. لأَنَّهم كانوا يسبون المسلمين.

ذكر سبب هلاكهم

كان سبب ذلك ما ذكرنا من تشتُّتهم بالاختلاف، ولمَّا وهى أَمر قطريٍّ توجَّه مريداً طبرستان وبلغ أَمرُه الحجَّاجَ، فوجَّهَ سفيان بن الأَبرد مع جيشٍ عظيم من أَهل الشَّام، فأَقبل سفيان حتَّى أَتى الرَّيَّ، ثمَّ اتَّبعهم. وكتب الحجّاج إلى إسحاق بن محمد بن الأشعث، وهو بطبرستان على جيش لأَهل الكوفة أَن:

ـ «اسمع وأَطِعْ لسفيان».

فأَقبل إِلى سفيان، وسار معه في طلب قطريٍّ حتَّى لحقوه في شِعبٍ من شعاب طبرستان. فقاتلوه، فتفرّق عنه أَصحابه، ووقع عن دابّته في أَسفل الشِّعب، فتدَهدأَ حتَّى خرَّ إِلى أَسفله، وأَتاهُ عِلجٌ من أَهل البلد، فقال له قطريُّ:

ـ «اسقني ماءاً».

وقد اشتدَّ عطشه. فقال العِلجُ له:

ـ «أَعطني شيئاً حتَّى أَسقيك». فقال:

ـ «ويحك! ما معي واللّه إلاً ما ترى من سلاحي، وأَنَا مُؤتيكَهُ إِذا أَتيتني بماءٍ» قال:

ـ «لا، بل أَعطِنيه الآن» قال:

ـ «لا، ولكن ائْتني بماءٍ قبلُ».

فانطلق العلج حتَّى أَشرف على قطريٍّ، ثمّ حدَّر عليه حَجراً عظيماً من فوقه، دَهدَأَه عليه، فأَصاب إِحدى وَركيه، فأَوهنه، وصاح بالنَّاس، فأَقبلوا نحوَه، والعِلج حينئذٍ لا يعرف قَطريًا، غير أَنَّه يظنُّ أَنَّه من أَشرافهم لحسن هيئته وكمال سلاحه، فدُفع إِليه نفرٌ من أَهل الكوفة، فقتلوه، وادَّعى قتلَه جماعةٌ.

وفي هذه المدَّة الَّتي جرى فيها ما جرى من أَمر الأَزارقة كان قتال أُميَّة بن عبد اللّه بُكيرَ بن وساجٍ بخراسان

ذكر السَّبب في ذلك

حقدٌ حقَدَهُ عتَّابُ اللِّقوة، وكان في صحبة بُكيرٍ. وكُنَّا ذكرنا أَمرَ بُكيرٍ مع أُميَّة، وأَنَّ أُميَّة لمَّا ولي خراسان سامحَ بُكيراً، ولم يقبل فيه سعايةً، ولا حاسبَ له عاملاً، ولكنَّه ولاَّهُ طخارستان بعد أَن عرض عليه شُرطتَهُ فأَباها. فتجهَّز بُكيرٌ للخروج إِليها، وأَنفق نفقةً كثيرة. ثمَّ وشا به بحير بن ورقاء وقال لأُميَّة:

ـ «إِنَّه إِن عبر النَّهرَ خلع الخليفةَ ودعا إِلى نفسه».

فراسله أَميَّة:

ـ «أَقِمْ، لعلِّي أَغزو، فتكونَ معي».

فغضب بكيرٌ وقال:

ـ «كأَنَّه يُريد أَن يضارَّني».

وكان عتّاب اللّقوة استدان وأَنفق نفقةً كثيرةً ليخرج مع بُكيرٍ. فلمّا أَقام بكيرٌ أَخذهُ غرماؤهُ فحُبس حتّى أَدّى عنه بُكيرٌ.

ثمَّ إِنَّ أُميَّة أَجمع بعد مدَّةٍ على الغزو ليغزوَ بُخارى، ثمَّ يأتي موسى بنَ خازم بالتِّرمذ. فتجهَّز النَّاس معه واستخلف ابنَه زياداً على خراسان وسار معه بكيرٌ.

فقال له بحيرٌ:

ـ «إِنِّي لا آمَنُ أَن أَستخلفَ أَحداً، أَن يتخلَّفَ عنِّي النَّاس، فقُلْ لبكيرٍ، فليكن في السَّاقة وليحشر النَّاس».

فأَمره به، فكان على السَّاقة، حتَّى أَتى النَّهر.

وقال أُميَّةُ لبكير:

فقال عتاب اللّقوة:

ـ «اقطعْ يا بكيرُ».

فقال عتّاب اللّقوة:

ـ «أَصلح اللّه الأَمير، أُعبرْ أَنت، ثمَّ يعبر النَّاس بعدك».

فعبر، ثمَّ عبر النَّاس. فقال أُميّة لبُكير:

ـ «قد خفتُ أَلاَّ يضبط ابني عملَه وهو غلامٌ حدَثٌ. فارجع إِلى مَرو، فاكفنيها فقد ولَّيتُكَها، فزيِّن ابني وقُمْ بأَمره».

فانتخب بُكيرٌ فرساناً من فرسان خراسان قد كان عرفهم ووثق بهم، وعبر، ومضى أُميَّةُ إِلى بخارى. فقال عتَّاب اللّقوة لبكيرٍ لمَّا عبر وقد مضى أُميَّة.

ـ «إِنَّا قتلنا أَنفسنا وعشائرنا حتَّى ضبطنا خراسان ثمَّ طلبنا أَميراً من قريشٍ يجمع أَمرنا، فجاءَ يلعب بنا، يُحوِّلنا من سجنٍ إِلى سجن». قال:

ـ «فما ترى؟» قال:

ـ «أَحرق هذه السُّفن، وامض إِلى مرو، فاخلع أُميَّة وتُقيم بمرو وتأْكُلها إِلى يومٍ ما».

فقال بُكيرٌ:

ـ «إِنِّي أَخاف أَن يهلك هؤلاءِ الفرسان الَّذين معي». فقال:

ـ «أَيُخافُ عَدَمُ الرِّجال؟ أَنَا آتيك من أَهل مرو بما شئتَ، إِن هلك هؤلاءِ الَّذين معك». قال:

ـ «يهلك المسلمون». قال:

ـ «إنّما يكفيك مُنادٍ ينادي: مَن أَسلم رفعنا عنه الخراج، فيأتيك خمسون أَلفاً من المسلمين أَسمعُ من هؤلاءِ وأَطوعُ منهم». قال:

ـ «فيهلك أُميَّةُ ومَن معه». قال:

ـ «ولِمَ يهلكُ والنَّاس معه لهم عُدَّةٌ وعَددٌ ونجدةٌ وسلاحٌ كاملٌ ليُقاتلوا عن أَنفسهم حتَّى يبلغوا الصِّين».

فلم يزلْ عتَّابٌ بهذا وأَشباهه حتَّى حَرقَ بُكيرٌ السُّفنَ ورجع إِلى مرو، فأَخذ ابنَ أُميَّة فحبسه، ودعا النَّاس إِلى خلع أُميَّة، فأَجابوه. وبلغ أُميَّةَ فصالحَ أَهلَ بخارى على شيءٍ يسيرٍ، وبادر بالرُّجوع، وأَمر باتّخاذ السُّفن فاتُّخذت، وقال لمن معه من وُجوه تميم:

ـ «أَلا تعجبون من بُكيرٍ؟ إِنِّي قدمتُ خراسان، فحُذِّرتُه، ورُفع عليه وشُكِيَ منه، وذكروا أَموالاً أَصابها، فأَعرضتُ عن ذلك كلِّه ولم أُفتِّشْهُ عن شيءٍ، ولا أَحداً من عُمَّاله، ثمَّ عرضتُ عليه شُرطتي، فأَبى، فأَعفيتُه، ثمَّ ولَّيتُهُ، فحذَّرتُه، وأَمرتُه بالمُقام، وما كان ذلك إِلاَّ نظراً له، ثمَّ رددتُه إِلى مرو، وولَّيتُه الأَمرَ، فكفَرَ ذلك، وكافأَني بما تَرونَ».

فقال له قومٌ:

ـ «تعرفون أَمره أَيّها الأَمير، لم يكن هذا من شأنه. إِنَّما أَشار عليه بإِحراق السُّفن عتابُ اللّقوة».

ثمَّ إِنَّ أُميَّة لمّا تهيأَتْ له السُّفنُ عقد وعبر، وأَقبل إِلى مرو، وترك موسى بن عبد اللّه بن خازم. فقال شمّاس بن دِثار، وكان غزا مع أُميَّة:

ـ «أَيُّها الأَمير، قدِّمني فإِنِّي أَكفيكهُ إن شاءَ اللّه».

فقدَّمه أُميَّة في ثمانمائة فارسٍ. وسار إِليه بكير فقال:

ـ «أَما كان في تميم أَحدٌ يحاربني غيرك؟».

ولامهُ. فأَرسل إِليه شمّاس:

ـ «أَنت أَلأَم وأَسوأُ صنيعاً منّي، لم تَفِ لأُميَّة ولم تشكر صَنيعهُ بك».

قال: فبيَّته بكيرٌ، ففرَّق جمعه وقال:

ـ «لا تقتلوا منهم أَحداً وخذوا سلاحَهم».

فكانوا إِذا أَخذوا رجلاً سلبوه وخلَّوا عنه. فتفرَّقوا. وقدَّم أُميَّة كُشماهَن ورجع إِليه شمَّاس بن دثارٍ. ثمَّ أَقبل أُميَّة في النَّاس، فقاتله بُكيرٌ مدَّةً، ثمَّ انحاز بُكيرٌ يوماً، فدخل الحائطَ، فنزل السُّوق. ونزل أُميَّة باشان، وكانوا يلتقون في ميدان يزيد. فانكشفوا يوماً، فحماهم بُكيرٌ، ثمَّ التقوا يوماً آخر في الميدان، فضرب رجلٌ من تميم على رجله،

فجعل يسحبها وهُرَيمٌ يحميه. فقال الرَّجلُ:

ـ «اللَّهمَّ أيِّدنا بالملائكة».

فقال له هُريمٌ:ـ «أيُّها الرَّجل، قاتلْ عن نفسك، فإنَّ الملائكة في شُغلٍ عنك». فتحامل، ثمَّ أعاد قولَه مراراً:

ـ «اللَّهمَّ أيِّدنا بالملائكة». فقال له هُريمٌ:

ـ «لتكفَّنَّ عنِّي، أو لأَدعنَّك والملائكةَ».

فسكت، وحماه حتّى أَلحقه بالنَّاس. فكانوا كذلك مدَّةً يتقاتلون، وكان أَصحاب بُكير يَغدون متفضِّلين، في ثيابٍ مصبَّغة، وملاحفَ وأُزُرٍ صُفرٍ وحُمْرٍ، فيجلسون على نواحي المدينة يتحدَّثون ويُنادي مُنادٍ:

ـ «مَن رَمى بسهم، رمينا إليه برأس رجلٍ من أَهله وولده».

فلا يرميهم أَحدٌ. وأَشفق بكيرٌ وخاف، إن طال الحصار، أَن يخذله النَّاس. فطلب الصُّلح، وأَحبَّ ذلك أَصحاب أُميَّةَ ذلك، لمكان عيالاتهم بالمدينة، وكان يُحبُّ أُميَّة العافية، فصالحه على أن يقضي عنه أربعمائة ألف، ويصل إليه أَصحابَه ويولِّيه أَيَّ كورة خراسان شاءَ، ولا يسمعَ قول بَحيرٍ فيه، وإن راب منه ريبٌ فهو آمِنٌ أَربعين يوماً حتَّى يخرج من مرو.

وقال: وأَخذ الأَمان لبُكير، وكتب إليه أُميَّةُ كتاباً، ودخل أُميَّة المدينة، ووفى لبُكيرٍ، وعاد إلى ما كان له من الإكرام وحسن الأَدب. فأَرسل إلى عتَّاب اللِّقوة فقال:

ـ «أَنت صاحب المشورة؟» قال:

ـ «نعم، أَصلح اللّه الأَميرَ». قال:

ـ «ولِمَ؟» قال:

ـ «خفَّ ما كان في يدي، وكثر دَيني، وأعديتُ على غُرمائي». قال:

ـ «ويحك! فضرَّبتَ بين المسلمين،وأحرقتَ السفن والمسلمون في بلاد العدوِّ، وما خفتَ اللَّهَ». قال:

ـ «قد كان ذاك وأَستغفر اللّه» قال:

ـ «كم كان دَينك؟» قال:

ـ «عشرون أَلفاً». قال:

ـ «تكفُّ عنِّي وعن المسلمين غِشَّك وأَقضي دَينك». قال:

ـ «نعم، جعلني اللّه فداءَك».

فضحك أُميَّة وقال:

ـ «ظَنّي بك غير ما تقول، وأَرجو أَن تفيَ».

فأَدّى عنه عشرين أَلفاً.

وكان أُميَّة سهلاً ليّناً سخيًّا لم يُعطِ أَحدٌ بخراسان ما أَعطاه، وكان مع ذلك ثقيلاً على النَّاس لزهو كان فيه شديدٍ. وكان يقول:

ـ «ما أَكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي!».

وعزل أُميَّة بحيراً عن شرطته، وكتب إِلى عبد الملك بما كان من بُكير وصفحه عنه، وعزلِه بَحيراً طلبَ مرضاته.

عاقبة أَمر بُكير

وأَخذ أُميَّة النَّاس بالخراج واشتدَّ عليهم فيه. فجلس يوماً بُكيرٌ في المسجد وعنده ناسٌ من بني تميم، فذكر شدَّة أُميَّة على النَّاس، فذمُّوهُ وقالوا:

ـ «سلَّط علينا الدَّهاقين في الجباية».

وكان بُكيرٌ وضرار بن حصن وعبد العزيز بن حارثة في ناحية من المسجد. فنقل بحيرٌ ذلك إِلى أُميَّة فكذَّبه، فادَّعى شهادة هؤلاءِ وشهادة مزاحم بن المحشر. فدعا أُميَّةُ مزاحماً، فسأَله، فقال:

ـ «إِنَّما كان يمزح».

فأَعرض عنه. ثمَّ إِنَّ بحيراً أَتاهُ، فقال:

ـ «أَصلحك اللَّه، إِنَّ بكيراً دعاني إِلى خلعك، وقال: لولا مكانُك لقتلتُ هذا القُرشيَّ وأَكلتُ خراسان».

فقال أُميَّةُ:

ـ «ما أُصدِّق بهذا وقد فعلَ وفعلتُ ما فعلتُ».

«فأَتاه بضرار بن حصن وعبد العزيز بن حارثة، فشهدا أَنَّ بكيراً قال لهما: لو أَطعتماني قتلتُ هذا القرشيَّ المخنَّث، ودعانا إِلى الفتك بك»

فقال أُميَّةُ:

ـ «أَنتم أَعلم وما شهدتم، وما أَظنُّ هذا به، وإِنَّ تَرْكَهُ ـ وقد شهدتم بما شهدتم به ـ عجزٌ». فقال له:

ـ «إِنَّ عتَّاباً يحمله على ذلك».

فقال لحاجبه وصاحب حرسه، وكان يومئذٍ عطاء بن أبي السَّائب.

ـ «إذا دخل بُكيرٌ وبَدَلٌ وشمردلٌ ابنا أَخيه فنهضتُ فخذوهم».

وجلس أُميَّة للنّاس وجاءَ بُكيرٌ وابنا أَخيه. فلمَّا جلسوا قام أُمية عن سريره، فدخل وخرج النَّاس، فلمَّا همَّ بُكيرٌ بالخروج حبسوه وابني أخيه. فدعا أُميَّة ببُكيرٍ وقال:

ـ «أنتَ القائل كذا وكذا؟» فقال:

ـ «تثبَّتْ أَصلحك اللَّه ولا تسمع قولَ ابن المحلوقة».

فحبسه وأَخذ جاريته، وكانت تُسمَّى: العارمة، فحبسها معه، وحبس الأَحنفَ بن عبد اللَّه العنبري. فلمَّا كان من الغد، أَخرج بُكيراً، فشهد بحيرٌ وضِرارٌ وعبدُ العزيز أَنَّه دعاهم إلى خلعه والفتك به. فقال:

ـ «أَصلحك اللَّه، فإنَّ هؤلاءِ أَعدائي».

فقال أُميَّةُ لبَحير:

ـ «أَتقتلهُ؟» قال:

ـ «نعم».

فقام إليه، ونهض أُميَّة. فقال بُكيرٌ:

ـ «يا بَحير، إنَّك تفرِّق أمر بني سعدٍ إن قتلتني، فدَعْ هذا القرشيَّ يلي منِّي ما يُريد».

فقال بَحيرٌ:

ـ «لا واللَّه، يا بنَ الإصبهانيَّة! لا تصلح بنو سعدٍ ما دُمنا حيَّين». فقال:

ـ «فشأنك يا بن المحلوقة».

وقتل أُميَّة ابنَ أخي بُكير، ووهب جاريتَه العارمةَ لبحير.

ثمَّ وجَّه أُميَّةُ رجلاً من خزاعة إلى موسى بن عبد اللَّه بن خازم، فقتله عمرو بن خالد بن حصن الكلابي غيلةً، فتفرَّق جيشه، واستأمن طائفةٌ منهم إلى موسى ورجع بعضهم إلى أُميَّة.

وعزل عبد الملك بن مروان أُميَّة عن خراسان وولأَّها المهلَّبَ من قبل الحجَّاج، وسنذكر سببَه.

وأخذ الأبناء تحضُّ على قتل بَحير في الشِّعر وفي غير الشِّعر، فتعاقد جماعةٌ منهم على الفتك ببحير. فخرج فتًى منهم يقال له الشَّمردَل من البادية حتَّى قدم خراسان. فنظر إلى بحير واقفاً، فشدَّ عليه، فطعنه، فصرعه وظنَّ أنَّه قتله. فتنادى النَّاسُ:

ـ «خارجيٌّ».

فراكضهم، فعثر فرسُه وندر عنه فقُتل. فكان بحير بعد ذلك يتحرَّز من الغيلة، إلى أن خرج صعصعةُ بن حربٍ العوفيّ من البادية وقد باع غُنيماتٍ له واشترى حماراً، ومضى إلى سجستان فحاور قرابةً لبحير هناك ولاطفه وقال:

ـ «أنا رجلٌ من بني حنيفة من أهل اليمامة».

فلم يزل يأتيهم ويجالسهم حتَّى أنسوا به.

ذكر حيلة صعصعة على بحير حتَّى اغتاله وقتله

ثمَّ إنه قال لهم:

ـ «إنَّ لي بخراسان ميراثاً قد غُلبتُ عليه، وبلغني أنَّ بحيراً هو عظيم القدر بخراسان، فاكتبوا لي إليه كتاباً يُعينني على طلب حقّي».

فكتبوا إليه وخرج حتَّى قدم مرو والمهلَّبُ غازٍ. فلقى قوماً من بني عوف، فأفشى إليهم سِرَّه، فأقبل إليه مولًى لبُكيرٍ، فقبَّل رأسَه، وكان صيقلاً، فقال له صعصعة:

ـ «اتخذ لي خنجراً».

ففعل، وأحماه وغمسه في لبن أتانٍ مراراً، ثمَّ شخص من مرو وقطع النَّهر حتَّى أتى عسكر المهلَّب. فلقي بحيراً بالكتاب، وقال له:

ـ «إنِّي رجلٌ من بني حنيفة، كنتُ من أصحاب ابن أبي بكرة، وقد ذهب مالي بسجستان، ولي ميراث بمرو، فقدمتُ لأبيعه وأرجع إلى اليمامة».

فأمر له بنفقةٍ وأنزله معه. وقال له:

ـ «استعِنْ بي على ما أحببتَ». قال:

ـ «أُقيم عندك حتَّى يقفل النَّاسُ».

فأقام شهراً أو نحواً من شهر يحضر معه باب المهلَّب ومجلسَهُ حتَّى عُرف به. وكان بحيرٌ مع تحرُّزه وخوفه الفتك قد أنس بصعصعة هذا لأجل الكتاب الَّذي صحبه من عند أصحابه، وظنَّه رجلاً من بكر بن وائلٍ، فأمنه. فجاءَ يوماً وبحيرٌ جالسٌ في مجلس المهلَّب، عليه قميصٌ ورداءٌ في نعلين. فقعد خلفَه، ثمَّ دَنا منه فأكَبَّ عليه كأنَّه يُكلِّمه. فوجأَهُ بخنجره في خاصرته فغيَّبَهُ في جوفه وخَضْخَضَهُ. فقال النَّاس:

ـ «خارجيٌّ»!

وقال صعصعة:

ـ «يا لَثاراتِ بُكير! أنا ثائرٌ ببُكير».

فأخذه صاحب شرطة المهلَّب في الطَّريق، فأُتي به المهلَّب، فقال المهلَّب:

ـ «بؤساً لك. ما أدركت بثأرك وقَتلتَ نفسك وما على بحير بأسٌ». فقال:

ـ «واللَّه قد طعنتُه طعنةً لو قُسمت بين النَّاس لماتوا. ولقد وجدتُ ريحَ بطنه في يدي».

فحبسه. ودخل عليه السجنَ قومٌ من الأبناء فقبّلوا رأسَهُ. ومات بَحيرٌ من غدٍ، فقيل لصعصعة:

ـ «مات بحيرٌ». فقال:

ـ «اصنعوا ما بدا لكم الآن. أليس قد حلَّت نذور نساءِ بني عوفٍ وأدركتُ ثأري؟ أما واللَّه لقد أمكنني منه خالياً غير مرَّة، فكرهتُ أن أقتله سِرًّا».

فقال المهلَّب:

ـ «ما رأيتُ رجلاً أسخى نفساً بالموت صبراً من هذا».

وقَتَلَهُ.

وقال المهلَّب:

ـ «إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون. غزوةٌ أُصيب فيها بحيرٌ فغضبت عَوف بن كعبٍ والأبناء».

وقال:

ـ «علامَ قَتل صاحبَنا؟ وإنَّما طلب بثأره».

فنازعتهم مُقاعسٌ والبطون حتَّى خاف النَّاسُ أن يعظم البأسُ، إلى أن تلطَّف أهل الحِجى والرَّأي وقالوا:

ـ «احملوا دمَ صعصعة واجعلوا دمَ بحير بَواءاً ببكيرٍ».

فودُوا صعصعة.

ذكر خروج عبد الرَّحمٰن بن الأشعث على الحجَّاج وسبب خلعه لعبد الملك واجتماع النَّاس عليه

ولـمَّا فرغ الحجَّاج من شبيبٍ، قدم عليه المهلَّب وقد فرغ من الأزارقة. فأجلسه معه، ودعا بأصحاب البلاءِ من أصحاب المهلَّب، فحباهم ووَصَلهم. وكاتب عبدَ الملك بن مروان بالفتح، وكتب عبدُ الملك إلى الحجَّاج بولاية خراسان وسجستان مع العراق، وعزل أُميَّةَ عن خراسان، فبعث الحجَّاجُ المهلَّب إلى خراسان من قِبله، وبعث عُبيد اللَّه بن أبي بكرة إلى سجستان، وذلك في سنة ثماني وسبعين، فمكث ابن بكرة بقيَّة سنته، ثمَّ غزا رُتْبيلَ، وقد كان مصالحاً، وكانت العربُ قبل ذلك تأخذ منه خراجاً، وربما

امتنع. فبعث الحجّاج إلى عُبيد اللّه بن أبي بكرة أن ناجِزْهُ بمن معك من المسلمين من أهل الكوفة والبصرة، وكان على أهل الكوفة شُريح بن هانئ، وكان من أصحاب عليّ بن أبي طالبٍ عليه السّلام، وكان عُبيد اللّه على أهل البصرة، وهو أمير الجماعة.

فمضى عُبيد اللّه حتّى وغل في بلاد رتبيل، فأصاب من الأموال والغنم ما شاءَ، وهدم قلاعاً وحصوناً، وغلب على أرض من أرضيهم كثيرة. وأصحاب رتبيل من الترك. فلمّا أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وصاروا منها على ثمانية عشر فرسخاً أخذوا على المسلمين بالعقاب والشّعاب، فسُقط في أيدي المسلمين، وظنُّوا أن قد هلكوا.

فراسلَ ابن أبي بكرة رُتبيلَ على أن يصالحه على سبعمائة ألف. فلقيه شريحٌ فقال له:

ـ «إنّك لا تصالح على شيءٍ إلاّ حبسه السلطان عنكم واحتسبه في أعطياتكم» فقال النّاس:

ـ «لو مُنعْنا العطاءَ ما حيينا، كان أهون علينا من هلاكنا».

فقال له شريحٌ:

ـ «واللّه لقد بلغتُ سِنًّا وقد هلكتْ لِداتي، وما يأتي عليَّ ساعةٌ فأظنُّها تمضي حتّى أموتَ، ولئن فاتتني الشّهادة وأنا أطلبها منذ زمانٍ ما أخالني أدركها. يا أهل الإسلام، تعاونوا على عدوّكم».

فقال له ابن أبي بكرة.

ـ «إنّك شيخٌ وقد خرفتَ».

فقال له شريحٌ:

ـ «إنّما حَسبُك أن يُقال: بُستان أبي بكرة، وحمّام أبي بكرة. يا أهل الإسلام من أراد الشّهادةَ فإليَّ».

فاتّبعه ناسٌ من المتطوّعين كثيرٌ وفرسان البأس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتّى أصيبوا. وقتل شريحٌ ونجا ابن بكرة في من نجا من المسلمين.

وبلغ ذلك الحجّاجَ، فأخذه ما تقدّم وتأخّر وبلغ منه كلَّ مبلغٍ، فكتب إلى عبد الملك:

ـ «أمّا بعدُ، فإنّ جند أمير المؤمنين الّذين كانوا بسجستان أُصيبوا، فلم ينجُ إلاّ القليل منهم، وقد اجترأ العدوُّ على الإسلام، وأردتُ أن أُوجّهَ إليهم جُنداً كثيفاً من أهل المصرين، وأحببتُ أن أستطلع رأيَ أمير المؤمنين في ذلك، فإن رأى ذلك أمضيتُهُ، وإن لم يُرِدْ ذلك فأمير المؤمنين أعلى بجُنده عيناً، مع أنّي أتخوّف أنّه إن لم يأتِ رتبيل ومن معه جندٌ كثيفٌ عاجلاً، أن يستولوا على ذلك الفَرجِ كلّه».

فكتب إليه عبد الملك:

ـ «أمَّا بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه مُصابَ المسلمين بسجستان، وأُولئك قومٌ كُتبَ عليهم القتلُ، فبَرزُوا إلى مَضاجعهم وعلى اللَّه ثوابهم. وأمَّا رأيي في توجيه الجنود، فإنِّي أرى إمضاءَ عزمك، فرأيَك راشداً موفَّقاً».

فأخذ الحجَّاج في جهاز عشرين ألفاً من أهل البصرة وعشرين ألفاً من أهل الكوفة، وجدَّ في ذلك وشمَّر وأعطى النَّاس أعطياتهم، وأخذهم بالخيول الرَّوابع والسِّلاح الكامل، وأخذ في عَرض النّاس، فلا يرى رجلاً تذكر فيه شجاعةٌ إلاَّ أحسنَ معونتَهُ. ولمَّا استتمَّ له الأمر بعثَ عليهم عبد الرَّحمٰن بن محمَّد بن الأشعث، فقدم ابن الأشعث سجستان بمن معه في سنة ثمانين، وكان عبيد اللَّه بن أبي بكرة قد ماتَ قبل قدوم عبد الرَّحمٰن.

ويُقال: إنَّ الحجَّاج أنفق على ذلك العسكر، سوى الأعطيات والأرزاق، ألفي ألف ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وكان يُدعى ذلك الجيشُ جيش الطَّواويس، لحسن هيئاتهم.

فندب عبد الرَّحمٰن النَّاس وعسكر بهم في ظاهر سجستان، ونادى مناديه:

ـ «أيَّ رجلٍ تخلَّف فقد أحلَّ بنفسه العقوبة».

فخرج النَّاسُ كلُّهم إلى معسكرهم ووُضِعت لهم الأسواق وأخذوا في الجهاد والتَّهيُّؤ للحرب.

فبلغ ذلك رُتْبيل، فكتب إلى عبد الرَّحمن يعتذر إليه مُصابَ المسلمين ويُخبره أنَّه كان لذلك كارهاً وأنَّهم ألجؤوه إلى قتالهم ويسأله الصَّفحَ ويَعرض عليه الخراج، فلم يُجبهُ ولم يقبل منه. وسار عبد الرَّحمٰن في الجنود حتَّى دخل أوَّل بلاده، وأخذ رُتبيل يضمُّ إليه جُندَه ويدعُ له الأرضَ رُستاقاً رُستاقاً وحِصناً حِصناً. وكان ابن الأشعث كلَّما حَوى بلداً بعث إليه عاملاً وبعث معه أعواناً ووضع البُرُدَ بين كلِّ بلدٍ وبلد، وجعل الأرصادَ على العقاب والشِّعاب، ووضع المسالح بكلِّ مكان مخوفٍ حتَّى إذا حاز من أرضه شيئاً عظيماً وملأ يَدهُ من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس النَّاس عن الوغول في أرض رُتْبيل، وقال:

ـ «نكتفي بما أصبنا العامَ من بلادهم حتَّى نجبيَها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها، ثمَّ نتعاطى في العام المقبل ما وراءَها، ثمَّ لا نزال ننتقصهم حتَّى نقاتلهم آخر ذاك على كنوزهم وذراريِّهم ومُمتنعِ حصونهم، ثمَّ لا نُزايل بلادَهم حتَّى يهلكهم اللَّه».

ثمَّ كتب إلى الحجَّاج بما فتح من بلاد العدوِّ وبما صنع للمسلمين وبهذا الرَّأي الَّذي رَآه لهم.

ذكر رأيٍ خطإ للحجَّاج أفسد به أُولئك الجند وعبدَ الرَّحمٰن حتى ألجأهم إلى مخالفته وخلعه

وكتب الحجَّاج جواب كتابه:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّ كتابك أتاني وفهمته وهو كتاب امرئ يحبُّ الهُدنةَ ويستريح إلى الموادعة. قد صانعَ عدوًّا ذليلاً أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حسناً وغَناؤهم عظيماً، ولَعَمرُك يا بن أُمِّ عبد الرَّحمٰن، إنَّك حيث تكفُّ عن ذلك العدوِّ بجندي وحدِّي، لَسَخيُّ النَّفس عمَّن أُصيب من المسلمين، وإنِّي لم أُعذر رأيك الَّذي زعمتَ أنَّك رأيتَه رأيَ مكيدةٍ، ولكنِّي رأيتُك أنَّه لم يحملك عليه إلاَّ ضعفك والتِياث رأيك. فامضِ لما أَمرتُك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم، وقتل مقاتليهم، وسبي ذراريِّهم».

ثمَّ أردفَه كتاباً آخر قال فيه:

ـ «أمَّا بعد، فأمُرْ مَن قِبَلك من المسلمين فليحرثوا وليُقيموا، فإنَّها دارُهم، حتَّى يفتح اللَّه عليهم».

ثمَّ أردفه كتاباً آخر فيه:

ـ «أمَّا بعدُ، فامضِ لما أَمرتُك من الوغول في أرضهم، وإلاَّ فإنَّ إسحاق بن محمَّد أمير النَّاس، فخلِّه وما ولِّيته». ـ يعني أخاه.

فلمَّا قرأ كتابه، قال:

ـ «أنَا أحمل ثَقَلَ إسحاق».

ثمَّ دعا النَّاس وجمعهم فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال:

ـ «أيُّها النَّاس، قد عرفتُم نصحي لكم ومحبتي لصلاحكم ولكلِّ ما يعود عليكم نفعه. وقد كان من رأيي لكم في ما بينكم وبين عدوِّكم، رأيٌ استشرتُ فيه ذوي أحلامكم وأُولي التَّجربة في الحرب منكم، فرضوهُ لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً، فكتبتُ بذلك إلى أميركم الحجَّاج وهذا جوابه، يُعجِّزني ويُضعِّفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدوِّ، وهي البلاد الَّتي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنَّما أنَا رجلٌ منكم، أمضي إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم».

فثار إليه النَّاس من كلِّ جانبٍ.

ـ «لا بل نأبى على عدوِّ اللَّه ولا نستمع له ولا نُطيع».

وتكلَّم وجوه النَّاس، فكان أَوَّلهم واثلة الكناني، فقال بعد أن حمد الله وأَثنى عليه:

ـ «إنَّ الحجَّاج ما يرى لكم إلاَّ ما يقول القائل الأوَّل إذ قال لأخيه: احمل عبدَك على الفَرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إنَّ الحجَّاج واللَّه ما يُبالي أن يُخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللُّهوب واللُّصوب، فإن ظفرتم وغنمتم، أَكَل البلادَ وحاز الأموالَ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه، وإن ظفر عدوُّكم كنتم الأَعداءَ البُغضاءَ الَّذين لا يبالي عتبَهم، ولا يُبقي عليهم. اخلعوا عدوَّ اللَّه الحجَّاج وبايعوا الأمير عبد الرَّحمٰن، فإنِّي أُشهدكم أنِّي أوَّل خالعٍ له».

فنادى النَّاس من كلِّ جانب:

ـ «فَعلْنا فعَلْنا وخلعْنا عدوَّ اللَّه».

وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعيّ ثانياً، وكان على شرطته، فقال:

ـ «عبادَ اللَّه، إنَّكم إن أطعتم الحجَّاج جعل هذه البلادَ بلادَكم ما بقيتم، وجمَّركم تجمير فرعون، فإنَّه بلغني أنَّه أَوَّل من جمَّر البعوث، ولم تُعاينوا واللَّه الأحبَّة في ما أرى، أو يموت أكثركم. فبايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوِّ اللَّه فانفُوهُ عن بلادكم».

فوثب النَّاس إلى عبد الرَّحمٰن ليبايعوه فقال:

ـ «أتبايعونني على خلع الحجَّاج عدوِّ اللَّه وعلى النُّصرة لي والجهاد معي حتى ننفيه من العراق»؟

فبايعه الناس على ذلك ولم يذكر عبد الملك إذ ذاك بشيء. ثمَّ استخلف على بُست عياضَ بن همدان، وعلى زَرَنج عبدَ اللَّه بن عامر التَّميمي. وبعث إلى رُتبيل، فصالحه على أنَّ ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي، وإن هزم فأراده، أَلجأَهُ عندهُ وآواهُ.

خروج عبد الرَّحمٰن نحو العراق

وخرج عبد الرَّحمٰن نحو العراق وبعث على مقدَّمته عطيَّة بن عمرو العنبري، وبعث الحجَّاج إليه الخيل، فجعل لا يلقي خيلاً إلاَّ هزمها، حتَّى دخل فارس واجتمع النَّاس بعضهم إلى بعض وقالوا:

ـ «إنَّا إذا خلعنا الحجَّاج فقد خلعنا عبدَ الملك».

فاجتمعوا إلى عبد الرَّحمٰن، وكان أَوَّلُ مَن خلع عبدَ الملك تيحان بن أبجر قام فقال:

ـ «أيُّها النَّاس إنِّي قد خلعتُ أبا دِبَّان كخلعي قميصي».

فخلعه النَّاس ووثبوا إلى عبد الرَّحمٰن فبايعوهُ وكانت بيعتُه:

ـ «تُبايعوني على كتاب اللَّه، وسنَّة نبيِّه، وخلع أَئمَّة الضَّلالة، وجِهاد المحلِّين».

فإذا قالوا: نعم، بايع.

فلمَّا بلغ الحجَّاج ذلك، كتب إلى عبد الملك يُخبره، ويسأله أن يعجِّل بعثة الجنود إليه. وجاءَ حتَّى نزل البصرة، وكان المهلَّب بخراسان حين بلغه شقاق عبد الرَّحمٰن، فكتب إليه:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّك يا بن محمَّد قد وضعتَ رجلَك في غرزٍ طويلِ الغيِّ. اللَّه اللَّه، في نفسك لا تهلكها، وفي دماءِ المسلمين فلا تسفكها، والجماعةِ فلا تفرِّقْها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلتَ: إنِّي أخاف النَّاس على نفسي، فاللَّه أحقُّ أن تخافه عليها من النَّاس والسَّلام».

رأيٌ سديد رَآه المهلَّب للحجَّاج فعصاه

وكتب المهلَّب إلى الحجَّاج:

ـ «أمَّا بعدُ، فإنَّ أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السَّيل المنحدر من عَلٍ ليس يردُّه شيءٌ حتَّى ينتهي إلى قراره. إنَّ لأَهل العراق شِرَّةً في أوَّل مخرجهم وصبابَةً إلى أبنائهم ونسائهم. فليس شيءٌ يردُّهم حتَّى يسقطوا إلى أهليهم ويشمُّوا أولادَهم، فافرج لهم، ثمَّ واقِعْهم فإنَّ اللَّه ناصرك عليهم إن شاء اللَّه».

فلمَّا قرأَ كتابه قال:

ـ «فعل اللَّهُ به وصنع. لا واللَّه، ما لي نظرٌ، ولكنَّ ابنَ عمِّه نَصحَ».

وتجهَّز الحجَّاج للقاءِ عبد الرَّحمٰن، وترك رأي المهلَّب. وكان فرسان أهل الشَّام يسقطون إلى الحجَّاج مائةً مائةً وخمسين خمسين وعشرةً عشرةً، وأقلَّ على البُرُدِ من قِبلِ عبد الملك وهو في كل يوم يساقط إلى عبد الملك كتبَهُ ورسُلَهُ يُخبر أنَّ ابن الأشعثَ أيَّ كورةٍ نزلَ، ومن أيِّ كورة رحلَ، وأيُّ النَّاس إليه أسرع. وكان بكرمان أربعة آلاف من فرسان أهل البصرة وأهل الكوفة فلمَّا مرَّ بهم عبد الرَّحمٰن انجفلوا معه.

وسار الحجَّاج بأهل الشَّام حتَّى نزل قريباً من تُستَر، وقدَّم بين يديه مطهَّر بن حُيَيّ. وكان لعبد الرَّحمٰن مسلحةٌ عليها عبد اللَّه بن أبان الحارثيّ في ثلاثمائةِ فارس. فلمَّا انتهى إليهم مطهَّرٌ أقدم عليه فهزمته مسلحةُ عبدِ الرَّحمن، وأتت الحجَّاجَ الهزيمةُ وهو يخطب. صعد إليه رجلٌ فأخبرهُ بهزيمة النَّاس، فقال:

ـ «أيُّها النَّاس، ارتحلوا إلى البصرة، إلى معسكر ومَعقلٍ وطعامٍ ومادَّةٍ، فإنَّ هذا المكان الَّذي نحن فيه لا يحتمل الجند».

ثمَّ انصرف راجعاً وتبعه خيول أهل العراق. فكلُّ مَن أدركوهُ قتلوهُ وكلَّ ما أصابوا

من ثَقَلٍ حَوَوهُ. ومضى الحجَّاج لا يلوي على شيء حتَّى نزل الزَّاوية، وبعث إلى طعام التجار بالكلأء، فأخذهُ وحمله إليه، وخلَّى البصرة لأهل العراق، وكان عامله عليها الحكم بن أيُّوب بن الحكم بن عقيل الثَّقفي. وجاءَ أهل العراق حتَّى دخلوا البصرة. وكان الحجَّاج حين صُدم تلك الصَّدمة وأقبل راجعاً، دَعا بكتاب المهلَّب وقرأَهُ وقال:

ـ «للَّه أبوه، أيُّ صاحب حربٍ هو! لقد أشار علينا بالرَّأي وكلّنا لم نقبلْ».

وكان مع الحجَّاج يوم انهزم من المال مائةٌ وخمسون ألف ألف ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ففرَّقها في قُوَّاده، وضمَّنَّهم إيَّاها. ولمَّا بلغ أهلَ البصرة هزيمةُ الحجَّاج أراد عبد اللَّه بن عامر بن مِسمع أن يقطع الجسر فرشاه الحكم بن أيُّوب مائة ألف درهم، فكفَّ عنه. ودخل الحجَّاج البصرة، فأرسل إلى ابن عامر، فانتزع المائة الألف منه.

ولمَّا دخل البصرة عبد الرَّحمٰن بن محمَّد بن الأشعث بايعه أهلها، كلُّهم قُرَّاؤُها وكهولها، على خلع الحجَّاج، وخلعَ عبدَ الملك جميع أهلها من القُرَّاءِ والشُّيوخ. وخندق الحجَّاج عليه وخندق عبد الرَّحمٰن على البصرة، واقتتلوا في المحرم سنةَ اثنتين وثمانين. فكانت خيل العراق تهزم أبداً خيل الشَّام حتَّى إذا كان في آخر المحرَّم هزم أهلُ العراق على عادتهم أهلَ الشَّام فنكصت ميمنتهم وميسرتهم، واضطربت رماحُهم، وتقوَّضت صفوفُهم. فلمَّا رأى ذلك الحجَّاج جثا على ركبتيه وانتضى نحواً من شبر من سيفه وقال:

ـ «للَّه درُّ مصعبٍ، ما كان أكرمه حين نُزل به».

قال: فعلمنا أنَّه لا يفرُّ.

قال أبو الزُّبير الهَمْدانيّ: فغمزت أبي بعيني ليأذنَ لي فأضربَ الحجَّاج بسيفي. فغمزني غمزةً شديدة، فسكتُّ، وحانت منِّي التفاتةٌ، فإذا سفيان بن الأبرد قد حمل عليهم فهزمَهم من قِبلِ الميمنة، فقلتُ:

ـ «أبشرْ أيُّها الأمير، فإنَّ اللَّه قد هزم العدوَّ». فقال لي:

ـ «قم فانظر».

قال: فقمتُ فنظرتُ فقلت له:

ـ «قد هزمهم اللَّه». فقال:

ـ «قم يا زياد فانظرْ».

فقام فنظر فقال:

ـ «الحقُّ ـ أصلحك اللَّه ـ يقيناً، قد هُزموا».

فخرَّ ساجداً.

قال: فلمّا رجعتُ شتمني أبي وقال:

ـ «أردتَ أن تُهلكني وأهل بيتي».

قال: فانهزم النّاس، وأقبل عبد الرّحمٰن إلى الكوفة، وتبعه أهل القُوَّة من أصحاب الخيل من أهل البصرة.

ولمّا مضى عبد الرّحمٰن إلى الكوفة وثبت أهل البصرة إلى عبد الرّحمٰن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فبايعوهُ، فقاتل بهم خمسَ ليالٍ أشدَّ قتالٍ رَآهُ النّاس. ثمّ انصرف فلحق بابن الأشعث، وقُتل الحَريش بن هلال وجماعةٌ من الأشراف والوجوه.

قال أبو الزُبير: كنت قد أصابتني جراحةٌ وخرج أهل الكوفة يستقبلون ابن الأشعث حين أقبل، فاستقبلوهُ عند قنطرة زبارا. فقال لي:

ـ «إن رأَيتَ أن تعدل عن الطريق فلا يرى النّاس جراحتك فإنّي لا أحبُّ أن يستقبلهم الجرحى».

ففعلتُ، ودخلت النّاس، فلمّا دخل الكوفة مال إليه النّاس كلُّهم ودخلوا إليه فبايعوه، وسقط إليه أهل البصرة وتقوَّضت إليه المسالح والثُغور، وجاءَهُ في من جاءَهُ من أهل البصرة عبد الرّحمٰن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب. وكُنّا ذكرنا أنّه قاتل الحجّاج بالبصرة بعد خروج ابن الأشعث. فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فقال:

ـ «قاتل اللّه عُدَيَّ الرّحمٰن، قد فرَّ وقاتل غلامٌ من غلمان قريش بعدَه ثلاثاً».

وأقبل الحجّاج من البصرة، فسار في البرّ حتّى مرَّ بالقادسية والعُذيب، وبعث إليه عبد الرّحمٰن بن الأشعث عبد الرّحمٰن بن العبّاس في خيلٍ عظيمةٍ من خيل البصرة، فمنعوه من نزول القادسيّة. ثم سايَره حتّى ارتفعوا على وادي السِّباع، ثمّ تسايرا حتّى نزل الحجّاج دير قُرَّة، ونزل عبد الرّحمٰن دير الجماجم. ثمّ جاءَ ابن الأشعث فنزل دير الجماجم. فكان الحجّاج بعد ذلك يقول:

ـ «ما كان عبد الرّحمٰن يزجر الطّير، حيث رَآني نزلتُ دير قُرَّة ونزل دير الجماجم».

واجتمع القُرّاءُ من أهل المصرين وأهل الثُّغور والمسالح وجماعة أهل الكوفة والبصرة على حرب الحجّاج والّذي جمعهم على حربه بُغضهم له وإجماعُهم على عدوانه وظلمه، وهم إذ ذلك مائة ألفِ مقاتلٍ ممّن يأخذ العطاءَ ومعهم مثلهم مواليهم.

وجاءَت الحجَّاجَ أَمدادُه من قبل عبد الملك. فكان الحجَّاج مخندقاً في عسكره والنَّاس يخرجون في كلِّ يوم فيقتتلون، فلا يزال أحدهما يُدني خندقه نحو صاحبه، فإذا رَآهُ الآخر أدنى خندقه أيضاً من صاحبه واشتدَّ القتال.

ذكر وقعة دير الجماجم

لمَّا بلغ أهلَ الشَّام ورؤُوس قريشٍ قِبَلَ عبد الملك مخالفةُ أهل العراق الحجَّاجَ اجتمعوا إليه، وقالوا:

ـ «إن كان إنَّما يُرضي أهلَ العراق أن تنزعَ عنهم الحجَّاجَ فإنَّ نزع الحجَّاج أهون من حرب أهل العراق فانزعْهُ عنهم تخلصْ لك طاعتهم وتحقن به دماءَنا ودماءَهم».

فبعث عبد الملك ابنَه عبد اللَّه بن عبد الملك وأخاهُ محمَّد بن مروان في خيلٍ إلى أرض العراق، وأمرَهما أن يعرضا على أهلها نَزْعَ الحجَّاج عنهم وأن يُجري عليهم أعطياتهم كما يُجري على أهل الشَّام وأن يَنزل ابن محمَّد بن الأشعث أيَّ بلدٍ شاءَ من العراق يكون عليه والياً ما كان حيًّا وكان عبد الملك والياً. فإن هم قبلوا ذلك فاعزل عنهم الحجَّاج ومحمَّد بن مروان أمير العراق، وإن أبَوا أن يقبلوا فالحجَّاج أمير جماعة أهل الشَّام ووليُّ القتال، ومحمَّدُ بن مروان وعبد اللَّه بن عبد الملك في طاعته.

فلم يأت الحجَّاج قطُّ أَمرٌ كان أشدَّ عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر مخافة أن يقبلوا فيُعزلَ عنهم. فكتب إلى عبد الملك:

ـ «يا أمير المؤمنين، واللَّه لئن أَعطيتَ أهل العراق نَزْعي عنهم لا يلبثون إلاَّ قليلاً حتَّى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلاَّ جُرأَةً عليك. أَلم تَرَ وتسمعْ بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفَّان؟ فلمَّا سأَلهم: ما الَّذي تريدون؟ قالوا: نَزْعَ سعيد بن العاص. فلمَّا نزعَهُ، لم تتمَّ لهم السَّنة حتَّى ساروا إليه، فقتلوهُ. إنَّ الحديدَ بالحديد يُقرعُ. وخار اللَّه لك في ما ارتأيت والسَّلام».

فأبى عبد الملك إلاَّ عرض هذه الخصال على أهل العراقِ طلباً للعافية من الحرب. فلمَّا اجتمعا مع الحجَّاج خرج عبد اللَّه بن عبد الملك فنادى أهلَ العراق وقال:

ـ «أنا عبد اللَّه ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا».

وذكر الخصال الَّتي ذكرناها.

وقال محمد بن مروان:

ـ «أَنا رسول أمير المؤمنين إليكم وهو يعرض عليكم كذا وكذا».

وذكر هذه الخصال. فقالوا:

ـ «نرجع العشيَّة وننظر».

فرجعوا واجتمعوا عند ابن الأشعث، فلم يبقَ قائدٌ ولا رأسٌ ولا فارسٌ إلاّ أتاهُ.

ذكر رأيٍ رَآه عبد الرَّحمٰن عند هذه الحال

لمَّا اجتمع هؤلاءِ كلُّهم عند ابن الأشعث حمد اللَّهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال:

ـ «أَمَّا بعدُ، أُعطيتم اليومَ أمراً انتهازُكم إيَّاهُ اليومَ فرصةٌ، ولا آمَن أن يكون على ذي الرَّأي غداً حسرةٌ. وإنَّكم اليوم على النّصف، وإن كانوا اعتدُّوا عليكم بالزَّاوية فأنتم تعتدُّون عليهم بيوم تُستَر. فأقبلوا ما عُرض عليكم وأنتم أعزَّاء أقوياء، والقومُ لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون. فلا واللَّه لا زلتم عليهم جُراءُ، وعندهم أَعزَّاءُ أبداً، إن قبلتم».

فوثب إليه النَّاس من كلِّ جانبٍ، فقالوا:

«إنَّ اللَّهَ قد أَهلكهم، فأَصبحوا في الأَزْلِ والضَّنك والمجاعة والقِلَّة والذِّلَّة، ونحن ذوو العدد الكثير والسِّعر الرَّفيع والمادَّة القريبة. لا واللَّه، لا نقبل».

فأَعادوا خلعَه ثانياً. وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أَجمعَ من خلعهم إيَّاه بفارس. فرجع محمَّد بن مروان وعبد اللَّه بن عبد الملك إلى الحجَّاج، فقالا:

ـ «شأنك بعسكرك وجندك، فقد أُمرنا أَن نسمع لك ونُطيع».

فقال الحجَّاج:

ـ «قد قلتُ لكما إنَّه لا يُراد بهذا الخلاف غيركما».

ثمَّ قال:

ـ «إنَّما أُقاتل لكما وسلطاني سلطانكما».

فكانوا إذا لقياهُ سلَّما عليه بالإمرة، وكان أيضاً يسلِّم عليهما بالإمرة، وخلَّياهُ والحربَ، فتولاَّها وبرزوا للقتال.

فجعل الحجَّاج على ميمنته عبدَ الرَّحمان بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عُمارةَ بن تميم اللَّخمي، وعلى خيله سفيانَ بن الأَبرد الكلبي، وعلى رجاله عبد الرَّحمن بنَ حبيب الحكمي. وجعل ابنُ الأشعث على ميمنته الحجَّاج بن جارية الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قُرَّة التَّميمي، وعلى خيله عبد الرَّحمن بن العبَّاس بن عامر الشَّعبي، وسعيد بن جُبير، وأَبو البَختري الطَّائيّ، وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى. فكانوا يتزاحفون كلَّ يوم ويقتتلون. فأَمَّا أَهلَ الكوفة والبصرة فتأتيهم موادُّهم من السَّواد فهم في ما شاؤوا من خصب. وأَمَّا أَهل الشَّام ففي ضيقٍ شديدٍ قد غلب

عليهم الأسعار وقلَّ عندهم الطَّعامُ وفقدوا اللَّحم وكانوا كأنَّهم في حصارهم وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويُراوحون فيقتتلون أشدَّ القتال. وكان الحجَّاج يُدني خندقَه مرَّةً وهؤلاءِ أُخرى.

فعبَّى ذات يومِ الحجَّاج أصحابَه وزحف فيها. وخرج ابن الأشعث في سبعة صفوفٍ بعضها في أثَر بعض وعبَّى الحجَّاج لكتيبة القُرَّاءِ الَّتي فيها جبلة بن زَحر ثلاث كتائب وعليهم الجرَّاح بن عبد اللّه الحكمي، فأقبلوا نحوهم.

فتحدَّث أبو يزيد السَّكسَكي قال: أَنَا واللّه في الخيل الَّتي عُبِّئت لجبلة بن زحرٍ كلُّ كتيبة تحمل حملةً، فواللّه ما استفضَضْناهم ولا شيئاً منهم.

وقال أبو الزّبير الهَمْداني: كنتُ في خيلِ جبلة بن زحر. فلمَّا حمل علينا أهل الشَّام مرَّةً بعد مرَّةٍ نادانا عبد الرَّحمن بن أبي ليلى الفقيه، فقال:

- «يا معشر القُرَّاءِ، إنَّ الفرار ليس بأحدٍ من النَّاس أقبحَ منه بكم. إنِّي سمعتُ عليًّا - رفع اللّه درجته في الصَّالحين والشُّهداءِ والصِّدِّيقين - يقول يومَ لقينا أهل الشَّام: أيُّها المؤمنون، إنَّه مَن رأى عُدواناً يُعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكرهُ بقلبه فقد سَلِمَ وَبرِىءَ، ومَن أنكرهُ بلسانه فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكر بالسَّيف لتكون كلمةُ اللّه العليا وكلمةُ الظَّالمين السُّفلى فذلك الَّذي أصاب سبيل الهُدى ونوَّر قلبُه باليقين. فقاتِلوا المحلِّين المبتدعين الَّذين قد جهلوا الحقَّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه».

وتكلَّم أبو البَختري بنحوِ من هذا الكلام وحضَّ على قتالهم، وكذلك الشّعبيُّ، وسعيدُ بن جُبير.

وقال جبلة:

- «إذا حملتم عليهم فاحملوا حملةً صادقةً لا تردُّوا فيها وجوهَكم حتَّى تخالطوا صفَّهم».

قال: فحملنا حملة بجدٍّ منَّا في قتالهم وقوَّة منَّا عليهم. فضربنا الكتائب الثَّلاث حتَّى تكسَّرت بعضها في بعضٍ وتفرَّقت. ثمَّ مضينا حتَّى واقَعنا صفَّهم فضاربناهم حتَّى أزلناهم عنه. ثمَّ انصرفنا، فمررنا بجبلةَ صريعاً لا ندري كيف قُتل.

قال: فهدَّنا ذلك وجئنا فوقفنا مَوقفنا الَّذي كُنَّا به وإنَّ قُرَّاءَنا لمتوافرون ونحن نتناعى جبلة بن زحرٍ، كأنَّما فَقَدَ كلّ واحدٍ منَّا أباهُ أو أخاهُ، بل هو في ذلك الموطن كان أشدَّ علينا فقداً فقال لنا أبو البختريّ:

- «لا يستبينَنَّ عليكم قتلُ جبلة بن زَحر، فإنَّما كان كرجلٍ منكم أتَتْهُ منيّته ليومها، وكلُّكم ذائقٌ، ما ذاقَ، ومدعُوٌ فمجيبٌ».

قال: فنظرتُ في وجوه القُرَّاءِ، فإذا الكآبةُ على وجوههم بيِّنةٌ، وإذا ألسنتُهم منقطعة، وإذا الفشلُ قد ظهر فيهم. فسرَّ أهلَ الشَّام ما رأوا فينا، ثمَّ نادَونا:

ـ «يا أعداءَ اللَّه، قد هلكتم واللَّه، وقتل اللَّه طاغيتكم».

وقدم علينا، ونحن على تلك الحال، بسطامُ بنُ مَصقلة بن هبيرة الشّيباني، فشجَّع النَّاس مقدمُه وقالوا:

ـ «هذا يقوم مقام جَبَلَة».

فسمع هذا الكلامَ من بعضهم أبو البختري، فقال:

ـ «قُبحتم، إن كان كلَّما قُتل رجلٌ واحدٌ ظننتم أن قد أُحيط بكم، فإن قُتل الآن مَصقلةُ ألقيتم بأيديكم وقلتم، لم يبق أحدٌ نقاتل معه. ما أخلقكم أن يُخلِف رجاؤنا فيكم».

وكان قدمَ بسطام من الرَّيِّ.

قال أبو المخارق: قاتلناهم مائة يوم أعدُّها عدًّا لا يزيد يوماً ولا ينقص يوماً وما كُنَّا قطُّ أجرأَ عليهم ولا هم أهون علينا منهم في ذلك اليوم. وذلك أنَّا قاتلناهم عامَّةَ يومنا أحسن قتالٍ قاتلناهم قطُّ ونحن آمنون من الهزيمة عالون القومَ، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل من ميمنة أصحابه حتَّى دنا من الأبرد بن قرَّة التَّميمي وعلى ميسرة عبد الرَّحمن بن محمَّد. فواللَّه ما قاتله كبير قتالٍ حتَّى انهزم. فأنكرها النَّاسُ منه، وكان شجاعاً، ولم يكن الفرار له بعادةٍ. فطن النَّاس أنَّه كان أُومِنَ وصُولحَ على أن ينهزم بالنَّاس. فلمَّا فعلوا تقوَّضت الصُّفوف من نَحوِه، وركب النَّاسُ رؤوسَهم وأخذوا في كلِّ وجهٍ.

فصعد عبد الرَّحمن بن محمَّد المنبر، وأخذ يُنادي النَّاس:

ـ «إليَّ إليَّ، أنَا محمَّد».

فأتاهُ عبد اللَّه بن رِزام الحارثي، فوقف تحت منبره في خيلٍ له، وجاءَهُ عبد اللَّه بن ذُؤاب السُّلمي في خيلٍ له، فوقف قريباً منه وثبت حتَّى دَنا منه أهل الشَّام، فأخذت نبالهم تحوزُه. فقال:

ـ «يابنَ رِزام، احمل على هذه الرَّجَّالة».

فحمل عليهم حتَّى أمعنوا. ثمَّ جاءَت خيلٌ أُخرى ورجَّالةٌ، فقال:

ـ «احمل عليهم يا بنَ ذؤاب».

فحمل عليهم حتَّى أمعنوا وثبت لا يبرح. ودخل أهل الشَّام العسكر، فصعد إليه عبد اللَّه بن يزيد بن المغفَّل الأزدي، فقال:

ـ «انزل، فإنِّي أخاف عليك إن لم تنزل أن تؤسَرَ، ولعلَّك إن انصرفتَ اليوم أن تجمع لهم جميعاً في غدٍ يهلكهم اللَّه».

وكانت بنتُ عبد اللَّه بن يزيد تحت عبد الرَّحمن بن محمد. فنزل وخلَّى أهلُ العراق العسكر وانهزموا لا يلوون. ومضى عبد الرَّحمن مع أُناسٍ من أَهل بيته.

فقال الحجَّاج:

ـ «اتركوهم، فليبتدروا ولا تتبعوهم».

ونادى المنادي:

ـ «مَن رجع فهو آمِنٌ».

ورجع محمَّد بن مروان وعبد اللَّه بن عبد الملك إلى الشَّام بعد الوقعة، وخلَّيا العراقَ والحجَّاجَ.

دخول الحجَّاج الكوفة وجلوسُه للنَّاس

وجاء الحجَّاجُ حتَّى دخل الكوفة وجلس للنَّاس. فكان لا يبايعه أحدٌ من أهل العراق إلاَّ قال:

ـ «أتشهد أنَّك قد كفرتَ؟».

فإذا قال: «نعم»، بايعه، وإلاَّ قتله.

فجاءَ رجلٌ من خثعم، وكان معتزلاً للنَّاس جميعاً من وراءِ الفرات. فسأَله عن حاله فقال:

ـ «ما زلتُ معتزلاً وراءَ هذه النُّطفة منتظراً أمرَ النَّاس حتَّى ظهرتَ، فأَتيتُ لأُبايعك مع النَّاس». فقال:

ـ «أمتربِّصٌ؟ أتشهد أنَّك كافرٌ؟».

ـ «بئس الرَّجلُ أنا إذاً! إن كنتُ عبدتُ اللَّه ثمانين سنةً ثمَّ أَشهد على نفسي بالكفر». قال:

ـ «إذا أَقتلك». قال:

ـ «فإن قتلتني، واللَّه ما بقي من عمري إلاَّ كظمءِ حمارٍ، وإنِّي لأنتظر الموتَ صباحَ مساء». قال:

ـ «اضربوا عنقه».

فلمَّا ضربوا عنقَه لم يبق أحدٌ حولَه من الحرس إلاَّ رحمه ورثى له من القتل.

قتلُه كُميلَ بن زياد النَّخعي وما دار بينهما من كلام

ودعا بكميل بن زياد النَّخعي، وكان ركيناً في الحرب حليماً صاحبَ نجدةٍ وحفاظٍ من أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السَّلام، فقال:

ـ «أنتَ المقتصُّ من أمير المؤمنين عثمان؟ قد كنتُ أُحبُّ أن أجد عليك سبيلاً».

فقال:

ـ «واللّه ما أدري على أيّنا أنتَ أشدُّ غضباً: عليه حين أقادَ من نفسه، أم عليَّ حين عفوتُ عنه؟».

فراجعه الحجَّاج. فقال:

ـ «أيُّها الرَّجل! لا تصرف عليَّ أنيابَك، ولا تتهدَّم عليَّ تهدّم الكثيب، ولا تكشر كشرانَ الذّئب. واللّه ما بقي من عُمري إلاّ مثل ظِمءِ الحمار، فإنَّه يشرب غدوة، ويموت عشيَّةً ويشرب عشيَّةً ويموت غدوةً. اقضِ ما أنتَ قاضٍ، فإنَّ الموعدَ اللّه، وغداً الحسابُ».

فقال الحجَّاج:

ـ «فإنَّ الحجَّة عليك» قال:

ـ «إن كان القضاءُ إليك». قال:

ـ «اقتلُوهُ!».

فقُتل رحمهُ اللّهُ.

وأُتي برجلٍ آخر من بعده طلبه الحجَّاجُ. فقال الحجَّاجُ:

ـ «إنّي أرى وجهَ رجلٍ ما أظنُّه يشهد على نفسه بالكفر». قال

ـ «أخادعي أنتَ عن نفسي؟ بلى أنَا أكفَرُ أهل الأرض، وأكفَرُ من فرعون ذي الأوتاد». فضحك الحجَّاجُ وخلّى سبيلَه.

وتُوُفِّيَ في هذه السَّنة المهلَّب مُنصرفَه من كِس يُريد مرو وأصابته الشَّوصةُ فدعا حبيباً ومن حضر من وَلده فوصَّاهم.

وصيَّةُ المهلَّب إلى ولده حين حضرتْهُ الوفاة

قال:

ـ «عليكم بتقوى اللّه، وصِلة الرَّحِم. اجمعوا أمرَكم ولا تختلفوا. تبارُوا لتجتمع أُمورُكم، إنَّ بني الأُمّ يختلفون وكيف ببني العلاَّت. وعليكم بالطَّاعة والجماعة، ولتَكنْ

أَفعالكُم أَفضلَ من أَقوالكم، فإنِّي أُحبُّ الرَّجلَ أَن يكون لعمله فضلٌ على لسانه. واتَّقوا الجوابَ وزلَّة اللِّسان، فإنَّ الرَّجُلَ تزلُّ قَدَمُهُ فينتعش من زلَّته، ويزلُّ لسانُه فيهلك. وآثِروا الجودَ على البُخل وأَحبُّوا العربَ، واصطنعوا العُرف. فإنَّ الرَّجل تعِدُهُ العِدَةَ فيموتُ دونك، فكيف الصنيعة عنده! عليكم في الحرب بالأَناة والمكيدة، فإنَّها أَنفع من الشَّجاعة، وإذا كان القضاء، ونزل القضاء. فإنْ أخذ رجلٌ بالحزم وظهر على العدوِّ، قيل: أَتاهُ الأَمرُ من وجهه ثمَّ ظفر. وإن لم يظفرْ بعد الأَناة، قيل: ما فرَّط ولا ضيَّع، ولكنَّ القضاءَ غالبٌ. وعليكم بقراءَة القرآن وتعلُّم السُّنن وآداب الصَّالحين. وإيَّاكم والخِفَّةَ وكثرةَ الكلام في مجالسكم. اعرفوا حقَّ مَن يغشاكم، فكفى بِغُدُوِّ الرَّجل ورَواحِه إليكم تذكرةً له. وقد استخلفتُ عليكم يزيدَ».

فقال المفضَّلُ:

ـ «لو لم تقدِّمْ يزيد لَقدَّمناهُ».

ومات المهلَّبُ وصلَّى عليه حبيبٌ، ثمَّ سار بالجند إلى مَرو. فكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة أَبيه واستخلافه إيَّاهُ، فأَقرَّهُ الحجَّاج. وذلك في سنة اثنتين وثمانين.

ذكر وقعة الحجَّاج وابن الأشعث بمَسكِن

لمَّا انهزم ابن الأَشعث من دير الجماجم، وتفرَّق أَصحابُه حصل خلقٌ منهم بالمدائن مع محمَّد بن أَبي وقَّاص وجماعة مع عُبيد اللّه بن عبد الرَّحمن بن أبي سمرة بن جُندَب. وخرج الحجَّاج في آثارهم، فبدأَ بالمدائن. فلمَّا بلغ محمَّدَ بن سعدٍ عبورُه خرج مع أَصحابه حتَّى لحق بابن الأَشعث. وخرج إليه عُبيد اللّه بن عبد الرحمن أَيضاً، واجتمع إليه النَّاس من كلِّ أَوبٍ حتَّى عسكروا معه على دُجيل بمسكن، وأَتاهُ فَلُّ الكوفة، وتلاوم النَّاسُ على الفرار، وبايع أَكثرهم بسطام بن مصقلة على الموت، وخندق عبد الرَّحمن على أَصحابه، وبثق الماءَ من جانبٍ، فوجَّه القتال من وجهٍ واحد.

وقدم عليه خالد بن جرير بن عبد اللّه القسري من خراسان في ناسٍ كانوا معه من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمس عشرة ليلةً من شعبان أَشدَّ قتالٍ حتَّى قُتل زياد بن عُنَيم من أَصحاب الحجَّاج وكان على مسالحه، فهدَّه ذلك وهدَّ أَصحابه. وعبَّى أَصحابه وحضَّهم على القتال، وباكرهم بقتالٍ لم يُرَ مثلُه قطُّ. وجاءَهُ عبد الملك بن المهلَّب مجفَّفاً وقد كُشفت خيلُ سفيان بن الأَبرد.

فقال له الحجَّاجُ:

ـ «ضُمَّ إليك يا عبد الملك هذا النَّشَرَ لعلِّي أَحمل عليهم».

ففعل، وحمل النَّاسُ من كلِّ جانبٍ، فانهزم أَهل العراق أَيضاً وقُتل أَبو البختري

الطَّائيّ وعبد الرَّحمن بن أَبي ليلى، وكانا قالا قبل أن يُقتلا:

ـ «إنَّ الفرار كلَّ ساعةٍ لَقبيح بنا».

فصَبَرا وأُصيبا.

ومشى بسطام بن مصقلة في أربعة آلافٍ ممَّن بايعوهُ على الموت، فهزَم أَهل الشَّام مراراً وكشفهم حالاً بعد حالٍ، ولم يكن الحجَّاج يعرف إليهم طريقاً إلاَّ الطريق الَّذي يلتقون فيه. فأُتي بشيخٍ كان راعياً، فدلَّه على طريق من وراءِ أَجمةٍ في الكرخ طولُه ستَّة فراسخ في ضحضاح من الماءِ. فبات الحجَّاج تلك اللَّيلة وانتخب من جَلَدِ أَهل الشَّام أَربعة آلاف، وقال لقائدهم:

ـ «لِيكُنْ هذا العلجُ أَمامَك وهذه خمسة آلاف درهم. فإن أَقامك على عسكرهم فادفع إليه المالَ، وإن كذَبنا فاضرب عنقَه. فإن رأيتهم فاحمِلْ عليهم في مَن معكَ ولْيكُنْ شعاركم: يا حجَّاج يا حجَّاج».

فانطلق القائد صلاةَ العصر، والتقى عسكرُ الحجَّاج وعسكرُ ابن الأشعث حين فصل القائد بمن معه. فاقتتلوا إلى اللَّيل، فانكشف الحجَّاج من جهة بسطام بن مصقلة كما حكينا من أمره قبلُ، حتَّى عبر السِّيبَ ودخل ابن الأشعث عسكره فانتهبَه.

ذكر تكاسلٍ كان من ابن الأَشعث عاد بوبالٍ عليه واتِّفاقٍ محمودٍ للحجَّاج

قيل لابن الأَشعث:

ـ «الرَّأي أن تتبعَه ولا تُنفّس عنه». فقال:

ـ «قد تعبنا ولحقَنا نَصَبٌ».

فرجع إلى عسكره، وأَلقى أَصحابُه السِّلاحَ وباتوا آمنين، في أَنفسهم لهم الظَّفرُ، وهجم القوم عليهم نصفَ اللَّيل يصيحون بشعارهم. فجعل الرَّجل من أَصحاب ابن الأَشعث لا يدري أين يتوجَّه، دُجَيل من يساره ودجلةُ أَمامَه ولها جُرفٌ مُنكَرٌ. فكان مَن غَرِقَ أَكثرَ ممَّن قُتل. وسمع الحجَّاج الصَّوت، فعبر السِّيبَ، وكان قد قطعه إلى عسكره، ثمَّ وَجَّهَ خيلَه إلى القوم، فالتقى العسكران على ابن الأَشعث، فانهزم في ثلاثمائة. فمضى على شاطئ دجلة حتَّى أَتى دُجيلاً، فعبره في السُّفن وعقروا دوابَّهم، وانحدر في السُّفن إلى البصرة. فدخل الحجَّاج عسكرَه وقتل مَن وجد، حتَّى قتل أَربعةَ آلافٍ، فيهم بسطام بن مصقلة وجماعةٌ من أَهل الشَّرف والصَّبر.

وخرج ابن الأَشعث بمن معه من الفَلِّ منهزمين نحو سجستان فلمَّا دخل كرمان

تلقَّاهُ عمرو بن لقيطٍ وكان عامِلَه عليها. فسأَله نُزُلاً، ونزل.

فقال له شيخٌ من عبد القيس يُقال له مَعقِل:

ـ «واللَّه، لقد بلغنا عنك يا بن الأَشعث أَنَّك جبانٌ في مواطنك».

فقال عبد الرَّحمن:

ـ «ما جَبُنتُ، واللَّه لقد دَلَفتُ إِلى الرِّجال بالرِّجال، ولففتُ الخيلَ بالخيل، ولقد قاتلتُ وقاتلتُ راجلاً، فما انهزمتُ، ولا تركتُ العرصةَ للقوم في موطنٍ حتَّى لا أَجد مقاتلاً، ولا أَرى معي مقاتلاً، ولكنِّي زاولتُ مُلكاً مؤجَّلاً».

ثمَّ مضى ابن الأَشعث بمن معه حتَّى فوَّزَ في مفازة كرمان وخيلُ الشَّام تتبعه، ثمَّ مضى حتَّى خرج إِلى زَرَنج مدينة سجستان، وفيها رجلٌ من بني تميم كان استعمله عبد الرَّحمن عليها يُقال له عبد اللَّه بن عامر من بني مجاشع. فلمَّا قدم عليه ابن الأَشعث منهزماً أَغلق بابَ المدينة دونَه، ومنعه دخولَها. فأَقام عبد الرَّحمن أَيَّاماً رجاءَ افتتاحها ودخولها. فلمَّا رأَى أَنَّه لا يصل إِليها خرج حتَّى أَتى بُستَ، فكان استعمل عليها رجلاً يُقال له عياض بن هميان السَّدوسي، فاستقبله وقال له:

ـ «انزل».

ذكر طمع عياض في ابن الأَشعث

فجاءَ ابن الأَشعث حتَّى نزل به وانتظر حتَّى غفل أَصحاب عبد الرَّحمن، وتفرَّقوا عنه وثب عليه، فأَوثقه وأَراد أَن يأمن بها عند الحجَّاج ويتَّخذ بها عندهُ مكاناً، وقد كان رتبيل حين سمع بمقدم عبد الرَّحمن عليه استقبله في جنوده، وجاءَ حتَّى أَحاط بِبُست، وبعث إِلى البكريّ، واللَّه، لئن آذيتَه بما يُقذى عينَه أَو ضررته ببعض المضرَّة، أَو رزأته حبلاً من شَعر، لا أَبرح العرصة حتَّى أَستنزلك فأَقتلك وجميع مَن معك، ثمَّ أَسبي ذراريَّكم، وأَقسّم بين الجند أَموالكم، وأَقتل مَن عاند منكم.

فأَرسل إِليه البكري أَن:

ـ «أَعطِنا أَماناً على أَنفسنا وأَموالنا ونحن ندفعه إِليك سالماً وما كان له من مالٍ موفَّراً».

فصالحه على ذلك وآمنهم. ففتحوا لابن الأَشعث وخلَّوا سبيله، فأَتى رُتبيل فقال له بعدما أَنس وتساءَلا:

ـ «هذا الرَّجل كان عاملي على هذه المدينة، وركب منِّي ما رأيتَ، فأْذَنْ لي في قتله؟» قال:

ـ «آمنتُه وأَكرهُ الغدر به». فقال:

ـ «فأْذَنْ لي في لَهزِه ودفعه والتّصغير به». فقال:

ـ «أمّا هذا فنعم».

ففعل به عبد الرّحمن، ثمّ مضى مع رتبيل حتّى دخل بلاده، فأَنزله رُتبيل وأَكرمه وعظّمه وكان معه ناسٌ من الفَلِّ كثيرٌ.

ذكر ما اغترَّ به عبد الرَّحمن حتّى فارق رتبيل ثمّ اضطُرَّ إِلى معاودته

كان جماعةٌ من أَصحاب عبد الرّحمن وعظم فُلولِه ممّن لم يقبلوا أَمان الحجّاج وناصَبوهُ في مواطنه لم يكن لهم عنده وجهٌ، فاضطُرُّوا إِلى الخروج في إِثر عبد الرّحمن، فلم يزالوا يتساقطون إِلى نواحي سجستان حتّى اجتمع منهم وممّن اتّبعهم من أَهل البلد نحوٌ من ستّين أَلفاً. فنزلوا على عبد اللّه بن عامر، فحصروهُ وكتبوا إِلى عبد الرّحمن يُخبرونه بعددهم وجماعتهم وهو عند رُتبيل، وكان يُصلّي بهم عبد الرّحمن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، وكتبوا إِليه أَن:

ـ «أَقبِلْ، لعلّنا نسير إِلى خراسان، فإِنّ بها منّا جُنداً عظيماً، فلعلّهم يبايعوننا على قتال أَهل الشّام وهي بلادٌ واسعةٌ عريضةٌ فيها حصونٌ».

فخرج إِليه عبد الرّحمن بمن معه، فحصروا عبدَ اللّه بن عامرٍ حتّى استنزلوه، فأَمر به عبد الرّحمن، فضُرب وعُذّب وحُبس. ثمّ إِنّه توجّه إِليهم خيلُ الشّام، عليهم عمارة بن تميم اللّحميّ.

ذكر آراءٍ أُشير بها على ابن الأَشعث ورأيٍ رَآهُ وحده سديدٍ لو ساعدوه عليه

أَشار أَصحاب عبد الرّحمن عليه أَن يخرج عن سجستان، وقالوا له:

ـ «هَلُمَّ بنا، نأتي خراسان ونَدَع لهم سجستان».

فقال عبد الرّحمن:

ـ «على خراسان يزيد بن المهلّب وهو شابٌّ شجاعٌ صارمٌ وليس بتاركٍ سلطانَهُ، ولو قد دخلتموها وجدتموهُ سريعاً إِليكم، ولن يَدَعَ أَهلُ الشّام اتّباعكم، فأَكره أَن يجتمع عليكم أَهل خراسان وأَهل الشّام، وأَخاف أَلاّ تنالوا ما تظنّون».

فقالوا:

ـ «إِنّما أَهل خراسان منّا، ونحن نرجو أَن لو دخلناها أَن يكون مَن يتّبعنا منهم أَكثر

ممَّن يُقاتلنا، وهي أَرض طويلةٌ عريضةٌ نتنحَّى فيها حيث شِئنا ونمكث حتَّى يُهلك اللَّه الحجَّاج أَو عبدَ الملك، أَو نَرى رأيَنا».

فقال لهم عبد الرَّحمن:

ـ «سيروا على اسم اللَّه».

فساروا حتَّى بلغوا هراة. فلم يشعروا بشيءٍ حتَّى خرج من عسكره عُبيد اللَّه بن عبد الرَّحمن بن سَمُرة بن جُندب القرشيّ في أَلفين، ففارقه وأَخذ طريقاً سوى طريقهم.

فلمَّا أَصبح ابن الأَشعث خطبهم، فحمد اللَّه وأَثنى عليه، ثمّ قال:

ـ «أَمَّا بعدُ، فإنِّي قد شهدتكم في هذه المواطن، وليس منها مشهد لا أَصبر لكم فيه نفسي حتَّى لا يبقى فيه منكم أَحدٌ، وقد كنتُ لمَّا رأيتكم لا تصبرون ولا تصدُقون القتالَ، أَتيتُ مَلجأً ومأمناً فكنتُ فيه. فجاءَتني كُتبكم بأن: أَقبِلْ إلينا فإنَّا قد اجتمعنا وأَمرنا واحدٌ، لعلَّنا نقاتل عدوَّنا. فأَتيتكم، فرأَيتم أَن أَمضي إِلى خراسان وزعمتم أَنَّكم مجتمعون لي، وأَنَّكم لن تتفرَّقوا عنِّي، فحسبي منكم يومي هذا. قد صنع عُبيد اللَّه ما قد رأيتم، فاصنعوا أَنتم أَيضاً ما بدا لكم. أَمَّا أَنا فمنصرفٌ إِلى صاحبي الَّذي أَتيتكم من قِبله. فمن أَحبَّ منكم أَن يتبعني فلْيتبعني، ومَن كرهَ ذلك فلْيذهب حيث أَحبَّ في كنف اللَّه».

فتفرَّقت منهم طائفةٌ ونزلت معه طائفة وبقي عُظم العسكر. فوثبوا إِلى عبد الرَّحمن بن عبّاس الهاشميّ لماَ انصرف ابن الأَشعث، فبايعوهُ ثمَّ مضى عبد الرَّحمن بن الأَشعث إِلى رُتبيل ومضَوا هم إِلى خراسان حتَّى انتهوا إِلى هراة، فلقيهم الرُّقاد بن عُبيد العتكيّ، فقتلوهُ وخرج إِليهم يزيد بن المهلَّب، وأَرسل إِليهم وإِلى الهاشميّ:

ـ «قد كان لك في البلاد متَّسعٌ ومَن هو أَكلُّ منِّي حدًّا وأَهون شوكةً، فارتحلْ إِلى بلدٍ ليس لي فيه سلطان، فإنِّي أَكره قتالك. وإن أَحببتَ أَن أُمدَّك بمالٍ لسفرك أَعنتُك عليه».

فأَرسل إِليه:

ـ «ما نزلنا هذه البلادَ لمحاربةٍ ولا انتقامٍ، ولكنَّا أَردنا أَن نُريح ثمَّ نشخص إِن شاءَ اللَّه، وليست بنا حاجةٌ إِلى ما عرضتَ».

فانصرف رسول يزيد إِليه، وأَقبل الهاشميّ على الجباية وبلغ يزيد، فقال:

ـ «من أَراد أَن يُريح ثمَّ يجتاز لم يَجْبِ الخراج».

فقدَّمَ المفضَّلَ في خمسة آلاف ثمّ أَتبعه في أَربعة آلاف.

ووَزَنَ يزيدُ نفسَه بسلاحه، فكان أَربعمائة رطلٍ، فقال:

ـ «ما أَراني إلاّ قد ثقُلتُ عن الحرب. أيُّ فرس يحملني!».

ثمَّ دعا بفرسه الكامل، فركبه حتَّى أَتى هراة، وأَرسل إلى الهاشميِّ:

ـ «قد أَرحتَ وأَسمنتَ وجبيتَ، فلك ما جبيت، وإن أَردتَ زيادةً زدناك. فاخرجْ، فواللَّه ما أُريد أن أُقاتلك».

فأَبى إلاّ القتال، ودسَّ الهاشميُّ إلى جند يزيد يُمنِّيهم ويَعِدُهم إلى نفسه. فأَخبر بعضهم يزيد، فقال:

ـ «جلَّ الأمرُ عن العتاب. أتغدَّى بهذا قبل أن يتعشَّى بي».

فسار إليه حتَّى تدانى العسكران وتأهَّبوا للقتال، وأُلقي ليزيد كرسيٌّ، فقعد عليه، وولَّى الحربَ أخاهُ المفضَّلَ، وقال له:

ـ «قدِّم خيلَك».

فتقدَّم بها وتهايجوا، فلم يكن بينهم كبير قتالٍ حتَّى تفرَّق النَّاس عن عبد الرَّحمٰن الهاشميِّ، وصبر وصبرتْ معه طائفةٌ من أهل الحفاظ، فكثَرَهم النَّاسُ، فانكشفوا. فأمر يزيد بالكفِّ عن اتِّباعهم، وأخذوا ما كان في عسكرهم، وأسروا منهم أسرى فيهم سعيد ابن أبي وقَّاص، وموسى بن عمر بن عبيد اللَّه بن مَعمَر، وعيَّاش بن الأسود بن عوف الزُّهري، والهلقام بن نُعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، ويزيد بن الحصين، وعبد الرَّحمٰن بن طلحة بن عبيد اللَّه بن خلَف، وعبد اللَّه بن فَضالة الزَّهراني. ولحق الهاشمي بالسِّنْدِ، وابن سَمُرَة قَصَدَ مرو. ثمَّ انصرف يزيد إلى مرو، وبعث بالأسرى إلى الحجَّاج مع ابن عمٍّ له، وخلَّى عن ابن طلحة وعبد اللَّه بن فضالة.

وسعى قوم عبيد اللَّه بن عبد الرَّحمن بن سَمرة، فأخذه يزيد، وحبسه. فأمَّا محمّد ابن سعد بن أبي وقَّاص، فيقال: إنَّه قال ليزيد:

ـ «أسألك بدعوة أبي لأبيك».

ولقوله هذا حديثٌ فيه طولٌ.

ذكر ما تقدَّم به الأسرى عند الحجَّاج

لمَّا قدم الأسرى على الحجَّاج، قُدِّم موسى بن عمر بن عبد اللَّه بن مَعمر، فقال:

ـ «أنتَ صاحب عُدَيِّ الرَّحمٰن». فقال:

ـ «أصلح اللَّه الأمير، كانت فتنةٌ شملت البَرَّ والفاجرَ، فدخلنا فيها، وقد أمكنك اللَّه منَّا، فإن عفوتَ فبحلمك وبفضلك، وإن عاقبت، عاقبتَ ظلمةً مذنبين».

فقال الحجَّاج:

ـ «أمّا قولك: شملت البَرَّ والفاجرَ فكذبتَ، ولكنَّها شملت الفُجَّارَ وعُوفي منها الأبرارُ، وأمّا اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك».

فعُزل، ورَجا له النَّاس العافية. حتَّى قدِّم الهلقام بن نعيم، فقال له الحجَّاج:

ـ «أخبرني عنك، ما رجوتَ من اتِّباع عبد الرَّحمٰن بن محمَّد، أرجوتَ أن يكون خليفةً؟» قال:

ـ «نعم، رجوتُ ذلك وطمعتُ أن يُنزلني منزلتك من عبد الملك».

فغضب الحجَّاج، وقال:

ـ «اضربوا عنقه»!

ونظر إلى موسى بن عمر بن عبد اللَّه بن معمر وقد كان نُحِّيَ عنه، فقال:

ـ «اضربوا عنقه»!

وقُتلَ، وقُتل بقيَّتُهم.

كلامٌ للشَّعبيّ لمَّا حُمل إلى الحجَّاج

كان الحجَّاج لمَّا هزم النَّاس نادى مناديه:

ـ «من لحق بقتيبة بن مسلم بالرَّيِّ فهو أمانهُ».

فلحق ناسٌ كثيرٌ بقتيبة وفيهم عامر الشعبيُّ. فذكره الحجَّاج يوماً وقال:

ـ «أين هو، وما فعل»؟

قال له يزيد بن أبي مسلم، وهو كاتب الحجَّاج:

ـ «بلغني أيُّها الأمير أنَّه لحق بقتيبة».

فكتب الحجَّاج إلى قتيبة أن يبعث إليه بالشَّعبي حين ينظر في كتابه. فسرَّحه إليه.

قال الشعبي: كنتُ لابن أبي مسلم صديقاً. فلمَّا قُدم بي على الحجَّاج لقيتُه وقلتُ له:

ـ «أَشِرْ عليّ». قال:

ـ «ما أدري ما أشير به عليك، غير أن: اعتذِرْ ما استطعتَ من عُذرٍ».

فلمَّا دخلتُ سلّمتُ بالإمرة ثمّ قلتُ:

ـ «أيُّها الأمير إنَّ النَّاس قد أمروني أن أعتذِر إليك بغير ما يعلم اللَّه أنَّه الحقّ. وأيم اللَّه لا أقول في هذا المقام إلاَّ حقًّا. قد واللَّه سوَّدنا عليك، وخرجنا واجتهدنا عليك كلَّ الجَهد فما ألونا. فما كنَّا بالفجرة الأقوياءِ، ولا بالبررة الأتقياء. ولقد نصرك اللَّه علينا، وأظفرك بنا، فإن سطوتَ فبذنوبنا وما جرَّت إلينا أيدينا، وإن عفوتَ عَنَّا

فبحلمك. وبعدُ فالحجَّة لك علينا».

فقال له الحجَّاج:

ـ «أنتَ واللَّه أحبُّ إليّ ممَّن يدخل عليَّ يَقطر سيفُه من دمائنا ثمَّ يقول: ما فعلتُ وما شهدتُ. قد أمنتَ عندنا يا شعبيُّ».

قال: فانصرفت. فلمَّا مشيتُ قليلاً، قال:

ـ «هُلمَّ يا شعبيُّ!».

قال: فوجلَ لذلك قلبي، ثمَّ ذكرتُ قوله: «قد أَمِنتَ». فاطمأنَّت نفسي. قال:

ـ «كيف وجدتَ النَّاس بعدنا يا شعبيُّ»؟

وكان لي مُكرماً. فقلتُ:

ـ «أصلح اللَّه الأمير، اكتحلتُ واللَّه بعدَك السَّهرَ، واستوعرتُ الجناب واستحلستُ الخوفَ وفقدتُ صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً». قال:

ـ «انصرف يا شعبيُّ».

فانصرفتُ.

فيروز يمنع الحجَّاجَ أن ينال مالَهُ

وقيل: إنَّ الحجَّاج لمَّا أُتي بالأسرى من عند يزيد بن المهلَّب، قال لحاجبه:

ـ «إذا دعوتُ بسيِّدهم فأتِني بفيروز فأبرزوا سريرَه».

وهو حينئذٍ بواسط القَصب، قبلَ أن تُبنى مدينة واسط. ثمَّ قال لحاجبه:

ـ «جِئني بسيِّدهم».

فقال لفيروز:

ـ «قُمْ»!

فقال له الحجَّاج:

ـ «أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاءِ فواللَّه ما لحمك من لحومهم، ولا دمك من دمائهم».

فقال:

ـ «فتنةٌ عمَّت النَّاسَ فكنَّا فيها». فقال:

ـ «اكتب لي أموالك». قال:

ـ «ثم ماذا»؟ قال:

ـ «اكتُبْها أَوّلُ». قال:

ـ «ثمَّ أنَا آمِنٌ على دمي»؟ قال:

ـ «اكتُبْها، ثمَّ انظُر». قال:

ـ «أُكتبْ يا غلامُ! ألف ألفِ ١,٠٠٠,٠٠٠، ألفي ألفِ ٢,٠٠٠,٠٠٠».

حتَّى ذكر مالاً عظيماً. فقال الحجَّاج:

ـ «أين هي، وعند مَن هذه الأموال»؟ قال:

ـ «عندي». قال:

ـ «فأدِّها». قال:

ـ «وأنَا آمِنٌ على دمي»؟ قال:

ـ «واللَّه لَتُؤَدِّينَّها، ثمَّ لأَقتلنَّك». قال:

ـ «لا واللَّه، لا جمعتَ مالي ودمي».

فقال الحجَّاج للحاجب:

ـ «نَحِّه»!

فنحَّاهُ ثمَّ أمر به فعُذِّب. وكان في ما عُذِّب به أن كان يُشدُّ عليه القصبُ الفارسيُّ المشقَّقُ، ثمَّ يُجَرُّ حتَّى تَحزَّزَ جسدُهُ، ثمَّ يُنضَح عليه الخَلُّ والملح. فلمَّا أحسَّ بالموت، قال لصاحب العذاب:

ـ «إنَّ النَّاس لا يشكُّون أنِّي قُتلتُ. ولي ودائع أموالٍ عند النَّاس لا تؤدَّى إليكم أبداً فأظهروني للنَّاس ليعلموا أنِّي حيٌّ فيُؤَدُّوا المالَ».

ـ فأعلم الحجَّاجُ فقال:

ـ «أظهروهُ».

فأُخرج، فصاح في النَّاس:

ـ «مَن عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا فيروز الحصين. إنَّ لي عند أقوام مالاً. فمن كان لي عنده شيءٌ فهو له وهو في حِلٍّ فلا يؤدِّينَّ أحدٌ منه درهماً. لِيُبلغ الشَّاهدُ الغائب».

فأمر به الحجَّاج فقُتل.

ذكر خديعةِ للحجَّاج ظنَّ النَّاسُ بها أنَّه آمنهم حتَّى قتلَهم

كان الحجَّاح أمر منادياً فنادى عند الهزيمة يوم الزَّاوية:

ـ «ألا لا أمانَ لفلانٍ ولا لفلانٍ».

سمّى رجالاً من الأشراف ولم يقل: النّاسُ آمنون. فقال النّاس:

ـ «قد آمن من النّاس كلّهم إلاّ هؤلاء النّفر».

فأقبلوا إلى حجرته. فلمّا اجتمعوا أمرهم بوضع أسلحتهم، ثمّ قال:

ـ «لآمُرَنَّ بكم اليوم رجلاً ليس بينه وبينكم قرابةٌ».

فأمر بهم عمارة بن تميم اللخميّ، ففرّقهم وقتلهم.

فروى النّضر بن شُميل عن هشام بن حسّان أنّه قال يوماً: قتل الحجّاج صبراً مائة ألفٍ وعشرين ألفاً، أو مائة ألفٍ وثلاثين ألفاً، منهم يومَ الزّاوية أحد عشر ألفاً، ما استبقى منهم إلاّ رجلاً واحداً كان ابنُه في الكُتّاب مع ابن الحجّاج، فدعا الصّبيَّ وقال:

ـ «أهبه لك»، قال:

ـ «نعم».

فخلّى سبيله.

ذكر هلاك عبد الرّحمٰن بن الأشعث ورأيٍ لبعض أصحابه صحيح

كان مع عبد الرّحمٰن بن الأشعث لمّا انصرف من هراة راجعاً إلى رُتبيل، رجلٌ من أودٍ يُقال له: علقمة بن عمرٍو. فقال له:

ـ «إنّي ما أُريد أن أدخل معك».

قال له عبد الرّحمٰن:

ـ «ولِمَ»؟ قال:

ـ «لأنّي أتخوف عليك وعلى مَن معك». قال:

ـ «وكيف»؟ قال:

ـ «واللّه لكأنّي بكتابٍ من الحجّاج قد جاءَ فوقع إلى رتبيل يُرغبه ويُرهبه، فإذا هو قد بعث بك سِلماً أو قتلك ومَن معك. ولكن هاهنا خمسمائة رجلٍ قد تبايعنا على أن ندخل مدينةً فنتحصّن فيها ونقاتل حتّى نُعطَى أماناً، أو نموت كراماً».

فقال عبد الرّحمٰن:

ـ «كلاّ، فادخُلْ معي، فإنّي أُواسيك وأُكرمك».

فأبى عليه. ودخل عبد الرّحمٰن إلى رتبيل وخرج هؤلاءِ الخمسمائة. فبعثوا عليهم

مودوداً البصريَّ. فأقاموا حتَّى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخميّ، فحاصرهم، فقاتلوهُ، وامتنعوا منه حتَّى آمنهم. فخرجوا إليه، فوفى لهم.

وتتابعت كُتب الحجَّاج إلى رتبيل في عبد الرَّحمٰن أن:

ـ «ابعث به إليَّ، فواللَّه لأُوطِئنَّ أرضك ألف ألف مقاتل».

وكان عمارة قد انتهى إلى سجستان في ثلاثين ألفاً، وكان عند رُتبيل رجلٌ من تميم من بني يربوع يُقال له: عُبيد بن أبي سُبيع، وكان مع ابن الأشعث، فخصَّ برتبيل، وكان قديماً رسولَ ابن الأشعث فخفَّ عليه. فلمَّا رأى رُتبيل لا يُسلِمُ ابن الأشعث خلا به وخوَّفه الحجَّاج، وقال:

ـ «أنا آخذ لك من الحجَّاج عَقداً ليكفَّنَّ الحجَّاج عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه ابن الأشعث». فقال رتبيل:

ـ «فإنِّي أفعل».

فكاتب الحجَّاجَ وأعلمه أنَّ رُتبيل لا يعصيه وأنَّه يتوصَّل له إلى أخذ ابن الأشعث، وأخذ من الحجَّاج مالاً، وخرج إلى عمارة بن تميم، فاستعجل منه ألف ألف ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وأخذ من رتبيل أيضاً مالاً، واشترط لرتبيل ألاَّ يُغزي بلادَه عشر سنين، وأن يؤدّي بعد العشر سنين في كلِّ سنةٍ تسعمائةِ ألف درهم. فأعطى هو وابن أبي سبيع، وأرسل رُتبيل إلى ابن الأشعث، فأحضرهُ وثلاثين من أهل بيته وقد أعدَّ لهم الجوامع والقيود، فألقى في عنقه جامعةً، وفي عنق أخيه القاسم بن محمَّد بن الأشعث جامعةً، وأرسل بهم إلى أدنى مسلحةِ عُمارَةَ منه. وقال لجماعة مَن كان مع ابن الأشعث:

ـ «تفرَّقوا إلى حيث شئتم».

ولـمَّا قرب ابن الأشعث من عمارة، ألقى نفسه من فوق قصر، فمات واحتُزَّ رأسُه، فأُتي به وبالأسرى عُمارةُ فضرب أعناقهم، وأرسل برأس ابن الأشعث وبرؤوس أهله إلى الحجَّاج، فأرسل به الحجَّاج إلى عبد الملك، فأرسل به عبدُ الملك إلى أخيه عبد العزيز وهو يومئذٍ على مصر.

فحكى ابن عائشة: أنَّه لـمَّا أُتي عبدُ الملك برأس ابن الأشعث، أرسل به مع خصِيٍّ له إلى امرأة من بنات عمر بن الأشعث كانت تحت رجلٍ من قريش. فلمَّا وضع بين يديها نهضت إليها وقالت:

ـ «مرحباً برأسٍ لا يتكلَّم، ملك من الملوك، طلب ما هو أهله، فأبت المقاديرُ».

فذهب الخصيُّ ليأخذ الرَّأسَ واجتذبته من يده وقالت:

ـ «لا واللَّه حتَّى أبلغ حاجتي منه».

ثمَّ دعتْ بخطميٍّ فغسلته وغلّفته، ثمَّ قالت:

ـ «شأنك به الآن».

فأخذه. ثم أخبر عبدَ الملك، فلمّا دخل عليه زوجُها قال له:

ـ «إن استطعت أن تُصيب منها سحلةً».

ذكر سبب عزل يزيد بن المهلّب عن خراسان

كان الحجّاج يهاب ناحية يزيد بن المهلّب بعد فراغه من عبد الرَّحمٰن بن محمَّد ويعرف منزلته من عبد الملك فيخشاه على موضعه وقد كان أذلَّ أهل العراق كلّهم، إلاَّ آلَ المهلّب. فأكثر على عبد الملك في شأن يزيد بن المهلّب، وخوَّفه غدرَه وعيَّره، فإنَّه وأهل بيته زبيريّون.

فكتب إليه عبد الملك:

ـ «قد أكثرتَ في معنى يزيد، وإنَّ الّذي دعا آل المهلّب إلى الوفاءِ لابن الزُّبير هو الّذي يدعوهم إلى الوفاءِ لي».

وبلغ يزيد بن المهلّب ما يريد الحجّاج. فكان يُكثر الغزوات ويعتلُّ على الحجّاج إذا استقدمه أنّه بإزاءِ عدوٍّ وحروبٍ. إلى أن أذن عبد الملك في عزل يزيد وتقليد قتيبة ابن مسلم خراسانَ.

فكتب الحجّاج إلى يزيد بن المهلّب أن:

ـ «استخلف أخاك المفضّل».

وكتب إلى المفضّل بولاية خراسان. فجعل المفضّل يستحثُّ يزيد. فقال له يوماً يزيدُ:

ـ «يا أخي، إنَّ الحجّاج لا يُقرُّك بعدي، وإنّما دعاه إلى ما صنعَ مخافةُ أن أمتَنعَ عليه». قال:

ـ «بل حسدتَني».

قال يزيد:

ـ «أنا أحسدُك يا بن بَهلَة؟ ستعلم».

وقد كان يزيد قال لنُصحائه:

ـ «مَن ترون الحجاج يولّي خراسان»؟ قالوا:

ـ «رجلاً من ثقيفٍ». قال:

ـ «كلاً، ولكنَّه يكتب إلى رجل منكم بعهده. فإذا قدمتُ عليه عَزَله، فولّى رجلاً من قيس، وأَخلِقْ بقتيبةَ».

قال: فلمَّا قال له أخوه ما قال وولاَّهُ الحجَّاج بعد يزيد تيقَّن يزيد ما كان يظنُّه قبل ذلك. فاستشار الحصين بن المنذر، فقال له:

ـ «أقم واعتلَّ، فإنَّ أمير المؤمنين حسن الرَّأي فيك، وإنَّما أُتيتَ من قِبل الحجَّاج، فإن أقمتَ رجوتَ أن يكتب إليه بإقرارك».

قال يزيد:

ـ «إنَّا أهل بيتٍ بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخِلاف».

فقال الحصين بن المنذر:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتَني فأصبحتَ مسلوبَ الإمارة نادِما
فما أنا بالباكي عليك صبابةً وما أنا بالدَّاعي لِترجعَ سالما

فلمَّا قدم قتيبة خراسان، قال لحصين:

ـ «كيف قُلتَ ليزيد»؟

قال: قلتُ له:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتَني فنفسَك وَلِّ اللَّومَ إن كنتَ لائما
فإن يَبلغِ الحجَّاجَ أن قد عصَيتَهُ فإنَّك تَلقى أمرَهُ متفاقِما

قال:

ـ «فماذا أمرتَه فعصاك»؟ قال:

ـ «أمرتُه ألاَّ يَدعَ صفراءَ ولا بيضاءَ إلاَّ حملَها إلى الأمير».

فقال رجل لعباط بن الحصين:

ـ «أمَّا أبوك فوجدهُ قُتيبةُ حين فرَّه قارحاً بقوله: أمرته ألاَّ يَدَعَ صفراءَ ولا بيضاءَ إلاَّ حملها إلى الأمير».

فكان عزل يزيد عن خراسان وخروج قتيبة إليها في سنة خمسٍ وثمانين، وذلك أنَّه لمَّا حصل يزيد عند الحجَّاج عزلَ المفضَّل وولَّى قُتيبةَ.

وفي هذه السَّنة قُتل موسى بن عبد اللّه بن خازم بالتِّرمذ

ذكر السَّبب في ذلك

كُنَّا ذكرنا ما كان من عبد اللّه بن خازم من قبلُ مع بني تميم. فتفرَّق عنه عُظم مَن كان معه منهم، فخرج إلى نيسابور، وخاف بني تميم على ثَقَلِه بمرو، فقال لابنه موسى:

ـ «حوِّل ثَقَلي من مرو، واقطع نهر بلخ حتَّى تلجأ إلى حصن تثق به فتقيم فيه».

فشخص موسى في مائتين وعشرين فارساً من الصعاليك، فصار في أربعمائة وانضمَّ إليه رجالٌ من بني سليم، فقطع النَّهر وأتى بخارى فسأل صاحبها أن تلجأ إليه فأبى وخافه وقال:

ـ «رجلٌ فاتكٌ وأصحابُه مثله طالبو حرب وشرٍّ، ولا آمنهم».

فبعث إليهم بصلةٍ من عين ودوابّ وكسوة، فنزل على عظيم من عظماءِ بخارى في نوقان، فقال له الرَّجل:

ـ «إنَّه لا خير لك في المُقام وهم لا يأمنونك».

فخرج يلتمس ملكاً يلجأُ إليه أو حِصناً. فلم يأتِ بلداً إلاَّ كرهوا مُقامَهُ فيهم، وسألوهُ أن يخرج عنهم حتَّى أتى سمرقند وصاحبها طَرخون. فأنزله وأكرمه فجرى بينهما ما استوحش منه طرخون، فقال له:

ـ «لولا أنِّي أعطيتكم الأمان لقتلتكم، فاخرجوا عن بلدي».

ووصله وأخرجه. فخرج موسى وأتى كِسّ. فكتب صاحب كِسّ إلى طرخون يستنصره. فأتاهُ فخرج إليه موسى في سبعمائةٍ، فقاتلهم حتَّى أمسوا وتحاجزوا وبأصحاب موسى جراحٌ كثيرٌ. فلمَّا أصبحوا أمرهم موسى فحلقوا رؤوسهم كما تصنع الخوارج، وقطعوا صَفنات أقبيتهم كما تصنع العجم إذا استماتوا، ودسَّ إلى طرخون زرعةَ بن علقمة، فقال:

ـ «إنَّ القوم مستقبلون، فما حاجتك إلى أن تقتلِ مَن لا تصل إليه حتَّى يُقتلَ مِن أصحابك عدَّتُهم، ولو قتلتَه وإيَّاهم جميعاً ما نِلتَ حظًّا، لأنَّ له قدراً في العرب، فلا يلي أحدٌ خراسانَ إلاَّ طالبك بِدَمِه، فإن سلمتَ من واحدٍ لا تسلم من آخر». قال:

ـ «ليس إلى ترك كسّ عليه سبيلٌ». قال:

ـ «فكُفَّ عنه حتَّى يرتحل».

فكفَّ عنه. وأتى موسى التِّرمِذ وبها حصنٌ يشرف على النَّهر. فنزل موسى على بعض الدَّهاقين خارجاً من الحصن، والدِّهقان مُجانبٌ لِترمِذْ شاه. فقال لموسى:

ـ «إنَّ صاحب التِّرمِذ متكرِّمٌ شديد الحياءِ، فإن ألطَفتَه وهاديتَه أدخلك حِصنَه».

فأهدى له وألطفه موسى حتَّى لطُف الَّذي بينهما. وخرج فتصيَّد معه وكثُرَ ألطاف موسى له. فصنع يوماً صاحب التِّرمِذ طعاماً، وأرسل إليه:

ـ «إنِّي أحبُّ أن أكرمك، فتَغَدَّ عندي، وائتني في مائةٍ من أصحابك».

فانتخب موسى مائةً من أصحابه، فدخلوا على خيولهم، فقيل لهم:

ـ «انزلوا».

فنزلوا، وأُدخلوا بيتاً خمسين في خمسين، وغَدَّوهُم. فلمَّا فرغوا من الغَداءِ اضطجع موسى. فقالوا له:

ـ «اخرجْ». قال:

ـ «لا أُصيبُ منزلاً مثلَ هذا. فلستُ بخارجٍ منه حتَّى يكون بيتي أو قبري».

وقاتَلوهم في المدينة. فقُتل خَلقٌ من أهلها وهرب الآخرون. فدخلوا منازلهم وغلب موسى على المدينة وقال لِترمِذشاه.

ـ «اخرجْ، فإنِّي لستُ أعرض لك ولا لأحدٍ من أصحابك».

فخرج الملك وأهل المدينة، فأَمُّوا التُّركَ يستنصرونهم. فقالوا:

ـ «دَخل عليكم مائةُ رجلٍ فأخرجوكم عن بلادكم، وقد قاتلناهم بِكسٍّ، فعرفناهم، فنحن لا نقاتل هؤلاءِ».

وأقام ابن خازم بالتِّرمِذ، ودخل إليه أصحابه، وكانوا سبعمائة. فلمَّا قُتل أبوهُ انضمَّ إليه من أصحاب أبيه أربعمائة فارسٍ، فقويَ، فكان يخرج ويُغير على مَن حوله. فراسله التُّركُ بقومٍ ليعلموا ما الَّذي يريد، ويتقرَّرَ أُمورُهم على صلحٍ، ويكفُّوا عن الغارة.

فلمَّا قدموا قال موسى لأصحابه:

ـ «إنَّ هؤلاءِ يُسمُّونكم جنًّا وأُريد أن أكيدهم بمكيدة، وذلك في أشدِّ ما يكون من زمان الحرِّ».

ذكر مكيدةٍ ضعيفةٍ تمَّت على قوم أغتام

ثمَّ أمر موسى بنارٍ، فأُجِّجت، وألبس أصحابَه ثيابَ الشِّتاءِ، ولبسوا فوقها لُبوداً، ومدُّوا أيديهم إلى النَّار كأنَّهم يصطلون، وأَذَّن موسى للتُّرك، فدخلوا فلمَّا رأوهم على تلك الحال فزعوا وقالوا:

ـ «ما هذا، ولِمَ صنعتم ما نَرى»؟ قالوا:

ـ «إنَّا نجد البردَ في هذا الوقت ونجد الحرَّ في الشِّتاءِ».

فلمَّا رجعوا أخبروا أصحابهم، فقالوا:

ـ «هذا صنيع الجنّ، ولا خير في قتال هؤلاءِ، والرَّأيُ مقاربتهم».

ولمَّا ولي بكير بن وساج خراسان لم يعرض له ولم يوجِّه إليه أحداً.

ثمَّ قدم أُميَّة، فسار بنفسه يُريده. فخالفه بُكيرٌ وخلع ورجع إلى مَرْوَ، كما حكينا في ما تقدَّم. فلمَّا صالح أُميَّةُ بُكيراً وحالَ الحَولُ، وجَّهَ إلى موسى رجلاً من خزاعة في جمعٍ كثير. فعاد أهل التِّرمِذ إلى التُّرك، فاستنصرهم، وقالوا:

ـ «نجتمع عليهم مع مَن غزاهم منهم فنظر بهم».

فسارت التُّرك مع أهل التِّرمذ في جمعٍ كثير، فأطاف بموسى التُّركُ والخزاعيّ. فكان يقاتل الخزاعيُّ أوَّل النَّهار والتُّرك آخِرَهُ. فقاتلهم ثلاثة أشهر على ذلك.

ثمَّ قال موسى لعمرو بن خالد بن حصن الكلبي، وكان فارساً:

ـ «قد طال أمرنا وأمر هؤلاءِ، وقد أجمعتُ أن أُبيِّت عسكر الخزاعيِّ، فإنَّهم للبيات آمنون، فما ترى؟» قال:

ـ «البياتُ نعِمَّا هو، فليكن ذلك بالعجم، فإنَّ العرب أشدُّ حذراً وأسرعُ فزعاً وأجرأُ على اللَّيل من العجم».

فعمل موسى على بيات التُّرك. فلمَّا ذهب من اللَّيل ثُلثُه خرج في أربعمائة، وقال لعمرو بن خالد:

ـ «اخرجوا بعدنا وكونوا قريباً، فإذا سمعتم التَّكبير فكبِّروا».

وأَخذ على شاطئ النَّهر حتَّى ارتفع فوق العسكر. ثمَّ أَخذ من ناحية كفنان. فلمَّا قرب من عسكرهم جعل أَصحابَه أرباعاً. ثمَّ قال:

ـ «أَطيفوا بعسكرهم، فإذا سمعتم تكبيرنا فكبِّروا».

وأَقبل وقدَّم حُمُراً بين يديه ومشَوا خلفَه. فلمَّا رَآهم أَصحاب الأَرصاد قالوا:

ـ «مَنْ أَنتم؟» قالوا:

ـ «عابِرو سبيلٍ».

فقال لهم صاحب الرَّصَد:

ـ «جوزوا».

فلمَّا جازوا الرَّصدَ تفرَّقوا وأَطافوا بالعسكر وكبَّروا، فلم يشعر التُّركُ إلاَّ بوقع السُّيوف. فثاروا، وأَقبل بعضهم يقتل بعضاً. ثمَّ ولَّوا وحَوَوا عسكرهم وأَصابوا سلاحاً ومالاً، وأَصبح الخزاعيُّ وأَصحابُه وقد كسرهم ذلك وخافوا مثلها من البيات، فتحرَّزوا.

ذكر مكيدةٍ لعمرو بن خالد

فقال عمرو بن خالدٍ لموسى:

ـ «إنَّك لا تظفر إلاَّ بمكيدةٍ، وأرى لهم أَمداداً فهم يكثرون. فتناولني بضربِ

فلعلّي أُصيبُ من صاحبهم فرصةً فأَقتله ويتفرّق عنك هؤلاء الجمع».

فقال له:

- «تتعجّل الضَّرب، ثمَّ تتعرَّض للقتل». قال:

- «أمَّا القتل فأَنا متعرِّضٌ له في كلِّ يوم، وأمَّا الضَّرب فما أَيسرَهُ في جنب ما أُريد».

فتناوله بالضَّرب، ضربه خمسين سوطاً، فخرج من عسكره موسى، فأَتى عسكر الخزاعيّ مستأمناً، وقال:

- «أَنَا رجل من أَهل اليمن، كنتُ مع عبد اللَّه بن خازم. فلمَّا قُتل أَتيتُ ابنَه، فلم أَزل معه. فلمَّا قدمتُ اتَّهمني وتنكَّرَ لي، ثمَّ تغضَّب عليَّ وقال: أَنتَ عين له، فضربني ولم آمَن القتلَ وقلتُ: ليس بعد الضرب إلاَّ القتل، فهربتُ منه».

فآمنه الخزاعيُّ، وأَقام معه إلى أَن دخل يوماً وهو خالٍ، ولم يرَ عنده سلاحاً، فقال له كأَنَّه يتنصح له:

- «إنَّ مثلك في مثل حالك لا ينبغي أَن يكون في حالٍ من أَحواله بغير سلاحٍ». فقال:

- «إنَّ معي سلاحاً».

ورفع صدر فراشه، وإذا سيفٌ منتضًى. فتناوله عمرٌو فضربه به حتَّى قتله. وخرج فركب فرسَه ونذر به النَّاسُ وقد أَمعن. فطلبوه، ففاتَهم ورجع إلى موسى، وتفرَّق ذلك الجيش وأَتى بعضهم موسى مستأمناً، فآمنه.

ولم يوجِّه إليه أُميَّة أَحداً إلى أَن قدم المهلَّب، فلم يعرض له ووصَّى بنيه، فقال:

- «إيَّاكم وموسى، فإنكم لا تزالون وُلاةَ هذا الثَّغر ما أَقام هذا الرَّجل بمكانه، فإن قُتل كان أَوَّل طالع عليكم أَميراً على خراسان رجلٌ من قيسٍ».

فمات المهلَّب، وولِّي يزيد فلم يعرض له.

وكان المهلَّب ضرب حُريث بن قُطبَةَ الخزاعيّ، فخرج هو وأَخوه ثابتٌ إلى موسى. فلمَّا وَليَ يزيد بن المهلَّب أَخذَ أَموالَهما وحُرمَهما، وقتل أَخاً لأُمِّهما يُقال له الحارث بن مُنقذٍ. فبلغهما صنيع يزيد، وكان ثابتٌ محبَّباً في العجم بعيدَ الصَّوت فيهم يُعظِّمونه ويثقون به، حتَّى إنَّهم كانوا يحلفون بحياته فلا يكذبون. فخرج ثابتٌ إلى طرخون، فشكا إليه ما صُنع به، فغضب له طرخون، وجمع له نيزك والسِّبل وأَهل بخارى والصُّغانيان، فقدموا مع ثابتٍ إلى موسى بن عبد اللَّه وقد سقط إلى موسى فلُّ عبد الرَّحمن بن عبَّاس القرشي من هراة وفلُّ ابن الأشعث من العراق وغيرهم.

فاجتمع إلى موسى ثمانية آلافٍ من تميم وقيس وربيعة واليمن. فقال له ثابتٌ:

ـ «سِرْ حتَّى تقطع النَّهر، فتخرج يزيد بن المهلَّب من خراسان ونُولِّيك، فإنَّ طرخون ونيزك والسِّيل وأهل بخارى معنا».

فهَمَّ أن يفعل، فقال له نصحاؤه:

ـ «إنَّ ثابتاً وأخاه خائفان من يزيد، وإن أَخرجتَ يزيد عن خراسان تولّيا الأَمرَ وغلباك على خراسان، فأَقم بمكانك».

فقبِلَ رأيَهم، وأَقام بالتِّرمذ وقال لثابتٍ:

ـ «إن أَخرجنا يزيدَ قدِمَ عاملٌ عبد الملك ولكنَّا نُخرج عُمَّال يزيد من وراءِ النَّهر ما يلينا، ونُحصِّل لنا ما وراءَ النَّهر فنأكلها».

ورضي ثابتٌ، وأَخرج عُمّال يزيد من وراء النّهر، وحُملت إليهم الأَموال، فقوي أَمرهم.

وانصرف طرخون ونيزك والسِّيل وأَهل بخارى إلى بلادهم وتدبير الأَمر كلّه لثابتٍ وحُريثٍ، والأَميرُ موسى ليس له غير الاسم. فألَحَّ أَصحاب موسى عليه في الفتك بثابتٍ وحُريثٍ، فأَبى وقال:

ـ «ما كنتُ لأغدر بهم».

فبينا هم على ذلك إذ أَخرجت عليهم الهياطلة والتُّبّتُ والتُرك في سبعين أَلفاً لا يعدُّون الحاسِرَ ولا صاحبَ بَيضةٍ جمَّاء إلاّ أن تكون البيضة ذاتَ قونَسٍ. فخرج موسى لقتالهم إلى ربض المدينة، ووقف ملك التُّرك على تلٍّ في مائة أَلف.

فقال موسى لأَصحابه:

ـ «إن أَزلتم هؤلاءِ، فليس الباقون بشيءٍ».

فقصد لهم حُريث، وأَلحَّ عليهم حتَّى أَزالهم عن التَّلّ، ورُمي حُريثٌ في جبهته بنُشَّابةٍ. ثمَّ بيَّتهم موسى، وحمل أَخوهُ خازم بن عبد اللّه بن خازم حتَّى وصل إلى شمعة ملكهم، فقتله وقتلَ العجمَ قتلاً ذريعاً، ونجا مَن نجا منهم بشرٍّ. ومات حُريث بعد يومين، وحملوا الرُّؤوس إلى التِّرمذ، فبنَوا من تلك الرُّؤوس جوسَقين.

فقال أَصحاب موسى:

ـ «قد كُفيتَ أَمر حُريثٍ، فأَرحنا من أَمر ثابتٍ».

فأَتى وبلغ ثابتاً بعض ما يخوضون فيه، فدسَّ غلاماً كان في خدمة موسى وأَعطاهُ مالاً وقال له:

ـ «إيَّاك أن تتكلَّم بالعربيَّة، وإن سألوك: من أنت؟ فقل: من سَبي باميان».

فكان الغلام ينقل إلى ثابتٍ خبرهم إلى أن واقفوا يوماً موسى على الفتك بثابتٍ. فقال موسى:

«قد أكثرتم، وفيه هلاككم، فعلى أيِّ وجهٍ تفتكون به وأنا لا أغدر به؟».

فقال نوح بن عبد اللَّه بن خازم:

ـ «إذا غدا إليك غدوةً عدَلنا به إلى بعض الدُّور فضربنا عنقه فيها قبلَ أن يصل إليك». فقال:

ـ «أما واللَّه، إنَّه لَهلاككم».

فخرج الغلام، فأعلمه، فخرج من تحت ليلته، وأصبحوا وقد ذهب وفُقد الغُلام. فعلموا أنَّه كان عيناً له عليهم، وخرج إلى ثابتٍ قومٌ، فقصد خشوان. فقال موسى:

ـ «قد فتحتم على أنفسكم باباً فسُدُّوهُ».

وسار إليه موسى، وراسل ثابتٌ طرخونَ، فأقبل مُعيناً له، وبلغ موسى مجيءُ طرخونَ، فرجع إلى التِّرمذ، وصار ثابت في ثمانين ألفاً، فحصَروا موسى وقطعوا عنه المادَّة حتَّى جُهدوا. فلمَّا اشتدَّ عليهم الحصار، قال يزيد بن هذيل:

ـ «إنَّما مقام هؤلاء مع ثابتٍ، واللَّه أفتكنَّ بثابتٍ، أو لأموتنَّ، فالقتل أحسن من الموت جوعاً».

فخرج إلى ثابتٍ مستأمناً، فقال ظُهير لثابتٍ:

ـ «أنا أعرف بهذا منك، واللَّه ما أتاك رغبةً فيك، ولا جزعاً منك، ولقد جاءك بغَدرةٍ، فخلِّني وإيّاه». فقال:

ـ «ما كنتُ لأُقدم على رجلٍ أتاني لا أدري أكذلك هو أم لا»، قال:

ـ «فدعْني أرتهن منه رهناً». قال:

ـ «أمَّا هذا فنعَمْ».

فقال ثابت ليزيد بن هذيل:

ـ «أمَّا أنَا فواثق بك وابن عمِّك أعلم بك منِّي، فانظر ما يقول لك».

فقال يزيد لظُهير:

ـ «أبيتَ يابا سعيدٍ إلاَّ حسداً. ما يكفيك ما ترى من الذُّلِّ، تشرَّدتُ عن العراق عن أهلي، وصرتُ بخراسان على ما ترى، أما يعطِفك الرَّحم؟».

فقال له ظُهير:

ـ «أَما واللّه، لو تُركتُ ورأْيي فيك لمَا كان هذا، ولكن أَرهِنّا ابنَيك قدامةَ والضَّحّاكَ».

فدفعهما، فكانا في يدي ظهير. فأَقام يزيد يلتمس غرّة ثابتٍ، فلا يجدها حتّى مات ابنٌ لزيادٍ القصير الخُزاعي، أَتاهُ نعيه من مَرو. فخرج ثابتٌ متفضّلاً إِلى زيادٍ ليُعَزِّيَهُ ومعه ظُهيرٌ وطائفةٌ من أَصحابه وفيهم يزيد بن هذيل وقد تقدَّم ظُهيرٌ في أَصحابه، فدنا من ثابتٍ وضربه، فعضَّ السّيف برأسه، فوصل إِلى الدِّماغ، ورمى يزيد بنفسه في نهر الصُّغانيان، فنجا سباحةً، وحُمل ثابتٌ إِلى منزله.

فلمَّا أَصبح طرخون أَرسل إِلى ظُهير:

ـ «ائتني بابنَي يزيد».

فأَتاه بهما فقتلهما، وكان يزيد بن هُذيل سخيًّا شجاعاً شاعراً، وعاش ثابت سبعة أَيَّام، ثمَّ مات، وقام بأمر العجم طرخون، وقام ظُهير بأَمر أَصحاب ثابتٍ قياماً ضعيفاً وانتشر أَمرُهم، وأَجمع موسى على بياتهم. فجاءَ رجل فأَخبرَ طرخونَ، فضحك وقال:

ـ «موسى يعجز أَن يدخل متوضّأَهُ، فكيف يبيِّتنا، لقد طار قلبك، لا يحرسنَّ اللَّيلةَ أَحدٌ العسكرَ».

فلمَّا ذهب من اللَّيل ثُلثُه خرج موسى في ثلاثمائةٍ، وأَخوه في ثلاثمائةٍ، ويزيد بن هذيل في ثلاثمائةٍ، ورقبة بن الحُرّ في ثلاثمائة، وقال لهم:

ـ «تفرَّقوا أَرباعاً حتَّى تدخلوا عسكرهم من أَربع نواحِيَ، ولا يمرُّ أَحدٌ منكم بشيءٍ إِلاّ ضربه».

فدخلوا عسكرهم من النَّواحي لا يمرُّون بدابَّةٍ ولا رجلٍ ولا خباءٍ، ولا جُوالق إِلاّ ضربوه، وهجم نوح بن عبد اللّه بن خازمٍ على سرادق طرخون. فبرز إِليه فتجاولا، وطعن طرخون فرس نوح في خاصرته فشبَّ ودلّى بنوح حتّى سقط في نهر الصّغانيان، وراسل طرخون موسى:

ـ «كُفَّ أَصحابَك، فإِنّا نرتحل إِذا أَصبحنا».

فرجع موسى إِلى عسكره، وارتحل طرخون وجميع من معه، فأَتى كلُّ قوم بلادَهم.

فكان أَهل خراسان يقولون:

ـ «ما رأينا قطُّ مثل موسى بن عبد اللّه بن خازم، ولا سمعنا به، قاتلَ مع أَبيه سنتين، ثمَّ خرج يسير في بلاد خراسان، حتَّى أَتى مَلِكاً، فغلبه على مدينته، ثمَّ سار إِليه الجنود من العرب والعجم والتُّرك».

فكان يقاتل العرب في أَوَّل النَّهار والعجم آخر النَّهار، وأَقام في حصنه خمس عشرة سنة، وصار ما وراءَ النَّهر لموسى لا يُعازُّهُ فيه أَحدٌ.

فلمَّا ولي المفضَّل خراسانَ أَخرج عثمان بن مسعود من الحبس، وقال:

ـ «إِنِّي أُريد أَن أُوجِّهك إِلى موسى بن عبد اللَّه». قال:

ـ «واللَّه، لقد وترني، وإِنِّي لثائرٌ بابن عمِّي ثابتٍ وما يد أَبيك وأَخيك عندي وعند أَهل بيتي بالحسنة، لقد حبستموني، وشرَّدتم بني عمِّي، واصطفيتم أَموالَهم».

فقال له المفضَّل:

ـ «دَعْ عنك هذا، وسِرْ، فأَدرِكْ بثأرك».

فوجَّهه في ثلاثة آلاف، وقال له:

ـ «مُرْ منادياً فَلْينادِ: مَن لحقَ بنا فلَهُ ديوانٌ».

فنادى بذلك في السُّوق، فتسارع النَّاس، وكتب المفضَّل إِلى أَخيه مُدركٍ وهو ببلخ أَن يسير معه. فنزل عثمان جزيرةً بالتِّرمذ يُعرف اليوم بجزيرة عثمان، في خمسة عشر ألفاً، وكتب إِلى السُّبل وطرخون، فقدموا عليه، وحصروا موسى، فضيَّقوا عليه وعلى أَصحابه، وخندق عثمان وحذر البياتَ، فلم يقدر موسى منه على غِرَّةٍ، فقال يوماً لأَصحابه:

ـ «حتَّى مَتى؟ اخرجوا بنا، فاجعلوهُ يومَكم، إِمَّا ظفِرتم وإِمَّا قُتلتُم».

وقال لهم:

ـ «اقصدوا لِلصُّغد والتُّرك».

وخلَّف النَّضر بن سليمان بن عبد اللَّه بن خازم في المدينة وقال له:

ـ «إِن قُتلتُ فلا تُسلمَنَّ المدينة إِلى عثمان، بل ادفعها إِلى مُدرك بن المهلَّب». وخرج، وصيَّر بإِزاءِ عثمان قوماً من أَصحابه وقال:

ـ «لا تُهايجوه حتَّى يُقاتلكم».

وقصد لطرخون، فصدقه، فانهزم طرخون والتُّركُ، وأَخذوا عسكرَهم، فجعلوا ينقلونه، وكرَّت الصُّغد والتُّرك راجعة، فحالوا بين موسى وبين الحصن، فقاتلهم، فعُقر به، فسقط، فنادى مولى له:

ـ «احملني ويحك».

فقال:

ـ «الموت كريهٌ، ولكن ارتدف فإِن نجونا نجونا معاً، وإِن هلكنا هلكنا معاً». فارتدف ونظر إِليه عثمان حين وثب، فقال:

ـ «وثبة موسى وربِّ الكعبة».

فخرج من الخندق، وحمل وكشف أَصحابَ موسى، وقصد لموسى، فعثرت دابَّة موسى، فسقط هو ومولاهُ، فابتدروهُ فقتلوهُ وبقيت المدينة في يد النَّضر، فدفعها إِلى مُدركٍ وآمنه، وكتب المفضَّل بالفتح إِلى الحجَّاج، وذلك في سنة خمسٍ وثمانين.

ثمَّ دخلت سنة ستٌ وثمانين

وفيها مات عبد الملك بن مروان. فكانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر.

أَسماء وزراء عبد الملك بن مروان وما نقل إِلينا من آرائهم وتدابيرهم الَّتي يليق ذكرها بهذا الكتاب

قبيصة بن ذُؤيب

كان يكتب لعبد الملك قبيصة بن ذُؤيب الخزاعيّ، ويكنَّى أَبا إِسحاق، وكان خاصًّا به، وكان يتولَّى ديوان الخاتم. وبلغ من لطافة محلِّه منه أَنَّ الكتب الواردة على عبد الملك كان يقرأها قبيصة قبل أن تصل إِلى عبد الملك، ثمَّ يدخل بها إِليه مفضوضة الختم فيقرأها.

وكان مروان عهد إِلى أَخيه عبد العزيز بعد عبد الملك، فهمَّ عبد الملك، لمَّا تمكَّن واستقام أمره، بخلعه والعقدِ لابنيه الوليد وسليمان، فنهاهُ قبيصة بن ذُؤيب كاتبُه، وقال:

ـ «انتظِرْ، فلعلَّ الموت يأتي عليه فيكفيكه».

وكان قلَّده مصر، فورد الكتاب بوفاته سنة خمسٍ وثمانين، فقرأَه قبيصة على عادته، ثمَّ دخل على عبد الملك فعزَّاهُ بأَخيه، وعقد لابنيه الوليد وسليمان العهدَ بعده وكتب إِلى البلدان بذلك فبايعوه.

أَبو الزُّعيزِعة

وكان يكتب له أَبو الزُّعيزعة مولاه. فيُحكى أَنَّه حضر زُفر بن الحارث يوماً عند عبد الملك وبحضرته أَبو الزُّعيزعة بعد أَن اجتمع إِليه، فقال لزفر بن الحارث:

ـ «كيف ترى ما ساقه اللّه إِلينا؟»

فقال زُفَرُ:

ـ «الحمد للّه الَّذي نصرك على كُرْهِ مَن كَرِهَ».

فقال أَبو الزُّعيزعة:

ـ «ما كره ذلك إلاَّ كافر».

فقال له زُفَر:

ـ «كذبتَ! قال اللَّه عزَّ وجلَّ لنبيِّه: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ۝٥﴾ [الأنفال: ٥] أمؤمنين سمَّاهم أم كُفَّاراً؟».

فغضب عبد الملك، فقال زُفَرُ:

ـ «يا أَمير المؤمنين، أرأَيتَ لو قُلتُ: الحمد للَّه الَّذي نصرك، فقد كنتَ مسروراً بذلك، أَما كنتَ تمقتني ويمقتني اللَّهُ وأَنا أُقاتلك تسع سنين؟» فقال له:

ـ «صدقتَ».

روح بن زنباع

وكان يكتب له رَوحُ بن زنباعٍ. ورَوحٌ هذا هو الَّذي همَّ به معاوية، فقال له:

ـ «يا أَمير المؤمنين، لا تُشتمنَّ بي عدوًّا أَنتَ وَقَمتَهُ، ولا تسوءَنَّ فيَّ صديقاً أَنت سررتَه، ولا تهدمَنَّ رُكناً أَنتَ بنيتَه. هلاَّ أَتى حلمُك وإِحسانُك على جهلي وإِساءَتي!».

فأَمسك عنه.

ربيعة الغار الحرشيّ

وكان يكتب له ربيعة الغار الحرشي. وكان استشاره عبدُ الملك في تقليد الوليدِ ابنِه العهدَ، فقال:

ـ «أَمهلني سنةً».

فأَمهله. فلمَّا انقضت عاوَدَهُ وقال:

ـ «إِنِّي عزمتُ أَن أُولِّيه شيئاً من النَّواحي، فإِذا مضتْ له مدَّةٌ قلَّدتُه العهدَ». فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إِنَّك بعثت الوليدَ يقسم الأَموال بين النَّاس ما رضوا عنه، فكيف تبعثه جابياً؟ إِن احتاطَ ذُمَّ، وإِن رفق عجزَ، وأَنت تريد أَن تُجيبه، فولِّه المَعاونَ والصَّوائف، فيكون ذلك شرفاً وذكراً».

صالح بن عبد الرَّحمن وهو الَّذي نقلَ الدَّواوين من الفارسيّة إِلى العربيَّة

وكتب له صالح بن عبد الرَّحمن مولى بني مُرَّة بن عُبيد بن تميم من سبي سجستان، ويُكنَّى صالحٌ أَبا الوليد، وهو الَّذي نقلَ الدَّواوين من الفارسيَّة إِلى العربيَّة. وكان ذلك أَنَّ الدَّواوين كانت تجري فيها وجوهُ الأَموال بالفارسية.

وكان بالبصرة والكوفة ديوانٌ بالعربيّة لإحصاءِ النّاس وأَرزاقهم وأَعطياتهم، وهو الّذي كان عُمرُ رسمه. وكان بالشّام أَيضاً ديوانان: أَحدهما بالرُّوميَّة، والآخر بالعربيَّة، فجرى الأَمرُ عليه إِلى أَيّام عبد الملك، وكان إذ ذاك يتقلّد ديوان الفارسيَّة زادانفرُّوخ، فخلفه عليه صالح بن عبد الرَّحمن، فخفَّ على قلب الحجَّاج وحضّ به. فقال لزادانفرُّوخ:

ـ «إِنّي قد خففتُ على قلب الحجَّاج، ولستُ آمَن أَن أُزيلك عن محلّك لتقديمه إِيَّاي، وأَنت ربيبي».

فقال له زادانفرُوخُ:

ـ «لا تفعلْ، فإِنَّه إِليَّ أَحوج منّي إِليه». فقال له:

ـ «وكيف ذلك؟» قال:

ـ «لا يجد مَن يكفيه الحسابَ».

فقال له صالحٌ:

ـ «لو شئتُ حوَّلته إِلى العربيَّة». فقال له:

ـ «فحوِّلْ منه سطراً».

فحوَّلَ منه شيئاً كثيراً.

فقال زادانفرُّوخ لأَصحابه:

ـ «التمسوا كسباً غير هذا».

فلمَّا بلغ الحجَّاج ذلك أَمرَ صالحاً بنقل الدَّواوين، فنقلها إِلى العربيّة في سنة ثمانٍ وسبعين. وكان عامَّةُ كُتَّاب العراق تلامذه صالح.

ولمَّا هم صالح بنقل الدَّواوين، قال له بعض كُتَّاب الفُرس:

ـ «كيف تصنع بواذ». قال:

ـ «أَكتب: وأَيضاً». فقال:

ـ «كيف تصنع بدهيازده؟» قال:

ـ «أَكتبُ عُشراً». فقال:

ـ «كيف تصنع بدهبوذه، وبنجيوذه؟» قال:

ـ «أَكتب عَشيراً ونصفَ عشيرِ». قال له:

ـ «قطع اللّه أَصلك من الدُّنيا، كما قطعتَ الفارسيَّة».

وقال الحجَّاج يوماً لصالحٍ، وكان متَّهماً برأي الخوارج:

ـ «إنِّي فكَّرت فيك فوجدتُ مالك ودمك حلالين لي وأنَّني غير آثم إن تناولتُهما».

فقال صالح:

ـ «إنَّ أغلظ ما في الأمر ـ أعزَّ اللّه الأمير ـ أنَّ هذا القول بعد الفكر».

فضحك منه ولم يقل له شيئاً.

عُبيد بن المخارق

ومن كُتَّاب الحجَّاج عُبيد بن المخارق، قلَّده الحجَّاج الفوجتين، فوردها وقال:

ـ «هل ههنا دهقان يعاش برأيه؟» فقيل له:

ـ «هذا جميل بن بَصبَهرى».

فأحضره وشاوره، فقال له جميلٌ:

ـ «خبِّرني أقدمتَ لِرضى ربِّك، أم رِضى نفسك، أم رِضى مَن قلَّدك؟» فقال:

ـ «ما استشرتُك إلاَّ برضى الجميع». قال:

ـ «فاحفظ عنِّي خِلالاً: لا يختلفْ حُكمُك على الرَّعيَّة، لِيَكنْ حُكمُك على الشريف والوضيع سواءاً، ولا تتَّخذنَّ حاجباً ليردَّ عنك الواردَ من أهل عملك، وليكُنْ على ثقةٍ من الوصول إليك، وأطِل الجلوس لأهل عملك يتهيَّبك عُمَّالك، ولا تقبل هديَّةً، فإنَّ صاحبها لا يرضى بثلاثين ضعفاً لها، فإذا فعلتَ ذلك فاسلخْ جلودَهم من فروعهم إلى أقدامهم».

قال: فعملتُ بوصيّته، فجبيتُها خمسة عشر ألف ألف درهم.

يزيد بن أَبي مسلم

وكان يزيد بن أَبي مسلم ـ واسم أَبي مسلم دينارٌ من موالي ثقيف ـ كاتباً للحجَّاج، وكان أَخاه من الرَّضاعة. فتقلَّد له ديوان الرَّسائل، وكُنيتُه أَبو العلاءِ. وكان الحجَّاج يُجري له في كلِّ شهرٍ ثلاثمائة درهم، فكان يُعطي امرأَته خمسين درهماً، ويُنفق في ثمن اللَّحم وما يتَّصل به خمسةً وأَربعين درهماً، ويُنفق باقيها في ثمن الدَّقيق وسائر عوارض نفقته، وإِن فضلَ منها شيءٌ ابتاعَ به ماءاً وسقاه المساكين، وربّما ابتاع قُطفاً وفرَّقها فيهم وهو مع ذلك يقتل الخلق للحجَّاج.

وحُكي أَنَّ الحجَّاج عادهُ من علّةٍ اعتلَّها، فوجد بين يديه كانوناً من طين ومنارة خشبٍ، فقال:

ـ «يا أَبا العلاءِ، ما أَرى أَرزاقَك تكفيك». فقال:

ـ «إن كانت ثلاثمائة لا تكفيني، فثلاثون ألفاً لا تكفيني».

ويزيد بن أبي مسلم هو الّذي نبّه الحسن البصري على الاستتار حتّى سلم من الحجّاج، وذلك أنّه لقيه خارجاً من عنده فقال له:

ـ «توارَ يا أبا سعيد، فإني لست آمن أن تتبعك نفسُه».

فتوارى عنه، وسلم منه. وقيل: إنّه استتر تسع سنين.

عبد الملك وكاتبٌ له قبل هديّة

وبلغ عبدَ الملك أنّ بعض كُتّابه قبل هديّةً، فقال له:

ـ «أقبلت هديّةً منذ ولّيتك؟» فقال:

ـ «أُمورك، يا أمير المؤمنين، مستقيمةٌ، والأموال دارّةٌ، والعُمّال محمودون، وخراجك موفّرٌ». فقال:

ـ «أخبرني عمّا سألتُك». قال:

ـ «نعم، قد قبلتُ». قال:

ـ «فواللّه لئن كنتَ قبلتَ هديّةً لا تنوي مكافأة للمُهدى لها، إنّك لَدَنيٌّ ولئيمٌ، وإن كنتَ قبلتها لتستكفي رجلاً لم تكن لتستكفيه لولاها، إنّك لخائنٌ، ولئن كنتَ نويتَ تعويض المُهدى عن هديّته ولا تخون له أمانةً ولا تثلم له ديناً، فلقد قبلتَ ما بسط عليك لسان معامليك، وأطمعَ فيك ساير مجاوريك، وسَلبَكَ هيبة السُّلطان، وما في مَن أتى أمراً لم يخلُ فيه، من لؤمٍ أو دناءةٍ أو خيانةٍ أو جهلِ مصنع».

وخلعه عن عمله.

خلافة الوليد بن عبد الملك

وبويع للوليد بن عبد الملك بالخلافة. فخطب النَّاس لمَّا انصرف من دفن أبيه، وقال في آخر خطبته:

- «أيُها النَّاس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإنَّ الشيطان مع الفرد. أيُها النَّاس، من أبدى ذات نفسه ضربنا الَّذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه».

ثمَّ نزل وحاز أدوات الخلافة وأثاثها، وكان جبَّاراً عنيداً.

وفي هذه السَّنة وهي سنة ستٍّ وثمانين، ورد قُتيبة بن مسلم إلى خراسان فقدمها والمفضَّل يعرض الجند وهو يريد أن يغزو الموضع الَّذي يُقال له: أخرون وشُومان. فخطب الناس قتيبةُ، وحثَّهم على الجهاد، وسار، فلمَّا كان بالطَّالقان تلقَّاهُ دهاقين بلخ وعظماؤهم، فساروا معه. فلمَّا قطع النَّهر تلقَّاه تيش الأعور ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب. فدعاه إلى بلاده. فمضى مع تيش إلى الصُّغانيان، فسلَّم إليه بلادَه. وسار قُتيبة إلى أخرون وشومان وهما من طخارستان فجاءَه صاحبها، فصالحه على فديةٍ أدَّاها، فقبلها قُتيبة ورضيَ، وانصرف إلى مرو، واستخلف أخاه صالحاً، وفتح صالحٌ بعد رجوع قتيبة باسان انبجغر، وكان معه نصر بن سيَّار، فأبلى يومئذٍ، فوهب له قريةً تدعى سحابه. ثمَّ قدم صالحٌ على قُتيبة بعد ذلك فاستعمله على التِّرمذ، وغزا قتيبة بعد ذلك بَيكَنْد، وهي أدنى مدائن بخارى، فلمَّا نزل بعقوتهم استنصروا السُّغد، واستمدُّوا مَن حولَهم، فأتوهم في جمع كثير، وأخذوا بالطُّرُق، فلم ينفُذ لقتيبة رسولٌ ولم يصل إليه خبرٌ نحو شهرين، وأبطأ خبرهُ على الحجَّاج، فأشفق على الجند، وأمر النَّاس بالدُّعاءِ لهم في المساجد وهم يقتتلون في كلِّ يوم. وكان لقتيبة عينٌ يُقال له تُنذَر من العجم، فأعطاهُ أهل بخارى مالاً على أن يَفتأ عنهم قُتيبةَ.

ذكر حيلة لِتُنْذَر ما نفذت له وقُتل لأجلها

أقبل تُنذَرُ إلى قتيبة، فقال:

- «أخلِني»!

فنهض النَّاس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضَّبِّي، فقال تُنذَرُ:

- «هذا عامل يقدم عليك وقد عُزل الحجَّاج، فلو انصرفت بالنَّاس إلى مَرو».

فدعا قتيبةُ مولاه سِيا، فقال له:

ـ «اضربْ عُنقَ تُندَر»!

فقتله.

ثمَّ قال لِضرار:

ـ «لم يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإنّي أُعطي اللّه عهداً، إن ظهر هذا الحديث من أحد حتّى تنقضي حربنا، لأُلحقنّك بتندر، فاملك لسانك، فإنَّ انتشار هذا الحديث يفتُّ في أعضاد النّاس».

ثمَّ أَذن للنّاس، فدخلوا، فراعهم قتلُ تُندر، فوجموا وأطرقوا، فقال قتيبة:

ـ «ما يردعكم من قتل عبدٍ أحانه اللّه». قالوا:

ـ «كُنّا نظنُّه ناصحاً للمسلمين». قال:

ـ «بل كان غاشًّا، قد مضى لسبيله بذنبه، فاغدوا على قتال عدوِّكم وألقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به».

فغدا النّاس متأهبين، فأخذوا مصافَّهم، ومشى قتيبةُ فحضَّ أهل الرَّايات. فكانت بين النّاس مشاولةٌ. ثمَّ إنَّهم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مآخذها، فقاتلوهم حتّى زالت الشمس، ثمَّ منح اللّه المسلمين أكتافهم، فانهزم المشركون يريدون المدينة، فاتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدُّخول، فتفرَّقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسراً، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل. فوضع قتيبة الفعلة في أصلها ليهدمها، فسألوهُ الصُّلحَ فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من قيسٍ، وارتحل عنهم يريد الرُّجوع. فلمّا سار مرحلتين نقضوا، وكفروا، وقتلوا العامل وأصحابه وجدَعوا آنُفَهم وآذانهم، وبلغ ذلك قتيبة، رجع إليهم وقد تحصَّنوا، فقاتلهم شهراً، ثمَّ وضع الفعلة في أصل المدينة، فعلَّقوها بالخشب وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فينهدم. فسقط الحائط وهم يعلّقونه، فقتل أربعين رجلاً من الفعلة، فطلبوا الصلح، فأبى، وقاتلهم، فظفر بها عَنوةً، فقتل من كان فيها من المقاتلة، وكان في من أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش التُّركَ على المسلمين. فقال لقتيبة:

ـ «أنا أفدي نفسي».

فقال له سُليم النّاصح:

ـ «ما تبدل»؟ قال:

ـ «خمسة آلاف حريرة صينيّة قيمتها ألف ألف ١,٠٠٠,٠٠٠».

قال قتيبة:

ـ «ما ترون»؟ قالوا:

ـ «نرى أنَّ فداءَه زيادة في غنائم المسلمين وما عسى أن يبلغ من كيد هذا»؟

قال:

ـ «لا واللَّه، لا يروِّع بك مسلم أبداً».

وأمر به فقُتل. وأصاب في بَيْكَنْد من آنية الذَّهب والفضَّة ما لا يُحصى. فولَّى الغنائم والقَسمَ عبدَ اللَّه بن وَألان، وكان قتيبة يسمّيه الأمينَ بن الأمين، وإياس بن بَيهس، فأذابا الآنيةَ والأصنامَ ورفعاه إلى قتيبة، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا، فوهبه لهما، فأُعطيا به أربعين ألفاً، فأعلماه فرجع فيه، فأمرهما أن يذيباهُ، فأذاباه، فخرج منه خمسون ألف مثقال. وأصابوا في بيكند شيئاً كثيراً، فصار في أيدي المسلمين من بيكند شيءٌ لم يصيبوا مثلَه بخراسان.

ذكر اتّفاق عجيب مع إضاعة حزم وهو السَّبب الَّذي سمى به قتيبةُ عبد اللَّه بن وألان الأمين بن الأمين

كان السَّبب الَّذي سَمَّى قتيبة له عبد اللَّه بن وألان الأمين بن الأمين أنَّ مسلماً الباهليَّ قال لوألان.

ـ «إنَّ عندي مالاً أحبُّ أن استودعكه». فقال:

ـ «أتريد أن يكون مكتوماً أو لا»؟

فكره أن يعلمه النَّاس. قال:

ـ «لا، بل أُحبُّ أن تكتمه». قال:

ـ «ابعثْ به مع رجلٍ تثق به إلى موضع كذا».

وأمره إذا رأى رجلاً جالساً في ذلك الموضع أن يَضعَ ما معه وينصرف. قال:

ـ «نعم».

فجعل المسلم المال في خُرجٍ وحمله على بغلٍ وقال لمولًى له:

ـ «انطلق بهذا البغل إلى موضع كذا، فإذا رأيتَ رجلاً جالساً، فخَلِّ عن البغل وانصرف». فانطلق الرَّجل بالبغل، وقد كان وألان أتى الموضع لميعاده، فأبطأ عليه رسول مسلم، ومضى الوقت الَّذي وعده، فظنَّ أنَّه قد بدا له، فانصرف، وجاء رجلٌ من بني تغلب، فجلس في ذلك الموضع، وحضر الرَّسول مع البغل والمال، فرأى الرَّجلَ جالساً، فخلَّى عن البغل ورجع. فقام التَّغلبيُّ، فلمَّا رأى البغل والمال ولم يَرَ

معه أحداً قاد البغلَ إلى منزله وقبض المال إليه.

وكان ظنَّ مسلمٌ أنَّ المال صار إلى وألان، فلم يسأَلْ عنه حتَّى احتاج إليه، فلقيه وقال:

ـ «مالي». قال:

ـ «ما قبضتُ شيئاً ولا لك عندي مال».

فكان مسلم يشكوه ويتنقَّصه. فأتى يوماً مجلس بني ضُبيعة، فشكاه، والتَّغلبيُّ جالسٌ. فقام إليه وخلا به وسأله عن المال، فأخبرهُ، فانطلق به إلى منزله، وأخرج الخُرج إليه، وقال:

ـ «أتعرفه»؟ قال:

ـ «نعم»، قال:

ـ «والخاتم»؟ قال:

ـ «نعم». قال:

ـ «فاقبض مالك».

وأخبره الخبر. فكان مسلمٌ بعد ذلك يأتي القبائل وجميع مَن شكا وَألان عندهم وخوَّنه فيعذرهُ ويخبرهم الخبر.

ذكر رأيٍ للحجَّاج أشار به وهو بواسط على قُتيبة وهو بخراسان حتَّى فتح بخارى وموقفٍ لأصحاب قتيبة مستحسنٍ

غزا قتيبة وردان خذاه ملك بخارى سنة تسع وثمانين، فلم يظفر من البلد بشيءٍ. فرجع إلى مرو، فكتب إليه الحجَّاج:

ـ «صوِّرها لي والطُّرقَ إليها».

فبعث إليه بصورتها. فكتب إليه الحجَّاج أن:

ـ «ارجع إلى مراغتك فتُبْ إلى اللّه عزَّ وجلَّ ممَّا كان منك وائتها من مكان كذا وكذا».

فخرج قتيبة إلى بخارى وذلك في سنة تسعين، من حيث أشار به الحجَّاج، فأرسل وردان خذاه إلى السُّغد والتُّرك ومَن حولهم يستنصرهم. فأَتوهم وقد سبق إليها قُتيبة، فحصرهم. فلمَّا جاءَتهم أمدادهم خرجوا إليهم يقاتلونهم، فقالت الأزد:

ـ «اجعلونا على حِدة وخلُّوا بيننا وبين قتالهم».

فقال لهم قتيبة:

ـ «شأنكم، تقدَّموا».

فتقدَّموا، فقاتلوهم وقتيبة جالسٌ عليه رداءٌ أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعاً، ثمَّ جال المسلمون وركبهم المشركون، فحطَّموهم حتَّى دخلوا عسكر قُتيبة وجازوهُ حتَّى ضرب النِّساءُ وُجوهَ الخيل وبكين، وقاتلوهم حتَّى ردّوهم. فوقف التُّرك على نَشَرٍ، فقال قتيبة:

ـ «مَن يُزيلهم لنا عن هذا الموقف»؟

فلم يُقدم عليهم أحدٌ والأحياء كلهم وقوفٌ. فمشى قتيبة إلى بني تميم فقال:

ـ «يا بني تميم، أنتم بمنزلة الحُطَمة، فيوماً كأيَّامكم، وفداؤكم أبي».

فأخذ اللّواءَ وكيعٌ بيده وقال:

ـ «يا بني تميم، أتُسلموني اليوم»؟ فقالوا:

ـ «لا يا أبا المُطرف».

وهُريم بن طحفة المجاشعيّ على خيل بني تميم ووكيعٌ رأسُهم. فأحجموا جميعاً، فقال وكيع:

ـ «يا هُريم، قدِّم»!

ودفع إليه الرَّايةَ، وقال:

ـ «قدِّم خيلك».

فتقدَّم هُريم ودبَّ وكيعٌ في الرِّجال، فانتهى هُريم إلى نهر بينه وبين العدوّ، فوقف وقال له وكيعٌ:

ـ «أُقحِمْ يا هُريم».

فنظر هُريم إلى وكيع نظرَ الجمل الصَّؤول وقال:

ـ «أنا أُورد وأُقحم خيلي هذا النَّهر، فإن انكشفت كان هلاكها. واللَّه إنَّك لأحمق». قال:

ـ «يا بن اللَّخناء لا أراك تردُّ أمري».

وحذفه بعمودٍ كان معه. فضرب هُريم فرسَه فأقحمه، وقال:

ـ «ما بعد هذا أشدَّ من هذا».

وعبر هُريم في الخيل، وانتهى وكيع إلى النَّهر، فدعا بخشب فقنطر على النَّهر

وقال لأصحابه:

ـ «من وطَّن منكم نفسَه على الموت فليعبر، ومَن لا فَلْيثبتْ مكانَه».

فما عبر معه إلاّ ثمانمائة رجل، فدبَّ حتَّى إذا أعيَوا أقعدهم فأراحوا حتَّى إذا دَنوا من العدوّ جعل الخيل مُجنَّبتين، وقال لهُريم:

ـ «إنّي مطاعنٌ القومَ فاشغلهم عنّا بالخيل وقل للنّاس: شُدُّوا».

فحملوا، فواللّه ما انثنَوا حتَّى خالطوهم، وحمل هريم في خيله عليهم، فطاعنوهم بالرِّماح، فما كفُّوا عنهم حتَّى حدَّروهم عن موقفهم، ونادى قتيبةُ:

ـ «من جاءَ برأسٍ فله مائةٌ».

فزعم موسى بن المتوكِّل القُريعيّ، قال: جاءَ يومئذٍ أحد عشر رجلاً من بني قريعٍ كلُّ رجل يجيءُ برأسٍ، فيقال:

ـ «ممَّن أنت»؟ فيقول:

ـ «قُريعيٌّ».

فجاءَ رجل من الأزد برأس، فقالوا له:

ـ «مَن أنتَ»؟ فقال:

ـ «قريعيٌّ».

قال: وجهمُ بن زَحرٍ قاعدٌ، فقال:

ـ «كذبَ واللّه، أصلح اللّه الأمير، واللّه لابنَ عمّي».

فقال له قتيبة:

ـ «ويحك! ما الّذي دعاك إلى هذا»؟ قال:

ـ «رأيتُ كلَّ من جاءَ برأسٍ قال: قريعيٌّ. فظننتُ أنّه ينبغي لكلِّ من جاءَ برأس أن يقول ذلك».

فضحك قتيبة حتَّى استغربَ.

وفتح اللّه على يديه بُخارى، وفضّ أولئك الجمع. فلمّا تمَّ له ذلك هابه أهل الصُغد، فرجع طرخون ملك الصُغد ومعه فارسان حتَّى وقف قريباً من عسكر قتيبة وبينهما نهر بخارى، فسأل أن يبعث إليه رجلاً يكلِّمه، فأمر قتيبة رجلاً، فدَنا منه فسأل الصُلحَ على فديةٍ يُؤَدِّيها إليهم، فأجابه قتيبة إلى ما طلب، وصالحه وأخذ منه رُهناً حتَّى يبعث إليه بما صالحه عليه. وانصرف طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نيزك.

ذكر غَدر نَيزَك ونقضه عهد قتيبة، وظفر قتيبة به بعد ذلك وقتلِه إيّاهُ

أمَّا طرخون فقد ذكرنا أنَّه هاب قتيبة فصالحه، وأمَّا نيزك فإنَّه هابه ونقض الصُّلح. وكان سبب غدره أنَّه لمَّا فصل من بخارى مع قتيبة رأى ما صنع طرخون فقال لأصحابه وخاصَّته:

ـ «إنِّي قد هبتُ هذا العربيَّ لما يتمُّ على يده من الفتوح وأنا معه ولستُ آمَنُه، وذلك أنَّ العربيَّ بمنزلة الكلب إذا ضربتَه نبح، وإذا أرضيتَه بَصبصَ، وإن أنَا غزوتُه ثمَّ أرضيتُه شيئاً نَسِيَ ما صنعتُ به، وقد قاتله طرخون مراراً، فلمَّا أعطاه فديةً قبلها، وهو مع ذلك شديد السَّطوة فلو استأذنتُه ورجعتُ، كان الرَّأي». قالوا:

ـ «فافعلْ».

فاستأذنه في الرُّجوع إلى طخارستان فأذن له، فقال لأصحابه:

ـ «أجِدُّوا السَّيرَ».

فساروا سيراً شديداً حتَّى أتوا النَّوبهار. فنزل يصلِّي فيه ويتبرَّك به، وقال لأصحابه:

ـ «إنِّي لا أشكُّ أنَّ قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي، وسيقدم الساعة رسولُه على المغيرة بن عبد اللَّه يأمره بحبسي فأقيموا ربيئةً ينظر، فإذا رأيتم الرَّسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنَّه لا يبلغ البروقان حتَّى يبلغ طخارستان».

فبعث المغيرة رجلاً فلا يدركنا حتَّى نبلغ شعب خَلم، ففعلوا، وكان كما قال: وأقبل رسول قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس نَيزك. فلمَّا مرَّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبَروقان ـ ومدينةُ بلخ يومئذٍ خراب ـ ركب نيزك في أصحابه فمضَوا، وقدم الرَّسول على المغيرة وهو بالبَروقان في طلبه، فوجده قد دخل في شعب خَلم، فانصرف المغيرة، وأظهر نيزك الخلع، وكتب إلى إصبهبد بلخ، وإلى باذان ملك مروروذ، وإلى سهرك ملك الطالقان، وإلى شهرك ملك الفارياب، وإلى ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه وواعدهم الرَّبيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة، وكتب إلى كابُلشاه يستظهر به، وبعث إليه بثَقَله، وسأله أن يأذن له، إن اضطُرَّ إليه، أن يأتيه ويؤمنه في بلاده. فأجابه إلى ذلك، وضمَّ ثَقَلهُ. وكان جبغويه ملك طخارستان ونيزك من عبيده، إلاَّ أنَّه كان ضعيفاً واسمه الشَّذُّ، فأخذه نيزك وقيَّده بقيد من ذهب مخافة أن يشغب عليه ويمنعه. فلمَّا استوثق منه أخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه وكان العامل محمَّد بن سليم النَّاصح، وكان محبَّباً مُصدَّقاً عند النَّاس، وبلغ قتيبة خلع نيزك في قبل الشِّتاءِ، وقد

تفرّق عنه الجند، فلم يبق معه إلاّ أهل مرو، فبعث أخاه عبدَ الرَّحمٰن إلى بلخ في اثني عشر ألفاً إلى البروقان وقال:

ـ «أقمْ ولا تُحدث شيئاً، فإذا حسر الشّتاء فعَسكِر وسِرْ نحو طخارستان واعلم أنّي قريبٌ منك».

فسار عبد الرَّحمٰن، فنزل البروقان، وأمهل قتيبة، حتّى إذا كان في آخر الشّتاءِ كتب إلى أهل أبرشهر وأبيورد وسرخس، فقدموا عليه مع أهل هراة، فأوقع بالطالقان لأنّ ملكها طابق نيزك على حرب قتيبة وواعده مع من استجاب للنّهوض معه من الملوك لحرب قتيبة، فسار قتيبة إلى الطّالقان، فأوقع بأهلها وقتل منهم مقتلة عظيمة وطلب منهم سماطين أربعة فراسخ في نظام واحدٍ، وبلغ مرزبانَ مرو الرُّوذ إقبالُه إلى بلاده، فهرب إلى بلاد الفرس. فقدم قتيبة مرو الرُّوذ، فوجد ابنين له فقتلهما وصلبهما، ومضى إلى ملك الفارياب، فتلقّاه ملكها بالطاعة، فرضي عنه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً، وخرج صاحب الجوزجان هارباً، فترك أرضه ولحق بالجبال، ثمّ مضى يتبع أخاه عبدَ الرَّحمٰن وكان خلّف نيزك على فم الشّعب مقاتِلةً، وترك أيضاً في قلعة من وراءِ الشّعب مقاتلةً، فأقام قتيبة أيّاماً يقاتلهم على مضيق الشعب لا يُقدم منهم على شيءٍ ولا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يُفضي إلى نيزك إلاّ الشّعب أو مفازة لا تحمل العساكر. فهو في ذاك متحيّرٌ إذ قدم عليه الرُّؤب خان ملك الرُّؤب، فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة الّتي من وراء الشّعب. فآمنه قتيبة وأعطاه ما سأله، وبعث معه رجالاً ليلاً، فانتهى بهم إلى القلعة الّتي من وراءِ شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون وفلُّوهم وهربَ من كان في الشّعب، ودخل قتيبةُ، والنّاس معه، الشَّعبَ، وسار إلى نيزك، وقدَّم أَخاه عبد الرَّحمٰن، وبلغ خبرُه نيزك، فارتحل من منزله وقطع وادي فرغانه، ووجّه بثَقَله وأمواله إلى كابلشاه، ومضى حتّى نزل الكُرَّزَ وعبد الرَّحمٰن بن مسلم يتبعه، وأخذ عليه مضائق الكرّز، فتحرَّز نيزك في الكُرَّز وليس إليه مسلك إلاّ من وجهٍ واحد وذلك الوجه صعبٌ لا تُطيفه الدّوابُ. فحصره قتيبة شهرين حتّى قلّ ما في يد نيزك من الطّعام، وأصابهم الجُدريُّ وجُدّر جبغويه، وخاف قتيبة الشّتاءَ، فدعا سليماً النّاصحَ فقال له:

ـ «انطلق إلى نيزك، فاحتَلْ أن تأتيني به بغير أمان، فإن أعياك وأبى فآمِنْه واعلم أنّي إن عاينتُك وليس هو معك صلبتُك، فاعملْ لنفسك».

قال:

ـ «فإن كنتَ فاعلاً فاكتبْ إلى عبد الرَّحمٰن لا يخالفني». وكان بينهما فرسخان. قال:

ـ «نعم».

فكتب له.

فلمَّا قدم على عبد الرَّحمٰن، قال له:

ـ «ابعثْ رجالاً، فليكونوا على فم الشِّعب، فإذا خرجتُ أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا، فليحولوا بيننا وبين الشِّعب».

قال: فبعث عبد الرَّحمٰن خيلاً، فكانت حيث أمرهم سُليم، وحمل معه من الأطعمة والأخبصة الَّتي تبقى أيَّاماً أوقاراً حتَّى أتى نيزك، فقال له نيزك:

ـ «خذلتني يا سُليم»! قال:

ـ «ما خذلتُك، ولكن عصيتَني وأسأتَ إلى نفسك، خلعتَ وغدرتَ». قال:

ـ «دَعني من العتاب، ما الرَّأي»؟ قال:

ـ «الرَّأي أن تأتيه، فقد أمحكتَه وليس ببارحٍ موضعَه هذا وقد اعتزم على أن يشتُوَ بمكانه، هلكَ أو سلمَ». قال:

ـ «يا سُليم آتيه من غير أمان». قال:

ـ «ما أظنُّه يؤمنك، فقد ملأت قلبه غضباً، ولكنِّي أرى ألاَّ يعلم بك حتَّى تضعَ يدك في يده، فإنِّي أرجو إن فعلتَ ذلك أن يستحي منك ويعفو عنك». قال:

ـ «أترى ذاك»؟ قال:

ـ «نعم». قال:

ـ «إنَّ نفسي لَتأبى هذا وهو إن رَءَاني قتلني».

قال سليم:

ـ «ما أتيتك إلاَّ لأُشيرَ عليك بهذا، ولو فعلتَ لرجوتُ أن تسلم وتعود حالُك عنده إلى ما كانت. فأمَّا إذا أبيتَ فأنا منصرف». قال:

ـ «فتغدَّ الآن». قال:

ـ «لأظنُّكم في شغل عن تهيئة الطَّعام ومعنا طعام كثير».

ودعا سليم بالغداءِ، فجاؤوا بطعام كثير لا عهد لهم بمثله منذ حُصروا، فانتهبه الأتراك، فغمَّ ذلك نيزكَ وتبيَّن ذاك في وجهه. فقال له سليم:

ـ «يا أبا الهيَّاج، إنِّي لك من النَّاصحين، إنِّي أرى أصحابك قد جهدوا، وإن طال بهم الحصار لم آمنْهم أن يستأمنوا بك، فانطلقْ معي حتَّى تأتي قتيبة». قال:

ـ «ما كنتُ لآتيَه على غير أمان وإنَّ ظنِّي به أنَّه قاتلي وإن آمنني، ولكنَّ الأمان أعذر لي وأرجى أن يؤمنني». قال:

ـ «فقد آمنك، أفتتَّهمني»؟ قال:

ـ «لا». قال:

ـ «فانطلق معي».

فقال له أصحابه:

ـ «اقبلْ قولَ سُليم، فلم يكن ليقول إلاّ حقًّا».

فدعا بدوابِّه وخرج مع سليم فلمَّا انتهى إلى الدَّرجة الَّتي يهبط منها إلى قرار الأرض، قال:

ـ «يا سُليم، من كان لا يعلم متى يموت فإنِّي أعلم متى أموت. أموتُ ساعة أُعاين قتيبة». قال:

ـ «كلاَّ»!

فركب ومضى معه جبغويه، وقد كان برأ من الجُدريِّ. فلمَّا خرجوا من الشِّعب عطفت الخيل الَّتي خلَّفها سليم على فوهة الشِّعب، فحالوا بين الأتراك وبين الخروج، فقال نيزك لسليم:

ـ «هذا أوّل الشَّرّ». قال:

ـ «لا تفعل، تخلُّفُ هؤلاءِ عنك خيرٌ لك».

وأقبل سليم ونيزك ومن خرج معه حتَّى دخلوا على عبد الرَّحمٰن بن مسلم. فأرسل رسولاً إلى قتيبة يُعلمه، فأرسل قتيبة عمرو بن مهزوم إلى عبد الرَّحمٰن أن اقدَمْ بهم. فحبس أصحابَ نيزك، ودفع نيزكَ إلى ابن بسَّام اللَّيثي وكتب إلى الحجَّاج يستأذنه في قتل نيزك. فجعل ابن بسَّام نيزك في قبَّته وحفر حول القُبَّة خندقاً، فوضع عليه حرساً، ووجَّه قتيبةُ معاويةَ بن عامر بن علقمة العلُيمي، فاستخرج ما كان في الكُرَّز من المتاع ومَن كان فيه فقدم بهم على قتيبة فحبسهم ينتظر كتاب الحجَّاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتل نيزك، فدعا به وقال له:

ـ «هل لك عندي عقد أو عند عبد الرَّحمٰن أو عند سليم»؟ قال:

ـ «لي عند سليم». قال:

ـ «كذبتَ».

وقام ودخل وردَّ نيزك إلى حبسه، فمكث ثلاثة أيَّام ولا يظهر للنَّاس. وتكلَّم النَّاس في أمر نيزك، فقال بعضهم:

ـ «لا يحلُّ قتلُه».

وقال بعضهم:

ـ «لا يحلُّ له تركُه».

وخرج قتيبة في اليوم الرَّابع، فجلس وأذن للنَّاس، فقال:

ـ «ما ترون في قتل نيزك؟».

فاختلفوا: فقال قائلٌ:

ـ «اقتُلْه». وقال قائل:

ـ «قد أَعطيتَه عهداً، فلا تقتلْه». وقال قائل:

ـ «لا تأمنه على المسلمين».

فدخل ضرار بن الحصين الضَّبِّي. فقال:

ـ «ما تقول يا ضرار؟» قال:

ـ «أَقول: إنِّي سمعتك تقول: أَعطيتُ اللَّه لئن مكَّنني منه لأَقتلنَّه! فإن لم تفعل لم ينصرك عليه».

فأَطرق قتيبةُ طويلاً ثمّ قال:

ـ «واللَّه، لئن لم يبقَ من أَجَلي إلاَّ ثلاث كلمات لقلتُ: اقتلوه، اقتلوهُ، اقتلوه».

وأرسل إِلى نيزك، فأَمر بقتله وقتلِ أَصحابه. فقُتلوا وهم سبعمائة.

وفي رواية أُخرى: إنَّ قتيبة قال لبكر بن حبيب السهمي من باهلةَ:

ـ «هل بك قوَّةٌ؟» قال:

ـ «نعم، وأَزيد».

وكانت في بكر أَعرابيَّةٌ، قال:

ـ «دونك هؤلاءِ الدَّهاقين».

فقتل يومئذٍ اثني عشر أَلفاً، وصلب نيزك وابني أَخيه في أصل عين تُدعى: وخْش خاشان.

ثـمَّ أَذن قتيبة للسِّيل والشَّذ، فانصرفا إِلى بلادهما، وأَطلق جبغويه ومنَّ عليه، وبعث به إِلى الوليد، فلم يزل بالشَّام حتَّى مات الوليد.

وكان الحجَّاج يقول:

ـ «بعثت قتيبة فتًى غِرًّا. فما زدتُه ذراعاً إلاَّ زادني كراعاً».

فتح شومان وكِسّ ونَسَف

ثمَّ غزا قتيبة شُومانَ وكِسَّ ونَسَف، ففتحها عنوةً، وسرَّح أَخاه عبد الرَّحمن بن مسلم إِلى السُّغد، فسار حتَّى نزل بمرجٍ قريبٍ منهم، فراسله ملكُها بشيءٍ صالحه عليها، ودفع إِليه رُهناً كانوا معه، وانصرف عبد الرَّحمن إِلى قتيبة وهو ببخارى، فرجعوا إِلى مرو، فقالت السُّغد لطرخون:

ـ «إِنَّك قد رضيتَ بالذُّلّ، وأَعطيتَ الجزية وأَنت شيخٌ!» فقال:

ـ «إِنَّ عدوَّنا قويٌّ، وأَرى مداراته أَدوم لنا وأَجمع لشملنا». فقالوا:

ـ «لا حاجة لنا فيك». قال:

ـ «فولُّوا من أَحببتم».

فولَّوا غورَك وحبسوا طرخون. فقال طرخون:

ـ «ليس بعد سلب المُلك والحبس إِلاَّ القتل، فيكون ذلك بيدي أَحبُّ إِليَّ من أَن يليه منِّي غيري».

واتَّكأَ على سيفه حتَّى خرج من ظهره.

فتح خوارزم

وغزا قتيبةُ خوارزم، فصالحه صاحبها، ومضى منها إِلى السُّغد، وذلك في سنة ثلاث وتسعين. وكان سبب ذلك أَن ملك خوارزم كان ضعيفاً، فغلبه أَخوه خُرَّزاذ على أَمره، وكان خُرَّزاذ أَصغر منه، فكان إِذا بلغه أَنَّ عند أَحدٍ ممَّن هو منقطع إِلى الملك، جاريةً أَو دابَّةً أَو متاعاً فاخراً، أَرسل فأَخذه، وإِذا بلغه أَنَّ عند أَحدٍ منهم بنتاً أَو أُختاً جميلةً أَرسل فغصبه إِيَّاها، فإِذا شُكي إِلى الملك. قال:

ـ «لا أَقوى عليه».

وقد ملأَه مع هذا غيظاً. فكتب إِلى قتيبة يدعوه إِلى أَرضه، واشترط عليه أن يدفع إِليه أَخاه وكلَّ من كان يُضادُّه ليحكم فيه ما يرى. وبعث في ذلك رسلاً ولم يُطلع أَحداً من مزاربته على ما كتب به. فقدم رُسله على قتيبة في آخر الشتاءِ وقت الغزو وقد تهيَّأَ للغزو، فأَظهر قتيبةُ أَنَّه يريد السُّغدَ، ورجع رسل خوارزم شاه إِليه بما أَحبَّ من قِبل قتيبة، وجمع خوارزم شاه دهاقنته وأُمناءَه، فقال لهم:

ـ «إِنَّ قتيبة يريد السُّغد وليس بغازيكم، فهلمُّوا نتنعَّم في ربيعنا».

فأَقبلوا على الشُّرب والتنعُّم وأَمنوا عند أَنفسهم الغزوَ، فلم يشعروا حتَّى نزل قتيبة في هَزار دَسْت، فقال خوارزم شاه لأَصحابه:

ـ «ما ترون؟» فقالوا:

ـ «نَرى أَن نقاتله». قال:

ـ «لكنِّي لا أَرى ذلك، لأَنَّه عجز عنه من هو أَقوى منَّا وأَشدُّ شوكةً، ولكنَّا نُؤدِّي إِليه شيئاً نصرفه به عامَنا ونرى رأيَنا». قالوا:

ـ «فرأينا رأيك».

فأَقبل خوارزم شاه حتَّى نزل في مدينة الفيل من وراءِ النَّهر ومدائن خوارزم ثلاثٌ يطيف بها فارقين واحد، فمدينة الفيل أَحصنهنَّ، وقتيبة في هزاردشت بينهما نهر بلخ، فلم يعبر، فصالحه على عشرة آلاف رأسٍ وعين ومتاعٍ على أَن يُعينه على ملك خام جرد وأن يفي له بما كتب إِليه. فقبل منه قتيبة ووفى له، وبعث أَخاه إِلى ملك خام جرد، وكان يُعادي خوارزم شاه، فقاتله فقتله عبد الرَّحمن وغلبه على أَرضه، وقدم منهم على قتيبة بأَربعة آلاف أسيرٍ. فلمَّا جاء بهم عبدُ الرَّحمن أَمر قتيبة بسريره، فأُخرج فقتل الأَسرى بين يديه.

فحكى المهلَّب بن إِياسٍ أَنَّه أُخذت سيوف الأَشراف يُضرب بها الأَعناق فكان فيها ما لا يقطع ولا يجرح. فأُخذَ سيفي فلم يُضرب به شيءٌ إِلاَّ أَبانه. فحسدني بعض آل قتيبة، فغمز الَّذي يضرب به أَن اصفح بالسَّيف، فصفح به قليلاً، فوقع في ضِرس المقتول فثلَمه.

قال: فرأيتُ السَّيف وكان أَبو الذَّيَّال يقول: هو عندي بعينه.

فتح السُّغد

ولمَّا أَخذ قتيبة صلحَ صاحب خوارزم قام إِليه المُجشِّر بن مزاحم السُّلَمي فقال:

ـ «إِنَّ لي حاجةً فأَخلني».

فأخلاه، فقال:

ـ «إِن أَردتَ السُّغد يوماً من الدَّهر فالآن. فإِنَّهم آمنون من أن تأتيهم عامك هذا، وإِنَّما بينك وبينهم عشرة أَيَّام».

فقال له قتيبة:

ـ «أَشار عليك أَحدٌ بهذا؟» قال:

ـ «لا». قال:

ـ «فأَعلمتَه أَحداً؟» قال:

ـ «لا». قال:

ـ «فواللَّه، لئن تكلّم به أَحدٌ لأَضربن عُنقَك».

فأَقام يومه ذلك. فلمّا أَصبح من الغد دعا عبد الرَّحمن فقال:

ـ «سِرْ في الفرسان والمرامية وقدِّم الأَثقال إِلى مرو».

فوُجِّهت الأَثقال إِلى مرو، ومضى عبد الرَّحمن يتبع الأَثقال يريد مرو يومه كلَّه. فلمّا أَمسى كتب إِليه:

ـ «إِذا أَصبحتَ فوجِّه الأَثقال إِلى مرو، وسِرْ في الفرسان والمرامية نحو السُّغد واكتم الأَخبار فإِنّي بالأَثَر».

فلمّا أَتى عبد الرَّحمن الخبرُ أَمضى الأَثقالَ إِلى مرو، وسار حيث أَمَره. وخطب قتيبة النَّاس فقال:

ـ «إِنَّ اللَّه، عزَّ وجلَّ، قد فتح لكم هذه البلدة في وقتٍ الغزوُ فيه ممكنٌ وهذه السُّغد شاغرةٌ برِجلها قد نقضوا العهد الَّذي كان بيننا، ومنعونا من مال الصُّلح الَّذي صالحَنا عليه صاحبُهم، وصنعوا به ما بلغكم. وقال اللَّه، عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. فسيروا على بركة اللَّه فإِنّي أَرجو أَن تكون خوارزم والسُّغد كالنَّضير وقُريظة».

فأَتى السُّغد وقد سبقه عبد الرَّحمن بن مسلم في عشرين أَلفاً، وقدم عليه قتيبة في أَهل خوارزم بعد ثالثة ورابعة، فقال:

ـ «إِنَّا إِذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صَباحُ المنذَرين».

فحصرهم شهراً، فقاتلوه في حصارهم من وجهٍ واحدٍ، وخاف أَهل السُّغد طولَ الحِصار، فكتبوا إِلى أَهل الشَّاش وأَخشيذ فرغانة:

ـ «إِنَّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أَتونا به، فانظروا لأَنفسكم فاجتمعوا على أَن تأتوهم».

فأَرسَلوا إِليهم أَن:

ـ «أَرسِلوا إِليهم مَن يشغلهم حتَّى نبيِّت عسكرهم».

وانتخبوا فرساناً من أَبناءِ المرازبة والأَساورة والأَشدَّاءِ الأَبطال، فوجَّهوهم وأمروهم أَن يُبيِّتوا عسكرهم. وجاءَت عيون المسلمين، فأَخبروهم، فانتخب قتيبة ثلاثمائة أَو ستَّمائة من أَهل النَّجدة واستعمل عليهم صالح بن مسلم.

وكان ملك الشَّاش وإخشيذ فرغانة وخاقان لمَّا أَتاهم كتاب غورك قالوا:

ـ «إِنَّ صاحب السُّغد بيننا وبين العرب، فإِن وصلوا إِليهم كُنَّا أَضعف وأَذلَّ، فإِنَّا

واللّه ما نُؤتى إلاّ من سفلتنا وإنّهم لا يجدون كوجدنا، ونحن معشَر الملوك المعنيُّون بهذا الأَمر».

فانتخبوا أَبناءَ الملوك وفتيانَهم وقالوا لهم:

ـ «اخرجوا حتّى تأتوا على عسكر قتيبة، فإنّه مشغولٌ بحصار السُّغد».

وولّوا عليهم ابناً لخاقان. وبلغ قتيبة الخبر كما حكينا من أَمره، فانتخب من أَهل النَّجدة والبأس، فكان منهم: شعبة بن ظُهير، وزُهير بن حيَّان، وعدَّة من أَمثالهم، فقال لهم:

ـ «إنّ عدوَّكم قد رأَوا بلاءَ اللّه عندكم وتأييده إيَّاكم، فأَجمعوا على أَن يحتالوا ويطلبوا غِرَّتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينَهم وملوكَهم، وأَنتم دهاقين العرب وفرسانهم وقد فضّلكم اللّه بدينه، فأَبلوا اللّه بلاءاً حسناً تستوجبون به الثواب مع الذَّبِّ عن أَحسابكم».

ووضع قتيبة عيوناً على العدوِّ، حتّى إذا قربوا منه قدر ما يصلون إِلى عسكرهم من اللَّيل، أَخرج الَّذين انتخبهم، واستعمل عليهم صالح بن مسلم. فخرجوا من العسكر عند المغرب، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الَّذين وُصف لهم.

وفرَّق صالحٌ خيلَه، وأَكمن كميناً عن يساره ويمينه، حتّى إِذا مضى نصف اللّيل أَو ثُلثاهُ جاءَ العدوُّ باجتماعٍ وإسراعٍ وصَمتٍ، وصالحٌ واقفٌ في خيله. فلمَّا رأَوهُ شدُّوا عليه حتّى إذا اختلفت الرِّماحَ شدَّ الكَمينان عن يمينٍ وشمالٍ. فلم يُرَ قومٌ كانوا أَشدَّ منهم.

فتحدَّث شعبة قال: إنَّا لنختلف عليهم بالضَّرب والطَّعن إذ تبيَّنتُ قتيبةَ، فضربت ضربة أَعجبتني وأَنا أَنظر إِلى قتيبة فقلت:

ـ «كيف ترى بأبي أَنتَ وأُمّي؟» فقال:

ـ «اسكتْ دقَّ اللّهُ فاكَ».

فقتلناهم، فلم يُفلت منهم إِلاّ الشَّريد، وأَقمنا نحوي الأَسلابَ، ونحتزُّ الرُّؤوس حتَّى أَصبحنا، ثمَّ أَقبلنا إِلى العسكر. فلم أَرَ قطُّ جماعةً جاؤوا بمثل ما جئنا به، ما منَّا رجلٌ إِلاّ معلّقاً رأساً معروفاً باسمه، وسَلباً من جيِّد السِّلاح وكريم المتاع ومناطق الذَّهب ودوابَّ فُرهٍ، وجئنا بالرُّؤوس إِلى قتيبة، فقال:

ـ «جزاكم اللّه خيراً عن الدِّين والأَحساب».

ثمَّ أَكرمني من غير أن يكون باح لي بشيءٍ، وقرن بي في الصِّلة والإكرام حيَّانَ العَدوي وحُليساً الشَّيباني. فظننتُ أَنّه رأَى منهما مثل الَّذي رأَى منّي. وكسر ذلك أَهل

السُّغد وطلبوا الصلح وعرضوا الفدية، فأَبى قتيبة وقال:

ـ «انا ثائرٌ بدم طرخون ـ يعني صاحبَهم ـ كان مولاي، وفي ذمَّتي».

ووضع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم وهو في ذلك لا يُقلع عنهم، وناصَحه من كان معه من أهل بخارى وأَهل خوارزم، وبذلوا أَنفسهم.

فأَرسل إِليهم غورك:

ـ «إِنَّك إِنَّما تقاتلني بإِخوتي وأَهل بيتي من العجم فأَخرج إِلى العرب».

فغضب قتيبة ودعا الجَدَليَّ وقال:

ـ «اعرض النَّاس وميِّز أَهل البأس».

فجمعهم، ثمَّ جلس قتيبة يعرضهم بنفسه، ودعا العُرفاءَ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ فيقول:

ـ «ما عندك؟» فيقول العريف:

ـ «شجاع». ويقول:

ـ «ما هذا؟» فيقول:

ـ «محتضر». ويقول:

ـ «ما هذا؟» فيقول:

ـ «جبان».

فسمَّى قتيبةُ الجُبناءَ الأنتان، وأَخذ خيلَهم وجيِّدَ سلاحهم فأَعطاه الشُّجعاءَ والمحتضرين، فترك لهم رثَّ السِّلاح، ثمَّ زحف بهم فقاتل بهم فرساناً ورجالاً، ورمى المدينة بالمجانيق فثلم فيها ثلمة فسدُّوها بغرائر الدُّخْن، وجاءَ رجلٌ حتَّى قام على الثّلمة، فشتم قتيبة شتماً قبيحاً فضيحاً بالعربيَّة. وكان مع قتيبة قوم رُماةٌ، فقال لهم:

ـ «اختاروا منكم رجلين».

فاختاروا. فقال:

ـ «أَيُّكما يرى هذا الرَّجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف وإن أَخطأ قطعتُ يدَه».

فتلكَّأَ أَحدهما وتقدَّم الآخَر، فلم يُخطئ عينَه. فأَمر له بعشرة آلاف.

فتحدَّث يحيى بن خالدِ بن ثابت مولى مسلم بن عمرو قال: كنتُ في رُماة قتيبة، فلمَّا فتحنا المدينة صعدتُ السُّور، فأَتيتُ مقام ذلك الرَّجل الَّذي كان فيه، فوجدتُه ميِّتاً على الحائط ما أَخطأت النُّشَّابةُ عينَه حتَّى خرجت من قفاه.

ثمَّ أَصبحوا من غدٍ فرمَوا المدينة حتَّى ثلموا فيها. وقال قتيبة:

ـ «أَلحُوا عليها حتَّى تعبروا الثّلمة».

فقاتلوهم، ورماهم السُّغد بالنُّشَّاب، فوضعوا تِرَسَتهَم على أَعينهم، ثمَّ حملوا حتَّى صاروا على الثّلمة، وكانوا طلبوا الصُّلح، فقال قتيبة:

ـ «لا واللَّه! ما نُصالحكم إلاَّ ورجالنا على الثُّلمة ومجانيقنا تخطر على مدينتكم».

فصالحهم من غدٍ على أَلفي أَلفٍ ومائتي ألفٍ في كلِّ عام، على أن يعطوه تلك السَّنة ثلاثين أَلف رأس ليس فيه صبيٌّ ولا شيخٌ ولا ذو عيبٍ، وعلى أَن يُخلوا المدينة لقتيبة، فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبنى فيها مسجدٌ فيدخل ويصلّي، ويوضع له فيها منبر، ويتغدَّى ويخرج.

فلمَّا تمَّ الصُّلح بعث قتيبة بعشرةٍ من كلِّ خُمسٍ برجلين، فقبضوا ما صالحهم عليه، فقال قتيبة:

ـ «الآن ذلُّوا حين صار أَزواجهم وأَولادهم في أيديكم».

ثمَّ أَخلَوا المدينة وبنَوا مسجداً ووضعوا منبراً، فدخلها قتيبة في أَربعة آلاف انتخبهم. فلمَّا دخلها أَتى المسجد، فصلَّى وخطب، ثمَّ تغدَّى. وأَرسل إلى أَهل السُّغد:

ـ «مَن أَراد منكم أَن يأخذ متاعَه فليأخُذ، فإنِّي لستُ خارجاً منها، وإنَّما صنعتُ هذا لكم، ولستُ آخذ منكم أكثر ممَّا صالحتكم عليه غير أَنَّ الجند يُقيمون فيها».

والباهليّون يقولون: صالحَهم قتيبة على مائة أَلف رأس وبيوت النّيران وحِلية الأَصنام. فقبض ما صالحهم عليه، وأُتي بالأَصنام فسُلبتْ ووُضعت بين يديه وكانت كالقصر العظيم حين جُمعت، فأَمر بتحريقها.

فقالت الأَعاجم:

ـ «إنَّ فيها أَصناماً من حرقها هلك».

فقال قتيبة:

ـ «أَنا أُحرقُها بيدي».

فجاءَ غورَك، فجثا بين يديه وقال:

ـ «إنَّ شكرك عليَّ واجب، لا تَعرَّضْ لهذه الأَصنام».

فدعا قتيبة بالنَّار، فأَخذ شعلة بيده، وخرج فكبَّر، ثمَّ أَشعلها وأَشعل الباب، فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضّة خمسين أَلف مثقال.

جارية رابعة ليزدجرد أَصابها قتيبة

ومن مُلح الحديث وإن لم يكن من شرطِ هذا الكتاب، أَنَّ قتيبة أصاب بالسُّغد جاريةً رابعة من ولد يزدجرد، فقال:

ـ «أَترون ابن هذه يكون هجيناً؟» فقالوا:

ـ «نعم، يكون هجيناً من قبل أَبيه».

فبعث بها إِلى الحجَّاج، فبعث بها الحجَّاج إِلى الوليد، فولدتْ له يزيد بن الوليد.

ما أَوصى به قتيبةُ عبد اللَّه بن مسلم

ولمَّا فتح قتيبة سمرقند استخلف عليها عبد اللَّه بن مسلم وخلَّف عنده جنداً كثيفاً وآلةً من آلات الحرب كثيرة، وقال:

ـ «لا تدعَنَّ مشركاً يدخل باباً من أَبواب سمرقند إِلاَّ مختوم اليد، فإِن جَفَّت الطينةُ قبل أَن يخرج فاقتُلْه، وإِن وجدتَ معه حديدةٍ أَو سكِّيناً فما سواه فاقتُله، وإِن أَغلقتَ البابَ ليلاً فوجدتَ فيها منهم فاقتُلْه».

وقال قتيبة لمَّا جمع بين فتح خوارزم وسمرقند:

ـ «هذا العِداءُ لا عِداءُ العيرين».

لأَنَّه افتتح خوارزم وسمرقند في عامٍ واحدٍ، وذلك أَنَّ الفارس إِذا صَرَعَ في طَلقٍ واحدٍ عَيرين، قيل: عادَى بين عَيرين.

فتوحٌ أُخرى تمَّت في هذه المدَّة

وفي هذه المدة الّتي ذكرنا فيها أُمور الحجَّاج بالعراق وأَخباره مع الخوارج وعبد الرَّحمن بن الأَشعث وغزوات قتيبة والمهلَّب قبلَه كانت غزوات لعبد اللَّه بن عبد الملك أَرض الرُّوم، ففتح فيها المصيصة وغيرها، وغزوات لمسلمة بن عبد الملك، ففتح فيها طُوانة، وغيرها، وقسطنطين، وغزالة، وحصن سورية، وعمّورية وهِرَقْلة، وقمولية. وغزا أَيضاً مسلمة بن عبد الملك في هذه المدَّة التُّرك حين بلغ الباب من ناحية أذربيجان.

وأغزى موسى بن نُصير الأَندلس، ففتحها، وفتح موسى بن نُصير من بلاد الأَندلس عدَّة مدن، وقتل ملكها، وكان رجلاً من أَهل أَصبهان، وكان ملوك الأَندلس يلقَّبون كما تُلقّب الأَكاسرة والقياصرة، فيقال لملكها: الأذرينوق، فقتله موسى بعد قتال

شديد لم تكن فيها مكيدةٌ، وكانت فيها غزوات العبّاس بن الوليد أَرضَ الرُّوم.

وغزوات لمروان بن الوليد الرُّوم، فتحوا لهم مُدناً وحصوناً.

ولم يذكر في جميع ذلك ما يُستفاد منه تجربةٌ.

وقتل الحجَّاج سعيد بن جبير في سنة خمسٍ وسبعين.

ذكر كلام لسعيد بن جُبير كان سببَ قتله

قال: لمَّا أُتي الحجَّاجُ بسعيد بن جُبير، قال:

ـ «لعن اللَّه ابن النَّصرانيَّة».

يعني خالداً القسريَّ وهو الَّذي كان أرسل به من مكَّة.

ـ «. . أَتُراني ما كنتُ أَعرف مكانَه؟ بلى واللَّه والبيت الَّذي هو فيه بمكة».

ثمَّ أَقبل على سعيد، فقال:

ـ «يا سعيد، ما أَخرجك عليَّ مع عدُوّ الرَّحمن؟» قال:

ـ «أَصلح اللَّه الأَمير، إنَّما أَنا رجل من المسلمين يُخطئُ مرَّةً ويُصيب مرَّةً».

قال: فطابت نفس الحجَّاج وتطلَّق حتَّى رجونا أَن يتخلَّص منه. ثمَّ عاوده في شيءٍ، فقال:

ـ «إنَّما كانت له بيعةٌ في عنقي».

قال: فغضب الحجَّاج وانتفخ حتَّى سقط أَحدُ طرفَي ردائه عن منكبه، وقال:

ـ «يا سعيد، أَلم أَقدم مكَّة فقتلتُ ابن الزُّبير، ثمَّ أَخذتُ بيعةَ أَهلها وأَخذتُ بيعتك لأَمير المؤمنين عبد الملك؟» قال:

ـ «بلى». قال:

ـ «ثمَّ قدمتُ الكوفة والياً على العراق، فجدّدتُ لأَمير المؤمنين البيعة فأَخذتُ بيعتك له ثانيةً؟» قال:

ـ «بلى» قال:

ـ «فنكثتَ لأَمير المؤمنين بيعتين، ووفيتَ بواحدةٍ لابن الحائك! يا حرسيُّ اضربْ عنقَه».

ثمَّ قام ليركب، فوضع رجله في الرّكاب، وقال:

ـ «لا واللَّه، لا أَركب حتَّى تبوَّأ مقعدك من النَّار».

فضُربت عنقه، فالتبس عقلُه مكانَه، فجعل يقول:

ـ «قُيودَنا قُيودَنا!».

فظُنَّ أنَّه يريد القيود الّتي في رجل سعيد بن جُبير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأَخذوا القيود. فكان إذا نام يَراهُ في منامه كأنَّه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول:

ـ «ما لي ولابن جُبير؟».

موت الحجَّاج بن يوسف

وفي هذه السنة مات الحجَّاج بن يوسف، وكان استخلف في مرضه على حرب العراقين والصَّلاة بأَهلها يزيد بن كبشة، وعلى خراجها يزيد بن أبي مُسلم، فأقرَّهما الوليد بعد موت الحجَّاج، وكذلك فعل بعُمَّال الحجَّاج، أقرَّهم على أعمالهم الَّتي كانوا عليها في حياته.

ودخلت سنة ستٍّ وتسعين من سيرة الوليد بن عبد الملك

وفيها مات الوليد بن عبد الملك في النِّصف من جُمادى الآخرة منها، وكان عند أَهل الشَّام أَفضل خلائفهم، وذلك أَنَّه بنى مساجدَ منها مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار وأَعطى المجذَّمين وأَفرَدهم، وقال:

ـ «لا تسأَلوا النَّاس!».

وأَعطى كلَّ مُقعَدٍ خادماً وكلَّ ضريرٍ قائداً.

وفتحت في ولايته فتوحٌ عظام. أَمَّا موسى بن نُصير ففتح الأَندلس، وبلغ قتيبة كاشغر، وهي أَوَّل مدائن الصِّين، وفتح محمَّد بن القاسم الهندَ.

وكان الوليد صاحب بناءٍ واتِّخاذ المصانع والضّياع. فكان النَّاس في أَيَّامه إِذا التقوا فإِنَّما يسأَل بعضهم بعضاً عن البناءِ والضّياع.

ثمَّ ولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، وكان النَّاس يسأل بعضهم بعضاً عن التَّزويج والجواري.

فلمَّا ولي عمر بن العزيز، كانوا يلتقون فيقولون:

ـ «ما وِردُك؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وكم تصوم من الشَّهر؟».

وكان الوليد وسليمان وليَّي عهد عبد الملك. فلمَّا أَفضى الأَمر إِلى الوليد أَراد أَن يُبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان. فأَبى سليمان، فأَراده على أن يخلعه من بعده، فامتنع أَيضاً، فعرض عليه أَموالاً كثيرةً، فأَبى. فكتب إِلى عُمَّاله بأَن يبايعوا لعبد العزيز، ودعا النَّاس إِلى ذلك فلم يُجِبْه أَحدٌ إِلاَّ الحجَّاج وقتيبة.

ذكر رأيٍ لعبَّاد بن زيادٍ

فقال عبّاد بن زيادٍ:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إِنَّ النَّاس لا يجيبونك إِلى هذا، ولو أَجابوكَ لم آمنهم على الغدر بابنك، فاكتب إِلى سليمان فلْيَقدَمْ عليك، فإن لك عليه طاعة، فأَرده على البيعة لابنك عبد العزيز من بعده، فإنَّه لا يقدر على الامتناع وهو عندك، فإن أَبى كان النَّاس عليه».

فكتب الوليد إِلى سليمان يأَمره بالمسير إِليه، فأَبطأَ، واعتزم الوليد على المسير إِليه وعلى أَن يخلعه. فأَمر النَّاس بالتأَهُّب وأُخرجت مضاربه ومات قبل أَن يسير.

فتح كاشغر وما دار بين مبعوثي قتيبة وملك الصين

وكان قتيبة قد غزا في هذه السَّنة مدينة كاشغر وهي أَدنى مدائن الصِّين. فلمَّا بلغ فرغانة أَتاه موتُ الوليد، فوغل قتيبة حتَّى قرب من الصِّين، فكتب إِليه ملك الصِّين أَن:

ـ «ابعث إِليَّ رجلاً من أَشراف مَن معكم يخبرنا عنكم ونسأَله عن دينكم».

فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً من أَفناءِ القبائل لهم جمالٌ وأَجسامٌ وأَلسنٌ وبأسٌ. وبعد أَن سأَل عنهم، فوجدهم بحيث أَحبَّ، فكلَّمهم قتيبة وفاطنهم، فرأَى عقولاً وجمالاً، فأَمر لهم بِعدَّة حسنة من السِّلاح والمتاع والجيّد من الخزِّ والوشي واللَّيِّن من الثِّياب والرَّقيق والبغال والعِطر، وحملهم على خيول مطهَّمة تقاد معهم، ودوابَّ يركبونها، وقال لهم:

ـ «سيروا على بركة اللَّه، فإذا دخلتم عليه فأَعلموه أَنِّي قد حلفتُ أَن لا أَنصرف حتَّى أَطأَ بلادهم وأَختم ملوكهم وأَجبي خراجهم».

فساروا وعليهم هبيرة بن المُشَمرَج، فلمَّا قدموا أَرسل إِليهم ملك الصِّين يدعوهم. فدخلوا الحمَّام، ثمَّ خرجوا، فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، ثمَّ مسُّوا الغالية، وتدخَّنوا، ولبسوا النِّعال والأَردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أَهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلِّمهم الملك ولا أَحدٌ من جلسائه، فنهضوا فقال الملك لمن حضره:

ـ «كيف رأَيتم هؤلاء؟» قالوا:

«رأَينا قوماً هم نساءٌ، ما بقي منَّا أَحدٌ حين رآهم ورأَى شعورَهم ووجد رائحتهم إلاَّ انتشر ما عنده».

قال: فلمَّا كان الغد أَرسل إِليهم فلبسوا الوشيَ وعمائم الخزِّ والمطارف وغدَوا عليه. فلمَّا دخلوا إليه قيل لهم:

ـ «ارجعوا!».

ثمَّ قال لأَصحابه:

ـ «كيف رأيتم؟» قالوا:

ـ «هذه الهيئة أَشبه بهيئة الرِّجال من تلك الهيئة الأُولى وهم أولئك».

فلمَّا كان اليوم الثَّالث أرسل إليهم فشدُّوا عليهم سلاحهم ولبسوا البَيض والمغافر، وتقلَّدوا السُّيوف، وأَخذوا الرِّماح، وتنكَّبوا القِسيَّ وركبوا خيولَهم. فنظر إليهم صاحب الصِّين من منظرةٍ له، فرأَى أَمثال الجبال مُقبلةً. فلمَّا دَنَوا ركَّزوا رماحَهم، ثمَّ أَقبلوا مشمِّرين، فقيل لهم قبل أَن يدخلوا:

ـ «ارجعوا!».

فانصرفوا. فلمَّا ركبوا خيولهم اختلجوا رماحهم ثمَّ رفعوا خيولَهم كأَنَّهم يتطاردون بها. فقال الملك لأَصحابه:

«كيف ترونهم؟» قالوا:

ـ «ما رأَينا مثل هؤلاءِ قطُّ».

فلمَّا أَمسى أَرسل إليهم أَن ابعثوا إليَّ زعيمكم وأَفضلكم رجلاً.

فبعثوا إليه هُبيرة، فقال له حين دخل عليه:

ـ «قد رأَيتم عظيم مُلكي وأَنَّه ليس أَحدٌ يمنعكم منِّي وأَنتم في بلادي بمنزلة الخاتم في كفِّي، وأَنا سائلكم عن أَمر، فإن لم تصدقوني قتلتكم». قال:

ـ «سَلْ». قال:

ـ «لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزِّي في اليوم الأَوَّل والثَّاني والثَّالث؟» قال:

ـ «أَمَّا زيُّنا في اليوم الأَوَّل فلباسنا في أَهالينا، وأَمَّا يومنا الثاني، فإذا أَتينا أُمراءَنا، وأَمَّا يومنا الثَّالث فزيُّنا لعدوِّنا، فإذا هاج هيج كُنَّا هكذا». قال:

ـ «ما أَحسن ما دبَّرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإنِّي قد عرفتُ حرصه وقلّة أَصحابه وإلاَّ بعثت إليه مَن يُهلكه ويهلككم معه».

ذكر كلام لهُبيرة في جواب الملك صار سبباً لحمله الخراج وتهيُّبه الحرب

فأَجابه هبيرةُ وقال:

ـ «كيف يكون قليل الأَصحاب مَن أَوَّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدُّنيا وراءَه قادراً عليها وغزاك؟ وأَمَّا تخويفك إيَّانا بالقتل فإنَّ لنا آجالاً إذا حضرت فلسنا نكرهها ولا نخافها».

فقال بعد أَن أَطرق:

ـ «فما الَّذي يُرضي صاحبَك؟» قال:

ـ «إنَّه قد حلف ألاَّ ينصرف حتَّى يطأَ أَرضَكم ويختم ملوككم ويُعطَى الجزيةَ».

قال:

ـ «فإنَّا نُخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب أَرضنا فيطأَه، ونبعث إليه ببعض أَبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها».

قال: فدعا بصحافٍ من ذهب فيها تراب، وبعث بحريرٍ وذهب وأَربعة غلمانٍ من أَبناءِ ملوكهم. ثمَّ أَجازهم فأَحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعثوا به.

فقبل الجزية وختم الغلمة وردَّهم ووطئَ التّراب. فقال في ذلك سوادة بن عبد اللّه السَّلولي:

لا عيبَ في الوفد الَّذين بعثتهم	للصِّين لو سلكوا طريق المنهجِ
كسروا الجفون على العِدَى خوف الرَّدى	حاشا الكريم هبيرة بن مُشَمْرَجِ
لم يرضَ غيرَ الختمِ في أَعناقهم	ورهائنٍ دُفعت لحمل سَمَرَّجِ
أَدَّى رِسالتَكَ الَّتيَ استرعيتَهُ	وأَتاكَ من حِنْثِ اليمينِ بمَخْرَجِ

قال: فأَوفد قتيبةُ هبيرة إلى الوليد، فمات بقرية من فارس.

من سيرة قتيبة

وكان من سيرة قتيبة إذا بعث طلائع الفرسان أَو غيرهم أَن يأمر بلوحٍ منقوش فيشقَّ شقَّتين، فيعطيهم شقةً ويحتبس شقَّةً ويأمرهم أَن يدفنوها في موضع يصفه من مخاضة معروفةٍ، أَو تحت شجرة معلومة، ثمَّ يبعث بعده من يستخرجها ليعلم أَصادقٌ طليعته أَم لا.

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

وفي هذه السَّنة بويع سليمان بن عبد الملك وخالف قتيبة بخراسان وتأدّى أَمرُه إلى أَن قُتل.

ذكر السَّبب في ذلك

كان سبب ذلك ما حكيناه من إجابة قتيبة الوليدَ إلى خلع سليمان.

فلمَّا مات الوليد وبويع سليمان خافه قتيبة، وأَشفق أَن يولِّي سليمان يزيد بن المهلَّب خراسانَ لمودَّة كانت بين يزيد بن المهلَّب وبين سليمان.

فكتب قتيبة كتاباً إلى سليمان يُهنِّئه بالخلافة ويعزِّيه عن الوليد ويُعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأَنَّه على مثل ذلك له من الطَّاعة والنَّصيحة إن لم يعزله عن خراسان. ثمَّ كتب كتاباً آخر يُعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وبعد صوته فيهم، ويذمُّ المهلَّبَ وآل المهلَّب، ويحلف باللَّه لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنَّه.

ثمَّ كتب كتاباً ثالثاً فيه خلعُه.

وبعث بالكتب الثَّلاثة مع رجلٍ من باهلة وقال:

ـ «ادفع هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلَّب حاضراً فقرأَهُ ثمَّ أَلقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأَهُ وأَلقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب الثَّالث. وإن قرأَ الأَوَّل ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين».

فقدم رسول قتيبة ودخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلَّب، فدفع الكتاب الأَوَّل، فقرأَه، ثمَّ أَلقاه إلى يزيد، ثمَّ دفع إليه الكتاب الثَّاني فقرأَه ثمَّ رمى به إلى يزيد، ثمَّ أَعطاه الكتاب الثَّالث فتمعَّر لَونُه ثمَّ دعا بطين فختمه. ثمَّ أَمسكه بيده. ثمَّ أَمر رسولَ قتيبة أَن ينزل. فحُوِّلَ إلى دار الضِّيافة. فلمَّا أَمسى دَعا به سليمان، فأَعطاه صُرَّةً فيها دنانير، فقال:

ـ «هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان، فسِرْ، وهذا رسولي معك بعهده».

فخرج الباهليّ ومعه رسول سليمان. فلمَّا كانا بحلوان تلقَّاهما النَّاس بخلع قتيبة

واضطراب الأَمر. فدفع الرّسول العهدَ إلى رسول قتيبة وانصرف هو.

ذكر عجلة قتيبة بالخلع وما دبّره من أمره

فأمّا قتيبة فإنّه لمّا همّ بالخلع استشار إخوته، فقال عبد الرّحمن:

ـ «اقطع بعثاً، فوجّه فيه كلّ مَن تخافه، ووجّه قوماً إلى مرو وسِرْ حتّى تنزل سمرقند، ثمّ قُلْ لمن معك: مَن أحبَّ المقام فله المواساة، ومَن أراد الانصراف فغير مستكرهٍ ولا متبوعٍ بسوءٍ، فإنّه لا يُقيم معك إلاّ ناصحٌ».

وقال أخوه عبد اللّه:

ـ «اخلَعه مكانَك، وادعُ النّاسَ إلى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان».

فأخذ برأي عبد اللّه فخلع سليمان ودعا النّاس إلى خلعه، وخطب:

ـ «أيّها النّاس، إنّي قد جمعتكم من عين التّمر وفيض البحر، فضممت الأَخ إلى أَخيه والولدَ إلى أَبيه، وقسمتُ بينكم فيئَكم، وأَجريتُ عليكم أعطياتكم غير مكدَّرة ولا مؤخَّرة، وقد جرَّبتم الولاةَ قبلي، أَتاكم أُميَّة، فكتب إلى أَمير المؤمنين أَنَّ خراج خراسان لا يُقيم مطبخي، ثمّ جاءَكم أَبو سعيد، فدوَّم ثلاث سنين ولا تدرون: أَفي طاعة أَنتم أَم في معصية، لم يُجْبِ فيئاً، ولا نَكا عدوًّا. ثمّ جاءَكم بنوه بعدَه. فحلٌ تنازى إليه النّساء، وإنّما خليفتكم يزيد بن ثروان هَبنَّقةُ القيسي، فلم يُجبْهُ أَحدٌ.».

فغضب وقال:

ـ «. لا أَعزَّ اللّه من نصرتم، واللّه لو اجتمعتم على غير ما كسرتم قَرنه يا أَهلِ السّافلة ـ ولا أَقول العالية ـ يا أَوباش الصَّدقة، جمعتكُم كما تُجمع إبل الصَّدقة من كلِّ أَوبٍ، يا معشر بكر بن وائل، يا أَهل النَّفح والكذب والبخل! بأَيِّ يوميكم تفخرون: بيوم حربكم، أَم يوم سلمكم؟ يا أَصحاب مسيلمة، يا بني ذميم ـ ولا أَقول: تميم ـ يا أَهل الخَوَر والقصف والغدر، كنتم تُسمُّون الغَدر في الجاهليَّة كَيْساً، يا معشر عبد القيس القُساة، تبدَّلتم من أَبر النَّخل أَعنَّة الخيل، يا معشر الأَزد تبدَّلتم من قلوس السُّفن أَعنَّة الحُصُن. الأَعراب، وما الأَعراب! يا كُناسةَ المصرين، جمعتكُم من منابت الشِّيح والقيصوم ومنابت الفِلفِل، تركبون البقر والحُمُر في جزيرة بني كاوان، حتّى إذا جمعتكم كما يُجمع قزعُ الخريف، قُلتم كيتَ وكيتَ. أَما واللّه، لأَعصبنَّكم عَصبَ السَّلمة. يا أَهل خراسان! هل تدرون مَن واليكم؟ يزيد بن ثروان. كأَنّي بأَميرِ قد جاءَكم، مَن جاءَ وحكمَ فغلبكم على فيئكم وظلالكم. إنَّ هاهنا ناراً ارمُوها أَرم معكم، ارموا غرضكم الأَقصى. قد استُخلف عليكم أَبو نافع ذو الودعات. الشّام أَبٌ مبرور، والعراق أَبٌ مكفور، حتّى متى ينتطح أَهل الشّام بأَفنيتكم وظلال دياركم. يا أَهل

خراسان! انسبوني تجدوني عراقيَّ الأَب، عراقيَّ الأُمّ، عراقيَّ المولد، عراقيَّ الهوى والرَّأي والدِّين، وقد أَصبحتم اليوم في ما ترون من الأَمن والعافية وقد فتح اللّه لكم البلاد، وآمن سُبلكم، فالظعينة تخرج من مَرو إلى بلخ بغير جَواز، فاحمدوا اللّه على النِّعمة، وسلُوه المزيدَ».

ثمَّ نزل.

فأَتاه أَهل بيته، فقالوا:

ـ «ما رأينا كاليوم قطُّ، واللّه، ما اقتصرتَ على العالية وهم شِعارك ودِثارك، حتَّى تناولتَ بكراً وهم أَعضادك وأَنصارك، ثمَّ لم ترض بذلك حتَّى تناولتَ تميماً وهم إخوتك، ثمَّ لم ترضَ حتَّى تناولتَ الأَزدَ وهم يَدُك».

فقال:

ـ «ويحكم! إنِّي لمَّا تكلَّمتُ فلم يُجيبوا غضبتُ، فلم أَدرِ ما قلتُ. أَمَّا أَهل العالية فَكَإبلِ الصَّدقة وقد جُمعتْ من كلِّ أَوبٍ، وأَمَّا بكرٌ فإنَّها أَمةٌ لا تمنعُ يَدَ لامسٍ، وأَمَّا تميمٌ فجملٌ أَجرب، وأَمَّا عبد القيس فما تضرب العَيرَ بذَنَبه، وأَمَّا الأَزد فأَعلاجٌ أَشرار لو وسمتُهم لما أَثمتُ».

فغضب النَّاس من شتم قتيبة، فأَجمعوا على خِلافه، وكرهوا أَيضاً خلع سليمان. فكان أَوَّل من تكلَّم في ذلك الأَزد. فأَتَوا حُصينَ بن المنذر، فأَبى أَن يقبل رئاستهم فأَرادوا أَن يُولُّوا عبد اللّه بن ذودان الجهضمي، فأَبى وتدافعوها، فرجعوا إلى حُصين وقالوا:

ـ «قد تدافعنا الرئاسة، فنحن نُولِّيك أَمرَنا وربيعةُ لا تُخالفك». قال:

ـ «لا ناقة لي في هذا ولا جمل». قالوا:

ـ «فما ترى؟» قال:

ـ «إن جعلتم هذه الرئاسة في تميم تمَّ أَمركم». قالوا:

ـ «فمَن ترى من تميم؟» قال:

ـ «ما أَرى أَحداً غير وكيع».

فقال حيَّان النَّبطيّ وكان حاضراً:

ـ «إنَّ أَحداً لا يتقلَّد هذا الأَمر ثمَّ يصلي بحرِّه ويبذل دمَه ويتعرَّض للقتل، فإن قدم أَميرٌ أَخذه بما جنى وكان المهنأ لغيره إلاَّ هذا الأَعرابي ـ يعني وكيعاً ـ فإنَّه مقدام لا يبالي ما ركب ولا ينظر في عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعُه، وهو موتور يطلب قتيبة برئاسته الَّتي صرفها عنه وصيَّرها لضرار بن حصين بن زيد الفوارس الضَّبيِّ».

فمشى النَّاس بعضهم إلى بعض سِرًّا، وقيل لقتيبة:

ـ «ليس يُفسر أَمر النَّاس إلاَّ حيَّان».

فأَراد أَن يغتاله. وكان حيَّان كثير الملاطفة لحشم الوُلاة، فلا يُخفون عنه شيئاً. فدعا قتيبة رجلاً وأَمره بقتل حيَّان وسمعه بعض الخدم. فأَتى حيَّانَ فأَخبره. فأَرسل إليه يدعوهُ، فحذر وتمارض. وأَتى النَّاس وكيعاً فسأَلوه أَن يقوم بأَمرهم، فقال:

ـ «نعم». وتمثَّل:

سأَجني ما جَنيتُ وإنَّ أَمري لَمُعتمِدٌ على نَضَدٍ ركينِ

وبخراسان يومئذٍ من المقاتلة من جميع القبائل نحو من خمسين أَلفاً ومن الموالي سبعة آلافٍ، وكان الَّذي يلي أَمر الموالي حيَّان. ويُقال: إنه ديلميٌّ، وقيل: بل هو من خراسان، وإنَّما قيل له نبطيّ لِلُكنتِه.

فأَرسل حيَّان إلى وكيع:

ـ «أَرأَيتَ إن كففتُ عنك وأَعنتُك، أَتجعل لي جانب نهر بلخ خراجه ما دُمتَ والياً؟» قال:

ـ «نعم». فقال للعجم:

ـ «هؤلاءِ يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً». قالوا:

ـ «نعم».

فبايعوا وكيعاً سِرًّا. فأَتى ضرار بن حُصين قتيبةَ، فقال له:

ـ «إنَّ النَّاس يختلفون إلى وكيع ويُبايعونه».

فكان وكيع يأْتي منزل عبد اللَّه بن مسلم الفقير أَخي قتيبة فيشرب عنده، فقال عبد اللَّه:

ـ «هذا يحسر وكيعاً والحديث باطلٌ. وكيعٌ في بيتي يشرب ويسكر ويسلح في ثيابه وهذا يزعم أَنَّهم يبايعونه».

وجاءَ وكيع إلى قتيبة، فقال:

ـ «احذر ضراراً، فإنِّي لا آمَنُه عليك».

فأَنزل قتيبةُ ذاك على الحسد الَّذي بينهما. وتمارض وكيعٌ، فدسَّ قتيبة ضرار بن سنان الضَّبِّي إلى وكيع، فبايعه سِرًّا، فتبيَّن لقتيبة أَمرُه، فدعا ضِراراً وقال له:

ـ «كنتُ صدقتني». قال:

ـ «لم أُخبرك إلاَّ بعلمٍ، فأَنزلتَ ذلك منِّي على الحسَد». قال:

ـ «صدقتَ».

فأَرسل قتيبة إلى وكيع يدعوه. فوجده الرَّسول قد طلَى على رجليه مَغْرةً وعلَّق عليها خرزاً وعنده من يرقيه. فقال له:

ـ «أَجِب الأَمير». قال:

ـ «قد ترى ما برِجلي».

فرجع الرَّسول إلى قتيبة، فأَعاده إليه وقال:

ـ «إيتني به محمولاً على سريرٍ». قال:

ـ «لا أَستطيع».

فقال قتيبة لشريك بن الصَّامت، وكان على شرطته، ولرجلٍ آخر من غنيٍّ:

ـ «انطلقا إلى وكيع فأْتيا به، فإن أَبَى فاضربا عُنقَه».

ووجَّه معهما خيلاً فقال هُريم بن طخفة:

ـ «أَنَا آتيك به أَصلحك اللَّه». قال:

ـ «فانطلِقْ».

قال هُريمٌ: فركبتُ برذوني وركضتُ مخافة أَن يردَّني، فأَتيتُ وكيعاً وقد سبق إليه الخبر والخيل تأتيه.

فخرج وخرج معه هريم وهو على يمينه. ونادى وكيع في النَّاس، فأَقبلوا أَرسالاً من كلِّ وجه، وأَقبل في النَّاس وهو يقول:

قَرمٌ إذا حُمِّل مكروهةً شدَّ الشَّراسيفَ لها والحزيم

وأَمر قتيبة رجلاً فقال:

ـ «نادِ في النَّاس: أَين بنو عامرٍ؟» فنادى:

ـ «أَين بنو عامر؟» فقال له مجفر بن جزءٍ الكلابيّ:

ـ «وقد كان جفاؤهم حيث وضعتهم». قال:

ـ «ناد: أَذكِّركم اللَّه والرحم».

قال مُجفَر:

ـ «أَنتَ قطعتَها». قال:

ـ «نادِ لكم العُتبى».

فناداه مُجفَر وغيره:

ـ «لا أَقالنا اللَّه إذاً».

فدعا قتيبة ببرذَونٍ له مدرّب كان يلجأُ إليه في الزُّحوف، فقُرِّب إليه، فجعل يقمص حتَّى أعياه. فلمَّا رأى ذلك عاد إلى سريره وقال:

ـ «دَعوهُ، هذا أَمر يُراد».

وجاءَ حيَّان النَّبطي في العجم، فوقف وقتيبة واجدٌ عليه، فَوقف معه عبد اللَّه مسلم، وقال لِحيَّانَ:

ـ «احمل على أَحد هذين الطرفين». قال:

ـ «لم يأنِ لي ذلك».

فغضب عبد اللَّه وقال:

ـ «ناوِلْني قوسي». فقال:

ـ «ليس هذا يومَ قوس».

وأَرسل وكيع إلى حيَّان:

ـ «أَين ما وعدتني؟».

فقال حيَّان لابنه:

ـ «إذا رأَيتني قد حوَّلتُ قلنسوتي ومضيتُ، فمِل بمن معك من العجم إليَّ».

ففعل، ومالت الأَعاجم إلى عسكر وكيع، فكبَّر أَصحابه. وبعث قتيبة أَخاه صالحاً إلى النَّاس، فرمى بسهم فأَصاب هامته، فحُمل إلى قتيبة مائل الرَّأس، وتهايج النَّاس، وأَقبل عبد الرَّحمنِ بنَ مسلم نحوهم، فرماه أَهل السُّوق والغوغاءِ فقتلوه، ودنَوا من قتيبة، فدعا بدابَّةٍ فأُتي به، فلم يقرَّ ليركبه، فقال:

ـ «إنَّ له لشأْناً».

ورجع فجلس، وجاءَ النَّاس حتَّى بلغوا فسطاطة، فخرج عنه من كان حولَه فقُتل وقُتل معه من بني مسلم أَحدَ عشر رجلاً سبعةٌ منهم لصلب مسلم، وأَربعةٌ من بني أَبنائهم، فصلبهم وكيع، وهم: قتيبة، وعبد الرَّحمن وعبيد اللَّه، وعبد اللَّه الفقير، وصالح، ويَسار، ومحمَّد بنو مسلم، وكثير بن قتيبة، ومفلّس بن عبد الرَّحمن، ورجلان آخران، ولم ينجُ من صلب مسلم غير عمرٍو، وكان عاملَ الجوزجان، وضرارِ أَخوه استنقذ أَخواله، وكانت أُمُّه الغرَّاء بنت ضِرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة. وسقطت على قتيبة يوم قُتل جاريةٌ له خوارزميَّة، فوضعت بعد ليزيد بن المهلَّب، فأَخذها، فهي أُمُّ خُليدة.

ولمّا قُتل قتيبةُ صعد وكيع المنابر، فعلم منه أنَّه يأتي بآبدةٍ وهَوَجةٍ.

فصعد معه عمارة بن خثيَّه، فتكلَّم فأكثر، فقال وكيعٌ:

ـ «دعنا من هَذَرك وقذَرك».

وتكلَّم وكيع فقال:

ـ مَثلي ومَثل قتيبة، ما قال الأوَّل:

مَـن يَـنِـكِ الـعـيـرَ يَـنِـكْ نـيَّـاكـا

من أيِّ يوميك من الموت تفرُّ أيومَ لم يُقدَرْ، أم يومَ قُدر

ـ « أراد قتيبة أن يقتلني وأنا قتَّال، واللَّه لأقتلنَّ ثمَّ لأقتلنَّ، ثمَّ لأصلبنَّ. إنِّي لوالغٌ دِماءاً، إلاَّ أنَّ مرزبانكم هذا ابن الزَّانية قد أغلى أسعاركم، واللَّه ليصيرنَّ القفيزُ في السُّوق غداً بأربعة، أو لأصلبنَّهُ. صلُّوا على نبيِّكم ﷺ».

ثمَّ نزل.

وطلب وكيع رأس قتيبة وخاتمه، فقيل له:

ـ «إنَّ الأزد أخذته».

فخرج وكيع وهو يقول:

ـ «دُهدُرَّين سَعدُ القَين! واللَّه الَّذي لا إله غيره لا أبرح حتَّى أُوتي بالرَّأس، أو يُذهبَ برأسي معه».

ودعا بخشب، فقال:

ـ «إنَّ هذه الخيل لا بُدَّ لها من فرسان يتهدَّد بالصَّلب».

فقال له حُصين:

ـ «يا أبا مطرّف، تؤتى به فاسكُنْ».

وذهب حُصين إلى الأزد، وهو سيِّدهم، فقال:

ـ «أحَمقى أنتم؟ بايعناه وأعطيناه المقادة وعرَّض نفسَه، ثمَّ تأخذون الرَّأس! أخرجوهُ، لعنه اللَّه من رأس!».

فجاؤوه به، فوهب لمن جاءَ به ثلاثة آلاف درهم. وبعث بالرأس مع رجال من القبائل وعليهم سليط، ولم يبعث من بني تميم أحداً.

ووفَّى لحيَّان النَّبطي بما كان وعَده به.

فقال رجل من عجم خراسان:

ـ «يا معشرَ العرب! قتلتم قتيبة، واللّه لو كان منّا ثمّ مات فينا لجعلناه شهيداً وحفِظنا تابوتَه إلى الحشر نستفتح به إذا غزونا».

وقال الإصبهذ يوماً لرجل:

ـ «يا معشر العرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما سيّدا العرب». قال:

ـ «نعم، فأيُّهما كان أَهيب في صدوركم وأَعظم قدراً عندكم؟».

فقال له الإصبهذ:

ـ «لو كان قتيبة بالمغرب بأَقصى جُحرٍ به مكبَّلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا، لَكان قتيبةُ أَهيبَ في صدورنا وأَعظم من يزيد».

ورثى الشُّعراءُ قتيبةَ، فأَكثروا.

وولّى سليمانُ يزيد بن المهلَّبَ العراقَ مكان الحجّاج حربَها وخراجَها وصَلاتَها.

ذكر رأيٍ رآه يزيد لنفسه عاد مكروهاً عليه

فكّر يزيد في نفسه فقال:

ـ «إنَّ العراق قد أَخربها الحجّاج، وأَنا اليوم رجاءُ أَهل العراق، ومتى قدمتُها وأَخذتُ النّاس بالخراج وعذّبتُهم عليه صرتُ مثل الحجّاج وأُعيد عليهم مثل تلك السُّجون الّتي قد عافاهم اللّه منه أَو متى لم آتِ سليمان بمثل ما جاءَ به الحجّاج لم يقبل منّي».

فأَتى يزيد سليمان وقال له:

ـ «أَدلُّك على رجلٍ بصير بالخراج تولّيه إيّاه فتكون أَنت الّذي تأخذه به؟» قال:

ـ «نعم».

قال صالح بن عبد الرّحمان: قال:

ـ «قد قبلنا رأيك».

وولاّه. فأَقبل يزيد إلى العراق وتقدّم صالح فنزل واسطاً. فلمّا قدم يزيد خرج النّاس يتلقّونه. وقيل لصالح:

ـ «هذا يزيد وقد خرج النّاس يتلقّونه».

فلم يخرج حتّى قرب يزيد من المدينة، فخرج صالح عليه دُرّاعةٌ وبين يديه أَربعمائةٍ من أَهل الشّام، فلقي يزيدَ فسايره، فلمّا دخل المدينة، قال له صالحٌ:

ـ «قد فرّغتُ لك هذه الدّار».

وأشار إلى دارٍ. فنزلها يزيد واحتمل ذلك، ثمّ ضيّق صالح على يزيد فلم يُملكه شيئاً.

واتّخذ يزيد ألفَ خِوانٍ يُطعم النّاس عليها، فأخذها صالح. فقال له يزيد:

ـ «اكتبْ عليّ ثمنَها».

واشترى متاعاً كثيراً وصَكَّ صِكاكاً إلى صالح لباعتها فلم يُنفذ. فرجعوا إلى يزيد، فغضب وقال:

ـ «هذا عملي بنفسي».

فلم يلبث أن جاءَ صالحٌ، فأوسع له يزيد، فجلس وقال ليزيد:

ـ «ما هذه الصّكاك الّتي لا يقوم لها الخراجِ. قد أنفذت لك منذ أيّام صِكاً بمائة ألف درهم وعجّلتُ لك أرزاقك، ثمّ سألتَ مالاً للجند، فأعطيتك، فهذا لا يقوم له شيءٌ ولا يرضى به أمير المؤمنين وتؤخذ به».

فقال له يزيد:

ـ «يا أبا الوليد، أَجِز هذه الصّكاك هذه المرّة». قال:

ـ «فإنّي أُجيزها، فلا تُكثرنّ عليّ». قال:

ـ «لا».

وضُجر يزيد بصالحٍ، فكان لا يصل معه إلى شيءٍ. فدعا عبد اللّه بن الأهتم، فقال له:

ـ «إنّي أُريدك لأمرٍ قد أهمّني فأُحبُّ أن تكفينيه ولك مائة ألف». قال:

ـ «مُرني بما شئت». قال:

ـ «أنا في ما ترى من الضّيق، قد أضجرني ذلك، وبلغني أنّ أمير المؤمنين ذكر خراسان لعبد الملك أخي، فاخرج واحتَلْ حتّى يسمّيها لي». قال:

ـ «أفعل، سرّحني إلى أمير المؤمنين في بعض الأُمور فإنّي أرجو أن آتيك بعهدك عليها».

ما احتال به الأهتم حتّى قُلّد يزيدُ خراسان

فكتب معه يزيد كتابين إلى سليمان وذكر في أحدهما أمر العراق وأثنى فيه على ابن الأهتم وعلمه بها. ثمّ وجّهه على البريد وأعطاه ثلاثين ألفاً، فسار سبعاً. ثمّ قدم على سليمان فباسطه سليمان وحادثه وقال له:

ـ «إنّ يزيد بن المهلّب كتب إليّ يذكّر علمك بالعراق وبخراسان، فكيف علمك

بها؟» قال:

- «يا أَمير المؤمنين، بها ولدتُ وبها نشأتُ، فلي بها خبرٌ وعلمٌ». قال:

- «ما أَحوج أَمير المؤمنين إِلى مثلك، فأخبرني عن خراسان». قال:

- «أَمير المؤمنين أَعلم بمن يريد أَن يولّي، فإن ذكر أَحداً أَخبرته برأيي فيه: هل يصلح أَم لا». فسمّى سليمان رجلاً من قريش. فقال:

- «يا أَمير المؤمنين، ليس من رجال خراسان». قال:

- «فعبد الملك بن المهلَّب». قال:

- «ولا هو».

حتّى عدَّد رجالاً كان في آخرهم وكيع بن أَبي سود. فقال:

- «يا أَمير المؤمنين، ما أَحدٌ أَوجب شكراً ولا أَعظم عندي يداً من وكيع. لقد أَدركَ بثأري وشفاني من عدوّي، ولكنَّ أَمير المؤمنين أَعظم حقّاً عليَّ وإنَّ النصيحة تلزمني له. إنَّ وكيعاً لم يجتمع له قطُّ ثلاثمائة عِنانٍ إلاّ حدَّث نفسه بغدرةٍ. خاملٌ في الجماعة نابهٌ في الفتنة». قال:

- «صدقتَ. ويحك! فمَن لها؟» قال:

- «رجل أَعلمه لم يُسمِّه أَميرُ المؤمنين». قال:

- «فمَن هو؟» قال:

- «لا أَبوح به إِلى أن يضمن أَمير المؤمنين سترَ ذلك عليَّ وأَن يجيرني منه إِن عَلِمَ» قال:

- «نعم، سمِّه لي من هو؟» قال:

- «يزيد بن المهلَّب». قال:

- «ويحك! ذاك بالعراق، والمُقام بها أَحبُّ إِليه من المُقام بخراسان». قال:

- «قد علمتُ يا أَمير المؤمنين، ولذلك استجرتُ بك، ولكن تُكرهه على ذلك، فتستخلف على العراق، ويسيرُ هو». قال:

- «أَصبتَ».

فكتب عهده على خراسان، وأَنفذه إِليه على يد ابن الأَهتم. فقدم به على يزيد، فدعا يزيد ابنَه مَخلداً، فقدَّمه إِلى خراسان، فسار من يومه، ثمَّ سار يزيدُ، واستخلف على واسط الجرَّاح بن عبد اللّٰه الحكمي، وعلى البصرة عبد اللّٰه بن هلال الكوفي، وصيَّر مروان بن المهلَّب على أَمواله وأُموره بالبصرة، وكان أَوثقَ إِخوته عنده، وعلى

الكوفة بشير بن حسّان النّهدي. ولمّا قرب مَخلدٌ من مرو تلقّاه النّاس، فتثاقل وكيع، وكان مخلدٌ قدّم عمرو بن عبد اللّه بن سنان العَتكي حين دَنا من مرو. فأرسل عمرٌو بن عبد اللّه إلى وكيع:

- «انطلقْ إلى أميرك فتلقَّهُ ولا تكنْ أعرابيًا أَحمقَ جافياً».

وأَخرجه على كُرهٍ. فلمّا بلغ النّاس إلى مَخلدٍ ترجّلوا له غيرَ وكيعٍ ومحمد بن حُمران وعبّاد بن لقيط. فجاءَهم قوم، فأَنزلوهم.

ولمّا قدم مَخلدٌ مرو حبس وكيعاً، فعذّبه وأَصحابَه قبل قدوم أَبيه.

فتحدَّث إِدريس بن حنظلة قال: لمّا قدم مَخلَدٌ مروَ حبسني، فجاءَني ابن الأَهتم، فقال لي:

- «أَتريد أَن تنجوَ؟» قلتُ:

- «نعم». قال:

- «أَخرج الكتبَ الّتي كتبها القعقاع بن خليد العبسي وخُريم بن عمرو المُرّي إلى قتيبة في خلع سليمان». فقلتُ له:

- «يا بن الأَهتم إِيّاي تخدع عن ديني؟».

قال: فدعا بطومارٍ وقال:

- «إِنّك أَحمق».

وكتبَ كتباً عن لِسان القعقاع ورجالٍ من قريش إلى قتيبة:

- «إِنَّ الوليد قد مات وإنَّ سليمان باعثٌ هذا المَزُونّي على خراسان، فاخلعه». فقلتُ:

- «يا بن الأَهتم تُهلك واللّه نفسَك. لئن دخلتَ عليه لأُعلمنّه أَنَّك كتبتَها».

فلم يحفِل وقال:

- «قد قلتُ: إِنّك أَحمق».

ذكر حِيلةٍ تمّت على مَسلمة بن عبد الملك في هذه السنة بأَرض الرُّوم حتّى كاد يهلك هو والمسلمون

كان سليمان وجّه أَخاه مسلمة إلى قسطنطينية وأَمره أَن يُقيم عليها حتّى يفتحها أَو يأتيه أَمر. فشَتا بها وصافَ، وذلك أَنَّه لمّا دَنى من قسطنطينية أَمر كلَّ فارسٍ أن يحمل على عَجُز فرسه مُدَّين من طعام حتّى يأتي به قسطنطينية. فأَمر بالطّعام فأُلقيَ ناحيةً مثل الجبال. ثمّ قال للمسلمين:

ـ «لا تأكلوا منه شيئاً».

فغَبَروا في أرضهم وازدرعوا، وعَملَ بيوتاً من خشب، فشَتا فيها، وزرع النَّاس. ومكث ذلك الطَّعام في الصحراءِ لا يُكنُّه شيءٌ طول الصَّيف، والنَّاسُ يأكلون ممَّا أصابوا من الغارات، ثمَّ أكلوا من الزَّرع.

فأقام مَسلمة على قسطنطينية قاهراً لأهلها ومعه وجوه أهل الشَّام. واتَّفق موتُ ملك الرُّوم، فراسلوا إليُونَ صاحبَ إرمينية، فشخص اليُون من إرمينية ومكر في طريقه بمسلمة، ووعده أن يسلِّم إليه قسطنطينية، وكانت قد راسلت الرومُ إليُون:

ـ «إن صرَّفتَ عنَّا مَسلمةَ ملَّكناك».

ووثَّقوا له. فلمَّا أتى إليُونُ مسلمةَ، قال له:

ـ «إنَّك لا تصدُقُهم القتالَ ولا تزال تُطاولهم ما دام هذا الطَّعام عندك، وقد أحسُّوا بذلك، فلو أحرقتَ الطَّعامَ أعطَوا بأيديهم».

فأحرقه، ووجَّه مسلمةُ معه من شيَّعة حتَّى نزل بقسطنطينية، وملَّكه الرُّومُ.

فكتب إلى مسلمة يُخبره بما جرى من أمره ويسأله أن يأذن له حتَّى يُدخل من الطَّعام من النواحي، وما يعيش به القوم ويُصدِّقونه بأنَّ أمره وأمرَ مَسلمة واحدٌ وأنَّهم في أمان من السّباءِ والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلةً واحدةً في حمل الطَّعام وقد هيَّأ إليُونُ السُّفنَ والرِّجال. فأذن له، فما بقي في تلك الحظائر إلاَّ ما لا يُذكر، حُمل في ليلة واحدة، وأصبح إليونُ محارباً وقد خَدعه خديعةً لو كان امرأةً لعيب بها. فلقي الجند ما لم يلقَ جندٌ قطُّ، حتّى إن كان الرَّجل لَيَخافُ أن يخرج من عسكره وحدَه. وأكلوا الدَّوابَّ والجُلود وأُصولَ الشَّجر والعروق والورق، وكلَّ شيءٍ حتَّى الرَّوث، وسليمان مقيمٌ بدابق ونزل الشِّتاء، فلم يقدر على أن يُمدَّهم حتَّى هلك سليمان.

سليمان يُحرِّض يزيدَ بذكر فتوح قتيبة

فأمَّا يزيد بن المهلَّب فإنَّه أقام ثلاثة أشهر، وكان سليمان بن عبد الملك كلَّما افتتح قتيبة فتحاً قال ليزيد بن المهلَّب:

ـ «أما ترى ما صنع اللَّه على يدي قتيبة؟».

فيقول له يزيد بن المهلّب:

ـ «ما فعلتْ جرجانُ الَّتي حالت بين النّاس والطريق الأعظم وأفسدتْ قومس وأبرشهر». ويقول:

ـ «هذه الفتوح ليست بشيءٍ في جُرجان».

وكذلك كانت حال جُرجان، لأَنَّ سعيدَ بن العاص كان صالح أَهل جرجان. ثمّ إِنَّهم امتنعوا وكفروا، ولم يأتهم أَحدٌ بعد سعيدٍ، ومنعوا ذلك الطريق، فلم يكن يُسلك طريق خراسان من ناحيته إِلاَّ بوَجَلٍ وخوف. كان الطريق من فارس إِلى كرمان، فأَوّل من صيَّر الطريقِ من قومس قتيبة بن مسلم. ثمَّ غزا مصقلةُ خراسان في أَيَّام معاوية في عشرة آلاف، فأُصيب هو وجُنده بالرُّويان، فهلكوا في وادٍ من أوديتها، أَخذ العدوُّ عليهم بمَضائقه، فقُتلوا جميعاً، فهو يُسمَّى: وادي مصقلة، وكان يُضرب به المثل: «حتَّى يرجع مصقلة من خراسان».

اهتمام يزيد بن المهلَّب بجرجان

فلمَّا ولي يزيد بن المهلَّب لم تكن له همَّةٌ غير جرجان. فخرج إِلى دهستان، وبها صول التُّركي مع الأَتراك، وهناك جزيرةٌ في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ، وهي من جرجان ممَّا يلي خوارزم. فكان صول يُغير على فيروز مرزبان جرجان، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، فيصيبُ من أَطرافهم، ثمَّ يرجع إِلى البحيرة ودهستان.

فوقع بين فيروز وبين ابن عمٍّ له يقال له: المرزبان، منازعةٌ، فاعتزله المرزبان، فنزل المياسان، فخاف فيروز أن يُغير عليه التُّركُ، فخرج إِلى يزيد بن المهلَّب وأَخذ صولٌ جرجانَ. فلمَّا قدم على يزيد بن المهلَّب قال له:

- «ما أَقدمك؟» قال:

- «خِفتُ صولاً فهربتُ منه».

فقال له يزيد:

- «هل من حيلةٍ لقتاله؟» قال:

- «نعم، وشيءٌ واحد إن ظفرتَ به قتلتَه، أَو أَعطى بيده». قال:

- «ما هُوَ؟» قال:

- «أَن يخرج من جرجان حتَّى ينزل البحيرة، فإن أتيته هناك وحاصرتَه ظفرتُ به، فاكتبْ إِلى الإِصبهبذ كتاباً تسأله فيه أَن يحتال لصول حتَّى يُقيم بجرجان، واجعل على ذلك جُعلاً ومَنِّه، فإِنَّه يبعث بكتابك إِلى صول يتقرَّب به إِليه، لأَنَّه يعظِّمه، فيتحوَّل على جرجان فينزل البحيرة».

ذكر هذه الحيل الَّتي احتال بها يزيد بمشورة فيروز حتَّى ظفر به

فكتب يزيد بن المهلَّب إِلى صاحب طبرستان:

- «إِنِّي أُريد أَن أَغزو صولاً وهو بجرجان، فخفتُ، إِن بلغه أَنِّي أُريد ذلك أَن

يتحوَّل إِلى البحيرة فينزلها، وإن يتحوَّلْ إِليها لم يُقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك، فإن حبستَه العامَ بجرجان، فلم يأتِ البحيرة، حملتُ إِليك خمسين أَلف مثقال، فاحتَلْ له بكلِّ حيلةٍ حتَّى تحبسه بجرجان، فإن أَقام ظفرتُ به».

فلمَّا أَتى الإصبهبذَ الكتابُ تقرَّب به إِلى صول. فلمَّا أَتى صولاً الكتابُ أَمر النَّاسَ بالرَّحيل إِلى البحيرة، وحمل الأَطعمة ليتحصَّن بها وبلغ يزيد مسيرُه من جرجان إِلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصَّن بها. فخرج إِلى جرجان في ثلاثين أَلفاً ومعه فيروز، واستخلف على خراسان مَخلَد بن يزيد، وعلى سمرقند وكِسّ ونسَف وبخارى ابنَه معاوية، وعلى طخارستان حاتم بن قبيصة بن المهلَّب.

دخول يزيد بن المهلَّب جرجان

وأَقبل حتَّى أَتى جرجان ولم تكن يومئذٍ مدينة، إنَّما هي جبال محيطة بها أَبواب ومخارم يقوم عليها الرَّجل فلا يقدَم عليه أَحدٌ. فدخلها يزيد لم يعازَّهُ أَحدٌ، وأَصابَ أَموالاً، وهرب المرزبان عمُّ فيروز، وخرجَ يزيد بالنَّاس إِلى البحيرة، وأَناخ على صولٍ، فحاصرهم، وكان صول يخرج إِليه في الأَيَّام فيقاتله ثمَّ يرجع إِلى حصنه، حتَّى عجزوا وانقطعت عنهم الموادُّ.

فأَرسل إِليه صول يطلب الصُّلح، فقال يزيد:

ـ «لا إلاَّ على حُكمي».

فأَبى. فأَرسل إِليه:

ـ «إنِّي أُصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائةٍ من أَهل بيتي وخاصَّتي على أَن تؤمننا فننزل البحيرة».

فأَجابه إِلى ذلك. فخرج بماله وغلمانه ممَّن أَحبَّ، وصار مع يزيد. فقتل يزيد من الأَتراك جماعةً صبراً ومَنَّ على آخرين، وقال الجند ليزيد:

ـ «أَعطِنا أَرزاقَنا».

فدعا إدريس بن حنظلة العَمِّي، فقال له:

ـ «يا بن حنظلة، أَحصِ لنا ما في البحيرة حتَّى نُعطي الجند».

فدخلها إدريس فلم يقدر على إحصاءِ ما فيها. فقال ليزيد:

ـ «فيها ما لا يُستطاع إحصاؤه في هذه السُّرعة. وهناك ظروف. فتُحصى الجواليق وتعلم ما فيها، ثمَّ تقول للجند: ادخلوا فخُذوها. فمن أَخذ شيئاً عرفنا ما أَخذ من حنطةٍ، أَو شعيرٍ، أَو أَرُزٍ، أو سِمسمٍ، أو عسلٍ، فأَثبتناه عليه». قال:

ـ «نِعَمَ ما رأَيتَ».

ففعلوا ذلك، وقال للجند:

ـ «خُذوا».

فكان الرَّجل يخرج وقد أَخذ ثياباً أَو طعاماً، أَو حمل من شيءٍ فيُكتب على كلِّ رجلٍ ما أَخذ، فأَخذوا شيئاً كثيراً.

طمع يزيد بن المهلَّب في طبرستان

ولمَّا فرغ يزيدُ من صولٍ طمع في طبرستان أَن يفتتحها، وهمَّ بالمسير إِليها. فاستعمل عبدَ اللّه المُعمر اليشكري على دهستان البياسان، وضمَّ إِليه أَربعة آلاف رجلٍ، وسار إِلى آخر حدود جرجان مما يلي طبرستان، فاستعمل أندرشان أَسد بن عمرٍو، ويقال: بل ابناً لعبد اللّه بن المُعمَّر وضمَّ إِليه أَربعة آلاف، ودخل يزيد بلادَ الإِصبهبذ، فراسله الإصبهبذ يسأله الصُلح، وأَن يخرج من طبرستان ولا يتوغَّلها. فأَبى يزيد ورجا أَن يفتتحها. فوجَّه أَخاه أَبا عُيينة من وجهٍ وخالد بن يزيد من وجهٍ وأَبا الجهم الكلبي من وجهٍ. وقال:

ـ «إِذا اجتمعتم فأَبو عُيينة على النَّاس».

فسار أَبو عُيينة في أَهل المصرين ومعه هُريم بن أَبي طحمة، ووصَّى يزيد أَبا عيينة بأَن يُشاور هُريماً وقال:

ـ «هو ناصحٌ وذو رأيٍ».

وأَقام يزيد معسكراً واستجاش الإصبهبذُ بأَهل جيلان والدَّيلم، فأَتَوهُ والتقَوا في سفح جبلٍ، فانهزم المشركون، واتَّبعهم المسلمون حتَّى انتهوا إِلى فم الشِّعب، فدخله المسلمون وصعد المشركون واتَّبعهم المسلمون، فرماهم وهم فوقَهم بالحجارة والنُشَّاب، فانهزم أَبو عُيينة والمسلمون، فركب بعضهم بعضاً يتساقطون من الجبل، فلم يثبتوا حتَّى انتهوا إِلى عسكر يزيد، وكفَّ العدوُّ عن اتِّباعهم.

وكتب الإصبهبذ إِلى المرزبان ابن عمِّ فيروز وهو بأَقصى جرجان ممَّا يلي البياسان:

ـ «إِنَّا قد قتلنا يزيد وأَصحابه، فاقتل أَنت مَن في البياسان من العرب».

فخرج إِلى البياسان والمسلمون غارُّون في منازلهم فقُتلوا جميعاً في ليلةٍ.

وأَصبح عبد اللّه بن المعمر مقتولاً في أَربعة آلاف من المسلمين لم ينجُ منهم أَحدٌ وقُتل من بني عمِّ يزيد خمسون رجلاً، وكتب المرزبان إِلى الإصبهبذ:

ـ «إنّي قد قتلتُ مَن عندي من العرب، فخُذْ أنت المضائق والطُّرق على مَن بقي منهم قبَلك».

وبلغ يزيدَ والمسلمين مقتلُ عبد اللّه بن المعمَّر وأَصحابه، فأَعظموا ذلك وهالَهم. ففرغ يزيد إلى حيَّان النّبطيّ وقال:

ـ «لا يمنعنَّك ما كان منّي إليك من نصيحة المسلمين». وكان يزيد قد غرَّم حيَّان مائتي أَلف درهم ـ وسنذكر ذلك ـ وشكا يزيد إليه ما يرى بالمسلمين من الوهن بما بلغهم عن جرجان ثمَّ بما أَخذ عليهم الإصبهبذ من الطُّرق، وقال له:

ـ «اعمل في الصُّلح». قال:

ـ «أَفعل».

فأَتى حيَّانُ الإصبهبذَ وقال له:

ـ «أَنا رجلٌ منكم وإن كان الدِّين فرَّق بيني وبينكم، وأَنا لك ناصحٌ، فإنَّك أَحبُّ إليَّ على كلِّ حال من يزيد، وقد بعث يستمدُّ وأَمدادُه منه قريبةٌ، وإنَّما أَصابوا منه طرفاً، ولستُ آمَن أن يأتيك ما لا تقوم له. فأَرِحْ نفسَك منه وصالِحْهُ، فإنَّك إن صالحتَه صُيِّر حدُّه على أَهل جرجان بغدرهم وقتلهم مَن قتلوا».

فقبل الإصبهبذ منه وصالَحه على سبعمائة أَلف ويُروى خمسمائة أَلفٍ وأَربعمائة وقر زعفران أَو قيمته من العين وأَربعمائة رجلٍ على يد كُلِّ رجلٍ جام فضَّةٍ وسَرَقة حرير وكسوةٍ. ثمَّ رجع إلى يزيد وقال:

ـ «ابعث مَن يحمل صُلحَهم الَّذي صالحتهم عليه». قال:

ـ «مِن عندهم، أَو من عندنا؟» قال:

ـ «من عندهم».

وكان يزيد قد طابت نفسُه أن يُعطيَهم ما سأَلوا ويرجعَ إلى جرجان. فبعث مَن يحمل ما صالحهم عليه حيَّان، وانصرف إلى جرجان.

فأَمَّا سبب تغريم يزيد حيَّانَ مائَتي أَلف درهم وخوفه أَنَّه لا يناصحه، فهو أَنَّ مَخلد بن يزيد كان ببلخ ويزيد يومئذٍ بمرو، وعرض لحيَّان ما احتاج فيه إلى مكاتبة مَخلد. فأَحضر كاتبه وأَملى عليه:

ـ «من حيَّان مولى مَصقلة إلى مَخلد بن يزيد».

فقال له ابنه مقاتل بن حيَّان:

ـ «يا أَبَهْ تكتب إلى مَخلَدٍ وتبدأ بنفسك». فقال:

ـ «نعم يا بُنَيّ. فإن لم يرضَ لقِيَ ما لقي قتيبة».

وتمّم كتابَه وأَنفذه إِلى مَخلد. فبعث مخلدٌ بالكتاب إِلى أَبيه يزيد فأَغرمه يزيد مائتي أَلف درهم.

يزيد بن المهلّب يفتح جرجان الفتح الآخر

ثمّ إنَّ يزيد بعد انصرافه من طبرستان ومصالحة الإصبهبذ قصد جرجان وأَعطى اللّه عهداً لئن ظفر بهم ألاّ يُقلع عنهم ولا يرفع السيف حتّى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطّحين ويأكل منه لغدرهم بجنده ونقضهم لعهده.

فلمّا بلغ المرزبانَ أَنّه قد صالح الإصبهبذ وتوجه إِلى جرجان ضاقت به الأَرض، فجمع أَصحابه وأَتى وجاةَ وتحصَّن فيها وصاحبها لا يحتاج إِلى عُدَّةٍ من طعام وشراب، وأَقبل حتّى نزل عليها وهم متحصّنون فيها وحولَها غياض عظيمة، فليس يُعرف لها إِلاّ طريق واحدٍ. فأقام على ذلك سبعة أَشهر لا يقدر منهم على شيء ولا يعرف لهم ما يأتي إلاّ من وجهٍ واحدٍ، فكانوا يخرجون إِليه في الأَيّام ويُقاتلونه ثمّ يرجعون إِلى حصنهم.

فبيناهم على ذلك إذ خرج رجل من عسكر يزيد بن المهلّب إِلى الصّيد ومعه شاكريّةٌ له، فأَبصر وَعِلاً في الطّريق يرقى في الجبل فاتّبعه وقال لمن معه:

ـ «قفوا مكانكم».

ووقَل في الجبل يتبع الوَعِلَ، فما شعر بشيءٍ حتّى اطّلع على عسكر العدوّ، فرجع يُريد أَصحابَه وخاف أَلاّ يهتديَ إِن عاد، فجعل يحرق قباءَه وعمامته، ويعقد على الشّجر علاماتٍ حتّى ظفر بأَصحابه ينتظرون. ثمّ رجع إِلى العسكر وأَتى مَن أَوصله إِلى يزيد.

فلمّا رآهُ يزيد قال:

ـ «ما عندك؟» فقال:

ـ «أَتريد أَن تدخل وَجاةَ بغير قتال؟» قال:

ـ «نعم». قال:

ـ «جُعالتي؟» قال:

ـ «احتكمْ». قال:

ـ «أَربعة آلاف». قال:

ـ «بل أَضعافها». قال:

ـ «عجّلوا إِلى أَربعة آلاف، ثمّ أَنتم بعدُ من وراءِ الأَحسابِ».

فأَمر له بأَربعة آلاف، وندب النّاس، فانتدب أَلفٌ وأَربعمائة، فقال:

ـ «الطَّريق لا يحتمل هذه الجماعة، لالتفات الغياض».

فاختار منهم ثلاثمائة رجل، واستعمل عليهم ابنَه خالد بن يزيد، وضمَّ إليه جهم بن زحر، وقال لابنه:

ـ «إن غُلبتَ على الحياة، فلا تُغلَبَنَّ على الموت، وإيَّاك أن أراك عندي منهزماً».

وقال للنَّاس:

ـ «إذا وصلتم إلى المدينة فانتظروا حتَّى إذا كان في السَّحر فكبِّروا، ثمَّ توجَّهوا نحو باب المدينة فإنَّكم تجدوني قد نهضتُ بجميع النَّاس إلى بابها».

فلمَّا أَشرف ابن زَحْرٍ على المدينة أَمهل حتَّى إذا كانت السَّاعة الَّتي أَمره يزيد أن ينهض فيها، مشى بأصحابه، فأخذ لا يستقبل من أحراسهم أَحداً إلاَّ قتله. وكبَّر ففزع أَهل المدينة فزعاً لم يدخلهم مثلُه قطُّ، لم يَرُعْهم إلاَّ والمسلمون معهم في مدينتهم يكبِّرون. فدُهشوا وأَقبلوا لا يدرون أَين يتوجَّهون. غير أَنَّ عصابةً منهم أَقبلوا نحو جهم بن زَحر، فقاتلوا ساعةً فدُقَّت يَدُ جهم وصبر لهم هو وأَصحابه، فلم يلبِّثوهم إلاَّ قليلاً حتَّى قتلوهم.

يزيد بن المهلَّب يدخل باب جرجان ويُبرُّ يمينَه في أَهلها

وسمع يزيد بن المهلَّب التكبير، فوثب في النَّاس إلى الباب، فوجدهم قد شغلهم جهم بن زَحر عن الباب، فلم يجد من يمنعه ولا يدفع عنه كبيرَ دفعٍ. ففتح الباب ودخلها من ساعته، فأَخرج مَن كان فيها من المقاتلة، فنصب لهم الجُذوعَ فرسخين عن يمين الطَّريق وعن يساره، فصلبهم أَربعة فراسخ وسَبى وأَصاب ما كان فيها وقاد أَربعين أَلفاً إلى اندرهرز وادي جُرجان وقال:

ـ «من طلبهم بثأر فلْيقتُلْ».

فكان الرَّجل من المسلمين يقتل الجماعة في الوادي، وأُجريَ الماءُ على الدَّم وعليه أَرحاء، ليطحن بدمائهم ولتَبَرَّ يمينُه، فطحنَ واختبز وأَكَلَ. وهي مدينة جرجان، ولم يكن جرجان يومئذٍ مدينةً.

وكتب بذلك إلى سليمان بن عبد العزيز بالفتح، وعظَّم ذلك قال:

ـ «إنَّ اللَّه فتح لأمير المؤمنين من جرجان وطبرستان ما أَعيا سابورَ ذا الأَكتاف، وكسرى بن قباذ، وكسرى بن هرمز، وأَعيا الفاروق عُمر بن الخطَّاب، وعثمان بن عفَّان، ومَن بعدَهما من خلفاءِ اللَّه».

وكتب في الكتاب أَنْ:

ـ «قد صار عندي من خُمس ما أفاءَ اللّه على المسلمين بعد أَن صار إِلى كلِّ ذي حقٍّ حقُّه من الفَيءِ والغنيمة ستَّة آلاف ألفٍ وأَنا حامل ذلك إِلى أَمير المؤمنين إن شاء اللّه».

ذكر رأي أُشير به على يزيد بن المهلَّب فلم يقبلْه فعاد وبالاً عليه

فقال له كاتبه المغيرة بن أَبي قُرَّة:

ـ «لا تكتب بتسمية مالٍ، فإنَّك من ذلك بين أَمرين: إِمَّا استكثره فأَمرك بحمله، وإِمَّا سخَتْ نفسُه بذلك به فسوَّغَكه فتتكلَّف له الهديَّة ولا يأْتيه من قِبلكَ شيءٌ إلاَّ استقلَّه، ويُحصِّل الكُتَّابُ ما سمَّيتَه في دواوينهم فيبقى مخلداً عليك، فإن وَلِيَ والٍ بعدَه أَخذك به، وإن وَلِيَ مَن يتحامل عليك لم يرضَ منك بأَضعافه، فلا تُمض كتابَك، ولكن اكتُبْ بالفتح وسَلْهُ القُدومَ علي، ثمَّ تُشافهه بما أَحببتَ وتُقصِّر في الكتاب. فإنَّك إن تُقصِّر عمَّا أَصبتَ أَحرى من أَن تُكثِّر».

فأَبى يزيد وأَمضى الكتاب.

ودخلت سنة تسعٍ وتسعين

وفيها تُوفِّي سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشر ليالٍ مضين من صفر. فكانت خلافته سنتين وسبعة أَشهر. وكانوا يتبرَّكون به ويسمونه مفتاح الخير، وذاك أَنَّه ذهب عنهم الحجَّاج، فأَطلق الأَسرى وخُلِّيَ أَهل السُّجون وأَحسن إِلى النَّاس.

خلافة عمر بن عبد العزيز

واستخلف سليمانُ بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز على ما سنحكيه. وهو أَنَّه لمَّا مرض مرضتَه الَّتي مات فيها، عَهِدَ في كتابٍ كتبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ.

قال رجاء بن حَيوة: فقلتُ:

ـ «ما تصنع يا أَمير المؤمنين، إِنَّه ممَّا يحفظ به الخليفة في قبره أَن يستخلف على المسلمين الرَّجل الصَّالح».

فقال سليمان:

ـ «أَنا أَستخير اللَّه وأَنظر فيه، ولم أَعزِم عليه».

قال: فمكث يوماً أو يومين، ثمَّ خرَّقه ودعاني، فقال:

ـ «ما ترى في داود بن سليمان؟».

يعني ابنه. قُلت:

ـ «هو غائب عنك بقسطنطينية وأَنت لا تدري أَحيٌّ هو أَم ميِّتٌ». فقال لي:

ـ «فمَن ترى؟» قلتُ:

ـ «رأيك يا أَمير المؤمنين».

ـ «وأَنا أَريد أَن أَنظرَ من يذكر». قال:

ـ «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟» فقلت:

ـ «أَعلمه واللَّه خيِّراً فاضلاً مسلماً». فقال:

ـ «هو واللَّه على ذلك».

ثمَّ قال:

ـ «واللَّه، لئن ولَّيتُه، لم أُوَلِّ أَحداً سواه لَتكوننَّ فتنةٌ، ولا يتركونه يلي أَبداً عليهم إِلاَّ أَن يجعل أَحدَهم بعدَه».

ويزيد بن عبد الملك يومئذٍ غائب على الموسم. قال:

ـ «فأَجعل يزيد بن عبد الملك بعده، فإِنَّ ذلك ممَّا يُسكِّنهم ويرضون به». قلتُ:

ـ «رأيك».

فكتب:

ـ «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم. هذا كتاب من عبد اللّه سليمان أَمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز. إِنِّي ولّيتُك الخِلافة من بعدي. ومن بعدِك يزيدَ بن عبد الملك. فليسمع المؤمنين له ولْيُطيعوا، ولْيتّقوا اللّه ولا يختلفوا، فيُطمعَ فيهم».

وختم الكتاب، وبعث به إلى صاحب شرطته يأمره أن يجمع أَهل بيته ولمّا اجتمعوا قال سليمان لِرَجاء:

ـ «اذهب بكتابي إِليهم، فأَخبرهم أَنّه كتابي، ومُرْهم فلْيبايعوا مَن ولّيتُ فيه».

ففعل رجاءٌ. فلمّا قال رجاءٌ ذلك لهم قالوا:

ـ «ندخل ونسلّم على أَمير المؤمنين». قال:

ـ «نعم».

فدخلوا. فقال لهم سليمان:

ـ «في هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إلى يد رجاء بن حَيوَة ـ عهدي. فاسمعوا وأَطيعوا وبايعوا لمن سمّيتُ في هذا الكتاب».

فبايعوه رجلاً رجلاً.

قال: ثمّ خرج بالكتاب مختوماً.

قال رجاءٌ: فلمّا تفرّقوا جاءَني عُمر بن عبد العزيز، فقال:

ـ «إِنِّي أَخشى أن يكون هذا قد أسند إليّ شيئاً من الأَمر. فأنشدك اللّه وحُرمتي ومودّتي إِلاّ أَعلمتني إن كان ذلك حتّى استعفيه الآن قبل أن تأتي حالٌ لا أَقدر فيها على ما أَقدر عليه السّاعة».

قال رجاءٌ:

ـ «لا واللّه، ما أَنا بمُخبرك حرفاً».

فذهب عُمر غضبان.

قال رجاءٌ: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال:

ـ «يا رجاء، إنّ لي بك حرمةً ومودّة قديمةً وعندي شُكر، فأَعلِمني فإن كان إليّ علمتُ، وإن كان إلى غيري تكلّمتُ، فليس مثلي قُصّر به ذلك، ولَك اللّهُ عليّ أَلا أذكر من ذلك شيئاً أَبداً».

قال رجاءٌ: فأَبيتُ وقُلتُ:

ـ «لا واللّه، لا أُخبرك حرفاً واحداً ممّا أُسِرَّ إِليّ».

قال: فانصرف هشام وقد يئس وضرب بإحدى يديه على الأُخرى وهو يقول:

ـ «فإلى مَن إذا نُحِّيتْ عنِّي! أَتخرج من بني عبد الملك؟».

قال رجاءٌ: ودخلتُ على سليمان وهو يجود بنفسه، فلقَّنتُه الشَّهادة، وحرَّفتُه إِلى القبلة، وسجَّيتُه، وأَجلستُ على الباب مَن أثق به، ووصَّيتُه أَلاَّ يبرح حتَّى آتيهُ، ولا يدخل على الخليفة أَحدٌ. ثمَّ خرجتُ وأرسلت إلى صاحب الشُّرطة حتَّى جمع أَهل بيت أَمير المؤمنين في مسجد دابق، وتوسَّطتُهم إِلى المنبر، وقلت:

ـ «بايعوا!» فقالوا:

ـ «قد بايعنا مرَّةً ونبايع أُخرى». قلتُ:

ـ «هذا عهد أَمير المؤمنين. فبايعوا مَن سمَّى في هذا الكتاب المختوم».

فبايَعوا الثانيةَ رجلاً رجلاً. فلمَّا بايعوا بعد موت سليمان رأَيتُ أَنِّي قد أَحكمتُ الأَمر. قلتُ:

ـ «قوموا إِلى صاحبكم فقد مات». قالوا:

ـ «إِنَّا للَّه وإِنَّا إِليه راجعون».

وقرأَتُ الكتاب عليهم. فلمَّا انتهيتُ إِلى ذكر عمر بن عبد العزيز، نادى هشام بن عبد الملك:

ـ «لا نبايعه أَبداً». قلتُ:

ـ «أَضربُ واللَّه عنقك. قُم فبايع من قد بايعتَه مرَّتين».

فقام يجرُّ رِجلَيه.

قال رجاء: وأَخذت بضبَعَيْ عمر بن عبد العزيز، فأَجلسته على المنبر وهو يسترجع لِما وقع فيه وهشام يسترجع لما أَخطأَه.

ولمَّا كفِّن سليمان وصلَّى عليه عُمر ودفنه وأُتي بمراكب الخلافة من البراذين والخيل والبِغال، ولكلِّ دابَّة سائسٌ مفرد، فقال:

ـ «ما هذا؟» قالوا:

ـ «مراكب الخلافة». قال:

ـ «دابَّتي أَوفق لي».

وركب دابَّته وصُرفت تلك الدَّوابُّ. ثمَّ أقبل سائراً. فقيل له:

ـ «منزلُ الخلافة». فقال:

ـ «فيه عيال أَبي أَيُّوب ـ يعني سليمان ـ وفي فسطاطي كَفايةٌ حتَّى يتحوَّلوا».

فأَقام في منزلهِ حتَّى فرَّغوه من بعدُ.

وكتب عمر بن عبد العزيز إِلى العُمَّال بكلِّ بلدٍ بما صار إِليه، فأَوجز وأَحسن.

ثمَّ وجَّه إلى مَسلمة وهو بأَرض الرُّوم يأمره بالقفول منها بمن معه بخيلٍ عِتاقٍ وأَموال عظيمة.

وعزل يزيد بن المهلَّب عن العراق، ووجَّه على البصرة عديَّ بن أَرطأة الفزاريّ، وبعث على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطَّاب من بني عديّ بن كعب، فضمَّ إليه أَبا الزِّياد، فكان أَبو الزِّياد كاتِب عبد الحميد بن عبد الرَّحمن. وبعث عديُّ في إثر يزيد بن المهلَّب موسَى بنَ الوجيه الحميري.

ودخلت سنة مائة

وفيها خرجت الخارجة على عمر بن عبد العزيز بالعراق

فكتب عمرُ إِلى عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطَّاب عامله على العراق، يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب اللَّه وسنَّة نبيِّه، ﷺ، ففعل. ولمَّا أَعذر في دُعائهم، بعث إِليهم عبد الحميد جيشاً فهزمتهم الحروريَّة، فبلغ عُمرَ، فبعث إِليهم مسلمة بن عبد الملك في جيشٍ من أَهل الشَّام جهَّزهم من الرَّقَّة.

وكتب إلى عبد الحميد:

ـ «قد بلغني ما فعل جيشك جيش السَّوءِ، وقد بعثتُ مَسلمة بن عبد الملك، فخَلِّ بينه وبينهم». فلقيهم مسلمة في أَهل الشَّام، فلم ينشَبْ أَن أَظهرهُ اللَّهُ عليهم.

وكان هذا الخارجيُّ بسطام من بني يشكر ويُلقَّب شوذَب، وكان خروجه في ثمانين فارساً أَكثرهم من ربيعة. وكان عمر كتب إلى بسطام يدعوهُ ويسأَلُه عن مخرجه ويقول في كتابه:

ـ «بلغني أَنَّك خرجتَ غضباً للَّه ولنبيِّه، ﷺ، ولستَ بأَولى بذلك منِّي. فهلُمَّ أُناظرك، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلتَ في ما دخل فيه النَّاسُ، وإن كان في يدك نظرنا في أَمرك».

فأَمسك بسطام عن الحرب ولم يُحرِّك ساكناً، وكتب إلى عُمر:

ـ «قد أَنصفتَ. وقد بعثتُ إِليك رجلين يُدارسانِك ويُناظرانِك».

فلمَّا وصل الرَّجلان إِلى عمر، أَطالا معه حتَّى قالا له:

ـ «أَخبرنا عن يزيد، لِمَ تُقرُّه خليفةً بعدَك». قال:

ـ «صيَّره غيري». قالا:

ـ «أفرأيتَ لو وَلِيتَ مالاً لغيرك، ثمَّ وكلتَه إلى غير مأمون عليه، أتُراك كنتَ أدَّيتَ الأَمانة إلى من ائتمنك عليها؟» فقال:

ـ «أَنظِرني ثلاثاً».

فخرجا من عنده. وبلغ ذلك مروان، فخافوا أَن يُخرج ما في أَيديهم من الأَموال وأَن يَخلعَ يزيدَ. فدسُّوا إليه مَن سقاه سمّاً. فلم يلبث بعد خروجهما من عنده إلاّ ثلاثاً حتَّى مات.

عُمر بن عبد العزيز يحبس يزيد بن المهلَّب

ثمَّ عُدنا إلى حديث يزيد بن المهلَّب. لمَّا أَقبل يزيد بن المهلَّب فنزل واسطاً، ركب منها السُّفنَ يُريد البصرة. فبعث عديُّ من منعه وأَوثقه، ثمَّ بعث به إلى عمر بن عبد العزيز، وكان عمر يُبغض يزيد وأَهل بيته ويقول:

ـ «هم جبابرة، ولا أُحبُّ أَمثالَهم».

وكان يزيد يُبغض عُمَر ويقول:

ـ «إنِّي لأَظنُّه مرائياً».

فلمَّا ولي عمر عرف يزيدُ أَنَّ عُمر كان من الرِّئاءِ بعيداً.

ولمَّا وصل يزيد إلى عمر سأَله عن الأَموال الَّتي كتب بها إلى سليمان. فقال:

ـ «كنتُ من سليمان بالمكان الَّذي قد علمتَ، وإنَّما كتبتُ إلى سليمان لأُسمع النَّاسَ به، وكنتُ علمتُ أَنَّ سليمان لم يكن ليأخذني بشيءٍ سمَّعتُ به، ولا بأَمر أَكرهه». فقال له:

ـ «لا أَجدُ في أَمرك إلاَّ حبسك، فاتَّق اللَّه وأَدِّ ما قِبَلك، فإنَّها حقوق المسلمين ولا يَسَعُني تركها».

وردَّه إلى محبسه.

وبعث الجرَّاح بن عبد اللَّه الحكمي، فسرَّحه إلى خراسان.

وأَقبل مخلد بن يزيد من خراسان يُعطي النَّاس، لا يَمُرّ بكورةٍ إلاَّ أَعطاهم فيها أَموالاً عظاماً، حتَّى قدم على عمر بن عبد العزيز. فدخل عليه، فحمد اللَّه وأَثنى عليه ثمَّ قال:

ـ «إنَّ اللَّه، يا أَمير المؤمنين، صنع لهذه الأُمَّة بولايتك عليها، وقد ابتلينا بك، فلا نَكُنْ أَشقى النَّاس بولايتك، علامَ تحبس هذا الشَّيخ؟ أَنَا أَتحمَّل ما عليه، فصالِحني على ما إيَّاهُ تسأَل».

فقال عُمر:

ـ «لا، إلاّ أن تحمل جميع ما إيّاه نسأل». فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، إن كانت لك بيّنةٌ فخذه بها، وإن لم تكن بيّنةٌ فصدّق مقالة يزيد، وإلاّ فاستحلفْهُ، فإن لم يفعل فصالِحْهُ».

فقال عُمر:

ـ «ما أَجدُ إلاّ أَخذه بجميع المال».

فلمّا خرج مَخلد من عند عمر، قال:

ـ «هذا خيرٌ عندي من أَبيه».

ولمّا أَبى يزيد أن يؤدّي إلى عمر شيئاً، أَلبسه جُبّة صوف وحمله على جملٍ وقال:

ـ «سيروا به إلى الدَّهلَك».

فلمّا أُخرج، فمُرَّ به على النّاس أَخذ يقول:

ـ «أَما لي عشيرةٌ؟ ما لي يُذهب بي إلى دَهْلَك! وإنّما يُذهب إلى دَهْلَك بالفاسق المريب الحارب. سبحان اللّه! أَما لي عشيرةٌ».

فدخل على عمر سلامة بن نُعيم الحولاني، فقال:

ـ «يا أَمير المؤمنين، اردُدْ يزيد إلى محبسه، فإنّي أَخاف إن أمضيته أَن ينتزعه قومُه. فإنّي قد رأيتُ قومَه غضبوا له».

فردَّه إلى محبسه. فلم يزل في محبسه ذلك حتّى بلغه مرض عُمر. فأَخذ يعمل في الهَرب من محبسه مخافة يزيد بن عبد الملك، لأنّه قد كان عذَّبَ أَصهارَه، وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد اللّه: لئن أَمكنه اللّه من يزيد ليقطعنَّ منه طابقاً. فكان يخشى ذلك. فبعث يزيد بن المهلَّب إلى مواليه، فأَعدُّوا له إبلاً، وخرج حتّى حاز مراصد عمر. وكتب إلى عمر بن عبد العزيز:

ـ «إنّي واللّه لو علمتُ أَنّك تبقى ما خرجتُ من محبسي، ولكنّي لم آمَنْ يزيد بن عبد الملك».

وقد قيل: إنَّ يزيد بن المهلَّب إنّما هرب من سجن عُمر بعد موت عُمر.

وكانت خلافة عمر سنتين وخمسة أَشهر. ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة.

ذكر بعض سيرة عمر بن عبد العزيز

كان الجرّاح بن عبد اللّه لمّا ولي خراسان استخرج الجزية من كلِّ من اتّهم

إسلامه. فكتب عُمر إليه:

ـ «انظر من صلَّى إلى القبلة قِبلَك، فضع عنه الجزية».

فسارع النَّاس إلى الإسلام. فقيل للجرَّاح:

ـ «إنَّ النَّاس قد سارعوا إلى الإسلام. وإنَّما ذلك تعوُّذٌ من الجزية، فامتحنهم بالختان». فكتب الجرَّاح بذلك إلى عمر. فكتب عُمرُ إليه:

ـ «إنَّ اللَّه بعث محمَّداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً».

وقال عُمر:

ـ «أَبغوني رجلاً صدوقاً أَسأله عن خراسان».

فقيل له:

ـ «قد أَصبتَه، عليك بأَبي مُجلِز».

وكان الجرَّاح لمَّا قدم خراسان، كتب إلى عمر: «إنِّي قدمتُ خراسان، فوجدتُ قوماً قد أبطرتهم الفتنة، فهم ينزون فيها نزواً. أحبُّ الأُمور إليهم أن تعودَ ليمنعوا حقَّ اللَّه عليهم، فليس يكفُّهم إلاَّ السَّيف والسَّوط، وكرهت الإِقدام على ذلك إلاَّ بإذنك».

فكتب إليه عُمر:

ـ «يا بن أُمِّ الجرَّاح! أَنتَ أَحرص على الفتنة منهم، لا تضربنَّ مؤمناً ولا مُعاهداً سَوطاً إلاَّ في حقٍّ، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، وتقرأ كتاباً ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]».

وكتب إليه أَن:

ـ «احمل معك أَبا مُجلز، وخلِّف على خراسان عبد الرَّحمن بن نُعيم الغامدي، وعلى جزيتها عبد اللَّه بن حبيب».

ولمَّا قدم أَبو مُجلز لاحق بن حميد على عمر، وكان رجلاً لا تأخذه العين، دخل على عمر في غمار النَّاس فلم يثبته عُمر، وخرج مع النَّاس. فقيل لِعُمر وقد سأل عنه بأَنَّه:

ـ «دخل مع النَّاس، ثمَّ خرج».

فدعا به عمر، فقال:

ـ «يا أَبا مُجلز، إنِّي لم أعرفك». قال:

ـ «فهلاَّ ـ يا أَمير المؤمنين ـ أَنكرتني إذ لم تعرفني». قال:

ـ «أَخبرني عن عبد الرَّحمن بن عبد اللَّه». قال:

ـ «يكافئ الأكفاء، ويعادي الأَعداءَ، وهو أَمير يفعل ما يشاءُ، ويُقدم، إِن وَجَدَ مَن يُساعده». قال:

ـ «فعبد الرَّحمن بن نُعيم؟» قال:

ـ «ضعيفٌ ليِّنٌ يُحبُّ العافية، وتأَتّى له». قال:

ـ «الَّذي يُحبُّ العافية وتأَتّى له أَحبُّ إِليَّ».

فولاَّهُ الحَربَ والصَّلاة، وولي عبد الرَّحمن القشيري الخراجَ.

وكتب إِلى أَهل خراسان:

ـ «إِنّي استعملتُ على حربكم عبد الرَّحمن بن نُعيم، وعبدُ الرَّحمن بن عبد اللَّه على خراجكم من غير معرفةٍ منّي بهما ولا اختيارٍ إلاَّ ما أُخبرتُ عنهما، فإن كانا على ما تُحبُّون فاحمدوا اللَّه، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا باللَّه ولا حول ولا قوَّة إلاَّ باللَّه».

ابتداء دعوة بني هاشم

وفي هذه السَّنة، وهي سنة مائةٍ، وجَّهَ محمَّد بن عليّ بن عبد اللَّه بن العبَّاس من أَرضِ السّراة ميسرة إِلى العراق، ووجَّه محمَّد بن خُنيس وأَبا عكرمة السَّرَّاج وحيَّان العطَّار رجال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان دُعاةً، وعلى خراسان يومئذٍ الجرَّاح بن عبد اللَّه الحكمي، فدعَوا إِليه وكتبوا بأَسماءِ مَن استجاب، وبعثوا بالكتاب إِلى ميسرة، وبعث به ميسرة إِلى محمَّد بن عليٍّ. فكان ذلك ابتداء دعوة بني هاشم.

فاختار أبو محمَّد الصَّادق وهو أَبو عكرمة السَّرَّاج لمحمَّد بن عليٍّ، اثني عشر نقيباً منهم:

سليمان بن كثير الخُزاعيّ، ولاهز بن قريط التَّميمي، وقحطبة بن شبيب الطَّائيّ، وموسى بن كعب التميميّ، وخالد بن إبراهيم، والقاسم بن مجاشع، وعمران بن إسماعيل، ومالك بن هيثم الخُزاعيّ، وطلحة بن زُريق، وأَبو حمزة عمرو بن أَبي أَعيَن، وشِبل بن طهمان وهو أَبو علي الهرويّ، وعيسى بن أَعيَن.

ثمَّ اختار سبعين رجلاً كتب إليهم محمَّد بن عليٍّ كتاباً كالسيرة والمثال يسيرون بها.

خلافة يزيد بن عبد الملك

ودخلت سنة إحدى ومائة

وفيها ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة، وكنيتُه أَبو خالد، وهو ابن تسعٍ وعشرين سنة في قول هشام بن محمَّد.

وفيها قُتل شَوذَب الخارجي.

ذكر ذلك

قد كنَّا ذكرنا خروج من خرج من قِبل شَوذَب لمناظرة عمر. فلمَّا مات عمر أَحبَّ عبد الحميد بن عبد الرَّحمن أَن يتحظَّى عند يزيد بن عبد الملك. فبعث بمحمَّد بن جرير في أَلفين إِلى محاربة شَوذَب، ولم يرجع رسولا شَوذَبٍ، ولم يعلم بموت عُمر. فلمَّا طلع عليهم محمد بن جرير مستعدًّا للحرب، قالوا:

- «ما أَعجلكم قبل انقضاءِ المدَّة بيننا وبينكم، أَليس قد تَوادَعنا إِلى أَن يرجع الرَّسولان؟» فأَرسل إِليه محمَّدٌ:

- «إِنَّه لا يسعنا ترككم».

فقالت الخوارج:

- «ما فعل هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرَّجل الصَّالح».

فبرز لهم شَوذَب، فأَكثروا القتل في أَهل الكوفة ووَلَّوا منهزمين والخوارج في أَكنافهم تقتل حتَّى بلغوا أَخصاص الكوفة وجُرح محمَّد بن جرير في إِسته.

ورجع شَوذَب إِلى موضعه ينتظر صاحبيه. فجاءَا فأَخبراه بما جرى وبموت عُمر. فأَقرَّ يزيد بن عبد الملك عبد الحميد على الكوفة، ووجَّه من قِبله تميم بن الحباب في أَلفين، فراسلهم وأَخبرهم أَنَّ يزيد لا يُقارُهم على ما فارقهم عليه عُمر. فلعنوه، ولعنوا يزيد. ثمَّ حاربوه وقتلوه وهزموا أَصحابَه. فلجأ بعضهم إِلى الكوفة ورجع الآخرون إلى يزيد. ووجَّه إليهم نجدة بن الحَكم الأزدي في خلق كثير، فقتلوه وهزموا أَصحابه. ووجَّه إليهم الشّحاج بن وَداع في أَلفين من أَهل البأس والنَّجدة، فقتلوه وقتل منهم نفراً منهم هُدبة اليشكري ابنُ عمِّ شَوذَب وكان عابداً، وفيهم أَبو شُبيل مقاتل بن شيبان، وكان فاضلاً فيهم سيِّداً.

دخول مسلمة الكوفة ومقتل شوذب الخارجي

فلمَّا دخل مسلمةُ الكوفة في ما روى هشام شكا إليه أَهلها مكان شَوذَب وخوَّفهم منه، وما قد قتل منهم. فدعا مسلمة سعيد بن عمرو الحَرَشي وكان فارساً شجاعاً، فعقد له على عشرة آلاف، ووجَّهه إليه وهو مقيم بموضعه، فأَتاه ما لا طاقة له به. فقال شَوذَب لأَصحابه:

ـ «من كان يريد اللَّه فقد جاءته الشَّهادة، ومن كان إنَّما خرج للدُّنيا فقد ذهبت الدُّنيا، وإنَّما البقاءُ في الدَّار الآخرة».

فكسروا أَغمادَ سيوفهم وحملوا، فكشفوا سعيداً وأَصحابَه مراراً حتَّى خاف الفضيحة، فذمر أَصحابَه وقال:

ـ «أَمن هذه الشِّرذمة ـ لا أَباً لكم ـ تفرُّون؟ يا أَهل الشَّام يوماً كأَيَّامكم!».

فحملوا عليهم، فطحنوهم طحناً ولم يُبقُّوا منهم أَحداً وقتلوا شوذباً ـ وهو بسطام ـ وفرسانَه، والرَّيَّان بن عبد اللَّه اليشكري. فرثاهم الشُّعراءُ وأَكثروا، إلاَّ أَنَّا لا نكتب في هذا الكتاب ما يجري هذا المجرى، وقد ذكرنا كثيراً منه في اختيارنا من أَشعار العرب.

دخول يزيد بن المهلَّب البصرة وخلعُه يزيد بن عبد الملك

وفي هذه السَّنة لحق يزيد بن المهلَّب بالبصرة، فغلب عليها وقد كُنَّا حكينا هرَبَهُ من محبس عُمر.

ولمَّا مات عمر وبويع ليزيد بن عبد الملك بلغه هرب يزيد بن المهلَّب. فكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرَّحمن يأمره أَن يطلبه ويستقبله. وكتب إلى عديّ بن أَرطأة يُعلمه هَربَهُ ويأمره أَن يطلبه ويستقبله.

فأَمَّا عديُّ بن أَرطأة فإنَّه أَخذ من أَولاد المهلَّب وعشيرته مَن وجدهم، فحبسهم. وفيهم: المفضَّل، وحبيب ومروان بنو المهلَّب، وأَفلتَ محمَّد بن المهلَّب فلم يُقدر عليه.

وأَقبل يزيد حتَّى ارتفع فوق القطقطانة، وبعث عبدُ الحميد بن عبد الرَّحمن هشامَ بن مساحق القُرشيّ في ناسٍ من أَهل الكوفة ذوي بأسٍ، ووجوه النَّاس وأَهل القُوَّة. فقال:

ـ «انطلقْ حتَّى نستقبله، فإنَّه اليوم يمرُّ بجانب العُذَيب».

فمشى هشام قليلاً، ثمَّ رجع إلى عبد الحميد، فقال:

ـ «أَجيئُك به أَسيراً، أَم آتيك برأسه؟» فقال:

ـ «أيّ ذلك شئت».

فكان مَن سمع ذلك منه تعجَّب له.

فلمَّا خرج هشام مضى إلى العُذيب حتَّى نزله. ومرَّ به يزيد بن المهلَّب غير بعيد، فلم يتجاسر أَحدٌ منهما على الإقدام عليه حتَّى عبروا. ومضى نحو البصرة، وانصرف هشام بن مساحق إلى عبد الحميد.

فجمع عديّ بن أَرطأة أَهل البصرة، وخندق عليها.

فقال عبد الملك بن المهلَّب لعديَ بن أرطأة:

ـ «خذ ابني رهينة، واحبسه مكاني وأَنا أَضمن لك أَن أَردَّ يزيد أَخي عن البصرة حتَّى يأتي فارس وكرمان ويطلب لنفسه الأَمان ولا يقربك».

فأَبى عليه.

وجاءَ يزيد مع أَصحابه الَّذين أَقبل فيهم، والبصرةُ محفوفةٌ بالرِّجال، وقد جمع محمَّد بن المهلَّب ـ ولم يكن ممَّن حبس ـ رجالاً من قومه وأَهل بيته وناسٍ من مواليه. فخرج حتَّى استقبله في كتيبةٍ تهول مَن رَءَاها، وكان عديٌّ قد بعث على كلِّ خُمسٍ من أَخماس البصرة رجلاً مَرضيًّا، وأَقبل يزيد بن المهلَّب لا يمرُّ بخيلٍ من خيولهم ولا قبيلةً من قبائلهم إلاَّ تنحَّوا له عن السَّبيل تهيُّباً وإعظاماً. حتَّى انتهى إلى المغيرة بن عبد اللَّه الثَّقفيَ وهو على الخيل فاستقبله ليردَّه. فحمل عليه محمَّد بن المهلَّب، فأَفرج له عن الطَّريق هو وأَصحابه وأَقبل يزيد حتَّى نزل دارَه، واختلف النَّاس إليه. وأَخذ يبعث إلى عديّ بن أَرطأة أَن:

ـ «ادفعْ إليَّ إخوتي وأَنا أُصالحك على البصرة وأُخلِّيك وإيَّاها حتَّى آخُذَ لنفسي ما أُحبُّ من يزيد بن عبد الملك».

فلم يُجبْه إلى ذلك.

وكان خرج إلى يزيد بن عبد الملك حميد بن عبد الملك بن المهلّب يُصلح أَمر عمِّه يزيد. فبعث معه يزيدُ بن عبد الملك خالدَ بن عبد اللَّه القَسريَّ وعمر بن يزيد الحَكمي بأَمان يزيد بن المهلَّب وأَهل بيته. وأَخذ يزيد بن المهلَّب، قبل أَن يوافيه حُميد، يُعطى كلَّ مَن أَتاه العطايا العظيمة ويقطع لهم قِطع الذَّهب والفضَّة. فمال النَّاس إليه، ولحق به عمران بن مسمع ساخطاً على عديٍّ. وذلك أَنَّه نزع منه رايةَ بكر بن وائل وأَعطاها ابنَ عمِّه. ومالت إلى يزيد ربيعةُ كلُّها وبقيَّة تميمٍ وقيسٍ، وناس بعدَ ناس فيهم عبد الملك ومالك ابنا مِسمعٍ وناسٌ من أَهل الشَّام.

وكان عديٌّ لا يُعطى إلاَّ درهمين درهمين ويقول:

ـ «لا يحلُّ لي أن أُعطيكم من بيت المال درهماً إلاَّ بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلَّغوا بهذا حتَّى يأتي الأمر في ذلك». وله يقول الفرزدق:

أظنُّ رجالَ الدِّرهمين يقودهم إلى الموت آجالٌ لهم ومَصارعُ
فأحزمهم مَن كان في قعر بيته وأيقن أنَّ الأمر لا بُدَّ واقع

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديٍّ، فنزلوا المربدَ. فبعث إليهم يزيد بن المهلَّب مولًى له يقال له دارسٌ. فحمل عليهم فهزمتهم. فقال الفرزدق:

تفرَّقتِ الجَعراءُ أن صاح دارسٌ ولم يصبروا تحتَ السُّيوف الصَّوارم
جزى اللَّه قيساً عن عديٍّ ملامةً ألا صبروا حتَّى تكون تلاحم

وخرج يزيد بن المهلَّب حتَّى اجتمع له النَّاس، حتَّى نزل جُبَّانة بني يشكر وهو المَنصَف في ما بينه وبين القصر. وجاءته تميم وأهل الشَّام، فاقتتلوا هنيهةً، فحمل عليهم محمَّد بن المهلَّب، فضرب مسور بن عباد الحَبَطيّ بالسُّيوف، فقطع أنف البيضة، وأسرع السَّيفُ في وجهه، وحمل على هُريم بن أبي طَحمة، فأخذ بمنطقته فجذَبه عن فرسه وتماسك في السَّرج حتَّى انقطعت المنطقة، وقال:

ـ «هيهات! عمُّك أرزن من هذا».

فانهزم القوم وأقبل يزيد في أثر القوم يتلوهم حتَّى دَنا من القصر. وخرج إليه عديُّ بنفسه في أصحابه، فقاتلوا ساعةً وقُتل من أصحابه خلقٌ فيهم: الحارث بن مصرّف الأَودي، وكان من أشراف أهل الشَّام وفرسان الحجَّاج، وقُتل موسى بن الوجيه الحميري وقُتلَ جماعةٌ أمثالهم.

ثمَّ انهزم أصحاب عديٍّ، وسمع أخوه يزيد ـ وهم في محبس عديّ ـ الأصوات تدنو والنُّشَّاب تقعُ في القصر والصَّحن، فقال لهم عبد الملك:

ـ «إنِّي لا أرى يزيد إلاَّ قد ظَهَر، ولستُ آمَن مَن مع عديٍّ مِن مُضَر ومِن أهل الشَّام أن يأتوا فيقتلونا قبل أن يصل يزيد إلى الدَّار، فأغلِقوا البابَ ثمَّ أسندوه بالثِّياب والرَّحل».

ففعلوا، فلم يلبثوا ساعةً حتَّى جاءَهم عبد اللَّه بن دينار مولى بني عامر وكان على حرس بني عديٍّ. فجاءَ يشتدُّ إلى الباب هو وأصحابٌ له وقد صنع بنو المهلَّب ما قال لهم عبد الملك، ووضعوا متاعاً كثيراً على الباب، ثمَّ اتَّكأُوا عليه. وأخذ القوم يعالجون الباب فلا يستطيعون الدُّخول، وأعجلهم النَّاس فخلُّوا عنهم، وجاءَ يزيد بن المهلَّب حتَّى نزل دار سليم بن زياد بن أبي سفيان إلى جانب القصر، وأُتي بالسَّلاليم، فلم يلبث سفيان أن فتح القصرَ، وأُتي بعديٍّ بن أرطأة، فجيء به، وخاطبه بما يجري مجرى التَّبكيت. ثمَّ أمر بحبسه وقال له:

ـ «أَما إنَّ حبسي إيَّاك ليس إلاّ لحبسك بني المهلَّب وتضييقك علينا في ما كُنَّا نسأَلك التَّسهيل عليهم».

ذكر اتِّفاقٍ سيِّىءٍ اتَّفق على يزيد بن المهلَّب

خرج الحواريُّ بن زياد بن عَمرو العَتكي يُريد يزيد بن عبد الملك هاربين من يزيد بن المهلَّب فلقي في طريقه خالد بن عبد اللّه القسري وعُمر بن يزيد الحَكمي ومعهما حُميد بن عبد الملك بن المهلَّب قد أَقبلوا من عند يزيد بن عبد الملك بأَمان يزيد المهلَّب وكلِّ شيءٍ أَراده. فاستقبلهما فسأَلاهُ عن الخبر. فلمَّا رأى حُميدَ بن عبد الملك معهما خلا بهما وقال:

ـ «أَين تُريدان؟» قالا:

ـ «نريد يزيد بن المهلَّب، قد جئناه بكلِّ شيءٍ يريد ويقترح». فقال:

ـ «هيهات، قد تجاوز الأَمر ذلك وما تقدرانِ أَن تصنعا بيزيد أَو يصنع هو بكما. قد ظهر على عدوِّه عديَّ بن أَرطأة وقد قتل سَراة النَّاس ووجوهَ الفرسان، وحبس عديًّا، فارجعا ولا تُهديا نفوسكما إلى يزيد».

فعادى مع الحواريِّ بن زياد وأَقبلا بحُميد معهما إلى يزيد بن عبد الملك.

فقال لهما حُميد:

ـ «أَنشدكم اللّه أَن تخالفا في أَمر يزيد وما بعثتما به، فإنَّ يزيد قابلٌ منكما وإنَّ هذا وأَهل بيته لم يزالوا لنا أَعداء. فناشدتكما اللّه أَن تسمعا مقالة هذا فينا».

فلم يقبلا قولَه وأَقبلا به حتَّى دفعاه إلى عبد الرَّحمن بن مسلم الكلبي، وكان يزيد بن عبد الملك بعثه إلى خراسان عاملاً عليها. فلمَّا بلغه خلع يزيد بن المهلَّب، كتب إلى يزيد بن عبد الملك:

ـ «إنَّ جهادَ مَن خالفَك أَحبُّ إليَّ من ولايتي خراسان، فلا حاجة لي فيها، واجعلني ممَّن توجَّه إلى يزيد بن المهلَّب».

وبعث بحُميد بن عبد الملك إلى يزيد، ووثب عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطَّاب على خالد بن يزيد بن المهلَّب وهو بالكوفة، وعلى حمَّال بن زحر وليسا ممَّن ينطف بشيءٍ، إلاَّ أَنَّه أَوثقهما لما عرف بين حمَّال وبين بني المهلَّب، وسرَّح بهما إلى يزيد بن عبد الملك، فحبسهما جميعاً ولم يفارقا السِّجن حتَّى هلكا فيه.

وبعث يزيد بن عبد الملك رجالاً من أَهل الشَّام إلى الكوفة يُسكِّنونهم ويُثنون عليهم بطاعتهم ويُمنُّونهم الزِّيادات.

ثمَّ إنَّ يزيد بن عبد الملك بعث العبَّاس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف فارس جريدة خيلٍ حتَّى وافَوا الحيرة يُبادر إليها يزيد بن المهلَّب. ثمَّ أَقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك في جنود أهل الشَّام، فأَخذ على الجزيرة على شاطئ الفرات، واستوسق أَهل البصرة ليزيد بن المهلَّب، وبعث عُمَّاله إلى الأَهواز وفارس. وبعث عبد الرَّحمن إلى بني تميم:

- «إنَّ هذا مدرك بن المهلَّب يريد أَن يُلقى بينكم الحرب وأَنتم في بلاد عافيةٍ في طاعةٍ وعلى جماعةٍ».

فخرجوا ليلاً يستقبلونه ويكيدونه. وبلغ ذلك الأَزدَ، فخرج منهم نحو أَلفَي فارس حتَّى لحقوهم قبل أَن ينتهوا إلى رأس المفازة. فقالوا لهم:

- «ما جاءَ بكم وما أَخرجكم إلى هذا المكان؟».

فاعتلُّوا عليهم بأَشياءَ ولم يُقروُّا أَنَّهم خرجوا ليكيدوا مدرك بن المهلَّب.

فقال لهم الأَزد:

- «بل قد علمنا أَنَّكم لم تخرجوا إلاَّ لِتَلَقِّي صاحبنا وها هو ذا منكم قريبٌ، فما شئتم».

ثمَّ أَسرعت الأَزد حتَّى لقُوا مدركاً على رأس المفازة، فنصحوا له وأَعلموهُ أَنَّه يقع في بلاءٍ لا يدرون ما عاقبته ويشيرون عليه بالانصراف إلى أَن يتمَّ أَمر يزيد.

فقبِلَ ورجع من مكانه.

ثمَّ إنَّ يزيد بن المهلَّب لمَّا استجمع له أَهل البصرة، صعد المنبر وخطبهم وأَخبرهم أَنَّه يدعوهم إلى كتاب اللَّه وسنَّة نبيِّه ويحثُّ على الجهاد ويزعم أَنَّ جهاد أَهل الشَّام أَعظم ثواباً من جهاد التُّرك والدَّيلم.

فكان الحسن البصري حاضراً. فرفع صوتُه وقال:

- «واللَّه لقد رأَيناك والياً ومُولّياً عليك، فما ينبغي لك».

فوثب عليه مَن كان بجنبه، فأَخذوا بيده وفَمِه وأَجلسوهُ. وما شكَّ النَّاس أَنَّه سمعه ولكنَّه لم يلتفت إليه ومضى في خطبته.

ثمَّ إنَّ الحسنَ خرج يُخذِّل النَّاس عنه ويقول:

- «كان بالأَمس يضرب أَعناق هؤلاءِ الذين ترون يُسرِّح بها إلى بني مروان، يُريد بهلاك هؤلاءِ رضاهم».

فلمَّا غضب نصب قَصباً ووضع عليه خِرقاً وقال:

قد خالفتُ هؤلاء، فخالِفوهم.

وقال:

ـ «إنِّي أَدعوكم إلى سنَّة العُمَرين، أَلا إن سُنَّةَ العُمَرين أَن يوضعَ قيدٌ في رجليه، ثمَّ يُردّ إلى محبس عُمر الَّذي حبسه فيه».

فقال ناس من أَصحابه ممَّن سمعوا قوله:

ـ «واللَّه، لكأَنَّك يا أبا سعيد راضٍ عن أَهل الشَّام». فقال:

ـ «أَنَا راضٍ عن أَهل الشَّام؟ قبَّحَهم اللَّه ونَزَحهم! أَليسوا الَّذين أَحلُّوا حُرمَ رسول اللَّه، ﷺ، يقتلون أَهلَه ثلاثة أَيَّام وثلاث ليالٍ وقد أَباحوها لأَنباطهم وأَقباطهم يحملون الحرائر وذوات الَّدين لا يتناهون عن انتهاك حُرمةٍ، ثمَّ خرجوا إلى بيت اللَّه الحرام، فهدموا الكعبة وأَوقدوا النِّيران بين أَحجارها وأَستارها، عليهم لعنة اللَّه وسوءُ الدَّار».

ثمَّ إنَّ يزيد خرج من البصرة، واستخلف عليها مروان بن المهلَّب، وقدَّم بين يديه عبد الملك بن المهلَّب، وخرج معه بالسِّلاح وبيت المال، وأَقبل حتَّى نزل واسطاً. وكان قبل أَن يبلغها استشار أَصحابَه وقال لهم:

ـ «إنَّ أَهل الشَّام قد نهضوا إليكم».

ذكر آراءٍ أُشير بها على يزيد بن المهلَّب فما عمل بها

فقال له حبيبٌ وغيره:

ـ «نرى أَن تخرج حتَّى تنزل فارس وتأخذ بالشِّعاب والعِقاب وتدنو من خراسان وتطاول القوم، فإنَّ أَهل الجبال ينقضُّون إليك وفي يدك القلاع والحصون» فقال:

ـ «ليس هذا برأيٍ وليس يوافقني. إنَّما تريدون أَن تجعلوني طائراً على رأس جبلٍ». فقال له حبيبٌ:

ـ «فإنَّ الرَّأي الَّذي كان ينبغي أَن يكون في أَوَّل الأَمر قد فاتَ. كنتُ أَمرتك حين ظهرت على البصرة أَن توجِّه خيلاً عليها بعض أَهل بيتك حتى يرد الكوفة، فإنَّما هو عبد الحميد، مررت به في سبعين رجلاً. فعجز عنك، فهو عن خيلك أَعجز في العُدَّة، وتسبق إليها أَهلَ الشَّام وعُظمُ أَهلِها يرى رأيك ويحبُّ أَن لا يليَ عليهم أَهل الشَّام، فلم تُطِعني. وأَنا اليوم أُشير عليك برأيٍ: سَرِّح مع بعض أَهل بيتك خيلاً عظيمةً، فتأتي الجزيرة وتبادر إليها حتَّى تنزل حصناً من حصونها، وتسير في إثرهم. فإذا أَقبل أَهل الشَّام يُريدونك لم يَدَعوا جُنداً من جُندك بالجزيرة ويُقبلوا إليك. فيقيمون عليهم، فكانوا حابسيهم عنك حتَّى تأتيهم ويأتيك مَن بالموصل من قومك وتبذل المال، ويأتيك أَهل الجزيرة، وينقضُّ إليك أَهل العراق وأَهل الثُّغور وتقاتلهم في أَرضٍ رفيغة السِّعر، وقد

جعلتَ العراق كلَّه وراءَ ظهرك». فقال:

ـ «إنّي أُقطع جُندي».

فلمّا نزل واسطاً أَقام بها أَيّاماً يسيرة.

ودخلت سنة اثنتين ومائةٍ

قد حكينا ما كان من توجيه يزيد بن عبد الملك، العبّاسَ بن الوليد بن عبد الملك ومسلمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلَّب لمحاربته. واستعدَّ يزيد للقائهما واستخلف على واسط ابنَه معاوية، وجعل عنده بيتَ المال والخزائن والأسراء، وقدَّم بين يديه أَخاه عبد الملك، ثمَّ سار حتَّى مرَّ بفم النِّيل، ثمَّ سار حتَّى نزل العَقر. وأَقبل مَسلمةُ يسير على شاطئ الفرات حتَّى نزل الأَنبار. ثمَّ عقد عليها الجسر، فعبر من قِبلِ قريةٍ يُقال لها: فارط. ثمَّ أَقبل حتَّى نزل على يزيد بن المهلَّب وقد قدَّم يزيد عبدَ الملك نحو الكوفة فاستقبله العبّاس بن الوليد بسُورا، فاصطفُّوا. ثمَّ اقتتل القوم فشدَّ عليهم أَهل البصرة شدَّةً كشفوهم فيها، وقد كان معهم ناسُ من بني تميم وقيسٍ ممَّن انهزم من يزيد من البصرة، فكانت لهم جماعةٌ حسنةٌ مع العبّاس بن الوليد فيهم هريم بن أَبي طحمة المجاشعيّ. فلمّا انكشف أَهل الشّام تلك الانكشافة نادى هريم بن أَبي طحمة:

ـ «يا أَهل الشام، أَللّه اللّه! إلى أَين؟ أَتسلموننا وقد اضطرَّهم أَصحاب عبد الملك إلى نهرٍ؟».

فأَخذوا ينادونه:

ـ لا بأس عليك، إنَّ لأَهل الشام جولةً في أَوَّل القتال أَتاك الغوثُ.

ثمَّ إنَّ أَهل الشّام كرُّوا عليهم، فكُشِف أَصحاب عبد الملك وهزموا. وجاءَهم عبد الملك حتَّى انتهى إلى أَخيه بالعَقر وسقط إلى يزيد ناسٌ كثيرٌ من أَهل الكوفة ومن أَهل الجبال. فبعث على الأَرباع رؤساءَهم عبدَ اللّه بن المفضَّل الأَزديّ، والنُّعمان بن إبراهيم بن الأَشتر، ومحمَّد بن إسحاق بن محمَّد بن الأَشعث، وحنظلة بن عتّاب بن ورقاء التميميّ. وجمعهم جميعاً مع المفضَّل بن المهلّب.

فتحدَّث علاء بن زهير قال: واللّه إنّا لَجلوس عند يزيد ذات يوم إذ قال:

ـ «أَترون أَنَّ في العسكر أَلفَ سيفٍ يُضرب به؟».

قال: فيقول له: حنظلة بن العتّاب:

ـ «إنَّهم واللّه ما ضربوا بأَلف سيفٍ قطُّ، واللّه لقد أَحصى ديواني مائة وعشرين أَلف. واللّه، لودِدتُ أَنَّ مكانهم الساعةَ معي مَن بخراسان من قومي».

ثمَّ إنَّه خطب النَّاس وحرَّضهم، وقال في كلامه:

- «إنَّه ذُكر لي أَنَّ هذه الجرادةَ الصَّفراءَ (يعني مسلمة بن عبد الملك) وعاقر ناقة ثمود (يعني العبَّاس بن الوليد وكان العباس أزرقَ أحمَر، كانت أُمُّه روميَّةً) واللَّه لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتَّى كلَّمتُه فيه فأَقرَّه على نسبه؛ فبلغني أنَّه ليس يُهمُّهما إلاَّ التِماسي في الأَرض. واللَّه، لو جاؤوا بأهل الأرض جميعاً، وليس إلاَّ أَنا، ما برحتُ العرصة حتَّى تكون لي أو لهم».

قالوا:

- «إنَّا نخاف أن تُعنِّيَنا كما عنَّانا عبد الرحمان بن محمد بن الأَشعث». قال:

- «إنَّ عبد الرَّحمن فضح الذِّمارَ وفضح حَسَبَهُ، وهل كان يَعدُو أَجلَه؟» ثمَّ نزل.

قال: ودخل عامر العَمَيثل، وهو من الأَزد وقد جمع جُموعاً، فأَتاه فبايعه. وكانت بيعة يزيد:

- «تبايعوني على كتاب اللَّه وسنَّة نبيّه وعلى ألاَّ يطأَ الجنودُ بلادَنا ولا بيضتَنا، ولا تُعادُ علينا سيرة الفاسق الحجَّاج. ومَن بايعَنا على ذلك قبِلْنا منه، ومَن أَبى جاهدناه، وجعلَنا اللَّهُ بيننا وبينه».

ثمَّ يقول:

- «تبايعون؟».

فإذا قالوا: «نَعمْ». بايَعَهم.

ذكر رأيٍ صوابٍ رَآه يزيد فخالفه فيه أَصحابه

دعا يزيد بن المهلَّب رؤساءَ أَصحابه، فقال لهم:

- «إنِّي قد رأَيتُ اين أَجمع اثنَي عشر أَلف رجلٍ، فأَبعثَهم مع محمّد بن عبد الملك، حتَّى يبيِّتوا مسلمة ويحملوا معهم البراذعَ والأُكُفَ والزُّبُلَ من الخندق الَّذي حفروه، فيقاتلهم على خندقهم وعسكرهم بقيَّة ليلته. وأُمِدَّهُ بالرِّجال حتَّى أُصبحَ، فإذا أَصبحتُ نهضتُ إليهم أَنا بالنَّاس فناجَزتُهم. فإنِّي أَرجو عند ذلك أَن ينصرنا اللَّه عليهم».

فقال السَّميدَع (وكان كِنديًا يرى رأيَ الخوارج، قد اعتزل مع طائفة من القُرَّاء أَيَّام قتال يزيد مع عديّ بن أَرطأة إلى أن قالت طائفة من أَصحاب يزيد وطائفةٌ من أَصحاب عديٍّ: قد رضينا بحكم السَّميدَع. ثمَّ دعاه يزيد إلى نفسه وشَرط له العمل بالكتاب والسُّنَّة، فأَجابه، واستعمله على الأُبلَّة في تلك الأَيَّام):

ـ «إنَّا قد دعوناهم إلى كتاب اللّه وسنَّة نبيِّه، وقد زعموا أنَّهم قابلون منَّا هذا، فليس لنا أن نمكُرَ ولا أن نَغدِرَ. ولا أن نُريدهم بسوءٍ حتَّى يردُّوا علينا ما زعموا أنَّهم قابِلوه منَّا».

فقال جماعةٌ من أهل الدِّيانة:

ـ «هكذا ينبغي».

قال يزيد:

ـ «ويحكم! أتصدِّقون بني أُميَّة أن يعملوا بالكتاب والسُّنَّة وقد ضيَّعوا ذلك مُذْ كانوا! إنَّهم لم يقولوا لكم إنَّا نقبل منكم، وهم يريدون ألاَّ يعملوا في سلطانهم إنَّما تأمرونهم وتدعونهم إليه، ولكنَّهم أرادوا أن يكفُّوكم عنهم حتَّى يعملوا في المكر، فلا يسبقوكم إلى تلك، ابدؤوهم بها! إنِّي لقيتُ بني مروان، فواللّه ما لقيتُ منهم رجلاً هو أشدُّ تمرّداً ولا أبعد غوراً من هذه الجرادة الصَّفراءِ». يعني: مسلمة. قالوا:

ـ «لا نرى أن نفعل ذلك حتَّى يردُّوا علينا ما زعموا أنَّهم قابلوهُ منَّا».

وكان مروان بن المهلَّب وهو بالبصرة يحثُّ الناس على حرب أهل الشَّام ويُسرِّح النَّاسَ إلى يزيد.

وكان الحسن البصري يُثبِّط النَّاس عن يزيد بن المهلَّب ويخطب أصحابه بما يُقعِدُهم. فلمَّا بلغ ذلك مروان بن المهلَّب، قام خطيباً كما كان يقوم، فأمر النَّاس بالجدِّ والاجتهاد والاحتشاد، وقال:

ـ «لقد بلغني أنَّ هذا الشَّيخ الضَّالَّ المُرائي ـ ولم يُسمِّه ـ يُثبِّط عنَّا النَّاس. واللّه، لو أنَّ جارَهُ نزع من خُصِّ داره قصبةً لظلَّ يرعف أنفه، ويُنكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب حقَّنا وأن نُنكر مظلمتنا! أما واللّه، لَيكُفَّنَّ عن ذكرنا، أو عن جمعه سُقَّاطَ الأُبلَّة وعُلوج فرات البصرة، أو لأُنحينَّ عليه مِبرداً خشناً».

فلمَّا بلغ ذلك الحسن قال:

ـ «واللّه ما أكره أن يُكرمني اللّه بهوانه».

فقال ناسٌ من أصحابه:

ـ «واللّه لو أرادك ثمَّ شئتَ لمنعناك».

فقال لهم:

ـ «قد خالفتُكم إذاً إلى ما نهيتُكم عنه، آمُرُكم أن لا يقتلَ بعضُكم بعضاً مع غيري وأدعوكم أن يقتلَ بعضُكم بعضاً دوني!».

فبلغ ذلك مروان، فاشتدَّ عليهم وأَخافهم، وطُلبوا حتَّى تفرَّقوا، ولم يَدَعِ الحسنُ كلامَه ذلك، وكفَّ عنه مروان بن المهلَّب.

وكانت مدّة إقامة يزيد بن المهلَّب منذ اجتمع هو ومسلمة ثمانية أَيَّام. حتَّى إذا كان يوم الجمعة لأَربع عشرة خلتْ من صفر، بعث إلى الوضَّاح أَن يخرج بالوضَّاحيَّة في السُّفن حتَّى يُحرق السُّفُن الَّتي في الجسر، ففعل.

وخرج مسلمة فعبَّى جنود أَهل الشَّام ميمنةً وميسرة، وازدلف بهم نحو يزيد، وخرج إليه يزيد في مثل تعبئته.

فحدَّث العلاءُ بن منهالٍ، أَنَّ رجلاً من أَهل الشَّام خرج، فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أَحدٌ. فبرز إليه محمَّد بن عبد الملك، فحمل عليه، فاتَّقاه الرَّجل بيده وعلى كفِّه كفٌّ وساعدٌ من حديدٍ. فضربه محمَّدٌ، فقطع كفَّ الحديد وأَسرع السَّيف في كفِّه، واعتنق فرسَه. وأَقبل محمَّد يضربه ويقول:

ـ «المنجل أَعود عليك من مبارزة الفرسان. عليك بالمِنجل!».

قال: وذُكر أَنَّه كان حيَّان النبطيّ. قال: ولمَّا أَحرق الوضَّاحُ الجسر وسطع دُخانُه وقد نشبت الحربُ ولم يشتدّ القتالُ نظر النَّاسُ إلى الدُّخان وقيل لهم:

ـ «احرق الجِسر».

فانهزموا. وقيل ليزيد:

ـ «قد انهزم النَّاس». قال:

ـ «ومِمَّ انهزموا؟ وهل كان قتال يُنهزمُ من مثله؟».

فقيل له:

ـ «احرق الجسرُ فلم يثبت أَحدٌ». قال:

ـ «قبَّحهم اللَّه».

قال:

ـ «بقٌّ دُخِّن عليه فطار».

فخرج وخرج معه أَصحابُه ومواليه وناس من قومه. فقال رجلٌ من أَهل بيته:

ـ «ينهزمون وهم كالجبال». فقال:

ـ «اضربوا وجوهَ المنهزمين».

ففعلوا ذلك حتَّى كثروا عليهم، واستقبلهم منهم مثل الجبال. فقال:

ـ «دَعُوهم، فواللَّه إني لأَرجو أَن لا يجمعني اللَّه وإيَّاهم في مكان واحدٍ أَبداً،

دعُوهم يرحمهم اللّه. غَنَمٌ عدا في نواحيها الذِّئبُ».

وكان يزيد لا يُحدِّث نفسَه بالفرار.

ولمَّا انهزم النَّاس قال يزيد لِلسَّميدَع:

ـ «يا سَميدَع! أَصحَّ أَمر رأيك، أَلم أُعلمك ما يُريد القومُ؟» قال:

ـ «بلى، والرَّأي واللّه كان رأيك وأَنا ذا معك لا أُزايلُك فمُرْني بأمرك». قال:

ـ «إمَّا لا فانزِلْ».

فنزل في أَصحابه. وجاء يزيدَ جاءٍ وقال:

ـ «إنَّ حبيباً قد قتل». فقال:

ـ «لا خير في العيش بعدَه امضوا بنا قُدُماً».

فعلمنا أَنَّه مستقتلٌ، فأَخذ مَن يكرهُ القتال ينكص، وأَخذوا يتسلَّلون، وبقيت مع يزيد بقيَّةٌ: جماعة حسنةٌ وهو يزدلف بهم. فكلما مرَّ بخيلٍ أَو جماعةٍ من أَهل الشَّام كشفها وعدلوا عَن سنِنِه وسَنَنِ أَصحابه. وأَتاهُ آتٍ وقال له:

ـ «ذهب النَّاس».

وهو يُسرُّ إليه وأَنا أَسمعه. وقال له:

ـ «هل لك أَن تنصرف إلى واسط، فإنَّها حصنٌ حتَّى تأتيك الأَمداد من البصرة وعُمان والبحرين في السُّفن وتضرب خندقاً». فقال:

ـ «قبح اللّه رأيَك! إلا تقول ذا؟ أَلموتُ أَيسر عليَّ من ذلك». فقال:

ـ «أَلا ترى مَن حولك من جبال الحديد؟».

وهو يُسرُّ إليه. قال:

ـ «أَمَّا أَنا فما أُباليها، جبالَ حديدٍ كانت أَم جبالَ نارٍ. اذهب عنَّا إن كنتَ لا تريد القتال معَنا». وتمثَّل:

أَ بالموت خَشَّتني عُبادُ وإنَّما رأَيتُ مَنايا النَّاسِ يسعى دليلُها

فما ميتةٌ إن متُّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ، إذا ما غالتِ النَّفسَ غُولُها

وكان يزيد بن المهلَّب على برذونٍ له أَشهب. فأقبل نحو مسلمةَ لا يُريد غيره حتَّى إذا دَنا منه، دعا مسلمةُ بفرسه ليركب. فعطفت عليه خُيول الشَّام فقُتل يزيد بن المهلَّب والسَّميدَع، وقُتل أَخوه محمَّد بن المهلّب.

فحُكي: أَنَّ رجلاً من كلبٍ يُقال له: الفحل بن عيَّاش لمَّا نظر إلى يزيد قال:

يزيد بن المهلَّب والفحل بن عيَّاش كلٌّ قتل صاحبَه!

- «يا أَهل الشَّام، هذا يزيد واللَّه لأَقتلنَّه، أَو يقتلني. إنَّ معه ناساً، فمَن يحمل معي يكفيني أَصحابه حتَّى أَصل إليه؟».

فقال ناس من أَصحابه:

- «نحن نحمل معك».

ففعلوا، وحملوا بأَجمعهم، فاضطربوا ساعةً وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن الفحل بن عيَّاش بآخر رمق. فأَومأَ إلى أصحابه يُريهم مكان يزيد، يقول لهم:

- «أَنا قتلتُه».

ويُومي إلى نفسه أَنَّه:

- «هو قتلني»!

وكان مسلمة لا تصدِّق أَنَّه هو قتلَه. فبعث برأسه إلى يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أَبي مُعيط.

وأَبلى يومئذٍ المفضَّل بن المهلَّب بعد قتل يزيد وإخوته حتَّى ظُنَّ أَنَّه يتلافى الأَمرَ وحدَه مع نفرٍ معه يذمر بهم ويقول لهم:

- «غُضُّوا أَبصارَكم ولا تلتفتوا، فداؤُكم أَبي وأُمّي».

ويحمل الحملات الصَّادقة حتَّى تفرَّقت عنه تلك العصابة وبقِي وحده. فأَخذ الطَّريق إلى واسط. فقال النَّاس:

- «ما رأَينا من العرب رجلاً في مثل منزلته كان أَغشى للبأس بنفسه ولا أَضرب بسيفه ولا أَحسن تعبئةً لأَصحابه منه».

وأَسر أَهل الشَّام خلقاً من أَصحاب يزيد، فسرَّح بهم إلى محمَّد بن عمرو بن الوليد، فحبسهم إلى أَن جاءَ كتابٌ من يزيد بن عبد الملك إلى محمَّد بن عَمرِو أَن:

- «اضرب أَعناق الأَسرى».

فقال للعريان بن الهيثم وكان على شرطته:

- «أَخرجهم عشرين عشرين، وثلاثين ثلاثين».

فقام قوم من بني تميم وهم لا يدرون ماذا يُراد بهم، فقالوا:

- «اتَّقوا اللَّه وابدأُوا بنا، أَخرجونا قبل النَّاس، فإنَّا نحن انهزمنا بالنَّاس».

فقال لهم العُريان:

ـ «اخرجوا على اسم اللّه!».

فأخرجهم إلى المصطبّة، ثمّ أرسل إلى محمّد بن عَمرِو، ويُخبره بإخراجهم وبمقالتهم. فبعث إليه أن:

ـ «اضرب أعناقهم».

فتحدّث نجيحٌ مولى زُهير قال: واللّه إني أنظر إليهم وهم يُقتلون وإنّهم لَيقولون:

ـ «إنّا للّه، انهزمنا بالنّاس وهذا جزاؤُنا».

فما هو إلاّ أن فُرغ مهم جاءَ رسولُ مَسلمة بكتابه فيه النّهي عن قتل الأَسرى وإطلاقهم. وكان مَسلمة ضمن لهم ضمانات وواطأَهم إذا رأَوا دخان الحريق من الجِسر أن ينهزموا بالنّاس. ففعلوا، ثمّ قُتلوا.

ولمّا جاءَ فلُّ يزيد إلى واسط أَخرج معاويةُ بن يزيد بن المهلّب اثنين وثلاثين أَسيراً كانوا في يديه، فضرب أَعناقهم. منهم: عديّ بن أرطأة، وابنه محمّد بن عديّ ومالك وعبد الملك ابنا مِسمع وغيرهم من الأشراف. وكانوا قالوا له:

ـ «ويحك! إنّا لا نُراك تقتلنا إلاّ أنّ أَباك قد قُتل، وأَنّ قتلَنا ليس بنافعك في الدُّنيا وهو واللّه ضارُّك في الآخرة».

فقتلَهم كلَّهم إلاّ ربيع بن زياد بن ربيع بن أَنس. فقال له قوم:

ـ «نسيتَهُ». فقال:

ـ «ما نسيتُه ولكن لم أكن لأقتله وهو شيخٌ من قومي له شرف ومعروف، ولستُ أَتّهمه في وُدٍّ، ولا أَخاف بَغْيَه».

ورثى الشُّعراءُ يزيدَ وإخوته المقتولين فأَكثروا.

وأَقبل معاوية بن يزيد حتّى أَتى البصرة معه المال والخزائن. وجاءَ المفضّل، فاجتمع إليه جميع آل المهلّب بالبصرة، وقد كانوا أَعدُّوا السُّفن البحريّة وتجهزوا بكلِّ الجهاز، لأنّهم كانوا يتخوّفون ما كان، وقد كان يزيد بن المهلّب بعث وداع بن حُميد الأزديّ على قَندابيل أميراً، فقال له:

ـ «إنّي قد اخترتُك من بين قومي لأَهل بيتي، فكُنْ عند حسن ظنّي بك».

وأَخذ عليه أَيماناً غلاظاً، وقال:

ـ «إنّي سائرٌ إلى هذا العدوّ ولو قد لقيتهم لم أَبرح العرصة حتّى يكون لي، أَو لَهُم، وإن ظفرتُ أكرمتُك، وإن تكن الأُخرى ولجأَ إليك أَهل بيتي كنت في حصنٍ معهم وآويتهم حتّى يأخذوا لأنفسهم أَماناً».

ولمَّا اجتمعوا بالبصرة حملوا عيالاتهم وأَموالَهم في السُّفن البحرية، ثمَّ لجَّجوا في البحر حتّى مرُّوا بمُهزّم بن الفِزر، وكان يزيد استعمله على البحرين. فقال لهم:

ـ «أُشير عليكم أن لا تفارقوا سُفنَكم فإنَّ ذلك بقاؤكم، وإن خرجتم منها يخطفكم النَّاس وتقرَّبوا بكم إلى بني مروان».

فخالفوهُ ومضَوا حتَّى إذا كانوا بجبال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالَهم وأَموالَهم على الدَّوابِّ. وكان معاوية بن يزيد بن المهلَّب حين قدم البصرة بالخزائن والأموال أراد أن يتأمَّر عليهم. فاجتمع آل المهلَّب، فأَمَّروا عليهم المفضَّل بن المهلَّب، وقالوا:

ـ «المفضَّل أَكبرنا وسيِّدنا وإنَّما أَنت غلامٌ حدث السِّن كبعض فتيان أَهلك».

فلم يزل المفضَّل عليهم حتَّى خرجوا إلى كرمان وبكرمان فلولٌ كثيرة. فاجتمعوا إلى المفضَّل.

وبعث مسلمة بن عبد الملك مُدرك بن ضبٍّ الكلبيّ في طلب آل المهلَّب وفي أَثر الفَلِّ. فأَدرك مدركٌ المفضَّلَ بن المهلَّب وقد اجتمعت إليه الفُلول بفارس. فاتَّبعهم فأَدركهم في عَقَبةٍ، فعطفوا عليه، فقاتلوه واشتدَّ قتالهم. فقُتل ممن كان مع المفضَّل: النّعمان بن إبراهيم بن الأشتر، ومحمَّد بن إسحاق بن الأشعث، وأُخذ ابن صولٍ ملك دهستان أَسيراً، وجُرح عثمان بن إسحاق، ومحمَّد بن الأَشعث جراحةً شديدة وهرب حتَّى بلغ حُلوان. فدُلَّ عليه هناك فقُتل وحُمل رأسُه إلى مسلمة.

ورجع ناسٌ من أَصحاب يزيد بن المهلَّب فطلبوا الأَمان، فأُومِنوا، منهم: مالك بن إبراهيم بن الأَشتر والزَّرد بن عبد اللّه بن حبيب السَّعدي من تميم، وكان قد شهد مع عبد الرَّحمن بن محمَّد مَواطنَه كلَّها.

ومضى آل المهلَّب ومن سقط إليهم إلى قَندابيل، وكان مسلمةُ ردَّ مُدركاً الضَّبيّ وسرَّح في أثرهم هلال بن أَحوز التّميميّ من بني مازن بن عَمرو بن تميم، فلحقهم بقَندابيل. فأَراد آل المهلَّب دخول قَندابيل، فمنعهم وداع بن حُميد، وكاتب هلال بن أَحوز ولم يُباين آل المهلَّب فيحذروه. فلمَّا التقوا للحرب وصفُّوا كان وداع بن حُميد على الميمنة وعبد الملك بن هلال على الميسرة وكلاهما أَزديٌّ. فرفع لهم هلال بن أَحوز المازني رايةَ الأَمان، فمال إليها وداع بن حُميد وغدر بآل المهلَّب، وتبعه عبد الملك بن هلال، وارفضَّ عنهم النَّاس فخلَّوهم.

فلمَّا رأى ذلك مروان بن المهلَّب ذهب يريد الانصراف إلى النِّساءِ، فقال له المفضَّل:

ـ «أين تريدُ؟» قال:

ـ «أدخل إلى النّساءِ من أهلي فأقتلهنَّ لِئلاً يصل إليهنَّ هؤلاءِ الفُسّاق». فقال:

ـ «ويحك! أتقتل أخواتك وبنات أخواتك ونساءِ أهلك؟ إنّا واللّه ما نخاف عليهنَّ منهم». فردَّهُ عن ذلك.

ثمَّ مَشَوا بالسُّيوف وقاتلوا حتّى قُتلوا من عند آخرهم إلاّ عُيينة بن المهلّب وعثمان بن المفضّل بن المهلّب، فإنّهما نَجَوا، فلحقا بخاقان ورتبيل، وبُعث برؤوسهم ونسائهم وأولادهم إلى مسلمة بن عبد الملك.

منع الجرّاح من بيع ذرّيّة آل المهلّب

وقال مسلمة:

ـ «واللّه لأبيعنَّ ذرّيّتهم».

وكانوا في دار الرِّزق. فقال الجرّاح بن عبد اللّه:

ـ «فإنّي أشتريهم منك لأُبرَّ قسمَك».

فاشتراهم منه بمائة ألف درهم. قال:

ـ «إذا شئت فخذها».

ثمَّ تركها عليه ولم يُطالبه بها، وخلّى سبيلَهم إلاّ تسعةَ فتيةٍ منهم أحداثاً بعث بهم إلى يزيد بن عبد الملك، فقُدم بهم عليه، فضرب أعناقَهم. ورثاهم الشعراء.

يزيد بن عبد الملك يولّي مسلمة على الكوفة والبصرة وخراسان بعد قتل يزيد بن المهلّب

ولمّا فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلّب، جمع له يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السّنة.

وفي هذه السّنة وجّه مسلمة بن عبد الملك سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى خراسان، وهو الّذي يُلقّب بسعيد خُذَينة، وإنّما استعمله مسلمة لأنّه كان ختَنه على ابنته، وقدّم سعيد خُذَينة قبل شخوصه سَورة بنَ أبجر من بني دارم، فقدّمها قبله بشهر أو نحوه، واستعمل شعبة بن ظَهير النّهشليَّ على سمرقند، فخرج إليها في خمسة وعشرين رجلاً من أهل بيته. فأخذ على آمل أموية، وأتى بخارى، فصبحه وصحبه منها مائتا رجلٍ، فقدِمَ السُّغدَ وقد كان أهلها ارتدُّوا في ولاية عبد الرَّحمن بن نعيم، ثمَّ عادوا إلى الصُّلح.

فخطب شعبة أهل السُّغد ووبخ سُكّانها من العرب وغيرهم بالجبن، وقال:

ـ «ما أرى فيكم جريحاً ولا أسمع فيكم أنّة».

فاعتذروا بأن جبّنوا عاملهم علباء بن حبيب العبديّ وكان على الحرب. ثمّ قدم سعيد. فأخذ عُمّال عبد الرّحمن بن عبد اللّه الّذين وَلُوا أيّام عمر بن عبد العزيز فحبسهم. فكلّمه فيهم قومٌ فضمّنهم وأطلق عنهم، ثمّ رُفع إليه على عُمّال يزيد بن المهلّب وهم ثمانيةٌ. فأرسل إليهم وحبسهم في القُهَنْدِز بمرو، فقيل له:

ـ «إنّ هؤلاءِ لا يؤدُّون إلاّ أن يبسط عليهم».

وكان فيهم جهم بن زهر. فأرسل إليه ثمّ ضربه في ما بعد. وعزل شعبة بن ظهير عن سمرقند، وولّى حربَها عثمان بن عبد اللّه بن مطرّف، وكان النّاس يُضعّفون سعيداً ولقّبوه خُذَينة. فطمع فيه التُرك، فجمع له خاقان التُرك ووجّههم إلى السُّغد وكان عليهم كورصول، وأقبلوا حتّى نزلوا بقصر الباهليّ.

سبب طمع الترك في سعيد خدينة

وقيل: إنّ سبب طمع التُرك أنّ بعض عظماءِ الدّهاقين رأى في ذلك القصر امرأةً من باهلة فهَوِيَها، فأرسل إليها فخطبها، فأبَتْ فاستجاش ورجا أن يُسبَوا فيأخُذَ المرأةَ قهراً. فأقبل كورصول في مَن معه من التُرك حتّى حضر بالقصر، وفيه مائة أهل بيتٍ بذراريِّهم، وعلى سمرقند عثمان بن عبد اللّه، وخافوا من التُرك، وأشفقوا أن يُبطئ عنهم المَدَدُ. فصالحوا التُرك على أربعين ألفاً وأعطوهم من الرّجال سبعة عشر نفساً هينة، وندب عثمان بن عبد اللّه بن مطرّف الشِّخّير النّاس، فانتدب المسيّب بن بشر الرِّياحيّ وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل، فقال شعبة بن ظُهير:

ـ «لو كان ههنا خيول خراسان بأميرهم ما وصلوا إلى إغاثتهم».

وكان في مَن انتدب شعبة بن ظُهير وجماعة من الرُؤساء، فقال لهم المسيّب بن بشر لمّا عسكروا:

ـ «إنّكم تقدمون على حلبة التُرك وهي حلبة خاقان، والعِوض إن صبرتم الجنّة، والعقاب إن فررتم النّار، فمن أراد الصّبر فليُقدم».

فانصرف عنه ألفٌ وثلاثمائة، وسار في الباقين. فلمّا سار قليلاً أقبل على النّاس وقال مثلَ مقالته الأُولى، فاعتزل ألفٌ. ثمّ قال بعد ما سار فرسخاً مثل ذلك فاعتزل ألفٌ آخر، وسار في سبعمائة، حتّى إذا كان على فرسخين من القوم نزل.

فأتاهم من تركِ خاقان ملك قِيٍّ، فقال:

ـ «إنّه لم يبق ههنا دهقان إلاّ وقد تابع التُركَ غيري وأنا في ثلاثمائة مقاتل، فهم معك. وعندي الخبر أنّ القوم قد كانوا صالحوا على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر

رجلاً يكونون في أَيديهم رُهناً. فلمّا بلغهم مسيركم إِليهم قتل التُرك مَن كان أَيديهم من الرَّهائن».

قال: وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهلي فنجا، والأَشهب بن عبد اللّه الحنظلي، وميعادهم أَن يقاتلوهم غداً أَو يفتحوا القصر.

فبعث المسيَّب رجلين من العرب ورجلاً من العجم من ساعته ـ وكان ليلاً ـ على خيولهم، وقال:

ـ «إذا قربتم فشُدُّوا دوابّكم بالشَّجر واعلموا علم القوم».

فأَقبلوا في ليلةٍ مظلمة وقد أَجرتِ التُرك الماءَ في نواحي القصر. فليس يصل إِليه أَحدٌ ودنَوا من القصر فصاح بهم الرَّبيئة، فقال:

ـ «لا تصحْ وادع لنا عبد الملك بن دثار».

فدعوهُ فقالا له:

ـ «أرسلنا المسيَّب وقد أَتاكم الغوث». قال:

ـ «أَين هو؟» قالا:

ـ «على فرسخين، فهل عندكم امتناعٌ إلى أَن يلحق؟» قال:

قد أجمعنا على تسليح نسائنا وتقديمهم للموت أَمامَنا حتَّى نموتَ جميعاً غداً.

فرجعا إِلى المسيَّب، فأَخبراهُ. فقال المسيّب للّذين معه:

ـ «إِنّي سائرٌ إلى هذا العدوّ. فمن بايعني على الموت، وإلاّ فليذهبْ».

فلم يفارقه أَحد وبايعوه على الموت. فلمّا أَصبح سار وقد زاد الماء الَّذي أجروه إلى المدينة تحصيناً. فلمّا كان بينه وبينهم نصف فرسخ رأى أن ينزل ويبيِّتهم. فلمّا أَمسى أَمرَ النَّاس، فشدُّوا على خيولهم وركب فحثَّهم على الصَّبر ورغَّبهم في ما يصير إليه أَهل الجهاد والاحتساب والصَّبر وما لهم في الدُّنيا من الغنيمة والشَّرف إن ظفروا، وما لهم في الآخرة من الثَّواب والنعيم الأَبديّ إِن قُتلوا.

ثمَّ قال لهم:

ـ «اكعموا دوابَّكم وقُودوها، فإذا دنوتم من القوم فاركبوا وشُدُّوا شَدَّةً صادقةً وكبِّروا. ولْيكُنْ شعاركم: «يا محمَّد»، ولا تتَّبعوا مولِّياً فتتفرَّقوا، وعليكم بالدَّوابِّ فاعقروها، فإنَّ دوابَّ القوم إذا عُقرت أَشدُّ عليهم منكم. واعلموا أَن القليل الصَّابر خيرٌ من الكثير الفَشِل، وليست لكم قلَّةٌ. إنَّ سبعمائة سيف لا تُضرب بها في عسكر إلاّ أوهنوهُ وإن كَثُرَ أَهلُه».

وعبَّأَهم ميمنةً وميسرةً، وساروا حتَّى إذا كانوا على غَلوتين كبَّروا، وذلك في السحر، وثار التُّرك وخالطهم المسلمون وانهزموا، فعقر المسلمون الدَّوابَّ. ثمَّ عاد التُّرك وصابروا، فحال المسلمون وانهزموا، حتَّى إذا صاروا إِلى المسيَّب وتبعهم التُّرك فضربوا عَجُزَ دابَّة المسيَّب. فترجَّل قومٌ من المسلمين منهم البختريّ، ومحمد بن قيس الغنوي وزياد الأصبهانيّ، ومعاوية بن الحجَّاج وثابت قطنة، وكان على ميسرة المسيّب. فأَمَّا البختريُّ فقاتَل حتَّى قُطعت يمينُه فأَخذ السَّيفَ بشماله فقطعت، فجعل يذبُّ ببدنه حتَّى استُشهد. واستُشهد أَيضاً محمَّد بن قيس، وشلَّت يَدُ الحجَّاج الطَّائيّ: ثمَّ لم يصبر التُّرك وانهزموا. وضرب ثابت قُطنة عظيماً من عظمائهم، فقتله ونادى منادي المسيّب:

ـ «لا تتبعوهم، فإِنَّهم لا يدرون من الرُّعب أَتبعتموهم أَم لا، واقصدوا القصر، ولا تحملوا للقوم شيئاً من المتاع إلاَّ المال، واقصدوا من ضعف عن المشي فاحملوه ولا تحملوا من أَطاق على المشي».

وقال المسيّب:

ـ «مَن حمل امرأَةً أو صبيًّا أَو ضعيفاً حِسبةً فأَجرُه على اللَّه. ومَن أَبى فله أَربعون درهماً. وإن كان في القصر أَحدٌ من أَهل عهدكم فاحملوه».

قال: فقصدوا جميعاً القصرَ، فحملوا مَن كان فيه. وانتهى رجلٌ من بني فُقيمٍ إلى امرأةٍ، فقالت:

ـ «أَغثني أَغاثك اللَّه».

فوقف وقال:

ـ «دونكِ عجزَ الفرس!».

فوثبتْ، فإذا هي على عجز الفرس، وإذا هي أَفرسُ من رجلٍ يعجب لها من رَآها، وتناول الفُقيميُّ بيد ابنها غلاماً صغيراً، فوضعه بين يديه وأَتَوا ملك قِيٍّ تُرك خاقان، فأَنزلهم قصره، وأَتاهم بطعام وقال:

ـ «الحقوا بسمرقند».

ثمَّ قال:

ـ «هل بقي أَحدٌ؟» قالوا:

ـ «نعم، هلال الجُديديُّ». فقال:

ـ «لا أُسلمه».

فأَتاه به، وبه بِضعٌ وثمانون ضربةً. فاحتمله فبرأَ، إلى أَن أُصيب يوم الشِّعب مع

الجُند؛ ورجع التُّرك من الغد، فلم يَرَوا في القصر أحداً ورأَوا قتلاهم. فقالوا:

ـ «لم يكن الَّذين جاؤوا بالأَمس من الإنس».

فقال بعض من شهد ليلة قصر الباهلي: كُنّا في القصر. فلمَّا التقوا ظَنَنَّا أَنَّ القيامة قامت لهول ما سمعنا من هَماهِم القوم ووَقعِ الحديد.

غزو سعيدٍ التُّركَ

وفي هذه السَّنة قطع سعيد خدينة نهر بلخ، وغزا التُّرك، وكانوا قد نقضوا العهد وأَعانوا التُّرك. وذلك بعد ما كلَّم النّاس سعيداً مراراً وقالوا له:

ـ «تركتَ الغزوَ فقد كثرَ التُّرك، وكفر أَهلُ السُّغد».

فلمَّا عبر سعيد وقصد السُّغدَ لقيه التُّرك وطائفة من السُّغد. فهزمهم المسلمون. وقال سعيدٌ:

ـ «لا تتبعوهم، فإنَّ السُّغد بُستان أَمير المؤمنين».

فلمَّا كان الغد خرجت مسلحة المسلمين ـ والمسلحة يومئذٍ من تميم ـ فما شعروا إلاَّ بالتُّرك معهم خرجوا عليهم من غيضةٍ، وعلى خيل بني تميم شعبة بن ظُهير، فقُتل شعبة. وذاك أَنَّه أُعجل عن الرُّكوب، فقاتلهم راجلاً إلى أن قُتل، وقُتل نحوُ من خمسين رجلاً، وانهزم المسلحة وأَتى النَّاسَ الصَّريخ.

فقال عبد الرَّحمن بن المهلّب العَدويّ: كنتُ أَوَّل مَن أتاهم لمَّا أَتانا الخبر وتحتي فرس جَوادٌ، فإذا عبد اللّه بن زُهير إلى جنب شجرةٍ كأَنّه قُنفُذٌ من النُّشّاب وقد قُتل. ثمَّ لحق النّاس وحملوا على العدوِّ حتّى كفَوهم. وجاءَ الأَمير والجماعة، فانهزم العدوُّ.

ذكر كلمةٍ صارت سبب حتفٍ

كان سعيد عبر النَّهر مرَّتين، فلم يجاوز سمرقند. وكُنَّا حكينا أَنّه لمَّا هزم المسلمون التُّرك وأَهلَ السُّغد أَلحُوا في طلبهم. فنادى منادي سعيد:

ـ «لا تطلبوهم، فإنَّ السُّغد بستان أَمير المؤمنين».

وقال سعيد:

ـ «قد هزمتموهم. أَفتريدون بَوارَهم وأَنتم يا أَهل العراق قد قاتلتم أَميرَ المؤمنين غير مرَّة، فعفا عنكم ولم يستأصلكم ورجع».

وكان سعيد إذا بعث سريَّةً فأَصابوا وغنموا وسَبَوا ردَّ السَّبيَ ووبخ السَّريَّة. فقال له يوماً حيَّان النبطيُّ وهو بإزاءِ العدوِّ من أَهل السُّغد:

ـ «أَيُّها الأَمير، ناجزِ العدوَّ». فقال:

ـ «لا، هذه بلاد أَمير المؤمنين».

فلمَّا انهزم أَهل السُّغد تبعهم حيَّان، فقال له سَورة بن أَبجر:

ـ «انصرف كما أمر الأمير». فقال:

ـ «أَدَعُ عَقيرةَ اللَّه وأَنصرِفُ!» فقال له:

ـ «يا نبطيُّ!» قال:

ـ «أَنبط اللَّه وجهَك».

وكان حيَّان يُكنَّى في الحرب: أَبا الهيَّاج، وإيَّاهُ عنَى الشَّاعرُ:

إنَّ أَبــا الــهــيَّــاج أَريَــحــيُّ　　　لــلــرِّيــح فــي أَثــوابــه دَوِيُّ

فحقد عليه سورة وقال:

ـ «أَنبط اللَّه وجهك».

ثمَّ خلا بسعيدٍ فقال:

ـ «إِن هذا العبد أَعدى النَّاس للعرب. قد عصى أَمرَك، وهو الَّذي أَفسدَ خراسان على قُتيبة وهو واثبٌ بل مفسدٌ عليك خراسانَ، ثمَّ يتحصَّن في بعض هذه القلاع». قال:

ـ «يا سورة! لا تسمعنَّ».

سعيد يقتلَ حيّان بإطعامه ذهباً

ثمَّ مكث أَيَّاماً وقد ثقلَ سعيدٌ على النَّاس وضعَّفوهُ، فلم يأمَن حيَّان. فأَمر سعيد بذهبٍ فسُحِلَ وأُلقِيَ في طعام وناوله حيَّان. فلمَّا علم أَنَّه قد حصل في جوفه ركب وركب معه النَّاس وفيهم حيَّان. فركض أَربعة فراسخ فنزل حيّان وعاش أَربعة أَيَّام ومات في الرَّابع.

وفي هذه السَّنة عُزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق وخراسان وانصرف إلى الشَّام.

ذكر سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان

كان سبب ذلك أَنَّ مسلمة لمَّا وليَ أَرضَ العراق وخراسان لم يرفع من الخراج شيئاً، وكان يزيد بن عبد الملك يُريد عزْلَه فيستحييه، فيكتب بتشوُّقه. فشاور مسلمة عبدَ العزيز بن حاتم بن النّعمان في الشُّخوص إِلى يزيد ليزوره فقال له:

ـ «أَمن تشوُّقٍ بك إِليه؟ إِنَّك لطَروبٌ». قال:

ـ «إنَّه لا بُدَّ من ذاك». قال:

ـ «إذاً لا تخرج من عملك حتَّى تلقى الوالي عليه».

فشخص. فلمَّا بلغ دُورين لقيه عُمر بن هُبيرة الفزاريّ على خمس من دوابّ البريد. فدخل عليه ابن هبيرة مسلِّماً، فقال:

ـ «إلى أين يا بن هُبيرة؟» قال:

ـ «وجَّهني أَمير المؤمنين في حيازة أَموال بني المهلَّب».

فلمَّا خرج من عنده أَرسل إِلى عبد العزيز، فجاءَه. فقال:

ـ «هذا ابن هبيرة قد لقينا كما ترى». قال:

ـ «قد كنتُ أنبأتُك». قال:

ـ «فإنَّه إنَّما وُجِّه لحيازة أَموال بني المهلَّب» قال:

ـ «هذا أَعجب من الأَوَّل: يُصرف عن الجزيرة ويُوجَّه في حيازة أَموال بني المهلَّب».

قال: فلم يلبث أَن جاءَهُ عزلُ ابن هبيرة عُمَّالَه والغِلظةُ عليهم. فقال الفرزدق:

راحتْ بمسلمة الرِّكابُ مودَّعاً　　فارعَيْ فزارةُ لا هَناك المرتعُ
ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمِّرتْ　　أَن سوف تَطمع في الإمارة أَشجعُ

ظهور أَمر الدُّعاة في خراسان

وفي هذه السَّنة غزا عمر بن هبيرة الرُّوم. فسبى سبعمائة أَسير وفيها أَيضاً وجَّه مسيرةُ رُسلَهُ من العراق إلى خراسان، فظهر أَمر الدُّعاة فيها.

وكان سعيد خذينة يومئذٍ بخراسان، فأَتاه آتٍ فقال:

ـ «إنَّ ههنا قوماً يدعون إِلى إمامٍ لهم وقد ظهر منهم كلام قبيح». فبعث سعيد إليهم فقال:

ـ «من أَنتم؟» قالوا:

ـ «ناسٌ من التُّجار». قال:

ـ «فما الَّذي يُحكى عنكم؟» قالوا:

ـ «لا ندري». قال:

ـ «جئتم دُعاةً؟» فقالوا:

ـ «إنَّ لنا في أَنفسنا شغلاً عن هذا».

فقال:

ـ «مَن يعرف هؤلاءِ؟».

فجاءَ قوم من خراسان جلُّهم من ربيعة واليمن. فقالوا:

ـ «نحن نعرفهم، وهم علينا إن أتاك منهم شيءٌ تكرهه».

فخلّى سبيلَهم.

ثمّ دخلت سنة ثلاثٍ ومائة

سبب عزل سعيد خدينة عن خراسان

وفيها عزَلَ عمرُ بن هبيرة سعيدَ خدينة عن خراسان. وذاك أنَّ النّاس شكوا سعيدَ خُدينة. فكتب عمر بن هبيرة بذلك إلى يزيد، وكتب بأَسماءِ مَن أبلى يوم العقر، ولم يذكر سعيد بن عمرو الحَرشيّ. فكتب إليه يزيد بن عبد الملك:

ـ «لِمَ لَمْ تذكر الحَرشيَّ؟ وَلِّه خراسان!».

فولاّهُ، وخرج سعيدٌ الحرشيّ وقدِمَ خراسانَ في سنة ثلاثٍ ومائةٍ والنّاس بإزاءِ العدوّ، وقد كانوا نُكبوا. فخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال:

ـ «إنّكم لا تُقاتلون عدوَّ الإسلام بكثرة ولا بِعُدَّة، ولكن بنصر اللّه وعِزِّ الإسلام».

وكان شاعراً، فقال:

فلستُ لِعامرٍ إن لم تَرَوني ... أَمامَ الخيل أَطعنُ بالعوالي
وأَضرب هامةَ الجبّار منهم ... بعضب الحدِّ حُودِث بالصِّقالِ
فما أَنا في الحروب بمستكينٍ ... ولا أَخشى مصاولةَ الرِّجالِ
أَبى لي والدي من كلِّ ذمٍّ ... وخالي في الحوادث غير خالِ
إذا خطَرَتْ أَمامي حيُّ كعبٍ ... وزافت كالجبال بنو هلالِ

وكانت السُغد قد أعانت التُرك أَيّام خدَينة. فلمّا وليهم الحرشيُّ خافوا على أَنفسهم. فأَجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكُهم:

ـ «لا تفعلوا، أَقيموا واحملوا إليه خراجَ ما مضى، واضمنوا له خراج ما تستقبلون، واضمنوا له عمارة أَرضكم، والغزوَ معه، إن أَراد ذلك، واعتذِروا إليه ممّا كان منكم، وأعطُوهُ رهائنَ تكون في يديه». قالوا:

ـ «لا نفعل، فإنّه لا يرضى ولا يقبل ذلك منّا. ولكنّا نأتي خُجندة فنستجير بملكِها ونُرسل إلى الأمير فنسأله الصَّفح عمّا كان منه ونوثق له ألاّ يرى منّا أمراً يكرهه». فقال:

ـ «أَنَا رجل منكم، وما أَشرتُ به فهو خسرٌ لكم».

فأَبَوا وخرجوا إلى خجندة، وخرج كارزنج، وكشر، وشاركث، وثابت بأَهل اشتيخَن. وأَرسلوا إلى ملك فرغانة، وهو الطّار، يسألونه أن يمنعهم ويُنزلهم مدينتَه. فأرسل إليهم:

ـ «سَمُّوا لي رُستاقاً أُفرِّغه لكم، وأَجِّلُوني عشرين يوماً، وإن شئتم فرغتُ لكم شِعبَ عصام بن عبد اللّه الباهليّ».

وكان قتيبة خلَّفه فيه، فقيل: شِعب عصام. فأَرسلوا إليه:

ـ «فرِّغْهُ لنا» قال:

ـ «نعم، وليس لكم عليَّ عقدٌ ولا جِوارٌ حتَّى تدخلوهُ، وإن أتتْكم العربُ قبل أَن تدخلوه لم أَمنعهم».

فرضُوا، ففرَّغ لهم الشِّعب. وقد كان هذا الشِّعب من رستاق أَسفرة، وأَسفرةُ يومئذٍ إلى وليِّ عهد ملك فرغانة وهو بلاذا، وكان قال لهم كارزنج:

ـ «أُخيِّركم ثلاث خصالٍ إن تركتموها هلكتم. إنَّ سعيداً فارس العرب، وقد وجَّه على مقدِّمته عبد الرَّحمن بن عبد اللّه القشيريّ في كماة أصحابه، فبيِّتوهُ واقتلُوهُ. فإنَّ الحرشيَّ إن أَتاهُ خبره لم يغزُكم».

فأبوا عليه. قال:

ـ «فاقطعوا إليه نهر الشَّاس، وسلُوهُ: ما تريدون؟ فإن أجابكم، وإلاَّ مضيتم إلى سرباب». قالوا:

ـ «لا». قال:

ـ «فأَعطوهم الخراج».

فأَبَوا. ولحق كارزنج وأَهل السُّغد بخُجندَة.

ودخلت سنة أربع ومائة[١]

فغزا الحرشي وقطع النهر، وعرض الناس، ثم سار فنزل قصر الريح على فرسخين من الدبوسية[٢]، ولم يجتمع إليه جنده، وأمر الناس بالرحيل.

فقال له هلال بن عليم[٣] الحنظلي: يا هناه، إنك وزير خير منك أمير إن الأرض

---

(١) من هنا يبدأ ما حقّقناه عن المخطوط. وقد استدركناه لنكمل النقص الموجود في مطبوعات الكتاب.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
بليدة من أعمال الصغد من ما وراء النهر منها أبو زيد الدّبوس، وهو عبيد اللّه بن عمر بن عيسى صاحب كتاب الأسرار وتقويم الأدلة، وكان من كبار فقهاء أبي حنيفة وممن يضرب به المثل.

(٣) في المخطوط: هلال بن علم، والتصويب من الكامل.

حرب شاغرة برجلها(١)، ولم يجتمع لك جندك، وقد أمرت بالرحيل.

قال: وكيف لي؟

قال: تأمر بالنزول، فقبل، ونزل.

وخرج ابن عم لملك فرغانة يقال له: السلار إلى الحرشي فقال له: إن أهل السغد بخجندة، وأخبره خبرهم، وقال: عاجلهم قبل أن يصيروا إلى الشِعب، فليس علينا لهم جوار حتى يمضي الأجل.

فوجه الحرشي مع السلار عبد الرحمن القشيري في جماعة، ثم ندم بعد [أن](٢) فصلوا، وقال: جاءني علج لا أدري صدقني أم كذبني فغررت بجند من المسلمين.

وارتحل في أثرهم حتى نزل بأُشْرُوسَنة(٣)، فصالحهم على شيء يسير، وسار جاراً معذّاً حتى لحق القشيري بعد ثالثة، وسار حتى انتهى إلى خجندة، فاستشار الفضل بن بستام، وقال له: ما ترى؟

قال: أرى(٤) المعاجلة.

قال: ولكني لا أرى ذلك، إن خرج رجل فإلى من يرجع؟

أو قتل قتيل إلى من يحمل؟

ولكني أرى النزول، والتأني، والاستعداد للحرب، فنزل، ورفع الأبنية، وأخذ في التأهب.

فلم يخرج أحد من الغد، فجبن الناس يومئذٍ الحرشي.

وقالوا: كان هذا يذكر بأسه ورأيه بالعراق، فلما سار إلى خراسان ماق.

فحمل رجل من العرب بعمود باب خجندة حتى فتح الباب.

---

(١) أي رافعة رجلها للموت أو للحرب أو معلنة ومنذرة بذلك.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:

. . هي بليدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند، وبينها وبين سمرقند عشرون فرسخاً، معدودة في الإقليم الرابع. . .

قال الإصطخري: أشروسنة اسم الإقليم كما أن الصُغد اسم الإقليم وليس بها مكان ولا مدينة بهذا الاسم، والغالب عليها الجبال، والذي يطوف بها من أقاليم ما وراء النهر من شرقيها فرغانة، ومن غربيها حدود سمرقند، وشماليها الشاش، وبعض فرغانة، وجنوبيها بعض حدود كشّ والصغانيان وشومان، وواشجرد، وراشت، ومدينتها الكبرى يقال لها بلسان الأشروسنة ومن مدنها: بنجيكت وساباط وزامين وديزك وخرقانة، ومدينتها التي يسكنها الولاة: بنجيكت.

وينسب إلى أشروسنة أمم من أهل العلم منهم:

أبو طلحة حكيم بن نصر بن خالج بن جندبك، وقيل: جُندُلك الأُشروسَني.

(٤) في المخطوط: ما أرى. والحرف الأول زائد فحذفته من السياق. وكذا هو ليس موجود في الكامل.

وقد كانوا حفروا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقاً، وغطوه بقصب وعلوه بالتراب مكيدة وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا أن يكونوا قد عرفوا الطريق وأُشكل على المسلمين.

فسقطوا في الخندق دهشاً.

فأخرجوا من الخندق أربعين رجلاً على الرجل درعان وحصرهم الحرشي، ووضع عليهم المجانيق، فأرسلوا إلى مالك فرغانة: غدرت بنا، وسألوه النصرة، فقال: أغدر ولا أنصركم، فانظروا لأنفسكم فقد أتوكم قبل انقضاء الأجل ولستم في جواري. فلما يئسوا من نصره [١٦/أ] طلبوا الصلح، وسألوا الأمان، وأن يردهم إلى السغد.

فاشترط عليهم:

* أن يردوا من في أيديهم من نساء العرب وذراريهم.
* وأن يؤدوا ما كسروا من الخراج.
* ولا يغتالوا أحداً.
* ولا يتخلف منهم بخجندة أحداً.

فإن أحدثوا حدثاً حلت دماءهم.

فخرج إليه كارزنج، فقال له: إن لي إليك حاجة، أُحب أن تشفعني فيها؟

قال: وما هي؟

قال: أحب إن جنى منهم رجل جناية بعد الصلح أن لا تأخذني بما جنى.

فقال الحرشي: ولي حاجة فأقضها.

قال: وما هي؟

قال: لا تلحقن في شرطي ما أكره.

ثم أخرج التجار، والملوك من الجانب[1] الشرقي، وترك أهل خجندة الذين هم[2] أهلها.

فقال كارزنج للحرشي: ما تصنع؟

فقال: أخاف عليك مغرّة[3] الجند، وكان عظيماً وهم مع الحرشي في العسكر، ونزلوا على معارفهم من الجند، ونزل كارزنج على أيوب بن أبي حسان.

---

(١) في المخطوط: من جانب، بنقصان الألف واللام.

(٢) في المخطوط: الذينهم.

(٣) المغرة: المكرة، أي يخاف عليهم صولة الجند ومكرهم وخداعهم وتبييتهم ومفاجأتهم وغدرهم وإضمارهم الشر.

وبلغ الحرشي أنهم قتلوا امرأة من نساءكن في أيديهم.

فقال لهم: بلغني ثابتاً صاحب اسحيح[١] قتل امرأة ودفنها تحت حائط، فجحدوا، فأرسل الحرشي إلى قاضي خجندة، فنظروا، فإذا المرأة مقتولة فدعا الحرشي ثابت، وأرسل كارزنج غلامه إلى باب السرادق ليأتيه بالخبر.

وسأل الحرشي ثابتاً وغيره عن المرأة، وكان الحرشي تيقن أنه قتلها من جهات، فقتله.

فرجع غلام كارزنج إليه بقتل ثابت، فجعل بعض على لحيته ويقرضها بأسنانه.

وخاف كارزنج أن يستعرضهم الحرشي فقال لأيوب بن أبي حسان: إني قد ضفتك، وصديقك، ولا يحمد بك أن تقتل ضيفك في سراويل خُلِق[٢]، وربما بدا منه عورته.

قال: فخذ سراويلي.

قال: وهذا أيضاً لا يجمل، أقتل[٣] في سراويلاتكم؟! ولكن سَرِّح غلامي إلى ابن أخي يجيئني بسراويل جديدة[٤] - وكان قال لابن أخيه: إذا أرسلت إليك أطلب سراويلاً فاعلم أنه القتل - فلما بعث بالسراويل، أخرج فرندة[٥] خضراء فقطعها عصائب وعصبها برؤوس شاكرتيه، ثم خرج هو وشاكرتيه، فاعترض الناس، فقتل خلقاً، وضعضع العسكر، ولقي الناس منه شراً حتى انتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود، في[٦] طريق ضيق فقتله ثابت.

وكان في أيدي السغد أسرى من المسلمين، فقتلوا خمسين ومائة، وأفلت منهم غلام، فأخبر الحرشي.

فأرسل من علم علمهم، فوجد أن الخبر حقاً، فأمر بقتل من عنده، وعزل التجار عنهم.

وكان التجار أربعمائة معهم مال عظيم قدموا به من الصين.

فامتنع أهل السغد، ولم يكن لهم سلاح، فقاتلوا بالخشب، فقتلوا عن آخرهم، وكان عدد الحرانيين خاصة سبعة آلاف.

ثم أرسل من يحصي أموال التجار، وكانوا اعتزلوا وقالوا: لا نقاتل، فاصطفى

---

(١) كذا هذه الكلمة في المخطوط ولا أدري أبلد هي أم غيره ولم ترد في الكامل ولم أقف على هذه الاسم في معجم البلدان.
(٢) أي قديمة بالية قد تتمزق لضعفها فتبدي العورة.
(٣) في المخطوط: أقبل. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: جديد.
(٥) قال ابن منظور في لسان العرب:
فِرِند: دخيل معرب: اسم ثوب.
والفرند: الورد الأحمر.
(٦) في المخطوط: وفي. والواو زائدة على السياق فحذفتها.

أموال السغد وذراريهم، فأخذ منه كل ما أعجبه.

ثم دعا مسلم بن بديل العدوي، فقال: قد وليتك المقسم.

فقال: بعد ما عمل فيه عمالك ليلة ولِّها غيري.

فوَلّى عبيد اللّه بن زهير بن حيان العدوي، فأخرج الخمس، وقسم الأموال(١).

وكتب الحرشي إلى يزيد بن عبد الملك، ولم يكتب إلى عمر بن هبيرة، وكان هذا مما وجد عليه فيه عمر بن هبيرة.

فمن عجب ما حكى في تلك الحال:

أن رجلاً اشترى جونة(٢) بدرهمين من أصحاب الأقباض، فانصرف بها، فلما حلها وجد فيها سبائك ذهب، فرجع وهو واضع يده على وجهه، فكأنه رَمِدَ، فرد الجونة، وأخذ الدرهمين، ثم طلب فلم [يُعْرَف](٣).

وسرّح الحرشي سليمان بن أبي السري وهو مولى لبني عوافة إلى قلعةٍ ليفتحها، وكان يمر بوادي السغد من جهة، وأخذ وأنفذ معه خوارزمشاه وشوكر بن ختل، وعوذم صاحب أخرون، فوجد سليمان بن السري على مقدمته المسيب بن بشر الرياحي.

فتلقاه أصحاب القلعة على فرسخ فقاتلهم(٤) فهزمهم المسيب حتى ردهم إلى القلعة، فحصرهم سليمان ودهقانها يقال له: ديوشتي.

فكتب الحرشي إلى سليمان يعرض عليه المحدد، فأرسل إليه: مُلْتَقَانا ضيف، فسر أنت إلى كَشٍّ(٥)، فأنا في كفاية إن شاء اللّه.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل:
وقال ثابت قطنة يذكر ما أصابوا من عظمائهم:

أقر العين مصرع كارزَنج ... وكَشين وما لاقى بباد
ودويشتي وما لاقى خلج ... بحصن خجندة إذ دمروا فبادوا

(٢) قال ابن منظور:
الجُونَةُ: سُلَيْلَةٌ مستديرة مغشاة أَدَماً تكون مع العطارين...
والجونة التي يعد فيها الطيب ويحرز...
الجونة: الخابية مطلية بالقار.
قلت، وهي عبارة عن قارورة داخل حاوية من القطب أو عيدان القش لتحميها من الصدمات حتى لا تنكسر يوضع داخلها غالباً المواد العطرية، أو الكيميائية، أو الدوائية. وكثيراً ما نراها في المعامل الكبيرة الخاصة بالتركيبات السائلة.

(٣) زيادة من الكامل، وصاحب هذه القصة مثال ورمز من رموز الأمناء.

(٤) في المخطوط: فقاتله. وهو تحريف. والتصويب من الكامل.

(٥) قال ياقوت في معجم البلدان:
كَشٌّ: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاث فراسخ من جُرجان على جبل، ينسب إليها أبو زرعة محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الجنيد الكشي الجرجاني.

فلما طال الحصار على ديوشتي طلب النزول بأمان.

فقال سليمان: لا إلاّ على حكم سعيد الحرشي.

فرضي بذلك.

[١٦/ب] فنزل على أن يوجهه مع المسيب بن بشر، فولى له سليمان ووجهه إلى الحرشي. فألطفه وأكرمه مكيدة، وطلب أهل القلعة الصلح بعد مسيره على أن لا يعرض لما به أهل بيت منهم ونساءهم وأبناءهم، ويسلمون إليه القلعة، فكتب سليمان إلى الحرشي: أن يبعث الأمناء ليقبض ما في القلعة.

فبعث ثقاته، فباعوا ما في القلعة مزايدة[١] فأخذ الخُمس وقسم الباقي فيهم، وجمع الحرشي إلى كَسٍّ فصالحوه على عشرة آلاف رأس، وصالح دهقانها على أن يوفيه ذلك في أربعين يوماً على أن لا يأتيه.

فلما فرغ من كَسٍّ خرج إلى ربيخن[٢]، فقتل ديوشتي[٣] وصلبه على ناوس وكتب على أهل ربيخن[٢] كتاباً بمائة رأس إن فقد من موضعه.

وَوَلَّى نصر بن سيار وبعث برأس ديوشتي إلى العراق.

وكانت خزائن منيعة لا يُطمع فيها، فأشير على سليمان: أن يوجه المسربل بن الحارث الناجي[٤]، وكان المسربل صَدِيقاً لملكها وكان محباً إليهم، فَوُجِّه.

فلما وصل إلى القوم خبر ملكها بما صنع الحرشي بأهل خجندة وخوفه.

قال: فما ترى لي؟

قال: أن تنزل بأمان.

قال: فما أصنع إن لحق بي من عوام الناس؟

قال: تصيرهم معك في أمانك.

فصالحهم، وأمنوه وبلاده.

---

(١) أي بالمزاد. والمزادات معروفة ومشهورة في الجاهلية والإسلام ولأهل الفقه فيها كلام كثير، وهي على الأصح مباحة ما لم يتعد بالسلعة القيمة أو يحدث تغرير بالمشترى فيها، وقد فعلها النبي ﷺ في متاع السائل الذي أحضر حلسه ليبيعه، ودفع ثمنه إليه ليحتطب به، وهي قصة مشهورة.

(٢) في المخطوط «رسجن»، وفي الكامل: زرنج، وأشار محققه إلى أنها في الطبري: ربنجن، وما أثبته من معجم البلدان فقال مؤلفه: رَبَنْجَن: بفتح أوله وثانيه، وياء ساكنة وخاء معجمة، ونون. وقيل: أرْبَيخن. بليدة من صغد سمرقند.

(٣) في الكامل: ديوشنج.

(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: المسربل بن الخريت بن راشد الناجي.

ورجع الحرشي إلى مروان ومعه هذا الملك واسمه: سبغري.

فلما نزل إسباد[١] قتل سبغري ومعه أمانة.

ويقال: إن دهقان بن ماخر قدم على ابن هبيرة، فأخذ أماناً لأهل السغد فحبسه الحرشي بمرو، فلما قدم دعا به فقتله وصلبه في الميدان، فقال راجزهم:

إذا سعيد راح في الأخماس ... في رهج يأخذ بالأنفاس
دارت على الشرك أمَرّ الكاس ... وطارت الترك على الأحلاس
ولّوا فِراراً عُطَّل القياس

وفي هذه السنة: رحل أبو محمد الصادق وعدة من أصحابه من خراسان إلى محمد بن عبد الله بن العباس، وقد ولد له أبو العباس قبل ذلك بخمس عشرة ليلة[٢]، فأخرجه إليهم في خرقة، وقال لهم: والله ليتمن هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم.

وفي هذه السنة: عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي عن خراسان، وولاّها مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي.

ذكر السبب في ذلك

كان عمر[٣] بن هبيرة [أخذ][٤] على الحرشي في أشياء أحدها أنّه قد كان [أمن][٥] عليه ديوشتي فقتله.

وكتب أماناً لدهقان بن ماجر فصلبه. وكان يستخف بأمر ابن هبيرة، فإذا ورد عليه رسول قال له: كيف يقول أبو المثنى؟ ويقول لكاتبه: اكتب إلى أبي المثنى، ولا تقول الأمير.

فبلغ ذلك ابن هبيرة، فدعا جميل بن حمران، وقال له: قد بلغني أشياء عن الحرشي، فاخرج إلى خراسان، وأظهر أنك قدمت تنظر في الدواوين، واعلم لي علمه.

فقدم جميل، فقيل للحرشي: إن جميلاً ما قدم للنظر في أمر الدواوين، وما قدم إلا ليعلم علمك، فدس إليه طعاماً مسموماً، فأكله[٦]، ومرض وتساقط شعره، وبادر بالخروج إلى ابن هبيرة، فعولج، واستبل وصح.

---

(١) لم أقف على بلدة بهذا الاسم أو بالأحرى بهذا الرسم ومشتبهاته في معجم البلدان.
(٢) قال ابن الأثير في الكامل:
في ربيع الآخر. وهو السفاح.
(٣) في المخطوط: عمرو. وهو تحريف.
(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.
(٥) هذه الكلمة أو ما في معناها ساقطة من السياق وأثبتها.
(٦) في الكامل: فسَمَّ بطيخة وبعث بها إليه، فأكلها.

فقال لابن هبيرة: الأمر أعظم[١] مما بلغك، ما يرى سعيد إلاّ أنك بعض عماله.

فغضب وعزله وعذبه حتى نفح في بطنه النمل، وكان سعيد يقول حين عزله عمر: لو سألني ابن هبيرة درهماً يضعه على عينيه ما أعطيته.

فلما عُذّب أدى شيئاً كثيراً، فقيل له: ألم تزعم أنك لا تعطيه درهماً؟

فقال: ما كنت ذقت العذاب[٢].

ذكر السبب في ولاية مسلم سعيد خراسان: لما قتل سعيد بن أسلم، ضم الحجاج ابنه مسلماً مع ولده، وهو مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة بن عمرو بن الصعق، واسم الصَّعق خويلد. فتأدب ونبل، فلما قدم عدي بن أرطأة أراد أن يوليه لما رأى من أدبه ونبله، فشاور كاتبه.

فقال: وَله وِلاَية خفيفة ثم أرفعه.

فولاه ولاية فقام وضبطها وأحسن، فلما وقعت فتنة يزيد بن المهلب حمل تلك الأموال إلى الشام، فلما قدم عمر بن هبيرة أجمع على أن يوليه ولاية فدعاه، ولم يكن شاب بعد، ثم نظر، فرأى شيبة في لحيته، فكَبَّر.

قال: ثم سمر ذات ليلة، ومسلم في سمره، فتخلف مسلم بعد السُّمَّار، وفي يد ابن هبيرة [١٧/أ] سفرجلة[٣] فألقاها إليه تحته، قال له: أبشرك أن أوليك خراسان.

قال: نعم.

قال: اغد إليَّ إن شاء اللَّه.

فلما أصبح جلس، ودخل الناس، ودعا مسلماً، وعقد له [على][٤] خراسان، كتب عهده، وكتب إلى عمال الخراج أن يكاتبوا مسلم بن سعيد. فسار مسلم فقدم إلى خراسان نصف النهار، ووافى دار الإمارة، فوجد بابها مغلقاً[٥]، فأتى المسجد، فوجد

(١) في المخطوط: أعظمك. وهو تحريف.
(٢) عافانا اللَّه وإياك أخي القارئ من عذاب الجبابرة والطغاة، فإنهم يتفننون في إيذاء الناس بما لا يخطر على بال أي إنسان معافاً فإن الإنسان المعافى لا يفكر في الإيذاء، وإذا فكر فيه ظن أنه مجرد ضرب مبرح أو إهانة لفظية فيجرؤ على بعض الأفعال التي يعرف أنها تخالف قوانين بعض الطغاة حتى إذا وقع في أيديهم ورأى بعضاً من أنواع هذا العذاب دون أن يمارسه الطغاة معه عرف معنى كلمة تعذيب سائلاً اللَّه عزّ وجلّ أن يعافي كل مسلم في سائر الأرض من ذلك في الدنيا وأن يقينا عذابه يوم القيامة برحمته آمين.
(٣) زهرة معروفة ذات رائحة عطرية طيبة.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) هكذا كانت تسير الحياة في أيامهم تغلق وتفتح أهم مراكز الحكم وتسير الملوك والأمراء في =

باب المقصورة مغلقاً، فصلى، وخرج وصيف من باب المقصورة، فقيل له: الأمير، فمشى بين يديه حتى أدخله مجلس الوالي في دار الإمارة، وأعلم الحرشي بمكانه.

فأرسل إليه: أقدمت أميراً، أو وزيراً، أو زائراً؟

فأرسل إليه: مثلي لا يقدم خراسان زائراً ولا وزيراً.

فأتاه الحرشي، فشتمه، وأمر بحبسه.

فقيل له: إن أخرجته نهاراً قتل فحبسه حتى أمسى.

وبعث مسلم على كوره رجلاً من قبله على حربها وكان ابن هبيرة أخذ قهرماناً[١] ليزيد بن المهلب له علم بأهل خراسان وبأشرافهم وأمره[٢] أن يكتب له كل من عنده مال وعليه طريق للسلطان.

فلم يدع شريفاً إلا قرّبه، فكتب ابن هبيرة إلى مسلم مع أبي عبيدة العنبري يأمره بجباية الأموال، فأراد مسلم أخذ الناس بتلك الأموال التي فرقت عليهم.

فقال له نصحاؤه: إن فعلت هذا بهؤلاء لم يكن لك بخراسان قرار، وإن لم تعمل في هذا حتى يُوضع عنهم فسدت عليك وعليهم خراسان لأن هؤلاء أعيان الناس فرفعوا بالباطل، إنما كان على مهزم بن جابر ثلاثمائة ألف فزادوا مائة ألف فصار أربع آلاف، وعامة من سمى لك ممن كثر عليه هو بمنزلته. فكتب مسلم بذلك إلى ابن هبيرة وأوفد وفداً فيهم مهزم بن جابر.

فلما وصلوا قال مهزم بن جابر: أيها الأمير، إن الذي رفع إليك رفع الباطل

= الشوارع ويرتادون المساجد في الصلوات الخمس، فلا يُستغرب مثل هذا الموقف بل هو أمر طبيعي جداً عندهم كما أننا اليوم نتحدث في أجهزة الاتصال المحمولة ونصعد إلى القمر ويرى بعضنا بعضاً عبر شاشات الأنترنيت فلا يستغرب ذلك منا أحد ومن استغربه حكمنا عليه بالجهل والتخلف وصار أضحوكة لمن سمعه يستغرب من ذلك شيئاً.

(١) قهرمان كلمة فارسية معربة ومعناها القائم على الشؤون لصاحب الملك أو العمل الكبير، وهو يوازي في أيامنا هذه رئيس ديوان رئيس الجمهورية.
ويقول ابن منظور في لسان العرب في مادة قهرم:
القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه.
قال سيبويه: هو فارسي، والقهرمان: لُغة في القهرمان وعن اللحياني كترجمان وترجمان: لغتان.
قال أبو زيد: يُقال قهرمان، وقرهمان مقلوب.
قال ابن بري: القهرمان من أمناء الملك وخاصته، فارسي معرب.
وفي الحديث: كتب إلى قهرمانة هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلُغَة الفرس.

(٢) في المخطوط: وأمرهم: تحريف.

والظلم، ما علينا من هذا كله إلا القليل الذي لو أخذنا به أدينا.

فقال ابن هبيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال: فليقرأ الأمير ما بعدها: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

فقال ابن هبيرة: لا بدّ من هذا المال.

قال: أما واللّه إن أخذته لتأخذنه من قوم شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوك، وليضرن ذلك بأهل خراسان في عدتهم وكراعهم وحلقهم، ونحن في ثغر نكابد فيه الأعداء لا ينقضي حربهم وإن أخذنا لنلبسن الحديد حتى يلتبس صداه بجلده، وحتى أن الخادمة التي تخدمه لينصرف وجهها عن مولاها أو عمن تخدمه لسهولة[١] الحديد وأنتم في الزقاق وفي المعصفرات.

والذين فرقوا في هذه[٢] الأحوال وجوه أهل خراسان وأهل الولايات والكلف العظام في المغازي، وقبَلنا قوم قدموا علينا، فجاؤوا على الجرات فولوا الولايات[٣] واقتطعوا الأموال فهي عندهم موفرة جمة.

فكتب ابن هبيرة إلى مسلم بأن تستخرج هذه الأموال ممن ذكر الوفد أنها عندهم، وكما ذكروا. فلما أتى مسلماً كتاب ابن هبيرة أخذ أهل العهد بتلك الأموال، فأمر حاجب بن عمرو الحارثي أن يعذبهم ففعل حتى استوفى منهم ما اقترفوا[٤] به.

[ودخلت سنة خمس ومائة][٥]

وفيها: في أيام يزيد بن عبد الملك خرج حروري اسمه عقفان في ثمانين رجلاً، فأراد يزيد أن يرسل إليه جنداً يقاتلونه فقيل له: إن قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة[٦].

(١) كذا في المخطوط وربما كان نوع من التهكم أو أن الكلمة أصلها لصعوبة وتحرفت من الناسخ لأنها من المترادفات.
(٢) في المخطوط: بهذه. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: الآيات. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: ما قرفوا. والصواب ما أثبته وهو تحريف في الكلمة.
(٥) سقطت أول هذه السنة من الناسخ للنسخة الإيرانية (ب) وفقدت أوراقها من النسخة البغدادية (أ) فرأيت إتماماً للفائدة إضافة أولها بنص ما ذكره ابن الأثير في الكامل في التاريخ حيث وجدت أنه ينقل كثيراً من تجارب الأمم لمسكويه في أغلب مواضع كتاب حتى أنه لينقل سطور طويلة بنص ما عند ابن مسكويه فلم أر غضاضة في أن أستكمل السنوات الساقطة من الكامل وهذه السنة من السنوات الساقطة من المخطوط.
(٦) هذا بعد نظر من الخصم إذا أراد أن يقاتل خصمه فلينظر في العواقب ولا يتقدم إلى الاصطدام به ثم ليكن ما يكون فتكون النتيجة وخيمة على الطرف المعتدي وربما على الطرفين دون جدوى، وقد تأتي بنتيجة عكسية تماماً قد رأيت ذلك في حياتي كثيراً، فليُعتبر.

والرأي أن تبعث إلى كل رجل من أصحابه رجلاً من قومه يكلمه ويرده، ففعل.

فقال لهم أهلوهم: إنّا نخاف أن نؤخذ بكم، وآمنوا وبقي عقفان وحده.

فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه فرده.

فلما ولى هشام بن عبد الملك ولاه أمر العصاة.

فقدم ابنه من خراسان عاصياً فشدّه وثاقاً وبعث به إلى هشام فأطلقه لأبيه وقال: لو خاننا عقفان لكتم أمر ابنه.

واستعمل عقفان على الصدقة فبقي عليها إلى أن توفي هشام[1].

ذكر خروج مسعود العبدي

وخرج مسعود بن أبي زينب العبدي بالبحرين على الأشعث بن عبد اللّه بن الجارود ففارق الأشعث البحرين وسار مسعود إلى اليمامة وعليها شعبان بن عمرو العقيلي ولاه إياها عمر بن هبيرة.

فخرج إليه شعيان فاقتتلوا بالخِضْرِمَة[2] قتالاً شديداً.

فقتل مسعود، وأقام بأمر الخوارج بعده هلال بن مدلج، فقاتلهم يومه كله، فقتل ناس من الخوارج، وقتلت زينب أخت مسعود.

فلما أمسى هلال تفرق عنه أصحابه، وبقي في نفر يسير، فدخل قصراً فتحصن به فنصبوا عليه السلالم، وصعدوا إليه فقتلوه، واستأمن أصحابه، فأمنهم، وقال الفرزدق في هذا اليوم:

لعمري لقد سلت حنيفة سلة ... سيوفاً أبت يوم الوغى أن تغيرا
تركن لمسعود وزينب أخته ... رواء وسروالاً من الموت أحمرا
أرين الحروريين يوم لقائهم ... ببرقان يوماً يجعل الموت أشقرا

وقيل: إن مسعوداً غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي.

---

(١) وهذه حكمة أخرى حيث إنه استخدمه أو استوزره وهو يعلم أنه مخالف له في أمور عقيدة مستغلاً فيه الجانب المضيء وهو أن الخوارج يحرمون الكذب تماماً حيث يرونه مخرج عن ملة الإسلام فاستفاد الأمير من هذه العقيدة وتجنب الصدام معه ويحرمون خيانة الأمانة أيضاً وأشياء أخرى يرون أنها تخرج عن الملة المهم والمقصود من كلامي هي الفطنة في أثناء الاختلاف أو الخصام أو التضاد في الآراء أو المفاهيم كيف نمرر هذا الخلاف دون صدام قدر الإمكان؟!

(٢) قال ياقوت في معجمه: الخضرمة، ومخضوراء: ماءتان لبني سلول، والخضرمة: بلد بأرض اليمامة لربيعة.
وقال الحازمي: جو اليمامة قصبة اليمامة، ويقال لبلدها خِضْرِمة بكسر الخاء والراء.

ذكر مصعب بن محمد الوالبي

كان مصعب من رؤساء الخوارج، وطلبه عمر بن هبيرة، وطلب معه مالك بن الصعب، وجابر بن سعد.

فخرجوا واجتمعوا بالخَوَرْنَق(١)، وأمروا عليهم مصعباً ومعه أخته آمنة وساروا عنه.

فلما ولي هشام بن عبد الملك استعمل على العراق خالداً القسري، سير إليهم جيشاً، وكانوا قد صاروا بحَزَّة(٢) من أعمال الموصل، فالتقوا، واقتتلوا فقتل الخوارج.

وقيل: كان قتلهم آخر أيام يزيد بن عبد الملك.

فقال فيهم بعض الشعراء:

فتية تعرف التخشع فيهم ... كلهم أحكم القرآن إماما

قد يرى لحمه التهجد حتى ... عاد جلداً مصْفَراً وعِظَاما

غادروهم بقاع حزة صرعى ... فسقى الغيث أرضهم يا إماما](٣)

وفي هذه السنة: مات يزيد بن عبد الملك، وكان بالبلقاء من أرض دمشق وله ثمان وثلاثون سنة.

وكان خلافته في قول هشام بن محمد وأبي معشر: أربع سنين وشهراً.

ويكنى أبا خالد.

وكان صاحب لهو وطرب، وكانت عنده حبابة، وهي التي تسمى الغالية، وسَلاَّمة(٤). وهو الذي طرب يوماً فقال: أطير واللّه.

فقالت له حبابة: فعلى من تدع الأمة؟

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: بلد بالمغرب.
والخورنق أيضاً: قرية على نصف فرسخ من بلخ يقال لها: خبنك، وهو فارس معرب من خُرَنكاه تفسيره موضع الشرب.

(٢) قال ياقوت في المعجم أيضاً:
هو القرض في الشيء، موضع بين نصيبين ورأس عين على الخابور، وكانت عنده وقعة بين تغلب وقيس.
وحَزَّةُ أيضاً: بليدة قرب إربل من أرض الموصل، ينسب إليها النصافي الحِزِّيَّة، وهي ثياب قطن رديئة، وهي كانت قصبة كور إربل قبل، وكان أول من بناها أردشير بن بابك.

(٣) إلى هنا ينتهي النقل عن الكامل في التاريخ لابن الأثير، واستأنف النقل عن المخطوط (ب) لفقد أوراق المخطوط (أ) في السنين القادمة حتى أثناء سنة سبع وعشرين.

(٤) أما عن حبابة، وسلامة فهما من أشهر مغنيات العرب في العصر القديم، ويقول محمد رضا =

....

= كحالة في كتابه أعلام النساء عن حبابة جارية يزيد بن عبد الملك:
مغنية من ألحن من رؤي في الإسلام من قيان ومن أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية، وهي مولدة من مولدات المدينة كانت لرجل من أهلها يعرف بابن رمانة، وقيل ابن مينا، وهو الذي خرجها وأدبها، فأخذت الغناء عن ابن سريج، وابن محرز، ومالك، ومعبد، وجميلة، وعزة، والميلاء.
ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك بأربعة آلاف دينار.
وقال عن سَلاَّمة:
مغنية مولدة من مولدات المدينة نشأت بها وأخذت الغناء عن معبد، وابن عائشة، وجميلة، ومالك بن أبي السمح وذوية فمهرت بالغناء وحذقت الضرب على الأوتار، وقالت الشعر الكثير.
قال المدائني: كانت سلامة مغنية حاذقة جميلة طريفة تقول الشعر، وما رأيت خصالاً أربعاً اجتمعت في امرأة مثلها حسن وجهها وحسن غنائها وحسن شعرها.
وذكر لها ترجمة طويلة إلى أن قال: ثم اشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بعشرين ألف دينار.
ثم استرسل في ترجمتها.

خلافة هشام بن عبد الملك

واستخلف هشام بن عبد الملك

أتت هشاماً الخلافة وهو [بالزيتونة][1] في دويرة صغيرة كانت له.

فجاءته الخلافة على البريد، وسَلَّم إليه العصا والخاتم، وسُلِّم عليه بالخلافة.

فركب هشام من الرصافة حتى أتى دمشق.

وفي هذه السنة: قدم بكير بن ماهان[2] من السغد[3] [٢٢/ب] وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن ترجماناً له.

فلما عُزل الجنيد قدم الكوفة ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب.

فلقي أبا عكرمة الصادق، وميسرة، ومحمد بن خنيس وسالماً الأعين.

وأما يحيى مولى بني سلمة، فذكروا له أمر دعوة هاشم، فقيل له ذلك فرضيه، وأنفق عليهم ما معه، ودخل إلى محمد بن علي.

ومات ميسرة، فوجه محمد بن علي بكير بن ماهان إلى العراق فرحل مكان ميسرة فأقامه مقامه.

وفي هذه السنة: عَزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق.

وولي ذلك كله خالد بن عبد اللّه القسري.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من المخطوط (ب).

(٢) في المخطوط (أ) بكير بن هامان، و(ب) موافق للكامل.

(٣) هنا حدث سقط بعد تلك الصفحة حيث جاء بعدها في [ص١٧/ب] من المخطوط؟ ما هو متمم لأحداث سنة سبع وعشرين ومائة أما استكمال الخبر هنا فمن المخطوط (ب) ومن [ص٢٢/ب] في الثلث الثاني منها واستمر بترقيم المخطوط (ب) والذي هو من وضعي إلى أن أصل إلى أحداث سنة سبع وعشرين ومائة فأعود إلى تسلسل المخطوط (أ) وهو من صنعي أيضاً حيث وجدت كلا المخطوطين بلا أرقام فليُنتبه إلى ذلك وقد ميزت هذه النسخة (ب) بأن جعلت أرقام صفحاتها بين قوسين، وجعلت النسخة الأولى (أ) بين معقوفين لسهولة التمييز واللّه الموفق والهادي للصواب.

ودخلت سنة ست ومائة

وفيها: ولد عبد الصمد بن علي.

وفيها: كانت الوقعة بين المضرية واليمانية والربيعية بالبروقان من أرض بلخ.

وكان السبب في ذلك

أن مسلم بن سعيد غزا فقطع النهر، وتباطأ عنه الناس.

وكان ممن تباطأ عنه البختري بن درهم، فلما أتى [٢٣/أ] النهر رد نصر بن سيار، وسليمان بن موسى بن عبد اللّه بن حازم، وبلعاء بن مجاهد بن عبد اللّه العنبري وجماعة أمثالهم إلى بلخ، وعليهم جميعاً نصر بن سيار.

وأمرهم أن يخرجوا الناس إليه، فأحرق نصر باب البختري، وزياد بن طريف الباهلي فمنعهم عمرو بن مسلم بن عمرو [أخو قتيبة][(١)] ومن دخول بلخ، وكان والياً عليها.

فنزل نصر البروقان، فأتاه أهل الصغانيان وأتاه مسلمة العقعاني من بني تميم، وحسان بن خالد الأسدي، كل واحد في خمسمائة، وأتاه سنان الأعرابي، وزرعة بن علقمة، وسلمة بن أوس، والحجاج بن هارون النميري في أهل بيته.

وتجمعت بكر[(٢)]، والأزد بالبروقان رأسهم[(٣)] البختري، وعسكر أيضاً بالبروقان[(٤)] على نصف فرسخ منهم.

فأرسل نصر إلى أهل بلخ:

قد أخذتم أعطياتكم، فالحقوا بأميركم فقد قطع النهر.

فخرجت مضر إلى نصر، وخرجت ربيعة، والأزد إلى عمرو بن مسلم بن عمرو.

ثم تكلم الناس المكرهين، فقال قوم من ربيعة: إن مسلم بن سعيد يريد أن يخلع، فهو يُكرهنا على الخروج.

واجتمع قوم من تغلب إلى عمرو بن مسلم حين غزاه التغلبي إلى بني تغلب [فقال][(٥)]:

---

(١) ما بين المعقوفين من الكامل.
والعبارات هنا بنصها في الكامل لابن الأثير.

(٢) في الكامل ربيعة. وهو الأصوب.

(٣) في الهامش: وأتاهم، وهو الأصوب.

(٤) قال ياقوت:
بَرُوقان: بالقاف، والنون، قرية من نواحي بلخ.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

أما القرابة، فما أعرفها، وأما المنع: فسأمنعكم.

فسفر[١] الضحاك بن مزاحم، ويزيد بن المفضل الحداني، وكلّما نصرا في الانصراف، وناشداه اللّه تعالى، فانصرف.

فحمل أصحاب عمرو بن مسلم والبختري [على نصر][٢] ونادوا بالتكبير، فكر عليهم نصر، فكان أول قتيل رجل من باهلة من أصحاب عمرو بن مسلم، وقتل بعده ثمانية عشر رجلاً سوى من قتل في السكك، وانهزم عمرو بن مسلم إلى القصر، وأرسل إلى نصر: ابعث إلي بلعاء بن مجاهد، فأتاه بلعاء، فقال: خذ لي منه أماناً، فآمنه نصر، وقال: لولا أن أُشمت بكر بن وائل لقتلتك.

وقيل بل أصابوا عمرو بن مسلم في طاحونة.

وأُخذ البختري في غيضة[٣] دخلها.

وأخذ زياد بن طريف الباهلي.

فضربهم نصر مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم وألبسهم المسوح.

ثم إن مسلم غزا في هذه السنة وكان خطب الناس في ميدان يزيد، فقال: ما أخلف بعدي شيئاً أهم عندي من قوم يتخلفون بعدي مخلقي الرقاب، يتواثبون الجدران على نساء المجاهدين، اللهم افعل بهم وافعل.

وقد أمر نصراً ألا يأخذ متخلفاً إلاّ قتله، وما أرى لهم من عذاب ينزله اللّه تعالى بهم يعني عمرو بن مسلم وأصحابه.

فلما صار ببخارا أتاه الخبر بولاية خالد بن عبد اللّه القسري على العراق.

ثم أتاه كتاب [٢٢/ ب] خالد:

أتمم غزاتك.

فسار إلى فرغانة، وأتاه الخبر أن خاقان قد أقبل إليه.

---

(١) أي صار سفيراً بين الفريقين ليعرض وجهات نظر الفريقين للوصل إلى حل وسط للخلاف.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) قال ابن منظور في لسان العرب:
الغَيْضَةُ: الأجمة، وغَيَّضَ الأسد: ألف الغيضة. والغيضة: مغيض ماء يجتمع ينبت فيه الشجر، وجمعها غياض، وأغياض... وفي حديث عمر: لا تنزلوا المسلمين الغياض.
الغياض جمع غيضة، وهي الشجر الملتف، لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها، فيتمكن منهم العدو.
والغَيْضُ: ما كثر من الأغلاث أي الطرفاء، والأثل، والحاج، والعِكرش والينبوت.
وفي الحديث: كان منبر رسول اللّه ﷺ من أثل الغابة.
قال ابن الأثير: الغابة غيضة ذات شجر كثير، وهي على تسعة أميال من المدينة.

ثم أتاه أن خاقان معسكر في موضع كذا.

فأمر بالاستعداد للمسير، فلما أصبح ارتحل بالعسكر، فسار في ثلاث مراحل في يوم، ثم سار من غدٍ حتى قطع وبوادي السبوح، وأقبل إليهم خاقان، وتوافت إليه الخيل، فأنزل عبد اللّه بن أبي عبيد اللّه قوماً من العُرفاء والموالي، فأغار الترك على ذلك الموضع، وعلى الذين أنزلهم عبد اللّه، فقتلوهم، وأصابوا دواب لمسلم، وقتل المسيب بن بشر الرياحي، وقتل البراء، وكان من فرسان المهلب، وقتل أخو غوزك.

وثار الناس في وجوههم، فأخرجوهم من العسكر ودفع مسلم لواءه إلى عامر بن ماعز الحماني، ورحل هو بالناس، فسار ثمانية أيام وهم مطيفون بهم، فلما كان الليلة التاسعة أراد النزول فشاور الناس، فأشاروا عليه بالنزول، وقالوا: إذا أصبحنا وردنا الماء، والماء منا غير بعيد، وإنك إن نزلت بالمرج(١) تفرق الناس في الثمار، وانتهب عسكرك.

فقال لسورة بن الحر ما ترى يا أبا العلاء؟

فقال: أرى ما يرى الناس.

ونزلوا، ولم يرفع بناء في العسكر، وأحرق الناس ما ثقل من الآنية(٢) والأمتعة، فحرقوا قيمة ألف ألف.

وأصبح الناس فساروا، ووردوا الماء، فإذا دون النهر أهل فرغانة والشاش، فقال مسلم بن سعيد: أعزم على كل رجل إلاّ أخرط سيفه(٣)، ففعلوا، فصارت الدنيا كلها سيوفاً.

فنزلوا الماء وبحروا(٤)، فأقام يوماً، ثم قطع من غدٍ، واتبعهم ابن لخاقان.

قال: فأرسل حميد بن عبد الرحمن وهو على الساقة(٥) إلى مسلم: قف لي ساعة، فإن خلفي مائتي رجل من الترك حتى أقاتلهم، وهو منفذ(٦) جراحه.

فوقف الناس، وعطف على الترك، فأسر السغد، وقائدهم، وقائد الترك في سبعة وانصرف البقية.

ورُمي حميد بنشابة في ركبته فمات.

وعطش الناس بعد قطع النهر، وكان عبد الرحمن بن نعيم العامري حمل عشرين

---

(١) المرج هو المكان الكثير الزروع والحدائق.
وقيل: هو الفضاء، وقيل: المرج أرض ذات كلأ ترعى فيها الدواب، وقيل تمرج فيها الدواب.

(٢) في المخطوط (ب) الأبنية. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) أخرط سيفه: أي أخرجه من غمده أو جرابه فصار صلتاً مشهراً.

(٤) في الكامل: وعبروا.

(٥) أي على مؤخرة الناس ليضم من تخلف لأي سبب إلى بقية القوم.

(٦) في الكامل مثقل.

قربة على إبله، فلما جهد الناس أخرجها فشربوا جرعاً.

واستسقى[١] يوم العطش مسلم بن سعيد، فأتوه بإناء، فأخذه جابر وحارثة بن كثير أخو سليمان بن كثير من فيه.

فقال مسلم: دعوه فما نازعني شربتي إلاَّ من حَرٍّ دخلهِ[٢].

فأتوا خجندة وقد أصابتهم شدة ومجاعة، فانتشر الناس، وورد الخبر بولاية أسد بن عبد اللّه خراسان ولاّه خالد [٢٤/أ] القسري، وعزل مسلم بن سعيد.

فبينا الناس كذلك بخجندة إذ فارسان يركضان، ويسألان عن عبد الرحمن بن نعيم فأتياه بعهد من أسد بن عبد اللّه فأقرأه عبد الرحمن مُسْلِماً، فقال سمعاً وطاعة.

وكان عبد الرحمن أول من اتخذ الخيام في مفازة آمل.

وقيل: إن أعظم الناس غناء يوم العطش إسحاق بن محمد الغداني.

وكان عمر بن هبيرة قال لمسلم بن سعيد حين ولي خراسان: ليكن حاجبك من صالح مواليك، فإنه لسانك والمعبر عنك.

وحُث صاحب شرطتك على الأمانة.

قال: وعليك بعمال العُذر.

قال: وما عمال العُذر؟

قال: من أهل كل بلد أن يختار لأنفسهم، فإذا اختاروا رجلاً فوَلّه، فإن كان خيراً كان لك، وإن كان شراً كان لهم دونك وكنت معذُوراً[٣].

وكان مسلم بن سعيد وجه إلى ابن هبيرة ليستدعي منه توبة بن أبي أسيد مولى بني العنبر.

فكتب ابن هبيرة إلى عامله بالبصرة: احمل إليّ توبة بن أبي أسيد فحمله، ففزع، وكان جميلاً وسيماً جهيراً، له سمت.

---

(١) أي طلب الماء ليشرب من شدة العطش.

(٢) كذا تكون القادة شفقة بجنودهم ومراعاة لظروفهم وتقديراً لجهدهم وعرفاناً بفضلهم فالجند هم قود المعارك بهم يكون النصر أو الهزيمة ولا يذكر فضلهم إلاّ قليل ويكون الثناء والذكر والشكر كله للقادة والزعماء وصناع القرار، ناسين القائمين على تنفيذه الباذلين دماءهم في سبيل تحقيق الغرض أو الهدف المنشود، فمن كان للّه قصده نال الثواب الأوفى من ربه عزّ وجل.

(٣) وهو ما يسمى في عصرنا بالانتخاب وهي تكاد تسود جميع بلدان العالم في العصر الحديث غير أنها لا تقوم على الوقع الصحيح بل يتحكم فيها في البلدان العربية بالذات طغمة من أصحاب النفوس مما يفسد هذه الطريقة في الإصلاح الاجتماعي والسياسي القائم في البلاد، والتي أشار إلى مزاياها مسلم بن سعيد هنا وحث ونصح عماله على انتهاجها في اختيار عمالهم.

فلما دخل على ابن هبيرة، فقال: مثل هذا فليول، ووجه به إلى مسلم، فلما ورد عليه قال مسلم: هذا خاتمي، فاعمل برأيك، فلم يزل معه حتى قدم أسد بن عبد اللَّه، فأراد توبة أن يشخص مع مسلم، فقال له أسد: أقم معي، فأنا أحوج إليك من مسلم، فأقام معه.

فأحسن إلى الناس وألاَن جانبه وأجمل مع الجند، وأعطاهم أرزاقهم.

فقال له أسد يوماً: احلفهم بالطلاق إن تخلف أحد عن مغزاه ولا يدخل بديلاً سواه. فأبى ذلك توبة ولم يره صواباً[١]، واحلفهم بأيمان أُخر، فلما قدم عاصم بن عبد اللَّه أراد أن يحلف الناس بالطلاق، فأبوا وقالوا: نحلف بأيمان توبة، فهم يعرفون ذلك له.

وحج بالناس في هذه السنة هشام بن عبد الملك فمما استحسن له ما تحدث به ابن أبي الزناد عن أبيه قال:

كتب إليّ هشام بن عبد الملك قبل أن يدخل المدينة: أن أكتب لي سنن الحج، فكتبتها له.

قال أبو الزناد[٢]: فلقيته، وإني لفي موكبه أسير خلفه إذ لقيه سعيد بن عبيد اللَّه بن الوليد بن عثمان بن عفان، فنزل له وسلم عليه ثم سار إلى جنبه، فصاح هشام: أبو الزناد، فتقدمت فسرت إلى جنبه الآخر، فأسمع سعيداً يقول: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه تعالى لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين ومضر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون أبا تُراب[٣] في هذه المواطن الصالحة، فأمير المؤمنين ينبغي أن يلعنه في هذه المواطن الفاضلة.

قال: فشق على هشام وثقل عليه كلامه.

---

(١) نعم هذا الحلف لا يجوز وكذا ليس هو من أغلظ الأيمان التي يجب أن تؤخذ على الجند بل هو ليس بحلف أصلاً ومعلوم للعامة قبل الخاصة أن الحلف لا يكون إلاّ باللَّه تعالى، أن الحلف بما هو دونه سبحانه فهو شرك يستعاذ بالله منه ويستغفر الله حالفه مما حلف به.

(٢) هو: عبد اللَّه بن ذكوان الإمام الفقيه الحافظ، المفتي، أبو عبد الرحمن القرشي، ويُلقب بأبي الزناد، وأبوه مولى رملة بنت شيبة بن ربيعة زوجه الخليفة عثمان.
وقيل: إن ذكوان كان أخاً أبي لؤلؤة قاتل عمر. قاله أبو داود السجزي عن أحمد بن صالح.
مولده في نحو سنة خمس وستين في حياة ابن عباس.
وتوفي فجأة في مغتسله ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وهو ابن ست وستين سنة في سنة ثلاثين ومائة (راجع سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥).

(٣) يريد علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه فهذه كنيته.

ثم قال: [٢٤/ب] إنّا ما قدمنا لشتم أحد أو لعنه إنما قدمنا حجاجاً.

ثم قطع كلامه: وأقبل عليّ فقال: يا عبد اللّه بن ذكوان فرغت مما كتبت إليك؟

قلت: نعم.

قال أبو الزناد: وثقل على سعيد ما حضرته يتكلم به عند هشام[١] فرأيته منكسراً كلما أتاني.

وفي هذه السنة أيضاً: كلم إبراهيم بن محمد بن طلحة هشام بن عبد الملك، وهشام قد صلى في الحجر فقال: أسألك باللّه، وبحرمة هذا البيت، والبلد الذي خرجت تعظيماً له ولحقه لما رددت عليّ ظُلامتي.

قال: أي ظُلامة؟

قال: داري.

قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك؟

قال: ظلمني.

قال: فعن عمر بن عبد العزيز؟

فقال: رحمة اللّه عليه، لقد ردّها.

قال: فعن يزيد بن عبد الملك؟

قال: هو قبضها مني وظلمني بعد قبض لها، وهي اليوم في يدك.

قال هشام: واللّه لو كان فيك ضرب لضربتك[٢].

قال إبراهيم: في واللّه ضرب السيف، وبالسَّوْطِ. فانصرف هشام، والأبرش خلفه، فقال: يا أبا مجاشع، كيف سمعت هذا الإنسان؟

ما أجود لسانه!!

قال: هذه قريش وألسنتها، ولا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا[٣].

وكنا حكينا قدوم خالد بن عبد اللّه العراق أميراً، وأنه وَلّى أخاه أسد بن عبد اللّه خراسان، فقدمها ومسلم غازٍ بفرغانة.

---

(١) أي شق عليه حضوري مثل هذا الكلام وتمنى أني لم أكن موجود أثناء رفض وإعراض هشام بن عبد الملك عنه.

(٢) يريد أنه كبر سنه وضعف بدنه عن تحمل الضرب بالسياط.

(٣) والحكاية بنصها في الكامل لابن الأثير.

فذكر عن أسد أنه لما انتهى إلى النهر ليقطعه[١] منعه الأشهب بن عبد اللّه بن تميم[٢] أحد بني غالب، وكان على السفن بآمل أمويه.

فقال أسد: اقطعني.

قال: لا سبيل إلى اقطاعك لأني نهيت عن ذلك.

فقال: لاطفوه واطعموه، فأبى.

فقال له أسد: اعرفوا هذا حتى شركه[٣] في أمانتنا.

فقطع النهر، فأتى السغد، فنزل مرج السغد، وعلى خراج سمرقند هانئ بن أبي هانئ، فخرج في الناس يتلقى أسداً فلقوه بالمرج، وهو جالس على حجر.

فنظر الناس وقالوا: أسد على حجر، ما عند هذا خير[٤].

فقال له هانئ: أقدمت أميراً؟

قال: نعم، وما معي إلاّ ثلاثة عشر درهماً هن في كمي، وإنما أنا رجل منكم.

ودخل سمرقند وبعث رجلين معهما عبد الرحمن بن نعيم على الجند، وكان عبد الرحمن يومئذٍ على الساقة فدفعا إليه العهد والكتاب بالقفول والإذن لهم، فقرأ الكتاب وأتى به مسلم بن سعيد وبعهده.

فقال مسلم: سمعاً وطاعة.

فقام عمرو بن هلال السدوسي فقنعه[٥] سوطين لما كان منه إلى بكر بن وائل بالبروقان، وشتمه حسنة بن عثمان بن بشر بن المحتفر، فغضب عبد الرحمن بن نعيم، وزجرهما، وأغلظ لهما ثم أمر بهما فضربا [٢٥/أ] ورفعا، وقفل بالناس، فأشخص معه مسلم، فلما قدموا على أسد وهو بسمرقند، شخص أسد إلى مرو، وعزل

---

(١) في المخطوط (ب): ليقطع. وهو تحريف والتصحيح من الكامل.

(٢) كذا في المخطوط (ب) وفي الكامل الأشهب بن عبيد التميمي.

(٣) كذا في المخطوط وهو الأنسب، وفي الكامل: حتى نشكره.

(٤) في هذا شؤم وتطير، وقد نهى عن هذا رسول اللّه ﷺ وقال في حديث ما معناه: لا شؤم ولا طيرة، وأحب الفأل الحسن.
المعنى علاه بالسوط ضرباً، وقد علق على ذلك بهامش المخطوط بغير خط الناسخ بما لفظه: في الصحاح: عَلِيَهُ ـ والتشكيل من عمل المحقق.

(٥) رجل مُقَنَّع بالتشديد، وقنعت رأسه بالسوط: ضربتها اهـ.
قلت: كذا جاءت كلمت: «قنعت» بالهامش بالتاء المربوطة والصواب بفتحها.

هانئاً، واستعمل على سمرقند الحسن بن [أبي][1] العمرطة [الكندي][4] من ولد آكل المرار، فقدمت على الحسن امرأته، وهي الجنوب بنت أبي القعقاع بن الأعلم سيد الأزد، ويعقوب بن القعقاع قاضي خراسان، فخرج يتلقاهما.

وغزاهم الترك، فقيل له: هؤلاء التُرك قد أتوك، وكانوا سبعة آلاف.

فقال: ما أتونا ولكننا أتيناهم وغلبناهم على بلادهم واستعبدناهم، وأيم اللَّه مع هذا لأدنين بعضكم من بعض ولأقربن نواصي خيلكم بنواص خيلهم، ثم خرج فتباطأ حتى أغار الترك وانصرفوا.

فقال الناس: خرج إلى امرأته فتلقاها مسرعاً، وخرج إلى العدو متباطئاً[2].

فبلغه ذلك، فلم يحتملها، وخرج إليهم وخطبهم وقال: يقولون ويعتبون: اللهم اقطع آثارهم، وعجل أقدارهم، وأنزل بهم الضراء وارفع عنهم السراء.

فشتم الناس جهراً وشتموه سِرّاً.

وكان استخلف حين خرج إلى الترك ثابت قطنة، وكان خطيباً شاعراً، فلما خطب الناس حُصِر فقال: من يطع اللَّه ورسوله فقد ضل وارتج عليه، فلم ينطق بكلمة[3]، فلما نزل عن المنبر قال:

إن لم أكن[4] فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فقيل له: لو قلت هذا على المنبر كنت خطيباً.

فهجاه حاجب الفيل [اليشكري][5] وكان صاحبه:

أبا العلاء لقد لاقيت معضلة يوم العروبة[6] من كرب وتخنيق
لما رمتك عيون الناس صامتة أنشأت تَجْرَضَ[7] لما قمت بالريق
تلوى اللسان إذا رمت الكلام به كما هوى زَلَق من شاهق النِّيقِ[8]

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) هذا نموذج للحاكم المهمل والذي يكون مدعاة لسخط الشعب أو الرعية عليه وعلى تصرفاته.
(٣) وهذا يحدث أحياناً مع بعض الخطباء مع قوته وقدرته الفائقة على الخطابة ولا يدري لذلك سبباً مادياً واضحاً غير أنه قدري بحت لحكمة يعلمها اللَّه سبحانه وتعالى.
(٤) في المخطوط: وإلا أكن، وما أثبته من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) يوم العروبة هو يوم الجمعة، وكان ذلك اسمه قبل الإسلام.
(٧) أي تعض.
(٨) البيت الثاني مكان الثالث والثالث مكان الثاني في الكامل في التاريخ.

[أما القران فلا تهدى لمحكمه من القرآن ولا تُهدى لتوفيق][(١)]

وقال:

يقضي الأمور . . .[(٢)] غير شاهره بين المخاليق والسكان مشغول
ما يعرف الناس منه غير قطنته وما . . . .[(٣)] من الآياء مجهول

ثم دخلت سنة سبع ومائة

وفيها: وجه بكير بن ماهان أبا عكرمة، وأبا محمد الصادق، ومحمد الصادق، ومحمد بن خنيس، وعمّاراً العبادي في عدة [٢٥/ب] من شيعتهم معهم زياد خال الوليد الأزرق.

دعاة[(٤)] إلى خراسان، فجاء رجل من كندة إلى أسد بن عبد اللّه فوشى بهم إليه.

فأُتي [بأبي][(٥)] عكرمة، ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه، ونجا عمار.

فقطع أسد أيدي من ظفر به وأرجلهم واصلبهم.

وأقبل عمار إلى بكير بن ماهان، فأخبره الخبر، فكتب إلى محمد بن علي بذلك، فأجابه:

الحمد للّه الذي صدق مقالتكم ودعوتكم، أما إنه قد بقيت منكم قتلى ستقتل.

وفي هذه السنة: غزا أسد جبال تمرون ملك العرشستان مما يلي جبال الطالقان، فصالحه تمرون، وأسلم على يديه، فهم اليوم يتولون اليمن.

وفيها: غزا أسد الغور[(٦)] وهي جبال هراه، فعمد أهلها إلى أثقالهم فصيروها في كهف ليس إليه طريق.

فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بالسلاسل، فاستخرجوا ما قدروا عليه، فقال ثابت قطنة:

أرى أسد تضمن مقطعات تهيبها الملوك ذوو الحجاب

---

(١) هذا البيت من الكامل.
(٢) موضع النقط كلمة هذا رسمها: «رش». .
(٣) موضع النقط كلمة هذا رسمها: «وما معواها».
(٤) في المخطوط: وعاد، والتصويب من الكامل في التاريخ.
(٥) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل، وحذفت الباء من أول كلمة عكرمة التي جاءت بسبب إسقاط الكنية.
(٦) قال صاحب معجم البلدان:
الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة مشهورة، قلعة يقال لها: فيروز كوه يسكن ملوكهم فيها، ومنها كان آل سام.

سما بالخيل من أكناف مرو ... بوقر بين بين هلا وهاب
إلى غورين حيث حوى ارب[١] ... وصامح بالسيوف وبالحراب
هذي ضُلاّلها قتلى تراها ... مصلبة بأفواه الشعاب
وكان إذا أناخ بدار قوم ... أراها المخزيات من العذاب

ودخلت سنة ثمان ومائة

وفيها: غزا أسد بن عبد اللَّه الختل، فذكر علي بن محمد بإسناده: أن خاقان أتى أسد وقد انصرف إلى القواديان[٢] وقطع النهر، فلم يكن بينهم قتال، ومضى إلى الغوران فقاتلوهم يوماً وصبروا لهم. وبرز لهم رجل من المشركين فوقف أمام أصحابه وركز رمحه وقد أعلم بعصابة خضراء، وسلم[٣] بن أحوز واقف مع نصر بن سيار.

فقال مسلم لنصر: قد علمت سوء رأي أسد وأنا حامل على هذا العلج[٤]، فلعلي أقتله، فرضي وقال: شأنك.

فحمل عليه، فما اختلج رمحه حتى غشيه سلم فطعنه، فإذا هو بين يدي فرسه يفحص برجليه[٥]، ورجع سلم جريحاً.

فوقف فقال نصر لسلم: قف لي حتى أحمل عليهم.

فحمل عليهم حتى [٢٦/أ] خالط العدو فصرع رجلين ورجع جريحاً، ووقف فقال: أترى ما صنعنا؟ يرضيه لا رضي اللَّه عنه.

قال: لا واللَّه فيما أظن.

قال: وأتاهما رسول أسد، فقال: يقول لكما الأمير قد رأيت موقفكما منذ اليوم وقلة غنائكما عن المسلمين لعنكما اللَّه فقال: آمين، إن عدنا لمثل هذا[٦].

وتحاجزوا يومئذٍ ثم عادوا من الغد، فلم يلبث المشركون أن انهزموا، وحوى المسلمون عسكرهم، وظهروا على البلاد، فأسروا، وسبوا، وغنموا.

---

(١) بالهامش كلمة هذا نصها: أرب أهل الميثاق.
(٢) القواديان: هي مدينة وولاية على جيحون، فوق الترمذ بينها وبين الختل، وهي أصغر من الترمذ يرتفع منها الفوه، وهي مجاورة للصغانيا.
(٣) في الكامل سالم وأشار محققه إلى أنه في الطبري «سلم» أي كما هو هنا.
(٤) العلج: هو الكافر.
(٥) أي يتلوى في النزع الأخير قبل موته من شدة ألم الضربة وخروج الروح.
(٦) وهذا موقف عكس للقائد والأمير مسلم بن سعيد الذي آثر الجندي على نفسه بشربة الماء في يوم العطش فلم يكتف هذا بأن سكت عن حسن صنيعهما ولم يشكره بل سبهما وحوله إلى مذمة، فها هي النفوس البشرية للقادة تظهر في مواطن صعبة وإنما يُظهر منها هذا قوة الإيمان وضعفه وعلاقة القائد أو الإنسان بربه وخالقه ولمن يكون ولاءه وعمله؟ وأين هي وجهته وقصده ألله أم للنفس والدنيا والناس وقولهم؟

ثم دخلت سنة تسع ومائة

وفي هذه السنة: عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد اللّه القسري عن خراسان، وصرف أخاه أسداً عنها.

كان السبب في ذلك أن أسداً أخا خالد تعصب حتى أفسد الناس، وخطب في يوم جمعة، فقال في خطبته:

قبح اللّه هذه الوجوه، وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد، اللهم فَرِّق بيني وبينهم، وأخرجني إلى مهاجري ووطني.

ثم قال: من يروم ما قبلي أو ترمرم[١] وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبد اللّه أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يمان[٢].

ثم نزل عن منبره، فلما صلى ودخل عليه الناس وأخذوا مجالسهم، أخرج كتاباً من تحت فراشه، فقرأه على الناس فيه ذكر نصر بن سيار، وعبد الرحمن بن نعيم، وسورة بن الحر، والبختري بن أبي درهم من بني الحارث بن عباد، فدعاهم، وأنَّبهم.

فأرمّ القوم وتكلم سورة بن الحر، فذكر خالد وطاعته ومناصحته، وأنه ليس ينبغي له أن يقبل قول عدو مبطل، وأن يجمع بينهم وبين من فَرَّقَهُم بالباطل.

فلم يقبل قوله، وأمر بهم فجردوا.

فضرب عبد الرحمن نعيم وكان رجلاً بطيناً ارتج، فلما ضُرب التوى وجعل سرواله ينزل عن موضعه.

فقام بعض أهل بيته فأخذ رداءاً له هروياً وقام ماداً ثوبه بيده وهو ينظر إلى أسد يريد أن يأذن له فيؤزره، فأومأ إليه أن افعل، فدنا منه فأزره، وقال: اصبر أبا زهير، فإن الأمير والٍ مؤدب[٣].

---

(١) في الهامش من المخطوط تعليق على تلك الكلمة نصه.
في الصحاح: ترمرم، إذا حرك فاه للكلام.

(٢) قلت: انظر إلى مواقفه في الحرب والسلم تبين عن عدم كفاءة هذا للقيادة مما جعل حتماً على الأمير أو القائد خلعه، وأنا عن أسد أو مسلم بن سعيد هنا لإجراء مقابلة فهؤلاء أُمة قد خلت إنما أتكلم عن نوعيات القيادة والإمامة والسياسة للرعية كيف هي وما يجب حيال القائد والجنود أو الرعية.

(٣) وفي عصرنا تسود عبارة بالعامية نسمعها من كثير من أهل السجون أو ممن يقادون إلى أقسام الشرطة وهي: ضرب الحاكم ليس بعيب.
ولكن الضرب شيء لا يقره الشرع إلاّ بأسباب دافعة إليه ومحددة ومنصوص عليها في الإسلام ولم يترك الإسلام الأمر هملاً ولا ترك الحبل على الغارب بل جعل الضرب يحكم القاضي بعد ثبوت =

ثم ضرب الجميع وحلقهم بعد الضرب، ودفعهم إلى عبدويه بن أبي صالح مولى بني سليم، وكان من الحرس وعسير بن بريق، ثم وجههم إلى خالد، وكتب إليه: أنهم أرادوا الوثوب [٢٦/ب] عليه.

وكان ابن بريق كلما نبت شعر أحدهم حلقه.

وكان أبو البختري بن أبي درهم يقول: وددت أنه ضربني هذا شهراً - يعني نصر بن سيار - لما كان بينهم بالبروقان.

فأرسل بنو تميم إلى نصر، إن شئتم انتزعناكم من أيديهم فكفهم نصر بن سيار.

فلما قُدم بهم على خالد، لأم أسد وعنفه، وقال: ألا ابعث[١] برؤوسهم؟!

فقال عرفجة التميمي:

كيف وأنصار الخليفة كلهم ... عُتاة وأعداء الخليفة يطلق
بكيت ولم أملك دموعي وحُق لي ... ونصر شهاب الحرب في الغل موثق

وقال نصر:

بَعَثت في العتاب في غير ذنب ... في كتاب تلوم أم تميم
إن أكن موثقاً أسيراً لديهم ... في هموم وكربة وسهوم
رهن قسر[٢] فما وجدت بلاءً ... كأسار الكريم عند اللئيم
أبلغ المدعين قسراً وقسرٌ ... أهل عود القناة ذات الوُصُوم
هل فُطِمْتُم عن الخيانة والنكث[٣]؟ ... أم أنتم كالحاكر[٤] المستديم

وقال الفرزدق:

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ... ولولا بنوا مروان لم يوثقوا نصرا
إذاً للقيتم دون[٥] شدّ وَثَاقِهِ ... بني الحرب لا كشف اللقاء ولا غمرا[٦]

وكان قدم خراسان أبو محمد مولى همدان داعياً بعثه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وقال له: ادع الناس، وأنزل في اليمن، وألطف مضر، وزهاه عن

= الجرم وبالعدد المحدد الذي يقرره وفق ما ارتكب من جرم، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

(١) في المخطوط: ابعث، والتصويب من الكامل في التاريخ.
(٢) في الكامل: تعس.
(٣) في الكامل: الغدر.
(٤) في الكامل هذا وهي في المخطوط: كالحاكم. وما أثبته أنسب.
(٥) في الكامل: عند.
(٦) في الكامل: ولا ضجراً.
وقد سبق عن الشاعر الفحل المشهور الفرزدق فيما مضى من تحقيق.

رجل يقال له: غالب بن أرشهر، لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة.

فلما قدم زياد أبو محمد ودعا بني العباس وذكر سيرة بني مروان[١] وظلمهم، وجعل يطعم الناس؟

فوافى إليه خلق، فقدم عليه غالب بن أرشهر، فكانت بينهم منازعة، غالب يفضل آل أبي طالب، وزياد يفضل بني العباس .....[٢] أسد بن عبد اللّه، فدعا بزياد وكان معه رجل يكنى أبا موسى، فلما نظر إليه أسد قال له: أعرفك، رأيتك في حانوت بدمشق.

قال: نعم.

قال أسد لزياد: فما هذا الذي بلغني عنك؟

قال: رُفع إليك الباطل، إنما قدمت خراسان في تجارة لي وقد فرقت مالي على الناس ولو قد صار إليّ خرجت.

[٢٧/أ] قال له أسد: أخرج عن بلادي.

فأصرف عنه، وعاد إلى أمره.

وكان الحسن بن شيخ وافى على خراج مرو وبلغه خبره، فدخل على أسد، وعظم عليه أمره، فأرسل إليه، فلما نظر إليه قال: ألم أنهك عن المقام بخراسان؟

فقال له زياد: ليس عليك أيها الأمير من بأس، فأحفظه[٣]، فأمر بقتلهم، وكانوا عشرة.

فقال له أبو موسى: اقض ما أنت قاض.

فازداد غضبه، وقال: أنزلتني منزلة فرعون؟

فقال: ما أنزلتكها، ولكن اللّه تعالى أنزلك، فقتلوا وكانوا عشرة من أهل الكوفة لم ينج منهم يومئذٍ إلاّ غلامان استصغرهما.

وطلب الباقون، فأتى من الغد أحدهما وسأله أن يلحقه بأصحابه فأشرف به على السوق وهو يقول: رضيت باللّه ربّاً، وبالقرآن إماماً، وبمحمد نبياً.

فدعا أسد بسيف فأخذه وضرب عنقه بيده، ثم قدم بعدهم رجل من الكوفة يقال له كثير، فكان يأتيه الذين أتوا زياداً فيدعوهم.

وكان ذلك سنة أو سنتين، فكان كثير أُميّاً، فقدم عليه خداش[٤] وهو في قرية

---

(١) في الكامل في التاريخ: بني أمية.
(٢) موضع النقط كلمة هذا رسمها: (فاخبرنجرممر).
(٣) أحفظه: أي أثار حفيظته وأشعل نار غيظه وأهاجها وأجج غضبه.
(٤) في الكامل في التاريخ: خداش واسمه عمارة.

يقال لها: فرعم، فغلب كثيراً على أمره.

ولما تعصب أسد، وأفسد الناس بالعصبية بلغ ذلك هشاماً، فكتب إلى خالد: اعزل أخاك.

فعزله، واستأذن في الحج، ففعل، وقفل أسد إلى العراق، واستخلف الحكم بن عوانة الكلبي.

فأقام الحكم ضيعة(١) ولم يغزو، واستعمل هشام بن عبد الملك على خراسان أشرس بن عبد اللّٰه السلمي، وأمره أن يكاتب خالداً.

وكان أشرس فاضلاً خيراً، كانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم.

قال: فلما قدم خراسان فرح به أهلها، فاستعمل على شرطته عيرة أبا أمية اليشكري ثم غزله وولي السمط.

واستقضى محمد بن زيد.

وكان أول من اتخذ الرابطة بخراسان، فاستعمل على الرابطة عبد الملك بن دثار الباهلي.

وتولى أشرس صغير الأمور وكبيرها بنفسه وكان يحج بالناس في هذه السنين إبراهيم بن هشام.

فيقال إنه خطب الناس بمنى في غد يوم النحر وقال:

سلوني فأنا ابن الوهية لا تسألون أحداً أعلم مني.

فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأضحية أواجبة هي أم لا؟

فما درى أي شيء يقول، فنزل.

---

(١) أي مزرعة يتكسب منها ويرتزق.
وقال ابن منظور في اللسان:
ضيعة الرجل حرفته وصناعته ومعاشه وكسبه ـ يقال ما ضيعتك؟ أي ما حرفتك؟ وإذا انتشرت على الرجل أسبابه يقال: فشت ضيعته حتى لا يدري بأيها يبدأ، ومعنى فشت أي كثرت.
قال شَمِرٌ: كانت ضيعة العرب سياسة الإبل والغنم، قال: ويدخل في الضيعة الحرفة والتجارة، يقال للرجل: قم إلى ضيعتك.
وقال الأزهري: الضيعة والضياع عند الحافرة مال الرجل من النخل والكرم، والأرض والعرب لا تعرف الضيعة إلا الحرفة والصناعة، وسمعتهم يقولون: ضيعة فلان الجزارة، وضيعة فلان الفتل وسَفُّ الخوص، وعمل النخل، ورعي الإبل وما أشبه ذلك كالصنعة، والزراعة وغير ذلك.

ودخلت سنة عشر ومائة

وفي هذه السنة: هم أشرس بأن يدعو أهل الذمة مما وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية.

[٢٧/ب] ذكر سوء رأي أشرس وفساد تدبيره وحرصه على المال حتى نصب له الناس الحرب

وذكر أن أشرس قال في عمله بخراسان: أبغوني رجلاً له ورع وفضل، أوجه إلى ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام.

وأشاروا عليه بأبي الصيداء أصلح بن طريف[١] مولى بني ضبة، فقال: لست بالماهر بالفارسية.

فضموا إليه: الربيع بن عمران التيمي.

فقال أبو الصيداء، فإني أخرج على شريطة أن من أسلم لم تؤخذ منه الجزية، فإنما خراج خراسان على رؤوس الرجال.

قال أشرس: أجل، ذلك لك.

قال أبو الصيداء لأصحابه، فإني أخرج فإن لم يفِ العمال اعتنموني عليهم؟

قالوا: نعم.

فشخص إلى سمرقند وعليها الحسن بن عمرطة الكندي [على][٢] حربها وخراجها.

فدعا يومئذٍ أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فسارع الناس.

فكتب غوزك إلى أشرس أن الخراج قد انكسر[٣].

وكتب أشرس إلى ابن[٤] العمرطة في ذلك.

فقال ابن العمرطة[٥] لأبي الصيداء: لست من الخراج في شيء فدونك هانئاً والأخشيذ.

---

(١) في الكامل: صالح بن طريف.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط (ب) وأثبته من الكامل.

(٣) أي قل كثيراً.

(٤) في المخطوط (ب) أبي. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٥) في المخطوط (ب): ابن أبي العمرطة، ولفظ «أبي» زائد على السياق فحذفته.

فقال أبو الصيداء: تمنعهم من أخذ الجزية ممن أسلم.

فكتب هانئ إلى أشرس فقال ممن نأخذ الخراج وقد أسلم الناس وبنوا المساجد؟

فكتب أشرس إلى هانئ والعمال: إن في الخراج قوة للمسلمين، وقد بلغني أن أهل السغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، وإنما دخلوا في الإسلام تعوذاً من الجزية، فانظر من اختتن[١] وأقام الفرائض، وحسن إسلامه وقرأ من القرآن شيئاً، فأرفع عنه خراجه وإلا فاستوفه منه.

فأعاد العمال الجزية على من أسلم، فامتنعوا واعتزل من أهل السغد سبعة آلاف فنزلوا على ستة فراسخ من سمرقند.

وأخرج إليهم أبو الصيداء، والربيع بن عمران التيمي، والقاسم[٢] الشيباني، وأبو فاطمة الأزدي، وجماعة من العرب منصرفهم. ولم يخرج ابن العمرطة[٣] إلى حربهم.

فعزل أشرس ابن العمرطة[٣] عن الحرب واستعمل مكانه المجشر بن مزاحم السلمي وضم إليه عميرة بن سعد الشيباني.

فلما قدم المجشر كتب إلى أبي الصيداء، وثابت قطنة، وكان خرج معه يسألهما أن يقدما عليه في أصحابهما.

فقدم أبو الصيداء، وثابت قطنة بجيشيهما، فقال أبو الصيداء: أغدرتم ورجعتم عما قلتم؟

فقال له هانئ: ليس بغدر ما كان فيه حقن الدماء.

[٢٨/أ] وحمل أبا الصيداء إلى أشرس وحبس ثابت قطنة عنده.

فلما حمل أبو الصيداء اجتمع أصحابه، وولوا أمرهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئاً.

فقال لهم: كفوا حتى أكتب إلى أشرس فيأتينا رأيه.

فكتبوا إلى أشرس، فكتب أشرس: ضعوا عليهم الجزية[٤].

---

(١) إنما خص الختان واعتبره من العلامات الدالة على صدق من أسلم وذلك أن ختان الرجال سنة من سنن الإسلام المؤكدة ولا يلتزم بها سواهم التزاماً كاملاً ولا تكاد تجد رجلاً واحداً من المسلمين غير مختون وقد عرف ذلك غير المسلمين عنهم وأيام اعتداء الصرب على أهل البوسنة كانوا يتعرفون على المسلمين بتلك الشعيرة فمن زعم أنه غير مسلم ووجدوا أنه مختون قتلوه وكذا أهل بيته، إلى أن عافى الله أهل البوسنة من محنتهم التي هي من أبشع مجازر التاريخ في العصر الحديث.

(٢) كذا في المخطوط: القاسم، وفي الكامل الهيثم، وأشار محققه إلى أنه في الطبري القاسم، أي كما هو هنا.

(٣) في المخطوط: ابن أبي العمرطة، والتصوب من الكامل.

(٤) هذا نكوص عما دعا إليه الإسلام وعدول عنه إلى التسلط والجباية التي لم ينزل الله بها من =

فرجع أصحاب أبي الصيداء، منكسرين، وضعف أمرهم، ولم يقدموا على محاربة السلطان، وتتبع العمال البؤساء منهم وحملوا إلى مرو وبقي ثابت قطنة محبوساً.

وألح هانئ والعمال في الخراج وجباية الأموال والجزية حتى استفتحوا بعظماء العجم وسلطوا عليهم من أقلقهم، وخرق ثيابهم وألقى مناطقهم[١] في أعناقهم، وأخذ الجزية من الضعفاء وكفرت السغد، وبخارا، واستجاشوا الترك فلم يزل ثابت قطنة في حبس المجشر حتى قدم نصر بن سيار والياً على المجشر فحمل ثابتاً إلى أشرس مع إبراهيم بن عبد اللّه الليثي فحبسه، وكان نصر بن سيار ألطفه وأحسن إليه فمدحه ثابت وهو محبوس عند أشرس فقال:

ما هاج شوقك من نؤى وأحجار ... ومن رسوم عفاها صوب أمطار
لم يبق منها ومن أعلام عرصتها ... إلاّ صبيح وإلا موقد النار
وما في ديار الحي بعدهم مثل الربية ... في إهدامه العساري
ديار ليلى قفار لا أنيس بها ... دون الحجون وأين الحجن من داري
بَدّلت منها وقد شط المزار بها ... وأدنى المخافة لا يشرى به الشاري[٢]
بين السماوة[٣] في حزم مشرقة ... ومعنق[٤] دوننا آذيه جاري
تقارع الترك ما تنفك نائحة ... منا ومنهم على ذي نجدة متساري
إن كان ظني بنصر صادقاً أبداً ... فيما أدبر من نقضي وإمراري
لا يصرف الجند حتى يستضيء بهم ... نصباً عظيماً وتوقي ملك جبارِ
حتى يروهم ودون السرح بارقة ... فيها لواء خطل الأجدك الضاري
لا يمنع الضيم إلاّ ذو محافظة ... من الحصان سباق بأوتاري
إني وإن كنت من جذم الذي نشرت ... منها الفروع وزندي الثاقب الواري
[٢٨/ ب] لذا كرمتك أمراً قد سبقت به ... من كان قبلك يا نصر بن سيار
ناضلت عني نضال الحُر إذ قصرت ... عني العشيرة واستبطأت أنصاري
وصار كل صديق كنت آمله ... ألباً عليّ وَرَثَّ الحبل من جاري[٥]

= سلطان إنما هو الإسلام أو الجزية وقد أسلموا فليس عليهم جزية فإن فرضها عليهم أحد وجب عليهم قتاله لخروجه على شرائع الإسلام وللدفاع عن حقهم الشرعي وحقهم في حفظ أموالهم والدفاع عنها، وأنا لا أتكلم عما كان ولكن أتكلم عن مبدأ وضعه وأرساه الإسلام الذي ارتضاه اللّه تعالى ليكون قياماً للناس ليظهر العدل بينهم.

(١) أطواق كانت تفرض على أهل الذمة تكون في أعناقهم ليميزوا بها فيعرفوا بأنهم من غير أهل الإسلام.

(٢) تعليق بالهامش نصه في الصحاح: شرى فلان غضباً إذا استطار غضبه.

(٣) تعليق بالهامش بغير قلم الناسخ نصه: السماوة موضع بالبادية يستبهى.

(٤) تعليق بالهامش بغير قلم الناسخ نصه: العَنَق ضرب من السير. قلت: وهو فوق المشي ودون الجري.

(٥) في هذا البيت أنين شديد ومرارة وحزن بليغ يكاد يفطّر القلوب، وإنه لشديد التعبير بحيث إن =

وما تلبست بالأمر الذي وقعوا به عَلَيَّ ولا دنست أطماري
ولا عصيت إماماً كان طاعته حقًّا عَلَيَّ ولا قارفت من عار

ولما ارتد أهل السغد، وأهل بخارا لأجل الجزية[(١)] واستجاشوا الترك، خرج إليهم الأشرس فنزل آمل، وأقام ثلاثة أشهر، وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم فعبر النهر في عشرة آلاف.

وأقبل الترك مع أهل بخارا والسغد، فحصروا قطن بن قتيبة في خندقه، وبعل خاقان ينتجب كل يوم فارساً فيعبر وقطعت قطعة من الترك النهر.

فقال قوم: أقحموا دوابهم عُرْباً فعبروا وأغاروا على مسرح الناس فأخرج أشرس ثابت قطنة بكفالة عبد اللّٰه بن بسطام في خيل، فاتبعوا الترك، فقاتلوهم بآمل حتى استنقذوا ما بأيديهم.

ثم قطع النهر الترك راجعين، ثم عبر أشرس بالناس إلى قطن بن قتيبة، ووجه أشرس رجلاً يقال له: مسعود أحد بني حيان في سرية فلقيهم العدو فقاتلهم، فهزم مسعود، وأصيب رجال من المسلمين، وأقبل العدو، فلما صاروا بقرب لقيهم المسلمون وصبروا، فانهزم المشركون.

ومضى أشرس بالناس حتى نزل بيكند فقطع عنهم العدو الماء، فأقام أشرس والمسلمون في عسكرهم يومين وليلتهم، فأصبحوا وقد نفذ ماؤهم، فاحتفروا فلم ينبطوا[(٢)] وعطشوا، فارتحلوا إلى المدينة التي منها قطعوا الماء عنهم، وعلى مقدمة المسلمين قطن بن قتيبة فلقيهم العدو فقاتلوهم، فجهدوا من العطش فمات منهم سبعمائة، وعجز الناس عن القتال، وكاد قوم يؤسرون[(٣)] من الجهد.

فحض الحارث بن شريح الناس، فقال:

أيها الناس، القتل بالسيف أكرم في الدنيا، وأعظم أجراً عند اللّٰه من الموت عطشاً.

وتقدم الحارث بن شريح، وقطن بن قتيبة وجماعة من بني تميم، وقيس فقاتلوا حتى أزالوا الترك عن الماء، وابتدره الناس فاستقوا، ورووا.

[٢٩/أ] فمر ثابت قطنة بعبد الملك بن دثار الباهلي، فقال: يا عبد الملك، هل

= أي شرح له سوف يفقده تأثيره على نفس سامعه لأنه هو هكذا بألفاظه بلسم لجروح كثيرة في النفس وعزاء لها وسلوى.

(١) ربنا لا تجعلنا فتنة لمن أسلم وجهه إليك ولا سبباً في نكوص أحد عن دينك عن قصد أو عن غير قصد إنك ولي ذلك والقادر عليه يا أرحم الراحمين.

(٢) أي حفروا ليستنبطوا الماء من باطن الأرض أي يستخرجوه منها.

(٣) أي يستأسرون بمعنى يسلموا أنفسهم للعدو من شدة الجهد والعطش.

لك في الجهاد؟ فقال: انظرني ريثما اغتسل واتحنط، فوقف له حتى خرج ومضى.

فقال ثابت لأصحابه: أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم، وحصنهم فحملوا له على العدو، واشتد القتال، فقتل ثابت، وعبد الملك في عدة من المسلمين.

فضم قطن بن قتيبة، وإسحاق بن محمد بن حسان خيلاً من بني تميم، وقيس تبايعوا على الموت، فأقدموا على العدو، فقاتلوهم حتى كشفوهم، وركبهم المسلمون يقتلونهم حتى حجزهم الليل، وتفرق العدو، فأتى أشرس بخارا فحاصر أهلها.

وتحدث قوم شهدوا قتال الترك لما التقوا على الماء وقاتلوا عليه، قالوا: سمعنا ثابتاً يقول: اللهم إني كنت ضيف ابن بسطام البارحة فاجعلني ضيفك الليلة، واللّه لا ينظر إليّ بني أمية مشدوداً في الحديد.

فحمل وحمل أصحابه، فكذب أصحابه وثبت هو، فَرُمِيَ برذونه فشب[١]، وضربه فأقدم وضرب فارتث، فقال وهو صريع:

اللهم إني أصبحت ضيفاً لابن بسطام، وقد أمسيت ضيفاً لك، فاجعل قرائي من ثوابك الجنة.

ولحق غوزك في تلك الوقعة بالترك، فيقال: إنه وقع وسط خيل فلم يجد بُدّاً من اللحاق بهم.

ويقال: إن أشرس، كان أرسل إلى غوزك يطلب منه طاساً[٢] كان عنده، فقال لرسول أشرس: إنه لم يبق معي شيء أتدهقن به غير هذا الطَّاس فأصفح عنه.

فأرسل إليه أشرس في قرعة وابعث إليَّ بالطّاس، فكان فراقه ذلك.

فيقال إن أشرس نزل قريباً من مدينة بخارا، ثم تحول منه إلى كمرجة[٣]، وكانت كمرجة من أشراف أيام خراسان وأعظمها.

فمر بهم سيابة وهو مولى قيس وقال: إني قصدتكم للنصيحة إنّ خاقان مارٌ بكم فأرى لكم أن تظهروا عدتكم ليرى جداً واحتشاداً فينقطع طمعه منكم.

فقال لهم رجل: استوثقوا منه، فإنه حالكم ليفت في أعضادكم.

قالوا: لا نفعل، هذا مولانا وقد عرفناه بالنصيحة.

---

(١) رفع يديه عالياً في السماء من ألم الرمية أو الطعنة التي أصابته وأدت إلى مصرعه بعد ذلك.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب:
الطَّاسَ: هو الذي يشرب به، وقال أبو حنيفة: هو القاقُوزَة.

(٣) كَمَرْجَةُ: قرية من قرى الصغد، ينسب إليها محمد بن أحمد بن محمد الإسكاف المؤذن الصغدي الكمرجي. (راجع معجم البلدان).

فلم يقبلوا منه وفعلوا ما أمرهم به المولى، وصبحهم خاقان، فلما حاذى بهم ارتفع في طريق بخارا كأنه يريدها، فانحدر جنوده من وراء تل بينه وبينهم فنزلوا وتأهبوا، وهم لا يشعرون بهم، فما فاجأهم [إلاّ](١) أن طلعوا على التل فإذا جبل حديد فيهم أهل [٢٩/ب] فرغانة الطارَبَند وأفشينة(٢)، ونَسَف(٣)، وطوائف من أهل بخارا فسقط في أيدي الناس.

فقال لهم كليب بن فئان الذهلي: هم يريدون مزاحفتكم، فسرجوا دوابكم المخففة في طريق النهر كأنكم تريدون أن تسقوها فإذا حرزتموها، فخذوا طريق الباب، وتسربوا الأول، فالأول.

فلما رآهم الترك يتسربون، شدّوا عليهم في مضيق، وكانوا أعلم بالطريق من الترك فسبقوهم إلى الباب، فلحقوهم عنده، وقتلوا رجلاً من العرب كان على حاميتهم يقال له المهلب، وقاتلوهم فغالبوهم على الباب الخارج من الخندق، ودخلوه، فاقتتلوا وجاء رجل بحزمة قصب قد أشعلها، فرمى بها في وجوههم فنحوا، واجلوا عن قتلى وجراحات، وأمسى القوم فأُحرق الترك، وأَحرق العرب القنطرة.

وجاءهم ابن خسرو بن يزدجرد في ثلاثين رجلاً فقال: يا معشر العرب، لِمَ تقتلون أنفسكم وأنا الذي جئت بخاقان ليرد عَلَيَّ مملكة آبائي، وأنا آخذ لكم الأمان؟

فشتموه، فانصرف وجاءهم بازغري في مائتين ـ وكان ذا هيبة من وراء النهر، وكان خاقان لا يخالفه ـ ومعه رجلان من قرابة خاقان، فآمنوه، فدنا من المدينة، فأشرفوا عليه ومعه أسرى من العرب، فقال بازغري: يا معشر العرب، أحدروا(٤) إليّ رجلاً منكم أكلمه برسالة خاقان. فحدروا حبيباً مولى مهرة ـ من أهل دريس ـ فكلموه،

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) هي قرية من قرى بخارى.
(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن وهي تخشب نفسها.
قال الاصطخري: وأما نسف فإنها مدينة ولها قهندز وربض ولها أبواب أربعة وهي على مدرج بخارى وبلخ وهي في مستواة الجبال، منها على مرحلتين فيما يلي كش، وأما ما بينها وبين جيحون فمفازة لا جبل فيها، ولها نهر واحد يجري في وسط المدينة، وهي مجمع مياه كش فيصير منها هذا النهر فيشرع في القرى، ودار الإمارة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة. ولنسف قرى كثيرة ونواح، ولها منبران سوى المدينة، والغالب على قراها المباخس.
وليس بتعسف ورساتيقها نهر جار غير هذا النهر، ويتقطع في بعض السنة. ولها آبار تسقي بساتينهم ومباقلهم. والغالب على نسف الخصب.
وقد خرج منها خلق كثير من العلماء.
(٤) أحدروا: أي أنزلوا.

فلم يفهم.

فقال: أحدروا إليّ رجلاً يعقل عني.

فحدروا يزيد بن سعيد الباهلي - وكان يشدو شيئاً من التركية[١] - فقال له: هذه خبطل الرابطة ووجوه العرب معه أسرى، وقال لهم: إن خاقان أرسلني إليكم وهو يقول لكم: إني أجعل من كان عطاءه منكم ثلثمائة ستمائة، ومن كان عطاءه ستمائة أجعله ألفاً، وهو يجمع بعد هذا على الإحسان إليكم.

فقال له يزيد: هذا أمر لا يلتئم كيف يكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شياه؟

لا يكون بيننا وبينهم صلح.

فغضب بازغري، فقال التركيان اللذان معه: ألا تضرب عنقه؟

فقال: لأنزل إلينا بأمان.

وفهم[٢] يزيد ما قالا له، فخاف، فقال: يا بازغري، إلاّ أن تجعلوا نصفين، فيكون نصفنا في أثقالنا ويسر النصف معه، فإن ظفر خاقان فنحن معه، وإن كان غير ذلك كنا كسائر مدائن سغد[٣].

فرض بازغري [٣٠/أ] والتركيان[٤] بما قال.

فقال له: نعرض على القوم ما تراضينا به.

وأقبل، فأخذ بطرف الحبل فجذبوه[٥] حتى صار على سور المدينة فنادى: يا أهل كمرجة اجتمعوا فقد جاءكم قوم يدعوانكم إلى الكفر بعد الإيمان؟

قالوا: لا نجيب ولا نرضى.

قال: يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين؟

قالوا: نموت جميعاً قبل ذلك.

فأعلموهم ذلك.

قال: فأشرفوا عليهم.

فقال: يا بازغري أتبيع الأسرى الذين في أيديكم فنفادي بهم؟ فأما ما دعوتنا إليه

---

(١) أي يفهم منها شيئاً يسيراً.

(٢) في المخطوط: فيهم. وهو تحريف.

(٣) هذا حسن تصرف من الرجل حيث أغرى خصمه بما يستحسن في نظره ليفلت هو ولينذر قومه إذا رَجع إليهم وقد كان له ما رجى أو تمنى.

(٤) تكررت هذه الكلمة بآخر الورقة (٢٩)، وأول الورقة (٣٠)، فحذفت التكرار.

(٥) وكانوا أنزلوه من حصنهم بحبل فلما أراد الرجوع إليهم أمسك بطرفه فجذبوه إليهم.

فإنا لا نجيبكم إليه.

فقال لهم: أفلا تشرون أنفسكم منا؟

فما أنتم عندنا إلاّ بمنزلة من في أيدينا منكم، وكان في أيديهم: الحجاج بن حميد النضري.

فقال يا حجاج، ألا تتكلم؟

قال: عَلَيَّ رُقباء.

ثم أمر خاقان فقطع الشجر(١).

ذكر حيلة تمت مع اتفاق حسن

فكان خاقان يقطع الخشب الرطب ويلقيه في الخندق، وجعل أهل كمرجة يلقون معه الحطب اليابس حتى سوى الخندق ليقطعوا إليهم، فأشعلوا النيران، فهاجت ريح شديدة ـ صُنعاً من اللّه تعالى ـ فأشعلت النار في الحطب، فأحرق ما عملوا في ستة(٢) أيام في ساعة من نهار، ورميناهم فأوجعناهم وشغناهم بالجراحات.

فأصاب بازغري نشابه في سرَّته فاحتقن بوله فمات من ليلته فقطع أتراكه أذانهم فأصبحوا بِشَرٍ منكبين رؤوسهم ببكونه، ودخل عليهم أمر عظيم.

فلما امتد النهار جاؤوا بالأسرى وهم مائة فيهم أبو العوجاء العتكي وأصحابه فقتلوهم، ورموا إليهم برأس الحجاج بن حميد النضري وكان مع المسلمين مائتان من أولاد المشركين فكانوا رهائن في أيديهم فقتلوهم واستماتوا، واشتد القتال، وأقاموا على باب الخندق، وصار منهم على السور خمسة(٣) أعلام.

فقال كليب من لي بهؤلاء؟

فقال ظهير بن مقاتل الطفاوي: أنا لك بهم فذهب يسعى، وقال لفتيان امشوا خلفي، وهو جريح، فقتل يومئذٍ من أصحاب الأعلام اثنان ونجا ثلاثة. فقال لهم خاقان: عليكم بهذه الغنم وقسمه في أصحابه، ثم قال لهم: كلوا لحومها، واسلخوا جلودها، واملؤوها تراباً، ثم اكبسوا خندقهم بها، ففعلوا.

وبعث اللّه تعالى سحابة فمطرت وسال الخندق، فاحتمل المطر ما ألقوا فيه [٨/

---

(١) في الكامل في التاريخ: بقطع الخندق. وأشار محققه إلى أنه في الطبري: بقطع الشجر. أي كما هو هنا.
(٢) في الكامل في التاريخ: في سبعة أيام.
(٣) جاءت الكلمة في المخطوط على هذا الرسم (/) وإنما استنبطها مما بعده من الخبر.

ب] فألقاه[١] في النهر الأعظم.

فيقال: إن خاقان لما رأى أنه لا يصل إليهم شتم أصحابه، وعيَّر أهل السغد، وفرغانة، والشاش، والدهاقين، وقال لهم:

زعمتم أن في هذه خمسين حماراً، وإنَّا نفتتحها في خمسة أيام، وقد صارت الخمسة الأيام شهرين، وشتمهم، وأمرهم بالارتحال.

فقالوا: ما ندع جهداً، ولكن أحضرنا غداً فانظر، [ما نصنع][٢]؟

فلما كان الغد جاء خاقان فوقف إليه ملك الطاربندة، فاستأذنه في القتال، والدخول عليهم.

قال: لا أرى أن تقاتل في هذا الموضع، وكان خاقان يعظمه.

فقال له: اجعل لي جاريتين من جواري العرب وأنا أدخل عليهم.

فأذن له فقاتل حتى قَتل ثمانية، وجاء حتى وقف على ثلمة، وكان إلى جنب الثلمة بيت فيه خرق يفضي إلى الثلمة، وفي البيت رجل مريض من بني تميم، فرماه بكلوب[٣] فتعلق بدرعه، ثم نادى النساء والصبيان، فجذبوه حتى سقط لوجهه، ورماه رجل بحجر، فأصاب أصل أذنه فصرع.

وجاء شاب أمرد[٤] من الترك فأخذ سيفه وغلبناهم على جسده، وكانوا قد اتخذوا أبنية من خشب فألصقوها بحائط الخندق، ونصبوا قبالة ما اتخذوا أبواباً وأقعدوا وراءها الرماة.

وجاء رجلان فاطلع أحدهما في الخندق، فرماه واحد منا فلم تضره الرمية لكثرة سلاحه، وكان عليه كاسحودة[٥] تثنية، فرماه رجل شيباني، وليس يرى منه غير عينيه، ورماه غالب بن المهاجر، فدخلت نشابة في عينه، وتنكس فلم يدخل خاقان شيء أشد منه.

فأرسل إلى المسلمين: أنه ليس من رأينا أن نرتحل من مدينة ننزل عليها دون افتتاحها أو نُرَحِّلهم عنا.

---

(١) هذا هو أول الصفحة (٨/ب) وهو المتمم للصفحة (٣٠/أ) حيث إن المخطوط غير مرتب الأوراق في التصويرة فربما كان به ورق مفكك، فصورت الأوراق على حسب ما هي مرصوصة فجاءت غير مرتبة ثم إن صفحاته غير مرقمة فربما صورة الورقة مقلوبة فجاءت الصفحة (أ) لا يتبعها الصفحة (ب) أو الصفحة (ب) غير متممة للصفحة (أ)، فقمت قدر جهدي بترتيب ذلك والله الموفق والهادي للصواب.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل في التاريخ.

(٣) الكلوب هو الخطاف الذي يكون في نهاية الحبل كالسنارة.

(٤) أي لم تنبت له لحية بعد.

(٥) لا أعرف معنى هذه الكلمة وربما كانت محرفة والمراد أنه كان يلبس دروع من الحديد تتثنى معه كيفما أراد، والله أعلم.

فقال لهم كليب بن قنان: وليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتى نقتل، فاصنعوا ما بدا لكم.

فرأى الترك أن مقامهم عليهم ضرر، فقالوا: نعطيهم الأمان على أن ترحلوا بأموالكم وأهاليكم إلى سمرقند والدبوسية. ورأى أهل كمرجة ما هم فيه من الحصار والشدة، فبعثوا إلى أهل سمرقند يشاورونهم، فأشاروا عليهم بالدبوسية وقالوا: هي أقرب، فرجع إلى أصحابه فأخذوا من الترك رهائن لئلا يعرضوا لهم، وأخذ الترك من العرب رهائن.

وارتحل خاقان، وأظهر أنه بما فعل ذلك من أجل غوزك أنه مع العرب، وأن ابنه المختار طلب إليه في ذلك مخافة على أبيه، فأجابه إلى ذلك.

وقال المسلمون:

[٩/أ] رجلاً[١] كبيراً يكون معنا.

فقال لهم الترك: اختاروا من شئتم.

فاختاروا كورصول، فكان معهم.

فلما ارتحل خاقان قال كورصول للعرب: ارتحلوا، نكره أن نرتحل والترك لم يمضوا، فلا نأمنهم أن يعرضوا لبعض النساء فنحمي العرب فنصير إلى مثل ما كُنّا فيه من الحرب.

قال: فكف عنهم حتى مضى خاقان والترك فلما صلوا الظهر أمرهم كورصول بالرحلة، وقال: إنما الشدة والخوف أن تسيروا فرسخين، ثم تصيروا إلى قرى متصلة، فارتحلوا.

وكان في أيدي الترك من العرب خمسة رهائن، وفي أيدي العرب من الترك خمسة رهائن فارتدف خلف كل رجل من الترك رجل من العرب معه خنجر، وليس على التركي غير قباء[٢] فساروا.

ثم قال العجم لكورصول: إن الدبوسية فيها عشرة آلاف مقاتل، فلاناً من أن يخرجوا علينا.

فقال لهم العرب: إن قاتلوكم قاتلناهم معكم، فساروا، فلما صار بينهم وبين

---

(١) أول الصفحة هنا هو للورقة (٩) وهو يوافق حسب ورق المخطوط الورقة (٣١).

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب:
والقَباءُ ممدود من الثياب: الذي يلبس مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه، والجمع أقبية، وقبى ثوبه: قطع منه قَباءً (عن اللحياني). ويقال: قَبِّ هذا الثوب تَقبِيَةً: أي قطع منه قباء.
وتَقَبَّى قَبَاءَهُ: لبسه. وتَقَبَّى: لبس قبَاءَهُ.

الدبوسية قدر فرسخ وأقل، نظر أهلها إلى فرسان ورجالة وجمع فظنوا أن كمرجة قد فتحت، وأن خاقان قصدهم، فتهيؤوا للحرب.

توجه كليب بن قنان رجلاً من بني ناجية يقال له الضحاك على برذون يركض، وعلى الدبوسية عقيل بن ودان السغدي، فأتاهم الضحاك، وهم صفوف فرسان ورجالة، فأخبرهم الخبر.

فأقبل أهل الدبوسية يركضون فحملوا كل من كان يضعف عن المشي ومن كان مجروحاً[١].

ثم إن كليباً أرسل محمد بن كرار ليعلم سباع بن النعمان، وسعيد بن عطية، وسائر الرهائن في أيدي التُرك أنهم قد بلغوا مأمنهم.

ثم خلوا عن الرهن فجعلت العرب ترسل رجلاً من الرهن الذين في أيديهم من الترك، ويرسل الترك رجلاً من الترك في أيدي العرب وجعل كل فريق منهم يخاف على صاحبه الغدر، فقال سباع: خلوا رهينة الترك، فخلوه وبقي سباع في أيديهم، فلما التقى مع كورصول قال له: لِمَ فعلت هذا؟

قال: إني وثقت برأيك، وقلت ترفع نفسك عن الغدر في مثل هذا[٢].

فوصله، وسلَّحَهُ، وحمله على برذون، ورده إلى أصحابه.

وكان حصار كمرجة خمسة وثلاثين يوماً، فزعموا أنهم لم يسقط إبلهم خمسة عشر يوماً.

وفي هذه السنة:

جعل خالد بن عبد اللّه القسري بالبصرة الصلاة مع الشرط والأحداث والقضاء إلى بلال بن أبي بردة فجمع ذلك كله.

[٩/ب] ودخلت سنة إحدى عشر ومائة

وفيها: عزل هشام أشرس بن عبد اللّه عن خراسان.

---

(١) كذا يكون الغوث بين أهل الإسلام وكذا تكون المروءة عند أهل الفضل، وليس بهذا أمر مستغرب بين أهل الدين أو البلد الواحد.

(٢) وهو ما يسمى في أيامنا هذه بتبادل الأسرى، فيكون عدد من الأسرى مقابل عدد مثله أو أقل منه أو أكثر أو مقابل مصلحة لطرف لدى الآخر فيتم على أساسها تبادل المصالح مقابل اطلاق سراح الأسرى أو تسليمهم إلى دولهم، وكذلك الحال أو نحوه يكون مع الرهائن.

وكان السبب في ذلك

أن شداد بن خالد بن عبد اللّه الباهلي[١] شخص إلى هشام فشكاه، فعزله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على خراسان سنة إحدى عشرة ومائة.

وكان السبب في استعماله إياه أنه كان أهدى لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم امرأة هشام قلادة فيها جوهر، فأعجبت هشاماً فأهدى لهشام قلادة أخرى، فاستعمله على خراسان وحمله على ثمانية من البريد.

فسأله أكثر من تلك الدواب، فلم يفعل.

فقدم خراسان في خمسمائة، وأشرس بن عبد اللّه يقاتل أهل بخارا والسغد.

فسأل عن رجل يسير معه إلى ما وراء النهر فدَل على الخطاب بن محرز السلمي[٢] خليفة أشرس.

فسار معه فلما قدم آمل أمويه أشار عليه الخطاب أن يقيم ويكتب إلى من يزم ومن قوله فيقدموا عليه، فأبى وقطع النهر وأرسل إلى أشرس: أن أمدني بخيل وخاف أن يقتطع قبل أن يصل إليه.

فوجه أشرس عامر بن مالك الحماني، فلما كان ببعض الطريق عرض له الترك والسغد ليقتطعوه قبل أن يصل إلى الجنيد.

فدخل عامر حائطاً حصيناً وقاتلهم على ثلمة الحائط ومعه ورد بن زياد بن أدهم بن كلثوم[٣]، فرماه رجل من العدو بنشابة فأصاب عرض منخريه، فأنفذ المنخرين.

فقال له عامر بن مالك يا أبا الزاهرية كأنك دجاجة مقف.

---

(١) في الكامل: شداد بن خليد الباهلي، وأشار محققه إلى أنه في الطبري ابن خالد أي كما هنا. وفي المنتظم لابن الجوزي: أشرس بن عبد اللّه وأحسبه اختصار للاسم، وكما سيرد بعد قليل في كلام المؤلف هنا وهي عادة يتبعها كثير من أهل التاريخ والحديث والعرب ترى أن الجد والد فلا يتضيرون بمثل ذلك إلا عند تحقيق النسب فإنهم يذكروا الاسم ويرتفعون في نسبة إلى أقصى جد ممكن، ينسبونه إلى قبيلة أو بطن أو فخذ من فصائل العرب المشهورة، ثم يذكرون لقبه، وكنيته ليتميز عن غيره ممن يمكن أن يتشابه معه في شيء من ذلك ويبينون اتجاهه الثقافي كان يقولون الأديب أو الشاعر أو المؤرخ أو الإخباري أو الفقيه، أو المحدث، أو المفسر إلى آخر ذلك من الصفات الدالة على تحديد الشخصية واتجاهها الثقافي أو الفكري.

(٢) كذا هنا وهو موافق لما في الطبري على ما ذكر محقق الكامل في التاريخ وفي الكامل حطاب بالحاء المهملة.

(٣) في الكامل: ابن أخي الأسود بن كلثوم.

وكان خاقان على تل خليفة أجمة عظيمة فخرج من عسكر أشرس عاصم بن عمير السمرقندي وواصل بن عمرو القيسي في شاكرية، فاستدارا حتى صارا من وراء الأجمة والماء، فضموا[١] خشباً وقصباً، وما قدروا عليه حتى اتخذوا طريقاً فعبروا عليه.

فلم يشعر خاقان إلاّ بالتكبير من ورائه، وحمل واصل والشاكرية على العدو، فقاتلوهم فقتل تحت واصل برذونان، وهزم خاقان وأصحابه.

وخرج عامر بن مالك من الحائط، فمضى إلى الجنيد، وهو في سبعة آلاف.

فتلقى الجنيد، فأقبل معه، وعلى مقدمة الجنيد عمارة بن خزيم[٢].

فلما انتهى إلى فرسخين من بِيكَنْد[٣] [١٠/أ] تلقته خيول الترك فقاتلهم فكاد الجنيد ومن معه يهلك.

ثم أظهره اللّه تعالى فسار حتى قدم العسكر وقد ظفر بأولئك الأتراك.

فزحف إليه خاقان، فالتقوا دون رزمان من بلاد سمرقند، وقطن بن قتيبة على ساقة الجنيد، وواصل في أهل بخارا وكان ينزلها قاسم ملك الشاش.

وأسَرَ الجنيد: ابن أخي خاقان في هذه الغزاة فبعث به إلى هشام.

وأوفد لما أصاب في وجهه ذلك عمار بن معاوية العدوي، ومحمد بن الجراح العبدي، وعبد ربه بن أبي صالح السلمي إلى هشام.

ثم أتى الجنيد مرو غانماً ظافراً، فقال خاقان: هذا غلام مترف هرب مني العام وأنا مملكه في قابل.

واستعمل الجنيد عماله، فلم يستعمل إلاّ مضرياً وكان بينه وبين الباهليين متباعد لما كان متباعد لما كان بينهم بالبروقان.

---

(١) في الكامل: فجمعوا.

(٢) في الكامل: عمارة بن حريم بالحاء المهملة، والراء بدل الزاي.

(٣) في المخطوط: تيكند. والتصويب من معجم البلدان ويقول مؤلفه عنها:
بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى لها ذكر في الفتوح، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمان.
قال صاحب كتاب الأقاليم: كل بلدة بما وراء النهر لها مزارع وقرى إلا بيكند فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما أعلم ببلد من البلدان مما وراء النهر أكثر منها، بلغني أن عددها نحو ألف رباط، ولها سور حصين ومسجد جامع قد تُنُوِّقَ في بنائه، وزخرف محرابه، فليس بما وراء النهر محراب مثله ولا أحسن زخرفة منه، وينسب إليها جماعة من الأعيان منهم: أبو أحمد محمد بن يوسف البيكندي. . روى عنه البخاري.

ودخلت سنة اثنتي عشرة[١] ومائة

وفي هذه السنة: استشهد الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام بمرج أردبيل وافتتحت الترك أَرْدَبِيل[٢].

ولما بلغ هشاماً أن الترك قتلت الجراح بن عبد الله، وافتتحت أردبيل، دعا سعيد بن عمرو الحرشي، فقال له:

إنه بلغني أن الجراح بن عبد الله قد انحاز عن المشركين.

فقال: كلا يا أمير المؤمنين، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدو، ولكنه قتل.

قال: فما الرأي؟

قال: تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعث إليَّ كل يوم أربعين دابة عليها أربعون رجلاً، ثم تكتب إلى أمراء الأجناد، ففعل ذلك هشام.

فأصاب سعيد بن عمرو الترك ثلاث جموع وفوداً إلى خاقان بمن أسروا من المسلمين وأهل الذمة، فاستنقذ الحرش ما أصابوا، وأكثر القتل فيهم.

ثم أنفذ هشام أخاه مسلمة بن عبد الملك أثر الترك، فسار في شتاء شديد البرد ومطر وثلوج يطلبهم حتى جاز الباب، وخلف الحارث بن عمر الطائي بالباب.

وفي هذه السنة: كانت وقفة الجنيد مع الترك ورئيسهم خاقان بالشعب.

وفيها: قتل سورة بن أبجر[٣]، والأشرف، وقد قيل إن هذه الوقعة كانت في سنة ثلاث عشرة.

---

(١) في المخطوط عشر، وهو سهو من الناسخ.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان، وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية. . .
رأيتها في سنة سبع عشرة وستمائة فوجدتها في فضاء من الأرض فسيح يتسرب في ظاهرها وباطنها عدّة أنهار كثيرة المياه، ومع ذلك فليس فيها شجرة واحدة من شجر جميع الفواكه لا في ظاهرها ولا في باطنها ولا في جميع الفضاء الذي هي فيه، وإذا زرع أو غرس فيها شيء من ذلك لا يفلح، هذا مع صحة هوائها وعذوبة مائها وجودة أرضها، وهو من أعجب ما رأيته، فإنه خفي السبب، وإنما تجلب إليها الفاكهة من وراء الجبل من كل ناحية مسيرة يوم وأكثر وأقل.
وبينها وبين بحر الخزر مسيرة يومين بينهما غيضة أشبة، إذا دهمهم أمر التجأوا إليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد أذاهم، فهي معلقة، ومنها يقطعون الخشب الذي يصنعون منه قصاع الخلنج والصواني.

(٣) كذا هو هنا، وأشار محقق المنتظم إلى أنه في النسخة التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب سورة بن أبجر، وأثبت في صلب الكتاب: سورة بن الحر، وكذا هو في الكامل في التاريخ سورة بن الحر.
وأثبت ما هو موافق لأصل كتاب المنتظم لموافقته لما في هذه المخطوطة والله أعلم بالصواب.

وكان سبب ذلك

أن الجنيد بن عبد الرحمن خرج غازياً في هذه السنة يريد طخارستان في ثمانية عشر ألفاً وإبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر.

[١٠/ب] وجاشت الترك، فأتوا سمرقند وعليها سورة بن أبجر أحد بني دارم وكتب سورة إلى الجنيد: أن يتحرك خاقان جاش بالترك، فخرجت إليهم، وما قدرت أن أمنع حائط سمرقند، فالغوث.

فأمر الناس الجنيد بالعبور، فقام إليه المجشر بن مزاحم السلمي وفي أخرى[١]: السلولي ـ وابن بسطام، والأزدي وابن صبح الخرقي، فقالوا: إن الترك ليسوا كغيرهم، لا يلقونكم صفاً ولا زحفاً، وقد فرقت جندك:

فمسلم بن عبد الرحمن بالدواب[٢] والبختري[٣] بهراة، ولم يحضرك أهل الطالقان، وعمارة بن خزيم غائب.

وقال له المجشر: إن صاحب خراسان لا تعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً، فاكتب إلى عمارة فليأتك، وامهل ولا تعجل.

قال: فكيف بسورة ومن معه من المسلمين؟

لو لم أكن إلاّ في بني مرة أو من طلع معي من أهل الشام لعبرت[٤]، وقال:

أليس أحق الناس أن يشهد الوغى وأن يقتل الأبطال ضخم على ضخم[٥]

وعبر وترك كشّ، وبعث الأشهب بن عبيد الحنظلي ليعلم علم القوم.

فرجع إليه فقال: قد أتوك فتأهب. فبلغ الترك مسيرة، فغوّروا طريق كَشّ وما فيه من الركايا.

فقال الجنيد: أي الطريق إلى سمرقند أمثل؟

قالوا: طريق المحترقة.

---

(١) أي في رواية أخرى.
وسيكرر هذا اللفظ فيما بعد فانتبه، وسأجعل بين علامتي الجمل الاعتراضية ـ . . . . ـ، وربما أشير إليه في المواضع المقبلة إن شاء الله تعالى للانتباه.

(٢) في الكامل في التاريخ بالبيروزكوه.

(٣) في المخطوط: البختي. والتصويب، الكامل.
وأشار محققه: إلى أنه في الطبري: بالنيروذ.

(٤) في الكامل: لعبت. وهو تحريف فيه والله أعلم.

(٥) وأضاف بعد هذا في الكامل بيتاً آخر وقال:
ما علتي ما علتي إن لم أقتلهم فجزوا لمتي

فقال المجشر بن مزاحم السلمي: القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش، ولم يزرع منذ سنين، فقد تراكم بعضه على بعض، فإن لقيت خاقان، أَحَرَقَ ذلك كله، فقتلنا بالنار والدخان[١]، ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء.

فأخذ الجنيد طريق العقبة، فارتقى الجبل، فأخذ المجشر بعنان دابته وقال: إنه كان يقال: إن رجلاً من قيس مترفاً يهلك على يد جند من جنود خراسان، وقد خفنا أن تكونه.

قال: أفرخ روعتك[٢].

فقال المجشر: أما إذا كان بيننا مثلك فلا تفرخ، فبات في أصل العقبة، ثم ارتحل حين أصبح.

فصار الجنيد مرتحل ومقيم، فتلقاه فارس فقال له: ما اسمك؟

قال: حرب.

قال: ابن من؟

قال: ابن محارب.

قال: ممن؟

قال: من بني حنظلة.

قال: سلط اللّه عليك الحرب والجرب والكلب.

ومضى بالناس حتى دخل الشِعب، وبينه وبين سمرقند أربعة فراسخ فصبحه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل السغد، والشاش، وفرغانة.

فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبد اللّه، فرجعوا إلى العسكر، والترك تتبعهم، وجاؤوهم [١١/أ] من كل وجه، وقد كان (. . .)[٣].

قال الجنيد: رد الناس إلى العسكر فقد جاءك جمع كثير، فطلع أوائل الخيل من العدو والناس يتغدون، فرآهم عبد اللّه بن زهير بن حيان.

---

(١) نظرة ثاقبة من قائد خبير يعرف كيف يفكر خصمه أو كيف يمكن أن يفكر وهكذا يجب أن يكون القادة قبل الوقوع في الأمر لا بد لهم من إيجاد البدائل السريعة له أو على الأقل تلافيها من الأصل وهو الأمثل، فإن كان ما توقعه بالفعل كان الحل جاهز لديه.

(٢) تعليق بالهامش هذا نصه:
يقال: ليفرخ روعك: أي ليخرج عنك نزعك كما يخرج الفرخ عن البيضة.
وأفرخ روعك يا فلان: أي سكن جأشك. من الصحاح.

(٣) موضع النقط كلمة في المخطوط هذا رسمها: (الاحرمد).

وقال: العدو.

فركب الناس إلى الجنيد، فصيرهم تميماً والأزد في الميمنة، وربيعة في الميسرة مما يلي الجبل.

وعلى مجففة خيل بني تميم عبد اللّه بن زهير بن حيان، وعلى المجردة عمر بن جرفاس[1] المنقري. وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحماني. وعلى الأزد عبد اللّه بن بسطام بن مسعود. وعلى خيلهم المجففة والمجردة فضيل بن هناد وعبد اللّه بن حوذان أحدهما على المجففة والآخر المجردة.

فالتقوا وربيعة مما يلي الجبل في مكان ضيق، فلم يقدم عليهم أحد، وقصد العدو الميمنة وفيها تميم والأزد في موضع واسع فيه مجال للخيل.

فترجل حيان بن عبد اللّه بن زهير بين يدي أبيه، ودفع برذونه إلى أخيه عبد الملك.

فقال له أبوه حيان انطلق إلى أخيك فإنه حدث وأخاف عليه، فأبى. فقال: يا بني إنك إن قتلت على حالك هذه قتلت عاصياً.

فرجع إلى الموضع الذي خلف فيه أخاه والبرذون، فإذا أخاه قد لحق بالعسكر، وقد شد البرذون فقطع حيان مقوده[2] وركبه فإذا العدو قد أحاطوا بالموضع الذي خلف فيه أباه وأصحابه.

فأمدهم الجند بنصر بن سيار وسبعة فيهم جميل بن غزوان.

فدخل عبد اللّه بن زهير معهم وشدوا على العدو فكشفوهم، ثم كثروا عليهم فقتلوهم جميعاً فلم يفلت أحد ممن كان في ذلك الموضع، قتل عبد اللّه بن زهير، وابن حوذان، وابن جرفاس، والفضل بن هناد.

وجالت الميمنة والجنيد واقف في القلب، فأقبل إلى الميمنة فوقف تحت راية الأزد وقد كان جفاهم.

فقال له صاحب راية الأزد: ما جئتنا لتحبونا ولا أن تكرمنا، ولكنك قد علمت أنه

---

(١) في الكامل في التاريخ: جرقاش، وقال محققه: في الطبري جرفاس بالفاء والسين المهملة، والجرفاس الحمل الشديد والأسد.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب: المِقْوَدُ والقِيَادُ: الحبل الذي تَقودُ به. قال الجوهري: المقود الحبل الذي يُشَدُّ في الزمام أو اللجام تقاد به الدابة.
والمقود خيط أو سير يجعل في عنق الكلب أو الدابة يُقَادُ به.

لا يوصل إليك ومنا رجل حيّ، فإن ظفرنا كان لك وإن هلكنا لم تبك علينا، ولئن ظفرنا وبقيت لا أكلمك كلمة أبداً، وتقدم فقتل.

وأخذ الراية ابن مجاعة، فقتل، فتداول الراية ثمانية عشر رجلاً من الأزد. قال: وصبر الناس يقاتلون حتى ثمل[١] الفريقان، فكانت المعانقة [١١/ب] فتحاجزوا، فقتل من الأزد خلق فيهم الفضيل الحارثي صاحب الخيل، وقتل يزيد بن الفضل الحداني[٢] وكان حمل يوم الشعب على مائة سويقاً للمسلمين فجعل يسأل عن الناس فلا يسأل عن أحد إلاّ قيل قتل، فاستقدم وهو يقول: لا إله إلا اللّه فقاتل حتى قتل. وقاتل يومئذٍ محمد بن عبد اللّه وهو على فرس أشقر عليه تجفاف مذهب فحمل سبع مرات يقتل في كل مرة رجلاً، ثم يرجع إلى موضعه، فهابه كل من كان في ناحيته، فناداه الترجمان: من قتل خاقان يقول لك الملك: لا تستقبل وتحول إلينا فرفض صنمنا[٣] الذي تعبده ونعبدك[١].

فقال محمد: إنما أقاتلكم لتتركوا عبادة كل شيء وتعبدوا اللّه وحده، وقاتل حتى استشهد.

وقتل جشم بن قريط الهلالي - وفي أخرى[٤]: الكلابي -.

وقتل النضر بن راشد العبدي، وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون، فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة في لبد مضرجاً بالدماء؟ فشقت جيبها، ودعت بالويل. فقال لها حسبك، لو اعولت على كل أنثى اليوم لعصيتها شوقاً إلى الجنة، وقاتل حتى استشهد[٥].

وبينا الناس كذلك إذ قيل: رهج، وطلعت فرسان، فنادى منادي الجنيد: الأرض الأرض، فترجل وترجل معه الناس.

ثم نادى منادي الجنيد: ليخندق كل قائد على حياله.

فخندق الناس وتحاجزوا، وأصبح يوم السبت، فأقبل خاقان نصف النهار، فلم ير موقفاً للقتال فيه أيسر من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصدوهم. فقالت بكر لزياد: إن القوم قد كثروا فحملنا[٦] نحمل عليهم قبل أن يحملوا علينا. فقال

---

(١) في الكامل: اعيوا، والمعنى واحد.
(٢) أشار محقق الكامل إلى أنه في الطبري: يزيد بن المفضل الحداني.
(٣) في المخطوط: فرفض صنما. كما وهو تحريف فأثبت ما أرى أنه انسب للسياق.
(٤) أي في رواية أخرى.
(٥) هذه صورة جهادية معتادة من رجال الإسلام وأبطاله الذين زخرت بسيرهم كتب التواريخ والسير والمغازي وكانوا بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء منارات يستدل بها على طريق العزة والنصر والكرامة.
(٦) تعليق على هذه الكلمة بالهامش في كلمة واحدة وهو غير مقروء.

لهم: قد كان سبت منذ سبعين سنة إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتم، ولكن دعوهم حتى يقربوا، ففعلوا. فلما دنوا منهم حملوا عليهم، فأفرجوا لهم فسجد الجنيد.

وقال خاقان يومئذٍ: إن العرب إذا أخرجوا استقتلوا، فخلوهم حتى يخرجوا ولا تعرضوا لهم.

وخرج جوار للجنيد يولولن، فانتدب رجال من أهل الشام.

فقالوا: اللّه اللّه يا أهل خراسان إلى أين؟

وقال الجنيد: ليلة كليلة الجراح ويوم كيوم الجراح.

فقيل له: لم ير منك اللّه[١].

قال: إن الجراح سير إليه بالرجال، فقتل أهل الحجى والحفاة، فلما جَنَّ عليه الليل انسل الناس تحت الظلمة إلى مدائن لهم بأذربيجان فأصبح الجراح في قتاله فقتل.

وفي هذه الغزوة قتل سورة بن أبجر[٢] [١٢/أ] التميمي.

وكان سبب ذلك

أن عبد اللّه[٣] بن حبيب قال للجنيد: اختر بين أن تهلك أنت أو سورة؟

فقال: بل هلاك سورة أهون علي.

قال: فاكتب إليه، فليأتك من أهل سمرقند فإن الترك بلغهم أن سورة قد توجه إليك انصرفوا إليه فقاتلوه.

فكتب إلى سورة يأمره بالقدوم عليه، وقيل: كتب إليه: أغثني.

فقال عبادة بن السليل لسورة: انظر أبرد بيت بسمرقند فنم فيه فإنك إن خرجت لا تبالي أسخط عليك الأمير أم رضي. وقال حنيش بن غالب الشيباني: إن الترك بينك وبين جنيد، فإن خرجت كروا عليك فاختطفوك.

فكتب إلى الجنيد: إني لا أقدر على الخروج فكتب إليه: يا ابن اللخناء[٤] لتقدمن

---

(١) ربما كان المراد من هذه العبارة أرنا ما بمثله يستدل على أنك تعمل بعمل هذا البطل واشهد على ذلك اللّه سبحانه.

(٢) في الكامل: سورة بن الحر، وقد سبق الإشارة إلى هذا.

(٣) في الكامل: عبيد اللّه بن حبيب.

(٤) اللخن هو تغير ريح الشيء كتغير ريح الفم من الصيام وريح الطعام إذا ترك في الماء وريح الماء إذا صار في بركة راكدة إلى غير ذلك.
وقيل: اللخن قبح ريح الفرج عند المرأة ويقال اللخناء التي لم تختن، والمراد هنا هو الشتم بعيب الأم بنحو هذا، وليس هذا بمحمود ولو كان صار فما كان يجب ذكره في مثل هذه المواضع وعفا اللّه عنا وعن المؤلف برحمته آمين.

أو لأوجهن إليك شداد بن خالد[١] الباهلي.

ـ وكان له عدواً فأقدم وضع فلاناً بفرحشاذ في خمسمائة ناشب، والزم الماء فلا تفارقه.

فأجمع على المسير، فقال له الوجف بن خالد العبدي: إنك لمهلك نفسك، والعرب، ومن معك بمسيرك.

قال: لا بد.

فقال له عبادة، وحليس[٢]: أما إذا أبيت فخذ على النهر.

فقال: أنا لا أصل إليه على النهر في يومين وبين وبين هذا الوجه ليلة فأصبحه، فإذا سكنت الرجل سرت فصبحته.

ذكر إفشاء سره في ذلك حتى هلك هو ومن معه

فكان خطؤه في هذا الرأي أن أظهره وكان ينبغي أن يعرض بغير الطريق الذي يسلكه. فلما قال ما قاله، جاءت عيون الأتراك إلى خاقان فأخبروه بما عزم عليه.

وأمر سورة بالرحيل، واستخلف على سمرقند موسى بن أسود، وخرج في اثنتي عشرة ألفاً، فأصبح على رأس جبل دله عليه علج فتلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ.

فقال بعض الرواة ـ وهو أبو الزيال ـ: قاتلهم في أرض حواره فصبر وصبروا حتى اشتد الحر.

فقال له غوزك: يومك يوم حار، فلا تقاتلهم حتى تحمى عليهم الشمس، وعليهم السلاح يثقلهم.

فأخذ خاقان برأيه، وأشعل النيران في الحشيش ووافقهم، وحال وبينهم وبين[٣] الماء.

فقال سورة لعبادة: ماذا ترى يا أبا السليل[٤]؟

قال: تركت الرأي فما ترى الآن؟

قال: الرأي أن تشرع الرياح وتزحف، فإنما هو فرسخ حتى تصل إلى العسكر.

---

(١) سبق الإشارة إلى أنه في الكامل شداد بن خليد، وفي الطبري كما هنا.

(٢) في الكامل: حليس بن غالب الشيباني.

(٣) في صلب أو متن المخطوط: «وبينهم» وهو سهو أو تحريف من الناسخ والتصويب من الهامش وهو بخط الناسخ رحمنا الله وإياه.

(٤) في الكامل: يا أبا سليم، وأشار محققه إلى أنه في الطبري على ما هو هنا.

قال: لا أقوى على هذا، ولا يقوى فلان وفلان، وعدَّد رجالاً، ولكني أرى أن اجتمع الخيل ومن أرى أنه يقاتل فأصكهم[١] به سلمت أو عطبت.

فجمع الناس وحملوا، فانكشف الترك، وثار الغبار [١٢/ب] فلم يبصروا، وكان وراء الترك لهب فسقطوا فيه، العدو والمسلمون، وسقط سورة، فاندقت[٢] فخذه.

فتفرق الناس، فانجلت الغبرة والناس متفرقون.

فعطف الترك فقتلوهم، فلم ينج منهم إلاّ ألف رجل[٣].

فانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة إلى رستاق يعرف بالمرغاب، فأصيب بالمرغاب[٤] المهلب لأن القوم تبعوهم وقاتلوهم، وقاتلهم أهل قصر من قصور المرغاب، فلما أصيب المهلب ولو أمرهم الوجف بن خالد.

فقال لهم غوزك وكان فيمن تبعهم مع الترك: يا وجف لكم الأمان.

فقال قريش بن عبد اللّه: لا تثقوا بهم ولكن إذا حنَّنا[٥] الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند. فإنَّا إن أصبحنا قتلونا.

فعصوه وأقاموا، فساقوهم إلى خاقان فقال: لا أجير أمان غوزك.

فقال غوزك للوجف: أنا عبد لخاقان من شاكريته.

قال: فلِمَ غررتنا؟

فقاتلهم الوجف وأصحابه، فقتلوا غير سبعة عشر رجلاً، دخلوا حائطاً فأمسوا فقطع المشركون شجره فألقوها على ثلمة الحائط، فجاء قريش بن عبد اللّه العبدي إلى

---

(١) أي أصدمهم بهم.

(٢) أي انكسرت.

(٣) في الكامل: غير ألفين ويقال: ألف رجل.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان المَرْغَابُ: قرية من قرى هراة، ثم من قرى مالين... والمرغاب: اسم نهر بمرو الشاهجان. والمرغاب نهر بالبصرة.
قال البلاذري: وحفر بشير بن عبيد اللّه بن أبي بكرة المرغاب وسماه باسم مرغاب مرو، وكانت القطيعة التي فيها المرغاب لهلال بن أحوز المازني أقطعه إياها يزيد بن عبد الملك، وهي ثمانية عشر ألف جريب، فحفر بشير المرغاب والسواقي والمعترضات بالتغلّب، وقال: هذه قطيعة لي، وخاصمه حمير بن هلال، فكتب خالد بن عبد اللّه القسري إلى مالك بن المنذر بن الجارود، وهو على أحداث البصرة. أن خل بين حميري وبين المرغاب وأرضه، وذلك أن بشيراً شخص إلى خالد وتظلم إليه فقبل قوله. وكان عمرو بن يزيد الأسيدي يُعنى بحميري ويعينه، فقال لمالك بن المنذر: ليس هذا خلٍ، إنما هو حُلْ بين حميري وبين المرغاب قلت: انظر إلى الفوارق في اللغة والتشكيل وكيف يمكن صرف الأمر إلى ضده في حالة المماطلة والتحايل واللعب بالألفاظ مع معرفة المعنى المباشر للمراد من الكتب فاللهم ألهمنا رشدنا.

(٥) في الكامل: «جننا»: أي أظلمنا.

الشجرة، فرمى بها، وخرج في ثلاثة فأتوا ناووساً[١] فكمنوا فيه، وجبن الآخرون فقتلوا حين أصبحوا، وقتل سورة. وكان الجنيد خرج من الشعب لما اشتغل الترك بسورة، وبادر بالسير. وكان خالد بن عبيد اللّه بن حبيب يقول له: سِرْ سِرْ، ومجشر بن مزاحم السلمي يقول:

أذكرك اللّه، أقم.

والجنيد يتقدم.

فلما رأى ذلك المجشر، نزل، فأخذ بلجام دابة الجنيد، فقال: واللّه لا تسير ولتنزلن طائعاً أو كارهاً، ولا ندعك تهلكنا. يقول هذا البختري انزل، فنزل، ونزل الناس.

فلم يتتام نزولهم حتى طلع الترك. فقال المجشر: لو لقونا ونحن نسير ألم يستأصلونا؟!!

فلما أصبحوا تناهضوا، فانكشفت طائفة وجال الناس.

فقال الجنيد: أيها الناس، إنها النار فتراجعوا.

وأمر الجنيد رجلاً فنادى: أي عبد قاتل فهو حُرٌّ.

فقاتل العبيد قتالاً عجيباً عجب الناس منه، وجعل أحدهم يأخذ اللبد فيحيق به ويجعله في عنقه يتوقى به فسُرَّ الناس بما رأوا من صبرهم. وحمل العدو، وصبر الناس حتى انهزم العدو.

فقال موسى بن الثغر[٢] للناس: أتفرحون بما رأيتم من العبيد، واللّه إن لكم منه ليوماً أرونان[٣].

ومضى الجنيد إلى سمرقند، فحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو.

وكان المجشر صاحب رأي في الحرب يرجع إليه.

فأما عبيد اللّه بن حبيب فكان له تعبئة في القتال وعلم به.

وكان عبد الرحمن بن صبح الخرقي إذا نزل الأمر العظيم في الحرب لم يكن

---

(١) الناووس هو قبر عند النصارى.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل، موسى بن التعراء، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: موسى بن النعر.

(٣) كذا في المخطوط، وهو موافق لما في الطبري على ما ذكر محقق الكامل، وفي الكامل: أروزيان.
والمراد: لترون منهم يوماً شديداً عليكم فلا تفرحوا بما ترون فإن الدائرة عليكم منهم.

لأحد مثل رأيه [١٣/أ] ولما انصرف الترك إلى بلادهم بعث الجنيد بنهار بن توسعة مع عمٍّ له إلى هشام بن عبد الملك يخبره أن سورة عصاني أمرته بلزوم الماء وفي أخرى[١]: الناس ـ فلم يفعل وتفرق أصحابه، وأصيب سورة في جماعة من أصحابه.

فدعا هشام نهار بن توسعة، فاستخبره الخبر.

فشهد بجميع ما شهد، وكان الجنيد أوفد خالد إلى هشام ليحسن أمره في قتل سورة، فقال هشام: إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون، يُصاب سورة بخراسان والجراح بالباب، وكان أبلى نصر بن سيار بعد الشِعب فانقطع سيفه، وانقطع سير ركابه فأخذ سيوف[٢] ركابه فضرب بها من كان يقابله حتى أثخنه.

وسقط في اللهب مع سورة جماعة يومئذٍ، فلم يشكر الجنيد لنصر ما كان من بلائه فقال نصر:

إن تحسدوني على حُسْنِ البلاء لكم ... يوماً فمثل بلائي جَرَّ لي الحسدا[٣]
يـأبـى الإلـه الّـذي أعـلـى بـقـدرتـه ... كعيى عليهم وأعطى قومكم عضدا
وضربي الترك عنكم يوم فرقكم ... بالسيف في الشعب حتى جاوروا السندا[٤]

ولما أقام الجنيد بسمرقند وانصرف خاقان إلى بخارى، وكان عليها قطن بن قتيبة، فخاف الناس على قطن من الترك، فشاورهم الجنيد، فقال قوم من الزم سمرقند، واكتب إلى أمير المؤمنين يمدك بالجنود.

ذكر آراء أشير بها عليه فأخذ بأصوبها

وقال قوم: بل نسير فنأتي ربيخن[٥] ثم نسير منها إلى كشّ، ثم إلى نسف فنتصل منها إلى أرض زم[٦] ونقطع النهر فنترك آمل فنأخذ عليه بالطريق.

فبعث إلى عبد اللَّه بن أبي عبيد اللَّه، فقال: قد اختلف الناس عليّ، وأداه بما قالوا فما الرأي؟

---

(١) أي في رواية أخرى، الناس، بدل: الماء.
(٢) كذا في المخطوط، وأحسب أن صوابها سيور وقد تحرفت الكلمة.
(٣) قيله في الكامل بيت يقول فيه:
إنـي نـشـأت وحـسـادي ذوو عـدد ... يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
(٤) البيت الذي قبله في الكامل فيه تغيير خفيف، وهذا البيت لم يرد وورد بدلاً منه ثلاثة أبيات أخرى.
(٥) في المخطوط: «ربنحر» والتصويب من معجم البلدان، وفي الكامل: «ربنجر» ويقول ياقوت: ويقال: أربيخن، بليدة من صغد سمرقند.
(٦) ويقول عن زَمّ: هي كلمة أعجمية عُربت وأصلها التخفيف به يلفظ بها العجم، بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل، ونسب إليها نفر من أهل العلم.

فاشترط عليه ألا يخالفه فيما يشير به من ارتحال أو نزول أو قتال.

قال: نعم.

قال: فإني أطلب إليك خصالاً.

قال: ما هي؟

قال: تخندق حيثما نزلت، ولا يفوتك حمل الماء ولو كنت على شاطئ نهر، وأن تطيعني في نزولك وارتحالك، فأعطاه ما أراد.

فقال: أما ما أشاروا به عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث، فالغياث يبطئ عليك، وإن سرت فأخذت بالناس غير الطريق فتت في أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان، وهو اليوم قد استفتح بخارى، فلم تفتح له، فإن أخذت بهم في غير الطريق تفرقوا [١٣/ ب] عنك مبادرين إلى منازلهم، ويبلغ بخارى فيسلمون لعدوهم.

وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدو.

والرأي أن تعمد إلى عيالات من شهد[١] الشعب، وأصحاب سورة، فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك فإني أرجو أن ينصرك الله، وتعطي كل رجل بسمرقند ألف درهم وفرساً.

فأخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن عبد اللّٰه بن الشخير في ثمانمائة رجل فرساناً ورجاله، وأعطاهم سلاحاً، وشتم الناس عبد اللّٰه بن أبي عبد اللّٰه وقالوا: عرضنا للهلاك.

وأمر الجنيد بحمل العيال، وخرج معه ناس، وعلى طلائعة الوليد بن القعقاع وسرح الجنيد الأشهب بن عبيد الحنظلي ومعه عشرة من طلائع الجند. وقال له: كلما مضيت مرحلة فسرح إليَّ رجلاً تُعلمني الخبر.

وسار الجنيد، فلما صار بقصر الريح أخذ عطاء الدبوسي بلجام الجنيد وكبحه، فقرع رأسه هارون الشاشي وقال له: ما لك يا دبوسي؟

قال: انظر أضعف شيخ في عسكرك فسلمه سلاحاً تاماً، وقلده سيفاً وجعبة وترساً، وأعطه رمحاً، ثم سربنا على قدر مشيته، فإنا لا نقدر على السوق والقتال، وسرعة السير، ونحن رجالة. ففعل ذلك الجنيد، فلم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الأماكن المخوفة[٢]، ودنا من الطواويس[٣].

---

(١) في المخطوط: شهر. وهو تحريف، وفي الكامل في التاريخ: من قتل مع سورة.
(٢) أي الأماكن التي يخاف فيها مهاجمة العدو له وهي لا تصلح معه في القتال.
(٣) في معجم البلدان: الطاووس الأرض المخضرة التي عليها كل ضرب من الورد أيام الربيع. =

فجاءتنا الطلائع بإقبال خاقان معه فعرضوا لهم بكَرْمِينِيَّة[١] أول يوم من رمضان فلما ارتحل الجنيد من كرمينية قدم محمد بن اليزيدي في الأساورة آخر الليل، فلما كان في طرف مفازة كرمينية رأى العدو ضيقاً، فرجع إلى الجنيد فأخبره ونادى منادي الجنيد: ألا يخرج المكذبون إلى عدوهم.

فخرج الناس وشبت الحرب، وجاء عبد اللّه بن أبي عبد اللّه إلى الجنيد، فضحك. فقال له الجنيد: ما هذا بيوم ضحك. قال: بلى، والحمد للّه، إذا لم يلقك هؤلاء إلاّ في حال معطشة على ظهر وأنت مخندق آخر النهار بل أتوك كالين وأنت مستريح معك الزاد، فما قاتل الترك إلاّ قليلاً ثم رجعوا. وكان عبد اللّه بن أبي عبد اللّه قال للجنيد وهم يقاتلون: ارتحل.

فقال الجنيد: وهل من حيلة.

قال: نعم تمضي برايتك قدر ثلاث علوات، فإن خاقان يَوَدُّ أنك قد أقمت فينطوي عليك إذا شاء. فأمر بالرحيل وعبد اللّه بن أبي عبد اللّه على الساقية.

ثم أرسل إليه. أن انزل.

قال: انزل على غير ماء؟

فأرسل إليه: إن لم تنزل ذَهَبت خراسان عن يدك.

فنزل، وأمر الناس أن يستقوا، فذهب الناس الرَّجالة والماشية وهما صفان، فاستقوا، وباتوا فلما أصبحوا [١٤/أ] ارتحلوا.

فقال عبد اللّه بن أبي عبد اللّه إنكم معشر العرب أربعة حوانيت[٢]، فليس يعيب بعضكم بعضاً، كل الأربعة لا يقدر أن يزول عن مكانه مقدمة، وهم القلب والمجنبتان والساقة، فإن جمع خاقان خيله ورجاله ثم هدم جانباً منكم وهم الساقة بواركم[٣] وبالحري أن يفعل، وأنا أتوقع ذلك في يومي فشدّوا الساقة بخيل بني تميم والمجففة.

وجاء الترك فمالت على الساقة، وقد دنا المسلمون من الطواويس فاقتتلوا، واشتد الأمر بينهم فحمل مسلم بن أحوز على عظيم من عظماء الترك فقتله، فنظر الترك وانصرفوا من الطواويس.

= (وطواويس): اسم ناحية من أعمال بخارى بينها وبين سمرقند، وهي مدينة كثيرة البساتين والمياه الجارية الخصبة، ولها قَهُنْدز، وجامع، وهي داخل حائط بخارى.

(١) قال صاحب معجم البلدان: هي بلدة من نواحي الصغد كثيرة الشجر والماء بين سمرقند وبخارى، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخاً.

(٢) الحانوت: هو الدكان، والمراد أنكم أربعة بيوت أو أربعة أقسام أو أربعة أصناف أو فئات.

(٣) كذا بغير نقط في المخطوط ولم أعرف كيف هي.

ومضى المسلمون فأتوا بخارى يوم المهرجان فتلقاهم أهل بخارى بالدراهم البخارية، ففرق بينهم عشرة عشرة.

وكان الجنيد يذكر خالد بن عبد الله، ويقع فيه ويقول: ربذة[١] من الربذ، صنبور[٢] من الصنبور قل من قل، هيفة[٣] من الهيف[٤].

وقدمت الجنود على الجنيد مع عمرو بن مسلم الباهلي في أهل البصرة.

ومع عبد الرحمن بن نعيم الغامدي في أهل الكوفة وهو بالصغانيان، وابتدأ الشعراء يمدحون نصر بن سيار، ويذكرون بلاءه ويذمون الجنيد فتركنا ذكرها.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

وفي هذه السنة: هلك عبد الوهاب بن بُخت وهو مع البطال[٥] بأرض الروم، وغزا معه في هذه السنة، فانهزم الناس عن البطال، فانكشفوا فجعل عبد الوهاب يُكرّ[٦] فرسه ويقول: ما رأيت فرساً أجبن منه، سفك الله دمي إن لم أسفك دمك.

ثم ألقى البيضة[٧] عن رأسه، وصاح: أنا عبد الوهاب بن بُخت، إلى أين أيها الناس؟! أمن الجنة تفرون؟!

ثم تقدم في نحور العدو فمر برجل وهو يقول: واعطشاه.

فقال: تقدم فالري[٨] أمامك.

قال: فخالط القوم، فقتل وقتل فرسه.

وفي هذه السنة: صار من دعاة ولد العباس جماعة إلى خراسان، فأخذ الجنيد رجلاً منهم فقتله، ثم قال: من أصيب منهم فدمه هدر[٩].

---

(١) الربذة المرادة هنا هي: العهن يعلق على الناقة.
(٢) الصنبور المراد هنا: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا ناصر.
(٣) الهيف المراد هنا: الضعف والنحافة، والضمور.
(٤) جاء تعليق بالهامش لهذه الكلمات وهو غير واضح لضعف المداد المكتوب به.
(٥) في الكامل عبد الله البطال.
(٦) أي يحثه ويحضه على التقدم.
(٧) أي الخوذة التي يضعها الجنود فوق رؤوسهم، وهي من الحديد لتقيهم الضربات الشديدة.
(٨) في متن المخطوط: الرأي، والتصويب من الهامش، والمراد أن الارتواء في الجنة بعد أن تقاتل العدو فتقتل فتدخل الجنة فترتوي ريّاً لا نظير له.
(٩) جاء ذكر هذا الخبر في أحداث سنة سبع عشرة في الكامل.

ودخلت سنة أربع عشرة ومائة[١]

[**وفي هذه السنة**: استعمل هشام بن عبد الملك، مروان بن محمد بن مروان ـ وهو ابن عمه ـ على الجزيرة، وأذربيجان.

وكان السبب في ذلك

أنه كان في عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر، فلما عاد مسلمة سار مروان إلى هشام، فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سبب قدومه.

فقال: ضقت ذرعاً بما أذكره، ولم أر من يحمله غيري.

قال: وما هو؟

قال مروان: قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام، وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم، فواللّه ما وطئ بلادهم إلاّ أدناها، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب. وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، فاستعد القوم وحشدوا، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية، وكان قصاراه السلامة.

وقد أردت أن تأذن لي في غزوة، أُذهب بها عنا العار، وأنتقم من العدو.

قال: قد أذنت لك.

قال: وتمدني بمائة وعشرين ألف مقاتل.

قال: قد فعلت.

قال: وتكتم هذا الأمر عن كل واحد.

قال: قد فعلت، وقد استعملتك على أرمينية.

فودعه وسار إلى أرمينية والياً عليها. وسير هشام الجنود من الشام، والعراق، والجزيرة، فاجتمع عنده من الجنود، والمتطوعة مائة وعشرون ألفاً.

فأظهر أنه يريد غزو اللان، وقصد بلادهم وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة، فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه يقرر الصلح فأمسك الرسول عنده إلى أن فرغ من جهازه وما يريد، ثم أغلظ له القول، وأذنهم بالحرب وسير الرسول إلى صاحبه بذلك.

---

(١) ذكرت هذه السنة في المخطوط (ب) وجاء تحتها أحداث سنة ست عشرة وسقطت أحداثها وأحداث سنة خمس عشرة، فرأيت من المفيد إثبات أحداث سنتي أربع عشرة، وخمس عشرة من الكامل في التاريخ لتقارب أسلوب الكتابين، ثم استأنف النقل عن المخطوط بعد ذلك إن شاء اللّه.

ووكل به من يسيره على طريق فيه بُعد، وسار هو في أقرب الطرق، فما وصل الرسول إلى صاحبه إلاّ ومروان قد وافاهم، فأعلم صاحبه الخبر، وأخبره بما قد جمع له مروان وحشد واستعد.

فاستشار ملك الخزر أصحابه، فقالوا: إن هذا اغترّك، ودخل بلادك، فإن أقمت إلى أن يجتمع لم يجتمع عندك إلى مدة فيبلغ منك ما يريد، وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك.

والرأي أن تتأخر إلى أقصى بلادك، وتدعه وما يريد.

فقبل رأيهم وسار حيث أمروه.

ودخل مروان البلاد، وأوغل فيها وأخربها، وغنم، وسبى وانتهى إلى آخرها، وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم. ودخل بلاد ملك السرير، فأوقع بأهله، وفتح قلاعاً، ودان له الملك، وصالحه على ألف رأس وخمسمائة غلام، وخمسمائة جارية سود الشعور، ومائة ألف مدبر تحمل إلى الباب.

وصالح مروان أهل تومان على مائة رأس نصفين، وعشرين ألف مدبر.

ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها. ثم أتى أرض حمزين، فأبى حمزين أن يصالحه، فحصرهم، فافتتح حصنهم ثم أتى سغدان ففتحها صلحاً، ووظف على طيرشانشاه عشرة آلاف مدبر كل سنة تحمل إلى الباب.

ثم نزل على قلعة صاحب اللكز وقد امتنع من أداء الوظيفة، فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر، فقتله راع بسهم وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللكز مروان، واستعمل عليهم عاملاً.

وسار إلى قلعة شروان وهي على البحر فأذعن أهلها بالطاعة.

وسار إلى الدودانية، فأوقع بهم، ثم عاد.

وفي هذه السنة: غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسري، فأصاب ربض أقرن، وإن عبد اللّه البطال التقي هو وقسطنطين في جمع فهزمهم البطال، وأسر قسطنطين.

وفيها: غزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى، فبلغ قيسارية.

وفي هذه السنة: عزل هشام بن عبد الملك، إبراهيم بن هشام المخزومي عن المدينة واستعمل عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم في ربيع الأول.

وكانت إمرة إبراهيم على المدينة ثماني سنين.

وعزل أيضاً إبراهيم عن مكة، والطائف، واستعمل عليها محمد بن هشام المخزومي.

قيل: بل ولي محمداً سنة ثلاث عشرة، فلما عزل إبراهيم أقر محمد عليها.

وفيها: وقع الطاعون بواسط.

وفيها: أقبل مسلمة بن عبد الملك بعدما هزم خاقان، وأحكم ما هناك وبنى الباب، وحج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث، وقيل: محمد بن هشام، وكان العمال من تقدم ذكرهم في السنة قبلها، غير أن المدينة كان عاملها خالد بن عبد الملك، وعامل مكة والطائف محمد بن هشام، وعامل أرمينية، وأذربيجان مروان بن محمد.

ودخلت سنة خمس عشرة ومائة

وفيها: غزا معاوية بن هشام أرض الروم.

وفيها: وقع الطاعون بالشام.

وفيها: وقع بخراسان قحط شديد، فكتب الجنيد إلى الكور بحمل الطعام إلى مرو، فأعطى الجنيد رجلاً درهماً فاشترى به رغيفاً.

فقال لهم: أتشكون الجوع ورغيف بدرهم؟ لقد رأيتني بالهند وإن الحفنة من الحبوب تباع عدداً بدرهم.

قال: وحج بالناس هذه السنة محمد بن هشام المخزومي.

وكان الأمير بخراسان الجنيد.

وقيل: بل قد كان مات الجنيد واستخلف عمارة بن حريم المري.

وقيل: بل كان موت الجنيد سنة ست عشرة ومائة.

وفيها: غزا عبد الملك بن قطن عامل الأندلس أرض البشكنس، وعاد سالماً][1].

ودخلت سنة ست[2] عشرة ومائة

وفيها: ولي عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي خراسان.

وتوفي الجنيد قبل أن يصل إليها.

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن الكامل في التاريخ لابن الأثير، ثم استأنف النقل عن المخطوط (ب) من تجارب الأمم.

(٢) في المخطوط سنة أربع عشرة ومائة وهو خطأ حدث بسبب سقط أحداث سنة أربعة عشر، وخمسة عشر، والأحداث المذكورة تحت عنوان سنة أربع عشر إنما هي لسنة ست عشرة على ما هو وارد في الكامل، وفي مرآة الجنان، وفي المنتظم، وأصلحت العنوان وذكرت السنوات الساقطة من الكامل في التاريخ لأنه أقرب الكتب إلى هذا الكتاب وواضح أن ابن الأثير نقل عن ابن مسكويه معظم كتابه، والله أعلم.

وكان سبب ولاية عاصم

إن الجنيد تَزَوَّج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فغضب هشام على الجنيد، وكان بين عاصم وبينه [١٤/ب] عداوة شديدة فولاه خراسان وقال: إن أدركته وبه رمق، فأزهق نفسه.

وإنما قال ذلك لأن الجنيد كان قد استسقى بطنه فمات الجنيد قبل وصول عاصم، فقال أبو الجويرية:

هلك الجود والجنيد جميعاً فعلى الجود والجنيد السلام
أصبحا ثاويين في بطن مرو ما تغنى على الغصون الحمام
كنتما بهرة الكرام فلما مت مات الندى ومات الكرام

وفي هذه السنة: خلع الحارث بن شريح، وكانت الحرب بينه وبين عاصم بن عبد اللّه. وذلك أن عاصماً لما قدم خراسان، أقبل الحارث بن شريح حتى قدم بلخ وعليهما: نصر بن سيار، والبختي بن ضبيعة المري وولاهما الجنيد.

فلما انتهى إلى قنطرة عطاء، وهي على نهر بلخ على فرسخين من المدينة، تلقاه نصر بن سيار في عشرة آلاف والحارث بن شريح في أربعة آلاف، فدعاهما الحارث إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضا.

فقال قطن بن عبد الرحمن بن حر الباهلي: يا حارث، أنت تدعو إلى كتاب اللّه والسُّنة، واللّه لو أن جبريل عن يمينك، وميكائيل عن يسارك ما أجبتك.

وقاتلهم، وأصابته (ر. .ية)[1] في عينه فكان أول قتيل.

وانهزم إلى المدينة أهل بلخ، واتبعهم الحارث حتى دخلها، وخرج نصر من باب آخر.

فأمر الحارث بالكف عنهم وخرج إلى الجوزجان[2]، واستعمل على بلخ رجلاً من ولد عبد اللّه بن خازم.

ثم استشار أصحابه في قصد مرو:

فقال له أبو فاطمة: مرو بيضة خراسان، وفرسانهم كثير، لو لم يلقوك إلاّ بعبيدهم

(١) النقط موضعه حرف أو حروف ناقصة من الكلمة نظراً لضعف مدادها، ومحوها بسبب عوامل الزمن.

(٢) قال ياقوت في معجمه: جوزجانان، وجوزجان: هما واحد... وهو اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وقارياب، وكلار، وبها قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

لانتصفوا منك، فأقم، فإن أتوك قاتلتهم، وإن أقاموا قطعت المادة عنهم بعصاة. . .[١] وسار.

فقال أهل الدين من مرو: إن مضى إلى إيرشهر ولم يأتنا فرق جماعتنا، وإن أتانا نكب.

وبلغ عاصماً أن أهل مرو يكاتبون الحارث، فأجمع على الخروج، وقال: يا أهل خراسان، قد بايعتم الحارث بن شريح، وأنه قصد بلخ والجوزجان، والفارِيَاب[٢]، والطالقان، ومرو الروز ففتحها وليس يقصد مدينة إلاّ خليتموها له، أنا لاحق بأرض قومي إيرشهر، ومكاتب أمير المؤمنين حتى يمدني بعشرين ألفاً من أهل الشام.

فقال له مجشر بن مزاحم: إن أعطوك بيعتهم بالطلاق والعتاق، فأقم، وإن أبوا فسر حتى تنزل أيرشهر، وتكاتب أمير المؤمنين.

فقال خالد بن هزيم، وهلال بن غنيم: لا واللّه لا نخليك والذهاب [١٥/أ] فتلزمنا ديتك عند أمير المؤمنين ونحن معك حتى نموت إن بذلت الأموال.

قال: فإني أفعل.

قال زيد بن مروان الرياحي: إن لم أقاتل معك ما قاتلت، فبثت الأبرد بن مرة الرياحي طالق ثلاثاً، وكانت عنده.

فقال عاصم: كلكم على هذا؟

وكان سلمة ندب أبي عبد اللّه صاحب حرسه يحلفهم بالطلاق[٣].

وأقبل الحارث بن شريح إلى مرو في جمع كثير يقال ستون ألفاً ومعه فرسان الأزد، وتميم وعدة من الدهاقين. وخرج عاصم في أهل مرو وغيرهم فعسكر عند البيعة.

قال: فأعطى الناس ديناراً ديناراً فخف عنه الناس، فأعطاهم ثلاثة دنانير، ثلاثة دنانير، فلما قرب بعضهم من بعض، أمر بالقناطر فكسرت.

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة.

(٢) وقال ياقوت أيضاً في معجم البلدان: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان قرب بلخ غربي جيحون، وربما أميلت فقيل لها: فِيريَاب.
ومن فارياب إلى شبورقان ثلاث مراحل، ومن فارياب إلى طالقان ثلاث مراحل، ومن فارياب إلى بلخ ست مراحل، وينسب إليها جماعة من العلماء.

(٣) يبدو أن الحلف بالطلاق كان شائعاً في تلك الأيام وكان بعضهم يعتقد فيه اعتقاداً قوياً وربما كان ذلك عند بعض العوام أو تغليظ من بعض الحكام وهو أمر غريب إن صح ما عهدناه عند أهل الشريعة الإسلامية الطاهرة النقية التي تحذر فردها تحذيراً شديداً من الحلف بغير اللّه تعالى، فاللّه أعلم بحقيقة ما كان في تلك المواقع والأيام.

وجاء أصحاب الحارث فقالوا: تحضروننا بالبرية، دعونا نقطع إليكم فنناظركم فيما خرجنا له؟ فأبوا عليهم.

وذهبت رجالتهم يصلحون القناطر، وأتاهم رجالة مرو يقاتلونهم، ويمنعونهم. فمال محمد بن المثنى برايته إلى عاصم، فلما فعل ذلك بدأ أصحاب الحارث بالحملة، والتقى الناس، فقتل قوم، وانهزم أصحاب الحارث فغرق بَشَرٌ كثير من أصحاب الحارث. فغضب الدهاقين إلى بلادهم، فأرسل عاصم جماعة إلى الحارث يسأله ما يريد؟

فبعث الحارث محمد بن مسلم وحده، فرجع معهم، وقال لهم: إن الحارث وإخوته يقرئون عليهم السلام، ويقولون: قد عطشنا، فدعونا ننزل الليلة ونتناظر غداً، فإن اتفقنا وإلاَّ كنتم من وراء أميركم.

فأبوا عليه.

فقال مقاتل بن حيان: يا أهل خراسان، كنا بمنزلة أهل بيت واحد ثغرنا[1] واحد ويدنا على عدونا واحدة، وقد أنكرنا ما صنع صاحبكم، وجه إليه أميرنا بجماعة الفقهاء وأصحابه من القراء، ووجه رجلاً واحداً. فقال محمد: أنا أتيتكم مبلغاً، وسيأتيكم غداً الذي تطلبون إن شاء اللّٰه وانصرف محمد بن مسلم إلى الحارث، وسار الحارث، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وقطع الحارث وادي مرو، وضرب رواقاً فكف عنه عاصم، ولو ألح عليه في طلبه لأهلكه.

وكان الحارث قال لأصحابه: إنه لا تُرد لي راية.

فلما هزم هذه الهزيمة، أجمع أصحابه على مفارقته، وكان عاصم لما رأى الحارث يستفحل أمره، والناس يميلون إليه، وهو يفتح كل يوم مدينة هابه وانهزم. واتهم أصحابه وخشي أن يبطئ عنه المدد من جهة الخليفة فيهلك.

ودخلت سنة سبع عشرة ومائة

[١٥/ب] **وفيها**: عزل هشام بن عبد الملك، عاصم بن عبد اللّٰه عن خراسان وضمها إلى خالد بن عبد اللّٰه، فولاّها خالد أخاه أسد بن عبد اللّٰه.

ذكر السبب في ذلك

كان عاصم كتب إلى هشام بن عبد الملك:

أما بعد يا أمير المؤمنين:

---

(١) يريد بابنا ووجهتنا وجماعتنا وهدفنا ومقصدنا واحد.

فإن الرائد لا يكذب أهله[١]. وقد كان من أمير المؤمنين إليّ ما يحق به عليَّ النصيحة له، وأن خراسان لا تصلح إلا أن تُضم إلى صاحب العراق فتكون موادها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها، وتباطؤ غياثه عمن يكون بها.

فلما أمضى كتابه، أخرج حديثه إلى أصحابه مثل المجشر بن مزاحم ويحيى بن حصين وأشباههم.

فقال المجشر له بعدما مضى الكتاب: كأنك بأسد قد طلع عليك. فقدم أسد بعد كتاب عاصم بشهرين ثم عاد الحارث، واستعدّ وأراد مناجزة عاصم.

فلما بلغ عاصماً أن أسد بن عبد اللّه قد أقبل صالح الحارث، وكتب بينه وبينه كتاباً على أن يترك الحارث كور خراسان شاء، وعلى أن يكتبوا جميعاً إلى هشام يسألانه كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، فإن أبَى أجمعوا أمرهم جميعاً عليه[٢]. فختم الكتاب جماعة من الرؤساء ممن رضي به.

وأبى يحيى بن حصين وقال: هذا خلع لأمير المؤمنين.

وكان في بعث الشام رجل من اليمانية يعدل بألف رجل، اختارته اليمانية يكنى أبا داود، وكان في خمسمائة فكان لا يمر بقرية من قرى خراسان إلاّ قال لأهلها انتظروني فكأنكم بي قد مررت بكم راجعاً حاملاً رأس الحارث بن شريح.

فلما التقوا خرج ودعاه إلى البراز[٣] فبرز له الحارث بن شريح، فضربه فوق منكبه[٤] الأيسر فصرعه، وحامى عليه أصحابه فحملوه، فخولط فكان يقول: يا أبو شهرياه، يا أصحاب العموداه، الحارث بن شريحاه.

ورمى الحارث بن شريح رجل من أهل الشام بنشابة، فأصابت لبان[٥] فرسه

---

(١) الرائد هو كبير القوم أو قائدهم أو وليهم أو إمامهم الحريص على مصالحهم القائم على شؤونهم، فمثل هذا يكون دائماً أحرص الناس على ما يقيم أمر قومه أو أهله وعشيرته، فهو دائماً لا يمكن أن يكذبهم الخبر، ولا يكتمهم المشورة، ولا يدلهم على طريق فيه خسارة أو نقصان لهم وهو مثل عربي قديم.

(٢) هذا ما لا يجب أن يكون بين الإمام وعامله بل على العامل أن يعرض ما عَنَّ له من أمور على الخليفة وعليه أن يذعن لما يرى أمير المؤمنين أما إذا جاء الرد بما لا يرى: فيخرج عن طوعه فليس في هذا طاعة.

(٣) أي دعا إلى المبارزة، وهي معروف في المعارك، وهي أن يبرز من الصف رجلاً طالباً نظيراً له يقاتله فيقتل أحدهما الآخر، وبهذا تنتهي المبارزة، مع ملاحظة أنه لا يتدخل أحد بين المتبارزين مهما كانت النتيجة.

(٤) في متن المخطوط: منكب، والتصويب من هامشه.

(٥) أي صدره، في هذا يقول عنترة بن شداد: =

فاستحضره وألح عليه بالضرب حتى عرقه وشغله عن ألم الجراحة، وحمل على الشامي، فحمل الشامي عليه برمحه حتى إذا ظن الرمح قد خالطه مال الحارث عن فرسه، ثم لحق الشامي فقال له: الشامي: بحرمة الإسلام إلاّ كففت عن دمي.

قال: انزل عن فرسك، فنزل وركبه الحارث.

وعظم أهل الشام يحيى بن الحصين لما كان منه في أمر الكتاب الذي كتبه عاصم. وكان هشام لما بلغه أمر الحارث بن شريح، وكتاب عاصم كتب إلى خالد بن عبد اللَّه:

ابعث [١٦/أ] أخاك ليصلح ما أفسد فإن كانت وجبة[١] فلتكن به.

فوجه أخاه أسد إلى خراسان وما يملك عاصم من خراسان إلاّ مرو ناحية إيرشهر، والحارث بن شريح بمرو الروذ، وخالد بن عبد اللَّه الهجري بآمل من قبل الحارث، فأقام أسد أياماً ما يدري أيقصد الحارث بمرو الروز أم خالداً بآمل حتى أجمع على توجيه عبد الرحمن بن نعيم الغامدي في أهل الكوفة إلى الحارث.

وسار أسد إلى آمل فلقيه خيل لأهل آمل عظيمة عليها زياد القرشي فهزمهم وتحصنوا في ثلاث مدائن لهم.

ونزل عليهم أسد وهزمهم، ونصب المجانيق عليهم.

وهناك خالد بن عبيد اللَّه الهجري من قبل الحارث بن شريح، فلما ضاق عليهم الحصار طلبوا الأمان، فخرج إليهم بعض أصحاب أسد، وقال يقولون لكم الأمير ما تطلبون؟

قالوا: كتاب اللَّه وسنة نبيه.

قال: فلكم ذلك.

قالوا: على أن لا يأخذ أهل المدن بجنايتنا. فأعطاهم ذلك.

وسار أسد إلى بلخ في طريق زم، وكان أهل بلخ قد بايعوا سليمان بن عبد اللَّه بن خازم.

فقدم بلخ ثم اتخذ سفناً وسار منها إلى الترمذ، فوجد الحارث محاصراً لها، وكان

= لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مزمر
يدعون عنتر والرماح كأنها ... اشطان بئر في لبان الأدهم

(١) في الهامش تعليق على الكلمة هذا نصه: في الصحاح: الوجبة السقطة مع الهدة وفي المثل: بجنبه فلتكن الوجبة أ.هـ قلت: ومعنى ليحل به المكروه دون غيره وهو مثل يضرب في الدعاء على الرجل.

مع الحارث وجوه الناس، ومعه السيل[١] فنزل أسد دون النهر، ولم يطق العبور إليهم ولا أن يمد أهل الترمذ إلاّ أن أهل الترمذ قد قويت نفوسهم فهم يخرجون، ويقاتلون أشد قتال، فكان أصحاب الحارث من القراء يأتون أبواب الترمذ يشكون عندهم ويشكون خوز بني أمية ويسألونهم أن يمالونهم على حرب بني مروان حتى تكون أيديهم واحدة فيأتون عليهم.

فقال السيل يوماً للحارث وهو معه يا حارث الترمذ بنيت بالطبول والمزامير ولا تفتح بالبكاء، إنما تفتح بالسيف، فقاتل إن كان بك قتال.

فتركه السيل وأتى بلاده، وارتحل أسد إلى بلخ، وخرج أهل الترمذ إلى الحارث، فقاتلوه، وثبتوا حتى هزموه وقتلوا: أبا فاطمة، وعكرمة، وخلقاً من أهل البصائر، وسار أسد إلى سمرقند على طريق زم وكان بزم القاسم فحصن هناك، فلما مَرَّ به أسد لم يعرض له، ولما عاد في هذا الوقت مجتازاً به بعث إلى الهيثم الشيباني وهو بزم أيضاً في طاعة الحارث، فقال له:

إنكم أنكرتم على قومكم (. . .)[٢] سيرتهم ولم يبلغ ذلك السبي ولا استحلال الفروج ولا غلبة المشركين على مثل سمرقند، وأنا أريد سمرقند، ولك عهد اللّه وميثاقه أن لا ينالك[٣] من شر، ولك المواساة واللطف والكرامة والأمانة [٣٠/ ب] لمن[٤] معك وإن أنت غمطت[٥] ما دعوتك إليه، فعلى عهد اللّه وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة خالد إن أنت رميت بسهم ألاّ أؤمنك أبداً ولا أفي لك بأمان إن جعلته لك.

فخرج إليه على ما أعطاه من الأمان فأمنه وسار معه إلى سمرقند.

وفي هذه السنة: أسر جماعة من دعاة بني العباس بخراسان فقتل بعضهم ومُثِّل بعضهم، فكان فيهم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وعدة منهم.

فأتى موسى بن كعب فأمر به فألجم بلجام حمار، وأمر باللجام أن يجذب فجذب حتى تحطمت أسنانه، ثم أمر فوجئ لحياه[٦] فندر ضرسه.

---

(١) في الكامل: ومعه سنان الأعرابي.

(٢) موضع النقط كلمة غير مقروءة هذا رسمها (الامبورد).

(٣) في المخطوط: ينزال، والتصويب من الكامل.

(٤) هذا أول الصفحة (ب) من الورقة (٣٠) من المخطوط (ب)، والصفحة التي قبلها هي الصفحة (أ) من الورقة (١٦) من المخطوط (ب) فيلاحظ ذلك جيداً.

(٥) احتقرت أو أهملت ما دعوتك إليه، واستخففت به ليكونن جزاءك ما حذرتك منه.

(٦) في الهامش: يوجئ لحييه.

وضرب لاهز بن قريظ بالسوط، وأمر بصلبه.

وتكلم فيه الحسن بن زيد وقال: هو لي جار، وهو بريء مما قرف به.

فوهبه له.

فقال: فالآخرون أعرفهم بالبراءة، فخلى سبيلهم وضمنهم إياه.

ودخلت سنة ثمان عشرة ومائة

وفيها: وجه بكير بن ماهان خداش على خراسان يدعو إلى محمد بن علي، فصار والياً على شيعة بني العباس، ويقال: إن اسمه عمار بن يزيد ـ وفي أخرى: يزيد فغير اسمه ـ.

فلما دعا الناس تسارعوا إليه وقبلوا ما جاءهم به، وسمعوا وأطاعوا حتى غَيَّر ما دعاهم إليه وتكذب وأظهر دين الخرمية[١] ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض فأخبرهم أن ذلك دين محمد بن علي. فبلغ ذلك أسد بن عبد اللّه، فوضع عليه العيون حتى ظفروا به، فأُتي به فسأله عن حاله فلم يلطف له، وجعل يغلظ في بعض كلامه.

فأمر به أسد، فقطعت يداه وقلع لسانه وسمل [عينيه][٢] وصلب بآمل.

ثم إن أسداً لما انصرف من سمرقند سرح جديعاً الكرماني إلى القلعة التي فيها الحارث من طخرستان العليا، فحاصرهم وقتل مقاتليهم، وكان فيها أصهار الحارث ورهطه فسبى عامة أهلها من العرب والموالي وغيرهم من الذراري، وباعهم فيمن يريد بسوق بلخ.

وكان السبب في ذلك

أنه كان قد نقم على الحارث نحو من خمسمائة رجل من أصحابه أشياء ورئيسهم جرير بن ميمون القاضي وهموا[٣] [٣١/أ] بمفارقته.

---

(١) طائفة من الطوائف الضالة عن الإسلام كبعض الفرق التي تدعي انتمائها إلى الإسلام وليست منه ومثل هذه الفرقة تختلف كل الاختلاف عن الشيعة والخوارج والمرجئة وأمثالها من الفرق الإسلامية أما هذه فقد أحلت حراماً وحرمت حلالاً فهي ليست من فرق الإسلام التي اجتهد فيها أصحابها فأخطؤوا فى تأويل آية أو حديث مع اعتقادهم الكامل في القرآن والسنة ونبوة النبي ﷺ وتحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحله سبحانه، وهذه فرقة تؤمن بالتناسخ والإباحة.

(٢) زيادة من الكامل وهو نوع معروف من أنواع التعذيب وفيه يتم وضع المسامير في أعين المراد تعذيبه وفقئها، وقد فعل ذلك بعض من ادعوا الإسلام أيام النبي وبعث بهم للاستشفاء من ألبان الإبل لرعي له، فقتلوا الراعي وسملوا عينيه وساقوا الإبل وفروا هاربين، فبعث النبي ﷺ في طلبهم فصلبهم وسمل أعينهم كما فعلوا برعاة الإبل قصاصاً.

(٣) تكررت هذه الكلمة بآخر الصفحة (٣٠/ب) وأول الصفحة (٣١/أ) فحذفت التكرار.

فقال لهم الحارث: إن كنتم لا بد مفارقي وطلبتم الأمان فاطلبوه وأنا شاهد، فإنه أجدر أن يجيبوكم، وإن ارتحلت قبل ذلك لم تعطوا الأمان.

فقالوا: ارتحل أنت عنا وخلنا، ثم بعثوا من يطلب لهم الأمان، فوصل أسد الرسول، وأحسن إليه.

فقال الرسول: إن القوم في القلعة ليس لهم طعام، ولا ماء، فغرر بهم، وسرج أسد جديعاً الكرماني في ستة آلاف، فلما كان بينه وبين القلعة فرسخ أو دونه نزل حتى وافاه قوم فيهم المهاجر بن ميمون في جماعة مستأمنة فتركهم حتى اجتمعوا ثم خطبهم.

فقال بعد حمد اللّٰه والثناء عليه: يا أهل بلخ لا أجد لكم مثلاً غير الزانية من أتاها أمكنته من رجلها، أتاكم الحارث في ألف من العجم فأمكنتموهم من مدينتكم، فقتل أشرافكم، وطرد أميركم، ثم سرتم معه مكاتفيه إلى مرو فخذلتموه ثم إليكم منهزماً فأمكنتموه من المدينة.

والذي نفسي بيده لا يبلغني عن رجل منكم كتب كتاباً إليهم في سهم إلاّ قطعت يديه ورجليه.

فأما من كان من أهل مرو فيهم خاصتي ولست أخاف غدرهم ثم نهز إلى القلعة وحصرها.

وكان القوم مجهودين قد جاعوا وعطشوا فنادى مناديه: أن قد نبذنا إليكم بالعهد وقاتلوهم، فسألوهم أن ينزلوا على الحكم ويتركوا نساءهم وأولادهم.

فنزلوا على حكم أسد على يد المهلب بن عبد العزيز العتكي بكتاب يقول فيه: احمل إليّ خمسين رجلاً منهم، وليكن فيهم المهاجر بن ميمون وأمثاله من وجوههم. ففعل، فقتلهم أسد.

وكتب إلى الكرماني أن يصير الذين بقوا عنده أثلاثاً، فثلثاً نصلبهم، وثلثاً تقطع أيديهم وأرجلهم، وثلثاً تقطع أيديهم.

ففعل ذلك الكرماني، وباع أثقالهم وذراريهم كما حكيناه.

وفي هذه السنة: مات علي بن عبد اللّٰه بن العباس وله ثمان وسبعون سنة، وكان ولد في الليلة التي ضرب فيها علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه[١] فسماه عبد اللّٰه بن العباس ـ أبوه ـ علياً، وكناه أبا الحسن وقال: سميته باسم أحب الناس إليّ.

(١) بخط دقيق بقلم الناسخ كتب بين السطور بآخر أحداث تلك السنة تعليقاً على هذا الاسم بقوله نصاً: صلوات اللّٰه وسلامه وتحياته عليه وعليه السلام ومن فداه.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

وفيها: لقي أسد صاحب الترك خاقان فقتله وغنم كل ما معه، وقتل خلقاً وسَلِمَ أسد والمسلمون.

[٣١/ب] ذكر الخبر عن هذه الوقعة

لما دخل أسد الختل كتب ابن السايجي إلى خاقان يعلمه دخول أسد الختل، وتفرق جنوده، وأنه بحال مضيعة.

وكان السايجي هذا استخلفه السبل عند موته وسجى خبره. . .[١].

فلما أتاه كتابه تجهّز، وكالخاقان مرج وجبل حِمَى لا يقربهما أحد فصاد ما في المرج ثلاثة أيام وما في الجبل ثلاثة أيام، فتجهزوا ودبغوا جلود الصيد واتخذوا أوعية، واتخذوا القسي والنشاب.

ودعا خاقان ببرذون مسرج ملجم، وأمر بشاة فقطعت، ثم علقها في معاليق سرجه وأخذ شيئاً من ملح فصيّره في كيس وجعله في منطقته، وأمر كل تركي أن يفعل مثل ذلك.

وقال: هذا زادكم حتى تلقوا العرب بالختل.

فلما أحسّ ابن السايجي بخاقان قد أقبل، بعث إليه أسد اخرج[٢] على[٣] الخيل فإن خاقان قد أظلّك.

فشتم أسد رسوله، ولم يصدقه.

فبعث صاحب الختل:

إني لم أكذبك، وأنا الذي أعلمته دخولك، وتفرُّق جندك، وأعلمته أنها فرصة له، وسألته المدد، وأني نظرت، فرأيت أنك قد أقفرت البلاد وأصبت الغنائم، فإن لقيك على هذه الحال ظفر بك، وعادتني العرب أبداً [ما][٤] بقيت[٥]، واستطال عَلَيّ خاقان، واشتدت[٦] مؤنثة، وامتن عَلَيّ ويقول: أخرجت العرب من بلادك، ورددت عليك ملكك.

---

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «لغان».
(٢) في متن المخطوط: «احزع».
(٣) في المخطوط: «عن» وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: «نفنت» والتصويب من الكامل.
(٦) في المخطوط: اشتد، والتصويب من الكامل.

فعرف أسد أنه صدقه، فأمر بالأثقال أن تقدم، وَوَلّى عليها إبراهيم بن عاصم العقيلي ـ وهو الذي ولى سجستان بعد ـ وأخرج معه المشيخة، فسارت الأثقال.

وكتب أسد إلى داود بن شعيب، والأصبغ بن دوالة الكلبي ـ وقد كان وجههما[(١)] في وجه خاقان ـ قد أقبل فانضما إلى الأثقال مع إبراهيم بن عاصم.

ووقع إلى داود [و][(٢)]الأصبغ رجل دبوس فأشاع: أن خاقان قد هزم المسلمين وقتل أسد.

فقال الأصبغ: إن كان أسد ومَن معه أصيبوا فإن. . .[(٣)] هشام ينحاز إليه، فإن الله تعالى حيّ قيوم، وجنود المسلمين كثيرون.

فقال داود: أفلا تنتظر ما فعل أسد فنخرج على علم؟

قال: بلى.

فسارا حتى شارفا عسكر إبراهيم، فإذا هما بالنيران.

فقال داود: هذه نيران المسلمين لأنها مقاربة، ونيران الأتراك متفرقة.

فقال الأصبغ: هم في مضيق.

ثم دنوا فسمعوا نهيق الحمير.

فقال داود: أما علمت أن الترك ليس لهم حمير؟

فقال الأصبغ: أصابوها بالأمس [٣٢/أ] ولم[(٤)] يستطيعوا أكلها في يومين.

فقال داود: نسرح فارسين فيكبران.

فبعثا، فلما دنوا من العسكر كبّرا، فأجابهما أهل العسكر بالتكبير.

فأقبلوا إلى العسكر الذي فيه الأثقال، ومع إبراهيم أهل الصغانيان، وصاغان خذاه[(٥)]، فضامًّا إبراهيم بن عاصم.

وأقبل أسد [من الختل نحو جبل الملح][(٦)] يريد أن يخوض نهر بلخ، وقد كان إبراهيم قطعه بالسبي وجميع ما أصاب. فلما أشرف أسد على النهر، وقد أتاه أن خاقان

---

(١) في متن المخطوط: وجهها. والتصويب من الهامش.
(٢) ما بين المعقوفين زيادة من هامش المخطوط.
(٣) كلمة لم أتبين قراءتها وهذا رسمها: «قثيا».
(٤) تكرر هذا اللفظ بآخر الصفحة السابقة وأول هذه الصفحة، فحذفت ما بآخر الصفحة السابقة وأثبت ما بأول هذه.
(٥) صغان خذاه: اسم أحد القواد.
(٦) زيادة من الكامل.

قد سار من البيوتات سبع عشرة ليلة قام إليه أسد بمثله من بحر، وعبد الرحمٰن بن صفر الأزديان فقالا: أصلح الله الأمير، إن الله تعالى قد أحسن بلاءك في هذه الغزوة، فغنمت وسلمت، فاقطع هذه النطفة، واجعلها وراءك.

فأمر بهما[١] فوجئت[٢] رقابهما، وأُخرجا من العسكر، وأقام يومه.

فلما كان من الغد ارتحل، وفي النهر ثلاثة وعشرون موضعاً تخوضه الناس، وموضع فيه مجتمع ما يبلغ دفتي السرج، فخاضه الناس، وأمر أن يحمل كل رجل شاة، وحمل هو نفسه شاة.

فقال له غسان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير: أيها الأمير إن الذي أنت فيه من حمل الشياه[٣] ليس له خطر، وقد فرقت الناس وشغلتهم، وأظلك عدوك، فدع هذه الشياه لعنة الله عليها ومر الناس بالاستعداد.

فقال أسد: والله، والله لا يفر رجل إلاّ ومداده معه شاة حتى تفنى هذه الغنم، الفارس يحملها بين يديه، والراجل على عنقه.

وخاطر الناس، فلما حفرت سنابك الخيل النهر صار بعض المواضع مخائض يقع فيها الرجل.

فأمر أسد الناس بالشاء أن تذرف فيها ويخوضوا.

فما استتم الناس العبور حتى طلعت عليهم الترك بالدهم، فقتلوا مَن لم يقطع النهر، وجعل الناس يقتحمون.

وركب أسد إلى النهر، وأمر بالإبل أن يقطع بها النهر حتى يُحمل عليها الأثقال، وأقبل رمح من ناحية الخيل، فإذا خاقان، فلما توافى معه صدر من صده وحمل على الأزد وبني تميم وكانوا على مسلحة خلّفهم أسد على الضعفاء من الناس، فلما حمل عليهم خاقان انكشفوا.

وركض أسد حتى انصرف إلى عسكر، وبعث إلى أصحاب الأثقال الذين كان قد سرحهم أمامه: أن انزلوا، وخندقوا مكانكم إلى النهر.

وأمر الإسكندر ـ وهو يومئذ اصفهيد ـ أن يسير في الصف، وسأل أهل البصر في الحرب: هل يطاق قطع النهر والحملة على أسد؟

فكلهم يقول: لا يطاق حتى انتهى إلى الاستجن فقال: بلى يطاق لأنّا خمسون ألف

(١) في المخطوط: «فامر بها» وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: «فوحدت» والتصويب من الهامش.
(٣) في المخطوط: «السا» وهو تحريف.

فارس، فإذا نحن اقتحمنا دفعة واحدة [٣٢/ ب] رَدّ بعضنا على بعض الماء فذهبت جريته.

قال: فضربوا بكوساتهم.

فظن أسد ومَن معه أنه منهم وعيدٌ، وأقحموا دوابهم فجعلت تنخر أشد النخير.

فلما رأى المسلمون اقتحام[١] الترك، ولوا إلى العسكر، وعبرت الترك.

فسطع ريح شديد لا يبصر الرجل دابته، ولا يعرف بعضهم بعضاً.

ودخل المسلمون عسكرهم، وحوى الترك ما كان خارجاً، وخرج الغلمان بالبراذع والعمد، فضربوا وجوه الترك فأدبروا.

وبات أسد، وعبّأ [أصحابه][٢] من الليل تخوُّفاً من غزو خاقان.

فلما أصبح لم يرَ شيئاً، فدعا وجوه الناس، فاستشارهم.

فقالوا: أقبلت العافية.

قال: ما هذه عافية، بل هذه بلية لقينا خاقان أمس فظفر وأصاب من الجند والسلاح[٣]، فما منعه اليوم مِنّا إلاّ أنه قد وقع في يديه أسرى فأخبروه بموضع الأثقال ـ وكان هذا رأياً جيداً وحدساً صواباً من أسد ـ.

وقد علم العدو أن الثقل أمامنا فترك لقاءنا طمعاً فيها.

ثم ارتحل أسد، وبعث أمامه الطلائع، فرجع بعضهم فأخبره أنه عاين طوقات الأتراك وأعلاماً من أعلام إسكندر.

فشاور منقله، فقيل له: انزل أيها الأمير واقبل بالعافية.

فقال: وأين العافية فأقبلها؟ إنما هي بلية، ذهاب الأموال والأنفس.

فلما صار إلى منزل وأمسى استشار الناس.

فقال: أتنزلون أم تسيرون؟

فقالوا: اقبل بالعافية، وما عسى أن يكون ذهاب الأموال بعافيتنا وعافية أهل خراسان.

ونصر بن سيار مطرق.

فقال أسد: ما لك يا سيار لا تتكلم؟

فقال: أصلح الله الأمير، خلتان كلتاهما لك.

---

(١) في المخطوط: «اقحام» والتصويب من هامش المخطوط.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: السرح. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

أن تسر تغث [وتنجد من مع][١] الأثقال وتخليصهم، وإن أنت انتهيت إليهم وقد هلكوا، فقد قطعت محجة[٢] لا بد من قطعها.

فقبل رأيه وسار بقية يومه كله.

ودعا أسد قبل أن يسير سعداً الصغير[٣] وكان عالماً[٤] بطريق الختل فارساً[٥]، فكتب معه كتاباً إلى إبراهيم يأمره بالاستعداد، ويعلمه أن خاقان طواه، وتوجه إلى ما قبلك.

ثم قال له: سر بالكتاب إلى إبراهيم حيث كان قبل الليل، فإن لم تفعل فأنت[٦] بريء من الإسلام إن لم يقتلك، وإن أنت لحقت بالحارث هرباً مني، فعلى مثل الذي حلفت أن أبيع امرأتك الدلال في سوق بلخ وجميع[٧] أهل بيتك.

قال سعيد: فادفع إليّ فرسك الذنوب[٨].

قال: لعمري، لئن جُدّت بدمك[٩] وبخلت عليك بالفرس إني للئيم[١٠].

فدفعه إليه، وسار على دابة من جنائبه وغلامه على [٣٣/أ] فرس معه فرس أسد بجنبه.

فلما حاذى غرة طلائع الترك تحول إلى فرس أسد، فطلبته الطلائع، فركض، ولم يلحقوه وأتى إبراهيم بالكتاب، وتبعته بعض الطلائع حتى وافى عسكر إبراهيم والأثقال.

فرجعوا إلى خاقان، فأخبروه.

فغدا خاقان في اليوم الثاني على الأثقال، وقد خندق إبراهيم خندقاً، والناس قيام عليه.

فأمر خاقان أهل الصغد بقتالهم، فلما دنوا من مسلحة المسلمين ثاروا في وجوههم فهزموهم، وقتلوا منهم رجلاً.

فقال خاقان: اركبوا، وصعد تلاً مشرفاً، وجعل ينظر العورة ووجه المقاتِل[١١] ـ وكذا

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: «مشقة» وقال محققه في الطبري: «فحمة».
(٣) في الكامل زيادة تعريف هي: مولى باهلة.
(٤) في الكامل: فارساً.
(٥) العبارة في الكامل على النحو التالي: وكان فارساً بأرض الختل.
(٦) في المخطوط: «فاسد» وهو تحريف.
(٧) في المخطوط: وجمع. وهو تحريف.
(٨) تعليق في الهامش على الكلمة هذا نصه: في الصحاح: الذنوب: الفرس الطويل الذنب.
(٩) في الكامل: «بنفسك».
(١٠) في الكامل: إني إذاً للئيم.
(١١) العبارة في الكامل على النحو التالي: فجعل ينظر ليرى عورة يأتي منها.

كان يفعل، ينفرد في رجلين أو ثلاثة، فإذا رأى عورة أمر جنوده فحملت من ناحية العورة ـ.

ذكر ظفر خاقان، ثم انهزامه باتفاق حسن مع تدبير جيد وجدّ في المسير من أسد حتى رجع كيد العدو عليهم وسلم المسلمون وأثقالهم

فلما صعد خاقان التل رأى خلف العسكر جزيرة دونها مخاضة، فدعا بعض قواد الترك فأمرهم أن يقطعوا فوق العسكر في مقطع وصفه، ثم تحدّروا في الجزيرة حتى يأتوا عسكر المسلمين من ورائهم، وأمرهم أن يبدؤوا بالأعاجم، وأهل الصغانيان وقد عرفهم بأبنيتهم وأعلامهم، وقال لهم: إن أقام القوم في خندقهم وأقبلوا إليكم، دخلنا نحن خندقهم، وإن بيّتوا لنا فادخلوا من دبره عليهم.

ففعلوا ودخلوا عليهم من ناحية الأعاجم، فقتلوا صغان خذاه [وعامة أصحابه وأخذوا أموالهم](1) ودخلوا عسكر إبراهيم، فأخذوا عامة ما فيه وترك المسلمون التعبئة، واجتمعوا في موضع وأحسوا بالهلاك، فإذا رهج قد ارتفع وتربة سوداء، وإذا أسد في جنده قد أتاهم، فجعلت الترك ترتفع عنهم إلى الموضع الذي فيه خاقان، وإبراهيم يتعجب من كفّهم وقد ظفروا وقتلوا مَن قتلوا، وبعد إصابتهم الغنيمة، وهو لا يطمع في أسد وكان أسد قد أغذ المسير، وأقبل أسد حتى وقف على التل الذي كان عليه خاقان.

وتنحّى خاقان إلى ناحية الختل، وخرج إلى أسد مَن كان بقي من أصحاب إبراهيم، وقد قتل منهم بشر كثير ومشيخة من خزاعة.

وخرجت امرأة صاغان خذاه إلى أسد فبكت زوجها، وبكى أسد معها حتى علا صوته.

وانصرف [٣٣/ ب] خاقان على طريق طخارستان وهناك الحارث بن سريج.

فانضم الحارث إلى خاقان، وسار معه في أصحابه.

ومضى أسد إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى أتى الشتاء.

وكان الحارث يقول لخاقان: إنه لا نهوض بأسد، وقد تفرّق عنه الجند.

فبثّ خاقان جنده في الغارات على النواحي، وأقبل خاقان حتى نزل فأمر بالنيران فرفعت على أهل المدينة فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة بلخ.

فأصبح أسد، وصلّى، وخطب الناس وقال: إن عدو الله الحارث بن سريج

---

(١) زيادة من الكامل.

استجلب طاغية الترك ليطفىء نور الله، ويبدل دينه، [والله مُذِلّهُ إن شاء الله][1] وإن عدوكم قد أصاب من إخوانكم ما أصاب، فإن يرد الله نصركم لم تضرركم قلتكم وكثرتهم، فاستنصروا الله تعالى [وإن أقرب ما يكون العبد من رَبِّهِ إذا وضع جبهته له، وإني نازل وواضع جهتي على الأرض][2] ثم وضع جبهته لله ودعا فأمنوا عليه، ثم رفعوا رؤوسهم لا يشكون في الفتح، ثم نزل عن المنبر، وضحى، فإنه كان يوم الأضحى، وشاور الناس في المسير إلى خاقان.

فقالوا: أنت شاب لا تتخوّف من غارة على دابة ولا شاة إلا ما لا خطر فيه لخروجك.

فقال: والله لأخرجن، فإما ظفر، وإما شهادة[2].

ثم أخذ من جبلة بن أبي رواد مائة وعشرين ألف درهم، وأمر للناس بعشرين عشرين، ومعه من جنود خراسان وأهل الشام سبعة آلاف رجل.

فاستخلف على بلخ الكرماني [بن علي][3] وأمره أن لا يدع أحداً يخرج من مدينتها، وإن ضرب الترك باب المدينة.

فقال له نصر بن سيار الليثي، والقاسم بن بخيت، وجماعة أمثالهم، وسعيد الصغير: أصلح الله الأمير، ائذن لنا في الخروج، ولا تهجن طاعتنا.

فأذن لهم، وخرج فنزل باباً من أبواب بلخ، وصلّى بالناس ركعتين طوّلهما، ونادى في الناس: ادعوا الله، وأطال الدعاء بالنصر، وأمن الناس على دعائه.

ثم انفتل من دعائه، فقال: نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله ثلاث مرات.

ثم نادي مناديه: برئت الذمة ممن حمل امرأة وسار.

فلما كان عند قنطرة عطاء قال لمسعود بن عمرو: ابغني خمسين رجلاً وراية، اخلفهم على هذه القنطرة، فلا يدعون أحداً ممن جازها أن يرجع.

وكان مسعود هذا يخلف الكرماني بخفرته.

فقال مسعود: ومن أين أجد خمسين رجلاً؟

فأمر به فصرع عن دابته، وضرب، ثم أمر بضرب عنقه.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: وشاور الناس في المسير إلى خاقان فقال قوم: تحفظ مدينة بلخ، وتكتب إلى خالد والخليفة تستمده.
وقال قوم: تأخذ في طريق زم فتسبق خاقان إلى مرو.
وقال قوم: بل تخرج إليهم، فوافق هذا الرأي أسد وكان عزم على لقائهم، فخرج الناس وهو في سبعة آلاف من أهل خراسان والشام.

(٣) زيادة من الكامل.

فتكلم فيه قوم فكفّ عنه.

وسار منزلاً، وأقام حتى أصبح، فقال له بعضهم ليتم الأمر على المقام يومه حتى يتلاحق الناس.

فأمر بالرحيل وقال: لا حاجة لنا في المتخلفين.

ثم جعل[(١)] [٣٤/أ] على مقدمته سالم بن منصور...[(٢)] [البجلي][(٣)] فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان، فأسر قائدهم وسبعة منهم، وهرب بقيتهم، فأتى به أسد فبكى التركي.

فقال أسد: ما يبكيك؟

فقال: لست أبكي لنفسي، وإنما أبكي لهلاك خاقان.

قال: وكيف؟

قال: لأنه فرّق خيله فيما بينه وبين مرو.

وسار أسد حتى إذا شارف العين الحارة استقبله بشر بن رزين، فقال: ما وراءك؟

قال: إن لم تلحقنا غُلبنا على مدينتنا.

فقال: قل للمقدام بن عبد الرحمٰن: يطاول نز رمحي.

وسار فنزل مدينة الجوزجان [فنزل عليها على فرسخين من خاقان وكان][(٤)] قد استباحها خاقان.

فأتاه المقدام بن عبد الرحمٰن في مقابلته وأهل الجوزجان.

وانصرفت[(٥)] طلائع لخاقان إليه، فأخبرته أن ريحاً ساطعاً طلع من ناحية بلخ.

فدعا خاقان الحارث فقال: ألم تزعم أن أسداً ليس به نهوض، وهذا ريح من ناحية بلخ[(٦)]؟

فقال: هذا هو اللّص[(٧)] الذي كنت أخبرتك أنه من أصحابي.

---

(١) تكررت عبارة: ثم جعل بآخر هذه الورقة وأول الورقة القادمة، فحذفت ما بأول الورقة [٣٤/أ].

(٢) ثلاث كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط: انصرف. وهو تحريف.

(٦) العبارة في الكامل على النحو التالي: فلما أصبحوا تراءى العسكران، فقال خاقان للحارث بن سريج: ألم تكن أخبرتني أن أسداً لا حراك به وهذه العساكر قد أقبلت من هذا؟

(٧) في الكامل: هذا محمد بن المثنى وراياته.

فبعث خاقان طليعته، وقال: انظروا هل ترون على الإبل سريراً وكرسي؟

فجاءته الطلائع، فأخبرته أنهم عاينوها.

فقال خاقان: اللصوص لا يحملون الأسرّة والكراسي، هذا أسد قد أتاك.

فسار أسد [قدر][١] غلوة، فلقيه سالم بن منصور[٢]، فقال: أبشر أيها الأمير، حرزتهم فلا يبلغون أربعة آلاف، وأرجو أن يكون قد عقره الله[٣].

وسار أسد على تعيينه عنه مسيره وقلب وعبىء خاقان مثل ذلك، وجعل على ميمنته الحارث بن شريح وأصحابه.

ومال الصغد، وصاحب الشاش، وصاحب الخيل والترك كلهم معه.

فلما التقوا حمل الحارث ومَن معه على الميسرة وفيها ربيعة، وأهل الشام فما ثبت له أحد وانهزموا، فلم يردهم شيء دون روّاق أسد.

ثم شدّت عليهم ميمنة أسد، وهم الأزد، وبنو تميم، والجوزجان، فانهزم الحارث، والأتراك.

فحمل الناس جميعاً، فقال: اللهم إنهم عصوني فانصرهم.

وذهب الترك عباديد لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم الناس [مقدار ثلاث فراسخ][٤] يقتلون مَن لُحق منهم حتى انتهوا إلى أغنامهم، فاستاقوا أكثر من خمسين ألف، ومائة ألف شاة، ودواب كثيرة.

وأخذ خاقان غير طريق الحارة في الجبل، والحارث [بن][٥] سريج يحميه.

وهاجت ريح الحرب التي تسمى الهفافة، فهزمهم الله تعالى.

فقال الجوزجاني[٦] لعثمان بن عبد الله بن الشخير: إني أعلم ببلادي وطرقها، فهل لك في أمر فيه هلاك خاقان، ولك فيه ذكر ما بقيت؟

فقال: وما هذا؟

قال: تتبعني؟

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: سالم بن جناح.
(٣) في الكامل: وأرجو أن يكون خاقان عقيرة الله.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.
(٦) في المخطوط: الجوزجان، والتصويب من الكامل.

قال: نعم.

[٣٤/ب] فأخذ به طريقاً يسمى ورَادك، فأشرفوا على طوقان خاقان، وهم آمنون.

فأمر خاقان الكوسات، فضربت ضرب الانصراف، وقد شبّت الحرب، فلم يقدر الترك على الانصراف.

ثم ضربت الثانية، فلم يقدروا لاشتغالهم، فحمل ابن الشّخير والجوزجاني على الطوقان وولى خاقان مُدْبراً.

فحوى المسلمون عسكرهم، وتركوا قدورهم تغلي، ونساءهم مع [بعض](١) نساء العرب كن معهم.

ووحل بخاقان فرسه(٢)، فحماه الحارث بن سريج.

وأراد خصي لخاقان أن يحمل امرأة خاقان، فأعجلوه عن ذلك، فطعنها بخنجر، فلحقوها وهي تتحرك، فأخذوا أختها، وهي من لبد مضرب.

ووجد عسكر الترك مشحوناً من كل شيء من آنية الفضة وصناجاتهم، وأمتعتهم، وبعث أسد بجواري الترك إلى دهاقين خراسان، فاستنقذ مَن كان في أيديهم من المسلمين.

وانصرف أسد إلى بلخ اليوم التاسع من خروجه.

فقال ابن السجف المجاشعي:

لو سرت في الأرض تقيس الأرضا ... تقيس منها طولها والعرضا

لم تلقَ خيراً مرة ونقضا ... من الأمير أسد وأمضا

أفضى إلينا الخير حين أفضا ... وجمع الشمل وكان رفضا

ما فاته خاقان إلا ركضا ... قد فضّ من جموعه ما فضا

يا ابن سريج قد لقيت حمضا ... حمضاً به يشفى صداع المرضى

وأصاب أسد أربعة آلاف درع.

وكان أسد يوجه الناس في السرايا، فكانوا لا يزالون يصيبون جماعة من الترك.

ومضى خاقان إلى بلاده(٣) فلما ورد أشروسنة(٤) تلقاه خرابغرة [أبو خانا جزه](٥)

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في الكامل: برذونه.
(٣) في الكامل: ومضى خاقان إلى طخارستان وأقام عند جبوية الخزلجي، ثم ارتحل إلى بلاده. . .
(٤) في المخطوط: «شروسنة» والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.

جد كاوس أبي الأفشين باللعانين وأعدّ له هدايا عظيمة ودواب له ولجنده.

وكان الذي بينهما متباعداً ولكنه لما رجع منكوباً أحبّ أن يتخذ عنده يداً، فأتاه بكل ما يقدر عليه.

فلما رجع خاقان إلى بلاده أخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند وحمل الحارث بن شريح وأصحابه على [خمسة][٣] آلاف برذون وفرق في أصحابه مثلها.

ثم إنه لاعب خاقان يوماً كورصول على تذرجة مدرجة بالنرد فقهر كورصول الترقشي، فطلب منه التذرجة.

فقال أحدهما: أُنثى.

فقال الآخر: ذكر.

وأدى النزاع إلى أن رفع[١] يده [٣٥/أ] فضرب يد خاقان فأوهنها[٢]، فحلف خاقان ليكسرن يد كورصول من بين يديه.

فتنحّى كورصول من بين يديه وجمع جمعاً ثم بيت خاقان فقتله وتفرّق عنه الترك وتركوه مجرَّداً حتى أتاه عظماء الترك ودفنوه، وصنع به ما يصنع بمثله.

وتفرّقت الترك في الغارات بعضها على بعض، وأتى بعضهم إلى الشاش فعند ذلك طمع أهل الصغد في رجعة الأولى إليها فلم يسلم من خيل الترك التي تفرقت في الحاضرة إلا حديراً الليثي فإنه سلم في جيش سار إلى طخارستان.

ذكر اتفاق وحسن اتفاق لمقاتل بن حيان من غير قصد منه

كان أسد بعث من مدينة بلخ رجلاً يُعرف بسيف بن وصاف إلى هشام يخبره بما أظلّه من الخطب العظيم ويستمده.

فلما وصل إليه أخبره، فلم يصدقه هشام[٣]، وقال لحاجبه: ويحك إن هذا الشيخ قد أتانا بالطامة الكبرى إن كان صادقاً، ولا أظنه صادقاً، اذهب به فعِدْهُ، ثم سَلْهُ، وانبئني بما يقول.

ففعل، ثم سأله، فأخبره بما أخبر به هشام.

فدخل عليه أمر عظيم وصرفه، ثم دعاه بعد أيام يسيرة، وقال له: مَن القاسم بن

---

(١) في متن المخطوط: «يرفع» والتصويب من هامشه.
(٢) في الكامل: فكسرها.
(٣) في الكامل: وأرسل أسد مبشراً إلى هشام بن عبد الملك بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان. فلم يصدقه وقال للربيع حاجبه: لا أظن هذا صادقاً، فعده، ثم سله عما يقول.

بخيت فيكم؟

قال: ذاك صاحب العسكر.

قال: فإنه قد أقبل.

قال: فإن كان قد أقبل، فقد فتح الله تعالى على أمير المؤمنين.

وكان أسد قد وجّه حين فتح الله عليه القاسم بن بخيت، فكبّر على الباب ثم دخل يكّبر، وهشام يكبّر معه، حتى انتهى إليه، فقال: الفتح يا أمير المؤمنين.

فأخبره الخبر، فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر وهي واجبة عندهم.

فحسدت القيسية أسداً وخالداً وقالوا لهشام: أكتب إلى خالد فليأمر أخاه أن يوجه مقاتل بن حيان.

فكتب إليه، فدعا أسد مقاتل بن حيان على رؤوس الناس، وقال له: سِر إلى أمير المؤمنين، فأخبره بما عاينت وقل الحق، وأنت لا تقول غير الحق إن شاء الله، وخذ من بيت المال حاجتك.

فقال الناس: إنه لا يأخذ شيئاً، أعطه من المال كذا وكذا، ومن الكسوة كذا وجهزه.

فسار حتى قدم على هشام وهو والأبرش جالسان.

فسأله، فقال: كان من أمرنا كيت وكيت إلى أن قال: قصدنا خاقان، فساق من الذي رأى، وأهل البلدان بعد أن قاتلنا كذا يوماً، ثم أوقعناه وهو لا ينتظرنا فحملوا على مسيرتنا فكشفوهم، ثم حملت ميمنتنا فهزمناهم، ثم تبعناهم حتى استبحنا عسكرهم خاقان بما فيه من النساء والذراري والآلات.

وكان هشام متكئاً [٣٥/ب] فاستوى جالساً عند ذكر خاقان وقال ثلاثاً: أنتم استبحتم عسكر خاقان؟

قال: بلى.

قال: حاجتك؟

قال: إن يزيد بن المهلب أخذ من ابني حيان[١] من غير حق مائة ألف [درهم فاستحلف على ذلك][٢].

(١) في الكامل: «ابني» دون ذكر اسمه، وفي المخطوط «أبي» وهو تحريف يوضح ذلك السياق.
(٢) زيادة من الكامل.

فقال هشام: لا أكلفك شاهداً، أحلف بالله إنه لكما قُلْتَ.

فحلف، فردها عليه من بيت مال خراسان.

وكتب إلى خالد أن يكتب إلى أسد فيها، فكتب إليه، فأعطاه مائة ألف درهم، فقسمها بين ورثة حيان على فرائض الله[١].

وفي هذه السنة: خرج على خالد بن عبد الله، المغيرة بن سعيد، وسار في نفر، فأخذ منهم وقتلهم.

ذكر السبب في ذلك

أما المغيرة بن سعيد[٢] فكان يتشيّع، ثم نُسبت إليه أمور شنيعة فيها تزيُّد وإسراف فأحدها ما حكاه صاحب التاريخ على ما أخبرناه القاضي عن محمد بن جرير الطبري قال: حدثنا ابن حميد قال لنا جرير عن الأعمش قال: سمعت المغيرة بن سعيد يقول:

---

(١) زاد صاحب الكامل في التاريخ في هذا الخبر فقال: فقال أبو الهندي يذكر هذه الوقعة:

أبا منذر قست الأمور وقستها ... وساءلت عنها كالحريص المساوم
فما كان ذو رأي من الناس قسته ... برأيك الأمثل رأي البهائم
أبا منذر لولا مسيرك لم يكن ... عراق ولا انقادت ملوك الأعاجم
ولا حج بيت الله مَن حج راكباً ... ولا عمر البطحاء بعد المواسم
وكم من قتيل بين سان وجزة ... كثير الأيادي من ملوك قماقم
تركت بأرض الجوزجان تزوره ... سباع وعقبان لحز الغلاصم
وذي سوقة فيه من السيف خبطة ... به رمق ملقى لحوم الحوائم
فمن هارب منا ومن دائن لنا ... أسيراً يقاسي مهمهات الأداهم
فدتك نفوس من تميم وعامر ... ومن مضر الحمراء عند المآزم
هم أطمعوا خاقان فينا فأصبحت ... حلائبه ترجو خلو المغانم

وكان ابن السايجي الذي أخبر أسد بمجيء خاقان قد استخلفه السبل على مملكته عند موته، وأوصاه بثلاث خصال:

قال: لا تستطل على أهل الختل استطالتي عليهم، فإني ملك وأنت لست بملك إنما أنت رجل منهم.

وقال له: اطلب الحنيش حتى ترده إلى بلادكم، فإنه الملك بعدي ـ وكان الحنيش قد هرب إلى الصين ـ.

وقال له: لا تحاربوا العرب، وادفعوها عنكم بكل حيلة.

فقال له ابن السايجي: أما تركي استطالتي عليهم وردي الحنيش فهو الرأي.

وأما قولك: لا تحاربوا العرب فكيف، وقد كنت أكثر الملوك محاربة لهم؟

قال السبل: قد جربت قوتكم بقوتي، فما رأيتكم تقعون مني موقعاً، وكنت إذا حاربتهم لم أفلت إلاّ حرصاً، وإنكم إذا حاربتموهم هلكتم. فهذا الذي أكره ابن السايجي محاربة العرب.

(٢) في المخطوط: المغيرة بن شعبة، وهو تحريف فابن شعبة صحابي جليل، وهذا الخطأ تكرر في كل مواضع الحكاية.

لو أراد أن يُحْيِيَ عاداً، أو ثموداً، أو قروناً بين ذلك كثيراً لأحياهم.

قال الأعمش: وكان المغيرة بن سعيد يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد[١] على القبور.

ونحو هذا من الكلام، وحكايات عنه حكايات عظيمة.

فلما أُخذ المغيرة وأصحابه[٢]، أُتي بهم، وهم سبعة، وأمر بسريرة فأخرج إلى المسجد الجامع[٣].

وأمر بأطنان[٤] قصب ونفط فأحضر، ثم أمر المغيرة أن يتناول طُناً، فكع وتأبّى، فصبّت السياط على رأسه، فتناول طُناً، فاحتصنه، فشُدَّ عليه، ثم صُبَّ عليه، وعلى الطن نفط، ثم ألهبت فيهما النار، فأحرقا ثم فعل في الرهط بمثل ذلك، ثم أمر بياناً آخرهم فتقدم إلى الطُن مبادراً فاحتضنه.

فقال خالد: ويلكم في كل أمركم تجهلون هلا رأيتم هذا إلا المغيرة، ثم أحرقه وكان هؤلاء يسمون الوصفاء.

وكان ظهورهم وخروجهم بظهر الكوفة، فأخبر خالد القسري بخروجهم وهو على المنبر فقال: أطعموني ماء.

وقيل فيه[٥]:

أخالد لا جزاك الله خيراً ... .[٦]

[وكنت لدى المغيرة عبد سوء ... تبول من المخافة للزئير][٧]

وقلت لما أصابك أطعموني ... شراباً، ثم بلت على السرير

لا علاج ثمانية وشيخ ... كبير السني ليس بذي نصير

ولما قتل خالد المغيرة أرسل إلى مالك بن أعين الجهني، فسأله فصدقه عن نفسه، فأطلقه[٨].

---

(١) في المخطوط: الحرا. وهو سقط وتحريف.

(٢) في الكامل: المغيرة بن سعيد، وبيان في ستة نفر، وكانوا يسمون الوصفاء، وكان المغيرة ساحراً.

(٣) أي أن الآمر هو: خالد بن عبد الله القسري على ما هو في الكامل.

(٤) في هامش المخطوط تعليق على هذه الكلمة هذا نصه: أطنان جمع طن، والطن الحزمة من القصب.

(٥) في الكامل: فقال يحيى بن نوفل في ذلك.

(٦) شطر بيت قبيح عففت القلم عن ذكره.

(٧) زيادة من الكامل.

(٨) في الكامل بعد هذا: وكان رأي المغيرة التجسيم يقول: إن الله على صورة رجل على رأسه تاج، وأن أعضاءه على عدد حروف الهجاء.
ويقول: ما لا ينطق به لسان تعالى الله عن ذلك. =

فلما خلا مالك بمَن يثق، وكان فيهم أبو مسلم صاحب الدعوة، قال لهم:

[٣٦/أ] ضربت له بين الطريقين لا حيا وطنت عليه الشمس فيمن يطينها
والبينة في شبهة حين سألني كما اشتبها في الخط سين وشينها

فكان يقول أبو مسلم حين ظهر أمره: لو وجدته لقتلته بإقراره على نفسه.

وفي هذه السنة: حُكِم بهلول بن بشر الملقب كثارة فقتل.

ذكر الخبر عن خروجه ومقتله

كان بهول نبالة، وكان به أنق، وهو مشهور بالبأس، والحدة عند هشام بن عبد الملك.

فخرج يريد الحج، فلما كان بسواد الكوفة أمر غلامه أن يبتاع له خلاً بدرهم، فجاء إليه غلامه بخمر، فردّه وقال: استرجع الدرهم.

فلما رجع الغلام يجبه البائع إلى ذلك، فجاء بهلول إلى عامل القرية[1]، وكلّمه.

فقال العامل: الخمر خير منك ومن قومك[2].

= ويقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق تكلم باسمه الأعظم فطار فوقع على تاجه، ثم كتب بإصبعه على كفه أعمال عباده من المعاصي والطاعات، فلما رأى المعاصي إرفضّ عرقاً فاجتمع من عرقه بحران، أحدهما: ملح مظلم، والآخر: عذب نيِّر.
ثم اطلع في البحر، فرأى ظله، فذهب ليأخذه فطار، فأدركه، فقلع عيني ذلك الظل، ومحقه، فخلق من عينيه الشمس وسماء أخرى.
وخلق من البحر الملح الكفار ومن البحر العذب المؤمنين.
وكان يقول: بألوهية علي، وتكفير أبي بكر، وعمر، وسائر الصحابة إلاّ مَن ثبت مع علي.
وكان يقول: إن الأنبياء لم يختلفوا في شيء من الشرائع.
وكان يقول بتحريم ماء الفرات، وكل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة.
وكان يخرج إلى المقبرة، فيتكلم فيرى أمثال الجراد على القبور.
وجاء المغيرة إلى محمد الباقر، فقال له: أقرر أنك تعلم الغيب حتى أجبي لك العراق.
فنهره وطرده.
وجاء إلى ابنه: جعفر بن محمد الصادق، فقال له: مثل ذلك، فقال: أعوذ بالله.
وكان الشعبي يقول للمغيرة: ما فعل الإمام؟ أتهزأ به؟
فيقول: لا إنما أهزأ بك.
وأما بيان، فإنه كان يقول بألوهية علي، وأن الحسن والحسين إلاهان، ومحمد ابن الحنفية بعدهم، ثم بعده ابنه أبو هاشم بن محمد بنوع من التناسخ.
وكان يقول: إن الله تعالى يفني جميعه إلاّ وجهه، ويحتج بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.
تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.
وادعى النبوة، وزعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾.

(١) في الكامل: وهي من السواد. (٢) في الكامل: ومن قولك.

فمضى بهلول في حجه حتى فرغ منه.

ثم عزم على الخروج على السلطان، فلقي بمكة مَن كان على مثل رأيه، فأقعدوا[١] قرية من قرى الموصل.

واجتمع إليه أربعون رجلاً، وأمَّروا عليهم البهلول، وأجمعوا على أن لا يمروا بأحد إلاّ أخبروا أنهم أقبلوا من عند هشام على بعض الأعمال، ووجههم إلى خالد لينفذهم في أعمالهم، فجعلوا لا يمرون بعامل إلاّ أخبروه بذلك، وأخذوا منه دواب البريد.

فلما انتهوا إلى القرية التي كان ابتاع الغلام فيها الخل، فأُعطي الخمر، قال [بهلول: نبدأ بهذا العامل فنقتله فقال له][٢] أصحابه: نحن نريد قتل خالد، فإن بدأنا بهذا شُهرنا وحذرنا خالد وغيره[٣]، ولعل خالداً يفلت، وهو الذي يهدم المساجد، ويبني البيع والكنائس، ويولي المجوس على المسلمين، وينكح أهل الذِّمة المسلمات، [فاذهب بنا إليه لعلنا نقتله فيريح الله منه][٤].

قال: لا، والله، إن تركت هذا وأتيت خالداً لعلي لا أظفر بما أُريد ويفوتني هذا، والله يقول: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ قالوا: أنت ورأيك.

فأتاه فقتله، فنذر[٥] بهم الناس، وعلموا أنهم خوارج، وابتدروا إلى الطريق هرباً.

وخرجت البُرُد إلى خالد، فأعلموه أن خارجة خرجت، وهم لا يدرون مَن رئيسهم فخرج خالد من واسط حتى أتى الجزيرة في خلق كثير.

وكان قدم في تلك الأيام قائد من أهل الشام في بني القين، قد وجهوا مدداً لعامل خالد على الهند، فنزلوا الحرة.

فقصدها خالد، ودعا رئيسهم، وقال له: قاتل هؤلاء المارقة، فإنِّي أُعطي مَن قَتَل منهم واحداً عطاءً سوى ما قبض بالشام، وأعفيه من الخروج إلى أرض الهند ـ وكان الخروج إلى أرض الهند شاقًّا عليهم ـ.

فتسارعوا إلى ذلك، وقالوا: نقتل هؤلاء النفر الثني[٦] ونرجع إلى بلادنا.

---

(١) في المخطوط: «فاقعدوا» والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل، وأحسبه ساقط من المخطوط.
(٣) بعد هذا في الكامل: فأنشدناك الله أن لا تقتل هذا فيفلت منا خالد. . .
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) تعليق على هذه الكلمة بالهامش غير ظاهر، والمراد بالنذر هنا الإخبار والإعلام.
(٦) في الهامش تعليق على هذه الكلمة هو: الثني: هو واحد المثنى، وهو تضاعيفه. «الصحاح».

فتوجه القيني إليهم في ستمائة وَضَمَّ [٣٦/ب] إليهم خالد مائتين من شرطة الكوفة وقال القائد: لا تكونوا معنا، وإنما يريد في نفسه أن يخلو هو وأصحابه بالقوم، فيكون الظفر لهم دون غيرهم لما وعدهم خالد[١].

وخرج إليهم بهلول، فسأل عن رئيسهم حتى عرف مكانه، ثم حمل عليه فطعنه في فرج درعه فأنفذه.

فقال: قتلتني قتلك الله.

فقال بهلول: إلى النار، وأبعدك الله.

وولى أهل الشام مع شرط أهل الكوفة منهزمين حتى بلغوا الكوفة، وبهلول وأصحابه يقاتلونهم.

فأما الشاميون مَن كان منهم على خيول جياد فأتوه.

وأما الشرط فإنه لحقهم، فقالوا: اتقِ الله فينا، فإنّا مكرهون قهورون.

فجعل يقرع رؤوسهم برمحه، ويقول: النجاء النجاء.

وأصاب بهلول مع القيني بَدْرَة [فأخذها][٢].

وكان بالكوفة ستة نفر يرون رأي بهلول فخرجوا يريدونه، فقتلوا، وخرج إليهم البهلول وحمل البدرة بين يديه فقال: مَن قتل هؤلاء النفر حتى أعطيه هذه الدراهم؟ فجعل هذا يقول: أنا، وهذا يقول: أنا، حتى عرفهم ـ وهم يرون أنه من قِبلِ خالد جاء ليعطيهم ثواب ما فعلوا ـ.

فقال بهلول لأهل القرية: أصدق هؤلاء هم قتلوا هؤلاء النفر؟

قالوا: نعم.

وكان خشي بهلول أن يكونوا ادّعوا ذلك طمعاً في المال، فقال لأهل القرية: انصرفوا أنتم.

وأمر بؤلائك فقتلوا.

وبلغ هزيمة القوم خالداً، فأنفذ إليه جيشاً مع قائد من بني شيبان فلقيهم بين

---

(١) في الكامل على النحو التالي.
فسارعوا إلى ذلك، فتوجه مقدمهم ـ وهو من بني القين ـ ومعه ستمائة منهم.
فضم إليه خالد مائتين من الشرط.
فالتقوا على الفرات، فقال القيني لمَن معه من الشرط: لا تكونوا معنا، ليكون الظفر له ولأصحابه.

(٢) زيادة من الكامل.

الموصل والكوفة.

فشدّ عليه البهلول، فقال: نشدتك الرحم فإني جامح مستجير.

فكفّ عنه وانهزم أصحابه، فأتى خالداً وهو بالحيرة فلم يرعه إلاّ الفل قد هجم عليه[١].

وارتحل بهلول من يومه يريد الموصل.

فكتب عامل الموصل إلى هشام: أن خارجة خرجت، وأنه يخافهم، ويسأله جنداً يقاتلهم بهم.

فكتب إليه هشام: وجه إليه كثارة بن بشير[٢].

ـ وكان هشام لا يعرف البهلول إلا بلقبه ـ.

فكتب إليه العامل: أن الخارج هو كثارة.

وكان البهلول قال لأصحابه: ما نصنع بابن النصرانية ـ يعني خالداً ـ وإنما خرجت لله تعالى فلما لا نطلب الرأس الذي يسلط خالداً وأشباهه؟

فتوجه إلى الشام يريد هشاماً.

فخاف عمال هشام [من هشام][٣] إن تركوه يجوز بلادهم إليه فجند له خالد جنداً من [العراق. وسيّر عامل الجزيرة جنداً من الجزيرة، ووجّه هشام جنداً من][٢] الشام فاجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل[٤].

وأقبل بهلول حتى انتهى إليهم، فنزل على أهل الدير، فقالوا له: تزحزح عن الدير حتى نخرج إليك.

فتنحّى، فخرجوا إليه، فلما رأى كثرتهم [٣٧/أ] وهو في سبعين، جعل من أصحابه ميمنة، وميسرة، ثم أقبل على أعدائه، فقال: أكلكم يرجو أن نقتلهم ونسلم[٥]، فيأتي أهله سالماً؟

قالوا: نعم، إنّا نرجو ذلك إن شاء الله.

فشدّ على رجل عظيم من عظمائهم فقتله، فقال: أما هذا فلا يأتي أهله أبداً.

---

(١) في الكامل: وبلغت الهزيمة خالداً وما فعل بصريفين فوجّه إليه قائداً من شيبان أحد بني حوشب بن يزيد بن رويم فلقيه فيما بين الموصل والكوفة فانهزم أهل الكوفة، فأتوا خالداً.

(٢) كذا في المخطوط؛ وفي الكامل في التاريخ: كثارة بن بشر.

(٣) زيادة من الكامل أرجح سقوطها من المخطوط.

(٤) في الكامل: وقيل: التقوا بكحيل دون الموصل.

(٥) في المخطوط: أكلكم ترجو أن تقتلنا ويسلم... وقد أصاب العبارة تحريف، فأصلحته على ما يقتضي السياق، والله أعلم.

ولم يزل هذا ديدنه حتى قتل ستة فانهزموا ودخلوا الدير، وحاصرهم حتى جاءتهم الأمداد، فكانوا عشرين ألفاً.

فقال له أصحابه: ألا نعقر دوابنا، ثم نشدّ عليهم شدةً واحدة؟

فقال: لا حتى نبلى عذراً ما استمسكنا على دوابنا.

فقاتلوهم عامة نهارهم، حتى فشى فيهم القتل والجراح.

ثم إن بهلولاً نزل هو وأصحابه فعقروا دوابهم، وترجّلوا لهم، وأصلتوا السيوف، وقتل عامة أصحاب البهلول، وهو يقاتل ويذود عن أصحابه إلى أن حمل عليه رجل يكنى أبا الموت، فصرعه، فأتاه مَن بقي من أصحابه، وقالوا له: وَلِّ أمرنا من بعدك مَن يقوم به.

فقال: إن هلكت فأمير المؤمنين دعامة الشيباني[1].

ومات البهلول في ليلته، وهرب دعامة[2].

ثم دخلت سنة عشرين ومائة

وفيها: هلك أسد بن عبد الله من دبيلة كانت في جوفه.

فاستخلف جعفر بن حنظلة البهراني، فعمل أربعة أشهر.

---

(١) في الكامل: فطعن بهلول فصرع، فقال له أصحابه: وَلِّ أمرنا من بعدك من يقدم له، فقال: إن هلكت فأمير المؤمنين دعامة الشيباني، وإن هلك فأمروا اليشكري، ومات البهلول من ليلته، فلما أصبحوا هرب دعامه، وخلاهم.

(٢) زاد ابن الأثير في هذا الخبر وفي أحداث تلك السنة في الكامل في التاريخ ما يلي: فلما قتل بهلول خرج عمرو اليشكري، فلم يلبث أن قتل.
وخرج البحتري صاحب الأشهب ـ وبهذا كان يعرف ـ على خالد في ستين.
فوجه إليه خالد الشمط مسلم البجلي في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفرات، فانهزمت الخوارج، فتلقاهم عبيد أهل الكوفة، وسفلتهم فرموهم بالحجارة حتى قتلوهم.
ثم خرج وزير السختياني على خالد بالحيرة في نفر، وجعل لا يمر بقرية إلاّ أحرقها، ولا يلقى أحداً إلاّ قتله، وغلب على ما هنالك وعلى بيت المال.
فوجه إليه خالد جنداً فقاتلوا عامة أصحابه، وأثخن بالجراح، وأُتي به خالد، وأقبل على خالد فوعظه، فأعجب خالداً ما سمع منه، فلم يقتله وحبسه عنده.
وكان يأتي به في الليل، فيحادثه، فسُعي بخالد إلى هشام، وقيل: أخذ حرورياً قد قتل، ومرق، وأباح الأموال، فجعله سميراً. فغضب هشام، وكتب إليه يأمره بقتله. وكان خالد يقول: إني أنفس به عن الموت فأخر قتله.
فكتب إليه هشام ثانياً يذمه، ويأمره بقتله وإحراقه.
فقتله، وأحرقه، ونفراً معه، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات وهو يقرأ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.
وفي هذه السنة: خرج الصحارى بن شبيب بن يزيد بناحية جبل، وكان قد أتى خالداً يسأله الفريضة.
فقال خالد: وما يصنع ابن شبيب بالفريضة. فمضى، وندم خالد، وخاف أن يفتك عليه، =

وجاء عهد نصر بن سيار في رجب سنة في إحدى وعشرين(١).

= فطلبه، فلم يرجع إليه، وسار حتى أتى جبل، وبها نفر من بني تيم اللات بن ثعلبة، فأخبرهم، فقالوا: وما نرجو من ابن النصرانية، كنت أولى أن تسير إليه بالسيف فنضربه به.
فقال: والله ما أردت الفريضة، وما أردت إلاّ التوصل إليه لئلا أقتله ينكرني، ثم أقتله بفلان - يعني بفلان رجلاً من قعدت الصفرية وكان خالد قَتَلَهُ صبراً - ثم دعاهم إلى الخروج معه، فتبعه منهم ثلاثون رجلاً، وخرج بهم، فبلغ خبره خالداً فقال: قد كنت خفتها منه، ثم وجه إليه خالد جنداً، فلقوه بناحية المناذر، فقاتلهم قتالاً شديداً، فقتلوه، وجميع أصحابه.
وفيها: غزا أسد الختل، فوجّه مصعب بن عمرو الخزاعي إليها، فسار حتى نزل بقرب بدر طرخان، فطلب الأمان ليخرج إلى أسد، فآمنه مصعب وسيّره إلى أسد فسأله أن يقبل منه ألف ألف درهم. فأبى أسد وقال: إنك دخلتها وأنت غريب من أهل الباميان، أخرج من الختل كما دخلت.
فقال بدر طرخان: فأنت دخلت إلى خراسان على عشرة من الدواب، ولو خرجت منها لم تحتمل على خمسمائة بعير، وغير ذلك، إني دخلت الختل شاباً، فأردد عَلَيّ شبابي وخذ ما كسبت منها.
فغضب أسد وردّه إلى مصعب ليمكنه من العودة إلى حصنه.
فوصل بدر طرخان مع مولى لأسد إلى مصعب فأخذه سلمة بن عبيد الله وهو من الموالي وقال: إن الأمير يندم على تركه وحبسه عنده.
وأقبل أسد بالناس وقال لمجشر بن مزاحم: كيف أنت؟ قال مجشر: كنت أمس أحسن حالاً من اليوم، كان بدر طرخان في أيدينا، وعرض ما عرض فلا الأمير قبل منه ما عرض عليه، ولا هو شدّ يده عليه، ولكنه خلّى سبيله، وأمر بإدخاله حصنه.
فندم أسد عند ذلك، وأرسل إلى مصعب يسأله: هل دخل بدر طرخان حصنه أم لا؟
فجاء الرسول فوجده عند سلمة بن عُبيد الله، فحوّله أسد إليه، وأمر به فقُطعت يده وقال: من هاهنا من أولياء أبي فديك؟ رجل من الأزد كان بدر طرخان قد قتله - فقام رجل من الأزد فقال: أنا.
فقال: اضرب عنقه، ففعل.
وغلب أسد على القلعة العظمى، فبقيت قلعة فوقها صغيرة، وفيها ولده وأمواله، فلم يصل إليها.
وفرق أسد العسكر في أودية الختل فملأ أيديهم من الغنائم والسبي، وهرب أهله إلى الصين.
وفي هذه السنة: غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم.
وحجّ بالناس هذه السنة: أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك، وحجّ معه ابن شهاب الزهري.
وكان العامل على مكة والمدينة والطائف: محمد بن هشام المخزومي. وعلى العراق والمشرق كله: خالد القسري. وعلى خراسان: أخوه أسد.
وقيل: كان أسد قد هلك في هذه السنة، فاستخلف عليها جعفر بن حنظلة البهراني. وقيل: إنما هلك أسد سنة عشرين ومائة.
وفيها: غزا مروان بن محمد أرمينية، فدخل بلاد اللان، وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخزر، فمرّ ببلنجر وسمندر وانتهى إلى البيضاء التي يكون فيها خاقان، فهرب خاقان منه.
وفيها: توفي حبيب بن أبي ثابت، وعبد الرحمٰن بن سعيد بن يربوع المخزومي، وقيس بن سعد المكي، وسليمان بن موسى الأشدق، وإياس بن سلمة بن الأكوع.

(١) فصل ابن الأثير الخبر في ذلك في الكامل فقال: في هذه السنة في ربيع الأول توفي أسد بن عبد الله القسري بمدينة بلخ، وكان سبب موته: أنه كان به دبيلة، فأصابه مرض، ثم أفاق منه، فخرج يوماً فأتي بكمثري أول ما جاء، فأطعم الناس منه واحدة واحدة، وأخذ كمثراة فرمى بها إلى خراسان دهقان هراة.
فانقطعت الدبيلة، فهلك، واستخلف جعفر بن حنظلة البهراني، فعمل أربعة أشهر. =

وفي هذه السنة: واجهت شيعة بني العباس بخراسان إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم، وما هم عليه.

ذكر السبب في ذلك

كانت من محمد بن علي على مَن كان بخراسان من شيعته من أجل طاعتهم كانت لخداش الذي ذكرنا خبرة وقبولهم من الكذب الذي رواه لهم عنه.

فلما أبطأ كتابه اجتمعوا فذكروا ذلك منهم، فأجمعوا على الرضا بسليمان بن كثير ليلقاه بأمرهم ويخبره عنهم ويرجع إليهم بما يَرُدّ عليهم.

فقدم سليمان بن كثير على محمد بن علي وهو متنكر، فأخبره عنهم بطاعة وخير، فعنّفهم وقال: لعن الله خداشاً ومَن كان على رأيه ومَن سمع مقالته فأجابه إليها.

ثم صرف سليمان إلى أهل خراسان، فسأله أن يكتب إليهم معه كتاباً، فكتب كتاباً وختمه.

فلما قدم عليهم سليمان فضُوا خاتم الكتاب، فلم يجدوا فيه إلا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾.

فأغلظ[1] ذلك عليهم [٣٧/ ب] وعلموا أن ما كان أتاهم به خداش مخالف لأمره.

= ثم جاء عهد نصر بن سيار بالعمل في رجب، وكان هذا خراسان دهقان هراة خصيصاً بأسد، فقدم عليه في المهرجان ومعه من الهدايا والتحف ما لم يحمل غيره مثله.
وكانت قيمة الهدايا ألف ألف، وقال لأسد: إنّا معشر العجم أكلنا أربعمائة سنة بالحلم، والعقل، والوقار، وكان الرجال فينا ثلاثة: ميمون النقيبة أينما توجه فتح الله عليه.
والذي يليه رجل تمت مروءته في بيت فإن كذلك رحب وجياً.
ورجل رحب صدره وبسط يده، فإذا كان كذلك قدم وقود.
وقد جعل الله صفات هؤلاء الثلاثة فيك، فما يعلم هو أتم كتخدائية منك، إنك عزيز ضابط أهل بيتك، وحشمك ومواليك فليس منهم من يستطيع أن يعتدي على صغير ولا كبير.
ثم بينت الإيوانات من المفاوز من أحسن ما عمل.
ومن يُمن نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مائة ألف ومعه الحارث بن سريج فهزمته، وقتلت أصحابه، وأبحت عسكره.
وأما رحب صدرك، وبسط يدك: فإنّا لا ندري أي المالين أحب إليك أمال قدم عليك أم مال خرج من عندك، بل أنت بما خرج أقر عيناً. فضحك أسد وقال: أنت خير دهاقيننا، وفرق جميع الهدايا بين أصحابه.
ولما مات أسد رثاه ابن العرس العبدي فقال:

نعى أسد بن عبد الله ناع ... فريع القلب للملك المطاع
ببلخ وافق المقدار يسري ... وما لقضاء ربك من دفاع
فجودي عين بالعبرات سَحًا ... ألم يحزنك تفريق الجماع

ثم ذكر أشعاراً أخرى في رثائه.

(١) في الكامل: «فعظم».

ثم أنفذ محمد بن علي، بكير بن ماهان[١] إلى شيعته بخراسان، وبعث معه بعصى مُضَبَّبَة بعضها بالحديد، وبعضها بالشبة[٢]. فقدم بها بكير بن ماهان، وجمع النقباء، والشيعة، ودفع إلى كل رجل منهم عصاً. فعلموا أنهم عُصاة[٣]، فرجعوا وتابوا، واعتذروا إلى بكير.

وفي هذه السنة: عزل هشام، خالد بن عبد الله عن أعماله كلها.

ذكر السبب في عزل خالد بن عبد اللّه القسري ونكبته

كان السبب في ذلك سَكْرَةٌ عرضت لخالد من طول الولاية، وعز الإمرة، وكثرة ما اجتمع عليه من الأموال.

فمن ذلك أن كاتباً كان لابنه خلا به يوماً فقال له: كم غلة أبي؟

فقال: قد زاد على عشرة ألف ألف درهم.

فقال: إنني مظلوم ما تحت قدمي من شيء إلاّ وهو له.

يعني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل لبجيلة رفع السواد[٤].

وكان خالد قد اتخذ بالعراق أموالاً وحفر أنهاراً[٥]، حتى بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم.

وكان كثيراً ما يقول في خلوته عند مَن يأنس به: هذا ابن الحمقاء - يعني هشام بن عبد الملك - وكانت أم هشام مستحمقة.

فتكلّم فيه أولاً هشام وحسدوه، وسبعوه هم وأهل بيت مروان، فكان أحد الأسباب الذي غاظ هشاماً: أنه دخل على خالد رجل من قريش من أولاد سعيد بن العاص أو عمرو بن العاص فتبسّط عنده، فاستخفّ به خالد، وعضهه بلسانه.

فكتب إلى هشام يشكوه، فكتب هشام إلى خالد:

أما بعد: فإن أمير المؤمنين، وإن كان أطلق يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره، واستحفظك عليه للذي رجا من كفايتك، ووثق به من حسن نذيرك، لم يفرشك غيرة

---

(١) بعد هذا في الكامل في التاريخ: بعد عود سليمان من عندهم.

(٢) كذا في المخطوط. وفي الكامل في التاريخ «بالنحاس».

(٣) في الكامل: مخالفون لسيرته.

(٤) بعد هذا في الكامل: وأشار عليه العريان بن الهيثم، وبلال بن أبي بردة بعرض أملاكه على هشام ليأخذ منها ما أراد، ويضمنان له الرضا، فإنهما قد بلغهما تغير هشام عليه، فلم يفعل ولم يجبهما إلى شيء.

(٥) في الكامل: منها: نهر خالد، وباجري، وتارمانا، والمبارك، والجامع، وكورة سابور، والصلح.

أهل بيته لتطأه بقدمك، ولا تُحِدّ إليه بصرك، فكيف بك وقد بسطت عليه لسانك تريد بذلك تصغير خطره، واحتقار قدره، وزعمت بالنصفة منه حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ له في اللفظ تحضر العامة غير متخلخل له حين رأيته مقبلاً من صدر مهادك الذي مهدك الله تعالى فيه وفي قومك مَن يعلوك بحسبه وبغمرك ما وليته، فنلت مهادك بما رفع به إليه عمرو من ضعتك خاصة، مساور من بك فروع عرر القبائل وقزومها قبل أمير المؤمنين حتى طلت هضبة. . .[1] عليهم هذا إذا لم تدهده بك قلة شكرك متحطماً وقيذاً، فهلا يا ابن محرشة قومه أعظمت رجلهم عليك داخلاً وخارجاً، ووسعت [٣٨/ أ] مجلسه، فإذا رأيته مقبلاً إليك وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً، ثم فاوضته مقبلاً عليه ببشرك إكراماً لأمير المؤمنين، فإذا اطمأن به مجلسه نازعته نجى السرار معظماً لقرابته عارفاً لحقه، فهو سر البيتين ونائبهم، وابن شيخ آل أبي العاص، فبالله يقسم أمير المؤمنين لولا ما تقدّم من حرمتك، وما تكره من شماتة عدوك فيك لوضع ما رفع قدرك حتى تفقد بها أهل الحوائج بعراقك وتزاحم المواكب ببابك، وما أقربني من أن أجعلك تابعاً لمَن كان لك تبعاً، فانهض على أي حال لقاك به رسول أمير المؤمنين وكتابه من ليل أو نهار ماشياً على قدميك بمَن معك من حولك حتى تقف بباب ابن عمرو صاغراً، مستأذناً عليه متنصلاً إليه أذن لك أو منعك، فإن حركته عواطف رحمة احتمائك، وإن احتمته حميته وأنفته من دخولك عليه، فقف ببابه حولاً غير متخلخل ولا زائل ثم أمرك إليه بُعْدَ عزل أو ولاية انتصر أو عفا، فلعنك الله من متكل عليه بالثقة، ما أكثر هفواتك واقذع لأهل الشرف ألفاظك التي لا تزال تبلغ أمير المؤمنين من إقدامك بها على مَن هو أولى مما كنت فيه من ولاية مصري العراق وأقدم وأقوم.

وقد كتب أمير المؤمنين إلى ابن عمه بما كتب به إليك من إنكاره عليك ليرى في العفو عنك والسخط عليك رأيه مفوضاً ذلك إليه مبسوطة فيه يده محموداً عند أمير المؤمنين على أيها أتى إليك موفقاً إن شاء الله.

وكتابه إلى ابن عمرو، وفي أخرى ابن عمر: أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك وفهم ما ذكرت من بسط خالد عليك لسانه في مجلس العامة، محتقراً لقدرك مستصغراً لقرابتك بأمير المؤمنين وعواطف رحمه عليك وإمساكك عنه تعظيماً لأمير المؤمنين وسلطانه وتمسكاً بوثائق عصم طاعته على مؤلم ما تداخلك من قبائح ألفاظه وشرارة منطقه وإكبابه عليك عند إطراقك عنه مروى فيما أطلق أمير المؤمنين من لسانه وأطال من عنانه، ورفع من ضعته ونوّه من خموله وكذلك أنتم آل سعيد في مثلها عند هذر الزمان في وطايشه أحلامها صُمت غير ما تحام بأحلام تحف بالجبال، وقد

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

حمد أمير المؤمنين تعظيمك إياه وتوقيرك سلطانه وشكره، وقد جعلت أمر خالد إليك في عزله وإقراره، فإن عزلته أمضى عزلك إياه، وإن أقررته فتلك مِنَّة لك عليه لا يشركك أمير المؤمنين فيها، وقد كتب إليه أمير المؤمنين بما يطرد له عنه سنه الهاجع عند وصوله يأمره بإتيانك راجلاً [٣٨/ب] على حاله صادفه كتاب أمير المؤمنين وألفاه رسوله الموجّه إليك من ليله أو نهاره حتى يقف ببابك أذنت له أو حجبته أقررته أو عزلته، وتقدّم أمير المؤمنين إلى رسوله في ضربه بين يديك عشرين سوطاً على رأسه إلاّ أن تكره أن يناله ذلك بسببك لحرمة خدمته فأيهما رأيت أمضاه، كان لأمير المؤمنين في بره لك وتعظيمه حُرمتك وقرابتك وصلت رحمك موفقاً وإليه حبيباً فيما ينوي من قضاء حق آل أبي العاص وسعيد، فكاتب أمير المؤمنين فيما تريد مبتدياً ومجيباً، ومحادثاً وطالباً مما عسى أن ينزل بك أهلك من حوائجهم التي تقعد بهم الحشمة عن تناولها من قبله لبعد دارهم عنه وقلة إمكان الخروج لأمر الهابة غير محتشم من أمير المؤمنين، ولا مستوحش من كرارها عليه على قدر قرابتهم وإدمانهم وأسنانهم مستميحاً ومسترفداً وطالباً[1] مستزيداً تجد أمير المؤمنين سريعاً بالبر لما بحلول من صلة قرابتهم، وقضاء حقوقهم وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي وإليه يرغب في العون على قضاء حقوق قرابته، وعليه يتوكل وبه يثق، والله وليه ومولاه والسلام.

ومما جناه خالد على نفسه: أن رجلاً يقال له فروخ كان قد يقبل من ضياع هشام بن عبد الملك بموضع يقال له نهر الرمان، فكان يدعى لذلك فروخ الرماني.

فثقل مكانه على خالد، فقال خالد لحسان النبطي[2]: ويحك اخرج إلى أمير المؤمنين وزد على فروخ.

فخرج حسان فزاد عليه ألف ألف.

فبعث هشام معه رجلين من صلحاء أهل الشام فحازا الضياع.

فصار حسان أثقل على خالد من فروخ، فجعل يضربه ويؤذيه.

فيقول حسان: لا تعتدي وأنا صنيعتك، فأبى إلاّ الإضرار به حتى بثق عليه البثوق.

فخرج حسان إلى هشام، فقال: إن خالداً بثق البثوق على ضياعك.

فوجه هشام رجلاً فنظر إليها ثم رجع، فأخبره.

وأقام حسان يفسد أمر خالد حتى قال يوماً لخادم من خدم هشام: إن تكلمت

---

(١) من أول قوله: مما عسى أن ينزل بك . . . إلى موضع العلامة تكرر في المخطوط، فحذفت التكرار.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: حيان النبطي.

بكلمة أقولها لك حيث يسمع هشام فلك عندي ألف دينار.

قال: فعَجّل لي الألف وأقولها ما شئت فعجلها له، وقال له: تُبْكيء صبياً [٣٩/أ] من صبيان هشام، فإذا بكى فقل له: اسكت والله لكأنك ابن خالد القسري الذي غلته ثلاثة عشر ألف ألف درهم.

ففعل، فلما سمعها هشام دارت في نفسه فلما دخل عليه حسان قال: ادن مني.

فدنا منه، فقال: كم غلة خالد؟

قال: عشرون ألف ألف.

قال: فكم غلة ابنه؟

قال: ثلاثة عشر ألف ألف.

قال: فكيف لم تخبرني بهذا؟

قال: وهل سألتني؟

فوقرت في نفس هشام حتى عزله.

وما كتب به هشام إلى خالد: قد بلغني يا ابن أم خالد أنك تقول ما ولاية العراق لي بشرف، فيابن اللخناء كيف [لا تكون إمرة العراق لك شرفاً فأين][1] أنت من بجيلة القليلة الذليلة أما والله إني لأظن أن أول مَن يأتيك صقر[2] من قريش يشد يديك إلى عنقك.

وكان من أسباب مؤاخذته أيضاً: أن رجلاً قدم عليه، فقال: إني سمعت خالداً ذكر أمير المؤمنين بما لا تلتقي به الشفتان.

قال: قال الأحول؟

قال: لا بل أشد من ذلك.

قال: فما هو؟

قال: لا أقوله أبداً.

ولما صحّ عزم هشام على عزل خالد: أحب أن يكتم ذلك حتى يتممه، فاختار لمكانه يوسف بن عمر، وكان يومئذ والي اليمن.

فكاتبه، فقدم عليه جندب مولى يوسف بكتاب له، فقرأه، ثم قال: لكاتبه[3] أجبه على لسانك.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: صغير.

(٣) في المخطوط: لكتابه. وهو تحريف.

وكتب هو بخطه كتاباً صغيراً، ثم قال: ائتني بكتاب سالم ـ وكان سالم على الديوان ـ فأتيته به، فأدرج فيه الكتاب الصغير، ثم قال: اختمه، ففعلت.

ثم دعا برسول يوسف، فقال: إن صاحبك لمتعدٍّ طوره، ويسأل فوق قدره، قال لي مزق ثيابه.

ثم أمر بضربه، فضرب أسواطاً، وقال أخرجه عني، وادفع إليه كتابه.

فدفعت إليه الكتاب، وقلت له: ويلك، النجاء فارتاب بشير بن أبي طلحة بذلك ـ وكان خليفة سالم ـ وقال: هذه حيلة، والله وقد ولي يوسف العراق.

فكتب إلى عياض، وهو صاحب طارق بن أبي زياد ـ وطارق هذا خليفة خالد على العراق ـ وكان كتابه إلى عياض:

إن أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني فإذا أتاك فالبسه واحمد الله واعلم ذلك طارقاً.

فبعث عياض إلى طارق بالكتاب، وندم بشير على كتابه فكتب إلى عياض:

إن أهلك قد بدا لهم في إمساك الثوب فلا تكل عليه.

فجاء عياض بالكتاب الأخير إلى طارق.

فقال طارق: الخبر في الكتاب الأول، ولكن صاحبك ندم وخاف أن يظهر الكتاب فكتب بهذا.

ثم ركب طارق من الكوفة إلى خالد وهو بواسط فسار يوماً وليلة، فصبّحهم.

فرآه داود البريدي، وكان على حجابة خالد وحرسه وديوان الرسائل، فأعلم خالداً قدومه.

فغضب [٣٩/ب] وقال: قدم بغير إذن له.

فلما رآه قال: ما أقدمك؟

قال: أمر كنت أخطأت فيه.

قال: وما هو؟

قال: وفاة أسد رحمه الله، كتبت إلى الأمير أُعزيه فيه، وكان ينبغي أن آتيه ماشياً.

فرقّ خالد ودمعت عيناه، وقال: ارجع إلى عملك.

فقال: أردت أن أذكر للأمير أمراً أُسِرُّه إليه.

قال: ما دون داود سِرّ.

قال: أمر من أمري.

فغضب داود، وخرج، فأخبر طارق خالداً.

قال: فما الرأي؟

ذكر آراء أشير بها على خالد فلم يقبلها

قال: تركب إلى أمير المؤمنين، فتعتذر إليه من شيء إن كان بلغه عنك.

قال خالد: لا أركب إليه من غير إذنه.

قال: فشيء آخر.

قال: وما هو؟

قال: تسير في عملك، وأتقدمك إلى الشام فأستأذنه لك فإنك لا تبلغ أقصى عملك حتى يأتيك إذنه.

قال: فلا هذا.

قال: فاذهب، فاضمن لأمير المؤمنين جميع ما انكسر في هذه السنين وآتيك بعهده مستقبلاً.

قال: وما مبلغ ذلك؟

قال: مائة ألف ألف.

قال: ومن أين أجد هذا؟ والله ما أجد عشرة آلاف ألف درهم.

قال: أتحمل أنا وسعيد بن راشد أربعين ألف ألف درهم، والزينبي، وأبان بن الوليد عشرين ألف ألف درهم، وتفرق الباقي في العمال.

قال: إني إذاً للئيم إن كنت أعطيتهم شيئاً ثم أرجع فيه.

فقال طارق: إنّا نقيك ونقي أنفسنا بأموالنا [وتستأنف الدنيا وتبقى النعمة عليك، وعلينا خير من أن يجيء مَن يطالبنا بالأموال][1] وهي عند تجار أهل الكوفة فيتقاعسون، ويتربّصون بنا، فنقتل نحن، ويأكلون تلك الأموال.

فأبى خالد، فودّعه طارق، وبكى، وقال: هذا آخر ما نلتقي في الدنيا.

وتحدّث ابن عياش: أن بلالاً بن أبي كردة كتب إلى خالد ـ وهو عامله على البصرة ـ حين بلغه تعتُّب هشام عليه:

إنه حدث أمر لا أجد بُدًّا من مشافهتك به، فإن رأيت أن تأذن لي، فإنما هي ليلة ويومها إليك، ويوم عندك، وليلة ويومها منصرفاً.

---

(١) زيادة من الكامل.

فكتب إليه: أقبل إذا شئت.

فركب هو ومولیان له الحمازات، فسار يوماً وليلة، ثم صلّى المغرب بالكوفة - وهي ثمانون فرسخاً - فأُخبر خالد بمكانه، فأتاه، وقد تعصّب، فقال: يا أبا عمرو أتعبت نفسك.

فقال: أجل.

قال: متى عهدك بالبصرة؟

قال: أمس.

قال: أحق ما تقول؟

قال: هو والله ما قلت.

قال: فما أنصبك؟

قال: ما بلغني من تعتُّب أمير المؤمنين، وقوله، وما نعاك به ولده وأهل بيته، فإن رأيت أن نعرض [٤٠/أ] عليه بعض أموالنا، ثم ندعوه منها إلى ما أحب فأنفسنا به طيبة، ثم اعرض عليه مالك، فما أخذ لطلبنا العوض منه.

قال: ما اتهمك حتى أنظر.

قال: إني أخاف أن تعاجل.

قال: كلا.

قال: إن قريشاً مَن قد عرفت، ولا سيما سرعتهم إليك.

قال: يا بلال والله ما أعطي شيئاً قسراً أبداً.

قال: أيها الأمير، أتكلم؟

قال: نعم.

قال: إن هشاماً أعذر منك، يقول: استعملتك وليس لك شيء، فلم ترَ من الحق عليك أن تعرض على بعض ما صار إليك.

وأخاف أن يزين له حسان النبطي ما لا تستطيع إدراكه، فاغتنم هذه الفترة.

قال: أنا ناظر في ذلك، فانصرف راشداً.

وانصرف بلال، وقد يئس منه.

وكان رسول يوسف من عمر لما قدم عليه قال: قال له: ما وراءك؟

قال: الشر، أمير المؤمنين ساخط، وقد ضربني، ولم يكتب جواب كتابك، وهذا

كتاب سالم صاحب الديوان.

ففضّ الكتاب وقرأه، فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطه:

أن سِر إلى العراق، فقد وليتكه، وإياك أن يعلم بذلك أحد، وخذ ابن النصرانية وعماله فاشفني منهم.

فاستخلف يوسف ابنه، واختار دليلاً عالماً بالطريق، وسار، فسأله ابنه: أين تريد؟ فقال له: يا ابن اللخناء أيخفى عليك إذا استقر بي منزل، ثم سار فكان إذا أتى طريقين سأل فإذا قيل هذا إلى العراق قال: أعرق حتى آتي الكوفة[(١)].

فقال لغلامه كيسان: انطلق، فأتني بطارق، فإن كان قد أقبل، فاحمله على إكاف، وإن لم يكن أقبل، فأتي به سحباً.

قال: فأتيت الحيرة، دار عبد المسيح، وهو سيد أهل الحيرة، فقلت له: إن يوسف قد قدم على العراق، وهو يأمرك أن تشد طارقاً، وتأتيه به.

فخرج هو وولده وغلمانه حتى أتوا منزل طارق وكان لطارق غلام شجاع معه غلمان شجعان لهم سلاح وعدة.

فقال لطارق: إن أنت أذنت لي خرجت إلى هؤلاء فيمن معي فقتلتهم ثم طرت على وجهك حيث شئت.

فقال: لا، وأذن لكيسان.

فلما دخل قال: أخبرني عن الأمير ما الذي يريد؟

قال: المال.

قال: فأنا أعطيه ما سأل.

ثم أقبلوا إلى يوسف، فتوافوا بالحيرة، فلما عاينه ضربه ضرباً مبرحاً يقال[(٢)]: خمسمائة [سوط][(٣)].

فدخل المدينة ـ يعني الكوفة ـ فخطب بها، وتوعّد أهل العراق.

وقال: والله لأقتلن منافقيكم بالسيف. . .[(٤)] بالعذاب، وفساقكم بالسياط.

ثم نزل ومضى إلى واسط وأُتي بخالد وهو بها فحبسه، فتوسط بينهما الناس حتى

---

(١) في الكامل: فنزل الكوفة في جمادى الآخرة سنة عشرين ومائة، فنزل النجف، وأرسل مولا كيسان. . .

(٢) في المخطوط: فقال. والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) كلمة غير ظاهرة بالمخطوط.

صالحه أبان بن الوليد عنه على تسعة آلاف ألف درهم، فقبل يوسف[١].

وقيل [٤٠/ب] له لو لم تفعل لأخذت منهم مائة ألف ألف.

قال: ما كنت لأرجع، وقد رهنت لساني بشيء.

وأخبر [أصحاب[٢] خالد][٤] خالداً فقال: أسأتم حين أعطيتموه عند أول وهلة تسعة آلاف ألف، ما آمن أن يأخذها ثم يعود عليكم، فارجعوا إليه.

فجاؤوه، فقالوا: إن خالداً ليس يرضى بما ضمنا، وأخبرنا أن المال لا يمكنه.

فقال: أنتم أعلم وصاحبكم أما أنا فلا أرجع عليكم، فإن رجعتم لم أمنعكم.

قالوا: فإنا قد رجعنا.

قال: أوَقد فعلتم؟

قالوا: نعم.

قال: فمنكم أتى النقض، فوالله لا أرضى بتسعة آلاف ألف ولا أضعافها، فآخذ مائة ألف ألف[٣].

ثم كتب يوسف بن عمر إلى جديع بن علي الكرماني بولاية خراسان، فأتاه الكتاب بمرو.

---

(١) في الكامل: ودخل الكوفة وأرسل عطاء بن مقدم إلى خالد بالجمة، فأتى الرسول حاجبه، وقال: استأذن لي على أبي الهيثم. فدخل على خالد متغير اللون، فقال خالد: ما لك؟ قال: خير. قال: ما عندك خير؟! فقال: ويل أمها سخطة، ثم أخذه فحبسه، وصالحه عنه أبان بن الوليد وأصحابه على تسعة آلاف ألف. . . .

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زاد في الكامل في تفصيل الحكاية فقال: قال والله لا أرضى بمثلها ولا مثليها، فأخذ أكثر من ذلك. وقيل: أخذ مائة ألف. فأرسل يوسف إلى بلال بن أبي بردة فقبضه وكان قد اتخذ بلال بالكوفة داراً لم ينزلها فأحضره يوسف مقيداً، فأنزله الدار، ثم جعلت سجناً، وكان خالد يصل الهاشميين ويبرهم، فأتاه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ليستميحه، فلم يرَ منه ما يحب، فقال: أما الصلة فللهاشميين، وليس لنا منه إلاّ أنه يلعن عليًا.

فبلغت خالداً، فقال: إن أحب فلنا عثمان.

وكان خالد مع هذا يبالغ في سب علي، فقيل: كان يفعل ذلك نفياً للتهمة، وتقرباً إلى القوم.

وكانت ولاية خالد العراق في شوال سنة خمس ومائة.

وعزل في جمادى الأولى سنة عشرين ومائة.

ولما ولي يوسف العراق كان الإسلام ذليلاً، والحكم فيه إلى أهل الذمة فقال يحيى بن نوفل فيه:

أتانا وأهل الشرك أهل زكاتنا ... وحكامنا فيما نسر ونجهر
فلما أتانا يوسف الخير أشرقت ... له الأرض حتى كل واد منور
وحتى رأينا العدل في الناس ظاهراً ... وما كان من قبل العقيلي يظهر

فخرج إلى الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وذكر أسداً وما صنع الله تعالى للناس على يديه بعدما كانوا فيه من الشدة والجهد ثم ذكر أخاه خالداً بالجميل، فأثنى عليه.

وذكر قدوم يوسف العراق وحث الناس على الطاعة ولزوم الجماعة، فقال: غفر الله للميت - يعني أسد - وعافى المعزول، وبارك للقادم ثم نزل.

وفي هذه السنة: عزل جديع الكرماني عن خراسان، وولى نصر بن سيار.

ذكر السبب في ذلك

لما انتهت وفاة أسد إلى هشام استشار أصحابه فيمن يصلح لخراسان؟

فأشير عليه بقوم، فقال: اكتبوا أسماءهم فكان ممن كتب له عثمان بن عبد الله بن الشخير، ويحيى بن الحصين بن المنذر، ونصر بن سيار، والمجشر بن مزاحم السلمي وغيرهم.

فسأل عن عثمان بن الشخير.

فقيل: هو صاحب شراب.

وسأل عن المجشر فقيل: شيخ يهم.

وسأل عن ابن حصين، فقيل: فيه تيه وعظمة.

وسأل عن قطن بن قتيبة، قيل: موتور فاختار نصر بن سيار.

فقيل: ليست له بها عشيرة.

فقال هشام: أنا عشيرته.

فولاه وبعث بعهده، وكان هشام سأل عبد الكريم - وكان أتاه من خراسان مَن أخبره بموت أسد - بلغني أن لك بها وبأهلها علماً.

فقال: يا أمير المؤمنين، أما رجل خراسان حزماً ونجدة فالكرماني.

فأعرض بوجهه، وتطيّر من اسمه جديع، وقال: سمِّ لي غيره.

قال: قلت: اللسن المجرب - يعني يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني -.

قال: ربيعة لا يسد بها الثغور.

قال: عبد الكريم: قلت في نفسي: قد كره ربيعة [٤١/أ] واليمن، فارميه بمضر، فقلت: عقيل بن معقل الليثي إن اغتفرت هنته.

قال: ما هي؟

قلت: ليس بالعفيف.

قال: لا حاجة لي به.

قال: قلت: المجشر بن مزاحم عاقل شجاع له رأي.

قال: فيه كذب، ولا خير في الكذب.

قال عبد الكريم: وأخرت نصراً وهو رجلهم وأعرفهم بالسياسة.

ثم قلب نصر بن سيار الليثي، فقال: نصر بن سيّار هو لها.

قلت: فإن عشيرته بها قليلة.

قال: لا أبا لك، أكثر من أنا عشيرته؟! فولّى نصراً، وأمر بمكاتبة يوسف بن عمر، وكان يوسف قد سمى بخراسان جماعة وأوفد في ذلك وفداً، فأبى عليه هشام فيهم.

وكان خرج بعهد نصر إلى خراسان عبد الكريم الحنفي، أنفذه هشام مع كاتبه أبي المهند فوصل عبد الكريم بعشرة آلاف درهم، واستعمل نصر خلفاءه على كور خراسان[1] وعمر خراسان عمارة لم تعمر قط مثلها، ووضع الخراج وأحسن الولاية

---

(١) فصّل ابن الأثير استعماله على كورها في الكامل فقال: واستعمل على بلخ: مسلم بن عبد الرحمٰن بن مسلم.
واستعمل على مرو الروذ: وساج بن بكير بن وساج.
وعلى هراة: الحارث بن عبد الله بن الحشرج.
وعلى نيسابور: زياد بن عبد الرحمٰن القشيري.
وعلى خوارزم: أبا حفص بن علي، ختنه.
وعلى الصغد: قطن بن عتيبة.
قال رجل من اليمانية: ما رأيت عصبية مثل هذا.
قال: بلى التي كانت قبلها فلم يستعمل أربع سنين إلا مضرياً، وعمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها، وأحسن الولاية والجباية، فقال سوار بن الأشعر:

أصبحت خراسان بعد الخوف آمنه ... من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفاً الأخبار ما لقيت ... اختار نصراً لها نصر بن سيار

ومما زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة عما هنا أن قال:
وفي هذه السنة: غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة، وافتتح سندرة.
وفيها: غزا إسحاق بن مسلم العقيلي تومانشاه، وافتتح قلاعها وخرب أرضها.
وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.
وقيل: حجّ بهم سليمان بن هشام بن عبد الملك.
وقيل: أخوه يزيد بن هشام.
وكان العامل على مدينة، ومكة، والطائف: محمد بن هشام المخزومي.
وعلى العراق والمشرق: يوسف بن عمر.
وعلى خراسان: نصر بن سيار، وقد أمره هشام أن يكاتب يوسف بن عمر.
وقيل: كان عليها جعفر بن حنظلة.
وعلى البصرة: كثير بن عبد الله السلمي، استعمله يوسف، وعلى قضائها: عامر بن عبيدة.
وعلى أرمينية، وأذربيجان: مروان بن محمد. =

والجباية ومدحه الشعراء، وكان نصر شاعراً خطيباً فخطب الناس، وقال في خطبته: استمسكوا لأصحابنا بحديثكم، فقد عرفنا خيركم من شركم.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

وفيها: غزا مروان بن محمد بلاد صاحب سرير الذهب، ففتح قلاعه، وخرّب أرضه، فأذعن بالجزية له في كل سنة ألف رأس، وأخذ رهائنه، وملّكه على أرضه[1].

وفيها: قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم، في قول الواقدي.

وفي قول هشام بن محمد: قتل في سنة اثنتين وعشرين ومائة.

ذكر السبب في مقتله وسبب خروجه

كان بين أولاد الحسن والحسين عليهما السلام خصومة في صدقة رسول الله ﷺ، وكانوا يتنازعون إلى والي المدينة، وكان واليها يومئذ إبراهيم بن هشام وانتهت الخصومة إلى زيد بن علي من لزيد.

قال حسن بن حسن: أنا.

قال: إنا نخاف لسانك ويدك ولكني.

قال: إذاً لا تبلغ حاجتك.

= وعلى قضاء الكوفة: ابن شبرمة.

وفيها: مات عاصم بن عمر بن قتادة في أصح الأقوال.

وفيها: مات مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

وقيل: سنة إحدى وعشرين بالشام.

وفيها: مات قيس بن مسلم، ومحمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي، وحماد بن سليمان الفقيه، وواقد بن عمرو بن سعد بن معاذ، وعلي بن مدرك النخعي الكوفي، والقاسم بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود الكوفي.

(١) قال ابن الأثير في الكامل في هذا الخبر: وفي سنة إحدى وعشرين غزا مروان بن محمد بن مروان بأرمينية، وهو واليها، فأتى قلعة بيت السرير، فقتل وسبى.

ثم أتى قلعة ثانية فقتل وسبى، ودخل غوميك، وهو حصن فيه بنت الملك وسريره، فهرب الملك منه حتى أتى حصناً يقال له: خيزج فيه السرير الذهب، فسار إليه مروان، ونازله صيفيته، وشتويته، فصالح الملك على ألف رأس كل سنة، ومائة ألف مُدى.

وسار مروان، فدخل أزر وبطران، فصالحه ملكها.

ثم سار في أرض تومان، فصالحه، وسار حتى أتى أرض حمزين، فأخرب بلاده، وحصر حصناً له شهراً، فصالحه.

ثم أتى مروان أرض مسدارة، فافتتحها على صلح.

ثم نزل مروان كيران، فصالحه طبرسران وفيلان وكل هذه الولايات على شاطىء البحر من أرمينية إلى طبرستان.

قال: ولكني أبلغ حجتي.

فتنازعا يوماً، فأغلظ عبد الله لزيد، وقال: يا ابن العندكية.

فتضاحك زيد وقال: فعلتها يا أبا محمد.

ثم ذكر أمه بشيء[(١)].

وكانت ولاية المدينة يومئذ قد صارت إلى خالد بن عبد الملك وهذه الخصومة كانت عنده، فقال خالد: اغدوا علينا غداً، فلست لعبد الملك إن لم أفصل بينكما.

فباتت المدينة [٤١/ب] تغلي المرجل، يقول قائل: قال زيد كذا، ويقول قائل: قال عبد الله كذا.

فلما كان الغد، جلس خالد في المسجد، واجتمع الناس فمن شامت، ومن مهموم.

فدعا بهما ـ خالد ـ وهو يحب أن يتشاتما، فتبين ذلك لهما، وذهب عبد الله يتكلم.

فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً.

ثم قال: يا خالد، لقد جمعت ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر.

فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد؟

فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم فقال: يا ابن أبي تراب، وابن الحسين السفيه، أما ترى للوالي عليك حقاً ولا طاعة؟

فقال زيد: اسكت أيها القحطاني، فإنّا لا نجيب مثلك.

فقال: ولِمَ ترغب عني، فوالله إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمي خير من أمك.

---

(١) في الكامل: الخبر على النحو التالي: . . .وقيل: كان السبب في ذلك أن زيداً كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي في وقوف علي، وزيد يخاصم عن بني الحسين، وجعفر يخاصم عن بني الحسن. فكانا يتبالغان بين يدي الوالي كل غاية، ويقومان فلا يعيدان مما كان بينهما حرفاً فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن الحسن بن الحسن، فتنازعا يوماً بين يدي خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة، فأغلظ عبد الله لزيد، وقال: يا ابن السندية، فضحك زيد وقال: قد كان إسماعيل لأمة، ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها ـ يعني فاطمة بنت الحسين أم عبد الله فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن بن الحسن ـ ثم ندم زيد واستحى من فاطمة، وهي عمته، فلم يدخل عليها زماناً.
فأرسلت إليه يا ابن أخي إني لأعلم أن أمك عندك كأم عبد الله عنده. وقالت لعبد الله: بئس ما قلت لأم زيد، أما والله لنعم دخيلة القوم كانت. قال: فذكر أن خالداً قال لهما: اغدوا علينا غداً فلست لعبد الملك إن لم أفصل بينكما. . .

فتضاحك زيد وقال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب، ذهبت الأحساب، فوالله إنه ليذهب[١] دين القوم وما تذهب أحسابهم.

فتكلم عبيد الله[٢] بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت والله يا قحطاني، فوالله لهو خير منك نفساً، وأباً، وأمًّا ومحتداً، وتناوله بكلام كثير.

فقال القحطاني: دعنا منك يا ابن واقد.

فأخذ ابن واقد كفًّا من حصباء المسجد، فضرب بها في الأرض، ثم قال: أُفٍّ والله ما لنا على هذا صبر، وقام.

وشخص زيد إلى هشام بن عبد الملك.

فجعل هشام لا يأذن له.

فرفع إليه القصص، فكلما قرأ قصةً له، كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى أميرك[٣].

فيقول زيد: والله ما أرجع إلى خالد أبداً، وما أسأل مالاً، وإنما أنا رجل مخاصم.

ثم إن هشاماً أذن له يوماً بعد طول حبس، وجلس في علية له رفيعة[٤]، وأمر خادماً أن يتبعه ويتسع عليه.

وقال له: انظر لا يرنينك [وتسمع ما يقول][٥].

قال: فأتعبته الدرجة، وكان بادناً، فوقف في بعضها وقال: والله ما أحبَّ الدنيا أحد إلاّ ذَلّ[٦].

فلما أعيد ذلك على هشام، علم أنه خارج عليه.

فيقال: إن هشاماً قال له يوماً: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة، وتتمنّاها، ولست هناك، فإنك ابن أمة.

---

(١) في المخطوط: يذهب والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: عبد الله.
(٣) في الكامل: منزلك، وهو تحريف، وما هنا هو الأرجح للسياق.
(٤) في الكامل: طويلة.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) بعدها في الكامل: ثم صعد إلى هشام فحلف له على شيء، فقال: لأصدقك.
فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ولم يضع أحداً عن أن لا يرضى بذلك منه.
فقال هشام: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة. . . .

قال زيد: إن لك يا أمير المؤمنين جواباً.

قال: فتكلّم به.

قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وولد خيرهم محمداً ﷺ، وكان ابن أمة، وأخوه ابن صريحة فاختاره الله تعالى عليه، وأخرج منه خير البشر، وما على أحد [من ذلك إذ كان][(١)] جده رسول الله ﷺ [وأبوه علي بن أبي طالب][(١)] [٤٢/أ] ما كانت أمه أمة.

فقال له هشام: اخرج عني.

قال: إن خرجت لا تراني إلاّ حيث تكره.

فقال له سالم: لا يظهرن منك هذا[(٢)].

ثم إن خالد بن عبد الله القسري ادّعى مالاً له قِبَل زيد بن علي، ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس، وإبراهيم بن سعد بن عبد الرحمٰن الزهري، وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي.

فقدمت كتب يوسف بن عمر على هشام بذلك فبعث إليهم يخبرهم بما ادّعى عليهم خالد، فأنكروا.

فقال له هشام: فاخرجوا إليه بجمع بينكم وبينه.

فقال له زيد بن علي: أنشدك الله والرحم أن تبعث بي إلى يوسف بن عمر.

قال: وما الذي تخاف منه؟

قال: أخاف أن يعتدي عَلَي.

قال هشام: ليس له ذلك، ودعا كاتبه، وقال له: اكتب إلى يوسف بن عمر:

أما بعد: فإذا قدم عليك فلان، وفلان، فاجمع بينهم وبين خالد القسري، وابنه

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا فقال: فخرج من عنده، وسار إلى الكوفة، فقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: اذكر الله يا زيد لما لحقت بأهلك ولا تأتِ أهل الكوفة فإنهم لا يفون لك. فلم يقبل. فقال له: خرج أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العراق إلى قيس ثقيف يلعب بنا، وقال:

بكرت تخوفني المنون كأنني ... أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبته إن المنية منهل ... لا بد أن أسقي بكأس المنهل
إن المنية لو تمثلت مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضيق المنزل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... إني امرؤ سأموت إن لم أقتل

يزيد، فإن أقروا بما ادعى عليهم فسرّح بهم إليّ، وإن هم أنكروا، فسله بيِّنة، فإن لم يقم بيّنة، فاستحلفهم بالله الذي لا إله إلاّ هو ما استودعكم خالد، ولا ابنه يزيد وديعة، ولا لهما قِبلكم شيء، ثم خلِّ سبيلهم.

فقالوا لهشام: إنّا نخاف تعدِّيه لكتابك.

قال: كلا إني قد صدّقتكم، ولكن لا بد من أن تكذبوا خالداً في وجهه، وأنا باعث معكم رجل من الحرس يأخذ بذلك ليعجل الفراغ منه، ويردكم إلي.

قالوا: جزاك الله خيراً.

فوصلهم هشام، وسَرّح بهم إلى يوسف، فلما قدموا على يوسف، أجلس زيد بن علي قريباً منه، وألطفه في المسألة، ثم سألهم عن المال، فأنكروا جميعاً.

فأخرج يوسف خالداً إليهم في عباءة، وجمع بينه وبينهم.

وقال: هذا زيد بن علي، وهذا داود بن علي، وهذا فلان، وهذا فلان الذين[1] ادعيت عليهم ما ادعيت، وقد أمر أمير المؤمنين بكيت وكيت، وهذا الكتاب، فهل عندك بينة بما ادعيت؟

فلم تكن له بيِّنة.

فقال يوسف لهم: أتحلفون أن خالداً ما أودعكم مالاً، ولا له قبلكم حق؟

فقال زيد: أنّا يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره.

وسكت القوم، ثم التفتوا بأجمعهم إلى خالد وقالوا: ما دعاك إلى ما صنعت؟

قال: إنه غلظ عليَّ في العذاب، فادعيت ما ادعيت، وأملت أن يأتي الله بفرج قبل قدومكم.

فأطلقهم، فمضوا.

وتخلّف بالكوفة: زيد بن علي، وداود.

وأقبلت الشيعة تختلف إلى زيد، ويوسف يأمره بالخروج، وهو يعتل عليه.

وبلغ ذلك هشاماً، فكتب إلى يوسف: أنه بلغني أن زيداً يعتل ويحتج عليك في مقامه لخصومة بينه، وبين آل طلحة [٤٢/ب] في مال بينه وبينهم بالمدينة فليقم خير ما يقوم مقامه، وأزعجه.

وقد كان بايعه سلمة بن كهيل ونصر بن خزيمة العبسي، ومعاوية بن إسحاق الأنصاري، وناس من وجوه أهل الكوفة.

(١) في المخطوط: الذي. وهو تحريف.

فلما رأى ذلك داود بن علي قال له: يا ابن عم، لا يغرنك هؤلاء من نفسك، في أهل بيتك لك عبرة، وذَكّرَهُ بأيام علي، وأيام الحسن والحسين، ولم يزل به حتى أخرجه معه، فشخصا حتى بلغا القادسية.

فاتبعه شيعة حتى بلغوا الثعلبية، وقالوا له: نحن أربعون ألفاً، وإن رجعت إلى الكوفة لم يتخلّف عنك أحد.

فجعل يقول: أخاف أن تخذلوني، وتسلموني كما فعلتم بأبي وجدي، فيحلفون له، ويعطونه المواثيق والأيمان المغلظة.

فيقول له داود: يا ابن عم، هكذا قالوا لأبيك وجدِّك، ثم لم يفوا.

فقالوا لزيد: إن هذا لا يحب أن تظهر أنت، وزعم أنه وأهل بيته أحق بهذا الأمر منكم، ولم يزالوا عليه بهذا الكلام ونحوه، حتى انصرف معهم إلى الكوفة.

فأتاه سلمة بن كهيل، فاستأذن عليه، فأذن له، فذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، فأحسن إليه.

ثم تكلم زيد، فأحسن.

فقال سلمة: اجعل لي الأمان حتى أقول.

قال: سبحان الله، ومثلك يسأل مثلي الأمان.

إنما أراد سلمة أن يسمع ذلك أصحابه.

ذكر رأي أشار به سلمة على زيد فلم يقبله

فقال: نشدتك الله كم بايعك؟

قال: أربعون ألفاً.

قال: فكم بايع جدك؟

قال: ثمانون ألفاً.

قال: فكم حصل [معه][١]؟

قال: ثلاثمائة.

قال: نشدتك الله، أنت خير أم جدك؟

قال: بل جدي.

قال: أفقرنك الذي خرجت فيهم خير أم القرن الذي خرج فيه جدك؟

(١) زيادة من الكامل.

قال: بل القرن الذي خرج فيه جدي.

قال: أفتطمع أن يفي لك هؤلاء، وقد غدر أولئك بجدك؟!

قال: إنهم بايعوني، ووثقوا لي؟

قال: فتأذن لي أن أخرج من البلد؟

قال: لِمَ؟

قال: لا آمن أن يحدث في أمرك حدث فلا أملك نفسي.

قال: أذنت لك.

فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى زيد رضي الله عنهم: يا ابن عم نفخ [في][1] العلانية، خور السريرة، [هرج في الرخاء جزع في اللقاء][2] تقدمهم ألسنتهم ولا تشايعهم قلوبهم، ولقد تواترت إلي كتبهم فصممت عن ندائهم، وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأساً منهم، واطراحاً لهم، وما لهم مثل إلاّ ما قال علي بن أبي طالب.

وذكره بأشياء قالها علي في أهل العراق[3].

واستخفى زيد بالكوفة وبث دُعَاتَه، وأخذ يتنقل من موضع إلى موضع، ويبايع مَن استجاب [٤٣/أ] له.

وكانت بيعته:

«إني أدعوكم إلى كتاب الله تعالى، وسنّة نبيه عليه الصلاة والسلام، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، وردّ المظالم، ونصر أهل البيت على مَن ينصب لنا».

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) ذكر تلك المقولة ابن الأثير في الكامل فقال: إن أهملتم خضعتم، وإن حوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم.
فلم يصغ زيد إلى شيء من ذلك، فأقام على حاله يبايع الناس، ويتجهز للخروج وتزوج بالكوفة ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي، وتزوج أيضاً ابنة عبد الله بن أبي العنبسي الأزدي، وكان سبب تزوجه بها: أن أمها أم عمرو بنت الصلت، كانت تتشيع، فأتت زيداً تسلم عليه وكانت جميلة حسناء، قد دخلت في السن ولم يظهر عليها، فخطبها زيد إلى نفسه، فاعتذرت بالسن، وقالت له: لي ابنة هي أجمل مني، وأبيض وأحسن دلاً وشكلاً، فضحك زيد، ثم تزوجها، وكان ينتقل بالكوفة تارة عندها، وتارة عند زوجته الأخرى، وتارة في بني عبس، تارة في بني هند، تارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر.

أتبايعون على ذلك؟

فإذا قالوا: نعم، وضع يده على يده، ثم يقول:

«عليك عهد الله وميثاقه وذمته، وذمة رسوله لتفين ببيعتي، ولتقاتلن معي عدوي، ولتنصحن لي في السر والعلانية».

فإذا قال: نعم، مسح يده يده، ثم قال: «اللهم اشهد»[١].

فمكث بذلك بضعة عشر شهراً وبلغ هشاماً خبر رجوعه إلى الكوفة.

فكتب هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر في أمر زيد كتاباً نسخته:

أما بعد: فقد علمت حال الكوفة في حبهم أهل هذا البيت، ووضعهم إياهم في غير مواضعهم، لأنهم افترضوا طاعتهم على أنفسهم، وضيّقوا عليهم شرائع دينهم، ونحلوهم علم ما هو كائن حتى حملوهم على تفريق الجماعة على حال استخلفوهم فيها إلى الخروج وقد كان قدم زيد بن علي على أمير المؤمنين في خصومة له، فرأى رجلاً جدلاً لَسِناً خليقاً بتمويه الكلام وصوغه، واجترار الرجال بحلاوة لسانه وكثرة مخارجه في حججه وما يدلي به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج، فعجل إشخاصه إلى الحجاز، ولا تُحله والمقام قبلك، فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول الله ﷺ جدهم ميلاً إليه، وبعض التحامل عليه في أذى له مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن للفرقة أحب إلي من أمر فيه سفك دمائهم، وانتشار كلمتهم وقطع سبلهم والجماعة حبل الله المتين ودين الله القويم، وعروته الوثقى، فادع إليك أشراف أهل المصر فأوعدهم العقوبة في الأبشار واستصفاء الأموال، فإن مَن له عقداً وعهداً استبطىء عنه، ولا يخف معه إلا الرعاع، وأهل السواد، ومَن تنهضه الحاجة استلذاذاً للفتنة فبادهم بالوعد واعضضهم بسوطك وجرِّد فيهم سيفك واخف الأشراف قبل الأوساط، والأوساط قبل السفلة، واعلم أنك قائم على باب الله وداع إلى طاعة، وماض على جماعة، ومشمر لدين الله، فلا تستوحش لكثرتهم، واجعل معقلك الذي تأوي إليه، وصفوك الذي تخرج به الثقة بربك، والغضب لدينك، والمحاماة على الجماعة، ومناصبة مَن أراد كسر هذا الباب الذي أمرهم الله تعالى بالدخول فيه، فإن أمير [المؤمنين][٢] [٤٣/ب] قد أعذر إليه، وقضى ذمامه، فليس لامرىء إلى ادعاء حق هو

(١) زاد بعده في الكامل: فبايعه خمسة عشر ألفاً.
وقيل: أربعون ألفاً، فأمر أصحابه بالاستعداد. فأقبل مَن يريد أن يفي له، ويخرج معه ويستعد ويتهيأ، فشاع أمره في الناس، هذا على قول مَن زعم أنه أتى الكوفة من الشام واختفى بها يبايع الناس.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

ظلمه من نصيبه في فيء أو صلة لدى قربى إلا ما خاف أمير المؤمنين من حمل مدده وفي أخرى مدرة السؤلة على الذي عسى أن يكونوا به أشقى وبه أضل ولهم أمر، ولأمير المؤمنين أعز وأسهل إلى حياطة الدين والذبّ عنه، فإنه لا يحب أن يرى [في][1] أمته حالاً متفاوتاً نكالاً لهم معيباً، فهو يستديم النظر، وينادي الرشاد، ويجنبهم المخاوف ويستخرجهم إلى المراشد، ويعدل بهم عن[2] المهالك فعل الوالد المشفق على ولده، والداعي الحذر على رعيته، واعلم أن من حجتك عليهم واستحقاق نصر الله تعالى لك عند معاندتهم توقيتك أطماعهم، وأعطية ذراريهم، ونهيك جندك أن ينزلوا حريمهم ودورهم، فانتهز رضا الله فيما أنت بسبيله، فإنه ليس ذنباً أسرع بتعجيل عقوبة ممن بغى، وقد أوقفهم الشيطان ودلاّهم فيه وَدَلّهم عليه والعصمة بتارك الغي أولى، فأمير المؤمنين يستعين بالله عليهم وعلى غيرهم من رعيته ويسأل إلاهه ومولاه ووليه أن يصلح منهم ما كان فاسداً، وأن يسرع بهم إلى النجاة والفوز إنه سمع قريب[3]. . .

فطلب يوسف زيداً، فأرشد إلى مَن يعرف خبره، وجاءه سليمان بن سُراقة البارقي، فأخبره أنه يختلف إلى ابن أخت له، فطلبه يوسف هناك فلم يوجد عنده، وجاء بالرجل، فلما كلّمه استبان له أمر زيد وأصحابه.

وتخوّف زيد أن يؤخذ، فأخذ في التعجُل، فلما رأى أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد، وأنه يستبحث عن أمره، اجتمعت إليه جماعة من رؤساء مَن بايعه، فقالوا له: رحمك الله ما قولك في أبي بكر وعمر؟

قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلاّ خيراً.

قالوا: فلِمَ تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت إلاّ أن هذين وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم؟

فقال زيد: إن أشر ما أقول فيما ذكرتم أنّا كُنّا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وأن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه، ولم يبلغ بهم عندنا كفراً، قد ولوا فعدلوا، وعملوا بالكتاب واتبعوا السُنَّة.

قالوا له: فلم يظلمك إذاً هؤلاء، فَلِمَ تدعونا إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: إلى، وهو تحريف، والسياق يقتضي ما أبدلت إليه.
(٣) ما بعد هذا من أحداث سنة اثنين وعشرين ومائة. وقد خلط المؤلف بين أحداث هذه السنة والتي تليها ثم إنه من الغريب أيضاً أن سقطت سنة اثنتين وعشرين ومائة من الناسخ، فأتممتها من الكامل، بعد سرد هذه السنة.

قال: إنهم ليسوا كأولائك، لأن هؤلاء ظالمين لأنفسهم، وإنما ندعوهم إلى كتاب الله تعالى وسنّة نبيه، وإلى السنن أن تحيا، وإلى البدع أن تُطْفأ، فإن أنتم أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل.

ففارقوه، ونكثوا بيعتهم، وقالوا: سبق الإمام.

وقد كان هلك محمد بن علي بن الحسين [٤٤/أ] يومئذ.

وكان ابنه جعفر حيًّا، فقالوا: جعفر إمامنا وهو أحق بالأمر بعد أبيه، وليس زيد بإمام.

فسماهم زيد الرافضة.

وهم يزعمون أن الذي سماهم الرافضة المغيرة، وذلك أنهم فارقوه بالكوفة وتركوه حتى قُتل[(١)].

قد حكينا أمره.

واستتب لزيد الخروج، فواعد أصحابه ليلة الأربعاء، وهي أول ليلة من صفر يقال: سنة اثنتين وعشرين، ويقال: سنة إحدى وعشرين.

وبلغ يوسف بن عمر أن زيداً قد أزمع الخروج. فبعث الحكم بن الصلت، وأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم ثم يحصرهم فيه.

فبعث الحكم إلى العرفاء، وإلى الشرطة والمناكب والمقاتلة، فأدخلهم المسجد، ثم نادى مناديه:

«إن الأمير يقول: مَن أدركناه في رحله فقد برئت منه الذمة ادخلوا المسجد الأعظم».

---

(١) ذكر ابن الأثير هذه الحكاية في الكامل في أحداث سنة اثنتين وعشرين ومائة فقال في مطلعها:
في هذه السنة: قتل زيد بن علي بن الحسين، وقد ذكر مقامه بالكوفة وبيعته بها، فلما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ مَن كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز انطلق سليمان بن سُراقة البارقي إلى يوسف بن عمر فأخبره. فبعث يوسف في طلب زيد فلم يوجد، وخاف زيد أن يؤخذ فيتعجل قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة.
وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمٰن بن القارة، ومعه عبيد الله بن العباس الكندي في أناس من أهل الشام، ويوسف بن عمر بالحيرة.
فلما رأى أصحاب زيد بن علي من يوسف بن عمر أنه قد بلغه أمره، وأنه يبحث عن أمره اجتمع إليه جماعة من رؤوسهم وقالوا: رحمك الله... ثم ساق الخبر كما هنا إلى أن قال: إن المغيرة سماهم الرافضة حيث فارقوه.
وكان طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد، فقال: بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا. فعادوا وكتموا ذلك، وكان زيد واعد أصحابه أول....

فأتى الناس المسجد يوم الثلاثاء، قبل خروج زيد بيوم.

فطلبوا زيداً في المواضع التي كان يتنقّل فيها.

فخرج ليلة الأربعاء، وكانت ليلة شديدة البرد من دار معاوية بن إسحاق [بن زيد بن حارثة الأنصاري][(١)] وكانوا قد طلبوه فيها.

فرفعوا هرادى النيران من القصب، ونادوا بأشعارهم: «يا منصور أمت».

فكلما أكلت النار هردياً رفعوا آخر، فما زالوا كذلك حتى طلع الفجر.

فلما أصبحوا [بعث][(١)] زيد القاسم التبعي ـ وفي أخرى التتعي [ثم الحضرمي][(١)]، ورجلاً آخر من أصحابه يناديان بشعارهم [فلما كانا بصحراء عبد القيس][(٢)] لقيهما جعفر بن العباس الكندي في أصحابه، فشدُّوا عليهما فقتل الرجل الذي كان مع القاسم التبعي، وارتث القاسم، فأُتي به الحكم بن أبي الصلت فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، فضربت عنقه على باب القصر، فكان أول مَن قتل من أصحاب زيد.

وأمر الحكم بن أبي الصلت بدروب السوق فغلقت، وغلقت أبواب المسجد الأعظم على أهل الكوفة.

وأمر أصحاب الأرباع بالكوفة أن يصيروا إليه.

وبعث إلى يوسف بن عمر [بالحيرة][(٣)]، فأخبره الخبر.

فبعث يوسف جعفر بن العباس الكندي، فركب في خمسين فارساً، ثم قال له: اذهب فأتني بخبرهم.

[فسار حتى بلغ جنانة سالم][(٣)] فلما استقبل الرجلين، وكان ما كان من أمرهما رجع إلى يوسف فأخبره.

فلما أصبح خرج [يوسف][(٣)] إلى تل قريب من الحيرة فنزل عليه ومعه قريش وأشراف الناس، وعلى شرطته العباس بن سعيد المزني.

فبعث الريان[(٤)] بن سلمة [الأراني][(٥)] في ألفين وثلاثمائة من الرجالة [القيقانية][(٥)] معهم[(٦)] النشاب.

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: «زياد» والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: «مع» والتصويب من الكامل.

وأصبح زيد فكان جميع[1] مَن وافاه تلك الليلة [٤٤/ب] مائتي رجل وثمانية عشر رجلاً.

فقال زيد: سبحان الله، أين الناس؟

فقيل: إنهم في المسجد الأعظم محصورون.

فقال: لا والله ما هذا بعذر لمَن بايعنا.

وسمع نصر بن خزيمة النداء، فأقبل إليه، فلقي عمرو بن عبد الرحمٰن صاحب شرطة الحكم بن أبي الصلت في أصحابه [من جهينة][2] فقال نصر بن خزيمة: يا منصور أمت، فلم يرد عليه شيئاً.

فشدّ عليه نصر وأصحابه، فقتل [عمرو بن][3] عبد الرحمٰن وانهزم مَن كان معه.

وأقبل زيد على[4] جبانة [سالم حتى انتهى][7] إلى جبانة الصائدين، وبها خمسمائة من أهل الشام، فحمل عليهم زيد فيمن معه، فهزمهم.

وكان تحت زيد برذون أدهم بهيم، فسار حتى إلى دار رجل من الأزد يقال له: أنس بن عمرو، وكان فيمن بايعه، فنودي وهو في دار فلم[5] يجب.

فناداه زيد: يا أنس أخرج، فقد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ فلم يخرج إليه.

فقال زيد: [ما أخلقكم][6] قد فعلتموها، الله حسيبكم.

ثم مضى زيد إلى الكناسة، فحمل على جماعة بها من أهل الشام، فهزمهم.

ثم خرج حتى ظهر إلى الجبّانة، ويوسف بن عمر على التل ينظر إليه هو وأصحابه، وبين يديه نحو من مائتي رجل، وناس من الأشراف لا يبلغ عددهم عشرة فلو أقبل على يوسف لقتله وتمّم أمره.

[والريان يتبع أثر زيد بن علي بالكوفة في أهل الشام][7].

ثم إن زيداً أخذ ذات اليمين على مصلى خالد بن عبد الله حتى دخل الكوفة.

---

(١) في المخطوط: «جمع» والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته، من الكامل.
(٤) في المخطوط: «إلى» والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: «معلم» والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) زيادة من الكامل.

[وسار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سليم فلقوا أهل الشام فقتلوهم، فأسر أهل الشام منهم رجلاً، فأمر به يوسف بن عمر فقتل، فلما رأى زيد خذلان الناس إياه][١] أقبل على نصر بن خزيمة، وقال: أما ترى خذلان الناس إيانا، قد جعلوها حُسينية.

فقال له: جعلني الله فداك أما أنا فوالله لأضربن معك بسيفي حتى أموت.

ثم إن نصراً[١] قال لزيد: جعلني الله فداك وإن الناس في المسجد الأعظم محصورون، فاذهب بنا نحوهم.

فخرج بهم زيد نحو المسجد، فمرّ على دار خالد بن عرفطة.

وبلغ عبيد الله بن العباس الكندي إقباله، فخرج في أهل الشام.

وأقبل زيد، فالتقوا على باب عمر بن سعد بن أبي وقاص.

وكع صاحب لواء عبيد الله، فقال له: احمل يا ابن الخبيثة.

فحمل حتى خضب لواءه بالدم، ثم إن عبيد الله برز فخرج إليه واصل الحناط، فاضطربا بسيفيهما، فقال واصل: خذها مني وأنا الغلام الحناط.

فقال له: قطع الله يدي إن كلت بقفيز أبداً ثم ضربه فلم يصنع شيئاً.

وانهزم عبيد الله بن العباس وأصحابه، وبلغ زيداً وأصحابه باب المسجد، وجعلوا يدخلون راياتهم من فوق الأبواب، ويقولون: يا أهل المسجد أخرجوا.

وجعل نصر بن [٤٥/أ] خزيمة يناديهم ويقول: يا أهل الكوفة اخرجوا من الذُّل إلى العز، اخرجوا إلى الدين والدنيا.

فأشرف عليهم أهل الشام، فجعلوا يرمونهم بالحجارة [من فوق المسجد][٢].

وانصرف عنهم زيد بن علي، فنزل دار الرزق، وخرج إليه ناس من أهل الكوفة.

فأتاه الريان بن سلمة، فقاتله عند دار الرزق قتالاً شديداً.

فخرج أهل الشام وقتل منهم وانهزموا، وتبعهم أصحاب زيد من دار الرزق حتى انتهوا إلى المسجد، فرجع أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظناً.

فلما كان من الغد يوم الخميس دعا يوسف الريان ابن سلمة، فأتاه وليس عليه سلاحه، فأفّفَ به وقال: أُفٍّ لك من صاحب خيل اجلس.

ودعا العباس بن سعد المزني صاحب شرطته فبعثه في أهل الشام.

---

(١) في المخطوط: نصيراً. وهو تحريف، والصواب ما أثبت نظراً لما سبق ولحق من أن اسمه نصر بن خزيمة.
(٢) زيادة من الكامل.

فسار حتى انتهى إلى زيد في دار الرزق.

وخرج زيد في أصحابه، وعلى مجنبته نصر بن خزيمة والعبسي، ومعاوية بن إسحاق الأنصاري.

فلما رآهم العباس ـ ولم يكن معه رجاله ـ نادى: يا أهل الشام، الأرض الأرض.

فنزل معه ناس كثيرون، فاقتتلوا قتالاً شديداً في المعركة.

فقتل نصر بن خزيمة، ثم اشتد القتال فهزمهم زيد، وقتل من أهل الشام نحو من سبعين رجلاً، فانصرفوا وهم بشر حال.

فلما كان العشي عبأهم يوسف بن عمر، ثم وجههم، فأقبلوا حتى التقوا مع زيد وأصحابه فحمل عليهم زيد في أصحابه فكشفهم، ثم تبعهم حتى أخرجهم إلى [السبخة، ثم حمل عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى][1] بني سليم، ثم تبعهم حتى أخذوا على المسناه.

ثم ظهر لهم زيد فيما بين بارق ورواس، فقاتلهم هناك قتالاً شديداً، فجعلت خيلهم لا تثبت لخيله، ولا رجالهم كرجاله.

فبعث العباس إلى يوسف يعلمه ذلك وقال له: ابعث إليّ النشابة.

فبعث إليه القيقانية والنجارية وهم ناشبة فرموا زيداً وأصحابه.

وحرص زيد على أن يصرف أصحابه فأبوا عليه، فقاتل إسحاق بن معاوية بن إسحاق الأنصاري بين يديه قتالاً شديداً حتى قتل بين يدي زيد، وثبت زيد ومَن معه حتى جنح الليل، فرمى حينئذ بسهم [فأصاب جانب][2] جبهته اليسرى، فثبت في الدماغ، فرجع، ورجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل.

فحمل زيد حتى أُدخل دور أرحب أو شاكر، وجاؤوه بطبيب يقال له شقير، فانتزع السهم وجعل يضج، ولم يلبث أن قضى نحبه، رحمة الله عليه.

فتشاور أصحابه أين يوارى؟

فقال بعضهم: نحز رأسه ونطرحه [٤٥/ب] بين القتلى، فهو أجدر أن لا يعرف، ويدفن رأسه حيث.

فقال ابنه: لا والله لا تأكل لحم أبي الكلاب.

فقال بعضهم: فننطلق به إلى الحفرة التي يؤمنها الطين، فانطلقوا، فحفروا له

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل أحسبها ساقطة من المخطوط.

ودفنوه، ثم أجروا عليه الماء، وتصدّع عنه الناس، وخرج ابنه نحو النهرين - يعني نهر كربلاء[١] -.

ثم بعث يوسف بن عمر لما علم بقتل زيد، فأمر أن يطلبوه في الجرحى في دور أهل الكوفة فكانوا يخرجون النساء إلى صحن الدار ويدخلون جوف البيوت يلتمسون الجرحى، حتى دلّهم غلام سندي كان لزيد وحضر دفنه وقيل: بل أبصرهم، وكان هناك فدلّ عليه فاستخرج.

فأمر يوسف بحز رأسه وبعث به إلى هشام وصلب جثته الكناسة مع نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق الأنصاري، وزياد النهدي.

فبقي زماناً طويلاً يُحرس بالكناسة لئلا ينزل.

وأما رأسه، فإن هشاماً أمر بنصبه على باب مدينة دمشق، ثم أرسل به إلى المدينة، ولم يزل بدنه منصوباً حتى مات هشام، وأمر به الوليد، فأنزل وأحرق[٢].

ولما قتل زيد بن علي، أقبل يوسف بن عمر حتى دخل الكوفة، وجاء إلى المسجد، فصعد المنبر، وقال: يا أهل الكوفة، يا أهل المدرة الخبيثة إني والله ما تقرن بين الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنان، ولا أخشى بالريب، هيهات حست بالساعد الأشد، أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، لأخربن بلادكم ولأجبينكم أموالكم، أما والله ما أطلب منبري إلا لأسمعكم عليه ما تكرهون، فإنكم أهل بغي وخلاف، ما منكم إلاّ مَن حارب الله عزّ وجل ورسوله، ولقد سألت أمير المؤمنين، ولو أذن لي لقتلت مقاتلتكم، وسبيت ذراريكم.

وفي هذه السنة: قتل البطال بن الحسين، واسمه: عبد الله، في جماعة من المسلمين بأرض الروم وقد حكينا ما جرى في سنة اثنتي وعشرين ومائة إلاّ ما كان من

---

(١) بعده في الكامل: فنزل نينوى على سابق مولى بشر بن عبد الملك بن بشر.

(٢) في الكامل: وقيل في أمر يحيى بن زيد غير ما تقدم، وذلك أن أباه زيداً لما قتل قال له رجل من بني أسد: إن أهل خراسان لكم شيعة، والرأي أن تخرج إليها.
قال: وكيف لي بذلك؟
قال: تتوارى حتى يسكن عنك الطلب، ثم تخرج، فواراه عنده ليلة، ثم خاف، فأتى به عبد الملك بن بشر بن مروان، فقال له: إن قرابة زيد بك قريبة وحقه عليك واجب. قال: أجل، ولقد كان العفو عنه أقرب للتقوى. قال: فقد قتل، وهذا ابنه غلام حدث لا ذنب له، فإن علم يوسف به قتله، أفتجيره؟ قال: نعم، فأتاه به، فأقام عنده.
فلما سكن الطلب سار في نفر من الزيدية إلى خراسان، فغضب يوسف بن عمر بعد قتل زيد فقال: يا أهل العراق، إن يحيى بن زيد في حجال نسائكم كما كان يفعل أبوه، لو بدا لي لعرقت خصييه كما عرقت خصي أبيه، وتهددهم وذمهم.

غزوات نصر بن سيار، فإنني كرهت أن أقطع حديث زيد بحديثه(١).

وكان من حديث نصر: أنه غزا غزوة من ما وراء النهر، ثم قفل فخطب الناس وقال: ألا إن فلاناً كان ماتح اليهود، وفلاناً ماتح اليهود، وفلاناً ماتح النصارى، يحملون أثقال المشركين على المسلمين، ألا إني ماتح المسلمين أحمل أثقالهم على المشركين، إلا أنه لا يقبل مني إلا توفر الخراج على ما كتب ورفع، وقد استعملت عليكم [٤٦/أ] منصور بن عُمر بن أبي الخرقاء(٢)، وأمرته بالعدل عليكم، فأيما رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثُقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك على المشركين فليرفع ذلك إلى منصور بن عمر(٣) يحوله عن المسلمين إلى المشركين.

قال: فما كانت الجمعة الثانية حتى أتاه ثلاثون ألفاً من المسلمين كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم، وثلاثون ألف رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم، فحوّل ذلك عليهم، فألقاه عن المسلمين.

ثم غزا من مرو الشاش، فحال بينه وبين قطوع نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفاً، استأجر كل رجل منهم كل شهر شقة حرير - الشقة يومئذ بخمسة

---

(١) سقطت هذه السنة من المخطوطين الإيراني، والبغدادي وأنا أذكر هنا قصة قتل البطال نقلاً عن الكامل من أحداث سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث يقول ابن الأثير:
وفي هذه السنة: قتل البطال - واسمه: عبدالله أبو الحسين الأنطاكي - في جماعة من المسلمين ببلاد الروم، وقيل: سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكان كثير الغزاة إلى الروم، والإغارة على بلادهم، وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد.
حكي: أنه دخل بلادهم في بعض غزاته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلاً، وامرأة تقول لصغير لها يبكي: تسكت وإلاّ سلمتك إلى البطال، ثم رفعته بيدها وقالت: خذه يا بطال، فتناوله من يدها.
وسيّره عبد الملك مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمّره على رؤساء أهل الجزيرة والشام، وأمر ابنه أن يجعله على مقدمته وطلائعه، وأمره فليغس بالليل العسكر، وقال: إنه ثقة شجاع مقدام.
فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس، فكان بينه وبين الروم، وكان العلاقة والسابلة يسيرون آمنين.
وسار مره مع عسكر للمسلمين، فلما صار بأطراف الروم سار وحده، فدخل بلادهم فرأى مبقلة، فنزل، فأكل من ذلك البقل، فجاءت جوفه، وكثر إسهاله، فخاف أن يضعف عن الركوب فركب، وصار يجيء جوفه في سرجه ولا يجسر ينزل لئلا يضعف عن الركوب، فاستولى عليه الضعف، فاعتنق فرسه وسار عليه ولا يعلم أين هو ففتح عينيه، فإذا هو في دير فيه نساء، فاجتمعت عليه، وأنزلته إحداهن عن فرسه، وغسلته وسقته دواء، فانقطع عنه ما به من القياء، وأقام في الدير ثلاثة أيام ثم إن بطريقاً حضر الدير فخطب تلك المرأة، وبلغه خبر البطال وكانت المرأة قد جعلته في بيت مختفياً فمنعته منه، ثم سار البطريق عن الدير ومعه أصحابه فركب البطال وتبعه فقتله وانهزم أصحاب البطريق، وعاد إلى الدير وألقى رأسه إلى النساء، وأخذهن وساقهن إلى العسكر فنفله أمير العسكر تلك المرأة فهي أم أولاد البطال.

(٢) في المخطوط: منصور بن عمار بن الحر. والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: منصور بن عمر عمار، ولفظ عمار زائد على السياق فحذفته.

وعشرين درهماً ـ.

فكانت بينهم مراماة، فمنع نصراً من القطوع إلى الشاش.

وكان الحارث بن شريح يومئذ بأرض الترك، فأقبل معهم، فكان بإزاء نصر، فرمى نصراً وهو على سريره على شاطىء النهر بسهم[١]، فوقع السهم في شدق وصيف[٢] لنصر فقتله فتحوّل نصر عن سريره، ورمى فرس لرجل من أهل الشام فنفق.

وعبر كورصول في أربعين رجلاً فبيّت أهل العسكر، وسبا أهل بخارا وكانوا في الساقة وأطاف في العسكر في ليلة مظلمة، ومع نصر أهل بخارى وسمرقند، وكش، وسروشنة، وهم عشرون ألفاً.

ونادى نصر في الأخماس: لا يخرجن أحد من بناية، واثبتوا على مواضعكم.

فخرج عاصم بن عمير وهو على جند أهل سمرقند حتى مرت خيل كورصول، فحمل على آخرهم، فأسر رجلاً، فإذا هو ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة، فجاؤوا به إلى نصر.

فإذا هو شيخ يسحب درعه شيراً وعليه رانا ديباج فيهما خلق وقباء فريد مكفف بالديباج.

فقال له نصر: مَن أنت؟

[قال: كورصول.

فقال نصر: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله][٣].

قال كورصول: فما ترجو من قتل شيخ، وأنا أعطيك ألف بعير من إبل الترك، وألف برذون تقوي بها جندك، وخلِّ سبيلي.

فقال نصر لمَن حوله من أهل الشام، وأهل خراسان: ما تقولون؟

قالوا: خلِّ سبيله.

فسأله عن سِنِّهِ، فقال: لا أدري.

قال: كم غزوت؟

قال: اثنتي وسبعون غزوة.

قال: أشهدت يوم العطش؟

قال: نعم.

---

(١) في المخطوط على هذا الرسم: «بحـمار» وهو تحريف.
(٢) في المخطوط على هذا الرسم: «وصن» وهو تحريف.
(٣) زيادة من الكامل، وأحسبها سقطت من المخطوط.

قال: لو أعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما انفلت من يدي بعدما ذكرت من مشاهدك.

وقال لعاصم بن عمير السعدي: قم إلى سلبه فخذه.

فلما أيقن بالقتل قال: مَن أسرني؟

فقال نصر وهو يضحك: يزيد بن قزان الحنظلي وأشار إليه.

قال: هذا لا يقدر أن يغسل إسته[١] [٤٦/ب] فكيف يأسرني؟

فأخبرني مَن أسرني؟ فإني أهل أن أقتل سبع قتلات.

قال له: عاصم بن عمير.

قال: الآن لست أجد مس القتل إذا كان أسرني فارس من فرسان العرب.

فقتله وصلبه على شاطىء النهر.

وعاصم بن عمير هذا هو هزار مرد الذي قتل بنهاوند أيام قحطبة.

ولما قتل كورصول تجرّدت الترك، وجاؤوا بأبنية له فحرقوها، وقطعوا آذانهم، وخدشوا وجوههم [وقطعوا شعورهم، وأذناب خيلهم][٢] وقعدوا يبكون عليه.

فلما أمسى نصر، وأراد الرحلة بعث إلى قارورة نفط فصبّها عليه، ثم أشعل فيه النار لئلا يحملوا عظامه، فكان ذلك أشد عليهم من قتله.

فارتفع نصر إلى فرغانة فسبى منها ثلاثين ألف رأس.

ثم إن يوسف بن عمر كتب إلى نصر:

«سِر إلى هذا الغادر دينه بالشاش ـ يعني الحارث بن سريج ـ فإن أظفرك الله تعالى به، وبأهل الشاش، فخرِّب بلادهم، واسبي ذراريهم، وإياك وورطة المسلمين».

فدعا نصر الناس، فقرأ عليهم الكتاب وقال: ما ترون؟

فقال يحيى بن حصين: امضِ لأمر الأمير.

فقال نصر: يا يحيى، تكلمت ليالي عاصم بكلمة، فبلغت الخليفة فحظيت بها، وزيد في عطائك، وفرض لأهل بيتك، وبلغت الدرجة الرفيعة، فقلت أقول مثلها.

سِرّ يا يحيى فقد وليتك مقدمتي، فأقبل الناس على يحيى يلومونه.

فسار إلى الشاش، فأتاه الحارث بن شريح فنصب [عليهم][٣] عرّادتين تلقاء بني تميم.

---

(١) تكررت هذه الكلمة بأول الصفحة [٤٦/ب]، فحذفت التكرار.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

فقيل له: هؤلاء بني تميم، فنقلها ونصبها على الأزد، وأغار عليهم الأخرم ـ وهو فارس الترك ـ فقتله المسلمون، وأسروا سبعة من أصحابه.

فأمر نصر برأس الأخرم فرمى به إلى عسكرهم في منجنيق.

فلما رأوه ضجُّوا ضجة، ثم ارتحلوا منهزمين.

ورجع نصر، وأراد أن يغز فحيل بينه وبين ذلك.

فأقبل نصر حتى نزل سمرقند، ثم سار إلى الشاش، فلما وافاها [تلقاه][١] ملكها بالصلح والفدية والرهن، واشترط عليه إخراج الحارث بن سريج من بلدانه.

فأخرجه إلى فاراب.

واستعمل على الشاش نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص[٢].

وكان نصر بعث سليمان بن صول إلى صاحب فرغانة بكتاب الصلح بينهما ـ يعني مع ملك الشاش ـ.

قال سليمان: فقدمت عليه فقال لي: مَن أنت؟

[٤٧/أ] فقلت: شاكري خليفة كانت للأمير.

فقال: أدخلوه الخزائن ليرى ما أعددنا.

قال: فأُدخلت خزائنه، فقلت في نفسي: يا سليمان شمت بك حسادك ليس هذا إلاّ الكراهية للصلح، سأنصرف بخفي حنين.

قال: فرجعت إليه فقال لي: كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم؟

قلت: سهلاً كثير الماء، والرعي.

قال: ما أعلمك[٣]؟

قلت: غزوت غرشتان، والختل، وطبرستان، فكيف لا أعلم.

[قال: كيف رأيت ما أعددنا؟ قال: عدة حسنة ولكن ما علمت][٤] أن صاحب

(١) في المخطوط على هذا الرسم: «تذو» والتصويب من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل فقال: ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة، وكانوا أحسوا بمجيئه، فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة. فوجّه نصر إلى ولي عهد صاحب فرغانة فحاصره في حصن وغفلوا عنه، فخرج وغنم دواب المسلمين.
فوجههم إليهم نصر رجالاً من تميم ومعهم محمد بن المثنى، وكان المسلمون ودوابهم كمنوا لهم فخرجوا واستاقوا بعضها، وخرج عليهم المسلمون فهزموهم، وقتلوا الدهقان وأسروا منهم ابن الدهقان فقتله نصر، وأرسل نصر سليمان بن صول بكتاب الصلح إلى صاحب فرغانة. . .

(٣) في المخطوط: «علمك» والتصويب من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

الحصار لا يسلم من خصال.

قال: وما هن؟

قلت: لا يأمن أقرب الناس إليه، وأحبهم له، وأوثقهم في نفسه إن يثِب عليه ويتقرّب به، أو يفنى ما جمع بطول المدة فتسلم رمته، أو تصيبه الأدواء التي لا يجد أدويتها، ومعالجتها فيموت.

فقطب وقال لي: انصرف إلى منزلك[١].

فانصرفت وأنا لا أشك في تركه الصلح، فدعاني بعد يومين، فحملت كتاب الصلح مع غلامي، وقلت له: إن أتاك رسولي فطلب، فقل: إني خلفته في منزلي.

فدخلت إليه فسألني عن الكتاب.

فقلت: خلفته في منزلي.

فبعثت إلى الغلام أن اذهب فجىء بالكتاب، وقبل الصلح وأحسن جائزتي، وسرح مع أُمَّهُ ـ وكانت صاحبة أمره ومديرته ـ، فلما قدمت على نصر قال: مثلك ما قال الأول:

«أرسل حكيماً ولا توصه»[٢].

---

(١) بعد هذا تختلف الرواية بين ما هنا وبين ما في الكامل حيث يقول ابن الأثير بعد ذلك: فكره ما قال له، وأمره فأحضر كتاب الصلح فأجاب إليه، وسيّر أمه معه ـ وكانت صاحبة أمره ـ فقدمت على نصر، فأذن لها، وجعل يكلمها، وكان مما قالت له: كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فليس بملك:

وزير يبث إليه ما في نفسه، ويشاوره، ويثق بنصيحته.

وطباخ إذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهي.

وزوجة إذا دخل عليها مغتمًا نظر إلى وجهها زال غمه.

وحصن إذا فزع أتاه فأنجاه ـ تعني البرذون ـ.

وسيف إذا قاتل لا يخشى خيانته.

وذخيرة إذا حملها عاش بها أين كان من الأرض.

ثم دخل تميم بن نصر في جماعة فقالت: مَن هذا؟ قالوا: هذا فتى خراسان تميم بن نصر. قال: ما له نُبل الكبير ولا حلاوة الصغير.

ثم دخل الحجاج بن قتيبة، فقالت: مَن هذا؟ فقالوا: الحجاج بن قتيبة، فأحبته، وسألت عنه، وقالت: يا معشر العرب، ما لكم وفاء ولا يصلح بعضكم بعضاً، قتيبة الذي ذلك لكم ما أرى، وهذا ابنه تقعده دونك، فحقه أن تجلسه أنت هذا المجلس، وتجلس أنت مجلسه.

(٢) هذا ما ذكر ابن مسكوية في أحداث تلك السنة، وقد دخلت أحداثها في أحداث السنة التي بعدها، ثم سقطت السنة التي بعدها من مخطوطي بغداد وإيران، وأنا أذكر بعض ما لم يذكره في أثناء أحداث هذه السنة بعد الانتهاء من ذكر ما لم يذكره في أحداث سنة إحدى وعشرين ومائة، نقلاً عن الكامل فيقول ابن الأثير بعد ذلك الخبر في الكامل:

وفي هذه السنة: غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير. =

[ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة[١]

وفيها: قتل كلثوم بن عياض القشيري الذي كان هشام بعثه في أهل الشام إلى إفريقية حيث وقعت الفتنة بالبربر.

وفيها: وجه يوسف بن عمر بن شبرمة على سجستان، فاستقضى محمد بن عبد الرحمٰن ابن أبي ليلى.

وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن هشام المخزومي.

وكان عمال الأمصار كما تقدّم ذكرهم.

قيل: وكان على الموصل: أبو قحافة ابن أخي الوليد بن تليد العبسي.

وفيها: مات إياس بن معاوية بن قرة قاضي البصرة، وهو الموصوف بالذكاء.

وزيد بن الحارث اليامي، ومحمد بن المنكدر بن عبد الله أبو بكر التيمي تيم قريش.

وقيل: مات سنة ثلاثين.

وقيل: إحدى وثلاثين.

وكنيته أبو بكر.

ويزيد بن عبد الله بن قسط، ويعقوب بن عبد الله بن الأشج][٢].

= **وحجّ بالناس هذه السنة**: محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي ـ وهو كان عامل المدينة، ومكة، والطائف ـ.
وعلى العراق: يوسف بن عمر.
وعلى خراسان: نصر بن سيار.
وعلى أرمينية، وأذربيجان: مروان بن محمد.
وعلى قضاء البصرة: عامر بن عبيدة.
وعلى قضاء الكوفة: ابن شبرمة.
وفيها: فرغ الوليد بن بكير عامل الموصل من حفر النهر الذي أدخله البلد، وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف درهم، وجعل عليه ثمانية أحجار تطحن.
ووقف هشام هذه الأرحاء على عمل النهر.
وفيها: مات سلمة بن سهيل، وقيل: سنة اثنتين وعشرين.
وفيها: مات عامر بن عبد الله بن الزبير، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وقيل: سنة أربع وعشرين بالشام.
وفيها: مات محمد بن يحيى بن حبان وهو ابن أربع وسبعين سنة بالمدينة. وقُتل يعقوب بن عبد الله بن الأشج شهيداً بأرض الروم.

(١) سقطت هذه السنة من مخطوطي بغداد، وإيران، وقد دخلت أحداثها في السنة التي قبلها، وأنا أذكر هنا من الكامل في التاريخ بعض ما لم يذكر من أحداثها في السنة السابقة فيلاحظ.

(٢) إلى هنا انتهى النقل عن الكامل في أحداث تلك السنة، ثم نعود لاستئناف النقل عن المخطوط.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة

وفي هذه السنة: سعى يوسف بن عمر للحكم بن الصلت في ضم خراسان إلى عمله وعزل نصر بن سيار وذلك أن أيام نصر طالت بخراسان ودانت له.

فحسده يوسف فكتب إلى هشام يسأله أن يضمها إلى العراق ليعمرها ويستغزر دخلها.

وأنفذ إليه الحكم بن الصلت، وقال: هو لبيب وله نصيحة ومودة لأمير المؤمنين.

وقد كان مع الجنيد.

وولي حسام أعمالها، وقد سرحته إلى باب أمير المؤمنين ليراه، وقرأ كتاب يوسف، فبعث إلى دار الضيافة، فوجد فيها مقاتل بن علي الصغدي فأتوه به.

فقال: أمن خراسان أنت؟

قال: نعم، وأنا صاحب الترك.

وكان قدم على هشام بخمسين ومائة من الترك [٤٧/ب] فقال: هل تعف الحكم بن أبي الصلت؟

قال: نعم.

قال: فما ولي بخراسان؟

قال: ولي قرية يقال لها: الفارياب، خراجها سبعون ألفاً، وأسره الحارث بن سريج.

قال: ويحك وكيف أفلت من يده؟

قال: عرك أذنه وخلّى سبيله. [وقال: أنت أهون من أن أقتلك فلم يعزل هشام نصر بن سيار عن خراسان][1] فلما قدم الحكم عليه وشاهده رأى جمالاً وبياناً وكتب إلى يوسف: أن الحكم قدم وهو على ما وصفت، وفيما قبلك سعة.

فحل الكناني وعمله، ثم أوفد نصر بن سيار معن[2] بن أحمر، ـ وفي أخرى أحمد ـ إلى العراق لما غزا فرغانة غزوته الثانية[3].

فقال له يوسف بن عمر: يا معن[4] أيغلبكم ابن الأقطع على سلطانكم معشر قيس.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: «معه» وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٣) في الكامل: الشاتية. وأشار محققه إلى أنه في الطبري: الثانية. كما هنا.
(٤) في المخطوط: يا معرا. وهو تحريف.

فقال: قد كان ذلك أصلح الله الأمير.

قال: فإذا قدمت على أمير المؤمنين فابقر بطنه.

فلما قدموا على هشام وسألهم عن أمر خراسان، تكلم معن[١] فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر يوسف بن عمر بن بحر.

فقال: ويحك أخبرني عن خراسان.

قال: يا أمير المؤمنين ليس لك جند أعدّ، ولا أجد منهم من سراق في السماء وحراسة مثل الفيل، وعدة وعدد في قوم ليس لهم قائد.

قال: ويحك فما فعل الكناني؟!

قال: لا يعرف ولده من الكبر.

فردّ هشام عليه مقالته، وبعث إلى دار الضيافة فأتى بشبل بن عبد الرحمٰن المازني، فقال له هشام: أخبرني عن نصر.

فقال: ليس بالشيخ يخشى خرفه ولا الشاب يخشى سفهه [بل هو][٢] المجرب قد ولي عامة ثغور خراسان وحروبها قبل ولايته[٣].

فكتب إلى يوسف بذلك.

فوضع يوسف الأرصاد، فلما انتهوا إلى الموصل تركوا طريق البريد.

وقد بلغ نصراً قول شبيل، وكان إبراهيم بن يسكر في الوفد، فكرمه يوسف ونعى إليه نصراً، وأخبره أنه وَلّى الحكم بن الصلت خراسان ففسر له أمر خراسان كله حتى قدم إبراهيم بن زياد رسول نصر، فعرف أن يوسف قد تكرمه، وقال: أهلكني يوسف أهلكه الله.

---

(١) في المخطوط: معزا. وهو تحريف، والتصويب مما سبق ويلحق من الخبر.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) الخبر في الكامل بنحو من هذا غير أنه يبدأ بما يفيد بالأداء إلى هذه النتيجة حيث يقول: وفي هذه السنة غزا نصر بن سيار فرغانة غزوته الشاتية، فأوفد وفداً إلى العراق عليهم معن بن أحمر النميري، ثم إلى هشام فاجتاز بيوسف بن عمر، وقال له: يا ابن أحمر أيغلبكم الأقطع على سلطانكم يا معشر قريش؟ قال: قد كان ذلك، فأمره أن يعيبه عند هشام. فقال: كيف أعيبه مع بلائه وآثاره الجميلة عندي، وعند قومي؟ فلم يزل به. قال: فبما أعيبه؟ أعيب تجربته، أم طاعته؟ أم يُمن نقيبته؟ أم سياسته؟ قال: عبه بالكِبَرِ.
فلما دخل على هشام ذكر جند خراسان ونجدتهم وطاعتهم، وقال: إلا أنهم ليس لهم قائد. قال: ويحك فما فعل الكناني؟ يعني نصراً. قال له بأس ورأي إلا أنه لا يعرف الرجل ولا يسمع صوته حتى يدنو منه، وما يكاد يفهم منه من الضعف لأجل الكبر. فقال شبيل بن عبد الرحمٰن: كذب والله إنه ليس بالشيخ. . .

وكان بعد ذلك إذا ذكر أبان نصراً بين يدي هشام قال: معلم، وهذا من جهة يوسف.

ويقال أن معن[١] كلف يوسف الوقيعة في نصر، قال له: معن[٣]: كيف أعيب نصراً مع بلائه، وآثاره الجميلة عندي وعند قومي؟

فلم يزل به حتى قال: فبأي شيء أعيبه ما أعيب تجربته؟ أم طاعته؟ أم يمن نقيبته[٢]؟ [٤٨/أ] أم حسن سياسته؟ قال: لا يؤخذ من هذه عبه بالكبر.

فلما قدم معن[٣]، وكان ما كان منه قال ليوسف: قد علمت بلاء نصر عندي، وقد صنعت به ما قد علمت، فليس لي في صحبته خير، ولا لي بخراسان مقام.

فأمره بالمقام، وكتب إلى نصر:

إني قد حولت اسمه فاشخص إليّ مَن كان قبلك من أهله[٣].

---

(١) في المخطوط: «معرا» وما هنا من الكامل ويقال: معن، ويقال: مغراء، وسرت على ما في الكامل.

(٢) في المخطوط: من نهض نقيبته، والتصويب من الكامل.

(٣) هذا ما ذكر المؤلف في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير في الكامل في أحداثها فقال:
في هذه السنة: صالح نصر بن سيار الصغد وسبب ذلك: أن خاقان لما قتل في ولاية أسد تفرّقت الترك في غارة بعضها على بعض، فطمع أهل الصغد في الرجعة إليها، وانحاز قوم منهم إلى الشاش، فلما ولي نصر بن سيار، أرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم، وأعطاهم ما أرادوا.
وكانوا ينالون شروطاً أنكرها أمراء خراسان منها:
أن لا يعاقب مَن كان مسلماً فارتدّ عن الإسلام.
ولا يعدي عليهم في دين لأحد من الناس.
ولا يأخذ أسراء المسلمين من أيديهم إلاّ بقضية قاض، وشهادة عدول.
فعاب الناس ذلك على نصر بن سيار، قالوا له فيه.
فقال: لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت، ما أنكرتم ذلك.
وأرسل رسولاً إلى هشام بن عبد الملك في ذلك. فأجابه إليه.
وفي هذه السنة: توفي عقبة بن الحجاج السلولي أمير الأندلس، وقيل: بل ثار به أهل الأندلس فخلعوه وولوا بعده عبد الملك بن قطن، وهي ولايته الثانية.
وكانت ولايته في صفر من هذه السنة، وكانت البربر قد فعلت بإفريقية ما ذكرناه سنة سبع عشرة ومائة.
وقد حصروا بلج بن بشر العبسي حتى ضاق عليه وعلى مَن معه الأمر، واشتد الحصر، وهم صابرون إلى هذه السنة، فأرسل إلى عبد الملك بن قطن، يطلب منه أن يرسل إليه مراكب يجوز فيها إلى الأندلس، وذكر ما نزل عليه من الشدة، وأنهم أكلوا دوابهم. فامتنع عبد الملك من إدخالهم الأندلس، ووعدهم بإرسال المدد إليهم فلم يفعل، فاتفق أن البربر قويت بالأندلس، فاضطر عبد الملك إلى إدخال بلج ومَن معه.
وقيل: إن عبد الملك استشار أصحابه في جواز بلج، فخوّفوه من ذلك.
فقال: أخاف أمير المؤمنين أن يقول: أهلكت جندي.
فأجازهم وشرط عليهم أن يقيموا سنة ويرجعوا إلى إفريقية، فأجابوه إلى ذلك.
وأخذ رهائنهم، وأجازهم، فلما وصلوا إليه رأى هو والمسلمون ما بهم من سوء الحال، والفقر، والعرى، من شدة الحصار عليهم، فكسوهم، وأحسنوا إليهم، وقصدوا جمعاً من البربر بشدونة، فقاتلوهم، فظفروا بالبربر، فأهلكوهم وغنموا مالهم ودوابهم وسلاحهم فصلحت أحوال =

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

ولم يجرِ على ما بلغنا فيها ما يستفاد منه تجربة(١).

= أصحاب بلج، وصار لهم دواب يركبونها.
ورجع عبد الملك بن قطن إلى قرطبة، وقال لبلج ومَن معه ليخرجوا من الأندلس، فأجابوه إلى ذلك.
فطلبوا منه مراكب يسيرون فيها من غير الجزيرة الخضراء لئلا يلقوا البربر الذين حصروهم.
فامتنع عبد الملك وقال: ليس لي مراكب إلاّ في الجزيرة.
فقالوا: إننا لا نرجع نتعرض إلى البربر، ولا نقصد الجهة التي هم فيها لأننا نخاف أن يقتلونا في بلادهم.
فألحّ عليهم في العود، فلما رأوا ذلك ثاروا به، وقاتلوه، فظفروا به، وأخرجوه من القصر، وذلك أوائل ذي القعدة من هذه السنة، فلما ظفر بلج بعبد الملك أشار عليه أصحابه بقتل عبد الملك، فأخرجه من داره، وكأنه فرخ لكبر سنه، فقتله وصلبه وولي الأندلس.
وكان عُمْر عبد الملك تسعين سنة وهرب ابناه: قطن، وأمية، فلحق أحدهما بماردة، والآخر بسرقسطة، وكان هربهما قبل قتل أبيهما، فلما قتل فعلا ما نذكره إن شاء الله تعالى.
.... **وحجّ بالناس هذه السنة**: يزيد بن هشام بن عبد الملك.
وكان العمال في الأمصار هم العمال في السنة التي قبلها.
وفيها: مات محمد بن واسع الأزدي، البصري، وقيل: سنة سبع وعشرين.
وفيها: توفي جعفر بن إياس.
وفيها: مات ثابت البناني، وقيل: سنة سبع وعشرين، وله ست وثمانون سنة.
وفيها: توفي سعيد بن أبي سعيد المقبري واسم أبي سعيد: كيسان.
وقيل: مات سنة خمس وعشرين.
وقيل: ست وعشرين.
ومالك بن دينار الزاهد.

(١) هذا ما قاله المؤلف، وقال صاحب الكامل: قد اختلف الناس في أبي مسلم فقيل: كان حراً، واسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جود زده من ولد بزرجمهر، ويكنى أبا إسحاق وُلِدَ بأصبهان، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة، وهو ابن سبع سنين.
فلما اتصل بإبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الإمام قال له: غيّر اسمك، فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك على ما وجدته في الكتب فسمّى نفسه عبد الرحمٰن بن مسلم، ويكنى أبا مسلم، فمضى لشأنه وله ذؤابة، وهو على حمار بإكاف وله تسع عشرة سنة.
وزوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم ـ وهي بخراسان مع أبيها ـ فبنى بها أبو مسلم بخراسان.
وزوّج أبو مسلم ابنته فاطمة من محرز بن إبراهيم وابنته الأخرى أسماء من فهم بن محرز، فأعقبت أسماء، ولم تعقب فاطمة، وفاطمة هي التي تذكرها الخرمية.
ثم إن سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، ولاهز بن قريظ، وقحطبة بن شبيب توجهوا من خراسان، يريدون مكة سنة أربع وعشرين ومائة، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي، وهو في الحبس، قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل العجليان ـ وهذا إدريس هو جد أبي دلف العجلي ـ وكان حبسهما يوسف بن عمر مع مَن حبس من عمال خالد القسري، ومعهما أبو مسلم يخدمهما قد اتصل بهما.
فرأوا فيه العلامات، فقالوا: لمَن هذا الفتى؟ فقالا: غلام معنا من السراجين يخدمنا. =

....

= وكان أبو مسلم يسمع عيسى، وإدريس يتكلمان في هذا الرأي، فإذا سمعهما بكى، فلما رأوا ذلك منه دعوه إلى رأيهم، فأجاب.
وقيل: إنه من أهل ضياع بني معقل العجلي بأصبهان أو غيرها من الجبل، وكان اسمه: إبراهيم ويلقب حيكان، وإنما سماه عبد الرحمٰن، وكناه أبا مسلم إبراهيم الإمام.
كان مع أبي موسى السراج صاحبه يخرز الأعنة، ويعمل السروج، وله معرفة بصناعة الأدم والسروج، فكان يحملها إلى أصبهان، والجبال، الجزيرة، والموصل، ونصيبين، وآمد، وغيرها يتجر فيها.
وكان عاصم بن يونس العجلي، وإدريس، وعيسى بن معقل محبوسين، فكان أبو مسلم يخدمهم في الحبس بتلك العلامة.
فقدم سليمان بن كثير، ولاهز، وقحطبة الكوفة فدخلوا على عاصم، فرأوا أبا مسلم عنده، فأعجبهم فأخذوه.
وكتب أبو موسى السراج معه كتاباً إلى إبراهيم الإمام، فلقوه بمكة، فأخذ أبو مسلم فكان يخدمه.
ثم إن هؤلاء النقباء قدموا على إبراهيم الإمام مرة أخرى يطلبون رجلاً يتوجه معهم إلى خراسان وكان هذا نسب أبي مسلم على قول مَن يزعم أنه حُرّ.
فلما تمكن وقوي أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس.
وكان من حديث سليط بن عبد الله بن عباس: أنه كانت له جارية مولدة صفراء تخدمه، فواقعها مرة ولم يطلب ولدها، ثم تركها دهراً، فاغتنمت ذلك، فاستنكحت عبداً من عبيد المدينة، فوقع عليها فحبلت، وولدت غلاماً، فأحدها عبد الله بن عباس، واستعبد ولدها وسماه سليطاً، فنشأ جلداً طريفاً يخدم ابن عباس.
وكان له من الوليد بن عبد الملك منزلة، فادعى أنه ولد عبد الله بن عباس، ووضعه على أمر الوليد لما كان في نفسه من علي بن عبد بن عباس، وأمره بمخاصمة علي، فخاصمه.
واحتال في شهود على إقرار ابن عباس بأنه ابنه، فشهدوا بذلك عند قاضي دمشق فتحامل القاضي اتباعاً لرأي الوليد، فأثبت نسبه.
ثم إن سليطاً، خاصم علي بن عبد الله في الميراث حتى لقي منه علي أذى شديد.
وكان معي علي رجل من ولد أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، منقطعاً إليه يقال له: عمر الدن، فقال لعلي يوماً: لأقتلن هذا الكلب، وأريحك منه.
فنهاه علي عن ذلك، وتهدّده بالقطيعة، ورفق على سليط حتى كفّ عنه.
ثم إن سليطاً دخل مع علي بستاناً له بظاهر دمشق، فنام علي، فجرى بين عمر الدن، وسليط كلام، فقتله عمر ودفنه في البستان، وأعانه عليه مولى لعلي، وهربا.
وكان لسليط صاحب قد عرف دخوله البستان فقده، فأتى أم سليط، فأخبرها، فقد علي أيضاً عمر الدن ومولاه، فسأل عنهما وعن سليط فلم يخبره أحد.
وغدت أم سليط إلى باب الوليد، فاستغاثت على عليّ، فأتى الوليد من ذلك ما أحب، فأحضر عليّ، وسأله عن سليط، فحلف أنه لم يعرف خبره، وأنه لم يأمر فيه بأمر.
فأمره بإحضار عمر الدن، فحلف بالله أنه لم يعرف موضعه.
فأمر الوليد بإرسال المال في أرض البستان، فلما انتهى إلى موضع الحفرة التي فيها سليط انخسفت، وأخرج منها سليط.
فأمر الوليد بعلي، فضرب وأقيم في الشمس وأُلبس جبّة صوف ليخبره خبر سليط، ويدله على عمر الدن فلم يكن عنده علم.
ثم شفع فيه عباس بن زياد، فأخرج إلى الحميمة، وقيل: إلى الحجر، فأقام به حتى هلك =

....

= الوليد وولي سليمان، فردّه إلى دمشق.
وكان هذا مما عده المنصور على أبي مسلم حين قتله وقال له: زعمت أنك ابن سليط، ولم ترضَ حتى نسبت إلى عبد الله غير ولده، لقد ارتقيت مرتقاً صعباً.
وكان سبب موجدة الوليد على علي بن عبد الله: أن أباه عبد الملك بن مروان طلّق امرأته أم ابنها ابنة عبد الله بن جعفر، فتزوجها علي، فتغير له عبد الملك وأطلق لسانه فيه، وقال: إنما صلاته رياء.
وسمع الوليد ذلك من أبيه فبكى في نفسه. وقيل: إن أبا مسلم كان عبداً، وكان سبب انتقاله إلى بني العباس: أن بكير بن ماهان، كان كاتباً لبعض عمال السند، فقدم الكوفة فاجتمع هو وشيعة بني العباس، فغمز بهم فأخذوا، فحبس بكير، وخلّى عن الباقين، وكان في الحبس يونس أبو عاصم وعيسى بن معقل العجمي، ومعه أبو مسلم يخدمه، فدعاهم بكير إلى رأيه، فأجابوه.
فقال لعيسى بن معقل: ما هذا الغلام منك؟ قال: مملوكي. قال: أتبيعه؟ قال: هو لك. قال: أحب أن تأخذ ثمنه. قال: هو لك بما شئت. فأعطاه أربعمائة درهم.
ثم خرجوا من السجن، فبعث به بكير إلى إبراهيم الإمام، فدفعه إبراهيم إلى أبي موسى السراج فسمع منه وحفظ.
ثم سار متردداً إلى خراسان.
وقيل: إنه كان لبعض أهل هراة أو بوشنج فقدم مولاه على إبراهيم الإمام، وأبو مسلم معه، فأعجبه عقله فابتاعه منه، وأعتقه ومكث عنده عدة سنين، وكان يتردد بكتب إلى خراسان على حمار له.
ثم وجهه أميراً على شيعتهم بخراسان، وكبت إلى مَن بها منهم بالسمع والطاعة، وكتب إلى أبي سلمة الخلال داعيتهم ووزيرهم بالكوفة يعلمه أنه قد أرسل أبا مسلم، ويأمره بإنفاذه إلى خراسان.
فسار إليها فنزل على سليمان بن كثير، وكان من أمره ما نذكره سنة سبع وعشرين ومائة إن شاء الله تعالى.
وقد كان أبو مسلم رأى رؤيا قبل ذلك استدل بها على مُلك خراسان، فظهر أمرها فلما ورد نيسابور نزل بوناباذ، وكانت عامرة فتحدّث صاحب الخان الذي نزله أبو مسلم بذلك، وقال: إن هذا يزعم أنه يلي خراسان، فخرج أبو مسلم لبعض حاجته، فعمد بعض المجان، فقطع ذنب حماره.
فلما عاد قال لصاحب الخان: مَن فعل هذا بحماري؟ قال: لا أدري. قال: ما اسم هذه المحلة؟ قال: بوناباذ. قال: إن لم أصيرها كنداباذ، فلست بأبي مسلم.
فلما ولي خراسان أخربها.
وفي هذه السنة: كان بالأندلس حرب شديدة بين بلج، وأمية، قطن بن عبد الملك بن قطن، وكان سببها: أنهما لما هربا من قرطبة كما ذكرناه، فلما قتل أبوهما، استنجدا بأهل البلاد والبربر، فاجتمع معهما جمع كبير، قيل: كانوا مائة ألف مقاتل، فسمع بهم بلج، والذين معه، فسار إليهم، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وجرح بلج جراحات. ثم ظفر بابني عبد الملك، والبربر، ومَن معهم، وقتل منهم فأكثر.
وعاد إلى قرطبة مظفراً منصور، فبقي سبعة أيام ومات من الجراحات التي فيه.
وكانت وفاته في شوال من هذه السنة.
وكانت ولايته إحدى عشر شهراً.
فلما مات قدم أصحابه عليهم ثعلبة بن سلامة العجمي، لأن هشام بن عبد الملك عهد إليهم إن حدث ببلج وكلثوم حدث، فالأمير ثعلبة فقام بالأمر.
وثارت في أيامه البربر بناحية ماردة، فغزاهم فقتل، فأكثر، وأسر منهم ألف رجل، وأتى بهم إلى قرطبة.
وفيها: غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقي أليون ملك الروم، فغنم.
وفيها: مات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في قول بعضهم، ووصى إلى ابنه إبراهيم =

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

وفيها: كانت وفاة هشام بن عبد الملك، فكانت خلافته تسع عشرة سنة، وثمانية أشهر. وسِنُّه خمس وخمسون سنة(١).

فتحدّث سالم قال: خرج علينا هشام بن عبد الملك يوماً وهو كئيب يعرف ذلك فيه مسترخية ثيابه، قد أرخى عنان دابته.

فلما سار انتبه فجمع ثيابه، وأخذ بعنان دابته، وقال للربيع: ادع الأبرش.

فسار بيني وبين الأبرش فقال له الأبرش: يا أمير المؤمنين، لقد رأيت منك اليوم ما غمّني.

قال: ما هو؟

فوصف حاله، وقال: وكيف لا أكون كذلك، وقد زعم أهل العلم أني ميت إلى ثلاث وثلاثين يوماً؟

قال سالم: فلما عدت إلى منزلي كتبت في قرطاس: زعم أمير المؤمنين يوم كذا أنه يسافر إلى ثلاثة وثلاثين يوماً.

فمات في اليوم الثالث والثلاثين.

قال: فأغلق الخزان الأبواب لما سنذكره، فطلبوا قمقماً يُسَخّن فيه ماء لغسله فما وجد حتى استعاروه من بعض الجيران.

فقال الحاضرون: إن في هذا لمعتبراً لمَن اعتبر.

وكانت وفاته بالذبحة.

ذكر بعض سيرة هشام

حكى عقال بن شيبة قال: دخلت على هشام حين وجهني إلى خراسان، وعليه قباء

= بالقيام بأمر الدعوة إليهم.

وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن هشام بن إسماعيل.

وفيها: مات محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وكان مولده سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة خمسين.

(١) في الكامل: مات هشام بن عبد الملك بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر.
وكانت خلافته تسعة عشر سنة وتسعة أشهر واحداً وعشرين يوماً.
وقيل: وثمانية أشهر ونصفاً، وكان مرضه الذبحة.
وعمره خمس وخمسون سنة.
وقيل: ست وخمسون سنة.

أخضر عليه فَنَك[1] فجعل يوصيني، وأنا أنظر إلى القباء وأتأمله، ففطن وقال: ما لك؟

قلت: إني رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباء فنك أخضر، فأنا أتأمله هل هو ذاك؟

قال: هو والله الذي لا إله غيره، وما ترون من جمعي هذا المال وصونه إلا لكم.

وكان عقال يقول: دخلت على هشام فرأيت رجلاً محشواً [٤٨/ب] عقلاً.

ولم يكن يسير أيام هشام في موكب إلاّ مسلمة بن عبد الملك.

ورأى هشام سالماً يوماً في مركب فزجره، وقال: لا أعلمن متى سرت في مركب.

فكان بعد ذلك إذا قدم الرجل فسار مع سالم، وقف له سالم ويقول: حاجتك، ويمنعه أن يسير معه.

هذا وسالم يرى كأنه هوام هشام.

ولم يكن أحد يأخذ العطاء إلا ألزمه الغزو، فمنهم مَن يغزو ومنهم يخرج بديلاً.

وَوَلّى هشام بعض مواليه ضيعة فعمرها، فجاءت بغلة كثيرة، ثم عمرها أيضاً، فأضعفت الغلة، وبعث بها مع لينه فجزأه جزءاً ووجد ابن هذا المولى منه انبساطاً.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي حاجة.

قال: ما هي؟

قال: زيادة عشرة دنانير في العطاء.

فقال: ما يخيل إلى أحدكم عشرة دنانير في العطاء إلا قدر الجود، لا لعمري لا أفعل.

وقال غسان بن عبد الحميد: لم يكن من بني مروان أشد نظراً ولا أشد مبالغة في الغض عن أمور أصحابه ودواوينه من هشام.

وكان أقطع هشام قبل الخلافة أرضاً يقال لها دورين، فلما أرسل في قبضها وجدها خراباً، فقال لكاتب كان لهشام يقال له: دويد، ويحك كيف الحيلة؟

قال: ما تجعل لي.

قال: ما يجعل لي.

قال: خمسمائة دينار.

فكتب دويد ودين وقراها، ثم أمضاها في الدواوين، وأخذ شيئاً كثيراً.

فلما ولى هشام دخل عليه دويد فقال: ما دويد ودين وقراها لا والله لا يلي لي

---

(١) الفنك: فراء دابة، وهو من أجمل أنواع الفراء وأجودها وأغلاها.

ولاية أبداً، فأخرجه من الشام.

وقال له بعض آل مروان يوماً: أتطمع في الخلافة، وأنت بخيل جبان؟!

قال: ولِمَ لا أطمع، وأنا حليم، عفيف، سائس.

وأتى هشاماً محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال: ما لك عندي شيء، ثم قال: إياك أن يغرك أحد، فيقول: لم يعرفك أمير المؤمنين، أنت محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، فلا تقيمن وتنفق ما معك فليس لك عندي صلة، فبادر، وألحق بأهلك.

وحجّ هشام، فأخذ الأبرش مجنبتين معهم برابط.

فقال هشام: احبسوهم، وبيعوا متاعهم هذا وما أدري ما هو وصيروا ثمنه في بيت المال فإذا صلحوا فردوا الثمن عليهم.

وكان هشام ينزل بالرصافة، وكان سبب ذلك:

أن الحلفاء وأبناؤهم كانوا يهربون من الطاعون، فنزلوا البرية.

فعزم هشام على نزول الرصافة[١]، فقيل له: لا تخرج، فإن الخلفاء لا يُطعنون[٢]، لم يُر خليفة طعن.

قال: أفتريدون أن تُجَرّبوا فيّ[٣]؟!

فخرج إلى الرصافة، وهي برية فابتنى بها قصرين.

والرصافة كانت مدينة[٤] [٤٩/أ] رومية بنتها الروم في القديم، ثم خربت.

وبعث يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفانا من كفّ القابض، وجبة... [٥] أعظم ما يكون الجب على يد كاتبه مخدم، قال: فدخلت عليه، ودنوت منه، فلم أرَ وجهه من طول السدر، وكثرة الفرش، فتناول الحجر والجبة، فقال: اكتب معك وزنهما.

قلت: يا أمير المؤمنين، هما أجلّ من أن يكتب بوزنهما، ومن أن يوجد مثلهما.

قال: صدقت.

وكانت الياقوتة لجارية خالد بن عبد الله القسري ويقال لها رائقة اشتراها بثلاثة

---

(١) بعدها في الكامل: وهي من أعمال قنسرين.

(٢) أي لا يصيبهم الطاعون.

(٣) في المخطوط: «تحزنوا بي» والتصويب من الكامل.

(٤) تكررت عبارة: كانت مدينة بأول الصفحة [٤٩/أ] فحذفت التكرار.

(٥) كلمة غير مقروءة.

وسبعين ألف دينار[١].

---

(١) زاد ابن الأثير في سيرته عما هنا فقال ما يلي:
وقيل: ضرب رجل نصراني غلاماً لمحمد بن هشام فشجه، فذهب خصي لمحمد، فضرب النصراني.
وبلغ هشاماً الخبر، وطلب الخصي، فعاذ بمحمد.
فقال له محمد: ألم آمرك؟
فقال الخصي: بلى والله، قد أمرتني.
فضرب هشام الخصي، وشتم ابنه.
قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس: جمعت دواوين بني أمية، فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.
وقيل: أُتي هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه. فبكى الشيخ لما ضربه.
فقال: عليك بالصبر.
فقال: أتراني أبكي للضرب؟ إنما أبكي لاحتقاره البربط، إذ سماه طنبوراً.
قال: وأغلظ رجل لهشام، فقال له: ليس لك أن تغلظ لإمامك.
قيل: وتفقد هشام بعض ولده، فلم يحضر الجمعة، فقال: ما منعك من الصلاة؟ قال: نفقت دابتي. قال: أفعجزت عن المشي؟! فمنعه الدابة سَنَةً.
قيل: وكتب إليه بعض عماله: قد بعثت إلى أمير المؤمنين بسلة دراقن.
وكتب إليه: قد وصل الدراقن فأعجب أمير المؤمنين، فزد منه، واستوثق من الدعاء.
وكتب إلى عامل له قد بعث بكماة: قد وصلت الكماة، وهي أربعون وقد نَعَمَ بعضها من حشوها، فإذا بعثت شيئاً، فأجِدّ حشوها في الطرق بالرمل حتى لا تضطرب، ولا يصيب بعضها بعضاً.
وقيل: إن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام بن عبد الملك، فأخذه هشام، وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله.
فبلغ الخبر هشاماً، فكتب إلى خالد يلومه، ويعزم عليه أن يقتله.
فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه، فلما صلّى العيد يوم الأضحى، قال في خطبته: انصرفوا وضحُّوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً.
تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً.
ثم نزل وذبحه.
قيل: إن غيلان بن يونس، وقيل: ابن مسلم أبا مروان أظهر القول بالقدر في أيام عمر بن عبد العزيز، فأحضره عمر، واستتابه فتاب، ثم عاد إلى الكلام فيه أيام هشام، فأحضره من ناصرة، ثم أمر به فقطعت يداه، ورجلاه، ثم أمر به فصلب.
قال مجمع بن يعقوب الأنصاري: شتم هشام رجلاً من الأشراف، فوبخه الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني، وأنت خليفة الله تعالى في الأرض، فاستحى منه وقال: اقتص مني.
قال: إذاً أنا سفيه مثلك.
قال: فخذ مني عوضاً من المال.
قال: ما كنت لأفعل.
قال: فهبا لله.
قال: هي لله ثم لك.
فنكس هشام رأسه، واستحى وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبداً.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

وفي هذه السنة: ولي الخلافة بعد موت هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وكان يزيد بن عبد الملك عقد له الخلافة بعد أخيه هشام، وذلك أن ابنه هذا كان صغيراً يوم عهد لهشام، ثم لم يمت يزيد حتى بلغ ابنه خمس عشرة سنة، فقدم على استخلافه هشاماً، وكان إذا نظر إلى ابنه الوليد يقول: الله بيني وبين مَن جعل هشاماً بيني وبينك.

وولى هشام وبقي[1] الوليد مكرم، معظم، مقرب، لم يزل ذلك من أمرهما حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب حمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى ـ وكان مؤدبه ـ.

واتخذ الوليد ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه، فوَلاّه الحج سنة ست عشرة ومائة.

فحمل معه كلاباً في صناديق، فسقط صندوق منها، فأحالوا على الكرى السياط، وأوجعوه ضرباً.

وكان حمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها فوق الكعبة، وحمل معه خمراً وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها للشراب.

فخوّفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليكم وعلينا، فلم يحركها.

وظهر للناس منه تهاون في الدين واستخفاف به.

وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه والبيعة لابنه[2]، فأجابه جماعة فيهم خالاه محمد وإبراهيم وتمادى الوليد في شرب الشراب، وطلب اللذّات.

فقال له هشام يوماً: ويحك يا وليد، والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟ لا تدع شيئاً من المنكر إلاّ أتيته غير متحاش ولا مستتر به.

---

(١) في المخطوط: وهو. وهو تحريف.

(٢) في الكامل: لابنه مسلمة، وخلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك، فأبى، فقال له: اجعله، فأبى فتنكّر له هشام، وأضربه، وعمل سراً في البيعة لابنه مسلمة، فأجابه قوم وكان ممن أجابه خالاه محمد، وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو القعقاع بن خليد العبسي، وغيرهم من خاصته، فأفرط الوليد في الشراب وطلب الملذات. . .

فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... حن على دين أبي شاكرِ
نشربها صرفاً وممزوجة ... بالسّخْنِ أحياناً وبالفاترِ

[٤٩/ب] يعني بأبي شاكر مسلمة بن هشام، وكان يكنى أبا شاكر.

فغضب هشام على ابنه وقال: يعيرني بك الوليد، وأنا أرشحك للخلافة، فالزم الأدب واحضر الجماعة.

وولاه الموسم سنة تسع عشرة، فأظهر النسك والوقار، واللبن، والجود، وقسم بالمدينة ومكة أموالاً فقال الشاعر:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجود بأرسالها ... ليس بزنديق ولا كافر

يعرض بالوليد.

وأخذ هشام يعيب الوليد[1] وينتقصه، وزاد حتى قصد أصحابه.

فخرج الوليد رأى ذلك مع خاصته حتى نزل بالأزرق على ماء يقال له الأغدق، وخلف كاتبه عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان بالرصافة ووصاه أن يكاتبه بكل ما يحدث، وأخرج معه عبد الصمد بن عبد الأعلى.

فقطع هشام عن الوليد ما كان يجري عليه، وكتب إليه: بلغني أنك اتخذت عبد الصمد خِدْناً ونديماً، وقد حقق ذلك عندي أشياء بلغتني عنك ولم أبرئك من سوء فاخرج عبد الصمد مذموماً مدحوراً.

فأخرجه إليه، وكتب إليه: إني قد أخرجت إليك عبد الصمد، واعتذر إليه مما بلغه.

وبلغ هشاماً أن عياض بن مسلم يكاتب الوليد بالأخبار، فأخذه، وضربه ضرباً مبرحاً، وألبسه المسوح.

فبلغ الوليد فقال: مَن يثق بالناس ومَن يصطنع المعروف؟ هذا الأحول المشؤوم، قدمه أبي على أهل بيته، ثم ميّزه[2] ولي عهده، ويصنع بي ما ترون؟ اللهم اجزني منه، وقال:

أنا النذير لمسدي نعمة أبداً ... إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا

---

(١) في المخطوط: «الولد» وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: «حيره» والتصويب من الكامل.

إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بطراً وإن أهنتهم ألفيتهم ذُللا
أتسمحون ومنا رأس نعمتكم ستعلمون إذا صارت لنا دولا
انظر فإن أنت لم تقدر على مثل له سوى الكلب فاضربه له مثلا
بينا يسّمنه الصيد صاحبه حتى إذا ما نوى من بعد ما هزلا
عدا عليه فلم يصرره غدوته ولو أطاق له أكلاً لقد أكلا

[٥٠/أ] وكتب إلى هشام: قد بلغني الذي أحدث أمير المؤمنين من قطع ما قطع عني ومحو مَن محى من أصحابي وحرمتي وأهلي، ولم أكن أخاف أن يبتلي الله أمير المؤمنين بذلك ولا إياي منه، فإن يكن مني ذنب فبحسب القراف يكون على قدر الذنب، وإن يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين علي فقد سبّب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق ما لا يقدر أحد على قطع شيء منه دون مدته، ولا صرف شيء عن مواقعه، فأمر الله يجري بمقادير، فيما أحبّ الناس أو كرهوا، فالناس بين ذلك يفترقون، الأيام على أنفسهم من الله تعالى أو يستوجبون الأجور عليه، وأمير المؤمنين أحق أمته بالنصر لذلك والتحفُّظ به والله الموفق لأمير المؤمنين.

فكتب هشام في الجواب إلى الوليد: قد فهم أمير المؤمنين ما كتبت به في قطع ما قطع عنك وغير ذلك، وأمير المؤمنين يستغفر الله من أجرائه ما كان يجري عليك، أمير المؤمنين أخوف على نفسه في إقراف الماء ثم جيت أخرى عليك مما أخذته في قطع ما قطع ومحو ما محى من أصحابك لأميرين:

أحدهما: إيثار أمير المؤمنين إياك، مما كان يصل إليك، وهو لا يعلم وضعك له في غير موضعه.

والآخر: إثبات أصحابك وإدرار أرزاقهم، وهم لا ينالهم ما ينال المسلم في كل عام من مكروه الغزو وهم معك تجول بهم في سفهك. ولأمير المؤمنين أحرى بالتقصير في الغير عليك منه في الاعتداء عليك، مع أن الله تعالى قد قضى لأمير المؤمنين في قطع ما قطع عنك من ذلك ما نرجو أنه يكفر ما يتخوّف من الذي سلف فيه منه.

وأما ما ذكرت مما سبب الله عزّ وجل لك فإن الله عزّ وجل ابتدأ أمير المؤمنين واصطفاه له، والله بالغ أمره، فقد أصبح أمير المؤمنين وهو على اليقين من ربه أنه لا يملك لنفسه فيما أعطاه من كرامة ضرًّا ولا نفعاً، وأن الله تعالى ولي ذلك منه، وأنه لا بد من مزايلته والله أرأف بعباده وأرحم من أن يولي أمرهم غير الرضى له منهم، وأن أمير المؤمنين من حُسن ظنه بربه تعالى أحسن الرجاء أن يوليه من هو أهله، فإن بلاء الله

عند أمير المؤمنين أعظم من أن يبلغه ذكره أو يؤديه شكره إلاّ بعون منه له.

ولعمري إن كتابك إلى أمير المؤمنين بما كتبت به لغير مستنكر من سفهك وحقك، فاربع على نفسك من غلوإيها، وأرق طلعك فإن الله تعالى سطوات يصيب بها مَن يشاء، ويأذن فيها لمَن يشاء، وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق.

فكتب الوليد إلى هشام:

[٥٠/ب] رأيتك تبني جاهداً[١] في قطيعتي ... ولو كنت ذا أرب[٢] لهدمت ما تبني

تثير على الباقين تجني[٣] ضغينة ... فويل لهم إن مت من شر ما تجني

كأني بهم والليثُ أفضل قولهم ... ألا ليتنا كُنّا إذا الليثُ لا تغني[٤]

[كفرت يداً من منعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمٰن ذو الفضل والمن][٥]

ولم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فلما كان صبحية اليوم الذي جاءته فيه الخلافة دعا أبا الزبير المنذر بن أبي عمرو فقال له:

ما بت[٦] على ليلة منذ عقلت [عقلي][٧] أطول من هذه الليلة، عرضت لي هموم، وحدثت نفسي فيها بأمور من أمر هذا الرجل الذي قد أولع بمكروهي - يعني هشاماً - فاركب بنا نتنفس.

فركبا وسارا، ميلين[٨]، فبينا هو يشكو أخاً له إذ برهج[٩]، فقال: ....[١٠] الأمور، هؤلاء رسل هشام.

فلما دنا القوم نزل موليان يعدوان حتى دنوا فسلّما عليه بالخلافة، فوجم، وجعلا يكرران عليه ذلك.

فقال: ويحكما، أمات هشام؟

قالا: نعم.

---

(١) في الكامل: دائماً، وأشار محققه أنها في الطبري كما هنا.
(٢) في الكامل: حزم، وأشار محققه أنها في الطبري كما هنا.
(٣) في الكامل: مجني.
(٤) الشطر الأخير في الكامل: «ألا ليتنا والليت إذ ذاك لا يغني».
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: «أنت» والتصويب من الكامل.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في المخطوط: «وميلين» والواو زائدة فحذفتها.
(٩) في المخطوط: «نزمج» والتصويب من الكامل بنحوه.
(١٠) موضع النقط كلمتان هذا رسمهما: «اسلام. خر»، والسياق في الكامل: ميلين ووقف على كثيب فنظر إلى رهج فقال: هؤلاء رسل هشام...

قال: فممن كتابكما؟

قالا: من مولاك سالم بن عبد الرحمٰن صاحب ديوان الرسائل.

ثم سأل عن كاتبه عياض بن مسلم.

فقال: يا أمير المؤمنين، لم يزل محبوساً حتى نزل بهشام أمر الله، فلما صار في حد لا يرجى الحياة لمثله أرسل عياض إلى الخزنة: أن احتفظوا بما في أيديكم فلا يصلن أحد منه إلى شيء فمنعوه بعض ما التمسه.

فقال: أرى أنّا كُنّا خُزّاناً للوليد، فمات من ساعته.

فخرج عياض من السجن وختم أبواب الخزائن، وأمر بهشام، فأنزل عن فرشه فما وجد قمقماً يسخن فيه الماء حتى استعاروه، ولا وجدوا كفناً من الخزائن فكفنه غالب مولى هشام[1].

---

(١) زاد بعد هذا في الكامل، فقال:

هلك الأحول المشـ ... ـؤوم وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا ... ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله إنه ... زائد كل مَن شكر

وقيل: إن هذا الشعر لغير الوليد.

فلما سمع الوليد موته كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام، فإنه كَلَّمَ في الرفق بالوليد.

فقدم العباس الرصافة، ففعل ما كتب به الوليد إليه، وكتب إلى الوليد، فقال الوليد:

ليت هشاماً كان حيًّا يرى ... محلبة، إلا وفرقد اترعا
ليت هشاماً عاش حتى يرى ... مكياله الأوفر قد طُبعا
كلناه بالصاع الذي كاله ... وما طلمناه به أصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة ... أحَلّه الفرقان لي أجمعا

وضيّق على أهل الشام وأصحابه فجاءه خادم لهشام فوقف عند قبره وبكى، وقال: يا أمير المؤمنين لو رأيت ما يصنع بنا الوليد؟ فقال بعض مَن هناك: لو رأيت ما صنع بهشام لعلمت أنك في نعمة لا تقوم بشكرها، إن هشاماً في شغل مما هو فيه عنكم. واستعمل الوليد العمال...

زاد ابن الأثير في الكامل بعد هذا فقال: قال:

ضمنت لكم إن لم يعقني عائق ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق معاً وزيادة ... وأعطية مني عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم ... به تكتب الكتاب شهراً وتطبع

قال حلم الوادي المغني: كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام، وهنىء بولاية الخلافة، وأتاه القضيب، والخاتم.

ثم قال: فأمسكنا ساعة، ونظرنا إليه بعين الخلافة.

فقال: غنوني: =

واستعمل الوليد العمال، وجاءته بيعته من الآفاق، وكتب إليه العمال، وجاءته الوفود.

وجاءه كتاب من مروان بن محمد، وكان إليه أرمينية، وأذربيجان بليغ يثني عليه، ويذكر أنه قد تابع له من قبله، ويستأذنه في المصير إليه لمشاهدته.

وأجرى الوليد على المرضى والعميان، وأمر لكل إنسان منهم بخادم.

وأخرج لعيالات الناس الطبيب والكسوة، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرات.

ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة.

وأضعف جوائز أهل بيته، ولم يقل قط في شيء سأله: لا.

وفي هذه السنة: عقد الوليد لابنيه الحكم، وعثمان بعده وجعلهما وليي[1] عهده أحدهما بعد الآخر [٥١/أ] وكتب بذلك إلى الأمصار:

إلى يوسف بن عمر بالعراق.

وإلى نصر بن سيار بخراسان.

ونسخة البيعة: «نبايع لعبد الله بن الوليد، والحكم ابن أمير المؤمنين إن كان بعده، وعثمان ابن أمير المؤمنين إن كان بعد الحكم، على السمع والطاعة، فإن حدث بواحد منهما حدث، فأمير المؤمنين أملك في ولد ورعيته، يقدم مَن أحب، ويؤخر مَن أحب».

وفي هذه السنة: ولى الوليد بن يزيد، نصر بن سيار خراسان كلها، وأفرده بها[2].

وفيها: كتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يأمره بالقدوم، ويحمل[3] ما قدر عليه من الهدايا والأموال و[أن يقدم] بعياله أجمعين.

فلما أتى نصراً كتابه، قسم على أهل خراسان الهدايا، وعلى عماله، ولم يدع

= طاب يومي ولذ شرب السلافة　　وأتانا نعي مَن بالرصافه
وأتانا البريد ينعي هشاماً　　وأتانا بخاتم للخلافه
فاصطحبنا من خمر عانة صرفاً　　ولهونا بقينة عرافه

وحلف أن لا يبرح من موضعه حتى يغني في هذا الشعر، وشرب عليه، ففعلنا ذلك، ولم نزل نغني إلى الليل.
ثم إن الوليد في هذه السنة عقد لابنيه...

(١) في المخطوط: «ولي» وهو تحريف.

(٢) زاد في الكامل: ثم وفد يوسف بن عمر إلى الوليد فاشترى منه نصراً وعماله فردّ إليه الوليد ولاية خراسان.

(٣) في المخطوط: «يحل» وهو تحريف.

بخراسان جارية ولا عبد ولا برذوناً فارهاً إلا أعده.

فاشترى ألف مملوك، وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل.

وأعدّ خمسمائة وصيفة، وأمر بصناعة أباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورؤوس السباع والأيايل، وغير ذلك.

فلما فرغ من جمين ذلك كتب الوليد يستحثه، فسرح أوائلها حتى بلغ ذلك بيهق.

وكتب إليه الوليد: يأمره أن يبعث إليه برابط وطنابير، وأن يجمع له كل صناجة بخراسان، وكل بازي[١] هناك، ثم يسير بذلك كله بنفسه مع ما أعده، وبوجوه أهل خراسان. وكان المنجمون يخبرون نصراً بفتنة تكون. فبعث نصراً، وصدقة بن وثّاب، وكان منجماً . . .[٢] ببلخ، فأحضره، فكان مقيماً عنده وألحت عليه الكتب، فلم يزل يتباطأ حتى وجّه إليه يوسف رسولاً، وأمر بلزومه، واستحثا به، فإن أبطأ أشاع في الناس أنه خلع.

فلما جاءه الرسول أجازه، وأرضاه، وتحول إلى قصري بماجان.

واستخلف عصّمة بن عبد الله الأسدي على خراسان، وولى كل كورة بعد وأمرائهم إذا بلغهم خروجه من مرو أن يستجلبوا[٣] الترك، وأن يغيروا على ما وراء النهر لينصرف بعد خروجه يعتل بذلك.

فبينا هو يسير يوماً إلى العراق طرقه ليلاً مولى لبني ليث وناجاه [وأعلمه بقتل الوليد][٤].

فلما أصبح أذن للناس، وبعث إلى رسل الوليد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد كان من مسيري ما رأيتم، وبعثي بالهدايا ما علمتم، وطرقني فلان ليلاً، وأخبرني: أن الوليد قد قتل، ووقعت الفتنة بالشام.

وقدم منصور بن جمهور إلى العراق، وقد هرب يوسف بن عمر منه، ونحن في بلاد قد علمتم حالها، وكثرة عددها.

ثم دعا بالقادم، فأحلفه أن ما جاء به حق فحلف.

فقال سلم[٥] بن أحوز: أصلح الله الأمير، لو حلفت لكنت صادقاً [٥١/ب] إنه بعض مكايد قريش أرادوا تهجين طاعتك، فَسِرْ ولا تهجنا.

---

(١) في المخطوط: باز، والتصويب من الكامل.
(٢) كلمة في المخطوط غير مقروءة.
(٣) في المخطوط: «تجلبوا» والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في الكامل: «سالم»، وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هنا: «سلم».

فقال: يا سلم أنت رجل لك علم بالحروب لك مع ذلك حسن إطاعة لبني أمية فأما مثل هذا من الأمور فرأيك فيه رأي أمة هتماء.

ثم قال لمَن حضر: إني لم أشهد بعد ابن حازم أمراً مفظعاً إلا كنت المفزع في الرأي. فقال الناس: قد علمنا ذلك، فالرأي رأيك.

وفي هذه السنة: وجّه الوليد بن يزيد خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على المدينة ومكة، ودفع إليهما: إبراهيم، ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي موثقين في عباءتين، فقدم بهما المدينة، وأقامهما للناس.

ثم بعث بهما إلى يوسف بن عمر، وهو يومئذ عامله على العراق، فعذّبهما حتى قتلهما وقد كان رفع عليهما عند الوليد أنهما أخذا مالاً كثيراً[١].

وفي هذه السنة: قدم سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، ولاهز بن قريط، وقحطبة بن شبيب مكة على محمد بن علي، وأخبروه بقصة أبي مسلم، وما رأوا منه.

فقال لهم: أحُرٌّ هو أم عَبْدٌ؟

قالوا: أما عيسى، فزعم أنه عبد، وأما هو فزعم أنه حر.

قال: فاشتروه وأعتقوه، وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف درهم وكُسي بثلاثين ألف درهم.

فقال لهم: ما أظنكم تلقونني بعد عامي هذا، فإن حدث بي حدث فصاحبكم إبراهيم بن محمد، فإنه مأمون، وأنا أثق به لكم وأوصيكم به خيراً، وقد أوصيته بكم فصدروا من عنده.

وفي هذه السنة: قتل يحيى بن زيد بن علي بخراسان.

ذكر مقتل يحيى بن زيد والسبب فيه

أقام يحيى بن زيد ببلخ عند الحريش بن عمر بن داود حتى هلك هشام، وولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وكتب يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار: بمسير يحيى بن زيد، ومرا ببلخ حتى قال: إنه عند الحريش، وقال له: ابعث إليه فخذه أشد الأخذ.

---

(١) في الكامل: فقدم بهما المدينة في شعبان، فأقامهما للناس، ثم حملا إلى الشام، فأُحضرا عند الوليد، فأمر بجلدهما.
فقال محمد: أسألك بالقرابة.
قال: وأي قرابة بيننا؟
قال: فقد نهى رسول الله ﷺ.

فبعث نصر إلى عقيل بن معقل يأمره أن يأخذ الحريش فلا يفارقه حتى يزهق نفسه أو يأتيه بيحيى بن زيد فبعث إليه عقيل.

فبعث إليه عقيل فسأله عنه، فقال: لا علم لي به فجلده ستمائة سوط.

فقال له الحريش: والله لو أنه كان تحت قدمي ما رفعتهما لك عنه.

فلما رأى ذلك قريش بن الحريش، أتى عقيلاً فقال له: لا تقتل أبي وأنا أدلك عليه.

فأرسل معه، فدلّه عليه، وهو في بيت فيأخذه.

فأتى به نصر بن سيار فحبسه.

وكتب إلى يوسف بن عمر يخبره بذلك، فكتب بذلك يوسف إلى الوليد بن يزيد فكتب الوليد إلى نصر بن [٥٢/أ] سيار يأمره أن يؤمنه، ويخلي سبيله وسبيل أصحابه. وكان معه نفر خرجوا معه من الكوفة فظفر بهم.

فدعاه نصر بن سيار، وأمره بتقوى الله تعالى، وحذّره الفتنة، وأمره أن يلحق بالوليد بن يزيد، وأمر له بالفيء درهم، ونعلين.

فخرج هو وأصحابه إلى سرخس، وأقام بها.

فكتب نصر إلى عامله بسرخس(١): أن أشخصه منها.

وكتب إلى عامله بطوس: انظر يحيى بن زيد إذا مرّ بك فلا تدعه يقيم بطوس.

وأمرهما إذا هو مَرَّ بهما ألاً يفارقان حتى يدفعاه إلى عمرو بن زرارة(٢) بايرشهر.

ففعل به ذلك، ووكل به سرحان بن فروخ بن مجاهد بن بلغاء العنبري.

قال سرحان: فدخلت يوماً عليه، فذكر نصر بن سيار، وما أعطاه، وإذا هو يستقله.

وذكر الوليد فأثنى عليه، ثم اعتذر من محنة بأصحابه وأنه لم يأتِ بهم إلا مخافة أن يُسَمّ أو يُغَمّ.

ثم عرض بيوسف وذكر أنه يتخوفه، وهَمّ بالوقوع فيه، ثم أمسك.

فتبسطته، وقلت: قل ما أحببت يرحمك الله فليس مني عين، ثم اعتذرت إليه من مسيري معه، وكنت أسير معه على رأس فرسخ حتى تلقانا عمرو بن زرارة فدفعناه إليه. فأشخصه إلى بيهق، وهي أقصى خراسان وأدناه من قومس.

فأقبل في سبعين رجلاً، وكان يخاف اغتيال يوسف إياه.

---

(١) في الكامل: عبد الله بن قيس بن عباد.

(٢) في الكامل: فعاد إلى نيسابور وبها: عمرو بن زرارة.

ومَرّ به قوم تجار، فأخذ دوابهم وقال: علينا أثمانها.

فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر بن سيار: أن يحيى قد أقبل وفعل كيت وكيت.

فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس، وإلى الحسين بن زيد: أن يمضيا إلى عمرو بن زرارة، فهو عليهما، ثم يقاتلوا يحيى بن زيد حتى يقتلوه أو يأخذوه أسيراً.

فانتهوا إلى عمرو بن زرارة، فكانوا عشرة آلاف، وأتاهم يحيى ولم يكن معه إلا سبعون رجلاً فهزمهم وقتل عمرو بن زرارة وأصاب دواب ومتاعاً كثيراً.

وأقبل يحيى بن زيد حتى مَرّ بهراة وعليها مغلس بن زياد، فلم يعر له، ولا عرض له مغلس، وقطع هراة.

فسرّح نصر بن سيار سلم بن أحوز في طلب يحيى فتبعه حتى لحقه بالجوزجان بقرية فيها، وقد لحق يحيى بنفر من الشيعة، فصافه سلم بن أحوز.

وأمر سلم جماعة بتعبئة الناس فتباطؤوا عليه حتى عبأهم سورة بن محمد بن عزيز الكندي، واقتتلوا.

فقتل أصحاب يحيى من عند آخرهم.

ومَرّ سورة بيحيى صريعاً، فأخذ رأسه، وبعث به إلى يوسف بن عمر فنصبه.

فكتب الوليد بن يزيد إليه: أن أحرقه، ثم انسفه في اليم نسفاً.

فأمر يوسف بإنزاله من جذعه، وأحرقه بالنار، ثم رضّه وجعله في قوصرة، وأمر بأن يُذرى في الفرات[1].

---

(١) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
في هذه السنة: قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي الأندلسي أميراً في رجب وكان أبو الخطار لما تبايع ولاة الأندلس من قيس قد قال شعراً وعرض فيه بيوم مرج راهط، وما كان من بلاء كلب فيه مع مروان بن الحكم، وقيام القيسيين مع الضحاك بن قيس الفهري على مروان، ومن الشعر:

أفادت بنو مروان قيساً دماءنا ... وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا مَن كان ثَمّ له الفضل
وقيناكم حَرّ القنا بنحورنا ... وليس لكم خيل تعد ولا رجل

فلما بلغ شعره هشام بن عبد الملك سأل عنه، فأعلم أنه رجل من كلب.
وكان هشام قد استعمل على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي سنة أربع وعشرين ومائة.
فكتب إليه هشام أن يولي أبا الخطار الأندلس، فولاه وسَيّره إليها.
فدخل قرطبة يوم الجمعة، فرأى ثعلبة بن سلامة أميرها قد أحضر الأسارى الألف من البربر الذين تقدم ذكر أسرهم ليقتلهم.
فلما دخل أبو الخطار، وقع الأسرى إليه، فكانت ولايته سبباً لحياتهم.
وكان أهل الشام الذين بالأندلس قد أرادوا الخروج مع ثعلبة بن سلامة إلى الشام، فلم يزل أبو الخطار يحسن إليهم ويستميلهم حتى أقاموا، فأنزل كل قوم على شبه منازلهم بالشام. =

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

وفيها: قتل الوليد بن يزيد قتله يزيد بن الوليد.

= فلما رأوا بلداً يشبه بلدهم أقاموا.
وقيل: إنه إنما فرقهم في البلاد لأن قرطبة ضاقت عليهم ففرقهم.
وفي هذه السنة: عزل الوليد سعد بن إبراهيم عن قضاء لمدينة وولاه يحيى بن سعيد الأنصاري.
وفيها: خرجت الروم من زبطرة ـ وهو حصن قديم ـ كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفهري، فأخربته الروم الآن، فبنى بناءً غير مُحْكم، فعاد الروم وأخربوه أيام مروان بن محمد الحمار، ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال.
فلما كانت خلافة المأمون طرقه الروم فشعثوه، فأمر المأمون بمرمته وتحصينه. ثم قصده الروم أيام المعتصم.
وفيها: غزا الوليد أخاه الغمر بن يزيد، وأمر على جيوش البحر الأسود بن بلال المحاذي وسيّره إلى قبرص ليخير أهلها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم؟ فاختارت طائفة جوار المسلمين فسيّرهم إلى الشام.
واختار آخرون الروم فسيّرهم إليهم.
وقال بعضهم: **في هذه السنة**: توفي محمد بن علي بن عبدالله بن عباس في شهر ذي القعدة، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة، وكان بين موته وموت أبيه سبع سنين.
وحجّ بالناس هذه السنة: يوسف بن محمد بن يوسف.
وفيها: غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة.
وفي هذه السنة: مات أبو حازم الأعرج.
وقيل: سنة أربعين.
وقيل: سنة أربع وأربعين ومائة.
وفي آخر أيام هشام بن عبد الملك توفي سماك بن حرب.
وفي هذه السنة: توفي القاسم بن أبي بزة ـ واسم أبي بزة يسار ـ وهو من المشهورين بالقراءة.
وأشعث بن أبي الشعثاء سليم بن أسود المحاربي.
وسيد بن أبي أنيسية الجزري مولى بني كلاب.
وقيل: مولى زيد بن الخطاب.
وقيل: مولى غني.
وكان عمره ستاً وأربعين سنة، وكان فقيهاً عابداً، وكان له أخ اسمه يحيى كان ضعيفاً في الحديث.
وفي أيام هشام: مات العرجي الشاعر في حبس محمد بن هشام المخزومي عامل هشام بن عبد الملك على المدينة، ومكة، وكان سبب حبسه: أنه هجاه فتتبعه حتى بلغه أنه أخذ مولى له فضربه وقتله، وأمر عبيده أن يطؤوا امرأة المولى المقتول.
فأخذه محمد فضربه، وأقامه للناس وحبسه تسع سنين، فمات في السجن.

خلافة يزيد بن الوليد

ذكر السبب في قتل الوليد وخلافة يزيد الناقص

كان سبب اضطراب أمره وفساد نيات الناس له انشغاله بالمجون والخلاعة وتهاونه بأمر الدين واستخفافه به.

وقد حكى عنه ما لا يلفظ به، ولا فائدة في ذكره.

وكان من أعظم ما جنى على نفسه إفساده بني عميه ولد هشام، وولد الوليد بن عبد الملك بن مروان.

وأفسد أيضاً على نفسه الثمانية وهم عظم أهل الشام.

وكان قد اشتد على الجند، وعلى بني هاشم، وضرب سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان.

وكان يتعرض لجواري أبيه وأولادهم[1].

وأراد خالد بن عبد الله القسري على البيعة لابنيه، فأبى.

فقال له أهله: أبيت على أمير المؤمنين؟!

قال: ويحكم كيف أبايع مَن لا أُصلي خلفه ولا أقبل شهادته وهم صبيان؟!

قالوا: فالوليد تقبل شهادته مع فسقه؟

قال: أمير المؤمنين مغيب عني، ولا أعلمه يقيناً، إنما هي أخبر الناس، فغضب الوليد على خالد وحبسه.

---

(١) في الكامل: وغربه إلى عمان من أرض الشام فحبسه بها فلم يزل محبوساً حتى قتل الوليد. وأخذ جارية كانت لآل الوليد، فكلمه عثمان بن الوليد في ردها، فقال: لا أردها.
قال: فإذن تكثر الصواهل حول عسكرك.
وحبس الأفقم بن يزيد بن هشام.
وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته.
وحبس عدة من ولد الوليد، فرماه بنو هشام، وبنو الوليد بالكفر، وعشيان أمهات أولاد أبيه، وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة لبني أمية.
وكان أشدهم فيه يزيد بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك والتواضع.
وكان قد نهاه سعيد بن بهيس عن البيعة لابنيه الحكم وعثمان لصغر سنهما، فحبسه حتى مات في الحبس.
وأراد خالد بن عبد الله القسري على البيعة لابنيه فأبى...

ثم رأى الناس الوليد على فاحشة فاتهموه بالزندقة وكان أشد الناس عليه يزيد بن الوليد الذي لُقِّبَ فيما بعد بالناقص.

وكان الناس يميلون إليه لأنه كان يظهر النسك ويتواضع.

فكان يحمل الناس على الفتك به، وأجمع قوم من اليمانية وقضاعة من دمشق خاصة على قتل الوليد.

فاجتمع رؤساؤهم إلى خالد بن عبد الله فدعوه إلى أمرهم، فلم يجبهم، فسألوه أن يكتم عليهم.

قال: لا أسمي أحداً منكم.

وأراد الوليد الحج، فخاف خالد أن يفتكوا به في الطريق، فأتاه، فقال: يا أمير المؤمنين أخر الحج العام.

قال: ولِمَ؟

فلم يخبره.

فأمر بحبسه، وأن يستأدي ما عليه من بقايا أموال العراق.

وهمّ الوليد بعزل يوسف عن العراق.

فكتب إليه: إنك كتبت إلى أمير المؤمنين بتخريب ابن النصرانية البلاد، وقد كنت يحمل إلى هشام ما تحمل، وقد يكون ينبغي أن تكون عمرت البلاد، ووفرت الدخل فأشخص إلى أمير المؤمنين وصدق ظنه بك فيما تحمل إليه لعمارتك البلاد، ليعرف أمير المؤمنين فضلك على غيرك، فإنك خاله وأحق الناس بالتوقير، وقد علمت ما أقرّ به أمير لأهل الشام وغيرهم من الزيادة في أعطياتهم وما وصل به أهل بيته لطول جفوة هشام إياهم حتى أضر ذلك ببيوت الأموال.

فخرج يوسف عمه يوسف بن محمد وحمل من الأموال والأمتعة والآنية [٥٣/أ] ما لا يحمل من العراق مثله.

فقدم يوسف، وخالد بن عبد الله محبوس، فلقيه حسان النبطي ليلاً، فأخبره أن الوليد عازم على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف، وقال له: لا بد لك من إصلاح وزرائه.

فقال: ليس عندي فضل درهم.

قال: فعندي خمسمائة ألف درهم إن شئت فهي لك، فارددها إذا تيسرت [فقال][(١)]

(١) زيادة من الكامل.

أنت أعرف بالقوم ومنازلهم من الخليفة ومني، ففرها على قدر علمك فيهم، ففعل.

فقدم يوسف والقوم يعظمونه.

فقال له حسان: لا تفد على أمير المؤمنين ولكن رح إليه رواحاً واكتب على لسان خليفتك [بالعراق](١) كتاباً إليك: إني كتبت ولا أملك إلا القصر.

ثم ادخل على الوليد والكتاب معك مُتحازناً فأقرئه الكتاب، وأمر أبان بن عبد الرحمٰن أن يشتري منه خالداً بأربعين ألف ألف، ففعل يوسف.

فقال له الوليد: ارجع إلى عملك.

فقال أبان: ادفع إليّ خالداً وأحمل إليك أربعين ألف ألف.

قال: ومَن يضمن عنك؟

قال: يوسف.

فقال: أتضمن عنه؟

قال: بل ادفعه إليّ، فأنا أستاديه خمسين ألف ألف، فدفعه إليه.

فحمله في غير وطاء في محمل مكشوف، وقدم به الكوفة فقتله بالعذاب.

وكانت اليمانية أتت يزيد بن الوليد بن يزيد، فأرادوه على البيعة، فشاور [عمر بن يزيد الحكمي](١) فقيل له: لا يبايعك الناس فشاور أخاك العباس بن الوليد فإنه سيد بني مروان، وإن بايعك لم يخالفك أحد، وإن أبى كان الناس له أطوع، فإن أبيت إلاّ المضي على رأيك، فأظهر أن العباس قد بايعك وكانت الشام وبئة تخرج الملوك منها إلى البوادي.

وكان يزيد بن عبد الملك مبتدياً، وكذلك العباس بن الوليد وبينهما أميال يسيرة(٢)، فأتى يزيد أخاه العباس فشاوره، وعاب الوليد.

فقال له العباس: مهلاً يا يزيد، فإن في نقض عهد الله فساد الدين والدنيا.

فرجع يزيد إلى منزله، ودبّ في الناس فبايعوه سراً، وبثّ ثقاته يدعون إليه، ويلعنون الوليد.

وبلغ العباس أخاه فقال: لئن عاودت لما يبلغني لأشدنك وثاقاً، ولأحملنك إلى أمير المؤمنين.

فلم ينتهِ يزيد.

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: وكان العباس بالقسطل ويزيد بالبادية أيضاً بينهما أميال يسيرة...

وبلغ معاوية بن عمرو بن عتبة خوض الناس، فأتى الوليد، فقال: يا أمير المؤمنين إنك تبسط لساني بلا شريك وأكفه بالهيبة لك، وأنا أسمع ما لا تسمع، وأخاف أن أكتم[١] عليك ما أرى أفأتكلم ناصحاً، أم أسكت مطيعاً؟

قال: قل مقبول منك، ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه ولو علم بنو مروان أن ما يوقدون على رضف يلقونه في أجوافهم ما فعلوا ويعود فأسمع منك.

وبلغ مروان [٥٣/ب] بن محمد بأرمينية أن يزيد يؤلب الناس ويدعو إلى خلع الوليد فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم، وكان سعيد يناله. فقال: إن الله سبحانه جعل لكل أهل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف، وأنت بحمد ربك ركن من أركان أهل بيتك.

وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد أسسوا أمراً إن تمت لهم رؤيتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا باباً لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثير منهم، وأنا مشغول بأعظم الثغور فرجاً، ولو جمعتني وإياهم لذممت فساد أمرهم بيدي ولساني ولخفت الله في ترك ذلك لعلمي بما في عواقب الفرقة، وأنه لن ينتقل سلطان قوم إلاّ بتشتيت كلمتهم، وأن كلمتهم إن تشتتت طمع فيهم عدوهم، وأنت أقرب إليهم مني، فاحتل لعلم ذلك بإظهار المتابعة لهم، فإذا صرت إلى علم ذلك، فتهددهم بإظهار أسرارهم وخذهم بك وخوّفهم العواقب لعل الله تعالى أن يرد عليهم ما قد غرب من أخلاقهم فإن فيما سعوا فيه تغيير النعم، وذهاب الدولة، فعاجل الأمر، وحبل الألفة مشدود، والناس سكون والثغور محفوظة، وقد أمل القوم في الفتنة أملاً لعل أنفسهم تهلك دون ما أملوا ولكل أهل بيت مشائيم يغير الله بهم النعمة، فأعاذك الله من ذلك، وحفظ عليك دينك.

فأعظم سعيد ذلك، وبعث بكتابه إلى العباس، فأعاد العباس موعظة يزيد، وتهديده، وقال: يا أخي أخاف أن يكون بعض مَن يحسدنا على هذه النعمة أراد أن يفرق بيننا.

وحلف له أنه لم تفعل فصدقه، فلما اجتمع ليزيد أمره وهو مبتدٍ أقبل إلى دمشق وبينه وبينهما أربع ليال متنكراً في سبعة [نفر][٢] على حمير.

وكان أهل دمشق أكثرهم قد بايعوا ليزيد سِرًا إلاّ معاوية بن مصاد، وكان سيد أهل المِزّة، وبين المزة وبين دمشق ميل[٣]، فمضى يزيد ليلته ماشياً في

(١) في المخطوط: وأخاف أكتب. وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: «مثل» وهو تحريف.

نفر من أصحابه إلى مِزة فأصابهم مطر شديد، فأتوا منزل معاوية وضربوا بابه ففتح لهم، فلما رأى يزيد قال: إلى الفراش أصلحك الله إن في رجلي وأكره أن أفسد بساطك.

قال: إن الذي يريدنا عليه أفسد.

وكلمه يزيد فبايعه، رجع يزيد إلى دمشق نزل دار سليمان بن سعيد الجشمي، وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف، فخاف، فخاف الوباء، وخرج [٥٤/أ] واستخلف ابنه.

وكان على شرطته أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي.

فأجمع يزيد على الظهور، وقيل للعامل: إن يزيد خارج، فلم يصدق.

فأرسل يزيد أصحابه بين المغرب والعشاء ليلة الجمعة سنة ست وعشرين ومائة فكمنوا عند باب الفراديس حتى سمعوا أذان العتمة، فدخلوا المسجد، وصلُّوا، وللمسجد حرس قد وكلوا بإخراج الناس من المسجد بالليل.

فلما صلّى الناس صاح الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد فجعلوا يخرجون من باب ويدخلون من باب حتى لم يبقَ إلاّ الحرس.

فلما كان عند سوق القمح لقيهم زهاء مائتي رجل من أصحابهم فمضوا إلى المسجد فدخلوه، فضربوا باب المقصورة، وقالوا: رسل الوليد، ففتح لهم خادم الباب، فأخذوه ودخلوا، فأخذوا أبا العاج وهو سكران وأخذوا خزائن بيت المال، وصاحب البريد وأرسل إلى كل مَن يحذره فأخذوا رسل يزيد من ليلته إلى محمد بن عبد الملك بن الحجاج بن يوسف فأخذه، وقال: استدعوا أصحابنا من النواحي، وقال للبوابين: لا تفتحوا الباب غدوة إلاّ لمَن أخبركم بشعارنا.

فتركوا الأبواب بالسلاسل، فلما أصبحوا جاء أهل المزة وغيرهم، فما انتصف النهار حتى تتابع الناس، وكان في المسجد شعير كثير قدم به سليمان بن هشام من الجزيرة، ولم يكن الجيران قبضوه، فأصابوا سلاحاً كثيراً عتيداً.

وتتابع الناس من كل جانب وأرسل يزيد بن الوليد إلى عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وأمره أن يقف بباب الجابية وقال: مَن كان له عطاء فليأت إلى عطائه، ومَن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة.

وقال لبني الوليد بن عبد الملك، وكان معه منهم ثلاثة عشر نفر تفرقوا في الناس يروكم حضورهم.

ونادى مناديه: مَن ينتدب إلى الفاسق فله ألف درهم.

فانتدب إليه [ألف][1] رجل، ثم نادى مناديه: مَن ينتدب فله ألف وخمسمائة، فانتدب نحو من ألفين.

فعقد لجماعة وجعل عليهم جميعاً عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

فخرج عبد العزيز حتى عسكر بالحرة.

وبلغ الخبر الوليد، فأنفذ أبا محمد بن عبيد الله بن يزيد بن معاوية، وأجازه وجهزه ووجه إلى دمشق، فخرج أبو محمد. فلما انتهى إلى دينة أقام فوجّه إليه يزيد بن الوليد عبد الرحمٰن بن معاد فسالمه أبو محمد، وبايع ليزيد بن الوليد، وأتى الوليد الخبر وهو بالأعرف.

[٥٤/ب] ذكر آراء أشير بها على الوليد فساقه الحين إلى أحدهما

فقال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: يا أمير المؤمنين سِر حتى تنزل حمص فإنها حَصِينة، وَوَجِّه الجنود إلى يزيد، فإنه يُقتل أو يؤسر.

فقال عبد الله بن عنبسة بن سعيد بن العاص ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه قبل أن يقاتل ويعذر والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره.

فقال يزيد بن خالد: وماذا نخاف على حرمه، وإنما أتاه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ـ وهو ابن عمّهُنَّ ـ فأخذ بقول ابن عنبسة.

فقال له الأبرش: يا أمير المؤمنين تدمر حصينة وبها قومي يمنعونك.

فقال: أهلها بنو عامر، وهم الذين خرجوا علي، ولكن دلني على منزل حصين.

قال: انزل القرية.

قال: أكرهها.

قال: فهذا الهزيم.

قال: أكره اسمه.

قال: فهذا البخراء قصر النعمان بن بشير.

قال: ويحك ما أقبح أسماء مياهكم.

وأقبل في طريق السماوة، فقال له بيهس بن رميل: أما إذا أبيت أن تمضي إلى حمص، وتدمر، فهذا الحصن الحرا وهو حصين، وهو من بناء العجم، فأنزله منزله،

---

(١) أظنه سقط من المخطوط.

وندب يزيد بن الوليد الناس إلى الوليد ونادى مناديه: «مَن سار فله ألفان».

فانتدب ألفا رجل، فأعطاهم ألفين ألفين، وقال: موعدكم بدينة، فسار فوافاه بدينة ألف ومائتان ثم سار فتلقاهم ثقل الوليد فأخذوه ونزلوا قريباً من الوليد.

وأرسل العباس إلى الوليد إني آتيك فاختر بين آتيك أو آتي يزيد فاكفه فاتهمه.

قال: بل ائتني.

فبلغ عبد العزيز مسير العباس بن الوليد، وأرسل له منصور بن جمهور في خيل.

وقال: إنكم ستلقون العباس في الشعب ومعه بنوه فخذوه وحوى بهم، فخرج منصور في خيل.

فلما جاؤوا في الشعب إذا هم بالعباس في ثلاثين من بنيه.

فقالوا له: اعدل إلى [عبد][1] العزيز.

فشتمهم، فقال له منصور: والله؛ لئن تقدمت لأنقذن خصيتك.

ويقال: بل الذي لقيه يعقوب بن عبد الرحمٰن بن سليم.

وقال له: والله لئن أتيت لأضربن ما فيه عيناك.

ولم يكن مع العباس أصحابه لأنه قد تقدمهم وكان معه بنوه.

فقال: إنا للّه.

وأتوا به عبد العزيز، فقال: بايع لأخيك يزيد بن الوليد، فبايع.

وكان عبد العزيز قد أخرج أصحابه وعبَّأهم مقابل أصحاب الوليد، وقد قتل من أصحابه جماعة، وحملت رؤوسهم إلى الوليد، والوليد على باب البخراء [٥٥/أ] جالس ينتظر العباس.

فلما بايع الناس العباس على سبيل الكره وعلى سبيل المكرمة قال: إنا لله خدعة من خدع السلطان، هلك بنو مروان.

ونصب عبد العزيز راية وقال: هذه راية العباس بن الوليد، وقد بايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد.

فتفرّق الناس عن الوليد، ودخلوا في الأمان إلى عبد العزيز، والعباس.

وظاهر الوليد بين درعين، وأتوه بفرس السندي والراية، فقاتلهم.

فناداهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط، ارموه بالحجارة.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

فلما سمع ذلك دخل القصر، وتبعه الناس يطلبونه.

فدنا الوليد من الباب، فقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟

فقال له يزيد بن عنبسة السكسكي: كلمني.

قال: مَن أنت؟

قال: يزيد بن عنبسة.

قال: يا أخا السكسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن عنكم؟ ألم أعطِ فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟

فأجابه وقال: ما ننقم عليك في أنفسنا ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بالدين.

قال: حسبك يا أخا السكسك فلعمري لقد أكثرت ما عرفت وأن فيما أحلّ الله لسعة عما ذكرت، ووالله لا اجتمعت كلمتكم بعدي.

ورجع إلى القصر، وأخذ مصحفاً فنشره، وجعل يقرأ.

وقال: يوم كيوم عثمان.

وكان أول مَن علا الحائط يزيد بن عنبسة.

فتحدّث المثنى بن معاوية قال: دخلت القصر فإذا الوليد قائم في قميص قصب وسراويل وشي ومعه سيف في غمد والناس يشتمونه.

ثم كثر الناس عليه وتعاوروه بأسيافهم، فقتل.

وكان جعل يزيد بن الوليد في رأس الوليد مائة ألف وانتهب الناس عسكر الوليد، وخزائنه.

وأمر يزيد بنصب الرأس على رمح وطيف به مدينة دمشق.

ثم قال: ادفعوه إلى أخيه سليمان، وكان سليمان أخو الوليد بمَن سعى على أخيه، فغسل الرأس ووضع في سفط وأتى به سليمان، فنظر إليه، ثم قال: بعداً له وسحقاً أشهد إنه كان شروباً للخمر، فاسقاً ماجناً، ولقد أرادني الفاسق على نفسي.

فخرج كامل الرأس وهو ابن فروة من الدار، فتلقفته مولاة للوليد، فقال لها: ويحك ما أشد...[1] زعم أنه أراده على نفسه.

---

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

قال: كذب الخبيث، ولئن كان أراده على نفسه لقد فعل، وما كان ليقدر على الامتناع منه.

وكان مع الوليد مالك [٥٥/ب] بن أبي السمح المغني[١]، وعمر الوداني

(١) قال ابن واصل الحموي في ترجمته في تجريد الأغاني (١/ ٦٣٤): هو مالك بن أبي السمح، واسم أبي السح جابر بن ثعلبة الطائي أحد بني ثُعُل، ثم أحد بني عمرو بن دَرْماء، ويكنى أبا الوليد.
وأمه قرشية من بني مخزوم.
وكان أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.
وكان مالك يتيماً في حجره أوصى به أبوه إليه وكان ابن جعفر يكفله، ويمونه، وأدخله وسائر أخوته في دعوة بني هاشم، وأخذ الغناء عن جميلة، ومعبد، وعَمَّر حتى أدرك الدولة العباسية.
وكان منقطعاً إلى سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس.
ومات في خلافة أبي جعفر المنصور. . . .
وحكي أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قال لمعبد المغني: قد آذتني ولولتك هذه.
وقال لابن عائشة: قد آذاني استهلالك هذا، فاطلب لي رجلاً يكون مذهباً متوسطاً بين مذهبيكما.
فقال له: مالك بن أبي السمح.
فكتب في إشخاصه إليه، وسائر مغني الحجاز المذكورين.
فلما قَدِمَ مالك على الوليد فيمن معه من المغنين، نزل على الغمر بن يزيد، فأدخله على الوليد، فغنّاه، فلم يعجبه.
فلما انصرف الغمر قال: إن أمير المؤمنين لم يعجبه شيء من عنائل.
فقال له: جعلنا الله فداك، اطلب لي الإذن مرة أخرى، فإن أعجبه شيء مما أُغنيه وإلا انصرفت إلى بلدي.
فلما جلس الوليد مجلس اللهو ذكره الغمر فطلب له الإذن.
فقال له: إنه هابك فحصر.
فأذن له، فبعث إليه، فأمر مالك الغلام فسقاه ثلاث صُراحيات صرفاً، وخرج حتى دخل إليه يخطر في مشيته، فلما بلغ باب المجلس، وقف ولم يسلم، وأخذ بحلقة الباب فقعقعها، ثم رفع صوته فغنى:

لا عيش إلا بمالك بن أبي السـ ... ـمح فلا تَلْحَني ولا تَلُم

فطرب الوليد، ورفع يديه مادًّا لهما إليه حتى بان إبطاه، وقام، فاعتنقه وقال له: ادن يَا ابن أخي. فدنا حتى اعتنقه، ولما انتهى مالك إلى قوله:

ابيض كالسيف أو كما يلمع الـ ... ـبارق في حالكٍ من الظَلَمِ

فقال له الوليد بن يزيد:

أحولُ كالقردِ أو كما يرقب السـ ... ـسارق في حالك من الظُّلَم

وكان مالك طويلاً أحنى فيه حَوَل، ثم أخذ مالك في صوته، فلم يزالوا فيه أياماً، ثم أجزل له العطية حين أراد الانصراف.
وحكى ابن عائشة قال: حضرنا الوليد بن يزيد يوم قتل، وكان معنا مالك بن أبي السمح، وكان من أحمق الخلق، فلما قُتل الوليد قال: اهرب بنا.
فقلت: وما يريدون منا؟
قال: وما يؤمنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسه بينهما ليحسنوا بذلك أمرهم.
قال ابن عائشة: فما رأيت منه عقلاً قبل ذلك اليوم.

[المغني أيضاً][(١)].

فلما تفرق عن الوليد أصحابه وحصر، قال مالك لعمرو اذهب بنا.

فقال عمرو: ليس هذا من الوفاء، ونحن لا يتعرض لنا لأنّا لسنا ممن يقاتل.

فقال مالك: ويلك والله لئن ظفروا بنا لا يقتل وقبلي أحد، فبوضع رأسه بين رأسينا، ويقال للناس: انظر مَن كان معه هذه الحال فلا يعيبونه بشيء أشد من هذا فهربا.

فهربا وكان معهما أبو كامل الغزيل المغني وكان سبقهما إلى الهرب.

وكان قتل الوليد يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.

وكان له من السنين نيف وأربعون سنة.

وقد اختلف في النيف.

وكان شديد البطش طويل أصابع الرجلين.

وكان يوتد له سكة حديد فيها خيط قوي شديد، فيشد الخيط في رجله ثم يثب على الدابة، فينتزع السكة، ويركب ما يمس الدابة بيده.

وكان شاعراً، شروباً للخمر، أُحصي عليه في ليلة سبعون قدحاً.

وكان صاحب صيد.

ولما أفضت إليه الخلافة انهمك وأولع بالصيد وكره الجلوس للناس، وحجبهم، وفعل تلك الأمور التي زادته بغضاً إلى الناس حتى قتل ولم يتمتع بملكه[(٢)].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير في أخباره وسيرته عما هنا ما يلي: أمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي وهي بنت أخي الحجاج بن يوسف.
وأم أبيه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز.
وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، فلذلك يقول الوليد:
نبي الهدى خالي ومَن يَكُ خاله نبي الهدى يقهر به مَن يفاخره
وكان من فتيان بني أُمية وظرفائهم، وشجعانهم وأجوادهم، وأشدائهم منهمكاً في اللهو والشرب، وسماع الغناء فظهر ذلك من أمره فقتل، ومن جيد شعره ما قاله لما بلغه أن هشاماً يريد خلعه:
كفرت يداً من منعم لو شكرتها جزاك بها الرحمٰن ذو الفضل والمن
... وأشعاره حسنة في الغزل، والعتاب، ووصف الخمر، وغير ذلك.
وقد أخذ الشعراء معانيه في وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها في أشعارهم، وخاصة أبو نواس =

وفي هذه السنة: قتل خالد بن عبد الله القسري.

وقد ذكرنا عزل هشام له، وأنه استعمل يوسف بن عمر فطالبه واستخرج منه مالاً وعذَّبَهُ.

ولكن كان مع ذلك هشام يحابي عليه ويوصي به، ولم يزل يوسف يكثر عليه ويعتل بانكسار الخراج، وذهاب المال حتى أذن له وبعث حرساً يشهد أمره، وحلف لئن أتى على خالد أجله وهو في يده ليقتلنه. فكان يوسف يطالبه، ويبقى عليه بعض الأنفال إلى أن بسط عليه يوماً بحضرته فلم يكلمه أحد حتى شتمه يوسف، وقال: يا ابن

= فإنه أكثرهم أخذاً لها.

قال الوليد: المحبة للغناء تزيد في الشهوة، وتهدم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وإني لأقول ذلك على أنه أحب إليّ من كل لذة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلة ولكن الحق أحق أن يتبع.

قيل: إن يزيد بن منبه مولى ثقيف: مدح الوليد وهنأه بالخلافة، فأمر أن تُعَدّ الأبيات ويعطى بكل بيت ألف درهم، فعُدّت فكانت خمسين بيتاً فأعطى خمسين ألف درهم.

وهو أول خليفة عَدَّ الشِعر، وأعطى بكل بيت ألف درهم.

ومما اشتهر عنه أنه فتح المصحف فخرج: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴿١٥﴾﴾.

فألقاه، ورماه بالسهام، وقال:

تهددني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى قُتل.

ومن حسن الكلام ما قاله الوليد لما مات مسلمة بن عبد الملك، فإن هشاماً قعد للعزاء، فأتاه الوليد وهو نشوان يجر مطرف خز عليه، فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين إن عقبى مَن بقي لحوق مَن مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختلّ الثغر فهوى، وعلى أثر مَن سلف يمضي مَن خلف، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى.

فأعرض هشام ولم يحر جواباً، وسكت القوم فلم ينطقوا.

وقد نزّه قول الوليد لما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه، وقالوا: إنه قيل عنه وألصق به، ليس بصحيح.

قال المدائني: دخل ابن للغمر بن يزيد أخي الوليد على الرشيد، فقال له: ممن أنت؟ فقال: من قريش. قال: من أيها؟ فأمسك، فقال: قل، وأنت آمن، ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد. فقال: رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه، ارفع حوائجك، فرفعها، فقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي، فذكروا الوليد. فقال المهدي: كان زنديقاً.

فقام أبو علاثة الفقيه، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عزّ وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً، لقد أخبرني مَن كان يشهد في ملاعبه وشربه عنه بمروءة في طهارته، وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليها المطائب المصبغة، ثم يتوضأ، فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب نظاف بيض فيلبسها ويصلي فيها.

فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها واشتغل بشربه ولهوه، فهذا فعال مَن يؤمن بالله. فقال المهدي: بارك الله عليك يا أبا علاثة.

الكاهن ـ يعني سق بن صعب الكاهن ـ.

فقال له خالد: إنكَ لأحمق تعيرني شرفي ولكنك ابن سبأ إنما كان أبوك يبيع الخمر، فرده إلى محبسه.

فكتب إليه بتخلية سبيله.

فخرج حتى ورد دمشق، فكان يقصده بها، ونودي من جهة أعداء كانوا. . .[١] بهم يوسف عليه حتى قال يوماً: والله ليكفن عني هشام أو لأدعون إلى: عراقي الهوى شامي الدّار حجازي الأصل ـ يعني محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ـ وقد أذنت لكم أن تبلغوا هشاماً. فلما بلغه ما قال: حزن أبو الهيثم.

وأقام خالد بدمشق [٥٦/أ] حتى هلك هشام، وقام الوليد، وقدم عليه يوسف ابن عمر بمال العراق.

وتكلم أبان بن عبد الله النميري في خالد، فقال يوسف: أنا أشتريه بخمسين ألف ألف فقالوا لخالد: إن كنت تضمنها وإلاّ دفعتك يا خالد إليه.

فقال خالد: ما عهدت العرب تباع، والله لو سألتني أن أضمن هذا، ورفع عوداً من الأرض ما ضمنته، فَرَ رأيك.

فدفعه إلى يوسف.

فنزع ثيابه ودرعه عباءة ولحفه أخرى، وحمله في محمل بغير وطاء.

ثم دعا به وذكر أمّه، فقال: ما ذكر الأمهات لعنك الله، والله لا أكلمك كلمة أبداً فبسط عليه، وعذّبه عذاباً شديداً لا يكلمه كلمة.

ومكث خالد يوماً في العذاب، فحدث أبو نعيم قال:

شهدت خالداً حين أتى به يوسف، فدعا بعود يعرف بالمضرسة فوضعه على قدميه، ثم قامت عليه الرجال حتى كُسِرَ قدماه، فوالله ما تكلم، ولا عبس، ثم على ساقيه حتى كسرتا، ثم على فخذيه ثم على حقويه، ثم على صدره حتى مات فوالله ما تكلم ولا عبس، فوالله ما نصره طول أيام حبسه أحد من عشيرته ولا من صنائعه بيد، ولا لسان، وإلا رَجُل من بني عبس فإنه قال:

ألا إن بحر الجود أصبح ثاوياً ... أسير ثقيف عندهم في السلاسل
فإن يسجنوا القسرى لا يسجنوا اسمه ... ولا يسجنوا معروفه في القبائل[٢].

(١) كلمة ممحوة من المخطوط.

(٢) هذا ما قال ابن مسكويه في ذكر قتله إلا أن ابن الأثير ذكر قتله فقال: كان عمله خمس عشرة سنة فيما قيل: ولما عزله هشام قدم عليه يوسف بن عمر واسط فحبسه بها. =

....

= ثم سار يوسف إلى الحيرة، وأخذ خالداً فحبسه بها تمام ثمانية عشر شهراً مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد، وابن أخيه المنذر بن أسد، استأذن يوسف هشاماً في تعذيبه، فأذن له مرة واحدة، وأقسم لئن هلك ليقتله.
فعذبه يوسف ثم رده إلى حبسه، وقيل: بل عذّبه عذاباً كثيراً.
وكتب هشام إلى يوسف يأمره بإطلاقه في شوال سنة إحدى وعشرين، فأطلقه، فسار فأتى القرية التي بإزاء الرصافة، فأقام بها إلى سفر سنة اثنتين وعشرين.
وخرج زيد فقتل.
فكتب يوسف إلى ابن عمر: إن بني هاشم قد هلكوا جوعاً، فكانت همة أحدهم قوت عياله، فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال فتاقت أنفسهم إلى الخلافة، وما خرج زيد إلاّ عن رأي خالد.
فقال هشام: كذب يوسف، وضرب رسوله، وقال: لسنا نتهم خالداً في طاعة.
وسمع خالد، فسار حتى نزل دمشق، وسار إلى الصائفة ـ وكان على دمشق يومئذ كلثوم بن عياض القشيري وكان يبغض خالداً ـ فظهر في دور دمشق حريق يفعله كل ليلة رجل من أهل العراق يقال له: ابن العمرس، فإذا وقع الحريق يسرقون.
وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدث كان من الروم، فكتب كلثوم إلى هشام يخبره: أن موالي خالد يريدون الوثوب على بيت المال وأنهم يحرقون البلد كل ليلة لهذا الفعل. فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذوا. واحضر أولاً خالد من الساحل في الجوامع، ومعهم مواليهم، وحبس بنات خالد، والنساء والصبيان.
ثم ظهر عليه ابن العمرس ومَن كان معه، فكتب الوليد بن عبد الرحمٰن عامل الخراج إلى هشام يخبره بأخذ ابن العمرس وأصحابه بأسمائهم وقبائلهم، ولم يذكر فيهم أحداً من موالي خالد. فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه، ويأمره بإطلاق آل خالد، فأطلقهم وترك الموالي رجاء أن يشفع فيهم خالداً إذا قدم من الصائفة. ثم قدم خالد فنزل منزله في دمشق، فأذن للناس، فقام بناته يحتجبن، فقال: لا تحتجبن، فإن هشاماً كل يوم يسوقكن إلى الحبس.
فدخل الناس، فقام أولاده يشترون النساء. فقال خالد: خرجت غازياً سامعاً مطيعاً، فخلفت في عقبي، وأخذ حرمي وأهل بيتي فحبسوا مع أهل الجرائم كما يفعل بالمشركين فما منع عصابة منكم أن تقولوا: علام حبس حرم هذا السامع المطيع؟ أخفتم أن تقتلوا جميعاً؟ أخافكم الله.
ثم قال: ما لي ولهشام ليكفن عني أو لأَدْعُوَنّ إلى عراقي الهوى. . .
وتتابعت كتب يوسف بن عمر إلى هشام يطلب منه يزيد بن خالد بن عبد الله، فأرسل هشام إلى كلثوم يأمره بإنفاذ يزيد بن خالد بن عبد الله إلى يوسف بن عمر فطلبه فهرب، فاستدعى خالداً، فحضر عنده فحبسه فسمع هشام، فكتب إلى كلثوم يلومه ويأمره بتخليته فأطلقه.
وكان هشام إذا أراد أمراً أمر الأبرش الكلبي، فكتب به إلى خالد، فكتب إليه الأبرش: أنه بلغ أمير المؤمنين أن رجلاً قال لك: يا خالد إني لأحبك لعشر خصال:
إن الله كريم وأنت كريم.
والله جواد وأنت جواد.
والله رحيم وأنت رحيم.
حتى عَدَّ عشراً، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن تحقق ذلك عنده ليقتلنك.
فكتب إليه خالد: إن ذلك المجلس كان أكثر أهلاً من أن يجوز لأحد من أهل البغي والفجور أن يحرك ما كان فيه، إنما قال لي: يا خالد إني لأحبك لعشر خصال:
إن الله كريم يحب كل كريم، والله يحبك فأنا أحبك حتى عَدَّ عشر خصال.
ولكن أعظم من ذلك قيام ابن شقي الحميري إلى أمير المؤمنين، قوله: يا أمير المؤمنين =

وفي هذه السنة: بويع ليزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي يقال له: الناقص، لنقصه الناس الزيادة التي زادها الوليد بن يزيد في أعطياتهم وذلك عشرة عشرة[١].

= خليفتك في أهلك أكرم عليك أم رسولك في حاجتك؟
فقال: بل خليفتي في أهلي.
فقال ابن شقي: فأنت خليفة الله، ومحمد رسوله.
وضلال رجل من بجيلة ـ يعني نفسه ـ أهون على العامة من ضلال أمير المؤمنين.
فلما قرأ هشام كتابه قال: خرف أبو الهيثم.
فأقام خالد بدمشق حتى هلك هشام، وقام الوليد.
فكتب إليه الوليد: ما حال الخمسين ألف ألف التي تعلم، فأقدم على أمير المؤمنين.
فقدم عليه، فأرسل إليه الوليد، وهو واقف بباب السرداق، فقال: يقول أمير المؤمنين: أين ابنك يزيد؟ فقال: كان هرب من هشام وكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله، فلما لم نره ظنناه ببلاد قومه من السراة.
ورجع الرسول وقال: لا ولكنك خلفته طالباً للفتنة.
فقال: قد علم أمير المؤمنين إنّا أهل بيت طاعة، فرجع الرسول، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: لتأتيني به أو لأزهقن نفسك.
فرفع خالد صوته وقال: قل له: هذا أردت والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه. . .
وكانت أم خالد نصرانية رومية ابتنى بها أبوه في بعض اعيادهم، فأولدها خالداً وأسداً، ولم تُسلم. وبنى لها خالد بيعة، فذمّه الناس والشعراء، فمن ذلك قول الفرزدق:

ألا قطع الرحمٰن ظهر مطية أتتنا تهادي من دمشق بخالد
فكيف يؤم الناس مَن كانت أمه تدين بأن الله ليس بواحد
بني بيعة فيها النصارى لأمه ويهدم من كفر منار المساجد

وكان خالد قد أمر بهدم منار المساجد لأنه بلغه أن شاعراً قال:

ليتني في المؤذنين حياتي إنهم يبصرون مَن في السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح

فلما سمع هذا الشعر أمر بهدمها، ولما بلغه أن الناس يذمونه لبنائه البيعة لأمه، قام يعتذر إليهم فقال: لعن الله دينهم إن كان شراً من دينكم إن خليفة الرجل في أهله أفضل من رسوله في حاجته، يعني أن الخليفة هشام أفضل من رسول الله ﷺ. نبرأ إلى الله من هذه المقالة.

(١) كذا قال المؤلف، وذكر هذه البيعة ابن الأثير فقال في الكامل بعد ذكر ما سلف: ورد العطاء ما كان أيام هشام.
وقيل: أول مَن سمّاه بهذا الاسم مروان بن محمد.
ولما قُتل الوليد خطب يزيد الناس فذمه، وذكر الحادة، وأنه قتله لفعله الخبيث، وقال: أيها الناس، إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة، ولا اجتري نهراً، ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة وولداً، ولا أنقل مالاً عن بلد حتى أسُدّ ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل نقلته إلى البلد الذي يليه، ولا أجمركم في ثغوركم فأفتنكم، ولا أغلق بابي دونكم، ولا أهل على أهل جزيتكم، ولكم أعطياتكم كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم، فإن وفّيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة، وحسن الوزارة، وإن لم أفِ فلكم أن تخلعوني إلاّ أن أتوب، وإن علمتم أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم، وأردتم أن تبايعوه، فأنا أول مَن يبايعه.
أيها الناس: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي هذه السنة: اضطرب حبل بني مروان، وهاجت الفتنة.

ذكر الفتن وأسبابها

كان من ذلك وثوب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان محبوساً بها، فأخذ ما كان بعمان من الأموال، وأقبل إلى دمشق يلعن الوليد، ويعيبه، ويرميه بالكفر.

ووثوب أهل حمص بأسباب العباس بن الوليد، وهدمهم داره، وإظهارهم الطلب بدم الوليد بن يزيد.

وأما أهل حمص، فكان واليهم مروان بن عبد الله من قِبل الوليد، وكان نبيلاً فاضلاً كريماً له جمال وروعة.

فلما قتل الوليد أغلق أهل حمص [٥٦/ب] أبوابها وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد، وسألوا عن قتله.

فقال بعض من حضر الأمر: ما زلنا منتصفين من القوم قاهرين لهم حتى جاء العباس بن الوليد فمال إلى عبد العزيز بن الحجاج بن الوليد.

فوثب أهل حمص إلى دار العباس فانتهبوها وسلبوا حرمه، وأخذوا بنيه فحبسوهم، وطلبوه، فخرج إلى يزيد بن الوليد.

وبلغ ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك فوافقه ذلك، وتابعهم.

وكتب أهل حمص بينهم كتاباً، وتواثقوا فيه على أن لا يدخلوا في طاعة يزيد، وكاتبوا رؤساء الأحياء، ودعوا إلى ولي العهد[١].

....[٢] بعد، فلما بلغ يزيد بن الوليد خروجهم[٣] وجه إليهم رسلاً فيهم يعقوب بن ماني، وكتب معهم: أنه ليس يدعو إلى نفسه، ولكن يدعو إلى الشورى.

فقال عمرو بن قيس السكوني: قد رضينا بولي عهدنا ـ يعني الوليد ـ.

فأخذ يعقوب بلحيته، فقال: أيها العته إنك قد خرفت، وذهب عقلك، إن الذي تعني لو كان يتيماً في حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله، فكيف أمر الأمة.

فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم.

ثم أقبل أهل حمص فنزلوا قرية كانت لخالد بن يزيد بن معاوية، وأمرهم إلى رجل يعرف بأبي محمد السفياني.

---

(١) في الكامل: وأمروا عليهم: معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير، ووافقهم مروان على ذلك.
(٢) ثلاث كلمات أو كلمتين غير مقروءتين.
(٣) في المخطوط: «خرجهم» وهو تحريف.

فتكلم مروان بن محمد بشيء اتهموه فيه، فوثبوا عليه، وقتلوه.

ولما بلغ يزيد أمر أهل حمص دعا عبد العزيز بن الحجاج فوجهه في ألف وخمسمائة ووعده أن يمده.

وكان سليمان بن هشام قد بادرهم، فنزلوا بالسليمانية، وكان أهل حمص قد نزلوها قبلهم، وأراحوا دوابهم، وجعلوا الزيتون عن أيمانهم والجبل عن شمائلهم، والحيات خلفهم، وليس لهم مأتى إلاّ من وجه واحد.

قال مَن حضر: ودفعنا إليهم ونحن معيون قد كلّت دوابنا، وثقل علينا الحديد، فحاربناهم، فهزموا ميمنتنا وميسرتنا أكثر من علوتين.

وسليمان كان في القلب فثبت، وحمل عليهم حتى ردهم إلى مواضعهم.

فبينا نحن مع سليمان، ويحملون علينا إذ طلع عبد العزيز من الثنية فشدّ عليهم حتى دخل عسكرهم، وقتل، ثم يعد إلينا، فلما تشبثوا واستحرّ فيهم القتل، نادوا يزيد بن خالد بن عبد الله القسري: الله الله في قومك.

فكفّ الناس عنهم على أن يبايعوا ليزيد بن الوليد[1].

فلما خرجوا إلى دمشق أعطاهم يزيد، وأجاز الأشراف.

ووثب في هذه السنة أهل فلسطين والأردن [٥٧/أ] على عاملهم فطردوه.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن سعيد بن عبد الملك كان عاملاً للوليد على فلسطين وكان حسن السيرة، وكان يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه.

وكان ولد سليمان بن عبد الملك ينزلون فلسطين، وكان أهل فلسطين يحبونهم لجوارهم.

فلما ورد قتل[2] الوليد ورأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روح بن زنباع، فكتب إلى زيد بن سليمان:

إن الخليفة قد قُتل فاقدم علينا نُوَلِّكَ أمرنا.

---

(١) زاد في الكامل بعد هذا فقال: وأخذ أبو محمد السفياني أسيراً، ويزيد بن خالد بن معاوية أيضاً، فأتى بهما سليمان، فسيّرهما إلى يزيد فحبسهما، واجتمع أمر أهل دمشق ليزيد بن الوليد وبايعه أهل حمص فأعطاهم يزيد العطاء وأجاز الأشراف واستعمل عليهم يزيد بن الوليد، معاوية بن يزيد بن الحصين.

(٢) في المخطوط: «مثل» وهو تحريف.

فقدم، فجمع له سعيد قومه، وكبت إلى سعيد بن عبد الملك ـ وهو نازل بالسلع ـ: ارتحل عنا فإن الأمر قد اضطرب، وقد ولينا أمرنا رجلاً قد رضيناه، فخرج إلى زيد بن الوليد.

ودعا يزيد بن سليمان أهل فلسطين إلى قتال يزيد بن الوليد، وبلغ أهل الأردن أمرهم، فولُّوا عليهم محمد بن عبد الملك، وأمر أهل فلسطين إلى سعيد بن روح، وضبعان بن روح.

وبلغ يزيد بن الوليد أمرهم فوجه إليهم سليمان بن هشام في أهل دمشق.

فقال لهم محمد بن راشد: كان سليمان بن هشام يرسلني إلى سعيد، وضبعان بن روح، وإلى الحكم، وهاشم ابني جرو من بلقيس، فأعدهم، وأمنهم على الدخول في طاعة يزيد بن الوليد.

وقال عثمان بن داود الخولاني: أنفذني يزيد بن الوليد ومعي حذيفة بن سعيد إلى محمد بن عبد الملك، ويزيد بن سليمان يدعوهما إلى طاعته، ويعدهما ويمنيهما، فبدأنا بأهل الأردن، ومحمد بن عبد الملك. فاجتمع إليه جماعة، وقال بعضهم: أصلح الله الأمير، اقتل هذا القدري الخبيث، وكفهم عني الحكم بن جرو العتبي.

فأقيمت الصلاة، فخلوت به وقلت: إني رسول ليزيد إليك، والله ما تركت ورائي راية تعقد إلاّ على رأس رجل من قومك ولا درهماً يخرج من بيت المال إلا في يد رجل منهم وهو يجعل لك كذا وكذا.

فقال: ائت بذاك.

فقلت: نعم، ثم خرجت، فأتيت ضبعان بن روح فقلت له مثل ذلك، وقلت: إنه يوليك فلسطين ما بقي، فأجابني، فما أصبحت حتى رحل بأهل فلسطين، فلما أتيت يزيد فقال: أخبرني كيف قلت لضبعان بن روح؟

فأخبرته.

قال: فما صنع؟

قلت: ارتحل.

قال: فلسنا بأحق بالوفاء مني، ارجع فأمره ألاَّ ينصرف حتى ينزل الرملة فيبايع [٥٧/ب] أهلها.

وقد استعملت إبراهيم بن الوليد على الأردن وضبعان بن روح على فلسطين.

ومسرور[1] بن الوليد على قنسرين.
وابن الحصين على حمص[2].

خطبة خطبها يزيد استمال بها الناس

خطب يزيد بن الوليد الناس بعد قتل الوليد فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس، إني والله ما خرجت أشراً، ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء لنفسي إني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله عزّ وجل، ورسوله، ودينه، وداعياً إلى الله عزّ وجل وكتابه وسنّة نبيه لما هدمت معالم الهدى، وأطفىء نور أهل التقوى وظهر الجبار العنيد، المستحل لكل حرمة، والراكب كل بدعة مع أنه والله ما كان يُصدّق بالكتاب ولا يؤمن بيوم الحساب، وأنه لابن عمي في النسب، وكفىء في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك مَن أجابني من أهل ولايتي، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي.

أيها الناس: إن لكم عليّ أن لا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ولا أجمركم على ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم بقطع سبلهم وإن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم فإن أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم بالسمع والطاعة، وحسن المؤازرة وإن أنا لم أفِ لكم فلكم إن تخلعوني إلاّ أن تستتيبوني فإن تبت قبلتم مني.

وإن علمتم أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أولى مَن يبايعه ويدخل في طاعته.

(١) في المخطوط: مرور. والتصويب من الكامل في التاريخ.

(٢) قال ابن الأثير في التاريخ بعد أن ذكر نحو هذا الخبر: وبقي أهل الأردن، فأرسل سليمان خمسة آلاف فنهبوا القرى، وساروا إلى طبرية.
فقال أهل طبرية: ما نقيم والجنود تجوس منازلنا وتحكم في أهالينا، فانتهبوا يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك، وأخذوا دوابهما وسلاحهما، ولحقوا بمنازلهم فلما تفرق أهل فلسطين، والأردن سار سليمان حتى أتى العنبرة، وأتاه أهل الأردن فبايعوا يزيد بن الوليد، وسار إلى طبرية فصلّى بهم الجمعة وبايع مَن بها، وسار إلى الرملة، فأخذ البيعة على مَن بها، واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأردن.

أيها الناس: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا وفاء له بنقض[(١)] [٥٨/أ] عهد، إنما الطاعة طاعة الله فمَن أطاع فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع، فإذا عصى الله ودعا إلى معصيته فهو أهل أن يعصى ويقتل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثم دعا إلى تجديد البيعة له.

فكان أول مَن بايعه الأفقم بن يزيد بن هشام وبايعه قيس بن هانىء فقال: يا أمير المؤمنين اتقِ الله، ودم على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحد من أهل بيتك وإن قالوا عمر بن عبد العزيز، فأنت أخذتها بحبل صالح، وإن غم أخذتها بحبل سوء.

فلما بلغ قوله مروان بن محمد قال: ما له قاتله الله ذمنا جميعاً وذم عمر وحقدها.

فلما ولي بعث رجلاً وقال له: إذا دخلت مسجد دمشق، فانظر قيس بن هانىء فإنه طالما صلّى فيه فاقتله.

فانطلق الرجل، فدخل المسجد، فرأى قيساً يصلي فقتله.

وفي هذه السنة: عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن العراق وولاها منصور بن جمهور. فسار وهو سابع سبعة فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب، وقدم منصور بن جمهور الحيرة في رجب.

وكان منصور أعرابياً جافياً غيلاني الرأي وإنما صار مع يزيد لرأيه في العبدانية، وحميه لقتل يوسف خالداً[(٢)].

فلما ولاه يزيد وصاه، وقال له: اتقِ الله، وسر وأنت تستشعر التقوى، واعلم أني

---

(١) تكرر لفظ: «بنقض» بأول الصفحة [٥٨/أ] فحذفت التكرر.

(٢) في الكامل: ولما قتل الوليد استعمل يزيد على العراق منصور بن جمهور، وكان قد ندب قبله إلى ولاية العراق عبد العزيز بن هارون بن عبد الله بن دحية بن خليفة الكلبي، فقال له: لو كان معي جند لقبلت، فتركه واستعمل منصوراً، ولم يكن منصور من أهل الدين، وإنما صار مع يزيد لرأيه في الغيلانية، وحمية لقتل يوسف خالد القسري، فشهد لذلك قتل الوليد، وقال له لما ولاّه العراق: اتقِ الله، واعلم أني إنما قتلت الوليد لفسقه، ولما أظهر من الجور، فلا تركب مثل ما قتلناه عليه.

ولما بلغ يوسف بن عمر قتل الوليد عمد إلى مَن بحضرته من اليمانية فسجنهم، ثم جعل يخلو بالرجل بعد الرجل من المضرية، فيقول: ما عندك إن اضطرب الحبل؟ فيقول المضري: أنا رجل من أهل الشام يبايع مَن بايعوا، وأفعل ما فعلوا.

فلم يرَ عندهم ما يحب، فأطلق اليمانية، وأقبل منصور، فلما كان بعين التمر كتب إلى مَن بالحيرة من قواد أهل الشام يخبرهم بقتل الوليد وتأميره على العراق، ويأمرهم بأخذ يوسف وعماله، وبعث الكتب كلها إلى سليمان بن سليم بن كيسان ليفرقها على القواد فحبس الكتب وحمل كتابه فأقرأه يوسف بن عمر فتحيّر في أمره وقال لسليمان: ما الرأي؟ قال: ليس لك إمام تقاتل معه. . .

إنما قتلت الوليد لفسقه، ولما أظهر من الجور، فلا تركب مثل ما قتلناه عليه.

فلما صار بالحيرة كتب إلى سليمان بن سليم بن كيسان:

أما بعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له، وأن الوليد بدل نعمة الله كفراً، فاسفك دمه وعجله إلى النار، وولى خلافته مَن هو خير منه وأحسن هدياً، وقد بايعه الناس وولى على العراق الحارث بن عباس بن الوليد، ووجهني العباس لأخذ يوسف وعماله فلا يفوتنك منهم أحد، فاحبسهم قبلك، وإياك أن تخالف فيحل بك وبأهل بيتك ما لا قِبَلَ لك ولهم به، فاختر لنفسك أو دع.

فلما ورد الكتاب على سليمان بن سليم مع كتب كتبها إلى جماعة من قواد الشام أوصلت الكتب كلها إلى سليمان بن سليم وسئل أن يفرقها في الجند.

فدخل سليمان على يوسف بن عمر وأقرأه كتاب منصور إليه فعَلّ به وقال: ما الرأي؟

فقال: ليس لك إمام تقاتل معه، ولا يقاتل أهل الشام الحارث بن [٥٨/ب] العباس معك، ولا آمن منصور إن قدر عليك لما في نفسه من أجل خالد.

وما الرأي إلاّ أن تلحق بشامك[١].

قال: هو رأي فكيف الحيلة؟

قال: تظهر الطاعة ليزيد، وتدعو له في خطبتك، وإذا قرب منصور وجهت معك مَن أثق به، ففعل.

فلما نزل منصور بحيث يُصَبِّح البلد، خرج يوسف إلى منزل سليمان، فأقام أياماً، ثم وجه معه مَن أخذ به طريق السماوة حتى صار إلى البلقاء.

وكان يوسف وجّه رَجُلاً من بني كلاب في خمسمائة، وقال لهم: إن مَرّ بكم يزيد بن الوليد فوجه قائداً في خمسين رجلاً، فقال له: ائتني نفسه فلا تدعنه يجوز.

فأتاهم منصور بن جمهور في سبعة فلم يهيجوه فانتزع سلاحهم منه وأدخلهم الكوفة.

ولما بلغ يوسف البلقاء، رُفع خبره إلى يزيد بن الوليد، فوجه قائداً في خمسين رجلاً فقال له: ائتني بيوسف.

فأتى البلقاء وطلبه في منزله، فلم يجده، ورأى ابناً، فَرَهَّبَهُ، فقال: أنا أدلك عليه، وذهب به إلى مزرعة له، فوجدوه في ثياب النساء جالساً مع نسوة فألقين عليه

(١) في المخطوط: «نسائك» والتصويب من الكامل.

قطيفة خز، وجلسن على حواشيها حاسرات، فجرُّوا رجله، وأقبلوا به إلى يزيد[١].

فلقيه عامل ليزيد على نوبة من نوب الحرس فأخذ بلحيته فهزّها، ونتف بعضها - وكان من أعظم الناس لحية، وأصغرهم قامة -.

فلما دخل على يزيد قبض على لحيته، وكانت حينئذ تجوز سُرَّته، وجعل يقول: نتفت والله يا أمير المؤمنين لحيتي فما بقي فيها شعرة.

فأمر يزيد بحبسه في الخضراء.

فدخل عليه محمد بن راشد فقال له: أما تخاف أن يطلع عليك مَن قد وترت فيلقي عليك حجراً فيقتلك؟

قال: لا والله ما فطنت لهذا فنشدتك الله إلاّ كلمت أمير المؤمنين في تحويلي إلى غير هذا من المحابس وإن كان أضيق منه.

فأخبر يزيد، فقال: ما غاب عنك من حمقه أكثر، وما حبسته إلاّ لأرده إلى العراق، فيقام للناس وتؤخذ المظالم من ماله ودمه[٢].

---

(١) في الكامل على النحو التالي:
قال: فكيف الحيلة؟
قال: تظهر الطاعة ليزيد، وتدعو له في خطبتك فإذا قرب منصور تستخفي عندي، وتدعه والعمل.
ثم مضى سليمان إلى عمرو بن محمد بن سعيد بن العاص، فأخبره بأمره، وسأله أن يواري يوسف بن عمر عنده، ففعل، فانتقل يوسف إليه.
قال: فلم يُرَ رجل كان في مثل عتوه خاف خوفه.
وقدم منصور الكوفة، فخطبهم، وذم الوليد، ويوسف، وقامت الخطباء، فذموهما معه، فأتى عمرو بن محمد إلى يوسف، فأخبره فجعل لا يذكر رَجُلاً ممن ذكره بسوء إلاّ قال: لله عليّ أن أضربه، كذا وكذا سوطاً.
فجعل عمرو يتعجب من طمعه في الولاية، وتهدده الناس.
وسار يوسف من الكوفة سِرًا إلى الشام فنزل البلقاء، فلما بلغ خبره يزيد بن الوليد، وجّه إليه خمسين فارساً، فعرض رجل من بني نمير ليوسف فقال: يا ابن عمر أنت والله مقتول، فأطعني وامتنع.
قال: لا.
قال: فدعني أقتلك أنا ولا تقتلك هذه اليمانية، فتغيظنا بقتلك.
قال: ما لي فيما عرضت جنان.
قال: فأنت أعلم.
فطلبه المسَيَّرون لأخذه فلم يروه، فهددوا ابناً له، فقال: إنه انطلق إلى مزرعة...

(٢) في الكامل: فعجب من حمقه، فنقله وحبسه مع ابني الوليد، فبقي في الحبس ولاية يزيد وشهرين وعشرة أيام من ولاية إبراهيم.
فلما قرب مروان من دمشق ولى قتلهم يزيد بن خالد القسري مولى لأبيه خالد يقال له: أبو الأسد.
ودخل منصور بن جمهور لأيام خلت من رجب، فأخذ بيوت الأموال، وأخرج العطاء، والأرزاق، وأطلق مَن كان في السجون من العمال، وأهل الخراج وبايع ليزيد بالعراق، وأقام بقية رجب، وشعبان، ورمضان، وانصرف لأيام بقيت منه.

وأما منصور بن جمهور، فإنه فتح الخزائن، وفرق في الناس استحقاقاتهم، وأحسن إلى جميعهم.

وفي هذه السنة: امتنع نصر بن سيار من تسليم عمله بخراسان لعامل منصور بن جمهور.

وقد كان يزيد بن الوليد قد ولاّها منصور مع العراق.

[٥٩/أ] ذكر الخبر عن ذلك

كنا ذكرنا ما أعده نصر من الهدايا، وشخوصه متوجهاً إلى يوسف بن عمر بالعراق، وتباطؤه في سفره، حتى ورد الخبر عليه بقتل الوليد.

فحكى بشر - وفي أخرى - بشير بن نافع وكان على سكسك العراق قال: لما أقبل منصور بن جمهور أميراً على العراق هرب يوسف بن عمر، فوجه منصور أخاه منظور بن جمهور على الري، فأقبلت مع منظور إلى الري، وقلت: أقدم على نصر فأخبره.

فلما وردت على نصر وأخبرته كان الخبر عنده فأمر حميداً مولاه أن يحملني إلى عنده، وأكرمني وأمر لي بجائزة.

ثم دخل إلى نصر قوم فيهم: يونس بن عبد الله، وعبد الله بن هشام، وسلم بن أحوز.

فأرسل إليّ وقال: أخبرهم.

فلما أخبرتهم كذّبوني، فقلت: استوثق من هذا.

فلما مضت ثلاث وكل بي ثمانين رجلاً من الحرس، فأبطأنا الخبر الليلة التاسعة، ثم جاءهم الخبر ليلة النيروز على ما وصفت، فصرف عامة تلك الهدايا إلى أربابها، وأعتق الرقيق، وقسم روق الجواري في ولده، وخاصته، وقسم تلك الأواني في الناس، ووجه العمال وأمرهم بحسن السيرة وأرجفت الأزد بخراسان أن منظور بن جمهور قادم خراسان.

فخطب نصر بن سيار وقال في خطبته:

إن جاء أمير ظنين قطعنا يديه ورجليه، ثم راح به يعدو، قال عدو الله المبتور المخذول.

وولى نصر بن ربيعة اليمن.

وولى كل مَن ظنّ عنده خيراً، وأمرهم بحسن السيرة، ودعا الناس إلى البيعة.

وكان نصر ولّى عبد الملك بن عبد الله السلمي خوارزم فخطبهم وقال في خطبته:

والله ما أنا بالأعرابي الجلف، ولا القروي المستنبط ولقد كرمتني الأمور وكرمتها، أما والله لأضعن السيف موضعه، والسوط مضربه، والسجن مدخله، ثم لتجدنني غشمشماً أعتى - وفي أخرى أعشى - السحر ولتستقيمن لي على الطريقة بعض المكاره في السير - وفي أخرى رفض المكاره في السنن - الأعظم أو لأصكنكم صك القطا في القطا العارب.

وفي هذه السنة: وقع الاختلاف بخراسان بين اليمانية، والمزارية[1].

---

(١) كذا في المخطوط؛ وفي الكامل: النزارية.
واقتصر المؤلف على هذا القدر من الخير في حين فصل ابن الأثير الخبر في الكامل فقال: وكان السبب في ذلك: رأى الفتنة قد ثارت، فرفع حاصل بيت المال، وأعطى الناس بعض أعطياتهم ورقاً وذهباً من الآنية التي كان اتخذها للوليد، فطلب الناس منه العطاء وهو يخطب، فقال نصر: إياكم والمعصية، وعليكم بالطاعة والجماعة.
فوثب أهل السوق إلى السوق، فغضب نصر وقال: ما لكم عندي عطاء، ثم قال: كأني بكم وقد نبع من تحت أرجلكم شر لا يطاق، وكأني بكم مطرحين في الأسواق كالجزر المنحورة، إنه لا تطل ولاية رجل إلا ملوها، وأنتم يا أهل خراسان مسلحة في نحور العدو، فإياكم أن يختلف فيكم سفيان، إنكم تريشون أمراً تريدون به الفتنة، ولا أبقى الله عليكم، لقد نشرتكم وطويتكم، فما عندي منكم عشرة، وإني وإياكم كما قيل:
استمسكوا أصحابنا بحدوبكم فقد عرفنا خيركم وشركم
فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سفيان ليتمنين أحدكم أنه ينخلع من ماله وولده.
يا أهل خراسان إنكم قد غمصتم الجماعة، وركنتم إلى الفرقة أسلطان المغول تريدون وتنتظرون؟! إن فيه لهلاككم معشر العرب، ثم تمثل بقول النابغة الذبياني:
فإن يغلب شقاؤكم عليكم فإني في صلاحكم سعيت
وقدم على نصر عهده على خراسان من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.
فقال الكرماني لأصحابه: الناس في فتنة فانظروا لأموركم رجلاً - وإنما سمى الكرماني لأنه ولد بكرمان واسمه: جديع بن علي الأزدي المعنى - فقالوا له: أنت لنا.
وقالت المضرية لنصر: إن الكرماني يفسد عليك الأمور، فأرسل إليه، فاقتله أو احبسه.
فقال: لا ولكن لي أولاد ذكور وأناس فأزوج بني من بناتي، وبناتي من بني.
قالوا: لا.
قال: فابعث إليه بمائة ألف درهم، وهو بخيل ولا يعطي أصحابه شيئاً منها فيتفرقون عنه.
قالوا: لا، هذه قوة له، ولم يزالوا به حتى قالوا له: إن الكرماني لو لم يقدر على السلطان والملك إلا بالنصرانية واليهودية ولتنصر وتهود.
وكان نصر والكرماني متصافيين، وكان الكرماني قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله فلما ولي نصر عزل الكرماني عن الرياسة وولاها غيره فتباعد ما بينهما.
فلما أكثروا على نصر في أمر الكرماني عزم على حبسه، فأرسل صاحب حرسه ليأته به فأرادت الأزد أن تخلصه من يده، فمنعهم من ذلك، وسار مع صاحب الحرس إلى نصر، وهو يضحك.
فلما دخل عليه قال له نصر: يا كرماني ألم يأتني كتاب يوسف بن عمر بقتلك فراجعته وقلت: شيخ خراسان، وفارسها، فحقنت دمك؟.
قال: بلى. =

....

= قال: ألم أغرم عنك ما كان لزمك من الغرم وقسمته في أعطيات الناس؟
قال: بلى.
قال: ألم أرئس ابنك عليًا على كره من قومك؟
قال: بلى.
قال: فبدلت ذلك إجماعاً على الفتنة؟
قال الكرماني: لم يقل الأمير شيئاً إلاّ وقد كان أكثر منه، وأنا لذلك شاكر، وقد كان مني أيام أسد ما قد علمت، فليتأنَّ الأمير فلست أحب الفتنة.
فقال: سالم بن أحوز، أضرب عنقه أيها الأمير.
فقال عصمت بن عبد الله الأسدي للكرماني: إنك تريد الفتنة وما لا تناله.
فقال المقدام، وقدامة ابنا عبد الرحمٰن بن نعيم العامري: لجلساء فرعون خير منكم إذ قالوا: أرجه وأخاه، والله لا يقتل الكرماني بقولكما.
فأمر بضربه، وحبس في القهندز لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة.
فتكلمت الأزد.
فقال نصر: إني حلفت أن أحبسه، ولا ناله مني سوء، فإن خشيتم عليه، فاختاروا رجلاً يكون معه.
فاختاروا يزيد النحوي، فكان معه.
فجاء رجل من أهل مصر فقال لآل الكرماني: ما تجعلون لي إن أخرجته؟
قالوا: كل ما سألت.
فأتى مجرى الماء في القهندز، فوسعه وقال لولد الكرماني اكتبوا إلى أبيكم يستعد الليلة للخروج، فكتبوا إليه، وأدخلوا الكتاب في الطعام، فتعشّى الكرماني، ويزيد النحوي، وخضر بن حكيم، وخرجا من عنده، ودخل الكرماني السرب، فانطوت على بطنه حيّة فلم تضره، وخرج من السرب وركب فرسه البشير، والقيد في رجله فأتوا به عبد الملك بن حرملة، فأطلق عنه. وقيل: بل خلص الكرماني مولى له رأي خرقاً في القهندز فوسعه وأخرجه، فلم يصلّ الصبح حتى اجتمع معه زهاء ألف رجل ولم يرتفع النهار حتى بلغ ثلاثة آلاف.
وكانت الأزد قد بايعوا عبد الملك بن حرملة على كتاب الله وسنة رسوله.
فلما خرج الكرماني قدمه عبد الملك، فلما هرب الكرماني عسكر نصر بباب مرو الروز، وخطب الناس، فنال من الكرماني، فقال: ولد بكرمان فكان كرمانياً، ثم سقط إلى هراة فصار هروياً، والساقط بين الفراشين لا أصل ثابت، ولا فرع نابت.
ثم ذكر الأزد، فقال: إن يستوثقوا فيهم أذل قوم وإن تابوا فهم كما قال الأخطل:

ضفادع في ظلماء الليل تجاوبت فدلّ عليها صوتها حية البحر

ثم ندم على ما فرط منه، فقال: اذكروا الله، فإنه خير لا شر فيه.
ثم اجتمع إلى نصر بشر كثير، فوجه سالم بن أحوز في المجففة إلى الكرماني.
فسفر الناس بين نصر والكرماني، وسألوا نصراً أن يؤمنه ولا يحبسه، وجاء الكرماني، فوضع يده في يد نصر.
فأمره بلزوم بيته، ثم بلغ الكرماني عن نصر شيء فخرج إلى قرية له، فخرج نصر، فعسكر بباب مرو فكلموه فيه، فأمنه.
وكان رأي نصر إخراجه من خراسان.
فقال له سالم بن أحوز: إن أخرجته ووهنت بأسه قال الناس: إنما أخرجه لأنه هابه.
فقال نصر: إن الذي أتخوفه إذا خرج أيسر مما أتخوفه منه وهو مقيم، والرجل إذا نفي عن =

وأظهر فيها الكرماني الخلاف لنصر بن سيار، واجتمع مع كل واحد منهما جماعة لنصرته.

وفيها: [٥٩/ب] أظهر مروان بن محمد الخلاف وكتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد بن يزيد كتاباً بليغاً يأمره بالطلب بدم أخيه الوليد(١).

= بلده صَغُر أمره.
فأبوا عليه، فأمنه، وأعطى أصحابه عشرة عشرة، وأتى الكرماني نصراً، فأمنه.
فلما عزل ابن جمهور عن العراق وولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في شوال سنة ست وعشرين خطب نصر، وذكر ابن جمهور، وقال: قد علمت أنه لم يكن من عمال العراق، وقد عزله الله، واستعمل الطيب ابن الطيب. فغضب الكرماني لابن جمهور، وعاد في جمع الرجال، واتخاذ السلاح، فكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة وأكثر وأقل فيصلي خارج المقصورة، ثم يدخل، فيسلّم على نصر، ولا يجلس، ثم ترك إتيان نصر، وأظهر الخلاف.
فأرسل إليه نصر مع سالم بن أحوز يقول له: إني والله ما أردت بحبسك سوءاً، ولكن خفت فساداً من الناس، فأتني.
فقال: لولا أنك في منزلي لقتلتك ارجع إلى ابن الأقطع، وأبلغه ما شئت من خير وشر. فرجع إلى نصر، فأخبره.
فلم يزل يرسل إليه مرة بعد أخرى، فكان آخر ما قال له الكرماني: إني لا آمن أن يحملك قوم على غير ما تريد، فتركب مِنّا ما لا بقية بعده، فإن شئت خرجت عنك لا من هيبة لك، ولكن أكره أن أشأم أهل هذه البلدة وأسفك الدماء فيها، فتهيأ للخروج إلى جرجان.

(١) هذا ما ذكر المؤلف، وقال ابن الأثير فيه في الكامل: كان السبب في ذلك أن الوليد لما قتل، كان عبد الملك بن مروان بن محمد مع الغمر بن يزيد أخي الوليد بحران بعد انصرافه من الصائفة، وكان على الجزيرة عبدة بن رباح الغساني عاملاً للوليد.
فلما قتل الوليد سار عبدة عنها إلى الشام فوثب عبد الملك بن مروان بن محمد على حران، والجزيرة فضبطهما، وكتب إلى أبيه بأرمينية يعلمه بذلك، ويشير عليه بتعجيل السير. فتهيأ مروان للمسير، وأنفذ إلى الثغور مَن يضبطها ويحفظها، وأظهر أنه يطلب بدم الوليد، وسار ومعه الجنود، ومعه ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وسبب صحبته أن هشاماً كان قد حبسه.
وسبب حبسه أن هشاماً أرسله إلى إفريقية، لما قتلوا عامله كلثوم بن عياض، فأفسد الجند، فحبسه هشام.
وقدم مروان على هشام في بعض وفداته فشفع فيه، فأطلقه، فاستصحبه معه.
فلما سار مروان مسيره هذا أمر ثابت بن نعيم مَن مع مروان من أهل الشام بالانضمام إليه ومفارقة مروان ليعودوا إلى الشام فأجابوه إلى ذلك، فاجتمع معه ضعف مَن مع مروان وباتوا يتحارسون.
فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فأمر مروان منادين ينادون بين الصفين: يا أهل الشام، ما دعاكم إلى هذا؟ ألم أحسن فيكم السيرة؟
فأجابوه بأنا كنا نطيعك بطاعة الخليفة، وقد قتل وبايع أهل الشام يزيد فرضينا بولاية ثابت ليسير بنا إلى أجنادنا.
فناداهم: كذبتم، فإنكم لا تريدون ما قلتم، وإنما تريدون أن تعصبوا ممن مررتم به من أهل الذمّة أموالهم، وما بيني وبينكم إلاّ السيف حتى تنقادوا إلي فأسير بكم إلى الغزاة، ثم أترككم تلحقون بأجنادكم، فانقادوا له فأخذ ثابت بن نعيم وأولاده وحبسهم، وضبط الجند حتى بلغ حران وسيّرهم إلى الشام ودعا أهل الجزيرة إلى العرض، فعرض نيفاً وعشرين ألفاً وتجهز للمسير إلى يزيد. =

وفيها: عزل يزيد منصور بن جمهور عن العراق وولاها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان.

وكان عبد الله بن عمر هذا متألهاً، فدعاه يزيد بن الوليد وقال له: إن أهل العراق يميلون إليك وإلى أبيك فسِر إليها فقد وليتكها.

فلما شخص قَدّم بين يديه رسلاً، وكتب إلى قواد الشام الذين بالعراق، وخاف أن لا يسلم له منصور بن جمهور العمل، فانقاد له الكل، وسلم منصور بن جمهور وانصرف إلى الشام.

وفرّق عبد الله بن عمر عماله، وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم[١].

وكتب إلى نصر بعهده على خراسان.

وكان المنجمون ذكروا لنصر أن خراسان ستكون بها فتنة.

فأمر نصر برفع حاصل بيت المال، وأعطى الناس بعض أعطياتهم ورقاً وذهباً من الآنية التي كان اتخذها الوليد بن يزيد.

وكان أول مَن تكلم رجل من كندة أفوه طوال فقال: العطاء العطاء.

فلما كانت الجمعة، أمر نصر رجالاً من الحرس فلبسوا السلاح، وفرقهم في المسجد مخافة أن يتكلم متكلم.

فقام الكندي، فقال: العطاء العطاء.

وقام مولى للأزد يلقب أبا الشياطين فتكلم.

وقال آخرون: العطاء، العطاء.

فقال نصر: اتقوا الله، عليكم بالطاعة والجماعة، فاسمعوا ما توعظون به.

فصعد سلم بن أحوز وهو على المنبر فكلمه فقالوا: ما يغني كلامك هذا شيئاً.

= وكاتبه يزيد ليبايع له ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى أباه محمد بن مروان من الجزيرة، وأرمينية والموصل وأذربيجان.
فبايع له مروان، وأعطاه يزيد ولاية ما ذكر له.

(١) بعد هذا في الكامل: فنازعه قواد أهل الشام وقالوا: تقسم على هؤلاء فيئنا وهم عدونا؟ فقال لأهل العراق: إني أريد أن أرد فيئكم عليكم، وعلمت أنكم أحق به، فنازعني هؤلاء.
فاجتمع أهل الكوفة بالجبانة.
فأرسل إليهم أهل الشام يعتذرون.
وثار غوغاء الناس من الفريقين، فأصيب منهم رهط لم يعرفوا.
واستعمل عبد الله بن عمر على شرطته عمر بن الغضبان القبعثري، وعلى الخراج السواد والمحاسبات أيضاً.

ووثب أهل السوق إلى أسواقهم.

فغضب نصر، وقال: إياكم[1] والعصبية، وحمية الجاهلية، فإنهما يورثان النفاق، ويعقبان الشقاء، ولا تظالموا فتمقتوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وما لكم عندي عطاء بعد يومكم هذا.

ثم قال: كأني بالرجل منكم قد قام إلى أخيه وابن عمّه فلطم وجهه في جمل يهدى له، وثوب يُكساه، ويقول مولاي وطري، فأذلوا هذه السفلة.

فكأني بهم قد نبع الشر من تحت أرجلهم، وكأني بهم مطرحين في الأسواق كالجزر المنحورة.

إنه لم تطل ولاية رجل قط إلاّ ملُّوه، وأنتم يا أهل خراسان مسلحة في نحر العدو، فإياكم وأن يختلف فيكم سفيان.

فقال الكرماني: أنتم في فتنة فانظروا لأموركم رجلاً.

[٦٠/أ] وإنما سمي الكرماني لأنه ولد بكرمان واسمه جديع بن علي بن شبيب المُعْني.

وقالوا: ليت لنا فاجتمعت المضرية إلى نصر، وقالوا له: إن الكرماني يفسد الناس عليك، فأرسل إليه فاقتله أو فاحبسه.

فقال: لا ولكن لي ولداً ذكوراً وإناثاً وله ولد، فأزوج بني بناته، وبنيه بناتي.

قالوا: ليس ينفع ذلك شيئاً.

قال: فأبعث إليه بمائة ألف فإنه بخيل فلا يعطي أصحابه شيئاً، فيعلمون بها، ويتفرقون عنه.

قالوا: هذه تصير قوة له.

قال: فدعوه على حاله يتقينا ونتقيه.

قالوا: لا.

وبلغ نصراً أن الكرماني يقول: كانت عابتي في طاعة بني مروان أن يتقلّد ولدي السيوف فاطلب بثأر بني المهلب مع ما لقينا من نصر وجفائه طول حرمانه، ومكافأته إيانا بما كان من صنع أسد إليه.

فقال لنصر عصمة بن عبد الله الأسدي إنها بدىء فتنة فتجيء عليه واحبسه، وأظهر أنه مخالف، ثم اضرب عنقه عنق سباع بن النعمان والفرافصة بن طهر الكندي،

(١) في المخطوط: «إياي» وهو تحريف.

فإنه لم يزل غضبان على الله بتفضيله لمضر على ربيعة.

وكثر على نصر الكلام في أمر الكرماني حتى قال له أحرم بن قبيصة: لو أن جديعاً لم يقدر على السلطان والملوك إلاّ بالنصرانية أو اليهودية لتنصر أو لتهوّد.

وكان نصر والكرماني متصافيين.

وكان الكرماني أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله.

فلما ولي نصر خراسان عزل الكرماني عن الرئاسة وصيّرها لحارث بن عامر الواشحي.

ثم مات حارث، فأعاد الكرماني عليها، ولم يلبث إلاّ قليلاً حتى عزله وصيّرها لجميل بن النعمان فتباعد ما بين نصر والكرماني، فحبس نصر الكرماني في القهندز مقاتل بن علي المري. ولما هَمّ نصر بحبس الكرماني تكلم قوم، فخاف نصر الفتنة لأن الأزد تعصبت له.

فقال نصر: أحلف بالله إني أحبسه، ثم لا يناله مني مكروه، فإن خشيتم عليه، فاختاروا رجلاً يكون[1] معه.

فاختاروا يزيد النحوي، فكان معه في القهندز.

وصيّر حرسه بين ناحية، فبينا هم كذلك إذ جاءهم رجل من أهل نسف فقال لغلام الكرماني ـ يقال له: جعفر ـ: ما تجعلون لي إن أنا أخرجته؟

قالوا: لك ما سألت.

فأتى مجرى الماء في القهندز فدخله ووسعه وأتى ولد الكرماني وقال لهم: اكتبوا إلى أبيكم يستعد للخروج الليلة، فكتبوا إليه، وأدخلوا الكتاب مع الطعام.

فدعا الكرماني يزيد النحوي، وحصين بن حكيم، فتعشيا معه، وخرجا، ودخل الكرماني [٦٠/ب] السرب وأخذوا بضبعيه[2] فيقال: إنه انطوت على بطنه حَيّة فلم تضره، وانتهى إلى موضع ضيق فسحبوه فسحج منكبه، وجنبه، ثم خرج.

وكان الكرماني أرسل إلى محمد بن المثنى، وعبد الملك بن حرملة: إني خارج الليلة فاجتمعوا بعلطان فتوافوا على باب الريان بن سنان اليحمدي بنوس في المرج، وكان مصلاهم في العيد.

وخرج إليهم الناس من قراهم، فصلّى بهم الغداة، وهم زهاء ألف، فما ترجلت

---

(١) في المخطوط على هذا الرسم «اون» والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: بضبعه. وهو تحريف.

الشمس حتى صاروا ثلاثة آلاف.

فسار وأتاهم أهل السقادم، فأتوا حرمان، وكان الأزد اجتمعوا إلى عبد الملك بن حرملة فبايعوه على الكتاب والسنة، قبل خروج الكرماني بليلة.

فلما اجتمعوا في مرجع نوس أقيمت الصلاة، فاختلف عبد الملك والكرماني في التقدم ساعة ثم قدمه عبد الملك، وصيّر الأمر له فصلّى بهم الكرماني.

ولما انتهى نصراً هرب الكرماني، واستحلف عصمة بن عبد الله الأسدي، وخرج إلى القناطر الخمس بباب مرو الروز، وخطب الناس فنال من الكرماني وذكره بالقبح، ثم ذكر الأزد، فقال: إن يُستوثقوا فأذل قوم وإن يأبوا فهم كما قال الأخطل:

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت   فدلّت عليها صوتها حيّة البحر

ثم ندم على ما فرط منه، فقال:

اذكروا الله فإن ذكر الله شفاء، ذكر الله تعالى خير لا شر فيه، ذكر الله براءة من النفاق. واجتمع إلى نصر بشر كثير.

فوجه سلم بن أحوز إلى الكرماني في المجففة وهم خلق كثير.

فسفر الناس بين نصر والكرماني، وسألوا نصراً أن يأمنه، ولا يحبسه، وضمن قومه أن لا يخالفوا.

وأتاه القاسم بن تجيب فكلمه فيه فأمنه، وقال له: إن شئت خرج لك عن خراسان وإن شئت أقام في داره.

وكان رأى نصر إخراجه، فقال له سلم: إن أخرجته نوهت باسمه، وقال الناس: أخرجه أنه هابه.

فقال نصر: إن الذي أتخوفه منه إذا خرج أيسر مما أتخوفه منه إذا قام، والرجل إذا نفي عن بلد صغر أمره.

فأبوا عليه، فكفّ عنه، وأعطى مَن كان معه عشرة عشرة.

وأتى الكرماني نصراً، فدخل سرادقه، فأمنه.

ولحق عبد العزيز بن عبد ربه بالحارث بن سريج، وهو بالترك.

وأتى نصر عزل منصور بن جمهور وولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فخطب الناس وقال: كنتم تغدرون ببعض المنع منكم لبعض [٦١/أ] الجور عليكم، وقد وليكم مَن يقول ويفعل ويقول ورددتم له برأكم تهزمون إن استعصيتم عليه برأكم بسيفه، ثم رجا في الآخر من الآخر ما أمل في الأول من الدحر من البيعة مبالغة،

فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فأينا غدر فلا[١] ذمة له عند صاحبه، والله ما نطقت به ألسنتنا حتى عقدت عليه قلوبنا، وما طلبناها منكم حتى بذلنا لكم بأخرى نناحر ومن سيرك من حذر، فنادوهم سمعاً فناداهم عدلاً.

وذكر ابن جمهور بسوء وقال: قد علمت أنه لم يكن من عمال العراق، وقد عزله الله، واستعمل الطيب ابن الطيب.

فغضب الكرماني لابن جمهور، فعاد في جمع الرجال، واتخاذ السلاح.

وكان نصر يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة وأكثر وأقل فيصلي خارجاً من المقصورة، ثم يدخل على نصر فيسلّم عليه ولا يجلس.

ثم ترك إتيان نصر، وأظهر الخلاف، فأرسل إليه نصر بسلم بن أحوز، إني والله ما أردت بك في حبسك سوءاً، ولكني خفت أن تفسد أمر الناس، فأتني.

فقال الكرماني لسلم: لولا أنك في منزلي لقتلتك، ولولا ما أعرف من حمقك لأحسنت أدبك، فارجع إلى ابن الأقطع، فاعلمه ما شئت من خير وشر.

فرجع إلى نصر فأخبره، فقال: عد إليه.

فقال: لا، وما بي هيبة له، ولكني أكره أن يسمعني فيك ما أكره.

فبعث إليه عصمة بن عبد الله الأسدي، فقال: يا أبا علي؛ إني أخاف عليك خصالاً، فانطلق إلى أمرك يعرضها عليك وما يريد بذلك إلا الإعذار إليك.

فقال الكرماني: إني أعلم أن نصراً لم يقل هذا لك ولكنك أردت أن تبلغه فتحظى، والله لا أكلمك كلمة بعد انقضاء كلامي حتى ترجع إلى أميرك، فيرسل مَن أحب غيرك. فرجع عصمة.

فقال: ما رأيت علجاً أعدى لطوره من الكرماني، وما أعجب منه، ولكني أعجب من يحيى بن حصين وأصحابه لعنهم الله، والله إنهم أشد تعظيماً له من أصحابه.

فقال سلم بن أحوز لنصر: إني أخاف فساد هذا الثغر والناس.

فأرسل إليه قديداً، فقال نصر لقديد بن منيع: انطلق إليه.

فأتاه، فقال: يا أبا علي لقد لححت، وأخاف أن يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً، وتشمت بنا هذه الأعاجم.

قال: يا قديد، إني أتهمك وقد جاء ما لا أثق معه بنصر، وقد قال رسول الله ﷺ: «البكري أخوك ولا تثق به»[٢].

---

(١) في المخطوط: له. وهو تحريف.

(٢) متن هذا الحديث يدل على وضعه لا ضعفه.

قال: أما وقد وقع هذا في نفسك فأعطه رهناً.

قال: أعطيه عليًا، وعثمان، فمَن يعطيني ولا خير فيه؟

قال: يا أبا علي نشدتك الله أن يكون خراب هذه [٦١/ب] البلدة على يديك.

ورجع إلى نصر فقال نصر لعقيل[١] الليثي: ما أخوفني أن يقع بهذا الثغر بلاء فكلّم ابن عمك.

فقال عقيل لنصر: أيها الأمير، أنشدك الله إن بشام عشيرتك، إن مروان بالشام يقاتله الخوارج، والناس في فتنة، والأزد أخفاء سفهاء، وهم جيرانك.

قال: فما أصنع إن علمت أمراً يصلح الناس فدونك وقد زعم أنه لا يثق بي.

قال: فأتى عقيل الكرماني فقال: يا أبا علي، قد سننت للسفهاء سُنّة تطلب بعندك من الأمراء، إني أرى أمراً أخاف أن تذهب فيه العقول.

قال الكرماني: إن نصراً يريد أن آتيه ولا آمنه، وأريد أن تعتزل ويعتزل، ونختار رجلاً من بكر بن وائل نرضاه جميعاً فيلي أمرنا حتى يأتي أمر الخليفة وهو يأبى هذا.

قال: يا أبا علي إني أخاف أن يهلك أهل هذا الثغر، فأتِ أميرك وقل ما شئت تجب إليه ولا تطمع سفهاء قومك فيما دخلوا فيه.

فقال الكرماني: إني لا أتهمك في نصيحة ولا عقل، ولكني لا أثق بنصر، فلتحمل من المال ما يشاء وليشخص.

قال: فهل لك في أمر يجمع الأمر بينكما؟

تتزوج إليه ويتزوج إليك؟

قال: لا آمنه على حال.

قال: أمَا بَعْدَ هذا خير؟ وإني لخائف أن تهلك عدواً لمضيعة.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال له عقيل: أعود إليك؟

قال: لا، ولكن أبلغه عني، وقل له: لا آمن له أن يحملك قوم من أمري على غير ما تريد، فتركب منا ما لا بقية بعده، فإن شئت خرجت عنك لا من هيبة لك، ولكن أكره أن أشأم أهل هذه البلدة، وأسفك الدماء.

---

(١) في متن المخطوط: لمعقل، وفوقه تصحيح لعقيلب. والصواب جاء في الكلام بعده وهو ما أثبته. والله أعلم.

وتهيأ ليخرج إلى جرجان.

وفي هذه السنة: أمّن يزيد بن الوليد بن الحارث بن سريج، وكتب إليه بذلك الكتاب وكتب إلى عبد الله بن عمر يأمره برد ما كان أخذ منه من ماله وولده.

ذكر السبب في ذلك

أن الفتنة لما وقعت بخراسان بين نصر، والكرماني، خاف نصر قدوم الحارث بن سريج عليه بأصحابه والترك فيلون أمره أشد عليه من الكرماني وغيره، وطمع أن يناصحه.

فأرسل إليه مقاتل بن حيان النبطي، وثعلبة بن صفوان البناني وجماعة ليردوه من بلاد الترك.

وقيل: إن قوماً خرجوا إلى يزيد بن الوليد، فطلبوا منه أماناً للحارث بن سريج، فكتب له أماناً ولمَن معه، وأمر نصراً برد ما كان أخذ له ولأصحابه [٦٢/أ] ثم يفد القوم إلى الحارث، فلقوا مقاتل بن حيان وأصحابه الذين وجههم نصر إلى الحارث، وأقبل الحارث يريد مرو.

وكان مقامه بأرض الترك اثنتي عشرة سنة.

فقال: إن نصراً كان كتب إلى الحارث من غير إذن الخليفة، فكتب إليه: ابن عم إنك أمنت الحارث بغير إذني، ولا إذن الخليفة.

فسقط في يديه، فبعث يزيد بن الأحمر، وأمره أن يفتك بالحارث إذا صار معه في السفينة[١].

وفي هذه السنة: وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بكر بن ماهان إلى خراسان، وبعث معه بالسيرة والوصية.

---

(١) كذا جاء الخبر هنا، وقال ابن الأثير في الخبر في الكامل: في هذه السنة أُومن الحارث بن سريج، وهو ببلاد الترك ـ وكان مقامه عندهم اثنتي عشرة سنة ـ وأمر بالعود إلى خراسان. وكان السبب في ذلك: أن الفتنة لما وقعت بخراسان بين نصر والكرماني. . . .
فأرسل إليه مقاتل بن حيان النبطي وغيره ليردوه من بلاد الترك.
وسار خالد بن زيد الترمذي، وخالد بن عمر ومولى بني عامر إلى يزيد بن الوليد، فأخذا للحارث منه أماناً.
فكتب له أماناً، وأمر نصر أن يرد عليه ما أخذ له.
وأمر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل الكوفة بذلك، أيضاً، فأخذا الأمان وسار إلى الكوفة، ثم إلى خراسان، فأرسل نصر إليه، فلقيه الرسول وقد رجع مع مقاتل، وأصحابه، فوصل إلى نصر وقام بمرو الروذ ورد نصر عليه ما أخذ له.
وكان عوده سنة سبع وعشرين ومائة.

فقدم مرو وجمع النقباء ومَن بها من الدعاة فنعى إليهم الإمام محمد بن علي، ودعاهم إلى إبراهيم.

فقبلوه، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة.

[فقدم بها بكير على إبراهيم](١).

وفيها: أخذ يزيد بن الوليد البيعة لأخيه إبراهيم بن الوليد وجعله ولي عهده، ولعبد العزيز بن الحجاج من بعد إبراهيم بن الوليد.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب ذلك أن يزيد مرض(٢) فاجتمع عليه القدرية، وكان يرى رأيهم، وأشاروا عليه بذلك، وقالوا: لا يحل لك أن تهمل أمر الأمة، فبايع لأخيك حتى بايع لإبراهيم وعبد العزيز من بعده.

وفي هذه السنة: أظهر مروان بن محمد بن مروان الخلاف على يزيد بن الوليد، وانصرف من أرمينية إلى الجزيرة مظهراً أنه طالب بدم يزيد بن الوليد، فلما صار بحران بايع ليزيد.

---

(١) زيادة من الكامل، والخبر فيه كما هنا لم يزد عليه شيء.

(٢) في الكامل: مرض سنة ست وعشرين ومائة.

خلافة مروان بن محمد

ذكر السبب في خلاف مروان ثم دخوله في الطاعة ومبايعته

لما بلغ مروان مقتل الوليد أقبل يريد الجزيرة وكان ابنه عبد الملك بن مروان قد وثب على حرّان، ومدائن الجزيرة فضبطها، وكتب إلى أبيه في أرمينية[1] يعلمه بذلك، ويشير عليه بتعجيل السير والقدوم.

فتهيأ مروان للمسير، وأظهر أنه يطلب بدم الوليد، وكره أن يدع الثغر معطلاً.

فوجه إلى أهل الباب إسحاق بن مسلم العقيلي وهو رأس قيس، وثابت بن نعيم الجذامي وهو رأس اليمن.

وكان سبب صحبته ثابت إياه: أن مروان كان خلصه من جيش[2] هشام، وأحسن إليه وحباه.

فلما كتب مروان إلى أهل الباب على أيديهما وحمل معهما إليهم أعطياتهم، ورغبهم في الجهاد. . .[3].

ثم بلغه أن ثابتاً كان يدس إلى قواده بالانصراف إلى ثغرهم واللحاق [٦٢/ب] بأجنادهم.

فلما انصرفا إليه تهيأ مروان للمسير، وعرض جنده فَدَسَّ ثابت بن نعيم إلى مَن معه من أهل الشام بالانخزال عن مروان ليسير بهم إلى أجنادهم، ويتولى أمرهم.

فانخزلوا عن عسكر مروان ليلاً، وعسكروا على حدة، فبات ليلته ومَن معه في السلاح يتحارسون حتى أصبح، ثم خرج إليهم بمَن معه، ومَن مع ثابت يضعفون مَن مع مروان، فصافوهم ليقاتلوهم.

---

(١) في الكامل: كان السبب في ذلك: أن الوليد لما قتل كان عبد الملك بن مروان بن محمد مع الغمر بن يزيد أخي الوليد بحران بعد انصرافه من الصائفة.
وكان على الجزيرة عبدة بن الرياح الغساني عاملاً للوليد.
فلما قتل الوليد سار عبدة عنها إلى الشام فوثب عبد الملك بن مروان بن محمد على حران والجزيرة فضبطهما، وكتب إلى أبيه بأرمينية يعلمه بذلك. . .

(٢) في المخطوط: جيش، وهو تحريف.

(٣) كلمة ممحوة من المخطوط.

فأمر مروان مناديين فبرزا بين الصفين فنادياهم:

يا أهل الشام ما دعاكم إلى اعتزال؟ وما الذي نقمتم عليّ؟ ألم آتكم بما تحبون؟ وأحسن السيرة فيكم والولاية عليكم؟ ما الذي دعاكم إلى سفك دمائكم؟

وأجابوه: بأنا إنما كُنّا نطيعكم بطاعة خليفتنا، فقد قتل خليفتنا.

وبايع أهل الشام يزيد بن الوليد فرضينا بولاية ثابت ورأسناه ليسير بنا على. . .[1] حتى نرد أجنادنا.

فأمر مناديه فنادى:

أن قد كذبتم، وليس تريدون الذي قلتم وإنما أردتم أن تركبوا رؤوسكم فتغصبوا مَن مررتم من أهل الذمة أموالهم، وأطعمتهم، وأعلافهم، وما بيني وبينهم إلاّ السيف حتى ينقادوا إليّ فأسير بكم حتى أوردكم الفُرات، ثم أخلي عن كل قائد وجنده حتى تلحقوا بأجنادكم.

فلما رأوا الجد منه انقادوا له ومالوا إليه وأمكنوه من ثابت بن نعيم وأولاده وهم أربعة رجال.

فأمر بهم فأنزلوا على خيولهم، وسلبوا سلاحهم، ووضع في أرجلهم السلاسل ووكل بهم عدة من حرسه يحتفظون بهم.

وشخص بجماعة الجند من أهل الشام والجزيرة وضمهم إلى عسكره وضبطهم في فلم يقدر أحد منهم على أن يشد ولا أن يظلم أحد من أهل القرى ولا يرزوا شيئاً إلا بثمن حتى ورد حَرّان.

ثم أمرهم باللحاق بأجنادهم، وحبس ثابتاً معه، ودعا أهل الجزيرة إلى العرض، فعرض لست وعشرين ألفاً من أهل الجلد منهم، وتهيأ للمسير إلى يزيد.

فكاتبه يُريد على أن يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولّى أباه محمد بن هارون من الجزيرة وأرمينية والموصل، وأذربيجان.

فبايع له بحران ووجه إليه بنفر من وجوه الجزيرة.

وفي هذه السنة: مات يزيد بن الوليد، وكانت وفاته سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين ومائة.

فكانت خلافته ستة أشهر واختلف في مبلغ سِنّه، فقيل: نيف وثلاثون، وقيل:

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

نيف وأربعون[١].

وكان أسمر طويلاً صغير الرأس جميلاً.

وإنما سمي الناقص في قول أكثر [٦٣/أ] الناس: لأنه نقصهم أعطياتهم التي كان الوليد زادها للناس.

وقال بعضهم: إنما سمي الناقص لأن مروان بن محمد سَبَّه فقال: الناقص بن الوليد، فسمي الناقص.

ثم كان إبراهيم، ولم يتم له أمر، وسلم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالأمير، وجمعة لا بالخلافة ولا بالأمرة، فكان على ذلك حتى قدم مروان بن محمد، فخلعه[٢]، وقتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

---

(١) في الكامل: توفي يزيد بن الوليد لعشر بقين من ذي الحجة وكانت خلافته ستة أشهر وليلتين.
وقيل: كانت ستة أشهر واثني عشر يوماً.
وقيل: خمسة أشهر واثني عشر يوماً.
وكان موته بدمشق وكان عمره ستاً وأربعين سنة.
وقيل: سبعاً وثلاثين سنة.
وكانت أمه أم ولد اسمها: شاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وهو القائل:

أنا ابن كسرى، وأبي مروان وقيصر جدي، وجدي خاقان

إنما جعل قيصر وخاقان جديه لأن أم فيروز بن يزدجرد ابنة كسرى شيرويه ابن كسرى، وأمها ابنة قيصر.
وأم شيرويه ابنة خاقان ملك الترك وكان آخر ما تكلم به: واحسرتاه وأسفاه، ونقش خاتمه: العظمة لله.
وهو أول مَن خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين عليهما السلاح.
قيل: إنه كان قدرياً جميلاً، وكان أسمر طويلاً صغير الرأس.

(٢) في الكامل: وتارة لا يسلّم عليه بواحدة منهما، فمكث أربعة أشهر، وقيل: سبعين يوماً، ثم سار إليه مروان فخلعه... ثم لم يزل حيًا حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين ومائة.
وكنيته أبو إسحاق، وأمه أم ولد.
ثم زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة مما لم يذكره المؤلف ما يلي: لما قتل الوليد بن يزيد كان على اليمامة علي بن المهاجر استعمله عليها يوسف بن عمر، فقال له المهير بن سلمى بن هلال أحد بني الدؤل بن حنيفة: اترك لنا بلادنا فأبى، فجمع له المهير وسار إليه وهو في قصره بقاع هجر فالتقوا بالقاع فانهزم عَلِيّ حتى دخل قصره، ثم هرب إلى المدينة، وقتل المهير ناساً من أصحابه، وكان يحيى بن أبي حفص نهى ابن المهاجر عن القتال، فعصاه، فقال:

بذلت نصيحتي لبني كلاب فلم تقبل مشاورتي ونصحي
فدىً لبني حنيفة من سواهم فإنهم فوارس كل فتح

وقال شقيق بن عمرو السدوسي:

إذا أنت سالمت المهير ورهطه أمنت من الأعداء والخوف والذعرِ
فتىً راح يوم القاعة روحة ماجدٍ أراد بها حسن السماع مع الأجرِ

=

....

= وهذا يوم القاع، وتأمر المهير على اليمامة ثم أنه مات واستخلف على اليمامة عبد الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤل، فاستعمل عبد الله بن النعمان المندلث بن إدريس الحنفي على الفلج - وهي قرية من قرى بني عامر بن صعصعة، وقيل: هي لبني تميم - فجمع له بنو كعب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل وأبو الفلج المندلث وقاتلهم فقتل المندلث، وأكثر أصحابه، ولم يقتل من أصحاب بني عامر كثير، وقتل يومئذ يزيد بن الطثرية - وهي أمه نسبت إلى طثر بن عمر بن وائل - وهو يزيد بن المنتشر، فرثاه أخوه ثور بن الطثرية:

أرى الأثل من نحو العقيق مجاوري مقيماً وقد غالت يزيد غوائلهُ
وقد كان يحمي المحجرين بسيفه ويبلغ أقصى حجرة الحي نائلهُ

وهو يوم الفلج الأول، فلما بلغ عبد الله بن النعمان قتل المندلث جمع ألفاً من حنيفة وغيرها وغزا الفلج، فلما تصاف الناس انهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلي، فقال الراجز:

فرّ أبو لطيفة المنافق والحفونيان وفرّ طارق
لما أحاطت بهم البوارق

طارق بن عبد الله القشيري، والحفونيان من بني قشير، وتخللت بنو جعدة البراذع وولوا فقتل أكثرهم، قطعت يد زياد بن حيان الجعدي فقال:

أنشد كفًّا ذهبت وساعداً أنشدهما ولا أراني واجدا

ثم قتل، وقال بعض الربعيين:

سمونا لكعب بالصفائح والقنا وبالخيل شعثاً تنحني في الشكائم
فما غاب قرن الشمس حتى رأيتنا نسوق بني كعب كسوق البهائم
بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كأفواه المزاد الشواجم

وهذا اليوم هو يوم الفلج الثاني.

ثم إن بني عقيل، وقشيراً، وجعدة، ونميراً، تجمّعوا وعليهم أبو سهلة النميري، فقتلوا مَن لقوا من بني حنيفة بمعدن الصخراء وسبوا نساءهم، وكفت بنو نمير عن النساء.

ثم إن عمر بن الوازع الحنفي لما رأى ما فعل عبد الله بن النعمان يوم الفلج الثاني قال: ليست بدون عبد الله وغيره ممن يغير، وهذه فترة يؤمن فيها عقوبة السلطان، فجمع خيله وأتى الشريف، وبث خيله، فأغارت، وأغار هو ملأت يده من الغنائم، وأقبل، ومَن معه حتى أتى النشاش، وأقبلت بنو عامر، وقد حشدت فلم يشعر عمر بن الوازع إلاّ برعاء الإبل، فجمع النساء في فسطاط، وجعل عليهن حرساً، ولقي القوم، فقاتلهم، فانهزم هو ومَن معه، وهرب عمر بن الوازع، فلحق باليمامة، وتساقط من بني حنيفة خلق كثير في الفلج من العطش وشدة الحر، ورجعت بنو عامر بالأسرى والنساء وقال القحيف:

وبالنشاش يوم طار فيه لنا ذكر وعدّ لنا فعال

وقال أيضاً:

فداءٌ خالتي لبني عقيل وكعب حين تزدحم الجدود
هم تركوا على النشاش صرعى بضرب ثم أهونه شديد

وكفت قيس يوم النشاش عن السلب، فجاءت عكل فسلبتهم، وهذا يوم النشاش ولم يكن لحنيفة بعده جمع غير أن عبيد الله بن مسلم الحنفي جمع جمعاً وأغار على ماء لقشير يقال له: حلبان، فقال الشاعر:

لقد لاقت قشير يوم لاقت عبيد الله إحدى المنكرات
لقد لاقت على حلبان ليثاً هِزَبراً لا ينام عن الترات =

....

= وأغار على عكل، فقتل منهم عشرين ألفاً، ثم قدم المثنىبن يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري والياً على اليمامة من قبل أبيه يزيد بن عمر بن هبيرة حين وَلِيَ العراق لمروان الحمار فوردها وهم سلم فلم يكن حرب وشهدت بنو عامر على بني حنيفة، فتعصّب لهم المثنى لأنه قيسي أيضاً، فضرب عدد من بني حنيفة وحلقهم، فقال بعضهم:

فإن تضربونا بالسياط فإننا ضربناكم بالمرهفات الصوارم
وإن تحلقوا منا الرؤوس فإننا قطعنا رؤوساً منكم بالغلاصم

ثم سكنت البلاد، ولم يزل عبيد الله بن مسلم الحنفي مستخفياً حتى قدم السري بن عبد الله الهاشمي، والياً على اليمامة، لبني العباس فدُلّ عليه فقتله، فقال نوح بن جرير الخطفي:

فلولا السري الهاشمي وسيفه أعاد عبيد الله شراً على عكل

ذكر استيلاء عبد الرحمٰن بن حبيب على إفريقية

كان عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع قد انهزم لما قتل أبوه، وكلثوم بن عياض سنة اثنتين وعشرين ومائة، وسار إلى الأندلس، وقد ذكرناه، وأراد أن يتغلب عليها فلم يمكنه ذلك.

فلما ولي حنظلة بن صفوان إفريقية على ما ذكرناه وجّه أبا الخطار إلى الأندلس أميراً، فأيس حينئذ عبد الرحمٰن مما كان يرجوه، فعاد إلى إفريقية وهو خائف من أبي الخطار، وخرج بتونس من إفريقية في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة، وقد ولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة بالشام، فدعا الناس إلى نفسه، فأجابوه، فسار بهم إلى القيروان، فأراد مَن بها قتاله فمنعهم حنظلة، وكان لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي.

فأرسل إليه حنظلة رسالة مع جماعة من أعيان القيروان، رؤساء القبائل يدعوه إلى مراجعة الطاعة فقبضهم، وأخذهم معه إلى القيروان، وقال: إن رمي أحد من أهل القيروان بحجر قتلت مَن عندي أجمعين، فلم يقاتله أحد.

فخرج حنظلة إلى الشام واستولى عبد الرحمٰن على القيروان سنة سبع وعشرين ومائة وسائر إفريقية.

ولما خرج حنظلة إلى الشام دعا على أهل إفريقية وعبد الرحمٰن فاستجيب له فيهم فوقع الوباء والطاعون سبع سنين لم يفارقهم إلاَ في أوقات متفرقة، وثار بعبد الرحمٰن جماعة من العرب، والبربر، ثم قتل بعد ذلك.

فممن خرج عليه عروة بن الوليد الصدفي، واستولى على تونس.

وقام أبو عطاف عمران بن عطاف الأسدي فنزل بطيفاس، وثارت البربر بالجبال، فخرج عليه ثابت الصنهاجي بباجة، فأخذها.

فأحضر عبد الرحمٰن أخاه إلياس، وجعل معه ستمائة فارس، وقال له: سر حتى تجتاز بعسكر أبي عطاف الأزدي، فإذا رآك عسكره فارقهم وسر عنهم كأنك تريد تونس إلى قتال عروة بن الوليد بها، فإذا أتيت موضع كذا فقف فيه حتى يأتيك فلان بكتابي، فافعل بما فيه.

فسار إلياس، ودعا عبد الرحمٰن إنساناً ـ وهو الرجل الذي قال لأخيه إلياس عنه ـ وأعطاه كتاباً وقال له: امضِ حتى تدخل عسكر أبي عطاف، فإذا أشرف عليه إلياس، ورأيتهم يضعون السلاح والخيل، فإذا فارقهم إلياس ووضعوا السلاح عنهم، وأمنوا، فسِر إليه وأوصل كتابي إليه.

فمضى الرجل، ودخل عسكر أبي عطاف، وقاربهم إلياس، فتحركوا للركوب، ثم فارقهم إلياس نحو تونس، فسكتوا وقالوا: قد دخل بين فكي أسد نحن من هنا، وأهل تونس من هناك، وأمنوا وصمموا العزم على المسير.

فلما أمنوا سار ذلك الرجل إلى إلياس فأوصل إليه كتاب أخيه عبد الرحمٰن فإذا فيه: إن القوم =

....

= قد أمنوك، فسِر إليهم وهم في غفلتهم.
فعاد إلياس إليهم وهم غارون، فلم يلحقوا يلبسون سلاحهم حتى دهمهم فقتلهم، وقتل أبا عطاف أميرهم سنة ثلاثين ومائة.
وأرسل إلى أخيه عبد الرحمٰن يبشره بذلك فكتب إليه عبد الرحمٰن يأمره بالمسير إلى أهل تونس، ويقول: إنهم إذا رأوك ظنوك أبا عطاف، فأمنوك، فظفرت بهم.
فسار إليهم، فكان كما قال عبد الرحمٰن، فوصل إليها وصاحبها عروة بن الوليد في الحمام، فلم يلحق يلبس ثيابه حتى غشيه إلياس، فالتحف بمنشفة ينشف بها بدنه وركب فرسه عرياناً، وهرب، فصاح به إلياس: يا فارس العرب، فعاد إليه فضربه إلياس واحتضنه عروة، فسقطا إلى الأرض، فكاد عروة يظهر على إلياس، فأتاه مولى لإلياس فقتله، واحتزّ رأسه، وسيّره إلى عبد الرحمٰن
وأقام إلياس بتونس وخرج عليه رجلان بطرابلس اسمهما: عبد الجبار، والحارث، وقتلا من أهل البلد جماعة كثيرة فسار إليهم عبد الرحمٰن سنة إحدى وثلاثين ومائة، وقاتلهما قتالاً ـ وكانا يدينان بمذهب الأباضية من الخوارج ـ وجنّد عبد الرحمٰن في قتال البربر.
وعَمَّر عبد الرحمٰن سور طرابلس سنة اثنتين وثلاثين ومائة.
ثم إنه عاد إلى القيروان، وغزا تلمسان وبها جمع كثير من البربر فظفر بهم، وذلك سنة خمس وثلاثين، وسيّر جيشاً إلى صقلية فظفروا، وغنموا غنيمة كثيرة.
وبعث جيشاً آخر إلى سردانية، فغنموا وقتلوا في الروم.
ودوّخ المغرب جميعه ولم ينهزم له عسكر.
وقتل مروان بن محمد، وزالت دولة بني أمية، وعبد الرحمٰن بإفريقية، فخطب للخلفاء العباسيين، وأطاع السفاح.
ثم قدم عليه جماعة من بني أمية، فتزوج هو وإخوته منهم، وكان فيمن قدم عليه منهم: العاص، وعبد المؤمن ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ وكانت ابنة عمهما تحت إلياس أخي عبد الرحمٰن ـ فبلغ عبد الرحمٰن عنهما السعي في الفساد عليه، فقتلهما.
فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس: إن أخاك قد قتل أختانك، ولم يراقبك فيهم، وتهاون بك وأنت سيفه الذي يضرب به، وكلما فتح له فتحاً كتب إلى الخلفاء أن ابني حبيباً فتحه، وقد جعل له العهد بعده وعزلك عنه، ولم تزل تغريه به، فتحرك لقولها، وأعمل الحيلة على أخيه.
ثم إن السفاح توفي، وولي الخلافة بعده المنصور فأقرّ عبد الرحمٰن على إفريقية، وأرسل إليه خلعة سوداء أول خلافته، فلبسها، وهي أول سواد دخل إفريقية.
فأرسل إليه عبد الرحمٰن هدية، وكتب يقول: إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها، والمال، فلا تطلب مني مالاً.
فغضب المنصور، وأرسل إليه يتهدده.
فخلع المنصور بإفريقية، ومزّق خلعته وهو على المنبر.
وكان خلع المنصور مما أعان أخاه إلياس عليه، فاتفق جماعة من وجوه القيروان معه على أن يقتلوا عبد الرحمٰن ويولوه، ويعيدوا الدعاء للمنصور فبلغ عبد الرحمٰن فأمر أخاه إلياس بالمسير إلى تونس، فتجهز، ودخل إليه يودعه، ومعه أخوه عبد الوارث، فلما دخلا على عبد الرحمٰن قتلاه. وكان قتله في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائة.
وكانت إمارته على إفريقية عشر سنين وسبعة أشهر.
ولما قتل ضبط إلياس أبواب الدار ليأخذ ابنه حبيباً فلم يظفر به، وهرب حبيب إلى تونس، واجتمع بعمه عمران بن حبيب، وأخبره بقتل أبيه.
وسار إلياس إليهما، واقتتلوا قتالاً يسيراً ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصه، قسطيلة =

....

= ونفزة.
ويكون لعمران تونس، وصطفورة، والجزيرة.
ويكون لإلياس سائر إفريقية.
وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة. فلما اصطلحوا سار حبيب بن عبد الرحمٰن إلى عمله.
ومضى إلياس مع أخيه عمران إلى تونس. فغدر بعمران أخيه وقتله، وأخذ تونس وقتل بها جماعة من أشراف العرب، وعاد إلى القيروان، فلما استقر بها بعث بطاعته إلى المنصور مع وفد منهم عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية.
ثم سار حبيب إلى تونس فملكها. فسار إليه إلياس، واقتتلوا قتالاً ضعيفاً، فلما جنهما الليل ترك حبيب خيامه، وسار جريدة إلى القيروان، فدخلها وأخرج مَن في السجن، وكثر جمعه.
ورجع إلياس في طلبه، ففارقه أكثر أصحابه وقصدوا حبيباً فعظم جيشه، وخرج إليه فالتقيا فغدر أصحاب إلياس، وبرز حبيب بين الصفين. فقال له: لم نقتل صنائعنا وموالينا؟ ولكن ابرز أنت إليّ فأينا قتل صاحبه استراح منه.
فوقف إلياس، ثم برز إليه، فاقتتلا قتالاً شديداً، فكسر فيه رماحهما، ثم سيفاهما، ثم إن حبيباً عطف عليه فقتله.
ودخل القيروان، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين ومائة.
وهرب إخوة إلياس إلى بطن من البربر يقال لهم: ورفجومة، فاعتصموا بها.
فسار إليهم حبيب فقاتلهم فهزموه، فسار إلى قابس.
وقوي أمر ورفجومة حينئذ، وأقبلت البربر إليهم الخوارج، وكان مقدم ورفجومة رجلاً اسمه: عاصم بن جميل، وكان قد ادّعى النبوة والكهانة فبدّل الدين وزاد الصلاة، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان.
فجهز عاصم مَن عنده من العرب على قصد القيروان وأتاه رسل جماعة من أهل القيروان يدعونه إليهم، وأخذوا عليه العهود والمواثيق بالحماية، والصيانة، والدعاء للمنصور.
فسار إليهم عاصم في البربر، والعرب، فلما قاربوا القيروان خرج مَن بها لقتالهم، فاقتتلوا، وانهزم أهل القيروان، ودخل عاصم ومَن معه القيروان، فاستحلت ورفجومة المحرمات، وسبوا النساء والصبيان، وربطوا دوابهم في الجامع، وأفسدوا فيه.
ثم سار عاصم يطلب حبيباً - وهو بقابس - فأدركه واقتتلوا، وانهزم حبيب إلى جبل أوراس، فاحتمى به، قام بنصره من به.
ولحق به عاصم، فاقتتلوا، فانهزم عاصم، وقتل هو وأكثر أصحابه.
وسار حبيب إلى القيروان، فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد، وقد قام بأمر ورفجومة بعد قتل عاصم، فاقتتل هو وحبيب، فانهزم حبيب، وقتل هو وجماعة من أصحابه في المحرم سنة أربعين ومائة.
وكانت إمارة عبد الرحمٰن بن حبيب على إفريقية عشر سنين وأشهراً.
وإمارة أخيه إلياس سنة وستة أشهر.
وإمارة ابنه حبيب ثلاث سنين.

ذكر إخراج ورفجومة من القيروان

ولما قتل حبيب بن عبد الرحمٰن عاد عبد الملك بن أبي الجعد إلى القيروان، وفعل ما كان يفعله عاصم من الفساد والظلم وقلة الدين، وغير ذلك.
ففارق القيروان أهلها، فاتفق أن رجلاً من الأباضية دخل القيروان لحاجة له فرأى ناساً من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون، فأدخلوها الجامع، فترك الأباضي حاجته =

....

= وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك.
فخرج أبو الخطاب وهو يقول: بيتك اللهم بيتك، فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الأباضية والخوارج وغيرهم، وسيّر إليهم عبد الملك مقدم ورفجومة جيشاً فهزموه وساروا إلى القيروان، فخرجت إليهم ورفجومة، واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة، وخذلوهم فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم، وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم، وعاد إلى طرابلس، واستخلف على القيروان عبد الرحمٰن بن رستم الفارس.
وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين.
ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيّرهم محمد بن الأشعث الخزاعي أمير مصر للمنصور إلى طرابلس لقتال أبي الخطاب، وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي.
فخرج إليهم أبو الخطاب وقاتلهم وهزمهم سنة اثنتين وأربعين، فعادوا إلى مصر.
واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية.
فسيّر إليه النصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميراً على إفريقية.
فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين، فوصل إليها في خمسين ألفاً، ووجّه معه الأغلب بن سالم التميمي.
وبلغ أبا الخطاب مسيره، فجمع أصحابه من كل ناحية فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه. فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم، ففارقه جماعة منهم.
فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيراً رويداً ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى وراء ثلاثة أيام سيراً بطيئاً، فوصلت عيون أبي الخطاب وأخبرته بعوده، فتفرّق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون.
فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجداً فصبح أبا الخطاب، وهو غير متأهب للحرب فوضعوا السيوف في الخوارج، واشتد القتال، فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة.
وظنّ ابن الأشعث أن مادة الخوارج قد انقطعت وإذا هم قد أظلّ عليهم أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفاً، فلقيهم ابن الأشعث وقتلهم جميعاً سنة أربع وأربعين.
وكتب إلى المنصور بظفره ورتب الولاة في الأعمال كلها، وبنى سور القيروان فيها، وثم سنة ست وأربعين.
وضبط إفريقية وأمعن في طلب كل مَن خالفه من البربر وغيرهم.
فسيّر جيشاً إلى زويلة، وودان، وقتل مَن بها من الأباضية.
وافتتح زويلة وقتل مقدمهم عبد الله بن سان الأباضي، وأجلى الباقين.
فلما رأى البربر وغيرهم من أهل العبث والخلاف على الأمراء ذلك، خافوه خوفاً شديداً، وأذعنوا له بالطاعة.
فثار عليه رجل من جنده يقال له: هاشم بن الشاحج بقمونية، وتبعه كثير من الجند. فسيّر إليه ابن الأشعث قائداً في عسكر، فقتله هاشم وانهزم أصحابه، وجعل المضرية من قواد ابن الأشعث يأمرون أصحابهم باللحاق بهاشم كراهية لابن الأشعث لأنه تعصب عليهم.
فبعث إليه ابن الأشعث جيشاً آخر، فاقتتلوا وانهزم هاشم، ولحق بتاهرت، وجمع طغام البربر، فبلغت عدة عسكره عشرين ألفاً. فسار بهم إلى تهوذة، فسيّر إليه ابن الأشعث جيشاً، فانهزم هاشم، وقتلوا كثيراً من أصحابه البربر وغيرهم. =

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

[وفيها][(١)]: سار[(٢)] مروان بن محمد إلى الشام في خيل الجزيرة.

وخلف ابنه عبد الملك في أربعة آلاف بالرقة.

= فسار إلى ناحية طرابلس.

وقدم رسول المنصور إلى هاشم يلومه على مفارقة الطاعة فقال: ما خالفت، ولكني دعوت للمهدي بعد أمير المؤمنين، فأنكر ابن الأشعث ذلك وأراد قتلي.

فقال له الرسول: فإن كنت على الطاعة، فمدّ عنقك.

فضربه بالسيف فقتله سنة سبع وأربعين في صفر.

وبذل الأمان لأصحاب هاشم جميعهم، فعادوا وتبعهم الأشعث بعد ذلك فقتلهم.

فغضب المضرية، واجتمعت على عداوته وخلافه، واجتمع رأيهم على إخراجه.

فلما رأى ذلك سار عنهم ولقيته رسل المنصور بالبر والإكرام، فقدم عليه، واستعمل المضرية على إفريقية بعده عيسى بن موسى الخراساني ـ وكان بعد مسير ابن الأشعث تأمير الخراساني ثلاث شهور ـ.

واستعمل المنصور الأغلب التميمي على ما نذكره في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة.

وإنما أوردنا هذه الحوادث متتابعة لتعلق بعضها ببعض على ما شرطناه.

وقد ذكرنا كل حادث في أي سنة كان فحصل الغرض.

وفي هذه السنة: عزل يزيد بن الوليد يوسف بن محمد بن يوسف عن المدينة واستعمل عبد العزيز بن عمر بن عثمان فقدمها في ذي القعدة من السنة.

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز. وقيل: عمر بن عبد الله بن عبد الملك.

وكان العامل على العراق: عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

وعلى قضاء الكوفة ابن أبي ليلى.

وعلى البصرة: المسور بن عمر بن عباد، وعلى قضائها عامر بن عبيدة.

وعلى خراسان: نصر بن سيار الكناني.

وفيها: كاتب مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أمير الجزيرة الغمر بن يزيد بن عبد الملك يحثه على الطلب بدم أخيه الوليد ويعده المساعدة له وإنجاده على ذلك.

وفيها: مات سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف.

وقيل: سنة سبع وعشرين.

وسعيد بن أبي سعيد المقبري.

ومالك بن دينار الزاهد.

وقيل: مات سنة سبع وعشرين ومائة.

وقيل: سنة ثلاثين ومائة.

وفيها: توفي المكيت بن زيد الشاعر الأسدي وكان مولده سنة ستين.

وفيها: توفي عبد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

وقيل: سنة إحدى وثلاثين.

وفي إمارة يوسف بن عمر على العراق توفي أبو جمرة الضبعي صاحب ابن عباس.

(١) زيادة يتطلبها وضع المخطوط حيث درج المؤلف على ذلك منذ بدايته.

(٢) في المخطوط: فسار. فحذفت الفاء لما كنت أضفت قبل ذلك.

فلما انتهى إلى قنسرين وبها أخ ليزيد بن الوليد يقال له: بشر ـ كان ولاّه قنسرين ـ فخرج إليه، وصافه، وتناى الناس، ودعاهم مروان إلى بيعته.

فمال إليه يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية وأسلموا بشراً وأخاً له يقال له: مسروراً، فأخذهما[1] مروان وحبسهما، وسار متوجهاً إلى حمص.

وكان أهل حمص قد امتنعوا حين مات يزيد أن يبايعوا إبراهيم، فوجه إليهم إبراهيم[2] عبد العزيز بن الحجاج جند أهل دمشق، فحاصرهم في مدينتهم.

وأسرع[3] مروان السير، فلما دنا من مدينة حمص، رحل عبد العزيز عنهم، وخرجوا إلى مروان، فبايعوه، وساروا بأجمعهم معه.

ووجه إبراهيم بن الوليد الجيوش مع سليمان بن هشام، فسار بهم حتى نزل عين الجر في مائة وعشرين ألف.

وأتاه مروان في نحو من ثمانين ألفاً فدعاهم مروان إلى الكف عن قتاله، والتخلية عن ابني الوليد الحكم وعثمان ـ وكانا في سجن دمشق ـ وضمن لهم عنهما، أن لا يؤاخذهم بقتلهم أباهما، ولا يطلبا أحداً ممن ولى قبله، فأبوا عليه، وجدُّوا في قتاله.

فاقتتلوا ما بين ضحوة النهار إلى العصر، واستحر القتل وكثر في الفريقين، وكان [مروان][4] مجرباً مكايداً، فدعا ثلاثة نفر من قواده أحدهم أخ لإسحاق بن مسلم فأمرهم بالمسير خلف صفة في خيلهم، وهم ثلاثة آلاف، ووجه معهم فعلة بالفؤوس، وقد ملأ الصفان من أصحابه، وأصحاب سليمان ما بين الجبلين بالمحيطين بالمرج، وبين العسكرين نهر جرار، وأمرهم إذا انتهوا إلى الجبل أن يقطعوا الشجر فيعقدوا جسوراً فيجيزوا إلى عسكر سليمان، ويغزوا فيه.

فلم تشعر خيول سليمان وهم مشغولون [٦٣/ب] بالقتال إلاّ بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم فلما رأوا ذلك انكسروا فكانت هزيمتهم.

ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً.

وكفّ أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن قتلهم وأتوا مروان من إسرائهم لمثل عدة القتلى وأكثر، واستبيح عسكرهم.

فأخذ مروان عليهم العهد للغلامين: الحكم وعثمان، وخلّى عنهم بعد أن قوّاهم

---

(١) في المخطوط: فأخذها. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: إبراهيم بن عبد العزيز ولفظ: «ابن» زائد والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: «اغذ» والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.

بدينار دينار وألحقهم بأهاليهم[١].

ومضى سليمان ومَن معه من الفل[٢] حتى صبحوا دمشق واجتمع إليه وإلى إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج رؤوس معهم.

فقال بعضهم لبعض: إن بقي الغلامان ابنا الوليد حتى يقدم مروان فيخرجهما من الحبس، ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتله أبيهما، والرأي أن تقتلهما، فولوا ذلك يزيد بن خالد.

ومعهما في الحبس أبو محمد السفياني، ويوسف بن عمر.

فأرسل يزيد مولى لخالد يكنى أبا الأسد في عدة من أصحابه، فدخل السجن يشدخ الغلامين بالعمد.

وأخرج يوسف بن عمر فضرب عنقه.

وأرادوا أبا محمد ليقتلوه، فدخل بيتاً من بيوت السجن فأغلقه، وألقى خلفه المتاع واعتمد على الباب، فلم يقدروا على فتحه.

ودعوا بنار ليخرجوه، فلم يؤتوا بها حتى قتل.

فدخلت خيل مروان المدينة، وهرب إبراهيم بن الوليد وتغيّب.

ونهب سليمان ما كان في بيت المال من المال، وقسمه فيمن معه من الجنود وخرج من المدينة.

وفي هذه السنة: دعا إلى نفسه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة وحارب بها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، فهزمه عبد الله بن عمر، فلحق بالجبال، وتغلّب عليها.

ذكر سبب خروج عبد الله بن معاوية وطمعه في الخلافة

كان سبب خروجه أنه قدم الكوفة زائراً لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز يلتمس صلته، ولا يطمع في غيرها.

فلما وقعت العصبية قال له أهل الكوفة: ادع إلى نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان، لا سيما وقد اختلفوا.

---

(١) في الكامل: بمثل القتلى وأكثر، وأخذ مروان عليهم البيعة لولدي الوليد وخلّى عنهم، ولم يقتل منهم إلاّ رجلين يزيد بن العقار، والوليد بن مصاد الكلبيين، وكانا ممن وليا قتل الوليد فحبسهما حتى هلكا في حبسه، وهرب يزيد بن خالد بن عبد الله القسري فيمن هرب مع سليمان إلى دمشق واجتمعوا مع إبراهيم، وعبد العزيز بن الحجاج وقال بعضهم لبعض....

(٢) الفل: الشريد من الجيش المنهزم.

فدعا سراً بالكوفة، وابن عمر بالحيرة، وبايعه قوم، وكان فيهم [٦٤/أ] ضمرة الخزاعي فدسّ إليه ابن عمر، فأرضاه، فأرسل إليه إذا نحن التقينا انهزمت بالناس.

وبلغ ابن معاوية.

فلما التقى الناس قال ابن معاوية: إن ابن ضمرة قد غدر، ووعد ابن عمر أن ينهزم بالناس، فلا يهولنكم انهزامه عن غدر ما يفعل.

فلما اقتتلوا انهزم ابن ضمرة، وانهزم الناس، فلم يبقَ مع ابن معاوية أحد فرجع ابن معاوية إلى الكوفة، ثم خرج ومعه نفر، فغلب على حلوان، ثم أتى على همذان، والري، وأصبهان[1].

(١) كذا جاء الخبر عند المؤلف، وقال ابن الأثير في الكامل في هذا الخبر ما يلي:
كان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ولي الكوفة، فأكرمه وأجازه، وأجرى عليه، وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم، فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد، بايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد، وبعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.
فلما بلغ خبر بيعتهما عبد الله بن عمر بالكوفة بايع الناس، وزاد في العطاء، وكتب ببيعتهما إلى الآفاق فجاءته البيعة.
ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره إليهما إلى الشام.
فحبس عبد الله بن معاوية عنده، وزاده فيما كان يجري عليه، وأعدّه لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد ليبايع له ويقاتل به مروان فماج الناس، وورد مروان الشام، وظفر بإبراهيم، فانهزم إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة مسرعاً، وافتعل كتاباً على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة، وجمع اليمانية وأعلمهم ذلك، فأجابوه، وامتنع عبد الله بن عمر عليه، وقاتله.
فلما رأى الأمر كذلك، خاف أن يظهر أمره فيفتضح، ويقتل. فقال لأصحابه: إني أكره سفك الدماء فكفُّوا أيديكم فكفُّوا.
وظهر أمر إبراهيم وهربه، ووقعت العصبية بين الناس.
وكان سببها: أن عبد الله كان أعطى مضر، وربيعة عطايا كثيرة، ولم يعطِ جعفر بن نافع بن القعقاع بن شور الذهلي، وعثمان بن الخيبري من تيم اللات بن ثعلبة شيئاً وهما من ربيعة، فكانا مغضبين، فغضب لهما ثمامة بن حوشب بن رويم الشيباني، وخرجوا من عند عبد الله بن عمر ـ وهو بالحيرة ـ إلى الكوفة فنادوا: يا آل ربيعة. فاجتمعت ربيعة، وتنمّروا.
وبلغ الخبر عبد الله بن عمر، فأرسل إليهم أخاه عاصماً، فأتاهم وهم بدير هند، فألقى نفسه بينهم وقال: هذه يدي لكم، فاحكموا، فاستحيوا، ورجعوا وعظّموا عاصماً، وشكروه.
فلما كان المساء أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القبعثري بمائة ألف فقسمها في قومه بني همام بن مرة بن ذهل الشيباني.
وإلى ثمامة بن حوشب بمائة ألف فقسمها في قومه.
وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال، وإلى عثمان بن الخيبري بمال.
فلما رأت الشيعة ضعف عبد الله بن عمر طمعوا فيه، ودعوا إلى عبد الله بن معاوية، واجتمعوا في المسجد، وثاروا، وأتوا عبد الله بن معاوية، وأخرجوه من داره، وأدخلوه القصر، ومنعوا عاصم بن عمر عن القصر، فلحق بأخيه بالحيرة.
وجاء ابن معاوية الكوفيون فبايعوه فيهم: عمر بن الغضبان، ومنصور بن جمهور، =

وفي هذه السنة: بويع لمروان بن محمد بدمشق بالخلافة.

قد ذكرنا ما كان من هرب إبراهيم، وأن سليمان انتهب ما كان في بيت المال، وفرّقه في جنده.

ودخل مروان دمشق، وأُتي بالغلامين مقتولين، ويوسف بن عمر، فأمر بهم فدُفنوا

= وإسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد، وأقام أياماً يبايعه الناس. وأتته البيعة من: المدائن، وفم النيل. واجتمع إليه الناس.
فخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة، فقيل لابن عمر: قد أقبل ابن معاوية في الخلق.
فأطرق مليًا، وأتاه رئيس خبازيه، فأعلمه بإدراك الطعام.
فأمره بإحضاره، فأحضره، فأكل هو ومَن معه، وهو غير مكترث، والناس يتوقعون أن يهجم عليهم ابن معاوية.
ففرغ من طعامه، وأخرج المال ففرقه في قوّاده، ثم دعا مولى له ـ كان يتبرك به، ويتفاءل باسمه كان اسمه إما ميموناً، وإما رباحاً، أو فتحاً، أو اسماً يتبرك به ـ فأعطاه اللواء، وقال له: امضِ به إلى موضع كذا فاركزه، وادع أصحابك وأقم حتى آتيك، ففعل.
وخرج عبد الله، فإذا الأرض بيضاء من أصحاب معاوية.
فأمر ابن عمر منادياً فنادى: مَن جاء برأس فله خمسمائة.
فأتى برؤوس كثيرة، وهو يعطي ما ضمن، برز رجل من أهل الشام، فبرز إليه القاسم بن عبد الغفار العجلي. فسأله الشامي، فعرفه، فقال: قد ظننت أنه لا يخرج إليّ رجل من بكر بن وائل، والله ما أريد قتالك، ولكن أحببت أن ألقي إليك حديثاً، أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل اليمن لا إسماعيل، ولا منصور ولا غيرهما إلاّ وقد كاتب ابن عمر، وكاتبته مضر، وما أرى لكم يا ربعية كتاباً، ولا رسولاً، وأنا رجل من قيس، فإن أردتم الكتاب أبلغته، ونحن غداً بإزائكم، فإنهم اليوم لا يقاتلونكم.
فبلغ الخبر ابن معاوية، فأخبر به عمر بن الغضبان، فأشار عليه أن يستوثق من إسماعيل ومنصور، وغيرهما، فلم يفعل.
وأصبح الناس من الغد غادين على القتال، فحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر، فانكشفوا.
ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة فانهزم أصحاب معاوية إلى الكوفة، وابن معاوية معهم، فدخلوا القصر، وبقي مَن بالمسيرة من ربيعة، ومضر، ومَن بإزائهم من أصحاب ابن عمر.
فقال لعمر بن الغضبان: ما كنا نأمن عليكم ما صنع الناس بكم.
فانصرفوا فقال ابن الغضبان: لا أبرح حتى أقتل، فأخذ أصحابه بعنان دابته، فأدخلوه الكوفة.
فلما أمسى قال لهم ابن معاوية: يا معشر ربيعة قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد علقنا دماءنا في أعناقكم، فإن قاتلتم قاتلنا معكم، وإن كنتم ترون الناس يخذلوننا، وإياكم وخزولنا، ولكم أماناً.
فقال له عمر بن الغضبان: ما نقاتل معكم وما نأخذ لكم أماناً كما نأخذ لأنفسنا.
فأقاموا في القصر والزيدية على أفواه السكك يقاتلون أصحاب ابن عمر أياماً.
ثم إن ربيعة أخذت أماناً لابن معاوية ولأنفسهم، وللزيدية ليذهبوا حيث شاؤوا.
وسار ابن معاوية من الكوفة، فنزل المدائن فأتاه قوم من أهل الكوفة فخرج بهم، فغلب على حلوان، والجبال وهمذان، وأصبهان والري، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة.
وكان شاعراً مجيداً.

وأتى بأبي محمد في كبولة[١] فسلّم عليه بالخلافة، ومروان يسلّم عليه يومئذ بالإمرة.

فقال له: مه.

فقال أبو محمد: أنهما جعلاها لك بعدهما وكانا قد بلغا.

أما الحكم، وهو أكبرهما: فكان قد وُلِدَ له.

وأما الآخر: فقد احتلم قبل ذلك بسنين وأنشده شعراً قاله الحكم:

ألا من مبلغ مروان عني ... وعمي الغمر من كيدي[٢] حنينا

بأني قد ظلمت وصار قومي ... على قتل الوليد مبايعينا

أيذهب كلهم بدمي ومالي ... فلا غثًّا أصيبت ولا سمينا

ومروان بأرض بني نزار ... كليث الغاب مفترشاً[٣] عرينا

ألم يحزنك قتل فتى قريش ... وشقهم العصا للمسلمينا

ألا فاقرأ السلام على قريش ... وقيس بالجزيرة أجمعينا

وسار الناقص القدري فينا ... وألقى الحرب بين بني أبينا

فلو شهد الفوارس من سليم ... وكعب لم أكن لهم رهينا

ولو شهدت ليوث بني تميم ... لما بغا تراث بني أبينا

انتكث بيعتي من أجل أمي ... فقد بايعتم بعدي[٤] هجينا

[٦٤/ب] فليت خؤلتي في غير كلب ... وكانت في ولادة آخرينا

فإن أهلك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا[٥]

ثم قال له: ابسط يدك أبايعك.

وسمعه مَن تبع مروان من أهل الشام، فكان أول مَن نهض معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير، وتبعه الناس، فبايعوه.

فلما استوت لمروان بن محمد الشام انصرف إلى منزله من حران.

وطلب منه الأمان إبراهيم بن الوليد، وسليمان بن هشام، فأمنهما، فقدم عليه سليمان فكان يتذمر في إخوته وأهل بيته ومواليه فبايعوا مروان.

وفي هذه السنة: انتقض على مروان أهل حمص وسائر أهل الشام.

(١) أي في قيوده مكبلاً في الأغلال.
(٢) في الكامل: طال به حنيناً.
(٣) في الكامل: مفترس عريناً، وما هنا أنسب.
(٤) في الكامل: قبلي.
(٥) القصيدة هنا بأتم مما في الكامل.

ذكر السبب في ذلك

كان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن النعمان كان يراسلهم ويكاتبهم.

ومروان بجهة ليس بينه وبين مدينة حمص إلاّ ثلاثون ميلاً.

فأتاه خبرهم صبيحة الفطر فجدّ في السير[١]، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام ـ وكان أمنهما ـ فكان يكرمهما ويجلسان معه على غدائه وعشائه، ويسيران معه في موكبه.

فانتهى إلى مدينة حمص بعد الفطر بيومين وقد ردم القوم أبوابها من داخل، فأحدقت خيله بالمدينة، ووقف حذاء باب منها، فأشرفت عليه جماعة من الحائط فناداهم مناديه:

ما دعاكم إلى النكث؟

قالوا: فإنا على طاعتك لم ننكث.

فقال لهم: إن كنتم على ما تذكرون فافتحوا.

ففتحوا له الباب، فاقتحم عمر بن الوضاح في الوضاحية، وهم نحو من ثلاثة آلاف فقاتلوهم داخل المدينة.

ثم كثرتهم خيل مروان فخرجوا من باب من أبواب المدينة، فقاتلهم مَن كان عليهم، فقتل عامتهم، وأسر منهم قوم، فأُتي بهم مروان فقتلهم.

ثم أمر بجميع قتلاهم وهم خمسمائة أو ستمائة فصلبوا حول المدينة.

وهدم من حائط مدينتها نحو غلوة[٢].

وثار أهل الغوطة إلى مدينة دمشق[٣]:

فحاصروا أميرهم زامل[٤] بن عمرو، وولُوا عليهم يزيد بن خالد القسري، وثبت

---

(١) في الكامل بدأ الخبر على النحو التالي:
كان السبب في ذلك أن مروان لما عاد حران بعد فراغه من أهل الشام أقام ثلاثة أشهر، فانتفض عليه أهل حمص، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم، وراسلهم وأرسل أهل حمص إلى مَن بتدمر من كلب فأتاهم الأصبع بن ذؤالة الكلبي، وأولاده ومعاوية السكسكي، وكان فارس أهل الشام وغيرهما في نحو من ألف من فرسانهم فدخلوا ليلة الفطر فجدّ مروان في السير إليه ومعه...

(٢) بعدها في الكامل: وقيل: إن فتح حمص وهدم سورها كان في سنة ثمان وعشرين ومائة.
وزاد ابن الأثير في الخبر قوله: وأفلت الأصبغ بن ذؤالة، وابنه فرافصة.

(٣) جاء الخبر في الكامل تحت عنوان: ذكر خلاف أهل الغوطة.

(٤) في المخطوط: واصل بن عمرو. والتصويب من الكامل.

زامل مع أهل المدينة.

ووجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر [٦٥/أ] بن زفر بن الحارث وعمر بن الوضاح في عشرة آلاف.

فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم، وخرج مَن في المدينة، فحملوا عليهم فهزموهم، واستباحوا عساكرهم.

ولجأ يزيد بن خالد، وأبو علاثة إلى رجل من لخم من أهل[١] مزة[٢]، فدلّ عليهما زامل، فأرسل إليهما فقتلا، وبعث برأسيهما إلى مروان بحمص[٣].

[وفيها][٤]: وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين حتى أتى طبرية، فحاصر أهلها فقاتلهم أياماً.

وكتب مروان إلى أبي الورد أن يشخص إليهم، ورحل من حمص إلى دمشق بعد أيام فلما بلغهم دنوّه خرجوا من المدينة على ثابت ومَن معه، فاستباحوا عسكرهم.

وانصرف ثابت منهزماً إلى فلسطين، فجمع قومه وجنده، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية، وتفرّق مَن معه، وأسر ثلاثة من ولده، وهم: نعيم، وبكير، وعمران.

فبعث بهم إلى مروان، فقُدِم بهم عليه وهو بدير أيوب جرحى فأمر بمداواتهم.

وتغيّب ثابت، وأفلت من ولده: رفاعة بن ثابت وكان أخبثهم، فلحق بمنصور ابن جمهور بالسند، فأكرمه وولاه، وخلفه أخ له يقال له: منظور[٥] بن جمهور، فوثب عليه فقتله فبلغ منصوراً وهو متوجه إلى الملتان، وكان أخوه بالمنصور.

فرجع إليه وظفر به فبنى له أسطوانة من آجر مجوفة وأدخله فيها، ثم سمره إليها وبنى عليه.

وكتب مروان إلى واليه على فلسطين وهو الرماجس في طلب ثابت والتلطف له، فدلّ عليه رجل من قومه، فأخذ ومعه نفر، فأتى به مروان بعد شهرين فأمره وسلبه الذين كانوا في يديه، فقطعت أيديهم وأرجلهم، ثم حملوا إلى دمشق، وأقيموا على باب

---

(١) تكرر هذا اللفظ في الكامل.

(٢) في الكامل: وأحرقوا المِزة، وقرى من اليمانية.

(٣) زاد بعد ذلك في الكامل فقال: وممن قتل في هذه الحرب عمر بن هانىء العبسي مع يزيد، وكان عابداً كثير المجاهدة.

(٤) زيادة يتطلبها السياق للفصل بين الحدثين، والخبر في الكامل تحت عنوان: ذكر خلاف أهل فلسطين.

(٥) في المخطوط: منصور. والمعروف أن للمنصور أخ يعرف بمنظور سبق ذكره وكان قد ولاه بعض الولايات وكلفه بعض الأعمال.

مسجدها لأنهم كانوا يُرجفون بثابت، ويقولون: أتى مُضر فغلب وقتل عامل مروان بها.

وأقام مروان بدير أيوب حتى بايع لابنيه عبيد الله، وعبد الله، واستقامت له الشام كلها ما خلا تَدْمر.

وأمر بثابت وبنيه الذين قطعوا فقتلوا وصلبوا على أبواب دمشق.

وسار حتى نزل القسطل من أرض حمص مما يلي تدمر، وبينهما مسيرة ثلاثة أيام.

وبلغه أنهم غوّروا ما بينه وبينهم من الآبار وطووها بالصخر.

فهيأ المزاد، والقِرب، والعلف، والإبل له ولمَن معه.

فكلّمه الأبرش بن الوليد، وسليمان بن هشام، وغيرهما، وسألوه أن يعذر[١] إليهم، فأجابهم.

ووجه الأبرش إليهم أخاه، وكتب إليهم يحذرهم، ويعلمهم أنه يتخوّف أن يكون هلاكه وهلاك قومه، فطردوه، ولم يجيبوه.

فسأله الأبرش أن يأذن له في التوجه إليهم [٦٥/ب] ويؤجله أياماً، ففعل.

وأتاهم فكلمهم وأعلمهم أنهم حمقى، وأنه لا طاقة لهم به وبمَن معه.

فأجابه عامتهم، وهرب مَن لم يثق به منهم.

فكتب الأبرش إلى مروان[٢]: أن اهدم حائط مدينتهم، وانصرف إليّ بمَن تابعك.

ففعل، وقدم عليه بالرصافة، ثم شخص إلى الرقة، ومضى حتى نزل نحو واسط على شاطىء الفرات، فأقام ثلاثاً، ثم مضى إلى قرقيسيا، وابن هبيرة بها ليقدمه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الحروري، وكان خرج محكماً.

وأقبل جماعة نحو عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليهم البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى حلُّوا بالرصافة.

فدعوا سليمان إلى خلع مروان ومحاربته.

[فأجابهم][٣].

وفي هذه السنة: دخل الضحاك بن قيس الشيباني الكوفة.

---

(١) في الكامل: «يرسل» والمعنى واحد.

(٢) الصواب أن مروان كتب إلى الأبرش، وفي الكامل ما يفيد ما أقول إذ فيه: ورجع الأبرش إلى مروان ومعه مَن أطاع بعد أن هدم سورها.

(٣) زيادة من الكامل.

ذكر السبب في خروج الضحاك وقومه حتى دخل الكوفة

يقال أن سبب خروج الضحاك: أنه كان خرج بالجزيرة حروري يقال له: سعيد بن بهدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك.

وقتل[١] الوليد في تلك الأيام، فاغتنم ذلك وانشغال مروان[٢] بالشام، فخرج في أرض بكفرتوثا.

وخرج بسطام البيهسي وهو مفارق لرأيه في مثل عدتهم من ربيعة.

فسار كل واحد منهما إلى صاحبه، فلما تقارب العسكران، وجّه سعيد بن بهدل الخيبري ـ وهو أحد قواده، وهو الذي هزم مروان ـ في نحو من مائة وخمسين فارساً ليبيته، فانتهى إلى عسكره وهم غارون، وقد أمر كل رجل منهم أن يكون معه ثوب أبيض يجلل به دابته ليعرف بعضهم بعضاً.

فكبروا في عسكره، وقتلوا بسطاماً، وجميع مَن معه إلا أربعة عشر رجلاً.

ثم مضوا فلحقوا بمروان فكانوا معه وأثبتهم وولّى عليهم رجلاً منهم يكنى أبا النبيل.

ومضى سعيد بن بهدل نحو العراق لما بلغه من تشتيت الأمر بينهما، واختلاف أهل الشام، وقتال بعضهم بعضاً مع عبد الله بن عمر بالحيرة، والمضرية مع ابن الحرشي بالكوفة، فهم يقتتلون فيما بينهم غدوة وعشية.

فمات سعيد بن بهدل في وجهه ذلك من طاعون أصابه، واستخلف الضحاك بن قيس من بعده[٣].

---

(١) في المخطوط: «وقيل» وهو تحريف.

(٢) تكرر هذا اللفظ فحذفت التكرار.

(٣) في الكامل بعد هذا: فبايعه الشراة، فأتى أرض الموصل، ثم شهرزور، واجتمعت عليه الصفرية حتى صار في أربعة آلاف.

وهلك يزيد بن الوليد، وعامله على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ومروان بالحيرة، فكتب مروان إلى النضر بن سعيد الحرشي ـ وهو أحد قواد ابن عمر ـ بولاية العراق، فلم يسلم ابن عمر إليه العمل، فشخص النضر إلى الكوفة، وبقي ابن عمر بالحيرة فتحاربا أربعة أشهر.

وأمد مروان النضر بابن الغزيل، واجتمعت المضرية مع النضر عصبية لمروان حيث طلب بدم الوليد ـ وكانت أم الوليد قيسية من مضر ـ وكان أهل اليمن مع ابن عصبية له حيث كانوا مع يزيد في قتل الوليد حين أسلم خالد القسري إلى يوسف فقتله.

فلما سمع الضحاك باختلافهما أقبل نحوهم، وقصد العراق سنة سبع وعشرين، فأرسل ابن عمر إلى النضر: أن هذا لا يريد غيري وغيرك، فهلم نجتمع عليه فتعاقدا عليه واجتمعا بالكوفة، وكان كل منهما يصلي بأصحابه.

فاجتمع مع الضحاك نحو من ثلاثة آلاف [٦٦/أ] ثم توجه إلى الكوفة، ومَرّ بأرض الموصل، فاتبعه منها ومن السواد نحو من ثلاثة آلاف، وبالكوفة يومئذ النضر بن سعيد الحرشي ومعه المضرية.

وكان سبب قتال عبد الله بن عمر للنضر بن سعيد الحرشي:

أن مروان ولّى النضر العراق، وعزل عبد الله بن عمر، فأبى عبد الله أن يسلم، وقاتل النضر، ووجد أعواناً من اليمانية للعصبية التي بينهم وبين المضرية، وبالحيرية عبد الله بن عمر في اليمانية فهم متعصبون يقتتلون فيما بين الكوفة والحيرة.

فلما دنا الضحاك فيمن معه من الكوفة[1]، اصطلح ابن عمر، والحرشي، وصار أمرهما واحداً، ويداً على قتال الضحاك، وخندقاً، ومعهما يومئذ من أهل الشام نحو من ثلاثين ألفاً لهم قوة وعدة، ومعهم قائد من أهل قنسرين يقال له عباد بن الغزيل في ألف فارس، قد كان مروان أمدّ به ابن الحرشي فبرزوا لهم فقاتلوهم.

فقتل يومئذ عاصم بن عمر بن عبد العزيز، وجعفر بن عباس الكندي، وهزموهم أقبح هزيمة ولحق عبد الله بن عمر في جماعتهم بواسط.

وتوجه ابن الحرشي وجماعة المضرية، وإسماعيل بن عبد الله القسري إلى مروان.

فاستولى الضحاك والحرورية على الكوفة وأرضها، وجبوا السواد.

ثم استخلف الضحاك رجلاً من أصحابه يقال له ملحان على الكوفة في مائتي فارس، ومضى في أصحابه إلى عبد الله بن عمر بواسط فحاصره بها.

وكان عبد الله بن عمر يأمل أن يقتل مروان بحديث سمعه، وهو: «أن عين بن عين بن عين يقتل منهم بتيم»[2].

فكان يروى له الحديث ويظنه هو حتى تبين بعد ذلك.

فقتله عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.

---

(١) في الكامل: وأقبل الضحاك فنزل بالنخيلة في رجب، واستراح، ثم تعبؤوا للقتال يوم الخميس من غد يوم نزوله، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكشفوا ابن عمر، وقتلوا أخاه عاصماً، وجعفر بن العباس الكندي أخا عبيد الله، ودخل ابن عمر خندقه، وبقي الخوارج عليهم إلى الليل ثم انصرفوا.
ثم اقتتلوا يوم الجمعة، فانهزم أصحاب ابن عمر، فدخلوا خنادقهم، فلما أصبحوا يوم السبت تسلّل أصحابه نحو واسط، ورأوا قوماً لم يروا أشد بأساً منهم.
وكان ممن لحق بواسط النضر بن سعيد الحرشي، وإسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد، ومنصور بن جمهور، والأصبغ بن ذؤالة وغيرهم من الوجوه، وبقي ابن عمر فيمن عنده من أصحابه لم يبرح، فقال له أصحابه: قد هرب الناس فعلام تقيم؟!...

(٢) مثل هذه الأحاديث من وضع الوضاعين استغلالاً للمواقف السياسية لبعض القادة والأمراء والملوك جلباً للنفع المادي لهم.

فذكر أن أصحاب ابن عمر لما انهزموا لحقوا بواسط، قالوا لابن عمر: علام تقيم وقد هرب الناس؟

قال: أتلوم وأنظر، فأقام يوماً ويومين فلم يرَ إلا هارباً قد امتلأت قلوبهم رُعباً من الخوارج.

فأمر عند ذلك بالرحيل إلى واسط.

وجمع خالد بن الغزيل أصحابه فلحق بمروان، وهو بالجزيرة مقيم.

ونظر عبيد الله الكندي إلى ما لقي الناس فلم يأمن على نفسه، فجنح إلى الضحاك فبايعه وكان في عسكره.

فقال أبو عطاء السندي يعيره باتباعه الضحاك وقد قتل أخاه:

قل لعبيد الله لو كان جعفر ... هو الحي لم يجنح وأنت قتيل
ولم يتبع المرَّاق الثار فيهم ... وفي كفه عَضْبُ الذباب صقيل
[٦٦/ ب] إلى معشر أردوا أخاك وأكفروا ... أباك فماذا بعد ذاك تقول؟

فلما بلغ عبيد الله بن العباس هذا البيت قال: أقول عضك الله ب. . .[1] أمك.

وأقام عبد الله بن عمر يقاتل الضحاك أياماً فاقتتلوا في بعض الأيام، واشتد قتالهم فشدّ منصور بن جمهور على قائد من قواد الأتراك عظيم القدر في الشراة يقال له: عكرمة من بني شيبان، فضربه، فقطعه باثنين فقتله.

ثم إن منصوراً قال بعد ذلك وقد لقي جهداً لابن عمر: ما رأيت في الناس مثل هذا قط ـ يعني الشراة ـ فلِمَ تحاربهم وتشغلهم عن مروان؟

أعطهم الرضا واجعلهم بينك وبين مروان فإنك إن أعطيتهم الرضا خلُّوا عنك، ومضوا إلى مروان، فكان جدهم وبأسهم به وأقمت أنت مستريحاً بموضعك هذا، فإن ظفروا به كان ما أردت وكنت عندهم آمناً، وإن ظفر بهم، وأردت خلافه وقتاله فقاتله جامًّا مستريحاً، مع أن أمره معهم سيطول.

فقال ابن عمر: لا تعجل حتى تتلوم وتنظر.

فقال: أي شيء تنتظر؟ فوالله ما تستطيع أن تطلع معهم ولا تستقر، فإن خرجنا إليهم لم نقم لهم فواقاً، فما الذي ننتظر، ومروان في راحة قد كفيناه جدهم، وشغلناهم

---

(١) كلمة لا يليق ذكرها، وأتم في الكامل مقالته شعراً فقال:

فلا وصلتك الرحم من ذي قرابة ... وطالب وتر والذليل ذليل
تركت أخا شيبان يسلب بَزَّه ... ونجاك خوَّار العِنان مطول

عنه، وهو يتربص بنا وبهم؟!

أما أنا فخارج إليهم ولاحق بهم ومعطيهم الرضا.

قال: فخرج، فوقف حيال صفهم، وناداهم: إني خارج أريد أن أسلّم وأسمع كلام الله.

قال: وهي محنتهم[١].

فلحق بهم، وبايعهم.

وقال له: قد أسلمت.

فدعوا له بغداء فتغدّى معهم وتحرّم بهم.

ثم خرج إليهم عبد الله بن عمر أيضاً في شوال فبايعهم[٢].

وفي هذه السنة: خلع سليمان[٣] بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان ونصب له الحرب.

ذكر السبب في ذلك

لما شخص مروان من الرصافة إلى الرقة لتوجيه ابن هبيرة إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني، استأذنه سليمان بن هشام في المقام أياماً لإجمام ظهره، وإصلاح أمره، فأذن له، ومضى مروان.

فجاء إلى سليمان نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليه البعث لغزو العراق مع قوادهم حتى حلُّوا بالرصافة ودعوا سليمان إلى خلع مروان ومحاربته وقالوا: أنت أرضى[٤] عند أهل الشام منه وأولى [٦٧/أ] بالخلافة.

فاستذله الهوى، فأجابهم وخرج إليهم بإخوته وولده ومواليه، فعسكر بهم، وسار بجميعهم إلى قنسيرين، وكان أهل الشام انقضوا إليه من كل وجه.

فغادر مروان بعد أن شارف قرقيسيا منصرفاً إليه.

وكتب إلى ابن هبيرة يأمره بالثبوت في عسكره.

واجتمع مَن كان بالهنى من موالي سليمان وولد هشام، فدخلوا حصن الكامل بذراريهم، وأغلقوا الأبواب دونه.

---

(١) في الكامل: حجتهم.

(٢) في الكامل: ثم إن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز خرج إليهم في شوال فصالحهم، وبايع الضحاك، ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك.

(٣) في المخطوط: سليم، وهو تحريف.

(٤) في الكامل: «أوضأ» والمعنى متقارب، وأشار محقق الكامل إلى أنه في الطبري كما هنا.

فأرسل إليهم:

لِمَ خلعتم طاعتي، ونقضتم بيعتي بعدما أعطيتموني من العهود والمواثيق؟

فردُّوا على رُسُله: إنّا مع سليمان كنا ومع سليمان نحن.

فردّ إليهم: إني أنذركم أن تعرضوا لأحد ممن يتبعني من جندي أو يناله منكم أذى فاحذروا وإلا تحلوا بأنفسكم فلا أمان لكم حينئذ عندي.

فأرسلوا إليه: إنّا سنكف.

ومضى مروان بن محمد، فجعلوا يخرجون من حصنهم فيغيرون على مَن اتبعه من أُخريات الناس وشذان الجند فيسلبونهم خيولهم وسلاحهم.

وبلغه ذلك فتحرّق عليهم غيظاً.

واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً[1]، فلما دنا منه مروان، قدم إليه السكسكي في سبعة آلاف.

ووجّه مروان عيسى بن مسلم في نحو من عدتهم فالتقوا فيما بين العسكرين، واقتتلوا قتالاً شديداً.

ثم التقى السكسكي وعيسى، وكل واحد منهما فاطعنا حتى تقصفت رماحهما، ثم صارا إلى السيوف، فضرب السكسكي عيسى على مقدم فرسه، فسقط لجامه، وجال به فرسه، واعترضه السكسكي فضربه بالعمود فصرعه، ثم نزل إليه، فأسره.

وبارزه غيره، فأسره، وانهزمت مقدمة مروان.

وبلغه الخبر، وهو في مسيره، فمضى وطوى تعبئته، ولم ينزل حتى انتهى إلى سليمان وقد تعبّأ له وتهيّأ لقتاله، فلم يناظره حتى واقعه.

فانهزم سليمان ومَن معه، واتبعتهم خيوله [تقتلهم] وتأسرهم حتى انتهوا إلى عسكرهم، فاستباحوه.

ووقف مروان موقفاً، وأمر ابنيه حتى وقفا موقفين آخرين.

وأمر كوثراً صاحب شرطته، فوقف في موضع آخر.

ثم أمرهم أن لا يؤتوا بأسير إلا قتلوه إلاّ أن يكون عبداً مملوكاً.

فأحصى قتلاهم يومئذ فزاد على ثلاثين ألفاً.

---

(١) بعد هذا في الكامل: من أهل الشام والذكوانية وغيرهم، وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين. وأتاه مروان فواقعه عند وصوله واشتد بينهم القتال، وانهزم سليمان ومَن معه.

وقتل ابن لسليمان يقال له: إبراهيم وهو أكبر ولده[١].

وأتى بخال لهشام بن عبد الملك يقال له: خالد، وكان بادناً كثير اللحم، فأدنى إليه، وهو كال مُتعب.

فقال: أي فاسق [٦٧/ب] أما لك في حمر المدينة ونياقها ما يكفيك عن الخروج لتقاتلني؟!

قال: يا أمير المؤمنين، أكرهني فأنشدك الله والرحم.

قال: وتكذب أيضاً، كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والرقان والبرابط معك في عسكره؟!

ثم أمر به فقُتل.

وادعى كثير من الأسراء أنهم رقيق، فكفّ عن قتلهم وأمر ببيعهم مع ما بيع مما أصيب في عسكرهم.

ومضى سليمان مغلولاً حتى انتهى إلى حمص، فانضم إليه مَن أفلت، فعسكر بها.

وبنى ما كان أمر مروان[٢] بهدمه من سورها.

ووجّه مروان يوم هدمه خيلاً إلى [حصن][٣] الكامل جريدة ووصاهم أن يستبقوا كل حُر حتى يحدقوا به.

ثم أقبل مروان نحوهم حتى نزل معسكره من واسط، ثم راسلهم بأن انزلوا على حكمي فقالوا: لا حتى تؤمننا بأجمعنا.

فنصب عليهم المجانيق.

فلما تتابعت عليهم نزلوا على حكمه، فمثل بهم[٤]، وكانت عدتهم نحو ثلاثمائة.

ثم عاد إلى ناحية سليمان بحمص، فلما دنا منهم اجتمعوا إلى سليمان، وقال بعضهم لبعض: حتى متى ننهزم من مروان؟ هلموا فلنبايع على الموت، ولا نفترق بعدما نبيته حتى نقتله أو نموت جميعاً، فوطن على الموت نفسه قوم.

وولى سليمان السكسكي على شطرهم وعلى الشطر الباقي نبيتاً البهراني.

فتوجهوا إليه مجتمعين على أن يبيتوه إن أصابوا منهم غرة، فوجدوه متحرزاً في

---

(١) في الكامل: وقتل إبراهيم بن سليمان وأكثر ولده.

(٢) في المخطوط: «هارون» وهو تحريف.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) بعده في الكامل: فمثل بهم، وأخذهم أهل الرقة فداووا جراحاتهم فهلك بعضهم وبقي أكثرهم وكانت عدتهم نحو من ثلاثمائة.

الخنادق يسير على تعبئته فتهيؤوا ـ وفي أخرى: فتصيبوا ـ وكمنوا في زيتون[1]، على طريقه، فخرجوا عليه وهو يسير على تعبية، فوضعوا السلاح فيمن معه، وانتبذ، ثم نادى في خيوله، فثابت إليه من المقدمة والمجنبتين والساقة، فقاتلوهم[1].

والتقى السكسكي وفارس من فرسانه من بني سليم فصرعه السلمي عن فرسه وأسره، وأتى به إلى مروان.

فقال الحمد لرب أمكن منك، وطال ما بلغت منا.

قال: استبقني فإني فارس العرب.

قال: كذبت الذي جاء بك أفرس منك فأمر به فأوثق، وقتل فيمن صيّر معه نحو من سبعة آلاف.

وأفلت نبيت ومَن انهزم معه.

فلما أتوا سليمان خلف أخاه سعيد بن هشام في مدينة حمص وعلم أنه لا طاقة له به.

ومضى هو إلى تدمر.

وترك مروان بحمص عشرة أشهر، ونصب عليها نيفاً وثمانين منجنيقاً تخطر عليهما حجارتها ليلاً ونهاراً، وهم في ذلك يخرجون إليه كل يوم فيقاتلونه [٦٨/أ] وربما بيّتوا نواحي عسكره.

ولما تتابع عليهم البلاء، ولزمهم الذل، سألوه الأمان على أن يمكنوه من سعيد أخي سليمان، وابنيه عثمان ومروان، ومن قوم كانوا يغيرون على عسكره ويشتمونه من السور، فآمنهم[2].

واستوثق من سعيد وابنيه، ومثل بالباقين، ثم أقبل متوجهاً إلى الضحاك.

وقد روي أيضاً:

أن سليمان لما انهزم من مروان أقبل إلى ابن عمر، ثم خرج معه الضحاك وبايعه.

وفي ذلك يقول شاعرهم:

ألـم تـر أن الله أظـهـر ديـنـه وصلت قريش خلف بكر بن وائل

---

(١) في الكامل بعدها: من لدن ارتفاع النهار إلى بعد العصر، وانهزم أصحاب سليمان، وقتل منهم نحو من ستة آلاف، فلما بلغ سليمان هزيمتهم خلف أخاه سعيد بحمص.

(٢) في الكامل: ومن ابنيه عثمان ومروان ومن رجل كان يسمى السكسكي، كان يغير على عسكره، ومن رجل حبشي كان يشتم مروان، وكان يشد في ذكره ذكر حمار ثم يقول: يا بني سليم، يا أولاد كذا وكذا هذا لواؤكم، فأجابهم إلى ذلك فاستوثق من سعيد وابنيه، وقتل السكسكي وسَلَّم الحبشي إلى بني سليم فقطعوا ذكره، وأنفه ومثلوا به، فلما فرغ من حمص مضى نحو الضحاك الخارجي.

ولما استقام لمروان الشام، وبقي عليها مَن كان يخالفه، وقتل بها تلك المقتلة العظيمة، وأقبل حتى نزل نهر سعيد بن عبد الملك.

وبلغ ذلك ابن عمر، فأعلم ذلك الضحاك فارتحل الضحاك، وأقام ابن عمر بواسط.

وبلغ خبر مروان ملحان الشيباني ـ وكان عامل الضحاك على الكوفة ـ فخرج إليه يقاتله، وهو في قلة من الشراة.

فلقي النضر، وكان النضر قد توجه إليه وبلغ القادسية، وصبر في المعركة حتى قتله النضر[1].

وبلغ الضحاك، فأخذ على الموصل لأن أهل الموصل كاتبوه، ودعوه ليمكنوه منها، فسار في جماعة جنوده حتى انتهى إليها ـ وعليها يومئذ عامل لمروان من بني شيبان يقال له: القطران بن أكمه ـ ففتح أهل الموصل المدينة للضحاك، وقاتلهم القطران في قومه، وجماعة يسيرة من أهل بيته، وثبتوا حتى قتلوا ـ.

واستولى الضحاك على الموصل، وبلغ خبره مروان.

فكتب إلى ابنه عبد الله، وهو خليفته بالجزيرة ويأمره أن يسير فيمن معه ومَن قدر على جمعه إلى نصيبين ليشغل الضحاك عن توسط البلاد.

فشخص عبد الله إلى نصيبين في جماعة روابطة وهم نحو سبعة أو ثمانية آلاف.

وسار الضحاك من الموصل إلى عدانة بنصيبين، فقاتله، فلم يطقه لكثرة مَن مع الضحاك، وذاك أن عدتهم بلغت عشرين ومائة ألف يرزق الفارس مائة وخمسين والراجل والبغال مائة ودونها إلى التسعين درهماً في كل شهر.

وأقام الضحاك بنصيبين محاصراً لها.

---

(١) الخبر في الكامل بعد الشعر على النحو التالي: فلما النضر بن سعيد الحرشي ـ وكان قد ولي العراق ـ ذلك علم أنه لا طاقة له بعبد الله بن عمر، فسار إلى مروان، فلما كان بالقادسية خرج إليه ابن ملحان خليفة الضحاك بالكوفة فقاتله فقتله النضر، واستعمل الضحاك على الكوفة المثنى بن عمران العائذي، ثم سار الضحاك في ذي القعدة إلى الموصل.
وأقبل ابن هبيرة حتى نزل بعين التمر، فسار إليه المثنى بن عمران فاقتتلوا أياماً فقتل المثنى وعدة من قواد الضحاك، وانهزمت الخوارج ومعهم منصور بن جمهور وأتوا الكوفة فجمعوا مَن بها منهم، وسار نحو ابن هبيرة، فلقوه فقاتلهم أياماً وانهزمت الخوارج، وأتى ابن هبيرة إلى الكوفة وسار إلى واسط.
ولما بلغ الضحاك ما لقي أصحابه أرسل عبيدة بن سوار التغلبي إليهم فنزل الصراة، وبلغ ذلك ابن هبيرة فرجع إليهم فالتقوا بالصراة.

ووجه بخيل له إلى الرقة، وكان بها خيل لمروان.

ولما بلغ مروان دخولهم الرقة، وجه خيلاً إليها، فلما دنوا منها، انقشع أصحاب الضحاك منصرفين إليها، واتبعتهم [٦٨/ب] خيل مروان، فاستسقطوا من ساقتهم نيفاً وثلاثين رجلاً.

فقطع مروان أيديهم، ومضى صامداً إلى الضحاك في جموعه حتى التقيا بموضع يقال له: الغد من أرض كفرتوثا(١)، فقاتله عامة نهاره.

فلما كان عند العشاء نزل الضحاك، وترجّل معه من ذوي النيات نحو من ستة آلاف وأهل عسكره لكثرتهم لا يعلمون بما كان منه.

فأحدقت بهم خيل مروان، وألحُّوا عليهم حتى قتلوهم عند العتمة، وقتل فيهم الضحاك.

وانصرف مَن بقي من أصحاب الضحاك حتى فقدوه في منتصف الليل، وجاءهم بعض مَن عاينه حين ترجّل، فأخبرهم بمقتله. فبكوه وناحوا عليه.

وخرج عبد الملك، وهو القائد الذي وجّهه إلى الرقة من عسكرهم حتى دخل عسكر مروان حتى تقرّب إليه بقتل الضحاك.

فأرسل معه رُسُلاً من حرسه معهم النيران والشموع إلى موضع فقلبوا القتلى حتى استخرجوه، وأتوا به مروان، وفي وجهه ورأسه أكثر من عشرين ضربة. فكبّر أهل عسكر مروان فعرف أهل عسكر الضحاك، أنهم قد علموا بذلك.

وبعث مروان برأسه من ليلته إلى مدائن الجزيرة يطاف به فيها.

ولما قتل الضحاك بايع أهل عسكره الخيبري.

وعاودوا مروان القتال من الغد، وصافهم.

وسليمان بن هشام يومئذ وأهل بيته ومواليه مع الخيبري قد كان قدم على الضحاك في أكثر من ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه، وتزوج إليهم أخت شيبان الحروري، وهو الذي بايعوه بعد الخيبري.

فحمل الخيبري على مروان في نحو من أربعمائة فارس من الشراة، فهزم مروان، وهو في القلب، وخرج من العسكر منهزماً.

ودخل الخيبري فيمن معه عسكره، وجعلوا ينادون بشعارهم: يا خيبري، ويقتلون

(١) قال الحموي في معجم البلدان: كفرتوثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس عين... وكفرتوثا أيضاً من قرى فلسطين.

مَن أدركوا حتى انتهوا إلى حجرة مروان فقطعوا أطنابها، وجلس الخيبري على فرشه.

وميمنة مروان على حالها، وعليها ابنه عبد الله، وميسرته أيضاً ثابتة عليها مسلم بن عقيل.

فلما رأى أهل العسكر مروان قلة من مع الخيبري وأصحابه جميعاً في حجرة مروان وحولها.

وبلغ مروان الخبر وقد جاز العسكر بنحو ستة أميال منهزماً، فانصرف إلى عسكره، وردّ خيوله عن مواقفها، وبات تلك الليلة في عسكره.

وانصرف أيضاً عسكر [٦٩/أ] الخيبري، فولوا عليهم شيبان، وبايعوه.

فقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس فأبطل تعبئة الصف منه يومئذ.

وفي هذه السنة: وجّه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب مَن بها من الخوارج وكان بالخراج عمال الضحاك، وفيهم عبد الله بن عمر كما حكينا من أمره.

ومضى ابن هبيرة، فأخذ على الموصل، وانحط على عرة من عين التمر.

وبلغ ذلك المثنى بن عمر أن عامل الضحاك على الكوفة.

فسار إليه فيمن كان معه من الشراة، ومعه منصور بن جمهور قد كان صار إليه حين بايع الضحاك فالتقوا بغرة واقتتلوا اقتتالاً شديداً أياماً متوالية.

فقتل المثنى مع عدة من رؤساء أصحاب الضحاك، وهرب منصور بن جهور لا يلوي حتى دخل الكوفة فجمع بها جمعاً من اليمانية والصفرية، ومَن كان تفرّق منهم يوم قتل ملجان ومَن تخلّف منهم عن الضحاك.

فجمعهم منصور جميعاً، ثم سار بهم حتى نزل الروحاء، وأقبل ابن هبيرة في أجناده حتى لقيهم بها، فقاتلهم أياماً، ثم هزمهم، وقتل خلق من أصحاب الضحاك.

وهرب منصور بن جمهور، وأقبل ابن هبيرة حتى نزل الكوفة ونفى الخوارج عنها.

وفي هذه السنة: وافى الحارث بن شريح مرو من بلاد الترك بأمان الخليفة، فصار إلى نصر، ثم خالفه، وتابعه خلق.

ذكر الخبر عن أمره وأمر نصر بن سيار

إن الحارث سار إلى مرو مخرجه من بلاد الترك فقدمها يوم الأحد[1] سنة سبع

(١) في الكامل: في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة، فلقيه الناس بكشميهن.

وعشرين ومائة، ويقال: ثمان وعشرين.

فتلقاه سلم بن أحوز، والناس بكشميهن.

فقال له محمد بن عطية العبسي: الحمد لله الذي أقرّ عيوننا بقدومك، وردّك إلى قبة الإسلام، وإلى الجماعة.

قال: يا بني أما علمت أن الكثير إذا كانوا على معصية الله تعالى لم يكونوا جماعة، وأن القليل إذا كانوا على طاعة الله كانوا جماعة، وما قرّت عيني منذ خرجت إلى يومي هذا، وما قرة عيني إلاّ أن يطاع الله تعالى.

فلما دخل مرو قال: اللهم إني لم أنوِ قط في شيء بيني وبينهم إلاّ الوفاء، فإن أرادوا الغدر فانصرني عليهم.

وتلقاه نصر، وأجرى عليه نزلاً خمسين درهماً في كل يوم.

فكان يقتصر على لون واحد.

وأطلق له نصر مَن كان عنده من أهله، فلما أتاه ابنه محمد قال: اللهم اجعله برًّا تقياً.

وكان قدم الوضاح بن حبيب بن بديل على نصر بن [٦٩/ب] عبد الله بن عمر، فأتى الحارث وعنده جماعة من أصحابه فقال: إن بالعراق بشهر عظيم عمود له ثقله، وإني أحب أن أراه.

قال: ما هو إلا كبعض ما ترى، وأشار إلى عمده مع قوم وقوف على رأسه.

ولكني إذا ضربت به شهرت ضربتي.

وكان في عموده ثمانية عشر رطلاً.

وعرض نصر على الحارث أن يوليه ويعطيه مائة ألف، فلم يقبل.

فقال: إني لست من أهل اللذات ومن ترويح عقائل العرب في شيء، أنا أسأل الله كتاب الله والعمل بالسنة، واستعمال أهل الخير، فإن فعلت ساعدتك على عدوك.

ثم قال لنصر: خرجت من هذه البلاد منذ ثلاثة عشرة سنة، إنكاراً للجور، وأنت تريدني عليه.

وأرسل الحارث إلى الكرماني: إن أعطاني نصراً العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل الخير والفضل عضدته، وقمت بأمر الله تعالى، وإن لم يفعل استعنت بك عليه[1] وتضمن لي ما أريد من القيام بالعدل والسنة، وكان كلما دخل عليه بنو تميم دعاهم إلى نفسه.

(١) في المخطوط: عليك. وهو تحريف.

فبايعه قوم من رؤسائهم، وانضم إلى الحارث ثلاثة آلاف[١].

---

(١) هذا ما ذكر المؤلف في أحداث تلك السنة، وزاد فيها ابن الأثير في الكامل فقال:
في هذه السنة: خلع أهل الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار أميرهم، وسبب ذلك: أنه لما قدم الأندلس أميراً أظهر العصبية لليمانية على المضرية، فاتفق في بعض الأيام أنه اختصم رجل من كنانة ورجل من غسّان، فاستعان الكناني بالصميل بن حاتم بن ذي الجوشن الضبابي، فكلم فيه أبا الخطار، فاستغلظ له أبو الخطار، فأجابه الصميل.
فأمر به، فأقيم، وضرب قفاه، فمالت عمامته، فلما خرج قيل له: نرى عمامتك مالت فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها.
وكان الصميل من أشراف مضر.
فلما دخل الأندلس مع بلج شرف فيها بنفسه وأوليته.
فلما جرى له ما ذكرناه مع قومه وأعلمهم. فقالوا له: نحن تبع لك. فقال: أريد أن أخرج أبا الخطار من الأندلس. فقال له بعض أصحابه: افعل واستعن بمَن شئت، ولا تستعن بأبي عطاء القيسي ـ وكان من أشراف قيس ـ وكان يناظر الصميل في الرياسة ويحسده.
وقال له غيره: الرأي أنك تأتي أبا عطاء وتشد أمرك به، فإنه تحركه الحمية، وينصرك، وإن تركته مال إلى أبي الخطار وأعانه عليك ليبلغ فيك ما يريد.
والرأي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن معد.
ففعل ذلك وسار من ليلته إلى أبي عطاء، وكان يسكن مدينة أستجة فعظّمه أبو عطاء وسأله عن سبب قدومه، فأعلمه، فلم يكلمه حتى قام فركب فرسه ولبس سلاحه، وقال له: انهض الآن حيث شئت، فأنا معك.
وأمر أهله وأصحابه باتباعه، فساروا إلى مرو، وبها ثوابة بن سلمة الحداثي وكان مطاعاً في قومه.
وكان أبو الخطار قد استعمله على إشبيلية وغيرها، ثم عزله، ففسد عليه.
فدعاه الصميل إلى نصره، ووعده أنهم إذا أخرجوا أبا الخطار صار أميراً، فأجاب إلى نصره، ودعا قومه، فأجابوه.
فساروا شدونة، وسار إليهم أبو الخطار من قرطبة، واستخلف بها إنساناً فالتقوا، واقتتلوا في رجب من هذه السنة.
وصبر الفريقان، ثم وقعت الهزيمة على أبي الخطار، وقتل أصحابه أشد قتل وأسر أبو الخطار.
وكان بقرطبة أمية بن عبد الملك بن قطن، فأخرج منها خليفة أبي الخطار وانتهب ما وجد لهما فيها.
ولما انهزم أبو الخطار سار ثوابة بن سلمة والصميل إلى قرطبة فملكاها، واستقر ثوابة في الإمارة.
فثار به عبد الرحمٰن بن حسان الكلبي، وأخرج أبا الخطار من السجن، فاستجاش اليمانية، فاجتمع له خلق كثير، وأقبل بهم إلى قرطبة.
وخرج إليه ثوابة فيمن معه من اليمانية والمضرية مع الصميل. فلما تقاتلت الطائفتان نادى رجل من مضر: يا معشر اليمانية، ما بالكم تتعرضون للحرب على أبي الخطار، وقد جعلنا الأمير منكم؟ ـ يعني ثوابة فإنه من اليمن ـ ولو أن الأمير منا لقد كنتم تعتذرون في قتالكم لنا، وما نقول هذا إلا تحرجاً من الدماء، ورغبة في العافية للعامة.
فلما سمع الناس كلامه قالوا: صدق والله، الأمير منّا، فما بالنا نقاتل قومنا؟!
فتركوا القتال، وافترق الناس، فهرب أبو الخطار، فلحق بباجة. ورجع ثوابة إلى قرطبة، وسمى ذلك العسكر: عسكر العافية.
وفي هذه السنة: توجه سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ، وقحطبة إلى مكة، فلقوا =

ودخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

وفيها: قتل الحارث بن سريج.

ذكر الخبر عن مقتله وسبب ذلك

لما ولي ابن هبيرة العراق كتب إلى نصر بعهده فبايع لمروان.

وقال الحارث: إنما أمنني يزيد بن الوليد، ومروان لا يجيز أمان يزيد فلا آمنهُ.

فلما دعا الحارث قوماً إلى مبايعته، أتاه مسلم بن أحوز[1]، وخالد بن هزيم،

= إبراهيم بن محمد الإمام بها، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار، ومائتي ألف درهم، ومِسْكا، ومتاعاً كثيراً.

وكان معهم أبو مسلم، فقال سليمان لإبراهيم: هذا مولاك.

وفيها: كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم الإمام: إنه في الموت، وإنه قد استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان وهو رضي للأمر.

فكتب إبراهيم لأبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه.

ومضى أبو سلمة إلى خراسان، فصدقوه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، وخمس أموالهم.

وحجّ بالناس هذه السنة: عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو عامل مروان على مكة، والمدينة، والطائف.

وكان العامل على العراق النضر بن الحرشي.

وكان من أمره، وأمر ابن عمر، والضحاك الخارجي ما ذكرناه.

وكان بخراسان نصر بن سيار، وبها مَن ينازعه فيها الكرماني، والحارث بن سريج.

وفيها: مات سويد بن غفلة، وقيل: سنة إحدى وثلاثين، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين. وكان عمره مائة وعشرون سنة.

وعبد الكريم بن مالك الجزري، وقيل غير ذلك.

وفيها: مات أبو الحصين عثمان بن حصين الأسدي الكوفي.

وفيها: مات أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني.

وقيل: سنة ثمان وعشرين وعمره مائة سنة.

وفيها: توفي عبد الله بن دينار، وقيل: سنة ست وثلاثين.

وفيها: مات محمد بن واسع الأزدي البصري، وكنيته أبو بكر.

وداود بن أبي هند، واسم أبي هند: دينار مولى بني قشير أبو محمد.

وفيها: توفي أبو بحر عبد الله بن إسحاق مولى الخضر، وكان إماماً في النحو، واللغة، تعلّم ذلك من يحيى بن النعمان.

وكان يعيب الفرزدق في شعره، وينسبه إلى اللحن، فهجاه الفرزدق يقول:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له أبو عبد الله: لقد لحنت أيضاً في قولك موالياً ينبغي أن تقول مولى موال.

(١) كذا في المخطوط (أ) سلم بن أحوز، وفي الكامل في التاريخ سالم بن أحوز.

وقطن بن محمد وأمثالهم، فكلموه وقالوا: أَلَمْ يصير نصر سلطانه وولايته في أيدي قومك؟ أَلَمْ يخرجك من أرض الترك، ومن حكم خاقان؟ وعددوا عليه ما اصطنعه إليه أتخالفه فتفرق أمر عشيرتك وتطمع فيهم عدوهم؟

فنذكرك اللّه أن تفرّق جماعتنا.

فقال الحارث: إني لا أرى في عشيرتي شيئاً في ولم يجبهم بما أرادوا[١].

وخرج فعسكر، وأرسل إلى نصر يسأله أن يجعل الأمر شورى، فأبى نصر.

وخرج الحارث فأتى منازل آل يعقوب بن داود، وكان الحارث يظهر أنه صاحب الرايات السود. فأرسل إليه نصر: إن كنت كما تزعم وإنكم تهدمون سور دمشق، وتزيلون أثر بني أمية، فخذ مني خمسمائة رأس من الدواب، ومائتي بعير، وأحمل إليك من الأموال ما شئت، ومن آلة الحرب، وسِرْ، فلعمري لئن كنت إماماً صاحب الأمر إني لفي يدك، وإن كنت لست ذلك فقد أهلكت عشيرتك.

فقال الحارث: قد علمت أن هذا حق، ولكن لا يتابعني عليه من صُحْبَتي [أحد][٢].

فقال نصر: قد استبان لك أنهم ليسوا على رأيك، ولا لهم مثل بصيرتك، وأنهم فساق ورعاع، فاذكر اللّه في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم.

وعرض نصر على الحارث أن يُوَلِّيه ما وراء النهر، ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل.

فقال له نصر: إن شئت فابدأ بالكرماني، فإن قتلته فأنا في طاعتك، وإن شئت فخل بيني وبينه فإن ظفرت به رأيت رأيك، وإن شئت فسر بأصحابك فإذا حزت الري فإني في طاعتك فخالفه الحارث وأبى إلا [أن][٣] يجعل الأمر شورى. فأخذ نصر في التأهب وصير مسلماً في المدينة وضم إليه الرابطة[٤] مع فرسان ضمهم إلى هدبة بن

---

(١) كثيرون هم منكرو الجميل ومن لا يعرفون فضائل الناس عليهم فهم بعد أن يصلوا إلى ما أرادوا من أعز الناس أو أقرب الناس يديرون ظهورهم لهم وكأنهم لا يعرفونهم بل ربما تفننوا في أذيتهم أو القضاء عليهم بحجة أنهم يؤرقون سعادتهم إما بطلباتهم قضاء بعض مصالح الناس، وإما بمعرفتهم لتاريخهم القديم وإما بمحاولة تذكيرهم بفضلهم عليهم.

(٢) زيادة يتطلبها السياق، وفي الكامل: لا يبايعني عليه من صحبني وعلى هذا السياق يكون لا يحتاج إلى زيادة ما زدت.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) هي الرباط الذي يكون فيه الجند على الثغور يصدون غارات العدو ويسهرون على أمن الحدود حتى لا تطمع فيهم الدول والممالك المجاورة لهم.
وصاحب الرباط هو ما يوازي في أيامنا هذه قائد حرس الحدود وهو أحد أركان القوات =

عامر، وحول السلاح والدواوين إلى القهندر. وجلس للناس، وكان اتهم قوماً من أصحابه، أنهم كاتبوا الحارث بن شريح، فأجلس عن يساره من اتهم منهم، وأجلس الذين اصطنعهم عن يمينه.

ثم تكلم وذكر بني [١٨/أ] مروان ومن خرج عليهم كيف أظهر اللَّه به.

ثم قال لمن عن يمينه:

إني أحمد اللَّه وأذم من عن يساري وليت خراسان فَفَعَلْتُ وصنعت، وذكر حسن بلائه، وأمرتكم أن ترفعوا ما أصبتم لما أردت المسير إلى الوليد، فمنكم من رفع ألف ألف وأكثر وأقل، فرددناها عليكم، ثم فعلت وفعلت، وكان جزائي مالأتم الحارث عليّ، فهلا نظرتم إلى هؤلاء الأحرار، وأومأ إلى من عن يمينه الذين لزموني مواسين لي على غير بلاء.

فاعتذر إليه الناس، فقبل عذرهم وصرفهم، ولما انتشر في كور خراسان أمر الفتنة قدم على نصر جماعة من رؤساء الناس ووجوههم.

وكتب الحارث بن شريح سيرته، وكانت تقرأ في طرق، وفي المساجد، فأجابه قوم كثير.

وأمر نصر فنادى في المدينة: إن الحارث عدو اللَّه، قد نابذ وحارب، فاستعينوا اللَّه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

فأرسل نصر من ليلته إلى جماعة من أصحابه: تهيؤوا للقتال.

فقال له أصحابه: ما نجعل شعارنا؟

فقال مقاتل بن سليمان: شعارنا شعار رسول اللَّه ﷺ: « حم لا ينصرون »[١] وعلامتهم[٢] على الرماح الصوف.

وكان الذي هاج القتال، أن غلاماً للنضر بن محمد الفقيه يقال له: عطية، صار إلى

= المسلحة في كل بلد من بلدان العالم ويكون معه قوات مجهزة تجهيزاً خاصاً يختلف عن تجهيزات الجيش المعتاد، وهو في كثير من بلدان العالم يعتمد كثيراً على الجمال والكلاب كأهم عنصرين من عناصر تسليحه خصوصاً في البلاد التي تكون حدودها جبلية أو وعرة يصعب سير السيارات فيها، والكلاب لتقفي الأثر، والأمور الأخرى التي هي من اختصاصهم.

(١) الشعار هنا يوازي في أيامنا هذه لدى أهل الجيش بكلمة السر، وهي كلمة تتغير يومياً، وأحياناً تكون الكلمة مكونة من كلمتين يقول الفرد كلمة، ويقول الآخر ما يتممها حسب الاتفاق.

(٢) المراد بها الراية أو العلم الذي تتخذه الجيوش ليدل عليها ويرمز لها، فما دام علمها أو رايتها أو شعارها مرفوع فهي منصورة، وأينما رفع علمها أو علامتها أو رايتها دل على بسط سلطانها وسيطرتها على ذلك المكان وما حوله.

أصحاب مسلم، وانتهوا إلى الحارث وهو يصلي الغداة، فلما قضى الصلاة دنا منهم فرجعوا، ثم دنا من الحارث فاتبعه حماد بن عامر، ومحمد بن زرعة وهو في سكة أبي عصمة، فكسر رمحيهما بعموده، وحمل على مرزوق مولى مسلم فلما دنا منه رمى بنفسه عن فرسه، ودخل حانوتاً وضرب برذونه على مؤخرته فنفق. وركب مسلم حين أصبح، وأمر بالخندق فخندقوا، وأمر منادياً فنادى: من جاء برأس الحارث فله ثلاثمائة[١].

فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث، ومضى مسلم حتى انتهى إلى عسكر الحارث ووجد فيه قوماً فقتلهم، وفيهم كاتب الحارث واسمه: يزيد بن داود، فقتل، ومضى مسلم إلى باب ففتحه وقتل رجلاً كان دل الحارث على نقب[٢] في الحائط دخل منه. وأرسل نصر إلى الكرماني، فأتاه على عهد جرى بينهما على يدي القاضي محمد بن ثابت، وحضر القاضي، ومقدام بن نعيم[٣]، وسلم بن أحوز[٤]، ودعا نصر إلى الجماعة.

فقال الكرماني: أنت أسعد الناس بذلك.

فوقع بين سلم بن أحوز[٢] وبين المقدام كلام، فأغلظ له سلم[٢]، فأعانه أخوه، وغضب لهم عبد الرحمن الحربي السعدي.

فقال له سلم[٥]: لقد هممت أن أضرب أنفك بالسيف.

فقال السعدي: لو مسست السيف لم ترجع إليك يدك.

فخاف الكرماني أن يكون مكراً من نصر، فقام، فتعلقوا به، فلم يجلس، ومضى إلى باب المقصورة.

قال: فتعلقوا[٦] بفرسه، فركب إلي[٧] المسجد، وقال: أراد نصر[٨] الغَدْر بي.

فأرسل الحارث إلى نصر: إنَّا لا نرضى بك إماماً.

فأرسل إليه: كيف يكون لك عقل، وقد أفنيت عمرك في أرض الشرك، وغزوت

---

(١) كذا هنا وفي الكامل كما هنا بلا تعريف لماهية الثلاثمائة هل هي مال، أم متاع كالإبل وما شابهها من أمتعة العرب والحياة.
(٢) النقب هي الفتحة تكون في سور الحصن أو الحوائط.
(٣) في المخطوط: مقام، ونعيم، والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل سالم بن أحوز.
(٥) الحديث كله عن سالم بن أحوز، أو سلم بن أحوز، وجاء بالمخطوط: أبو سلم والكنية زائدة.
(٦) في المخطوط: فتعلقوه. وهو تحريف. والتصويب من الكامل.
(٧) في المخطوط: في، وهو تحريف.
(٨) في المخطوط: النصر. وهو تحريف.

المسلمين بالمشركين أتراني أتضرع إليك أكثر مما تضرعت.

وأسر يومئذٍ جهم بن صفوان[1] صاحب الجهمية، فقال: أسلم إن لي عقداً من أبيك حارث.

قال: ما كان ينبغي له أن يفعل، ولو فعل ما أشك ولو ملأت لي هذه الملاءة كواكب، واللَّه لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك، لا واللَّه لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت.

وأمر عبد ربه بن سينين، فقتله.

ولما هزم نصر الحارث أتى الحارث فازة الكرماني حتى دخلها، ومع الكرماني داود بن شعيب الحداني، ومحمد بن المثنى، فأقيمت الصلاة فصلى بهم الكرماني فلما كان من الغد سار الكرماني إلى ناحية باب ميدان يزيد[2]، فقاتل أصحاب نصر، فقتل جماعة، وأخذوا عَلَم عثمان بن الكرماني وتقاتلوا يوم الأربعاء، وتحاجزوا ولم يكن بينهم يوم الخميس قتال، والتقوا يوم الجمعة، فانهزمت الأزد حتى وصلوا إلى الكرماني، فأخذ اللواء بيده، فقاتل به وحمل حصين بن تميم فرموه بالنشاب، وحمل عليه حبيس مولى نصر فطعنه في حلقه، فأخذ الحصين النشاب بيده اليسرى فشب به فرسه وطعن [١٨/ب] حيساً فأرداه عن برزونه وقتله رجّالة الكرماني بالعصي.

فانهزم أصحاب نصر، وصرع تميم بن نصر، وأخذوا له برذونين أخذ أحدهما السعدى، والآخر الحصين، ولحق الحصين سلم بن أحوز، فتناول من ابن أخيه عمود فضربه وصرعه، فحمل عليه رجلان من تميم فهرب، فرمى سلم بنفسه تحت القناطر

---

(١) هو أبو مُحرز الراسبي مولاهم السمرقندي، الكاتب المتكلم، أُسُّ الضلالة، ورأس الجهمية.
كان صاحب ذكاء وجدال، كتب للأمير حارث بن سُريج التميمي.
وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن اللَّه تعالى في الأمكنة كلها.
قال ابن حزم: كان يخالف مقاتلاً في التجسيم، وكان يقول: الإيمان عقد بالقلب، وإن تلفظ بالكفر.
قيل: إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن اللَّه كلم موسى.
قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦).

(٢) كذا في المخطوط وفي الكامل باب ميدان يزيد، وفي معجم البلدان لياقوت: ميدان: . . . أربعة مواضع منها:
ميدان زياد محله بنيسابورى ينسب إليها: أبو علي الميداني صاحب محمد بن يحيى الذهلي روى عنه الحيري وأحمد بن محمد الميداني صاحب كتاب الأمثال، وابنه سعيد، وكانا أديبين لهما تصانيف.
وأبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن حمدان بن عبد المؤمن الميدان انتقل من نيسابور، فأقام بهمذان واستوطنها، وتزوج من أهلها ومات بها.

وبه بضعة عشر ضربة على بيضته، فسقط فحمله رجل إلى عسكر نصر، وانصرفوا، فلما كان في بعض الليل خرج نصر عن مرو، وقتل عصمة بن عبد اللّه الأسدي، وكان يحمي نصر.

ولما هزمت اليمانية المضرية، أرسل الحارث إلى نصر أن اليمانية يعيرونني بانهزامكم، وأنا كافٍ[١] فاجعل حماة أصحابك بإزاء الكرماني فبعث إليه نصر يزيد النحوي أو خالد يتوثق منه أن يفي بما بذله من الكف.

وإنما كف الحارث عن قتال نصر لأن عمر بن الفضل الأزدي وأهل بيته، وعبد الجبار بن العدوي، وخالد بن عبيد اللّه، وعامة أصحابه كانوا نقموا على الكرماني ما فعله أهل سوسكان[٢]. وذلك أن أسداً كان وجه إليهم فنزلوا إليه على حكم أسد.

فبقر بطون جماعة وألقاهم في نهر بلخ.

وقطع أيدي ثلاثمائة منهم وأرجلهم.

وقتل ثلاثاً.

وصلب ثلاثاً.

وباع أثقالهم فيمن يريد.

فنقموا على الحارث معاونته الكرماني وقتاله نصراً، فأقام نصر بمرو [ثلاثة][٣]. أو أربعة أيام ثم خرج إلى نيسابور ومعه سلم بن أحوز، ومسلم بن عبد الرحمن، وقال لنصر: إن الحارث سيخلفني فيكم ويحميكم[٤]. فلما قرب من نيسابور أرسل إليه أهلها: ما أقدمك وقد أظهرت القصبة، وكان أمراً قد أطفأه اللّه؟ ـ وكان عامل نصر على نيسابور ضرار بن عيسى العامري ـ فأرسل إليهم نصر بن سيار سناناً الأعرابي، ومسلم بن عبد الرحمن، وسلم بن أحوز، فكلموهم حتى خرجوا، وتلقوا نصراً بالمراكب والهدايا والجواري، وقدم من مكة على نصر عبد[٥] الحكم بن سعيد، وأبو

(١) في المخطوط (أ): وأنما كان. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٢) في معجم البلدان: سَوْسَقَانُ.
وقال ياقوت: سَوْسَقَانُ: بعد السين الثانية قاف، وآخره نون. قرية على أربعة فراسخ من مرو، عند الرمل طرف البرية ينسب إليها: طلحة بن محمد بن أحمد بن أبي غانم بن خير السوسقاني. سمع أبا الفضل محمد بن عبد الرزاق الماخُواني مات سنة (٥٢٧).

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في المخطوط: «فِيكُنّ ويحميكن» بصيغة المؤنث. وهو سهو من الناسخ لأنه لا مناسبة هنا للتأنيث.

(٥) في المخطوط: على نصر بن الحكم وهو تحريف لأنه جاء النص في الكامل على النحو التالي: وقدم على نصر عبد الملك بن سعد العوذي وأبو جعفر عيسى بن حرز من مكة. فقال نصر =

جعفر عيسى فقال نصر لعبد الحكم: أما ترى ما صنع سفهاء قومك؟

فقال عبد الحكم: بل سفهاء قومك، طالت ولايتك، وصيرت الولاية لقومك دون ربيعة واليمن حلماً وسفهاً، فغلب سفهاؤُهم حلماؤُهم. فقال عباد: سيقتل الأمير حسبك من الولاية، فإنه قد أظل أمر عظيم، سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد، ويدعو إلى دولة لا محالة ستكون فيغلب على الأمير[١] وأنتم تنظرون وتضطربون.

فقال نصر: ما أشبه أن يكون ما يقول لقلة الوفاء وسوء ذات البين وجهت إلى الحارث وهو بأرض الترك فعرضت عليه الولاية والأموال فأبى إلا الشغب بمظاهر عليّ.

فقال: أبو جعفر عيسى بن الحارث مقتول مصلوب، وما الكرماني من ذلك ببعيد.

ولما خرج نصر من مرو وغلب الكرماني عليها، قال الحارث: أنا أريد كتاب اللّه.

فقال مقاتل بن حيان: في كتاب اللّه هدر الدور، وانهاب المال.

فبلغ الكرماني فحبسه[٢] في خيمة في العسكر، فكلمه معمر بن مقاتل بن حيان أخوه، فخلاه.

وأتى الكرماني المسجد، ووقف الحارث وخطب الكرماني الناس، وأمنهم، وعسكر الكرماني في مصلى أسد.

ومضى الحارث إلى باب دَرْوَازَق سرخس[٣] فبعث إلى الحارث، فأتاه فأنكر الحارث هدم الدور والانهاب، فهم به الكرماني، ثم كفّ عنه.

وخرج بشر بن جرموز الضبي بحرقان، فدعا إلى كتاب اللّه والسنة.

وقال الحارث: إنما قاتلت معك العدل، فأما إذا كنت مع الكرماني، فقد علمت أنك إنما تقاتل ليقال غلب الحارث، وهذه عصبة، ولست مقاتل معك واعتزل في

= لعبد الحكم العوذي ـ وهم بطن من الأزد ـ: أما ترى ما فعل سفهاء قومك؟... فقال أبو جعفر عيسى لنصر: أيها الأمير حسبك من الولاية وهذه الأمور، فإنه قد أظلك أمر عظيم...

(١) في الكامل: الأمر.

(٢) في الكامل: فَهَمَّ الكرماني، ثم تركه.

(٣) كذا في معجم البلدان: وَرْوَازَق ماسرجستان. ويقول ياقوت: دروازق: أصله: دروازه ماسرجستان، ودروازه بلسانهم يراد به باب المدينة.
قرية على فرسخ من مرو عند الديوقان وهي قرية قديمة نزل بها المسلمون لما قدموا مرو لفتحها، منها أبو المثيب عيسى بن عبيد بن أبي عبيد الكندي الدروازقي حَدَّث عن عكرمة القرشي مولاهم والفرزدق بن جوّاس، وغيرهما. روى عنه الفضل بن موسى الشيباني.

خمسة آلاف، وقال: نحن الفئة العادلة ندعو إلى الحق، ولا نقاتل إلاّ من قاتلنا.

وأتى الحارث مسجد عياض، فأرسل إلى الكرماني يدعوه أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرماني وكتب أصحاب الحارث إلى الكرماني وأصحابه يوصيهم بتقوى اللّه وطاعته وتحريم ما حرم اللّه عزّ وجلّ من دمائهم أما بعد:

فإن اجتماعنا كان إلى الحارث ابتغاء الوسيلة إلى اللّه [١٩/أ] ونصيحة اللّه في عباده، فعرَّضْنا أنفسنا للحرب، ودماءنا للسفك، وأموالنا للتلف، وصغر ذلك كله عندنا في جنب ما نرجو من ثواب اللّه، ونحن وأنتم [إخوة][١] في الدين، وأنصار على العدو، فاتقوا اللّه وارجعوا إلى الحق، فإنَّا لا نريد سفك الدماء بغير حقها.

وأقاموا أياماً، فأتى الحارث بن شريح ثلمة في الحائط فوسعها[٢] عند دور آل هشام بن أبي الهيثم، فتفرق عن أهل البصائر وقال: غدرت وأقام معه نفر[٣].

ودخل الكرماني من باب سرخس فحاذى بالحارث ومَرَّ به المنخل الأزدي فقتله السميدع، ونادى: يا لثارات لقيط واقتتلوا، الكرماني ميمنة وميسرة، واشتد الأمر بينهما فانهزم أصحاب الحارث وقتلوا ما بين الثلمة وعسكر الحارث، وكان الحارث على بغل، فنزل عنه وركب فرساً فحارب وانهزم أصحابه، فبقي في مائة، فقتل، وقتل أخوه سوادة وجماعة معه نحو مائة[٤].

فكف الكرماني، وكان قد قتل من أصحاب الكرماني أيضاً مائة.

وصلب الحارث عند باب مدينة مرو بغير رأس.

كان قتله بعد خروج نصر من مرو بثلاثين يوماً، قتل يوم الأحد لست بقين من رجب. وأصاب الكرماني[٥] صفائح ذهب الحارث، فأخذها، وأخذ أموال من خرج مع نصر، واصطفى متاع عاصم بن عمير.

فقال إبراهيم: بأي شيء تشتمل ماله؟

فقال صالح بن آل الوضاح: اسقني دمه.

فحال بينه وبين مقاتل بن سليمان، وأتى منزله، وكان الحارث قبل مكاشفة الكرماني ندم على اتباعه إياه.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في الكامل: ثم إن الحارث أتى السور فثلم فيه ثلمة، ودخل البلد.
(٣) في المخطوط: ففر. وهو تحريف.
(٤) في الكامل: فقتل عند شجرة زيتون أو غبيراء.
(٥) في المخطوط: يوم الأحد لست بقين من رجب (وأصحاب الكرماني) وأصاب الكرماني. والعبارة التي بين القوسين زائدة على السياق فحذفتها.

فلما هَمَّ الكرماني بقتال بشر بن جرموز، وكان عسكر خارجاً عن المدينة قال له الحارث: لا تعجل إلى قتالهم، فإني أردهم إليك.

فخرج من العسكر في عشرة فوارس حتى أتى عسكر بشر، وهو في خمسة آلاف، فأقام معهم، وقال: ما كنت لأقاتلكم مع اليمانية.

وجعل المضريون يتسللون من عسكر الكرماني إلى الحارث حتى لم يبق مع الكرماني مضري إلاّ سلمة بن أبي عبد اللّه مولى بني سليم فإنه قال: لا أتبع الحارث أبداً، فإني لم أره إلاّ غادراً، والمهلب بن إياس وقال: لا أتبعه فإني لم أره قط إلاّ في خيل تطرد.

فقاتلهم الكرماني مراراً يقتتلون ثم يزحفون إلى خنادقهم، فمرة يكون لهؤلاء ومرة لهؤلاء[1]، فالتقوا يوماً وقد شرب مرثد بن عبد اللّه المجاشعي، فخرج سكران على برذون للحارث فطعن فصرع، وحماه فوارس تميم حتى تخلص، وعاد البرذون، فلما رجعوا، لامَهُ الحارث، وقال: كدت تقتل نفسك.

فقال للحارث: إنما تقول هذا المكان برذونك امرأته طالق إن لم آتك بأفره برذون في عسكرهم، فالتقوا من غد، فقال مرثد: أي برذون في عسكرهم أفره؟

قال: برذون عبد اللّه بن دليم الغنوي، وأشاروا له إلى موقفه.

فقاتل حتى وصل إليه فلما غشيه رمى ابن دليم بنفسه عن برذونه وعلق مرثد عنان البرذون في رمحه وقاده حتى أتى به الحارث وقال: هذا مكان برذونك، فلقي مخلد بن الحسن مرثداً فقال له يمازحه: ما أهيأ برذون ابن مرثد تحتك، فنزل عنه وقال: خذه، وقال: أردت أن تفضحني، أخذته منا في الحرب، وآخذه منك في السلم.

---

(١) بعد هذا في الكامل:
ثم إن الحارث ارتحل بعد أيام فنقب سور مرو ودخلها وتبعه الكرماني، فترجل فقال: أنا لكم فارساً خير مني لكم راجلاً.
فقالوا: لا نرضى إلاّ أن تترجل، وترجل فاقتتلوا هم والكرماني، فقتل الحارث، وأخوه بشر بن جرموز، وعدة من فرسان تميم وانهزم الباقون، وصلب الحارث وصفت مرو لليمن فهدموا دور المضرية فقال نصر بن سيار للحارث قتل:

يا مُدخل الذل على قومه ... بُعداً وسحقاً لك من هالكِ
شؤمك أرى مضراً كلها ... وحزّ من قومك بالحاركِ
ما كانت الأزد وأشياعها ... تطمع في عمرو ولا مالكِ
ولا بنو سعد إذا ألجموا ... كل طِمِرٍ لونه حالكِ

وعمرو، ومالك، وسعد بطون من تميم. وقيل: بل قال هذه الأبيات نصر لعثمان بن صدقة.

ويقال: إن الحارث لما أتى حائط مرو ليلاً فنقب فيه باباً ودخله وأصبح الكرماني في أثره داخلاً من الباب، قالت المضرية للحارث: قد تركنا الخنادق، فهو يومنا، وقد فررت غير مرة فترجّل.

فقال: أنا فارساً خير لكم مني راجلا[1].

قالوا: لا نرضى إلاّ أن ترجل.

فترجّل، فقتل هو وأخوه بشر بن جرموذ وعدة من فرسان تميم وانهزم الباقون، وصلب الحارث، وصفت مرو لليمن فهدموا دور المضرية. فقالت أم كثير الضبية:

لا بارك في أنثى وعذَّبها تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة أحللتموها بدار الذل والفقر
إن أنتم لم تكرّوا بعد جولتكم حتى تعيدوا[2] رجال الأزد في الظّهر
إني استحيت لكم في بذل طاعتكم هذا المروزي[3] يحكم على قهري

وفي هذه السنة: وجه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان [١٩/ب] وكتب إلى أصحابه:

إني قد أمرت بأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله فإني قد أمرته على خراسان، وما غلب عليه بعد ذلك، فأتاهم فلم يقبلوا قوله ولا كتابه، حتى خرجوا من قابل، فالتقوا بمكة عند إبراهيم فأعلمه أبو مسلم أنهم لن ينفذوا كتابه ولا أمره.

فقال إبراهيم: إني عرضت هذا الأمر على غير واحد، فأبوه عليّ، فأجمعت رأيي على هذا وأشار إليه، وأمرهم بالسمع والطاعة له.

وكان إبراهيم عرض ذلك على سليمان بن كثير، فقال: لا آلى أمر اثنين أبداً[4].

---

(١) كان رأيه خبرة قائد محارب مجرب يعرف مصلحة نفسه ومصلحة القتال وظروف المعركة. وكان قولهم له قول معاند متغطرس قليل الدرية والخبرة راكباً رأسه لا يبني آراءه إلا على إرضاء نفسه ونزعاته وهواه دون وعي أو تدبر لعاقبة أمره أو ما سيؤول إليه رأيه، فكان ما كان.

(٢) في الكامل: تعدوا.

(٣) هذه الشطرة في الكامل على النحو التالي:
هذا المزوني يجنيكم على قهرٍ، وقوله المزوني أصوب من المروزي حسب سياق الأحداث.
وقوله: «يجنيكم» أشار محققَ الكامل إلى أنها في الطبري: يجبيكم بالباء بدل النون.

(٤) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٩٤) في ترجمة سليمان بن كثير هذا.
العبدي البصري الحافظ إمام مشهور ثقة... وقال العُقيلي: سليمان بن كثير الواسطي، كذا نسبه، وقال مضطرب الحديث... مات سنة ثلاث وستين ومائة.
قلت: وكل من كان ذو لب وفطنة فَعَلَ فِعْل هذا الشيخ حيث قيل عن الإمارة: نِعم المرضعة =

ثم عرض على إبراهيم بن مسلمة فأبى، ثم قال إبراهيم لأبي مسلم: يا أبا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت، فاحفظ وصيتي:

انظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت في أمره، ومن كان في أمره شبهة، ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل. وأيما غلام خمسة أشبار بتهمة فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر[1] فاكتف به.

وفي هذه السنة: لقي أبو حمزة الخارجي عبد اللّه بن يحيى طالب الحق، فدعاه إلى مذهبه.

وكان أبو حمزة، واسمه المختار بن عوف الأزدي من أهل البصرة، يوافي الموسم كل سنة، يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد وآل مروان حتى وافى عبد اللّه بن يحيى في آخر سنة، فقال لعبد اللّه بن يحيى: يا رجل إني أسمع كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حق، انطلق معي فإني رجل مطاع في قومي.

فخرج به حتى ورد به حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة، ودعا إليه.

وكان أبو حمزة مَرَّ بعدن سليم وكثير بن عبد الرحمن عامل على المعدن فسمع بعض كلامه، فأمر به فَجُلِدَ أربعين سوطاً، ثم مضى إلى مكة، فلما قدم أبو حمزة المدينة وافتتحها تغيب كثير حتى كان من أمرهم ما كان.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

[**وفيها:** قتل شيبان بن عبد العزيز أبو دلف اليشكري الحروري][2].

= وبئس الفاطمة، ثم إننا لو فكرنا بتفكير بسيط جداً لوجدنا أنها ظهور نجم لمن يراه أو من هو في دائرته ومحيطه فقط لا يراه ولا يشعر به غيره وهو وهؤلاء الناظرين إليه الطامحين إلى أن ينالوا مثلما نال. وفي الحقيقة أن الأمر غير هذا تماماً فإني لو وجهت سؤالاً لرجل من أقصى الجنوب عن اسم حاكم من أقصى الشام ما عرفه على أغلب الأحوال، ثم إننا لو وجهنا سؤالاً لرجل عن اسم رئيس محافظته فغالباً لا يعرف اسمه، ثم لو سألناه عن اسم رئيس الحي الذي يقطن فيه غالباً لا يعرفه، ثم لو سألناه عن اسم مأمور القسم الذي يقيم بدائرته وتحت سلطته مباشرة ما عرفه إلا أن يكون من أرباب السوابق أو المشاغبين والمارقين على عادات المجتمع وقيمه وقوانينه. فحب الشهرة مرض من أمراض النفس الفطن من أعانه اللّه على التخلص منه فاللهم اجعلنا منهم آمين.

(١) في المخطوط: أمره، والتصويب من الكامل.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل بما هو مضمونه حيث سقط من أول أحداث السنة ما يفيد ما ذكرته.
ثم استرسل الكاتب في ذكر أحداث السنة.

كان السبب في ذلك

أن الخوارج لما قُتل الضحاك بن قيس الشيباني رئيسهم، ثم الخيبري بعده، وَلَّوْا أمرهم شيبان وبايعوه.

وكان مروان مقابلهم، فقال سليمان بن هشام [بن][١] عبد الملك (. . .)[٢] الخوارج وهو يومئذٍ معهم في عسكرهم: إن الذي يفعلون ليس برأيي وإلاّ انصرف عنكم قالوا: وما الرأي؟

قال: إنَّ[٣] أحدكم يظفر، ثم يستغفل فيقتل[٤]، فأرى أن ينصرف على حامتنا حتى ينزل الموصل ويخندق فقُبل منه.

وارتحل واتبعه مروان، فكان إذا رحل عن منزل نزل موضعه حتى أتى الموصل، فنزل شيبان بشرقي دجلة من الموصل، وخندق، ونزل مروان بإزائه من غربها وخندق، فأقام سنة يقاتلهم بكرة وعشية. فبرز يوماً ابن أخي سليمان بن هشام وكان مع عمه سليمان في عسكر شيبان فبارزه رجل من فرسان مروان، فأسره الرجل وأتى به مروان فقال:

أنشدك اللّه والرحم يا عم.

فقال: بيني وبينكم اليوم رحم؟!

فأمر به وعمه سليمان وإخوته ينظرون، فقطعت يداه ورجلاه، وضربت عنقه[٥].

فكتب مروان إلى يزيد بن هبيرة يأمره بالمسير من قَرْقِيسياء[٦] بجميع من معه إلى

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) موضع النقط سقط في المخطوط أو انقطاع في الكلام حيث لا يستقيم الكلام على نحو ما هو وارد به.

(٣) في المخطوط: إنَّا، وهو تحريف.

(٤) أي ينتصر ثم يتركه عدوه يلهو بنصره ويفخر به دون الانتباه من سكرة نصره إلا على هزيمة العدو له وهو غافل عنه مشغول بنصره.

(٥) في الكامل على النحو التالي:
وأُتي مروان بابن أخ سليمان بن هشام يقال له: أمية بن معاوية بن هشام وكان عمه سليمان في عسكر شيبان أسيراً فقطع يديه وضرب عنقه وعمه ينظر إليه.

(٦) قال ياقوت في معجم البلدان:
قال حمزة الأصبهاني: قرقيسيا معرب كركيسيا، وهو مأخوذ من كركيس، وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة، وكثيراً ما يجيء في الشعر مقصوراً. . .
بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور من الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات.
قيل: سميت بقرقيسيا بن طهمورث الملك قال بطليموس: مدينة قرقيسيا طولها أربع وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة. . . وفتحها على مثل صلح أهل الرقة. =

عبيدة بن سوار خليفة خليفة الضحاك من العراق.

فلقي خيوله بعين التمر، فقاتلهم، فهزمهم، وغلبهم يومئذٍ المثنى بن عمران، ثم تجمعوا له بالنخيلة من الكوفة فهزمهم، ثم تجمعوا له بالصراة ومعهم عبيدة، فقتل عبيدة وهزم أصحابه، واستباح عسكرهم فلم يكن لهم بقية بالعراق، واستولى ابن هبيرة عليها.

وكان منصور بن جمهور معهم فمضى حتى غلب على الماهين والخيل وسار سليمان بن هشام حتى لحق بابن معاوية الجعفري بفارس وبقي ابن عمر بواسط حتى سار إليه ابن هبيرة لما صَفَت له العراق [فكتب مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق][1]:

أن أمدني بعامر بن ضبارة في أهل الشام. فأمده به، فسار إلى أهل الشام حتى انتهى إلى السن فلقيه بها الحارث بن كلاب الخارجي فهزم ابن ضبارة حتى أدخله السن فتحصن وجعل مروان يمده بالجنود من طريق البر حتى ينتهوا إلى السن[2] ثم يقطعوا [٢٠/أ] دجلة إلى ابن ضبارة مصعداً حتى كثروا فنهض إلى الجون فقتله وسار ابن ضبارة مصعداً إلى الموصل، فلما انتهى خبر الجون وقتله إلى شيبان ومسير عامر انخزل. وكان شيبان لما بلغه مسير ابن ضبارة خاف أن يأتيه من ورائه، فأرسل إلى الجون مع عدة وافرة لشغله فحصره حتى كان من أمره ما كان، ولحق أصحاب الجون بشيبان، وابن ضبارة في أثاره، وكان شيبان والخوارج يقاتلون من وجهين.

نزل ابن ضبارة من ورائهم مما يلي العراق، ومروان أمامهم مما يلي الشام فقطع عنهم المادة، والميرة، وغلت أسعارهم حتى بلغ الرغيف درهماً، ثم ذهب الرغيف فلا شيء يشترى بغال ولا رخيص، فانتقل إلى شهرزور من أرض الموصل، فعاب عليه ذلك أصحابه، واختلفت[3] كلمتهم.

وارتحل شيبان ومن معه وأخذوا على حلوان الأهواز وفارس.

ووجه مروان إلى ابن ضبارة ثلاثة من قواده في ثلاثة آلاف من رابطته أحدهم مغضب

= فلما مات عياض بن غنم وولي الجزيرة عُمير بن سعد وولي رأس عين سلك الخابور وما يليه حتى أتى قرقيسياء وقد نقص أهلها، فصالحهم، على مثل صلحهم الأول.

(١) ما بين المعقوفين من الكامل.

(٢) قال ياقوت أيضاً في المعجم: السِّنّ: يقال لها سِنّ بارما: مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وجامع كبير وفي أهلها علماء وفيها كنائس وبِيَع للنصارى.
وعند السن مصب الزاب الأسفل.
قال الحازمي: والسن: موضع بالعراق وإليه ينسب أبو محمد عبد اللّه بن علي السِّنّي الفقيه من أصحاب القاضي أبي الطيب. سمع الحديث، وإياها عنى الشبلي الصوفي بقوله:
نزلنا السن نستنا ... وفينا من ترى حنّا
فلما جننا الليل ... بذلنا بيننا دنّا

(٣) في المخطوط: اختلف. وهو تحريف.

والآخر شفيق وعطيف، وكتب إليهم يأمرهم باتباعهم، وأن لا يقلع عنهم حتى يدبروهم ويستأصلوهم فلم يزالوا يتبعونهم حتى وردوا فارس، وهم في ذلك يستسقطون من لحق من أخرياتهم حتى تفرقوا وأخذ شيبان في فرقة إلى البحرين فقتل بها. وأقبل عامر بن ضبارة حتى نزل بإزاء ابن معاوية وناهضه القتال فانهزم ابن معاوية، ولحق بهراء. وسار سليمان إلى حرفه، فركب السفن فيمن معه من مواليه وأهل بيته إلى السند.

فانصرف مروان إلى منزله من حرّان[١] وأقام بها إلى أن شخص منها إلى التراب.

وفي السنة: أمر إبراهيم بن محمد أبا مسلم، وكان شَخَصَ من خراسان يريده حتى بلغ قومس [...][٢] بالانصراف إلى شيعته بخراسان وأمره بإظهار الدعوة إليهم والتسويد.

ذكر الخبر عن ذلك وعن مبدأ أمرهم

لم يزل أبو مسلم يختلف إلى خراسان حتى وقعت العصبية.

فلما اضطرب الخيل كتب سليمان بن كثير إلى أبي سلمة الخلال يسأله أن يكتب إلى الإمام حتى يُوجه رجلاً من أهل بيته فكتب أبو سلمة إلى إبراهيم، فبعث أبو مسلم - وقد كتبنا خبره فيما تقدم -. ثم كتب إبراهيم إلى أبي مسلم يأمره بالقدوم عليه يسأله عن أخبار الناس، فخرج في النصف من جمادى الآخر مع سبعين نفراً من النقباء بابدار ريعان من أرض خراسان، فعرض له كامل أو ابن كامل، فقال: أين تريدون؟

قالوا: الحج.

ثم خلا به أبو مسلم فدعاه، فأجابه، وكف عنه ومضى أبو مسلم إلى سرود فأقام بها ثم سار إلى نَسَا[٣] وعليها سليمان بن قيس السلمي غلاماً لنصر بن سيار، وكان قد

---

(١) قال صاحب معجم البلدان:
هي مدينة مشهورة عظيمة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مُضر، بينها وبين الرُها يوم، وبين الرّقة يومان.
وهي على طريق الموصل والشام والروم. قيل: سميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام لأنه أول من بناها، فعربت فقيل: حرَّان.
وذكر قوم أنها أول مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة، وهم الحرانيون الذين يذكرهم أصحاب كتب الملل والنحل.
وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أنه أراد حران.
وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهي حران.

(٢) موضع النقط عبارة ناقصة.

(٣) نَسَا قال عنها ياقوت:
كان سبب تسميتها بهذا الاسم أن المسلمين لما وردوا خراسان قصدوها فبلغ أهلها فهربوا ولم يتخلف بها غير النساء، فلما أتاها المسلمون لم يروا بها رجلاً، فقالوا: هؤلاء نساء، والنساء =

تعرض قبل وُرود أبي مسلم لقوم من الشيعة، فأخذهم فبلغ أبا مسلم فتنكب الطريق وأخذ في أسفل القرى حتى أتى قومس وعليها بيهس بن بديل العجلي، فأتاهم بيهس، فقال: أين تريدون؟

قالوا: نريد الحج.

قال: معكم فضل برذون يتبعونه.

قال أبو مسلم: أما بيعاً فلا ولكن خذ أي دواب شئت.

قال: اعرضوها عليّ، فعرضوها عليه، فأعجبه برذون منها سمند.

فقال أبو مسلم: هو لك، فأتاه وهو بقومس كتاب من الإمام، وكتاب إلى سليمان بن كثير، وكان في كتاب أبي مسلم:

إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث لقيك كتابي ووجه إليّ قحطبة بما معك توافيني به بالموسم.

فانصرف أبو مسلم إلى خراسان، ووجه قحطبة إلى الإمام.

فلما كان بنسا عرض لهم صاحب مسلحة في قرية من قُرى نسا، فقال لهم: من أنتم؟

قالوا: أردنا الحج، فبلغنا عن الطريق شيء خفناه. فرفعهم إلى عاصم بن قيس الشامي، فسألهم عن خبرهم فأخبروه.

فقال: ارحلوا على مهلٍ ولا تعجلوا، وأقام عندهم حتى ارتحلوا.

فقدم أبو مسلم بالمفضل فأجابه وقال: ارتحلوا، وأمر المفضل - وكان على شرطته - أن [لا][1] يزعجهم.

فخلا أبو مسلم بالمفضل، فأجابه وقال: ارتحلوا على مهل ولا تعجلوا [٢٠/ب] وأقام عندهم حتى رحلوا.

= لا يُقَاتَلْنَ، فنسأ أمرها الآن، إلى أن يعود رجالهن، فتركوها ومضوا، فسموا بذلك نساء والنسبة الصحيحة إليها نسائي، وقيل نسوي أيضاً، وكان من الواجب كسر النون.
وهي مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم، وبين نيسابور ستة أو سبعة أيام.
وهي مدينة وبئة جداً يكثر بها خروج العرق المديني، حتى إن الصيف قل من ينجو منه من أهلها. وقد خرج منها جماعة من أعيان العلماء منهم. أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي القاضي الحافظ صاحب كتاب السنن وكان إمام عصره في علم الحديث، وسكن مصر، وانتشرت تصانيفه بها، وهو أحد الأئمة الأعلام، صنف السنن وغيرها من الكتب.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فقدم أبو مسلم في[1] أول يوم من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة، فدفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، وكان فيه:

أن أظهر دعوتك ولا تربص.

فنصبوا أبا مسلم، وقالوا: رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى من قرب منهم ومن بعد ممن أجابهم، فأمروهم بإظهار أمرهم والدعاء [إليه][2].

فنزل أبو مسلم قرية من قرى خزاعة يقال لها: سكبدمع[1]، وشيبان، وأبي الكرماني يقاتلان نصر بن سيار فبث أبو مسلم دعاته في الناس وظهر أمره.

وقال الناس: قدم رجل من بني هاشم، فأتوه من كل وجه ظهر يوم الفطر في قرية خالد بن إبراهيم، فصلى بالناس يوم الفطر القاسم بن مجاشع المروي.

ثم ارتحل فنزل باللِّين[3] وهي قرية لخزاعة، فوافاه في يوم واحد أهل ستين قرية.

فأقام اثنين وأربعين يوماً، فكان أول فتح أتى أبا مسلم من قبل موسى بن كعب في نيروذ، وتشاغل بقتل عاصم بن قيس، ثم جاء من قبيل مرود الروذ، وكان أبو مسلم وجه أبا الجهم بن عطية إلى العلاء بن حريث بخوارزم بالجهار بالدعوة في شهر رمضان لخمس بقين من الشهر، فإن أعجلهم عدوهم دون الوقت، فعرضوا لهم بالأذى والمكروه فقد حل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم، وأن يظهروا السيوف ويجردوها من أغمادها وتجاهدوا أعداء اللّه وإن شغلهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا[4] بعد الوقت.

فلما كان ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة عقد اللواء الذي بعث به الإمام الذي يدعى: «الظل» على رمح طوله ثلاثة عشر وهو يتلو:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

ولبس السواد هو وسليمان بن كثير، وأخوه سليم، ومواليه، ومن كان أجاب

---

(١) في المخطوط: وفي. والواو زائدة فحذفتها.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل في التاريخ يقال لها: سفيذنج.
ولم أقف في معجم البلدان على مدينة أو قرية بأي من الاسمين.

(٣) قال ياقوت: اللِّين: ضد الخشن: اسم قرية بمرو، اشتقاقه كالذي بعده ينسب إليها محمد بن نصر بن الحسين بن عثمان المزني الليثي كان من الصالحين. . .
واللين أيضاً: أكبر قرية من كورة بين النهرين التي بين الموصل ونصيبين.

(٤) أي يصلوا الظهر، وفي هذا القول خلاف بين الأئمة فمنهم القائل بأن تصلي طائفة وتحرس الأخرى، ثم يتبادلون الموقف ومنهم من قال يصلوا فرادى ولا يفوتون الوقت، ومنهم من قال يؤجلون الوقت إلى حين انقضاء القتال.

الدعوة من أهل اسفندرنج.

وأوقد النار ليلته للشيعة، وكانت العلامة(١)، فتجمعوا له حين أصبحوا.

وتأويل هذين الاسمين: الظل والسحاب تطبق الأرض.

فكذلك دعوة بني العباس تطبق الأرض، وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً، وكذلك لا تخلو الأرض من خليفة عباس أبد الدهر.

وقدمت على أبي مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة فكان أول من قدم عليه أهل التقادم مع أبي الوضاح في تسعمائة راجل وأربعة فرسان.

وقدم أهل التقادم مع أبي القاسم محرز بن إبراهيم في ألف وثلاثمائة راجل، وستة عشر فارساً.

فجعل أهل التقادم يكبرون من ناحيتهم، وأهل التقادم يجيبونهم بالتكبير، فلا يزالوا كذلك حتى دخلوا عسكر أبي مسلم بسفندرنج، وذلك يوم السبت من بعد ظهور أبي مسلم بيومين. وأمر أبو مسلم أن يزم حصن سفندرنج ويحصن ويدرب سفندرنج بالدروب.

فلما حضر العيد من يوم الفطر بسفندرنج، أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة، وأن ينصب له منبراً بالعسكر، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة(٢).

وكان يومئذٍ يبدأ بالخطبة بأذان، ثم الصلاة بإقامة على رسم صلاة يوم الجمعة، فيخطبون على المنابر جلوساً في الجمع والأعياد(٣).

وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير في الركعة الأولى أن يكبر ست تكبيرات تباعاً، ثم يقرأ ويركع، ويفتتح الخطبة بالتكبير، ثم يختمها بالقرآن.

وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات.

---

(١) هناك سلاح يحمله القادة العسكريين في هذه الإسلام يسمى طبنجة إشارة، تطلق هذه الطبنجة طلقات إشارة ضوئية بألوان عدة، ويرمز كل لون على معنى يتعاون عليه القائد مع جنوده، وعلى تنفيذ مهمةٍ معينة أو الكف عنها أو تنفيذ أمر معين فعند إطلاقه لطلقة من هذا النوع في ليل أو نهار يقومون بتنفيذ ما كان سبق الاتفاق عليه.
وما فعلوه هنا أشبه بذلك.

(٢) كان ديدنهم قبل ذلك هو الخطبة قبل الصلاة، وذلك لكي لا ينصرف الناس عن الخطيب، وفي ذلك مخالفة صريحة لسنة النبي ﷺ، فرأى الرجوع لسنته ﷺ.

(٣) في المخطوط: الاعتياد، وهو تحريف.

فلما قضى سليمان بن كثير الخطبة والصلاة، انصرف أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم أبو مسلم وهو في الخندق. [فأكلوا مستبشرين، وكان أبو مسلم وهو في الخندق إذا][1] كتب إلى نصر بن سيار يكتب للأمير نصر، فلما قوي بمن اجتمع إليه في خندقه من الشيعة بدأ بنفسه[2] فكتب إلى نصر: أما بعد:

فإن اللّه تباركت أسماؤه وتعالى عيَّر قوماً فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ [٢١/أ] فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

فتعاظم نصر الكتاب، وأنه بدأ من نفسه[3] وكسر إحدى عينيه[4]، وأطال الفكر ثم قال: هذا كتاب له أخوات.

ولما استقر بأبي مسلم تعسكره بالماخوان أمر محرز بن إبراهيم أن يخندق خندقاً بجيرنج[5] ويجمع إليه أصحابه، ومن نزع إليه من الشيعة فتقطع مادة نصر بن سيار من مرو الروذ من بلخ ومن كور طخارستان.

ففعل ذلك محرزاً، واجتمع إليه في خندقه نحو من ألف رجل.

فأمر أبو مسلم كامل بن مظفر أن يوجه رجلاً إلى فندق محرز بن إبراهيم لعرض من فيه وإحصاءهم في دفتر بأسمائهم، وأسماء آبائهم وقراهم. فوجه كامل حميد الأزرق الكاتب فأحصى في خندق محرز ثمانمائة رجل...[6] أربعة رجال وأسماءهم وقراهم، فوجه مع من أهل الكوفة فكان يجلب لهم الغنم من هراة إلى مرو، ومن ريع

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأضفته من الكامل في التاريخ.

(٢) في المخطوط: فنفسه. وهو تحريف.

(٣) كذا في المخطوط، والأصوب أن يقول بنفسه.

(٤) يريد أطال النظر وأمعن في التفكير في أمره وقدح زناد فكره في محاولة استطلاع واستجلاء الأمر على أقرب وجه لحقيقته.

(٥) قال ياقوت في معجم البلدان:
بليدة من نواحي مرو على نهرها ذات جانبين وعلى نهرها قنطرة عظيمة عليها بعض أسواقها، ورأيتها في سنة (٦١٦) قبل ورود التتر، وهي أعمر شيء وأنبله، فيها الدور العالية، والمنازل النفيسة والأسواق الكبيرة العامرة والأهل المزدحمون، بينها وبين مرو عشرة فراسخ في طريق هراة ومرو الروذ وبنج ده ينسب إليها جماعة وافرة من العلماء، منهم: أبو بكر أحمد بن محمد الجيرنجي، حدث ببغداد عن عبد اللّه بن علي الكرماني، روى عنه أبو الحسن بن البواب.

(٦) موضع النقط ساقط في المخطوط، وأظن أنه وكل عن كل مائتين رجل من أهل الخندق رجل فصار للثمانمائة رجل أربعة رجال يقومون على شؤونهم كعرفاء أو ما يسمى في عصرنا بالشؤون الإدارية لهم.

حرقان، ومن ريع السقادم فلم يزل محرز مقيماً في خندقه حتى دخل أبو مسلم حائط مرو وعطل الخندق بماخوان[١] وإلى أن عسكر بباب مرخى يريد نيسابور، فضم إليه محرزاً وأصحابه. ثم إن نصر بن سيار وَجَّهَ مولى له يقال له: يزيد في خيل عظيمة لمحاربة أبي مسلم، وذلك بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره.

فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي، ومعه مصعب بن قيس فالتقوا بقرية تدعى: ألين، فدعاهم مالك إلى الرضا من آل رسول اللّه ﷺ، فاستكبروا عن ذلك.

فصافهم مالك وهو في نحو من مائتين من أول النهار إلى وقت العصر.

وقدم على أبي مسلم صالح بن سليمان الضبي، وإبراهيم بن يزيد، وزياد بن عيسى، فوجَّههم إلى مالك بن الهيثم، فقدموا عليه مع العصر، فقوي بهم.

فقال يزيد مولى نصر بن سيار لأصحابه: إن تركنا هؤلاء الليلة أتتهم الأمداد، فاحملوا على القوم، ففعلوا، وترجل أبو نصر، وحرّض أصحابه واجتلدوا جلاداً صادقاً به.

وصبر الفريقان، فقتل من شيعة بني مروان نفراً وأُسر جماعة.

وحمل عبد اللّه الطائي على يزيد مولى نصر وهو عميد القوم، فأسره، وانهزم أصحابه..

فوجه أبو نصر بالأسير مع عبد اللّه الطائي وعدة من أصحابه ومعهم الأسرى والرؤوس.

وأقام أبو نصر في معسكره، فقدم الوفد على أبي مسلم في معسكره بسفيدح، فأمر أبو مسلم بالرؤوس فنصبت على باب الحائط الذي في عسكره ودفع يزيد الأسرى إلى أبي إسحاق خالد بن عثمان، وأمره أن يعالج يزيد مولى نصر من جراحات كانت به، ويحسن بعهده.

وكتب إلى أبي نصر مالك بالقدوم عليه، فلما اندمل يزيد مولى نصر [من][٢] جراحاته التي كانت به دعاه أبو مسلم، فقال: إن شئت أن تقيم معنا ويدخل في دعوتنا فقد أرشدك اللّه، وإن كرهت، فارجع إلى مولاك سالماً وأعطنا عهدك باللّه أن لا تحاربنا أبداً، ولا تكذب علينا، وأن تقول فينا [خيراً][٣].

---

(١) قال صاحب معجم البلدان: قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة إلى الصحراء ينسب إليها أحمد بن شَبُّويَه بن أحمد بن ثابت بن عثمان بن يزيد بن مسعود بن يزيد الأكبر بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن قرط بن مازن بن سنان بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء أبو الحسن الخزاعي الماخواني وقيل هو مولى بديل بن ورقاء الخزاعي.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، والسياق يقتضيه.

(٣) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

فاختار الرجوع إلى مولاه، فخلى له الطريق[١].

وقال أبو مسلم لأصحابه: إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح، فإنّا عندهم على غير الإسلام، وكذلك كانوا عندهم يرجفون بعبادة الأوثان واستحلال الدماء والأموال والفروج.

فلما قدم يزيد على نصر قال: لا مرحباً بك، واللّه ما استبقاك القوم إلاّ ليتخذوك حجة علينا.

قال يزيد: فهو واللّه ما ظننت، وقد استحلفوني أن لا أكذب عليهم، وأشهد لقد رأيتهم يصلون الصلوات الخمس لمواقيتها بأذان وإقامة، ويتلون القرآن، ويذكرون اللّه كثيراً، ويدعون إلى ولاية آل الرسول ﷺ، وما أحسب أمرهم إلاّ سيعلو ويظهر.

فهذه أولى حرب كانت بين الشيعة العباسية وشيعة بني مروان.

وقد روي مبدأ خبر أبي مسلم رواية أخرى وهي: أن أبا مسلم لما قدم خراسان كان حديث السن فلم يقبله سليمان بن كثير، وتخوّف أن لا يقوى على أمرهم، وخاف على نفسه وأصحابه ورده، وكان أبو داود وخالد بن إبراهيم غائباً وراء النهر الذي يبلغ.

فلما انصرف وقدم مروان، وأقرؤوه كتاب الإمام فسأل عن الرجل الذي وجهه وأخبروه أن سليمان [٢١/ب] بن كثير ردّه.

فأرسل إلى جميع النقباء، فاجتمعوا في منزل عمران بن إسماعيل، فقال لهم أبو داود:

أتاكم كتاب الإمام إبراهيم فمن وجّهه إليكم فرددتموه فما حجّتكم[٢] في ردّه؟

فقال سليمان بن كثير لحداثة سِنّه وتخوفنا أن لا يقدر على القيام بهذا الأمر أشفقنا على من دعوتنا إليه[٣]، وعلى أنفسنا.

---

(١) وفي تصرف أبي مسلم هذا خطة عسكرية ناجحة مع ما فيها من حسن الخلق الإسلامي الذي يعرفه الطرفان جيداً فهو في هذا لا يلقن الجريح درساً في الإسلام، وإنما أراد أن يبين لأهل الشبهة الذين لا تتضح لهم حقيقة الأمور أو أسباب الصراع ما يريد أن يوضحه لهم أو يوصله إليهم من رسائل غير مباشرة في صورة لسان هذا الأسير، وما لقي من معاملة حسنة، ورأى أثناء وجوده معهم من معاشرة طيبة بينهم وبين بعضهم وإقامتهم لفروض الإسلام ومحافظتهم وحرصهم عليها ورفض لما رفض ونبذ الإسلام من الأخلاق والسلوكيات المذمومة، وها نحن نرى فيما يستقبل من كلام في الكتاب ما يؤيد ما أقول وقد فهم ذلك جيداً نصر بما لديه من خبرة عسكرية ودراية بشؤون الحرب المعنوية والنفسية، وأثرها الكبير في نفوس الجند ووقع عليهم.

(٢) في المخطوط: حجبتكم، وهو تحريف.

(٣) في الكامل: خفنا على من دعونا، وعلى أنفسنا.

فقال أبو داود: هل فيكم من يشك أن اللّه عزّ وجلّ اختار محمداً ﷺ وانتخبه واجتباه وبعثه برسالته إلى جميع خلقه؟

قالوا: لا.

قال: فتشكون أن اللّه عزّ وجلّ أنزل عليه كتابه فأتاه به الروح الأمين أحل فيه حلاله وحرّم فيه حرامه وشرع شرائعه وسن فيه سننه، وأنبأه فيه بما كان من قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: لا.

قال: فتشكون أن اللّه قبضه إليه بعدما أدّى ما عليه من رسالة ربه؟

قالوا: لا.

قال: فتظنون ذلك العلم الذي أنزله عليه ليقومنا به رفع معه أو خلفه؟

قالوا: بل خلفه.

قال: أفتظنون خلفه عند غير عترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب[(١)]؟

قالوا: لا.

قال: فهل فيكم من إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس مجتمعين إليه بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه؟

قالوا: اللهم لا، وكيف يكون ذلك.

قال: لست أقول إنكم فعلتم، ولكن الشيطان ربما نزغ النزغة فيما لا يكون وفيما يكون، [ثم][(٢)] قال: فهل فيكم أحد بدا له أن ينصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عترة النبي ﷺ؟

قالوا: لا.

---

(١) ما سبق ذكره من حوار منزلق إلى هذا السؤال، وهذا السؤال إجابته أدى إلى ما صارت إليه الأُمة الإسلامية وخلاصة القول إن اللّه أنزل كتابه وكلف به جميع الخلق دون النظر إلى درجة القرية قرباً أو بعداً من رسول اللّه ﷺ، ثم أجرى على لسان نبيه ﷺ كلمات يرشد بها الناس إلى مراد اللّه تعالى من عباده فكل إنسان أخذ من ذلك النبع على قدر ما آتاه اللّه من قوة ذاكرة وبثه على من لاقاه، ولم يقيد السمع والفؤاد بدرجة القرب أو البعد من رسول اللّه ﷺ أيضاً.
أما بالنسبة لآل البيت على المسلمين قاطبة إكرام وإجلال آل بيت النبي ﷺ لا من أجل علمهم فحسب بل من أجل قرابتهم ما داموا قد آمنوا به ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه، وفي حبهم حب للنبي ﷺ مع الاحتراز من المغالاة في ذلك حيث إن كل أمر مهما كان إذا زاد عن الحد انقلب إلى الضد، ولا يصل الأمر في كل الأحوال إلى قتال مسلم مهما كان رأيه أو درجة حبّه لآل بيت النبي ﷺ.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

قال: أفتشكون في أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول اللّه ﷺ.

قالوا: اللهم لا.

قال: فأراكم قد شككتم في أمركم ورددتم علمهم ولو لم يعلموا أن هذا الرجل هو الذي ينبغي له أن يقوم بأمرهم لم يبعثوه إليكم، وهو لا يتهم في موالاتهم ونصرتهم والقيام بحقهم.

فبعثوا إلى أبي مسلم وردوه من قومس[١] بقول أبي داود، وولوه أمرهم وسمعوا له وأطاعوه.

فلم تزل تلك في نفس أبي مسلم على سليمان بن كثير، ولم يزل يعرفها لأبي داود، وأطاعه الشيعة من النقباء وغيرهم.

وأمر أبي مسلم فبث الدعاة[٢] في أقطار خراسان ودخل الناس أفواجاً، وكتب إليه إبراهيم في إظهار دعوته، وأن يوجه إليهم قحطبة بن شبيب ويحمل إليه ما اجتمع عنده ثلاثمائة ألف وستون ألف درهم، فاشترى بها متاع التجار من القوهى[٣] والروب والحرير والفريد، وجعلها في سبائك من الذهب والفضة في الأقبية المحشوة، وأشباهها فبعث جميع ذلك مع قحطبة حين اجتمعت القوافل على ما أنفذه.

وفي هذه السنة: تحالفت عامة من كانت بخراسان قبائل العرب على قتال أبي مسلم، وذلك حين كثر أتباع أبي مسلم، وقوي أمره.

ذكر السبب في ذلك

لما ظهر أبي مسلم سارع إليه الناس وجعل أهل مرو يأتونه لا يعرض لهم أحد.

وكان الكرماني وشيبان لا يكرهان أمر أبي مسلم لأنه دعا إلى خلع مروان، وأبو مسلم في خباء ليس له حرس ولا حجاب، فعظم أمره عند الناس وقالوا: ظهر رجل من بني هاشم له حلم، ووقار، وعليه سكينة.

فانطلق عند ذلك فتية من أهل مرو نساك كانوا يطلبون الفقه، فأتوا أبا مسلم في

---

(١) في المخطوط: ورده من قوس، وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: الدعاء، وهو تحريف.

(٣) قال ابن منظور في لسان العرب:
القوهى: ضرب من الثياب بيض فارسي.
قال الأزهري: الثياب القوهية معروفة منسوبة إلى قوهستان.
قال ذو الرمة:

من القهر والقوهى بيض المقانع

عسكره فسألوه عن نسبه[١].

فقال: خيري لكم من نسبي.

وسألوه عن أشياء من الفقه.

فقال: إن أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن في شغل، فاعفونا ليتوفى ما أنتم أحوج ونحن إليه.

فقالوا: واللَّه ما نعرف لك نسباً، ولا نظنك تبقى قليلاً حتى تقتل، وما بينك وبين ذلك إلاّ أن يتفرغ لك أحد هذين الأمرين.

قال أبو مسلم: بل أنا أقتلهم إن شاء اللَّه[٢].

ورجع الفتية، فأتوا نصراً، فحدّثوه.

فقال: جزاكم اللَّه خيراً مثلكم تفقه هذا وعرفه، وأتوا شيبان، فأعلموه.

فقال: نحن قد استحى بعضنا بعضاً، فأرسل إليه نصر: إن شئت فكف عني حتى أقاتله وإن شئت فجيء معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه، ثم نعود لأمرنا.

فهَمَّ شيبان أن يفعل ذلك، وظهر في [٢٢/أ] العسكر.

وأتت عيون أبي مسلم أبا مسلم فأخبروه، فقال سليمان لأبي مسلم: ما هذا الذي بلغهم تكلمت عند أحد بشيء؟

فأخبره خبر الفتية.

فقال: هذا إذاً لذلك، فكتبوا إلى علي بن الكرماني إنك موتور، قتل أبوك، ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان، وإنما تقاتل لثأرك، فامنع شيبان من صلح نصر.

---

(١) هذه طبيعة الشباب والفتية يهتمون دائماً بالشكليات ويتمسكون بذلك تمسكاً شديداً وهم يظنون أن الشكليات تؤدي إلى المضامين والجوهر المطلوب ولست أقصد من كلامي هذا تأييداً لما قال، وإنما لوصف حال الشباب على مر العصور.

(٢) وهنا تنتقل المسألة من الشرع إجمالاً وتفصيلاً إلى السياسة إجمالاً وتفصيلاً لابسة ثياب الشرع، وهذا مع إقراري بأن الدين هو الحاكم لسياسة الدولة مع الدول الأخرى وقول من قال لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة قول جانبه الصواب فالدين إنما هو تنظيم العلاقة بين العبد وربه، وعلاقة الفرد بالمجتمع، والمجتمع بالمجتمعات المحيطة به، وهذه الأخيرة هي السياسة، وقد كان رسول اللَّه ﷺ إمام المسلمين في الصلاة، وقائدهم في المعارك ومتحدثهم مع الوفود. فلم يوكل رجالاً بعينهم للصلاة وآخرين للجهاد وغيرهم للسياسة وإنما كانت كل الأمور في يديه، ولما اتسعت الدولة، فلا مانع من تخصيص رجال لكل ذلك على أن تكون قاعدتهم الأساسية التي ينطلقون منها في تنفيذ مهامهم في إطار وحدود الشريعة.

فدخل على شيبان فكلمه وثناه عن رأيه.

فأرسل نصر إلى شيبان أنك مغرور، وأيم اللّه إني أرى هذا الأمر يتفاقم حتى تصغرني في جنبه[١].

فبينا هم في أمرهم إذ بعث أبو مسلم النضر بن نعيم الضبي إلى هراة، وعليها عيسى بن عقيل بن معقل الليثي، فطرده من هراة.

فقدم عيسى بن عقيل على نصر منهزماً، وغلب النضر على هراة، وغلب حازم بن خزيمة على مرو الروذ، وقتل عامل نصر بن سيار، وكتب بالفتح إلى أبي مسلم مع ابنه خزيمة بن حازم، فقال يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني: اختاروا إما أن تهلكوا أنتم قبل مضر، أو تهلك مضر قبلكم؟

قالوا: كيف ذلك؟

قال: إن هذا الرجل إنما ظهر منذ شهر، وقد صار في عسكره مثل عسكركم.

قالوا: فما الرأي؟

قال: صالحوا نصر فإنكم إن صالحتموه قاتلوا[٢] نصراً وتركوكم لأن الأمر في مضر، وإن لم تصالحوا نصراً صالحوه وقاتلوكم.

ثم عادوا عليه قالوا: فما الرأي؟

قال: قدموهم قبلكم ولو بساعة فتقر أعينكم بقتلهم.

فأرسل شيبان إلى نصر يدعوه إلى الموادعة، فأجابه، وأرسل إليه سلم بن أحوز، فكتب بينهم كتاباً وأتى به شيبان وعن يمينه ابن الكرماني وعن يساره يحيى بن نعيم، فقال سلم لابن الكرماني: يا أعور، ما أخلقك أن تكون الأعور الذي بلغنا أن هلاك مضر يكون على يديه؟

ثم توادعوا سنة، وكتبوا بينهم كتاباً.

---

(١) في الكامل: حتى يستصغر في جنبه كل كبير.
ثم أضاف: وقال شعراً يخاطب به ربيعة، واليمن، ويحثهم على الاتفاق معه على حرب أبي مسلم:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يَمنٍ	أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم	كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أحاط بكم	ممن تأشب لا دين ولا حسب
لا عرب مثلكم في الناس نعرفهم	ولا صريح موال إن هم نُسبوا
من كان يسألني عن أصل دينهم	فإن دينهم أن تهلك العرب
قوم يقولون قولاً ما سمعت به	عن النبي ولا جاءت به الكتب

(٢) في المخطوط: فاقتلوا، وهو تحريف.

فبلغ أبا مسلم، فأرسل إلى شيبان: إنا نوادعك شهراً، فتوادعوا ثلاثة أشهر.

فقال ابن الكرماني: فإني واللّه ما صالحت نصراً، وإنما صالحه شيبان وأنا لذلك كاره، وأنا موتور ولا أدع قتاله..

فعاوده القتال وأبي[1] شيبان أن يعينه وقال: لا يحل الغرر.

فأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم يستنصره على نصر بن سيار، فأقبل أبو مسلم حتى نزل الماخوان[2]، فأرسل إلى ابن الكرماني شبل بن طهمان يعرفه أني قد أقبلت، وأنا معكم على نصر.

فقال ابن الكرماني لشبل: إني أحب أن يلقاني، أبو مسلم.

فأبلغه ذلك شبل، وأقام أبو مسلم أربعة عشر يوماً، ثم سار إلى ابن الكرماني، وخلف عسكره بالماخوان[3].

فتلقاه عثمان الكرماني في خيل وسار معه حتى دخل العسكر، وأتى حجرة عَلِي، فوقف حتى أذن له فدخل، وسلم عَلَى عَلِيّ بالإمرة، وقد اتخذ علي له منزلاً في قصر لمخلد بن الحسن الأزدي، وأقام يومين، ثم انصرف إلى عسكره بالماخوان[4] وكان احتفر بها خندقاً، وجعل له بابين، ووكل بكل باب ثقات، واستعمل على الشرط أبا نصر مالك بن الهيثم، وعلى الحرس أبا إسحاق خالد بن عثمان، وعلى ديوان الجند كامل بن المظفر، ويكنى أبا صالح، وعلى الرسائل[5] أسلم بن صبيح، وعلى القضاء القاسم بن مجاشع النقيب، وكان القاسم بن مجاشع يصلي بأبي مسلم في الخندق الصلوات، ويقص القصص بعد العصر، فيذكر فضل بني هاشم، ومعايب بني أمية، وبني مروان.

ولم يزل أبو مسلم كرجل من الشيعة في الهيبة حتى أتاه عبد اللّه بن بسام بالأروقة[6] والفساطيط[7]، وبآلة المطابخ، والمطابخ، والمعالف للدواب، وحياض الأدم للماء.

فاستعمل أبو مسلم داود بن كراز على العبيد، وأفردهم عن عسكره، واحتفر لهم خندقاً، ثم أمر أبو مسلم كامل بن مظفر، أن يعرض الجند في الخندق بأسمائهم وأسماء

---

(١) في المخطوط: وأبو، وهذا تحريف، وليس المراد كنية، وإنما الصواب: أبى، أي رفض من الإباء.
(٢) في المخطوط: الماحوران، وهو تحريف وقد سبق التعريف بها.
وقال ابن الأثير بعد هذا في الكامل: وكان مقامه بسفيذنج اثنين وأربعين يوماً.
(٣) في المخطوط: الماخوران، وهو تحريف والتصويب من كامل.
(٤) في المخطوط: بالموخوان. وهو تحريف.
(٥) وهو ما يسمى في عصرنا بوزارة المواصلات والتي تشمل البريد، والاتصالات السلكية واللاسلكية، وأشياء أخرى كثيرة.
(٦) أماكن الإعاشة التي يكون قطانها ليسوا ملاكاً لها في غالب الأحوال.
(٧) الفساطيط: هي الخيام وكانت قديماً من أهم أمتعة العرب حالين أو مرتحلين.

آبائهم وحلاهم وأن ينسبهم إلى القرى، ويجعل ذلك في دفتر ففعل، وبلغت عدتهم سبعة آلاف رجل، فأعطى كل رجل ثلاثة دراهم، ثم أعطاهم بعد ذلك أربعة، وأربعة على يد أبي صالح كامل.

ثم إن القبائل [٢٢/ب] من مضر وربيعة، وقحطان تواعدوا على وضع الحروب، وعلى أن تجمع كلمتهم على محاربة أبي مسلم فإذا نفوه عن مرو نظروا في أمر أنفسهم، وعلى ما يجتمعون عليه[١]، وكتبوا على أنفسهم كتاباً بذلك وثيقاً، وبلغ أبا مسلم الخبر فأقطعه ذلك وأعظمه، فنظر أبو مسلم في أمره، فإذا ماخوان سافلة الماء[٢]، فتخوف أن يقطع نصر بن سيار عنه الماء فتحول إلى ألين قرية أبي منصور طلحة زريق النقيب، وخندق بألين خندقاً وجعل شربه وشرب آل ألين من نهر يدعى الحرفان لا يمكن قطعه عنهم.

وخرج نصر بن سيار إليه فعسكر على نهر عياض وفرق قواده حول أبي مسلم ليواقعه، وكان أحد قواده أبو الذيال، فأنزل جنده بطوسان، وكان عامة أهلها مع أبي مسلم في الخندق، فآذوا أهل طوسان وعسفوهم، وذبحوا بقرهم ودجاجهم وحمامهم، وكلفوهم الطعام والعلف.

فشكت الشيعة ذلك إلى أبي مسلم، فوجه معهم خيلاً، فلقوا أبا الذيال فهزموه وأصحابه، وأسروا منهم جماعة.

فكساهم أبو مسلم وداوى جراحهم، وخلى سبيلهم[٣].

---

(١) وهذا ما ينطبق عليه المثل الشعبي المصري: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب. أو القول السائر: الإخوة الأعداء. وهذا نوع من اتحاد المصالح مع تضاد المقاصد وهذا أمر غريب عند البشر، كيف تسود أو تغلب مصالح النفس وهواها على ما هو فطري وطبيعي في تناغم الكون واتساقه في أن يعيش الإنسان نقي السريرة مستقر الفؤاد سمح السجايا مستجيباً لربه محباً لبني جنسه عاملاً على إسعادهم وإدخال البهجة والسرور إلى نفوسهم.
إنه لأمر غريب أن نقاتل عدواً واحداً مع الاتفاق أن ندبر أسلحتنا إلى صدور بعضنا إذا ما انتهينا من أمر عدونا المشترك، إن أمر الإنسان على هذا الكون لعجيب إذا حاد عن طريق اللّه تعالى. ولهذا كان الإسلام منسجماً مع فطر الإنسان فقد رفض فكره أن تختلف المقاصد وجعل القصد واحد ألا وهو إرضاء اللّه ومحاربة عدوه لإقامة شرعه وتحقيق العدل بين الناس، فقال ﷺ: لا أستعين بمشرك على مشرك في اختصار شديد، وقوله: أسلم ثم قاتل. فنعم النبي كان، ونعم الدين جاء به، ونعم البشر اتبعوه.

(٢) أي بعيدة أو قليلة أو غاثرة الماء.

(٣) وهذه ضربة عسكرية معنوية أخرى من أبي مسلم لنصر بن سيار حيث ضربه من قبل بمولا يزيد، ثم هو اليوم يفعل نحو الفعل الأول مع الأسرى الذين أسرهم من أتباعه من جماعة أبي الذيال حيث أكرمهم وداواهم وكساهم وأطلق سراحهم بلا قيد ولا شرط، فكيف يقاتله هذا الجندي مرة أخرى وقد رأى من كرمه، ونبل أخلاقه، وحسن دعوته، وحرصه على العبادة وإقامة الدين، وشعر بأنه مضلل فيما كان يقال له عنه قبل أن يشاهد بنفسه هذا الرجل وجماعته ويعايشهم وهو في أضعف صوره، وهم في أعزها.

وفي هذه السنة: قتل خديج بن علي الكرماني وصلب.

ذكر مقتل جديع بن علي الكرماني وصلبه

قد ذكرنا مقتل الحارث بن شريح، وأن الكرماني هو الذي قتله، ولما قتله خلصت له مرو، وتنحى نصر بن سيار عنها إلى إيرشهر، وقوي أمر الكرماني، فوجه إليه نصر سلم بن أحوز، فسار في رائطة نصر وفرسانه حتى لقي الكرماني، فوجد يحيى بن نعيم واقفاً في ألف رجل من ربيعة، ومحمد بن المثنى في سبعمائة من فرسان الأزدي وجماعة أُخر[١] في ألف من فتيانهم، والسغدي في ألف من أبناء اليمن. فلما توافقوا قال سلم بن أحوز لمحمد بن المثنى: يا محمد، مُرْ هذا الملاح بالخروج إلينا.

فقال محمد لسلم: يا ابن الفاعلة لأبي علي تقول هذا؟!

ودلف القوم بعضهم إلى بعض، فاجتلدوا بالسيوف فانهزم سلم بن أحوز، وقتل من أصحاب خلق وقدم أصحابه نصر عليه فلولاً.

وقال له عقيل: يا نصر شأمت[٢] العرب فأما إذا صنعت ما صنعت فشمر عن ساق وجد.

فوجه عصمة بن عبد اللَّه، فوقف سلم بن أحوز فنادى: يا محمد، لتعلمن أن السمك لا يغلب اللخم[٣].

فقال محمد: لتعلمن. فَوَقِّف لنا إذاً وأَمَّ[٤] محمد السغدي، فخرج إليه في أهل

---

(١) في الكامل بدل هذه الكلمة تعريف باسم أمير هذه الجماعة وهو قوله: ابن الحسن ابن الشيخ في ألف من فتيانهم.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب: الشؤم خلاف اليُمن، ورجل مشؤوم على قومه، والجمع مشائيم... والمشأمة: الشؤم، ويقال: شأم فلان أصحابه إذا أصابهم شؤم من قِبله...
تقول: ما أيشمه، وقد شأم فلان على قومه يشأمهم فهو شائم، إذا جُرَّ عليهم الشؤم.

(٣) اللُّخْمُ: بضم اللام وإسكان الخاء المعجمة ضرب من السمك ضخم يقال له الكوسج، وهو القرش.. وأنشد ابن سيده لبعض الأدباء:

لصيد اللُّخم في البحر	وصيد الأسد في البر
وقضم الثلج في القبر	ونقل الصخر في الحر
وإقدام على الموت	وتحويل إلى القبر
لأشهى من طلاب العز	ممن عاش في الفقر

وحكمه حل الأكل على ما يظهر.
وقد قال أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير في كتابه: نهاية غريب الحديث، ما نصه في حديث عكرمة رضي اللَّه عنه:
اللخم حلال، وهو ضرب من سمك البحر يقال اسمه القرش.
قاله الدمير في حياة الحيوان.

(٤) في الكامل: قف لنا إذاً، وأمر محمد السعدي فخرج إليه.

اليمن، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم عصمة حتى أتى نصر وقد قتل من أصحابه أربعمائة، ثم أرسل نصر مالك بن عمير التميمي، فأقبل في أصحابه، فنادى: يا ابن المثنى ابرز لي إن كنت رجلاً، فبرز له فضربه التميمي على حبل عاتقه، فلم يصنع شيئاً، وضربه محمد بن المثنى بعمود فشدخ رأسه والتحم القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم أصحاب نصر، وقد قتل منهم سبعمائة رجل وقد قتل من أصحاب الكرماني ثلاثمائة رجل.

فلم يزل الشر بينهم حتى خرجوا جميعاً إلى الخندقين فاقتتلوا قتالاً شديداً.

ولما علم أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه، وأنه لا مدد لهم، جعل يكتب الكتاب إلى شيبان، ثم يقول للرسول: انطلق فاجعل طريقك على المضرية. فإنهم سيعرضون لك ويأخذون كتبك، فكانوا يأخذونها، فيجدون فيها: إني رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم، ولا خير فيهم، ولا تثقن بهم، ولا تطمئن إليهم، فإني أرجو أن يزيد اللّه في اليمانية ما تحب، ولئن بقيت لا أدع لهم شعراً ولا ظفراً.

ويرسل رسولاً آخر في طريق آخر فيه ذكر المضرية بمثل ذلك حتى سار هوى الفريقين جميعاً معه[1] وجعل يكتب إلى نصر بن سيار، وإلى الكرماني بمثل ذلك إن الإمام قد وصاني بكم ولست أعدو رأيه فيكم.

وكتب إلى الكور بإظهار الأمر، فكان أول من سود أسيد بن عبد اللّه الخزاعي بنسا ونادى: يا محمد، يا منصور، وسود معه مقاتل بن الحكم وغيره وسود أهل أبيورد[2]، وأهل مرو الروذ، وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق ابن سيار، وخندق خديج [٢٣/أ] الكرماني وهابه الفريقان، وكثر أصحابه وكتب نصر بن سيار إلى مروان يعلمه حال أبي مسلم وكثرة من معه، وإظهاره أمره، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب بأبيات شعر:

أرى خلل الرماد وبيض جم ... يوشك أن يكون له مرام
فإن النار من عودين تذكى ... وأن الحرب أوّله الكلام

---

(١) نوع من الخطط العسكرية للإيقاع بين الحليفين ليفت بينهم حتى يستطيع القضاء عليهما جميعاً.

(٢) قال الحموي في معجم بلدانه: أبيورد: ذكرت الفرس في أخبارها: أن الملك كيكاووس أقطع باورد بن جودرز أرضاً بخراسان فبنى بها مدينة وسماها باسمه فهي: أبيورد، مدينة بخراسان بين سرخس ونَسَا، وبئة رديئة الماء يكثر فيها خروج العِرْقِ وإليها ينسب الأديب أبو المظفر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأموي المعاوي الشاعر، وأصله من كُوفن قرية من قرى أبيورد، كان إماماً في كل فن من العلوم عارفاً بالنحو واللغة والنسب والأخبار، ويده باسطة في البلاغة، والإنشاء وله تصانيف في جميع ذلك، وشعره سائر مشهور، مات بأصبهان في العشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٠٧)...
وفتحت أبيورد على يد عبد اللّه بن عامر بن كريز سنة (٣١)، قيل فتحت قبل ذلك على يد الأحنف بن قيس التميمي.

فقلت من التعجب ليت شعري أ أيـقـاظ أمـيـة أم نـيـام
فـإن يـك قـومـنـا أمـنـوا رقـوداً فـقـيـل هُـبـوا فـقـد حـان الـقـيـام

وكتب إليه مروان:

الـشـاهـد يرى ما لا يرى الغائب فـاحـسـم الـبـالـول[١] قـبـلـك

فقال نصر: أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده. فكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده، وكتب إليه:

أبـلـغ يـزيـد وخـيـر الـقـول أصـدقه وقد تَثَبَّت[٢] أن لا خير في الكذب
إن خـراسـان أرض قـد أصبت بـهـا بيضاً لو أفرخ قد حُدِّثت بالعجب
فِـراخ عـامـيـن إلا أنـهـا كـبـرت لما يطرن فقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ[٣]
وإن يـطـرن لـم يـخـتـل لـهـن بـهـا يـلـهـبـن نيران حرب أيـمـا لـهـب

فقال: يُريد ولا عليه ألاّ يكبر، فليس عندي رجل، ولما كتب نصر إلى مروان يخبره خبر[٤] أبي مسلم وظهوره وقوته، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، ألفى[٥] وُرود كتاب نصر على مروان، وقدوم رسول لأبي مسلم كان أرسله إلى إبراهيم بن محمد ومعه جواب إبراهيم عن كتاب لأبي مسلم إليه يلومه أن لا يكون واثب نصراً والكرماني إذا مكناه، ويأمر أن لا يدع بخراسان متكلماً بالعربية إلاّ قتله.

فدفع الرسول الكتاب إلى مروان.

فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق أن يكتب إلى عامل البلقاء[٦] أن يسير إلى كراد والحميمة فليأخذ إبراهيم بن[٧] محمد فيشده وثاقاً

(١) كذا هذه الكلمة بغير نقط، ولم أعرف كيف تنقط أو تنطق، فاللّه أعلم.
(٢) في الكامل: تيقنت.
(٣) في المخطوط: وقد ينزلن بالرعب والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: يخبره وخبر. والواو لفظ زائد على السياق فحذفته ليستقيم المعنى.
(٥) أي وافق أو صادف.
(٦) قال ياقوت في معجم البلدان:
البَلْقَاءُ: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، وبجودة حنطها يضرب المثل.
ذكر هشام بن محمد عن الشرقي بن القُطامي أنها سميت البلقاء لأن بالق من بني عَمَّان بن لوط عليه السلام عمرها.
ومن البلقاء قرية الجبارين التي أراد اللّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.
وقال قوم: وبالبلقاء مدينة الشراة، شراة أرض الشام أرض معروفة وبها الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم.
وذكر بعض أهل السير أنها سميت ببلقاء بن سويدة من بني عسل بن لوط، وأما اشتقاقها فهي من البَلَق، وهي سواد وبياض مختلطان، ولذلك قيل: أبلق وبلقاء. والبلق أيضاً: الفسطاط.
(٧) في المخطوط: من، وهو تحريف.

ويبعث به في خيل.

فوجه الوليد إلى عامل البلقاء، فأتى إبراهيم وهو في مسجد القرية، فأخذه وكتفه وحمله إلى الوليد فحمله الوليد إلى مروان فحبسه في السجن.

رجع الحديث إلى قصة نصر والكرماني وما كان من قتل نصر، الكرماني وصلبه إياه:

وأظهر أبو مسلم لما تفاقم الأمر بين الكرماني وبين نصر أنه مع الكرماني [فقال][١]: ويلك لا تغتر، فواللّه إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه، ولكن هلم إلى الموادعة فندخل مرو، ونكتب بيننا كتاباً للصلح.

وهو يريد أن يُفرق بينه وبين أبي مسلم.

فدخل الكرماني منزله، وأقام أبو مسلم في العسكر وخرج الكرماني حتى وقف في الرحبة في مائة فارس عليه قرطق[٢] (......)[٣]، ثم أرسل إلى نصر:

اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب.

فأبصر نصر منه غرة، فوجه إليه ابن الحارث بن شريح في نحو ثلاثمائة فارس، فالتقوا في الرحبة فاقتتلوا فيها طويلاً.

ثم إن الكرماني طُعن في خاصرته، فخرَّ عن دابته، وحماه أصحابه حتى جاءهم ما لا قبل لهم به، فقتل نصر الكرماني وصلبه، وصلب معه سمكة.

فأقبل ابنه عَلِي وقد كان صار إلى أبي مسلم فقاتله حتى أخرجه من دار الإمارة، فمال إلى بعض دور مرو.

فأقبل أبو مسلم حتى دخل مرو، وأتاه علي بن جديع فسلم عليه بالإمارة، وأعلمه أنه معه على ما يريد من مساعدته.

وقال: مُرني بأمرك.

قال: قم على ما أنت عليه حتى آمرك بأمري.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) القُرْطَقُ: هو الكساء أو القباء. وقال ابن منظور في لسان العرب:
قرطق في حديث منصور: جاء الغلام وعليه قُرْطَقٌ أبيض، أي قَباءٌ.
وهو تعريب كُرته، وقد تضم طاؤه، وإبدال القاف من الهاء في الأسماء المعربة كثير، كالبرق، والباشق والمُسْتُق.
وفي حديث الخوارج: كأني أنظر إليه حبشي عليه قُرَيْطِقٌ.
وهو تصغير قرطق.

(٣) كلمة جاء في المخطوط على الرسم التالي: حنتكسويه. وقد يكون نوع من أنواع القراطق. وقد تكون كلمات دخلت في بعضها البعض.

وفي هذه السنة: غلب عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب على فارس[١].

ذكر الخبر في ذلك

لما كان سنة تسع وعشرين ومائة لم يكن عند الناس خير تعرفه حتى طلعت أعلام وعمائم سود في روح الرماح وهم سبعمائة، ففزع الناس منهم وقالوا لهم: ما حالكم؟

فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبري منهم.

فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة في الهدنة.

قالوا: نحن أضن بحجتنا[٢] وصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى تنفر الناس النفر الآخر، ويصبحوا من الغد.

فوقفوا على حده بعرفة، ودفع بالناس عبد الواحد، فلما كانوا بمنى، قدموا عبد الواحد، وقالوا له: أخطأت، لو حملت بالحجاج [٢٣/ ب] عليهم ما كانوا إلا أكلة رأس.

ولما كان في النفر الأول نفر عبد الواحد، وخلى مكة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال، وهجا الشعراء عبد الواحد[٣].

ومضى إلى المدينة، فضرب على الناس البعث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة.

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائة

وفيها: دخل أبو مسلم حائط مرو، وترك دار الإمارة.

---

(١) جاءت هذه العبارة في الكامل في التاريخ تحت عنوان: ذكر غلبة عبد اللّه بن معاوية على فارس وقتله، ولم يرد في خبر إلا تلك العبارة والخبر في الكامل طويل، ثم إنه ذكر باقي الخبر هنا تحت عنوان: ذكر أبي حمزة الخارجي وطالب الحق، فقال: وفي هذه السنة قدم أبو حمزة بلج بن عقبة الأزدي الخارجي من الحج من قبل عبد اللّه بن يحيى الحضرمي طالب الحق محكماً للخلاف على مروان بن محمد فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلا وقد طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح ثم ساق الخبر بأتم مما هو هنا.

(٢) في الكامل: نحن بحجنا أضن وعليه أشح.

(٣) ذكر ابن الأثير بعضاً مما هجاه به الشعراء فقال:

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ... دين الإله ففرَّ عبد الواحد

ترك الحلائل والإمارة هارباً ... ومضى يُخَبِّط كالبعير الشارد

ثم قال محقق الكامل: زاد الطبري بيتاً آخر وهو:

لو كان والده تنصل عرقُه ... لصفت مضاربُه بعرق الوالد

ذكر السبب في ذلك ومصيره إلى ابن جديع الكرماني، ومصير علي معه

إن سليمان بن كثير كان يقول لعلي بن الكرماني: يقول لك أبو مسلم أما تأنف من مصالحة[١] نصر بن سيار، وقد قتل أباك بالأمس وصلبه، وما كنت أحسبك تصلي مع نصر في مسجد واحد فأدرك علياً الحفيظة، فرجع عن رأيه وانتقض صلح العرب.

فبعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعث ربيعة وقحطان إليه بمثل ذلك.

فتراسلوا أياماً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يجتاز أحدهما، ففعلوا. وأمر أبو مسلم الشيعة أن تختار ربيعة وقحطان[٢] فإن السلطان في مضر، وهم عمال مروان، وهم قتلة[٣] يحيى بن زيد، فقدم الوفدان، وكان في وفد مضر عقيل بن مصقل، وعبد اللّه بن عبد ربه في رجال منهم.

وكان في وفد قحطان عثمان بن الكرماني ومحمد بن المثنى في رجال منهم، فلما دخلوا على أبي مسلم كان معه سبعون رجلاً من الشيعة ليختاروا أحد الفرقين.

فلما فرغ من قراءة الكتاب قام سليمان بن كثير فتكلم، وكان سليمان خطيباً مفوّهاً، فاختار علي بن الكرماني وأصحابه، ثم قام رجل[٤] بعد رجل من وجوه الشيعة فتكلموا بنحو كلام سليمان. ثم قام مرثد بن شفيق[٥] فقال: مضر قتلة آل النبي ﷺ وأعوان بني أمية، وشيعة مروان [الجعدي وعماله][٦] ودماؤنا في أعناقهم، وأموالنا في

---

(١) بدأ الخبر في الكامل على النحو التالي:
وفي هذه السنة دخل أبو مسلم مدينة مرو في ربيع الآخر.
وقيل في جمادى الأولى، وكان السبب في ذلك في اتفاق ابن الكرماني معه أن ابن الكرماني ومن معه، وسائر القبائل بخراسان لما عاقدوا نصراً على أبي مسلم عظم عليه وجمع أصحابه لحربهم، فكان سليمان بن كثير بإزاء ابن الكرماني.
فقال له سليمان: إن أبا مسلم يقول لك: أما تأنف من مصالحة نصر...، وساق الخبر على نحو مما هو هنا.

(٢) في الكامل: ربيعة، واليمن.

(٣) في المخطوط: قبيلة. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٤) ذكر ابن الأثير من قام بعد سليمان بن كثير في الكامل فقال:
ثم قام أبو منصور طلحة بن رزيق النقيب، فاختارهم أيضاً، ثم قام مرثد بن شقيق السلمي...

(٥) في المخطوط: مزيد بن شقيق والتصويب من الكامل.

(٦) زيادة من الكامل.

أيديهم، ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ[١] أموره ويدعو له على منبره ويسميه أمير المؤمنين، ونحن من ذلك براء، وقد اخترنا علي بن الكرماني، وأصحابه من كرمان وأصحابه من قحطان وربيعة، فضج من كان في البيت بأن القول ما قال مرثد[٢] بن شفيق فنهض وفد مضر عليهم الكآبة والذلة.

ووجه معهم أبو مسلم القاسم بن مجاشع في خيل حتى بلغوا مأمنهم.

ورجع وفد علي بن الكرماني مسرورين ومنصورين[٣] وقال أبو مسلم للشيعة استعدوا للشتاء. فقد أعفاكم اللّٰه من اجتماع كلمة العرب وصيرهم إلى افتراق، وكان ذلك من اللّٰه قدراً مقدوراً.

ذكر السبب في دخول حائط مرو

وكان حائط مرو في يد نصر لأنه عامل خراسان فأرسل علي بن الكرماني إلى أبي مسلم: أن أدخل مع عشيرتي ممن قبلي فتغلب على الحائط[٤].

فأرسل إليه أبو مسلم إني لست آمن أن تجمع يدك ويد نصر بن سيار [على محاربتي، ولكن ادخل أنت][٥].

فدخل علي بن الكرماني، فأنشب الحرب وبعث أبو مسلم أبا علي شبل بن طهمان النقيب في خيل، فدخلوا الحائط ونزل شبل [بقصر بخارى فأخذه][٥] وبعثوا إلى أبي مسلم: أن ادخل، فدخل أبو مسلم من خندق الماخوان وعلى مقدمته أسد[٦] بن عبد اللّٰه، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم [الخزاعي][٧]، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع [التميمي][٧] حتى دخل الحائط[٨] والفريقان يقتتلان فأمرهما بالكف وهو يتلو من كتاب اللّٰه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

(١) في الكامل: يتعد. وأشار محقق الكامل إلى أنه في الطبري: ينفذ. وهو موافق لما هنا.
(٢) في المخطوط: مزيد والتصويب من الكامل.
(٣) في الكامل: ورجع أبو مسلم من ألين إلى الماخوان، وأمر أبو مسلم الشيعة أن يبنوا المساكن فقد أغناهم اللّٰه من اجتماع كلمة العرب وما هنا موافق لما في الطبري. على قول محقق الكامل.
(٤) في الكامل: ثم أرسل إلى أبي مسلم علي بن الكرماني ليدخل مدينة مرو من ناحيته، وليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى.
فأرسل إليه أبو مسلم. . .
(٥) زيادة من الكامل وهي ساقطة من المخطوط.
(٦) في الكامل: أسيد.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في الكامل بدل هذه الكلمة في كل مواضعها في الخبر: مرو.

ومضى أبو مسلم حتى نزل قصر الإمارة الذي ينزله عمال خراسان.

وهرب نصر بن سيار وصفت مرو لأبي مسلم، فأمر أبا منصور هذا أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين استجابوا له سنة ثلاث ومائة، وكان مفوّهاً نبيلاً فصيحاً عالماً بحجج الهاشمية [ومعايب[١] الأموية]. وكان أبوه حَيّاً يكنى أبا دب، وكان شهد حرب عبد الرحمن بن الأشعث وصحب محمد بن أبي صفرة، وكان أبو مسلم يشاوره في الأمور، ويدعوه بالكنية يا أبا طلحة، ما تقول؟ وما رأيك؟

وكانت بيعته أبايعكم على كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول اللّه ﷺ عليكم بذلك عهد اللّه وميثاقه [٢٤/أ] والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت اللّه عز وجل، وعلى أن لا تلوا[٢] رزقاً ولا طمعاً[٣] حتى تبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدوكم أحدكم تحت قدميه ألاّ تهيجوه إلاّ بأمر ولاتكم.

فلما جلس أبو مسلم، [و][٤] سلم بن[٥] أحوز، ويونس بن عبد اللّه، وعقيل بن معقل وأصحابه شاوروا أبا طلحة، فقال له اجعل سوطك السيف، وسجنك القبر.

فأقدم عليهم أبو مسلم فقتلهم وكانت عدتهم أربعة وعشرين رجلاً صناديد.

ويقال: إن أبا مسلم لما دخل دار الإمارة بمرو أرسل إلى نصر مع لاهز بن قريظ وقريش بن شقيق وعبد اللّه بن البختري يدعوه إلى كتاب اللّه والطاعة للرضا من آل محمد فلما رأى نصر ما جاءه من اليمانية، وربيعة، والعجم وأنه لا طاقة له بهم أظهر قبول ما بعث به إليه على أن يأتيه فيبايعه فجعل يرشيهم[٦] لما هم به من الغدو[٧]

---

(١) زيادة من الكامل، ثم زاد ابن الأثير: . .ووصف له من العدل صفة.
وكان منهم من خزاعة: سليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم، وزياد بن صالح، وطلحة بن رزيق وعمرو بن أعين.
ومن طيء: قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان.
ومن تميم: موسى بن كعب أبو عيينة، ولاهز بن قريظ، والقاسم بن مجاشع، وأسلم بن سلام.
ومن بكر بن وائل: أبو داود بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي، ويقال: شبل بن طهمان مكان عمرو بن أعين، وعيسى بن كعب، وأبو النجم إسماعيل بن عمران مكان أبي علي الهروي، وهو ختن أبي مسلم.
ولم يكن في النقباء أحد والده حيّ غير أبي منصور طلحة بن رزيق بن سعد، وهو أبو زينب الخزاعي، وكان قد شهد حرب ابن الأشعث وصحب المهلب وغزا معه. . ثم ساق الخبر بنحو مما هو وارد هنا.

(٢) في الكامل: وعلى أن لا تسألوا.

(٣) في الكامل: طعماً. وأشار محققه إلى أنه في الطبري: «طمعاً» أي كما هنا.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

(٥) في المخطوط: ابني وهو سهو.

(٦) في المخطوط: يرتبهم. والتصويب من الكامل.

(٧) في الكامل: العذر.

والهرب إلى أن أمسى، فأمر أصحابه أن يخرجوا من ليلهم، فلم يتيسر لهم الخروج في تلك الليلة، ولكن القابلة، فلما كان صبح تلك الليلة عبأ أبو مسلم كتائبه، فلم يزل في تعبئتها إلى بعد الظهر وأرسل إلى نصر لاهز بن قريظ وقريش بن شفيق وعبد اللّه بن البحتري، وعدة من أعاجم الشيعة فدخلوا على نصر، فقال لهم: ما أسرع ما عدتم؟

فقال له لاهز بن قريظ: لا بد من ذلك. فقال نصر: أمَّا إذا كان لا بد منه، فإني أتوضأ، وأخرج إليه، وأرسل إلى أبي مسلم فإن كان هذا رأيه [وأمره][1] أتيته ونعمى عين وكرامة وأنا أتهيأ[2] إلى أن يجيء رسولي فقام نصر كأنه يتوضأ.

فلما قام قرأ لاهز بهذه الآية: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

فدخل نصر حجرته ومعه تميم ابنه، والحكم بن نميلة، وحاجبه، فخرج من خلف حجرته عند دخول وقت الصلاة حين أظلم الوقت هارباً ولما استبطأه لاهز وأصحابه دخلوا من منزله فوجدوه قد هرب[3]. فلما بلغ ذلك أبا مسلم سار إلى معسكر نصر، فأخذ ثقات أصحابه وصناديد مضر الذين كانوا في عسكر نصر فكتفهم، وكان فيمن أخذ سلم بن أحوز وغيره واستوثق منهم بالحديد، ووكل بهم حتى قتلهم، كما حكينا قبل[4].

ومضى نصر حتى نزل سرخس فيمن اتبعه، وكانوا ثلاثة آلاف، ومضى أبو مسلم، وعلي بن جديع في طلبه، فركضا ليلتهما حتى أصبحا في قرية تدعى: نصرانية فوجدا نصراً قد خلف امرأته المرزبانية فيها ونجا بنفسه.

فرجع أبو مسلم، وعلي بن جديع إلى مرو، وقال أبو مسلم للقوم الذين وجههم إلى نصر: ما الذي أرياب به منكم؟

قالوا: لا ندري.

قال: فهل تكلم أحد منكم؟

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل على النحو التالي: فإن كان هذا رأيه وأمره أتيته إلى أن يجيء رسولي.

(٣) في الكامل: فدخل نصر منزله وأعلمهم أنه ينتظر انصراف رسوله من عند أبي مسلم، فلما جن الليل خرج من خلف حجرته، ومعه تميم ابنه، والحكم بن نميلة، وامرأته المرزبانة، وانطلقوا هراباً، فلما استبطأه لاهز، وأصحابه دخلوا منزله فوجدوه قد هرب.

(٤) في الكامل: فلما بلغ أبا مسلم سار إلى معسكر نصر وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم فكتفهم. وكان فيهم سالم بن أحوذ صاحب شرطة نصر، والبختري كاتبه، وابنان له، ويونس بن عبدويه، ومحمد بن قطن ومجاهد بن يحيى بن حُضَين، وغيرهم، فاستوثق منهم بالحديد، وكانوا في الحبس عنده، وسار أبو مسلم، وابن الكرماني في طلب نصر ليلتهما... ثم ذكر نحو القصة.

قالوا: لا ندري؟

قال بعضهم: تلا لاهز:

﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

قال: هذا الذي دعاه للهرب، ثم قال: يا لاهز تدغل[١] في الدين؟ ثم قدمه فضرب عنقه.

وفي هذه السنة: قتل شيبان الحروري.

ذكر الخبر عن مقتله وسببه

كان علي بن جديع وشيبان مجتمعين على قتال نصر بن سيار، لمخالفة شيبان نصراً لأن شيبان خارجي، وعلي بن خديع يخالف نصراً لأنه يماني ونصر مضري، ولأن نصراً قتل أباه وصلبه. فلما صالح علي بن الكرماني أبا مسلم، وصالح شيبان، تنحى شيبان عن مرو، لأنه علم أن لا طاقة له بأبي مسلم وعلي بن خديع مع تآلفهما واجتماعهما على خلافه.

وقد هرب نصر من مرو، فأرسل إليه أبو مسلم يدعوه إلى بيعته.

فأرسل إليه شيبان: بل أنا أدعوك إلى بيعتي. فأرسل إليه أبو مسلم إن [لم][٢] تدخل في أمرنا فارتحل عن منزلك [الذي أنت فيه][٣].

فأرسل إلى ابن الكرماني يستنصره، فأبى.

فسار شيبان إلى سرخس، واجتمع إليه جمع من بكر بن وائل.

فبعث إليه أبو مسلم تسعة من الأزد فيهم المنتجع بن الزبير يدعوه [إلى][٤] المسالمة.

فأرسل شيبان إلى رسل أبي مسلم فحبسهم. فكتب أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث بأبيورد[٥] يأمره أن يسير إلى شيبان يقاتله.

ففعل فهزمه بسام واتبعه [٢٤/ب] حتى دخل المدينة فقتل شيبان وعدة من بكر بن وائل.

فقيل لأبي مسلم، فقدم واستخلف على عسكره[٦]. ولما قتل شيبان رجل من بكر بن

---

(١) في المخطوط: أنزل. والتصويب من الكامل.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) في المخطوط: بيبورد، وهو تحريف، وقد سبق الكلام عن هذه القرية والتعريف بها.
(٦) في الكامل: فقيل لأبي مسلم: إن بساماً ارتد ثانية، وهو يقتل البريء بالسقيم، فاستقدمه، فقدم عليه، واستخلف على عسكره رجلاً.

وائل يقال له: خفاف، أرسل أبي مسلم الذين كان حبسهم شيبان فأخرجهم وقتلهم[١].

وفي هذه السنة: قتل أبو مسلم عليّاً وعثمان ابني جديع الكرماني.

ذكر السبب في قتله إياهما

كان السبب في ذلك أن أبا مسلم وجه أبا داود إلى بلخ[٢]، وبها زياد بن عبد الرحمن القشيري. فلما بلغه قصد أبي داود بلخ خرج في أهل بلخ وغيرها من كور طخارستان إلى الجوزجان، فلما دنا أبو داود منهم، انصرفوا منهزمين إلى الترمذ، ودخل أبو داود مدينة بلخ بمن معه. فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، ووجه لمكانه يحيى بن نعيم.

فخرج أبو داود، وكاتب زياد بن عبد الرحمن يحيى بن نعيم بما دهم العرب من أبي مسلم وسأله أن تصير أيديهم واحدة.

فأجابه، فرجع زياد بن عبد الرحمن القشيري ومسلم بن عبد الرحمن بن مسلم الباهلي وأهل بلخ، والترمذ وملوك طخارستان، وما خلف النهر ودونه، نزل زياد وأصحابه على فرسخ من مدينة بلخ.

وخرج إليه يحيى بن نعيم ومن معه حتى اجتمعوا، حتى صارت كلمتهم واحدة مضريهم، ويمانيهم، وربيعهم، ومن معهم من العجم على قتال المسودة ويعلوا الولاية عليهم لمقاتل بن حيان النبطي، كراهة أن تكون لواحد من الفرق الثلاثة. وكتب أبو مسلم إلى أبي داود يأمره بالانصراف فانصرف أبو داود بمن كان معه حتى اجتمعوا على نهر السرجنان[٣].

وكان زياد بن عبد الرحمن وأصحابه قد وجهوا أبا سعيد القرشي مسلمة فيما بين القود وبين قرية يقال لها: يا مديان[٤] لئلا يأتيهم أصحاب أبي داود من خلفهم.

---

(١) في الكامل: وقيل إن أبا مسلم وجه إلى شيبان عسكراً من عنده عليهم خزيمة بن خازم، وبسام بن إبراهيم.

(٢) في الكامل:
وفي هذه السنة قتل أبو مسلم علياً، وعثمان ابني الكرماني، وكان سبب ذلك أن أبا مسلم وجه موسى بن كعب إلى أبيورد، فافتتحها، وكتب إلى أبي مسلم بذلك... ثم ساق الخبر بنحو مماهنا.

(٣) في المخطوط: نهر السرحان. وما أثبته من الكامل. ولم أقف على اسم هذا النهر في معجم البلدان على أي من الرسمين للكلمة، فآثرت إثبات ما في الكامل.

(٤) وكذا لم أقف في معجم ياقوت على القريتين المشار إليهما وهما القود، ولا يامديان، ولم يرد ذكرهما في الكامل.

ذكر اتفاق عجيب وقع على أصحاب زياد حتى انهزموا وقتلهم أبو داود

لما اجتمع أبو داود وزياد وأصحابهما واصطفوا للقتال أمر أبو سعيد القرشي أن يأتي زياد وأصحابه من خلف فرجع.

وكانت أعلام أبي سعيد وراياته سوداً، فلما خرج عليهم من سكك القود من ورائهم نظروا إلى الرايات السود فظنوها كميناً لأبي داود وكان القتال قد نشب بين الفريقين.

فانهزم زياد وأصحابه واتبعهم أبو داود فوقع عامة أصحاب زياد في نهر السرجنان[١] وقتل عامة رجالهم المتخلفين.

ونزل أبو داود يومه ذلك ومن الغد، ولم يدخل بلخ، واستصفى أموال من قتل بالسرجنان[٢]، ومن هرب من العرب وغيرهم، واستقامت بلخ لأبي داود.

ثم كتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه، ووجه نضر بن صبيح المري على بلخ.

وقدم أبو داود فاجتمع رأي أبي داود ورأي أبي مسلم على أن يفرق بين علي وعثمان ابني الكرماني.

فبعث أبو مسلم عثمان عاملاً على بلخ، فلما توجه إليها استخلف الفرافصة بن ظهير على مدينة بلخ، وأقبلت المضرية من الترمذ عليهم مسلم بن عبد الرحمٰن الباهلي، فالتقوا مع أصحاب ابن جديع، وهزموا أصحاب عثمان، وغلب على بلخ المضرية، وأخرجوا الفرافصة[٣]. وبلغ الخبر عثمان بن جديع والنضر بن صبيح وهما

---

(١) في هذا الموضع من المخطوط: السرحيان. والتصويب من الكامل.

(٢) راجع التعليق السابق.

(٣) الكلام هنا في الكامل بنصه، وأغلب الكتاب على هذا النهج، وإني لأتساءل سؤالاً يلح عَلَيَّ كثيراً، وهو أن هذا الكتاب وأمثاله كثير قد دونت فيه هذا الموضوع أو الشأن ووفت بالغرض بل وزادت عليه الحكايات والقصص التي لم يكن هناك داع لذكرها وليس فيها عبر، ولا دروس تستفاد، ولا خطط عسكرية ماهرة، ولا ما يفيد القارئ كثيراً أكثر من أنها للتسلي، والسؤال لماذا ألف من بعدهم كتبهم؟
ثم إنهم لو كانوا رأوا في الكتب السابقة ما لم يف بالغرض، فلماذا لم يقتصروا على زيادة ما يرون أنه كان يجب ذكره دون تكرار الحكايات وبنصها؟
قد تسألني أخي القارئ: لماذا إذاً تحقق أنت هذا الكتاب؟
أجيب أولاً طلبي مني ذلك وصاحبه يحتاج إليه ويرى أنه مفيد له أوهام من وجهة نظره.
ثانياً: لا ذكر مثل هذه التعليقات على تلك الكتب لتظل مدونه لفترة طويلة من الزمان حتى أكون قد أبرأت الذمة من ذلك التكرار الذي أصاب المكتبة الإسلامية بزحام كبير لا طائل من كثير =

بمرو الروذ، فأقبلا نحوهم، وأقبل أصحاب زياد بن عبد الرحمن فهزموا من تحت ليلتهم، فقصر النضر في طلبهم رجاء أن يفوتوا.

وجدّ أصحاب عثمان حتى لقوهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب عثمان وأكثروا فيهم القتل، ومضت المضرية إلى أصحابهم.

ورجع أبو داود من مرو إلى بلخ وسار أبو مسلم ومعه علي بن جديع إلى نيسابور، واتفق رأي أبي مسلم ورأي أي داود على أن يقتل أبو مسلم عليّاً، ويقتل أبو داود عثماناً في يوم واحد. فلما قدم أبو داود بلخ بعث عثمان إلى الجبل فيمن معه من أهل مرو ويمانية أهل بلخ وربيعتهم. [٢٥/أ] فلما خرج من بلخ خرج أبو داود فاتبع الأثر فلحقه على شاطئ نهر بوحس من أرض الختل، فوثب أبو داود على عثمان وأصحابه فحبسهم، ثم ضرب أعناقهم جميعاً. وقتل أبو مسلم في ذلك اليوم علي بن جديع، وقد كان أمره أبو مسلم أن يسمي له خاصته ليوليهم ويأمرهم بجوائز، فسماهم له، فقتلوهم جميعاً.

وفي هذه السنة: قدم قحطبة بن شبيب على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم بن محمد، ومعه لواء عقده له إبراهيم، فوجهه أبو مسلم على مقدمته وضم إليه الجيوش، وجعل إليه العدل والولاية، وكتب إلى الجنود بالسمع له والطاعة.

فوجه قحطبة إلى نيسابور للقاء نصر ـ وكان أصحاب شيبان الحروري بعد قتله لحقوا بنصر وهو بنيسابور ـ وتوجه قحطبة في قواده، فأخذ جمهور بن مراد، وهو أحد القواد على ناحية بيورد.

وأخذ القاسم بن مجاشع وهو أحد القواد على ناحية سرخس.

وتوجه قحطبة ناحية طوس. ومعه وجوه القواد، كأبي عون، وخالد بن برمك،

= منه ولذلك تجدني أنصح كثير ممن يسألني ماذا أقرأ بعدد يسير من الكتب بعد كتاب اللّه يكاد يعد على أصبع اليد الواحدة، فاللّه اللّه أيها المؤلفون واللّه اللّه أيها القراء لا تحملوا المكتبة الإسلامية بما هو معاد أو بما لا طائل تحته عسى اللّه أن يغفر لي ولكم ولكل مسلم، وفيما تحويه من الكتب الكفاية، والكفاية والكفاية.

وحتى لا تظن أخي القارئ أني مبالغ أو متحامل، فأرجو أن تلقي نظرة على عدد التفاسير التي وضعت للقرآن الكريم قديماً وحديثاً وانظركم تفسيراً تنتخب منها وكم تدع وأظنك تكتفي بابن كثير أو غير المهم أنك لن تزيد عن ثلاث أو أربع تفاسير على أقصى تقدير. ثم انظر إلى عدد ما ألف في تفسير القرآن في نصف القرن الذي نحن فيه، وهل أضاف أحد منهم جديداً اللهم إلا تفسير الظلال للشهيد سيد قطب فأظنك ساعتها سوف تلتمس لي العذر فيما أقول، فاللهم اغفر لي ولمن سبق ومن لحق من المسلمين اللهم أحسن ختامنا أجمعين اللهم آمين.

وحازم بن خزيمة، وعثمان بن نهيك، وأمثالهم، فلقي من بطوس وانهزم، ودفعوا إلى مضيق، وكان من مات منهم [من] الزحام أكثر ممن قتل، وبلغ عدة القتلى يومئذ بضعة عشر ألفاً.

وتوجه قحطبة إلى السودان، وهو معسكر تميم ابن نصر والنابئ.

وكان قحطبة قد وجه على مقدمته أسيد بن عبد اللّه الخزاعي في ثلاثة آلاف رجل فسار إليه، وبقي تميم والثاني لقتاله.

فكتب أسيد إلى قحطبة يعلمه ما أجمعوا عليه من قتاله، وأنه لم يعجل القدوم عليه حاكمهم إلى اللّه وأعلمه أنهما في ثلاثين ألفاً من صناديد أهل خراسان وفرسانهم.

فوجه قحطبة مقاتل بن حكيم العسكر في ألف، فقدما عليه وقوي بهما أسيد.

وبلغ تميماً والنابئ فكسرهما، ثم قدم عليهم قحطبة بمن معه وعبأ ميمنته وميسرته، ثم زحف إليهم ودعاهم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه وإلى الرضا من آل رسول اللّه ﷺ فلم يجيبوه فأمر الميمنة والميسرة أن يحملوا فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل تميم بن نصر في المعركة، وقتل منهم مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم، وانهزم النابئ فتحصن في المدينة وأحاطت به الجنود فنقبوا المدينة، ودخلوها، فقتلوا النابئ ومن كان معه، وهرب عاصم بن عمر، وسالم بن راوية إلى نصر بن سيار بنيسابور، فأخبراه بقتل تميم والنابئ ومن كان معهما.

فصير قحطبة قبض ما في العسكر المهزوم إلى خالد بن برمك.

وارتحل نصر هارباً في أهل أيرشهر حتى نزل قومس، وتفرق عنه أصحابه.

فسار إلى جُرْجَان[1] وفيها نباتة بن حنظلة من قِبل يزيد بن عمر بن هبيرة.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان:
مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان، وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه.
وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء، والعلماء، والفقهاء، والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي.
قلت: هو مطبوع مشهور.
قال الإصطخري: أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندىً ومطراً من طبرستان، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم.
وهي قطعتان: إحداهما المدينة والأخرى بكراباذ، وبينهما نهر كبير يجري يحتمل أن يجري فيه السفن.
ويرتفع منها من الإبريسم وثياب الإبريسم ما يحمل إلى جميع الآفاق، وإبريسم جرجان بَزْرُ دودة يحمل إلى طبرستان، ولا يرتفع من طبرستان برز إبريسم.
ولجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان على مقدارها، وذلك أن بها الثلج والنخل، وبها فواكه الصرود والجروم.
وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني، والأخلاق المحمودة.

ذكر قتل نباتة بن حنظلة

كان يزيد بن عمر بن هبيرة بعث نباتة بن حنظلة الكلابي إلى نصر مدداً له في خيل عدة وعتاداً فسار إلى أصبهان، ثم سار إلى الري، ومضى إلى جرجان ولم ينضم إلى نصر. وخندق نباتة، وكان إذا وقع خندق في دار قوم وسوه ناجزه حتى صار خندقه نحواً من فرسخ، وأرسل قحطبة إلى جرجان في سنة ثلاثين ومائة، وذلك في ذي القعدة منها، وقد تعبأ وجعل على مقدمته[١] الحسن بن قحطبة.

وقال قحطبة: يا أهل خراسان استبصروا، فإنكم تسيرون إلى بقية قوم حرقوا بيت اللّه. وأقبل الحسن بن قحطبة حتى نزل على تخوم خراسان، وأنفذ قوماً إلى مسلحة نباتة وعليها رجل يقال له: ذؤيب، فبيتوهم، وقتلوا ذؤيباً وسبعين من أصحابه، ثم رجعوا إلى عسكر الحسن. وقدم قحطبة فنزل بإزاء نباتة وكان أهل الشام في عدة لم ير الناس مثلها.

فلما رآهم أهل خراسان هابوهم حتى تكلموا بذلك، وبلغ ذلك قحطبة، فقام فيهم خطيباً، وخطبة قحطبة قوّت قلوب أصحابه قام فقال: يا أهل خراسان، إن هذه البلاد كانت لآبائكم [٢٥/ ب] الأولين، وكانوا ينصرون على أعدائهم لعدلهم وحسن سيرتهم، فلما بدّلوا وظلموا سخط اللّه عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلط اللّه عليهم أذل أُمَّة كانت في الأرض، عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم وأسروا[٢] أولادهم، وقتلوا آباءهم، وكانوا على ذلك يحكمون بالعدل، ويوفون بالعهد، وينصرون المظلوم، ثم بدلوا، وغيروا، وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البرّ، والذين هم من عترة[٣] رسول اللّه ﷺ فسلطكم اللّه عليهم لينتقم منهم بكم، ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم بالثأر، وقد عهد إليَّ الإمام عليه السلام، أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة، فينصركم اللّه عليهم فتهزمونهم، وتقتلونهم.

---

(١) في المخطوط: مقتد منه، وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: واسرقوا، وهو تحريف.

(٣) عترة الرجل: أخص أهله وأقربهم إليه قرابة نسباً خصوصاً من ناحية الأصول، وقيل غير ذلك.
ويقول ابن منظور في لسان العرب:
عِتْرَة الرجل أقرباؤه من ولد وغيره. . .
وقيل: هم قومه ديناً.
وقيل: هم رهطه وعشيرته الأدنون من مضى منهم ومن غبر، ومنه قول أبي بكر رضي اللّه عنه: نحن عترة رسول اللّه ﷺ التي خرج منها، وبيضته التي تفقأت عنه، وإنما جيبت العرب عنا كما جيبت الرحى عن قطبها.
قال ابن الأثير: لأنهم من قريش، والعامة تظن أنها ولد الرجل خاصة، وأن عترة رسول اللّه ﷺ ولد فاطمة رضي اللّه عنها. هذا قول ابن سِيدَة.

وكان قرأ على قحطبة كتاب من أبي مسلم.

أما بعد: فناهض[١] عدوك بجدّ فإن اللّه ناصرك، فإذا ظهرت عليهم، فأثخن في القتل.

فالتقوا في مستهل ذي الحجة واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض، فقتل نباتة، وانهزم أهل الشام، فقتل منهم أكثر من عشرة آلاف.

وبعث إلى أبي مسلم برأس نباتة وابنه حية. وكان من عظيم ما شوهد في تلك الحرب سالم بن راوية التميمي، وكان ممن هرب من أبي مسلم وخرج مع نصر، ثم سار مع نباتة، فقاتل قحطبة بجرجان في هذه الوقعة، فلما انهزم الناس بقي فثبت وقاتل وحده، فحمل عليه عبد اللّه الطائي وهو من الفرسان، فضربه سالم بن راوية على وجهه، فاندر عينه، ثم قاتلهم حتى اضطر إلى مسجد فدخله ودخلوا عليه، وكان لا يشد في ناحية إلا كشفها، فعطش فنادى شربة، فواللّه لا يقعن بهم شرّاً يومي هذا، فلم يقدروا عليه أحد حتى حرقوا عليه سقف المسجد، ورموه بالحجارة حتى قتلوه، وجاؤوا برأسه إلى قحطبة، وليس في وجهه ولا رأسه مَصح[٢].

فقال قحطبة والناس: ما رأينا مثل هذا قط.

وفي هذه السنة: كانت الوقعة بقديد بين أبي حمزة الخارجي وأهل المدينة.

ذكر الخبر عن ذلك

كنا حكينا أن عبد الواحد بن سليمان رجع إلى المدينة، وضرب على البعوث، واستعمل عبد العزيز بن عمر بن عثمان على الناس فخرجوا حتى نزلوا قديداً[٣]، وكانت الحياض هناك، وهم قوم مغترون ليسوا بأصحاب حرب، فلم يَرُعهم إلا القوم قد خرجوا عليهم فقتلوهم، وكانت المقتلة على قريش، وكانوا أكثر الناس، وبهم كانت الشوكة.

---

(١) في المخطوط: فناهظ، وهو تحريف.

(٢) المصح: ذهاب الشيء. أي مسح، والمراد أنهم جاؤوا برأسه ليس فيها لحم ولا شعر من كثرة ما نالها من خدش الحجارة والسيوف.
وقال ابن منظور في لسان العرب: مَصَحَ الكتاب يمصح مُصُوحاً: درس أو قارب ذلك، ومصحت الدار: عفت، والدار تمصح أي تدرس، ومصح الثوب: أخلق ودرس، ومصح الضرع يمصح مصوحاً: غرز وذهب لبنه.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
قديد تصغير القد من قولهم: قددت الجلد أو من القدِ، بالكسر، وهو جلد السخلة أو يكون تصغير القدد من قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وهي الفرق.
وسئل كثير فقيل له: لِمَ سمي قُدَيْدٌ قديداً؟ ففكر ساعة ثم قال: ذهب سيله قِدداً.
وقُدَيْد: اسم موضع قرب مكة.
قال ابن الكلبي: لما رجع تُبّع من المدينة بعد حربه لأهلها نزل قديداً، فهبت ريح قَدّت خِيَم أصحابه فسمي قديداً.

ودخل أبو حمزة مدينة رسول اللّه ﷺ، وهرب عبد الواحد إلى الشام. فأحسن السيرة، وخطب الناس فذكر جور بني مروان، وآل أمية، وأشهر الناس حتى سمعوه يقول في خطبته: يا أهل المدينة من رَبَى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر.

ثم إن مروان انتخب من عسكره أربعة آلاف، واستعمل عليهم ابن عطية، وأمره بالجند في المسير، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرساً عربياً وبغلاً لثقله، وأمره أن يقاتلهم، فإذا ظفر مضى حتى بلغ اليمن ويقاتل عبد اللّه بن يحيى ومن تبعه فخرج حتى نزل بالمعلى[١]، ثم سار إلى وادي القرى، فلقيهم حمزة [فأمرهم أن][٢] لا يقاتلونهم حتى يختبروهم.

قال: فصاحوا بهم: ما تقولون في القرآن وعمل به؟ فصاح ابن عطية: وما عليك يا فاجر؟

قال: نحن مسلمون ولا نقاتلكم إلاّ ببيان، فأخبرونا عن القرآن وفرائضه.

فصاحوا: نضعه في بيوتنا ثم نقاتلكم.

ثم سألوهم عن أشياء [أخرى] أجابوهم عنها بقبائح، إلى أن قالوا: فما تقولون في مال اليتيم؟ فصاح صائح: نأكل ماله ونفجر بأمه.

فحينئذ قاتلوهم حتى أمسوا، ثم صاحوا: ويحك يا ابن عطية، إن اللّه جعل الليل سكناً فاسكن نسكن.

فأبى وقال لأصحابه: هذا وهن منهم، فجدوا، ففعل حتى قلتهم، وانهزم[٣] من انهزم منهم.

فلما رجعوا إلى المدينة منهزمين تلقاهم أهلها فقتلوهم، ومضى ابن عطية إلى مكة، واستخلف على المدينة عروة بن الوليد بن عطية[٤]، ثم مضى من مكة إلى اليمن، واستخلف على مكة ابن ماعز، رجل من أهل الشام.

---

(١) أظن أن المراد ليس المُعَلّى الذي هو بمكة حيث إن السياق لا يقتضي ذلك، وربما كان المراد المُغْلاة إذ إن هذا في الطريق بين مكة وبدر وهو الأنسب لسياق الكلام أو الأحداث، فاللّه أعلم.
ويقول ياقوت عن المَغْلاَة: موضع بين مكة وبدر بينه وبين بدر الأثيل.
والمعلاة: من قرى الخرج باليمامة.
والمُعَلاّ: موضع بالحجاز عن ابن القطاع في الأبنية.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في المخطوط: وانهر. وهو تحريف.

(٤) في الكامل: واستخلف على المدينة: الوليد بن عروة بن محمد بن عطية، واستخلف على مكة رجلاً من أهل الشام.

وبلغ عبد اللّه بن يحيى [طالب الحق][(١)] وهو بصنعاء مسيره، فأقبل إليه بمن معه وقاتله، فقتل عبد اللّه بن معاوية وتفرق [٢٦/أ] أصحابه.

ودخل ابن عطية صنعاء، وبعث برأس عبد اللّه بن معاوية إلى مروان.

وفي هذه السنة: قتل قحطبة من أهل جرجان زهاء ثلاثين ألف رجل، وذلك أن أهل جرجان كان أجمع رأيهم بعد مقتل نباتة بن حنظلة على الخروج على قحطبة، فبلغه ذلك، فاستصغرهم[(٢)]، فقتل منهم من ذكرت.

رجع الحديث إلى قصة نصر مع أبي مسلم وقحطبة: ولما بلغ نصر بن سيار قتل نباتة، ومن قتل من أهل جرجان وهو بقومس ارتحل حتى نزل خُوار[(٣)] الري.

وكتب أبو مسلم إلى زياد بن زرارة القشيري بعهده إلى نيسابور.

وكتب إلى قحطبة يأمره أن يتبع نصراً فوجه قحطبة العكي على مقدمته، وسار حتى نزل بنيسابور فأقام بها شهر رمضان وشوالاً.

ونصر نزل بقرية من قومس، فكتب نصر إلى ابن هبيرة يستمده ويعظم الأمر عليه.

فجلس ابن هبيرة بوجوه خراسان ليعلموه شدة الأمر عندنا وسألته المدد، فاحتبس رسلي، ولم يمدني أحد، وإنما أنا بمنزلة من أخرج من حجرته إلى داره، ثم أخرج من داره إلى فناء داره، فإن أدركه من يعينه فعسى أن يعود إلى داره، وإن أخرج إلى الطريق فلا بقية له.

فكتب مروان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمد نصراً، وأجاب نصراً بعلمه ذلك.

فكتب نصر إلى ابن هبيرة يسأله أن يعجل إليه الجند، فإني قد كذبت أهل خراسان حتى ما يصدق أحد منهم لي قولاً، فأمدني بعشرة آلاف قبل أن تمدني بمائة ألف، ثم لا تغني شيئاً.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: فلما بلغه ذلك دخل إليهم واستقرر منهم، فقتل منهم من ذكرنا.

(٣) قال ياقوت:
مدينة كبيرة من أعمال الري بينها وبين سمنان للقاصد إلى خراسان على رأس الطريق، تجوز القوافل في وسطها بينها وبين الري نحو عشرين فرسخاً، جئتها في شوال سنة (٦١٣) وقد غلب عليها الخراب، وقد نسب إليها قوم من أهل العلم...
وخُوار أيضاً: قرية من أعمال بيهق، من نواحي نيسابور وقد نسب إليها قوم من أهل العلم...
وخُوار أيضاً: قرية من نواحي فارس.
وخوار أيضاً: قرية في وادي ستار من نواحي مكة قرب بُزَرَة فيها مياه، ونخيل.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

[وفيها][١]: وارتحل نصر من قومس حتى نزل الخوار، وأميرها أبو بكر العقيلي، وكان قحطبة وجه ابنه الحسن إلى قومس، ثم وجه قحطبة أبا كامل، وأبا القاسم محرز بن إبراهيم، وأبا العباس المروزي إلى الحسن في سبعمائة فلما كانوا قريباً منه انحاز أبو كامل وترك عسكره وأتى نصر فصار معه، وأعلمه مكان الجند الذين خلفهم.

فوجه نصر إليهم جنداً، فأتوهم وهم في حائط، فحصروهم، فنقب عليهم، فهرب القوم وخلفوا متاعهم، فأخذه أصحاب نصر فبعث به نصر[٢] إلى ابن هبيرة.

وكان ابن هبيرة[٣] قد أَمَدَّ نصراً بغطيف[٤] في ثلاثة آلاف، وقد بلغ الري فعرض غطيف لمّا أنفذ نصر فأخذ الكتاب من رسول نصر، والمتاع وبعث به مع صاحبه إلى ابن هبيرة.

فغضب نصر وقال: يُتْلِف ابن هبيرة الشعب عَلَيَّ تصنعاً بسر بئس أما واللّه لأدعنه فليعرفن أنه ليس بشيء ولا ابنه[٥] الذي تَرَبَّص له الأشياء. وسار نصر نحو الري، وعلى الري حبيب بن يزيد[٦] النهشلي.

فلما بلغ غطيفاً قرب نصر من الري فخرج متوجهاً إلى همذان وفيها مالك بن أدهم بن محرز الباهلي فلما......[٧] غطيف مالكاً في همدان عدل منها إلى أصفهان إلى عامر بن ضبارة، ولم يلتق نصر مع غطيف.

ثم مرض نصر فحمل حملاً وتوجه إلى همذان، فمات في الطريق.

فبلغ الحسن موت نصر، فبعث خزيمة بن حازم إلى سِمْنَان[٨] وأقبل قحطبة من

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة، اعتاد المؤلف على ذكرها في أول كل سنة، فأحسب أن الناسخ أسقطها سهواً فرأيت إثباتها على عادة المؤلف.

(٢) في المخطوط فبعث به إلى نصر. ولفظ: إلى زيادة، فحذفتها.

(٣) في المخطوط: وكان ابن هبيرة وتراكب فوق نفس الكلمة كلمة إبراهيم. واستخلصت أن المراد هو ابن هبيرة.

(٤) في المخطوط: بطيف. وهو تحريف.

(٥) بعدها في الكامل:
وكان ابن غطيف في ثلاثة آلاف قد سيره ابن هبيرة إلى نصر، فأقام الري فلم يأت نصر، وسار نصر...

(٦) في المخطوط: حبيب بن بدل. والتصويب من الكامل.

(٧) موضع النقط كلام سقط من المخطوط.

(٨) قال ياقوت في معجم البلدان:
سِمْنَانُ: بكسر أوّله وتكرير النون قال العمراني موضع ينسب إليه السِّمْني بالحذف وقال أبو =

جرجان، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري، وكان ندم على اتباع أبي مسلم، فانخزل عن قحطبة، وأخذ طريق أصبهان يريد عامر بن ضبارة.

فوجه قحطبة خلف المسيب بن زهير فلحقه من عند العصر فقاتله، وانهزم زياد، وقتل عامة من صحبه، ورجع المسيب إلى قحطبة. ثم سار قحطبة إلى قومس وبها ابنه الحسن.

وقدم خزيمة بن حازم من الوجه الذي كان وجهه فيه الحسن، وَقَدَّم قحطبة ابنه إلى الري.

وبلغ حبيب بن بديل النهشلي ومن معه من أهل الشام سير الحسن، فخرجوا عن الري، فقدمها الحسن، وأقام حتى قدم أبوه. وكتب قحطبة إلى أبي مسلم بنزوله الري.

وفي هذه السنة: تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور، وذلك لما ورد عليه كتاب قحطبة بنزوله الري. ووجه قحطبة ابنه الحسن بعد نزوله الري بثلاث إلى همدان.

فلما توجه إليها خرج منها مالك بن أدهم فنزل قوم من أصحاب مالك دواوينهم بعد أن بدلها لهم، وسار مالك إلى نهاوند[١] فيمن تبعه.

وسار الحسن فنزل على أربعة فراسخ من المدينة، فأمد أبو قحطبة بأبي [٢٦/ب] الجهم بن عطية مولى باهلة في سبعمائة ووصاه أن يحاصر المدينة، فذهب حتى حاصرها.

وفي هذه السنة: قتل [عامر بن][٢] ضبارة واستبيح عسكره.

ذكر الخبر عن ذلك

كان السبب في ذلك أن ابن ضبارة لما هزم عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن

= سعد وأبو بكر بن موسى: إن البلدة التي بين الري ودامغان، وبعضهم يجعلها من قومس هي بكسر السين عند أهل الحديث، ويُعمل بها مناديل جيدة، وعهدي بها كثير الأشجار والأزهار والبساتين وخلال بيوتهم الأنهر الجارية والأشجار المتهدلة إلاّ أن الخراب مُستولٍ عليها، ويتصل بعمارتها وبساتينها بليدة أخرى يقال لها سِمْنَك، وقد ينسب إلى سمنان جماعة من القضاة والأئمة.

قال أبو سعد، وبنسا قرية أخرى يقال لها سِمْنان ولها نهر كبير ينسب إليها أبو الفضل محمد بن أحمد بن إسحاق النسوي السمناني عالم ثقة.

(١) في معجم البلدان:
هي مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام. قال أبو المنذر هشام. سميت نهاوند لأنهم وجدوها كما هي، ويقال إنها من بناء نوح عليه السلام أي نوح وضعها، وإنما اسمها نوح أوند فخففت وقيل: نهاوند.
وقال أبو حمزة: أصلها بنوهاوند فاختصروا منها، ومعناه الخبر المضاعف...
وهي أعتق مدينة في الجبل وكان فتحها سنة (١٩) ويقال سنة (٢٠).

(٢) ما بين سقط من المخطوط وأكملته من الكامل.

جعفر بن أبي طالب تبعه إلى كرمان ليلحقه.

وورد عليه يزيد بن عمر بن هبيرة بقتل نباتة بن حنظلة بجرجان، فكتب إلى عامر بن ضبارة، وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر أن يسير إلى قحطبة، وكان بكرمان.

فسار في خمسين ألفاً حتى نزل أصبهان بمدينة حيّ.

وكان يقال لعسكر ابن ضبارة عسكر العساكر، فبعث قحطبة مقاتلاً، وأبا حفص المهلبي، وموسى بن عقيل، ومالك بن طريف في جماعة أمثالهم وعليهم جميعاً العكي[١] فسار حتى نزل قُم[٢].

وبلغ ابن ضبارة نزول الحسن على أهل نهاوند فأراد أن يأتيهم مغيثاً لهم، وبلغ الخبر العكي فبعث إلى قحطبة يعلمه، ووجه زهير بن محمد إلى قاشان[٣]، وخرج العكي من قُم، وخلف بها طريف بن عجلان، وكتب إليه يأمره أن يلبث بقم مقاوماً حتى يقبل عليه.

وأقبل قحطبة من الري وبلغه تلاقي طلائع العسكرين فلما لحق قحطبة بمقاتل بن حكيم العكي ضمه مع عسكره إلى عسكره وسار عامر بن ضبارة إليهم وعسكر قحطبة فرسخ، ثم نهد إليه فالتقوا، وكان قحطبة في عشرين ألفاً، وابن ضبارة في مائة وخمسين ألفاً.

---

(١) هذه الكلمة في كلي مواضعها في المخطوط: العلى. والتصويب من الكامل.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
قُمْ: بالضم وتشديد الميم هي كلمة فارسية مدينة تذكر مع قاشان... وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري وبها آبار ليس في الأرض مثلها عذوبة وبرداً. ويقال إن الثلج ربما خرج منها في الصيف، وأبنيتها بالآجُر وفيها سراديب في نهاية الطيب، ومنها إلى الري مفازة سبخة فيها رباطات ومناظر ومسالح، وفي وسط هذه المفازة حصن عظيم عاديّ يقال له دير كردشير، ذكر في الديرة.

(٣) قال ياقوت في معجمه أيضاً:
مدينة قرب أصبهان تذكر مع قُم ومنها تجلب الفضائر القاشاني والعامة تقول القاشي، وأهلها كلهم شيعة إمامية.
قرأت في كتاب ألفه أبو العباس أحمد بن علي بن بابة القاشي وكان رجلاً أديباً قدم مرو وأقام بها إلى أن مات بعد الخمسمائة ذكر في كتاب ألفه في فرق الشيعة إلى أن انتهى إلى ذكر المنتظر فقال:
ومن عجائب ما يذكر مما شاهدته في بلادنا قوم من العلوية من أصحاب الثنايات يعتقدون هذا المذهب، فينتظرون صباح كل يوم طلوع القائم عليهم، ولا يرضون بالانتظار حتى أن جلهم يركبون متوشحين بالسيوف شاكين في السلاح فيبرزون من قراهم مستقبلين لإمامهم ويرجعون متأسفين لما يفوتهم. قال: هذا وأشباهه منامات من فسد دماغه واحترقت أخلاطه لا يكاد يسكن إليها عاقل، ولا يطمئن إليها حازم... وبين قم وقاشان اثنا عشر فرسخاً، وبين قاشان وأصبهان ثلاث مراحل ومن قاشان إلى أردستان أربع مراحل. وبقاشان عقارب سود كبار منكرة.

فأمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح، ثم نادى: يا أهل الشام ندعوكم إلى ما في هذا المصحف. فشتموه، وأفحشوا له في القول.

فقال قحطبة: احملوا على اسم اللّه، فحمل عليهم العكي، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم أهل الشام، وقتلوا قتلاً ذريعاً وحووا عسكرهم، فأصابوا شيئاً لا يدري ما عدده من السلاح والمتاع والرقيق، وبَعث بالفتح إلى ابنه الحسن[١].

ذكر السبب في ذلك

وكان السبب في هزيمة ابن ضبارة أنه كان في خيل لا رجالة معه، وكان قحطبة معه خيل ورجال، فلما رمى الرجالة الخيل بالنشاب، انهزم أصحاب ابن ضبارة، فنزل ابن ضبارة في العسكر، ونادى إليّ إليّ، فمضى أصحابه ووطؤوه، فحطبة في أثرهم حتى انتهوا إلى ابن ضبارة فقتله. وكان داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة فيمن انهزم، فسأل عامر عنه، فقيل: انهزم...

فقال: لعن اللّه شرنا منقلباً، فقاتل حتى قتل.

وفي هذه السنة: كانت وقعة قحطبة بنهاوند بمن لجأ إليها من جنود مروان بن محمد.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة

لما قتل ابن ضبارة ورد خبره إلى الحسن بن قحطبة كَبَّر وكَبَّر جنده.

فقال عاصم بن عمر: ما صاح هؤلاء إلا بقتل ضبارة، فأفرجوا عن الحسن بن قحطبة قبل أن يأتيه أبوه أو مدد من قبله، فلا تقومون له.

فقال للرجالة: تخرجون وأنتم فرسان على خيول، فتذهبون وتخلفوننا.

فقال لهم ابن أدهم[٢] الباهلي: كتب إليّ ابن هبيرة، ولا أبرح حتى يقدم علي.

فأقاموا وأقام قحطبة بأصبهان[٣] عشرين يوماً، ثم سار حتى قدم على الحسن

---

(١) في المخطوط: وبعث بالفتح إلى ابنه الحسن بالفتح. وكلمة بالفتح الأخيرة من الجملة زائدة فحذفتها، ولا توجد بلد أو قرية تسمى الفتح فالكلمة زائدة سهواً على السياق.

(٢) في المخطوط: ابن هبيرة وضرب عليها الناسخ بقلم ضعيف لا يكاد يظهر ثم كتب بعدها أدهم، وهو المراد، فحذفت كلمة هبيرة.

(٣) قال صاحب معجم البلدان:
هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، ويسرقون في وصف عظمها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد إلى غاية الإسراف وأصبهان اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاجَيّاً، ثم صارت اليهودية، وهي من نوحي الجبل من آخر الإقليم الرابع...
ولهم في تسميتها بهذا الاسم خلاف، قال أصحاب السير: سميت بأصبهان بن فَلُوج بن لنطى =

بنهاوند، فحصرهم ودعاهم إلى الأمان، فأبوا فوضع عليهم المجانيق. فلما اشتد عليهم الأمر، طلب مالك الأمان، فوفَّى لهم قحطبة ولم يقتل منهم أحداً، وقتل من كان بنهاوند من أهل خراسان إلا الحكم بن ثابت بن أبي مسعر.

وقتل من أهل خراسان أبا كامل، وحاتم بن الحارث بن شريح وابن نصر بن سيار، وعاصم بن عمير، وعلي بن عقيل، وبيهس بن بديل، ورجل من ولد عمر بن الخطاب يقال له البحتري. ويقال: ابن قحطبة كان أرسل إلى أهل خراسان بنهاوند، يدعوهم إلى الخروج إليه، وأعطاهم الأمان، فأبوا ذلك.

ثم أرسل إلى أهل الشام في مثل ذلك فقبلوا الأمان، وبعثوا لقحطبة: أن اشغل أهل المدينة [٢٧/أ]، حتى نفتح الباب وهم لا يشعرون.

ففعلوا ذلك وشغل قحطبة أهل المدينة بالقتال ففتح أهل الشام الباب الذي كانوا عليه. فلما رأى أهل خراسان الذي في المدينة، وخروج أهل الشام، سألوهم عن سبب خروجهم، وقالوا: خذوا الأمان لنا ولكم.

فخرج رؤساء أهل خراسان، فدفع قحطبة كل رجل منهم إلى رجل من قواد أهل خراسان، ثم أمر مناديه أن ينادي[١]: من كان في يده أسير ممن خرج إلينا من المدينة فليضرب عنقه، وليأتنا برأسه.

ففعلوا، فلم يبق من الذين كانوا معه وهربوا من أبي مسلم وصاروا في ذلك الحصن إلا قتل ما خلا أهل الشام، فإنه خُلي سبيلهم وحلَّفَهُم أن لا يماكثوا عليه عدواً.

ووجه قحطبة الحسن ابنه إلى مرج القلعة، فَقَدَّم الحسن حازم بن خزيمة إلى حلوان[٢]، وعليها عبد اللَّه بن العلي الكندي، فهرب من حلوان وتلاها.

ووجه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الخراساني، ومالك بن طواف الخراساني في أربعة آلاف إلى شَهْرَزُور[٣]، وبها عثمان بن سفيان على مقدمته

= ابن يونان بن يافث.
وقال ابن الكلبي: سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح عليه السلام.
قال ابن دريد: أصبهان اسم مُرَكَّبٌ لأن الأصب البلد بلسان الفرس، وهان اسم الفارس، فكأنه يقال: بلاد الفرسان قلت وتخرج منها طائفة كبيرة من العلماء منهم أبو نعيم الأصبهاني صاحب كتاب حلية الأولياء وقد ألف في تاريخها كتاباً أسماه: ذكر أخبار أصبهان والمعروف بتاريخ أصبهان وقد وفقني اللَّه تعالى إلى تحقيقه قبل أكثر من عشر سنوات.

(١) في المخطوط: يناديه، وهو تحريف.

(٢) ذكر ياقوت عدة قرى أو مدن تسمى بهذا الاسم، فقال في حلوان هذه: بليدة بقوهستان نيسابور، وهي آخر حدود خراسان مما يلي أصبهان.

(٣) هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك. ومعنى شهر بالفارسية =

عبد اللّه بن مروان.

فقدم ابن عون، وقاتل عثمان قتالاً شديداً، ثم هرب عثمان واستباح ابن عون عسكره، ولما بلغ مروان خبر ابن عون وهو بحران ارتحل ومعه جنود أهل الشام، والجزيرة، والموصل، ونشرت معه بنو أمية أبناءهم، وسار مقبلاً حتى انتهى إلى الموصل، ثم أخذ في حفر الخنادق من خندق إلى خندق، حتى نزل الزاب الأكبر، وأقام ابن عون بشهرزور، وفرض بها لخمسة آلاف رجل.

وفي هذه السنة: سار ابن قحطبة نحو ابن هبيرة، ولما قدم على ابن هبيرة ابنه مهزماً من حلوان خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى قتال قحطبة في عدد كثير لا يحصى.

وكان مروان أمد ابن هبيرة بحوثرة بن سهيل الباهلي فسار ابن هبيرة حتى نزل جلولاء الوقيعة، فارتفع إلى عُكْبَرَا وأجاز قحطبة دجلة ومضى حتى نزل ما دون الأنبار.

وارتحل ابن هبيرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة.

وقطع قحطبة الفرات من دمما[1] حتى صار في غربيه.

ثم سار يزيد إلى الكوفة حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هبيرة، [وخرجت السنة][2].

[ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة

وفيها: هلك قحطبة بن شبيب.

= المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد.

قال مسعر بن مهلهل الأديب: شهرزور، مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها تيم ازراي وأهلها عُصاة على السلطان قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان.

والمدينة في صحراء ولأهلها بطش وشدة يمنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم، وسمك سور المدينة ثمانية أزرع، وأكثر أمرائهم منهم، وبها عقارب قتاله أضر من عقارب نصيبين.

وهم موالي عمر بن عبد العزيز وأجرأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء. (معجم البلدان).

(١) دِمِمًا: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند القلوبة ينسب إليها جماعة من أهل الحديث. (معجم البلدان).

(٢) هذه العبارة زيادة من الكامل في التاريخ وقد حدث خلط بين سنتي إحدى وثلاثين واثنتين وثلاثين دون فصل بعنوان ذكر السنة، ومما يدل على ذلك أننا نجد الأحداث التالية، ضمن أحداث اثنتين وثلاثين، ثم نجده يذكر آخرها أحداث ثلاث وثلاثين مما يفيد أن الناسخ قد سقط منه ذكر السنة بعد هذا الموضع.

وكان سبب ذلك][1]

فيقال: إن حوثرة بن سهل أشار على ابن هبيرة وقال له: إن قحطبة قد مضى إلى الكوفة، فاقصد أنت لخراسان، ودعه ومروان، فإنك تكسره، وبالحري أن يتبعك.

فأبى وقال: ما كنت لأدعه والكوفة بل أبادره إليها، وقال قحطبة لأصحابه: هل تعلمون طريقاً يخرجنا إلى الكوفة لا يمر بابن هبيرة؟

فقال بعضهم: نعم نعبر بامرا من رومنقي[2] ونلزم الجادة إلى بُزْرُج سابور[3] وعُكْبَرَا[4]، ثم نعبر دجلة إلى أوانا.

ويقال إنه لما بلغ الفرات[5] سأل، هل هناك مخاضه؟

فدلوه عليها، فنزل قحطبة الخازنة، وقال: صدقني الإمام، أخبرني أن النضر بهذا المكان وأعطى الجند أرزاقهم.

فرد عليه كاتبه ستة عشر ألف درهم من فضل المال الدرهم والدرهمين، وأقل أكثر.

فقال: لا تزالون بخير ما كنتم على هذا ووافته مقدمة خيول ابن هبيرة فلما انتهى ابن هبيرة إلى المخاضة اقتحم في عدّة، فحملوا على أصحاب ابن هبيرة حتى انهزموا ومضى حوثرة حتى نزل قصر ابن هبيرة.

وأصبح أهل خراسان وقد فقدوا أميرهم فألقوا بأيديهم، وعلى الناس الحسن بن

---

(١) ما بين المعقوفين مستوفى من الكامل في التاريخ لابن الأثير. وسبق أن أشرت إلى سقوط عنوان السنة ومقدمتها من الناسخ سهواً.

(٢) كذا رسمها بامرا من رومنقيا، وقد قلبتها على كل وجه فلم أقف عليها في معجم البلدان فربما أصابها تحريف، والله أعلم.

(٣) في المخطوط: مروج سابور، وهو تحريف والتصويب من معجم البلدان وفيه: بزرجسابور: من طساسيج بغداد وحده في أعلى بغداد العِلْث قرب حربي من شرقي دجلة. (معجم البلدان).

(٤) عُكْبَرَا: الظاهر أنه ليس بعربي، وقد جاء في كلام العرب العُكبُرة من النساء: الجافية الخُلق. وقال حمزة الأصبهاني: بزرج سابور معرب عن وزرك شافور، وهي المسماة بالسريانية عُكْبَرَا. . . وهو اسم بليدة من نواحي دُجَيْل قرب صريفين وأوانا بينها وبين بغداد عشرة فراسخ والنسبة إليها عكبراوي، منها شيخنا إمام عصره محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين النحوي العكبري مات في ربيع الأول سنة (٦١٦) وقرئ على سارية بجامع عكبرا:

لله درك يا مدينة عُكبرا ... أيا خيار مدينة فوق الثرى
إن كنت لا أم القرى فلقد أرى ... أهليك أرباب السماحة والقِرى

(معجم البلدان).

(٥) في المخطوط: الفراة. وهو تحريف.

قحطبة فزعم بعضهم أنه غرق وادعى قتله غير واحدٍ ممن كان وتره زعم كل واحد أنه أصاب فرصة منه في الماء فقتله.

فقال أصحابه(١): أيها الناس من كان عنده عهد من قحطبة فليخبرنا به.

فقال مقاتل بن مالك [٢٧/ب] العكي:

سمعت قحطبة يقول: لئن حدث بي حدث، فالحسن أمير الناس.

فبايع الناس حميد بن قحطبة للحسن أخيه، وأرسلوا إلى الحسن فلحقه الرسول دون قرية شاها(٢)، فرجع الحسن، فأعطاه أبو الجهم خاتم أبيه وبايعه الناس.

فقال الحسن: إن كان قحطبة قد مات، فأنا ابن قحطبة.

وكان أحد من ادعى قتل قحطبة معن بن زائدة، ويحيى بن حصين.

وقال قوم: وجد قحطبة قتيلاً في جدول وحرب بن مسلم احوز إلى جنبه، فظنوا أن كل واحد منهما قتل صاحبه.

وحكي عن قحطبة أنه قال: إذا قدمتم الكوفة، فوزير الإمام أبو سلمة، فسلموا الأمر إليه. ورجع ابن هبيرة إلى واسط بعد أن انهزم من حوثرة.

وأمر الحسن بن قحطبة بإحصاء ما وجد في عسكر ابن هبيرة، ولم يحمل الغنائم في السفن إلى الكوفة.

وخرج محمد بن خالد بن يزيد القشيري بالكوفة وسود(٣) قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة وضبطها.

ذكر الخبر عمّا كان من أمره وضبطه الكوفة إلى أن وصل الحسن

ظهر محمد بن خالد بالكوفة، وساد، وسار إلى القصر، وعلى الكوفة يومئذٍ زياد بن صالح الحارثي، فارتحل زياد ومن معه من أهل الشام وخلّوا القصر، فدخله

---

(١) في المخطوط: الناس. وما هنا من الكامل من أحداث سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(٢) شاها: موضع قرب القادسية فيما أحسب.

حدّثنا الحافظ أبو عبد الله ابن الحافظ بن سكينة حدّثنا أبي حدّثنا الصيرفيني أنبأنا حبابة أنبأنا البغوي أنبأنا أحمد بن زهير أنبأنا سلمان بن أبي تميم أنبأنا عبد الله بن صالح بن مسلم قال: كان شريك بن عبد الله على قضاء الكوفة فخرج يتلقى الخيزران، فبلغ شاها، وأبطأت الخيزران، فأقام ينتظرها ثلاثاً فيبس خبزه، فجعل يبله بالماء، فقال العلاء بن المنهال:

فإن كان الذي قد قلت حقاً ... بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضعاً في كل يوم ... تلقى من يحج من النساء
مقيماً في قرى شاها ثلاثاً ... بلا زاد سوى كِسَرٍ وماءِ

(٣) أي جعله سيداً مقدماً وأميراً مطاعاً.

محمد بن خالد.

فلما أصبح يوم الجمعة من غد يوم دخوله، وهو اليوم الثاني من مهلك قحطبة بلغه، نزول حوثرة ومن معه مدينة ابن هبيرة، وأنه تهيأ إليه للمسير.

فتفرق عن محمد عامة من معه من حيث بلغهم ذلك إلا فرساناً من أهل الشام من اليمن كانوا هربوا من مروان ومواليه.

وراسله أبو سلمة الخلال من غير أن يظهر له يأمره بالخروج من القصر، واللحاق بأسفل العراق، وأنه يخاف عليه لقلة من معه بكثرة حوثرة، ولم يبلغ واحد منهما هلاك قحطبة.

فأبى محمد بن خالد أن يفعل، وتعالى النهار[1]، فتهيأ حوثرة للمسير إلى محمد بن خالد، حيث بلغه قلة من معه، وخذلان العامة إياه.

فبينا محمد في القصر إذ أتاه بعض طلائعه، وقال: خيل قد جاءت من أهل الشام، فوجه إليهم عدة من أهل الشام مواليه، فأقاموا بباب دار عمر بن سعد إذ طلعت رايات أهل الشام، فتهيأ لقتالهم.

فنادى أهل الشام: نحن بجيلة وفينا بلخ بن خلف البُجَيْلي[2]، جئنا لندخل في طاعة الأمير محمد.

فتركوهم ودخلوا، ثم جاءت خيل أعظم من تلك فيها[3] جهم بن الأصفح الكلبي[4]، ثم جاءت خيل أعظم منها مع رجل من آل بجدل.

فلما رأى ذلك حوثرة من صنيع أصحابه ارتحل نحو واسط بمن معه.

وكتب محمد بن خالد من ليلته إلى قحطبة وهو لا يعلم بهلاكه، يعلمه أن [قد][5] ظفرنا بالكوفة، وعَجَّل به مع فارس، فقدم على الحسن بن قحطبة، فقرأه على الناس، ثم ارتحل إلى الكوفة، وأقام محمد بالكوفة: الجمعة، والسبت، والأحد، وصبحة الحسن يوم الاثنين.

فأتوا أبا سلمة وهو في بني مسلم، فاستخرجوه فعسكر بالنُّخيلة[6] يومين، ثم

(١) بعدها في الكامل:
وبلغ حوثرة تفرق أصحاب محمد عنه فتهيأ.
(٢) كذا في المخطوط وفي الكامل: مليح بن خالد البجلي.
(٣) في المخطوط: فها، والتصويب من الكامل.
(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: الكناني.
(٥) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط واستكملته من الكامل.
(٦) النُّخَيلَة: تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام وهو الموضع الذي خرج إليه عليّ رضي الله عنه لما بلغه ما فعل بالأنبار من قتل عامله عليها وخطب خطبة مشهورة ذم فيها أهل الكوفة. (معجم البلدان).

ارتحل إلى حَمَّام أعْيَن[١]، ووجه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة.

وكان أبو سلمة يعرف بورس آل محمد حتى اتهم، ولما وجه الحسن بن قحطبة لقتال ابن هبيرة ستة عشر قائداً منهم: حازم بن خزيمة، ومقاتل العكي، وخفاف بن منصور، وأشباههم من الوجوه.

ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن في قواد، وبعث خالد بن برمك إلى دير قُنّى[٢].

وبعث شراحيل إلى عين التمر.

ووجه بسام بن إبراهيم بن بسام إلى الأهواز، وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة.

وبعث محمد مع حفص بن سبيع إلى سفيان بن معاوية بعهده على البصرة.

وتقدم إليهم بإظهار دعوة بني العباس ويدعو إلى الإمام القائم منهم فأما بسام فإنه لما أتى الأهواز خرج منها عبد الواحد إلى البصرة.

وأما سفيان فإنه لما قدم عليه الكتاب والعهد قاتله سلم بن قتيبة ولم يسلم له، وكان مبدأ قتاله إياه أن سفيان كتب [٢٨/أ] إليه يأمره بالتحول عن دار الإمارة ويخبره بما آتيه من رأي أبي مسلم.

فامتنع سلم، وحشد ابنه سفيان، اليمانية وحلفاؤهم من ربيعة وغيرها.

وجنح إليه قائد من قواد ابن هبيرة، كان بعثه مدداً لسالم، في ألف رجل، فأجمع السير إلى مسلم بن قتيبة، فاستعد سلم له وحشد من قدر عليه من قيس، ومضر، وموالي بني أمية، وأشياءهم وسارت بنو أمية الذين بالبصرة إلى نصره.

فقدم سفيان في صفر فأتى المربد مسلم فوقف منه في سوق الإبل ووجه الخيول

(١) حَمَّامُ أَعْيَنَ: بالكوفة. ذكره في الأخبار مشهور، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقَّاص (معجم البلدان).

(٢) دير قُنّي: ويعرف بدير مَرْمَارِي السليخ. قال الشابُشتي: هو على ستة عشر فرسخاً من بغداد منحدراً بين النعمانية، وهو في الجانب الشرقي معدود من أعمال النهروان وبينه وبين دجلة ميل مقابلة مدينة صغيرة يقال لها الصافية، وقد خربت.
ويقال: دير الأسكون أيضاً، وبالقرب منه دير العاقول، وهو دير عظيم شبيه بالحصن المنيع، وعليه سور عظيم عال محكم البناء وفيه مائة قلاّية لرهبانه، وهم يتبايعون هذه القلالي بينهم من ألف دينار إلى مائتي دينار، وحول كل قلاّية بستان فيه من كل أنواع الثمار وتباع غلة البستان منها من مائتي دينار إلى خمسين ديناراً.
وفي وسطه نهرجار، هذه صفته قديماً، وأما الآن فلم يبق من ذلك غير سورة وفيه رهبان صعاليك كأنه خرب بخراب النهروان، وقد نسب إليه جماعة من جلة الكتّاب، منهم: فُلان القُنّائي. (معجم البلدان).

في شكك البصرة للقاء من وجه إليه سفيان.

ونادى: من جاء برأس فله خمسمائة، ومن جاء بأسير فله ألف درهم.

ومضى ابن سفيان واسمه معاوية في ربيعة خاصة فلقيه خيل من بني تميم في سكة فطعن رجل فرس معاوية فشب به وصرعه، ونزل إليه آخر فقتله وحمل رأسه إلى سلم بن قتيبة، فأعطاه عشرة آلاف درهم.

فانكسر سفيان لقتل ابنه، فانهزم ومن معه وخرج من فوره هو وأهل بيته حتى أتوا القصر الأبيض فنزلوا، ثم ارتحلوا منه إلى كسكر[1].

وتغلب على البصرة سلم وأتاه كتاب ابن هبيرة أن يصير إلى الأهواز.

وتغلب بالبصرة جماعة بقوا فيها أياماً يسيرة، وقام أبو العباس السفاح فولاّها سفيان بن معاوية.

تم الجزء الثاني، ويليه الجزء الثالث

وأوله: ابتداء دولة بني العباس

---

(١) في المخطوط: كشكر بالشين المعجمة، وهو تحريف، والتصويب من معجم البلدان، وفيها: كَسْكَر... ومعناه: عامل الزرع، كورة عظيمة تنسب إليها الفراريج الكسكرية، لأنها تكثر بها جداً، رأيتها أن تباع فيه أربعة وعشرون فروجاً كباراً بدرهم واحد...
والبط يجلب إليها لكن يجلب من بعض أعمال كسكر، وقصبتها اليوم واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة.
وكانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطاً خسروسابور.
ويقال إن حد كورة كسكر من الجانب الشرقي في آخر سقي النهروان إلى أن تصب دجلة في البحر كله كسكر فتدخل فيه على هذا البصرة ونواحيها.
فمن مشهور نواحيها: المبارك، وعبدس، والمذار، ونغيا، وميسان ودستميسان وآجام البريد.
فلما مصرت العرب الأمصار فرقتها. ومن كسكر أيضاً في بعض الروايات: إسكاف العليا، وإسكاف السفلى، ونفر، وسمر، وبصندق، وقرقوب. وقال الهيثم بن عدي: لم يكن بفارس كورة أهلها أقوى من كورتين. كورة سهلية، وكورة جبلية.
أما السهلية: فكسكر، وأما الجبلية: فأصبهان، وكان خراج كل واحدة منهما: اثني عشر ألف ألف مثقال. وقالوا: معنى كسكر: بلد الشعير بلغة أهل هراة.
وقالوا: سميت كسكر بكسكر بن طهمورث الملك الذي هو أصل الفُرس. (معجم البلدان).

فهرس المحتويات

تجارب الأمم

وتعاقب الهمم

تأليف

أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه
المتوفى سنة ٤٢١ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الثالث

يحتوي على حوادث العصر العباسي من خلافة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ
إلى آخر خلافة المأمون العباسي سنة ٢١٨ هـ

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3414-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ابتداء دولة بني العباس

خلافة أبي العباس السفاح

وفي هذه السنة: بويع لأبي العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب، ليلة الجمعة لثلاث عشرة مضت من شهر ربيع الآخر. وقيل: كان ذلك سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ذكر الخبر عن خلافة أبي العباس وسببها

كان بدو ذلك فيما ذكر رسول اللّه ﷺ أعلم العباس عمه أن الخلافة تؤول إلى ولده.

فلم يزل ولده يتوقعون ذلك، ويتداولون أخبار أبيهم ويسمون محمد بن علي أبا الأملاك. ولما خالف ابن الأشعث وكتب الحجاج إلى عبد الملك أرسل عبد الملك إلى خالد بن يزيد فأخبره، فقال: أما إذا كان الفيف[1] من سجستان فليس عليك بأس إنما كنا نتخوف لو كان من خراسان.

وكان محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس ينتظر أوقاتاً معلومة عنده، وينتظر الأمر لولده، ولا يسمي أحداً.

وكنا أخبرنا خبر محمد بن علي وخبر الدعاة الذين وجههم إلى خراسان، ثم مات محمد بن علي، وجعل وصيته من بعده إبراهيم بن محمد فبعث إبراهيم أبا سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع وكتب معه إلى النقباء بخراسان، فقبلوا كتبه إلى أن قام بأمرهم أبو مسلم.

ثم كان من وقوع كتاب إبراهيم إلى أبي مسلم في يد مروان ما كان، وقد ذكرناه.

فوجه إليه مروان وهو بالحميمة، فأخذه وحبسه فحكي أن عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان قال لمروان بن محمد: هل تتهمني؟

قال: لا.

---

(١) الفيف: المفازة.

قال: اتحطك مصاهرة إبراهيم بن محمد بن علي؟

قال: لا.

قال: فإني أرى أمره يتبع فأنكحه، وأنكح إليه، فإن ظهر كنت أعلقت بينك وبينه سبباً لا يريبك معه، وإن كفيته لم يشتك صهره. فقال: ويحك، لو علمته صاحب ذلك سبقت إليه، ولكن ليس بصاحبه.

فذكر أن إبراهيم حين أخذ ليمضي به إلى مروان نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيعوه، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي، وأوصى إلى أبي العباس أخيه، وجعله الخليفة من بعده، وتقدم إلى الباقين له بالسمع والطاعة.

فشخص أبو العباس عند ذلك ومن معه من أهل بيته[١] حتى قدموا الكوفة في صفر، فأنزلهم أبو سلمة دار الوليد بن سعيد مولى بني هاشم في بني أود[٢]، وكتم أمرهم من جميع القواد والشيعة نحواً من أربعين ليلة.

وأراد أبو سلمة فيما ذُكر تحويل الأمر إلى آل أبي طالب لما بلغه موت إبراهيم بن محمد.

فأتى أبا سلمة أبو الجهم وقال له: ما فعل الإمام؟ قال: لم يقدم بعد.

ثم عاوده أبو الجهم وألح عليه في السؤال.

قال: قد أكثرت وليس هذا زمان خروجه[٣].

---

(١) في الكامل: ومنهم: أخوه أبو جعفر المنصور، وعبد الوهاب، ومحمد ابنا أخيه إبراهيم، وأعمامه: داود، وعيسى، وصالح، وإسماعيل، وعبد الله، وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس.
وابن عمه: داود، وابن أخيه: عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس حتى قدموا الكوفة في صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة بحمام أعين فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار . . .

(٢) في الكامل: بني داود، وما هو في المخطوط موافق لما هو في الطبري حسب ما ذكر محقق الكامل.

(٣) في الكامل بعد هذا: وكان أبو سلمة إذا سُئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا.
فلم يزل ذلك من أمره حتى دخل أبو حميد محمد بن إبراهيم الحميري ـ من حمام أعين ـ يريد الكناسة فلقي خادماً لإبراهيم يقال له: سابق الخوارزمي فعرفه فقال له: ما فعل إبراهيم الإمام؟ فأخبره أن مروان قتله، وأن إبراهيم أوصى إلى أخيه أبي العباس واستخلفه من بعده، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته.
فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم. فقال له سابق: الموعد بيني وبينك غداً في هذا الموضع، وكره سابق أن يدله عليهم إلاّ بإذنه.
فرجع أبو حميد إلى أبي الجهم فأخبره وهو في عسكر أبي سلمة، فأمره أن يلطف للقائهم.
فرجع أبو حميد من الغد إلى الموضع الذي وعد فيه سابقاً. فلقيه فانطلق به إلى أبي العباس، =

فلقي أبو الجهم[١] خادماً لأبي العباس، يقال له: سابق الخوارزمي، فسأله عن[٢] أصحابه، فأخبره أنهم بالكوفة، وأن أبا سلمة أمرهم أن يختفوا فجاء بهم إلى أبي الجهم، فأخبروه خبرهم فسرح أبو الجهم [٢٨/ب] أبا حميد مع سابق حتى عرف منزلهم بالكوفة.

ثم رجع ومعه إبراهيم بن سلمة، فأخبر أبا الجهم عن منزلهم، ونزول الإمام في بني أود شكاً أنه أرسل الإمام حين قدموا إلى أبي سلمة يسأله مائة دينار لأجرة الحمالين، فلم يفعل فحمل أبو الجهم وأبو حميد على يد إبراهيم مائتي دينار إلى الإمام.

ثم مضوا إلى أبي سلمة وسألوه عن الإمام فقال: ليس هذا وقت خروجه واسط بعد ما فتحت. فاجتمع الشيعة على أن يلقوا الإمام، وأتمروا بينهم وقالوا: قد شاع في العسكر أن مروان قد قتل إبراهيم وأن أخاه أبو العباس هو الخليفة من بعده.

ومشى القواد والشيعة تلك الليلة ثم تسللوا من الغد فمضى جماعة منهم إلى الإمام.

وبلغ أبا سلمة، وأتى القوم أبا العباس فقالوا: أيكم عبد اللّه بن محمد بن الحارثة؟

قالوا: هذا.

فسلموا عليه بالخلافة، ورجع أبو الجهم، وموسى بن كعب، وأقام الباقون عند الإمام.

فأرسل أبو سلمة إلى أبي الجهم: أين كنت[٣]؟ قال: ركبت إلى إمامي.

فحينئذٍ ركب أبو سلمة إليهم. فأرسل أبو الجهم إلى أبي حميد أن أبا سلمة[٤] قد أتاكم، فلا يدخلن على الإمام إلاّ وحده.

فلما انتهى إليهم أبو سلمة، منعوه أن يدخل معه أحد، فدخل وحده، وسلم بالخلافة على أبي العباس. وخرج أبو العباس على برذون أبلق يوم الجمعة، فصلى الجمعة بالناس.

= وأهل بيته.
فلما دخل عليهم سأل أبو حميد من الخليفة منهم؟
فقال داود بن علي: هذا إمامكم وخليفتكم، وأشار إلى أبي العباس، فسلم عليه بالخلافة وقَبَّلَ يديه ورجليه، وقال مُرْنا بأمرك.

(١) في المخطوط: أبو الجهد. وهو تحريف.
(٢) تكررت هذه الكلمة في المخطوط.
(٣) تكررت هذه الكلمة في المخطوط.
(٤) في المخطوط: أن أبا مسلم، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

فيقال: إن أبا سلمة لما سلم على أبي العباس بالخلافة قال له أبو حميد: رغم على أنفك يا ماص بظر(١) أمه.

فقال أبو العباس: مَهْ، [وأمر أبا سلمة بالعود إلى معسكره فعاد](٢).

وروي من عدة وجوه: أن أبا العباس السفاح قدم هو وأهله سراً على أبي سلمة الخلال بالكوفة فستر أمرهم، وعزم على أن يجعلها شورى بين ولد علي والعباس حتى يختاروا من أرادوا، ثم قال: أخاف أن لا يتفقوا، فعزم أن يعدل بالأمر إلى ولد الحسن والحسين عليهما السلام. فكتب إلى ثلاثة نفر منهم: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، وعمر بن علي بن الحسين بن علي، وعبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علي عليهم السلام.

ووجه بكتبهم مع رجل من مواليهم من ساكن الكوفة فبدأ بجعفر بن محمد فلقيه ليلاً فأعلمه أنه رسول أبي سلمة، وأن معه كتاباً إليه.

فقال: وما أنا وأبو سلمة هو شيعة لغيري؟

فقال الرسول: تقرأ الكتاب وتجيب بما رأيت.

فقال جعفر لخادمه: قَرِّب السراج مني، فقربه، فوضع عليه كتاب أبي سلمة فأحرقه.

قال: ألا تجيبه؟

قال: رأيت الجواب(٣).

---

(١) في المخطوط: فطر، وهو تحريف.
قلت وهذا من مستقبح القول الذي كان يجب على أهل التواريخ والسير إغفاله أو الإعراض عنه لما فيه في خدش الحياء الذي لا فائدة من ذكره غير إثارة النفس ضد إحدى الطائفتين في حين أنهما أمة قلت خلت وأفضوا إلى ما قدموا.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) هذه تصرفات كثيراً ما تصدر منا في أن نعجل بأحكام قياساً على أسباب سابقة ناسين أو جاهلين أن الأمور تتغير من حين لآخر وقد تأتي بعكس ما كانت عليه أو ما كُنا نظنه، والعاملون في حقل السياسة لهم كلمة مشهورة كثيراً ما يرددونها وهي تعريف موضوعي للسياسة وأن أمورها دائماً غريبة ومفاجئة وهي قولهم: السياسة يوم في السجن ويوم في الرئاسة.
ولنا نحن المصريين في ذلك دليل واضح هو الرئيس السابق محمد أنور السادات، وغيره كثير مثل مانديلا الذي قضى في السجن أكثر من سبعة وعشرين عاماً ثم خرج ليكون رئيساً للجمهورية ثم تنحى عنها بعد حوالي عشرة أعوام.
والمراد من قولي هذا هو النظر في الأمور مرة أخرى بعد علمنا بما كانت عليه فلربما تكون قد تغيرت دون علم منا، ولنا في قول اللّه تعالى التأسي والامتثال: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

ثم أتى عبد اللّه بن الحسن، فقرأ كتابه وركب إلى جعفر بن محمد، فقال له جعفر: أمر جاء بك يا أبا محمد، لو أعلمتني مجيئك؟

قال: وأي أمر هو مما يجل عن الوصف.

قال: وما هو؟

قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة، فتراني أحق الناس به وقد جاء به شيعتنا من خراسان؟

فقال جعفر عليه السلام: ومتى صاروا شيعتك؟ أنت وجهت أبا مسلم إلى خراسان وأمرته بلبس السواد، هل تعرف أحداً منهم باسمه ونسبه، كيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرف أحداً منهم، ولا يعرفونك؟

فقال له عبد اللّه: ما هذا الكلام منك إلاّ لشيء؟

فقال له جعفر: قد علم اللّه [أني] أُوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك؟! فلا تمننين نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة تَتَمَّنَّ لكم، وما هي لأحد من ولد أبي طالب، وقد جاءني ما جاءك، فلم أُجب إلاّ بما ستعرف خبره حين انصرف فانصرف غير راضٍ بما قاله.

وأما عمر بن علي بن الحسين، فإنه رد الكتاب، وقال ما أعرف كاتبه، وأبطأه، أمر أبي مسلم على أبي العباس ومن معه. فخرج أصحاب له يطوفون بالكوفة، فلقي حميد بن قحطبة، ومحمد بن صول ـ رجلاً من مواليهم، فعرفناه أنه كان يحمل كتب محمد بن علي، وإبراهيم بن محمد إليهما، فسألاه عن الخبر، وأعلمهما أن القوم قد قدموا منذ أيام، وأنهم في سرداب يعرف بين فضالة [فجاء][1] إلى الموضع وسلما عليه وقالا: أيكما عبد اللّه؟

فقال أبو العبّاس، وأبو جعفر كلانا عبد اللّه.

فقال: أيكم ابن الحارثية؟

فقال أبو العباس: أنا.

قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ودنوا منه، فبايعاه وأخرجاه إلى المسجد الجامع.

فصعد أبو العباس المنبر، فحصر، فصعد عمه داود بن علي، وقام دونه عرقاه، وخطب خطبته المشهورة.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

أول خطبة خطبها [٢٩/أ] أبو العباس السفاح رضي اللّٰه عنه:

ولما صعد أبو العباس المنبر حين بويع له بالخلافة قام في أعلاه، فقال:

الحمد للّٰه الّذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرّمه وشرفه [وعظمه][(١)]، واختاره لنا، وأيدنا به[(٢)]، وجعلنا أهله، وكهفه وحصنه، والقوَّام به، والذابِّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا بِرَحِم رسول اللّٰه ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا حريصاً [علينا][(٣)] بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وأنزلنا[(٤)] من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل كتاباً يتلى[(٥)]، فقال تبارك وتعالى [فيما أنزل من محكم كتابه][(٦)]: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال [تعالى][(٧)]: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ [وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾][(٨)] [الأنفال: ٤١]. فأعلمهم جل وعزّ فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة علينا وفضلاً[(٩)]، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٥٧] ثم ذكر جور بني أمية وظلمهم[(١٠)].

وقد زدتكم[(١١)] في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح الثائر المنير[(١٢)].

وكان موعوكاً فاشتد به[(١٣)] الوعك [فجلس][(١٤)] على المنبر، وصعد داود بن علي

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: فأيده بنا وجعلنا أهله.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في الكامل: ووضعنا.
(٥) في الكامل: وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبته من الكامل.
(٩) في الكامل: تكرمة لنا وفضلاً علينا.
(١٠) ذكر ابن الأثير ما قاله في جور بني أمية وآثرت ترك ذكره.
(١١) سقطت هذه العبارة من المخطوط وجاء موضعها كلمة: «ووعد» فاستبدلتها بما هو مذكور من الكامل.
(١٢) في الكامل: «المنيح».
(١٣) في الكامل: عليه.
(١٤) من الكامل.

فقام دونه على مراقي [المنبر][١] وقال:

الحمد للّه، شاكراً[٢] الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ، أيها الناس الآن أقتشعت حناديس[٣] الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤُها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق في نصابه[٤] في [أهل بيت نبيكم][٥] أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم.

أيها الناس، إنَّا واللّه ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر الذهب واللجين[٦]، ولا لنحفر نهراً أو نبني قصراً، وإنما أخرجتنا[٧] الأنفة من هدارهم[٨] حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرهنا من أمورنا[٩] ونهضنا من شؤونكم. ثم وعد الناس خيراً وقال:

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره اللّه نصراً عزيزاً إنما[١٠] قطعه عن استمام الكلام شدة الوعك، فادعوا اللّه لأمير المؤمنين بالعافية[١١].

فعج الناس له بالدعاء.

ثم قال: أيها الناس، إنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول اللّه ﷺ إلاّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا[١٢]، وأشار بيده إلى أبي العباس واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، [والحمد للّه على ما أبلانا وأولانا][١٣]. ثم نزل داود بن علي، ونزل أبو العباس[١٤] حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر أخاه يأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل

---

(١) زيادة من الكامل والعبارة فيه على النحو التالي: وقام عمه داود على مراقي المنبر.
(٢) في الكامل: شكراً.
(٣) في الكامل: حنادس.
(٤) هذه الكلمات الثلاثة من أمثال العرب السائرة.
(٥) من الكامل.
(٦) في الكامل: لنكثر لجيناً.
(٧) في المحفوظ: أخرجت، والتصويب من الكامل.
(٨) في الكامل: ابتزازهم.
(٩) في الكامل: أموركم، وساق بعدها كلامنا كثيراً.
(١٠) جاء بعدها في الكامل: عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه...
(١١) فذكر بعد ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال: ألا إنه ما صعد منبركم هذا خليفة...
(١٢) بدل اسم الإشارة صرح في الكامل باسمه بأن قال أمير المؤمنين عبد اللّه بن محمد...
(١٣) زيادة من الكامل.
(١٤) في الكامل قدم الثاني على الأول.

يأخذها [عليهم][١] حتى صلّى بهم العصر، ثم صلّى بهم المغرب، وجنهم[٢] الليل، فدخل[٣]. وذكر[٤] أن داود بن علي وابنه كانا بالعراق أو بغيرها، فخرجا يريدان السراة، فلقيهما أبو العباس، ومعه أخوه أبو جعفر، ومعهما عبد اللّه بن علي، وعيسى بن موسى، وصالح، وعبد الصمد، وإسماعيل، وعبد اللّه بنو علي، ويحيى بن محمد، وعبد الوهاب، ومحمد ابنا إبراهيم، وموسى بن داود، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، ونفر من مواليهم بدومة الجندل[٥].

فقال لهم داود: أين تريدون؟ وما قصتكم؟ فقصَّ عليه أبو العباس قصتهم، وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها، ويظهر [وا أمرهم][٦].

فقال داود: يا أبا العباس، تأتي الكوفة وشيخ بني مروان بحران؟! ـ يعني مروان بن محمد ـ وهو مطل[٧] على العراق في أهل الشام والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في حيلة[٨] العرب.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) أي أظلم عليهم ومضى منه الكثير.
(٣) ثم ذكر كلاماً كثيراً.
(٤) في الكامل: وقد قيل.
(٥) الكلام السابق ذكر في الكامل بالمعنى ودُومة الجندل: على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ، وقال أبو سعد: دُومة الجندل في غائط من الأرض في خمسة فراسخ. . . وسميت دُومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل.
وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبليّ طيء كانت به بنو كنانة من كلب.
قال: ودمة من القريات من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال، والقريات: دومة، وشكاكة، وذو القارة.
فأما دُومة، فعليها سورة يتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له: مارد، وهو حصن أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحيّ بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن عفير وهو كندة السكوني الكندي، كان النبي ﷺ وجه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له: «ستلقاه يصيد الوحش». وجاءت بقرة وحشية فحككت قرونها بحصنه، فنزل إليها ليلاً ليصيدها فهجم عليه خالد، فأسره، وقتل أخاه حسان بن عبد الملك، وافتتحها خالد عُنوة وذلك في سنة تسعة للهجرة، ثم إن النبي ﷺ صالح أكيدر على دُومة وآمنة، وقرر عليه وعلى أهل الجزية، وكان نصرانياً، فأسلم أخوه حريث، فأقره النبي ﷺ على ما في يده، ونقض أكيدر الصلح بعد النبي ﷺ، فأجلاه عمر رضي اللّه عنه من دُومة فيمن أجلى من مخالفي دين الإسلام إلى الحيرة، فنزل في موضع منها قرب عين التمر، وبنى به منازل، وسماها دُومة، وقيل دوماء باسم حصنه بوادي القرى، وهو قائم يعرف إلاّ أنه خراب.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) في المخطوط: مصل، والتصويب من الكامل.
(٨) في الكامل: في جند.

فقال له أبو العباس: يا عم من أحب الحياة ذل ثم تمثل قول الأعشى:

فما ميتَةٌ إن مِتُّها غَيْرَ عاجِزٍ بعار إذا مَا غَالب النَّفْسَ غُولُها

فالتفت داود إلى ابنه موسى فقال: صدق واللّه ابن عمك ارجع بنا معه نعش غزازاً أو نموت كراماً، فرجعوا [٢٩/ب] معه.

وكان عيسى بن موسى إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة يقول:

إن ركباً أربعة عشر خرجوا من دارهم وأهليهم يطلبون ما طلبنا، لعظيمة هممهم، كبيرة أنفسهم، شديدة قلوبهم.

وخرج أبو العباس، فعسكر بحمام أعين في عسكر أبي سلمة، ونزل معه في حجرته. وحاجب أبي العباس عبد اللّه بن بسام. واستخلف على الكوفة وأرضها داود بن علي وبعث عمه عبد اللّه بن علي إلى أبي عون وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة، وهو يومئذٍ بواسط، محاصر ابن هبيرة. وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن.

وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز.

وبعث سلمة عمرو بن عثمان إلى مالك بن طوق.

وأقام أبو العباس في العسكر شهراً ثم ارتحل لمنزل المدينة الهاشمية في قصر الإمارة، وقد كان تنكر لأبي سلمة قبل تحوله حتى عرف بذلك.

ذكر الخبر عن هذه الوقعة وسببها

كان أبو عون وجه قحطبة إلى شهرزور وبها عثمان بن سعيد من قِبل مروان، فقتله أبو عون وأقام ناحية الموصل.

وبلغ ذلك مروان، فأقبل من حَرّان حتى سار إلى الموصل، فنزل على الزاب وحفر خندقاً فتبادر إليه أبو عون فنزل الزاب ووجه أبو سلمة إليه مدداً، وعدة من القواد، فلما ظهر أبو العباس بعث إليه أيضاً عدة من القواد، ومدداً آخرين.

ثم قال أبو العباس: من يسير إلى مروان من أهل بيتي؟

فقال عبد اللّه بن علي: أنا.

فقال: سِرْ على بركة اللّه.

فسار عبد اللّه بن علي حتى قدم على أبي علي حتى قدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرادقه، وخلاله بما فيه.

فسأل عبد اللّه بن علي عن مخاضه، فَدُلّ عليها بالزاب(١).

فأمر عيينة بن موسى فعَبَر في خمسة آلاف، وانتهى إلى عسكر مروان، فقاتلهم حتى أمسوا، ورفعت لهم النيران فتحاجزوا.

فرجع عيينة إلى عسكر عبد اللّه بن علي، فأصبح مروان فعقد جسراً، وسرّح ابنه عبد اللّه وقال: امض حتى تكون أسفل من عسكر أبي علي، وتبعث من ورائه من يشغله. ففعل ذلك، وبعث عبد اللّه بن علي: المخارق بن عفان في أربعة آلاف حتى نزل على خمسة أميال من عسكر عبد اللّه بن مروان بن الوليد بن معاوية.

وسار إليه مروان، فقال مروان: فلما التقى العسكران قال مروان لعبد العزيز بن عمر(٢): إن زالت الشمس اليوم فلم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال، فإنا للّه، وإنّا إليه راجعون.

وأرسل مروان إلى عبد اللّه بن علي، فسأله الموادعة.

فقال عبد اللّه: كذب ابن زريق، ولا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء اللّه تعالى.

فقال مروان لأهل الشام لا تبدؤوهم وجعل ينظر إلى الشمس.

---

(١) الزابُ: هي الزاب الأعلى: بين الموصل وإربل، ومخرجه من بلاد مشتكهر، وهو حد ما بين أذربيجان بابغيش، وهو ما بين قطينا والموصل من عين في رأس جبلٍ ينحدر إلى واد، وهو شديد الحمرة، ويجري في جبال وأودية، وحُزُونة، وكلما جرى صفا قليلاً حتى يصير في ضيعة كانت لزيد بن عمران أخي خالد بن عمران الموصلي بينها وبين مدينة الموصل مرحلتان وتعرف بباشَزّا وليست التي في طريق نصيبين، فإذا وصل إليها صفا جداً، ثم يقلب في أرض حفيتون من أرض الموصل حتى يخرج من كورة المرج من كور الموصل، ثم يمتد حتى يفيض في دجلة على فرسخ من الحديثة، وهذا هو المسمى بالزاب المجنون لشدة جريه.
وأما الزاب الأسفل: فمخرجه من جبال السَّلَق سلق أحمد بن روح بن معاوية من بني أود ما بين شهرزور، وأذربيجان ثم يمر إلى ما بين دقوقا وإربل، وبينه وبين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة ثم يمتد حتى يفيض في دجلة عند السن، وعلى هذا الزاب كان مقتل عبيد اللّه بن زياد ابن أبيه... وبين بغداد وواسط زابان آخران أيضاً، ويسميان الزاب الأعلى والزاب الأسفل، أما الأعلى فهي عند قوسين وأظن مأخذه من الفرات ويصب عند زرفامية وقصبة كورته النعمانية على دجلة.
وأما الزاب الأسفل من هذين فقصبته نهر سابُس قرب مدينة واسط.
وزاب النعمانية أراد الحيص بَيص أبو الفوارس الشاعر بقوله:
أجـأ وسـلـمـى أم بـلاد الـزّاب وأبـو الـمظفـر أم غـضـنفـر غـاب؟
وعلى كل واحد من هذه الزوابي عدة قرى وبلاد. (معجم البلدان).

(٢) في المخطوط: فقال مروان ما التقى العسكران لعبد العزيز بن عمر.
والتصويب من الكامل.

فحمل الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان على ابنته، فغضب وشتمه وتمم الوليد حملته فهزم أبا عون، فانحاز إلى عبد اللّه بن معاوية بن علي.

فقال موسى بن كعب: مُر الناس أن ينزلوا، فنودي: الأرض الأرض، فنزل الناس وأسرعوا الرماح وجثوا على الركب.

فحمل أهل الشام كأنهم جبال حديد، ومالوا على أصحاب عبد اللّه بن علي كأنهم سحابة، فصبروا لهم على حالهم.

فقيل: إن مروان كان لا يريد شيئاً إلا عرض فيه خلل وفساد حتى قال: اخرجوا إلى الناس الأموال، فأخرجت.

وقال للناس: اصبروا، وقاتلوا، وهذه الأموال لكم فجعل ناس يصيبون من ذلك المال. فأرسل إليه: أن الناس قد مالوا إلى هذا المال ولا نأمنهم أن يذهبوا به؟

فأرسل إلى ابنه عبد اللّه: أن سِر إلى مؤخر عسكرك، فمن مَرّ بك ومعه شيء من المال فاقتله وامنعه.

فمال عبد اللّه برايته واتبعه أصحابه.

فقال الناس: الهزيمة فانهزموا.

وفي هذه السنة: كان قتل إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن علي بن العباس [٣٠/ أ/] وقد اختلف الناس فيه(١)، فقال بعضهم: لم يقتل ولكن مات في السجن من الطاعون.

وقيل: انهزم مروان بالزاب [و]عاد إلى حران فاستعرض أهل السجن، فوجدهم قد هلكوا، وقتل خليفة مروان بعضهم، فأطلق مروان من بقي منهم، وكان إبراهيم ممن هلك.

ويقال: بل هدم عليه بيتاً فقتله.

وحكى بعض خدام إبراهيم ممن كان معه يخدمه في مجلسه قال:

---

(١) ومما قال ابن الأثير في الكامل في قصته:
إن مروان حبسه بحران وحبس سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان، وعبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وأبا محمد السفياني هلك منهم في وباء وقع بحران العباس بن الوليد وإبراهيم بن محمد بن علي الإمام، وعبد اللّه بن عمر، فلما كان قبل هزيمة مروان من الزاب بجمعة خرج سعيد بن هشام، وابن عمه، ومن معه من المحبوسين فقتلوا صاحب السجن وخرجوا، فقتلهم أهل حران ومن فيها من الغوغاء، وكان فيمن قتلة أهل حران شراحيل بن مسلمة بن عبد الملك، وعبد الملك بن بشر التغلبي، وبطريق أرمينية الرابعة، واسمه كوشان، وتخلف أبو محمد السفياني في الحبس، فلم يخرج فيمن خرج، ومعه غيره لم يستحلوا الخروج من الحبس.
فقدم مروان منهزماً من الزاب فجاء فخلى عنهم. وقيل: إن مروان هدم على إبراهيم بيتاً فقتله.

كان معه في الحبس عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز، وشراحيل، وكانا يتزاوران، فأتاه رسول من شراحيل يوماً بلبن، فقال: يقول لك أخوك إني شربت من هذا اللبن فاستطبته، فأحببت أن تشرب منه.

فتناوله، فشرب منه فتوصب من ساعته وتكسر جسده، وكان يوماً يأتي فيه شراحيل، فأبطأ عليه فأرسل إليه: جعلت فداك، قد أبطأت فما حبسك؟

فأرسل إليه: إني شربت اللبن الذي أرسلت به إليَّ، اخلفني.

فأتاه شراحيل مذعوراً وقال: لا واللّه الذي لا إله إلا هو، ما شربت اليوم لبناً، ولا أرسلت به إليك، فإنّا للّه، وإنّا إليه راجعون، احتيل، بك، واللّه.

قال: فما لبث إلاّ ليلةً وأصبح من الغد ميتاً.

وفي هذه السنة: قتل مروان بن محمد[١].

---

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب في أحداث هذه السنة:
فيها ابتداء دولة العباسيين، وبويع أبو العباس السفاح عبد اللّه بن محمد بن علي بن عباس بالكوفة.
وجهز عمه عبد اللّه بن علي لمحاربة مروان بن محمد الجعدي.
فزحف مروان إليه في مائة ألف إلى أن نزل بالزاب دون الموصل، فالتقوا في جمادى الآخرة فانكسر مروان، واستولى عبد اللّه بن علي على الجزيرة وطلب الشام وهرب مروان إلى مصر فاتبعهم أيضاً فأدركهم بفلسطين فأوقع بهم بضعاً وثمانين رجلاً، ثم عبر مروان النيل طالب الحبشة، فلحقه صالح بن علي عم السفاح فأدركه بقرية من قرى الفيوم من أرض مصر يقال لها بوصير، فوافاه صائماً وقد قدم له الفطور، فسمع الصائح فخرج وسيفه مصلت فجعل يضرب بسيفه ويتمثل بقول الحجاج ابن حكيم:

متقلدين صفائحاً هندية ... يتركن من ضربوا كأن لم يولد
وإذا دعوتهم ليوم كريهة ... وافوك بين مكبر وموحد

فقصدته الخيول من كل جانب فقتلوه.
وكان أهله وبناته في كنيسة هناك، فأقبل خادمه بالسيف مصلتاً يريد الدخول عليهم، فأُخذ وسئل عن مراده، فقال: إن مروان أمرني إذا تيقنت موته أن أضرب رقاب نسائه وبناته، فأرادوا قتله، فقال: إن قتلتموني لتفقدن ميراث رسول اللّه ﷺ.
قالوا: فدلنا على ذلك إن كنت صادقاً، فخرج بهم إلى رمل هناك فكشفوه، فإذا فيه القضيب، والبرد، والقعب، والمصحف، فأخذوه. وكان الذي تولى قتله: عامر بن إسماعيل الخراساني، وهو صاحب مقدمة صالح.
ولما قتله دخل بيته، وركب سريره ودعا بعشائه، وجعل رأس مروان في حجر ابنته، وأقبل يوبخها.
فقالت له: يا عامر، إن دهراً أنزل مروان عن فراشه، وأقعدك عليه حتى تعشيت عشاءه لقد أبلغ في موعظتك، وعمل في إيقاظك وتنبيهك إن عقلت وفكرت. ثم قالت: واأبتاه، واأمير المؤمنيناه. فأخذ عامراً الرعب من كلامها وبلغ ذلك أبا العباس السفاح، فكتب إلى عامر يوبخه ويقول: أما في أدب اللّه ما يخرجك عن عشاء مروان والجلوس على مهاده؟!
وقتل مروان وله تسع وخمسون سنة، وقيل: سبع وستون، وإمارته خمس سنين وتسعة أشهر وأيام.

ذكر الخبر عن مقتل مروان، وما عومل به في طريقه وهو هارب وما لقي من أصحابه

حكى أبو هاشم مخلد بن محمد قال: لما هزم مروان بن محمد بالزاب، كتب في عسكره، وكان معه مائة وعشرون ألفاً، وكان عبد اللّه بن علي بعشرين ألفاً. فلما انهزم مروان سار إلى الموصل وعليها هشام بن عمرو، وبشر بن خزيمة، فقطعا الجسر ومنعاه. فناداهم أهل الشام: هذا مروان.

قالوا: كذبتم أمير المؤمنين لا يفر.

فسار إلى بلد فعبر دجلة، ثم أتى إلى دمشق وخلف بها الوليد بن معاوية.

وقال قائلهم حتى يجتمع أهل الشام، ومضى مروان إلى فلسطين، فنزل نهر أبي فطرس، وقد غلب على فلسطين الحكم بن صنعان الخذامي وسود.

فأرسل مروان إلى عبد اللّه بن يزيد بن روح بن زنباع فأجازه.

وكتب أبو العباس إلى عبد اللّه بن علي يأمره باتباع مروان.

فسار عبد اللّه إلى الموصل، فتلقاه هشام بن عمرو، وبشر بن خزيمة وقد سود في أهل الموصل، وفتحوا له المدينة.

ثم سار إلى حران، وولى الموصل ابن صول، فهدم الدار التي حبس فيها إبراهيم بن محمد. ثم سار من خراسان إلى منيح وقد سودوا فنزل مدينة منيح، وقدم عليه أبو حميد المروزي، وبعث إليه قنسرين ببيعتهم. كما أتاه عنهم أبو أمية.

وقدم عليه عبد الصمد بن علي أمده به أبو العباس في أربعة آلاف، فأقام يومين بعد قدوم عبد الصمد.

ثم سار إلى قنسرين، فأتاها وقد سود أهلها وأقام يومين.

ثم سار حتى نزل حمص وأقام بها حتى بايع أهلها.

ثم سار إلى بعلبك فأقام يومين.

ثم ارتحل فنزل مرة قرية من قرى دمشق، وقدم عليه صالح بن علي مدداً، فنزل مرج عسكراً في ثمانية آلاف، وفرق أصحابه على أبواب دمشق، وحاصروها، والبلقاء، وتعصب الناس بالمدينة، وقتل بعضهم بعضاً وقتلوا الوليد، وفتحوا المدينة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكان أول من صعد السور من باب الشرقي عبد اللّه الطائي، ومن قبل باب الصغير بسام بن إبراهيم، فقاتل فيها ثلاث ساعات، ثم أمر بالكف.

وأقام عبد اللّٰه بن علي بدمشق ثمانية عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين فنزل بهم السكوة، ووجه منها يحيى بن جعفر الهاشمي إلى المدينة. ثم ارتحل إلى الأردن فأتوه وقد سودوا. ثم سار إلى مرج الروم، ثم سار إلى نهر أبي فطرس، ومعه ابن قبان، وعامر بن إسماعيل، وأبو عون، وقدم أبا عون على مقدمته. وسار فنزل الرملة، ثم سار فنزل ساحل البحر، وجمع صالح بن علي [٣٠/ب] السفن وتجهز يريد مروان وهو بالعراء، فسار على الساحل، والسفن حذاءه في البحر حتى نزل العريش. وبلغ مروان، فأحرق ما كان حوله من علف، وطعام، وهرب.

ومضى صالح بن علي فنزل النيل، ثم سار حتى نزل الصعيد.

وبلغه أن لمروان خيلاً بالساحل [وأنهم][١] يحرقون الأعلاف فوجه إليهم قواداً، فأخذوا رجالاً وقدموا بهم على صالح، وهو بالفسطاط.

فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله.

ومضى صالح يتبعه، فالتقى هو وخيل لمروان فأصاب منهم طرفاً وهزمهم.

ثم ارتحل فنزل موضعاً يقال له: ذات الساحل. وقدم أبي عون ومعه شعبة بن كثير المازني فلقوا خيلاً لمروان، فهزموهم، فأسرا منهم رجالاً فقتلوا بعضهم واستحيوا بعضاً وسألوهم عن مروان؟

فقالوا: إن أمنتمونا دللناكم على مكانه، فأمنوهم به، فساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة ببوصير[٢] ووافوه في آخر النهار فهرب الجند، وخرج إليهم مروان في نفر يسير، فأحاطوا به فقتلوه.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) بُوصِير: اسم لأربع قرى بمصر. بوصير قُورِيدُس: وقال الحسن بن إبراهيم بن زَوْلاق: بها قتل مروان بن محمد بن الحكم الذي به انقرض ملك بني أمية، وهو المعروف بالحمار، والجعدي، قُتل بها لسبع بقين من ذي الحجة سنة (١٣٢).
وقال أبو عمرو الكندي: قُتل مروان ببوصير من كورة الاشمونين.
وقال لي المفضل بن الحجاج: بُوصير قوريدس: من كورة البوصيرية.
وإلى بوصير قوريدس ينسب أبو القاسم هبة اللّٰه بن علي بن مسعود بن ثابت بن غالب بن هاشم الأنصاري الخزرجي، كتب إلى أبي الربيع سليمان بن عبد اللّٰه التميمي المكي في جواب كتاب كتبته إليه من حلب أسأله عنه فقال: سألت ابن الشيخ البوصيري عن سلفه ونسبه وأصله فأخبرني أنهم من المغرب من موضع يسمى المُنَستير. قال: وبالمغرب موضعان يسميان المنستير، أحدهما بالأندلس بين لقنت وقرطاجنة في شرق الأندلس، والآخر بقرب سوسة من أرض إفريقية، بينه وبينها اثنا عشر ميلاً، قال: ولم يعرفني والدي من أيها نحن، وكان أول قادم منا إلى مصر جدُّ والدي مسعود، فنزل بوصير قوريدس، فأولد بها جدي عليًا، ودخل عليٌّ مصر فأقام بها، فأولد بها أبي القاسم ولم يخرج من الإقليم إلى سواه إلى أن توفي في ليلة الخميس الثاني من صفر سنة (٥٩٨) أخبرني بالوفاة الحافظ الزكي عبد العظيم المنذري (معجم البلدان).

ومن عجيب الأمور التي جرت هناك: أن أبا عون عامر بن إسماعيل تحدث فقال: لقينا مروان ببوصير ونحن في جماعة كبيرة، فشدوا علينا، فأنصبوا بنا إلى نخيل، ولو يعلمون بقلتنا لأهلكونا فقلت لأصحابي: إن أصبحنا فرأونا ونحن نفر يسير لم ينج منا أحد، وذكرت قول بكير بن هامان: أنت واللّه تقتل مروان كأبي إسماعيل، تقول: دهند ياحوا سكان، فكسرت جفن سيفي وكسر أصحابي جفون سيوفهم وقلت: دهند ياحوا سكان، وكأنها نار صبت عليهم، فانهزموا وحمل رجل على مروان، فضربه بسيفه فقتله وكتب عامر بن إسماعيل إلى صالح بن علي، فكتب صالح بن أبي علي إلى أمير المؤمنين أبي العباس:

إنّا اتبعنا عدو اللّه الجعدي حتى ألجأناه إلى أرض عدو اللّه شبهة فرعون فقتله بأرضه، وبعث صالح برأسه مع يزيد بن هانئ، وكان على شرطة أبي العباس يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائة، ورجع صالح إلى الفسطاط، ثم انصرف إلى الشام فدفع الغنائم إلى أبي عون السلاح، والأموال والرقيق إلى أبي الفضل بن دينار.

وخلف أبا عون على مصر، وقتل مروان وهو ابن نيف وستين سنة، واختلف الناس في النيف، فلذلك لم أثبته.

وكانت ولايته من حين بويع إلى أن قتل خمسين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً. وكانت أمه أمة لإبراهيم بن الأشتر، أصابها محمد بن مروان بن الحكم يوم قتل ابن الأشتر فأخذها من ثقله، وهي مسن، فولدت مروان على فراشه.

ولما بُويع أبو العباس دخل عليه ابن عياش المستوف فقال:

الحمد للّه الذي أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أمه النجع، ابن عم رسول اللّه ﷺ وابن عبد المطلب.

وفي هذه السنة: خلع أبو الورد أبا العباس بقنسرين فبيّض وبيضوا معه.

ذكر الخبر في تبييض أبي الورد وانتفاض تلك النواحي كلها وما آل إليه[1] أمرهم

كان سبب ذلك أن أبا الورد واسمه مجزاة[2] بن الكوثر بن زفر بن الحارث

(١) في المخطوط: مال إليهم، وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: مجراه، والتنقيط من الكامل والاسم فيه: مجزة.

الكلابي [و](١) كان من أصحاب مروان وفرسانه(٢) وقواده(٣).

فلما هزم مروان وأبو الورد بقنسرين قدمها عبد اللّه بن علي فبايعه، فدخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة.

وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالس(٤) والناعورة.

فقدم بالس قائد من قواد عبد اللّه بن علي من الأزد مروية في مائة وخمسين فارساً، فتعرض لنساء مسلمة بن عبد الملك، وعبث بولد مسلمة فشكا بعضهم ذلك إلى أبي الورد، وذكره الحق والحرمة، فخرج من مزرعة له تعرف بحساف في عدة من أهل بيته حتى هجم على ذلك القائد، وهو نازل حصن مسلمة، فقاتله حتى قتله ومن معه.

وأظهر التبييض(٥) والخلع والدعاء لأهل قنسرين(٦) إلى ذلك فتسارعوا إليه، وبيضوا بأجمعهم وعبد اللّه بن علي مشغول بحرب ابن حبيب بن مرة في إيلة بأرض البلقاء والبثنية(٧) وحوران.

وكان قد لقيه عبد اللّه بن علي في جموعه [٣١/أ] فقاتله وكان بينه وبينهم وقعات وقعات، وكان من قواد مروان وفرسانه. وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وقومه فبايعته قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور.

فلما بلغ عبد اللّه بن علي تبييض أهل قنسرين دعا حبيب بن مرة إلى الصلح، فصالحه وآمنه ومن معه، وخرج متوجهاً نحو قنسرين للقاء أبي الورد.

فمر بدمشق فخلف عليها أبا الغنائم عبد الحميد بن ربعي في أربعة آلاف رجل من جنده.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: وفرسان. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: وقواي. وهو تحريف وتصويبه من الكامل.

(٤) بَالِس: بلدة بالشام بين حلب والرَّقة سميت فيما ذكر ببالس بن الروم بن اليَقَن بن سام بن نوح عليه السلام وكانت في ضفة الفرات الغربية، فلم يزل الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً حتى صار بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال.

(٥) التبييض أي التبيين وإظهار الحق وتوضيحه وتنويره.

(٦) قال صاحب الزيج: . . . في جبلها مشهد يقال إنه قبر صالح النبي عليه السلام وفيه آثار أقدام الناقة، ولصحيح أن قبره باليمن بشبوة، وقيل بمكة، واللّه أعلم. وكان فتح قنسرين على يد أبي عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه سنة (١٧) وكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً.
قال أحمد بن يحيى سار أبو عبيدة بن الجراح بعد فراغه من اليرموك إلى حمص فاستقراها ثم أتى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثم لجؤوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم وغلب المسلمون على أرضها وقُراها.
وقال ابن الأنباري: أخذت من قول العرب: قنسري: أي مُسِنٌّ. (معجم البلدان).

(٧) البُثَيْنَة: مُصغراً بلفظ صاحب جميل، هضبة على طريق السفر بين البحرين والبصرة.

وكان بدمشق يومئذٍ امرأة عبد اللّه بن علي أم البنين بنت محمد بن عبد المطلب النوفلية وأمهات الأولاد لعبد اللّه بن علي وثقله [فلما قدم حمص انتفض][١] له.

فلما قدم حمص في وجهه انتفض عليه بعده أهل دمشق، فبيضوا ونهضوا مع عثمان بن عبد اللّه بن مراقة الأزدي فنهضوا إلى أبي غانم ومن معه، فقاتلوه، وهزموه، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما كان عبد اللّه بن علي خلفه من ثقله ومتاعه، ولم يعرضوا لأهله، وبيض أهل دمشق واستجمعوا على الخلاف.

ومضى عبد اللّه بن علي، وقد كان تجمع مع أبي الورد جماعة من أهل قنسرين، وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتَدْمُر[٢].

فقدم منهم ألوف وعليهم أبو محمد بن عبد اللّه بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فرأسوا عليهم أبا محمد ودعوا إليه وقالوا: هو السفياني الذي كان يُذَكِّرونهم، وهم نحو من أربعين ألفاً. فلما دنا منهم عبد اللّه بن علي، وأبو محمد معسكر لجماعتهم في مرج يقال له: مرج الأخرم، وأبو الورد المتولي لأمر العسكر، وهو صاحب القتال والوقائع.

وجه عبد اللّه بن علي أخاه، عبد الصمد بن علي في زهاء عشرة آلاف فارس.

فناهضهم أبو الورد ولقيهم بين العسكرين واستمر القتال في الفريقين وثبت القوم حتى انهزم عبد الصمد ومن معه، وقتل منهم يومئذٍ ألوف.

وأقبل عبيد اللّه حيث أتاه عبد الصمد ومعه حميد بن قحطبة وجماعة من معه من القواد، فالتقوا واقتتلوا بأبند بمرج الأخرم قتالاً شديداً، فانكشفت منهم جماعة ممن كان مع عبد اللّه. ثم تابوا وثبت لهم عبد اللّه وحميد بن قحطبة، فهزموهم.

وثبت أبو الورد في نحو من خمسمائة من[٣] أهل بيته وقومه فقتلوا جميعاً، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر وأَمَّنَ عبد اللّه أهل قنسرين، وسودا

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) تَدْمُر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام... وقيل سميت بتدمر بن حسان بن أُذينة بن السميدع بن مزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.
وهي من عجائب الأبنية موضوعة على عمد الرخام زعم قوم أنها من بناية الجن لسليمان عليه السلام، ونعم الشاهد في ذلك قول النابغة الذبياني:

إلا سليمان إذ قال الإله له: قم في البرية فاحددها عن الفند
وخَيِّسِ الجنَّ إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان عليه السلام، ولكن الناس إذا رأوا بناءاً عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن. (معجم البلدان).

(٣) في المخطوط: ومن. وهو تحريف.

وبايعوه. ثم انصرف راجعاً إلى أهل دمشق، ولما كان من تبييضهم عليه وثوبتهم على أبي غانم، فلما دنا من دمشق هرب الناس وتفرقوا ولم يكن منهم وقعة، فأمن عبد اللّه أهلها بايعوه، ولم يأخذهم بما كان منهم.

وأما أبو محمد فلم يزل متغيباً ولحق بأرض الحجاز[١]. وبلغ زياد بن عبد اللّه بن الحارثي ـ عامل أبي جعفر على المدينة ـ مكانه الذي فيه، فوجه إليه خيلاً فقاتلوه حتى قتل وأخذوا ابنين[٢] له فبعث بهما إلى [أبي][٣] جعفر وهو يومئذٍ أمير المؤمنين فأمر بتخلية سبيلهما وأمنهما[٤].

وفي هذه السنة: نهض أهل الجزيرة وخلعوا أبا العباس.

ذكر [الخبر][٥] عن ذلك

كان الناس يظنون المودّة أنها ترد عليهم سُنَّة الصدر الأول، فلما رأوا [أن][٦] سيرتهم شبيهة بسيرة من تقدمهم، ثم هجم عليهم عسكر غريب عنهم لهم معرات وأطماع تبرّموا بهم. فلما خرج أبو داود لغيرته وحميته على نساء مسلمة انتفض الناس من كل ناحية.

وكان بحران يومئذٍ موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من الجند صاحب عبد اللّه بن علي وسار إليه الناس منتهضين من كل وجه فحاصروه ومن معه وأمرهم مشتت ليس عليهم رأس تجمعهم، وقدم على بقية ذلك إسحاق بن مسلم [العقيلي][٦] من أرمينية كان شخَصَ عنها حين بلغته هزيمة مروان، فرأسته[٧] جنود الجزيرة حتى موسى بن كعب.

فوجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر بمن معه من الجنود التي كانت معه بواسط، محاصرة ابن هبيرة، فمضى حتى مَرَّ بقرقيسيا وأهلها[٨] [٣١/ ب] منتضون[٩] قد غلقوا أبوابها دونهم.

ثم قدم مدينة الرقة وهم على مثل ذلك، وبها بكار بن مسلم، فمضى نحو حرّان.

---

(١) بعدها في الكامل:
وبقي كذلك إلى أيام المنصور.
(٢) في المخطوط: ابنينا، والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة يتطلبها السياق وقد سقط من المخطوط.
(٤) بعد هذا في الكامل: وقيل: إن حرب عبد اللّه، وأبي الورد كانت سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) أي جعلته رأساً أو رئيساً أو أميراً أو إماماً لهم يقاتلون وراءه وتحت رايته وقيادته وإمرته.
(٨) في المخطوط: أهل، وهو تحريف.
(٩) قال ابن منظور في لسان العرب: نضا ثوبه عنه نضواً: أي خلعه وألقاه عنه.

ورحل إسحاق أبو مسلم إلى الرها في سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

وخرج موسى بن كعب فيمن معه مدينة حران فلقوا أبا جعفر.

وقدم بكار على أخيه مسلم بن عقيل فوجّه إلى رجل من الحرورية يقال له: بريكة، وهو في جماعة ربيعة.

فصمد له أبو جعفر فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل بريكة، وانصرف بكار إلى أخيه بالرّها فخلفه إسحاق بها، ومضى إلى سَمَيْسَاط[١]، فخندق على عسكره، وأقبل أبو جعفر حتى قاتله بكار بالرها وكانت بينهم وقعات.

وكتب أبو العباس إلى عبد اللّه بن علي في المسير بجنوده إلى إسحاق بسميساط فأقبل حتى نزل عليه وهم في ستين ألفاً من أهل الجزيرة جميعاً، وبينهما الفرات. وأقبل أبو جعفر من الرها فكاتبهم إسحاق، وطلب الصلح، فأبوا، وطلب الأمان فأجابوه.

وكتبوا إلى أبي العباس فأمرهم أن يأمنوا ومن معه، فكتبوا بينهم كتاباً ويقولوا له فيه، فخرج أبو إسحاق إلى أبي جعفر وتم الصلح. وكان إسحاق بن مسلم العقيلي حيث حاصره أبو جعفر يقول: في عنقي بيعة ولست أدعها حتى أعلم أن صاحبها قد مات أو قتل.

فأرسل إليه أبو جعفر: أن مروان قد قتل.

فقال: حتى أتيقن.

ثم لما طلب الصلح قال: قد أيقنت[٢] أن مروان قد قتل وولى أبو العباس أبا جعفر الجزيرة وأرمينية[٣] وأذربيجان ولا يزل عليها حتى استخلف.

وفي هذه السنة: شخص أبو جعفر إلى خراسان لاستطلاع رأي أبي مسلم في

ونضوت ثيابي عني إذا ألقيتها عنك ونضاه من ثوبه: جرده.
قلت: والمراد هنا أنهم قد نفضوا أيديهم مما هم فيه واخلدوا إلى الراحة وتحففوا من ثيابهم.

(١) مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات.
ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن ومالكها في هذا الزمان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين. (معجم البلدان).

(٢) في المخطوط: «قد كان أيقنت» ولفظ: كان. زائد على السياق فحذفته.

(٣) أرمينية: . . . قيل: هي ثلاث أرمينيات، وقيل: أربع.
فالأولى: بيلقان وقبله وشروان، وما انضم إليها عُدَّ منها.
والثانية: جُرْزان وصُغد بيل وباب فيروز قباذ واللّكز.
والثالثة: البُسْفُرجان ودَبيل وسراج طير ويغروند والنّشَوَى.
والرابعة: وبها قبر صفوان بن المعطل.

قتل أبي سلمة جعفر بن سليمان، يقال الذي [هو][١] وزير آل محمد.

ذكر السبب في مسيره إلى جعفر وما كان من أمره وأمر أبي مسلم

فلما ذكر تنكر أبي العباس لأبي سلمة، وما كان به، فحكى أبو جعفر قال:

لما ظهر أبو العباس سمرنا ذات ليلة فذكرنا صنيع أبي سلمة، فقال رجل منا [ما][٢] يدريكم لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم.

فلم ينطق منا أحد.

فقال أمير المؤمنين أبو العباس: لئن كان هذا عن إباء تعوض بلاء إلاّ أن يدفعه اللّه عنا.

فأشار عليه داود بن علي بأن يكتب لأبي مسلم ما هَمَّ به من الغش وما عامله من القبيح وما يتخوفه منه، ففعل.

فأجاب أبو مسلم: إن كان أمير المؤمنين قد اطلع على ذلك فليقتله.

فقال داود بن علي لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أبا مسلم يحتج بهذا، وكذلك أهل خراسان الذين معك [أصحابه][٣] وحاله فيهم حاله، ولكن ابعث إلى أبي مسلم من يعرف بنيته ويطلع على سريرته، ثم تكلفه أن يبعث هو إلى أبي سلمة من يقتله[٤].

قال أبو جعفر: فأرسل إليّ أبو العباس وقال: ما ترى؟

فقلت: الرأي رأيك.

فقال: إنه ليس أحد أخص إلى أبي مسلم منك فاخرج إليه حتى تعلم ما رأيه؟ فليس يخفى عليك لو قد لقيته، فإن كان عن رأيه صدر أبو سلمة، احتلنا لأنفسنا، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا.

فخرجت على رَحُلٍ شديد، فلما انتهيت إلى الري إذا صاحب أبي سلمة قد أتاه كتاب أبي مسلم: أنه بلغني أن عبد اللّه بن محمد قد توجه إليك، فإذا قدم فأشخصه [من][٥] ساعة يقدم عليك.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
صاحب رسول اللّه ﷺ، وهو قرب حصن زياد عليه شجرة نابتة لا يعرف أحد من الناس ما هي، ولها حمل يشبه اللوز يؤكل بقشره، وهو طيب جداً.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في الكامل: ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إليه.

(٥) زيادة يتطلبها السياق، ثم إن سياق الخبر هنا غير الذي هو في الكامل في التاريخ وإن كان المضمون متقارب.

فأقرأني كتابه، وأمرني بالرحيل، فازددت وجلاً، وخرجت من الري وأنا خائف حذر، فسرت، فلما كنت بنيسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبي مسلم:

إذا قدم عليك أبو جعفر، فأشخصه ولا تدعه يقيم، فإن أرضك أرض خوارج[١]، ولا آمن عليه.

فطابت نفسي، وقلت: أراه يُعْنَى بأمري، فسرت، فلما كنت من مرو على فرسخين تلقاني أبو مسلم في الناس.

فلما دنا مني نزل وأقبل يمشي إليّ حتى قبل يدي فقلت: اركب، فركب، ودخلت مرو، ودخلت داراً أفردها لي، ومكثت ثلاثة أيام لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته.

فقال: إني قد كاتبت أمير المؤمنين [في][٢] ذلك.

فقلت: أمير المؤمنين يحب أن تلي أنت منه ما ترى.

فقال: سمعاً وطاعة.

ثم دعا مرار بن أنس الضبي، فقال [٣٢/أ] انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته (. . .)[٣] في ذلك إلى رأي الإمام.

فقدم الكوفة، وكان أبو سلمة بسمرقند عند أبي العباس، فقعد له في طريقه، فلما خرج قتله، قالوا: قتلته الخوارج.

فقال سليمان بن المهاجر: إن الوزير وزير آل محمد أودى ممن يشناك كان وزيراً.

وكان يقال لأبي سلمة وزير آل محمد، ولأبي مسلم أمين[٤] آل محمد.

فحكي عن سالم قال: صحبت أبا جعفر من الري إلى خراسان وكنت حاجبه، وكان أبو مسلم يأتيه فينزل على الباب، ويجلس في الدهليز، ويقول لي: استأذن لي عليه.

فغضب أبو جعفر عليّ وقال: ويلك إذا رأيته فافتح له الباب، وقل له يدخل على

(١) كانت طائفة الخوارج تكن لبني أمية وبني العباس أشد العداء لما كان من أمرهم مع سيدنا علي وما كان من أمر سيدنا علي مع سيدنا معاوية وأمر التحكيم وما إلى ذلك مما هو مشهور.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) موضع النقط كلمة جاءت في المخطوط على هذا الرسم (دآبّه).

(٤) في المخطوط اختلط قول الناسخ فيها بين أمير، وأمين، فجاءت الكلمتان متراكبتان وهي إلى أمين أقرب فأثبتها مستدلاً بما عند الطبري حيث إنها في الكامل: أمير، وأشار محققه إلى أنها في الطبري أمين وهو ما يأتي موافق دائماً لما في مخطوط هذا الكتاب وكأنه نقل عنه، والله أعلم.

دابته، فلما رأيته مقبلاً قلت لأبي مسلم إنه قال كذا كذا، وفتحت له الباب قال: نعم وإن قال أعلمه واستأذن لي عليه.

وفي هذه السنة: وجّه أبو العباس أخاه أبا جعفر لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط.

ذكر آراء أشير بها على ابن هبيرة فخالفها

لما انهزم ابن هبيرة وتفرق عنه الناس، خلف على أثقاله قوماً فذهبوا بتلك الأموال.

فقال له حوثرة: أين تذهب وقد قتل صاحبهم - يعني قحطبة - امض[١] إلى الكوفة فمعك جند كثير فقاتلهم حتى [تقتل][٢] أو تظفر.

فقال: بل آتي واسطاً، فانظر واستعد.

فقال له: إنك ما تزيد[٣] على أن تمكنه من نفسك حتى تضعف وتقتل.

وقال له يحيى بن حصين: إنك لا[٤] تأتي مروان بشيء أحب إليه من هذه الجنود والزم الفرات[٥] حتى تقدم عليه[٦]، وإياك وواسطاً، فتصير في حصار، وليس بعد الحصار إلا القتل.

فأبى لأنه[٧] يخاف مروان، وذاك أنه يكتب إليه في الأمر فيخالفه، فخافه[٨]، فأتى واسطاً وتحصن.

وسَرّح إليه أبو سلمة[٩] الحسن بن قحطبة فخندق الحسن ونزل بين الزاب ودجلة وكانت بينهم وقائع[١٠].

ثم وجه أبو العباس أخاه جعفر لحرب ابن هبيرة.

وكتب إلى الحسن[١١]: أن أمر الجند إليك ولكني أحببت أن يكون أخي حاضراً.

---

(١) في الكامل: أتمضي، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: امض. كما هنا.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل.
(٣) في الكامل: تريد، وما هنا هو الأصوب والأوفق للسياق.
(٤) في الكامل: «لو». وما هنا أوفق للسياق.
(٥) في المخطوط: الفراة. وهو تحريف.
(٦) في الكامل حتى تأتيه.
(٧) في الكامل: وكان.
(٨) في الكامل: فخاف أن يقتله.
(٩) في الكامل: وسير أبو سلمة إليه الحسن. ابن قحطبة.
(١٠) ذكر ابن الأثير هذه الوقائع في الكامل وآثرت تركها حتى لا أطيل، ثم لأني لست من أنصار سرد تلك الوقائع بتفاصيلها.
(١١) ابتداء من هنا مذكور أيضاً في الكامل بنحوه.

فلما قدم أبو جعفر واسطاً تحول له الحسن حجرته فقابلهم أبو نصر مالك الخزاعي يوماً فخرج إليه أهل واسط وحاربوه.

ثم انهزم أهل الشام وقد أمكنوا[١] معن بن زائدة وغيره، فلما جازهم أهل خراسان[٢] خرجوا عليهم فقتلوا منهم فترجل أبو نصر واقتتلوا عند الخندق ورفعت لهم النيران وابن هبيرة على برج باب الخلالين[٣] فبقوا يقتتلوا ما شاء اللّه من الليل. وسَرّح ابن هبيرة [و][٤] قد هَمَّ أن يدعو إلى أحمد بن عبد اللّه بن حسن فكتب إليه، وأبطأ عليه الجواب، وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر في الصلح حتى جعل له أماناً[٥] وكتب به كتاباً فمكث يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه.

ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس، فأمر بإمضائه.

وكان أبو العباس لا يقطع أمراً دون أبي مسلم وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على أبي العباس، فكتب إليه بإخباره، فكتب أبو مسلم إلى أبي العباس:

أن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فَسُدَ ولا واللّه ما صلح ملك[٦] فيه ابن هبيرة. [ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة][٧] إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية، فأراد أن يدخل الحجرة بدابته، فقام إليه سلام بن سليم فقال: مرحباً أبا خالد، انزل راشداً.

وقد أطاف بالحجرة نحو من عشرة آلاف من أهل خراسان، فنزل وأجلسه على وسادة، ثم دعا له بالقواد فدخلوا عليه.

ثم قال سلام: ادخل أبا خالد.

فقال: أنا ومن معي؟

فقال: إنما استأذنت لك وحدك، فقام ودخل، فوضعت له وسادة، فجلس عليها وحدثه ساعة، ثم قام، ثم مكث يقيم عنه يوماً[٨] ويأتيه يوماً في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل.

فقال يزيد بن حاتم: أيها الأمير، إن إبراهيم ليأتي فتضعضع له العسكر، وما

(١) في المخطوط: امكثوا. وهو تحريف، وفي الكامل: وقد كمن معن وأبو يحيى الجذامي.
(٢) في الكامل: أصحاب مالك.
(٣) في الكامل: على برج الخلالين.
(٤) ساقطة من المخطوط والسياق يقتضيها.
(٥) في المخطوط: أياماً. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٦) في الكامل: طريق.
(٧) سقط من المخطوط، وأكملته من الكامل.
(٨) في الكامل: ثم مكث يأتيه يوماً.

نقص من سلطانه شيء.

فقال أبو جعفر لسلام: قل لابن هبيرة يدع هذه الجماعة، ويأتينا في حاشية.

فقال له ذلك سلام [٣٢/ب] فتغير وجهه [فكان يأتي][١] في نحو من ثلاثين من حاشيته، فقال له سلام: كأنك تأتينا مباهياً.

فقال: إن أمرتمونا أن نمشي إليكم مشينا.

فقال: ما أردنا بك استخفافاً، ولكن نظراً لك.

فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة نفر.

فيقال: إن ابن هبيرة كلم يوماً أبا جعفر، فقال: يا هناه، ثم قال: إيه للَّه أنت، ثم رجع فقال: أيها الأمير، إن عهدي[٢] بكلام الناس بمثل [ما][٣] خاطبتك به لقريب[٤] فسبقني لساني إلى العادة ولم أردّه.

فتبسم أبو جعفر، فقال: صدقت.

وألح أبو العباس على أبي جعفر في قتل ابن هبيرة، وهو يراجعه، حتى كتب إليه، واللَّه لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك[٥] ويتولى قتله [فعزم على قتله][٦].

فتقدم أبو جعفر يختم بيوت الأموال، ثم بعث إلى وجوه من معه، فلما حضروا نزعت سيوفهم، وكتفوا ثم أرسل إلى[٧] ابن هبيرة: إنَّا نريد حمل المال.

فقال ابن هبيرة لحاجبه: يا أبا عثمان دلهم[٨] عليه، فوكلوا بكل بيت نفراً، ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدار، ومع ابن هبيرة ابنه داود، وكاتبه، وحاجبه وعدة من مواليه، وبُنَيٌّ له صغير في حجره، فجعل ينكر نظرهم، وقال: أقسم باللَّه، إن في وجوه القوم لشراً.

فأقبلوا نحوه، فقام حاجبه في وجوههم، فقال: وراءكم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأتممته من الكامل.
(٢) في الكامل: فقال له ابن هبيرة: يا هناه، أو يا أيها المرء، ثم رجع فقال أيها الأمير، إن عهدي. . .
(٣) سقط من المخطوط وأضفته من الكامل.
(٤) في المخطوط: قريب، والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: من حجرك، والتصويب من الكامل.
(٦) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل
(٧) تكرر هذا اللفظ في المخطوط فحذفت التكرار.
(٨) في المخطوط: فدلهم. وهو تحريف.

فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقه فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل، وقتل مواليه، ونحى ابن هبيرة الصَّبي في حجرة وقال: دونكم هذا الصَّبي وخرَّ ساجداً، فقتل وهو ساجد. فمضوا برؤوسهم إلى أبي جعفر، فنادى بالأمان في الناس[١].

وقال أبو العطاء السندي يرثيه:

ألا إن عيناً لم تَجُدْ يومَ واسطٍ ... عليك بجاري[٢] دمعها لجَحُودُ[٣]
عشية قام النائحاتُ شققنَ[٤] ... جيوب[٥] بأيدي مأتم وخدودُ
فإن يمس[٦] مهجورَ الفناءِ فربما ... أقام به بعد الوفودِ وفودُ
وإنك لم تبعد على متعهد ... بلى كل من تحت التراب بعيدُ

وقال منقذ بن عبد الرحمن الهلالي يرثيه:

منع العزاء حرارة الصدر ... والحزن عقد عزيمة الصبر
أفتى الحماة العزاز عرضت ... دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حمائل أمرهم بفتى ... مثل النجوم حففن بالبدر
عالي يبعثهم فقلن له ... مهلاً أتيت لصحبة الحشر
من للمنابر بعد هلكهم ... أم من يسد مكارم الفخر
قتلى بدجلة ما تحيتهم ... إلا عباب زواخر البحر

وفي هذه السنة: وجَّه أبو العباس عمه عيسى بن علي [إلى][٧] فارس وكان عليها لمحمد بن الأشعث من قِبل أبي مسلم، فهم بعيسى فحذره ثقاته. وقالوا له: هذا لا يسوغ لك.

فقال: بلى أمرني أبو مسلم إلاّ أن يقدم عليّ أحد يدعي الولاية من غيره إلا ضربت عنقه. ثم ارتدع عن ذلك، واستدعى عيسى.

فاستحلفه بالأيمان[٨] المحرجة ألا يعلو منبراً يتقلد بسيف إلاّ في جهاد.

---

(١) أي أمان؟ أي عهود؟ وأي مواثيق؟ كلها شعارات ترفع منذ قديم الزمن إلى يومنا هذا فليت شعري أي الطريق لقد ادلهم الظلام وكفت الأبصار واختمرت العقول وحار اللبيب، فاللهم خذ بأيدينا إلى سبيلك فليس لها من دونك يا الله كاشفة اللهم آمين.
(٢) في الكامل: بخارى، وأشار محققه إلى أنها في الطبري كما هنا.
(٣) في الكامل: لجمود.
(٤) في الكامل: صفقت.
(٥) في الكامل: أكف.
(٦) في الكامل: تنس.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.
(٨) في المخطوط: بالأمان، والمقصود الأيمان المغلظة التي لا تحتمل أي تأويل غير ما هو مستحلف عليه وعلى ما يفهمه السامع للقسم والمقسم له.

فلم يلي عيسى بعد ذلك عملاً ولا تقلد سيفاً إلاّ في غزوة.

ثم استعمل بعد ذلك إسماعيل بن علي والياً على فارس.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

وفيها: قَتَل داود بن علي من وجد من بني أمية بمكة والمدينة[١].

وفيها: مات داود بن علي بالمدينة.

وفيها: خرج شريك شيخ المهري على أبي مسلم بخراسان ببخارى، وقال: ما على هذا اتبعنا آل محمد أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق. وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً.

فوجه إليه أبو مسلم زياد بن صالح فقاتله وقتله. وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم.

ولم يجر في حروبهم ما يستفاد منه تجربة بل كان جميع ذلك يجري بجنب الجد والإقبال، فتركنا ذكرها وكان إسماراً فقط[٢].

---

(١) زاد في الكامل:
ولما أراد قتلهم قال له عبد الله بن الحسن بن الحسن: يا أخي إذا قتلت هؤلاء فمن تباهي بملكه؟! أما يكفيك أن يروك غادياً ورائحاً فيما يذلهم ويسؤوهم. فلم يقبل منه وقتلهم.

(٢) هذا ما ذكره ابن مسكويه في أحداث تلك السنة وما علق به في نهايتها، غير أن ابن الأثير ذكر في الكامل حوادث ذات أهمية فيها فقال:
وفي هذه السنة: أقبل قسطنطين ملك الروم إلى ملطية، وكمخ فنازل كمخ، فأرسل أهلها إلى أهل ملطية يستنجدونهم فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم ملطية وحصروها والجزيرة يومئذٍ مفتوحة بما ذكرناه وعاملها موسى بن كعب بحران فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية إني لم أحصركم إلاّ على علم من المسلمين واختلافهم فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى احترث ملطية فلم يجيبوه إلى ذلك، فنصب المجانيق فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام، وحملوا ما أمكنهم حمله وما لم يقدروا على حمله القوة في الآبار والمجاري، فلما ساروا عنها أخبر بها الروم ورحلوا عنها عائدين وتفرق أهلها في بلاد الجزيرة وسار ملك الروم إلى قاليقلا فأنزل مرج الخصى وأرسل كوشان الأرمني فحصرها فنقب إخوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان في سورها فدخل كوشان ومن معه المدينة وغلبوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا النساء، وساق القائم إلى ملك الروم.
وفي هذه السنة: وجه السفاح عمه سليمان والياً على البصرة وأعمالها، وكور دجلة، والبحرين، وعمان، ومهرجانقذق، واستعمل عمه إسماعيل بن علي على الأهواز.
وفيها: مات داود بن علي بالمدينة. قلت: وهذا الخبر ذكره ابن مسكويه غير أنه اقتصر في ذكره على ذلك، لكن ابن الأثير فسره وزاد فيه فقال: بالمدينة في شهر ربيع الأول واستخلف حين حضرته الوفاة ابنه موسى.
ولما بلغت السفاح وفاته استعمل على مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله يزيد بن عبيد الله بن المدان الحارثي.
=

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

وفيها: خالف بسام بن إبراهيم بن بسام وخلع، وكان من فرسان خراسان(١)، فوجه إليه أبو العباس حازم بن خزيمة فناجزه القتال، وانهزم بسام واستبيح عسكره، وطلبهم حازم بن خزيمة إلى أن قتل أكثرهم ثم انصرف من جهته فمرّ في قرية(٢) فيها قوم من أخوال أبي العباس عددهم خمسة وثلاثون رجلاً من بني عبد المدان، وهناك مواليهم وغيرهم فلم يسلم عليهم(٣). فلما جاز شتموه لشيء كان في قلوبهم عليه.

فكَرَّ راجعاً فسألهم عما كان من نزول المغيرة بهم ـ وكان من قواد بسام ـ.

فقالوا: مَرَّ بنا رجل مجتاز لا نعرفه، فأقام [٣٣/أ] في قريتنا الليلة ثم خرج عنها.

فقال: أنتم أخوال أمير المؤمنين، ويأتيكم عدوه فيأمن في قريتكم فهلاً اجتمعتم

= ووجه محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد المدان على اليمن.

فلما قدم زياد المدينة وجه إبراهيم بن حسان السلمي ـ وهو أبو حماد الأبرص بن المثنى ـ إلى يزيد بن عمر بن هبيرة وهو باليمامة، فقتله وقتل أصحابه.

وفيها: توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتل أهلها قتالاً شديداً حتى فتحها.

وفيها: توجه أبو داود خالد بن إبراهيم إلى الختل فدخلها ولم يمتنع عليه حبيش بن الشبل ملكها بل تحصن منه هو وأناس من الدهاقين، فلما ألح عليه أبو داود خرج من الحصن هو ومن معه من دهاقينه وشاكريته حتى انتهوا إلى أرض فرغانة، ثم دخلوا بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين، وأخذ أبو داود من ظفر به منهم فبعث بهم إلى أبي مسلم.

وفيها: قتل عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب بالموصل قتله سليمان الذي يقال له: الأسود بأمان كتبه له.

وفيها: وجه صالح بن علي سعيد بن عبد الله ليغزو الصائفة وراء الدروب.

وفيها: عزل يحيى بن محمد عن الموصل، واستعمل مكانه إسماعيل بن علي، وإنما عزل يحيى لقتله أهل الموصل وسوء أثره فيهم.

وحج بالناس هذه السنة: زياد بن عبيد الله الحارثي، وكان العمال من ذكرنا إلاّ الحجاز، واليمن، والموصل، فقد ذكرنا من استعمل عليها.

وفيها: تخالف أخشيد فرغانة وملك الشاش فاستمد أخشيد ملك الصين، فأمده بمائة ألف مقاتل، فحصروا ملك الشاش، فنزل على حكم ملك الصين، فلم يتعرض له ولأصحابه بما يسؤوهم.

وبلغ الخبر أبا مسلم فوجه إلى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز، فظفر بهم المسلمون، وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفاً، وأسروا نحو عشرين ألفاً، وهرب الباقون إلى الصين. وكانت الوقعة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين.

وفيها: توفي مروان بن أبي سعيد، وابن المعلى الزرقي الأنصاري، وعلي بن بَذِيمة مولى جابر بن سمرة السوائي.

(١) بعد هذا في الكامل:
ـ وكان من أهل خراسان، وسار من عسكر السفاح هو وجماعة على رأيه سراً إلى المدائن.

(٢) في الكامل: فمر بذات المطامير.

(٣) في الكامل: ومن غيرهم ثمانية عشر رجلاً ومن مواليهم سبعة عشر، فلم يسلم عليهم. . .

فأخذتموه؟ فأغلظوا له الجواب.

فأمر بهم فضربت أعناقهم جميعاً، وهدمت دورهم، نهبت أموالهم، ثم انصرف إلى أبي العباس.

وبلغ ما كان من فعل حازم اليمانية، فأعظموا ذلك واجتمعت كلمتهم، فدخل زياد بن عبد اللّه بن الربيع الحارثي وعثمان بن نهيك وأمثالهم، فقالوا:

يا أمير المؤمنين إن حازماً اجترأ عليك بأمر لم يكن أقرب ولد أبيك ليجترئ عليك به من قِبل أخوالك الذين قطعوا البلاد إليك معتزين بك طالبين معروفك، حتى إذا صاروا إلى جوارك، وثب عليهم حازم فضرب أعناقهم، وهدم دورهم ونهب أموالهم، وأخرب ضياعهم بلا حدثٍ أحدثوه.

فهَمَّ بقتل حازم.

فبلغ ذلك موسى بن كعب، وأبا الجهم بن عطية فدخلا عليه، وفشلا، عن رأيه، قالا: نعيذك باللّه يا أمير المؤمنين من الإصغاء إلى من يحملك على قتل حازم مع طاعته وسابقته وعنائه وهو يحمل لك ما صنع لكيت وكيت[١] فإن كنت لا بد مجمعاً على قتله، فلا تتولى ذلك بنفسك، وعرضه من المباعث لما إن قتل فيه كنت قد بلغت منه الذي أردت، وإن ظفر كان ظفره لك.

وأشار عليه بأن يوجهه إلى عمان، وبها الجلندي والخوارج معه، وإلى الخوارج الذين بجزيرة كاوان[٢] مع شيبان بن عبد العزيز اليشكوني[٣].

فأمر أبو العباس بتوجيهه مع سبعمائة رجل، وكتب إلى سليمان بن علي وهو على البصرة يحملهم في السفن إلى جزيرة ابن كاوان[٤]، وعمان. فشخص إلى هناك مع ابنه خزيمة، فأوقع ممن فيها من الخوارج، وعمل على ما قرب منها من البلدان، وقتل شيبان الخارجي.

ذكر السبب في ذلك والحيلة التي تمت له عليهم

أما في أول مقدمه، فإنه لما أرسى إلى ساحل عمان لقيهم الجلندي، وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل في أصحاب خازم، وقتل أخ له من أمه مع تسعين رجلاً.

---

(١) في الكامل:
ما صنع فإن شيعتكم من أهل خراسان قد آثروكم على الأقارب والأولاد والآباء والإخوان وقتلوا من خالفكم وأنت أحق من تعمد إساءة مسيئهم، فإن كنت لا بد فاعلاً...

(٢) في المخطوط: ابن كاوان، وفي الكامل بركاوان، وفي معجم البلدان: جزيرة كاودان.

(٣) في المخطوط: الكسكرتي. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٤) سبق التعليق على اسم هذه الجزيرة وأبقيتها هنا على ما في المخطوط.

ثم أشار عليه رجل ممن كان وقع إلى تلك الناحية أن يجعلوا على أطراف أسنتهم[١] المشاقة، ويروونها من النفط ويشعلوا فيها النيران ثم يمشوا بها[٢] حتى تضرموها في بيوت الجلندي وكانت من خشب.

فلما فعل ذلك وأُضرمت بيوتهم بالنيران وشغلوا فيها وبمن فيها من أولادهم وأهاليهم، وشد عليهم خازم وأصحابه فوضعوا فيهم السيوف وهم غير ممتنعين.

وقتل الجلندي فيمن قتل، وبلغ عدة من قتل عشرة آلاف، وبعث [برؤوسهم إلى البصرة فأرسلها سليمان إلى السفاح. ومكث][٣] حازم شهراً شهراً حتى أتاه كتاب أبي العباس بإقفاله، فقفلوا.

وفي هذه السنة: وجه أبو العباس موسى بن كعب إلى الهند[٤] لقتال منصور بن جمهور في اثني عشر ألفاً فهزمه، فمضى ومات عطشاً في الرمال[٥].

وفي هذه السنة: تحول أبو العباس من الحيرة إلى الأنبار[٦].

وفيها: ضربت المنار[٧] من الكوفة إلى مكة والاميال.

---

(١) في المخطوط: اسنهم. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: فيها. والتصويب من الكامل.
(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل.
(٤) في الكامل: السند.
(٥) في الكامل: وقيل: أصابه بطنه فمات، وسمع خليفته على السند بهزيمته فرحل بعيال منصور وثقله فدخل بهم بلاد الخزر.
(٦) في ذي الحجة.
(٧) أي العلامات الدالة على الطريق أو الحدود وغيرها ليهتدي بها الناس في سيرهم ويعرفوا مواقعهم وكم مرحلة قطعوا وكم مرحلة تبقى.
ثم هذا كل ما ذكره ابن مسكوية في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير:
وفي هذه السنة: غزا أبو داود خالد بن إبراهيم أهل كش فقتل الاخريد ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه، وأخذ منهم من الأواني الصينية المنقوشة المذهبة ما لم ير مثلها، ومن السروج، ومتاع الصين كله من الديباج والطرق شيئاً كثيراً، فحمله إلى أبي مسلم، وهو بسمرقند، وقتل عدة من دهاقينهم، واستحيا طاران أخا الاخريد وملكه على كش.
وانصرف أبو مسلم إلى مرو بعد أن قتل في أهل الصغد وبخارى، وأمر ببناء سور سمرقند، واستخلف زياد بن صليح عليها وعلى بخارى، ورجع أبو داود إلى بلخ.
وفيها: توفي محمد بن يزيد بن عبد الله وهو على اليمن، فاستعمل السفاح مكانه على ابن الربيع بن عبيد الله.
وحج بالناس في هذه السنة: عيسى بن موسى وهو على الكوفة، وكان على قضاء الكوفة ابن أبي ليلى.
وعلى المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة زياد بن عبيد الله.
وعلى اليمن: علي بن الربيع الحارثي، وعلى البصرة وأعمالها، وكور دجلة، وعمان: سليمان بن علي، وعلى قضائها عباد بن منصور. =

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

ولم يجر فيها شيء يستفاد منه تجربة في جملة ما انتهى إلينا[١].

= وعلى السند: موسى بن كعب.
وعلى خراسان والجبال: أبو مسلم.
وعلى فلسطين: صالح بن علي.
وعلى مصر: أبو عون.
وعلى الموصل: إسماعيل بن علي.
وعلى أرمينية: يزيد بن أسيد.
وعلى أذربيجان: محمد بن صول.
وعلى ديوان الخراج خالد بن برملك.
وعلى الجزيرة: أبو جعفر المنصور. وكان عامله على أذربيجان، وأرمينية من ذكرنا.
وعلى الشام عبد الله بن علي.
وفيها: توفي محمد بن إسماعيل بن سعد بن أبي وقاص، وسعد بن عمر بن سليم الزرقي.

(١) كذا قال في ذكره لهذه السنة، في حين أن ابن الأثير ذكر فيها من الأحداث ما يلي:
فيها: خرج زياد بن صالح وراء النهر، فسار أبو مسلم من مرو مستعداً للقائه، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى ترمذ مخافة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفر فيأخذها، ففعل ذلك نصر، وأقام بها.
فخرج عليه ناس من الطالقان مع رجل يكنى أبا إسحاق، فقتلوا نصراً.
فلما بلغ ذلك أبو داود بعث عيسى بن ماهان في تتبع قتلة نصر، فتبعهم فقتلهم.
ومضى أبو مسلم مسرعاً حتى انتهى إلى آمل، ومعه سباع بن النعمان الأزدي، وهو الذي كان قد أرسله السفاح إلى زياد بن صالح، وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله فأخبر أبو مسلم بذلك فحبس سباعاً بآمل، وعبر أبو مسلم إلى بخارى فلما نزلها أتاه عدة من قواد زياد قد خلعوا زياداً، فأخبروا أبا مسلم أن سباع بن النعمان هو الذي أفسد زياداً، فكتب إلى عامله بآمل أن يقتله.
ولما أسلم زياداً قواده ولحقوا بأبي مسلم لجأ إلى دهقان هناك فقتله وحمل رأسه إلى أبي مسلم.
وتأخر أبو داود عن أبي مسلم لحال أهل الطالقان، فكتب إليه أبو مسلم يخبر بقتل زياد، فأتى كش، وأرسل عيسى بن ماهان إلى بسام، وبعث جنداً إلى شاغر فطلبوا الصلح إلى ذلك، وأما بسام فلم يصل عيسى إلى شيء منه.
وكتب عيسى إلى كامل بن مسفر صاحب أبي مسلم يعتب أبي داود وينسبه إلى العصبية.
فبعث أبو مسلم بالكتاب إلى أبي داود، وكتب إليه أن هذه كتب العلج الذي صيرته عدل نفسك، فشأنك به.
فكتب أبو داود إلى عيسى يستدعيه فلما حضر عنده حبسه وضربه، ثم أخرجه فوثب عليه الجند فقتلوه، ورجع أبو مسلم إلى مرو.
وفي هذه السنة: غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى وظفر بها ما لم يظفر أحد قبله بعد أن غزا تلمسان واشتغل ولا إفريقية بالفتنة مع البربر فأمن الصقلية وعمرها الروم من جميع الجهات، وعمروا فيها الحصون والمعاقل، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم.
وحج بالناس هذه السنة: سليمان بن علي، وهو على البصرة، وأعمالها، وكان العمال من تقدم ذكرهم. =

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

وفيها: قدم أبو مسلم العراق من خراسان، وكان استأذن العباس في القدوم عليه، وفي الحج بعد ذلك، فأذن له.

وتوجه إلى أبي العباس في جماعة عظيمة من أهل خراسان، ومن معه من غيرهم.

فكتب إليه: أقبل في ألف، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يتحمل العسكر.

وكان في ثمانية آلاف ففرقهم في الري، وقدم بالأموال والخزائن فتركها بالري، وجمع أموال الجبل(١) وشخص منها في ألف.

فلما قرب تلقاه القواد والناس حتى دخل على أبي العباس، فأعظمه وأكرمه.

ثم استأذن في الحج، فقال: لولا أن جعفر(٢) يحج(٣) لاستعملناك على الموسم.

وكان ما بين أبي جعفر، وأبي مسلم متباعداً لأن أبا العباس لما صفت له الأمور بعث أبا جعفر إلى خراسان بعهد أبي مسلم على خراسان بالبيعة لأبي العباس ولأبي جعفر من بعده، فبايع له(٤) أبو مسلم وأهل خراسان، فأقام أبو جعفر إلى أن [٣٣/ب] أحكم أمره.

فجرى عليه من أبي مسلم استخفاف، فلما عاد شكاه إلى أخيه فلما قدم أبو مسلم هذه القدمة للحج قال أبو جعفر لأبي العباس: يا أمير المؤمنين، أطعني(٥) وأقتل أبا

= وفيها: مات أبو خازم الأعرج، وقيل: سنة أربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين.
وفيها: مات عطاء بن عبد الله مولى المطلب.
وقيل: مولى المهلب.
وقيل: هو عطاء بن ميسرة، ويكنى أبا عثمان الخراساني.
وقيل: سنة أربع وثلاثين.
وفيها: مات يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بفارس، وكان أميراً عليها، وكان قبل ذلك أميراً على الموصل.
وفيها توفي ثور بن زيد الدؤلي، وكان ثقة، وزياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وكان من الأبطال.

(١) في المخطوط: الختل. والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: يعني أخاه المنصور.
(٣) في الكامل: يريد الحج.
(٤) في الكامل: لهما.
(٥) في المخطوط: من أطغى. والتصويب من الكامل، وربما كانت «من» أصلها «أن» فتحرفت في المخطوط. إلا أني آثرت حذفها سيراً على ما في الكامل.

مسلم، فواللّه إن لفي رأسه لغدرة.

قال: يا أخي قد عرفت بلاءه[١] وما كان منه.

فقال أبو جعفر: إنما كان بدولتنا والله لو بعثت سنوراً[٢] لقام مقامه وبلغ ما بلغ.

فقال أبو العباس: كيف نقتله؟

قال: إذا دخل عليك وحادثته، وأقبل عليك فتعلقته ضربته من خلفه ضربة أتيت بها[٣] على نفسه.

فقال أبو العباس: فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم؟

قال: يؤول ذلك كله إلى ما تريد وعليّ إصلاحه[٤].

قال: عزمت عليك إلاّ كففت عن هذا الحديث.

قال: أخاف اللّه، إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غداً.

قال: دونكه.

فلما دخل أبو مسلم على أبي العباس بعث أبو العباس خصِيًا له.

فقال: اذهب، فانظر ما يصنع أبو جعفر؟

فأتاه فوجده محتبياً بسيفه[٥].

فقال الخصي: أجلس[٦] الأمير؟

قال: إنه قد تهيأ للجلوس، ثم رجع الخصي إلى أبي العباس فأخبره بما رأى منه، فرده إلى أبي جعفر، فأتاه وقال له: قل له: الأمر الذي عزمت عليه لا تفعله[٧].

فكف أبو جعفر.

وفي هذه السنة: حج أبو جعفر المنصور بالناس، وحج معه أبو مسلم.

وفيها: توفي أبو العباس أمير المؤمنين بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة[٨].

---

(١) في المخطوط: بلاده، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٢) أي قطاً.

(٣) في المخطوط: به، وهو تحريف.

(٤) في الكامل: قال: فكيف بأصحابه؟
قال أبو جعفر: لو قتل لتفرقوا وذلوا فأمره بقتله.

(٥) أي يخفيه تحت طيات ملابسه.

(٦) في المخطوط: أجالس. وهو تحريف.

(٧) كذا في متن المخطوط، وبهامشه:
لا تنفذه، وفي الكامل: فأمر أبا جعفر بالكف عنه.

(٨) في الكامل: وقيل: لاثنتي عشرة مضت منه بالجدري.

وكانت وفاته فيما قيل بالجدري، وكان سِنّه ثلاثة وثلاثين سنة[١].

وكانت ولايته من لدن قتل مروان إلى أن توفي أربع سنين.

ومن لدن بويع له بالخلافة إلى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر[٢].

وكان طويلاً، أبيض اللون، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية ذا شعرة جعدة.

وأمه: ريطة بنت [عبيد اللّه بن[٣]] عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي وكان وزيره أبو الجهم بن عطية[٤].

ولما حضرته الوفاة أمر الناس بالبيعة لعبد اللّه بن محمد أبي جعفر.

فبايع الناس له بالأنبار، وقام بأمر الناس عيسى بن موسى.

وأرسل موسى إلى أبي جعفر وهو بمكة رسولاً بموت أبي العباس، بالبيعة له.

فلما أتاه الكتاب، كتب إلى أبي مسلم العَجَل العجل، فقد حدث أمرٌ، وكان بينه وبين أبي مسلم منزل (. . . .)[٥]، فجاءه أبو مسلم.

فلما جلس إليه ألقى إليه الكتاب، فبكى واسترجع ثم نظر أبو مسلم إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً.

فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟

قال: أتخوف شر [عمي][٦] عبد اللّه بن علي وشيعته.

قال: لا تخفه أنا أكفيك أمره إن شاء اللّه، إنما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان، وهم لا يعصونني.

فَسُرِّي عن أبي جعفر، وبايع له أبو مسلم، وبايع الناس، وأقبل حتى ورد الكوفة.

---

(١) في الكامل: وقيل: ثمان وعشرون سنة.

(٢) في الكامل: وقيل: وتسعة أشهر، منها ثمانية أشهر يقاتل مروان.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) بعد هذا في الكامل: وصلى عليه عمه عيسى بن علي ودفنه بالأنبار العتيقة في قصره، وخلف تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سراويلات، وأربعة طيالسة، وثلاثة مطارف خز، قال ابن النقاح: بيتين من شعر ووجه برجل إلى عسكر مروان ليقدم على الخيل ليلاً فصيح فيها وشمس في الناس ولا يوجد وهما:

يا آل مروان إن اللّه مهلككم ... ومبدل بكم خوفاً وتشريدا
لا عَمَّرَ اللّه من إنشائكُم أحداً ... وبثكم في بلاد الخوف تطريدا

قال: فعلت ذلك، فدخلت قلوبهم مخافة.

(٥) كلمة هذا رسمها في المخطوط: ابدا.

(٦) زيادة من الكامل.

خلافة أبي جعفر المنصور

وفي هذه السنة:

بعث عيسى بن علي، وأبو الجهم إلى عبد اللّٰه بن علي ببيعة المنصور، فبايع لنفسه وأبى بيعة المنصور[1].

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

كان نفذ إلى عبد اللّٰه بن علي أبو غسان واسمه يزيد بن زياد، وهو حاجب أبي العباس أمر أبي العباس بأمر أبي العباس قبل موته ليبايع أبا جعفر.

---

(١) ذكر ابن الأثير هذا الخبر بأوسع مما هو هنا في الكامل وزاد في أحداث تلك السنة عما هنا فقال:
وفي هذه السنة: خرج في الأندلس الحباب بن رواحة بن عبد اللّٰه الزهري ودعا إلى نفسه واجتمع إليه جمع من اليمانية فصار إلى الصميل ـ وهو أمير قرطبة ـ فحصره بها، وضيق عليه، فاستمد الصميل يوسف الفهري أمير الأندلس ـ فلم يفعل لتوالي الغلاء والجوع على الأندلس ولأن يوسف قد كره الصميل واختار هلاكه ليستريح منه ـ.
وثار بها أيضاً عامر العبدري وجمع جمعاً، واجتمع مع الحباب على الصميل، وقاما بدعوة بني العباس.
فلما اشتد الحصار على الصميل كتب إلى قومه ليستمدهم فسارعوا إلى نصرته واجتمعوا وساروا إليه، فلما سمع الحباب بقربهم سار الصميل عن سرقسطة وفارقها، فعاد الحباب إليها وملكها، واستعمل يوسف الفهري الصميل على طليطلة.
وكان على الكوفة: عيسى بن موسى.
وعلى الشام: عبد الله بن علي.
وعلى مصر: صالح بن علي.
وعلى البصرة: سليمان بن علي.
وعلى المدينة: زياد بن عبيد اللّٰه الحارثي.
وعلى مكة: العباس بن عبد اللّٰه بن معبد.
وفيها: مات ربيعة بن أبي عبد الرحمن ـ وهو ربيعة الرأي ـ وقيل: مات سنة خمس وثلاثين ومائة، وقيل: سنة اثنين وأربعين ومائة.
وفيها: مات عبد اللّٰه بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.
وفيها: توفي عبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي الفرسي، وإنما قيل له الفرس بالفاء نسبة إلى فرس له.
وعطاء بن السائب، وعروة بن رويم.
وفي هذه السنة: قدم أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين من مكة فدخل الكوفة، فصلى بأهلها الجمعة وخطبهم، وسار إلى الأنبار، فأقام بها وجمع إليه أطرافه.
وكان عيسى بن موسى قد أحرز بيوت الأموال، والخزائن، والدواوين حتى قدم عليه أبو جعفر فسلم الأمر إليه.

وكان عبد اللّه قد ادْرَبَ متوجهاً إلى الروم، فلما قدم عليه أبو غسان جمع، ونادى مناديه: الصلاة جامعة[١].

واجتمع إليه القواد والجند، فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبي العباس.

ودعا الناس إلى نفسه وأخبرهم أن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد دعا بني أمية وأرادهم على المسير إلى مروان.

وقال: من انتدب منكم وسار إليه فهو ولي عهدي.

فلم ينتدب له غيري، وعلى هذا خرجت من عنده، وقتلت من قتلت.

فقام أبو غانم الطائي وخفاف بن المروروذي في عدة قواد فشهدوا له بذلك، فبايعه أبو غانم، وخفاف وأبو الأصبع، وتتابع القواد عليه، فيهم حميد بن قحطبة وغيرهم من أهل خراسان، والشام، والجزيرة[٢].

فلما فرغ من البيعة ارتحل فنزل حرّان وبها مقاتل العكي، وكان أبو جعفر استخلفه لما قدم على أبي العباس [٣٤/أ] فلم[٣] يجبه، فلم يزل به حتى استنزله من حصنه وقتله[٤].

وسَرَّح أبو جعفر لقتال عبد اللّه بن علي أبا مسلم.

فلما بلغ عبد اللّه إقبال أبي مسلم أقام بحران وجمع إليه الجنود والسلاح، وخندق وأعدّ الطعام والأعلاف وما يصلحه.

ومضى أبو مسلم ولم يتخلف عنه أحد من القواد، وبعث على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي وكان معه الحسن وحميد ابنا قحطبة.

وكان حميد فارق عبد اللّه بن علي لأنه أخافه وأراد قتله.

وكان أبو مسلم استخلف على خراسان خالد بن إبراهيم أبا داود.

وكان عبد اللّه بن علي خشي أن لا يناصحه أهل خراسان، فقتل منهم نحواً من

---

(١) بدأ ابن الأثير سرد الخبر أكثر وضوحاً من هنا فقال: قد ذكرنا مسير عبد اللّه بن علي إلى الصائفة في الجنود، وموت السفاح وإرسال عيسى بن موسى إلى عمه عبد اللّه بن علي يخبره بموته ويأمره بالبيعة لأبي جعفر المنصور ـ وكان السفاح قد أمر بذلك قبل وفاته ـ فلما قدم الرسول على عبد اللّه بذلك لحقه بدلوك ـ وهي بأفواه الدروب ـ فأمر منادياً فنادى الصلاة جامعة.

(٢) بعد هذا في الكامل:
إلا أن حميداً فارقه على ما نذكره.

(٣) تكرر هذا اللفظ بآخر الصفحة [٣٢/ب] وأول الصفحة [٣٤/أ] فحذفت المكرر وسقت الكلام.

(٤) حدث هنا سقط استكمله من الكامل حيث قال: قد استخلفه أبو جعفر لما سار إلى مكة فتحصن منه مقاتل، فحصره أربعين يوماً وكان أبو مسلم قد عاد من الحج مع المنصور كما ذكرناه، فقال للمنصور: إن شئت جمعت ثيابي ومنطقتي وخدمتك، وإن شئت أتيت خراسان فأمددتك بالجنود، وإن شئت سرت إلى حرب عبد اللّه بن علي، فأمره بالمسير لحرب عبد اللّه.

سبعة عشر ألفاً ضروب القتل، وكتب لحميد بن قحطبة كتاباً ووجّه إلى حلب وعليها: زفر بن عاصم، وفي الكتاب: إذا ورد عليك حميد بن قحطبة فاضرب عنقه.

فسار حميد ثم فكر في كتابه، فلم ير من الصواب له أن يوصله ولم يقرأه.

ففك الطومار، وقرأه، فلما عرف ما فيه دعا قوماً من خاصته فأفشى إليهم[١] أمره وشاورهم، وقال: من أراد أن ينجو ويهرب فليسر معي، فإني أريد طريق العراق[٢]، ومن لم يحمل نفسه على السير فلا يفشين سري وليذهب حيث أحب. واتبعه قوم وفوّز[٣] بهم ونجا، ولما وافى أبو مسلم مكان عبد اللّه بن علي وهو بنصيبين مخندق، لم يعرض له وأخذ طريق الشام.

وكتب إلى عبد اللّه: إني لم أومر بقتالك ولم أوجه له، ولكن أمير المؤمنين ولاّني الشام وأنا أريدها فقال: من كان مع عبد اللّه: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا؟

ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله إن قاتلنا.

فقال لهم: عبد اللّه بن علي، واللّه ما يريد الشام وما وجّه إلاّ إلى قتالكم وإن أقمتم ليأتينكم.

فلم تطب أنفسهم، فأبو إلاّ المسير إلى الشام، وكان أبو مسلم قد عسكر قريباً منه فارتحل عبد اللّه بن علي متوجهاً إلى الشام، وتحول أبو مسلم حتى نزل عسكر عبد اللّه بن علي في موضعه وغوّر[٤] ما كان حوله من المياه وألقى فيها الجيف.

وبلغ عبد اللّه بن علي ذلك، فقال لهم: ألم أقل لكم؟

ثم أقبل عبد اللّه فلم يجد في غير موضع عسكر[٥] أبي مسلم الذي كان به، فاقتتلوا ستة[٦] أشهر.

فحكى من شهد مع أبي مسلم هذه[٧] الحرب: أنه لما كان بعد ستة أشهر التقينا

---

(١) في المخطوط: إليه. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: العراب وهو تحريف.
(٣) فَوَّز بهم: أي سار بهم في مفازات الصحراء، وهي الطرق الغير مطروقة والدروب الغير مسلوكة، وقل أن ينجو منها إلاّ من له خبرة كبيرة بطرق الصحراء وشعابها وعلم بالنجوم ليلاً في الاهتداء إلى مراده.
(٤) أي طَمَّ أو ردم الآبار التي كانت حوله حتى لا يستفيد بها خصمه، وما لم يطمه ألقى فيه النتن حتى لا ينتفع بمائة أيضاً.
(٥) في المخطوط: موضع عسكر موضع. والثانية زائدة فحذفتها.
(٦) في الكامل: خمسة أشهر.
(٧) في المخطوط: هذا. وهو تحريف.

فحمل علينا أصحاب عبد اللَّه فصدمونا صدمة أزالونا عن مواقفنا، وانصرفوا، وشد علينا عبد الصمد في خيل مجرده فقتلوا منا قوماً، ثم رجعوا، ثم اجتمعوا ورموا بأنفسهم علينا، فأزالوا صفَّنا.

وجلنا جولة فقلت لأبي مسلم: لو حركت دابتي حتى أشرف على هذا التل فأصيح بالناس فقد انهزموا[١].

فقال: إن أهل الحجى لا يعطفون دوابهم في مثل هذه الحال [وأمر منادياً فـ][٢] نادى [يا] أهل خراسان، ارجعوا إن العاقبة للمتقين.

ففعلت، فتراجع الناس، وارتجز أبو مسلم:

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلاَ رَجِعْ فَرَّ مِنَ المَوْتِ وَفِي المَوْتِ وَقَعْ

وقد كان عمل لأبي مسلم عريشاً يجلس عليه إذا التقى الناس فينظر إلى القتال، فإن كان رأى خللاً في الميمنة والميسرة أرسل إلى صاحبها أن في ناحيتك انتشار فاتق اللَّه ولا نؤتي من قِبلَكَ، افعل كذا، قدم خيلك إلى موضع كذا، تأخر إلى موضع كذا.

فإنما رسله تختلف برأيه إليهم حتى ينصرف بعضهم عن بعض.

فلما كان يوم[٣] التقوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما رأى ذلك أبو مسلم، مكر بهم، فأرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على ميمنته: أن أعز ميمنتك وضم أكثرها إلى الميسرة، وليكن في الميمنة حماة أصحابك وأشداءهم.

فلما رأى ذلك أهل الشام أعروا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم بإزاء ميسرة أبي مسلم، ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن: أن مُر أهل القلب فليحملوا مع من بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام.

قال: [٣٤/ ب] فحملوا عليهم فحطموهم.

وجاء أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان وكانت الهزيمة[٤].

---

(١) في الكامل: فقلت لأبي مسلم: لو حولت دابتك إلى هذا التل ليراك الناس فيرجعوا فإنهم قد انهزموا.
فقال: إن أهل الحجى.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٣) في الكامل: يوم الثلاثاء، والأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً.

(٤) هكذا يجب أن يكون القادة من حسن القيادة والتدبير وإدارة المعارك ومباشرتها للقتال للوقوف على حقيقة الموقف وسرعة التصرف والنجدة والإنقاذ.

فحكى ابن سراقة الأزدي قال: كنت عند عبد اللّٰه بن علي فقال لي: يا [ابن][١] سراقة، ما ترى؟

قلت: أرى أن تسير وتقاتل، فإن الفرار قبيح بمثلك حتى تقتل وقد عتبه على مروان.

قلت: قبح اللّٰه مروان جزع من الموت ففر.

قال: بلى أتى العراق.

فقلت: فإني معك، فانهزم مع الناس وتركوا عسكرهم، فاحتواه أبو مسلم وكتب إلى [أبي][٢] جعفر بالفتح.

فأرسل أبو جعفر أبا الخصيب مولاه يُحصي ما أصابوا في عسكر عبد اللّٰه بن علي، فغضب من ذلك أبو مسلم ولم يظهر غضبه.

فأما عبد اللّٰه بن علي فإنه أتى سليمان بن علي بالبصرة.

وأما عبد الصمد فقدم الكوفة، فاستأمن له عيسى بن موسى فأمَّنَهُ أبو جعفر[٣].

وأمر أبو مسلم الناس بالكفّ فلم يقتل أحد بعد الهزيمة، وبقي عبد اللّٰه بن علي متوارياً.

وفي هذه السنة: قتل أبو مسلم.

حكى مسلم بن المغيرة: أنه كان مع الحسن بن قحطبة بأرمينية.

فلما توجه أبو مسلم إلى الشام كتب أبو جعفر إلى الحسن أن يوافيه ويسير معه.

فقدمنا على أبي مسلم وهو بالموصل، فأقام أياماً، فلما أراد أن يسير استأذنته في المسير إلى العراق، قلت: أنتم تسيرون إلى القتال وليس بك إليّ حاجة.

قال: نعم. قال: اعلمني إن أردت الخروج قلت: نعم، فتهيأت، فلما فرغت أعلمته، وقلت: أتيتك مودعاً.

قال: قف بالباب حتى أخرج إليك.

فخرجت فوقفت، فخرج وقال: أريد أن ألقي إليك شيئاً لتبلغه أبو أيوب، ولولا ثقتي بك لم أخبرك، فأخبر أبا أيوب أني قد رأيت بأبي مسلم منذ قدمت عليه، أنه يأتيه

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط والسياق يقتضيه.

(٢) زيادة يتطلبها السياق وقد سقطت من المخطوط.

(٣) في الكامل: وقيل: بل أقام عبد الصمد بن علي بالرصافة حتى قدمها جمهور بن مرار العجلي في خيول أرسلها المنصور، فأخذه فبعث به إلى المنصور موثقاً مع أبي الخصيب فأطلقه، وأما عبد اللّٰه بن علي فأتى أتاه سليمان بن علي بالبصرة فأقام عنده زماناً متوارياً.

الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه، ثم يلوي شدقيه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر مالك بن الهيثم، فيقرأه ثم يضحكان ويستهزئان به.

قلت: نعم أفعل[١]، فلما التقيت أبا أيوب[٢]. وأنا أرى أني قد أتيته بشيء [فلما][٣] أخبرته ضحك.

قال: نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد اللّه بن علي إلاّ أنّا نرجو واحده، نعلم أن أهل خراسان لا يحبون عبد اللّه، وقد قتل منهم من قتل[٤].

ذكر مقتل أبي مسلم صاحب الزاب[٥] وسبب ذلك

لما ظفر أبو مسلم بعسكر عبد اللّه بن علي بعث أبو جعفر يقطين بن موسى، وأمره بإحصاء ما في العسكر، فلما قدم عليه وكان يسميه يابك دين، قال له أبو مسلم: يابك دين أمين على الدماء خائن على الأموال، وشتم أبا جعفر، فبلّغه يقطين ذلك[٦].

وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف، وخرج من وجهه معارضاً يريد خراسان. وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن، وكتب إلى أبي مسلم في المصير إليه.

وكتب أبو مسلم وهو على الرواح[٧] إلى طريق حلوان: أنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه اللّه عدو إلاّ مكنه اللّه منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان: أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون[٨] من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة لك، غير أنها من بعيد حيث تفارقها[٩] السلامة، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن[١٠] عبيدك، وإن أبيت إلاّ أن تعطي نفسك

(١) في المخطوط: عنه. وهو تحريف، وربما كان هناك سقط في العبارات.
(٢) في الكامل: فلما ألقيت الرسالة إلى أبي أيوب ضحك وقال.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في الكامل بعدها: وكان قد قتل منهم سبعة عشرة ألفاً.
(٥) في المخطوط: الرواب. ووضع فوق الواو هذه العلامة: (٢) وهو ما يفيد أن هذا الحرف زائد يجب حذفه، فحذفته وضبط الكلمة.
(٦) بعد هذا في الكامل: فخاف أن يمضي أبو مسلم إلىٰ خراسان، فكتب إليه: إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت، وأقم بالشام، فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب.
فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يوليني الشام، ومصر، وخراسان لي، فكتب الرسول إلى المنصور بذلك.
وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً علىٰ الخلاف.
(٧) كذا في المخطوط، وفي الكامل: وهو بالزاب.
(٨) في المخطوط: نافذون بالذال المعجمة، وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٩) كذا في المخطوط، وفي الكامل: يقارنها.
(١٠) في المخطوط: كأخس... والتصويب من الكامل.

إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي.

فلما وصل الكتاب إلى المنصور، كتب إلى أبي مسلم قد فهمت كتابك وليست [صفتك][(١)] صفة[(٢)] أولئك الوزراء الغششة[(٣)] ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حال[(٤)] الدولة لكثرت جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فَلِمَ سوَّيت نفسك بهم وأنت في طاعتك، ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التي أوجبت سمع وطاعة وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك [٣٥/ أ] أوكد عنده وأقرب من ظنه من الباب الذي فتحه عليك[(٥)].

وأمر أبو جعفر عيسى بن موسى ومن حضر أن اكتبوا إليه تعظمون أمره، وتشكرون ما كان منه، وتسألونه أن يتم ما كان منه، وعليه بالطاعة، ويحذرونه عاقبة الغدر ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين، وأن يلتمس رضاه.

ودعا أبا حميد، ثم قال له: كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحداً ومَنِّه وأعلمه أني رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد بأحد إن هو راجع ما أحب، فإن أبى أن يرجع، فقل له: يقول لك أمير المؤمنين نفيت من العباس، وأنا بريء[(٦)] من محمد ﷺ إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك إلى أحد سواي وإن لم ألِ طلبك وقتالك إلا بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك، ولا تقولن هذا الكلام حتى تيأس منه ومن رجوعه، ولا تطمع منه في خير.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق، وهي من الكامل.
(٢) في المخطوط: صفته. وهو تحريف والتصويب من الكامل بعد إضافة ما سقط.
(٣) كذا في المخطوط، وهو موافق للسياق، وموافق لما في الطبري على ما ذكره محقق الكامل وهي فيه: الغشيشة.
(٤) في الكامل والمخطوط: حبل، وأثبت ما هو أقرب إلى الفهم.
(٥) جاء بعد هذا في الكامل: وقيل: بل كتب إليه أبو مسلم: أما بعد: فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه وكان في محلة العلم نازلاً وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه، فكان كالذي دلى بغرور، وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقبل العثرة، ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يجهلكم، ثم استنقذني الله تعالى بالتوبة، فإن يعف عني فقدما عرف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فيما قدمت يداي فما الله بظلاّم للعبيد.
وخرج أبو مسلم مراغماً مشاقاً، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان.
فقال المنصور لعمه عيسى بن علي ومن حضر من بني هاشم اكتبوا إلى أبي مسلم فكتبوا إليه يعظمونه.
(٦) في المخطوط: وأما ترى. والتصويب من الكامل.

فسار أبو حميد في ناس من أصحابه ممن يثق بهم حتى دخل على أبي مسلم، فدفع إليه الكتاب، ثم قال:

إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله، وخلاف ما عليه رأيه فيك حسداً وبغياً يريدون إزالة هذه النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك.

وكلمه بأشباه هذا، وقال:

يا أبا مسلم إنك لم تزل أمين آل محمد يعرفك بذلك الناس، وما ذخر اللّه لك من الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك، فلا تحبط أجرك، ولا تستهوينك الشياطين.

قال له أبو مسلم: متى [كنت][(١)] تكلمني بهذا الكلام[(٢)]؟!

وأقبل على أبي نصر مالك بن الهيثم، فقال: يا مالك، ألا تسمع؟

ذكر آراء أُشير بها على أبي مسلم فخالفها

قال: لا تسمع قوله، ولا يهولنك هذا منه، فلعمري لقد صدقت، ما هذا بكلامه، فامضِ لأمرك ولا ترجع، فواللّه لقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك معه أبداً.

فقال للرُّسُل: قوموا، فنهضوا، فأرسل أبو مسلم إلى بيرك[(٣)] وقال: يا بيرك[(٣)]، إني ما رأيت طويلاً أعقل منك، فما ترى؟ فقد جاءت هذه الكتب، وقد قال القوم ما قالوا.

قال: لا أرى أن تأتيه[(٤)]، وأرى أن تأتي الري فتقيم بها فيصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك لا يخالفك أحد، فإن استقام لك استقمت، وإن أبى كنت في جندك، وكانت خراسان من ورائك فرأيت رأيك.

فدعا أبا حميد، فقال: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه.

قال: لقد اعتزمت على خلافه؟

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل:
فقال: إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وطاعة أهل بيت النبي ﷺ بني العباس، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك، فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا اللّه على طاعتهم وألف ما بين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم، ولم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف اللّه في قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين، بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا: من خالفكم فاقتلوه، وإن خالفتكم فاقتلوني. فأقبل أبو مسلم على أبي نصر مالك بن الهيثم فقال: أما تسمع ما يقول لي هذا؟ ما كان بكلامه يا مالك.

(٣) كذا رسمه في المخطوط، وفي الكامل: «نيزك» بالنون، والزاي.

(٤) في المخطوط: تليه. والتصويب من الكامل.

قال: نعم.

قال: لا تفعل.

قال: ما أريد أن ألقاه.

فلما آيسه من الرجوع قال: ما أمره به أبو جعفر.

فوجم طويلاً ثم قال: قم، فكره[١] ذلك القول ورعبه.

وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبي داود ـ وهو خليفة أبي مسلم على خراسان حين اتهم أبا مسلم ـ: أن لك إمرة خراسان ما بقيت.

فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إنك لن تخرج[٢] لمعصية خلفاء اللّه وأهل بيت نبيه ﷺفلا تخالفن إمامك، ولا ترجعن إلا بإذنه.

فوافاه كتابه على تلك الحال فزاده رعباً وهماً وأرسل إلى أبي حميد، وأبي مالك[٣] فقال لهما: إني قد كنت معتزماً على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فإنه من[٤] أثق به.

فوجهه، فلما قدم أبو إسحاق تلقاه بنو[٥] هاشم بكل ما أحب.

وقال له أبو جعفر: اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان، وأجازه.

فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم فقال له: ما أنكرت شيئاً رأيتهم معظمين لحقك يرون لك ما يرون لأنفسهم.

ثم أشار إليه بأن ترجع إلى أمير المؤمنين فتعذر إليه مما كان منه[٦].

فأجمع أبو مسلم على ذلك[٧]، فقال له نيزك: قد أجمعت على الرجوع؟

قال: نعم، وتمثل:

مَا لِلرِّجَالِ مِنَ القَضَاءِ مَحَالَة ذَهَبَ القَضَاءُ بِحِيلَةِ الْأَقْوَامِ

وقال: أما إذا عزمت على هذا فاحفظ عني واحدةً خار اللّه لك، إذا دخلت عليه فاقتله، ثم بايع لمن شئت، فإن الناس لا يخالفونك.

---

(١) في الكامل: فكسره، وأظن أن ما في الكامل هو الأنسب للسياق.
(٢) في الكامل: إنّا لم نخرج.
(٣) لم يرد ذكره في الكل.
(٤) في الكامل: ممن.
(٥) في المخطوط: أبو. والتصويب من الكامل.
(٦) في الكامل بأن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان منه.
(٧) في الكامل: فاجتمع على ذلك.

وكتب أبو مسلم إلى أبي [٣٥/ب] جعفر يخبره أنه منصرف إليه[(١)].

قالوا: فقال أبو أيوب: فدخلت على أبي جعفر وهو في خباء شعر بالرومية جالساً على مصلى بعد العصر، وبين يديه كتاب أبي مسلم فرمى به إليّ فقرأته.

ثم قال: واللّه لئن ملئت عيني منه لأقتلنه.

فقلت في نفسي: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، طلبت الكتابة حتى إذا بلغت غايتها فصرت كاتباً للخليفة ومع هذا بين الناس ما أرى أنه قبل برضى أصحابه بقتله ولا يدعون هذا حُبًّا ولا أحد ممن يتصل به وامتنع مني النوم.

ثم قلت: لعل الرجل يقدم وهو آمن فإن كان آمناً فعسى أن ينال ما يريد وهو حذر لم يقدر ما عليه فلو التمست حيلة.

ذكر حيلة احتال بها أبو أيوب المرزباني على أبي مسلم حتى ترك التحرز

قال أبو أيوب: فأرسل إلى سلمة بن سعيد بن جابر وكان يأنس به أبو مسلم، فقلت: هل عندك شكر؟

قلت: نعم.

قال: إن وليتك ولاية تصيب منها ما [مثل][(٢)] يصيب صاحب العراق، تدخل معك أخي حاتماً إلى ابن أبي سليمان؟

قال: نعم[(٣)].

قلت: وأردت أن تطمع ولا تنكر منه شيئاً، وتجعل له النصف؟

قال: نعم[(٤)].

قلت: إن كسكر كانت عام الأول كذا وكذا وفيها العام أضعاف ما كان عام أول، فإن دفعت إليك بحالتها[(٥)] التي كانت عام أول، أو بالأمانة، أصبت ما يضيق به ذرعاً.

---

(١) بعد هذا في الكامل:
وسار نحوه واستخلف أبا نصر على عسكره وقال له: أقم حتى يؤتيك كتابي فإن أتاك بنصف خاتم فأنا كتبته، وإن أتاك بخاتم كله فلم أختمه، وقدم المدائن في ثلاثة آلاف رجل، وخلف الناس بحلوان، ولما ورد كتاب أبي مسلم: أن يقتلوا المنصور ويقتلوه معه، فدعا سلمة بن سعيد بن جابر، وقال: هل عندك شكر؟.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٣) في الكامل: تدخل معك أخي حاتماً ـ وأراد بإدخال أخيه معه أن يطمع وينكر ـ فقال: نعم.

(٤) قلت: وربما كان قوله: «قال نعم»، الأولى زائدة.

(٥) في المخطوط: تعالتها. وهو تحريف، ولم تر الكلمة في الكامل.

قال: فكيف لي بهذا [المال][(١)]؟

قلت: تأتي أبا مسلم، فتلقاه، وتكلمه، وتسأله أن يجعله فيما يرفع من حوائجه أن تولاها أنت بما كانت في العام الأول، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه إذا قدم ما وراء بابه ويريح نفسه.

قال: فكيف لي في لقائه ومن لي بهذا؟

قلت: أنا، ودخلت إلى أبي جعفر وحدثته الحديث كله، فلم أخرم منه شيئاً.

قال: فدع سلمة، فدعوته.

فقال له: إن أبا أيوب استأذن لك أفتحب أن تلقى أبا مسلم؟

قال: نعم.

قال: فقد أذنت لك، فأقريه السلام، وأعلمه تشوقنا إليه.

قال: فخرج سلمة حتى لقي أبا مسلم. فقال له: إن لي حاجة، ثم قصَّ عليه حديث كسكر، وقال له: أمير المؤمنين أحسن الناس فيك رأياً فطابت نفسه وكان قبل ذلك كئيباً.

فلما قدم عليه من سلمة ما قدم سرى عنه وصدَّقه.

فلما دنا أبو مسلم من المدائن أمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه[(٢)].

فلما كان عشية قدم، دخلت على أمير المؤمنين فقلت: هذا الرجل يدخل العشية، فما تريد أن تصنع؟

قال: أريد أن أقتله حين أنظر إليه.

قلت: أنشدك اللّه إنه يدخل معه الناس وقد علموا ما صنع، فإن دخل عليك ولم يخرج لم آمن البلاء ولكن إذا دخل عليك، فأذن له حتى ينصرف، فإذا غدا عليك رأيت رأيك.

وما أردت إلاّ دفعه بها، وما ذاك إلاّ من خوفي عليه وعلينا جميعاً من أصحاب أبي مسلم.

فدخل عليه من عشيته وسلم وقام قائماً بين يديه[(٣)].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: فتلقاه بنو هاشم والناس.

(٣) في الكامل: ثم قدم فدخل على المنصور فقبَّل يده، وأمره أن ينصرف، ويروح نفسه لثلاثة، ويدخل الحمام، فانصرف.

فقال: انصرف يا أبا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام فإن للسفر قشفاً، ثم اغد عَلَيّ.

فانصرف أبو مسلم، وانصرف الناس، فافترى أمير المؤمنين حين خرج أبو مسلم وقال: متى أقدر على هذه الحالة منه التي رأيته قائماً على رجليه ولا أدري ما يحدث في ليلتي.

فانصرف، فلما أصبحت، غدوت عليه، فلما رآني قال: يا ابن اللخناء لا مرحباً بك، والله ما أغمضت[1] الليلة، ثم سمني[2] حتى خفت أن يقتلني، ثم قال: ادع لي عثمان بن نهيك، فدعوته.

فقال: يا عثمان، كيف بلاء أمير المؤمنين عندك؟

قال: يا أمير المؤمنين إنما أنا عبدك، والله لو أمرتني أن اتكئ على سيفي حتى يخرج من ظهري لفعلت.

قال: كيف أنت إن أمرتك بقتل أبي مسلم؟

فوجم ساعة لا يتكلم.

فقال: ما لك لا تتكلم؟

فقال قولة ضعيفة: اقتله.

قال: انطلق فجئني بأربعة من وجوه الحرس جلداً.

فمضى، فإذا كان عند الرواق ناداه؛ يا عثمان ارجع، فرجع.

قال: اجلس، فجلس.

قال: أرسل إلى من تثق به من الحرس فليحضر منهم أربعة.

فقال: لوصيف له: انطلق فادع شبيب بن واج، وادع أبا حنيفة حتى عدد أربعة، فدخلوا.

فقال لهم أمير المؤمنين [٣٦/أ] نحواً مما قال لعثمان، فقالوا: نقتله.

فقال: كونوا خلف الرواق، فإذا صفقت فاخرجوا إليه فاقتلوه.

ثم أرسل إلى أبي مسلم رُسُلاً بعضهم على إثر بعض، فقالوا: قد ركب، وأتاه وصيف، فقال له: إنه أتى عيسى بن موسى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أخرج، فأطوف في العسكر، فانظر ما يقول الناس؟

---

(١) في المخطوط: ما اغتضت. وهو تحريف.

(٢) كذا في المخطوط، وأحسب أن صوابها سبني أو شتمني، والله أعلم.

هل ظن أحد ظناً أو تكلم أحد بشيء؟

قال: بلى.

فخرجت فتلقاني أبو مسلم داخلاً، فتبسم، وسلمت عليه، ودخل، ورجعت، فإذا هو منبطح لم ينتظر به رجوعي.

ودخل أبو الجهم، فلما رآه مقتولاً قال: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

فأقبلت على أبي الجهم، فقلت له: أمرته بقتله حين خالف حتى إذا قتل، قلت هذه المقالة، فنبهت رجلاً غافلاً فتكلم بكلام أصلح ما كان منه.

قال: يا أمير المؤمنين ألا أرد الناس؟

قال: بلى.

قال: فأمر بمتاع يحول لك إلى رواق آخر من أرواقك هذه، فأمر بفرش فأُخرجت مكانه، يريد أن يتهيأ لرواق آخر.

فخرج أبو الجهم فقال: انصرفوا فإن الأمير[1] يريد أن يقيل عند أمير المؤمنين، ورأى المتاع ينقل فظنوه صادقاً، فانصروا.

ولما دخل أبو مسلم قال له: أخبرني عن نعلين أصبتهما في متاع عبد اللّه بن علي.

قال: هذا أحدهما الذي عَلَيَّ.

قال: أرنيه، فانتضاه فناوله، فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه، وأقبل عليه يعاتبه، ويعد ذنوبه.

فقال: أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدِّين؟

قال: ظننت أنه لا يحل، وكان كتب إليَّ فأجبته بما عندي.

قال: فأخبرني عن مقدمك إياي في طريق مكة؟

قال: كرهت أن نجتمع على الماء، فيضر ذلك بالناس فتقدمت توطئة والتماس المرفق.

فقال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلى أن تقدم فترى [ما] رأيناه، ومضيت فلا أقمت حتى ألحقك، ولا أنت رجعت إليّ؟

قال: سبقني من ذلك ما أخبرتك به من طلب المرفق للناس، وقلت: نقدم الكوفة وليس عليه مني خلاف.

قال: فجارية عبد اللّه بن علي، أردت أن تتخذها؟

---

(١) في المخطوط: أمير المؤمنين، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

قال: لا ولكني خفت ضياعها، فحملتها في قبة، ووكلت بها من يحفظها.

قال: فمراغمتك إياي، والخروج إلى خراسان؟

قال: خفت أن يكون دخلك شيء مني، فقلت: آتي خراسان، وأكتب بعذري وإلى ذاك ما قد ذهب ما في نفسك علي.

قال: فلِمَ قتلت سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا، وهو أحد ثقاتنا؟

قال: إنما أراد الخلاف فقتلته.

قال: تقتله وحاله عندنا حالة تهمة لم نتحققها؟!

قال: ألست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك؟

والكاتب إليَّ تخطب أمينة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد اللّه بن عباس؟

فقال أبو مسلم، يا أمير المؤمنين، لا يتحفظ على أمثال هذه بعدي وبلائي، وما كان مني؟

وكان أبو مسلم قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف إنسان صبراً.

فقال له: يا ابن الخبيثة، واللّه لو كان أمة مكانك لأجزأت، إنما عملت ما عملت تريحنا وفي دولتنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً.

ثم قال أبو جعفر: إنك لتزيدني بكلامك واحتجاجك غيظاً.

وصفق بيده، وكانت العلامة بينه وبين الحرس، فخرجوا عليه وضربوه حتى قتلوه.

وأدرج في بساط، وأمر أبو جعفر لأصحابه بمال ونثر دراهم لبقية جنده، فاشتغلوا بها، ورمى إليهم برأسه.

ثم دعا أبو جعفر بأبي إسحاق صاحب حرس أبي مسلم فقال: أُقسم باللّه لئن قطعوا طنباً[١] من أطنابك لأضربن عنقك، ثم لأجاهدنهم.

فخرج إليهم أبو إسحاق وهم يشغبون، فقال: انصرفوا يا كلاب.

وكان أبو مسلم خلف أبا نصر في ثقله، وقال: قم حتى يأتيك كتابي.

قال: فاجعل بيني وبينك علامة أعرفها، وأثق بكتابك معها.

قال: إن أتاك كتابي مختوماً بنصف خاتمي فأنا كتبته، وإن أتاك بختمي كله فلم أكتبه ولم أختمه فلما دنا من المدائن تلقاه رجل من قواده فسلم عليه، وقال: أطعني

(١) هو وتر الخيمة. ويريد منه أن يسكن الناس ولا يحدثوا نفوراً أو قلقاً على قتل أبي مسلم وينصرفوا هادئين، وإلاّ فعل به ما حذره منه.

وارجع فإنه إن عاينك قتلك.

قال: أما وقد قربت من القوم، فإني أكره الرجوع وكتب أبو جعفر كتاباً على لسان أبي مسلم إلى أبي نصر [٣٦/ب] يأمره بحمل ثقله وما خلف عنده، وأن يقدم، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم.

فلما رأى أبو نصر نقش الخاتم تاماً، علم أن أبا مسلم لم يكتب به، قال: أفعلتوها؟!!

وانحدر إلى همذان، وهو يريد خراسان.

فكتب أبو جعفر [لأبي نصر][1] بعهده على شهرزور، ووجه إليه رسولاً بالعهد أنه قد توجه إلى خراسان.

فكتب إلى زهير بن التركي، وهو على همذان: إن مَرَّ بك أبو نصر، فاحبسه، ثم كتب إليه كتاباً آخر: إن كنت أخذت أبا نصر فاقتله.

وقدم صاحب العهد بالكتاب فوصلت الكتب إلى زهير، وأبو نصر بهمذان[2]، فأخذه وحبسه، ثم خلاه لهواه فيه، واحتج بأن كتاب العهد سبق إليّ فخليت سبيله.

وفي هذه السنة: وَلَّى أبو جعفر أبا داود خالد بن إبراهيم خراسان، وكتب إليه بعهده.

وفيها: خرج سنباذ بخراسان يطلب بدم أبي مسلم.

وكان هذا الرجل مجوسياً وأظهر غضباً لأبي مسلم فطلب بثأره وكثر اتباعه[3] فيسمى بفيروز أصفهيد[4]، وغلب على نيسابور وقومس والري وقبض خزائن أبي مسلم التي خلفها إليه جمهور بن مرار[5] العجلي في عشرة آلاف، فالتقوا بين همذان والري[6]، فهزم سنباذ، وقتل من أصحابه نحو من ستين ألفاً وسبيت ذراريهم ونساءهم.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٢) بعد هذا في الكامل: فقال له زهير: قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتني بدخول منزلي، فحضر عنده فأخذه زهير وحبسه، ثم ذكر الخبر مطولاً في الكامل إلى أن ذكر بآخر القصة تولية المنصور لأبي داود على خراسان.

(٣) في الكامل: وكان عامتهم من أهل الجبال.

(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: وتسمى فيروز أصبهبذ.

(٥) في المخطوط: جمهور بن مران. والتصويب من الكامل.

(٦) في الكامل زيادة: على طرق المفازة وعزم جمهور على مطاولته، فلما التقوا قدم سنباذ السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين: وامحمداه، ذهب الإسلام، ووقعت الريح في أثوابهن فنفرت الإبل وعادت على عسكر سنباذ، فتفرق العسكر، وكان ذلك سبب الهزيمة.

ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس.

وكان بين خروجه إلى يوم قتل سبعون ليلة[١].

وفي هذه السنة: خرج ملبد بن حرملة الشيباني فحكم بناحية الجزيرة.

فخرج إليه ألف رجل من روابط الجزيرة، فقتلهم وهزمهم.

ثم سار إليه روابط الموصل، فهزمهم.

ثم سار إليه يزيد بن حاتم المهلبي فهزمه ملبد بعد قتال شديد وقتلِ ذَرِيع[٢].

ثم وجه إليه أبو جعفر المهلهل بن صفوان في نخب الجند فهزمهم ملبد، واستباح عسكرهم.

ثم خرج إليه نزار في عدة من قواد خراسان، فقتله ملبد وهزم أصحابه.

ثم توجه إليه زياد بن مشكان في جمع كثير فهزمهم ملبد.

ثم وجه صالح بن صبيح في عسكر كثيف وعدة من صناديد فهزمهم ملبد.

ثم سار إليه حميد بن قحطبة [وهو على الجزيرة يومئذ][٣]، فلقيه ملبد فهزمه وتحصن حميد منه، وأعطاه مائة ألف درهم على أن يكف عنه[٤].

---

(١) في الكامل بعد هذا: وكان سبب قتله: أنه قصد طبرستان ملتجئاً إلى صاحبها، فأرسل إلى طريقه عاملاً له اسمه طوس فتكبر عليه سنباذ فضرب طوس عنقه، وكتب إلى المنصور بقتله وأخذ ما معه من الأموال وكتب المنصور إلى صاحب طبرستان يطلب منه الأموال فأنكرها فسير الجنود إليه فهرب إلى الديلم.

(٢) بعد هذا في الكامل: وأخذ جارية له كان يطؤها.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) بعدها في الكامل: وقيل: إن خروج ملبد كان سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ثم زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة ما يأتي: لم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ.

وحج بالناس هذه السنة: إسماعيل بن علي بن عبد اللّه بن عباس وهو على الموصل.

وكان على المدينة : زياد بن عبيد اللّه.

وعلى مكة: العباس بن عبد اللّه بن معبد.

ومات العباس عند انقضاء الموسم، فضم إسماعيل عمله إلى زياد بن عبيد اللّه وأقره المنصور عليه.

وكان على الكوفة: عيسى بن موسى، وعلى البصرة وأعمالها: سليمان بن علي، وعلى قضائها عمر بن عامر السلمي.

وعلى خراسان: أبو داود خالد بن إبراهيم.

وعلى مصر: صالح بن علي.

وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة.

وعلى الموصل: إسماعيل بن علي بن عبد اللّه، وهي على ما كانت عليه من الاجتدال.

ثم دخلت سنة ثماني وثلاثين ومائة

وفيها: دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فملك سورها وهدمه، ثم عفى عمن فيها[١].

وفيها: غزى العباس بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس [الصائفة][٢] مع صالح بن علي، فوصله صالح بأربعين ألف دينار.

وخرج معهم عيسى بن علي[٣] فوصله أيضاً بأربعين ألف دينار فبنى صالح بن علي ما كان من هدم صاحب الروم من مطليه.

وفي هذه السنة: خلع جمهور بن مرار[٤] العجلي المنصور، وكان سبب ذلك: أن جمهور لما هزم سنباد وحوى ما في عسكره وفي جملته خزائن أبي مسلم خاف فخلع، فأنفذ إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي، فلقيه فقاتله قتالاً شديداً فهزم جمهور وقتل خلق كثير من أصحابه[٥]، وهرب جمهور إلى أذربيجان فأخذ بعد ذلك [فقتل][٦] بأسباذروا[٧].

وقتل في هذه السنة: الملبد الخارجي، قتله خازم بن خزيمة بعد قتال شديد.

وحروب كثيرة لا يستفاد [منها][٨] تجربة[٩].

---

(١) بعدها في الكامل: من المقاتلة والذرية.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) بعد هذا في الكامل: وقيل: كانت سنة تسع وثلاثين.
(٤) في المخطوط: مرات، والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: وخلق كثير قتل من أصحابه، فغيرت العبارة على ما يتبادر إلى الذهن مباشرة.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) بعدها في الكامل: قتله أصحابه وحملوا رأسه إلى المنصور.
(٨) زيادة يتطلبها السياق.
(٩) كذا قال، وقال ابن الأثير في خبر قتله: قد ذكرنا خروجه في السنة التي قبلها وتحصن حميد منه، ولما بلغ المنصور ظفر ملبد وتحصن حميد منه، وجه إليه عبد العزيز بن عبد الرحمن أخا عبد الجبار وضم إليه زياد بن مشكان فأكمن له ملبد مائة فارس فلما لقيه عبد العزيز خرج عليه الكمين فهزموه وقتلوا عامة أصحابه، فوجه إليه خازم بن خزيمة في نحو ثمانية آلاف المروروذية فسار خازم حتى نزل الموصل وبعث إلى ملبد بعض أصحابه، وعبر ملبد دجلة من بلد وسار نحو خازم وعلى مقدمته وطلائعه فضلة بن نعيم بن خازم بن عبد اللّه النهشلي، وعلى ميمنته زهير بن محمد العامري وعلى ميسرته أبو حماد الأبرص وخازم في القلب، فلم يزل يساير ملبداً وأصحابه إلى الليل وتواقعوا ليلتهم، فلما كان الغد سار ملبد نحو كورة حزه، وخازم وأصحابه يسايرونهم حتى غشيهم الليل، وأصبحوا من الغد فسار ملبد كأنه يريد الهرب فخرج خازم في أثره وتركوا خندقهم، وكان خازم قد خندق على أصحابه بالحسك، فلما خرجوا منه حمل عليهم ملبداً وأصحابه، فلما رأى ذلك خازم ألقى الحسك بين يديه ويدي أصحابه، فحملوا على =

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة

وفي هذه السنة: صار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان [إلى][(١)] الأندلس فملّكه أهلها أمرهم فولده وُلاَتها إلى اليوم[(٢)].

= ميمنة خازم فطووها ثم حملوا على الميسرة فطووها، ثم انتهوا إلى القلب ـ وفيه خازم ـ فنادى خازم في أصحابه: الأرض الأرض فنزلوا ونزل ملبد وأصحابه وعقروا عامة دوابهم، ثم اضطربوا بالسيوف حتى تقطعت، وأمر خازم فضلة بن نعيم أن إذا سطع الغبار ولم يبصر بعضنا بعضاً فارجع إلى خيلك وخيل أصحابك فاركبوها، ثم ارموهم بالنشاب، ففعل ذلك.
وتراجع أصحاب خازم من الميمنة والميسرة ثم رشقوا ملبداً وأصحابه بالنشاب فقتل ملبد في ثمانمائة رجل ممن ترجل، وقتل منهم قبل أن يترجلوا زهاء ثلاثمائة وهرب الباقون، وتبعهم فضلة فقتل منهم مائة وخمسين رجلاً.
وفي هذه السنة: وسع المنصور المسجد الحرام.
وحج بالناس هذه السنة: الفضل بن صالح بن علي.
وكان على المدينة، ومكة، والطائف زياد بن عبيد اللّه الحارثي.
وعلى الكوفة وسوادها: عيسى بن موسى.
وعلى البصرة: سليمان بن علي، وعلى قضائها سوار بن عبد اللّه.
وعلى خراسان: أبو داود.
وعلى مصر: صالح بن علي.
وفيها: توفي السواد بن رفاعة بن أبي مالك القرطبي، وسعيد بن جمهان أبو حفص الأسلمي يروي عن سفينة حديث «الخلافة ثلاثون». ويونس بن عبيد البصري وقيل: توفي سنة تسع وثلاثين ومائة.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) أي إلى أيام ابن مسكويه.
وقد ذكر ابن الأثير في هذا الخبر في الكامل أخبار الأندلس مجمعة من بدايتها إلى أن دخلها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام في خبر طويل فقال بعد أن ذكر تسلسل ولاتها وأيامها:
أما سبب مسير عبد الرحمن إلى الغرب، فإنه يحكى عنه:
أنه لما ظهرت الدولة العباسية وقتل من بني أمية من قُتل ومن شيعتهم، فرَّ منهم من نجا في الأرض، وكان عبد الرحمن بن معاوية بذات الزيتون، ففرّ منها إلى فلسطين، فأقام هو ومولاه بدر يتجسس الأخبار.
فحكي عنه أنه قال: لما أعطينا الأمان، ثم نكث بنا بنهر أبي فطرس وأبيحت دماؤنا أتانا الخبر، وكنت منتبذاً من الناس، فرجعت إلى منزلي آيساً، ونظرت فيما يصلحني وأهلي، وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض، فبينا أنا ذات يوم بها، وولدي سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذٍ ابن أربع سنين، فخرج عني، ثم دخل الصبي من باب البيت باكياً فزعاً، فتعلق بي، وجعلت أدفعه وهو يتعلق في، فخرجت لأنظر، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود مخطة عليها، وأخ لي حدث السن يقول لي النجاء، النجاء، فهذه رايات المسودة فأخذت دنانير معي، ونجوت بنفسي وأخي وأعلمت أخواتي بمتوجهي، فأمرتهن أن يلحقنني مولاي بدر، وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي أثراً.
فأتيت رجلاً من معارفي، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني، فعدل عليّ عبد له العامل، فأقبل في خيله يطلبني، فخرجنا على أرجلنا هراباً، والخيل تبصرنا، فدخلنا في بساتين على =

....

= الفرات، فسبحنا الخيل إلى الفرات، فأما أنا فنجوت، والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع.
وأما أخي فإنه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع إليهم بالأمان، فأخذوه فقتلوه، وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاثة عشر سنة، فاحتملت فيه ثكلاً، ومضيت لوجهي فتواريت في غيضة أشبة حتى انقطع الطلب عني، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت أفريقية ثم إن أخته أم الأصبغ ألحقته بدراً ومولاه ومعه نفقة له وجوهر، فلما بلغ أفريقية لج عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري ـ قيل: هو والد يوسف أمير الأندلس ـ وكان عبد الرحمن عامل أفريقية في طلبه واشتد عليه فهرب منه، فأتى مكناسة ـ وهم قبيل من البربر ـ فلقي عندهم شدة يطول ذكرها ثم هرب من عندهم، فأتى نفزاوة، وهم أخواله وبدر معه.
وقيل: أتى قوماً من الزناتيين، فأحسنوا قبوله، فاطمأن فيهم، وأخذ في تدبير المكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس يعلمهم قدومه، ويدعوهم إلى نفسه، ووجه بدراً مولاً إليهم، وأمير الأندلس حينئذٍ يوسف بن عبد الرحمن الفهري. فسار بدر إليهم، وأعلمهم حال عبد الرحمن ودعاهم إليه فأجابوه، ووجهوا إليه مركباً فيه ثمامة بن علقمة، ووهب بن الأصفر، وشاكر بن أبي الأسمط، فوصلوا إليه، وأبلغوه طاعتهم له، والأندلس فارسي في المنكب في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة، فأتاه جماعة من رؤسائهم من أهل إشبيلية وكانت أيضاً نفوس أهل اليمن حنقة على الصميل، ويوسف الفهري، فأتوه.
ثم انتقل إلى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور.
ثم أتى شذونة فبايعه غياث بن علقمة اللخمي.
ثم أتى موزور فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها.
ثم أتى إشبيلية، فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى.
ونهض إلى قرطبة فبلغ خبره إلى يوسف، وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة، فأتاه الخبر وهو راجع إلى قرطبة، فسار عبد الرحمن نحو قرطبة، فلما أتى قرطبة تراسل هو ويوسف في الصلح، فخادعه نحو يومين أحدهما يوم عرفة ولم يشك أحد من أصحاب يوسف أن الصلح قد ابترم، وأقبل على إعداد الطعام ليأكله الناس على السماط يوم الأضحى.
وعبد الرحمن مرتب خيله ورجله، وعبر النهر في أصحابه ليلاً، فشب القتال ليلة الأضحى وصبر الفريقان إلى أن ارتفع النهار، وركب عبد الرحمن على بلغ لئلا يظن الناس أنه يهرب، فلما رأوه كذلك سكنت نفوسهم وأسرع القتل في أصحاب يوسف، وانهزم وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته، ثم انهزموا، فظفر عبد الرحمن.
ولما انهزم يوسف أتى ماردة وأتى عبد الرحمن قرطبة، فأخرج حشم يوسف من القصر على عودة، ودخله بعد ذلك.
ثم سار في طلب يوسف، فلما أحسّ به يوسف خالفه إلى قرطبة، فدخلها وملك قصرها، فأخذ جميع أهله وماله، ولحق بمدينة البيرة. وكان الصميل لحق بمدينة شوذر.
وورد إلى عبد الرحمن الخبر، فرجع إلى قرطبة طمعاً في لحاقه بها، فلما لم يجده عزم على النهوض إليه.
فسار إلى البيرة، وكان الصميل قد لحق بيوسف وتجمع لهما هناك جمع.
فتراسلوا في الصلح، فاصطلحوا على أن ينزل يوسف بأمان هو ومن معه، وأن يسكن مع عبد الرحمن بقرطبة، ورهنه يوسف ابنيه: أبا الأسود محمداً، وعبد الرحمن.
وسار يوسف مع عبد الرحمن، فلما دخل قرطبة تمثل:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

واستقر عبد الرحمن بقرطبة، وبنى القصر، والمسجد الجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، =

وفيها: عزل سليمان بن علي عن البصرة[(١)]، وولى سفيان بن معاوية، فتوارى[(٢)] عبد اللّه بن علي وأصحابه.

فبعث أبو جعفر إلى سليمان، وعيسى ابني علي، وكتب إليهما في أشخاص عبد اللّه بن علي، وعزم عليهما أن يفعلا ذلك ولا يؤخراه وأعطاهما من الأمان لعبد اللّه ما رضياه ووثقا به.

وجرى في ذلك ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ثم استحثهما بالخروج بعبد اللّه[(٣)] وبقاء قواده[(٤)] وخواص أصحابه، فخرجا بعبد اللّه والجماعة التي التمسها حتى قدموا على المنصور فلما دخل سليمان [٣٧/أ] وعيسى على المنصور سألاه في عبد اللّه بن علي وأعلماه حضوره، فأنعم لهما وشغلاهما بالحديث.

وقد كان هيأ لعبد اللّه محبساً في قصره، وأمر أن يُصرف إليه بعد دخول سليمان وعيسى، ففعل ذلك به.

ثم نهض أبو جعفر، وقال لسليمان وعيسى سارعا بعبد اللّه[(٥)].

فلما خرجا افتقدا عبد الله بن علي من المجلس الذي خلفاه فيه.

فعلما أنه قد حبس فانصرفا راجعين إلى أبي جعفر، فحيل بينهما وبين الوصول إليه، وأخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحاب عبد اللّه بن علي من عواتقهم، وحبسوا[(٦)].

= ومات قبل تمامه.
وبنى مساجد الجماعات، ووافاه جماعة من أهل بيته، وكان يدعو للمنصور.
وقد ذكر أبو جعفر أن دخول عبد الرحمن كان سنة تسع وثلاثين.
وقيل سنة ثمان وثلاثين على ما ذكرنا، وهذا القدر كافٍ في ذكر دخوله الأندلس لئلا نخرج عن الذي قصدنا له من الاختصار.

(١) في الكامل: وقيل: سنة أربعين، واستعمل عليها سفيان بن معاوية في رمضان.
(٢) في الكامل: فاختفى أخوه عبد اللّه بن علي، ومن معه من أصحابه، فبلغ ذلك المنصور، فأرسل إلى سليمان، وعيسى بن علي بن عبد اللّه بن عباس.
(٣) في المخطوط: لعبد اللّه، والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: لعبد اللّه وقواده ومواليه، حتى قدموا على المنصور في ذي الحجة.
(٥) في الكامل: خذا عبد اللّه معكما.
(٦) وأتم ابن الأثير القصة في الكامل فقال: وقد كان خفاف بن منصور حذرهم ذلك وندم على مجيئه معهم وقال: إن أطعتموني شددنا شدة واحدة على أبي جعفر، فواللّه لا يحول بيننا وبينه حائل حتى نأتي عليه ولا يعرض لنا أحد إلا قتلناه، وننجو بأنفسنا، فعصوه.
فلما أخذت سيوفهم وحبسوا، جعل خفاف يضرط في لحية نفسه ويتفل في وجه أصحابه، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته، وبعث الباقين إلى أبي داود خالد بن إبراهيم =

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فما جرى فيها غير هلاك أبي داود خالد بن إبراهيم عامل خراسان بخطيئة أخطأها على نفسه.

وذلك أن ناساً من جنده مروا به ليلاً وهو نازل بباب كشمهان[1] من مدينة مرو حتى وصلوا إلى المنزل الذي هو فيه، فأشرف أبو داود من الحائط وجعل ينادي أصحابه ليعرفوا صوته، ووطئ حرف آجرة خارجة عن الحائط فانكسرت الآجرة[2]، ووقع على سرة أمامها، فانكسر ظهره ومات.

= بخراسان فقتلهم بها.
ومما ذكر ابن الأثير أيضاً من أحداث تلك السنة أنه قال:
وفي هذه السنة: فرغ صالح بن علي، والعباس بن محمد من عمارة ما أخربه الروم من ملطية.
ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا في أرض الروم.
وغزا مع صالح أختاه: أم عيسى، ولبابة، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله.
وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة المهراني.
وفي هذه السنة: كان الفداء بين المنصور وملك الروم، فاستفدى المنصور أسرى قالى قلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها ورد إليها أهلها، وندب إليها جنداً من أرض الجزيرة وغيرهم، فأقاموا بها وحموها.
ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلاّ سنة ست وأربعين لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي.
إلاّ أن بعضهم قال: إن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام في سنة أربعين، وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم، ثم لم يكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين.
وحج بالناس في هذه السنة: العباس بن محمد بن علي.
وكان على مكة، والمدينة، والطائف: زياد بن عبيد الله الحارثي.
وعلى الكوفة: عيسى بن موسى.
وعلى البصرة: سفيان بن معاوية، وعلى قضائها سوار بن عبد الله.
وعلى خراسان: أبو داود.
وفيها: مات عبد ربه سعيد بن قيس الأنصاري، وقيل: سنة إحدى وأربعين.
وفيها: مات العلاء بن عبد الرحمن مولى الخرقة، ومحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن أبي صعصعة المازني.
ويزيد بن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي وكان موته بالإسكندرية.

(١) ويقال: كُشماهن، ويقال: كُشميهن، وهي قرية من قرى مرو عظيمة على طرف البرية آخر عمل مرو لمن يريد قصد آمل جيحون. خج منها جماعة وافرة من أهل العلم، خرّبها الرمل. (راجع معجم البلدان).

(٢) أي وضع قدمه على طرف طوبة بارزة أو ناتئة عن الحائط بمثابة حلية فكسرت الطوبة فوقع فهلك بعد الإصابة المذكورة.

وقام عصام صاحب شرطة أبي داود بخلافته حتى قدم عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي[١].

(١) كذا ذكر ابن مسكويه هذا الخبر، وأتمه ابن الأثير وذكر بعده عدة حوادث فقال في تمامه أولاً، عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي عامل خراسان. فلما قدمها أخذ جماعة من القواد اتهمهم بالدعاء إلى ولد علي بن أبي طالب منهم مجاشع بن حريث الأنصاري عامل بخارى، وأبو المغيرة خالد بن كثير مولى بني تميم عامل قوهستان، والحريش بن محمد الذهلي وهو ابن عم داود فقتلهم وحبس جماعة غيرهم وألح على عمال أبي داود في استخراج ما عندهم من الأموال.
وفي هذه السنة: نكث يوسف الفهري الذي كان أمير الأندلس على عهد عبد الرحمن الأموي، وكان سبب ذلك:
أن عبد الرحمن كان يضع عليه من يهينه وينازعه في أملاكه، فإذا أظهر حجة الشريعة لا يعمل بها، ففطن لما يراد منه فقصد ماردة واجتمع عليه عشرون ألفاً، فسار نحو عبد الرحمن، وخرج عبد الرحمن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور.
ثم إن يوسف رأى أن يسير إلى عبد الملك بن عمر بن مروان، وكان والياً على إشبيلية، وإلى ابنه عمر بن عبد الملك، وكان على المدور فسار نحوهما وخرجا إليه فلقياه فاقتتلا قتالاً شديداً، فصبر الفريقان، وانهزم أصحاب يوسف وقتل منهم خلق كثير، وهرب يوسف وبقي متردداً في البلاد فقتله بعض أصحابه في رجب من سنة اثنتين وأربعين بنواحي طليطلة، وحمل رأسه إلى عبد الرحمن فنصبه بقرطبة، وقتل ابنه عبد الرحمن بن يوسف الذي كان عنده رهينة ونصب رأسه مع رأس أبيه، وبقي أبو الأسود بن يوسف عند عبد الرحمن الأموي رهينة وسيأتي ذكره. وأما العميل فإنه لما فرَّ يوسف من قرطبة لم يهرب معه فدعاه الأمير عبد الرحمن وسأله عنه فقال: لم يعلمني بأمره، ولا أعرف خبره.
فقال: لا بد أن تخبر.
فقال: لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه، فسجنه مع ابني يوسف.
فلما هربا من السجن أنف من الهرب والفرار فبقي في السجن.
ثم أدخل إليه بعد ذلك مشيخة مضر فوجدوه ميتاً وعنده كأس ونقل، فقالوا: يا أبا جوشن قد علمنا أنك ما شربت ولكنك سقيت ودفع إلى أهله فدفنوه.
وفي هذه السنة: هلك إذفنش ملك جليقية وملك بعده ابنه تدويليه، وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطاً له، وكان ملك أبيه ثماني عشرة سنة ولما ملك ابنه قوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك مدينة لك، وبرطقال، وشلمنقة، وشمورة، وأيلة، وشقوبيه، وقشتيالة، وكل هذه من الأندلس.
وفيها: سَرَّ المنصور عبد الوهاب ابن أخيه إبراهيم الإمام، والحسن بن قحطبة في سبعين ألفاً من المقاتلة إلى ملطية فنزلوا عليها وعَمَّروا ما كان خربه.
الروم منها ففرغوا من العمارة في ستة أشهر، وكان للحسن في ذلك أثر عظيم.
وأسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح، والذخائر، وبنى حصن قلوذية.
ولما سمع ملك الروم بمسير عبد الوهاب، والحسن إلى ملطية سار إليهم في مائة ألف مقاتل فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فعاد عنهم ولما عمرت ملطية عاد إليها من كان باقياً من أهلها.
وفيها: حج المنصور، فأحرم من الحيرة، فلما قضى حجه توجه إلى بيت المقدس، وسار منه إلى الرقة، فقتل بها منصور بن جعونة العامري، وعاد إلى هاشمية الكوفة.
وفيها: أمر المنصور بعمارة مدينة المصيصة على يد جبرائيل بن يحيى، وكان سورها قد تشعث من الزلازل، وأهلها قليل، فبنى السور وسماها المعمورة، وبنى بها مسجداً جامعاً، وفرض =

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة

وأجرى في هذه السنة أمر الراوندية وما كان من أبي جعفر في أمرهم.

ذكر أخبار الراوندية وخروجهم ومقتلهم

الراوندية: قوم كانوا من أهل خراسان على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح(١)، ويزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك.

= فيها لألف رجل، وأسكنها كثيراً من أهلها.
وفيها: توفي سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة.
وعمرو بن يحيى بن أبي حسن الأنصاري.
وعمارة بن غزية الأنصاري، وكان ثقة. وأبو العلاء أيوب القصاب.
وأبو جعفر محمد بن عبد اللّه الأسكافي وهو من متكلمي المعتزلة وأئمتهم، وله طائفة تنسب إليه.
وأسماء بن عبيد بن مخارق، والد حويزة بن أسماء.

(١) قال عبد القادر الأسفرائيني في كتابه الفرق بين الفرق (٢٧٠) في ذكر أصحاب التناسخ من أهل الأهواء وبيان خروجهم عن فرق الإسلام: القائلون بالتناسخ أصناف، صنف من الفلاسفة وصنف من السمنية وهذان الصنفان كانا قبل دولة الإسلام.
وصنفان آخران ظهرا في دولة الإسلام: أحدهما من جملة القدرية، والآخر من جملة الرافضة الغالية.
فأصحاب التناسخ من السمنية: قالوا بقدم العالم. وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت.
وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة، وأجازوا أن ينقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان. وقد حكي فلو طرخس مثل هذا القول عن بعض الفلاسفة، وزعموا أن من أذنب في قالب ناله العقاب على ذلك الذنب في قالب آخر، وكذلك القول في الثواب عندهم، ومن أعجب الأشياء دعوى السمنية في التناسخ الذي لا يعلم بالحواس مع قولهم: إنه لا معلوم إلا من جهة الحواس.
وقد ذهب المانوية أيضاً إلى التناسخ، وذلك أن ماني قال في بعض كتبه: إن الأرواح التي تفارق الأجسام نوعان: أرواح الصديقين، وأرواح أهل الضلال.
فأرواح الصديقين: إذا فارقت أجسادها سرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم.
وأرواح أهل الضلال: إذا فارقت الأجساد وأرادت اللحوق بالنور الأعلى رُدَّت منعكسة إلى أسفل فتتناسخ في أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلتحق بالنور العالي.
وذكر أصحاب المقالات عن سقراط وأفلاطون واتباعهما من الفلاسفة، أنهم قالوا بتناسخ الأرواح على تفصيل قد حكيناه عنهم في كتاب «الملل والنِّحَل».
وقال بعض اليهود بالتناسخ وزعم أنه وجد في كتاب دانيال أن اللّه تعالى مسخ بختنصر في سبع صور من صور البهائم والسباع، وعذبه فيها كلها ثم بعثه في آخرها موحداً.
وأما أهل التناسخ في دولة الإسلام: فإن البيانية، والجناحية، والخطابية، والراوندية من الروافض الحلولية كلها قالت بتناسخ روح الإله في الأئمة بزعمهم.
وأول من قال بهذه الضلالة السبئية من الرافضة، لدعواهم أن عليًّا صار إلهاً حين حل روح الإله فيه.

وأن جبرائيل هو الهيثم بن معاوية.

وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور.

ويعددون أرواح قوم مضوا، فيدعون أنها الآن منتقلة في أجساد آخرين فلان وفلان، ولا تزال تنتقل في كل زمان إلى أجساد قوم تعاقب فيها أو تثاب.

وكانوا أتوا قصر المنصور، فجعلوا يطوفون ويقولون: هذا قصر ربنا.

فحكى أبو بكر الهذلي قال: إني لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلع فقال لي رجل إلى جانبي: هذا باب العزة، هذا الذي يرزقنا ويطعمنا ويسقينا.

فلما رجع أمير المؤمنين، ودخل الناس، ودخل وخلا وجهه، قلت له: سمعت اليوم عجباً، فحدثته، فنكت في الأرض، وقال: يا هذلي يدخلهم اللَّه عزّ وجلّ النار في طاعتنا ويقتلهم أحب إلينا من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا.

قال: وأتوا قصر المنصور للطواف حتى شاع خبرهم فأرسل المنصور إلى رؤسائهم، فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم وقالوا: علا ما حبسوا؟

وأمر المنصور، أن لا يجتمعوا.

فأعدوا نعشاً، وحملوا السرير، وليس في النعش أحد، ثم مروا بالمدينة الهاشمية بالكوفة حتى صاروا على باب السجن [فدخلوا السجن][1] فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور يريدونه، وهم يومئذٍ ستمائة رجل.

فنادى الناس، وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج المنصور من القصر ماشياً ولم يكن في القصر دابة ـ فجعل بعد ذلك يرتبط فرساً يكون في دار الخلافة معه في قصره ـ ولما خرج المنصور أتي بدابة فركبها، وهو يريدهم، وجاء معن بن زائدة وانتهى إلى المنصور، وقال: أنشدك اللَّه يا أمير المؤمنين إلاّ رجعت فإنك تكفي.

وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف على باب القصر وقال: أنا اليوم بواب.

ونودي في السوق فرموهم وقاتلوهم حتى أثخنوهم وفتح باب المدينة، ودخل الناس، وجاء خازم بن خزيمة على فرس مخذوق فقال: يا أمير المؤمنين أقتلهم؟

قال: نعم.

فحمل عليهم حتى ألجأهم إلى حائط، ثم كروا على خازم حتى كشفوه وأصحابه، ثم كر عليهم فاضطروهم إلى حائط المدينة.

وقال الهيثم بن شعبة: إذا كروا علينا فاسبقهم إلى الحائط، وإذا رجعوا فاقتلهم.

---

(١) زيادة من الكامل.

فحملوا على حازم فاضطرهم وصار الهيثم بن شعبة من ورائهم فقتلوا [٣٧/ب] جميعاً وجاءهم يومئذٍ عثمان بن نهيك فكلمهم، فرموه فرجع فرموه بنشابة وقعت بين كتفيه، فمرض أياماً ومات.

وأبلى يومئذٍ برز بن المصمغان ملك ديباوند وكان خالف أخاه، وقدم على أبي جعفر وأكرمه وأجرى عليه رزقاً.

فلما كان يومئذٍ أتى المنصور فكَفَّرَ له، ثم قال: أقاتل هؤلاء؟

قال له: نعم.

فقاتلهم، فكان إذا ضرب رجلاً فصرعه تأخر عنه فلما قتلوا، وصلى المنصور دعا بالعشاء[١] وقال: اطلبوا معن بن زائدة.

وأمسك عن الطعام حتى جاءه معن فقال لقثم تحول إلى هذا الموضع معناً مكان قثم.

فلما فرغوا من العشاء قال لعيسى بن علي: يا أبا العباس، أسمعت بأشد الرجال؟

قال: نعم.

قال: لو رأيت معناً علمت أنه من تلك الآساد قال: قال معن؛ واللّه يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وإنّي لوجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم ورأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني[٢].

(١) في الكامل: فلما صلى المنصور الظهر دعا بالعشاء.
وأحسب أن لفظة الظهر فيه محرفة أو زائدة على السياق حيث من المعلوم العشاء يكون ليلاً، والغداء ظهراً أو وسط النهار.

(٢) زاد ابن الأثير في الخبر بعد هذا فقال:
وقيل: كان معن متخفياً من المنصور لما كان منه من قتاله مع ابن هبيرة كما ذكرناه، وكان اختفاؤه عند أبي الخصيب حاجب المنصور، وكان على أن يطلب له الأمان، فلما خرجت الراوندية جاء معن، فوقف بالباب، فسأل المنصور أبا الخصيب: من بالباب؟ فقال: معن بن زائدة.
فقال المنصور: رجل من العرب شديد النفس عالم بالحرب كريم الحسب، أدخله، فلما دخل قال: إيه يا معن، ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس، فتأمر لهم بالأموال.
فقال: وأين الناس والأموال؟ ومن يقدم على أن يعرض لنفسه لهؤلاء العلوج؟! لم تصنع شيئاً يا معن، الرأي أن أخرج فأقف للناس، فإذا رأوني قاتلوا وتراجعوا إلي، وإن أقمت تهاونوا وتخاذلوا.
فأخذ معن بيده وقال: لا يا أمير المؤمنين إذاً واللّه تقتل الساعة، فأنشدك اللّه في نفسك.
فقال له أبو الخصيب مثلها.
فجذب ثوبه منهما وركب دابته وخرج معن آخذ بلجام دابته، وأبو الخصيب مع ركابه، وأتاه رجل فقتله معن حتى قتل أربعة في تلك الحالة حتى اجتمع إليه الناس، فلم يكن إلاّ ساعة حتى =

قال الفضل بن الربيع، قال: حدثني أبي قال سمعت المنصور يقول:

أخطأت ثلاث خطيات، وقى الله شَرَّها:

* قتلت أبا مسلم وأنا في حرق ومن حولي تقدم طاعته على طاعتي يؤثرها، ولو هتكت الحرق لذهبت ضياعاً.

* وخرجت يوم الراوندية، ولو أصابني سهم عزب لذهبت ضياعاً.

* وخرجت إلى الناس ولو اختلفت السِّيفان بالعراق لذهبت الخلافة ضياعاً.

وفي هذه السنة: خلع عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل أبي جعفر على خراسان.

ذكر الخبر عن خلع عبد الجبار وما آل إليه أمره

بلغ المنصور أن عبد الجبار يقتل رؤساء أهل خراسان، وكاتبه بعض قواده بكتاب فيه: قد نَغِلَ الأديم(١).

فقال لكاتبه، أبي أيوب(٢): إن عبد الجبار قد أفنى شيعتنا، وما فعل هذا إلاّ وهو يريد أن يخلع.

فقال له: ما أيسر حيله أكتب إليه أنك تريد غزو الروم فيوجه إليك الجنود من خراسان وعليها فرسانهم ووجوههم(٣)، فإذا خرجوا منها، فابعث إليه من شئت فليس به امتناع.

فكتب إليه بذلك، فأجابه: إن الترك قد جاشت(٤)، وإن فرقت الجنود ذهبت خراسان.

فألقى الكتاب إلى أبي أيوب وقال له: ما ترى؟

قال: أمكنك من قياده، أكتب إليه: إن خراسان أهم إليَّ من غيرها، وأنا موجه إليك الجنود من قبلي.

ثم وجه الجنود ليكونوا بخراسان، فإن هَمّ بخلع أخذوا بعنقه.

فلما ورد على عبد الجبار هذا الكتاب، كتب إليه: إن خراسان لم يكن قط أسوء

= أفناهم، ثم تغيب معن، فسأل المنصور عنه أبا الخصيب عنه، فقال: لا أعلم مكانه. فقال المنصور: أظن معن أن لا أغفر ذنوبه بعد بلائه أعطه الأمان، وأدخله عليّ، فأدخله إليه، فأمر له بعشرة آلاف درهم ثم ولاه اليمن.

(١) أي فسد الشيء.

(٢) في المخطوط: أبي الجوزي. وهو سهو من الناسخ حيث لا مناسبة ذكره هنا وما بعده يؤكد ما أثبته، وكذا ما ورد في الكامل يؤكد أنه سهو من الناسخ.

(٣) في المخطوط: ووجوهم، وهو تحريف.

(٤) أي جهزت الجيوش وأعدتها للحرب وهو في عصرنا بمعنى التعبئة أو استدعاء الاحتياط.

حالاً منها في العام، وإن دخلها الجنود هلكوا لضيق ما هم فيه من غلاء السعر.

فلما أتاه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب فقال: قد أبدى صفحته، وقد خلع، فلا تناظره.

فوجه إليه محمد ابنه، وقدم لحربه خازم بن خزيمة، ثم شخص محمد المهدي فنزل بنيسابور.

وتوجه خزيمة بن خازم إلى عبد الجبار، وبلغ ذلك أهل مرو، فقاتلوه وجاهدوه حتى هرب وتوارى، ثم طلبوه حتى أخذوه أسيراً[١].

فلما قدم خازم أتاه [به][٢]، فألبسه خازم مدرعة[٣] صُوف وحمله على بعير، وجعل وجهه من قِبل عجز البعير[٤] حتى انتهى به إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه، فبسط عليهم العذاب حتى استخرج ما قدر عليه من الأموال.

ثم أمر المسيب بقطع يدي عبد الجبار ورجليه وضرب عنقه، ففعل المسيب.

وأمر المنصور بتسيير ولده إلى دهلك، وهي جزيرة بناحية اليمن[٥].

ولما وجه المنصور محمد المهدي إلى قتال عبد الجبار بن عبد الرحمن، فكفى المهدي أمر عبد الجبار بمن حاربه وكره المنصور أن يبطل نفقاته التي انقضت على المهدي وجنوده.

فكتب إليه أن يغزو طبرستان، وينزل الري.

وتوجه أبا الخصيب[٦]، وخازم بن خزيمة والجنود إلى الأصفهيد[٧].

والأصفهيد يومئذٍ محارباً للمصمغان ملك دنباوند معسكراً بإزائه.

فبلغه أن الجنود دخلت بلاده، وأن الخصيب دخل سارية[٨].

---

(١) في الكامل: فانهزم منهم ولجأ إلى معطنة، فتوارى فيها، فعبر إليه المجشر بن مزاحم من أهل مرو الروذ، فأخذه أسيراً.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في الكامل: جبة، والمعنى واحد أو قريب.

(٤) إهانة له، وقد كنا نلعب ذلك على الدواب ونحن صغار من باب بيان مهارة الركوب أو التمكن.

(٥) بعد ذلك في الكامل:
فلم يزالوا بها حتى أغار عليهم الهند فسبوهم فيمن سبوا، ثم فودوا بعد ذلك، وكان ممن نجا منهم عبد الرحمن بن عبد الجبار فصحب الخلفاء ومات أيام الرشيد سنة سبعين ومائة.
وقيل: كان أمر عبد الجبار سنة اثنتين وأربعين في ربيع الأول، وقيل: سنة أربعين.

(٦) في الكامل: أبا الخطيب.

(٧) في الكامل في كل المواضع المذكور هنا: الأصبهبذ، وسرت على ما في المخطوط واكتفيت بهذه الإشارة.

(٨) في الكامل: فلما بلغه دخول الجنود بلاده ودخول أبي الخصيب سايره فقال المصمغان للأصبهبذ: متى.

[٣٨/أ] فسار للمصمغان ذلك وقال للأصفهيد: متى [قهروك][(١)] صاروا إليّ. فاجتمعا على محاربة المسلمين. وانصرف الأصفهيد إلى بلاده، فحارب المسلمين وطالت الحروب، فأشار بدرزين أخو المصمغان على المنصور بتوجيه عمر بن العلاء، وكان برزين قد عرف عمر أيام رستقباذ، وأيام الراوندية.

وقال أمير المؤمنين: إن عمر أعلم الناس ببلاد طبرستان، فوجهه.

وعمر بن العلاء هو الذي يقول فيه بشار:

فقل للخليفة أن جئته ... نصيحاً ولا خير في المتهَمْ
إذا أيقظتك حروب العِدَى ... فنبِّه لها عمراً ثم نَمْ
فتًى لا ينام على دِمْنةٍ ... ولا يشرب الماء إلاّ بدَمْ[(٢)]

فوجهه[(٣)] المنصور وضم إليه خزيمة بن خازم، فدخل الرويان وفتحها، وأخذ قلعة الطاق[(٤)] وما فيها.

وطالت الحرب، فألح خزيمة على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر.

وصار الإصفهيد على قلعته[(٥)] وطلب الأمان [على][(٦)] أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره.

فكتب بذلك المهدي إلى أبي جعفر فوجه أبو جعفر بصالح[(٧)] صاحب المصلى وعدة معه، فأحصوا ما في الحصن ثم انصرفوا.

فبدا للأصفهيد، فدخل بلاد جيلان من الديلم، فمات بها، وأخذت ابنته، فهي أم إبراهيم بن محمد [بن العباس بن محمد][(٨)].

وحمدت الجيوش للمصمغان، فظفروا به، وبالبحترية أم منصور بن المهدي، وقميصرا على ابن ريطة بنت المصمغان.

فهذا فتح طبرستان الأول[(٩)].

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) لم يذكر في الكامل إلا البيت الثاني من هذا الشعر.
(٣) في المخطوط: فوجه وهو تحريف.
(٤) في الكامل: قلعة الطلق.
(٥) في المخطوط: قلعة. وهو تحريف.
(٦) سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(٧) في المخطوط: يصلح. والتصويب من الكامل.
(٨) زيادة من الكامل.
(٩) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة ما يلي:
في هذه السنة: عزل زياد بن عبيد اللّه الحارثي عن مكة، والمدينة، والطائف، واستعمل على =

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة

وفيها: كان نقض أصفهيد طبرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين.

فبلغ ذلك المنصور، فوجه خازم بن خزيمة وروح بن حاتم، وأبا الخصيب مولى أبي جعفر[١] فقاتلوهم حتى طال عليهم.

فاحتال أبو الخصيب في ذلك، وقال لأصحابه: اضربوني، واحلقوا رأسي ولحيتي.

ففعلوا ذلك به، ولحق بالأصفهيد صاحب الحصن، وقال: إنه رُكب مني ما ترى بتهمة ألحقوها بي وظنوا أن هواي فيك، فأخبره أنه اليوم معه، وأنه يدله على عورة العسكر.

فقبل الأصفهيد ذلك وجعله في خاصته، وألطفه[٢]، ووكل به من يتعرف أخباره، فصبر ولم يزل يظهر طاعته ونصيحته حتى وثق به[٣]، وتمكن مما أراد، فراسل أصحابه بل كاتبهم في شأنه وواعدهم أن يفتح لهم الباب يوماً بعينه، ففعل.

= المدينة: محمد بن خالد بن عبد اللّه القسري في رجب.
وعلى الطائف ومكة الهيثم بن معاوية العتكي من أهل خراسان.
وفيها: توفي موسى بن كعب، وهو على شرطة المنصور، وعلى مصر والهند.
وخليفته على الهند: عيينة ابنه، وكان قد عزل موسى عن مصر، ووليها محمد بن الأشعث، ثم عزل عنها ووليها نوفل بن محمد بن الفرات.
وحج بالناس هذه السنة: صالح بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وهو على الشام.
وعلى الكوفة: عيسى بن موسى.
وعلى البصرة: سفيان بن معاوية.
وعلى خراسان: المهدي، وخليفته بها السري بن عبد اللّه.
وعلى الموصل: إسماعيل بن علي.
وفيها: مات سعد بن سعيد أخو يحيى بن سعيد الأنصاري.
وأبان بن تغلب القارئ.

(١) بعد هذا في الكامل.
فأقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه، وهم يقاتلونه.

(٢) بعد هذا في الكامل:
وكان باب حصنهم من حجر يلقى القاء يرقعه الرجال وتضعه عند فتحه وإغلاقه، وكان الأصبهبذ يوكل به ثقات أصحابه نوباً بينهم.

(٣) في الكامل:
فلما وثق الأصبهبذ إلى أبي الخصيب وكله بالباب، فتولى فتحه وإغلاقه حتى أنس به، ثم كتب أبو الخصيب إلى روح وخازم، وألقى الكتاب في سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة في فتح الباب، فلما كان تلك الليلة فتح لهم.

فدخلوا فقتلوا من فيها وسبوا الذراري، وظفروا ببنت الأصفهيد، وبشكلة أم إبراهيم بن المهدي، وهي بنت كاتب المصمغان. ومَصَّ الأصفهيد خاتماً فيه سم فقتل نفسه[1].

ودخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

ولم يجر فيها ما يستفاد منها تجربة[2].

---

(١) بعد هذا في الكامل: وقيل: إن ذلك كان سنة ثلاث وأربعين ومائة.
ثم ذكر ابن الأثير عدة أحداث أخرى في تلك السنة فقال:
وفي هذه السنة: خلع عيينة بن موسى بالسند وكان عاملاً عليها، وسبب خلعه:
أن أباه كان استخلف المسيب بن زهير على الشرط، فلما مات موسى أقام المسيب على ما كان يلي من الشرط، وخاف أن يحضر المنصور وعيينة فيوليه ما كان إلى أبيه، فكتب إليه ببيت شعر، ولم ينسب الكتاب إلى نفسه:
فأرضك أرضك إن تأتنا تنم ليلة ليس فيها حلم
فخلع الطاعة، فلما بلغ الخبر إلى المنصور سار بعسكره حتى نزل على جسر البصرة، ووجه عمر بن حفص بن أبي صفراء العتكي عاملاً على السند، والهند.
فحاربه عيينة فسار حتى ورد السند، فغلب عليها.
وفيها: مات سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وهو على البصرة في جمادى الآخرة، وعمره تسع وخمسون سنة، وصلى عليه أخوه عبد الصمد.
وفيها: عزل نوفل بن الفرات عن مصر ووليها حميد بن قحطبة.
وحج بالناس: إسماعيل بن علي بن عبد اللّه وكان العمال من تقدم ذكرهم.
وولى المنصور الثغور والعواصم أخاه العباس بن محمد.
وعزل المنصور عمه إسماعيل بن علي عن الموصل فاستعمل عليها مالك بن الهيثم الخزاعي جد أحمد بن نصير الذي قتله الواثق، وكان خير أمير.
وفيها: مات يحيى بن سعيد الأنصاري أبو سعيد قاضي المدينة، وقيل: سنة ثلاث، وقيل: سنة أربع وأربعين.
وفيها: مات موسى بن عقبة مولى آل جبير.
وفيها: توفي أيضاً عاصم بن سليمان الأحول وقيل: سنة ثلاث وأربعين.
وفيها: مات حميد بن أبي حميد طرخان.
وقيل: مهران مولى طلحة بن عبد اللّه الخزاعي وهو حميد الطويل - يروي عن أنس بن مالك وعمره خمس وسبعون سنة.

(٢) كذا قال المؤلف، وذكر ابن الأثير في أحداث تلك السنة ما يلي:
في هذه السنة: ثار الديلم بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فبلغ ذلك المنصور، فندب الناس إلى قتال الديلم وجهادهم.
وفيها: عزل الهيثم بن معاوية عن مكة، والطائف، وولي ذلك السري بن عبد اللّه بن الحارث بن العباس - وكان على اليمامة وسار إلى مكة.
واستعمل المنصور على اليمامة قثم بن عباس بن عبد اللّه.
وفيها: عزل حميد بن قحطبة عن مصر، واستعمل عليها نوفل بن الفرات، ثم عزل نوفل واستعمل عليها يزيد بن حاتم.
وحج بالناس هذه السنة: عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد اللّه، وكان إليه ولاية الكوفة.
=

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائة

وفيها: أَهَمَّ أبا جعفر المنصور أمر[١] محمد وإبراهيم ابني عبد اللّه بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانا قد تخلفا عنه عام حج في حياة أخيه ولم يحضرا مع من حضر من بني هاشم.

وكان يقال: إن أبا جعفر كان بايع محمد بن عبد اللّه ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة، وذلك حين اضطرب أمر بني مروان.

فلما كان بعد ذلك واستخلف أبو جعفر لم يكن له همة إلاّ طلب محمد والمسألة عنه وعن أخيه[٢].

فسأل بنو هاشم عنهما رجلاً رجلاً يختلهم فيسألهم، فيقولون: يا أمير المؤمنين قد علم أنك عرفته بطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد خلافاً، ولا يحب لك معصية، وما أشبه هذا من الكلام.

إلاّ حسن بن زيد فإنه أخبره خبره، وقال: واللّه ما آمن وثوبه عليك فإنه ممن لا يغفل عنك في رأيك.

فأيقظ من لا ينام وأخذ في تتبعه، ودعا زياد بن عبيد اللّه وكان خليفة محمد بن خالد القسري على المدينة فبحث عن أمر محمد وسأل عنه وعن أخيه، فقال زياد: ما يهمك من أمرهما؟

= وفيها: ثار بالأندلس رزق بن النعمان الغساني على عبد الرحمن، وكان رزق على الجزيرة الخضراء، فاجتمع إليه خلق عظيم فسار إلى شذونة فملكها، ودخل مدينة إشبيلية.
وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها، وضيق على من بها فتقربوا إليه بتسليم رزق إليه، فقتله فأمنهم ورجع عنهم.
وفيها: مات عبد الرحمن بن عطاء صاحب الشارعة ـ وهي نخل ـ.
وسليمان بن طرخان التيمي.
وأشعث بن سوار.
ومجالد بن سعيد.

(١) في المخطوط: أم. وهو تحريف، والتصويب من الكامل وقال في أول الخبر.
وفيها استعمل المنصور على المدينة رياح بن عثمان المري، وعزل محمد بن خالد بن عبد اللّه القسري عنها.
وكان سبب عزله وعزل زياد قبله: أن المنصور أهمه أمر محمد، وإبراهيم ابني عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي.

(٢) في الكامل: فلما حج المنصور سنة ست وثلاثين سأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد اللّه الحرثي: ما يهمك من أمرهما؟ أنا آتيك بهما، وكان معه بمكة فرده المنصور إلى المدينة.

أنا آتيك بهما، فرده وضمنه محمد وإبراهيم.

وكان يحيى بن خالد بن برمك[1] يقول: اشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب، ثم أعطى الرجل منهم البعير والبعيرين، وربما أعطى الرجل الذود، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة.

وكان الرجل منهم يرد الماء كالمار [٣٨/ب] وكالضال فينفرون عنه ويتجسسون[2].

ومما احتال به أبو جعفر حتى وقف على أخبارهم كان عمر بن حفص أوفد وفداً من السند منهم عقبة بن أسلم، فدخلوا على أبي جعفر، فلما قضوا حوائجهم فأرادوا والنهوض ونهضوا.

استرد عقبة، ثم أجلسه، ثم قال: من أنت؟

قال رجل من جند أمير المؤمنين وخدمه:

صحبت عمر بن حفص.

قال: ما اسمك؟

قال: عقبة بن سلم بن نافع.

قال: ممن أنت؟

قال: من الأزد من بني هناة.

قال: إني لأرى لك هيئة وموضعاً، وإني لأريدك، ولأمرٍ أنا به مُعَنّى.

قال: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فيّ.

قال: فاخف شخصك، واستر أمرك، وأتني في يوم كذا وكذا.

فأتاه في ذلك الوقت، فقال: إن بني عمي هؤلاء قد أبوا إلاّ نكداً لملكنا واغتيالاً له، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف

(١) في المخطوط: أبرمك. والألف زائدة في أوله وهو تحريف وهو يحيى بن خالد بن برمك البرمكي من البرامكة المشهورون.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل قبل هذه الرواية خبراً آخر قال فيه:
ثم ألح المنصور على عبد الله بن الحسن في إحضار ابنه محمد سنة حج فقال عبد الله لسليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أخي بيننا من الصهر والرحم ما تعلم فما ترى؟
فقال سليمان: والله لكأنني أنظر إلى أخي عبد الله بن علي حين حالت المنية بينه وبيننا، وهو يشير إلينا، هذا الذي فعلتم بي. فلو كان عافياً عفا عن عمه.
فقبل عبد الله رأي سليمان، وعلم أنه قد صدقه ولم يظهر ابنه.

بلادهم، فأخرج بكتبي مع ألطاف وعين حتى تأتيهم[١] متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية، ثم تسيرنا ناحيتهم، فإن كانوا [نزعوا][٢] عن رأيهم فأحبب واللّه بهم وأقرب، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر.

فأشخص حتى تلقى عبد اللّه بن حسن متقشفاً متخشعاً فإن جبهك ـ وهو فاعل ـ فاصبر، وعاوده وإن عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته، فإذا أظهر لك ما قبله فاعجل إليّ.

فشخص حتى قدم على عبد اللّه بن حسن فلقيه بالكتاب، فأنكره ونهره وقال: ما أعرف هؤلاء القوم.

فلم ينصرف وتردد إليه حتى قبل[٣] كتابه وألطافه وأنس به، فسأله عقبة الجواب.

فقال: أما الكتاب فإني لا أكتب إلى أحد ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام، وأخبرهم أن ابنيّ خراجان لوقت كذا وكذا[٤].

قال: فشخص عقبة حتى قدم على أبي جعفر فأخبره الخبر، وبأشياء كان ينتظرها منه.

فقال أبو جعفر: إني أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا لقيني بنو حسن وفيهم عبد اللّه، فأنا أبجله وأرفع مجلسه[٥] وادع بالغداء، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتك فأمثل بين يديه فإنه سيصرف بصره عنك، فَدُر حتى تغمس ظهرة بهام رجلك حتى يملأ عينه منك، ثم حسبك، وإياك أن يراك ما دام يأكل.

فخرج حتى إذا ترفع في البلاد لقيه بنو حسن، فأجلس عبد اللّه إلى جانبه، ثم دعا بالغداء، فأصابوا منه، ثم أمر به فرفع.

فأقبل على عبد اللّه، فقال: يا أبا محمد، قد علمت ما أعطيتني من العقود والمواثيق أن لا تبغيني سوءً، ولا تكيد لي سلطاناً.

قال: أنا على ذلك يا أمير المؤمنين.

قال: فلحظ[٦] أبو جعفر عقبة، فاستدار حتى قام بين يدي عبد اللّه، فأعرض عنه، ثم استدار حتى قام من وراء ظهره فغمزه بأصبعه، فرفع رأسه فملأ عينه منه، ثم

---

(١) في المخطوط: تلهيهم، وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل وقد سقطت أو معناها من المخطوط.
(٣) في المخطوط: أقبل، وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: وأعلم أنني خارج لوقت كذا وكذا، وما في المخطوط موافق لما في الطبري على ما ذكر محقق كتاب الكامل.
(٥) العبارات هنا بالمعنى في الكامل، وهذه الكلمة في الكامل محلته.
(٦) في المخطوط: فلحض، وهو تحريف لتقارب مخارج الحروف.

وثب حتى حبا بين يدي أبي جعفر فقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك اللّٰه. قال: لا أقالني اللّٰه إن أقلتك[١]، وأمر بحبسه[٢]. فحكى أبو حُنين قال: دخلت على عبد اللّٰه بن حسن وهو محبوس، فقال: هل حدث اليوم خبر؟.

قلت: نعم، قد أمر ببيع متاعك ورقيقك ولا أرى أحداً يقدم على شرائه.

فقال: ويحك يا حنين؟ واللّٰه لو خرج بي وببناتي مسترقين لاشْتُرِيْنا!!!

فشخص أبو جعفر، وبقي عبد اللّٰه بن الحسن في الحبس ثلاث سنين.

وكان أخوه محمد وأصحابه أجمعوا على اغتيال أبي جعفر في سنة أربعين لما حج.

وقال لهم الأشتر، عبد اللّٰه بن محمد بن عبد اللّٰه: أنا أكفيكموه.

فقال محمد: لا واللّٰه لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه.

فنقض أمرهم ذلك وما كانوا أجمعوا عليه، وكان دخل معهم قائد من قواد أبي جعفر من أهل خراسان قيم إسماعيل بن جعفر بن محمد الأعرج[٣]، فدخل المنصور في طلب القائد فلم يظفر به، وأفلت مع غلام له بمالٍ، فأتى محمداً به فَقَسَّم بين أصحابه.

وكان سبب ذلك

أن أبا جعفر أنفذ عيناً له، وكتب معه كتاباً على ألسن الشيعة لعلامات لهم وقف عليها، يذكرون موالاتهم وحسن طاعتهم ومعه مال.

فقدم الرجل المدينة على عبد اللّٰه بن حسن فسأله عن محمد، وأعطاه العلامات[٤].

فذكر له أنه في جبل جهينة، وقال: أمرر في طريقك بعلي بن الحسن الرجل

---

(١) في المخطوط: أقتلك. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعده في الكامل:
وكان محمد قد قدم قبل ذلك البصرة، فنزلها في بني راسب يدعو إلى نفسه وقيل: نزل على عبد اللّٰه بن شيبان أحد بني مرة بن عبيد، ثم خرج منها. فبلغ المنصور مقدمه البصرة، فسار إليها مجداً، فنزل عند الجسر الأكبر، فلقيه عمرو بن عبيد، فقال له: يا أبا عثمان، هل بالبصرة أحد تخافه على أمرنا؟
قال: لا. قال: فاقتصر على قولك وانصرف؟ قال: نعم.
وكان محمد قد سار عنها قبل مقدم المنصور، فرجع المنصور، واشتد الخوف على محمد، وإبراهيم ابني عبد اللّٰه فخرجا حتى أتيا عدن، ثم سار إلى السند، ثم إلى الكوفة، ثم إلى المدينة.

(٣) في الكامل: اسمه خالد بن حسان يدعى أبا العساكر على ألف رجل، فنمى الخبر إلى المنصور فطلب فلم يظفر به.

(٤) في الكامل: فسأله عن ابنه محمد، فذكر له فكتم له خبره، فتردد الرجل إليه وألح في المسألة، فذكر أنه في جبل جهينة. . .

الصالح الذي يُدعى الأغرّ، فإنه يرشدك.

فأتاه، فأرشده.

وكان لأبي جعفر كاتب [٣٩/أ] على سرّه، وكان متشيعاً.

فكتب إلى عبد اللّه بن الحسن، بأمر[١] ذلك العين وما بعث له.

فقدم الكتاب على عبد اللّه بن الحسن فارتاع [له وبعث][٢] أبا هبار إلى علي بن الحسن وإلى محمد يحذرهم الرجل.

فخرج أبو هبار حتى نزل بعلي بن الحسن فسأله عن الرجل، فأخبره أن قد أرشده. فقال أبو هبار: فجئت محمد فلما رآني ظهر عليه بعض النكرة[٣]، وجلست مع القوم فتحدثت ملياً، ثم أصغيت إلى محمد، فقلت: إن لي حاجة، فنهضت معه فأخبرته خبر الرجل، فاسترجع وقال: فما الرأي؟ فقلت: إحدى ثلاث أيها شئت فافعل.

قال: وما هي ؟

قلت: تدعني حتى أقتل الرجل.

قال: سبحان اللّه ما أقرب دماً إلاّ وأنا مكره، أو ماذا؟

قلت: توقره حديداً أو تنقله حيث انتقلت.

قال: وهل بنا فراغ[٤] له مع الخوف والإعجال، أو ماذا؟

قلت: تشدّه أو تضعه عند بعض أهل ثقتك من جهينة.

قال: هذه إذاً.

فرجعنا وقد ندر[٥] الرجل وهرب.

فقلت: أين الرجل؟

قالوا: قام بركوة فاصطب بزكوة ماء، ثم توارى بهذا الطريق[٦] يتوضأ.

---

(١) في الكامل: يخبره بذلك العين.
(٢) زيادة يتطلبها السياق ومعناها في الكامل.
(٣) في الكامل: ثم سار إلى محمد بن عبد اللّه في موضعه الذي هو به فإذا هو جالس في كهف ومعه جماعة من أصحابه، وذلك العين معهم أعلاهم صوتاً وأشدهم انبساطاً فلما رأى أبا هبار خافه، فقال أبو هبار لمحمد: لي حاجة. . .
(٤) في الكامل: قرار.
(٥) في الكامل: فرجعا، فلم يريا الرجل.
(٦) في المخطوط: الطرب، والتصويب من الكامل والفقرة فيه على النحو التالي: فقال محمد: أين الرجل؟ قالوا: تركوه مهملاً وتوارى بهذه الطريق يتوضأ.

قال: فجلنا وما حوله، وكأن الأرض التأمت عليه.

وكان يسعى على قدميه حتى شرع على الطريق، فمر به أعراب معهم حمولة[١] إلى المدينة.

فقال لبعضهم: فرغ هذه الغرارة فأدخلنيها أكن عدلاً لصاحبها[٢] ولك كذا وكذا.

قال: نعم، ففرغها وحمله إلى المدينة، ثم قدم على أبي جعفر، فأخبره الخبر كله، وعمي[٣] عن اسم أبي هبار وكنيته، وعلق وبراً.

فكتب أبو جعفر في طلب، وبر المري[٤]، فحمل إليه رجل يدعى وبراً، فسأله عن قصة محمد، وما حكى عن العين.

فخلف أنه ما يعرف من ذلك شيئاً، فأمر به فضرب سبعمائة سوط وحبس حتى مات[٥] [المنصور][٦].

ومن الحكايات الغريبة له في ذلك الوقت: أن المنصور كان عند قوم يتكهنون فيخبرونه بموضع محمد.

فكتب بعض أصحاب محمد ممن كان يتشيع ويصحب أبا جعفر:

لا تقيمن في موضعك إلاّ قدر فيما يسير إليك البريد من العراق.

وكان يقال لأبي جعفر: ترى محمداً ببلاد فيها الأبراج والأعناب، فيكون بالمدينة، وينتقل ثم يرونه بالبيضاء، وهو وراء الغابة على عشرين ميلاً، وهي لأشجع.

فكتب إليها، فيقال له: قد خرج.

ثم يقال له: إنه ببلاد الجبال والفلات فيطله.

فيقال: خرج.

ثم يقال له: إنه ببلاد الحب والقطران.

فيقول: هذه بلاد رضوى، فيطلبه، ولا يجده.

وكان الناس يقولون: عند أبي جعفر مرآة ينظر فيها، فيعلم الغيب منها، ويكثرون

---

(١) في المخطوط: حمول. والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: لصاحبتها.
(٣) في الكامل: ونسي، وهو معنى ما هنا. وقال: وبار.
(٤) في الكامل: وبار المري.
(٥) كم عانت أناس من مثل هذا الأمر وكم دفع أناس ثمن أفعال غيرهم للّه الأمر من قبل وبعد ونسأله سبحانه وتعالى أن يحفظنا ما بقينا وأن يرزقنا حسن الختام.
(٦) الزيادة من الكامل.

الأحاديث(١) ولأشكون في أن أبا جعفر يطلع الغيب، ويعملون لذلك خرافات مختلفة من أخبار الجن والمرآة التي ذكرتها.

ولما طلب محمد في شعاب رضوى من جبل جهينة(٢) بخيل ورجال، فزع محمد، وكان هناك، فأحصر ببيداء، فأفلت.

وكان له ابن صغير ولد في خوفه ذلك، وكان مع جارية به، فهوى من الجبل فتقطع، فقال محمد:

مُنْخَرِقُ السِّرْبَالِ يَشْكُو الوَجَى   تُنكِبُهُ فِي أَطْرَاقُ مروٍ حِدَادِ
شَرَّدَهُ الخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ   كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الجِلاَدِ
قَدْ كَانَ فِي المَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ   وَالمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ العِبَادِ

وقال محمد لما ظهر: بينا أنا بالحرة مصعداً ومنحدراً إذ أنا بخيل أبي جعفر ورجله وعليهم رياح بن عثمان يطلبني، فعدلت إلى بئر، فوقفت بين قرنيها أستقي، فلقني رياح صفعاً، فقال: قاتله اللّه أعرابياً ما أحسن ذراعه(٣).

وحكى بعض أصحاب محمد قال:

غدوت يوماً مع محمد وعليه قميص غليظ، ورداء حوفي مفتول، فخرجنا من موضع كان فيه، وذكر حتى إذا كان قريباً التفت فإذا رياح في جماعة أصحابه ركبان.

فقلت: إنا للّه وإنَّا إليه راجعون، هذا رياح.

فقال غير مكترث: امضه، فمضيت وما تقلني رجلاي وتنحى هو عن الطريق، فجلس، وجعل ظهره مما يلي الطريق، وسدل هدب ردائه على وجهه ـ وكان جسيماً ـ فلما حاذاه رياح قال لأصحابه: امرأة رأتنا فاستحيت، فأعرض ومضى.

ولما أعيا المنصور محمد وإبراهيم من بني حسن بن حسن، فأخذ رياح وكان

---

(١) كثيراً ما تكثر هذه الأحاديث أو الشائعات والحكايات عند حدوث بعض الأمور التي تشغل الرأي العام، وكثيراً ما يروج لها أصحاب الأهواء أو المصالح ويصدقها دائماً العامة ونسبة قليلة جداً من المثقفون، ثم إن ما ينسب هنا إلى أبي جعفر المنصور عارٍ من الصحة تماماً حيث إن هذه الأحداث كانت في القرن الثاني الهجري، وهو من خير القرون ثم أن أهل هذا الزمان كانوا حسني العقيدة بعيدين كل البعد عن مثل هذه الخرافات وإن كانوا مختلفين في الوجهات السياسية للدولة، فيجب الانتباه إلى ذلك وعدم تصديقه.

(٢) كان الطالب له هو رياح بن عثمان بن حيان المري، وقد جد في طلبه، فأخبر أنه في شعب من شعاب رضوى جبل بجهينة ـ وهو من عمل النبع ـ فأمر عامله في هذه الجهة بطلبه، فهرب منه محمداً راجلاً، فأفلت.

(٣) ذكر هذا ابن الأثير في خبر طويل احتال فيه المأمون بأن يقبض على محمد دون أن يسيء إلى أبناء عمومته وأهل بيته خصوصاً بمن هو عدو لهما، فولى رياح بن عثمان هذا على اليمن لهذا الهدف دون أن يكون أهلاً للولاية وفطن رياح لذلك أيضاً.

[٣٩/ب] وَالِي المدينة حسن بن حسن بن حسن بن حسن، وإبراهيم أخاه، وحسن بن جعفر بن حسن، وسليمان، وعبد اللّه بن داود بن حسن، وعباس بن حسن بن حسن، وكان صغيراً.

فقالت أمه عائشة بنت طلحة بن عمر بن عبيد اللّه بن معمر: دعوني اسمه، وكان أخذه من باب داره.

فقالوا: لا واللّه ما كنت حيّة، وجلس معهم موسى بن عبد اللّه، وعلي بن محمد بن عبد اللّه، وحملوا إلى أبي جعفر، وكان محمد أتى أمه هند، فقال: إني حَمَّلت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به، وقد هممت أن أضع يدي في أيديهم، فعسى أن يخلّي عنهم.

فتنكرت ولبست أطماراً، ثم جاءت السجن فعرفها بعضهم، فقام إليها، فأخبرته عن محمد.

فقالوا: كلا بل نصبر، فإنا نرجو أن يفتح اللّه له خيراً، قولي له يدع إلى أمره وليجد فيه، فإن فرجنا بيد اللّه، فانصرفت، وتم محمد على يقينه.

وكان محمد وإبراهيم يراسلان أباهما، ويستأذناه في الخروج[١]، فيقول: لا تعجلا، إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين، [فلا يمنعكما أن تموتا كريمين][٢].

ووردت على المنصور كتب عماله بخراسان: أن أهل خراسان قد تقاعسوا عنا وطال عليهم أمر محمد بن عبد اللّه.

فأمر[٣] أبو جعفر بمحمد بن عبد اللّه بن عمر بن عثمان فضربت عنقه، وبعث برأسه إلى خراسان، وحلف أنه رأس محمد بن عبد اللّه.

وكان المنصور قد ضربه بالسوط قبل ذلك، وعذبه، وكان عليه قميص وإزار وثوب رقيق تحت قميصه، فلما وقف قال: إيهاً يا ديوث. قال محمد: يا سبحان اللّه، واللّه لقد عرفتني بغير ذلك صغيراً وكبيراً.

قلت: فممن حملت ابنتك [رقية][٤] وكانت تحت إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن وقد أعطتني الأيمان بالطلاق والعتاق أن لا تغشني ولا تمالئ عليّ عدوي، ثم أنت

---

(١) في الكامل: وكان محمد وإبراهيم ابنا عبد اللّه يأتيان كهيئة الأعراب فيتساران مع أبيهما ويستأذنان بالخروج. ويقول لهما: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك.
(٢) زيادة من الكامل، ثم جاء بعدها في الكامل فلما وصلوا إلى الربذة أدخل محمد بن عبد اللّه العثماني على المنصور وعليه قميص وإزار رقيق، فلما وقف بين يديه قال: إيهاً...
(٣) في المخطوط: فأقام. وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.

تدخل على ابنتك متخضبة متعطرة، ثم تراها حاملاً يعجبك حملها، فأنت بين أن تكون[١]، حانثاً أو ديوثاً، وأيم اللّه، إني لأهم برجمها.

فقال محمد: أما أيماني فهي على إن كنت دخلت لك في أمر غش علمته، وأما ما رميت به بهذه الجارية، فإن اللّه أكرمها عن ذلك بولادة رسول اللّه ﷺ إياها ولكنني ظننت حين ظهر حملها أن زوجها ألم بها على حين غفلة منا.

فاحتفظ المنصور كلامه[٢]، وأمر بشق قميص كان عليه عن أزراره، فكشف عن عورته[٣]، ثم أمر به فضرب خمسمائة سوط[٤] فبلغت منه كل مبلغ، وأبو جعفر يغري[٥] عليه ولا يكنى فأصاب سوطاً منها وجهه، فقال: ويحك اكفف عن وجهي، فإن له حرمة برسول اللّه ﷺ[٦].

قال: فأغرى أبو جعفر بأن يقول للجلاد: الرأس الرأس.

فضرب على رأسه نحواً من ثلاثين، وكان السوط ينثني فيصيب وجهه، فأصاب بعضها إحدى[٧] عينيه فندرت[٨].

ثم أخرج في ساجور شد في عنقه وقيود في رجليه حتى ردّ إلى أصحابه[٩].

وكان أول ما حصل في قلب أبي جعفر منه أن رياحاً قال له يوماً: يا أمير المؤمنين، أما أهل خراسان فشيعتك وأنصارك، وأما أهل العراق فشيعة آل أبي طالب، وأما أهل الشام ما عَلِيٌّ عندهم إلا كافر، وما يقتدون بأحدٍ من ولده ولكن أخاهم محمد بن عبد اللّه بن عمرو، ولو دعا أهل الشام ما تخلف عنه أحد منهم.

فوقعت في نفس أبي جعفر إلى أن حج، فكان من أمره ما كان[١٠].

(١) في الكامل: وأنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب وأنت بين أن تكون.
(٢) أي أثار حفيظته، وفي الكامل: فاغتاظ المنصور من كلامه، وكلا المعنيين واحد.
(٣) في المخطوط: عورة، وهو تحريف.
(٤) في الكامل: فأمر بضربه خمسين ومائة سوط.
(٥) أي يحرض الضارب. وفي الكامل: يفتري.
(٦) كذا في المخطوط وهو موافق لما في الطبري على ما ذكر محقق الكامل، وما هنا موافق لما في الكامل.
(٧) في المخطوط: أحد، والتصويب من الكامل.
(٨) في الكامل: فسالت.
(٩) في الكامل: ثم أخرج وكأنه زنجي من الضرب وكان من أحسن الناس وكان يسمى الديباج لحسنه، فلما أخرج وثب إليه مولى له فقال ألا أطرح ركاني عليك.
قال: بلى جزيت خيراً، واللّه إنك لشقوق إزاري أشد علي من الضرب.
(١٠) فصل ابن الأثير هذه العبارة فأكمل الخبر فقال: فأمر المنصور به فأخذ معهم وكان حسن الرأي فيه قبل ذلك، ثم إن أبا عون كتب إلى المنصور أن أهل خراسان قد تغاشوا عني وطال عليهم أمر محمد بن عبد اللّه فأمر المنصور بمحمد بن عبد اللّه بن عمرو العثماني فقتل، وأرسل رأسه =

وكان محمد بن إبراهيم بن حسن بن حسن يقال له: الديباج، فلما دخل على أبي جعفر نظر إليه وقال: أنت الديباج؟

قال: نعم.

قال: واللّه لأقتلنك قتلة ما قُتِلَها أَحد من أهل بيتك.

ثم أمر بأسطوانة مبنية فعرقبت، وأمر حتى أدخل فيها، ثم بنى عليه وهو حيّ، وكان محمد هذا ممن يختلف إليه الناس ينتظرون إلى حسنه.

ثم إن أبا جعفر المنصور كان يسقي واحداً بعد واحدٍ فماتوا جميعاً إلاّ ثلاثة نفر.

فأما عبد اللّه [٤٠/أ] بن حسن، فاختلف فيه: فقال قوم: قتل.

وقال آخرون: بل دس إليه المنصور من أخبره أن محمداً ابنه قد ظهر، وقتل: فانصدع قلبه فمات[1].

= إلى خراسان، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد اللّه، وأمه فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ، فلما قتل قال أخوه عبد اللّه بن الحسن: إنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون إن كنا لنأمن منه في سلطانهم، ثم قد قتل بنا في سلطاننا.

ثم إن المنصور أخذهم وسار بهم من الربذة فمر بهم على بغلة شقراء فناداه عبد اللّه بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بأسرائكم يوم بدر، فأخسأه أبو جعفر وثقل عليه ومضى. فلما قدموا إلى الكوفة قال عبد اللّه لمن معه أما ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذه الطاغية؟ قال: فلقيه الحسن، وعلى ابني أخيه مشتملين على سيفين، فقالا له: قد جئناك يا ابن رسول اللّه فمرنا بالذي تريد، قال: قد قضيتما ما عليكما ولن تغنيا في هؤلاء شيئاً فانصرفا. ثم إن المنصور أودعهم بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصفر؟...

(١) هذا ما ذكر المؤلف وزاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة. فقال:
وفي هذه السنة: سير أبو جعفر الناس من الكوفة، والبصرة، والجزيرة، والموصل إلى غزو الديلم، واستعمل عليهم محمد بن أبي العباس السفاح.
وفيها: رجع المهدي من خراسان إلى العراق وبني بريطة ابنة عمه السفاح.
وفيها: حج المنصور واستعمل على عسكره والميرة خازم بن خزيمة...
وكان على مكة هذه السنة: السري بن عبد اللّه.
وعلى المدينة: رياح بن عثمان.
وعلى الكوفة: عيسى بن موسى.
وعلى البصرة: سفيان بن معاوية.
وعلى مصر: يزيد بن حاتم بن قتيبة بن المهلب بن أبي صفرة وهو الذي قال فيه يزيد بن ثابت يمدحه ويهجو يزيد بن أسيد السلمي:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى … يزيد سليم والأغر بن حاتم

في أبيات كثيرة. وكان ممدحاً جواداً.
وفيها: ثار هشام بن غدرة الفهري وهو من بني عمرو، ويوسف بن عبد الرحمن الفهري بطليطلة على الأمير عبد الرحمن الأموي فاتبعه من فيها، فسار عبد الرحمن فحاصره وشدد عليه =

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائة

وفيها: ظهر محمد بن عبد اللّه من المدينة[١] في مائتين وخمسين رجلاً وجاء حتى استبطن السوق وأتى السجن فدقه وأخرج من كان فيه.

وقيل[٢]: إن عبد اللّه بن عمر وابن أبي ذئب، وعبد الحميد بن جعفر، دخلوا على محمد قبل خروجه، وقالوا: ما تنتظر بالخروج، واللّه ما نجد في هذه الأمة أشأم عليها منك؟ ما يمنعك أن تخرج وحدك؟ فلما خرج أقبل إلى الدار فامتنعت عليه فجعل يقول لأصحابه: لا تقصدوا، وادخلوا باب المقصورة فأتوها، وحرقوا الباب، فلم يستطع أحد أن يجتاز.

فوضع رزام مولى القسري ترسه على النار، ثم تخطى عليه فصنع الناس ما صنع، فدخلوا. فأفلت[٣] قوم وأخذ قوم.

وتعلق رياح في مشرفة في دار مروان، وأمر بدرجها فهدمت، فصعدوا إليه فأنزلوه وحبسوه في دار مروان مع أخيه العباس بن عثمان. وكان محمد بن خالد القسري، وابن أخيه النذير بن يزيد، ورزام في الحبس، فأخرجهم محمد وأمر النذير بالاستيثاق

= الحصار فمال إلى الصلح وأعطاه ابنه أفلح رهينة فأخذه عبد الرحمن ورجع إلى قرطبة فرجع هشام وخلع عبد الرحمن فعاد إليه عبد الرحمن وحاصره، ونصب عليه المجانيق فلم يؤثر فيها لحصانتها، فقتل ابنه أفلح، ورمى برأسه في المجانيق ورحل إلى قرطبة ولم يظفر بهشام.

وفيها: مات عبد اللّه بن شبرمة.

وعمرو بن عبيد المعتزلي ـ وكان زاهداً ـ.

وبريد بن أبي مريم مولى سهل ابن الحنظلية. وعقيل بن خالد الأيلي صاحب الزهري وكان موته بمصر فجأة.

ومحمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي أبو الحسن المدني.

وهاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المدني.

(١) في الكامل: لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة. وقيل: رابع عشر شهر رمضان.

(٢) ثم ذكر ابن الأثير قبل تلك الرواية وأمور هي قوله: قد ذكرنا فيما تقدم من أخباره وتبعته، وحمل المنصور أهله إلى العراق فلما حملهم وسار بهم ردّ رياحاً إلى المدينة أميراً عليها فألحَّ في طلب محمد وضيق عليه، وطلبه حتى سقط ابنه فمات، وأرهقه الطلب يوماً فتدلى في بئر بالمدينة يناول أصحابه الماء فانغمس في الماء إلى حلقه، وكان بدنه لا يخفى لعظمه، وبلغ رياحاً خبر محمد، وأنه بحيث لم يره رياح رجع إلى دار مروان، وكان الذي أعلم رياحاً سليمان بن عبد اللّه بن أبي سبرة، فلما اشتد الطلب بمحمد خرج قبل وقته الذي واعد أخاه إبراهيم على الخروج فيه.

وقيل بل خرج محمد لميعاده مع أخيه، وإنما أخوه تأخر لجدري لحقه، وكان عبيد اللّه بن عمرو بن أبي ذئب، وعبد الحميد بن جعفر يقولون لمحمد بن عبد اللّه: ما تنتظر بالخروج؟ . . .

(٣) في المخطوط: فأقبلت، وهو تحريف.

من رياح وأصحابه.

فقال رزام للنذير: دعني وإياه، فقد رأيت عذابه لي.

قال: شأنك به، وقام ليخرج فتعلق بثوبه رياح وضرع إليه وقال له: يا قبس، قد كنت أفعل[1] بكم ما أفعل، وأنا بسؤددكم عالم.

فقال له النذير: فعلت ما كنت أهله ونفعل ما نحن أهله.

وخرج فتناوله رزام، فلم يزل رياح يطلب إليه حتى كفّ وقال: واللّه إن كنت لبطراً عند القدرة، ولئيم عند الغلبة.

ولما صعد محمد المنبر حمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، فإنه كان من أمر هذا[2] الطاغية عدو اللّه أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً للّه في ملكه وتصغيراً لكعبة اللّه تعالى الحرام[3]، وأنا أحق الناس في القيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحروا حلالك، أمنوا من أخفت، وأخافوا من أمنت، اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

أيها الناس، إني واللّه ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة وشدة، ولكن اخترتكم لنفسي، واللّه ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد اللّه فيه إلاّ وقد أخذ لي [فيه البيعة][4] ونزل. ثم استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب المخزومي.

وعلى ديوان العطاء عبد اللّه بن جعفر بن المسور بن مخرمة، [وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدراوردي][5]. وعلى الشرط أبا القلمس عثمان بن عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب[6].

وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر وكان قد بلغ عُمراً طويلاً، فدعاه إلى البيعة له، فقال: يا ابن أخي أنت واللّه مقتول، وكيف أبايعك؟ فارتدع الناس قليلاً.

---

(١) في المخطوط: أقل. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: هذه، وهو تحريف.
(٣) بعد هذا في الكامل.
وإنما أخذ اللّه فرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وأن أحق. . .
(٤) زيادة من الكامل، وجاء بعدها أيضاً: وكان المنصور يكتب إلى محمد على ألسن قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول: لو التقينا مال إلى القواد كلهم. واستولى محمد على المدينة، واستعمل عليها عثمان بن محمد. . .
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في الكامل: وقيل: كان على شرطته عبد الحميد بن جعفر فعزله.

وحكى عن محمد بن خالد القسري قال:

لما ظهر محمد وأنا محبوس أطلقني، ولما سمعت دعوته التي دعا إليها على المنبر، قلت: هذه دعوة حق، واللّه لأبلين فيها بلاءاً حسناً.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك قد خرجت بهذا البلد، وواللّه لو وقف على نقب من أنقابه [أحد][١] مات أهلها جوعاً وعطشاً، فانهض معي، وإنما هي عشرة حتى أضرب بمائة ألف سيف، فأبى، علي، فإني لعنده يوماً إذ قال: ما وجدنا من حرّ[٢] المتاع أجود من شيء وجدناه عند أبي فروة[٣] ختن أبي الخصيب، وكان انتهبه.

قال: فقلت في نفسي: ألا أراك قد أبصرت حَرّ[٢] المتاع، فكتبت إلى أمير المؤمنين، فأخبرته بقلة من معه، فعطف عليَّ فحبسني حتى أطلقني عيسى بن موسى بعد قتله إياه[٤].

وكان محمد أدم شديد الأدمة، أدلم جسيماً عظيماً. وكان يلقب القارئ من أدمته، حتى كان أبو جعفر يسميه مُحَمَّماً[٥].

وقال إبراهيم بن زياد بن عنبسة:

كان محمد عظيم الخلق، ما رأيته رقى المنبر قط إلاّ سمعت بقعقعة من تحته، وإني لبمكاني ذلك.

وتحدث جماعة حضروه: أن محمداً خطب يوماً فاعترض في حلقه بلغم، فتنحنح، فذهب، ثم عاد فتنحنح فذهب، ثم عاد فتنحنح، ونظر فلم ير موضعاً، [٤٠/ ب] فرمى بنخامته [في][٦] سقف المسجد فألصقها به.

ولما خرج محمد جزع أبو جعفر، وأشفق منه، فجعل الحارثي المنجم[٧] يقول له: يا

(١) سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(٢) في الكامل: خير.
(٣) في الكامل: ابن أبي فروة.
(٤) في الكامل: بعد قتله بأيام.
(٥) في الكامل في ذكر صفة محمد والإخبار بقتله بعد ذلك.
وكان سميناً شجاعاً كثير الصوم والصلاة شديد القوة.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) اتخاذ الملوك والحكام والرؤساء لهؤلاء الناس عادة قديمة مستمرة حتى أيامنا هذه فمعظم الملوك والرؤساء يعتقد في قولهم إلى حدٍ كبير، وقليل منهم الذي لا يتخذون هؤلاء العرافين أو المنجمين، ولا أظن أن المنصور كان ممن يعترفون بمثل هؤلاء الناس مهما كان من حسن سياسته أو سوئها، فإن عقيدته كانت سليمة ولا يمكن أن يخدشها بمثل هذه الأمور الظاهرة البطلان.

أمير المؤمنين، ما يجزعك منه، فواللّه لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يوماً[(١)].

ولما ظهر محمد، وإبراهيم ابنا عبد اللّه، أرسل أبو جعفر إلى عمه عبد اللّه بن علي وهو محبوس، وقال: إنه لذو رأي، فاستشاره، وقال له:

إن هذا الرجل قد خرج فإن كان عندك رأي فأشر بِهِ [علينا][(٢)].

فقال: إن المحبوس محبوس الرأي، فاخرجني يخرج رأيي.

فأرسل إليه أبو جعفر لو جاءني يضرب بأبي ما أخرجتك، وأنا خير لك منه، وهو ملك أهل بيتك.

فأرسل إليه عبد اللّه: ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم[(٣)] فإنهم شيعة [أهل][(٤)] هذا البيت وأنصارهم، ثم أحففها بالمسالح، فمن خرج منها أو أتاها فاضرب عنقه، ثم ابعث إلى سلمة بن قتيبة ينحدر إليك وكان بالري.

واكتب إلى أهل الشام ومرهم أن يوجهوا[(٥)] إليك أهل البأس والنجدة ما حمل البريد، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم، [ففعل][(٦)]. ثم قال: أرسل أبي جعفر [إلى عبداللّه][(٧)] إخوته [فقال لهم][(٢)]: ويحكم إن البخل قد قتله، فمروه فليخرج الأموال وليعط الأجناد، فإن[(٨)] غلب فما أوشك ما يعود إليه ماله، وإن غلب لم يقدم صاحبه على درهم.

وتحدث محمد بن يحيى قال: نسخت هذه الرسائل من محمد بن بشر وكان

---

(١) انظر هل يعرف مثل هذه الغيبيات أحد، وإن كانت السياسة قد تقدر مدة سيطرتها على الأمور أو استعادت سلطان الدولة على وجه التقريب لا التحديد في كثير من الأحيان.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في الكامل: أكنافهم.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في الكامل: يحملوا.

(٦) زيادة من الكامل، وجاء بعدها:

وقيل: أرسل المنصور إلى عبد اللّه مع إخوته يستشيرونه في أمر محمد وقال لهم: لا يعلم عبد اللّه أني أرسلتكم إليه.

فلما دخلوا عليه قال: لأمر ما جئتم، ما جاء بكم جميعاً وقد هجرتموني مذ دهر؟

قالوا: إنا استأذنا أمير المؤمنين، فأذن لنا.

قال: ليس هذا بشيء، فما الخبر؟

قالوا: خرج محمد بن عبد اللّه.

قال: فما ترون ابن سلامة صانعاً ـ يعني المنصور ـ، قالوا: لا ندري واللّه.

قال: إن البخل قد قتله.

(٧) زيادة يتطلبها السياق.

(٨) في المخطوط: فمن. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

يصححها وحدثنيها غير واحد من كتاب العراق وكانوا يصححونها، قالوا: وردت رسالة لمحمد على أبي جعفر، فقال أيوب الحوري كاتبه دعني أجيبه[١] عنها. فقال: لا إذا تقارعنا على الأحساب، فدعني وإياه، وكتب إليه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من عبد اللّه [بن][٢] عبد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

ولك على اللّه وعده وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك[٣]، أن أؤمنك وجميع ولدك [وإخوتك][٤] وأهل بيتك ومن اتبعكم، على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف ألف [درهم][٥]، وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمن كل من جاءك أو بايعك واتبعك أو دخل في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحد منهم بشيء كان منه أبداً، فإن أردت أن توقف لنفسك، فوجِّه إليَّ بمن أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق وثق به [والسلام][٦].

وكتب على العنوان:

من عبد اللّه بن عبد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه[٧].

فكتب:

إلى محمد بن عبد اللّه بن محمد:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ١ ـ ٨].

(١) في المخطوط: أخيه. وهو تحريف.
(٢) سقط من المخطوط في هذا الموضع ويتضح صواب ما أثبته من آخر الرسالة المذكورة.
(٣) قوله: إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك. هذه العبارة لم ترد في الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) لم ترد هذه الفقرة الخاصة بالعنوان في الكامل.

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا [الأمر][١] بنا وخرجتم له بشيعتنا وخطرتم[٢] بفضلنا[٣]، وأن أبانا عَلِيٍّ وكان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟

ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء، ولا الطلقاء، وليس يمُت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت [به][٤] من القرابة والسابقة والفضل فإنا بنو أُم[٥] رسول اللَّه ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم، إن اللَّه اختارنا [واختار لنا][٦]، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ، أفضلهم، ومن[٧] السلف أوّلهم إسلاماً عَلِيّ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى [إلى][٨] القبلة، ومن البنات فاطمة خيرهن[٩] سيدة نساء العالمين وأهل الجنة[١٠] وأن هاشماً [٤١/أ] ولد علياً مرتين، وأن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وأن رسول اللَّه ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، فإني أوسط بني هاشم [نسباً][١١] وأصرحهم أباً لم يعرف في العجم ولم يُنازع في أمهات الأولاد، فما زال اللَّه يختار لي الآباء والأمهات [في][١٢] الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار[١٣]، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وابن أهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن ختن الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار[١٤]، ولك اللَّه إن دخلت في طاعتي، وأحببت دعوتي، أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته، إلاّ حداً من حدود اللَّه، أو حقّاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك[١٥] من ذلك، وأنا أولى، بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: وحظيتم.
(٣) في الكامل: بفضله.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: أمر. والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) في الكامل: ومنهم.
(٨) سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(٩) في المخطوط: خيرهن فاطمة خيرهن، فحذفت التكرار.
(١٠) بعدها في الكامل: ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأن هاشماً. . .
(١١) زيادة من الكامل.
(١٢) سقطت من المخطوط، وأتممتها من الكامل.
(١٣) في الكامل: الأشرار.
(١٤) من أول قوله: وأنا ابن ختن الأخيار إلى موضع العلامة لم يرد في الكامل.
(١٥) في الكامل: ما يلزمني.

أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي، فأي الأمانات تعطيني؟! أأمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد اللّه بن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟!

فكتب إليه أبو جعفر:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:

فقد بلغني كلامك، قرأت كتابك، فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتصل به الجفاة، والغوغاء، ولم يجعل اللّه النساء كالعمومة والآباء، كالعصبة والأولياء، لأن اللّه جعل العم أباً، بدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختيار اللّه لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً وأول من يدخل الجنة غداً، ولكن اختار اللّه تعالى لخلفه على عمله الماضي فيهم[١]، واصطفائه لهم[٢].

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها فاللّه لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا ابنة[٣] ولا ابناً ولو أن أحداً من ولدها رزق الإسلام[٤] بالقرابة، رزقه عبد اللّه بن عبد المطلب [ولكان][٥] أولاهم[٦] بكل خير في الدنيا والآخرة.

ولكن الأمر إلى اللّه ليختار لدينه من يشاء[٧] وهو أعلم بالمهتدين[٨]، ولقد بعث اللّه محمداً ﷺ، وله عمومه [أربعة]، فأنزل اللّه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فدعاهم[٩]، وأنذرهم.

فأجاب اثنان أحدهما [أبي، وأبى اثنان أحدهما][١٠] أبوك، فقطع اللّه ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلاً ولا ذمة، ولا ميراثاً، وزعمت أنك [ابن][١١] خير أهل النار[١٢]،

(١) في الكامل: على علمه فيما مضى منهم.
(٢) في المخطوط: لهما، وهو تحريف.
(٣) في الكامل: لا بنتاً.
(٤) في الكامل: ولو أن رجلاً رزق الإسلام.
(٥) ما بين المعقوفين من الكامل.
(٦) في المخطوط: أولادهم. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٧) بعدها في الكامل: قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].
(٨) لم ترد هذه العبارة بالكامل.
(٩) في المخطوط: فدعاهم إلى. ولفظه إلى زائدة فحذفتها.
(١٠) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(١١) زيادة يتطلبها السياق.
(١٢) لم ترد هذه العبارة في الكامل، وتقدمت العبارة التي تلي التي بعدها على التي بعدها، ثم استمر السياق كما هنا.

وأنك ابن خير الأشرار وابن أخف أهل النار عذاباً، وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي، وأن هاشماً ولده مرتين(١)، ومن فاطمة أم حسن(٢)، وأن [عبد](٣) المطلب ولده مرتين، وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين، رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلاّ مرة ولا عبد المطلب إلاّ مرة.

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً(٤) وأصرحهم أباً، وأنه لم تلدك العجم، ولا تعرف فيك أمّهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم [طرّاً](٥) فانظر ويحك أين أنت من الله غداً(٦)؟ فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير منك نفساً(٧)، وأباً، وأولاً وآخراً(٨) إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعلى والده(٩)، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلاّ بنو أُمهات الأولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد، ولهو خير منك.

وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله عزّ وجلّ قال في كتابه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولكنكم بنو ابنته، وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة، وكيف تورث بها؟ ولقد طلبها [أبوك](١٠) بكل وجه، فأخرجها جهاراً(١١)، ومرضها سراً، ودفنها(١٢) ليلاً، فأبى الناس إلاّ الشيخين وتفضيلهما، ولقد [٤١/ب] جاءت السُّنَّة التي لا خلاف فيها بين المسلمين: أن الجَدّ أَبٌ لازم(١٣)، والخال

(١) من بعد الآية حتى موضع هذه الإشارة لم يرد في الكامل.
(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: وأما أمر الحسن.
(٣) في المخطوط: وأن طلب المطلب، والتصويب من الكامل.
(٤) لم ترد الكلمة في الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: عذاباً، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٧) في المخطوط: نفلنا. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٨) في الكامل: وأولاداً وأخاً.
(٩) لم يرد قوله: وعلى والده. في الكامل.
(١٠) سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.
(١١) في الكامل: فأخرج فاطمة نهاراً.
(١٢) في المخطوط: وادفنها. والتصويب من الكامل.
(١٣) في الكامل: أن الجد أبا الأم.

والخالة لا يرثون[١]، ولا يورثون.

وأما ما فخرت به من عَلِيّ وسابقته، فقد حضرت رسول اللّه ﷺ الوفاة، فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ولم يأخذوه وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يروا له حقاً، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان[٢] وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبي سعيد[٣] ببعثه، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه فقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهده[٤] وميثاقه فاجتمعا على خلعه.

ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولاته[٥] ولا حِلّه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه[٦] وأخذتم ثمنه [ثم خرج][٧] عمك حسين على ابن مرجانة، وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوه برأسه[٨]، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ثم قتلوا رجالكم، وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، وطلبنا ثأركم وأدركنا بدمائكم، فأورثناكم أرضهم وديارهم، [وسنّيْنا سلفكم، وفضلناه][٩] فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنّا إنما ذكرنا أباك وفضلناه[١٠] للتقدمة مِنّا له على: حمزة والعباس، وجعفر، وليس ذلك كما ظننت، ولكن خروج هؤلاء من الدنيا سالمين مُتَسَلِّماً منهم مجتمعاً عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحروب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له[١١]، وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم فيما نالوا منه.

ولقد علمت مكرمتنا في الجاهلية، سقاية الحجيج[١٢] الأعظم، وولاية بئر[١٣]

---

(١) زائدة عما في الكامل.
(٢) عبارة: وقتل عثمان سقطت من الكامل.
(٣) في المخطوط: وأبا سعيد، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: عهد اللّه.
(٥) في الكامل: ولاية.
(٦) في المخطوط: بعتوه، والتصويب من الكامل.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في الكامل: وأتوا برأسه إليه.
(٩) ما بين المعقوفين من الكامل.
(١٠) زائدة عما في الكامل.
(١١) لفظة: «له» لم ترد بالكامل.
(١٢) في الكامل: الحاج.
(١٣) لم ترد لفظة: «بئر».

زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته[١]، فتنازعا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها[٢] في الجاهلية والإسلام.

ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلاّ بأبينا[٣]، حتى نعشهم[٤] اللّه تعالى وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من [بني][٥] عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، وكان وارثه من عمومته.

ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلاّ ولده، فالسقاية سقايته، وميراث النبي صلى اللّه عليه [وسلم له،][٦] والخلافة في ولده.

فلم يبق شرف، ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلاّ والعباس وارثه ومورثه. وأما ما ذكرت من بدرٍ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون آل أبي طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التي أصابتهم، ولولا أن العباس أُخرج إلى بدر كارهاً لمات طالب وعقيل جوعاً، وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب اللّه عنهم العار والسُّبَّة وكفاهم المؤنة والنفقة، ثم فدى عقيلاً يوم بدر.

فكيف تفخر [علينا][٧] وقد علناكم في الكفر، وفديناكم في الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم، وأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركون بأنفسكم[٨]؟

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته[٩].

وندب أبو جعفر عيسى بن موسى لقتال محمد وقال: لا أبالي أيهما قتل صاحبه[١٠]. وضم إليه أربعة آلاف من الجند.

---

(١) في المخطوط: أخونيه. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: يزل يليها. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: بآياتنا. والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: يغيثهم.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في المخطوط: بأنفسكم، والتصويب من الكامل.
(٩) لفظ: «وبركاته». لم يرد في الكامل.
(١٠) قال ابن الأثير في الكامل في ذكر مسير عيسى بن موسى إلى محمد بن عبد اللّه وقتله: ثم إن المنصور أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد، فقال: شاور عمومتك يا أمير المؤمنين، ثم قال: فأين قول ابن هرثمة:

نَزورُ امرءاً لا يمخض القوم سِرُّهُ ... ولا يَنْتَجِي الأدنَيْنِ عَما يُحَاوِلُ
إِذَا مَا أَتَى شَيْئاً مَضَى كالَّذِي أَتَى ... وَإِنْ قَالَ إِنِّي فَاعِلٌ فَهُوَ فَاعِلُ

فقال المنصور: امض أيها الرجل، فواللّه ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو =

وكان أبو جعفر دعا جعفر بن حنظلة البهراني، وكان أبرص طوالاً، أعلم الناس بالحروب، وقد شهد مع مروان حروبه فقال له أبو جعفر: قد ظهر محمد فما عندك؟

قال: وأين ظهر؟

قال: بالمدينة.

قال: فاحمد اللّه، ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى لك تثق به حتى تنزل بوادي القرى فيمنعه ميرة الشام فيموت مكانه جوعاً ففعل فلما دنا عيسى بن موسى، حفر محمد خندق النبي ﷺ الذي كان حفره للأحزاب.

وركب إليه وعليه قباء أبيض ومنطقه، وركب معه الناس، فلما أتى الموضع نزل فبدأ هو فحفره فأخرج [٤٢/أ] لبنة من خندق رسول اللّه ﷺ، فكبّر وكبّر الناس معه، وقال: ابشروا بالنصر، هذا خندق جدي رسول اللّه ﷺ.

ويقال: إنه اجتمع مع محمد جمع لم ير أكثر منه حتى قال عثمان بن محمد الزهري: إني لأحسبنا كنا مائة ألف، فلما قرب عيسى [وقف][١] خطيباً فقال:

أيها الناس إن هذا الرجل قد قرب منكم في عدد وعدة قد حللتكم من بيعتي فمن أحب المقام فليقم ومن الانصراف فلينصرف فتسللوا حتى بقي في شرذمة ليست بالكثرة[٢].

وحكي أن محمداً دعا الغاضري فقال له: أنا أعطيك سلاحاً، فهل تقاتل معي قال: نعم إن أعطني رمحاً أطعنهم وهم بالأعوض.

قال الغاضري: ثم قال لي: ما تنتظر؟ قلت: ما هو أهون عليك، أبقاك اللّه أن أقتل ويمروا بي، فيقال: واللّه إن كان لنا . . . . . .[٣].

قال: ويحك قد بيض[٤] أهل الشام وأهل العراق وأهل خراسان.

قلت: اجعل الدنيا ربد وأنا في صون الدواة، ما ينفعني، هذا عيسى بن موسى بالأعوض.

وكان وجه أبو جعفر مع عيسى بن موسى بن الأصم ينزله المنازل فلما قدموا

= أشخص أنا، فسار وسير معه الجنود، وقال المنصور لما سار عيسى: لا أبالي أيهما قتل صاحبه.

(١) سقط من المخطوط والسياق يقتضيه.

(٢) في الكامل بعد هذا: فأمر أبا القلمس برد من قدر عليه فأعجزه كثير منهم فتركهم.

(٣) موضع النقط كلمة غير مقروءة هذا رسمها: (د ـا) وقبلها سهم يشير إلى الهامش مما يفيد أنها بعض كلمة كان تتمتها بالهامش غير أن الهامش لم يظهر به شيء فربما محي من عوامل الزمن أو لسوء تصوير الأصل.

(٤) كذا بالمخطوط وأظن أن صوابها: نبض، أي تحرك.

نزلوا على ميل من مسجد رسول اللَّه ﷺ.

فقال ابن الأصم: إن الخيل لا عمل لها مع الرجالة[١] إني أخاف إن كشفوكم أن يدخلوا عسكركم فرفعهم[٢] إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجرف وهي على أربعة أميال من المدينة وقال: لا يهرول الرجل أكثر من ميلين أو ثلاثة حتى تأخذه الخيل.

فتحدث محمد بن أبي الكرام بن عبد اللَّه بن علي بن عبد اللَّه [بن][٣] جعفر قال:

أرسلني عيسى لما قرب من المدينة بأمانِهِ إلى محمد [فقال][٣]: علام تقاتلون وتستحلون وإنما أنا رجل فَرَّ من أن يقتل.

قال: فقلت: إن القوم يدعونك إلى الأمان فإن أبيت إلاّ قتالهم قاتلوك على ما قاتل خير آبائك على طلحة والزبير على نكث بيعتهم وكيد ملكهم والسعي عليهم[٤].

فبلغ ذلك أبا جعفر فقال لي: يا عدو اللَّه[٥]، واللَّه ما سَرَّني أنك قلت له غير ذلك، وإن لي ملك كذا وكذا.

وبقي عيسى ثلاثة أيام يبرز ويدعو أهل المدينة إلى الأمان، ويقول: نحن إخوانكم المسلمون، فلا تهرقوا بيننا الدماء ادخلوا في الأمان[٦] واخرجوا من المدينة آمنون وخلوا بيننا وبين صاحبنا [فإما لنا وإما له][٧]. فشتموه الشتمة القبيحة حتى حارب اليوم الثالث فلقي أبو محمد بن عثمان أخا أسد بن المرزبان بسوق الحطابين، فاجتلدا سيفيهما حتى تقطعا، ثم تراجعا إلى مواقفهما.

وأخذ أخو أسد سيفاً، وأخذ أبو القلمس في ركابيه ثم ضرب بها صدره وصرعه ونزل فاحتز رأسه.

---

(١) في المخطوط: الرجال، والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: فتأخروا.
(٣) سقط من المخطوط، وذكر ابن الأثير قبله قصة إرسال الرسول دون ذكر اسمه فقال:
وأرسل عيسى خمسمائة رجل إلى بطحاء بن أزهر على ستة أميال من المدينة، فأقاموا بها، وقال: أخاف أن ينهزم محمد، فيأتي مكة فيرده هؤلاء فأقاموا بها حتى قتل، وأرسل عيسى إلى محمد يخبره أن المنصور قد أمَّنَه وأهله، فَأعاد الجواب: يا هذا إنك لك برسول اللَّه ﷺ قرابة قريبة، وإني أدعوك إلى كتاب اللَّه وسنة نبيه، والعمل بطاعته، وأحذرك نقمته وعذابه، وإني واللَّه ما أنا منصرف عن هذا الأمر حتى ألقى اللَّه عليه، وإياك أن يفتنك من يدعوك إلى اللَّه فتكون شر قتيل أو تقتله فيكون أعظم لوزرك.
فلما بلغته الرسالة قال عيسى: ليس بيننا وبينه إلاّ القتال. وقال محمد للرسول: علام تقتلونني . . .
(٤) قوله: «والسعي عليهم» لم ترد في الكامل.
(٥) في المخطوط: بعدد اللَّه، وهو تحريف.
(٦) في المخطوط: الأيمان، وهو تحريف.
(٧) زيادة من الكامل، والفقرة فيه بالمعنى الذي هنا.

وبرز رجل من أهل المدينة مولى لآل الزبير يدعى القاسم بن وائل فدعي للبراز، فبرز له رجل أكمل عدة منه، فلما رآه آيل وابل انصرف عنه.

قال: فوجد أصحاب محمد من ذلك وجداً شديداً، فإني لعلى ذلك إذ سمعت خفيف رجل ورائي، فالتفت، فإذا هو أبو القلمس يقول:

لعن اللّه أمن السفهاء إن ترك هذا اجترأ علينا، وإن خرج رجل خرج إلى أمر عسى أن لا يكون من شأنه.

ثم برز له فقتله، وكان الرجل هذا......[1] وضربه أبو القلمس على حبل عاتقه فقتله وقال: خذها وأنا ابن الفاروق.

فسمعت رجلاً من أصحاب عيسى [صاح][2] به: قتلت خيراً من ألف فاروق.

ثم قال عيسى لحميد بن قحطبة: تقدم، فتقدم في مائة كلهم راجلين غيره، معهم القسي والنشاب والترسة.

فلم يلبثوا أن زحفوا إلى جدار دون الخندق عليه أناس من أصحاب محمد فكشفوهم ووقفوا عند الجدار.

وأرسل حميد إلى عيسى أن يهدم الجدار. قال: فأرسل إلى فَعَلَةٍ فأرسلهم، فأرسلهم. قال: فهدموه، وانتهوا إلى الخندق، فأرسل إليه عيسى: أن اطرح حقائب الإبل في الخندق وأمر ببابي دار سعد بن مسعود التي في الثنية، فطُرحا على الخندق، فجازت الخيل فالتقوا عند منائح خشرم، واقتتلوا إلى العصر وانصرف محمد يومئذ قبل الظهر حتى جاء إلى دار مروان فاغتسل وتحنط، ثم خرج. فدنا منه عبد اللّه بن جعفر، فقال: بأبي أنت [وأمي][3] واللّه ما لك بما رأيت طاقة، وما معك أحد يصدق القتال، [٤٢/ب] فأخرج الساعة حتى تلحق بمكة، فإن بها الحسن بن معاوية ومعه جلة أصحابك.

فقال أيا أبا جعفر: واللّه لو خرجت لقتل أهل المدينة حتى لا يبقى بها صافر[4]، ولست أرجع حتى أقتل وأغلب، وأنت في حل مني وسَعَةٍ، فاذهب حيث شئت[5]. قال: فخرجت معه حتى جاء إلى دار ابن مسعود في سوق الظهر.

وركضت، فأخذت على الرمانتين، ومضى إلى الثنية، وقتل أصحابه بالنشاب،

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) أي أحد.
(٥) بعد هذا في الكامل: فمشى معه قليلاً ثم رجع عنه، وتفرق عنه جل أصحابه حتى بقي في ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً.

وجاءت العصر، فصلى.

قال: فرأيت محمداً راكباً وإلى جانبه ابن خضير يناشده اللّه أن لا يمضي إلى البصرة أو غيرها.

ومحمد يقول: واللّه لا يبتلون بي[١] مرتين، ولكن اذهب [أنت][٢] حيث شئت فأنت في حِل.

فقال ابن خضير: وأين المذهب عنك؟! ثم مضى فأحرق الديوان[٣]، وقتل رياحاً[٤]. ثم لحقه بالتثنية، وقاتل بين يديه حتى قتل وكان ابن خضير ذبح رياحاً ولم يجهز عليه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى مات أقبح ميتة.

ثم صلى محمد العصر، ونزل عن دابته، وكسر غمد سيفه، ولم يبق معه أحد إلاّ وكسروا أغماد سيوفهم، ثم أقبل على ابن خضير فقال: أحرقت الديوان؟

قال: نعم، خفت أن يؤخذ الناس عليه.

قال: أصبت، ثم حمل. قال أزهر: فحدثني أخواي قالا: هزمنا يومئذ أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثاً، ولكنا لم نعرف الهزيمة، ولقد سمعنا يزيد بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر يقول: قد هزمنا ويل أمه . . . . . .[٥] لو كان له رجال، فبينا هم كذلك إذ صعد رجل إلى ظهر سلع[٦] ومعه رمح قد نصب عليه رأس متصل بحلقومه وكبده، وأعماج بطنه[٧]، فرأيت منظراً هائلاً[٨]، وذعر منه الناس، والأعاريب، فجفلت[٩] هارباً حتى أسهلت[١٠]، وعلا[١١] الرجل الخيل ونادى أصحابه رطاتة[١٢] لهم بالفارسية: كوهبان.

فصعد إليه أصحابه حتى علوا سلعاً، فنصبوا راية سوداء، ثم انصبوا إلى المدينة،

فقال لبعض أصحابه: نحن اليوم بعدة أهل بدر.

(١) في المخطوط: في. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في الكامل: فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه.
(٤) في الكامل: وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباس بن عثمان، وقتل ابن مسلم بن عقبة المري، ومضى إلى محمد بن القسري وهو محبوس ليقتله، فعلم به، فردم الأبواب دونه، فلم يقدر عليه، فرجع إلى محمد فقاتل بين يديه حتى قتل.
(٥) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها.
(٦) جبل مشهور بالمدينة إلى جوار الخندق.
(٧) أي أحشائه أو أمعائه.
(٨) أي مرعباً أو فظيعاً تقشعر منه الأبدان.
(٩) أي خفت من بشاعته.
(١٠) أي صرت في السهل من الأرض.
(١١) في المخطوط: على. وهو تحريف.
(١٢) أي تكلم بلغة غير عربية.

فدخلوها. وأمرت أسماء بنت حسن بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن العباس بن عبد المطلب ـ وكانت تحت عبيد اللّه بن حسن بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن العباس ـ بخمار أسود فنصب على منارة مسجد رسول اللّه ﷺ، فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا؛ دخلت المدينة، وهربوا.

وبلغ الناس الذين ندّوا دخول الناس من ناحية سلع.

فقال الناس الذين مع محمد: لكل قوم جبل يعصمهم، ولنا جبل لا نؤتى إلاّ منه، وكان ابن خضير يحمل راجلاً ويخالط العدو وكانت الخراسانية إذا نظروا إلى ابن خضير يحمل راجلاً ينادي بينهم خضيراً مه خضيراً مه فيتضعضعون إلى أن خالط الناس مرة، فضرب على حجاج عينه، وخرّ فابتدره[١] القوم فحزوا رأسه[٢].

وأقبل محمد راجلاً، فجعل يقاتل على جثته فضربه رجل على أذنه اليمنى فبرك لركبته، وتعادوا عليه[٣]، وصاح حميد بن قحطبة: لا تقتلوه، فكفوا، وجاء حميد فاحتز رأسه.

وحكى الفضل بن سليمان النميري قال: كنا مع محمد قد أطفنا، وكان قد أطاف بنا أربعون ألفاً وأكثر، وكانوا حولنا كالحرة السوداء، فقلنا له: لو حملت لانفرجوا عنك.

قال: إن أمير المؤمنين لا يحمل، إنه لو حمل لم يكن بقية.

حتى أصاب ابن خضير ما أصابه محمد، والتقوا عليه فقتلوه.

قال أبو الحجاج الجمال: كنت يوماً قائماً على رأس أبي جعفر وهو يسائلني عن مخرج محمد إذ أتاه الخبر: أن عيسى هزم، وكان متكئاً فجلس، فضرب بقضيب معه مصلاه وقال: كَلاّ، فأين لعب [أصحابنا][٤] وصبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟! ما أتى كذلك[٥] بعد.

ولما قتل محمد هجم الناس على دور المدينة، فقتل خلق كثير إلى أن قتل أبو الشدائد، وجيء برأسه.

فاستعظم من كان عند عيسى ذلك واسترجعوا، ثم قالوا: ما بقي بالمدينة أحد بعد

---

(١) في المخطوط: فابتدروه. وهو تحريف.
(٢) في الكامل بعده: كأنه باذنجانه مفلقة من كثرة الجراح فيه.
(٣) في المخطوط: وتعاودا. وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: لذلك والتصويب من الكامل، وقبل هذا في الكامل.
وكان قتل محمد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان.

قتل هذا.

فأمر عيسى بألوية ففرقها على باب من أبواب العباسيين، وأهل الفقه من عرفهم، وقال: لينادي المنادي.

من دخل تحت لواء منها، أو دخل داراً من هذه الدور فهو آمن.

وقال: من جاء برأس ضربنا رأسه.

فتحدث قال: حدثتني أم سنين بنت عبد اللّه بن محمد بن علي بن الحسين قال: قلت لعمي جعفر بن محمد: إني فديتك ما أمر محمد هذا؟ قال: فتنة يقتل [٤٣/أ] محمد بن عبد الله عند بيت رومي.

ويقتل أخوه إبراهيم بالعراق، وحوافر فرسه في ماء.

وحمل رأس محمد إلى أبي جعفر، وهو بالكوفة، فأمر فطيف به في طبق أبيض[١] وتحدث الحسن بن زيد قال:

غدوت يوماً على أبي جعفر فإذا هو قد أمر بعمل دكانٍ[٢]، ثم أقام عليه جلاداً، وأتى بعلي بن أبي المطلب بن عبد اللّه بن حنطب، فضرب خمسمائة سوط. ثم أتى بعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد اللّه بن مطيع، فأمر به فضرب خمسمائة سوط، فما تحرك واحد منهما.

فأقبل عَلَيَّ وقال لي: هل رأيت أصبر من هذين قط؟! واللّه إنَّا لنؤتى بالذين قاسوا غلظ المعيشة وكدرتها فما يصبرون هذا الصبر وهؤلاء أهل الخفض والكر والنعمة!! قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، هؤلاء قومك وأهل الشرف والقدر.

فأعرض عني وقال: أبيت إلاّ العصبية.

فلما كان بعد أيام عاد عبد العزيز بن إبراهيم ليضربه.

فقال[٣]: يا أمير المؤمنين، اللّه اللّه فينا إني لمكب على وجهي منذ أربعين يوماً ما صليت للّه صلاة قال: فالعفو إذاً، ثم خلى سبيله.

---

(١) في الكامل: فأرسل عيسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأرسل معه رؤوس بني شجاع، فأمر المنصور فَطَيِّف برأس محمد في الكوفة وسيره إلى الآفاق ولما رأى المنصور رؤوس بني شجاع، قال: هكذا فليكن الناس طلبت محمداً فاشتمل عليه هؤلاء.

(٢) أي مكان مرتفع قدر الكرسي يصنع عادة من الطين ليظهر عليه الجالس أو القائم عن أقرانه.

(٣) تكرر هذا اللفظ في المخطوط.

ذكر وثوب السودان بالمدينة والسبب الذي هيج ذلك

كان رياح بن عثمان استعمل أبا بكر بن أبي سبرة على صدقة قوم فلما خرج محمد صار إليه أبو بكر بما كان جنى وشمر معه.

فلما قدم عيسى وهزم محمداً استخلف كثير بن خضير على المدينة[١]، فأخذ كثير أبا بكر بن أبي سبرة فضربه سبعين سوطاً وقيده وحبسه. ثم قدم عبد اللّه بن الربيع والياً من قِبل أبي جعفر المنصور[٢].

وكان الجند ينازعون التجار، ويتعدون عليهم فاجتمعوا إلى أميرهم ابن الربيع، فشكوا ذلك إليه فنهاهم وشتمهم فطمع فيهم الجند إلى أن صاروا يأخذون من بين أيديهم الشيء فلا يعطونهم الثمن، ولا ينكر عبد اللّه ذلك[٣] فجاء يوماً رجل من الجند فاشترى من جزارٍ لحماً يوم جمعة، ثم أبى أن يعطيه الثمن وشهر عليه السيف فخرج عليه الجزار من تحت الوضم بشفرة فطعن بها خاصرته، فخر عن دابته، واعتوره الجزارون، فقتلوه، وتنادى السودان على الجند وهم يروحون إلى الجمعة فقتلوهم بالعُمْدِ[٤] في كل ناحية ولم يزالوا على ذلك حتى أمسوا.

فلما كان من الغد هرب ابن الربيع، ونفخ السودان في بوق لهم، فذكر أن أهل المدينة أنه كان الأسود يكون في بعض عمله، يسمع نفخ البوق فيصغي له حتى ينتقمه يوخس، بما في يده ويَؤم نحو الصوت حتى يأتيه.

فلما اجتمعوا غدوا على ابن الربيع، فخرج إليهم والناس في الجمعة فاعجلوه عن الصلاة واستطردوا له حتى أتى السوق فمر بخمسة من المساكين يسألون في الطريق فحمل عليهم بمن معه حتى قتلوهم.

ثم مَرَّ بأصبية على سطح، فاستنزلهم وأمَّنهم فلما نزلوا ضرب أعناقهم.

ثم وقف عند الحناطين وحمل عليه السودان فأجلى هارباً واتّبعوه حتى صاروا إلى البقيع ورهقوه فنثر لهم دراهم فشغلوا بها، ومضى على وجهه حتى نزل ببطن نخل على

---

(١) في الكامل: ولما قتل محمد قام عيسى بالمدينة أياماً ثم سار عنها صبح تسع عشرة خلت من رمضان يريد مكة معتمراً، واستخلف على المدينة كثير بن خضير فأقام بها شهراً، ثم استعمل المنصور عليها عبد اللّه بن الربيع الحارثي.

(٢) في الكامل: وقدمها لخمس بقين من شوال.

(٣) في الكامل: فتزايد طمع الجند فيهم فعدوا على رجل صيرفي فنازعوه كيسه، فاستعان بالناس فخلص ماله منهم، وشكا أهل المدينة ذلك منهم، فلم ينكره ابن الربيع.

(٤) في الكامل: ونفخوا في بوق لهم فسمعه السودان من العالية والسافلة، فأقبلوا واجتمعوا، وكان رؤساؤهم ثلاثة نفر: وثيق، ويعقل، وزمعة، ولم يزالوا على ذلك من قتل الجند حتى أمسوا.

ليلتين من المدينة ورُوما[١] السودان وثبوا على طعام وأمتعة لأبي جعفر المنصور، فانتهبوه، وأغاروا على دار مروان وفيها طعام وأشياء للجند فانتهبوه، وباعوا الحمل من الدقيق بدرهمين وراويت الزيت بأربعة دراهم، وقتلوا الجند فهابوهم حتى إن كان الفارس ليلقى الأسود، وما على الأسود إلاّ خرقتان على عورته، فيولي الفارس دبره احتقاراً له، ثم ما يلبث أن يعود عليه بعمود من عمد السوق التي تقرب منه فيقتله به. فكانوا يقولون: ما هؤلاء إلاّ شياطين، يعنون السودان.

ثم مضى السودان حتى أخرجوا أبا بكر بن أبي سبرة[٢] فخطب الناس ودعاهم إلى الطاعة، وصلى بالناس.

ثم أرسل إلى محمد بن عمران، ومحمد بن عبد العزيز، فاجتمعوا عنده فقال: أنشدكم اللَّه وهذه البليَّة التي وقعت، فواللَّه لئن ثَبُتَتْ علينا عند أمير المؤمنين بعد الفعلة الأولى أنه لاصطلام[٣] البلد وأهله وهؤلاء العبيد بأجمعهم في السوق فأنشدكم اللَّه إلا ذهبتم [٤٣/ب] إليهم فكلمتموهم في الرجعة والفيئة لطاعتكم فإنهم لا نظام لهم، ولم يقوموا بدعوة وإنما هم قوم أخرجتهم الحمية.

فذهبوا إلى العبيد فكلموهم.

فقالوا: مرحباً بكم يا موالينا، واللَّه ما قمنا إلاّ آنفاً لكم مما عمل بكم، فأيدينا في أيديكم، وأمرنا إليكم.

فأقبلوا بهم إلى المسجد، فقالوا: أيها الناس إنه قد وقع الأمر بكم بما ترون، ونعلم أنهم لا يبقون علينا، فدعونا نشفيكم وأنفسنا. فأَبَيْنَا، ولم يزل بهم حتى تفرقوا.

وقيل: لو. . . . . .[٤] بعقل الجزار إلى من تعمدنا. . . . . .[٤] قال: إلى أربعة من بني هاشم وأربعة من قريش، وأربعة من الأنصار، وأربعة من الموالي، ثم الأمر شورى.

فقال ابن عمران: أسأل الذي ولى أمرنا أن يُرَفِّقنا[٥] عليك، ويعطف بقلبك علينا.

قال: فقد ولانيه اللَّه، فلما حضرت العشاء الآخرة، وقد ثاب الناس واجتمع القرشيون في المقصورة وأقام الصلاة المؤذن، قال المؤذن للقرشيين في المقصورة: من يصلي منكم بالناس؟ فلم يجبه أحد.

---

(١) كذا جاء رسم هذه الكلمة بالمخطوط بالتشكيل. ولا أعرف معناها، وربما كانت محرفة أو سقط من حروفها شيء.
(٢) في الكامل: فلما كان من السودان ما كان خرج في حديده من الحبس، فأتى المسجد. . .
(٣) في الكامل: لهلاك. والمعنى واحد.
(٤) موضع النقط كلمات لم أتبين قراءتها في المخطوط.
(٥) في المخطوط: يرزقنا. وهو تحريف.

فقال: ألا تسمعون؟

فلم يجيبوه، فقال: يا عمران، ويا فلان، فلم يجبه أحد.

فقام الأصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، فقال: أنا الذي أُصلي بالناس على طاعة أبي جعفر، فردد ذلك مرتين أو ثلاثاً، ثم لين فصلى بهم[١].

ثم أجمع القرشيون فركبوا إلى ابن الربيع وهو بنخل فناشدوه اللّه أن لا يرجع إلى عمله، فيأبى، فخلا به عبد العزيز ولم يزل به حتى سكر ورجع فهدأ الناس.

وفي هذه السنة: أسست مدينة السلام وهي التي تدعى مدينة المنصور.

ذكر السبب في بناء أبي جعفر بغداد

لما ثارت الراوندية بأبي جعفر في مدينته[٢] التي تسمى الهاشمية التي بناها إلى جنب الكوفة، والمدينة التي سماها الرصافة كره سكناها ولم يأنس[٣] أهلها، فأراد أن يبعد[٤]، فتردد بين الموصل وجرجرايا[٥]، واختار موضع بغداد.

وقال: هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين، يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة، وأرمينية، وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة. وخط المدينة، ووكل [بكل][٦] ربع قائد.

وكان الناس أشاروا عليه بموضع قريب من بادوريا[٧]، وذكروا له عنه عزاً وطيباً.

فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرآه موضعاً طيباً، فدعا الجماعة من أصحابه، وقال لهم: ما آراءكم في هذا الموضع؟

فقالوا: ما رأينا مثله، وهو طيب صالح.

فقال: صدقتم، هو كذا ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات.

وإنما أريد موضعاً يرتفق به الناس، ويوافقهم مع موافقته لي ولا تغلو عليهم

---

(١) بعد هذا في الكامل على غير هذه النهاية إذ قال: فلما كان من الغد قال لهم ابن أبي سبرة: إنكم قد كان منكم بالأمس ما قد علمتم، ونهبتم طعام أمير المؤمنين، فلا يبقين عند أحد منه شيء إلا رده، فردوه، ورجع ابن الربيع من بطن نخل فقطع يد وثيق، ويعقل، وغيرهما.

(٢) في المخطوط: مدينة. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: ياس. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: يعبد. وهو تحريف.

(٥) بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

(٦) زيادة من يتطلبها السياق.

(٧) في المخطوط: بارا. والتصويب من الكامل، وقال محققه: بادوريا: طوسج من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد.

الأسعار فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه في البر والبحر غلت الأسعار، وقلة المائدة، فاشتدت المؤنة، وشق ذلك على الناس.

ثم عاد إلى موضع بغداد، وأحضر جماعة من سكان القرى التي حواليها، وصاحب بغداد فيهم[١]، فيسألهم عن مواضعهم، وكيف هي في الحر والبرد، والأمطار والوحل، والبق والهوام، فأخبره كل واحد بما عنده.

فوجه من قِبَلِهِ رجالاً حصفاً، فبات كل رجل منهم، ثم تَخَبَّرَ أخبارهم واختيارهم. فاجتمعوا على صاحب بغداد.

فيحكى أن الراهب الذي كان قريباً من بغداد، قال لأبي جعفر: إن الذي بين هنا مدينة اسمه: مقلاص.

قال أبو جعفر: فأنا واللّه كنت أدعي في حداثتي مقلاصاً، ثم انقطعت عني.

ووجه المنصور في شكر الصُّنَّاع والفَعَلَة من الشام، والموصل، وأهل الجبل ومن الكوفة، والبصرة، وسائر المدن.

وأمر باختيار قوم من أهل الأمانة والديانة والفقه والمعرفة[٢].

فكان ممن أحضر الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأمر بخط المدينة، وحضر الأساسات، وضرب اللبن وطبخ الأجر، فبدأ بذلك سنة خمس وأربعين ومائة.

ثم خطَّت له بالرماد، فدار عليها، وعلى سورها وسككها، وخنادقها، فلما فعل ذلك مراراً أمر أن يجعل على تلك الخطوط من الرماد، وحب القطن، ويصب عليه النفط.

فنظر إليها والنار تشتعل فيها ففهمها وعرفها وعرف رسمها، وأمر بحفر أساسها وبنائها، وإحكام الأساس.

وأمر أن يجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعاً، وجعل في البناء حوار قصب مكان الخشب في كل [٤٤/أ] طوفة.

فلما بلغ الحائط مقدار قامة أتاه خروج محمد فقطع البناء[٣].

---

(١) في الكامل، وسار حتى نزل الدير الذي حذاء قصره المعروف بالخلد، ودعا بصاحب الدير، وبالطريق صاحب رحا البطريق، وصاحب بغداد، وصاحب المخرم، وصاحب بستان النفس، وصاحب العتيقة فسألهم عن مواضعهم. . .

(٢) في الكامل:
وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل، والعدالة، والفقه، وأمر باختيار قوم من ذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة، وحفر الأساس وضرب اللبن وطبخ الآجر. . .

(٣) في الكامل:
ثم أقام بالكوفة حتى فرغ من حرب محمد، وأخيه إبراهيم، ثم رجع إلى بغداد فأتمَّ بناءها، وأقطع فيها القطائع لأصحابه.

وكان المنصور قد أرضى أصحاب القرى والمزارع وأمّا مدينته وهي بغداد وكانت لستين رجلاً، فأعطاهم العوض عنها، وأرضاهم.

وأما ما كان من حواليهم، فكانت قرى متصلة، فأقطعها قواده، واشتروها، ثم اشترى الناس.

وقال المنصور: يكتب إلى مصر بقطع المادة عن الحرمين ما دام بها محمد قائماً هم في مثل خرجه إذا انقطعت عنهم.

وأمر بالكتاب إلى الجزيرة وغيرها أن يمده في كل يوم بمقدار عيله[١] من الرجال.

وكذلك كتب إلى أمير الشام وقال: لو ورد عَلَيَّ في كل [يوم][٢] رجلٍ واحدٍ من كل واحدٍ منكم كثر به من معي، وإن بلغ الخبر الكذاب كثرة ذلك.

وفي هذه السنة: خرج إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن حسن، أخو محمد بالبصرة، فحارب المنصور.

ذكر الخبر عن خروجه وسبَّبَ ذلك مقتله[٣]

لما قبض أبو جعفر على عبد اللّه بن حسن أشفق محمد، وإبراهيم، فافترقا وتواريا، وتقلب إبراهيم في البلدان[٤]، فحكى إبراهيم لبعض أصحابه قال: اشتد الطلب لي وأنا بالموصل فاضطرني الزمان حتى دخلت وجلست على موائد أبي جعفر، وذاك أنه كان قدمها وطلبني فتحيرت ولفظتني الأرض، وجعلت لا أجد مساغاً، ودعا الناس إلى عدائه، ودخلت فيمن دخل والطرق مشحونة بمن يطلبني، فجلست، فأكلت، ثم خرجت وقد كف الطلب.

وتحدث عبد اللّه بن محمد البواب قال: أمر أبو جعفر ببناء قنطرة العتيقة[٥]، ثم خرج ينظر إليها، فوقعت عينه على إبراهيم وخنس[٦] إبراهيم فذهب في الناس، فأتى

---

(١) المراد بمقدار من يعولهم من الجند، أو بمقدر مؤنتهم وهو ما يسمى في أيامنا هذه بالإمداد والتموين أو التعيين اليومي أو يومية اليعيين أي الأكل اليومي للأفراد أو الجنود.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط، وسبب ذلك عن مقتله ولفظة: «عن» أراها زائدة فحذفتها.

(٤) في الكامل: حكت جارية له: أنه لم تقرَّهم أرض خمس سنين، مرة بفارس، ومرة بكرمان، ومرة بالجبل، ومرة بالحجاز، ومرة باليمن، ومرة بالشام، ثم إنه قدم الموصل وقدمها المنصور في طلبه، فحكى إبراهيم قال: اضطرني الطلب بالموصل حتى جلست على مائدة المنصور. . .

(٥) في الكامل: قنطرة الصراة العتيقة.

(٦) في الكامل: «فجلس» أي خفض رأسه وانصرف في الزحام والمعنى واحد.

قامسياً[١]، فلجأ[٢] إليه. فأصعده غرفة له.

وجَدَّ أبو جعفر في طلبه، ووضع المراصد فثبت إبراهيم في مكانه، وطلبه أبو جعفر أشد ما يكون الطلب.

وكان مع إبراهيم رجل من بني القمي[٣]، فتحدث القمي[٣] هذا، وقال:

قلت لإبراهيم: قد نزل ما ترى ولا بد من التعزير والدخول تحت المخاطرة، فأنت وذلك. قال: فأقبلت إلى الربيع فسألته الأذن [على المنصور][٤]. قال: ومن أنت؟

قال سفيان القمي[٣]، فأدخله على أبي جعفر، وكان أبو جعفر يعرفه بصحبة إبراهيم، فلما رآه شتمه.

فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهل لما تقول، [غير أني][٥] أتيتك نازعاً تائباً.

قال: ولك عندي كل ما تحب إن تعطني ما أسألك.

قال: فما لي عندك إن فعلت؟

قال: كل ما تشاء، فأين إبراهيم؟

قال: دخلت بغداد وهو داخلها عن قريب فإني تركته يعد شيء، فاكتب لي جوازاً ولغلام واحملني على البريد.

فكتب له جوازاً وضم إليه جنداً، وقال: هذا ألف دينار فاستعن به.

قال: لا حاجة لي فيه كله، فأخذ ثلاثمائة دينار، وأقبل حتى [أتى][٦] إبراهيم وهو في غرفة وعليه مدرعة صوف زيّ العبيد فصاح به: يا فلان، فوثب كالمفزع، وجعل يأمره وينهاه[٧] حتى قدم المدائن فمنعه صاحب القنطرة، فدفع إليه جوازه.

قال: فأين غلامك؟

قال: هذا.

فلما نظر إلى وجهه قال: واللّه ما هذا بغلام وإنه لإبراهيم، ولكن اذهب راشداً، فأطلقهما. فهربا وركبا سفينة حتى قدما البصرة، فجعل يأتي [بالجند][٨]. الدار لها بابان،

---

(١) كذا في المخطوط، والكامل.
(٢) في المخطوط: فالجأ، وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: العمى. والتصويب من الكامل، وقال: فقال له صاحبه سفيان بن حيان القمي.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) زيادة يتطلبها السياق.
(٧) بعدها في الكامل: وسار على البريد. وقيل: لم يركب البريد، وسار حتى قدم المدائن فمنعه...
(٨) زيادة من الكامل.

فيقعد العشرة منهم على أحد البابين ويقول: لا تبرحوا حتى آتيكم ثم يدخل الدار فيخرج من الباب الآخر، ويتركهم حتى فرق الجند عن نفسه وبقي وحده، واختفى.

حتى بلغ سفيان بن معاوية وهو على البصرة خبر الجند، فأرسل إليهم فجمعهم وطلب القمي(١)، فأعجزه.

وحكى الحسن بن خبيب الدئلي قال:

كان إبراهيم مختفياً عندي على شاطئ دجيل في ناحية مدينة الأهواز، وكان محمد بن الحصين يطلبه.

فقال يوماً: إن أمير المؤمنين كتب إليَّ يخبرني أن المنجمين يخبرونه أن إبراهيم نازل في جزيرة بين نهرين، وقد عزمت أن أطلبه غداً في المدينة.

فقلت: لعل أمير المؤمنين يعني بين دجيل والمسرقان.

قال: قال: فأتيت إبراهيم فقلت: أنت غداً مطلوب في هذه الناحية.

قال: فأقمت معه يومي، فلما غشني الليل خرجت به حتى أنزلته في دست أربل دون الكث، ورجعت من ليلتي، فأقمت أنتظر محمداً أن يغدو في طلبه، فلم يفعل، فتصرم النهار كله وطلعت الشمس، فخرجت وجئت إبراهيم، فأقبلت به، فوافينا المدينة مع العشاء [٤٤/ب] الآخرة، ونحن على حمارين.

فلما دخلنا المدينة وصرنا عند الجبل المقطوع لقينا أوائل خيل ابن حصين، فرمى إبراهيم بنفسه عن حماره، وتباعد وجلس يبول(٢) وطوتني الخيل فلم تُعَرِّج عَلَيَّ أحد منهم، حتى ضرب لي ابن حصين، فقال لي: يا محمد من أين في هذا الوقت؟

قلت: فإني مستبيت عند بعض أهلي.

قال: ألا أرسل معك من يبلغك؟

قلت: لا بل قد قربت من أهلي.

فمضى يطلب وتوجهت على سُنَّتي حتى انقطع آخر أصحابه، ثم كررت راجعاً إلى إبراهيم، والتمست حماره حتى وجدته، فركب وانطلقنا فبتنا في أهلنا(٣).

فقال إبراهيم: تعلم والله لقد بليت البارحة دماً، فأرسل من ينظر.

---

(١) في المخطوط: العمى، والتصويب من الكامل.

(٢) في الكامل بعدها:
فسأل ابن الحصين الحسن بن خبيب عن مجيئه، فقال: من عند بعض أهلي فمضى وتركه.

(٣) في الكامل: ورجع الحسن إلى إبراهيم فأركبه وأدخله إلى منزله.
فقال له إبراهيم: والله لقد بلت دَماً. . .

فأتيت الموضع فوجدته قد بال دماً[١]

وقال أبو جعفر: ما زال يظهر أمر إبراهيم لي حتى اشتملت عليه طفوق البصرة، وحصل إبراهيم بالبصرة، فدعا واستجاب له خلق، واستتر في راسِبْ.

وكان سفيان بن معاوية عامل المنصور يومئذ على البصرة قد مالأ إبراهيم بن عبد الله على أمره، فلا ينصح لصاحبه.

فتحدث جماعة من أشياخ البصرة: أنهم شدّوا دقيق بن أسد مولى يزيد بن حاتم إلى سفيان بن معاوية قبل خروج إبراهيم بليلة.

فقال: ادفع إليَّ فوارس آتك بإبراهيم وبرأسه.

قال: أو ما لك عمل اذهب إلى عملك. فخرج دقيق من ليلته، فلحق بيزيد بن حاتم بمصر.

وقال عدّة من الأزد:

أن جابر بن حماد كان على شرطة سفيان فأتاه قبل خروج سفيان بيوم وقال: إني مررت في مقبرة بني يشكر فصاحوا بي، ورموني بالحجارة.

فقال له: أما كان لك طريق آخر.

فمر سفيان بعد قتل إبراهيم وانقضاء تلك الأيام بأبي جعفر المنصور في سفينة له، وأبو جعفر مشرف من قصره فقال: إن هذا سفيان؟

قالوا: نعم.

قال: والله للعجب كيف يقتلني هذا ابن الفاعلة وكان المنصور أنفذ قائدين كبيرين مع أصحابهما إلى سفيان مدداً له، فلما قدما عليه صيرهما بالقرب منه، فلما واعده إبراهيم الخروج أرسل إليهما، فاحتبسهما عنده تلك الليلة حتى خرج فأحاط به وبهما، فأخذهم وقيد سفيان وحبسه في القصر[٢]، يرى أبا جعفر أنه برئ من التهم.

(١) بعد هذا في الكامل: ثم إن إبراهيم قد قدم البصرة، فقيل: قدمها سنة خمس وأربعين بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة، وقيل: قدمها سنة ثلاث وأربعين ومائة.
وكان الذي أقدمه، وتولى قراءه في قول بعضهم يحيى بن زياد بن حيان النبطي، وأنزله في داره في بني ليث.
وقيل: نزل في دار أبي فروة، ودعا الناس إلى بيعة أخيه، وكان أول من بايعه: نميلة بن مرة العبشمي، وعفو الله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سلمة الهجيمي، وعبد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي.

(٢) بعد هذا في الكامل:
وقيده بقيد خفيف ليعلم المنصور أنه محبوس، وبلغ جعفراً، ومحمداً ابني سليمان بن علي ظهور إبراهيم، فأتى في ستمائة رجل، فأرسل إليهما إبراهيم المضاء بن القاسم الجزري في خمسين رجلاً، فهزمهما ونادى منادي إبراهيم: لا يتبع مهزوم، ولا يذفف. . .

وكان أبو جعفر المنصور يبعث إلى سفيان كل يوم قوماً إلى البصرة، فجعلوا يتزيدون ويترددون ويردون.

فأشفق إبراهيم أن يكثروا بها فظهر، وبلغ جعفراً، ومحمداً بن سليمان بن علي، وكانا يومئذ بالبصرة، مصير إبراهيم إلى دار الإمارة. . . . . .[١] سفيان فأقبلا فيما قال غير واحد في ستمائة من الرجالة والفرسان يريدانه، فوجَّه إليهما المضاء بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً فهزمهم المضاء.

ولحق محمداً رجل من أصحاب المضاء فطعنه في فخذه.

ونادى منادي إبراهيم: لا تتبعوا مدبراً[٢]. وأصاب إبراهيم في بيت المال ألفي ألف درهم، فقوي بذلك، وفرض لكل رجل خمسين ووجه إبراهيم، ابن المغيرة[٣] إلى الأهواز في نحو مائتي رجل وعامل الأهواز يومئذ من قِبل أبي جعفر، محمد بن الحصين فلما بلغه دنق فلما بلغه المغيرة خرج إليه في أربعة آلاف، فالتقوا على ميل من قصبة الأهواز بموضع يقال له: دست أربك، فانكشف ابن حصين وأصحابه، ودخل المغيرة الأهواز[٤].

ويقال: إن أصحاب ابن حصين قد كانوا واطأوا إبراهيم.

ووجه إبراهيم إلى فارس عمرو بن شداد عاملاً عليها، فلما قرب من فارس، بلغ إسماعيل بن علي، وكان عاملاً عليها من قبل أبي جعفر، ومعه أخوه عبد الصمد بن علي.

[فخرجا][٥] لقتال عمرو بن شداد [فهزمهما][٥] فبادرا إلى دار الجرد فتحصنا بها، وكانا بأصطخر.

وصارت فارس، والأهواز، والبصرة في سلطان إبراهيم[٦].

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها.
(٢) بعدها في الكامل: ومضى إبراهيم بنفسه إلى باب زينب بنت سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وإليها ينسب الزينبيون من العباسيين فنودي بالأمان، وأن لا يعرض لهم أحد، فصفت له البصرة، ووجد في بيت مالها. . .
(٣) في المخطوط: ابن المغيرة، وفي الكامل المغيرة.
(٤) في الكامل بعد هذا: وقيل: إنما وجه المغيرة بعد مسيره إلى باخمرى.
(٥) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.
(٦) كذا بالمخطوط، وفي الكامل.
فبلغهما دنو عمرو وهما بإصطخر، فقصدا دارابجرد فتحصنا بها، وصارت فارس في يدي عمرو.
ـ قلت: والمعنى واحد أو قريب حيث إن عمرو من ولاة إبراهيم ـ وأرسل إبراهيم مروان بن سعيد العجلي في سبعة عشر ألفاً إلى واسط، وبها هارون بن حميد الأيادي من قِبل المنصور، فملكها العجلي.
وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل المسلي في خمسة آلاف، وقيل: في عشرين ألفاً، =

ولما ظهر محمد بالمدينة أرسل أبو جعفر إلى جعفر بن حنظلة، وكان ذا رأي، فقال: هات رأيك.

قال: وجه الأجناد إلى البصرة.

فقال: انصرف حتى أرسل إليك.

وقال أبو جعفر: اختل واللّه جعفراً أسأله عن المدينة فيجيبني عن البصرة.

فلما صار إبراهيم إلى البصرة، قال: إياها خِفت بادرة بالجنود.

قال: [٤٥/أ] وكيف خفت البصرة؟

قال: لأن محمداً ظهر بالمدينة وليسوا بأهل حرب حسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب، فلم يبق إلا البصرة. ولما شخص إلى جعفر، ومحمد ابنا سليمان من البصرة أرسلا إلى أبي جعفر، وأخبراه خبرهما.

فقال أبو جعفر: واللّه ما أدري كيف أصنع؟ واللّه ما عسكري إلاّ ألفا رجل فرقت جندي، فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً، ومحمد بن الأشعث بأفريقية أربعون ألفاً، والباقون مع عيسى بن موسى، ولئن سلمت من هذه لا تفارق عسكري ثلاثون ألفاً. وقال عبد اللّه بن راشد:

ما كان في عسكر أبي جعفر كثير أحد، ما هم إلاّ سودان، وناس يسير، وكان يأمر بالحطب فيجزم، ثم يوقد بالليل فيراه الرائي فيحسب [أن][1] هناك ناساً، وما هي إلاّ النار تضرم وليس عندها أحد.

وكتب أبو جعفر إلى عيسى بن موسى وهو بالمدينة: إذا قرأت كتابي فأقبل ودع ما أنت فيه[2]. فلم يلبث[3] أن قدم فوجهه على الناس. وكتب إلى مسلم بن قتيبة فقدم عليه من الري، فضمه إلى جعفر بن سليمان.

= وقد كانت بينهما وقعات، ثم تهادنوا على ترك الحرب حتى ينظروا ما يكون من إبراهيم والمنصور.

فلما قتل إبراهيم هرب مروان بن سعيد عنهما فاختفى حتى مات.

فلم يزل إبراهيم بالبصرة يفرق العمال والجيوش حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل عيد الفطر، بثلاثة أيام، فخرج بالناس يوم العيد وفيه الانكسار. فصلى بهم، وأخبرهم بقتل محمد، فازدادوا في قتال المنصور بصيرة.

وأصبح من الغد فعسكر واستخلف على البصرة، وخلف ابنه حسناً معه.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في الكامل فأتاه الكتاب وقد أحرم بعمرة فتركها وعاده.

(٣) في المخطوط: يشب. وهو تحريف.

فحكى سلم بن قتيبة قال: لما دخلت على أبي جعفر قال لي: خرج ابنا عبد اللّه بن حسن، فاعمد لإبراهيم ولا يروعنك جمعه، فواللّه إنهما لجملا بني هاشم المقتولان جميعاً، فابسط يدك وثق بما أعلمتك، فستذكر مقالتي لك.

قال: واللّه ما هو إلاّ أن قتل إبراهيم، فجعلت أتذكر مقالته[١] فأعجب.

وكتب المنصور إلى المهدي وهو يومئذ بالري يأمره بتوجيه خازم [إلى][٢] الأهواز[٣]، فأباحها ثلاثاً.

وحكى السندي قال:

كنت وصيفاً أيام حرب محمد، فكنت أقوم على رأس المنصور بالمدينة فرأيته لما كشف أمر إبراهيم وغلظ أقام على مصلى نيفاً وخمسين ليلة ينام عليه ويجلس عليه، وعليه جبّة مُلوَّنة، قد اتسخ جيبها[٤]، وما تحت لحيته منها، ما غير الجبة، ولا هجر المصلى حتى فتح اللّه عليه، إلاّ أنه إذا كان ظهر للناس [لبس][٥] على الجبة السَّواد، وقعد على الفراش، فإذا بطن عاد إلى هيئته.

قال: فأتته[٦] في تلك الأيام امرأتان من المدينة إحداهما: فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد اللّه.

والأخرى: أمة الكريمة[٧] بنت عبد اللّه من ولد خالد بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، فلم ينظر إليهما.

فقيل له: يا أمير المؤمنين، إن هاتين المرأتين قد خبثت نفسهما وساءت ظنونهما لما ظهر من جفاك بهما.

فقال: ليست هذه الأيام من أيام النساء، لا سبيل إليهما حتى أعلم رأس إبراهيم لي أو رأسي لإبراهيم.

فهذه كانت عزيمة أبي جعفر.

فأما إبراهيم: فذكر أبو عبيد: أن يونس الجرمي كان يقول:

---

(١) في المخطوط: مقاتلته، وهو تحريف.
(٢) سقط من المخطوط، والسياق يقتضيه.
(٣) بعد هذا في الكامل: فسيره في أربعة آلاف فارس، فوصلها وقاتل المغيرة، فرجع المغيرة إلى البصرة، واستباح خازم الأهواز ثلاثاً.
(٤) في المخطوط: جنبها، وهو تحريف، والتصويب من الكامل. والجيب هو فتحة الصدر التي منها تخرج الرأس في الثوب.
(٥) زيادة يتطلبها السياق ومعنى ذلك في الكامل.
(٦) في الكامل، وأهديت إليه امرأتان. . .
(٧) في الكامل: أم الكريم.

قدم هذا يريد إبراهيم، وهو يقصد إزالة ملك فالهينة[١] بنت عمر بن سلمة عَمَّا جاء له.

وكان إبراهيم تزوج بعد قدومه البصرة بـ: هكنة بنت عمر بن سلمة، وكانت تأتيه في مُصَبّغاتها وألوان ثيابها.

وورد كتاب من جعفر[٢]، ومحمد ابني[٣] سليمان يعلمانه خروجهما من البصرة، وكان كتابهما في قطعة جراب، ولم يقدرا على شيء يكتبان فيه عن ذلك.

فلما وصل الكتاب إليه، فرآه قطعة جراب بيد الرسول، قال: خلع واللّه أهل البصرة مع إبراهيم ثم قرأ الكتاب، ودعا بعبد الرحمن الحلي وبأبي يعقوب ختن مالك بن الهيثم فوجَّههُما في خيل كثيفة إليهما، وأمرهما أن يحبساهما حيث لقياهما، وأن يعسكر معهما ويسمعا ويطيعا لهما.

وكتب إليهما بعجزهما ويضعفهما ويوبخهما على طمع إبراهيم في الخروج إلى مصرهما، واستتار خبره عنهما حتى ظهر وكتب في آخر كتابه: أبلغ بني هاشم عني مغلغلة، فاستيقظوا أن هذا فعل نوّام تعدى الذئاب على من لا كلاب له، وتتقي المستنفر الحامي.

قال أبو جعفر بن ربيعة: قال الحجاج:

لقد دخلت على المنصور في ذلك اليوم مسلماً وما أظنه أن يقدر على ردِّ السلام لتتابع الفتوق والخروق عليه، والعساكر المحيطة به، ولمائة ألف سيف كانت له بالكوفة[٤] بإزاء عسكره ينتظرون به صيحةً واحدةً [٤٥/ب] فيثبون [عليه][٥] فوجدته صقراً أحوزياً مشمراً، قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها ويمرسها، فقام بها ولم تقعد به نفسه[٦].

---

(١) كذا هنا في المخطوط: فالهينة، وفي الموضع القادم بعد قليل: هكنة بنت عمر بن مسلمة، ولا أدى أيهما أصح فإني لم أقف على ترجمتها.

(٢) في المخطوط: من جعفر بن محمد، ولفظي «ابن محمد» زيادة في السياق فحذفتهما.

(٣) في المخطوط: ابن، وهو تحريف، والصواب ما أثبته لأنه من المعروف أن أبناء سليمان بن علي هما جعفر، ومحمد.

(٤) في الكامل: قال حجاج بن قتيبة: لما تتابعت الفتوق على المنصور دخلت مسلماً عليه وقد أتاه خبر البصرة، والأهواز، وفارس، وعساكر إبراهيم قد عظمت، وبالكوفة مائة ألف سيف. بإزاء...

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

(٦) في الكامل بعد هذا: وإنه كما قال الأول:

نفس عصام سوّدت عصاماً وعلمته الكرَّ والإقداما

وصيرته ملكاً هماما

ثم وجه المنصور إلى إبراهيم عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة.

ذكر آراء أشير بها على إبراهيم

كان معه خمسة عشر ألفاً، وجعل على مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف.

فأراد إبراهيم الشخوص نحو أبي جعفر، فدخل إليه جماعة من قواده فقالوا له:

إنك قد ظهرت على أهل البصرة، والأهواز، وفارس، وواسط، فقم بمكانك، ووجه الأجناد، فإن هزم لك جند، أمددتهم بجندٍ، فخيف مكانك، واتقاك عدوك، وجبيت الأموال، وثبتت وطأتك، ثم رأيك بعد.

فقال له المتاييم الكوفيون[١]: أصلحك اللّه إن بالكوفة رجالاً لو رأوك ماتوا دونك وإن لم يروك قعدت بهم أسباب شتى، والرأي أن تخرج.

فقال له آخر: إن هذه بلادي وبلاد قومي، وأنا أعلم بها، فلا تقصد عيسى بن موسى ومعه هذه العساكر التي ضمت إليه ولكن دعني أسْلُك[٢] بك طريقاً لا يشعر بك أبو جعفر إلاّ وأنت بالكوفة، فأبى عليه.

قال: فإنّا معشر[٣] ربيعة أصحاب بيات، فدعني أبيت أصحاب عيسى.

قال: فإني أكره البيات.

فقال له هزيم: أصلحك اللّه إنك غير ظاهر على هذا الرجل حتى تأخذ الكوفة، وإن صارت لك تحصنه بها يقم لك بها [على][٤] بعد أهل، فدعني أسير إليها مختفياً، فأدعو إليك في السر، ثم اجهر، فإن القوم إن سمعوا داعياً أجابوه، وإن سمع أبو جعفر الهيعة بأرجاء الكوفة وليس معه رجال لم يرد وجهه بشيء دون حلوان.

فأقبل على بشير الرحال وقال: ما ترى يا أبا محمد؟

فقال: إنّا لو كنا وثقنا بالذي يصف لكان رأياً، ولكنا لا نأمن أن تجيبك طائفة منهم، فيرسل إليهم أبو جعفر خيلاً فتطأ النطف والصغير والكبير، فتكون قد تعرضت لمأثم، ولم تبلغ منه ما أملت.

قال هزيم: فقلت لبشير أفخرجت حين خرجت لقتال أبي جعفر وأصحابه وأنت تتوقى الصغير والضعيف والمرأة والرجل، أو ليس قد كان رسول اللّه ﷺ يوجه السرية فتقاتل فيكون في ذلك نحو ما كرهت؟

---

(١) يريد أصحاب الرأي ووجه أهل الكوفة وكبرائها، وأصحاب الحل والعقد منهم.
(٢) في المخطوط: أسالك. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: مشعر، وهو تحريف.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.

قال: إن أولئك كانوا مشركين، وإن هؤلاء أهل ملتنا ودعوتنا وقبلتنا حكمهم غير حكم أولئك.

فاتبع إبراهيم رأيه وسار حتى نزل باخمرى[١] فلما نزل أرسل إليه سلم بن قتيبة حكيم بن عبد الكريم: [فقال][٢]: إنك قد أصحرت ومثلك أنفس به على الموت، فخندق على نفسك حتى لا تؤتى إلاّ من مأتى واحد.

فإن أنت لم تفعل فقد أغرى أبو جعفر عسكره فتخفف في طائفة حتى تأتينه فتأخذ بقفاه. فدعا إبراهيم أصحابه، فعرض ذلك عليهم. فقالوا: أتخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم؟! لا واللّه لا نفعل.

قال: فنأتيه؟

قالوا: ولِمَ وهو في أيدينا متى أردناه؟

فقال لي إبراهيم: قد سمعت [فارجع راشدا][٣] قال حكيم فانصرفت وقد تحققت ضعفه باستسلامه لأصحابه.

وحكى إبراهيم بن سلم عن أخيه قال: قال حدثني أبي قال:

التقينا مع عيسى بن موسى، فخرجت من بين صفهم، وقلت لإبراهيم: إن الصف إذا انهزم بعضه تداعى، فلم يكن له نظام فاجعلهم كراديس، فإن انهزم كردوس ثبت كردوس[٤].

فنادى: لا إلا قتال أهل الإسلام، يريد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾[٥] [الصف: ٤].

وقال المضاء: لما نزلنا باخمرى أتيت إبراهيم فقلت: إن هؤلاء مصبحوك بما يسد عليك مغرب الشمس من السلاح، وإنما معك رجال عراة من أهل البصرة، فدعني أبيته فواللّه لأستنن جموعه.

---

(١) في الكامل: وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخاً مقابل عيسى بن موسى، فأرسل إليه سلم بن قتيبة: إنك قد أصحرت. . .

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في الكامل:
فصف إبراهيم أصحابه صفاً واحداً، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يجعلهم كراديس، فإذا انهزم كردوس.

(٥) وبعدها في الكامل:
فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وانهزم حميد بن قحطبة، وانهزم الناس معه، فعرض لهم عيسى يناشدهم اللّه والطاعة.

فقال: إني أكره القتل.

فقلت: تريد الملك، وتركه القتل.

فالتقوا بباب حمزى على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالاً شديداً.

وانهزم حميد بن قحطبة، وكان على مقدمة عيسى وانهزم الناس فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة، فلا يلوون ويمرون منهزمين.

وأقبل حميد بن قحطبة منهزماً، فقال له عيسى بن موسى: يا حميد الله الله والطاعة.

قال: لا طاعة في الهزيمة وفرّ الناس كلهم فلم [٤٦/أ] يبق مع عيسى [إلاّ نفر يسير][(١)] ينهزم، وكان يحفظ وصية لأبي جعفر، وهو: أنه لما أراد توجيهه قال عيسى قال لي المنصور:

إن هؤلاء الجبناء ـ يعني المنجمين ـ يزعمون أنك لاقي الرَّجل وإن لك جولة حين تلقاه، ثم تفيء إليك أصحابك، وتكون العاقبة لك.

وكان كما قال لم يبق معي إلا ثلاثة فأقبل عليَّ مولى لي وقال: جعلت فداك، علام تقيم وقد ذهب أصحابك؟ فقلت: لا والله لا ينظر أهل بيتي إلى وجهي أبداً وقد انهزمت بعدوتهم فوالله ما كان عندي أكثر من أن أقول لمن مَرَّ بي ممن أعرف من المنهزمة؟ اقرئوا أهل بيتي مني السلام، وقولوا لهم: إني لم أجد فداءً لكم أفديكم به أعز علي من نفسي وقد بذلتها دونكم[(٢)].

قال: فوالله إنّا على ذلك منهزمون ما يلو أحدٌ على أحدٍ وكان محزماً ليكون قتاله من وجهٍ واحدٍ.

وقيل: بل فخر آل طلحة.

ذكر اتفاق عجيب وهو شيء اتفق على إبراهيم بعد أن ظفر حتى هزم وقتل

حكى إسحاق بن عيسى بن علي قال:

---

(١) زيادة من الكامل، وبعدها: فقيل له: لو تنحيت عن مكانك حتى تؤوب إليك الناس فتكر بهم. فقال: لا أزول عن مكاني هذا أبداً حتى أُقتل أو يفتح الله على يدي، والله لا ينظر أهل بيتي إلى وجهي.

(٢) بعد هذا في الكامل:
فبينا هم على ذلك لا يلوي أحد على أحد إذ أتى جعفر، ومحمد ابنا سليمان بن علي من ظهور أصحاب إبراهيم، ولا يشعر باقي أصحابه الذين يتبعون المنهزمين حتى نزل نظر بعضهم فرأى القتال من ورائهم، فعطفوا نحوه، ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، فلولا جعفر ومحمد لتمت الهزيمة.

سمعت عيسى بن موسى يومئذ يقول لأبي: واللّه يا أبا العباس لولا ابنا سليمان يومئذ لافتضحنا، وذلك أن من صنع اللّه كان لنا أن أصحابنا لما انهزموا اعترض لهم نهر ذو ثنيتين مرتفعتين، فحال بينهم وبين الوثوب، ولم يجدوا مخاضة فكروا راجعين بأجمعهم على عرض النهر، فظن القوم أنها كرة فانهزموا، وتبعهم ابنا سليمان ومعهما مواليه، ونظر إليه أصحابنا ورأوا هزيمة الأعداء بين يديه، فكروا بأجمعهم، وأقبل حميد بن قحطبة نحو إبراهيم لا يعرج على شيء حتى خالط القوم، وجعل يرسل بالرؤوس إلى عيسى[١]، حتى كثرت الرؤوس إلى أن أتى برأس معه جماعة كثيرة وضجة وصياح. فقالوا: رأس إبراهيم، فدعا عيسى بن موسى، ابن أبي الكرام الجعفري فأراه إياه فقال: ليس به[٢]، وجعلوا يقتلون يومهم ذلك.

فذكر عبد الحميد أنه سأل أبا صلابة: كيف قتل إبراهيم؟

فقال: اسمعه ممن نظر إليه وعاينه. كان واقفاً على دابته ينظر إلى أصحاب عيسى وقد ولوا وانهزموا بأجمعهم، ونكص عيسى دابته القهقرى وأصحابه يقتلونهم، ولم يبق لهم بقية حتى رأيت قوماً ينصرون ويكبرون ليسوا بشيء، وكان على إبراهيم قباء زرد، فآذاه الحر، فحَلّ إزرار قباءه وشال الزرد حتى خسر عن لبته وأتته نشابة غائرة، فأصابته في لبته فرأيته اعتنق فرسه، وكرّ راجعاً، فأطافت به الزيدية وأصحابه يحمونه، فرأى حميد بن قحطبة اجتماعهم، فأنكره وقال لأصحابه شدوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم، وتعلموا ما اجتمعوا عليه فشدوا عليهم وقاتلوهم أشد قتال حتى أفرجوهم عن إبراهيم، فحزوا رأسه وأتوا به إلى عيسى، فأراه ابن أبي الكرام الجعفري، فقال: نعم هذا رأسه.

فنزل عيسى إلى الأرض فسجد وبعث به إلى أبي جعفر.

وذكر أن أوائل المنهزمين من أصحاب عيسى دخلوا الكوفة، وتأخر أبو جعفر فقال لحاجبه: لا تكشفن ذلك، وأعدد على كل باب من أبواب المدينة إبلاً ودواب فإن

---

(١) بعد هذا في الكامل:
وجاء إبراهيم سهم عائر، فوقع في حلقه فنحره، فتنحى من موقفه، وقال: أنزلوني فأنزلوه عن مركبه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أردنا أمراً وأراد اللّه غيره.

(٢) في الكامل: فقال: نعم هذا رأسه، فنزل عيسى إلى الأرض، فسجد، وبعث برأسه إلى المنصور، وكان قتله يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة.
ومكث منذ خرج إلى أن قُتل ثلاثة أشهر إلاّ خمسة أيام.
وقيل: كان سبب انهزام أصحابه أنهم لما هزموا أصحاب المنصور، وتبعوهم نادى منادي إبراهيم: أن لا تتبعوا مدبراً، فرجعوا.
فلما رآهم أصحاب المنصور راجعين ظنوهم منهزمين، فعطفوا في آثارهم، وكانت الهزيمة.

أُتينا من ناحية صرنا إلى الناحية الأخرى فسُئل سلم بن فرقد حاجبه: إلى أين أراد أبو جعفر يذهب إذ[١] دهمه أمر؟

قال: كان عزم على إتيان الري، فبلغني أن سخت[٢] المنجم دخل على أبي جعفر فقال له: يا أمير المؤمنين الظفر لك وستقتل إبراهيم، فلم يقبل ذلك منه.

فقال له: احبسني عندك، فإن لم يكن الأمر كما قلت فاقتلني.

فبينا هو كذلك إذ جاءه الخبر بهزيمة إبراهيم [فتمثل][٣] ببيت معمر البارقي[٤]:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر

واقطع سخت المنجم [ألفي][٥] جريب بنهر حويزة[٦] ويقال: إن أبا جعفر لما أُتي برأس إبراهيم بن عبد اللّه فوضع بين يديه بكى، ثم قال: أما واللّه لقد كنت كارهاً لهذا، ولكني ابتليت بك، وابتليت بي.

وحكى صالح مولى المنصور:

إن المنصور لما أُتي برأس إبراهيم بن عبد اللّه ووضع [٤٦/ب] بين يديه وجلس مجلساً وأذن للناس، وكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيُسِيءُ فيه القول، ويذكر القبيح منه التماس الرضى أبي جعفر، وأبو جعفر ممسك متغير لونه، حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني[٧]، فوقف، فسلم، ثم قال:

عظم اللّه أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك.

فاصفر لون أبي جعفر، فأقبل عليه وقال: يا أبا خالد هنا مرحباً وأهلاً، فعلم الناس أن ذلك وقع منه، فدخلوا فقالوا: مثل ذلك[٨].

---

(١) في المخطوط: أو. وهو تحريف.
(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: نويخت.
(٣) زيادة من الكامل، وهذا من المبالغات التي تمتلئ بها كتب التواريخ والسير، فلا يلتفت لمثل هذا.
(٤) في المخطوط: البارني. وهو تحريف، والبيت من الأشعار التي تسري مسرى الأمثال فهو مثل شعري، ولم أضمن هذا النوع من الأمثال موسوعتي التي أعددتها للأمثال العربية والعامية والتي تحتوي على حوالي عشرين ألف مثل عربي وعامي.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) بعدها في الكامل: وحمل رأس إبراهيم إلى المنصور، فوضع بين يديه فلما رآه بكى حتى خرجت دموعه على خد إبراهيم، ثم قال: أما واللّه.
(٧) كذا في المخطوط، وفي الكامل: الدارمي.
(٨) وقال ابن الأثير بعد هذا:
وقيل: لما وضع الرأس بصق في وجهه رجل من الحرس، فأمر به المنصور فضرب بالعمد، فهَشمت أنفه ووجهه وضرب حتى خمد، وأمر به فجروا رجله، فألقوه خارج الباب.
وقيل: نظر المنصور إلى سفيان بن معاوية بعد مدة راكباً، فقال: للّه العجب، كيف يقتلني =

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

لما فرغ المنصور من أمر إبراهيم، ومحمد عاود بناء بغداد وإتمامه، وكان خالد بن برمك خط المدينة وأشار بها، واحتاج المنصور إلى الآلات والإنقاض، لأن ما كان جمعه قبل ذلك من ساج وغيره أحرقه مولًى له يقال له سلم، وذلك حين بلغه أن إبراهيم هزم أبا جعفر.

فقال أبو جعفر لخالد: ما ترى في نقض بناء كسرى بالمدائن، وحمل نقضه إلى مدينتي هذه؟ فقال له خالد: ما أرى ذلك يا أمير المؤمنين.

قال: ولِمَ؟

[فقال][1]: لأنه علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر على أنه لم يكن إنزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا إنما هو أمر دين، ومع هذا يا أمير المؤمنين، فيه مصلى علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه.

فقال: هيهات يا خالد، أبيت إلاّ الميل إلى أصحابك العجم.

= ابن الفاعلة؟

قلت: هذا ما ذكر المؤلف رحمنا اللّٰه وإياه في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير فيها ما يلي:
وفيها: خرجت الترك والخز بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة.
وحج بالناس هذه السنة: السري بن عبد اللّٰه بن الحارث بن العباس، وكان على مكة.
وكان على المدينة: عبد اللّٰه بن الربيع.
وعلى الكوفة: عيسى بن موسى.
وعلى البصرة: سلم بن قتيبة الباهلي، وعلى قضائها: عباد بن منصور.
وعلى مصر: يزيد بن حاتم.
وفيها: عزل المنصور مالك بن الهيثم عن الموصل بابنه جعفر بن أبي جعفر المنصور، وسير معه حرب بن عبد الله، وهو من أكابر قواده، وهو صاحب الحربية ببغداد.
وبنى بأسفل الموصل قصراً وسكنه، وهو يعرف إلى اليوم أي ـ أيام ابن الأثير ـ بقصر حرب، وفيه، ولدت زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد.
وعنده يومنا هذا ـ أي أيام ابن الأثير ـ قرية كانت ملكاً لنا فبنينا فيها رباطاً للصوفية، ووقفنا القرية عليهم، وقد جمعت كثيراً من هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها وهي من أنزه المواضع وأحسنها، وأثر القصر باق بها إلى الآن، سبحان من لا يزول ولا تغيره الدهور.
وفيها: مات عمرو بن ميمون بن مهران والحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان موته في حبس المنصور لأنه أخذه من المدينة كما ذكرناه، وهو عم محمد، وإبراهيم.
وفيها: مات عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي.
ويحيى بن الحارث الزماري وله سبعون سنة.
وإسماعيل بن أبي خالد البجلي.
وحبيب بن الشهيد مولى الأزد، وكنيته أبو شهيد.

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

فأمر أن ينقض القصر الأبيض.

فنقض ناحية منه، ونظر في مقدار ما يلزمهم من النفقة للنقض والحمل؟

فوجدوا ذلك أكثر من الجديد لو عمل.

فرفع ذلك إلى المنصور، فدعا بخالد فأعلمه ذلك وقال: ما ترى؟

قال: يا أمير المؤمنين، قد كنت أرى قبل أن لا تفعل، فأما[١] إذ بدأت فأرى أن تتم وتهدمه حتى تلحق بقواعده لئلا يقال: عجزت عن هدم ما بناه غيرك.

فأعرض عنه المنصور، وأمر أن لا يهدم[٢].

وكان اللبن لبنة المنصور اللبنة منها ذراع في ذراع، وقد وزنت لبنة منها بعد ما تهدم السور، وكانت لبنة مكتوبة بمغرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً، فلما وزنت وجدت كما كان مكتوباً عليها.

ولما استتم المنصور بناؤها قدم عليه بطريق من البطارقة وافداً، فأمر الربيع أن يطوف به في المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء، فطاف به الربيع.

فلما انصرف، قال: كيف رأيت؟

وقد كان أُصعد إلى السُّور وقباب الأبواب.

فقال: رأيت بناءاً حسناً إلاّ أني رأيت أعداءك معك في مدينتك. قال: فمن هم؟

قال: السوقة.

فأضب عليها أبو جعفر، فلما انصرف البطريق أمر بإخراج السوق من المدينة.

ويقال: إن السبب في إخراج التجار من المدينة إلى الكرخ وما قرب منها، أنه قيل لأبي جعفر: إن الغرباء وغيرهم يبيتون فيها، ولا يؤمن أن يكون فيها جواسيس أو تفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوق.

فأمر بإخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس.

---

(١) في المخطوط: فلما. وهو تحريف.

(٢) بعد هذا في الكامل:
ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد، وباباً جاء به من الشام، وباباً آخر جيء به من الكوفة، كان عمله خالد بن عبد اللّه القسري وجعل المدينة مدوّرة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض، وعمل لها سورين السور الداخلي أعلى من الخارجي، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجانب القصر.
وكان الحجاج بن أرطأة هو الذي خط المسجد وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي أن ينحرف إلى باب البصرة، لأنه وضع بعض القصر، وكان القصر غير مستقيم على القبلة، وكان اللبن الذي يُبنى به ذراع في ذراع.

وهيأ[١] للتجار باب الكرخ، وباب الشام، وطاق الحراني، وباب الشعير، وباب المحول.

ولما طاف أبو جعفر مدينته وأبنيتها استحسن الجميع واستلطفه[٢] غير أنه استكثر النفقة، وكان مبلغ ذلك على ما وجد في خزائن المنصور ودواوينه أنه أنفق على مدينة بغداد ومسجد جامعها وقبابها وأبوابها: أربعة آلاف درهم وثمانمائة درهم وثلاثون درهماً.

ولمبلغها من الفلوس مائة ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس.

وذلك أن الأستاذ من البنائين كان الرجل منهم يعمل بقيراط فضة.

والروزجائين[٣] بحبتين إلى ثلاث حبات، وذلك لرخص الأسعار وعوز الفضة لأن المنصور جعل الأموال في خزائنه[٤].

---

(١) في المخطوط: وهي، وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: واستنطقه. وهو تحريف.

(٣) كذا في المخطوط، وفي الكامل: الروزكاري، ثم زاد ابن الأثير: وحاسب القواد عند الفراغ منها فألزم كلاً منهم بما بقي عنده فأخذه حتى أن خالد بن الصلت بقي عليه خمسة عشر درهماً فحبسه وأخذها منه.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
وفيها: سار العلاء بن مغيث اليحصبي من أفريقية إلى مدينة بناحية من الأندلس ولبس السواد، وقام بالدولة العباسية، وخطب للمنصور، واجتمع إليه خلق كثير، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأموي، فالتقيا بنواحي إشبيلية، ثم تحاربا أياماً فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف وقُتل العلاء.
وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان، وإلقائها بالسوق سراً ففعل ذلك.
ثم حمل منها شيء إلى مكة فوصلت وكان بها المنصور، وكان مع الرؤوس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء.
في هذه السنة: عُزل سلم بن قتيبة عن البصرة وكان سبب عزله:
أن المنصور كتب إليه يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم وبعقر نخلهم.
فكتب سلم بذلك أبدأ بالدور أم النخل؟
فأنكر المنصور ذلك عليه وعزله واستعمل محمد بن سليمان فعاث بالبصرة وهدم دار أبي مروان، ودار عون بن مالك، ودار عبد الواحد بن زياد، وغيرهم.
وغزا الصائفة هذه السَّنَة جعفر بن حنظلة البهراني.
وفيها: عزل عن المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي، وولي مكانه جعفر بن سليمان فقدمها في ربيع الأول.
وفيها: عزل عن مكة السري بن عبد الله، ووليها عبد الصمد بن علي.
وحج بالناس هذه السنة: عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام.
وفيها: مات هشام بن عروة بن الزبير، وقيل: سنة سبع وأربعين في شعبان.
وعوف الأعرابي، وطلحة بن يحيى بن عبيد الله التيمي الكوفي. =

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

وفي هذه السنة: كان مهلك عبد اللّه بن علي عم أبي جعفر.

ذكر السبب في ذلك

حج أبو جعفر سنة سبع بعد تقدمته المهدي على ابن عيسى [٤٦/ب] بن موسى، وسنذكر ذلك فيما بعد.

وكان عزل عيسى بن موسى عن الكوفة[١] وأرضها، ووَلّى مكانه محمد بن سليمان بن علي، واستدعاه ورفع إليه عبد اللّه بن علي سرًّا في جوف الليل، ثم قال له: يا عيسى، إن هذا أراد أن يزيل النعمة عني وعنك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي، والخلافة صائرة إليك فخذه إليك واقتله، وإياك أن تحول وتضعف فتنتقص عَلَيّ أمري الذي دبرت، ثم مضى لوجهه من الحج.

وكتب إليه من طريقه ثلاث مرات يسأله ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه؟

فكان يكتب إليه: قد أنفذت ما أمرت به. فلم يشك أبو جعفر في أنه قتل عبد اللّه بن علي.

وكان عيسى حين دفعه ستره ودعا كاتبه يونس بن فروة وقال له: هذا الرجل دفع إليّ عمه، وأمرني فيه بكذا وكذا؟ فقال: أراد أن يقتلك وتقتله، إنه أمرك بقتله [سراً][٢]، ثم يدعي عليك علانية، ثم يقيدك به. قال: فما الرأي؟

قال: أن تستره في منزلك ولا يطلع عليه أحد فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سراً أبداً.

ففعل ذلك عيسى، وقدم المنصور ودس على عمومته من يحركهم على مسألته

=وفيها: غزا مالك بن عبد اللّه الخثعمي الذي يقال له: مالك الصوائف ـ وهو من أهل فلسطين ـ بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة، ثم قفل، فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يدعى الرهوة، نزل بها ثلاثاً، وباع الغنائم، وقسم سهام الغنيمة فسميت تلك الرهوة: رهوة مالك.

وفيها: توفي ابن السائب الكلبي النسابة.

(١) في الكامل بدأ الخبر على النحو التالي:
كان المنصور قد أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه، وسلَّم إليه عمه عبد اللّه بن علي وأمره بقتله وقال له: إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي، فاضرب عنقه، وإياك أن تضعف. . .
وساق الخبر بنحو مما هنا.

(٢) زيادة من الكامل.

هبة عبد اللَّه بن علي[١] وأطمعهم[٢] في أنه سيفعل وجاؤوا إليه وكلموه ودفعوه وذكروا له الرحم.

فقال: نعم، عَلَيّ بعيسى بن موسى.

فأتاه، فقال عيسى: قد علمت أني قد دفعت إليك عمي وعمك عبد اللَّه بن علي قبل خروجي إلى الحج وأمرتك أن يكون في منزلك؟

قال: قد فعلت ذلك.

قال: فقد كلمني فيه عمومتك، فرأيت الصفح عنه وتخلية سبيله، فأتنا به.

قال: يا أمير المؤمنين، ألم تأمرني بقتله؟ فقتلته قال: لا، ما أمرتك بقتله، وإنما أمرتك بحبسه عندك.

قال: قد أمرتني بقتله.

قال له المنصور: كذبت، ثم قال لعمومته: إن هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم وادعى أني أمرته بذلك، وقد كذب. قالوا[٣]: فادفعه إلينا فإنا نقيده به. قال: شأنكم به فأخرجوه إلى الرحبة[٤]، فاجتمع الناس وشهر الأمر.

فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه.

فقال له عيسى: أفاعل أنت؟

قال: إي واللَّه.

قال: فلا تعجل فإن عمي حَيٌّ، ردوني إلى أمير المؤمنين.

فردوه إليه، فقال: إنما أردت أن تقتله فتقتلني[٥]، هذا عمك حيٌّ سواء فإن[٦] أمرتني بدفعه إليك دفعته.

قال: ائتنا به، فأتاه به فجعله في بيت، وكان من أمره ما كان من سقوط البيت

---

(١) في الكامل: من يحركهم على الشفاعة في أخيهم عبد اللَّه، ففعلوا وشفعوا فشفعهم.

(٢) في المخطوط، وأطعمهم. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: قال: وهو تحريف.

(٤) الرحبة مكان تقام فيه الحدود ويتم فيه القود والقصاص وهو عبارة عن ساحة كبيرة وعادة ما تكون في وسط المدينة أو أمام قصر الحكم أو أمام المسجد الجامع، وعادة ما يحضر حشد كبير من الناس أثناء تنفيذ الأحكام والتي يكون قد أعلن عنها سلفاً دائماً وأكثر ما يكون التنفيذ يوم الجمعة بعد الصلاة.

(٥) في الكامل: إنما أردت بقتله أن تقتلني.

(٦) في المخطوط: دفعنا. وهو تحريف.

عليه فمات وهو ابن اثنتين وخمسين سنة[١].

وحكي أن المنصور ركب يوماً بعد موت عبد اللّه بن علي، ومعه ابن عياش[٢] المنتوف فقال له وهو يحادثه: هل تعرف ثلاثة خلفاء مبدأ أسمائهم العين؟

قال: لا أعرف إلاّ ما تقول العامة: إن عليًا قتل عثمان وكذبوا، وعبد الملك قتل عبد اللّه بن الزبير، وعبد الرحمن بن الأشعث، وسقط البيت على عبد اللّه بن علي، فقال له المنصور: سقط البيت على عبد اللّه بن علي، فأنا ما ذنبي؟

قال: قلت لك ذنباً؟![٣]

وفي هذه السنة:

خلع المنصور عيسى بن موسى، وبايع لابنه المهدي، وجعله ولي عهده بعد المهدي.

ذكر الخبر عن ذلك والحيلة فيه

كان أبو جعفر أقر عيسى على ما كان أبو العباس وكان له مكرماً مبجلاً إلى أن عزم على تقديم المهدي في الخلافة عليه.

فلما عزم المنصور على ذلك كلم عيسى بن موسى[٤] في تقديم المهدي عليه

---

(١) في الكامل، بيان لكيفية سقوط البيت عليه حيث قال ابن الأثير:
قال: ائتنا به، فأتاه به. قال يدخل حتى أرى رأيي فيه، ثم انصرفوا.
ثم أمر به فجعل في بيت أساسه ملح، وأجرى الماء في أساسه، فسقط عليه فمات، فدفن في مقابر باب الشام، فكان أول من دفن فيها، وكان عمره اثنتين وخمسين عاماً.

(٢) في المخطوط: عباس، والتصويب من الكامل، وقال ابن الأثير في آخر الحدث: عياش بالياء المثناة من تحت والشين المعجمة.

(٣) أصاب هذه الفقرة سقط واضطراب وصوابها من الكامل على النحو التالي:
قيل: ركب المنصور يوماً ومعه ابن عياش المنتوف، فقال له المنصور: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين قتلت ثلاثة خوارج تبدأ أسماؤهم على العين؟
قال: لا أعرف إلا ما يقول العامة: إن عليًا قتل عثمان وكذا، وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث، وعبد اللّه بن الزبير قتل عمرو بن سعيد، وعبد اللّه بن علي سقط عليه البيت.
قال المنصور: إذا سقط عليه فما ذنبي أنا؟!
قال: ما قلت إن لك ذنباً.
قوله ابن الزبير قتل عمرو بن سعيد ليس بصحيح إنما قتله عبد الملك.

(٤) بدأ الخبر في الكامل على النحو التالي:
وفيها خُلع عيسى بن موسى بن محمد بن علي من ولاية العهد وبويع للمهدي محمد بن المنصور، وقد اختلف في السبب الذي خلع لأجله نفسه، فقيل: إن عيسى لم يزل على ولاية العهد، وإمارة الكوفة من أيام السفاح إلى الآن، فلما كبر المهدي وعزم المنصور على البيعة له، كلم عيسى بن موسى في ذلك.

برقيق الكلام ولطيفه. فقال عيسى: يا أمير المؤمنين، فكيف بالإمارة والمواثيق عَلَيَّ وعَلَى المسلمين لي من الطلاق والعتاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان، ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين.

فلما رأى أبو جعفر ذلك باعده كل المباعدة وقصر به في منزلته وكان يؤذن لعيسى بعد جماعة، ويجلس دون منزلته. وكانت مرتبته عن يمين أبي جعفر، ثم يخلط عليه في أمثال هؤلاء الأشياء، وعيسى صامت لا يشتكي ولا يستغيث، ثم صار إلى أغلظ من ذلك، وكان يكون في المجلس ومعه ولده فيسمع الحفر في أصل الحائط ويخاف أن يخر عليه، وينثر التراب عليه وربما نظر [٤٧/ب] إلى الخشب من سقف المجلس الذي يجلس فيه قد حفر عن أحد طرفيه فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه فيأمر من معه من ولده بالتحول ويقوم هو إلى الصلاة ثم يأتيه الإذن فيقوم بهيئته والتراب عليه لا ينقضه.

فإذا رآه المنصور قال له: يا عيسى ما يدخل على أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار والتراب عليك، أفكل هذا من الشارع؟!

فيقول: أحسب ذلك يا أمير المؤمنين وإنما يكلمه بذلك ليستعظمه أن يشكو إليه شيئاً فلا يشكو. وكان المنصور قد أرسل إليه في بعض أحواله من يقتله من السموم أو دَسَّهُ إليه بحضرته فنهض من المجلس.

فقال له المنصور: إلى أين[١]؟

قال: أجد غمزاً[٢].

قال: في داري[٣] إذاً[٤]؟

قال: الذي أجد أشد من أن أقيم معه في الدار[٥].

ونهض فصار إلى حرافته، ونهض المنصور في أثره متفزعاً إلى الحرافة، فاستأذنه عيسى في المسير[٦] إلى الكوفة.

فقال: بل تقيم فتعالج هاهنا، فأبى وألح، فأذن له.

---

(١) في المخطوط: أن. وهو تحريف.
(٢) أي أجد ألماً.
(٣) في المخطوط: في دار. وهو تحريف.
(٤) أي استرح في داري أو استطب فيه.
(٥) أي أقوى وأشد من أبقى معه لشدة ما أجد من الألم.
(٦) في المخطوط: المصير، وهو تحريف.

وكان الذي حداه إلى ذلك طبيبه بختيشوع[١]، فإنه قال له: أنت مسموم. والله ما اجترئ على معالجتك بالحضرة، فاستأذنه، فأذن له. وبلغت العلة بعيسى كل مبلغ حتى تمغط شعره، ثم أفاق.

ويقال: إن عيسى إنما كان يمتنع على أبي جعفر لأنه كان يُربّض[٢] الأمر لابنه موسى، فبعث أبو جعفر إلى موسى من يخوّفه على نفسه وعلى ابنه.

فقال موسى: إني قد أرى ما يُسام[٣] أبي من إخراج هذا الأمر من عنقه وتصييره للمهدي وقد نصبت عليه وجوه الحتوف من السم مرة، وهدم الحيطان مرة وبضروب الإهانات، وليس[٤] يعطى على هذا شيئاً ولكن هاهنا وجه ولعله يعطى عليه إن أعطى وإلاّ فلا.

قال له: الواسطة بينه وبين أبي جعفر: وما هو؟ قال: إنما قوله: إذا أمنت على نفسي، وإنما هو روحي أجله في يده ولا بد لي أن أثق به وأطمئن إليه. فأعطاه كل ما أحب من ذلك.

فقال: يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهده فيقول له: يا عيسى، إني قد علمت أنك لست تضن بهذا الأمر على المهدي بنفسك لتعالي سِنّك وإنما تضن به لمكان ابنك أتراني أدع ابنك يبقى بعدك، كلا والله لآتين عليه وأنت تنظر إليه حتى تيأس منه ثم تأمرني، فإمّا خنقت وإمّا شهر سيف فإن أجاب إلى شيء فعسى أن يفعل في ذلك الوقت وإلاّ فلا.

فقال له: جزاك الله خيراً فديت أباك بنفسك نِعْمَ الرأي رأيت، ونعم المسلك سلكت. ثم أتى أبا جعفر فأخبره، فجزى موسى خيراً وقال: قد والله أحسن وأجمل، وسأفعل ما أشار به ويسره الله بعافية ذلك إن شاء الله تعالى.

فلما اجتمعوا[٥] أقبل المنصور إلى عيسى بن موسى وقال: يا عيسى إني لا أجمّل

---

(١) هو طبيب نصراني اسمه: بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع بن جورجس بن جبريل، الجنديسابوري.
توفي سنة (١٥٦)، وكان طبيب جماعة من الخلفاء العباسيين، وصنف كتاب التذكرة في الطب، وانظر ترجمته في:
ديوان الإسلام بتحقيقي (٣١٤)، هدية العارفين (١/ ٢٣١).

(٢) أي يمهد ويجهز ويهيىء.

(٣) كذا في المخطوط، أي ما ينال من الجهد وما يدخل عليه من الكدر.
وفي الكامل: ما يُسْئِمُ، والمعنى في كليهما واحد.

(٤) تكرر هذا اللفظ بالمخطوط، فحذفت التكرار.

(٥) بعد هذا في الكامل:
فلما اجتمعوا عنده كان عيسى بن علي حاضراً فقام ليبول، فأمر عيسى بن موسى ابنه موسى ليقوم معه يجمع عليه ثيابه، فقام معه، فقال له عيسى بن علي: بأبي أنت، وأبي أب ولدك، =

مذهبك الذي فيه الذي تضمره، ولأمدك الذي تجري إليه، فإن الأمر الذي سألتك إنما تريد هذا الأمر لابنك هذا المشؤوم عليك وعلى نفسه، أما والله لأعجلن لك فيما يسوءك، يا ربيع، اخنق موسى بحمائله حتى تأتي على نفسه، وقد كان واطأ الربيع على الرفق به فضم الربيع حمائله على عنقه فجعل يخنقه خنقاً رويداً وموسى يصيح: اللَّه اللَّه فيَّ يا أمير المؤمنين وفي دمي، فواللَّه إني لبعيد مما تظن، وما يبالي عيسى أن تقتلني، وله بضعة عشر ذكر كلهم مثلي أو يتقدمني وهو يقول: اشدد يا ربيع ائت على نفسه.

والربيع يريهم أنه يريد تلفه وهو يراخي خناقه وموسى يصيح صياح من بلغت نفسه التراقي. فلما رأى ذلك عيسى قال: يا أمير المؤمنين واللَّه ما ظننت أن الأمر يبلغ منك هذا كله، فمر بالكفِّ عنه، فإني لم أكن لأرجع إلى أهلي وقد قتل بهذا الأمر عبد من عبيدي، فكيف بولدي؟!

فها أنا ذا أشهدك أن نسائي طوالق ومماليكي أحرار، وما أملك في سبيل اللَّه تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين، قد قضيت حاجتي هذه كارهاً ولي حاجة أحب أن تقضيها، فتغسل بها ما في نفسي من الحاجة الأولى.

قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟

[٤٨/أ] قال: تجعل الأمر من بعد المهدي لنفسك.

قال: ما كنت لأدخل فيها بعد إذ خرجت عنها فلم يدعه هو ومن حضر من أهل بيته حتى قال: وأمير المؤمنين أعلم.

وقال بعض أهل الكوفة وقد مَرَّ به عيسى في مواكبه: هذا الرجل الذي كان غداً، فصار بعد غدٍ[1].

= واللَّه إني لأعلم أنه لا خير في هذا الأمر بعدكما وإنكما لأحق به، ولك المرء مغرى بما تعجل. فقال موسى في نفسه: أمكنني هذا واللَّه من مقاتله، وهو الذي يغري بأبي، واللَّه لأقتلنه، فلما رجع قال موسى لأبيه ذلك سِرّاً، فاستأذنه في أن يقول للمنصور ما سمع منه، فقال له أبوه: إن لهذا رأياً ومذهباً أيأتمنك عمك على مقالة أراد أن يسرك بها، فجعلتها سبباً لمكروهه، لا يسمعن هذا أحد ارجع إلى مكانك، فلما رجع إلى مكانه أمر المنصور الربيع فقام إلى موسى فخنقه.

(١) وفي الكامل بعد قوله: تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين:
هذه يدي بالبيعة للمهدي، فبايعه للمهدي، ثم جعل عيسى بن موسى بعد المهدي، فقال بعض أهل الكوفة: هذا الرجل.
وقد قيل: إن المنصور وضع الجند وكانوا يسمعون عيسى بن موسى، فشكا ذلك من فعلهم، فنهاهم المنصور عنه، وكانوا يكفون، ثم يعودون، ثم إنهما تكاتبا مكاتبات أغضبت المنصور.
وعاد الجند معه لأشد ما كانوا، منهم أسد بن المرزبان، وعقبة بن مسلم، ونصر بن حرب بن عبد اللَّه وغيرهم فكانوا يمنعونه من الدخول عليه ويسمعونه فشكاهم إلى المنصور، فقال له: يا ابن أخي أنا واللَّه أخافهم عليك وعلى نفسي، فإنهم يحبون هذا الفتى، فلو قدمته بين يديك لكفوا، فأجاب عيسى إلى ذلك.

وقد قيل في وجه خلع المنصور عيسى قول آخر وذلك أنهم ذكروا:

أن عيسى لما امتنع أن يجيب المنصور إلى ما أراد، وأعياه الأمر بعث إلى خالد بن برمك فقال له: كَلِّمْهُ يا خالد، فقد اشتد امتناعه وإن كانت عندك حيلة فيه فذكرها فقد جفل عنا وجه الرأي فيه.

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، تضم إلى ثلاثين رجلاً من كبار الشيعة ممن تختاره فركب خالد وركبوا معه فساروا إلى عيسى، فأبلغوه رسالة أبي جعفر.

فقال: ما كنت لأخلع نفسي، وقد جعل اللّه لي الأمر.

فأداره خالد في كل وجهٍ من وجوه الطمع والحذر، فأبى عليه.

فخرج خالد عنه وخرج الشيعة بعده، فقال خالد: ما عندكم في أمره؟

قالوا: تبلغ أمير المؤمنين أنه أجاب وأشهد عليه إن أنكره.

[فقال: تفعلوا؟][1].

فقالوا: نفعل.

فقال لهم: ذا هو الصواب، وأبلغ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد.

قال: فصاروا إلى أبي جعفر وخالد معهم، فأعلموه أنه قد أجاب.

فخرج التوقيع بالبيعة للمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق.

قال: وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبر أبا جعفر منكراً لما ادّعى عليه من الإجابة إلى تقديم المهدي على نفسه، وذكرهم اللّه فيما هَمَّ به.

فدعاهم[2] أبو جعفر فسألهم، فقالوا: نشهد عليه، أنه قد أجاب، وليس له أن يراجع.

فأمضى أبو جعفر الأمر، وشكر لخالد ما كان منه.

وكان المهدي يعرف ذلك ويصف جزالة الرأي منه فيه.

ولما رأى عيسى الأمر، ثمَّ راسل المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، أما وقد أبيت، فاجعل لرضائي فيه نصيباً. فوجّه إليك خالد بن برمك، فقرر أمره على عشر آلاف ألف درهم له، وثلاثمائة ألف درهم بين أولاده، وسبعمائة ألف لنسائه. وحضر عيسى مجلس المنصور، وحضر معه جماعة الوجوه والأشراف والجند.

فتكلم عيسى، وقال: اشهدوا أني خلعت نفسي مما كان إليّ من ولاية العهد

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: فدعا. وهو تحريف.

وسلمته للمهدي محمد ابن أمير المؤمنين، وقدمته على نفسي. فقال له أبو عبد اللَّه كاتب المهدي، ليس هكذا أعز اللَّه الأمير، ولكن قيل ذلك بحقه وصدقه، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيته.

قال: نعم، بعث نفسي من ولاية العهد من عبد اللَّه أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي ابن أمير المؤمنين بعشرة آلاف ألف وثلاثمائة ألف لولدي وسبعمائة ألف لنسائي، وسماهم واحداً واحداً بطيب من نفسي، وحب لتصيرها إليه لأنه أولى بها وليس لي بحق التقدمة قليل ولا كثير، فما ادعيته بعد يومي هذا منها فإني مبطل لا حق لي فيه ولا دعوى ولا طلب.

وكان ربما ترك الشيء بعد الشيء فيوقفه عليه أبو عبد اللَّه حتى كتب الكتاب، وختم وشهد عليه الشهود[١].

---

(١) في الكامل:
وكانت مدة ولاية عيسى بن موسى الكوفة ثلاث عشرة سنة، وعزله المنصور واستعمل محمد بن سليمان بن علي عليها ليؤذي عيسى ويستخف به فلم يفعل ولم يزل معظماً له مبجلاً.
وزاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة:
وفيها: أغار استرخان الخوازمي في جمع من الترك على المسلمين بناحية أرمينية وسبى من المسلمين، وأهل الذمة خلقاً، ودخلوا تفيس، وكان حرب مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة، وسير المنصور إلى محاربة الترك جبرائيل بن يحيى، وحرب بن عبد اللَّه، فقاتلوهم فهُزِمَ جبرائيل، وقتل حرب، وقُتِل من أصحاب جبرائيل خلق كثير.
وفي هذه السنة: ولّى المنصور محمداً ابن أخيه أبي العباس السفاح البصرة فاستعفى منها، فعافاه، فانصرف إلى بغداد، واستخلف بها نخبة بن سالم، فأقره عليها، فلما رجع إلى بغداد مات بها.
وحج بالناس هذه السنة: المنصور، وكان عامله على مكة والطائف عمه عبد الصمد بن علي.
وعلى المدينة: جعفر بن سليمان.
وعلى مصر: يزيد بن حاتم المهلبي.
وفيها: أغزى عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس مولاه بدراً، وتمام بن علقمة طليطلة وبها هاشم بن عذرة وضيّقا عليه، ثم أسراه هو وحياة بن الوليد اليحصبي، وعثمان بن حمزة بن عبيد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وأتيا بهم إلى عبد الرحمن في جباب صوف وقد حُلقت رؤوسهم ولحاهم، وقد أُركبوا الحمير وهم في السلاسل، ثم صلبوا بقرطبة.
وفيها: قدم رسول عبد الرحمن الذي أرسله إلى الشام في إحضار ولده الأكبر سليمان فحضر سليمان معه، وكان قد وُلِدَ لعبد الرحمن بالأندلس وَلَدُهُ هشام فقدمه الأمير عبد الرحمن على سليمان، فحصل بينهما حقدٌ وغِلٌ أوجبا ما نذكره فيما بعد.
وفيها: تناثرت النجوم.
وفيها: مات أشعث بن عبد الملك الحمراني البصري.
وهشام بن حسان مولى لِعَتِيك.
وقيل: مات سنة ثمان وأربعين.
وعبد الرحمن بن زبيد بن الحارث اليامي أبو الأشعث الكوفي.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

ولم يجر فيها شيء مما بلغنا يستفاد منه تجربة[١].

(١) هذا ما ذكره المؤلف في تلك السنة وقال ابن الأثير فيها في الكامل:
وفيها: خرج حسان بن مجالد بن يحيى بن مالك بن الأجدع الهمداني، ومالك هذا هو أخو مسروق بن الأجدع.
وكان خروجه بنواحي الموصل بقرية تسمى بافخارى قريب من الموصل على دجلة فخرج إليه عسكر الموصل وعليها الصقر بن نجدة ـ وكان قد وليها بعد حرب بن عبد اللّه ـ فالتقوا، واقتتلوا، وانهزم عسكر الموصل إلى الجسر، وأحرق الخوارج أصحاب حسان السوق هناك ونهبوه، ثم إن حسان سار إلى الرقة، ومنها إلى البحر ودخل إلى بلد السند وكانت الخوارج من أهل عمان يدخلونهم ويدعونهم، فاستأذنهم في المسير إليهم فلم يجيبوه، فعاد إلى الموصل فخرج إليه الصقر أيضاً والحسن بن صالح بن حسان الهمداني، وبلال القيسي فالتقوا فانهزم الصقر وأُسِرَ الحسن صالح، وبلال، فقتل حسان بلالاً واستبقى الحسن لأنه من همدان ففارقه بعض أصحابه لهذا.
وكان حسان قد أخذ رأي الخوارج عن خاله حفص بن أشيم، وكان من علماء الخوارج وفقهائهم، ولما بلغ المنصور خروج حسان قال: خارجي من همدان قالوا: إنه ابن أخت حفص بن أشيم فقال: فمن هناك، وإنما أنكر المنصور ذلك لأن عامة همدان شيعة لعلي، وعزم المنصور على إنفاذ الجيوش إلى الموصل والفتك بأهلها فأحضر أبا حنيفة، وعزم المنصور على إنفاذ الجيوش إلى الموصل شرطوا إلى أنهم يخرجون عليّ، فإن فعلوا حلّت دماؤهم وأموالهم، وقد خرجوا فسكت أبو حنيفة وتكلم الرجلان وقالا: رعيتك فإن عفوت فأهل ذلك أنت وإن عاقبت فيما يستحقون، فقال لأبي حنيفة: أراك سكت يا شيخ، فقال: يا أمير المؤمنين أباحوك ما لا يملكون أرأيت لو أن امرأة أباحت فرجها بغير عقد نكاح وملك يمين أكان يجوز أن توطأ؟
قال: لا؟ وكفَّ عن أهل الموصل، وأمر أبا حنيفة وصاحبه بالعود إلى الكوفة.
وفيها: استعمل المنصور على الموصل خالد بن برمك، وسبب ذلك أنه بَلَغَهُ انتشار الأكراد بولايتها وإفسادهم.
فقال: من لها؟
فقالوا: المسيب بن زهير، فأشار عمارة بن غمرةٍ بخالد بن برمك، فولاه وسيره إليها وأحسن إلى الناس، وقهر المفسدين وكفَّهم، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه إليهم.
وفيها: ولد الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك لسبع بقين من ذي الحجة قبل أن يولد الرشيد بن المهدي بسبعة أيام، فأرضعته الخيزران أم الرشيد بلبن ابنها، فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة ولذلك يقول سلم الخاسر:

أصبح الفضل والخليفة هارو ... ن رضيعي لبان خير النساء

وقال أبو الجنوب:

كفى لك فضلاً أن أفضل حرة ... غذتك بثدي والخليفة واحد

ولما بلغ المنصور خروج محمد بن الأشعث من إفريقية، بعث إلى الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي عهداً بولاية إفريقية، وكان هذا الأغلب ممن قام مع أبي مسلم الخراساني، وقدم إفريقية مع محمد بن الأشعث، فلما أتاه العهد قدم القيروان في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائة، وأخرج جماعة من قواد المضرية وسكن الناس. =

....

= وخرج عليه أبو قرة في جمع كثير من البربر فسار إليه الأغلب فهرب أبو قرة من غير قتال، وسار الأغلب يريد طنجة، فاشتد ذلك على الجند وكرهوا المسير، وتسللوا عنه إلى القيروان فلم يبق معه إلا نفر يسير.

وكان الحسن بن حرب الكندي بمدينة تونس، وكاتب الجند، ودعاهم إلى نفسه فأجابوه فسار حتى نزل القيروان من غير مانع، وبلغ الأغلب الخبر فعاد مجداً، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تعدل إلى لقاء العدو في هذه العدة القليلة، ولكن الرأي أن تعدل إلى قابس فإن أكثر من معه يجيء إليك لأنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجة لا غير، وتقوى بهم وقاتل عدوك.

ففعل ذلك وكثر جمعه وسار إلى الحسن بن حرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الحسن وقتل من أصحابه جمع كثير، ومضى الحسن إلى تونس في جمادى الآخرة سنة خمسين ومائة، وولي المخارق إفريقية في رمضان ووجه الخيل في طلب الحسن فهرب الحسن من تونس إلى كتامة فأقام شهرين، ثم رجع إلى تونس فخرج إليه من بها من الجند فقتلوه. وقد قيل: إن الحسن قُتل بعد قَتل الأغلب، لأن أصحاب الأغلب ثبتوا بعد قتله في المعركة، فقتل الحسن بن حرب أيضاً وولى أصحابه منهزمين وصلب الحسن ودفن الأغلب وسُمِّيَ الشهيد، وكانت هذه الوقعة في شعبان سنة خمسين ومائة.

وفي هذه السنة: خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بالأندلس بمدينة لبلة، وسبب ذلك: أنه سكر يوماً فتذكر من قتل من أصحابه اليمانية مع العلاء ـ وقد ذكرناه ـ فعقد لواء.

فلما صحا رآه معقوداً فسأل عنه فأخبر به فأراد حله، ثم قال: ما كنت أعقد لواء ثم أحله بغير شيء، وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانية إليه، وقصد إشبيلية وتغلب عليها، وكثر جمعه، فبادره عبد الرحمن صاحب الأندلس في جموعه، فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فحصر عبد الرحمن فيها وضيق عليه ومنع أهل الخلاف من الوصول إليه، وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللخمي، وكان بمدينة شدونة، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد المطري وهم في جمع كثير، فلما سمع عبد الرحمن ذلك سَيَّر إليهم بداراً مولاه في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري فطال الحصار عليه، وقلَّت رجاله بالقتل، ففارقه ببعضهم، فخرج يوماً من القلعة، وقاتل فقُتل وحمل رأسه إلى عبد الرحمن.

فقدم أهل القلعة عليهم خليفة ابن مروان فدام الحصار عليهم، فأرسل أهلها يطلبون الأمان من عبد الرحمن ليسلموا إليه خليفة، فأجابهم إلى ذلك وأمَّنهم فسلموا إليه الحصن وخليفة، فخرب الحصن، وقتل خليفة ومن معه، ثم انتقل إلى غياث وكان موافقاً للمطري على الخلاف، فحصرهم، وضيق عليهم وعاد إلى قرطبة فلما عاد إليها خرج عليه عبد اللّه بن خراشة الأسدي، بكورة جيان فاجتمعت إليه جموع فأغار على قرطبة فسير إليه عبد الرحمن جيشاً فتفرق جمعه فطلب الأمان فبذله له عبد الرحمن ووفى له.

وفيها: عسكر صالح بن علي بدابق ولم يغز، وحج بالناس أبو جعفر المنصور وكان ولاه الأمصار من تقدم ذكرهم.

وفيها: مات جعفر بن محمد الصادق وقبره بالمدينة يزار هو وأبوه وجده في قبر واحد مع الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفيها: مات زكريا بن أبي زائدة وأبو أمية عمرو بن الحارث بن يعقوب مولى قيس بن سعد بن عبادة، وقيل غير ذلك.

وكان مولده سنة تسعين.

وعبد اللّه بن يزيد مولى الأسود بن سفيان، ويقال: مولى تميم وهو ثقة، ومحمد بن =

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

ولم يجر فيها شيء يستفاد منه تجربة ولا يكتب(١).

ودخلت سنة خمسين ومائة فيما جرى فيها:

خروج استاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من الكور بخراسان.

فكان فيما ذكر في زهاء ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان.

وخرج إليهم جماعة أهل بلدان وأمراء فهزموهم، وقتلهم(٢).

فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى المهدي فولاه المهدي محاربة استاذسيس، وضم إليه القواد وكان المهدي يومئذ بنيسابور، وكان كاتب المهدي أبو عبيد اللّه وزيره وهز ابن خازم يخرج الكتب إلى خازم وغيره من القواد بالأمر والنهي حيلة [٤٨/ب] حازم في ذلك.

فاعتل خازم في عسكره بشرب الدواء. ثم ركب البريد حتى قدم على المهدي،

= عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ومحمد بن الوليد الزبيدي.
ومحمد بن عجلان المدني.
وعوَّام بن حوشب بن يزيد بن رويم الشيباني الواسطي.
ويحيى بن أبي عمرو الشيباني من أهل الرملة.

(١) كذا قال المؤلف في هذه السنة أيضاً، وقال فيها ابن الأثير:
فيها: غزا العباس بن محمد الصائفة أرض الروم، ومعه الحسن بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث، فمات محمد في الطريق.
وفيها: استتم المنصور بناء سور مدينة بغداد، وخندقها، وفرَّغ جميع أمورها وسار إلى حديثة الموصل ثم عاد.
وحج بالناس: محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.
وفيها: عُزل عبد الصمد بن علي عن مكة في قول بعضهم، واستعمل محمد بن إبراهيم.
وكان عمال الأمصار من تقدم ذكرهم سوى مكة والطائف.
وفيها: أغزى عبد الرحمن صاحب الأندلس بدراً مولاه إلى بلاد العدو، فجاوز إليه وأخذ جزيتها.
وكان أبو الصباح حيي بن يحيى على إشبيلية فعزله، فعاد إلى الخلاف.
فأنفذ إليه عبد الرحمن وخدعه حتى حضر عنده، فقتله.
وفيها: سلم بن قتيبة الباهلي بالري، وكان مشهوراً عظيم القدر.
وكهمس بن الحسن أبو الحسن التميمي البصري.
وفيها: توفي عيسى بن عمر الثقفي النحوي المشهور، وعنه أخذ الخليل النحو، وله فيه تصنيف.

(٢) وضع ابن الأثير هذا الخبر فقال:
وسار حتى التقوا هم وأهل مروالروذ، فخرج إليهم الأجشم المروروذي في أهل مرو الروذ، فقاتلوه قتالاً شديداً فقتل الأجشم وكثر القتل في أصحابه وهُزِمَ عدة من القواد، منهم معاذ بن مسلم، وجبرائيل بن يحيى، وحماد بن عمرو، وأبو النجم السجستاني، وداود بن كرار.

وأبو عبيد اللّه يظنه في العسكر ولا يعرف خبره.

فلما قدم خازم نيسابور ودخل على المهدي استخلاه، فدخل أبو عبيد اللّه فأمسك خازم.

فقال المهدي: لا عين عليك من معاوية، فقل ما بدا لك.

وأبى خازم أن يخبره أو يكلمه حتى قام أبو عبيد اللّه فلما خلا به، شكا إليه أبا عبيد اللّه معاوية، وأخبره بعصبيته وتحامله، وما كانت ترد من كتبه عليه وعلى من قِبله من القواد، وما صاروا إليه بذلك من الفساد. . . . .[1] والناس بأنفسهم، والاستبداد بآرائهم، وقلة السمع والطاعة، وأن أمر الحرب لا يستقيم إلاّ برأس، ولا يكون في عسكره لواء يخفق على رأس أحدٍ إلاّ لواءه، أو لواء هو عقده.

وأخبره أنه غير راجع إلى قتال استاذسيس إلاّ بتفويض الأمر إليه وإعفائه من معاوية أبي عبيد اللّه، وأن يسمع منه أو يداخله فيما يدبره، وأن يكتب إليهم بالسمع والطاعة له، فأجابه المهدي إلى كل ما سأل.

فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحلّ لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعقد لمن أراد، وضم إليه من كان انهزم من الجند وجعلهم حشواً يكثر به من معه في أخريات الناس ولم يتقدمهم لما في قلوبهم من روعة الهزيمة [وكان معه][2] من هذه الطبقة اثنتين وعشرين ألفاً، ثم انتخب ستة آلاف من الجند فضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه منحازين[3] وكان بكار بن مسلم[4] العقيلي فيمن انتخب. ثم تعبى للقتال، وخندق، وكان بكار على مقدمته وسمى لميمنته وميسرته من ارتضاهم[5]. ثم سار إلى موضع اختاره فنزله، وخندق عليه، وأدخل خندقه جميع ما أراد، وأدخل إليه جميع أصحابه، وجعل له أربعة أبواب وعلى كل باب منها [ألفاً][6] من أصحابه الذين انتخبهم وهم أربعة آلاف رجل، مع صاحب مقدمته وهو بكار ألفين تكملة لثمانية عشر

---

(١) موضع النقط سقط في السياق.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.

(٣) في الكامل: كانوا معه من المنتخبين.

(٤) في الكامل: بكار بن سلم، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: ابن مسلم، أي كما هو هنا.

(٥) في الكامل ذكر أسماء القواد فقال:
فتعبى للقتال فجعل الهيثم بن شعبة بن ظهر على ميمنته، ونهار بن حصين السعدي على ميسرته، وبكار بن سلم العقيلي في مقدمته، وكان لؤلؤة مع الزبرقان، فمكر بهم وراوغهم في أن ينقلهم من موضع إلى موضع، وخندق إلى خندق حتى قطعهم، وكان أكثرهم رجاله ثم سار خازم إلى موضع فنزله. . .

(٦) زيادة توضيحية وهي من الكامل.

ألفاً. فأقبل الأعداء معهم المرور والزبل والفؤوس[١] يريدون دفن الخندق، ثم الهجوم عليه. فأتوا الخندق من قبل بكار بن مسلم فشدوا عليهم شدة لم تكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكار رمى بنفسه فترجل على باب الخندق، ثم نادى أصحابه: يا بني الفواجر من قبلي يؤتى المسلمون!!

فترجل معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلاً، فمنعوا بابهم حتى أجلوا الناس عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع استاذسيس من أهل سجستان يقال له: الحريش وهو الذي كان يدبر أمرهم حيلة لخازم حتى هزم عدوه.

فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة وهو في الميمنة: أن اخرج من بابك الذي أنت عليه، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال علينا، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم.

وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون، وعمر بن مسلم بن قتيبة[٢] من طخارستان.

وبعث خازم إلى بكار بن مسلم، إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلف فكبّروا، وقولوا: قد جاء أهل طخارستان، ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم في القلب على الحريش السجستاني فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً وصبر بعضهم لبعض فبيناهم على تلك الحال إذ نظروا إلى الأعلام[٣]، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم فشد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم وطعنوهم بالرماح ورموهم بالنشاب وخرج عليهم أصحاب الميسرة[٤]، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم، ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا، وكان [عدد][٥] من قتل منهم في تلك المعركة نحو [٤٩/أ] سبعين ألفاً، وأسروا أربعة عشر ألفاً.

والتجأ[٦] استاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة.

فقدم خازم الأربعة عشر ألفاً فضرب أعناقهم، وسار إلى المكان الذي لجأ إليه

---

(١) المرور والزبل والفؤوس هي أدوات الحفر والطم أو الردم لمن أراد أن يشق أو يحفر شيئاً من الأرض أو يردمه والمرو جمع مروة، وهي أداة أصغر من الفأس وهو تشبهه.

(٢) في الكامل: عمرو بن سلم بن قتيبة.

(٣) بعدها في الكامل:
فتنادوا بينهم: جاء أهل طخرستان.

(٤) في الكامل: وخرج عليهم نهار بن حصين من ناحية الميسرة...

(٥) زيادة من الكامل.

(٦) في الكامل، ونجا.

استاذسيس من الجبل فحصره حتى نزلوا على حكم أبي عون. وكان أبو عون قدم بعد الوقعة وقالوا: لا نرضى إلا بأبي عون، فرضي خازم وأعطاهم النزول على حكم أبي عون. فلما نزلوا أمر أبو استاذ سيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً.

فأنفذ ذلك خازم من حكم أبي عون [وكسا كل رجل ثوبين][1] وكتب خازم بالفتح إلى المهدي، وكتب به المهدي إلى المنصور[2].

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

وفيها: بنى المنصور الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد لابنه المهدي.

ذكر السبب في ذلك

انصرف المهدي من خراسان إلى بغداد وشغب الراوندية، وحاربوه على باب

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير في الكامل:
وقيل: إن خروج أستاذسيس ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق، وقطع السبيل.
وقيل: إنه جدّ المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون، وهو الذي قَتَلَ ذا الرياستين الفضل بن سهل لمواطأةٍ من المأمون، وسيرد ذكره إن شاء اللّٰه تعالى.
وفي هذه السنة: عزل المنصور جعفر بن سليمان عن المدينة وولاّها الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي.
وفيها: خرج بالأندلس غياث بن المسير الأسدي بنائحة، فجمع العمال لعبد الرحمن جمعاً كثيراً، وسار إلى غياث، فواقعه، فانهزم غياث ومن معه.
وقُتل غياث وبُعث برأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة.
وفيها: مات جعفر بن أبي جعفر المنصور، وصلى عليه أبوه ودفنوه ليلاً في مقابر قريش، ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة.
وحج بالناس: عبد الصمد بن علي، وكان هو العامل على مكة في قول بعضهم.
وقال بعضهم: بل كان العامل: محمد بن إبراهيم وكان على الكوفة: محمد بن سليمان بن علي وعلى البصرة: عُقبة بن سلم، وعلى قضائها سوار.
وعلى مصر: يزيد بن حاتم.
وفي هذه السنة: مات الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت.
ومعمر بن راشد، وعمر بن ذر.
وقيل: مات عمر سنة خمس وخمسين ومائة، وكان من الصالحين، يقول بالإرجاء.
وفي سنة خمسين: مات عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.
ومحمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي.
وقيل: مات سنة إحدى وخمسين.
وفيها: مات مقاتل بن سليمان البلخي المفسر، وكان ضعيفاً في الحديث.
وأبو جناب الكلبي.
وعثمان بن الأسود.
وسعيد بن أبي عروبة، واسم أبي عروبة مهران مولى بني يشكر وكنيته أبو النضر.

الذهب[١]، فدخل قثم بن العباس بن عبد اللّه بن العباس، على المنصور وهو يومئذ شيخ كبير مقدم عند القوم.

فقال له أبو جعفر: أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا؟! قد خفت أن تجمع كلمتهم، فيخرج هذا الأمر عنا فما ترى؟

قال: يا أمير المؤمنين، عندي في هذا رأي إن أنا أظهرته[٢] لك فسد وإن[٣] تركتني أمضيه صلحت لك خلافتك، وهابك جندك. قال: أَفَتُمْضِي في خلافتي أمراً لا تعلمني ما هو؟

فقال: إن كنت[٤] عندك متهماً على دولتك فلا تشاورني، وإن كنت مأموناً عليها فدعني أمضي رأيي.

قال له: فأمضه.

قال: فانصرف قثم إلى منزله، فدعا غلاماً له، فقال: إذا كان غداً فتقدمني واجلس في دار أمير المؤمنين، فإذا رأيتني قد دخلت وتوسطت أصحاب[٥] المراتب، فخذ بعنان بغلتي[٦] واستوقفني، واستحلفني بحق رسول اللّه ﷺ، وحق العباس، وحق أمير المؤمنين إلاَّ ما وقفت[٧] لك وسمعت مسألتك، وأجبت عنها[٨].

فإني أنتهرك وأغلظ لك القول، فلا يهولنك ذلك مني، وعاودني بالمسألة، فإني سأشتمك، فلا يهولنك وعاودني القول والمسألة، فإني سأضربك بالسوط فلا يشقن ذلك عليك، وقل: أي الحيين أشرف اليمن أَمْ مُضَر؟

فإذا أجبتك فخل عنان بغلتي وأنت حُرٌّ.

قال: فغدا الغلام فجلس حيث أمره مولاه من دار الخليفة، فلما جاء الشيخ فعل الغلام ما أمر به، وفعل المولى ما كان قال له: أي الحيين أشرف اليمن أم مُضَر؟

فقال له قثم: مُضر منها رسول اللّه ﷺ، وفيها كتاب اللّه، وفيها بيت اللّه،

---

(١) في الكامل: وفي هذه السنة قدم المهدي من خراسان في شوال، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة، وغيرها فهنأوه بمقدمه، وكان سبب بنائها أن بعض الجند شغبوا على المنصور وحاربوه على باب الذهب. . .

(٢) في المخطوط: أظهر به. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: واان. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: انكنت. وهو تحريف.

(٥) في المخطوط: أصحابك، وهو تحريف.

(٦) في المخطوط: بلغتي. وهو تحريف.

(٧) في المخطوط: لما، والتصويب من الكامل. والمعنى واحد إلاَّ أن ما في الكامل أكثر قُرباً إلى الفهم.

(٨) في المخطوط: فيها. وما ذكرت من الكامل.

ومنها خليفة اللَّه.

قال: فامتعضت اليمن إذ لم يكن يذكر لها[١] شيئاً من شرفها. فقال قائد من قواد أهل اليمن لغلامه: قم فخذ بعنان بغلة الشيخ فاكبحها كبحاً عنيفاً يُطامن منه.

وفعل الغلام ما أمر به مولاه حتى كان يقعيها على عواقيبها. فامتعضت من ذلك مُضر وقالت: ليفعلن هذا بشيخنا؟!!

فأمر رجل منهم غلامه، فقال: اقطع يد العبد.

فقام إلى الغلام اليماني فقطع يده.

فنفر الحَيَّان وضرب قثم[٢] بغلته، ودخل إلى أبي جعفر، وافترق الجند، فصارت مُضر فرقة، واليمن فرقة، وربيعة فرقة، والخراسانية فرقة.

فقال: قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً كل حزب منهم يخاف أن يحدث حدثاً عليك فتضربه بالحزب الآخر.

وقد بقي عليك في التدبير بقيته.

قال: وما هي؟

قال: اعبر بابنك فاضرب له في ذلك الجانب قصراً وحوِّل معه من جيشك قوماً فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً، فإن فسد عليك هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب، وإن فسد عليك مُضر ضربتها بمن أطاعك من اليمن وربيعة والخراسانية، وإن فسد عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مُضر وغيرها.

فقَبِلَ رأيه ومشورته، فاستوى له ملكه، وكان [ذلك هو][٣] السبب في بناء الجانب الشرقي وهي الرصافة أولاً وإقطاع القواد هناك[٤].

---

(١) في الكامل: لهم.
(٢) في المخطوط: فتم. وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) هذا كل ما ذكر المؤلف من أحداث تلك السنة غير أن ابن الأثير زاد فيها كثيراً فقال:
فيها أغار الكرك على جدة.
وفيها: عَزَل المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة المعروف بهزار مرد ـ يعني ألف رجل ـ عن السند، واستعمل عليها هشام بن عمرو التغلبي، واستعمل عمر بن حفص على إفريقية.
وكان سبب عزله عن السند: أنه كان عليها لما ظهر محمد، وإبراهيم ابنا عبد اللَّه بن الحسن، فوجه محمد ابنه عبد اللَّه المعروف بالأشتر إلى البصرة، فاشترى منها خيلاً عتاقاً ليكون سبب وصولهم إلى عمر بن حفص لأنه كان فيمن بايعه من قواد المنصور، وكان يتشيع.
وساروا في البحر إلى السند، فأمرهم عمر أن يحضروا. =

....

= فقال له بعضهم: إن جئناك بما هو خير من الخيل وبما لك فيه خير الدنيا والآخرة، فأعطنا الأمان، إما قلبت منا، وإما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج عن بلادك راجعين.
فأمنه، فذكر له حالهم وحال عبد اللَّه بن محمد بن عبد اللَّه، أرسله أبوه إليه، فرحَّبَ بهم وبايعهم، وأنزل الأشتر عنده مختفياً ودعا كبراء أهل البلد وقواده، وأهل بيته إلى البيعة، فأجابوه.
فقطع ألويتهم البيض وهيأ لبسه من البياض ليخطب فيه، وتهيأ لذلك يوم الخميس، فوصله مركب لطيف في رسول من امرأة عمر بن حفص تخبره بقتل محمد بن عبد اللَّه، فدخل على الأشتر فأخبره وعزاه. فقال له الأشتر: إن أمري قد ظهر، فدمي في عنقك، فانظر لنفسك أو دع.
قال عمر: قد رأيت رأياً، ههنا ملك من ملوك السند عظيم الشأن كثير المملكة وهو على شوكة، أشد الناس تعظيماً لرسول اللَّه ﷺ، وهو وفي أرسل إليه، فاعقد بينك وبينه عقداً فأوجهك إليه، تكون عندي، فلست ترام معه.
ففعل ذلك، وسار إليه الأشتر فأكرمه، وأظهر بره، وتسللت إليه الزيدية حتى اجتمع معه أربعمائة إنسان من أهل البصائر، فكان يركب فيهم، ويتصيد في هيئة الملوك وآلاتهم.
فلما انتهى ذلك إلى المنصور، بلغ منه ما بلغ، وكتب إلى عمر بن حفص يخبره ما بلغه، فقرأ الكتاب على أهله، وقال لهم: إن أقررت بالقصة عزلني، وإن سرت إليه قتلني، وإن امتنعت حاربني.
فقال له رجل منهم: ألق الذنب عليّ وخذني وقيدني، فإنه سيكتب في حملي إليه، فاحملني، فإنه لا يقدم علي لمكانك في السند، وحال أهل بيتك بالبصرة فقال عمر: أخاف عليك خلاف ما تظن. قال: إن قتلت فنفسي فداء لنفسك. فقيده وحبسه، وكتب إلى المنصور بأمره، فكتب إليه المنصور يأمره بحمله، فلما صار إليه ضرب عنقه، ثم استعمل على السند هشام بن عمرو التغلبي.
وكان سبب استعماله: أن المنصور كان تفكر فيمن يوليه السند، فبينا هو راكب، والمنصور ينظر إليه إذ غاب يسيراً، ثم عاد، فاستأذن على المنصور، فأدخله.
فقال: إني لما انصرفت من الموكب لقيتني أختي فلانة، فرأيت من جمالها وعقلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين.
فأطرق، ثم قال: اخرج يأتك أمري فلما خرج قال المنصور لحاجبه الربيع: لولا قول جرير:

لا تطلبن خؤولة في تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا

لتزوجت إليه، قل له: لو كان لنا حاجة في النكاح لقبلت، فجزاك اللَّه خيراً، وقد وليتك السند، فتجهز إليها، وأمره أن يكاتب الملك بتسليم عبد اللَّه، فإن سلَّمه وإلاّ حاربه.
وكتب إلى عمر بن حفص بولايته إفريقية فسار هشام إلى السند فملكها، وسار عمر إلى إفريقية فوليها.
فلما صار هشام بالسند كره أخذ عبد اللَّه الأشتر وأقبل يُري الناس أنه يكاتب ذلك الملك، واتصلت الأخبار بالمنصور بذلك، فجعل يكتب إليه يستحثه، فبينا هو كذلك إذ خرجت خارجة من بلاد السند، فوجه هشام أخاه سفنجاً، فخرج في جيشه وطريقه بجنبات ذلك الملك.
فبينا هو يسير إذ غبارة قد ارتفعت، فظن أنهم مقدمة العدو الذي يقصده، فوجه طلائعه، فذحفت إليه فقالوا: هذا عبد اللَّه بن محمد العلوي يتنزه على شاطئ مهران، فمضى يريده.
فقال نصحاؤه، هذا ابن رسول اللَّه ﷺ، وقد تركه أخوك متعمداً مخافة أن يبوء بدمه، فلم يقصده.
فقال: ما كنت لأدع أخذه، ولا ادع أحداً يحظى بأخذه وقتله عند المنصور.
وكان عبد اللَّه في عشرة فقصده، فقاتله عبد اللَّه وقاتل أصحابه حتى قتل، وقتلوا جميعاً، فلم =

....

= يفلت منهم مخبر، وسقط عبد اللّٰه بين القتلى، فلم يشعر به.
وقيل: إن أصحابه قذفوه في مهران حتى لا يحمل رأسه.
وكتب هشام بذلك إلى المنصور، فكتب إليه المنصور يشكره، ويأمره بمحاربة ذلك الملك، فحاربه حتى ظفر به وقتله، وغلب على مملكته.
وكان عبد اللّٰه قد اتخذ سراري، فأولد واحدة منهن ولداً، وهو محمد بن عبد اللّٰه الذي يقال له: ابن الأشتر.
فأخذ هشام السراري والولد معهن، فسيرهن إلى المنصور، فسير المنصور الولد إلى عامله بالمدينة، وكتب معه بصحة نسبه وتسليمه إلى أهله.
وفي هذه السنة: استعمل المنصور على إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب، وإنما نسب إلى بيت المهلب لشهرته.
وكان سبب مسيره إليها: أن المنصور لما بلغه قتل الأغلب بن سالم خاف على إفريقية فوجه إليها عمر والياً، فقدم القيروان في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس، فاجتمع وجوه البلد، فوصلهم، وأحسن إليهم، وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين.
فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي، فخلت إفريقية من الجند فثار بها البربر، فخرج إليهم حبيب فقُتل، واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الأباضي واسمه: يعقوب بن حبيب مولى كندة، وكان عامل عمر بن حفص على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي، وكتب إلى عمر يستمده، فأمده بعسكر، فالتقوا، وقاتلوا أبا حاتم الأباضي، فهزمهم، فساروا إلى قابس وحصرهم أبو حاتم وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة، وانتقضت إفريقية من كل ناحية.
ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكراً، منهم أبو قرط الصفري في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً، وأبو حاتم في عسكر كثير، وعاصم السدراتي الأباضي في ستة آلاف، المسعود الزناتي الأباضي في عشرة آلاف فارس، وغير من ذكرنا. فلما رأى عمر بن حفص إحاطتهم به عزم على الخروج إلى قتالهم، فمنعه أصحابه وقالوا: إن أصبت تلف العرب، فعدل إلى أعمال الحيلة، فأرسل إلى أبي قرة مقدم الصفرية يبذل له ستين ألف درهم ليرجع عنه، فقال: بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا، ولم يجبهم إلى ذلك، فأرسل إلى أخي أبي قرة، فدفع إليه أربعة آلاف درهم، وثياباً على أن يعمل في صرف أخيه الصفرية، فأجابهم، وارتحل من ليلته، وتبعه العسكر منصرفين إلى بلادهم، فاضطر أبو قرة إلى اتباعهم.
فلما سارت الصفرية سير عمر جيشاً إلى ابن رستم وهو في تهوذا ـ قبيلة من البربر ـ فقاتلوه، فانهزم ابن رستم إلى تاهرت، فضعف أمر الأباضية عن مقاومة عمر، فساروا عن طبنة إلى القيروان محصرها أبو حاتم وعمر بطبنة ليصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج، فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها، ولما سار عمر بن حفص إلى القيروان استخلف على طبنة عسكراً، فلما سمع أبو قرة بمسير عمر بن حفص سار هو إلى طبنة فحصرها، فخرج إليه من بها من العساكر وقتلوه، فانهزم منهم وقتل من عسكره خلق كثير.
وأما أبو حاتم فإنه لمَّا حصر القيروان كثر جمعه ولازم حصارها، وليس في بيت مالها دينار ولا في إهرائها شيء من الطعام، فدام الحصار ثمانية أشهر، وكان الجند يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفي النهار حتى جهدهم الجوع وأكلوا دوابهم وكلابهم ولحق كثير من أهلها بالبربر ولم يبق غير دخول الخوارج إليها، فأتاهم الخبر بوصول عمر بن حفص من طبنة فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس، فزحف الخوارج إليه، بأجمعهم وتركوا القيروان، فلما فارقوها، سار عمر إلى =

....

= تونس، فتبعه البربر فعاد إلى القيروان مجداً، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب، وحطب، وغير ذلك، ووصل أبو حاتم والبربر إليه، فحصروه، فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم وفي كل سنة يوم يكون بينهم قتال وحرب، فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه قال لهم: الرأي أن أخرج من الحصار، وأغير على بلاد البربر وأحمل إليكم الميرة. قالوا: إنّا نخاف بعدك.
قال: فأرسل فلاناً وفلاناً يفعلون ذلك.
فأجابوه، فلما قال للرجلين، قالا: لا نتركك في الحصار ونسير عنك.
فعزم على إلقاء نفسه إلى الموت. فأتى الخبر أن المنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم بن قتيبة بن المهلب في ستين ألف مقاتل، وأشار عليه من عنده بالتوقف عن القتال إلى أن يصل العسكر، فلم يفعل، وخرج وقاتل، فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة.
وقام بأمر الناس حميد بن صخر، وهو أخو عمر لأمه، فوادع أبا حاتم وصالحه على أن حميداً ومن معه لا يخلعون المنصور ولا ينازعهم أبا حاتم في سوادهم وسلاحهم، وأجابهم إلى ذلك.
ففتحت له القيروان وخرج أكثر الجند إلى طبنة، وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان، وثلم سورها، وبلغه وصول يزيد بن حاتم، فسار إلى طرابلس، وأمر صاحبه بالقيروان بأخذ سلاح الجند، وأن يفرق بينهم، فخالف بعض أصحابه، وقالوا: لا نغدر بهم.
وكان المقدم على المخالفين عمر بن عثمان الفهري، وقام في القيروان وقتل أبي حاتم، فعاد أبو حاتم، فهرب عمر بن عثمان من بين يديه إلى تونس، وعاد أبو حاتم إلى طرابلس ليقاتل يزيد بن حاتم.
فقيل: كان بين الخوارج والجنود من الذين قتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة.
لما بلغ المنصور ما حَلَّ بعمر بن حفص من الخوارج، جهز يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس وسيره إلى إفريقية، فوصلها سنة أربع وخمسين ومائة، فلما قاربها، سار إليه بعض جندها، واجتمعوا به، وساروا معه إلى طرابلس، فسار أبو حاتم الخارجي إلى جبال نفوسة، وسير يزيد طائفة من العسكر إلى قابس فلقيهم أبو حاتم فهزمهم فعادوا إلى يزيد، ونزل أبو حاتم في مكان وعر وخندق على عسكره، وعبى يزيد أصحابه، وسار إليه، فالتقوا في ربيع الأول سنة خمس وخمسين، فاقتتلوا أشد قتال، فانهزم البربر، وقتل أبو حاتم، وأهل نجدته، وطلبهم يزيد في كل سهل وجبل، فقتلهم قتلاً ذريعاً، وكان عدة من قتل في المعركة ثلاثين ألفاً، وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون: يا لثارات عمر بن حفص، وأقام شهراً يقتل الخوارج، ثم رحل إلى القيروان.
فكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فهرب إلى كتامة، فسير إليهم يزيد بن حاتم جيشاً، فحصروا البربر، وظفروا بهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وهرب عبد الرحمن، وقُتل جميع من كان معه.
وصفت إفريقية وأحسن يزيد السيرة، وأمن الناس إلى أن انتقضت ورفجومة سنة أربع وستين ومائة بأرض الزاب ـ وعليها أيوب الهواري ـ فسير إليهم عسكراً كثيراً واستعمل عليهم يزيد بن مجزا المهلبي فالتقوا واقتتلوا، فانهزم يزيد وقتل كثير من أصحابه، وقتل المخارق بن عقار صاحب الزاب، فولي مكانه المهلب بن يزيد المهلبي، وأمدهم يزيد بن حاتم بجمع كثير، واستعمل عليهم العلاء بن سعيد المهلبي، وانضم إليهم المنهزمون ولقوا ورفجومة، واقتتلوا واشتد القتال فانهزمت البربر، وأيوب، وقتلوا بكل مكان حتى أتى على آخرهم، ولم يقتل من الجند أحد.
ثم مات يزيد في رمضان سنة سبعين ومائة، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر، واستخلف ابنه داود على إفريقية. =

....

= وفي هذه السنة: سار عقبة بن سلم من البصرة، واستخلف عليها نافع بن عقبة إلى البحرين، فقتل سليمان بن حكيم، وسبى أهل البحرين، وأنفذ بعض السبي والأسارى إلى المنصور فقتل بعضهم، ووهب الباقين للمهدي، فأطلقهم وكساهم، ثم عزل عقبة عن البصرة لأنه لم يستقص على أهل البحرين. وزعم بعضهم أن المنصور استعمل معن بن زائدة الشيباني على سجستان هذه السنة.
وحج بالناس هذه السنة: محمد بن إبراهيم، الإمام، وكان هو العامل بمكة، والطائف.
وعلى المدينة: الحسن بن زيد.
وعلى البصرة: جابر بن توبة الكلابي.
وعلى الكوفة: محمد بن سليمان.
وعلى مصر: يزيد بن حاتم.
وفيها: ثار في الشرق من الأندلس رجل من بربر مكناسة كان يعلم الصبيان، وكان اسمه شقنا بن عبد الواحد، وكانت أمه تسمى فاطمة، وادعى أنه من ولد فاطمة عليها السلام، ثم من ولد الحسين عليه السلام، وتسمى بعبد الله بن محمد، وسكن شنت برية، واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعزموا أمرهم، وسار إليه عبد الرحمن الأموي فلم يقف له، وراغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط، وإذا خاف صعد الجبال بحيث يصعب طلبه.
فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فاستعمل حبيب على شنت برية سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان، فأمره بطلب شقنا، فنزل شقنا إلى شنت برية، وأخذ سليمان فقتله واشتد أمره وطار وغلب على ناحية قورية، وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمن الأموي، فغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له، فأعياه أمره، فعاد عنه، وسير إليه سنة ثلاث وخمسين بدر مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم غزاه عبد الرحمن الأموي بنفسه سنة أربع وخمسين ومائة فلم يثبت له شقنا، ثم سير إليه سنة خمس وخمسين أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، فخدعه شقنا، وأفسد عليه جنده فهرب عبيد الله، وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر.
وفي سنة خمس وخمسين أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكر عبيد الله إلى حصن الهواريين المعروف بمدائن، وبه عامل لعبد الرحمن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه فقتله شقنا، وأخذ خيله وسلاحه، وجميع ما كان معه.
وفي هذه السنة: قتل معن بن زائدة الشيباني بسجستان، وكان المنصور قد استعمله عليها، فلما وصلها أرسل إلى رتبيل يأمره بحمل القرار الذي عليه كل سنة، فبعث إليه عروضاً وزاد في ثمنها فغضب معن، وسار إلى الرخج، وعلى مقدمته ابن أخيه مزيد بن زائدة، فوجد رتبيل قد خرج عنها إلى زابلستان ليصيف بها، ففتحها وأصاب سبياً كثيراً، وكان في السبي فرج الرخجي، وهو صبي وأبوه زيات، فرأى معن غباراً ساطعاً أثارته حُمر الوحش، فظن أنه جيش أقبل ليخلص السبي والأسرى، فأخرج بوضع السيف فيهم، فقتل منهم عدة كثيرة، ثم ظهر له أمر الغبار فأمسك.
فخاف معن الشتاء وهجومه، فانصرف إلى بست، وأنكر قوم من الخوارج سيرته فاندسوا مع فَعَلَةٍ كانوا يبنون في منزله فلما بلغوا التسقيف أخفوا سيوفهم في القصب، ثم دخلوا عليه بيته وهو يحتجم، ففتكوا به، وشق بعضهم بطنه فخنجر كان معه، وقال أحدهم لما ضربه: أنا الغلام الطاقي، والطاق رستاق بقرب زرنج، فقتلهم يزيد بن مزيد، فلم ينجو منهم أحد.
ثم إن يزيد قام بأمر سجستان واشتدت على العرب والعجم من أهلها وطأته، فاحتال بعض العرب، فكتب على لسانه إلى المنصور كتاباً يخبره فيه أن كتب المهدي إليه قد حيرته، وأدهشته ويسأله أن يعفيه من معاملته، فأغضب ذلك المنصور، وشتمه، وأقر المهدي كتابه فعزله، وأمر =

ثم دخلت سنة اثنين وخمسين ومائة

ولم يجر فيها ما يستفاد تجربة(١).

ثم دخلت سنة [٤٩/ب] ثلاث وخمسين ومائة

ولم يجر فيها أيضاً ما يستفاد منه تجربة(٢).

= بحبسه، وبيع كل شيء له، ثم إنه كُلِّم فيه، فأشخص إلى مدينة السلام، فلم يزل بها مجفواً حتى لقيه الخوارج على الجسر، فقاتلهم فتحرك أمره قليلاً، ثم وجه إلى يوسف البرم بخراسان، فلم يزل في ارتفاع إلى أن مات.
وفي هذه السنة: غزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام.
وفيها: استعمل المنصور على الموصل إسماعيل بن خالد بن عبد الله القسري.
وفيها: مات عبد الله بن عون، وكان مولده سنة ست وستين.
وفيها: مات أسيد بن عبد الله في ذي الحجة، وهو أمير خراسان.
وحنظلة بن أبي سفيان الجمحي.
وعلي بن صالح بن حبي أخو الحسن بن صالح، وكانا تقيين فيهما تشيع.

(١) كذا قال المؤلف وقال صاحب الكامل في أحداثها:
فيها: غزا حميد بن قُحْطبة كابل، وكان قد استعمله المنصور على خراسان سنة إحدى وخمسين.
وغزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم.
وقيل: أخوه محمد بن إبراهيم الإمام ولم يدرب.
وفيها: عَزَل المنصور جابر بن توبة عن البصرة، واستعمل عليها يزيد بن منصور.
وفيها: قتل المنصور هاشم بن الأساجيج، كان قد خالف وعَصَا بإفريقية فحمل إليه فقتله.
وحج بالناس هذه السنة: المنصور.
وفيها: عزل يزيد بن حاتم عن مصر، واستعمل عليها: محمد بن سعيد.
وكان عمال الأمصار سوى ما ذكرنا الذين تقدم ذكرهم.
وفيها: مات محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبد الله بن شهاب، وهو ابن أخي محمد بن شهاب الزهري، روى عنه عمه.
وفيها: مات يونس بن يزيد الأيلي، روى عن الزهري أيضاً.
وفيها: مات طلحة بن عمرو الحضرمي.
وإبراهيم بن أبي عبلة، واسم أبي عبلة شمر بن يقظان بن عامر العقيلي.

(٢) وكذا قال في هذه السنة وقال صاحب الكامل:
وفيها: عاد المنصور من مكة إلى البصرة، فجهز جيشاً في البحر إلى الكرك الذين تقدم ذكر إغارتهم على جدة.
وفيها: قبض المنصور على أبي أيوب الموزرياني، وعلى أخيه، وبني أخيه، وكانت منازلهم المناذر، وكان قد سعى به كاتبه أبان بن صدقة، وقيل: كان سبب قبضه: أن المنصور في دولة بني أمية ورد على الموصل وأقام به مستتراً، وتزوج امرأة من الأزد، فحملت منه، ثم فارق الموصل، وأعطاها تذكرة، وقال لها: إذا سمعت بدولة لبني هاشم، فأرسلي هذه التذكرة إلى صاحب الأمر، فهو يعرفها.
فوضعت المرأة ولداً سمته جعفراً فنشأ وتعلم الكتابة وما يحتاج إليه الكاتب.
وولي المنصور الخلافة، فقدم جعفر إلى بغداد، واتصل بأبي أيوب، فجعله كاتباً بالديوان، =

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

ولم يجر فيها أيضاً ما يستفاد منه تجربة[(١)].

= فطلب المنصور يوماً من أبي أيوب كاتباً يكتب له شيئاً، فأرسل جعفراً إليه، فلما رآه المنصور مال إليه وأحبه، فلما أمره بالكتابة رآه حاذقاً ماهراً، فسأله من أين هو؟ ومن أبوه؟
فذكر له الحال، وأراه التذكرة وكانت معه، فعرفها المنصور، وصار يطلبه كل وقت بحجة الكتابة، فخافه أبو أيوب.
ثم إن المنصور أحضره يوماً، وأعطاه مالاً وأمر أن يصعد إلى الموصل ويحضر والدته، فسار من بغداد، وكان أبو أيوب قد وضع عليه العيون يأتونه بأخباره، فلما علم مسيره سير وراءه من اغتاله في الطريق، فقتله، فلما أبطأ على المنصور أرسل إلى أمه بالموصل من يسألها عنه، فذكرت له أنها لا علم لها به إلا أنه ببغداد يكتب في ديوان الخليفة.
فلما علم المنصور ذلك أرسل من يقص أثره، فانتهى إلى موضع وانقطع خبره، فعلم أنه قتل هناك، وكشف الخبر، فرأى أن قتله من يد أبي أيوب فنكبه، وفعل به ما فعل، وقبض المنصور أيضاً على عباد مولاه، وعلى هرثمة بن أعين بخراسان، وأحضرا مقيدين، لتعصبهما لعيسى بن موسى.
وفيها: أخذ المنصور الناس بتلبيس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال أبو دلامة:

وكنا نرجي من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس

وفيها: توفي عبيد ابن بنت أبي ليلى قاضي الكوفة، فاستقضى مكانه شريك بن عبد الله النخعي.
وفيها: غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري، فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلاً وأهله نيام، فسبى، وأسر من كان فيه، ثم قصد اللاذقية الخراب، فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين.
وحج بالناس هذه السنة: المهتدي، وكان أمير مكة: محمد بن إبراهيم.
وأمير المدينة: الحسن بن زيد
وأمير مصر: محمد بن سعيد.
وكان يزيد بن منصور على اليمن في قول بعضهم. وعلى الموصل: إسماعيل بن خالد بن عبد الله بن خالد.
وفيها: مات هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي، وقيل: سنة ست وخمسين، وقيل: تسع وخمسين.
والحسن بن عمارة.
وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر.
وثور بن يزيد.
وعبد الحميد بن جعفر بن عبد الله الأنصاري.
والضحاك بن عثمان بن عبد الله بن خالد بن حازم من ولد أخي حكيم بن حازم.
وفطر بن خليفة الكوفي.

(١) كذلك قال المؤلف في هذه السنة، وقال فيها ابن الأثير:
في هذه السنة: سار المنصور إلى الشام، وبيت المقدس، وسَيَّر يزيد بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة إلى إفريقية في خمسين ألف لحرب الخوارج الذين عمر بن حفص. وأراد المنصور بناء الرافقة فمنعه أهل الرافقة، فهم بمحاربتهم، وسقطت في هذه السنة الصاعقة فقتلت =

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

وفيها: بنى المنصور مدينة الرافقة، ووجه ابنه المهدي لبنائها، فبناها على مدينة بغداد في أبوابها وفقولها ورحابها[1] وشوارعها. وخندق أبو جعفر على الكوفة والبصرة، وجعل ما أنفق على ذلك من أموال أهلها.

فيحكى أنه لما أراد بناء سور الكوفة، وحفر الخندق لها، أمر بقسمة خمسة دراهم خمسة دراهم على الكوفة، وأراد بذلك عددهم، فلما عرف عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً من كل إنسان، فجبوا.

ثم أمر بإنفاق ذلك على السور وحفر الخندق لها، فقال شاعرهم:

يا لقومي ما لقينا ... من أمير المؤمنينا
قَسَّمَ الخمسة فينا ... وجبانا الأربعينا

وفيها: عزل المنصور يزيد بن أسيد عن الجزيرة وولاها أخاه العباس بن محمد.

فشكا يزيد إلى أبي جعفر، فقال: يا أمير المؤمنين إن أخاك أساء عزلي، وشتم عرضي.

فقال له المنصور: اجمع بين إحساني إليك وإساءة أخي، يعتدلا.

= بالمسجد خمسة نفر.
وفيها: ملك أبو أيوب المورياني وأخوه خالد.
وأمر المنصور بقطع يدي ابني أخيه وأرجلهم وضرب أعناقهم.
وفيها: استعمل على البصرة عبد الملك بن ظبيان النميري.
وغزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي، فبلغ الفرات.
وحج بالناس: محمد بن إبراهيم، وهو على مكة.
وكان على إفريقية: يزيد بن حاتم.
وكان والعمال من تقدم ذكرهم.
وفيها: مات أبو عمرو بن العلاء، وقيل: مات سنة سبع وخمسين، وكان عمره ست وثمانين سنة.
ومحمد بن عبد الله الشعيثي النصري.
وفيها: مات عثمان بن عطاء.
وجعفر بن برقان الجزري.
وأشعب الطماع.
وعلي بن صالح بن حبي.
وعمر بن إسحاق بن يسار أخو محمد بن إسحاق.
ووهب بن الورد المكي الزاهد.
وقرة بن خالد أبو خالد السدوسي البصري.
وهشام الدستوائي وهو هشام بن أبي عبد الله البصرى.

(١) في المخطوط: ورحاها. وهو تحريف، والمراد بالرحاب هي الميادين والساحات.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، إذا كان احسانكم جزاءً بإساءتكم كانت طاعتنا لكم تفضلاً منا عليكم[١].

(١) كذا جاء الخبر هنا أما في الكامل فعلى النحو التالي: عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة، وغضب عليه وغرّمه مالاً، فلم يزل ساخطاً عليه حتى غضب على عمه إسماعيل بن علي فشفع فيه عمومة المنصور وضيقوا عليه حتى رضي عنه.
فقال عيسى بن موسى للمنصور: يا أمير المؤمنين أرى آل علي بن عبد اللّه وإن كانت نعمك عليهم سابغة أنهم يرجعون إلى الحسد لنا فمن ذلك أنك غضبت على إسماعيل بن علي منذ أيام، فضيقوا عليك حتى رضيت عنه، وأنت غضبان على أخيك العباس منذ كذا وكذا، فما كلمك فيه أحد منهم فرضي عنه. وكان المنصور قد استعمل العباس على الجزيرة بعد يزيد بن أسيد، فشكا يزيد منه وقال: إنه أساء عزلي وشتم عرضي. . . وزاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة ما يلي:
وفيها: عُزل محمد بن سليمان عن الكوفي واستعمل عمرو بن زهير الضَّب أخا المسيب بن زهير.
وقيل: إنما عُزل سنة ثلاث وخمسين وكان عزله لأسباب بلغته عنه منها:
أنه قتل عبد الكريم بن أبي العوجاء، وكان قد حبسه على الزندقة، وهو خال معن بن زائدة الشيباني، فكثر شفاؤه عند المنصور ولم يتكلم فيه إلا طنين منهم.
فكتب إلى محمد بن سليمان بالكفّ عنه إلى أن يأتيه رأيه.
وكان ابن أبي العوجاء قد أرسل إلى محمد بن سليمان يسأله أن يؤخره ثلاثة أيام ويعطيه مائة ألف، فلما ذكر لمحمد أمر بقتله، فلما أيقن أنه مقتول قال: واللّه لقد وضعت أربعة آلاف حديث حلّلت فيها الحرام، وحرمت فيها الحلال، واللّه لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم، فقتل.
وورد كتاب المنصور إلى محمد يأمره بالكفّ عنه، فوصل وقد قتله، فلما بلغ المنصور غضب وقال: واللّه لقد هممت أن أقيده به.
ثم أحضر عمه عيسى بن علي، وقال له: هذا عملُك أنت أشرت بتولية هذا الغلام الغرّ قتل فلاناً بغير أمري، وقد كتبت بعزله وتهديده.
فقال له عيسى: إن محمداً إنما قتله على الزندقة فإن كان أصاب فهو لك. وإن أخطأ فعليه، ولئن عزلته على أثر ذلك ليذهبن بالثناء والذكر ولترجعن بالمقالة من العامة عليك فمزق الكتاب.
وفي هذه السنة: أنكرت الخوارج الصفرية المجتمعة بمدينة سجلماسة على أميرهم عيسى بن جرير أشياء فشدوه وثاقاً، وجعلوه على رأس الجبل، فلم يزل كذلك حتى مات، وقدوا على أنفسهم أبا القاسم سمكو بن واسول المكناس جد مدرار.
وفيها: ولد أبو سنان الفقيه المالكي بمدينة القيروان من إفريقية.
وفيها: عزل الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عن المدينة، واستعمل عليها عمه عبد الصمد بن علي.
وكان على مكة والطائف: محمد بن ابراهيم.
وعلى الكوفة: عمرو بن زهير.
وعلى البصرة: الهيثم بن معاوية.
وعلى مصر: محمد بن سعيد.
وعلى إفريقية: يزيد بن حاتم.
وعلى الموصل: خالد بن برمك، وقيل: موسى بن كعب بن سفيان الخثعمي.
وفي هذه السنة: مات مسعر بن كدام الكوفي الهلالي.

ودخلت سنة ست، ...(١) وخمسين ومائة

ولم يجر فيهما ما يستفاد منه تجربة(٢).

(١) موضع النقط: وسبع، فحذفتها لأجعل كل سنة على حدة، وسأذكر إن شاء اللّه تعالى أحداث سنة سبع وخمسين ومائة بعد ذكر أحداث سنة ست وخمسين ومائة.

(٢) كذا ذكر هذه السنة المؤلف، وقال ابن الأثير:

وفي هذه السنة: سار عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس إلى حرب شقنا وقد حصن شيطران، فحصره وضيق عليه فهرب إلى المفازة كعادته، وكان قد استخلف على قرطبة ابنه سليمان، فأتاه كتابه يخبره بخروج أهل إشبيلية مع عبد الغفار وحيوة بن ملابس عن طاعته وعصيانهم عليه، فاتفق من بهما من اليمانية معهما، فرجع عبد الرحمن ولم يدخل قرطبة، وهاله ما سمع من اجتماعهم وكثرتهم، فقدَّم ابن عمه عبد الملك بن عمر، وكان شهاب آل مروان، وبقي عبد الرحمن خلفه كالمدد له، فلما قارب عبد الملك أهل اشبيلية، قدم ابنه أمية ليعرف حالهم، فرآهم مستيقظين، فرجع إلى أبيه، فلامه أبوه على الوهن وضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصته، وقال لهم: طُردنا من المشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونحسد على لقمة تبقى الرمق، أكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر، ففعلوا، وحمل بين أيديهم فهزم اليمانية، وأهل اشبيلية، فلم تقم بعدها لليمانية قائمة وخرج عبد الملك، وبلغ الخبر إلى عبد الرحمن، فأتاه وجرحه يجري دماً، وسيفه يقطر دماً، وقد لصقت يده بقائم سيفه، فقبله بين عينيه وجزاه خيراً، وقال: يا ابن عم قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا، وأولادك كذا، وأقطعتك وإياهم، ووليتكم الوزارة.

وعبد الملك هذا هو الذي ألزم عبد الرحمن بقطع خطبة المنصور، وقال له: اقطعها وإلاّ قتلت نفسي، وكان قد خطب له عشرة أشهر فقطعها.

وكان عبد الغفار وحيوة بن ملابس قد سلما من القتل، فلما كانت سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمن إلى اشبيلية فقتل خلقاً كثيراً ممن كان مع عبد الغفار وحيوة ورجع.

وبسبب هذه الواقعة وغشّ العرب مال عبد الرحمن إلى اقتناء العبيد.

ذكر الفتنة بإفريقية مع الخوارج:

قد ذكرنا هرب عبد الرحمن بن حبيب الذي كان أبوه أمير إفريقية مع الخوارج، واتصاله بكتامة وتسيير يزيد بن حاتم أمير إفريقية العسكر في أثره، وأنهم قتلوا كتامة.

فلما كانت هذه السنة سَيَّر يزيد عسكراً آخر مدداً للذين يقاتلون عبد الرحمن، فاشتد الحصار على عبد الرحمن فمضى هارباً، وفارق مكانه فعادت العساكر عنه.

ثم ثار في هذه السنة على يزيد بن حاتم أبو يحيى بن فانوس الهواري بناحية طرابلس فاجتمع عليه كثير من البربر، وكان بها عسكر ليزيد بن حاتم مع عامل للبلد، فخرج العامل والجيش معه، فالتقوا على شاطئ البحر من أرض هوارة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أبو يحيى بن فانوس، وقتلوا عامة أصحابه وسكن الناس بأفريقية وصفت ليزيد بن حاتم.

وفي هذه السنة: ظفر الهيثم بن معاوية عامل البصرة بعمرو بن شداد الذي كان عامل إبراهيم بن عبيد اللّه على فارس، وسبب ظفره به: أنه ضرب غلاماً له، فأتى الهيثم، فدله عليه، فأخذه، فقتله، وصلبه بالمبربد.

وفيها: عُزِلَ الهيثم عن البصرة، استعمل سوار القاضي على الصلاة مع القضاء، واستعمل سعيد بن دعلج على شرط البصرة وأحداثها.

ولما وصل الهيثم إلى بغداد مات بها، وصلى عليه المنصور. =

[ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

لم يجر فيها ما يستفاد منه تجربة(١).

= وفيها: غزا المنصور الصائفة زفر بن عاصم الهلالي.
وحج بالناس: العباس بن محمد بن علي. وكان على مكة محمد بن إبراهيم الإمام.
وعلى الكوفة عمرو بن زهير.
وعلى الأحداث والجوالي، والشرط بالبصرة سعيد بن دعلج، وعلى الصلاة والقضاء سوار بن عبد الله.
وعلى كور دجلة والأهواز وفارس: عمارة بن حمزة.
وعلى كرمان والسند: هشام بن عمرو.
وعلى مصر: محمد بن سعيد.
وفيها: سخط عبد الرحمن الأموي على مولاه بدر لفرط إدلاله عليه، ولم يرع حق خدمته وطول صحبته، وصدق مناصحته، فأخذ ماله وسلبه نعمته، ونفاه إلى الثغر، فبقي به إلى أن هلك.
وفيها: مات عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضي إفريقية، وقد تكلم الناس في حديثه.
وفيها: توفي حمزة بن حبيب الزيات المقرئ أحد القراء السبعة.

(١) سبق أن ذكرت أني سأفصل بين السنتين في التعليق على السنة التي قبلها حيث ضمهما المؤلف تحت عنوان وتعليق واحد، فتكلمت عن السنة السابقة وذكرت قول ابن الأثير فيها، وها أنا أذكر ما ذكر ابن الأثير في أحداث تلك السنة، فقال:
وفي هذه السنة: بنى المنصور قصره الذي يدعى الخلد.
وفيها: حول المنصور الأسواق إلى الكرخ وغيره.
وقد تقدم سبب ذلك، واستعمل سعيد بن دعلج على البحرين، فأنفذ إليها ابنه تميماً، وعرض المنصور جنده في السلاح والخيل وجلس لذلك، وخرج هو لابساً درعاً وبيضة.
وفيها: مات عامر بن إسماعيل السلمي بمدينة السلام، وصلى عليه المنصور.
وتوفي سوار بن عبد الله قاضي البصرة، واستعمل مكانه عبد الله بن الحسن بن الحصين العنبري، وعزل محمد بن سليمان الكاتب عن مصر واستعمل مولاه مطراً، واستعمل معبد بن الخليل على السند، وعزل هشام بن عمرو، وغزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى، فوّجه سناناً مولى البطال إلى حصن فسبى وغنم.
وقيل: إنما غزا الصائفة زفر بن عاصم.
وحج بالناس: إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكان على مكة.
وقيل: كان عليها: عبد الصمد بن علي. وعلى الأمصار من ذكرنا.
وفيها: قتل المنصور يحيى بن زكريا المحتسب وكان يطعن على المنصور، ويجمع الجماعات فيما قيل.
وفيها: مات عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام.
وقيل: سنة ثمان وخمسين.
وفي سنة سبع وخمسين: مات الأوزاعي الإمام الفقيه واسمه عبد الرحمن بن عمرو وله سبعون سنة. ومصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام جد الزبير بن بكار.
وفيها: أخرج سليمان بن يقظان الكلبي قارِلَهْ ملك الأفرنج إلى بلاد المسلمين من الأندلس، ولقيه بالطريق وسار معه إلى سرقسطة، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وامتنع بها، فاتهم قارِلَهْ ملك الأفرنج سليمان فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده، فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مطروح وعيشون أبناء سليمان في أصحابهما فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة ودخلوا مع الحسين ووافقوا على خلاف عبد الرحمن.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

وفيها: غضب المنصور على محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي وكان أمير مكة.

وكان السبب في ذلك

إن المنصور كتب إليه يأمره بحبس رجل من آل أبي طالب، وبحبس الثوري، وابن جريج، وعباد بن كثير[١]، فحبسهم.

وكان له سُمَّار بالليل، فلما كان وقت سمره أبلس وأكب على الأرض ينظر إليها ولم ينطق بحرف حتى تفرقوا.

قال[٢]: فدنوت منه، فقلت: قد رأيت ما بك فما لك؟

[قال][٣]: قد عمدت إلى ذي رحم رسول الله ﷺ فحبسته وإلى عيون من عيون المسلمين فحبستهم، ويقدم أمير المؤمنين السند فلا أدري ما يكون ولعله يأمر بقتلهم،

---

(١) هؤلاء الثلاثة من أعلام علماء الإسلام فـ: الثوري؛ هو: سفيان بن سعيد بن مسروق ابن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان...
أبو عبد الله، الإمام، الحافظ، الكوفي، التابعي، الشهير بالثوري.
ولد سنة: (٩٧)، وتوفي سنة(١٦١)، مصادر ترجمته كثيرة انظر منها:
هدية العارفين (١/ ٣٨٧)، ديوان الإسلام (١١٠٣)، الأعلام (٣/ ١٠٤)، معجم المؤلفين (٤/ ٢٣٤)، العبر (١/ ٢٣٥)، تهذيب الكمال (٥١٥)، تهذيب التهذيب (٤/ ١١١)، التاريخ الكبير (٤/ ٩٢)، التاريخ الصغير (٢/ ١٥٤)، الجرح والتعديل (١/ ٥٥)، طبقات المدلسين (٩)، طبقات المفسرين (١/ ١٨٦) وغير ذلك كثير.
وأما ابن جريج فهو: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، القرشي، الأموي، المكي، أبو خالد، وأبو الوليد، الإمام، الحافظ، شيخ الحرم، وأول من دون العلم بمكة، مولى أمية بن خالد. ومن مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٢٥) ، طبقات خليفة (٢٨٣)، تاريخ البخاري (٥/ ٤٢٢)، التاريخ الصغير (٢/ ٩٨)، تاريخ بغداد (١٠/ ٤٠٠)، وفيات الأعيان (٣/ ١٦٣)، تهذيب الكمال (٨٥٧)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٠٢)، ميزان الاعتدال (٢/ ٦٥٩)، العقد الثمين (٥/ ٥٠٨)، وغير ذلك.
أما عباد بن كثير فهو: الثقفي البصري نزيل مكة الزاهد العابد، ولم يكن في الحديث شيء، ومن مصادر ترجمته:
سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٦)، التاريخ الكبير (٦/ ٤٣)، التاريخ الصغير (٢/ ١٠٤)، المعرفة والتاريخ (٢/ ١٢٦)، تاريخ الطبري (٨/ ٥٨)، المجروحين (٢/ ١٦٦)، تهذيب الكمال (٦٥٢)، تهذيب التهذيب (٥/ ١٠٠)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٠٦)، ميزان الاعتدال(٢/ ٣٧١)، العقد الثمين (٥/ ٩٠)، وغير ذلك كثير.

(٢) سقط من المخطوط اسم رواي الخبر.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

فيقوى سلطانه وأهلك ديني.

قال: فقلت: فتصنع ماذا؟

قال: أوثر اللَّه تعالى، وأطلق القوم.

اذهب إلى إبلي، وخذ راحلة منها، وخذ خمسين ديناراً، فأت بها الطالبي فأقرئه السلام وقل له: ابن عمك يسألك أن تحله من ترويعه إياك، وتركب هذه الراحلة، وتأخذ هذه النفقة.

فلما أحسّ بي جعل يتعوذ من شري، فلما أبلغته الرسالة.

قال: هو في حل ولا حاجة إلى النفقة ولا إلى الراحلة.

قال: فقلت له: إن أطيب لنفسه أن تأخذها ففعل.

ثم جئت إلى ابن جريج، وأبي سفيان، وعباد، فأبلغتهم ما قال.

قالوا: هو في حلٍ.

قال: قلت لهم: لا يظهرن أحد منكم ما دام المنصور مقيماً.

فلما قرب المنصور، وجهني محمد بن إبراهيم بإلطاف.

فلما أخبر المنصور، أن رسول محمد بن إبراهيم قد أمر بالإبل فضربت وجوهها، فلما صار إلى مير ميمون لقيه محمد بن إبراهيم، فلما أُخبر بذلك، أمر بدوابه فضربت وجوهها، فعدل محمد وكان يسير بناحية، وعدل أبو جعفر عن الطريق فأنيخ به ومحمد واقف قباله ومعه طبيب له.

فلما ركب أبو جعفر وسار أمر محمداً الطبيب فمضى إلى مناخ أبي جعفر، فرأى فحوه، فقال لمحمد: رأيت فحو رجل لا تطول به الحياة. فلما دخل مكة لم يلبث أن مات وسلم محمد. ولما مات المنصور، وكان ذلك لست خلون من ذي الحجة[١] لحتمه الربيع، وأحضر أهل بيته وذوي الأسنان منهم، ثم أحضر عامتهم، وأخذ بيعتهم للمهدي، ثم لعيسى بن موسى من بعده.

فلما فرغ من بيعتهم دعا بالقواد حتى بايعوا، ولم يتكلم أحد غير ابن عيسى بن ماهان فإنه أبى عند ذكر عيسى بن موسى أن يبايع، فلطمه محمد بن سليمان وأمضه وقال: من هذا العلج، وهَمّ[٢] بضرب عنقه فبايع، ثم تتابع[٣] الناس بالبيعة.

---

(١) في الكامل: ببئر ميمون.

(٢) في المخطوط: وهو، وقد تحرف.

(٣) في المخطوط: يُبايع. وهو تحريف.

وتوفي وله نيف وستون سنة، واختلف في النيف.

وكانت ولايته اثنين وعشرين سنة.

ذكر بعض سيرة المنصور

ذكر الفضل بن الربيع حكاية عن أبيه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور إذ أتى بخارجي قد هزم له جيوشاً، فأقامه ليضرب [٥٠/أ] عنقه ثم اقتحمت عينه، فقال: يا ابن الفاعلة مثلك يهزم الجيوش؟!

فقال له الخارجي: ويلك وسوأة[١] لك بيني وبينك أمس السيوف والقتل والدم، واليوم القذف والسَّب، ما كان يؤمنك أن لا أرد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقبلها[٢] أبداً.

قال: فاستحيا منه المنصور، وأطلقه، وما رأى أحد وجهه حَوْلاً[٣].

وحكى سلام بن الأبرش قال:

كنت وأنا وصيف وغلام آخر نخدم المنصور وكان من أحسن عباد اللّٰه خُلُقاً ما لم يخرج للناس، وأشدهم احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان، فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتَرَبَّدَ وجهه، وأحمرت عيناه، فيخرج ويكون منه ما يكون، فإذا رجع عاد لمثل ذلك فيستقبله في ممشاه، فربما عاتبنا وقال لي يوماً: يا بنيّ إذا رأيتموني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي، فلا يدنو أحد منكم [مني مخافة أن][٤] أعزه بشر.

وقال المنصور يوماً: ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون أعفَّ منهم.

قيل: ومن هم[٥] يا أمير المؤمنين؟

قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلاّ بهم، كما أن الأمر لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت قائمة واحدة لم يستقم.

أما أحدهم: فقاض لا تأخذه في اللّٰه لومة لائم.

والآخر: صاحب شرطة يأخذ للضعيف من القوي.

---

(١) في المخطوط: سوت. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: يستقبلها. وهو تحريف.

(٣) هذا كما قال قائلهم: لفظك سعدك، وقولهم: الكلام الزين يسد الدِّين، وقوله ﷺ: ذهب حسن الخلق بالخير الكثير.

(٤) ما بين المعقوفين معناه من الكامل، وفي المخطوط: منكم فلا أعزه بشر، وقد أثبت ما يعطي المعنى المباشر من الكامل بالتقريب لأن الخبر فيه متقارب الألفاظ مما هنا.

(٥) في المخطوط: ومنهم. وهو تحريف.

والثالث: صاحب خراج مستقصى لي ولا يظلم الرعية فإني غني عن ظلمهم.

ثم عض على إصبعه السبابة وقال: آه آه(١).

قيل: يا أمير المؤمنين، من هو الرابع؟

قال: صاحب بريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحة.

وقدم إلى المنصور رجلان أحدهما: شامي، والآخر عراقي، وقد ولاهما خراج ناحيتهما، فقال للشامي بعدما وصاه، وتقدم إليه بما أراد: ما أعرفني بما في نفسك، كأني بك وقد خرجت من عندي فقلت: الزم الصحة يلزمك العمل.

وقال للعراقي بعدما وصاه: فلا. . . .(٢) اخرج عني، واذهب إلى عملك، واللّٰه لئن تعرضت لذلك لأبلغن من عقوبتك ما تستحقه.

قال: فوليا جميعاً ناصحاً.

وذكر إسحاق بن عيسى بن موسى:

أن المنصور وَلَّى رجلاً من العرب حضرموت وكتب إليه صاحب البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد، وقد أعدّ بزاةً(٣) وكلاباً كثيرة. فكتب إليه:

ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدّة التي جمعتها لنكاية الوحوش إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش، سَلِّم ما كنت تلي من عملتك إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً.

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن عباس حدثه:

أن ابن هبيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط والمنصور بإزائه: أني خارج يوم كذا وكذا، وداعيك إلى المبارزة، فقد بلغني تجبينك إياي.

فكتب إليه:

يا ابن هبيرة [إنك](٤) تتعد طورك جارٍ في عنان غيِّك يعدل الشيطان ما اللّٰه مكذبه ويقرب لك واللّٰه مباعده، فرويداً تتم الكلمة ويبلغ الكتاب أجله، وقد ضربت لك مثلي ومثلك: أن أسداً لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: قاتلني.

فقال له الأسد: إنما أنت خنزير ولست لي بكفؤ ولا نظير، ومتى فعلت الذي دعوتني إليه فقتلتك، قيل قتل الأسد خنزيراً، فلم اعتقد بذلك فخراً ولا ذكراً، فإن نالني

---

(١) في الكامل: ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آهٍ آهٍ.
(٢) موضع النقط كلمة في المخطوط هذا رسمها: «ا ـحر» وربما كانت أتحيز واللّٰه أعلم.
(٣) الباز: طير من الطيور الجارحة التي تدرب على الصيد مثل الصقور والكلاب.
(٤) سقط من المخطوط، واثبته من الكامل والعبارات شبه ما هي بالكامل مع اختلاف يسير جداً.

منك شيء كان سبة عَلَيَّ.

فقال: إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع فأعلمتها أنك نكلت عني وجبنت عن قتالي.

فقال الأسد: احتمالي عار كذبك أيسر من لطخ شاربي بدمك.

وذكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له، فبعث إلى رجل يصحبه قديماً ينزل الرصافة هشام ـ يسأله عن تلك الحرب، فقدم عليه فقال: أنت صاحب هشام؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال: فأخبرني كيف صنع في حرب دبرها في سنة كذا؟

فقال له: عمل فيها رحمة اللّه عليه كذا وكذا، ثم اتبع بأن فعل رضي اللّه عنه كذا وكذا.

فحفظ[1] [٥٠/ب] ذلك المنصور فقال: قُم غضب اللّه عليك تطأ بساطي، وتترحم على عدوي.

فقام الشيخ، وهو يقول: إن لعدوك قلادة في عنقي ومِنَّة في رقبتي لا ينزعها إلاّ غاسلي[2]. فأمر برده، وقال: اقعد، كيف قلت؟

وما صنع بك؟

فقال: إنه كفاني الطلب، وصان وجهي عن السؤال، فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته، أفلا يجب عَلَيَّ أن أذكره بخير واتبعه ثنائي؟

قال: بلى واللّه، للّه أُمّ نهضت عنك[3]، وليلة أديك، أشهد أنك نهيض حر، وغراس كريم.

ثم استمع منه وأمر له ببر[4].

فقال: يا أمير المؤمنين، ما أخذ لحاجة وما هو إلاّ تشرف بجنابك ونجح بصلتك، وأخذ الصلة، وخرج.

فقال المنصور: لمثل هذا تحسن الصنيعة، ويوضع المعروف، ويجاد بالمصون،

---

(١) أي أثار غضبه وجلى عن حفيظته ما كانت تضمر ولا تريد أن تظهر ما في مكنونها.
(٢) أي من يتولى غسلي بعد موتي، يريد لا أنساها له طول حياتي أو مدى عمري.
(٣) أي قامت عنك عند ولادتك، وهو نحو قولهم في العامية المصرية: هذا ولد ما ولدته ولاّدة. أي لا تلد النساء مثله أو قلّ أن تلد النساء مثله فطنة وذكاءً ونبلاً وشجاعة وكرماً وجوداً.
(٤) أي صلة وإكرام تقديراً له.

وأين في عسكرنا مثله.

فأبطأ المنصور عن الخروج للناس والركوب.

فقال الناس هو عليل وأكثروا.

قال: فدخل الربيع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، لك طول البقاء، الناس يقولون.

[قال][1]: ما يقولون؟

قال: يقولون عليل.

قال: فأطرق قليلاً، وقال: يا ربيع، ما لنا والعامة؟! إنما العامة تحتاج إلى ثلاث خلال، فإذا فعل، فما حاجتهم: إذا أقيم لهم من ينظر في أحكامهم، وينصف بعضهم من بعض، ويؤمن سلبهم حتى [لا][2] يخافوا ليلهم ونهارهم، ويسد ثغورهم وأطرافهم حتى لا يجيئهم عدوهم، وقد فعلنا ذلك بهم. [ثم][3] مكث أياماً وقال: يا ربيع اضرب الطبل، فركب حتى رآه العامة.

وظفر المنصور برجل من كبراء بني أمية، فقال: إني سائلك عن أشياء فاصدقني ولك الأمان.

قال: نعم.

فقال له المنصور: من أين أُتي بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟

قال: من تضييع الأخبار[4].

وكان المنصور يقول: ليس بإنسان أُسْدِيَ إليه معروف فنسيه قبل الموت.

وكان يقول: العرب تقول: العرى القادح خير من الزِّي الفاضح[5].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: راية. وهو تحريف.

(٤) أتم ابن الأثير فقال:
قال: أي الأموال وجدُوها أنفع؟
قال: الجوهر.
قال: فعند من وجدوا الوفاء؟
قال: عند مواليهم.
فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته، فقال: أضع منهم فاستعان بمواليه.

(٥) يريد أن القدح بالفقر ليس بقدح وإنما القدح والفضوح يكون في فقر المروءة والنخوة والرجولة والشرف.

ودخل على المنصور رجل من أهل العلم، فازدراه واقتحمته عينه، فجعل لا يسأله عن شيء إلاّ وجده عنده.

فقال له: أنّى لك هذا العلم؟

قال: لم أبخل بعلم علمته، ولم استح من علم أتعلمه قال: فمن هناك؟!

وكان المنصور كثيراً ما يقول: من فعل تدبير، وقال في غير تقدير لم يعدم من الناس هازئاً ولا حياً.

وكان المنصور يقول: الملوك تحمل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثاً: إفشاء السر، والتعرض للحرمة، والقدح بالملك.

ولما حمل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي إلى المنصور بعد خروجه عليه قال له: يا أمير المؤمنين، قتلة كريمة.

قال: تركتها وراءك يا ابن اللخناء[(١)].

وخطب يوماً بمدينة السلام سنة اثنين وخمسين ومائة فقال:

لا تظالموا فإنها ظلمة يوم القيامة، واللّه لولا يد خاطئه، وظلم ظالم لمشيت بين أظهركم وأسواقكم، ولو علمت مكان من هو أحق مني بهذا الأمر لأتيته حتى أدفعها إليه.

وقال يوماً: من علم أنه إنما صنع إلى نفسه لم يستبط الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودته، فلا تلتمس من غيرك في شكر ما أتيته إلى نفسك ووفيت به عرضك، واعلم أن طالب الحاجة إليك يكرم وجهه عن مسألتك، فأكرم وجهك عنه ردّه[(٢)].

وخطب يوماً فقال:

الحمد للّه أحمده وأستعين به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له.

فاعترض معترض عن يمينه، فقال: أيها الإنسان أذكرك ما ذَكَّرْتَ به.

فقطع الخطبة فقال: سمعاً سمعاً لمن حفظ عن اللّه وذكر به، وأعوذ باللّه أن

---

(١) يريد تركت القتل الكريم فإنما مكانه ميدان القتال وساحة الجهاد التي تركتها فهناك يكون القتل كريماً شريفاً، ولكن في مثل هذا الموضع فلا بد أن تصحبه المهانة والمذلة.

(٢) عفواً عانينا كثيراً من هؤلاء ظللنا عمرنا إلى الآن لا نردهم فإذا بهم يظنون أن ذلك سذاجة منا لا كرم ولا كرامة ولا حسن عشرة لهم بل عدوها سفهاً منا حتى أظهرت لنا الأيام مقاصدهم فقليل هم الذين يصونون وجوههم أو يكرمونها قبل المسألة إن لم يكونوا قد عدموا، فاللّه أسأل أن يديم علينا نعيمه ولا يحوجنا إلى سواه ما أبقانا ولا يجعلنا ممن يرد كريم الوجه والقصد والنية اللهم آمين.

أكون جباراً عنيداً، وأن تأخذني العزة بالإثم، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. وأنت أيها القائل، فواللّه ما أردت بهذا اصلاحاً، ولكنك حاولت أن يقال: قام فلان فقال فعوقب فصبروا وأهون بها، ويحك لو هممت فاهتبلها إذ عفوت، وإيّاكم أيها الناس وأختها، فإن الحكمة علينا [٥١/أ] نزلت ومن عندنا فُصِّلَتْ، فردوا الأمر إلى أهله بوروده وبصدوده.

ثم عاود في خطبته، فكأنما يقرأها من راحته:

وأشهدت محمداً عبده ورسوله.

وخطب المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم، فقال: أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تُسروا غش الأئمة، فإن لم يُسر أحد منكم قط منكرة إلاّ ظهرت في أتريده[١] وفلتات لسانه وأبداها اللّه لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه أنا لم نبخسكم[٢] حقوقكم، ولم يُبخس الدين حقه عليكم إنه من نازعنا عروة هذا القميص أحرزناه جنى هذا الغمد[٣].

وأن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا[٤].

ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامتنا الحق عليه. وكتب صاحب أرمينية إلى المنصور:

أن الجند شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال،فأخذوا ما فيه.

فوقع في كتابه: اعتزل عملنا مذموماً، ولو عقلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينتهبوا[٥].

(١) كذا في المخطوط، وأحسب أن صوابها أو مراده: في تردده. فاللّه أعلم.
(٢) في المخطوط: بتحيتكم. وهو تحريف.
(٣) يريد السيف، وجنيه: هي الرقاب التي يحصدها.
(٤) أي إنما حكمنا عليه بحكمه.
(٥) قال ابن الأثير بعد هذا وبعد أن ذكر كثيراً من أخباره واستفاض في ذلك:
وهذا وما تقدم من كلامه ووصاياه يدل على فصاحته وبلاغته، وقد تقدم له أيضاً من الكتب وغيرها ما يدل على أنه كان واحد زمانه إلاّ أنه كان يبخل.

خلافة المهدي العباسي

وفي هذه السنة: بويع للمهدي واسمه: محمد بن عبد اللَّه بن محمد بن علي بن عبد اللَّه بن العباس رضي اللَّه عنه[1].

---

(١) هذا كل ما ذكره المؤلف في أحداث تلك السنة وقد ترك كثير من أهم أحداثها وأنا أنقل من الكامل بعضاً من تلك الأحداث إذ قال ابن الأثير:
في هذه السنة: عزل المنصور موسى بن كعب عن الموصل، وكان قد بلغه عنه ما أسخطه عليه فأمر ابنه المهدي أن يسير إلى الرَّقة، وأظهر أنه يريد بيت المقدس، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل، فإذا صار بالبلد أخذ موسى وقيده، واستعمل خالد بن برمك.
وكان المنصور قد ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم، وأجله ثلاثة أيام فإن أحضر المال، وإلاّ قتله، فقال لابنه يحيى:
يا بُني الق إخواننا، عمارة بن حمزة، ومبارك عمارة بن حمزة ومباركاً التركي، وصالحاً صاحب المصلى وغيرهم وأعلمهم حالنا قال يحيى: فأتيتهم، فمنهم من منعني من الدخول عليه، ووجه المال ومنهم من تجهمني بالرد ووجه المال سراً إلي.
قال: فأتيت عمارة بن حمزة ووجهه إلى الحائط، فما أقبل به عليَّ، فسلمت فردَّ رداً ضعيفاً وقال: كيف أبوك؟ فعرفته الحال، وطلبت قرض مائة ألف.
فقال: إن أمكنني شيء فسيأتيك، فانصرفت وأنا ألعنه من تيهِهِ، وحدَّثت أبي بحديثه، وإذ قد أنفذ المال.
قال: فجمعنا في يومين ألف ألف وسبعمائة ألف، وبقي ثلاثمائة ألف تبطل الجميع يتعذرها.
قال: فعبرت على الجسر وأنا مهموم، فوثب إليَّ زاجر فقال: فرح الطائر أخبرك، فطويته فلحقني، وأخذ بلجام دابتي وقال لي: أنت مهموم، وواللَّه لتفرحن ولتمرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك فعجبت من قوله.
فقال: إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم؟
فقلت: نعم، وأنا استبعد ذلك، وورد على المنصور انتقاض الموصل والجزيرة، وانتشار الأكراد بها.
فقال: من لها؟
فقال المسيب بن زهير: عندي يا أمير المؤمنين رأي أعلم أنك لا تقبله مني، وأعلم أنك ترده عليَّ، ولكني لا أدع نصحك.
قال: قل ـ قلت: ما لها مثل خالد بن برمك.
قال: فكيف يصلح لنا بعد ما فعلنا؟
قال: إنما قوَّمته بذلك، وأنا الضامن له.
قال: فليحضرني غداً.
فأحضره فصفح له عن الثلاثمائة ألف الباقية، وعقد له، وعقد لابنه يحيى على أذربيجان، فاجتاز يحيى بالزاجر، فأخذه معه، وأعطاه خمسين ألف درهم، وانفذ خالد إلى عمارة بالمائة ألف =

....

= التي أخذها منه مع ابنه يحيى، فقال له: صيرفياً كنت لأبيك!! قم عني لا قمت.
فعاد بالمال، وسار مع المهدي، فعزل موسى بن كعب وولاّهما، فلم يزل خالد على الموصل، وابنه يحيى على اذربيجان إلى أن توفي المنصور.
فذكر أحمد بن محمد بن سوار الموصلي قال: ما هِبنا أميراً قط هيبتنا خالداً من غير أن يشتد علينا ولكن هيبة له كانت في صدورنا.
ذكر صفة المنصور وأولاده:
كان اسمر نحيفاً خفيف العارضين، ولد بالحميمة من أرض الشراة.
وأما أولاده: فالمهدي، واسمه: محمد، وجعفر الأكبر، وأمهما أروى بنت منصور أخت يزيد بن منصور الحميدي، وكانت تكنى أم موسى، ومات جعفر قبل المنصور.
ومنهم سليمان، وعيسى، ويعقوب أمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله. وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية، وكان يقال له ابن الكردية.
وصالح المسكين، أمه أم ولد رومية.
والقاسم مات قبل المنصور، وله عشر سنين، أمه أم ولد تعرف بأم القاسم، ولها بباب الشام بستان يعرف ببستان أم القاسم.
والعالية، أمها امرأة من بني أمية.
أما تفاصيل خبر ولاية المهدي التي ذكر ما المؤلف هنا مختصرة، فقد فصلها لنا ابن الأثير فقال: ذكر علي بن محمد النوفلي عن أبيه، قال: خرجت من البصرة حاجاً فاجتمعت بالمنصور، بذات عرق، وكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشفى على الموت، فلما صار ببئر ميمون نزل به، ودخلنا مكة، فقضيت عمرتي، وكنت أختلف إلى المنصور، فلما كان في الليلة التي مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن الحارث، وكان من مشايخ بني هاشم وسادتهم، فلما صرنا بالأبطح لقينا العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان في خيل إلى مكة فسلمنا عليهما ومضينا، فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات، فكان كذلك. ثم أتينا العسكر، فإذا موسى بن المهدي، قد صدر عند عمود السرادق، والقاسم بن المنصور في ناحية من السرادق، وقد كان قبل ذلك يسير بين المنصور وبين صاحب الشرطة ورفع الناس إليه القصص.
فلما رأيته علمت أن المنصور قد مات، وأقبل الحسن بن زيد العلوي، وجاء الناس حتى ملؤوا السرادق، وسمعنا همساً من بكاء، وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشق الأقبية وعلى رأسه التراب، وصاح وأمير المؤمنيناه، فما بقي أحد إلاّ قام، ثم تقدموا ليدخلوا عليه، فمنعهم الخدم.
وقال ابن عياش المنتوف: سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط، اجلسوا فجلسوا وقام القاسم فشق ثيابه، ووضع التراب على رأسه، وموسى جالس على حاله، ثم خرج الربيع وفي يده قرطاس ففتحه، فقرأه، فإذا فيه:
بسم الله الرحمٰن الرحيم
من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان، وعامة المسلمين، ثم ألقى القرطاس من يده وبكى، وبكى الناس، ثم قال: قد أمكنكم البكاء فأنصتوا رحمكم الله ثم قرأ:
أما بعد: فإني كتبت كتابي هذا وأنا حيّ في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدي، ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض.
ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي، وإذكارهم البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده، ثم تناول يد الحسن ابن زيد، وقال: قم فبايع، فقام إلى موسى فبايعه، ثم بايعه الناس الأول فالأول ثم أدخل بني =

....

= هاشم على المنصور وهو في أكفانه مكشوف الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال، فكأني أنظر إليه والريح تحرك شعر صدغيه، وذلك أنه كان وفّر شعره للحلق، وقد نصل خضابه حتى أتينا به حفرته.
وكان أول شيء ارتفع به علي بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة، فقال علي بن عيسى بن ماهان: واللّه ليتابعن أو لأضربن عنقك، فبايع. ثم وجه موسى بن المهدي والربيع إلى المهدي خبر وفاة المنصور، وبالبيعة له، مع منارة مولى المنصور، وبعث أيضاً بالقضيب وبُردة النبي ﷺ، وبخاتم الخلافة وخرجوا من مكة.
فقدم الخبر على المهدي مع منارة منتصف ذي الحجة، فبايعه أهل بغداد.
وقيل: إن الربيع كتم موت المنصور وألْبَسَه، وسَنَّدَه، وجعل على وجهه كلَّةً خفيفة يرى شخصه منها، ولا يفهم أمره، وأدنى أهله منه، ثم قرَّب منه الربيع كأنه يخاطبه ثم رجع إليهم وأمرهم عنه بتجديد البيعة للمهدي، فبايعوا، ثم أخرجهم، وخرج إليهم باكياً مشقق الجيب لاطماً رأسه.
فلما بلغ ذلك المهدي أنكره على الربيع وقال: أما منعتك جلالة أمير المؤمنين إن فعلت به ما فعلت؟!
وقيل: ضربه، ولم يصح ضربه.
وفي هذه السنة: عزل المنصور المسيب بن زهير عن الشرطة وحبسه مقيداً وسبب ذلك:
أنه ضرب أبان بن بشير الكاتب بالسياط حتى قتله لأنه كان شريك أخيه عمرو بن زهير في ولاية الكوفة، واستعمل على شرطته الحكم بن يوسف صاحب الحراب.
ثم كلّم المهدي في المسيبي فرضي عنه، وأعاده إلي شرطته.
وفيها: استعمل المنصور نصر بن حرب بن عبد اللّه على ثغر فارس.
وفيها: عاد المهدي من الرقة في شهر رمضان.
وفيها: غزا الصائفة معيوف بن يحيى من درب الحدث فلقي العدو، فاقتتلوا ثم تحاجزوا.
وفي هذه السنة: غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس مدينة قورية، وقصد البربر الذين كانوا أسلموا عامله إلى شقنا فقتل منهم خلقاً من أعيانهم، واتبع شقنا حتى جاوز القصر الأبيض، والدرب، ففاته.
وفيها: مات أورالي ملك جليقية، وكان ملكه ست سنين، وملك بعده شيالون.
وفيها: توفي مالك بن مغول الفقيه البجلي بالكوفة.
وحيوة بن شريح بن مسلم الحضرمي المصري. وكان العامل على مكة، والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد اللّه، وعلى المدينة: عبد الصمد بن علي.
وعلى الكوفة: عمرو بن زهير الضبي.
وقيل: إسماعيل بن إسماعيل الثقفي، وعلى قضائها شريك بن عبد اللّه النخعي، وعلى خراجها ثابت بن موسى.
وعلى خراسان: حميد بن قحطبة.
وعلى قضاء بغداد عبد اللّه بن محمد بن صفوان، وعلى الشرطة بها عمر بن عبد الرحمن أخو عبد الجبار بن عبد الرحمن.
وقيل: موسى بن كعب.
وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة بن حمزة، وعلى قضائها والصلاة عبيد اللّه بن الحسن العنبري.
وأصاب الناس هذه السنة وباء عظيم.

ودخلت سنة تسع وخمسين ومائة

وفيها: أمر المهدي بإطلاق من كان في سجن المنصور، إلا من كان قبله تباعة في دم، أو من كان معروفاً بالبغي في الأرض بالفساد، وكان لأحد قبله مظلمة أو حق، فأطلقوا.

وكان ممن أطلق من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم، وكان معه في ذلك السجن محبوساً الحسن بن ابراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يطلق.

وارتفع يعقوب بن داود واختص بالمهدي حتى سماه أخاً في اللّه.

ذكر السبب في ذلك

لما أطلق يعقوب بن داود ولم يطلق الحسن بن إبراهيم، ساء ظن الحسن وخاف على نفسه، فالتمس مخرجاً لنفسه وخلاصاً فبعث إلى بعض ثقاته، فحفر له سرباً من موضع مسامت[1] الموضع الذي هو فيه محبوس، وكان يعقوب بن داود بعد أن أطلق يطيف بابن علاثة وهو قاضي المهدي بمدينة السلام ويلزمه حتى أنس، وعرف يعقوب ما عزم عليه الحسن بن إبراهيم من الحرب فأتى ابن علاثة فأخبره أن عنده نصيحة للمهدي وسأله إيصاله إلى أبي عبيد اللّه، فسأله عن تلك النصيحة فإنه لم يجزه فوتها.

فانطلق ابن علاثة إلى أبي عبيد اللّه، فأخبره خبر يعقوب وما جاء به، فأمر بإدخاله عليه فلما دخل على المهدي شكر له بلاء عنده في إطلاقه إياه، ثم أخبره أن له عنده نصيحة، فسأله عنها بمحضر أبي عبيد اللّه وابن علاثة، فاستخلاه منهما.

فأعلمه المهدي ثقته بهما، فأبى أن يبوح له بشيء حتى يقوما.

فأقامهما المهدي وخلاه، فأخبره خبر الحسن بن إبراهيم، وما أجمع به، وأن ذلك كائن من ليلته المستقبلة.

فوجه المهدي من يثق به ليأتيه بخبره، فأتاه بتحقيق ذلك ما أخبره به يعقوب.

فأمر بتحويله إلى نصر، فلم يزل في محبسه إلى أن احتال أو احتيل له، فخرج هارباً، وافتقد فشاع هربه فلم يظفر به.

وتذكر المهدي دلالة يعقوب إياه كانت عليه، فرجا عنده من الدلالة عليه مثل الذي كان منه في أمره.

---

(١) أي مقابل أو بإزاء الموضع الذي هو فيه حتى يتمكن من الخروج منه والهرب.

فسأل أبا عبيد اللّه عنه فأخبره أنه ماض، وقد كان لزم أبا عبيد اللّه، فدعا به المهدي خالياً، فذكر له ما كان فعله في أمر الحسن بن إبراهيم أولاً ونصحه له فيه وأخبره بما حدث من أمره.

فأخبره يعقوب أنه لا علم له بمكانه وأنه إن أعطاه أماناً يثق به ضمن له أن يأتيه به على أن يتم له على أمانه ويصله ويحسن إليه.

فأعطاه المهدي ذلك في مجلسه وضمنه له فقال له يعقوب: فأله[١] يا أمير المؤمنين عن ذكره ودع طلبه، فإن ذلك يوحشه، ودعني وإياه حتى احتال لك فآتيك به. وأعطاه [٥١/ب] المهدي ذلك.

قال يعقوب: يا أمير المؤمنين، قد بسطت عدلك لرعيتك، وانصفتهم وعممتهم بخيرك وفضلك فعظم رجاءهم وانفسحت آمالهم، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لم يدع النظر فيها بمثل ما فعلت في غيرها، وأشياء مع ذلك خلف بابك يعمل بها لا تعلمها، فإن جعلت لي السبيل إلى الدخول عليك، وأذنت لي في رفعها إليك فعلت.

فأعطاه المهدي ذلك كله وجعله إليه وصير سليماً الخادم الأسود خادم المنصور وسببه واعلام المهدي بمكانه كلما أراد الدخول. وكان يعقوب يدخل على المهدي ليلاً ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزاب، وفكاك الأساري والمحبوسين والقضاء عن الغارمين، والصدقة على المتعففين فحظي بذلك عنده[٢]، وربما رجا أن ينال به من الظفر بالحسن ابن إبراهيم، واتخذه أخاً في اللّه تعالى.

وأخرج بذلك توقيعاً يثبت في الدواوين، ووصله بمائة ألف، وكانت أول صلة وصله بها.

فلم تزل منزلته تنمي وتعلو وتصعد إلى أن يصير الحسن بن إبراهيم في يد المهدي.

وفي هذه السنة:

تحرك قوم من الشيعة ووجوه أهل خراسان، وسعوا في خلع عيسى بن موسى، وتصير ولاية العهد لموسى بن المهدي.

---

(١) المراد تلهى عن ذكره أو أظهر التلهي عن ذكره أو أظهر تركك لطلبه.

(٢) بعدها في الكامل:
وعلت منزلته حتى سقطت منزلة أبي عبيد اللّه، وحبس، وكتب المهدي توقيعاً بأنه قد اتخذه أخاً في اللّه ووصله بمائة ألف.

فكتب المهدي على عيسى بن موسى، وهو بالكوفة بالقدوم عليه.

فأحسَّ عيسى بما يُراد منه، فامتنع حتى خشي من انتقاضه، وألح المهدي عليه حتى كتب إليه:

إنك إذا[١] امتنعت من المجيء استحللت منك لمعصيتك ما يستحل من العاصي، وإن أجبتني وخلعت نفسك حتى أبايع لموسى وهارون عوضتك ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً.

فأجابه فبايع لهما، وأمر له بعشرة آلاف درهم وقيل بعشرين ألف ألف، وقطائع.

وامتنع وراوغ، فوجه إليه محمد بن فروخ وهو أبو هريرة القائد في ألف رجل من أصحابه ذوي البصائر في التشيع، وجعل مع كل رجل منهم طبلاً وأمرهم أن يضربوا جميعاً بطبولهم، فراع ذلك عيسى بن موسى ورعاً شديداً.

ثم دخل عليه أبو هريرة فأمره بالشخوص، فاعتل بالشكوى، فلم يقبل ذلك منه وأشخصه من ساعته إلى مدينة السلام[٢].

---

(١) في المخطوط: إنك لم امتنعت، وهو تحريف.

(٢) لم يرد ذكر خبر تحرك الشيعة وسعيهم في خلع عيسى بن موسى في الكامل.
وذكر ابن الأثير أحداث أخرى كثيرة لم يذكرها المؤلف هنا وهي قول ابن الأثير:
وفي هذه السنة: قبل موت حميد بن قحطبة ظهر المقنع بخراسان، وكان رجلاً أعور قصيراً من أهل مرو، ويسمى حكيماً، وكان اتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه لئلا يُرى، فسمي: المقنع، وادعى الألوهية ولم يظهر ذلك إلى جميع أصحابه.
وكان يقول: إن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهلم جرا إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إلى هاشم.
وهاشم في دعواه هو المقنع، ويقول بالتناسخ، وتابعه خلق من ضلال الناس وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا، وكانوا يقولون في الرحب: يا هاشم أعنا.
واجتمع إليه خلق كثير وتحصنوا في قلعة بسيام، وسنجردة وهي من رساتيق كش. وظهرت المبيضة ببخارى والصغد معاونين له، وأعانه كفار الأتراك وأغاروا على أموال المسلمين، وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي ﷺ.
وكان ينكر قتل يحيى بن زيد وادعى أنه يقتل قاتليه، واجتمعوا بكش وغلبوا على بعض قصورها وعلى قلعة نواكث وحاربهم أبو النعمان، والجنيد وليث بن نصر، مرة بعد مرة، وقتلوا حسان بن تميم بن نصر بن سيار، ومحمد بن نصر وغيرهما وأنفد إليهم جبرائيل بن يحيى، وأخاه يزيد، فاشتغلوا بالمبيضة الذين كانوا ببخارى فقاتلوهم أربعة أشهر في مدينة بومجكت ونقبها عليهم فقتل منهم سبعمائة وقتل الحكم ولحق منهزموهم بالمقنع وتبعهم جبرائيل وحاربهم ثم سير المهدي أبا عون لمحاربة المقنع فلم يبالغ في قتاله، واستعمل معاذ بن مسلم.
وفي هذه السنة: عزل المهدي إسماعيل عن الكوفة، واستعمل عليها إسحاق الصباح الكندي، ثم الأشعثي، وقيل: عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب.
وفيها: عُزِلَ سعيد بن دعلج عن أحداث البصرة، وعبيد الله بن الحسن عن الصلاة، واستعمل مكانهما عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري، وأمره بإنصاف من تظلم من سعيد بن =

....

= دعلج، ثم صرفت الأحداث فيها إلى عمارة بن حمزة فولاّها المسور بن عبد اللّه الباهلي.
وفيها عُزل قثم بن العباس عن اليمامة عن سخطه فوصل كتاب عزله، وقد مات واستعمل مكانه بشر بن المنذر البجلي.
وفيها: عُزل الهيثم بن سعيد عن الجزيرة، واستعمل عليها الفضل بن صالح.
وفيها: أعتق المهدي الخيزران أم ولده، وتزوجها، وهي أم الهادي، والرشيد، وتزوج أم عبد اللّه بنت صالح بن علي أخت الفضل وعبد الملك.
وفيها: احترقت السفن عند قصر عيسى ببغداد بما فيها، واحترق ناس كثير.
وفيها: عُزل مطر مولى المنصور عن مصر، واستعمل عليها أبو ضمرة محمد بن سليمان.
وفيها: غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية، وعلى مقدمته الحسن الوصيف فبلغوا أنقرة وفتحوا مدينة للروم ومطمورة، ولم يصب من المسلمين أحد، ورجعوا سالمين.
وفيها: وُلّي حمزة بن يحيى سجستان، وجبرائيل بن يحيى سمرقند فبنى سورها وحفر خندقها.
وفيها: عزل عبد الصمد بن علي عن المدينة واستعمل عليها محمد بن عبد اللّه الكثيري، ثم عزله، واستعمل مكانه محمد بن عبيد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجمحي.
وفيها: بنى المهدي سور الرصافة، ومسجدها، وحفر خندقها.
وفيها: توفي معبد بن الخليل بالسند، وهو عامل المهدي عليها، واستعمل مكانه روح بن حاتم، أشار به أبو عبيد اللّه وزير المهدي.
وفيها: توفي حميد بن قحطبة وهو عامل المهدي على خراسان، واستعمل المهدي بعده عليها أبا عون عبد الملك بن يزيد.
وحج بالناس هذه السنة: يزيد بن منصور خال المهدي عند قدومه من اليمن. وكان المهدي قد كتب إليه بالقدوم عليه، وتوليته الموسم.
وكان أمير المدينة عبد اللّه بن صفوان الجمحي، وعلى أحداث الكوفة: اسحاق بن الصباح الكندي، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى قضائها شريك.
وعلى صلاة البصرة عبد الملك بن أيوب، وعلى أحداثها عمارة بن حمزة، وعلى قضائها عبيد اللّه بن الحسن.
وعلى كور دجلة، وكور الأهواز وكور فارس عمارة بن حمزة.
وعلى السند: بسطام بن عمرو.
وعلى اليمن: رجاء بن روح.
وعلى اليمامة: بشر بن المنذر.
وعلى خراسان: أبو عون عبد الملك بن يزيد، وكان حميد بن قحطبة قد مات فيها فولى المهدي أبا عون.
وكان على الجزيرة: الفضل بن صالح. وعلى أفريقية: يزيد بن حاتم.
وعلى مصر: أبو ضمرة محمد بن سليمان.
وفيها: كان شقنا قد انتشر في نواحي شنت برية فسير إليه عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً ففارق مكانه وصعد الجبال كعادته فعاد الجيش عنه.
وفيها: مات محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب الفقيه بالكوفة، وهو مدني وعمره تسع وسبعون سنة.
وفيها: توفي عبد العزيز بن أبي رواد، مولى المغيرة بن المهلب.
ويونس بن أبي اسحاق السبيعي الهمداني، ومخرمة بن بكير بن عبد اللّه بن الأشج المصري.
وحسين بن واقد مولى ابن عامر، وكان على قضاء مرو، وكان يشتري الشيء من السوق فيحمله إلى عياله.

ودخلت سنة ستين ومائة

وفيها: قدم[(١)] عيسى بن موسى مع أبي هريرة لست خلون من المحرم، وأقام أياماً يختلف على المهدي على رسمه لا يُكلَّم ولا يرى جفوة ولا مكروهاً حتى نسي بعض الأنس، ثم حضر الدار يوماً قبل جلوس المهدي، فدخل مجلساً كان يكون للربيع في مقصورة صغيرة عليها باب وقد اجتمع رؤساء الشيعة في ذلك اليوم على خلعه والوثوب به.

ففعلوا ذلك وضربوا الباب بحديدهم وعمدهم فهشموا الباب وكادوا يكسرونه وشتموه أقبح شتم.

فأظهر المهدي إنكاراً لذلك، فلم يرعهم ذلك بل زادوا إلى أن كاشفة ذو الأسنان من قومه وأهل بيته بحضرة المهدي وأبوا إلاّ خلعه وشتموه في وجهه، وكان أشدهم عليه محمد بن سليمان.

فلما رأى المهدي ذلك من رأيهم أمر عيسى بموافقتهم ودعاه إلى الخروج مما له من العهد في أعناق المسلمين وتحليلهم منه، فأبى وذكر أن عليه أيماناً محرجة في ماله وأهله. فأهزله من الفقهاء والقضاة منهم محمد بن عبد اللّه بن علاثة وغيرهم من أثناه بأن يبتاع أمير المؤمنين ماله في أعناق الناس بماله فيه رضاه بما يخرج له من ماله لما

---

(١) قال ابن الأثير قبل ذلك في الكامل: كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي قد خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهدي، فلما علم المهدي بذلك سَرَّهُ، وكتب إلى عيسى بن موسى بالقدوم عليه، وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة، فأحسَّ عيسى بالذي يراد منه، فامتنع من القدوم، فاستعمل المهدي على الكوفة روح بن حاتم للإضرار به، فلم يجد روح إلى الإضرار به سبيلاً لأنه كان لا يقرب البلد إلاّ كل جمعة أو يوم عيد، وألحّ المهدي عليه وقال له: إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع من ولاية العهد لموسى، وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل من أهل المعاصي، وإن اجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً.
فلم يقدم عليه، وخيف انتفاضة، فوجه إليه المهدي عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه، فلما عاد العباس وجه المهدي إليه أبا هريرة محمد بن فروخ القائد في ألف من أصحابه ذوي البصائر في التشيع للمهدي، وجعل مع كل واحد منهم طبلاً، وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعاً عند قدومهم إليه، فوصلوا سحراً، وضربوا طبولهم، فارتاع عيسى روعاً شديداً، ودخل عليه أبو هريرة، وأمره بالشخوص معه فاعتل بالشكوى، فلم يقبل منه، وأخذه معه، فلما قدم عيسى بن موسى نزل دار محمد بن سليمان في عسكر المهدي، فأقام أياماً يختلف إلى المهدي ولا يكلم بشيء... ثم ساق الخبر كما هنا.
قلت: لا ضير فإن كل العصور تذخر بصنَّاع الفتاوى والذين يقومون بتفصيلها حسب المقاس والطلب وهوى الحاكم وهوى من يدفع لهم أكثر مثل، هذا ما تراه بآخر تلك القصة، فهو تلفيق إن كنت لا أقر الموضوع إجمالاً غير أني أعتبر ولا أتعجب فقد أفناهم جميعاً الموت وأمام اللّه وقفوا جميعاً حكاماً ومفتين سائلاً اللّه لي وللمسلمين حسن الختام.

يلزمه من الحث في ثمنه وهو عشرة آلاف ألف درهم وضياع بالزاب الأعلى وكسكر، فقبل ذلك عيسى وخلع نفسه على المنبر وبويع لموسى بعد المهدي وكتب عليه بذلك كتاباً قرئ بحضرة الأشراف، والقضاة، والعدول، فاعترف وبذل خطه فيه وشهد فيه أربعمائة وثلاثون رجلاً من بني هاشم [٥٢/أ] وأصحابه من قريش، والموالي، والوزراء، والكتاب، والقضاة.

وفي هذه السنة: حج المهدي بالناس، وحج معه ابنه هارون وجماعة من أهل بيته[١]، وكان ممن شخص معه يعقوب بن داود على منزلته الرفيعة التي كانت عنده، فأتاه حين وافى مكة بالحسن بن إبراهيم بن عبد الله، الذي كان استأمن له، فأحسن المهدي صلته وجائزته، وأقطعه مالاً من القوافي بالحجاز.

وفيها: نزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها وكساها كسوة جديدة.

وذلك أن حجبة الكعبة رفعوا إليه أنهم يخافون أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة. فأمر بتنحية ما عليها حتى بقية مجردة، ثم طلي البيت بالخلوق وكسي.

وحكي أنهم لما بلغوا كسوة هاشم وجدوها ديباجاً ثخيناً، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن.

وتسلم المهدي في هذه السنة مالاً عظيماً من مكة والمدينة.

فذكر أنه قسم في تلك السفرة ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه.

ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار. فوهب ذلك كله، وفرق من الثياب مائة ألف وخمسين ألف ثوب ووسع مسجد رسول الله ﷺ[٢]، وأمر بنزع المقصورة التي في المسجد فنزعت، وأراد أن ينفض منبر رسول الله ﷺ فيعيده إلى ما كان عليه، ويلقى منه ما كان معاوية زاد فيه، فشاور في ذلك مالك بن أنس، فقيل له: إن المسامير قد شكلت في الخشب الذي أحدثه معه في الخشب الأول، وهو عتيق، ولا تأمن إن خرجت المسامير التي فيه وزعزعت أن يتكسر، فتركه المهدي على ذلك[٣].

---

(١) في الكامل بدأ الخبر على النحو التالي:
وحج بالناس هذه السنة المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى وخاله يزيد بن منصور، واستصحب معه جماعة من أهل بيته وابنه هارون الرشيد وكان معه يعقوب بن داود...

(٢) زاد ابن الأثير بعد ذلك فقال:
وأخذ خمسمائة من الأنصار يكونون حرساً له بالعراق، واقطعهم بالعراق وأجرى عليهم الأرزاق وحمل إليه محمد بن سليمان الثلج إلى مكة، وكان أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة، ورد المهدي على أهل بيته وغيرهم وطائفهم التي كانت مقبوضة عنهم.

(٣) لم يرد ذكر هذا الخبر بالكامل، وزاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة، فقال: =

....

= في هذه السنة: خرج يوسف بن إبراهيم المعروف بـ: البرم، بخراسان منكراً هو ومن معه على المهدي سيرته التي يسير بها واجتمع معه بشر كثير فتوجه إليه يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن زائدة، فلقيه فاقتتلا حتى صارا إلى المعانقة، فأسره يزيد بن مزيد، وبعث به إلى المهدي، وبعث معه وجوه أصحابه، فلما بلغوا النهروان حمل يوسف على بعير قد حول وجهه إلى ذنبه، وأصحابه مثله، فأدخلهم الرصافة على تلك الحال، وقطعت يدا يوسف، ورجلاه، وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر.
وقد قيل: إنه كان حرورياً وتغلّب على بوشنج وعليها مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين فهرب منه وتغلّب أيضاً على مروا الروذ، والطالقان، والجوزجان وقد كان من جملة أصحابه أبو معاذ الفريابي فقبض معه.
ذكر فتح مدينة باربد:
كان المهدي قد سيَّر سنة تسع وخمسين ومائة جيشاً في البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمقطوعة، وفيهم الربيع بن صبيح فساروا حتى نزلوا على باربد، فلما نزلوها حصروها من نواحيها، وحرّض الناس بعضهم بعضاً على الجهاد، وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم هذه السنة. عنوة، واحتمى أهلها بالبد الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم، فاحترق بعضهم وقتل الباقون واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً، وأفاءها الله عليهم، فهاج عليهم البحر، فأقاموا إلى أن يطيب، فأصابهم مرض في أفواههم يقال له: حمام قر، فمات منهم نحو من ألف رجل فيهم الربيع بن صبيح، ثم رجعوا فلما بلغوا ساحلاً من فارس يقال له: بحر حمران عصفت بهم الريح ليلاً فانكسر عامة مراكبهم فغرق البعض ونجا البعض.
قيل: وفيها: جعل أبان بن صدقه كاتباً للهارون الرشيد، ووزيراً له.
وفيها: عزل أبو عون عن خراسان عن سخطة، واستعمل عليها معاذ بن مسلم.
وفيها: غزا ثمامة بن العبس الصائفة. وغزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام.
وفي هذه السنة: أمر المهدي برد نسب آل أبي بكرة من ثقيف إلى ولاء رسول الله ﷺ، وسبب ذلك: إن رجلاً منهم رفع في ظلامته إلى المهدي وتقرب إليه فيها بولاء رسول الله ﷺ.
فقال له المهدي: إن هذا نسب ما يقرون به إلا عند الحاجة والاضطرار إلى التقرب إلينا.
فقال له: من جحد ذلك، يا أمير المؤمنين؟ فإنّا سنقر، وأنا أسألك أن تردني ومعشر آل أبي بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ﷺ، وتأمر بآل زياد فيخرجوا من نسبهم الذي ألحقوا به، ورغبوا عن قضاء رسول الله ﷺ، أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ويردوا إلى عبيد في موالي ثقيف.
فأمر المهدي برد آل أبي بكرة إلى ولاء رسول الله ﷺ وكتب فيه إلى محمد بن موسى بذلك، وأن من أقرَّ منهم بذلك ترك ماله بيده، ومن أباه اصطفى ماله، فعرضهم، فأجابوه جميعاً إلاّ ثلاثة نفر.
وكذلك أيضاً أمر برد نسب آل زياد إلى عبيد، وأخرجهم من قريش.
فكان الذي حمل المهدي على ذلك مع الذي ذكرناه: أن رجلاً من آل زياد قدم عليه يقال له: الصغدي بن سلم بن حرب بن زياد.
فقال له المهدي: من أنت؟
فقال: ابن عمك؟
فقال: أي بني عمي أنت؟
فذكر نسبه.
فقال المهدي: يا ابن سمية الزانية متى كنت ابن عمي؟ وغضب وأمر به فوجئ في عنقه، وأخرج.
وسأل عن استلحاق زياد، ثم كتب إلى العامل بالبصرة بإخراج آل زياد من ديوان قريش =

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

وفيها: خرج حكيم بن المقنع بخراسان وكان يقول: بتناسخ الأرواح فاستغوى بشراً كثيراً وقوي وسار إلى ما وراء النهر.

فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد منهم معاذ بن مسلم، وهو يومئذ على خراسان، ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيد الحرشي، وضم إليه هؤلاء القواد، وابتدأ في جمع الطعام في خلعه. . . . .[١] عدة للحصار[٢].

= والعرب، وردهم إلى ثقيف، وكتب في ذلك كتاباً بالغاً، يذكر فيه استلحاق زياد، ومخالفة حكم رسول الله ﷺ فيه.
فأسقطوا من ديوان قريش، ثم إنهم بعد ذلك رشوا العمال حتى ردوهم إلى ما كانوا عليه، فقال خالد النجار: إن زياداً ونافعاً وأبا بكرة عندي من أعجب العجب ذا قرشي كما يقولون وذا: . . . مولى وهذا يزعمه عربي.
وفيها: أرسل عبد الرحمٰن الأموي بالأندلس أبا عثمان عبيد الله بن عثمان وتمام بن علقمة إلى شقنا فحاصروه شهوراً بحصن شيطران وأعياهما أمره، فقفلا عنه، ثم إن شقنا بعد عودهما عنه خرج من شيطران إلى قرية شنت برية راكباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتاله أبو معن، وأبو خزيم، وهما من أصحابه، فقتلوه، ولحقوا بعبد الرحمٰن ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره.
وفيها: داود بن نصير الطائي الزاهد، وكان من أصحاب أبي حنيفة.
وعبد الرحمٰن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود المسعودي أيضاً وشعبة بن الحجاج أبو بسطام، وكان عمره سبعاً وسبعين.
وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي، وقيل: توفي سنة أربع وستين.
وفيها: توفي الربيع بن مالك بن أبي عامر عم مالك بن أنس الفقيه، كنيته أبو مالك، وكانوا أربعة أخوه أكبرهم أنس والد مالك، ثم أوس جد إسماعيل بن أوس، ثم نافع، ثم الربيع.
وفيها: توفي خليفة بن خياط العصفري الليثي وهو جد خليفة بن خياط.
وفيها: توفي الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي النحوي الإمام المشهور في النحو استاذ سيبويه.

(١) موضع النقط كلمة بالمخطوط هذا رسمها: «نكس». فربما سقط قبلها شيء، وربما تحرفت.

(٢) هذا ما ذكر المؤلف في قصته، وقال ابن الأثير: في هذه السنة سار معاذ بن مسلم وجماعة من القواد والعساكر إلى المقنع، وعلى مقدمته سعيد الحرشي، وأتاه عقبة بن مسلم من زم فاجتمع به بالطواويس، وأوقعوا بأصحاب فهزموهم فقصد المنهزمون إلى المقنع بستام فعمل خندقها وحصنها، وأتاهم معاذ فحاربهم فجرى بينه وبين الحرش نفرة، فكتب الحرشي إلى المهدي يقع في معاذ، ويضمن له الكفاية إن أفرده بحرب المقنع، فأجابه المهدي إلى ذلك، فانفرد الحرشي بحربه، وأمده معاذ بابنه رجاء في جيش وبكل ما التمسه منه.
وطال الحصار على المقنع فطلب أصحابه الأمان سراً منه، فأجابهم الحرشي إلى ذلك، فخرج نحو ثلاثين ألفاً، وبقي معه زهاء ألفين من أرباب البصائر.
وتحول رجاء بن معاذ، وغيره فنزلوا خندق المقنع في أصل القلعة وضايقوه، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السم، فأتى عليهم، وأمر أن يحرق هو بالنار لئلا يقدر على جثته.
وقيل: بل أحرق كل ما في قلعته من دابة وثوب وغير ذلك، ثم قال: من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار، وألقى بنفسه مع أهله، ونسائه وخواصه فاحترقوا ودخل العسكر القلعة فوجدوها خالية خاوية، وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه الذين يسمون المبيضة بما وراء النهر من أصحابه إلاّ أنهم يسرون اعتقادهم. =

وفيها: ظفر نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي بعبد اللَّه بن مروان بالشام، فقدم به على المهدي، فجلس المهدي مجلساً عاماً في الرصافة وقال: من يعرف هذا؟

فقام عبد العزيز بن مسلم العقيلي فصار معه قائماً، ثم قال: أنا الحكم؟

قال: نعم.

قال: كيف كنت بعدي؟ ثم التفت إلى المهدي فقال: نعم يا أمير المؤمنين هذا عبد اللَّه بن مروان.

فعجب الناس من جوابه، ولم يعرض له المهدي بشيء.

ثم جاء بعد ذلك بأيام عمرو بن سهلة الأشعري فادعى أن عبد اللَّه بن مروان [قتل أباه وحاكمه عند][1] عافية القاضي [فتوجه الحكم على عبد اللَّه][1] أن يقاد به، وأقام عليه البينة[1].

فلما كاد الحكم يبرم، جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلي إلى عافية القاضي يتخطى رقاب الناس حتى صار إليه، فقال: زعم عمرو[2] بن سهلة أن عبد اللَّه بن مروان قتل أباه، كذب واللَّه، ما قتل أباه غيري، أنا قتلته بأمر وعبد اللَّه بن مروان بريئ من دمه فزالت عن عبد اللَّه بن مروان الحكومة، ولم يعرض المهدي لعبد العزيز بن مسلم لأنه قتله بأمر مروان.

وفيها: أمر المهدي يعقوب بن داود بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق ففعل، وكان [لا][3] ينفذ المهدي كتاباً[4] إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داود بتوجيه إلى ثقته وأمينه بإنفاذ[5] ذلك.

[**وفيها**]: اتضعت منزلة أبي عبيد اللَّه وزير المهدي.

ذكر السبب في ذلك

كان الربيع يخلف أبا عبيد اللَّه عند المنصور بجميع أيام مقامه بالري مع المهدي،

= وقيل: بل شرب هو أيضاً من السم فمات فأنفذ الحرش رأسه إلى المهدي، فوصل إليه بحلب سنة ثلاث وستين ومائة في غزواته.

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل وقد أصاب النص في المخطوط سقط واضطرب فجاء السياق فيه على النحو التالي:
ثم جاء بعد ذلك بأيام عمرو بن سهلة الأشعري فادعى أن عبد اللَّه بن مروان إلى عافية القاضي وادعى إليه، فتوجه الحكم أن يقاد به وأقام عليه البينة.

(٢) في المخطوط: عمر. وهو تحريف.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في المخطوط: كتاب، والتصويب من الكامل.

(٥) في الكامل: حتى يكتب يعقوب إلى أمينه بانفاذ ذلك.

وكان الموالي يشنعون [على] أبي عبيد اللّه عند المهدي، وكان أبو عبيد اللّه يخاف تغير رأي المهدي له، فيكتب إلى الربيع ولا تنقطع رسله عنه فلا يزال الربيع بذكره بجميل عند المنصور ويعلمه ثقته وكفايته و. . . . . .[1] الكتب من المنصور إلى المهدي بالوصاية به، وترك [٥٢/ب] قبول قول الموالي فيه.

قال الفضل بن الربيع: لما حج أبي مع المنصور، في هذه السنة التي مات فيها وقام أبي بما قام فيه من أمر البيعة وتلا فيه بنفسه تلك الأمور وتجديده البيعة للمهدي على أهل بيت أمير المؤمنين والقواد والموالي وقدم فلقيته[2] بعد المغرب، فلم أزل معه حتى تجاوز منزله ونزل دار أمير المؤمنين، ومضى أبي عبيد اللّه. فقلت له: تترك أمير المؤمنين وتأتي أبا عبد اللّه؟!

فقال: يا بني هو وزير الرجل وليس ينبغي [أن][3] نعامله بما كُنا نعامل به، ولا نحاسبه بما كان منابه ونصرتنا له. قال: فمضينا حتى أتينا باب أبي عبيد اللّه فما زال واقفاً حتى صليت العتمة، فخرج الحاجب فقال: إنما استأذنت لك وحدك، يا أبا الفضل.

قال: فاذهب فأخبره أن الفضل معي، ثم أقبل عليّ فقال: هذا أيضاً من ذاك. فخرج الحاجب، فأذن لنا جميعاً، فدخلنا فإذا أبو عبيد اللّه في صدر مجلسه متكئ، فقلت: سيقوم إلى أبي فيتلقاه، فلم يقم، فقلت: يستوي جالساً إذا دنا، فلم يفعل، فقلت: يدعو له بمصلى، فلم يفعل.

قال: فقعد أبي[4] بين يديه على البساط، وهو متكئ، فجعل يسأله عما كان منه في أمر المهدي وتجديده بيعته، فأعرض ذلك فذهب أبي يبتدي بذكره.

فقال: قد بلغنا بنوكم.

قال: فذهب أبي لينهض، فقال له: لا أرى الدروب إلاّ وقد غلّقت، فلو أقمت.

فقال أبي: إن الدروب لا تغلق دوني.

فقال: بلى، قد غلقت.

قال: فظن أبي أنه يريد أن يحبسه ليسكن من مسيره ثم يسأله.

فقال: يا غلام اذهب فهيىء لأبي الفضل في منزل محمد بن عبيد اللّه مبيتاً.

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط، وهذا رسمها: «و ـنجز».
(٢) في المخطوط: بلفيته. وهو تحريف.
(٣) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في المخطوط: إلى، وهو تحريف.

فلما رأى أنه يريد أن يخرج من الدار قال: فليس تغلق الدروب دوني، ثم قام.

فلما خرجنا من الدار أقبل عليّ فقال: يا بني أنت أحمق.

قلت: وما حمقي؟

قال: قلت في نفسك كان ينبغي أن لا تجيء، وكان ينبغي إذ جئت فحجبنا أن لا تقيم حتى صليت العتمة، وأن تخرج فتصرف ولا تدخل، وكان ينبغي إذ دخلت فلم يقم لك أن ترجع ولا تقيم عليه، ولا تجلس بين يديه.

ولم يكن الصواب إلاّ ما عملته كله، ولكن واللّه الذي لا إله إلاّ هو، واستغلق في اليمين لأخلفن جاهي وأنفقن مالي حتى أبلغ مكروه أبي عبيد اللّه.

قال: ثم جعل يضطرب بجهده فلا يجد مساغاً إلى مكروهه ويحتال الحيل حتى ذكر التستري الذي كان أبو عبيد اللّه حجبه، وكان هذا الرجل في مسامري المهدي بنيسابور وبالري، وفيمن يأنس به فعارض أبا عبيد اللّه يوماً بين يدي المهدي في أمر، فتقدم أبو عبيد اللّه بأن يحجب عن المهدي وأسقط اسمه، فأرسل إليه أبي فجاء.

فقال له: إنك قد علمت ما ركبك به أبو عبيد اللّه وقد بلغ مني كل غاية من المكروه، وقد أذعت أمره بجهدي، فما وجدت عليه طريقاً، فعندك حيلة في أمره؟

فقال: إنما يؤتى أبو عبيد اللّه من أحد وجوه أذكرها لك.

يقال: إنه جاهل في صناعته، فأبو عبد اللّه أحذق الناس.

أو يقال: هو ظنين فيما يتقلده، فأبو عبيد اللّه أعفّ الناس لو أن مات المهدي في حجره كان نهز موضعاً.

أو يقال: هو يميل أن يخالف السلطان، فليس يؤتى أبو عبيد اللّه من ذلك إلا ابنه يميل إلى الغدر.

أو يقال: هو متهم في اللّه، فأبو عبيد اللّه ذو عقل وثيق.

ولكن هذا كله يجتمع لك في ابنه.

قال: فتناوله الربيع فقبّل بين عينيه، ثم دب لابن أبي عبيد اللّه، فواللّه ما زال يحتال ويدس إلى المهدي ويتهمه ببعض حرم المهدي، ويحقق عليه الزندقة حتى استحكم عند المهدي الظنة لمحمد بن أبي عبيد اللّه.

فأمر فأحضر وأخرج أبو عبيد اللّه، فقال: يا محمد اقرأ القرآن فذهب ليقرأ فاستعجم عليه.

فقال: يا معاوية ألم تعلمني أن ابنك [٥٣/أ] جامع للقرآن؟

قال: قد أخبرتك يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ سنين، وفي هذه المدة نسي القرآن.

قال: فقم فتقرب إلى اللّه بدمه.

قال: فذهب يقوم فوقع.

فقال العباس بن محمد: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تعفي الشيخ، فإنه يضعف عن ذلك ففعل. فأمر به، فأخرج وضربت عنقه.

قال: واتهمه المهدي في نفسه، فقال له الربيع: قتلت ابنه، وليس ينبغي أن يكون معك، ولا تثق به.

قال: فأوجس المهدي منه، وكان من أمره ما كان، وبلغ ما أراد، وأشفى وزاد[1].

---

(١) هذا كل ما ذكر المؤلف من أحداث في تلك السنة، وزاد ابن الأثير فيها فقال:
وفي هذه السنة، وقيل في سنة ستين:
عبر عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي ـ وإنما سمي به لطوله وزرقته وشقرته ـ من أفريقية إلى الأندلس محارباً لهم، ليدخلوا في الطاعة للدولة العباسية، وكان عبوره في ساحل تدمر.
وكاتب سليمان بن يقظان بالدخول في أمره ومحاربة عبد الرحمٰن الأموي، والدعاء إلى طاعة المهدي.
وكان سليمان ببرشلونة، فلم يجبه فاغتاظ عليه وقصد بلده فيمن معه من البربر، فهزمه سليمان فعاد الصقلبي إلى تدمر، وسار عبد الرحمٰن الأموي نحوه في العدد والعدة، وأحرق السفن تضييقاً على الصقلبي في الهرب فقصد الصقلبي جبلاً منيعاً بناحية بلنسه، فبذل الأموي ألف دينار لمن أتاه برأسه، فاغتاله رجل من البربر، فقتله وحمل رأسه إلى عبد الرحمن، فأعطاه ألف دينار. وكان قتله سنة اثنتين وستين ومائة.
وفيها: غزا الصائفة ثمامة بن الوليد، فنزل بدابق وجاشت الروم مع ميخائيل في ثمانين ألفاً فأتى عمق مرعش فقتل وسبى وغنم، وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم فقتل من المسلمين عدة كثيرة، وكان عيسى بن علي مرابطاً بحصن مرعش، فانصرف الروم إلى جيهان.
وبلغ الخبر المهدي فعظم عليه لغزو الروم على ما سنذكره سنة اثنتين وستين ومائة فلم يكن للمسلمين صائفة من أجل ذلك.
وفيها: أمر المهدي ببناء القصور بطريق مكة، أوسع من القصور التي بناها السفاح من القادسية إلى زُبالة، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وبتجديد الأميال والبُرك، وبحفر الرعايا وولّى ذلك يقطين بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة، وتقصير المنابر في البلاد وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ إلى اليوم.
وفيها: ولي نصر بن محمد بن الأشعث السند، ثم عُزل بعبد الملك بن شهاب، فبقي عبد الملك ثمانية عشر يوماً، ثم عُزل، وأُعيد نصر من الطريق.
وفيها: استقضى المهدي عافية القاضي، مع ابن علاثة بالرصافة.
وفيها: عُزل الفضل بن صالح عن الجزيرة واستعمل عليها عبد الصمد بن علي، واستعمل عيسى بن لقمان على مصر. =

ودخلت سنة اثنتين وستين ومائة

وتتابعت السنون إلى سنة ست وستين ومائة، ولم يجر فيها ما يكتب ويستفاد منه شيء[١].

= ويزيد بن منصور على سواد الكوفة.
وحسان الشروي على الموصل.
وبسطام بن عمرو التغلبي على أذربيجان.
وفيها: توفي نصر بن مالك من فالج أصابه وولى المهدي بعده شرطته حمزة بن مالك، وصرف أبان بن صدقة عن هارون الرشيد، وجعل مع موسى الهادي، وجعل مع هارون يحيى بن خالد بن برمك.
وفيها: عزل محمد بن سليمان أبو ضمرة عن مصر في ذي الحجة، ووليها سُلمة بن رجاء.
وحج بالناس: موسى الهادي وهو وليُّ عهد.
وكان عامل مكة والطائف، واليمامة: جعفر بن سليمان.
وعامل اليمن علي بن سليمان.
وكان علي سواد الكوفة: يزيد بن منصور، وعلى أحداثها إسحاق بن منصور.
وفيها: توفي سفيان الثوري، وكان مولده سنة سبع وتسعين.
وزائدة بن قدامة أبو الصلت الثقفي الكوفي. وإبراهيم بن أدهم بن منصور أبو اسحاق الزاهد، وكان مولده ببلخ، وانتقل إلى الشام فأقام به مرابطاً، وهو من بكر بن وائل ذكره أبو حاتم البستي.

(١) هذا ما قاله مسكويه رحمنا اللّه وإياه في أحداث تلك السنوات، وأنا أذكرها سنة سنة من الكامل وقد ذكرهال ابن الأثير مختصرة. فقال في أحداث سنة اثنتين وستين ومائة: في هذه السنة: قتل عبد السلام بن هاشم اليشكري بقنسرين، وكان قد خرج بالجزيرة فاشتدت شوكته وكثر اتباعه فلقيه عدة من قواد المهدي، فيهم: عيسى بن موسى القائد، فقتله في عدة ممن معه، وهزم جماعةٍ من القواد فيهم شبيب بن واج المروزذي، فندب المهدي إلى شبيب ألف فارس وأعطى كل رجل منهم ألف درهم معونة، فوافوا شبيباً، فخرج بهم في طلب عبد السلام، فهرب منه، فأدركه بقنسرين، فقاتله فقتله بها.
وفي هذه السنة: وضع المهدي ديوان الأزمّة أي ما يسمى في عصرنا مجلس الوزراء، وهو أن يتولى كل عمل من أعمال الدولة رجل واحد يناط به كل شؤون ذلك العمل ويحاسب عليه ويجمع كل ذلك في يد رئيس المجلس ويحاسب كل فرد منهم على ما ولي ما كلف به. وولى عليها عمرو بن مريع مولاه، وأجرى المهدي على المجذمين وأهل السجون الأرزاق في جميع الأفاق.
وفيها: خرجت الروم إلى الحدث فهدموا سورها.
وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ حمّه أذروليه وأكثر التحريق والتخريب في بلاد الروم ولم يفتح حصناً ولا لقي جمعاً، وسّمته الروم التنين وقالوا: إنما أتى الحمه ليغتسل من مائها للوضع الذي به، ورجع الناس سالمين.
وفيها: غزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قاليقلا، فغنم، وافتتح ثلاثة حصون، وسبى.
وفيها: عُزل علي بن سليمان عن اليمن، واستعمل مكانه عبد اللّه بن سليمان. وعُزل سلمة بن رجاء من مصر ووليها عيسى بن لقمان في المحرم، وعُزل عنها في جمادى الآخر، ووليها =

[سنة ثلاث وستين ومائة](١)

= واضع مولى المهدي، ثم عزل في ذي القعدة، ووليها يحيى الحرشي.
وفيها: خرجت المحمرة بجرجان عليها رجل اسمه عبد القهار، فغلب عليها وقتل بشراً كثيراً، فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان فقتله عمر، وأصحابه.
وكان العمال من تقدم ذكرهم. فكانت الجزير مع عبد الصمد بن علي.
وطبرستان والرويان مع سعيد بن دعلج. وجرجان مع مهلهل بن صفوان.
وفيها: أرسل عبد الرحمن صاحب الأندلس شهيد بن عيسى إلى دحية الغساني، وكان عاصياً في بعض حصون البيرة، فقتله، وسَيَّر بدراً مولاه إلى إبراهيم بن شجرة البرلسي وكان قد عصى فقتله.
وسَيَّر أيضاً ثمامة بن علقمة إلى العباس البربري، وهو في جمع من البربر، وقد أظهر العصيان فقتله أيضاً، وفرق جموعه.
وفيها: سَيّر جيشاً مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السلمي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمٰن أمير الأندلس فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سكر منه، فمنعه الحرس، فعاد، فلما صحا خاف فهرب إلى طليطلة، فاجتمع إليه كثير ممن يريد الخلاف والشر، فعاجله عبد الرحمن بإنفاد الجيوش إليه فنازله في موضع قد تحصن فيه وحصره.
ثم إن السلمي طلب البراز فبرز إليه مملوك أسود فاختلفوا ضربتين، فوقعا صريعين ثم ماتا جميعاً.
وفيها: توفي عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم قاضي أفريقية، وقد جاوز تسعين سنة، وسبب موته أنه أكل عند يزيد بن حاتم سمكاً، ثم شرب لبن، وكان يحيى بن ماسويه الطبيب حاضراً، فقال: إن كان الطب صحيحاً مات الشيخ الليلة، فتوفي من ليلته تلك والله أعلم.

(١) زيادة من الكامل، وقال في أحداثها:
في هذه السنة: تجهز المهدي لغزو الروم، فخرج وعسكر بالبردان، وجَمَعَ الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها، وكان قد توفي عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس في جمادى الآخرة.
وسار المهدي من الغد واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، وسار على الموصل، والجزيرة وعزل عنها عبد الصمد بن علي في مسيره ذلك، ولما حاذى قصر مسلمة بن عبد الملك، قال العباس بن محمد بن علي المهدي: إن لمسلمة في أعناقنا مِنّةً.
كان محمد بن علي مَرَّ به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له: إذا نفذت فلا تحتشمنا.
فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه، وأمر لهم بعشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق، وعبر الفرات إلى حلب وأرسل وهو بحلب، فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين.
وسار عنها مشيعاً لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيجان، فسار هارون ومعه عيسى بن موسى، وعبد الملك بن صالح، والربيع، والحسن بن قحطبة، والحسن، وسليمان بن برمك، ويحيى بن خالد بن برمك، وكان إليه أمر العسكر والنفقات والكتابة وغير ذلك.
فساروا فنزلوا على حصن سمالو فحصره هارون ثمانية وثلاثين يوماً ونصب عليه المجانيق، ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحاً كثيرة.
ولما عاد المهدي من الغزاة، زار المقدس ومعه يزيد بن منصور، والعباس بن محمد بن علي، والفضل بن صالح بن علي، وعلي بن سليمان بن علي، وقفل المسلمون سالمين إلا من قُتل منهم.
وعزل المهدي إبراهيم بن صالح عن فسلطين، ثم ردّه. =

[سنة أربع وستين ومائة][(١)]

= وفي هذه السنة: وَلّى المهدي ابنه هارون المغرب كله، وأذربيجان، وأرمينية، وجعل على الخراج ثابت بن موسى، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك.
وفيها: عزل زفر بن عاصم عن الجزيرة، واستعمل عليها عبد اللّه بن صالح.
وفيها: عزل المهدي معاذ بن مسلم عن خراسان، واستعمل عليها المسيب بن زهير الضبي.
وعزل يحيى الحرشي عن أصبهان، وولّى مكانه الحكم بن سعيد.
وعزل سعيد بن دعلج عن طبرستان والرويان وولاهما عمر بن العلاء.
وعزل مهلهل بن صفوان عن جرجان وولاها هشام بن سعيد.
وكان على مكة، والمدينة، والطائف، واليمامة: جعفر بن سليمان.
وكان على الكوفة: إسحاق بن الصباح.
وعلى البصرة وفارس والبحرين والأهواز محمد بن سليمان.
وعلى السند: نصر بن محمد بن الأشعث. وعلى الموصل محمد بن الفضل.
وحج بالناس هذه السنة: علي بن المهدي.
وفيها: أظهر عبد الرحمٰن الأموي صاحب الأندلس التجهز للخروج إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية، وأخذ ثأره منهم. فعصى عليه سليمان بن يقظان، والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عثمان الأنصاري بسرقسطة، واشتد أمرهما فترك ما كان عزم عليه.
وفيها: مات موسى بن علي بن رباح اللخمي.
وفيها: مات إبراهيم بن طهمان، وكان عالماً فاضلاً، وكان مرجئاً من أهل نيسابور، ومات بمكة.
وفيها: توفي أبو الأشهب جعفر بن حيان بالبصرة.
وفيها: توفي بكار بن شريح قاضي الموصل بها وكان فاضلاً، وولي القضاء بها أبو مكرز الفهري، واسمه يحيى بن عبد اللّه بن كرز.

(١) زيادة تصنيفية وسبق أن ذكرت أنني أذكر السنين من الكامل فقال فيها:
وفي هذه السنة: غزا عبد الكير بن عبد المجيد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب من درب الحدث، فأتاه ميخائيل البطريق، وطازاذ الأرمني البطريق في تسعين ألفاً، فخاف عبد الكبير، ومنع الناس من القتال، ورجع بهم، فأراد المهدي قتله، فشفع فيه فحبسه.
وفيها: عزل المهدي محمد بن سليمان عن البصرة وسائر أعماله، واستعمل صالح بن داود مكانه.
وفيها: سار المهدي ليحج، فلما بلغ العقبة ورأى قلة الماء، خاف أن الماء لا يحمل الناس، وأخذته أيضاً حُمى فرجع، وسيَّر أخاه صالحاً ليحج بالناس.
ولحق الناس عطش شديد حتى كادوا يهلكون، وغضب المهدي على يقطين لأنه صاحب المصانع.
وفيها: عزل عبد اللّه بن سليمان عن اليمن عن سخطة ووجه من يستقبله ويفتش متاعه ويحصي ما معه، واستعمل على اليمن منصور بن يزيد بن منصور.
وعلى إفريقية: يزيد بن حاتم.
وكان العمال من تقدم ذكرهم.
وعلى الموصل: محمد بن الفضل.
وفيها: سَيَّر عبد الرحمن الأموي إلى سرقسطة بعد أن كان قد سيَّر إليها ثعلبة بن عبيد في عسكر كثيف.
وكان سليمان بن يقظان، والحسين بن يحيى قد اجتمعا على خلع طاعة عبد الرحمٰن كما ذكرنا وهما بها، فقاتلهما ثعلبة قتالاً شديداً، وفي بعض الأيام عاد إلى مخيمه فاغتنم قار له ملك الأفرنج، ووعده بتسليم البلد وثعلبة إليه. =

[سنة خمس وستين ومائة](١)

فلما كانت

= فلما وصل إليه لم يصح بيده غير ثعلبة، فأخذه وعاد إلى بلاده، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء، فأهمله عبد الرحمٰن مدة، ثم وضع من طلبه من الفرنج، فأطلقوه فلما كان هذه السنة سار عبد الرحمٰن إلى سرقسطة وفرق أولاده في الجهات ليدفعوا كل مخالف، ثم يجتمعون بسرقسطة، فسبقهم عبد الرحمٰن إليها.
وكان الحسين بن يحيى قد قتل سليمان بن يقظان وانفرد بسرقسطة، فوافاه عبد الرحمٰن على أثر ذلك، فضيق على أهلها تضييقاً شديداً، وأتاه أولاده من النواحي، ومعهم كل من كان خالفهم، وأخبروه عن طاعة غيرهم.
فرغب الحسين في الصلح وأذعن للطاعة، فأجابه عبد الرحمٰن وصالحه، وأخذ ابنه سعيداً رهينة، ورجع عنه.
وغزا بلاد الفرنج فدوخها، ذهب وسبى وبلغ قلهرة، وفتح مدينة فكيرة، وهدم قلاع تلك الناحية، وسار إلى بلاد البشكنس، ونزل على حصن مثمين الأقرع، فافتتحه، ثم تقدم إلى ملدوتون بن أطلال وحصر قلعته، وقصد الناس جبلها، وقاتلوهم فيها، فملكوها عنوة، وخربها، ثم رجع إلى قرطبة.
وفيها: ثارت فتنة بين بربر بلنسية، وبربر شنت برية من الأندلس، وجرى بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير من الطائفتين، وكانت وقائعهم مشهورة.
وفيها: مات شيبان بن عبد الرحمٰن أبو معاوية التميمي النحوي البصري.
وعبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون.
وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور، وقيل: مات سنة ثلاث وستين، وكان عمره ثمانياً وسبعين سنة. وقيل: ثمانين سنة.
وسعيد بن عبد العزيز الدمشقي، وسلام بن مسكين النمري الأزدي أبو روح. والمبارك بن فضالة بن أبي أمية القرشي، مولى عمر بن الخطاب.

(١) زيادة تصنيفية، وقال ابن الأثير في هذه السنة في الكامل:
في هذه السنة: سَيَّر المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم صائفة في جمادى الآخرة في خمسة وتسعين ألفاً وتسعمائة وثلاثة وتسعين، ومعه الربيع، فأوغل هارون في بلاد الروم، ولقيه عسكر نقيطا قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد الشيباني، فأثخنه يزيد، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم، وساروا إلى دمشق، وهو صاحب المسالح فحمل لهم مائة ألف دينار، وثلاثة وتسعين ألفاً، وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الورق واحداً وعشرين ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم.
وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ أغطسة امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق، وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً فأجابته إلى ذلك.
ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة، ورجع عنها، وكانت الهدنة ثلاث سنين، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبي، وستمائة وثلاثة وأربعين.
ومن الدواب الذلل بأدواتها: عشرين ألف رأس.
وذبح من البقر والغنم: بمائة ألف رأس. وقتل من الروم في الوقائع: أربعة وخمسون ألفاً. وقتل من الأسرى صبراً: ألفان وتسعون أسيراً.
وفي هذه السنة: عزل خلف بن عبد الله عن الري، ووليها عيسى مولى جعفر. =

سنة ست وستين ومائة

غضب المهدي على يعقوب بن داود.

ذكر السبب في ذلك

كان يعقوب بن داود محبوساً في المطبق حتى مَنَّ عليه المهدي، وسبب حبسه: أن أباه داود بن طهمان وإخوته كتبوا[١] كتاباً لنصر بن سيار، ولما كانت أيام يحيى بن زيد كان يدس إليه وإلى أصحابه من[٢] يسمع من نصر ويحذرهم، فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى ويقتل قتلته[٣] والمعينين [عليه][٤]. أتاه داود بن طهمان مطمئناً إليه لما كان يعلم مما جرى بينهما، فأمنه أبو مسلم، ولم يعرض له في نفسه لكن أخذ أمواله التي استفادها أيام نصر وترك له ضيعة كانت له قديمة.

فلما مات داود، وخرج ولده أهل أدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم، ونظروا فإذا ليس لهم عند أبي العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر، فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل الحسن طمعاً في أن يكون لهم دولة، ....[٥] فكان يعقوب منفرداً يجول البلاد، وكان مع إبراهيم بن عبد اللّه أحياناً في طلب البيعة لمحمد بن عبد اللّه.

= وحج بالناس هذه السنة: صالح بن المنصور.
وكان العمال من تقدم ذكرهم غير أن البصرة كان على أحداثها والصلاة بها روح بن حاتم.
وكان على كور دجلة، والبحرين، وعمان، وكسكر، والأهواز، وفارس، وكرمان: المعلى مولى المهدي.
وكان على الموصل: أحمد بن اسماعيل بن علي بن عبد اللّه بن عباس.
وفيها: غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة، فنكث مع عبد الرحمٰن فسيَّر إليه عبد الرحمن غالب بن ثمامة بن علقمة في جند كثيف، فاقتتلوا، فأسر جماعة من أصحاب الحسين فيهم: ابنه يحيى، وفسيرهم إلى الأمير عبد الرحمٰن فقتلهم، وأقام ثمامة بن علقمة على الحسين يحصره.
ثم إن الأمير عبد الرحمٰن سار سنة ست وستين ومائة إلى سرقسطة بنفسه فحصرها وضايقها، وتصب عليهاالمجانيق ستة وثلاثين منجانيقاً، فملكها عنوة. وقتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل سرقسطة منها ليمين تقدمت منه، ثم ردهم إليها.
وفيها: مات يزيد بن منصور بن عبد اللّه بن يزيد بن شهر بن مثوب، وهو من ولد شهر ذي الجناح الحميري خال المهدي، وقد كان ولي اليمن، والبصرة، والحج.
وفيها: توفي فتح بن الوشاح المصلي الزاهد.

(١) في المخطوط: كانوا، وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: ما، وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: قتله، وهو تحريف.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) موضع النقط كلمة مختلطة المداد لم أتبين قراءتها في المخطوط، ولم ترد في الكامل.

فلما ظهر إبراهيم بالبصرة كان معه، فلما قتل محمد وإبراهيم تواروا.

فأمر المنصور بطلبهم، فأُخذ يعقوب وأخوه علي فحبسهما في المطبق، فبقوا أيام حياة المنصور إلى أن مَنَّ المهدي عليهم وأطلقهما[1].

ثم لم تزل منزلته ترتفع عند المهدي حتى استوزره وتجاوز مرتبة الوزراء حتى فوض إليه أمر الخلافة فأرسل إلى الزيدية، فأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمور الخلافة في الشرق والغرب كل عمل جليل نفيس [وصارت][2]، الدنيا كلها بيده، فكثر وسعى عليه الموالي حتى قيل للمهدي: إن الشرق والغرب في يد يعقوب وأصحابه، وقد كاتبهم، وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد على ميعاد فيأخذوا الدنيا كلها لمن شاء.

وكان ذلك ملأ قلب المهدي، وكان يعقوب بن داود قد عرف من المهدي خلفاً، واستهتاراً بذكر النساء والجماع، وكان يعقوب يصف له من تُغَنِّيه شيئاً كثيراً، وكذلك كان المهدي.

فيقول خدم المهدي هو على أن يصيح فيثور يعقوب بيعقوب غدا [حتى إذا غدى][3] عليه وقد بلغ الخبر فإذا نظر إليه تبسم ويقول: إن عندك لخبراً؟

فيقول: نعم.

فيقول: اقعد بحياتي فحدثني.

فيقول: خلوت بجاريتي فلانة وكان، وقالت، وقلت، كذلك حديثاً.

فيتحدث المهدي مثل ذلك ويفترقان على الرضى فيبلغ ذلك من يسعى على يعقوب، فيتحبب منه.

---

(١) بعد هذا في الكامل:
وكان معهما الحسن بن إبراهيم، فاتصل إلى المهدي بسببه كما تقدم ذكره.
وقيل: اتصل به بالسعاية بآل علي، ولم يزل أمره يرتفع حتى استوزره.
وكان المهدي يقول: وصف لي يعقوب في منامي فقيل لي: استوزره، فلما رأيته رأيت الخلقة التي وصفت لي، فاتخذته وزيراً.
فلما ولي الوزارة أرسل إلى الزيدية فجمعهم وولاهم الخلافة في المشرق والمغرب ولذلك قال بشار بن برد:

بني أمية هبُّوا طال نومكم — إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا — خليفة الله بين الناي والعود

فحسده موالي المهدي وسعوا به.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

ذكر السبب في تمكن السعاة على يعقوب مع حظوته

خرج ليلة يعقوب من عند المهدي وقد ذهب من الليل أكثره، وعليه طيلسان يتقعقع، فصادف غلاماً آخذاً بعنان دابَّةٍ أشهب، وقد دنا الغلام، فذهب يعقوب يسوي طيلسانه فتقعقع فنفر البرذون، وسقط يعقوب، ودنا منه فاستدبره وضربه على ساقه فكسرها، وسمع [٥٣/ب] المهدي الوجبة، فخرج صافياً؛ فلما رأى ما به أظهر الجزع والتفزع، ثم أمر به فحمل في محفّة إلى منزله، ثم غدا عليه المهدي مع الفجر، وبلغ ذلك الناس فغدوا عليه فعادوه ثلاثة متتابعة مع أمير المؤمنين.

ثم قعد عن عيادته، وأقبل يرسل إليه يسأله عن حاله، فلما فقد وجهه، تمكن السعاة من المهدي، فلم تأت عاشرة حتى أظهر سخطه.

أما السبب الذي تحدث به يعقوب عن نفسه بعد موت المهدي

فهو ما حكاه ابنه علي بن يعقوب عن أبيه قال:

بعث المهدي إليَّ يوماً فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مورد مبناه في السر[١]، وعلى بستان فيه شجر رؤوس[٢] الشجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد[٣] والأزهار من الخوخ والتفاح وكل ذلك مورد يشبه فرش المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسن منها، ولا أشد قواماً ولا أحسن اعتدالاً عليها نحو تلك الثياب فما رأيت أحسن من جملة ذلك.

فقال لي: يا يعقوب، كيف ترى مجلسنا هذا؟[٤].

فقلت: على غاية الحسن فمتع اللّٰه به أمير المؤمنين وهناه.

قال: هو لك أحمله بما فيه وهذه الجارية ليتم سرورك.

قال: فدعوت له بما يحب.

قال: ثم قال لي: يا يعقوب، ولي إليك حاجة.

---

(١) قوله: مبناه في السر لم ترد في الكامل.

(٢) في المخطوط: ردى، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) هذه الكلمة لم ترد في الكامل.

(٤) في الكامل: بعد قوله: من الخوخ والتفاح: فما رأيت شيئاً أحسن منه، وعنده جارية عليها نحو ذلك الفرش، ما رأيت أحسن منها.
فقال لي: يا يعقوب كيف...
فأحسب أن ذلك قد سقط من المخطوط، واللّٰه أعلم.

قال: فوثبت قائماً وقلت: يا أمير المؤمنين [قل][١].

قال: لا ولكن أحب أن تضمن لي قضاءها فإني لم أسلكها[٢] حيث تتوهم، وإنما قلت ذلك على الحقيقة، فأحب أن تضمن لي هذه الحاجة أن تقضيها لي.

قلت: الأمر لأمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة.

قال: واللّه.

قلت: واللّه.

قال: ثلاثاً.

[قلت: ثلاثاً][٣].

قال: وحياة رأسي.

قلت: وحياة رأسك.

قال: فضع يدك عليه واحلف به.

قال: فوضعت يدي عليه وحلفت به لأعملن بما قال، ولأقضين حاجته[٤].

فلما استوثق مني في نفسه قال: هذا فلان ابن فلان من ولد علي، أحب أن تكفيني مؤنته وتريحني منه وتعجل ذلك.

فقلت: أفعل.

قال: فخذه إليك.

فحولته إليّ، وحوّلت الجارية، وجميع ما كان في البيت والمجلس من فرش وآلة، وأمر لي بمائة ألف درهم.

قال: فحملت ذلك جملة ومضيت، فلشدة سروري بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وبعثت إلى العلوي، فأدخلته إليّ وسألته عن حاله، فأخبرني بها، وإذا ألب الناس وأحسنهم إبانة [عن نفسه ثم][٥] قال لي في بعض ما يقول: ويحك يا يعقوب، تلقى اللّه بدمي وأنا رجل[٦] من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) ربما كان المراد: ولم أسألكها فتحرفت. وهكذا جاء رسمها في المخطوط، فاللّه أعلم.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) هذه العبارات والحلف وطريقته لا يعرفها الإسلام، ولا يظن مثل ذلك بمثل هؤلاء القوم لأن الحلف بغير اللّه شرك.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: وجل. وهو تحريف.

قال: قلت: لا واللَّه، فهل فيك أنت خير؟

قال: إن فعلت خيراً شكرت ولك[1] عندي دعاء، واستغفار.

قال: فإني أطلقك، فأي الطريق أحب إليك؟

قال: طريق كذا.

قلت: فمن هاهنا ممن تأنس به وتثق بموضعه؟

قال: فلان[وفلان][2].

قلت: فابعث إليهما، وخذ هذا المال وامض معهما مُصاحباً في ستر اللَّه، وموعدك موعدهما للخروج من داري إلى موضع كذا وكذا الذي اتفقنا عليه في وقت كذا وكذا من الليل.

فإذا الجارية قد حفظت عليّ قولي فبعثت به إلى خادم لها إلى المهدي، وقالت: هذا جزاؤك من الذي آثرته على نفسك، صنع وفعل حتى ساقت الحديث كله.

قال: وبعث المهدي من وقته، فشحن تلك الطرق والمواضع التي وصفها يعقوب والعلوي بالرجال، فلم يلبث أن جاؤوه بالعلوي بعينه وصاحبه والمال على النسخة التي حكتها عليه الجارية.

وأصبحت من غد ذلك اليوم، فإذا الرسول المهدي يستحضرني.

قال: وكنت خالي الدرع غير ملق إلى أمر العلوي بالاً حتى دخل المهدي وحده على كرسي في يده محضرة، فقال: [يا][3] يعقوب، ما حال الرجل؟

قلت: يا أمير المؤمنين، قد أراحك اللَّه منه.

قال: مات.

[٥٤/أ] قلت: نعم.

قال: واللَّه.

قلت: واللَّه.

قال: فقم وضع يدك على رأسي.

قال: فوضعت يدي على رأسه وحلفت له به.

---

(١) في المخطوط: ولدك. وهو تحريف.

(٢) زيادة يتطلبها السياق هنا، وإن كان الحديث في نهايته يتحدث على صيغة المفرد مرة أخرى، فاللَّه أعلم.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

قال: فقال: يا غلام، اخرج إلينا ما في هذا البيت.

قال: ففتح بابه عن العلوي وصاحبيه[١] والمال بعينه.

قال: فبقيت متحيراً وسقط في يدي، وامتنع مني الكلام، وما أدري ما أقول.

قال: فقال المهدي: لقد حلّ لي دمك لو أردت[٢] إراقته، ولكن احبسوه في المطبق [ولا أذكر به][٣].

فاتخذت لي فيه بئر فدليت فيها[٤]، فكنت كذلك إذ دُعِيَ بي فمضيت وحملت إلى حيث لا أعلم أين هو، فلم أعد أن قيل لي، سَلِّم على أمير المؤمنين، فسلمت قال: أي أمير المؤمنين أنا؟

قلت: المهدي.

قال: رحم اللّه المهدي.

قلت: الهادي؟

قال: رحم اللّه الهادي.

قلت: الرشيد؟

قال: نعم.

قلت: وما أشك في وقوف أمير المؤمنين على خبري وعلتي وما تناهت إليه حالي؟

قال: أجل كل هذا قد عرف أمير المؤمنين، فاسأل حاجتك.

قلت: المقام بمكة.

قال: تفعل ذاك، فهل غير ذاك؟

قال: قلت: فما بقي في مستمتع لشيء ولا بلاغ.

قال: فراشداً.

قال: فخرجت، وكان وجهي إلى مكة.

(١) كذا هنا بصيغة المثنى مرة أخرى، فاللّه أعلم بالصواب، وفي الكامل الخبر بصيغة المفرد على الاستمرار.
(٢) في المخطوط: أثرت، وأثبت ما هو أقرب للفهم.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) بعدها في الكامل: فبقيت مدة لا أعرف عددها، وأصبت ببصري، وطال شعري حتى استرسل كهيئة البهائم، قال: فإني لكذلك إذ دُعِي بي، وقيل لي سلم على أمير المؤمنين...

قال ابنه: ولم يزل بمكة، ولم تطل أيامه بها حتى مات[١].

(١) زاد ابن الأثير على الخبر فقال:
وكان يعقوب قد ضجر بموضعه قبل حبسه، وكان أصحاب المهدي يشربون عنده، فكان يعقوب ينهاه عن ذلك ويعظه، ويقول: ليس على هذا استوزرني ولا عليه صحبتك أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ، فضيق عليّ المهدي حتى قيل:
فـدع عـنـك يـعـقـوب بـن داود جـانـبـاً واقـبـل عـلـى صـهـبـاءَ طـيـبـةِ الـنـشـر
وقال يعقوب يوماً للمهدي في أمر أراده: هذا والله السرف.
فقال المهدي: ويحك يا يعقوب، إنما يحسن السرف بأهل الشرف، ولولا السرف لم يعرف المكثرون من المقلين.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث في هذه السنة لم يتعرض لها المؤلف رحمنا الله وإياه فقال:
في هذه السنة: أخذ المهدي البيعة لولده هارون الرشيد بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي، ولقبه الرشيد.
وفيها: عزل عبيد الله بن الحسن العنبري عن قضاء البصرة، واستقضى خالد بن طليق بن عمران بن حصين، فاستعفى أهل البصرة منه.
وفي هذه السنة: سار المهدي إلى جرجان، وجعل على قضائه أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم.
وفيها: أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة، والمدينة، واليمن ببغال وإبل ولم يكن هنالك بريد قبل ذلك.
وفيها: اضطربت خراسان على المسيب بن زهير فولاّها الفضل بن سليمان الطوسي أبا العباس، وأضاف إليه سجستان، فاستخلف على سجستان تميم بن سعيد دعلج بأمر المهدي.
وفيها: أخذ المهدي داود بن روح بن حاتم، وإسماعيل بن مجالد، ومحمد بن أبي أيوب المكي، ومحمد بن طيفور في الزندقة فاستتابهم.
وفيها: استعمل إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله على المدينة.
وكان على مكة والطائف عبيد الله بن قثم.
وفيها: عُزل منصور بن يزيد بن منصور عن اليمن واستعمل عليها مكانه عبد الله بن سليمان الربعي.
وفيها: أطلق المهدي عبد الصمد بن علي من محبسه.
وحج بالناس إبراهيم بن يحيى.
وكان على الكوفة هاشم بن سعيد.
وعلى البصرة روح بن حاتم.
وعلى قضائها خالد بن طليق.
وعلى كور دجلة، وكسكر، وأعمال البصرة، والبحرين، والأهواز، وفارس، وكرمان المعلى مولى المهدي.
وعلى مصر إبراهيم بن صالح.
وعلى أفريقية يزيد بن حاتم.
وعلى طبرستان، والرويان، جرجان: يحيى الحرشي.
وعلى دنباوند، وقومس: فراشة مولى المهدي.
وعلى الري: سعد مولاه.
وعلى الموصل: أحمد بن إسماعيل الهاشمي، وقيل: موسى بن كعب الخثعمي.
وعلى قضائها علي بن مسهر بن عمير.
ولم يكن في هذه السنة صائفة للهدنة التي كانت فيها. =

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

ولم يجر فيها على ما بلغنا شيء يستفاد منه تجربة[١].

= وفيها: قتل بشار بن برد الشاعر الأعمى على الزندقة، وكان خلق ممسوح العينين.
وفيها: توفي الجراح بن مليح الرؤاسي، وهو والد وكيع.
وفيها: توفي المبارك بن فضالة. وحماد بن سلمة البصري.
وفيها: قَتَل عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية بن هشام، وهذيل بن الصميل، وسمرة بن جبلة لأنهم اجتمعوا على خلعه مع العلاء بن حميد القشيري فتقرب بهم.

(١) وذكر ابن الأثير في أحداثها ما يلي:
في هذه السنة: سار موسى الهادي إلى جرجان في جمع كثيف وجهاز لم يتجهز أحد بمثله، لمحاربة ونداء هرمز وشروين صاحبي طبرستان. وجعل المهدي على رسائل موسى أبان بن صدقة، ومحمد بن جميل على جنده، ونفيعاً مولى المنصور على حجابته، وعلي بن عيسى بن ماهان على حرسه.
فسيّر الهادي الجنود إليهما، وأمَّرَ عليهم يزيد بن مزيد فحاصرهما.
وفيها: توفي عيسى بن موسى بالكوفة، فأشهد روح بن حاتم على وفاته القاضي، وجماعة من الوجوه، ودفن، وكان عمره خمساً وستين سنة، ومدة ولايته العهد ثلاثاً وعشرين سنة، وقد تقدم ذكر ولايته العهد وعزله عنه.
وفيها: جدَّ المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، فأخذ يزيد بن الفيض، فأقر فحبس، فهرب، فلم يقدر عليه.
وكان المتولي لأمر الزنادقة الكلوذاني.
وفيها: عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل، وولاه الربيع.
وفيها: كان الوباء ببغداد، والبصرة، وفشى في الناس سُعال شديد.
وفيها: توفي أبان بن صدقة كاتب الهادي فوجه المهدي مكانه أبا خالد الأحول.
وفيها: أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، فدخلت فيه دور كثيرة، وكان المتولي لبنائه يقطين بن موسى، فبقي البناء فيه إلى أن توفي المهدي.
وكذلك أمر بالزيادة في المسجد الجامع بالموصل، ورأيت لوحاً فيه ذكر ذلك وهو في حائط الجامع سنة ثلاث وستمائة، وهو باق.
وفيها: عزل يحيى الحرشي عن طبرستان، والرويان، وما كان إليه، ووليه عمر بن العلاء، وولي جرجان فراشة مولى المهدي.
وفيها: أظلمت الدنيا لثلاث مضين من ذي الحجة حتى تعالى النهار. ولم يكن صائفة للهدنة التي كانت بين المسلمين والروم.
وحج بالناس: إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عباس، وهو على المدينة، ثم توفي بعد فراغه من الحج بأيام، وتولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي.
وفيها: طُعن عقبة بن سلم الهنائي، اغتاله رجل بخنجر، فمات ببغداد.
وكان على اليمن: سليمان بن يزيد الحارثي.
وعلى اليمامة: عبد الله بن مصعب الزبيري.
وكان على البصرة: محمد بن سليمان، وعلى قضائها عمر بن عثمان التيمي.
وعلى الموصل: أحمد بن إسماعيل الهاشمي، وقيل: موسى بن كعب. =

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

تلك سبيلها[1].

= وباقي الأمصار كما تقدم.
وفي هذه السنة: توفي جعفر الأحمر أبو شيبة.
والحسن بن صالح بن حبي، وكان شيعياً عابداً.
وسعيد بن عبد الله بن عامر التنوخي. وحماد بن سلمة، وعبد العزيز بن مسلم.
وفيها: أفسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق وانتهكوا المحارم، وتركوا الصلاة.
فأرسل إليهم المهدي جيشاً فقاتلهم، واشتد القتال، وصبر العرب، فظفروا، وقتلوا عامة العسكر المنفذ إليهم، فقويت شوكتهم وزاد شرهم.

(١) أي يريد لم يجر فيها ما يستفاد منه تجربة وما لا يستحق أن يدون، وقال فيها ابن الأثير في الكامل:
في هذه السنة في رمضان: نقض الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، وكان من أوله إلى أن نقضوه اثنان وثلاثون شهراً.
فوجه علي بن سليمان، وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن البدر البطال في خيل فغنموا وظفروا.
وفيها: خرج بأرض الموصل خارجي اسمه: ياسين من بني تميم، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم، وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة وكان يميل إلى مقالة صالح بن مسرح الخارجي، فوجه إليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ القائد، وهرثمة بن أعين مولى بني ضبة، فحارباه، فصبر لهما حتى قتل، وعدّة من أصحابه، وهزم الباقون.
وفي هذه السنة: ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس وكان من حديثه: أنه كان في سجن عبد الرحمن بقرطبة من حين هرب أبوه وقتل أخوه عبد الرحمن على ما تقدم، وحبس أبو الأسود، وتعامى في الحبس، وصار يحاكي العميان، ولا يطرف عينه لشيء، وبقي دهراً طويلاً حتى صح عند الأمير عبد الرحمن الأموي ذلك وكان في أقصى السجن سرداب يقضي إلى النهر الأعظم يخرج منه المسجونون فيقضون حوائجهم من غسل وغيره.
وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه، فإذا رجع من النهر يقول: من يدل الأعمى على موضعه.
وكان مولى له يحادثه على شاطئ النهر، ولا ينكر عليه، فواعده أن يأتيه بخيل يحمله عليها.
فخرج يوماً ومولاه ينتظره فعبر النهر سباحة وركب الخيل، ولحق بطليطلة، فاجتمع له خلق كثير، فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن الأموي فالتقيا على الوادي الأحمر بقسطلونة، واشتد القتال، ثم انهزم أبو الأسود، وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردى في النهر، واتبعه الأموي يقتل من لحق حتى جاوز قلعة الرباح.
ثم جمع إلى قتال الأموي في سنة تسع وستين، فلما أحسّ بمقدمة الأموي انهزم أصحابه، وهو معهم، فأخذ عياله وقتل أكثر رجاله، وبقي إلى سنة سبعين، فهل بقرية من أعمال طليطلة.
وقام بعده أخوه قاسم، وجمع جمعاً فغزاه الأمير، فجاء إليه بغير أمان، فقتله.
وفيها: هلك شيلون ملك جليقية، فولّوا مكانه إذفونش، فوثب عليه مورقاط فقتله، فاختل أمرهم، فدخل عليهم نائب عبد الرحمن بطليطلة في عساكره، وغنم وسبى، ثم عاد سالماً.
وفيها: توفي أبو القاسم بن واسول مقدم الخوارج الصفرية فجأة في صلاة العشاء، وكانت =

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

وفيها: كانت وفاة المهدي.

وكان سبب ذلك

أنه كان عزم على تقديم ابنه هارون على ابنه موسى فبعث إليه وهو بجرجان، وفداد هرمز، وشروين صاحبي طبرستان، وكان وجهه المهدي في جيش كثيف لم ير مثله وهيئة لم ير أحسن منها.

فلما استدعاه علم ما يريد منه، فأبى عليه فبعث إليه رسولاً من الموالي فضربه موسى، فخرج المهدي بسبب موسى فتوفي في طريقه[١].

واختلف في سبب وفاته فذكر عن واضح.

قهرمانه أنه قال:

خرج المهدي يتصيد بماسبذان بقرية يقال لها: الزد، فطردت الكلاب صيداً - وأظنه قال: ظبياً - فلم يزل يتبعها، فاقتحم الظبي باب خربة، واقتحمت الكلاب،

= إمارته اثنتا عشرة سنة وشهراً، وولي بعده ابنه إلياس.

وفيها: سير المهدي سعيد الحرشي في أربعين ألفاً إلى طبرستان.

وفيها: مات عمر الكلوذاني صاحب الزنادقة وولي مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه، فقتل من الزنادقة خلقاً كثيراً.

وحج بالناس: علي بن المهدي الذي يقال له: ابن ريطة.

وفيها: توفي يحيى بن سلمة بن كهيل.

وعبيد الله بن الحسن العنبري، قاضي البصرة، ومندل بن علي، ومحمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة القاضي.

والحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان قد استعمله المنصور على المدينة خمس سنين، ثم عزله، وحبسه ببغداد، وأخذ ماله، فلما ولي المهدي أخرجه وردّ عليه ماله، وكان جواداً إلاّ أنه كان منحرفاً عن أهل بيته مائلاً إلى المنصور.

وفيها: توفي بشر بن الربيع، وعبثر بن القاسم.

(١) وفي الكامل: فضرب الرسول وامتنع من القدوم عليه، فسار المهدي يريده، فلما بلغ ماسبذان أكل طعاماً، ثم قال: إني داخل إلى البهو أنام، فلا توقظوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، فدخل فنام، ونام أصحابه، فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين، فقال: وقف على الباب رجل فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعه ومنازله

وصار عميد القوم من بعد بهجة ... وملك إلى قبر عليه جنادله

فلم يبق إلا ذكر وحديثه ... تنادى عليه معولات حلائله

فبقي بعد ذلك عشرة أيام ومات، وقد اختلف في سبب موته.

واقتحم الفرس خلف الكلاب فدق ظهره في باب الخربة، فمات من ساعته[(١)].

وذكر غيره:

أن المهدي كان جالساً في علية قصر بماسبذان يشرف من منظره فيها على سفله، وكانت جاريته حسنة قد عمدت إلى كمثري كبار فجعلته في صينية وسمت واحدة منها وهي أحسنها وأنضجها بأن نزعت قمعها الذي في أسفلها، وأدخلت فيه سمّاً ثم ردت القمع فيه ووضعتها على أعلى الصينية، وكان المهدي يعجبه الكمثرى وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهدي كان يتحظاها تريد بذلك قتلها، فلما مَرَّت الوصيفة بالصينية التي ارسلتها حسنة رآها المهدي من المنظرة، فدعاها، ومد يده إلى الكمثرى، وأخذ الكمثراية التي في أعلى الصينية وهي المسمومة فأكلها، فلما وصلت إلى الجوف صرخ: جوفي، وسمعت حسنة الصوت، وأخبرت الخبر، فجاءت تلطم وجهها وتبكي وتقول: أردت أن أنفرد بك فقتلتك يا سيدي، فمات من يومه[(٢)].

فكانت خلافته: عشر سنين وكسراً.

ومات وهو ابن ثلاث واربعين سنة.

ولم توجد له جنازة يحمل عليها، فحمل على باب،

ودفن تحت جوزة.

ذكر بعض سيره

كان المهدي إذا جلس للمظالم قال: أدخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم [لكفى][(٣)].

---

(١) بعد هذا في الكامل:
وقيل: بل بعثت جارية من جواريه إلى ضرة لها بإناء فيه سم، فدعا به المهدي، فأكل منه، فخافت الجارية أن تقول: إنه مسموم فمات من ساعته.
ثم ذكر القصة التي سيذكرها المؤلف بعد تلك التي سردها.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل فقال:
ورجعت حسنة وعلى قبتها المسوح، فقال أبو العتاهية في ذلك:

رُحن في الوشي وأقبلـ ... ـن عليهن المسوحُ
كل نطاح من الدنـ ... ـيا له يوم نطوحُ
لست بالباقي ولو عـ ... ـمرت ما عمّر نوحُ
فعلى نفسك نُحْ إن ... كنت لا بد تَنُوحُ

وكان موته في المحرم لثمان بقين منه. وكانت خلافته عشر سنين وشهراً. وقيل: عشر سنين وتسعاً وأربعين يوماً، وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، ودفن تحت جوزة كان يجلس تحتها، وصلى عليه ابنه الرشيد، وكان أبيض طوالاً، وقيل: أسمر بإحدى عينيه نكتة بياض.

(٣) سقط من المخطوط، وأتممته من الكامل.

وجلس المهدي يوماً يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصة من أهل بيته وقواده، وكان يقرأ عليه الأسماء فيأمر بزيادة عشرة آلاف، وعشرين ألفاً وما أشبه [٥٤/ب] ذلك، فعرض عليه بعض القواد، فقال: هذا يحط خمسمائة درهم.

قال: لِمَ حططتني يا أمير المؤمنين؟

قال: لأني وجهتك إلى عدو لنا فانهزمت.

قال: كان يسرك أن أقتل ولا ينفعك؟

قال: لا.

[قال][١]: فوالله الذي أكرمك بالخلافة لو ثبت لقتلت، فاستحى منه المهدي.

فقال: رده خمسمائة درهم. وتحدث مسور بن مساور قال: ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي، فأتيت سلاماً صاحب المظالم، فتظلمت، فأوصل لي رقعة إلى المهدي وعنده عمه العباس بن محمد، وابن علاثة القاضي، وعافية القاضي.

قال: فقال لي المهدي: ادن.

فدنوت، فقال: فما تقول؟

قلت: ظلمني.

قال: فترضى بأحد هذين؟

قلت: نعم.

قال: فادن مني.

فدنوت منه حتى التزقت بالفراش.

قال: تكلم.

قلت: أصلح اللّه القاضي، سَلهُ صارت الضيعة له قبل الخلافة أو بعدها؟

قال: فسأله، ما تقول يا أمير المؤمنين؟

قال: صارت إليّ بعد الخلافة.

قال: فأطلقها له.

قال: قد فعلت.

فقال العباس: واللّه يا أمير المؤمنين لهذا المجلس أحب إليَّ من عشرين ألف ألف درهم.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

وقال أبو الخطاب: لما حضر القاسم بن مجاشع التيمي من أهل مرو الوفاة أوصى إلى المهدي فكتب: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

ثم كتب: والقاسم بن مجاشع يشهد بذلك ويشهد بذلك، ويشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

وأن ابن أبي طالب وصيه ووارث الإمامة بعده.

فعرضت الوصية على المهدي، فلما بلغ هذا الموضع رمى بها، ولم ينظر [ما] بها[١].

قال: فلم يزل في قلب أبي عبيد، فلما حضرته الوفاة كتب في وصيته هذه الآية؛ وقال المهدي يوماً: ما توسل إلي أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه اتبعها أختها فاحسن ربها، فإن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل[٢].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من يتطلبها السياق، وفي الكامل: فلم ينظر فيها.

(٢) ومما ذكر ابن الأثير في سيرة المهدي كذلك أنه قال:
قال الحسن الوصيف: أصابتنا ريح شديدة أيام المهدي حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب المهدي، فوجدته واضعاً خدَّه على الأرض، وهو يقول: اللهم احفظ محمداً في أمته، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك.
قال: فما لبثنا إلاّ يسيراً حتى انكشفت الريح وزال عنا ما كنا فيه. . .
وقال الربيع: رأيت المهدي يصلي في بهو له في ليلة مقمرة فما أدري أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه، فقرأ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢].
قال: فأتم صلاته ثم التفت إليَّ وقال: يا ربيع، قلت: لبيك.
قال: موسى.
قلت في نفسي: من موسى؟ ابنه؟ أم موسى بن جعفر؟ وكان محبوساً عندي، فجعلت أفكر، فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، فأحضرته، فقطع صلاته، ثم قال: يا موسى، إني قرأت هذه الآية، فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج عليَّ، قال: نعم فوثق له، فخلاه. . . وخرج المهدي يطوف بالبيت ليلاً فسمع أعرابية تقول: قومي مقترون، نبت عندهم العيون، فدحتهم الديون، وعضتهم السنون، بادت رجالهم وذهبت أموالهم، وكثرت عيالهم، أبناء سبيل، وانضاء طريق، وصية اللّه ووصية الرسول، فهل من آمر لي بخير كَلأَهُ اللّه في سفره وخَلَفَهُ في أهله؟ قال: فأمر لها بخمسمائة درهم. . .
وماتت الياقوتة بنت المهدي وكان معجباً بها لا يطيق الصبر عنها حتى أنه كان يلبسها لبسة الغلمان ويركبها معه، فلما ماتت وجد عليها، وأمر أن لا يحجب عنه أحد، فدخل الناس يعزونه، وأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أبلغ ولا أوجز من تعزية شبيب بن شيبة فإنه قال: يا أمير المؤمنين ما عند الله مما عندك خير لها منك، وثواب اللّه خير لك منها، وأنا أسأل اللّه أن لا يخزيك ولا يفتنك، وأن يعطيك على ما رُزِئْتَ أجراً ويعقبك صبراً، ولا يجهد لك بلاء، ولا ينزع منك نعمة، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده. .

خلافة موسى الهادي

وفي هذه السنة: بويع لموسى الهادي بماسبذان.

ذكر رأي سديد رآه خالد بن يحيى

في تلك الحال اجتمع القواد ووجوه الموالي إلى هارون يوم توفي المهدي، فقالوا له: إن علم الجند بوفاة المهدي لم يأمن الشغب[1]، والرأي أن تتحرك وتنادي في الجند بالقفل حتى تواريه ببغداد.

فقال هارون: ادعوا إلي أبي يحيى بن خالد، وكان المهدي ولّى هارون المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية وأمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، وكانت إليه أعماله ودواوينه إلى أن توفي فسار يحيى بن خالد إلى هارون، فقال له: يا أبه ما تقول فيما يقول عمر بن بزيع ونصير والمفضل؟

قال: وما قالوا؟

فأخبره، قال: ما أرى ذلك.

قال: ولِمَ؟

قال: لأن هذا لا يخفى ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله، ويقولوا: لا نخليه حتى يعطي لثلاث سنين ويتحكمون وينشطوا[2].

ولكن أرى أن يوارى رضي اللّه عنه هاهنا، وتوجه نصيراً إلى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية، فإن البريد، إلى نصير فلا ينكر خروجه أحد إذ كان على بريد الناحية.

وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين، وتنادي فيهم بالقفول، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم يكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم، ولا عرجة على شيء دون بغداد.

قال: ففعل ذلك، وصاح الجند لما قبضوا الدراهم، بغداد، بغداد ينادون إليها، ويبعثون على الخروج من سبذان.

فلما وافوا بغداد وعلموا أمر الخليفة ساروا إلى باب الربيع، فأحرقوه، وطالبوا

(١) في المخطوط: التغب. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: لثلاث سنين وأكثر أو يتحكموا ويشتطوا.

بالأرزاق، وضجوا.

وقدم هارون بغداد، فبعثت الخيزران إلى الربيع وإلى يحيى بن خالد يشاورهما في ذلك، فأما الربيع: فدخل عليها.

وأما يحيى فلم يفعل ذلك [٥٥/أ] لعلمه بشدة غيرة موسى.

قال وجمعت الأموال حتى أعطى الجند لسنتين، فسكنوا.

وبلغ الخبر إلى الهادي، فكتب إلى الربيع كتاباً يتوعده[١] فيه، وكتب إلى يحيى يجزيه بالخير ويأمره بأن يقوم بأمر هارون بما لم يزل يقوم به وأن يتولى أموره وأعماله على ما لم يزل يتولاه.

قال: فبعث الربيع بن يحيى بن خالد ـ وكان يوده ويثق به ويعتمد على رأيه ـ [فقال له][٢]: يا أبا علي ما ترى فإنه لا يصيرني عن حدّ الحديد؟

قال: أرى أن لا تبرح موضعك، وأن توجه الفضل ابنك ليستقبله ومعه من الهدايا والطّرف ما أمكنك فإني أرجو ألاّ ـ وقد كُفِيتَهُ ما ـ تخاف إن شاء اللّه.

ولما رأى[٣] هارون الجند قد شغبوا على الربيع، وأخرجوا من كان في حبسه، وكان العباس بن محمد، وعبد الملك بن صالح، ومحرز بن ابراهيم حضروا، أن يرضوا وتطيب أنفسهم، وتفرق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم فبذل ذلك لهم، فلم يرضوا ولم يتفرقوا بما ضمن لهم من ذلك حتى ضمنه محرز بن ابراهيم فقنعوا بضمانه، فتفرقوا.

فوفى لهم، فأعطوا أرزاق ثمانية عشر شهراً، وأخذ هارون البيعة لموسى الهادي، وله بولاية العهد من بعده، وضبط أمر بغداد.

ثم قدم الهادي، وكان في نفسه على الربيع ما ذكرناه من اعطائه قبل قدومه.

ولما وجه الربيع ابنه الفضل فتلقاه بما أعد له من الهدايا بهمذان أدناه وقربه، وقال: كيف خلفت مولاي؟

فكتب بذلك إلى أبيه، فاستقبله الربيع فعاتبه الهادي، فاعتذر إليه، وأعلمه السبب الذي دعاه إلى ذلك، وولاه الوزارة مكان عبد اللّه بن زياد بن أبي ليلى، وضم إليه ما كان عمر بن بزيع يتولاه من الزمام.

---

(١) في الكامل: يتهدده بالقتل.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في المخطوط: قدم. وهو تحريف والسياق يقتضي ما غيرت.

وهلك الربيع في هذه السنة[١].

(١) وزاد ابن الأثير في هذه السنة من الأخبار ما يلي فقال:
وفيها: اشتد طلب المهدي للزنادقة، فقتل منهم جماعة منهم: علي بن يقطين.
وقُتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.
وكان سبب قتله أنه أتى به إلى المهدي، فأقر بالزندقة فقال: لو كان ما تقول حقاً لكنت حقيقاً أن لا تتعصب لمحمد، ولولا محمد ما كنت، أما واللّه لولا أني جعلت على نفسي أن لا أقتل هاشمياً لقتلتك، ثم قال للهادي: أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لتقتلنه، ثم حبسه.
فلما مات المهدي قتله الهادي، وكذلك أيضاً كان عهد إليه بقتل ولد لداود بن علي بن عبد اللّه بن عباس كان زنديقاً، فمات في الحبس قبل الهادي.
ولما قتل يعقوب أدخل أولاه على الهادي، فأقرت ابنته فاطمة أنها حبلى من أبيها، فخوِّفت فماتت من الفزع.
وفي هذه السنة: ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وهو المقتول بفخ عند مكة، وكان سبب ذلك:
أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، فلما وليها أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن، ومسلم بن جندب الشاعر الهذلي، وعمر بن سلام مولى آل عمر، على نبيذ له، فأمر بهم فضربوا جميعاً، وجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي العمري وقال له: قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم، لأن أهل العراق لا يرون بأساً، فلِمَ تطوف بهم.
فأمر بهم فردوا، وحبسهم.
ثم إن الحسين بن علي، ويحيى بن عبد اللّه بن الحسن كَفِلا الحسن بن محمد، فأخرجه العمري من الحبس، وكان قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضاً، وكانوا يعرضون، فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين، فأحضر الحسين بن علي، ويحيى بن عبد اللّه، وسألهما عنه، وأغلظ لهما.
فحلف له يحيى أنه لا ينام حتى يأتيه به، أو يدق عليه باب داره، حتى يعلم أنه جاء به.
فلما خرجا قال له الحسين: سبحان اللّه ما دعاك إلى هذا؟
ومن أين تجد حسناً؟ حلفت له بشيء لا تقدر عليه.
فقال: واللّه لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف.
فقال له الحسين: إن هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد.
وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى، وبمكة في الموسم.
فقال يحيى: قد كان ذلك.
فانطلقا وعملا في ذلك من ليلتهم، وخرجوا آخر الليل، وجاء يحيى حتى ضرب على العمري باب داره، فلم يجده، وجاؤوا فاقتحموا المسجد وقت الصبح، فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه الناس، فبايعوه على كتاب اللّه، وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد.
وجاء خالد البربري في مائتين من الجند، وجاء العمري، ووزير بن إسحاق الأزرق، ومحمد بن واقد الشروي، ومعهم ناس كثير. فدنا خالد منهم، فقام إليه يحيى، وإدريس ابنا عبد اللّه بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه، ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه، ثم قتلاه، فانهزم أصحابه.
ودخل العمري في المسودة، فحمل عليهم أصحاب الحسين، فهزموهم من المسجد، وانتهبوا بيت المال، وكان فيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل سبعون ألفاً، وتفرق الناس، وأغلق أهل =

....

= المدينة أبوابهم.
فلما كان الغد، اجتمع إليه شيعة بني العباس فقاتلوهم، وفشت الجراحات في الفريقين، واقتتلوا إلى الظهر، ثم افترقوا.
ثم إن مباركاً التركي أتى شيعة بني العباس من الغد، وكان قدم حاجاً، فقاتل معهم، فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا، ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس في الرواح إلى القتال، فلما غفلوا عنه ركب رواحله، وانطلق، وراح الناس، فلم يجدوه، فقاتلوا شيئاً من قتال إلى المغرب، ثم تفرقوا.
وقيل: إن مباركاً أرسل إلى الحسين يقول له: واللّه لأن أسقط من السماء فتخطفني الطير أيسر عليَّ من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة، ولكن لا بد من الأعذار، فبيتني، فإني منهزم عنك. فوجه إليه الحسن، وخرج إليه في نفر، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا، فانهزم وأصحابه.
وأقام الحسين وأصحابه أياماً يتجهزون، فكان مقامهم بالمدينة إحدى عشر يوماً، ثم خرجوا لست بقين من ذي القعدة، فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد، فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون، وآثارهم فدعوا عليهم، ولما فارق المدينة قال:
يا أهل المدينة لا أخلف اللّه عليكم بخير، فقالوا: بل أنت لا أخلف اللّه عليك، ولا ردك علينا.
وكان أصحابه يحدثون في المسجد، فغسله أهل المدينة.
ولما أتى الحسين مكة أمر فنودي: أيما عبد أتانا، فهو حُرٌّ.
فأتاه العبيد، فانتهى الخبر إلى الهادي، وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته منهم: سليمان بن المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وموسى، وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى.
فكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرم، وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق، واجتمعوا بذي طوى وكانوا قد أحرموا بعمرة.
فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وحلوا من العمرة، وعسكروا بذي طوى.
وانضم إليهم من حج من شيعتهم، ومواليهم، وقوادهم، ثم إنهم اقتتلوا يوم التروية، فانهزم أصحاب الحسين، وقتل منهم وجرح. وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين، فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان، يقول: البشرى البشرى، هذا رأس الحسين، فأخرجه، وبجبهته ضربة طولى، وعلى قفاه ضربة أخرى.
وكانوا قد نادوا: الأمان، فجاء الحسن بن محمد بن عبد اللّه أبو الزفت، فوقف خلف محمد بن سليمان، والعباس بن محمد، فأخذه موسى بن عيسى، وعبد اللّه بن العباس بن محمد فقتلاه.
فغضبت محمد بن سليمان غضباً شديداً وأخذ رؤوس القتلى، فكانت مائة رأس ونيفاً، وفيها رأس الحسن بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن علي، وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان، اختلط المنهزمون بالحاج. وأتِي الهادي بستة أسرى، فقتل بعضهم واستبقى بعضهم، وغضب على موسى بن عيسى في قتل الحسن بن محمد، وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات.
وغضب على مبارك التركي، وأخذ ماله، وجعله سائس الدواب، فبقي كذلك حتى مات الهادي.
وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي، فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور، وكان شيعياً لعلي، فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طنجة بمدينة وليلة، فاستجاب له من بها من البربر، فضرب الهادي عنق واضح وصلبه. =

ثم دخلت سنة سبعين ومائة

وفيها: كانت وفاة الهادي موسى

= وقيل: إن الرشيد هو الذي قتله، وأن الرشيد دسَّ إلى إدريس الشماخ اليمامي مولى المهدي، فأتاه، وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه، فمال إليه إدريس وأنزله عنده.
ثم إن إدريس شكى إليه مرضاً في أسنانه فوصف له دواء، وجعل فيه سماً وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر.
فأخذه منه وهرب الشماخ، ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه، فولى الرشيد الشماخ بريد مصر.
ولما مات إدريس بن عبد الله خلف مكانه ابنه إدريس بن إدريس، وأعقب بها، وملكوها ونازعوا بني أمية في أمارة الأندلس على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وحملت الرؤوس إلى الهادي، فلما وضع رأس الحسين بين يدي الهادي، قال: كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت، إن أقل ما أجزيكم به أن أحرمكم جوائزكم، فلم يعطهم شيئاً.
وكان الحسين شجاعاً كريماً، قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها في الناس ببغداد، والكوفة، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلاّ فرواً ليس تحته قميص.
وغزا الصائفة هذه السنة معيوف بن يحيى من درب الراهب، وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤوا مع بطريقهم إلى الحديثة فهرب الوالي وأهل السوق فدخلها الروم فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى.
وحج بالناس هذه السنة: سليمان بن منصور.
وكان على المدينة: عمر بن عبد العزيز العمري.
وعلى مكة، والطائف: عبيد للّه بن قثم.
وعلى اليمن: إبراهيم بن سلم بن قتيبة.
وعلى اليمامة والبحرين: سويد بن أبي سويد القائد الخراساني.
وعلى عمان: الحسن بن نسيم الحواري.
وعلى الكوفة: موسى بن عيسى.
وعلى البصرة: محمد بن سليمان.
وعلى جرجان: الحجاج مولى الهادي.
وعلى قومس: زياد بن حسان.
وعلى طبرستان، والرويان: صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي.
وعلى أصبهان: طيفور مولى الهادي.
وعلى الموصل: هاشم بن سعيد بن خالد. فأساء السيرة في أهلها، فعزله الهادي، وولاها عبد الملك بن صالح الهاشمي.
وفيها: خرج بالجزيرة حمزة بن مالك الخزاعي، وعلى خراجها، منصور بن زياد، فسير جيشاً إلى الخارج، فالتقوا بباعربايا من بلاد الموصل، فهزمهم الخارجي، وغنم أموالهم، وقوي أمره فأتى رجلان وصحباه، ثم اغتالاها فقتلاه.
وفيها: مات مطيع بن أياس الليثي الكناني الشاعر.
وأبو عبيد الله معاوية بن عبد الله بن بشار الأشعري مولاهم، وكان وزير المهدي. وقيل: مات سنة سبعين ومائة.
وفيها: توفي نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المقري، صاحب القراءة أحد القراء السبعة.
والربيع بن يونس حاجب المنصور مولاه. =

وكانت وفاته من قِبَل جوارٍ لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله.

ذكر السبب في ذلك وما حملها على قتل ابنها

لما صارت الخلافة إلى الهادي كانت الخيزران تفتات عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي.

فأرسل إليها: لا تخرجي من حفرة الكفاية إلى بلادة التبذل، فإنه ليس من قدر[١] النساء الاعتراض في أمر الملك، عليك بصلاتك وسبحتك ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك.

وكانت كثيراً ما تكلمه في أمر أصحاب الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأل حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته.

وانثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجدّ لإجابتها فيه سبيلاً، فاعتل بعلة.

فقالت: لا بد من إجابتي.

قال: لا أفعل.

قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد اللَّه بن مالك.

قال: فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها، واللَّه لا قضيتها لك.

قالت: إذا واللَّه [أسألك حاجة أبداً.

قال: لا][٢] أبا لي رحمي وغضب.

فقامت مغضبة.

فقال: مكانك حتى تستوعبي كلامي، واللَّه وإلاً أنا نفي من قرابتي من رسول اللَّه ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي، أو أحد من خاصتي وخدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن[٣] ماله فمن يلتزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك أن تفتحي بابك لملى أو ذمي.

فانصرفت وهي لا تعقل ما تطأ عليه، فلم تنطق عنده بحلوه ولا مره بعدها[٤].

---

(١) بعدها في المخطوط: فإنه ليس من قدر التبذل، وهو تكرار وزيادة فحذفته.
(٢) زيادة من الكامل وقد سقطت من المخطوط.
(٣) في المخطوط: ولأضربن، وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) يأتي استكمال القصة على ما هو في الكامل بعد قليل إن شاء اللَّه تعالى.

فحكت خالصة: أنه لما صارت الخلافة إلى الهادي صرت إليه وقلت له: إن أمك تستكسيك.

فأمر لها بالخزانة مملوءة كسوة.

قالت: ووجه للخيزران في منزلها من قراقر الوشي ثمانية عشر قرقرة.

وحكى بعضهم: أنه سمع خالصة تقول للعباس بن الفضل [٥٥/ب] بن الربيع: بعث موسى إلى أمه الخيزران بارزة وقال: استطبتها، وذلك بعد سخطه عليها، وذكر أنه أكل منها فتنغص لها خالصة وقالت لها: أمسكي تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء، فاطعمتها [كلب](١) فتساقط لحمه.

فأرسل إليها بعد: كيف رأيت الأرز؟

قالت: وجدتها غير طيبة.

فقال: لِمَ لا تأكلي، ولو تأكلي لاسترحت منك، متى أفلح خليفة له أم.

ثم إن الهادي جمع قواده يوماً وذلك لما أعياه هذا الأمر(٢)، فقال لهم: أيما خير أنا أَمْ أنتم؟

قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين.

قال: فأيما خير أمي أم أمهاتكم؟

قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين.

قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه، فيقولوا فعلت أم فلان؟

فقالوا: ما أحد منا يحب ذلك.

قال: فما بال رجال يأتون أمي فيتحدثون إليها، ثم ينقلون حديثها.

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشق عليها ذلك، فاعتزلته، وحلفت أن لا تكلمه فما دخلت إليه حتى حضرته الوفاة.

وهمَّ موسى بخلع هارون، ثم جدَّ فيه، وكان يحيى بن خالد بن برمك يلي لهارون أعمال الغرب فلما جدَّ موسى الهادي في البيعة لابنه جعفر بن موسى، وتابعه القواد، مثل: يزيد بن مزيد، وعبد اللّه بن مالك، وعلي بن عيسى وما اشبههم، وخلعوا هارون، ودسوا إلى الشيعة فتكلموا في أمره، وتنقصوه، وقالوا: لا نرضى به.

ولما ظهر ذلك، أمر الهادي ألا يسار قدام الرشيد بحربة، فأحبسه الناس وتركوه،

(١) سقط من المخطوط، وأكملته من الكامل.
(٢) في المخطوط: أعياه أم الأمر، وهو تحريف. فاستبدلت بما يفيد المعنى، واللّه أعلم.

فلم يجترئ أحد أن يسلم عليه ولا يقربه.

وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد وينزل منه منزلة الوالد ويسميه أبي، فكان يشير عليه بأن يدافع ولا يستجيب للخلع، فسعى بيحيى[١] إلى الهادي، وقيل له: ليس عليك[٢] من هارون خلاف، وإنما يفسده يحيى فابعث إليه وتهدده بالقتل وأرقه بالكفر.

فبعث الهادي إلى يحيى ليلاً، فيئس من نفسه، وودع أهله، وتحفظ وجدد ثيابه ولم يشك أنه يقتله، فلما دخل عليه.

قال: يا يحيى ما لي ولك؟

قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين.

[قال][٣]: فما يكون من العبد إلى مولاه إلا الطاعة.

[قال: نعم][٤].

فقال: لِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليَّ؟

قال: ما أمير المؤمنين، من أنا أدخل بينكما؟!

إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، ثم أمرتني بذلك، فانتهيت إلى أمرك. [فسكن غضبه][٥].

قال: فما الذي صنع هارون؟ طاب نفساً بالخلع؟

فقال له يحيى: لا يفعل.

قال هارون: أليس ينزل إلى الهيبة والمزية؟ فمهما يسعاني واعبس.

فقال يحيى: وأين الهيبة والمزية من الخلافة ولعل ألاّ يترك هذا في يدك؟

وكان يحيى ينادم الهادي بعد ذلك، فكلمه الهادي في أمر الرشيد وخلعه.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته.

قال: لقد صدقت، ونصحت، ولي في هذا الأمر تدبير[٦].

---

(١) في المخطوط: يحيى، وهو تحريف والسياق يقتضي ما أثبت.
(٢) في المخطوط: ليس عليك لك عليك، فحذفت الزيادة من السياق.
(٣) زياد من الكامل.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في الكامل: قال: صدقت، وسكت عنه. فعاد أولئك الذين بايعوه من القواد والشيعة فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع، فأحضر يحيى وحبسه، فكتب إليه: إن عندي نصيحة. . .

وكان محمد بن يحيى بن خالد يقول: كان أبي يقول: ما كلمت أحد من الخلفاء أعقل من موسى.

وقال: كان حبسني موسى الهادي على ما أراده من خلع الرشيد، فرفعت إليه رقعة: إن عندي نصيحة.

فدعاني فقال: هات ما عندك.

فقلت: فاخلني [بك][1]، فخلاني.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر الذي أسأل اللّه أن لا تبلغه، وأن يقدمنا قبله، أتظن أن الناس يسلمون لجعفر وهو لم يبلغ الحنث؟ أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزواتهم؟

قال: واللّه ما أظن ذلك.

قلت: فتأمن يا أمير المؤمنين أن يسموا إليها أكابر أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان، ثم يطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك؟

فأطرق، ثم قال: نبهتني يا يحيى عن أمرٍ لم أكن انتبه له.

قال: فقلت: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له؟ فكيف أن تحله وقد عقده المهدي؟ ولكن تقر الأمر على حاله يا أمير المؤمنين فإذا بلغ جعفر، وبلغ اللّه به أتيته بالرشيد فخلع نفسه له، وكان من يبايعه ويعطيه [٥٦/أ] صفقة يده.

فقبل الهادي قوله: وأطلقه[2].

فلما كان بعد أيام خرج الهادي إلى الحدثية حدثيَّة الموصل فمرض بها، وانصرف بعدما كتب إلى جميع عماله شرقاً وغرباً بالقدوم وعليه فلما ثقل اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى يحيى قتلنا ولم يستبقنا وتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيى بأمر الهادي فيضرب عنقه. ثم قال بعضهم: إن أمير المؤمنين ما بلغ حَدَّ اليأس منه، فلعله يفيق من مرضه، فما عذرنا عنده؟ فأمسكوا.

ثم بعثت الخيزران إلى جواريها بالجلوس على وجهه وغممنه حتى يموت، لأنها أشفقت أن يفيق فيخلع هارون، ففعلن ذلك.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) بعد هذا في الكامل.

ثم إن أولئك القواد عاودوا القول فيه، فأرسل الهادي إلى الرشيد في ذلك وضيق عليه، فقال له يحيى: استأذنه في الصيد، فإذا خرجت، فأبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك، وأذن له فمضى إلى قصر بني مقاتل، فقام أربعين يوماً، فأنكر الهادي أمره وخافه، فكتب إليه بالعود، فتعلل عليه، فأظهر الهادي شتمه وبسط مواليه وقواده فيه ألسنتهم، فلما طال الأمر عاد الرشيد.

وبعثت إلى يحيى تعلمه أن الرجل لُمَّ به فجدّ في أمرك ولا تقصر.

فأمر يحيى بإحضار الكتاب فحضروا وجمعوا في منزل الفضل بن يحيى فكتبوا ليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادي وأنه قد ولّاهم الرشيد ما كانوا يلون، ولما أصبحوا أنفذوها على البُرد.

وقد روي عن هرثمة بن أعين في موت الهادي، ما رواه علي بن هشام المعروف بأبي قيراط عن محمد بن أحمد بن الفضل الجرجاني المعروف بقلنسوة، وكان وزير المتوكل، قال: حدثني خالي الحسن بن رجى بن الضحاك قال حدثني الحسن بن سهل قال حدثني أبو حاتم هرثمة بن أعين بمرو وقال: كنت اختصصت بموسى الهادي، وكنت مع ذلك شديد الحذر منه لإقدامه على الدماء، فاستدعاني في نصف نهار يوم حرّ شديد قبل أكلي، فارتعت، وبادرت إليه، فدخلت من دار إلى دار حتى قربت من دار حرمه، ثم نحى عنّا جميع من كان بحضرته، وقال لي: أخرج، فأغلق باب هذه الحجرة وعد، فازددت جزعاً، وفعلت وعُدّت[1].

فقال لي: قد تأذيت بهذا الكلب الملحد يحيى بن خالد، ليس له شغل إلا تضريب الرجال واحتذامهم إلى صاحبه هارون يريد أن يقتلني ويسوق الخلافة إليه، وأريد منك أن تمضي الليلة إلى هارون فتقبض عليه وتجيء برأسه، إمّا أن تحتاط في التدبير حتى لا يفوتك، وتفعل ذلك به في دارك، أو تخرجه من داره برسالة مني تستدعيه فيها إلى حضرتي، ثم تعدل به إلى حيث تقتله فيه وتجيئني برأسه.

فورد عليّ أمر عظيم وقلت: يأذن أمير المؤمنين في الكلام؟

قال: قل.

قلت: يا أمير المؤمنين، أخوك وابن أمك وأبيك. وله عهد بعدك، فكيف تكون صورتنا عند اللّه أولاً، ثم عند الناس.

قال: عليك أن تسمع لي وتطيع وإلاّ ضربت عنقك.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: وإذا فرغت من هذا أخرجت جميع الطالبين من المجلس فضربت أعناقهم، وغرقت من يبقى إن كثر عددهم.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: ثم ترحل إلى الكوفة بجميع من معك من الجيش، تضم إليهم من ترى من

(١) جاء بهامش المخطوط حذاء هذا السطر كلام بغير خط الناسخ هذا نصه: قتل برسم المادة الخليفة وتوقية هارون الرشيد.

الجند المقيمين بالباب، فتخرج من تجد فيها من العباسيين وشيعتهم والعمال المتصرفين معهم، ثم تنهب ما فيها من الأموال، وتضربها بالنار حتى تحترق هي وجميع من فيها وتخربها حتى لا يبقى لها أثر.

فقلت: يا مولاي هذا أمر عظيم، ففكر فيه.

فقال: لا بد من ذلك، فإن كل آفة ترد على ملكنا إنما هي من هذه الجهة. ثم قال: لا تبرح من مكانك حتى إذا انتصف الليل بدأت بهارون.

فقلت: سمعاً وطاعة.

ونهض من موضعه، ودخل إلى دار النساء وجلست مكاني، ولم أشك أنه قد قبض علَيّ، وأنه سيقتلني ويدبر هذا الأمر على يد غيري لما ظهر من جزعي في كل باب، والرد عليه والتخطئة لرأيه، ثم اجابتي إياه كارهاً.

وكنت يعلم اللّه قد علمت على أني أركب فرسي من حضرته وألحق بطرف من الأرض، وأخرج من نعمتي، وأكون بحيث لا يصل إليّ حتى يموت أحدنا.

فلما دخل دار النساء عرض لي أنه قد قبض عليّ ليقتلني لئلا يفشو السر، فورد عليّ غم شديد، وذهب عني أمري فلما انتصف الليل، جاءني خادم وقال: أجب أمير المؤمنين، فقمت وأنا أستند، ومشيت مع الخادم إلى ممر فسمعت فيه كلام النساء، فقلت: عزم علي قتلي بحجة وهو يدخلني دور الحرم، ثم يقول من [٥٦/ب] أذن لك في الدخول على مرمى.

فوقفت، فقال الخادم: ادخل، فقلت: لا أدخل.

فقال: ويحك ادخل.

فصحت وقلت: لا واللّه لا أدخل حتى أسمع كلام مولاي أمير المؤمنين بالإذن لي في الدخول.

فإذا امرأة تصيح، فتقول: ويلك يا هرثمة أنا الخيزران، وقد حدث أمر عظيم استدعيتك له، فادخل.

فورد عليّ ما لم أر في حياتي، وتحيرت، فدخلت، فإذا ستارة ممدودة.

فقالت لي من ورائها: إن موسى قد مات، وقد أراحك اللّه والمسلمين منه، فقم فانظر إليه.

فإذا هو مسجى فمسيت مجسه وقلبه، ومناخره، فإذا هو ميت.

ثم قالت الخيزران: إني كنت بحيث أسمع كلامه لك في أمر ابني هارون وغيره،

فلما دخل استعطفته، ثم سألته أن لا يفعل ما هَمَّ به، فصاح عليّ، فكشفت له رأسي وبكيت وأقسمت عليه أن لا يفعل، فانتهرني، وقال: إن امسكت وإلاّ ضربت عنقك، فخفته، وقمت فصليت، وتضرعت إلى اللّه في قبضه إليه، فما كان بأسرع مما شرق فتداركناه بكرز ماء، فازداد شرقه حتى تلف، فقم إلى يحيى بن خالد، فعرفه ما كان خاطبك به والخبر كله، وعجل بهارون قبل أن ينشر الخبر، وخذله البيعة.

قال: فقمنا ففعلت ذلك، وما أصبحنا حتى فرغنا من البيعة، واستقام أمره، وكفاني اللّه والناس شره.

ولما أتى الخيزران الخبر بوفاة موسى وجاءها به الرسول، قالت: وما أصنع به.

فقالت له خالصة: قومي وامشي إلى ابنك، فليس هذا وقت تعتب.

فقالت: أعطوني ماءً أتوضأ للصلاة.

ثم قالت: أما إنَّا كُنَّا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك فيها خليفة، ويولد فيها خليفة، فمات موسى، وملك هارون، وولد المأمون(١).

وكانت ولايته أربعة عشر شهراً، ومات وهو ابن ست وعشرين سنة(٢).

ذكر بعض سيرته

ذكر عن عبد اللّه بن مالك أنه قال: كنت على شرطة المهدي، وكان المهدي يبعث إليّ في ندماء الهادي ومعنيه في ضربهم وحبسهم صيانةً له عنهم، فبعث إليّ الهادي يسألني

(١) بعده في الكامل:
وكانت الخيزران قد أخذت العلم عن الأوزاعي، وكان الهادي بعيساباذ. قلت: كيف يستساغ مثل هذا القول عنها وقد أخذت العلم عن مثل هذا الشيخ الجليل الذي ينكر كغيره من كل علماء الإسلام أقوال المنجمين ويكذبونهم وإن صادق كلامهم في بعض الظروف حقيقة.

(٢) في الكامل: كانت وفاته ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول.
وقيل: لأربع عشرة خلت من ربيع الأول.
وقيل: لست عشرة منه.
قيل: وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.
وقيل: كانت أربعة عشر شهراً.
وكان عمره ستاً وعشرين سنة، وقيل: ثلاثاً وعشرين سنة وصلّى عليه الرشيد، وكانت كنيته أبا محمد، وأمه الخيزران أم ولد، ودفن بعيساباذ الكبرى في بستانه.
وكان طويلاً جسيماً أبيض مشرباً حمرة. وكان بشفته العليا نقص وتقلص، وكان المهدي قد وكل به خادماً يقول له: موسى أطبق فيضم شفته فلقب موسى أطبق.
وكان له أولاد تسعة، سبعة ذكور وابنتان، فمن الذكور: جعفر ـ وهو الذي كان يريد البيعة له ـ والعباس، وعبد اللّه، وإسحاق، وإسماعيل، وسليمان، وموسى بن موسى الأعمى، كلهم لأمهات أولاد..
وابنتان أم عيسى كانت عند المأمون، وأم العباس وكانت تلقب نونة.

الرفق بهم والترفيه لهم، فلا ألتفت إلى ذلك، وأمضي لما يأمرني به المهدي.

فلما ولي الهادي الخليفة أيقنت بالتلف، فبعث إليَّ يوماً، فدخلت إليه متكفناً متحنطاً، وإذا هو على كرسي والنطع بين يديه فسلمت.

فقال: لا سلام اللّه على الآخر تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني، وما أمر به أمير المؤمنين رضي اللّه عنه من ضربه وحبسه فلم تجبني، وفي فلان، وفي فلان، فجعل يعد ندماءه، فلم تلتفت إلى قولي، وأمري؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أيسرك أنك وليتني ما ولاني أبوك فأمرتني بأمر فبعث إليّ بعض بنيك بأمر يخالف به أمرك، فاتبعت أمرك؟

قال: لا.

قلت: فكذلك أنا لك، وكذلك كنت لأبيك.

فاستدناني، فقبلت يده، فأمر بخلع فصبت عليّ، وقال: قد وليتك ما كنت مُوَلاَّه، فامض راشداً.

فخرجت من عنده، فصرت إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره وقلت: حدث يشرب، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكُتَّابه، وكأني به حين تغلب عليه الشراب قد أزالوه عن رأيه وحملوه على ما كنت أتخوفه.

قال: [فإني] لجالس وبين يدي بنية لي في وقتي ذلك، والكانون[1] بين يدي، ورقاق أشطره بكامخ[2] وأسخنه وأطعمه الصبية، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وزلزلت لوقع الحوافر وكثرت الضوضاء.

فقلت: هاه كان واللّه ما ظننت، ووافاني من أمره ما تخوفت، فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم.

فلما رأيتهم، وثبت من مجلسي مبادراً، فقبلت يده ورجله، وحافر حماره.

فقال لي: يا عبد اللّه إني فكرت في أمرك فقلت: يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وحولي أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك فأقلقك، وأوحشك [٥٧/أ] فصرت إلى منزلك لأونسك، وأعلمك أن السخيمة قد زالت من قلبي لك، فهات وأطعمني ما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل لتعلم أني قد تحرَّمت بطعامك، وأنت بمنزلك، فيزول

---

(١) الكانون: هو موقد النار في البدو ويصنع من الطين ويسجر بالحطب ويوضع فوقه ما يراد صنعه من الطعام في الإناء المناسب لذلك وقد أكلت من صنعه في صباي وطفولتي كثيراً.

(٢) الرقاق معروف، وهو الخبز الخفيف، وأشطره أي أقطعه، والكامخ نوع من الأطعمة الرقيقة أيضاً كان يقوم بتجهيزها لصبيته ليسهل عليها أكله.

خوفك ووحشتك.

فأدنيت إليه ذلك الرقاق والسكرجة التي فيها الكامخ[١] فأكل منها.

ثم قال: هاتوا الزلة التي أزللتها لعبد اللّه من مجلسي.

فادخل إليَّ أربعمائة بغل موقرة دراهم، وقال: هذه زلتك فاستعن بها على أمرك، واحفظ لي هذه البغال عندك لعلي احتاج إليها لبعض أسفاري، ثم قال: أظلك اللّه بخير، ثم انصرف راجعاً. فذكر موسى بن عبد اللّه بن مالك: أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره، ثم بنى حوله معالف لتلك البغال، وكان هو يتولى النظر إليها والقيام عليها أيام حياة الهادي كلها.

وأتى موسى برجل فجعل يقرره بذنوبه، وتهدده.

فقال الرجل: اعتذاري يا أمير المؤمنين بما تقرعني به ردّ عليك، واقراري يوجب عليّ ذنباً، ولكني أقول: إذا كنت ترجو في العقوبة رحمة فلا تزهدن عند المعافاة[٢] في الأجر، فأمر بإطلاقه.

وقد كنا حكينا عن موسى الهادي ما حقده على الربيع من دخوله على أمه، فلما تجاوز عنه وجد أعداء[٣] الربيع طريقاً إليه من طريق غير الهادي.

وكان الربيع أهدى إلى المهدي جارية حسناء فائقة الجمال حسنة القد والشعر ناهدة الثدي، فلما رآها المهدي قال: هذه تصلح لموسى، فوهبها له، فشغف بها الهادي واستولدها، فهي أم أكابر أولاده.

فقال حساد الربيع؛ يا أمير المؤمنين، إن الربيع يتفوه في خلوته، بما أعظم مما أنكرته.

قال: وما هو؟

قال: إنه يقول: ما وضعت بيني وبين الأرض أطيب من فلانة، يعني أم أولاد الهادي فالتهب الهادي، وتركه حتى إذا كان يوم أنسه دعا الربيع إلى مجالسته، وسقاه بيده كأساً مسموماً.

فأحس الربيع بذلك، وبما رقى إليه من كلامه، فلم يقدر على الامتناع، ويخاف أن يمتنع بضرب عنقه، فشرب الكأس فتوصب من ساعته.

---

(١) في المخطوط: ذلك الرقاق والسكرجة التي بطعامك وأنست بمنزلك فيها الكامخ. فحذفت ما زاد على السياق سهواً من الناسخ. والسكرجة نوع من الآنية.

(٢) في المخطوط: المعاماة، وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: أعزاء، وهو تحريف.

وقام، فأظهر الهادي شفقته عليه، وعرض عليه المقام فأبى.

قال: ما أجده يا أمير المؤمنين أكثر من أن أقيم معه، ثم بادر إلى منزله، فأوصى ومات من ليلته[(١)].

---

(١) ومما ذكر ابن الأثير أيضاً في سيرته أن قال: تأخر الهادي عن المظالم ثلاثة أيام فقال له الحراني: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا.
فقال لعلي بن صالح: ائذن للناس على الجفلى لا النقرى.
فخرج من عنده ولم يفهم قوله، ولم يجسر على مراجعته، فأحضر أعرابياً فسأله عن ذلك. فقال: الجفلى أن تأذن لعامة الناس. فأذن لهم فدخل الناس عن آخرهم ونظر في أمورهم إلى الليل، فلما تقوَّض المجلس قال له علي بن صالح ما جرى له، وسأله مجازاة الأعرابي.
فأمر له بمائة ألف درهم.
فقال علي: يا أمير المؤمنين إنه أعرابي ويغنيه عشرة آلاف.
فقال: يا علي أجود أنا وتبخل أنت.
وقيل: خرج يوماً إلى عياد أمه الخيزران، وكانت مريضة.
فقال له عمر بن ربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أدلك على ما هو أنفع لك من هذا؟
تنظر في المظالم، فرجع إلى دار المظالم، وأذن للناس، وأرسل إلى أمه يتعرف أخبارها. وقيل: كان يعقوب بن داود يقول: ما لعربي ولا لعجمي عندي ما لعلي بن عيسى بن ماهان، فإنه دخل إلى الحبس وقال لي: أمرني أمير المؤمنين الهادي أن أضربك مائة سوط، فأقبل يضع السوط على يدي ومنكبي، ويمسني به مساً إلى أن عدّ مائة سوط، ثم خرج. فقال له الهادي: ما صنعت به؟
قال: صنعت الذي أمرتني به، وقد مات الرجل.
فقال الهادي: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، فضحتني واللّه عند الناس، يقولون: قتل يعقوب بن داود.
فلما رأى شدة جزعه قال: هو واللّه حيّ يا أمير المؤمنين.
قال: الحمد للّه على ذلك.

خلافة هارون الرشيد

وفي هذه السنة: استخلف هارون بن محمد بن عبد اللَّه بن محمد بن علي بن عبد اللَّه بن العباس بن عبد المطلب الرشيد فبويع له ليلة الجمعة، وهي الليلة التي توفي فيها الهادي وكانت سِنُّه يوم وُلّي اثنين وعشرين سَنَة، وأمه أم ولد يمانية[1] حرشية[2]، يقال لها: الخيزران. وولد بالري سنة تسع وأربعين ومائة[3].

وكان هرثمة بن أعين هو الذي أخرج هارون الرشيد ليلاً فاقعده للخلافة.

ويقال: إن هارون لما جلس للخلافة حلف أن لا يصلي الظهر إلا ببغداد، وأنه لا يصلي بعيساباذ إلاّ على المهدي، وأنه لا يصلي ببغداد إلاّ ورأس أبي عصمة بين يديه.

ثم ثيابه وخرج فصلى على أخيه، وقُدّم أبا عصمة فضربت عنقه، وشد حمته في رأسِ قباةٍ، ودخل بها بغداد. وذلك أنه كان مضى هو وجعفر بن موسى الهادي راكبين، فبلغا قنطرة من قناطر عيساباذ، فالتفت أبو عصمة إلى هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولي العهد.

فقال هارون: السمع والطاعة للأمير، فوقف حتى جاز جعفر، وكان هذا سبب قتل أبي عصمة[4].

---

(١) في المخطوط: ثمانية. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٢) في الكامل: جرشية.

(٣) في الكامل: وكان مولده بالري في آخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة.
وقيل: ولد مستهل محرم سنة تسع وأربعين. وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، وأرضعت أم ابن يحيى الرشيد، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد. ولما مات الهادي كان يحيى بن خالد البرمكي محبوساً في قول بعضهم، وكان الهادي عازماً على قتله، فجاء هرثمة بن أعين إلى الرشيد فأخرجه للخلافة، فأرسل الرشيد إلى يحيى فأخرجه من الحبس واستوزره، وأمر بإنشاء الكتب إلى الأطراف بجلوسه للخلافة وموت الهادي.

(٤) ذكر ابن الأثير بداية إعلام الرشيد بالولاية الخلافة على غير هذا النحو، وختمها بأتم من ذلك فقال في البداية:
قيل: لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم في فراشه فقال له: قم يا أمير المؤمنين.
فقال: كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي، فكيف يكون حالي مع الهادي إن بلغه هذا؟
فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه، فبينما هو يكلمه إذ أتاه رسول آخر يبشره بمولود، فسماه عبد اللَّه ـ وهو المأمون ـ ولبس ثيابه، وخرج فصلى على الهادي بعيساباذ، وقتل أبا عصمة وسار إلى بغداد، وكان سبب قتل أبي عصمة أن الرشيد كان سائراً هو وجعفر بن الهادي فبلغ قنطرة =

ويقال إنه لما توفي موسى هجم خزيمة بن خازم في تلك الليلة فأخذ جعفراً من فراشه وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليه، معهم السلاح، فقال: واللّٰه لأضربن عنقك أو تخلعها، وذاك أن موسى قد كان أمر جماعة فبايعوه.

فلما كان الصبح ركب الناس إلى باب جعفر فأتى به خزيمة فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب خلفه، فأقبل جعفر [٥٧/ب] ينادي: يا معشر الناس من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته منها، والخلافة لعمي هارون، ولا حق لي فيها.

وكان سبب مشي عبد اللّٰه بن مالك الخزاعي إلى مكة على اللبود.

وحظي خزيمة عند الرشيد.

وقلد هارون يحيى بن خالد الوزارة، وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه.

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليهم ويصدر عن رأيها(١).

= عيساباذ. . . . فذكر القصة كما هنا، ثم أتم الخبر بدخوله بغداد فقال: فلما وصل الرشيد إلى بغداد وبلغ الجسر، دعا الغواصين وقال: كان المهدي قد وهب لي خاتماً شراؤه بمائة ألف دينار - يسمى الجبل - فأتاني رسول الهادي يطلب الخاتم وأنا هاهنا، فألقيته في الماء فغاصوا عليه، وأخرجوه فسر به.

ولما مات الهادي هجم خزيمة بن خازم. . .

(١) هذا ما ذكر المؤلف في تلك السنة، وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:

وفيها: ولد الأمين - واسمه محمد - في شوال، فكان المأمون أكبر منه.

وفيها: استوزر الرشيد يحيى بن خالد، وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، فاحكم. . . . فقال إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها

بيمن أمين اللّٰه هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وفيها: توفي يزيد بن حاتم المهلي والي أفريقية، واستخلف عليها ابنه داود. وانتقضت جبال باجة.

وخرج فيها الأباضية، فسير إليهم داود جيشاً فظفر بهم الأباضية وهزموهم، فجهز إليهم جيشاً آخر، فهُزمت الأباضية، فتبعهم الجيش فقتلوا منهم فأكثروا.

وبقي داود أميراً إلى أن استعمل الرشيد عمه روح بن حاتم المهلي أميراً على أفريقية وكانت إمارة داود تسعة أشهر.

وفيها: عزل الرشيد عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، واستعمل عليها إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس.

وفيها: ظهر من مكان مستخفياً منهم: طباطبا، وهو إبراهيم بن إسماعيل، وعلي بن الحسين بن إبراهيم بن عبد اللّٰه بن الحسن، وبقي نفر من الزنادقة لم يظهروا منهم، يونس بن فروة، =

ثم دخلت سنة إحدى...[١] وسبعين ومائة

ولم يجر فيها ما يستفاد منه تجربة[٢].

= ويزيد بن الفيض.
وفيها: عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة، وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم.
وأمر بعمارة طرسوس على يد فرج الخادم التركي ونزلها الناس.
وحج بالناس: الرشيد، وقسّم بالحرمين عطاءً كثيراً.
وقيل: إنه غزا الصائفة بنفسه، وغزا الصائفة سليمان بن عبد اللّه البكائي، وكان على مكة والطائف: عبد اللّه بن قثم. وعلى الكوفة: موسى بن عيسى. وعلى البصرة، والبحرين، واليمامة، وعمان، والأهواز، وفارس: محمد بن سليمان بن علي. وكان على خراسان: الفضل بن سليمان الطوسي. وعلى الموصل: عبد الملك.
وفيها: أوقع عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس ببرابر نفزة فأذلهم، قتل فيهم.
وفيها: أمر عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة، وكان موضعه كنيسة، وأخرج عليه مائة ألف دينار.

(١) موضع النقط: «واثنتين» غير أني حذفتها لأجعلها مستقلة في الموضع القادم فأذكر أحداثها نقلاً عن ابن الأثير من الكامل.

(٢) كذا قال ابن مسكويه في أحداث تلك السنة والتي بعدها، وأنا أذكر هنا أحداثها من الكامل حيث قال مؤلفه:
فيها: مات عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك صاحب الأندلس في ربيع الآخر.
وقيل: سنة اثنتين وسبعين ومائة، وهو وكان مولده بأرض دمشق.
وقيل: بالعلياء من ناحية تدمر سنة ثلاث عشرة ومائة.
وكان موته بقرطبة وصلى عليه ابنه عبد اللّه. وكان عهد إلى ابنه هشام، وكان ابنه هشام بمدينة ماردة والياً عليها.
وكان ابنه سليمان بن عبد الرحمن ـ وهو الأكبر ـ بطليطلة والياً عليها، فلم يحضرا موت أبيهما، وحضره عبد اللّه المعروف بالبلنسي وأخذ البيعة لأخيه هشام، وكتب إليه ينعي أبيه، وبالإمارة فسار إلى قرطبة. وكانت دولة عبد الرحمن ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهراً، وكانت كنيته أبا المطرف، وقيل: أبا سليمان، وقيل: أبا زيد. وكان له من الولد أحد عشر ذكراً، وتسع بنات. وكانت أمه بربرية من سبي إفريقية. وكان أصهب خفيف العارضين طويل القامة، نحيف الجسم، أعور، له ضفيرتان. وكان فصيحاً، شاعراً، حليماً، عالماً، حازماً، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ولا ينفرد في الأمور برأيه، شجاعاً، مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر، سخياً جواداً، يكثر لبس البياض، وكان يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبط المملكة. وبنى الرصافة بقرطبة تشبيهاً بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، ولما سكنها رأى فيها نخلة منفردة فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في القصاء المنتأى مثلي
سقتك من غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

وقصده بنو أمية من المشرق، فمن المشهورين، عبد الملك بن عمر بن مروان، وهو قعدد بني أمية، وهو الذي كان سبب قطع الدعوة العباسية بالأندلس على ما تقدم، وكان معه أحد عشر ولداً له. =

....

= إمارة ابنه هشام: كان عبد الرحمن قد عهد إلى ابنه هشام ولم يكن أكبر ولده، فإن سليمان كان أكبر منه، وإنما كان يتوسم فيه الشهامة الاضطلاع بهذا الأمر فلهذا عهد إليه ولما توفي أبوه كان هو بماردة متولياً لها، وناظراً في أمرها، وكان أخوه سليمان وهو أكبر منه بمدينة طليطلة، وكان يروم الأمر لنفسه، ويحسد أخاه هشاماً على تقديم والده له عليه، وأضمر له الغش، والعصيان.
وكان أخوه عبد اللّه المعروف بالبلنسي حاضراً بقرطبة عند والده، فلما توفي جدد عبد اللّه البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده، وكتب إلى أخيه هشام يعرفه موت والده، والبيعة له.
فسار من ساعته إلى قرطبة، فدخلها في ستة أيام، واستولى على الملك، وخرج عبد اللّه إلى داره مظهراً الطاعة وفي نفسه غير هذا، وسنذكر ما كان منه إن شاء اللّه تعالى.
وفيها: خرج الصحصح الخارجي بالجزيرة وكان عليها أبو هريرة، فوجه عسكراً إلى الصحصح، فلقوه، فهزمهم، وسار الصحصح إلى الموصل، فلقيه عسكرها بباجرمى، فقتل منهم كثيراً، ورجع إلى الجزيرة، فغلب على ديار ربيعة، فسير الرشيد إليه جيشاً، فلقوه بدورين فقتلوه، وعزل الرشيد أبا هريرة عن الجزيرة.
وفيها: استعمل الرشيد على صدقات بني تغلب روح بن صالح الهمداني، وهو من قواد الموصل، فجرى بينه وبين تغلب خلاف فجمع جمعاً، وقصدهم، فبلغهم الخبر، فاجتمعوا وساروا إلى روح فبيتوه، فقتل هو وجماعة من أصحابه.
فسمع حاتم بن صالح ـ وهو بالسكير ـ فجمع جمعاً كثيراً، وسار إلى تغلب فبيتهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر مثلهم.
وفيها: عزل الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمي عن الموصل، واستعمل عليها إسحاق بن محمد.
وفيها: استعمل الرشيد على أفريقية روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة لما بلغه وفاة أخيه يزيد بن حاتم بها، على ما ذكرناه، فقدمها في رجب.
وكان دواد بن يزيد أخيه على أفريقية، فلما وصل عمه روح سار داود إلى الرشيد، فاستعمله.
قال روح: كنت عاملاً على فلسطين، فأحضرني الرشيد، فوصلت، وقد بلغه موت أخي يزيد، فقال: أحسن اللّه عزاءك في أخيك وقد وليتك مكانه، لتحفظ صنائعه، ومواليه.
فسار إليها، ولم تزل البلاد معه آمنة ساكنة من الفتنة لأن أخاه يزيد كان قد أكثر القتل في الخوارج بأفريقية، فذلوا.
ثم توفي روح بالقيروان، ودفن إلى جانب قبر أخيه يزيد.
وكانت وفاته في رمضان سنة أربع وسبعين ومائة.
ولما استعمل المنصور يزيد بن حاتم على أفريقية، استعمل أخاه روحاً على السند، فقيل له: يا أمير المؤمنين، لقد باعدت ما بين قبريهما.
فتوفي يزيد بالقيروان، ثم وليها روح فتوفي بها، ودفن بها إلى جانب أخيه يزيد، وكان روح أشهر بالشرق من يزيد، ويزيد أشهر بالغرب من روح لطول مدة ولايته، وكثرة حروبه فيها، والخارجين عليه.
فيها: قدم أبو العباس الفضل بن سليمان الطوسي من خراسان، واستعمل الرشيد عليها جعفر بن محمد بن الأشعث، فلما قدم خراسان سير ابنه العباس إلى كابل فقاتل أهلها حتى افتتحها.
ثم افتتح سانهار، وغنم ما كان بها.
وفيها: قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ، وكان على الجزيرة، فوجه إليه الرشيد حرب بن قيس، فأحضره إلى بغداد فقتله.
وفيها: أمر الرشيد بإخراج الطالبيين من بغداد إلى مدينة النبي ﷺ، خلا العباس بن الحسن بن عبد اللّه بن عباس.
وفيها: خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتله أبو خالد المروروذي.
وفيها: قدم روح بن حاتم أفريقية.
وحج بالناس هذه السنة: عبد الصمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

[ثم دخلت سنة][١] اثنتين [وسبعين ومائة][١]

[ولم يجر فيها ما يستفاد منه تجربة][١].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية لما يستفاد من العنوان في السنة السابقة، وأنا أذكر هنا أحداث تلك السنة نقلاً عن الكامل حيث لم يذكر المؤلف فيها هنا شيئاً، فقال ابن الأثير:
في هذه السنة: وقيل في سنة ثلاث وسبعين ومائة وهو الصحيح.
خرج سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أمير الأندلس عن طاعة أخيهما هشام بالأندلس، وكان هشام قد ملك بعد أبيه كما ذكرناه، فلما استقر له الملك، كان معه أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي، وكان هشام يؤثره، ويبره، ويقدمه، فلم يرض عبد الله إلا بالمشاركة في أمره، ثم إنه خاف من أخيه هشام، فمضى هارباً إلى أخيه سليمان، وهو بطليطلة.
فلما خرج من قرطبة أرسل هشام جمعاً في أثره ليردوه، فلم يلحقوه، فجمع هشام عساكره وسار إلى طليطلة، فحصر أخويه بها. وكان سليمان قد جمع وحشد خلقاً كثيراً فلما حصرهما هشام، سار سليمان من طليطلة وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلد، وسار هو إلى قرطبة يملكها.
فعلم هشام الحال، فلم يتحرك، ولا فارق طليطلة، بل أقام يحصرها.
وسار سليمان فوصل إلى شقندة، فدخلها وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين مدافعين عن أنفسهم.
ثم إن هشاماً سير في أثره ابنه عبد الملك في قطعة من الجيش، فلما قاربه، مضى سليمان هارباً، فقصد مدينة ماردة، فخرج إليه الوالي بها لهشام، فحاربه، فانهزم سليمان، وبقي هشام على طليطلة شهرين، وأياماً محاصراً لها، ثم عاد عنها، وقد قطع أشجارها، وسار إلى قرطبة، فأتاه أخوه عبد الله بغير أمان فأكرمه وأحسن إليه.
فلما دخلت سنة أربع وسبعين: سَيَّر هشام ابنه معاوية في جيش كثيف إلى تدمير، وبها سليمان فحاربه، وخرَّبوا أعمال تدمير، ودوَّخوا أهلها ومن بها وبلغوا البحر فخرج سليمان من تدمير هارباً، فلجأ إلى البرابر بناحية بلنسة فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك، فعاد معاوية إلى قرطبة، ثم إن الحال استقر بين هشام وسليمان أن يأخذ سليمان أهله، وأولاده، وأمواله ويفارق الأندلس، وأعطاه هشام ستين ألف دينار مصالحة عن تركة أبيه عبد الرحمن، فسار إلى بلد البرابر، فأقام بها.
وفيها: خرج بالأندلس أيضاً سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بشاغنت من أقاليم طرطوشة في شرق الأندلس وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه كما تقدم، ودعا إلى اليمانية، وتعصب له، فاجتمع له خلق كثير، وملك مدينة طرطوشة، وأخرج عامله يوسف القيسي، فعارضه موسى بن فرتون، وقام بدعوة هشام، ووافقته مضر، فاقتتلا، فانهزم سعيد وقُتل.
وسار موسى إلى سرقسطة فملكها فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر، في جمع كثير، فقاتله، وقتل موسى.
وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن قطان بمدينة برشلونة، وخرج معه جمع كثير، فملك مدينة سرقسطة، ومدينة وشقة، وتغلب على تلك الناحية، وقوي أمره، وكان هشام مشغولاً بمحاربة أخويه: سليمان، وعبد الله.
وفيها: عزل الرشيد إسحاق بن محمد عن الموصل، واستعمل سعيد بن سلمة الباهلي، وعزل الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة، وهو ابن أخي معن بن زائدة عن أرمينية، واستعمل عليها أخاه عبيد الله بن المهدي.
وفيها: غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي.
وفيها: وضع الرشيد على أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف. =

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

وفيها: كانت وفاة محمد بن سليمان بالبصرة فوجه الرشيد إلى كل ما خلفه رجلاً، أمره باصطفائه،[1] فأرسل إلى ما خلف من الصفات من قبل بيت ماله رجلاً، وإلى الكسوة بمثل ذلك، وإلى الفرش والرقيق. والدواب، والخيل، والإبل، والطيب، والجواهر وكل آلة برجل من الذي يتولى كل صنف من الأصناف، فأخذوا جميع ما كان لمحمد مما يصلح للخلافة ولم يتركوا شيئاً إلاّ بالحرثى الذي لا يصلح للخلفاء، وأصابوا له ستين ألف ألف فحملوها مع ما حمل.

فلما صارت في السفن أخبر الرشيد، بمكان السفن التي حملت ذلك.

فأمر أن يدخل جميع ذلك خزائنه إلاّ المال فإنه أمر باصكاك فكتب للندماء وكتب للمغنين صكاك صغار لم تدون في الديوان، ثم رفع إلى كل رجل صك بما رأى أن يهب له، فأرسلوا وكلاءهم إلى السفن، فأخذوا المال على ما أمرهم به الصكاك أجمع لم يدخل بيت المال منه درهم واحد، واصطفى صُناعه[2].

وفيها: ماتت الخيزران، فخرج الرشيد عليه جبة سعيدية، وطيلسان خرق أزرق قد شد به وسطه، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يمشي في الطين حتى مقابر[3] قريش، فغسل رجليه ودعا نجف، وصلى عليها، ودخل قبرها فلما خرج دعا الفضل بن الربيع، وقال له: وحق المهدي، وكان لا يحلف به إلاّ إذا اجتهد - إني لأهمّ لك من الليل بشيء من التولية وغيرها، فتمنعني هذه رحمها اللّه، وأطيع أمرها.

وولاه نفقات العامة والخاصة، وبادوريا، والكوفة، ولم يزل حاله ينمى إلى سنة

= وحج بالناس: يعقوب بن المصنور.

وفيها: مات الفضل بن صالح بن علي بن عبد اللّه بن عباس، وهو أخو عبد الملك. وتوفي سليمان بن بلال مولى ابن أبي عتيق. وتوفي أبو يزيد رياح بن يزيد اللخمي الزاهد بمدينة القيروان، وكان مجاب الدعوة.

(١) في الكامل: فأرسل الرشيد من قبض تركته، وكانت عظيمة من المال، والمتاع، والدواب، فحملوا منه ما يصلح للخلافة وتركوا ما لا يصلح، وكان من جملة ما أخذوا ستون ألف ألف، فلما قدموا بذلك عليه أطلق منه للندماء والمغنين شيئاً كثيراً ودفع الباقي إلى خزانته.

(٢) في الكامل: وكان سبب أخذ الرشيد تركته أن أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به إلى الرشيد حسداً له، ويقول: إنه لا مال، ولا ضيعة، إلاّ وقد أخذ أكثر من ثمنها ليتقوى به على ما تحدث به نفسه - يعني الخلافة - وأن أمواله حلّ طلق الأمير المؤمنين.

وكان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه، فلما توفي محمد بن سليمان أخرجت كتبه إلى جعفر أخيه، واحتج عليه بها، ولكن لم يكن له أخ لأبيه وأمه غير جعفر، فأقرَّ بها فلهذا قبضت أمواله.

(٣) في مقابل هذه الكلمة بهامش المخطوط كلمة: «قابل»، وفوقها رمز «ط» وفوق الكلمة في المتن نفس الرمز، مما يفيد أنه كان بالمتن: «قابل» فصوبها الكاتب.

سبع وثمانين[١].

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائة

ولم يجر فيها على ما بلغنا شيء يليق بهذا الكتاب إثباته[٢].

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائة

وفيها: عقد الرشيد لابنه محمد ولاية العهد من بعده، وأخذ له بذلك[٣] بيعة القواد، والجند، وسماه: الأمين، وله يومئذ خمس سنين، وكان جماعة من بني العباس قد مدوا أعناقهم للخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد[١].

ولما بويع له أنكروا بيعته لصغر سنه، ولما سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فرّق هناك أموالاً عظيمة، وأعطى الجند أعطيات متتابعة، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد، فبايع له الناس، وسماه: الأمين، فلما تناهى إلى الرشيد خبره أن أهل الشرف بايعوا لمحمد كتب إلى الآفاق، فبويع له في جميع الأمصار[٤].

---

(١) وزاد ابن الأثير في أحداثها ما يلي: ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم الفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى بن خالد.
وفيها: استقدم الرشيد جعفر بن محمد بن الأشعث من خراسان، واستعمل عليها ابنه العباس بن جعفر.
وحج بالناس الرشيد أحرم من بغداد.
وفيها: مات مورقاط ملك جليقية من بلاد الأندلس وولي بعده برمندين قلوريه القس، ثم تبرأ من المُلْكِ وترهَّب، وجعل ابن أخيه في الملك، وكان ملك ابن أخيه سنة خمس وسبعين ومائة.
وفيها: توفي سلاّم بن أبي مطيع ـ بتشديد اللام ـ وجويرية بن أسماء بن عبيد البصري.
ومروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء الفزاري أبو عبد الله، وكان موته بمكة فجأة.

(٢) كذا قال، وقال ابن الأثير نحوه حيث لم يذكر فيها أمراً ذا بال إذ قال فيها:
فيها: استعمل الرشيد إسحاق بن سليمان على السند، ومكران.
وفيها: استقضى الرشيد يوسف بن أبي يوسف، وأبوه حي.
وفيها: هلك روح بن حاتم.
وسار الرشيد إلى الجودي، ونزل باقردى وبازيدى من أعمال جزيرة ابن عمر فابتنى بها قصراً.
وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح.
وحج بالناس: الرشيد، فقسَّمَ في الناس مالاً كثيراً.
وفيها: عُزل علي بن مسهر عن قضاء الموصل، وولي القضاء بها إسماعيل بن زياد الدولابي.

(٣) في الكامل: وكان سبب البيعة أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء إلى الفضل بن يحيى بن خالد فسأله في ذلك وقال له: إنه ولدك وخلافته لك، فوعده بذلك، وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
وفيها: عزل الرشيد عن خراسان العباس بن جعفر، وولاها خالداً الغطريف بن عطاء. وغزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح، فبلغ أقريطية.
وقيل: غزاها عبد الملك نفسه، فأصابهم برد شديد سقط منه كثير من أيدي الجند وأرجلهم. =

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

وفيها: ظهر يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن [علي][(١)] أبي طالب رضي الله عنه، فنزع إليه الناس من الأمصار، واشتدت شوكته وقوي أمره. فاغتمّ لذلك الرشيد، فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل ومعه صناديد القواد وولاه[(٢)] كور الري، والجبل، وجرجان، وطبرستان، وقومس، ودنباوند، والرويان، وحملت معه من الأموال شيء كثير.

= وفيها: سار يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي إلى الديلم فتحرك هناك.
وحج بالناس هذه السنة: هارون الرشيد.
وفيها: فرغ هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس من أخويه سليمان، عبد الله، وأجلاهما عن الأندلس، فلما خلا سره منهما انتدب لمطروح بن سليمان بن يقظان، فسير إليه جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، فساروا إلى مطروح وهو بسرقسطة، فحصروه بها، فلم يظفروا به، فرجع أبو عثمان عنه، ونزل بحصن طرسونة بالقرب من سرقسطة، وبث سراياه على أهل سرقسطة يغيرون ويمنعون عنهم الميرة، ثم إن مطروحاً خرج في بعض الأيام آخر النهار، يتصيد، فأرسل البازي على طائر، فاقتنصه، فنزل مطروح ليذبحه بيده، ومعه صاحبان له قد انفرد به عن أصحابه، فقتلاه، وأخذا رأسه وأتيا به أبا عثمان.
فسار إلى سرقسطة، فكاتبه أهلها بالطاعة، فقَبِلَ منهم، وسار إليها فنزلها، وأرسل رأس مطروح إلى هشام.
ثم إن أبا عثمان لما فرغ من مطروح أخذ الجيش، وسار بهم إلى بلاد الإفرنج، فقصد ألية، والقلاع، فلقيه العدو، فظفر بهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وفتح الله تعالى عليه.
وفيها: سير هشام أيضاً يوسف بن بَخت في جيش إلى جيليقية، فلقي ملكهم وهو برمند الكبير، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت الجلالقة، وقتل منهم عالم كثير.
وفيها: انقاد أهل طليطلة إلى طاعة الأمير هشام فأمنهم.
وفيها: سجن هشام أيضاً ابنه عبد الملك لشيء بلغه عنه، فبقي مسجوناً حياة أبيه، وبعض ولاية أخيه، فتوفي محبوساً سنة ثمان وتسعين ومائة.
وفيها: خرج بخراسان حصين الخارجي، وهو من موالي قيس بن ثعلبة من أهل أوق.
وكان على سجستان: عثمان بن عمارة، فأرسل جيشاً فلقيهم حصين فهزمهم، ثم أتى خراسان، وقصد باذغيس، وبوشنج، وهراة.
وكتب الرشيد إلى الغطريف في طلبه، فسيّر إليه الغطريف داود بن يزيد في اثنا عشر ألفاً فلقيهم حصين في ستمائة فهزمهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم سار في خراسان إلى أن قُتل سنة سبع وسبعين ومائة.
وفيها: مات الليث بن سعد الفقيه بمصر، ومحمد بن إسحاق بن إبراهيم أبو العنبس الشاعر.
وفيها: توفي المسيب بن زهير بن عمر بن مسلم الضبي، وقيل: سنة ست وسبعين، وكان على شرط المنصور والمهدي، وولاه المهدي خراسان.
وفيها: ولد إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

(١) زيادة يتطلّبها سياق النسب.
(٢) في المخطوط: وولا، وسقط من آخره حرف الهاء.

فشخص الفضل، واستخلف منصور بن زياد بباب أمير المؤمنين تجري كتبه على يده وينفذ الجوابات عنها، وكانوا يتقون بمنصور وابنه في جميع أمورهم لقديم صحبته لهم وحرمته بهم.

ثم مضى من معسكره ولم تزل كتب الرشيد تتابع عليه بالبر، واللطف، والجوائز، والخلع.

وكاتب يحيى ورفق به واستماله به، وناشده وحذّره وأشار عليه وبسط أمله.

وكاتب [٥٨/أ] صاحب الديلم، وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى إلى ما قبله، وحملت إليه.

فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه على نسخة، ويبعث بها إليه.

فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسيَّره وعظم موقعه، وكتب ليحيى أماناً وأشهد عليه الفقهاء، والقضاة، وجلّة بني هاشم ومشايخهم منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد، وموسى بن عيسى، ومحمد بن إبراهيم ومَن أشبههم ووجه معه جوائز وكرامات وهدايا.

فوجه الفضل بذلك إليه فقدّم يحيى بن عبد الله إليه، وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحبّ وأمر له بمال كثير وأجرى له أرزاقاً سنية، وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً، وكان يتولى أمره بنفسه، ولا يَكِل ذلك إلى غيره.

وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل ومدحه الشعراء فأكثروا، فمنهما ما قاله مروان بن أبي حفصة:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعلّ[1] الراتقين التأمه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطةٍ ... من المجد باقٍ ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فايزاً ... لكم كلما ضمت قداح المساهم[2]

---

(١) في المخطوط: أعلى. وهو تحريف. وأعلى أي أجهد وأيأس حيلهم.

(٢) لم ترد الأبيات بالكامل، ولكن ذكر ابن الأثير فيه بعد ذكره لما أجرى الرشيد له من الأرزاق السنية وأنزله المنزل السري قال: ثم إن الرشيد حبسه فمات في الحبس، وكان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمد بن الحسن الفقيه، وعلى أبي البختري القاضي.
فقال محمد: الأمان صحيح، فحاجه الرشيد.
فقال محمد: وما يصنع بالأمان لو كان محارباً ثم وَلِيَ وكان آمناً؟
وقال أبو البختري: هذا أمان منتقض من وجه كذا. فمزَّقه الرشيد.

وتركت ذكر غيره من المديح لأنها كثيرة ولا طائل فيها من جهة الاختيار.

فحكى أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن قال: لما قدم يحيى من الديلم أتيته وهو في دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقلت له: ما بعدك مخبر، ولا بعدي مخبر، فاعلمني خبرك.

فقال: يا ابن أخي والله إن كنت إلاّ كما قال حيي بن أخطب:

لعمرك مَا لاَمَ ابن أخطب نَفْسَهُ ولكنه مَن يخذل الله يخذل
أجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل

ذكر عقوبة سريعة على عقب إقدام على يمين كاذبة

وحكى بعض المشايخ من النوفليين قال:

وُشي بيحيى بن عبد الله فحبسه الرشيد. قال: فدخلنا على عيسى بن جعفر وقد وضعت له وسائد بعضها فوق بعض، وهو قائم متكىء عليها، وإذا هو يضحك من شيء في نفسه متعجباً منه.

فقلنا: ما الذي يضحك الأمير أدام الله سروره؟

قال: لقد دخلني اليوم سرور ما دخلني قط.

قلنا: تمّم الله للأمير سروره.

قال: والله لأحدثنكم به إلاّ قائماً، واتكى على فرشٍ كانت هناك قائماً وهو قائم فقال:

كنت اليوم عند أمير المؤمنين، فدعا بيحيى بن عبد الله فأُخرج من السجن مكبلاً بالحديد وعنده بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، وكان بكار هذا شديد البغض لآل أبي طالب، وكان يبلغ هارون الرشيد عنهم ويشي بهم، وكان الرشيد ولاه المدينة، وأمره بالتضييق عليهم.

فلما دعا يحيى قال له الرشيد: هيه هيه متضاحكاً، وهو أيضاً يزعم أننا سممناه.

فقال يحيى: ما معنى يزعم؟ ها هو ذا لساني، وأخرج لسانه أخضر مثل السلق.

قال: فتزيد هارون واشتد غضبه.

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحماً ولسنا نترك ولا دَيلم، يا أمير المؤمنين، إنّا وأنتم أهل بيت واحد فأذكرك الله، والقرابة والرحم برسول الله ﷺ علام تعذبني وتحبسني؟

قال: فرقّ له الرشيد.

وأقبل بكار الزبيري على الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرّك كلامه، فإنه شاق عاص، وهذا منه منكر وخبث، وأن هذا أفسد علينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان.

قال: فأقبل يحيى عليه، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال: أفسدوا عليكم مدينتكم، ومَن أنتم عافاكم الله؟

قال الزبيري: هذا كلامه قدامك، فكيف إذا غاب عنك؟ يقول: عافاكم الله استخفافاً بنا؟!!

قال: فأقبل يحيى عليه، فقال: نعم ومَن أنتم عافاكم الله؟ المدينة كانت مهاجر عبد الله بن الزبير، أم مهاجر رسول الله ﷺ؟

ومَن أنت حتى تقول: أفسدوا علينا مدينتنا؟ وإنما بآبائي، وآباء هذا [جاء][1] أبُوك إلى المدينة. ثم قال: يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم، فإن خرجنا عليكم قلنا: أكلتم وأجعتمونا ولبستم وأعريتمونا، وركبتم وأرجلتمونا، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا، فتكافئنا القول، ويعود [٥٨/ب] أمير المؤمنين على أمل فيه بالفضل يا أمير المؤمنين، فلم يجترىء هذا وضرباؤه على أهل بيتك يسعى بنا عندك، إنه والله ما يسعى بنا إليك نصيحة[2] ميل لك، وإنه ليأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا، يريد أن يباعد بيننا ويشفي من بعض بغض، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء هذا لي حيث قتل أخي محمد بن عبد الله، فقال: لعن الله قاتله، وأنشد فيه مرثية قالها نحواً من عشرين بيتاً، وقال: إن تحركت في هذا الأمر فأنا أول مَن يبايعك وما نمنعك أن تلحق بالبصرة فأيدينا مع يدك.

قال: فتغير وجه الزبيري، واسود.

وأقبل عليه هارون فقال: أي شيء تقول يا هذا؟ قال: كاذب يا أمير المؤمنين، ما كان مما قال حرف واحد.

قال: فأقبل على يحيى بن عبد الله فقال: تروي القصيدة التي رثي بها؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله، فأنشدها إياه.

فقال الزبيري: والله يا أمير المؤمنين الذي لا إله إلا هو، إني على اليمين الغموس ما كان مما قال شيء، ولقد يقول علي ما لم أقل.

قال: فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله، فقال: قد حلف فهل من بَيِّنة،

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: «يسعى بهم عندك إنه والله ما يسعى بهم عندك والله ما يسعى بنا إليك نصيحة». فجاء في العبارة تكرار بعض الجمل فحذفتها.

[أنهم][1] سمعوا هذه المرثية منه؟

قال: لا يا أمير المؤمنين، ولكني أستحلفه بما أريد.

قال: فاستحلفه.

قال: قل أنا بريء من حول الله وقوته، موكل إلى حولي وقوتي إن كنت قلته.

قال الزبيري: يا أمير المؤمنين، أي شيء هذا من الحلف؟! أحلف بالله الذي لا إله إلا هو ويستحلفني بشيء لا أدري ما هو؟!

قال يحيى بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما استحلف به؟

فقال هارون: احلف له ويلك، فقل أنا بريء من حول الله وقوته موكل إلى حولي وقوتي، قال: واضطرب منها وأرعد.

فقال: يا أمير المؤمنين ما أدري أي شيء هذه اليمين الذي يستحلفني بها، وقد حلفت بالله أعظم الأشياء.

قال: فقال هارون: لتحلفن له أو لأصدقن قوله عليك ولأعاقبنك.

قال: فقال: أنا بريء من حول الله وقوته موكل إلى حولي وقوتي إن كنت قلته.

قال: فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته.

فقال: فقال عيسى بن جعفر، وما يسرني أن يحيى يقصد حرفاً مما كان جرى بينهما ولا قصر في شيء من مخاطبته إياه[2].

وذكر أبو يونس قال: سمعت عبد الله بن العباس بن علي الذي يعرف بالخطيب قال: كنت يوماً على باب الرشيد أنا وأبو جعفر، وحضر ذلك اليوم [من][3] الجند والقواد ما لم أرَ مثلهم على باب خليفة قط ولا قبله ولا بعده.

فخرج الفضل بن الربيع إلى أبي فقال له: ادخل فدخلت [معه][4]، فإذا الرشيد معه امرأة يكلمها فأومى إلى أبي أنه لا يريد القوم أن يدخل أحد وإنما استأذنت لك لكثرة مَن رأيت حضر الباب، فإذا دخلت هذا المدخل زادك ذلك نبلاً عند الناس.

فما مكثنا إلا قليلاً ثم جاء الفضل بن الربيع، فقال مصعب: إن عبد الله بن الزبير يستأذن في الدخول.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) لم ترد هذه القصة بالكامل.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.

فقال: إني لا أريد أن أدخل اليوم أحداً إليَّ.

فقال: إنه يقول إن عندي شيئاً أذكره.

فقال: قل له: يقتله لك.

قال: قلت له: ذاك، فزعم أنه لا يقوله[١] إلا لك.

قال: أدخله.

وخرج ليدخله، وعادت المرأة فشغلا بكلامها وأقبل على أبي فقال: إنه ليس عنده شيء يذكره وإنما أراد الفضل بهذا أن يُوهم مَن على الباب أن أمير المؤمنين زوجته وابنه وجاريته التي تلي فراشه وخادمته[٢] التي تلي ثيابه، وأخص خلق الله به من قوّاده وأبعده منه.

قال: فرأيته قد تغيّر لونه، وقال له: مما ذا؟

قال: جاءتني دعوة يحيى بن عبد الله بن حسن فعلمت أنه لم يبلغني من العداوة بيننا وبينهم حتى لم يبقَ على بابك أحد إلاّ وقد أدخله في الخلاف عليك.

فقال: أتقولون هذا في وجهه؟

قال: نعم.

قال الرشيد: علي بيحيى، فدخل، فأعاد القول بحضرته.

فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لقد جاء بشيء لو قيل لمَن هو دونك فيمن هو أكبر مني، وهو قادر عليه، لما أفلت منه أبداً، ولكن لي رحم وقرابة، فلو أخرت هذا الأمر، ولم تعجل أُكفيت مؤنتي بغير يدك ولسانك وعسى بك أن [٥٩/أ] تقطع، وإني باهل بين يديك وتصبر قليلاً.

فقال عبد الله: قم، فصلِّ إن رأيت ذلك.

قام يحيى فاستقبل القبلة، وصلّى ركعتين، ثم برك يحيى وقال: أبرك، ثم شبك ثمانية في ثمانية، ثم قال:

«اللهم إن كنت تعلم أني دعوت عبد الله بن مصعب إلى الخلاف على هذا ووضع يده عليه وأشار إليه، فاستحثني بعذاب من عندك، وكلني إلى حولي وقوتي، وإلاّ فكله إلى حوله وقوته، واستحثه بعذاب من عندك، آمين يا رب العالمين».

فقال: آمين يا رب العالمين.

---

(١) في المخطوط: يقول له. وهو تحريف أو زيادة.
(٢) في المخطوط: وخادمه. وهو تحريف.

فقال يحيى بن عبد الله لعبد الله بن مصعب: قل كما قلت.

فقال عبد الله: «اللهم إن كنت تعلم أن يحيى بن عبد الله لم يدعني إلى الخلاف على هذا فكلني إلى حولي وقوتي، واستحثني بعذاب من عندك، وإلاّ فكله إلى حوله وقوته، واستحثه بعذاب من عندك، آمين يا رب العالمين» وتفرقا.

فأمر الرشيد بيحيى بن عبد الله فحبس في ناحية الدار، فلما خرج، وخرج عبد الله بن مصعب، أقبل الرشيد على أبي فعدّد عليه مننه على يحيى وأياديه عليه.

فكلّمه بما لا يدفع به عن عصفور خوفاً على نفسه، فأمرنا بالانصراف، فانصرفنا.

فدخلت مع أبي أنزع عنه سواده، وكان ذلك عادتي فبينا أنا أحل منطقته إذ دخل عليه الغلام فقال: رسول عبد الله بن مصعب.

فقال: أدخله.

فدخل وقال: [يقول][(١)] لك مولاي أنشدك بالله إلاّ بلغت إليّ.

فقال أبي: قل له: أجد سن تعب، وقد وجهت إليك بعبد الله، فما أردت أن تلقيه إليّ فألقه إليه.

فخرج الغلام وقال: إنما دعاني لتستعين بي على الإفك، فإن أعنته قطعت رحم رسول الله ﷺ، وإن خالفته سعى بي فاذهب إليه، وكل ما قال لك، فليكن جوابك له أخبر أبي.

وخرجت في أثر الرسول، فلما صرت في بعض الطريق وأنا مغموم بما أقدم عليه، قلت للرسول: ويحك ما أمره وما أزعجه بالإرسال إلى أبي الفضل في مثل هذا الوقت؟

فقال: إنه جاء من الدار، فهو الذي نزل عن الدابة فصاح: بطني بطني.

قال: فما حفلت[(٢)] بقول الغلام، فلما ضرب[(٣)] على بابه وكان في درب لا منفذ له، ففتح البابين وإذا النساء خرجن منثورات الشعور متحزمات بالحبال يلطمن وجوههن وينادين بالويل وقد مات الرجل.

فعجبت من ذلك وعطفت راجعاً أركض ركضاً لم أركض مثله قبله، والغلام والحشم ينظرونني لتعلق قلب الشيخ بي، فلما رآني دخلوا يتعادون فاستقبلني أبي

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: حلفت. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: فأما ضربا. وهو تحريف.

مرعوباً في قميص ومنديل ينادي: ما وراءك يا بُني؟

قلت: إنه قد مات.

قال: الحمد لله الذي قتله، وأراحك وإيانا منه.

فما قطع كلامه حتى ورد خادم للرشيد يأمر أبي بالركوب وإياي معه.

قال أبي ونحن نسير: لو جاز أن يدعي ليحيى بنوه لادعاها أهله له رحمه الله، وعند الله نحتسبه، ولا والله ما نشك أنه قتل.

فمضينا حتى دخلنا على الرشيد، فلما نظر إلينا، قال: يا عباس أما عندك الخبر؟

فقال أبي: بلى يا أمير المؤمنين فالحمد لله الذي صرعه بلسانه.

وقال: يا أمير المؤمنين قطع أرحامك؟

فقال الرشيد: الرجل والله سليم على ما يجب، ورفع الستر، فدخل يحيى.

وأنا والله أتبين ارتياع الشيخ.

فلما نظر إليه الرشيد صاح به: يا أبا محمد، إن الله قد قتل عدوك الجبار.

قال الحمد لله الذي أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه عَلَيَّ وعافاه من قطع رحمة الله، يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده ولم يكن الظفر به إلاّ بالاستعانة به، ثم لم يبقَ في الدنيا غيري وغيرك وغيره، ما تقويت به عليك أبداً، فكيف وأنا لا أطلب هذا الأمر، ولا أريده، ولا أصلح له.

ثم قال: وهذا والله من إحداثاتك ـ وأشار إلى الفضل بن الربيع ـ والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم، ثم طمع في زيادة ثمرة لباعك بها فقال: أما العباس فلا تقل فيه إلاّ خيراً.

وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار، وكان حبسه بعض يوم[(١)].

وفي هذه السنة: هاجت العصبية بالشام بين: النزارية[(٢)]، واليمانية.

فقتل بينهما بشر كثير، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام [٥٩/ب] وضمّ إليه من القواد . . .[(٣)] الكُتَّاب جماعة.

فلما ورد الشام أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة.

فردّ الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى، فعفى عنهم وصفح عن جناياتهم.

(١) لم ترد هذه القصة في الكامل.
(٢) في الكامل: المضرية.
(٣) موضع النقط كلمة لم أتبيّن قراءتها في المخطوط.

فمدحه الشعراء وأكثروا[١].

(١) كذا جاء الخبر هنا، وفي الكامل فَصَّل الخبر فأطال وعدّد الأقوال فيه فقال:
وفي هذه السنة: هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية، وكان رأس المضرية أبو الهيذام واسمه عامر بن عمارة بن خريم الناعم بن عمرو بن الحارث بن خارجة بن سنان بن أبي حارثة بن مره بن نشبة بن غيث بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان المري، أحد فرسان العرب المشهورين.
وكان سبب الفتنة أن عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيذام، فخرج أبو الهيذام بالشام وجمع جمعاً عظيماً وقال يرثي أخاه:

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فإن بها ما يدرك الطالب الوطرا
ولسنا كمَن ينعي أخاه بعبرةٍ ... يعصرها من ماء مقلته عصرا
وإنَّا أُناس ما تفيض دموعنا ... على هالك منا وإن قصم الظهرا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة ... ألهب في قطري كتائبها جمرا

قيل: إن هذه الأبيات لغيره، والصحيح أنها له.
ثم إن الرشيد احتال عليه بأخ له كتب إليه فرغّبه ثم شدَّ عليه، فكتّفه وأتى به الرشيد، فمَنَّ عليه وأطلقه.
وقيل: كان أول ما هاجت الفتنة في الشام: أن رجلاً من بني القين خرج بطعام له يطحنه في الرحى بالبلقاء، فمرّ بحائط رجل من لخم أو جذام وفيه بطيخ وقثاء، فتناول منه، فشتمه صاحبه، وتضاربا، وسار القيني فجمع صاحب البطيخ قوماً من أهل اليمن ليضربوه إذا عاد.
فلما عاد ضربوه وأعانه قوم آخرون فقتل رجل من اليمانية، وطلبوا بدمه، فاجتمعوا لذلك.
وكان على دمشق حينئذ عبد الصمد بن علي، فلما خاف الناس أن يتفاقم ذلك اجتمع أهل الفضل والرؤساء ليصلحوا بينهم، فأتوا بني القين، فكلّموهم، فأجابوهم إلى ما طلبوا.
فأتوا اليمانية، فكلّموهم فقالوا: انصرفوا عنا حتى ننظر.
ثم ساروا فبيّتوا بني القين، فقتلوا منهم ستمائة، وقيل: ثلاثمائة.
فاستنجد بنو القين قضاعة، وسليحاً، فلم ينجدوهم، فاستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى الصواليك من أرض البلقاء، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وكثر القتال بينهم، فالتقوا مرات.
وعزل عبد الصمد عن دمشق، واستعمل عليها إبراهيم بن صالح بن علي فدام ذلك الشر بينهم نحو سنتين، والتقوا بالبثنية، فقتل من اليمانية نحو ثمانمائة، ثم اصطلحوا بعد شر طويل.
ووفد إبراهيم بن صالح على الرشيد وكان ميله مع اليمانية، فوقع في قيس عند الرشيد.
فاعتذر عنهم عبد الواحد بن بشر النصري من بني نصر فقبل عذرهم، رجع واستخلف إبراهيم بن صالح على دمشق ابنه إسحاق وكان ميله أيضاً مع اليمانية، فأخذ جماعة من قيس فحبسهم وضربهم وحلق لحاهم، فنفر الناس، ووثبت غسان برجل من ولد قيس بن العبسي فقتلوه، فجاء أخوه إلى ناس من الزواقيل بحوران، واستنجدهم فأنجدوه، وقتلوا من اليمانية نفراً.
ثم ثارت اليمانية بكليب بن عمرو بن الجنيد بن عبد الرحمٰن، وعنده ضيف له فقتلوه، فجاءت أم الغلام بثيابه إلى أبي الهيذام فألقتها بين يديه.
فقال: انصرفي حتى ننظر، فإني لا أخبط خبط العشواء حتى يأتي الأمير ونرفع إليه دماءنا، فإن نظر فيها، وإلا فأمير المؤمنين ينظر فيها.
ثم أرسل إسحاق، فأحضر أبا الهيذام، فحضر فلم يأذن له.
ثم إن ناساً من الزواقيل قتلوا رجلاً من اليمانية، فقتلت اليمانية رجلاً من سليم، ونهبت أهل تلفياثا، وهم جيران محارب. =

....

= فجاءت محارب إلى أبي الهيذام، فركب معهم إلى إسحاق في ذلك، فوعدهم الجميل فرضي.
فلما انصرف أرسل إسحاق إلى اليمانية يغريهم بأبي الهيذام، فاجتمعوا، وأتوا أبا الهيذام من باب الجابية، وخرج إليهم في نفر كثير، فهزمهم واستولى على دمشق، وأخرج أهل السجون عامة.
ثم إن أهل اليمانية استجمعت واستنجدت كلباً وغيرهم، فأمدوهم.
وبلغ الخبر أبا الهيذام، فأرسل إلى المضرية، فأتته الأمداد، وهو يقاتل اليمانية عند باب توما، فانهزمت اليمانية.
ثم إن اليمانية أتت قرية لقيس عند دمشق فأرسل أبو الهيذام إليهم الزواقيل فقاتلوهم، فانهزمت اليمانية أيضاً.
ثم لقيهم جمع آخر فانهزموا أيضاً، ثم أتاهم الصريخ: أدركوا باب توما، فأتوه فقاتلوا اليمانية، فانهزمت أيضاً، فهزموهم في يوم واحد أربع مرات.
ثم رجعوا إلى أبي الهيذام، ثم أرسل إسحاق إلى أبي الهيذام يأمره بالكف ففعل.
وأرسل إلى اليمانية قد كففته عنكم فدونكم الرجل فهو غارّ، فأتوه من باب شرقي متسللين.
فأتى الصريخ أبا الهيذام، فركب في فوارس من أهله، فقاتلهم فهزمهم.
ثم بلغه خبر جمع آخر لهم على باب توما، فأتاهم فهزمهم أيضاً.
ثم جمعت اليمانية أهل الأردن والخولان، وكلباً وغيرهم، وأتى الخبر أبا الهيذام، فأرسل مَن يأتيه بخبرهم، فلم يقف لهم على خبر في ذلك، وجاؤوا من جهة أخرى، كان آمناً منها لبناء فيها.
فلما انتصف النهار ولم يرَ شيئاً، فرق أصحابه فدخلوا المدينة، ودخلها معهم، وخلف طليعة.
فلما رآه إسحاق قد دخل أرسل إلى ذلك البناء فهدمه، وأمر اليمانية بالعبور ففعلوا، فجاءت الطليعة إلى أبي الهيذام، فأخبروه الخبر، وهو عند باب الصغير، ودخلت اليمانية المدينة، وحملوا على أبي الهيذام، فلم يبرح، وأمر بعض أصحابه أن يأتي اليمانية من ورائهم ففعلوا، فلما رأتهم اليمانية تنادوا: الكمين الكمين، وانهزموا وأخذ منهم سلاحاً وخيلاً.
فلما كان مستهل صفر، جمع إسحاق الجنود، فعسكروا عند قصر الحجاج، وأعلم أبو الهيذام أصحابه، فجاءته بنو القين وغيرهم واجتمعت اليمن إلى إسحاق.
فالتقى بعض العسكر، فاقتتلوا فانهزمت اليمانية وقتل منهم، ونهب أصحاب أبي الهيذام بعض داريا وأحرقوا فيها ورجعوا، وأغار هؤلاء فنهبوا وأحرقوا، واقتتلوا غير مرة، فانهزمت اليمانية أيضاً، فأرسلت ابنة الضحاك بن رمل السكسكي - وهي يمانية - إلى أبي الهيذام تطلب منه الأمان، فأجابها، وكتب لها، ونهب القرى التي لليمانية بنواحي دمشق وأحرقها.
فلما رأت اليمانية ذلك، أرسل إليه ابن خارجة الحرشي، وابن عزة الخشني، وأتاه الأوزاع والأوصاب، ومقرا، وأهل كفرسوسية، والحميرون، وغيرهم يطلبون الأمان، فأمنهم، فسكن الناس وأمنوا.
وفرق أبو الهيذام أصحابه، وبقي في نفر يسير من أهل دمشق، فطمع فيه إسحاق، فبذل الأموال للجنود ليواقع أبا الهيذام، فأرسل العذافر الكسكي في جمع إلى أبي الهيذام، فقاتلوهم، فانهزم العذافر.
ودامت الحرب بين أبي الهيذام وبين الجنود، من الظهر إلى المساء، وحمل خيل أبي الهيذام على الجند، فجالوا، ثم تراجعوا وانصرفوا، وقد جرح منهم أربعمائة، ولم يقتل منهم أحد، وذلك نصف صفر.
فلما كان الغد لم يقتتلوا إلى المساء، فلما كان آخر النهار تقدّم إسحاق في الجند، فقاتلهم عامة الليل، وهم بالمدينة. =

وفيها: عزل الرشيد موسى بن عيسى عن مصر وولى جعفر بن يحيى بن خالد [بن][١] برمك مصر، فولاها جعفر عمر بن مهران.

ذكر السبب في ولايته وما كان منه

كان قد بلغ الرشيد أن موسى بن عيسى قد تجبّر بمصر وعزم على الخلع.

فقال: والله لا أعزله إلا بأحسن من علي بأبي[٢]، فانظروا لي رجلاً.

فذكر عمر بن مهران، وكان إذ ذاك يكتب للخيزران، ولم يكتب قط لغيرها، وكان رجلاً أحول مشوّه الوجه، وكان لباسه خسيساً أرفع ثيابه طيلسانة، وكانت قيمته ثلاثين درهماً، وكان يشمر ثيابه، ويقصر أكمامه، ويركب بغلاً، وعليه رسن ولجام حديدي، ويردف غلامه خلفه.

فدعا به وولاه مصر حربها وخراجها وضياعها.

= واستمدّ أبو الهيذام أصحابه، وأصبحوا من الغد فاقتتلوا، والجند في اثني عشر ألفاً، وجاءتهم اليمانية وخرج أبو الهيذام من المدينة، فقال لأصحابه وهم قليلون: انزلوا، فنزلوا، وقاتلوهم على باب الجابية حتى أزالوهم عنه.

ثم إن جمعاً من أهل حمص أغاروا على قرية لأبي الهيذام، فأرسل طائفة من أصحابه إليهم، فقاتلوهم، فانهزم أهل حمص، وقتل منهم بشر كثير، وأحرقوا قرى في الغوطة لليمانية وأحرقوا داريا.

ثم بقوا نيفاً وسبعين يوماً لم تكن حرب.

وقدم السندي مستهل ربيع الآخر في الجنود من عند الرشيد، فأتته اليمانية، تغريه بأبي الهيذام، وأرسل أبو الهيذام إليه يخبره أنه على الطاعة، فأقبل حتى دخل دمشق، وإسحاق بدار الحجاج.

فلما كان الغد أرسل السندي قائداً في ثلاثة آلاف، وأخرج إليهم أبو الهيذام ألفاً، فلما رآهم القائد، رجع إلى السندي فقال: أعطِ هؤلاء ما أرادوا، فقد رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة.

فصالح أبا الهيذام، وأمن أهل دمشق والناس وسار أبو الهيذام إلى حوران، وأقام السندي بدمشق ثلاثة أيام.

وقدم موسى بن عيسى والياً عليها، فلما دخلها أقام بها عشرين يوماً، واغتنم غرة أبي الهيذام، فأرسل مَن يأتيه به، فكبسوا داره، فخرج هو وابنه خريم، وعبداً له فقاتلوهم، ونجا منهم، وانهزم الجند، وسمعت خيل أبي الهيذام، فجاءته من كل ناحية، وقصد بصرى، وقتل جنود موسى بطرف اللجاة، فقتل منهم، وانهزموا.

ومضى أبو الهيذام فلما أصبح أتاه خمسة فوارس فكلّموه، فأوصى أصحابه بما أراد، وتركهم ومضى، وذلك لعشر بقين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة.

وكان أولئك النفر قد أتوه من عند أخيه يأمره بالكف، ففعل، ومضى معهم، وأمر أصحابه بالتفرُّق.

وكان آخر الفتنة، ومات أبو الهيذام سنة اثنتين وثمانين ومائة.

هذا ما أردنا ذكره على سبيل الاختصار.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط تحرّفت العبارة إلى: بأحسن من علي أبي. والتصويب من الكامل.

فقال: يا أمير المؤمنين أتولاها على شريطة.

قال: وما هي؟

قال: يكون إذني إليّ إذا أصلحت البلد انصرفت.

فجعل له ذلك، فمضى إلى مصر، واتصلت ولاية عمر بموسى بن عيسى، وكان يتوقع قدومه.

فدخل عمر بن مهران مصر على بغل وغلامه أبو دَرَّة على بغل، فقصد دار موسى والناس عنده، فدخل وجلس في أخريات الناس، فلما تفرّق الناس قال موسى بن عيسى: ألك حاجة يا شيخ؟

قال: نعم، وأخرج الكُتب، فدفعها إليه.

قال: يقدم أبو حفص أبقاه الله تعالى.

قال: أنا أبو حفص.

قال: أنت عمر بن مهران؟

قال: نعم.

قال: لعن الله فرعون حين قال: أليس لي ملك مصر، ثم سلم إليه العمل، ورحل.

فتقدّم عمر بن مهران إلى غلامه أبي درّة، فقال: لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب، لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً وجعل الناس يبعثون الهدايا والألطاف فلا يقبل إلا المال والثياب ويأتي بها عمر فيوقع عليها بأسماء مَن بعث بها.

ثم وضع الجباية، وكان بمصر قوم قد اعتادوا المطل وكسر الخراج، فبدأ برجل منهم، فَلَواه. فقال: والله لا أديت ما عليك من الخراج إلا في بيت المال بمدينة السلام إن سلمت.

قال: فإني أودّي، وتحمل عليه.

فقال: قد حلفت، ولا أحنث، فأشخصه مع ثلاثة من الجند، وكتب معهم إلى الرشيد، وكان العمال يومئذ يكاتبون الخليفة:

إني دعوت فلان بن فلان وطالبته بما عليه من الخراج، فلواني، واستنظرني فأنظرته، ثم دعوته فدافع ولواني، فعل ذلك مراراً، فآليت إلا يؤديه إلا في [بيت][1] المال بمدينة السلام وجملة ما عليه من المال كذا وكذا، وقد أنقذته مع فلان وفلان،

(١) سقط من السياق في المخطوط.

فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إليّ بوصوله فعل إن شاء الله تعالى.

فلم يلوه أحد بشيء من الخراج، فاستأذي النجم الأول والنجم الثاني، فلما كان النجم الثالث وقعت المطالبة والمطل(١)، فأمر بإحضار الهدايا التي بعث بها إليها فنظر في الأكياس وأحضر الجَمَعَة(٢)، فوزن ما فيها وأجراها عن أهلها، ثم دعا بالأسفاط، فنادى على ما فيها فباعها وأجرى أثمانها عن أهلها، ثم قال: حفظت هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها، فأدُّوا إلينا مالنا.

فأدُّوا إليه حتى أغلق مال مصر.

فانصرف ولا يُعلم أنه أغلق مال مصر غيره.

فانصرف وخرج على بغل وأبو درّة على بغل، وكان إذنه إليه(٣).

ودخلت سنة سبع وسبعين ومائة

ولم يجرِ فيها على ما بلغنا شيء يكتب في هذا الكتاب(٤).

---

(١) في المخطوط: المطلب. وهو تحريف.

(٢) أي الحَسَبَة.

(٣) كذا تكون الولاة، وكذا يكون النصح للرعية وكذا يحفظ التارخ سر هؤلاء الحكام ليكونوا نبراساً يهتدي بهم مَن أراد الله واليوم الآخر، فاللهم ارحمهم وارزقنا أمثالهما وألحقنا بهم على الإيمان آمين.
هذا ما ذكر المؤلف من أحداث تلك السنة وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:
في هذه السنة: غزا عبد الملك بن عبد الواحد بجيش صاحب الأندلس بلاد الفرنج، فبلغ ألبة والقلاع فغنم وسلم.
وفيها: استعمل هشام ابنه الحكم على طليطلة، وسيَّره إليها فضبطها وأقام بها، وولد له بها ابنه عبد الرحمٰن بن الحكم وهو الذي ولي الأندلس بعد أبيه.
وفيها: استعمل الرشيد على الموصل الحاكم بن سليمان.
وفيها: خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين، فأخذ من أهلها مالاً، وسار إلى دارا، وآمد، وأرزن، فأخذ منهم مالاً، وكذلك فعل بالخلاط، ثم رجع إلى نصيبين، وأتى الموصل، فخرج إليه عسكرها فهزمهم على الزاب، ثم عادوا لقتاله، فقتل الفضل وأصحابه.
وفيها: مات الفرج بن فضالة.
وصالح بن بشير المري القارىء، وكان ضعيفاً في الحديث.
وفيها: توفي عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أبو طاهر الأنصاري، وكان قاضياً ببغداد.
وفيها: توفي نعيم بنَ ميسرة النحوي الكوفي.
وأبو الأحوص، وأبو عوانة، واسمه: الوضّاح مولى يزيد بن عطاء الليثي، وكان مولده سنة اثنتين وتسعين.

(٤) كذا قال المؤلف رحمنا الله وإياه في هذه السنة، وقال فيها ابن الأثير ما يلي:
فيها: سَيَّر هشام صاحب الأندلس جيشاً كثيفاً، واستعمل عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أربونة وجرندة فبدأ بجرندة ـ وكان بها حامية الفرنج ـ فقتل رجالها وهَدَم أسوارها وأبراجها، وأشرف على فتحها، فرحل عنها إلى أربونة، ففعل مثل =

....

= ذلك، وأوغل في بلادهم، ووطىء أرض شرطانية، فاستباح حريمها، وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهوراً يخرّب الحصون ويحرق ويغنم، قد أجفل العدو من بين يديه هارباً، وأوغل في بلادهم ورجع سالماً معه من الغنائم ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، وهي من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

وفي هذه السنة: استعمل الرشيد على إفريقية الفضل بن روح بن حاتم، وكان الرشيد لما توفي روح استعمل بعده حبيب بن نصر المهلبي.

فسار الفضل إلى باب الرشيد وخطب ولاية إفريقية فولاّه، فعاد إليها، فقدم في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة، فاستعمل على مدينة تونس ابن أخيه المغيرة بن بشر بن روح ـ وكان غارًا ـ فاستخف بالجند، وكان الفضل أيضاً قد أوحشهم، وأساء السيرة معهم بسبب ميلهم إلى نصر بن حبيب الوالي قبله، فاجتمع مَن بتونس، وكتبوا إلى الفضل يستعفون من أخيه، فلم يجبهم عن كتابهم.

فاجتمعوا على ترك طاعته، فقال لهم قائد من الخراسانية يقال له محمد بن الفارسي: كل جماعة لا رئيس لها فهي إلى الهلاك أقرب، فانظروا رجلاً يدبر أمركم.

قالوا: صدقت، فاتفقوا على تقديم قائد منهم يقال له: عبد الله بن الجارود، يعرف بعبدويه الأنباري فقدّموه عليهم وبايعوه على السمع والطاعة، وأخرجوا المغيرة عنهم، وكتبوا إلى الفضل يقولون: إنا لم نخرج يداً عن طاعته، ولكنه أساء السيرة فأخرجناه، فولِّ علينا مَن نرضاه.

فاستعمل عليهم ابن عمه عبد الله بن يزيد بن حاتم، وسَيَّره إليهم، فلما كان على مرحلة من تونس أرسل إليه ابن الجارود جماعة لينظروا في أي شيء قدم، ولا يحدثوا حدثاً إلا بأمر، فساروا إليه.

وقال بعضهم لبعض: إن الفضل يخدعكم بولاية هذا، ثم ينتقم منكم بإخراجكم أخاه، فعدوا على عبد الله بن يزيد، فقتلوه، وأخذوا مَن معه من القواد أسارى.

فاضطر حينئذ عبد الله بن الجارود ومَن معه إلى القيام والجدّ في إزالة الفضل.

فتولّى ابن الفارسي الأمر، وصار يكتب إلى كل قائد بإفريقية، ومتولي مدينة يقول له: إنّا نظرنا في صنيع الفضل في بلاد أمير المؤمنين وسوء سيرته فلم يسعنا إلا الخروج عليه لنخرجه عنا، ثم نظرنا فلم نجد أحداً أولى بنصيحة أمير المؤمنين لبُعد صوته وعطفه على جنده منك، فرأينا أن نجعل نفوسنا دونك، فإن ظفرنا جعلناك أميرنا، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك، وإن كانت الأخرى لم يعلم أحد أننا أردناك، والسلام.

فأفسد بهذا كافة الجند على الفضل وكثر الجمع عندهم.

فسيَّر إليهم الفضل عسكراً كثيراً فخرجوا إليه فقاتلوه، فانهزم عسكره وعاد إلى القيروان منهزماً وتبعهم أصحاب ابن الجارود، فحاصروا القيروان يومهم ذلك.

ثم فتح أهل القيروان الأبواب ودخل ابن الجارود وعسكره في جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومائة، وأخرج الفضل من القيروان ووكل به وبمَن معه من أهله أن يوصلهم إلى قابس، فساروا يومهم، ثم ردّهم ابن الجارود وقتل الفضل بن روح بن حاتم.

فلما قُتِل الفضل غضب جماعة من الجند، واجتمعوا على قتال ابن الجارود.

فسيَّر إليهم عسكراً فانهزم عسكره، وعاد إليه بعد قتال شديد، واستولى أولئك الجند على القيروان، فوصل إليهم ابن الجارود، فلقوه، واقتتلوا، فهزمهم ابن الجارود، وقتل جماعة من أعيانهم فانهزموا فلحقوا بالأربس وقدموا عليهم العلاء بن سعيد والي بلد الزاب وساروا إلى القيروان.

ذكر ولاية هرثمة بن أعين بلاد إفريقية

اتفق وصول يحيى بن موسى من عند الرشيد، لما قصد العلاء ومَن معه القيروان.

وكان سبب وصوله أن الرشيد بلغه ما صنع ابن الجارود وإفساده إفريقية. =

....

= فوجّه هرثمة بن أعين ومعه يحيى بن موسى لمحلة عند أهل خراسان، وأمر أن يتقدّم يحيى فيتلطّف بابن الجارود، ويستميله ليعاود الطاعة قبل وصول هرثمة.
فقدم يحيى القيروان، فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير، ورفع إليه كتاب الرشيد.
فقال: إنّا على السمع والطاعة، وقد قرب مني العلاء بن سعيد ومعه البربر، فإن تركت القيروان وثب البربر فملكوها، فأكون قد ضيّعت بلاد أمير المؤمنين، ولكني أخرج إلى العلاء فإن ظفر بي فشأنكم والثغور، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة، فأسلم البلاد إليه، وأشير إلى أمير المؤمنين.
وكان قصده المغالطة فإن ظفر بالعلاء منع هرثمة عن البلاد.
فعلم يحيى ذلك، وخلا بابن الفارس وعاتبه على ترك الطاعة، فاعتذر وحلف أنه عليها، وبذل من نفسه المساعدة على ابن الجارود.
فسعى ابن الفارسي في إفساد حاله واستمال جماعة من أجناده، فأجابوه وكثر جمعه، وخرج إلى قتال ابن الجارود.
فقال ابن الجارود لرجل من أصحابه اسمه طالب: إن توافقنا فإنني سأدعو ابن الفارسي لأعاتبه، فاقصده أنت ـ وهو غافل ـ فاقتله.
فأجابه إلى ذلك.
وتواقف العسكران ودعا ابن الجارود ومحمد بن الفارسي وكلّمه، وحمل طالب عليه وهو غافل، فقتله، وانهزم أصحابه.
وتوجه يحيى بن موسى إلى هرثمة بطرابلس.
وأما العلاء بن سعيد فإنه لما علم الناس بقرب هرثمة منهم كثر جمعه وأقبلوا إليه من كل ناحية وسار إلى ابن الجارود، فعلم ابن الجارود أنه لا قوة له به، فكتب إلى يحيى بن موسى يستدعيه ليسلّم إليه القيروان، فسار إليه في جند طرابلس في المحرم سنة تسع وسبعين ومائة.
فلما وصل قابساً تلقاه عامة الجند، وخرج ابن الجارود من القيروان مستهل صفر.
وكانت ولايته سبعة أشهر.
وأقبل العلاء بن سعيد، ويحيى بن موسى يستبقان إلى القيروان، كل منهما يريد أن يكون الذكر له، فسبقه ودخلها، وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود، وسار إلى هرثمة، وسار ابن الجارود أيضاً إلى هرثمة، فسيَّره هرثمة إلى الرشيد وكتب إليه يعلمه أن العلاء كان سبب خروجه.
فكتب الرشيد يأمره بإرسال العلاء إليه، فسيَّره.
فلما وصل لقيه صلة كثيرة من الرشيد، وخُلِعَ، فلم يلبث بمصر إلا قليلاً حتى توفي. وأما ابن الجارود فإنه اعتقل ببغداد.
وسار هرثمة إلى القيروان فقدمها في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة فأمّن الناس وسكنهم وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة ثمانين ومائة، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر.
وكان إبراهيم بن الأغلب بولاية الزاب فأكثر الهدية إلى هرثمة ولاطفه، فولاّه هرثمة ناحية الزاب فحسن أثره فيها.
ثم إن عياض بن وهب الهواري، وكليب بن جمع الكلبي جمعا جموعاً وأرادا قتال هرثمة، فسيَّر إليهما يحيى بن موسى في جيش كثير ففرّق جموعهما وقتل كثيراً من أصحابهما وعاد إلى القيروان.
ولما رأى هرثمة ما بإفريقية من الاختلاف، واصل كتبه إلى الرشيد يستعفي فأمره بالقدوم عليه إلى العراق، فسار إلى إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، فكانت ولايته سنتين ونصفاً.
وفيها: خالف العطاف بن سفيان الأزدي على الرشيد ـ وكان من فرسان أهل الموصل ـ واجتمع عليه أربعة آلاف رجل وجبى الخراج. =

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

وفيها: ولى الفضل بن يحيى بن خالد خراسان مضافاً إلى ما كان إليه من ولاية الجبل وجرجان وطبرستان.

فأحسن فيها السيرة، وبنى المساجد والرباطات.

وغزا ما وراء النهر[١]، فخرج إليها خار آخرة ملك أشروسنة[٢]، وكان ممتنعاً.

واتخذ الفضل بن يحيى جنداً من عجم خراسان سماهم العباسية وجعل ولاءهم له، وبلغت عدتهم خمسمائة رجل، وقدم بغداد منهم عشرون ألف[٣] رجل فسمُّوا ببغداد الكرينيّة. وخلف الباقي بخراسان على أسمائهم ودفاترهم.

وفرق الفضل من الأموال ما هو بالسَّرف أليق منه بالجود، وقد ذكرنا من [٦٠/أ] ذلك طرفاً فمما جرى له من هذا النمط:

إن إبراهيم بن جبريل كان قد خرج مع الفضل مكرهاً، فحفظ الفضل ذلك عليه.

قال إبراهيم: فدعاني يوماً بعدما أغفلني حيناً، فلما صرت بين يديه، سلمت، فما ردّ عَلَيَّ السلام.

فقلت في نفسي: شرٌّ والله، وكان مضطجعاً فاستوى جالساً، ثم قال: ليفرّج روعك يا إبراهيم، فإن قدرتي عليك تمنعني منك.

= وكان عامل الرشيد على الموصل: محمد بن العباس الهاشمي، وقيل: عبد الملك بن صالح. والعطاف غالب على الأمر كله وهو يجبي الخراج وأقام على هذا سنتين حتى خرج الرشيد إلى الموصل، فهدم سورها بسببه.

وفي هذه السنة: عَزَلَ الرشيد جعفر بن يحيى عن مصر، واستعمل عليها إسحاق بن سليمان. وعَزَلَ حمزة بن مالك عن خراسان، واستعمل عليها الفضل بن يحيى البرمكي، مضافاً إلى ما كان إليه من الأعمال وهي: الري، وسجستان وغيرهما.

وفيها: غزا الصائفة عبد الرزاق بن عبد الحميد الثعلبي.

وفيها: في المحرم هاجت شديدة وظلمة ثم عادت مرة ثانية في صفر.

وحجّ بالناس: الرشيد.

وفيها: توفي عبد الواحد بن زيد.

وقيل: سنة ثمان وسبعين.

وفيها: توفي شريك بن عبد الله النخعي.

وجعفر بن سليمان.

(١) في الكامل بعدها: من بخارى.

(٢) في المخطوط: أسروشيه والتصويب من الكامل والخبر فيه مختصر جدًا.

(٣) أحسب أن هذه اللفظة زائدة على السياق أو أن العبارة من أولها أصابها تحريف أو سقط في بعض أجزائها. والله أعلم.

قال: ثم عقد لي على سجستان، فلما حملت خراجها، وهبه لي، وزادني خمسمائة ألف، وكان عمه إبراهيم فوجهه إلى كابل فافتتحها وغنم غنائم كثيرة، ووصل إليه في ذلك الوجه سبعة آلاف ألف درهم، فلما قدم بغداد وبنى داره استزاد الفضل أمر به نعمته عليه، وأعدّ له الهدايا والطرف وآنية الذهب والفضة، وأمر بوضع أربعة آلاف ألف في ناحية من الدار، فلما قام الفضل بن يحيى، قدّم إليه الهدايا، فأبى أن لا يقبل منها شيئاً وقال: لم آتك لأستلبك.

قال: إنها نعمتك أيها الأمير.

قال: ولك عندنا مزيد، فلم يأخذ من جميع ذلك إلاّ سوطاً سحريًا، وقال: هذه من آلة الفرسان.

فقال له: هذا المال من مال الخراج؟

قال: هو لك.

فأعاد عليه.

قال: أما لك بيت يسعه؟ وانصرف.

ولما قدم الفضل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أم جعفر يستقبله، وتلقاه بنو هاشم، والناس على مراتبهم، فجعل يصل الرجل بألف ألف. وخمسمائة ألف درهم.

وأعطى الشعراء فأكثر.

فحكى مروان بن أبي حفصة وقد زاره:

أنه وصل إليه مدة مقامه سبعمائة ألف درهم[1].

---

(١) هذا ما ذكر في أحداث هذه السنة وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:
في هذه السنة: وثب الحوفية بمصر على عاملهم إسحاق بن سليمان، وقاتلوه، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعن وكان عامل فلسطين، فقاتلوا الحوفية وهم من قيس وقضاعة، فأذعنوا بالطاعة وأدُّوا ما عليهم للسلطان.
فعزل الرشيد إسحاق عن مصر واستعمل عليها هرثمة مقدار شهر، ثم عزله، واستعمل عليها عبد الملك بن صالح.
وفيها: خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجريرة ففتك بإبراهيم بن خازم من خزيمة بنصيبين، ثم قويت شوكة الوليد، فدخل إلى أرمينية، وحصر خلاط عشرين يوماً، وافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً.
ثم سار إلى أذربيجان، ثم إلى حلوان، وأرض السواد، ثم عبر إلى غرب دجلة، وقصد مدينة بلد، فافتدوا منه بمائة ألف، وعاث في أرض الجزيرة.
فسيَّر إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن بن زائدة.
فقال الوليد: =

....

= ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشط الزاب أي فتى يكون
فجعل يزيد يخالته ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فقالوا للرشيد: إنما يتجافى يزيد عن الوليد للرحم، لأنهما كلاهما من وائل، وهوّنوا أمر الوليد.
فكتب إليه الرشيد كتاب مغضب، وقال له: لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك مَن يحمل رأسك.
فلقي الوليد عشية خميس في شهر رمضان سنة تسع وسبعين فيقال: جهد عطشاً حتى رمى بخاتمه في فيه، وجعل يلوكه ويقول: اللهم إنها شدة شديدة فاسترها.
وقال لأصحابه: فداكم أبي وأمي، إنما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا.
فكان كما قال، فحملوا عليهم حملة فثبت يزيد ومَن معه من عشيرته، ثم حمل عليهم فانكشفوا.
فيقال: إن أسد بن يزيد كان شبيهاً بأبيه جدًّا لا يفصل بينهما إلاّ ضربة في وجه يزيد تأخذ من قصاص شعره منحرفة على جبهته، وكان أسد يتمنى مثلها، فهوت إليه ضربة فأخرج وجهه من الترس، فأصابته في ذلك الموضع، فيقال: لو خطت على ضربة أبيه ما عدا.
واتبع يزيد الوليد بن طريف فلحقه، فأخذ رأسه فقال بعض الشعراء:

وائل بعضهم يقتل بعضاً لا يقل الحديد إلا الحديد

فلما قتل الوليد صبّحتهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة عليها الدرع، فجعلت تحمل على الناس فعرفت، فقال يزيد: دعوها.
ثم خرج إليها فضرب بالرمح قطاة فرسها، ثم قال: اعزبي أعزب الله عليك فقد فَضَحْتِ العشيرة.
فاستحت فانصرفت وهي تقول ترثي الوليد:

بتل تباثا رسم قبر كأنه على علم فوق الجبال منيف
تضمن جوداً حاتميًّا ونائلاً وسورة مقدام وقلب حصيف
ألا قاتل الله الجثي كيف أضمرت فتى كان بالمعروف غير عفيف
فإن يك أراده يزيد بن مزيد فيا رُب خيل فضَّها وصفوف
ألا يا لقوم للنوائب والردى ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى وللشمس همت بعده بكسوف
فيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلاّ مِنَ التُّقى ولا المال إلاّ من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جردا شطبةٍ وكل حصان باليدين عروف
فلا تجزعا يا ابني طريف فإنني أرى الموت نزالاً بكل شريف
فقدناك فقدان الربيع فليتنا فديناك من دهمائنا بألوف

وقال مسلم بن الوليد في قتل الوليد، ورفق يزيد في قتاله من قصيدة هذه الأبيات:

يفتر عند افترار الحرب مبتسماً إذا تغيّر وجه الفارس البطل
موفٍ على مُهج في يوم ذي رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما تعي الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل

وهي حسنة جدًّا.
وفيها: سَيَّر هشام صاحب الأندلس عسكراً مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج فغزا البا والقلاع، فغنم وسلم. =

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائة

وفيها: رجع الوليد بن طريف الشاري[(١)] إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر تبعه فوجّه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيباني، فراوغه يزيد إلى أن ظنّ أنه كرهه، ثم التمس غرته حتى وجدها فقتله وجماعة كانوا معه وتفرّق الباقون.

وقالت الفارعة أخت الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف[(٢)]

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان شكراً لله على ما أبلاه في الوليد بن طريف، ثم انصرف إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، ثم حجّ بالناس، فمشى من مكة إلى منى، ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد كلها والمشاعر ماشياً، [ورجع على طريق البصرة][(٣)].

= وسَيَّر أيضاً جيشاً آخر مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد الجلالقة فخرب دار ملكهم أذفونش وكنائسه، وغنم.
فلما قفل المسلمون ضلّ الدليل بهم، فنالهم مشقة شديدة ومات منهم بشر كثير، ونفقت دوابهم، وتلفت آلاتهم، ثم سلموا، وعادوا.
وفيها: هاجت فتنة تاكرتا بالأندلس وخلع بربرها الطاعة، وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد، وقطعوا الطريق.
فسيَّر هشام إليهم جنداً كثيفاً عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدوها وتابعوا قتال مَن فيها إلى أن أبادوهم قتلاً وسبياً، وفرّ مَن بقي منهم، فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرتا، جبالها خالية من الناس سبع سنين.
وفيها: غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم.
وغزا الشاتية سليمان بن راشد، ومعه البند بطريق صقلية.
وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي.
وفيها: فوّض الرشيد أمور دولته كلها إلى يحيى بن خالد البرمكي.
وفيها: توفي عبد الوارث بن سعيد، والمفضل بن يونس، وجعفر بن سليمان الضبعي.

(١) كذا في المخطوط، وفي الكامل: التغلبي كما ذكرناه في هامش السنة الماضية.
(٢) والقصيدة بتمامها في هامش السنة الماضية.
(٣) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.
وزاد ابن الأثير في أحداث هذه السنة فقال:
فيها: سَيَّر هشام صاحب الأندلس جيشاً كثيفاً، عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية، فساروا حتى انتهوا إلى أسترقه، وكان أذفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد، وأمدّه ملك البشكنس وهم جيرانه ومَن يليهم من المجوس وأهل تلك النواحي، فصار في جمع عظيم، فأقدم عليه عبد الملك، فرجع أذفونش هيبة له وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل مَن تخلّف منهم، فدوّخ بلادهم، وأوغل فيها، وأقام فيها يغنم، ويقتل، ويُخَرِّب، وهتك حريم =

ودخلت سنة ثمانين ومائة

وفيها: هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها، فقلق الرشيد واغتمّ لذلك وقال لجعفر بن يحيى: إمَّا أن تخرج أنت، وإمَّا أن أخرج أنا؟

فقال له جعفر: أفتدك[١] بنفسي.

فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح وعقد[٢] له على الشام.

فلما أتاهم أصلح بينهم وقتل ذوي قيلهم والمتلصصة منهم، ولم يدع بها رمحاً، ولا فرساً.

فعادوا إلى الأمن والطمأنينة، وأطفأ النار.

وعاد جعفر واستخلف على الشام عيسى بن العلي.

فزاد الرشيد في إكرامه ومدحه الشعراء.

ويقال: إنه لما ومثل بين يدي الرشيد قبّل يديه ورجليه، ثم مثل بين يديه، فقال: الحمد لله الذي آنس وحشتي يا أمير المؤمنين، وأجاد دعوتي، ورحم تضرعي ونسأ في أجلي حتى أراني وجه سيدي، وأكرمني بقربه، وامتنّ علي بتقبيل يده وردني إلى خدمته فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي بين المقادير التي أزعجتني، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتني وخطايا قد أحاطت بي، ولو طال مقامي عنك يا أمير المؤمنين لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً علي بقربك، وأسفاً على فراقك، وأن يعجل بي عن أذى الاشتياق إلى رؤيتك.

= أذفونش ورجع سالماً.

وكان قد سيَّر هشام جيشاً آخر من ناحية أخرى فدخلوا أيضاً على ميعاد من عبد الملك فأخربوا ونهبوا وغنموا، فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر للفرنج فنال منهم، وقتل نفراً من المسلمين، ثم تخلّصوا وسلموا وعادوا سالمين سوى مَن قتل منهم.

وفيها: عاد الفضل بن يحيى من خراسان، فاستعمل الرشيد منصور بن يزيد بن منصور الحميري خال المهدي.

وفيها: خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني.

وفيها: توفي حماد بن يزيد بن درهم الأزدي مولاهم أبو إسماعيل.

ومالك بن أنس الأصبحي الإمام أستاذ الشافعي.

وفيها: توفي مسلم بن خالد الزنجي أبو عبد الله الفقيه المكي، وصحبه الشافعي قبل مالك، وأخذ عنه الفقه، وقيل له الزنجي لأنه كان أبيض مشرباً بحمرة.

وعباد بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة المهلبي البصري.

وأبو الأحوص سلاّم بن سليم الحنفي.

(١) في المخطوط: فتك. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: عقدت. وهو تحريف.

فالحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة وأمتعني بالعافية، ومسكني بالطاعة، وحال بيني وبين المعصية، ولم أشخص إلاّ عن رأيك ولم أقدم إلاّ عن إذنك ولم يخترمني أجلي دونك.

والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظم من اليمين بالله، لقد عانيت ما لو تعرض لي الدنيا كلها لاخترت، ولما رأيتها عوضاً عن المقام معك.

ثم أثنى عليه ثناءً طويلاً[١]، ثم ولى الرشيد جعفراً خراسان وسجستان، فاستعمل جعفراً عليها محمد بن الحسن بن قحطبة[٢].

---

(١) جاء هذا الخبر في الكامل مختصر جدًا.

(٢) هذا كل ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد في أحداثها ابن الأثير فيها فقال:
فيها: مات هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان صاحب الأندلس في صفر.
وكانت إمارته سبع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام.
وقيل: تسعة أشهر، وقيل: عشرة أشهر.
وكان عمره تسعة وثلاثين سنة، وأربعة أشهر، وكنيته أبو الوليد.
وكانت أمه أم ولد.
وكان أبيض أشهل مشرباً بحمرة بعينيه حول، وخلّف خمس بنين.
وكان عاملاً حازماً ذا رأي، وشجاعة، وعدل خيّراً، محبًّا لأهل الخير والصلاح، شديداً على الأعداء، راغباً في الجهاد.
ومن أحسن عمله: أنه أخرج مصدقاً يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنّة نبيه أيام ولايته.
وهو الذي أتمّ بناء الجامع بمدينة قرطبة، وكان أبوه قد مات قبل فراغه منه، وبنى عدة مساجد معه.
وبلغ من عز الإسلام في أيامه، وذلّ الكفر، أن رجلاً مات في أيامه وكان وصّى أن يفك أسير من المسلمين من تركته، فطلب ذلك، فلم يوجد في دار الكفار أسير يشتري ويفك لضعف العدو وقوة المسلمين.
ومناقبه كثيرة قد ذكرها أهل الأندلس كثيراً وبالغوا حتى قالوا: كان يشبه في سيرته بعمر بن عبد العزيز رحمه الله.
ولما مات استخلف بعده ابنه الحكم، وكان الحكم صارماً حازماً، وهو أول مَن استكثر من المماليك بالأندلس، ورابط الخيل ببابه، وتشبّه بالجبابرة، وكان يباشر الأمور بنفسه، وكان فصيحاً شاعراً.
ولما وَلِيَ خرج عليه عماه سليمان، وعبد الله وكانا في بر العدوة الغربية، فعبر عبد الله البلنسي إلى الأندلس، فتولى بلنسية، وتبعه أخوه سليمان ـ وكان بطنجة ـ وأقبلا يؤلبان الناس على الحكم ويثيران الفتنة.
فتحاربوا مدة، والظفر للحكم، ثم إن الحكم ظفر بعمه سليمان فقتله سنة أربعة وثمانين ومائة.
وأما عبد الله، فأقام ببلنسة وقد كفّ عن الفتنة وخاف، فراسل الحكم في الصلح، فأجابه إلى ذلك، فوقع الصلح بينهما سنة ست وثمانين، وزوّج أولاد عبد الله بإخوته وسكنت الفتنة.
ولما اشتغل الحكم بالفتنة مع عمه اغتنم الفرنج الفرصة فقصدوا بلاد الإسلام، وأخذوا مدينة برشلونة، واتخذوها داراً، ونقلوا أصحابهم إليها. =

....

= وتأخرت عساكر المسلمين عنها، وكان أخذها سنة خمس وثمانين ومائة.
في هذه السنة: سَيَّر الحكم صاحب الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج فدخل البلاد، وبعث السرايا ينهبون ويقتلون ويحرقون البلاد، وسَيَّر سرية فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ظنًّا منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم، فجاءهم ما لم يكن في حسابهم، فغنم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال، وقتلوا منهم فأكثروا، وسبوا الحريم، وعادوا سالمين إلى عبد الكريم.
وسَيَّر طائفة أخرى، فخرّجوا كثيراً من بلاد فرنسية، وغنم أموال أهلها، وأسروا الرجال، فأخبره بعض الأسرى: أن جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسلك على طريقهم.
فجمع عبد الكريم عساكره، وسار على تعبية وجدَّ السير، فلم يشعر الكفار إلاّ وقد خالطهم المسلمون، فوضعوا السيف فيهم، فانهزموا وغنم ما معهم، وعاد سالماً هو ومَن معه.
وفيها: عزل الرشيد منصور بن يزيد عن خراسان، واستعمل عليها علي بن عيسى بن ماهان، فولّى عشر سنين.
وفي ولايته خرج حمزة بن أترك الخارجي أيضاً، فجاء إلى بوشنج فخرج إليه عمرويه بن يزيد الأزدي ـ وكان على هراة ـ في ستة آلاف، فقاتله، فهزمه حمزة، وقتل من أصحابه جماعة، ومات عمرويه في الزحام فوجّه إليه علي بن عيسى ابنه الحسين في عشرة آلاف، فلم يحارب حمزة، فعزله، وسيَّر عوضه ابنه عيسى بن علي، فقاتل حمزة فهزمه حمزة، فردّه أبوه إليه أيضاً، فقاتله بباخرز ـ وكان حمزة بنيسابور ـ فانهزم حمزة وقتل أصحابه، وبقي في أربعين رجلاً فقصد قهستان.
وأرسل عيسى أصحابه إلى أوق، وجوين، فقتلوا مَن بها من الخوارج، وقصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة، فأحرقها، وقتل مَن فيها حتى وصل إلى زرنج فقتل ثلاثين ألفاً.
ورجع وخلف بزرنج عبد الله بن العباس النفسي، فجبى الأموال، وسار بها فلقيه حمزة بأسفزار، فقاتله، فصبر له عبد الله، ومَن معه من السغد، فانهزم حمزة، وقتل كثير من أصحابه، وجرح في وجهه، واختفى هو ومَن سلم من أصحابه في الكروم.
ثم خرج وسار في القرى يقتل، ويبقي على أحد.
وكان علي بن عيسى قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج فسار إليه حمزة وانتهى إلى مكتب فيه ثلاثون غلاماً فقتلهم، وقتل معلمهم.
وبلغ طاهراً الخبر، فأتى قرية فيها قَعَد الخوارج، وهم الذين لا يقاتلون، ولا ديوان لهم، فقتلهم طاهر، وأخذ أموالهم، وكان يشد الرجل منهم في شجرتين يجمعهما، ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه.
فكتب القعد إلى حمزة بالكفّ فكفّ، ووعدهم.
وأمن الناس مدة، وكانت بينهم وبين أصحاب علي بن عيسى حروب كثيرة.
وفيها: أخذ الرشيد الخاتم من جعفر فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد.
وفيها: ولّى جعفر خراسان، وسجستان، ثم عزله عنها بعد العشرين ليلة واستعمل عليها عيسى بن جعفر.
وولّى جعفر بن يحيى الحرس.
وفيها: هدم الرشيد سور الموصل بسبب العطاف بن سفيان الأزدي، سار إليها بنفسه، وهدم سورها، وأقسم ليقتلن مَن لقيه من أهلها، فأفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك.
وكان العطاف قد سار عنها نحو أرمينية، فلم يظفر به الرشيد، ومضى إلى الرقة، فاتخذها وطناً. =

ودخلت سنة إحدى....[١] وثمانين ومائة

ولم يجرِ فيها[٢] على ما بلغنا ما يليق ذكره بهذا الكتاب[٣].

= **وفيها**: عزل هرثمة بن أعين عن إفريقية واستقدمه إلى بغداد، واستخلفه جعفر بن يحيى على الحرس.
وفيها: كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس منارة الإسكندرية.
وفيها: خرج خراشة الشيباني بالجزيرة، فقتله مسلم بن بكار العقيلي.
وفيها: خرجت المحمرة بجرجان.
وفيها: عزل الفضل بن يحيى عن طبرستان والرويان ووليها عبد الله بن خازم وولّي سعيد بن سليم الجزيرة.
وغزا الصائفة محمد بن معاوية بن زفرة بن عاصم.
وفيها: سار الرشيد إلى الحيرة، وابتنى بها المنازل، فأقطع أصحابه القطائع، فثار بهم أهل الكوفة، وأساؤوا مجاورته فعاد إلى بغداد.
وحجّ بالناس هذه السنة: موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.
وفيها: استعمل الرشيد على الموصل يحيى بن سعيد الحرشي، فأساء السيرة في أهلها وظلمهم، وطالبهم بخراج سنين مضت، فجلا أكثر أهل البلد.
وفي هذه السنة: توفي المبارك بن سعيد الثوري، أخو سفيان.
وسلمة الأحمر، وسعيد بن خيثم، وأبو عبيدة عبد الوارث بن سعيد، وعبد العزيز بن أبي حازم وتوفي وهو ساجد.
وأبو حمزة أنس بن عياض الليثي المدني.
وفيها: أمر الرشيد بناء مدينة عين زربة وحصنها وسَيَّر إليها جنداً من أهل خراسان وغيرهم، فأقطعهم بها المنازل.

(١) موضع النقط في المخطوط: «وسنة اثنتين» فحذفت تلك العبارة لأذكر ما ذكر فيها ابن الأثير من الأحداث بعد ذكر ما ذكر هنا من أحداث إن شاء الله تعالى.

(٢) في المخطوط: فيهما. فذكرت بالمفرد لأتكلم عن أحداث هذه السنة وحدها ثم أذكر أحداث الأخرى بعدها إن شاء الله تعالى.

(٣) كذا قال المؤلف، وقال ابن الأثير عنها:
وفي هذه السنة: استعمل الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، لما استعفى منها هرثمة بن أعين على ما ذكرناه سنة سبع وسبعين ومائة.
وكان محمد هذا رضيع الرشيد، فقدم القيروان أول رمضان، فتسلمها، وعاد هرثمة إلى الرشيد، فلما استقرّ فيها لم يكن بالمحمود السيرة، فاختلف الجند عليه، واتفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدي، واجتمع كثير من الجند، والبربر، وغيرهم.
فسيَّر إليه محمد بن مقاتل جيشاً فقاتلوه، فانهزم مخلد واختفى في مسجد فأُخذ وذُبح.
وخرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمي في جمع كثير، وساروا إلى القيروان في رمضان سنة ثلاث وثمانين، وخرج إليه محمد بن مقاتل العكي في الذين معه فاقتتلوا بمنية الخيل، فانهزم ابن العكي إلى القيروان، وسار تمام، فدخل القيروان، وأمَّنَ ابن العكي على أن يخرج عن إفريقية.
فسار في رمضان إلى طرابلس، فجمع إبراهيم بن الأغلب التميمي جمعاً كثيراً، وسار إلى القيروان منكراً لما فعله تمام، فلما قاربها سار عنها إلى تونس، ودخل إبراهيم القيروان، وكتب إلى محمد بن مقاتل يعلمه الخبر، ويستدعيه إلى عمله، فعاد إلى القيروان. =

....

= فثقل ذلك على أهل البلد، وبلغ الخبر إلى تمام فجمع جمعاً وسار إلى القيروان ظنًّا منه أن الناس يكرهون محمداً ويساعدونه عليه، فلما وصل قال الأغلب لمحمد: إن تماماً انهزم مني، وأنا في قلة، فلما وَصَلْتُ البلاد تجدّد له طمع لعلمه أن الجند يخذلونك، والرأي أن أسير أنا ومَن معي من أصحابي فنقاتله.
ففعل ذلك وسار إليه فقاتله، فانهزم تمام وقُتل جماعة من أصحابه ولحق بمدينة تونس، فسار إبراهيم بن الأغلب إليه ليحصره فطلب منه الأمان فأمنه.
ولاية إبراهيم بن الأغلب:
لما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد إفريقية، وأطاعه تمام، كره أهل البلاد ذلك، وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية إفريقية، فكتب إليه في ذلك، وكان على ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار، تحمل إلى إفريقية معونة.
فنزل إبراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار، فأحضر الرشيد ثقاته، واستشارهم فيمن يوليه إفريقية، وذكر لهم كراهة أهلها ولاية محمد بن مقاتل.
فأشار هرثمة بإبراهيم بن الأغلب، وذكر له ما رآه من عقله، ودينه، وكفايته، وأنه قام بحفظ إفريقية على ابن مقاتل، فولاّه الرشيد في المحرّم سنة أربع وثمانين ومائة فانقمع الشر وضبط الأمر، وسيَّر تماماً، وكل مَن يتوثب على الولاة إلى الرشيد، فسكنت البلاد، وابتنى مدينة سماها العباسية بقرب القيروان، وانتقل إليها بأهله وعبيده.
وخرج عليه سنة ست وثمانين ومائة رجل من أبناء العرب بمدينة تونس اسمه حمديس، فنزع السواد، وكثر جمعه، فبعث إليه ابن الأغلب، عمران بن مخلد في عساكر كثيرة، وأمره لا يبقي على أحد منهم إن ظفر بهم.
فسار عمران، والتقوا، واقتتلوا، وصار أصحاب حمديس يقولون: بغداذ بغداذ.
وصبر الفريقان فانهزم حمديس ومَن معه، وأخذهم السيف، فقتل منهم عشرة آلاف رجل، ودخل عمران تونس.
ثم بلغ ابن الأغلب: أن إدريس بن إدريس العلوي قد كثر جمعه بأقصى المغرب، فأراد قصده فنهاه أصحابه وقالوا: اتركه ما تركك.
فأعمل الحيلة وكاتب القيم بأمره من المغاربة، واسمه بهلول بن عبد الواحد وأهدى إليه، ولم يزل به حتى فارق إدريس، وأطاع إبراهيم، وتفرّق جمع إدريس، فكتب إلى إبراهيم يستعطفه، ويسأله الكف عن ناحيته، ويذكر له قرابته من رسول الله ﷺ، فكفّ عنه.
ثم إن عمران بن مخلد ـ المقدَّم ذكره ـ كان من بطانة إبراهيم بن الأغلب وينزل معه في قصره، ركب يوماً مع إبراهيم وجعل يحدثه، فلم يفهم من حديثه شيئاً لاشتغال قلبه بمهم كان له، فاستعاد الحديث من عمران، فغضب، وفارق إبراهيم، وجمع جمعاً كثيراً، وثار عليه.
فنزل بين القيروان والعباسية، وصارت القيروان وأكثر بلاد إفريقية معه، فخندق إبراهيم على العباسية، وامتنع فيها، ودامت الحرب بينهما سنة كاملة.
فسمع الرشيد الخبر، فأنفذ إلى إبراهيم خزانة مال، فلما صارت إليه الأموال أمر منادياً ينادي: مَن كان من جند أمير المؤمنين فليحضر لأخذ العطاء، ففارق عمران أصحابه وتفرّقوا عنه، فوثب عليهم أصحاب إبراهيم فانهزموا.
فنادى إبراهيم بالأمان والحضور لقبض العطاء، فحضروا، فأعطاهم وقلع أبواب القيروان، وهدم سورها.
وأما عمران، فقد سار حتى لحق بالزاب فأقام به حتى مات إبراهيم وولّى ابنه عبد الله، فأمن عمران، فحضر عنده، وأسكنه معه. =

....

= فقيل لعبد الله: إن هذا ثأرٌ بأبيك، ولا تأمنه عليك فقتله.
ولما انهزم عمران سكن الشر بإفريقية، وأمن الناس، فبقي كذلك إلى أن توفي إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين ومائة وعمره ست وخمسون سنة، وإمارته اثنتا عشرة سنة، وأربعة أشهر وعشرة أيام.

ولاية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية:

لما توفي إبراهيم بن الأغلب ولي بعده ابنه عبد الله، وكان غائباً بطرابلس قد حصره البربر - على ما نذكره سنة ست وتسعين ومائة - فعهد إليه أبوه بالإمارة، ففارق طرابلس ووصل إلى القيروان، فاستقامت الأمور، ولم يكن في شر، ولا حرب، وسكن الناس، فعمرت البلاد، وتوفي في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

وفي هذه السنة: خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج في ناحية الثغر من بلاد الأندلس، ودخل سرقسطة وملكها، فقدم على بهلول فيها عبد الله بن عبد الرحمٰن عم صاحبها الحكم ويعرف بالبلنسي، وكان متوجهاً إلى الفرنج.

وخالف فيها بطليطلة عبيدة بن حميد.

وأمر الحكم القائد عمروس بن يوسف وهو بمدينة طلبيرة أن يحارب أهل طليطلة، فكان يكثر قتالهم، وضيّق عليهم، ثم إن عمروس بن يوسف كاتب رجالاً من أهل طليطلة يعرفون ببني مخشي واستمالهم، فوثبوا على عبيدة بن حميد وقتلوه، وحملوا رأسه إلى عمروس، فسيَّر الرأس إلى الحكم، وأنزل بني مخشي عنده، وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة ذحول، فتسوّر البربر عليهم فقتلوهم.

فسيَّر عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم، وأخبره الخبر من باب آخر، فمَن دخل منهم عدل به إلى موضع آخر فقتلوه حتى قُتِلَ منهم سبعمائة رجل، فاستقامت تلك الناحية.

وفيها: غزا الرشيد أرض الروم، فافتتح حصن الصفصاف.

وفيها: غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم، فبلغ أنقرة، وافتتح مطمورة.

وفيها: توفي حمزة بن مالك.

وفيها: غلبت المحمرة على خراسان.

وفيها: أحدث الرشيد في صدر كتبه الصلاة على رسول الله ﷺ.

وحجّ بالناس: الرشيد.

وفي هذه السنة: كان الفداء بين الروم والمسلمين، وهو أول فداء كان أيام بني العباس، وكان القاسم بن الرشيد هو المتولي له، وكان الملك نغفور، ففرح بذلك الناس، ففودي بكل أسير في بلاد الروم، وكان الفداء باللامس على جانب البحر بينه وبين طرسوس اثنا عشر فرسخاً، وحضر ثلاثون ألفاً من المرتزقة مع أبي سليمان، فخرج الخادم متولي طرسوس، وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم من العلماء، والأعيان، وكان عدة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة، وقيل: أكثر من ذلك.

وفيها: توفي الحسن بن قحطبة، وهو من قوّاد المنصور، هو وأبوه، وكان عمره أربعاً وثمانين سنة.

وعبد الله بن المبارك المروزي، توفي في رمضان بهيت وعمره ثلاث وستون سنة.

وعلي بن حمزة أبو الحسن الأزدي المعروف بالكسائي المقرىء النحوي بالري.

وقيل: مات سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: توفي مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة الشاعر، وكان مولده سنة خمس ومائة.

وفيها: توفي أبو يوسف القاضي - واسمه يعقوب بن إبراهيم - وهو أكبر أصحاب أبي حنيفة.

وفيها: توفي يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان مولى عبد الله بن خازم السلمي، وكان يعقوب وزير المهدي.

وهشام بن البريد بن زريع.

وحفص بن ميسرة الصنعاني من صنعاء دمشق.

[ودخلت سنة][١] اثنتين [وثمانين ومائة

ولم يجرِ فيها على ما بلغنا ما يليق ذكره بهذا الكتاب][١].

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

[٦٠/ب] **وفيها**: خرج ملك الخزر [بسبب ابنة خاقان][٢] من باب الأبواب،

---

(١) زيادة تصنيفية سبق أن أشرت إلى سببها قبل البدء في سرد التعليق على أحداث السنة السابقة، وأنا الآن أشرع في سرد أحداث تلك السنة نقلاً عن الكامل في التاريخ لابن الأثير حيث قال فيه:
وفي هذه السنة: بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين.
وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان، ولقبه المأمون وسلّمه إلى جعفر بن يحيى.
وهذا من العجائب فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجدُّه المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد.
وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه.
ثم هو بعد ذلك يبايع للمأمون بعد الأمين، وحُبُّكَ الشيء يعمي ويصم.
وفيها: حملت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى، فماتت ببرذعة، فرجع مَن معها إلى أبيها، فأخبروه أنها قتلت غيلة، فتجهز إلى بلاد الإسلام.
وغزا الصائفة: عبد الرحمٰن بن عبد الملك بن صالح، فبلغ أفسوس مدينة أصحاب الكهف.
وفيها: سلمت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وأقرُّوا أمه رينى، وتلقّب أغسطة.
وحجّ بالناس: موسى بن عيسى بن موسى.
وكان على الموصل هرثمة بن أعين.
وفيها: جاز سليمان بن عبد الرحمٰن صاحب الأندلس إلى بلاد الأندلس من الشرق، وتعرّض لحرب أخيه الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن صاحب البلاد.
فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة، وقد اجتمع لسليمان كثير من أهل الشقاق، ومَن يريد الفتنة، فالتقيا، واقتتلا، واشتدت الحرب، فانهزم سليمان، واتبعه عسكر الحكم.
وعادت الحرب بينهما ثانية في ذي الحجة، فانهزم فيها سليمان واعتصم بالوعر والجبال، فعاد الحكم، ثم عاد سليمان، فجمع برابر وأقبل إلى جانب إسْتِجة.
فسار إليهم الحكم، فالتقوا، واقتتلوا سنة ثلاث وثمانين ومائة، واشتدّ القتال، فانهزم سليمان واحتمى بقرية، فحصره الحكم، وعاد سليمان منهزماً إلى ناحية قريش.
وفيها: كان بقرطبة سيل عظيم، فغرق كثير من ربضها القبلي، وخرب كثير منه، وبلغ السيل شقندة.
وفي هذه السنة: مات جعفر الطيالسي المحدث وعمار بن محمد ابن أخت سفيان الثوري.
وعبد العزيز بن محمد بن أبي عبيد الدراوردي مولى جُهينة، وكان أبوه من دار أبجرد، فاستثقلوا نسبته إليها، فقالوا: دراوردي.
وفيها: توفي دراج أبو السمح، واسمه: عبد الله بن السمح.
وقيل: عبد الرحمٰن بن السمح بن أسامة التجيبي المصري.
وكان مولده سنة خمس وعشرين ومائة.
وعفيف بن سالم الموصلي.

(٢) زيادة من الكامل.

فأوقعوا[١] بالمسلمين هناك وأهل الذمة، وسبيهم أكثر من مائة ألف، فانتهكوا، وانتهبوا أمراً عظيماً، لم يسمع في الأرض بمثله.

وكان سبب ذلك: أن الفضل بن يحيى خطب بنت خاقان الخزر، فحملت إليه فماتت ببرذعة.

وكان على أرمينية يومئذ سعيد بن سلم بن قتيبة، فرجع مَن كان معها من الطراخنة إلى أبيها، فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة، فحنق لذلك وعمل ما عمل.

فولّى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مع أذربيجان وضمّ إليه قواد الجند، ووجهه وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردًّا لأهل أرمينية.

وقيل: **إن سبب دخول الخزر أرمينية في زمن هارون** كان أن سعيد بن سلم ضرب عنق المنجم السلمي بفارس، فدخل ابنه بلاد الخزر، فاستجاشهم فدخلوا أرمينية من الثلمة فانهزم سعيد، ونكحوا المسلمات، وأقاموا سبعين يوماً.

[فوجه الرشيد خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد][٢] فلما سار يزيد بن مزيد إلى أرمينية خرج الخزر، وسدت الثلمة.

وفيها: استقدم الرشيد علي بن عيسى بن هامان من خراسان.

وكان سبب ذلك: أنه بلغه عنه أمور عظام.

وقيل: إنه أجمع على الخلاف، فاستخلف علي بن عيسى ابنه يحيى، ووافى حضرة الرشيد بأموال عظيمة.

فردّه الرشيد إلى خراسان من قبل ابنه المأمون لحرب أبي الخصيب فرجع[٣].

---

(١) في المخطوط: وإيقاعهم. والتصويب من الكامل.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٣) زاد ابن الأثير في إحداها في الكامل ما يلي:

وفيها: خرج بنسا خراسان أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي.

وحجّ بالناس: العباس بن الهادي.

وفيها: مات موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد في حبس الرشيد.

وكان سبب حبسه:

أن الرشيد اعتمر في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة، فلما عاد إلى المدينة على ساكنها الصلاة والسلام، دخل إلى قبر النبي ﷺ يزوره ومعه ناس فلما انتهى إلى القبر، وقف فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم. افتخاراً على مَن حوله.

فدنا موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبتِ.

فتغيّر وجه الرشيد، وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن جدًّا.

ثم أخذه معه إلى العراق فحبسه عند السندي بن شاهك، وتولّى حبسه أخت السندي =

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائة

ولم يجرِ فيها ما يكتب[١].

= ابن شاهك، وكانت تتدين، فحكت عنه:
أنه كان إذا صلّى العتمة حمد الله، ومجّده، ودعا إلى أن يزول الليل، ثم يقوم يصلي حتى يصلي الصبح، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد حتى، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ، ويصلي حتى يصلي العصر، ثم يذكر الله حتى يصلي المغرب، ثم يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه إلى أن مات.
وكانت إذا رأته قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل الصالح.
وكان يلقب الكاظم، لأنه كان يحسن إلى مَن يسيء إليه، كانت هذه عادته أبداً.
ولما كان محبوساً بعث إلى الرشيد رسالة أنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلاّ ينقضي عنك معه يوم من الرخاء حتى ينقضيا جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.
وفيها: كانت بالأندلس فتنة وحرب بين قائد كبير يقال له: أبو عمران وبين بهلول بن مرزوق - وهو من أعيان الأندلس -، وكان عبد الله البلنسي مع أبي عمران، فانهزم أصحاب بهلول، وقتل كثير منهم.
وفيها: توفي يونس بن حبيب النحوي المشهور أُخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وكان عمره قد زاد على مائة سنة.
وفيها: مات موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.
ومحمد بن صبيح أبو العباس مولى بني عجل المذكور المعروف بابن السماك.
وهشيم بن بشير الواسطي، توفي في شعبان وكان ثقة إلا أنه كان يصحف.
ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة قاضي المدائن بها، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.
ويوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون.

(١) كذا قال المؤلف رحمنا الله وإياه، وقال ابن الأثير في الكامل:
وفيها: ولّى الرشيد حماداً البربري اليمن، ومكة.
وولّى داود بن يزيد بن حاتم المهلبي السند.
ويحيى الحرشي الجبل.
ومهرويه الرازي طبرستان.
وقام بأمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب، فولاّه إياها الرشيد.
وفيها: خرج عمرو الشاري فوجّه إليه زهيراً القصّاب، فقتله بشهرزور.
وفيها: طلب أبو الخصيب الأمان، فأمنه على ابن عيسى بن ماهان.
وحجّ بالناس: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي.
وكان على الموصل وأعمالها يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني.
وفيها: سار عبد الله بن عبد الرحمٰن البلنسي إلى مدينة أشقة من الأندلس، فنزل بها مع أبي عمران، ومع العرب، فسار إليهم بهلول بن مرزوق وحاصرهم فيها، فتفرّق العرب عنهم، ودخل بهلول مدينة أشقة.
وسار عبد الله إلى مدينة بلنسة، فأقام بها.
وفيها: توفي المعافى بن عمران الموصلي الأزدي.
وقيل سنة خمس وثمانين.
وفيها: توفي عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب، الذي يقال له: العابد. =

وكذلك سنة خمس وثمانين ومائة[١]

= وعبد السلام بن شعيب بن الحبحاب الأزدي وعبد الأعلى بن عبد الله الشامي المصري من بني شامة بن لؤي.
وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي أبو محمد.

(١) وقال فيها ابن الأثير في الكامل:
في هذه السنة: قَتَل أهل طبرستان مهرويه الرازي وهو واليها، فولّى الرشيد مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي.
وفيها: قَتَل عبد الرحمٰن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج القلعة.
وفيها: عاث حمزة الخارجي بباذغيس من خراسان فقتل عيسى بن علي بن عيسى من أصحابه عشرة آلاف، وبلغ عيسى كابل، وزابلستان، والقندهار.
وفيها: غدر أبو الخصيب ثانية، وغلب على أبيورد، وطوس، ونيسابور، وحصر مرو، ثم انهزم عنها، وعاد إلى سرخس، وعاد أمره قويًا.
وفيها: استأذن جعفر بن يحيى في الحج، والمجاورة، فأذن له، فخرج في شعبان، واعتمر في رمضان، وقام بجدة مرابطاً إلى أن حجّ.
وفيها: جمع الحكم الأندلس عساكر، وسار إلى عمه سليمان بن عبد الرحمٰن، وهو بناحية قريش، فقاتله، فانهزم سليمان، وقصد مارده فتبعه طائفة من عسكر الحكم، فأسروه، فلما حضر عند الحكم قتله، وبعث برأسه إلى قرطبة.
وكتب إلى أولاد سليمان وهم بسرقسطة كتاب أمان، واستدعاهم، فحضروا عنده بقرطبة.
وفيها: وقعت في المسجد الحرام صاعقة قتلت رجلين.
وحجّ بالناس فيها: منصور بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي.
وفيها: مات عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ولم يكن سقط له سن.
وقيل: كانت أسنانه قطعة واحدة من أسفل، وقطعة واحدة من فوق - وهو قعدد بني عبد مناف - لأنه كان في القرب إلى عبد مناف بمنزلة يزيد بن معاوية وبين موتهما ما يزيد على مائة وعشرين سنة.
وفيها: ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالأندلس، وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حماة ثغورهم إليها، وتأخر المسلمون إلى ورائهم.
وكان سبب ملكهم إياها:
اشتغال الحكم صاحب الأندلس بمحاربة عمّيه عبد الله، وسليمان على ما تقدّم.
وفيها: سار الرشيد من الرقة إلى بغداد، على طريق الموصل.
وفيها: مات يقطين بن موسى ببغداد.
وفيها أيضاً: توفي يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وهو ابن أخي معن بن زائدة، بمدينة برذعة، وولّى مكانه أسد بن مزيد وكان يزيد ممدحاً جواداً كريماً شجاعاً، وأكثر الشعراء مراثيه، ومن أحسن ما قيل في المراثي، ما قاله أبو محمد التميمي يرثيه به فأثبته لجودته:

أحقاً أنه أودى يزيد ... تبين أيها الناعي النشيدُ
أتدري مَن نعيت وكيف فاهت ... به شفتاك كان به الصعيدُ
أحامي المجد والإسلام أودى ... فما للأرض ويحك لا تميدُ
تأمل هل ترى الإسلام مالت ... دعائمه وهل شاب الوليدُ
وهل مالت سوف بني نزارٍ ... وهل وضعت عن الخيل اللبودُ =

ودخلت سنة ست وثمانين ومائة

وفيها: خرج علي بن عيسى من مرو لحرب أبي الخصيب إلى نسا، فقتله بها، وسبى نساءه وذراريه، واستقامت خراسان.

رجع هارون الرشيد، وأخرج معه ابنيه محمد الأمين، وعبد الله المأمون ولي عهده، فبدأ بالمدينة وأعطى أهلها ثلاثة أعطية كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاء، ثم إلى محمد فيعطيهم عطاءً ثانياً، ثم إلى المأمون فيعطيهم عطاءً ثالثاً.

ثم سار إلى مكة، فأعطى أهلها، فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وكان الرشيد عقد لابنه محمد بن زبيدة، سماه الأمين، وضمّ إليه الشام والعراق في خمس وسبعين ومائة.

ثم بايع لعبد الله المأمون في ثلاث وثمانين ومائة وولاه من همدان إلى آخر المشرق.

وكان القاسم بن الرشيد في حجر عبد الملك بن صالح يسأله في أبيات شعر أن

= وهل تسقى البلاد عشارُ مزن ... بدرتها وهل يخضر عودُ
أما هُدت لمصرعه نزارٌ ... بلى وتقوّض المجد المشيدُ
وحلّ ضريحه إذ حَلّ فيه ... طريفَ المجد والحسب التليدُ
أما والله ما تنفك عيني ... عليك بدمعها أبداً تجودُ
فإن تجمد دموع لئيم قوم ... فليس لدمع ذي حسب جمودُ
أبعد يزيد تختزن البواكي ... دموعاً وأو يصان لها خدودُ
لتبكك قبة الإسلام لما ... وهت أطنابها ووهى العمودُ
ويبكك شاعرٌ لم يبق دهراً ... له نسباً وقد كسد القصيدُ
فمَن يدعو الإمام لكل خطب ... ينوب وكل معضلة تؤودُ
ومَن يحمي الخميس إذا تعايا ... بحيلة نفسه البطل النجيدُ
فإن يهلك يزيد فكل حيٍّ ... فريس للمنية أو طريدُ
ألم تعجب له أن المنايا ... فتكن به وهن له جنودُ
قصدن له وكُنّ يحدْنَ ... إذا ما الحرب شبّ لها وقودُ
لقد عزى ربيعة أن يوماً ... عليها مثل يومك لا يعودُ

وكان الرشيد هذه المرثية بكى، وكان يستجيدها، ويستحسنها.

وفيها: توفي محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ببغداد.

وعبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

والمغيرة بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن عياش المخزومي ويعرف بالحزامي، وكان مولده سنة أربع وعشرين ومائة.

وحجاج الصواف، وهو ابن أبي عثمان ميسرة.

يجعل القاسم ثالثاً في ولاية العهد.

فبايع له وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.

ولما قسَّمَ الأرض بين أولاده الثلاثة، قال بعض الناس: قد أحكم أمر الملك.

وقال: بل ألقى بأسهم بينهم وسيختلفون.

وقال بعضهم:

رأي الملك الرشيد أضل رأي	بقسمته الخلافة والبلاد
أراد به ليقطع عن بنيه	خلافهم ويبتدلوا الوداد
فقد غرس العداوة غير آلٍ	وأرَثَّ شمل أُلفتهم بدادا
فويل للرعية من قليل	لقد أهدى لها الكرب الشداد
ستجري من دمائهم بحور	زواخر لا يرون لها نفادا

ولما قضى هارون الرشيد مناسكه تقدّم إلى الفقهاء، والقضاة وأهل العلم أن يجتهدوا آراءهم في كتابين أحدهما على محمد الأمين يشترط عليه الوفاء لعبد الله المأمون بما إليه من الأعمال، وما صير له من الضياع، والجواهر، والأموال نسخته البيعة التي أخذتها على الخاصة والعامة.

والشروط على محمد وعبد الله من الأحكام والسياسات، وأشهد أهل بيته ووزراءه وقواده ومواليه، وكتّابه ومَن كان في الكعبة معه، وكان جميع ذلك في البيت الحرام.

ثم رأى أن يعلق الكتاب في الكعبة[1]، فلما رفع سقط.

قال الناس: هذا أمر سريع الانتقاض لا يتم ونسخة هذين الكتابين فيها طول، وهي موجودة في كتب التواريخ وغيرها، فلم أشتغل بنسخها.

وكتب كتاباً بذلك إلى سائر العمال والأمصار[2].

---

(١) قوله: وكان جميع ذلك في البيت الحرام، ثم رأى أن يعلق الكتاب في الكعبة. كل هذه العبارة مكررة في المخطوط، فحذفتها.

(٢) زاد ابن الأثير: في الكامل في أحداث تلك السنة أحداثاً أخرى، فقال:

في هذه السنة: اتفق الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن أمير الأندلس وعمه عبد الله بن عبد الرحمٰن البلنسي.

وسبب ذلك:

أن عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم عليه وخاف على نفسه، ولزم بلنسة ولم يفارقها، ولم يتحرك لإثارة فتنة، وأرسل إلى الحكم يطلب المسالمة والدخول في طاعته.

وقيل: بل الحكم أرسل إليه رُسُلاً، وكتب إليه يعرض عليه المسالمة ويؤمنه، وبذل له الأرزاق =

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائة

وفيها: قَتَل الرشيد جعفر بن يحيى، وأوقع بالبرامكة.

ذكر السبب في ذلك

كانت أسباب تغيره لهم كثيرة فمن ذلك:

أن الرشيد سلّم يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن [٦١/أ] إلى جعفر فحبسه عنده.

ثم دعا به ليلة فسأله عن شيء من أمره، فأجابه إلى أن قال:

اتقِ الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً.

فرقّ له وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله تعالى.

فقال: كيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ فأرد إليك أو إلى غيرك؟

فوجّه معه مَن يؤديه إلى مأمنه.

وبلغ الخبر الرشيد من عيون كانت له عليه[١] فدعاه، ودعا بالغداء، فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟

= الواسعة ولأولاه.

فأجاب عبد الله إلى الاتفاق واستقرت القاعدة بينهم على يد يحيى بن يحيى صاحب مالك وغيره من العلماء.

وزوّج الحكم أخواته من أولاد عمه عبد الله، وسار إليه عبد الله، فأكرمه الحكم، وعظم محله، وأجرى له ولأولاه الأرزاق الواسعة والصلات السنية.

وقيل: إن المراسلة في الصلح كانت هذه السنة، واستقر الصلح سنة سبع وثمانين ومائة.

وفيها: توفي خالد بن الحارث، وبشر بن المفضل، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري.

وفيها: مات عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بسلمية في ربيع الأول.

وفيها: توفي علي بن عباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في رجب، وعمره خمس وستون سنة وستة أشهر، وهو ابن أخي السفاح والمنصور.

وفيها: توفي عمرو بن يونس منصرفه من الحج باليمامة.

وفيها: توفي عباد بن عباد بن العوام، الفقيه ببغداد.

وتوفي شقران بن علي الزاهد بالأندلس، وكان فقيهاً.

وفيها: توفي راشد مولى عيسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان قد دخل المغرب مع إدريس بن عبد الله بن الحسن، وقام بعده بأمر البربر أبو خالد يزيد بن إلياس.

(١) في الكامل: وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواص جعفر فرفعه إلى الرشيد، فقال: ما أنت وهذا؟ فعله عن أمري. ثم أحضر جعفراً للطعام...

قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والضيق والأكبال الثقيلة.

قال: بحياتي؟

فأحجم جعفر، وكان من أدق الناس ذهناً، وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بما جرى في أمره.

فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته لما علمت أنه لا جناة به ولا مكروه عنده.

قال: نعِمّا فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي.

فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن عينيه، وقال: قتلني الله إن لم أقتلك[١].

ومن أسباب ذلك: أن الرشيد قلب جارية ارتضى عقلها وأدبها وكانت حسنة الغناء جزلة الشعر مليحة الكتابة بارعة الجمال، فلما رأى كمالها، استام[٢] صاحبها فيها، فاستام بها بمائة ألف دينار، وقال: يا أمير المؤمنين علي يمين يعتقها إن لم انتقصها من ذلك فقدم بإطلاق ذلك لمولاها.

فقال جعفر لابنه وأخيه: إن هذا إن قدم على مثل هذه الأشياء أفنى بيوت الأموال، وقد رأيت أن أتقدم بحمل قيمة هذه الدنانير دراهم فتوضع في طريقه مبدرة، فإنه الآن لا يعلم ما قيمة ما أطلق، وإذا رآها حَلَتْ في عينه، ولعله أن ينصرف عن هذا الرأي.

ففعل ذلك وأمر بالمال فوضع في ممر له، فلما نظر إليه الرشيد قال: من أين هذا الحمل؟ قال له الخازن: إنه ليس بحمل ولكنه أخرج من الخزانة، وهو ثمن الجارية، وقد أحل مكانه ببيت المال.

فأمر بعض خدمه أن يرفعه عنه، وأودعه بيتاً وسماه بيت مال العروس.

وبحث عن الأموال فوجد البرامكة قد استهلكوها فتغير لهم حتى أوقع بهم.

وكان أيضاً من أسباب ذلك: ما حدّث به إبراهيم بن المهدي قال:

أتيت جعفر بن يحيى يوماً فقال: أنا أتعجب من منصور بن زياد.

قلت: فيما ذا؟

قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟

قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة.

---

(١) بعد هذا في الكامل: فكان من أمره ما كان.

(٢) أي ساومه في ثمنها.

قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها عشرين ألف ألف وهي شيء لا آمنه عليك غداً عند أمير المؤمنين.

قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأضعاف ذلك سوى ما عرضني له.

قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من وجهه أن يقول يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف فأين نفقاته وصلاته وأين النوائب التي تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟

وهذه خلة سريعة إلى القلب والوقوف على الحاصل منها صعب.

فقال جعفر: اسمع مني، إن لأمير المؤمنين نعماً قد كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا.

قلت: نعم أنا ناظرك.

قلت: وكان من أسباب ذلك أيضاً: أن الرشيد كان لا يصبر على الجدّ، ويحب الأنس، وكان قد أنس بجعفر، وكان لا يصبر عن أخته[1] بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلة صبره عنه وعنها.

وقال لجعفر: أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وتقدم إليه أن لا يمسها ولا يكون منه شيء مما يكون من الرجل إلى زوجته فزوّجها منه على ذلك.

وكان يحضرها مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما فيثملان من الشراب وهما شابان فيقوم إليها جعفر فيجامعها حتى حملت منه، وولدت ولداً ذكراً، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك.

فوجهت بالولد حواضن من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستتراً عن هارون إلى أن وقع بين العباسة وبين بعض جواريها شيء، فأنهت أمرها وأمر الصبي [إلى الرشيد][2] وأخبرته بمكانه ومع مَن هو من جواريها، وما معه من الحلي الذي زينته أمه به.

فأمسك هارون، وحجّ هذه الحجّة التي ذكرتها، فأرسل إلى الموضع الذي كانت فيه الجارية أخبرته، واستدعى الصبي ومَن معه من الحواضن.

فلما أحضروا [٦١/ب] سأل اللواتي مع الصبي فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته الرافعة على العباسة، فأراد قتل الصبي، ثم تحوب من ذلك.

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاماً كلما حجّ بعسفان فلما كان في هذه السنة اتخذ

---

(١) في الكامل: عباسة بنت المهدي.

(٢) زيادة من الكامل.

الطعام على الرسم، واستزار الرشيد، فاعتل عليه ولم يحضر طعامه ولم يزل معه حتى جرى عليه ما جرى وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

وقد كان الرشيد قبل إقدامه بالقتل على جعفر بن يحيى، وجلسه ليحيى وأولاده تنكر لهم حتى عرف ذلك أكثر مَن يليه، وعرفه البرامكة أيضاً، فمن ذلك ما ذكر بختيشوع بن جبريل[١] عن أبيه أنه قال:

إني لقاعد يوماً في مجلس الرشيد [فدخل][٢] يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن فلما دخل فصار بالقرب من الرشيد وسلّم ردّ عليه ردًّا ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

ثم أقبل عليَّ الرشيد وقال: يا جبريل، أيُدْخَل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذن؟ فقلت: لا والله، ولا يطمع في ذلك.

قال: فما بالنا يدخل إلينا بلا إذن؟!

فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلاّ شيء كان خصني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري حتى أني كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وقد علمت، فإني أكون في الطبقة الثانية من أهل الأذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك.

فاستحيى وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع طرفه إليه، ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون: قال جبريل: فظننت أنه لم يسنح له جواباً يرضيه فأجاب بهذا القول.

ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

ومن ذلك: أن الرشيد رأى يحيى بن خالد يوماً وقد دخل الدار، فقام الغلمان له.

فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُرْ[٣] الغلمان أن لا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار.

فلما دخل بعد ذلك لم يقم له أحد فارتدّ له فكان الغلمان والحجّاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه، وكان ربما استسقى الماء وغيره فلا يسقونه وبالحري إن سقوه أن يكون ذاك بعد أن يدعو بها مراراً.

---

(١) طبيب نصراني كان يعالج عدداً من الخلفاء العباسيين، وكانوا يستريحون إليه وإلى علاجه، وكان طبيباً مشهوراً.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: من. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

ومن ذاك: ما تحدّث به إبراهيم بن المهدي وكان مختصاً به لأن جعفراً هو الذي قدّمه وقرّبه من الرشيد وكان صاحبه وولي نعمته.

قال إبراهيم: قال لي جعفر يوماً: إني قد استربت بأمر هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ وقد ظننت أن ذلك شيء سبق إلى نفسي منه، فأردت أن أعتبر ذلك بغيري، فكنت أنت، فأرمق ذلك في يومك هذا، وأعلمني منه.

قال: ففعلت ذلك في يومي، فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجر في طريقي فدخلتها ومَن معي، فأمرتهم بإطفاء الشمع، وأقبل الندماء يمرون بي واحداً بعد واحد فأراهم ولا يرونني حتى إذا لم يبقَ منهم أحد إذ أنا بجعفر قد طلع، فلما حاذى الشجر قال: اخرج يا حبيبي، فخرجت.

فقال: ما عندك؟

فقلت: حتى تعلمني كيف علمت أني بها هنا؟

قال: قد عرفت عنايتك بي وبما اعتنى به، وأنك لم تكن لتصرف إلاّ[1] وتعلمني ما رأيت منه، وعلمت أنك تكره أن تُرى واقفاً في هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر منه، فقضيت بأنك فيه.

قلت: نعم.

قال: فهات ما عندك.

قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جدَدت ويجد إذا هزلت.

قال: هكذا هو، فانصرف يا حبيبي، فانصرفت.

ذكر الخبر عن مقتله

لما انصرف الرشيد من مكة فوافى الخبر في المحرم سنة سبع وثمانين، أقام في قصر عون العبادي أياماً، ثم شخص في السفر حتى نزل العمر الذي بناحية الأنبار، فلما كانت ليلة السبت لانسلاخ المحرم أرسل مسرور الخادم في جماعة من خواصه، وقال: اذهب فأتني بجعفر، وانظر أن لا يحسّ حتى يقيده أولاً، ثم تأتيني برأسه.

قال مسرور: فأتيته وعنده أبو زكار الأعمى المغني وهو في لهوٍ ويغنيه أبو زكار:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي ... عليه الموت يطرق[٦٢/أ] أو يغادي[2]

---

(١) في المخطوط: أو. وقد سقط بعض الكلمة، فأثبته لاقتضاء السياق.

(٢) زاد بعض هذا في الكامل بيت آخر فقال:

وكل ذخيرة لا بد يوماً ... وإن كرمت تصير إلى نفاد

قال: فقلت له: يا أبا الفضل، الذي جئت له من ذلك، قد والله طرقك، فأجب أمير المؤمنين.

قال: فرفع يديه، ثم وقع على رجليَّ يقبلهما، وقال: حتى أدخل وأوصي.

قلت: أما الدخول، فلا سبيل إليه، ولكن أوصِ بما شئت.

فقدّم في وصيته بما أراد، ثم أعتق مماليكه.

ثم أتتني رسل أمير المؤمنين تستحثني به.

قال: فمضيت به إليه.

قال: فلما عرف أنه مقتول، قال: والله يا أبا هاشم والله ما أمرك بما أمرك به إلاّ وهو سكران، فدافع بالأمر حتى يصح فإنه سيندم ويؤاخذك بي.

فقلت: لا أجسر على ذلك.

قال: فراجعه فيّ ثانية.

فغدوت لأؤامره، فلما سمع حسّي قال: يا ماص بظر أمه ائتني برأس جعفر.

فعدت إلى جعفر فقال: عاوده ثالثة، فعدت، فحذفني بعمود، ثم قال: نفيت من المهدي لئن لم يأتني برأسه لأرسلن إليك مَن يأتيني برأسك أولاً.

قال: فخرجت فأتيته برأسه.

وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه مَن أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه مَن كان منه بسبيل، فلم يفلت منهم أحدٌ، وأخذ ما وجد لهم من مال، وضياع، ومتاع وغير ذلك، و[أرسل][1] مع أهل العسكر أن يخرج منهم خارج إلى

(١) أتمّ الخبر ابن الأثير في الكامل فقال: ورقيقهم، وأسبابهم، وكل مالهم.
فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد، وأمر أن ينصب رأسه على جسر، ويقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر.
ولم يتعرّض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده، وأسبابه.
لأنه علم براءته مما دخل فيه أهله.
وقيل: كان يسعى بهم، ثم حبس يحيى، وبنيه: الفضل، ومحمداً، وموسى محبساً سهلاً، ولم يفرق بينهم وبين عدةٍ من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها، ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعمّهم بسخطه، وجدّد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيّق عليهم.
ولما قُتل جعفر بن يحيى قيل لأبيه: قَتَل الرشيد ابنك.
قال: كذلك يقتل ابنه.
قيل: وقد أخرب ديارك.
قال: كذلك تخرب دياره. =

أهل مدينة السلام وإلى غيرها.

ووجه من ليلته قوماً إلى الرقة في قبض أموالهم.

وكتب إلى جميع البلدان وإلى العمال باقي قبض أموالهم وأخذ وكلائهم(٢).

وتحدث السندي بن شاهك قال:

إني لجالس فإذا أنا بخادم قد قدم على البريد ودفع إليّ كتاباً صغيراً ففضته، فإذا كتاب الرشيد بخطه فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا سندي، إذا نظرت في كتابي، فإن كنت قاعداً، فقم، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تسير إليّ».

قال السندي: فدعوت بدوابي، ومضيت، وكان الرشيد بالعمر.

فحدثني العباس بن الفضل بن الربيع قال: جلس الرشيد في الزورق بالفرات ينتظرك حتى ارتفعت عبرة فقال لي: يا عباس، ينبغي أن يكون هذا السندي وأصحابه.

= فلما بلغ ذلك الرشيد قال: قد خفت أن يكون ما قاله، لأنه ما قال شيئاً إلا ورأيت تأويله.

قال سلام الأبرش: دخلت على يحيى وقت قبضه، وقد هتكت الستور، وجمع المتاع فقال: هكذا تقوم القيامة.

قال: فحدّثت الرشيد، فأطرق مفكراً.

وكان قتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة.

ولما نكبوا قال الرقاشي، وقيل أبو نواس:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك مَن كان يحدي ومَن كان يحتدي

فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وطي الفيافي فدفدا بعد فدفدِ

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري بعده بمسوّدِ

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي ... وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونك سيفاً برمكيًّا مهندا ... أصيب بسيف هاشمي مهندِ

وقال يحيى بن خالد لما نكب: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا بمَن قبلنا أسوة، وفينا لمَن بعدنا عبرة.

ووقع يحيى على قصة محبوس: العدوان أوبقه، والتوبة تطلقه.

وقال جعفر بن يحيى: الخط سمط الحكمة، به يفصل شذورها، وينظم منثورها، قال نمامة: قلت لجعفر: ما البيان؟

قال: إن يكون الاسم محيطاً بمعناك، مخبراً عن مغزاك، مخرجاً من الشركة، غير مستعان عليه بالفكرة.

فقلت: ما أشبه أن يكون يا أمير المؤمنين.

قال: فطلعت.

قال السندي: فأرسل إليّ الرشيد ادن فسرت إليه ووقفت ساعة بين يديه.

فقال لمَن كان عنده من الخدم: قوموا.

فقاموا، فلم يبقَ إلاّ العباس بن أبي الفضل وأنا، فمكث ساعة، ثم قال للعباس: اخرج ومن بديع التحاتح المطروحة على الزورق[١]، ففعل ذلك.

فقال لي: ادن مني.

فدنوت منه، فقال: تدري فيما أرسلت إليك؟

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: في أمر لو علم به زر قميصي لرميت به الفرات، يا سندي مَن أوثق قوادي عندي؟

قلت: هرثمة بن أعين.

قال: صدقت.

قال: فمَن أوثق خدمي عندي؟

قلت: مسرور الخادم الكبير.

قال: صدقت. امضِ من ساعتك هذه وجدّ في مسيرك حتى توافي مدينة السلام فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك، ومرهم أن يكونوا على أهبة، فإذا انقطعت الرِّجل، فسر إلى دار البرامكة، فوكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع، ومره أن يمنع مَن يدخل ويخرج إلاّ باب محمد بن خالد يأتيك رأيي.

قال: ولم يكن قد حرك البرامكة في ذلك الوقت.

قال السندي: فجئت أركض حتى أتيت مدينة السلام، فجمعت أصحابي، وفعلت ما أمرني به، فلم ألبث أن قدم على هرثمة بن أعين ومعه جعفر بن يحيى على بغل أكاف بضروب العتق، وإذا كتاب أمير المؤمنين، فأمرني أن أشطره باثنتين، وأن أصلبه على جانبي الجسر[٢]. ففعلت ذلك.

ولم يزل مصلوباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان، فمضيت فنظرت إليه،

---

(١) كذا العبارة في المخطوط، وربما كان المراد إرخاء سُتُر كانت على القمرة التي هم بها في الزورق أو المكان المتواجدان فيه والله أعلم.

(٢) في المخطوط: الجر. وهو تحريف.

فلما مَرَّ به الرشيد التفت إليَّ فقال: ينبغي أن تحرق هذا ـ يعني جعفراً ـ.

فلما مضى الرشيد أحرقه.

فمن غريب ما سمع من أمره أن بعض الكُتّاب قال:

كنت أنظر في ديوان النفقات وما يخرج من الجرائر، فانتهيت يوماً إلى ورقة فيها:

وفي هذا اليوم أخرج إلى الأمير الفضل جعفر بن يحيى أدام الله كرامته ما أمر أمير المؤمنين بإخراجه من الورق كذا، ومن العين كذا، ومن الفرش كذا، ومن الكسوة كذا حتى بلغ مقدار ثلاثون ألف ألف درهم.

ثم تصفّحت الأوراق وانتهيت إلى ورقة فيها:

وفي هذا اليوم أخرج في ثمن البواري والنفط الذي أحرق به جعفر بن يحيى أربعة دراهم ونصف درهم وربع.

وقال سلام[1]: لما دخلت على يحيى في ذلك الوقت وقد هتكت الستور، وجمع المتاع قال لي: [يا][2] أبا سلمة، هكذا تقوم القيامة.

قال سلام: فحدثت بذلك الرشيد بعدما انصرفت إليه [٦٣/ب] فأطرق[3] رأسه وبقي مفكراً.

ووجدت في بعض الكتب: أن البرامكة قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي بالعداوة، وكان الرشيد حسن الرأي فيه وكانوا يغرونه به حتى قال: لا بد من نكبته.

فقال: ما كنت لأنكبه، ولكني أبعده عنكم.

فقالوا: ينفى.

قال: لا ولكني أوَلِّيه ولاية دون قدره عندي، وأخرجه إليها.

فرضوا بذلك وكتبوا له على حرّان والرّها فقط، وأمروه عن الخليفة بالخروج.

قال عبد الله: فردعته واحداً واحداً حتى إذا سرت إلى جعفر لأودعه قال: ما على الأرض عربي أنبل منك يا أبا العباس، يغضب عليك الخليفة فيوليك[4].

---

(١) في الكامل: سلام الأبرش.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) يلاحظ أن الصفحة [٦٢/ب]، وكذا الصفحة [٦٣/أ] جاء بهما أبيات شعر بغير خط الناسخ وهما عبارة عن ورقتان وضعتا داخل الكتاب مخالفتان لرسمه وخطه وربما كان أحد قد وضعهما للاحتفاظ بهما فصُوِّرتا وهما ليسا من موضوع الكتاب في شيء فتركت ما فيهما.

(٤) في المخطوط: فوليتك. وهو تحريف.

قلت: فما ذنبي حتى...[١] أي شيء جرى ذنبي الذي يرضى أن يعمل بي، فاستشاط من قوتي.

ثم قال: ينبغي أن يضرب وسطك، وتصلب نصفاً في جانب، ونصفاً في جانب آخر.

فنهضت من عنده مغضباً، وأقبلت أتردد في أمري إلا أني لم أجد بُدًّا من الخروج، فقطعت طريقي بالهم والغم لأني كنت لا آمنهم مع غيبتي على السعاية بي.

فبينا أنا عشية على باب الدار التي كنت نزلتها جالساً على كرسي إذ أقبل إليّ مولى لي، فقال سرًّا: قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي.

فتوهمت أنه قد دَسَّه إليّ جعفر ليجد عليَّ حجة بكلام ينكبني بها فبطحته وضربته ثلاثمائة مقرعة وحبسته ليلة طويلة على سطح داري.

فلما كان في السحر إذا صوت حلق البريد، فارتفعت ونزلت عن السطح، وقلت في نفسي: إن هجم عليّ صاحب البريد فهي نكبة عظيمة، وإن ترجل، واستأذن ففرح.

فلما بصرني صاحب البريد ترجّل فطابت نفسي ودفع إليّ كتاباً من الرشيد يخبرني فيه بقتله البرامكة، وقبضه عليهم، ويأمرني بالشخوص إليه، فشخصت.

فلما وصلت عاملني على الإنعام والإكرام، وزاد على أمنيتي، فخرجت، وأتيت الجسر، فوجدت جعفراً قد ضرب وسطه نصفه من جانب، والنصف الآخر بالجانب الآخر، فأكثرت حمد الله، وعجبت من الصنع اللطيف، ورجوع الكيد عليه.

قال أيوب بن هارون بن سليمان: كنت[٢] أميل إلى يحيى وأنزل معه تلك العشية فلما كان في السحر وافانا خبر مقتل جعفر وزوال أمرهم.

قال: فكتبت إلى يحيى أعزّيه، فكتب إليّ: أنا بقضاء الله راضٍ، وبالخيار منه عالم، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وأكثر الشعراء في مراثيهم، وأطالت.

وفي هذه السنة: غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وحبسه.

ذكر السبب في ذلك

كان لعبد الملك بن صالح ابن يقال له: عبد الرحمٰن من رجال البأس له لسان على فاه فيه، وكان كاتبه قمامة يصادقه، فجرت بينهما وبين أبيه وحشة.

(١) موضع النقط كلمة سقط عليها بعض المداد، فأخفاها.
(٢) تكررت الكلمة في المخطوط، فحذفت التكرار.

فواطأ الكاتب قمامة فسعيا به إلى الرشيد، وقالا له: إنه يطلب الخلافة، ويطمع فيها.

فذكر أنه دخل على الرشيد فقال له: أكفراً[(١)] بالنعمة، وجحوداً لجليل المنّة والتكرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لقد بؤت إذاً بالندم، وتعرضت لاستحلال النقم، وما ذاك إلاّ بغي حاسد نافسني فيك مودّة القرابة وتقدم الولاية، إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة، ولها عليك العدل في حكمها، والتثبُت في حادثها، والغفران لذنوبها.

فقال له الرشيد: أتصنعُ لي من لسانك وترفع لي من جناحك؟

هذا كاتبك قمامة يخبر عنك فعلك وفساد نيتك، فاسمع كلامه.

فقال عبد الملك: أعطاك ما ليس في عقده، ولعله لا يقدر أن يعضهني أو يبهتني بما لم يعرفه مني.

فأحضر قمامة، فقال له الرشيد: تكلم غير هائب ولا خائف.

قال: نعم يا أمير المؤمنين إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك.

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قمامة؟

قال قمامة: نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين.

فقال عبد الملك: كيف لا يكذب[(٢)] عليّ من خلفي وهو يبهتني في وجهي؟

فقال له الرشيد: وهذا ابنك عبد الرحمٰن يخبرني بعتوّك وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين [الاثنين][(٣)] لك فَلِمَ تدفعهما[(٤)] عنك؟

فقال عبد الملك: هو مأمورٌ أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً فمعذور، وإن [٦٤/أ] كان عاقًّا، ففاجر كفور، أخبر الله بعداوته وحذّر منه بقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

قال: ونهض الرشيد وهو يقول: أما أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضى الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك.

فقال عبد الملك: رضيت بالله حكماً وبأمير[(٥)] المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يُؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه.

---

(١) في الكامل: فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع، وأحضره يوماً حين سخط عليه وقال له: أكفراً...
(٢) في المخطوط: يكلم. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط على هذا الرسم. فبمَ فدفعهما، والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: يا أمير. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر، فسلّم لما[١] دخل، فلم يرد عليه.

فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً وخصماً.

قال: ولِمَ؟

قال: لأن[٢] أوله جرى على غير السنة، فأنا أخاف آخره.

قال: وما ذاك؟

قال: لم يردّ عليَّ السلام أُنْصَف نِصْفَة العوام.

قال: السلام عليك اقتداءً بالسنة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية.

ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع، وعارضها وقد لمع[٣]، كأبي بالوعيد قد أورى ناراً تسطع[٤]، فأقلع عن [براجم بلا معاصم][٥] وتزاحم رؤوس بلا غلاصم، فمهلاً مهلاً [بني هاشم][٥] فبي[٦] [والله][٥] سهل[٧] لكم الوعر وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أثنا[٨] أزمتها فنذار[٩] لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل.

فقال عبد الملك: اتقِ الله يا أمير المؤمنين فيما ولاّك وفي رعيته التي استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد نحلت لك النصيحة ومحضت[١٠] لك الطاعة، وشددت[١١] أواخي ملكك بأثقل من ركني يلملم، وتركت عدوك مشغولاً بنفسه، فالله الله في رحمك[١٢] أن تقطعه بعد أن تللته[١٣] بظن[١٤]

---

(١) في المخطوط: فلما. والفاء زائدة فحذفتها.
(٢) في المخطوط: لئن. وهو تحريف.
(٣) في الكامل: بلع.
(٤) في الكامل: زناداً يسطع.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: في. والتصويب من الكامل.
(٧) في المخطوط: عهل، والتصويب من الكامل.
(٨) لم ترد في الكامل.
(٩) في المخطوط: وندر. والتصويب من الكامل.
(١٠) في المخطوط: ومحضه. والتصويب من الكامل.
(١١) في المخطوط: وسدت. والتصويب من الكامل.
(١٢) في الكامل: «في دمي إلى رحمك»، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: «في ذي رحمك».
(١٣) في الكامل: وصلته.
(١٤) في المخطوط: بطن. والتصويب من الكامل.

أفصح[١] الكتاب لي[٢] بعضه أو ببغي باغ ينهس اللحم ويلغ[٣] الدم، فقد والله سهلت لك الوعر، وذللت [لك][٤] الأمور، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور، فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته وكنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب [يعني لبيداً][٤] :

ومقام ضيق فرجته ببناني ولساني وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زلّ عن مثل مقامي وزحل[٥]

وذكر زيد بن علي بن الحسين العلوي قال: لما حبس الرشيد عبد الملك بن صالح دخل عليه عبد الله بن مالك وهو يومئذ على شرطته قال:

أفي إذن أن أتكلّم؟

قال: تكلم.

قال: فلا والله العظيم الرحمٰن الرحيم يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلاّ ناصحاً، فعلام حبسته؟

قال: ويحك [بلغني عنه ما][٦] أوحشني حتى لم آمنه بيني وبين ابني هذين - يعني الأمين والمأمون - فإن كنت ترى أن [نطلقه أطلقناه.

فقال: أما إذا حبسنه فلست أرى في قرب المدة أن][٥] تطلقه ولكن تحبسه محبساً[٧] كريماً يشبه محبس مثلك[٨].

قال: فإني أفعل.

قال: فدعى الرشيد الفضل بن الربيع فقال: امضِ إلى عبد الملك بن صالح إلى محبسه، وقل له: انظر ما تحتاج إليه فأقيم له[٩].

---

(١) في الكامل: أوضح.
(٢) لم يرد هذا اللفظ في الكامل، وأشار محققه إلى أنه موجود في الطبري.
(٣) في المخطوط: وبالغ. والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) بعد هذا في الكامل: فقال له الرشيد: والله لولا إبقائي على بني هاشم لضربت عنقك، ثم أعاده إلى محبسه، فدخل عبد الله بن مالك على الرشيد، وكان على شرطته.. ذكر نحواً مما هنا.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) في المخطوط: مجلساً. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٨) قوله: «يشبه محبس مثلك» لم ترد في الكامل.
(٩) في الكامل:
فأمر الفضل بن الربيع أن يمضي إليه، وينظر ما يحتاج إليه، فيوظفه له، ففعل.
وساق الخبر كما هنا مع تقديم وتأخير في بعض فقراته.

وقال الرشيد يوماً لعبد الملك بن صالح فيما كلمه: ما أنت لصالح.

قال: فلمَن أنا؟

قال: لمروان الجعدي.

قال: ما أبالي أي الفحلين غلب عَلَيّ.

ولم يزل محبوساً حتى توفي الرشيد، فأطلقه على الشام محمد وأطلقه[١] على الشام.

وكان مقيماً بالرقة وجعل لمحمد بن عبد الله وميثاقه لئن قتل وهو حيّ لا يعطي المأمون طاعة أبداً، فمات قبل الأمين[٢]، فدفن في دار من دور الإمارة، فلما صار الأمر إلى المأمون أرسل إلى ابن له: حول أباك من داري، فنبش وحوّل.

وكان الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد بن عبد الملك بن صالح أراد الخروج عليَّ ومنازعتي في الملك، وقد صحّ عندي ذلك، فأعلمني ما عندك فيه، فإنك إن صدقتني أعدتك إلى حالك.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكي، وسلطانك كان سلطاني، والخير والشر كان فيه عليّ [ولي][٣] فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني؟ وهل كنت إذا فعلت به ذلك يفعل بي أكثر من فعلك بي؟ أعيذك بالله أن تظن فيّ هذا الظن ولكنه كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله، فوليته لما أحمدته من مذهبه[٤]، وملت إليه من أدبه واحتماله.

قال[٥]: فلما أتاه الرسول بهذا أعاده إليه، فقال: إن أنت لم تقرّ عليه قتلت الفضل ابنك.

فقال له: أنت مُسلط [٦٤/ب] علينا[٦]، فافعل ما أردت عليّ، إنه كان من هذا الأمر شيء فالذب لي فيه، فما يَدْخُل الفضل في هذا.

فقال الرسول للفضل: قم فإنه لا بد[٧] لي من إنفاذ [أمر][٨] أمير المؤمنين فيك.

---

(١) في الكامل: واستعمله.

(٢) بعد هذا في الكامل:
وكان مما قال للأمين: إن خفت فالجأ إليّ، فوالله لأصوننك.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في الكامل: حمدت مذهبه.

(٥) هذا اللفظ ليس في الكامل.

(٦) في المخطوط: «عليه» والتصويب من الكامل.

(٧) في المخطوط: فلا بد. والفاء زائدة فحذفتها.

(٨) زيادة يتطلبها السياق.

فلم يشك أنه قاتله[١]، فودّع أباه، وقال: ألست راضياً [عني][٢]؟

قال: بلى فرضي الله عنك.

ففرق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما[٣] في ذلك شيئاً جمعهما[٤] كما كانا[٥].

وكان يأتيهم منه أغلظ رسائل لما كان أعداءهم يفرقونهم[٦] به.

وكان عبد الملك حاضر الجواب جيد الرؤية، وهو الذي قال للرشيد وقد مَرّ به بمنبج مستقر عبد الملك، فسأله: أهذا منزلك؟

قال: هو لك يا أمير المؤمنين ولي بك.

قال: كيف هو؟

قال: دون بناء أهلي، وفوق منازل منبج.

فقال: كيف ليلها؟

قال: سَحَرٌ كله.

وفي هذه السنة: انتقض الصلح بين المسلمين وبين الروم لأن ملك الروم الذي كان صالح المسلمين على الجزية، وحمل مال الصلح.

قيل: وملك الروم يقفور[٧]، وكان يقفور هذا من أولاد جفنة من بني غسان[٨].

---

(١) في المخطوط: إن قابله. وهو تحريف.

(٢) زيادة من الكامل. والصيغة في الكامل على النحو التالي:
«فافعلي ما أردت، فأخذ الرسول الفضل فأقامه فودَّع أباه، وقال: ألست راضياً عني؟»..

(٣) في المخطوط: عنده. والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: بأجمعهما. والتصويب من الكامل.

(٥) إلى هنا انتهى الخبر في الكامل.

(٦) أي يخوفونهما بهذه الرسائل أو التهديدات.

(٧) في المخطوط في كل المواضع: «يقفور» بالياء المثناة من تحت في أوله، وفي الكامل «نقفور»، في كل المواضع بالنون في أوله.

(٨) جاء ابتداء الخبر في الكامل بتمهيد على هذا النحو:
وفي هذه السنة: دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان، فأناخ على قرة وحصرها، ووجّه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها، فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم ورحل عنهم صلحاً.
ومات علي بن عيسى في هذه الغزاة بأرض الروم. وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رينى، فخلعتها الروم، وملكت نقفور، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان.
وكان قبل أن يملك يلي ديوان الخراج، وماتت رينى بعد خمسة أشهر من خلعها.
فلما استوثقت الروم لنقفور كتب إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامت مقام الرُّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك.

فلما ملك واستوثقت له الأمور كتب إلى الرشيد:

من يقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملك الذي كان قبلي كان يحمل إليك من أمواله ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليه، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبلك من أمواله وافتدِ نفسك بما تقنع بالمصادرة لك وإلاّ فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول تكون منهم.

واستعجم الرأي على الوزير أن يشير عليه أو يتركه.

ثم إنه دعا هارون بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من هارون أمير المؤمنين إلى يقفور كلب الروم: قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه. والسلام».

ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى، وأفاد واصطلم وخرب وأحرق وطلب الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك.

فلما رجع من غزوته وصار بالرقّة، نقض العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديداً، فأمن[(١)] يقفور من رجعته إليه.

وجاءه الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام، واحتيل بشاعر[(٢)] فقال:

نقض[(٣)] الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
[أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور][(٤)]

في أبيات كثيرة.

فلما فرغ من إنشاده قال: أوَقد فعل يقفور؟

(١) في المخطوط: فئن. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: واجتل شاعر. والتصويب من الكامل، وزاد: بشاعر من أهل جنده وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف، وقيل: هو الحجاج بن يوسف التيمي فقال أبيات منها.
(٣) في المخطوط: بعض. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٤) الأبيات من الكامل.

وعلم أن الوزراء قد احتالوا له بذلك فكرّ راجعاً في أشد محنة وأعظم كلفة حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد.

وفي هذه السنة: قتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك.

ذكر السبب في ذلك

كان إبراهيم بن عثمان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة فيبكي جزعاً عليهم وحبًا لهم إلى أن خرج من حد البكاء ودخل في باب طالبي الثأر والأجر.

وكان إذا خلا بجواريه وشرب وقوي عليه النبيذ قال: يا غلام سيفي ذو المنية.

فيجيبه غلامه بسيفه، ثم يقول: واجعفراه، واسيداه، والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك.

فلما كثر هذا من فعله، جاء ابنه عثمان إلى الفضل بن ربيع، فأخبره بقوله، فدخل الفضل وأخبر الرشيد.

فقال: هاته، فدخل.

فقال: ما الذي قال الفضل عنك؟

فأخبره بقول أبيه وفعله.

فقال له الرشيد: فهل سمع أحد هذا معك؟

قال: نعم خادمه نوال.

فدعى خادمه نوال سرًا فسأله فقال: قد قال غير مرة.

قال الرشيد: ما يحل أن أقتل وليًا من أوليائي بقول غلام وخصي لعلهما تواطآ على ذلك بمنافسة الابن على المرتبة، ومعاداة الخادم وملله طول الصحبة، فترك ذلك أياماً.

ثم أراد أن يمتحن إبراهيم بن عثمان بمحنة تزيل الشك عن قلبه والخاطر عن وهمه، فدعا الفضل بن الربيع فقال: إني أريد محنة إبراهيم بن عثمان [٦٥/ أ] فيما رفع ابنه إليه، فإذا رفع الطعام، فادع بالشراب، وقل له: أحَبّ أمير المؤمنين أن ينادمك إذ كنت بالمحل الذي أنت به، فإذا شرب فانصرف وخلني وإياه ففعل ذلك الفضل بن الربيع.

وقعد إبراهيم للشرب، ثم وثب حين وثب الفضل للقيام.

فقال له الرشيد: إلى الغلمان، فتنحُّوا عنه.

ثم قال: يا إبراهيم، كيف موضع السرّ منك؟

قال: يا سيدي إنما أنا عبيدك وأطوع خدمك.

قال: إن في نفسي أمراً من الأمور أريد أن أودعك، وقد ضاق صدري وأسهرت له ليلي.

قال: يا سيدي إذاً لا يرجع عني إليك أبداً وأخفيه عن جنبي ونفسي.

قال: ويحك إني قد ندمت على قتل جعفر ندامة ما أحسن أن أصفها، فوددت أني خرجت من ملكي وأنه كان بقي لي، فما وجدت طعم النوم منذ فارقته، ولا لذة العيش منذ قتله.

قال: فلما سمعها إبراهيم أسبل دموعه، وأدرى عبرته ولم يملك نفسه وقال: رحم الله أبا الفضل، وتجاوز عنه، والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله وأوطِأت[١] العشوة في أمره ولم يوجد في الدنيا مثله، وكان منقطع القرين زيناً في الناس أجمعين.

فقال الرشيد: قُم عليك لعنة الله يا ابن الفاجرة.

فقام ما يعقل ما يطأ، فانصرف إلى أُمه، فقال: يا أُم والله ذهبت نفسي.

قالت: كلا إن شاء الله، وما ذاك يا بني؟

قال: إن الرشيد امتحنني محنة، والله لو كانت لي ألف نفس لم أنجح بواحدة منها.

فما كان بين هذا، وبين أن أدخل عليه فضرب بالسيف إلاّ [ليال][٢] قليلة[٣].

(١) في المخطوط: ولو طبت. والتصويب من الكامل.

(٢) في المخطوط: إلا قتله. وهذا سقط، وتحريف، والتصويب والإكمال من الكامل بنحوه.

(٣) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة في الكامل فقال:

وفي هذه السنة: ملك الفرنج مدينة طليطلة بالأندلس، وسب ذلك:

أن الحكم صاحب الأندلس استعمل على ثغور الأندلس قائداً كبيراً من أجناده اسمه: عمروس بن يوسف، فاستعمل ابنه يوسف على طليطلة.

وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت من الأندلس، أولوا قوة وبأس، لأنهم خرجوا عن طاعته، فالتحقوا بالمشركين فقوي أمرهم، واشتدت شوكتهم، وتقدّموا إلى مدينة طليطلة، فحصروها وملكوها من المسلمين.

فأسروا أميرها يوسف بن عمروس وسجنوه بصخرة قيس.

واستقر عمروس بن يوسف بمدينة سرقسطة ليحفظها من الكفار، وجمع العساكر وسيَّرها مع ابن عم له، فلقي المشركين وقاتلهم، ففضّ جمعهم وهزمهم، وقتل أكثرهم، ونجا الباقون منكوبين.

وسار الجيش إلى صخرة قيس فحصروها، وافتتحوها، ولم يقدر المشركون على منعها منهم لما نالهم من الوهن بالهزيمة، ولما فتحها المسلمون خلّصوا يوسف بن عمروس أمير الثغر وسيَّروه إلى أبيه وعظم أمر عمروس عند المشركين، وبَعُدَ صوته فيهم، وأقام في الثغر أميراً عليه.

إيقاع الحكم بأهل قرطبة

كان الحكم في صدر ولايته تظاهر بشرب الخمر، والانهماك في اللذات، وكانت قرطبة دار علم وبها فضلاء في العلم والورع منهم يحيى بن يحيى الليثي راوي موطأ مالك عنه وغيره، فثار =

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

ولم يجرِ فيها ما يثبت[١].

= أهل قرطبة، وأنكروا فعله، ورجموه بالحجارة، وأرادوا قتله، فامتنع منهم بمَن حضر من الجند وسكن الحال.
ثم بعد أيام اجتمع وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها، وحضروا عند محمد بن القاسم القرشي المرواني عم هشام بن حمزة، وأخذوا له البيعة على أهل البلد، وعرفوه أن الناس قد ارتضوه كافة، فاستنظر ليلة ليرى رأيه ويستخير الله سبحانه وتعالى، فانصرفوا.
فحضر عند الحكم وأطلعه على الحال، وأعلمه أنه على بيعته، فطلب الحكم تصحيح الحال عنده، فأخذ معه بعض ثقات الحكم، وأجلسه في قبة في داره، وأخفى أمره، وحضر عنده القوم يستعلمون منه هل تقلّد أمرهم أم لا؟
فأراهم المخافة على نفسه، وعظم الخطب عليهم، وسألهم: تعداد أسمائهم ومَن معهم، فذكروا له جميع مَن معهم من أعيان البلد، وصاحب الحكم يكتب أسماءهم.
فقال لهم محمد بن القاسم: يكون هذا الأمر يوم الجمعة إن شاء الله في المسجد الجامع.
ومشى إلى الحكم مع صاحبه ـ وكان ذلك يوم الخميس ـ.
فما أتى عليه الليل حتى حبس الجماعة المذكورين عن آخرهم، ثم أمر بهم بعد أيام، فصلبوا عند قصره، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً، ومنهم أخو يحيى بن يحيى، وابن أبي كعب.
وكان يومهم يوماً شنيعاً فتمكنت عداوة الناس للحكم.
وفي هذه السنة: هاجت العصبية بالشام بين المضرية واليمانية، فأرسل الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.
وفيها: زلزلت المصيصة، فانهدم سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل.
وفيها: خرج عبد السلام بآمد، فحكم فقتله يحيى بن سعيد العقيلي.
وفيها: أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة وهبه لله، وجعله قرباناً له، وولاّه العواصم.
وحجّ بالناس هذه السنة: عبد الله بن العباس بن محمد بن علي.
وفيها: توفي الفضيل بن عياض الزاهد، وكان مولده بسمرقند، وانتقل إلى مكة، فمات بها.
وفيها: توفي المعمر بن سليمان بن طرخان التيمي أبو محمد البصري، وكان مولده سنة ست أو سبع ومائة.
وعمر بن عبيد الطنافسي الكوفي.
وفيها: توفي أبو مسلم معاذ الهراء النحوي، وقيل: كنيته أبو علي، وعنه أخذ الكسائي النحو، وولد أيام يزيد بن عبد الملك.

(١) كذا قال المؤلف رحمنا الله وإياه.
وقال ابن الأثير في الكامل:
في هذه السنة: غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة، فدخل أرض الروم من درب الصفصاف، فخرج إليه نقفور ملك الروم، فأتاه من ورائه أمر صرفه عنه، ولقي جمعاً من المسلمين، فجرح ثلاث جراحات، وقُتل من الروم ـ فيما قيل ـ أربعون ألفاً وسبعمائة.
وفيها: رابط القاسم بن الرشيد بدابق.
وحجّ بالناس فيها: الرشيد، فقسم أموالاً كثيرة، وهي آخر حجة حجّها في قول بعضهم.
وفيها: توفي جرير بن عبد الحميد الضبي الرازي، وله ثمان وسبعون سنة.
وفيها: توفي العباس بن الأحنف الشاعر، وقيل: سنة ثلاث وتسعين. =

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائة

وفي هذه السنة: شخص الرشيد إلى الري.

وكان سبب ذلك: أن الرشيد كان استشار يحيى في تولية علي بن عيسى بن ماهان، فأشار عليه أن لا يفعل فإنه غشوم.

فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص علي ابن عيسى إليها ظلم الناس وعسف بهم وجمع مالاً جليلاً، ووجه إلى هارون منها هدايا لم يرَ مثلها قط من الخيل والرقيق والثياب، والمسك، والأموال.

فقعد هارون بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به علي إليه، وأحضرت تلك الهدايا، فعرضت عليه فعظمت في عينه وجلّ قدرها عنده، وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له: يا أبا علي هذا الذي كنت تشير علينا أن لا نوليه هذا الثغر، فقد خالفناك فيه، فكان في خلافك البركة، وهو كالمازح معه، وكان إذ ذاك على مرتبته الجليلة، وموضعه اللطيف ـ فقد ترى الآن ما صحّ من رأينا فيه، وقالّ من رأيك.

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي، وأوفق في مشورتي، فأنا أحب مع ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى، وفراسته أثقب، وعلمه أكثر من علمي، ومعرفته فوق معرفتي، وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما يكره أمير المؤمنين، وكما أسأل الله أن يعيذه من سوء عاقبته وسياع مكروهه.

قال: وما ذاك؟

قال: إني أحب هذه الهدايا ما جمعت له حتى ظلم فيها الأشراف، وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً، ولو أمرني أمير المؤمنين لآتينه بأضعافها الساعة من بعض تجار الكرخ.

قال: وكيف ذاك؟

قال: قد سألوا منا عوناً على السفط الذي جاءنا به الجواهر، فأعطينا به سبعة آلاف فأبى أن يبيعه، فأبعث به الساعة بحاجبي فآمر أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا، فإذا جاء به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف، ثم نفعل هذا بتاجرين من كبار التجار، على أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علي بن عيسى في هذه بأصحابها، فاجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون [٦٥/ب] سعي وأيسر

= ومات أبوه الأحنف سنة خمسين ومائة.

وفيها: توفي شُهَيْدُ بن عيسى بالأندلس وعمره ثلاث وتسعون سنة، وكان دخوله الأندلس مع عبد الرحمٰن بن معاوية.

أمر وأجمل جناية كما جمع علي في ثلاث سنين.

فوقرت في نفس الرشيد، وأمسك عن ذكر علي بن عيسى.

فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأشرافها، فأخذ أموالهم، واستخفّ برجالهم خفت رجال من كبرائها إلى الرشيد، وكتب جماعة من كورها إلى أصحابها وأقربائها ببغداد تشكوا سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه، وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به من أحب من كفاته وأنصاره، وأبناء دولته وقوّاده.

فدعا يحيى بن خالد، وشاوره في أمر عيسى وفي صرفه.

وقال: أشر عليّ برجل ترضاه لذلك الثغر يصلح ما أفسد الفاسق ويرتق ما فتق.

فأشار عليه بيزيد بن مزيد.

فلم يقبل مشورته[1].

---

(١) كذا قال المؤلف رحمنا الله وإياه في هذا الخبر غير أن ابن الأثير ساقه في الكامل على نحو غير هذا فقال:
في هذه السنة سار الرشيد إلى الري، وسبب ذلك: أن الرشيد لما استعمل علي بن عيسى بن ماهان على خراسان ظلم أهلها وأساء السيرة فيهم.
فكتب كبراء أهلها وأشرافها إلى الرشيد يشكون سوء سيرته، وظلمه واستخفافه بهم، وأخذ أموالهم.
وقيل للرشيد: إن علي بن عيسى قد أجمع على خلافك.
فسار إلى الري في جمادى الأولى ومعه ابناه: عبد الله المأمون، والقاسم، وكان قد جعله ولي عهده بعد المأمون وجعل أمره إلى المأمون إن شاء أقرّه، وإن شاء خلعه، وأحضر القضاة والشهود، وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال، والخزائن، والسلاح، والكراع، وغير ذلك للمأمون، وليس له فيه شيء.
وأقال الرشيد بالري أربعة أشهر حتى أتاه علي بن عيسى من خراسان، فلما قدم عليه أهدى له الهدايا الكثيرة، والأموال العظيمة، وأهدى لجميع مَن معه من أهل بيته، وولده، وكتابه، وقوّاده من طرف، والجواهر، وغير ذلك، ورأى الرشيد خلاف ما كان يظن فردّه إلى خراسان ولما قام الرشيد بالري سيَّر حسيناً الخادم إلى طبرستان، وكتب معه أماناً لشروين أبي قارن، وأماناً لوندا هرمز جد مازيار وأماناً لمرزبان بن جستان صاحب الديلم فقدم جستان وونداهرمز، فأكرمهما وأحسن إليهما، وضمن وندا هرمز السمع والطاعة، وأداء الخراج عن شروين، ورجع الرشيد إلى العراق، ودخل بغداد في آخر ذي الحجة.
فلما مَرّ بالجسر أمر بإحراق حبشة جعفر بن يحيى، ولم يزل ببغداد، ومضى من فوره إلى الرقة، ولما جاز بغداد قال:
والله إني لأطوي مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها، وإنها لدار مملكة بني العباس ما بقوا، وحافظوا عليها ولا رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها ولنعم الدار هي، ولكني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق، والنفاق، والبغض، لأئمة الهدى، والحب لشجرة اللعنة بني أمية مع ما فيها من المارقة، والمتلصصة، ومخيفي السبيل، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت. =

ثم دخلت سنة تسعين ومائة

وفي هذه السنة: ظهر رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند، مخالفاً هارون، وخالعاً له، ونزع يده من طاعته.

ذكر السبب في ذلك

كان يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج بخراسان بنتاً لعمه [أبي النعمان](١)، وكانت ذات يسار فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، وبلغه أنه قد اتخذ أمهات أولاد، وطال عليها أمره، فالتمست شيئاً للتخلص منه فعيى عليها، وبلغ رافعاً خبرها، فطمع فيها وفي مالها، فدسّ إليها مَن قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلّص من صاحبها إلاّ أن تشرك بالله، وتحضر لذلك قوماً عدولاً، وتكشف شعرها بين أيديهم، ثم

= فقال العباس بن الأحنف في طي الرشيد بغداد:

ما أنحنا حتى ارتحلنا فما نفـ ... ـرق بين المناخ والارتحال
سألونا عن حالنا إذ قدمنا ... فقرأنا وداعهم بالسؤال

وفي هذه السنة: كثر شعب أهل طرابلس الغرب على ولاتهم، وكان إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية قد استعمل عليهم عدة ولاة، فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ويولي غيرهم.
واستعمل عليهم هذه السنة سفيان بن المضاء ـ وهي ولايته الرابعة ـ فاتفق أهل البلد على إخراجه عنهم، وإعادته إلى القيروان فزحفوا إليه فأخذ سلاحه وقاتلهم هو وجماعة ممن معه، وأخرجوه من داره فدخل المسجد الجامع، فقاتلهم فيه، فقتلوا أصحابه ثم أمَّنوه، فخرج عنهم في شعبان من هذه السنة.
فكانت ولايته سبعاً وعشرين يوماً.
واستعمل الجند الذين بطرابلس على البلد وأهله إبراهيم بن سفيان التميمي.
ثم وقع بين الأبناء بطرابلس أيضاً وبين قوم يعرفون ببني أبي كنانة، وبني يوسف حروب كثيرة وقتال حتى فسدت طرابلس.
فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، فأرسل جماعة من الجند، وأمرهم أن يحضروا الأبناء وبني أبي كنانة، وبني يوسف، فأحضروهم عنده بالقيروان في ذي الحجة.
فلما قدموا عليه سألوه العفو عنهم في الذي فعلوه، فعفا عنهم، فعادوا إلى بلدهم.
وفيها: كان الفداء بين المسلمين والروم، فلم يبقَ بأرض الروم مسلم إلاّ فودي به.
وحجّ بالناس: العباس بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.
وفيها: ولّى الرشيد عبد الله بن مالك طبرستان، والري، ودنباوند، وقومس، وهمذان، وهو متوجه إلى الري، فقال أبو العتاهية في مسيره إليها، وكان الرشيد وُلد بها:

إن أمين الله في خلقه ... حنّ به البر إلى مولده
ليصلح الري وأقطارها ... ويمطر الخير بها من يده

وفيها: مات محمد بن الحسن الشيباني الفقيه، صاحب أبي حنيفة.
وحميد بن عبد الرحمٰن بن حميد الرؤاسي أبو عوف.
وسابق بن عبد الله الموصلي، وكان من الصالحين البكّائين من خشية الله تعالى.

(١) زيادة من الكامل.

تتوب، فتحل للأزواج. ففعلت ذلك.

وتزوجها رافع، وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفع ذلك إلى الرشيد، فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما، وأن يعاقب رافعاً بجلده الحد ويقيده، ثم يطوف به مدينة سمرقند مقيداً على حمار، حتى يكون عظة لغيره، فدرأ سليمان بن حميد الأزدي الحد عنه وحمله على حمار مقيداً حتى طلقها، ثم حبسه في حبس سمرقند، فهرب من الحبس ليلاً من عند حميد بن المسبح وهو يومئذ على شرطة سمرقند.

فلحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب الأمان فلم يجبه إلى طلبه، وهَمَّ بضرب عنقه، فكلمه فيه ابنه عيسى بن علي، وجدّد طلاق المرأة، وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها.

ووثب سليمان بن حميد عامل يحيى بن عيسى فقتله.

فوجّه إليه علي بن عيسى ابنه، فمال إلى سباع بن مسعدة، فوثب على رافع فقيّده فاجتمع الناس عليه فقيّدوه، ورأسوا رافعاً وبايعوه، وطابقه مَن كان بوراء النهر.

ووافاه هلال بن علي بن عيسى فلقيه رافع فهزمه، ثم قتله.

فأخذ علي بن عيسى في فرض الرجال والتأهب للحرب [وانقضت السنة][1].

وفي هذه السنة: فتح الرشيد هرقلة بأرض الروم، وكان دخلها في مائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع، وسوى المطوعة ومَن لا ديوان له.

ووجه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألف.

وأخرب هارون الرشيد هرقلة، وسبى أهلها، بعد مقام ثلاثين يوماً عليها.

وولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر.

فبلغ حميد قبرص، فهدم، وحرق، وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً، فأقدمهم الرافقة فتولى بيعهم البختري القاضي.

وباع أسقف قبرص بألفي دينار.

وبعث يقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه، وولي عهده، وبطارقته، وأهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه دينارين، وعن الباقين على حسب مراتبهم.

وكتب يقفور مع بطريق من بطارقته في جارية [٦٦/أ] من سبي هرقلة كتاباً نسخته:

---

(١) زيادة من الكامل.

«لعبد الله هارون ابن أمير المؤمنين، من يقفور ملك الروم، سلام عليك أيها الملك، إن لي حاجة لا تضرك[١] في دينك ولا دنياك هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات هرقلة قد كنت خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

واستهداه طيباً وسرادقاً من سرادقاته.

فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأُحضرت وزُيِّنت وأُجلست على فراش في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول يقفور، وبعث إليه بما سأل. . .[٢] وبعث إليه من التمور، والزبيب، والأخبصة، والترياق، فسلّم ذلك إليه رسول الرشيد.

فأعطاه يقفور وفر دراهم إسلامية وحمله على برذون كميت، فكان مبلغ المال خمسين ألف درهم، ومائة ثوب، وديباج، ومائتي ثوب برثون، واثني عشر بازياً، وأربعة أكلب من كلاب الصيد، وثلاثة براذين.

وكان يقفور يخرب ذا الكلاع، ولا صلة ولا حصن سنان.

واشترط الرشيد عليه أن لا يعمر هرقلة، وعلى أن يحمل يقفور ثلاثمائة ألف دينار[٣].

---

(١) في المخطوط: لا تضر. وأثبت الأنسب للسياق.

(٢) موضع النقط كلمة لم أتبيّن قراءتها في المخطوط. لمحو أصابها.

(٣) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة ما يلي:
وخرج في هذه السنة خارجي من ناحية عبد القيس يقال له: سيف بن بكير.
فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله بعين النورة.
وفيها: نقض أهل قبرص العهد، فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلها.
وحجّ بالناس: عيسى بن موسى الهادي.
وفيها: أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون.
وقيل: بل أسلم أبوه سهل على يد المهدي، وكان محبوساً.
وقيل: أسلم الفضل، وأخوه الحسن على يد يحيى بن خالد، فاختاره يحيى لخدمة المأمون.
فلهذا كان الفضل يرعى البرامكة ويثني عليهم، ولقب بذي الرياستين لأنه تقلّد الوزارة، والسيف.
وكان يتشيّع، وهو الذي أشار على المأمون بالعهد لعلي بن موسى الرضا عليه السلام.
وكان على الموصل هذه السنة: خالد بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، ولما دخل الموصل انكسر لواؤه في باب المدينة، فتطيّر منه.
وكان معه أبو الشيص الشاعر فقال في ذلك:

ما كان منكسر اللواء لطيرة ... تخشى ولا أمر يكون مُوبلا
لكن هذا الرمح أضعف ركنه ... صغر الولاية فاستقلّ الموصلا

فسري عن خالد.
وفيها: غزا الرشيد الصائفة، واستخلف المأمون بالرقة، وفوّض إليه الأمور، وكتب إلى الآفاق =

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة

وفيها: قوي رافع بن الليث، واشتدت شوكته.

وقد ذكرنا قتل هلال بن علي بن عيسى، ولما قتل ابنه خرج من بلخ حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع بن الليث فيستولي عليها.

وكان ابنه عيسى دفن في بستان داره ببلخ مالاً عظيماً قيل: إنه ثلاثون ألف ألف درهم، ولم يعلم بها علي بن عيسى، ولا اطلع عليها أحد إلا جارية كانت له.

فلما شخص علي عن بلخ أطلعت الجارية على بعض الخدم، وتحدّث به الناس.

فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها، فدخلوا البستان، وانتهبوه، وأباحوا العامة.

وبلغ الرشيد الخبر، فقال: خرج علي عن بلخ عن غير أمري، وخلف مثل هذا المال، وهو يزعم أنه قد أمضى إلى حلي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع، فعزله عند ذلك، وولى هرثمة بن أعين، واستصفى أموال علي بن عيسى، فبلغت ثمانين ألف ألف، ووردت خزائنه التي أخذت على الرشيد، وكانت على ألف وخمسمائة بعير.

وكان علي بن عيسى قد أذلّ جبابرة أهل خراسان وأشرافهم حتى خرج منهم مثل الحسن بن مصعب إلى مكة واستجار بالرشيد من علي بن عيسى، فأجاره.

وأظهر مثل هذا هشام بن فرخسرو[1] وأن الفالج قد أصابه حتى أمكنه لزوم منزله.

= بذلك، ودفع إليه خاتم المنصور تيمُّناً به، ونقشه: الله ثقتي آمنت به.

وفيها: خرجت الروم إلى عين زربة، والكنيسة السوداء، وأغاروا، فاستنقذ أهل المصيصة ما كان معهم من الغنيمة.

وفيها: توفي أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة.

وفيها: توفي يحيى بن خالد بن برمك محبوساً بالرافقة، في المحرم، وعمره سبعون سنة.

وعمر بن علي بن عطاء بن مقدم المقدمي البصري.

(١) في المخطوط: هشام بن فرحنو. والتصويب من الكامل، وقد قال ابن الأثير ذاكراً بعض مساوىء حكمه: فمن ذلك: أنه دخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر بن الحسين، وهشام بن فرخسرو، فسلّما عليه.

فقال للحسين: لا سلّم الله عليك يا ملحد ابن الملحد، والله إني لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام، والطعن في الدين، ولم أنتظر بقتلك إلا أمر الخليفة، ألست المرجف بي في منزلي هذا بعد أن ثملت من الخمر، وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد بعزلي؟ اخرج إلى سخط الله لعنك الله فعن قريب ما يكون منها.

فاعتذر إليه، فلم يقبل منه، وأمر بإخراجه فأُخرج.

وقال لهشام بن فرخسرو: صارت دارك دار الندوة، يجتمع إليك السفهاء، تطعن على الولاة، سفك الله دمي، إن لم أسفك دمك، فاعتذر إليه، فلم يعذره، فأخرجه. =

وكانت كتب حموية وردت على هارون: أن رافعاً لم يخلع ولا نزع السواد ولا مَن شايعه وأن غايتهم عزل علي بن عيسى الذي سامهم المكروه.

ولما عزم الرشيد على عزل علي بن عيسى، دعا هرثمة بن أعين مستخلياً به، فقال: إني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سري فيك غيرك، وقد اضطرب عليّ ثغر المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى إذ خالف عهده، ونبذه وراء ظهره.

قد كنت تستمد، وتستجير، وأنا كاتب إليه، فأخبره أني أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه، وتتطلع إليه نفسه، وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصير إلى مدينة نيسابور، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه، ولا تجاوزه إن شاء الله، وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى بخطي لنعرف ما يكون منك ومنه، ومورِ عنه أمر علي، فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه فيه وتأهب للمسير، وأظهر لخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً [٦٦/ ب] لعلي بن عيسى وعوناً له، ثم كتب إلى علي بن عيسى كتاباً بخطه نسخته:

«يا ابن الزانية[1]، رفعت من قدرك، ونوهة باسمك، وأوطأت سادة العرب عقبك وجعلت أبناء ملوك العجم خولك، فكان من جزائي أن خالفت عهدي، ونبذت وراء ظهرك أمري، حتى عثت في الأرض وظلمت الرعية، وأسخطت الله وخليفته بسوء تدبيرك وسيرتك وراء طعمتك، وظاهر حياتك، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان، وأمرته أن يشدد وطأته عليك، وعلى ولدك وكُتابك وعمالك، ولا يترك وراء ظهورهم درهماً واحداً ولاحقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به حتى يرده إلى أهله، فإن

= فأما الحسين فسار إلى الرشيد، فاستجار به، وشكا إليه فأجاره.

وأما هشام فإنه قال لبنت له: إني أخاف الأمير على دمي، وأنا مفضٍ إليك بأمر إن أنتِ أظهرتهِ قُتِلْتُ، وإن أنتِ كتمته سَلِمْتُ.

قالت: وما هو؟

قال: قد عزمت على أن أظهر أن الفالج قد أصابني، فإذا كان في السحر، فاجمعي جواريك واقصدي فراشي وحركيني، فإذا رأيتِ حركتي ثقلت، فصيحي أنت وجواريك، واجمعي إخوتك، فأعلميهم علتي.

ففعلت ما أمرها، وكانت عاقلة، فأقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك إلى أن جاء هرثمة والياً، فركب إلى لقائه، فرآه علي بن عيسى بن ماهان، فقال: إلى أين؟

فقال: أتلقى الأمير أبا حاتم.

قال: ألم تكن عليلاً؟ فقال: وهب الله العافية وعزل الطاغية في ليلة واحدة.

وعلى هذا تكون ولاية هرثمة ظاهرة.

وقيل: بل كانت ولايته سرًا، ولم يطلع الرشيد أحداً، فقيل: إنه لما أراد عزل علي بن عيسى استدعى هرثمة وأسر إليه ذلك. . . وساق نحو ما هنا.

(١) هذه كلمة ما أظن الرسالة تضمنتها ولا تليق بحاكم ذا مكنة فضلاً عن أمير من أمراء المسلمين.

أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك، فله أن يبسط عليكم العذاب ويصب عليكم السياط ويحل بكم ما يحل بمَن نكث وغيَّر وبدَّل وخالف وظلم، وتعدّى وغشم انتقاماً لله بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ولا تعرض نفسك للتي لا سوى لها، وأخرج ما يلزمك طائعاً ومكرهاً».

وكتب عهده لهرثمة بخطه: «هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه، أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله وموافقته، وأن يجعل كتاب الله تعالى إماماً في جميع ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرّم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عن أولي الفقه في دين الله وأولو العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله فيه رأيه، ويعزم على رشده، وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماله وكُتّابه وأن يشدد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفي المسلمين، فإذا استطف ما عندهم وقبلهم، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يؤدوه إليه، فإن ثبت قبلهم حق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها أو جحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال إلى أن يحاطوا بأدنى أدب تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم، فإذا أخرجوا من حق كل ذي حق أشخصتهم كما يشخص العصاة من خشونة الوطاء، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله. فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي فكن كذلك، وعليه فليكن عملك وأمرك، ودبر في أعمال الكور التي تمر بها وعمالها في صعودك بما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعهم، فابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانيهم وعذرهم، ثم اعمل ما يرى الله فيك وخليفته ومَن ولاك أمره إن شاء الله، هذا عهدي وكتابي بخطي وأنا أُشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سماواته، وكفى بالله شهيداً، وكتب أمير المؤمنين بخطه ولم يحضره إلا الله والملائكة».

ثم أمر أن تكتب كتب هرثمة إلى عيسى بن علي في معاونته وتقوية أمره والشد على يديه، فكتب وظهر الأمر بها[1].

(١) قال ابن الأثير بعد أن لخّص ذلك الحدث كله: فسار هرثمة ولا يعلم بأمره أحد حتى ورد نيسابور فلما وردها، استعمل أصحابه على كورها، وسار مجداً يسبق الخبر، فأتى مرو والتقاه علي بن عيسى، فاحترمه هرثمة وعظّمه حتى دخل البلد، ثم قبض عليه، وعلى أهله، وأصحابه، وأتباعه، وأخذ أمواله فبلغت ثمانين ألف ألف، وكانت خزائنه وأثاثه على ألف وخمسمائة بعير، فأخذ الرشيد ذلك كله. =

....

= وكان وصول هرثمة إلى خراسان سنة اثنتين وتسعين، فلما فرغ هرثمة من أخذ أموالهم، أقامهم لمطالبة الناس، وكتب إلى الرشيد بذلك، وسيَّر علي بن عيسى إليه على بعير بغير وطاء ولا غطاء.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث أخرى لم يذكرها المؤلف رحمنا الله وإياه من أحداث تلك السنة فقال:
في هذه السنة: أوقع الأمير الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على خمسة آلاف رجل من أعيان أهلها، وسبب ذلك:
أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا في الأمراء، وخلعوهم مرة بعد أخرى، وقويت نفوسهم بحصانة بلدهم، وكثرة أموالهم، فلم يكونوا يطيعوا أمراءهم طاعة مُرضية.
فلما أعيا الحكم شأنهم، أعمل الحيلة في الظفر بهم فاستعان في ذلك بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد، وكان قد ظهر في هذا الوقت بالثغر الأعلى، فأظهر طاعة الحكم ودعا إليه، فاطمأن إليه بهذا السبب ـ وكان من أهل مدينة وشقة ـ فاستحضره فحضر عنده، فأكرمه الحكم، وبالغ في إكرامه، وأطلعه على عزمه في أهل طليطلة، وواطأه على التدبير عليهم، فولاّه طليطلة، وكتب إلى أهلها يقول:
«إني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم».
فمضى عمروس إليهم ودخل طليطلة فأنس به أهلها واطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم، وكان أول ما عمل عليهم من الحيلة أن أظهر لهم موافقتهم على بغض بني أمية، وخلع طاعتهم، فمالوا إليه ووثقوا بما يفعله.
ثم قال لهم: إن سبب الشر بينكم وبين أصحاب الأمير، إنما هو اختلاطهم بكم، وقد رأيت أن أبني بناءً أعتزل فيه أنا وأصحاب السلطان، رفقاً بكم، فأجابوه إلى ذلك، فبنى في وسط البلد ما أراد فلما مضى لذلك مدة، كتب الأمير الحكم إلى عامل له على الثغر الأعلى سرًّا يأمره أن يرسل إليه يستغيث من جيوش الكفرة، وطلب النجدة والعساكر، ففعل العامل ذلك.
فحشد الحكم الجيوش من كل ناحية، واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمٰن، وحشد معه قواده ووزراءه، فسار الجيش واجتاز بمدينة طليطلة، ولم يعرض عبد الرحمٰن لدخولها، فأتاه وهو عندها الخبر من ذلك العامل: أن عساكر الكفرة قد تفرقت، وكفى الله شرها فتفرّق العسكر.
وعزم عبد الرحمٰن على العودة إلى قرطبة، فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة:
قد ترون نزول ولد الحكم إلى جانبي، وأنه يلزمني الخروج إليه، وقضاء حقه، فإن نشطتم لذلك وإلاّ سرت إليه وحدي، فخرج معه وجوه أهل طليطلة، فأكرمهم عبد الرحمٰن وأحسن إليهم.
وكان الحكم قد أرسل مع ولده خادماً له، ومعه كتاب لطيف إلى عمروس، فأتاه الخادم، وصافحه، وسلَّم الكتاب إليه من غير أن يحادثه.
فلما قرأ عمروس الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على أهل طليطلة، فأشار عليه أعيان أهلها بأن يسألوا عبد الرحمٰن الدخول إليهم ليرى هو وأهل عسكره كثرتهم، ومنعتهم، وقوتهم، فظنوه ينصحهم، ففعلوا ذلك، وأدخلوا عبد الرحمٰن البلد ونزل مع عمروس في داره، وأتاه أهل طليطلة أرسالاً يسلمون عليه.
وأشاع عمروس أن عبد الرحمٰن يريد أن يتخذ لهم وليمة عظيمة، وشرع في الاستعداد لذلك وواعدهم يوماً ذكره، وقرر معهم، أنهم يدخلون من باب، ويخرجون من آخر ليقل الزحام، ففعلوا ذلك.
فلما كان اليوم المذكور أتاه الناس أفواجاً فكان كلما دخل فوج أخذوا وحملوا إلى جماعة من الجند على حفرة كبيرة في ذلك القصر، فضربت رقابهم عليها، فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم يرَ أحداً فقال: أين الناس؟ =

....

= فقيل: إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر.
فقال: ما لقيني منهم أحد وعلم الحال، وصاح، وأعلم الناس هلاك أصحابهم، فكان سبب نجاة مَن بقي منهم.
فذلت رقابهم بعدها، وحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم، وأيام ولده عبد الرحمٰن، ثم انجبرت مصيبتهم، وكثروا، فلما هلك عبد الرحمٰن وولّى ابنه محمد عاجلوه بالخلع على ما نذكره.
وفيها: عصى أصبغ بن عبد الله، ووافقه أهل مدينة ماردة من الأندلس على الحكم، وأخرجوا عامله، واتصل الخبر بالحكم، فسار إليها وحاصرها، فبينما هو مجد في الحصار، أتاه الخبر عن أهل قرطبة أنهم أعلنوا بالعصيان له، فرجع مبادراً، فوصل إلى قرطبة في ثلاثة أيام، وكشف عن الذين أثاروا الفتنة، فصلبهم منكسين، وضرب أعناق جماعة، فارتدع الباقون لذلك، واشتدت كراهيتهم له.
ولم يزل أهل ماردة تارة يطيعون، ومرة يعصون إلى سنة اثنتين وتسعين، فضعف أمر أصبغ، لأن الحكم تابع إرسال الجيوش إليه، واستمال جماعة من أعيان أهل ماردة وثقاته من أصحابه فمالوا إليه، وفارقوا أصبغ حتى أخوه.
فتحيّر أصبغ وضعفت نفسه، فأرسل يطلب الأمان، فأمنه الحكم، ففارق ماردة، وحضر عند الحكم، وأقام عنده بقرطبة.
وفي هذه السنة: تجهّز لذريق ملك الإفرنج بالأندلس، وجمع جموعه، ليسير إلى مدينة طرطوشه، ليحصرها.
فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيَّرها مع ولده عبد الرحمٰن، فاجتمعوا في جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة، فساروا، فلقوا الإفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً، فاقتتلوا وبذلوا كل من الطائفتين جهده، واستنفذ وسعه فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فانهزم الكفار وكثر القتل فيهم والأسر، ونهبت أموالهم، وأثقالهم، وعاد المسلمون ظافرين غانمين.
وفي هذه السنة: خالف حزم بن وهب بناحية باجة، ووافقه غيره، وقصدوا لشبونة.
وكان الحكم يسمى حزماً في كتبه: النبطي، فلما سمع الحكم خبره، سيَّر إليه ابنه هشاماً في جمع كثير، فأزلّه ومَن معه، وقطع الأشجار وضيَّق عليهم حتى أذعنوا لطلب الأمان، فأمنه.
وفيها: خرج خارجي يقال له: ثروان بن سيف بناحية حولايا، وتنقّل في السواد فوجّه إليه طوق بن مالك، فهزمه طوق وجرحه، وقتل عامة أصحابه.
وفيها: خرج أبو النداء بالشام فسيَّر الرشيد في طلبه يحيى بن معاذ، وعقد له على الشام.
وفيها: ظفر حماد البربري بهيصم اليماني.
وفيها: أرسل أهل نسف إلى رافع بن الليث يسألونه أن يوجه إليهم مَن يعينهم على قتل عيسى بن علي، وعلي بن عيسى، فأرسل إليهم جمعاً، فقتلوا عيسى وحده في ذي القعدة ولم يعرضوا لأصحابه.
وفيها: غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف، فأخذت الروم عليه المضيق، فقتلوه وخمسين رجلاً وسلم الباقون، وكان ذلك على مرحلتين من طرسوس.
وفيها: استعمل الرشيد على الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه خراسان، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً من خراسان.
ورتّب الرشيد بدرب الحدث: عبد الله بن مالك.
وبمرعش: سعيد بن سلم بن قتيبة.
فأغارت الروم عليها، فأصابوا من المسلمين وانصرفوا، ولم يتحرك سعيد من موضعه وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس. =

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة

وفيها: شخص هرثمة بن أعين إلى خراسان والياً عليها.

وكان ذلك في اليوم السادس، اليوم الذي كتب له الرشيد عهده، وشيَّعه الرشيد ووصاه بما احتاج إليه.

فمضى وبعث إلى علي في الظاهر أموالاً وسلاحاً وطيباً، حتى إذا نزل بنيسابور، جمع جماعة من فصحاء أصحابه، وأولي السن والتجربة منهم، فدعا كل رجل منهم سرًّا، وخلا به، ثم أخذ عليهم العهود والمواثيق أن يكتموا أمره ويطووا سِره.

وولى كل رجل منهم كورة على نحو ما كانت منزلته عنده [٦٧/أ] وأمر كل رجل منهم بعد أن رفع إليه عهده بالمسير إلى عمله ولاه على أخفى الحالات وأسترها، والتشبُّه بالمختارين في ورودهم إلى الوقت الذي سمى لهم.

ثم مضى حتى إذا صار من مرو على مرحلة دعا جماعة من ثقات أصحابه، وكتب لهم أسماء ولد علي بن عيسى، وأهل بيته وكتابه وغيرهم في رقاع، ودفع إلى كل رجل منهم وقعهم باسم مَن [يريد أن][1] يحفظه إذا هو دخل عليه مرو خوفاً من أن يهربوا إذا ظهر أمره.

ثم وجّه إلى علي بن عيسى إني أحب لأمير المؤمنين[2] أكرمه الله أن يوجه ثقاته لقبض ما معي من أموال ففعل فإنه إذا تقدمني المال كان أروح لقلبي وأفت في عضد أعدائه، وأجدر أن لا يشيع به الخبر، وأيضاً فإني لا آمن عليه إن خلفته وراء ظهري أن يطمع فيه بعض مَن تسمو نفسه أن يقطع بعضه ويغتنم غفلتنا عند دخول المدينة.

= وأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من رمضان، وعاد إلى الرقة.

وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم، وركوبهم.

وأمر هرثمة ببناء طرسوس، وتمصيرها، ففعل، وتولّى ذلك فرج الخادم بأمر الرشيد.

وسيَّر إليها جنداً من أهل خراسان ثلاثة آلاف، ثم أشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة، وألفاً من أهل أنطاكية، وتمّ بناؤها سنة اثنتين وتسعين ومائة، وبنى مسجدها.

وحجّ بالناس هذه السنة: الفضل بن العباس بن محمد بن علي، وكان أميراً على مكة.

وكان على الموصل: محمد بن الفضل بن سليمان.

وفيها: توفي الفضل بن موسى السيناني أبو عبد الله المروزي مولى قطيعة، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة.

(السِيناني)... منسوب إلى سينان وهي: قرية من قرى مرو.

(١) ما بين المعقوفين موضعه بياض بالمخطوط، وأثبت ما يناسب السياق.

(٢) في المخطوط: إن أحب أمير المؤمنين. وقد صوّبت ما أصابه التحريف، وإن كنت أرى أن بدل أمير المؤمنين فقط أو للأمير. حيث ليس هو أمير المؤمنين وإنما هو والي خراسان ويخاطب بالأمير.

فوجّه علي بن عيسى جهابذته، وفهارمته لقبض المال.

وقال هرثمة لخزّانه اشغلوهم هذه الليلة، واعتلُّوا عليهم بعلة تقرب من أطماعهم، وتزيل الشك عن قلوبهم، ففعلوا.

وقال لهم الخزّان: حتى نؤامر أبا حاتم في دواب المال والبغال.

ثم ارتحل نحو مدينة مرو، فلما صار منها على ميلين تلقاه علي بن عيسى في ولده، وأهل بيته، وقوّاده بأحسن لقاء وآنسه، فلما وقعت عين هرثمة عليه ثنى رجله لينزل عن دابته.

فصاح علي بن عيسى: والله لئن نزلت لأنزلن.

فثبت على سرجه ودنا كل واحد من صاحبه فاعتنقا، وصار علي يسأل هرثمة عن أمرة الرشيد وحاله وهيئته، وحال خاصته، وقواده، وأنصار دولته، وهرثمة يجيبه حتى إذا صار إلى قنطرة لا يجوزها إلاّ فارس، فحبس هرثمة لجام دابته وقال لعلي: سر على بركة الله تعالى، فقال علي: لا والله لا أفعل حتى تمضي أنت.

فقال: إذاً والله لا أمضي وأنت الأمير، وأنا الوزير.

فمضى وتبعه هرثمة حتى دخلا مرو وسارا إلى منزل علي، ورجاء الخادم ما يفارق هرثمة في ليل ولا نهار، ولا ركوب ولا جلوس.

فدعا علي بالغداء فطعما وأكل رجاء الخادم معهما، وكان عازماً أن لا يأكل معهما، فغمزه هرثمة.

فلما رفع الطعام قال له علي: قد أمرت أن يفرغ لك قصر علي الماشان، فإن رأيت تسير إليه فعلت.

فقال له هرثمة: معي من الأمور ما لا يحتمل تأخير المناظرة فيها.

ثم أومأ إلى رجاء الخادم وقال: ادفع الكتاب إليه.

فأخرج رجاء كتاب الرشيد إليه فدفعه إليه وأبلغه رسالة.

فلما فضّ الكتاب فنظر في أول حرف فيه سقط في يده، وعلم أن قد حلّ به ما يحذره.

ثم أمر هرثمة بتقييده، وتقييد ولده، وكتابه، وعماله.

وقد كان حصل عنده ثقاته وجهابذته وخزّانه، ووكل به كما حكينا قبل دخوله مرو.

وكان معه رجل يصحبه وقر قيود وأغلال، فلما استوثق منه سار إلى المسجد الجامع، فخطب وبسط من آمال الناس، وأخبر أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى

إليه من سوء سيرة الفاسق علي بن عيسى، وما أمرني به وفي أعوانه من كل ما سأنتهي إليه، ومن أنصاف العامة والخاصة وحملهم على الحق وأمر بقراءة عهده عليهم.

فأظهر الناس السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم، وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم، وأكثروا الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء.

ثم انصرف ودعا بعلي بن عيسى، وولده، وعماله، وكتّابه فقال: اكفوني مؤنتكم، واعفوني من الإقدام بالمكروه عليكم.

ونادى في أصحاب ودائعهم براءة الذمة من رجل كانت لعلي عنده وديعة ولأحد من وله أو كتّابه أو عماله فأخفاها ولم يظهر عليها.

فأحضره الناس ما كانوا أودعوا، إلاّ رجلاً من أهل مرو وكان من أبناء المجوس فإنه لم يزل يتكلّف للوصول إلى علي حتى صار إليه فسر إليه وقال: لك عندي مال، فإن احتجت إليه احتملته إليك أو لأوليائك، وصيّرت للقتل إيثاراً [٦٧/ب] للوفاء وطلباً للجميل من الثناء، وإن استغنيت عنه حبسته عليك حتى ترى فيه رأيك.

فتعجب عليه منه وقال: لو اصطنعت مثلك قوماً مع طمع فيّ السلطان ولا الشيطان أبداً.

ثم سأل عن قيمة ما عنده.

فذكر أنه أودعه مالاً وثياباً ومسكاً، وأنه لا يدري قيمة ذلك، غير أن ما أودعه بختمه وأنه محفوظ لم يشذ منه شيء.

فقال له: دعه، فإن ظهر عليه ونجوت بنفسك، وإن سلمت به رأيت فيه رأيي وجزاه الخير وشكر له فعله ذلك أحسن شكر، وكافأه عليه وبره، وكان يضرب به المثل وبوفائه.

فذكر أنه لم يشذ على هرثمة من مال علي بن عيسى إلاّ ما كان أودعه هذا الرجل، وكان يقال له: العلاء بن ماهيار.

فاستنطف هرثمة ما وراء ظهورهم حتى حلي نسائهم، وحتى إن الرجل كان يضرب يده إلى مغائر المرأة وأرفاغها فيطلب فيها ما يظن أنها قد سترته.

فلما أحكم هذا كله وجّه علي بعير في وطاء تحته، في عنقه سلسلة، وفي رجليه قيود ثقال، ما يقدر معها على نهوض واعتمال.

ويقال: إنه لما فرغ هرثمة من مطالبة علي بن عيسى وأولاده، أقامهم لمظالم الناس وكان إذا برز الرجل [له][1] عليه حق أو على أحد أولاده وأصحابه قال: أخرج

(١) زيادة يتطلّبها السياق.

للرجل من حقه وإلاّ بسطت عليك العذاب.

فيقول علي: أصلح الله الأمير أحبلني[1] يوماً أو يومين.

فيقول: ذاك إلى صاحب الحق فإن شاء فعل..

فيقبل[2] على الرجل فيقول: أترى أن تدعه؟

فإن قال: نعم.

[قال][3]: فانصرف وعد إليه.

فيبعث علي إلى العلاء بن ماهيار فيقول: صالح فلاناً عني من كذا وكذا على كذا وكذا، وعلى ما رأيت، فيصالحه، ويصلح أمره.

وذكر أنه قام إلى هرثمة رجل فقال: أصلح الله الأمير: إن هذا الفاجر أخذ مني ورقة تنبيتية لم يملك أحد مثلها فاشتراها على كره مني، ولم أرد بيعها بثلاثة آلاف درهم، فأتيت قهرمانه أطلب ثمنها فلم يعطني، فأقمت حولاً أنتظر ركوبه، فلما ركب عرضت له وصحت: أيها الأمير، أنا صاحب الدرقة، ولم آخذ لها ثمناً إلى هذه الغاية. فقذف أي ولم يعطني حقي فخذ لي بحقي من ماله، قذفه أمي.

فقال: لك بينة؟

قال: جماعة حضروا كلامه، وأحضرهم، فشهدوا على دعواه.

فقال هرثمة: وجب عليك الحد.

قال: ولِمَ؟

قال: بقذفك أم هذا.

قال: فمَن فهَّمك وعلَّمك هذا؟

قال: هذا دين المسلمين.

قال: فأشهد أن أمير المؤمنين قذفك غير مرة ولا مرتين، وأشهد أنك قد قذفت بنتك ما لا أُحصي مرة حاتماً ومرة أعير، فمَن يأخذ لهؤلاء بحدودهم منك؟ ومَن يأخذ من مولاك؟

قال: فالتفت هرثمة إلى صاحب الدرقة، فقال: أرى لك أن تطالب هذا الشيطان

---

(١) في المخطوط: أجني، وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: فقبل، وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.

بدرقتك أو ثمنها، وتترك مطالبته بقذف أمك[1].

---

(١) هذا ما ذكر المؤلف رحمنا الله وإياه في أحداث تلك السنة، وذكر ابن الأثير في أحداثها في الكامل غير هذا غير أنه لم يذكر فيها ذلك الحدث، فقال فيما ذكر فيها:
فيها: سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث ـ وكان مريضاً ـ واستخلف على الرقة ابنه القاسم وضمّ إليه خزيمة بن خازم.
وسار من بغداد إلى النهروان لخمس خلون من شعبان، واستخلف على بغداد ابنه الأمين.
وأمر المأمون بالمقام ببغداد.
فقال الفضل بن سهل للمأمون حين أراد الرشيد المسير إلى خراسان لست تدري ما يحدث بالرشيد وبخراسان ولايتك، ومحمد الأمين المقدم عليك، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة، وأخواله بنو هاشم وزبيدة وأموالها.
فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه.
فطلب إليه ذلك، فأجابه بعد امتناع فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبري فقال له: يا صباح لا أظنك تراني أبداً، فدعا، فقال: ما أظنك تدري ما أجد.
قال الصباح: لا والله، فعدل عن الطريق واستظلّ بشجرة، وأمر خواصه بالبُعد، فكشف عن بطنه، فإذا عليه عصابة حرير حوالى بطنه.
فقال: هذه علة أكتمها الناس كلهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين، وما منهم أحد إلاّ وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري وإن أردت أن تعلم ذلك، فالساعة أدعو بدابة، فيأتوني بدابة أعجف قطوف، لتزيد بي علتي فاكتم عليّ ذلك.
فدعا له بالبقاء، ثم طلب الرشيد دابة فجاؤوا بها على ما وصف، فنظر إلى الصباح وركبها.
وفيها: تحركت الخرمية بناحية آذربيجان فوجّه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف، فقتل وسبى وأسر، ووافاه بقرماسين.
فأمره بقتل الأسرى، وبيع السبي.
وفيها: قدم يحيى بن معاذ على الرشيد بأبي النداء فقتله.
وفيها: فارق جماعة من القواد رافع بن الليث، وساروا إلى هرثمة منهم: عجيف بن عنبسة وغيره.
وفيها: استعمل الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك، وغزا، فافتتح مطمورة.
وفيها: كان الفداء بالبذندون.
وفيها: خرج ثروان الحروري بطف البصرة فقاتل عامل السلطان بها.
وفيها: مات عيسى بن جعفر بن المنصور بالدسكرة، وهو يريد اللحاق بالرشيد.
وفيها: قتل الرشيد الهيصم الكناني.
وحجّ بالناس هذه السنة: العباس بن عبد الله بن جعفر بن المنصور.
وفيها: كان وصول هرثمة إلى خراسان كما تقدّم، وحصر هرثمة رافع بن الليث بسمرقند، وضايقه، واستقدم طاهر بن الحسين، فحضر عنده، وخلت خراسان لحمزة الخارجي حتى دخلها وصار يقتل ويجمع الأموال ويحملها إليها عمال هراة، وسجستان.
فخرج إليه عبد الرحمٰن النيسابوري فاجتمع إليه نحو عشرين ألفاً، فسار إلى حمزة فقاتله قتالاً شديداً، فقتل من أصحاب حمزة خلقاً، وسار خلفه حتى بلغ هراة وكان ذلك سنة أربع وتسعين، فكتب إليه المأمون فردّه، وأدام هرثمة على حصار سمرقند حتى فتحها على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وقتل رافع بن الليث وجماعة من أقاربه، واستعمل على ما وراء النهر ابن يحيى =

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

وفيها: قدم هارون من الرقة إلى مدينة السلام، واستخلف ابنه محمداً بمدينة السلام، واستخلف ابنه القاسم بالرقة وضمّ إليه خزيمة بن خازم، فأشار ذو الرئاستين على المأمون أن يطلب إلى الرشيد في أن يشخصه معه(١).

ذكر رأي سديد رآه ذو الرئاستين

قال له إن أمير المؤمنين شاخص لحرب رافع ولا ندري ما يحدث به، وخراسان ولايتك، ومحمد المقدم عليك، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك، وهو ابن زبيدة، وأخواله بنو هاشم، وزبيدة وأموالها.

فاطلب إليه أن يشخصك معه.

فسأله الإذن، فأبى.

فقال له: عُدْ إليه، وقل له: أنت عليل، وإنما أردت أن أخدمك، ولست أكلفك شيئاً من مؤني، فأذن له.

ذكر منام عجيب رآه الرشيد

قال جبريل بن بختيشوع: كنت مع الرشيد بالرقة، وكنت أول مَن يدخل كل غداة، أتعرَّف أحواله في ليلته، فإن أنكر شيئاً وصفه، وربما انبسط، فحدثني بما عمله في ليلته، ومقدار شربه، وجلوسه، ويسألني عن أخبار العامة.

فدخلت [٦٨/أ] يوماً فلم يرفع طرفه إليَّ، ورأيته مفكراً مهموماً، فوقفت بين يديه مليًا فلما طال ذلك، أقدمت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك ما حالك؟ أعلة؟ فأخبرني بها فلعل عندي دواءها، أو حادث لا يستطاع دفعه فليس إلا التسليم والعمر لا دل فيه، أو فتق ورد عليك في ملكك، فلم يخل الملوك من ذلك، فتروح بالمشورة.

فقال: ويحك يا جبريل لِيس بي شيء مما ذكرت، ولكن رؤيا رأيتها في ليلتي

= فعاد، وكان قتله رافعاً سنة خمس وتسعين.
وفي هذه السنة: توفي عبد الله بن إدريس بن يزيد الأودي الكوفي.
ويوسف بن أبي يوسف القاضي.
وفيها: كان الفداء الثاني بين المسلمين والروم، وكان القيِّم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي. وكان عدة الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير.

(١) يلاحظ أن تلك الأحداث قد ذكرها ابن الأثير ضمن أحداث السنة السابقة لهذه في الكامل، وقد ذكرتها بالهامش هناك، وأشار إلى خبر هرثمة إشارة مقتضية جدًا فيها.
وذو الرئاستين هو الفضل بن سهل وسمي بذلك لتولِّيه الوزارة مرتين.

هذه، قد أفزعتني وملأت صدري.

قال: فرجعت عني يا أمير المؤمنين، ودنوت فقبلت رجله، فقلت: أهذا الغمّ كله لرؤيا، وإنما تكون من خاطر تقدم أو بخارات رديئة من أطعمة وأخلاط، ومن تهاويل السوداء.

قال: فأقصها عليك، رأيت كأني جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفه، وكف أعرفها ولا أفهم اسم صاحبها، وفي الكف تربة حمراء.

فقال قائل أسمعه ولا يرى شخصه: هذه التربة التي تدفن فيها.

فقلت: وأين هي؟

قال[١]: بطرسوس، وغابت اليد، وانقطع[٢] الكلام، وانتبهت.

فقلت: يا سيدي والله هذه رؤيا بعيدة ملبسة، أظنك أخذت مضجعك ففكرت في أمر خراسان، وفي حروبها، وما ورد عليك من انتقاض بعضها.

قال: قد كان ذلك.

قلت: فذلك الفكر وَلَّد هذه الرؤيا فلا تحفل بها جعلني الله فداك، واتبع هذا الهم سروراً يخرجه من قلبك ولا يولد علة[٣].

قال: فما برحت أطيِّب نفسه بضروب من الحِيَل حتى سلا وانبسط، وأمر بإعداد ما يشتهيه ويزيد في ذلك اليوم في لهوه.

ومرت الأيام ونسي ونسينا تلك الرؤيا ثم رحل الرشيد، وكان أهمّ هرثمة بن أعين فوجّه ابنه المأمون قبل وفاته بثلاثة وعشرين ليلة، ومعه: عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد بن مزيد، وجماعة أمثالهم.

وابتدأ بهارون المرض، وكانت بين هرثمة وأصحاب رافع وقعة ففتح فيها بخارى، فأسر أخاً لرافع يقال له: بشر بن الليث، فبعث به إلى الرشيد، وقد بلغ طوس.

---

(١) في المخطوط: قلت. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: وانقطعت: وهو تحريف.

(٣) قلت الرؤيا حق، وبختيشوع طبيب نصراني وقد ألفت في الرؤيا كتاب أسميته: «فتح العلاّم في تفسير أحلام هذه الأيام» ومشهور تجاريًا باسم: «منتهى الكلام في تفسير الأحلام» تعرضت فيه لتأويل الرؤى العصرية ولما استجدّ في حياتنا من المخترعات كالساعات والأجهزة الكهربائية والألعاب الرياضية والسيارات وما شابه ذلك، ويترجم الكتاب الآن إلى اللغة الإنجليزية، والمقصود أن الرؤيا حق فلا يغتر مغتر بأقوال أعداء الإسلام كفرويد وغيره وقد علمنا جميعاً رؤيا إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ورؤيا فرعون موسي وملك يوسف عليهما السلام والأذان والسعي بين الصفا والمروة ومناسك الحج ما بني أغلبها إلاّ على الحج.

قال: فأُدخل إليه وهو على سرير في بستان وفي يده مرآة ينظر فيها، وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وكأنه كان أنكر شيئاً من لونه، ثم رفع رأسه إلى أخي رافع، وقال: أما والله يا ابن اللخناء إني لأرجو أن لا يفوتني حامل بريد رافعاً كما لم تفتني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، قد كنت لك حرباً وقد أظفرك الله بي، فافعل ما تحب من العفو والصفح، ولعل الله يليِّن قلب رافع إذا علم أنك قد مننت عليّ.

فغضب وقال: لو لم يبقَ من أجلي إلاّ أن أحرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوه، ثم دعا بقصاب فقال: لا تشحذ مديتك، اتركها على حالها، وفَصِّل أعضاء هذا الفاسق وعجِّل، ولا يحضرن أجلي وعضواً من أعضائه في جسمه.

ففصله حتى جعله أشلاءً.

فقال: عُدُّوا أعضاءه.

فإذا هي أربعة عشر فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم كما مكنتني من ثأرك وعدوك فبلغت فيه رضاك، فمكِّنّي من أخيه.

ثم أغمي عليه وتفرّق مَن حضره.

قال جبريل: فلما أفاق ذكر تلك الرؤيا فوثب متحاملاً يقوم ويسقط، فاجتمعنا إليه كل يقول: يا سيدي ما حالك؟ وما دهاك؟ وليس يخطر لأحد منا تلك الرؤيا ببال.

فقال: يا جبرائيل تذكر رؤياي بالرقة في طوس؟ هذه واجبتها، تلك التربة، ثم رفع رأسه إلى مسرور فقال: جئني من تربة في كفه حاسراً عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه والله الكف بعينها، وهذه والله التربة الحمراء بعينها ما خرمت شيء.

وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثالثة، ودُفن في ذلك البستان.

وتحدّث سهل بن صاعد قال:

كنت عند الرشيد في اليوم الذي قبض فيه مع خواصه، وجعل يجود بنفسه ويقاسي كرب الموت، فدعا بملحفة، فاحتبى بها فنهضت.

فقال لي: اقعد يا سهل.

فقعدت وجهل يكلمني [٦٨/ب] والملحفة تنحل فيعيد الاختباء بها، فلما طال جلوسي نهضت.

فقال لي: يا ابن أبي سهل [أقعد](١).

فقلت: يا أمير المؤمنين ما يتسع قلبي أن أراك [و](١)ما تعاني من العلة، فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين كان أودع لك.

قال: فضحك، ضحك صحيح، ثم قال: يا سهل، إني أذكر في هذا الحال قول الشاعر:

وإني لمن قوم كرام يزيدهم ... شماساً وصبراً وشدة الحدثان

وتوفي ليلة الأحد غرة جمادى الأولى.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين.

وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر، [وخمسة](٢) أيام.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة من الكامل، وقال:
وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً.
وقيل: ملك ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وشهراً وستة عشر يوماً... وكان في بيت المال لما توفي تسعمائة ألف ونيف.
ومما ذكر ابن الأثير في وفاته وقصتها ما يلي:
وفي هذه السنة: مات الرشيد أول جمادى الآخرة لثلاث خلون منه، وكانت قد اشتدت علّته بالطريق بجرجان، فسار إلى طوس فمات بها...
وقال أبو جعفر: لما سار الرشيد عن بغداد إلى خراسان بلغ جرجان في صفر ـ وقد اشتدّت علته ـ فسيَّر ابنه المأمون إلى مرو وسيَّر معه من القوّاد: عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد، والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، والسندي الحرشي، ونعيم بن حازم.
وسار الرشيد إلى طوس، واشتد به الوجع حتى ضعف عن الحركة، فلما أثقل أرجف به الناس، فبلغه ذلك، فأمر بمركوب ليركبه ليراه الناس، فأُتي بفرس فلم يقدر على النهوض فأُتي ببرذون فلم يطق النهوض، فأُتي بحمار، فلم ينهض.
فقال: ردُّوني، ردُّوني صدق والله الناس.
ووصل إليه بطوس بشير بن الليث أخو رافع أسيراً.
فقال الرشيد: والله لو لم يبقَ من أجلي إلاّ أن أحرك شفتي بكلمة لقلت: اقتلوه ثم دعا بقصّاب، فأمر به ففصل أعضاءه، فلما فرغ منه، أغمي عليه، وتفرّق الناس عنه.
فلما آيس من نفسه أمر بقبره، فحضر في موضع من الدار التي كان فيها، وأنزل إليه قوماً فقرأوا فيه القرآن حتى ختموا، وهو في محفة على شفير القبر يقول: ابن آدم تصير إلى هذا.
وكان يقول في تلك الحال: واسوأتاه من رسول الله ﷺ.
وقال الهيثم بن عدي: لما حضرت الرشيد الوفاة غشي عليه، ففتح عينيه منها فرأى الفضل بن الربيع على رأسه فقال: يا فضل:

أحين دنا ما كنت أرجو دُنُوَّهُ ... رمتني عيون الناس من كل جانبِ
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً ... فصبراً على مكروه أمن العواقبِ
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا ... وأندب أيام السرور الذواهبِ

وكان جميلاً وسيماً، جعداً، قد خطّه الشيب.

ذكر بعض سيرة الرشيد ومستحسن أخباره

ذكر عن يحيى بن خالد: أنه ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج بالسواد فدخل إلى الرشيد فودّعه، وعنده يحيى، وجعفر، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه.

فقال له يحيى: وفر وأعمر.

وقال له جعفر: أنصف وانتصف.

فقال له الرشيد: اعدل واحمل.

وحكى بعض حجبة البيت قال: لما حجّ الرشيد دخل الكعبة وقام على أصابعه وقال:

«يا مَن يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك ردًّا حاضراً وجواباً عتيداً، ولكل صامت منك علم محيط باطن، مواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة صلِّ على محمد وآله، واغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا، يا مَن لا تضره العيوب، ولا تخفى عليه الغيوب، ولا تنقصه مغفرة الذنوب، يا مَن خشعت له الأصوات بألوان اللغات يسألونك الحاجات، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفيتني وصرت في لحدي، وتفرَّق عني أهلي وولدي، اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق، اللهم صلِّ على محمد وآله صلاة تكون لك رضاء، وصلِّ على محمد صلاة تكون له جزاء، وأجزه عنا الجزاء الأوفى، اللهم أحينا سعداء، وتوفَّنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين.

وذكر الفضل بن الربيع: أن الرشيد أمره أن يحضر ابن السماك ليعظه، قال: وأحضرته، واستأذنته في الدخول إليه، فقال: أدخله.

فلما دخل قال له: عظني.

قال: يا أمير المؤمنين، اتقِ الله وحده لا شريك له، واعلم أنك موقوف غداً بين يدَي ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار.

فبكى هارون حتى اخضلت لحيته.

فأقبل الفضل على ابن السماك، فقال: يا سبحان الله، وهل يتخالج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله تعالى لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفعله.

قال: فلم يحمل بذلك ابن السماك، ولم يتلفت إليه، وأقبل على الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا ـ يعني الفضل بن الربيع ـ ليس والله معك ولا عندك في ذلك

اليوم، فاتقِ الله وانظر لنفسك.

قال: فبكى هارون حتى أشفقنا عليه، وأفحم الفضل، فلم ينطق بحرف.

واستدعي يوماً آخر: فبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد ماءً، فلما حمل إليه وأهوى بالإناء إلى فيه، قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين، بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟

قال: بنصف ملكي.

قال: اشرب هنَّاك الله.

فلما شربها قال: فأسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟

قال: بجميع ملكي.

قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير أن لا ينافس فيه.

فبكى هارون حتى أشار الفضل إلى ابن السماك بالانصراف، فانصرف.

وذكر بعضهم أنه كان مع الرشيد بالرقة: فخرج يوماً إلى الصيد، فعرض له رجل من النسَّاك، فقال: يا هارون اتقِ الله.

فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك: خذ هذا الرجل إليك حتى أنصرف.

فلما رجع دعى بغدائه، ثم أمر أن يطعم[١] [الرجل][٢] من خاصة طعامه، فلما أكل وشرب دعا به [فقال][٢] تصغي في المخاطبة والمسألة؟

قال: ذلك أقل ما يجب[٣].

قال: فأخبرني [٦٩/أ] أنا امرؤ أخبث أم فرعون؟

قال: [فرعون][٢] قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

قال: صدقت، فأخبرني[٤]، فمَن خير أنت أم موسى بن عمران؟

قال: موسى بن عمران كليم الله وصفيه اصطفاه لنفسه وائتمنه على وحيه وكلَّمه بين خلقه.

---

(١) في المخطوط: يطمع. وهو تحريف.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في المخطوط: تحب. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: قبلها كلمة: «قال» وهي زائدة على السياق فحذفتها.

قال: صدقت، أفما تعلم أنه لما بعثه الله وأخاه إلى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ فذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنياه، وهذا هو في عتوه وجبروته على ما قد علمت، وأنا بهذه الحال الذي علمت أؤدي أكثر الفرائض علي، ولا أعبد أحداً سواه وأقف عند أكثر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأبشعها وأخشن الكلام وأقطعه، فلا بأدب الله تأدّبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يومئذ أن أسطو بك، فإذا أنت عرضت نفسك لما كنت عنه غنيًّا.

فقال له الزاهد: أخطأت يا أمير المؤمنين، وأنا أستغفر الله.

قال: غفر الله لك، وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها.

وقال: لا حاجة لي في الأموال أنا رجل سائح.

فقال هرثمة وزجره: ترد على أمير المؤمنين يا جاهل صلته؟!

فقال الرشيد: أمسك عنه، ثم قال: لم نعطِ هذا المال لحاجتك، ولكن من عادتنا أن لا يخاطب الخليفة أحداً ليس من أوليائه ولا من أعدائه إلاّ وصله ومنحه، فأقبل من صلتنا ما شئت وضعها حيث أحببت.

فأخذ من المال ألفي درهم وفرقها على الحجّاب ومَن حضر الباب.

وحكي:

أن الرشيد قال يوماً لابنه القاسم، وقد دخل عليه: أليس[1] المأمون بعض لحمك هذا؟

فقال: ببعض حظه.

وقال يوماً للقاسم قبل البيعة: قد أوصيت بك الأمين والمأمون.

فقال: أما أنت يا أمير المؤمنين فقد توليت النظر لهما، ووكلت النظر [في][2] إلى غيرك.

ومات هارون وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيف.

وكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد بطوس إلى سلام ـ مولاه وخليفته ببغداد ـ على البريد، وعلى الأخبار يعلمه وفاة الرشيد: فدخل محمد، فعزّاه وهَنّأه بالخلافة، وكان أول الناس فعل ذلك.

ثم قدم عليه رجاء الخصي يوم الأربعاء لأربع عشرة خلت من جمادى الآخرة،

---

(١) في المخطوط: ليث. وهو تحريف.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.

وكان أنفد صالح بن الرشيد، فانتقل محمد من قصره بالخلد[١] إلى قصر أبي جعفر بالمدينة وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة.

فحضروا وصلّى بهم، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ونعى الرشيد وعزى نفسه، ووعدهم خيراً، وبسط الأمان للأسود والأبيض[٢]، وبايعه جل أهل بيته، وخاصته، ومواليه، وقوّاده.

ثم دخل، ووكل ببيعته على مَن بقي عنه سليمان بن أبي جعفر[٣].

---

(١) في المخطوط: بالحد. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: اللبيض. وهو تحريف.
(٣) وزاد ابن الأثير فيما ذكر في ذكره لبعض سيرة الرشيد وأخباره وأولاده ونسائه فقال:
قيل: تزوج زبيدة - وهي أم جعفر بنت جعفر بن المنصور - وأعرس بها سنة خمس وستين ومائة، فولدت محمداً الأمين، وماتت سنة ست وعشرين ومائتين. وتزوج أمة العزيز، أم ولد الهادي، فولدت له علي بن الرشيد.
وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين.
وتزوج العباسية بنت سليمان بن المنصور.
وتزوج عزيزة ابنة خاله الغطريف.
وتزوج العثمانية وهي ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وجدة أبيها فاطمة بنت الحسين بن علي.
ومات الرشيد عن أربع مهائر:
زبيدة، وأم محمد بنت صالح، وعباسية، والعثمانية.
وكان قد ولد له من الذكور: محمد الأمين من زبيدة.
وعبد الله المأمون لأم ولد اسمها مراجل.
والقاسم المؤتمن.
وأبو إسحاق محمد المعتصم.
وصالح، وأبو عيسى محمد، وأبو يعقوب محمد، وأبو العباس محمد، وأبو سليمان محمد، وأبو علي محمد، وأبو محمد وهو اسمه، وأبو أحمد محمد. كلهم لأمهات أولاد.
وله من البنات:
سكينة، وأم أروى، وأم الحسن، وأم محمد وهي حمدونة، وفاطمة، وأم أبيها، وأم سلمة، وخديجة، وأم القاسم، ورملة، وأم جعفر، وأم علي، والغالية، وريطة، كلهن لأمهات أولاد.
قيل: كان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلاّ من مرض.
وكان يتصدّق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته.
وكان إذا حجّ، حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم فإذا لم يحج أحد ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة، والكسوة الطاهر.
وكان يطلب العمل بآثار المنصور إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال.
وكان يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك.
وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب، والفقه، ويكره المراء في الدين.
وكان يحب المديح لا سيما من شاعر فصيح، ويجزل العطاء عليه.
ولما مدحه عمران بن أبي حفصة بالقصيدة التي منها: =

....

وسدت بهارون الثغور فأحكمت — به من أمور المسلمين المرائر

أعطاه خمسة آلاف دينار وخلعه، وعشرة من الرقيق الرومي، وبرذوناً من خاص مركبه.

وقيل: كان مع الرشيد ابن أبي مريم المديني، وكان مضحاكاً فكهاً، يعرف أخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف، ومكايد المجّان.

وكان الرشيد لا يصبر عنه، وأسكنه في قصره، فجاء ذات ليلة وهو نائم، فقام الرشيد إلى صلاة الفجر، فكشف اللحاف عنه، فقال: كيف أصبحت؟

فقال: ما أصبحت بعد اذهب إلى عملك.

قال: قم إلى الصلاة.

قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف.

فمضى الرشيد يصلي، وقام ابن أبي مريم وأتى الرشيد، فرآه يقرأ في الصلاة: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فقال: ما أدري والله؟

فما تمالك الرشيد، أن ضحك، ثم قال، وهو مغضب: في الصلاة أيضاً؟!

قال: ما صنعت؟!

قال: قطعت عليَّ صلاتي.

قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك: كلام غمني حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فقلت: لا أدري.

فعاد الرشيد الضحك، ثم قال له: إياك والقرآن، والدين، ولك ما شئت بعدهما.

وقيل: لما مات وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس عليه من القول بخلق القرآن، قالوا: الشيخ أعلم بما تكلم به.

وقال محمد بن منصور البغدادي:

لما حبس الرشيد أبا العتاهية جعل عليه عيناً يأتيه بما يقول، فرآه يوماً قد كتب على الحائط:

أما والله إن الظلم لؤم — وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديّان يوم الدين نمضي — وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى، وأحضره واستحلّه، وأعطاه ألف دينار.

وقال الأصمعي:

صنع الرشيد يوماً طعاماً كثيراً، وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية وقال له: صنف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال:

عش ما بدا لك سالماً — في ظل شاهقة القصور

فقال: أحسنت، قال: ثم ماذا؟

قال:

يُسعى عليك بما اشتهيـ — ـت لدى الرواح وفي البكورِ

قال أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت — في ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقناً — ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد.

وقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره، فأحزنته.

فقال: دعه، فإنه رآنا في عَمَى فكره أن يزيدنا.

خلافة الأمين العباسي

وفي هذه السنة: بدأ الخلاف بين الأمين والمأمون وعزم كل واحد منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان ولاهما هارون، وأخذ عليهم بالعمل به في الكتاب الذي ذكرناه أنه كان كتب بينهما.

ذكر السبب الذي أوجب اختلافهما

كان الرشيد جدّد حين شخص إلى خراسان البيعة للمأمون على القوّاد الذين معه، وأشهد مَن معه من القوّاد وسائر الناس غيرهم: أن جميع مَن معه من القوّاد والجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من المال والسلاح وآلة وغيره ذلك للمأمون.

فلما بلغ محمد الأمين أن أباه قد اشتدت علته، وأنه لمائت بعث مَن يأتيه بخبره في كل يوم، وأرسل بكر بن المعتمر وكتب معهُ كتباً، وجعلها في قوائم صناديق[1] وألبسها جلود البقر، وقال: لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه ولا على ما معك ولو قتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات فادفع إلى كل إنسان منهم كتابه.

فلما قدم بكر بن المعتمر طوس، بلغ هارون قدومه، فدعى به، فسأله: ما أقدمك؟ قال: بعثني محمد لأعلمه خبرك وأنبه به.

قال: فهل معك [كتاب][2]؟

قال: لا.

فأمر بما معه ففتش فلم يصيبوا معه شيئاً، فهدده بالضرب، فلم يُقر بشيء، وأمر به فحُبس به وقُيِّد.

فلما كان في الليلة التي مات فيها هارون أمر الفضل [بن الربيع بتقريره، فإن أقر، وإلا أضرب عنقه، فقرره فلم يقر بشيء، ثم غشي على الرشيد، فصاح النساء، فأمسك الفضل عن قتله][3] وسار إلى [٦٩/ب] هارون ليحضره، ثم أفاق وهو ضعيف، قد

---

(١) في الكامل في قوائم صناديق المطبخ وكانت منقورة.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل، واحتمال سقوطها من المخطوط راجح.

شغل عن بكر وعن غيره لحس الموت.

ثم غشي عليه غشية أخرى، وارتفعت الصيحة، فأرسل بكر بن المعتمر برقعة إلى[١] الفضل بن الربيع يسأله أن لا تعجلوا بأمري، ويُعلم أن معه أشياء يحتاجون إلى عملها.

وكان بكر محبوساً عند حسين الخادم، فلما توفي هارون، دعا الفضل ببكر في الوقت والساعة، فسأله عما عنده، فأنكر أن يكون عنده شيء، وخشي على نفسه من أن يكون هارون حيًّا حتى صحّ عنده موت هارون، وأدخله.

فأخبره أن عنده كتباً من أمير المؤمنين محمد وأنه لا يجوز له إخراجها وهو على حاله [هذه][٢] من قيوده وحبسه، فأطلقه الفضل.

فأتاهم بالكتب من قوائم المطابخ المجلَّدة بجلود البقر، فدفع إلى كل إنسان منهم كتابه، وكان في تلك الكتب:

من محمد بن هارون إلى الحسين الخادم بخطه يأمره بتخلية سبيل بكر بن المعتمر، وإطلاقه، فدفعه إليه.

وكتاب إلى المأمون، فاحتبس كتاب المأمون عنده[٣]، لتغيبه بمرو.

فأرسلوا إلى صالح [بن][٣] الرشيد، وكان مع أبيه بطوس، وكان أكبر يحضر هارون من ولده.

فأتاهم في تلك الساعة فسألهم عن أبيه هارون فأعلموه، فجزع جزعاً شديداً، فدفعوا إليه كتاب أخيه الذي جاء به.

وكان الذين حضروا وفاة هارون هم الذين وُلُّوا غسله وتجهيزه.

وصلّى عليه ولده صالح.

ولما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس من القوّاد والجند وأولاد هارون، فشاوروا في اللحاق بمحمد وأحبُّوه لأجل أهليهم ومنازلهم.

---

(١) في المخطوط: مع، وهو تحريف.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) جاء في الكامل: وكتاب إلى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع، وأخذ البيعة على الناس لهما، ولأخيهما المؤتمن، ولم يكن المأمون حاضراً كان بمرو.
وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه، وأن يتصرف هو ومَن معه برأي الفضل.
وكتاب إلى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك.
وأقرّ كل مَن كان إليه عمل كصاحب الشرطة، والحرس، والحجابة.
فلما قرأوا الكتب تشاوروا هم والقواد في اللحاق بالأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره.

وقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما يُدرى ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل.

فوافقهم ذلك وسُرُّوا به، وتركوا العهود التي أخذت عليهم للمأمون.

فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون بمرو، فجمع مَن معه من قواد أبيه، وكان فيهم: عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وشبيب بن حميد بن قحطبة، والعباس بن شبيب بن زهير، وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير.

ومعه من أهل بيته:

عبد الرحمٰن بن عبد الملك بن صالح، وذو الرئاستين [وهو][1] من أعظم الناس قدراً فشاورهم.

ذكر آراء أشير بها على المأمون في تلك الحال

فأشار عليه أكثرهم أن يلحقهم بنفسه في ألفي فارس جريدة فيردهم.

فعمل على ذلك، وسمى له قوماً، فدخل عليه ذو الرئاستين فقال له: إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلك هؤلاء هدية إلى محمد، ولكن الرأي أن تكتب إليه كتاباً وتوجه إليهم رسولاً، فيذكرهم البيعة ويسألهم الوفاء ويحذّرهم الحنث وما يلزمهم في ذلك في الدين والدنيا.

وقال: قلت له: إن كتابك ورسلك تقوم مقامك فتستبرىء ما عند القوم، وتوجه سهل بن صاعد ـ وكان على قهرمته ـ فإنه ما يألك، ويرجو أن ينال أمله، فلن يألوك نصحاً، وتوجه نوفلاً الخادم مولى موسى أمير المؤمنين، وكان عاقلاً.

فكتب كتاباً ووجههما فلحقاهم بنيسابور وقد رحلوا ثلاث مراحل.

قال سهل بن صاعد: فأوصلت إلى الفضل بن الربيع كتابه، فقال: إنما أنا واحد منهم.

قال سهل: فشدَّ عليّ عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري[2] بالرمح، فأمَرَّه على جنبيّ، ثم قال لي: قل لصاحبك: والله لو كنت حاضراً لوضعت الرمح [في][3] فيك هذا جوابي[4].

قال ذو الرئاستين: فقلت للمأمون: أعداء قد استرحت منهم، ولكن أفهم عني ما أقول لك.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: الأناوي. والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) بعدها في الكامل: وسَبَّ المأمون.

إن هذه الدولة لم يكن قط أعز منها أيام المنصور أبي جعفر، فخرج عليه المقنع وهو يدّعي الربوبية.

وقال بعضهم: طلب بدم أبي مسلم، فتضعضع له خروجه من خراسان، ثم كفاه الله المؤنة.

ثم خرج بعده يوسف البرم وهو عند بعض المسلمين كافر، [فتضعضعوا أيضاً له][١] فكفاه الله المؤنة.

ثم خرج أستاذ سيس يدعو إلى الكفر، فسار المهدي من[٢] الري [٧٠/أ] إلى نيسابور فكفوا المؤنة.

ولكن ما صنع أكثر عليك، أخبرني كيف رأيت الناس حينئذ وقد ورد عليهم [خبر رافع][٣]؟ قال: رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً.

قلت: فكيف بك، وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم؟! كيف يكون اضطراب[٤] أهل بغداد؟ اصبر، فأنا أضمن لك الخلافة.

قال: قد فعلت، وجعلت الأمر إليك، فقم به.

قال: فقلت: والله لأصدقنك، إن عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، ومَن سميناه من الرؤساء إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفع لك مني برئاستهم المشهورة، ولما عندهم من القوة على الحرب فمَن قام بالأمر كنت خادماً له حتى يصير إلى محبتك وترى رأيك فيّ.

قال: نعم.

فلقيتهم في منازلهم، وذكرتهم البيعة التي كانت في أعناقهم، وما يجب عليهم من الوفاء فتكرهه الكل.

وقال بعضهم: هذا لا يحل اخرج[٥].

وقال بعضهم: مَن [الذي][٦] يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟

فجئت، فأخبرته، فقال: قم بالأمر.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: إلى. وهو تحريف.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: اضطراباً، وهو تحريف.
(٥) تكررت العبارة في المخطوط فحذفت التكرار.
(٦) زيادة من الكامل.

قال: قلت [له][١]: قد قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقهت في الدين، فالرأي أن تبعث مَن بالحضرة من الفقهاء، فيدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السنّة، وتقعد على اللبود، وترد المظالم.

ففعلنا، وبعثنا إلى الفقهاء، وأكرمنا القواد وأبناء الملوك، فكنا نقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعي: نقيمك مقام أبي داود خالد بن إبراهيم ونقول لليماني: نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم [وكل هؤلاء نقباء الدولة العباسية] حتى استمكن من قلوب الرؤساء والملوك، وحططنا عن خراسان ربع الخراج، فحسن موقع ذاك وسروا به.

وقالوا: ابن أختنا وابن عم رسول الله ﷺ.

قال: فكان شغلنا هذا وأشباهه، فأما الأمين، فإنه أشغل باللعب، وأمر ببناء الميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة، واللعب[٢].

وأخذنا في الجد، ورأى المأمون أن يهادن أخاه، فبعث له بهدية، وتواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم، وأهدى طرف خراسان[٣].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) بعد هذا في الكامل: فقال شاعرهم:

بَنى أمين الله ميدانا وصَيَّر الساحة بستانا
وكانت الغزلان فيه بانا يهدي إليه فيه غزلانا

(٣) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:

في هذه السنة: مات الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في الحبس بالرقة.
وكانت علته أنه أصابه ثقل في لسانه وشقه، فعولج أشهراً فبرأ.
وكان يقول: ما أحب أن يموت الرشيد لأن أمري قريب من أمره.
فلما صحّ من علته، وتحدّث، عادته العِلّة، واشتدت عليه، وانعقد لسانه، وطرفه، فمات في المحرم، وصلّى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه، ثم أخرج فصلّى عليه الناس، وجزع الناس.
وكان موته قبل الرشيد بخمسة أشهر، وهو ابن خمس وأربعين سنة.
وكان من محاسن الدنيا لم يرَ في العالم مثله، ولاشتهار أخباره، وأخبار أهله، وحسن سيرتهم لم نذكرها.
وفيها: مات سعيد الطبري المعروف بالجوهري.
وفيها: دخل هرثمة بن أعين حائط سمرقند، فأرسل رافع بن الليث إلى الترك، فأتوه، وسار هرثمة بن أعين إلى الترك، ثم إن الترك انصرفوا، فضعف رافع.
وفيها: قدمت زبيدة امرأة الرشيد من الرقة إلى بغداد، فلقيها ابنها الأمين بالأنبار ومعه جمع من بغداد من الوجوه، وكان معه إخوة ابن الرشيد.
وفيها: قُتل نقفور ملك الروم في حرب برجان، وكان ملك سبع سنين، وملك بعده ابنه استبراق، وكان مجروحاً فبقي شهرين، ومات.
فملك بعده ميخائيل بن جورجس ختنه على أخته. =

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائة

وفي هذه السنة: عزل محمد الأمين أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون قد ولاّه من عمل: الشام، وقنسرين، والعواصم، والثغور وولى مكانه خزيمة بن خازم وأمره بالمقام بمدينة السلام.

وفيها: تنكّر كل واحد من محمد الأمين، وعبد الله المأمون لصاحبه وظهر الفساد بينهما.

وكان السبب في ذلك: أن الفضل بن الربيع فكّر بعد مقدمه العراق ناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه المأمون فعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً من الدهر وهو حيّ لم يبقَ عليه، وكان في ظفره به عَطَبَه.

فسعى في حث محمد على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده لابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، فأدخل معه في الرأي علي بن عيسى بن[1] ماهان، والسندي وغيرهما فصغَّروا شأن عبد الله المأمون عن الأمين وقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، اخلع عبد الله والقاسم، فإن البيعة كانت لك مقدمة، وإنما ادخلا فيها بعدك.

وعلم المأمون أن عزل الأمين للقاسم أخيه وإقدامه مدينة السلام وأمره بالدعاء لابنه موسى بالإمرة، ومكاتبته الأمصار بذلك تدبير عليه في خلعه[2].

= **وفيها**: عزل الأمين أخاه القاسم المؤتمن عن الجزيرة، وأقرّه على قنسرين، والعواصم واستعمل على الجزيرة خزيمة بن خازم.

وحجّ بالناس هذه السنة: داود بن عيسى بن موسى بن محمد ـ وهو أمير مكة ـ.

وفيها: توفي صقلاب بن زياد الأندلسي ـ وهو من أصحاب مالك ـ وكان فقيهاً زاهداً.

وفي هذه السنة: مات مروان بن معاوية الفزاري.

وقيل: سنة أربع وتسعين في ذي الحجة.

وفيها: توفي إسماعيل ابن علية.

وأبو بكر بن عياش، وله ست وتسعون سنة.

(١) في المخطوط: بعد. وهو تحريف، ودائماً يكتب هنا علي بن عيسى بن هامان، إلا في هذا الموضع فإنه أثبته على ما هو موافق لما في الكامل.

(٢) جاء قبل علم المأمون بعزل المؤتمن في الكامل تفصيل هو أن قال ابن الأثير بعد قوله: أُدخلا فيها بعدك: . . .

فرجع الأمين إلى قولهم، ثم أحضر عبد الله بن خازم، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل.

وكان مما قال عبد الله: أنشدك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه، وردّ رأي الخليفة قبله.

فقال: اسكت فعبد الملك كان أفضل منك رأياً وأكمل نظراً يقول: لا يجتمع فحلان في أجمة.

ثم جمع القوّاد، وعرض عليهم خلع المأمون، فأبوا ذلك، وربما ساعده قوم حتى بلغ خزيمة بن خازم فقال: يا أمير المؤمنين، لم ينصحك مَن كذبك، ولم يغشك مَن صدقك، لا تجرىء =

فقطع البريد عن محمد، وأسقط اسمه من الطرز ودور الضرب.

وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار لما انتهى إليه حسن سياسة المأمون وسيرته في رعيته بعث في طلب الأمان لنفسه، وكان هرثمة يحاربه، فلما طلب الأمان سارع هرثمة إليه.

وخرج رافع ولحق بالمأمون وهرثمة بعد مقيم بسمرقند، فأكرم رافعاً.

وكان مع هرثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين ثم استأذن هرثمة المأمون [٧٠/ب] في القدوم عليه، فأذن له، فتلقاه الناس، وولاه المأمون الحرس.

فأنكر ذلك الأمين، وكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وكان عامل المأمون على الري ـ وهو آخر حرة من خراسان ـ يأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري، وأراد امتحانه.

فبعث إليه بما أمره، وكتم ذلك المأمون، وذا الرئاستين، فبلغ ذلك المأمون، فعزله [بالحسن بن علي المأموني][1].

ثم وجّه الأمين إلى المأمون ثلاثة أنفس رُسلاً أحدهم: العباس بن موسى، والآخر: صالح صاحب المصلى، والثالث: محمد بن عيسى بن نهيك، وكتب معهم كتاباً.

فبلغ الخبر بذلك ذا الرئاستين، فوجّه رسولاً وكتب إلى صاحب الري: أن استقبلهم بالعدة والسلاح الظاهر.

وكتب إلى والي قومس ونيسابور، وسرخس بمثل ذلك، ففعلوا.

ثم وردت الرسل مرو، وقد أعدّ لهم من السلاح وضروب العدد والعتاد.

ثم ساروا إلى المأمون فأبلغوه رسالة محمد بمسألة تقديم موسى على نفسه،

= القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول، والناكث مغلول.

فأقبل الأمين على عليّ بن عيسى بن ماهان، فتبسّم وقال: لكن شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة لا يخالف على إمامه، ولا يوهن طاعته، ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها لأنه كان هو والفضل بن الربيع يعينانه على الخلع.

وولّج الأمين في خلع المأمون حتى أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: يا فضل، أحياة مع عبد الله؟ لا بد من خلعه.

والفضل يغريه ويقول: فمتى ذلك إذا غلب على خراسان وما فيها؟

فأول ما فعله: أن كتب جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء للمأمون وللمؤتمن.

فلما بلغ ذلك المأمون، مع عزل المؤتمن عما كان بيده أسقط اسم الأمين من الطرز، وقطع البريد عنه. . .

(١) زيادة من الكامل.

ويذكر أنه سماه: الناطق بالحق، فردّ المأمون ذلك وأباه.

فقال العباس بن موسى[١]: ما عليك أيها الأمير من ذلك، فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع نفسه فما ضرّه ذلك، ولا طاب عيشه إلاّ بعد الخلع.

قال: فصاح عليه ذو الرئاستين، قال: اسكت فإن جدك كان في أيديهم أسيراً، وهذا بين شعبه وأخواله وعشيرته.

قال ذو الرئاستين: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به وقلت: يذهب عليك في فهمك وذكائك أن تأخذ لحظك من الإمام.

قال: وسمي المأمون في ذلك اليوم الإمام، ولم يسم بالخلافة، وإنما سمي بذلك لما جاءه من خلع محمد له.

قال: فقال لي العباس: وقد سميتموه الإمام قال: قلت: قد يكون إمام المسجد، القبيلة، فإن وفيتم لم يضركم اسمه، وإن غدرت فهو ذاك.

ثم قلت للعباس: لك عندي ولاية الموسم فلا ولاية أشرف منها، ولكن مواضع الأموال بمصر فما شئت.

قال: فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة، وكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار، ويشير علينا بالرأي، ومضى القوم متصرفين إلى محمد، فأخبروه بامتناعه.

وألحّ الفضل بن الربيع، وعلي بن عيسى على محمد في البيعة لابنه، وخلع المأمون، وبذل الفضل الأموال حتى بايع لابنه موسى، وسماه: الناطق بالحق.

وأحضنه عيسى بن علي، وولاه العراق، وأسقط ذكر عبد الله المأمون، والقاسم، والمؤتمن[٢] من المنابر.

ووجه رسولاً إلى مكة، فأخذ من الحجبة الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما في الكعبة، وتكلم في ذلك الحجبة، فلم يحفل بهم، وخافوا على أنفسهم، ومزّق

---

(١) بين هذه العبارة والتي قبلها في الكامل، ما يلي: وكان ابن ماهان أشار بذلك وأخبر الأمين أن أهل خراسان معه، فلما سمع المأمون هذه الرسالة استشار الفضل بن سهل فقال له: أحضر هشاماً والد علي، وأحمد ابني هشام واستشره.
فأحضره واستشاره، فقال له: إنما أخذت علينا على أن لا نخرج من خراسان، فمتى فعلت ذلك فلا بيعة لك في أعناقنا، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ومتى هممت بالمسير إليه تعلقت بك بيميني، فإذا قطعت تعلقت بيساري، فإذا قطعت تعلقت بلساني، فإذا ضربت عنقي كنت أديت ما عليَّ، فقوي عزم المأمون على الامتناع.
فأحضر العباس وأعلمه أنه لا يحضر، وأنه لا يقدم موسى على نفسه.
فقال العباس بن موسى: ما عليك أيها الأمير. . .

(٢) في المخطوط: المؤمن. وهو تحريف.

الكتابين وأبطلهما.

وكان محمد الأمين كتب إلى المأمون قبل المكاشفة يسأله أن يتجاوز ويتجافى له عن كور من كور خراسان سماها له، وأن يوجه العمال من قبل محمد، وأن يحتمل رجلاً من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره.

فلما ورد على المأمون الكتاب بذلك كبر عليه، واشتد، وبعث إلى الفضل بن سهل، وإلى أخيه الحسن، فشاورهما، فأحجما، وقالا: الأمر مخطر، ولك شيعة، وبطانة، وأهل ولاء.

فكان يقال: تشاور في طلب الرأي مَن تثق منه بمنيحته، وتألف العدو فيما لا التأم له بمشاورته.

ذكر آراء[1] الناس فيما شاورهم فيه المأمون

ثم أحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام وقرأ عليهم الكتاب.

فقالوا جميعاً: أيها الأمير[2]، شاورت في أمر خطر، فاجعل لبديهتنا حظًّا من الروية.

قال المأمون: هو الحزم، وأجلهم ثلاثاً.

ثم اجتمعوا، فقال أحدهم: أيها الأمير، إنك قد حملت على كرهين، ولست أرى حظًّا تعجل مكروه، أخرهما.

وقال الآخر: إذا كان الأمر مخطراً فإعطاؤك مَن نازعك طرفاً من بغيته أمثل من أن يصير بالمنع [٧٠/أ مكرر] إلى مكاشفته.

وقال آخر: كان يقال: إذا كان علم الأمور مغيَّباً عنك، فخذ ما أمكنك من هديته يومك، فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعاً بفساد غدك.

وقال آخر: لئن خيفت للتبدل عاقبة أن أشديهما ما يبعث ألاّ تأمن الفرقة.

وقال آخر: لا أرى مفارقة منزلة السلامة، فلعلي أعطي منها العافية.

فقال الحسن بن سهل: قد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنتم معذورين، فإن رأيي مخالف لرأيكم.

فقال له المأمون: فناظرهم.

قال: لذلك ما كان الاجتماع.

---

(١) في المخطوط: الااء. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: الأمين. وهو تحريف.

وأقبل عليهم الحسن فقال: هل تعلمون أن محمداً يجاوز إلى طلب الشيء ليس له بحق؟

فقالوا: نعم، ويحتمل ذلك لما يخاف من ضرر منعه.

قال: هل تثقون[١] بأن يكف إذا أعطيناه ما سأل، فلا يتجاوز بالطلب إلى غيرها؟

قالوا: لا، ولعل السلامة تقع دون ما نخاف ونتوقع.

قال: فإن تجاوز بعدها بالمسألة، فما ترون، قد يوهن بما بذل من نفسه فيها؟

قالوا: ندفع بمحذور لأجل محذور العاجل.

قال: فإن الحكماء قبلنا قالوا: استصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض في مكروه يومك ولا تلتمس بهدية يومك بأخطار أدخلته على نفسك في غدك.

فأقبل المأمون على الفضل وقال: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟

قال: هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك لتستظهر بها غداً على مخالفتك؟ وهل يصير الخادم إلى فضله من عاجل الدعة بخطر يتعرّض له في العاقبة؟

بل إنما أشار الحكماء بحمل أثقل عاجل فيما يرضون فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم.

فقال المأمون: بإيثار دعة العاجل سار مَن سار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا وآخرة[٢].

---

(١) في المخطوط: يتقنون. وهو تحريف.

(٢) يعدها في الكامل على غير ما هنا إذ قال: فامتنع المأمون من إجابته إلى ما طلب.
وأنفذ المأمون ثقته إلى الحد فلا يمكن أحداً من العبور إلى بلاده إلا مع ثقة من ناحيته.
وحصر أهل خراسان أن يُستمالوا برغبة أو رهبه، وضبط الطرق بثقات أصحابه، فلم يمكنوا من دخول خراسان إلاّ مَن عرفوه وأتى بجواز، أو كان تاجراً معروفاً، وفُتّشت الكتب.
وقيل: لما أراد الأمين أن يكتب إلى المأمون يطلب بعض كور خراسان، قال له إسماعيل بن صبيح:
يا أمير المؤمنين إن هذا مما يقوّي التهمة، وينبّه على الحذر، ولكن اكتب إليه، فأعلمه حاجتك وما تحب من قُربه والاستعانة به على ما ولاّك الله تعالى، واسأله القدوم عليك لترجع إلى رأيه فيما تفعل.
فكتب إليه بذلك وسَيَّر الكتاب مع نفر، وأمرهم أن يبلغوا الجهد في إحضاره.
وسيَّر معهم الهدايا الكثيرة، فلما حضر الرسل عنده، وقرأ الكتاب أشاروا عليه بإجابة الأمين، وأعلموه ما في إجابته في المصلحة العامة والخاصة.
فأحضر ذا الرئاستين وأقرأه الكتاب، واستشاره فأشار عليه بملازمة خراسان، وخَوّفه من القرب من الأمين.
فقال: لا يمكنني مخالفته، وأكثر القواد والأموال معه، والناس مائلون إلى الدرهم والدينار، =

قال القوم: فمبلغ الرأي والله للأمير بالتوفيق.

فقال: اكتب يا فضل إليه:

قد بلغني كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافي عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد في العقد، وجعل أمره إليّ وما أمر رآه أمير المؤمنين مما يتجاوز، غير أن الذي جعل إلى الطرف الذي أنا فيه كان غير ظنين بالنظر لعامته، ولا جاهل مما أسند إليّ من أمره ولو لم يكن ذلك شيناً بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على إشراف عدو مخوف الشوكة، وعامة لا تتألف إلاّ عن هضمة، وأجناد لا تستتبع طاعتها إلاّ بالأموال والطرف من الأوصال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته، وما يجب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثير من عنايته، وأن يستخلصه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق؟

وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطّلع بمسألته ما كتب إليّ.

= لا يرغبون في حفظ عهد، ولا أمانة، ولست في قوة حتى أمتنع.
وقد فارق جيغويه الطاعة، والتوى خاقان ملك التبت، وملك كابل قد استعدَّ للغارة على ما يليه، وملك أترادبندة قد منع الضريبة.
وما لي بواحد من هذه الأمور بُد، وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدوم إلا لشرٍّ يريده ولا أرى إلاّ تخلية ما أنا فيه، واللحاق بخاقان ملك الترك، والاستجارة به، لعلي آمن على نفسي.
فقال ذو الرئاستين: إن عاقبة الغدر شديدة، وتبعة البغي غير مأمونة، ورب مقهور قد عاد قاهراً، وليس النصر بالكثرة والقلة، والموت أيسر من الذل والضيم، وما أرى أن تسير إلى أخيك متجراً من قوادك وجنودك كالرأس الذي فارق بدنه، فتكون عنده كبعض رعيته يجري عليك حكمه من غير أن تبدي عذراً في قتال.
واكتب إلى جيغويه، وخاقان، فولهما بلادهما، وابعث إلى ملك كابل بعض هدايا خراسان ووادِعه، واترك لملك أترادبندة ضريبته، ثم اجمع إليك أطرافك وضم جندك، واضرب الخيل بالخيل، والرجال بالرجال، فإن ظفرت، وإلاّ لحقت بخاقان.
فعرف المأمون صدقه، ففعل ما أشار به، فرضي أولئك الملوك العصاة، وضمّ جنده وجمعهم عنده. وكتب إلى الأمين:
أما بعد: فقد وصل إليَّ كتاب أمير المؤمنين، وإنما أنا عامل من عمالك، وعون من أعوانك، أمرني الرشيد بلزوم الثغر، ولعمري إن مقامي به أردُّ على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين، فإن كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقرّني على عملي، ويعفيني من الشخوص إليه، فعل إن شاء الله.
فلما قرأ الأمين كتاب المأمون علم أنه لا يتابعه على ما يريد.
فكتب إليه يسأله أن ينزل عن بعض كور خراسان كما تقدّم ذكره.
فلما امتنع المأمون أيضاً من إجابته إلى ما طلب أرسل جماعة ليناظروه في منع ما طُلب منه، فلما وصلوا إلى الري منعوا، ووجدوا تدبيره محكماً، وحفظوا في حال سفرهم وإقامتهم من أن يستخبروا ويخبروا، وكانوا معدّين لوضع الأخبار في العامة، فلم يمكنهم ذلك، فلما رجعوا، أخبروا الأمين بما رأوا.

ثم أنا على ثقةٍ من القبول بعد البيان إن شاء الله تعالى.

واستشار أيضاً محمداً أصحابه فيما هم به.

ذكر آراء أشير بها على الأمين

قال يحيى بن سليم وقد دعاه الأمين واستشاره: يا أمير المؤمنين كيف بذلك مع تأكيد الرشيد بيعته، وأخذه الأيمان والمواثيق في الكتب؟

فقال محمد: إن رأي الرشيد كان فلتة من الخطأ شبه عليه جعفر بن يحيى بسحره، فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه إلا بقطعه، ولا تستقيم الأمور ولا تصح إلاّ باجتثاثه والراحة منه.

فقال: أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعه، فلا يجاهره فيستكبرها الناس، ويستشفعها العامة، ولكن تستدعي الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتُفرِّق ثقاته ومَن معه وترغِّبهم بالأموال وتستميلهم بالأطماع، فإذا وهنت قوته ولم يبقَ له منعة[1] أمرته بالقدوم عليك، فإن قدم صار إلى ما تريد، وإن أبى كنت قد تناولته وقد كَلَّ حَدُّه، وهيض جناحه.

فقال محمد: ما قطع أمراً كصريمة، أنت مهذار خطيب ولست بذي رأي مصيب، [٧٠/ب مكرر] فزل عن هذا الرأي إلى رأي الشيخ الموفق، والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك وأقلامك.

فقال يحيى: غضب لتوبة صدق، وتجلية نصيحة، أحبّ إليّ من رضى يخلطه جهل وتحلية جهل.

وبعث الفضل إلى أحد مَن رضي عقله وآراءه فاستشاره، فعظّم الرجل عليه أمر البيعة للمأمون وقبّح الغدر والنكث.

فقال الفضل: صدقت، ولكن عبد الله أحدث الحدث الذي وجب به نقض ما عقده الرشيد وأمير المؤمنين يرى لنفسه اليوم ولرعيته ما لم يره الرشيد يومئذ.

فقال: فتثبت الحجة له بمأخوذ عهده.

قال: لا.

فقال: فأحدث هذا الحدث عندكم بما يوجب نقض عهدكم، ولم يكن حَدَث ولا كان معلوماً؟

قال: نعم.

(١) في المخطوط: منه. وهو تحريف.

فقال الرجل ورفع صوته: تالله ما رأيت كاليوم، رأي رجل يشاور في دفع ملك في يده بالحجة، ثم يصير إلى مطالبته بالعناد والمغالبة.

قال: فأطرق الفضل مليًا، ثم قال: صدقتني الرأي، ولكن أخبرني، إن نحن أغمضنا في قبالة العامة، ووجدنا مساعدين من شيعتنا وأجنادنا فما القول أصلحك الله؟ [قال][1]: وهل أجنادك إلا من عامتك في أخذ بيعتهم وتمكن برهان الحق في قلوبهم، فليسوا وإن أعطوا ظاهر طاعتهم مع ما تأكد من وثائق العهد في معارفهم، وعلمهم بباطن أمورهم.

قال: لا طاعة دون ما ثبت من البصائر؟

قال: ترغبهم بتشريف حظوظهم.

قال: إذاً يصيروا إلى الثقل، ثم إلى خذلانك عند حاجتك إلى مناصحتهم.

قال: فما ظنك بعامة قوم كانوا في بلوى عظيمة من تحيُّف ولا تهم في أموالهم وأنفسهم، صاروا به إلى الأمنة في المال والرفاعة في المعيشة، فهم يدافعون عن نعمة حادثة لهم، ويتذكرون بلية لا يأمنون العودة في مثلها.

قال: ما أراك أبقيت لنا موضع رأي في اعتزالك أجنادنا، ثم أشد من ذلك ما قلتُ به من وهنة أجنادنا وقوة أجناده وما تسخو نفس أمير المؤمنين يترك ما يعرف من حقه، ولا تنسى بالهدنة مع ما أقدمت عليه من أمره، وربما أقبلت الأمور مشرفة بالمخافة، ثم تكشف عن الفلاح والدرك في العاقبة.

ذكر الحزم والجدّ الذي أخذ فيه المأمون حتى بلغ ما أراد

أذكى العيون، وأقام الحرس على رأس الحدود، فلا يحوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعمل خبراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً ولا أحداً قولاً ولا كتاباً.

فحصن أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن تودع قلوبهم رهبة.

ثم وضع على مراصد الطرقات، ثقات من الأحراس لا يجوز عليهم إلا مَن لا تدخله الظنة في أمره فمَن أتى بجواز في مخرجه إلى دار ماء به أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ومنع. . . .[2] من جواز السبيل، والقطع بالمتاجر والوعل في البلدان، وفي هيئة المطارنة والسائلة.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) موضع النقط كله لم أتبين قراءتها وهذا رسمها: «الاـاباب».

وفُتشت، وكانت ترد من قبل محمد الرسل والجماعات، فإذا صاروا إلى حد أقامتهم من أن يخبروا أو يستخبره وكتب يجزهم من مكانهم، فيجيء الإذن بحملهم فيحملون محروسين لا خبر يصل إليهم ولا غيرهم يطلع خبراً من عندهم حتى يصيروا باب المأمون.

وذكر سهل بن هارون:

إن المأمون قال يوماً لذي الرياستين: إن ولدي، وأهلي، ومالي أفرده الرشيد لي بحضرة محمد وهو مائة ألف ألف، وأنا محتاج إليها، وهي قِبَله فما ترى في ذلك؟

فقال له ذو الرئاستين: إن كتبت كتاب غرمة فمنعك صار إلى خلع عهدك، فإن فعل حملك ولو بالكره على محاربته، وأنا أكره أن تكون المستفتح باب الغرفة ما ارتجى الله دونك، ولكن تكتب كتاب طالب بحقك، وتوجه [٧١/ أ] أهلك على ما لا يوجب عليه المنع نكثاً لعهدك، فإن أطاع فنعمة وعافية، وإن أباها لم يكن بعثت على نفسك حرباً ومشاقة.

قال: فاكتب إليه كما ترى، فكتب عنه:

أما بعد: فإن نظر أمير المؤمنين للعامة نظر مَن لا يقتصر على عطاء النصفة من نفسه حتى يتجاوزها إليهم ببرّه وصلته وإذا كان ذلك رأيه في عامته، فأحرى بأن يكون على مجاوزة ذلك لصنوه وقسيم نسبه وقد تعلم، يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها من ثغور حللت بين لهواتها، وأجناد لا تزال موقنة بتسرُّعها وبنكث آرائها وبقلة الخراج قبلي، والولد، والأهل، والمال قِبل أمير المؤمنين، وما للأهل وإن كانوا في كفاية من بر أمير المؤمنين، وكان لهم ولا بد من الإشراف والنزوع إلى كنفي، ومالي بالمال والقوة والظهر علي لَمّ شعثي، وقد وجهت لحمل العيال وحمل ذلك فرأى أمير المؤمنين في إجازة...[1] إلى الرقة في حمل ذلك المال والأمر بمعونته إليه غير مخرج له فيه إلى صفة تقع بمخالفته أو حامل له على رأي يكون على غير موافقته إن شاء الله.

فكتب إليه محمد في الجواب:

أما بعد: فقد بلغني كتابك بما ذكرت مما عليه رأي أمير المؤمنين في عامته فضلاً عما يوجب من حق ذي حرمته وخليط نفسه، ومحلك من لهوات ثغور، وحاجتك لمحلك بينها إلى فضله من المال لنائبة أمرك والمال الذي سمي لك من مال الله عزّ وجل، وما ينكر أمير المؤمنين من حق الله قرابته، وذوي نسبه، وما ذاك بداع

(١) موضع النقط كلمة مختلطة المداد لم أتبيّن قراءتها.

أمير المؤمنين إلى ترك الاستظهار لدينه وعامته وبه إلى ذلك.

ذكرت حاجة في تحصين أمير المؤمنين، وكان أولى به إجراؤه على فرائضه، وردّه في مواضع حقه، وليس بخارج من نفعك ما عاد بنفع العامة من رعيتك.

أما ما ذكرت من حمل أهلك، فإن يدي المشرفة على أمورهم، وإن كنت بالمحل الذي أنت به من حق القرابة ولم أرَ من حملهم على سفرهم مثل الذي عرضتهم له بالسفر من شهم، وأن أرَ ذلك من ذي قبل أوجههم إليك من الثقة من رسلي إن شاء الله.

ولما ورد الكتاب على المأمون قال: لطّ دون حقنا يريد أن يوهي بالمنع قوماً، ثم يتمكن من الفرصة بمخالفتنا.

ورأى المأمون والفضل أن يختارا رجلاً يكتب معه إلى أعيان العسكر ببغداد، فإن أحدث الأمين بالمأمون خلعاً صار إلى التلطُّف لعلم حال أهلها بالكتب التي معه[1]، وإن لم يفعل من ذلك شيئاً، لبس في جفنة وأمسك عن اتصالها، وكان نسخة الكتاب:

أما بعد: فإن أمير المؤمنين كأعضاء البدن تحدث العلة في بعضها فيكون كره ذلك مؤلماً لجميعها، وكذلك الحدث في المسلمين يكون في بعضهم فيصل كره ذلك إلى سائرهم الذي يجمعهم من شريعة دينهم ويلزمهم من حصة إخوتهم مثل ذلك من الأئمة أعظم للمكان الذي به الأئمة من سائر أممهم، وقد كان من الخبر ما أحسبه إلا سيغرب عن مغنيه، ويسفر عما استتر من وجهه، وما اختلف مختلفان، فكان أحدهما مع أمر الله إلاّ كان أولى بمعونة المسلمين وموالاتهم في ذات الله، وأنت يرحمك الله من الأمر بمرأى ومسمع، وبحيث إن قلت إذن لقولك، وإن لم تجد للمقول مساغاً فأمسكت عن مخوف اقتدى فيه بك، ولن يضيع على الله ثواب الإحسان مع ما يجب علينا من حقك بالإحسان وبحظ جار لك النصيبين أو أحدهما أمثل من الأشراف لأخذ الحظين مع التعرُّض لعدمهما، فاكتب إلي برأيك وأعلم ذلك رسولي الذي توجّه عنك

---

(١) في الكامل تفسير لهذا الخبر إذ قال ابن الأثير:
وكان ذو الرئاستين الفضل بن سهل قد اتخذ قوماً يثق بهم ببغداد يكاتبونه بالأخبار، وكان الفضل بن الربيع قد حفظ الطرق، وكان أحد أولئك النفر إذا كاتب ذا الرئاستين بما تجدّد ببغداد سَيّر الكتاب مع امرأة، وجعله في عود أكفاف، وتسير كالمجتازة من قرية إلى قرى.
فلما ألحّ الفضل بن الربيع في خلع المأمون، أجابه الأمين إلى ذلك، وبايع لولده موسى في صفر.
وقيل: في ربيع الأول سنة خمس وتسعين ومائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وسماه: الناطق بالحق، ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر، وأرسل إلى الكعبة بعض الحجبة، فأتاه بالكتابين الذين وضعهما الرشيد في الكعبة ببيعة الأمين والمأمون، فأحضرهما عنده فمزقهما الفضل، فلما أتت الأخبار المأمون بذلك...

إن شاء [الله][١].

فوافق قدوم هذا الرسول بغداد بعدما أمر به من الكف عن الدعاء للمأمون في الخطبة، وكان الرسول بمحل ثقة من كل [٧١/ ب] مَن كتب إليه.

فلما أوصلها كان منهم مَن أمسك عن الجواب وأعرب للرسول عما في نفسه، ومنهم مَن أجاب عن كتابه، وكان نسخة كتاب أحدهم:

أما بعد: فقد بلغني كتابك وللحق برهان على نفسه تثبت به الحجة على كل مَن صار إلى مفارقة وكفى غيناً بإضاعة حظ من حظ العاقبة لمأمول حظ من عاجلة، وأبين في الغبن إضاعة عاقبة مع التعرُّض للنكبة والوقائع، ولي في العلم بمواضع حظي ما أرجو أن يحسن معه النظر لنفسي وتضع عني مؤنة استزادتي.

وكتب الرسول الذي توجه بهذه الكتب إلى بغداد إلى المأمون وذي الرئاستين:

أما بعد: فإني وافيت البلدة، وقد أعلن خليطك بتنكره، وقدم علماً من أغراضِهِ ومفارقته، وأمسك عما يجب ذكره وتوفيته بحضرته، ودفعت كتبك، فوجدت أكثر الناس ولاة السرائر وبغاة العلانية، ووجدت المسرفين بالرغبة لا يحوطون غيرها، ولا ينالون ما احتملوا فيها، والمنازع مختلج الرأي لا يجد دافعاً منه عن همّة ولا داعياً إلى لزوم حجة، والمحلُّون بأنفسهم يحيون تمام الحديث ليسلموا من منهدم حدثهم، والقوم على جد فلا تجعلوا للتواني في أمركم نصيباً، والسلام.

فلما جاء الخبر المأمون موافقاً لسائر ما ورد عليه من الكتب، قد شهد بعضها لبعض قال لذي الرئاستين: هذه أمور قد كان الرأي أخبر عن غيبها، ثم هذه طوالع تخبر عن أواخرها، وكفانا أن نكون مع الحق، ولعل كرهاً يسوق خيراً.

ثم أشخص طاهر بن الحسين، وضمّ إليه ثقات قواده وأجناده.

فسار طاهر معدًّا لا يلوي على شيء حتى ورد الري فنزلها، ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبثّ عيونه وطلائعه[٢].

---

(١) يتطلب السياق ذكر لفظ الجلالة في هذا الموضع.

(٢) زاد صاحب الكامل في أحداث تلك السنة عما هنا فقال:

في هذه السنة: خالف أهل حمص على الأمين، وعلى عاملهم إسحاق بن سليمان، فانتقل عنهم إلى سلمية، فعزله الأمين، واستعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي، فقتل عدة من وجوههم، وحبس عدة، وألقى النار في نواحيها، فسألوا الأمان، فأجابهم، ثم هاجوا بعد ذلك، فقتل عدة منهم.

وفي هذه السنة: عصى عمران بن مجالد الربيعي وقريش بن التونسي بتونس على إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، واجتمع فيها خلق كثير، وحصر إبراهيم بن الأغلب بالقصر، وجمع مَن أطاعه، وخالف عليه أيضاً أهل القيروان في جمادى الآخرة، فكانت بينهم وقعة، وحرب قتل فيها جماعة من رجال ابن الأغلب. =

ودخلت [سنة](١) خمس وتسعين ومائة

وفيها: عقد الأمين لابنه موسى على جميع ما استخلف عليه وجعل صاحب أمره علي بن عيسى بن هامان.

وأسقط ما كان ضرب باسم أخيه المأمون بخراسان من الدنانير والدراهم في سنة لأن المأمون أمر أن لا يثبت فيها اسم محمد، ونهى محمد عن الدعاء له، ثم من بعده لابنه موسى يومئذ طفل صغير، وسمّاه الناطق بالحق وجميع ما فعل مَن كان على رأي

= وقدم عمران بن مجالد فيمن معه، فدخل القيروان عاشر رجب، وقدم قريش من تونس إليه فكانت بينهم وبين ابن الأغلب وقعة في رجب، فانهزم أصحاب ابن الأغلب، ثم التقوا في العشرين منه فانهزموا ثانية أيضاً، ثم التقوا ثالثة فيه أيضاً فكان الظفر لابن الأغلب، وأرسل عمران بن مجالد إلى أسد بن الفرات الفقيه ليخرج معهم فامتنع، فأعاد الرسول يقول له: تخرج معنا وإلا أرسلت إليك مَن يجرّ برجلك.

فقال أسد للرسول: قل له: والله إن خرجت لأقولن للناس إن القاتل والمقتول في النار فتركه.

وفي هذه السنة: عاود أهل ماردة الخلاف على الحكم بن هشام أمير الأندلس وعصوا عليه فسار بنفسه إليهم وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد إلى مقاتلتهم هذه السنة، وسنة خمس، وسنة ست وتسعين ومائة.

وطمع الفرنج في ثغور المسلمين، وقصدوها بالغارة، والقتل، والنهب، والسبي، وكان الحكم مشغولاً بأهل ماردة، فلم يتفرّغ للفرنج فأتاه الخبر بشدة الأمر على أهل الثغور وما بلغ العدو منهم، وسمع أن امرأة مسلمة أخذت سبية فنادت: واغوثاه يا حكم، فعظم الأمر عليه، وجمع عسكره واستعدّ، وحشد، وسار إلى بلد الفرنج سنة ست وتسعين ومائة، وأثخن في بلادهم، وافتتح عدة حصون، وخرب البلاد ونهبها، وقتل الرجال وسبى الحريم، ونهب الأموال، وقصد الناحية التي بها تلك المرأة، فأمر لهم من الأسرى بما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة، فتخلصت من الأسر، وقتل باقي الأسرى، فلما فرغ من غزاته، قال لأهل الثغور: هل أغاثكم الحكم؟

فقالوا: نعم، وعوا له وأثنوا عليه خيراً، وعاد إلى قرطبة مظفراً.

وفيها: وثبت الروم على ملكهم ميخائيل، فهرب وترهّب، وكان ملك نحو سنتين، وملك بعده أليون القائد، وكان على الموصل إبراهيم بن العباس استعمله الأمين.

وفي هذه السنة: قتل شقيق البلخي الزاهد في غزاة كولان في بلاد الترك.

وفيها: مات الوليد بن مسلم صاحب الأوزاعي، وقيل: سنة خمس وتسعين، وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة.

وفيها: توفي عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي وكان مولده سنة عشرة ومائة، وكان قد اختلط في آخر عمره، وكان حديثه صحيحاً إلى أن اختلط.

وفيها: توفي سيبويه النحوي واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشير.

وقيل: كان توفي سنة ثلاث وثمانين ومائة.

قيل: وكان عمره قد زاد على أربعين سنة.

وقيل: كان عمره اثنتين وثلاثين سنة.

وفيها: توفي يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص وعمره أربع وسبعون سنة.

(١) سقط اللفظ من المخطوط والسياق يقتضيه.

الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتمر.

وبلغ المأمون ذلك، فتسمّى بإمام المؤمنين وكوتب بذلك.

وعقد محمد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان على كور الجبل كلها؛ نهاوند، وهمذان، وقم، وأصبهان، [وولاه][1] حربها وخراجها، وضمّ إليه جماعة من القوّاد، وأمر لهم بمائتي ألف دينار ولولده بخمسين ألف دينار، وأعطاه للجند مالاً عظيماً، وأمر له من السيوف المحلاة بألفي سيف وسبعة آلاف ثوب للخلع.

وأحضر محمد أهل بيته ومواليه وقواده المقصودة بالشماسية، وصلّى الجمعة، ودخل، وأجلس ابنه موسى في المحراب ومعه الفضل بن الربيع وجميع مَن حضر، فقرأ على جماعتهم كتاباً من محمد يعلمهم رأيه فيهم وحقه عليهم، وما سبق إليّ من البيعة مفرداً وما أحدث عبد الله من التسمّي بالإمامة، والدعاء إلى نفسه، وقطع البريد، وقطع ذكره من دور الضرب والطرز، وأن ذلك ليس له.

وحثّهم على الطاعة والتمسُّك ببيعته.

وتكلم سعيد بن الفضل الخطيب قائماً، فصدّق ما في الكتاب، وتكلم بمثله.

ثم تكلم الفضل بن الربيع وهو جالس فأبلغ في القول وأكثر وذكر أنه لا حق لأحد في الأمانة والخلافة إلاّ لأمير المؤمنين محمد الأمين، وقال في آخر كلامه: إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معشر أهل خراسان من صلب ماله بثلاثة آلاف ألف درهم، تقسم بينكم، وانصرف [٧٢/أ] الناس.

وفي هذه السنة: خرج علي بن عيسى بن ماهان إلى الحرب، وتوجه إلى الري وتوجه لحرب المأمون يوم الجمعة عشية السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان معه قيد فضة ليقيد به المأمون ابن عمه[2].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل:
فلما عزم على المسير من بغداد، ركب إلى باب زبيدة أم الأمين ليودعها، فقالت له: يا علي، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، وإليه انتهت شفقتي، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه الكريم يأكل لحمه ويمقيه غيره، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد ولا غل ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله، وخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، ثم دفعت إليه قيداً من فضة، وقالت: إن صار إليك فقيِّده بهذا القيد.
فقال لها: سأفعل مثل ما أمرت.
ثم خرج علي بن عيسى في شعبان، وركب الأمين يشيعه ومعه القواد والجنود.
وذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكراً أكثر رجالاً وأفره كراعاً، وأتم عدة وسلاحاً من =

وشيّعه أمير المؤمنين محمد الأمين إلى النهروان فعرض الجند وأقام يومه بالنهروان، ثم انصرف إلى مدينة السلام وأقام علي بن عيسى بالنهروان إلى ثلاثة أيام، ثم شخص حتى نزل همذان.

وكان محمد كاتب مَن كان بها وبغيرها بالانضمام إلى علي بن عيسى.

ثم عقد لعبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري، وهو الذي طعن رسول المأمون يوم أنفذه خلف الفضل بن الربيع، وتكلم بما كتبناه على الدينور، فأمره بالمسير إلى أصحابه، ووجّه معه ألف ألف درهم إلى علي بن عيسى سوى ثلاثة آلاف ألف درهم حملت إليه قبل ذلك.

فسار علي بن عيسى من همذان إلى الري قبل ورود عبد الرحمٰن بن جبلة عليه فسار على تعبئته.

فلقيه طاهر بن الحسين في أقل من أربعة آلاف.

وكان استأمن إلى علي بن عيسى من عسكر طاهر ثلاثة أنفس يتقرّبون إليه، فسألهم: مَن هم؟ ومن أي البلدان هم؟ فأخبره أحدهم: أنه كان من جند أبيه الذي قتله رافع.

قال: فأنت من جندي، فأمر به فضرب مائتي سوط، واستخفّ بالرجلين.

وانتهى الخبر إلى أصحاب طاهر فازدادوا جدًّا في محاربته ونفوراً منه.

وأقبل علي بن عيسى في جيشه، فامتلأت الصحراء بيضاً وصفرةً من السلاح والذهب، وجعل على ميمنته الحسين بن علي، وعلى ميسرته القاسم بن علي بن إدريس.

قال أحمد بن هشام ـ وكان إذ ذاك على شرطة طاهر ـ: فما لبثنا أن هزمونا حتى دخلوا العسكر، فخرج إليهم الأتباع والسامية فهزموهم.

فقال طاهر لما رأى عسكر علي بن عيسى بن ماهان: هذا ما لا قِبَلَ لنا به، ولكن نجعلها خارجية[1]، فقصد قصد القلب في سبعمائة رجل من الخوارزمية انتخبهم.

قال أحمد بن هشام: فقلت لطاهر: ألا نذكر علي بن عيسى البيعة التي أخذها هو علينا للمأمون خاصة معاشر خراسان؟

= عسكره، ووصاه الأمين، وأمره إن قاتله المأمون أن يحرص على أسره ثم سار فلقيه القوافل عند جلولاء فسألهم: فقالوا له: إن طاهراً مقيم بالري يعرض أصحابه ويرم آلته، والأمداد تأتيه من خراسان وهو يستعد للقتال.

(١) من المعلوم أن الخوارج من أصبر الناس على القتال وأشجعهم قلوباً وأطلبهم للشهادة أو النصر مما يجعلهم يندفعون نحو عدوهم بكل جسارة وإقدام.

فقال: بلى.

فعلقنا ذلك على رمحٍ وقمت بين الصفين فقلت: الأمان، لا ترمونا ولا نرميكم.

فقال علي بن عيسى: لك ذلك.

فقلت: يا علي ألا تتقي الله؟! أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت علينا خاصة، اتقِ الله فقد بلغت باب قبرك.

فصاح علي بن عيسى: يا أهل خراسان مَن جاء به فله ألف درهم.

قال: وكان معي قوم بخارية، فرموه.

فقالوا: نقتلك ونأخذ مالك.

وبرز من عسكر علي بن عيسى العباس بن الليث مولى المهدي فشدّ عليه طاهر، وجمع يديه على مقبض السيف، فضربه فصرعه.

وشدّ داود شاه عَلَى علِي بن عيسى فصرعه وهو لا يعرفه.

فقال داود: «يا ربي إيشان كنتم»[1]، فعرفه رجل يُعرف بطاهر الصغير بن الناجي، فقال: أنت علي بن عيسى؟

فقال: أنا علي بن عيسى وظنّ أنه يصاب فلا يقدم عليه فشدّ عليه فذبحه بسيفه.

وكانت ضربة طاهر هي الفتح، فسمي يومئذ: ذا اليمينين. لأنه أخذ السيف بيديه جميعاً.

ولما بُشِّر طاهر بن الحسين بقتل علي بن عيسى وقد شدّ أعتق مَن كان بحضرته من غلمانه شكراً.

ثم جاؤوا بعلي بن عيسى وقد شُدَّ الأعوان يديه إلى رجليه وحمل على خشبة تدهق كما يحمل الحمار الميت.

فأمر به خلف في لبد وألقي في بئر، وكتب بالبشارة إلى ذي الرئاستين، فسارت الخريطة وبين مرو، وذلك الموضع نحو من خمسين ومائتي فرسخ ليلة الجمعة، وليلة السبت وليلة الأحد، ووردت عليهم يوم الأحد.

ولما ورد الكتاب بالفتح على ذي الرئاستين فضَّهُ فإذا فيه:

«أطال الله بقاءك وكبت [٧٢/ب] أعداءك، وجعل من يشناك فداك كتابي إليك، ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في أصبعي، والحمد لله رب العالمين».

---

(١) كذا جاء رسم هذه العبارة في المخطوط فربما أصابها تحريف أو كانت كلمة فارسية فالله أعلم.

فدخل به على المأمون حتى قرأه.

فأمر بإحضار أهل بيته وقواده، ووجوه الناس، فدخلوا فسلّموا عليه بالخلافة، ثم ورد رأس علي يوم الثلاثاء، فطيف به خراسان.

وحكى غير واحد:

أنه لما جاء نعي علي بن عيسى إلى محمد بن زبيدة، وكان وقته ذلك على الشط يصيد السمك مع خادمه كوثر، فقال للذي أخبره: ويلك دعني، فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا بعد ما صدت شيئاً.

ولما نهض عن مجلسه ذلك بعث إلى الفضل، ومحمد، فأنفذ إلى وكيل المأمون ببغداد وقيمه في أهله وولده فأخذ منه المائة ألف ألف درهم التي كان الرشيد واصل بها المأمون، وقبض ضياعه وغلاته.

ووجّه عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري بالعدة، والقوة فنزل همذان.

ذكر الحيلة التي احتال بها ذو الرئاستين حتى اختار محمد لحربه علي ابن عيسى دون غيره

كانت كتب ذي الرئاستين تتردد إلى دسيسه الذي كان الفضل بن الربيع يشاوره في أمره [فقال]: أبى القوم إلا عزمة الخلاف.

فقال: فخف لأن يجعلوا أمره لعلي بن عيسى.

وإنما خصّ عليًا بذلك لسوء أثره في أهل خراسان واجتماع رأيهم على ما كره، وأن العامة ترى حربه.

فلما شاور الفضل الرجل الذي كان يشاوره، قال: علي بن عيسى إن فعل فلم نرمهم بمثله في بعد صوته وسخائه، ومكانه من بلاد خراسان في طول ولايته عليهم وكثرة صنائعه فيهم، ثم شيخ الدعوة.

فأجمعوا على توجيه علي، وكان من أمره ما كان[١].

وروي: أن الأمين لما عزم على خلع المأمون أشار عليه نصحاؤه أن يكاتبه، ويسأله القدوم، فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإجابته، فكتب إليه:

---

(١) في الكامل: بيان لسبب اختيار ذو الرئاستين لعلي بن عيسى فقال:
وكان مقصوده أن ابن ماهان لما وَلِيَ خراسان أيام الرشيد أساء السيرة في أهلها، فظلمهم، فعزله الرشيد بذلك، ونفر أهل خراسان عنه وأبغضوه.
فأراد ذو الرئاستين أن يزداد أهل خراسان جدًا في محاربة الأمين، وأصحابه.

من عبد الله الأمين أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، أما بعد:

فإن أمير المؤمنين وافى أمرك والموضع الذي أنت فيه من ثغرك وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكاتفة على ما حمله الله، وقلّده من أمور العباد والبلاد، فكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك بها وإقرارك على ما صير إليك منها، فرجى أمير المؤمنين أن لا تدخل عليه وكفّ في دينه ولا نكث في يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله، وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أشد للثغور وأصلح للجنود، وأرد للفيء، وأرد على العامة من مقامك ببلاد خراسان منقطعاً عن أهل بيتك مغيباً عن أمير المؤمنين وما يحب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك، وقد رأى أمير المؤمنين أن يتولّى ابنه موسى فيما تقلّده من خلافتك ما تحث إليه من أمرك ونهيك، فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه بأبسط أمل وأفسح رجاء وأحمد أثر وأفقه بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح لأهل ملّته وذمته، والسلام.

ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

وإلى عيسى بن جعفر بن أبي جعفر.

وإلى محمد بن عيسى بن نهيك.

وإلى صالح صاحب المصلى.

وأمرهم أن يخرجوا إلى المأمون، وأن لا يدعوا وجهاً من الرفق إلاّ بلغوه، وسهّلوا عليه فيه.

وحمل معهم من الألطاف، والهدايا والبر شيئاً كثيراً.

وذلك في سنة أربع وتسعين ومائة.

فتوجّهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى عبد الله، أذن لهم، فدفعوا إليه كتاب محمد وما كان بعث معهم من الأموال والهدايا.

ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الأمير [٧٣/ أ] إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جَليلاً، وقد صدقت نيته في الخير، فاعتوره الوزراء والأعوان والكفاة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، فأنت أخوه وشقيقه، وقد فرغ إليك في أموره وأملك الموادة والمكانفة ولسنا نستبطيك في بره إيهاماً لنظرك له، ولا نحضك على طاعتك تخوفاً لخلافتك عليه، وفي قدومك عليه أنس عظيم لدولته وسلطانه فأجب أيها الأمير دعوة أخيك

وآثر طاعته عزم الله على الرشيد في أموره، وجعل له الخيرة في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بكلام قريب المعنى من هذا الكلام.

وكذلك محمد بن عيسى بن نهيك.

وصالح صاحب الصلاة، فلما قضوا كلامهم وسكتوا.

تكلم المأمون فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إنكم عرفتموني من حق أمير المؤمنين أبقاه الله تعالى ما لا أنكره، ودعوتموني إلى البر والإحسان والمؤازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه، وأنا بالطاعة لأمير المؤمنين خليق، وعلى المسارعة إلى ما سرّه ووافقه حريص وفي الرؤية بتبيان الرأي وفي إعمال الرأي يتضح الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تثبيطاً ومدافعة ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعجلة، وأنا في ثغر من ثغور المسلمين كلب عدوة شديدة شوكته، فإن أهملت أمره لم آمن دخول المكروه والضرر على الجند والرعية وإن أقمت عليه لم آمن فوت ما أحب، ومؤنة أمير المؤمنين وإيثار طاعته، فانصرفوا حتى أنظر في أمري، ويصح رأيي مما أعتزم عليه من مسيري إن شاء الله.

ذكر مشاورة المأمون أصحابه وما أشار به الفضل بن سهل

ولما انصرف القوم تعاظم المأمون ما ورد عليه وأكبره، ودعا الفضل بن سهل، وقال: ما عندك من الرأي؟

قال: رأيي أن تتمسك بموضعك، ولا تمكن من نفسك، ولا تجعل عليك سبيلاً، وأنت تجد من ذلك بُدًّا.

قال: وكيف يمكنني التمسُّك بموضعي مع كثرة جنود محمد وعظم خزائنه وكثرة أمواله، مع ما فرق في أهل بغداد من صلاته، وإنما الناس مع الذهب والفضة منقادون لها لا يرغبون في وفاء ولا أمانة.

فقال الفضل: إذا وقعت التهمة حق الاحتراس وإنما أنا متخوِّف عليك من محمد ومن شرهه إلى ما في يديك، ولا تكون في جندك وعزك مقيماً بين ظهراني أهل ولايتك أحرى، فإن دهمك منه أمر جددت له وناجذته وكابدته، فإما أعطاك الله تعالى الظفر عليه، وإما متَّ محافظاً متكرماً غير ملقٍ يديك ولا ممكن عدوك من الاحتكام في دينك.

قال المأمون: لو كان أتاني ذلك وأنا في قوة من أمري وصلاح من الأمور لكان خطبه يسير، والاحتيال في دفعه ممكناً، ولكنه أتاني بعد انتشار خراسان، واضطراب عامرها وغامرها، ومفارقة جيغويه الطاعة والتواء خاقان، وتهيؤ ملك كابل للغارة على ما يليه من بلاد خراسان، وامتناع ملك إيراد بنده بالضريبة، وما لي بواحدة من هذه بُدّ،

وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قدومي إلاّ لشر يريده بي، وما أرى إلاّ تخلية ما أنا فيه واللحاق بخاقان ملك الترك والاستجارة به، فبالحري أن آمن على نفسي وأمتنع مما أراد قهري والغدر بي.

فقال له الفضل: أيها الأمير، إن عاقبة الغدر شديدة، ومغبّة الظلم والبغي غير مأمون شرها، ورب مستذلٍّ قد عاد عزيزاً ومقهور عاد مستطيلاً، وليس النصرة بالكثرة، وجرح الموت أيسر من جرح الذل والضيم، وأما جيغوية وخاقان فاكتب إليهما وولِّهما بلادهما وعهدهما التقوية لهما على محاربة الملوك، وأما ملك كابل، فابعث إليه بعض طُرَف خراسان، وهادنه وسله الموادعة، تجده حريصاً على ذلك.

وأما ملك أترادبنده فسلِّم إليه ضريبته في هذه السنة وصيِّرها صلة منك له، وصله بها ثم اجمع إليك أطرافك [٧٣/ب] واضمم إليك مَن شذّ [من][1] جندك، ثم اضرب الخيل بالخيل، والرجال بالرجال، فإن ظفرت فذاك، وإلاّ فأنت على اللحاق بخاقان قادر.

فقال المأمون: أنا أعمل في هذا وغيره مما ترى، وفرّق الكتب والرسل إلى أولئك العصاة، فأذعنوا ورضوا، وكتب إلى قوّاده وجنوده في الأطراف فأقدمهم عليه.

وكتب إلى طاهر بن الحسين، وكان يومئذ بالري عاملاً من قِبل المأمون أن يضبط ناحيته ويجمع إليه أطرافه ويكون حذر من جيش إن طرقه وعدو إن هجم عليه.

وكان الفضل نظر إلى النجوم، وكان جيد المعرفة بأحكامها[2]، ورأى الغلبة لعبد الله، فوطّن نفسه على محاربته محمد الأمين ومناجزته.

فلما فرغ المأمون مما ذكرناه، كتب إلى محمد:

لعبد الله محمد الأمين أمير المؤمنين من عبد الله بن هارون، أما بعد:

فقد وصل إليَّ كتاب أمير المؤمنين، وأنا عامل من عمال أمير المؤمنين، وعون من أعوانه، أمرني الرشيد أمير المؤمنين بلزوم هذا الثغر ومكايدة مَن كاد أهله من عدو أمير المؤمنين، ولعمري إن مقامي به أردّ عن أمير المؤمنين، وأعظم عناء عن المسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين، وإن كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعم الله عليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقرَّني على عملي، ويعفيني من الشخوص إليه، فعل إن شاء الله[3].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) للنجوم فوائد وخصائص كثيرة ولها علماء متخصصون في حركتها وتكوينها وفوائدها ولكن ليس من بين فوائدها معرفة الغيوب ولم يقل بهذا عاقل فضلاً عن عالم.

(٣) سبق أن ذكرت هذه التفاصيل في أحداث سنة (١٩٤) نقلاً عن ابن الأثير في الكامل حيث ذكر جميع هذا في أحداث السنة التي أشرت إليها ولم يذكرها في هذه، فالله أعلم.

ثم دعا العباس بن موسى بن عيسى، وعيسى بن جعفر، وصالحاً فدفع الكتاب إليهم وأحسن صلتهم وجوائزهم، وحمل إلى محمد ما تهيأ له من الألطاف الموجودة بخراسان، وسألهم أن يحسنوا أمره عنده ويقوموا بعذره.

فلما يئس محمد من انقياد عبد الله ندب له علي بن عيسى في خمسين ألف فارس وراجل ومكّنه من بيوت الأموال والسلاح.

فلما أراد علي الشخوص إلى خراسان ركب إلى باب زبيدة أم جعفر فودّعها، فقالت:

يا علي إن أمير المؤمنين، وإن كان ولدي إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذر فإني على عبد الله منعطفة، مشفقة لما يحدث إليه من مكروه وأذى وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وعازه على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجبهه بالكلام، فلست بنظير له، ولا تقسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد غل، ولا تمنع عنه جارية ولا غلام، ولا تعنف عليه في السر، ولا تساوره في السير، ولا تركب قبله، ولا تنتقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا ترده.

ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت: إذا صار بيدك فتقيّده بهذا القيد.

فقال لها: سأقبل قولك، وأعمل بطاعتك[١].

فلما ركب علي بن عيسى إلى معسكره بالنهروان، وخرج معه يشيّعه وحُشرت الأنواق، والضياع والقلعة وبلغ عسكره فرسخاً بفساطيطه وأبنيته وأثقاله.

فذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكراً قط كان أكثر رجالاً وافره كراعاً وأظهر سلاحاً وأتم عدّة، وأكمل هيئة من عسكره.

فذكر أن منجمه أتاه، فقال: أصلح الله الأمير، لو انتظرت بمسيرك صلاح القمر فإن النحوس عليه؟

فقال: لا ندري فساد القمر من صلاحه غير أنه [مَن][٢] نازلنا نازلناه ومَن وادعنا وادعناه، ومَن قاتلنا قاتلناه، ولم يكن عندنا إلاّ إرواء السيف من دمه وإنّا لا نعتد بفساد القمر ما وطّنّا أنفسنا على صدق اللقاء.

---

(١) وهذه القصة سبق أن ذكرها في أول أحداث تلك السنة وأعادها هنا وذكرها ابن الأثير في أحداث تلك السنة أيضاً.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق والكلام هنا عن القمر والنجوم كسابق ما قلت، وهم وإن فسدت طبائعهم إلا أنها لم تفسد عقائدهم.

ثم سار علي بن عيسى مستهيناً بمَن يلقاه، فإذا لقيته القوافل من خراسان سألها، فيقولون له: طاهر بالري مقيم يعرض أصحابه ويرم آلته.

فيضحك، ثم يقول لأصحابه: وما طاهر والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف إلاّ أن يبلغه عبورنا عقبة همذان، وهل مثل طاهر يتولى الجيوش ويتلقى الحروب؟

وهل يقوى السخال على نطاح الكباش أو تصبر الثعالب على لقاء الأُسد[١].

ثم أمر أصحابه بطي المنازل وانتشر نظامهم، وتفرّقت جماعتهم.

ثم أنفذ الكتب إلى ملوك الديلم، وأهدى إليها التيجان والأسورة، والسيوف المحلاة بالذهب، ووعدها الصلات [٧٤/أ] والجوائز وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان، ويمنعوا مَن أراد الوصول إلى طاهر من المدد، فأجابوه إلى ذلك.

وسار حتى صار إلى أول بلاد الري أتاه صاحب مقدمته، فقال: اتقي الله، لو كنت[٢] الأمير أذكيت العيون، وبعثت بالطلائع وارتدت موضعاً نعسكر فيه، ونتخذ خندقاً كان أبلغ في الرأي وآنس للجند.

فقال: لا، ليس مثل طاهر [لا][٣] استعد له بالمكايدة والتحفُّظ، إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين:

إما أن يتحصّن بالري فيثبت[٤] به أهلها فيكفونا مؤنته.

أو يخليها ويدبر راجعاً لو قد قربت منه.

وأتاه يحيى بن علي فقال: أيها الأمير اجمع عسكرك فإنه متفرق، واحذر البيات فإن العساكر لا تيأس بالتواني، والحروب لا تدبر بالاغترار ولا تكل[٥] المحارب إلى ظاهر، فالشرارة[٦] الخفية ربما صارت ضراماً، والثلمة من السيل ربما تهوون بها فصارت بحراً عظيماً، وقد قربت عساكرنا من طاهر، فلو كان رأيه الهرب لما كان يتأخر إلى يومه هذا.

---

(١) زاد بعدها في الكامل: وإن أقام تعرّض لحد السيف، وأسنّة الرماح، وإذا قابلنا بالري ودنونا منهم فتّ ذلك في أعضادهم.

(٢) في المخطوط: لو كنت أتقي الله الأمير، وهو تقديم وتأخير فضبط العبارة.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في المخطوط: فيثبت. وهو تحريف، وفي الكامل: فيبيته، والخبر فيه بنحو مما هنا في كثير من فقراته.

(٥) في المخطوط: ثقل. وهو تحريف.

(٦) في المخطوط: فالشرر. وهو تحريف.

قال: اسكت، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى، وإنما يحفظ الرجال إذا التقيت أقرانها، وتستعد إذا كان المناوىء لها أكفاؤها ونظراؤها.

واستشار طاهر أصحابه لما قرب منه علي، فأشاروا عليه أن يقيم بمدينة الري ويدفع القتال ما قدر عليه إلى أن يأتيه من خراسان المدد من الخيل، ومَن يتولى الحرب دونه.

وقالوا: مقامك من الري أرفق بك وبأصحابك، وأقدر لهم على الميرة، وأكن من البرد، وأقوى لك على المماطلة والمطاولة إلى أن يأتيك مدد.

فقال طاهر: إن الرأي ليس ما رأيتم، إن أهل الري لِعَلِيّ هائبون ومن موته متقون، ولست آمن إن حاصرنا أن يدعوا أهلها خوفه إلى الوثوب بنا ومعاونته على قتالنا، مع أنه لم يكن قوم قط زوحموا في ديارهم والتورُّد عليهم إلاّ وهنوا وذلُّوا واجترأ عليهم عدوهم، وما الرأي إلاّ أن نصير مدينة الري وراء ظهورنا، فإن أعطانا الله تعالى الظفر، وإلاّ عوّلنا عليها فقاتلنا في سككها وتحصَّنَّا بمنفعتها إلى أن يأتينا مدد من خراسان.

فقالوا: الرأي ما رأيت.

فنادى طاهر في أصحابه: أخرجوا فعسكروا على خمسة فراسخ من الري.

وأتاه محمد بن العلاء فقال له: أيها الأمير إن جندك قد هابوا هذا الجيش، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً منه، فلو وقفت حتى يشامهم أصحابك، ودافعت بالقتال إلى أن يأنسوا بهم، ويعرفوا أوجه المآخذ في قتالهم، فقال: إني لا أوتى من تجربة وحزم، وإن أصحابي قليل، والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم، فإن دافعت بالقتال، وأخرت المناجزة لم آمن أن يطلعوا على قلتنا وعورتنا، وأن يستميلوا مَن معي رغبة أو رهبة فينفض عني أصحابي، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر.

ولكن ألقى الرجال بالرجال، والخيل بالخيل، وأعتمد على الطاعة والوفاء، وأصبر فإن رزق الله الظفر والفلاح، فذلك الذي نريد ونرجوا، وإن تكن الأخرى، فلست بأول مَن قاتل فقتل، وما عند الله أجزل وأفضل[1].

وقال علي بن عيسى لأصحابه: بادروا القوم فإن عددهم قليل، ولو قد زحفتم إليهم لم يصيروا على حرارة السيوف، ووقع السهام، وطعن الرماح.

وعبىء جنده ميمنة، وميسرة، وقلباً، وصيّرها كثيفة عظيمة.

ثم نصب عشر رايات في كل راية ألف رجل، وقدّم الرايات راية راية، وصيّر بين كل راية وراية غلوة، وأمر أمراؤها إذا قاتلت الراية الأولى فصبرت، وحمت وطال بها

---

(١) هو بنحوه في الكامل.

القتال، أن تتقدم التي تليها، وتتأخر التي قاتلت، حتى يرجع إليها نفسها، وتستريح وتنشط للمحاربة والمعاودة.

ثم صيّر أصحاب الدروع والجواشن والحيزة أمام الراية.

ووقف علي في القلب في غرز أصحابه أهل البأس والحفاظ والنجدة منهم.

وكتب طاهر بن الحسين كتائبه وجعلهم كراديس صفوفاً، وجعل يمرّ بقائد قائد، وجماعة جماعة، ويقول:

يا أولياء الله، يا أهل الوفاء إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل الغدر والنكث، إن هؤلاء ضيَّعوا ما حفظتم ونكثوا الأيمان التي رعيتم فلو [٧٤/ب] قد غضضتم الأبصار وثبَّتُّم الأقدام لا يخزكم الله وعده وفتح لكم أبواب عزه ونصره، فجالدوا عواطيب الفتنة، ويعاسيب النار، وادفعوا بحقكم باطلهم، فإنما هي ساعة حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وقلق قلقاً شديداً وحرّص حرصاً عظيماً، وجعل يقول: يا أهل الوفاء والصدق الصبر الصبر والحفاظ، فهو على ذلك، وثب أهل الري وأغلقوا أبواب المدينة، فنادى طاهر: يا أولياء الله اشتغلوا بمَن أمامكم عمّن خلفكم[1] فإنه لا ينجيكم إلاّ الجدّ والصدق.

ثم كان من أمرهم ما حكيناه من قبل[2].

ولما ورد الخبر بغداد بقتل علي بن عيسى، كثرت الأراجيف، ومشى القواد بعضهم إلى بعض[3] فقالوا: إن عليًا قد قُتل، ولسنا نشك أن محمداً سيحتاج إلى الرجال، واصطناع الصنّاع، وإنما ترفع الرجال رؤوسها في وقت البأس، فليأمن كل رجل منكم جنده بالشغب وطلب الأرزاق والجوائز فلعلنا نصيب في هذه الحرة مكنة ما يصلحنا ويصلح جندنا، فاتفق رأيهم على ذلك، وأصبحوا بباب الجسر فكبّروا، وطلبوا الأرزاق.

وبلغ الخبر عبد الله بن خازم، فركب في أصحابه في جماعة كثيرة من قواد العرب فتراموا بالنشاب والحجارة، واقتتلوا قتالاً شديداً.

وسمع محمد الضجة والتكبير، فأرسل مَن يأتيه بالخبر، فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم.

قال: فهل يطلبون شيئاً غير ذلك؟

---

(١) في المخطوط: خالفكم، والتصويب من الكامل.

(٢) سيق تفصيل ذلك في أول السنة التي نحن بها أي (١٩٥) من هزيمة جيش علي وقتله وأخذ رأسه إلى المأمون.

(٣) في الكامل: في النصف من شوال.

قال: لا.

قال: فما أهون ما طلبوا، ارجع إلى عبد الله بن خازم فمره أن ينصرف، ويواقف الناس على أن يبذلهم أرزاقهم، فيواقفهم على أرزاق أربعة أشهر، ورفع مَن كان دون الثمانين إلى الثمانين، وأمر للقواد، والخلاص بالصلات والجوائز.

وفي هذه السنة: وجّه محمد المخلوع عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري إلى همذان لحرب طاهر.

وانتخب عشرين ألف رجل من الأبناء فضمّهم إليه، وحمل معه الأموال، وقوّاه بالسلاح والخيل، وأجازه بجوائز، وولّاه ما بين حلوان إلى ما غلب عليه من أرض خراسان، وأمره أن يسيق طاهراً إلى همدان ويخندق عليه ويجمع إليه آلة الحرب، وبسط يده، ويقدم إليه في التحفُّظ والاحتراز، وترك ما عمل به من الاغترار والتضجيع.

فتوجّه عبد الرحمٰن حتى نزل همذان فضبط طرقها وحصّن سورها وأبوابها، وسدّ ثلمها، وحشر إليها الأسواق والصُّنَّاع وجمع فيها الآلات والمير، واستعدّ للقاء طاهر ومحاربته.

وكان يحيى بن علي بن عيسى لما قتل أبوه أقام بين الري وهمذان، فكان لا يمر به أحد من قِبل أبيه إلا احتبسه، وكان يرى أن محمداً يوليه مكان أبيه، ويوجه إليه الخيل والرجال، وكتب إلى محمد يستمده ويستنجده، فأجابه محمد يعلمه توجيه عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري، ويأمره بالانضمام إليه فيمن معه.

ولما بلغ طاهر خبر عبد الرحمٰن توجه إليه فلما قرب[1] من يحيى قال يحيى لأصحابه: هذا طاهر صاحبكم بالأمس، ولست آمن أن لقيته بمَن معي أن يصدعنا صدعاً يدخل وهنه على مَن خلقنا، ويعمل عبد الرحمٰن بذلك ويقلّدني بذلك وزر[2] العجز عند أمير المؤمنين، فإن أنا استنجدته، لم آمن أن يمسك عنا ضنًّا برجاله وإبقاءً عليهم.

والرأي أن نتزاحف إلى مدينة همذان فنعسكر[3] قريباً من عبد الرحمٰن، فإن نحن استعنَّاه قرب منا عونه، وإن احتاج إلينا أعنَّاه، وقاتلنا معه.

فقالوا: الرأي ما رأيت.

فانصرف نحو همذان، فلما قرب منها خذله أصحابه وتفرّقوا عنه وأشرف طاهر على مدينة همذان.

---

(١) في المخطوط: قرى. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: رو. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: فعسكر. وهو تحريف.

ونادى عبد الرحمٰن في أصحابه فخرجوا على تعبئة فصادف طاهراً، فاقتتلوا قتالاً شديداً فصبر الفريقان، وكثر القتلى والجرحى فيهم.

ثم إن عبد الرحمٰن انهزم ودخل همذان، وأقام بها أياماً حتى اندمل جراح أصحابه وقووا، ثم أمر بالاستعداد، وزحف إلى طاهر، فلما رآه طاهراً غلامه وأوائل خيله قال لأصحابه:

إن عبد الرحمٰن يتراءى لنا [٧٥/أ] حتى تقرب منه يقاتلنا، فإن هزمناه دار إلى المدينة فدخلها وقاتلكم على خندقها وامتنع بسورها، وإن هزمنا اتسع له المجال فهلمُّوا نقف له حتى يقرب منا، ويبعد من خندقه.

فوقف طاهر مكانه وظنّ عبد الرحمٰن أن الهيبة بطأت به عن لقائه والنفوذ إليه فبادر، واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر أصحاب طاهر.

فجعل عبد الرحمٰن يقول: يا معشر الأبناء الموت وإلفاف السيوف، إنهم العجم، وليسوا بأصحاب مطاولة ولا صبر، فاصبروا لهم فداكم أبي وأمي.

وقاتل بيده قتالاً شديداً، وحمل حملات منكرات، فلا يزول أحد من أصحاب طاهر.

ثم إن صاحباً لطاهر حمل على أصحاب عبد الرحمٰن، فقتل صاحب عَلَمَهُ.

وزحمهم أصحاب طاهر زحمة شديدة فولُّوا، فوضعوا فيهم السيوف حتى دخلوا همذان يقتلونهم، ويأسرونهم.

وأقام طاهر على باب المدينة، محاصراً، فكان يخرج عبد الرحمٰن ويقاتل على أبواب المدينة، ويرمي أصحابه من فوق السور حتى اشتدّ بهم الحصار.

وتأذّى بهم أهل المدينة ويأسوا من الحرب[١] والقتال، وقطع طاهر عنهم المادة من كل وجه، فهلك أصحاب عبد الرحمٰن، وتخوّفوا أن يثب بهم أهل همذان.

فأرسل عبد الرحمٰن فيمن كان معه من أصحابه وأصحاب يحيى [إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه ولمَن معه، فأمنه، فخرج عن همذان][٢].

وطرد طاهر عمال محمد عن قزوين، وسائر كور الجبال[٣].

(١) في المخطوط: «يؤموا بالحرب»، وأثبت الأنسب للسياق.

(٢) الزيادة من الكامل في التاريخ، وقد سقطت من المخطوط.

(٣) ذكر ابن الأثير هذا الخبر مفصلاً فقال:
لما نزل طاهر بباب همذان وحصر عبد الرحمٰن بها تخوّف أن يأتيه كثير بن قادرة من ورائه ـ وكان بقزوين ـ فأمر أصحابه بالقيام، وسار في ألف فارس نحو قزوين فلما سمع به =

وفي هذه السنة: قُتل عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري بالأستراباذ.

ذكر السبب في مقتله

لما وجه محمد بن عبد الرحمٰن الأنباري إلى همذان أتبعه بعبد الله، وأحمد ابني الحرشي في خيل عظيمة، وأمرهما أن ينزلا قصر اللصوص وأن يسمعا ويطيعا لعبد الرحمٰن، ويكونا مدداً له إن احتاج إليهما.

فلما خرج عبد الرحمٰن إلى طاهر في الأمان، كان رأي طاهراً وأصحابه أنّه مسالم لهم راضٍ بعهودهم.

ذكر غفلة من طاهر وأصحابه

حتى هجموا عليهم فوضعوا فيهم السيوف والنشاب فثبت لهم رجالة طاهر بالتراس والسيوف، وجثوا على الركب، فقاتلوه كأشد ما يكون القتال، ولم تزل الرجالة تدافعهم إلى أن أخذت الفرسان عدتها، وصدقوهم القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسّرت السيوف، وتقصّفت الرماح وهرب معظم أصحاب عبد الرحمٰن.

فترجّل هو في ناسٍ من أصحابه، فقاتل حتى قُتل من أصحابه مقتلة عظيمة، واستبيح عسكره، وانتهى مَن أفلت من أصحابه إلى عسكر عبد الله، وأحمد ابني الحرشي، فدخلهم الوهن، والقتل، وامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً، فولوا منهزمين لا يلوون على شيء حتى صاروا إلى بغداد.

وأقبل طاهر قد خلت له البلاد يحوز بلدة بعد بلدة، وكورة كورة حتى نزل بقرية من قرى حلوان يقال لها: شاملان[1]، فخندق بها وحصّن عسكره[2].

= كثير بن قادرة ـ وكان في جيش كثيف ـ هرب من بين يديه، وأخلى قزوين، وجعل طاهر فيها جنداً، واستعمل عليها رجلاً من أصحابه، وأمره أن يمنع مَن أراد دخولها، واستولى على سائر أعمال الجبل معها.

(١) كذا في المخطوط، وفي الكامل: شلاشان.

(٢) هذا ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد صاحب الكامل أحداثاً وقعت فيها فقال:
في هذه السنة: خرج السفياني، وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية.
وأمه: نفيسة بنت عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وكان يقول: أنا من شيخي صفين ـ يعني عليًا ومعاوية ـ وكان يلقب بأبي العميطر، لأنه قال يوماً لجلسائه: أي شيء كنية الحرذون؟
قالوا: لا ندري.
قال: هو أبو العميطر، فلقّبوه به.
ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة في ذي الحجة، وقوي على سليمان بن المنصور عامل دمشق، فأخرجه عنها وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية، وكان قد تغلّب على صيدا، فلما خرج سَيَّر إليه الأمين الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان فبلغ الرقة، ولم يسرّ إلى دمشق.
وكان عُمر أبي العميطر حين خرج تسعين سنة، وكان الناس قد أخذوا عنه علماً كثيراً وكان =

[٧٦/أ] ثم(١) دخلت سنة ست وتسعين ومائة

ثم إن محمداً ندب أسد بن يزيد بن مزيد، فاشتد عليه في طلب الأموال فحبسه.

وندب عمه أحمد بن مزيد، وعبد الله بن حميد بن قحطبة إلى حلوان، لحرب طاهر.

وكان: الخبر عن حبس أسد.

= حسن السيرة، فلما خرج ظلم وأساء السيرة فتركوا ما نقلوا عنه، وكان أكثر أصحابه من كلب، وكتب إلى محمد بن صالح بن بيهس الكلابي يدعوه إلى طاعته، ويتهدده إن لم يفعل، فلم يجبه إلى ذلك.
فأقبل السفياني على قصد القيسية فكتبوا إلى محمد بن صالح، فأقبل إليهم في ثلاثمائة فارس من الضباب ومواليه.
واتصل الخبر بالسفياني، فوجّه إليه يزيد ابن هشام في اثني عشر ألفاً، فالتقوا، فانهزم يزيد ومَن معه، وقتل منهم إلى أن دخلوا أبواب دمشق زيادة على ألف رجل، وأسر ثلاث آلاف، فأطلقهم ابن بيهس، وحلق رؤوسهم ولحاهم.
وضعف السفياني وحصر بدمشق، ثم جمع جماعة، وجعل عليهم ابنه القاسم، وخرجوا إلى ابن بيهس، فالتقوا فقُتل القاسم، وانهزم أصحاب السفياني، وبعث رأسه إلى الأمين، ثم جمع جمعاً آخر وسيَّرهم مع مولاه المعتمر، فلقيهم ابن بيهس، فقُتل المعتمر، وانهزم أصحابه، وهن أمر أبي العميطر، وطمع فيه قيس.
ثم مرض ابن بيهس فجمع رؤساء بني نمير فقال لهم: ترون ما أصابني من علتي هذه فأرفقوا ببني مروان، وعليكم بمسلمة بن يعقوب بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، فإنه ركيك، وهو ابن أختكم، واعلموا أنكم لا تتبعون ببني أبي سفيان، وبايعوه بالخلافة وكيدوا به السفياني.
وعاد ابن بيهس إلى حوران، واجتمعت نمير على مسلمة، وبذلوا له البيعة، فقبل منهم وجمع مواليه، ودخل على السفياني، فقبض عليه وقيّده، وقبض على رؤساء بني أمية، فبايعوه وأدنى قيساً، وجعلهم خاصته.
فلما عوفي ابن بيهس عاد إلى دمشق فحصرها فسلّمها إليه القيسية، وهرب مسلمة، والسفياني في ثياب النساء إلى المزة، وكان ذلك في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، ودخل ابن بيهس دمشق وغلب عليها، وبقي بها إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق، ودخل إلى مصر، وعاد إلى دمشق، فأخذ ابن بيهس معه إلى العراق.
وكان العامل على مكة، والمدينة لمحمد الأمين داود بن عيسى بن موسى، وهو الذي حَجَّ بالناس سنة ثلاث وتسعين أيضاً.
وكان على الكوفة العباس بن الهادي للأمين وعلى البصرة له أيضاً منصور بن المهدي.
وفيها: مات محمد بن خازم أبو معاوية الضرير، وكان يتشيّع، وهو ثقة في الحديث.
وفيها: توفي أبو نواس الحسن بن هانىء الشاعر المشهور، وكان عمره تسعاً وخمسين سنة، ودفن بالشونيزي ببغداد.
ومحمد بن فضل بن غزوان بن جرير الضبي مولاهم.
ويوسف بن أسباط أبو يعقوب.

(١) يلاحظ أن صفحة [٧٥/ب] بيضاء بالمخطوط نظراً لنهاية القسم الأول منه.

وسببه:

قال أسد بن يزيد بن مزيد: بعث إليَّ الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الله بن جبلة، فأتيته.

فلما دخلت إليه، وجدته قاعداً في صحن داره رقعة وقد قرأها، وقد احمرّت عيناه، واشتدّ غضبه، وهو يقول:

ينام نوم الطيربان[(١)]، وينتبه انتباه الذئب، همه بطنه وفرجه[(٢)]، يختال[(٣)] الرعاة، والكلاب ترصده، ولا يفكر في زوال نعمة، ولا يروى في إمضاء رأي، قد ألهته[(٤)] كأسه، وشغله قدحه، فهو يجري في لهوه، والأيام توضع في هلاكه.

ثم وصف عبد الله وتيقظه[(٥)]، وتمثّل بشعر للبعيث[(٦)].

ثم التفت إليّ وقال: [أبا الحارث][(٧)] إياي وإياك نجري إلى غاية إن قصرنا عنها ذُممنا، وإن اجتهدنا في بلوغها[(٨)] انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوي قوينا، وإن ضعف ضعفنا.

---

(١) في الكامل: الطائر.
(٢) لم يرد هذا اللفظ في الكامل.
(٣) في الكامل: يقاتل.
(٤) في الكامل: ألهاه.
(٥) في الكامل ذكر ذلك الوصف فقال:
قد شمّر له عبد الله عن ساق، وفوق له أصوب أسهمه يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ، والموت القاصد، وقد عبّى له المنايا على ظهور الخيل، وناط له البلاء في أسنّة الرماح، وشفار السيوف.
(٦) ذكر ابن الأثير وهو قوله:

ومجدولة جدل العنان خريدة ... لها شعر جعد ووجه مقسم
وثغر نقي اللون عذب مذاقه ... تضيء له الظلماء ساعة تبسم
وثديان كالحقين والبطن ضامر ... خميص ووجه ناره تتضرم
لهوت بها ليل التمام ابن خالد ... وأنت بمرو الروذ غيظاً تجرمُ
أظل أناغيها وتحت ابن خالد ... أمية نهد المركلين عثمثمُ
طواه طراد الخيل في كل غارة ... لها عارض فيه الأسنة ترزمُ
يقارع أتراك ابن خاقان ليلة ... إلى أن يرى الأصباح ما يتلعثم
فيصبح من طول الطراد وجسمه ... نحيل وأضحى في النعيم أصمُ
أُباكِرُها صهباء كالمسك ريحها ... لها أرج في دنّها حين يرسم
فشتّان ما بيني وبين ابن خالد ... أمية في الرزق الذي الله يقسم

(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في المخطوط: ولوغها والتصويب من الكامل.

إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويعول[١] على الرؤيا وقد أمكن مسامعه[٢] من أهل اللهو والخسارة[٣] فهم يعدونه الظفر، ويمنونه عقب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل.

وقد خشيت أن نهلك بهلاكه [ونعطب بعطبه][٤] وأنت فارس العرب وابن فارسها، [وقد][٤] فزع إليك في [هذا الأمر][٤] ولقاء هذا الرجل، وأطعمه فيما قبلك أمران:

أحدهما: صدق طاعتك[٥] [وفضل النصيحة][٦].

والآخر: [يمن نقيبتك][٤] وشدّة بأسك.

وقد أمرني بإزاحة علتك[٦] وبسط يدك فيما أحببت. غير أن الاقتصار رأس النصيحة، ومفتاح اليمن والبركة، فأنجز حوائجك، وعجِّل المبادرة إلى عدوك، فإني أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح، ويلمُّ بك شعث هذه الخلافة.

فقلت: أنا [لطاعة][٧] أمير المؤمنين ـ أعزّه الله تعالى[٨] ـ وطاعتك مقدم، وعلى كل ما دخل به[٩] الوهن والذل[١٠] على عدوكما[١١] حريص، غير أن المحارب لا يعمل بالغدر، ولا يفتتح أمره بالتقصير [والخلل][٤]، وإنما ملاك المحارب بالجنود، وملاك الجنود المال، وقد ملأ[١٢] أمير المؤمنين أيدي مَن شهده من العساكر وتابع لهم الأرزاق والصلات، فإن سرت بأصحابي وقلوبهم متطلعة إلى مَن خلفهم من إخوانهم لم أنتفع بهم في لقاء مَن أمامي، وقد فضَّل أهل السلام على أهل الحرب، وأجاز بأهل الذمة والخفض منازل أهل النَّصب والمشقة.

والذي أسأل أن يأمر لي بما يقيمني ويقيم أصحابي الذين تخرجونهم معي بما لا يتطلعون معه إلى ما خلفهم.

---

(١) في الكامل: ويعتزم.
(٢) في المخطوط: ما معه. والتصويب من الكامل.
(٣) في الكامل: الجسارة.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في الكامل: الطاعة.
(٦) في الكامل: ما عليك.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) لم ترد هذه العبارة في الكامل.
(٩) في الكامل: «فيه».
(١٠) لم ترد هذه الكلمة في الكامل.
(١١) في الكامل: عدوه وعدوك.
(١٢) من قوله: وقد ملأ.. إلى قوله: أهل النَّصب والمشقة. هذه الفقرة لم ترد في الكامل، ثم ما بعدها جاء معناه أو مضمونه وليس فيه نصه.

قال: وما هو؟

قلت: رزق سنة تطلق لأصحابي، يحمل معهم رزق سنة، ويخص مَن لا خاصة له من أهل العناء والبلاء.

وأحمل ألف رجل من أصحابي الذين معي على الخيل.

ولا أُسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور[١].

قال: قد أشطط، ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين.

ثم ركب وركبت معه، ودخل قبلي [على الأمين][٢]، ثم أذن لي فدخلت.

فما دار بيني وبين محمد إلاّ كلمتان حتى غضب، وأمر بحبسي.

فذكر بعض خاصة محمد: أن أسد قد اقترح على محمد أن يسلم إليه ولدَيّ عبد الله المأمون، حتى يكونا أسيرين في يدي.

قال: أعطاني الطاعة وألقى بيده وإلاّ عملت فيهما بحكمي.

فقال محمد: أنت أعرابي مجنون تدعو إلى الخرف والتخليط، وتقترح فوق قدرك، وأمر به فحُبس[٣].

ثم قال محمد: هل في بيت هذا مَن يقوم مقامه، فإني أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم، وما تقدّم من طاعتهم ونصيحتهم؟

قالوا: نعم، فيهم أحمد بن يزيدة عمه، وهو أحسنهم طريقة، وأصلحهم نية وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ومباشرة الحروب.

فأنفذ إليه محمد يزيداً فأقدمه عليه.

قال أحمد: فلما دخلت بغداد بدأت بالفضل بن الربيع، فقلت: أسلم عليه واستعين بمنزلته ومحضره محمد.

فلما أذن لي دخلت عليه، وإذا عنده عبد الله بن حميد بن قحطبة، وهو يريده على الشخوص إلى طاهر، وعبد الله يشط عليه في طلب المال، والسلاح، والإكثار من الرجال.

فلما رآني رَحّبَ بي، وأخذ بيدي، فرفعني حتى صيَّرني معه على صدر المجلس.

ثم أقبل على عبد الله يمازحه ويداعبه، ثم تبسّم في وجهه، ثم قال:

---

(١) في المخطوط: المدرة والكون. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: فجلس. وهو تحريف.

إنّا وجدنا لكم إذ رثّ حبلكم من آل شيبان أمًّا دونكم وأبا
الأكثرون إذا عدّ الحصى عدداً والأقربون إلينا منكم نسبا

فقال عبد الله: إنهم لكذلك، وإن فيهم لسد الخلل، ونكاء العدو(١).

ثم أقبل على الفضل فقال: إن أمير المؤمنين أجرى ذكرك، فوصفتك له بحسن الطاعة وفضل الصَّيحة والشدّة على أهل المعصية، فأحبّ اصطناعك، والتنويه بك، وأن يرفعك إلى منزلة لم يبلغها أحد من أهل بيتك.

ثم التفت إلى خادمه وقال: مُرّ بإسراج دوابي.

فلم ألبث أن أسرجت له ومضى ومضيت معه حتى دخلنا على محمد، وهو في صحن داره على سرير ساج، فلم يزل يدنيني حتى كدت ألاصقه.

فقال: إنه قد كثر عليّ تخليط ابن أخيك، وطال خلافه حتى أوحشني ذلك منه، وولد في قلبي التهمة له وصيّرني بسوء مذهبه، وخبث طاعته إلى أن تناولته من الحبس بما لم أكن أحب تناوله به وقد وُصفت لي بخير، ونسبت إلى جميل، وأحببت أن أرفع قدرك، وأعلي منزلتك وأقدمك على أهل بيتك وأوليك جهاد هذه الفئة الباغية، وأعرضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون، وصحِّح نيتك، وأعن أمير المؤمنين [٧٦/ب] على اصطناعك وتشريفك فقلت: أبذل في طاعة أمير المؤمنين مهجتي وأبلغ جهاد عدوه أفضل ما أفضله، وما أمله عندي ورجاه من غنائي وكفايتي إن شاء الله تعالى.

فقال: يا فضل ادفع إليه دفاتر أصحاب أسد، واضمم إليه مَن شهد العسكر من رجال الحرس والأعراب.

وقال لي: امشِ على أمرك، وعجِّل المسير إلى عدوك.

فخرجت، فانتخبت الرجال، فبلغت عدة من صححت اسمه عشرين ألف رجل، ثم توجهت بهم إلى حلوان.

وكان محمد وصّاه، فقال: إياك والبغي...(٢) النصر، ولا تقدم رجلاً إلاّ باستخارة، ولا تشهر سيفاً إلاّ بعد إعذار، وأحسن صحابة من معك، وطالعني أخبارك في كل يوم، ولا تخاطر بنفسك طلباً للزلفة عندي، ولا تستبقها فيما يتخوّف رجوعها عليّ، وكن لعبد الله بن حميد أخاً مصادقاً، أحسن صحبته ومعاشرته، ولا تخذله إن استنصرك، ولا تبطىء عليه إن استصرخك، وتكن أيديكما واحدة وكلمتكما متفقة.

(١) في المخطوط: فك العدق. والتصويب من الكامل.
(٢) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط.

ثم قال: سل حوائجك وعجّل السراح إلى عدوك.

فدعا له أحمد وقال: يا أمير المؤمنين تكثر الدعاء لي، ولا تقبل فيّ قول باغ، ولا...[1] قبل المعرفة بموضع قدمي، ولا تنقض عليّ ما أستجمع من رأيي، ومُنّ عليّ بالصفح عن ابن[2] أخي.

قال: ذلك لك.

فبعث إلى أسد فحَلّ قيوده وخلّى سبيله.

فخرج أحمد بن مزيد في عشرين ألف رجل من الأبناء، وقد وصيا بالتواد وبالتحاب[3].

فتوجها حتى نزلا قريباً من حلوان بموضع يقال: جانقين.

وأقام طاهر بموضعه، وخندق عليه.

ذكر ما احتال[4] به طاهر عليهما حتى اختلفا

ثم إن طاهراً دسّ إليهما قوماً، فكانوا يأتون العسكرين بالأخبار الباطلة والأراجيف الكاذبة، بأن محمداً قد وضع العطاء لأصحابه وقد أمر لهم من الأرزاق بكذا وكذا، ولم يزل يحتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم حتى اختلفوا، وقاتل بعضهم بعضاً.

فأجلوا خانقين من غير أن يلقوا طاهراً حتى نزل حلوان، فلم يلبث طاهر بعد دخوله حلوان إلاّ يسيراً حتى أتاه هرثمة بن أعين كتاب المأمون والفضل بن سهل يأمرانه بتسليم ما حوى من المدن والكور إليه، والتوجه إلى الأهواز، وفتحها.

فسلّم ذلك إليه، وأقام هرثمة بحلوان، فحصنها ووضع المسالح والمراصد في طرقها وجبالها، وتوجه طاهر إلى الأهواز.

وفي هذه السنة: لما انتهى إلى المأمون قتل علي بن عيسى تسمى، وسلّم عليه الفضل بذلك، وصحّ عنه الخبر بقتل طاهر عبد الرحمٰن بن جبلة الأنباري، وغلبته على عسكره.

فدعا الفضل بن سهل وعقد له على المشرق من جبل همذان إلى جبل سفيان والتبت طولاً، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم [وجرجان][5] عرضاً وجعل له عمالة ثلاثة آلاف [ألف درهم][5].

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة بالمخطوط.
(٢) في المخطوط: أبي. وهو تحريف.
(٣) يريد العسكر، والأبناء فهم عشرون ألفاً من العسكر، وعشرون من الأبناء وأميرهم عبد الله بن حميد بن قحطبة.
(٤) في المخطوط: أحال. وهو تحريف.
(٥) زيادة من الكامل.

وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين وسماه ذا الرئاستين[١].

وفي هذه السنة: ولى محمد الأمين عبد الملك بن صالح بن علي، على الشام.

السبب في ذلك: أن طاهر لما قوي، واستعلى أمره، وهزم قواد محمد وجيوشه، وخلّ عبد الملك ابن صالح على محمد، وقد كان عبد الملك محبوساً [في أيام][٢] الرشيد، فأطلقه محمد، وكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ويوجب به على نفسه طاعته ومحبته.

ذكر الرأي[٣] الذي أشار به عبد الملك

فقال: يا أمير المؤمنين[٤]، إني أرى الناس قد طمعوا فيك، وأهل العسكر قد أعيتهم [الهوام][٥] ومضاة طعنوا بَذْلك، وقد بذلت سماعتك، فإن أتممت على عادتك أفسدتهم وأبطرتهم، وإن كففت يدك عن العطاء أسخطتهم وأغطبتهم وليس تملك الجنود بالإمساك ولا تبقى بيوت المال على الإنفاق والسرف.

مع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم، وأضعفتهم الحروب، وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم...[٦].

فإن سيرتهم إلى طاهر غلب بقليل مَن معه كثيرهم وهزم بقوة نيته ضعف نياتهم، وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب، وأدّبتهم الشدائد وكلهم[٧] منقاد إليّ مسارع[٨] إلى طاعتي فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً تعظم نكايتهم في عدوه.

فقال محمد: فإني موليك ومقويك بما سألت من مال وعدة، فعجل الشخوص إلى ما هناك، واعمل عملاً يظهر أثره، وأحمد بركة نظرك فيه.

فولاّه الشام، واستحثّه استحثاثاً شديداً ووجّه معه كثفاً من الجند.

---

(١) بعد هذا تفسير في الكامل لهذه الكلمة فقال ابن الأثير:
ولقبه ذا الرئاستين رئاسة الحرب، والقلم.
وحمل اللواء علي بن هشام، وحمل القلم نعيم بن حازم.
وولي الحسن بن سهل ديوان الخراج.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: رأى، وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: فقال يا أمير المؤمنين ذكر رأي أشار به عبد الملك. وهو تقديم وتأخير، فضبط السياق على ما يناسب المعنى.

(٥) زيادة من الكامل.

(٦) ثلاث كلمات لم أتبين قراءتها في المخطوط.

(٧) في المخطوط: وعليهم. والتصويب من الكامل.

(٨) في الكامل: متنازع.

فلما قدم عبد الملك الرقة أرسل كتبه ورسله إلى رؤساء أجناد الشام، ووجّه. . .[(١)] فلم يبقَ أحد ممن يرجى ويذكر جهاده إلاّ وعده وبسط أمله فقدموا عليه رئيس بعد رئيس، وفوج بعد فوج، فأجازهم وخلع على كل مَن قصده ووصله، وأتاه.

وأقبل الشام والأعراب من كل فج فاجتمعوا وكثروا.

ذكر اتفاق سيّئ

واتفق أن بعض جند خراسان نظر إلى دابة كانت أخذت منه في وقت سليمان بن أبي جعفر تحت بعض الزواقيل فتعلّق بها وتصافحا، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند فأغار كل واحد منهم [على][(٢)] صاحبه وتضاربوا بالأيدي.

ومشوا الأبناء بعضهم إلى بعض، وقالوا: إن صبرنا لهم ركبوا بمثل هذا كل يوم، واستعدُّوا، وأتوا الزواقيل[(٣)]، وهم غارون فوضعوا فيهم السيوف وذبحوهم في رحالهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

وتنادى الزواقيل، فركبوا، ونشبت الحرب، وبلغ عبد [٧٧/ أ] الملك [الخبر][(٤)]، فأنفذ رسولاً يأمرهم بالكف ووضع السلاح، فرموه بالحجارة.

وبلغ عبد الملك من قِبل الزواقيل بأنهم خلق كثير مطروحون.

وكان مريضاً، فضرب بيد على يد ثم قال: واذلاّه، تستضام[(٥)] العرب في دورها وبلادها، وتقتتل هذه المقتلة.

فغضب مَن كان أمسك عن الشر [من الأبناء][(٦)] وتفاقم الأمر فتنادى الناس، فقالوا[(٧)]: الهرب أولى من العطب، والموت أهون من الذل اليقين قبل أن ينقطع الشمل، ويفوت المطلب، ويعسر المهرب.

وقام رجل من كلب فقال:

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبينها في المخطوط.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: الزوايل. والتصويب مما قبله وبعده من اسم هذه الفئة.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

(٥) في المخطوط: يتضام. والتصويب من الكامل.

(٦) زيادة من الكامل.

(٧) في الكامل: فقام رجل من أهل حمص فقال: يا أهل حمص الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل، إنكم قد بعدتم عن بلادكم ترجون الكثرة بعد القلة، والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم، وفي حومة الموت أنختم، إن المنايا في شوارب المسودة، وقلانسهم، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل، وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب، ويعسر المهرب.

شرّ يؤب حرب خاب مَن يصلاها قد أشرفت فرسانها قفاها
فأوردوا من لظى فناها إن عمرت كلب بها لحاها

ثم نادى: يا معشر كلب أيها الراية السوداء والله ما ولت ولا ذل ناصرها، وإنكم آخر قوم مواقع سيوف خراسان في رقابكم فاعتزلوا الشر قبل أن يعظم، وتخطّوه قبل أن يضطرم الناس، شامكم شامكم، داركم داركم، الموت الفلسطيني خير من العيش الحرري، ألا إني راجع، فمَن أراد الانصراف فلينصرف معي، وسار معه أهل الشام.

وأقبلت الزواقيل حتى أضرموا ما كان جمعه التجار من جمعوا من الأعلاق بالنار[١]، وتفرّق ذلك العسكر.

ثم اتفق موت عبد الملك بن صالح في الأيام فلم يبقَ لذلك الجند خبر.

وفي هذه السنة: خُلع محمد بن هارون الأمين وأخذت البيعة لأخيه عبد الله المأمون ببغداد، وجلس محمد في قصر أبي جعفر مع أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر وهي زبيدة.

ذكر السبب في ذلك

لما توفي عبد الملك بن صالح بالرقة ونادى الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان في الجند فصيَّر الرجّالة في السفن والفرسان على[٢] الظهر[٣]، ووصلهم، وقوّى ضعفاءهم خمدهم حتى أخرجهم من بلاد الجزيرة، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة.

فلما وصلوا بغداد تلقاه الأبناء بالتكرمة والتعظيم، وضربوا له القباب، واستقبله الرؤساء، وأهل الشرف، ودخل منزله في أفضل كرامة وأحسن هيئة.

فلما كان في جوف الليل، بعث إليه محمد يأمره بالركوب إليه.

فقال للرسول: ما أنا بمغنٍّ ولا مُضْحِك، ولا صاحب جسارة، ولا جرى له على

---

(١) زاد ابن الأثير بعد هذا فقال في الكامل:
وأقبل نصر بن شبث العقيلي، ثم حمل وأصحابه فقاتل قتالاً شديداً، وصبر الجند لهم، وكان أكثر القتل في الزواقيل لكثير بن قادرة، وأبي القيل، وداود بن موسى بن عيسى الخراساني.
وانهزمت الزواقيل، وكان على حاميتهم يومئذ نصر بن شبث، وعمرو بن عبد العزيز السلمي، والعباس بن زفر الكلابي.
ثم توفي عبد الملك بن صالح بالرقة هذه السنة.
(٢) في المخطوط: في. وهو تحريف.
(٣) في الكامل بعد هذه الكلمة قال: في رجب.

يدي مال، ولا وليت له، ولأي شيء يريدني في هذه الساعة، انصرف، فإذا أصبحت غدوت إليه إن شاء الله، فانصرف الرسول.

وأصبح الحسين فوافى باب الجسر، واجتمع إليه الناس.

فأمر بإغلاق الباب الذي يخرج منه إلى قصر عبد الله بن علي، وباب سوق يحيى.

ثم قال: يا معشر الأبناء اسمعوا مني، إن خلافة الله لا تُجاور بالبطر، ونعمه لا تستصحب بالتجبُّر.

وإن محمداً يريد أن يوتغ[١] أديانكم[٢] وينكث بيعتكم، وهو صاحب الزواقيل بالأمس، أراد أن ينقل عزكم إلى غيركم وبالله لئن طالت به المدة ليرجعن وبال ذلك عليكم، فاقطعوا أثره قبل أن تنقطع[٣] آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضيع عزكم.

والله لا ينصره منكم ناصر إلاّ ذل، ولا يمنعه مانع إلا قل[٤].

وما لأحد عند الله هوادة، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث[٥] بأيمانه.

ثم أمر الناس بعبور الجسر، فعبروا واجتمعت الحرسة، وأهل الأرياض، وتسرّعت إليه خيول[٥] محمد، فاقتتلوا.

وأمر الحسين مَن كان معه من خواص أصحابه بالنزول فنزلوا، وصدقوا القتال حتى شفوهم.

فخلع الحسين محمد يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من رجب سنة [ست][٦] وتسعين ومائة.

وأخذ البيعة لعبد الله المأمون من غد يوم الاثنين إلى الليل.

وغدا محمد يوم الثلاثاء.

وقد كان العباس بن موسى الهاشمي قد دخل على محمد فأخرجه من قصر الخلد[٧] إلى قصر أبي جعفر، وحبسه هناك، وكذلك فعل بأمّ جعفر، فأبت أن تخرج،

---

(١) في المخطوط: يوقع. والتصويب من هامش الكامل، وقال محققه: الوتغ الإثم والهلاك والمهانة.
(٢) في الكامل: يوقع إذلالكم.
(٣) ينقطع في المخطوط وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: قتل. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: الخبول. وهو تحريف.
(٦) زيادة يتطلبها السياق.
(٧) في المخطوط: قصر الجلد، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

فقنّعها بالسوط، وأغلظ لها في القول حتى جلست في محفة وأدخلت مع ابنها المدينة.

فلما أصبح الناس، طلبوا من الحسين الأرزاق وماج الناس بعضهم في بعض.

فقام محمد بن أبي خالد بباب الشام، فقال: أيها الناس، والله ما أدري بأي سبب تأمر[١] الحسين بن علي علينا، وتولى هذا الأمر دوننا؟

ما هو أكبرنا سنًا، ولا أكرمنا حسباً، ولا أعظمنا غنى، وفينا مَن لا يرضى بالمدينة، ولا ينقاد للمخادعة، وإني أول مَن نقض عهده، وأنكر فعله، فمَن كان رأيه رأيي فليعتزل[٢] [معي][٣].

وقام كل رئيس قوم، فتكلم، وأنكر خلع محمد وأسره.

وأقبل شيخ كبير على فرس، فصاح: [أيها][٤] الناس اسكتوا، فسكتوا.

فقال: أيها الناس، هل تعتدون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟

قالوا: لا.

قال: فهل قصر بأحد من رؤسائكم؟

قالوا: لا.

قال: فهل عزل أحد من قوّادكم عن قيادته؟

قالوا: لا.

قال: فما بالكم خذلتموه حتى خُلع وأُسر؟

أما والله ما قتل قوم خليفتهم إلاّ سلط الله تعالى عليهم السيف القاتل والحتف الجارف، انهضوا إلى خليفتكم، فادفعوا عنه، وقاتلوا مَن أراد خلعه والفتك به.

ثم نهضت الحربية، وخفّ معهم عامة أهل الأرباض في العدة الحسنة، فقاتلوا الحسين بن علي، وأصحابه قتالاً شديداً عظيماً منذ ارتفاع النهار إلى انكسار الشمس حتى هزموهم، وأسروا [٧٧/ ب] الحسين بن علي.

ودخل الأسد الحربي على محمد، فكسر قيوده، وأقعده في مجلس الخلافة.

---

(١) في المخطوط: يأمر. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط على هذا الرسم: فليغيرك، والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل، وزاد بعدها فقال: وقال أسد الحربي: يا معشر الحربية، هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمتم فطال نومكم، وتأخرتم فتقدّم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوام بخلع الأمين، فاذهبوا أنتم بذكر فكّه وإطلاقه.
وأقبل شيخ على فرس...
(٤) زيادة من الكامل.

فنظر محمد إلى قوم ليس عليهم لباس الجند، ولا عليهم سلاح.

فأمرهم أن أخذوا السلاح من الخزائن قدر حاجتهم.

وانتهب الغوغاء بذلك السبب سلاحاً كثيراً، ومتاعاً آخر.

وأُتي بالحسين بن علي أسيراً، فلامه محمد ووبّخه، وقال: ألم أملأ يده من الأموال؟ ألم أشرّق أقداركم، وأرفعكم على غيركم من القواد؟

قالوا: بلى.

قال: فبما استحققت منك أن تخلع طاعتي، وتغلّب الناس عليّ؟

قال: خذلان الله يا أمير المؤمنين، وأنت أكرم مَن عفى، فاصفح وتفضّل.

قال: فإن أمير المؤمنين قد فعل بك ذلك.

فاطلب بثأر أبيك، ومَن قُتل من أهل بيتك، فقد وليتك ذلك.

ثم دعا بخلعه فخلعها[١] عليه، وحمله على مراكب، وولاه ما وراء بابه، وأمره بالمسير إلى حلوان.

وخرج الحسين، وهنأه الناس، ثم خرج معه نفر من خاصته ومواليه حتى عبر الجسر، ووقف حتى خفّ الناس، ثم قطع الجسر وهرب.

فنادى محمد في الناس، فركبوا في طلبه فأدركوه بمسجد كوثر على فراسخ[٢] من بغداد في طريق هرمز، فلما بصر بالخيل نزل فتحرّم وصلّى ركعتين، وحمل عليهم حملات في كلها يهزمهم، ويقتل منهم حتى عثر به فرسه فسقط، فابتدره الناس طعناً، وضرباً حتى قتلوه[٣].

فقال علي بن جبلة الحربي:

قاتل الله الأُولى كفروا به ... وفازوا برأس الحسين
لقد أودوا منه قناة صليبة ... بشطب يماني ورمح رديني
وجافى خلاف الحق عن أوامره ... فألبسه التأصيل خف حنين

وفي هذه السنة: رحل طاهر بن الحسين حين قدم عليه هرثمة من حلوان إلى الأهواز، فقتل عامل محمد عليها، وكان عامله محمد بن يزيد بن حاتم المهلبي.

---

(١) في المخطوط: ثم عاد بخلعه فجعلها عليه والتصويب من الكامل.

(٢) في الكامل: فرسخ.

(٣) بعد هذا في الكامل: فسقط عنه فقتل وأخذوا رأسه.
وقيل: إن الأمين كان استوزره، وسلّم إليه خاتمه، وجدّد الجند البيعة للأمين بعد قتل الحسين بيوم.
وكان قتله خامس عشر رجب، فلما قتل الحسين بن علي هرب الفضل بن الربيع واختفى.

وكان السبب في ذلك: أن محمد بن يزيد المهلبي جمع جيوشاً كثيرة حين توجّه إليه طاهر، وأقبل حتى نزل سوق عسكر مكرم، وصيّر العمران والماء وراء ظهره.

وخاف طاهر أن يعجل إلى أصحابه فجمعهم وسار. . . .[١] فجمع محمد بن يزيد أصحابه وقال: ما ترون أطال القوم وأماطلهم اللقاء أم أناجزهم كانت لي أم عليّ؟

فوالله لا أرجع إلى أمير المؤمنين أبداً وأنصرف عن الأهواز.

فقالوا: الرأي أن ترجع إلى الأهواز.

فشخص لها وتفادى طاهراً اللقاء وتراوحه، وبعث، فتفرض بها الفرض، وتستجيش بمَن قدرت عليه من قومك، فقبل ما أشاروا به عليه، وتابعه قومه فرجع إلى سوق الأهواز.

فحرص طاهر أن يسبقه إليها قبل أن يتحصّن بها، فلم يقدر على ذلك، وسبق محمد بن يزيد إلى المدينة، فدخلها، وأسند إلى عمران، وعبىء أصحابه، ودعا بالأموال فصبَّت بين يديه، وقال لأصحابه: مَن أراد منكم المجايز والمنزلة فليعرفني أثره، وقاتل الناس بين يديه حتى ترادوا، ورآهم محمد بن يزيد منهزمين.

فقال محمد بن يزيد لنفر كانوا معه من مواليه:

ما ترون؟

قالوا: في ماذا؟

قال: أرى مَن معي قد انهزم ولست آمل رجعتهم، ولا آمن خذلان مَن بقي، وقد عزمت على النزول والقتال [بنفسي][٢]، حتى يقضي الله ما هو قاض، فمَن أراد منكم الانصراف فلينصرف.

فقالوا: والله ما أنصفناك، إذ عتقتنا من الرق، ورفعتنا من الضعة، وأغنيتنا بعد القلة لنضرك وقت الشدة، ثم نخذلك على هذه الحال، بل نقدم أمامك، ونموت تحت رحابك، فلعن الله الدنيا بعدك.

فنزلوا فعرقبوا دوابهم، وحملوا على أصحاب طاهر، وكان المتولي لقتاله قريش بن شبل فأكثروا فيهم القتل.

فانتهى بعض أصحاب قريش إلى محمد بن يزيد، فطعنه بالرمح فقتله[٣].

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبيّن قراءتها في المخطوط هذا رسمها: «بنصبينه».

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) بعده في الكامل: واستولى طاهر على الأهواز وأعمالها واستعمل العمال على اليمامة والبحرين وعمان، وجرح في تلك الوقعة عدة جراحات، وقطعت يده، وقال بعض المهالبة: =

فحكى الهيثم بن عدي قال:

دخل ابن أبي عيينة المهلبي على طاهر، فأنشده:

ما أساء ظني إلا لواحدة ... في الصدر محصورة عن الكلم

فتبسّم طاهر ثم قال: أما والله لقد ساءني من ذاك ما ساءك وآلمني منه [ما][١] آلمك، ولقد كنت كارهاً لما كان غير أن الحتف واقع والمنايا[٢] نازلة، ولا بد من قطع الأوامر، والتنكر للأقارب في تأكيد الخلافة، والقيام بحق الطاعة.

قال: فظننا أنه يريد محمد بن يزيد بن حاتم.

وأقام طاهر بالأهواز حتى أنفذ العمال إلى كورها، وولّى اليمامة والبحرين وعمان مما يلي الأهواز ومما يلي البصرة.

ثم توجّه على طريق البر إلى واسط، فجعلت المسالح تقوض مسلحة مسلحة، وعاملاً عاملاً، كلما قرب منهم طاهر تركوا أعمالهم وهربوا حتى دخلوا واسط.

ووجّه قائداً من قواده يقال له: أحمد بن المهلب نحو الكوفة، وعليها يومئذ العباس [بن موسى][٣] الهادي.

فلما بلغه توجه خيل طاهر إليه خلع محمداً وكتب بطاعته وبيعته إلى طاهر[٤].

ثم كتب منصور بن المهدي، وكان عاملاً لمحمد على البصرة إلى طاهر بطاعته.

ثم كتب إليه المطلب بن عبد الله وكان بالموصل ببيعته للمأمون وخلعه محمداً[٥].

فأقرهم طاهر على ولايتهم وأعمالهم.

وكان طاهر نازلاً جرجرايا، ولما رآها قال: نِعْمَ موضع العسكر، وعقد بها جسراً، وخندق[٦].

= فمالت نفسي غير أني لم أطق ... حراكاً وإني كنت بالضرب مثخنا
ولو سلمت كفاي قاتلت دونه ... وضاربت عنه الطاهري الملعنا
فتى لا يرى أن يخذل السيف في الوغى ... إذا أدرع الهيجاء في النقع واكتنى

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: المنا نازلة، والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) بعد هذا في الكامل: ونزل خيل طاهر فم النيل وغلب على ما بين واسط والكوفة.

(٥) بعد هذا في الكامل: وكان هذا جميعه في رجب من هذه السنة.

(٦) بعد هذا في الكامل:
فلما بلغ الأمين خبر عامله بالكوفة، وخلعه والبيعة للمأمون، وجّه محمد بن سليمان القائد، ومحمد بن حماد البربري، وأمرهما أن يبيتا الحارث بن هشام وداود بالقصر، فبلغ الحارث =

فلما وردت عليه كتب أهل هذه المدائن بالتسليم سار منها إلى نهر صرصر وعقد بها جسراً.

وأخذ أصحاب طاهر المدائن.

فحكي أن: [٧٨/أ] طاهراً لما توجه إلى المدائن كان فيها خيل كثيرة لمحمد وعليهم البرمكي، وقد تحصّن بها والمدد يأتيه في كل يوم، والصلات والخلع.

فلما قرب[١] طاهر منها، قدم قريش بن شبل على مقدمته.

فلما سمع أصحاب البرمكي طبوله أسرجوا الدواب، وأخذ البرمكية في تعبية الرجال، وجعل مَن في أوائل الناس يضم إلى آخرهم فيردهم البرمكي، ويسوّي صفوفهم، فكلما سوّى صفًّا انتفض عليه، فقال:

«اللهم إنا نعوذ بك من الخذلان».

ثم التفت إلى صاحب ساقته، وقال: خلّ سبيل الناس، فإني أرى جنداً لا خير عندهم.

فركب بعضهم بعضاً نحو بغداد.

ونزل طاهر بن الحسين المدائن وقدم قريش بن شبل، والعباس بن نجار أخذاه إلى دار ريحان.

وكان نصر بن المنصور بن نصر بن مالك، وأحمد بن سعيد الحرشي معسكرين بنهر دبالي، فمضى أصحاب البرمكي من الجوارة إلى بغداد.

وتقدّم طاهر حتى سار إلى دار ريحان جبال نصر، وأحمد، ثم صيّر إليهما الرجال في السفن للقتال، فلم يجرِ بينهم قتال حتى انهزموا، وأخذ طاهر نحو اليسار إلى نهر صرصر، فعقد بها جسراً ونزلها.

وفي هذه السنة: خلع داود بن عيسى بن موسى عامل مكة والمدينة، محمد وبايع

= الخبر، فركب هو وداود، فعبرا في مخاضة في سوراء إليهم فأوقعا بهم وقعة شديدة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم أهل بغداد، ووجّه الأمين أيضاً الفضل بن موسى بن عيسى الهاشمي عاملاً على الكوفة في خيل.

فبلغ طاهر الخبر، فوجّه محمد بن العلاء في جيش إلى طريقه، فلقي الفضل بقرية الأعراب، فبعث إليه الفضل: إني سامع مطيع، وإنما كان مخرجي كيداً مني لمحمد الأمين.

فقال له ابن العلاء: لست أعرف ما تقول، فإن أردت طاهراً، فأرجع وراءك فهو أسهل الطريق، فرجع الفضل.

فقال محمد بن العلاء: كونوا على حذر فلا آمن مكره، ثم إن الفضل رجع إلى ابن العلاء وهو يظن أنه على غير أهبة فرآه متيقظاً حذراً، فاقتتلوا قتالاً شديداً كأشد ما يكون القتال، فانهزم الفضل وأصحابه.

(١) في المخطوط: قدم. والتصويب من الكامل.

المأمون وأخذ البيعة بهما على الناس، وكتب بذلك إلى طاهر بن الحسين ثم خرج بنفسه.

ذكر السبب في ذلك

إن محمد كتب إلى داود بن عيسى بخلع عبد الله المأمون والبيعة لابنه موسى وبعث بجند إلى الكتابين الذين كتبهما هارون وخلفهما في الكعبة فأخذهما.

فلما بلغه في هذا الوقت غلبة طاهر على البلاد وقتله مَن قتل، جمع حجبة الكعبة وأهل الشرف، والفقهاء، فذكرهم عهد الرشيد إليهم، والمواثيق التي أخذها عند بيت الله الحرام عليهم حين بايع لابنه أن لنكونن[١] مع المظلوم منهما على الظالم.

ثم قال: وقد رأيتم محمداً كيف بدأ بالظلم والبغي على إخوته؟

وكيف بايع لابنه هو طفل رضيع لم يفطم؟

واستخرج الكتابين من الكعبة غاصباً ظالماً فحرقهما بالنار.

وقد رأيت خلعه، ومبايعة عبد الله المأمون بالخلافة إن كان مظلوماً مبغيًّا عليه.

فقال القوم بأجمعهم: رأينا رأيك.

فوعدهم صلاة الظهر، فأرسل إلى فجاج مكة صائحاً يصيح الصلاة جامعة.

فلما اجتمع الناس صلّى بهم الظهر، وكان وضع له المنبر بين الركن والمقام، فصعده، وكان داود فصيحاً جهراً، فخطب خطبة حسنة ذكّرهم فيها بالشرف والتقدمة، وأن المسلمين وفود الله إليكم، وبكم تأتم الناس.

ثم ذكّرهم عهد الرشيد وما جرى في الكتابين، وعظّم عليهم الأمر ودعاهم إلى خلع محمد والبيعة للمأمون.

وقال: إني قد خلعت[٢] محمداً كما خلعت[٢] قلنسوتي هذه ورمى بها عن رأسه إلى بعض الخدم تحته ـ وكانت من خز، وحبرة حمراء مسلسلة ـ وأُتي بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها، [وقال][٣]: وقد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين، ألا فقوموا إلى البيعة.

فصعد إليه من قرب من الوجوه والأشراف رجلاً رجلاً إلى وقت العصر.

ثم نزل وصلّى بالناس، وجلس ناحية، وتتابع الناس عليه جماعة جماعة تقرأ كتاب البيعة ويصافحونه، فعل ذلك أياماً.

وكتب إلى ابنه سليمان بن داود، وكان خليفته على المدينة يأمره أن يفعل بالمدينة

---

(١) في المخطوط: ليكونن. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: جعلت. وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.

كما فعل هو بمكة.

ثم رحل يريد المأمون بمرو، فمرّ على البصرة، ثم مرّ على فارس، ثم على كرمان حتى صار إلى المأمون بمرو[١]، فسرّ به وتيمّن ببركة مكة والمدينة، وكتب إليهم كتاباً لطيفاً يعدهم فيه الخير.

وأمر أن يكتب لداود عهدان على مكة، والمدينة وأعمالهما، وزيد [إليه][٢] ولاية عك، وعقد له على ذلك ألوية.

وكتب إلى الري بمعونة خمسمائة ألف درهم.

وورد داود ومَن معه بغداد، فنزل على طاهر بن الحسين، فأكرمه وقرّبه، ووجّه معه يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القسري.

وعقد له طاهر على ولاية اليمن، وبعث معه خيلاً كثيفاً، وكان ضمن له يزيد بن جرير أن يستميل قومه وعشيرته من ملوك اليمن حتى يخلعوا محمداً ويبايعوا المأمون.

وساروا جميعاً، فأقام داود على عمله بمكة، ومضى يزيد بن جرير إلى اليمن، فدعا أهلها إلى البيعة للمأمون، وخلع محمد، وقرأ عليهم كتاب طاهر، وأعلمهم عدل المأمون وإنصافه، ووعدهم ومَنَّاهم، فأجابه أهل اليمن، واستبشروا، فسار فيهم يزيد بأحسن سيرة، وكتب بإجابتهم وبيعتهم.

وفي هذه السنة: عقد محمد[٣] نحو أربعمائة لواء لقواد شتى، وأمَّرَ على جميعهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك.

وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين فساروا والتقوا. . .[٤] وهزمهم هرثمة، وأسر علي بن محمد بن نهيك فبعث به [إلى المأمون، ورحل][٥] هرثمة فنزل النهروان.

واستأمن إلى محمد جماعة من أصحاب طاهر، ففرّق فيهم محمداً مالاً عظيماً، وقوّد[٦] منهم جماعة وغلّف[٧] لحاهم بالغالية[٨]، فسُمُّوا قواد الغالية.

(١) في المخطوط: بمن وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في الكامل بعدها في رجب وشعبان.
(٤) كلمة غير مفهومة المعنى في هذا الموضع من السياق هي: «تحللنا». وفي الكامل: فالتقوا بنواحي النهروان في رمضان، فانهزموا.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) أي صيَّرهم قادة ورؤساء.
(٧) في المخطوط: علل. والتصويب من الكامل.
(٨) نوع جيد جدًا من الطيب غالي الثمن زكي الرائحة.

سبب استئمان أصحاب طاهر

ما كان يبلغهم من عطاء محمد وبذله الأموال والكسى.

فخرج من عسكر طاهر نحو من خمسة آلاف رجل من أهل خراسان، فسُرَّ بهم محمد، ووعدهم ومنّاهم، وأثبت أسماءهم في الثمانين.

ودسّ محمد إلى أصحاب طاهر، وفرّق فيهم [٧٨/ب] الجواسيس، وأطمعهم، [ورغّبهم]، فشغبوا على طاهر(١).

وأرسل طاهر عيونه، وجواسيس بغداد بأن يغري أصاغرهم بأكابرهم، لأنه فرّق بالأكابر خاصة مال، فشغبوا على محمد.

ثم أخرج محمد المستأمنة مع خلق كثير مع كل عشرة منهم طبل إلى طاهر، فأرعدوا وأجلبوا حتى أشرفوا على نهر صرصر.

فعبّى طاهر أصحابه كراديس، وجعل يمرّ على كردوس [كردوس](٢) فيقول: لا يغرنكم كثرة ما ترون، فإن النصر مع الصدق، والفلاح مع الصبر.

ثم أمرهم بالتقدُّم، فصبر الفريقان، ثم انهزم أهل بغداد، وانتهبهم أصحاب طاهر.

ثم كثر الشغب على محمد، ونقب(٣) أهل السجون سجونهم، وخرجوا، وفتن الناس، ووثب [الشطّار](٤) على أهل الصلاح والدعاء فعزّ الفاجر وذلّ المؤمن واختلّ الصالح، وساءت حال الناس، إلا مَن كان في عسكر طاهر لتفقُّده الأمور.

[وأخذه على أيدي السفهاء](٥) وغادي القتال ورواحه حتى خربت بغداد، وتواكل

---

(١) بعدها في الكامل:
وستأمن كثير منهم إلى الأمين، فانضمُّوا إلى عسكره، وساروا حتى أتوا صرصراً.
فعبّى طاهر أصحابه كراديس، وسار فيهم يمنيهم، ويحرضهم ويعدهم النصر.
ثم تقدّم فاقتتلوا ملياً من النهار، فانهزم أصحاب الأمين، وغنم عسكر طاهر ما كان لهم من السلاح، والدواب وغير ذلك.
وبلغ ذلك الأمين، فأخرج الأموال وفرقها، وجمع أهل الأرباض، وقوّد منهم جماعة، وفرّق فيهم الأموال، وأعطى كل قائد منهم قارورة غالية، ولم يفرّق في أجناد القواد شيئاً.
فبلغ ذلك طاهراً، فراسلهم ووعدهم، واستمالهم، وأغرى أصاغرهم بأكابرهم فشغبوا على الأمين في ذي الحجة، فصعب الأمر عليه، فأشار عليه أصحابه باستمالتهم والإحسان إليهم فلم يفعل وأمر بقتالهم جماعة من المستأمنة والمحدثين فقاتلوهم.

(٢) يتطلبها السياق أو نحوها.

(٣) في المخطوط: بعت. والتصويب من الكامل.

(٤) أي اللصوص وقطّاع الطرق.

(٥) زيادة من الكامل.

الفريقان، وقاتل الأخ أخاه والابن أباه، وأخرب الناس[١].

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

وفي هذه السنة: حاصر طاهر، وهرثمة بن أعين، وزهير بن المسيب محمداً ببغداد.

أما زهير: فنزل قصراً ببرقة كلواذي، ونصب المجانيق، والعرادات، وحفر الخنادق، وكان يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمي بالعرادات مَن أقبل ومَن أدبر، ويعشر أموال التجار ويجتبي السفن، وآذى الناس، وبلغ بهم كل مبلغ، [وبلغ][٢] أمره طاهر وأباه الناس فشكوا ما نزل من أمر زهير.

---

(١) زاد ابن الأثير بعد هذا في أحداثها فقال:
وحجّ بالناس هذه السنة: العباس بن موسى بن عيسى بن موسى، ودعا للمأمون بالخلافة، وهو أول موسم دُعِي له فيه بالخلافة بمكة والمدينة.
وفي هذه السنة: ثار أبو عاصم ومَن وافقه على إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، فحاربهم إبراهيم فظفر بهم.
وفيها: استعمل ابن الأغلب ابنه عبد الله على طرابلس الغرب، فلما قدم إليها ثار عليه الجند، فحصروه في داره، ثم اصطلحوا على أن يخرج عنهم.
فخرج عنهم، فلم يبعد عن البلد حتى اجتمع إليه كثير من الناس، ووضع العطاء، فأتاه البربر من كل ناحية.
وكان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم، ويعطي الراجل في اليوم درهمين.
فاجتمع له عدد كثير، فزحف بهم إلى طرابلس فخرج إليه الجند، فاقتتلوا، فانهزم جند طرابلس ودخل عبد الله المدينة، وأمَّنَ الناس وأقام بها.
ثم عزله أبوه واستعمل بعده سفيان بن المضاء، فثارت هوارة طرابلس، فخرج الجند إليهم، والتقوا، واقتتلوا، فهزم الجند إلى المدينة، فتبعهم هوارة، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب، ودخلوا المدينة، فهدموا أسوارها.
وبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، فسَيَّر إليهم ابنه أبا العباس عبد الله في ثلاثة عشر ألف فارس، فاقتتل هو والبربر، فانهزم البربر، وقتل كثيراً منهم، ودخل طرابلس وبنى سورها.
وبلغ خبر هزيمة البربر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن بن رستم، وجمع البربر وحرّضهم، وأقبل بهم إلى طرابلس، وهم جمع عظيم عصباً للبربر ونصرةً لهم، فنزلوا على طرابلس، وحصروها.
فسَدَّ أبو العباس عبد الله بن إبراهيم باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة، ولم يزل كذلك إلى أن توفي أبوه إبراهيم بن الأغلب، وعهد بالإمارة إلى ولده عبد الله.
فأخذ أخوه زيادة الله بن إبراهيم له العهود على الجند، وسيَّر الكتاب إلى أخيه عبد الله يخبره بموت أبيه، وبالإمارة له، فأخذ البربر الرسول، والكتاب، ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن بن رستم، فأمر بأن ينادي عبد الله بن إبراهيم بموت أبيه.
فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجاً من ذلك يكون لعبد الوهاب.
وسار عبد الله إلى القيروان، فلقيه الناس، وتسلّم الأمر.
وكانت أيامه أيام سكن ودِعَةٍ.
(٢) زيادة يتطلّبها السياق.

ثم قصده الناس بالحرب، وبلغ ذلك هرثمة، فأمدّه بالجند، فقد كاد يؤخذ، فأمسك عنه الناس.

وأما هرثمة: فنزل نَهْر بِيْنَ، وعمل عليه خندقاً وسوراً، ونزل عبيد الله بن الوضّاح بالشماسية، ونزل طاهر بالبستان الذي بباب الأنبار.

فلما نزله شقّ ذلك على الأمين، وتفرّق ما كان بيده من الأموال.

فأمر ببيع ما كان في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم ليفرقها في أصحابه، وفي نفقاته[١].

واستأمن إلى طاهر بن الحسين سعيد بن مالك بن قادم، فولاّه ناحية من الأسواق وشاطىء دجلة وما اتصل به أمامه إلى جسور دجلة.

وأمر بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كل ما غلب عليه من الدور، والدواب، والنفقات والفعلة، والفرسان، والسلاح.

وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد.

وأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار، وباب الكوفة، وما يليها.

فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليها، ووضع مسالحه وأعلامه، ومَن أبى إجابته والدخول في طاعته ناصبه وقاتله، وأحرق منزله، وفعل ذلك قوّاده، وفرسانه، ورجالته حتى أوحشت بغداد، وقال الشعراء في ذلك أشياء كثيرة، لم نجدّ فيه ما نختاره[٢].

وسمّى طاهر الأرباض التي خالفه سكانها، ومدينة أبي جعفر، الشرقية، وأسواق الكرخ، وما والاها: دار النكث.

وقبض ضياع مَن لم يخرج[٣] إليه من بني هاشم والقوّاد والموالي، وغلاتهم حيث كانت من عمله.

فذلُّوا، وانكسروا، وتواكلت الأجناد عن القتال إلاّ باعة الطريق، والعداة، وأهل السجون، والأوباش، والطرارين [فكانوا ينهبون أموال الناس].

---

(١) بعد هذا في الكامل: وأمر بإحراق الحربية فرميت بالنفط والنيران، وقتل بها خلق كثير.

(٢) ذكر طرفاً من ذلك ابن الأثير في الكامل فقال: فقال حسين الخليع:

أتسرع الرحلة أغذاذا	عن جانبي بغداد أماذا
أما ترى الفتنة قد ألفت	إلى أولي الفتنة شذاذا
وانتقضت بغداذ عمرانها	عن رأي لا ذاك ولا هذا
هدماً وحرقاً قد أباد أهلها	عقوبة لاذت بمَن لاذا
ما أحسن الحالات إن لم تعد	بغداذ في القلة بغداذا

(٣) في المخطوط: بخر. والتصويب من الكامل.

وكان الأمين قد تقدّم إلى خالد بن أبي الصفراء والهرش بإباحتهم النهب، والاستعانة بهم على قتال طاهر.

وكان محمد بن عيسى بن نهيك صاحب شرطة محمد يقاتل مع الأفارقة، وأهل السجون والأوباش.

وكان محمد بن عيسى غير مداهن في أمر محمد، وكان مهيباً في الحرب.

وكان مَن يجري مجراه من أصحاب محمد على إقرارهم، وكان موكلاً بقصر صالح وسليمان بن أبي جعفر، وفي يده مجانيق وعرادات تحفظ بها في يده من تلك النواحي على حد الجسور.

فأمر الباعة، والغوغاء، والعراة باتخاذ تراس من البواري وبالرمي بالمقاليع، وما أشبهها.

وكانوا يقاتلون، ويؤثرون في أصحاب طاهر، وهرثمة.

ومحمد قد أقبل على اللهو والشرب، ووكل الأمر كله إلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى الهرش.

فأما الفضل بن الربيع، فإنه استتر واختفى أمره قبل أن ينتهي بهم الأمر إلى هذا بزمان كثير.

فاستكلب الهبارون والعراة وسلبوا مَن قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء وأهل الذمة والملة.

وكان منهم في ذلك ما لم يبلغنا أن مثله كان في شيء من الأوقات المتقدمة(١).

---

(١) ذكر ابن الأثير طرفاً من ذلك في الكامل فقال بعد ذلك:
فلما طال ذلك بالناس خرج عن بغداد مَن كانت به قوة.
وكان أحدهم إذا خرج أمن على ماله ونفسه، وكان مثلهم كما قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].
وخرج عنها قوم بعلّة الحج ففي ذلك يقول شاعرهم:

أظهر الحج وما ينوونه ... بل من الهرش يريدون الهرب
كم أناس أصبحوا في غبطة ... دخل الهرش عليهم بالعطب

وقال بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحسّاد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
وقوماً أحرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي وأصباحاً ... وباكية لفقدان الشقيق =

فأما في المستأنف فقد جرت أمور عظام قبيحة مثل هذا، وأقبح منه سنذكرها إذا بلغنا إليها إن شاء الله تعالى.

فطال ذلك على الناس، وضاقت بغداد بأهلها، استأمن محمد بن عيسى صاحب الشرطة وعلى أفرادهم والي طاهر.

فضعف أمر محمد جدًّا وأيقن بالهلاك، وخرج من بغداد كل مَن كانت به قوة بعد العذر القادح، وبعد المصانعة العظيمة والخطر الفاحش.

وكان الرجل أو المرأة إذا تخلّص من أصحاب الهرش، وصار إلى أصحاب طاهر ذهب عنه الروع، وأمِنَ وأظهرت المرأة ما معها من حليها وغير ذلك، وكذلك الرجل.

ولما صارت الحرب بين العيارين وبين أصحاب طاهر خرج قائد من قواد خراسان ممن كان مع طاهر بن الحسين من أهل البأس والنجدة، فنظر إلى قوم [٧٩/أ] عراة لا سلاح معهم، فاستهان بهم، واستحقرهم، وقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا من هزاري.

قالوا: نعم هؤلاء الذين تستحقرهم هم البلاء والآفة[١].

قال: أفٍّ لكم حين تنهزمون[٢] عن هؤلاء، وتنكصون عنهم، وأنتم في السلاح الظاهر والعدة [والقوّة][٣]، وأنتم أصحاب الشجاعة والبسالة، وما عسى أن يبلغ كيد هؤلاء بلا سلاح ولا جنة [تقيهم][٣]؟

ثم أوتر قوسه، وتقدّم، ووضعه عينه على بعضهم فقعد نحوه وفي يده بارية[٤] مقيرة، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة.

= وحوراء المدامع ذات دَلٍّ ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفرّ من الحريق إلى انتهاب ... ووالدها يفرّ إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألاء البروق
حيارى هكذا ومفكرات ... عليهن القلائد في الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فُقد الشفيق من الشفيق
[وقوم أخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق]
ومغترب قريب الدار ملقىً ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... لما يدور من أي الفريق
فما ولد يقيم على أبيه ... وقد فرّ الصديق عن الصديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فإني ذاكرٌ دار الرفيق

(١) في المخطوط: الإقامة. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: يحبون. والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: بادية. والتصويب من الكامل.

فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر بالجفنة، فكلما وقع في ترسه سهم أخذه، وصاح: دانق، أي ثمن الشاب[١] دانق قد أحرزه.

فلم يزل حال الخراساني، وحال العيار تلك حتى أنفد الخراساني سهامه.

ثم حمل على العيار ليضربه بسيفه، فأخرج العيار من مخلاته حجراً فجعله في مقلاعه ورماه فما أخطأ به عينه، ثم ثناه صريعاً، فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحامله، وكرَّ راجعاً، وهو يقول: ما هؤلاء بأنس.

فحُدِّث طاهر بحديثه، فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج إليهم.

وقال بعض الشعراء:

خرجت هذه الحروب رجالاً ... لا لقحطانها ولا لنزارِ
معشر في جواشن الصوف يعدون ... إلى الحرب كالأسود الضواري
عليهم مغافر الخوص بحربهم ... على البيض والتراس والبواري
ليس يدرون ما الفرار إذ ... الأبطال عادوا من القنا بالفرارِ
واحد منهم يشتد على ألفين ... عرياناً ما له من إزارِ
ويقول الفتى إذا طعن الطعنة ... خذها من الفتى العيار

في أبيات كثيرة، ووصفهم الشعراء كثيراً.

وأخذ طاهر في الهدم والحرق على مَن خالفه، ومنع الملاّحين وغيرهم من إدخال شيء إلى بغداد، ووضع الرصد عليهم.

وكان يحوي في كل يوم ناحية بعد ناحية، ويخندق عليها، ويقيم عليها المقاتلة.

فكان أصحاب محمد ينقصون، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون، فيقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد، فيكونون أضر عليهم من أصحاب طاهر[٢].

---

(١) في المخطوط: نشاب. وهو تحريف.

(٢) في الكامل: فقال شاعر منهم:

لنا كل يوم ثمة لا تسدُّها ... يزيدون فيما يطلبون وننقص
إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ... ونحن لأخرى غيرها نتربّص
فإن حرصوا يوماً على الشر جهدهم ... فغوغاؤنا منهم على الشر أحرص
فقد ضيَّقوا من أرضنا كل واسع ... صار لهم أهل بها وتعرّصوا
يثيرون بالطبل القنيص فإن بدا ... لهم وجهَ صيدٍ من قريب تقنصوا
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها ... علينا فما تدري إلى أين نشخص
إذا حضروا قالوا بما يعرفونه ... وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرصوا
وما قتل الأبطال مثل مجرب ... رسول المنايا ليلة يتلصّص

في أبيات غيرها.

ولما منع طاهر الميرة من بغداد، وكان يأخذ من كل سفينة وتحمل دقيقاً أو غيره مالاً [فاشتدّ ذلك عليهم و][١]غلت الأسعار، وصار أمر الناس إلى القنوط واليأس من الفرج، وحسد المقيم منهم مَن قد خرج عنها[٢].

وآل أمر محمد أن أمر غلامه زريح ببيع الأموال، فطلبها عند مَن وجدها، وأمر الهرش بطاعته.

وكان يهجم على الناس في منازلهم ويبيتهم ليلاً، ويأخذ بالظنّة[٣]، فجبى بذلك السبب أموالاً كثيرة، وأهلك خلقاً.

ثم إن حاتم بن الصقر ـ من قواد محمد ـ كان قد واعد أصحابه العرّادون [وقد] واقعوا عبيد الله بن الوضّاح ليلاً، فمضوا إلى عبيد الله مفاجأة وهو لا يعلم، فأوقعوا به وقعة أزالوه عن موضعه، وولّى منهزماً، فأصابوا له خيلاً وسلاحاً.

الخبر عن هزيمة هرثمة

وبلغ الخبر هرثمة، فأقبل في أصحابه لنصرته، وليرد العسكر إلى موضعه.

فوافاه أصحاب محمد، ونشبت الحرب بينهم، فأسر رجل من العراة هرثمة ولم يعرفه، فحمل بعض أصحاب[٤] هرثمة على العريان فقطع يده، وخلص هرثمة منهم[٥].

وبلغ خبره أهل عسكره فتقوّض بما فيه، وخرج أهله هاربين على وجوههم.

وحجز الليل أصحاب محمد عن الطلب والنهب والأسر، فلم يتراجع أصحاب هرثمة إلاّ بعد يومين أو ثلاثة.

وقويت العراة بما صار في أيديهم، وقيلت في هذه الوقعة أشعار كثيرة.

وبلغ طاهر هزيمة[٦] عبيد الله بن الوضاح، وهرثمة وما صار إلى العراة من سلاحهم وأموالهم.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) تكررت بعدها عبارة: وصار أمر الناس إلى القنوط، وقد سبقت قبل قليل.

(٣) في الكامل الخبر بعد ذلك على نحو ما هنا إلا أنه فيه أوضح وأظهر فقال ابن الأثير: ثم كان بينهم وقعة بدرب الحجارة، قتل فيها من أصحاب طاهر خلق كثير.
ووقعة بالشماسية خرج فيها حاتم بن الصقر في العيارين وغيرهم إلى عبيد الله بن الوضّاح فأوقعوا به، وهو لا يعلم، فانهزم عنهم، وغلبوه على الشماسية.
فأتاه هرثمة يعينه، فأسره بعض أصحاب الأمين، وهو لا يعرفه، فقاتل عليه بعض أصحابه حتى خلصه.
وانهزم أصحاب هرثمة فلم يرجعوا يومين.

(٤) في المخطوط: أصحابه. وهو تحريف.

(٥) في المخطوط: منهزماً. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٦) في المخطوط: هرثمة، وهو تحريف.

واشتدّ عليه وقام منه وقعد ووجّه إلى أصحابه وعبّأهم، وأمر بعقد جسر فوق الشماسية.

وخرج معهم إلى الجسر، فعبروا إليهم واقتتلوا أشد قتال يكون حتى ردُّوا أصحاب محمد، وأزالوهم عن الشماسية ورد إليها جند عبيد الله(١)، وهرثمة.

وكان محمد. . .(٢) تنقّص قصوره مجالسته بالخيزرانية(٣) بعد ظفر العراة بألفي ألف درهم في مواضعها، وقد كانت النفقة عليها ألف ألف درهم، فحرقها أصحاب طاهر، وكانت السقوف مذهَّبة.

وهرب عبد الله بن خازم بن خزيمة لأن محمداً اتهمه، وتحامل عليه قوم من السفلة والغدّارين فخافهم على نفسه.

فلحق بالمدائن ليلاً في السفن بعياله وولده وأقام بها، ولم يحضر شيئاً من القتال.

وفعل ذلك بمواطأة طاهر.

وضاق على محمد أمره، ونفذ ما كان عنده، ولم تبقَ له حيلة، وطلب الناس الأرزاق.

فقال عند ضجره بذلك: وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً وأراحني منهم فما منهم إلاّ عدو، أما هؤلاء فيريدون مالي ولم يبقَ.

وأما هؤلاء فيريدون نفسي(٤).

---

(١) في المخطوط: عبد الله، وهو تحريف.

(٢) كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط.

(٣) في الكامل في خبر ما صنع طاهر بأهل الشماسية قال: وأحرق منازل الأمين بالخيزرانية، وكانت النفقة عليها بلغت عشرين ألف ألف درهم.
وقتل من العيارين كثير، فضعف أمر الأمين، فأيقن بالهلاك، وهرب منه عبد الله بن خازم. . .
ثم إن الهرش خرج ومعه لفيفة، وجماعة إلى جزيرة العباس، وكانت ناحية لم يقاتل فيها، فخرج إليه بعض أصحاب طاهر فقاتلوه، فقوي عليهم، فأمدّهم طاهر بجند آخر، فأقعوا بالهرش وأصحابه وقعة شديدة فغرق منهم بشر كثير، وضجر الأمين وخاف حتى قال يوماً: وددت. . .

(٤) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
وحجّ بالناس هذه السنة: العباس بن موسى بن عيسى بتوجيه طاهر إياه على الموسم بأمر أمير المؤمنين المأمون.
وفيها: سار المؤتمن بن الرشيد، ومنصور بن المهدي إلى المأمون بخراسان.
فوجّه المأمون أخاه المؤتمن إلى جرجان.
وفيها: كان بالأندلس غلاء شديد، وكان الناس يطوون الأيام، ويتعللون بما يضبط النفس.
وفيها: مات وكيع بن الجراح الرؤاسي بفيد وقد عاد عن الحج.
وبقية بن الوليد الحمصي، وكان مولده سنة عشر ومائة.
ومحمد بن مليح بن سليمان الأسلمي.
ومعاذ بن معاذ أبو المثنى العنبري، وله سبع وسبعون سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

وفيها: كاتب طاهر خزيمة بن خازم يذكر له أن الأمر إن انقطع بينه وبين محمد ولم يكن له أمن في نصرته لم يقصر في مكروهه فأما صاحبتنا عن قليل فاختر لنفسك ولنا.

فكتب إلى طاهر بطاعته وأخبره أنه لو كان هو النازل في الجانب الشرقي في مكان هرثمة لكان يحمل نفسه على كل هول، وأعلمه [قلّة][1] ثقته بهرثمة، ويناشده أن لا يحمله على مكروه عظيم إلاّ أن يضمن له القيام دونه، ووعده بإدخال هرثمة وقلع [٧٩/ ب] الجسر، وأنه يتبع هواه، وتؤثر رضاه وأنه إن لم يضمن ذلك له[2]، فليس يسعه تعريضه للسفلة والغوغاء والرعاع والتلف.

فكتب طاهر إلى هرثمة يلومه ويعجزه، ويقول:

جمعت الأجناد، وأتلفت الأموال دون أمير المؤمنين ودوني في مثل حاجتي إلى النفقات، وقد توقفت عن أمر هينة شوكته[3] يسير أمره توقف المحجم الهائب له فاستعدّ للدخول [إليهم][4] فقد أحكمت الأمر على دفع[5] العسكر، وقطع الجسور، وأرجو أن لا يختلف عليك [اثنان][6] في ذلك إن شاء الله.

فأجابه هرثمة:

أنا عارف ببركة رأيك، ويُمن مشورتك، فمنّي بما أحببت، فلن أخالفك.

قال: فكتب بذلك طاهر إلى خزيمة.

وكان كتب طاهر إلى محمد بن علي بن عيسى بمثل ذلك.

قيل: فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وثب خزيمة بن خازم، ومحمد بن علي بن عيسى على جسر دجلة فقطعاه، وركزا أعلامهما عليه، ودعوا لعبد الله المأمون وسكن أهل الجانب الشرقي، ولزموا منازلهم، وأسواقهم من يومهم ذلك.

ولم يدخل هرثمة حتى تقدّمه قوم، وعادوا إليه، فحلفوا أنه لا يرى مكروهاً،

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: داله. وأثبت ما يناسب السياق.
(٣) في المخطوط: ثركته. وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: وقع. والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.

فدخل حينئذ[١].

وباكر طاهر من غد ذلك اليوم، وهو يوم الخميس المدينة، وأرباضها، والكرخ وأسواقها، وهدم قنطرة في الهراة العتيقة، والحديثة، واشتدّ عندها القتال، وباشر طاهر القتال بنفسه، وقاتل بين يدَي أصحابه، حتى هزم أصحاب محمد، وفرُّوا على وجوههم لا يلوي أحد على أحد حتى دخل قسراً بالسيف.

وأمر مناديه [فنادى][٢] بالأمان لمَن[٣] لزم منزله [فهو آمن][٢] ووضع بقصر الوضاح، وسوق الكرخ، والأطراف قواداً وجنداً في كل موضع على قدر حاجته منهم.

وقصد إلى مدينة أبي جعفر، فأحاط بها بقصر زبيدة، وقصر الخلد من لدن الجسر إلى باب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وشاطىء الصراة إلى مصبها في دجلة بالخيول والسلاح.

وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر، والهرش، [والأفارقة][٤] فنصب المجانيق خلف السور على المدينة، وبإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد، ورماه.

فخرج محمد بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرّق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه في المسالك والطرق لا يلوي منهم أحد على أحد، وتفرّق الغوغاء، والسفلة.

وتحصّن محمد بالمدينة، هو ومَن يقاتل معه.

وحصره طاهر، وأخذ عليه الأبواب، ومنع منه، ومن أهل المدينة الدقيق والماء، وغيرهما[٥].

---

(١) في الكامل بعد هذا:
فقال الحسين الخليع في ذلك:

علينا جميعاً من خزيمة منة ... بما أخمد الرحمٰن ثائرة الحرب
تولى أمور المسلمين بنفسه ... فذبّ وحامى عنهم أشرف الذّبّ

(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: لم. وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في الكامل بعد هذا:
وبلغ خبر هذه الوقعة عمرو الوراق فقال لمخبره: ناولني قدحاً، ثم تمثّل:

خذها فللخمرة أسماء ... لها دواء ولها داء
يصلحها الماء إذا أصفقت ... يوماً وقد يفسدها الماء
وقائل كانت لهم وقعة ... في يومنا هذا وأشياء
قلت له أنت امرؤ جاهل ... فيك من الخيرات إبطاء
اشرب ودعنا من أحاديثهم ... يصطلح الناس إذا شاؤوا

فحكى طارق الخادم: وكان من خاصة محمد، وكان المأمون بعد ذلك أيضاً يقدمه:

إن محمداً سأله يوماً من الأيام ـ وهو محصور، وقال في آخر يوم من أيامه ـ أن أطعمه شيئاً.

قال: فدخلت المطبخ فلم أجد شيئاً، فجئت إلى حمزة العطارة، وكانت خازنة الجوهر، فقلت لها: إن أمير المؤمنين جائع، فهل عندك شيء؟ فإني لم أجد شيئاً في المطبخ.

فقالت لجارية لها: أي شيء عندنا؟ فجاءت بدجاجة، ورغيف.

فأتيته بهما، فأكل، وطلب ما يشربه، فلم يجد في خزانة الشراب ماء، فأمسى وكان عزم على لقاء هرثمة، فما شرب ماءً حتى أتى عليه.

ذكر اتفاقات عجيبة

حكى إبراهيم بن المهدي: أنه كان نازلاً مع المخلوع محمد في مدينة المنصور في قصره بباب الذهب لما حصره طاهر.

قال فخرج ذات ليلة من القصر يريد أن ينفرج من الضيق الذي هو فيه فسار إلى قصر القرار في قرن الصراة في جوف الليل، ثم أرسل إليّ فسرت إليه، فقال: يا إبراهيم أما ترى طيب هذه الليلة، وحسن هذا القمر، وضوءه في الماء.

ونحن حينئذ على[1] شاطىء دجلة، هل لك في الشراب؟

قلت: شأنك جعلني الله فداك.

قال: فدعا برطل فشربه، ثم أمر فسُقِيت مثله.

قال: ابتدأت أغنيه من غير أن يسألني لعلمي بسوء خلقه فغنيت ما كنت أعلم أنه يحبه.

قال لي: فما تقول فيمن يضرب عليك؟

فقلت: ما أحوجني إلى ذلك.

فدعا بجارية، متقدمة عنده يقال لها: ضعف، فتطيّرت من اسمها ونحن في تلك الحال التي هو عليها.

فلما صارت بين يديه قال لها: غَنّي، فغنّت بشعر النابغة الجعدي:

---

(١) في المخطوط: في. وهو تحريف.

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

قال: فاشتدّ عليه ما غنّت، وتطيَّر منه. فقال لها: غني غير هذا، فغنّت:

أبكي فراقهم عيني فارقها إن التفريق للأحباب بكاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تناؤوا[1] وريب الدهر عداء

فقال لها: لعنك الله أما تعرفين من الغناء شيئاً سوى هذا المغنى[2]؟

فقالت: يا سيدي، ما تغنّيت إلاّ بما ظننت بأنك تحبه، وما أدري ما تكرهه؟ وما هو إلاّ شيء جاءني، ثم أخذت تغني:

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا[3] دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك عادت بسلطانه[4] إلى ملك
وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفانٍ ولا بمشترك

فقال لها: قومي غضب الله عليك، ولعنك، فقامت.

وكان له قدح من بلور حسن الصنعة، وكان محمد يسمِّيه: زبَّ رباح، وكان موضوعاً بين يديه.

فقامت الجارية منصرفة، فسحبت عليه رداءها فكسرته[5].

فقال: تعس وانتكس الشيطان.

فقال إبراهيم، فقال لي: ويحك يا إبراهيم أما ترى [٨٠/أ] ما جاءت به هذه الجارية؟! ثم ما كان من كسر القدح، والله ما أظن أمري إلاّ وقد قرب.

فقلت: يطيل الله بقاءك، ويعز ملكك ويديم نعمتك ويكبت عدوك.

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً من دجلة ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

فقال لي: يا إبراهيم، أما سمعت؟

[ما سمعت؟

(١) في الكامل: تفانوا.
(٢) في المخطوط: الفن. وأحسب أنه تحرّف.
(٣) في الكامل: وما.
(٤) في الكامل: قد زال سلطانه.
(٥) في الكامل: فعثرت الجارية به فكسرته.

قلت: ما سمعت شيئاً، وكنت قد سمعت][1].

قال: تسمع حسًّا؟

قال: فدنوت من الشط[2]، فلم أرَ شيئاً.

ثم عاودته الحديث، فعاد الصوت: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

فوثب من مجلسه ذلك مغتمًّا، ثم ركب ورجع إلى موضعه بالمدينة.

فما كان بعد هذا إلاّ ليلة أو ليلتان حتى ما حدث من قتله.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: الشطر.

مقتل الأمين وخلافة المأمون

وفي هذه السنة: قتل محمد بن هارون الأمين.

ذكر ما أشير به على محمد فلم يقبله وما تأدّى إليه الأمر من قتله

لما سار محمد [بن][1] حاتم بن الصقر قواده أنه ليس لهم ولا له فيها عدة للحصار، وخافوا أن يظفر بهم، دخل على [محمد][2] محمد [بن][2] حاتم بن الصقر، ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي، وقواده فقالوا له: قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى، قد رأينا رأياً نعرضه عليك، فانظر فيه، واعتزم عليه، فإنّا نرجوا يكون صواباً إن شاء الله.

قال: وما هو؟

قالوا: قد تفرّق جندك عنك، وأحاط عدوك بك من كل جانب، وقد بقي من خيلك سبعة آلاف فرس من خيارها وأجيادها سوى مراكبك، فنرى أن تختار ممن عرفناه بمحبتك من الأبناء سبعة آلاف رجل، فتحملهم على هذه الخيل ونخرج ليلاً على باب من هذه الأبواب، فإن الليل لأهله فنخرج ولن يثبت لنا أحد، وتسير حتى نلحق بالشام والجزيرة، فتفرض الفروض وتجبي الأموال، وتصير في مملكة واسعة، وملك جديد، فيسارع إليك الناس من كل إرب، وتنقطع الجنود عن[3] طلبك، وإلى ذاك ما قد يحدث[4] في مكر الليل والنهار أموراً.

فقال لهم: نِعْمَ ما رأيتم، واعتزم على ذلك.

وخرج الخبر إلى طاهر.

فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى السندي بن شاهك:

قد بلغني عزيمة محمد، ووالله لئن لم تردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة

---

(١) زيادة يتطلبها سياق النسب.
(٢) زيادة يتطلبها السياق، والنسب.
(٣) في المخطوط: من. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: أحدث، والتصويب من الكامل.

إلاّ قبضتها، ثم لا يكون لي همة إلاّ نفوسكم، فإن هؤلاء الذين يسيرون معه صعاليك لا يخلفون شيئاً يشفقون عليه، فاعملوا[١] على ما رسمته إن شاء الله.

فدخلوا على محمد، وقالوا: نذكرك الله في نفسك، فإن هؤلاء صعاليك، وقد ضاق عليهم الحصار، وهم يرون أن الأمان لهم على أموالهم وأنفسهم عند أخيك وعند طاهر لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها، ولسنا[٢] نأمن إذا برزوا بك يجعلوك سبب أمانهم، وضربوا لك في ذلك الأمثال.

حتى قنع[٣] وغيَّر عزمة رأيه.

وكان أصحابه الذين أشاروا بما أشاروا أولاً جلوساً في رواق البيت، فسمعوا جميعاً ما قاله سليمان وأصحابه، فهمُّوا جميعاً بقتل سليمان، وأصحابه، ثم قالوا: حرب من داخل وحرب من خارج، فأمسكوا.

ثم أشار عليه هؤلاء وقالوا: قد بذل لك الأمان، فاقبله، فإنما غايتك اليوم السلامة واللهو، وليس يخلعك أخوك من ذلك وينزلك حيث شئت، ويفردك بمَن تحب وتهوى، وليس عليك منه بأس ولا مكروه فركن إلى ذلك، وأجابهم إلى الخروج إلى هرثمة [لا إلى][٤] طاهر، وكان استشعر خوفاً من طاهر.

وكان جماعة من أصحابه يكرهون هرثمة لأنهم كانوا من أصحابه، وقد عرفهم وعرفوه، وخافوا أن يحقِّرهم ولا يجعل لهم مراتب.

ودخلوا على محمد فقالوا: أما إذا أبيت ما أشرنا به وهو الصواب، وقبلت رأي هؤلاء وهو الخطأ، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة.

فقال لهم محمد: ويحكم إني أكره طاهراً، وذلك أني رأيت في منامي [كأني][٥] قائم على حائط من آجر شاهق في السماء عريض الأساس وثيق ولم أرَ حائطاً يشبهه في الطول والعرض والوثاقة وعليّ سوادي، ومنطقتي[٦]، وسيفي، وقلنسوتي، وخفيّ، وكان طاهر في أصل ذلك الحائط بيده. . .[٧] يضرب به أصل الحائط فما زال يضرب أصله حتى سقط الحائط وسقطت وندرت قلنسوتي عن رأسي.

---

(١) في المخطوط: فاعلموا. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: ولسا. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: قرع. وهو تحريف.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) زيادة يتطلبها السياق، وهي في الكامل.
(٦) في المخطوط: منطقي. والتصويب من الكامل.
(٧) كلمة لم أتبيّن قراءتها في المخطوط هذا رسمها: «ببل»، وقد تكون «نبل».

وأنا أتطير منه وأكره الخروج إليه، وهرثمة مولانا، وبمنزلة الوالد، وأنا أشد به ثقة[(١)].

ولما هَمَّ محمد بالخروج إلى هرثمة، وسعى له في ذلك وأجابه إلى ما أراد، شدّ ذلك على طاهر، وأبى أن يرفه عنه ويدعه يخرج وقال: هو في جندي[(٢)]، والجانب الذي أنا فيه وأنا أخرجته[(٣)] بالحرب والحصار حتى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دوني، فيكون الفتح له.

فلما رأى هرثمة والقواد ذلك، اجتمعوا في منزل خزيمة بن خازم.

فسار إليهم طاهر في خاصة قواده، وحضر محمد بن عيسى بن نهيك، والسندي بن شاهك، وأداروا[(٤)] الرأي بينهم، فأخبروا طاهراً أنه لا يخرج إليه أبداً، وأنه [إن][(٥)] لم يجب إلى ما سأل، لم يؤمن أن يجري في أمره ما جرى مثله أيام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان.

وقالوا له: يخرج ببدنه إلى هرثمة إذ كان يأنس به، وثيق بناحيته، ويدفع الخاتم والقضيب والبردة[(٦)]، وذلك هو الخلافة إليك، فلا [٨٠/ب] تفسد هذا الأمر واغتنمه.

فأجاب طاهر إلى ذلك ورضي[(٧)].

ولما تهيأ محمد للخروج، خرج إلى صحن القصر، فقعد على كرسي، وقام خادمه بين يديه بالأعمدة[(٨)].

وجاء خادم فقال: يا سيدي أبو حاتم يقرأ عليك السلام ـ يعني هرثمة ـ ويقول لك يا سيدي: وافيت بالميعاد لحملك، ولكني رأيت أن لا تخرج الليلة، فإني قد رأيت

---

(١) بعدها في الكامل: فأرسل يطلب الأمان، فأجابه هرثمة إلى ذلك وحلف له أن يقاتل دونه إن هَمَّ المأمون بقتله.

(٢) في المخطوط: خيري. والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: أخرجه والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: واراردوا. والتصويب من الكامل.

(٥) زيادة من الكامل.

(٦) في المخطوط: البرد. والتصويب من الكامل.

(٧) بعد هذا في الكامل:
ثم أن الهرش لما علم بالخبر، أراد التقرب إلى طاهر فأخبره أن الذي جرى بينهم مكر، وأن الخاتم، والقضيب والبردة يحمل مع الأمين إلى هرثمة، فاغتاظ منه، وجعل حول قصر أم الأمين، وقصور الخلد قوماً معهم العتل والفؤوس، ولم يعلم بهم أحد.

(٨) في الكامل على النحو التالي: فلما تهيأ الأمين للخروج إلى هرثمة، عطش قبل خروجه عطشاً شديداً، فطلب له في خزانة الشراب ماء، فلم يوجد.
فلما أمسى ليلة الأحد لخمس بقين من محرم سنة ثمان وتسعين ومائة، خرج بعد العشاء الآخرة إلى صحن الدار وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة. وافيت للميعاد. . .

دجلة والشط أمراً قد رابني، وأخاف أن أُغلب فتؤخذ من يدي أو تذهب نفسك ونفسي، ولكن أقم بمكانك حتى أرجع وأستعد، ثم آتيك [الليلة][(١)] القابلة، فأخرجك، فإن حوربت دونك حاربت معي عدتي.

قال: فقال محمد [للرسول][(٢)]: ارجع إليه، فقل: لا يبرح فإني خارج إليك الساعة لا محالة.

قال: وقَلِقَ [وقال][(٢)]: إنه قد تفرّق عني الناس وَمَنْ مَنَّ عَلَيّ أبي من الموالي والحرس، ولا آمن إن أصبحت وانتهى خبري إلى طاهر، أن يدخل عليّ فيأخذني.

ثم دعا بفرس له أدهم أغر محجل كان يسميه الزهيري، ودعا بابنيه، فضمهما إليه وقبّلهما[(٣)]، وقال: أستودعكما الله، ودمعت عيناه، فجعل يمسح دموعه بكمه.

ثم قام فوثب على الفرس، وخرجنا بين يديه إلى باب القصر حتى ركبنا دوابنا، وبين يديه شمعة واحدة، حتى خرجنا إلى المشرعة، فإذا حراقة هرثمة، فنزل في الحراقة، ورجعنا إلى المدينة، فدخلناها وأمرنا بالباب، فأُغلق، وسمعنا الرعيد، فصعدنا القبة التي على الباب نَتَسَمَّع الصوت.

فذكر أحمد بن سلام صاحب المظالم أنه قال:

كنت مع هرثمة مع قواده في الحراقة، فلما دخل محمد الحراقة، قمنا على أرجلنا إعظاماً، وجثا هرثمة على ركبتيه، وقال: يا سيدي لا أقدر على القيام لمكان النقرس الذي فيّ، ثم احتضنه وصيّره في حجره، وجعل يقبّل يديه [ورجليه][(٤)] وعينيه، ويقول: يا سيدي ومولاي، وابن سيدي ومولاي.

وجعل محمد يتصفّح وجوهنا، ونظر إلى عبيد الله بن الوضاح، فقال: أيهم أنت؟

فقلت: أنا عبيد الله بن الوضاح[(٥)].

قال: نعم جزاك الله خيراً، فما أشكرني لما كان منك في أمر الثلج، ولو قد لقيت أخي أبقاه الله لم أدع شكرك عنده.

قال: فبينا نحن كذلك، وقد أمر هرثمة بالحراقة أن تدفع، إذ شدّ علينا أصحاب

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: وسمهما. والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) تكرر السؤال والجواب ثلاث مرات في المخطوط، فحذفت التكرار.

طاهر في الزواريق، وعطعطوا، وتعلّقوا بالسكان وبعض يثقب العراقة، وبعض يرمي بالنشاب فتثقب الحرافة سريعاً ودخلها الماء، وغرقت، وسقط هرثمة إلى الماء، وسقطنا كلنا، فتعلّق الملاح بشعر هرثمة، فأخرجه، وكل واحد منا على حاله لقربنا من الشط.

ورأيت محمداً في تلك الحال، وقد شقّ عنه ثيابه، ورمى بنفسه إلى الماء.

فأما أنا فتعلّق بي رجل من أصحاب طاهر ومضى بي إلى رجل قاعد على كرسي على شط دجلة، وبين يديه نار توقد، فقال له بالفارسية: هذا رجل أخرج من الماء ممن غرق من أهل الحراقة.

فقال لي: ممن أنت؟ فقلت: من أصحاب هرثمة، أنا أحمد بن سلام صاحب المظالم، مولى أمير المؤمنين.

قال: كذبت، فاصدقني.

قلت: قد صدقتك.

قال: فما فعل المخلوع؟

قلت: رأيته حين شقّ عنه ثيابه، وقذف بنفسه في الماء.

قال: قدِّموا دابتي، فقدّموا دابته، فركب، وأمرني أن أجنب[(١)]، فجعل في عنقي حبل وخنقت، وأخذ في درب الزبيد به، ولما عدوت ساعة، انتُهرت، فلم أقدر على العدو، فقمت.

فقال الذي خلفي: قد قام هذا الرجل وليس[(٢)] يعدو.

قال: انزل فخذ رأسه.

قلت: جعلت فداك، ولِمَ تقتلني وأنا رجل لله عليّ نعمة، ولا أقدر على العدو، وأنا أفدي نفسي بعشرة آلاف درهم.

فلما سمع ذكر العشرة آلاف قال للرجل[(٣)] الذي أمره بقتلي أمسك.

قال: وكيف بالعشرة آلاف.

قلت: تحبسني عندك حتى تصبح، ثم تدفع إليّ رسولاً أرسل إلى وكيلي في منزلي في عسكر المهدي، فإن لم يأتك بالعشرة آلاف فاحتز عنقي.

قال: قد أنصفت.

---

(١) أي اضرب على جنبي حتى أفعل ما أؤمر به.
(٢) في المخطوط: ليست. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: الرجل، وهو تحريف.

وأمر بحملي فحُملت ردفاً، فمضى بي إلى دار أبي صالح الكاتب، وأمر غلمانه أن يحتفظوا بي، وتفهّم مني خبر محمد، ووقوعه في الماء، ومضى إلى طاهر ليخبره - هو وإبراهيم البلخي[١] -.

قال: فصيَّرني غلمانه في بيت من بيوت الدار فيه بواري ووسادتان، وفي زاوية من زواياه حصر مدرجة.

قال: فقعدت في البيت، وصيَّروا فيه سراجاً وتوثّقوا من الباب، وقعدوا يتحدثون، فلما ذهب من الليل ساعة إذ نحن بحركة الخيل، فدفعوا الباب، ففتح لهم، وهم يقولون: ابن زبيدة.

قال: فدخل إليّ رجل عريان، عليه سراويل، وعمامة متلثم بها، وعلى كتفيه خرقة خَلِقة، فصيَّروه معي، وتقدّموا إلى مَن في الدار بحفظه، وخلفوا معه قوماً آخرين منهم أيضاً.

قال: فلما استقر في البيت حسر العمامة عن وجهه، فإذا هو محمد، فاستعبرت، واسترجعت فيما بيني وبين نفسي، وجعل ينظر إليّ، ثم قال: أيهم أنت؟

[قلت][٢]: أنا مولاك يا سيدي.

قال: وأي الموالي؟

قلت: أحمد بن سلام صاحب المظالم.

قال: أعرفك بغير هذا، كنت تأتيني وتلاطفني كثيراً، لست مولاك ولكنك أخي.

ثم قال: يا أحمد.

قلت: لبيك يا سيدي.

قال: ادنُ مني وضمني إليك، فإني أجد وحشة شديدة.

قال: فضممته إليّ، فإذا قلبه يخفق حتى كاد يخرج من صدره، فلم أزل أضمه إليّ وأسكنه.

قال: ثم قال: يا أحمد، ما فعل أخي؟

قلت: هو حَيّ.

قال: قبّح الله صاحب بريدهم ما أكذبه، كان يقول: قد مات شبه المعتذر من محاربته.

---

(١) هذه العبارة في المخطوط هكذا: «واهو إبراهيم البلخي» وأحسبها زائدة على السياق فضبط ما يمكن أن يفيد نسبتها إلى السياق وجلعتها بين معترضتين. والله أعلم.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

قال: قلت: سبحان الله ففي [٨١/ أ] أي شيء إذاً رفضنا، قبّحه الله وزراءك.

قال: لا تقل لوزرائي إلاّ خيراً، فما لهم ذنب، ولست أول مَن طلب أمراً فلم يقدر عليه.

ثم قال: يا أحمد، ما تراهم يصنعون فيّ؟ تراهم يقتلوني أو يفون لي بأمانهم؟

قال: قلت: بل يفون لك يا سيدي.

قال: وجعل يضم على نفسه الخرقة التي على كتفيه ويضعها ويمسكها بعضديه يُمنة ويُسرة.

قال: ونزعت مبطنة كانت عليّ، وقلت: يا سيدي ألقِ هذه عليك.

قال: ويحك دعني فهذا من الله لي في هذا الموضع خير [كثير].

قال: وبينا نحن كذلك إذ دقّ باب الدار، ففتح فدخل علينا رجل عليه سلاحه، فتطلع في وجهه متثبتاً له، فلما أثبته معرفة انصرف انصرف، وأغلق الباب، وإذا هو محمد بن حميد الطاهري.

قال: فعلمت أن الرجل مقتول.

قال: وكان بقي علي من صلاتي الوتر فخفت أن أُقتل معه ولم أُوتر.

قال: فقمت أوتر.

فقال لي: يا أحمد، لا تباعد عني وصلِّ إلى جانبي، فإني أجد وحشة شديدة.

قال: فاقتربت[1] منه، فلما انتصف الليل، أو قارب سمعت حركة الخيل، ودقّ الباب ففتح فدخل الدار قوم من العجم بأيديهم السيوف مسلَّلة، فلما رآهم قام قائماً، وجعل يقول: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، ذهبت والله نفسي في سبيل نفسي[2]، أما من حيلة؟ أما من مغيث؟ أما من أحد من الأبناء؟

قال: وجاؤوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه، فأحجموا عن الدخول، وجعل بعضهم يقول لبعض: تقدم، ويدفع بعضهم بعضاً.

فقمت قصرت خلف الحصر المدرجة في زاوية البيت.

وقام محمد وأخذ بيده وسادة، وجعل يقول: ويحكم، إني ابن عم رسول الله ﷺ، أنا[3] ابن هارون[4]، أنا أخو المأمون، الله، الله في دمي.

(١) في المخطوط: فأقربت. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط هي كذا، وفي الكامل: ذهبت والله نفسي في سبيل الله.
(٣) في المخطوط: إن. والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: الهارون. والتصويب من الكامل.

فدخل عليه رجل منهم يقال له: جيرويه غلام لقريش الديداني مولى طاهر فضربه على مقدم رأسه، وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده، واتكأ عليه ليأخذ سيفه من يده، فصاح بالفارسية: قتلني، قتلني.

قال: فدخل منهم جماعة فنخسه(١) واحد بالسيف في خاصرته، وركبوه، وذبحوه ذبحاً من قفاه وأخذ[وا رأسه، ومضوا به إلى طاهر، وتركوا جثته، فلما كان السحر أخذوا جثته فأدرجوها](٢) في جل، وحملوها.

قال: فأصبحت، فقيل: هات العشرة آلاف درهم.

قال: فبعثت إلى وكيلي، فأتاني بها، فدفعتها إليه.

ولما أصبح طاهر، نصب رأس محمد على البرج، برج حائط البستان الذي يلي باب الأنبار، وفتح باب الأنبار.

وخرج من أهل بغداد للنظر إليه ما لا يحصى عددهم.

وأقبل طاهر يقول: هذا رأس المخلوع(٣).

وذكر محمد بن عيسى أنه قال: رأى المخلوع على ثوبه قملة، فقال: ما هذا؟

قالوا: شيء يكون في ثياب الناس.

فقال: أعوذ [بالله](٤) من زوال النعمة، فقتل من يومه.

وبعث طاهر برأس محمد إلى المأمون مع البردة، والقضيب، والمصلى - وهو من سعف مبطّن - مع محمد بن [الحسين بن](٥) مصعب ابن(٦) عمه(٧)، فأمر له المأمون بألف ألف درهم.

قال: فرأيت ذا الرئاستين، وقد أدخل رأس محمد على ترس بيده إلى المأمون. فلما رآه سجد(٨).

---

(١) في الكامل: فنسخه. وما هنا أصوب وأنسب.
(٢) سقط من المخطوط وأكملته من الكامل.
(٣) بعدها في الكامل: فلما قتل ندم جند بغداد، وجند طاهر على قتله لما كانوا يأخذون من الأموال.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في المخطوط: ابني. والتصويب من الكامل.
(٧) بعدها في الكامل: وكتب معه بالفتح.
(٨) بعد هذا في الكامل:
ولما بلغ أهل المدينة، أن طاهراً أمر مولاه قريشاً فقتله، قال شيخ من أهل المدينة: سبحان الله كنا نرى أنه يقتله قريش فذهبنا إلى القبيلة، فوافق الاسم.
ولما قتل الأمين نودي في الناس بالأمان، فأمن الناس كلهم، ودخل طاهر المدينة يوم =

وكتب طاهر إلى إبراهيم بن المهدي بعد قتل المخلوع:

أما بعد: فإنه عزيز عليّ أن أكتب إلى رجل من أهل بيت الخلافة بغير الأمير، ولكنه بلغني أنك تميل بالرأي وتصغي بالهوى إلى الناكث المخلوع، فإن كان فكثير ما كتبت به إليك، وإن كان غير ذلك، فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته[١].

وفي هذه السنة: وثب الجند بعد قتل محمد، بطاهر فهرب منهم، وتغيَّب أياماً حتى أصلح أمرهم.

ذكر الخبر عن ذلك وسببه وما استحله طاهر من الحزم قِبَلَه

إن أصحاب طاهر بعد قتل محمد بخمسة أيام طلبوا أرزاقهم، ووثبوا به.

ولم يكن في يده مال فضاق به أمره، وظنّ أن ذلك بمواطأة أهل الأرباض إياهم، وأنهم معهم عليه، ولم يكن يحرك في ذلك من أهل الأرباض أحد، فاشتدت شوكتهم.

وخشي طاهر على نفسه فهرب من البستان.

وانتهبوا بعض متاعه، ومضى إلى عاقرقوف[٢]، فكان مما قدم الحزم فيه أن حفظ أبواب المدينة، وباب القصر لما فرغ من قتل[٣] محمد، وحوّل بيده موسى وعبد الله ابني محمد إلى قصر الخلد ليلاً وحملهم في حراقة إلى همينيا على العربي من الزاب الأعلى، ثم أمر بحمل موسى وعبد الله إلى عمهما بخراسان على طريق الأهواز فارس.

فلما وثب الجند بطاهر، وطلبوا الأرزاق، أحرقوا باب الأنبار الذي على الخندق،

= الجمعة، فصلّى بالناس وخطب للمأمون وذم الأمين.

وكتب إلى المعتصم، وقيل: إلى ابن المهدي، أما بعد: عزيز عليّ...

(١) بعد هذا في الكامل:

ولما قتل الأمين قال إبراهيم بن المهدي يرثيه:

عَوِّجَا بمغنى الطلل الدائر ... بالخلد ذات الصخر والآجُر
والمرمر المنسوب يطلي به ... والباب باب الذهب الناضر
عَوِّجا بها فاستيقنا عندها ... على يقين قدرة القادر
وأبلغا عني مقالاً إلى الـ ... ـمولى على المأمور والآمر
قولا له يا ابن أبي الناصر ... طهِّر بلاد الله من طاهر
لم يكفه أن حزَّ أوداجه ... ذبح الهدايا بمدى الجازر
حتى أتى يسحب أوداجه ... في شطن هذا مدى السائر
قد برد الموت على جنبه ... فطرفه منكسر الناظر

فلما بلغ المأمون قوله اشتد عليه.

(٢) في الكامل: عقرقوف، وأشار محققه إلى أنه في تاريخ الطبري (عاقرقوف).

(٣) في المخطوط: قبل. وهو تحريف.

وباب البستان وشهروا السلاح، ونادوا موسى: يا منصور، وبقوا يومهم كذلك ومن الغد.

فتبيّن صواب رأي طاهر في إخراج موسى وعبد الله، وكان طاهر انحاز ومن معه من القواد وتعبّى لقتالهم ومحاربتهم.

فلما بلغ ذلك الوجوه والقواد من شعب صاروا إليه، واعتذروا، وأحال على سفهاء الجند وأحداثهم، وسألوه الصفح عنهم، وقبول عذرهم، والرضا، وضمنوا له أن لا يعودوا لمكروهه ما أقام معهم.

وأتاهم مشايخ الأرباض فحلفوا له[(١)] بالمغلظة من الأيمان أنه لم يتحرك في هذه الأيام أحد من أبناء الأرباض، ولا كان ذلك عن رأيهم، ولا أرادوه، وضمنوا له أن يقوم له كل إنسان منهم في ناحية مما يجب عليه، حتى لا يأتيه من ناحيته أمر يكرهه.

وأتاه عميرة أبو شيخ الأسدي في مشيخة من الأبناء، فلقوه بمثل ذلك، وأعلموه حسن رأي [٨١/ب] مَن خلفهم من الأبناء.

فطابت نفسه إلاّ أنه قال: والله العظيم ما اعتزلت عنهم إلاّ لوضع السيف فيهم، وأقسم بالله، إن عدتم لمثلها إلاّ عدت إلى رأي فيكم، ولأخرجن إلى مكروهكم.

فكسرهم بذلك، وأمر لهم برزق أربعة أشهر وانصرف إلى عسكره بالبستان.

ودعا بوجوه أصحابه سعيد بن مالك وقال:

إنه لا مال عندي، وقد أطلقت للقوم أرزاقهم فما الوجه؟

قال سعيد: أنا أحمل عشرين ألف دينار، فطلبت منه، وحمل غيره حتى أرضى أصحابه.

وقال لسعيد: إني أحتملها حتى أن تكون ديناً عليّ.

فقال: بلى هي هدية، وقليلة لعلامك، وفيما أوجب الله من حقك.

وسكن الجند[(٢)].

[خلافة محمد الأمين وعمره وصفته][(٣)]

وكانت خلافة محمد نحو خمس[(٤)] [سنين][(٥)] تنقص شهرين.

---

(١) في المخطوط: من، وهو تحريف.

(٢) في الكامل: ووضعت الحرب أوزارها، واستوثق الناس في المشرق والمغرب على طاعة المأمون، والانقياد لخلافته.

(٣) زيادة تصنيفية من عمل المحقق غفر الله له.

(٤) في المخطوط: خمسين. وهو تحريف.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

وكان عمره كله ثمانياً وعشرين سنة.

وكان سبطاً أنزع أبيض أقنى جميلاً طويلاً بعيد ما بين المنكبين، صغير العينين[(١)].

وذكر الموصلي: أن طاهراً لما بعث برأس محمد إلى المأمون بكى ذو الرئاستين وقال: سل علينا سيوف الناس وألسنتهم، أمرنا أن يبعث به أسيراً، فبعث به عقيراً.

فقال له المأمون: إنه قد مضى ما مضى، فاحتل في الاعتذار منه.

وكتب الناس، فأطالوا، وجاء أحمد بن يوسف بيسير قرطاس فيه:

أما بعد: فإن المخلوع، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرّق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة، بمفارقته عصم الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عزّ وجل حين اقتص نبأ ابن نوح [عليه السلام]: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، ولا طاعة لأحد في معصية ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله، وكتابي هذا إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع، ورداه رداء نكبة، وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، وما ينتظر من صادق أمره حين ردّته الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحي به الأعلام من الإسلام بعد دروسها[(٢)].

---

(١) كذا وفي الكامل:
قيل: إن محمداً ولي يوم الخميس لإحدى عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة.
وقتل ليلة الأحد لست بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة.
وكنيته: أبو موسى، وقيل: أبو عبد الله.
وهو ابن الرشيد هارون بن أبي عبد الله المهدي بن أبي جعفر المنصور.
وأمه: زبيدة ابنة جعفر الأكبر بن المنصور.
وكانت خلافته: أربع سنين، وثمانية أشهر، وخمسة أيام.
وقيل: كانت ولايته في النصف من جمادى الآخرة.
وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة.
وكان سبطاً أنزع، صغير العينين، أقنى، جميلاً طويلاً عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين.
وكان مولده بالرصافة.
ولما وصل خبر قتله إلى المأمون، أذن للقواد وقرأ الفضل بن سهل الكتاب عليهم، فهنؤوه بالظفر، ودعوا له.
وكتب إلى طاهر، وهرثمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد.
فخلعاه في شهر ربيع الأول من هذه السنة.
وأكثر الشعراء في مراثي الأمين وهجائه تركنا أكثره لأنه خارج عن التاريخ.

(٢) هذا ما ذكر ابن مسكويه رحمنا الله وإياه في أحداث هذه السنة غير أن ابن الأثير أطال في تفاصيل أحداث، ثم إنه زاد عليها حوادث أخرى لم يذكر المؤلف هنا فمنها قوله:
وفي هذه السنة: أظهر نصر بن سيار بن شبث العقيلي الخلاف على المأمون، وكان نصر بن بني عقيل يسكن كيسوم ناحية شمال حلب، وكان في عنقه بيعة للأمين، وله فيه هوى.
فلما قُتل الأمين أظهر نصر الغضب لذلك، وتغلّب على ما جاوره من البلاد، وبلغ سميساط، =

....

= واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وأهل الطمع، وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، وحدّثته نفسه بالتغلّب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت عما كانت، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وفي هذه السنة: استعمل المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على كل ما كان افتتحه طاهر من كور الجبال والعراق، وفارس، والأهواز، والحجاز، واليمن، بعد أن قتل الأمين، وكتب إلى طاهر تسليم طاهر إليه.
فقدم الحسن بين يديه علي بن أبي طاهر سعيد، فدافعه طاهر بتسليم الخراج إليه، حتى وافى الجند أرزاقهم، وسلّم إليه العمل.
وقدم الحسن سنة تسع وتسعين، وفرّق العمال، وأمر طاهراً أن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن سيار بن شبث العقيلي وولاه الموصل، والجزيرة والشام، والمغرب.
فسار طاهر إلى قتال نصر بن سيار بن شبث وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة. . .
وكتب المأمون إلى هرثمة يأمره بالمسير إلى خراسان.
وحجّ بالناس: العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد.
وفي هذه السنة: كانت بقرطبة الوقعة المعروفة بالربض، وسببها:
أن الحكم بن هشام الأموي صاحبها كان كثير التشاغل باللهو والصيد والشرب وغير ذلك مما يجانسه.
وكان قد قتل جماعة من أعيان قرطبة، فكرهه أهلها، وصاروا يتعرّضون لجنده بالأذى والسب، إلى أن بلغ الأمر بالغوغاء أنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان: الصلاة يا مخمور الصلاة.
وشافهه بعضهم بالقول، وصفقوا عليه بالأكفّ.
فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر المماليك، ورتب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح، فزاد ذلك في حقد أهل قرطبة، وتيقّنوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم.
ثم وضع عليهم عشر الأطعمة كل سنة من غير خرص، فكرهوا ذلك.
ثم عمد إلى عشرة من رؤساء سفهائهم، فقتلهم وصلبهم.
فهاج لذلك أهل الربض، وانضاف إلى ذلك أن مملوكاً سلّم سيفاً إلى صيقل ليصقله فمطله، فأخذ المملوك السيف، فلم يزل يضرب الصيقل به إلى أن قتله، وذلك في رمضان من هذه السنة.
فكان أول مَن شهر السلاح أهل الربض، واجتمع أهل الأرباض جميعهم بالسلاح، واجتمع الجند، والأمويون، والعبيد بالقصر، وفرق الحكم الخيل والأسلحة، وجعل أصحابه كتائب، ووقع القتال بين الطائفتين. . .
وفيها: كانت الوقعة المعروفة بالميدان بالموصل بين الميدانية، والنزارية، وكان سببها:
أن عثمان بن نعيم البرجمي سار إلى ديار مُضر فشكا الأزد واليمن، وقال: إنهم يتهضموننا، ويغلبوننا على حقوقنا، واستنصرهم.
فسار معه إلى الموصل يقارب عشرين ألفاً.
فأرسل إليهم علي بن الحسن الهمداني، وهو حينئذ متغلب على الموصل، فسألهم عن حالهم، فأخبروه، فأجابهم إلى ما يريدون، فلم يقبل عثمان ذلك.
فخرج إليهم عليّ من البلد في نحو أربعة آلاف رجل، فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً عدة وقائع، فكانت الهزيمة على النزارية، وظفر بهم علي، وقتل منهم خلقاً كثيراً.
وفي هذه السنة: خرج الحسن الهرشي في جماعة من سفلة الناس معه خلق كثير من الأعراب، =

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

وفيها: قدم الحسن بن سهل العراق من عند المأمون وإليه الحرب والخراج، وفرّق عماله في الكور والبلدان[١].

وفيها: خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٢].

يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ والعمل بالكتاب والسنّة.

وهو الذي يقال له: ابن طباطبا.

وكان المقيم بأمره في الحرب وتدبيرها وقيادة جيوشه أبو السرايا واسمه السري بن منصور[٣].

ذكر السبب في خروجه

كان سبب خروجه، صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها، وتوجيه ذلك إلى الحسن بن سهل أخا الفضل بن سهل.

وذلك أن الناس بالعراق تحدّثوا بينهم أن ابن سهل قد غلب على المأمون، وأنه قد أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة.

وأنه يبرم الأمور على هواه، ويستبد بالرأي دونه.

فغضب لذلك مَن بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأبقوا مَن عليه الفضل على المأمون، واجترؤوا على الحسن بن سهل بذلك، وهاجت الفتن في الأمصار.

وكان أول مَن خرج بالكوفة ابن طباطبا[٤] الذي ذكرت.

= ودعا إلى الرضا من آل محمد، وأتى النيل، فجبى الأموال، ونهب القرى.

وفيها: مات سفيان بن عيينة الهلالي بمكة، وكان مولده سنة تسع ومائة.

وفيها: توفي عبد الرحمٰن بن المهدي، وعمره ثلاث وستون سنة.

ويحيى بن سعيد القطان في صفر، ومولده سنة عشرين ومائة.

(١) سبق ذكر الخبر بهامش أحداث السنة السابقة حيث ذكر تولية المأمون له والكتابة بذلك إلى طاهر، وإخراجه طاهر إلى الرقة لمحاربة نصر بن سيار بن شبث في سنة (١٩٨) ابن الأثير في الكامل.

(٢) في الكامل: لعشر خلون من جمادى الآخرة بالكوفة.

(٣) في الكامل بعد هذا:
وكان يذكر أنه من ولد هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني.

(٤) في الكامل: قيل وكان سبب اجتماع ابن طباطبا بأبي السرايا أن أبا السرايا كان يكري الحمير، ثم قوي حاله، فجمع نفراً فَقَتَل رجلاً من بني تميم بالجزيرة، وأخذ ما معه، فطُلب، فاختفى، وعبر الفرات إلى الجانب الشامي، فكان يقطع الطريق في تلك الناحية ثم لحق بيزيد بن الشيباني بأرمينية ومعه ثلاثون فارساً، فقوّده، فجعل يقاتل معه الخرمية، وأثّر فيهم وفتك، وأخذ منهم =

وكان سبب خروجه: أن أبا السرايا كان من رجال[(١)] هرثمة، فطلبه بأرزاقه وأخره بها، فغضب أبو السرايا ومضى إلى الكوفة، فبايع ابن طباطبا الناس.

فوجّه الحسن بن سهل زهير بن المسيب في أصحابه إلى الكوفة في عشرة آلاف فارس وراجل فتهيؤوا للخروج إليه، فلم تكن بهم قوة على الخروج، فأقاموا حتى بلغ زهير قرية شاهي، ثم واقعهم ابن طباطبا، فهزمهم واستباح عسكرهم، وأخذوا ما كان معه من مال وسلاح وأدوات[(٢)] وغير ذلك[(٣)].

فلما كان ظفره بزهير واستباحته عسكره، مات فجأة.

فتحدّث الناس، أن أبا السرايا سَمَّه، وأنه إنما فعل ذلك لأن ابن طباطبا لم أحرز ما في عسكر زهير بن المسيب من المال والسلاح والكراع منعه أبو السرايا، وخطره عليه، وكان الناس له مطيعين.

= غلامه أبا الشوك.

فلما عزل أسد عن أرمينية سار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، فوجّهه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة في فتنة الأمين والمأمون، وكانت شجاعته قد اشتهرت، فراسله هرثمة يستميله فمال إليه، فانتقل إلى عسكره وقصد العرب من الجزيرة، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة معه نحو ألفي فارس وراجل، فصار يخاطب بالأمير.

فلما قتل الأمين نقصه هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فاستأذنه في الحج، فأذن له، وأعطاه عشرين ألف درهم، ففرقها في أصحابه، ومضى، وقال لهم: اتبعوني متفرقين، ففعلوا، فاجتمع معه منهم نحو من مائتي فارس، فسار بهم إلى عين التمر، وحصر عاملها وأخذ ما معه من المال، وفرقه في أصحابه.

وسار فلقي عاملاً آخر ومعه مال على ثلاثة بغال، فأخذها وسار، فلحقه عسكر قد سيَّره هرثمة خلفه، فعاد إليهم وقاتلهم فهزمهم ودخل البرية، وقسم المال بين أصحابه وانتشر جنده، فلحق به مَن تخلّف عنه من أصحابه وغيرهم فكثر جمعه.

فسار نحو دقوقا، وعليها أبو ضِرغامة العجلي في سبعمائة فارس، فخرج إليه فلقيه، فاقتتلوا، فانهزم أبو ضرغامة ودخل قصر دقوقا، فحصره أبو السرايا، وأخرجه من القصر بالأمان، وأخذ ما عنده من الأموال.

وسار إلى الأنبار عليها إبراهيم الشروي مولى المنصور فقتله أبو السرايا، وأخذ ما فيها، وسار عنها ثم عاد إليها بعد إدراك الغلال فاحتوى عليها، ثم ضجر من طول السري في البلاد، فقصد الرقة فمرّ بطوق بن مالك التغلبي وهو يحارب القيسية، فأعانه عليهم، وأقام معه أربعة أشهر يقاتل على غير طمع إلاّ للعصبية للرّبعية على المضرية، فظفر طوق وانقادت له قيس.

وسار عنه أبو السرايا إلى الرقة، فلما وصلها لقيه محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا فبايعه وقال له: انحدر أنت في الماء، وأسير أنا في البر نوافي الكوفة، فدخلاها، وابتدأ أبو السرايا بقصر العباس بن موسى بن عيسى فأخذ ما فيه من الأموال والجواهر وكان عظيماً لا يحصى، وبايعهم أهل الكوفة.

(١) في المخطوط: حال. والتصويب من الكامل.

(٢) في المخطوط: ودوات. وهو تحريف.

(٣) في الكامل: وكانت الوقعة سلخ جمادى الآخرة.

فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له [معه][(١)] فسمَّه فلما مات ابن طباطبا أقام مكانه أبو السرايا غلاماً أمرد حدثاً وهو:

محمد بن محمد بن مزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور[(٢)].

وكان الحسن بن سهل قد وجّه عبدوس بن [٨٢/أ] محمد بن خالد المروزي[(٣)] إلى النِّيل حين وجّه زهيراً إلى الكوفة.

فلما هزم أبو السرايا زهيراً خرج عبدوس إلى الكوفة بأمر الحسن بن سهل حتى بلغ الجامع وزهير مقيم بالقصر.

فتوجه أبو السرايا إلى عبدوس فواقعه بالجامع[(٤)] فقتله، وأسر هارون بن أبي خالد واستباح عسكره، وكان في أربعة آلاف، فلم يفلت منهم أحد كانوا بين أسير وقتيل.

وانتشر الطالبيون[(٥)] وانحاز زهير إلى نهر الملك.

وأقبل أبو السرايا حتى نزل قصر ابن هبيرة بأصحابه، وكانت طلائعه تأتي الكوفة.

ثم وجه أبو السرايا جيوشه إلى البصرة، وواسط، فدخلوها، وكان بواسط وأعمالها عبد الله بن سعيد الحرشي والياً عليها من قبل الحسن بن سهل.

فواقعه جيش أبي السرايا قريباً من واسط فهزموه، فانصرف راجعاً إلى بغداد،

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) بعده في الكامل: ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة فأقام به ووجه الحسن بن...

(٣) كذا، وفي الكامل: المروروذي.

(٤) في الكامل: لثلاث عشر ليلة بقيت من رجب.

(٥) بعد هذا في الكامل: وانتشر الطالبيون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وسيَّر جيوشه إلى البصرة، وواسط، ونواحيها.
فولّى البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري.
وولى مكة الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي الذي يقال له الأفطس، وجعل إليه الموسم.
وولى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر.
وولى فارس إسماعيل بن موسى بن عفر وولى الأهواز زيد بن موسى بن جعفر، فسار إلى البصرة وغلب عليها، وأخرج عنها العباس بن محمد الجعفري، ووليها مع الأهواز.
ووجّه أبو السرايا محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن عَلِي عَلَى المدائن، وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي، فأتى المدائن وأقام بها وسيَّر عسكره إلى ديالي.
وكان بواسط عبد الله بن سعيد الحرشي والياً عليها من قبل الحسن بن سهل، فانهزم من أصحاب أبي السرايا إلى بغداد فلما رأى الحسن أن أصحابه لا يلبثون لأصحاب أبي السرايا...

وقتل أصحابه، وأسروا.

فلما رأى الحسن بن سهل أن أبا السرايا هزم عساكره، ولا يتوجه إلى بلد إلاّ افتتحها، ولم يجد في قواده مَن يكفيه حربه تذكر هرثمة، وكان هرثمة لما قدم الحسن بن سهل العراق والياً عليها من قِبل المأمون سَلَّم إليه ما كان بيده من الأعمال، وتوجّه نحو خراسان مغاضباً فبلغ حلوان، وبعث إليه الحسن، السندي، وصالحا صاحب المصلى يسألاه الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا، فامتنع وأبى، وقال: يذكروننا عند البلاء.

فانصرف رسل الحسن إليه بإبائه وبمنعه، فعاد إليه السندي بكتب لطيفة، ورسائل تشبه الكتب، فأجاب وانصرف إلى بغداد، فقدمها في شعبان، وتهيأ للخروج.

وأمر الحسن علي بن أبي سعيد[1] أن يخرج إلى ناحية المدائن، فدخلها أصحابه في شهر رمضان، وتقدّم هو بنفسه حتى نزل [بنهر][2] صرصر.

وكان هرثمة أنفذ منصور بن المهدي إلى الياسرية، فخرج وعسكر بها.

فلما قدم هرثمة خرج فعسكر بالسفينتين بين يدي منصور، ثم شخص إلى نهر صرصر إزاء أبي السرايا والنهر بينهما.

وتوجه علي بن سعيد من طريق كلواذى إلى المدائن، فقاتل أبي السرايا وهزمهم وأخذ المدائن، وبلغ أبي السرايا فرجع من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة.

وأصبح هرثمة، فجدّ في طلبه فوجد جماعة كثيرة، فقتلهم وبعث رؤوسهم إلى الحسن بن سهل.

ثم سار إلى قصر ابن هبيرة، وكانت بينه وبين أبي السرايا وقعة، قتل فيها من أصحاب أبي السرايا خلق كثير.

فانحاز أبو السرايا إلى الكوفة، فوثب محمد بن محمد و[مَن معه][3] من الطالبيين على دور بني العباس ومَن إليهم وأتباعهم، فانتهبوها وحرقوها وخربوا ضياعهم، وأخرجوهم من الكوفة، وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً جدًّا، واستجرجوا الودائع التي كانت [لهم][2] عند الناس.

وتوجه علي بن أبي سعيد بعد[4] أخذه المدائن إلى واسط فأخذها.

---

(١) في الكامل: علي بن سعيد.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: بعده. وهو تحريف.

ثم توجه إلى البصرة [فلم يقدر][١] على أخذها حتى انقضت سنة تسع[١].

---

(١) زاد ابن الأثير في أحداث السنة وفي هذا الخبر فقال بعد قوله: واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس وكان هرثمة يخبر الناس أنه يريد الحج، وحبس مَن قدم للحج من خراسان وغيرها ليكون هو أمير الموسم.
ووجّه إلى مكة داود بن عيسى بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم.
وكان الذي وجّه أبو السرايا إلى مكة حسين بن الحسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسن بن علي.
ووجّه أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي، فدخلها ولم يقاتله بها أحد.
ولما بلغ داود بن عيسى توجيه أبي السرايا حسين بن حسن إلى مكة لإقامة الموسم جمع أصحاب بني العباس ومواليهم.
وكان مسرور الكبير قد حجّ في تلك السنة في مائتي فارس، فتعبّى للحرب وقال لداود: أقم إليّ شخصك أو بعض ولدك، وأنا أكفيك.
فقال: لا أستحل القتال في المحرم، والله لئن دخلوها من كل فجٍّ لأخرجن من غيره.
وانحاز داود إلى ناحية المشاش، وافترق الجمع الذي كان داود بن عيسى جمعهم، وخاف مسرور أن يقاتلهم فخرج في أثر داود راجعاً إلى العراق.
وبقي الناس بعرفة، فصلّى بهم رجل من عرض الناس بغير خطبة، ودفعوا من عرفة بغير إمام.
وكان حسين بن حسن يسرف يخاف دخول مكة حتى خرج إليه قوم أخبروه أن مكة قد خلت من بني العباس، فدخلها في عشرة أنفس، فطافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة، فوقفوا ليلاً، ثم رجعوا إلى مزدلفة، فصلّى بالناس الصبح، وأقام بمنى أيام الحج، وبقي بمكة إلى أن انقضت السنة.
وكذلك أيضاً أقام محمد بن سليمان بالمدينة حتى انقضت السنة.
وأما هرثمة: فإنه نزل بقرية شاهي ورد الحاج، واستدعى منصور بن المهدي إليه، وكاتب رؤساء أهل الكوفة.
وأما علي بن سعيد: فإنه توجه من المدائن إلى واسط فأخذها، وتوجه إلى البصرة فلم يقدر على أخذها هذه السنة.
وفيها: قوي أمر نصر بن شبث العقيلي بالجزيرة، وكثر جمعه، وحصر حران.
وأتاه نفر من شيعة الطالبين، فقالوا له: قد وترت بني العباس، وقتلت رجالهم، وأغلقت عنهم العرب، فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك.
فقال: من أي الناس؟
فقالوا: تبايع لبعض آل علي بن أبي طالب.
فقال: أبايع بعض أولاد السوادات، فيقول: إنه هو خلقني ورزقني؟!
فقالوا: بايع لبعض بني أمية.
فقال: أولئك قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم عَلَيّ رجل مدبر لأعداني إدباره، وإنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم.
وفي هذه السنة: توفي الحسين بن مصعب بن زريق أبو طاهر بن الحسين بخراسان، وكان طاهر بالرقة، وحضر المأمون جنازته ونزل الفضل بن سهل قبره، ووجه المأمون إلى طاهر يعزيه بأبيه.
وفيها: توفي أبو عون معاوية بن أحمد الصمادحي مولى آل جعفر بن أبي طالب الفقيه المغربي الزاهد.
وفيها: توفي سهل بن شاذويه أبو هارون، وعبد الله بن نمير الهمداني الكوفي، وكنيته أبو هاشم وهو والد محمد بن عبد الله بن نمير شيخ البخاري ومسلم.

ثم دخلت سنة مائتين

وفيها: هرب أبو السرايا من الكوفة ودخلها هرثمة، ومنصور بن المهدي، فأمنوا أهلها ولم يعرضوا لأحد.

ثم إن أبا السرايا عبر دجلة أسفل واسط، فأتى عبدوس فوجد فيها مالاً كان حمل من الأهواز، فأخذه ثم مضى حتى أتى السوس فنزلها وأقام بها أربعة أيام، وجعل يعطي الفارس ألفاً والراجل خمسمائة[١].

فلما كان اليوم الرابع أتاهم الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأموني.

فأرسل إليهم: اذهبوا حيث شئتم فإنه لا حاجة لي في قتالكم إذ أنتم خرجتم من عملي فليس أتبعكم فأبَى أبِي السرايا إلاّ قتاله.

فقاتلهم فهزمهم الحسن واستباح عسكرهم.

وخرج أبي السرايا في جراحةٍ شديدة، فهرب واجتمع هو ومحمد بن محمد، وأبو الشوك فأخذوا ناحية الجزيرة يريدون منزل أبي السرايا برأس العين.

فلما انتهوا [إلى جلولاء][٢] أتاهم حماد[٣] فأخذهم فجاء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان حتى ضربه الحربة فضرب عنق أبي السرايا.

وكان الذي تولّى ضرب رقبته هارون بن محمد بن أبي خالد الذي كان أسيراً في يده، فلم يرَ أحد عند القتل أشد جزعاً من أبي السرايا، كان يضرب بيديه ورجليه ويصيح أشد ما يكون من الصياح، فجعل في رأسه حبل وفي رجليه حبل، وهو في ذلك يضطرب ويتلوّى ويصيح حتى ضُربت عنقه.

ثم بُعث برأسه، وطيف به وبُعث بجسده إلى بغداد، فصُلب على الجسرين في

(١) في الكامل الخبر على النحو التالي:
هرب أبو السرايا من الكوفة، وكان قد حصره فيها ومَن معه هرثمة، وجعل يلازم قتالهم حتى ضجروا وتركوا القتال، فلما رأى ذلك أبو السرايا تهيأ للخروج من الكوفة فخرج في ثمانمائة فارس، ومعه محمد بن محمد بن زيد.
ودخلها هرثمة فأمن أهلها ولم يتعرّض إليهم.
وكان هربه سادس عشر من المحرم وأتى القادسية، وسار منها إلى السوس بخوزستان، فلقي مالاً قد حمل من الأهواز، فأخذه وقسمه بين أصحابه وأتاه الحسن بن علي المأمون وجرحه، وتفرّق أصحابه.

(٢) زيادة من الكامل، وفي المخطوط على النحو التالي: فانتهوا لا عبر بهم فأتا بهم.
وقد ضبط من الكامل.

(٣) في الكامل: حماد الكند غوش.

كل جسر نصف[١].

وكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر.

وتوجه علي بن أبي سعيد إلى البصرة فافتتحها وكان الذي بها من الطالبيين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو يقال له: زيد النار.

وإنما سمي بذلك لكثرة ما حرق من الدور بالبصرة، وكان إذا أُتي برجل من السود كانت عقوبته أن يحرقه بالنار.

فأسره علي بن أبي سعيد مع جماعة من قوّاده، وبعث بهم إلى الحسن بن سهل.

وفي هذه السنة: خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم إلى اليمن.

ذكر السبب في خروجه

وكان سببه أن أبي السرايا تغلّب على الكوفة فتجاسر الناس على الحسن بن سهل، حدث هذا نفسه باليمن، وكان بها من قِبل المأمون إسحاق بن موسى [٨٢/ب] ابن عيسى، فلما سمع بإقبال إبراهيم بن موسى العلوي، وأهل بيته إليه، كره قتالهم، وخرج بجميع مَن في عسكره من الخيل والرجال، فخلّى لإبراهيم اليمن[٢].

فدخل إبراهيم بلاد اليمن، وقتل خلقاً، وسبى، وأخذ أموالاً عظيمة فسمِّي إبراهيم الجزار.

وفي هذه السنة: حبس حسين بن حسن الأفطس، وكان خرج من قِبل أبي السرايا، فجلس على نمرقة صينية خلف المقام، فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجُرِّدت منها حتى لم يبقَ عليها شيء، وبقيت حجارة مجرّدة.

ثم كساها ثوبين من قز رقيق[٣]، وجّه بهما أبو السرايا، مكتوب عليهما:

«مما أمر به الأصغر بن الأصغر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله، وأن

---

(١) بعد هذا في الكامل مما لم يذكر هنا:
وسيَّر محمد بن محمد إلى المأمون.
وأما هرثمة: فإنه أقام بالكوفة يوماً واحداً وعاد، واستخلف بها غسان بن أبي الفرج أبا إبراهيم بن غسان صاحب حرس والي خراسان وسار علي بن سعيد إلى البصرة...

(٢) في الكامل:
فسار منها نحو مكة فأتى المشاش فعسكر بها، واجتمع بها إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واستولى إبراهيم على اليمن...

(٣) في الكامل: في المحرم.

يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة»[(١)].

ثم أمر الحسين بالكسوة التي كانت على الكعبة فقسمت بين أصحابه من العلويين وأتباعهم وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ومَن[(٢)] لم يجد عنده شيئاً أخذه فحبسه وعاقبه حتى يفتدي بقدر طَوْلِه حتى افتقر خلق، وهرب كثير من أهل النعم فتعقّبهم يهدم دورهم حتى سار أصحابه إلى أخذ الحرم وأخذ أبناء الناس، ويهتكوا.

وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذي في أسافل رؤوس أساطين المسجد الحرام، فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهباً.

وقلعوا الحديد الذي في الشباك كُوى المسجد، وقطعوا شباك زمزم وباعوها فاعتزلهم الناس ولعنوهم.

وبلغهم أن أبا السرايا قُتل، وطرد من كور العراق الطالبيون، وأن الولاية رجع بها لولد العباس.

فعلم حسين أنه لا ثبات له ولا لأصحابه لسوء السيرة التي ظهرت منهم، فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر بن محمد الصادق، وكان شيخاً ورعاً يروي العلم عن أبيه جعفر بن محمد رضي الله عنه، وينتابه الناس يكتبون عنه، وكان له سمت وزهد، وفارق ما عليه أهل بيته، وكان محبَّباً في الناس.

فلما اجتمع إليه الحسين وأصحابه قالوا له: قد تعلم حالك في الناس، فابرز شخصك نبايع لك بالخلافة، فليس يختلف عليك اثنان.

فأبى إباءً شديداً، فلم يزل به ابنه[(٣)] علي وحسين بن الحسن الأفطس حتى غلبا الشيخ على رأيه، فأجابهم فأقاموه يوم الجمعة فبايعوه بالخلافة، وحشروا الناس إليه من أهل مكة، والمجاورين، فبايعوه وسمُّوه أمير المؤمنين فأقام شهوراً ليس له من الأمر إلاّ اسمه.

وابنه علي وحسين، وجماعة معهما أسوء ما كانوا سيرة.

فوثب حسين بن الحسن على امرأة من قريش، ولها زوج، وكانت ذات جمال بارع، فانتزعها، وأخاف زوجها حتى توارى واغتصبها نفسها بعد أن كسر عليها بابها وحملت حملاً إلى حسين.

ووثب علي بن محمد وهو ابن أمير المؤمنين محمد بن جعفر على غلام من

---

(١) هذا تاريخ الصنع، والحدث كان في السنة التالية في أولها كما ذكر ابن الأثير.
(٢) في المخطوط: إن. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: ابنت. والتصويب من الكامل.

قريش ابن قاضي بمكة يقال له: إسحاق بن محمد، كان جميلاً بارعاً في الجمال، فاقتحم عليه بنفسه نهاراً وجهاراً وفي داره على الصفا مشرفاً على المسعى حتى حمله على فرسه في السرج، وركب على عجز الفرس، وخرج به يشق السوق، فلما رآه أهل مكة ومَن بها من المجاورين خرجوا، فاجتمعوا في المسجد الحرام، وغُلِّقت الدكاكين، ومال معهم أهل الطواف بالكعبة حتى أتوا أبا محمد بن جعفر فقالوا له: لنخلعنك ولنقتلنك أو ترد إلينا هذا الغلام الذي أخذه ابنك جهرة، وأغلق بابه، وكلمهم من شباك الشارع في المسجد، وقال: والله ما علمت، فأمهلوني.

ثم أرسل إلى حسين بن حسن الأفطس، وسأله أن يركب إلى ابنه فيستنقذ الغلام من يده.

فأبى ذلك حسين وقال: والله إنك لتعلم أني لا أقوى على ابنك ولو جئته لقاتلني في أصحابه.

فلما رأى محمد بن جعفر ذلك قال لأهل مكة أمنوني حتى أركب إليه وآخذ الغلام، فأمنوه.

فركب بنفسه حتى سار إلى ابنه، فأخذ الغلام منه، وسلّمه إلى أهله.

فلم يلبثوا إلاّ يسيراً حتى أقبل إسحاق بن موسى العباس إليهم [من اليمن فنزل المشاش][1].

واجتمع العلويون إلى محمد بن جعفر، وقالوا: هذا إسحاق بن موسى مقبلاً إلينا في الخيل والرجال وقد رأينا أن تخندق خندقاً، وتبرز شخصك ليراك الناس فيحاربوا معك.

وبعثوا إلى مَن حولهم من الأعراب ففزعوا لهم وخندقوا بأعلى مكة.

فورد إسحاق وقاتلهم أياماً، ثم كره إسحاق الحرب، وخرج يريد العراق فلقيه ورقاء بن جميل ومَن كان معه من أصحاب الجلودي، فقالوا لإسحاق: ارجع معنا إلى مكة ونحن نكفيك القتال، فرجع معهم.

واجتمع إلى محمد بن جعفر مَن كان معه، فتقاتلوا عند بئر ميمون يوماً، ثم عاودهم بعد ذلك بيوم، وكانت الهزيمة على أصحاب محمد بن جعفر.

فبعث محمد بن جعفر رجالاً من قريش منهم قاضي مكة يسألون لهم الأمان حتى يخرجوا من مكة، ويذهبوا حيث شاؤوا.

---

(١) زيادة من الكامل.

فأجابهم إسحاق، وورقاء، وتفرّق الطالبيون وأخذ كل قوم ناحية[١].

وفي هذه السنة: شخص هرثمة من معسكره إلى المأمون بمرو.

ذكر خروج هرثمة ومَن اغتمّه للحسن والفضل وما آل [إليه] أمره

لما فرغ من أمر أبي السرايا ومحمد بن محمد العلوي ودخل الكوفة، فأقام في عسكره أياماً، ثم أتى نهر صرصر، والناس يظنون بأن الحسن بن سهل بالمدائن، فلما بلغ نهر صرصر خرج على عقرقوف[٢]، ثم أتى البَرَدَان[٣] ثم سار حتى أتى خراسان [٨٣/أ] فاستقبلته كتب من المأمون في غير منزل: أن ارجع قبل الشام، والحجاز.

فأبى وقال: لا أرجع [حتى][٤] آتي أمير المؤمنين إدلالاً منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه.

وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل، وما يكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده إلى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه.

فعلم[٥] الفضل ما يريد فقال للمأمون[٦]: إن هرثمة أفعل[٧] عليك البلاد، وظاهر

---

(١) زاد ابن الأثير في الكامل في تفاصيل الخبر وإكماله فقال:
ودخل العباسيون مكة في جمادى الآخرة وتفرّق الطالبيون من مكة.
أما محمد بن جعفر فسار في نحو الجحفة، فأدركه بعض موالي بني العباس فأخذ جميع ما معه، وأعطاه دريهمات يتوصل بها، فسار نحو بلاد جهينة فجمع بها وقاتل هارون بن المسيب والي المدينة عند الشجرة وغيرها عدة دفعات، فانهزم محمد وفقئت عينه بنشابة، وقتل من أصحابه بشر كثير ورجع إلى موضعه.
فلما انقضى الموسم طلب الأمان من الجلودي ومن رجاء بن جميل ـ وهو ابن عمه الفضل بن سهل ـ فأمنه وضمن له الرجاء عن المأمون وعن الفضل الوفاء بالأمان، فقبل ذلك.
فأتى مكة لعشر بقين من ذي الحجة، فخطب الناس وقال: إنني بلغني أن المأمون مات وكانت له في عنقي بيعة، وكانت فتنة عَمّت الأرض فبايعني الناس، ثم إنه صحّ عندي أن المأمون حي صحيح، وأنا أستغفر الله من البيعة، وقد خلعت نفسي من البيعة التي بايعتموني عليها كما خلعت خاتمي هذا من إصبعي، فلا بيعة لي في رقابكم، ثم نزل.
وسار سنة إحدى ومائتين إلى العراق فسيَّره الحسن بن سهل إلى المأمون بمرو، فلما سار المأمون إلى العراق صحبه، فمات بجرجان.
(٢) عقرقوف: قال عنها صاحب معجم البلدان: قرية من نواحي دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ.
(٣) قال ياقوت: البردان: بالتحريك مواضع كثيرة من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها قرب صَرفين، وهي من نواحي دجيل.
(٤) سقط من المخطوط وأتممته من الكامل.
(٥) في المخطوط: فلم. والتصويب من الكامل.
(٦) في المخطوط: المأمون. والتصويب من الكامل.
(٧) في الكامل: أثقل.

عليك عدوك، وعادى وليك، ولقد دَسَّ أبا[١] السرايا، وإنما هو بعض حوله[٢]، حتى عمل ما عمل، ولو شاء هرثمة أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعله، ولقد كتبت إليه [يا][٣] أمير المؤمنين عدة[٤] كتب أن يرجع قبلي الشام، والحجاز، فأبى، وقد رجع إلى باب أمير المؤمنين عاصياً ميثاقنا[٥] الغليظ، ويتوعّد بالأمر الجليل، وإن أطلق هذا كان مفسدة لغيره.

فاشرأب قلب أمير المؤمنين عليه، وأبطأ هرثمة في المسير، فلم يصل إلى خراسان إلاّ في شهور.

فلما بلغ مرو، خشي أن يكتم المأمون قدومه، فضرب بالطبول لكي يسمعها المأمون.

فسمعها، فقال: ما هذا؟

قالوا: هرثمة قد أقبل برعد وبرق، وظنّ هرثمة أن قوله هو المقبول.

فأمر بإدخاله، فلما دخل كان قد أشرب قلب المأمون.

فقال له: يا هرثمة، مالأت أهل الكوفة والعلويين، وداهنت، ودسست إليّ أبا السرايا حتى بلغ وعمل ما عمل، وكان رجلاً من أصحابك، ولو أردت أن تأخذهم جميعاً لفعلت، ولكنك أرخيت خناقهم، وأجردت لهم رسنهم.

فذهب هرثمة ليتكلم، ويعتذر، ويدفع عن نفسه ما فرّق، فلم يقبل منه، وأمر به فوجىء على أنفه، وديس في بطنه وسحب من بين يديه.

وكان تقدم الفضل بن سهل إلى الأعوان في الغلظة عليه والتشديد حتى حبس.

[فمكث في الحبس أياماً][٦] ثم دس إليه بعد أن أذلّه من قتله، وقالوا: مات.

وفي هذه السنة: هاج الشغب ببغداد بين الحربية، والحسن بن سهل.

ذكر السبب في ذلك

لما خرج هرثمة إلى خراسان وثبوا، وقالوا: لا نرضى حتى نطرد الحسن بن سهل وعماله عن بغداد.

---

(١) في المخطوط: أبو. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: وإنما هو من جنده.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في المخطوط: عنده. وهو تحريف.
(٥) في المخطوط: ميثاقاً. وهو تحريف.
(٦) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل في التاريخ.

وكان من عماله بها: محمد بن أبي خالد، وأسد بن أبي الأسد، فخرجوهم وطردوا أسبابهم، وصيَّروا إسحاق بن موسى بن المهدي خليفة المأمون ببغداد، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ورضوا به.

وكان الحسن بن سهل مقيماً بالمدائن منذ شخوص هرثمة إلى خراسان، وإلى أن اتصل بأهل بغداد خبر هرثمة، وما صنع المأمون.

فلمّا علم الحسن بن سهل أن أهل بغداد [شغبوا على عماله][1] [بعث إلى علي بن هشام، وهو والي بغداد][2] من قبله: أن أمطل جند الحربية والبغداديين أرزاقهم، ومَنِّهم ولا تعطيهم.

ولما وثبت أهل بغداد بأصحابه دَسّ إلى قوم من قوادهم أن يشغبوا على إسحاق بن موسى، فشغبوا.

فحول الحربية[3] إسحاق إليهم، وأنزلوه على دجيل.

وبعث الحسن بن سهل علي بن هشام من الجانب الآخر، وجاءه هو ومحمد بن أبي خالد وقوادهم ليلاً حتى دخلوا بغداد [في شعبان][4].

فقاتل الحربية ثلاثة أيام على قنطرة الصراة العتيقة والجديدة والأرجاء، ثم إنه وعد الحربية أن يعطيهم رزق ستة أشهر إذا أدركت العلة.

فسألوه أن يجعل لهم خمسين درهماً لكل رجل لينفقوها من شهر رمضان.

فأجابهم إلى ذلك ثم دفعهم ولم يفِ لهم بإعطاء الخمسين[5].

فشدُّوا على علِيّ بن هشام، فطردوه، وكان المتولي ذلك والقيِّم من الحربية محمد بن أبي خالد.

وذلك أن علي بن هشام كان يستخف به، ويضع من مقداره.

ووقع بين محمد بن أبي خالد وأزهر بن زهير بن المسيب كلام، فقنّعه بالسوط

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة من الكامل يتطلبها السياق لسقوط بعد عبارات من المخطوط.

(٣) في المخطوط: الحربه. والتصويب من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في الكامل بعد هذا: حتى أتاهم خبر زيد بن موسى من البصرة المعروف بزيد النار، وكان هرب من الحبس، وكان عند علي بن سعيد، فخرج بناحية الأنبار هو وأخو أبي السرايا في ذي القعدة سنة مائتين فبعثوا إليه، فأتي به إلى علي بن هشام وهرب علي بن هشام بعد جمة من الحربية، ونزل بصرصر لأنه لم يفِ لهم بإعطاء الخمسين إلى أن جاء الأضحى، وبلغهم خبر هرثمة وأخرجوه، وكان القيم بأمر هرثمة محمد بن أبي خالد لأن علي بن هشام كان يستخف به، فغضب من ذلك وتحوّل إلى الحربية.

فغضب محمد، وتحوّل إلى الحربية، واجتمع إليه الناس، فلم يقربهم علي بن هشام حتى أخرجوه من بغداد.

وتقدّم المأمون بإحصاء ولد العباس فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً، ما بين ذكر وأنثى(١).

---

(١) هذا ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير في هذا الخبر وفي أحداث تلك السنة فقال:
وقيل: كان السبب في شعب الأبناء أن الحسن بن سهل جلد عبد الله بن علي بن ماهان الحد، فغضب الأبناء وخرجوا.
في هذه السنة: وجّه إبراهيم بن موسى بن جعفر من اليمن رجلاً من ولد عقيل بن أبي طالب في جند ليحج بالناس.
فسار العقيلي حتى أتى بستان ابن عامر، فبلغه أن أبا إسحاق المعتصم قد حجّ في جماعة من القوّاد، فيهم حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان ـ وقد استعمله الحسن بن سهل على اليمن ـ فعلم العقيلي أنه لا يقوى له، فأقام ببستان بن عامر، فاجتازت به قافلة من الحاج ومعهم كسوة الكعبة وطيبها، فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها، وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين.
فاستشار المعتصم أصحابه، فقال الجلودي: أنا أكفيك ذلك.
فانتخب مائة رجل، وسار بهم إلى العقيلي.
فصحبهم فقاتلهم، فانهزموا، وأسر أكثرهم، وأخذ كسوة الكعبة، وأموال التجار إلاّ ما كان مع مَن هرب قبل ذلك، فردّه، وأخذ الأسرى فضرب كل واحد منهم عشرة أسواط، وأطلقهم فرجعوا إلى اليمن يستطعمون الناس، فهلك أكثرهم في الطريق جوعاً وعرياً.
وفيها: وقعت الفتنة بالموصل بين بني سامة، وبني ثعلبة، فاستجارت ثعلبة بمحمد بن الحسين الهمداني، وهو أخو علي بن الحسين أمير البلد، فأمرهم بالخروج إلى البرية، ففعلوا فتبعهم بنو سامة في ألف رجل إلى العوجاء فحصروهم فيها.
فبلغ الخبر عليًا، ومحمداً ابني الحسين، فأرسل الرجال إليهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من بني سامة جماعة، وأسر جماعة منهم ومن بني تغلب، وكانوا معهم، فحبسوا في البلد.
ثم إن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي، أتى محمداً وطلب إليه المسالمة، فأجابه إليها، وصلح الأمر وسكنت الفتنة.
وفي هذه السنة: جهّز الحكم أمير الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج بالأندلس، فسار بالعساكر حتى دخل بأرضهم وتوسّط بلادهم، فخربها ونهبها، وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعاً وصل إلى غيره، فاستنفذ خزائن ملوكهم.
فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب ملوك جميع تلك النواحي مستنصراً بهم، فاجتمعت إليه النصرانية من كل أوب فأقبل في جموع عظيمة بإزاء عسكر المسلمين بينهم نهر، فاقتتلوا قتالاً شديداً عدة أيام، المسلمون يريدون أن يعبروا النهر، وهم يمنعون المسلمين من ذلك.
فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون إليهم، فاقتتلوا أعظم قتال، فانهزم المشركون إلى النهر، فأخذهم السيف والأسر، فمَن عبر النهر سلم، وأسر جماعة من جنودهم وملوكهم وقمامصتهم.
وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه، فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوماً، يقتتلون كل يوم، فجاءت الأمطار، وزاد النهر وتعذّر جوازه، وقفل عبد الكريم عنهم سابع ذي الحجة.
=

ودخلت سنة إحدى ومائتين

وفيها: راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة، فامتنع من ذلك، فراودوه على الإمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة، فأجابهم[١] إلى ذلك.

ذكر السبب في ذلك

لما خرج أهل بغداد على ابن هشام منها واتصل الخبر الحسن بن سهل، وكان بالمدائن، انهزم حتى سار إلى واسط [وذلك في أول سنة إحدى ومائتين][٢] فتبعه محمد بن أبي خالد مخالفاً له قد تولّى القيام بأمر الناس وولّى سعد بن الحسن بن قحطبة الجانب الغربي ونصر بن حمزة بن مالك الجانب الشرقي وكان[٣] ببغداد منصور بن المهدي، وخزيمة بن خازم، والفضل بن الربيع[٤] ـ وقد كان الفضل بن

= **وفي هذه السنة**: خرج خارجي من البربر، بناحية مورور من الأندلس، ومعه جماعة، فوصل كتاب العامل إلى الحكم بخبره فأخفى الحكم خبره، واستدعى من ساعته قائداً من قواده، فأخبره بذلك سرًا، وقال له: سِرْ من ساعتك إلى هذا الخارجي فأتنا برأسه، وإلاّ فرأسك عوضه، وأنا قاعد مكاني هذا إلى أن تعود.
فسار القائد إلى الخارجي، فلما قاربه سأل عنه، فأخبر عنه باحتياط كثير، واحتراز شديد.
ثم ذكر قول الحكم إن قتلته وإلاّ فرأسك عوضه.
فحمل نفسه على سبيل سلوك المخاطرة فأعمل الحيلة حتى دخل عليه وقتله، وأحضر عند الحكم، فرآه مكانه ذلك لم يتغير منه وكانت غيبته أربعة أيام.
فلما رأى رأسه، أحسن إلى ذلك القائد، ووصله، وأعلى محله.
وفي هذه السنة: قتلت الروم ملكها أليون، وكان ملكه سبع سنين وستة أشهر، وملكوا عليه ميخائيل بن جورجيش ثانية.
وفيها: خالف علي بن أبي سعيد على الحسن بن سهل فبعث المأمون إليه بسراج الخادم وقال له: إن وضع يده في يده الحسن بن سهل أو شخص إليه بمرو وإلاّ فاضرب عنقه.
فسار إليه سراج، فأطاع، وتوجه إلى المأمون بمرو مع هرثمة.
وفيها: قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل لأنه قال له: يا أمير الكافرين.
وحجّ بالناس هذه السنة: المعتصم.
وفيها: توفي القاضي أبو البختري وهب بن وهب.
ومعروف الكرخي الزاهد.
وصفوان بن عيسى الفقيه.
والمعافى بن داود الموصلي، وكان فاضلاً عابداً.

(١) في المخطوط: وامتنع. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: وكانقه. والتصويب من الكامل وقال محققه في الطبري: وكنفه.
(٤) جاء بعد هذا في الكامل من الخبر هذه العبارة وأحسبها ساقطة من المخطوط بينها وبين العبارة التي تليها وهي قول ابن الأثير:
وقدم عيسى بن محمد بن أبي خالد من الرقة من عند طاهر في هذه الأيام فوافق أباه على قتال =

الربيع مختفياً قبل قتل المخلوع [إلى الآن] ـ.

فلما رأى محمد بن أبي خالد قد بلغ واسطاً، بعث إليه يطلب منه الأمان، فأعطاه إياه، وظهر.

وقدم علي بن محمد بن أبي خالد للقتال، وتقدّم هو وابنه عيسى مع أصحابهما حتى صاروا على ميلين من واسط، فوجّه إليهم الحسن[1] أصحابه وقوّاده، فاقتتلوا قتالاً شديداً عند أبيات واسط.

فلما كان بعد العصر هبت ريح شديدة وغبرة حتى اختلط القوم بعضهم ببعض، وكانت الهزيمة على أصحاب محمد بن أبي خالد فثبت، فأصابته جراحات شديدة في [٨٣/ ب] يده، فانهزم هو وأصحابه هزيمة شديدة، حتى قتل أصحاب الحسن منهم ونهبوا[2]، حتى بلغوا فم الصلح.

وقلعت الريح ما كان معهم من السفن فيها متاع وسلاح حتى أدخلها واسطاً[3]، فأخذها أصحاب الحسن، وتبعوه، ولم يزل يقاتلهم في كل مكان بالنهار، ثم يرتحل بالليل حتى بلغ جرجرايا، فاشتدت به الجراحات، فأمر قواده أن يقيموا في عسكره، فحمله ابنه المعروف بأبي زنبيل حتى أدخله بغداد[4]، ومات محمد من ليلته، ودفن في داره سرًّا.

وكان زهير بن المسيب محبوساً عند جعفر بن محمد بن أبي خالد، فلما قدم أبو زنبيل مضى إلى خزيمة بن خازم، فأعلمه خبر أبيه وأوصل إليه كتاباً على أخيه عيسى.

فبعث خزيمة إلى بني هاشم والقواد فأعلمهم الخبر، وقرأ عليهم كتاب عيسى

= الحسن بن سهل فمضيا ومَن معهما إلى قرية أبي قريش قريب واسط.
ولقيهما في طريقهما عساكر الحسن في غير موضع فهزماهم.
ولما انتهى محمد إلى دير العاقول أقام به ثلاثاً، وزهير بن المسيب مقيم بإسكاف بني الجُنيد عاملاً للحسن علي جوخي، وهو يكاتب قواد بغداد.
فركب إليه محمد، وأخذه أسيراً، وأخذ كل ماله وسيَّره أسيراً إلى بغداد، وحبسه عند أبيه جعفر.
ثم تقدّم محمد إلى واسط، ووجّه محمد ابنه هارون من دير العاقول إلى النيل، وبها نائب للحسن، فهزمه هارون، وتبعه إلى الكوفة.
ثم سار المنهزمون من الكوفة إلى الحسن بواسط، ورجع هارون إلى أبيه وقد استولى على النيل، وسار محمد، وهارون نحو واسط فسار الحسن عنها، ونزل خلفها، وكان الفضل بن الربيع مختفياً إلى الآن. . .

(١) في المخطوط: أحسن. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٢) بعدها في الكامل: وذلك لسبع بقين من ربيع الأول.
(٣) في المخطوط: واسلطاً. وهو تحريف.
(٤) في الكامل: لست خلون من ربيع الأول.

مكان أبيه[١]، وانصرف أبو زنبيل من عند خزيمة بن خزيمة حتى أتى زهير بن المسيب، فأخرجه من محبسه[٢]، وضرب عنقه[٣]، ونصب رأسه على رمح، وأخذوا جسده، فشدوا في رجله حبلاً، وطافوا به على دوره، ودور أهل بيته، ثم داروا به في الكرخ وردوه إلى باب الشام، ولمّا جَنَّ الليل رموه في دجلة ورجع أبو زنبيل إلى أخيه عيسى إلى فم الصراة.

وبلغ الحسن بن سهل موت محمد[٤] بن أبي خالد، فخرج من واسط، ووجه حميد بن عبد الحميد الطوسي، وسعيد بن الساجور وغيره من القواد، فلقوا أبا زنبيل بقم الصراة وهزموه مع أخيه هارون[٥] فخرجا هاربين إلى المدائن.

وبلغ الخبر بني هشام، وقواد بغداد، فجدُّوا في الخلاف على الحسن بن سهل، وقالوا: لا نرضى بالمجوس بن سهل حتى نطرده، ونرجع إلى خراسان، ونخلع المأمون.

وتراضوا أياماً، ثم أرادوا منصور بن المهدي على أن يعقدوا الخلافة له، فأبى عليهم، فما زالوا حتى صيّروه أميراً وخليفة المأمون بالعراق.

وقوي أمر عيسى بمَن ذكرنا، وكثر جنده، فأمر بإحصائهم، فكانوا مائة ألف وخمسة وعشرين ألفاً بين فارس وراجل، فأعطى الفارس أربعين درهماً والراجل فأعطى [عشرين][٦] درهماً[٧].

---

(١) في الكامل: وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد إليه يبذل فيه القيام بأمر الحرب مقام أبيه، فرضوا به، وصار مكان أبيه.

(٢) في المخطوط: مجلسه. وهو تحريف.

(٣) في الكامل: فذبحه ذبحاً.

(٤) في الكامل: وبلغ الحسن بن سهل موت محمد فسار إلى المبارك، فأقام به، وبعث في جمادى الآخرة جيشاً له، فالتقوا بأبي زنبيل بقم الصراة فهزموه، وانحاز إلى أخيه هارون بالنيل، فتقدّم جيش الحسن إليهم فلقوهم، فاقتتلوا ساعة، وانهزم هارون وأصحابه، فأتوا المدائن، وذهب أصحاب الحسن النيل ثلاثة أيام وما حولها من القرى.

(٥) في المخطوط: أخيه أبي زنبيل وهو سهو.

(٦) سقط ما بين المعقوفين من المخطوط، وأتممته من الكامل.

(٧) كذا جاء الخبر في تجارب الأمم، وزاد صاحب الكامل في تفاصيله فقال: وقيل: إن عيسى لما ساعده أهل بغداد على حرب الحسن بن سهل علم الحسن أنه لا طاقة له به فبعث إليه وبذل المصاهرة ومائة ألف دينار، والأمان له ولأهل بيته ولأهل بغداد، وولاية أي النواحي أحب، فطلب كتاب المأمون بخطه.
وكتب عيسى إلى أهل بغداد:
إني مشغول بالحرب عن جباية الخراج فولّوا رجلاً من بني هاشم، فولُّوا منصور بن المهدي.
وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين المأمون حتى يقدم أو يولّي مَن أحب فرضي به الناس.
وعسكر منصور بكلواذي، وبعث غسان بن عباد بن أبي الفرج إلى ناحية الكوفة، فنزل بقصر =

وفي هذه السنة: تجرّدت المتطوعة المنكرين على الفسّاق ببغداد ورئيسهم خالد الدريوش، وسهل بن سلامة الأنصاري من أهل خراسان.

ذكر السبب الذي فعلت المطوعة له ذلك

كان فُسّاق الحربية والشطّار[1] الذين كانوا ببغداد، والكرخ آذوا الناس أذىً شديداً، وأظهروا قطع الطريق، وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرق، وكانوا يأتون الرجل فيأخذوا ابنه فيذهبون به، ولا يقدر أن يمتنع عليهم.

وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكايرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغيره.

لا سلطان يمنعهم، ولا يقدر على ذلك منهم، لأن السلطان كان لا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه.

وكانوا يجبون المارة في الطريق والسفن، وكانوا يخفرون البساتين، وكان الناس منهم في بلاء عظيم.

وخرجوا يوماً إلى قطربل فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع، والذهب، والفضة، والبقر، والغنم، وغير ذلك، فأدخلوها بغداد، وجعلوا يبيعونها علانية.

فلما رأى الناس ذلك وظهر البغي، والفسق، والنهب، وأن السلطان لا يغيره، مشى بعضهم إلى بعض، وقام الصلحاء [من][2] كل ربض ودرب فمشى بينهم أمثالهم.

وقالوا: يا قوم، إنما في كل درب فاسق، واثنان إلى عشرة، وعددكم بعد أكثر، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحد لقمعتم هؤلاء الفسّاق واحتشموكم.

فقام رجل من طريق الأنبار يعرف بالدريوش، فدعا جيرانه، وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي، فأجابوه إلى ذلك، فشدّ على مَن يليه من الفسّاق، والشطّار فمنعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه، فقاتلهم وهزمهم، وأخذ

= ابن هبيرة، فلم يشعر غسان إلاّ وقد أحاط به حميد الطوسي، فأخذه أسيراً، وقتل من أصحابه، وذلك لأربعة خلون من رجب.

وسيَّر منصور بن المهدي، محمد بن يقطين في عسكر إلى حميد، فسار حتى أتى كوثى، فلم يشعر بشيء حتى هجم عليه حميد، وكان بالنيل فقتله قتلاً شديداً.

وانهزم ابن يقطين، وقتل من أصحابه، وأسر، وغرق بشر كثير.

ونهب حميد ما حول كوثى من القرى، ورجع حميد إلى النيل، وابن يقطين أقام بنهر صرصر.

وأحصى عيسى بن محمد بن أبي خالد مَن في عسكره. . .

(١) الشُّطَّارُ: هم اللصوص، وكانوا في بعض حالاتهم أو أغلبها عندما يهاجمون الناس يشاطروهم أموالهم وأمتعتهم، وهذه أخف حالاتهم في التعدي والسرقة.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

بعضهم فضربهم وحبسهم[١].

ثم قام بعده رجل آخر [من الحربية][٢] يقال له: سهل بن سلامة الأنصاري من أهل خراسان ويكنى أبا حاتم، فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله وسنّة نبيه محمد ﷺ [و][٢]علق مصحفاً في عنقه، ثم بدأ بجيرانه وأهل محلته، فأمرهم ونهاهم، فقبلوا منه، ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع.

وجعل ديوناً ثبت فيه اسم مَن بايعه على ذلك، وقتال مَن خالفه كائناً ما كان، فأتاه خلق كثير فبايعوه.

ثم أنه طاف ببغداد، وأسواقها، وأرباضها وطرقها، ومنع كل مَن يخفره ويجبي المارة، وقال: لا خفارة في الإسلام.

والخفارة: أن الرجل منهم كان يأتي إلى مَن له دار أو بستان أو تجارة، فيقول: أنت في خفرتي لا يتعرّض أحد لمالك، ادفع مَن أرادك بسوء، ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً، فيعطيه[٣]. وقوي على ذلك وقمع أهل الشر.

وكان يخالفه الدريوش في أنه كان لا يغير على السلطان شيئاً لا يخالفه ولا يقاتله، ويقول: إنّا لا نرضى مخالفة أمر السلطان بشيء.

---

(١) في المخطوط: وجلسهم. وهو تحريف وزاد صاحب الكامل: ورفعهم إلى السلطان إلا أنه كان لا يرى أن يغير على السلطان شيئاً.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) هذه الخفارة عايشتها وأنا طفل في قريتي العاقولة تبع كفر المداور مركز مفاغة محافظة المنيا بمصر، فكانت على موصف المؤلف هاهنا تماماً وكنت أعرف هؤلاء الخفراء وكانوا يلاعونني في طفولتي، وكنت أحبهم كثيراً غير أنه كان يكمن داخلي منهم خوف شديد، وكنت كثيراً ما أسأل رحمها الله تعالى: ما يعمل هؤلاء الناس، وذلك أني كنت أراهم يروحون، ويغدون في السلاح، وكانت قريتي وبالأحرى نجعي لأنهم كانوا يطلقون عليه نجع العاقولة فيما بينهم والنجع هو المكان النائي عن الطريق القليل عدد الدور، وهو أقل من العزبة، والعزبة أقل من القرية، والقرية أقل من البندر كما هو معروف ـ وكان منظر هذا السلاح يدخل في نفسي الخوف كما أنه يدخل فيها حب القوة والعزة والمنعة والهيبة مما يجعلني أحبهم وأخاف منهم فكانت أسئلتي لأمي عن أي نوع من العمل يقوم به هؤلاء الشاكون في السلاح، فكانت تقول إنهم الخفراء، ووصفت لي من حالهم ما وصف المؤلف هاهنا، ثم أنني كبرت شيئاً ما فرأيتهم يأتون إلى الفلاحين ـ والفلاحين هنا غير أهل قريتي ـ فالخفراء كانوا من أهل قريتي أو نجعي فهم الذين يفرضون تلك الخفارة على زروع المجاورة لقريتي من أهل القرى المجاورة، فكانوا يأتوهم وقت الحصاد فيأخذون ما يسمونه بالخفارة، وإذا امتنع أحد عن إعطائهم ما طلبوا فهو أمام أحد أمرين إما أن يمنع تماماً من دخول أرضه، ولا يقدر على ذلك فعلاً ولا تستطيع الحكومة أن تمكّنه من ذلك، وإما أن يفسدوا عليه زرعه بالإتلاف أو الحرق أو السرقة للمحصول أو للدواب التي يملكها، وكان لكل خفير من هؤلاء ما يسمونه بالزمام أي دائرة النفوذ.

وقال سهل بن [سلامة][(١)] : إنّا نرى[(٢)] قتال مَن خالف الكتاب والسنّة كائناً مَن كان[(٣)] .

وقوي أمره وضعف منصور بن المهدي، وعيسى بن محمد بن أبي خالد لأن معظم أصحابهم الشطّار ومَن لا خير فيسه، فكسرهم ذلك.

ودخل منصور بن المهدي بغداد، فكاتب الحسن بن سهل، وسأله الأمان له ولأهل بيته[(٤)] .

[فأجابه الحسن إلى الأمان له ولأهل بغداد، وأن يعطي جنده، وأهل بغداد رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلة.

ورحل عيسى فدخل بغداد لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، وتفرّقت العساكر، فرضي أهل بغداد بما صالح عليه][(٥)] .

[٨٤/أ] . . . .[(٦)] الحسن بن سهل في ولاية السواد، وأعمال بغداد، وكان عسكر المهدي مخالفين لعيسى فوثب المطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي يدعو إلى المأمون، وإلى الفضل والحسن بن سهل.

فامتنع عليه سهل بن سلامة، وقال: ليس على هذا بايعتني.

وتحوّل منصور بن المهدي، والفضل بن الربيع وكانوا بايعوا سهل بن سلامة على ما يدعو إليه من العمل بالكتاب والسنّة، فنزلوا بالحربية هرباً من المطلب.

وجاء سهل بن سلامة إلى الحسن وبعث إلى المطلب فأبى أن يجيبه.

فقاتله سهل أياماً قتالاً شديداً، ثم اصطلح عيسى والمطلب.

فدسّ عيسى إلى سهل مَن اغتاله وضربه بالسيف[(٧)] ضربة لم تعمل[(٨)] كثير عمل.

فلما اغتيل سهل رجع إلى منزله، وقام عيسى بأمر الناس فكفُّوا عن القتال.

---

(١) سقط من المخطوط، والسياق يقتضيه.
(٢) في المخطوط: ري. وهو تحريف.
(٣) في الكامل:
وكان قيام سهل لأربع خلون من رمضان.
وقيام الدريوش قبله بيومين أو ثلاثة.
(٤) آخر صفحة [٨٣/ب].
(٥) زيادة من الكامل لتعطي معنى سطر سقط من أول الصفحة [٨٤/أ].
(٦) موضع النقط سطر غير مقروء بأول الصفحة نظراً لاختلاط مداد الكلمات فلم تظهر منه إلا الكلمة الأخيرة بالسطر.
(٧) تكرر في المخطوط عبارة: وضربه بالسيف.
(٨) في المخطوط: تعلم. وهو تحريف، لا أدري لماذا يتكرر في هذا المخطوط كثير بهذه الطريقة وهي تقديم حرف على حرف في الكلمة.

ثم بعث عيسى إلى سهل بن سلامة فاعتذر إليه مما صنع، وبايعه وأمره أن يعود إلى ما كان عليه.

وفي هذه السنة: جعل المأمون علي بن موسى بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ولي عهد المسلمين، والخليفة من بعده، وسمّاه الرضى من آل محمد [ﷺ][١].

وأمر[٢] جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الآفاق.

ذكر الخبر عن ذلك وسببه وما آل إليه الأمر

بينا عيسى بن محمد بن أبي خالد يعرض أصحابه منصرفه من عسكره إلى بغداد، إذ وَرَدَ عليه كتاب الحسن بن سهل يعلمه أن أمير المؤمنين قد جعل علي بن موسى ولي عهده من بعده، وأنه نظر في بني العباس وبني علي، فلم يجد أفضل، ولا أورع، ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد [ﷺ]، وأمره بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة.

وذلك في شهر رمضان[٣] من سنة إحدى ومائتين، ويأمره أن يأمر من قبله من أصحابه والجند [والقواد][٤] وبني هاشم بالبيعة له، وأن يأخذهم بلبس الخضرة [من] أقنعتهم، وقلانسهم، وأعلامهم ويأخذ أهل بغداد [جميعاً] بذلك. فلما أتى عيسى ذلك، دعا أهل بغداد إلى ذلك، على أن يجعل لهم رزق شهرين، والباقي إذا أدركت الغلة[٥] فقال بعضهم: لا نبايع ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من قِبل الفضل بن سهل.

وغضب بنو العباس ومشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: نولي بعضنا ونخلع المأمون، وكان المتكلم في هذا والساعي له المنصور وإبراهيم بن المهدي.

وفي هذه السنة: بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة، وخلعوا المأمون.

ذكر السبب في ذلك

قد ذكرنا ما أنكر العباسيون ببغداد على المأمون حتى أخرجوا الحسن بن سهل عن بغداد.

---

(١) زيادة يقتضيها الأدب عند ذكر رسول الله ﷺ وإعمالاً لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ وقوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

(٢) في المخطوط: أمره. وهو تحريف.

(٣) في الكامل: وذلك لليلتين خلتا من شهر رمضان. . .

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط على هذا السياق: على شهرين والباقي إذا ذلك على أن يجعل لهم رزق شهرين والباقي إذا أدركت الغلة. فحذفت المكرر.

فلما ورد أمره بالبيعة لابن موسى، ولبس الخضرة، وأخذ الناس به، أرادوا أن يبايعوا إبراهيم بالخلافة(١)، فخلعوا المأمون، وبذلوا للجند عشرة دنانير لكل واحد منهم.

فاضطرب الناس، وأقبل بعضهم ورضي، وأبى قوم وامتنعوا.

فاجتمعوا، وأمروا رجلاً يقول يوم الجمعة حين يؤذن المؤذن: إنَّا نريد أن ندعوا للمأمون ومَن بعده إبراهيم يكون خليفته والنائب عنه.

ودسُّوا قوماً آخرين يقولون إذا قام هذا الرجل وقال ما عنده: لا نرضى أن تبايعوا لإبراهيم بالخلافة وتخلّصوا المأمون، أتريدون أن تأخذوا أموالنا كما صنع منصور، ثم تجلسوا في بيوتكم؟!

فقال يوم الجمعة هذا الرجل ما وصُّوا به، وقام الآخر وقال ما وصُّوا به، وماج الناس ولم يصلُّوا تلك الجمعة، ولا خطب أحد، وإنما صلّى الناس بعدما خشوا الفوت أربع ركعات، وانصرفوا، [وكان ذلك لليلتين بقيتا من ذي الحجة من السنة](٢).

وفي هذه السنة: تحرك بابك الخُرَّمِيّ في الجاويدانية أصحاب جاويدان بن سهل، صاحب البذ(٣)، وادّعى أن روح جاويدان دخلت فيه، وأخذ في العيث والفساد(٤).

(١) في الكامل: لخمس بقين من ذي الحجة.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) البذ: كورة من كور أذربيجان.
(٤) زاد ابن الأثير في ذلك الخبر فشرح بعضه، فقال:
وتفسير جاويدان: الدائم الباقي.
ومعنى خُرَّم: فَرَح.
وهي مقالات المجوس، والرجل منهم ينكح أمه، وأخته وابنته، ولهذا يسمون دِينَ الفَرَحِ، ويعتقدون مذهب التناسخ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره.
وزاد ابن الأثير في أحداث هذه السنة فقال:
وفي هذه السنة: افتتح عبد الله بن خرداذبه والي طبرستان اللارز، والشيرز من بلاد الديلم، وافتتح بلاد طبرستان، فأنزل شهريار بن شروين عنها.
وأشخص مازيار بن قارن إلى المأمون.
وأسر أبا ليلى ملك الديلم.
وفي هذه السنة سادس ذي الحجة: توفي أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وكانت إمارته خمس سنين ونحو شهرين.
وكان سبب موته: أنه حَدَّد على كل فدَّان في عمله ثمانية عشر دينار كل سنة، فضاق الناس لذلك وشكى بعضهم إلى بعض.
فتقدّم إليه رجل من الصالحين اسمه حفص بن عمر الجزري مع رجال من الصالحين، فنهوه عن ذلك ووعظوه، وخوّفوه العذاب في الآخرة، وسوء الذكر في الدنيا، وزوال النعمة، فإن =

....

= الله تعالى اسمه وجلّ ثناؤه لا ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

فلم يجبهم أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية المذكور إلى ما طلبوه، وخرجوا من عنده إلى القيروان.

فقال لهم حفص: لو أننا نتوضأ للصلاة ونصلي ونسأل الله تعالى أن يخفف عن الناس، ففعلوا ذلك.

فما لبث إلاّ خمسة أيام حتى خرجت قرحة تحت أذنه، فلم ينشب أن مات منها.

وكان من أجمل أهل زمانه، ولما مات ولي بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم، وبقي أميراً رخيّ البال وادعاً والدنيا عنده آمنة.

ثم جهّز جيشاً في أسطول البحر، وكان مراكب كثيرة إلى سردانية ـ وهي الروم ـ فعطّب بعضها بعد أن غنموا من الروم، وقتلوا كثيراً.

فلما عاد مَن سلم منهم أحسن إليه زيادة الله ووصله.

فلما كان سنة سبع ومائتين خرج عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وجمع جمعاً كثيراً، وحصر مدينة باجة، فسيَّر إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها، وقتلوا مَن وافقه على المخالفة.

وفي سنة ثمانية ومائتين نُقل إلى زيادة الله أن منصور بن نصير الطنبذي يريد المخالفة عليه بتونس، وهو يسعى في ذلك، ويكاتب الجند.

فلما تحقق سيَّر إليه قائداً اسمه محمد بن حمزة في ثلاثمائة فارس، وأمره أن يخفي خبره، ويجدّ السير إلى تونس، فلا يشعر به منصور حتى يأخذه فيحمله إليه.

فسار محمد، ودخل تونس، فلم يجد منصوراً بها، كان قد توجّه إلى قصره بطنبذة، فأرسل إليه محمد قاض تونس، ومعه أربعون شيخاً يقبحون له الخلاف، وينهونه عنه، ويأمرونه بالطاعة.

فساروا إليه واجتمعوا به، وذكروا له ذلك.

فقال منصور: ما خالفت طاعة الأمير وأنا سائر معكم إلى محمد، ومَن معه إلى الأمير، ولكن أقيموا معي يومنا هذا حتى نعمل له ولمَن معه ضيافة.

فأقاموا عنده، وسيَّر منصور لمحمد ولمَن معه الإقامة الحسنة الكثيرة من الغنم، والبقر، وغير ذلك من أنواع ما يؤكل.

فكتب إليه يقول: إنني صائر إليك مع القاضي والجماعة.

فركن محمد إلى ذلك، وأمر بالغنم فذُبحت، وأكل هو ومَن معه، وشربوا الخمر.

فلما أمسى منصور سجن القاضي ومَن معه، وسار مجدًا فيمن عنده مَن أصحابه سِرًا إلى تونس، فدخلوا دار الصناعة، وفيها محمد وأصحابه، فأمر بالطبول فضربت، وكبّر هو وأصحابه، فوثب محمد وأصحابه إلى سلاحهم وقد عمل فيهم الشراب، وأحاط بهم منصور ومَن معه، وأقبلت العامة من كل مكان فرجموهم بالحجارة، واقتتلوا عامة الليل.

فقتل مَن كان مع محمد، ولم يسلم منهم إلا مَن نجا إلى البحر، فسبح حتى تخلّص، وذلك في صفر.

وأصبح منصور، فاجتمع عليه الجند وقالوا: نحن لا نثق بك، ولا نأمن أن يخليك زيادة الله، ويستميلك بدنياه، فتميل إليه، فإن أحببت أن نكون معك، فاقتل أحداً من أهله ممن عندك.

فأحضر إسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقال ـ وهو من أهل زيادة الله ـ فكان هو العامل على تونس، فلما حضر أمر بقتله.

فلما سمع زيادة الله الخبر، سَيَّر جيشاً كثيفاً واستعمل عليهم غلبون، واسمه الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهو وزير زيادة الله إلى منصور الطنبذي، فلما ودّعهم زيادة الله تهدّدهم

....

بالقتل إن انهزموا.
فلما وصلوا إلى تونس، خرج إليهم منصور فقاتلهم، فانهزم جيش زيادة الله عاشر زيادة الله.
فقال القوّاد الذين فيه لغلبون: لا نأمن زيادة الله على أنفسنا، فإن أخذت لنا أماناً حضرنا عنده، وفارقوه، واستولوا على عدة مدن، فأخذوها، منها: باجة، والجزيرة، وصطفورة، ومنير، والأربس وغيرها، فاضطربت إفريقية، واجتمع الجند كلهم إلى منصور، وأطاعوه لسوء سيرة زيادة الله.
فلما كثر جمع منصور، وسار إلى القيروان، فحضرها في جمادى الأولى، وخندق على نفسه، وكان بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة، وعَمَّرَ منصور سور القيروان، فوالاه أهلها، فبقي الحصار عليه أربعين يوماً.
ثم إن زيادة الله عبّى أصحابه وجمعهم وسار معهم الفارس والراكب، فكانوا خلقاً كثيراً، فلما رآهم منصور راعه ما رأى وهاله، ولم يكن يعرف ذلك من زيادة الله لما كان فيه من الوهن.
فزحف منصور إليه بنفسه أيضاً، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم منصور ومَن معه، ومضوا هاربين، وقتل منهم خلق كثير، وذلك منتصف جمادى الآخرة.
وأمر زيادة الله أن ينتقم من أهل القيروان بما جنوه من مساعدة منصور، والقتال معه وبما تقدّم أولاً من مساعدة عمران بن مجالد، لما قاتل أباه إبراهيم بن الأغلب، فمنعه أهل العلم والدين، فكفّ عنه، وخرب سور القيروان.
ولما انهزم منصور، فارقه كثير من أصحابه الذين ساروا معهم منهم عامر بن نافع، وعبد السلام بن المفرج إلى البلاد التي تغلّبوا عليها.
ثم إن زيادة الله سيَّر جيشاً سنة تسع ومائتين إلى مدينة سبيبة، واستعمل عليهم محمد بن عبد الله بن الأغلب، وكان بها جمع من الجند الذين صاروا مع المنصور عليهم عمر بن نافع فالتقوا في العشرين من المحرم، واقتتلوا فانهزم ابن الأغلب، وعاد هو ومَن معه إلى القيروان، فعظم الأمر على زيادة الله، وجمع الرجال وبذل الأموال، وكان عيال الجند الذين مع منصور بالقيروان، فلم يعرض لهم زيادة الله.
فقال الجند لمنصور: الرأي أن تحتال في نقل العيال من القيروان لنأمن عليهم.
فسار بهم منصور إلى القيروان.
وحصر زيادة الله ستة عشر يوماً، ولم يكن منهم قتال.
وأخرج الجند نساءهم وأولادهم من القيروان وانصرف منصور إلى تونس، ولم يبقَ بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلاّ قابس والساحل، ونفزاوة، وطرابلس، فإنهم تمسَّكوا بطاعته.
وأرسل الجند إلى زيادة الله: أن ارحل عنا وخلِّ إفريقية، ولك الأمان على نفسك ومالك، وما ضمّه قصرك.
فضاق به وغمّه الأمر، فقال له سفيان بن سوادة: مكِّنِّي من عسكرك لأختار منهم مائتي فارس، وأسير بهم إلى نفزاوة، فقد بلغني أن عامر بن نافع يريد قصدهم، فإن ظفرت كان الذي تحب، وإن تكن الأخرى عملت برأيك.
فأمره بذلك، فأخذ مائتي فارس وسار إلى نفزاوة، فدعا برابرها إلى نصرته، فأجابوا، وسارعوا إليه.
وأقبل عامر بن نافع في العسكر إليهم، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عامر ومَن معه، وكثر القتل فيهم.
ورجع عامر إلى قسطيلية فجبى أموالها، ليلاً ونهاراً في ثلاثة أيام، وسار عنها، واستخلف عليها مَن يضبطها، فهرب أيضاً خوفاً من أهلها، فأرسل أهل قسطيلية إلى ابن سوادة وسألوه أن يجيء إليهم، فسار إليهم وملك قسطيلية وضبطها.

ودخلت سنة اثنتين ومائتين

[وفيها][(١)]: لما كان يوم الجمعة لخمس خلون من المحرم[(٢)] أظهروا أمر إبراهيم، وصعد إبراهيم على المنبر.

وكان أول مَن بايعه عبيد الله بن العباس بن محمد بن منصور بن المهدي، ثم سائر بني هاشم.

وكان المتولي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، وقام في ذلك السندي، وصالح صاحب المصلى، وسحاب، ونصير الوصيف، وسائر الموالي. إلاّ أن هؤلاء كانوا الرؤساء غضباً منهم على المأمون حين أراد خروج[(٣)] ولد العباس من الخلافة، ولتركه لباس آبائه.

ولما فرغ من ذلك وعد الجند أن يعطيهم أرزاقهم لستة أشهر، فدافعهم بها.

فلما رأوا ذلك شغبوا عليه، فأعطى كل رجل منهم مائتي درهم، وكتب لبعضهم إلى السواد بقيمة ماله حنطة وشعيراً.

فخرجوا في قبضها، فلم يمروا بشيء إلا انتهبوا، وأخذوا النصيبين جميعاً.

وخرج على إبراهيم بن المهدي، مهدي بن علوان الحروري[(٤)]، فحكم وظهر بمروج سابور وغلب علي والراذانين.

فوجه إبراهيم إليه أبا إسحاق بن الرشيد [وهو المعتصم، في جماعة من القواد، و][(٥)]غلمان له أتراك، فلقوا الشراة، فطعن رجل من الأعراب أبا إسحاق، فحامى عنه غلام تركي وقال [٨٤/ب] له: يا مولاي مُرْ أشناس.

وقد قيل: إن هذه الحوادث مذكورة سنة ثمان وتسع ومائتين.
إنما كانت سنة تسع وعشر ومائتين.
وفي هذه السنة:
مات محمد بن محمد، صاحب أبي السرايا.
وفيها: أصاب أهل خراسان، وأصبهان والري مجاعة شديدة، وكثر الموت فيهم.
وحجّ بالناس هذه السنة: إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

(١) زيادة تصنيفية دأب عليها المؤلف.
(٢) في الكامل: في هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة، ولقبوه المبارك، وكانت بيعته أول يوم من المحرم، وقيل: خامسه، وخلعوا المأمون.
(٣) في المخطوط: الخروج. وهو تحريف.
(٤) في الكامل: وقيل: كان خروج مهدي سنة ثلاث ومائتين.
(٥) زيادة من الكامل.

فسماه يومئذ أشناس.

وأنفذ الحسن بن سهل العباس بن موسى بن جعفر ـ وهو أخو علي بن موسى الرضا ـ إلى الكوفة، وأمره لباس الخضرة، وأن يدعو أولاً للمأمون ومن بعده لأخيه علي بن موسى الرضا، وأعانه بمائة ألف درهم.

وقال له: قاتل عن أخيك، فإن أهل الكوفة تقلده الأمر وقيامه بإمرة المؤمنين، وخلع المأمون.

ونفذت الكتب من جهة الحسن بن سهل بما رآه المأمون، وكثر الخلاف.

وكانت لهم أخبار لا يليق ذكرها بهذا الكتاب، إذ كانت قتالاً شديداً لا تجرة فيها، وحروباً يقتل فيها بعض الناس بعضاً من غير نذير لطيف ولا مكر بديع، وإنما كان مغالبات بالسيوف، فمرة يكون لهؤلاء، [ومرة يكون لهؤلاء](١).

فلما بلغ خبر العباس بن موسى بن جعفر العلوي الكوفة، أجابه قوم كثيرون.

وقال قوم آخرون: إن كنت إنما تدعو إلى المأمون، ثم من بعده لأخيك، فلا حاجة لنا في دعوتك.

وإن كنت تدعو إلى أخيك أو إلى نفسك أجبناك.

فقال: إنما أدعو إلى المأمون، ثم من بعده لأخي.

فقعد عنه المتبصّرون في التشيُّع، وكان ظهر أن حميداً نائبه، ويعينه ويقوّيه، وأن الحسن بن سهل يوجه إليه قوماً مدداً له، فلم يأته منهم أحد(٢).

وتوجه إليه أصحاب إبراهيم بن المهدي فهزموه وكان كل فريق من أصحاب الخضرة والسواد ينهبون، ويحرقون.

ثم أمر إبراهيم بن المهدي عيسى بن محمد بن أبي خالد أن يسير إلى ناحية واسط على طريق النيل.

وأمر جماعة أن يسيروا مما يلي حوضي، حتى عسكروا قرب مما يلي السيادة، وعليها عيسى بن محمد بن أبي خالد، فتحصّن بهم الحسن بن سهل، وكان لا يخرج إليهم، ثم تهيأ بعد أيام الحسن للقتال، فظنّ الناس أن ذلك لنظره في النجوم.

ثم اختار يوماً فخرجوا إليه، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى الظهر.

ووقعت الهزيمة على عيسى، وأصحابه، فانهزموا فأخذ أصحاب الحسن جميع ما

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) تكرر في المخطوط قوله: «يوجه إليه قوماً مدداً له فلم يأته منهم أحد». فحذفت التكرر.

كان في عسكرهم من سلاح ومتاع، ودواب وغير ذلك.

وفي هذه السنة: ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوعي فحبسه وعاقبه.

ذكر السبب في ذلك

أن عيسى لما انهزم أقبل هو وإخوته وأصحابه نحو سهل بن سلامة لأنه كان يذكرهم بأسوأ أعمالهم، ويسمِّيهم الفسّاق ليس لهم عنده اسم غيره، وكان أصحابه الذين بايعوه على الكتاب والسنّة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد عمل كل رجل منهم على باب داره برجاً بجص وآجر، وقد نصب عليه السلاح والمصاحف حتى بلغوا من الحربية إلى باب الشام. . .[1] مَن أجاب من الكرخ وسائر الناس.

فلما قصده عيسى لم يمكنه الوصول إليه، فأعطى أصحاب الدور التي تقرب منه الألف درهم على أن يتنحُوا له عن الدروب، فأجابوا إلى ذلك.

وكان يصيب الرجل الدرهم والدرهمان ونحو ذلك.

فلما كان يوم السبت لخمس بقين من شعبان تهيؤوا من كل وجه، وخذله أهل الدروب حتى وصلوا إليه، فاختفى منهم وألقى سلاحه، واختلط ودخل بين النساء، فدخلوا منزله، فلم يظفروا به، وأذكوا عليه العيون، فلما كان في الليل أخذوه في بعض الأزقة، فأتوا به إسحاق بن موسى الهادي، وهو ولي عهد عمه إبراهيم، وهو بمدينة السلام، فكلّمه وحاجّه، وجمع بينه وبين أصحابه وقال له: خرّجت علينا الناس، وعبت أمرنا.

فقال له: إنما كانت دعوى عباسية، وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنّة، وأنا على ما كنت عليه أدعوكم إليه الساعة.

فقالوا: لا نقبل ما تقول، اخرج إلى الناس وقال لهم: إن ما كنت أدعوكم إليه باطل.

فقال: نعم.

فخرج إلى الناس فقال: يا معشر الناس قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنّة، وأنا أدعوكم إليه الساعة.

فلما قال لهم هذا، وجأوا في عنقه، وضربوا وجهه.

فقال لهم: يا معشر الحربية، المغرور مَن غررتموه.

(١) كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط.

فأخذوه ودخلوا به إلى إسحاق فقيده ثم أخرجوه إلى إبراهيم بن المهدي بالمدائن فحبسه مع قوم من أصحابه، وأشاعوا أن عيسى قتله تخوُّفاً من الناس أن يعلموا بمكانه فيخرجوه.

وكان بين خروجه وبين أخذه اثنتي عشر شهراً.

وفي هذه السنة: سار المأمون من مرو يريد العراق.

السبب في ذلك: أن علي بن موسى بن جعفر الرضى أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه محمد، وربما كان الفضل بن سهل يستره(١) عنه من أخبار الناس، وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، وإنما صيَّروه أميراً يقوم بأمره على ما كان أخبره به الفضل.

فأعلمه أن الفضل قد كذّبه وغشّه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم، والحسن، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه [الفضل ومكاني](٢) ومكان بيعتي من بعدك.

فقال: ومَن يعلم هذا؟

قال: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وعدة من وجوه أهل العسكر، فقال له: أدخلهم عَلَيّ حتى أسألهم عما ذكرت.

فأدخلهم عليه، وهم هؤلاء وجماعة آخرون فيهم علي بن أبي سعيد، وهو ابن أخت الفضل.

فسألهم المأمون عما أخبره به علي بن موسى الرضى.

فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل أن لا يعرض لهم.

فضمن ذلك لهم، فكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطه ودفعه إليه.

فأخبروه بما فيه الناس من الفتن [٨٥/أ] وبيَّنوا له ذلك، وأخبروه بغضب أهل بيته وقوّاده، في أشياء كثيرة، وبما موّه عليه الفضل من هرثمة، وأن هرثمة إنما جاء لنصحه وليبين له يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ومن أهل بيته، [وأن](٣) الفضل دَسّ إلى هرثمة مَن قتله، حين أراد نصحه.

وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى، وافتتح وقاد إليه الخلافة من يومه، حتى إذا وطأ له الأمر أخرج من ذلك كله، وصير في راوية الأرض بالرقة، وقد

---

(١) في المخطوط: يسيِّره. وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.

قترت عليه الأموال حتى ضعف أمره، وشغب عليه جنده، ولو أنه كان خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترىء عليه بمثل ما اجتُرِىء عليه من الحسن بن سهل.

وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها، وأن طاهر بن الحسين قد. . . .[١] شيء في هذه السنين منذ قتل محمد وهو بالرقة لا يستعان به في شيء من هذه الحروب.

وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد، وقالوا: إن بني هاشم، والموالي، والقوّاد، لو قد رأوا غرتك سكنوا ولخضعوا بالطاعة لك.

فلما تحقق ذلك عنده أمر بالرحيل إلى بغداد.

فلما أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض أمرهم فتعقّبهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً، ونتف لحى [بعض][٢].

فعاوده علي بن موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم.

فقال: إني أداري أمري وسأبلغ ما فيه الصلاح بمشيئة الله.

ثم ارتحل من مرو، فلما أتى سرخس، وثب[٣] قوم على ابن سهل وهو في الحمام فضربوه حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة اثنتين ومائتين، وكان الذين قتلوه أربعة نفر من حشم المأمون: غالب بن الأسود المسعودي، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلبي[٤].

وقتل الفضل وله ستون سنة، وهربوا، فبعث المأمون في طلبهم، وجعل لمَن جاء بهم عشرة آلاف دينار.

فجيء بهم[٥]، فسألهم المأمون.

فقال بعضهم: إن علي بن سعيد ابن أخت الفضل دسهم [عليه][٦].

ومنهم مَن أنكر[٧].

وقد حكي أن منهم مَن قال: أنت أمرتنا بقتله.

فأمر المأمون بهم، فضربت أعناقهم.

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة بالمخطوط وهي من حرفين.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في المخطوط الكلمة غير تامة الحروف والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: الصلبي. والتصويب من الكامل.
(٥) في الكامل: فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينوري.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) في المخطوط: افكر. والتصويب من الكامل.

ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران، وعلي بن مؤنس، وغيرهم ممن كانوا سعوا بالفضل إليه، فسألهم، فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل منهم، وأمر بهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل إلى واسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيّره[١] مكانه، [فوصله الخبر في رمضان][٢].

ورحل المأمون من سرخس نحو العراق[٣]، وقد كان المطلب بن عبد الله [ابن][٤] مالك يدعو في السر إلى المأمون، وإلى خلع إبراهيم على أن منصور بن المهدي خليفة المأمون، فأجابه منصور، وخزيمة، وجماعة من القوّاد، وكاتب المطلب حميداً، وعلي بن هشام أن يقدما.

فينزل حميد بصرصر، وعلي بالنهروان.

وتحقق عند إبراهيم الخبر، فخرج من المدائن نحو بغداد[٥]، وطلب المطلب [فمنعه][٦] أصحابه، فامتنع المطلب.

فنادى [منادي إبراهيم][٧]: مَن أراد النهب فليأتِ دار المطلب.

فانتهبوا داره، ودور أهل بيته، ولم يظفر به[٨].

وبلغ الخبر حميداً، وابن هشام.

فأما حميد: فبعث من جهته مَن أخذ المدائن وقطع الجسر، ونزلها.

وأما علي بن هشام: فبعث من جهته مَن أتى نهروان وقطع الجسر.

[وندم إبراهيم حيث صنع بالمطلب ما صنع، ثم لم يظفر به][٩].

---

(١) في المخطوط: صيرت. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) بعد هذا في الكامل: فكان إبراهيم بن المهدي، وعيسى وغيرهما بالمدائن، وكان أبو البط، وسعيد بالنيل يراوحون القتال ويغادونه، وكان المطلب بن عبد الله بن مالك قد عاد من المدائن، فاعتلّ بأنه مريض، فأتى بغداد وجعل يدعو في السر إلى المأمون...
(٤) سقط من السياق وأثبته من الكامل.
(٥) بعد هذا في الكامل: فنزل زندورد منتصف صفر.
(٦) زيادة يتطلبها السياق.
(٧) زيادة من الكامل.
(٨) في الكامل: وذلك لثلاث عشرة بقيت من صفر.
(٩) زيادة من الكامل.
ثم إن ابن الأثير زاد في أحداث تلك السنة أحداثاً أخرى فقال:
وفي هذه السنة: قتل علي بن الحسين الهمداني وأخوه أحمد وجماعة من أهل بيته، وكان متغلباً على الموصل.
وسبب قتله: أنه خرج ومعه جماعة من قومه، ومن الأزد، فلما نظر إلى رستاق نينوى والمرج =

ودخلت سنة ثلاث ومائتين

وفي هذه السنة: مات علي بن موسى الرضا بطوس.

ذكر الخبر عن ذلك

لما سار إليها المأمون أقام عند قبر أبيه أياماً، ثم إن علي بن موسى على ما حُكي أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة، فأمر به المأمون فدُفن عند قبر الرشيد[١].

وكتب إلى الحسن بن سهل بذلك وإلى وجوه بني[٢] العباس، والموالي يعلمهم[٣] أنهم إنما نقموا بيعته من بعده، ويسألهم الدخول في طاعته[٤].

ودخل المأمون إلى بغداد، فلما سار إلى الري أسقط طبقتها إلى ألفي ألف درهم[٥].

= قال: نِعَم البلاد لإنسان واحد.
فقال بعض الأزد: فما نصنع نحن؟
قال: تلحقون بعمان.
فانتشر الخبر أن عليًا أخذ رجلاً من الأزد يقال له: عون بن جبلة فبنى عليه حائطاً، فمات فيه، وظهر خبره.
فركب الأزد وعليهم السيد ابن أنس، فاقتتلوا واستنصر علي بن الحسين بخارجي يقال له: مهدي بن علوان، فأتاه، فدخل البلد، وصلّى بالناس ودعا لنفسه، واشتدت الحرب، وكانت أخيراً عَلَى عَلِيّ بن الحسين، وأصحابه، فخرجوا عن البلد إلى الحديثة، فتبعهم الأزد إليها، فقتلوا عليًا، وأخاه أحمد، وجماعة من أهلهما، وسار أخوهما محمد إلى بغداد فنجا، وعادت الأزد إلى الموصل، وغلب السيد عليها، وخطب للمأمون وأطاعه.
وفيها: تزوّج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل.
وفيها أيضاً: زوَّج المأمون ابنته أم حبيب من علي بن موسى الرضا.
وزوَّج ابنته أم الفضل من محمد بن علي الرضا بن موسى.
وحجّ بالناس هذه السنة: إبراهيم بن موسى بن جعفر، ودعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد، ومضى إلى اليمن.
وكان حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان قد غلب على اليمن.
وفيها في ربيع الآخر: ظهرت حمرة في السماء ليلة السبت رابع عشر ربيع الآخر، وبقيت إلى آخر الليل، وذهبت الحُمرة، وبقي عمودان أحمران إلى الصبح.
وفيها: توفي أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي اليزيدي المقرىء صاحب أبي عمرو بن العلاء، وإنما قيل له اليزيدي لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدي، وكان يعلم ولده.
وفيها: توفي والد ذي الرئاستين بعد قتل ابنه بستة أشهر، وعاشت أمه حتى أدركت عرس بوران ابنة ابنها.

(١) في الكامل: وقيل: إن المأمون سَمَّه في عنب، وكان علي يحب العنب، وهذا عندي بعيد.
(٢) في المخطوط: أبي، وهو تحريف والصواب ما هو في الكامل والذي عنه صحّت.
(٣) في المخطوط: بعروهم. والتصويب من الكامل.
(٤) جاء بعد ذلك في الكامل: فكتبوا إليه أغلظ جواب.
(٥) بعد هذا في الكامل: وكان مولد علي بن موسى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة.

وفي هذه السنة: غلبت السواد على الحسن بن سهل حتى شُدَّ في الحديد وحُبس، وكتب بذلك قواد الحسن إلى المأمون.

فأتاهم الجواب:

أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله ويُعلم أنه قادم على أثر كتابه.

وفي هذه السنة[١]: ضرب إبراهيم بن المهدي عيسى بن أبي خالد، وحبسه.

ذكر السبب في ذلك

كان عيسى بن محمد يكاتب حميداً والحسن ويظهر لإبراهيم طاعته ونصيحته.

وكلما قال له إبراهيم: تهيأ لقتال أحمد[٢]، تعلّل عليه بأرزاق الجند[٣]، وأشباه ذلك حتى وافق الحسن وحميداً على أن يسلم إبراهيم إليهم يوم الجمعة المدينة انسلاخ شوال.

وسعى بعيسى بعض[٤] أهله إلى إبراهيم، وكان عيسى سأل إبراهيم أن يصلي الجمعة بالمدينة، فأجابه إلى ذلك.

فلما تكلم عيسى بما بلغه، وسعى إليه، حذر، وبعث إلى عيسى يماله أن يسير إليه ليناظره في بعض أموره.

فلما سار إليه عاتبه[٥] ساعة، فأخذ عيسى ينكر بعض ما يقول، فلما وافقه على أشياء وعلامات أمر به فضُرب وحُبس، وأخذ أم ولد وصبياناً صغاراً فحبسهم[٦]، وطلب خليفة له يقال له: العباس، فاختفى.

فلما عرف أهل بيت عيسى وإخوته، وأصحابه خبره مشى بعضهم إلى بعض، وحرَّضوا الناس على إبراهيم، فاجتمعوا، وكان رأسهم العباس خليفته، فشدُّوا على عامل إبراهيم على الجسر، وطردوا كل عامل لإبراهيم في الكرخ وغيره في الجانب الغربي.

وكتب العباس إلى حميد يسأله أن يقدم عليهم حتى يسلِّموا إليه بغداد.

فجاء حميد حتى نزل صرصر طريق الكوفة، وخرج إليه قواد أهل بغداد [٨٥/ب] فوعدهم ومَنَّاهم.

---

(١) في الكامل بعد هذا: في آخر شوال.

(٢) في المخطوط: إبراهيم، وهو سهو، والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: الحد، والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: يعصي. وهو تحريف.

(٥) في المخطوط: علبته. والتصويب من الكامل.

(٦) في المخطوط فجلسهم. وهو تحريف.

فقبلوا ذلك منه[١]، ووعدهم أن يضع لهم العطاء [يوم السبت][٢] في الياسرية على أن يصلوا يوم الجمعة فيدعوا للمأمون، ويخلعوا إبراهيم، فأجابوه إلى ذلك.

فبلغ ذلك إبراهيم، أخرج[٣] عيسى من الحبس، وسأله أن يكفيه أمر هذا الجانب وأخذ منه كفيلاً.

فعبر إليهم عيسى وإخوته مع قواد الجانب الشرقي، وعرض عليهم العطاء، فشتموه وقالوا: لا نرضى إبراهيم، ثم تكاثر الناس على عيسى فانصرف نحو باب خراسان، ثم رجع عيسى كأنه يريد قتالهم، واحتال حتى صار في أيديهم شبه الأسير، فأخذه بعض قواده، فأتى به منزله، ورجع الباقون إلى إبراهيم[٤] [فأخبروه الخبر فاغتمّ لذلك][٥].

ثم كان المطلب متستراً وظهر ليلحق بحميد فغمز به، فأخذ وحمل إلى إبراهيم فحبسه ثم عرف انحراف الأمر فأطلقه، وأطلق سهل بن سلامة ـ وكان عند الناس أنه مقتول ـ.

فلما دخل حميد بغداد أخرجه إبراهيم، فكان يدعو في مسجد الرصافة كما كان يدعو، فإذا كان الليل رده إلى حبسه.

فلما كان بعد أيام خلّى سبيله، فذهب واستتر، وكثر العبث ببغداد، وظهر الشطار، والعيارون، واختفى الفضل بن الربيع، وأخذ القواد، وبنو هاشم ثم يلحقون بجميل واحداً واحداً.

فسقط في يد إبراهيم وشتى عليه مداراة أمره.

ذكر الخبر عن هرب إبراهيم ابن المهدي واستتاره

وأخذ إبراهيم يداري أصحابه يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين.

فلما جنَّه الليل هرب واستتر، وبعث المطلب إلى حميد:

إني قد أحدقت بدار إبراهيم.

وكتب إلى علي بن هشام بمثل ذلك، فأقبلوا إلى إبراهيم فطلبوه فيها، فلم يجدوه.

---

(١) في الكامل: وكانوا قد شرطوا عليه أن يعطي كل جندي خمسين درهماً.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: فخرج، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: إلى إبراهيم فحبـ. بهذا الرسم.
وهو تحريف أو سهو والتصويب فيما بعده من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.

ولم يزل إبراهيم متوارياً حتى قدم المأمون، وكان من أمره ما كان، وكانت أيامه كلها سنة واحدة وإحدى عشر شهراً، واثني عشر يوماً.

وغلب علي بن هشام على شرقي بغداد، وحميد بن عبد الحميد على غربيها(١).

ودخلت سنة أربع ومائتين

وفيها: قدم المأمون العراق، وانقطعت مواد الفتن(٢) ببغداد.

ذكر الخبر عن ذلك

لما سار المأمون إلى النهروان أقام ثمانية أيام وخرج إليه أهل بيته، وقوّاده، ووجوه الناس، كان كتب إلى طاهر بالرقة أن يوافيه إلى النهروان.

فوافاه بها(٣)، ثم دخل مدينة السلام، ولباس أصحابه وأقبيتهم وقلانسهم وطرزهم وأعلامهم كلها الخضرة، وطاهر معهم(٤).

---

(١) زاد صاحب الكامل في أحداث تلك السنة ما يلي، فقال:
وفي هذه السنة: انكسفت الشمس لليلتين بقيتا من ذي الحجة حتى ذهب ضوءها، وغاب أكثر من ثلثيها.
ووصل المأمون إلى همذان في آخر ذي الحجة.
وحجّ بالناس: سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.
وكانت بخراسان زلازل عظيمة دامت مقدار سبعين يوماً، وكان معظمها ببلخ والجوزجان، والفارياب، والطالقان، وما وراء النهر، فخربت البلاد وتهدمت الدور، وهلك فيها خلق كثير.
وفيها: ظهر بالأندلس رجل يُعرف بالولد، وخالف على صاحبها فصيَّر إليه جيشاً، فحصروه بمدينة باجة، وكان استولى عليها فضيَّقوا عليه فملكوها وقيِّد.
وفيها: ولي أسد بن الفرات الفقيه القضاء بالقيروان.
وفيها: توفي محمد بن جعفر الصادق بجرجان، وصلّى عليه المأمون ـ وهو الذي بايعه الناس بالخلافة بالحجاز ـ.
وفيها: خزيمة بن خازم التميمي في شعبان، وهو من القواد المشهورين، وقد تقدّم من أخباره ما يعرف به محله.
ويحيى بن آدم بن سليمان، وأبو أحمد الزبيري.
ومحمد بن بشير العبدي الفقيه بالكوفة.
والنضر بن شميل اللغوي المحدث، وكان ثقة.

(٢) بعد هذا بالكامل: وكان قد أقام بجرجان شهراً وجعل يقيم بالمنزل اليوم واليومين والثلاثة.

(٣) بعدها في الكامل: ودخل بغداد منتصف صفر.

(٤) بعد هذا في الكامل:
فلما قدم بغداد نزل الرصافة، ثم تحوّل فنزل قصره على شاطىء دجلة، وأمر القواد أن يقيموا في معسكرهم، وكان الناس يدخلون عليه في الثياب الخضر، وكانوا يخرقون كل ملبوس يرونه من السواد على إنسان، فمكثوا بذلك ثمانية أيام، فتكلم بنو العباس، وقواد أهل خراسان، وقيل: إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه فكان أول حاجة سأله أن يلبس السواد. . .

فلم يكن يدخل إليهم أحد من القواد والناس كافة إلاّ في ثياب حضرة مدة.

ثم تكلم في ذلك بنو العباس خاصة، وخاطبوا ابن الحسين وكاتبه أيضاً قواد خراسان.

وكان المأمون أمر طاهراً أن يسأله حوائجه، وكان أول حوائجه أن يرجع إلى لبس السواد وذي دولة الآباء.

فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لباس الخضرة مع كراهتهم لها، جمع الناس، ثم دعا بسواد فلبسه، ودعا بخلعة سوداء، فألبسها طاهراً، ثم دعا لقواده بخلع السواد، وطرح الناس الخضرة[1].

---

(١) زاد ابن الأثير في هذا الخبر فقال:
فعاد الناس إليه، وذلك لسبع بقين من صفر.
ولما كان سائراً قال له أحمد بن أبي خالد الأحول: يا أمير المؤمنين فكرت في هجومنا على أهل بغداد، وليس معنا إلاّ خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت قلوب الناس، فكيف يكون حالنا إذا هاج هائج أو تحرّك متحرك؟
فقال: يا أحمد صدقت، ولكن أخبرك أن الناس على طبقاتٍ ثلاث في هذه المدينة: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم.
فأما الظالم: فلا يتوقع إلا عنونا.
وأما المظلوم: فلا يتوقع إلا أن ينتصف بنا.
وأما الذي ليس بظالم ولا مظلوم فبيته يسعه، وكان الأمر على ما قال.
وفيها: أمر المأمون بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف.
واتخذ القفيز الملحم، وهو عشرة مكاكيك بالمكوك الهاروني كيلاً مرسلاً.
وفيها: واقع يحيى بن معاذ بابك فلم يظفر واحد منهما بصاحبه، وولّى المأمون أبا عيسى أخاه الكوفة، وصالحاً أخاه البصرة، واستعمل عبيد الله بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب الحرمين.
وحجّ بالناس: عبيد الله.
وفيها: انحدر السيد ابن أنس الأزدي من الموصل إلى المأمون، فتظلّم منه محمد بن الحسن بن صالح الهمداني، وذكر أنه قتل إخوته، وأهل بيته، فأحضره المأمون.
فلما حضر قال: أنت السيد؟.
قال: أنت السيد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس، فاستحسن ذلك.
فقال: أنت قتلت إخوة هذا؟
قال: نعم، ولو كان معهم لقتلته لأنهم أدخلوا الخارجي بلدك، وأعلوه على منبرك، وأبطلوا دعوتك. فعفا عنه، واستعمله على الموصل.
وكان على القضاء بها الحسن بن موسى الأشيب.
وفي هذه السنة: مات الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وكان مولده سنة خمسين ومائة، والحسن بن زياد اللؤلؤي الفقيه أحد أصحاب أبي حنيفة.
وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند، ومولده سنة ثلاث وثلاثين ومائة.
وهشام بن محمد بن السائب الكلبي النسّابة.
وقيل: مات سنة ست ومائتين.
وفيها: توفي محمد بن عبيد بن أبي أمية، المعروف بالطنافسي.
وقيل: سنة خمس ومائتين.

ودخلت سنة خمس ومائتين

وفيها: ولّى المأمون طاهر بن الحسين من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق.

ذكر السبب في ذلك

كان المأمون ولاّه الجزية والشرط، وجانبي بغداد، ومعادن السواد[١]، فاتفق أن محمد بن أبي العباس ناطق علي بن الهيثم بين يدَي المأمون في التشيُّع، ودار الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي: يا نبطي، ما أنت والكلام.

وكان المأمون متكئاً، فجلس وقال: الشتم في والبذاء لوم، وقد أبحنا[٢] الكلام فمَن قال الحق حمدناه، ومن جميل وفقناه، فاجعلا بينكما أصلاً ترجعان إليه.

فعادا إلى المناظرة، وعاد محمد لعلي بالسَّفَه.

فقال علي: لولا جذالة مجلسه، وما وهب الله تعالى له من رأفته، وما نهى عنه آنفاً لعرفت جيفتك، وكفاك من جهلك غسلك المنبر بالمدينة.

فجلس المأمون وكان متكئاً، فقال: وما غسلك المنبر لتقصير مني في أمرك، إنما[٣] لتقصير المنصور في أمر أبيك، لولا أن الخليفة إذا وهب استحى أن يرجع فيه ولكان أقرب شيء بيني وبينك إلى الأرض رأسك، قم وإياك ما عدت.

فخرج محمد بن [أبي][٤] العباس، ومضى إلى طاهر، وهو زوج أخته، فقال له: كان من قصتي كيت وكيت ـ وكان يحجب المأمون على الشراب فتح الخادم وحسين بسيفه ـ فركب طاهر إلى الدار، ودخل فتح، فاستأذن له.

فقال المأمون: إنه ليس من أوقاته، ولكن ائذن له.

فدخل طاهر فسلّم، فردّ عليه السلام وقال: اسقوه رطلاً، فأخذه في يده اليمنى.

وقال له: اجلس، فجلس وشربه.

ثم شرب المأمون وقال: اسقوه الثاني.

ففعل كفعله الأول، ثم نهض.

فقال له المأمون: اجلس.

---

(١) في الكامل: استعمل المأمون طاهر بن الحسين على المشرق من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق، وكان قبل ذلك يتولّى الشرط بجانبي بغداد، ومعاون السواد.

(٢) في المخطوط: أنجنا. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: لم. وهو تحريف.

(٤) سقط من المخطوط، وهو سهو.

[فقال: ليس لصاحب الشرطة أن يجلس عند سيده.

فقال المأمون: ذلك في][(١)] مجلس العامة، وأما في مجلس الخاصة [فله ذلك][(٢)]

قال: فبكى المأمون، وتغرغرت عيناه [بالدموع][(٣)].

فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين، لا تبكِ عيناك، فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك.

فقال: أبكي لأمر ذكره ذُل، وستره حزن ولن يخلو أحد من شجن، فتكلم بحاجتك التي جئت لها.

فقال: يا أمير المؤمنين، محمد بن أبي العباس أخطأ فقِلْه عثرته، وارضَ عنه.

قال: قد رضيت عنه، وأمرت بصلته، ورددت عليه منزلته [٨٦/أ] ولولا أنه ليس من أهل الأنس لأحضرته.

قال: وانصرف طاهر.

ثم دعا طاهر بهارون بن جيعوية، فقال: إن أهل خراسان يتعصّب بعضهم لبعض وإن لي إليك حاجة، خذ معك ثلاثمائة ألف درهم، فأعطِ الحسين مائتي ألف درهم، وأعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف، وسله أن يسأل المأمون لِمَ بكى.

قال: ففعل ذلك، فلما تغدّى المأمون قال: يا حسين اسقني.

قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لي لِمَ بكيت حين دخل عليك طاهر بن حسين.

[قال][(٤)]: وكيف عنيت بهذا حتى سألتني عنه؟

قال: لغمي بذلك.

قال: يا حسين أمر إن خرج من رأسك قتلتك[(٥)].

قال: يا سيدي ومتى أخرجت لك سرًّا.

قال: إني ذكرت محمداً أخي، وما ناله[(٦)] من الذل فخنقتني العبرة، واسترحت إلى الإفاضة، ولن[(٧)] يفوت طاهر مني ما يكره.

---

(١) سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.

(٢) في المخطوط: فطلق. والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط: قلتك. والتصويب من الكامل.

(٦) في المخطوط: أنا له. والتصويب من الكامل.

(٧) في المخطوط: وإن. والتصويب من الكامل.

فأخبر حسين طاهراً بذلك.

فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد، فقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس بضائع فغيبني عن عينه.

فقال له: سأفعل.

فبكر علي غداً، وركب ابن أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل إليه قال له: ما نمت البارحة.

فقال له: ولِمَ ويحك؟

قال: لأنك وليت خراسان غسان وهو ومَن معه أكلة رأس، وأخاف أن تخرج عليه خارجة من الترك فتصطلمه.

قال: لقد فكرت في ذلك، فمَن ترى؟

قال: طاهر بن الحسين.

قال: ويحك يا أحمد، هو والله خالع.

قال: أنا الضامن له.

قال: فأنفذه.

قال: فدعا طاهراً من ساعته، فعقد له، وأشخصه من ساعته، فنزل من بستان خليل يحمل إليه في كل يوم أقام به مائة ألف، فأقام شهراً، ثم شخص إلى خراسان[(١)].

وكان طاهر استخلف ابنه بالرقة على قتال نصر بن شبث.

ذكر نادرة لكاتب صارت سبباً لإصلاح حاله وحال الكُتَّاب ببغداد

يحكي محمد بن محمد بن زردي المدائني الكاتب قال:

---

(١) في الكامل: فنزل ظاهر البلد، فأقام شهراً فحمل إليه عشرة آلاف ألف درهم التي تحمل لصاحب خراسان، وسار من بغداد لليلة بقيت من ذي القعدة.
ثم ذكر ابن الأثير قول آخر في ولايته فقال: وقيل: كان سبب ولايته أن عبد الرحمٰن المطوعي جمع جموعاً كثيرة بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والي خراسان فتخوّف أن يكون ذلك لأصل عمل عليه.
وكان غسان بن عباد يتولّى خراسان من قِبل الحسن بن سهل ـ وهو ابن عمه ـ فلما استعمل طاهر على خراسان كان صارماً للحسن بن سهل.
وسبب ذلك أن الحسن ندبه لمحاربة نصر بن شبث فقال: حاربت خليفة وسقت الخلافة إلى خليفة، وأؤمر بمثل هذا، إنما كان ينبغي أن يتوجه إليه قائد من قوادي، وصارمه.

كان مخلد يلقب: لبد، لطول عمره فحدثني:

أن المأمون أول ما أقام العراق خطر أن لا يقلد الأعمال إلاّ الشيعة الذين قدموا معه من خراسان.

فطالت عطلة بكتاب السواد وعماله، وكانوا يحضرون دائرة في كل يوم حتى ساءت حال أكثرهم.

فخرج يوماً بعض مشايخ الشيعة وكان مغفلاً فتأمل وجوههم، فلم يرَ فيهم أسن من مخلد، فجلس إليه، ثم قال له: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أتخير ناحية من نواحي الخراج صالحة المرفق ليوقع بتقليدي إياها، فاختر لي أنت ناحية.

فقال: إني[1] لا أعرف لك عملاً أولى من بريدان البحر، وصدقات الوحش، وخراج ويسار.

فقال: اكتبه إليَّ بخطك.

فكتب ذلك بخطه، فذهب الشيعي حتى عرض الرقعة على المأمون وسأله تقليده ذلك العمل.

فقال له: مَن كتب لك هذه الرقعة؟

قال: شيخ من الكتّاب يحضر الدار كل يوم.

قال: هلمه.

فلما دخل قال له المأمون: ما هذا يا جاهل؟ قد بلغ بك الفراغ إلى مثل هذا؟!

فقال: يا أمير المؤمنين أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يحصل استخراجه وصار في أيديهم، فأما شروط الخراج وحكمه وما يجب الاحتساب به، فلا يعرفونه، وتقليدهم يعود بإهاب الارتفاع، فإن كنت يا أمير المؤمنين لا تثق بنا، فمُر بأن يضم إلى كل واحد منهم واحداً من الشيعة، وضمّ مخلد إلى ذلك الشيخ، فقلّده ناحية جليلة.

وفيها: ولّى المأمون عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك[2].

---

(١) في المخطوط: إلى. وهو تحريف.

(٢) زاد ابن الأثير في أحداثها فقال:

وفيها: قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين بغداد من الرقة، وكان أبوه استخلفه بها وأمره بقتال نصر بن شبث، فلما قدم إلى بغداد جعله المأمون على الشرطة بعد مسير أبيه.

وولّى المأمون يحيى بن معاذ الجزيرة.

وفيها: مات السري بن الحكم بمصر، وكان واليها.

وفيها: مات داود بن يزيد عامل السند فولاّها المأمون بشير بن داود على أن يحمل كل سنة =

ودخلت سنة ست ومائتين

وفيها: وَلّى المأمون عبد الله بن طاهر الجزيرة[١] إلى مصر.

ذكر السبب في ذلك

كان يحيى بن معاذ في الجزيرة، فمات في هذه السنة، فدعا المأمون عبد الله بن طاهر، فقال: يا عبد الله، إني أستخير الله عزّ وجل منذ شهر، وأرجو أن يخير الله لي، إن الرجل يصف ابنه[٢] ليطريه لرأيه [فيه][٣] وليرفعه، وقد رأيتك فوق ما وصف أبوك، وقد مات يحيى بن معاذ، واستخلف ابنه، وليس بشيء، وقد رأيت توليتك مصر[٤] ومحاربة نصر بن شبث.

فقال: السمع والطاعة [وأرجو أن يجعل الله][٥] لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين.

فعقد له، وأمر أن يقطع حبال القصّارين عن طريقه، وتنحّى عن الطرقات المطال لئلا يكون في طريقه ما يرد لواءه.

ثم عقد له لواء مكتوب عليه بصفرة ما يكتب على الألوية وزاد فيه: المأمون يا منصور.

فركب إليه الفضل بن الربيع، فأكرمه عبد الله وقال له: لقد تقدّم أبي وأمر إلي أن لا أقطع أمراً دونك، وأحتاج أن أستطلع رأيك، وأستضيء بمشورتك، فأقام عنده إلى الليل، وسأله المبيت، فأبى واعتذر، ومشى معه عبد الله إلى صحن داره وودّعه[٦].

= ألف ألف درهم.

وفيها: ولّى المأمون عيسى بن يزيد الجلوذي محاربة الزط.

وحجّ بالناس: عبيد الله بن الحسن أمير مكة والمدينة.

وفيها: زادت دجلة زيادة عظيمة فتهدّمت المنازل ببغداد وكثر الخراب بها.

وفي هذه السنة: توفي يزيد بن هارون الواسطي، ومولده سنة تسع عشرة ومائة، والحجاج بن محمد الأعور الفقيه، وشبابة بن سوار الفزاري الفقيه، وعبد الله بن نافع الصائغ، ومحاضر بن الموزع، وأبو يحيى إبراهيم بن موسى الزيّات الموصلي سمع هشام بن عروة، وغيره.

(١) في الكامل: الرقة.

(٢) في المخطوط: نصف أبيه. والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في المخطوط: مصر أو محاربة. بالتخيير وهو تحريف زاد فيه الألف فحذفتها والتصويب من الكامل.

(٥) زيادة من الكامل.

(٦) في الكامل: وقيل: كانت ولايته سنة خمس ومائتين. وقيل: سبع ومائتين.

وفي هذه السنة: ولّى عبد الله بن طاهر إسحاق بن إبراهيم [بن الحسين بن مصعب، وهو ابن عمه][1] أمر الجسر، وجعله خليفة على ما كان أبوه طاهر استخلفه فيه من الشرطة، وأعمال بغداد.

وشخص هو إلى الرقة لحرب نصر بن شبث[2].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير في خبر ولاية عبد الله بن طاهر وصية والده له حين تولّى فرأيت من المفيد إثباتها هنا لما تحتوي عليه من الفوائد والعظات على الرغم مما فيها من الطول، فكثيراً ما نطيل نحن فيما ليس من ورائه طال، فلِمَ لا نتركه يطيل فيما عساه أن ينفعنا، فيقول ابن الأثير رحمنا الله وإياه:
ولما استعمله المأمون كتب إليه أبوه طاهر كتاباً جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الأدب، والسياسة وغير ذلك، وقد أثبت منه أحسنه لما فيه من الأدب والحث على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيَم لأنه لا يستغني عنه أحد من مَلِكٍ وسوقه وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:
فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته عزّ وجل، ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك في الليل والنهار، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت سائر إليه وموقوف عليه، ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عزّ وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه، فإن الله سبحانه وتعالى قد أحسن إليك، وأوجب عليك الرأفة بمَن استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم، والدفع عن حريمهم، وبيضتهم والحقن لدمائهم، والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معيشتهم، ومؤاخِذُكَ بما فرض عليك، وموقفك عليه، ومسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت.
ففرِّغ لذلك فهمك وعقلك، ونظرك، ولا يشغلك عنه شاغل، وأنه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله عزّ وجل به لرشدك.
وليكن أول ما تُلزم به نفسك وتنسب إليه أفعالك، المواظبة على ما افترض الله عزّ وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس، فأتِ بها في مواقيتها على سننها وقحط إسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله عزّ وجل فيها، وترَتَّل في قراءتك، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهُّدك، وليصدق فيها رأيك ونيتك، واحضض عليها جماعة مَن معك وتحت يدك، وادأب عليها، فإنها كما قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ، والمثابرة على خلافته، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر، فاستعن عليه باستخارة الله عزّ وجل وتقواه، ولزوم ما أنزل الله عزّ وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ، ثم قم فيه بما يحق للّه عزّ وجل عليك، ولا تمل من العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد.
وآثِر الفقه وأهله والدين وحمَلَته وكتاب الله عزّ وجل والعاملين به فإن أفضل ما تزيَّن به المرء الفقه في الدين والطلب له، والحث عليه، والمعرفة بما يتقرّب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله والقائد له والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها مع توفيق الله عزّ وجل، يزداد العبد معرفة للّه عزّ وجل وإجلالاً له، ودركاً للدرجات العُلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنس بك والثقة بعدلك.
وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه، =

....

= والقصد داعية إلى الرشيد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد وآثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة، ومعالم الرشد، ولا غاية للاستكثار في البر والسعي له إذ كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته وموافقة أوليائه في دار كرامته.
واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وأنه لن تحوط لنفسك ومَن يليك، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتدِ به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك.
وأحسن الظن بالله عزّ وجل تستقيم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره، فإن إيقاع التهم بالبداء والظنون السيئة بهم مأثم، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم يغنك ذلك عن اصطناعهم ورياضتهم، ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك، ويدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك، واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك، والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية، والنظر فيما يقيمها ويصلحها، والنظر في حوائجهم، وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك فإنه أقوم للدين وأحيا للسنّة، وأخلص نيتك في جميع هذا.
وتفرّد بتقويم نفسك تفرُّد مَن يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزي بما أحسن، ومأخوذ بما أساء، فإن الله عزّ وجل جعل الدين حرّزاً وعزًّا، ورفع مَن اتبعه وعزّزه، فاسلك بمَن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى، وأقم حدود الله عزّ وجلٍ في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك، ولا تهاون به، ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك، واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب البدع والشبهات، يسلم لك دينك، وتقم لك مروءتك.
وإذا عاهدت عهداً ففِ به، وإذا وعدت خيراً فأنجزه، واقبل الحسنة، وادفع بها، واغمض عينيك عن عيب كل ذي عيب من رعيتك.
واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وابغض أهله، واقص أهل النميمة، فإن فساد أول أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب، والجراءة على الكذب لأن الكذب رأس المأثم والزور، والنميمة خاتمتها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها ولا يسلم له صاحب، ولا يستقم لمطيعها أمر.
وأحب أهل الصلاح والصدق، وأعن الأشراف بالحق، وأسِ الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله تعالى، وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه، والدار الآخرة، واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك في ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى.
وأملك نفسك عند الغضب، وأظهر الوقار والحلم، وإياك والحِدّة، والطيرة، والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن تقول أنا مسلّط أفعل ما أشاء، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي، وقلة اليقين بالله عزّ وجل، وأخلص للّه وحده لا شريك له النية فيه، واليقين به، واعلم أن الملك للّه سبحانه وتعالى يؤتيه مَن يشاء، وينزعه ممن يشاء، ولن تجد تغيُّر النعمة، وحلول النقمة إلى أحد أسرع منها إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة، إذا كفروا نعم الله عزّ وجل، وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم الله عزّ وجل من فضله، ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفكّر لأمورهم، والحفظ لدهمائهم، والإغاثة لملهوفهم. =

....

= واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم، وكف مؤنة عنهم رَبَتْ وَزَكَتْ، ونَمَتْ، وصلحت به العامة، وتزينت به الولاية، وطاب به الزمان، واعتقد في العز والمنعة، فليكن كنز خزائنك في تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبلك حقوقهم، وأفِ رعيتك من ذلك حصصهم، وتعهَّد ما يُصلح أمورهم ومعاشهم، فإنك إذا فعلت ذلك كرّت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله عزّ وجل، وكنت بذلك على جباية خراجك، وجمع أموال رعيتك، وعملك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك، وأطيب نفساً لكل ما أردت.
واجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب، ولتعظم حسنتك فيه، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه.
وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة، فتتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار.
وليكن عملك للّه عزّ وجل، وارج الثواب فيه، فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ عليك نعمته، وأسبغ لديك فضله، واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً، وإحساناً، فإن الله عزّ وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين، وسيرة المحسنين، ولا تحقرن ذنباً، ولا تمالئن حاسداً، ولا ترحمن فاجراً، ولا تصلن كفوراً، ولا تداهنن عدواً، ولا تصدقن نمّاماً، ولا تأمنن غدّاراً، ولا تولين فاسقاً، ولا تبتغين عادياً، ولا تحمدن مرائياً، ولا تحقرن إنساناً، ولا تردن سائلاً فقيراً، ولا تحبن باطلاً، ولا تلاحظن مضحكاً، ولا تخلفن وعداً، ولا ترهقن هجراً، ولا تركن سفهاً، ولا تظهرن غضباً، ولا تأسن مدحاً، ولا تمشين مرحاً، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا تدفع الأنام عتاباً، ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه أو محابة، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا.
وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب، وذوي العقل، والرأي والحكمة، ولا تدخلن مشورتك أهل الذمة، والنّحل، ولا تسمعن لهم قولاً، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم، وليس شيئاً أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح.
واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلاّ قليلاً، فإن رعيتك إنما يعقد على محبتك بالكفّ عن أموالهم، وترك الجور عليهم.
وابتدىء مَن صفا لك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم، واجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصي الإنسان به ربه، وأن العاصي بمنزلة خزي، وتدبّر قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.
واجعل للمسلمين كلهم من بينك حظاً ونصيباً وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد، فاعدده لنفسك خلقاً، وسهِّل طريق الجود بالحق، وارضَ به عملاً ومذهباً.
وتفقّد أمور الجند في دواوينهم، ومكاتبهم، وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسّع عليهم في معايشهم، يذهب الله عزّ وجل بذلك فاقتهم، فيقوي لك أمرهم، وتزيد به قلوبهم في طاعتك، وأمرك خلوصاً وانشراحاً.
وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله، وحيطته، وإنصافه، وعنايته، وشفقته، وبره، وتوسيعه، فزايل مكروه إحدى البليتين باستشعار فضيلة الباب الآخر ولزوم العمل به تلقَ إن شاء الله تعالى نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.
واعلم أن القضاء بالعدل من الله تعالى بالمكان الذي يعدل به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه أحوال الناس في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل، تصلح أحوال الرعية، وتأمن السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوّم الدين، وتجري السنن والشرائع على مجاريها. =

....

= واشتد في أمر الله عزّ وجل، وتورّع عن القصف، وامضِ لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وابعد عن الضجر والقلق، واقنع بالقسم، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وسدِّد في منطقك، وانصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة، ولا محاماة، ولا لوم لائم، وتثبت، وتأنَّ، وراقب وانظر الحق على نفسك، فتدبّر، وتفكّر، واعتبر، وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، فتسلّط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله عزّ وجل بمكان عظيم انتهاكاً لها بغير حقها.
وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عِزًا ورِفعة، ولأهله توسعة ومنعة، لعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معانديه ذلاً وصغاراً.
فوزِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب، ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلف أمراً فيه شطط، واحمل الناس كلهم على مُرّ الحق، فإن ذلك أجمع لآفتهم، وألزم لرضا العامة، واعلم أنك جُعلت بولايتك خازناً، وحافظاً، وراعياً، وإنما سمّي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم، وقيمهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم، وتنفذه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم ذوي الرأي والتدبير والتجربة، والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة، والعفاف، ووسع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأُسند إليك، ولا يشغلك عنه شاغل، ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحَسُن الأحدوثة في عملك، وأحرزت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، ودرّت الخيرات في بلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جندك، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة، مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدل، وآلة وقوة وعدة، فنافس في ذلك، ولا تقدم عليه شيئاً تحمد فيه مغبة أمرك إن شاء الله تعالى.
واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم، وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأموره كلها، فإن أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع، فامضه، وإلاّ فتوقف عنه رواجع أهل البصيرة والعلم به، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أموره قدره وأتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبه فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت، وباشره بعد عون الله عزّ وجل بالقوة.
وأكثر في استخارة ربك في جميع أمورك وافرغ من عمل يومك ولا تأخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغدٍ أمور وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت.
واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمور يومين، فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك.
وانظر أحرار الناس وذوي السِّن منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم، وشدة مودتهم لك، ومظاهرتهم بالنصح، والمخالصة على أمرك، فاستخلصهم وأحسن إليهم.
وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤنتهم، وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلتهم مسًّا.
وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومَن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم. =

....

= وتعاهد ذوي البأساء وأيتامهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال، اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة.
وأجرِ للأضراب من بيت المال، وقدّم حملة القرآن منهم، والحافظين لأكثره في الجرائد على غيرهم.
وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم، وقوّاماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.
واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً في نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما تبرّم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل ذهنه وفكره قليلاً عما يناله به من مؤنة ومشقة.
وليس مَن يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل، وفضل ثواب الآجل كالذي يستثقل بما يقربه إلى الله تعالى، ويلتمس رحمته.
وأكثر الإذن للناس عليك، وابرز لهم وجهك وسَكّن لهم حواسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بِشْرَك، وَلِنْ لهم في المسألة، والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعطِ بسماحة وطيب نفس، والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى.
واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية، والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسننه، وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك، وخالف ما دعي إلى سخط الله عزّ وجل.
واعرف ما تجمع عمالك من الأموال، وينفقون منها، ولا تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً.
وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها.
وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك مَن إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك عن إنهاء ذلك إليك في سرك وإعلانك وما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك، ومظاهرين لك.
وانظر عمالك الذين بحضرتك وكُتابك، وَوَقِّت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً، يدخل فيه عليك بكتبه، ومؤامراته، وما عنده من حوائج عمالك، وأمور كورك ورعيتك، ثم فرّغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرر النظر فيه، والتدبُّر له، فما كان موافقاً للحق والحزم، فامضه، واستخر الله عزّ وجل فيه، وما كان مخالفاً لذلك، فاصرفه إلى التثبُّت فيه والمسألة عنه.
ولا تمتن على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم، ولا تقبل من أحد منهم إلاّ الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ولا تدعن المعروف إلاّ على ذلك.
وتَفَهَّمْ كتابي إليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به.
واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله عزّ وجل مع الصلاح وأهله.
وليكن أعظم سيرتك، وأفضل عيشك ما كان فيه لله عزّ وجل رضاً ولدينه نظاماً، ولأهله عِزًّا، وتمكيناً، وللذمّة، وللملّة عدلاً وصلاحاً.
وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك، وكلاءتك، والسلام.
فلما رأى الناس هذا الكتاب تنازعوه، وكتبوه وشاع أمره، وبلغ المأمون خبره، فدعا به، وقرىء عليه، فقال: أما أبقى أبو الطيب ـ يعني طاهراً ـ شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلاّ وقد =

....

= أحكم وأوصى به.
وأمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي وسار عبد الله إلى عمله فاتبع ما أُمر به، وعهد إليه وسار بسيرته.
وفي هذه السنة: مات الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن صاحب الأندلس لأربع بقين من ذي الحجة، وكانت بيعته في سفر سنة ثمانين ومائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة، وكنيته: أبو العاص، وهو لأم ولد.
وكان طويلاً أسمر نحيفاً، وكان له تسعة عشر ذكراً، وله شعر جيد.
وهو أول مَن جنَّد بالأندلس الأجناد المرتزقين، وجمع الأسلحة، والعدد، واستكثر من الحشم، والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، وشابه الجبابرة في أحواله واتخذ المماليك، وجعلهم في المرتزقة، فبلغت عدتهم خمسة آلاف مملوك، وكانوا يسمون: الغرس لعجمة ألسنتهم.
وكانوا يوماً على باب قصره، وكان يطّلع على الأمور بنفسه، ما قرب منها وما بعد.
وكان له نفر من ثقات أصحابه يطالعونه بأحوال الناس، فيرد عنهم المظالم، وينصف المظلوم.
وكان شجاعاً مقداماً مهيباً، وهو الذي وطأ لعقبه الملك بالأندلس.
وكان يقرّب الفقهاء، وأهل العلم.
ولما مات الحكم بن هشام، قام بالملك بعده ابنه عبد الرحمٰن، ويكنى: أبا المطرف.
واسم أمه: حلاوة.
وكان بِكْر والده، ولد بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لأبيه هشام، ولد لسبع أشهر، وُجِدَ ذلك بخط أبيه.
وكان جسيماً، وسيماً، حسن الوجه، فلما وَلِيَ خرج عليه عم أبيه: عبد الله البلنسي، وطمع بموت الحكم، وخرج من بلنسية يريد قرطبة، فتجهّز له عبد الرحمٰن.
فلما بلغ ذلك عبد الله خاف، وضعفت نفسه، فرجع إلى بلنسية، ثم مات في أثناء ذلك سريعاً، ووقى الله ذلك الطرف شره.
فلما مات نقل عبد الرحمٰن أولاده، وأهله إليه بقرطبة، وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمٰن.
وفيها: عزل الحسن بن موسى الأشيب عن قضاء الموصل، فانحدر إلى بغداد، وتولى القضاء بها علي بن أبي طالب الموصلي.
وفيها: وَلّى المأمون داود بن ماسحور محاربة الزط، وأعمال البصرة، وكور دجلة واليمامة، والبحرين.
وفيها: كان المدّ عظيماً غرق فيه السواد وكسكر، وقطيعة أم جعفر، وهلك فيه من الغلاّت كثير.
وفيها: نكب بابك الخرمي عيسى بن محمد بن أبي خالد.
وحجّ بالناس هذه السنة: عبيد الله بن الحسن العلوي، وهو أمير الحرمين.
وفيها: غزا المسلمون من إفريقية جزيرة سردانية، فغنموا، وأصابوا من الكفار، وأصيب منهم، ثم عادوا.
وفيها: توفي الهيثم بن عدي الطائي الأخباري وكان عابداً ضعيفاً في الحديث.
وعبد الله بن عمرو بن عثمان بن أبي أمية الموصلي، وهو من أصحاب سفيان الثوري.
وفيها: توفي محمد بن المستنير المعروف بقطرب النحوي أخذ النحو من سيبويه.
وفيها: توفي أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني اللغوي.

ودخلت سنة سبع ومائتين

وفيها: كانت وفاة ذي اليمينين طاهر بن الحسين من حُمّى وحرارة أصابته[١].

وذكر: أنه وجد في فراشه ميتاً.

فحكى خواصه، وعمه علي بن مصعب: أنهم ساروا إليه يعودونه، فسألوا الخادم عن خبره [٨٦/ ب] وكان يغلس بصلاة الصبح، فقال الخادم: هو نائم لم ينتبه، فانتظروه ساعة، فلما تأخر قالوا للخادم: أيقظه.

قال: لا أجسر.

فقالوا له: طرق لنا لندخل إليه، فدخلوا، فوجدوه ملتفًّا في دواج قد أدخله تحته وشدّ عليه من عند رأسه ورجليه، فحركوه، فلم يتحرك، فكشفوا عن وجهه، فوجدوه قد مات، ولم يعلم أحد الوقت الذي توفي فيه.

وذكره ابن سعد [عن][٢] كلثوم بن ثابت قال: كنت على بريد خراسان، ومجلسي يوم الجمعة في أصل المنبر، فلما كانت سنة سبع ومائتين بعد ولاة طاهر بن الحسين لسنين حضرت الجمعة، فصعد طاهر المنبر، فخطب فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد [ﷺ] بما أصلحت به أولياءك واكفها مؤنة مَن بغى عليها[٣] أو أرادها بمكروه، [وحشد فيها][٤] بِلَمِّ الشعث، وحقن الدماء وإصلاح ذات البين.

فقلت في نفسي: أنا أول مقتول، لأني لا أكتم الخبر.

فانصرفت، فاغتسلت، ووصيت، واتزرت بإزار، ولبست قميصاً، وارتديت رداء وطرحت السواد، وكتبت إلى المأمون.

قال: فلما ردُّوه، وقد خرجت، فردوني.

وقال: هل كتبت بما كان؟

قلت: نعم.

قال: فاكتب بوفاته، وأعطاني مالاً وثياباً، فكتبت بوفاته، وقيام طلحة بالجيش.

قال: فوردت الخريطة على المأمون بخلعه.

(١) في المخطوط: وحرارة ما أصابته. ولفظ «ما» زائد على السياق فحذفته.
(٢) في المخطوط: أم وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: أم وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل.

فدعا ابن أبي خالد، فقال: اشخص الآن فأتِ به كما زعمت وضمنت، فقال: أبيت ليلتي.

قال: لا لعمري، ولا تبيت إلاّ على الظهر.

فلم يزل يناشده حتى أذن لي في المبيت، ووافت الخريطة بموته ليلاً.

فأمر كاتبه طلحة، وأقامه مقامه، فبقي طلحة والياً على خراسان في أيام المأمون سبع سنين بعد موت طاهر، ثم توفي.

وولي عبد الله خراسان(١).

وذكر بعض خواص المأمون قال: شهدت مجلساً للمأمون، وقد أتاه نعي(٢) طاهر فقال: لليدين وللفم الحمد لله الذي قدّمه وأخّرنا، ثم وجّه المأمون أحمد بن أبي خالد إلى خراسان للقيام بأمر طلحة، فشخص أحمد إلى ما وراء النهر، فافتتح أشروسنة، وأسر كاوس، وابنه وبعث بهما إلى المأمون.

ووهب طلحة لأحمد ثلاثة آلاف ألف درهم(٣).

---

(١) بعد هذا في الكامل إتماماً للخبر:
ولما ورد موت طاهر على المأمون قال: لليدين وللفم الحمد لله الذي قدّمه وأخرنا، وكان طاهر أعور، وفيه يقول بعضهم:

يا ذا اليمينين وعين واحده نقصان عين ويمين زائده

يعني أن لقبه كان: ذا اليمينين، وكانت كنيته أبا الطيب.
وقد قيل: إن طاهراً لما مات انتهب الجند بعض خزائنه، فقام بأمرهم سلام الأبرش الخصي وأعطاهم رزق ستة أشهر.
وقيل: استعمل المأمون على عمله جميعه: ابنه عبد الله بن طاهر، فسَيَّر إلى خراسان أخاه طلحة، وكان عبد الله بالرقة على حرب نصر بن شبث، فلما توجه طلحة إلى خراسان سيَّر المأمون إليه أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره، فعبر أحمد إلى ما وراء النهر.
وافتتح أشروسنة، وأسَرَ كاوس بن صارخره، وابنه الفضل، وبعث بهما إلى المأمون.
ووهب طلحة لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم، وعروضاً بألفي ألف درهم.
ووهب لإبراهيم بن العباس كاتب أحمد خمسمائة ألف درهم.

(٢) في المخطوط: لعي. وهو تحريف.

(٣) وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:
وفي هذه السنة:
خرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، وكان سبب خروجه: أن العمال باليمن أساؤوا السيرة فيهم، فبايعوا عبد الرحمٰن هذا.
فلما بلغ المأمون ذلك وجّه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيف، وكتب معه بأمانه، فحضر دينار الموسم، وحج.
ثم سار إلى اليمن فبعث إلى عبد الرحمٰن بأمانه فقبله، ودخل في طاعة المأمون، ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمرهم =

ودخلت سنة ثمان ومائتين

ولم يحدث فيها حدث ينتج في هذا الكتاب(١).

= بلبس السواد، وذلك لليلتين بقيتا من ذي القعدة.

وفي هذه السنة: وقع عبد الرحمٰن بن الحكم صاحب الأندلس بجند البصراة وأهلها، وهي الوقعة المعروفة بوقعة بالس.

وكان سببها: أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمه ربيع أنه ظلم أبناء أهل الذمة، فقبض عليه وصلبه قبل وفاته.

فلما توفي ولّى ابنه عبد الرحمٰن سمع الناس بصلب ربيع، فأقبلوا إلى قرطبة من النواحي يطلبون الأموال التي كان ظلمهم بها ظنًّا منهم أنها تُرد إليهم، وكان أهل البيرة أكثرهم طلباً وإلحاحاً فيه، فتألّبوا، فبعث إليهم عبد الرحمٰن مَن يفرقهم ويسكتهم، فلم يقبلوا ودفعوا مَن أتاهم، فخرج إليهم جمع من الجند، وأصحاب عبد الرحمٰن فقاتلوهم، فانهزم جند البيرة ومَن معهم، وقتلوا قتلاً ذريعاً، ونجا الباقون منهزمين، ثم طلبوا بعد ذلك فقتلوا كثيراً منهم.

وفيها: ثارت بمدينة تدمير فتنة بين المضرية واليمانية، فاقتتلوا بلورقة، وكان بينهم وقعة تُعرف بيوم المضارة، قتل منهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحرب بينهم سبع سنين، وفوكل بكفهم ومنعهم يحيى بن عبد الله بن خالد، وسيَّره في جميع الجيش، فكانوا إذا أحسُّوا بقرب يحيى تفرّقوا وتركوا القتال، وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال حتى عيي أمرهم.

وفيها: كان بالأندلس مجاعة شديدة ذهب فيها خلق كثير، وبلغ المد في بعض البلاد ثلاثين ألف دينار.

وفيها: غلا السعر بالعراق حتى بلغ القفيز من الحنة بالهاروني أربعين درهماً إلى خمسين.

وفيها: ولّي محمد بن حفص طبرستان، والرُويان، ودُنباوند.

وحجّ بالناس: أبو عيسى بن الرشيد.

وفيها: أمر المأمون السيد بن أبي أنس والي الموصل، قصد بني شيبان وغيرهم من العرب لإفسادهم في البلاد، فسار إليهم وكبسهم بالدسكرة، فقتلهم ونهب أموالهم وعاد.

وفيها: توفي وهب بن جرير الفقيه، وعمر بن حبيب العدوي القاضي، وعبد الصمد بن عبد الوارث بن سعيد، وعبد العزيز بن أبان القرشي قاضي واسط، وجعفر بن عون بن جعفر بن عمرو بن حريث المخزومي الفقيه، وبشر بن عمر الزاهد الفقيه، وكثير بن هشام، وأزهر بن سعيد السمّان، وأبو النضر هشام بن القاسم الكناني.

وفيها: توفي محمد بن عمر بن واقد الواقدي، وكان عمره ثمانياً وسبعين سنة، وكان عالماً بالمغازي، واختلاف العلماء، وكان يضعف في الحديث.

وفيها: توفي محمد بن أبي رجاء القاضي، وهو من أصحاب أبي يوسف صاحب أبي حنيفة.

وفيها: توفي محمد بن أبي عبد الله بن عبد الأعلى المعروف بابن كناسة، وهو ابن أخت إبراهيم بن أدهم، وكان عالماً بالعربية والشعر، وأيام الناس.

وفيها: توفي يحيى بن زياد، أبو زكريا الفراء النحوي الكوفي، وأبو غانم الموصلي، وزيد بن علي بن أبي خداش الموصلي، وهو من أصحاب المعافى بن كثير الرواية عنه.

(١) كذا قال ابن مسكويه، وقال ابن الأثير في أحداثها:

في هذه السنة: سار الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى كرمان فعصى بها فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فأخذه، وأتى به المأمون فعفا عنه.

وفيها: استقضى إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة. =

ودخلت سنة تسع ومائتين

وفيها: حصر عبد الله بن طاهر قصر ابن شبث وضيّق عليه حتى طلب الأمان.

ويقال إن ثمامة حكى:

أن المأمون سأله أن يحمل إليه رجلاً له [عقل](١) وبيان يحمله رسالة إلى نصر بن شبث.

قال: فحملت إليه رجلاً من بني عامر [يقال له: جعفر بن محمد](٢).

فقال جعفر بن محمد: أحضرني المأمون بين يديه، فكلّمني بكلام كثير، ثم أمرني أن أبلغه نصراً.

قال: فأثبت نصراً بسروج بموضع يقال له: كفرعون، فأبلغته رسالته، فأذعن وشرط شروطاً منها:

= **وفيها**: عزل محمد بن عبد الرحمٰن المخزومي عن قضاء عسكر المهدي، وولّيه بشر بن الوليد الكندي، فقال بعضهم:

يا أيها الرجل الموحد ربه ... قاضيك بشر بن الوليد حمار

ينفي شهادة مَن يدين بما به ... نطق الكتاب وجاءت الآثار

ويعدُّ عدلاً مَن يقول بأنه ... شيخ يحيط بجسمه الأقطار

وفيها: مات موسى بن الأمين، والفضل بن الربيع في ذي القعدة.

وحجّ بالناس: صالح بن الرشيد.

وفيها: هلك إليسع بن أبي القاسم صاحب سجلماسة، فولّى أهلها على أنفسهم أخاه المنتصر بن أبي القاسم.

وأسول المعروف بمدْرَار، وقد تقدّم ذكرهم.

وفيها: سيّر عبد الرحمٰن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد المشركين، واستعمل عليها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فساروا إلى إلية والقلاع فنهبوا بلاد إلية، وأحرقوها وحصروا عدة من الحصول، ففتحوا بعضها، وصالحه بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين فغنم أموالاً جليلة القدر، واستنقذوا من أسارى المسلمين، وسبيهم كثيراً، فكان ذلك في جمادى الآخرة، وعادوا سالمين.

وفيها: توفي عبد الله بن عبد الرحمٰن الأموي المعروف بالبلنسي صاحب بلنسية من الأندلس، وقد تقدّم من أخباره مع أخبار هشام ابن أخيه الحكم بن هشام كثير.

وفيها: توفي عبد الله بن أبي بكر بن حبيب السَّهمي الباهلي، ويونس بن محمد المؤدب، والقاسم بن الرشيد، وسعيد بن تمام بالبصرة، وعبد الله بن جعفر بن سليمان بن علي، والحسن ابن موسى الأشيب، وقد كان سار ليتولى قضاء طبرستان فمات بالري. وتوفي علي بن المبارك الأحمر النحوي صاحب الكسائي. وقيل: توفي في سنة ست وثمانين.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

أن لا يطأ له بساطاً.

قال: فأتيت المأمون، فأخبرته.

فقال: لا أجيبه إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع ما عليّ حتى يطأ بساطي، ما له ينفر مني؟!

فقلت: لجرمه بما تقدّم منه.

قال: أفتراه[١] أعظم[٢] جرماً عندي من الفضل بن الربيع، ومن عيسى بن أبي خالد؟!

أتدري ما صنع بي الفضل؟

أخذ قوادي، وأموالي، وجنودي، وسلاحي، وجميع مالي مما أوصى به لي، فذهبت به إلى محمد وتركني بمرو بعيداً، وأسلمني، وأفسد عليّ أخي حتى كان من أمره ما كان [فكان أشد عليّ من كل شيء][٣].

أتدري ما صنع بي عيسى بن أبي خالد؟

طرد خليفتي من مدينة آبائي وذهب بخراجي، وفيئي[٤]، وأخرب عليّ داري[٥]، وأقعد إبراهيم خليفة بإزائي، ودعاه باسمي.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين تأذن لي في الكلام؟

[قال][٦]: تكلم.

قال: قلت: الفضل بن الربيع وضيعكم[٧] ومولاكم، وحال سلفه حالهم فترجع إليه بضروب كلها تردك إليه.

وعيسى بن أبي خالد، من أهل دولتك، وسابقته [وسابقة][٨] مَن مضى من سلفه سابقتهم[٩].

وهذا رجل لم يكن له يد قط فيحمل عليها، ولا لمَن مضى من سلفه، إنما كانوا

---

(١) في المخطوط: افتراء. والتصويب من الكامل.
(٢) في الكامل: أحكم.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: وفي. والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: وباري. والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) في الكامل: وصنيعكم.
(٨) زيادة من الكامل.
(٩) في الكامل: معروفة.

جند بني أمية.

قال: إن ذلك لكما تقول، فكيف بالحق، والغيظ؟ لست أقلع عنه حتى يطأ بساطي.

فأتيت نصراً، فأخبرته بذلك.

قال: فصاح بالخيل صيحة، فجالت عليه.

ثم قال: ويلي علي وهو لم يقوَ على أربعمائة ضفدع تحت جناحه - يعني الزط[١] - يقوى على حلبة العرب!!

فذكر أن عبد الله بن طاهر لما جادّه[٢] القتال، بلغ منه حتى طلب الأمان، فأعطاه، وبعثه إلى المأمون[٣].

ودخلت سنة عشر ومائتين

وفيها: أُخِذَ إبراهيم بن المهدي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر وهو منتقب بين امرأتين في زي امرأة، أخذه حارس أسود ليلاً.

فقال: مَن أنتن، وأين تردن في هذا الوقت؟

فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان في إصبعه له قدر عظيم، وقال له: خلّنا ولا

---

(١) في المخطوط: النط. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: جلاه. والتصويب من الكامل.
(٣) زاد ابن الأثير في هذا الخبر، وفي أحداث السنة فقال:
فطلب الأمان فأجابه إليه، وتحوّل من معسكره إلى الرقة إلى عبد الله.
وكان مدة حصاره ومحاربته خمس سنين.
فلما خرج إليه أخرب عبد الله حصن كيسوم وسيَّر نصراً إلى المأمون، فوصل إليه في صفر سنة عشر ومائتين.
وفيها: ولّى المأمون علي بن صدقة، المعروف بزريق على أرمينية، وأذربيجان وأمره بمحاربة بابك، وأقام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك فولّى إبراهيم بن الليث بن الفضل أذربيجان.
وحجّ بالناس: صالح بن العباس بن محمد بن علي.
وفيها: مات ميخائيل بن جورجيس ملك الروم، وكان ملكه تسع سنين، وملك ابنه توفيل.
وفيها: خرج منصور بن نصير بإفريقية عن طاعة الأمير زيادة الله، وكان منه ما ذكرناه سنة اثنتين ومائتين.
وفيها: توفي أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي، وقيل: سنة عشر، وكان يميل إلى مقالة الخوارج، وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة.
وقيل: مات سنة ثلاث عشرة، وعمره ثمان وتسعون سنة.
وفيها: توفي يعلى بن عبيد الطنافسي أبو يوسف.
والفضل بن عبد الحميد الموصلي المحدث.

عليك أن تعلم مَن نحن.

فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب، وقال في نفسه: هذا خاتم رجل له شأن.

فرفعهن إلى صاحب المسلحة، فأمرهن أن يسفرن، فتمنّع إبراهيم، فجذبه، فبدرت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر، فدفعه وذهب به إلى باب المأمون فأعلم به.

فأمر بالاحتفاظ به في الدار، فلما كان غداة الأحد قعد في دار [٨٧/أ] المأمون لينظر إليه بني هاشم، والقواد، والجند.

وصيَّروا المقنعة التي كان منتقباً بها في عنقه، والملحفة في صدره، ليراه الناس، ويعلموا كيف أخذ؟

فلما كان يوم الخميس حول إلى منزل أحمد بن أبي خالد فجلس عنده.

وفي هذه السنة: بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل في شهر رمضان.

وكاتب[١] الحسن بالصلح، فشخص المأمون إلى الصلح، وأمر بحمل إبراهيم بن المهدي خلفه[٢]، وقد تقدّم أباه على الظهر، ووافى المأمون في وقت العشاء، فأفطر هو والحسن، والعباس، ودينار بن عبد الله قائم على رجليه حتى فرغوا من الإفطار.

فدعا المأمون بشراب، فأتى بجام ذهب فيه شرب، ومدية بجام فيه شراب إلى الحسن فبطأ عنه، فغمزه دينار بن عبد الله.

فقال الحسن: يا أمير المؤمنين أشرب بإذنك؟

فقال له: لولا أمري لم أمد يدي إليك بها.

فأخذ الجام، فشربه.

فلما كان في الليلة دخل على بوران، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف دُرّة كانت في صينية ذهب، وكان تحتها ذهب معمول على السامان.

فقال المأمون: قاتل الله أبا نواس كأنه حاضر هذا المنظر في قوله:

حصباء دُرّ على أرض من الذهب

ثم أمر المأمون أن يجمع، وسألها عن عدد الدر كم كان؟

فقالت: ألف حبة.

فأمر بعدها فنقصت عشراً.

---

(١) في المخطوط: كان. وهو تحريف.

(٢) بعدها في الكامل: فشفع فيه الحسن، وقيل ابنته بوران.

فقال: مَن أخذها فليردها.

فقال ختين رحله: يا أمير المؤمنين إنما نثر لنأخذه، وإلاّ فالعقد أولى به.

قال: ردّها، فإني أخلفها عليها.

فردّت فجمعها المأمون في الآنية كما كانت ووضع في حجرها، وقال: هذه نحلتك، وسلّي حاجتك. فأمسكت.

فقالت جدتها: كلِّمي سيدك واسأليه حوائجك، فقد أمرك.

فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر بالحج، فأذن لها وألبستها أم جعفر البدنة [اللؤلؤية][1] الأموية.

وابتنى بها من ليلته، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مَنًّا في تور ذهب.

فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال: هذا سرف.

فلما كان من الغد دعا إبراهيم بن المهدي، فجاء يمشي من شاطىء دجلة.

فلما دخل على المأمون قال: هيه يا إبراهيم؟

فقال: يا أمير المؤمنين، ولي الثأر مُحَكَّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومَن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشفاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله تعالى فوق كل ذي ذنب كما جعل [كل][2] ذي ذنب دونك، فإن تعاقب، فبحقك، وإن تعف فبفضلك.

قال: بل أعفو يا إبراهيم.

فكبَّر، وسجد، وقال إبراهيم يمدح المأمون:

يا خير مَن [رَفَلَتْ][3] يمانيةٌ به ... بعد النبي لآيسٍ أو طائع[4]

[وأبرَّ من عبد الإله على التقى ... غيباً وأقوَله بحقٍّ صادع][5]

عسل الفوارع ما أُطعت فإن تهج ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع[6]

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) من الكامل.

(٤) في المخطوط: طامع.

(٥) البيت زيادة من الكامل، وما يليه مما هو بين معقوفين في القصيدة كلها فإنه من الكامل أيضاً، وكذا كل التصويبات منه فيلاحظ.

(٦) في المخطوط على النحو التالي:

غسل القوارع ما اطلعت فإن ... مهج بمسرح السمام النافع

[متيقظاً حذراً وما تخشى العِدى ... تيهان من وسنان ليل الهاجع]

ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع

بأبي وأمي فدية وأبيهما[١] ... من كل معضلة وذنب واقع

ما ألين الكنف[٢] الذي بوّأتني ... وطنا[٣] وأمرع رتعه[٤] للراتع[٥]

[للصالحات أخاً جعلت وللتقى ... وأباً رؤوفاً للفقير القانع]

نفسي فداؤك[٦] إذ تضل[٧] معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع

أملاً لفضلك والفواضل شيمة ... رفعت بناءك للمحل[٨] اليافع[٩]

[فبذلت أفضل ما يضيق ببذله ... وسع النفوس من الفعال البارع]

وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع

إلا العلو عن العقوبة بعدما ... ظفرت يداك[١٠] بمستكين خاضع

فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وعويل عانسة كقوس النازع

[وعطفت آمِرَةً عَلَيَّ كما وَهَى ... بعد انهياض الوثى عظم الظالع]

الله يعلم ما أقول فإنها[١١] ... جهد الأَلِيَّةِ من حنيف راكع

ما إن عصيتك والغواة تمدني[١٢] ... أسبابها إلا بنية طائع

حتى إذا علقت حبائل شقوتي ... بردي إلى حفر المهالك هائع

لم أدرِ أن لمثل جُرمي غافراً[١٣] ... فوقفت أنظر أي حتف صارعي

رد الحياة [عَلَيَّ][١٤] بعد ذهابها ... ورع[١٥] الإمام القادر المتواضع

---

(١) في المخطوط: وبنيهما.
(٢) في المخطوط: الكف.
(٣) في الكامل: وظنا.
(٤) في المخطوط: ربعة.
(٥) في المخطوط: للرابع.
(٦) في المخطوط: كذاوك.
(٧) في المخطوط: تظل.
(٨) في المخطوط: بالمحل.
(٩) في المخطوط: النافع.
(١٠) في المخطوط: بذاك.
(١١) في الكامل: كأنها.
(١٢) في الكامل: تقودني.
(١٣) الشطر الأول في المخطوط على النحو التالي:

لم إن أرد أن الحرم مثلي عامرا

(١٤) من الكامل.
(١٥) في المخطوط: ودع.

أحيـاك مَـن ولاّك أطـول[١] مـدة ... ورمى عدوك في الوتين بقاطع
[كم من يدٍ لك لم تحدثني بها ... نفسي إذا آلت إلى مطامعي
أسديتها عفوا إليّ هنيئة ... وشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلاّ يسيراً عندما أوليتني ... وهو الكبير لديّ غير الضائع
إن أنت جدت بها عليَّ تكن لها ... أهلاً وإن تمنع فأكرم مانع][٢]
إن الذي قسم الخلافة[٣] حازها ... من صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداؤك كل خير جامع

فقال المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة: أقول ما قال يوسف [عليه السلام] لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

فأما الحسن بن سهل، فإنه أضاف المأمون وجميع مَن معه، وخلع على القوّاد على مراتبهم، وحملهم، ووصلهم.

وكان مبلغ ما لزمه عليهم خمسين ألفَ ألف درهم، سوى ما نثره.

وكان كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه على القواد وبني هاشم، فمَن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلّمها.

وفي هذه السنة: افتتح عبد الله بن طاهر مصر، واستأمن إليه عبد العزيز بن السري بن الحكم.

ذكر الخبر عن ذلك

لما فرغ عبد الله بن طاهر من نصر بن شبث [سار][٤] إلى مصر.

فلما قرب منها قدَّم قائداً من قواده ليرتاد لعساكره فيه، وقد خندق ابن السري على نفسه خندقاً.

فاتصل الخبر عن مسير القائد إلى ما قرب منها، فخرج بمَن استجاب له من

---

(١) في الكامل: أفضل.
(٢) الأبيات الثلاث من الكامل كما سبق أن أشرت.
(٣) في المخطوط: الإمام. وأثبت ما رأيته أصوب وأنسب.
(٤) من الكامل؛ والخبر بدأ فيه على النحو التالي:
كان سبب مسيره: أن عبيد الله قد تغلّب على مصر، وخلع الطاعة، وخرج جمع من الأندلس فتغلّبوا على الإسكندرية، واشتغل عبد الله بن طاهر عنهم بمحاربة نصر بن شبث، فلما فرغ منه سار نحو مصر، فلما قرب منها. . .

أصحابه إلى القائد الذي كان يطلب موضع العسكر، فأبرد القائد إلى عبد الله بن طاهر بريداً يخبره بخروج ابن السري إليه.

فحمل عبد الله رجاله على البغال على كل بغل رجلين بآلاتها [٨٧/ ب] وجنبوا[١] الخيل، وأسرعوا السير حتى لحقوا القائد [وهو يقاتل][٢] ابن السري وأصحابه.

فلم يكن من أصحاب عبد الله إلا حملة واحدة حتى انهزم [ابن السري][٣] وأصحابه، وتساقطت عامة أصحابه في الخندق، فمَن هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض في الخندق [أكثر ممن قتله الجند بالسيف][٢]، فانهزم ابن السري، فدخل الفسطاط، وأغلق على نفسه وأصحابه ومَن فيها الباب.

فحاصره عبد الله بن طاهر، فلم يعاوده ابن السري الحرب حتى خرج إليه في الأمان.

فحكى ابن ذي القلمين قال: بعث ابن السري إلى عبد الله بن طاهر لما ورد مصر وأمّن دخلوها، بألف ألف وصيف ووصيفة، مع كل واحد منهم ألف دينار في كيس حرير، وبعث بهم إليه ليلاً.

قال: فردّهم عليه عبد الله، وكتب إليه:

لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال: فحينئذ طلب الأمان، وخرج إليه[٤].

---

(١) في المخطوط: حنوا. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) زيادة توضيحية.
(٤) زاد ابن الأثير في الكامل فقال بعد هذا:
وذكر أحمد بن حفص بن أبي الشماس قال:
خرجنا مع عبد الله بن طاهر إلى مصر حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق إذ نحن بأعرابي قد اعترض، فإذا شيخ على بعير له، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام.
قال: وكنت أنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقي، وإسحاق بن أبي ربعي، ونحن نساير الأمير، وكنا أَفْرَهَ منه دابة، وأجود كسوة.
قال: فجعل الأعرابي ينظر إلى وجوهنا.
قال: فقلت: يا شيخ قد ألححت في النظر، أعرفت شيئاً أنكرته؟
قال: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولكني رجل حسن الفراسة في الناس.
قال: فأشرت إلى إسحاق بن أبي ربعي، قلت: ما تقول في هذا؟
قال:

أرى كاتباً داهي الكتابة بَيِّنٌ	عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن أنه	عليم بتقسيط الخراج بصير

=

وفي هذه السنة: خلع أهل قم السلطان، ومنعوا الخراج.

ذكر سبب ذلك

كان المأمون وقت اجتيازه بالري حطّ عن أهلها من الخراج على ما ذكر، فطمع أهل قم في ذلك(١)، وكان خراجهم ألفي ألف درهم، فكانوا يستكثرونها فرفعوا إلى المأمون يشكون ثقل الخراج ويسألونه الحط، فلم يجبهم المأمون، فامتنعوا ولم يؤدوا شيئاً.

فوجّه المأمون إليهم علي بن هشام، ثم أمدّه بعجيف(٢) [بن عنبسة](٣)، فحاربهم فظفر بهم، وقتل يحيى بن عمران، وهدم سور قُم، وجباها سبعة آلاف ألف بعدما كانوا يتظلّمون من ألفي [ألف](٣) درهم(٤).

= ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم فقال:

ومطهر نسك ما عليه ضميره ... يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جُنباً وبخلاً وشيمَةً ... تخبر عنه أنه لَوَزِيْرُ

ثم نظر إليّ وقال:

وهذا نديم للأمير ومؤنس ... يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً ... فبعض نديم مسرَّةً وسمير

ثم نظر إلى الأمير وقال:

وهذا الأمير المرتجى سيب كفُّه ... فما إن له في العالمين نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ... ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عظم الإسلام منه بذي يدٍ ... فقد عاش معروفٌ ومات نكيرُ
ألا إنما عبد الإله بن طاهر ... لنا والد بَرٌّ بِنَا وأمِيرُ

قال: فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع وأعجبه، وأمر للشيخ بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه.

(١) في الكامل بعدها: فكتبوا إليه يسألونه الحطيطة.

(٢) في المخطوط: بعجب، والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداثها غير ذلك فقال:

فيها: ظفر المأمون بإبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، المعروف بابن عائشة، ومحمد بن إبراهيم الأفريقي، ومالك بن شاهي، ومَن كان معهم ممن كان يسعى في البيعة لإبراهيم بن المهدي.

وكان الذي أطلعهم عليهم، وعلى صنيعهم عمران القطربلي، وكانوا تعهّدوا أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجند يطلبون نصر بن شيث. فنَمَّ عليهم عمران، فأخذوا في صفر.

ودخل نصر بن شبث، ولم يلقه أحد من الجند، فأخذ ابن عائشة فأقيم على باب المأمون ثلاثة أيام في الشمس، ثم ضربوا بالسياط، وحبس، وضرب مالك بن شاهي وأصحابه فكتبوا للمأمون بأسماء من دخل معهم في هذا الأمر من سائر الناس فلم يعرض لهم المأمون، وقال: لا آن أن يكون هؤلاء قذفوا قوماً براء.

ثم إنه قتل ابن عائشة، وابن شاهي، ورجلين من أصحابه، وكان سبب قتلهم: أن المأمون بُلّغ =

ودخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

وفيها: قال بعض إخوة المأمون للمأمون[1]: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن

= أنهم يريدون أن ينقبوا السجن، وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدُّوا باب السجن، فلم يدعوا أحداً يدخل عليهم.

فلما بلغ المأمون خبرهم ركب إليهم بنفسه فأخذهم فقتلهم صبراً، وصلب ابن عائشة.

وهو أول عباسي صُلب في الإسلام.

ثم أُنزل وكُفِّن، وصلّى عليه، ودُفن في مقابر قريش.

وفي هذه السنة: أخرج عبد الله مَن كان تغلّب على الإسكندرية من أهل الأندلس بأمان، وكانوا قد أقبلوا في مراكب من الأندلس، في جمع، والناس في فتنة ابن السري وغيره، فأرسلوا بالإسكندرية، ورئيسهم يدعى أبا حفص، فلم يزالوا بها حتى قدم ابن طاهر، فأرسل يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا في الطاعة.

فأجابوا، وسألوا الأمان على أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام.

فأعطاهم الأمان على ذلك، فرحلوا ونزلوا بجزيرة أقريطش، واستوطنوا وأقاموا بها فأعقبوا، وتناسلوا.

قال يونس بن عبد الأعلى: أقبل إلينا فتى حدث من المشرق - يعني ابن طاهر - والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس في بلاء، فأصلح الدنيا، وأَمَّنَ البر، وأخاف السقيم، واستوثق له الرعية بالطاعة.

في هذه السنة: سَيَّر عبد الرحمٰن بن الحكم سرية كبيرة إلى بلاد الفرنج واستعمل عليها عبيد الله المعروف بابن البلنسي، فسار ودخل بلاد العدو، وتردّد فيها بالغارات والسبي والقتل، والأسر ولقي الجيوش الأعداء في ربيع الأول، فاقتتلوا، فانهزم المشركون، وكثر القتل فيهم، وكان فتحاً عظيماً.

وفيها: افتتح عسكر سيّره عبد الرحمٰن أيضاً حصن القلعة من أرض العدو، وتردد في الغارات منتصف شهر رمضان.

وفيها: أمر عبد الرحمٰن ببناء المسجد الجامع بجيان.

وفيها: أخذ عبد الرحمٰن رهائن أبي الشماخ محمد بن إبراهيم مقدم اليمانية بتدمير ليسكن الفتنة بين المضرية واليمانية، فلم ينزجروا، ودامت الفتنة، فلما رأى عبد الرحمٰن ذلك، أمر العامل بتدمير أن ينقل منها، وأن يجعل مرسية منزلاً ينزله العمال، ففعل ذلك وصارت مرسية هي قاعدة تلك البلاد من ذلك الوقت، ودامت الفتنة بينهم إلى ثلاثة عشر ومائتين.

فسَيَّر عبد الرحمٰن إليهم جيشاً فأذعن أبو الشمّاخ، وأطاع عبد الرحمٰن، وسار إليه، وصار من جملة قواده، وأصحابه، وانقطعت الفتنة من ناحية تدمير.

وفي هذه السنة: مات شهريار بن شبروين صاحب جبال طبرستان، وصار في موضعه ابنه سابور، فقاتله مازيار بن قارن، فأسره، وقتله، وصارت الجبال في يد مازيار.

وحجّ بالناس في هذه السنة: صالح بن العباس بن محمد، وهو وَالِي مكة.

وفيها: توفيت علية بنت المهدي، ومولدها سنة ستين ومائة، وكان زوجها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فولدت منه.

(١) سبق ذلك في الكامل:
في هذه السنة أُدخل عبيد الله بن السري بغداد وأُنزل مدينة المنصور، وأقام ابن طاهر بمصر والياً عليها وعلى الشام والجزيرة.

طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، فكذا كان أبوه قبله.

قال: فدفع المأمون ذلك وأنكره ثم عاد لمثل هذا القول، فدسّ إليه رجلاً وقال له: امضِ في هيئة القراء[١] والنسّاك[٢] إلى مصر، فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله.

ثم سر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، فادعه[٣] ورغّبه في استجابته له وابحث عن دفين نيته بحثاً شافياً، وأتني بما تسمع منه.

قال: ففعل الرجل ما قاله له، وأمره به حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء، والأعلام.

فقعد[٤] يوماً بباب عبد الله بن طاهر، وركب إلى عبد الله بن السري بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام إليه الرجل، فأخرج من كمه رقعة، فدفعها إليه، فأخذها بيده.

قال: فما هو إلاّ أن دخل، وخرج لحاجته فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض [شيء][٥] ومدّ رجليه، وخُفان فيهما، فقال له: قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك، فهات ما عندك.

قال لي أمانك، وذمة من الله معك؟

قال: لك ذلك.

فأظهر له ما أراد، ودعاه إلى القاسم، وأخبره بفضائله، وعلمه، وزهده.

فقال له عبد الله أتنصفني؟

قال: نعم.

قال: هل يجب شكر الله على العباد؟

قال: هل يجب شكر بعضهم على بعض عند الإحسان والمنّة، والتفضُّل؟

قال: نعم.

قال: فتجيء إليَّ وأنا على هذه الحالة التي يرى لي خاتم في المشرق، وجائز وخاتم في المغرب كذلك، وفيما بينهما أمري مطاع، وقولي مقبول، ثم ما ألتفت يميني ولا شمالي، ولا ورائي ولا قدامي إلاّ رأيت نعمة لرجل أنعمها عَلَيَّ، ومِنّة ختم بها

(١) في المخطوط: المرأة. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: العساكر. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: فدعه. والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: قعد. والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.

رقبتي، ويداً لائحة بيضاء ابتدأني بها كرماً وتفضلاً فتدعوني إلى الكفر بهذه النعم وهذا الإحسان، وتقول: اغدر بمَن كان أولى[١] لهذا، وأحرى[٢]، واسع في إزالة خيط رقبته[٣]، وسفك[٤] دمه، تراك لو دعوتني إلى الجنة عياناً من حيث أعلم أكان الله عزّ وجل يوجب[٥] [عليّ][٦] أن أغدر به، وأكفر إحسانه ومننه، وأنكث بيعته؟

فسكت الرجل فقال له عبد الله: أما إنه قد بلغني أمرك، وبالله[٧] ما أخاف عليك إلاّ نفسك، فارحل عن هذا البلد فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمر [ذلك][٨] كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك.

[فلما أيس منه][٨] عاد الرجل إلى المأمون، فأخبره الخبر[٩]، فاستبشر وقال: ذاك غرس يدي وألف أدبي [وقراب تلفحي][٨].

ولم يظهر من حديثه هذا شيء لأحد إلاّ بعد موت المأمون[١٠].

وكتب إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر كتاباً بخطه وكان في أسفله هذه الأبيات:

أخي أنت ومولاي ... وأشكر نعماه
فما أحببت من أمر ... فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء ... فإني لست أرضاه
لك الله على ذاك ... لك الله لك الله

وفي هذه السنة: قدم عبد الله بن طاهر مدينة السلام من المغرب، وتلقاه العباس بن المأمون، وأبو إسحاق المعتصم، وسائر طبقات الناس، وقدم معه المتغلبين على الشام.

وفيها: أمر المأمون منادياً فنادى برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير [أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ][١١].

(١) في المخطوط: أولاً، والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: آخراً. والتصويب من الكامل.
(٣) في الكامل: عنقه.
(٤) في الكامل: منعك.
(٥) في المخطوط: يحب. والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل.
(٧) قوله: إنه قد بلغني أمرك، وبالله. لم ترد العبارة بالكامل.
(٨) زيادة من الكامل.
(٩) لم ترد هذه الكلمة بالكامل.
(١٠) في الكامل: ولم يظهر ذلك ولا علمه ابن طاهر إلا بعد موت المأمون. وكان هذا القائل للمأمون المعتصم، فإنه كان منحرفاً عن عبد الله.
(١١) زيادة من الكامل.

وأظهر القول بخلق القرآن، وبفضل علي رضي الله عنه[١].

(١) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
وفيها: قتل السيد ابن أنس الأزدي أمير الموصل، وسبب قتله:
أن زُريق بن علي بن صدقة الأزدي الموصلي، كان قد تغلّب على الجبال ما بين الموصل، وأذربيجان، وجرى بينه وبين السيد حروب كثيرة، فلما كان هذه السنة جمع زُريق جمعاً كثيراً، قيل: كانوا أربعين ألفاً، وسيَّرهم إلى الموصل لحرب السيد.
فخرج إليهم في أربعة آلاف، فالتقوا بسوق الأحد.
فحين رآهم السيد حمل عليهم وحده، وهذه كانت عادته أن يحمل وحده بنفسه، وحمل عليه رجل من أصحاب زُريق، فاقتتلا، فقتل كل واحد منهما صاحبه، ولم يقتل غيرهما، وكان هذا الرجل قد حلف بالطلاق إن رأى السيد أن يحملَ عليه، فيقتله أو يقتل دونه، لأنه كان له على زُريق كل سنة مائة ألف درهم.
فقيل له: بأي سبب تأخذ هذا المال؟
فقال: لأنني متى رأيت السيد قتلته، وحلف على ذلك، فَوَفَّى به.
فلما بلغ المأمون قتله، غضب لذلك، وولّى محمد بن حميد الطوسي حرب زُريق، وبابك الخرمي، واستعمله على الموصل.
وفي هذه السنة: وقع الاختلاف بين عامر بن نافع، ومنصور بن نصر بإفريقية وسبب ذلك أن منصوراً كان كثير الحسد، وسار بهم من تونس إلى منصور، وهو بقصره بطنبذة فحصره حتى فني ما كان عنده من الماء.
فراسله منصور، وطلب منه الأمان، على أن يركب سفينة ويتوجه إلى المشرق، فأجابه إلى ذلك.
فخرج منصور أول الليل مختفياً يريد الأرْبُس.
فلما أصبح عامر، ولم يرَ لمنصور أثراً طلبه حتى أدركه فاقتتلوا، وانهزم منصور، ودخل الأرْبُس فتحصّن بها.
فحصره عامر، ونصب عليه مجانيقاً، فلما اشتد الحصار على أهل الأرْبُس قالوا لمنصور: إما أن تخرج عنا، وإلاّ سلمناك إلى عامر، فقد أضرّ بنا الحصار.
فاستمهلهم حتى يصلح أمره، فأمهلوه، وأرسل إلى عبد السلام بن المفرج، وهو من قوّاد الجيش يسأله الاجتماع به، فأتاه فكلّمه منصور من فوق السور، واعتذر، وطلب أن يأخذ له أماناً من عامر حتى يسير إلى المشرق.
فأجابه عبد السلام إلى ذلك، واستعطف له عامر، وأمّنه على أن يسير إلى تونس، ويأخذ أهله، وحاشيته، ويسير بهم إلى المشرق.
فخرج إليه فسيَّره مع خيل إلى تونس، وأمر رسوله سرًّا أن يسير به إلى مدينة جربة ويسجنه بها، ففعل ذلك، وسجن معه أخاه حمدون.
فلما علم عبد السلام ذلك عظم عليه، وكتب عامر إلى أخيه، وهو عامله على جربة يأمره بقتل منصور، وأخيه حمدون، ولا يراجع فيهما.
فحضر عندهما، وأقرأهما الكتاب، فطلب منصور منه دواة، وقرطاساً ليكتب وصيته.
فأمر له بذلك، فلم يقدر أن يكتب وقال: فاز المقتول بخير الدنيا والآخرة.
ثم قتلهما، وبعث برأسيهما إلى أخيه واستقامت الأمور لعامر بن نافع.
ورجع عبد السلام بن مفرج إلى مدينة باجة، وبقي عامر بن نافع بمدينة تونس، وتوفي سلخ ربيع الآخر سنة أربع عشرة ومائتين.
فلما وصل خبره إلى زيادة الله قال: الآن وضعت الحرب أوزارها، وأرسل بنوه إلى زيادة الله =

ودخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين[(١)]

وفيها: وجّهه المأمون محمد بن حميد الطوسي إلى بابك الخرمي لمحاربته، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل ليصلح أمرها ويحارب زُريق بن علي.

فسار محمد إلى الموصل، ومعه جيشه وجمع ما فيها من الرجال من اليمن والمربعية، وسار لحرب زريق، ومعه محمد ابن السيد ابن أنس الأزدي، فبلغ الخبر إلى زريق فسار نحوهم فالتقوا على الزاب.

فراسله محمد بن حميد يدعوه إلى الطاعة، فامتنع، فناجزه محمد، واقتتلوا، واشتدّ قتال الأزدي مع محمد ابن السيد طلباً بثأر السيد، فانهزم زُريق وأصحابه.

ثم أرسل يطلب الأمان فأمنه محمد، فنزل إليه فسيَّره إلى المأمون.

وكتب المأمون إلى محمد يأمره بأخذ جميع مال زُريق من قرى، ورستاق، ومال وغيره.

فأخذ ذلك لنفسه، فجمع محمد أولاد زريق، وإخوته وأخبرهم بما أمر به

= يطلبون الأمان، فأمّنهم وأحسن إليهم.

وفيها: مات موسى بن حفص، فولّى ابنه طبرستان، وولّى حاجب بن صالح السند فهزمه بشر بن داود، فانحاز إلى كرمان.

وفيها: مات أبو العتاهية الشاعر.

وحجّ بالناس: صالح بن العباس، وهو والي مكة.

وفيها: خرج بأعمال تاكرنا من الأندلس طوريل فقصد جماعة من الجند قد نزلوا ببعض قرى تاكرنا ممتارين، فقتلهم، وأخذ دوابهم، وسلاحهم، وما معهم، فسار إليه عاملها.

وفيها: مات الأخفش النحوي البصري.

وفيها: مات طلق بن غنام النخعي.

وأحمد بن إسحاق الحضرمي.

وعبد الرحيم بن عبد الرحمٰن بن محمد المحاربي.

وفيها: توفي عبد الرزاق بن همام الصنعاني المحدث، وهو من مشايخ أحمد بن حنبل، وكان يتشيّع.

وفيها: توفي عبد الله بن داود الخريبي البصري، وكان يسكن الخريبة بالبصرة فنسب إليها.

(١) لم ترد هذه السنة بالمخطوط، وقد سقطت من المخطوط الأصل حيث جاء بهامش المخطوط الذي اعتمدت عليه ما نصه: كذا في النسخة ثلاثة عشر بعد أحد عشرة. اهـ.
فرأيت إثباتها من الكامل بين معقوفين.
وربما كانت هي التي ذكرت في الفقرة الأخيرة من أحداث السنة السابقة عند قوله: وفي هذه السنة: قدم عبد الله بن طاهر مدينة السلام. . .
إلى قوله: وأظهر خلق القرآن وبفضل علي رضي الله عنه فآثرت ذكر هذه السنة بتفاصيلها من الكامل.

المأمون، فأطاعوا لذلك.

فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمرني به، وقد قبلت ما حباني منه ورددته عليكم.

فشكروه على ذلك.

ثم سار إلى أذربيجان، واستخلف على الموصل محمد ابن السيد، وقصد المخالفين المتغلبين على أذربيجان، فأخذهم، منهم: يعلى بن مرة، ونظراؤه، وسَيَّرهم إلى المأمون، وسار نحو بابك الخرمي لمحاربته.

وفي هذه السنة: خلع أحمد بن محمد العمري المعروف «بالأجمر العين» المأمون باليمن.

فاستعمل المأمون على اليمن محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازي وسَيَّره إليها.

وفيها: أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة.

وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وذلك في ربيع الأول.

وحجّ بالناس: عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

وفيها: كانت باليمن زلزلة شديدة، فكان أشدها بِعَدَن فتهدمت المنازل وخربت القرى، وهلك فيها خلق كثير.

وفيها: سيَّر عبد الله صاحب الأندلس جيشاً إلى بلد المشركين، فوصلوا إلى برشلونة، ثم ساروا إلى جرندة، وقاتل أهلها في ربيع الأول، فأقام الجيش شهرين ينهبون ويخربون.

وفيها: كانت سيول عظيمة، وأمطار متتابعة بالأندلس، فخربت أكثر الأسوار بمدائن ثغر الأندلس، وخربت قنطرة سرقسطة، ثم جددت عمارتها وأحكمت.

وفيها: توفي محمد بن يوسف بن واقد بن عبد الله الضبي المعروف بالفريابي، وهو من مشايخ البخاري][1].

ودخلت سنة ثلاثة عشر ومائتين

وفيها: مات طلحة بن طاهر بن الحسين بخراسان.

---

(١) هذا كل ما ذكره ابن الأثير في الكامل من أحداث تلك السنة نقلته كاملاً وذلك لترك الناسخ سهواً لتلك السنة فمن المخطوط سهواً كما أشرت سابقاً.

وفيها: ولّى أخاه أبا إسحاق الشام ومصر، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف درهم، فقيل: إنه لم يفرق في ساعة يوم من المال مثل ذلك[١].

---

(١) وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:

وفي هذه السنة: خلع عبد السلام، وابن جليس المأمون بمصر في القيسية، واليمانية، وظهرا بها، ثم وثبا بعامل المعتصم، وهو ابن عميرة بن الوليد الباذغيسي فقتلاه، في ربيع الأول سنة أربع عشرة ومائتين.

فسار المعتصم إلى مصر وقاتلهما فقتلهما، وافتتح مصر، فاستقامت أمورها واستعمل عليها عماله.

وفيها: مات طلحة بن طاهر بخراسان.

وفيها: استعمل المأمون غسان بن عباد على السند.

وسبب ذلك:

أن بشر بن داود خالف المأمون وجبى الخراج فلم يحمل منه شيئاً، فعزم على تولية غسان.

فقال لأصحابه: أخبروني عن غسان فإني أريده لأمر عظيم.

فأطنبوا في مدحه، فنظر المأمون إلى أحمد بن يوسف وهو ساكت فقال: ما تقول يا أحمد؟

فقال: يا أمير المؤمنين ذلك رجل محاسنه أكثر من مساوئه لا يصرف به إلى طبقة إلاّ انتصف منهم، فمهما تخوّفت عليه، فإنه لن يأتي أمراً يعتذر منه، فأطنب فيه.

فقال: لقد مدحته على سوء رأيك فيه؟!

قال: لأني كما قال الشاعر:

كفى شكراً لما أسدَيتُ أنّي ... صدقتُك في الصَّديق وفي عِدَاتي

قال: فأعجب المأمون من كلامه وأدّبه.

وحجّ بالناس في هذه السنة: عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي.

وفيها: قتل أهل ماردة من الأندلس عاملهم فثارت الفتنة عندهم، فسَيَّر إليهم عبد الرحمٰن جيشاً فحصرهم، وأفسد زرعهم، وأشجارهم، فعاودوا الطاعة، وأخذت رهائنهم، وأعاد الجيش بعد أن خربوا سور المدينة.

ثم أرسل عبد الرحمٰن إليهم بنقل حجارة السور إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارته.

فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان، وأسروا العامل عليهم، وجدّدوا بناء السُّور، وأتقنوه.

فلما دخلت سنة أربعة عشر سار عبد الرحمٰن صاحب الأندلس في جيوشه إلى ماردة، ومعه رهائن أهلها.

فلما بارزها راسله أهلها وافتكوا رهائنهم بالعامل الذي أسروه، وغيره.

وحصرهم، وأفسد بلادهم، ورحل عنهم، ثم سيَّر إليهم جيشاً سنة سبعة عشر ومائتين فحصروها، وضيَّقوا عليها، ودام الحصار، ثم رحلوا عنهم.

فلما دخلت سنة ثمانية عشر سَيَّر إليهم جيشاً ففتحها، وفارقها أهل الشر والفساد.

وكان من أهلها إنسان اسمه محمود بن عبد الجبار الماردي، فحصروا عبد الرحمٰن بن الحكم في جمع كثير من الجند، فصدّقوه القتال فهزموه وقتلوا كثيراً من رجاله، وتبعتهم الخيل في الجبل، فأفنوهم قتلاً وأسراً وتشريداً.

ومضى محمود بن عبد الجبار الماردي فيمن سلجم معه من أصحابه إلى منت سالوط فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشاً سنة عشرين ومائتين فمضوا هاربين عنه إلى حلقب في ربيع الآخر منها، فأرسل سرية في طلبهم، فقاتلهم محمود، فهزمهم وغنم ما معهم، ومضوا لوجهتهم. =

ودخلت سنة أربع عشرة ومائتين

وفيها: استفحل أمر بابك، وقتل محمد بن حميد، وفضّ عسكره، وقتل أكثر مَن كان معه[(١)].

وفيها: بعث المأمون إلى عبد الله بن طاهر إسحاق بن إبراهيم، ويحيى بن أكثم يخيرانه بين خراسان، والجبال، وأرمينية، وأذربيجان ومحاربة بابك.

= فلقيهم جمع من أصحاب عبد الرحمٰن مصادفة فقاتلهم ثم كفّ بعضهم عن بعض، وساروا فلقيهم سرية أخرى فقاتلوهم، فانهزمت السرية، وغنم محمود ما فيها.

وسار حتى أتى مدينة مينة فهجم عليها وملكها، وأخذ ما فيها من دواب وطعام، وفارقوها فأرسلوا إلى بلاد المشركين، فاستولوا على قلعة لهم، فأقاموا بها خمسة أعوام، وثلاثة أشهر فحصرهم أذفونس ملك الفرنج، فملك الحصن وقتل محموداً ومَن معه، وذلك سنة خمس وعشرين ومائتين في رجب، وانصرف مَن فيها.

وفيها: توفي إبراهيم الموصلي المُغَنِّي، وهو إبراهيم بن ماهان، والد إسحاق بن إبراهيم وكان كوفيًّا، وسار إلى الموصل، فلما عاد قيل له: الموصلي، فلزمه.

وعلي بن جبلة بن مسلم أبو الحسن الشاعر وكان مولده سنة ستين ومائة، وكان قد أضر.

ومحمد بن عرعرة بن البوند أبو عبد الرحمٰن المقرىء المحدّث.

وعبد الله بن موسى العباس الفقيه ـ وكان شيعيًّا ـ وهو من مشايخ البخاري في صحيحه.

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل سبب قتله له فقال:

وسبب ذلك: أنه لما فرغ من أمر المتغلبين على طريقه إلى بابك سار نحوه، وقد جمع العساكر والآلات والميرة، فاجتمع معه عالم كثير من المتطوعة من سائر الأمصار، فسلك المضائق إلى بابك، وكان كلما جاوز مضيقاً أو عقبة ترك عليه مَن يحفظه من أصحابه إلى أن نزل بهشتادسر، وحفر خندقاً، وشاور في دخول بلد بابك، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكروه له.

فقبل رأيهم وعبّى أصحابه، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمٰن الطائي المعروف بأبي سعيد، وعلى الميمنة السعدي بن أصرم، وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليقطيني.

ووقف محمد بن حميد خلفهم في جماعة ينظر إليهم، ويأمرهم بسد خلل رآه.

فكان بابك يشرف عليهم من الجبل، وقد كَمَّنَ لهم الرجال تحت كل صخرة.

فلما تقدّم أصحاب محمد، وصعدوا في الجبل مقدار ثلاث فراسخ، خرج عليهم الكمناء، وانحدر بابك إليهم فيمن معه، وانهزم الناس فأمرهم أبو سعيد، ومحمد بن حميد بالصبر، فلم يفعلوا، ومرُّوا على وجوههم، والقتل يأخذهم، وصبر محمد بن حميد مكانه، وَفَرَّ مَن كان معه غير رجل واحد.

وسارا يطلبان الخلاص فرأى جماعة وقتالاً، فقصدهم، فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه.

فحين رآه الخرمية قصدوه، لما رأوه من حُسن هيئته، فقاتلهم وقاتلوه، وضربوا فرسه بمزراق فسقط إلى الأرض، وأكبُّوا على محمد بن حميد فقتلوه.

وكان محمد ممدوحاً جواداً، فرثاه الشعراء وأكثروا منهم الطائي.

فلما وصل خبر قتله إلى المأمون عظم ذلك عنده، واستعمل عبد الله بن طاهر على قتال بابك، فسار نحوه.

فاختار خراسان وشخص إليها[١].

---

(١) ذكر ابن الأثير سبب مسيره إليها فقال: كان سبب مسيره إليها:
أن أخاه طلحة لما مات ولي خراسان علي بن طاهر خليفة لأخيه عبد الله، وكان عبد الله بالدينور يجهز العساكر إلى بابك وأوقع الخوارج بخراسان، بأهل قرية الحمراء من نيسابور، فأكثروا فيهم القتل.
واتصل ذلك بالمأمون، فأمر عبد الله بن طاهر بالمسير إلى خراسان، فسار إليها فلما قدم نيسابور، وكانوا أهلها قد قحطوا فمطروا قبل وصوله إليها بيوم واحد، فلما دخلها قام إليه رجل بزّاز فقال:

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت بالدررِ
غيثان في ساعة لنا قدما فمرحباً بالأمير والمطرِ

فأحضره عبد الله وقال له: أشاعر أنت؟
قال: لا، ولكني سمعتها بالرقة فحفظتها.
فأحسن إليه وجعل إليه أن لا يُشترى له شيئاً من الثياب إلاّ بأمره.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث أخرى جرت في تلك السنة، فقال:
وفي هذه السنة: خرج بلال الغساني الشاري فوجّه إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من القواد، فقتل بلال.
وفيها: قتل أبو الرازي باليمن.
وفيها: تحرك جعفر بن داود القمي، فظفر به عزيز مولى عبد الله بن طاهر، وكان هرب من مصر فَرُدَّ إليها.
وفيها: ولي علي بن هشام الجبل، وقُم، وأصبهان، وأذربيجان.
وفيها: توفي إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بالمغرب، وأقاموا بعده ابنه محمد بأمر مدينة فاس، فولّى أخاه القاسم البصرة، وطنجة، وما يليهما، واستعمل باقي إخوته على مدن البربر.
وفيها: سار عبد الرحمٰن الأموي صاحب الأندلس إلى مدينة باجة، وكانت عاصية عليه من حين فتنة منصور إلى الآن فملكها عنوة.
وفيها: خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة من الأندلس على صاحبها عبد الرحمٰن، وكان هاشم ممن خرج من طليطلة لما أوقع الحَكم بأهلها، فسار إلى قرطبة، فلما كان الآن سار إلى طليطلة، فاجتمع إليه أهل الشر وغيرهم، فسار بهم إلى وادي نحويبة، فأغار على البربر وغيرهم، فطار اسمه، واشتدت شوكته، واجتمع له جمع عظيم، وأوقع بأهل شنت برية، وكان بينه وبين البربر وقعات كثيرة.
فسيَّر إليه عبد الرحمٰن هذه السنة جيشاً، فقاتلوه، فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، وبقي هاشم كذلك، وغلب على عدة مواضع، وجاوز بركة العجوز، وأخذت غارة خيله، فسَيّر إليه عبد الرحمٰن جيشاً كثيفاً سنة ست عشرة ومائتين.
فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سَمْسطا بمجاورة رورية، فاشتدت الحرب بينهم ودامت عدة أيام.
ثم انهزم هاشم، وقتل هو وكثير ممن معه من أهل الطمع والشر، وطالبي الفتن، وكفى الله شرهم.
وحجّ بالناس: إسحاق بن العباس بن محمد.
وفيها: توفي أبو هاشم النبيل، واسمه الضحاك بن محمد الشيباني، وهو إمام في الحديث.
وفيها: توفي أبو أحمد حسين بن محمد البغدادي.

ودخلت سنة خمس عشرة ومائتين

وفيها: شخص المأمون من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم، فافتتح[1] [٨٨/أ] بها حصوناً، وعاد إلى دمشق[2].

ودخلت سنة ست عشرة ومائتين

[وفيها][3]: عاد[4] المأمون إلى الروم.

---

(١) تكررت هذه الكلمة في أول تلك الصفحة فحذفت التكرار.

(٢) زاد ابن الأثير في الخبر وأحداث السنة فقال في الكامل:
في هذه السنة: سار المأمون إلى الروم في المحرم فلما سار استخلف على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وولاّه مع ذلك السواد، وحلوان، وكور دجلة.
فلما صار المأمون بتكريت، قدم عليه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من المدينة فلقيه بها، فأجازه، وأمره بالدخول بابنته أم الفضل، وكان زوجها منه، فأدخلت عليه.
فلما كان أيام الحج سار بأهله إلى المدينة، فأقام بها.
وسار المأمون على طريق الموصل حتى صار إلى منبج، ثم إلى دابق، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى المصيصة، وطرسوس، ودخل منها إلى بلاد الروم في جمادى الأولى.
ودخل ابنه العباس من ملطية، فأقام المأمون على حصن قرة حتى افتتحه عنوة، وهدمه، لأربع بقين من جمادى الأولى.
وقيل: إن أهله طلبوا الأمان فأمَّنهم المأمون.
وفتح قبله حصن ماجدة بالأمان.
ووجه أشناس إلى حصن سندس، فأتاه برئيسه.
ووجه عجيفاً وجعفراً الخياط إلى صاحب حصن سناذ، فسمع وأطاع.
وفيها: عاد المعتصم من مصر، فلقي المأمون قبل دخوله الموصل، ولقيه منويل، وعباس بن المأمون برأس عين.
وفيها: توجّه المأمون بعد خروجه من بلاد الروم إلى دمشق.
وحجّ بالناس: عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.
وفيها: توفي قبيصة بن عقبة السوائي، وأبو يعقوب إسحاق بن الطباخ الفقيه، وعلي بن الحسن ابن شقيق صاحب ابن المبارك، وثابت بن محمد الكندي العابد المحدث، وهوذة بن خليفة بن عبد الله بن عبيد الله بن أبي بكرة أبو الأشهب، وأبو جعفر محمد بن الحارث الموصلي، وأبو سليمان الدردائي الزاهد توفي بداريا، ومكي بن إبراهم التيمي البلخي ببلخ، وهو من مشايخ البخاري في صحيحه، وقد قارب مائة سنة، وأبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري اللغوي النحوي، وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة.
وفيها: توفي عبد الملك بن قريب بن عبد الملك أبو سعيد الأصمعي اللغوي البصري، وقيل: سنة ست عشرة.
ومحمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري قاضي البصرة.

(٣) زيادة تصنيفية حرص عليها المؤلف من أول كتابه، وأحسب أن الناسخ تركها سهواً.

(٤) في المخطوط: فكر. والتصويب من الكامل.

وكان سبب ذلك:

ورود الخبر إلى المأمون بقتل ملك الروم قوماً من طرسوس، والمصيصة، وكانوا نحو ألفي رجل(١)، فشخص المأمون حتى دخل بلاد الروم(٢)، فما نزل(٣) على حصن إلاّ خرج إليه أهله على صلح حتى افتتح ثلاثين حصناً، حتى أغار على طوانة، وسبى، وقتل، وأحرق، وارتحل إلى دمشق(٤).

ودخلت سنة سبع عشرة ومائتين

[وفيها](٥): عاد المأمون(٦) إلى أرض الروم.

وكان سبب ذلك:

كتاب ورد عليه من ملك الروم يسأله الموادعة، وبدأ فيه بنفسه.

---

(١) في الكامل: أن ملك الروم قتل ألفاً وستمائة.

(٢) في الكامل: في جمادى الأولى، فأقام إلى منتصف شعبان.

(٣) في المخطوط: فما ترك. وهو تحريف بدليل ما بعده.

(٤) زاد ابن الأثير في هذا الخبر وفي أحداث تلك السنة فقال:
وقيل: كان سبب دخوله إليها أن ملك الروم كتب إليه فبدأ بنفسه، فسار إليه ولم يقرأ كتابه، ثم ساق الخبر على نحو مما هنا، ثم قال:
وفيها: ظهر عبدوس الفهري بمصر فوثب على عمال المعتصم، فقتل بعضهم في شعبان، فسار المأمون من دمشق إلى مصر منتصف ذي الحجة.
وفيها: قدم الأفشين من برقة، فأقام بِمصر.
وفيها: كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتكبير إذا صلُّوا فبدأ بذلك منتصف رمضان، فقاموا قياماً، وكبَّروا وكبَّروا ثلاثاً، ثم فعلوا ذلك في كل صلاة مكتوبة.
وفيها: غضب المأمون على علي بن هاشم، ووجّه عجيفاً، وأحمد بن هاشم، وأمر بقبض أمواله وسلاحه.
وفيها: ماتت أم جعفر زبيدة أم الأمين ببغداد.
وفيها: قدم غسان بن عباد من السند ومعه بشر بن داود مستأمناً، وأصلح السند، واستعمل عليها عمران بن موسى العتكي.
وفيها: هرب جعفر بن داود القمي إلى قم وخلع الطاعة بها.
وحجّ بالناس في قول بعضهم: سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس.
وقيل حجّ بهم: عبد الله بن عبيد الله بن عباس بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكان المأمون ولى اليمن، وجعل إليه ولاية كل بلد يدخله. فسار من دمشق فقدم بغداد فصلّى بالناس يوم الفطر، وسار عنها فحجّ بالناس.
وفيها: توفي أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني ببغداد، ومحمد بن عباد بن عباد بن حبيب ابن المهلب المهلبي أمير البصرة بها، ويحيى بن يعلى المحاربي، وإسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي.

(٥) زيادة تصنيفية دأب عليها المؤلف وتركها الناسخ هنا سهواً على ما أظن.

(٦) في المخطوط: عاد إلى المأمون إلى، فحذفت اللفظ الزائد وهو «إلى» الأولى من العبارة.

فغزا المأمون هذه الغزوة بحنق، وأنزل ابنه بطوانة من أرض الروم، ووجّه معه الفعلة، وابتدأ بها في بناء عظيم، وجعل سورها على ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كل باب حصناً.

وكتب إلى أخيه أبي إسحاق أن يفرض على جند دمشق وما والاها أربعة آلاف رجل، وأنه يجري على الفارس مائة درهم وعلى الراجل أربعين درهماً.

وفرض على مصر وغيرها من البلدان.

وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم وهو خليفة ببغداد، وفرض على أهل بغداد فرضاً[1].

[ودخلت سنة ثمان عشرة ومائتين][2]

وفي هذه السنة: كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاة والمحدثين والفقهاء فيمن لم يقل منهم بنفي التشبيه، وبخلق القرآن.

فأشخصهم إليه مقيدين، وكتب في ذلك كتاباً بليغاً، فيه آيات منتزَعة من القرآن وتهديد كثير، مع رفق في مواضع وطعن على أصحاب الحديث الذي لا يفقهون ولا يعقلون.

---

(١) وذكر ابن الأثير الخبر في الكامل على نحو مما هنا، وزاد في أحداث تلك السنة ما يلي:
في هذه السنة: ظفر الأفشين بالفرما من أرض مصر ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون، ووصل المأمون إلى مصر في المحرم من هذه السنة، فأتي بعبدوس الفهري، فضرب عنقه، وعاد إلى الشام.
وفيها: قتل المأمون علي بن هشام.
وكان سبب ذلك: أن المأمون كان استعمله على أذربيجان وغيرها كما تقدم ذكره، فبلغه ظلمه، وأخذ الأموال، وقتله الرجال، فوجّه إليه عجيف بن عنبسة، فثار به علي بن هشام وأراد قتله واللحاق ببابك، وظفر به عجيف، وقدم به على المأمون، فقتله، وقتل أخاه حبيباً في جمادى الأولى، وطيف برأس علي في العراق وخراسان، والشام، ومصر، ثم ألقي في البحر.
وفيها: سار المأمون إلى سلغوس.
وفيها: بعث علي بن عيسى القمي إلى جعفر بن داود القمي فقتل.
وحجّ بالناس: سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.
وفيها: توفي الحجاج بن المنهال بالبصرة، وسريج بن النعمان.
وسعدان بن بشر الموصلي يروي عن الثوري.
وفيها: توفي الخليل بن أبي رافع المزني الموصلي وكان عالماً عابداً، وأبوه جعفر بن محمد بن أبي يزيد الموصلي، وكان فاضلاً.

(٢) سقط عنوان تلك السنة من المخطوط، فدخلت أحداث سنة سبع عشرة في أحداث سنة ثمان عشرة ففصلت بينهما بالعنوان وجعلته بين معقوفين وأكد لي سقوط العنوان أحداث تلك السنة من خلال مراجعة كتاب الكامل في التاريخ.

فأشخص إليه جماعة فيهم:

محمد بن سعد كاتب الواقدي، ومستملي يزيد بن هارون.

ويحيى بن معين.

وزهير بن حرب، وعدة يجرون مجراهم.

فامتحنهم، وسألهم عن القرآن، فأجابوا جميعاً: أن القرآن مخلوق.

وامتحن إسحاق بن إبراهيم جماعة فمنهم بشر بن الوليد وقال: ما تقول في القرآن؟

قال: أقول إنه كلام الله.

قال: لم أسألك عن [هذا][(١)] أمخلوق[(٢)] هو؟

قال: الله خالق كل شيء.

قال: فالقرآن شيء.

[قال: نعم][(٢)].

قال: وهو مخلوق؟

قال: ليس بخالق.

قال: أهو[(٣)] مخلوق؟

قال: ما أحسن غير هذا.

ثم كلّم جماعة من وجوه الفقهاء والقضاة، فقالوا قريباً من قول بشر.

فكتب مقالات القوم رجل رجل إلى المأمون.

فكتب إليه المأمون في الجواب:

يستجهر واحداً واحداً ويحاجه ويشتم كل واحد بما يعرفه فيه، ويأمر في آخر الكتاب بأن مَن لم يرجع عن شركه يسفك دمه، أما بشر بن الوليد، فابعث برأسه إليّ، وكذلك إبراهيم بن الحسن، وأما الباقون، فأحملهم في قيود وأغلال لينفذ فيهم أمري.

فأجاب القوم كلهم: إن القرآن مخلوق، إلاّ اثنان: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، فشدّا في الحديد، ووجهها إلى طرسوس.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: مخلوق. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: هو. والألف في أوله ساقطة.

ثم بلغ المأمون أن بشر بن الوليد والجماعة تأوَّلوا قوله عزّ وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

فكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم: أن قد فهم أمير المؤمنين ما كتب به صاحب الخبر أن بشراً تأوّل الآية التي ذُكرت وقد أخطأ التأويل، إنما عنى الله عزّ وجل بهذه الآية مَن كان معتقداً الإيمان مظهراً الشرك، فأما مَن كان معتقداً الشرك مظهراً الإيمان، فليس هذه له.

فأشخص نحواً من عشرين رجلاً مع بشر بن الوليد من وجوه الفقهاء والقضاة، وأصحاب الحديث.

فلما بلغوا الرقة أتاهم وفاة المأمون، فردُّوا إلى مدينة السلام، فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم.

وفي هذه السنة: نفذت الكتب من المأمون إلى عماله في البلدان:

«من عبد الله المأمون أمير المؤمنين، وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد».

وقيل: إن ذلك لم يكتبه المأمون، وإنما مرض بالبذندون[1] وهو نهر بأرض الروم فلما أفاق أمر أن يكتب إلى العباس ابنه، وعبد الله بن طاهر، وإلى إسحاق:

أنه حدث بي حدث الموت في مرضه، فالخليفة من بعده أبو إسحاق بن الرشيد فكتب بذلك محمد بن يزداد، وختم الكتب وأنفذها.

فكتب أبو إسحاق إلى عماله:

من أبي إسحاق أخي أمير المؤمنين، والخليفة بعده أمير المؤمنين أمرهم بحسن السيرة، وتحفيف المؤنة.

وكتب إلى جميع مَن في أعماله من أجناد الشام جند حمص، والأردن، وفلسطين بمثل ذلك.

فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين صلّى إسحاق بن يحيى بن معاذ في مسجد دمشق، فقال في خطبته بعد دعائه لأمير المؤمنين: اللهم وأصلح الأمير أخا أمير المؤمنين والخليفة من بعده أمير المؤمنين أبا إسحاق بن الرشيد أمير المؤمنين.

وفي سنة ثماني عشرة ومائتين: توفي المأمون بالبذندون.

---

(١) في المخطوط: بالبيديدون، والتصويب من الكامل، وكذا في جميع المواضع القادمة في الخبر.

ذكر وفاته

حكى سعد[١] [بن][٢] العلاف القارىء قال: أرسل إليّ المأمون، وهو ببلاد الروم وكان دخلها من طرسوس، فحملت إليه وهو بالبذندون، وكان يستقربني فدعاني يوماً فجئته، فوجدته جالساً على شاطىء البذندون، وأبو إسحاق المعتصم جالس عن يمينه، فأمرني فجلست نحوه منه، فإذا هو وأبو إسحاق مدليان أرجلهما في البذندون.

فقال: دل رجلك في الماء وذقه، هل رأيت مثل هذا قط؟

ما [٨٨/ب] أشد برداً، ولا أعذب وأصفى صفاءً منه.

ففعلت، فقلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت مثل هذا قط.

قال: أي شيء يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء عليه؟

فقلت: أمير المؤمنين أعلم.

فقال: الرطب الإزاذ.

فبينما هو يقول هذا، إذ سمع وقع لجم البريد، فالتفت، فإذا بغال البريد على أعجازها [الحقائب]، تسعى بسلتين فيهما[٣] رطب إزاذٍ كأنما جنى من النخل تلك الساعة، فأظهر شكر الله تعالى، وكثر تعجبنا منه.

فقال: ادن فكُل.

فأكل هو، وأبو إسحاق، وأكلت معهما، فشربنا جميعاً من ذلك الماء، فما قام منا أحد إلاّ وهو محموم، وكانت منية المأمون من تلك العلة.

ولم يزل المعتصم عليلاً حتى دخل العراق، ولم أزل عليلاً حتى كان قريباً.

ولما اشتدت بالمأمون علته بعث إلى ابنه العباس وهو يظن أن لن يأتيه لشدة مرضه، فأتاه، وقام عند أبيه.

وقد وصّى قبل ذلك إلى أخيه أبي إسحاق، ثم أعاد الوصية بحضرة العباس، والقضاة، والفقهاء والقواد[٤].

---

(١) في المخطوط: سعيد. والتصويب من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في المخطوط: فيها. والتصويب من الكامل وأحسب أن سقطاً وقع هنا، والخبر في الكامل: فإذا بغال البريد عليها الحقائق فيها الألطاف، فقال لخادم: انظر إن كان في هذه الألطاف رطب إزاذ فأت به، فمضى، وعاد ومعه سلتان فيهما إزاذ كأنما جُني...

(٤) ذكر ابن الأثير نص وصية المأمون فقال في الكامل:
وكانت وصيته بعد الشهادة والإقرار بالوحدانية، والبعث، والجنة، والنار، والصلاة =

....

= على النبي ﷺ، والأنبياء:
«إني مُقر بذنب أرجو وأخاف إلاّ أني إذا ذكرت عفو الله رجوت، وإذا مت فوجهوني، وغمضوني، وأسبغوا وضوئي وطهوري، وأجيدوا كفني، ثم أكثروا حمداً للّه على الإسلام ومعرفة حقه عليكم في محمد ﷺ إذ جعلنا من أمته المرحومة، ثم أضجعوني على سريري، ثم عجلوا بي، وليصل علي أقربكم نسباً، وأكبركم سِنًّا، وليكبر خمساً، ثم احملوني، وابلغوا بي حفرتي لينزل بي أقربكم قرابة وأودكم محبة، وأكثروا من حمد الله وذكره، ثم ضعوني على شقي الأيمن، واستقبلوا بي القبلة، ثم حلّوا كفني عن رأسي ورجلي، ثم سدُّوا اللحد واخرجوا عني وخلوني وعملي، وكلكم لا يغني عني شيئاً، ولا يدفع عني مكروهاً، ثم قفوا بأجمعكم، فقولوا خيراً إن علمتم، وأمسكوا عن ذكر شر إن كنتم عرفتم، فإني مأخوذ من بينكم بما تقولون، ولا تدعوا بآلية عندي، فإن المعول عليه يعذب، رحم الله عبداً اتعظ وفكّر في ما حتم الله على خلقه من الغناء، وقضى عليهم من الموت الذي لا بد منه، فالحمد لله الذي توحّد بالبقاء، وقضى على جميع خلقه الفناء لينظر ما كنت فيه من عز الخلافة، هل أغنى عني ذلك شيئاً إذ جاء أمر الله؟
لا والله ولكن أضعف علي به الحساب، فيا ليت عبد الله بن هارون لم يكن بشراً بل ليته لم يكن خلقاً.
يا أبا إسحاق ادن مني واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله ومهلته وكأنه قد نزل بك الموت.
ولا تغفل أمر الرعية والعوام فإن الملك بهم وبتعهدك لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين.
ولا ينتهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم، وقربهم وتأن بهم، وعجل الرحلة عني، والقدوم إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم، فلا تغفل عنهم في كل وقت، والخرمية فأغزهم ذا حرمة، وصرامة وجلد وأكفنه بالأموال والجنود، فإن طالت مدتهم فتجرّد لهم فيمن معك من أنصارك، وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه رجاء ثواب الله عليه.
ثم دعا المعتصم بعد ساعة، حين اشتدّ الوجه وأحس بمجيء أمر الله، فقال: يا أبا إسحاق عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ لتقو من بحق الله في عباده، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته إذ أنا نقلتها من غيرك إليك.
قال: اللهم نعم.
قال: هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين عَلِيّ صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة عند محالها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿١٠٢﴾﴾ واتقوا الله واعملوا له، واتقوا الله في أموركم كلها، أستودعكم الله ونفسي وأستغفر الله ما سلف مني إنه كان غفّاراً فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي، فعليه توكلت من عظيمها، وإليه أنيب، ولا قوة إلا بالله حسبي الله ونعم الوكيل وصلّى الله على محمد نبي الهدى والرحمة.
وفي هذه السنة: توفي المأمون لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب.
فلما اشتد مرضه وحضره الموت كان عنده مَن يلقنه فعرض عليه الشهادة، وعنده ماسويه الطبيب، فقال لذلك الرجل: دعه فإنه لا يفرق في هذه الحال بين ربه وماني، ففتح المأمون عينيه وأراد أن يبطش به فعجز عن ذلك، وأراد الكلام فعجز عنه، ثم إنه تكلم، فقال: يا مَن لا يموت ارحم مَن يموت، ثم توفي من ساعته.
ولما توفي حمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد...

ولما توفي حمله ابنه العباس، وأخوه أبو إسحاق إلى طرسوس فدفناه في دار خاقان خادم الرشيد، وصلّى عليه أخوه أبو إسحاق.

فكانت خلافته عشرين سنة وستة أشهر سوى سنتين كان دعى له فيهما بمكة، وأخوه الأمين محمد بن الرشيد محصور ببغداد[١].

وكان ولد يوم النصف من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وكان ربعة أبيض جميلاً. [طويل اللحية رقيقها قد وَخَطها الشيب][٢].

وقيل: كان أسمر تعلوه صفرة، أقنى أعين طويل اللحية رقيقها أشيب [ضيق الجبهة][١] بخده خال أسود.

وأما سيرته:

فمشهورة لا تخفى على أحد جودة، وعطاء، وسماحة أخلاقه وحلمه، ولكنا نحكي عن العبسي صاحب إسحاق بن إبراهيم أنه قال:

كنت مع المأمون بدمشق، وكان قد قَلَّ المال عنده حتى أضاق وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعه.

قال: فكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف درهم من خراج ما كان يتولاه أبو إسحاق.

قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى المال.

قال: فخرجنا، ووقفنا، فنظر إليه، وقد كان هيأه بأحسن هيئة وحليت أباعره وألقت الأحلاس التي وشيت والجلال المصبغة وقلدة الرهن وحلبت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر، وأبديت رؤوسها.

قال: فنظر المأمون إلى شيء حسن واستكثره، وعظم في عينه واستشرفه الناس ينظرون إليه ويعجبون منه.

فقال المأمون ليحيى: يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة [يعودون][٣] خائبين إلى منازلهم، وننصرف نحن بهذه الأموال، قد ملكناها دونهم إنّا

---

(١) في الكامل:
وكانت خلافته عشرين سنة، وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً سوى سنين كان له دعى فيها بمكة وأخوه الأمين محصور. . . وكان كنيته أبا العباس.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

إذاً للئام.

ثم دعا محمد بن يزداد فقال: وقع لفلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها أو بخمسمائة ألف.

قال: فوالله ما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف، ورجله في الركاب.

ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلى بن أيوب يعطِ جندنا.

قال العبسي: فجئت حتى قمت بنصب عينيه، وحدقت نحوه، فلم أرَ طرفي عينيه لا تلحظني إلاّ وإني في تلك الحال، فقال: يا محمد، وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة ألف ألف لا تحكر ناظري، فلم يأت عليّ ليلتان حتى أخذت المال.

وللمأمون شعر كثير فمن مشهور شعره:

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنّا

فناجيت مَن أهوى وكنت مباعداً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى

أرى أثراً منه بعينيك بَيّنا ... لقد أخذت عيناك من عينه حُسناً[(١)]

فيا ليتني كنت الرسول وكفيتني ... فكنت الذي يقضي وكنت الذي أدنى

(١) وذكر ابن الأثير كثير من سيرته وأخباره قبل هذا الخبر وبعده، وأنا أذكر لك ما ذكره ابن الأثير من سيرته بعد هذا الشعر حيث قال:
قيل: وإنما أخذ المأمون هذا المعنى من العباس بن الأحنف فإنه أخرج هذا المعنى فقال:

إن تشق عيني بها فقد سعدت ... عين رسولي وفزت بالخَبَرِ

وكلما جاءني الرسول لها ... وددت عهداً في عينه نظري

خذ مقلتي يا رسول عارية ... فانظر بها واحتكم على بصري

قيل: وشكا اليزيدي يوماً إلى المأمون ديناً لحقه.
فقال: ما عندي في هذه الأيام ما إن أعطيناك بلغت به ما تريد.
فقال: يا أمير المؤمنين إن غرمائي قد أرهقوني.
قال: انظر لنفسك أمراً تنال به نفعاً.
فقال: إن لك ندماء فيهم من أن حركته نلت به نفعاً.
قال: أفعل.
قال: إذا حضروا عندك فمر فلاناً الخادم يوصل رقعتي إليك، فإذا قرأتها، فأرسل إليّ دخولك في هذا الوقت متعذر ولكن اختر لنفسك مَن أحببت.
قال: أفعل، فلما علم اليزيدي جلوس المأمون مع ندمائه وتيقن أنهم قد أخذ الشراب منهم، أتى الباب فدفع إلى الخادم رقعته، فإذا فيها:

يا خير إخواني وأصحابي ... هذا الطفيلي على الباب

أخبرَ أن القوم في لذةٍ ... يصبو إليها كل أوّابِ

فصيروني واحداً منكم ... أو أخرجوا لي بعض أترابي

فقرأها المأمون عليهم، وقالوا: ما ينبغي أن يدخل علينا على مثل هذه الحال. =

....

تم الجزء الثالث، ويليه الجزء الرابع
وأوله: خلافة المعتصم العباسي

= فأرسل إليه المأمون دخولك في هذا الوقت متعذر فاختر لنفسك مَن أحببت تنادمه.
فقال: ما أريد إلاّ عبد الله بن طاهر.
فقال له المأمون: قد اختارك فسِر إليه.
قال: يا أمير المؤمنين، وأكون شريك الطفيلي؟!!
فقال: ما يمكن رد أبي محمد عن أمرين فإن أحببت أن تخرج إليه وإلا فافتدِ نفسك منه.
فقال: عليّ عشرة آلاف.
قال: لا يقنعه.
فما زال يزيد عشرة عشرة والمأمون يقول: لا ينفعه حتى بلغ مائة ألف.
فقال له المأمون: فعجلها.
فكتب بها إلى وكيله ووجه معه رسولاً، وأرسل إليه المأمون قبض هذه الدراهم في هذه الساعة أصلح من منادمته وأنفع لك.
وقال عمارة بن عقيل: قال لي عبد الله بن أبي السمط أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟
قلت: ومَن يكون أعلم منه؟ فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره.
قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم يتحرك له.
قلت: وما هو؟ قال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً ... بالدين والناس بالدنيا مشاغل

قال: فقلت: والله ما صنعت شيئاً هل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها، فإذن من الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها؟ ألا قلت كما قال جدي جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا يُضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال: الآن علمت أني قد أخطأت.
قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار:
كان المأمون شديد الميل إلى العلويين والإحسان إليهم وخبره مشهور معهم وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً، فمن ذلك أنه توفي في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصلاة عليه بنفسه، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجّبوا منه.
ثم إن ولداً لزينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ـ وهي ابنة عم المنصور ـ توفي بعده، فأرسل له المأمون كفناً وسَيَّر أخاه صالحاً ليصلي عليه، وليعزي أمه، فإنها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة، فأتاها وعزاها عنه، واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها: تقدّم فصلِّ على أبيك؛ وتمثلت:

سبكناه ونحسبه لجينا ... فأبدى الكير عن خبث الحديدِ

ثم قالت لصالح: قل له يا ابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد، لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته.

فهرس المحتويات

تجارب الأمم
وتعاقب الهمم

تأليف

أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه
المتوفى سنة ٤٢١ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الرابع

يحتوي على الحوادث التي جرت منذ خلافة المعتصم بالله العباسي سنة ٢١٨ هـ
حتى نهاية عصر المكتفي بالله العباسي سنة ٢٩٥ هـ

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3414-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خلافة المعتصم العباسي

وفي هذه السنة: بويع لأبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بالخلافة لاثنتي عشرة ليلة بقيت[(١)] من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين.

وفيها: شغب الناس على المعتصم وطلبوا العباس، ونادوه باسم الخلافة.

فأرسل أبو إسحاق المعتصم إلى العباس، فأحضره فبايعه[(٢)].

ثم خرج إلى الجند وقال: ما هذا الحب البارد؟

قد بايعت عمي، وسلّمت الخلافة إليه.

فسكن الجند.

وفيها: أمر المعتصم بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة، وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله، وأحرق ما لم يقدر على حمله.

وأمر بصرف مَن كان المأمون أسكن ذلك الموضع من الناس إلى بلادهم.

وفيها: انصرف المعتصم إلى بغداد، ومعه العباس بن المأمون، فقدمها يوم السبت مستهل شهر رمضان.

وفيها: دخل جماعة من أهل الجبال كثيرة من همدان وأصبهان، وماسذان[(٣)]، ومهرما تعدق وغيرها في دين الخرمية، ثم تراسلوا وتجمّعوا في أعمال همدان.

فوجّه المعتصم إليهم عساكر، وكان آخر عسكر وجهه مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وعقد له على الجبال، فشخص إليهم فقاتلوه، وهزمهم، وقتل منهم هناك ستين ألفاً وهرب باقيهم إلى بلاد الروم وكتب بالفتح إلى المعتصم[(٤)].

---

(١) في المخطوط: أو بقيت. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: بايعه. والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: ماسند. والتصويب من الكامل.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداثها فقال:

وفي هذه السنة: وجّه زيادة الله بن الأغلب صاحب إفريقية جيشاً لمحاربة فضل بن أبي العنبر بالجزيرة، وكان مخالفاً لزيادة الله، فاستمدّ فضل بعد السلام بن المفرج الربعي، وكان أيضاً مخالفاً من عهد فتنة منصور كما ذكرنا.

فسار إليه، فالتقوا مع عسكر زيادة الله، وجرى بين الطائفتين قتال شديد عند مدينة اليهود =

ودخلت سنة [تسع][(١)] عشرة ومائتين

وفيها: ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي [٨٩/أ] طالب رضي الله عنه بالطالقان وجبالها كان أخَّرها عليه[(٢)].

فانهزم هو وأصحابه، ومضى هارباً يريد بعض كور خراسان، كان أهلها كاتبوه فلما صار بِنَسا كان بها والد بعض مَن معه، فمضى الرجل الذي كان له والد هناك ليسلّم على والده، فلما تلاقوا، سأله عن الخبر، فأخبره أنهم يقصدون كورة كذا.

فمضى أبو ذلك الرجل إلى عامل نَسَا فأخبره بأمر محمد بن القاسم.

فبذل له العامل على دلالته عليه مالاً[(٣)].

وجاء العامل إلى محمد بن القاسم فأخذه واستوثق منه، وبعث به إلى عبد الله بن طاهر.

فبعث به عبد الله بن طاهر إلى المعتصم فحبس بِسُرَّ مَنْ رَأَى، ووكل به قوم يحفظونه[(٤)].

= بالجزيرة، فقتل عبد السلام وحمل رأسه إلى زيادة الله.

وسار فضل بن أبي العنبر إلى مدينة تونس فدخلها، وامتنع بها فسيَّر زيادة الله إليه جيشاً فحصروا فضلاً بها وضيَّقوا عليه حتى فتحوها منه، وقتل وقت دخول العسكر كثير من أهلها منهم: العباس بن الوليد الفقيه، وكان دخل في بيته، ولم يقاتل، فدخل عليه بعض الجند فأخذ سيفه وخرج وهو يصيح الجهاد، فقتل، وبقي مرمي في خربة سبعة أيام لم يقربه ذُو نابٍ، ولا مخلب، وكان قد سمع الحديث من ابن عيينة وغيره، وكان من الصالحين.

وهرب كثير من أهل تونس لما ملكت، ثم أمنهم زيادة الله فعادوا إليها.

وفيها: توفي بشر بن غياث المريسي، وكان يقول بخلق القرآن، والإرجاء، وغيرهما من البدع.

وحجّ بالناس هذه السنة: صالح بن العباس بن محمد.

(١) سقط اسم السنة من العنوان في المخطوط وهو سهو من الناسخ.

(٢) كذا وفي الكامل بين قوله: «بالطالقان» إلى قوله: «فانهزم هو وأصحابه». ما أظن أنه سقط من المخطوط وهو ما يلي: بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ.

وكان ابتداء أمره أنه كان ملازماً مسجد النبي ﷺ حسن السيرة، فأتاه إنسان من خراسان اسمه أبو محمد كان مجاوراً فلما رآه أعجبه طريقه.

فقال له: أنت أحق بالإمامة من كل أحد، وحسن له ذلك وبايعه وصار الخراساني يأتيه بالنفر من حجاج خراسان يبايعونه، فعل ذلك مدة، فلما رأى كثرة مَن بايعه من خراسان سارا جميعاً إلى الجوزجان، واختفى هناك، وجعل أبو محمد يدعو الناس إليه فعظم أصحابه، وحمله أبو محمد على إظهار أمره فأظهره بالطالقان، فاجتمع إليه بها ناس كثير.

وكانت بينه وبين قوّاد عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فانهزم هو وأصحابه...

(٣) في الكامل: فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم على دلالته.

(٤) في الكامل: فسيَّره إلى المعتصم، فورد إليه منتصف شهر ربيع الأول، فحبس عند مسرور الخادم الكبير، وأجرى عليه الطعام ووكل به قوماً يحفظونه.

فلما كانت ليلة الفطر بالعيد والتهنئة، هرب من الحبس وافتقد[١]، فجعل لمَن يدل عليه مائة ألف درهم، فنادى المنادي فما عرف له خبر إلى اليوم[٢].

وفيها: وجه المعتصم عجيف بن عنبسة [في جمادى الآخرة][٣] لحرب الزُّط[٤] الذين[٥] كانوا عاثوا في طريق البصرة[٦]، وكانوا تغلّبوا على تلك الناحية، فقطعوا الطريق، واحتملوا غلات البيار بكَسْكَر وما يليها من البصرة، وأكثروا الفساد.

فرتب[٧] المعتصم الخيل في سكك البصرة، وبغداد البُرُدِ[٨] تركض إليه بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصير إلى المعتصم من يومه.

وولّى النفقة على عجيف من قِبل إبراهيم بن الحري كاسا، فسار عجيف في خمسة آلاف رجل إلى الصافية، وهي قرية أسفل واسط فَسَدَّ نهراً بها[٩].

فحمل من دجلة ثم سار إلى بَرْدُوادَا[١٠] فَسَدَّ أنهاراً أُخر، وحصرهم من كل جهة.

ثم قصدهم فأسر منهم جماعة، وقتل جماعة، فضرب أعناق الأسرى، وبعث برؤوس القتلى إلى المعتصم[١١].

ثم أقام عجيف بإزاء الزط[١٢] خمسة عشر يوماً، فظفر بخلق كثير منهم، فأنفذهم، ثم جاهده الباقون فمكث يقاتلهم بعد ذلك تسعة[١٣] أشهر[١٤].

---

(١) في الكامل: هرب من الحبس دلّي إليه حبل من كوة كانت يدخل منها الضوء فلما أصبحوا أتوه بالطعام للغداء فلم يروه، وجعلوا لمن عليه مائة ألف فلم يعرف.

(٢) أي إلى يوم ظهوره.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في المخطوط: النط. والتصويب من الكامل.

(٥) في المخطوط: الذي. والتصويب من الكامل.

(٦) في الكامل: الذين كانوا غلبوا على طريق البصرة.

(٧) في المخطوط: فربت. والتصويب من الكامل.

(٨) في الكامل: البريد. والمعنى واحد وما هنا جمع كلمة بريد.

(٩) في الكامل: فنزل تحت واسط وأقام على نهر يقال له: بَرْدُوادَا حتى سدّه وأنهاراً أخر كانوا يخرجون منها ويدخلون.

(١٠) في المخطوط: بردودا. والتصويب من الكامل.

(١١) في الكامل: وبعث بالرؤوس إلى باب المعتصم.

(١٢) في المخطوط: النط. والتصويب من الكامل.

(١٣) في الكامل: سبعة أشهر وأشار محققه إلى أنه في الطبري: تسعة أشهر أي كما هنا.

(١٤) وزاد ابن الأثير في أحداثها فقال:

وفي هذه السنة: سَيّر عبد الرحمٰن بن الحكم الأموي صاحب الأندلس جيشاً مع أمية بن الحكم إلى مدينة طليطلة فحصرها.

وكانوا قد خالفوا الحكم وخرجوا عن الطاعة، واشتد في حصرهم، وقطع أشجارهم وأهلك =

ودخلت سنة عشرين ومائتين

وفيها: دخل عجيف بالزُّط[١] بغداد بعد أن قهرهم حتى طلبوا الأمان، فأمنهم على دمائهم وأموالهم، وكانت عدتهم سبعة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي، فجعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل نهر الزعفرانية.

وأعطى أصحابه دينارين جائزة، ثم عبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب مع البوقات فكان [كذلك][٢] حتى دخل بغداد بهم، والمعتصم ببغداد في سفينة يقال لها الروحي، فمَرّ به الزطّ على هيئتهم، ينفخون في البوقات، وكان أولهم بالقُفص، وآخرهم بحذاء الشماسية، وأقيموا في سفنهم ثلاثة أيام، [ثم نقلوا إلى الجانب الشرقي][٣] ثم دفعوا إلى بشر بن السميدع، فذهب بهم خائفين، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زَربة، فأغارت عليهم الروم، فاجتاحتهم، فلم يفلت منهم أحد.

وفي هذه السنة: عقد المعتصم لأفشين حيدر بن كاوس على[٤] الجبال، وحرب بابك، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة، فعسكر بمصلى بغداد، ثم سار إلى برزند.

= زروعهم، فلم يذعنوا إلى الطاعة، فرحل عنهم.
وأنزل بقلعة رباح جيشاً عليهم ميسرة المعروف بفتى أبي أيوب، فلما أبعدوا منه، خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون فرصة وغفلة من ميسرة فينالوا منه ومن أصحابه غرضاً، وكان ميسرة قد بلغه الخبر، فجعل الكمين في مواضع.
فلما وصل أهل طليطلة إلى قلعة رباح للغارة، خرج الكمين عليهم من جوانبهم، ووضعوا السيف فيهم وأكثروا القتل، وعاد مَن سلم منهزماً إلى طليطلة، وجمعت رؤوس القتلى وحملت إلى ميسرة، فلما رأى كثرتها عظمت عليه، وارتاح لذلك، ووجد في نفسه غمًّا شديداً، فمات بعد أيام يسيرة.
وفيها أيضاً: كان بطليطلة فتنة كبيرة تعرف بملحمة العراس، قتل من أهلها كثير.
وفيها: أحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله، وتقطع جلده، وحبس مقيداً.
وفيها: قدم إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد في جمادى الأولى ومعه من أسرى الخُرّمية خلق كثير.
وقيل: إنه قتل منهم نحو مائة ألف سوى النساء والصبيان.
وفيها: توفي أبو نعيم الفضل بن دكين الملائي مولى طلحة بن عبد الله التيمي في شعبان، وهو من مشايخ البخاري ومسلم، وكان مولده سنة ثلاثين ومائة، وكان شيعيًّا وله طائفة تنسب إليه يقال لها: الدكينية.

(١) في المخطوط: النط. والتصويب من الكامل وفي كل موضع.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل وأحسبها سقطت من المخطوط.
(٤) في المخطوط: حيدر بن علي كارس على الجبال، فحذفت الزائد وضبط الاسم على ما في الكامل.

ذكر بابك ومخرجه

كان ظهور[١] بابك في سنة إحدى ومائتين وكان من قرية يقال لها: البَذّ[٢]، وهزم جيوش السلطان وقتل من قواده جماعة، فلما أفضى الأمر إلى المعتصم وجّه المعتصم أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل وأمره أن يبتني الحصون التي خربها بابك فيما بين زِنجان، وأردبيل، ويقيم مسالح لحفظ الطريق لمَن يجلب الميرة إلى أردبيل.

فوجّه أبو سعيد لذلك وبنى الحصون التي خربها بابك.

ثم وجّه بابك سرية إلى بعض غاراته وعليها أمير من قِبله يقال له: معاوية، فعرض له أبو سعيد، فاستنقذ ما كان حواه، وقتل من أصحابه جماعة وأسر جماعة، فهذه أول هزيمة كانت على أصحاب بابك.

ووجّه أبو سعيد الرؤوس، والأسرى إلى المعتصم بالله[٣].

ولما سار الأفيش إلى [بلاد بابك فنزل][٤] برزند عسكر بها، وزم [الطرق][٤] والحصون فيما بين برزند وبين أردبيل، وأنزل الهيثم الغنوي القائد في رستاق يقال له: أرشق، فرَمّ حصنه، واحتفر له خندقاً.

وأنزل علوية الأعور من قواد الأبناء في حصن مما يلي أردبيل يسمى حصن النهر.

وكانت السابلة والقوافل تخرج فيسلمها بدرقه من واحد من هؤلاء إلى آخر حتى ينادون إلى ميامنهم، وكان كلما ظفر واحد من هؤلاء القواد بجاسوس وجّهوا به إلى الأفشين.

---

(١) في المخطوط: ظهر، وهو تحريف، فضبط على الأنسب للسياق.

(٢) كورة بين أذربيجان، وآران.

(٣) زاد ابن الأثير في الخبر فقال:
ثم كانت الأخرى لمحمد بن البعيث، وذلك أن محمداً كان في قلعة له حصينة تسمى الشاهي، كان ابن البعيث قد أخذها من ابن الرواد وهي من كورة أذربيجان، وله حصن آخر من أذربيجان يسمى تبريز، وكان مصالحاً لبابك تنزل سراياته عنده فيضيفهم حتى أنسوا به، ثم إن بابك وجّه قائداً اسمه عصمة من أصبهبديته في سرية فنزل بابن البعيث فأنزل له الضيافة على عادتها واستدعاه له في خاصة ووجوه أصحابه، فصعد فغذاهم وسقاهم الخمر حتى سكروا، ثم وثب على عصمة فاستوثق منه، وقتل مَن كان معه من أصحابه، وأمره أن يسمي رجلاً رجلاً من أصحابه، فكان يدعو الرجل فيصعد، فيضرب عنقه حتى علموا بذلك فهربوا.
وسيّر عصمة إلى المعتصم، فسأل المعتصم عصمة عن بلاد بابك، فأعلمه طرقه ووجوه القتال فيها، ثم ترك عصمة محبوساً فبقي إلى أيام الواثق.
ثم إن الأفيش سار إلى بلاد بابك. . .

(٤) زيادة من الكامل.

وكان الأفشين لا يقتلهم ولا يضرهم، ولكن يهب لهم، ويصلهم ويسألهم ما كان بابك يعطيهم؟

فيضعف لهم ويقول للجاسوس: كن جاسوساً لنا [فكان ينتفع بهم][(١)].

وفيها: كانت الوقعة بين بابك، والأفشين بأرشق، قتل فيها من أصحاب بابك كثير، وهرب بابك إلى موقوبان[(٢)]، ثم شخص إلى مدينته التي تدعى البذ.

ذكر السبب في ذلك

كان المعتصم وجّه مع بغا الكبير بمال إلى الأفشين عطاء لجنده، فقدم بغا بذلك المال أردبيل فلما نزلها بلغ بابك خبره فتهيأ ليقطع عليه [الطريق][(٣)] قبل وصوله إلى الأفشين.

فقدم جاسوس على الأفشين، فأخبره أن بغا الكبير قد قدم بمال، وأن بابك وأصحابه قد[(٤)] تهيأ ليقطعوه قبل وصوله إليك.

وكان هذا الجاسوس قد ورد على أبي سعيد أولاً، فوجّه به أبو سعيد إلى الأفشين، وهيأ بابك كميناً في مواضع للمال.

فكتب الأفشين إلى أبي سعيد يأمره أن يحتال لمعرفة صحة خبر بابك، ومضى أبو سعيد متنكراً مع جماعة حتى نظروا إلى النيران في المواضع التي وصفها الجاسوس.

فكتب الأفشين إلى بغا أن يظهر أنه يريد الرحيل ويشد المال على الإبل ويقطرها [٨٩/ب] ويسير متوجهاً من أردبيل كأنه يريد برزند[(٥)]، فإذا صار إلى مسلحة النهر وصار [بينه][(٦)] وبينها فرسخين احتبس القطار حتى يجوز من صحب المال من قافلة وغيرها إلى برزند، فإذا جاوزت القافلة رجع بالمال إلى أردبيل، ففعل ذلك بغا.

وسارت القافلة حتى نزلت النهر، وانصرف جواسيس بابك إليه يعلمونه أن المال قد حمل وعاينوه محمولاً.

ورجع بغا بالمال إلى أردبيل، وركب الأفشين في اليوم الذي وعد فيه بغا [عند العصر][(٧)] من برزند فوافى خُشّ[(٨)] مع غروب الشمس، فنزل معسكر خارج الخندق

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل مُوقان وقال محققه بالهامش: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في المخطوط: فقد. وهو تحريف.

(٥) قرية من نواحي تفليس من أعمال جزران من أرمينية الأولى.

(٦) زيادة يتطلبها السياق.

(٧) زيادة من الكامل.

(٨) خُش: من قرى أسفرايين من أعمال نيسابور، يقال لها أيضاً: خوش.

لأبي سعيد، فلما أصبح ركب في سرٍّ لم يضرب طبلاً ولا نشر علماً، وأمر أن تُلف الأعلام، وأمر الناس بالسكوت، وجدَّ في المسير.

ورحلت القافلة التي كانت توجهت في ذلك اليوم من النهر إلى ناحية الهيثم الغنوي.

ورحل الأفشين من خُشٍّ يريد ناحية الهيثم ليصادفه في الطريق، ولم يعلم الهيثم، فركب بمَن كان معه يريد النهر، وتعبّأ بابك فيْ خيله ورجاله وعساكره، وسار على طريق النهر ـ وهو يظن أن المال موافيه ـ.

وخرج صاحب النهر ببدرق من عنده ـ وهو علوية الذي قلنا إنه كان مرئياً هناك ـ فأخذ يسير نحو الهيثم على رسمه.

فخرجت عليه خيل بابك وهم لا يشكون أن المال معهم.

فقاتلهم صاحب النهر علوية وأصحابه، فقتلوه وقتلوا مَن كان معه من الجند والسابلة وأخذ جميع ما كان معهم من المتاع وعلموا أن المال قد فاتهم، فأخذوا علمهم، ولباس أهل النهر ودراريعهم وحقائبهم ولبسوها وتنكروا ليأخذوا الهيثم أيضاً ومَن معه، ولا يعلمون بخروج الأفشين، وجاؤوا كأنهم أصحاب النهر، فلما جاؤوا ولم يعرفوا الموضع الذي كان يقف فيه علم صاحب النهر، فوقفوا في غير موضعه.

جاء الهيثم فوقف في موقفه، فأنكر ما رأى فوجه ابن عم له، وقال له: اذهب إلى هذا البغيض[1]، فقل له: رأى[2] شيء وقوفك؟ فجاء ابن عم الهيثم، فلما رأى القوم ودنا منهم أنكرهم، فرجع إلى الهيثم، فقال: إن هؤلاء القوم لست أعرفهم.

فقال له الهيثم: أخزاك الله، ما أجنك؟

ووجه خمسة من الفرسان، فلما قربوا من القوم خرج من الخرمية رجلان فتلقوهم فأنكروهما وأعلموهما أنهم قد عرفوهما، فرجعوا إلى الهيثم ركضاً، فقالوا: إن الكافر قد قتل علوية، وأصحابه، وأخذوا أعلامهم ولباسهم.

فانصرف الهيثم وأتى القافلة التي كانت معه، فأمرهم أن يركضوا ويرجعوا لئلا يؤخذوا، ووقف هو في أصحابه يسير بهم قليلاً قليلاً، ويقف قليلاً، ليشغل الخرمية عن القافلة، وصار شبيهاً بالحامية لهم، حتى وصلت القافلة إلى حصنه الذي كان فيه يكون الهيثم وهو راشق[3].

---

(١) في المخطوط: التبغيض. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: أي. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: أرشق. والتصويب من الكامل وكذا ما بعده من مواضع ذكره.

وقال لأصحابه: مَن يذهب منكم إلى الأمير، وإلى أبي سعيد فيعلمهما وله عشر آلاف درهم وفرس بدل فرسه أن ينفق؟

فتوجه رجلان من أصحابه على فرسين، فارهين يركضان، ودخل الهيثم الحصن، وأخرج بابك فيمن معه، ونزل بالحصن، ووضع له كرسي، وجلس على شرف بحيال الحصن وأرسل الهيثم مَن يحاربه.

وكان مع الهيثم في الحصن ستمائة راجل، وأربعمائة فارس، وله خندق حصين، فقاتله.

وقعد بابك فيمن معه، ووضع بين يديه الخمر مع أصحاب له يشربونها، والحرب مشتبكة.

ولقي الفارسان الأفشين على أقل من فرسخ من راشق، فساعة نظر إليهما من بعيد قال لصاحب مقدمته: اضربوا بالطبل، وانشروا الأعلام، واركضوا نحو هذين الفارسين اللذين يركضان إلينا، وصيحوا بهما لبيك لبيك.

فلم يزل الناس في طلق واحد متراكضين يكر بعضهم بعضاً حتى لحقوا بابك، وهو جالس [فلم][1] يتدارك أن يركب ويتحرك حتى وافته الخيل والناس، فاشتبكت[2] الحرب، فلم يفلت من رجالة بابك، وأفلت هو في نفر يسير، ودخل موقان، وقد تقطّع عنه أصحابه.

وأقام الأفشين في ذلك الموضع، وبات ليلته، ثم رجع إلى معسكره ببرزند.

وأقام بابك بموقان، ثم بعث إليه البذ فجاءه في الليل عسكر فيهم رجاله، فرحل من موقان حتى دخل البذ فلما كان بعد أيام مرت قافلة من خُشّ إلى برزند من قِبل أبي سعيد ومعها صاحب له ومعه ميرة ومتاع يحمل إلى عسكر الأفشين، فخرج عليهم أصفهبد[3] بابك، فأخذ القافلة وقتل مَن كان فيها من أهل القافلة، وانتهب جميع ما فيها فقحط عسكر الأفشين.

فكتب الأفشين إلى صاحب المراغَة[4] يأمره بحمل الميرة وتعجيلها عليه، فإن الناس قد قحطوا وضاقوا.

فوجّه صاحب المراغة بقافلة فيها قريب من ألف ثور سوى الحمير والدواب

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: واستكب، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: أصفهبد وما أثبته من الكامل وهو وجه في نطق اسمه وأثبت ما هو أخف نطقاً.
(٤) مراغة: من أشهر بلاد أذربيجان وأكبرها.

تحمل الميرة ومعها جند يبدرقونها.

فخرجت عليهم سرية لبابك، واستباحوها عن آخرها بجميع ما فيها، وأصاب الناس ضيق شديد، فكتب الأفشين إلى صاحب الشيروان[١] أن يحمل إليه طعاماً كثيراً، وأغاث الناس في تلك السنة، وقدم بغا على الأفشين بمال ورجال.

وفي هذه السنة: خرج المعتصم إلى القاطول، وابتدأ ببناء سُرَّ مَنْ رأى، وذلك في ذي القعدة منها.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب خروجه إلى القاطول: أن غلمانه الأتراك كانوا جفاة[٢] قد أطغتهم [٩٠/أ] [أنفسهم][٣].

ورأى فيهم نجابة، وكان لا يزال يجد الواحد بعد الواحد قتيلاً في الأرياض.

وذلك أنهم كانوا يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد، فيصدمون الرجل، والمرأة، ويطؤون الصبي، فتأخذهم الأبناء، فينكسونهم من دوابهم، ويجرحون بعضهم، وربما هلك، فتأذى الأتراك بهم، وتأذت العامة بالأتراك، حتى شكت الأتراك إلى المعتصم[٤].

فحكي: أن المعتصم كان ركب يوم عيد إلى المصلى، فلما انصرف في مربعة الحرشي، فقام إليه شيخ فقال: يا أبا إسحاق.

فابتدر الجند ليصرفوه، فأشار المعتصم إليهم بالكفِّ عنه.

فقال للشيخ[٥]: ما لك؟

[قال][٦]: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا، وجئت بهؤلاء العلوج، فأسكنتهم

---

(١) ويقال: سيروان بالسين المهملة وكلاهما وجه فيها وهي من قرى أذربيجان أيضاً.

(٢) في المخطوط: أعجبا. وأثبت بدلاً منه ما يوافق السياق.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في الكامل: ذكر نحو هذه الحكاية وكان قال قبلها:
وفي هذه السنة خرج المعتصم إلى سامرا لبنائها وكان سبب ذلك: أنه قال: إني أتخوّف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلون غلماني، فأريد أن أكون فوقهم، فإن رابني منهم شيء أتيتهم من البر والماء، حتى آتي عليهم. فخرج إليها فأعجبه مكانها.

(٥) في المخطوط: فقال الشيخ: ما لك لا جزا الله عن..
وهو تحريف وخلط نتيجة سقط.

(٦) زيادة من الكامل، وهو لفظ ساقط من المخطوط.

بين أظهرنا فأيتمت[١] بهم صبياننا [وأرملت بهم][٢] نساءنا[٣] وقتلت بهم رجالنا.

والمعتصم يسمع ذلك كله، ثم دخل داره، فلم يرَ راكباً إلى السنة القابلة في مثل اليوم.

فلما كان العام المقبل في مثل ذلك اليوم، خرج فصلّى بالناس العيد[٤]، ثم لم يخرج إلى داره بعد، ولكنه صرف وجه دابته إلى القاطول، [ولم يرجع إلى بغداد][٥].

وحكي: أنه قام أيضاً إلى المعتصم يوماً رجل من العامة فقال: يا أبا إسحاق، اخرج عن مدينتنا وإلاّ حاربناك بما لا تقوم له.

فتقدم بأخذ الرجل جملة إليه، فلما صار بين يديه قال: ويلك بما تحاربني؟ وما هذا الذي لا أقوم له؟

قال: نحاربك بأصابعنا إذا هدأت الأصوات بالليل - يعني الدعاء -.

فسكت عن الرجل، ولم يعرض له، ثم خرج فبنى سُرَّ مَنْ رَأى.

وفي هذه السنة: غضب المعتصم على الفضل بن مروان وحبسه.

ذكر الخبر عن غضبه عليه وحبسه له واتصاله به ونفاقه عليه

كان الفضل هذا رجلاً من أهل البردان حسن الخط، فاتصل بكاتب للمعتصم يقال له يحيى الجرمقاني، فمات يحيى، وصار الفضل في موضعه وذلك قبل خلافة المعتصم.

ثم خرج معه إلى عسكر المأمون، وسار معه إلى مصر، فاحتوى على أموال مصر وكثرت ذخائره وكنوزه، ثم قدم الفضل قبل المأمون بغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب عنه وعلى لسانه ما أحب حتى قدم المعتصم خليفة فصار الفضل صاحب الخلافة

---

(١) في المخطوط: همت. والتصويب من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في المخطوط: نسانا. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: بالعيد. وهو تحريف.

(٥) زيادة من الكامل، وزاد ابن الأثير بعد هذا فقال: قال مسرور الكبير: سألني المعتصم أين كان الرشيد يتنزّه إذا ضجر من المقام إذا ضجر من المقام ببغداد؟
قلت: بالقاطول، وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم.
فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج إلى الرقة، فأقام بها وبقيت مدينة القاطول لم تستتم.
ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق.
وكان المعتصم قد اصطنع قوماً من أهل الحوف بمصر، واستخدمهم وسمّاهم المغاربة وجمع خلقاً من سمرقند، وأشروسنة، وفرغانة، وسمّاهم الفراغنة، فكانوا من أصحابه وبقوا بعده، وكان ابتداء العمارة بسامراء سنة إحدى وعشرين ومائتين.

والدوائر كلها تحت يديه فتضاعفت كنوزه.

وكان المعتصم يأمر بإطلاق الشيء لندمائه ومغنيه فلا ينفذ الفضل، ويزد مما زاده في الشيء إدلالاً عليه وأنسابه.

وكان قد نزل منه وعلى مَن قبله المحل الذي لا يحدث أحد نفسه بملاحظته، فضلاً عن منازعه ولا في اعتراض عليه إذا أراد شيئاً أو حكم به.

وكانت هذه المنزلة تحمل على البناء له حتى كان يخالفه ويمنعه بعض أمره وبعض المال الذي يصرفه في مهامه.

وحكي عن أحمد بن أبي داود أنه قال: كنت أحضر مجلس المعتصم، فكثيراً ما كنت أسمعه يقول للفضل بن مروان: احمل إليّ كذا من الدراهم.

فيقول: ما عندي.

فيقول: فاحتلها من وجه، فليس منها بُدّ.

فيقول: من أين احتالها؟ ومن أين وجهها؟ ومَن يعطيني هذا القدر؟

فكان ذلك يسوؤه، وأعرفه في وجهه، فلما كثر هذا من فعله ركبت إليه يوماً فقلت له، متخلياً به: يا أبا العباس، إني أعرف أخلاقك وعلى ذلك [أنا][1] طامع في نصحك وأداء ما يجب عليّ من حقك، وقد أراك كثيراً ما ترد على أمير المؤمنين أجوبة غليظة ترمضه، وتقدح في قلبه، والسلطان لا يحتمل هذا لابنه، لا سيما إذا كثر ذلك وغلظ.

قال: وما ذاك يا عبد الله؟

قلت: أسمعه كثيراً ما يقول لك نحتاج إلى كذا من المال لتصرفه في وجه كذا.

فتقول ما يعطيني هذا وهذا مما لا يحتمله الملوك.

قال: فما أصنع إذا طلب مني ما ليس عندي؟

تصنع أن تقول: أحتال يا أمير المؤمنين في ذلك، فتدافع أياماً، ثم تحمل إليه بعض ما يطلب، وتسوفه بالباقي.

قال: نعم أفعل، وأصير إلى ما أشرت به.

قال: فوالله لكأني كنت أغريته بالمنع فكان إذا عاود مثل ذلك من القول، عاد إلى مثل ما يكره من الجواب.

وكان مع المعتصم رجل مضحك ليستخف روحه وكان قديم الصحبة له، يقال له: إبراهيم الهفتي، فأمر له بمال، وتقدّم إلى الفضل بن مروان في إعطائه، فلم يعطه

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

الفضل شيئاً.

فبينا الهفتي يوماً يتمشى مع المعتصم في بستان داره التي بنيت له ببغداد، وقد نقل إليه أنواع من الرياحين والغروس، وكان قبل أن تقضى له الخلافة فيقول له فيما يداعبه: والله لا أفلحت [أبداً](١) ـ وكان الهفتي مربوعاً بديناً(٢)، والمعتصم رجلاً معرقاً خفيف اللحم ـ فجعل المعتصم يسبق الهفتي في المشي، فإذا تقدّم، ولم يرَ الهفتي معه التفت إليه، فقال: ما لك لا تمشي(٣) ويستعجله؟!

فلما كثر ذلك من أمر المعتصم على الهفتي قال له الهفتي مداعباً: أصلحك الله كنت أراني أُماشي خليفة، ولم أكن أماشي فيجاً، فوالله لا أفلحت.

فضحك المعتصم وقال: ويلك، وهل بقي من الفلاج شيء لم أدركه بعد الخلافة؟

فقال له الهفتي: أتحسب أنك قد أفلحت الآن؟ إنما لك من(٤) الخلافة الاسم، والله ما يجاوز أمرك ذنبك، وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر فينفذ أمره من ساعته.

قال المعتصم: وأي أمر لي لم ينفذ؟

قال: أمرت لي بكذا وكذا منذ شهرين، فما أعطيت مما أمرت لي منذ ذلك [٩٠/ب] حبة(٥).

وكان هذا أول ما حرك المعتصم في القبض على الفضل بن مروان(٦).

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: بدبة، وأثبت ما في الكامل.

(٣) في المخطوط: يمشي والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: «بن» وهو تحريف. والتصويب من الكامل، وهو واضح من سياق الكلام.

(٥) بعدها في الكامل: فحقدها على الفضل.

(٦) أتم الخبر ابن الأثير فقال:
أول ما أحدثه في أمره أن جعل زماماً في نفقات الخاصة وفي الخراج وجميع الأعمال ثم نكبه وأهل بيته في صفر وأمرهم بعمل حسابهم، وصيَّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات.
فنفى الفضل إلى قرية في طريق الموصل تُعرف بالسن.
وصار محمد وزيراً كاتباً.
وكان الفضل شرس الأخلاق، وضيق العطن، كريه اللقاء بخيلاً، مستطيلاً، فلما نكب شمت به الناس حتى قال بعضهم فيه:

لبيك على الفضل بن مروان نفسه ... فليس له باك من الناس يُعرف
لقد صحب الدنيا منوعاً لخيرها ... وفارقها وهو المظلوم المعنف
إلى النار فليذهب ومَن كان مثله ... على أي شيء فاتنا منه نأسف

وكان محمد بن عبد الملك الزيّات يتولّى ما كان أبوه يتولاه المأمون من عمل الفساطيط وآلة الخمارات، ويكتب عليها مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك.

وكان يلبس إذا حضر الدار الدراعة السوداء والسيف بالحمائل.

فدعاه الفضل يوماً، فقال له: ما هذا الزي إنما أنت تاجر، فما لك والسواد، والسيف؟!

فترك ذلك محمد.

وأخذه الفضل برفع حسابه إلى دليل بن يعقوب النصراني، فأحسن دليل إليه فلم يزدد شيئاً.

وعرض عليه محمد هدايا فأبى دليل أن يقبل منها شيئاً.

ثم غضب المعتصم على الفضل بن مروان، وأهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم وصيَّر محمد بن عبد الملك مكانه، فلما صار محمد بن عبد الملك وزيراً، استدعى الفضل يوماً، وقد دخل دار السلطان بسواد وسيف، وهو إذ ذاك مغضوب عليه يحاسب، فقال: ما هذا الزي؟! الزم منزلك، فإن احتيج إليك استدعيت[1].

ودخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

وفي هذه السنة: كانت بين بغا الكبير وبابك وقعة ببادية هشتادسر فهزمه بغا واستبيح عسكره.

ذكر الخبر عن ذلك

كان بغا قدم بالمال الذي مضى ذكره، ففرّقه الأفشين على أصحابه، وتجهّز بعد النيروز عند زوال البرد، ومكروه الثلج، ووجه بغا في عسكر ليدور حول هشتادسر

(١) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
في هذه السنة: سَيَّر عبد الرحمٰن ملك الأندلس جيشاً إلى طليطلة فقاتلوها فلم يظفروا بها.
وحجّ بالناس: صالح بن العباس بن محمد.
وفيها: توفي سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس أبو أيوب الهاشمي.
وعفان بن مسلم أبو عثمان الصفار البصري وكان موته ببغداد وله خمس وثمانون سنة وهو من مشايخ البخاري.
وتوفي فتح الموصلي الزاهد، وكان من الأولياء والأجواد.
ومحمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عليه السلام توفي ببغداد، وكان قدمها، ومعه امرأته أم الفضل ابنة المأمون، فدفن بها عند جده موسى بن جعفر ـ وهو أحد الأئمة الإمامية ـ وصلّى عليه الواثق، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، وكانت وفاته في ذي الحجة.
وقيل في سبب موته غير ذلك.

وينزل في خندق محمد بن حميد ويحكمه ويحقره.

ووجه أبا سعيد من وجه آخر[١]، ورحل إلى الأفشين من برزند.

فتجهّز بغا من غير موافقة الأفشين[٢]، وسار حتى نزل قرية البذّ في وسطها، وأقام بها يوماً واحداً، واحتاج إلى الميرة والأعلاف.

فوجّه ألف رجل من علاقة له، فخرج عسكر من عساكر بابك، فاستباح العلاقة وقتل البعض وأسر البعض، ورجع بغا إلى خندق محمد بن حميد شبهاً بالمنهزم.

وكتب [إلى][٣] الأفشين يعلمه ذلك ويسأله المدد.

وقال الأفشين: ما عمل شيئاً، وأقدم يعز أمرنا.

ثم وجّه إليه أخاه الفضل بن سهل.

ثم كتب الأفشين إلى بغا يعلمه أنه يغزو بابك في يوم سمّاه له، ويأمره أن يغزوه في ذلك اليوم بعينه ليحاربه من كلا الوجهين.

فخرج الأفشين في ذلك اليوم يريد بابك.

وخرج بُغا فعسكر على دعوة، وهاجت ريح شديدة ومطر شديد، فلم يكن للناس صبر على البرد[٤] وشدة الريح، فانصرف بغا إلى عسكره.

وواقعهم الأفشين من الغد وبُغا غير حاضر، فهزمه الأفشين، وأخذ عسكره وخيمته [وامرأة كانت معه][٥] ونزل الأفشين في عسكر بابك.

ثم تجهّز بغا من الغد وصعد [إلى][٥] هشتادسر، فوجد العسكر الذي كان مقيماً بإزائه قد انصرف إلى بابك، فنزل بغا في صفه، وأصاب قماشاً وحرثاً قد تركوه.

ثم انحدر من هشتادسر يريد البذ، وكان على مقدمته داود سياه.

فبعث إليه إنّا قد توسطنا الموضع الذي تعرفه - يعني الذي كاتبه فيه المرة الأولى -

---

(١) في الكامل: من خشّ يريد بابك، فتوافوا بمكان يقال له دروذ، فحفر الأفشين خندقاً، وبنى عليه سوراً، وكان بينه وبين البذّ ستة أميال.

(٢) في الكامل: وحمل معه الزاد ودار حول هشتادسر حتى دخل قرية البذ فنزلها فأقام بها.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في المخطوط: البر. وهو تحريف وزاد صاحب الكامل في الخبر فقال:
فوجّه إليه الأفشين أخاه الفضل، وأحمد بن الخليل بن هشام، وابن جوشن، وجناحاً الأعور صاحب شرطة الحسن بن سهل وأحد الأخوين قرابة الفضل بن سهل فأتوا بُغا.
وكتب الأفشين إلى بُغا يعلمه أن يغزو بابك... فخرج الأفشين ذلك اليوم من دروذ يريد بابك، وخرج بُغا من خندقه فخرج إلى هشتادسر، فلم يكن للناس صبر لشدة البرد... وواقعهم الأفشين...

(٥) زيادة من الكامل.

وهذا وقت المساء، وقد بعث الرجالة فانظر جبلاً حصيناً يسع العسكر حتى نعسكر فيه ليلتنا هذه.

فالتمس داود سياه[١] ذلك، فصعد إلى قمة[٢] جبل، فأشرف، فرأى أعلام الأفشين ومعسكره شبه الجبال، فقال: هذا موضعنا[٣].

فجاءهم في تلك الليلة سحاب، وبرد، ومطر كثير فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل لأخذ ماء ولا يسقي دابة من شدة البرد وكثرة الثلج، وكأنهم كانوا في نهارهم ذلك في ليل من الضباب المتراكم وشدة الظلمة، فلما كان في اليوم الثالث قال الناس لبغا: قد فني ما معنا من الزاد، وأضرّ بنا البرد، فانزل على أية حال إما راجعين، وإما نحو الكافر.

وقد كان يوم الضباب بيت بابك الأفشين، ونقض عسكره، وانهزم الأفشين وانصرف إلى معسكره.

فضرب بُغا بالطبل وانحدر يريد البذ، فلما صار إلى بطن الوادي نظر إلى السماء متجلية والدنيا طيبة، غير رأس الجبل الذي كان عليه، فعبى بغا أصحابه ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وتقدّم يريد البذ، وهو لا يشك أن الأفشين في موضع معسكره فمضى حتى صار لزق جبل البذ، ولم يبق بينه وبين أن يشرف على أبيات البذ إلاّ صعود قدر نصف ميل، وكان على مقدمته [جماعة فيهم][٤] غلام لابن البعيث، وكان ابن البعيث هذا ذا نكاية في بابك، وكان للغلام قرابة بالبذ، فلقيتهم طلائع لبابك، فعرف بعضهم الغلام، فقال: يا فلان.

قال: نعم.

قال: مَن هذا هاهنا؟

فسمّى له مَن معه من أهل بيته.

فقال: ادن مني حتى أكلمك.

فدنا منه الغلام.

فقال له: ارجع، وقل لمَن تعنى به يتنحّى، فإنّا قد بيّتنا الأفشين، وهزمنا، ونحن

---

(١) في المخطوط في كل المواضع: ساه. والتصويب من الكامل في كل المواضع أيضاً.
(٢) في المخطوط: قلة. وهو تحريف
(٣) في الكامل: فقالوا: نبيت هنا إلى غدوة، وننحدر إلى الكافر إن شاء الله تعالى، فجاءهم تلك الليلة سحاب...
(٤) زيادة من الكامل.

قد تهيأنا لكم في عسكرين.

فعجل الانصراف لعلك أن تفلت.

فرجع الغلام، فأخبر صاحبه ابن المغيث بغا بذلك.

فوقف بُغا يشاور أصحابه.

فقال بعضهم: هذا باطل، وهذه خدعة، ليس من هذا شيء.

وقال بعض الكوهانيين: هذا جبل أعرفه من صعد إلى رأسه نظر عسكر الأفشين.

فصعد بغا، والفضل بن كاوس، وجماعة منهم ممن نشط، فأشرفوا على الموضع، فلم يروا فيه أحد فتيقّن أنه مضى، وتقرّر رأيه على أن ينصرف في صدر النهار قبل أن [٩١/أ] يجنهم الليل.

فأمر داود سياه بالانصراف، فجدّ في السير، ولم يعد في الطريق الذي [دخل منه](١) مخافة [ما](٢) فيه [من كثرة](٢) المضايق، والعقاب وأخذ الطريق الذي دخل منه في المرة الأولى [وهو](٢) يدور حول هشتادسر، وليس فيه مضيق إلاّ في موضع واحد.

فسار الناس، وبعث الرجالة فرموا بأسلحتهم وطرحوا الرماح، ودخلتهم وحشة شديدة، ورعب عظيم وصار(٣) بغا والفضل بن كاوس وجماعة من القوّاد في الساقة.

وظهرت طلائع بابك، ونزل بغا، فتوضأ وصلّى ووقف في وجوههم، وتخوّف بُغا على عسكره أن تواقعه الطلائع من ناحية وتدور عليهم من بعض الجبال والمضايق قوم آخرون، فشاور مَن حضره.

وقال: لست آمن أن يكون هؤلاء الذين بإزائنا مشغلة يجنبوننا عن المسير، ويسبقوننا إلى المضايق بقوم آخرين.

فأشار الفضل بن كاوس [عليه](٤) أن يوجه إلى داود سياه وهو على المقدمة أن يسرع السير ولا ينزل حتى يجاوز المضيق ولو في نصف الليل، وأما نحن فنقف هاهنا ونماطلهم حتى يجيء الليل والظلمة، فإن هؤلاء لا يعرفون لنا حينئذ موضعاً، فإن أخذ علينا المضيق تخلّصنا بأقوامنا من طريق هشتادسر ومن طريق آخر.

وأشار غيره على بغا فقال: إن العسكر قد يقطع وليس يدرك أواخره، والناس قد رموا

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في المخطوط: صا. والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.

سلاحهم، وقد بقي المال والسلاح على البغال وليس معه أحد، ولا نأمن أن يخرج علينا مَن يأخذ المال والسلاح والأسير الذي معنا ـ وكان معهم ابن جويدان أسيراً ـ.

فلما ذكر ذلك بُغا أشفق منه، ووجه إلى داود سياه حيث ما رأيت جبلاً حصيناً فعسكر عليه.

فعدل، فعسكر عليه وضرب لبُغا مضروب على طرف الجبل في موضع شبيه بالحائط ليس فيه مسلك، فنزل فيه، ونزل الناس، وقد كلوا وفنيت أزوادهم فباتوا على بغيبة يتحارسون ناحية المصعد، وجاءهم العدو من الناحية الأخرى، فتعلّقوا بالجبل حتى صاروا إلى مضرب بغا فكبسوه، وبيَّتوا العسكر.

وخرج بغا راجلاً حتى نجا، وجُرِحَ[١] الفضل بن كاوس ونجا، وقتل [جناح السكري و][٢]ابن جوشن [وأخذ الأخوين][٢] قرابة[٣] لفضل بن سهل وجماعة وغيرهم.

ووجد بغا بعد خروجه من العسكر دابة فركبها ومَرَّ بابن المغيث، فأصعده على هشتادسر حتى انحدر به على عسكر محمد بن حميد وخندقه، فوافاه في جوف الليل.

وأخذ الخرمية المال والعسكر والسلاح والأسير، ولم يتبعوا الناس [فوصل الناس معسكرهم][٢] منقطعين حتى وافوا بغا، وأقام بُغا خمسة عشر يوماً في خندق محمد بن حميد حتى وافاه كتاب الأفشين يأمره بالرجوع إلى المراغة.

وانصرف الفضل أخو الأفشين، وجميع ما كان في عسكر الأفشين إلى الأفشين.

وفرّق الناس في مشاتيهم تلك السنة حتى جاء الربيع من السنة المقبلة[٤].

---

(١) في المخطوط: خرج. والتصويب من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في المخطوط: قواته والفضل. والتصويب من الكامل.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:

وفيها: قتل طرخان ـ وهو من أكبر قواد بابك ـ وكان سبب قتله:

أنه طلب من بابك إذناً حتى يشتي في قريته ـ وهي بناحية مراغة ـ وكان الأفشين يرصده، فلما علم خبره أرسل إلى ترك مولى إسحاق بن إبراهيم ـ وهو بمراغة ـ يأمره أن يسير إليه في قريته حتى يقتله أو يأخذه أسيراً، ففعل ترك ذلك، وأسرى إليه، وقتله، وأخذ رأسه، فبعثه إلى الأفشين.

وفي هذه السنة: قدم صول أرتكين، وأهل بلاده في القيود، فنزعت قيودهم وحمل على الدواب نحو مائتين.

وفيها: غضب الأفشين على رجا الحضاري، وبعث به مقيداً.

وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله وهو والي مكة.

وفيها: توفي القاضي أحمد بن محرز قاضي القيروان، وكان من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا. =

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين

وفيها: وجّه المعتصم بالله إلى الأفشين جعفر بن دينار الخياط مدداً له، ثم اتبعه إيتاخ، ووجه معه ثلاثين ألف ألف درهم للجند والنفقات، فلما جاء الربيع وصل إلى الأفشين ما وجّه من المال والمدد، فوافاه ذلك كله وهو ببرزند سلّمه إليه إيتاخ المال والرجال، وانصرف فأقام جعفر الخياط إلى أن حضر الوقت الذي يمكن فيه الغزو، وطاب الهواء والزمان.

وفي هذه السنة: فتحت البذ مدينة بابك، ودخلها المسلمون وابتاحوها.

ذكر الخبر عن ذلك وسببه

لما عزم الأفشين على الدنو من البذ، جعل يزحف قليلاً قليلاً على خلاف[1] زحفه قبل ذلك إلى المنازل التي كان ينزلها، فكان يتقدم الأميال[2] الأربعة فيعسكر في موضع على طريق المضيق الذي ينحدر إليه، ولا يحفر خندقاً، ولكنه يقيم معسكراً في الحسك.

وكتب إليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نوائب كراديس تقف على ظهور الخيل كما تدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات، كي إن دهمهم[3] أمر كان الناس على تعبية والرجالة في العسكر.

فضجّ[4] الناس من التعب، وقالوا: كم نقعد هاهنا في المضيق، ونحن قعود في الصحراء، وبيننا وبين العدو أربعة فراسخ، ونحن نفعل أفعال مَن يرى العدو بإزائه، فقد استحيينا من الناس، والجواسيس الذين يمرون بنا، وبين العدو وبيننا أربعة فراسخ ونحن قدمنا من الفرع، أقدم بنا، فإما لنا وإما علينا.

فقال: أنا والله أعلم ما يقولون حق، ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا، ولا أجد بُدًّا منه.

= **وفيها:** توفي آدم بن أبي إياس العسقلاني ـ وهو من مشايخ البخاري في صحيحه ـ.
وعيسى بن أبان بن صدقة أبو موسى قاضي البصرة ـ وهو من أصحاب أبي الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ـ.
وعبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي صاحب مالك.
وعبد الكبير بن المعافى بن عمران الموصلي، وكان فاضلاً.
والعباس بن سليم بن جميل الأزدي الموصلي.

(١) في المخطوط: بخلاف. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: الأمثال. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: دهمتهم. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: ففتح. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

فلم يلبث أن ورد عليه كتاب المعتصم يأمره أن يحتري بدراجة الليل.

فانحدر في خاصته حتى نزل رُوْذ الرَّوْذ، وتقدّم حتى شارف على الموضع الذي واقعه عليه بابك في العام الماضي(١)، فنظر إليه، فإذا عليه كردوس من الخُرّمية، فلم يحاربوه، ولم يحاربهم.

فقال بعض العلوج: ما لكم تجيئون وتفرون؟ أما تستحيون؟

فأمر الأفشين ألا يجيبوهم ولا يبرز إليهم أحد.

فلم تزل مواقفهم إلى قريب من الظهر، ثم رجع إلى عسكره، فلم يزل على ذلك أياماً.

وكان يأمر أبا سعيد أن يذهب فيواقفهم ولا يحركهم...(٢).

وأمر الفعلة ـ وكانوا يسمون الكلفرية ـ أن يحملوا شكا الماء والكعك، فلما صاروا إلى روذ الروذ أمر أبا سعيد أن يذهب فيواقفهم على حسب ما كان يواقفهم، وأمر الفعلة أن ينقلوا الحجارة ويجيفوا الطرق التي [٩١/ب] تسالك(٣) إلى تلك المحال(٤)، وكانت ثلاثة جبال حصينة كان اختارها، ففعل ذلك، فصارت شبه الحصون.

ثم أمر، فاحتفر على طريق وراء تلك الحجارة على المصعد خندقاً، ولم يترك إليها إلاّ مسلكاً واحداً ثم أمر أبا سعيد بالانصراف.

فلما كان الثامن من الشهر وعلم أن الضوء قد امتنع دفع إلى الرجالة الكعك والسويق، ودفع إلى الفرسان الزاد والشعير، ووكل معسكره مَن يحفظه، وانحدر، وأمر الرجالة بالصعود إلى رؤوس تلك الجبال، ولم يحملوا معهم ما يحتاجون إليه من المال والزاد.

ووجّه أبا سعيد ليواقف القوم على عادته، وأمر الناس بالدخول وأن لا يأخذ الفرسان سروج دوابهم.

ثم خطّ الخندق، وأمر الفعلة فوق الجبال يناموا، وأمر الفرسان أن يسيروا كراديس بين كل كردوس وكردوس مقدار رمية سهم، وتقدّم إلى جميع الكراديس أن لا

---

(١) في متن المخطوط: الماء. والتصويب من هامش المخطوط حيث وضع الناسخ حرفي الضاد والياء بالهامس مشيراً بذلك أنهما بدل الهمزة.

(٢) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «يميبجهم».

(٣) في المخطوط: يسالك، وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: الحال. وهو تحريف.

يلتفتن[١] أحد منكم إلى أحد، وكل كردوس قائم بما يليه، ونحن لا عدة بأحد.

فلم تزل الكراديس وقوفاً على دوابهم إلى الصباح، والرجالة فوق رؤوس الجبال يتحارسون، فلبثوا كذلك عشرة أيام، حتى فرغوا من حفر الخندق، ودخله اليوم العاشر، وأمر القواد أن يبعثوا إلى أثقالهم وأثقال أصحابهم على الرفق فينقلوه.

وأتاه رسول بابك ومعه قشار[٢] وبطيخ وخيار يعلمه أنه في أيامه هذه في جفاء، إنما يأكل الكعك والسويق هو وأصحابه، وأنه أحب أن يلطفه بذلك، ففعل.

فقال الأفشين للرسول: قد عرفت أي شيء أراد أخي بهذا، إنما أراد أن تنظر إلى العسكر، وأنا أقبل بره وأعطي شهوته، فقد صدق إنّا في جفاء.

وقال للرسول: أما أنت فلا بد لك أن تصعد حتى ترى[٣] الخندق وتنظر[٤] إلى خندق كلاورود وخندق برزند، وتتأمل[٥] الخنادق الثلاثة ولا يخفى عليه منها شيء ليخبر به صاحبه، ففعل به ذلك، ثم أطلقه، ووصله، وقال: اذهب أقره مني السلام.

ثم إن الأفشين كان في أسبوع يضرب الطبول في نصف الليل، ويخرج بالنفقات والشمع إلى باب الخندق، وقد عرف كل إنسان كردوسه مَن كان في الميمنة ومَن كان في الميسرة، فيخرج الناس فيقفون في مواقفهم وكان الأفشين يحمل أعلاماً سوداً كباراً على البغال، وكان عددها شيئاً كثيراً، وكانت أعلامه الصغار نحو خمسمائة علم، وكانت طبوله الكبار اثنين وعشرين طبلاً، والصغار اثنين وعشرين طبلاً، فيقف أصحابه على مراتبهم حتى إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه، فيؤذن المؤذن من بين يديه، ويصلي الناس بغلس.

ثم يأمر بضرب الطبول، وإذا أراد أن يقف أمسك عن ضربها، فيقف الناس من كل ناحية في جبل أراد.

وكان يسير هذه الستة الأميال التي بين معسكره وهو روذ الروذ وبين البذ ما بين طلوع الفجر إلى الضحى الأكبر.

فإذا أراد أن يصعد إلى الموضع الذي كانت الحرب عليها في العام الماضي خلف بخارا خذاه على رأس العقبة مع ألف وستمائة رجل يحفظون الطريق لا يخرج أحد الخرمية، فيأخذ عليهم الطريق.

---

(١) في المخطوط: تلتقين. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: قشار. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: يرى. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: ينظر. وهو تحريف.
(٥) في المخطوط: يتأمل. وهو تحريف.

وكان بابك إذا أحسّ بعساكر الأفشين أنها قد تحركت من الخندق يريده، فرّق أصحابه كمناء، ولم يبقَ معه إلاّ نفر يسير.

ولم يكن الأفشين يعرف المواضع التي يكمنون فيها.

وكان الأفشين إذا صعد إلى ذلك الموضع أشرف على قصر بابك، وجلس على كرسي، وفرّق الرجالة في طلب الكمناء، ووقف الفرسان على ظهور دوابهم إلى بعد الظهر والخرمية بين يدي بابك يشربون الشراب ويزمرون السرنايات ويضربون الطبول حتى إذا صلّى الأفشين [الظهر](١) انحدر إلى خندقه بروذ الروذ، ونفخ أصحاب بابك في بوقاتهم وضربوا بصنوجهم استهزاءً، ولا يبرح بخارا خذاه حتى يجوز الناس جميعاً ثم ينصرف في آثارهم.

حتى إذا كان في بعض الأيام ضجرت الخرمية من التفتيق(٢)، وانصرفت الأفشين كعادته وانصرفت الكراديس فلما انتهى إلى جعفر الخياط نوبة العبور، فتح الخرمية خندقهم، وخرج منهم عدة فحملوا على مَن بقي من أصحاب جعفر الخياط، وارتفعت الفتحة في العسكر، ورجع جعفر مع كردوس من أصحابه، وحمل على أولئك الفرسان حتى ردهم إلى باب البذ وقعت الصيحة في العسكر.

فرجع الأفشين وجعفر من ذلك الجانب يقاتل في أصحابه، وقد خرج من أصحابه عدة ومن أصحاب بابك عدة من الفرسان مع فرسان ليس فيهم رجالة.

فرجع الأفشين حتى طرح الكرسي له على النطع في موضعه الذي كان يجلس فيه، وهو يتلظّى على جعفر، ويقول: قد أفسد تعبيتي وما أريد.

وكان مع أبي دلف في كردوسه قوم من المطوعة من البصرة وغيرها(٣)، فلما ارتفعت الصيحة، ونظروا إلى جعفر يحارب انحدر أولئك المطوعة بغير أمر الأفشين وعبروا إلى الجانب الآخر من الوادي حتى صاروا إلى حائط البذ، فتعلّقوا به، وأثروا فيه آثاراً، وكادوا يصعدونه، فيدخلون البذ.

ووجّه جعفر [٩٢/أ] إلى الأفشين: أن أمدني بخمسمائة راجل الناشبة، فإني أدخل البذ إن شاء الله، فقد عرفت القوم، وعلمت ما أتاهم.

فبعث إليه الأفشين إنك(٤) قد أفسدت عليّ أمري كله، فتخلّص قليلاً قليلاً وخلّص أصحابك، وانصرف.

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: المطاولة.
(٣) في المخطوط: وغيرهما. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: من. والتصويب من الكامل.

وارتفعت الضجة من جهة المطوعة حتى تعلّقوا بالبذ، فظنّ الكمناء من أصحاب بابك أنها الحرب قد اشتبكت فنفروا ووثبوا من تحت عسكر بخارا خذاه، ووثب آخرون[١]، من وراء الربوة التي كان الأفشين عليها يقعد[٢]، فتحرّك الخرمية والناس وقوف على رؤوسهم لم يزل منهم أحد.

فقال الأفشين: الحمد لله الذي بَيّن لنا مواضع هؤلاء.

ثم انصرف جعفر وأصحابه والمطوعة فجاء جعفر، فقال للأفشين: إنما وجّهني أمير المؤمنين للحرب التي ترى لا للعقود هاهنا، وأراك تقعد في أوقات حاجاتي، قد كان يكفيني خمسمائة رجل حتى أدخل البذ أو جوف داره لأني قد رأيت مَنْ بين يدي؟

فقال الأفشين: لا تنظر إلى مَن بين يديك ولكن انظر إلى [مَن][٣] خلفك ومَن[٤] وثبوا بخارا خذاه وأصحابه.

فذهب جعفر يتكلم، فقال له الفضل بن كاوس: لو كان الأمر إليك ما كنت تصعد إلى هذا الموضع الذي[٥] أنت عليه وأقف حتى تقول: كنت.

فقال له جعفر: هذه الحرب وها أنا واقف لمَن جاء.

فقال له الفضل: لولا مجلس الأمير لعرَّفتك نفسك الساعة.

فصاح بهما الأفشين، فأمسكا، وأمر أبا دلف أن يرد المطوعة عن السور.

فقال أبو دلف للمطوعة: انصرفوا.

فجاء رجل منهم ومعه صخرة عظيمة، فقال: أتردونا وهذا الحجر من السور أخذته، ولو أخذ معي كل واحد مثله لأزلنا السور عن موضعه.

فقال له: إذا انصرفت تدري على مَن طريقك ـ يعني العسكر الذين وثبوا على بخارا خذاه من ورائه ـ.

ثم قال الأفشين لأبي سعيد في وجه جعفر: أحسن الله جزاءك عن نفسك وعن أمير المؤمنين، ليس كل مَن خفّ رأسه فيقول ولا يفي بما يقول في الموضع الذي يحتاج إليه خير من المحاربة في الموضع الذي لا يحتاج إليه، ولو وثب هؤلاء الذين تحتك وأشار إلى الكمين كنت تدري هؤلاء المطوعة الذين هم في الغمس أي شيء كان يكون حالهم،

---

(١) في المخطوط: آخر. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: فقعد. وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في المخطوط: ما. وهو تحريف.
(٥) في المخطوط: التي. وهو تحريف.

فالحمد لله [الذي][١] سلّمهم. قف هاهنا ولا تبرح حتى لا يبقى هاهنا أحد.

وانصرف الأفشين، وكان من سنته أن ينصرف على تعبية كردوس بعد كردوس، ويكون آخرهم.

وأقام الأفشين في خندقه بروذ الروذ أياماً فشكا إليه المطوعة الضيق في العلوفة والزاد.

فقال لهم: مَن صبر فليصبر، ومَن لم يصبر فالطريق واسع فلينصرف بسلام، فإن معي من جند أمير المؤمنين ومَن هو في أرزاقه مَن يقيم معي في الحر والبرد ولست أبرح من هاهنا حتى يسقط الثلج.

فانصرف المطوعة وهم يقولون: لو ترك الأفشين جعفراً وتركنا لأخذنا البذ، ولكنه يشتهي المماطلة.

فبلغه ذلك وما أكثر فيه المطوعة، وتناولوه بألسنتهم، حتى قال بعضهم: رأيت رسول الله ﷺ [في المنام][٢] فقال لي: قُلْ للأفشين إن أنت حاربت هذا الرجل وجددت في أمره، وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة.

فتحدّث الناس بذلك في العسكر حتى صار جل حديثهم به وعلانية.

فبعث الأفشين إلى رؤساء المطوعة، فأحضرهم، وقال لهم: أحب أن تروني هذا الرجل.

فأتوه به، فانحشر معه الناس، فقرّبه وأدناه، ثم قال: قُصَّ عَلَيَّ رؤياك، ولا تحتشم، فإنك إنما تؤدي.

قال: رأيت كذا وكذا.

قال: الله يعلم نيتي وما أريده للمسلمين وبهؤلاء الخلق، وأن الله عزّ وجل لو أراد أن يأمر الجبال برجم أحدٍ لرجم الكافر وكفاني مؤنته، فكيف يرجمني حتى يكفيه مؤنتي؟! فكان يرجمه ولا يحتاج أن أقاتله، وأنا أعلم أن الله مطلع على قلبي وما أريد بكم يا مساكين.

فقال رجل من المطوعة من الوجوه: أيها الأمير، لا تحرمنا شهادة إن حضرت فإنما قصدنا ثواب الله ووجهه، ولو أردنا الحياة لقعدنا في منازلنا، فدعنا وجدنا حتى نتقدّم بعد أن نكون بإذنك، فلعل الله يفتح علينا.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة من الكامل.

فقال الأفشين: أرى نياتكم حاضرة، وأحب هذا الأمر ويريده الله وقد نشطتم ونشط أصحابي، وقد حدث لي الساعة رأي في ذلك، وهو خير إن شاء الله، اعزموا على بركة الله أي يوم شئتم حتى نناهضه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

فخرج القوم مستبشرين فمَن كان أراد الانصراف أقام، ومَن كان خرج ثم سمع بذلك رجع، ووعد الناس ليوم وتقدم إلى الناس أخذ الأهبة خرج وخرج المحامل على البغال لمَن لعله يجرح، وأخرج المتطببين.

وزحف الناس حتى صعد [إلى المكان][1] الذي كان يجلس فيه، وطرح له النطع، ووضع عليه الكرسي كما كان يفعل، وقال لأبي دلف: قل لأصحابك أي ناحية أسهل عليهم فليقتصروا عليها.

وقال لجعفر: العسكر كله بين يديك، والناشبة والنفاطون أمامك [٩٢/ب] فخذ حاجتك واعزم على بركة الله ادن من أي موضع شئت.

قال: أريد أن أقصد الموضع الذي كنت فيه.

قال: امضِ.

ثم دعا أبا سعيد فقال: قف بين يدَي أنت وجميع أصحابك لا يبرحن منكم أحد.

ودعا أحمد بن الخليل فقال له: قف أنت أيضاً وجميع أصحابك هاهنا ودعوا جعفراً يغزو بمَن معه من الرجال فإن أراد رجالاً وفرساناً أمددناه.

وتوجه أبو دلف مع المطوعة نحو حائط البذ وعلقوا بالحائط حسب ما كانوا فعلوا ذلك اليوم.

وحمل جعفر حملة حتى ضرب باب البذ كما فعل تلك الدفعة، ووقف على الباب وواقفه الخرمية ساعة.

فوجّه الأفشين برجل معه بدرة دنانير، وقال: قل لأصحاب جعفر: مَن تقدم حبوت له ملء كفي.

ودفع بدرة أخرى دنانير إلى آخر، وقال: اذهب إلى موضع المطوعة وقل مثل ذلك.

وبعث بأطواق وأسورة مع البدرتين.

واشتبكت الحرب، ثم فتح الخرمية الباب، وخرجوا على أصحاب جعفر فنحوهم عن الباب، وشدُّوا على المطوعة من الناحية الأخرى فرموهم عن السور، وأخذوا علمين لهم وشدخوهم في الصخر حتى أثروا فيهم.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق، ونحوها في الكامل.

ورقوا عن الحرب وصاح جعفر بأصحابه فندر منهم نحو مائة رجل فتركوا خلف تراسهم التي كانت معهم وواقفوهم متحاجزين لا هؤلاء يقدمون ولا هؤلاء حتى صلّى الناس الظهر تختلف بينهم النشاب والحجارة.

فلما ظفر الأفشين إلى ذلك كره أن يطمع العدو في الناس، فوجّه إلى جعفر بكردوس فقال جعفر: لست أوتي من قلّة الرجال، [في الرجال و][١]فرة، ولكن لست أدري للحرب موضعاً وقد انقطعت الحرب.

فبعث إليه: انصرف على بركة الله.

فانصرف جعفر، وتقدّم الأفشين يحمل الجرحى ومَن رمق[٢] من الحجارة في المحامل التي على البغال، وأمر الناس بالانصراف، فانصرفوا إلى خندقهم بروذ الروذ.

ويئس الناس من الفتح في تلك السنة، وانصرف أكثر المطوعة.

ثم إن الأفشين تجهّز بعد جمعتين، فلما كان من الليل بعث الرجالة الناشبة وهم مقدار ألف رجل، فدفع إلى كل واحد منهم شكوة وكعكاً، ودفع إليهم أعلاماً سوداً وقال: سيروا حتى تصيروا خلف التل الذي عليه أُذين ـ وهو صاحب جيش بابك ـ وأرسل معهم الأدلاء، وأمرهم أن لا يعلم بهم أحد حتى يروا أعلام الأفشين عند صلاة الغداة فحينئذ ركبوا الأعلام على الرماح وضربوا بالطبول وانحدروا من فوق الجبل ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية.

وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره، ففعلوا ذلك، ووافوا رأس الجبل عند السحر، وجعلوا في تلك الشكاة الماء من الوادي.

فلما كان السحر [وجّه][٣] الأفشين إلى القواد: أن اركبوا في السلاح.

فركبوا، وأخرج النفاطين والشمع، وضرب بالطبل حتى وافى الموضع الذي كان يقف عليه وبسط النطع، ووضع الكرسي كعادته، وكان بخارا خذاه يقف على العقبة التي كان يقف عليها في كل يوم.

فلما كان ذلك اليوم صيَّر بخارا خذاه مع [مَن] في المقدمة مع أبي سعيد، وجعفر الخياط، وأحمد بن الخليل.

فأنكر الناس هذه التعبية، وأمرهم أن يدنوا من التل الذي عليه أُذين، فيحدقوا به، وقد كان ينهاهم عن هذا قبل ذلك اليوم.

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: رمق. وهو تحريف، وفي الكامل: وَهَن.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.

فمضوا جميعاً حتى صاروا كالحلقة حول التل وارتفعت الضجة، وتحرك الكمين، واشتبكت الحرب.

فلما سمع الرجالة الناشبة ـ الذين تقدّموا ـ أصوات الطبول، ورأوا الأعلام، انحدروا على أصحاب أُذين.

وحمل جعفر الخياط وأصحابه حتى صعدوا إليهم ثم حملوا [عليه حملة][1] منكرة قلبوه وأصحابه في الوادي.

وكان أذين قد هيأ فوق الجبل عجلة عليها صخر، فلما حمل الناس دفع الحجر على الناس فأفرج الناس عنها حتى تدحرجت[2]، ثم حمل الناس من كل وجه فلما نظر الناس إلى ذلك كبَّروا، ونظر بابك إلى أصحابه قد أحدق بهم فخرج من طرف البذ من باب يلي الأفشين يكون بين هذا الباب وبين التَّل الذي عليه الأفشين قدر ميل، فأقبل بابك يسأل عن الأفشين.

فقال لهم المطوعة، وأصحاب أبي دلف: مَن هذا؟

قالوا: بابك يريد الأفشين.

فأرسلوا أبا دلف إلى الأفشين يعلمه ذلك.

فأرسل أبا دلف إلى الأفشين يعلمه ذلك.

فأرسل الأفشين رجلاً يعرف بابك، فنظر إليه، ثم عاد إليه فقال: نعم هو بابك[3].

فدنا منه حيث يسمع كلامه وكلام أصحابه والحرب مشتبكة في ناحية أذين.

فقال له: أريد الأمان.

فقال له الأفشين: قد عرضت عليك هذا وهو لك مبذول لك متى شئت.

فقال: قد شئت الآن على أن تؤجلني [أجل][4] أحمل فيه عيالي وأتجهز.

قال له الأفشين: قد والله نصحتك غير مرة وأنا أنصحك الساعة خروجك اليوم في الأمان خير [٩٣/أ] من غدٍ.

(١) في المخطوط: عجلاً. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: تخرجت. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط تكرار في العبارات من أول قوله: قالوا بابك يريد الأفشين يعلمه بذلك فأرسل الأفشين رجلاً يعرف بابك فنظر إليه ثم عاد إليه فقال نعم هو بابك. فحدث سقط وتكرار. ثم كرر العبارات على النحو الصحيح فحذفت المكرر.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.

قال: قد قبلت أيها الأمير.

قال له الأفشين: فابعث بالرهائن التي كنت سألتك.

قال: نعم أما فلان وفلان، فهم[١] على ذلك الجبل، فمر[٢] أصحابك بالتوقف عنهم.

فجاء رسول الأفشين ليرد الناس، فقيل له: مَن يرد الناس؟ فإن أعلام الفراغنة قد دخلت البذ، وصعدوا بها إلى القصور.

فصاح الأفشين بالناس، ودخل ودخلوا، وصعد الناس بالأعلام فوق القصور.

وقد كان بابك كمّن في [قصوره][٣] ـ وهي أربعة ـ ستمائة رجل. فوافاهم الناس، فصعدوا فوق القصور بالأعلام، وامتلأت شوارع البذ وميدانها من الناس، وفتح أولئك الكمناء أبواب القصور وخرجوا يقاتلون الناس.

ومَرّ بابك حتى دخل الوادي الذي [يلي][٣] هشتادسر.

واشتغل الأفشين وقوّاده بالحرب على أبواب القصور، وأحضر النفّاطين، فصبُّوا عليهم النفط والنار، والناس يهدمون القصور حتى قتلوهم عن آخرهم، وأخذ الأفشين أولاد بابك وعيالاتهم، وأمر الناس بالانصراف، فانصرفوا، وكان عامة الخرمية في البيوت.

فرجع الأفشين إلى الخندق بروذ الروذ، فذكر الناس أن بابك وأصحابه حين علموا أن الأفشين قد رجع إلى خندقه رجعوا إلى البذ، فحملوا من الزاد ما أمكنهم حمله، وحملوا أموالهم، ثم دخلوا الوادي الذي يلي هشتادسر.

فلما كان من الغد خرج الأفشين حتى دخل البذ، فوقف في التسوية، وأصعد الكاغرية، وهدموا القصور وحرقوها، فعل ذلك في ثلاثة أيام حتى أحرق خزائنه، وقصور، ولم يدع بيتاً واحداً.

ثم رجع وقد علم أن بابك قد أفلت في بعض أصحابه.

فكتب إلى ملوك أرمينية، وأصحاب الأطراف يقول: إن بابك قد هرب في عدة معه، وهو مارّ بكم، فلا يفوتكم.

وجاءت الجواسيس إلى الأفشين، فأخبروه بموضعه في الوادي، وكان وادياً معشباً كثير الشجر طرفه أرمينية وطرفه الآخر أذربيجان.

ولم يمكن الخيل أن تنزل إليه، ولا يُرى مَن يستخفي فيه، إنما هو غيضة ملتفة

---

(١) في المخطوط: فيهم. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: فمن. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.

الأشجار والأنهار.

فوجّه الأفشين إلى كل موضع يعلم أن منه طريقاً ينحدر إلى تلك الغيضة أو يمكن بابك أن يخرج منه، عسكراً، وكان يوجه إلى كل عسكر من هذه العساكر الميرة من عسكره، وكانت عدة هذه العساكر خمسة عشرة معسكراً، فكانوا كذلك حتى ورد كتاب أمير المؤمنين المعتصم بالله، مختوماً بالذهب فيه أمان لبابك.

فدعا الأفشين بمَن كان استأمن إليه من أصحاب بابك، وبالأسرى، وفيهم ابن له كبير ولده، فقال لهم: هذا ما لم أكن أطمع له فيه، وأن يكتب له أمير المؤمنين وهو في هذه الحال بأمان، فمَن يأخذه ويذهب به إليه؟

فلم يجسر على ذلك أحد منهم، وقالوا: يا أيها الأمير، نحن ما فينا مَن يجترىء أن يلقاه بهذا.

وقال الأفشين: ويحكم إنه يفرح بهذا.

قالوا: أصلح الله الأمير نحن أعرف بهذا منك.

قال: فلا بد من أن تهيؤوا لي أنفسكم، وتوصلوا هذا الكتاب إليه.

فقام رجلان منهما، فقالا: اضمن لنا أنك تجري على عيالاتنا.

فضمن لهما، وأخذا الكتاب وتوجها، فلم يزالا يدوران في الغيضة حتى أصاباه.

وكتب معهما ابن بابك يعلمه الخبر، ويسأله أن يصير إلى الأمان، فدفعا إليه الكتاب عن ابنه.

وقال: أي شيء صنعتم؟

قالا: أسر عيالاتنا، ولم يعرف موضعك، فيأتيك.

فقال للذي كان معه الكتاب: أما هذا فلا أعرفه ولكن أنت يا ابن الفاعلة كيف اخترت أن تجيئني من عند ابن الفاعلة ـ يعني ابنه ـ.

فأخذه، وشدّ الكتاب على صدره مختوماً لم يفضه وضرب عنقه، ثم قال للآخر: اذهب أنت فقل لابنه: يا ابن الزانية، قد تحققت الساعة أنك لست لي بابن، وأن أمك جاءت بك من غيري[1]، لو عشت يوماً واحداً وأنت رئيس هذه الدعوة خير لك من أن تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل، ولكنك من جنس لا خير فيه، ورد الرجل مع الأدلاء حتى دلُّوه الطريق، فرجعوا إلى بابك.

ثم إن بابك فني زاده، وخرج مما يلي طريقاً فيه جبل لا يقيم عليه عسكره لبُعده

(١) في المخطوط: عمر، وهو تحريف.

عن الماء، وكان الناس قد أقاموا هناك فارسين وكوهنيين يحرسون الطريق بنوبة.

فلما خرج بابك وأصحابه، وكان معه أخواه عبد الله ومعاوية، وامرأة له، وساروا يريدون أرمينية نظر إليهم الفارسان، والكرهيان.

فتوجّهوا إلى العسكر وعليه أبو الساج، فأعلموا أنهم رأوا فرساناً خرجوا من الغيضة ومرُّوا لا يدري مَن هم[١].

فركب الناس وساروا فنظروا إليهم من بُعد وقد تولوا على عين ماء يتغدُّون عليها.

فلما نظروا إلى الناس بادروا الكافر فركب وركب مَن معه، فأفلت، وأخذ معاوية وأم بابك والمرأة التي كانت معه، ومع بابك غلام له.

فوجّه أبو الساج بمعاوية والمرأتين إلى العسكر وسار[٢] بابك حتى دخل جبال أرمينية يسير متمكناً[٣] في الجبال، فاحتاج إلى الطعام، وكان جميع بطارقة أرمينية قد تحفّظوا بنواحيهم وأطرافهم، وأوصوا مسالحهم أن لا يجتاز عليهم أحد إلاّ أخذوه حتى يعرفوه، وكان أصحاب المسالح كلهم متحفظين.

وأصاب بابك الجوع، وأشرف، فإذا هو بحرّاث يحري على فدان له في بعض الأودية.

فقال لغلام له: انزل إلى هذا الحرّاث، وخذ معك دراهم ودنانير فإن كان معه [خبزاً][٤] فخذه وأعطيه.

وكان للحرّاث شريك ذهب لحاجته، فنزل الغلام [٩٣/ب] إلى الحارث يخاطبه، فنظر إليه شريكه من بعيد فوقف بالبعد يفرق أن يجيء إلى شريكه، فدفع الغلام إلى الحرّاث شيئاً، فجاء الحرّاث فأخذ الخبز فدفعه إلى الغلام، وشريكه قائم ينظر، ويظن أنه إنما اغتصبه خبزه.

فعدا إلى صاحب المسلحة، فأعلمه أن رجلاً عليه سيف وسلاح جاءهم وأخذ خبز شريكه من الوادي.

فركب صاحب المسلحة وكان في حيال ابن سنباط، ووجّه إلى سهل بن سنباط بالخبر.

فركب ابن سنباط وجماعة معه حتى جاء مسرعاً فوافى الحرّاث والغلام عنده.

(١) في المخطوط: منهم. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: ومن. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: متمكناً وهو تحريف، وفي الكامل مستخفياً.
(٤) زيادة من الكامل سقطت من المخطوط.

فقال: ما هذا؟

قال الحرّاث: هذا رجل مَرَّ بي فطلب خبزاً فأعطيته.

فقال للغلام: أين مولاك؟

قال: هاهنا، وأومأ بيده، فاتبعه، فأدركه وهو نازل، فلما رأى وجهه عرفه فترجّل له ابن سنباط عن دابته ودنا منه فقبّل يده وقال: يا سيدي إلى أين؟

قال: أريد بلاد الروم، وموضعاً سماه.

فقال له: لا تجد أحداً أعرف بحقك ولا أحق أن يكون عنده مني، وأنت تعرف موضعي ليس بيني وبين السلطان عمل، ولا يدخل عليّ أحد من أصحاب السلطان، وأنت عارف بقصتي وبلدي، وكل مَن هاهنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك قد صار لك منهم أولاد ـ وذلك أن بابك كان إذا علم أن عند [بعض][1] أهل البطارقة بنتاً أو أختاً جميلة وجّه يطلبها فإن بعث بها وإلا بيته فأخذها وأخذ جميع ماله من متاع وغيره ـ.

ثم قال له ابن سنباط: صِر عندي في حصني فإنما هو منزلك، وأنا عبدك فكن فيه شتوتك هذه حتى ترى رأيك.

وكان بابك أصابه الضر، والجهد، فركن إلى كلام سهل بن سنباط، وقال له: ليس يستقيم أن أكون أنا وأخي في موضع واحد لعله إن عثر بأحدنا فيبقى الآخر، ولكني أقيم عندك وتوجه عبد الله أخي إلى ناحية ابن اصطفانوس لأنه ليس لنا خلف يقوم بدعوتنا.

فقال له ابن سنباط: ولدك كثير.

قال: ليس فيهم خير، وكان يثق بابن اصطفانوس.

فلما أصبح عبد الله مضى إلى حصن اصطفانوس فأقام بابك عند ابن سنباط.

فكتب ابن سنباط إلى الأفشين يعلمه أن بابك عنده في حصنه.

فكتب إليه: إن كان هذا صحيحاً فلك عندي وعند أمير المؤمنين أعزّه الله الذي تحب وكنت تجز به خيراً، ووصف الأفشين صفة بابك لرجل من خاصته ممن يثق به، ووجّه به إلى ابن سنباط، وكتب إليه [مع][2] رجل من خاصته [أنه][2] يحب أن يرى بابك ليحكي للأفشين ذلك.

فكره ابن سنباط ذلك إشفاقاً من أن يوحش ذلك بابك، فقال للرجل: ليس

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.

يمكنك أن تراه إلاّ في الوقت الذي يكون متكئاً على طعامه يتغدّى، فإذا رأيتنا قد دعونا بالطعام فالبس ثياب الطبّاخين الذين معنا على هيئة علوجنا وتعال كأنك تقدم الطعام أو تناولنا شيئاً، فإنه يكون متكئاً على الطعام فتفقد منه ما تريد فاحكه لصاحبك.

ففعل به ذلك في وقت الطعام، فرفع بابك رأسه فنظر إليه فأنكره، وقال: مَن هذا الرجل؟

فقال له ابن سنباط: هذا رجل من أهل خراسان منقطع إلينا منذ زمان نصراني.

فقال له بابك: منذ كم أنت هاهنا؟

قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: وكيف أقمت هاهنا؟

قال: تزوجت هاهنا.

فقال له: صدقت، إذا قيل للرجل من أين أنت؟ قال: من حيث امرأتي.

ثم رجع [الرجل][1] إلى الأفشين، فأخبره، ووصف له بابك.

ووجّه الأفشين أبا سعيد، وبو زبارة[2] إلى ابن سنباط، وكتب إليه معهما، وأمرهما إذا صار إلى بعض الطريق قدما كتابهما إلى ابن سنباط مع علج من الأعلاج، وأمرهما أن لا يخالفا ابن سنباط فيما يشير به عليهما، ففعلا ذلك.

وكتب إليهما ابن سنباط في المقام بموضع سماه ووصفه لهما إلى أن يأتيهما رسوله، فلم يزالا مقيمين في الموضع الذي وصفه لهما.

ووجه إليهما ابن سنباط بالميرة والزاد حتى يحرك بابك للخروج إلى الصيد، فقال له: واد طيب وأنت مغموم في جوف[3] هذا الحصن، فلو خرجنا ومعنا باز وباشق وما نحتاج إليه فنفرج إلى وقت الغداء بالصيد؟

فقال له بابك: إذا شئت.

فاستعدا ليركبا بالغداة، وكتب ابن سنباط إلى أبي سعيد وبو زبارة يعلمهما ما عزم عليه، ويأمرهما أن يوافياه، واحد من هذا الجانب من الجبل والآخر من الجانب الآخر، وأن يسيرا متمكنين من صلاة الصبح، فإذا جاءهما أشرفا على الوادي، فانحدرا وأصحابهما عليه هذا من هاهنا وهذا من هاهنا، فأخذاهما، ومعهما البواشق.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في الكامل: بورماره. وأشار محققه إلى أنه في الطبري: بوزبارة أي كما هنا.
(٣) في المخطوط: حرف. وهو تحريف.

فلما نظر بابك إلى العساكر قد أحدقت به وقف ينظر إليهم.

فقالا له: انزل.

فقال: ومَن أنتما؟

قال أحدهما: أنا أبو سعيد.

وقال الآخر: أنا بو زبارة.

فقال: نعم، وثنى رجله فنزل.

وكان ابن سنباط ينظر إليه، فرفع رأسه إلى ابن سنباط، وشتمه، وقال: إنما بعتني من اليهود بالشيء اليسير، لو أردت المال مني وطلبته لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء.

ثم أركبوه[١] [وساروا به إلى الأفشين، فلما قرب من العسكر][٢] جلس[٣] له الأفشين ببرزند في خيمة بين يديها مفازة[٤] فاصطفت الناس له صفين، فأمر الأفشين ألاّ يتركوا غريباً بين الصفين فرقاً أن يجرحه إنسان أو يقتله ممن قتل أولياءه أو صنع به داهية.

وقد كان صار إلى الأفشين [٩٤/أ] نساء كثير وصبيان ذكروا أن بابك كان أسرهم وأنهم أحرار من العرب والدهّاقين.

فأمر الأفشين بإفرادهم في حظيرة وأجرى عليهم أقواتهم، وأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم، فكل مَن جاء فعرف امرأة أو صبيًا أو صبية وأقام شاهدين يعرفان أنهما حرمة له أو قرابته دفعها إليه وكان قد ذهب خلق كبير وبقي ناس كثير منهم ينتظرون أن تجيء أولياءهم.

فلما كان ذلك اليوم وصار بين بابك والأفشين فنظر إليه الأفشين، ثم قال: انزلوا به إلى العسكر فنزلوا به راكباً.

فلما نظر النساء والصبيان الذين كانوا أفردهم الأفشين في حظيرة، لطموا وجوههم، وصاحوا وبكوا حتى ارتفعت أصواتهم، فوجّه الأفشين إليهم: أنتم اليوم تبكون عليه لعنكم الله.

قالوا: إنه كان مُحسناً إليه.

فأمر به، فأدخل بيتاً ووكل به جماعة من ثقاته.

وكان عبد الله أخو بابك مقيمٌ عند عيسى بن اصطفانوس، فأعلم الأفشين بمكانه.

---

(١) في المخطوط: ثم لا أركبوه. وحرف «لا» زائد على السياق فحذفته.

(٢) زيادة من الكامل يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: فجلس، فحذفت الفاء من أوله ليستقيم السياق.

(٤) في المخطوط: فازة. وهو تحريف.

فكتب إليه يأمره أن يوجه عبد الله، فوجّه به عيسى بن اصطفانوس إلى الأفشين، فلما صار في يد الأفشين حبسه مع أخيه في بيت واحد ووكل بهما قوماً يحفظونهما.

وكتبَ إليه المعتصم يأمره بالقدوم بهما عليه فلما أراد أن يسير إلى العراق وجّه إلى بابك: انظر ما يشتهي[1] من بلاد أذربيجان.

قال: أشتهي أن أنظر إلى مدينتي.

فوجّهه مع قوم في ليلة مقمرة إلى البذ حتى دار فيه ونظر إلى البيوت والقتلى فيه إلى وقت الصبح، فيظن أنه تأمّل موضع كنوزه[2].

---

(١) في المخطوط: يشتري. وهو تحريف.

(٢) هذا ما ذكر ابن مسكويه في تاريخه في هذه السنة، وزاد ابن الأثير في تاريخه فيها فقال فيما يخص ذلك الحدث:
وفي هذه السنة: وجّه المعتصم إلى الأفشين جعفراً الخياط مدداً له.
ووجّه إليه إيتاخ ومعه ثلاثون ألف ألف درهم للجند وللنفقات، فأوصل ذلك إلى الأفشين وعاد.
وفيها: كانت وقعة بين الأفشين وقائد لبابك اسمه أُذين.
وكان سببها: أن الشتاء لما انقضى سنة إحدى وعشرين ومائتين وجاء الربيع، ودخلت سنة اثنتين وعشرين رحل الأفشين عند إمكان الزمان، فصار إلى موضع يقال له: كلان رَوْذ ـ وتفسيره نهر كبير ـ فاحتفر عنده خندقاً وكتب إلى أبي سعيد ليرحل من برزند إلى طرف رستاق كلان رَوْذ، وبينهما قدر ثلاثة أميال.
فأقام الأفشين بكلان روذ خمسة أيام فأتاه مَن أخبره أن قائداً لبابك اسمه أُذين قد عسكر بإزائه، وأنه قد صير غُيالة في خيل.
فقال له بابك: لتجعلهم في الحصن.
فقال: لا أتحصن من اليهود ـ يعني المسلمين ـ والله لا أدخلتهم حصناً أبداً.
فوجّه الأفشين ظفر بن العلاء السعدي في جماعة من الفرسان والرجالة فساروا ليلتهم فوصلوا إلى مضيق لا يسلكه إلاّ الواحد بعد الواحد.
وأكثر الناس قادوا دوابهم وتسلّقوا في الجبل، وأخذوا عيال أُذين وبعض ولده، وبلغ الخبر أُذين.
وكان الأفشين قد خاف عليهم فأمرهم أن يجعلوا على رأس كل جبال رجالاً معهم الأعلام السود، فإن رأوا شيئاً يخافوه حركوا الأعلام ففعلوا ذلك.
فلما أخذوا عيال أُذين ورجعوا إلى بعض الطريق قبل المضيق، أتاهم أُذين في أصحابه فحاربوهم فقتل منهم قتلى، واستنقذوا بعض النساء.
فنظر الرجال المرتبون برؤوس الجبال فحرّكوا الأعلام.
وكان أذين قد أنفد مَن يمسك عليهم المضيق.
فلما رأى الأفشين تحريك العلم الذي بإزائه سيّر جماعة من الجند مع مظفر بن كيذر، فأسرع نحوهم.
ووجّه أبا سعيد بعدهم، وبخارا خذاه.
فلما نظر إليهم رجالة أذين الذين على المضيق، تركوه وقصدوا أصحابهم. فنجا ظفر بن العلاء ومَن معه ومعهم بعض عيال أذين.
ثم ذكر ابن الأثير بعد ذكره لخبر فتح البذ مدينة بابك خبراً آخراً عن أهل طليطلة فقال فيه: قد ذكرنا عصيان أهل طليطلة على عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس =

ودخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

[وفيها][١]: قدم الأفشين على المعتصم ببابك وأخيه سُرَّ مَنْ رَأى[٢].

وكان المعتصم يوجه كل يوم إلى الأفشين منذ فصل من برزند إلى أن وافى سُرَّ مَنْ رَأى فرساً وخلعة.

وكان المعتصم لعنايته بأمر بابك، وفساد الطريق بالثلج وغيره رتب بين سُرّ مَنْ رأى، وعقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرساً معه مخبر فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه واحد إلى واحد يداً بيد.

وأما ما وراء حلوان إلى أذربيجان، فقد رتّب فيه دواب المرج، وكانت تركض يوماً أو يومين ثم تبدّل وكان لهم ديانة على رؤوس الجبال بالليل والنهار يتعرُّون إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه تهيأ واستعدّ فلا يبلغ[٣] إليه صاحبه حتى يقف له على طريق فيأخذ منه الخريطة، فتصل[٤] من معسكر الأفشين إلى سُرَّ مَنْ رأى في أربعة أيام وأقل.

= وإنفاذ الجيوش إلى محاصرتها مرة بعد مرة، فلما كان سنة إحدى وعشرين ومائتين، خرج جماعة من أهلها إلى قلعة رباح وبها عسكر لعبد الرحمٰن فاجتمعوا كلهم على حصر طليطلة، وضيّقوا عليها وعلى أهلها، وقطعوا عنهم باقي مرافقهم واشتدوا في محاصرتهم، فبقوا كذلك إلى أن دخلت سنة اثنتين وعشرين.

فسيَّر عبد الرحمٰن أخاه الوليد بن الحكم إليها أيضاً فرأى أهلها وقد بلغ بهم الجهد كل مبلغ واشتد عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال والدفع، فافتتحها قهراً وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب.

وأمر بتجديد القصر [الذي] على باب الحصن الذي كان هدم أيام الحكم.

وأقام بها إلى آخر شعبان من سنة ثلاث وعشرين ومائتين حتى استقرت قواعد أهلها وسكنوا.

وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن داود.

وفيها: ظهر عن يسار القبلة كوكب فبقي يرى نحواً من أربعين ليلة، وله شبه الذنب وكان أول ما طلع نحو المغرب، ثم رؤي بعد ذلك نحو المشرق، وكان طويلاً جداً فهال الناس ذلك وعظم عليهم.

ذكره ابن أبي أسامة في تاريخه، وهو من الثقات الأثبات.

وفيها: توفي يحيى بن صالح أبو زكريا الوحاظي وهو دمشقي، وقيل: حمصي.

وفيها: توفي أبو هاشم محمد بن علي بن أبي خداش الموصلي، وكان كثير الرواية عن المعافى بن عمران.

(١) زيادة تصنيفية، على حسب ما اعتاد المؤلف منذ بداية الكتاب وأحسب أن الناسخ أسقطها من هنا سهواً وقال بدلاً منها: فقدم الأفشين، فاستعاض عنها بالفاء.

(٢) في الكامل: في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

(٣) في المخطوط: بلغ. وضبط على مقتضى السياق.

(٤) في المخطوط: تصل. فضبط على مقتضى السياق.

فما سار الأفشين ببابك إلى سُرَّ مَنْ رَأى، لم يصبر المعتصم أن يحمل إليه حتى ذهب إليه متنكراً، فرآه، وتأمله، وبابك لا يعرفه[١].

ثم قعد له المعتصم [وأراد][٢] أن يشهره، فاستشار على أي شيء يحمل ويشهر؟

فقيل: يا أمير المؤمنين، لا شيء أشهر من الفيل فخضب وحمل عليه بابك في قباء ديباج، وقلنسوة سمور مدورة هو وحده.

فقال محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خضب الفيل كعاداته يحمل شيطان خراسانِ
والفيل لا تخضب أعضاؤه إلاّ لذي شأن من الشأنِ

فاستشرفه الناس من المطيرة إلى باب العامة، ثم أدخل به على المعتصم، وأحضر جزار[٣] لقطع أعضائه.

ثم أمر أن يحضر سيّافه[٤]، وكان اسمه يود، فخرج الحاجب من باب العامة فقال: يود، يود، حتى حضر.

فأمره المعتصم أن يقصع يديه ورجليه فسقط، [فأمره بذبحه][٥] ثم أمر أن تشق بطنه، ثم حَزَّ رأسه، ووجّه به إلى خراسان، وصلب بدنه بسُر مَن رأى. فموضع جثته مشهور إلى الآن[٦].

وحمل أخوه إلى بغداد، فعمل به ما عمل ببابك[٧].

ويقال: إنه لما صار إلى البردان أنزل علي بن شروين في قصره، وابن شروين ملك طبرستان، فحمد الله أخو بابك وقال: أنا أشكر الله حيث وقف لي رجلاً من الدهّاقين يتولى قتلي.

قال: إنما يتولى قتلك هذا، وأشار إلى يود، وكان حاضراً، وقد حمل معه.

(١) في الكامل: فلما صار الأفشين بقناطر حذيفة تلقاه هارون الواثق بن المعتصم وأهل بيت المعتصم، وأنزل الأفشين بابك عنده في قصره بالمطيرة.
فأتاه أحمد بن داود متنكراً فنظر إلى بابك وكلّمه ورجع إلى المعتصم فوصفه له، فأتاه المعتصم أيضاً متنكراً فرآه.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في الكامل: سيّاف.
(٤) أي سيّاف بابك.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) أي وقت ابن مسكويه.
(٧) زاد في الكامل: فعمل به ذلك وضربَ عنقه وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين.

فقال: أنت صاحبي، وإنما هذا علج، فأخبرني، أمرت أن يطعمني شيئاً أم لا؟

قال: قال ما شئت.

قال: اضرب لي فالوذجة.

فأمر، فضرب له فالوذجة في نصف الليل، فأكل منها حتى تملأ، ثم قال: يا فلان ستعلم غداً أني دهقان إن شاء الله.

ثم قال: تقدر أن تسقيني نبيذ؟

قال: نعم ولا نكثر.

قال: فإني لا أكثر.

قال: فأحضر أربعة أرطال خمراً فشربها على مهل إلى قريب الصبح، ثم وافى به من الغد مدينة السلام، وأحضر رأس الجسر.

فأمر إسحاق بن إبراهيم، مصعب بقطع يديه ورجليه، فلم ينطق ولم يتكلم ولم يضطرب، ثم أمر بصلبه، فصلب في الجانب الشرقي واستخرج الأفشين لسهل بن سنباط من المعتصم ألف ألف ومنطقة معرَّفة بالذهب والجوهر، وتاج البطرقة، وكان هذا سبب بطرقة سهل بن سنباط.

وأخذ الأفشين معاوية أخي بابك مائة ألف درهم، وتوج المعتصم الأفشين وألبسه وساجين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف له، وعشرة آلاف ألف يفرقها في أهل عسكره، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، وأمر له بِصِلات وفيما مدح به قول أبي تمام الطائي:

يد الجلاء والبذ فهو دفين ... ما إن به إلا الوحش قطين
قد كان غدر مسود فافتضها ... بالسيف فحل المشر الأفشين
[٩٤/ب] هطلت عليها من جماجم أهلها ... ديم أمارتها طلى وشؤون[1]

(١) زاد ابن الأثير في الخبر فقال:
قيل: كان الذي أخرج الأفشين من المال مدة مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والأنزال، والمعارف في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي يوم لا يركب فيه خمسة آلاف.
وكان جميع مَن قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان.
وغلب من القوّاد يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد، وأحمد بن الجنيد فأسره، وزريق بن علي بن صدقة، ومحمد بن حميد الطوسي، وإبراهيم بن الليث.
وكان الذين أسروا مع بابك ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة أناسي، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان.
وصار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلاً، ومن البنات والنساء ثلاث وعشرون امرأة.
ولما وصل الأفشين توَّجَهُ المعتصم وألبسه وشاحين بالجوهر...

وفي هذه السنة: أوقع ملك الروم توفيل[١] بن ميخائيل بأهل زِبَطْرَة، فأسر وخَرّب بلدهم، ومضى من فوره إلى ملطية، فأغار على أهلها وعلى حصون[٢] كثيرة، فسبى من المسلمات خلقاً كثيراً ومَثَّل بمَن[٣] صار في يده من المسلمين فسمّل[٤] أعينهم وقطع أنوفهم[٥] وآذانهم.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك: أن بابك لما ضاق به الأمر وأشرف على الهلاك، وأحسّ فيمن صحبه بالضعف، كتب إلى ملك الروم توفيل بن ميخائيل يعلمه: أن ملك العرب قد وجّه عساكره ومقاتلته ليلاً إليّ[٦] وشغلهم بي، حتى وجّه خياطه ـ يعني جعفر بن دينار [الخياط][٧] ـ ووجّه طباخه ـ يعني إيتاخ ـ ولم [يُبقى][٧] على بابه أحد، فإن أردت الخروج إليه، فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك منه. طمعاً منه في أن ملك الروم [أن ملك الروم إن تحرك يكشف عنه بعض ما هو فيه بإنفاذ العساكر إلى مقاتلة الروم فخرج ملك الروم][٧] في مائة ألف وأكثر، فيهم من الجند نيف وسبعون ألفاً، والباقون حشر وأتباع.

وأخرج معهم [من][٨] المحمّرة الذين كانوا خرجوا للجبال[٩] فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب [جماعة][٨].

وكان الملك هو رئيس[١٠] مقاتله.

فلما دخل ملك الروم زِبَطْرة[١١]، وقتل أهلها وسبى الذراري والنساء.

---

(١) في المخطوط: نوفل. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: حصول. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: من، وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: فمل، وهو تحريف السمل هو خرق العين بمسمار أو نحوه.
(٥) في المخطوط: أنفهم.
(٦) العبارة في الكامل على النحو التالي: عساكره ليلاً ومقاتلته إليّ. فضبط على الأظهر والأنسب للسياق، وهي في الكامل: أن المعتصم قد وجّه عساكره ومقاتلته إليه.
(٧) زيادة من الكامل، وهو سقط من الناسخ.
(٨) زيادة من الكامل.
(٩) في المخطوط: بالجبال، والتصويب من الكامل.
(١٠) في المخطوط: مم، وفي الكامل بالهامش قال المحقق زاد في الطبري: رئيسهم بارسيس. فأخذت معنى ما سقط أو ما تحرّف منه على اعتبار اختلاف الروايات بين المؤرخين أن يكون الملك هو على رأس الجيش أو أرسل هذا القائد.
(١١) في المخطوط نظرة. والتصويب من الكامل.

وبلغ النفير سُرَّ مَنْ رَأى، وخرج أهل الثغور [من][١] الشام والجزيرة إلاّ مَن لم يجد سلاحاً ولا دابة.

واستعظم المعتصم ذلك، فلما انتهى إليه الخبر قال: لبيك لبيك.

وذلك أنه بلغه أن امرأة من السبي قالت: [وا][٢] معتصماه.

وصاح في قصره: النفير[٣] [النفير][٣].

ثم ركب دابته، وسمّط خلفه شاكلاً وسكة حديد وحقيبة [فيها زاده][٣].

ولم يستقم له أن يخرج إلاّ بعد التعبئة، فأحضر ثلاثمائة وعشرين من القضاة والعدول وأشهدهم على ما وقف من الضياع: ثلثاً لله، وثلثاً لمواليه، [وثلثاً لولده][٤].

ثم عسكر بغربي دجلة[٥]، ووجّه عجيف بن عنبسة، وعمر الفرغاني، وجماعة أمثالهما من القوّاد إلى زِبَطْرَة إغاثة لأهلها، فلحقوا وقد انصرف ملك الروم وفعل ما فعل، [فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا][٥].

فلما ظفر المعتصم ببابك، قال: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟

فقيل: عمورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين وهي عين[٦] النصرانية، وهي أشرف عندهم من قسطنطينية.

فشخص المعتصم عازماً إلى بلاد الروم[٧]، فتجهّز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلات، وحياض الأدم، والروايا والقرب والبغال، وآلة الحديد، وآلة النار والنفط.

وجعل على مقدمته: أشناس ويتلو محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته: إيتاخ، وعلى ميسرته: جعفر بن دينار بن عبد الله، وعلى القلب: عجيف بن عنبسة.

[فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن وهو على سَلُوقية قريباً من البحر بينه

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: اليقين. والتصويب والزيادة من الكامل.
(٤) الزيادة من الكامل، وفيه: فجلس في دار العامة، وأحضر قاضي بغداد وهو: عبد الرحمٰن بن إسحاق وشعبة بن سهل ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة، فأشهدهم على ما وقف من الضياع. . .
(٥) في الكامل: لليلتين خلتا من جمادى الأولى.
(٦) في المخطوط: غيره. والتصويب من الكامل.
(٧) في الكامل: فسار المعتصم من سُرَّ مَن رأى. وقيل: كان مسيره سنة اثنتين وعشرين، وقيل سنة أربع وعشرين.

وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء][1].

وبعث الأفشين حيدر بن كاوس إلى سَروج، وأمره بالتزوُّد منها وسَمّى له يوماً أمر فيه بدخول درب الحدث، وقدّر لعسكره وعسكر أشناس يوماً يدخل فيه الأفشين بقدر ما بين المسافتين، ورأى أن تجمع عساكره بأنقرة، فإذا فتحها الله سار إلى عمورية فيقدم أشناس من درب طرسوس وتبعه وصيف، وجميع مقدمات العسكر.

فما صار أشناس بمرج الأسقف، ورد عليه كتاب المعتصم [من المطامير][2] يأمره ويعلمه: أن الجواسيس أتته بأن الملك يريد أن يقف على المخاضة ويكبسهم.

وأعلمه أيضاً أنه ينتظر ساقته[3] لأن فيها الأثقال والمجانيق والزاد.

فأقام أشناس بمرج الأسقف ثلاثة أيام حتى ورد كتاب المعتصم يأمره أن يوجه قائداً في سرية يلتمسون رجلاً من الروم يسألونه عن خبر الملك ومَن معه.

فوجّه أشناس عمر الفرغاني في مائتي رجل فرسانٌ، فساروا ليلتهم حتى أتوا حصن قرة، وطافوا يلتمسون رجلاً حول الحصن، فدريهم صاحب قرة، فخرج في جميع مَن معه بأنقرة، وكمن في الجبل الذي بين قرة ودرة، وعلم عمر الفرغاني بما صنع فتقدّم إلى درة فكمن بها ليلة، فلما انفجر عمود الصبح عسكر ثلاث كراديس، وأمرهم أن يركضوا ركضاً سريعاً بقدر ما يأتونه بأسير عنده خبر الملك، وواعدهم إلى موضع عرفه الأدلاء ووجّه مع كل كردوس دليلين، ومضوا وتفرّقوا في ثلاثة وجوه.

فأخذ وعدة من عسكر الملك، ومن الضواحي، وأخذ عمر فرسان أنقرة فسألهم[4] عن الخبر، فأخبروه أن الملك وعسكره بالقرب منه وراء اللامس بأربعة فراسخ، وهو نهر قريب من طرسوس على نحو فرسخ منها عليه يقع الفداء وذكروا أن الملك يبلغه دخول عسكره بلاده فرحل إليه واستخلف [ابن خاله][5] بوسط بلاد الروم [على عسكره وسار يريد][1] عسكر الأفشين، فوجّه أشناس بذلك الرجل[6] إلى المعتصم، فأخبره بجميع ذلك.

وبادر المعتصم من عسكر بقوم من الأدلاء ضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم على أن يوافق بكتابه الأفشين، وأعلمه أن أمير المؤمنين مقيم فليقيم، وأشفق أن

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: سيرته. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: فسأله. والسياق يقتضي الجمع.
(٥) زيادة من الكامل وأحسبها سقطت من الناسخ.
(٦) كذا بالإفراد في المخطوط كالصيغة السابقة.

يوافقه ملك الروم.

وكتب إلى أشناس يأمره أن يوجه من قِبله رسولاً مع الأدلاء العارفين بالطرق والجبال والمشبهة بالروم، ويبذل لكل واحد منهم عشرة آلاف ويكتب إلى الأفشين: أن ملك الروم قد أقبل نحوه فليقم مكانه حتى يوافيه أمير المؤمنين.

فتوجهت الرسل نحو الأفشين، فلم يلحقه أحد منهم لأنه كان وغل في بلاد الروم.

وتوافت آلات المعتصم وأثقاله مع صاحب الساقة، فكتب إلى أشناس يأمره بالتقدُّم، فتقدّم والمعتصم وراءه بينهما مرحلة ينزل هذا ويرحل هذا، ولم يرد عليه خبر من الأفشين حتى صاروا بأنقرة على ثلاث مراحل، وضاق عسكر المعتصم ضيقاً شديداً من [قلة][1] الماء والعلف وكان أشناس قد أسر عدة من الأمراء في طريقه، فأمر [٩٥/أ] بهم فضُربت أعناقهم حتى بقي منهم شيخ كبير قال: ما تنتفع بقتلي وأنت في عسكره في هذا الضيق من الماء والزاد والعلف؟

وأنا أدلك على قوم بالقرب قد هربوا من أنقرة خوفاً من أن ينزل بهم ملك العرب، ومعهم من الطعام والميرة شيء كثير.

فوعده أشناس أن يطلقه إن فعل ذلك[2].

فسار بهم الشيخ إلى وقت العتمة، فأوردهم على وادٍ وحشيش، فأمرج الناس دوابهم[3] حتى شبعت، وتعشّى الناس وشبعوا حتى رووا.

ثم سار بهم حتى أخرجهم من الغيضة بقية ليلتهم يدور في جبل ولا يخرجهم منه.

فقال الأدلاء: هذا الرجل يدور بنا.

فسأله عما قال الأدلاء، فقال الشيخ: صدقوا ولكن القوم الذين نريدهم خارج الجبل وأخاف أن أخرج من الجبل بالليل فيسمعوا صوت حوافر الخيل على الصخر فيهربوا، فإذا خرجنا من الجبل ولم نرَ أحداً قتلتني، فأنا أدور بك في هذا الجبل حتى الصباح، فإذا أصبحنا خرجنا إليهم فأريتك إياهم.

فقال: ويحك أنزلنا في الجبل حتى نستريح.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في الكامل: فوجه معي قوماً لأسلمهم إليهم دخلي سبيلي. فسيَّر معه خمسمائة فارس، ودفع الشيخ إلى مالك بن كيدر، وقال له: متى أراك هذا الشيخ سبياً كثيراً أو غنيمة كثيرة فخلي سبيله.

(٣) أي تركوها تأكل من المرج أي الزروع والحشائش.

قال: رأيك.

فنزل على الصخرة، وأمسكنا لجم دوابنا حتى الفجر، فلما طلع الفجر قال: وجهوا رجلين، يصعدان هذا الجبل فيبصران ما فوقه، ويأخذان مَن أدركا فيه.

فصعد أربعة، فأصابوا رجلاً وامرأة، فأنزلوهما وسألهما العلج عن أهل أنقرة أين باتوا؟

فسمُّوا الموضع.

فقال الشيخ: خلُّوا عن هذين فإنا قد أعطيناهما الأمان حتى دلُّونا.

فخلّى عنهما، وسار بهما العلج إلى الموضع، فأشرف بهم على عسكر أهل أنقرة.

فلما رأوا العسكر صاحوا بالنساء والصبيان فدخلوا الملاحة، ووقفوا على طرفها يقاتلون وأخذوا منهم عدة أسرى، وأصابوا من الأسرى قوماً بهم جراحات، فسألوهم عنها؟

قالوا: كنا مع الملك في وقعة الأفشين.

فقالوا لهم: فحدثونا بالقصة.

فأخبروا أن الملك كان معسكراً بالأمس، حتى جاء رسول فأخبره أن عسكراً ضخماً دخل من ناحية الأرميناق، فاستخلف على عسكر رجلاً من أهل بيته، وأمره بالقيام في موضعه، فإن ورد عليه مقدمة ملك العرب واقعه إلى أن يذهب هو، فواقع هذا العسكر ـ يعني عسكر الأفشين ـ.

فقال أميرهم: نعم وكنت ممن سار مع الملك، فواقعناهم صلاة الغداة، فهزمناهم فقتلنا، ثم جاء لهم [مدد، فقاتلناهم][1] كلهم [فقاتلونا ففرقناهم][1] وتقطعت عساكرنا في طلبهم، فلما كان الظهر رجع فرسانهم فقاتلونا قتالاً شديداً حتى اختلطوا بنا فلم ندرِ أين الملك؟ ولم يزل الملك كذلك إلى العصر.

ثم رجعنا إلى موضع عسكر[2] الملك بالأمس، فلم نصادفه، ووجدنا العسكر قد انتقض، وانصرف الناس عن قرابة الملك الذي كان الملك استخلفه على العسكر، فأقمنا ليلتنا.

فلما كان الغد، فإذا الملك في جماعة يسيرة فوجد عسكره قد اختل.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: العسكر. وهو تحريف.

فطلب الذي كان استخلفه، وضرب عنقه، وكتب إلى المدن والحصون: لا تأخذوا رجلاً من عسكر الملك إلا اضربوه بالسياط حتى يرجع إلى موضع سماه لهم الملك، حتى إذا اجتمع الناس، ناهض ملك العرب.

وأنفذ الملك خصياً له إلى عمورية إلى أن يلحقه بها.

فانصرف المسلمون بما أخذوا، وتركوا [الشيخ](١) والسبي والمقاتلة(٢) يريدون عسكر أشناس بالأسرى حتى لحق بأنقرة.

فمكث أشناس يوماً واحداً حتى لحقه المعتصم من غدٍ، فأخبره بجميع ما ذكره الأسرى(٣)، فسُرَّ المعتصم.

فلما كان اليوم الثالث جاءت البشرى من ناحية الأفشين تخبره بالسلامة(٥)، وأنه وارد على أمير المؤمنين بأنقرة.

ثم ورد الأفشين، فأقاموا أياماً(٤)، ثم ساروا إلى عمورية.

وقد صيّر المعتصم العسكر ثلاثة عساكر: [عسكر فيه أشناس في الميسرة، والمعتصم في القلب، وعسكر الأفشين في الميمنة](٥) وبين [كل](٥) عسكر وعسكر فرسخان [وأمر كل عسكر أن يكون له ميمنة وميسرة، وأمرهم أن يحرقوا القرى ويخربوها، ويأخذوا مَن لحقوا فيها](٥).

فساروا يخربون ويسبون ما بين أنقرة إلى عمورية وبينهما سبع مراحل ثم توافت العساكر بعمورية، وكان أول مَن وردها أشناس، فدار حولها دورة، ثم جاء الأفشين في اليوم الثالث.

فقسمها أمير المؤمنين بين القوّاد كما يدور وصيَّر إلى كل واحد منهم أبراجاً منها على قدر كثرة(٦) أصحابه وقلتهم.

وتحصّن أهل عمورية وتحرّزوا، وكان بعمورية رجل من المسلمين أسره قديماً أهل

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) لم يرد في الكامل أنهم تركوا السبي والمقاتلة ولا يستقيم هذا مع ما سبق في صدر العبارة ولا مع ما سيأتي منها.

(٣) في الكامل بعدها:
وكانت الوقعة لخمس بقين من شعبان.

(٤) في الكامل:
فأقوا ثلاثة أيام.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل يقتضيها السياق.

(٦) في المخطوط: كثيرة. وهو تحريف.

عمورية فتنصّر[١] وتزوّج فيهم فحبس[٢] نفسه حين دخلوا الحصن، فلما رأى أمير المؤمنين ظهر وجاء إلى المعتصم، فأعلمه أن موضعاً من المدينة حمل عليه الوادي من سيل عظيم فوقع السور من ذلك الموضع، فكتب ملك إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع، فتوانى في بنائه حتى كان خروج الملك من قسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوّف الوالي أن يمر الملك على الناحية فيمر بالسور فلا يراه بني، فبنى وجه السور بالحجارة حجراً حجراً ورآه من جانب المدينة حشواً، ثم عقد فوقه الشرف كما كان.

فَوَقَّفَ ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف.

فأمر المعتصم [أن][٣] يضرب، فضرب في ذلك الموضع ونصب المجانيق على ذلك البناء، فانفرج السور من ذلك الموضع.

فلما رأى أهل عمورية انفراج السور، علّقوا عليه الخشب الكبار المضمومة بعضها إلى بعض.

وكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسّر، فعلّقوا فوق الخشب البراذع[٤]، فلما ألحّت المجانيق على ذلك الموضع لم ينفع فيها شيء، وتصدّع السور.

فكتب بطريق[٥] والخصي إلى ملك الروم كتاباً [٩٥/ب] يعلمانه أمر السور، ووجها الكتاب مع رجل فصيح العربية وغلام رومي.

فعبرا[٦] الخندق، ووقعا إلى ناحية عمر الفرغاني فوجّه بهما إلى أشناس.

فحين سألوهما مَن أنتما لم يعرفا أحد من القوّاد بالعسكر يسميانه لهم ففتشا، فوجد معهما الكتاب، فقرىء، وإذا فيه:

أن العسكر قد أحاط بالمدينة، وأنه قد عزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن، ويفتح الأبواب ليلاً غفلة، ويخرج على العسكر كائناً فيه ما كان أفلت مَن أفلت وأصيب مَن أصيب حتى يصير [إلى][٧] الملك.

فلما قُرىء الكتاب [على][٨] المعتصم أمر للرجل الذي يتكلم بالعربية وللغلام

---

(١) في المخطوط: فشعر. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: فجلس. وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) جاء بهامش المخطوط تعريف بتلك الكلمة هذا نصه: البرذعة الحلس الذي تحت الرحل (صحاح). [ثم رقم ١٣ فوقه شرطة].
(٥) في المخطوط: باطن. والتصويب من الكامل، وزاد: واسمه ناطس.
(٦) في المخطوط: فعبر. وهو تحريف.
(٧) زيادة من الكامل يتطلبها السياق.
(٨) زيادة يتطلبها السياق.

الرومي ببدرة [وهي عشرة آلاف درهم][١] فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأدارهما حول عمورية.

فقالا: ناطس[٢] يكون في هذا القصر ـ يعنون البرج ـ.

فوقفا بحذائه طويلاً وعليهما الخلع وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم حتى عرف خبرهما جميع الروم وسمعا شتمهم إياهما، ثم نحوهما.

ثم أمر المعتصم بحراسة الأبواب نوائب يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم في السلاح لئلا تفتح الأبواب فيخرج إنسان.

فلم يزل كذلك حتى انهدم ما بين برجين في الموضع الذي وصف للمعتصم مما لم يحكم عمله.

فسمع أهل العسكر الوجبة، فارتاعوا وظنُّوا أن العدو قد احتال بحيلة وخرج.

حتى أرسل المعتصم مَن طاف على العسكر يعلمهم أن ذلك صوت السور قد سقط فطيبوا نفساً.

وكان المعتصم اتخذ مجانيقاً كباراً، وجعلها على كراسٍ ويحتها عجل، وعملها كأوثق ما يكون.

ثم فرّق غنماً مما استاقه على أهل العسكر ليأكلوا لحمها ويحشوا جلودها تراباً، ثم أتى بالجلود مملوءة تراباً فطُرحت في الخندق.

وعمل دبابات[٣] كباراً تسع كل دبابة[٤] عشرة رجال على أن يدحرجوها على تلك الجلود حتى يمتلىء الخندق.

فلما طرحت الجلود وقعت مختلفة، فلم يمكن تسويتها خوفاً من حجارة المجانيق، فأمر أن يطرح التراب فوقها حتى استوت.

فلما قدمت دبابة[٤]، فدحرجوها، فلما صارت من الخندق في نصفه تعلقت بتلك الجلود، وبقي القوم فيها، فما تخلّصوا إلاّ بعد جهد جهيد.

ثم مكثت تلك العجلة مقيمة باقية هناك لا يمكن فيها حيلة حتى فتحت عمورية، وبطلت الدبابات والمنجنيقات والسلاليم حتى أُحرقت.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: باطس بالباء بدل النون، والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: ذبابات. والتصويب من الكامل.
(٤) بالمخطوط: ذبابة. والتصويب من الكامل.

فلما كان الغد قاتلهم على الثلمة[١]، وكان المعتصم واقفاً على دابته بإزاء الثلمة، والأشناس والأفشين رجاله.

ذكر اتفاق سبي من كلام سبق

فقال المعتصم: ما أحسن الحرب اليوم أجود منها أمس.

فسمعها أشناس وأمسك.

فلما انصرف المعتصم، وانصرف أشناس وقرب من مضاربه ترجّل له القواد على عادتهم، وفيهم: عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل بن هشام بين يديه.

قال لهم أشناس: يا أولاد الزنا لأي شيء تمشون بين يدي؟! كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث كان يقاتل غيركم، انصرفوا إلى مضاربكم.

فلما انصرفا قال أحدهما لصاحبه: أما ترى هذا العبد ابن الفاعلة ـ يعني أشناس ما صنع بنا اليوم؟! أليس الدخول إلى بلاد الروم أهون من هذا الذي سمعناه؟

فقال عمر الفرغاني لأحمد بن الخليل: سيكفيك الله تعالى أمره عن قريب.

فأوهم أحمد أن عنده خبراً، فألحّ عليه أحمد فأخبره بما هَمّ فيه.

وقال العباس بن المأمون: قد تمّ أمره وسيبايع له ظاهراً، ويقتل المعتصم وأشناس وغيرهما عن قريب.

ثم قال: وأنا أشير عليك أن تأتي العباس فتقدم فتكون في عداد مَن قدم مال إليه.

فقال له أحمد: هذا الأمر لا أحسبه يتم.

فقال عمر: قد تمّ، وفرغ منه، وأرشده إلى الحارث السمرقندي، وكان المتولي لإيصال الرجال إلى العباس، وأخذ البيعة عليهم.

فقال له عمر: أنا أجمع بينك وبين الحارث.

فقال له أحمد: إن كان هذا الأمر يتم فيما بيننا وبين عشرة أيام فأنا معكم، وإن تجاوز ذلك فليس بيني وبينكم عمل.

---

(١) في المخطوط: السلمة. وهو تحريف والتصويب من الكامل، وزاد فيه:
فكان أول مَن بدأ بالحرب أشناس وأصحابه، وكان الموضع ضيقاً، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأمدّهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها إلى بعض حول الثلمة، وأمر أن يرمى ذلك الموضع.
وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه، وأجادوا الحرب وتقدّموا.
والمعتصم على دابته بإزاء الشلمة وأشناس والأفشين وخواص القواد معه.
فقال المعتصم: ما أحسن ما كان الحرب اليوم.
وقال عمر الفرغاني: الحرب اليوم أجود منها أمس.

فذهب الحارث، فأعلم العباس: أن عمر قد أدخل أحمد بن الخليل بيتاً.

فقال: ما أحب أن يطلع [ابن][١] الخليل على شيء مما نحن فيه، فأمسكوا عنه ودعوه منهما[٢]، فتركوه.

فلما كان [اليوم][٣] الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين ثم أحسن إيتاخ والمغاربة والأتراك القتال، والقيم بذلك أجمع إيتاخ، فاتسع لهم الموضع [في][٤] الثلمة[٥] وكثرت الجراحات في الروم، وكان القائد الموكل بالموضع الذي أثلم[٦] يقال له: وندوا، وتفسيره[٧] بالعربية: ثور[٨]، فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه وكثرة القتلى فيهم، فاستمدّ ناطس فلم يمده هو ولا غيره.

وقال: كل واحد [يحفظ ما يليه و][٩]نحن نحفظ ما يلينا، فاحفظ أنت ما يليك.

فقال: يا قوم إن الحرب إنما هي اليوم عليّ وعلى أصحابي، ولم يبقَ معي أحد إلاّ وقد جرح[١٠]، فصيروا أصحابك على الثلمة يرمون وإلاّ افتضحتم وذهبت المدينة.

فلم يلتفتوا إليه، فاعتزم هو وأصحابه أن يخرجوا إلى أمير المؤمنين ويسألوه الأمان على الذرية حتى يسلّموا له الحصن بما فيه من السلاح والأثاث وغير ذلك.

فلما أصبح أمر أصحابه أن لا يحاربوا حتى يعود إليهم.

فخرج بأمان حتى صار [٩٦/أ] إلى العسكر، وحمل إلى المعتصم، فصار إلى بين يدي [المعتصم][١١] وقد أمسك الروم عن المحاربة ـ أعني أصحاب وندوا ـ والناس يتقدمون إلى الثلمة، ووندوا جالس بين يدي المعتصم.

فدعا المعتصم بفرس فحمله عليه، وقاتل حتى صار الناس معهم على حرب الثلمة، وعبد الوهاب بن علي بين يدَي المعتصم، فأومىء إلى الناس بيده: أن ادخلوا.

فدخل الناس المدينة، فالتفت وندوا، وضرب بيده إلى لحيته.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: منهما. وهو تحريف.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) في المخطوط: المنثلمة. وهو تحريف.
(٦) في المخطوط: أسلم. وهو تحريف.
(٧) في المخطوط: نغير. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٨) في المخطوط: نور. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٩) زيادة يتطلبها السياق.
(١٠) في المخطوط: خرج، والتصويب من الكامل.
(١١) زيادة يتطلبها السياق.

فقال له المعتصم: ما لك؟

قال: جئت أريد أن أسمع كلامك، وتسمع كلامي، فغدرت بي.

فقال المعتصم: كل شيء تريد أن تقوله فهو لك، قل ما شئت، فلست أخالفك.

قال: كيف لا تخالفني وقد دخلوا المدينة؟

فقال المعتصم: احتكم، وقل ما شئت فإني أعطيكه.

وسار خلق من الروم إلى كنيسة لهم عظيمة، فقاتلوا هناك قتالاً شديداً، فأحرق المسلمون الكنيسة، فاحترقوا عن آخرهم.

وبقي ناطس في برجه حوله بقية الروم وأصحابه وقد أخذتهم السيوف.

فجاء المعتصم حتى وقف حذاء ناطس، [فقال: ناطس][١] هاهنا؟

قالوا: بلى.

[قال][١]: فلينزل إلى أمير المؤمنين.

قالوا: لا ما هو هاهنا.

فمشى المعتصم مغضباً.

فصاح الروم: هذا ناطس، هذا ناطس.

فنصب بعض تلك السلاليم المعمولة حتى صعد عليه الحسن الرومي ـ وهو غلام لأبي سعيد محمد بن يوسف ـ فكلّمه ناطس، وقال له: هذا أمير المؤمنين فانزل على حكمه، فنزل الحسن، فأخبر المعتصم أن رآه وكلمه.

فقال المعتصم: فاصعد إليه وقل له فلينزل.

فصعد الحسن ثانية، فخرج ناطس من البرج متقلداً سيفاً حتى وقف على البرج قائماً والمعتصم ينظر إليه.

فخلع سيفه من عنقه، فدفعه إلى الحسن، ثم نزل فوقف بين يدي المعتصم فقنعه سوطاً وانصرف إلى مضربه، وقال: هاتوه[٢].

فمشى قليلاً، ثم جاء رسول يقول احملوه فحمل إلى مضرب أمير المؤمنين.

ثم أقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه.

فأمر المعتصم أن تهز الأسرى والسبي فيبعن في كل وجه، وأهل المعتصم باقي[٣]

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط هاتموه. والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: إني. وهو تحريف.

الأسرى بالقاسم أن ينادي عليها كل صاحب عسكر في ناحية، ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلاً من قبل أحمد بن أبي داود يحصي عليه.

فحثّ القاسم في خمسة أيام يبيع منها ما استباع، وأمر بالباقي فضرب بالنار.

ولما همّ المعتصم بالرحيل وثب الناس على مغنم الذي كان يبيعه وهو اليوم الذي كان عجيف وعد فيه الناس يثب بالمعتصم نفسه ركضاً، وسَلّ سيفه فتنحّى الناس من بين يديه، وكفُّوا عن انتهاب المغنم.

فرجع إلى مضربه، وأمر من الغد أن لا ينادى على [الشيء][1] إلاّ ثلاثة أصوات، وأن لا يباع المعاق.

فكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة، وعشرة عشرة، وعلى المتاع الكثير جملة واحدة[2].

وكان ملك الروم قد وجّه رسولاً[3] في أول ما نزل المعتصم عمورية، فأنزله المعتصم على ثلاثة أميال حتى فتح عمورية، فلما افتتحها أذن له في الانصراف ولم يصل إليه.

وفي هذه السنة: حبس[4] المعتصم العباس بن المأمون وأمر بلعنه.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك: أن عجيف بن عنبسة حين وجّهه المعتصم إلى بلاد الروم مع عمر الفرغاني يطلق يده في النفقات كما أطلقت يد الأفشين.

واستقصر المعتصم أمر عجيف وأفعاله وحقد عجيف ذلك فقال للعباس: ما كان أضعف همتك عند وفاة أبيك المأمون حين بايعت أبا إسحاق، وندّمه على تفريطه، وشجّعه على أن يتلافى ما كان منه.

فقبل العباس ذلك، وكان الحارث السمرقندي أديباً له عقل ومداراة، وكان العباس يأنس به.

فصيَّره واسطة بينه وبين القواد، فلم يزل يدور في العسكر حتى بايعه جماعة من القوّاد والخواص، وسمّى لكل واحد من قوّاد المعتصم رجلاً من ثقات أصحابه ممن بايعه.

---

(١) زيادة من الكامل يتطلبها السياق.

(٢) زاد صاحب الكامل في الخبر فقال:
وأمر بعمورية فأحرقت وهدمت، وكان نزوله عليها لست خلون من شهر رمضان، وأقام عليها خمسة وخمسين يوماً، وفرّق الأسرى على القواد، وسار نحو طرسوس.

(٣) في المخطوط: رولاً. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: جلس. والتصويب من الكامل.

وقال: إذا أمرنا فليثب كل رجل منكم على ما ضمناه أن يقتله.

فوكل من خاصة الأفشين بالأفشين، ومن خاصة أشناس بأشناس، وخاصة المعتصم بالمعتصم، فضمنوا ذلك جميعاً.

فلما أرادوا أن يدخلوا الدرب وهم يريدون بريد من أنقرة وعمورية.

ودخل الأفشين من ناحية ملطية، فأشار[١] عجيف على العباس أن يثب على المعتصم في الدرب وهو في قلة من الناس وقد تقطعت عنه العساكر فتقتله وتأمر الناس بالقفول[٢] إلى بغداد، فإن الناس يفرحون بانصرافهم، فأبى العباس عليه، وقال: لا أفسد هذه الغزاة.

فلما فتحوا عمورية قال عجيف للعباس: ينائم كم تنام؟ قد فتحت عمورية والرجل ممكن دسّ قوماً ينتهبون هذا الحرثي فإنه إذا بلغه ذلك ركب من ساعته، فتأمّر مَن يقتله هناك، فأبى عليه العباس.

وقال: انتظر حتى أصير إلى الدرب فيخلوا كما خلا في البدء فهو أمكن [منه][٣] هاهنا.

وكان عجيف قد أمر مَن ينهب[٤] المتاع، فانتهب الحرثي في عسكر إيتاخ.

وركب المعتصم وجاء ركضاً فسكن الناس ولم يطلق العباس لأحد من أولئك أن يتحركوا[٥].

ذكر سوء تحفُّظ في القول كاد يهلكه

كان عمر الفرغاني قد بلغه الخبر ذلك اليوم، وكان له غلام أمرد في خاصة المعتصم، فجاء الغلام أولاً إلى [ولد][٦] عمر [الفرغاني][٦] يشرب عندهم تلك الليلة، فأخبرهم: أن أمير المؤمنين يركب مستعجلاً، وأنه كان يعدو بين يديه وقال: إن أمير المؤمنين غضب، فأمرني أن أسل سيفي، وقال: لا يستقبلك أحد [٩٦/ ب] إلا ضربته.

فسمع عمر ذلك من الغلام، فأشفق عليه من أن يصاب به، فقال له: يا بني أنت أحمق أقِلّ من الكينونة عند أمير المؤمنين والزم خيمتك، فإن سمعت صيحة فلا تبرح من خيمتك، فإنك غلام غر [ولا تعرف العساكر فعرف مقالة عمر][٦].

---

(١) في المخطوط: أشار. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: بالعقول. وهو تحريف.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: يهب. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٥) زاد ابن الأثير بعد ذلك موضحاً: ولم يطلق العباس أحداً من أولئك الذين واعدهم وكرهوا قتله بغير أمر العباس.
(٦) زيادة من الكامل.

وارتحل المعتصم من عمورية يريد الثغور، ووجّه الأفشين صاحباً له في خلاف طريق المعتصم وأمره أن يعبر على موضع سمّاه له، وأن يوافيه في بعض الطريق.

فكان عسكر الأفشين على حدة من عسكر المعتصم بينهما قدر ميلين.

فتوجّه صاحب الأفشين حتى أغار وسبى وغنم، وأتى عسكر الأفشين بما أصاب من الغنائم.

واعتلّ أشناس، فركب المعتصم يعوده، ولم يكن الأفشين لحقه بعد، فلما عاد وانصرف تلقاه الأفشين في الطريق، فقال له المعتصم: امضِ إلى أبي جعفر.

وكان عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل عند منصرف المعتصم من عيادة أشناس توجها إلى ناحية الأفشين، ولقيهما الأفشين يريد أشناس أن يعيده.

فلما دخل الأفشين إلى أشناس وخرج، توجها إلى عسكر الأفشين لشراء السبي، ولم يكن السبي أخرج بعد، ووقفا ناحية ينتظران أن ينادى على السبي، فشريا.

ودخل حاجب أشناس على أشناس فقال له: رأيت عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل تلقيا الأفشين وهما يريدان عسكره فترجلا له وسلّما عليه، وتوجّها إلى عسكره.

فدعا أشناس محمد بن سعيد، وقال له: اذهب فانظر: هل هناك عمر الفرغاني وأحمد بن الخليل؟

وانظر عند مَن نزلا؟

وأي شيء قصتهما؟

فجاء محمد بن سعيد، فأصابهما واقفين على ظهور دوابهما.

فقال: ما وقفتكما هاهنا؟

فقالا: وقفنا ننتظر سبي ابن الأقطع فنشتري بعضه.

فقال لهما محمد بن سعيد: وكّلا وكيلاً يشتري بعضه لكما.

فقالا: لا تحب أن نشتري إلاّ ما نراه.

فرجع محمد، فأخبر أشناس بذلك.

فقال لحاجبه: قل لهؤلاء الزموا عسكركم خير لكم - يعني عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل - لا تدورا هاهنا وهاهنا.

فذهب الحاجب إليهما، فأعلمها، واغتمّا لذلك، واتفقا على أن يذهبا إلى صاحب خبر العسكر فليستعفياه من أشناس.

فسارا إلى صاحب الخبر، فقالا: نحن عبيد أمير المؤمنين يضمنا إلى مَن شاء،

فإن هذا الرجل يستخف بنا، قد شتمنا، وتوعّدنا، ونحن نخاف أن يقدم علينا.

فأنهى صاحب الخبر ذلك إلى المعتصم من يومه.

واتفق الرحيل من الغد، وكان إذا ارتحل الناس سارت العساكر على حيالها، وسار أشناس والأفشين وجميع القواد في عسكر أمير المؤمنين، ووكلوا خلفاءهم بعساكرهم.

فلما ذهب أشناس إلى المعتصم قال له: أحسن أدب عمر الفرغاني، وأحمد بن الخليل(١)، فإنهما قد حمقا أنفسهما.

فجاء أشناس ركضاً إلى معسكره، فسأل عن عمر، وأحمد بن الخليل.

فأصاب عمر، وكان ابن الخليل قد مضى، فأحضر عمر الفرغاني وقال: هاتوا سياطاً.

فمكث طويلاً مجرّداً ليس يؤتى بالسياط.

فتقدّم عمّه إلى أشناس فكلّمه فيه، وكان عمه أعجميًّا.

فقال: احملوه وألبسوه قباطاً واحملوه على بغل في قيد، وساروا به.

وجاء أحمد بن الخليل وهو يركض، فقال: احبسوا هذا معه.

فأنزل عن دابته، وصيِّر عديله، فبقيا كذلك يُسار بهما على كرامة وأثقالهما وغلمانهما في العسكر لم يحرك لهما شيء، حتى سمع الغلام الفرغاني قرابة عمر بحبس عمر، فذكر للمعتصم ما دار بينه وبين عمر من الكلام في تلك الليلة، وقوله: إذا سمعت صوتاً مثل هذا فالزم خيمتك.

فقال المعتصم لبغا: لا ترحل غداً حتى يجيء أشناس فتأخذ عمر وتلحقني به ـ وكان هذا بالصفصاف ـ ففعل بغا ذلك، ومضى بعمر إلى المعتصم.

فلما أتوا أحمد بن الخليل قلق لذلك، وأنفذ غلاماً له ليتتبع عمر وينظر ما يفعل به.

فرجع الغلام فأخبره أنه أُدخل على أمير المؤمنين فمكث ساعة ثم رفع إلى إيتاخ، وكان سائله أمير المؤمنين عن الكلام الذي قاله الغلام قرابته، فأنكره، وقال: هذا الغلام كان سكران ولم يفهم ومما قلت شيئاً مما ذكره.

وسار المعتصم حتى صار إلى مضايق البديدون، وأقام أشناس هناك ثلاثة أيام

(١) بعد هذه الكلمة جاءت عبارة: فأصاب عمر، وكان ابن الخليل. ثم استمر السياق. وهذه العبارة زائدة سهواً وقد جاءت بعد ذلك في موضعها الصحيح فخذفتها.

ينتظر أن يتخلص عساكر أمير المؤمنين لأنه كان على الساقة.

فكتب أحمد بن الخليل رقعة إلى أشناس يعلمه أن لأمير المؤمنين عندي نصيحة.

فبعث إليه أشناس بأحمد بن الخصيب، وأبي سعيد محمد بن يوسف يسألانه عن النصيحة.

فذكر أنه لا يخبر بها إلاّ أمير المؤمنين فرجعا، فأخبرا أشناس بذلك.

فقال: ارجعا فاحلفا له، أني حلفت بحياة أمير المؤمنين إن هو لم يخبرني بهذه النصيحة أن أضربه بالسياط حتى يموت.

فرجعا فأخبراه بذلك، فأخرج جميع ما كان يحفظه.

وبقي أحمد بن الخصيب وأبو سعيد فأخبرهما بما ألقى إليه عمر الفرغاني من أمر العباس وشرح لهما جميع ما كان عنده من خبر الحارث السمرقندي.

فانصرفا إلى أشناس، وأخبراه بذلك.

فبعث أشناس في طلب الحدادين، فجاؤوا بهم، فدفع إليهم حديداً، وقال: اعملوا لي قيداً مثل قيد أحمد بن الخليل، وعجّلوا لي الساعة. ففعلوا ذلك.

فلما كان وقت العتمة ذهب حاجب أشناس إلى خيمة الحارث السمرقندي فأخرجه منها وجاء به إلى أشناس، فقيّده، وأمر الحاجب أن يحمله إلى أمير المؤمنين، فحمله إليه.

[٩٧/أ] واتفق رحيل أشناس صلاة الغداة، فجاء أشناس إلى موضع معسكره فلقاه الحارث ومعه رجل من قبل المعتصم [فأخبره أنه][١] سأل الحارث عن أمره، فأخذ عهده إن صدقه ونصحه أطلقه، ثم أقرّ له بجميع أمره، وجميع مَن بايع العباس من القواد.

فأطلق المعتصم الحارث، وخلع عليه، ولم يصدق على أولئك [القواد] لكثرتهم، وكثرة مَن سمّى منهم وبخبر المعتصم.

فدعا المعتصم [العباس بن المأمون][٢] حين خرج [الحارث][٢] من الدرب فأطلقه ومنّاه، وأوهمه أنه قد صفح عنه وتغدّى معه وصرفه إلى مضربه، ثم دعاه بالليل فنادمه الشراب وسقاه حتى أسكره، واستحلفه أنه لا يكتم من أمره شيئاً، فشرح له قصته، وسمّى له جميع مَن كان دَبّ في أمره، فكتبه المعتصم وحفظه.

ثم دعا الحارث السمرقندي بعد ذلك فسأله عن الأسباب.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

فقصّ عليه مثل ما قصّ العباس، ثم أمر بتقييد العباس.

ثم قال للحارث: قد رضيتك على أن تكذب فأجد السبيل إلى سفك دمك فلم تفعل.

ثم دفع العباس إلى الأفشين، وتتبع المعتصم أولئك القوّاد فأخذوا جميعاً.

فأما أحمد بن الخليل: فأمر أن يحمل على بغل بإكاف بلا وطاء ويطرح في الشمس إذا نزل ويطعم[١] في كل يوم رغيفاً واحداً.

وأما عجيف بن عنبسة؛ فدفع مع جماعة من القوّاد إلى إيتاخ.

ودفع أحمد بن الخليل إلى أشناس.

وأخذ الشاه ابن منهل، فأحضره المعتصم، والعباس بين يديه فقال له: يا ابن الزانية أحسنت إليك فلم تشكر.

فقال الشاه: ابن الزانية هذا الذي بين يديك - يعني العباس - لو تركني هذا [ما][٢] كنت[٣] تقدر أن تقعد في هذا المجلس، وتقول ما تقول ما تقول.

فأمر به المعتصم فضُربت عنقه [وهو أول مَن قتل منهم][٤].

ودفع عجيف إلى إيتاخ، فعلّق عليه حديداً كثيراً، وحمله على بغل في محمل بلا وطاء.

وأما العباس: فكان في يد الأفشين.

فلما نزل[٥] المعتصم منبج، وكان العباس جائعاً، فسأل عن الطعام فقدّم إليه طعام كثير، فأكل، فلما طلب الماء منع وأدرج في مسح، فمات.

وأما عمر الفرغاني: فإنه لما نزل المعتصم بنصيبين في بستان دعاه صاحب البستان.

فقال له: احفر بئراً في موضع أومأ إليه.

ثم دعا بعمر، وقد تناول أقداحاً، فلما مَثُل بين يديه جرّد وضرب بالسياط.

فلما انتهى حفّار البئر مما أمره به المعتصم أمر المعتصم أن يضرب وجه عمر، ولم ينطق بحرف حتى طرح في البئر وطمت عليه.

---

(١) في المخطوط: طمع. وهو تحريف.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) بعد هذه الكلمة جاءت هذه الكلمات والحروف: ناهذالا. فحذفتها ليستقيم السياق.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: طلب وهو تحريف أو سهو والتصويب من الكامل.

وأما عجيف: فإنه مات في المحمل بباعيناثا(١) [من بلد الموصل](٢) فطرح عند صاحب المسلّحة فدفن هناك.

وذكر أن عجيفاً كان في يد محمد بن إبراهيم بن مصعب، فسأله المعتصم عنه فقال: يا محمد لم يمت عجيفاً يا أبا صالح.

فقال: يا سيدي اليوم يموت.

فمات ذلك اليوم(٣).

وأما(٤) التركي الذي ضمن للعباس(٥) قتل أشناس فإنه(٦) كان كريماً على أشناس ينادمه ولا يحجب عنه(٧)، فأمر أشناس بحبسه قِبله في بيت مظلم، وسَدَّ عليه الباب، وكان يلقي إليه كل يوم رغيف وكوز ماء.

فأتاه ابنه في بعض أيامه فكلّمه من وراء الحائط.

فقال له: يا بُني، لو كنت تقدر سكين كنت أقدر أن أتخلّص من موضعي هذا.

فلم يزل ابنه يتلطّف للمتوكلين حتى فتح له بمقدار دون الدرهم ضوء، فطرح إليه من هنالك سكيناً فقتل نفسه بها.

وأما أحمد بن الخليل: فإنه دفعه أشناس إلى محمد بن سعيد فحفر له بئراً وفتح بها كوة ليرمى إليه منها الخبز والماء.

فقال له المعتصم احبسه...(٨) على هذه الحال....(٨) إلى غيره فسمه حتى مات.

وقتل باقي القوّاد إلاّ هرثمة بن النضر الختلي فإنه كان يختل في الحديد من المراغة لأنه كان هناك، فتكلم فيه الأفشين، والأفشين استوهبه من المعتصم، فوهبه له. فولاّه البلد الذي يصل إليه الكتاب فيه فوصل إلى الدينور عند(٩) العشاء مقيَّداً

---

(١) في المخطوط: بباعتينا. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في الكامل: وقيل: بل أطعم طعاماً كثيراً ومنع الماء حتى مات بباعيناثا، وتتبع جميعهم فلم يمضِ عليهم إلا أيام قلائل حتى ماتوا جميعاً.
(٤) في المخطوط: أمر. وهو تحريف.
(٥) في المخطوط: فإن. وهو تحريف.
(٦) في المخطوط: العباس. وهو تحريف.
(٧) تكررت العبارة من أول قوله: وأما التركي، إلى موضع الإشارة فحذفت التكرار.
(٨) موضع النقط في كلا الموضعين كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط.
(٩) قبل هذه الكلمة في المخطوط كلمة جاءت زائدة على السياق وهي: وقيل. فحذفتها.

مغلولاً، فطرح في خان، فوافاه الكتاب في بعض الليل، وأصبح وهو والي الدينور.

وقتل من الأتراك، والفراغنة وغيرهم ممن لم يحفظ اسمه خلق كثير.

وَرُدَّ المعتصم من سُرَّ مَنْ رَأى سالماً بأحسن حال[١].

ودخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

وفيها: أظهر مازيار بن قارن الخلاف على المعتصم بطبرستان [وعصى وقاتل عسكره][٢].

---

(١) وزاد ابن الأثير في هذا الخبر، وفي أحداث هذه السنة فقال ما يلي:
ووصل المعتصم إلى سامرا سالماً فسمّى العباس يومئذ اللعين.
وأخذ أولاد المأمون من سُندس فحبسهم في داره حتى ماتوا بعد.
ومن أحسن ما يذكر: أن محمد بن علي الإسكاف كان يتولى إقطاع عجيف، فرفع أهله عليه إلى عجيف فأخذه، وأراد قتله فبال في ثيابه ـ خوفاً من عجيف ـ ثم شفع فيه فقيّده وحبسه.
ثم سار إلى الروم، وأخذه المعتصم ـ كما ذكرنا ـ وأطلق مَن كان في حبسه، وكانوا جميعاً منهم الإسكاف.
ثم استعمل على نواح بالجزيرة ومن جملتها باعيناثا.
قال: فخرجت يوماً إلى تل باعيناثا فاحتجت إلى الوضوء، فجئت إلى تل فبلت عليه ثم توضأت ونزلت، وشيخ [من] باعيناثا ينظرني، فقال لي: في هذا التل قبر عجيف وأرانيه فإذا أنا قد بلت عليه.
وكان بين الأمرين سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً.
وفي هذه السنة: رابع عشر رجب توفي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وكان عمره إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام.
وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر.
وولّي بعده أخوه أبو عفان الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب.
فأحسن إلى الجند، وأزال مظالم كثيرة، وزاد العمال في أرزاقهم، وكفّ أيديهم عن الرعية، وقطع النبيذ والخمر عن القيروان.
وسيَّر سرية سنة أربع وعشرين ومائتين إلى صقلية، فغنمت وسلمت.
وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمن عدة حصون من جزيرة صقلية إلى المسلمين منها حصن البلوط، وأبلاطنو، وقرلون، ومرو.
وسار أسطول المسلمين إلى قِلّوْرِيَة، ففتحها، ولقوا أسطول صاحب قسطنطينية، فهزموه بعد قتال.
فعاد الأسطول إلى قسطنطينية مهزوماً فكان فتحاً عظيماً.
وفي سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى قصريانة، فغنمت وأحرقت وسبت، فلم يخرج إليها أحد، فسارت إلى حصن الغيران، وهو أربعون غاراً، فغنمت جميعها.
وتوفي الأمير أبو عفان فيها على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وجرح **في هذه السنة في شوال**: إسحاق بن إبراهيم جرحه خادم له.
وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن داود.
وفي هذه السنة: سيَّر عبد الرحمٰن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى أُلية، والقلاع، فنزلوا حصن الفرات، وحصروه، وغنموا ما فيه، وقتلوا أهله، وسبوا النساء والذرية وعادوا.

(٢) زيادة من الكامل.

ذكر السبب في ذلك

كان مازيار منافراً لآل طاهر لا يحمل الخراج إليهم.

وكان المعتصم يكتب إليه يأمره بحمله إليهم فلا يحمله، ويقول: احمله إلى أمير المؤمنين.

وكان المعتصم يأمر بالمال إذا بلغ همذان أن يسبق فيه عامله، ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلى خراسان.

ولما ظفر الأفشين ببابك نزل من المعتصم المنزلة التي لا يتقدمه فيها أحد، وبلغه منافرة مازيار آل طاهر، طمع في ولاية خراسان، ورجا أن يكون ذلك سبباً لعزل عبد الله بن طاهر.

فدسّ الكتب إلى مازيار يعلمه ميله إليه بالدهقنة، ويظهر مودته، ويقول له: إنه قد وعد بولاية خراسان.

فدعاه ذلك إلى الاستمرار في عداوة آل طاهر، وترك حمل الخراج.

وما شك الأفشين أن كاشف وخالف سيطاول عبد الله بن طاهر حتى يحتاج المعتصم أن يوجهه وغيره إليه.

ولم يزل مازيار يحثه على محاربة عبد الله بن طاهر، ويهون أمره عنده حتى خالف، وأخذ رهائن أكابر ناحيته وأمر الأكراد بانتهاب أموال أرباب الضياع وغلاّتهم.

والأفشين في كل مكاتبه يعرض عليه النصرة.

وأخذ مازيار الناس بالخراج، فجبى جميع الخراج في شهرين.

وكان يحيي كل سنة [٩٧/ب] الثلث في أربعة أشهر(١).

وهرب رجل ممن أخذت رهينته، فجمع أبو صالح سرخاستان خليفة لمازيار [على] الناس بسارية.

وقال: كيف يثق بكم الملك؟ وهذا فلان ممن خالف فأعطى الهيبة، ثم نكث وخرج حتى لا يعود غيره إلى الهرب.

قال: أوَتفعلون؟

قالوا: نعم.

فكتب أبو صالح إلى صاحب الرهائن، وأمره أن يوجه بالهارب.

---

(١) في الكامل: فجبى في شهرين ما يأخذه في سنة.

فلما حمل إلى سارية ندم الناس على ما قالوا، وجعلوا يرجعون على مَن أشار عليهم بذلك باللوم.

فجمعهم أبو صالح وقال: قد صممتم في قتل الرهينة، وها هو قد حضر فاقتلوه.

قال بعضهم: أصلح الله الأمير، إنك أجلت مَن خرج عن البلد شهرين، وهذه الرهينة قبلك، فنسألك أن تؤجله شهرين فإن رجع أبوه وإلاّ أمضيت فيه رأيك.

فغضب، ودعا بصاحب حرسه، فأمره بصلب الغلام.

فسأله الغلام أن يأذن له حتى يصلي ركعتين.

فأذن له، فطوّل في [صلاته][(١)] وهو يرعد، ومُدَّ له جذع، فجذبوا الغلام من صلاته ومدُّوه حتى اختنق ومات.

ثم أمر أهل سارية أن يخرجوا إلى آمل، وتقدّم إلى أصحاب المسالح في إحضار أهل الخنادق من الأبناء والعرب، فأحضروا، ومضى معهم إلى آمل.

وقال لهم: إني أريد أن أشهدكم على أهل آمل وأرد عليكم أرضكم وأموالكم[(٢)]، فإن لزمتم الطاعة والمناصحة زدناكم ضعف ما أخذناه منكم.

فلما وافق [أهل][(٣)] آمل حتى لم يخف عليه منهم أحد عرضهم على الأبناء[(٤)] حتى اجتمعوا، وتقدّم إلى أصحاب المسلاح حتى أخذ قواته ووكل بكل رجل رجلين، ساقهم مكفين حتى وافى بهم جبلاً يعرف بـ: هرمزاباذ[(٥)] وكبلهم[(٦)] بالحديد، وبلغت عدتهم عشرين ألفاً فحبسهم هناك، وفعل مثل ذلك بوجوه العرب والأبناء وكبّلهم وحبسهم، ووكل بهم.

فلما تمكن مازيار، واستوى أمره حبس كل مَن خشي غائلته، وأمر جميع أصحابه، وأمر سرخاستان بتخريب سور مدينة آمل فخربه بالطبول والأزامير.

ثم سار إلى سارية ففعل [مثل] ذلك بها.

ثم فعل بطميس[(٧)] ـ وهي على حدّ جرجان من عمل طبرستان ـ مثل ذلك.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: على أهل آمل عليكم وأرد ضاكم وأموالكم. وهو اضطراب وتحريف فضبط العبارة.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في المخطوط: الأسماء. وهو تحريف.

(٥) في المخطوط: هرمزابار. والتصويب من الكامل.

(٦) في المخطوط: وكلبهم. وهو تحريف.

(٧) في المخطوط: بطميش والتصويب من الكامل في كل موضع.

وعمل سوراً من طميس إلى البحر مقدار ثلاثة أميال.

وكانت الأكاسرة بنته بينها وبين الترك [حين][1] كانت تغير على أهل طبرستان في أيامها [وجعل له خندقاً][2].

ونزل سرخستان وعرض معسكراً بطميس وصيَّر حولها خندقاً وثيقاً وأبراجاً للحرس وصيَّر عليها باباً وثيقاً، ووكل به الثقات.

ففزع أهل جرجان فهرب منهم قوم إلى نيسابور.

وانتهى الخبر إلى عبد الله بن طاهر عامل المعتصم على خراسان فوجّه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب مع جيش كثيف لحفظ جرجان، وأمره أن يعسكر على الخندق.

فنزل الحسن بن الحسين على الخندق معسكراً، وصار بينه وبين سرخستان عرض الخندق ثم بعث إليه عبد الله بن طاهر حيان لبني جبلة في أربعة آلاف فارس إلى قومس فعسكر حدّ جبال شروين[3].

ووجّه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم أخا إسحاق بن إبراهيم في جمع كثيف، وضمّ إليه الحسن بن قارن الطبري العابد ومَن كان بالباب [من][4] الطبرية.

ووجّه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى الري ليدخل طبرستان من ناحية الري ووجه أبا الساج إلى اللارز ودنباوند[5].

فأحدقت الخيل بمازيار[6] من كل جانب فبعث مازيار إلى أهل المدن المحبسين عنده بالجبل [فقال لهم: إن][7] الخيل قد زحفت إليّ من كل جانب، وإنما حبستكم ليبعث أميركم فيسل فيكم ـ يعني المعتصم ـ فلم يكترث بكم، وأنتم عشرون ألفاً، ولست أتقدم على حربه وأنتم ورائي، فأدُّوا إلي خراج سنتين وأخلي سبيلكم ومَن كان منكم شابًا قوياً قدمته للقتال فمَن وفى رددت عليه ماله، ومَن لم يفِ أكون قد أخذت ديته، ومَن كان شيخاً ضعيفاً صيَّرته من الحفَظة والحرّاس والبوّابين.

ثم إن سرخستان جمع من أبناء القوّاد وغيرهم من أهل آمل ممن فيه قوة وشجاعة مائتَين وستين فتىً ممن يخاف ناحيته، وأظهر أنه يريد مناظرتهم، وبعث إلى الأكسرة

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: شروان. والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: اللارونباوند. والتصويب من الكامل.
(٦) في المخطوط: ببازياد. والتصويب من الكامل.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.

الدهاقين فقال لهم: إن هؤلاء هواهم مع العرب ولست آمن غدرهم، وهم أهل الفتنة قد جمعتهم فاقتلوهم لتأمنوا ولا يكون في عسكركم مَن يخالفكم، ثم كفّهم ودفعهم إلى الأكسرة الدهاقين.

فساروا بهم إلى قناة هناك قد خربت فقتلوهم ورموا بهم في آبار القناة.

ثم عطف سرخستان إلى المحبسين من أهل المدن فطالبهم بمال الموافقة.

فقالوا: إن صاحبك لم يبق لنا مالاً، ولا ذخيرة، ولو علم أن وراءنا درهماً واحداً لاستخرجه[1] ولكنا نعطي ضياعنا وأملاكنا بقيمة ما يطلب.

فقال لهم: الضياع للملك ولا حق لكم فيها، فاحتال الملك فلم يجد عندهم شيئاً.

فقال لأولئك الأكره الذين قتلوا[2] [أبناء القوّاد][3]: إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم إلاّ ما كان من جارية جميلة من بناتهم فإنها تصير للملك، وقال لهم: سيروا إلى الحبس، فاقتلوا أرباب الضياع، ثم حوزوا ما وهبت لكم من منازلهم وحرمهم.

فتحيّر القوم ولم يقدموا على عشرين ألفاً فلم يقبلوا منه.

وكان الموكلون بالسور من أصحاب سرخستان يتحدثون ليلاً مع حرس الحسن بن الحسين بن مصعب حتى استأنس بعضهم ببعض، وتآمروا على تسليم السور، فسلّموه، ورحل أصحاب الحسن بن الحسين من موضعهم إلى عسكر [٩٨/أ] سرخستان على غفلة من غير أن يعلم بذلك صاحبهم.

فنظر الناس بعضهم إلى بعض فثاروا يدخلون من الحائط، وبلغ الحسن بن الحسين ذلك، فأشفق أن تكون حيلة فجعل يصيح ويمنع من الدخول وهم يقتلون حتى نصبوا أعلامهم على السور في معسكر سرخستان[4].

فانتهى الخبر إلى سرخستان وهو في الحمام وسمع الضجيج، فلم يكن له همّة إلاّ همّة الهرب فخرج هارباً في غلالة.

ودخل الناس من غير مانع حتى استولوا على ما في العسكر، ومضى قوم في الطلب.

فتحدّث زرارة بن يوسف قال: بينا أنا في الطريق إذ صرت في موضع مظلم بسرة

(١) في المخطوط: لاستخره. وهو تحريف.

(٢) جاء بعد هذا اللفظ تكرار للعبارة السابقة من أول قوله: لاستخرجه إلى قوله: فاحتالوا. فحذفت العبارة المكررة، ثم جاء سقط بينها وبين التي بعدها، فأثبت ما يناسب السياق بين معقوفين.

(٣) زيادة يتطلبها السياق سبق الإشارة إليها.

(٤) في الكامل: وحين رأى الحسن أن أصحابه قد دخلوا السور قال: اللهم إنهم عصوني وأطاعوك فانصرهم، وتبعهم أصحابه حتى دخلوا إلى الدرب من غير مانع واستولوا على عسكر سرخستان.

الطريق، فوجلت منه ثم اقتحمته بالرمح ولم أرَ أحداً، ولكن صِحْتُ مَن أنت؟

فقال: أنا شهريار - وإذا به أخو سرخستان صاحب العسكر - فحملته إلى الحسن بن الحسين، فضرب عنقه.

وأما سرخستان، فإنه مضى على وجهه، وكان عليلاً، فلما أجهده العطش نزل عند غيضة واستلقى[١]، وصاح ببعض أصحابه ممن تبعه: يا فلان[٢] اسقني ماء، فقد جهدني العطش.

فقال: ليس معي شيء أغرف به من هذا الموضع.

فقال له سرخستان: خذ رأس جعبتي فاسقني به.

فنظر الرجل إلى صاحبه [وقد اجتمع إليه عدة من أصحابه][٣] وقال لهم: هذا الشيطان قد أهلكنا، فلما لا نتقرّب به إلى السلطان، ونأخذ لأنفسنا أماناً؟

فأجابوه إلى ذلك ووثبوا عليه، وشدُّوه كتافاً.

فقال لهم: خذوا مني مائة ألف، واتركوني، فإن العرب لا تعطيكم شيئاً.

فقالوا: احضرها[٤].

قال: هاتوا ميزاناً.

فقالوا: من أين لنا هاهنا بميزان؟

قال: فمن أين لي هاهنا ما أعطيكم، ولكن سيروا معي إلى المنزل، وأعطيكم العهود، والمواثيق أني أفي لكم بذلك.

فساروا به إلى الحسن بن الحسين، واستقبلهم خيل الحسن بن الحسين، فضربوا رؤوسهم، وأخذوا سرخستان منهم فهمتهم أنفسهم ومضى به أصحاب الحسن إلى الحسن.

فدعا بوجوه أصحابه وسألهم: هل هذا سرخستان؟

قالوا: نعم، هو هو.

فأمر به فضربت عنقه[٥].

---

(١) في المخطوط: واستقلى. وهو تحريف.
(٢) في الكامل: يا جعفر. (وهو غلامة).
(٣) زيادة يتطلبها السياق ومعناها من الكامل أو هي نحو ما في الكامل.
(٤) في المخطوط: أحضرنا. وهو تحريف. والتصويب من الكامل.
(٥) زاد ابن الأثير بعد ذلك فقال:
وكان عند سرخستان رجل من أهل العراق يقال له: أبو شاس [وهو الغطريف بن حصين بن حنش] يقول الشعر، وهو ملازم له ليتعلم منه أخلاق العرب، فلما هجم عسكر العرب على =

وكان حيان بن جبلة من ناحية طميس قارن شهريار ورغبه في الطاعة، وضمن له جبال أبيه وجده.

وكان قارن هذا ابن أخي مازيار وقد فرده وصيّره مع أخيه عبد الله بن قارن وضمّ إليه عدة من قوّاده وقراباته.

فلما استماله حيان أمره[١] بالتوقف، وأن لا يدخل الجبل، ولا يوغل حتى يكون مَن قارن يستدل[٢] به على الوفاء لئلا يكون منه مكر.

وكتب حيان إلى قارن بذلك.

فدعا قارن بعمه عبد الله بن قارن أخي مازيار ودعا جميع قواده إلى طعامه، فلما أكلوا، ووضعوا سلاحهم، واطمأنوا، أحدق بهم أصحابه في السلاح، وكتفهم، ووجه بهم إلى حيان بن جبلة.

فلما صاروا إليه استوثق منهم، وركب حيان في جمعه حتى دخل جبال[٣] قارن.

وبلغ مازيار الخبر، فاغتمّ وقلق وقال له أخوه قوهيار: في حبسك عشرون ألفاً من المسلمين ما بين إسكاف وخياط [وحداد][٤] وقد شغلت بهم، وإنما أتيت من مأمنك[٥] وأهل بيتك وقرابتك، فما تصنع بهؤلاء المحبسين عندك؟

فأمر بأن يخلي جميع مَن في محبسه، ثم دعا بكتابه وخلفائه، وصاحب خراجه وصاحب شرطته، وقال لهم: إن خراجكم ومنازلكم وضياعكم بالسهل، وقد دخلت العرب، وأكره أن أسومكم، فاذهبوا إلى منازلكم، وخذوا الأمان لأنفسكم، ووصلهم، وأذن لهم في الانصراف[٦].

= سرجستان انتهبوا جميع ما لأبي شاس وخرج وأخذ جرة فيها ماء، وأخذ قدحاً وصاح الماء للسبيل وهرب.

بمرّ بمضرب كاتب الحسن، فعرفه أصحابه، فأدخلوه إليه، وقال له: قل شعراً تمدح به الأمير. فقال: والله ما بقي في صدري شيء من كتاب الله من الخوف فكيف أحسن الشعر.

ووجّه الحسن برأس سرخستان إلى عبد الله بن طاهر وكان حيان بن جبلة مولى عبد الله بن طاهر قد أقبل مع الحسن كما ذكرناه وهو بناحية طميس وكاتب قارن بن شهريار - وهو ابن أخي مازيار - ورغّبه في المملكة.

(١) في المخطوط: يأمره. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: يستل. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: حيان. والتصويب من الكامل.
(٤) زيادة من الكامل.
(٥) في المخطوط: منامك. وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٦) بعد هذا في الكامل: ففعلوا ذلك، ولما بلغ أهل سارية أخذ سرخستان، ودخلوا حيان جبل شروين وثبوا على عامل مازيار بسارية فهرب منهم، وفتح الناس السجن، وأخرجوا مَن فيه، وأتى حيان إلى مدينة سارية، وبلغ قوهيار أخا مازيار الخبر...

ولما بلغ قوهيار أخا مازيار دخول حيان سارية أطلق محمد بن موسى عامل طبرستان من حبسه وحمله على بغل ومركب ووجه إلى حيان ليأخذ له الأمان، ويجعل له حيان [تملك جبال] أبيه وجده، على أن يسلم إليه مازيار، ويوثق له بذلك، وضمّ إليه أحمد بن الصقر وهو من مشايخ الناحية ووجوهها.

فلما سار محمد بن موسى إلى حيان وأخبره رسالة قوهيار، قال له حيان: مَن هذا؟

يعني أحمد.

قال: هذا شيخ هذه البلاد، ويعرفه الخلفاء ويعرفه الأمير عبد الله بن طاهر.

ورأى حيان تحت أحمد برذوناً[١] ضخماً نبيلاً فبعث إليه يسأله أن يقوده إليه ليراه فبعث به.

فلما تأمله وجده شطب اليدين فزهد فيه، وقال لرسول أحمد: هذا لمازيار، ومال مازيار لأمير المؤمنين.

فرجع الرسول فأخبر أحمد فغضب من فعل حيان به ذلك، وكتب إلى قوهيار:

ويحك لِمَ تغلط في أمرك، وتترك مثل الحسن بن الحسين عم الأمير عبد الله بن طاهر، وتدخل في أمان هذا العبد الحائك وتدفع أخاك، وتضع من قدرك وتحقد عليك الحسن بن الحسين بتركك إياه وميلك إلى عبد من عبيده؟

فكتب إليه قوهيار:

قد غلط في أول الأمر، وواعدت الرجل أن أصير إليه بعد غد، ولا آمن أن خالفته أن يناهضني ويحاربني، ويستبيح منازلي وأموالي، وإن قاتلته[٢]، وقتلت من أصحابه وجرت الدماء بيننا، وقعت الشحناء ويبطل ما نحن فيه.

فكتب إليه أحمد:

إذا كان يوم الميعاد، فابعث رجلاً من أهل بيتك، واكتب إليه أنه عرضت لك خلة منعتك من الحركة، فإنك معالج ثلاثة أيام، فإن عوفيت وإلاّ صرت إليه في محمل.

وسنحمله نحن على قبول ذلك منك.

ثم إن أحمد بن الصقر، وأحمد بن موسى كتبا إلى الحسن بن الحسين وهو في معسكر بطميس ينتظر أمر عبد الله بن طاهر، وجواب كتابه بقتل سرخستان، وفتح

---

(١) في الكامل: فرساً.

(٢) في المخطوط: قاتله. وهو تحريف.

طميس، فكتب إليه:

أن اركب إلينا لندفع إليك قارن والجبل وإلا فاتك ولا تقم.

فلما وصل الكتاب إلى الحسن، ركب من ساعته، وسار [٩٨/ب] مسير ثلاث ليال في ليلة، حتى انتهى إلى سارية.

ولما أصبح سار إلى خرّماباذ، وهو يوم موعد قوهيار.

وسمع حيان وقع طبول الحسن، فركب وتلقاه على رأس فرسخ.

فقال له: ما تصنع هاهنا؟ ولم توجه إلى هذا الموضع؟ وقد فتحت جبال شروين وتركتها وراءك، فما يؤمنك أن يغدر القوم بك فينتقض جميع ما عملت عليك؟

ارجع إلى الجبل، وأشرف على القوم إشرافاً لا يمكنهم الغدر إن همُّوا به.

فقال حيان: أنا علي الرجوع، وأريد أن أحمل أثقالي وأتقدّم إلى رجالي بالرحيل.

فقال له الحسن: امضِ أنت، فإني باعث أثقالك ورجالك خلفك، وبت الليلة بسارية حتى يوافوك.

ثيم بكّر من غد فخرج حيان من فوره ولم يقدر على مخالفة الحسن.

ثم ورد عليه كتاب عبد الله بن طاهر: [أن يعسكر][1] بكور[2] وهي من جبال ونداد هرمز [وهي][3] من أحصن جباله ولأن أكثر مال مازيار بها.

وأمر عبد الله أن لا يمنع قارن مما يريد من تلك الجبال والأموال.

فاحتمل قارن لمازيار هناك من المال من ذخائر مازيار وسرخستان، وباساندرة، ويقدح السلمان، واحتوى ذلك كله.

فانتقض على حيان جميع ما كان نسخ له بسبب ذلك البرذون.

ثم إن محمد بن موسى، وأحمد بن الصقر بيتا الحسن وناظراه سرًّا، فجزاهما خيراً، وكتب إلى ماقوهيار، فوافاه وبرَّه، وأكرمه، وأجابه إلى كل ما سأل، واستعد إلى يوم، ثم صرفه وسار قوهيار إلى مازيار أنه قد أخذ له الأمان وتوثق له.

ثم ورد عليه المازيار وقوهيار، وتقدّم المازيار فسلّم عليه بالإمارة، فلم يرد عليه الحسن.

وتقدّم إلى طاهر بن إبراهيم، وأوس البلخي فقال: خذاه إليكما.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: وهو يكون من جبال. وهو خلط وتصحيف والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

ثم ورد عليه كتاب عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وإخوته وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم ليحملهم إلى المعتصم.

ولم يعرض عبد الله لأموالهم، وأمر أن يستصفي ما للمازيار.

فبعث الحسن [إلى][1] المازيار، فأحضره وسأله[2] عن أمواله، فسمّى قوماً ذكر أن أمواله عندهم.

فأحضر قوهيار، وكتب عليه كتاباً، وضمّنه المال الذي ذكر مازيار أنه عند ثقاته وخزّانه، وأصحاب كوره، وأشهد على نفسه.

ثم إن الحسن أمر الشهود الذين حضروا أن يسيروا إلى المازيار ليشهد عليه.

فذكر عن بعضهم أنه قال: لما دخلنا على المازيار ليشهد عليه، قال المازيار: إن جميع ما حملت من أموالي وصحبتي ستة وتسعون ألف دينار وسبع عشرة قطعة زمرد، وستة عشر قطعة ياقوت أحمر، وأوقار سلالاً[3] مجلّدة فيها ألوان الثياب وتاج، وسيف محلّى بذهب وجوهر وحُقّ[4] كبير مملوء جوهراً وقد وضعه بين أيدينا وقد سلمت ذلك إلى محمد بن الصباح وهو خازن عبد الله وصاحب خيره على العسكر إلى قوهيار.

قال: فخرجنا إلى الحسن بن الحسين.

فقال: أشهدتم على الرجل؟

قال: نعم.

فقال: هذا شيء أخبرت به، فأحببت أن تعلموا قِلّتَهُ.

وذكر علي بن زين كاتب مازيار:

أن ذلك الحُقّ كان...[5] جوهرة، و....[6] على المازيار وشروين، وشهريار ثمانية عشر ألف ألف درهم وكان مازيار حمل جميع ذلك إلى الحسن بن الحسين على أن يظهر أنه خرج إليه في الأمان، وأنه قدّمه على نفسه وماله وولده وجعل له جبال أبيه.

فامتنع الحسن بن الحسين من ذلك وعَفّ عنه، وكان أعف الناس عن أخذ درهم أو دينار.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: ما له. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: سلاسلا. وهو تحريف.
(٤) أي علبة.
(٥) موضع النقط كلمة في المخطوط هذا رسمها: «بشرا».
(٦) موضع النقط كلمة في المخطوط هذا رسمها أيضاً: «حبه».
ولم أتبين موضع النقط في الكلمتين مع السياق فتركت إثباتهما بالمتن.

فلما أصبح أنفذ مازيار مع طاهر بن إبراهيم، وعلي بن إبراهيم الحربي.

وورد كتاب عبد الله بن طاهر في إنفاذه مع يعقوب بن منصور، وقد ساروا بمازيار ثلاثة من أجله، فبعث الحسن فردّه، وأنفذ مع يعقوب بن منصور. . .[١] حزم بالدلالة عاد بهلاك.

ثم أمر الحسن القوهيار أخاً لمازيار يحمل الأموال التي ضمنها، ودفع إليه بغلام من العسكر، وأمر بإنفاذ جيش معه، فامتنع القوهيار وقال: لا حاجة لي فيهم.

وأخرج الأموال ليحملها، فوثب عليه مماليك المازيار من الديالمة وكانوا مائتين، وقالوا: أغدرت بصاحبنا وأسلمته إلى [العرب][٢] وجئت لتحمل أمواله وأخذوه وكبلوه بالحديد.

فلما جَنّهُ الليل قتلوه، وانتهبوا الأموال، والبغال.

فانتهى الخبر إلى الحسن، فوجّه جيشاً إلى الذين قتلوا القوهيار.

ووجّه قارن جيشاً آخر من قِبله في أخذهم، فأخذ منهم صاحب قارن عدة فيهم ابن عم لمازيار يقال له: شهريار بن المصمغان، وكان رأس العبيد ومحرِّضهم.

فوجّه قارن إلى عبد الله بن طاهر فمات في الطريق، وكان جماعة أولئك الديالمة أخذوا على السفح والغيضة يريدون الديلم.

فنذر بهم محمد بن إبراهيم بن مصعب، فوجّه من قِبله الطبرية وغيرهم حتى عارضوهم[٣] وأخذوا عليهم الطريق، فأخذوا على طريق الروذبان إلى الروذبان.

[سبب فساد أمر مازيار][٤]

كان سبب فساد أمر مازيار أن جبال طبرستان ثلاثة يتوارثونها ثلاثة أولاد لكسرى:

جبل ونداد هُرمز.

وجبل أخيه ونداسنجان بن الأنداد بن قارن.

وجبل شروين بن سرخاب بن باب.

فلما قوي أمر المازيار بعث إلى ابن عمه فألزمه بابه[٥]، وإلى أخيه قوهيار، وأنفذ إلى هناك والياً من قِبله[٦].

(١) موضع النقط بياض في الأصل قدره كلمتين أو ثلاثة.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: عارضوه. وهو تحريف.
(٤) زيادة تصنيفية على عادة المؤلف من قبل ومن بعد.
(٥) في الكامل: إلى ابن عمه قوهيار، وقيل: هو أخوه فألزمه بابه.
(٦) في الكامل: وولّى الجبل والياً من قِبله يقال له: دري.

فلما احتاج مازيار إلى رجال لمحاربة[١] عبد الله بن طاهر دعا ابن عمه وأخاه وقال: أنتما أعلم بجبلكما من غيركما.

وقال: صيرا في ناحية الجبل.

وكتب إلى الدري[٢] وضم إليه العساكر، وولاه السهل ليحارب عبد الله بن طاهر.

وظنّ أنه قد توثق من الجبل بابن عمه وأخيه القوهيار [٩٩/أ] وذلك أن الجبل لم يكن يظن أنه يؤتى منه لأنه ليس فيه العساكر والمحاربة، لكثرة المضايق والشجر الذي فيه.

وتوثق من الموضع [الذي][٣] يتخوّفه بالدري[٢].

فلما وجّه عبد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين بن مصعب في عسكر عظيم من خراسان.

ووجّه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب، ووجّه معه حبر يقال له: يعقوب بن إبراهيم مولى الهادي، ويعرف بقوصرة.

زحفت العساكر، وأحدقت بمازيار. . .[٤] ويتجه له عن جبله إلى أن كاتب الحسن وأعلمه جميع ما يطلعه من الأخبار، وأخبرهم خبر الأفشين.

وكذلك فعل قوهيار أخوه، وكانت هذه الأخبار ترد على عبد الله بن طاهر، وعبد الله يكاتب بها المعتصم.

فشرط عبد الله بن طاهر لابن عم مازيار إن وثب بالمازيار أن يرد عليه جبله وما ورثه عن آبائه، ولا يعرض له فيه، ولا يحاربه.

فرضي بذلك، وكتب له بذلك كتاباً، وتوثّق له فيه.

فلم يشعر المازيار حتى سلمت الجبال التي كان يأمنها، وأُتي من مأمنه، وأُنزله على حكم المعتصم.

والعسكر الذين كانوا مع الدري بالسهل غارون في حربهم، فأتاهم الحرب من ورائهم، وقد أُسر مازيار وهلك، فأعطوا حينئذ بأيديهم حتى هلكوا بأسرهم.

وكان عبد الله بن طاهر لما أُسر مازيار، وحصل في يده منّاه ووعده إن هو أظهره على كتب الأفشين أن يسأل أمير المؤمنين الصفح عنه.

---

(١) في المخطوط: المحاربة، والألف زائدة سهواً.
(٢) في المخطوط: الدرني. والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) موضع النقط كلام سقط من المخطوط خاص بابن عم مازيار وخيانته له. والله أعلم.

وأعلمه عبد الله أنه قد علم أن الكتب عنده، فأقرّ المازيار بذلك.

فطلبت الكتب، ووجّه به المازيار إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وأمره أن لا يخرج الكتب من يده والمازيار إلاّ إلى المعتصم لئلا يحتال المازيار في الكتب، ففعل إسحاق ذلك، فأوصلها من يده إلى يد المعتصم.

فسأل المعتصم مازيار عن الكتب فلم يُقِرّ بها.

فأمر بضربه[١] حتى مات، فصلب إلى جانب بابك[٢].

فأما الدري، فإنه كان في نفسه شجاعاً بطلاً والتقى مع محمد بن إبراهيم بن مصعب وكان جمع أموالاً ورجالاً يريد أن يدخل بها بلاد الديلم.

فلما عارضه محمد بن إبراهيم بين الجبل والغيضة والبحر، والغيضة متصلة بالجبل والديلم، حمل الدري على أصحاب محمد فكشفهم ثم صار معارضه من غير هزيمة ليدخل الغيضة، ولم يزل يحمل ويكشف الناس ويقرب من الغيضة حتى حمل عليه رجل من أصحاب محمد يقال له: قندين خاجنك، فأخذه أسيراً.

واتبع الجند أصحابه، وأخذ جميع ما صحبه من المال والأثاث، والدواب والسلاح.

وأمر محمد بقتل أخيه بدرحيش، ودعا الدري فقطع يده من مرفقه، ومدة رجليه فقطعت من الركبة، وكذلك اليد الأخرى والرجل الأخرى.

فقعد الدري على إسته ولم يتكلم ولا يفزع، فأمر بضرب عنقه، فأما أصحابه فحملوا مكبلين.

وفي هذه السنة: خالف منكجور الأسروشني [وهو من][٣] قرابة الأفشين بأذربيجان.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن الأفشين لما فرغ من بابك [وعاد إلى سامرا استعمل على][٤] أذربيجان منكجور هذا، فأصاب في قرية بابك في بعض منازله[٥] مالاً عظيماً

---

(١) في المخطوط: يضربها. وهو تحريف.

(٢) في الكامل: وقيل: إن مخالفة مازيار كانت سنة خمس وعشرين والأول أصح لأن قتله كان في سنة خمس وعشرين. وقيل اعترف بالكتاب على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط: مناله. وهو تحريف.

واحتجبه ولم يُعلم به الأفشين ولا المعتصم.

وكان على البريد بأذربيجان رجل من الشيعة يقال له: عبد الله بن عبد الرحمٰن، فكتب إلى المعتصم.

فكوتب منكجور فيه، فأنكره، وهمّ[١] منكجور بقتل عبد الله بن عبد الرحمٰن، وذلك أنه وقعت بينهما مناظرة فهرب عبد الله وامتنع بأهل أردبيل فمنعوه، وقاتلوا منكجور، وبلغ ذلك المعتصم، فوجّه إليه عسكراً عظيماً.

وبلغ منكجور [ذلك][٢] فخلع [الطاعة][٢] وجمع إليه الصعاليك، وخرج من أذربيجان.

وقصده القائد مع العسكر الذي خرج من جهة المعتصم، وواقعه، فانهزم منكجور وسار إلى حصن أتابك في جبل منيع فبناه وأصلحه، وتحصّن فيه.

ووثب به أصحابه بعد شهور، وأسلموه إلى القائد الذي يحاربه.

فقدم به سُرَّ مَنْ رَأَى[٣].

---

(١) في المخطوط: وهو. وهو تحريف.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زاد ابن الأثير في الخبر أو أتمه فقال: فحبسه المعتصم، واتهم الأفشين في أمره، وكان قدومه سنة خمس وعشرين ومائتين.

وقيل: إن ذلك القائد الذي أنفذه إلى منكجور كان بُغا الكبير، وأن منكجور خرج إليه بأمان.

ثم زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:

وفي هذه السنة: عصى بأعمال الموصل إنسان من مقدمي الأكراد اسمه جعفر بن فَهْرَجَس وتبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم ممن يريد الفساد، فاستعمل المعتصم عبد الله ابن السيد ابن أنس الأزدي على الموصل وأمره بقتال جعفر.

فسار عبد الله إلى الموصل، وكان جعفر بماتعيس قد استولى عليها فتوجّه عبد الله إليه وقاتله، وأخرجه من ماتعيس فقصد جبل داسن وامتنع بموضع عالٍ فيه لا يُرام، والطريق إليه ضيق.

فقصد عبد الله إلى هناك وتوغّل في تلك المضايق حتى وصل إليه وقاتله فاستظهر جعفر ومَن معه من الأكراد على عبد الله لمعرفتهم بتلك المواضع وقوتهم على القتال بها رجاله، فانهزم عبد الله، وقتل أكثر مَن معه.

وممن ظهر منهم إنسان اسمه رَبَاح حمل على الأكراد، فخرق صفهم وطعن فيهم وقتل وصار وراء ظهورهم وشغلهم عن أصحابه حتى نجا منهم مَن أمكنه النجاة فتكاثر الأكراد عليه فألقى نفسه من رأس الجبل على فرسه وكان تحته نهر فسقط الفرس في الماء ونجا رَبَاح.

وكان فيمن أسره جعفر رجلان ـ أحدهما اسمه إسماعيل ـ والآخر إسحاق بن أنس ـ وهو عم عبد الله ابن السيد ـ وكان إسحاق صهر جعفر فقدمهما جعفر إليه. فظن إسماعيل أن يقتله ولا يقتل إسحاق للصهر الذي بينهما.

فقال: يا إسحاق أوصيك بأولادي.

فقال له إسحاق: أتظن أنك تقتل وأبقى بعدك؟

ثم التفت إلى جعفر فقال: أسألك أن تقتلني قبله لتطيب نفسه. =

ودخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

وفيها: أجلس المعتصم اشناس على كرسي، وتوجّه ووشّحه.

وفيها: أحرق غنام المرتد.

= فبدأ به فقتله، وقتل إسماعيل بعده.
فلما بلغ ذلك المعتصم أمر إيتاخ بالمسير إلى جعفر وقتاله.
فتجهّز وسار إلى الموصل سنة خمس وعشرين، وقصد جبل دَاسِن، وجعل طريقه على سوق الأحد فالتقاه جعفر فقاتله قتالاً شديداً، فقتل جعفر وتفرّق أصحابه فانكشف شره وأذاه عن الناس.
وقيل: إن جعفراً شرب سمًّا كان معه فمات.
وأوقع إيتاخ بالأكراد فأكثر القتل فيهم واستباح أموالهم وحشر الأسرى، والنساء، والأموال إلى تكريت.
وقيل: إن إيقاع إيتاخ بجعفر كان سنة ست وعشرين والله أعلم.
وفي هذه السنة: سيَّر عبد الرحمٰن عبد الله المعروف بابن البلنسي إلى بلاد العدو، فوصلوا إلى ألْيَة والقلاع.
فخرج المشركون إليه في جمعهم، وكانت بينهم حرب شديدة، وقتال عظيم.
فانهزم المشركون وقتل منهم ما لا يحصى وجمعت الرؤوس أكداساً حتى كان الفارس لا يرى مَن يقابله.
وفيها: خرج لذريق في عسكره وأراد الغارة على مدينة سالم من الأندلس.
فسار إليه فرتون بن موسى في عسكر جرار فلقيه وقاتله، فانهزم لذريق وكثر القتل في عسكره.
وسار فرتون إلى الحصن الذي كان بناه أهل ألْيَة بإزاء ثغور المسلمين فحصره، وافتتحه، وهدمه.
وفي هذه السنة: تولّى جعفر بن دينار اليمن.
وفيها: تزوج الحسين بن الأفشين أتراجة بنت أشناس، ودخل بها في قصر المعتصم في جمادى الآخرة، وأحضر عرسها عامة أهل سامرا، وكانوا يغلفون العامة بالغالية، وهي في تغار من فضة.
وفيها: امتنع محمد بن عبد الله الورثاني بوَرْثَان، ثم عاود الطاعة، وقدم على المعتصم بأمان سنة خمس وعشرين.
وفيها: مات ناطس الرومي، وصلب بسامرا إلى جانب بابك.
وفيها: مات إبراهيم بن المهدي في رمضان وصلّى عليه المعتصم.
وحجّ بالناس: محمد بن داود.
وفيها: وقع بإفريقية فتنة كان فيها حرب بين عيسى بن ريعان الأزدي وبين لواتة، وزواغة، ومكناسة.
فكانت الحرب بين قفصة وقسطيلية، فقتلهم عيسى عن آخرهم.
وفيها: اجتمع أهل سجلماسة مع مدرار بن اليسع على تقديم ميمون بن مدرار في الأمارة على سجلماسة، وإخراج أخيه المعروف بابن تقية. فلما استقر الأمر لميمون أخرج أباه وأمه إلى بعض قرى سجلماسة.
وفيها: فتح نوح بن أسد كاسان، وأورشت بما وراء النهر، وكانتا قد نقضتا الصلح. وافتتح أيضاً اسبيجاب، وبنى حوله سوراً يحيط بكروم أهله ومزارعهم.
وفيها: مات أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام اللغوي، وكان عمره سبعاً وستين سنة، وكانت وفاته بمكة.

وفيها: [تم الوصول][١] بمازيار [إلى][١] سر من رأى وحمل على الفيل. وكنا ذكرنا أن محمد بن عبد الملك قال بيتين في بابك لما حمل وهو بهذا أشبه أعني بمازيار، وهما:

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطانَ خراسان
والفيل [لا تخضب أعضاؤه ... إلا لذي شأن من الشانِ][٢]

فحمل على بغل بإكاف.

وأمر المعتصم فجمع بينه وبين الأفشين.

فأقرّ مازيار أن الأفشين حمله على العصيان، وكاتبه، وصوّب ما فعل.

فضرب مازيار أربعمائة سوط، وطلب ماء فسقي، ومات من ساعته، فصُلب.

وفيها: حُبس الأفشين.

ذكر السبب في ذلك

كان الأفشين أيام[٣] حرب بابك ومقامه بأرض الخرمية لا تأتيه هدية من أهل أرمينية ولا من غيرهم إلاّ وجه بها[٤] إلى أشروسن[٥]، فيجتاز[٦] ذلك بعبد الله بن طاهر، فيكتب عبد الله بن طاهر بخبره إلى المعتصم يعرفه[٧] جميع ما يوجه به الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة.

[فكتب إليه المعتصم يأمره بإعلامه بجميع ما يوجه به الأفشين][٨] ففعل عبد الله ذلك.

وكان الأفشين كلما تهيّأ عنده مال حمله[٩] في أوساط أصحابه من الدنانير، والهمايين بقدر طاقتهم.

وكان الرجل يحمل ما بين الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه، فأخبر عبد الله بذلك.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق والمعنى من الكامل في التاريخ.
(٢) ما بين المعقوفين تتمة للبيت من السنة السابقة، ومن الكامل.
(٣) في المخطوط: أمام. والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: فيها. والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: أسروشنة. والتصويب من الكامل وفي كل المواضع.
(٦) في المخطوط: فيجاز. والتصويب من الكامل.
(٧) في المخطوط: يتعرف. وهو تحريف والسياق يحتاج إلى ذلك التصويب.
(٨) زيادة من الكامل وأحسبها سقطت من السياق.
(٩) في الكامل: يجعله.

فبينا هو كذلك إذ نزل [٩٩/ب] رسل الأفشين مع الهدايا نيسابور، ووجه إليهم عبد الله بن طاهر، فأخذهم وفتشهم، فوجد في أوساطهم هماين، فأخذها منهم، وقال لهم: من أين لكم هذا المال؟ فقالوا: هذه هدايا الأفشين، وهذه أمواله.

فقال: كذبتم، لو أراد أخي الأفشين أن يرسل[١] مثل هذه [الهدايا][٢] والأموال لكتب إليّ يعلمني بذلك الأمر [و][٣] بحراسته وبدرقته لأن هذا مال عظيم، وإنما أنتم لصوص.

فأخذ عبد الله المال وأعطاه الجند قِبله.

وكتب إلى الأفشين بما قال القوم، وقال: إنّا أنكرنا أن تكون وجهت بمثل هذا المال إلى أشروسنة، ولم تكتب إليّ لأبدرقه، فإن كان المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذي يوجه أمير المؤمنين في كل سنة، وإن كان المال لك كما زعم القوم فإذا جاء المال من قِبل أمير المؤمنين رددته عليك، وإن يكون غير ذلك، فأمير المؤمنين أحق بهذا المال، وإنما رفعته إلى الجند لأني أريد أن أغزو الترك.

فكتب إليه الأفشين يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد، ويسأله إطلاق القوم ليمضوا إلى أشروسنة، فأطلقهم عبد الله.

وكان ذلك سبب الوحشة بين عبد الله، وبين الأفشين.

ولما تواترت[٤] أمثال هذه من الأفشين تغير له المعتصم، وأحسّ الأفشين بتغيُّر حاله عند المعتصم.

ذكر حِيَل هَمَّ بها الأفشين

فعزم الأفشين على أن يهيىء أطوافاً[٥] في قصره ويحتال لأن يشغل المعتصم

---

(١) في المخطوط: ما فعل. والتصويب من الكامل.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في المخطوط: توارت. وهو تحريف، وفي الكامل معنى هذا حيث قال: فكان ذلك سبب الوحشة بينهما وجعل عبد الله يتبعه.
ثم زاد ابن الأثير فقال:
وكان الأفشين يسمع من المعتصم ما يدل على أنه يريد عزل عبد الله عن خراسان، فطمع في ولايتها فكاتب مازيار يحسن له الخلاف ظنًّا منه أنه إذا خالف عزل المعتصم عبد الله عن خراسان، واستعمله عليها، وأمره بمحاربة مازيار.
فكان من أمر مازيار ما تقدم.
وكان من عصيان منكجور ما ذكرناه أيضاً.
فتحقق المعتصم أمر الأفشين فتغيّر عليه، وأحسّ الأفشين بذلك، فلم يدرِ ما يصنع؟ فعزم على أن يهيىء...

(٥) في المخطوط: أطرافاً. والتصويب من الكامل.

وقواده، ثم يأخذ طريق الموصل، ويعبر[١] الزاب على تلك الأطواف ويصير إلى طريق أرمينية[٢] إلى بلاد الخزر مستأمناً ثم يدور من بلاد الخزر إلى بلاد الترك ويرجع من بلاد الترك إلى بلاد أشروسنة[٣] ويستميل الخزر على أهل الإسلام.

وكان في تهيئة ذلك فطال عليه الأمر [و][٤]وعر [عليه][٤] فهيأ طعاماً[٥] كثيراً، وعزم على أن يدعو المعتصم وقواده [ويعمل فيه سماً][٦] فيميتهم، فإن لم يجبه المعتصم استأذنه في قواده فيميتهم مثل: أشناس، وإيتاخ، وبُغا وأمثالهم في يوم تشاغل المعتصم.

فإذا سمّهم وانصرفوا حمل في أول الليل تلك الأطواف[٧]، والآلة على ظهور الجمال حتى يجيء إلى الزاب، فيعبر بأثقاله على الأطواف ويعبر سباحة ـ وكانت أرمينية ولايته[٨] ـ.

وكان الأفشين ينوب قواده في دار المعتصم كما ينوب أمثالهم.

وكان واجن[٩] الأشروسني قد جرى بينه وبين مَن تطلع على سر الأفشين حديث فقال له واجن: ما أرى هذا الأمر يتم كبعده وكثرة[١٠] ما ينبغي أن يعد له.

فذهب الرجل فحكى للأفشين.

فهَمَّ الأفشين بقتل واجن بذلك، فركب من ساعته التي أحسّ [فيها][١١] بما[١٢] أحسّ ـ وكان ليلاً ـ وأتى دار المعتصم، وقد كان نام فصار إلى إيتاخ، وقال: إن لأمير[١٣] المؤمنين عندي نصيحة.

فقال له إيتاخ: أليس كنت هاهنا؟ قد[١٤] نام أمير المؤمنين.

قال واجن: ليس يمكنني أن أصبر إلى غدٍ.

---

(١) في المخطوط: يغر. والتصويب من الكامل.
(٢) بعدها توضيح في الكامل نصه: وكانت ولاية أرمينية إليه.
(٣) في الكامل: أو يستميل.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.
(٥) في المخطوط: سماً. والتصويب من الكامل.
(٦) زيادة من الكامل لإيضاح المقصود.
(٧) في المخطوط: الأطراف. والتصويب من الكامل.
(٨) سبق الإشارة إلى ذلك بالهامش.
(٩) في الكامل أواجن. وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هو هنا. أي: واجن.
(١٠) في المخطوط: كنزه. وهو تحريف والسياق يقتضي ما أثبت.
(١١) زيادة يتطلبها السياق.
(١٢) في المخطوط: مما. وهو تحريف.
(١٣) في المخطوط: للأمير المؤمنين. وهو تحريف.
(١٤) في المخطوط: قال. وهو تحريف.

فدقّ إيتاخ الباب على بعض مَن يخبر أمير المؤمنين بخبر واجن.

فقال المعتصم: ليبت إيتاخ، ثم يباكرني.

فبات عنده، ولما أصبح بكّرَ به إلى المعتصم، فأخبره بجميع ما كان عنده.

فدعا المعتصم الأفشين، فجاء الأفشين في سواده[١] فأمر المعتصم بنزع سواده[١] وحبسه [في الجوسق][٢]. وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر في الاحتيال[٣] للحسن[٤] بن الأفشين حتى لا يفوته[٥].

وكان الحسن قد كثرت كتبه إلى عبد الله بن طاهر [يشكو من نوح بن الأسد الأمير بما وراء النهر وتحامله على ضياعه وناحيته، فكتب عبد الله إلى نوح يعلمه ما كتب به المعتصم في أمر الحسن ويأمره أن يجمع أصحابه ويتأهّب له، فإذا قدم عليه الحسن بكتاب ولايته أخذه واستوثق منه وحمله إليه.

وكتب عبد الله][٦] إلى الحسن بن الأفشين:

إني قد عزلت نوح بن أسد ووليتك الناحية.

فكتب إليه بكتاب فيه عزل نوح وولايته.

وكتب أيضاً كتاب إلى نوح بأخذ الحسن وحمله إليه.

فخرج الحسن في قلة من أصحابه حتى ورد على نوح وعنده أنه وال، فأخذه نوح فشدّه وثاقاً ووجهه إلى عبد الله إلى المعتصم بنى حبساً للأفشين شبيهاً بالمنارة وفي وسطها مقدار مجلسة والرجال ينوبون تحتها كما تدور.

فحكى هارون بن عيسى بن المنصور: أنه شهد المحبس الذي عقده المعتصم في داره لمناظرة الأفشين.

ذكر مناظرات وبخ بها الأفشين واحتجاجاته فيها

أحبَّ المعتصم [أن][٧] يبكت الأفشين ويناظره، ولم يكن بعد في الحبس الشديد.

فأُخليت الدار إلاّ من ولد المنصور، وأحضر قوم من الوجوه، وأحضر: أحمد بن

---

(١) في المخطوط: سواد. والتصويب من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط على هذا الرسم: «الاحـال». والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: على الحسين. وذكر محققه أنه في الطبري كما هنا.
(٥) في المخطوط: لا يفوقه. وهو تحريف.
(٦) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل أحسب أنه سقط من المخطوط.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.

أبي داود، وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب، ومحمد بن عبد الملك الزيات.

فأُتي بالأفشين، وأُتي بمازيار، والموبذ[١]، والمرزبان[٢] بن بركس - وهو أحد ملوك السغد - ورجلان من أهل السغد.

وكان المناظر له محمد بن عبد الملك [فدعا محمد بن عبد الملك][٣] بالرجلين وعليهما ثياب رثة، فقال لهما: [ما][٣] شأنكما؟ فكشفا عن ظهورهما، فإذا هي عارية من اللحم. فقال محمد: أتعرف هذين الرجلين؟ فقال: نعم، هذا مؤذن[٤]، وهذا إمام بنيا بأشروسنة[٥] مسجداً، فضربت كل واحد منهما ألف سوط، وذلك أن بيني وبين ملوك السغد عهداً وشرطاً أن أترك كل قوم على دينهم، فوثب هذا على بيت لهم كان فيه أصنامهم، فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجداً، فخفت أن ينتقض أمر تلك البلدان فضربتهما على ذلك لتعديهما.

[١٠٠/أ] فقال محمد: ما كتاب عندك قد[٦] زينته بالحرير والجوهر والديباج فيه الكفر بالله؟

قال: هذا كتاب ورثته عن أبي فيه آداب العجم وفيه زين القوم الذي هو اليوم كفر، فكنت أستمتع منه بالآداب، وأترك ما سوى ذلك، ووجدته محلّى فلم تضطرني الحاجة إلى الحلية منه فتركته بحاله ككتاب كليلة ودمنة، [وهو][٧] كتاب متروك، ما ظننت هذا يخرج من الإسلام. ثم تقدّم الموبذ[٨] فقال: إن هذا يأكل لحم المخنوقة ويحملني على أكلها، ويزعم أنها أطيب[٩] لحماً من المذبوحة.

وكان يأخذ يوم شاة سوداء يضرب في وسطها بالسيف، ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها.

وقال لي: إني قد دخلت لهؤلاء القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت الزيت، وركبت[١٠] الجمل، ولبست النعل[١١]، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة

---

(١) في المخطوط: المؤيد. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: المرزيات. والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: سوذر والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: بأشروسنة، والتصويب من الكامل وفي كل المواضع.
(٦) في المخطوط: فقد. وهو تحريف.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.
(٨) في المخطوط: المؤيد. والتصويب من الكامل.
(٩) في الكامل: أرطب.
(١٠) في المخطوط: ووكيت والتصويب من الكامل.
(١١) في الكامل: وركبت الجمل والبغل.

- يعني أنه لم يختتن[١] -.

فقال: خبروني عن هذا المتكلم أثقة هو عندكم في دينه؟

وكان الموبذ[٢] يعد مجوسياً ثم أسلم على يد المتوكل.

قالوا: لا؟

قال: فما معنى قبول شهادة مَن لا تثقون به ولا ترون عدالته؟

ثم أقبل على الموبذ فقال: هل بين منزلي وبين منزلك باب أو كوة تطالعني منها وتعرف أخباري؟

قال: لا.

قال: أفليس كنت أدخلك إليّ فأبث سري وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها؟

قال: نعم.

قال: فلست بالثقة في دينك، ولا بالكريم في عهدك، إذا فشيت عليّ سرًا أسررته إليك.

ثم تنحّى الموبذ، وتقدّم المرزبان.

فقالوا للأفشين: أتعرف هذا؟

قال: لا.

فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟

قال: نعم، هذا الأفشين.

فقالوا له: هذا المرزبان.

ثم قال له المرزبان: يا متخوف كم تموت وتدافع؟

فقال الأفشين: يا طويل اللحية، ما تقول؟ كيف تكتب [إليك][٣] أهل مملكتك؟

قال: كما كانوا يكتبون إليك بالأشروسنة بكذا وكذا.

قال: بلى.

قال: أليس هو بالعربية: إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان؟

قال: بلى.

---

(١) في الكامل - يعني لم آخذ شعر العانة ولم أختن.

(٢) في المخطوط: المؤيد. والتصويب من الكامل وفي كل موضع.

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل وليس النص فيه كما هو هنا، ولكن بنحوه.

قال محمد بن عبد الملك: والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا؟

فما أبقيت[١] لفرعون حين قال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾؟

قال: كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل في الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهما فتفسد عليّ طاعتهم.

فقال له إسحاق بن إبراهيم بن مصعب: كيف تحلف لنا بالله فنصدقك، ونصدق يمينك وتجري مجرى المسلمين، وأنت تدَّعي ما ادَّعى فرعون؟

فقال: يا أبا الحسن، هذه سورة قرأها عجيف على علي بن هشام، وأنت تقرأها عليّ، فانظر غداً مَن يقرأها عليك.

قال: ثم قُدِّم مازيار صاحب طبرستان، فقالوا للأفشين: تعرف هذا؟

قال: لا.

قالوا: هذا المازيار.

قال: نعم، قد عرفته الآن.

قالوا: هل كاتبته؟

قال: لا.

قالوا للمازيار: هل كتب إليك؟

قال: نعم، كتب أخوه حاس إلى أخي قوهيار: أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغير أخيك [فأما بابك فإنه][٢] لحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلاّ أن دلاّه فيما وقع فيه، فإن خالفت لم يكن للقوم مَن يرمونك به غيري، ومعي من الفرسان، وأهل النجدة والبأس، فإن وُجّهت إليك لم يبقَ أحد يحاربنا إلاّ ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك.

والعربي: بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبُّوس.

وهؤلاء الذباب ـ يعني المغاربة ـ: إنما هم أكلة رأس.

وأولاد الشياطين ـ يعني الأتراك ـ: إنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، لم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين إلى ما لم يزل[٣] عليه أيام العجم.

---

(١) في المخطوط: بقيت، والتصويب من الكامل.

(٢) ما بين المعقوفين من الكامل، وموضعه في المخطوط كلمة: وإليه. فحذفت الكلمة وأثبت ما في الكامل لوضوحه وانسجامه مع القصة أو الحكاية المذكورة.

(٣) في المخطوط: ويعوذ الذين إلى ما لم نزل. والتصويب من الكامل.

فقال الأفشين: هذا يدَّعي على أخي وأخيه، ودعواه[١] لا تجب عليّ، ولو كتبت هذا الكتاب [إليه][٢] لأستميله إليّ، وليثق بناحيتي لكان غير مستنكر لأني إذا نصرت الخليفة بيدي لكنت بالحيلة أحرى أن أنصره لآخذ قفاه، وآتي به الخليفة، فأحظى به عنده كما حظي عبد الله بن طاهر بمجيء المازيار ولما قال.

[فزجره ابن أبي داود][٢] وقال لإسحاق بن إبراهيم بن مصعب: ما قال؟

فقال[٣] أحمد بن داود للأفشين: أنت يا [أبا][٢] عبد الله لا ترفع طيلسانك بيدك ولا تضعه على عاتقك حتى تقتل[٤] به جماعة.

فقال له ابن أبي داود: أمطهر[٥] أنت؟

قال: لا.

قال: فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام و[عدم][٦] الطهور من النجاسة؟

قال: أوَليس [في الإسلام][٧] استعمال التقية؟

قال: بلى.

قال: فإني خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت.

قال: أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب، وتجزع من قطع غلفة[٨]؟!

قال: تلك الضرورة [تصيبني][٩] أُدفع إليها فأصبر عليها إذا وقعت، وهذا شيء أستجلبه[١٠]، فلم آمن معه خروج نفسي، ولم أعلم أن في تركها خروجاً من الإسلام.

فقال ابن أبي داود: قد بان لكم [أمره][٩].

ثم التفت إلى بُغا الكبير ـ وكان الأفشين تابعاً له ـ فقال: يا أبا موسى عليك به.

فضرب بيده إلى منطقته فجذبه.

---

(١) في المخطوط: دعوى. وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: قام. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: حين تقبل. والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: مطهر، والتصويب من الكامل والمراد أمختن أنت؟
(٦) زيادة يتطلبها السياق وإن لم ترد في الكامل.
(٧) زيادة من الكامل وهي ساقطة من المخطوط.
(٨) في الكامل: قلفة. والمعنى واحد وكلاهما صحيح.
(٩) زيادة من الكامل.
(١٠) في المخطوط: استحليه. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

فقال: كنت لا أتوقع هذا منك قبل اليوم.

فلفّ[1] بغا القباء على رأسه ثم أخذه بمجامع القباء من عنقه وأخرجه إلى محبسه[2].

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

وفيها: مات الأفشين.

ذكر الخبر عن موته

لما جاءت الفاكهة، جمع المعتصم من الفواكه شيئاً كثيراً في طبق، وقال لابنه هارون الواثق: اذهب بهذه الفواكه إلى الأفشين.

فحملت مع هارون حتى [١٠٠/ب] صعد بها إليه في البناء الذي بُني له وحبس فيه.

فنظر إليه الأفشين، ثم قال للواثق: لا إله إلا الله ما أحسنه لولا أني فقدت منه ما أشتهيه. وكان فقد منه الشهلوج.

فقال الواثق: وما هو؟

قال: الشاهلوج.

فقال: هو ذا انصرف فأوجه به إليك. ولم يمس من الفواكه شيئاً.

فلما أراد الواثق الانصراف، قال له الأفشين: اقرأ على سيدي السلام وقل له: أسألك أن توجه إليّ ثقة من قبلك، يؤدي عني ما أقول[3].

---

(١) في المخطوط: فقلت، وهو تحريف وأرى أن ما أثبت هو أقرب ما يكون معنى إلى ما أراد.

(٢) ثم زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة عدة حوادث أخرى فقال:

وفي هذه السنة: غضب المعتصم على جعفر بن دينار لأجل وثوبه على مَن كان معه من الأصحاب، وحبسه عند أشناس خمسة عشر يوماً، ثم رضي عنه، وعزله عن اليمن واستعمل عليها إيتاخ.

وفيها: عزل الأفشين عن الحرس، وولاه إسحاق بن يحيى بن معاذ.

وفيها: سار عبدالرحمٰن صاحب الأندلس في جيش كثير إلى بلاد المشركين في شعبان فدخل بلاد جليقية، فافتتح منها عدة حصون، وجال في أرضهم يخرب، ويغنم، ويقتل، ويسبي، وأطال المقام في هذه الغزاة، ثم عاد إلى قرطبة.

وحجّ بالناس في هذه السنة: محمد بن داود.

وفيها: توفي أبو دلف العجلي ـ واسمه: القاسم بن عيسى ـ.

وأبو عمرو الجرمي النحوي ـ واسمه: صالح بن إسحاق ـ وكان من الصالحين.

وفيها: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني، وله ثلاث وتسعون سنة، وله كتب في المغازي وأيام العرب، وكان بصرياً، فأقام بالمدائن فنسب إليها.

(٣) لم ترد تلك المقدمة في الكامل، وبدأ بمعنى ما بعدها من بعث حمدون بن إسماعيل إليه.

فأمر المعتصم حمدون بن إسماعيل، وكان حمدون في أيام المتوكل في حبس سليمان بن وهب، فحدّث هذا الحديث.

قال حمدون: فبعث بي المعتصم إلى الأفشين، وقال لي: إنه سيطول عليك فلا تحتبس.

قال: فدخلت عليه وطبق الفاكهة بين يديه، ولم يمس واحدة فما فوقها.

فقال لي: اجلس، فاستمالني بالدهقنة.

فقلت: لا تطول، فإن أمير المؤمنين قد تقدّم إليّ أن لا أحتبس عندك، فأوجز.

فقال لي: قل لأمير المؤمنين: يا مولاي أحسنت إليّ، وشرفتني، واتطأت الرجال عقبي، ثم قبلت بي كلاماً لم يتحقق عندك، ولم تدبره بعقلك كيف يكون هذا؟

وكيف يجوز لي أن أفعل هذا الذي بلغك عني يخبر أني دسست منكجور أن يخرج ونقتله ويخبر أني قلت للقائد الذي وجهته إلى منكجور: ولا تحاربه واغدر به، وإن أحسست بأحد منا فانهزم من بين يديه، أنت رجل قد عرفت الحرب، وحاربت الرجال وسعيت بالعساكر، هذا يمكن رأس عسكر [أن][1] يقول لأحد أن يفعله؟

ولو كان هذا يمكن ما كان ينبغي أن يفعله ما كان ينبغي أن يقبله من عدو، وقد عرفت سببه.

ولكن مثلي ومثلك يا أمير المؤمنين مثل رجل ربَّى عجلاً له وسمَّنه وكبر[2] وحسنت حاله، وكان له أصحاب اشتهوا إلى أن يأكلوا من لحمه، فعرضوا له بذبح العجل فلم يجبهم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له[3] ذات يوم: ويحك لـمَ تربِّي هذا الأسد؟ هذا سبع وقد كبر، والسبع إذا كبر يرجع إلى جنسه.

فقال لهم: ويحكم هذا عجل ما هو سبع.

فقالوا له: هذا سبع، سل مَن شئت عنه.

وقد كانوا تقدموا إلى جميع مَن يعرفونه، فقالوا لهم: إن سألكم عن العجل فقولوا له: هذا سبع.

فكلما سأل الرجل إنساناً، قال: هذا سبع، فأمر بالعجل فذُبح ولكأني[4] أنا ذلك العجل، كيف أقدر أن أكون أسد؟

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: كبرت. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: إنه. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: لكن. وأحسب أن الصواب ما أثبت.

الله [الله](١) في أمري، اصطنعتني، وشرّفتني، وأنت سيدي، ومولاي، أسأل الله أن يعطف بقلبك عليّ.

قال حمدون: فقمت وانصرفت وتركت الطبق بين يديه على حاله لم يمس منه شيئاً، ثم ما لبثنا إلاّ قليلاً حتى قيل: إنه [يموت أو قد](١) مات [فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها](١).

فقال المعتصم: أروه ابنه.

فأخرجوه، وطرحوه بين يديه فنتف لحيته وشعره، ثم حُمل إلى منزل إيتاخ، ثم صُلب على باب العامة ليراه الناس، ثم طُرح مع خشبته وأُحرق، وحُمل الرماد فطُرح في دجلة(٢).

ووُجد في داره لمّا أُحصي متاعه تمثال إنسان خشب عليه حلية كثيرة وجوهر [وفي أذنيه حجران مشتبكان عليهما ذهب، فأخذ بعض مَن كان مع سليمان أحد الحجرين وظنه جوهراً ـ وكان ذلك ليلاً ـ فلما أصبح نزع عنه الذهب، ووجده شيئاً شبيهاً بالصدف الذي يسمى الحبرون](٣).

وأُخرج من منزله أطواق الخشب التي أعدها، وأصنام [ووجدوا له كتاباً من كتب المجوس](٣) وكتب فيها ديانته(٤).

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) بعده في الكامل: وكان موته في شعبان.
وقال حمدون: وسألته هل هو مطهر أم لا؟ فقال: إلى مثل هذا الموضع، إنما قال لي هذا والناس مجتمعون ليفضحني، إن قلت: نعم، قال: تكشَّف، والموت كان أحب إليَّ من أن أتكشَّف بين يدي الناس، ولكن إن شئت أتكشف بين يديك حتى تراني.
فقلت له: أنت صادق، فلما انصرف حمدون. . .

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٤) زاد ابن الأثير في أحداث تلك السنة فقال:
وفي هذه السنة في ربيع الآخر: توفي الأغلب بن إبراهيم، يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة، وكانت ولايته سنتين وسبعة أشهر وسبعة أيام.
ولما توفي ولّى أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية بعد وفاة والده، ودانت له إفريقية.
وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنة تسع وثلاثين ومائتين.
فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك.
فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله.
وتوفي محمد بن الأغلب يوم الاثنين غرة المحرم من سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام.
ولما توفي أبو العباس محمد بن الأغلب ولي الأمر بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد، وأحسن السيرة مع الرعية وأكثر العطاء للجند، وبنى بأرض إفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس، =

....

= وأبواب الحديد واشترى العبيد ولم يكن في أيامه ثائر يزعجه.
ثم توفي رحمه الله يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين.
وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر، واثني عشر يوماً.
وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة.
ولما توفي أحمد ولي أخوه زيادة الله، وجرى على سنن سلفه، ولم تطل أيامه، فتوفي يوم السبت لإحدى عشر بقيت من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين.
وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام.
ولما توفي زيادة الله ولي بعده أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب.
وجرى على سنن أسلافه، وكان أديباً عاقلاً حسن السيرة.
غير أن جزيرة صقلية تغلّب الروم على مواضع منها.
وبنى أيضاً حصوناً ومحارس على ساحل البحر.
وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة بينها وبين بَرَقة مسيرة خمسة عشر يوماً بها مدينة على ساحل البحر تدعى: بارة، وكان أهلها نصارى ليسوا بروم فغزاها حياة مولى الأغلب، فلم يقدر عليها.
ثم غزاها خلفون البربري، ويقال: إنه مولى لربيعة ففتحها في خلافة المتوكل.
وقام بعده رجل يسمى المفرج بن سالم، ففتح أربعاً وعشرين حصناً، واستولى عليها.
فكتب إلى والي مصر يعلمه خبره، وأنه لا يرى لنفسه ومَن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحية، ويوليه إياها ليخرج من حد المتغلبين.
وبنى مسجداً جامعاً.
ثم إن أصحابه شغبوا عليه، ثم قتلوه.
ثم توفي أبو عبد الله محمد رحمه الله سنة إحدى وستين ومائتين.
وإنما ذكرنا ولاية هؤلاء متابعة لقلة ما لكل واحد منهم.
وفي هذه السنة: زلزلت الأهواز زلزلة شديدة خمسة أيام، وكان مع الزلزلة ريح شديدة، فخرج الناس عن منازلهم وخرب كثير منها.
وفيها: حجّ بالناس محمد بن داود، أمره أشناس بذلك.
وكان أشناس حاجاً، وقد جعل إليه ولاية كل بلد يدخله، وخطب له على منابر مكة والمدينة وغيرهما من البلاد التي اجتاز بها بالإمرة إلى أن عاد إلى سامرا.
وفيها: توفي أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن العلاف البصري، شيخ المعتزلة في زمانه.
وزاد عمره على مائة سنة، وله مسائل في الأصول قبيحة تفرَّد بها.
ويحيى بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمٰن التميمي، الحنظلي، النيسابوري أبو زكريا توفي في صفر بنيسابور.
وسليمان بن حرب الواشجي، القاضي.
وأبو الهيثم الرازي النحوي، وكان عالماً بنحو الكوفيين.
وفيها: وثب علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، وكان على المعونة بدمشق من قِبل وصول علي أرتكين بن رجاء، وكان على الخراج فقتله، وأظهر الوسواس.
ثم تكلم فيه أحمد بن أبي داود، فأطلق من حبسه.
وفيها: مات محمد بن عبد الله بن طاهر، فصلّى عليه المعتصم في دار محمد.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

وفيها: خرج المبرقع اليماني بفلسطين على السلطان.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب خروجه ممانعته ذلك أن جندي سكر فلقي أَمَةً في طريقٍ جارية فضربها بسوط معه، فاتقته بذراعها، فأثّر فيها[١]. فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربها.

فأخذ السيف، ومشى إلى الجندي وهو عار فضربه فقتله، ثم هرب.

وألبس وجهه برقعاً كيلا يُعرف، فسار إلى جبل[٢] من جبال الأردن، فطلبه السلطان، فلم يعرف له خبر.

وكان يظهر متبرقعاً على الجبل فيراه الرائي[٣]، فيأتيه، ويذكره ويحرِّضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر السلطان ويعيبه، فما زال حتى استجاب له قوم من الحرّاثين، وأهل القرى، وكان يزعم أنه أموي.

وقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني.

فلما كثرت حاشيته وأتباعه من هذه الطبقة، دعا أهل البيوتات، فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية، وقوم من أهل دمشق.

واتصل الخبر بالمعتصم، وهو عليل علته التي مات فيها.

فوجّه إليه رجاء بن أيوب الحضاري في نحو ألف رجل من الجند.

وكان أبو حرب في نحو مائة ألف.

فكره رجاء مواقعته فعسكر بحذائه، وطاوله، حتى إذا كان في وقت عمارة الأرضين[٤] تفرّق عنه أكثرهم[٥]، وبقي أبو حرب في نحو ألفي رجل فناجزه الحرب.

وتأمّل رجاء عسكر المبرقع، فلم يجد فيه مَن له فروسية غيره.

---

(١) في الكامل بداية الخبر على غير ذلك حيث قال ابن الأثير: كان سبب خروجه أن بعض الجند أراد النزول في داره ـ وهو غائب ـ فمنعه بعض نسائه، فضربها الجندي بسوط، فأصاب ذراعها، فأثر فيها. . .

(٢) في المخطوط: خيل. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: الراي. وهو تحريف.

(٤) يريد وقت أو أوان وحرثها وزراعتها.

(٥) في المخطوط: أكرته. وهو تحريف.

فقال لأصحابه: لا تعجلوا عليه، فإنه سيظهر لأصحابه بعض ما عنده [فإذا حمل عليكم فأفرجوا له][١]. فما لبث أن حمل[٢] [عليهم][٣].

فقال لأصحابه: فرجوا له، فأفرجوا.

ثم حمل الثانية.

فقال رجاء: أفرجوا له، فإذا أراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك، وخذوه.

ففعل ذلك، فأحاطوا به، فأنزلوه عن دابته، وأسروه.

وحمله رجاء إلى المعتصم[٤].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: يحمل. وهو تحريف.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) في الكامل بعد هذا تعليق منه أو قول آخر نصه:
وقيل: كان خروجه سنة ست وعشرين ومائتين، وأنه خرج بنواحي الرملة، وسار في خمسين ألفاً، فوجّه إليه المعتصم رجاء الحضاري فقاتله وأخذ ابن بهيس أسيراً.
وقتل من أصحاب المبرقع نحواً من عشرين ألفاً، وأسر المبرقع، وحمله إلى سامرا.

وفاة المعتصم وخلافة الواثق

وفيها: كانت وفاة المعتصم.

ولما حضرته الوفاة جعل يقول: ذهبت الحِيل ليست حيلة، حتى مات.

وذكر عنه أنه قال: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت.

ودُفن بسُرَّ من رأى.

وكانت خلافته ثماني سنين، وثمانية أشهر، وهو ثامن الخلفاء، وثامن من ولد العباس.

وولد سنة ثمانين ومائة، ومات عن ثمانية وأربعين سنة، وله ثمانية بنين وبنات.

قال الشيرازي: وكان المعتصم يلقب الخليفة المثمن لهذه الخصال التي ذكرتها.

وكان أبيض اللحية طويلها مربوعاً مشرب اللون [١٠٣/أ] بحمرة[١]، حسن العينين.

وبويع يوم توفي ابنه هارون الواثق بن محمد المعتصم.

وكان يكنى أبا جعفر[٢].

---

(١) سقط مني سهواً (أرقام: ١٠١، ١٠٢) أثناء ترقيم الأوراق فرجاء الانتباه لذلك.

(٢) هذا ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وفي وفاة المعتصم، وزاد ابن الأثير فقال في وفاة المعتصم:

وفي هذه السنة: توفي المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يوم الخميس لثمان عشرة مضت من ربيع الأول، وكان بدو علته أنه احتجم أول يوم في المحرم واعتلّ عندها.

قال زنام الزامر: أفاق المعتصم في علته التي مات فيها إفاقة، فقال: هيئوا لي الزلال لأركب غداً. فركب في الزلال في دجلة، وأنا معه، فمرّ بإزاء منازله فقال: يا زنام ازمر لي:

يـا مـنـزلاً لـم تُـبـلَ أطـلالـه ... حـاشـى لأطـلالـك أن تـبـلـى

لـم أبـكِ إطـلالَـك لـكـنـنـي ... بـكـيـت عـيـشـي فـيـك إذ ولّـى

والـعـيـش أولـى مـا بـكـاه الـفـتـى ... لا بـد لـلـمـحـزون أن يـسـلـى

قال: فما زلت أزمر له هذا الصوت وأكرره، وقد تناول منديلاً بين يديه، فما زال يبكي فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله.

ولما احتضر المعتصم جعل يقول: ذهبت الحيل...

وكان مولده بالخلدقار.

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه: =

....

= قد قلت إذ غيّبوك واصطفقت عليك أيدي بالترب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد نيا ونعم المعين للدين
لا يجبر الله أمة فقدت مثلك إلاّ بمثل هارون
وكانت أمه ماردة من مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية، وكان أبوها نشأ بالبندنيجين.
ثم قال في ذكره لبعض سيرته:
ذكر عن أحمد بن أبي داود أنه ذكر المعتصم، فأسهب في ذكره وأكثر في وصفه، وذكر من طيب أعراقه، وسعة أخلاقه، وكريم عشرته.
قال: وقال يوماً ونحن بعمورية: ما تقول في البسر يا أبا عبد الله؟
قلت: يا أمير المؤمنين نحن ببلاد الروم، والبسر بالعراق.
فقال: قد جاؤوا منه بشيء من بغداد، وعلمت أنك تشتهيه، ثم أحضره فمدّ يده فأخذ العذق فارغاً.
قال: وكنت أزامله كثيراً في سفره ذلك.
قال: وأخذت لأهل الشاش منه ألفي ألف درهم لعمل نهر كان لهم اندفن في صدر الإسلام، فأضر بهم.
وقال غيره: إنه كان لا يبالي إذا غضب من قتل، وما فعل، ولم يكن له لذة في تزيين البناء، ولم يكن بالنفقة أسمح منه بها في الحرب.
قال أحمد بن سليمان بن أبي شيخ: قدم الزبير بن بكار العراق هارباً من العلويين لأنه كان ينال منهم، فتهدّدوه فهرب منهم. وقدم على عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير، وشكى إليه حاله، وخوفه من العلويين، وسأله إنهاء حاله إلى المعتصم. فلم يجد عنده ما أراد، وأنكر عليه حاله ولامه.
وقال أحمد: فشكا ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمه في أمره.
فقلت له في ذلك، وأنكرت عليه إعراضه عنه.
فقال لي: إن الزبير فيه جهل وتسرُّع، فأشر عليه أن يستعطف العلويين، ويزيل ما في نفوسهم منه.
أما رأيت المأمون ورفقه بهم وعفوه عنهم، وميله إليهم؟!
قلت: بلى، فهذا أمير المؤمنين، والله على مثل ذلك أو فوقه ولا أقدر أذكرهم عنده بقبيح، فقل له ذلك، حتى يرجع عن الذي هو عليه من ذمهم.
قال إسحاق بن إبراهيم المصعبي: دعاني المعتصم يوماً فدخلت عليه.
فقال: أحببتُ أن أضرب معك بالصوالجة.
فلعبنا بها ساعة، ثم نزل وأخذ بيدي نمشي إلى أن صار إلى حجرة الحمام فقال: خذ ثيابي. فأخذتها، ثم أمرني بنزع ثيابي، ففعلت ودخلت وليس معنا غلام، فقمت إليه، فخدمته، ودلكته، وتولى المعتصم مني مثل ذلك، فاستعفيته فأبى عليّ.
ثم خرجنا ومشى وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فنام وأمرني فنمت حذاءه بعد الامتناع. ثم قال لي: يا إسحاق إن في قلبي أمراً أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك فقلت: قل يا أمير المؤمنين، فإنما أنا عبدك وابن عبدك.
قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم.
قلت: ومَن الذي اصطنعهم المأمون؟
قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيت وسمعت.
وابن عبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي لم يُرَ مثله. =

....

= وأنت، فأنت والله الرجل الذي لا يتعاصى السلطان عنك أبداً.
وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد؟
وأنا اصطنعت: الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره.
وأشناس ففشل.
وإيتاخ فلا شيء.
ووصيف فلا معنى فيه.
فقلت: أُجيب على أمان من غضبك؟
قال: نعم.
قلت له: يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول لها.
فقال: يا إسحاق، لمقاساة ما مر بي طول هذه المدة أيسر عليّ من هذا الجواب.
فقال ابن أبي داود: تصدّق المعتصم، ووهب على يدي مائة ألف ألف درهم.
وحكي أن المعتصم قد انقطع عن أصحابه في يوم مطر فبينا هو يسير رحلة إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك، وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر مَن يمر به فيعينه على حمله.
فسأله المعتصم عن حاله، فأخبره، فنزل عن دابته ليخلص الحمار عن الوحل، ويرفع عليه حمله.
فقال له الشيخ: بأبي أنت وأمي لا تبلل ثيابك وطيبك.
فقال: لا عليك.
ثم إنه خلص الحمار، وجعل الشوك عليه وغسل يديه ثم ركب.
فقال الشيخ: غفر الله لك يا شاب.
ثم لحقه أصحابه، فأمر له بأربعة آلاف درهم ووكّل به مَن يسير معه إلى بيته.
وفيها: بويع الواثق بالله هارون بن المعتصم في اليوم الذي توفي فيه أبوه، وذلك يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين.
وكان يكنى أبا جعفر.
وأمه أم ولد رومية تسمى: قراطيس.
وفيها: هلك توفيل ملك الروم، وكان ملكه اثنتا عشرة سنة.
وملكت بعده امرأته تدورة، وابنها ميخائيل بن توفيل صبي.
وحجّ بالناس: جعفر بن المعتصم، وحجّت معه أم الواثق، فماتت بالحيرة في ذي الحجة، ودُفنت بالكوفة.
ولما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق وعاثوا، وأفسدوا، وحصروا أميرهم.
فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب الحضاري وكانوا معسكرين بمرج راهط.
فنزل رجاء بدير مُرّان، ودعاهم إلى الطاعة، فلم يرجعوا.
فواعدهم الحرب بدومة يوم الاثنين، فلما كان يوم الأحد وقد تفرّقت، سار رجاء إليهم فوافاهم، وقد سار بعضهم إلى دومة، وبعضهم في حوائجه، فقاتلهم، فهزمهم، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة وقُتل من أصحابه نحو ثلاثمائة، وهرب مقدمهم ابن بيهس، وصلح أمر دمشق.
وسار رجاء إلى فلسطين إلى قتال أبي حرب المبرقع الخارج بها، فقاتله فانهزم المبرقع، وأُخذ أسيراً على ما ذكرناه.
وفيها: توفي بشر بن الحارث الزاهد المعروف بالحافي في ربيع الأول.
وعبد الرحمٰن بن عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمرو بن موسى بن عبيد الله =

ودخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

ولم يجرِ على ما بلغنا [فيها] شيء يثبت في مثل هذا الكتاب(١).

= ابن معمر التيمي المعروف بابن عائشة البصري، وإنما قيل له: ابن عائشة، لأنه من ولد عائشة بنت طلحة.
وتوفي أبوه عبيد الله بعده لسنة.
وإسماعيل بن أبي أويس، ومولده سنة تسع وثلاثين ومائة.
وأحمد بن عبد الله بن يونس.
وأبو الوليد الطيالسي.
والهيثم بن خارجة.
وفيها: سيَّر عبد الرحمٰن صاحب الأندلس جيشاً إلى أرض العدو، فلما كانوا بين أربونة وشَرْطانية تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله، فلما أصبحوا أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وهزم عدوهم، وأبلى موسى بن موسى في هذه الغزوة بلاءً عظيماً، وكان على مقدمة العسكر، وجرى بينه وبين جرير بن موفق ـ وهو من أكابر الدولة أيضاً ـ شرٌّ، فكان سبباً لخروج موسى عن طاعة عبد الرحمٰن.
وفيها: أذفونش ملك الروم بالأندلس وكانت إمارته اثنتين وستين سنة.
وفيها: توفي محمد بن عبد الله بن حسان اليحصبي الفقيه المالكي، .

(١) كذا قال ابن مسكويه، وقال ابن الأثير في أحداثها:
في هذه السنة: سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر فنزل مرسى مَسِيني، وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة، واستأمن إليه أهل نابُل، وصاروا معه، وقاتل الفضل مدة سنتين واشتد القتال، فلم يقدر على أخذها فمضى طائفة من العسكر، واستدار وأخلف جبل مُطِلٍّ على المدينة، فصعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر ومَن معه، فلما رأى أهل البلد أن المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح الله البلد.
وفيها: فتحت مدينة مسكان.
وفي سنة تسع وعشرين ومائتين: خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ شرة فقاتله أهلها قتالاً شديداً فانهزمت الروم، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف رجل، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية قبلها مثلها.
وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين: حصر الفضل بن جعفر مدينة مَسِّيني فأخبر الفضل أن أهل مَسِّيني كاتبوا البطريق الذي بصقلية لينصرهم، فأجابهم وقال لهم: إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاثة لياِلٍ على الجبل الفلاني، فإذا رأيتم ذلك ففي اليوم الرابع أصل إليكم، فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة.
فأرسل الفضل مَن أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث لياِلٍ.
فلما رأى أهل مَسِّيني النار أخذوا في أمرهم، وأعدّ الفضل ما ينبغي أن يستعد به، وكَمَّنَ الكُمَناء، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين، فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم، فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم.
فلما كان اليوم الرابع، خرج أهل مَسِّيني وقاتلوا المسلمين، وهم ينتظرون وصول البطريق.
فانهزم المسلمون واستجرُّوا الروم حتى جاوزوا الكمين، ولم يبقَ بالبلد أحد إلاّ خرج.
فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم، وخرج الكمين من خلفهم، ووضعوا فيهم السيف، فلم يَنْجُ منهم إلا القليل. فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلّموا المدينة، فأجابهم =

....

= المسلمون إلى ذلك، وأمَّنُوهم فسلَّموا المدينة.
وفيها: أقام المسلمون بمدينة طَارَنْت من أرض انْكَبَرْدَةَ وسكنوها.
وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين: وصل عشر شلنديات من الروم فأرسوا بمرسى الطين، وخرجوا ليُغيروا فضلُّوا الطريق فرجعوا خائبين، وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع.
وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين: صالح أهل رغوس، وسلَّموا المدينة إلى المسلمين بما فيها. فهدمها المسلمون، وأخذوا منها ما أمكن حمله.
وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين: سار طائفة من المسلمين إلى مدينة قَصْريانة، فغنموا، وسلبوا، وأحرقوا وقتلوا في أهلها.
وكان الأمير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب فتوفي في رجب من سنة ست وثلاثين ومائتين، فكان مقيماً بمدينة بلرم لم يخرج منها، وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا، فتفتح، وتغنم، فكانت إمارته عليها تسع عشرة سنة، والله سبحانه أعلم.
وفي هذه السنة: كانت حرب بين موسى عامل تطِيلَة وبين عسكر عبد الرحمٰن أمير الأندلس والمقدم عليهم الحارث بن بزيغ.
وسبب ذلك: أن موسى بن موسى كان من أعيان قواد عبد الرحمٰن وهو العامل على مدينة تطيلة، فجرى بينه وبين القواد تحاسد سنة سبع وعشرين ـ وقد ذكرناه ـ فعصى موسى بن موسى على عبد الرحمٰن، فسيَّر إليه جيشاً واستعمل عليهم الحارث بن بزيغ والقواد، فاقتتلوا عند برجه، فقتل كثير من أصحاب موسى، وقتل ابن عم له.
وعاد الحارث إلى سرقسطة، فسيّر موسى ابنه ألب بن موسى إلى برجه فعاد الحارث إليها وحصرها فملكها، وقتل ابن موسى وتقدّم إلى بيته فطلبه فحضر فصالحه موسى على أن يخرج عنها.
فانتقل موسى إلى أرنيط، وبقي الحارث يتطلبه أياماً، ثم سار إلى أرنيط فحصر موسى بها.
فأرسل موسى إلى غرسيه ـ وهو من ملوك الأندلس المشركين ـ واتفقا على الحارث، واجتمعا وجعلا له كمائن في طريقه، واتخذ له الخيل والرجال بموضع يقال له بلمسه على نهر هناك.
فلما جاء الحارث النهر خرج الكمناء عليه وأحدقوا به، وجرى معه قتال شديد، وكانت وقعة عظيمة، وأصابه ضربة في وجهه فلقت عينه، ثم أُسر في هذه الوقعة.
فلما سمع عبد الرحمٰن خبر هذه الوقعة، عظم عليه، فجهّز عسكراً كبيراً واستعمل عليه ابنه محمداً وسيَّره إلى موسى في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائتين.
وتقدّم محمد إلى ينبلونة، فأوقع عندها بجمع كثير من المشركين، وقتل فيها غرسيه وكثير من المشركين.
ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمٰن فجهز جيشاً كبيراً وسيَّرهم إلى موسى.
فلما رأى ذلك، طلب المسالمة، فأجيب إليها، وأعطى ابنه إسماعيل رهينة.
وولاه عبد الرحمٰن مدينة تطيلة، فسار موسى إليها، فوصلها، وأخرج كل مَن يخافه، واستقرّ فيها.
وفي هذه السنة: أعطى الواثق أشناس تاجاً ووشاحين.
وفيها: مات أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر.
وفيها: غلا السعر بطريق مكة، فبلغ الخبز كل رطل بدرهم، وراوية ماء بأربعين درهماً وأصاب الناس في الموقف حَرٌّ شديد، ثم أصابهم مطر فيه برد، واشتد البرد عليهم بعد ساعة من ذلك الحر، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت عدة من الحجاج.
وحجّ بالناس: محمد بن داود. =

ودخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

وفيها: حبس الواثق الكتاب وألزمهم أموالاً [عظيمة][١].

فأخذ من سليمان بن وهب وهو كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينار.

ومن أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن أمر بضربه كل يوم عشرة أسواط، فضرب نحو ألف سوط.

وأخذ ابن الخصيب وكتّابه ألف ألف دينار.

ومن الحسن بن وهب، وأبي الوزير مائتي ألف دينار، وكذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم[٢].

ونصب محمد بن عبد الملك، وابن أبي داود وسائر أصحاب المظالم.

فكشفوا وحبسوا وأقيموا للناس فلقوا كل جهد.

وجلس إسحاق بن إبراهيم لهم ينظر في أمورهم ويطلبهم.

ذكر سبب ذلك

كان سبب ذلك أن الواثق جلس ليلة مع ندمائه فقال: إني لست أشتهي الليلة النبيذ، فهلموا فتحدثوا عامة الليل.

فقال الواثق: مَن منكم يعلم[٣] السبب الذي وثب من أجله جدي الرشيد على البرامكة حتى أزال نعمتهم؟

فقال له بعضهم[٤]: أنا والله أحدثك يا أمير المؤمنين، وحدث حديث الجارية وما جرى في أمر ثمنها، وإحضار البرامكة قيمة ألف دينار دراهم ليستكثرها ولا يشتريها.

= **وفيها**: عبد الملك بن مالك بن عبد العزيز أبو نصر التمّار الزاهد، وكان عمره إحدى وتسعين سنة، وكان أضرّ، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان العتبي الأموي البصري أبو عبد الرحمٰن، وكان عالماً بالأخبار والآداب.

وأبو سليمان داود الأشقر السمسار المحدث.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في بعض الكامل زيادات فيما أخذ منهم وزيادات في الأسماء فقال:
ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار.
ومن إبراهيم بن رياح وكتابه مائة ألف دينار.
ومن نجاح ستين ألف دينار.
ومن أبي الوزير مائة ألف وأربعين ألف دينار.

(٣) في المخطوط: مَن منكم من يعلم. ولفظ: «من» الثاني زائد على السياق فحذفته.

(٤) في الكامل: عرود بن عبد العزيز الأنصاري.

فلما رآها ضمّها إلى بعض خدمه وبحث عن الأموال ليجمع بيت مال خاصته، فوجد البرامكة قد أتلفوا كل ما في بيوت أمواله.

وقد ذكرنا نحن هذا الحدث مشروحاً فيما مضى.

فما مَرَّ على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه واستح منهم ومن عماله أموالاً عظيمة[١].

---

(١) هذا ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة وفي هذا الحدث غير أن ابن الأثير فصل في الحدث وزاد في أحداث السنة فقال في تفاصيل الحدث:
وكان سبب ذلك أنه جلس ليلة مع أصحابه فسألهم عن سبب نكبة البرامكة، فحكى له عرود بن عبد العزيز الأنصار:
أن جارية لعدول الخياط أراد الرشيد شراءها فاشتراها بمائة ألف دينار.
وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يعطيه ذلك، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء إذا أخذ ثمن جارية مائة ألف دينار، فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك.
فأرسل يحيى إليه: أنني لا أقدر على هذا المال.
فغضب الرشيد، وأعاد: لا بد منها.
فأرسل يحيى قيمتها دراهم، فأمر أن تجعل على طريق الرشيد ليستكثرها، ففعل ذلك.
فاجتاز الرشيد بها، فسأل عنها.
فقيل: هذا ثمن الجارية.
فاستكثرها، فأمر برد الجارية، وقال لخادم له: اضمم إليك هذا المال، واجعل لي بيت مال لأضم إليه ما أريد، وسماه: بيت مال العروس.
وأخذ في التفتيش عن الأموال، فوجد البرامكة قد فرطوا فيها.
وكان يحضر عنده مع سُمّاره رجل يعرف بأبي العود له أدب، فأمر ليلة له بثلاثين ألف درهم.
فمطله بها يحيى.
فاحتال أبو العود في تحريض الرشيد على البرامكة ـ وكان قد شاع تغيُّر الرشيد عليهم ـ فبينما هو ليلة عند الرشيد يحدثه، وساق الحديث إلى أن أنشده قول عمر بن أبي ربيعة:

استبدّتْ مَرَّةً واحدة ... إنما العاجزُ مَن لا يستبدُّ
وعَدَت هندٌ وما كانت تعِدُ ... ليت هندٌ أنجزتنا ما تَعِدُ

فقال الرشيد: أجل إنما العاجز مَن لا يستبد.
وكان يحيى قد اتخذ من خدام الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، فعرّفه ذلك.
فأحضر أبو العود وأعطاه ثلاثين ألف درهم ومن عنده عشرين ألف درهم.
وأرسل إلى ابنيه الفضل وجعفر فأعطاه كل واحد منهما عشرين ألفاً، وجد الرشيد في أمرهم حتى أخذهم.
فقال الواثق: صدق والله جدي إنما العاجز مَن لا يستبد.
وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها، فلم يمضِ غير أسبوع حتى نكبهم.
وفيها: ولّى شيرباسبان لإيتاخ اليمن وسار إليها.
وفيها: تولى محمد بن صالح بن العباس المدينة.
وحجّ بالناس: محمد بن داود.
وفيها: توفي خلف بن هشام البزار المقرىء في جمادى الأولى.

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

وفيها: مات عبد الله بن طاهر.

وكان إليه يوم ذلك الحربية[١]، والشرطة، والسواد، وخراسان، وأعمالها، وطبرستان والري وما يتصل بها، وكرمان.

فولّى الواثق هذه الأعمال كلها ابنه طاهر بن عبد الله بن طاهر[٢].

---

(١) في المخطوط: الجزية. والتصويب بالمعنى من الكامل، ففيه: الحرب وزاد في خبره فقال: وكان خراج هذه الأعمال يوم مات ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة، وكذلك عُمر والده طاهر.

(٢) هذا كل ما ذكر المؤلف في أحداث تلك السنة، وزاد صاحب الكامل فيها فقال:
وفي هذه السنة: وجّه الواثق بُغا الكبير إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحي المدينة.
وكان سبب ذلك: أن بني سليم كانت تفسد حول المدينة بالشر، ويأخذون مهما أرادوا من الأسواق بالحجاز بأي سعر أرادوا، وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناسٍ من بني كنانة وباهلة فأصابوا وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين.
فوجّه محمد بن صالح عامل المدينة إليهم حماد بن جرير الطبري، وكان مسلحة لأهل المدينة في مائتي فارس، وأضاف إليهم جنداً غيرهم، وتبعهم متطوعة.
فسار إليهم حماد فلقيهم بالرويثة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم السودان المدينة بالناس، وثبت حماد وأصحابه، وقريش، والأنصار، وقاتلوا قتالاً عظيماً.
فقُتل حماد، وعامة أصحابه، وعدد صالح من قريش والأنصار.
وأخذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب، فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة، وانقطع الطريق.
فوجّه إليهم الواثق بُغا الكبير أبا موسى في جمع من الجند، وقدم المدينة في شعبان فلقيهم ببعض مياه الحرّة من وراء السوارقية قريتهم التي يأوون إليها وبها حصون، فقَتل بُغا منهم نحواً من خمسين رجلاً، وأسر مثلهم، وانهزم الباقون.
وأقام بُغا بالسوارقية، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق، فأتوه متفرقين، فجمعهم، وترك مَن يعرف بالفساد، وهم زُهاء ألف رجل، وخلّى سبيل الباقين.
وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين، فحبسهم.
ثم سار إلى مكة، فلما قضى حجّه سار إلى ذات عرق بعد انقضاء الموسم، وعرض على بني هلال مثل الذي عرض على بني سليم، فأقبلوا، وأخذ من المفسدين نحواً من ثلاثمائة رجل، وأطلق الباقين، ورجع إلى المدينة فحبسهم.
وفيها: مات عبد الله بن طاهر...
ولما ولي عبد الله خراسان استناب بنيسابور محمد بن حميد الطاهري، فبنى داراً، وخرج بحائطها في الطريق.
فلما قدمها عبد الله جمع الناس، فسألهم عن سيرة محمد، فسكتوا.
فقال بعض الحاضرين: سكوتهم يدل على سوء سيرته.
فعزله عنهم وأمرهم بهدم ما بنى في الطريق، وكان يقول: ينبغي أن يبذل العلم لأهله وغير أهله، فإن العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله.
وكان يقول: سِمَن الكيس، ونُبل الذِكر، لا يجتمعان أبداً. =

....

= وكان له جلساء منهم الفضل بن محمد بن منصور، فاستحضرهم يوماً فحضروا، وتأخر الفضل ثم حضر، فقال له: أبطأت عني.
فقال: كان عندي أصحاب حوائج، وأردت دخول الحمام.
فأمره عبد الله بدخول حمّامه، وأحضر عبد الله الرقاع التي في حُقّه، فوقع فيها كلها بالإجابة وأعادها، ولم يُعلم الفضل.
وخرج من الحمام، وبكّر أصحاب الرقاع إليه فاعتذر إليهم.
فقال بعضهم: أريد رقعتي، فأخرجها ونظر فيها، فرأى خط عبد الله فيها، فنظر في الجميع، فرأى خطه فيها.
فقال لأصحابه: خذوا رقاعكم فقد قضيت حاجاتكم، واشكروا الأمير دوني، فما كان لي فيها سبب.
وكان عبد الله أديباً شاعراً فمن شعره:

اسم مَن أهواه اسم حسن ... فإذا صحفته فهو حسن
فإذا أسقطت منه فاءه ... كان نعتاً لهواه المختزن
فإذا أسقطت منه ياءه ... صار فيه بعض أسباب الفتن
فإذا أسقطت منه راءه ... صار شيئاً يعتري عند الوسن
فإذا أسقطت منه ظاءه ... صار منه عيش سكان المدن
فسروا هذا فلن يعرفه ... غير مَن يسبح في بحر الفتن

وهذا الاسم هو اسم ظريف غلامه.
وكان من أكثر الناس بذلاً للمال مع علم ومعرفة وتجربة.
وأكثر الشعراء في مراثيه، فمن أحسن ما قيل فيه، وفي ولاية ابنه طاهر قولي أبي الغمر الطبري:

فأيامك الأعياد صارت مأتماً ... وساعاتك الغضبات صارت خواشعا
على أننا لم نفتقدك بطاهر ... وإن كان خطباً يقلق القلب رائعا
وما كنت إلا الشمس غابت وأطلعت ... على إثرها بدراً على الناس طالعا
وما كنت إلاّ الطود زال مكانه ... وأثبت في مثواه ركناً مدافعا
فلولا التقى قلنا: تناسختما معاً ... وبديعي معان يفضلان البدائعا

وهي طويلة.
وفي هذه السنة: خرج المجوس من أقاصي بلاد الأندلس في البحر إلى بلاد المسلمين وكان ظهورهم في ذي الحجة سنة تسع وعشرين عند أشبونة، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً بينهم وبين المسلمين بها وقائع ثم ساروا إلى قادس، ثم إلى شدونة فكان بينهم وبين المسلمين بها وقائع.
ثم ساروا إلى إشبيلية ثامن المحرم، فنزلوا على اثني عشر فرسخاً منها.
فخرج إليهم كثير من المسلمين، فالتقوا، فانهزم المسلمون ثاني عشر المحرم، وقتل كثير منهم.
ثم نزلوا على ميلين من إشبيلية، فخرج أهلها إليهم، وقاتلوهم، فانهزم المسلمون رابع عشر محرم وكثر القتل والأثر فيهم، فلم ترفع المجوس السيف عن أحد، ولا عن دابة، ودخلوا حاجر إشبيلية، وأقاموا به يوماً وليلة، وعادوا إلى مراكبهم، وأقاموا عسكر عبد الرحمٰن صاحب البلاد مع عدة من القواد فتبادر إليهم المجوس، فثبت المسلمون وقاتلوهم فقُتل من المشركين سبعين رجلاً، وانهزموا حتى دخلوا مراكبهم.
وأحجم المسلمون عنهم، فسمع عبد الرحمٰن، فسَيَّر جيشاً آخر غيرهم، فقاتلوا المجوس قتالاً شديداً، فرجع المجوس عنهم، فتبعهم العسكر ثاني ربيع الأول، وقاتلوهم.
وأتاهم المدد من كل ناحية، ونهضوا لقتال المجوس من كل جانب. =

ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

وفيها: تحرّك قوم في ربض عمرو بن عطاء(١)، وأخذوا البيعة على أحمد بن نصر الخزاعي.

ذكر السبب في ذلك

[وهو](٢) أن أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ومالك بن الهيثم ـ أحد نقباء بني العباس، وقد تقدّم ذكره فيما مضى ـ [كان](٣) يغشاه أصحاب الحديث، وكان أحمد بن نصر هذا يباين مَن قال بخلق القرآن، ويأتيه مثل يحيى بن معين، وابن(٤) الدورقي، وأبو خيثمة، [وكانت](٥) له مرتبة كبيرة في أصحاب الحديث.

= فخرج إليهم المجوس، فقاتلوهم، فكاد المسلمون ينهزمون، ثم ثبتوا فترجَّل كثير منهم، فانهزم المجوس وقتل نحو خمسمائة رجل.
وأخذوا منهم أربعة مراكب، فأخذوا ما فيها وأحرقوها، وبقوا أياماً لا يصلون إلى المجوس لأنهم في مراكبهم.
ثم خرج المجوس إلى لَبلَه، وأصابوا سبياً.
ثم نزل المجوس إلى جزيرة قريب قُورِيس، فنزلوها وقسّموا ما كان معهم من الغنيمة.
فحمي المسلمون، ودخلوا إليهم في النهر، فقتلوا من المجوس رجلين.
ثم رحل المجوس فتركوا شدونة، فغنموا طعمة وسبياً، وأقاموا يومين.
ثم وصلت مراكب لعبد الرحمٰن صاحب الأندلس إلى أشبيلية.
فلما أحسّ بها المجوس لحقوا بالبلة، فأغاروا وسبوا، ثم لحقوا بأكشوانية، ثم مضوا إلى باجة، ثم انتقلوا إلى مدينة أشبونة.
ثم ساروا فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس.
وقد ذكر بعض مؤرخي العرب سنة ست وأربعين خروج المجوس إلى أشبيلية أيضاً.
وهي شبيهة بهذه، ثم فلا أعلم أهي هذه ـ فقد اختلفوا في وقتها ـ أم هي غيرها؟ وما أقرب أن تكون هي هي، فقد ذكرتها هناك لأن في كل واحدة منهما شيئاً ليس في الأخرى.
وفي هذه السنة:
مات محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله كاتب الواقدي صاحب الطبقات.
ومحمد بن يزداد بن سويد المروزي كاتب المأمون.
وعلي بن الجعد أبو الحسن الجوهري، وكان عمره ستاً وتسعين سنة، وهو من مشايخ البخاري. وكان يتشيّع.
وفيها: مات أشناس التركي بعد موت عبد الله بن طاهر بتسعة أيام.
وحجّ هذه السنة: إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وإليه أحداث الموسم.
وحجّ بالناس هذه السنة: محمد بن داود.

(١) في الكامل: تحرك ببغداد قوم.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: أبناء. والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.

وبسط لسانه فيمن يقول بخلق القرآن مع غلظة بالواثق، كانت على كل مَن يقول ذلك، وامتحانه إياهم فيه، وغلبه ابن أبي داود عليه.

فجعل أحمد بن نصر لا يذكر الواثق إلاّ بالخنزير، وفشا ذلك حتى خوّف وقيل له: قد اتصل أمرك به ممن ينكر القول بخلق القرآن من أصحاب السلطان ومن عامة بغداد، وحركوه لإنكار القول بخلق القرآن، وقصده الناس لرتبته في أصحاب الحديث، ولما كان لأبيه وجده في دولة بني العباس من الأثر.

وكانت له أيضاً رياضة بغداد في سنة إحدى ومائتين.

وبويع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما كثر الدُّعار وظهر الفساد.

والمأمون بخراسان لم يزل على ذلك ثابتاً إلى أن قدم[١] المأمون بغداد في سنة أربع فرجوا إذا تحرك استجابت الناس له للأسباب التي ذكرت.

وكان فيمن بايعه قوم من أصحاب إبراهيم بن مصعب صاحب الشرطة يزون رأيه، ففرقوا في يوم مالاً وأعطوا كل رجل ديناراً.

وواعدهم أحمد بن نصر ليلة يضربون فيها بالطبل بالاجتماع والوثوب بالسلطان.

وكان قوم منهم بالجانب الشرقي، وقوم بالجانب الغربي.

فانتدب بعض مَن أخذ الدينار، واجتمع عنده منهم على شربه، فلما ثملوا ضربوا بالطبل ليلة الأربعاء قبل [الموعد][٢] بليلة، وكان الموعد ليلة الخميس، وهم يحسبونها ليلة الخميس التي اتعدوا لها، فأكثروا ضرب الطبل، فلم يجبهم أحد.

وكان إسحاق بن إبراهيم بن مصعب غائباً عن بغداد، وخليفته بها أخوه محمد بن إبراهيم.

فوجّه إليهم محمد بن إبراهيم صاحبه، فأتاهم فسألهم عن قصتهم، فلم يظهر له أحد.

فدلّه الجيران على رجل حَمَّامي[٣]، فأخذه وتهدّده بالضرب، فأقرّ على أحمد بن نصر، وجماعة سماهم.

فتتبع القوم من ليلتهم، فأخذ بعضهم من الجانب الشرقي، وبعضهم من الجانب الغربي، وقيّد وجوههم[٤].

وأصيب في منزل أحدهم علمان أخضران فيهما حمرة.

(١) في المخطوط: أقدم. وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) أي صاحب حَمَّام.
(٤) أي رؤساءهم وكبراءهم.

ثم أخذ خُصي لأحمد بن نصر، فتهدده، فأقرّ بما أقرّ به عيسى الحمامي.

فأخذ أحمد بن نصر، وحمل إلى أحمد بن إبراهيم بن مصعب، مع أولاده، وجماعة من يغشاه، فحملهم إلى الواثق.

[فلما علم الواثق بوصولهم جلس لهم][1] مجلساً عاماً، وأحضر أحمد بن أبي داود ليمتحنوا مكتوفاً، فأحضر القوم، وحضر معهم أحمد بن نصر، فلم يناظره الواثق في الشغب، ولا فيما روى عليه من إرادته الخروج عليه، ولكنه قال: يا أحمد، ما تقول في القرآن؟

قال: كلام [الله][1].

قال: فمخلوق هو؟

قال: كلام الله.

قال: فما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟

قال: يا أمير المؤمنين، جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترون ربكم يوم القيامة لا تضامون [١٠٤/ب] في رؤيته».

وحدثني سفيان بن عيينة [بحديث][2] يرفعه: «أن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله».

فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك انظر ما تقول.

قال: [أنت][2] أمرتني بذلك.

فأشفق[3] إسحاق من كلمته [و][4] قال: أنا أمرتك بذلك؟!

قال: نعم أمرتني أن أنصح لك ولأمير المؤمنين، ومن نصيحتي أن لا تخالف رسول الله ﷺ.

فقال الواثق لمَن حوله: ما تقولون فيه؟

فقال عبد الله بن إسحاق ـ وكان قاضياً على الجانب الغربي وهو صديق لأحمد بن نصر ـ: هو حلال الدم.

وقال آخر: اسقني دمه يا أمير المؤمنين.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: فاستفق. وهو تحريف، وفي الكامل: فخاف. والمعنى واحد.
(٤) زيادة يتطلبها السياق.

فقال له الواثق: القتل يأتي على ما تريدون.

وقال أحمد بن أبي داود: كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغيُّر[١] عقل. كأنه كره أن يقتل بسببه.

فقال: إذا رأيتموني قد قمت إليه، فلا يقومن معي أحد، فإني أحتسبه خطابي إليه[٢].

ودعا بالصمصامة ـ سيف عمرو بن معد يكرب ـ وكان في الخزانة، فأُتي به.

فمشى إليه في وسط الدار[٣]، ودعا بنطع، فصيِّر في وسطه[٤] وحبل[٥] فشدّ به رأسه ومَدَّ الحبل، فضرب به، فمشى فوقعت الضربة على حبل عاتقه، ثم ضربه أخرى على رأسه.

ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضربه، فأبان رأسه.

ويقال: إن بغا ضربه، وطعنه الواثق بطرف الصمصامة[٦] في بطنه.

فحمل معترضاً حتى أُتي به الحيرة التي فيها بابك فصُلب فيها، وفي رجليه[٧] قيود وحُمل رأسه إلى بغداد، فنُصب في الجانب الشرقي أياماً، ثم حُمل إلى الغربي، وحظر على الرأس حظيرة، وأقيم عليه الحرس، وكتب في أذنه: هذا رأس الكافر المشرك الضال: أحمد بن نصر، قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام الحجة عليه في خلق القرآن، ونفى التشبيه، وعرض عليه التوبة، فأبى إلا المعاندة، فعجّل الله به إلى ناره وأليم [عقابه][٨].

وتتبع مَن عرف بصحبة أحمد بن نصر، ومَن تابعه فوضعوا في الحبوس، ومُنعوا من أخذ الصدقة التي يُعطاها أهل السجون، ومُنعوا من الزوار وثقِّلوا بالحديد.

وفي هذه السنة: تمّ الفداء بين المسلمين، وصاحب الروم واجتمع الروم والمسلمون على نهر يقال له: اللامس، على مسيرة يوم من طرسوس.

وأمر الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن، فقالوا جميعاً بخلقه إلاّ أربعة نفر،

---

(١) في المخطوط: لغير. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: خطالى. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: الداب. والتصويب من الكامل.
(٤) أي أوقف في وسط النطع أي البساط.
(٥) في المخطوط: جل، وهو تحريف.
(٦) في المخطوط: الصمامة. والتصويب من الكامل.
(٧) في المخطوط: في رجله. وهو تحريف.
(٨) زيادة يتطلبها السياق.

فأمر الواثق بضرب أعناقهم.

وأمر لأهل الثغور بجوائز على ما رآه خاقان.

وكان خادم الرشيد بشا بالثغر، وكان ورد رسول ملك الروم في طلب المفاداة، وكان جرى بينهم اختلاف في الفداء.

قالوا: لا نأخذ في الفداء عجوزاً، ولا شيخاً ولا صبياً، ثم رضوا عن كل نفس بنفس.

فوجد الواثق في شراء مَن يباع له، ولم تتم العدة.

فأخرج الواثق عجائز من قصره روميات وغيرهن حتى تمّت العدة.

وأمر الواثق بامتحان الأسارى، فمَن قال بخلق القرآن فودي به، ومَن أبى تُرك في أيدي الروم.

وأمر أن يُعطى جميع من فودي وقال بخلق القرآن ديناراً، فبلغ عدة مَن فودي به أربعة آلاف وستمائة إنسان، فيهم من أهل الذمة نحو أربعمائة.

ولما جمعوا الفداء، وقف المسلمون من جانب النهر الشرقي والروم من الجانب الغربي، وعقد جسر على النهر للمسلمين، وجسراً آخر للروم.

قال: فكنا نرسل الرومي على جسرنا ويرسل الروم المسلم على جسرهم، فيسير هذا إلينا، وذاك إليهم.

وفي هذه السنة: مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية وهو ابن الثمانين سنة(١).

---

(١) هذا ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير فيها فقال:
وفي هذه السنة: قتل أهل المدينة مَن كان في حبس بُغا من بني سُليم، وبني هلال.
وكان سبب ذلك: أن بُغا لما حبس مَن أخذه من بني سُليم وبني هلال بالمدينة - وهم ألف وثلاثمائة - وكان سار عن المدينة إلى بني مُرَّة، فنقب الأسرى الحبس ليخرجوا.
فرأت امرأة النقب، فصرخت بأهل المدينة، فجاؤوا، فوجدوهم قد قتلوا المتوكلين وأخذوا سلاحهم.
فاجتمع عليهم أهل المدينة ومنعوهم الخروج، وباتوا حول الدار فقاتلوهم.
فلما كان الغد قتلهم أهل المدينة، وقتل سودان المدينة كل مَن لقوه بها من الأعراب ممن يريد الميرة.
فلما قدم بُغا وعلم بقتلهم شقّ ذلك عليه.
وقيل: إن السجّان كان قد ارتشى منهم ليفتح لهم الباب.
فعجلوا قبل ميعاده، وكانوا يرتجزون، ويقولون وهم يقاتلون:

الموت خير للفتى من العار ... قد أخذ البواب ألف دينار

وكان سبب غيبة بُغا عنهم: أن فزارة، ومرّة، تغلّبوا على فَدَك، فلما قاربهم، أرسل إليهم رجلاً من قواده من بني فزارة يعرض عليهم الإيمان، ويأتيه بأخبارهم. =

....

= فلما أتاهم الفزاري حذّرهم سطوته وزيّن لهم الهرب، فهربوا، وخلوا فَدَك، وقصدوا الشام.
وأقام بُغا بحيفا، وهي قرية من حَدِّ عمل الشام مما يلي الحجاز نحواً من أربعين ليلة، ثم رجع إلى المدينة بمَن ظفر به من بني مرة وفزارة.
وفيها: سار بُغا من بطون غطفان، وفزارة، وأشجع، وثعلبة جماعة، وكان أرسل إليهم، فلما أتوه استحلفهم الأيمان المؤكدة أن لا يتخلّفوا عنه متى دعاهم، فحلفوا.
ثم سار إلى ضربة لطلب بني كلاب فأتاه منهم نحواً من ثلاثة آلاف رجل فحبس من أهل الفساد نحواً من ألف رجل، وخلى سائرهم، ثم قدم بهم المدينة في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين فحبسهم، ثم سار إلى مكة، فحجّ ثم رجع إلى المدينة.
وفي هذه السنة: أراد الواثق الحج فوجّه عمرو بن فرج لإصلاح الطريق، فرجع وأخبرهم بقلة الماء، فداله.
وفيها: ولي جعفر بن دينار اليمن فسار في شعبان، وحجّ في طريقه، وكان معه أربعة آلاف فارس، وألفا رجل.
وفيها: نقب اللصوص بيت المال الذي في دار العامة، وأخذوا اثنين وأربعين ألف درهم وشيئاً يسيراً من الدنانير، ثم تتبّعوا، وأُخذوا بعد ذلك.
وفيها: خرج محمد بن عبد الله الخارجي التغلبي في ثلاثة عشر رجلاً في ديار ربيعة فخرج إليه غانم بن أبي مسلم بن أحمد الطوسي، وكان على حرب الموصل، في مثل عدته، فقتل من الخوارج أربعة وأخذ محمد بن عبد الله أسيراً فبعث به إلى سامرا فحُبس.
وفيها: قدم وصيف التركي من ناحية أصبهان، والجبال، وفارس، وكان قد سار في طلب الأكراد، لأنهم كانوا قد أفسدوا بهذه النواحي، وقدم معه بنحو من خمسمائة نفس فيهم غلمان صغار فحبسوا.
وأجيز وصيف بخمسة وسبعين ألف دينار وقُلِّد سيفاً وكسي.
وفيها: سار جيش للمسلمين إلى بلاد المشركين، فقصدوا جليقية، وقتلوا، وأسروا، وسبوا، وغنموا، ووصلوا إلى مدينة ليون، فحصروها، ورموها بالمجانيق، فخاف أهلها، فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين، فغنم المسلمون منهم ما أرادوا، وأخربوا الباقي، ولم يقدروا على هدم سورها، فتركوه ومضوا لأن عرضه سبعة عشر ذراعاً وقد ثلموا فيه ثلماً كثيرة.
وفيها: كان الفداء بين المسلمين، والروم...
ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلي شاتياً، فأصاب الناس ثلج ومطر، فمات منهم مائتا نفس، وأسر نحوهم، وغرق بالبَذَنْدُون خلق كثير.
فوجد الواثق على أحمد، وقد كان جاء إلى أحمد بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لأحمد: إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا تتخوّف عليه، فإن كنت كذلك فواجه القوم، واطرق بلادهم.
ففعل، وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة، وخرج، فعزله الواثق، واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي في جمادى الأولى.
وفيها: مات الحسن بن الحسين بطبرستان.
وفيها: كان بأفريقية حرب بين أحمد بن الأغلب وأخيه محمد بن الأغلب.
وكان مع أحمد جماعة، فهجموا على محمد في قصره، وأغلق أصحاب محمد بن الأغلب الباب، واقتتلوا، ثم كفُّوا عن القتال، واصطلحوا.
وعظم أمر محمد، ونقل الدواوين إليه ولم يبقَ لمحمد من الإمارة إلاّ اسمها ومعناها لأحمد أخيه، فبقي كذلك إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فاتفق مع محمد من بني عمه ومواليه =

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

وفيها: كان مسير بغا الكبير إلى بني نمير.

ذكر السبب في ذلك

ذلك أن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي امتدح الواثق بقصيدة، فدخل عليه وأنشدها، فأمر [له][1] بثلاثين ألف درهم، ونزل.

فكلّم عمارة الواثق في نمير وأخبره بعبثهم وفسادهم في الأرض وإغارتهم على اليمامة وما قرب منها.

فكتب الواثق إلى بُغا يأمره بحربهم، وكان بُغا بالمدينة لأن بني سليم كانوا عاثوا بالحجاز وأكثر الغارات والقتل، فتوجه صاحب المدينة وجمع لهم الخيل والسودان ومَن استجاب له[2] من قريش والأنصار، فواقعتهم بنو سليم فقتلوهم، وقتلوا أمير المدينة، وأكثر مَن كان خرج معه من قريش والأنصار.

فأخرج الواثق بالله بغا الكبير إلى المدينة، فأوقع ببني سليم، وأسر منهم وقتل، وكان لذلك مقيماً بعد بالمدينة.

فلما أراد بُغا الشخوص إليهم من المدينة حمل معه دليلاً ومضى نحو اليمامة، فلقي منهم جماعة بموضع يقال له: الشريف.

= جماعة وقاتل أخاه أحمد فظفر به ونفاه إلى الشرق، واستقام أمر محمد بأفريقية، ومات أخوه أحمد بالعراق.

وفيها: مات أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي الراوية في شعبان وهو ابن ثمانين سنة.

وفيها: ماتت أم أبيها بنت موسى بن جعفر أخت علي الرضا.

وفيها: مات مخارق المغني، وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعي.

وعمرو بن أبي عمرو الشيباني.

ومحمد بن سعدان النحوي الضرير، توفي في ذي الحجة.

وفيها: توفي إبراهيم بن غرغرة.

وعاصم بن علي بن عاصم بن صهيب الواسطي.

ومحمد بن سلام بن عبد الله الجمحي البصري وكان عالماً بالأخبار، وأيام الناس.

وعاصم بن عمرو بن علي بن مقدم أبو بشر المقدمي.

وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي الفقيه صاحب الشافعي، وكان قد حُبس في محنة الناس بخلق القرآن فلم يجب، وكان من الصالحين.

وهارون بن معروف البغدادي، وكان حافظاً للحديث.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: لهم. وهو تحريف.

فحاربوه، فقتل بُغا منهم نحواً من ستين رجلاً، وأسر نحواً من أربعين، ثم سار وتابع إليهم الرسل، فعرض عليهم الأمان، ودعاهم إلى السمع والطاعة، وهم في ذلك يمتنعون عليه[١]، ويشتمون رُسُله، ويتقلبون إلى حربه، فسار بغا حتى ورد بطن نخل، ثم دخل نخيلة، فاحتملت بنو ضبّة من بني نمير، فركبت حيالها، فأرسل إليهم فأبوا أن يأتوه، وأرسل إليهم سرية، وأتبعهم بجماعة مَن معه فحشدوا لحربه، وهم يومئذ نحو من ثلاثين ألف رجل، فلقوهم ببطن السر، فهزموا مقدمته، وكشفوا ميسرته وقتلوا من أصحابه مائة وثلاثين رجلاً، وعقروا من إبل عسكره سبعمائة دابة، وانتهبوا الأثقال وبعض ما كان مع بغا من الأموال فهجم عليهم وعليه الليل، فجعل بُغا يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع إلى طاعة الواثق، فشتموه وتوعّدوه.

فلما دنا الصبح أشير [١٠٤/أ] على بغا أن يوقع قبل أن يضيء الصبح فيروا قلة عدد مَن معه فيحقروهم ويثبوا عليه[٢]، فأبى بُغا.

فلما أضاء الصبح ونظروا إلى عدد مَن معه حملوا عليهم، فهزموهم حتى بلغت هزيمتهم معسكره[٣]، وأيقنوا بالهلاك.

ذكر اتفاق حسن

وبلغ بغا أن خيلاً لهم بمكان من بلادهم، فوجّه من أصحابه نحواً من مائتي رجل إليها.

فبينا هو قد أشرف[٤] على العطب، وقد انهزم بُغا، إذ خرجت تلك الجماعة منصرفة[٥] من ذلك[٦] [الوجه][٧]، فأقبلت متفرقة في ظهور بني نمير، فنفخوا في صفّاراتهم، فالتفتوا ورأوا الخيل وراءهم، فولُّوا منهزمين، وأسلم فرسانهم رجالتهم، وطاروا على ظهور الخيل.

وكان منهم جماعة تشاغلوا بالنهب، فثاب بُغا وأصحابه فكرَّ عليهم، وقتل منهم منذ زوال الشمس إلى آخر وقت العصر زهاء ألف وخمسمائة رجل.

وأقام بغا حتى جُمعت له رؤوس مَن قُتِل، واستراح هو وأصحابه ببطن السر ثلاثة أيام.

---

(١) في المخطوط: إليه. وهو تحريف.
(٢) العبارة في الكامل على النحو التالي وقد أصابها تحريف وسقط: من معه فيحفرثوا عليه، فضبط على ما أحسبه المراد والله أعلم.
(٣) في المخطوط: معسكر. والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: فبينا هم فيه من الأشراف، والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: مصرفه. والتصويب من الكامل.
(٦) في المخطوط: تلك. وهو تحريف.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.

ثم أُرسل إليه مَن هرب من فرسان نمير من الوقعة يطلبون الأمان، فأعطاهم الأمان، فساروا إليه فقيّدهم وأشخصهم معه فشغبوا في الطريق، وحاولوا كسر قيودهم والهرب، فأمر بإحضارهم واحد بعد واحد فضربهم ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة [سوط][١] فلم ينطق منهم ناطق بتوجُّع، ولا تأوُّه.

ثم جمع مع مَن لحق به ممن طلب الأمان وحملهم إلى البصرة[٢].

وفيها: مات الواثق[٣].

وكان سبب موته: الاستسقاء، فعولج بالإقعاد في تنور مسخَّن، فوجد بذلك راحة، فأمر من غد ذلك اليوم بأن يزاد في إسخان ذلك التنور، ففعل، وقعد فيه أكثر من قعوده في اليوم الذي قبله، فحمي عليه، فأُخرج منه، وصُير في محفّة، وحضره جماعة من الهاشميين.

ثم حضر محمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن أبي داود، فلم يعلموا بموته حتى ضرب وبوجهه المحفّة ومات[٤].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زاد ابن الأثير في الكامل، فقال:
وكانت الوقعة في جمادى الآخرة، ثم قدم واجن الأشروسني على بُغا في سبعمائة مقاتل مدداً له.
فسيّره بُغا في آثارهم حتى بلغ تُبالة من أعمال اليمن، ورجع.
وكان بغا قد كتب إلى صالح أمير المدينة ليوافيه ببغداد بمَن عنده من فزارة، ومرة، وثعلبة، وكلاب، ففعل.
فلقيه ببغداد فسارا جميعاً، وقدم بُغا سامرا بمَن بقي معه منهم سوى مَن هرب ومات وقتل في الحروب، فكانوا يزيدون على ألفي رجل، ومائتي رجل من نمير، وكلاب، ومرة، وفزارة، وثعلبة، وطيء.

(٣) في الكامل: في ذي الحجة لست بقين منه.

(٤) بعد هذا في الكامل قول آخر حيث قال ابن الأثير:
وقيل إن أحمد بن أبي داود حضره عند موته وغمضه.
وقيل: إنه لما حضرته الوفاة جعل يردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الناس مشتركٌ ... لا سوقة منهم تبقى ولا ملكُ
ما ضرَّ أهل قليل في تفاقرهم ... وليس يغني عن المُلاك ما ملكوا

وأمر بالبُسُط فطويت، وألصق خده بالأرض وجعل يقول:
يا مَن لا يزول ملكه ارحم مَن زال ملكه.
وقال أحمد بن محمد الواثقي: كنت فيمن يُمَرّض الواثق، فلحقه غشية، وأنا وجماعة من أصحابه قيام، فقلنا: لو عرفنا خبره؟ فتقدمت إليه، فلما صرت عند رأسه فتح عينيه فكدت أموت من خوفه. فرجعت إلى خلف، وتعلقت قنبعة سيفي في عتبة المجلس، فاندقّت وسَلِمت من جراحه، ووقفت في موقفي.
ثم إن الواثق مات وسجّيناه، وجاء الفرّاشون، وأخذوا ما تحته في المجلس ورفعوه لأنه =

وكان أبيض مشرباً بحمرة، جميلاً ربعة، حسن الجسم، قائم العين اليسرى، فيها بكتة بيضاء.

وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر.

[وقيل][1]: ست وثلاثون سنة[2].

= مكتوب عليهم، واشتغلوا بأخذ البيعة.
وجلست على باب المجلس لحفظ الميت، ورددت الباب، فسمعت حسًا، ففتحت الباب، وإذا جرذ قد دخل من بستان هناك، فأكل إحدى عيني الواثق.
فقلت: لا إله إلا الله، هذه العين التي فتحها من ساعة فاندق سيفي هيبة لها صارت طعمة لدابة ضعيفة.
وجاؤوا فغسّلوه، فسألني أحمد بن أبي داود عن عينه، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب منها.
ولما مات صلّى عليه أحمد، وأنزله في قبره.
وقيل: صلّى عليه أخوه المتوكل، ودُفن بالهاروني بطريق مكة.
وكان مولده بطريق مكة.
وأمه أم ولد اسمها قراطيس.
ولما اشتد مرضه أحضر المنجمين منهم الحسن بن سهل فنظروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم، فلم يعش بعد قولهم إلاّ عشرة أيام، ومات.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعد ذلك في خبره فقال: ولما توفي المعتصم وجلس الواثق في الخلافة أحسن إلى الناس واشتمل على العلويين، وبالغ في إكرامهم، والإحسان إليهم، والتعهُّد لهم بالأموال.
وفرّق في أهل الحرمين أموالاً لا تحصى، حتى أنه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل.
ولما توفي الواثق كان أهل المدينة تخرج من نسائهم كل ليلة إلى البقيع فيبكين عليه، ويندبنه، ففعلوا ذلك بينهم مناوبة حزناً عليه لما كان يكثر من الإحسان إليهم.
وأطلق في خلافته أعشار سفن البحر، وكان مالاً عظيماً.
قال الحسين بن الضحاك: شهدت الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام أول مجلس جلسه، فغنّته جارية إبراهيم بن المهدي:

ما دَرَى الحاملون يوم استقلوا نعشه للسواء أم للبقاء
فليقل فيك باكياتك ما شئن صباحاً وعند كل مساءِ

فبكى وبكينا معه حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كُنا فيه.
قال: ثم تغنّى بعضهم فقال:

وَدِّع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

فزاد الواثق بكاءً، وقال: ما سمعت كاليوم تعزية بأب، وتغني نفس.
ثم تفرّق أهل المجلس.
قال: وقال أحمد بن عبد الوهاب في الواثق:

أبت دار الأحبة أن تُبينا أجدّك ما رأيت بها مُعينا
تقطّع حسرة من حب ليلى نفوسٌ ما أثبن ولا جُزينا

فصنعت فيه صوتاً علم جارية صالح بن عبد الوهاب، فغنّاه زرزر الكبير للواثق فسأله: لمَن هذا؟ فقال: لعلم. =

....

= فأحضر صالحاً، وطلب منه شراءها، فأهداها له، فعوّضه خمسة آلاف دينار.
فمطله بها ابن الزيات، فأعادت الصوت.
فقال الواثق: بارك الله عليك وعلى مَن رباكِ.
فقالت: وما ينفع مَن رباني؟ أمرت له بشيء، فلم يصل إليه.
فكتب إلى ابن الزيات يأمره بإيصال المال إليه، وأضعفه له بدفع إليه عشرة آلاف دينار.
وترك صالح عمل السلطان، واتجر في المال.
وقال أبو عثمان النحوي المازني: استحضرني الواثق من البصرة، فلما حضرت عنده قال: مَن خلفت بالبصرة؟
قلت: أختاً لي صغيرة.
قال: فما قالت المسكينة؟
قلت: ما قالت ابنة الأعشى:

تقول ابنتي حين جَدّ الرحيـ ... ـلُ أراني سواء ومن قد يُتم
أبانا فلا رَمت مِن عندنا ... فأنا بخير إذا لم تَرُمْ
تُرانا إذا أضمرتك البلادُ ... نجفى وتقطع منا الرحِمْ

قال: فما رددت عليها؟
قلت: ما قال جرير لابنته:

ثقي بالله ليس له شريكٌ ... ومن عند الخليفة بالنجاح

فضحك وأمر له بجائزة سنية.

خلافة المتوكل

وفي هذه السنة: بويع لجعفر المتوكل بالخلافة، وهو جعفر بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

لما توفي الواثق حضر الدار أحمد بن أبي داود، وإيتاخ، ووصيف محمد بن عبد الملك، وأحمد بن خالد الوزير.

فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق، فأحضروه وهو غلام أمرد قصير، فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رفعاً فيه، فإذا هو قصير.

فقال لهم وصيف: أما تتقون الله، تولون مثل هذا الخلافة، وهو لا تجوز معه الصلاة.

فتناظروا فيمن يولونها.

فذكر أحمد بن أبي داود جعفراً أخا الواثق فأحضروه وألبسه الطويلة وعمّمه، وقبّل بين عينيه، وقال: السلام [عليك][1] يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم غُسل الواثق وصُلّي عليه، ودُفن ولقبه أحمد بن أبي داود المتوكل على الله.

وأمر محمد بن عبد الملك بالكتابة به إلى الناس[2]، فوقع بهذا:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر أبقاك الله أمير المؤمنين أعزّه الله أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير في الكامل:
وأراد ابن الزيات أن يلقبه المنتصر.
فقال أحمد بن أبي داود: قد رأيت لقباً أرجو أن يكون موافقاً، وهو: المتوكل على الله.
فأمر بإمضائه، فكتب به إلى الآفاق.
وقيل: بل رأى المتوكل في منامه قبل أن يستخلف كأن سُكّراً أُنزل عليه من السماء، مكتوب عليه المتوكل على الله.
فقصّها على أصحابه.
فقالوا: هي والله الخلافة.
فبلغ ذلك الواثق، فحبسه، وضيّق عليه.

أعواد منبره.

وكتب إلى قضاته وكُتّابه وعماله، وأصحاب دواوينه[١]، وسائر مَن تجري المكاتبة بينه وبينه:

من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين قرّ [مكا[٢]]نك في العمل بذلك، وإعلامي وصول كتابي إليك موفق إن شاء الله.

وأمر للأتراك برزق أربعة [أشهر][٣].

وأمر بأن يوضع العطاء للجند ثمانية أشهر.

وأُخذت البيعة عليهم.

وبويع له، وله ست وعشرون سنة[٤].

---

(١) في المخطوط: دوانيه. وهو تحريف.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) زاد ابن الأثير في الكامل في أحداث تلك السنة فقال:
وحجّ بالناس: محمد بن داود.
وفي هذه السنة: أصاب الحجاج في العَود عطش عظيم، فبلغت الشربة عدة دنانير، ومات منهم خلق كثير.
وفيها: غدر موسى بالأندلس، وخالف على عبد الرحمٰن بن الحكم أمير الأندلس بعد أن كان قد وافقه وأطاعه.
وسَيّر إليه عبد الرحمٰن جيشاً مع ابنه محمد.
وفيها: كان بالأندلس مجاعة شديدة وقحط عظيم، وكان ابتداؤه سنة اثنين وثلاثين، فهلك فيه خلق كثير من الآدميين والدواب، ويبست الأشجار، ولم يزرع الناس شيئاً، فخرج الناس هذه السنة يستسقون فسقوا، وزرعوا، وزال عن الناس القحط.
وفيها: ولي إبراهيم بن محمد بن مصعب بلاد فارس.
وفيها: غرق كثير من الموصل، وهلك فيه خلق.
قيل: كانوا نحو مائة ألف إنسان.
وكان سبب ذلك: أن المطر جاء بها عظيماً لم يُسمع بمثله بحيث إن بعض أهلها جعل سطلاً عمقه ذراع في سعة ذراع، فامتلأت ثلاث دفعات في نحو ساعة، وزادت دجلة زيادة عظيمة، فركب الماء الربض الأسفل وشاطىء نهر سوق الأربعاء.
فدخل كثيراً من الأسواق.
فقيل: إن أمير الموصل، وهو غانم بن حميد الطوسي كفّن ثلاثين ألفاً، وبقي تحت الهدم خلق كثير لم يحملوا، سوى مَن حمله الماء.
وفيها: أمر الواثق بترك أعشار سفن البحر.
وفيها: توفي الحكم بن موسى، ومحمد بن عامر القرشي مصنف الصوائف وغيرها.
ويحيى بن يحيى الغساني الدمشقي.
وقيل: سنة ثلاثة وثلاثين.
وقيل غير ذلك.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

وفيها: غضب المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحبسه[١].

ذكر سوء نظر محمد بن عبد الملك وتحديه المتوكل حتى أهلكه وكان السبب في غضبه عليه

أن الواثق لما استوزر محمد بن عبد الملك فوّض إليه الأمور.

وكان الواثق قد غضب على أخيه جعفر لبعض الأمور، فوكل به عمر بن فرج الرخجي، ومحمد بن العلاء، وكانا يحفظانه، ويكاتبانه بأخباره.

فسار جعفر إلى محمد بن عبد الملك يسأله أن يكلم أخاه الواثق ليرضى عنه.

فلما دخل عليه مكث واقفاً بين يديه لا يكلمه، ثم أشار إليه أن يقعد، فلما فرغ من نظره في الكتب التفت إليه كالمتهدد له، فقال له: ما جاء بك؟

قال: جئت لتسأل أمير المؤمنين ليرضى عني.

فقال لمَن حوله: انظروا إلى هذا يغضب أخاه ويسألني أن أسترضيه له، اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك.

فقام جعفر كئيباً لما لقيه به من قبح اللقاء والتقصير به.

فخرج من عنده[٢] وأتى عمر بن فرج يسأله أن يختم له صلة لبعض أرزاقه، فلقيه عمر بن فرج بالتجهُّم، وأخذ الصلة ورمى بها.

فسار جعفر حين خرج من عند عمر إلى أحمد بن أبي داود واستقبله وقبَّله، وقال له: ما جاء بك جعلني الله فداك؟

قال: جئت لتسترضي أمير المؤمنين.

قال: أفعل ونعمة عين.

فكلّم أحمد بن أبي داود، الواثق بالله فيه، فوعده ولم يرضَ عنه.

فأعاد أحمد الكلام بعد ذلك وسأله بحق المعتصم [١٠٤/ب] إلاّ رضي عنه، فرضي عنه من ساعته، وكساه.

وأبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم النحوي اللغوي، أخذ العلم عن أبي عبيد، والأصمعي.
وفيها: توفي عمرو الناقد.

(١) في الكامل: لسبع خلون من صفر.
(٢) في المخطوط: فخرج من حديث. وهو تحريف.

واعتقد جعفر لأحمد بن أبي داود بذلك فأحظاه عنده لما ملك.

وأن محمد بن عبد الملك حين خرج جعفر من عنده كتب إلى الواثق يذكر أن جعفر أتاه في زي المخنثين[١]، له شعر بقفاه[٢] [يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضى عنه][٣].

فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره، ومُرْ مَن يجز شعر قفاه، ويضرب به وجهه، واصرفه إلى منزله.

فحكي عن المتوكل أنه قال: لما أتاني رسوله[٤]، لبست سواداً جديداً، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا، فلما حصلت بين يديه قال: يا غلام ادع لي حجاماً.

فدعا به.

فقال: خذ من شعره، فا[ضرب به و][٥]وجهه.

فأخذه على السواد الجديد.

فأخذ شعره وضرب به وجهه.

فقال المتوكل: ما دخلني من الجزع على شيء مثل ما دخلني حيث أخذ شعري على السواد الجديد، وقد جئته طامعاً[٦] في الرضى عني، فأخذ شعري عليه.

فلما بويع أمهل وهو يفكر في مكروه يناله به.

ثم أمر إيتاخ أن يأخذه، ويعذبه.

فبعث إليه إيتاخ [فركب يظن أن الخليفة يستدعيه، فلما حاذى منزل إيتاخ][٧] قيل له: اعدل إلى هاهنا، فعدل، وأوجس في نفسه خيفة.

فلما جاء إلى الموضع الذي كان ينزل فيه إيتاخ عدل به عنه، فأيقن بالشر، ثم أدخل حجرة، وأخذ سيفه، ودراعته، وقلنسوته، فدفع إلى غلمانه، وقيل لهم: انصرفوا، وهم لا يشكُّون أنه مقيم عند إيتاخ يشرب.

ووجه المتوكل إلى أصحابه ودوره فقبض عليهم وأخرج جميع ما كان في منزله من متاع، وجوار، وغلمان، ودواب، فصار ذلك كله إلى الهاروني.

وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه، وضياع أهل بيته حيث كانت.

---

(١) في المخطوط: المحدين. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: قفاء. والتصويب من الكامل.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: رسول. والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل سقطت من المخطوط.
(٦) في المخطوط: طعاماً. وهو تحريف.
(٧) زيادة من الكامل.

فأما ما كان بِسُرَّ مَنْ رَأَى فحُمل إلى خزائنه، فاستبرأ للخليفة جميعه.

وقيل لمحمد بن عبد الملك: وكل ببيع متاعك. وأتوه بمَن وكله بالبيع عليه.

ثم قُيِّد، وامتنع من الطعام فلا يذوق شيئاً، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام، كثير التفكُّر.

فمكث أياماً سُوهِرَ، ومُنع من النوم، و[كان](١) ينخس بمسلة [لئلا ينام](١) ثم ترك يوماً وليلة فنام، وانتبه واشترى فاكهة، وتيناً، وعنباً، وأُتي به وأكل.

ثم أُعيد إلى المساهرة، وكان محمد قاسي القلب يزعم أن الرحمة جور في الطبيعة.

وقد كان اتخذ تنوراً من خشب فيه مسامير حديد يعذب فيه مَن يطالبه، وكان هو أول(٢) مَن عمل ذلك، وعذب(٣) فيه ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما كان عنده، ثم ابتلي به فعُذِّب فيه حتى مات(٤).

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: الأول. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: عدن. وهو تحريف، وفي الكامل تعريف بهذا التنور أو بالمعنى الأدق الصندوق فقال: فكان من خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى الداخل، تمنع مَن يكون فيه من الحركة، وكان ضيقاً بحيث إن الإنسان كان يمد يديه إلى فوق رأسه ليقدر على دخوله لضيقه، ولا يقدر مَن يكون فيه [أن] يجلس.

(٤) زاد ابن الأثير في الكامل في الخبر فقال: وكان حبسه لسبع خلون من صفر، وموته لإحدى عشرة بقيت من ربيع الأول.
واختلف في سبب موته فقيل كما ذكرناه.
وقيل: بل ضُرب فمات وهو يُضرب.
وقيل: مات بغير ضرب، وهو أصح.
فلما مات حضره ابناه سليمان، وعبيد الله، وكانا محبوسين، وطُرح على الباب في قميصه الذي حُبس فيه.
فقالا: الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق.
وغسلاه على الباب ودفناه.
فقيل: إن الكلاب نبشته، وأكلت لحمه.
قال: وسمع قبل موته يقول لنفسه: يا محمد لم تقنعك النعمة، والدواب، والدور النظيفة، والكسوة، وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ذُق ما عملت بنفسك، ثم سكت عن ذلك.
وكان لا يزيد على التشهُّد، وذكر الله عزّ وجل.
وكان ابن الزيات صديقاً لإبراهيم الصولي، فلما ولي الوزارة صادره بألف ألف وخمسمائة ألف درهم، فقال الصولي:

وكنتَ أخي بأرخى الزمانِ ... فلما نبا صِرتَ حرباً عَوَانا
وكنتُ أذمُّ إليكَ الزَّمانَ ... فأصبحتُ منكَ أذمُّ الزَّمَانا
وكنت أعُدُّك للنائباتِ ... فها أنا أطلُبُ منك الأمانا

وقال أيضاً: =

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[١]

[١٠٤/ب][٢] ودخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

= أصبحت من رأى أبي جعفر في هيئة تُنذِرُ بالصَّيْلَم
من غير ما ذَنبٍ ولكنّها عَداوة الزنديقِ للمسلم

وفي هذه السنة: حُبس عمر بن الفرج الرخجي [وفي الخبر هنا زيادة عما سبق ذكره].

وكان سبب حبسه: أن المتوكل أتاه لما كان أخوه الواثق ساخطاً عليه، ومعه صَك ليختمه عمر له ليقيض أرزاقه من بيت المال، فلقيه عمر بالخيبة، وأخذ صكه فرمى به إلى صحن المسجد.

وكان حبسه في شهر رمضان، وأخذ ماله وأثاث بيته وأصحابه.

ثم صولح على أحد عشر ألف ألف على أن يرد عليه ما حيز من ضياع الأهواز حَسْب.

فكان قد ألبس في حبسه جبة صوف، وقال علي بن الجهم يهجوه:

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأفعال الصعاليكِ
أردت شكراً بلا بِرٍّ ومَرزَئَةٍ لقد سلكت سبيلاً غير مسلوكِ

وفيها: غضب المتوكل على سليمان بن إبراهيم بن الجنيد النصراني كاتب سمانة وضربه، وأخذ ماله، وغضب أيضاً على أبي الوزير، وأخذ ماله ومال أخيه وكاتبه.

وفيها أيضاً: عزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج وولاه يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزد، وولى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ديوان زمام النفقات.

وفيها: وَلّى المتوكل ابنه المنتصر الحرمين، واليمن، والطائف في رمضان.

وفيها: فلج أحمد بن أبي داود في جمادى الآخرة.

وفيها: وثب ميخائيل بن توفيل بأمه تدورَه، فألزمها الدير، وقتل اللقط (اللغثيط) لأنه كان اتهمها به، فكان ملكها ست سنين.

وحجّ بالناس في هذه السنة: محمد بن داود.

وفيها: عزل محمد بن الأغلب أمير إفريقية عامله على الزاب واسمه سالم بن غلبون فأقبل يريد القيروان، فلما صار بقلعة يَلْبَسِير، أضمر الخلاف.

وسار إلى الأندلس، فمنعه أهلها من الدخول إليها، فسار إلى باجة فدخلها واحتمى بها.

فسَيّر إليه ابن الأغلب جيشاً عليهم خفاجة بن سفيان، فنزل عليه وقاتله، فهرب سالم ليلاً، فاتبعه خفاجة فلحقه وقتله وحمل رأسه إلى ابن الأغلب.

وكان أزهر بن سالم عند ابن الأغلب محبوساً فقتله.

وفيها: توفي يحيى بن معين البغدادي بالمدينة وكان مولده سنة ثمان وخمسين ومائة وهو صاحب الجرح والتعديل.

ومحمد بن سماعة القاضي صاحب محمد بن الحسن، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس.

---

(١) الآية من وضع المحقق سيد كسروي، حيث قام بتحقيق هذا الجزء من الكتاب من أول هذا الموضع إلى آخر سنة (٢٩٤) فاللهم أعنه على إتمام ذلك واغفر له آمين.

(٢) تبدأ هذه السنة بالنسبة للمخطوط الذي اعتمدت عليه وهو مخطوط مكتبة جامعة بغداد من نصف صفحة [١٠٤/ب]، مع ملاحظة أن المخطوط غير مرقم في الأصل وإنما الترقيم من صنعي =

وفيها: هرب محمد بن البعيث بن الجليس[١]

[وكان سبب هربه أنه][٢]

جيء به أسيراً[٣] من أذْرَبِيجَان[٤]، وحبسوه، وكانت له قلعتان تدعى إحديهما: شاها والأخرى: يكدر.

فأما شاها: فهي وسط البحيرة.

وأما يكدر: فهي خارج البحيرة.

وهذه البحيرة قدر عشرين فرسخاً من أحد أرمية إلى بلاد محمد بن الرواد.

وشاها قلعة حصينة تحيط بها البحيرة، ويركب منها الناس من أطراف المراغة إلى أرمية وغيرها.

وكانت مدينة محمد بن البعيث مرند، فهرب إلى مدينة فجمع بها الطعام.

وفيها عيون ماء قوم ماكان، وهي من سورها.

وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرها.

فسار في نحو ألفي رجل، وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر في طلبه.

فولى المتوكل حمدويه بن علي أذربيجان، ووجهه من سُرَّ مَنْ رأى، فلما سار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فزحف إلى ابن

= فربما زاد أو نقص صفحة حسب عدد بعض من اعتد بورقة الغلاف أو تركها، فيلاحظ.

(١) في المخطوط: ابن جلس. والتصويب من الكامل.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل، وذلك أن من عادة المؤلف قبل ذلك ذكر مثل هذه العبارة، فربما سقطت من الناسخ هنا، والله أعلم ـ وأثبتها.

(٣) جاءت العبارة في المخطوط، محرفة على النحو التالي: حزبه أميراً. والتصويب من الكامل.

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان بعد أن تكلم عن الاختلاف في نطقها وسبب تسميتها والذي رجح فيه أنه بمعنى بيت النار أو خازن بيت النار لكثرة بيوت النار في هذا الموضع: حد أذربيجان من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الدَّيلم، والجبل والطرم، وهو إقليم واسع، ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها. وكانت قصبتها قديماً المراغة. ومن مدنها: خُوَيّ، وسَلْمَاس، وأرمية، وأردبيل، ومرند. وغير ذلك. وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال، وفيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة، وفواكه جَمَّة. ما رأيت ناحية أكثر بساتين منها، ولا أغزر مياهاً وعيوناً، لا يحتاج السائر بنواحيها إلى حمل إناء للماء، لأن المياه جارية تحت قدميه أين توجه، وهو ماء بارد عذب صحيح. وأهلها صباح الوجوه حُمْرها، رقاق البشرة ولهم لغة يقال لها الأذرية لا يفهمها غيرهم، وفي أهلها لين وحسن معاملة إلا أن البخل يغلب على طبعهم.

البعيث، فألجأه إلى مدينة مَرَنْد[١]، وهي مدينة استدارتها فرسخان، في داخلها بساتين كثيرة، ومن خارجها كما تدور شجر إلاّ في مواضع أبوابها.

وقد جمع فيها محمد بن البعيث آلات الحصار وفيها عيون ماء.

فلما طالت مدته وجه إليه المتوكل زَيْرَك التركي في مائتي فارس من الأتراك، فلم يصنع شيئاً. فوجه المتوكل عمر بن سليل[٢] في جماعة من الشاكرية، فلم يغن شيئاً. فوجه إليه بغا الشرابي في أربعة آلاف ومائتين تركي، وشاكري، ومغربي. وقد كان الجند زحفوا إلى مدينة مرند[٣] وقطعوا ما حولها من الشجر، فقطعوا نحو من مائة ألف شجر[ة من][٤] الفياض وغيرها، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون فيه.

ونصب عليهم محمد بن البعيث من المجانيق مثل ذلك.

وكان من معه من علوج رساتيقه يرمون بالمقاليع، وكان الرجل لا يقدر على الدنو من السور، فكانوا يغادونه القتال ويراوحونه. وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعيث يتدلون بالحبال معهم الرماح، فيقاتلون، فإذا حمل عليهم أصحاب السلطان لجأوا إلى الحائط بالمقاليع، وكانوا ربما فتحوا باباً يقال له: باب الماء، فيخرج منه عدة يقاتلون، ثم يرجعون.

فلما قرب بغا الشرابي بعث عيسى ابن الشيخ ابن السليل الشيباني، ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث، على أن ينزلوا على المتوكل، وإلاّ قاتلهم فإن ظفر بهم لم يستبق منهم أحداً، ومن نزل فله الأمان.

وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة من قوم عيسى ابن الشيخ، فنزل منهم قوم كثير [١٠٥/أ] بالجبال، ونزل ختن[٥] ابن البعيث.

---

(١) قال الحموي أيضاً في معجمه:
من مشاهير مدن أذربيجان، بينها وبين تبريز يومان، قد تَشَعّشَت الآن وبدأ فيها الخراب منذ نهبها الكرج وأخذوا جميع أهلها.
قال البلاذري: كانت مرتد قرية صغيرة فنزلها جليس أبو البعيث ثم حصنها البعيث، ثم ابنه محمد بن البعيث، وبنى بها محمد قصراً.
وكان قد خالف في خلافة المتوكل فحاربة بُغَا الصغير حتى ظفر به وحمله إلى سُرَّ من رأى وهدم حائط مرن وذلك القصر.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل: عمر بن سيليل.

(٣) تكررت الكلمة في المخطوط فحذفت التكرار.

(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٥) قال ابن منظور في لسان العرب:
خَتَنُ الرجل: المتزوج بابنته أو بأُخته.
قال الأصمعي: قال ابن الأعرابي: الخَتَنُ أبو امرأة الرجل، وأخو امرأته، وكل من كان من قِبل امرأته، والجمع أختان، والأنثى خَتَنَةٌ.

ثم فتحوا باب المدينة، فدخل أصحاب حمدويه، وزيرك، وخرج ابن البعيث من منزله هارباً يريد أن يخرج من وجه آخر فلحقه قوم من الجند فأخذوه أسيراً، وانتهبوا منزله، ومنازل أصحابه، وأخذ له أُختان، وثلاث بنات، وخالته، والبواقي سوارى، ونحو مائتي رجل، وهرب الباقون.

فوافاهم بغا، فمنع من النهب، وكتب بغا بالفتح لنفسه.

ثم قدم بغا بابن البعيث وأصحابه وهم نحو مائتي رجل، فلما قربوا من سُرَّ مَنْ رأى حملوا على الجمال ليستشرفهم[1] الناس.

فأُتي المتوكل بمحمد بن البعيث، فأمر بضرب عنقه.

فطرح على نطع، وجاء السيافون فلوحوا. فقال المتوكل: ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت؟

قال: الشقوة، وأنت الحبل الممدود بين اللّه وخلقه، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك العفو، ثم اندفع بلا فصل:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمام الهدى والعفو في اللّه أجمل[2]

وهل أنا إلا جبلة من خطيئة ... وعفوك من نور النبوة يُجبل[3]

فإنك خير السابقين إلى العلى ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل[4]

فالتفت المتوكل فقال لمن حوله: إن معه لأدباً. فقال بعضهم: وبادر، بل يفعل أمير المؤمنين خيرهما، ويَمُنُّ عليك[5].

فقال المتوكل: ارجع إلى منزلك.

ويقال: إن ابن البعيث، لما تكلم بما تكلم به تشفع المعتز فيه واستوهبه فوهبه له.

وكان محمد بن البعيث أحد شجعان أذربيجان وله شعر كثير جيد بالعربية والفارسية[6].

---

(١) في المخطوط الكلمة في المخطوط على هذا الرسم: ليستثروهم. وهو تحريف.

(٢) في الكامل: والصفح بالمرء أجمل.

(٣) الكلمة في الكامل في التاريخ: مُجْمَل.

(٤) وقد ذكر ابن الأثير قصة أسر ابن البعيث في أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين.

(٥) في الكامل: ويمن عليه.

(٦) وذكر ابن الأثير في أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين أيضاً من شعره حين هرب قوله:

كم قضيت أموراً كان أهملها ... غيري وقد أخذ الإفلاس بالكَظَم

لا تعذليني فمالي ليس ينفعني ... إليك عني جَرَى المقدارُ بالقلم

سأتلِفُ المال في عسر وفي يسر ... إن الجواد الذي يُعطي على العدم

ثم قال: ومات ابن البعيث بعد دخوله سامراء بشهر، قيل: كان قد جعل في عنقه مائة رطل =

وحج في هذه السنة ايتاخ

وكان والي مكة والمدينة والموسم، ودعا له على المنابر.

ذكر السبب في ذلك

كان ايتاخ غلاماً طباخاً حرز لسلام[1] الأبرش، فاشتراه منه المعتصم، وكان لإيتاخ بأس ورحله[2]، فرفعه المعتصم، ومن بعده الواثق، وولي الأعمال الكبار.

وكان من أراد المعتصم والواثق قتله حبس عند ايتاخ.

فلما ولي المتوكل كان إلى ايتاخ الحبس، والمغاربة، والأتراك، والبريد، والحجابة، ودار الخلافة.

فخرج المتوكل بعد الخلافة متنزهاً إلى ناحية قاطول[3] فشرب ليله فعربد على ايتاخ، فهم ايتاخ بقتله.

فلما أصبح المتوكل، قيل له، فاعتذر إلى ايتاخ والتزمه، وقال له: من أنت؟ [أنت] أبي وربيتني.

فلما سار المتوكل إلى سَر من رأى دَسَّ إليه من يشير عليه بالاستئذان للحج. ففعل، وأذن له وصيره أمير كل بلدة يدخلها.

وخلع عليه، وركب القواد معه.

فحين خرج صيرت الحجابة إلى وصيف[4].

= فلم يزل على وجهه حتى مات وجعل بنوه جليس، وصقر، والبعيث في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

(١) في المخطوط: حرز بالسلام، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٢) كذا في المخطوط؛ وفي الكامل: فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة وكان فيه شجاعة فرفعه.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة، وهو نهر كان في موضع سامراء قبل أن تُعمر وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصراً سماه أبا الجندل لكثرة ما كان يسقي من الأرضين وجعله لأرزاق جنده وقيل: بسامرّاء بنى عليه بناء دفعه إلى أشناس التركي مولاه، ثم انتقل إلى سمراء، ونقل إليها الناس كما ذكرنا في سامراء، وفوق هذا القاطول: القاطول الكسروي حفره كسرى أنوشروان العادل يأخذ من جانب دجلة في الجانب الشرقي أيضاً وعليه شاذروان فوقه يسقي رستاقا بين النهرين من طسوج بَزَرْجسابور، وحفر بعده الرشيد هذا القاطول الذي قدمنا ذكره تحته مما يلي بغداد وهو أيضاً يصب في النهروان تحت الشاذروان.

(٤) وقال ابن الأثير بعد ذكر هذا الخبر في أحداث سنة أربع وثلاثين ومائتين:
فلما فارق جعلت الحجابة إلى وصيف في ذي القعدة، وقيل: إن هذه القصة كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

وفيها: كان مقتل ايتاخ.

ذكر سبب مقتله

لما انصرف ايتاخ من مكة راجعاً إلى العراق، وجه المتوكل إلى سعيد بن صالح الحاجب مع كسوة وألطاف، وأمره أن يلقاه بالكوفة(١).

وتقدم المتوكل إلى عامله على الشرطة ببغداد بأمره فيه.

فذكر إبراهيم بن المدبر: أنه خرج مع إسحاق بن إبراهيم في تلقي ايتاخ، وكان أراد أن يأخذ طريق الفراق إلى الأنبار.

ثم خرج إلى سُرَّ مَنْ رأى، فكتب إليه إسحاق: أن أمير المؤمنين أمر أن يدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وأن يقعد لهم في دار خزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز. قال: فخرجنا حتى إذا كُنَّا بالياسرية(٢)، وقد سجن إسحاق بن إبراهيم الحر بالجند والشاكرية، وخرج في خاصته وطرح له بالياسرية صفة فجلس عليها.

وأقبل قوم قد رتبهم في الطريق كلما سار إلى موضع اعلموه حتى قالوا: قد قرب منك. فركب إليه فاستقبله، فلما نظر إليه أهوى إسحاق لينزل(٣)، فحلف عليه ايتاخ أن لا يفعل. وكان ايتاخ في نحو ثلاثمائة من أصحابه وعليه قباء أبيض متقلداً سيفاً بحمائل، فسارا جميعاً حتى إذا صار عند الجسر تقدمه إسحاق عند الجسر وغيره حتى وقف على باب خزيمة بن حازم.

فقال لإيتاخ: يدخل أعز اللّه الأمير.

وكان الموكلون بالجسر كلما مر بهم غلام من غلمانه قدموه حتى بقي في خاصة غلمانه، فدخل بين يديه قوم قد فرشت له دار خزيمة.

فحين دخل أغلق الباب خلفه، فنظر فإذا ليس فيه إلاّ ثلاثة غلمان.

فقال: قد فعلوها ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه(٤). فلو سار إلى سر

---

(١) الخبر في الكامل بنحو مما هنا مع بعض الزيادات الطفيفة.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: اليَاسِرِيَّة: منسوبة إلى ياسر اسم رجل: قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى، بينهما وبين بغداد ميلان، وعليها قنطرة مليحة فيها بساتين، بينها وبين المحوَّل نحو ميل واحد.

(٣) في المخطوط: لميترك. وهو تحريف، والتصويب مما هو بنحوه من الكامل في التاريخ.

(٤) في الكامل بعد هذا: وأخذوا معهم ولديه: منصوراً ومسفراً، وكاتبيه: سليمان بن وهب، وقدامة بن زيد. وحبسوا ببغداد أيضاً.

من رأى فأراد بأصحابه قتل جميع من يخالفه أمكنه ذلك.

ثم ركب إسحاق حراقه وأعد لإيتاخ أخرى ثم أرسل أن يصير إلى الأخرى، وأمر بأخذ سيفه، فحدروه إلى الحرافة وصير قوم معه بالسلاح، وصعد إسحاق إلى منزله.

وأخرج ايتاخ حين بلغ دار إسحاق فأدخل ناحية منها، ثم قيد وثقل بالحديد في عنقه ورجليه[1]، ثم قدم بابنيه: منصور والمظفر، ومكاتبيه: سليمان، وقدامة بن زيد النصراني بغداد.

وكان سليمان على أعمال السلطان، وقدامة على ضياع ايتاخ خاصة فحبسوا ببغداد، وذكر ترك مولى إسحاق قال:

وقفت على باب البيت الذي فيه ايتاخ محبوس فقال: يا ترك.

قلت: ما تريد؟

قال: اقرأ على الأمير السلام، وقل له: قد علمت ما كان يأمرني به المعتصم والواثق في أمرك، فكنت أدفع عنك ما أمكنني فلينفعني [١٠٥/ب] ذلك عندك، أما أنا فقد مر لي شدة ورخاء، فما أبالي ما أكلت وشربت، وأما هذان الغلامان فإنهما عاشا في نعمة ولم يعرفا البؤس، فصير لهما لحماً ومرقة وشيئاً يأكلان منه.

قال ترك: فذهبت إلى مجلس إسحاق فوقفت.

فقال لي: ما تريد فأرى في وجهك كلاماً؟

قلت: نعم قال لي ايتاخ كذا وكذا.

وكانت قطيفة ايتاخ كل يوم رغيفاً وكوزاً من ماء.

ويؤمر لابنه بخوان عليه سبعة أرغفة وخمسة ألوان.

فلم يزل ذلك قائماً حياة إسحاق.

ثم هلك ايتاخ بالعطش فإنه أطعم ومنع الماء حتى مات.

وأحضر إسحاق القضاة والفقهاء وعرضه عليهم لا ضرب به ولا أثر.

وأما ابناه فبقيا في الحبس حياة المتوكل، فلما أفضى الأمر إلى المنتصر أخرجهما[2].

---

(١) في الكامل: ثم قيد ايتاخ وجعل في عنقه ثمانون رطلاً.
فمات في جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين.
وأشهد إسحاق جماعة من الأعيان، أنه لا ضرب به ولا أثر.

(٢) زاد صاحب الكامل:
فأما مظفر: فبقي بعد أن خرج من السجن ثلاثة أشهر ومات.
وأما منصور: فعاش بعده.

وفي هذه السنة: أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة بلبس [الطيالس][١] العسلي، [وشد][١] والزنانير وركوب السروج بركب الخشب، وتصيير كرتين على مؤخر السرج، وبتغيير القلانس لمن لبس قلنسوة، وبتغيير زي النساء في أزرهن العسلية ليعرفن.

وكذلك مماليكهم ومنعهم لبس المناطق، وإن دخلوا الحمّام كان معهم جلاجل ليعرفوا وأمر [بهدم] بيعهم المُحدثة[٢] وبأخذ العشر من منازلهم، فإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً، وإن لم يصلح يكون مسجداً صير فضاءً.

وأمر أن يحصل على أبواب دورهم صور الشياطين من الخشب مسمرة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين.

وأن لا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في أعيادهم صليباً[٣]، وأن يسمعوا[٤] في الطريق [وأمر][٥] بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشتبه قبور المسلمين، وكتب إلى العمال في الآفاق بذلك.

وفي هذه السنة: عقد المتوكل البيعة لبقية الثلاثة لمحمد وسماه: المعتز، ولإبراهيم وسماه: المؤيد لولاية العهد.

وذكر ذلك الشعراء وكتب بينهم كتبه وفرقت في الأمصار[٦].

---

(١) زيادة من الكامل. وهو نوع من الثياب، والزنانير جمع زنّار: وهو ما يشد على وسط المجوسي والنصراني واليهودي، ومن هو من أهل الكتاب أو الذمة في دار الإسلام.
(٢) في المخطوط: وأم بيعهم المُحدثة، وهو تحريف، وسقط والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: صليب. وهو تحريف.
(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: يستعملوا وأشار محققه إلى أنه في الطبري: يشعملوا.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.
(٦) في الكامل الخبر على النحو التالي:
وفي هذه السنة عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد، وهم:
محمد ولقبه: المنتصر بالله، وأبو عبد الله. محمد، وقيل: طلحة، وقيل: الزبير، ولقبه: المعتز بالله.
وإبراهيم ولقبه: المؤيد بالله.
وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل، وأعطى لكل واحد منهم ما نذكر:
فأما المنتصر: فأقطعه أفريقيا والمغرب كله والعواصم، وقنسرين، والثغور جميعها الشامية والجزرية، وديار مضر، وديار ربيعة، والموصل، وهيت وعانة والأنبار والخابور، وكور باجر من وكور دجلة، وطساسيج السواد جميعها، والحرمين واليمن، وحضرموت واليمامة والبحرين، والسند، ومُكرَان، وقندابيل، ومزج بيت الذهب، وكور الأهواز، والمستغلات بسامرا، وماه الكوفة، وماه البصره، وماه سبذان ومهرجا نقذق، وشهرزور، والصامغان، وأصبهان، وقم وقاشان والجبل جميعه، وصدقات العرب بالبصرة.
وأما المعتز: فأقطعه خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري، وأرمينية، وأذربيجان، وكور =

....

= فارس، ثم أضاف إليه في سنة أربعين خزن الأموال في جميع الآفات، ودور الضرب، وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم.
وأما المؤيد: فأقطعه جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين.
ومما ذكره ابن الأثير ولم يرد ذكره في المخطوط ولا أدري ما إذا كان ابن مسكويه ذكره وسقط مع ما أسقط الناسخ سهواً أم لا هو ما قال فيه ابن الأثير ما يلي:
وفي هذه السنة: قدم بغا الشرابي بابن البعيث في شوال وبخليفته أبي الأغر، وبأخويه: صقر وخالد.
وكاتبه العلاء وجماعة من أصحابه، فلما قربوا من سامرا حُملوا على الجمال ليراهم الناس.
فلما أحضر ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه، فجاء السَّيَّاف وسَبَّهُ المتوكل وقال: ما ذاك إلى ما صنعت؟
فقال: الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنين لأسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو، ثم قال بلا فصل:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمام الهُدى والصفح بالمرءِ أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة ... وعفوك من نور النبوة مُجْمَل
فإنك خير السابقين إلى العُلا ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل لبعض أصحابه: إن عنده لأدباً. فقال: بل يتفضل أمير المؤمنين ويمن عليه، فأمر برده فحبس مقيداً.
وقيل: إن المعتز شفع فيه إلى أبيه، فأطلقه، وكان ابن البعيث قد قال حين هرب:

كم قد قضيت أموراً كان أهملها ... غيري وقد أخذ الإفلاسُ بالكَظَم
لا تعذُليني فمالي ليس ينفعني ... إليك عني جرى المِقدار بالقلمَ
سأتلف المال في عُسر وفي يُسرٍ ... أن الجواد الذي يُعطِي على العدَمَ

ومات ابن البعيث بعد دخوله سامرا بشهرٍ، قيل: كان قد جعل في عنقه مائة رطل فلم يزل على وجهه حتى مات وجعل بنوه: جليس، وصقر، والبعيث في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان.
وفيها: ظهر بسامرا رجل يقال له: محمود بن الفرج النيسابوري، فزعم أنه بني وأنه ذو القرنين وتبعه سبعة وعشرون رجلاً، وخرج من أصحابه ببغداد رجلان بباب العامة وآخران بالجانب الغربي، فأتي به وبأصحابه المتوكل فأمر به فضرب ضرباً شديداً، وحمل إلى باب العامة، فأكذب نفسه وأمر أصحابه أن يضربه كل رجل منهم عشر صفعات ففعلوا، وأخذوا له مصحفاً فيه كلام قد جمعه وذكر أنه قرآن، وأن جبريل نزل به.
ثم مات من الضرب في ذي الحجة، وحبس أصحابه، وكان فيهم شيخ يزعم أنه نبي، وأن الوحي يأتيه.
وفي هذه السنة: خرج عباس بن وليد ـ المعروف بالطبلي ـ بنوا حي تدمير لمحاربة جمع اجتمعوا وقدموا على أنفسهم رجلاً اسمه محمد بن عيسى بن سابق فوطئ عباس بلدهم وأوقع بهم وأصلحهم وعاد.
وفيها: ثار أهل تاكِرْنا ومن يليهم من البربر فسار إليهم جيش عبد الرحمن صاحب الأندلس فقاتلهم وأوقع بهم وأعظم النكاية فيهم.
وفيها: سَيّر عبد الرحمن ابنه المنذر في جيش كثيف لغزو الروم فبلغوا إليه.
وفيها: كان سيل عظيم في رجب في بلاد الأندلس فخرب جسر أستجة، وخرب الأرحاء، =

وفيها: توجه الفتح بن خاقان عند المتوكل وفى أعمالاً منها أخبار الخاصة والعامة بسر من رأى وما يليها.

[ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين](١)

وفيها: أمر المتوكل بهدم قبر الحسين عليه السلام وما حوله من المنازل والدور، وأن يُبذر [ويسقى موضع قبره](٢) ويمنع الناس من إتيانه.

[فنادى(٣) بالناس في تلك الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق.

فهرب الناس وتركوا زيارته، وخرب وزرع.

وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليًا وأهله بأخذ المال والدم.

وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة

= وغرق نهر أشبيلية ست عشرة قرية، وخرب نهار باجة ثمان عشرة قرية وصار عرضه ثلاثين ميلاً، وكان هذا حدثاً عظيماً وقع في جميع البلاد في شهر واحد.

وفيها: هلك أبو السول الشاعر سعيد بن يعمر بن علي بسرقُسطة.

وفيها: توفي إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب المصعبي ـ وهو ابن أخي طاهر بن الحسين ـ وكان صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل.

ولما مرض أرسل إليه المتوكل ابنه المعتز مع جماعة من القواد يعودونه، وجزع المتوكل لموته.

وفيها: مات الحسن بن سهل كان شرب دواء فأفرط عليه فحبس الطبع فمات.

وكان موته وموت إسحاق بن إبراهيم في ذي الحجة في يوم واحد.

وقيل: مات الحسن في سنة ست وثلاثين.

وفيها: في ذي الحجة تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ففزع الناس، ثم صار في لون ماء المدود.

وفيها: أُتى المتوكل بيحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان قد جمع جمعاً ببعض النواحي فأخذ وحبس وضرب.

وحج بالناس هذه السنة: محمد بن داود.

وفيها: مات إسحاق بن إبراهيم الموصلي صاحب الألحان والغناء وكان فيه علم وأدب وله شعر جيد، وعبيد اللّه بن عمر بن ميسرة الجشمي القواريري في ذي الحجة، وإسماعيل بن عليه، ومنصور بن أبي مزاحم، وسُرَيْج بن يونس أبو الحارث.

(١) سقط عنوان تلك السنة من المخطوط فجعلته بين معقوفين حيث جاء ذكر خبر أمر المتوكل ضمن أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين وفي الواقع أنه لهذه السنة فأثبت عنوانها قبله، ثم إني استكمل أحداثها بعد قليل من الكامل في التاريخ حيث لم يذكر من أحداثها سوى هذا الجزء وأنا أستكمل من الكامل ثم أعود إلى آخر ما ذكره وهو موت محمد بن يوسف.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) ابتداء من هنا أضفته من الكامل لاتمام أخبار تلك السنة، وقد جاء هذا الخبر في الكامل، تحت عنوان: ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون:

قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين

يحكي بذلك علياً عليه السلام، والمتوكل يشرب ويضحك.

ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدده فسكت خوفاً منه.

فقال المتوكل: ما حالك؟

فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه.

فقال المتوكل للمغنين: غنوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى في حِرِّ أمه

فكان هذا من الأسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل.

وقيل: إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء: المأمون، والمعتصم، والواثق في محبة علي وأهل بيته.

وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب[1] والبغض لعلي منهم: علي بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة بن لؤي، وعمرو بن فرخ الرخجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة، من موالي بني أمية، وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة، وكانوا يخوفونه من العلويين، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطت هذه السيئة جميع حسناته.

وكان من أحسن الناس سيرة، ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن][2].

وفيها: هلك أبو سعيد محمد بن يوسف فجأة.

وكان قد ولي أذربيجان فعسكر بكرخ فيروز، وأراد الركوب، فلبس أحد خُفَّيه، ومد الأخرى ليلبسه فسقط ميتاً.

---

(١) أي من الناصبة المناصبين لعلي بن أبي طالب العداء، وهم طائفة معروفة في التاريخ.

(٢) إلى هنا انتهى النقل عن الكامل، ثم استرسل في ذكر باقي السنة نقلاً عن المخطوط، وهو فيه كما أسلفت مذكور ضمن أحداث سنة (خمس وثلاثين ومائتين) وهو خطأ لسقط عنوان السنة وبعض أحداثها، والذي استكملت بعضها كما سبق من الكامل.

فولى المتوكل ابنه يوسف ما كان يتولاه أبوه من الحرث، وولاه مع ذلك خراج الناحية وضياعها، فشخص إلى الناحية فضبطها(١).

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

وفيها: وثبت أهل أرمينية بيوسف بن محمد بن يوسف [فقتلوه](٢).

ذكر السبب في ذلك

أنه لما [سار](٣) إلى عمله من أرمينية خرج رجل من البطارقة يقال له بُقراط بن

(١) ومما لم يأت ذكره في أحداث تلك السنة في المخطوط سواء بسبب السقط الذي أشرت إليه أو أن المؤلف لم يذكره ما يلي مما ذكره ابن الأثير رحمنا الله وإياهما:
وفي هذه السنة: قُتل محمد بن إبراهيم بن مصعب أخو إسحاق بن إبراهيم، وكان سبب ذلك: أن إسحاق أرسل ولده محمد بن إسحاق بن إبراهيم إلى باب الخليفة ليكون نائباً عنه ببابه.
فلما مات إسحاق عقد المعتز لابنه محمد بن إسحاق على فارس، وعقد له المنتصر على اليمامة، والبحرين بطريق مكة في المحرم من هذه السنة.
وضم إليه المتوكل أعمال أبيه كلها، وحمل إلى المتوكل وأولاده من الجواهر التي كانت لأبيه والأشياء النفيسة كثيراً.
وكان عمه محمد بن إبراهيم على فارس، فلما بلغه ما صنع المتوكل وأولاه بابن أخيه ساءه ذلك، وتنكر للخليفة ولابن أخيه.
فشكى محمد بن إسحاق ذلك إلى المتوكل، فأطلقه إلى عمه ليفعل به ما يشاء، فعزله عن فارس، واستعمل مكانه ابن عمه الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، فأمر بقتل عمه محمد بن إبراهيم.
فلما سار الحسين إلى فارس، أهدى إلى عمه يوم النيروز هدايا، وفيها حلواء، فأكل محمد منها، وأدخله الحسين بيتاً ووكّل عليه، فطلب الماء ليشرب، فمنع منه فمات بعد يومين.
وحج بالناس هذه السنة: المنتظر.
وفيها: خرج حبيبة البربري بالأندلس بجبال الجزيرة، واجتمع إليه جمع كثير، فأغاروا واستطالوا، فسار إليهم جيش من عبد الرحمن فقاتلهم فهزمهم، فتفرقوا.
وفيها: غزا جيش بالأندلس بلاد برشلونة، فقتلوا من أهلها فأكثروا، وأسروا جمعاً غفيراً، وغنموا، وعادوا سالمين.
وفيها: توفي هدبة بن خالد وسنان الأيلي، وإبراهيم بن محمد الشافعي.
وفيها: توفي مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام أبو عبد الله المدني، وكان عمره ثلاثين سنة، وهو عم الزبير بن بكار.
وكان عالماً فقيهاً إلاّ أنه كان منحرفاً عن عليّ رضي الله عنه.
وفيها أيضاً: توفي منصور بن المهدي، ومحمد بن إسحاق بن محمد المخزومي المسُيَّبي البغدادي، وكان ثقة.
وفيها: توفي جعفر بن حرب الهمداني أحد أئمة المعتزلة البغداديين، وعمره تسع وخمسون سنة. وأخذ الكلام عن أبي الهذيل العلاف البصري.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل.

أشوط، وكان يقال له بطريق البطارقة، فطلب الأمان. فأخذه يوسف بن محمد، وقيده، وبعث به إلى السلطان.

فأسلم بُقراط وابنه، فاجتمع على يوسف ابن أخي بُقراط بن أشوط وجماعة من بطارقة أرمينية، فتحالفوا [و][١] هدروا دمه لما حمل بُقراط فوهى أصحاب يوسف عن المقام، وعرفوه اجتماع القوم فلما يقبل، وأقام.

فحاصروه من كل وجه وسقطت الثلوج، فخرج يوسف إلى ظاهر المدينة، وكان أصحابه متفرقون في الأعمال، فقاتلهم، فقتلوه، وقتلوا من معه، فأما من لم يقاتل، فإنهم قالوا: ضع ثيابك وانج عرياناً. فطرحوا ثيابهم، ونجوا عراة حفاة.

فمات أكثرهم من البرد، وسقطت أصابع قوم منهم ونجوا.

فوجه المتوكل بغا الكبير إلى أرمينية طالباً بدم يوسف، فشخص إليها فبدأ بأرْزَن وكان موسى بن زرارة قد واطأ قتلة يوسف فقبض بغا على موسى وإخوته وحمله إلى السلطان.

ثم سار فأناخ على الخويثية، وهم جُمَّة أهل أرمينية، وقتله يوسف بن محمد فحاربهم، وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً وسبى خلقاً فباعهم.

ثم سار إلى بلاد الباق، فأسر أشوط بن حمزة أبا العباس، ثم سار إلى دبيل [ثم] إلى تفليس.

وفيها: غضب المتوكل على أحمد بن أبي داود وأمر المتوكل [بقبض][٢] ضياعه وحبسه وأولاده وإخوته.

فحمل أبو الوليد مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً كثيراً.

وصولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة[٣] لهم.

وكان أحمد بن أبي داود قد فلج أبو العتاهية الشاعر:

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد ... وكان غرمك غرماً فيه توفيق

لكان في الفقه شغل لو قنعت به ... عن أن تقول كتاب اللّه مخلوق

ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ... ما كان في الفرع لولا الجهل والموق[٤]

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٣) في المخطوط: صيغة. وهو تحريف والصواب ما أثبته.

(٤) هذا كل ما ذكر المؤلف في أحداث تلك السنة وقد ذكر فيها ابن الأثير أحداث أخرى منها قوله: وفي هذه السنة: وَلِي عبيد اللّه بن إسحاق بن إبراهيم بغداد، ومعاون السواد.
وفيها: قدم محمد بن عبد اللّه بن طاهر في خراسان في ربيع الأول، فولي الجزية والشرطة، =

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

وفيها: ظفربُغا الكبير بإسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية بتفليس.

فأحرق مدينة أكثر بنائها تفليس، وكان إسحاق بن إسماعيل يكنى أبا العباس قد تحصن بتفليس، وهي مدينة أكثر بنائها خشب الصنوبر.

فلما قصدها بغا أمر النفاطين فضربوها بالنار، وهاجت الريح، وأحاطت النار بقصر إسحاق وجواريه، ثم أتاه الأتراك [١٠٦/أ] والمغاربة فأخذوه أسيراً مع ابنه وأتوا به إلى بُغا، فأمر بضرب عنقه صبراً، وصلبت جثته.

وفي المدينة نحو خمسين ألف إنسان.

ثم نهض بغا إلى عيسى بن يوسف ابن أخت اصطفانوس، فحاربه في كورة البيلقان. ثم شخص في قلعة كبيس بفتحها، وأخذه، وحمله، وحمل ابنه، وسنباط بن أشوط بِطْرِيق أران.

ثم حمل ادربوسي بن إسحاق(١).

= وخلافة المتوكل ببغداد، وأعمال السواد، وأقام بها.

وفيها: عزل أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود عن المظالم، وولاها محمد بن يعقوب المعروف بابن الربيع.

وفيها: أمر المتوكل بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي ودفعه إلى أوليائه فحمل إلى بغداد وضم رأسه إلى بدنه، وغسل وكفن ودفن، واجتمع عليه من العامة ما لا يحصى يتمسحون به.

فكان المتوكل لما وَلِي نهى عن الجدال في القرآن وغيره، وكتب إلى الآفاق بذلك.

غزا الصائفة في هذه السنة: علي بن يحيى الأرمني.

وحج بالناس فيها: علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور، وكان وَالِي مكة.

وفيها: قام رجل بالأندلس بناحية الثغور وادعى النبوة وتأول القرآن على غير تأويله فتبعه قوم من الغوغاء.

فكان من شرائعه: أنه كان ينهى عن قَصّ الشعر، وتقليم الأظفار، فبعث إليه عامل ذلك البلد، فأتى به، وكان أول ما خاطبه به أن دعاه إلى اتباعه.

فأمره العامل بالتوبة، فامتنع، فصلبه.

وفيها: سارت جيوش المسلمين إلى بلاد المشركين، فكانت بينهما وقعة عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين، وهي الوقعة المعروفة بوقعة البيضاء، وهي مشهورة بالأندلس.

وفيها: توفي العباس بن الوليد المديني بالبصرة، وعبد الأعلى بن حماد النرسي، وعبيد الله بن معاذ العنبري.

(١) هذا كل ما ذكر المؤلف في أحداث هذه السنة، وزاد ابن الأثير فيها فقال:

وفي هذه السنة: جاءت ثلاثمائة مركب للروم معها ثلاثة رؤساء، فأناخ أحدهم في مائة مركب في دمياط، وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة، يكون ماؤها إلى صدر الرجال، فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر، فجاز قوم فسلموا، وغرق كثيراً من نساء وصبيان، ومن كان به قوة سار إلى مصر، وكان على معونة مصر عنبسة بن إسحاق الضبي.

فلما حضر العيد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا مصر، فساروا منها فاتفق وصول الروم =

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

ولم يجر فيها ما يكتب(١).

= وهي فارغة من الجند، فنهبوا وأحرقوا وسبوا، وأحرقوا جامعها، وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وقند وغير ذلك، وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك.
وكان عنبسة قد حبس ابن الأكشف بدمياط فكسر قيده وخرج يقاتلهم، واتبعه جماعة، وقتل من الروم جماعة.
وسارت الروم إلى اشتوم تنيس، وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم، فنهبوا ما فيه من سلاح، وأخذوا البابين، ورجعوا، ولم يعرض لهم أحد.
وفيها: توفي عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي صاحب الأندلس، في ربيع الآخر، وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين سنة، وثلاثة أشهر.
وكان أسمر طويلاً، أقنى، أعين، عظيم اللحية، مخضباً بالحناء.
وخلف خمسة وأربعين ولداً ذكوراً، وكان أديباً شاعراً، وهو معدود في جملة من عشق جواريه، وكان يعشق جارية له أسماها طروب، وشُهر بها.
وكان عالماً بعلوم الشريعة، وغيرها من علوم الفلسفة. وكانت أيامه أيام عافية وسكون وكثرت الأموال، وكان بعيد الهمة.
واخترع قصوراً ومنتزهات كثيرة، وبنى الطرق، وزاد في الجامع بقرطبة رواقين، وتوفي قبل أن يستتم زخرفته، وأتمه ابنه، وبنى جوامع كثيرة بالأندلس، ولما مات ملك ابنه محمد فجرى على سيرة والده في العدل، وتمم بناء الجامع بقرطبة. وأمه تسمى: بهتر.
وولد له مائة ولد كلهم ذكور.
وهو أول من أقام أبهة الملك بالأندلس ورتب رسوم المملكة وعلى التبذل للعامة فكان يشبه بالوليد بن عبد الملك في أبهة الملك.
وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها وجعل يفصل للماء مصنعاً كبيراً يرده الناس.
وفي هذه السنة: سار المتوكل نحو المدائن، فدخل بغداد، وسار منها إلى المدائن، وغزا الصائفة علي بن يحيى الأرمني.
وفيها: مات إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهوية، وكان إماماً عالماً وجرى له مع الشافعي مناظرة في بيوت مكة، وكان عمره سبعاً وسبعين سنة.
ومحمد بن بكار المحدث.

(١) هذا ما ذكر فيها مسكويه، أما ابن الأثير فقال فيها في الكامل:
في هذه السنة: أمر المتوكل أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين في الأقبية والدراريع. وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين.
وفيها: نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان.
وفيها: أمر المتوكل بهدم البيع المحدثة في الإسلام.
وفيها: سيّر محمد بن عبد الرحمن جيشاً مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح.
وكان أهل طُليطلة قد خربوا سورها، وقتلوا كثيراً من أهلها، وأصلح الحكم سورها، وأعاد من فارقها من أهلها، وأصلح حالها، وتقدم إلى طُليطلة فأفسد في نواحيها وشعثها.
وسَيّر محمد أيضاً جيشاً آخر إلى طليطلة فلما قاربوها خرجت عليهم الجنود من المكامن، =

ودخلت سنة أربعين ومائتين

ودخلت سبيلها[١].

= فانهزم العسكر، وأصيب أكثر من فيه.
وفيها: مات أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود القاضي ببغداد في ذي الحجة.
وغزا الصائفة علي بن يحيى الأرمني.
وفيها: حج جعفر بن دينار علي الأحداث بطريق مكة، والموسم.
وحج بالناس هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى وكان والي مكة.
وفيها: اتفق الشعانين للنصارى ويوم النيروز، وذلك يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة، فزعمت النصارى أنهما لم يجتمعا في الإسلام قط.
وفيها: توفي محمود بن غيلان المروزي أبو أحمد وهو من مشايخ البخاري، ومسلم، والترمذي.

(١) كذا قال مسكويه أي خلت كما خلت التي قبلها ولم يحدث فيها ما يكتب.
وأما ابن الأثير فقال فيها في الكامل: في هذه السنة: وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي. وكان قتل رجلاً من رؤسائهم، فقتلوا جماعة من أصحابه، وأخرجوه، وأخرجوا عامل الخراج.
فبعث المتوكل إليهم عتاب بن عتاب، ومحمد بن عبدويه الأنباري، وقال لعتاب: قل لهم إن أمير المؤمنين قد بدلكم بعاملكم، فإن أطاعوا فَوَلِّ عليهم محمد بن عبدويه، فإن أبوا فأقم وأعلمني حتى أمدك برجال وفرسان.
فساروا إليهم فوصلوا في ربيع الآخر فرضوا بمحمد بن عبدويه، فعمل فيهم الأعاجيب حتى أحوجهم إلى محاربته على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بالأندلس
وفي هذه السنة في المحرم: كان بين المسلمين والفرنج حرب شديدة بالأندلس.
وسبب ذلك
أن أهل طليطلة كانوا على ما ذكرنا من الخلاف على محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس وعلى أبيه من قبله، فلما كان الآن سار محمد في جيوشه إلى طليطلة.
فلما سمع أهلها بذلك أرسلوا إلى ملك جليقية يستمدونه إلى ملك بشكس، فأمدهم بالعسكر الكثيرة، فلما سمع محمد بذلك وكان قد قارب طليطلة عبر أصحابه وقد كمن لهم الكمناء بناحية وادي سليط وتقدم إليهم وهو في قلة من العسكر، فلما رأى أهل طليطلة ذلك أعلموا الفرنج بقلة عددهم فسارعوا إلى قتالهم وطمعوا فيهم، فلما تراءى الجمعان ونشب القتال خرجت الكمناء من كل جهة على المشركين وأهل طليطلة فقتل منهم ما لا يحصى وجمع من الرؤساء ثمانية آلاف رأس فرقت في البلاد.
فذكر أهل طليطلة أن عدة القتلى من الطائفتين عشرون ألف قتيل، وبقيت جثث القتلى على وادي سليط دهراً طويلاً.
وفي هذه السنة: عزل يحيى بن أكثم عن القضاء، وقبض منه ما مبلغه خمسة وسبعون ألف دينار وأربعة آلاف جريب بالبصرة.
وفيها: ولي جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي قضاء القضاة.
وحج بالناس هذه السنة عبد الله بن محمد بن داود، وكان على أحداث الموسم جعفر بن دينار.
وفيها: توفي القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي داود في المحرم بعد ابنه أبي الوليد بعشرين يوماً، وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة، وأخذ ذلك عن بشر =

ودخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

وفيها: أغارت البجة[١] على حرس من أرض مصر فوجه المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القمي.

ذكر ما آلت إليه أمورهم

كانت البجة لا تغزو المسلمين ولا يغزوهم المسلمون لهدنة بينهم قديمة، وهم جزء من أبناء الحبشة، وفي بلادهم معادن ذهب، فهم يقاسمون من يعمل فيها، ويؤدون إلى عمال مصر في كل سنة شيئاً معلوماً. فلما كان في أيام المتوكل، امتنعت البجة فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب، وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم.

وذكروا أن المعادن لهم في بلادهم، وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها.

وأن ذلك أوحش[٢] المسلمين الذين كانوا يعملون هناك حتى انصرفوا عنه، فانقطع ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس الذي كان يستخرج من المعادن.

فلما بلغ ذلك المتوكل احفظه، وشاور في أمر البجة.

فانتهى إليه أنهم قوم أهل بدو، وأصحاب إبل وماشية، وأن الوصول إلى بلادهم صعب لا يمكن أن تسلك إليهم الجيوش لأنها مفاوز[٣] وصحار، وبين أرض الإسلام. وبينها مسيرة شهر في أرض قفر وجبال وعرة لا ماء فيها ولا زرع، ولا معقل ولا حصن، وأن من يدخلها من أولياء السلطان يحتاج أن يتزود لجميع من معه المدة التي يتوهم أنه يقيمها في بلادهم حتى يخرج إلى أرض الإسلام، فإن تجاوز تلك المدة هلك وجميع من معه وأخذتهم البجة بالأيدي دون المحاربة.

= المريس، وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذ جهم من الجعد بن درهم، وأخذ جعد من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان زنديقاً فأفشى الزندقة.

وفيها توفي قتيبة بن سعيد بن حميد أبو رجاء الثقفي وله تسعون سنة، وهو خراساني من مشايخ البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من الأئمة.

وتوفي أبو ثور إبراهيم بن خالد البغدادي الكلبي الفقيه وهو من أصحاب الشافعي وأبو عثمان محمد بن الشافعي وكان قاضي الجزيرة جميعها، وروى عن أبيه وعن ابن عنبسة، وقيل: مات سنة أربعين، وكان للشافعي ولد آخر اسمه محمد مات بمصر سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

(١) كذا في المخطوط، وفي الكامل في جميع المواضع البجاة.

(٢) أي أحزنهم وأدخل عليه الضيق والهم والكدر وما ينغص عليهم حياتهم، ويضيق عليهم في أرزاقهم.

(٣) في المخطوط: مفاول. وهو تحريف والمفازة هي الصحراء المنبطحة الشاسعة.

وأن أرضهم لا ترد على السلطان شيئاً من خراج أو غيره.

فأمسك المتوكل عن التوجه إليهم، وجعل أمرهم يتزايد، وحربهم يكثر حتى خاف أهل الصعيد من أهل مصر على أنفسهم وذراريهم. فولى المتوكل محمد بن عبد اللّه القمي محاربتهم وولاه معادن تلك الكورة[١]، وتقدم البدء في محاربة البجة.

وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبي العامل على حرب مصر بإمضائه جميع ما اقترحه عليه. وانضم إليه جميع من كان يعمل في المعادن، وقوم كثير من المتطوعة، وكانت عدة من معه نحواً من عشرين ألف إنسان بين [فارس وراجل.

ووجه إلى القلزم[٢] فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالدقيق، والزيت والتمر][٣] والسويق والشعير.

وأمر قوماً من أصحابه أن يلجحوا في البحر حتى يوافوه في سواحل البحر من أرض البجة. ولم يزل محمد بن عبد اللّه القمي يسير في أرض البجة حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها وصار إلى حصونهم وقلاعهم.

وخرج إليه ملكهم واسمه: بابا، وله ابن يسمى: تسعى[٤] في جيش كثير وعدد أضعاف من كان مع القمي.

وكانت البجة على إبلهم ومعهم الحراب، وإبلهم تشبه المهارى[٥] في النجابة. فجعلوا يلتقون أياماً متوالية، فيتناوشون ولا يصححون القتال، وجعل ملك البجة يتطارد القمي ويُطَوِّل الأيام طمعاً في نفاد الأزواد[٦] والعلوفة[٧] التي معهم، فلا يكون لهم قوة فيأخذهم البجة بالأيدي. فلما توهم عظيم البجة أن الأزواد[٦] قد نفدت، أقبلت المراكب السبعة التي حملها القمي إلى ما هناك ومن أصحابه قوماً يحمون المراكب من

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل:
وهي: قفط، والأقصر، واسنا، وأرمنت، وأسوان.

(٢) القلزم هو: البحر الأحمر المعروف حالياً والذي يفصل بين مصر، والحجاز في أكبر جزء منه.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأتممته من الكامل في التاريخ.

(٤) كذا ذكر اسمه في المخطوط وهو بهامشه، وفي الكامل في التاريخ قال:
ابنه فيعس، وذكر محققه أن اسمه في الطبري: لعيسى.

(٥) كذا في المخطوط، والكامل، الصواب:
المهار، وهو جمع مهر، ويجمع أيضاً أمهار، ومهارة.
وهو ولد الفرس، والأنثر منه مُهرة والمراد التشبيه بالنجابة في خفة الحركة والسرعة والنجدة وسرعة العدو، وهو ما يتطلبه ويحتاج إليه القتال بل ويفتقر إليه جداً، وليس المراد صغر الحجم أو صغر السن.

(٦) في المخطوط: الأوزاد. وهو تحريف.

(٧) العلوفة هو ما تأكله الدواب من العلف.

البجة، وفرق ما كان فيها على أصحابه[١]، فاتسعوا في الزاد والعلوفة.

فلما رأى ذلك على بابا رئيس البجة، قصد محاربتهم وجمع لهم.

فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت إبلهم ذعرة[٢] تكثر الفزع من كل شيء، فلما رأى ذلك محمد بن عبد الله القمي جمع أجراس الإبل والخيل التي في معسكره كلها فجعلها في أعناق الخيل، ثم حمل على البجة، فنفرت إبلهم، واشتد رعبها فحملتهم على الجبال والأودية فمزقتهم كل ممزق[٣]، واتبعهم القمي فوجدهم قد جمعوا جمعاً من الرجالة، ثم ساروا إلى موضع أمنوا فيه طلب القمي، فوافاهم القمي في الليل في خيله، فهرب ملكهم، وأخذ تاجه ومتاعه.

ثم طلب الأمان على أن يرد إلى بلادهم، ويؤدي الخراج للسنين التي عليه.

وأعطاه القمي ذلك، وأدى ما عليه، واستخلف على مملكته ابنه: يعمى[٤].

وانصرف بعلي بابا إلى المتوكل، فوصل إليه في آخر سنة إحدى وأربعين.

وكانت غيبته دون سنة.

وكسا القمي على بابا دراعة وديباج وعمامة سوداء، وكسا جَمَلَهُ رحلا[٥] مليحاً[٦]، وجِلال ديباج ليتميز عن أصحابه[٧].

ووقف بباب العامة مع قوم من البجة على الإبل بالحراب، وفي رؤوس حرابهم رؤوس القوم الذين قتلهم القمي.

فأمر المتوكل: أن يقبضوا من القمي.

ثم ولي المتوكل البجة وطريق مصر ما بين مصر ومكة سعداً الخادم الايتاخي.

---

(١) في المخطوط: أصحاب، وهو تحريف.

(٢) أي تصاب بالذعر من أي صوت غريب لم تألفه، فهي لم تألف قعقعة السيوف وأصوات السلاح فكانت تنفر من ذلك حيث لم يعتده ولم تتدرب عليه، فلم تغن نجابتها معها شيئاً.

(٣) في هذه الحكاية درسين هامين لك رجل عسكري **أولهما**: الإعداد الجيد للمعركة من إمداد وتموين. **والثاني**: سرعة البديهة واستغلال المواقف وحسن التصرف في سرعة تذهل العدو وتشل تفكيره عن كيفية المواجهة أو التصدي.

(٤) كذا ذكر اسمه هنا وسبق أن أشرت إلى الخلاف فيه قبل قليل.

(٥) في المخطوط: رجلاً، وهو تحريف.

(٦) في المخطوط: مديحاً. وهو تحريف.

(٧) كذا هي أخلاق القائد المسلم عند نصره على عدوه فإنه لا تنسيه سكرة النصر نعمة الشكر وإنزال الناس منازلهم على الرغم من كفرهم وذلك أدعى لإسلامهم وتعريفهم حقيقة الإسلام وأنه ليس يقاتل للقتال ولا لكسب الأرض أو المال أو لدافع الانتقام ولكن إذا وفي الغرض الذي من أجله قاتل كفّ عنه وأعطى كل ذي حق حقه.

فوَلّى سعد محمد بن عبد اللّه القمي فخرج القمي بعلي بابا وهو مقيم دينه[(١)].

ودخلت سنة اثنين [١٠٦/ب] وأربعين ومائتين وثلاث

ولم يجر فيهما ما يكتب[(٢)].

---

(١) جاء بعد هذا في الكامل:
وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له.
وفيها: مطر الناس بسامراء مطراً شديداً في آب.
وقيل فيها: إنه أُنهي إلى المتوكل أن عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب خان عاصم ببغداد يشتم أبا بكر وعمر، وعائشة وحفصة.
فكتب إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر أن يضربه بالسياط، فإذا مات رمى به في دجلة، ففعل ذلك، وألقى في دجلة.
وفيها: وقع بها الصدام فنفقت الدواب والبقر.
وفيها: أغارت الروم على عين زربة، فأخذت من كان بها أسيراً من الزّط مع نسائهم وذراريهم ودوابهم.
وفيها: أكثر محمد صاحب الأندلس من الرجال بقلعة رباح وتلك النواحي ليقفوا على أهل طليطلة، وسيّر الجيوش إلى غزو الفرنج مع موسى، فدخلوا بلادهم ووصلوا إلى ألية والقلاع، وافتتحوا بعض حصونها وعادوا.
ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة صاحب بريد مصر والغرب.
وحج بالناس عبد اللّه بن محمد بن داود وحج جعفر بن دينار وهو والي الطريق وأحداث الموسم.
وفيها كثر انقضاض النجوم فكانت كثيرة لا تحصى فبقيت ليلة من العشاء الآخرة إلى الصبح.
وفيها: كانت بالري زلزلة شديدة هدمتا المساكن ومات تحتها خلق كثير لا يحصون، وبقيت تتردد فيها أربعين يوماً.
وفيها: خرجت ريح من بلاد الترك فقتلت خلقاً كثيراً، وكان يصيبهم بردها فيزكمون فبلغت سرخس، ونيسابور، وهمذان، والري فانتهت إلى حلوان.
وفيها: توفي الإمام أحمد بن حنبل الشيباني الفقيه المحدث في شهر ربيع الأول.

(٢) كذا قال مسكويه عن هذين السنتين.
أما ابن الأثير فقال في الكامل في سنة اثنتين وأربعين ومائتين:
في هذه السنة: كانت زلازل هائلة بقومس ورساتيقها في شعبان، فتهدمت الدور وهلك تحت الهدم بشر كثير، قيل: كانت عدتهم خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً، وكان أكثر ذلك بالدامغان.
وكان بالشام وفارس وخراسان في هذه السنة زلازل وأصوات منكرة، وكان باليمن مثل ذلك مع خسف.
وفيها خرجت الروم من ناحية سميساط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة حتى قاربوا آمد، وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحواً من عشر آلاف وكان دخولهم من ناحية أرين ـ قرية قريباس ـ ثم رجعوا فخرج قريباس، وعمر بن عبد اللّه الأقطع، وقوم من المتطوعة في آثارهم، فلم يلحقوهم.
فكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يسير إلى بلادهم شاتياً.
وفيها قَتَلَ المتوكل رجلاً عطاراً، وكان نصرانياً، فأسلم فمكث مسلماً سنين كثيرة، ثم ارتد، =

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

وفيها: دخل المتوكل دمشق، وكان عزم على المقام بها، ووصف له من فضائلها وطيبها ما شوقه إليها.

فأجرى البناء، ونقل دواوين الملك إليها، ثم استوبأ البلد.

وذلك بأن هواءها بارد ندي، والماء ثقيل، والريح تهب مع العصر فلا يزال يشتد حتى يمضي عامة الليل، وهي كثيرة البراغيث. وغلت [فيها][1] الأسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة.

= واستتب فأبى الرجوع إلى الإسلام، فقتل وأحرق.
وفيها: سيّر محمد بن عبد الرحمن بالأندلس جيشاً إلى بلاد المشركين، فدخلوا إلى برشلونة وحارب قلاعها، وجازها إلى ما وراء أعمالها، فغنموا كثيراً، وافتتحوا حصناً من أعمال برشلونة يسمى طراجة، وهو من آخر حصون برشلونة.
وفيها مات أبو العباس محمد بن الأغلب أمير إفريقية عاشر المحرم وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وولي بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وقد ذكرنا ذلك سنة ست وعشرين ومائتين.
وفيها: مات أبو حسان الزيادي قاضي الشرقية.
ومات الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور. وحج بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام وهو على مكة.
وحج جعفر بن دينار على الطريق وأحداث الموسم.
وتوفي القاضي يحيى بن أكثم التميمي بالربذة عائداً من الحج.
ومحمد بن مقاتل الرازي، وأبو حصين يحيى بن سليم الرازي المحدث.
وقال في سنة ثلاث وأربعين ومائتين:
في هذه السنة سار المتوكل إلى دمشق في ذي القعدة على طريق الموصل فضحى ببلد فقال يزيد بن محمد المهلبي:

أظنُ الشام تشمتُ بالعراقِ ... إذا عزم الإمام على انطلاقِ
فإن يدع العراق وساكنيهِ ... فقد تبلى المليحة بالطلاقِ

وفيها: مات إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي وكان أديباً شاعراً، فولي ديوان الضياع الحسن بن مخلد بن الجراح خليفة إبراهيم ومات عاصم بن منجور.
وحج بالناس عبد الصمد بن موسى، وحج جعفر بن دينار وهو والي الطريق وأحداث الموسم.
وفيها خرج أهل طليطلة بجمعهم إلى طُلبيرة وعليها مسعود بن عبد الله العريف، فخرج إليهم فيمن معه من الجنود فلقيهم فقاتلهم، فانهزم أهل طليطلة وقتل أكثرهم، وحمل إلى قرطبة سبعمائة رأس.
وفيها توفي شهيد بن عيسى بن شهيد الأندلسي وكان من العلماء.
وفيها: توفي يعقوب بن إسحاق بن يوسف المعروف بابن السكيت النحوي اللغوي، وقيل: سنة أربع، وقيل: خمس، وقيل: ست وأربعين، والحارث بن أسد المحاسبي، وأبو عبد الله الزاهد وكان قد هجره الإمام أحمد بن حنبل لأجل الكلام فاختفى لتعصب العامة لأحمد فلم يُصَلِّ عليه إلاّ أربعة نفر.

(١) ما بين المعقوفين من الكامل.

وتحركت الأتراك بطلب أرزاقهم، وأرزاق عيالاتهم.

ورجع المتوكل إلى سر من رأى، وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً[١].

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

وفيها: أمر المتوكل ببناء الجعفري واقطع قواد وأصحابه فيها وجدّ في بنائها، وانفق عليها ألف دينار، وكان يسميها هو وأصحابه: المتوكلية[٢].

وفيها: كان هلاك نجاح بن سلمة الكاتب.

ذكر سبب هلاكه

كان نجاح إليه ديوان التوقيع والتتبع على العمال يتقونه [ويقضون][٣] حوائجه،

(١) بعد ذلك يكمل ابن الأثير الأحداث في الكامل في التاريخ فيقول:
فرجع إلى سامرا وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً.
فلما كان بها وجه بغا الكبير لغزو الروم، فغزا الصائفة، فافتتح صملة.
وفيها: عقد المتوكل لأبي الساج على طريق مكة مكان جعفر بن دينار.
وقيل: عقد له سنة اثنتين وأربعين وهو الصواب.
وفيها: أتي المتوكل بحربه كانت للنبي ﷺ تسمى العنزة، فكانت للنجاشي، فأهداها للزبير بن العوام، وأهداها الزبير للنبي ﷺ - وهي التي كانت تركز بين يدي النبي ﷺ في العيدين - فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة.
وفيها: غضب المتوكل على بختيشوع الطبيب وقبض ماله، ونفاه إلى البحرين.
وفيها اتفق عيد الأضحى والشعانين للنصارى وعيد الفطر لليهود في يوم واحد.
وحج بالناس فيها عبد الصمد بن موسى.
وفيها: توفي إسحاق بن موسى بن عبد اللّه بن موسى الأنصاري، وعلى بن حجر السعدي المروزي، وهما إمامان في الحديث، ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ومحمد بن عبد اللّه بن أبي عثمان بن عبد اللّه بن خالد بن أَسِيد بن أبي العيص بن أمية القاضي في جمادى الأولى.

(٢) وأضاف ابن الأثير في الكامل بعد هذا: وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم يُرَ مثله في علوه، وحفر لها نهراً يسقي ما حولها، فقتل المتوكل فبطل حفر النهر، وأخربت الجعفرية.
وفيها: زلزلت بلاد المغرب فخربت الحصون والمنازل والقناطر، ففرق المتوكل ثلاثة آلاف ألف فيمن أصيب منزله. وزلزل عسكر المهدي، والمدائن، وزلزلت أنطاكية فقتل بها خلق كثير فسقط منها ألف وخمسمائة دار وسقط من سورها نيف وتسعون برجاً وسمعوا أصواتاً هائلة لا يحسنون وصفها، وتقطع جبلها الأقرع وسقط في البحر، وهاج البحر ذلك اليوم، وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن، وغار منها نهر على فرسخ لا يدري أين ذهب، وسمع أهل سيس فيما قيل صيحة دائمة هائلة فمات منها خلق كثير، فتزلزلت ديار الجزيرة، والثغور، وطرسوس، وأذنة، وزلزلت الشام فلم يسلم من أهل اللاذقية إلا اليسير وهلك أهل جَبلة.
وفيها: غارت مسناة عين مكة، فبلغ ثمن القربة ثمانين درهماً، فبعث المتوكل مالاً وأنفق عليها.
وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل، وهلال الرازي.
وفيها: هلك نجاح بن سلمة.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، وأتممته من الكامل في التاريخ.

ولا يمنعونه من شيء يريده.

وكان المتوكل ربما نادمه، وكان عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل، والأمور مفوضة إليه.

وكان الحسن بن مخلد، وموسى بن عبد منقطعين إلى الوزير.

وكان الحسن بن خالد على ديوان الخراج. وكتب نجاح بن سلمة رقعة [إلى][1] المتوكل يذكر له أنه يعرف وجه أربعين ألف ألف درهم يستخرجها من وجوهها من جبايات قوم فيتسع بها أمير المؤمنين في نفقة البناء.

فأدناه المتوكل وشاربه تلك العشية، وقال: يصح هذين أربعون ألف ألف درهم، ثم سَمَّى قوماً آخرين من الكتاب، وضمن مالاً عظيماً يصح بذلك، منهم.

فوقع ذلك من المتوكل موقعاً عظيماً، وقال له: اغد عليّ.

فلما أصبح لم يشك في أمره، وناظر المتوكل عبيد اللّه بن يحيى وزيره في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أعيان المملكة وكتابك وعمالك، فإن أوقعت بهم فمن يقوم بأعمالك وأنا أدبر لك.

فلما غدا نجاح إلى المتوكل، وقد رتب أصحابه وقال: يا فلان، خذ أنت الحسن وأصحابه ويا فلان خذ أنت موسى وأصحابه حجبة عبيد اللّه، وتقدم في ذلك.

فلقي نجاح عبيد اللّه فقال له: انصرف يا أبا الفضل حتى تنظر وأنا أشير عليك بأمر لك فيه صلاح.

قال له: ما هو؟

قال: أصلح بينك وبينهما، وتكتب إلى أمير المؤمنين رقعة تذكر فيها أنك كنت شارباً وأنك تكلمت بما يحتاج إلى معاودة النظر فيه وأنا أصلح أمرك عند المتوكل.

فلم يزل يخدعه حتى كتب ما قال.

ثم دعا عبيد اللّه الحسن بن مخلد وموسى بن عبد الملك[2]، وقال لهما: أبدلا خطأً[3] في نجاح وأصحابه بألفي ألف دينار وإلاّ أنه سيسلمكما ويهلككما.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط تكرار، وخلط حيث جاء على النحو التالي: ثم دعا عبيد اللّه بن الحسن بن مخلد، وموسى بن عبيد اللّه الحسن بن مخلد، وموسى بن عبد الملك. فحذفت التكرار، وأصلحت العبارة.

(٣) في المخطوط: اندلا خطا. ورسمت ما هو أقرب إلى الصواب وتتكرر الكلمة الأولى بعد قليل بنفس الرسم، واللّه أعلم بالصواب.

فكتبا له ذلك.

ودخل عبيد اللّه على المتوكل وقال: يا أمير المؤمنين، قد رجع نجاح عما قاله البارحة وهذا خطه، وهذه رقعة موسى والحسن يتقبلان به بما بدلا به خطوطهما، فيأخذ ما ضمناه عنه ثم تعطف عليهما فتأخذ قريباً مما ضمن لك عنها. فسُرَّ المتوكل وطمع فيهما.

قال عبيد اللّه: وقال: ادفعه إليهما، فانصرفا به. فأمر بأن يؤخذ قلنسوته، وقبض على كتابه فاستخرجا من يومهما ذلك مائة وأربعون ألف ديناراً اعترف بها ابنه، وذلك سوى قيمة ضياعه وقصوره وفُرشه ومشتغلاته وآلاته.

فقبض جميع ذلك وضرب مراراً بالمقارع، وعذب حتى خنق وعصرت خصاه، فأصبح ميتاً.

وطولب أولاده ووكلاءه وأخذ بسببه قوم ببغداد، وبسر من رأى، وبمكة، وبناحية السواد، فحبسوا[١] وصودروا[٢].

---

(١) في المخطوط: فجلسوا، وهو تحريف.

(٢) والقصة في الكامل بنحو هذا، ثم أضاف بعدها من أحداث تلك السنة ما يلي:
وفيها: أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً.
وغزا علي بن يحيى الأرمني الصائفة، ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً.
فبعث إليهم ملك الروم بِطْريقاً يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه لؤلؤة.
فأصعدوا البِطريق إليهم، ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا.
فسلموا لؤلؤة والبطريق إلى بلكاجور فَسَيّره إلى المتوكل.
فبذل ملك الروم في فدائه ألف مسلم.
وحج بالناس محمد بن سليمان بن عبد اللّه بن إبراهيم الإمام يعرف بالزينبي، وهو والي مكة، وكان نيروز المتوكل الذي أرفق أهل الخراج بتأخيره إياه عنهم لإحدى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ولسبع عشرة ليلة خلت من خزيران، ولثمان وعشرين من أردبيهشت فقال البحتري:
إن يـوم الـنـيـروز عـاد إلـى الـعـهــ ـدِ الـذي كـان سَـنّــه أردشـيـر
في هذه السنة خرج المجوس من بلاد الأندلس في مراكب إلى بلاد الإسلام فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب بلاد الإسلام بإخراج العساكر إلى قتالهم، فوصلت مراكب المجوسي إلى إشبيلية، فحلت بالجزيرة، ودخلت الحاضر إلى قتالهم، وأحرقت المسجد الجامع، ثم جازت إلى الغدوة، فحلت بناكور، ثم عادت إلى الأندلس، فانهزم أهل تدمير، ودخلوا حصن أريوالة، ثم تقدموا إلى حائط إفرنجة، وأغاروا وأصابوا من النهب والسبي كثيراً، ثم انصرفوا.
فلقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم، وأحرقوا مركبين من مراكب الكفار، وأخذوا مركبين آخرين، فغنموا ما فيهما، فحمي الكفرة عند ذلك، وجَدّوا في القتال، فاستشهد جماعة من المسلمين.
ومضت مراكب المجوس حتى وصلت إلى مدينة بنبلونة، فأصابوا صاحبها غرسة الفرنجي، فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار.
وفيها: غزا عامل طرسوسة إلى بنبلونة ففتح حصن بيلسان وسبى أهله، ثم كانت على المسلمين في اليوم الثاني وقعة استشهد فيها جماعة.
وفي هذه السنة: كان بين البربر وعسكر أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب وقعة عظيمة =

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

ولم يجر فيها شيء يكتب(١)

= في جمادى الآخرة وسببها: أن البربر لهان امتنعوا عن عامل طرابلس من آداء عشورهم وصدقاتهم، وحاربوه فهزموه، فقصد لبلدة فحصنها، وسار إلى طرابلس.
فسَيّر إليه أحمد بن محمد الأمير جيشاً مع أخيه زيادة الله، فانهزم البربر، وقتل منهم خلق كثير، وسَيّر زيادة الله الخيل في آثارهم، فقتل من أدرك منهم وأسر جماعة فضربت أعناقهم وأحرق ما كان في عسكرهم، فأذعن البربر بعدها وأعطوا الرهن وأدوا طاعتهم.
وفي هذه السنة: توفي يعقوب بن إسحاق النحوي المعروف بابن السّكيت، وكان سبب موته:
أنه اتصل بالمتوكل، فقال له: أيهما أحب إليك؟ المعتز والمؤيد، أو الحسن والحسين؟
فتنقّص ابنيه، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما أهلاً له.
فأمر الأتراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره فمات.
وفيها: توفي ذو النون المصري في ذي القعدة، وأبو تراب النخشبي الصوفي نهشته السباع فمات بالبادية.
وأبو علي حسين بن علي المعروف بالكرابيسي صاحب الشافعي.
وقيل: مات سنة ثمان وأربعين.
وسوار بن عبد الله القاضي العنبري، وكان قد عَمِيَ.

(١) كذا قال مسكويه عن هذه السنة، أما ابن الأثير فقال في الكامل في أحداث تلك السنة:
وفيها: غزا عمرو بن عبد الله الأقطع الصائفة فأخرج سبعة عشر ألف رأس.
وغزا قريباس، وأخرج خمسة آلاف رأس.
وغزا الفضل بن قارن نحواً من عشرين مركباً فافتتح حصن أنطاكية.
وغزا بلكاجور فغنم وسبى.
وغزا علي بن يحيى الأرمني فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدواب، والرمك، والحمير نحواً من عشرة آلاف رأس.
وفيها: تحول المتوكل إلى الجعفرية.
وفيها: كان الفداء في صفر على يد علي بن يحيى الأرمني، فنودي بألفين وثلاثمائة وسبع وستين نفساً.
وفيها: مُطر أهل بغداد نيفاً وعشرين يوماً في شعبان ورمضان حتى ينبت العشب فوق الأجاجير، وصلى المتوكل صلاة الفطر بالجعفرية وورد الخبر: أن سكة بناحية بلخ تعرف بسكة: الدهاقين مطرت دماً عبيطاً.
وحج بالناس هذه السنة: محمد بن سليمان الزينبي، وضحى أهل سامرا يوم الاثنين على الرؤية، وأهل مكة يوم الثلاثاء.
وفيها: سار محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس في جيوش عظيمة وأهبة كثيرة إلى بلد بنبلونة، فوطئ بلادها ودوّخها وخَرّبها ونهبها، وقتل فيها فأكثر، وفتح حصن فيروز، وحصن فالحسن، وحصن القشتل، وأصاب فيه: فرتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة، ثم أطلقه إلى بلده، وكان عمره لما مات ستاً وتسعين سنة.
وكان مقام محمد بأرض بنبلونة واثنين وثلاثين يوماً.
وفيها: توفي دِعبل بن علي الخزاعي الشاعر، وكان مولده سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان يتشيع.
وفيها: توفي السري بن معاذ الشيباني بالري، وكان أميراً عليها حسن السيرة من أهل الفضل.
وتوفي أحمد بن إبراهيم الدورقي ببغداد، ومحمد بن سليمان الأسدي الملقب بكُوَيْن.

ودخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

وفيها كان مقتل المتوكل على اللّه.

ذكر السبب في مقتله

أن المتوكل أمر بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل وأقطعها الفتح بن خاقان، فكتب الكتب بذلك وبلغ ذلك وصيفاً.

وكان المتوكل واقف الفتح بن خاقان، على أن يفتك بابنه المنتصر لأشياء كانت تبلغه عنه ويفتك أيضاً بوصيف، وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ممن كان يتهم فكثر عبث المتوكل قبل الموعد على ابنه المنتصر وكان يقول له: سميتك المنتصر[١]، فسَمَّاك الناس بخفتك المستعجل.

فمرة كان يشتمه، ومرةٍ يسقيه فوق طاقته ومرةٍ يأمر بصفعه.

فتحدث بعض من كان في ستارة المتوكل قال: التفت المتوكل إلى الفتح وهو ثمل فقال: برئت من اللّه ومن قرابتي من رسول اللّه ـ ﷺ ـ إن لم تلطمه.

فقام الفتح فلطمه، ثم قال: اصفعه.

فأمر يده على قفاه، ثم قال: المتوكل لندمائه اشهدوا جميعاً أني قد خلعت المستعجل ـ يعني المنتصر.

فقال المنتصر: لو أمرت يا أمير المؤمنين بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي.

فقال: اسقوه، وأمر بالعشاء، فأحضروا ذلك في جوف الليل، فجعل يأكل هو والفتح وهو سكران يلقم ويسقي المنتصر وهو يشتمه. ثم خرج المنتصر[٢]، وأخذ بيده زراقة[٣] الحاجب وقال: امض معي.

قال: يا سيدي، إن أمير المؤمنين [١٠٧/أ] لم يقم بعد.

فقال: إن أمير المؤمنين قد أخذ منه الشراب والساعة يخرج بغا والندماء، وقد أحببت أن يجعل أمر ولدك إليّ فإن أوتامش[٤] سألني أن أزوج ابنه من ابنتك وابنك من ابنته.

فقال له زراقة: نحن عبيدك يا سيدي فمر بأمرك.

---

(١) تكرر في المخطوط قوله: وكان يقول له: سميك المنتصر.
فحذفت التكرار.

(٢) في المخطوط: المنتصر بالصاد بدل الظاء المعجمة وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: رواقة. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: أتامس. بالسين المهملة، والتصويب من الكامل.

وأخذ المنتصر بيده وانصرف به معه.

فقال بنات المغني: فما بَعُد المنتصر حتى سمعنا الصيحة والصراخ، وكنت مع المنتصر قد قمت لأشهد الأملاك والنشار، فلما سمع المنتصر الصراخ خرج فاستقبله بغا فقال له: ما هذه الصيحة؟

قال: خيراً يا أمير المؤمنين.

قال: ما تقول؟ ويلك!!

قال: عظم اللّه أجرك في سيدنا أمير المؤمنين، كان عبداً للّه دعاه فأجابه.

فجلس المنتصر، وأمر بباب البيت الذي قتل فيه عبد اللّه، فأغلق، وغُلِّقَت الأبواب كلها.

وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتز، والمؤيد عن رسالة المتوكل(١).

---

(١) يقول ابن الأثير في الكامل بعد هذا ذاكراً كيفية قتل المتوكل:
وأما كيفية قتل المتوكل: فإنه لما خرج المنتصر دعا المتوكل بالمائدة، وكان بغا الصغير - المعروف بالشرابي - قائماً عند الستر وذلك اليوم كان نوبة بُغا الكبير، وكان خليفته في الدار ابنه موسى - وموسى هذا هو ابن خالة المتوكل - وكان أبوه يومئذٍ بسُميساط، فدخل بُغا الصغير إلى المجلس، فأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم.
فقال له الفتح: ليس هذا وقت انصرافهم وأمير المؤمنين لم يرتفع.
فقال بُغا: إن أمير المؤمنين أمرني أنه إذا جاوز السبعة أن لا أترك أحداً وقد شرب أربعة عشر رطلاً.
وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة، فأخرجهم، ولم يبق إلاّ الفتح وعثعث، وأربعة من خدمه الخاصة، وأبو أحمد بن المتوكل - وهو أخو المؤيد لأمه -.
وكان بُغا الشرابي أغلق الأبواب كلها إلاّ باب الشط، ومنه دخل القوم الذين قتلوه.
فبصر بهم أبو أحمد، فقال: ما هذا يا سُفَّل؟
فإذا سيوف مسللة.
فلما سمع المتوكل صوت أبي أحمد رفع رأسه فرآهم، فقال: ما هذا يا بُغا؟
فقال: هؤلاء رجال النوبة، فرجعوا إلى ورائهم عند كلامه.
ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم.
فقال لهم بُغا: يا سُفَّل أنتم مقتولون لا محالة، فموتوا كراماً، فرجعوا.
فابتدره بَغْلون فضربه على كتفه وأذنه فقده.
فقال: مهلاً قطع اللّه يدك، وأراد الوثوب به، واستقبله بيده.
فضربها فأبانها وشاركه باغر.
فقال الفتح: ويلكم أمير المؤمنين، ورمى بنفسه على المتوكل.
فبعجوه بسيوفهم، فصاح: الموت، وتنحى فقتلوه.
وكانوا قالوا لوصيف ليحضر معهم، وقالوا: إنّا نخاف.
فقال: لا بأس عليكم.
فقالوا له: أرسل معنا بعض ولدك، فأرسل معهم خمسة من ولده: صالحاً وأحمد، وعبد اللّه، ونصراً، وعبيد اللّه. =

فذكر عثعث: أن المتوكل بعد قيام المنتصر دعا رجلاً، وكان بغا الصغير ـ المعروف بالشرابي ـ قائماً عند الستر، وبغا الكبير يومئذٍ بسميساط وخليفته موسى ابنه. فدخل بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم.

فقال له الفتح ليس وقت انصرافهم.

فقال بُغا الصغير: إن أمير المؤمنين إذا جاوز الست أرطال أن لا أترك أحداً في المجلس وقد جاوز العشرة.

فكره الفتح قيامهم.

فقال له بغا: إن حرم أمير المؤمنين خلف الستارة، وقد سكر فقوموا فاخرجوا. فقاموا ولم يبق إلاّ عثعث والفتح وأربعة من الخدم الخاصة.

وغلق بغا الصغير الأبواب كلها إلا باب الشط ومنه دخل الذين وقفوا على قتله. فلما دخل القوم وسلّوا سيوفهم نظر إليهم عثعث، فقال للمتوكل:

قد فرغنا من الحيات والعقارب والأسد، وصرنا إلى السيوف.

وذلك أن المتوكل ربما كان أرسل هذه الأشياء على ندمائه ليفزعهم ويضحك هو. فلما ذكر عثعث السيوف، قال: ويلك ما تقول؟ أي سيوف؟

فما استتم كلامه حتى دخلوا عليه فابتدروه قعلون[1] فضربه ضربة على كتفه وأذنه فقده، فقام الفتح في وجهه ووجوه القوم، قال وراءكم يا كلاب.

فقال له بُغا: لا تسكت يا حلقي.

فرمى الفتح بنفسه على المتوكل، فاعتوره القوم بسيوفهم فقتلوهما جميعاً حتى اختلطت لحومهما.

وهرب عثعث بعدما أصابته ضربة، ونجا الخدم وراء الستارة، وتطايروا.

وكان عبيد الله في حجرته لا يعلم شيء من أمر القوم، وهو ينفذ الأمور بالشموع.

وذكر أن بعض نساء الأتراك ألقت رقعة بما عزم عليه القوم فوصلت إلى عبيد الله بن يحيى وشاور الفتح فيها، واتفق رأيهم على كتمان المتوكل يومهم ذلك من سرور، فكرهوا أن ينقصوا يومه، وهان عليهم أمر القوم، وكانوا وثقوا بأن ذلك لا يجسر عليه ولا يتم فبينا عبيد الله ينفذ الأمور إذ طلع عليه بعض الخدم فقال:

= وقيل: إن القوم لما دخلوا نظر إليهم عثعث فقال للمتوكل: قد فرغنا من الأسد، والحيات والعقارب، وصرنا إلى السيوف، وذلك أنه ربما أسلى الحية والعقرب والأسد، فلما ذكر عثعث السيوف قال: ويلك أي سيوف؟

(١) كذا هنا، وسبق بالهامش السابق أن اسمه في الكامل: بَغْلون.

يا سيدي ما جلوسك؟

قال: المتوكل.

قال: قد خلا سيف واحد، فأمر ببعض خدمه بالخروج فخرج ونظر، ثم عاد فأخبره أن المتوكل والفتح قد قتلا.

فخرج فيمن معه من خدمه وخاصته، فأخبره أن الأبواب مغلقة، فأخذ نحو الشط، ووجد زورقاً، فقعد فيه معه جعفر بن حامد، وغلام له.

فساروا إلى منزل المعتز، فسأل عنه، فلم يصادفه.

فقال: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، قتلني وقتل نفسه وتعطف عليه.

واجتمع إلى عبيد اللّه أصحابه غداة غد[1] من الأبناء والعجم، والأرمن، والزواقيل، من الأعراب وغيرهم.

وقد اختلف في عدتهم:

فقال بعضهم: كانوا عشرة آلاف[2].

وزاد بعضهم ونقص بعض فقالوا: إنما كنت تصطنعنا لهذا اليوم، فأمر بأمرك، وأذن لنا نميل على القوم ميلة فنقتل المنتصر ومن معه من الأتراك وغيرهم.

فأبى وقال: ليس في هذا حيلة والرجل في أيديهم ـ يعني المعتز ـ[3].

وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر، وكان أسمر نحيفاً حسن العينين خفيف العارضين.

---

(١) في الكامل: غداة يوم الأربعاء.

(٢) في الكامل ذكر خلافهم فقال:
كانوا زهاء عشرة آلاف، وقيل كانوا ثلاثة عشر ألفاً، وقيل: ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف.

(٣) قال ابن الأثير بعد ذلك في الكامل:
وذكر عن علي بن يحيى المنجم أنه قال:
كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتاباً من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه: أن الخليفة العاشر يقتل في مجلسه، فتوقفت عن قراءته.
فقال: ما لك؟.
قال: فقلت: خير لا بدّ من أن تقرأه، فقرأته وحدْتُ عن ذكر الخلفاء.
فقال: ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟
فقال أبو الوارث قاضي نصيبين: رأيت في النوم آتياً أتاني وهو يقول:

يا نائم العين في جُثمان يقظان ... ما بال عينك لا تبكي بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت ... بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما، وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال وقيل: ليلة الخميس.
وكانت خلافته أربع عشر سنة، وعشرة أشهر، وثلاثة أيام. =

....

= وكان مولده بفم الصلح في شوال سنة ست ومائتين، وكان عمره نحو أربعين سنة.
وكان أسمر حسن العينين نحيفاً خفيف العارضين.
ورثاه الشعراء فأكثروا، ومما قيل فيه قول علي بن الجهم:

عبيدُ أمير المؤمنين قتلته ... وأعظم آفات الملوك عبيدُها

بني هاشم صبراً فكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

ذكر أن أبا الشمط مروان بن أبي الجنوب قال: أنشدت المتوكل شعراً ذكرت فيه الرافضة، فعقد لي على البحرين واليمامة، وخلع عليّ أربع خلع، وخلع على المنتصر، وأمر لي المتوكل بثلاثة آلاف دينار فنثرت عليّ، وأمر ابنه المنتصر، وسعد الإيتاخي أن يلقطاها لي ففعلا والشعر الذي قتله:

مُلك الخليفة جعفرٍ ... للدين والدنيا سلامهْ

لكمُ تراث محمدٍ ... وبعدلكم تُنفى الظلامهْ

يرجو التراث بنو البنا ... ت وما لهم فيها قُلامهْ

والصهر ليس بوارثٍ ... والبنت لا ترث الإمامهْ

ما للذين تنحَّلوا ... ميراثكم إلاّ الندامهْ

أخذ الوراثة أهلها ... فعلام لومُكُم علامهْ

لو كان حقُّكُم لما ... قامت على الناس القيامهْ

ليس التراث لغيركم ... لا والإله ولا كرامهْ

أصبحت بين محبِّكُمْ ... والمبغضين لكم علامهْ

ثم نثر عليّ بعد ذلك لشعر قلته، في هذا المعنى عشرة آلاف درهم.
وقدم في هذه السنة: محمد بن عبد الله بن طاهر من مكة في صفر، فشكا ما ناله من الغم بما وقع من الخلاف في يوم النحر، فأمر المتوكل بإنفاذ خريطة من باب أهل الموسم برؤية هلال ذي الحجة وأمر أن يقاد على المشعر الحرام، وسائر المشاعر الشمع مكان الزيت والنفط.
وفيها: ماتت أم المتوكل في شهر ربيع الآخر، وصلى عليها المنتصر، ودفنت عند المسجد الجامع، وكان موتها قبل المتوكل بستة أشهر.

خلافة المنتصر

وبويع المنتصر يوم الأربعاء [لأربع][١] من شوال، وهو ابن خمس وعشرين سنة. واستوزر أحمد بن الخصيب، وهو الذي قرأ على الناس كتاباً فخبر عن أمير المؤمنين المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل أبا جعفر المتوكل فقتله به.

وحضر عبيد اللّٰه بن يحيى بن خاقان فبايع وانصرف[٢].

---

(١) زيادة من الكامل، وسقطت من المخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل بعد هذا: قيل: وذكر عن أبي عثمان سعيد الصغير أنه قال: لما كانت الليلة التي قتل فيها المتوكل كنا في الدار مع المنتصر، فكان كلما خرج الفتح خرج معه، وإذا رَجع قام لقيامه، وإذا ركب أخذ بركابه، وسوى عليه ثيابه في سرجه.
وكان اتصل بنا الخبر: أن عبيد اللّٰه بن يحيى قد أعد قوماً في طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه، وكان المتوكل قد أسمعه وأحفظه، ووثب عليه، فانصرف غضبان، وانصرفنا معه إلى داره، وكان وَاعَدَ الأتراك على قتل المتوكل إذا ثمل من النبيذ.
قال: فلم ألبث أن جاءني رسوله: أن أحضر فقد جاءت رُسل أمير المؤمنين إلى الأمير ليركب.
قال: فوقع في نفسي ما كُنا سمعنا من اغتيال المنتصر، فركبت في سلاح وعدّة وجئت باب المنتصر، فإذا هم يموجون، وإذا واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل.
فركب فلحقته في بعض الطريق، وأنا مرعوب فرأى ما بي، فقال: ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فمات رحمه اللّٰه تعالى.
فشق عليّ، ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القواد حتى دخلنا القصر، ووكل بالأبواب.
فقلت له: يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن تفارقك مواليك في هذا الوقت.
قال: أجل، وكن أنت خلف ظهري.
فأحطنا به، وبايعه من حضر، وكل من جاء يوقف، حتى جاء سعيد الكبير، فأرسله خلف المؤيد، فقال: امض أنت إلى المعتز حتى يحضر.
فأرسلني، فمضيت وأنا آيس من نفسي ومعي غلامان لي، فلما سرت إلى باب المعتز لم أجد به أحداً من الحرس والبوابين، فسرت إلى الباب الكبير، فدققته دقاً عنيفاً، فأجبت بعد مدة: من أنت؟
فقلت: رسول أمير المؤمنين المنتصر.
فمضى الرسول وأبطأ وخفت وضاقت عليّ الأرض، ثم فُتح الباب وخرج بدون الخادم وأغلق الباب، ثم سألني عن الخبر، فأخبرته أن المتوكل شرق بكأس شربه، فمات من ساعته، وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر، وقد أرسلني لأحضر الأمير المعتز ليبايع.
فدخل ثم خرج، فأدخلني على المعتز، فقال لي: ويلك، ما الخبر؟
فأخبرته وعزيته وقلت: تحضر وتكون في أول من يبايع، وتأخذ بقلب أخيك.
فقال: حتى نصبح. =

ودخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

وفيها: أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة [من][1] أرض الروم.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أنه كان بين أحمد بن الخصيب وبين وصيف شحناء وتباغض، فأشار على المنتصر بإخراجه غازياً. فقال المنتصر لبعض حجابه: ائذن لم حضر الدار.

فأذن لهم وفيهم وصيف، فأقبل عليه وقال: يا وصيف، أتانا طاغية الروم، إنه أقبل يريد الثغور، وهذا الأمر لا يمكن أن يمسك عنه، فإما شخصت [أنت] وإما شخصت [أنا][2].

فقال: بل أشخص يا أمير المؤمنين.

فقال لأحمد بن الخصيب: انظر ما يحتاج إليه على أبلغ ما يكون فأتمه له.

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

= فما زلت به أنا وبيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه، فسألني عن عبيد الله بن يحيى.

فقلت: هو يأخذ البيعة على الناس، والفتح قد بايع، فأيس.

وأتينا باب الخير، ففتح لنا وسرنا إلى المنتصر، فلما رآه قربه وعانقه وعزاه، وأخذ البيعة عليه.

ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك، فأصبح الناس، وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح.

ولما أصبح الناس شاع الخبر في الماخورة وهي المدينة التي كان بناها المتوكل، وفي أهل سامرا، بقتل المتوكل، فتوافى الجند والشاكرية بباب العامة، وبالجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة، وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضاً، وتكلموا في أمر البيعة.

فخرج إليهم عتاب بن عتاب، وقيل: زرافة، فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر، فأسمعوه، فدخل عليه فأعلمه فخرج المنتصر، وبين يديه جماعة من المغاربة، فصاح بهم، وقال: خذوهم فادفعوهم إلى الأبواب فازدحم الناس وركب بعضهم بعضاً فتفرقوا وقد مات منهم ستة أنفس.

وفيها: ولي المنتصر أبا عمرة أحمد بن سعيد مولى بني هاشم بعد البيعة له بيوم المظالم فقال الشاعر:

يا ضيعة الإسلام لما وَلِيَ ... مظالم الناس أبو عمرة

صُيِّر مأموناً على أمةٍ ... وليس مأموناً على بعرة

وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبي واستعمل على دمشق عيسى بن محمد النوشري.

وفيها: سار جيش المسلمين بالأندلس إلى مدينة برشلونة، وهي للفرنج، فأوقعوا بأهلها.

فراسل صاحبها ملك الفرنج يستمده، فأرسل إليه جيشاً كثيفاً.

وأرسل المسلمون يستمدون، فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً شديداً وملكوا أرباضها، وبرجين من أبراج المدينة، وقتل من المشركين بها خلق كثير، وسلم المسلمون، وعادوا، وقد غنموا.

وفيها: توفي أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي الإمام في العربية.

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٢) زيادة يتطلبها السياق وهي من الكامل في التاريخ.

قال: ما معنى نعم، قم الساعة يا وصيف، ومُرْ كُتابك أن توافقه على جميع ما يحتاج إليه حتى تريح علته.

فقام أحمد ووصيف حتى خرج.

فلما أفلح وكتب المنتصر كتاباً إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر وكان ببغداد منصرفاً من الحج يعرفه فيه غزاة وصيفاً ويعلمه أنه خارج إلى ثغر ملطية للنصف من حزيران ويأمره أن يكاتب عماله في نواحي عمله لتقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلهم ويحثهم على الجهاد [١٠٧/ب] ويستنفرهم ويلحقهم به في الوقت المحدود.

ثم كتب عن[١] المنتصر كتاب إلى وصيف يأمره بالقيام بهذا الثغر أربع سنين يغزو في أوقات الغزو إلى أن يأتيه رأي أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة: خَلَعَ المعتز والمؤيد أنفسهما. . . .[٢] ذلك.

ذكر سبب خلعهما.

لما استقامت الأمور للمنتصر باللّه قال أحمد بن الخصيب لبُغا: إنَّا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين فيلي الأمر المعتز، فلا يبقى منا باقية، والرأي أن نعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفر بنا. فجَدّ الأتراك في ذلك، وألحوا على المنتصر باللّه، وقالوا: نخلع هذين، ونبايع لابنك عبد الوهاب.

وكان مكرماً للمؤيد والمعتز، فلم يزالوا به حتى أحضرهما الدار، وذلك بعد أربعين يوماً من ولايته.

فلما حصلا في دار واحدة من الدار قال المعتز للمؤيد: يا أخي احضرنا المنتصر[٣] للخلع.

قال: لا أظنه يفعل بنا ذلك.

فبينا هم في ذلك إذ جاءتهم الرسل بالخلع.

فقال المؤيد: السمع والطاعة.

---

(١) كذا في المخطوط، وهو يُشعر بأن الكتاب كتب عن غير علم أمير المؤمنين، وأما في الكامل فقال: ولما سار وصيف كتب إليه المنتصر. وهذا يفيد أن الكتاب كان بأمر أمير المؤمنين وعن رأيه صدر.
وعلى كُلٍ فإن في القصة ما لا يوجب التصديق على هذا السياق حيث لم تكن الأمور إلى هذا الحد منَ التسيب والانحلال حيث توجه الجيوش من أرض إلى أرض من أجل إرضاء بعض الحاشية أو خلاصاً من بعضها، فاللّه أعلم بحقيقة الأمر.

(٢) موضع النقط كلمة متراكبة الحروف لم أتبين قراءتها وهذا رسمها: (وانلهرا).

(٣) في المخطوط: لشقى. وهو تحريف.

وقال المعتز: ما كنت لأفعل، فإن أردتم قتلي فشأنكم.

فرجعوا إليه فأخبروه، ثم عادوا بغلظة شديدة، وأخذوا المعتز بعنف، وأدخلوه إلى بيت، فأغلقوا عليه.

فقال لهم المؤيد بجراءة واستطالة: ما هذا يا كلاب؟ قد ضربتم على دمائنا تثبون على مولاكم هذا الوثوب؟! دعوني [وإياه](١) حتى أكلمه.

فسكتوا(٢) عن جوابه وقالوا: القه إن أحببت.

فيظن أنهم استأمروا(٣)، لأنهم أقاموا ساعة ثم أذنوا له.

فقام إليه المؤيد؛ فوجده يبكي فقال(٤): يا جاهل، تراهم قد نالوا من أبيك ما نالوا ثم تمتنع، ويلك.

فقال: سبحان اللّه، أمر قد طار في الآفاق ووثق منه أخلعه؟!

قال: هذا قد قتل أباك ويستقتلك، فاخلعه وعش، فواللّه لئن كان في سابق علم اللّه أن تلي لتلين.

قال: أفعل.

قال: فخرجت وقلت: قد أجاب.

فمضوا وعادوا فخبروني خيراً، ودخل معهم كاتب ومعه دواة وقرطاس، فجلس، ثم أقبل على أبي عبد اللّه المعتز، فقال: اكتب بخطك قِبلك

فقال المؤيد للكاتب: هات قرطاسك وأمل(٥) ما شئت.

فأملى عليه كتاب المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر، وأنه قد علم أنه لا يحل له تقلده، ويكره أن يأثم المتوكل بسببه إذ لم يكن موضعاً له، ويقول: إني قد خلعت بنفسي، وأحلل الناس من بيعتي. ثم قال المؤيد: اكتب يا أبا عبد اللّه، فكتب، وخرج الكاتب.

قال المؤيد: ثم دعا بنا فدخلنا عليه وهو في مجلسه، والناس على مراتبهم، فسلمنا فرد علينا، وأمرنا بالجلوس.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: وكانوا، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) كذا هنا على الشك، وفي الكامل في التاريخ: فسكتوا عنه، وأذنوا له في الاجتماع به بعد إذن من المنتصر بذلك. وهذا السياق على اليقين.

(٤) العبارة في المخطوط على هذا النحو: فقال إليه فقال المؤيد فوجده يبكي فقلت. وقد أصابها اضطراب وتحريف، فحذفت الزائد وغيرت ما يلزم.

(٥) في المخطوط: واملل. وهو تحريف.

ثم قال: هذا كتابكما؟

فبدرت وقلت: نعم يا أمير المؤمنين هذا كتابي بمسألتي وفوق.

قال: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش ويكبر ولدي وأُسير الخلافة إليه؟ واللّه ما طمعت في ذلك قط، وإذ لم يكن لي في ذلك طمع، فواللّه لأن يلي بنو أبي أحب إليّ من أن يليها بنو عمي، ولكن هؤلاء - وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد - ألحوا عليّ في خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فما ترياني صانعاً؟!

أأقتله؟ فواللّه ما يفيء دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فإن أجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليّ.

فقبلا يده وضمهما إليه، ثم انصرفا.

وكتبت نسخة خلعهما وبما أنشئ عن المنتصر باللّه في ذلك كتب إلى العمال في الآفاق.

وفي هذه السنة: توفي المنتصر باللّه.

وفاة المنتصر

ما صرعه إلاّ داء الثعنة.

قد اختلف الناس في وفاته:

فقال قوم: قد أصابته الذبحة.

وقال آخرون: أصابه ورم في معدته.

وقال الآخرون: فصد بمبضع مسموم، وأن طبيبه لما فصده دهش فلم يميز مبضعه المسموم.

ثم اعتل هو، ففصده تلميذه فمات.

وقيل: بل وجد علته في رأسه، فقطر ابن طيفور[1] في أذنه دهناً، فورم رأسه فعولج فمات.

ولم يزل الناس منذ ولي الخلافة وإلى أن مات يقولون: مدة حياته ستة أشهر[2]

---

(١) من مشاهير الأطباء في صدر الإسلام.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل في قول آخر: وكان عمره خمساً وعشرين سنة وستة أشهر، وقيل أربعاً وعشرين سنة، وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وقيل: كانت ستة أشهر سواء، وكانت وفاته بسمراء.

مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه مستفيضاً ذلك على ألسن العامة والخاصة.

وكان المنتصر استفتى في قتل أبيه الفقهاء من غير أن يسميه، وحكى أموراً قبيحة لا تكتب في كتاب، فأفتوا بقتله.

فلما قتله رآه في النوم كأنه يقول: ويلك يا محمد، قتلتني وظلمتني، واللّه لا متعت بالخلافة إلاّ أياماً ثم مصيرك إلى النار. فانتبه وهو لا يملك عينيه ولا جزعه، وكان يتسلى.

ويقال له: هذا استشعار، وهو حديث النفس فلا يسلو، وما زال منكسراً إلى أن توفي. ولما اشتدت علته خرجت إليه أمه فسألت عن حاله.

فقال: ذهبت واللّه عني الدنيا والآخرة، وتوفي وهو ابن خمس وعشرين سنة، وستة أشهر.

فكانت خلافته ستة أشهر، وكان أعين قصيراً جيد النصعة، وكان مهيباً. وطلبت أمه أن يظهر قبره، فهو أول خليفة من بني العباس عرف قبره[١].

وكنيته أبا جعفر، ومن طريف ما اتفق عليه: أن محمد بن هارون كاتب محمد بن علي برد الحار وخليفته على أن يرد إلى أرو خليفته على ديوان ضياع (. . .)[٢] إبراهيم المؤيد أصيب مقتولاً على فراشه وبه عدة ضربات بالسيف.

وأحضر ولده خادماً أسود كان له وصيفاً فأقر الوصيف على الأسود.

فأدخل إلى المنتصر، وأحضر قاضي القضاة، وهو يومئذٍ جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، فسأل الأسود عن قتله فأقر ووصف [١٠٨/أ] فعله به وسبب قتله إياه.

فقال له المنتصر: ويلك لِمَ تقتله؟

فقال الأسود: كما قتلت أنت أباك المتوكل.

فتقدم بضرب عنقه عند حبسة بابك.

وفي هذه السنة: تحرك يعقوب الصفار من سجستان فسار إلى هراة.

وفيها: بويع أحمد بن المعتصم.

ذكر السبب في ذلك بيعة المستعين والعدول عن ولد المتوكل

لما توفي المنتصر اجتمع الموالي وفيهم: بغا الكبير، وبغا الصغير، وأوتامش،

---

(١) في الكامل: فلما حضرته الوفاة أنشد:

وما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ... ولكن إلى الرب الكريم أصير

وكانت أمه أم ولد رومية.

(٢) موضع النقط انقطاع في السياق.

ومن معهم، فاستحلفوا جميع القواد على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير، وذلك بتدبير أحمد بن الخصيب، فحلفوا كلهم.

فتشاوروا بينهم وكرهوا أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لقتلهم المتوكل، وخوفهم أن يغتالهم من يتولى الخلافة منهم.

فأجمع أحمد بن الخصيب ومن حضر من الموالي على محمد بن المعتصم، وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم.

فبايعوه[١] وله ثماني عشرة سنة، ويكنى أبا العباس، ولقب المستعين بالله.

فاستكتب أحمد بن الخصيب، واستوزر أوتامش.

فلما ساروا إلى دار العامة في زي الخلافة، وقد صُف أصحابه، وقام فيهم مع وجوه أصحابه وحضر الدار ولد المتوكل، والعباسيون، والطالبيون، وأصحاب المراتب، إذا صيحة من ناحية الشارع، وجماعة من الفرسان ذكر أنهم من أصحاب أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر، وفيهم من فرسان الطبرية، وأخلاط الناس، والغوغاء، والسوقة، وقد شهروا السلاح وصاحوا معتز[٢] يا منصور، وشدوا وتضعضعوا[٣]، وانضم بعضهم إلى بعض، ثم حملوا عليهم. ونشبت الحرب بينهم، وأقبل المغاربة[٤] والغوغاء يكرون.

فوقع بينهم قتل، ثم تحاجزوا وخرج المستعين وقد بايعه من حضر من أصحاب المراتب إلى الهاروني[٥].

ودخل الغوغاء، وانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح والدروع والسيوف المعزية والتراس الخيزران.

ثم جاءهم جماعة من الأتراك فيهم بغاء الصغير، فأجلوهم من الخزانة، وقتلوا جماعة منهم.

وكان عامة من انتهب أصحاب المناطق، والفقاع، وأصحاب الحمامات، وغوغاء الأسواق.

ثم [وضع][٦] العطاء في ذلك اليوم الذي بويع فيهم.

---

(١) في الكامل: ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر.
(٢) في الكامل: نفير.
(٣) في المخطوط: وعطعطوا. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: المغرنة. والتصويب من الكامل.
(٥) كذا في المخطوط، وفي الكامل: الهاشمية.
(٦) زيادة من الكامل.

وبعث البعث إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر، فبعث إلى الهاشميين، والقواد والجند، ووضع الأرزاق.

وورد في هذه السنة نعي طاهر بن عبد اللّه بخراسان في رجب.

وعقد[١] المستعين لابنه أبي عبد اللّه محمد بن طاهر بن عبد اللّه بن طاهر على خراسان.

وعقد لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر عمه على العراق، وجعل إليه الحرس والشرطة ومعاون السواد برأسه وأفرده به[٢].

وفيها: مات بغا الكبير، فعقد المستعين لابنه على أعمال أبيه كلها، واسمه موسى.

وفيها: ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد جميع مالهما[٣] من الدور، والمنازل، والقصور، والفُرش والآلات، وغير ذلك من الضياع والعقار، وأشهد عليهما القضاة والعدول، ووجوه الهاشميين.

وترك لأبي عبد اللّه المعتز قيمة عشرين ألف ألف دينار.

ولإبراهيم المؤيد قيمة خمسة آلاف دينار، وذلك في السنة الواحدة.

وكان ما ابتيع من أبي عبد اللّه بعشرة آلاف ألف دينار: عشر حبات لؤلؤ

ومن إبراهيم بثلاثة آلاف دينار ثلاث حبات لؤلؤ.

وكان الشراء باسم الحسن بن مخلد المستعين ووكل بهما، وجعل أمرهما إلى بغا الصغير. وكان الأتراك قد أرادوا حين شغب الشاكرية والغوغاء قبلهما، فمنعهم أحمد بن الخصيب، قال: ليس لهما ذنب. [ولكن احبسوهما، فحبسوهما][٤].

وفيها: غضب المولى على داره وكراعه، وحرامه، وخزائنه، وخاص أموره، وقدمه[٥] أوتامش على جميع الناس[٦].

---

(١) في المخطوط: قعد. وهو تحريف.

(٢) قال ابن الأثير بعد ذكره لعقد محمد بن عبد اللّه بن طاهر في الكامل:
ذكر ابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم: أن المستعين أخو المتوكل لأبيه، وليس هو كذلك، إنما هو ولد أخيه محمد بن المعتصم، واللّه أعلم.

(٣) في المخطوط: مالها. والتصويب من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط: وقدمه. والتصويب من الكامل.

(٦) ومما زاد ابن الأثير على ذلك من أحداث هذه السنة وبعض تفصيلاتها:
وفيها: غضب الموالي على أحمد بن الخصيب في جمادى الآخرة، واستصفى ماله ومال ولده، ونقل إلى أقريطش.
=

ودخلت سنة تسع وأربعين ومائتين

وفيها: أشغب الجند والشاكرية

ذكر السبب في شغبهم

كان السبب في ذلك [أن][1] ابن جعفر بن دينار كان غزا الصائفة، فاستأذنه عمر بن عبيد اللَّه[2] الأقطع في الميسر إلى ناحية من الروم [فأذن له فسار في][3] نحو مائة ألف.

فقتل عمر ومن معه[من][4] المسلمين من أهل ميافارقين[5]، وقتل أيضاً [علي بن يحيى][4] في جماعة من المسلمين.

= وفيها: صرف علي بن يحيى الأرمني عن الثغور الشامية، وعقد له على أرمينية، وأذربيجان في شهر رمضان.

وفيها شغب أهل حمص على كيدر عاملهم فأخرجوه، فوجه إليهم المستعين الفضل بن قارن، فأخذهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل منهم مائة من أعيانهم إلى سامرا.

وفيها غزا الصائفة وصيف، وكان مقيماً بالثغر الشامي، فدخل بلاد الروم فافتتح حصن فروريه.

وفيها: عقد المستعين لأتامش على مصر والمغرب، واتخذه وزيراً.

وفيها: عقد لبغا الشرابي على حلوان، وماسبذان ، ومهرجان قذق.

وجعل المستعين شاهك الخادم على داره وكراعه، وحرمه، وحراسه، وخاصة أموره، وقدمه أوتامش على جميع الناس. وحج بالناس هذه السنة محمد بن سليمان الزينبي.

وفيها: حكم محمد بن عمرو أيام المنتصر وخرج بناحية الموصل خارجي، فوجه إليه المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره مع عدة من أصحابه، فقتلوا وصلبوا.

وفيها: تحرك يعقوب بن الليث الصفّار من سجستان نحو هراة.

وفيها: توفي عبد الرحمن بن عدويه أبو محمد الرافعي الزاهد، وكان مستجاب الدعوة، وهو من أهل أفريقية.

وفيها سارت سرية في الأندلس إلى ذي تروجة، وكان المشركين قد تطاولوا إلى ذلك الجانب، فلقيتهم السرية، فأصابوا من المشركين وقتلوا كثيراً منهم.

وفيها: كان بصقلية سرايا للمسلمين فغنمت وعادت ولم يكن حرب بينهم تذكر.

وفيها توفي أبو كريب محمد بن العلاء الكوفي في جمادى الآخرة، وكان من مشايخ البخاري ومسلم. ومحمد بن حميد الرازي المحدث.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: ابن عبد اللَّه والتصويب من الكامل.

(٣) الزيادة من الكامل، وهو سقط من المخطوط.

(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق ومن الكامل في التاريخ.

(٥) وميافارقين قال فيها ياقوت:

أشهر مدينة بديار بكر، قالوا: سميت بميا بنت لأنها أول من بناها، وفارقين هو بالفارسية يقال له: بارجين لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك وقيل: وما بُني منها بالحجارة فهو بناء أنو شروان بن قباذ، وما بُني بالأجر، فهو بناء أبرويز.

قال بطليموس: مدينة ميافارقين: طولها أربع وسبعون درجة، وعرضها: سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة.

فلما اتصل خبرهما بأهل مدينة السلام[١] وسر من رأى، وسائر مدن الإسلام عظم عليه مقتل هذين، وهما نابان من أنياب المسلمين شديد بأسهما عظيم نكايتهما وغيارهما في الثغور.

فشق على الناس ذلك وعظم في الصدور، وانضاف إلى ذلك ما لحقهم من الأتراك في قتلهم المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء، واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين.

فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ، والنداء بالنفير، وانضمت إليها الأبناء والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق، ففتحوا السجون وأخرجوا [من فيها][٢].

[واقبلت العامة من نواحي][١] خراسان والصغائر من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم وقطعوا أحد الجسرين، وخربوا[٣] الآخر بالنار.

وانتهبت الدواوين، وقطعت الدفاتر، والقيت في الماء.

وانتهبت عدة دور. ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد، وسر من رأى أموالاً كثيرة من أموالهم ففرقوا[٤] من [١٠٨/ب] خف للنهوض إلى الثغور لحرب[٥] الروم.

وأقبل الناس من كل ناحية من نواحي الجبل والأهواز وغيرهما.

ولم يكن من السلطان فيه معونة ولا نكير على الروم.

ووثبت العامة كسر من رأى على أصحاب السجون فأخرجوا من فيها.

فأركب زراقة ووصيف وأوتامش، فوثبت العامة بهم فهزمتهم وألقى [على][٦] وصيف قدر مطبوخة، فأمر وصيف النفاطين فرموا قرب من ذلك الموضع من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار، فأحرق ذلك كله، وقتل من العامة خلق، وانتهبت دور جماعة منهم.

وفي هذه السنة: قتل أوتامش وكاتبه شجاع

ذكر السبب في قتلهما

لما أفضت الخلافة إلى المستعين أطلق يد أوتامش، وشاهك الخادم في بيوت

---

(١) مدينة السلام هي بغداد.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق وهي من الكامل.

(٣) في المخطوط: ضربوا. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: ففروا. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٥) في المخطوط: بحرب. وهو تحريف.

(٦) زيادة يتطلبها السياق.

الأموال، وأباحهما إياهما، وفعل ذلك لهم بنفسه.

وكانت الأموال مكتسحة، وكان المستعين جعل ابنه العباس في حجر أوتامش.

وكان وصيف وبغا من ذلك بمعزل، فاغربا الموالي به، ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الأتراك والفراغنة على أوتامش وخرج إليه أهل الدور، والكرخ إلى المعسكر، ثم زحفوا إليه وهو في الجوسق مع المستعين، فأراد الهرب، فلم يمكنه، واستجار بالمستعين فلم يجره.

فأقاموا على ذلك يومي الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبت دخلوا الجوسق، فاستخرجوا أوتامش من الموضع الذي توارى فيه، فقتل وقتل كاتبه شجاع بن القاسم، وانتهبت دورهم، وأخذ منها أموالاً جليلة، ومتاع وفرش، وآنية.

فلما قتل أوتامش، استوزر المستعين أبا صالح عبد اللَّه بن محمد بن داود. وعزل الفضل بن يزداد عن ديوان الخراج، وولاه عيسى بن فرخانشاه. ثم غضب بغا الكبير على أبي صالح بن يزداد، فهرب أبو صالح إلى بغداد، وصير المستعين مكانه محمد بن الفضل الجرجاني[1].

---

(١) كذا في المخطوط، وفي الكامل: الجرجرائي وقال بعد هذا:
فجعل على ديوان الرسائل سعيد بن حميد فقال الحمدوني:

لبس السيف سعيد بعد ما ... كان ذا طمرين لا يؤبه له
إن للَّه لآيات وذا ... آية للَّه فينا مُنَزَّلَهْ

وفيها: قتل علي بن الجهم بن بدر الشاعر بقرب حلب كان توجه إلى الثغر فلقيه خيل لكلب، فقتلوه، وأخذوا ما معه، فقال وهو في السياق:

أزيد في الليل ليل ... أم سال في الصبح سيل
ذكرت أهل دُجَيل ... وأين متى دُجَيْل

وكان منزله بشارع دجيل.
وفيها: عزل جعفر بن عبد الواحد عن القضاء ووليه حعفر بن محمد بن عثمان البرجمي الكوفي.
وقيل: كان ذلك سنة خمسين ومائتين.
وفيها: أصاب أهل الري زلزلة شديدة ورجفة هدمت الدور، ومات خلق من أهلها وهرب الباقون فنزلوا ظاهر المدينة. وحج بالناس هذه السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام وهو والي مكة.
وفيها: سَيَّر محمد صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه إلى مدينة ألية والقلاع من بلد الأفرنج. فجالت الخيل في ذلك الثغر وغنمت، وافتتحت بها حصوناً منيعة.
وفيها: توفي أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب صاحب أفريقية ثالث عشر ذي القعدة، فلما مات ولي أخوه زيادة اللَّه بن محمد بن الأغلب، فلما ولي زيادة اللَّه أرسل إلى خفاجة بن سفيان أمير صقلية يعرفه موت أخيه وأمره أن يقيم على ولايته.

ودخلت سنة خمسين ومائتين

وفيها: ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، المكنى بأبي الحسين وقتل فيها.

ذكر السبب في خروجه

كان السبب في ذلك أن أبا الحسين يحيى بن عمر نالته ضيقة شديدة ولزمه دين ضاق به ذرعاً [فلقي][١] عمر بن نوح[٢] وهو يتولى أمر الطالبيين عند[٣] مقدمه من خراسان، وكلمه في صلة، فأغلظ له عمر في القول.

فقذفه يحيى في مجلسه، فجلس، فلم يزل محبوساً إلى أن كفل به أهله، فانطلق. ثم سار إلى سُرّ مَنْ رأى، فلقي وصيفاً في رزق يجري له، فأغلظ له وصيف في الرد وقال: لأي شيء تجري على مثلك؟! فانصرف عنه.

فذكر الصوفي الطالبي أنه أتاه في الليلة التي في صبيحتها، فبات عنده فلم يعلمه بشيء مما عزم عليه، وأنه عرض عليه الطعام وتبين فيه أنه جائع، فأتى الفلوجة، فسار إلى قرية تعرف بالعمد.

فكتب صاحب الخبر بخبره، فكتب محمد بن عبد اللّه بن طاهر إلى عامله على معاون السواد، وهو: عبد اللّه بن محمود السرخسي وإلى عامل الكوفة، وهو: أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان، فأمرهما على محاربته.

فمضى يحيى بن عمر[٤] في تسعة نفر إلى الكوفة، فدخلها وسار إلى بيت مالها، فأخذ ما فيه وهو سبعون ألفاً وألف دينار.

وأظهر أمره بالكوفة وفتح السجون، وأخرج عمال السلطان عنها.

فلقيه عبد اللّه بن محمود في عدد من الشاكرية فضربه يحيى على وجهه ضربة أثخنته، فانهزم ابن محمود مع أصحابه، وحوى يحيى ما كان مع ابن محمود من الدواب والمال.

ثم خرج يحيى من الكوفة إلى سوادها ولم يقم بالكوفة، ولحقه جماعة من

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل.
(٢) وفي الكامل: عمر بن فرج.
(٣) في المخطوط: عنده، وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) في الكامل: يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، المكنى بأبي الحسين، بالكوفة، وكانت أمه: فاطمة بنت الحسين بن عبد اللّه بن إسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنهم.

الزيدية، وأعراب أهل الطفوف والمسيب إلى ظهر واسط، وكثر جمعه.

ووجه محمد بن عبيد اللّه بن طاهر، الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، وضم إليه من ذوي البأس والنجدة من قواده جماعة.

وشخص الحسين بن إسماعيل، فنزل بإزاء يحيى بن عمر، وكان تقدم عليه.

فمضى يحيى بن عمر في شرقي المسيب، والحسين في غربيه، حتى عبر إلى ناحية سوداء وسار حتى قرب من جسر الكوفة، فلقيه عبد الرحمٰن بن الخطاب [المعروف بـ][1] وجه الفلس.

فقاتله قتالاً شديداً، وانهزم وجه الفلس فسار إلى ناحية شاهى، ووافاه الحسين بن إسماعيل فعسكرها.

ودخل يحيى بن عمر الكوفة، واجتمعت إليه الزيدية، وكشف أمره، واجتمعت إليه جماعة من الناس وأحبوه وتولاه العامة من أهل الكوفة خاصة.

وتدين الناس في تشيعهم وأقام الحسين بن إسماعيل بشاهى، واستراح وأراح أصحابه دوابهم، واتصلت بهم الأمداد، والأموال.

وأقام يحيى بالكوفة يُعدّ العُدد، ويطبع السيوف، ويجمع السلاح، فاجتمع عامة من الزيدية ممن لا علم لهم بالحرب، وأشاروا على يحيى بن عمر بمعاجلة الحسين، وألحت عليه عوام أصحابه بمثل [١٠٩/أ] ذلك فزحف إليه من ظهر الكوفة من وراء الخندق ومعه الهيضم العجلي في فرسان بني عجل، وأناس من بني أسد، ورجالة من أهل الكوفة ليسوا بذوي علم ولا شجاعة ولا تدبير.

فصبحوا الحسين، وأصحاب الحسين مستريحون يستعدون، فثاروا إليهم، وذلك في الغلس[2] فرموا ساعة، ثم حمل عليهم فرسان الحسين، فانهزموا، ووضع فيهم السيف.

وكان أول أسير الهيضم بن العلاء بن جمهور العجلي، وانهزم رجالة أهل الكوفة، وأكثرهم عراة بغير سلاح، ضعفاء القوى خلقان الثياب قد استهم الخيل.

وانكشف العسكر عن يحيى بن عمر وقد تقطر به البرذون الذي أخذه من عبد اللّه بن محمود وعليه جوشن[3] ثبيتي.

فوقف عليه ابنا لخالد بن عمران ولم يعرفه أحدهما وظن أنه خراساني لأجل

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل والسياق يقتضيه.
(٢) أي في ظلمة الليل.
(٣) قال ابن منظور في لسان العرب:
الجَوْشَنُ: اسم الحديد الذي يُلْبَس من السلاح.

الجوشن، فقال له الآخر: هذا والله يا أخي أبو الحسين قد انفرج قلبه وهو ما نزل ما يعرف القصة لانفراج قلبه فأمر رجلاً من أصحابهما فنزل إليه وأخذ رأسه. وادعى قتله جماعة، وحمل رأسه إلى دار محمد بن عبد الله، وقد تغير من بقور رأسه وتخرج الحدقة والغاصة فلم يقدروا عليه.

وهرب الخرارون[1]، وطلب في السجن من الحزمية والذباحين من يفعل ذلك فلم يقدم عليه أحد إلا[2] رجل من عمال السجن الجديد، فإنه جاء وتولى إخراج دماغه وعينيه وقوره وحشي بالصبر والكافور، ثم أمر بحمل الرأس إلى المستعين وكتب إليه بيده بالفتح.

ونصب رأسه بباب العامة بسُرَّ مَنْ رأى، فاجتمع الناس وتذمروا، فحط وورد إلى بغداد لينصب هناك، فلم يتهيأ ذلك.

ذكر لمحمد أن الناس اجتمعوا[3] على أخذه[4]، فلم ينصبه.

فحكى بعض الطاهرين أنه حضر مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر وهو يهنأ بقتل يحيى وبالفتح وعنده جماعة الهاشميين من العباسيين والطالبيين وغيرهم من الوجوه.

فدخل عليه أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفري فسمعهم يهنونه.

فقال: أيها الأمير أتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيًا لعزّني به؟! فما ردّ عليه محمد شيئاً، وحلم عنه فخرج وهو يقول:

يـابـنـي طـاهـر كـلـوه وبـيًّـا   إن لـحـم الـنـبـي غـيـر مـريٍّ[5]

(١) كذا في المخطوط.
(٢) في المخطوط، لا وفيه سقط من أوله وأثبت ما سقط بما يناسب السياق.
(٣) في المخطوط قبلها حرف واو، وهو زائد على السياق فحذفته.
(٤) في المخطوط: خده، وقد سقط من أولها الألف وأهملت النقطة من الذال فضبطها.
(٥) في المخطوط: مزمى، والتصويب من الكامل وذكر بعده بيتاً آخر هو وقوله:

إن وتـرا يـكـون طـالـبـه الـلـ   ـه لـو تـرى نـجـاحـه بـالـحـريّ

ثم قال: وأكثر الشعراء المراثي في يحيى لما كان عليه من حسن السيرة والديانة فمن ذلك قول بعضهم:

بكى الخيل شجوها بعد يحيى   وبـكـاه الـمـهـنـد الـمـصـقـول
وبـكـتـه الـعـراق شـرقـاً وغـربـاً   وبـكـاه الـكـتـاب والـتـنـزيـل
والمصلى والبيت والركن الحجـ   ـر جـمـيـعـاً لـه عـلـيـه عـويـل
كـيـف لـم تـسـقـط عـلـيـنـا   يـوم قـالـوا: أبـو الـحـسـين قـتـيـل
وبـنـات الـنـبـي تـبـديـن شـجـوا   مـوجـعـات دمـوعـهـن هـمـول
قـطـعـت وجـهـه سـيـوف الأغـادي   يـأبـى وجـهـه الـوسـيـم الـجـمـيـل
إن يـحـيـى أبـقـى بـقـلـبـي غـلـيـلاً   سوف يؤذي بالجسم ذاك الغليل
قـتـلـه مـذكـر لـقـتـل عـلـي   وحـسـيـن ويـوم أودى الـرسـول
صـلـوات الإلـه وقـفـاً عـلـيـهـم   مـا بـكـى مـوجـع وحـنّ ثـكـول

وكان المستعين قد توجه كليب بن كثير التركي مدداً للحسن، ومستظهراً به، فلقي حسيناً بعد أن أنهزم القوم، وقبل يحيى بن عمر، ولحق في طريقه قوماً معهم الأسوقة والأطعمة يريدون عسكر يحيى فوضع فيهم السيف فقتلهم، ودخل الكوفة، وأراد أن ينهبها ويضع السيف في أهلها، فمنعه من ذلك الحسين، وأمن الأسود والأبيض بها وأقام أياماً حتى أمن الناس ثم انصرف عنها.

وفي هذه السنة: ظهر[١] الحسن بن زيد بن محمد بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب ذلك أن محمد بن عبد اللّه بن طاهر لما جرى على يده ما جرى من قتل يحيى بن عمر، ودخول أصحابه الكوفة قطعه المستعين من صوافي[٢] السلطان بطبرستان قطائع.

وكان فيها قطيعة بقرب ثغري طبرستان مما يلي الديلم وهما كَلاَر[٣]، وشالُوس[٤].

وكان بحذائهما أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق محتطبهم[٥]، ومراعي مواشهم، ومسرح سارحتهم، وليس لأحد عليها ملك، وإنما هي صحراء من موتان الأرض غير أنها غياض وأشجار وكلأ.

وكان وجه محمد بن عبد اللّه بن طاهر أخاً لكاتبه بشر بن هارون النصراني يقال له: جابر، لحيازة ما أقطع هناك.

وعامل طبرستان سليمان بن عبد اللّه، خليفة محمد بن طاهر بن عبد اللّه ابن

---

(١) في المخطوط: كان. والتصويب من الكامل.

(٢) في المخطوط: الصواني. وهو تحريف والتصويب من هامش الكامل لقربه مما هنا رسماً وقد ذكر محقق الكامل بعد أن ذكرها في متن الكتاب: ضواحي إلى أنه في الطبري صوافي. قلت: وهو جيد أرضه.

(٣) قال ياقوت عن كلار في معجم البلدان:
مدينة في جبال طبرستان بينها وبين آمل ثلاث مراحل، وبينها وبين الري مرحلتان كانت في ثغورها.

(٤) وقال عن شالُوس:
مدينة بجبال طبرستان، وهي أحد ثغورهم بينها وبين الري ثمانية فراسخ فيما زعم ابن الفقيه.
قال: وبإزائها مدينة يقال لها: الكبيرة مقابل كَجّة كانت منزل الوالي ـ أعني كَجَّةَ ـ وبين شالوس، وآمل من ناحية الجبال الديلمية عشرون فرسخاً.

(٥) أي الأماكن التي يجمعون منها الحطب لشؤون إعاشتهم من طهي طعام واغتسال، وما إلى ذلك من الأمور التي تحتاج إلى الوقود الجاف الذي هو الحطب والذي هو الوحيد في عصورهم.

أخي محمد بن طاهر، والمستولي على سليمان بن عبد اللّه، والغالب على أمره، محمد بن أوس البلخي.

وقد فرق محمد بن أوس ولده في مدن طبرستان وجعلهم ولاتها وهم أحداث سفهاء.

فتأذى بهم الرعية وأنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد اللّه ومن سيرتهم ومن سواء أثرهم فيهم.

ووتر[١] مع ذلك محمد بن أوس الديلم بدخوله إليهم من حدود طبرستان، وقتل، وهم أهل سلم وموادعة على اغترار من الديلم، فأغار عليهم وسبى منهم، وقتل، وكان مما زاد أهل طبرستان عليه حنقاً وغيظاً.

فلما صار النصراني إلى طبرستان لحيازة ما أقطع صاحبه، حاز أيضاً ما اتصل به من موات الأرض الذي يرتفق به أهل تلك الناحية، وكان بقرب ثغرين كما ذكرت.

وكان بتلك الناحية يومئذ رجلان معروفان بالشجاعة والرأي، مذكوران قديماً يضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وبإطعام الناس والإحسان إلى من ضوى إليهما[٢]، يقال لهما: محمد، وجعفر ابنا رستم، فانكرا ما فعل جابر من حيازة الموات الذي ذكرت وقطع مرافق الناس منه.

وكان أبناء رستم [قد جدّا][٣] في منعهما جابراً مما حوله بالشر. [فهرب إلى عامل طبرستان][٣] وذلك أن عامل طبرستان كلها سليمان بن عبد اللّه، وعم محمد بن طاهر والي خراسان والري والمشرق، لما أيقنا بالشر راسلا الديلم وذكراهم وفاءهم لهم بالعهد . [١٠٩/ب] الذي بينهم، وما ركبهم به محمد بن أوس من الغدر والقتل والسبي وأنهم لا يأمنون عودته، ويسألانهم مظاهرتهما عليه وعلى من معه.

فأعلمهم الديلم أن ما يلي أرضهم من جميع نواحيها من الأرضين هم عمال الطاهر والسلطان الأعظم، وأن ما سألتهم من معاونتهم لا سبيل إليه إلا بزوال الخوف عنهم من أن يأتوا من قبل ظهورهم إذا هم اشتغلوا بحربه من بين أيديهم من عمال سليمان بن عبد اللّه وإعلامهم أنهما لا يفعلان عن كفايتهم ذلك حتى يأمنوا ما خافوه.

---

(١) وتر: أي ظلم. وفي لسان العرب:
كل من أدركته بمكروه فقد وترته.

(٢) أي من مال إليهما لاجئاً ضعيفاً أكرماه واطعماه وحمياه في جوارهما وأحسنا إليه وسهلا أمره ووسعا عليه في المعيشة والنُزُل.
ومعنى ضوى ضعف.

(٣) زيادة يتطلبها السياق، وهو مستوحى من الكامل.

فأجابهم الديلم إلى ما سألوه ويعاقدوا وأهل كلار[١] وشالوس على حرب من قصدهم ثم أرسل أبناء رستم إلى رجل من الطالبيين المقيمين بطبرستان يقال له: محمد بن إبراهيم يدعونه إلى البيعة له.

فأبى وقال لهم: أنا لا أجيب إلى ما سألتم،ولكني على رجل منا هو أقوم بما دعوتموني إليه.

فقالوا: من هو؟

فأخبرهم أنه الحسن بن زيد، ودلهم لى منزله، بالري.

فوجّه القوم إلى الري برسالتهم وبرسالة العلوي محمد بن إبراهيم يدعونه إلى الشخوص إلى طبرستان.

فشخص إليهم الحسن بن زيد، وقد صارت كلمة الديلم وأهل كلار، وشالوس، والرُويان[٢] على بيعة واحدة.

فلما وافاهم بايعه ابنا رستم وجماعة من أهل الثغرين، ورؤساء الديلم. . .[٣] والإسلام، وهوذان بن حسان.

ثم ناهضوا تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بابن أوس، وسليمان بن عبد اللّه وهما بمدينة سارية[٤].

وانضوى إلى الحسن بن زيد مع من بايعه لما بلغهم ظهور كل من بجبال طبرستان كلها، إلاّ سكان جبل قديم، وأن ملكهم قارن بن شهريار كان ممتنعاً بجبله وأصحابه فلم ينفذ للحسن بن زيد، ثم صاهره فكفى عادية الحسن بن زيد.

---

(١) في المخطوط: كلاب، وهو تحريف وقد سبق ذكره على الصواب وذكرت قول ياقوت فيها، أما كُلاب فإنها أيضاً موضع ذكره ياقوت في معجمه وهو اسم واد يسلك بين ظهري ثَهْلان، وثهلان جبل في ديار بني نمير.

(٢) قال ياقوت في معجمه:
مدينة كبيرة من جبال طبرستان وكورة واسعة وهي أكبر مدينة في الجبال هناك وقالوا: أكبر مدن سهل طبرستان: آمل، وأكبر جبالها: رويان. . . .
وذكر بعضهم أن رويان ليست من طبرستان وإنما هي ولاية برأسها مفردة واسعة محيط بها جبال عظيمة وممالك كثيرة، وأنهار مطردة، وبساتين متسعة وعمارات متصلة، وكانت فيما مضى من ممالك الديلم.

(٣) موضع النقط كلمة هذا رسمها: «ـحا ـا».

(٤) قال صاحب معجم البلدان: قال البلاذري:
كور طبرستان ثماني كور: سارية وبها منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك في آمل. وجعلها أيضاً الحسن بن زيد، ومحمد بن زيد العلويان دار مقامهما، وبين سارية والبحر ثلاث فراسخ، وبين سارية، وآمل ثمانية عشر فرسخاً.

ثم زحف الحسن بن زيد وقواده نحو مدينة آمُل وهي مدينة طبرستان مما يلي كلار وشالوس من السفح.

وأقبل ابن أوس من سارية إليها يريد دفعه عنها، فالتقى جيشاهما في بعض نواحي آمُل(١) ونشب الحرب بينهم.

وخالف الحسن بن زيد جماعة معهم موضع المعركة إلى ناحية أخرى، فدخلوها واتصل خبرهم بابن أوس وهو مشغول بحرب من هو في وجهه من رجال الحسن بن زيد فلم يكن له هم إلا النجاة بنفسه واللحاق بسارية.

فلما دخل الحسن بن زيد آمل كثف جيشه وغلظ أمره، وانقض إليه كل طالب نهب الصعاليك، والحورية(٢) وغيرهم.

فأقام الحسن بن زيد بآمل أياماً حتى جَبَى الخراج واستعد، ثم نهض بمن معه [نحو](٣) ومن بها من سليمان وابن أوس، فخرجوا بمن معهم، والتقى القوم خارج مدينة سارية، ونشب الحرب بينهم.

فخالف الوجه الذي التقى فيه الجيشان بعض قواد الحسن بن زيد إلى وجه آخر من وجوه سارية، فدخلها برجاله.

وانتهى الخبر إلى سليمان ومن معه فطاروا على وجوههم، ونجوا بأنفسهم.

وترك سليمان أهله وعياله وثقله وكل ما كان له بسارية من مال وأثاث، فلم يكن له عرجة دون جُرْجَان(٤).

---

(١) وقال في آمل:
اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل. . . .
وبين آمل وسارية ثمانية عشر فرسخاً، وبين آمل والرويان اثنا عشر فرسخاً، وبين آمل وشالوس وهي من جهة الجيلان عشرون فرسخاً.
وبآمل تعمل السجادات الطبرية والبسط الحسان وكان بها أول إسلام أهلها مسلحة في الفي رجل.

(٢) كذا هي في المخطوط، وربما كانت من صفات اللصوص وأهل النهب والسرقة والخطف والنشل وما إلى ذلك. والله أعلم.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان:
مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان فبعض يعدها من هذه، وبعض يعدها من هذه.
وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة.
وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين.
ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي.
قال الإصطخري: أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل نداً ومطراً من طبرستان، وأهلها أحسن وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم، وهي قطعتان: إحداهما المدينة والأخرى بكراباذ، وبينهما نهر كبير يجري يحتمل أن تجري فيه السفن، ويرتفع منها الأبريسم وثياب =

وغلب جند الحسن بن زيد على ما كان له ولغيره. فأما عيال سليمان وأهله وإماؤه، فإن الحسن بن زيد أمر لهم بركب حملهم فيه حق الحقهم بسليمان وهو بجرجان، واجتمع للحسن أمره وهو بطبرستان كلها. ثم وجه خيلاً مع رجل من أهل بيته يقال له محمد بن جعفر إلى الري فسار إليها وطرد منها عاملها من قبل الطاهرية واستخلف بها بعض الطالبيين، وانصرف عنها.

فاجتمعت للحسن بن زيد مع طبرستان الرَّي[1] إلى حد همذان.

فورد الخبر بذلك على المستعين ومدبر أمره وصيف التركي، وكاتبه أحمد بن صالح ابن شيرزاد.

فوجه إسماعيل بن فراشة في جمع[2] كثير إلى همذان، وأمر بالمقام بها وضبطها.

وذلك أن ما وراء[3] عمل همذان[4] كان إلى محمد بن طاهر بن عبد اللّه بن طاهر وبه عماله وإليه إصلاحه.

فلما استقر بخليفة الحسن بن زيد القرار بالري، واسمه محمد بن جعفر ظهرت منه أمور كرهها أهل الري.

فوجه محمد بن طاهر قائد من خراسان يُقال له: محمد بن ميكال ـ وهو أخو

= ما يحمل إلى جميع الآفاق قال: وابريسم جرجان بزر دودة يحمل إلى طبرستان، ولا يرتفع من طبرستان بزر ابريسم، ولجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان.

(١) الرَّي: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخاً، (راجع معجم البلدان).

(٢) في المخطوط جميع. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: ما رواه. وهو تحريف.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان:
ذكر بعض علماء الفرس أن اسم همذان إنما كان : نادمه، ومعناه: المحبوبة. . .
وروي عن شعبة أنه قال: الجبال عسكر وهمذان معمعتها، وهي أعذبها ماء وأطيبها هواء.
وقال ربيعة بن عثمان: كان فتح همذان في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وكان الذي فتحها المغيرة بن شعبة في سنة (٢٤) من الهجرة، وفي آخر: وجه المغيرة بن شعبة وهو عامل عمر بن الخطاب على الكوفة بعد عزل عمار بن ياسر عنها جرير بن عبد اللّه البجلي إلى همذان في سنة(٢٣) فقاتله أهلها وأصيبت عينه بسهم فقال: احتسبها عند اللّه الذي زين بها وجهي ونور لي ما شاء ثم سلبنيها في سبيله، وجرى أمر همذان على ما جرى عليه أمر نهاوند في آخر سنة(٢٣)، وغلب على أرضها قسراً وضمها المغيرة إلى كثير بن شهاب وإلى الدينور، وإليه ينسب قصر كثير في نواحي الدينور. وقال بعض علماء الفرس، كانت همذان أكبر مدينة بالجبال، وكانت أربع فراسخ في مثلها.

الشاه بن ميكال ـ في جمع عظيم من الخيل والرجالة إلى الري، فالتقى هو ومحمد بن جعفر العلوي، فأسر محمد بن ميكال محمد بن جعفر، وفض جمعه ودخل الري.

فوجه إليه الحسن خيلاً عظيمة عليها واجن[١] قبل أن يتحصن حتى قتله وعادت الري إلى أصحاب الحسن بن زيد[٢].

---

(١) في المخطوط: ويحن. والتصويب من الكامل.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل:

فلما كان هذه السنة يوم عرفة ظهر أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فصلى أحمدبن عيسى بأهل الري صلاة العيد ودعا للرضا من آل محمد.

فحاربه محمد بن علي بن طاهر، فانهزم محمد بن علي وسار إلى قزوين.

وفيها: غضب المستعين على جعفر بن عبد الواحد لأنه بعث إلى الشاكرية، فزعم وصيف أنه أفسدهم فنفي إلى البصرة في ربيع الأول.

وفيها: اسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني أمية كأبي الشوارب والعثمانيين.

وأخرج الحسن بن الأفشين من الحبس وفيها: عقد لجعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى المعروف بشاشات على مكة.

وفيها: وثب أهل حمص وقوم من كلب بعامله، وهو الفضل بن قارن أخو مازيار بن قارن ـ فقتلوه، فوجه المستعين إلى حمص موسى بن بغا في رمضان، فلقيه أهلها فيما بين حمص والرستن، وحاربوه فهزمهم، وافتتح حمص، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقها، وأسر جماعة من أهلها الأعيان.

وفيها: مات جعفر بن أحمد بن عمار القاضي، وأحمد بن عبد الكريم الحوراني التيمي قاضي البصرة.

وفيها: ولي أحمد بن الوزير قضاء سامرا.

وفيها: وثب الشاكرية والجند بفارس بعبد الله بن اسحاق بن إبراهيم، فانتهبوا منزلة وقتلوا محمد ابن الحسن بن قارن، وحارب عبد الله بن إسحاق.

وفيها وجه محمد بن طاهر بفيلَيْنِ وأصنام أتيت من كابل.

وحج بالناس جعفر بن الفضل بشاشات وهو والي مكة.

وفيها: توفي زيادة الله بن محمد بن الأغلب أمير أفريقية، وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام، ولما مات ملك بعده ابن أخيه محمد بن أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب.

وفيها: توفي محمد بن الفضل الجرجرائي، وزير المتوكل.

والفضل بن مروان وزير المعتصم، وكان موته بسر من رأى.

والخليع الشاعر الحسين بن الضحاك، وكان مولده سنة اثنتين وستين ومائة، وهو مشهور الأخبار والأشعار.

وفيها: توفي الحارث بن مسكين قاضي مصر في ربيع الأول، وهو من ولد أبي بكر الثقفي.

ونصر بن علي بن نصر بن علي الجهضمي الحافظ.

وفيها: توفي أبو حاتم سهل بن محمد السختياني اللغوي، روي عن أبي زيد والأصمعي، وأبي عبيدة.

وقيل: توفي قبل سنة خمسين، والله تعالى بالغيب أعلم.

ودخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين

وفيها: قتل وصيف وبغا الصغير باغر التركي واضطرب الوالي.

ذكر السبب في قتله

كان سبب ذلك أن باغر التركي كان أحد قتلة المتوكل فزيد في أرزاقه، وأقطع قطائع، وكان مما أقطع ضياع بسواد الكوفة فتضمن تلك الضياع رجل من دهاقين باروسما(١)، ونهر الملك(٢) بألفي دينار.

فوقع بين هذا الدهقان وبين رجل بتلك الناحية ـ يقال له: ابن مارمه(٣) ـ مكروه فحبس ابن [١١٠/أ] مارمه وقيد فعمل حتى تخلص من الحبس، وسار إلى سُرَّ من رأى، فلقي دليل بن يعقوب النصراني، وهو يومئذ كاتب بغا الشرابي، وصاحب أمره، وإليه أمر العسكر يركب إليه القواد والعمال.

وكان ابن مارمه صديقاً للدليل، وكان باغر أحد قواد بغا، فمنع دليل وباغر من ظلم أحمد بن مارمه، وانتصف(٤) له منه.

فأوغر ذلك بصدر باغر واين كل واحد من دليل وباغر صاحبه بذلك السبب. وكان باغر شجاعاً وبطلاً عظيم القدر في الأتراك، يتوقاه بغا وغيره، ويخافون شره.

فجاء باغر يوم الثلاثاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة خمسين ومائتين إلى بغا وهو في الحمام وباغر سكران، فانتظره حتى خرج من الحمام ثم دخل إليه فقال له: واللّٰه ما لي من قتل دليل بد ثم شتمه.

فقال له بغا: لو أردت قتل ابني فارس ما منعتك منه، فكيف دليل النصراني؟! ولكن أمر الخليفة وأمري في يده، فتصير مكانه إنساناً ثم شأنك به.

ثم وجه بغا إلى دليل يأمره أن يركب فاستخفى وبعث بغا إلى محمد بن يحيى بن فيروز بكتب له قديماً، فتجعله مكان دليل، فتوهم باغر أنه قد عزل دليلاً.

---

(١) قال ياقوت في معجمه: ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما: باروسما العليا، وباروسما السفلى من كورة الاستان الأوسط.

(٢) وقال بعد نهر الملك: كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى يقال: إنه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة، قيل: إن أول من حفره سليمان بن داود عليهما السلام، وقيل: إنه حفره الأسكندر لما خرب السواد، وكذلك الصراة.
وقال أبو بكر أحمد بن علي: حفر نهر الملك أقفور شاه بن بلاش، وهو الذي قتله أردشير بن بابك وقام مقامه وكان آخر ملوك النبط ملك مائتي سنة.

(٣) كذا في المخطوط: وفي الكامل: ابن مارية، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: ابن خارجة.

(٤) في المخطوط: انتصب، وهو تحريف.

فسكن باغر، ثم أصلح بغا بين باغر ودليل وباغر يتهدد دليلاً إذا خلا بأصحابه.

ثم تلطف باغر المستعين ولزمه الخدمة في الدار، وكره المستعين مكانه لجرأته وقتله المتوكل.

فلما كان نوبة بغا في منزله قال المستعين: أي شيء كان إيتاخ من الأعمال؟

فأخبره وصيف. فقال: ينبغي أن تصير هذه الأعمال إلى محمد باغر.

فقال وصيف: نعم.

وبلغت القصة دليلاً، فركب إلى بغا، وقال له: أنت في بيتك وهم في تدبير عزلك عن جميع عمالك، وإذا عزلت فما بقاؤك إلاّ أن يقتلوك.

فركب بغا إلى دار الخليفة في اليوم الذي نوبته في منزله بالعشي.

فقال لوصيف: أردت أن تخطى عن مرتبتي فتجيء بباغر وتصيره مكاني، وإنما باغر عبد من عبيدي.

فقال وصيف: ما أردت ذلك، ولا علمت ما أراد الخليفة من ذلك.

ثم تعاقد وصيف وبغا على تنحية باغر من الدار وأرجفوا أنه يؤامر ويضم إليه جيشاً سوى جيشه، ويخلع عليه ويجلس مجلس بغا ووصيف، وهما يسميان الأميرين وكان قصد المستعين التقرب إليه ليأمن فأحس هو ومن في جيشه[1] بالشر، فجمع الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل مع غيرهم، ثم قال ناظرهم ووكد البيعة عليهم كما كان وكدها في قتل المتوكل، ثم قال: الزموا الدار حتى نقتل المستعين، وبغا، ووصيف ونجيء بمن يقعد خليفة ليكون الأمر لنا كما هو الآن للذين قد استوليا على الدنيا، وبقينا نحن في غير شيء.

[وانتهى الأمر إلى المستعين][2] فبعث المستعين[3] إلى بغا [ووصيف وقال][4] لهما: إني ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة، وإنما فعلتما أنتما ذلك وأصحابكما، ثم تريدون أن تقتلونني.

فحلفا أنهما ما علما بذلك.

فيقال إن امرأة مطلقة لباغر بعثت إلى المستعين وبغا بما عزم عليه باغر.

---

(١) في المخطوط: حبسه. وهو تحريف.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: المستغيث، وهو تحريف.
(٤) زيادة من الكامل وهي ساقطة من المخطوط.

وبكر دليل إلى بغا ووصيف حاضر منزل بغا مع كاتبه، فاتفق رأيهما على أخذ باغر، ونفسين[١] من الأتراك معه وحبسه حتى يروا رأيهم.

فأحضر باغر، فأقبل في عدة، فلما دخل دار بغا، منع من الوصول إلى وصيف وبغا، وعدل به إلى الحمام فحبس فيه ودعى بقيد فامتنع عليهم.

وبلغ ذلك الأتراك، فوثبوا على أصطبل السلطان، فأخذوا ما فيه من الدواب فانتهبوها وركبوا، وحصروا الجوسق بالسلاح.

فلما أمسوا بعث بغا ووصيف إلى باغر بجماعة فشدخوه بالطير ربنات حتى مزدوا وعملوا على أن يرموا برأسه إليهم إن أقاموا على ما هم عليه، وأبو أن ينصرفوا.

واجتمع رأي المستعين، ووصيف، وبغا، وشاهك وعلى أن ينحدروا إلى بغداد، ففعلوا ذلك. وأنكر الأتراك لذلك، وأظهروا الندم.

ثم ساروا إلى دار دليل بن يعقوب ودور أهل بيته وانتهبوها، ونقضوها، ثم منعوا من الانحدار إلى بغداد من هم بذلك وأخذوا مَلاَّحاً قد أكرى سفينته فصلبوه على دقل سفينته، فامتنع الملاّحون من الانحدار بعده، واجتمع من كان من الجند والأتراك بسُرَّ مَنْ رأى على المعتز فبايعوه.

وأقام من كان ببغداد على الوفاء للمستعين.

ذكر الفتنة التي وقعت من الأتراك وأهل بغداد وما انتهى إليه أمر المعتز والمستعين

لما انحدر المستعين، وبغا، ووصيف، وشاهك، وأحمد بن صالح بن شيرزاد إلى بغداد، ونزل المستعين على محمد بن عبد اللّه بن طاهر في داره، ثم وافى بغداد القواد سوى جعفر بن دينار، وسليمان بن يحيى بن معاذ[٢] مع جلة الكتاب، والعمال،

---

(١) وفي المخطوط: تفشين، وهو تحريف، وفي الكامل: ورجلين.

(٢) في المخطوط: يحيى بن دمعا. وهو تحريف والتصويب من الكامل، وقال: كان وصول المستعين إلى بغداد لخمس خلون من المحرم من هذه السنة. ومما ذكر ابن الأثير أيضاً في أحداث تلك الفتنة في الكامل قال:
لما قتل باغر وانتهى خبر قتله إلى الأتراك المشغبين أقاموا على ما هم عليه، فانحدر المستعين، وبغا، ووصيف، وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد، ودليل إلى بغداد في حراقة، فركب جماعة من قواد الأتراك إلى هؤلاء المشغبين فسألهم الانصراف، فلم يفعلوا، فلما علموا بانحدار المستعين، وبغا، ووصيف ندموا، ثم قصدوا دار دليل ودور أهله وجيرانه فنهبوها حتى صاروا إلى أخذ الخشب وعليف الدواب فلما قدموا بغداد مرض ابن مارية فعاده دليل فقال له: ما سبب علتك؟
قال: انتقض عقر القيد.
فقال دليل: لئن عقرك القيد لقد نقضت الخلافة، وبغيت الفتنة، ومات ابن مارية في تلك الأيام.

وبني هاشم، ووافى أيضاً قواد الأتراك الذين في ناحية وصيف وبغا، وكانت رسل وصيف وبغا تتردد إلى سُرَّ مَنْ رأى باستدعاء من بها واصلاح نياتهم وكان كل من يرد بغداد يؤمر أن ينزل بالجزيرة التي حيال دار محمد بن عبد اللّه بن طاهر، وأن لا يصيروا إلى الجسر فيرغبوا إلى العامة.

فلما اجتمعوا، وجه إليهم زوارق حتى يعبروا فيها.

فلما دخل الأتراك الواردون من سُرَّ من رأى إلى المستعين، رموا بأنفسهم بين يديه وخلعوا مناطقهم من أوساطهم تذللاً وخضوعاً، وكلموا المستعين، وسألوه الصفح عنهم.

فقال لهم: أنتم أهل [١١٠/ب] بغي وبطر واستقلال النعم.

ألم ترفعوا إلي في أولادكم فالحقتهم بكم، وهم نحو من ألفي غلام؟

وفي بناتكم فأمرت باجزائهن فجرى المتزوجات[١] عن نحو من أربعة آلاف صبية سوى المذكورين؟

وأدرت عليكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الفضة والذهب؟

ومنعت نفسي شهواتها ولذاتها كل ذلك طلباً لرضاكم وصلاحكم؟

وأنتم تزدادون بغياً وفساداً وتهديداً وبعاداً؟ فتضرعوا، وقالوا: أمير المؤمنين صادق، وقد أخطأنا، ونحن الآن نسأله العفو.

فقال المستعين: قد عفوت عنكم.

فقال له بايكبال[٢]: إن كنت رضيت عنا وصفحت فقم معنا إلى سُرَّ مَنْ رأى، فإن الأتراك ينتظرونك؟

فأومأ محمد بن عبد اللّه إلى محمد بن أبي عون فلكز في خلف بابكيال، وقال له: هكذا يقال لأمير المؤمنين قم معنا فاركب؟!

فضحك المستعين، وقال: هؤلاء قوم عجم لا يؤخذون بمعرفة حدود الكلام وآدابه.

ثم قال لهم المستعين تصير بِسُرَّ مَنْ رأى فأرزاقهم دارة عليهم[٣] وأنظر أنا في أمري ها هنا.

---

(١) كذا في المخطوط، وفي الكامل: فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات.

(٢) كذا ذكر هنا في المخطوط. وكان ذكره قبل ذلك فقال في اسمه: ميكال. وفي الكامل قال: فقال له أحدهم واسمه: بابي بك. وأشار محققه إلى أنه في الطبري، بايكبال. أي كما هنا.

(٣) في الكامل: ترجعون إلى سامرا فإن أرزاقكم دارة عليكم.
وفي هذا الحوار إن كان صحيحاً لبيان حسن إدارة السلطان لرعيته وحرصه على مصالحهم، وعفوه عنهم، وتلطفهم معهم وإمساكه عن معاقبتهم في حين وجوب معاقبتهم وإثبات =

فانصرفوا، وقد أغضبهم ما كان من محمد بن عبد اللّه، ومضوا إلى سُرَّ من رأى وحرضوا الأتراك على مخالفته.

واجتمع رأيهم على إتمام البيعة لأبي عبد اللّه المعتزج

فأخرجوه والمؤيد من الحبس وأخذوا من شعرهما [فكان][1] قد طال، وبايعوه وأمر لهم بمال البيعة.

وكان المستعين خلف بسر من رأى، ما كان حمل من الموصل ومن الشام وهو خمسمائة ألف دينار في بيت مال[2] أم المستعين قيمة ستمائة ألف دينار، وكتبت نسخة البيعة التي أخذت للمعتز بسُرَّ مَنْ رأى على النسخة المعروفة. وحضر أبو أحمد بن الرشيد محمولاً في محفَّة، وأُمر بالبيعة، فامتنع، وقال للمعتز: ألم تخرج إلينا خروج طائع فخلصت نفسك وزعمت أنك لا تقوم بها؟

فقال المعتز: بل كنت مكرهاً وخفت السيف.

فقال أبو أحمد: ما علمت أنك أكرهت وقد بايعنا هذا الرجل، أفتريد أن نطلق نساءنا وتخرجنا من أموالنا؟ ولا ندري ما يكون إن تركتني على أمري حتى يجتمع لك الناس. وإلاّ فهذا السيف.

فقال المعتز: اتركوه.

فرُدَّ إلى منزله من غير بيعة[3].

[وكان ممن بايع إبراهيم الديرج، وعتاب بن عتاب، فأما عتاب فهرب إلى بغداد، وأما الديرج فأقر على الشرط واستعمل الدواوين وبيت المال والكتابة وغير ذلك.

ولما اتصل بمحمد بن عبد اللّه خبر بيعة المعتز] وتوجيهه العمال.

فأمر بقطع الميرة عن أهل سُرَّ من رأى، وكتب[4] إلى مالك بن طوق بالمسير إلى بغداد هو ومن معه من أهل بيته وجنده.

= خطئهم، وباعترافهم اعترافاً صريحاً نابعاً من أنفسهم بعد تعدد محاسن السلطان إليهم وليس اعترافاً منتزعاً لقهر وقع عليهم أو لأمور لم يفعلوها ولا يعرفوا عنها شيئاً هذا مع مراعاته لظروفهم ومدى ثقافتهم حين عبروا عن مكنون نفوسهم في محاولة لتعويض أو تصويب هذا الخطأ ورد الجميل، وكيف يكون الحال إذا لم تكن الحاشية على مثل حال.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: المال. والألف واللام زائدة في أول الكلمة فحذفتها.

(٣) حدث بعده سقط أثبته بين معقوفين وهو من الكامل.

(٤) في المخطوط: فكتب. والتصويب من الكامل.

[وإلى نجوية[١] بن قيس وهو على الأنبار بالجمع والاحتشاد.

وإلى سليمان بن عمران الموصلي في جمع السفن ومنع الميرة، وأن ينحدر إلى سُرَّ مَنْ رأى.

ومنع أن يصعد شيء من الميرة من بغداد وأخذ سفينة فيها أرز وسقط[٢] فهرب الملاح وبقيت حتى غرقت.

وأمر المستعين محمد بن عبد الله أن يحصن بغداد، فتقدم في ذلك، وأدير عليها السور من دجلة من باب الشماسية إلى سوق الثلاثاء حتى أورده دجلة، ومن باب قطيعة أم جعفر حتى أورده قصر حميد. ورتب على كل باب قائدان وجماعة من أصحابه وغير أصحابه.

وأمر بحفر الخنادق حول السورين كما تدوران في الجانبين جميعاً، ومظلات يأوي إليها الفرسان في الحر والمطر.

وبلغت النفقة على السورين والخنادق والمظلات ثلاثمائة ألف دينار، وثلاثين ألف دينار.

وجعل على باب الشماسية خمس شداخات بعرض الطريق فيها العوارض والألواح والمسامير الطوال الظاهرة.

وجعل من خارج الباب الثاني باباً مغلقاً بقدر الباب ثخناً، وقد ألبس صفائح الحديد وشد بالحبال كي إن وافى أحد من ذلك الباب أرسل عليه الباب المغلق فتيل من تحته وجعل على الباب الآخر عوادة، وعلى الباب الآخر خمسة مجانيق كبار، وفيها واحد كبير سموه الغضبان وست عوادات يرمي بها إلى ناحية مرقد الشماسية.

وصير على باب البردان ثماني عردات في كل ناحية أربع أربع، وأربع شداخات.

وكذلك كل باب من أبواب بغداد في الجانب الشرقي والغربي.

ووكل بكل باب قواداً برجالهم.

وجعل لكل باب من أبوابها دهليزاً عليه السقائف تسعمائة فارس، ومائة فارس ومائة راجل لكل منجنيق وعراده مرتبين يمدون حباله، ورأساً يرمي إذا كان قتال.

وفرض فروضات من قوم أهل خراسان قدموا حجاجاً فسئلوا المعونة على قتال الأتراك فأعانوا.

---

(١) رسمت الكلمة في المخطوط على هذا النحو: محرز، والتصويب من الكامل.

(٢) كذا في المخطوط، وربما كان الصواب النفط، وهو ما يلزم طهي الأرز، والله أعلم.

وأمر محمد بن عبد اللّٰه أن تقرض قروض، وأن يجعل عليهم عريف، ويعمل لهم تراس من البواري المغترة، وأن يعمل لهم مخال تملأ حجارة.

ففعل ذلك، وكان الرجل منهم يقوم خلف البارية فيرمي منها عمل مسايحات انفق عليها زيادة مائة دينار، وكان العريف على أصحاب المغترة من العيارين رجلاً يقال له نينويه[1].

وكتب المستعين إلى عماله في كل بلدة وبكل موضع أن يكون حملهم ما يحملون إلى السلطان ببغداد دون غيرها.

وكتب إلى الأتراك والجند الذين بسُرَّ مَنْ رأى يأمرهم بنقض بيعة المعتز[1]، ومراجعة الوفاء ببيعته[2]، وذكر أياديه عندهم، وينهاهم عن معصيته ونكث عهده وبيعته.

وكتب المعتز إلى محمد بن عبد اللّٰه يدعوه إلى خلع المستعين، ويذكر بما أخذه أبوه المتوكل عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة.

وأجابه محمد يدعوه إلى الرجوع إلى طاعة المستعين.

واحتج كل واحد منهما باحتجاجات يطول شرحها.

وشق[3] محمد بن عبد اللّٰه المياه بسطوح الأنبار وبادوريا[4] لقطع طريق الأتراك

---

(١) في المخطوط: المعتزل. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: ببيعتهم. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: يشق. وهو تحريف.
(٤) يقول ياقوت عن الأنبار، وبادوريا ما يلي:
الأنبار: مدينة قرب بلخ وهي مدينة قصبة ناحية جوزجان، وبها كان مقام السلطان وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ، وبالقرب منها، ولها مياه، وكروم وبساتين كثيرة، وبناء وهاطين، وبينها وبين شبورقان قائد مرحلة من ناحية الجنوب....
والأنبار أيضاً مدينة على الفرات (وهي المقصودة هنا) غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، وكانت الفرس تسميها فيروز سابور....
وكان أول من عمرها سابور بن هرمز ذو الاكتاف ثم جددها أبو العباس السّفاح أول خلفاء بني العباس وبنى بها قصوراً وأقام بها إلى أن مات....
وقال الأزهري: الأنبار: إهراء الطعام.
واحدها: نبر، ويجمع على أنابير جمع الجمع وسمي نبراً لأن الطعام إذا صُبَّ في موضع انتبر أي ارتفع ومنه سمي المنبر لارتفاعه....
وفتحت الأنبار في أيام أبي بكر الصديق رضي اللّٰه عنه سنة (١٢) للهجرة على يد خالد بن الوليد لما نازلهم سألوه الصلح فصالحهم على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية كل سنة.
وبادوريا: طسوج من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد وهو اليوم محسوب من كورة نهر عيسى بن علي، منها: النحاسية والحارثية ونهر أرما.
وفي طرفه بُني بعض بغداد، منه: القُريّة والنجمى والرَّقّة.
قالوا: كل ما كان من شرقي السراة فهو بادوريا وما كان في غربيها فهو قطربُل. =

حين [١١١/أ] تخوّف ورودهم الأنبار.

وكتب كل واحد من المعتز، والمستعين إلى موسى بن بغا وهو مقيم بأطراف الشام لأنه كان أخرج إلى حمص لقتال أهلها حين قتلوا عاملهم وعصوا وامتنعوا على السلطان وبعث كل واحد منهما بعدة ألوية يعقدها لمن أحب، فانصرف إلى المعتز وصار معه(١).

ولم يزل الأتراك والكبار يصيرون مرة من حزب المعتز [ومرة إلى حزب المستعين](٢):

وعقد المعتز لأخيه أبي أحمد المتوكل(٣) على حزب المستعين، وابن طاهر، وضم إليه الجيش، وجعل إليه الأمر والنهي وتدبير الحرب إلى كلباتكين [التركي](٤).

فعسكر بالقاطول، فصلى أبو أحمد بها، ودعا للمعتز.

وجعل الأتراك ينهبون القرى ما بين عُكبرى وبغداد وأوانا، وهرب الناس وخلوا عن الغلات والضياع فخربت وهدمت المنازل وسلب الناس، وجرى في ذلك أمر فظيع قبيح(٥).

= وقال أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات: من استقل من الكتاب ببادوريا استقل بديوان الخراج ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة وذاك لأن معاملاتها مختلفة وقصبتها الحضرة، والمعاملة فيها مع الأمراء والوزراء والقواد والكتاب والأشراف ووجوه الناس، فإذا ضبط اختلاف المعاملات، واستوفي على هذه الطبقات صلح للأمور الكبار.

(١) قال ابن الأثير في الكامل بعد ذلك: وقدم عبد الله بن بُغا الصغير من سامرا إلى المستعين، وكان قد تخلف بعد أبيه، فاعتذر وقال لأبيه: إنما قدمت لأموت تحت ركابك، فأقام ببغداد أياماً ثم هرب إلى سامرا، فاعتذر إلى المعتز، وقال: إنما سرت إلى بغداد لأعلم أخبارهم وأتيتك بها، فقبله المعتز ورده إلى خدمته وورد الحسن بن الأفشين ببغداد فخلع عليه المستعين وضم إليه جمعاً من الأشروسنية وغيرهم.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها سياق الخبر.

(٣) بعد هذا في الكامل: وهو الموفق، لسبع بقين من المحرم.

(٤) زيادة تعريفية من الكامل، وهو اسم قائد تركي، وزاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل. فسار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراعنة وألفين من المغاربة.

(٥) جاء الخبر هنا في الكامل على النحو التالي:
فلما بلغ عُكبرى صلى بها وخطب للمعتز، وكتب بذلك إلى المعتز، فذكر أهل عُكبرى أنهم كانوا على خوف شديد من مسير محمد بن عبد الله إليهم ومحاربتهم، فانتهبوا القرى ما بين عُكبرا وبغداد فخربت الضياع، وأخذ الناس في الطريق، فلما وصل أبو أحمد إلى عكبرا هرب إليه جماعة كبيرة من أصحاب بُغا الصغير، ووصل أبو أحمد وعسكره باب الشماسية لسبع خلون من صفر فقال بعض البصريين ويعرف بباذنجانة:

يا بني طاهر أتتكم جنود الـ ... ـله والموت بينها منشور
وجيوش إمامهم أبو أحـ ... ـمد نعم المولى ونعم النصير

ولما وافى الحسن بن الأفشين مدينة السلام وكل بباب الشماسية ثم وافى أبو أحمد في عسكره الشماسية ووافت طلائع الأتراك إلى قريب من باب الشماسية[١].

فوجه محمد بن عبد اللّٰه الحسين بن إسماعيل والشاه بن ميكال[٢]، فشتموا من هناك ورموهم من سهامهم.

وكان محمد تقدم أن لا يبدؤوهم بقتال، فلما فعلوا ذلك وأكثروا من الشتم والرمي، أمر عامل صاحب المنجنيق فرموا بحجر أصاب مقتل واحدٍ منهم، ونزل أصحابه فحملوه وانصرفوا إلى معسكرهم.

ثم وافى الأتراك باب الشامية فرموا بالسهام وبحجارة المنجنيق والعرادات، وكان بينهم قتلى وجرحى.

وحمل محمد بن عبد اللّٰه الصلات لمن أبلى في الحرب، وأطوقة، وأسورة من ذهب. وكان الجرحى في الفريقين متقاربين في العدد وانهزم عامة أهل بغداد، وثبت أصحاب البواري[٣] واحضرت منجنيقاً فغلبهم عليه الغوغاء وكسروا قائمة من قوائمه،

---

(١) وافق ذلك عاشر صفر على ما ذكر في الكامل.

(٢) قال صاحب الكامل بعد ذلك: وبندار الطبري فيمن معهم وعزم على الركوب لقتالهم، فأتاه الشاه، فأعلمه أن الأتراك لما عاينوا الأعلام والرايات قد أقبلت نحوهم رجعوا إلى معسكرهم، فترك محمد الركوب، فلما كان الغد عزم محمد على توجيه الجيوش إلى القفص ليعرضهم هناك وليرهب الأتراك، وركب معه وصيف، وبُغا في الدروع، ومضى معه الفقهاء والقضاة، وبعث إليهم يدعوهم إلى الرجوع عما هم عليه من الطغيان والعصيان، ويبذل لهم الأمان على أن يكون المعتز ولي العهد بعد المستعين.

فلم يجيبوا، ومضى نحو باب قطربل، فنزل على شاطىء دجلة هو ووصيف وبُغا، ولم يمكنه التقدم لكثرة الناس، فانصرف. فلما كان من الغد أتاه رُسل وجه الفلس وغيره من القواد يُعْلمونه أن الترك قد دنوا وضربوا مضاربهم برقة الشماسية.

وأرسل إليهم، لا تبدؤوهم بقتال، وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم، وادفعوا اليوم فوافى باب الشماسية منهم اثنا عشر فارساً. فرموا بالسهام ولم يقاتلهم أحداً، فلما طال مقامهم رماهم المنجنيقي بحجر فقتل منهم رجلاً فأخذوه ورجعوا.

وقدم عبيد اللّٰه بن سليمان خليفة وصيف التركي من مكة في ثلاثمائة رجل، فخلع عليه محمد بن عبد اللّٰه، ووافى الأتراك في هذا اليوم باب الشماسية، وخرج الحسين بن إسماعيل ومن معه من القواد لمحاربتهم فاقتتلوا، وقتل من الفريقين وكان من القتلى والجرحى على السواء وانهزم أهل بغداد. . .

(٣) بعدها في الكامل: ثم انصرفوا وأحضر الأتراك منجنيقاً فغلبهم عليهم العامة، فأخذوه، ثم سار جماعة من الأتراك ناحية النهروان فوجه محمد بن عبد اللّٰه قائدين من أصحابه وأمرهما بالمقام بتلك الناحية وحفظها من الأتراك، فسار إليهم الأتراك فقاتلوهم فانهزم أصحاب محمد إلى بغداد، وأخذت دوابهم فدخلوا بغداد منهزمين، ووجه الأتراك برؤوس القتلى إلى سامرا، واستولوا على طريق خراسان وانقطع الطريق عن بغداد، ووجه المعتز عسكراً في الجانب الغربي، فساروا إلى بغداد وجازوا قطربل فضربوا عسكرهم هناك، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر.

وأمر بحمل الآجر من قصر البطين وتلك الناحية إلى باب الشماسية، فأخرج الآجر من قصوره وردوه إلى هذا الجانب من السور، ثم وجه محمد بن عبد اللّه الشاه بن ميكال من باب القطيعة[١]، وبنداراً، وخالداً، وأمدوا المبيضة من أهل بغداد فحمل الشاه والمبيضة حملة أزالوا بها الأتراك والمغاربة ومن معهم عن موضعهم وحملت عليهم المبيضة، فأصحروا بهم، وحمل عليهم الطبرية فخالطوهم، وخرج عليهم سندار، وخالد بن عمران من الكمين وكانوا بالكمائن من ناحية باب قطربل فوضعوا في أصحاب أحمد السيف فقتل الأتراك وغيرهم فقتلوا أبرح قتل، ولم يفلت منهم إلا القليل.

وانتهب المبيضة عسكرهم وما كان فيه من المتاع والأثقال، والمضارب، وكان من انفلت منهم من السيف رمى بنفسه في دجلة ليصير إلى عسكر أبي أحمد أخذه أصحاب السماريات[٢]، وكانت السماريات قد سبحت بالمقاتلة فقتلوا وأسروا. وجعلت القتلى والرؤوس من الأتراك والمغاربة وغيرهم من الزواريق، فنصب بعضها في الحبس، وبعضها على باب محمد بن عبد اللّه.

وأمر محمد لمن أبلى في هذا اليوم بالأسورة فسور قوم كثير من الجند وغيرهم.

وطلبت المنهزمة فبلغ بعضهم أوانا[٣] وبعضهم إلى عسكر أبي أحمد، وبعضهم نفذ إلى سُرَّ من رأى.

وخلع على قواده على كل واحد أربع خلع وخرج المبيضة والعيارون في طلب ما خلفه المنهزمة.

فوجه محمد في آخر هذا اليوم أخاه عبيد اللّه بن عبد اللّه في أثرهم حياطة لأهل بغداد ولأنه لم يأمن رجعتهم عليهم وأشير على محمد بن عبد اللّه بأن يتبعهم بعسكر في اليوم الثاني، وفي تلك الليلة ليوغر في آثارهم، فأبى ولم يتبع مولياً، ولم يجهز على جريح، وقبل أمان من استأمن، وأمر سعيد بن حميد، فكتب كتاباً يذكر هذه الوقعة.

فقرئ على أهل بغداد في مساجد جوامعها.

---

(١) يقول ابن الأثير في هذه القصة في الكامل:
فوجه محمد بن عبد اللّه قائدين من أصحابه فلقيهم الشاه بن ميكال فتحاربوا، فانهزم أصحاب المعتز، خرج عليهم كمين لمحمد بن عبد اللّه فهزمهم، ووضع أصحاب محمد فيهم السيف فقتلوهم أكثر قتل، ولم يفلت منهم إلا القليل ونهب عسكرهم جميعه ومن سلم من القتل ألقي بنفسه في دجلة. . . .

(٢) في الكامل: السفن.

(٣) قال ياقوت: أوانا: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة من نواحي دُجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخلعاء في أشعارهم.

وقدم محمد بن خالد بن يزيد من بلد[١] ينتظر من تصير إليه، وكان بالجزيرة.

فلما كان اضطراب الأتراك، ودخول المستعين بغداد، وإذ لم يمكنه المسير إلى بغداد إلاّ من طريق الرقة، فسار بمن معه من خاصته ثم انحدر منها إلى بغداد فسار إلى محمد بن عبد اللّه، فخلع عليه خمس خلع، وسقي، ومجلم، وخزوف وشي، وسواد.

ثم وجه به في جيش كثيف لمحاربة أيوب بن أحمد، وأخذ على طريق الفرات، فحاربه أيوب في نفر يسير فهزمه.

فلما انتهى خبر هزيمته إلى محمد بن عبد اللّه، قال: ليس يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره اللّه به[٢].

وكانت للأتراك وقعات بباب الشماسية كثيرة يكون مرة لهم ومرة عليهم وإنما تركنا ذكرها لأنها لم تجر بحيلة، ولا مكيدة، ولا تدبير صائب، وإنما كانت كالفتن التي تجري على ما يتفق[٣].

وكان الغوغاء اجتمعوا بسُرَّ مَنْ رأى[٤] بعد هزيمة الأتراك الأولى لما رأوا ضعف المعتز، فانتهبوا سوق أصحاب الحلي، والصيارفة، وأخذوا جميع ما وجدوا فيها.

فقصد التجار إبراهيم المؤيد أخي المعتز، فشكوا ذلك، وأعلموه أنهم قد كانوا ضمنوا لهم أموالهم وحفظها عليهم.

---

(١) بلد هذه مدينة على دجلة فوق الموصل. قال عنها ياقوت في معجم البلدان:
قال حمزة: بلد اسمها بالفارسية شهراباز. . . . وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً قالوا: إنما سميت بَلَط لأن الحوت ابتلعت يونس عليه السلام في نينيوى مقابل الموصل وبلطته هناك، وبها مشهد عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.
وقال عبد الكريم بن طاوس: بها قبر أبي جعفر محمد بن علي الهادي بإشفاق.

(٢) وإلى هنا تسير الأحداث على نحو ما في الكامل.

(٣) يقول ابن الأثير بعد ذكر ما وفق هنا من أحداث مفصلاً بعضاً مما أجمل مسكويه: وكان للأتراك وقعة بباب فقاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى كشفوا من عليه رموا به المنجنيق بالنار والنفط فلم يحرقه ثم كثر الجند على الباب فأزالهم عن موقعهم بعد قتلى وجرحى.
ووجه محمد العرادات في السفن فرموهم بها رمياً شديداً فقتلوا منهم نحو مائة، وكان بعض المغاربة قد صار إلى السور فرمى بكلاّب فتعلق به فأخذه الموكلون بالسور ورفعوه فقتلوه وألقوا رأسه إلى الأتراك فرجعوا إلى معسكرهم. وأراد بعض الموكلين بالسور أن يصيح: يا مستعين، يا منصور، فصاح: يا معتز يا منصور، فظنوه من المغاربة فقتلوه. وتقدم الأتراك في بعض الأيام إلى باب الشماسية فرُمِيَ الدرغمان مقدم المغاربة بحجر منجنيق فقتله وكان شجاعاً. وكان بعض المغاربة يجيء فيكشف استه ويصيح ويضطر ثم يرجع، فرماه بعض أصحاب محمد بينهم في دبره فخرج من حلقه فخر ميتاً. . . .

(٤) ثم تتفق من هنا الأخبار على نحو من بعضها بين ما ذكر ابن الأثير ومسكويه.

فقال المؤيد: كان ينبغي لكم أن تحولوا امتعتكم إلى منازلكم.
ولم يكن عنده لذلك تكير[١].

(١) وذكر ابن الأثير بعد هذا خبراً آخر فقال: وقدم لثمان بقين من سفر جماعة من أهل الثغور يشكون بلكاجور، ويزعمون أن بيعة المعتز وردت عليه، فدعا الناس إلى بيعته، وأخذ الناس بذلك، فمن امتنع ضربه وحبسه، وانهم امتنعوا وهربوا.
فقال وصيف: ما أظنه إلاّ ظن أن المستعين مات، وقام المعتز.
فقالوا: ما فعله إلاّ عن عمد.
فورد كتاب بلكاجور لأربع بقين من صفر يذكر أنه كان بايع المعتز، فلما ورد كتاب المستعين بصحة الأمر جدد له البيعة، وأنه على السمع والطاعة.
فأراد موسى بن بُغا أن يسير إلى المستعين فامتنع أصحابه الأتراك من موافقته على ذلك، وحاربوه، فقتل بينهم قتلى.
وقدم من البصرة عشر سفائن بحرية في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً ما بين نفاط وغيره، فمرت إلى ناحية الشماسية، فرمى من فيها بالنيران إلى عسكر أبي أحمد، فانتقلوا إلى موضع لا ينالهم شيء من النار، ولليلة بقيت من صفر تقدم الأتراك إلى أبواب بغداد فقاتلوا عليها، فقتل من الفريقين جماعة كثيرة، ودام القتال إلى العصر. وفي ربيع الأول عمل محمد بن عبد اللّه كافر كونات، وفرقها على العيّارين، فخرجوا بها إلى أبواب بغداد، وقتلوا من الأتراك نحواً من خمسين رجلاً.
ولأربع عشرة خلت من ربيع الأول قدم مزاحم بن خاقان من ناحية الرقة فتلقاه الناس ومعه زُهاء ألف رجل، فلما وصل خلع عليه سبع خلع، وقُلّد سيفاً.
ووجه المعتز عسكراً يبلغون ثلاثة آلاف فعسكروا بإزاء عسكر أبي أحمد بباب قطربل، وركب محمد بن عبد اللّه في عسكره وخرج من النظارة خلق كثير فحاذى عسكر أبي أحمد، فكانت بينهم في الماء جولة، وقتل من أصحاب أبي أحمد أكثر من خمسين رجلاً، ومضى النظارة فجازوا العسكر بنصف فرسخ فعبرت إليهم سفن لأبي أحمد فنالت منهم، ورجع محمد بن عبد اللّه، وأمر ابن ابي عون برد الناس، فأمرهم بالعود فأغلظوا له، فشتمهم وشتموه، وضرب رجلاً منهم فقتله، فحملت عليه العامة، فانكشف من بين أيديهم، فأخذ أصحاب أبي أحمد أربع سفائن وأحرقوا سفينة فيها عرادة لأهل بغداد، وسار العامة إلى دار ابن أبي عون لينهبوها، وقالوا: مايل الأتراك. فانهزم أصحابه، وكلوا محمداً في صرفه فصرفه ومنعهم من أخذ ماله.
ولإحدى عشر خلت من ربيع الأول وصل عسكر المعتز الذي سيره إلى مقابل عسكر أخيه أبي أحمد عند عكبرا، فأخرج إليهم ابن طاهر عسكر فمضوا حتى بلغوا قطربل، وبها كمين الأتراك، فأوقع بهم، ونشبت الحرب بينهم، وقتل بينهما جماعة، واندفع أصحاب محمد قليلاً إلى باب قطر بل، والأتراك معهم، فخرج الناس إليهم، فدفعوا الأتراك حتى نحوهم، ثم رجعوا إلى أهل بغداد فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وقتل من الأتراك أيضاً خلق كثير، ثم تقدم الأتراك إلى باب القطيعة فنقبوا السور، فقتل أهل بغداد أول خارج منهم، وكأن القتل ذلك اليوم أكثره في الأتراك والجراح بالسهام في أهل بغداد.
وندب عبد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر الناس فخرجوا معه وأمر الموكل بباب قطربل أن لا يدع منهزماً يدخله ونشبت الحرب فانهزم أصحاب عبد اللّه، وثبت أسد بن داود حتى قتل، وكان اغلاق الباب على المنهزمين أشد من الأتراك فأخذوا منهم الأسرى وقتلوا فأكثروا، وحملوا الأسرى والرؤوس إلى سامرا، فلما قربوا منها غطوا رؤوس الأسرى، فلما رآهم أهل سامرا بكوا وضجوا وارتفعت أصواتهم وأصوات نسائهم. فبلغ ذلك المعتز، فكره أن تغلظ قلوب الناس عليه فأمر لكل أسير بدينار، وأمر بالرؤوس فدفنت.

وورد من البصرة سفن بحرية تسمى البوارج وهي عشرة فيها نفاطون في كل واحدة تجار وخبّاز ومقاتلة، فكانوا يرمون الأتراك [١١١/ب] وعساكرهم بالنيران، فانتقلوا من معسكرهم.

وفي هذه السنة: ظفر سليمان بن عبد اللّه بعسكر الحسن بن زيد فتنحى الحسن عن طبرستان ولحق بالديلم.

ووردت الكتب على السلطان بالفتح، فكتب على يد محمد بن طاهر.

وكان سبب ذلك

إن أهل آمل لقوا من عسكر الحسن بن يزيد عينا فأتوا سليمان بن عبد اللّه مظهرين توبة وإنابة[١]، وثاب عليهم خلق كثير من جيشه فنهض إلى الحسن بن زيد(. . .)[٢] وعدة فهزمه واستولى على طبرستان وانقطعت أسباب الفتنة عنه وظفر محمد بن طاهر بالطالبي الذي كان بالري أسيراً، فكتب بالفتح.

وفرق محمد بن عبد اللّه في العيارين الكافر كوبات واستعمل منها شيئاً كثيراً.

وأحضر بنيونة رئيس العيّارين وسُورّ ووصل بخمسمائة درهم.

وقدم من ناحية الروم مزاحم بن خاقان فتلقاه بنو هاشم، وكان قدم معه من الخراسانيين والأتراك والمغاربة ألف رجل معهم عتاد الحرب من كل صنف.

فدخل بغداد، ووصيف عن يمينه وبُغا عن شماله، ولما وصل خلع عليه سبع خلع، وقلّد سيفاً، وخلع على كل واحد من ابنيه خمس خلع.

ثم كثرت الوقعات أيضاً بين أصحاب محمد بن عبد اللّه، وأصحاب أبي أحمد، وصنوى العيارون وأصحاب البواري، فكانوا، ينتصفون منهم، فرمى غلام لم يبلغ الحلم معه مخلاة فيها حجارة ومقلاع يرمي فيه فلا يخطئ وجوه الأتراك ووجوه دوابهم واجتمع عليه أربعة من الفرسان الماشية، وجعلوا يرمونه فيخطئونه، وجعل يرميهم فلا

---

(١) الخبر في الكامل على النحو التالي:
وفي هذه السنة: رجع سليمان بن محمد صرفه عبد اللّه بن طاهر إلى طبرستان من جرجان بجمع كثير وخيل وسلاح فتنحى الحسن بن زيد عن طبرستان ولحق بالديلم ودخلها سليمان وقصد سارية، وأتاه ابنان لقارن بن شهريار وأتاه أهل آمل وغيرهم منيبين مظهرين الندم ويسألون الصفح.
فلقيهم بما أرادوا، ونهى أصحابه عن القتل والنهب والأذى.
وورد كتاب أسد بن جندان إلى محمد بن عبد اللّه يخبره أنه لقي علي بن عبد اللّه الطالبي المسمى بالمرعشي فيمن معه من رؤساء الجبل فهزمه، ودخل مدينة آمل.

(٢) موضع النقط كلمة هذا رسمها: «بتعيبه».

يخطئ فعقر بهم دوابهم من رميه، فمضوا وحملوا معهم أربعة من رجاله المغاربة بالرماح فداخله اثنان منهم، فرمى بنفسه في الماء، ودخلا خلفه، فلم يلحقاه، وعبر إلى الجانب الشرقي وصيح بهما وكثر الناس فرجع جميعهم ولم يصلوا إليه.

وفي هذه السنة: وقدم أبو الساج من طريق مكة في نحو من سبعمائة فارس ومعه ثمانية عشر محملاً فيها ستة وثلاثون أسيراً من أساري الأعراب في الأغلال.

فدخل هو وأصحابه بغداد في زي حسن وسلاح ظاهر، فخلع عليه خمس خلع، وانصرف إلى منزله.

وقدم أيضاً بغداد جيشون ومعه يوسف بن يعقوب قوصرة مولى الهادي فيمن كان مع موسى بن بُغا من الشاكرية وانضم عامة الشاكرية المقيمون بالمرية وهم ألف وثلثمائة فخلع عليه خمس خلع وعلى جماعة من الوجوه وانصرفوا إلى منازلهم.

وخلع على أبي الساج ديواد، وعلى ابن فراشة.

وعسكر أبو الساج في سوق الثلاثاء، وأعطى بغالاً من بغال السلطان حمل عليها الرجالة وأمره بالخروج إلى المدائن يضبطها[١].

فحكي أن أبا الساج لما أمره محمد بن عبد اللّه بالشخوص إلى المدائن قال له: أيها الأمير، عندي مشورة أشير بها؟

قال: قل، يا جعفر فإنك غير متهم.

قال: إن كنت تريد أن تجاهد هؤلاء القوم فالرأي لك أن لا يفارق قوادك ولا تفرقهم وأجمعهم حتى تقص هذا العسكر الذي بإزائك، فإذا فرغت من هؤلاء فما أقدرك.

فقال لي: تدبير واللّه الكافي.

فقال له أبو الساج السمع والطاعة ومضى لما أمره.

فلما سار إلى المدائن، ثم إلى الصيادة ابتدأ في حفر خندق كسرى، وكتب يستمد فوجه إليه خمسمائة رجل.

وكان شخوصه في ثلاثة آلاف فارس وراجل ثم استمد حتى حصل في عسكره ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل[٢].

---

(١) في الكامل في التاريخ: وفي منتصف ربيع الآخر أمر أبو الساج، وعلي بن فراشة، وعلي بن حفص بالمسير إلى المدائن، ثم ساق نحو الخبر الذي هنا.

(٢) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل: =

ووجه محمد بن عبد اللّه إلى الأنبار[١] نجويه بن قبس في الأعراب وأمره بالمقام بها والفرض لأعراب الناحية.

وأثبت نحو من ألفي رجل وأقام بالأنبار وضبطها فبلغه أن قوماً من الأتراك قصدوه فشق الماء من الفرات إلى خندق الأنبار، وأفاض من الصحاري إلى ناحية المسلمين فصار ما يلي الأنبار بطيحة، وقطع القناطر. وكتب يستمد، فندب للخروج إليه رشيد بن كاوس أخو الأفشين في ألف رجل.

وأمده ابن طاهر بثلاثمائة رجل انتخبهم من القادمين من الثغور فوجل.

وأخرج المعتز أبا نصر بن بغا من سُرَّ مَنْ رأى على طريق الإسحاقي فسار يومه وليلته، وصبح الأسار ساعة وصل رشيد خارج المدينة، وكان نجويه نازلاً في المدينة فلما وافى أبو نصر عاجل رشيد وهم غارون على غير قصبته فوضع فيهم السيف واثار أصحاب رشيد إلى سلاحهم، فقالوا: الأتراك والمغاربة، واشتد القتال وقتلوا منهم جماعة.

ثم انهزم الشاكرية ورشيد على الطريق الذي جاؤوا منه.

وبلغ نجويه ما لقي رشيد وأصحابه فعبر إلى الجانب الغربي، وقطع جسر الأنبار، وسار رشيد إلى المحول وسار نجويه في الجانب الغربي حتى وافى بغداد.

ودخل رشيد في هذه العشية إلى دار ابن طاهر، وأعلم نجويه محمد بن عبد اللّه

= وكتب المعتز إلى أخيه أبي أحمد يلومه للتقصير في قتال أهل بغداد، فكتب إليه في الجواب:

لأمر المنايا علينا طريقُ ... وللدهر فينا اتساع وضيقُ
وأيامنا عبرة للأنام ... فمنها البكور ومنها الطروقُ
ومنها هنات تشيب الوليد ... ويخذل فيها الصديق الصدوقُ
وفتنة دين لها ذروة ... تفوق العيون وبحر عميقُ
قتال متين وسيف عتيد ... وخوف شديد وحصن وثيقُ
فهذا طريح وهذا جريح ... وهذا حريق وهذا غريقُ
وهذا قيل وهذا تليل ... وآخر يشدخه المنجنيقُ
هناك اغتصاب، وثَمَّ انتهاب ... ودور خراب وكانت تروقُ
إذا ما شرعنا إلى مسلك ... وجدناه قد سد عنا الطريقُ
فباللّه نبلغ ما نرتجي ... وباللّه ندفع ما لا نطيقُ

وهذه الأبيات لعلي بن أمية في فتنة الأمين والمأمون.

(١) قال ياقوت في معجمه:
مدينة قرب بلخ، وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروز بالقرب منها. ولها مياه، وكروم، وبساتين كثيرة، وبناؤها طين، وبينها وبين شبورقان مرحلة في ناحية الجنوب. . . .
والأنبار أيضاً: مدينة على الفرات في غربي بغداد وسبق التعريف بهما من قبل.

أنه عند مسير الأتراك إلى الأنبار وجه إلى رشيد يسأله أن يوجه إليه مائة رجل من الناحية والفرسان مع رجاله منهم فمضى إلى نصر بن هبيرة لينفذ هناك.

واختار محمد بن عبد اللّه الحسين بن إسماعيل [بن إبراهيم إلى][(١)] الأنبار.

ووجه محمد بن رجاء الحصاري، وعبد اللّه بن نصر بن حمزة، ورشيد بن كاووس وجماعة من أهل النجدة، وأمر للناس برزق أربعة أشهر ممن يخرج مع الحسين.

فامتنع من قدم من الثغور من قبض الرزق [١١٢/أ] أربعة أشهر لأن أكثرهم كانوا بغير دواب فوعدهم، ثم رضوا برزق أربعة أشهر.

ثم أحضر الحسين مع قواده الكبار وهم نحو من عشرين قائداً، فخلع عليه وقدمت مرتبته إلى الفوج الثاني، وكان في الفوج الرابع. وصير رشيد على المقدمة، ومحمد بن رجاء على المسافة.

وخرج الحسين إلى معسكره وأمر وصيفاً وبغا بتشييعه. وأخرج لأهل العسكر من المال ستة وثلاثون ألف ألف دينار وسار الحسين[(٢)].

وكان أهل الأنبار حين تنحى نجويه ورشيد، وسار الأتراك والمغاربة إلى الأنبار، ونادوا بالإيمان وأمروا بفتح حوانيتهم والسوق فيها اطمأنوا إلى ذلك منهم، وسكنوا وطمعوا في أن يفوا لهم فأقاموا بذلك يومهم وليلتهم حتى أصبحوا.

ووافت الأنبار سفن من الرقة فيها دقيق وأطواق فيها زيت، فأخذوا جميعه وانتهبوا ما وجدوا، وأخذوا الإبل والبغال والحمير، وجمعوا ذلك مع من يؤديهم إلى منازلهم بسُرَّ مَنْ رأى مع رؤوس من قتل من أصحاب رشيد، ومن أسروا.

وكان بقصر ابن هبيرة مائة وعشرين رجلاً والرؤوس سبعين رأساً.

وسار الحسين، وانضم إليه نجويه، وكان بقصر ابن هبيرة، وسأل لأصحابه مالاً فحمل من[(٣)] عسكر الحسين ثلاثة آلاف دينار لأصحاب نجويه، وحمل إلى الحسين مال وأطواق وأسورة لمن أبلى.

وأُمدَّ بالرجال فجاءه أبو السنا محمد بن عبدوس، والحجار بن أسود في ألف فارس وراجل وجند وانتخبوا من قيادات شتى.

---

(١) زيادة من الكامل يتطلبها السياق.

(٢) قال صاحب الكامل:
سار عن بغداد يوم الخميس لسبع بقين من جمادى الأولى، وتبعه الناس، والقواد، وبنو هاشم إلى الياسرية.

(٣) في المخطوط: إلى السياق يقتضي التغيير إلى ما ذكر. واللّه أعلم.

ونزل الحسين بعسكره إلى قريب من دِمِمَّا[١].

ذكر رأي أشير به عليه صواب

فأشار عليه رشيد والقواد أن ينزل عسكره بذاك الموضع لسعته وحصانته، وأن في قواده في خيل مريدة، فإن كان الأمراء له كان قادراً أن ينقل عسكره، وإن كان عليه انحاز إلى عسكره، ثم راجع عدوه[٢].

فلم يقبل الرأي وحملهم على المسير من موضعهم، وبين الموضعين فرسخان.

فلما بلغوا الموضع الذي أراد الحسين النزول فيه أمر الناس بالنزول.

وكانت جواسيس الأتراك في عسكر الحسين، فساروا إليهم فأعلموهم برجل الحسين وضيق معسكره الذي نزل فيه.

فوافوه والناس يحلون أثقالهم، فثار أهل العسكر وكان بينهم قتلى[٣].

ثم حمل أصحاب الحسين عليهم فكشفوهم كشفاً قبيحاً قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق. وكان الأتراك قد كمنوا قوماً، فخرج الكمين على بقية، فلم يكن لهم همة إلاّ الهرب ولا ملجأ إلا الفرات، فغرق خلق، وقتل جماعة.

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: دِمِمَّا: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة، ينسب إليها جماعة من أهل الحديث وغيرهم منهم. أبو البركات محمد بن محمد بن رضوان الدممّي صاحب محمد التميمي سمع أبا علي شاذان. روى عنه أبو القاسم بن السمرقندي، توفي سنة(٤٩٣) في رجب.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل قبل هذا الرأي قولاً فقال: وسار حسين حتى نزل دمما، ووافته طلائع الأتراك فوق دممّا، فصف أصحابه مقابل الأتراك بينهما نهر، وكان عسكره عشرة آلآف رجل، وكان الأتراك زهاء ألف رجل، فتراموا بالسهام فجرح بينهم،عدد، وعاد الأتراك إلى الأنبار، وتقدم الحسين فنزل بمكان يعرف بالقطيعة واسع يحمل العسكر فأقام فيه يومه، ثم عزم على الرحيل إلى قرب الأنبار، فأشار عليه القواد....

(٣) هذه نتيجة حتمية لمن لم يكن مصغياً ومذعناً إلى نصيحة من ينصحه وهو من أهل الدراية بالأمر خصوصاً إذا كان ممن يحرص على نفع المنصوح.
فما بالنا في الأمور المصيرية كالأمور العسكرية التي يتعلق عليها أرواح الجند وأعراض البلاد وثرواتها وممتلكاتها وكرامتها، أما عن أمر الجواسيس فهو أمر مفروغ منه فلا يخلو جيش من أن يكون فيه عملاء لخصمه وهو من تدبير كل خصم لخصمه، والقادة دائماً يعملون لذلك الأمر حسابه جيداً ولكن ليس في كل مرة يكون تدبيرهم محكم إلى درجة تعمي الجاسوس عن أمرهم وأسرارهم الهامة، وإنما كانت الغلبة لعسكر الحسين لكثرة العدد، ولكون الجند لم يكونوا قد حلوا بعد.
وهناك أمر مباح من كلا الطرفين، وهم العيون الذين يكونون طلائع للجيوش أو ما يسمى في عصرنا بأفراد الاستطلاع، فإن مهام هؤلاء الأفراد هي نقل المعلومات الجديدة عن تحركات الخصم أو العدو ومحاولة معرفة عدده وتسليحه ونقاط الضعف في قواته ومصادر وطرق تمويله وابلاغها لقوادهم.

فأما الفرسان فضربوا دوابهم لا يلوون على شيء، والقواد ينادونهم يسألونهم الرجعة، فلم يرجع أحد.

وأبلى محمد بن رجاء، ورشيد، ونجويه بلاءً حسناً ـ ولم يكن لمن انهزم معقل دون الياسرية على باب بغداد، فلم يملك القواد أمر أصحابهم فأشفقوا حينئذ على أنفسهم، فاثبتوا راجعين وراءهم. . . .[١] من أدبارهم أن يبتغوا.

وحوى الأتراك عسكر الحسين[٢]، ولقي رجل من التجار في جماعة ممن ذهبت أموالهم في عسكر الحسين، فقال له: الحمد للّه الذي بيض وجهك أصعدت في أثني عشر يوماً، ورجعت في يوم واحد.

فتغافل عنه، وأمر ابن طاهر الشاه بن ميكال في صبيحة الليلة التي وافى بها الحسين أن يتلقاه ويمنعه من دخول بغداد.

فلقيه في الطريق فرده إلى بستان الحروب، فأقام يومه.

فلما كان الليل سار إلى دار ابن طاهر، فوبخه ابن طاهر وأمره بالرواح إلى الياسرية[٣] ثم أمر بإخراج مال لإعطاء شهر واحد لأهل هذا العسكر.

فحملت تسعة آلاف دينار، وصار كُتاب ديوان العرض إلى الياسرية لعرض الجند واعطائهم.

ونودي ببغداد فيمن (. . . .)[٤] الذين في عسكر الحسين أن يلحقوا بالحسين في عسكره، وأحلوا ثلاثة أيام، فمن وجد منهم ببغداد بعد ثلاثة ضرب ثلاثمائة سوط، وقوض اسمه من الديوان[٥].

---

(١) كلمة في المخطوط لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «حرلهم».

(٢) بعدها في الكامل: وسلم ما كان معه من سلاح في السفن لأن الملاحين حذروا السفن فسلم ما معهم من السلاح وغيره ووصل المنهزمون إلى الياسرية لست خلون من جمادى الآخرة.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
منسوبة إلى ياسر اسم رجل: قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى، بينها وبين بغداد ميلان، وعليها قنطرة مليحة فيها بساتين، بينها وبين المحول نحو ميل واحد.
ينسب إليها أبو منصور نصر بن الحكم بن زياد الياسري، حدث عن هشيم، وداود بن الزبرقان، وخلف بن خليفة روى عنه الحسن بن علوية القطان، وأحمد بن علي الأبار وغيرهما.
ومن المتأخرين عثمان بن القاسم الياسري أبو عمرو الواعظ سمع من أبي الخشاب وكاتبه شهدة، وكان يعظ الناس، ومات في ذي الحجة سنة (٦١٦).

(٤) كلمة لم أتبين قراءتها وهذا رسمها: «يدخلناهم» والعبارة أو الخبر في الكامل على النحو التالي:
ونادى من وجدناه ببغداد من عسكر الحسين بعد ثلاث أيام ضرب ثلاثمائة وسط، واسقط من الديوان.

(٥) وبعد هذا في الكامل زياده هي:
فخرج إلى الحسين بالياسرية، وأخرج إليهم ابن عبد اللّه جنداً آخر، وأعطاهم الأرزاق.
وأمر بعض الناس ليعلم من قتل، ومن غرق، ومن سلم، ففعلوا ذلك.
=

فخرج الناس، وأمر خالد بن عمران في الليلة التي قدم فيها الحسين أن يعسكر بأصحابه بالمحول. ودخل الحسين، وكتب إلى خالد بن عمران أن يرحل متقدماً أمامه.

فامتنع خالد من ذلك، وذكر أنه لا يبرح حتى يأتيه قائد في جند كثيف فيقيم مكانه لأنه يتخوّف أن يأتيه الأتراك من خلفه من عسكرهم.

وسار إلى الحسين رجل فأخبره أن الأتراك قد دلُّوا على عدة مواضع من الفرات تخاض إلى عسكره.

فأمر بضرب الرجل مائتي سوط ، ووكل بمواضع المحاض رجلاً من قواده يقال له: الحسين بن علي بن يحيى الأرمني في مائة فارس، ومائة راجل.

فطلع أول القوم، فخرج إليهم وقد أتاهم منهم أربعة عشر علماً، فقاتل أصحابه ساعة ووكل بالقنطرة أبا السناء وأمره أن يمنع من انهزم من العبور.

فأتى الأتراك المُحاضة فرأوا الموكل بها فتركوه واقفاً.

فساروا إلى محاضة أخرى من خلف الموكل، فسير الحسن بن علي وقاتل، وقيل للحسين بن إسماعيل أقصد نحوه فلم يصل إليه حتى انهزم خالد بن عمران.

ومنعهم أبو السنا من العبور على القنطرة، فرجع الرجالة والخراسانية فرموا بأنفسهم في الفرات، فغرق من لم يكن يحسن السباحة وعبر من كان يحسنها، فنجا عريان وخرج إلى الجزيرة لا يصل منها إلى الشاطئ لما عليه من الأتراك.

فذكر عن بعض جند الحسين أنه [١١٢/ب] قال: بعث الحسن بن علي الأرمني إلى الحسين بن إسماعيل: أن الأتراك قد وافوا المحاضة. فأتاه الرسول فقال الحاجب: إن الأمير نائم.

فرجع فأخبره، فرد رسولاً ثانياً. فقال: قد خرج من المخرج ونام.

وجاءت الصيحة، وعبر الأتراك. فقعد الحسين في زورق، وانحدر واستأمن قوم من الخراسانية رموا سلاحهم وثيابهم وقعدوا على الشاطئ عراة.

وشد أصحاب أعلام الأتراك حتى ضربوا أعلامهم حتى مضرب الحسين واقتطعوا

= وأتاهم كتاب بعض عيونهم من الأنبار يخبرهم أن القتلى كانت من الترك أكثر من مائتين والجرحى نحو اربعمائة، وأن جميع من أسرة الأتراك مائتان وعشرون رجلاً، وأنه عَدّ رؤوس القتلى فكانت سبعين رأساً.

وكانوا أخذوا جماعة من أهل الأسواق، فأطلقوهم.

فرحل الحسين لاثنتي عشرة بقيت من جمادى الآخرة، وسار حتى عَبَر نهر أريق، فلما كان السبت لثمان خلون من رجب أتاه إنسان فاعلمه أن الأتراك يريدون العبور إليه من عدة مخاضات. فضربه، وكل مواضع المخاض رجلاً من قواده . . .

السيوف ولحق الأتراك وأصحاب الحسين فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوا وأسروا نحو من مائتين، وغرق خلق كثير، وفقد جماعة من القواد(١).

وورد كتاب أبي الساج بوقعة كانت له مع الأتراك ورئيسهم باتكيال.

فهزم الأتراك وقتل رئيسهم باتكيال، وغرق منهم خلق كثير.

فحمل إليه محمد بن عبد الله بن طاهر عشرة آلاف دينار صلة ومعونة، وخمسة أبواب خليعة وسيف همداني.

[**وفي**](٢) **هذه السنة**: نقب الأتراك السور الذي عليه أصحاب ابن طاهر من ناحية هوازيا في موضعين، ودخلوهما وقاتلهم أصحاب ابن طاهر فهزموهم حتى وافوا باب الأنبار وعليه إبراهيم بن محمد بن مصعب، وابن أبي خالد وغيرهم. وهم لا يعلمون ما وراءهم، ويقاتلون من بين أيديهم قتالاً شديداً.

ثم إنهم علموا أنهم لا يلوون على شيء، فضرب الأتراك باب الأنبار بالنار، فاحترق، وأحرقوا ما كان هناك من المجانيق، والعرادات.

وخلوا بغداد إلى أن صاروا إلى باب الحديد، ومن الشارع إلى موضع الدواليب، فأحرقوا كل شيء قريب من ذلك موضع من أمامهم وورائهم، ونصبوا(٣) أعلافهم، وانهزم الناس.

فركب محمد بن طاهر في السلاح، وأفاء القوم ووجههم إلى باب الأنبار وباب هوازيا، وجميع الأبواب(٤) التي في الجانب الغربي وشحنها بالرجال.

وركب بُغا، ووصيف، والشاه بن ميكال، وتوجهوا إلى هذه الأبواب.

فقتل من الأتراك خلق كثير عظيم، ووجه برؤوسهم إلى طاهر، وكاثرهم الناس حتى خرّجوهم من بغداد، بعد أن قتل منهم خلق كثير.

---

(١) زاد صاحب الكامل:
فوصل المنهزمون بغداد نصف الليل ووافى بقيتهم في النار، واستولى الأتراك على أثقالهم وأموالهم، وقتل عدة من قواد الحسين، فقال الهندواني في الحسين:

يا أحزم الناس رأياً في تخلفه ... عن القتال خلطت الصفو بالكدر
لما رأيت سيوف الترك مُصلته ... علمت ما في سيوف الترك من قَدَر
قصرت مضطجراً ذُلاً ومنقصة ... والنجح يذهب بين العجز والضَّجَر

(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط والسياق يقتضيه.
(٣) كذا في المخطوط، وأظن أن صوابها: ونهبوا، والله أعلم.
(٤) في المخطوط: الباب. وهو تحريف.

فلما انصرفوا ووكل بُغا بالباب من يحفظه، ووجه في حمل الآجر والجصّ وأمر بسده.

وفيها: وافى بغداد بالفردك بن أبي يكتحل الأسروشني، فأمر له محمد بن عبد اللّه بعرض، وضم إليه رجالاً من الشاكرية، وأمر أن يسكن بالكُنَاسَة[١]، ويجتمع مع المظفر بن سبيل بالياسرية في ضبط بلدة الناحية، ويكون أمرهما واحداً.

فاختلفا، وكتب كل واحد منهما يشكو الآخر، ويستعفي عن المقام بالكناسة.

فأقروا بالموضع بالعزل، وأعفى المظفر.

وفي آخر ليلة بقيت من شهر رمضان من هذه السنة قتل بالفردك.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب قتله أن أبا نصر بن بغا لما غلب على الأنبار، وهزم جيوش ابن طاهر من تلك الناحية وأجلاهم، وبث خيله ورجاله لما في أطراف بغداد، وسار إلى أبي نصر إلى نهر صرصر[٢].

واتصلت بابن طاهر أخباره[٣] وخبر وقعة كانت بين أبي الساج والأتراك بجرجرايا، وخذلان من معه إياه[٤].

وبدت بالفردك إلى اللحاق بأبي الساج والمصير إليه بمن معه.

فسار بالفردك في أصحابه لليلتين بقيتا من شهر رمضان فسار يومئذ وصبح بالمدائن أصحاب ابن طاهر.

فقاتلهم الأتراك فانهزموا ولحق من فيها من القواد بأبي الساج.

وقاتل بالفردك قتالاً شديداً، فلما رأى انهزام من هناك مضى متوجهاً نحو أبي الساج فأدرك، وقتل.

---

(١) قال ياقوت: محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثقفي زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) صرصر قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا، وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل: نهر صرصر فنسب النهر إليها، وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين.

(٣) في المخطوط: خبره. وهو تحريف.

(٤) ويلخص ابن الأثير هذا الخبر فيقول:
ثم كانت بينهم عدة وقعات، وقتل فيها من الفريقين جماعة.
ودخل الأتراك في بعض تلك الحروب إلى بغداد وتكاثر الناس عليهم فأخرجوهم منها.
وجرى بين أبي الساج وجماعة من الأتراك وقعة هزمهم أبو الساج، ثم واقعوه أخرى فتخلى عنه بعض أصحابه فانهزم، ودخل الأتراك المدائن، وخرجت الأتراك الذين بالأنبار في سواد بغداد من الجانب الغربي حتى بلغوا صرصر، وقصر ابن هبيرة.

وقيل: إنه غرق.

وفي هذه السنة: كانت وقعة عظيمة لأهل بغداد فهزموا فيها الأتراك، وانتهبوا فيها عسكرهم.

وكان سبب ذلك

إن أبواب بغداد كلها فتحت من الجانبين، ونصبت المجانيق والعرادات في أبوابها كلها. والسيارات في دجلة.

وخرج منها الجند كلهم، وخرج ابن طاهر، بُغا، ووصيف.

وتزاحف الفريقان واشتد الحرب إلى القطيعة.

ثم غبروا إلى باب الشماسية.

وقعد ابن طاهر في قبة ضربت عليه، وأقلب الرماة من بغداد بالبادكية في الزوارق.

. . . . . .السهم[1]، وعدة منهم قتلهم، فهزم الأتراك وتبعهم أهل بغداد حتى ساروا إلى عسكرهم فانتهبوا سوقهم.

وهرب الأتراك على وجوههم لا يلوون على شيء. وحملت الرؤوس حتى كثرت، فجعل وصيف وبغا يقولان كلما جيء برأس: ذهب واللّه الموالي[2].

واتبعهم أهل بغداد إلى الروذبار.

ووقف أحمد بن المتوكل يرد الموالي ويخبرهم أنهم إن لم يكروا لم تبق لهم بقية، وأن القوم يتبعونهم إلى سُرَّ مَنْ رأى.

فتراجعوا، وثاب بعضهم، وأقبلت العامة تجر رؤوس من قتل.

وجعل محمد بن عبد اللّه يطوق من جاء برأس، ويصله حتى كثر ذلك.

وبدت الكراهية في وجوه من كان مع بغا، ووصيف من الأتراك والموالي،

---

(١) كذا جاء رسم الكلمات التي هي موضع النقط في المخطوطة «فد يا لنتنظم السهم»

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل أن هذا الحدث كان في ذي القعدة، وذكره على النحو التالي قال:
وفي ذي القعدة كانت وقعة عظيمة خرج محمد بن عبد اللّه بن طاهر في جميع القواد والعسكر ونصب له قبة وجلس فيها، واقتتل الناس قتالاً شديداً فانهزمت الأتراك، ودخل أهل بغداد عسكرهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وهربوا على وجوههم لا يلوون على شيء، فكلما جيء برأس يقول بغا: وذهبت الموالي، وشاء ذلك من مع بغا، ووصيف من الأتراك. . .
وأعقب الخبر بقوله: وفي ذي الحجة وجه أبو أحمد خمس سفن مملوءة طعاماً ودقيقاً، إلى ابن طاهر.

وأقبلت الأعلام للحسن بن الأفشين مع الأعلام التي للحسين بن أسماعيل وقد استلبه غلام لشاهك فنسي أن ينكسه.

فلما رأى الناس العلم الأحمر ومن خلفه، توهموا أن الأتراك قد زحفوا عليهم فانهزموا.

وأراد بعض من وقف أن يقتل غلام شاهك فهمه ونكس العلم، والناس قد ازدحموا منهزمين، فتراجع الأتراك إلى معسكرهم ولم يعلموا بهزيمة أهل بغداد فيحملوا عليهم، ووضعت الحرب أوزارها، فلم يكن بعد ذلك وقعة.

ذكر السبب في [١١٣أ] ذلك

كان السبب في ذلك أن ابن طاهر كان يكاتب المعتز في الصلح.

فلما كانت هذه الوقعة انكرب، وكتب أنه لا يعود بعدها.

ثم أغلقت الأبواب ببغداد، فاشتد عليهم الحصار فصاحوا على أبواب ابن طاهر: الجوع، الجوع. وكان الناس يجتمعون في الجزيرة التي تلقاء داود بن طاهر يشتمونه(١).

فراسل ابن طاهر المعتز في الصلح واضطرب من أهل بغداد فوافى من بسُرَّ من رأى حماد بن إسحاق بن حماد بن طاهر، فخلا به، ولم يذكر ما بينهما، ثم انصرف حماد إلى عسكر أبي أحمد ورجع أبو سعيد إلى بغداد، وأمر ابن طاهر بإطلاق جميع المحبوسين ممن كان حبس بسبب بينه وبين أبي أحمد من الحرب ومعاونته إياه، فطلقوا.

ومن غد هذا اليوم اجتمع قوم من رجالة الجند وكثير من العامة.

أما الجند فطلبوا أرزاقهم، وأما العامة فشكت سوء الحال التي هم [بها](٢) من الضيق، وغلاء الشعير وشدة الحصار وقالوا: إما خرجت فقاتلت، وإما تركتنا نمضي في البلاد.

فوعدهم الخروج أو فتح الباب الصالح، ورفق بهم وَمَنَّاهُم.

ثم اجتمع الجند والناس من العوام مرة أخرى، وكان ابن طاهر قد شحن الجزيرة بالخيل، وكذلك باب داره والجسر.

فحضر الجزيرة بشر كثير، فطردوا من كان ابن طاهر رتبهم فيها، ثم ساروا إلى الجسر فطردوا من كان هناك من أصحاب ابن طاهر.

وساروا إلى الحبس فمانعهم أبو مالك الموكل بالمحبس الشرقي فشجوه،

---

(١) يقول ابن الأثير: فشتموه أقبح شتم... وبات منهم جماعة بالجزيرة يشتمونه وهو يسمع، فلما ذكروا اسم أمه، ضحك وقال: ما أدري كيف عرفوه وقد كان أكثر جواري أبي لا يعرفون اسمها.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

وخرجوا كاتبين لأصحابه، فدخل داره وخلاهم، فانتهبوا ما في محبسه[١].

ثم عبر إليهم محمد بن أبي عون، فضمن للجند رزق أربعة أشهر، فانصرفوا.

ووجه أبو أحمد خمس سفائن من دقيق، وحنطة، وشعير وقت إلى ابن طاهر، فوصلت إليه[٢].

ثم علم الناس بما عليه ابن طاهر من خلعه المستعين، وبيعة المعتز.

ووجه ابن طاهر قواده إلى أبي أحمد حتى بايعوا للمعتز فخلع على كل واحد منهم أربع خلع.

فظنت العامة أن الصلح جرى: بأن الخليفة المستعين، وأن المعتز ولي العهد بعده.

فلما كان بعد ذلك خرج رشيد بن كاوس مع فائدين آخرين، ووجهوا إلى الأتراك بأنه على المسير إليهم ليكون مدهم.

فوافاه من الأتراك بأنه على أن الصلح قد وقع، فسلم عليهم وعانق من عرف منهم.

وأخذوا بلجام دابته ومضوا به وبأسه في أثره، فلما كان من الغد سار رشيد إلى باب الشماسية وقال حين كلم الناس:

إن أمير المؤمنين، وأبا أحمد يقرآن عليكم السلام ويقولان لكم: من دخل في طاعتنا قربناه ووصلناه ومن أبى ذلك فهو أعلم.

فشتمه العامة، ثم طاف على جميع الأبواب الشرقية بمثل ذلك، وهو يشتم في كلٍ والمعتز. فلما فعل رشيد ذلك علمت العامة ما عليه ابن طاهر فمضت إلى الجزيرة التي بحيال دار ابن طاهر فصاحوا به وشتموه أقبح شتيمة.

ثم ساروا إلى بابه ففعلوا مثل ذلك، فخرج إليهم راغب الخادم فحضهم على ما فعلوا بالمستعين، ثم مضى إلى الحظيرة التي فيها الجيش فحضهم.

فساروا إلى باب ابن طاهر فكشفوا من عليه وردوهم فلم يبرحوا، وقاتلوهم حتى ساروا إلى دهليزه، وأرادوا إحراق الباب الداخلي فلم يجدوا ناراً. وقد كانوا بالجزيرة الليل كله يشتمونه ويتناولونه بالقبيح.

---

(١) في المخطوط: مجلسه. وهو تحريف، والسياق يقتضي ما صوبت والله أعلم.

(٢) سبق ذكر هذا الخبر في الهامش وقد قدم وأخر المؤلف هنا أو المؤلف في الكامل في القصة والمضمون واحد في إجماله.

فذكر عن ابن شجاع البلخي قال: كنت عند الأمير وهو يحدثني ويسمع ما يقذف به من كل إنسان حتى ذكروا اسم أمه، فضحك، ثم قال: يا أبا عبد اللّه واللّه ما أدري كيف عرفوا اسم أمي ولقد كان كثير من جواري أبي العباس عبد اللّه بن طاهر لا يعرفون اسمها؟

فقلت له: أيها الأمير ما رأيت أوسع من حلمك. فقال: ما رأيت أوفق من الصبر عليهم ولا بد من ذلك. فلما أصبحوا، وقفوا بالباب، وسار ابن طاهر إلى المستعين يسأله أن يطلع عليهم ويسكنهم ويعلمهم ما هو عليه.

فأشرف من أعلى الباب عليهم وعليه البردة والطويلة وابن طاهر إلى جانبه، فحلف لهم باللّه ما اتهمه وإني لفي عافية ما على منه بأس، وإنه لم يخلع، ووعدهم أن يخرج في غدٍ وهو يوم الجمعة فيصلي بهم ويظهر لهم، فانصرف عامتهم بعد قتلى وقعت[١]. فلما كان يوم الجمعة بكّر الناس بالصباح يطلبون المستعين، فانتهبوا دواب على ابن هشينا، وجميع ما كان في منزله وهرب. ولم يزل الناس وقوفاً إلى أن ارتفع النهار، فوافى وصيف، وبُغا، وأولادهما وقوادهما، ومواليهما، وأخوال المستعين مع الناس جميعاً على الباب.

فدخل وصيف وبُغا في خاصتهما، ودخل أخوال المستعين معهم إلى الدهليز، فوقفوا على دوابهم.

وأعلم ابن[٢] طاهر مكان الأخوال فأذن لهم فأبوا، وقالوا: ليس هذا يوم نزول عن ظهور دوابنا إلاّ بعد أن يعرف العامة حقيقة أمرنا.

فلم تزل الرسل تختلف إليهم، وهم يأبون فخرج إليهم محمد بن عبد اللّه بنفسه وسألهم النزول والدخول على المستعين، فأعلموه أن العامة قد ضجت مما يبلغها، وصح عندها ما أنت عليه من خلع المستعين والبيعة للمعتز، وإرادتك التهوين[٣] لتصير الأمر إليه، وإدخال الأتراك والمغاربة بغداد فيحملون فيها بحكمه.

واستراب بك أهل بغداد واتهموك على خليفتهم وأموالهم وأولادهم وأنفسهم.

---

(١) خبر ظهور الخليفة في الكامل جاء على النحو التالي: فلما رأى محمد ذلك سأل المستعين الخروج إلى دار العامة ودخل إليه جماعة من الناس فنظروا إليه وخرجوا فأعلموا الناس الخبر، فلم يقتنعوا بذلك. فأمر المستعين بإغلاق الأبواب، وصعد سطح دار العامة ومحمد بن عبد اللّه معه، فرآه الناس وعليه البردة وبيده القضيب.
فكلم الناس، وأقسم عليهم بحق صاحب البردة إلا انصرفوا، فإنه آمن لا بأس عليه من محمد. فسألوه الركوب معهم والخروج من دار محمد لأنهم لا يأمنوه عليه، فوعدهم ذلك.

(٢) في المخطوط: ان وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: التهويل. وهو تحريف.

وسألوا إخراج الخليفة إليهم ليروه ويكذبوا ما بلغهم [١١٣/ب] فيه فلما تبين محمد بن عبد اللّه ذلك الأمر، ونظر إلى كثرة اجتماع الناس وضجتهم سأل المستعين الخروج إليهم.

فخرج إلى دار العامة التي كان يدخلها جميع الناس فنصب له فيها كرسي، وأدخل إليه جماعة من الناس، فنظروا إليه ثم خرجوا من ورائهم فأعلموهم صحته، فلم يقنعوا بذلك.

وعرف ابن طاهر كثرة الناس [وأنهم][1] لا يسكنون، فأمر بإغلاق باب الحديد الخارج فأغلق، وسار هو وأخواله، ومحمد بن موسى المنجم وغيرهم إلى المدرجة التي تفضي إلى سطوح دار العامة من خزائن السلاح ثم نصب لهم سلاليم على سطوح المسجد الذي يجلس فيه محمد بن عبد اللّه.

فأشرف المستعين على الناس وعليه سواد وفوق السواد بردة النبي ﷺ[2] ومعه القضيب.

فكلمه الناس وكلمهم، وناشدهم وسألهم بحق صاحب البردة إلاّ انصرفوا فإنه في أمن وسلامة، ولا بأس عليه من محمد بن عبد اللّه [فسألوه الخروج معهم من داره][3] فإنهم لا يأمنونه عليه. فأعلمهم أنه على النقلة منها إلى دار عمته أم حبيب بنت الرشيد بعد أن يصلح له ما ينبغي وبعد أن تحول أمواله وخزائنه وسلاحه وفرشه وجميع ما في دار محمد. فانصرف الناس، وسكن أهل بغداد وما فعلوا من اجتماعهم على ابن طاهر مرة بعد مرة وإسماعهم إياه المكروه.

وتقدم إلى أصحاب المعاون ببغداد بتخير ما قدروا عليه من الإبل والبغال والحمير، لينقل عنهم.

وأشيع أنه يقصد المدائن، واجتمع إليه مشايخ الحرثية والأرياض يعتذرون إليه ويسألونه الصفح، ويذكرون أن ذلك كان من فعل الغوغاء والسفهاء لسوء الحال التي كانوا عليها الضر.

فرد عليهم ردّاً جميلاً، وأثنى عليهم، وصفح عما كان منهم، وتقدم إليهم بالتقدم إلى شبابهم وسفهائهم والأخذ على أيديهم وأجابهم إلى ترك النقلة.

وكتب أصحاب المعاون بترك التخير.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) كانت البردة بمثابة الوشاح الرسمي الذي يتوشح به الخلفاء في تلك العصور فقد كانوا يتوارثونها ويتوشحون بها عند تولي الخلافة، ويظهرون بها في المحافل الكبيرة والمناسبات الهامة.

(٣) ما بين المعقوفين يتطلبها السياق واللّه أعلم.

وانتقل المستعين من دار محمد بن عبد اللّه وسار إلى دار روق الخادم في الرُصافة[١].

فوصل إليها مساءاً فأمر الفرسان من الجند حين سار إليها بعشرة دنانير لكل فارس وللراجل بخمسة دنانير لكل واحد.

وركب مركوب المستعين ابن طاهر وبيده الحربة يشير بها بين يديه والقواد خلفه.

وأقام مع المستعين ليلة ثم انصرف. ولما انتقل المستعين أجمع[٢] الناس، والقواد، وبنو هاشم المسير إلى ابن طاهر والتسليم عليه وأن يسيروا معه إذا ركب إلى الرُّصافة. فساروا إليه وحضر الضحى الأكبر من ذلك اليوم فركب ابن طاهر وجميع قواده في تعبية، وحوله ماشية رجاله.

فلما خرج من داره وقف الناس فعاتبهم ثم حلف لهم أنه ما أضمر لأمير المؤمنين أعزه اللّه، ولا لولد له، ولا لأحد من الناس سوءاً، وأنه ما يريد إلا إصلاح أحوالهم، وما تدوم به النعمة عليهم، وأنهم قد توهموا عليه ما لم يعرفه حتى أبكى عيون الناس، فدعوا له.

ثم ركب وعبر الجسر وسار إلى المستعين. وذكر أن المستعين كان كارهاً للنقلة عن دار محمد بن عبد اللّه، ولكنه انتقل من أجل الناس لأنهم ركبوا الزراريق والنفاطين ليضربوا روشن[٣] ابن طاهر بالنار لما صعب عليهم فتح الباب.

وكان يسمع دائماً شتم الناس وتناولهم عرضه بالقبيح.

ثم إن قوماً وقفوا بباب الشماسية من قبل أبي أحمد فطلبوا ابن طاهر ليكلموه. وكتب صالح إلى وصيف يعلمه خبر القوم ويسأله أن يعلم المستعين في ذلك ليأمر فيه بما يرى.

---

(١) قال ياقوت: الرّصافة مدينة بالجانب الشرقي، لما بنى المنصور مدينة بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي، وأن يبني له فيه دوراً وجعلها معسكراً له.
فالتحق بها الناس وعمروها فصارت مقدار مدينة المنصور.
وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن.
وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق إلاّ الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة ولولا ذلك لخربت.
وبلصقها محلة أبي حنيفة الإمام وبها قبره.
وهناك محلة وسويق، ويلاصقها دار الروم، ولم يبق شيء غير هذا... وكان فراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع بها سنة (١٥٩) وهي السنة الثانية من الخلافة.

(٢) في المخطوط: اجتمع وهو تحريف.

(٣) الرَّوْشَنُ: هي الكوّة تكون في سقف البيت ينزل منها الضوء في الحجرة التي لا تطل على الشارع، وتعمل في أصل السقف ولا يكون لها غطاء وهي خلاف الشخشية وإن كانتا تؤديان غرضاً واحداً وهو إسقاط الضوء في صحن الدار. أو الحجرة.

فرد المستعين الأمر فيه إليه وقال: إن التدبير في جميع أموره مردود إليه.

فتقدم فيه محمد بما رأى، ولم يزل بعد ذلك أحمد بن إسرائيل، والحسن بن مخلد، وعبد اللّٰه بن يحيى يقبلوه في الذروة والغارب، ويشيرون على محمد بالصلح.

فذكر قوم أنهم سألوا سعيد بن حميد بعد ذلك بدهر وقالوا: ما ينبغي أن يكون محمد مداهناً وأنه كان انطوى على عِلٍّ في أول أمره. فقال: وددت أنه كان كذلك، لا واللّٰه ما هو إلاّ أن هزم أصحابه من المدائن والأنبار حتى توالت الهزائم عليه فأجاب القوم بعد أن كان قد حادّهم.

وحكى أحمد بن يحيى (ثعلب النحوي) وكان يؤدب ولد ابن طاهر:

أن محمد بن عبد اللّٰه لم يزل جادًا في نصره المستعين حتى أحفظه عبيد اللّٰه بن يحيى بن خاقان، فقال له: طال بقاءك أن هذا الذي تنصره وبجدك وجهدك، من أشد الناس نفاقاً، وأخبثهم ديناً واللّٰه لقد أمر وصيفاً وبغا بقتلك فاستعظما بذلك ولم يفعلاه، فإن شككت في فَسَلْ تخبر. ومن ظاهر نفاقه أنه كان بسر من رأى لا يجهر في صلاته بـ: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم[1]، فلما صار إليك جهر بها مراءاة لك، ويترك نصرة وليك وتربيتك وصهرك، ونحو ذلك من الكلام.

فقال محمد بن عبد اللّٰه هذا ما يصلح لدين ولا دُنيا[2].

وكان أول ما صد محمد الجد في أمر الحسين ثم ظاهر عبيد اللّٰه بن يحيى على ذلك أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد حتى صرفوه عن رأيه في نصرة المستعين.

وركب محمد بن عبد اللّٰه يوماً إلى المستعين، وحضر عدة من الفقهاء والقضاة[3]، فقال المستعين: قد كنت فارقتني على أن تنفذ أمري في كل ما أعزم عليه، ولك عندي بخطك رقعة بذلك؟ فقال المستعين: أحضر الرقعة.

فأحضرها، فإذا فيها ذكر الصلح وليس فيها ذكر الخلع.

فقال: نعم أنفذ الصلح.

فقام أحمد بن الختلي، فقال: يا أمير المؤمنين إنه يسألك أن تخلع قميصاً

---

(١) هذا لاختلاف أول العلماء في الجهر بها في أول الصلاة الجهرية والإسرار والأمر في ذلك واسع وليس دليلاً على النفاق من عدمه.

(٢) جاء هذا الخبر في الكامل في التاريخ إن لم يكن بنصه فهو بنحوه مما يفيد أن ابن الأثير نقل كثيراً من كتابه التاريخ من كتاب مسكويه هذا، وهو ما آخذه على ابن الأثير وإن كان ابن الأثير كثيراً ما يفصل في حوادث السنين ولكن كنت أتمنى لو أنه ذيل على تجارب الأمم بدل التكرار.

(٣) في الكامل: فلما كان يوم الأضحى صلّى المستعين بالناس ثم حضر محمد بن عبد اللّٰه عند المستعين وعنده الفقهاء والقضاة.

قمصكه اللّه عزّ وجلّ. [١١٤/أ] وتكلم قوم، وتكلم علي بن يحيى المنجم فأغلظ لمحمد بن عبد اللّه، فاحتمله ثم ضرب لمحمد بن عبد الله بباب الشماسية مضرب كبير أحمر، وخرج مع مائتي فارس ومائتي راجل إلى المضرب. وجاء أبو أحمد فخرج إليه ودخل معه المضرب. ووقف الجند الذين مع كل واحد منهما ناحية.

فتناظر ابن طاهر وأبو أحمد طويلاً ثم خرج من المضرب، وانصرف ابن طاهر إلى داره[١] في دلال يخبره بما دار بينه وبين أبي أحمد، فأقام عنده إلى العصر ثم انصرف.

فحكي أنه فارقه على أن يعطى خمسين ألف دينار ويقطع غلة ثلاثين ألف دينار في السنة، على أن يكون مقامه ببغداد حتى يحمل له مال يعطي الجندي.

وعلى أن يولي بُغا مكة والمدينة والحجاز، ووصيف الجبل.

ويكون ثلث ما يجبى من المال لمحمد بن عبد اللّه وجند بغداد والثلثان للموالي والأتراك[٢].

ثم ركب ابن طاهر في ذي الحجة من هذه السنة ليناظره في الخلع فناظره فامتنع عليه.

فظن المستعين أن بُغا ووصيفاً معه يكاشفاه[٣]. فقال المستعين: هذه عنقي والسيف[٤].

فلما رأى امتناعه انصرف عنه.

وبعث المستعين إلى ابن طاهر يعلى بن يحيى وقوم من ثقاته وقال لهم: قولوا له اتق اللّه إنما جئتك لتدفع عني، فإن لم تدفع عني تكفّ عني.

فرد عليه: أما أنا فأقعد في بيتي ولكن لا بد لك من خلعها طائعاً أو مكرهاً.

وذكر عن علي بن يحيى أنه قال: قل له إن خلعتها فلا بأس عليها، فواللّه لقد [تمزق][٥] تمزقاً لا يرفع أبداً وما نزلت فيها فضلاً.

---

(١) في الكامل: أنه خرج إلى المستعين ثم ركب من داره ومضى إلى المستعين.
(٢) في الكامل على النحو التالي:
على أن يكون مقامه بالمدينة يتردد منها إلى مكة، ويخلع نفسه من الخلافة. وأن يعطي بُغا ولاية الحجاز جميعه. . . والباقي نحوه.
(٣) في المخطوط: فكاشفاه، وهو تحريف. وفي الكامل: يكاشفانه.
(٤) في الكامل: فقال: النطع والسيف، والمعنى واحد.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.

فلما رأى المستعين ضعف أمره ولم يجد ناصراً أجاب إلى الخلع على شريطة أشياء سألها ولم يقنع المستعين إلا بخروج ابن كرديه إلى المعتز وهو من ولد المنصور وجماعة معه من ثقاته.

وكان في شرطه، أن ينزل مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يكون مضطربه من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة فأجابه إلى ذلك.

وكان سبب استجابة المستعين إلى الخلع

وصيفاً، وبُغا، وابن طاهر أشاروا عليه بذلك، فأغلظ لهم، فقال له وصيف: أنت أمرتنا بقتل باغر فصرنا إلى ما نحن فيه، وأنت عرضتنا لقتل أوتامش، وقلت: إن محمد ليس بناصح فاقتلوه.

فقال محمد: وأنت قلت: إن الأمر لا يصلح إلا بالاستراحة من هذين. فلما اجتمعت كلمتهم أذعن بالخلع. ولما كان يوم السبت لعشر بقين من ذي الحجة ركب محمد بن عبد اللّه إلى الرصافة، وجمع القضاة والفقهاء، فأدخلهم إلى المستعين فوجاً فوجاً، وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد اللّه.

ثم أدخل البوابين والخدم، وأخذ منه جوهرة الخلافة، وأقام عنده حتى مضى من الليل وراجف الناس ضروب الأراجيف. ثم بعث ابن طاهر إلى قواده، فجاء كل قائد ومعه عشرة من وجوه أصحابه، فأدخلهم إليه ومناهم وقال: إنما فعلت ما فعلت طلباً لصلاحكم وسلامتكم وحقن الدماء.

ثم أخرج قوماً ثقات إلى المعتز، ثم مضوا إليه بالكتاب الذي فيه شروط المستعين ومحمد فيه بخطه.

وأمضى كل ما سألاه، وشهدوا عليه بإقراره لهما بذلك كله.

وخلع المعتز على الرسل ولم ينظر لهم في حاجة ولا أطلق لهم جائزة، ولم يأمر للجند بشيء.

وحمل إلى المستعين أمه وابناه وعياله بعدما فتش عياله فأخذ منهم ما كان معهم[1].

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل عدة حوادث في هذه السنة وأنا أذكرها كما ذكرها وهي:
وفي هذه السنة: سير محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه المنذر إلى بلاد المشركين فساروا وقصدوا الملاحة، وكانت أموال لذريق بناحية آلية والقلاع.
فلما عم المسلمون بلدهم بالخراب والنهب جمع لزريق عساكره وسار يريدهم، فالتقوا بموضع يقال له: فج المركوين، وبه تعرف هذه الغزاة، فاقتتلوا فانهزم المشركون إلا أنهم لم يبعدوا. =

....

= واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت هذه الوقعة ثاني عشر رجب، وكان عدد ما أخذ من رؤوس المشركين ألفين وأربعمائة واثنين وتسعين رأساً، وكان فتحاً عظيماً وعاد المسلمون. . .

وفيها ظهر بأرمينية رجلان فقاتلهما العلاء بن أحمد عامل بغا الشرابي فهزمهما فصعدا في قلعة هناك فحصرهما ونصب عليها المنجنيق فهزما منها وخفي أمرهما عليه وملك القلعة.

وفيها حارب عيسى ابن الشيخ الموفق الخارجي فهزمه وأسر الموفق.

وفيها: ورد كتاب محمد بن طاهر بن عبد اللّه بخبر الطالبي الذي ظهر بالري وما أعدله من العساكر المسيرة إليه وظفر به، واسمه محمد بن جعفر، فأخذه أسيراً ثم سار إلى الري بعد أسر محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى بن الحسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وإدريس بن موسى بن عبد اللّه بن موسى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفيها: انهزم الحسن بن زيد من محمد بن طاهر وكان لقيه في ثلاثين ألفاً وقتل من أصحابه أعيان الحسن ثلاثمائة وأربعين رجلاً.

وفيها: خرج إسماعيل بن يوسف العلوي ابن أخت موسى بن عبد اللّه الحسين.

وفيها كانت وقعة بين محمد بن خالد بن يزيد وأحمد المؤيد وأيوب بن أحمد بالكسير من أرض بني تغلب فقتل بينهما جماعة كثيرة، فانهزم محمد ونهب متاعه.

وفيها: ظهر بالكوفة رجل من الطالبيين اسمه: الحسين بن أحمد بن حمزة بن عبد اللّه بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، واستخلف بها محمد بن جعفر بن حسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام يكنى أبا أحمد، فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان وكان العلوي في سواد الكوفة في جماعة من بني أسد ومن الزيدية، وأجلى عنها عامل الخليفة، وهو أحمد بن نصير بن حمزة بن مالك الخزاعي إلى الكوفة، فحمل أهل الكوفة العلوية على قتالهم ووعدهم النصرة فتقدم مزاحم وقاتلهم، وكان قد سير قائداً معه، فأتى أهل الكوفة من ورائهم فأطبقوا عليهم، فلم يفلت منهم أحد.

ودخل الكوفة فرماه أهلها بالحجارة فأحرقها بالنار، فاحترق منها سبعة أسواق حتى خرجت النار إلى السبيع، ثم هجم على الدار التي فيها العلوية فهرب.

وأقام مزاحم بالكوفة فأتاه كتاب المعتز يدعوه أبي دلف في شهر رمضان فقتل من أصحاب العلوي جماعة وهرب فدخل الكوفة.

وفيها ظهر الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بالكوكبي بناحية قزوين وزنجان، فطرد عمال طاهر عنها.

وفيها قطعت بنو عقيل طريق جدة فحاربهم جعفر بشاشات فقتل من أهل مكة نحو ثلاثمائة رجل، فغلت الأسعار بمكة، وأغارت الأعراب على القرى.

وفيها: ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بمكة فهرب جعفر بشاشات، وانتهب إسماعيل منزله ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ ما كان حمل لإصلاح القبر (العين) من المال وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار.

وخرج منها بعد أن نهبها وأحرق بعضها في ربيع الأول بعد خمسين يوماً. =

....

= وسار إلى المدينة فتوارى عاملها، ثم رجع إسماعيل إلى مكة في رجب فحصرهم حتى تماوت أهلها جوعاً وعطشاً وبلغ الخبز ثلاثة أواق بدرهم، واللحم رطل بأربعة دراهم وشربة ماء بثلاثة دراهم، ولقي أهل مكة منه بلاء.
ثم سار إلى جدة بعد مقام سبعة وخمسين يوماً فحبس عن الناس الطعام، وأخذ الأموال التي للتجار وأصحاب المراكب.
ثم وافى إسماعيل عرفة وبها: محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الملقب بكعب البقر، وعيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة كان المعتز وجههما إليه فقاتلهما إسماعيل، وقتل من الحاج نحو ألف ومائة وسلب الناس وهربوا إلى مكة ولم يقفوا بعرفة ليلاً ولا نهاراً. ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جدة فأفنى أموالها.
وفيها مات سري السقطي الزاهد، وإسحاق بن منصور بن بهرام أبو يعقوب الكوسج الحافظ النيسابوري توفي في جمادى الأولى وله مسند يروي عنه.

خلافة المعتز

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين

وفيها: خلع المستعين أحمد بن محمد المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع المعتز محمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم.

فدعى للمعتصم على منبري بغداد ومساجد جانبيها الشرقي والغربي.

وأخذت البيعة على من كان بها من الجند. فذكر أن ابن طاهر دخل على المستعين ومعه سعيد بن حميد حين كتب شروط الأمان، فقال له: يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد بن حميد كتاب الشروط ووكد غاية التوكيد، فيقرأه عليك وتسمعه.

فقال له المستعين: لا [حاجة لي إلى][1] توكيده[2] يا أبا العباس، فما القوم بأعلم باللّه منك، وقد وكدت على نفسك قبلهم، فكان ما قد علمت.

فما رد[3] عليه محمد شيئاً.

ولما بايع المستعين المعتز نقل من الرصافة إلى قصر الحسن، ووكل به، وأخذ منه البردة والخاتم والقضيب ووجه بها مع عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، وكتب معه كتاباً من محمد نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي [هو][4] متمم النعمة والهادي إلى شكره.

وصلى اللّه على محمد عبده ورسوله الذي جمع له من الفضل ما فرقه في الرسل قبله، وجعل ميراثه راجعاً إلى من خصّه بخلافته وسلم تسليماً.

كتابي إلى أمير المؤمنين وقد تمم اللّه أمره وتسلمت ميراث رسول اللّه ﷺ ممن كان عنده وأنفذته إلى أمير المؤمنين مع عبيد اللّه بن عبد اللّه مولى أمير المؤمنين وعبده.

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط: توكده، وفي الكامل توكيدها.
(٣) في المخطوط: فما رده وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق ولم ترد هذه الرسالة بالكامل ولم يشر إليها.

ومنع المستعين [من][١] الخروج إلى مكة، فاختار البصرة فنزلها[٢].

واستوزر المعتز أحمد بن إسرائيل، وخلع عليه، ووضع على رأسه تاجاً.

وشخص أبو أحمد إلى سُرَّ من رأى من عسكره وشيعته محمد بن عبد اللَّه، وخلع على محمد بن عبد اللَّه خمس خلع وسيفاً.

ورجع من [١١٤/ب] الروذبار.

ولما وصل أبو أحمد إلى سُرَّ منْ رأى خلع عليه ست خُلع، وسيف، وتوج بتاج ذهب وقلنسوة، وجوهر، ووشح بوشاحي ذهب بجوهر، وقلد سيفاً آخر مرصعاً بالجوهر، واجلس على كرسي.

وخلع على القواد الذين معه[٣]. وكتب المعتز إلى محمد بن عبد اللَّه أن يسقط وصيفاً وبُغا ومن معهما من الدواوين. وتكلم أبو أحمد بن المتوكل في قتلهما، وخاطب محمد بن عون في ذلك، فوعده بقتلهما. فكوتب وصيف وبغا بالخبر، فركبا إلى ابن أبي طاهر وقالا: قد بلغنا أيها الأمير ما ضمنه ابن أبي عون من قتلنا، والقوم قد غدروا واللَّه لو أرادوا قتلنا ما قدروا عليه. فحلف محمد لهما أنه ما علم بشيء من ذلك، وتكلم بُغا بكلام شديد، ووصيف يكفه. ثم نهضا، وأخذا في الاستعداد وشري السلاح وتفرقت الأموال.

وكان وصيف وجه أخته فأخرجت من قصر أخيها وصيف ألف ألف دينار كانت مدفونة فيه. فدفعتها إلى المؤيد.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) بعد هذا في الكامل: فقيل له إن البصرة وبيئة فقال: هي أوبأ أو ترك الخلافة؟
ولست خلون من المحرم دخل بغداد أكثر من مائتي سفينة فيها صنوف التجارات وغنم كثير، وفيها سير المستعين إلى واسط، واستوزر المعتز...

(٣) قال ابن الأثير في الكامل:
ورجع أبو أحمد إلى سامرا لاثني عشرة خلت من المحرم، فقال بعض الشعراء في خلع المستعين:

خلع الخليفة أحمد بن محمد ... وسيقتل التالي له أو يُخلع
ويزول ملك بني أبيه ولا نرى ... أحداً بملك منهم يتمتع
إيهاً بني العباس إن سبيلكم ... في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقّعتم دنياكم فتمزقت ... بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وقال الشعراء في خلعه كالبحتري، ومحمد بن مروان بن أبي الجنوب وغيرهما، فأكثروا فيه.
ولسبع بقين من المحرم انصرف أبو الساج ديوداد بن ديودست إلى بغداد فقلده محمد بن عبد اللَّه معاون ماء سقي الفرات من السواد فسير نوابه إليها لطرد الأتراك والمغاربة عنها، ثم سار أبو الساج إلى الكوفة.

[فكلم][1] المؤيد المعتز في الرضا عن بغا، ثم اجتمع الأتراك على المعتز فسألوه الأمر بإحضارهما، وقالوا: هما كبيرانا ورئيسانا، فكتب إليهما بذلك فلما صار إلى سُرَّ مَنْ رأى، اجتمع الموالي وسألوه ردهما إلى مراتبهما.

فأجيبوا إلى ذلك، وبعث إليهما، وخلع عليهما خلعة المرتبة، ورتبا في مرتبتهما التي كانت قبل مسيرهما إلى بغداد، فأمر بردهما[2].

وفي هذه السنة: شغب الجند على محمد بن عبد اللّه بن طاهر، وطالبوا بأرزاقهم. وعظم الخطب في ذلك حتى خرجوا إلى باب عرب، وباب الشماسية، ومعهم الأعلام والطبول، وضربوا المضارب والخيم، وبنوا بيوتاً من بواري وقصب. فجمع ابن طاهر أصحابه فبيتهم في داره، فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا وعزموا على المسير إلى المدينة ليمضوا إلى المسجد الجامع فيمنعوه من الدعاء للمعتز.

فأعلمهم جعفر أنه مريض لا يقدر على الخروج إلى الصلاة.

فانصرفوا عنه وساروا إلى الشارع النافذ إلى دار الرقيق، ثم قصدوا الجسر.

فوجه إليهم محمد بن عبد اللّه بن طاهر جماعة القواد والجند ليناظروهم، ويدفعوهم دفعاً رقيقاً.

فحملوا عليهم وجرحوا منهم جماعة، وجرحوا أبا السنا، وكبروا وساروا إلى دار

---

(١) كلمة من الكامل يتطلبها السياق.

(٢) الخبر في الكامل على النحو التالي:
وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبد اللّه في إسقاط اسم وصيف وبُغا ومن معهما من الدواوين.
وكان محمد بن أبي عون، وهو أحد قواد محمد بن عبد اللّه، وقد وعد أبا أحمد أن يقتل بُغا ووصيفاً، فعقد له المعتز على اليمامة، والبحرين والبصرة.
فكتب قوم من أصحاب بغا ووصيف إليهما بذلك، وحذروهما محمد بن عبد اللّه.
فركبا إلى محمد وعرفاه ما ضمنه ابن أبي عون من قتلهما.
وقال بغا: إن القوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه، واللّه لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا عليه، فكفه وصيف وقال: نحن نقعد في بيوتنا حتى يجيء من يقتلنا، ورجعا إلى منازلهما وجمعا جندهما.
ووجه وصيف أخته سعاد إلى المؤيد وكان في حجرها، فكلم المؤيد المعتز في الرضا عنه فرضي عن وصيف، وكتب إليه بذلك.
وتكلم أبو أحمد بن المتوكل في بغا، فكتب إليه بالرضا عنه وهما بغداد، ثم تكلم الأتراك بإحضارهما إلى سامرا فكتب إليهما بذلك، وكتب إلى محمد بن عبد اللّه ليمنعهما من ذلك، فأتاهما كتاب إحضارهما فأرسلاه إلى محمد بن عبد اللّه يستأذنانه.
وخرج وصيف وبغا وفرسانهما وأولادهما في نحو أربعمائة إنسان وخلفا الثقل والعيال.
فوجه ابن طاهر إلى باب الشماسية من يمنعهم، فمضوا إلى باب خراسان وخرجوا منه، ووصلا سامرا ورجعا إلى منزلهما من الخدمة، وخلع عليهما، وعقد عليهما، وعقد لهما على أعمالهما، ورد البريد إلى موسى بن بُغا الكبير.

ابن طاهر فقوتلوا، وقتل من الفريقين جماعة. وسار من الغوغاء جماعة إلى مجلس الشرطة فكسروا بيت الرفوع، وانتهبوا ما فيه. وكان هناك أصناف من المتاع كثير جليل. وأحرق محمد بن طاهر الجسرين لما رأى الجند يعبرون، وقد ظهروا على أصحابه. وضرب عدة من الحوانيت بالنار، للتجار فيها متاع كثير لهم.

فحالت النار بين الفريقين، وانصرف القوم إلى مضاربهم بباب حرب والشماسية وانضم إلى ابن طاهر جماعة، وعاد إليه قوم المشغبة وعباهم تعبية الحروب خوفاً من كثرة الجند، فلم يكن لهم عودة(١). وتلطف القواد في التقريب بينهم حتى تفرقوا وسار إلى منازلهم.

وفي هذه السنة: خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد بعده(٢).

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن عامل أرمينية، وأذربيجان وهو: العلي بن أحمد بعث إلى إبراهيم بن المتوكل بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره. فبعث [عيسى](٣) بن فرخانشاه(٤) إليها فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بعيسى بن فرخانشاه فشكى ذلك إلى المعتز وعرفه الحال. فبعث المعتز إلى أخويه: المؤيد، وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق، وقيد المؤيد وصيره في حجرة.

وأدروا العطاء للأتراك والمغاربة. وجلس يعقوب صاحب المؤيد وثق في إبراهيم(٥).

---

(١) ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل على نحو هذا وزاد بعد ذلك:
فأتاه في بعض الأيام رجلان من الجند، فدلاه على عورة القوم، فأمر لهما بمائتي دينار.
وأمر الشاه بن ميكال وغيره من القواد في جماعة بالمسير إليهم، فساروا إلى تلك الناحية.
وكان أبو القاسم وابن الخليل ـ وهما المقدمان على الجند ـ قد خافا بمضي ذينك الرجلين وقد تفرق الناس عنهما إلى ناحية.
فأما ابن الخليل: فإنه لقي الشاه بن ميكال ومن معه فصاح بهم وصاح به أصحاب محمد وصار في وسطهم فقتل.
وأما أبو القاسم: فإنه اختفى، فَدُلَّ عليه فأخذ وحمل إلى ابن طاهر وتفرق الجند من باب حرب ورجعوا إلى منازلهم، وقيد أبو القاسم وضرب ضرباً مبرحاً فمات منه في رمضان.

(٢) ذكر ابن الأثير أن ذلك في رجب.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في المخطوط: ابن فرخ شاه، والتصويب من الكامل.

(٥) ذكر الخبر في الكامل على نحو من ذلك وزاد فيه:
وقيل: إنه ضربه أربعين مقرعة، وخلعه بسامرا، وأخذ خطه بخلع نفسه.
وكانت وفاته أيضاً في رجب لثمان بقين من الشهر.

ذكر سبب وفاة المؤيد

أن امرأة من نساء الأتراك جاءت إلى محمد بن راشد المعري فأخبرته أن الأتراك يريدون إخراج المؤيد من الحبس.

فركب محمد بن راشد إلى المعتز، فأعلمه بذلك، فدعى بموسى بن بُغا وسأله فأنكر، وقال: يا أمير المؤمنين إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لأنسهم [به و](١) كان في الحرب التي كانت أما المؤيد فلا. فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب دعا القضاة والفقهاء والوجوه، فأخرج إليهم إبراهيم المؤيد ميتاً لا أثر فيه ولا جرح(٢).

فذكر أنه أُدرج في لحاف سمور، ثم أمسك طرفاه حتى مات.

وقيل: إنه أُجلس على الثلج ونضدت حجارة الثلج عليه فجمد برداً(٣).

وفي شوال منها:

قتل المستعين رضي اللّه عنه.

ذكر السبب في قتله

اختلف في قتله فقال قوم:

كوتب محمد بن عبد اللّه في تسليم المستعين إلى منصور بن حمزة وهو على واسط.

ثم وجه أحمد بن طولون التركي في جيش فوافى القاطول. وقيل: بل كان أحمد بن طولون موكلاً للمستعين فوجه سعيد بن صالح في حملة فسار إليه سعيد فحمله.

فيقال: إنه قتله سعيد بالقاطول.

ويقال: بل حمله سعيد إلى منزله بسر من رأى فعذبه حتى مات.

ويقال: بل غرقه(٤).

ويقال: بل قتله، وأتى المعتز برأسه وهو يلعب بالشطرنج فقيل: هذا رأس المخلوع.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) بعدها في الكامل: وحمل إلى أمه ومعه كفنه، فأمرت به فدفن.

(٣) بعدها في الكامل:
ولما مات المؤيد نقل أخوه أبو أحمد إلى محبسه.
وكانا لأب وأم.

(٤) في الكامل:
وقيل: بل جعل في رجله حجراً وألقاه في دجلة. وقيل: كان قد حمل معه داية له تعادله، فلما أخذه سعيد ضربه بالسيف فصاح، وصاحت دايته، ثم قُتلت المرأة معه.

فقال: ضعوه هناك[١]، ثم فرغ من لعبه، فدعا به فنظر إليه، ثم أمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسة آلاف درهم، وولاه معونة البصرة.

وفي هذه السنة: كانت من المغاربة والأتراك ملحمة[٢].

ذكر السبب في ذلك

كانت الأتراك وثبت على ابن عيسى بن فرخانشاه فتناولوه بالضرب، وأخذوا دوابه [١١٥/أ] فاجتمعت وتكلمت ورئيسهم محمد بن راشد، ومحمد بن معد[٣]، فقالوا: في كل يوم تقتلون خليفة، وتقتلون وزيراً، وتثبون بآخر.

فغلبوا الأتراك على الجوسق وأخرجوهم منه. ثم وثبوا على بيت المال، وأخذوا دواب الأتراك وأرسلوا إلى من بالكرخ والدور، فالتقوا مع المغاربة وتقاتلوا.

فقتل من المغاربة رجل واحد، وأخذت المغاربة قاتله، وأعانت العامة المغاربة[٤]، فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين.

فاصطلحوا على أن يكون في كل موضع يكون فيه واحد من قِبل أحد الفريقين يكون معه آخر من الفريق الآخر[٥]، فإن ظفرنا بهما فليس ينطلق أحد ـ يعنون محمد بن راشد، ونصر بن سعد ـ.

فبلغ أمر الأتراك هذين، فسار إلى محمد بن عرون[٦] فهم بقتله، ثم كُلِّم فيه، فنفاه إلى بغداد. ثم خاف فخرج إلى ضيعة له بالكوفة لها حصن فوافاه فيها الأعراب فقتلوه.

---

(١) في الكامل: ضعوه حتى أفرغ من الدست.
(٢) في الكامل:
في هذه السنة مستهل رجب.
(٣) كذا في المخطوط. وفي الكامل: نصر بن سعد وأشار محققه إلى أنه في الطبري: نصر بن سعيد.
(٤) في الكامل: وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة فضعف الأتراك وانقادوا، فأصلح...
(٥) بعد هذا في الكامل: فمكثوا مدة مديدة ثم اجتمع الأتراك وقالوا: نطلب هذين الرأسين فإن ظفرنا بهما فلا أحد ينطق.
(٦) كذا في المخطوط بالإهمال، وفي الكامل: محمد بن غرون بالغين المعجمة، وأشار محققه إلى أنه في الطبري: محمد بن عزون. أي بالعين المهملة والزاي بدل الراء.
والخبر في الكامل بعد ذكر محمد بن راشد، ومحمد بن سعد، يقول: فخرجا إلى منزل محمد بن غرون ليكونا عنهد حتى يسكن الأتراك ثم يرجعا إلى جمعهما. فغمز بهما إلى الأتراك، فأخذوهما فقتلوهما.
فبلغ ذلك المعتز، فأراد قتل ابن غرون، فكُلِّم فيه فنفاه إلى بغداد.
ولم يذكر قتل ابن غرون بعد ذلك.
ومما ذكره ابن الأثير في الكامل من أحداث هذه السنة ولم يذكره ابن مسكويه ما يلي:
في هذه السنة في رجب خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري البجلي الموصلي بالبوازيج ـ وإلى جده ينسب فندق مساور بالموصل ـ وكان سبب خروجه: =

....

= أن شرطة الموصل كان يتولاها هو لبني عمران وأمراء الموصل لزموا إنساناً اسمه حسين بن بكير ابناً لمساور هذا اسمه حوثرة فحبسه بالحديثة ـ وكان حوثرة جميلاً ـ فكان حسين هذا يخرجه من الحبس ليلاً ويحضر عنده ويرده إلى الحبس نهاره.
فكتب حوثرة إلى أبيه مساور، وهو بالبوازيج يقول له: أنا بالنهار محبوس وبالليل عروس.
فغضب لذلك وقلق وخرج، وبايعه جماعة، وقصد الحديثة، فاختفى حسين بن بكير، وأخرج مساور ابنه حوثرة من الحبس وكثر جمعه من الأكراد والأعراب. وسار إلى الموصل فنزل بالجانب الشرقي، وكان الوالي عليها عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن أهبان الخزاعي.
وأهبان يقال إنه مكلم الذئب وله صحبة.
فوافقه عقبة من الجانب الغربي، فعبر دجلة رجلان من أهل الموصل إلى مساور فقاتلا فقتلا وعاد مساور وكره القتال، وكان حوثرة بن مساور معهم فسمع يقول:

أنا الغلام البجلي الشاري أخرجني جوركم من داري

وفي هذه السنة: حمل محمد بن علي بن خلف العطار وجماعة من الطالبيين إلى سامرا فيهم أبو أحمد محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن حسن بن علي بن أبي طالب، وأبو هاشم داود بن القاسم الجعفري في شعبان.
وكان سبب ذلك.
أن رجلاً من الطالبيين سار من بغداد في جماعة من الشاكرية إلى ناحية الكوفة وكانت من أعمال أبي الساج، وكان مقيماً ببغداد.
فأمر محمد بن عبد اللّه بالمسير إلى الكوفة فقدم بين يديه خليفته عبد الرحمن إلى الكوفة فلما صار إليها رُمِيَ بالحجارة وظنوه جاء لحرب العلوي، فقال: لست بعامل إنما أنا رجل وجهت لحرب الأعراب فكفوا عنه.
وكان أبو أحمد الطالبي المذكور قد ولاه المعتز الكوفة بعد ما هزم مزاحم بن خاقان العلوي الذي كان وجه لقتاله بها. . . ، فعاث أبو أحمد فيها وآذى الناس، وأخذ أموالهم وضياعهم، فلما أقام عبد الرحمن بالكوفة لاطفه واستماله حتى خالطه أبو أحمد وآكله وشاربه حتى سار به، ثم خرج متنزهاً إلى بستان فأمسى وقد عبى له عبد الرحمن أصحابه فقيده وسيره إلى بغداد في ربيع الآخر.
ووجدت مع ابن أخ لمحمد بن علي بن خلف العطار كتب من الحسن بن زيد فكتب يخبره إلى المعتز، فكتب إلى محمد بن عبد اللّه بحمله وحمل الطالبيين المذكورين إلى سامرا فحملوا جميعاً.
وفيها: ولي الحسين بن أبي الشوارب قضاء القضاة.
وفيها توجه أبو الساج إلى طريق خراسان من قِبل محمد بن عبد اللّه.
وفيها: عقد لعيسى ابن الشيخ على الرملة، وأنفذ خليفته أبا المغراء.
وعيسى هذا شيباني، وهو عيسى ابن الشيخ ابن السليل من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان.
واستولى على فلسطين جميعها، فلما كان من الأتراك بالعراق ما ذكرناه تغلب على دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة واستبد بالأموال.
وفيها: كتب وصيف إلى عبد العزيز بن أبي دلف العجلي بتولية الجبل، وبعث إليه بخلع فتولى ذلك من قِبله.
وفيها: قتل محمد بن عمرو الشاري بديار ربيعة قتله خليفة لأيوب بن أحمد في ذي القعدة.
وفيها: أغار جستان (ابن جستان) صاحب الديلم مع عيسى بن أحمد العلوي (أحمد بن عيسى العلوي) والحسن بن أحمد الكوكبي على الري، فقتلوا وسبوا، وكان بها عبد اللّه بن عزيز فهرب منها، فصالحهم أهل الري على ألفي ألف درهم، فارتحلوا عنها، وعاد ابن عزيز، فأخذ أحمد بن عيسى، وبعث به إلى نيسابور. =

وذكر أن أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة، وكان مبلغ ما يحتاجون إليه في السنة مائتي ألف ألف دينار، وذلك للمملكة لسنين.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين

وفيها: عقد المعتز في اليوم الرابع من رجب لموسى بن بُغا الكبير على الجبل لحرب عبد العزيز بن أبي دلف ومع موسى يومئذ من الأتراك وما يجري مجراهم ألفان وأربعمائة وثلاث وثلاثون رجلاً. مع مفلح ألف ومائة وثلاثون رجلاً فأوقع وهو على مقدمة موسى بن بُغا بعبد العزيز بن دلف لثمان بقين من رجب من هذه السنة، وعبد العزيز في زهاء عشرين ألفاً، وكانت الوقعة بينهما خارج همذان، فهزمه مفلح ثلاث فراسخ يقتلون ويأسرون.

ثم رجع مفلح منصوراً بمن معه وكتب بالفتح.

فلما كان في شهر رمضان عبأ مفلح خيله وتوجه نحو الكرج.

ووجه عبد العزيز عسكره في أربعة آلاف وكمن مفلح، فقاتلهم مفلح وخرج الكمينان، فانهزم أصحاب عبد العزيز ووضع فيهم السيف.

وأقبل عبد العزيز في جيش ليعين أصحابه فانهزم بانهزامهم، ونزل الكرخي ومضى إلى قلعة تلة في جبل الرخ يقال لها: الذر[1]. ونزل المفلح الكرج وأخذ جماعة من آل أبي دلف، ونساء من نسائهم.

فذكر أنه وجه سبعين حملاً من الرؤوس إلى سُرَّ مَنْ رأى وأعلاماً كثيرة.

وفي هذه السنة: قتل وصيف التركي.

ذكر الخبر عن ذلك

كان الأتراك والفراغنة[2] شغبوا وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم بُغا، ووصيف، وسيما الشارياني في نحو مائة إنسان، وكلمهم وصيف وقال: ما تريدون؟

قالوا: أرزاقنا.

= وفيها: مات إسماعيل بن يوسف الطالبي الذي كان فعل بمكة ما فعل.

وفيها: حج بالناس محمد بن أحمد بن عيسى بن منصور.

وفيها: سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد العدو فقصدوا إليه والقلاع ومدينة مانة، وقتلوا من أهلها عدداً كثيراً، ثم قفل الجيش سالمين.

وفيها: توفي محمد بن بشار بندار، وأبو موسى محمد بن المثنى الزمن البصريان وهما من مشايخ البخاري ومسلم في الصحيح، وكان مولده بندار سنة سبع وستين ومائة.

(١) في الكامل: زر. وفي الطبري: ذر.

(٢) زاد في الكامل: والأشروسنية.

فقال: خذوا تراباً، وهل عندنا مال؟

وقال لهم بُغا: نسأل أمير المؤمنين ذلك، ثم ينصرف عنكم أمير منكم ونتناظر في دار اشناس، ومضى سيما منصرفاً إلى سُرَّ مَنْ رَأى، وتبعه بغا لاستئمار الخليفة في أعطياتهم.

وصار وصيف في أيديهم، فضرب بالسيف ضربتين واحتمله نوشرى وهو أحد قواده إلى منزله، ثم أبطأ عليهم بُغا، وظنوا أنه في التعبية عليهم وقصدهم.

فاستخرجوه من منزل نوشرى وضربوه بالطبرزينات حتى كسروا عضديه، ثم ضربوا عنقه، ونصبوا رأسه على محراك تنور[١]. وقصدت العامة سُرَّ مَنْ رأى لانتهاب منازل وصيف وولده.

فخرج بنو وصيف فمنعوا منازلهم.

وجعل المعتز ما كان إليه إلى بُغا الشرابي [وألبسه التاج والوشاحين][٢].

وفي هذه السنة:

مات محمد بن عبد اللّه بن طاهر ليلة كسوف القمر، وذلك لثلاث عشرة[٣] ليلة خلت من ذي القعدة غرق القمر كله، ومات محمد مع انتهاء غرقه.

وكانت علته من قروح ذبحته في حلقه[٤].

وفيها: لقي موسى بن بُغا بقزوين الكوكب الطالبي على فرسخ من قزوين، فهزمه، ولحق بالديلم.

ذكر الخبر عن ذلك

كان أصحاب الكوكبي من الديلم أقاموا تراسهم في وجوههم، فلما نظر موسى

---

(١) محراك التنور هو عبارة عن عمود طويل من الحديد آخره قطعة عريضة قدر الكف يحرك بها النار أو الوقود داخل الفرن أو التنور حتى تستعر أكثر ويسمى في بعض أرياف مصر (الباشكور).

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) في الكامل ليلة أربع عشرة.

(٤) وزاد في الكامل حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل.

ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد اللّه بن طاهر. فلما مات تنازع ابنه طاهر، وأخوه عبيد اللّه الصلاة عليه، فصلى عليه ابنه.

وتنازع عبيد اللّه وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا بالحجارة، ومالت العامة مع أصحاب طاهر.

وعبر عبيد اللّه إلى داره بالجانب الشرقي، فعبر معه القواد لاستخلاف محمد، وكان وصاه على أعماله. ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد اللّه، فأمر عبيد اللّه للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم.

ورأى سهام أصحابه لا يصل إليها، أمر بما معه من النفط فصب في الأرض على حشيش كان هناك، ثم أمر أصحابه بالاستطراد لهم، فلما فعلوا ذلك ظن الكوكب وأصحابه أنهم قد انهزموا فتبعوهم، فلما علم موسى أنهم قد توسطوا النفط أمر بالنار فأشعلت فأخذت النار فيه وخرجت من تحت أقدامهم، وجعلت تحرقهم وهرب الباقون فصارت هزيمة ودخل موسى [قزوين][١].

(١) ما بين المعقوفين من الكامل ومن الأحداث التي جرت في هذه السنة وذكرها صاحب الكامل ولم يذكرها مسكويه ما يلي:
في هذه السنة: كانت حرب بين سليمان بن عمران الأزدي وبين عنزة.
وسببها: أن سليمان اشترى ناحية من المرج فطلب منه إنسان من عنزة اسمه برهونة الشفعة فلم يجبه إليها.
فسار برهونة إلى عنزة وهم بين الزابين، فاستجار بهم وبين شيبان واجتمع معه جمع كثير فنهبوا الأعمال وأسرفوا.
وجمع سليمان لهم بالموصل، وسار إليهم، فعبر الزاب، وكانت بينهم حرب شديدة قتل فيها كثيرون، وكان الظفر لسليمان، فقتل منهم بباب شمعون مقتله عظيمة، وأدخل من رؤوسهم إلى الموصل أكثر من مائتي رأس.
فقال حفص بن عمر الباهلي قصيدة يذكر فيها الوقعة أولها.

شهدت مواقفنا نزار فأحمدت كَرَّات كُلِّ سميذع قَمْقَام
جاؤوا وجئنا لا نفيتم صلنا ضرباً يطيح جماجم الأجسام

وهي طويلة.
وفيها: كان أيضاً بأعمال الموصل فتنة وحرب قتل فيها الحباب بن بكير التليدي.
وسبب ذلك: أن محمد بن عبد الله بن السيد بن أنس التليدي الأزدي اشترى قريتين كان رهنهما محمد بن علي التليدي عنده وكره صاحبهما أن يشتريهما، فشكى ذلك إلى الحباب بن بكير، فقال الحباب له: ائتني بكتاب بُغا لأمنع عنهما، وأعطاه دواب ونفقة، وانحدر إلى سُرَّ من رأى، وأحضر كتاباً من بغى إلى الحباب يأمره بكفّ يد محمد بن عبد الله بن السيد عن القريتين.
ففعل ذلك وأرسل إليهما من منع عنهما محمد، فجرت بينهم مراسلات واصطلحوا، فبينما محمد بن عبد الله بن السيد والحباب بالبستان على شراب لهما ومعهما قينة، فقال لها الحباب: غنى بهذا الشعر.

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فغنت الجارية، فغضب محمد بن عبد الله وقال لها: بل غنى:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائمُ
ولا صلح حتى تُقرع البيض بالقنا ويضرب بالبيض الخفاف الجماجمُ

وافترقا، وقد حقد كل واحد منهما على صاحبه، وأعاد الحباب التوكيل بالقريتين.
فجمع محمد جمعاً، وترددت الرُسل في الصلح وأجابا إلى ذلك، وفرق محمد جمعه، فأبلغ محمد أن الحباب قال: لو كان مع محمد أربعة لما أجاب إلى الصلح.
فغضب لذلك وجمع جمعاً كثيراً وسار مبادراً إلى الحباب.
فخرج إليه الحباب غير مستعد، فاقتتلوا، فقتل الحباب ومعه ابن له، وجمع من أصحابه وكان ذلك في ذي القعدة من هذه السنة.
وفيها: نفى أبو أحمد بن المتوكل إلى البصرة، ثم رد إلى بغداد، فأنزل في الجانب الشرقي بقصر دينار. =

ودخلت سنة أربع وخمسين ومائتين

وفيها: كان مقتل بُغا الشرابي

ذكر مقتل بغا الشرابي.

كان بغا يحفز المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى ذلك.

ثم إن بغا اشتغل مع صالح بن وصيف في خاصته لعرس جمعت بنت بغا، وكان صالح بن وصيف تزوجها.

فركب المعتز ليلاً ومعه أحمد[1] بن إسماعيل إلى الكرخ بسر من رأى يريد

= ونُفي أيضا علي بن المعتصم إلى واسط ثم رد إلى بغداد.
وفيها: مات مزاحم بن خاقان بمصر في ذي الحجة.
وحج بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان الزينبي.
وفيها: غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر...
وفيها: في ذي الحجة لقي مساور الخارجي عسكراً للخليفة مقدمهم حطرمس بناحية جلولاء فهزمه مساور.
وفيها: سار جيش المسلمين من الأندلس إلى بلاد المشركين، فافتتحوا حصون جرنيق وحاصروا قَوْتبَ، وغلب على أكثر أسوارها.
وفيها: ابتداء دولة يعقوب الصفار وملكه هراة وبوشنج.
كان يعقوب بن الليث وأخوه عمرو يعملان الصفر بسجستان ويظهران الزهد والتقشف. وكان في أيامهما رجل من أهل سجستان يظهر التطوع بقتال الخوارج يقال له: صالح المطوعي، فصحبه يعقوب وقاتل معه، فحظي عنه فجعله صالح مقام الخليفة عنه، ثم هلك صالح، وقام مقامه إنسان آخر اسمه درهم، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح قبله.
ثم إن صاحب خراسان احتال لدرهم لما عظم شأنه وكثر اتباعه حتى ظفر به وحمله إلى بغداد فحبسه بها، ثم أطلق، وخدم الخليفة ببغداد.
وعظم أمر يعقوب بعد أخذ درهم، وصار متولي أمر المتطوعة مكان درهم، وقام بمحاربة الشراة فظفر بهم، وأكثر القتل فيهم حتى كاد يفنيهم وخرب قراهم.
وأطاعه أصحابه بمكره وحسن حاله ورأيه طاعة لم يطيعوها أحداً كان قبله.
واشتدت شوكته فغلب على سجستان، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه وصدر عن أمره، وأظهر أنه هو أمره بقتال الشراة.
وملك سجستان وضبط الطرق وحفظها، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فكثر أتباعه.
فخرج عن حد طلب الشراة، وصار يتناول أصحاب أمير خراسان للخليفة.
ثم سار من سجستان إلى هراة من خراسان هذه السنة ليملكها، وكان أمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، وعامله على هراة محمد بن أوس الأنباري.
فخرج منها لمحاربة يعقوب في تعبية وبأس شديد وزي جميل فتحاربا واقتتلا قتالاً شديداً فانهزم ابن أوس، وملك يعقوب هراة، وبوشنج، وصارت المدينتان في يده فعظم أمره حينئذ، وهابه أمير خراسان وغيره من أصحاب الأطراف.

(١) تكرر لفظ أحمد في المخطوط فحذفت التكرار.

بابكيال[١] ومن كان على رأيه في الانحراف عن بُغا مستخفياً منه.

فلما وافى المعتز بمن معه الكرخ اجتمع بابكيال وأهل الكرخ، والدور[٢]، ثم أقبلوا مع المعتز إلى الجوسق بسر من رأى وبلغ ذلك بُغا فخرج في غلمانه وهم زهاء خمسمائة ومثلهم من ولده، وأصحابه، وقواده، فسار إلى ثغر فنزل، ثم تنقل إلى مواضع، ثم إلى السّن ومعه من العين تسع عشرة بدرة، ومائة بدرة [١١٥/ب] دراهم أخذها من بيت ماله، وبيوت أموال السلطان فأنفق منها يسيراً إلى أن قتل. ولما بلغه أن المعتز قد سار إلى الكرخ مع أحمد بن إسماعيل[٣]، خرج إلى تل عكبر، ثم مضى إلى السّن فشكى أصحابه بعضهم إلى بعض ما هم فيه من العسف وأنهم لم يخرجوا معهم مضارب ولا ما يتدثرون[٤] به من البر، وأنهم في شتاء، وكان بُغا في مضرب له صغير على دجلة، وكان يكون فيه فأتاه أساتكين فقال له: أصلح اللّه الأمير، قد تكلم أهل العسكر، وخاضوا في كذا، وأنا رسولهم إليك.

فقال: كلهم يقولون مثل قولك؟

قال: نعم، وإن شئت فابعث إليهم حتى تعلم أنهم يقولون مثل قولي.

قال: دعني حتى أنظر، ويخرج إليهم أمري بالغداة[٥]. فلما جن الليل دعا بزورق، فركب مع خادمين، معه شيئاً من المال، ولم يحمل معه سلاحاً، ولا سكيناً، ولا عموداً، ولا يعلم أهل عسكره بذلك من أمره، والمعتز في غيبة بُغا لا ينام إلاّ في ثيابه وعليه سلاحه، ولا يشرب نبيذاً، وجميع جوار على رجل.

---

(١) في المخطوط بغير نقط في أولها وما هنا من الكامل وأشار لمحققه إلى أنه في الطبري: بايكبال بباء أوله، ثم ياء، ثم باء.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
الدور سبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد.
إحداها: دور تكريت وهو بين سامرا وتكريت.
والثاني: بين سامرا وتكريت أيضاً يعرف بدور عَرَبايَى.
وفي عمل الدجيل قرية تعرف بدور بني أوقر وهي المعروفة بدور الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وفيها جامع ومنبر أوقر كانوا مشايخها وأرباب ثروتها، وبنى الوزير بها جامعاً ومنارة، وأثار الوزير حسنه، وبينها وبين بغداد خمسة فراسخ. . .
والدور أيضاً: قرية قرب سميساط. والدور أيضاً محلة بنيسابور، وقد نسب إلى كل محلة منها قوم من الرواة.

(٣) في المخطوط: أحمد بن إسرائيل وهو سهو وقد سبق ذكره على الصواب وهنا سهو من الناسخ فأصلحته، وكذا هو في الكامل أحمد بن إسرائيل كما في المخطوط، وأحسب أنه سهو أيضاً، واللّه أعلم.

(٤) الدثار هو ما يلبس تحت الظاهر من الثياب وهو ما يسمى في أيامنا هذه بالملابس الداخلية.

(٥) أي في الصباح الباكر.

فسار بُغا إلى الجسر في الثلث الأول، فلما قرب الزورق من الجسر، بعث الموكلون به من ينظر في الزورق، ثم صاحوا[١] بالغلام فرجع إليهم، وخرج بغا في البستان الخاقاني، فلحقه عدة منهم[٢]، فوقف لهم، وقال: أنا بغا.

ولحقه ولد المغرى فقال له: ما لك جعلت فداك؟ فقال: إما أن تذهب بي إلى منزل صالح بن وصيف وإما أن تسيروا معي حتى أحسن إليكم. فوكل به وليد المغرى، ثم مَرَّ يركض إلى الجوسق، فاستأذن على المعتز، فأذن له، فقال: يا سيدي، هذا بُغا قد أخذته، وقد وكلت به.

قال: ويلك جئني برأسه.

فرجع الوليد إليه، فقال للموكلين تنحوا عنه حتى أبلغه الرسالة فضربه[٣] ضربة على جبهته، ثم على يده فقطعها، ثم ضربه حتى صرعه، ثم ذبحه، وحمل رأسه في تركة قِبله فأتى به المعتز، فوهب له عشرة آلاف دينار، وخلع عليه.

ونصب رأس بُغا بسر من رأى، ثم ببغداد ووثبت العامة على جسده فأحرقوه بالنار. وكان عبيد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن طاهر قد جعل مكان محمد بن عبد اللّٰه بن طاهر بوصيته فيتبع بنيه، وكانوا صاروا إليه هراباً مع قوم يثقون بهم، فأثار بهم، وحبس قوماً في المطبق. وقوماً في قصر الذهب. وكان سبب انحدار بُغا إلى سُرَّ مَنْ رَأى مستتراً: أنه أشير عليه إلى دار صالح بن وصيف، فإذا قَرُب العيد، ودخل أهل العسكر، خرج هو وأصحابه فوثبوا بالمعتز.

وفي هذه السنة:

وافى الأهواز دلف بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي بتوجيه والده وعبد العزيز إياه، فجبى منها ومن جنديسابور، وتستر مائتي ألف دينار[٤].

---

(١) في المخطوط: حاصوا. والتصويب من الكامل وهو نحوه.
(٢) في المخطوط: منها. وهو تحريف.
(٣) في المخطوط: وضربه، وهو تحريف.
(٤) وزاد ابن الأثير عدد من الأحداث في هذه السنة لم يذكرها مسكويه هي:
ابتداء حال أحمد بن طولون:
كانت ديار مصر قد أقطعها بابكيال ـ وهو من أكابر قواد الأتراك ـ وكان مقيماً بالحفرة، واستخلف بها من ينوب عنه بها.
وكان والد أحمد بن طولون أيضاً من الأتراك، وقد نشأ هو بعد والده على طريقة مستقيمة وسيرة حسنة، فالتمس بابكيال من يستخلفه بمصر فأشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة، فولاه وسَيَّره إليها.
وكان بها ابن المدير على الخراج، وقد تحكم في البلد. =

....

= فلما قدمها أحمد كَفّ يد ابن المدبر واستولى على البلد.
وكان بابكيال قد استعمل أحمد بن طولون على مصر وحدها سوى باقي الأعمال كالإسكندرية.
فلما قتل المهدي بابكيال وصارت مصر لياركوج التركي، وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها فقوي أمره وعلا شأنه ودامت أيامه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.
وفيها: وقعة بين مساور الخارجي، بين عسكر الموصل، وقد كان مسارو بن عبد الحميد قد استولى على أكثر أعمال الموصل وقوي أمره فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي ـ وكان خليفة أبيه بالموصل ـ عسكراً كثيراً منهم: حمدان بن حمدون جد الأمراء الحمدانية وغيره، وسار إلى مساور وعبر إليه نهر الزاب فتأخر عنه مساور عن موضعه، ونزل بموضع يقال له: وادي الرايات وهو واد عميق، فسار الحسن في طلبه، فالتقوا في جمادى الأولى واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم عسكر الموصل وكثر القتل فيهم وسقط كثير منهم في الوادي فهلك فيه أكثر من القتلى، ونجا الحسن فوصل إلى حرة من أعمال أربل اليوم ونجا محمد بن علي بن السيد فظن الخوارج أنه الحسن فتبعوه ـ وكان فارساً شجاعاً ـ فقاتلهم فقتل واشتد أمر مساور وعظم شأنه وخافه الناس.
وفي هذه السنة توفي أبو أحمد بن الرشيد وهو عم الواثق والمتوكل، وعم أبي المنتصر، والمستعين والمعتز، وكان معه من الخلفاء أخواه الأمين والمأمون والمعتصم. وابنا أخيه الواثق والمتوكل ابنا المعتصم، وأبناء ابني أخيه وهم المنتصر والمستعين والمعتز.
وفيها في جمادى الآخرة: توفي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام بسامرا ـ وهو أحد من يعتقد الإمامية إمامته ـ وصلى عليه أبو أحمد المتوكل، وكان مولده سنة اثنتي عشرة ومائتين.
وفيها: عقد صالح بن وصيف لديوداد على ديار مصر وقنسرين، والعواصم.
وفيها: أوقع مفلح بأهل قم فقتل منهم مقتلة عظيمة.
وفيها: عاود أهل ماردة من بلاد الأندلس الخلاف على محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، وسبب ذلك:
أنهم خالفوا قديماً على أبيه فظفر بهم وتفوق بهم وتفرق كثير من أهلها، فلما كان الآن تجمع إليها من كان فارقها فعادوا إلى الخلاف والعصيان فسار إليهم وحصرهم وضيق عليهم فانقادوا إلى التسليم والطاعة فنقلهم وأموالهم إلى قرطبة وهدم سور ماردة وحصن بها الموضع الذي كان يسكنه العمال دون غيرهم.
وفيها: هلك أردون بن ردمير صاحب خليقية من الأندلس وولي مكانه أدفونش وهو ابن اثنتي عشرة سنة.
وفيها انكسف القمر كسوفاً كلياً لم يبق منه شيء ظاهر.
وفيها: كان ببلاد الأندلس قحط شديد تتابع عليهم من سنة إحدى وخمسين إلى سنة خمس وخمسين وكشف الله عنهم...
وفيها في رمضان: سار نوشري إلى مساور الشاري فلقيه فهزمه وقتل من أصحابه جماعة كثيرة.
وحج بالناس علي بن الحسين بن إسماعيل بن عباس بن محمد.
وفيها: توفي أبو الوليد بن عبد الملك بن قطن النحوي القيرواني بها، وكان إماماً في النحو واللغة وإماماً بالعربية.
قيل: مات سنة خمس وخمسين وهو أصح.

ودخلت سنة خمس وخمسين ومائتين

وفيها: دخل مفلح طبرستان وواقع الحسن بن زيد الطالبي[١]، وهزم مفلح الحسن ولحق بالديلم، وأحرق مفلح منازل الحسن بن زيد، ثم توجه نحو الديلم في طلب الحسن بن زيد[٢].

وفيها: كانت بين يعقوب بن الليث، وطوق بن المغلس وقعة خارج كرمان أسر فيها يعقوب طوقاً.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن علي بن الحسين بن قريش بن شبل كتب إلى السلطان[٣] يخطب[٤] كرمان، وكان قبل من أعمال الطاهرية[٥]، ثم كتب إلى السلطان يذكر ضعف الطاهرية[٥] وقلة ضبطهم ما إليهم من البلاد وأن يعقوب بن الليث قد غلب على سجستان وتباطأ على السلطان بتوجيه خراج فارس. وكتب إليه السلطان بولاية كرمان.

وكتب أيضاً إلى يعقوب بولايتها يلتمس بذلك إغراء كل واحد منهما بصاحبه ولتسقط مؤنة الهالك منهما عنه، وينفرد مؤنة الآخر.

وكان كل واحد منهما عنده حرباً له وفي غير طاعته[٦].

فلما فعل ذلك بهما، خف يعقوب من سجستان يريد كرمان.

ووجه علي بن الحسين طوق بن المغلس، وقد بلغه خبر يعقوب وفصوله من سجستان فسار من كرمان على مرحلة وبقي في معسكره شهراً وأكثر يتخبّر أخبار طوق ويسأل عن أمره كل من مَرَّ به خارجاً من كرمان إلى ناحيته ولا يدع أحداً يجوز بعسكره من ناحيته إلى كرمان، فلا يزحف طوق إليه ولا هو إلى طوق.

ثم أظهر يعقوب الارتحال من عسكره إلى ناحية سجستان فارتحل عنه مرحلة، وبلغ طوقاً ارتحاله.

---

(١) في الكامل: العلوي. وكلاهما صواب في النسبة.

(٢) زاد صاحب الكامل: ثم عاد عن طبرستان بعد أن دخلها، وهزم الحسن بن زيد العلوي، وعاد موسى بن بغا من الري، والمراد بالعبارة الأخيرة أن ذلك من أحداث تلك السنة أيضاً.

(٣) في الكامل: المعتز في كل مواضعه.

(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: يطلب، وأشار محقق الكامل إلى أنه في الطبري. يخطب كما هنا.

(٥) في المخطوط: الطاهر، والتصويب من الكامل.

(٦) في هذا خطة للخلاص من أحد الخصمين للمعتز وقد جاءت العبارة في الكامل بأسلوب أبسط أو أوضح فقال ابن الأثير: وكان كل واحد منهما يظهر طاعة لا حقيقة لها والمعتز يعلم ذلك منهما.

فظن أنه قد بدا له في حربه فترك عليه كرمان وعَلَى علي بن الحسين.

فوضع آلة الحرب[١]، وقصروا، وقعد للشرب، ودعا بالملاهي.

ويعقوب في كل ذلك لا يغفل عن البحث عن أخباره، فاتصل به وضع طوق آلة الحرب، وإقباله على الشرب واللهو لارتحاله، فكرَّ راجعاً، وطوى المرحلتين إليه في يوم واحد، فلم يشعر طوق وهو في لهوه وشربه في آخر يومه إلا بغبرة قد ارتفعت بين خارج المدينة التي هو فيها من كرمان.

فقال لأهل القرية: ما هذه الغبرة؟

فقيل: هذه غبرة مواشي أهل القرية منصرفة إلى أهلها.

ثم لم يكن إلاّ كلام حتى وافاه يعقوب في أصحابه فأحاط به وبأصحابه فذهب أصحاب طوق لما أحيط به يريدون المدافعة عن أنفسهم.

فقال يعقوب لأصحابه: أفرجوا عن القوم. فأفرجوا لهم، ففروا هاربين على وجوههم وخلوا كل شيء لهم، وأسر يعقوب طوقاً. وكان علي بن الحسين وجه طوقاً وحَمّله صناديق في بعضها أطواق وأسورة[٢] وفي بعضها أموال وفي بعضها قيوداً وأغلالاً ليطوّق ويسور من أبلى وأحسن، وليقيد من أسر وأُخذ من أصحاب يعقوب.

فلما [١٦٦/أ] أسر يعقوب طوقاً، ورؤساء جيشه، أمر بحيازة كل ما[٣] كان مع طوق وأصحابه من الأثاث والكراع والسلاح.

فحيز ذلك كله وجمع إليه، فلما أُتي بالصناديق أمر بفتح بعضها فإذا فيه قيود وأغلال.

فقال لطوق: يا طوق، ما هذه القيود والأغلال؟

قال: احملنيها علي بن الحسين على رسم العساكر، لأقيد بها الأسرى وأغلهم.

فقال يعقوب: يا فلان اجعل أكبرها وأثقلها في رجل طوق وعنقه، والباقي في أرجل أصحابه وأعناقهم.

وأمر كذلك بفتح الباقي من الصناديق حتى فُتحت صناديق الأطواق والأسورة.

فقال: يا طوق، ما هذه؟

قال: احملنيها عليّ لأطوِّق وأُسَوِّر بها أهل البلاء والإحسان.

---

(١) في الكامل: وترك كرمان ووضع آلة الحرب دون ذكر قوله عليه وعَلَى عَلِيّ بن الحسين.
(٢) وهي للخلع على أهل البلاء الحسن في المعارك تخلع على الجنود والقادة.
(٣) في المخطوط: من، وهو تحريف، والصواب ما ذكرت.

فقال: يا فلان، خذ هذه الأطواق والأسورة فطوّق فلاناً وسَوِّره، وفلاناً، وفلاناً، حتى فرّق تلك الأطواق كلها.

ثم نظر إلى ذراع طوق وعليها عصابة، فقال: يا طوق، ما هذا؟

قال: أصلح اللّه الأمير، كنت وجدت حرارة ففصدت.

فدعا يعقوب بعض، فأمر بمد خُفِّه فتناثر من خفِّه كسر خُبز يابسة، فقال: يا طوق، هذا خفي لم أنزعه من رجلي منذ شهر، وكسر خبزي في خُفِّي ما طئت فراشي ولا تودّعت، وأنت جالس في الشراب والملاهي، أفبهذا التدبير أردت حربي وقتالي؟! فارس، فضم إليه جيشه والفَلّ وغيرهم، وأعطاهم السلاح.

ثم برز من شيراز فصار إلى الكُرّ[١] خارج شيراز، وبين آخر طرفه عرضاً مما يلي أرض شيراز من عرض جبل، بها من الفضاء قدر ممر رَجُل أو دابة لا يمكن أن يمر فيه أكثر من واحد من ضيقه[٢].

فأقام في ذلك الموضع وضرب عسكره على شاطئ الكر مما يلي شيراز، وأخرج معه السوقة، والتجار من مدينة شيراز إلى معسكره. وقال: إن جاء يعقوب لم يجد موضعاً يجوز فيه الفلاة إلينا لأنه لا طريق له إلا ذلك الفضاء الذي بين الجبل والكرّ، وإنما هو قدر ممر رجل إذا أقام عليه رجل واحد منع من يريد أن يجوزه، وإذا لم يقدر أن يجوز إلينا بقي في البر حيث[٣] لا طعام له ولا لأصحابه، ولا علف لدوابهم.

فأقبل يعقوب حتى قرب من الكُرّ فأمر أصحابه بالنزول أول يوم على نحو ميل من الكرّ مما يلي كرمان، ثم أقبل هو وحده بيده رمح عاري ما معه إلاّ رجل واحد، فنظر

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان:
قال الأديبي: هو موضع بفارس، والمشهور أن الكُر نهر بين أرمينية وأران يشق مدينة تفليس، وبينه وبين برذعة فرسخان ثم يجتمع هو ونهر الرَّسّ بالجمع، ثمَّ يصب في بحر الخَزَر، وهو بحر طبرستان.
وقال الاصطخري: الكُرّ: نهر عظيم عذب مريء حفيف يجري ساكناً مبدؤه من بلاد جُرزان، ثم يمر ببلاد أنجاز من ناحية اللان من الجبال فيمر بمدينة تفليس ثم على قلعة خُنَان، ثم إلى شكي، ومن جانبيه جنزة وشمكور ويجري على باب برذعة إلى برزنج إلى البحر الطبري بعد اختلاطه بالرّس، وهو نهر أصغر من الكر. والكر أيضاً: كورة من نواحي الموصل الشرقية تعد من أعمال العَقْر عليها عدة قرى ومزارع.

(٢) في الكامل في التاريخ: فجمع جيشه وسار إلى مضيق خارج شيراز من أحد جانبيه جبل لا يسلك، ومن الجانب الآخر نهر لا يخاض، فأقام على رأس المضيق، وهو ضيق ممره لا يسلكه إلاّ واحد بعد واحد، وهو على طرف البر، وقال: إن يعقوب لا يقدر على الجواز إلينا، فرجع.

(٣) في المخطوط: بحيث، والباء أوله زائدة فحذفتها.

إلى الكر والجبل والطريق، وتأمل عسكر علي بن الحسين فجعل أصحاب علي يشتمونه ويقولون له: دونك إلى أن تشيب القماقم والمراجل يا صفّار.

وهو ساكت لا يرد عليهم شيئاً، فلما تأمل كل ما أراد أن يراه[١] انصرف راجعاً إلى أصحابه. فلما كان من الغد عند الظهر أقبل بعسكره ورجاله سار إلى شاطئ الكُرّ مما يلي كرمان فأمر أصحابه فنزلوا عن دوابهم وحطوا أثقالهم.

ثم فتح صندوقاً كان معه والناس ينظرون إليه فأخرجوا منه كلباً رساً.

ثم ركبوا دوابهم عرياً، وأخذوا رماحهم بأيديهم.

قال: وقبل ذلك كان قد عبى[٢] علي بن الحسين أصحابه، وأقاموا صفوفاً على الممر الذي بين الجبل والكُرّ، وهم لا يرون أنه لا يصل ليعقوب ولا طريق له يمكنه أن يجوزه.

وعبره، ثم جاؤوا بالكلب فرموا به في الكُرّ وأصحاب علي ينظرون إليه ويضحكون منه، ومنهم، فلما رموا بالكلب فيه جعل الكلب يسبح في الماء جانب عسكر علي بن الحسين، وأقحم أصحاب يعقوب دوابهم خلف الكلب وبأيديهم رماحهم يسيرون في أثر الكلب فلما رأى علي بن الحسين أن يعقوب قد قطع الكُرّ إليه، انتقض عليه تدبيره وتحير في أمره، ولم يلبث أصحاب يعقوب إلاّ أيسر ذلك حتى خرجوا من الكُرّ من وراء أصحاب علي بن الحسين فلم يكن بأسرع من أن خرج أوائلهم منه حتى هرب أصحاب علي يطلبون الهرب إلى مدينة شيراز لأنهم كانوا إذا خرج أصحاب يعقوب من الكُرّ بين جيش يعقوب وبين الكُرّ، فلا يجدون ملجأً.

فلما هربوا تقطر بعلي دابته فسقط ولحقه بعض الشجرية فرفع عليه سيفه ليضربه، فصاح عليه غلام لعلي: الأمير الأمير. فنزل إليه الشجري، فوضع عمامته في عنقه، ثم جره إلى يعقوب. فلما أُتي به، أمر بتقييده، وأمر بما كان في عسكر على من آلة الحرب من السلاح والكراع وغير ذلك فجمع إليه.

ثم أقام بموضعه حتى أمسى، وهجم عليه الليل، ثم رحل من موضعه ودخل مدينة شيراز ليلاً وأصحابه يضربون بالطبول فلم يتحرك أحد.

فلما أصبح أنهب دار علي بن الحسين، ودور أصحابه.

ثم نظر إلى ما اجتمع في المال من مال الخراج والضياع فاحتمله ووضع الخراج فجباه، ثم شخص متوجهاً ثم دخل يعقوب كرمان، فجاوزها وصارت من عمله مع سجستان.

---

(١) في المخطوط: أراد وراه. وفيه سقط وتحريف أدخل ثلاث كلمات في كلمة لا معنى لها.
(٢) في المخطوط: وقبل ذلك ما قد عبى عَلِيَ. وهو تحريف.

وفيها[١]: دخل يعقوب بن الليث فارس فملكها، وأسر علي بن الحسين بن قريش.

ذكر الخبر عن ذلك

ورد عَلى عليّ بن الحسين خبر وقعة يعقوب بن الليث بصاحبه طوق بن المغلس، ودخول يعقوب كرمان واستيلائه عليها.

ورجع الفَلّ[٢]، فأيقن بإقبال يعقوب إلى فارس، وعلي يومئذ بشيراز من أرض إلى سجستان، وحمل معه علي بن الحسين بن قريش ومن أسر من قواده.

ووجه يعقوب بن الليث إلى المعتز بدواة وبزاة، ومسك وثياب هدية[٣].

وفيها: ورد سليمان بن عبد اللّه بن طاهر سُرَّ من رأى بعد خراسان، ودخل على المعتز فخلع عليه وانصرف ثم ولي شرطة بغداد والسواد.

وفيها: أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وأبا نوح عيسى بن إبراهيم [١١٦/ب] وهرب أحمد بن صالح من شيراز إلى بغداد، فاستخفى عند كاتب له يقال له ابن واضح فقيدهم وطالبهم بالأموال.

ذكر السبب في ذلك

كان هؤلاء الكتاب اجتمعوا على شراب لهم يوم الأربعاء فلما كان من الغد ركب

---

(١) في الكامل: وفيها رابع جمادى الأولى.

(٢) أي من نجا هرباً من العسكر راجعاً إلى موطنه.

(٣) زاد ابن الأثير في الكامل:

وقيل إنه جرى بين يعقوب الصفار وبين علي بن الحسين بعد عبوره النهر حرب شديدة وذلك أن علياً كان قد جمع عنده جمعاً كثيراً من الموالي والأكراد، وغيرهم، بلغت عدتهم خمسة عشر ألفاً بين فارس وراجل.

فعبى أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً، ووقف هو في القلب.

وأقبل الصغار فعبر النهر، فلما صار مع عَلِيّ عَلَى أرض واحدة حمل هو وعسكره حملة واحدة على عسكره حملة واحد على عسكر علي فثبتوا لهم، ثم حمل ثانية فأزالهم عن مواضعهم، وصدقهم في الحرب فانهزموا على وجوههم لا يلوي أحد على أحد، وتبعهم علي يصيح بهم ويناشدهم اللّه ليرجعوا أو ليقفوا فلم يلتفت إليه أحد.

وقتل الرجالة قتلاً ذريعاً، وأقبل المنهزمون إلى باب شيراز مع العصر فازدحموا في الأبواب فتفرقوا في نواحي فارس، وبلغ بعضهم في هزيمته إلى الأهواز فلما رأى الصفار ما لقوا من القتل أمر بالكف عنهم ولولا ذلك لقتلوا عن آخرهم وكان القتلى خمسة آلاف قتيل وأصاب علي بن الحسين ثلاث جراحات، ثم أخذ أسيراً عرفوه، ودخل الصفار إلى شيراز وطاف بالمدينة ونادى بالأمان فاطمأن الناس، وعذب علياً بأنواع العذاب وأخذ من أمواله ألف بدرة، وقيل: أربعمائة بدرة من السلاح والأفراس وغير ذلك ما لا يحد، وكتب إلى الخليفة بطاعته، وأهدى له هدية جليلة، منها: عشر بازات بيض، وباز أبلق صيني، ومائة من مسك، وغيرها من الطرائف وعاد إلى سجستان ومعه علي وطوق تحت الاستظهار فلما فارق بلاد فارس أرسل الخليفة عماله إليها.

أحمد بن إسرائيل في جمع عظيم إلى دار السلطان التي يقعد فيها.

وركب ابن مخلد إلى دار قبيحة أم المعتز وهو كاتبها، وحضر أبو نوح الدار والمعتز نائم فانتبه قريباً من نصف النهار وأذن لهم، فحمل صالح بن وصيف على أحمد بن إسرائيل في الكلام فقال للمعتز: يا أمير المؤمنين، ليس للأتراك عطاء، ولا في بيت المال مال، وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا.

فقال له أحمد: يا عاص بن العاص، فتراجعا الكلام.

وكان الأتراك قد شغبوا قبل ذلك وطلبوا أرزاقهم. فقال أبو نوح لصالح عند مراجعته أحمد بن إسرائيل وقول أحمد يا عاص بن العاص هذا الشغب أيضاً تدبيرك على الخليفة فغشي على صالح وسقط على الأرض مما داخله من الغيظ والغضب حتى وشنوا على وجهه الماء، وأفاق.

وجرى بينهم كلام كثير، وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب، فصاحوا صيحة واحدة، واخترطوا سيوفهم، ودخلوا على المعتز مصلتين.

فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم، فأخذ صالح بن وصيف: ابن إسرائيل، وابن مخلد، وأبا نوح عيسى فقيدهم وثقلهم بالحديد، وحملهم إلى داره.

فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: هب لي أحمد فإنه كاتبي، وهو رباني.

فلم يفعل ذلك صالح، ثم ضرب ابن إسرائيل حتى كسر أسنانه.

وبطح ابن مخلد، فضرب مائة مقرعة. وكان عيسى بن إبراهيم محتجماً، فلم يزل يصفع حتى جرت الدماء من محاجمه. وأخذت خطوطهم بمال جليل، فقسط[1] عليهم.

وبعث المعتز إلى أبي صالح عبد اللّه بن محمد بن يزداد المروزي فحمل يستوزره. وبعثت قبيحة أم المعتز إلى صالح بن وصيف في ابن إسرائيل إما حملته إلى المعتز، وإما ركبت إليك فيه.

ثم قدم جعفر بن محمود، ومال إليه الأتراك، ولم يكن للمعتز فيه إرب، فولي الأمر والنهي[2].

[وفيها][3]: [في يوم الأربعاء][4] ولثلاث بقين من رجب خلع المعتز ولليلتين من شعبان أظهر موته.

---

(١) في المخطوط: فسقط عليهم، وهو تحريف.
(٢) وكذا ذكر الخبر ابن الأثير في الكامل كما هو هنا.
(٣) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق على عادة المؤلف فيما سبق من الكتاب.
(٤) زيادة من الكامل.

ذكر سبب خلعه

لما جرى في أمر الكُتاب وأمر الأتراك ما جرى لم يرفع من جهتهم ما ظنه الأتراك، وتقاعد بهم الكُتاب، فساروا إلى المعتز يطلبون أرزاقهم، وقال الأتراك: وَفِّنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف وينتظم أمرك. [فلم يكن عنده ما يعطيهم فنزلوا معه إلى خمسين ألف دينار][١].

فأرسل المعتز إلى أمه يطلب منها مالاً يرضى به الأتراك.

فقالت: ما عندي مال.

فلما نظرت الأتراك إلى امتناع الكُتّاب من أن يعطوهم شيئاً ولم يجدوا في المال شيئاً، والمعتز وأمه قد امتنعا من أن يسمحا[٢] لهم بشيء صارت كلمتهم واحدة وكلمة الفراغنة والمغاربة معهم فاجتمعوا على خلع المعتز، فساروا إليه، فلم يرعه إلاّ صياح القوم، وإذا صالح بن وصيف، وبابكيال[٣] ومحمد بن بغا أبو نصر قد دخلوا في السلاح، فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز، ثم بعثوا إليه: اخرج إلينا. فبعث: إني أخذت أمس دواء وقد خلفني اثني عشر مجلساً، وما أقدر على الكلام من الضعف، فإن كان أمر لا بد منه فليدخل إليَّ بعضكم وليعلمني، وهو يرى أن أمره واقف على حاله فدخل إليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد، فجروا برجله إلى باب الحجرة.

قال: واحسب أنهم تناولوا بالضرب، فإنه خرج وقميصه مخروق في مواضع وآثار الدم على منكبه، فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر. فجعل يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه.

ثم قام بعضهم إليه، وجعل يلطمه وهو يتقي بيده.

وقالوا له: اخلعها.

وكان الأتراك قبل مكاشفته التمسوا منه خمسين ألف دينار ليقتلوا صالح بن وصيف ويستقيم أمره فطلب [من][١] أمه قبيحة هذا المقدار فشحت عليه به ومنعته وقالت: ليس عندي مال. ثم وجد لها من المال الصامت من العين والجوهر ثلاثة آلاف دينار سوى الآلات وسنذكر بعض ذلك في المستأنف[٤].

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في المخطوط يمسحا. وهو تحريف.
(٣) في الكامل كما هنا وأشار محققه إلى أنه في الطبري: بايكباك.
(٤) أي في المقبل من الكتاب.

وكانت قبيحة خطيبة المتوكل وسميت قبيحة لحسنها على طريق الضدّ.

ويقال: إنه لم ير مثلها حسناً.

ثم إن الأتراك احضروا ابن أبي الشوارب مع جماعة من أصحابه، فقال صالح له: اكتب عليه كتاب الخلع - يعني المعتز -.

فقال: لا أحسنه.

وكان معه رجل أصبهاني، فقال: أنا أكتب، ويتخلّص الرجل، فكتب وشهدوا عليه.

فقال ابن أبي الشوارب: إنهم شهدوا عليه على أن له ولأخيه[1] ولابنه ولأمه الأمان.

فقال صالح بكفه: أي نعم. ووكلوا به، وبأمه نساء، وكانت أمه قد اتخذت في الدار سِرباً ينفذ إلى حيث يأمن ويخرج منه.

فدخلت السرب، وفَرَّت هي وأخت المعتز [وكانوا أخذوا عليها الطريق، ومنعوا أحداً يجوز إليها][2].

ثم عذب المعتز بعد الخلع، فلم يوجد له شيء فمنعه المعذب الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البر فمنعوه، ثم خصصوا له سرداباً بالجصّ الثخين وأدخلوه فيه، وأطبقوا عليه بابه، فأصبح ميتاً.

[فلما مات أشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه ودفنوه مع المنتصر][3].

وكانت خلافته أربع سنين، وستة أشهر، وأربع عشر يوماً.

وكان عمره كله أربعاً وعشرين سنة. وكان أبيض أسود الشعر كثيفه، حسن الوجه والعينين، ضيق الجبين، أحمر الوجنتين حسن الجسم طويلا[4].

---

(١) في الكامل: ولأخته.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٤) وجاء بعد هذا في الكامل:

وكان مولده بسر من رأى، وكان فصيحاً فمن كلامه لما سار المستعين إلى بغداد، وقد أحضر جماعة للرأي، فقال لهم:

أما تنظرون إلى هذه العصابة التي ذاع نفاقهم، الهمج، العصاة، الأوغاد، الذين لا مسكة بهم ولا اختيار لهم، ولا تمييز معهم، قد زين لهم تقحم الخطأ سوء أعمالهم، فهم الأقلون وإن كثروا، والمذمومون إذا ذكروا، وقد علمت أنه لا يصلح لقود الجيوش، وسد الثغور، وإبرام الأمور، وتدبير الأقاليم، إلاّ رجل قد تكاملت فيه خصال أربع: حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصادرها.

=

....

= وعلم يحجزه عن التهور والتغرير في الأشياء إلاّ مع إمكان فرصتها.
وشجاعة لا تنقصها الملمات مع تواتر حوائجها.
وجُودٌ يهون تبذير الأموال عند سؤالها.
وأما الثلاثة:
فسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان.
وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان. والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان.
وأما الاثنان:
فإسقاط الحجاب عن الرعية.
الحكم بين القوي والضعيف بالسوية.
وأما الواحدة:
فالتيقظ للأمور.
وقد اخترت لهم رجلاً من موالي أحدهم شديد الشكيمة، ماضي العزيمة لا تبطره السراء، ولا تدهشه الضراء، ولا يهاب ما وراءه، ولا يهوله ما يلقاه، فهو كالحريش في أصل السلام إن حرك حمل، وإن نهش قتل، عدته عتيدة، ونقمته شديدة، يلقى الجيش في النفر القليل العديد في قلب أشد من الحديد، طالب للثأر لا تفله العساكر، باسل ومقتضب الأنفاس، لا يعوزه ما طَلَب، ولا يفوته ما هرب، واري الزناد، مضطلع العماد، لا تشرهه الرغائب، ولا تعجزه النوائب، إن ولي كفى، وإن قال وفى، وإن نازل فبطل، وإن قال فعل، ظله لوليه ظليل، وبأسه في الهياج عليه دليل يفوق من ساماه، ويعجز من ناواه، ويتعب من جاراه، وينعش من والاه.

خلافة المهتدي

وفي يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب: بُويع محمد بن الواثق، وسمي المهتدي باللّه وكنيته أبو عبد اللّه [وأمه رومية وكانت تسمى قرب][١].

ولم يقبل [١١٧/أ] بيعة أحد حتى أتى بالمعتز فخلع نفسه[٢]، وبايع محمد بن الواثق، وكانت نسخة الرقعة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما شهد عليه الشهود المسمون[٣] في هذا الكتاب شهدوا جميعاً: أن أبا عبد اللّه بن أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أقرّ ضدهم، وأشهدهم على نفسه في صحة من عقله وبدنه وجواز من أمره طائعاً [غير][٤] مكره، أنه نظر فيما كان تقلده من الخلافة والقيام بأمور المسلمين فرأى أنه لا يصلح لذلك ولا يكمل له، وأنه عاجز عن القيام بما[٥] يجب عليه فيها[٦] ضعف عنه[٧]، فاخرج نفسه من الخلافة[٨] وتبرأ منها وخلع نفسه[٩]، وبرأ كل من كانت له بيعة في عنقه من جميع أوليائه وسائر الناس بما كان له في رقابهم من البيعة والعقود والمواثيق والأيمان بالعتاق والطلاق والصدقة [والحج][١٠] وسائر الأيمان وحللهم من جميع ذلك [وجعلهم][١٠] في سعة منه[١١] في الدنيا والآخرة بعد أن تبين له أن الصلاح له وللمسلمين في خروجه من[١٢] الخلافة والتبرئ منها، وأشهد على نفسه بجميع ما [سمى

(١) زيادة من الكامل في التاريخ.
(٢) بعد هذا في الكامل: وأقر بالعجز عما أسند إليه، وبالرغبة في تسليمها إلى ابن الواثق، فبايعه الخاصة والعامة.
(٣) في المخطوط: المسماة، وهو تحريف.
(٤) سقطت من المخطوط والسياق يقتضيها.
(٥) في هامش الكامل: فيما.
(٦) في هامش الكامل: منها.
(٧) في هامش الكامل: ضعف عن ذلك.
(٨) قوله من الخلافة لم ترد في هامش الكامل.
(٩) في هامش الكامل: وخلعها من رقبته.
(١٠) ما بين المعقوفين زيادة من هامش الكامل.
(١١) في المخطوط: منهم. والتصويب من هامش الكامل.
(١٢) في الكامل: عن.

ووصف][1] في هذا الكتاب جميع الشهود [المسمين][1] في هذا الكتاب وجميع من حضر بعد أن قرئ عليه حرفاً حرفاً فأقر[2] بفهمه ومعرفة ما فيه طائعاً غير مكروه، وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

فوقع المعتز في ذلك.

أقر أبو عبد اللّه بجميع ما في هذا الكتاب[3] وكتب محمد بن الواثق المهتدي باللّه إلى سليمان بن عبد اللّه بن طاهر بمدينة السلام [أنهم][4] قد بايعوه. وكان هناك أبو أحمد بن المتوكل، فبعث سليمان إليه، فأحضر داره، وسمع من ببغداد[5] من الجند والغوغاء بالخبر، فاجتمعوا إلى باب سليمان وضجوا[6]، فخوطبوا: أنه لم يرد علينا خبر نثق به، فانصرفوا[7] إلى يوم الجمعة، وخطبوا للمعتز، فلما كان يوم السبت، اجتمعوا وهجموا على دار سليمان في داره وسألوه أن يريهم أبا أحمد بن المتوكل.

فأظهره لهم، ثم وعدهم أن يصير إلى محبتهم إن تأخر عنهم ما يحبونه، فأكدوا عليه في حفظه[8]، وانصرفوا عنه.

ثم قدم بازخوخ ومعه ثلاثون ألف دينار لإعطاء الجند.

فضج الناس ببازخوخ، ووقعت الفتنة والعصبية ببغداد، وقصد دار سليمان وقد تحصنها بمن يحفظها، فحاربهم أهل بغداد في شارع دجلة، وعلى الجسر، فقتل خلق. ثم وجه إلى بغداد مال رضوا به، وبايع الناس واستقامت الأمور وسكنت الفتنة.

وفي هذه السنة من شهر رمضان من هذه السنة:

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من هامش الكامل.
(٢) في المخطوط: أمر. وهو تحريف والتصويب من هامش الكامل.
(٣) زاد بعد هذا محقق ابن الأثير نقلاً عن الطبري ما نصه:
وكتب بخطه
وكتب الشهود شهاداتهم: شهد: الحسن بن محمد، ومحمد بن يحيى، وأحمد بن جناب، ويحيى بن زكريا بن أبي يعقوب الأصبهاني، وعبد اللّه بن محمد العامري، وأحمد بن الفضل بن يحيى، وحماد بن إسحاق، وعبد اللّه بن محمد وإبراهيم بن محمد.
وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.
(٤) زيادة يتطلبها السياق. وجاء أول هذا الخبر على النحو التالي:
وفي هذه السنة شغب العامة ببغداد سلخ رجب ووثبوا بسليمان بن عبد اللّه، وكان سببه أن كتاب المهتدي ورد سلخ رجب إلى سليمان يأمر بأخذ البيعة له وكان أبو أحمد...
(٥) في المخطوط: بعداد. يترك الباء من أوله وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
(٦) في المخطوط: وظجوا بالظاء المعجمة، وهو تحريف.
(٧) في الكامل: فقاتلهم أصحابه وقالوا لهم:
ما يرد علينا من سامرا خبر فانصرفوا.
(٨) في المخطوط: خطه، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

ظهرت قبيحة ودلت على الأموال التي لها، والذخائر، والجواهر.

سبب ظهور قبيحة

كانت قبيحة قدرت الفتك وصالح بن وصيف واطأت على ذلك النفر من الكبار الذين أوقع صالح.

فلما حصلوا في يد صالح وعذبوا علمت أنهم لا يطوون عن صالح شيئاً من الخبر بسبب ما نالهم من العذاب، فأيقنت بالهلاك.

وكانت قد اطلعت الكُتاب على ما تبذله في قتل أُولئك الأتراك، فعملت في التخلص[١] فبادرت إلى صالح بن وصيف، ووسطت بينها وبينه العطارة، وكانت تثق بها.

وكان لها مال ببغداد فكتبت في حمله، فاستخرج وحمل قدر خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار، ووقعوا على خزائن لها ببغداد، فحملوا إلى السلطان منها متاع عظيم. ولم تزل خزائنها وأموالها متصلة، والبيع منها دائم، وحوالة الجند عليها ببغداد وسُرَّ مَنْ رأى عدة شهور. ثم وقف صالح على خزائن قبيحة، فأرسل إلى رجل جوهر، فقال الرجل: فدخلت إليه فقال: إن لقبيحة خزانة في مواضع يرشدك إليها هذا الرجل، فامض ومعك أحمد بن خاقان، وصر إلى معه. قال: فمضينا إلى الصفوف بحضرة المسجد الجامع وجاءنا ذلك الرجل إلى دار صغيرة معمورة نظيفة، فدخلناها معاً، وفتشنا كل موضع فيها، فلم نجد شيئاً وجعل ذلك يغلظ على أحمد بن خاقان، ويتهدد ذلك الرجل ويتوعده ويشتمه. فأخذ الرجل فأساً وجعل ينقر به الحائط يطلب موضعاً قد صيرت فيه المال، فلم يزل كذلك حتى وقع الفأس على موضع من الحائط استدل بصوته على أن فيه شيئاً، فهدمه وإذا من ورائه باب ففتحناه، ودخلنا فإذا باب سرب فصرنا إلى دار تحت الدار التي دخلناها على بنائها وقسمتها، فوجدنا من المال على رفرف في أسفاط[٢] ألف ألف دينار، فأخذ أحمد ومن كان معه قدر ثلاثمائة ألف دينار.

(١) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل:
فعملت في الخلاص، وأخرجت ما في الخزائن إلى خارج الجوسق من الأموال، والجواهر وغيرها فأودعته، واحتالت فحفرت سرباً في حجرة لها إلى موضع يفوت التفتيش، فلما خرجت الحادثة على المعتز بادرت فخرجت في ذلك السرب، فلما فرغوا من المعتز طلبوها، فلم يجدوها، ورأوا السرب فخرجوا منه فلم يقفوا لها على خبر، وبحثوا عنها فلم يظفروا بها ثم إنها فكرت فرأت: أن ابنها قتل، وأن الذي تختفي عنده يطمع في مالها وفي نفسها ويتقرب بها إلى صالح، فأرسلت امرأة عطارة إلى صالح بن وصيف فتوسطت الحال بينهما وظهرت في رمضان.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب:
السَّفَطُ: الذي يعبئ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، والسفط معروف.
قال ابن سِيدة: السفط كالجوالق، والجمع أسفاط.
قلت: ونخرج من هذا القول بأن الأسفاط أي الأواني التي تحوي أو تجمع فيها الأشياء.

ووجدنا ثلاثة أسفاط فيه مقدار مَكُّوك[١] زمرداً لم أر للمتوكل ولا لغيره مثله. وسفط دونه فيه نصف مكوك حَبًّا كباراً ما ظننت واللّه أن مثله يكون. وسفط دونه فيه مقدار كيلجة[٢] ياقوتاً أحمر لم أر مثله ولا ظننت أن مثله يوجد في الدنيا.

فقومت الجميع على البيع ألفي ألف دينار، حملناه كله إلى صالح.

فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقن حتى أحصى[٣] بحضرته ووقف عليه فقال عند ذلك: فعل اللّه بها وصنع، عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وعندها مثل هذا في خزانة من خزائنها.

ولم تزل قبيحة مقيمة إلى أن حضر وقت الحج إلى مكة مع أصحاب المهتدي باللّه، فحكى من سمعها في طريقها وهي تقول وتدعو على صالح بصوت [عال][٤]:

اللهم اخز صالح بن وصيف [١١٧/ب] كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدد شملي، وأخذ مالي، وغرّبني عن بلدي، وركب الفاحشة مني.

ولما انصرف الناس عن الموسم احتبست بمكة[٥].

وفي هذه السنة: قتل أحمد بن إسرائيل وأبو نوح.

ذكر السبب في قتلهما

كان صالح بن وصيف لما استصفى أموالهما وأموال الحسن بن محمد عذبهم، وقرب كوانين الفحم المشعلة منهم في شدة الحر، ومنعهم كل راحة، ولم يعارضه المهدي.

---

(١) قال ابن منظور أيضاً في المكوك:
المَكُّوك: طاس يشرب به، وفي المحكم: طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسطه واسع. والمكوك مكيال معروف لأهل العراق، والجمع مكاكي ومكاكيك... وهو صاع ونصف، وهو ثلاث كَيْلَجَات، والكيلجة مَناً وسبعة أثمان مَناً، والمَنا: رطلانَ والرطل: اثنتا عشرة أوقية، والأوقية: إستار وثلثا إستار، والإستار أربعة مثاقيل ونصف. والمثقال: درهم وثلاثة أسباع درهم. والدرهم: ستة دوانيق، والدانق قيراطان. والقيراط: طسوجان. والطَّسُّوج: حبتان، والحبة: سدس ثمن الدرهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم.

(٢) في المخطوط: كثلحة بالثاء، والحاء المهملة، وهو تحريف وقد سبق تعريف الكثلجة في تعريف المكوك.

(٣) في المخطوط: أحضى. وربما أن الصواب أُحضر، فاللّه أعلم.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

(٥) زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل:
وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافوراً.
قال: وكانت أم المهدي قد ماتت قبل استخلافه، وكانت تحت المستعين، فلما قتل جعلها المعتز في قصر الرصافة فماتت، فلما ولي المهتدي قال: أما أنا فليس لي أم احتاج لها إلى غلة عشرة آلاف دينار في كل سنة لجواريها وخدمها والمتصلين بها، وما أريد إلاّ القوت لنفسي وولدي، وما أريد فضلاً إلا لإخوتي فإن الضائقة قد مستهم.

وكان عبد اللّه بن يزداد يقول لصالح: اقتلهم، فإنهم إن أفلتوا[(١)] لم تؤمن[(٢)] بوائقهم في الأعقاب فضلاً عمّن وترهم.

فحكى الحسن بن مخلد قال: كان داود بن أبي العباس الطوسي يحضرنا عند صالح بجميل فيقول: وما هؤلاء أعزك اللّه حتى بلغ منك الغضب بسببهم هذا المبلغ فنظنه يرقفه علينا حتى يقول: على أني واللّه أعلم أنهم لم يخلصوا انتشر فيهم شر كثير وفساد في الأصل لهم عظيم. فينصرف واللّه وقد أفتى بقتلنا وأشار عليه بإهلاكنا، فيزداد علينا برأيه وكلامه غيظاً.

ثم وكّل بأحمد بن إسرائيل، وأبي نوح عيسى بن أحمد بن محمد بن حماد، [ابن][(٣)] ديفش، فأشرف في تعذيبهما.

فأقام أحمد بن إسرائيل يضرب، وابن ديفش يقول: أوجع، وكان خلاد يضربه سوطين ويتنحى حتى وفوه خمسمائة سوط.

ثم أقاموا أبا نوح فضربوه أيضاً كذلك ضرب التلف، ثم حُملا على بغلين من بغال السقائين على بطونهما منكسة رؤوسهما ظاهرة ظهورهما للناس فتلفا[(٤)] في الطريق.

وأما الحسن بن مخلد فتخلص بخصلتين: **إحداهما**: أنه صدقه عن جميع ما سأله عنه. **والأخرى**: أن المهتدي كَلَّمَهُ فيه.

وقال لأهله حرمة، وأنا أحب صلاح شأنه من بينهم[(٥)].

وفيها: انصرف مفلح عن طبرستان بعد أن كان دخلها وأخرج الحسن بن زيد[(٦)].

ذكر السبب في ذلك

أن قبيحة كتبت إلى موسى بن بُغا لما رأت من الأتراك اضطراباً، وأنكرت أمرهم

---

(١) في المخطوط: افتلوا. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: يؤمن. وهو تحريف.
(٣) زيادة يتطلبها السياق لما يأتي بعده.
(٤) أي: فماتا.
(٥) ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل مختصراً وبزوائد فقال فيه:
وفيها قُتل أحمد بن إسرائيل وكان صالح قد عذبه بعد أن أخذه وأخذ ماله ومال الحسن بن مخلد، ثم أمر بضربه وضرب أبي نوح ضرب التلف، كل واحد منهما خمسمائة سوط فماتا ودفنا. وبقي الحسن بن مخلد.
ولما بلغ المهتدي ضربهما قال: أَمَا عقوبة إلا السوط والقتل، أما يكفي الحبس؟ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، يكرر ذلك مراراً.
(٦) زاد بعدها ابن الأثير في الكامل.
وعاد موسى بن بُغا من الري.

تسألهم القدوم إلى ما قبلها، وأملت بوروده فرجاً لها ولابنها فعزم موسى على الانصراف إليها وكتبت إلى مفلح وهو بطبرستان بالانصراف إليه وهو بالري.

فورد إليه كتاب موسى وقد توجه نحو أرض الديلم في طلب الحسن بن زيد، فلما ورد عليه الكتاب انصرف راجعاً فعظم ذلك على رؤساء طبرستان ومن كان هارباً قبل قدوم مفلح، وكانوا قد رجوا بقدومه الرجوع إلى منازلهم وأموالهم وذلك أن مفلحاً كان يعدهم اتباع الحسن بن زيد حتى يظفر به أو يخترم دونه.

فلما رأى الناس انصرافه من غير عسكر الحسن بن زيد ولا أحد من الديلم، سألوه عن السبب الذي صرفه وجعلوا يكلمونه وهو كالمسبوت[١] لا يجيبهم، فلما أكثروا عليه.

قال لهم: ورد كتاب موسى عَلَيّ بعزيمة منه أن لا أضع كتابه من يدي حتى أقبل إليه، وأنا مغموم بأمركم لكن لا سبيل إلى مخالفة الأمير.

ولم يتهيأ لموسى الشخوص من الري إلى سُرَّ مَنْ رأى حتى وافاه الكتاب بهلاك المعتز، وقيام المهتدي بعده، فأثناه[٢] ذلك عما عزم عليه من الشخوص لفوت ما كان قدر إدراكه من أمر المعتز.

ثم إن الموالي الذين في عسكر موسى بلغهم ما استخرج صالح بن وصيف من أموال الكتاب وأسلاب[٣] المعتز والمتوكل، فحسدوا المقيمين بسُرَّ مَنْ رَأَى، فدعوا موسى الانصراف[٤] إلى سُرَّ مَنْ رأى.

فأمر أن يستخرج من أهل الري خراج سنة ست وخمسين ومائتين فافتتح الخراج في شهر رمضان، فجبى في يوم واحد خمسمائة ألف ألف درهم.

فاجتمع أهل الري وقالوا: أصلح اللّٰه الأمير ما سبب انصرافك عن هذا الثغر؟

فقال: إن الجند والموالي أبوا أن يقيموا، فإذا انصرفوا فما أقل غيابي عنكم.

فقالوا: أصلح اللّٰه الأمير، إن الموالي يرجعون لما يقدرون هناك، فإن رأيت أن

(١) أي كالميت أو كالمغشي عليه الذي لا يجيب من ناداه ولا يتحرك عن موضعه، أو كالنائم أو من يداخله النوم وهو من السبات.
قال ابن منظور في لسان العرب:
المسبوت: الميت والمغشي عليه، وكذلك العليل إذا كان ملقى كالنائم يغمض عينيه في أكثر أحواله مسبوت.

(٢) في المخطوط: بالاثناه. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: اشباب. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: الانصراف، وهو تحريف، وفي الكامل بالانصراف.

تقيم وتسد هذا الثغر، وتحتسب في ذلك الأجر والثواب، ويلزمنا من خراجنا في خاص أموالنا لمن معك، وما ترى أننا نحتمله فعلت، فلم يجبهم إلى ما سألوا.

فقالوا: أصلح اللّه الأمير، إذا كان الأمر على هذا، فما منعنا أخذ الخراج لسنة ما نبتدئ بعمارتها بعد؟ وأكثر غلة سنة خمس وخمسين التي قد استوفا الأمير خراجها مِنَّا في الصحراء ولا يمكننا الوصول إليها إن خرج الأمير عَنَّا، فلم يلتفت إلى كلامهم، وخرج، واتصل خبر انصرافه بالمهتدي، فكتب إليه في ذلك كُتباً كثيرة، فلم يؤثر شيئاً منها.

فلما نظر المهتدي رأى موسى يشين ويخل بموضعه، وأن كتبه إليه لا تغني شيئاً، وجه إليه رسولين من بني هاشم وحملهما رسائل إلى موسى ووجوه قواده وإلى سائر عسكره يصدهم فيها عن الحركة، ويصدقهم الحال عن ضيق الأموال عنده وما يحاذر من ذهاب ما يلحقونه واراهم غلبة الطالبي واتباعه من الديلم عليه فشخص الهاشميان مع جماعة من الوجوه والموالي.

وأقبل موسى يسير، وصالح بن وصيف يعظم ذلك على المهتدي، وينسبه إلى العصيان والخلاف.

وكان المهتدي قد هجر الشراب وكسر الآنية، وكان يفتك، ويجلس على اللبود، ويقعد للمظالم ويشتغل بالصوم، والصلاة، ودروس القرآن.

فذكر أن كتاب صاحب البريد بهمذان، ورد عليه بقصول موسى عنها.

فرفع المهتدي يده إلى السماء وقال بعد حمد اللّه والثناء عليه: اللّهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بُغا وإخلاله بالثغر وإباحته، وقد عذرت إليه فيما بيني [١١٨/أ] وبينه، اللهم تول من كاد المسلمين وانصر جيش المسلمين حيث كانوا، اللهم إني شاخص بنفسي إلى حيث نكب فيه المسلمون ناصراً لهم ودافعاً عنهم فأجرني، اللهم وثبتني إن فقدت صالح الأعوان وعدمت الناصرين، ثم تحدرت دموعه فبكى.

فذكر عن من حضر مجلس المهتدي: أنه رأى سليمان بن وهب في ذلك اليوم يقول: أتأذن يا أمير المؤمنين أن أكتب بما أسمع؟

قال: نعم اكتب بما تسمع مني إن أمكنك أن تنقشه في الصخر، فافعل.

ولما تلقاه الهاشميان والرسل، لم يعبأ وضج الموالي وكادوا يثبون بالرسل.

ورد موسى في جواب الرسالة يعتذر مما عاين الرسل المتوجهون إليه، وأنه ليس يرضى القوم إلاّ بورود باب أمير المؤمنين، وإن رام التخلف عنهم، لم يأمنهم على نفسه.

وأوفد موسى مع الرُسل وفداً من عسكره وكان كنجور يفيء أيام المعتز إلى فارس ثم لحق بأبي دلف، وأثر بالأهواز آثاراً قبيحة.

فلما أقبل موسى انضم إليه فبلغ ذلك صالح، فكتب إلى المهتدي في حمل كنجور مقيداً، فأبى ذلك الموالي، ووجه المهتدي أخاه إبراهيم لأمه في كنجور، ويأمره بتقييده وحمله إلى بغداد.

فكان جوابهم أن قالوا: إذا دخلنا[١] سُرَّ مَنْ رَأى امتثلنا أمر أمير المؤمنين في كنجور وغيره.

وفي شوال من هذه السنة: ظهر في فرات البصرة رجل علوي، فجمع زنج البصرة الذين يكسحون السِّباخ[٢]، ثم عبر إلى دجلة، [فنزل الديناري][٣].

ذكر خبر العلوي صاحب الزنج ومبدأ أمره وسبب خروجه

هذا الرجل مولده قرية من قرى الرّي يقال لها وَرْزَنِين[٤]، وقد شك قوم في نسبه[٥].

وسمعت من لا يرتاب بخبره أنه صحيح النسب وهو علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه واتصل بقوم من حاشيته المنتصر وغيرهم من كتاب السلطان، وكان يمتدحهم ويستميحهم بشعره، ثم أتى البحرين[٦]، ودعا قوماً إلى طاعته فاتبعه جماعة من أهلها، ووقعت بسببه عصبية فقتل فيها جماعة.

فانتقل إلى الاحساء، فحدث مثل ذلك فانتقل إلى البادية وادعى النبوة ومعجزات ذكرها عن نفسه.

إحداها: أنه يزعم أن سحابة أظلته بالبادية، فبرقت ورعدت، فاتصل صوت الرعد بسمعه قال: فخوطب، فقيل: أقصد البصيرة. فقلت لأصحابي وهم مطيفون بي: أُمرت

---

(١) في المخطوط: خلنا بنقصان الدال المهملة من أوله، وهو تحريف.

(٢) في الكامل: يسكنون السباخ، وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هنا، أي يكسحون السباخ.

(٣) زيادة من الكامل في التاريخ.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان:
وَرْزَنِين: من أعيان قُرى الري كالمدينة.

(٥) قال ابن الأثير في الكامل:
قال أبو جعفر: وكان اسمه فيما ذكر علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس. وأمه ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة من قرى الرّي، وكان يقول: جدي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين. فلما قتل زيد هرب فلحق بالري فجاء إلى قرية ورزنين وأقام بها.
وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس كان مولده بالطالقان وقدم العراق واشترى جارية سندية وأولدها محمداً أباه، وكان متصلاً قبل بجماعة من حاشية المنتصر منهم: غانم الشطرنجي، وسعيد الصغير، وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان...

(٦) في الكامل:
ثم شخص من سامرا سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين.

بكذا، وكان سبب خروجي إلى البصرة[١].

فتبعه قوم بالبصرة منهم علي بن أبان المهلبي وأخواه: محمد، والخليل، وغيرهم.

وعامل البصرة يومئذٍ محمد بن رجاء الحضاري من قِبل السلطان، ووافق فتنة البلالية السعدية.

فطمع في أحد الفريقين[٢]، ووافى يرتحل قصراً يعرف بقصر القرشي، وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع السّباخ، وأقام أياماً. فذُكر عن ريحان ـ وهو أحد غلمان السورجيين، وهو أول من صحبه ـ أنه قال:

كنت موكلاً بغلمان مولاي انقل الدقيق إليهم من البصرة، وأفرقه فيهم، فحملت إليهم يوماً الرسم، فمررت به وهو مقيم يرتحل في قصر القرشي، فأخذني أصحابه

---

(١) ومما في الكامل من هذا القبيل أنه قال: أوتيت في تلك الأيام بالبادية آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس منها: أني لقنت سوراً من القرآن فجرى بها لساني في ساعة وحفظتها في دفعة واحدة، منها: سبحان، والكهف، وصاد.
ومنها: أني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد، فأظلتني غمامة وخُوطبت منها فقيل لي: اقصد البصرة.
وقيل عنه إنه قال لأهل البادية: إنه يحيى به عمر العلوي أبو الحسن المقتول بناحية الكوفة، فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى موضع يقال له: الردم من البحرين، فكانت بينهم وقعة عظيمة، وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، قتلوا قتلاً كثيراً.
فتفرقت العرب عنه، فسار فنزل البصرة في بني ضبيعة، فاتبعه منهم جماعة كثيرة منهم: علي بن أباب المهلبي، وكان قدومه البصرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ومحمد بن رجاء الحضاري عاملها، ووافق ذلك فتنة. . .

(٢) بعد هذا في الكامل وقبل ذكر رحيله إلى قصر القرشي:
فطمع في إحدى الطائفتين أن تميل إليه، فأرسل إليهم يدعوهم، فلم يجبه أحد من أهل البلد.
وطلبه ابن رجاء فهرب، فحبس رجاء جماعة ممن كانوا يميلون إليه منهم: ابنه وزوجته، وابنة له، وجارية حامل منه.
وسار يريد بغداد ومعه من أصحابه: محمد بن سلم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، ومرقس القريعي، فلما صار بالبطيحة نذر بهم رجل كان يلي أمرها اسمه: عمير بن عمار فحملهم إلى محمد بن أبي عون عامل واسط فخلص منه هو وأصحابه.
فدخل بغداد فأقام بها حولاً فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد.
فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه، وما يفعل كل واحد منهم، فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم: جعفر بن محمد الصوحاني من ولد يزيد بن صوحان، ومحمد بن القاسم، ومشرق، ورقيق غلاما يحيى بن عبد الرحمن، فسمى مشرقاً: حمزة، وكناه أبا أحمد. وسمي رقيقاً: جعفراً، وكناه أبا الفضل.
عزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثب رؤساء البلالية، والسعدية، فأخرجوا من في الحبوس، فخلص أهله فيهم، فلما بلغه خلاص أهله رجع إلى البصرة، وكان رجوعه إليها في رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه علي بن أبان، ويحيى بن محمد، وسليمان، ومشرق، ورقيق فوافوا البصرة فنزل بقصر القرشي.

فساور أبي إليه، وأمروني أن أسلم عليه بالإمرة ففعلت.

فسألني عن الموضع الذي جئت منه.

فقلت: من البصرة.

قال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟

فقلت: لا.

قال: فما أخبار البلالية والسعدية؟

قلت: لا أعرف خبرهم (. . .)[١].

فسألني عن أخبار السورجيين، وما يجري لكل غلام منهم من التمر والدقيق، وعن من يعمل في السورج من الأحرار والعبيد.

فأعلمته ذلك فدعاني إلى ما هو عليه فأجبته.

فقال لي: احيل فيمن قدرت السلطان من الغلمان فأقبل بهم إليّ، ووعدني أن يقودني على من أمه به منهم وأن يحسن إليّ، واستحلفني وأن لا أعلم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه فخلى سبيله.

فأتيت بالدقيق الذي معي إلى الموضع الذي كنت قصدته وأقمت فيه يومي، ثم رجعت إليه من غد فوافيته وقد قدم عليه غلمان كان وجههم إلى البصرة في حوائج له فيما حمل إليه حريرة يتخذها لواء.

فأمر أن يكتب عليها[٢] بحمرة وخضرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] إلى آخر الآية، وكتب اسمه واسم أبيه وعلقها في مُرْدِي[٣].

وخرج من النهر في ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان.

فلما صافى مؤخر القوم الذي كان فيه، لقيه غلام من السورجيين متوجهين إلى أعمالهم فأمر بأخذهم، فأخذوا، وكتّف وكيلهم وأخذه معهم، وكانوا خمسين غلاماً.

وكان أهل البصرة في ذلك الزمان يشترون الزنوج ويخرجونهم إلى السّباخ فيكسحونها حتى يصلوا التربة الطيبة فيعمرونها.

وكسوح الزنج بالبصرة معروفة تشاهد فيها تلال كالجبال.

وكان في أنهار البصرة منهم عشرات ألوف يغدون بهذه الخدمة[٤]، ويجري عليهم

(١) كلمة بالمخطوط ممحوة نظراً لعوامل الزمن.

(٢) في المخطوط: عليه وهو تحريف.

(٣) أي في عمود أو خشبة طويلة. قال صاحب اللسان: المُرْدِي: خشبة يدفع بها الملاح السفينة.

(٤) يماثلهم اليوم من يسمون في مكة المكرمة بالدّكارنة، وهم قوم زنوج يقومون بأعمال الحفر =

أقواتهم من الدقيق والتمر.

[ثم][(١)] إن هذا الرجل العلوي سار من موضعه الذي ذكرنا، فسار إلى الموضع الذي تعمر فيه البساتين، فأخذ منه خمسمائة غلام، وأخذ وكيلهم فكشفه.

ثم أتى موضع السرائر فأخذ منه خمسمائة غلام، ولم يزل يومه يفعل ذلك حتى اجتمع له خلق من السورجيين[(٢)].

ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً، فمنَّاهم ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال وحلف لهم [١١٨/ب] بالأيمان الغلاظ أن لا يغدر بهم، ولا يخذلهم، ولا يخدع مُمكِناً من الإحسان إلا أتى إليهم.

ثم دعا مواليهم فقال: أردت أن أضرب أعناقكم[(٣)] لإساءتكم إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وفعلتم بهم ما حَرَّم اللّه عليكم، وحملتموهم ما لا يطيقون، فكلمني أصحابي فيكم، فرأيت إطلاقكم. فقالوا: إن هؤلاء الغلمان أُبَّاق وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا، فخذ مِنَّا مالاً وأطلقهم لنا، فأمر غلمانه فأحضروا شطباً، ثم بطح كل قوم مولاهم فضرب كل رجل خمسمائة شطبة، وأحلفهم بطلاق نسائهم أن لا يعلموا أحداً بموضعه، ولا بعدد أصحابه، وأطلقهم.

ثم سار حتى عبر دجيلاً[(٤)] وسار إلى نهر ميمون[(٥)] في سفن مما وجدها، فقام

= وقطع الصخور وهم من جنوب إفريقيا خصصوا في هذه الأنواع من الأعمال الشاقة التي لا يستطيع أن يقوم بها غيرهم.

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) كذا في المخطوط، وفي الكامل بالسين المهملة، وأشار محققه إلى أنه في الطبري الشين المعجمة.

(٣) في المخطوط: أعناقهم، وهو تحريف.

أي جريداً قد نزع سعفه. قال صاحب لسان العرب:

الشُّطْبُ، مجزومٌ: السَّعَف الأخضر الرطب من جريد النخل واحدته شطبة... وقال ابن الأعرابي: الشَّطائب دون الكرانيف الواحدة شطيبة، والشَّطْبُ دون الشطائب الواحدة شَطْبَة...

والشواطب من النساء: اللواتي يشققن الخوص، ويقشرن العُسُب ليتخذن منه الحصر، ثم يلقينها إلى المنقيات.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان:

دُجَيْل: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين كريت وبينها مقابل القادسية دون سامرًا فيسقي كورة واسعة وبلاداً كثيرة منها: أوانا، وعُكبرا، والحظيرة، وصريفين، وغير ذلك، ثم تصب فضلته في دجلة أيضاً.

ومن دجيل هذا مسكن التي كانت عندها حرب مصعب ومقتله.

ودُجَيْل الآخر: بالأهواز حضره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس.

وقال حمزة: كان اسمه في أيام الفرس: ديلدا كودك، ومعناه: دجلة الصغير، فعرب على دُجيل، ومخرجه من أرض أصبهان، ومصبه في بحر فارس قرب عباذان.

وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجي.

(٥) وقال فيه أيضاً: =

بجمع السودان إلى يوم الفطر، فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لعمارة الفطر، فاجتمعوا وركز المُرْدِيّ الذي عليه لواءه وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن اللّه قد استنفذهم من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال ويبلغ بهم أعلى الأمر، ثم حلف لهم على ذلك.

فلما فرغ من صلاته وخطبته أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموا من أعجمهم لتطيب بذلك أنفسهم، ففعل ذلك، ودخل القصر.

ثم إن الحميري قصد جماعة من أصحابه، فأخرجهم إلى الصحراء، فلحقهم صاحب الزنج فيمن معه، فأوقع بالحميري، وأصحابه فانهزموا. واستأمن إليه رجل من رؤساء الزنج يُكنى بأبي صالح في ثلاثمائة من الزنج، فمنّاهم ووعدهم خيراً.

وكان ابن أبي عون [ويعرف بالقصير][١] قد قلد الإبلة، وكور دجلة، فانتهى إليه أن عقيلاً الحميري مع خليفة ابن أبي عون قد أقبلوا نحوه ونزلوا بهم لحين.

فأمر أصحابه بالمسير إلى الوربقية[٢] فساروا[٣] إليها مع صلاة الظهر، فصلوا بها، ثم استعدوا للقتال.

وليس في عسكره يومئذٍ إلاّ ثلاث أسياف ونهض راجعاً نحو المحمدية[٤]، فوافاها وتلاحق[٥] إليه أصحابه.

وكان جعل علي بن أبان في آخر أصحابه، وأمره أن يتعرف خبر من يأتيه من ورائه.

= في موضعين أحدهما: نهر من أعمال واسط قصبته الرصافة.
وكان أول من حفر الميمون وكيلاً لأم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور يقال له: سعيد بن زيد، وكانت فوهته في قرية يقال لها: قرية الميمون، فحُوّلت في أيام الموائق على يد عمر بن الفرج الرُّخَجِيّ إلى موضع آخر وسُمّي بالميمون لئلا يسقط عنه اسم اليُمن.
وبئر ميمون: بمكة.
والميمون والزيتون: قريتان جليلتان بالصعيد الأدنى قرب الفسطاط على غربي النيل.

(١) زيادة من الكامل.
(٢) كذا في المخطوط، لم أقف على بلد ولا موضع بهذا الاسم.
(٣) كذا في المخطوط. وأحسب أن الكلمة صوابها فوصلوا. واللّه أعلم.
(٤) قال ياقوت في المعجم:
هو اسم لمواضع منها: قرية من نواحي بغداد من كورة طريق خراسان أكثر زرعها الأرز.
والمحمدية أيضاً: ببغداد من قرى بين النهرين.
والمحمدية أيضاً: من أعمال بَرْقَة من ناحية الإسكندرية.
والمحمدية: مدينة بنواحي الزاب من أرض المغرب، ومدينة المسيلة بالغرب، ويقال لها أيضاً المحمدية، اختطها محمد بن المهدي الملقب بالقائم في أيام أبيه. . .
(٥) في المخطوط: وتدلحق، وهو تحريف.

فأتاه وقال له: كُنا نرى من ورائنا بارقة ونسمع حِسًّا لقوم يتبعوننا، فلسنا ندري أرجعوا عنا أم هم قاصدون إلينا؟

فلم يستتم كلامه حتى لحق القوم وتنادى الزنج السلاح.

فبدر مفرج النوبي، وريحان، وفتح الحجام وكان فتح يأكل، فلما نهض تناول طبقاً كان بين يديه، وتقدم أصحابه، فلقيه رجل، فحمل عليه فحذفه بالطبق الذي كان في يده، وذهب ليكب عليه، فرمى الرجل بسلاحه وولى، وانهزم أصحابه، وكانوا أربعة آلاف رجل، فذهبوا على وجوههم، وقتل من قتل منهم، ومات بعضهم عطشاً، وأتى منهم بأسرى، وأمر بضرب أعناقهم، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذها من السّروجيين كانت تنقل السّور ومضى حتى أتى القادسية وقت المغرب[1]، فخرج رجل من موالي الهاشميين، فقتل رجل من السودان، وأتاه الخبر.

فقال له أصحابه: ائذن لنا في انتهاب القرية فنطلب قاتل صاحبنا.

فقال: لا سبيل إلى ذلك، دون أن أعرف ما عند القوم، وهل كان ذلك، وهل كان ذلك عن رأيهم؟

ونسألهم أن يدفعوه إلينا، فإن فعلوا وإلاّ يباح لنا قتالهم.

وأعجلهم المسير حتى مضى إلى نهر ميمون إلى المسجد الذي كان فيه في بدايته، وأمر بالرؤوس التي حملت معه فنصبت، وأمر بالأذان أبا صالح النوبي فأذن.

وسُلِّم عليه بالإمرة، وصلى بأصحابه العشاء الآخرة وبات بها.

ثم مضى إلى الكرخ فطواها، ثم عبر دجيلاً حتى[2] في محاضة دُلّ عليها ولم يدخل القرية، وأقام خارجاً منها، وأرسل إلى من فيها فأتاه رؤساؤهم ورؤساء الكرخ فأمرهم بإقامة الأتراك له ولأصحابه، فأقيم لهم ما أراد وبات ليلته.

فلما أصبح أهدى له رجل من أهل حتى فرساً كميتاً فلم يجد له سرجاً ولا لجاماً، فركبه بحبل وشنفه بليف.

وسار حتى انتهى إلى العباسي، فأخذ منه دليلاً إلى المسيب، وهرب أهل القرية، فدخلها، ونزل دار جعفر بن سليمان، وهي في السوق.

وتفرق أصحابه في القرية، فأتوه برجل فسألوه عن وكلاء الهاشميين، فأخبرهم أنهم في الأجمة، فوجه وأحضر رئيسهم، فسألهم وإياه عن المال.

---

(١) في الكامل: ثم سار إلى القادسية فنهبها أصحابه بأمره، وما زال يتردد إلى أنهار البصرة، فوجد بعض السودان داراً لبعض بني هاشم فيها سلاح بالسيب، فانتهبوه فصار معهم ما يقاتلون به.

(٢) حتى هذا اسم موضع لم أقف عليه في معجم البلدان، وربما أنه تحرف من الناسخ.

فقال: لا مال عندي.

فأمر بضرب عنقه، فلما خاف القتل أقر بمال دفنه.

فوجّه معه قوماً، فأتاه بمائتين وخمسين ديناراً، وبألف درهم.

فهذا أول مال صار إليه، ثم سأله عن دواب وكلاء الهاشميين.

فدلّ على ثلاثة برازين، فدفعها إلى رؤساء أصحابه.

ووجدوا داراً لبعض بني هاشم فيها سلاح، فانتهبوه.

وصار في أيدي الزنج سُيوف، وآلات، ورايات، وتراس.

وبات ليلته، فلما أصبح أتاه الخبر أن رميساً، والحميري، وعقيلاً قد وافوا السيب[١].

فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فيهم سليمان، وريحان وصالح النوبي الصغير.

فلقوا النوب فهزموهم، وأخذوا (. . .)[٢] وسلاحاً، وهرب من كان هناك.

ورجع يحيى بن محمد فأخبره الخبر، فأقام يومه ثم سار يريد المذار[٣]، فلما صار بنا مداد وهو نهر جاوزه حتى أصحر، فرأى بستاناً، وتلاً، فقصد التّل وقعد عليه، وثَبَّتَ أصحابه في الصحراء [١١٩/أ] وجعل نفسه طليعة.

فأتاه الطليعة وأرسل إليه يخبره بشاطئ دجلة يطلب رجلاً يؤدي عنه رسالته. فوجّه إليه علي بن أبان، ومحمد بن مسلم، وسليمان بن جامع، فلما أتوه قال: اقرأوا على صاحبكم السلام، وقولوا له: أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض، اردد

---

(١) في المخطوط: المسيب، وهو تحريف، والتصويب من الكامل، وقال ياقوت في معجم البلدان: السِّيبُ: هو كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى، والأسفل من طسوج سُورا عند قصر ابن هبيرة. . .
والسيب أيضاً: نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة.
والسيب أيضاً بخوارزم في ناحيتها السفلى: مواضع أو جزيرة قاله العمراني الخوارزمي.

(٢) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها وهذا رسمها «ـهرُ». وفي الكامل: فلقوا البصريين فانهزم البصريون منهم وأخذوا سلاحهم، ثم قاتل طائفة أخرى عند قرية تعرف بقرية اليهود فهزمهم أيضاً، وأثبت أصحابه في الصحراء.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
المَذَارَ: في ميسان بين واسط والبصرة وهي قصبة ميسان، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام، وبها مشهد عامر كبير جليل عظيم، قد أنفق على عمارته الأموال الجليلة، وعليه الوقوف، وتساق إليه النذور، وهو قبر عبد الله بن علي بن أبي طالب.
ويقال إن الحريري أبا محمد القاسم بن علي صاحب المقامات قد مات بها، وأهلها كلهم شيعة غلاة طغام أشبه شيء بالأنعام.

هؤلاء العبيد على أموالهم، وخذ لك على كل رأس خمسة دنانير.

فأتوه، فأعلموه ما قال رميس، فغضب وآلى ليرجعن فليبقرن بطن امرأة رميس، وليحرقن داره، وليخوضن الدماء هناك.

فذهبوا إليه فأجابوه، فانصرف، ثم تعرض له رميس، والحميري، وصاحب ابن أبي عون مراراً في كل ذلك يهزمهم ويقتل أصحابهم، ويأسر منهم ويعلم.

وكان يجمع الرؤوس ويأمر بالاحتفاظ بها، حتى إذا رجع إلى موضعه من يهزمون نصبها هنالك.

ثم إنه سار إلى القرية التي قُتل فيها رجل من أصحابه، فأمر من يسير إليها فيسأل أهلها أن يسألوا إليه القاتل في ممرة كان بهم.

فرجع إليه، فأخبره أنهم زعموا أنه لا طاقة لهم بذلك لولاية من الهاشميين ومنعهم له.

فصاح بالغلمان وأمرهم بانتهاب القرية فانتهب منها مالاً عظيماً عيناً وورقاً وجوهراً وحليًا وأواني ذهباً وفضة، وسبى يومئذٍ غلماناً ونسوة، وذلك أول سبي سبى.

وأتى بمولى الهاشميين القاتل فضرب عنقه، وأخذوا شراباً ووجدوه، وبلغه ذلك فحَرَّم النبيذ عليهم، وقال لهم: أنتم تلاقون الجيوش، فدعوا شراب النبيذ، فأجابوه إلى ذلك.

وواقع من غد هذا اليوم أصحاب رميس وأصحاب عقيل على الشط والرسلا في السفن يرمون بالنشاب.

فحمل عليهم الزنج فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وهبت ريح من غربي دجيل فحملت السفن فوثبت إليها الزنج فقتلوا من فيها، وهرب رميس وترك سفنه، فانتهبها أصحابه وأحرقها[١].

وكثر بعد ذلك عبثه، وعظمت شوكته وسبى وأفسد وعظمت نكايته فمن عظيم ما كان له من الوقائع مع السلطان: وقعة كانت مع بعض الأتراك يكنى أبا هلال في سوق الريان[٢].

وذلك أن هذا التركي وافاهم في مدة السوق ومعه أربعة آلاف رجل أو يزيدون في مقدمة قوم عليهم ثياب مشهرة وأعلام وطبول.

---

(١) في الكامل:
ثم نهب القرية المعروفة بالمهلبية وأحرقها وأفسد في الأرض، وعاث.
ثم لقيه قائد من قواد الأتراك يقال له: أبو هلال في أربعة آلاف مقاتل على نهر الريان..

(٢) كذا في المخطوط: سوق الريان، وفي الكامل: نهر الريان، ولم أقف عليهما في معجم البلدان، وإن كان ذكر أن الريان اسم لمواضع كثيرة غير أنه لم يذكر من بين هذه المواضع والقرى والأنهار والجبال والسهول سوق ولا نهر بهذا الاسم، فاللّٰه أعلم.

فحمل عليهم السودان حملة صادقة، وانتهى بعض السودان إلى صاحب علم القوم فضربه بخشبتين كانتا في يده، فصرعه. وانهزم القوم، وتلاحق السودان، فقتلوا من أصحاب أبي هلال ألفاً وخمسمائة، ونجا أبو هلال على دابة عريّ.

وحالت ظلمة الليل بينهم، فلما أصبح أمر بتتبعهم ففعلوا، وجاؤوا بالأسرى كلهم(١).

وكانت لهم وقعة أخرى بعد هذه شبيهة بهذه ظفر فيها بأصحاب السلطان وكانت له وقعات عظام تركنا ذكرها لأنّا لم نجد فيها غير إقدام الزنج بجهلهم وطمعهم، وسوء ثبات الجند لهم، وتهيئهم فكانوا كالجزارين يوقعون في الغنم، فيقتلون كيف شاؤوا.

ومثل هذه الحروب لا يستفاد منها تجربة فلذلك أعرضت عن ذكرها، إلى أن أضعف أهل البصرة، فلم يبق فيهم من آلاتهم، وقتل أصحاب السلطان فتهيبه الناس(٢).

---

(١) في الكامل: زاد ابن الأثير عما هنا في المخطوط قوله: فأمر بقتلهم.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل عن تلك الأحداث التي لم يذكرها ابن مسكويه:

ثم إنه أتاه من أخبره أن الزيني قد أعد له الخيول والمتطوعة، والبلالية، والسعدية، وهم خلق كثير، وقد أعدوا الحبال ليكتنف من يأخذونه من السودان، والمقدم عليهم أبو منصور، وأخذوا موالي الهاشميين، فأرسل على بن أبان في مائة أسود ليأتيه بخبرهم فلقي طائفة منهم فهزمهم، وصار من معه من العبيد إلى علي بن أبان.

وأرسل طائفة أخرى من أصحابه، فأتوا إلى موضع فيه ألف وتسعمائة سفينة ومعها من يحفظها. فلما رأوا الزنج هربوا عنها، فأخذ الزنج السفن، وأتوا بها إلى صاحبهم، فلما أتوه قعد على نشر من الأرض، وكان في السفن قوم حجاج أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة فناظرهم، وصدّقوه على قوله، وقالوا له: لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معه، وأرسل طليعة تأتيه بخبر ذلك العسكر.

فأتاه خبرهم أنهم قد أتوه بخلق كثير، فأمر محمد بن سالم، وعلي بن أبان، أن يقعد لهم بالنخل، وقعد هو على جبل مشرف، فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرجال.

فأُمر الزنج، فكبروا، وحملوا عليهم، وحملت الخيول، فتراج الزنج حتى بلغوا الجبل الذي هو عليه، ثم حملوا، فثبتوا لهم.

وقُتل من الزنج فتح الحجام، وصدق الزنج الحملة، فأخذوهم بين أيديهم.

وخرج محمد بن سالم، وعلي بن أبان، وحملوا عليهم، فقتلوا منهم، وانهزم الناس، وذهبوا كل مذهب.

وتبعهم السودان إلى نهر بيان، فوقعوا في الوحل، فقتلهم السودان، وغرق كثير منهم. وأتى الخبر إلى الزنوج بأن لهم كميناً فساروا إليه، فإذا الكمين في أكثر من ألف من المغاربة، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم حمل السودان عليهم فقتلوهم أجمعين، وأخذوا سلاحهم. ثم وجه أصحابه، فرأوا مائتي سفينة فيها دقيق، فأخذوه، ومتاعاً فنهبوه، ونهب المعلى بن أيوب.

ثم سار فرأى مسلحة الزيني، فقاتلوه فقاتلهم فقتلهم أجمعين، وكانوا مائتين. ثم سار فنهب قرية ميزران، ورأى فيها جمعاً من الزنج فرقهم على قواده.

ثم سار فلقيه ستمائة فارس مع سليمان ابن أخي الزينبي، ولم يقاتله.

فأرسل من ينهب، فأتوه بغنم وبقر، فذبحوا وأكلوا، وفرق أصحابه في انتهاب ما هناك.

ثم إن صاحب الزنج سار يريد البصرة حتى إذا قابل نهر المعروف بالرياحي أتاه قوم من =

= السودان، فأعلموه أنهم رأوا في الرياحي بارقة.
فلم يلبث إلا يسيراً حتى تناد السودان:
السلاح، السلاح، وأمر علي بن أبان بالعبور إليهم، فعبر في ثلاثمائة رجل.
وقال له: إن احتجت إلى مدد، فاستمدني، فلما مضى علي صاح الزنج: السلاح السلاح، لحركة رأوها في جهة أخرى، فوجه محمد بن سالم، فرأى جمعاً فقاتلهم من وقت الظهر إلى آخر وقت العصر.
ثم حمل الزنوج حملة صادقة فهزموهم، وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زُهاء خمسمائة، ورجعوا إلى صاحبهم.
ثم أقبل علي بن أبان في أصحابه، وقد هزموا من بادأهم بالحرب، وقتلوا منهم ومعه رأس ابن أبي الليث البلالي القواريري من أعيان البلالية.
ثم سار من الغد عن ذلك المكان، ونهى أصحابه عن دخول البصرة، وتسرّع بعضهم فلقيهم أهل البصرة في جمع عظيم، وانتهى الخبر إليه.
فوجّه محمد بن سالم، وعلي بن أبان ومشرقاً بخلق كثير، وجاء هو يسايرهم، فلقوا البصريين.
فأرسل إلى أصحابه ليتأخروا عن المكان الذي هم فيه، فتراجعوا.
فأكب عليهم أهل البصرة فانهزموا، وذلك عند العصر.
ووقع الزنوج في نهر كبير، ونهر شيطان، وقتل منها جماعة، وغرق جماعة وتفرق الباقون، وتخلف صاحبهم عنهم، وبقي في نفر يسير، فنجاه اللّه تعالى، ثم لقيهم وهم متحيرون، وسأل عن أصحابه، فإذا ليس معه إلا خمسمائة رجل.
فأمر بالنفخ في البوق الذي يجتمعون لصوته فلم يأته أحد.
وكان أهل البصرة قد انتهبوا السفن التي كانت للزنوج وبها متاعهم.
فلما أصبح رأى أصحابه في ألف رجل، وأرسل محمد بن سالم إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم ما الذي دعاه إلى الخروج فقتلوه.
فلما كان يوم الاثنين لأربع خلون من ذي القعدة جمع أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه، وانتدب لذلك رجل يعرف بحماز الساجي، وكان من غزاة البحر، وله علم في ركوب السفن.
فجمع المتطوعة، ورماة الأهداف، وأهل المسجد الجامع ومن خَفَّ معه من البلالية والسعدية، ومن أحب النظر من غيرهم، وشحن ثلاث مراكب وشذوات مقابلة، وجعلوا يزدحمون، ومضى جمهور الناس رجاله منهم من معه سلاح، ومنهم نظارة.
فدخلت المراكب في المد، والرجالة على شاطئ النهر.
فلما علم صاحب الزنج بذلك وجه طائفة من أصحابه مع زريق الأصبهاني في شرقي النهر كميناً، وطائفة مع شبل، وحسين الحمامي، في غربيه كميناً، وأمر علي بن أبان أن يلقي أهل البصرة، وأن يستتر هو ومن معه بتراسهم ولا يقاتل حتى تظهر أصحابه.
فتقدم إلى الكمينين إذا جاوزهم أهل البصرة، أن يخرجوا ويصيحوا بالناس. وبقي هو في نفر يسير من أصحابه، وقد هاله ما رأى من كثرة الجمع.
فسار أصحابه إليهم، وظهر المكينات من جانبي النهر، ومن وراء السفن فضربوا من ولّى من الرجّالة والنظارة، فغرقت طائفة، وقتلت طائفة، وهرب الباقون إلى الشاطئ، فأدرهم السيف، فمن ثبت قُتل، ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فهلك أكثر ذلك الجمع، فلم ينج إلا الشريد، وكثر المفقودون من أهل البصرة، وعلا العويل من نسائهم، وهذا يوم البيداء الذي أعظمه الناس.
وكان فيمن قتل جماعة من بني هاشم وغيرهم في خلق كثير لا يحصى، وجمعت للخبيث الرؤوس، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين فأعطاهم ما عرفوا، وجمع الرؤوس التي لم تطلب وجعلها في خزينة، فأطلقها، فوافت البصرة فجاء الناس وأخذوا كل ما عرفوه منها، =

فحكى صاحب الزنج أنه لم يلق يوماً أشد من يوم الشراه[١]، وهو يوم احتشد له أهل البصرة فلم يبق فيها بلالى ولا سعدى ولا أحد من أصحاب السلطان ولا غيرهم إلاّ جمعوه، وكان هناك رجل يعرف بحماد الساجي من غزاة البحر في المشدات وله علم بالحروب فجمع في شذام المطوعة ورماة الأهداف ولم يبق بالبصرة من يحمل السلاح إلاّ خرج. إما الشدات وإما على الظهر وانضم إليه النظارة ومن لا سلاح معه ولم يشكوا في اصطلام صاحب الزنج وأصحابه، فدخلت الشدات والسفن التي معها النهر المعروف بأم حبيب[٢]، ومرت الرجالة والنظارة على شاطئ النهر، وقد سدوا ما ينفذ فيه البصر تكاثفا وكثرة.

فقال بعد ذلك صاحب الزنج: إني لما رأيت ذلك الجمع عاينت أمراً هائلاً، وراعني ذلك فعلا صدري رهبة وجزعاً وفزعت إلى الدعاء، وليس منا أحد إلاّ وقد خُيِّل إليه مصرعه، فجعل يعجبني من كثرة الجمع، وأنا أومي إليه بالسكوت، وعبيت أصحابي وجعلت لهم كمينين، وقلت لمن لقي القوم. اجثوا لهم واستتروا بتراسكم، ولا يورث أحد منكم حتى يوافيكم القوم ويؤمّوا إليكم بأسيافهم (. . .)[٣] ثوروا.

وأمرت نساء الزنج بجمع الأمر[٤] وإمداد الرجال به، ففعلوا ذلك.

فلما رأوا أصحابي وخرج الكمينان من جنبتي النهر من وراء السفن فصاحوا بهم، فرأيت شهيرته وقد انقلبت وتبعها آخر، وانهزم من كان على الشط، فقتلت طائفة، وهربت طائفة، وغرقت طائفة، ومن هرب طمعاً في النجاة أدركه السيف والغرق، فابتزّ ذلك الجمع فلم ينج منهم إلا الشريد، وكثر المفقودون من البصرة.

وهذا يوم الشذ الذي عظمت الناس، وذكروا كثرة من قتل فيه.

وكان فيهم من ولد جعفر بن سليمان عدة في خلق لا يحصى عددهم.

= وقوي عدو اللّه بعد هذا اليوم، وتمكن الرعب في قلوب أهل البصرة منه وأمسكوا عن حربه.
وكتب الناس إلى الخليفة خبر ما كان، فوجه إليهم جعلان التركي مدداً، وأمر أبا الأحوص الباهلي بالمسير إلى الأبلة والياً ومده بقائد من الأتراك يقال له: جريح.
وأما الخبيث صاحب الزنج فإنه انصرف وأصحابه إلى سبخة في آخر النهار، وهي سبخة أبي قرة، وبث أصحابه يميناً وشمالاً للغارة والنهب.
فهذا ما كان منه في هذه السنة.

(١) قد يكون هذا هو يوم البيداء المشار إليه في أواخر الهامش السابق والذي يقال عنه في الطبري: يوم الشذا.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
نهر أم حبيب بالبصرة لأم حبيب بنت زياد أقطعها إياه وكان عليه قصر كثير الأبواب يسمى: الهزاردر.

(٣) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «قحِ».

(٤) كلمة أقرب ما يكون قراءتها ما ذكرته.

وأمر الخبيث [١١٩/ب] بجمع الرؤوس فذهب إليه أولياؤه، فعرضها عليهم، فأخذوا ما عرفوا منها وعبى ما بقي عنده في سفينة وأخرجها من النهر، وأطلقها مع الماء، فوافت البصرة، فوقفت في شرعة تعرف بمشرعة القيَّار[١]، فجعل الناس يأخذون.

وقوي الحبيب بعد هذا اليوم وضعف طالبوه بل لم يبق له طالب.

فقال له أصحابه: إنَّا قتلنا مقاتلة البصرة، ولم يبق فيها إلاّ من لا حراك به، فأذن لنا في تفتحها، فزبرهم، وهجز آراءهم، وقال: بل ابعدوا عنهم، فقد أرعبناهم وأحفظناهم، والرأي: أن تدعوا حربهم حتى يكونوا هم الذين يطلبونكم.

وانصرف بأصحابه إلى سبخة أبي قرة، وهي بين نهرين وأمر أصحابه يعبرون يميناً وشمالاً، ويسوقون مواشي الأكراد وينتهبون أموالهم[٢].

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان في القَيَّار:
بلفظ صانع القار أو بائعه على نسبة قولهم العَطَّار: موضع بين الرقة ورصافة هشام بن عبد الملك.
ومشرعة القيار: على الفرات، وبغداد محلة كبيرة مشهورة يقال لها: درب القَيَّار.

(٢) ومما زاد ابن الأثير في الكامل من أحداث تلك السنة:
في هذه السنة: كانت وقعة بين عسكر الخليفة وبين مساور الشاري، فانهزم عسكر الخليفة، .
وفيها: مات المعلى بن أيوب.
وفيها: ولي سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد، والسواد في ربيع الأول وكان قدومه من خراسان فيه أيضاً فسار إلى المعتز فخلع عليه وسار إلى بغداد، فقال ابن الرومي:

من عذيري من الخلائق ضلوا ... في سليمان عن سوء السبيل
عوضوه بعد الهزيمة بغدا ... د كأن قد أتى بفتح جليل
من يخوض الردى إذا كان من فـ ... ـرَّ أنابوه بالجزاء الجميل

يعني هزيمة سليمان من الحسن بن زيد العلوي.
وحج بالناس علي بن الحسين بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
وفيها: ظهر بمصر إنسان علوي ذكر أنه محمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن طباطبا، وكان ظهوره بين برقة والإسكندرية، وسار إلى الصعيد، وكثر أتباعه، وادعى الخلافة.
فسير إليه أحمد بن طولون جيشاً فقاتلوه، وانهزم أصحابه عنه، وثبت هو فقتل، وحمل رأسه إلى مصر.
وفيها: توفي خفاجة بن سفيان أمير صقلية في رجب، وولي بعده ابنه محمد، وتقدم ذكر ذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين، ولما ولي محمد سَيَّر عمه عبد الله بن سفيان إلى سرقوسة فأهلك زرعها وعاد.
وفيها: توفي أبو أحمد عمر بن شمر بن حمدويه الهروي اللغوي، وكان إماماً في الأشعار، وروى عن ابن الأعرابي، والرياشي وغيرهما.
وفيها: توفي محمد بن كرام بن عراف بن خزانة بن البراء صاحب المقولة المشهورة في التشبيه، وكان موته بالشام، وهو من سجستان.
وفيها: توفي الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قاضي مكة، وكان سقط من سطح فمكث يومين ومات، وكان عمره أربعاً وثمانين سنة.
وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي صاحب المسند توفي في ذي الحجة وعمره خمس وسبعون سنة. =

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين

وفيها: وافى موسى بن بُغا سُرَّ مَنْ رأى[(١)]، واستخفى صالح بن وصيف لقدومه، وعبى موسى أصحابه ميمنة وميسرة وقلباً في السلاح حتى سار إلى باب الجسر[(٢)] مما يلي الحبوق.

وكان المهتدي ذلك اليوم جالساً للمظالم فأعلم بمكانه، فأمسك عن الإذن لهم ساعة، ثم أذن لهم.

فدخلوا فجرى كلام نحو ما جرى يوم قدم الوفد.

فلما طال الكلام تواطن الأتراك فيما بينهم وقالوا بالتركية: هذه المطاولة إنما هي حيلة حتى يكبسنا صالح.

فخافوا ذلك، فأقاموه من مجلسه، وحملوه على دابة من دواب الشاكرية، وانتهبوا ما كان في الجوسق من دواب الخاصة. ومضوا به إلى دار باحور، ثم أخذوا هناك عليه العهود والمواثيق أن لا يمايل صائحاً عليهم، ولا يضمر لهم إلا مثل ما يظهر.

وجددوا البيعة ووجهوا إلى صالح أن يحضرهم للمناظرة فوعدهم أن يصير إليهم، وقال لهم: بعض رؤساء الفراغنة: ما الذي تطلبون من صالح بن وصيف؟

فقال موسى: دماء الكُتاب، وأموالهم، ودم المعتز وأمواله، فاستتر صالح بن وصيف، ومضى باجور، فأتى بالحسن بن مخلد من الموضع الذي كان فيه محبوساً من دار صالح بن وصيف، ورد المهتدي إلى الجوسق.

ودفع عبد اللّه بن محمد بن يزداد إلى الحسن بن مخلد، وولي سليمان بن عبد اللّه بن طاهر بغداد، وأظهر النداء على صالح.

وفي هذه السنة: لثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف.

ذكر السبب في ظهور صالح بن وصيف وقتل الموالي وموسى إياه

كان سبب ذلك أن امرأة جاءت بكتاب فدفعته إلى كافور الخادم الموكل بالحرم

= وأبو عمران عمرو بن بحر الجاحظ، وهو من متكلمي المعتزلة.
وعلي بن المثنى بن يحيى بن عيسى الموصلي والد أبي يعلى الموصلي صاحب المسند.
وفيها: توفي محمد بن سحنون الفقيه المالكي القيرواني بها.

(١) في الكامل: في الثاني من المحرم.

(٢) في الكامل: إلى الجوسق. وقال ياقوت عن الجوسق: هو في عدة مواضع منها قرية كبيرة نواحي دُجيل من أعمال بغداد بينها عشرة فراسخ.
والجوسق من قرى النهروان من أعمال بغداد أيضاً. . .

وقالت[١]: فيّ نصيحة، ومنزلي في موضع كذا من مكان كذا، فإن أردتموني فاطلبوني هناك.

فأوصل الكتاب إلى المهتدي، وأمر بطلب المرأة في الموضع الذي وصفت فلم يعرف لها خبر ولم يوقف لها على أثر. فدعا المهتدي سليمان بن وهب بحضرة جماعة فيهم موسى بن صالح بن بُغا، ومفلح وباجور، وباثكيال[٢] وغيرهم.

وقال: [من][٣] يعرف[٤] هذا الخط؟ قالوا: نعم، هذا خط صالح يذكر فيه أنه مستخفٍ بِسُرَّ مَنْ رَأى، وأنه إنما استتر طلباً للسلامة، وإبقاءاً على الموالي وخوفاً من اتصال الفتن (. . .)[٥] حدثت بينهم.

ثم ذكر ما صار إليه، وتولى تفريقه، وذكر ما صار إليه من أموال قبيحة، وأن علم ذلك عند صالح بن يزداد، ثم ذكر أشياء في هذا المعنى بعضها اعتذاراته وبعضها احتجاجاته.

فلما فرغ سليمان من قراءة الكتاب، وصله المهتدي بقول يحث فيه على الألفة والصلح، ويكره إليهم الفرقة والتقالي والتباغض فدعاهم هذا الكلام معه إلى تهمة، وأنه مكافئ صالح.

فكان بينهم في هذا كلام كثير ومناظرات طويلة، ثم أصبحوا في الغد كلهم في دار موسى في داخل الجوسق يتراطنون[٦] بالتركية فسمع بعضهم بعضاً يقول: اجمع القوم على خلع المهتدي[٧].

واتصل الخبر بالمهتدي فخرج إلى مجلسه متقلداً بسيفه سيفاً، وقد لبس نظافاً وتطيب ثم أمر بإدخالهم إليه، فأبوا ذلك مليًا، ثم دخلوا عليه.

فقال لهم: إنه بَلّغني ما أنتم عليه أحمد بن محمد المستعين، ولا مثل ابن قبيحة [أنا][٨] واللّه ما خرجت إليكم [إلاّ][٨] وأنا متحنط وقد وصّيت[٩] وهذا سيفي، فواللّه

(١) في الكامل: كان سببه أن المهتدي لما كان لثلاث بقين من المحرم أظهر كتاباً، زعم أن امرأة دفعته إلى سيما الشرابي وقالت: إن فيه نصيحة.
(٢) في المخطوط: بامكنان. وفي الكامل: بابكيال وسبق أن ذكر على الرسم الذي ذكرته.
(٣) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في المخطوط: تعرف. وهو تحريف.
(٥) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها هذا رسمها: (لحرطن).
(٦) أي يتكلمون.
(٧) بعد هذا في الكامل:
فقال لهم بابكيال:
إنكم قتلتم ابن المتوكل وهو حسن الوجه، سخي الكفّ، فاضل النفس، وتريدون قتل هذا، وهو مسلم يصوم، ولا يشرب النبيذ، من غير ذنب، واللّه لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك، فاتصل الخبر بالمهتدي. . .
(٨) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٩) بعذ هذا في الكامل: إلى أخي بولدي.

لأضربن به ما استمسك قائمه في يدي.

وَيْحَكُم أما دين؟ أما حياء؟

كم يكون الخلاف على الخلفاء، والإقدام والجرأة على اللّه؟

سواء عندكم من أبقى عليكم ومن أراد صلاحكم، ومن إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها سروراً بمكروهكم وحباً لبواركم؟

خبروني عنكم، هل تعلمون أنه وصل إليّ من دنياكم شيء؟

أما إنك لتعلم بابكيال أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي، وانظروا هل ترون في منزل واحد منهم فرشاً أو وصائف، أو خدماً، أو جواري، أو لهم صياع أو مستغلات سوء لكم.

ثم يقول: إني [١٢٠/أ] أعلم علم صالح، وهل صالح إلاّ رجل من الموالي كواحد منكم؟ فكيف أكون معه إذا ساء رأيكم فيه؟! إن آثرتم الصلح كان ذلك ما أهوى لجمعكم وإن أبيتم إلا ما أنتم عليه.

اطلبوا صالح وافعلوا شقاءكم أنفسكم منه، فأما أنا فما أعلم علمه

قالوا له: فاحلف لنا على ذلك.

قال: أنا أبذل لكم يميني، ولكن أؤخرها حتى يكون بحضرة الهاشميين، والقضاة، والعدول، وأصحاب المراتب في غدٍ إذا صليت الجمعة.

ـ فكأنهم كانوا قليلاً ـ.

ووجه في إحضار الهاشميين فحضروا في أعشيتهم، فلم يذكر لهم شيئاً، وأمر بالمصير إلى الدار لصلاة الجمعة، فانصرفوا.

وغدا الناس فلم يحدثوا شيئاً، وصلى المهتدي وسَكَّنَ الناس، وانصرفوا هادئين.

وحكى بعضهم ممن سمع كلام المهتدي موسى والجماعة، أن المهتدي قال:

إن كان صالح قد أخذ من مال قبيحة والكتاب شيئاً، فقد أخذ مثل ذلك بابكيال، ومحمد بن بُغا[1].

وقد كان القوم من لدن قوم موسى بن بُغا مضمرين هذا المعنى من القيل، وإنما منعهم من المظالم قلة الأموال، وخوف الاضطراب، فلما ورد مال فارس، ومال الأهواز تحركوا.

(١) بعد هذا في المخطوط: وبابكيال. وهو تكرار فحذفته.

وكان ورود ذلك لثلاث[١] بقين من المحرم وبلغه سبعة عشر ألف درهم، وخمسمائة ألف[٢].

وانتشر الخبر في العامة[٣]، وأنهم على خلع المهتدي والفتك، وأنهم أرادوه على ذلك، وأرهقوه.

فكتبت رقاع وألقيت في المسجد الجامع والطرقات.

فذكر بعض من قرأ رقعة منها أنه كان فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا معشر المسلمين ادعوا اللّه لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أن ينصره على أعدائه[٤]، ويكفيه مؤنة ظالمه، ويتم النعمة عليه وعلى هذه [الأمة][٥] ببقائه، فإن الموالي[٦] قد أخذوه، بأن يخلع [نفسه][٦]، وهو يعذب [منذ أيام][٦] والمدبر لذلك أحمد بن محمد بن ثوابة، والحسن بن مخلد، رحم اللّه من أخلص إلينا ودعاه[٧]، [وصلّى اللّه على محمد][٨]. ثم تحرك الموالي، ووجهوا المهتدي [وقالوا][٩]: إنا نحتاج أن نلقى إلى أمير المؤمنين شيئاً وسألوا أمير المؤمنين أن يوجه إليهم [بعض][٩] إخوته[١٠].

فوجه إليهم أخاه عبد اللّه أبا القاسم، ومحمد بن عباس المعروف بالكرخي، فمضيا إليهم فسألاهم[١١] عن شأنهم.

فذكروا: أنهم سامعون مطيعون لأمير المؤمنين، وأنه بلغهم أن: موسى بن بُغا، وبابكيال، وجماعة من قوادهم يريدونه على الخلع، وأنهم يبذلون دماءهم دون ذلك، وأنهم قرأوا رقاعاً في المساجد بذلك، وشكوا مع ذلك سوء حالهم، وتأخر أرزاقهم وما

---

(١) في المخطوط: ثلاث. وقد سقطت اللام من أوله سهواً.
(٢) في الكامل:
فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم.
(٣) في الكامل: فلما كان سلخ المحرم انتشر...
(٤) في الكامل: أن ينصره اللّه على عدوه.
(٥) زيادة من الكامل.
(٦) في الكامل: الأتراك.
(٧) من أول قوله: المدبر لذلك إلى موضع الإشارة لم يرد في الكامل.
(٨) زيادة من الكامل.
(٩) زيادة يتطلبها السياق.
(١٠) في المخطوط: أخواته. وهو تحريف.
(١١) في المخطوط: فسالانهم. وهو تحريف.

صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي أجحفت بالخراج وغيره وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات على الرسوم القديمة مع الدخلاء فيهم الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج، وكثر كلامهم، فقال أبو القاسم: اكتبوا بذلك كتاباً إلى أمير المؤمنين أتولى إيصاله لكم فكتبوه، فأوصله للمهتدي، وقد اجتمعوا فقال: يقول لكم أمير المؤمنين: هذا كتابي إليكم بخطي وخاتمي فأسمعوه وتدبروه فقرؤوه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

أرشدنا اللّه وإياكم كان لنا ولكم وليًا وحافظاً.

فهمت كتابكم وسرني ما ذكرتم من طاعتكم وما أنتم عليه، فأحسن اللّه جزاءكم، وتولى حياطتكم.

فأما ما ذكرتم من خلتكم وحاجتكم فعزيز عليَّ ذلك فيكم ووددت أن صلاحكم قد تهيأ وألا أطعم ولا أطعم ولدي وأهلي إلاّ القوت الذي لا شبع دونه، ولا ألبس أحداً من ولدي إلا ما ستر العورة ولا واللّه حاطكم اللّه ما صار إليّ منذ تقلدت أمركم لنفسي وأهلي وولدي ومتقدمي غلماني وحشمي إلاّ خمسة عشر ألف دينار وأنتم تقفون على ما ورد، ويرد كل ذلك مصروف إليكم غير مذخور عنكم. وأما ما ذكرتم من أمر الرقاع التي ألقيت في المساجد والطرق وما بذلتم من أنفسكم، فأنتم أهل ذلك، ولن تتعدوا ما ذكرتم وإنما نحن نفس واحدة، فجزاكم اللّه عن أنفسكم وعهودكم وأماناتكم خيراً. وليس الأمر كما بلغكم، فعلى هذا فليكن عملكم.

وأما ما ذكرتم من الإقطاعات والمعاون وغيرهما، فأنا أنظر إلى ذلك، وأصير منه إلى محبتكم إن شاء اللّه.

والسلام عليكم[1].

فلما قرأوا الكتاب كثر الكلام، وقالوا شيئاً.

فقال لهم أبو القاسم: اكتبوا بذلك كتاباً ثانياً.

فكتبوا، وقالوا:

إن الذي يسألون أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين، وأن لا يعترض عليه معترض وأن تُرد رسومهم إلى ما كانت عليه، وهو أن يكون على كل سبعة[2] منهم عريف وعلى

(١) ذكر ابن الأثير الكتاب بنحو مما هنا.
(٢) في الكامل: على كل تسعة عريف، وباقي الأعداد كما هي هنا.

كل خمسين خليفة، وعلى كل مائة قائد، وأن تسقط النساء والزيادات والمعاون، وأن لا يدخل مولى في قبالة ولا غيرها، وأن يوضع لهم العطاء في كل شهرين على ما لم يزل، وأن تبطل الإقطاعات، وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من يشاء، ويرفع من يشاء.

وذكروا أنهم سائرون إلى باب أمير المؤمنين في شيء أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعره قتلوا موسى بن بُغا[١]، وياجور وغيرهما، ودعوا اللّٰه لأمير المؤمنين.

ودفعوا الكتاب إلى أبي القاسم، فأوصله وتحرك الموالي[٢]، واضطرب [١٢٠/ب] القواد جداً وقعد للمظالم.

فسبق أبو القاسم فقرأ الكتاب للمهتدي قراءة ظاهرة، وخلا بموسى.

ثم وَقّع في كل باب بما أحبوا.

فقال [أبو القاسم][٣] لموسى، ومحمد بن بُغا، وبابكيال: وجهوا معي رُسلاً يعتذرون إليهم مما بلغهم عنكم.

فوجه كل واحد منهم رجلاً، فسار أبو القاسم، وهم في زهاء أربعة آلاف فارس، وثلاثة آلاف راجل[٤]، فأقرأهم من أمير المؤمنين السلام، ودفع إليهم الكتاب[٥]، فقرؤوه وكتبوا كتاباً آخر يلتمسون أن ينفذ إليهم خمس توقيعات:

توقيع بخط الزيادات.

وتوقيع برد الإقطاعات.

وتوقيع بإخراج الموالي المتزايدين من الخاصة[٦].

وتوقيع برد الرسوم إلى ما كانت عليه.

وتوقيع برد التلاجئ[٧].

ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ممن يرى ليسفر بينه

---

(١) في المخطوط: ابن موسى بغا، وهو اضطراب في النسخ وقد ضبط الاسم على ما هو معروف.
(٢) في الكامل: وتحولوا إلى سامرا.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في الكامل: ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وذلك لخمس خلون من صفر.
(٥) بعده في الكامل.
وقال: إن أمير المؤمنين قد أجابكم إلى ما سألتم. وقال لهم: هؤلاء رُسل القواد إليكم يعتذرون من شيء إن كان بلغكم عنهم وهم يقولون: إنما أنتم إخوة، وأنتم مِنا وإلينا واعتذر عنهم، فكتبوا إلى المهتدي.
(٦) في الكامل: توقيع بإخراج الموالي البرانيين من الخاصة إلى البرانيين. (وفي الطبري: البوابين).
(٧) في الكامل: البلاجي. وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هنا. أي (التلاجئ).

وبينهم[١] ولا يكون رجلاً من الموالي.

وأن يأمر أن يحاسب صالح بن وصيف، وموسى بن بُغا على ما عندهما من الأموال، ويجعل لهما عطاء شهرين[٢].

وكتبوا كتاباً آخر إلى موسى بن بُغا، ومحمد بن بُغا، وبابكيال، ومفلح، وياجور، وغيرهم من القواد يقولون: إنهم قد كتبوا وأن أمير المؤمنين إن شاكته شوكة، وأخذ من رأسه شعرة أخذوا رؤوسهم جميعاً، وأنه ليس يقنعهم إلاّ أن يظهر صالح بن وصيف حتى يجتمع بينه وبين موسى فينظر أين مواضع الأموال فإن صالحاً وعدهم أن يعطيهم رزق ستة أشهر.

ثم دفعوا الكتاب إلى رسول موسى، ووجهوا مع أبي القاسم عدة منهم ليوصل كتاب أمير المؤمنين، وليسمعوا كلامه.

فانصرفوا إلى المهتدي، فأمر بإنشاء التوقيعات الخمسة، وأنفذها في درج كتاب بخطه إليهم[٣].

وكتب القواد أيضاً جواب كتابهم وأنفذوا إليهم بإجابتهم إلى ما سألوه وكتب أماناً لصالح بن وصيف فيه: أن موسى، وبابكيال سألا أمير المؤمنين ذلك، وأكدا

(١) في الكامل: ليرفع إليه أمورهم.
(٢) زاد في الكامل بعد ذلك.
لا يرضيهم إلاّ ذلك، ودفعوا الكتاب إلى أبي القاسم.
(٣) في الكامل:
وسيرها إليهم مع أبي القاسم وقت المغرب، وكتب إليهم بإجابتهم إلى ما طلبوا، وكتب إليهم، موسى بن بُغا كذلك، وأذن في ظهور صالح، وذكر أنه أخوه وابن عمه، وأنه ما أراد ما يكرهون. فلما قرأوا الكتاب قالوا: قد أمسينا، وغداً نعرفكم رأينا فافترقوا.
ثم أضاف ابن الأثير أيضاً مما لم يرد في تجارب الأمم ما يلي:
فلما كان الغد ركب موسى من دار الخليفة ومعه من عسكره ألف وخمسمائة رجل، فوقف على طريقهم، وأتاهم أبو القاسم، فلم يعقل منهم جواباً إلاّ كل طائفة يقولون شيئاً.
فلما طال الكلام انصرف أبو القاسم، فاجتاز موسى بن بُغا وهو في أصحابه، فانصرف معه.
ثم أمر المهتدي محمد بن بُغا أن يسير إليهم مع أخيه أبي القاسم فسار في خمسمائة فارس.
ورجع موسى إلى مكانه بكرة، وتقدم أبو القاسم، ومحمد بن بُغا فواعدهم عن المهتدي، واعطياهم توقيعاً فيه أمان صالح بن وصيف، مؤكداً غاية التوكيد. فطلبوا أن يكون موسى في مرتبة بُغا الكبير، وصالح في مرتبة أبيه، ويكون الجيش في يد من هو في يده، وأن يظهر صالح ابن وصيف، ويوضع لهم العطاء.
ثم اختلفوا، فقال قوم: قد رضينا.
وقال قوم: لم نرض.
فانصرف أبو القاسم، ومحمد بن بُغا على ذلك، وتفرق الناس إلى الكرخ، والدور، وسامرا، فلما كان الغد ركب بنو وصيف في جماعة...

ذلك غاية التوكيد.

وحمل إليهم وقال لهم أبو القاسم: علام اجتماعكم وقد أُجبتم إلى ما سألتم؟ فانصرف القوم، ففرق القواد.

فلما كان يوم السبت ركب ولد وصيف، وأصحابهم، وتنادى الناس: السلاح.

واجتمعوا وعسكروا، وركب أبو القاسم يزيد دار المهتدي، فمر بهم فعلقوا به، وقالوا: قل لأمير المؤمنين: إنّا نريد[١] صالحاً.

فمضى، فأدّى ذلك.

فقال موسى: أراهم يطلبون صالحاً مِنّي كأني[٢] أخفيه، أو هو عندي، إن كان عندهم له خبر ينبغي أن يظهروه وصَحّ عندهم أن القوم قد تواطؤوا أن الناس ينحلون إليهم فيها لخواص دار أمير المؤمنين.

فركبوا في السلاح، واتصل الخبر بالأتراك، فانصرفوا ركضاً لا يلوي فارس على راجل، ولا كبير على صغير حتى بمنازلهم، وزحف فلم يبق بسر من رأى قائد يركب إلى دار أمير المؤمنين إلا ركب معه.

وكان تقدير الجيش الذين ركبوا مع موسى في هذا اليوم، أربعة آلاف فارس في السلاح، والقسي الموثورة، والدروع، والجواشن، والرماح، والطبرزينات يريدون محاربة صالحاً وكان وكان أكثرهم هواه مع صالح. فمضوا إلى الجواسق ونادوا بأن لم يظهر من قواد صالح وأهله وأصحابه، ويحضر دار أمير المؤمنين أُسقط اسمه وخرب منزله وفعل به وصنع.

ثم جد هؤلاء في طلب صالح وأهله، وهجم بسببه جماعة ممن كان متصلاً به قبل ذلك إلى أن عثر به غلام من قوم موالي وصيف.

فحكى الغلام قال: دخلت داراً في زقاق أطلب ماءً أشربه، فسمعت قائلاً يقول بالفارسية: أيها الأمير تنح، فقد جاء غلام يطلب ماء.

فلما سمعت ذلك جمعت لذلك[٣] ثلاثة أنفس فهجمت عليه فإذا صالح بيده مرآة ومشط وهو يُسَرّح لحيته.

فلما رآني بادر فدخل بيتاً، فخفت أن يكون قصد لأخذ سيف أو سلاح،

---

(١) في المخطوط: يزيد. وهو تحريف.

(٢) في الكامل: كتابي وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: ذلك. وهو تحريف، وفي الكامل: فسمع الغلام الكلام فجاء إلى عند عيار فأخبره فأخذ معه ثلاثة نفر.

فتلومت، ثم نظرت إلى البيت، فإذا هو قد لجأ إلى زاوية فدخلت إليه، فاستخرجته، فلم يزدني على التضرع شيئاً.

فقلت: ليس إلى تركك سبيل ولكني أمرتك على أبواب إخوتك وقوادك وصنائعك فإن اعترض علي منهم اثنان أطلقتك في أيديهم.

قال: فأخرجته [حافياً ليس على رأسه شيء][١] فما لقيت أحداً إلاّ من أعان على مكروهه، وحمل إلى دار موسى، فأتاه القواد ليذهبوا إلى الجوسق، وهو على بغل[٢] بأكاف.

فلما ساروا به إلى المنارة[٣] ضربه رجل من أصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه كاد يقده ثم احتزوا رأسه.

فوافوا به المهتدي وهو في تركه قباء رجل من غلمان مفلح يقطر دماً، وقد قام لصلاة المغرب فلم يره، فلما قضى صلاته وجاؤوا برأسه لم يزدهم على أن قال: واروه، وأخذ في تسبيحه.

فلما كان من الغد طيف به على قناة ونودي عليه: هذا جزاء من أمر بقتل مولاه[٤].

ونصب رأسه بباب العامة، فعل به ذلك ثلاثة أيام...

---

(١) زيادة من الكامل.
(٢) في الكامل: برذون.
(٣) في الكامل: الجوسق.
(٤) جاء بعد هذا في الكامل: ولما قتل أنزل رأس بغا الصغير وسلم إلى أهله ليدفنوه.
ولما قتل صالح قال السلولي لموسى بن بُغا:

ونلت وترك من فرعون حين طغى ... حيث إن جئت يا موسى على قدر
ثلاثة كلهم باغ أخو حسد ... يرميك بالظلم والعدوان عن وتر
صيف في الكرخ مَمثول به وبُغا ... بالجسر محترق بالنار والشر
وصالح بن وصيف بعد منعفر ... بالحير جثته والروح في سقر

مقتل المهتدي وخلافة المعتمد

وفي هذه السنة: خلع المهتدي وقتل.

ذكر سبب خلعه وقتاله الأتراك وظفرهم به وقتلهما إياه

كان ظهر مساور الشاري بناحية الموصل فكثر أتباعه وعيشه، وهزم عدة جيوش للسلطان، فندب له موسى بن بغا، فوضع موضع العطاء لأصحابه. وكان على منازلة الشاري وقصده طريق خراسان[1].

فقال بعضهم: كان سبب ذلك: أن المهتدي استمال بابكيال وهو مقيم مع موسى

---

(١) ذكر ابن الأثير قصة مساور الشاري بشيء من التفصيل في كتابه الكامل تحت عنوان: ذكر اختلاف الخوارج على مساور فقال: وفي هذه السنة خالف إنسان من الخوارج اسمه عبيدة من بني زهير العمروي على مساور، وسبب ذلك: أنه خالفه في توبة الخاطئ. فقال مساور: تقبل توبته.
وقال عبيدة: لا تقبل توبته.
فجمع عبيدة جمعاً كثيراً وسار إلى مساور، وتقدم إليه مساور من الحديثة، فالتقوا بنواحي جهينة بالقرب من الموصل في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين، واقتتلوا أشد قتال، فترجل من عنده ومعه جماعة من أصحابه وعرقبوا دوابهم، فقتل عبيدة وانهزم جمعه فقتل أكثرهم.
واستولى مساور على كثير من العراق، ومنع الأموال عن الخليفة، فضاقت على الجند أرزاقهم، فاضطرهم ذلك إلى أن سار إليه موسى بن بُغا، وبابكيال وغيرهما في عسكر عظيم، فوصلوا إلى السن، فأقاموا به ثم عادوا إلى سامرا ـ لما نذكره من خلع المهتدي ـ فلما ولي المعتمد الخلافة سَيَّر مفلحاً إلى قتال مساور في عسكر كبير حسن العدة.
فلما قارب الحديثة فارقها مساور، وقصد جبلين يقال لأحدهما: زيني، وللآخر: عامر وهما بالقرب من الحديثة، فتبعه مفلح فعطف عليه مساور، وهو في أربعة آلاف فارس، فاقتتل هو ومفلح.
وكان مساور قد انصرف عن حرب عبيدة وقد جمع كثيراً من أصحابه فلقوا مفلحاً بجبل زيني فلم يصل مفلح منه إلى ما يريده فصعد رأس الجبل فاحتمى به ونزل مفلح في أصل الجبل وجرى بينهما وقعات كثيرة ثم أصبحوا يوماً وطلبوا مساوراً فلم يجدوه وكان قد نزل ليلاً من غير الوجه الذي فيه مفلح لما أيس من الظفر لضعف أصحابه من الجراح.
فحيث لم يره مفلح سار إلى الموصل فسار منها إلى ديار ربيعة سنجار، ونصيبين، والخابور فنظر في أمرها، ثم عاد إلى الموصل فأحسن السيرة في أهلها ورجع عنها في رجب متأهباً للقامساور، فلما قارب الحديثة فارقها مساور، وكان قد عاد إليها عند غيبة مفلح فتبعه مفلح، فكان مساور يرحل عن المنزل فينزله مفلح.
فلما طال الأمر على مفلح وتوغل في الجبال، والشعاب، والمضايق وراء مساور ولحق الجيش الذي معه مشقة ونصب فعاد عنه فتبعه مساور يقفو أثره، ويأخذ كل من ينقطع عن ساقة العسكر، فرجع إليه طائفة منهم فقاتلوه ثم عادوا ولحقوا مفلحاً ووصلوا الحديثة، فأقام بها مفلح أياماً وانحدر أول شهر رمضان إلى سامرا فاستولى حينئذ مساور على البلاد وجبى خراجها، وقويت شوكته.

في وجه مساور الشاري، وكتب إليه[١]: أن يضم العسكر الذي مع موسى إلى نفسه، وأن يكون هو الأمير، وأراد منه أن يفتك هو بموسى أو بمفلح أو يقيدهما ويحملهما إليه. فمضى [١٢١/أ] بابكيال إلى موسى، وقال: إني لست أفرح بهذا تدبير علينا جميعاً، وإذا فعل بك شيء اليوم فعل بي غداً مثله، فاجتمعوا على خلعه والفتك به.

فتوجه موسى نحو طريق خراسان.

وقال بابكيال: أذهب إليه وأظهر له الطاعة، ودبرا في ذلك تدبيراً.

فبلغ المهتدي، وظن أن بابكيال أتاه في الفتك به.

فلما دخل إليه أمر بحبسه، وأخذ سلاحه[٢].

---

(١) في المخطوط: إليهم. وهو تحريف، وقد بدأ ابن الأثير قصة خلع وقتل المهتدي بكلام قبل هذا هو قوله:
في رجب الخامس عشر منه خلع المهتدي، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه.
وكان سبب ذلك: أن أهل الكرخ، والدور من الأتراك الذين تقدم ذكرهم تحركوا في أول رجب لطلب أرزاقهم، فوجه المهتدي إليهم أخاه أبا القاسم، وكيغلغ، وغيرهما فسكنوهم فرجعوا، وبلغ أبا نصر محمد بن بُغا أن المهتدي قال للأتراك: إن الأموال عند محمد، وموسى بن بُغا، فهرب إلى أخيه وهو بالسن مقابل مساور الشاري.
فكتب المهتدي إليه أربعة كتب يعطيه الأمان فرجع هو وأخوه حيسون، فحبسهما ومعهما كيغلغ، وطولب أبو نصر محمد بن بغا بالأموال، فقبض من وكيله خمسة عشر ألف دينار، وقتل لثلاث خلون من رجب، ورمى به في بئر فأنتن، فأخرجوه إلى منزله، وصلى عليه الحسن بن المأمون.
وكتب المهتدي إلى موسى لما حبس أخاه أن يسلم العسكر إلى بابكيال والرجوع إليه... فذكر نحو القصة التي هنا.

(٢) ويسير ابن الأثير في هذه القصة فيطيلها ويحكي فيقول:
فقال موسى: أرى أن تسير إلى سامرا وتخبره أنك في طاعته ونصرته عليَّ وعلى مفلح فهو يطمئن إليك ثم تدبر في قتله.
فأقبل إلى سامرا فوصلها ومعه ياركوج، واسارتكين، وسيما الطويل. وغيرهم، فدخلوا دار الخلافة لاثنتي عشرة مضت من رجب فحبس بابكيال وصرف الباقين.
فاجتمع أصحاب بابكيال وغيرهم من الأتراك وقالوا: لم حبس قائدنا؟
وَلِمَ قتل أبو نصر بن بُغا؟
وكان عند المهتدي: صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فشاوره فيه فقال له: إنه لم يبلغ أحد من آبائك ما بلغته من الشجاعة.
وقد كان أبو مسلم أعظم شأناً عند أهل خراسان من هذا عند أصحابه، وقد كان فيهم من يعبده فما كان إلاّ أن طرح رأسه حتى سكتوا، فلو فعلت مثل ذلك سكتوا. فركب المهتدي، وقد جمع له جميع المغاربة والأتراك، والفراعنة، فصير في الميمنة مسروراً البلخي.
وفي الميسرة ياركوج، ووقف هو في القلب مع اسارتكين، وطبايغو، وغيرهما من القواد. فأمر بقتل بابكيال، وألقى رأسه إليهم: عتاب بن عتاب، فحملوا على عتاب فقتلوه، وعطفت ميمنة المهتدي وميسرته بمن فيها من الأتراك، فصاروا مع إخوانهم الأتراك فانهزم الباقون عن المهتدي.
وقتل جماعة من الفريقين، فقيل: قتل سبعمائة وثمانون رجلاً.
وقيل: قتل من الأتراك نحو أربعة آلاف. =

....

= وقيل: ألفان. وقيل: ألف.
وقتل من أصحاب المهتدي خلق كثير وولى منهزماً وبيده السيف وهو ينادي: يا معشر المسلمين، أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم. فلم يجبه أحد من العامة إلى ذلك.
فسار إلى باب السجن فأطلق من فيه، وهو يظن أنهم يعينونه فهوبوا ولم يعنه أحد. فسار إلى دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها وهم في أثره فدخلوا عليه وأخرجوه وساروا به إلى الجوسق على بغل فحبس عند أحمد بن خاقان، وقَبَّلَ المهتدي يده فيما قِيل مراراً عديدة، وجرى بينهم وبينه ـ وهو محبوس ـ كلاماً كثيراً وردوه فيه على الخلع فأبى واستسلم للقتل.
فقالوا: إنه كتب بخطه رقعة لموسى بن بُغا، وبابكيال، وجماعة من القواد أنه لا يغدر بهم ولا يغتالهم ولا يفتك بهم ولا يهم بذلك، وأنه متى فعل ذلك فهم في حل من بيعته والأمر إليهم يقعدون من شاؤوا فاستحلوا بذلك نقض أمره، فداسوا خصيتيه وصفعوه، فمات، واشهدوا على موته أنه سليم ليس به أثر ودفن بمقبرة المنتصر.
وقيل: كان سبب خلعه وموته: أن أهل الكرخ والدور اجتمعوا وطلبوا أن يدخلوا إلى المهتدي ويكلموه بحاجاتهم فدخلوا الدار، وفيها أبو نصر محمد بن بُغا وغيره من القواد.
فخرج أبو نصر منها ودخل أهل الكرخ والدور، وشكوا حالهم إلى المهتدي ـ وهم أربعة آلاف ـ وطلبوا منه أن يعزل عنهم أمراءهم وأن يصير الأمر إلى إخوته وأن يأخذ القواد وكتابهم بالمال الذي صار إليهم. فوعدهم بإجابتهم إلى ما سألوه.
فأقاموا يومهم في الدار، فحمل المهتدي إليهم ما يأكلون.
وسار محمد بن بُغا إلى المحمدية، وأصبحوا من الغد يطلبون ما سألوه.
فقيل لهم: إن هذا أمر صعب، وإخراج الأمر عن يد هؤلاء القواد ليس بسهل فكيف إذا جمع إليه مطالبتهم بالأموال؟ فانظروا في أموركم، فإن كنتم تصبرون على هذا الأمر إلى أن تبلغ غايته وإلاّ فأمير المؤمنين يحسن لكم النظر.
فأبوا إلاّ ما سألوه، فدعوا إلى أيمان البيعة على أن يقيموا على هذا القول، وأن يقاتلوا من قاتلهم وينصحوا أمير المؤمنين، فأجابوا إلى ذلك.
فأخذت عليهم أيمان البيعة، ثم كتبوا إلى أبي نصر عن أنفسهم، وعن المهتدي ينكرون خروجه عن الدار بغير سبب وأنهم إنما قصدوا ليشكوا حالهم، ولما رأوا الدار فارغة أقاموا فيها.
فخرج فحضر عند المهتدي فقبل رجله ويده ووقف فسأله عن الأموال وما يقوله الأتراك.
فقال: وما أنا والأموال.
فقال: هما وهل هي إلا عندك وعند أخيك وأصحابكما؟
ثم أخذوا بيد محمد وحبسوه، وكتبوا إلى موسى بن بُغا، ومفلح بالانصراف إلى سامرا وتسليم العسكر إلى قواد ذكروهم. وكتبوا إلى الأتراك الصغار في تسليم العسكر منهما وذكروا ما جرى لهم وقولوا: إن أجاب موسى ومفلح إلى ما أمرا به من الإقبال إلى سامرا وتسليم العسكر وإلاّ فشدوهما وثاقاً وحملوهما إلى الباب.
وأجرى المهتدي على من أخذت عليه البيعة كل رجل درهمين.
فلما وصلت الكتب إلى عسكر موسى أخذها موسى وقرئت عليه قنطرة الرقيق لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب، وخرج المهتدي وعرض الناس وعاد من يومه.
وأصبح الناس من الغد وقد دخل من أصحاب موسى زهاء ألف فارس منهم كوبكين وغيره وعاد، وخرج المهتدي فصف أصحابه وفيهم من أتى من أصحاب موسى.
وتردد الرسل بينهم وبين موسى يريد أن يولي ناحية ينصرف إليها.
وأصحاب المهتدي يريدون أن يجيء إليه ليناظرهم على الأموال. =

وقال بعضهم: كان السبب في ذلك: أن المهتدي تكلم في موسى ومحمد ابني بغا[1]، وقال الموالي: قد احتجنا الأموال.

فتخوفه أبو نصر وهرب.

ثم كتب إليه المهتدي وأمنه على نفسه فرجع وظهر وقعد له المهتدي، فوصل إليه هو ومن جاء معه فسلم.

فقال المهتدي: ما تقول فيما تقول الموالي؟

قال: ما يقولون؟

قال: إنهم يقولون: إنكم احتجبتم الأموال، واستبددتم بالأعمال، فما تنظرون في شيء من مصالحهم.

قال: يا أمير المؤمنين، ما أنا والأموال ولست كاتب الديوان، ولا جرى في يدي عمل.

فقال: وأين الأموال؟ هل هي إلا عندك، وعند أخيك، وكُتابكم؟

ودنا الموالي وأخذوا بيد محمد وقالوا: هذا عدو أمير المؤمنين لا ينبغي أن يقوم بين يديه بسيف، وأخذوا سيفه.

= فلم يتفقوا على شيء، وانصرف عن موسى خلق كثير من أصحابه.

فعدل هو ومفلح يريدان طريق خراسان.

وأقبل بابكيال وجماعة من القواد فوصلوا إلى المهتدي فسلموا، وأمرهم بالانصراف، وحبس بابكيال، وقتله، ولم يتحرك أحد ولا تغير شيء إلا تغيراً يسيراً.

وكان ذلك يوم السبت، فلما كان الأحد أنكر الأتراك مساواة الفراغنة لهم في الدار بأجمعهم، وبقيت الدار على الفراغنة والمغاربة.

فأنكر الأتراك ذلك، وأضافوا إليه طلب بابكيال.

فقال المهتدي للفراغنة والمغاربة: ما جرى من الأتراك، وقال لهم: إن كنتم تظنون فيكم قوة فما أكره قربكم، وإلاّ فأرضيناهم من قبل تفاقم الأمر.

فذكروا أنهم يقومون به.

فخرج بهم المهتدي وهم في ستة آلاف منهم من الأتراك نحو ألف ـ وهم أصحاب صالح بن وصيف ـ وكان الأتراك في عشرة آلاف.

فلما التقوا انهزم أصحاب صالح، وخرج عليهم كمين للأتراك، فانهزم أصحاب المهتدي.

وذكر نحو ما تقدم إلا أنه قال: إنهم لما رأوا المهتدي بدار أحمد بن جميل قاتلهم، فأخرجوه وكان به أثر طعنة، فلما رأى الجرح ألقى بيده إليهم، وأرادوه على الخلع فأبى أن يجيبهم. فمات يوم الأربعاء، وأظهروه للناس يوم الخميس وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد.

وكانوا قد خلعوا أصابع يديه من كفيه ورجليه من كعبيه حتى ورمت كفاه وقدماه، وفعلوا به غير ذلك حتى مات.

وطلبوا محمد بن بُغا فوجدوه ميتاً فكسروا على قبره ألف سيف.

(١) في المخطوط: موسى وبغا ابني محمد وهو ارتباك أحدثه الناسخ، والصواب ما أثبته.

فوثب غلام لأبي نصر كان حاضراً فقال له: تفتك فسل سيفه وخطا ليمنعهم من أبي نصر، وكانت خطوته تلي الخليفة فسبقه عبد اللّه بن تكين، فضرب رأسه بالسيف.

فما بقي أحداً إلاّ سل سيفه وقام المهتدي فدخل بيتاً كان بقربه.

وأخذ محمد بن بُغا، فأدخل حجرة وحبس أصحابه وأجمعوا على أن يكتبوا إلى موسى بن بغا بالانصراف وتسليم العسكر إلى من فيه من القواد، وأن يكتبوا إلى القواد بتسليم العسكر إليهما، ويكتبوا إلى الصغار بمثل ما سأل أصحابهم بسر من رأى وما أجيبوا إليه، وأن ينظروا، فإن سارع موسى ومفلح إلى ما أُمروا به من الإقبال إلى الباب في غلمانهم، وتسليم العسكر إلى من أمر بتسليمه إليه، وإلاّ شدوهما وثاقاً وحملوهما إلى الباب في غلمانهم.

وتوجهوا بهذه الكتب، واجتمع في الدار منهم قوماً فأجرى على كل واحد منهم درهمان، وأخذت عليه بيعة جديدة بالنصرة والثبات.

وأصبح الموالي يلتمسون أن يعزل عنهم أمراؤهم وكتابهم بالخروج مما اختانوه من مال السلطان.

وذكروا أن مبلغه خمسون ألف ألف درهم فأجابهم إلى ذلك ومضى يومهم على هذا. ثم أصبحوا يطالبون بما وعدوا به فقيل لهم إن هذا الذي تريدونه أمر صعب وأخرج الأمر عن أيدي هؤلاء ليس بسهل، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك أخذ أموالهم؟ فانظروا في أموركم، فإن كنتم تظنون أنكم تصبرون على هذا الأمر حتى نبلغ منه غايته أجابكم أمير المؤمنين، وإن تكن الأخرى فإن أمير المؤمنين يُحسن لكم النظر.

فأبوا إلا ما سألوا أولاً.

فأخذت عليهم البيعة وأقبلت إليهم الرسل تختلف بين العسكرين والذي يريدون موسى بن بغا أن يولي ناحية ينصرف إليها، والذي يريد القوم من موسى أن يُقبل في غلمانه ليناظرهم.

فلما كان من الغد، وأخذ موسى ومفلح طريق خراسان، ومضى بابكيال ـ في هذه الرواية ـ ومن معه من القواد حتى دخلوا الدار فأخذت سيوفهم ومناطقهم وأقبل المهتدي على بابكيال يعدد ذنوبه وما ركب في الإسلام.

وأبطأ خبره على أصحابه، فقال لهم حاجبه أحمد بن خاقان: اطلبوا صاحبكم قبل أن يحدث به حدث.

فجاشت الأتراك، وأحاطوا بالدار.

فاستشار المهتدي صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور.

فقال: يا أمير المؤمنين، هو حدث أبي مسلم مع المنصور، فلو فعلت لسكنوا.

فأمر المهتدي بضرب عنقه، ورمى رأسه إليهم، ففعل ذلك.

فتأخروا وجاشوا، وشدّ واحد منهم على من رمى بالرأس فقتله.

ووجه المهتدي إلى الأسروشنية، والمغاربة والفراغنة، والأتراك نحو من أربعة آلاف ثم اجتمع الأتراك كلهم، وصار أمرهم واحداً، فكانوا نحو عشرة آلاف.

وكان مع ما اجتمع من الأتراك إلى المهتدي نحو خمسة عشر ألفاً.

فخرج المهتدي والمصحف في عنقه، وعبى الناس، وقاتل، ودعا الناس إلى أن ينصروا خليفتهم.

فلما التحم الشرّ مال الأتراك الذين مع المهتدي إلى أصحابهم الذين مع أخي بابكيال وبقي المهتدي في صحابة لا تزال معه. فحمل طغيا أخو بابكيال حملة ثائر موتور، فنقض جمعهم، وهزمهم، وأكثر فيهم القتل وولوا منهزمين.

ومضى المهتدي يركض منهزماً في الأسواق، والسيف في يده مشهور، وهو ينادي: يا معشر الناس، انصروا خليفتكم حتى صار إلى دار موسى أبي صالح ومحمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب المعونة، فدخلها ووضع سلاحه، ولبس البياض ليعلموا الدار، وينزل إلى الأخرى ويهرب.

وجاء أحمد بن خاقان في ثلاثين فارساً يسأل عنه حتى وقف على خبره في دار ابن جميل فبادرهم ليصعد بسهم (. . . .)[١].

ولم يجد المهتدي لنفسه حيلة، فاستسلم، فأخذ أحمد بن خاقان على دابته وأردف خلفه سائساً حتى سار به إلى داره.

وانتهب الجوسق فلم يبق فيه شيء.

وأخرجوا أحمد بن المتوكل بن فتيان، وسموه: المعتمد على اللّه، وأرادوا المهتدي على الخلع قبل ذلك فأبى ولم يجبهم، فخلعوا أصابع يديه ورجليه، ثم أمروا من وطئ على خصيتيه ولما أيقن [١٢١/ب] المهتدي بالقتل، قال لهم:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

وكانت خلافته كلها أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، وعمره ثماني وثلاثين سنة.

وكان رحب الجبهة، أجلح، جهم الوجه، أشهل العينين، عظيم البطن، عريض

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها وهذا رسمها (قعح).

المنكبين، طويل اللحية قصيراً[(١)].

وفي هذه السنة: وافى جعلان البصرة، فهرب صاحب الزنج فزحف بعسكره حتى سار بينه وبين صاحب الزنج فرسخ فخندق على نفسه وأصحابه [وأقام ستة أشهر][(٢)].

ووجه إلى الزينبي وبني هاشم، وكان يواعدهم للقائه، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرّمي بالنشاب والحجر لضيق الموضع بما فيه من النخل والدغل، ولم يكن للجند مجال.

فبقوا كذلك ستة أشهر، فلما رأى صاحب الزنج ذلك هيأ من أصحابه جماعة يأخذون على جعلان مسالك الخندق، وبيته في خندقه، فقتل جماعة من رجاله وريع

---

(١) زاد في الكامل على هذه الصفات:
أسمر رقيقاً.. ومولده بالقاطول. ثم ذكر بعضاً من سيرته فقال:
كان المهتدي بالله من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجملهم طريقة، وأظهرهم ورعاً، وأكثرهم عبادة.
قال عبد الله بن إبراهيم الإسكافي: جلس المهتدي للمظالم، فاستعداه رجل على ابن له، فأمر بإحضاره وأقامه إلى جانب خصمه ليحكم بينهما، فقال الرجل للمهتدي: والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل:

حكمتوه قاضياً بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة في حكمه ... ولا يبالي غين الخاسر

فقال المهتدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، وأما أنا فما جلست حتى قرأت: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].
قال: فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.
قال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمي: كنت عند المهتدي بعض عشايا شهر رمضان، فقمت لأنصرف فأمرني بالجلوس، فجلست حتى صلى المهتدي بنا المغرب وأمر بطعام فأحضر، وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان وفي إناء ملح وفي آخر زيت وفي آخر خل.
فدعاني إلى الأكل وأكلت مقتصراً ظناً مني أنه يحضر طعاماً جيداً.
فلما أكل كذلك قال: أما كنت صائماً؟
قلت: بلى.
قال: أفلست تريد الصوم غداً؟
قلت: وكيف لا وهو شهر رمضان.
فقال: كل واستوف عشاءك فليس هاهنا غير ما ترى.
فعجبت من قوله وقلت: ولم يا أمير المؤمنين؟ قد أسبغ الله عليك النعمة، ووسع رزقه.
فقال: إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ولكني فكرت في أنه كان من بني أمية عمر بن عبد العزيز، فقرت لبني هاشم أن لا يكون في خلفائهم مثله، وأخذت نفسي بما رأيت.
قال إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين: إن المهتدي وجدوا له سفطاً فيه جبة صوف، وكساء، وبرنس كان يلبسه بالليل ويصلي فيه ويقول: أما تستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز.
وكان قد طرح الملاهي، وحرم الغناء، والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم رحمه الله تعالى ورضي عنه.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

الباقون روعاً شديداً[١]، فنزل جعلان عسكره، وانصرف إلى البصرة، وظهر عجز السلطان فازداد أمر صاحب الزنج عظم شأن. فأخذ أربعة وعشرين مركباً بحرية كانت اجتمعت تريد البصرة، وكانت هذه المراكب تنتظر أن ينفصل أمر السلطان مع صاحب الزنج.

فلما انهزم السلطان رأوا أن تُشد المراكب بعضها إلى بعض حتى تصير كالجزيرة ويتصل أولها بآخرها، ثم يسيروا بها في دجلة.

فندب صاحب الزنج أصحابه وحرضهم عليها وقال: هذه غنيمة لم تروا مثلها. فانتدب لها الزنج، فلم تلبث أن جروها وقتلوا مقاتلتها، وسبوا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً عظيمة لا تحصى ولا يُعرف قدرها.

فانهب ذلك أصحابه ثلاثة أيام، ثم أمر بما بقي فحيز له.

ودخل صاحب الزنج الأبلة بعد حرب قتل فيها خلقاً وأحرقها، وكانت مبنية بالسَّاج[٢]، فأسرعت فيها النار، ونشبت ريح عاصفة، فأطارت الشرر إلى شاطئ عثمان فاحترق وقتل خلق كثير بالأبلة وغرق خلق، وكان ما احترق من الأمتعة أكثر مما انتهب. ولما جرى ذلك على الأبلة جزع أهل عبّادان فاستسلموا لصاحب الزنج، وسلموا إليه بلدهم وحصنهم[٣].

وفيها: ملك أصحابه الأهواز.

ذكر دخول الزنج الأهواز

لما فتح الأبلة وعبادان، وأخذ مماليكهم، وفرق فيهم السلاح طمع في الأهواز،

---

(١) زاد صاحب الكامل بعد هذا: وكان الزيني قد جمع البلالية والسعدية ووجه بهم من مكانين وقاتلوا الخبيث فظفر بهم، وقتل منهم مقتله عظيمة، فترك جعلان خندقه...

(٢) قال صاحب لسان العرب في مادة سوج:
السَّاج: خشب يجلب من الهند، واحدته ساجة، والساج شجر عظيم جداً، ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التراس الديلمية يتغطى الرجل بورقة منه فتكنه من المطر. وله رائحة طيبة تشابه رائحة ورق الجوز مع رقة ونعمة، حكاه أبو حنيفة.

(٣) ذكر ابن الأثير خبر استيلاء صاحب الزنج على الأبلة وعبّادان على النحو التالي:
وفيها: دخل الزنج الأبلة فقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأحرقوها، وكان سبب ذلك:
أن جعلان لما تنحى عن خندقه إلى البصرة ألح شنا صاحب الزنج بالغارات على الأبلة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية معقل، ولم يزل يحارب إلى يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب فافتتحها وقتل أبو الأحوص، وعبيد الله بن حميد بن الطوسي وأضرمها ناراً، وكانت مبنية بالساج، فأسرعت فيها النار، وقتل من أهلها خلق كثير وحووا الأموال العظيمة، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذي نهب.
وفيها: أرسل أهل عبادان إلى صاحب الزنج فسلموا إليه حصنهم، وكان الذي حملهم على ذلك أنه لما فعل بأهل الأبلة ما فعل خاف أهل عبادان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فكتبوا إليه يطلبون الأمان على أن يسلموا إليه البلد.
فأمنهم وسلموه إليه فأنفذ أصحابه إليهم وأخذوا ما فيه من العبيد والسلاح ففرقه في أصحابه.

فاستنهض أصحابه نحو جبى، فلم تثبت له، فدخلها وانتهب وقتل، ووافى الأهواز وبها سعيد بن تسكين فيمن معه من الجند.

ووثب إبراهيم فيمن معه من غلمانه، فدخل الزنج المدينة، وأسروا إبراهيم بن المدبر بعد أن ضرب ضربة على وجهه، وحووا كل ما يملك[١].

فلما ملك الأهواز رعب أهل البصرة رعباً شديداً، فانتقل كثير من أهلها[٢] وكثرت الأراجيف من عوامها.

وفي رجب من هذه السنة: وافى البصرة سعيد بن صالح الحاجب من قِبل السلطان لحرب صاحب الزنج.

وفيها: وثب محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي ـ وهو من أهل فارس ـ ورجل من أكرادها يقال له: أحمد بن الليث بعامل فارس ـ وهو الحارث بن سيما الساریاني ـ فحارباه وقتلاه.

وغلب محمد بن واصل على فارس.

وفيها: غلب الحسن بن زيد [الطالبي][٣] على الرّي[٤]، وشخص موسى بن بُغا إلى الري[٥] لحربه وشيعه المعتمد.

وفيها: كانت بين باجور، وابن لعيسى ابن الشيخ وقائد لعيسى في عسكر لهما بالقرب من دمشق.

فاتصل بهم خبر باجور وأنه في عدد يسير، فزحفا إليه ولا يعلم باجور بهما حتى لقياه، فقتل القائد الذي مع ابن عيسى وهزم، وقتل خلق عظيم من أصحابه وكان في عشرين ألفاً، وباجور في نحو مائتين إلى ثلاثمائة[٦].

---

(١) في الكامل: وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان.
(٢) بعدها في الكامل: في البلدان.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) بعدها في الكامل: في رمضان.
(٥) بعدها في الكامل: في شوال.
(٦) ويذكر ابن الأثير هذا الخبر على النحو التالي في الكامل تحت عنوان: عزل عيسى ابن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية:
لما استولى ابن الشيخ على دمشق وقطع الحمل عن بغداد اتفق أن ابن المدبر حمل مالاً من مصر إلى بغداد مقداره سبعمائة ألف دينار فأخذها عيسى ابن الشيخ، فأرسل من بغداد إليه حسين الخادم يطالبه بالمال، فذكر أنه أخرجه على الجند.
فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد.
وكان قد امتنع من ذلك، فأخذ العهد، وأقام الدعوة للمعتمد، ولبس السواد ظناً منه أن الشام تكون بيده، فأنفذ المعتمد أماجور وقلده دمشق وأعمالها، فسار إليها في ألف رجل. =

ودخلت سنة سبع وخمسين ومائتين

وفيها: سار يعقوب بن الليث إلى فارس فبعث إليه المعتمد طغياء، وإسماعيل بن إسحاق، وأبا سعيد الأنصاري.

وكتب إليهم أبو أحمد بن المتوكل بولاية بلخ وطخارستان إلى ما يلي ذلك من كرمان، وسجستان والسند.

وجعل له مال في كل سنة من هذه الأعمال فقيل ذلك وانصرف(١).

وعقد المعتمد لأخيه أبي أحمد على الكوفة وطريق مكة(٢).

ثم عقد له على بغداد، والسواد، وواسط وكور دجلة، والبصرة، والأهواز، وفارس. فولى خلفاءه وأمر أن يعقد ليارجوخ على البصرة، وكور دجلة، واليمامة، والبحرين، فولى يارجوخ منصور بن جعفر بن دينار البصرة وكور دجلة.

واستحث سعيد الحاجب في المسير إلى دجلة والإناخة على صاحب الزنج ففعل

= فلما قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصور في عشرين ألف مقاتل، فلما التقوا انهزم عسكر منصور، وقُتل منصور، فوهن عيسى وسار إلى أرمينية على طريق الساحل، وولي أماجور دمشق.
ومما زاد ابن الأثير من أحداث في هذه السنة:
خلافة المعتمد على الله فقال: لما أُخذ المهتدي بالله وحُبس أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل - وهو المعروف بابن فتيان - وكان محبوساً بالجوسق فبايعه الأتراك وكتبوا بذلك إلى موسى بن بُغا - وهو بخانقين - فحضر إلى سامرا، فبايعه ولقب: المعتمد على الله.
ثم إن المهتدي مات ثاني يوم بيعة المعتمد وسكن الناس، واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان.
فهذا زاد فيه تفصيلات.
وزاد أيضاً: حج بالناس في هذه السنة: محمد بن أحمد بن عيسى بن أبي جعفر المنصور.
وفيها: توفي الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي صاحب المسند الصحيح، وكان مولده سنة أربع وتسعين ومائة.

(١) ذكر ابن الأثير هذا الخبر في الكامل إلى هنا على نحو مما ذكر ثم زاد خلاف ما عند ابن مسكويه فقال: فقيل ذلك وعاد وسار إلى بلخ وطخارستان، فلما وصل إلى بلخ نزل بظاهرها وخرب نوشاد، وهي أبنية كان بناها داود بن العباس بن مابنجور خارج بلخ. ثم سار يعقوب من بلخ إلى كابل واستولى عليها، وقبض على زنبيل.
وأرسل رسولاً إلى الخليفة ومعه هدية جليلة المقدار، وفيها أصنام أخذها من كابل وتلك البلاد.
وسار إلى بست فأقام بها سنة، وسبب إقامته:
أنه أراد الرحيل فرأى بعض قواده قد حمل بعض أثقاله فغضب وقال: أترحلون قَبلي؟! وأقام سنة.
ثم رجع إلى سجستان، ثم عاد إلى هراة وحاصر مدينة كروخ حتى أخذها.
ثم سار إلى بوشنج، وقبض على الحسين بن طاهر بن الحسين الكبير، وأنفذ إليه محمد بن طاهر بن عبد الله، فسأله اطلاقه وهو عم أبيه الحسين طاهر فلم يفعل وبقي في يد.

(٢) ذكر ابن الأثير هذا الخبر بما يتممه من بعده في الكامل تحت عنوان: ذكر عودة أبي أحمد الموفق من مكة إلى سر من رأى.

ذلك، ومضى إلى نهر معقل[١].

وكان هناك جيش لصاحب الزنج بالنهر [١٢٢/أ] المعروف بالمرغاب[٢]، وهو معترض في زهر. معقل، فأوقع بهم وهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم.

واستأمن إليه عمران وهو زوج جَدَّة ابن صاحب الزنج، وتفرق ذلك الجمع.

فحكى من حضر ذلك قال:

لقد لقيت المرأة من سكان الفرات تجد الزنجي مستتراً بتلك الأدغال فتجرجه وتحمله إلى عسكر سعيد ما به عنها امتناع[٣].

ثم أوقع بالخبيث دفعات متوالية، ثم إن الخبيث وَجَّهَ إلى يحيى بن محمد الجرجاني[٤] صاحبه، وهو بنهر معقل جيشاً، وأمره بتوجيه سليمان بن جامع وأبي الليث الأصبهاني ليلاً مع عسكر قوي حتى توقعا لسعيد وقت طلوع الفجر، ففعل ذلك.

فصادفا منهم غرة وغفلة، فأوقعا بهم وقتلا منهم مقتلة عظيمة، وأحرق الزنج عسكر سعيد. فضعف سعيد ومن معه، ودخل أمرهم خلل لهذا البيان.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان:
نهر مَعْقِل: منسوب إلى معقل بن يسار بن عبد اللّه بن معبر بن حرّاق بن لؤي بن كعب بن عبد بن ثور بن هُذْمة بن لاطم بن عثمانِ بن عمرو بن أدّ المزني.
ومزينة أم عثمان، وأوس ابني عمرو بن أدّ صحب النبي ﷺ.
وهو نهر معروف بالبصرة، فمه عند فم الإجانة.
ذكر الواقدي: أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني، فنسب إليه.

(٢) وقال ياقوت أيضاً في المصدر السابق في المرغاب: اسم نهر بمرو الشاهجان.
والمرغاب: نهر بالبصرة.
قال البلاذري: وحفر بشير بن عبيد اللّه بن أبي بكر وسماه باسم مرغاب مرو.

(٣) وذكر ابن الأثير هذا الخبر في الكامل تحت عنوان: ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب فقال:
وفيها في رجب أوقع سعيد الحاجب بجماعة من الزنج، فهزمهم واستنقذ ما معهم من النساء والنهب وجرح سعيد عدة جراحات.
وبلغه الخبر بجمع آخر منهم فسار إليهم فلقيهم فهزمهم أيضاً واستنقذ ما معهم فكانت المرأة.
ثم زاد: وعسكر سعيد بهطة، ثم عبر إلى غرب دجلة فأوقع بصاحب الزنج عدة وقعات ثم عاد إلى معسكره بهطة، فأقام إلى باقي رجب وعامة شعبان.

(٤) كذا في المخطوط. وفي الكامل البحراني، وذكرت الخبر على النحو التالي تحت عنوان: ذكر خلاص بن المدبر من الزنج فقال:
وفيها: تخلص إبراهيم بن محمد بن المدبر من حبس الزنج.
وكان سبب خلاصه: أنه كان محبوساً في بيت يحيى بن محمد البحراني، ووكل به رجلين منزلهما ملاصق المنزل الذي فيه إبراهيم، فضمن لهما مالاً ورغبهما.
فعملا سرباً إلى البيت الذي فيه إبراهيم، فخرج هو وابن أخ له يقال له: أبو غالب، ورجل هاشمي.

وكانت أرزاقهم حبست عنهم من جهة منصور بن جعفر بن الخياط، وهو يومئذٍ بالأهواز إليه حربها، وله يد في الخراج. فلما اضطرب أمر سعيد وضعف أمر بالانصراف[(١)] إلى باب السلطان وتسليم الجيش إلى منصور بن جعفر.

وذلك أن سعيداً نزل بعد ما اتفق عليه من البيات حرب صاحب الزنج، وكان نفر يحمي البصرة، ومنصور يجمع السفن التي تحمل المير ثم يبذرقها[(٢)] إلى البصرة. فضاق بالزنج الميرة.

ثم عبأ منصور أصحابه، وقصد صاحب الزنج في عسكره وقصد قصراً على دجلة فأحرقه وما حوله، ودخل عسكر الخبيث من ذلك الوجه، ووافاه الزنج وكمنوا له كميناً، فهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة والجئ الباقون إلى الماء فغرقوا وحملت الرؤوس إلى يحيى البحراني بنهر معقل، فأمر بنصبها هناك[(٣)].

ثم أوقع الخبيث بشاهين، وإبراهيم بن سيما بالأهواز، فقتل شاهين وهزم إبراهيم. وكاتب علي بن أبان بالمسير إلى البصرة لحرب أهلها[(٤)].

ذكر الخبر عن دخول الزنج البصرة

لما ضعف منصور لم يعد إقبال الزنج، واقتصر على بذرقة السفن لوصول المير

---

(١) في المخطوط: بالانصياف. وهو تحريف.

(٢) قال صاحب لسان العرب في مادة بذرق: البذرقة فارسي معرب، قال ابن بري: البذرقة الخُفَارَة، ومنه قول المتنبي: أُبَذْرَق ومعي سيفي؟! وقاتل حتى قتل.
وقال ابن خالويه: ليست البذرقة عربية وإنما هي فارسية فعربتها الرعب، يقال: بعث السلطان بذرقة مع القافلة.
وقال الهروي في فصل عَصَمَ من كتابة المغربيين: إن البذرقة يقال لها: عصمة أي يعتصم بها.

(٣) وذكر ابن الأثير هذا الخبر تحت عنوان: انهزام سعيد من الزنج وولاية منصور بن جعفر البصرة.

(٤) ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل بأتم مما هنا تحت عنوان: ذكر انهزام جيش الزنج بالأهواز، فقال:
وفيها أرسل صاحب الزنج جيشاً مع علي بن أبان لقطع قنطرة أربك فلقيهم إبراهيم بن سيما منصرفاً من فارس، فأوقع بجيش العلوي فهزمهم، وقتل منهم وجرح علي بن أبان.
ثم إن إبراهيم سار قاصداً نهرجين، فأمر كاتبه شاهين بن بسطام بالمسير على طريق آخر ليوافيه بنهر جين بعد الوقعة مع علي بن أبان، وكان علي بن أبان قد سار من الوقعة فنزل بالخيزرانية، فأتاه رجل، فأخبره بإقبال شاهين إليه فسار نحوه.
فالتقيا وقت العصر بموضع بين جبى ونهر موسى، واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة فهزموهم وقتلوا شاهين، وابن عم له، وقتل معه خلق كثير.
فلما فرغ الزنج منهم أتاهم الخبر بقرب إبراهيم بن سيما منهم فسار على نحوه فوافاه وقت العشاء الآخرة، فأوقع بإبراهيم دفعة أخرى شديدة قتل فيها جمعاً كثيراً.
قال علي بن أبان: وكان أصحابي قد تفرقوا بعد الوقعة مع شاهين، ولم يشهد معي حرب إبراهيم غير خمسين رجلاً، وانصرف علي إلى جبى.

إلى البصرة. فوجه الخبيث علي بن أبان فشغل منصور عن بذرقة السفن، وعاد أهل البصرة إلى الضيق وألحّ أصحاب الخبيث عليها بالحرب، وأحسّ الخبيث بضعف القوم وإضرار الحصار بهم وتخريبه ما حولها من القرى.

وكان ينظر في النجوم ولا يفارقه الاصطرلاب وكتب النجوم.

فوقف على كسوف القمر، فقال لأصحابه: إني قد ابتهلت إلى اللّه في الدعاء على أهل البصرة وتعجيل خرابها، فخوطبت، وقيل لي: إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها فإذا انكسر ضعف الرغيف وخربت البصرة. فتأولت انكسار الرغيف انكساف القمر في نصفه.

وكان هذا حديث عسكره كل يوم فكثر على الأسماع، وندب قوماً للخروج إلى الأعراب ففرضوا قوماً منهم، وأتاه خلق عظيم فوجههم الخبيث إلى ناحية منها، وأمرهم بطرق البصرة والإيقاع بهم من تلك الجهة.

فلما ابتدأ القمر بالكسوف، أنهض علي بن أبان في عسكر ضخم، وطائفة من العرب إلى البصرة مما يلي بني سعيد.

وكتب إلى يحيى بن محمد البحراني في إتيانها مما [يلي][1] نهر عدي[2]، وضم إليه سائر العرب. فواقع نصراً علي بن أبان يومين، ومال الناس نحوه، فدخل علي بن أبان[3] من ناحية وتفرق الجند وانحاز نصراً بمن معه، فلم يكن في وجهه أحد.

ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبي فاستأمنه لأهل البصرة، فأمنهم، ونادى منادي إبراهيم بن يحيى:

من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم. فحضر أهل البصرة حتى ملؤوا الرحاب، فلما رأى اجتماعهم أمر بأخذ أفواه المسالك[4] والطرق لئلا يتفرقوا، ثم غدر بهم

---

(١) سقط من المخطوط والسياق يقتضيه، وكذا هو مثبت في الكامل.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
نهر عدي بن أرطأة: بالبصرة كان نهر عدي خوراً من نهر البصرة حتى فتقه عدي بن أرطأة الفزاري عامل عمر بن عبد العزيز من بثق نهر شيرين جارية أبرويز. ولما فرغ عدي من نهره كتب إلى عمر: إني حفرت لأهل البصرة نهراً عذب به مشربهم وجادت عليه أموالهم فلم أر لهم على ذلك شكراً، فإن أذنت لي قسمت عليهم أنفقته عليه.
فكتب إليه عمر: إني لأحسب أهل البصرة عند حفرك هذا النهر خلو من رجل يشرب منه يقول الحمد للّه، وأن اللّه تعالى قد رضي بنا شكراً فأرضى بنا شكراً من حفر نهرك.

(٣) في الكامل: وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة، وليلة السبت، ويوم السبت، وغادى يحيى البصرة يوم الأحد فتلقاه بفراج، وبرية في جمع فردوه فرجع، فأقام يومه ذلك ثم غاداهم اليوم الآخر، فدخل وقد تفرق الجند، وهرب برية، وانحاز بفراج ومن معه، ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبي فاستأمنه.

(٤) في المخطوط: المالك. وهو تحريف.

ووضع السيوف فيهم فقتلوا بأجمعهم ولم يفلت إلاّ الشاذ.

فيقال: إن أصوات الناس الذين قتلوا ارتفعت بالتشهد لما أخذهم السيف فسمعهم من [في][(١)] الطغاوة.

فلما فرغ من قتلهم أتى علي بن أبان المسجد فأحرقه، وراح إلى الكلأ فأحرقه من الجبل إلى الجسر، وأخذت النار كل شيء مَرّت به من: إنسان، وبهيمة، ومتاع، وآلة.

ثم ألحّوا على من وجدوا بعد ذلك غدواً وعشيًا يسوقونهم إلى يحيى البحراني، وهو يومئذٍ بسيحان.

فمن كان ذا مال قرره حتى يستخرج ماله، ثم يقتله، ومن كان فقيراً عاجله بالقتل. ثم نادى يحيى بن محمد بالأمان، فلم يظهر له أحد.

فكتب الخبيث إلى يحيى بن محمد: أن استخلف شبلاً فإنهم يسكنون إليه ليظهر الناس، فإذا أمنوا وظهروا أخذوا بالدلالة على ما دفنوا وأخفوا من أموالهم. ففعل ذلك حتى استنطق أهل البصرة، وقتلهم، وهرب الباقون على وجوههم، فصرف الخبيث جيشه حينئذٍ عن البصرة[(٢)].

فحكى قوم عن الخبيث: أنه لما بلغه عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة، وكثرة ما سفك من الدماء، وخَرَّبَ وأفسد. هاله ذلك.

وكان أمراً فظيعاً هائلاً ادعى أنه دعاء عليهم، فرأى خيلاً بين السماء والأرض، وقد حفظوا أيديهم اليسرى ورفعوا إليهم اليمنى.

قال: فعلمت أن الملائكة تتولى إخرابها دون أصحابي، ولو كان أصحابي يتولون ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم المفرط[(٣)]...

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) جاء بعد هذا في الكامل:
فلما أخرب البصرة انتسب إلى يحيى بن زيد وذلك لمصير جماعة من العلويين إليه، وكان فيهم علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد وجماعة من نسائهم فترك الانتساب إلى عيسى بن زيد وانتسب إلى يحيى بن زيد.
قال القاسم بن الحسن النوفلي: كذب إن يحيى لم يعقب غير بنت ماتت وهي ترضع.

(٣) حدث هنا سقط في باقي أحداث سنة سبع وخمسين ومائتين وأول أحداث ثمان وخمسين، وأنا استكمل بعض تلك الأحداث من الكامل في التاريخ لابن الأثير فيقول:
وفيها في ذي القعدة:
أمر المعتمد محمداً المولد بالمسير إلى البصرة لحرب الزنج، فسار فنزل الأبُلة، وجاء بريه فنزل البصرة، واجتمع إليه من أهلها خلق كثير.
فسيّر العلوي إلى حرب المولد يحيى بن محمد، فسار إليه فقاتله عشرة أيام، ثم وَطَّن المولد نفسه على المقام. =

....

= فكتب العلوي إلى يحيى يأمره بتبييت المولد، ووجه إليه الشذاوات مع أبي الليث الأصبهاني فبيته، ونهض المولد، فقاتله تلك الليلة، ومن الغد إلى العصر، ثم انهزم عنه.
ودخل الزنج عسكره فغنموا ما فيه، فاتبعه يحيى إلى الجامدة، فأوقع بأهلها ونهب تلك القرى جميعها، وسفك ما قدر عليه من الدماء، ثم رجع إلى نهر معقل.
وفي هذه السنة:
قصد الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان جرجان واستولى عليها.
وكان محمد بن طاهر أميرِ خراسان، ولما بلغه ذلك من عزم الحسن على قصد جرجان قد جهز العساكر وأنفق عليها أموالاً كثيرة وسيرها إلى جرجان لحفظها.
فلما قصدها الحسن لم يقوموا له وظفر بهم وملك البلد وقتل كثيراً من العساكر، وغنم هو وأصحابه ما عندهم.
وضعف حينئذٍ محمد بن طاهر وانتقض عليه كثير من الأعمال التي كان يحيى يجبي خراجها إليه، فلم يبق في يده إلاّ بعض خراسان، وأكثر ذلك مفتون منتقض بالمتغلبين في نواحيها، والشراة الذين يعيثون في عمله فلا يمكنه دفعهم، فكان ذلك سبب تغلب يعقوب الصفار على خراسان كما نذكره سنة تسع وستين ومائتين إن شاء اللّه تعالى.
وفيها:
أخذ محمد المولد سعيد بن أحمد بن سعيد الباهلي وكان قد تغلب على البطائح، وأفسد الطريق وحمل إلى سامرا فضرب ستمائة سوط فمات وصلب ميتاً. وحج بالناس الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي.
وفيها:
وثب بَسِيل المعروف بالصقلبي، وإنما قيل له الصقلبي وهو من بيت المملكة لأن أمه صقلبية ـ على ميخائيل بن توفيل ملك الروم ـ فقتلهم.
وكان ملك ميخائيل أربعاً وعشرين سنة وملك بَسِيل الروم.
وفيها: أقطع المعتمد مصر وأعمالها لياركوج التركي، فأقر عليها أحمد بن طولون.
وفيها: فارق عبد العزيز بن أبي دلف الري من غير خوف وأخلاها، فأرسل إليها الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان القاسم بن علي بن القاسم بن علي العلوي المعروف: بدليس، فغلب عليها فأساء السيرة في أهلها جداً، وقلعوا أبواب المدينة، وكانت من حديد وسيرها إلى الحسن بن زيد، وبقي كذلك نحو ثلاث سنين.
وفيها: خرج علي بن مساور الخارجي وخارجي آخر اسمه طوق من بني زهير، فاجتمع إليه أربعة آلاف فسار إلى أذرمة، فحاربه أهلها، فظفر بهم فدخلها بالسيف، وأخذ جارية بكراً فجعلها فيئاً وافتضها في المسجد.
فجمع عليه الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعاً كثيراً فحاربه، فقتله وقطع رأسه وأنفذه إلى سامرا.
وفيها: قتل محمد بن خفاجة أمير صقلية قتله خدمه نهاراً، وكتموا قتله، فلم يعرف إلاّ من الغد، وكان الخدم الذين قتلوه قد هربوا، فطلبوا، فأخذوا، وقتل بعضهم.
ولما قتل استعمل محمد بن أحمد بن الأغلب على صقلية أحمد بن يعقوب بن المضاء بن سلمة، فلم تطل أيامه ومات سنة ثمان وخمسين ومائتين.
وفيها: توفي الحسن بن عمر العبدي، وكان مولده سنة خمسين ومائة بسر من رأى.
وفيها: توفي أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي اللغوي من كبارهم، وروى عن الأصمعي وغيره.
وفيها: توفي محمد بن الخطاب الموصلي، وكان من أهل العلم والزهد.

[ودخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين

وفيها: في ربيع الأول][1] عقد المعتمد لأخيه أبي [١٢٢/ب] أحمد على ديار مصر وقنسرين[2]، والعواصم، وخلع عليه وعلى مفلح، وشخصا إلى البصرة لقتال الخبيث.

وظفر الخبيث بمنصور بن جعفر بعد قتال عظيم وبعدما جاهد منصور جهاداً شديداً فقتله وعامة من معه ولما شخص أبو أحمد ومفلح لحرب الخبيث، تجهز الجيش بآلة وعدة لم ير مثله.

وحكى ناس من أهل بغداد الذين شاهدوا الجيوش أنهم ما رأوا ولا سمعوا بمثل ذلك الجيش كثرة وقوة وآلة وسلاح وتبعهم خلق عظيم من متسوقة بغداد. وكان أصحاب الخبيث متفرقين في النواحي قد استكانوها فليس مع الخبيث يومئذٍ إلا القليل من أصحابه، وهو على ذلك حتى وافاه أبو أحمد في جيشه ومعه مفلح فورد على الخبيث أمر هائل لم يرد مثله وهرب من كان من أصحابه بنهر معقل فلحقوا به مرعوبين.

فدعا الخبيث رئيسين من رؤساء عسكره ممن هرب من نهر معقل، فقال لهما: ما الذي دعاكما إلى الإخلال بموضعكما؟

فقالا: رأينا شيئاً لم نر مثله، ووصفا عظم ذلك الجيش، وعدتهم وكثرتهم.

فوجه الخبيث من يأتيه بخبر الجيش وخبر من يقوده.

فرجعت رسله بتعظيم الأمر وتفخيمه، ولم يقدروا أن يقفوا على خبر يقوده، فازداد ذلك في جزعه، وبادر الرسل إلى علي بن أبان تستدعيه ومن معه من الجيش.

وورد العسكر مع أبي أحمد فأناخ بإزائه.

واستدعى الخبيث دواة وقرطاساً ليكاتب علي بن أبان ويستعجله، فإنه في ذلك فأتاه المكتبي بأبي دلف ـ وهو من قواد السودان ـ يخبره أن القوم قد صعدوا، وانهزم عنهم الزنج فليس في وجوههم من يردهم.

فصاح به وانتهره، وقال: اغرب عني، فقد دخلك الجزع وانخلع قلبك، فلست تدري ما تقول.

---

(١) سبق الكلام على أن بعض أحداث السنة السابقة قد سقط، وكذا أول هذه السنة، فأثبته من الكامل، ثم استكمل من المخطوط من هنا.

(٢) في المخطوط: قفرين. وهو تحريف، وقال صاحب معجم البلدان: هي كورة بالشام منها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص يقرب العواصم، وبعضهم يدخل قنسرين في العواصم.

وقد كان أمر جعفر السجان بالنداء في الزنج وتحريكهم للخروج إلى موضع الحرب.

فأتاه السجان فأخبره أنه ندب الزنج فخرجوا وظفروا (. . .)[١].

فأمره بالرجوع لتحريك الرجالة، فرجع ولم يلبث إلا يسيراً حتى أصيب مفلح بسهم غرب لا يعرف الرامي له فوقعت الهزيمة وكثر الزنج وفروا على محاربتهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

ووافى الخبيث (. . . .)[٢] قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوها بين يديه فكثرت الرؤوس يومئذٍ حتى ملأت كل شيء.

وأُتي الخبيث بأسير من أبناء الفراغنة، فسأله عن الجيش، فأعلمه بمكان أبي أحمد الموفق، ومفلح فارتاع لذكر الموفق.

وكان إذا راعه أمر كذب به، فقال: كذبت، ليس غير مفلح، ولو كان في هذا الجيش غير من ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد، ولما كان مفلح إلا تابعاً له، وأنا لست اسمع إلا باسم مفلح.

وأمر بتثبت مفلح إن [كان][٣] مات.

ووافى علي بن أبان في أصحابه، وقد استغنى عنه.

وهرب أبو أحمد الموفق إلى الأبلة، فأخذ يجمع من فرقت الهزيمة، وتجدد الاستعداد، ثم مضى إلى نهر الأسد.

وكان الخبيث لا يدري كيف قتل مفلح، فلما بلغه أنه أصيب بسهم ولم ير أحداً تنحله ادعى أنه هو كان الرامي له.

فسمعه من يقول سقط بين يدي سهم فأمرت خادمي رافعاً أن يرفعه إليّ، فرميت به مفلحاً فأصبته، وكانت الهزيمة.

قال محمد بن الحسن: وكذب فإني كنت حاضراً، وما زال عن فرسه حتى أتاه خبر الهزيمة، وأتى بالرؤوس.

وفيها: أُسر محمد بن يحيى البحراني قائد الزنج، وذاك أنه وافى نهر العباس فلقيه بفوهة النهر ثلاثمائة وسبعون فارساً من أصحاب العامل بالأهواز[٤].

---

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «نشيمرنبى».
(٢) كلمة أيضاً في المخطوط لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «نربخه».
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) ذكر ابن الأثير اسم العامل فقال: عسكر أصعجور عامل الأهواز بعد منصور.

فاستقلهم وكان هو في جمع عظيم فترك الاستعداد، وصفوهم حتى أكثروا فيهم الجراح.

وكان بلغ أبا أحمد خبرهم، فأنفذ طاشتم التركي في جيش، فلما أشرفوا عليهم ألقى الزنج نفوسهم في الماء، وبقي يحيى في بضعة عشر رجلاً.

فنهض يحيى عند ذلك، فأخذ درقته وسيفه واحتزم بمنديل، وتلقى القوم بمن معه، فرشقهم أصحاب طاشتم بالسهام فخرج البحراني ثلاثة أسهم.

ولما رآه أصحابه جريحاً تفرقوا عنه ولم يعرف ولم يعرف.

فرجع حتى دخل سفينة وعبر بها إلى ناحية أصحابه.

فلما رآه الزنج مثقلاً بالجراحات ضعفت قلوبهم فتركوا القتال وهربوا، وقتل منهم خلق كثير.

وحاز أصحاب السلطان الغنائم التي كانت في السفن.

ومشى يحيى البحراني وهو مثخن حتى ألقى نفسه في موضع وبات ليلة ومعه عبّاد المتطيب فنهض عباد لما أصبح وجعل يمشي متشوقاً لأن يرى إنساناً، فرأى بعض أصحاب السلطان فأشار إليهم، فأخبرهم بمكان يحيى، وأتاه سلمه إليهم، وانتهى خبره إلى صاحب الزنج، فاشتد جزعه وعظُم عليه توجعه.

ثم حمل يحيى البحراني إلى أبي أحمد الموفق، فحمله إلى سُرَّ مَنْ رأى إلى المعتمد بباركة بالحير في مجرى الحلية[١]، ثم رفع للناس حتى أبصروه، ثم ضرب مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه، ثم خبط بالسيوف، ثم ذبح وأحرق.

ولما بلغ خبره صاحب الزنج قال: كان عظم عليّ ما أصابه واشتد اهتمامي به فخوطبت وقيل لي قتله خير لك إنه[٢] كان شرهاً.

ثم حكي عنه حكايات في غنائم خان فيها، فاطلع عليها فوهبها له.

وكانوا[٣] يحكون عنه أنه كان يقول: عرضت عليّ النبوة فأبيتها.

فقيل له: ولِمَ؟

قال: لأن لها أعباءً[٤] خفت أن لا أطيقها.

وفي هذه السنة: انحاز أبو أحمد الموفق من قرب الزنج إلى واسط.

---

(١) كذا هذه العبارة في المخطوط، ولا أفهم معناها وهي ظاهرة على ما ذكرته ورسمته، فاللّه أعلم.
(٢) في المخطوط: أن. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: كان. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: عباء. وهو تحريف.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن الموفق لما سار إلى نهر أبي أسد[١] كثرت العلل في أصحابه، وفشا فيهم الموت، فلم يزل مقيماً حتى أمّل من نجا من الموت، ثم انصرف إلى بَاذَا [١٢٣/أ] وَرْد[٢] فعسكر به.

ثم أمر بتجديد الآلات، وأعطى من معه الأرزاق وأصلح الشذاوات[٣]، والمعابر وشحنها بالقواد فنهض يريد عسكر الخبيث، وأنفذ قوماً إلى نهر أبي الخصيب[٤].

فمال أكثر الناس حين وقعت الحرب إلى نهر أبي الخصيب، وتأمل الزنج قِلَّة من هو في جانب أبي أحمد الموفق، فأكبوا عليه وكثر القتل في الجانبين.

ثم سار أحمد الموفق إلى شذات وتوسط الحرب وحرض أصحابه فكثر عليه الزنج، وعلم أنه لا طاقة له بهم، وانقطع عنه جماعة حجز الزنج بينه وبينهم واقتطعوهم عنه.

فقاتلوا قتالاً شديداً، ثم قتلهم الزنج بأسرهم وانصرف القوم إلى باذاورا، وحملت الرؤوس إلى صاحب الزنج[٥].

فزاد ذلك في عتوّه.

فأقام الموفق بعض أصحابه للرجوع إلى الزنج.

فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره وذلك في عصوف الرياح فاحترق العسكر.

ورحل أبو أحمد الموفق إلى واسط، فلما صار إلى واسط تفرق عنه من بقي معه وتشتت ذلك الجمع العظيم[٦].

---

(١) قال ياقوت: هو أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة في طريق البصرة، ويصيب هناك في دجلة العظمى، ومأخذه أيضاً من دجلة قرب نهر دقلة.

(٢) باذَوَرْد: اسم مدينة كانت قرب واسط بينها وبين البصرة وقد خربت، وإلى هذه الغابة يسمون دجلة البصرة العظمى باذورد تسميه بهذا الموضع، والله أعلم.

(٣) معدات أو قوارب لنقل الجنود من شط إلى آخر.
وأبو أسد أحد قواد المنصور كان وُجِّه إلى البصرة أيام مقام عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس عم المنصور بها فحفر بها النهر المعروف بأبي أسد وقيل: بل أقام على فم النهر لأن السفن لم تدخله لضيقه فوسعه حتى دخلته فنسب إليه وكان محفوراً قبله.

(٤) قال ياقوت أيضاً: بالبصرة، وكان مولى لأبي جعفر المنصور أقطعه إياه.
واسم أبي الخصيب: مرزوق.

(٥) في الكامل: وهي مائة رأس وعشرة أرؤس.

(٦) في الكامل: فسار منها إلى سامرا، واستخلف على واسط لحرب العلوي محمد بن المولد.
ثم ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة، والتي لم تذكر هنا ما يلي: =

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين

وفيها: انصرف أبو أحمد بن المتوكل من واسط إلى سُرَّ مَنْ رأى على حرب الخبيث أحمد المولد.

وكان خفي على صاحب الزنج أمر الطريق الذي فيه[1] أصحاب أحمد فلم يعرف خبره إلاّ بعد ثلاثة أيام.

فوجه علي بن أبان، وضم إليه أكثر الجيش الذي يلقب[2] يحيى بن محمد إلى الأهواز وبها رجل [يدعى][3] بـ: اصعجور يتولى حربها ومعه ثيرك[4] في جماعة من القواد.

فلما التقى العسكران[5] لم يثبت القوم للزنج لما استشعر من الرعب، فانهزم

= وفيها: وقع الوباء في كور دجلة فهلك منها خلق كثير ببغداد، وواسط، وسامرا وغيرها.
وفيها: قتل سرسجارس ببلاد الروم مع جماعة كثيرة من أصحابه.
وفيها: كانت هدة عظيمة هائلة بالصيمرة، ثم سمع من غد ذلك اليوم هدة أعظم من الأولى، فانهدم أكثر المدينة، وتساقطت الحيطان، وهلك من أهلها زهاء عشرين ألفاً.
وفيها: مات ياركوج التركي في رمضان وصلى عليه أبو عيسى بن المتوكل، وكان صاحب مصر ومقطعها، ويدعى له فيها قبل أحمد بن طولون فلما توفي استقل أحمد بمصر.
وفيها: كانت وقعة بين أصحاب موسى بن بُغا وأصحاب الحسن بن زيد العلوي فانهزم أصحاب الحسن.
وفيها: أسر مساور البلخي جماعة من أصحاب مساور الشاري، وسار مسرور إلى البواريج فلقي مساوراً هناك فكان فيها بينهما وقعة أسر فيها من أصحاب مسرور جماعة.
ثم انصرف في ذي الحجة إلى سامرا، واستخلف على عسكره بحديثة الموصل جعلان.
وفيها: رجع أكثر الناس من القرعاء خوف العطش وسلم من سار إلى مكة.
وحج بالناس: الفضل بن إسحاق بن الحسن.
وفيها: أوقع بأعراب بتكريت كانوا أعانوا مساوراً الشاري.
وفيها: أوقع مسرور البلخي بالأكراد اليعقوبية فهزمهم وأصاب فيهم.
وفيها: صار محمد بن واصل في طاعة السلطان، وسلم فارس إلى محمد بن الحسن بن أبي الفيض.
وفيها: أسر جماعة من الزنج كان فيهم قاضٍ كان يقضي لهم بعبادان فحملوا إلى سامرا فضربت أعناقهم.
وفيها: توفي محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن خالد الذهلي النيسابوري، وله مع البخاري حادثة ظلمه بها حسداً له، ليس هذا مكان ذكرها[1].
وفيها: توفي يحيى بن معاذ الرازي الواعظ في جمادى الأولى، وكان عابداً صالحاً صحب أبا يزيد وغيره.

(١) في المخطوط: في. وهو تحريف.
(٢) كذا جاء رسم هذه الكلمة في المخطوط وربما أنه أصابها تحريف واللّه أعلم وربما كان أصلها: «تقلد».
(٣) زيادة يتطلبها السياق.
(٤) في المخطوط: بترك والتصويب من الكامل.
(٥) في الكامل: بدشت ميسان.

اصعجور، وقتل ثيرك، وأسر خلق من القواد فيهم الحسن بن هرثمة.

وقتل من الجند عدد كثير[١]، وحملت الرؤوس إلى صاحب الزنج، وكتب علي بن أبان بالفتح، وحمل أعلاماً كثيرة، وأسرى، ودخل علي بن أبان الأهواز وأقام بها يعيش ويحيى إلى أن ندب السلطان موسى بن بغا لحرب الخبيث. فلما شخص موسى وشيعه المعتمد وأخرج عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز.

وأشخص إسحاق بن كنداجيق إلى البصرة. وإبراهيم بن سيما إلى باذاورد كلهم من قِبل موسى لحرب صاحب الزنج[٢].

فأما عبد الرحمن بن مفلح فإنه وافى قنطرة أزبُق[٣] وأقام عشرة أيام، ثم واقع المهلبي فهزمه فانصرف واستعد ثم عاد لمحاربته، فأوقع به وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً وانهزم علي بن أبان بمن معه من الزنج إلى بيان، وكان إبراهيم بن سيما بالباذاورد فقصده. وكان المهلبي سار يريد الموضع المعروف: بالدكة[٤]، فواقعه إبراهيم فهزمه، وانتهى خبر هزيمته إلى عبد الرحمن فوجه إليه طاشتم[٥] في جمع من الموالي فلم يصل إلى المهلبي لأنه كان سلك طريق الآجام، والأدغال، والقصب.

فأضرمت عليهم ناراً فخرجوا منه هاربين وأسر منهم قوماً.

---

(١) في الكامل: وغرق أصعجور.

(٢) في الكامل: وفيها في ذي القعدة أمر المعتمد موسى.

(٣) في المخطوط: قنطرة أرتق. وهو تحريف، والتصويب من معجم البلدان وقال عنها: القنطرة عربية فيما أحسب لأنها جاءت في الشعر القديم قال طرفة:

كقنطرة الرومي أقسم ربها　　لتكتنفن حتى تُشاد بقرمد

وقال اللغويون: هو أزج يبني بآجر أو حجارة على الماء يُعبر عليه.
وأما أربق فهي أعجمية مفتوحة، ثم راء ساكنة، وباء موحدة مضمومة، وقاف.
وقد روى أربُك بالكاف. وقد ذكر في موضعه.
وكان قال في حرف الألف من معجمه عند ذكره لأربك من نواحي الأهواز بلد وناحية ذات قرى ومزارع وعنده قنطرة مشهورة لها ذكر في كتب السِّير وأخبار الخوارج وغيرها.
فتحها المسلمون عام سبعة عشر في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قبل نهاوند.
وكان أمير جيش المسلمين النعمان بن مقرن المزني، وقد قال في ذلك:

عوت فارس واليوم حام أواره　　بمحتفل بين الدكاك وأربك

فلا غرو إلا حين ولوا وأدركت　　جموعهم خيل الرئيس ابن أرمك

وأفلتهن الهرمزان موابلا　　به ندب من ظاهره اللون أعتك

(٤) في المخطوط: بالانكد. وهو تحريف، والتصويب من الكامل، وقال صاحب معجم البلدان: الدَّكَّة موضع بظاهر دمشق في الغوطة. والله أعلم بالصواب.

(٥) كذا في المخطوط، وفي الكامل: طاشتمر.

وسار المهلبي إلى نهر السدرة وكتب إلى صاحبه يستمده[١] ويسأله التوجه إليه بالشذاوات[٢].

فوجه إليه: ثلاث عشرة شذاوات فيها جمع كثير من المقاتلة.

فسار المهلبي حتى وافى عبد الرحمن، فلم يكن بينهما قتال، وتوافق الجيشان يومهما فلما كان الليل انتخب المهلبي جماعة يثق بهم ويجلدهم وسيرهم ونزل عسكره بمكانه ليخفي أمره ومضى حتى صار من وراء عبد الرحمن ثم بيته، فقتل، وانتهب وهزم عبد الرحمن حتى وافى الدولاب[٣].

ثم أعد رجالاً وولى عليهم طاشتم، فوافوه، وأوقعوا به، وهزموه إلى نهر المدرة[٤]، ثم سار إليهم طاشتم بنهر المدرة[٤]، فأوقع به وانهزم علي إلى الخبيث.

مغلولاً قد أخذت شداته وغنم عساكره.

وكان عبد الرحمن بن مفلح، وأحمد بن سيما يتناوبان[٥] المسير إلى الخبيث، وإسحاق بن كنداجيق يومئذٍ بالبصرة مقيم[٦].

وأقاموا كذلك بضعة عشر شهراً إلى أن انصرف موسى بن بُغا عن حرب الخبيث وولى مسروراً البلخي.

---

(١) في المخطوط: يستمره. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: بالشذاة وهو تحريف وقال صاحب اللسان: الشذا شجر ينبت بالسراة يتخذ منه المساويك، وله صمغ، والشذا: ضرب من السفن، الواحدة شذاة.
قال ابن بري: الشذاة ضرب من السفن، والجمع شذوات.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان:
الدولاب: في عدة مواضع منها: دولاب مبارك في شرقي بغداد...
ودولاب: من قرى الري...
ودولاب الخازن: موضع نسب أبو سعد السمعاني إليه أبا محمد أحمد بن محمد بن الحسن الخرقي يعرف بأحمد جنية الدولابي. قال: توفي بهذا الدولاب في جمادى الآخرة سنة ٥٤٦)...
ودولاب أيضاً: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ كانت بها وقعة بين أهل البصرة وأميرهم مسلم بن عيسى بن كريز بن حبيب بن عبد شمس وبين الخوارج...

(٤) كذا في المخطوط، وفي الكامل: نهر السدرة، ولم أقف على أيًا منهما في معجم البلدان.

(٥) هذه الكلمة في المخطوط مختلطة المداد وأتممتها أو استوضحتها من الكامل.

(٦) في الكامل: بعدها أوضح مما هنا إذ يقول:
يتناوبان المسير إلى عسكر الخبيث فيوقعان به، وإسحاق بن كنداجيق بالبصرة وقد قطع الميرة عن الزنج.
وكان صاحبهم يجمع أصحابه يوم محاربة عبد الرحمن وإبراهيم، فإذا انقضى الحرب سَيَّر طائفة منهم إلى البصرة يقاتل بهم إسحاق، فأقاموا كذلك بضعة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بُغا عن حرب الزنج ووليها مسرور البلخي، فانتهى الخبر بذلك إلى الخبيث.

وفيها: دخل يعقوب بن الليث نيسابور[١].

ذكر دخول يعقوب نيسابور

ذكر أن يعقوب بن الليث سار إلى هراة، ثم قصد نيسابور، فلما قرب منها، وجه إليه محمد بن طاهر يستأذنه في تلقيه، فلم يأذن له.

فبعث بعمومته وأهل بيته يتلقونه، ثم دخل نيسابور، فنزل طرفاً من أطرافها يعرف بدار داباذ.

فركب إليه محمد بن طاهر فدخل إليه في مضربه فسأله، ثم أقبل على توبيخه وتفريطه في عمله وقال:

مثلك لا يكمل لتدبير خراسان، وأمر بالتوكيل به، وصرفه وحبسه، وولّى عزيزاً نيسابور، وقبض على أهل بيت طاهر.

وورد الخبر بذلك على السلطان، ووردت رسل يعقوب على المعتمد، فجلس له جعفر المعتمد، وأبو أحمد الموفق، وحضر القواد، وأذن لرسول يعقوب.

فذكر رسول يعقوب ما لا يزال يتناهى إلى يعقوب من حال أهل خراسان من[٢] الشراة والخارجين عليهم حتى قد غلبوا عليها، وضعف محمد بن طاهر عن ضبطها ومكاتبة أهل خراسان يعقوب، ومسألتهم إياه أن يقدم عليهم واستعانتهم به، وأنه سار إليها فتلقاه أهلها على عشرة فراسخ وسلموها إليه وأحضروا رأساً على قناة فيه رقعة مكتوب فيها:

هذا رأس عدو اللّه الخارجي بهراة ينتحل الخلافة منذ ثلاثين سنة فقتله يعقوب بن الليث[٣].

---

(١) في الكامل يبدأ ابن الأثير الخبر بذكر السبب في ذلك وتاريخه فيقول:
وفيها في شوال دخل يعقوب بن الليث نيسابور، وكان سبب مسيره إليها أن عبد اللّه السجزي كان ينازع يعقوب بسجستان فلما قوي عليه يعقوب هرب منه إلى محمد بن طاهر فأرسل يعقوب يطلب من ابن طاهر أن يسلمه إليه، فلم يفعل، فسار نحوه إلى نيسابور، فلما قرب منها وأراد دخولها، ووجه إليه محمد بن طاهر.

(٢) في المخطوط: «في». وهو تحريف.

(٣) قال صاحب الكامل بعد أن ذكر نحواً من هذا الكلام:
وقيل: كان سبب ملك يعقوب نيسابور ما ذكرناه سنة سبع وخمسين من ضعف محمد بن طاهر أمير خراسان، فلما تحقق يعقوب ذلك وأنه لا يقدر على الدفع سار إلى نيسابور، وكتب إلى محمد بن طاهر يعلمه أنه عزم على قصد طبرستان ليمضي ما أمره الخليفة في الحسن بن زيد المتغلب عليها، وأنه لا يعرض لشيء من عمله ولا إلى أحد من أصحابه.
وكان بعض خاصة محمد بن طاهر، وبعض أهله لما رأوا إدبار أمره وقد مالوا إلى يعقوب، =

....

= فكاتبوه، واستدعوه، وهونوا على محمد أمر يعقوب من نيسابور، فأعلموه أنه لا خوف عليه منه، وثبطوه عن التحرز منه.
فركن محمد إلى قولهم حتى قرب يعقوب من نيسابور، فوجه إليه قائداً من قواده يطيب قلبه، وأمره بمنعه عن الانتزاح عن نيسابور إن أراد ذلك.
ثم وصل يعقوب إلى نيسابور رابع شوال وأرسل أخاه عمرو بن الليث إلى محمد بن طاهر، فأحضره عنده، فقبض عليه وقيده وعنفه على إهماله وعجزه عن حفظه.
ثم قبض على جميع أهل بيته، وكانوا نحواً من مائة وستين رجلاً، وحملهم إلى سجستان واستولى على خراسان، ورتب في الأعمال نوابه.
وكانت ولاية محمد بن طاهر إحدى عشر سنة وشهرين وعشرة أيام.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث لم تذكر هنا حدثت في هذه السنة فقال:
وفيها: عاد ابن الصوفي العلوي وظهر بمصر، وقد ذكرنا سنة ست وخمسين ظهوره وهربه إلى الواحات، فأحم نفسه ودعا الناس إلى نفسه، فتبعه خلق كثير وسار بهم إلى الأشمونين، فوجه إليه جيش عليه قائد يعرف بابن أبي الغيث، فوجده قد أصعد إلى لقاء أبي عبد الرحمن العمري وسنذكره بعد هذا.
فلما وصل العَلوي إلى العُمري التقيا فكان بينهما قتال شديد أجلت الوقعة عن انهزام العلوي، فولى منهزماً إلى أسوان، فعاث فيها، وقطع كثيراً من نخلها.
فسيّر إليه ابن طولون جيش وأمرهم بطلبه أين كان.
وسار الجيش في طلبه، فولى هارباً إلى عيذاب وعبر البحر إلى مكة، وتفرق أصحابه فلما وصل إلى مكة بلغ خبره إلى واليها فقبض عليه، ثم سَيَّره إلى ابن طولون، فلما وصل إلى مصر أمر به فطيف به في البلد، ثم سجنه مُدَّة، وأطلقه، ثم رجع إلى المدينة، فأقام بها إلى أن مات.
ذكر حال أبي عبد الرحمن العمري.
قد تقدم ذكر أبي عبد الرحمن العمري واسمه: عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب.
وكان سبب ظهوره بمصر: أن البجاة أقبلت يوم العيد فنهبوا وقتلوا، وعادوا غانمين، وفعلوا ذلك مرات.
فخرج هذا العمري غضباً للّه وللمسلمين، وكمن لهم في طريقهم، فلما عادوا خرج عليهم، وقتل مقدمهم ومن معه، ودخل بلادهم فنهبها، وقتل فيهم فأكثر ونهبوا ما لا يحصى، وتابع عليهم الغارات حتى أدوا إليه الجزية، ولم يفعلوها قبل ذلك.
واشتدت شوكة العمري، وكثر أتباعه، فلما بلغ خبره ابن طولون سَيَّر إليه جيشاً كثيفاً فلما التقوا تقدم العُمري وقال لمقدم الجيش: إن ابن طولون لا يعرف خبري لأشك على حقيقته فإني لم أخرج للفساد ولم يتأذ بي مسلم ولا ذمي وإنما خرجت طلباً للجهاد فاكتب إلى الأمير أحمد عَرِّفه كيف حالي؟
فإن أمرك بالانصراف فانصرف، وإلاّ فإن أمرك بغير ذلك كنت معذوراً.
فلم يجبه إلى ذلك وقاتله، فانهزم جيش ابن طولون، فلما وصلوا إليه أخبروه بحال العمري.
فقال: كنتم أنهيتم حاله إليَّ، فإنه نصر عليكم ببغيكم وتركه.
فلما كان مدة وثب على العمري غلامان له فقتلاه، وحملا رأسه إلى أحمد بن طولون، فلما حضرا عنده سألهما عن سبب قتله فقالا: أردنا التقرب إليك بذلك.
فقتلهما، وأمر برأس العُمري فغسل وكفن ودفن.
وفي هذه السنة: سار محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس إلى طليطلة فنازلها وحصرها، وكان أهلها قد خالفوا عليه، وطلبوا الأمان فأمنهم، وأخذ رهائنهم. =

فتكلم أبو أحمد، وعبيد اللّه بن يحيى وقالا: أرسل يعقوب أن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل، وهو يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه، فليرجع فإنه إن فعل كان من الأولياء، وإلاّ لم يكن له إلاّ ما للمخالفين.

وصرف رسله وخلع عليهم.

ودخلت سنة ستين ومائتين

[١٢٣/ب] وفيها: قتل صاحب الزنج صاحب الكوفة علي بن زيد العلوي[(١)].

وفيها: واقع يعقوب بن الليث [الحسن بن زيد العلوي][(٢)] بطبرستان فهزمه وكان ليعقوب بها ظفر ومحنة.

= وفيها: خرج أهل طليطلة إلى حصن سكيان وكان فيه سبعمائة رجل من البربر، وكان أهل طليطلة في عشرة آلاف فلما التحمت بينهم الحرب انهزم أحد مقدمي أهلها ـ وهو عبد الرحمن بن حبيب ـ فتبعه أهل طليطلة في الهزيمة.
وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر اسمه طريشة من أهل طليطلة، فأراد أن يوهنه بذلك، فلما انهزموا قتلوا البرقيل.
وفيها: عاد عمرو بن عمروس إلى طاعة محمد بن عبد الرحمن، وكان مخالفاً عليه عدة سنين فولى مدينة أمشقة، وحصن محمد حصون بني موسى ثم تقدم إلى بنبلونه فوطئ أرضها وعاد.
وفيها: سارت سرية من المسلمين إلى مدينة سرقوسة فصالحوا أهلها على أن يطلقوا الأسرى الذين كانوا عندهم من المسلمين ثلاثمائة وستين أسيراً. فلما أطلقوهم عادت عنهم.
وفيها: قتل كيجور، وكان سبب قتله أنه كان على الكوفة، فسار عنها إلى سامرا بغير إذن، فأُمر بالرجوع، فأبى، فحمل إليه مال ليفرقه في أصحابه، فلم يقنع به، وسار حتى عكبرا، فوجه إليه من سامرا عدة من القواد فقتلوه وحملوا رأسه إلى سامرا.
وفيها: غلب شركب الحمار على مرو وناحيتها ونهبها.
وفيها: انصرف يعقوب بن الليث عن بلخ فأقام بقهستان، وولى عماله هراة، وبوشنج، وباذغيس، وانصرف إلى سجستان.
وفيها: فارق عبد اللّه السجزي يعقوب وحاصر نيسابور وبها محمد بن طاهر قبل أن يملكها يعقوب بن الليث. فوجه محمد بن طاهر إليه الرسل والفقهاء، فاختلفوا بينهما، ثم ولاه الطبسين. وقهستان.
وفيها: غلب الحسن بن زيد على قومس ودخلها أصحابه.
وفيها: كانت وقعة بين محمد بن الفضل بن بيان، ووهسوذان بن جستان الديلمي، وانهزم وهسوذان.
وفيها: نزلت الروم على سميساط، ثم نزلوا على ملطية، وقاتلهم أهلها فانهزمت الروم، وقتل بطريق البطارقة.
وحج بالناس: إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس المعروف بـ: برية.
وفيها: مات محمد بن يحيى بن موسى أبو عبد اللّه بن أبي زكريا الإسفرائيني المعروف بابن حيويه.
ومحمد بن عمروس بن يونس بن عمران بن دينار الكوفي الثعلبي، وكان شيعياً ضعيف الحديث.
وفيها: توفي أبو الحسن بن علي بن حرب الطائي الموصلي، وكان محدثاً، وممن روى عنه: أبوه علي بن حرب.

(١) كذا ذكر هذا الخبر هنا وفي الكامل على هذا الوجه من الاختصار.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، وأثبته من الكامل.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أنه كان بسجستان رجل يعرف بعبد اللَّه [السجزي][1] رئيس ينافس يعقوب فقهره يعقوب فهرب منه إلى محمد بن طاهر نيسابور.

فلما ملك يعقوب نيسابور هرب عبد اللَّه فلحق بالحسن بن زيد [بطبرستان][2] فشخص يعقوب في طلبه فلما سار قرب سارية[2] لقيه الحسن بن زيد، وكان يعقوب بعث إليه أن يوجه بعبد اللَّه السجزي حتى ينصرف عنه، فإنه إنما قصد طبرستان لأجله لا لحربه.

فأبى الحسن تسليمه إليه، فلما التقى عسكرهما لم يكن إلاّ كلاكلا ولا حتى انهزم إلى أرض الديلم.

ودخل يعقوب سارية، ثم مضى منها إلى آمل فجبّى أهلها خراج سنة.

ثم شخص في طلب الحسن بن زيد فلما صار في بعض جبال طبرستان تتابعت عليه الأمطار نحواً من أربعين يوماً، فلم يتخلص منه إلاّ بمشقة شديدة، ولم يمكنه النزول إلاّ على ظهور الرجال. وهلك ما معه من الظهر. ثم رام الدخول خلف الحسن بن زيد، فأخبر بعض من شاهده: أنه كان يقدم عسكره وأمرهم بالوقوف ليتأمل الطريق.

فلما رآه عاد إلى أصحابه، وأمرهم بالانصراف، وقال: إن لم يكن إليه طريق غير هذا فلا طريق إليه.

وكان نساء تلك الناحية قلن لرجالهن: دعوه يدخل، فإنه إن دخل كفيناكم، وعلينا أخذه وأخذ من معه.

وقد ذهب معظم خيله وإبله وأثقاله ورجاله، وكتب إلى السلطان بفتح طبرستان، وهزيمة الحسن بن زيد.

وسار يعقوب إلى الري وبها الصَّلاني من قِبل موسى بن بغا.

ذكر السبب في مسيره

كان سبب مسيره إلى الري: أن عبد اللَّه السجزي سار بعد هزيمة الحسن بن زيد إلى

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) قال ياقوت في معجمه:
هي مدينة بطبرستان وهي في الإقليم الرابع.
قال البلاذري: كور طبرستان ثمان كور، سارية وبها منزل العامل أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك في آمل وجعلها أيضاً الحسن بن زيد، ومحمد بن زيد العلويان دار إقامتهما.
وبين سارية والبحر ثلاثة فراسخ، وبين سارية وآمل ثمانية عشر فرسخاً، والنسبة إليها ساريّ، وطبرستان هي مازندان.
قال محمد بن طاهر المقدسي: ينسب إلى سارية طبرستان سَرَوِيّ.

الري مستجيراً بالصَّلاني، فلما سار يعقوب إلى جوار الري كتب [يُخَيِّرَهُ][١] بين تسليم عبد اللّه السجزي إليه حتى ينصرف عنه ويرتحل إلى عمله، وبين أن يأذن بحربه؟ فاختار الصَّلاني تسليم عبد اللّه السجزي، فسلمه فقتله يعقوب وانصرف عن الصَّلاني[٢].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) لم يذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة سوى هذا، وزاد ابن الأثير في أحداثها ما يلي:

ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم

كان الخليفة المعتمد على اللّه قد استعمل على الموصل اساتكين ـ وهو من أكابر قواد الأتراك ـ فسير إليها ابنه إذ كوتكين في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ومائتين فلما كان يوم النيروز من هذه السنة وهو الثالث عشر من نيسان فغيره المعتضد باللّه ودعا إلى إذكوتكين ووجوه أهل الموصل إلى قبة في الميدان، وأحضر أنواع الملاهي وأكثر الخمر وشرب ظاهراً وتجاهر أصحابه بالفسوق، وفعل المنكرات وأساء السيرة في الناس.

وكانت تلك السنة برد شديد أهلك الأشجار والثمار والحنطة والشعير، وطالب الناس بالخراج على الغلات التي هلكت.

فاشتد ذلك عليهم، وكان لا يسمع بفرس جيد عند أحد إلاّ أخذه.

وأهل الموصل صابرون إلى أن وثب رجل من أصحابه على امرأة فأخذها في الطريق، فامتنعت واستغاثت.

فقام رجل اسمه إدريس الحميري وهو من أهل القرآن والصلاح فخلّصها من يده، فعاد الجندي إلى إذكوتكين فشكى من الرجل، فأحضره وضربه ضرباً شديداً من غير أن يكشف الأمر.

فاجتمع وجوه أهل الموصل إلى الجامع وقالوا: قد صبرنا على أخذ الأموال وشتم الأعراض وإبطال السنن والعسف، وقد أفضى الأمر إلى أخذ الحريم.

فأجمع رأيهم على إخراجه والشكوى منه إلى الخليفة.

فبلغه الخبر فركب إليهم في جنده، وأخذ معه النقاطين، فخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى أخرجوه عن الموصل، ونهبوا داره، وأصابه حجر فأثخنه ومضى من يومه إلى بلده، وسار منها إلى سامرا.

واجتمع الناس إلى يحيى بن سليمان وقلدوه أمرهم، ففعل، فبقي كذلك إلى أن انقضت سنة ستين.

فلما دخلت سنة إحدى وستين كتب اساتكين إلى الهيثم بن عبد اللّه بن المعمر التغلبي، ثم العدوي في أن يتقلد الموصل، وأرسل إليه الخلع واللواء، وكان بديار ربيعة، فجمع جموعاً كثيرة وسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقي، وبينه وبين البلد دجلة فقاتلوه، فعبر إلى الجانب الغربي، وزحف إلى باب البلد، فخرج إليه يحيى بن سليمان في أهل الموصل، فقاتلوه، فقتل بينهم قتلى كثيرة وكثرت الجراحات وعاد الهيثم عنهم.

فاستعمل أساتكين على الموصل إسحاق بن أيوب التغلبي فخرج في جمع يبلغون عشرين إلفاً منهم حمدان بن حمدون التغلبي وغيرهم، فنزل عند الدير الأعلى، فقاتله أهل الموصل، ومنعوه.

فبقوا كذلك مدة، فمرض يحيى بن سليمان الأمير، فطمع إسحاق في البلد، وجدّ في الحرب، فانكشف الناس من بين يديه.

فدخل إسحاق ووصل إلى سوق الأربعاء وأحرق سوق الحشيش.

فخرج بعض العدول اسمه زياد بن عبد الواحد وعلق في عنقه مصحفاً، واستغاث بالمسلمين فأجابوه وعادوا إلى الحرب، وحملوا على إسحاق وأصحابه، وأخرجوهم من المدينة. وبلغ يحيى بن سليمان الخبر، فأمر فحمل في محفّة وجعل أمام الصَّف.

فلما رآه أهل الموصل قويت نفوسهم واشتد قتالهم، ولم يزل الأمر كذلك وإسحاق يراسل =

....

= أهل الموصل ويعدهم الأمان وحسن السيرة.
فأجابوه إلى أن يدخل البلد ويقيم بالربض الأعلى، فدخل وأقام سبعة أيام، ثم وقع بين بعض أصحابه وبين قوم من أهل الموصل شر، فرجعوا إلى الحرب، وأخرجوه عنها، واستقر يحيى بن سليمان الموصل.
وفي هذه السنة: ظهر موسى بن ذي النون الهواري بشنت بريه، وأغار على أهل طليطلة، ودخل حصن وليد من شنت بريه فخرج أهل طليطلة إليه في نحو عشرين ألفاً، فلما التقوا بموسى واقتتلوا، انهزم محمد بن طريشة في أصحابه ـ وهو من أهل طليطلة ـ فتبعه أهل طليطلة في الهزيمة، وانهزم معهم مطرف بن عبد الرحمن، فعمل ذلك محمد مكافأة لمطرف حين انهزم بالناس في العام الماضي.
وقتل من أهل طليطلة خلق كثير، وقوي موسى بن ذي النون وهابه من حاذره.
وفي هذه السنة: قتل رجل من أصحاب مساور الشاري محمد بن هارون بن المعمر رآه وهو يريد سامرا فقتله، وحمل رأسه إلى مساور.
فطلبت ربيعة بثأره، فندب مسرور البلخي وغيره إلى أخذ الطرق على مساور.
وفيها: اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام، فانجلى من أهل مكة كثير ورحل عنها عاملها وهو برية، وبلغ الكر الحنطة ببغداد عشرين ومائة دينار ودام ذلك شهوراً.
وفيها: قتلت الأعراب منجوراً وَالِي حمص، واستعمل عليها بكتمر.
وفيها: قتل العلاء بن أحمد الأزدي عامل أذربيجان، وكان سبب قتله: أنه فلج، فاستعمل الخليفة مكانة أبو الرديني عمر بن علي.
فلما قاربها خرج إليه العلاء فتحاربا فقتل العلاء وانهزم أصحابه، وأخذ أبو الرديني ما خلفه العلاء، وكان مبلغه ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم.
وحج بالناس: إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ: برية، وهو أمير مكة.
وفيها: ظهر بمصر إنسان يكنى أبا روح واسمه سكن ـ وكان من أصحاب ابن الصوفي ـ واجتمع له جماعة فقطع الطريق وأخاف السبيل.
فوجه إليه ابن طولون جيشاً، فوقف أبو روح في أرض كثيرة الشقوق، وقد كان بها قمح فحصد، وبقي من تبنه على الأرض ما يستر الشقوق، وقد ألفوا المشي على مثل هذه الأرض.
فلما جاءهم الجيش لقوهم، ثم انهزم أصحاب أبي روح فتبعهم عسكر ابن طولون، فوقعت حوافر خيولهم في تلك الشقوق، فسقط كثيراً من فرسانها عنها.
وتراجع أصحاب أبي روح عليهم، فقتلوهم شر قتلة، وانهزم الباقون أسوأ هزيمة. فسير أحمد جيشاً إلى طريقهم إلى الواحات وجيشاً في طلبه.
فلقيه الجيش الذي في طلبه وقد تحصن في مثل تلك الأرض، فحذرها عسكر أحمد فحين بطلت حِيَلَهم انهزموا وتبعهم العسكر، فلما خرجوا إلى طريق الواحات رأى أبو روح الطريق قد مُلكت عليهم فراسل يطلب الأمان، فبذل له، وبطلت الحرب وكفى المسلمون شره.
وفيها: توفي علي بن محمد بن جعفر العلوي الحماني، وكان يسكن الحمان فنسب إليها.
وفيها: كان بإفريقية وبلاد المغرب، والأندلس غلاء شديد، وعم غيرها من البلاد، وتبعه وباء وطاعون عظيم هلك فيه كثير من الناس.
وفيها: توفي محمد بن إبراهيم بن عبدوس الفقيه المالكي صاحب المجموع في الفقه وهو من أهل أفريقية.
وفيها: مات مالك بن طوق التغلبي بالرحبة ـ وهو بناها وإليه تنسب ـ.
وفيها: توفي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي =

ودخلت سنة إحدى وستين ومائتين

وفيها: جمع السلطان حاج خراسان، والري، وطبرستان، وجرجان في صفر، وقرأ عليهم كتاب يعلمون فيه:

أن السلطان ما وَلّى يعقوب بن الليث خراسان وأنه عاص، ويأمرهم بلعنه، وذلك لدخوله خراسان وأمره محمد بن طاهر وآل طاهر.

وفيها: كانت وقعة بين محمد بن واصل، وبين عبد الرحمن، وطاشتم[١] برامهرمز[٢]، فقتل ابن واصل طاشتم وأسر ابن مفلح.

ذكر السبب في ذلك

أن ابن واصل قتل بفارس الحارث بن سيما عامل السلطان، وتغلب عليها.

فضم إلى موسى بن بُغا: فارس، والأهواز والبصرة، واليمامة، إلى ما كان إليه من عمل المشرق.

فوجه موسى عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز، وولاه إياها، وفارس، وضم إليه طاشتم. فاتصل بابن واصل ذلك، وكان مقيماً بالأهواز على حرب الخارجي بناحية البصرة، فلما بلغه أن ابن مفلح قد توجه إلى فارس، فزحف إليه ابن واصل والتقيا برامهرمز.

وانضم أبو داود الصعلوك إلى ابن واصل معيناً له، فظفر ابن واصل بابن مفلح، فأسره، وقتل طاشتم، واصطلم[٣] عسكرهما[٤]. وبعث السلطان إسماعيل بن إسحاق

= ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.
وهو أبو محمد العلوي العسكري، وهو أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية.
وهو والد محمد الذي يعتقدونه المنتظر بسرداب سامرا.
وكان مولده سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.
وفيها: توفي أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب الشافعي، البغداديين.
وفيها: توفي حسين بن إسحاق الحكيم الطبيب، وهو الذي نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وكان عالماً بها.

(١) كذا هو في كل مواضعه بالمخطوط، وفي كل مواضعه بالكامل: طاشتمر.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: رامَهُرْمُز مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، والعامة يسمونها رامز كسلاً منهم عن تتمة اللفظة بكاملها واختصاراً.
ورامهرمز من بين مُدُن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج وليس ذلك يجمع بغيرها من مدن خوزستان.

(٣) في المخطوط: واصطكم. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: عسكره، والصواب من الكامل.

إلى ابن واصل في إطلاق ابن [مفلح][(١)] فلم يجبه إلى ذلك.

ثم لم يزل ابن مفلح في يده حتى قتله[(٢)].

ولما فرغ ابن واصل من ابن مفلح، أقبل مظهراً أنه يريد واسطاً لحرب موسى حتى انتهى إلى الأهواز وبها إبراهيم بن سيما في جمع كثير، فلما رأى موسى بن بُغا شدة الأ[مر بهذه الناحية][(٣)] وكثرة المتغلبين على نواحي المشرق وأن لا قوام له بهم، ولا طاقة، سأل حينئذٍ أن يعفي عن أعمال المشرق، فأُعفي عنها وضم ذلك إلى أبي أحمد، وانصرف موسى بن بُغا إلى باب السلطان، وصرف عماله عن المشرق.

وولي أبو السَّاج الأهواز وحرب صاحب الزنج.

فقدم أبو السَّاج صهره عبد الرحمن فقتل وانحاز أبو الساج إلى عسكر مكرم.

ودخل الزنج الأهواز فسبوا أهلها، وانتهبوا.

ثم صرف أبو الساج وولي إبراهيم بن سيما[(٤)].

وفيها: ولي نصر بن أحمد ما وراء نهر بلخ وكتب إليه بولاية ذلك.

وفيها: زحف يعقوب بن الليث إلى فارس، وابن واصل بالأهواز، فانصرف منها إلى فارس، والتقى هو ويعقوب فهزمه يعقوب، وحصر قلعة ابن واصل بحرمة فأخذها وحصل ما فيها فبلغت قيمة ما أخذه يعقوب منها أربعين ألف ألف درهم، وأخذ مرداساً خال ابن واصل.

وأوقع بالأكراد[(٥)] الذين مالوا لابن واصل.

---

(١) زيادة من الكامل وقد سقط من المخطوط.

(٢) في الكامل: وأظهر أنه مات.

(٣) سقط بعض الكلمة الأولى، وباقي العبارة وأتممتها من الكامل.

(٤) زاد في الكامل: فلم يزل بها ـ حتى انصرف عنها موسى بن بغا.
ثم قال ابن الأثير: وفيها: وُلّي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان.

(٥) في الكامل: بأهل زم. والخبر فيه على النحو التالي: لما كان من الوقعة بين عبد الرحمن بن مفلح وبين ابن واصل ما ذكرناه، اتصل خبرهما إلى يعقوب الصفار ـ وهو بسجستان ـ فتجدد طمعه في ملك بلاد فارس، وأخذ الأموال والخزائن والسلاح التي غنمها ابن واصل من ابن مفلح، فسار مجداً.
وبلغ ابن واصل خبر قربه منه، وأنه نزل البيضاء من أرض فارس، وهو بالأهواز فعاد عنها لا يلوي على شيء.
وأرسل خاله أبا بلال مرداساً إلى الصفار فوصل إليه وضمن له طاعة ابن واصل.
فأرسل يعقوب الصفار إلى ابن واصل كتباً ورسلاً في المعنى.
فحبسهم ابن واصل وسار يطلب الصفار، والرسل معه، يريد أن يخفي خبره، وأن يصل إلى الصفّار بغتة لم يعلم به، فيقال منه عرضه ويوقع به.

وفيها[١]: جلس المعتمد في دار العامة فولى ابنه جعفراً العهد، وسماه المفوّض إلى الله وولاه المغرب، وضم إليه موسى بن بُغا، وولاه إفريقية، ومصر، والشام، والجزيرة، والموصل، وأرمينية، وطريق خراسان، وحلوان، ومهر جانقذق.

وولي أخاه أبا أحمد العهد من بعد [١٢٤/أ] جعفر وولاه المشرق، وضم إليه مسروراً البلخي وولاه بغداد، والسواد، والكوفة، وطريق مكة، والمدينة، واليمن، وكسكر، وكور دجلة، والأهواز، وفارس، وقم، وأصبهان، والكرج، والدينور، والري، وزنجان، وقزوين، وخراسان، وجرجان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، والسند[٢].

فسار في يوم شديد الحر في أرض صعبة المسلك ـ وهو يظن أن خبره قد خفي عن الصفار ـ فلما كان الظهر تعبت دوابهم فنزلوا ليستريحوا.
فمات من أصحاب ابن واصل من الرجالة كثير جوعاً وعطشاً.
وبلغ خبرهم الصفار، فجمع أصحابه، وأعلمهم الخبر، وسار، وقال لأبي بلال: إن ابن واصل قد غدر بنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ومضى الصفار إلى ابن واصل.
فلما قاربهم وعلموا به، انخذلوا وضعفت نفوسهم عن مقاومته ومقاتلته، ولم يتقدموا خطوة.
فلما صار بين الفريقين رمية سهم، انهزم أصحاب ابن واصل من غير قتال، وتبعهم عسكر الصفار، وأخذوا منهم جميع ما غنموه من ابن مفلح.
واستولى على بلاد فارس، ورتب بها أصحابه، وأصلح أحوالها.
ومضى ابن واصل منهزماً، فأخذ أمواله من قلعته، وكانت أربعين ألف ألف درهم. وأوقع بأهل زمّ، لأنهم أعانوا ابن واصل وحدث نفسه بالاستيلاء على الأهواز وغيرها.

(١) في الكامل: وفيها في شوال جلس المعتمد.

(٢) وزاد ابن الأثير في هذا الخبر بعد ذلك فقال: وعقد لكل واحدٍ منهما لواءين أسود وأبيض.
وشرط إن حدث به الموت وجعفر لم يبلغ أن يكون الأمر للموفق، ثم لجعفر بعده، وأخذت البيعة بذلك.
فعقد جعفر لموسى على المغرب، وأمر الموفق أن يسير إلى حرب الزنج.
فولي الموفق الأهواز والبصرة، وكور دجلة مسروراً البلخي، وسيره في مقدمته في ذي الحجة، وعزم على المسير بعده.
فحدث من أمر يعقوب الصفار ما منعه عن المسير ـ وسنذكره أول سنة اثنين وستين ومائتين.
ثم أخذ ابن الأثير في سرد باقي أحداث سنة إحدى وستين ومائتين مما لم يذكره مسكويه هنا فقال:
وفيها: فارق محمد بن زيدويه يعقوب بن الليث، وسار إلى أبي الساج وأقام معه بالأهواز، وخلع عليه المعتمد، وسأل أن يوجه الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر إلى خراسان.
وحج بالناس فيها: الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.
ومات الحسن بن محمد بن أبي الشوارب بمكة بعدما حج.
وفي هذه السنة: استُعْمِلَ نصر بن أحمد بن أسد بن سامان خداه بن جثمان بن طمغان بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام خشنش ـ وكان بهرام خشنش من الري فجعله كسرى هرمز بن أنوشروان مرزبان أذربيجان ـ.
وقد تقدم ذكر جوبين عند ذكر كسرى هرمز. ولما ولي المأمون خراسان وأصلح أولاد أسد بن سامان، وهم؛ نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس، بنو أسد بن سامان فقربهم ورفع منهم، =

....

= واستعملهم ورعى حق سلفهم.
فلما رجع المأمون إلى العراق استخلف على خراسان غسان بن عباد، فولّى غسان نوح بن أسد في سنة أربع ومائتين سمرقند.
وأحمد بن أسد فرغانة.
ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة.
وإلياس بن أسد هراة.
فلما ولي طاهر بن الحسين خراسان ولاهم هذه الأعمال.
ثم توفي نوح بن أسد، وأقر طاهر بن عبد اللّه أخويه على عمله: يحيى، وأحمد.
وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضي السيرة، لا يأخذ رشوة، ولا أحد من أصحابه، ففيه قيل أو في ابنه نصر:

ثوى ثلاثين حولاً في ولايته فجاع يوم ثوى في قبره حَشَمَه

وكان إلياس يلي هراة، وله بها عقب وآثار كثيرة، فاستقدمه عبد اللّه بن طاهر، وكان رسمه فيمن يستقدمه أن يعد أيامه، فأبطأ إلياس فكتب إليه بالمقام حيث يلقاه كتابه.
فبلغه الكتاب وقد سار عن بوشنج، فأقام بها سنة تأديباً له، ثم أذن له في القدوم عليه.
فلما مات إلياس بهراة أقرّ عبد اللّه ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس على عمله، فأقام بهراة.
وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين وهم: نصر، وأبو يوسف يعقوب، وأبو زكريا يحيى، وأبو الأشعث أسد، وإسماعيل، وإسحاق، وأبو غانم حميد.
ولما توفي أحمد بن أسد استخلف ابنه نصراً على أعماله. بسمرقند وما وراءها فبقي عاملاً عليها إلى آخر أيام الطاهرية، وبعد زوال أمرهم إلى أن مضى لسبيله.
وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصراً فولاّه نصر بخارى سنة إحدى وستين ومائتين.
ومعنى قول أبي جعفر: في سنة إحدى وستين، ولي نصر بن أحمد ما وراء النهر، أنه ولاه من جانب الخليفة، وإنما كان يتولاه من قَبل من عمال خراسان، وإلاّ فالقوم تولّوا قبل هذا التاريخ.
وكان سبب استعماله إسماعيل: أنه لما استولى يعقوب بن الليث على خراسان أنفذ نصر جيشاً إلى شط جيحون ليأمن عبور يعقوب.
فقتلوا مقدمهم، فرجعوا إلى بخارى، فخافهم أحمد بن عمر نائب نصر على نفسه، فتغيب عنهم.
فأمّروا عليهم أبا هاشم محمد بن المبشر بن رافع بن الليث بن نصر بن سيار.
ثم عزلوه وولوا أحمد بن محمد بن ليث والرأس عبد اللّه بن جنيد.
ثم صرفوه وولوا الحسن بن محمد من ولد عبدة بن حديد.
ثم صرفوه وبقيت بخارى بغير أمير، فكتب رئيسها وفقيهها أبو عبد اللّه بن أبي حفص إلى نصر يسأله توجيه من يضبط بخارى.
فوجّه إسماعيل، ثم إن إسماعيل كاتب رافع بن هرثمة حين ولي خراسان، فتعاقدا على التعاون والتعاضد، فطلب منه إسماعيل أعمال خوارزم، فوّلاه إياها.
وكان إسماعيل يؤمره في المكاتبة، ثم سعت السعاة بين نصر وإسماعيل فأفسدوا ما بينهما فقصده نصر سنة اثنتين وسبعين ومائتين، فأرسل إسماعيل حمويه بن علي إلى رافع بن هرثمة يستنجده، فسار إليه في جيش كثيف، فوافى بخارى.
قال حمويه: فكرت في نفسي وقلت: إن ظفر إسماعيل بأخيه، فما يؤمنني أن يقبض رافع على إسماعيل، ويتغلب على ما وراء النهر، وإن لم يفعل ذلك ووافى لإسماعيل، فلا يزال إسماعيل معترفاً بأنه فقيد رافع وجريحه، ويحتاج أن يتصرف على أمره ونهيه.
فاجتمعت برافع خلوة وقلت له: نصيحتك واجبة عَلَيّ، وقد ظهر لي من نصر وإسماعيل ما =

....

= كان خفيًا عني ولست آمنهما عليك، والرأي أن لا تشاهد الحرب وتحملهما على الصلح، فقبل ذلك فتصالحا وانصرف عنهما.
قال حمويه: ثم إنني أعلمت إسماعيل بعد ذلك الحال. كيف كان؟
فقدر رافعاً في إلزامه بالصلح، واستصوب فعل حمويه، وبقي نصر وإسماعيل مدة، ثم عادت السعاة ففسد ما بينهما حتى تحاربا سنة خمس وسبعين ومائتين، وظفر إسماعيل بأخيه نصر فلما حُمل إليه ترجل له إسماعيل وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف على النيابة عنه ببخارى.
وكان إسماعيل خَيِّراً يحب أهل العالم والدين ويقربهم، ويكرمهم، وببركتهم دام ملكه وملك أولاده، وطالت أيامه.
حكى أبو الفضل محمد بن عبد الله البلغمي قال: سمعت الأمير أبا إبراهيم إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند، فجلست يوماً للمظالم، وجلس أخي إسحاق إلى جانبي، فدخل أبو عبد الله محمد بن نصر الفقيه الشافعي وقمت له إجلالاً لعلمه ودينه، فلما خرج عاتبني أخي إسحاق وقال: أنت أمير خراسان يدخل عليك رجل من رعيتك فتقوم له، فتذهب السياسة بهذا.
قال: فبت تلك الليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام، وكأني واقف وأخي إسحاق، فأقبل رسول الله ﷺ فأخذ بعضدي فقال لي:
يا إسماعيل تبث ملك وملك بيتك لإجلالك لمحمد بن نصر.
ثم التفت إلى إسحاق وقال:
ذهب ملك إسحاق وملك بيته باستخفافه بمحمد بن نصر.
وكان محمد بن نصر هذا من العلماء بالفقه على مذهب الشافعي العاملين بعلمهم المصنفين فيه، وسافر إلى البلاد في طلب العلم، وأخذ العلم بمصر من أصحاب الشافعي يونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان، ومحمد بن عبد الله بن الحكم، وصعب الحارث المحاسبي، وأخذ عنه علم المعاملة، وبرز فيه أيضاً.
وفي هذه السنة: عصى أهل برقة على أحمد بن طولون، وأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرغاني. فبعث ابن طولون جيشاً عليهم علامة لؤلؤة وأمره بالرفق بهم واستعمال اللين، فإن انقادوا، وإلا السيف. فسار العسكر حتى نزلوا على برقة، وحصروا أهلها، فعلوا ما أمرهم من اللين، فطمع أهل برقة، وخرجوا يوماً على بعض العسكر، وهم نازلون على باب البلد، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم.
فأرسل لؤلؤة إلى صاحبه أحمد يعرفه الخبر، فأمره بالجد في قتالهم، فنصب عليهم المجانيق، وجَدَّ في قتالهم.
وطلبوا الأمان فأمّنهم ففتحوا له الباب، فدخل البلد، وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط، وقطع أيدي بعضه، وأخذ معه جماعة منهم وعاد إلى مصر، واستعمل على برقة عاملاً ولما وصل لؤلؤة إلى مصر خلع عليه أحمد خلعة فيها طوقان، فوضعها في رقبته، وطيف بالأسرى في البلد.
وفي هذه السنة: توفي محمد بن أحمد بن الأغلب صاحب أفريقية سادس جمادى الأولى.
وكانت ولايته عشر سنين، وخمسة أشهر، وستة عشر يوماً.
ولما حضره الموت عقد لابنه أبي عقال العهد، واستخلف أخاه إبراهيم لئلا ينازعه، وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان وأمره أن يتولّى الأمر إلى أن يكبر ولده.
فلما مات أتى أهل القيروان إبراهيم وسألوه أن يتولّى أمرهم لحسن سيرته وعدله، فلم يفعل، ثم أجاب وانتقل إلى قصر الإمارة، وباشر الأمور، وقام فيها قياماً مرضياً وكان عادلاً حازماً في أموره.
أمّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم. =

....

= وكانت القوافل والتجار يسيرون في الطرف آمنين، وبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر إلى الإسكندرية في ليلة واحدة.
وبنى على سوسة سوراً، وعزم على الحج فرد المظالم، وأظهر الزهد والنسك.
وعلم أنه إن جعل طريقه إلى مكة على مصر منعه صاحبها ابن طولون فتجري بينهما حرب فيقتل المسلمون، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد ويفتح ما بقي من حصونها.
فأخرج جميع ما ادّخره من المال والسلاح وغير ذلك، وسار إلى سوسة فدخلها وعليه فرو مُرَقّع في زي الزهاد أول سنة تسع وثمانين ومائتين، وسار منها في الأسطول إلى صقلية.
وسار إلى مدينة يرطينوا فملكها سلخ رجب وأظهر العدل وأحسن إلى الرعية.
وسار إلى طَبَرْمِين، فاستعد أهلها لقتاله، فلما وصل خرجوا إليه والتقوا، فقرأ القارئ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].
فقال الأمير: اقرأ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، فقرأ. فقال: واللهم إني أختصم أنا والكفار إليك في هذا اليوم.
وحمل معه أهل البصائر، فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ودخلوا معهم المدينة عنوة فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها والتجأ بعضهم إلى الحصن، وأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم فاستنزلوهم قهراً وغنموا أموالهم وسبوا ذراريهم، وذلك لسبع بقين من شعبان وأمر بقتل المقاتلة وبيع السبي والغنيمة ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظيم وبقي سبعة أيام لا يلبس التاج، وقال: لا يلبس التاج محزون وتحركت الروم وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين فبلغهم أنه سائر إلى قسطنطينية، فترك الملك بها عسكراً عظيماً وسير جيشاً كبيراً إلى صقلية.
وأما الأمير إبراهيم: فإنه لما ملك طبرمين بث السرايا في مدن صقلية التي بيد الروم وبعث سرية إلى ميقش، وسرية إلى دمنش فوجدوا أهلها قد أجلوا عنها فغنموا ما وجدوا بها.
وبعث طائفة إلى رمطة وطائفة إلى الباج فأذعن القوم جميعاً إلى أداء الجزية فلم يجبهم إلى ذلك، ولم يقبل منهم غير تسليم الحصون ففعلوا، فهدمها، وسار إلى كسنتة فجاءته الرسل منها يطلبون الأمان فلم يجبهم.
وكان قد ابتدأ به المرض وهو علة الذرب، فنزلت العساكر على المدينة فلم يجدوا في قتالها لغيبة الأمير عنهم، فإنه نزل منفرداً لشدة مرضه وامتنع منه النوم وحدث به الفواق وتوفي ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين.
فاجتمع أهل الرأي من العساكر أن يولوا أمرهم أبا مضر بن أبي العباس عبد الله ليحفظ العساكر والأموال والخزائن إلى أن يصل إلى ابنه بإفريقية.
وجعلوا الأمير إبراهيم في تابوت وحملوه إلى أفريقية ودفنوه بالقيروان رحمه الله.
وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة، وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان.
وتصدق بجميع ما يملك، ووقف أملاكه جميعها.
وكان له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات، فمن ذلك:
أن تاجراً من أهل القيروان كانت له امرأة جميلة، صالحة، عفيفة، فاتّصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم، فأرسل إليها، فلم تجبه فاشتد غرامه بها وشكى حاله إلى عجوز كانت تغشاه، وكانت أيضاً لها من الأمير منزلة، ومن والدته منزلة كبيرة، وهي موصوفة عندهم بالصلاح يتبركون بها، ويسألونها الدعاء، فقالت للوزير: أنا أتلطف بها وأجمع بينكما.
وراحت إلى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت: قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها.
فخرجت المرأة ولقيتها فرحبت بها، وأدخلتها وطهرت ثوبها، وقامت العجوز تصلي. =

....

= فعرضت المرأة عليها الطعام، فقالت: إني صائمة ولا بدّ من التردد إليك، ثم صارت تغشاها، ثم قالت لها: عندي يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها، فإن خفّ عليك إعارة حليك أجملها فعلت، فأحضرت جميع حليها، وسلمته إليها، فأخذته العجوز وانصرفت.
وغابت أياماً وجاءت إليها فقالت لها: أين الحليّ؟
فقالت: هو عند الوزير عبرت عليه وهو معي، فأخذه مني وقال: لا يسلمه إلا إليك. فتنازعتا، وخرجت العجوز.
وجاء التاجر زوج المرأة، فأخبرته الخبر فحضر دار الأمير إبراهيم وأخبره بالخبر.
فدخل الأمير إلى والدته وسألها عن العجوز، فقالت: هي تدعو لك، فأمر بإحضارها ليتبرك بها، فأحضرتها والدته، فلما رآها أكرمها وأقبل عليها وانبسط معها، ثم إنه أخذ خاتماً من أصبعها وجعل يقلبه ويعبث به.
ثم إنه أحضر خصياً له وقال له: انطلق إلى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم الحُقّ الذي في الحلي وصفته كذا وهو كذا وكذا وهذا الخاتم علامة منها.
فمضى الخادم وأحضر الحُقّ، فقال للعجوز: ما هذا؟
فلما رأت الحُقّ سقط في يدها وقتلها ودفنها في الدار، وأعطى الحُقّ لصاحبه، وأضاف إليه شيئاً آخر، وقال له: أما الوزير فإن انتقمت منه الآن ينكشف الأمر، ولكن سأجعل له ذنباً آخذه به.
فتركه مدة يسيرة وجعل له جرماً أخذه به فقتله.
وفي هذه السنة: استعمل المعتمد على اللّه الخليفة على أذربيجان محمد بن عمر بن علي بن مر الطائي الموصلي، فسار إليها، وجمع معه جموعاً كثيرة من خوارج وغيرهم.
وكان على أذربيجان العلاء بن أحمد الأزدي ـ وهو مفلوج ـ فخرج من محفة ليمنع محمد بن عمر فقاتله فانهزم عسكر العلاء وأخذ أسيراً، واستولى محمد بن عمر بن عليّ عَلَى قلعة العلاء، وأخذ منها ثلاثة آلاف ألف درهم ومات العلاء في يده.
وفيها: استعمل المعتمد على اللّه على الموصل الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي الموصلي.
وفيها: رجع الحسن بن زيد إلى طبرستان وأحرق شالوس لممالأة أهلها ليعقوب، وأقطع ضياعها للديالمة.
وفيها: ......
وفيها: قتل مساور الشاري يحيى بن جعفر الذي كان يلي خراسان، فسار سرور البلخي في طلبه، وتبعه أبو أحمد ـ وهو الموفق بن المتوكل ـ فسار مساور من بين أيديهما فلم يدركاه.
وفيها: هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة فقصد قلعة الحنش فملكها وامتنع بها فسار إليه محمد صاحب الأندلس فحصره ثلاثة أشهر، فضاق به الأمر حتى أكل دوابه، فطلب الأمان فأمّنه محمد، فسار إلى مدينة بطليوس.
وفيها: عصى أهل تاكرتا مع أسد بن الحارث بن رافع فغزاهم جيش محمد صاحب الأندلس وقاتلهم فعادوا إلى الطاعة.
وفيها: توفي أبو هاشم داود بن سليمان الجعفري، والحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، قاضي القضاة، وكان موته في رمضان، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب الصحيح.
وعبد العزيز بن حيان الموصلي، وكان كثير الحديث. والنضر بن الحسن الفقيه الحنفي، وكان من الموصل أيضاً.

ثم دخلت سنة اثنين وستين ومائتين

وفيها: وافى يعقوب بن الليث رامهرمز، فوجه السلطان إليه إسماعيل بن إسحاق وبُفراج[١]، وأخرج[٢] من كان محبوساً من أسباب[٣] يعقوب لأنه لما حبس يعقوب محمد بن طاهر حبس السلطان صاحبه وصفى من كان قبله من أسبابه[٣]، فأطلقوهم عند موافاة يعقوب رامهرمز.

ثم قدم إسماعيل بن إسحاق من عند يعقوب برسالته فجلس أبو أحمد ببغداد، ودعا بجماعة من التجار، وأعلمهم أن أمير المؤمنين أمر بتولية يعقوب بن الليث خراسان، وطبرستان وجرجان، والري، فارس، والشرطة ببغداد وذلك بمحضر صاحب يعقوب[٤].

ثم انصرف الرسل الذين وجهوا إلى يعقوب [فعادوا إلى][٥] السلطان فأعلموه أنه يقول: لا يرضيه ما كتب إليه دون أن يسير إلى الباب السلطاني.

وارتحل يعقوب من عسكر مكرم، فسار إليه أبو الساج فتقبله وأكرمه ووصله.

ولما رجع الرسول بجواب يعقوب عسكر المعتمد بخارج سُرَّ مَنْ رأى، واستخلف ابنه جعفراً ثم وافى بغداد واستفها وجازها إلى الزعفرانة فنزلها، وقد آخاه أبو أحمد الموفق وسار يعقوب بجيشه حتى سار من واسط على فراسخ[٦]، فصادف هناك ثيقا ثقة مسرور البلخي من أجله حتى لا يجوز. فأقام عليه حتى شده وعبره وسار إلى مادنين، ووافى واسطاً.

وسار محمد بن كثير من قبل مسرور البلخي فنزل بإزائه بالنعمانية.

وسار المعتمد حتى سار إلى سيب بني كوما[٧]، وأقام المعتمد حتى اجتمعت إليه عساكره.

وزحف يعقوب من واسط إلى دير العاقول[٨]، ثم زحف إلى عسكر السلطان.

---

(١) في الكامل: إسماعيل بن إسحاق وبخراج كما هنا وأشار إلى أنه في الطبري: إسماعيل بن إسحاق بُغراج.

(٢) في المخطوط: وإخراج وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: لشبابه. وهو تحريف.

(٤) في الكامل: وكان بمحضر من درهم صاحب يعقوب، وكان يعقوب قد أرسله يطلب لنفسه ما ذكرنا، وأعاده أبو أحمد إلى يعقوب ومعه عمر بن سيما بما أضيف إليه من الولايات، فعاد الرسل من عند يعقوب يقولون: إنه لا يرضيه.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

(٦) في الكامل: فدخلها لست بقين من جمادى الآخرة.

(٧) في المخطوط: شيت بني كوما، والتصويب من الكامل.

(٨) قال ياقوت في معجم البلدان: =

فأقام المعتمد ومن معه عبيد اللّه بن يحيى، وأنهض أخاه لحرب يعقوب.

فجعل يعقوب يُعبّئ أصحابه، وجعل أبو أحمد موسى بن بُغا على ميمنته، ومسروراً البلخي على ميسرته وصار في نحب الرجال في القلب فالتقى العسكران بين سيب بني كوما ودير العاقول، فشدت ميسرة يعقوب على ميمنة أبي أحمد فهزمتها وقلت جماعة منها من القواد ومنهم: إبراهيم بن سيما وغيره(١).

وسائر عسكر أبي أحمد ثابت، ثم ثابت المنهزمة فحملوا على عسكر يعقوب فثبتوا وحاربوا حرباً شديداً فقتل منهم جماعة وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم في حلقه وبدنه ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين إلى آخر وقت العصر(٢).

ثم ظهر في عسكر يعقوب كراهية قتال السلطان لما رأوه بإزائهم.

ثم حمل جميع أصحاب أبي أحمد على يعقوب ومن ثبت معه، فانهزم أصحاب يعقوب وثبت يعقوب في حاميه أصحابه حتى مضوا وفارقوا موضع الحرب وغنم عسكر السلطان عسكر يعقوب.

فيقال: إنه أخذ من عسكره من الدواب والبغال أكثر من عشرة آلاف رأس، ومن العين والورق ما يكلّ عن حمله، ومن جرب(٣) المسك أمر عظيم.

وتخلص محمد(٤) بن طاهر وكان مثقلاً بالحديد خلّصه الذي كان موكلاً به(٥).

= بين مدائن كسرى والنعمانية بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً على شاطئ دجلة، كان، أما الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل، وكان عنده بلد عامر وأسواق أيام كون النهروان عامراً، فأما الآن فهو بمفرده في وسط البرية، وبالقرب منه دير قُنّي.

(١) وكذا العبارة في الكامل، وقال محققه أن في الطبري: منهم إبراهيم بن سيما، وطباغوا التركي، ومحمد طغتا التركي والمعروف بالمبرقع المغربي.

(٢) في الكامل: ثم تراجع المنهزمون، وكشف أبو أحمد الموفق رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل معه سائر عسكره على عسكر يعقوب فثبتوا وتحاربوا حرباً شديدة وقتل من أصحاب يعقوب جماعة منهم الحسن الدرهمي، وأصابت يعقوب ثلاثة أسهم في حلقه ويديه.

(٣) في المخطوط: خرف. والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: أحمد والتصويب من الكامل.

(٥) اختلف السياق في الكامل من بعد ذلك عما هنا فجاء على النحو التالي:
وتخلص محمد بن طاهر وكان مثقلاً بالحديد وخلع عليه الموفق وولاه الشرطة ببغداد بعد ذلك.
وسار يعقوب من الهزيمة إلى خوزستان فنزل جند يسابور، وراسله العلوي البصري يحثه على الرجوع إلى بغداد ويعده المساعدة، فقال لكاتبه: اكتب إليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] السورة وسير إليه الكتاب.
وكانت الوقعة لإحدى عشرة خلت من رجب.
وكتب المعتمد إلى ابن واصل بتولية فارس.
وكان قد سار إليها وجمع جماعة فغلب عليها فسَيَّر إليه يعقوب عسكراً عظيماً عليهم ابن عزيز بن السري إلى فارس واستولى عليها. =

وكتب كتاب الفتح إلى بغداد، وقُرِىء على الناس ورجع المعتمد إلى المدائن، ومضى أبو أحمد الموفق وقبض على ما لأبي الساج من المنازل والضياع، فأقطعها مسروراً البلخي. وقدم محمد بن طاهر بن عبد اللّه بغداد وقد رد إليه العمل وخلع عليه مرتبته، ونزل في دار عبد اللّه بن طاهر.

فلم يعزل أحداً ولم يول، وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وفيها: وجه صاحب الزنج إلى البطيحة، ودست ميسان[١].

ذكر الخبر عن طمعه في ذلك

لما انصرف موسى بن بُغا عن أعمال المشرق وسار النظر لأبي أحمد الموفق، وضم أبو أحمد كور دجلة من عمال السلطان وعساكره سوى المدائن.

فوجه صاحب الزنج أحمد بن مهدي من أهل جَبّى في سميريات فيها رماة إلى نهر المرأة[٢]، فجعل الجبائي يوقع بالقرى.

فكتب إلى صاحبه: إن البطيحة خالية من رجال السلطان، لانصراف مسرور وأصحابه إلى محاربة يعقوب بن الليث فأمر صاحب الزنج رجلاً من أهله يقال له: عمير بن عمار كان عالماً بطرق البطيحة. ومسالكها أن يسير مع الحبارى.

= ورجع المعتمد إلى سامرا.

وأما أحمد الموفق فإنه سار إلى واسط ليتبع الصفار وأمر أصحابه بالتجهز لذلك، فأصابه مرض فعاد إلى بغداد ومعه مسرور وقبض مالاً لأبي الساج من الضياع والمنازل وأقطعها مسروراً البلخي، وقدم محمد بن طاهر بغداد.

(١) قال صاحب معجم البلدان:

البطيحة: هي أرض واسعة بين واسط والبصرة كانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة، فاتفق في أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة، وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فعجز عن سدّها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها.

فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية.

ودَسْتُ مِيسَانَ: هي كورة جليلة بين واسط، والبصرة، والأهواز، وهي إلى الأهواز أقرب، قصبتها بَسامَتى، وليست ميسان لكنها متصلة بها.

وقيل: دستميسان: كورة قصبتها الأبُلة فتكون البصرة من هذه الكورة.

(٢) وقال صاحب المصدر السابق: نهر المرأة: بالبصرة حضره أردشير الأصغر.

قال الساجي: صالح خالد بن الوليد عند البصرة أهل نهر المرأة. واسم المرأة طماهيج من رأس الفهرج إلى نهر المرأة فكانت طماهيج هي التي صالحته عشرة آلاف درهم، وفي كتاب البلاذُري: أن خالد بن الوليد أتى نهر المرأة ففتح القصر صلحاً، وصالحه عنه النوشجان بن جسنسماه والمرأة صاحبة القصر كامور زاد بنت نرسي وهي بنت عم النوشجان، وإنما سميت المرأة لأن أبا موسى الأشعري قد نزل بها فزودته خبيصاً فجعل يكثر أن يقول: اطعمونا من خبيص المرأة، فغلب على اسمها.

فهزمه وأخذ أربعة وعشرين سميرية ونيفاً وثلاثين صاحة.

وأفلت رميس ووافق خروجه منهزماً مع أصحابه خروج سليمان بن جامع من النهر العتيق، فتلقاه فأوقع به وبمن أفلت معه وانحاز رميس إلى بئر مساور.

ولحق سليمان من مذكوري البلالية وإنجادهم جماعة في نحو من مائة وخمسين سميرية. فاستخرجهم الخبر، فقالوا: ليس بينك وبين واسط أحد من عمال السلطان وولاته فاغتر سليمان بذلك، وسار حتى انتهى إلى الحاذرة، فتلقاه رجل يقال له: أبو معاذ القرشي، فواقعه، فانهزم سليمان عنه، وقتل أبو معاذ جماعة وأسر جماعة فيهم قائداً من قواد الزنج يقال له رياح.

وانصرف سليمان إلى موضعه الذي كان معسكراً به [١٢٤/ب] فأتاه رجلان من البلالية فقالا: ليس بواسط أحد يُدافع عنها غير أبي معاذ في الشذات التي لقيتك.

فاستعد سليمان وكتب إلى الخبيث مع البلالية الذين استأمنوا إليه، واحتبس الاثنين اللذين أخبراه عن واسط بما أخبراه وسار قاصداً النهرابان[١]، فاعترض له أبو معاذ في طريقه ونشبت الحرب بينهما.

وعصفت[٢] الريح، فاضطربت شذات أبي معاذ وقوي عليه سليمان وأصحابه، فأدبر عنهم. ثم مضى سليمان فافتتح نهرابان، فأحرق وانتهب وسبى النساء والصبيان. ثم وجه رجلاً يعرف له خبر واسط، فأخبره أن مسروراً قد توجه إليه وأنه بواسط.

فتحمل سليمان من موضعه، وطلب موضعاً يقرب عليه فقصد صاحبه منه حتى لحقه الطلب، فأشير عليه بطيشا[٣] فتحصى فيها، وجمع إليه كل من ظهر منه مكاشفة للسلطان ويثوّبه من أهل الظنون وغيرهم، وكاتب صاحبه بذلك وبما دبره.

فكتب إليه يصوب رأيه[٤].

ثم إنه وجه الجبائي في عسكر فبلغه أن أغرتمش وخشيشاً قد أقبلا إليه.

فجزع وأخذ في الاستعداد للقائهما، ورجع إليه الجبائي منهزماً.

---

(١) كذا في المخطوط والذي وقفت عليه في معجم البلدان: النهرناب بالنون والباء: قرب أوانا من نواحي دجيل.

(٢) في المخطوط: وعصبت وهو تحريف.

(٣) كذا في المخطوط. ولم أقف عليها في معجم البلدان وفي الكامل كلمة شبيهة بها هي بطمثا، والخبر في الكامل ليس على ما هو هنا، وفي موضع آخر منه طهشا، وفي تعليق للمؤلف عن الطبري طهيشا، وفي معجم البلدان أقرب رسم إلى اسمها، طهيان وهي باليمن فيبعد أن تكون هي المرادة، وفي موضع نهر طهشا، وكذا لم أقف عليه، والله أعلم.

(٤) تكررت الكلمة في المخطوط.

وصعد سليمان حائطاً فأشرف منه فرأى الجيش فنزل مسرعاً، وعبر النهر، وأمر السودان أن يستتروا حتى لا يظهر منهم أحد ويتواروا بالأدغال، ويدعوا القوم حتى يتوغلوا ولا يتحرك أحد إلا أن يسمعوا أصوات طُبوله، فإذا سمعوها خرجوا وقصد أغرتمش بجيشه وشغلهم قائد من قواد الزنج ـ عن دخول المعسكر ـ يقال له: أبو الندى.

وشد سليمان من وراء القوم، وضرب الزنج بطبولهم وألقوا أنفسهم في الماء للعبور إليهم فانهزم أصحاب أغرتمش، وخرج إليهم من كان بطميشا[1] من السودان، فوضعوا فيهم سيوفهم، وانهزم خشيش على أشهبٍ كان تحته يريد الرجوع إلى عسكره.

فتلقاه السودان فصرعوه، وأخذت سيوفهم فقتل وحمل رأسه إلى سليمان.

وقد كان خشيش حين أسرعوا إليه قال لهم: أنا خشيش فلا تقتلوني، واذهبوا بي إلى صاحبكم.

فلم يسمعوا قوله، وانهزم أغرتمش، وظفر الزنج بعسكره وشذاته ودوابه واسلابه. وكتب إلى صاحبه بالفتح، وحمل رأس خشيش وخاتمه، فأمر [به] فطيف في عسكره ونصب، ثم حمله إلى علي بن أبان، وهو يومئذ مقيم بنواحي الأهواز، وأمر بنصبه هناك[2].

وفيها: كانت وقعة بين أحمد بن ليثويه صاحب سرور، وبين علي بن أبان، فهزم الزنوج وقتل منهم مقتلة عظيمة.

[ذكر السبب في ذلك][3]

وذلك أن مسروراً وجه أحمد بن ليثويه إلى ناحية الأهواز، وكان علي بن أبان بتستر فقصده ابن ليثويه، فزحف علي بن أبان إليه، وهو ينشر أصحابه، ويعدهم الظفر ويحكي ذلك لهم عن الخبيث. فلما وافى الباهليون[4] وهي قرية تعرف بذلك تلقاه ابن ليثويه في جماعة كثيفة من خيل السلطان، واستأمن إليه جماعة من العرب، فانهزم علي بن أبان، ثم

---

(١) كذا بهذا الرسم في هذا الموضع وربما كان هذا أقرب ما سبق من ألفاظ في اسم ذلك المكان، وأقرب اسم إليه في معجم البلدان هو: طَمِيس، ويقال طميسة: بلدة من سهول طبرستان من ناحية خراسان وجرجان، وعليها درب عظيم ليس يقدر أحد من أهل طبرستان أن يخرج منها إلى جرجان إلاّ في ذلك الدرب لأنه ممدود من الجبل إلى جوف البحر من آجُر وجصّ، وكان كسرى أنوشروان بناه ليحول بين الترك وبين الغارة على طبرستان، فتحها سعيد بن العاص في سنة (٣٠) أيام عثمان بن عفان.

(٢) وذكر ابن الأثير الخبر في الكامل بغير سياقه هنا غير أنه في آخر تشابه مع ذكره هنا ثم زاد بعد ذلك عبارة قال فيها: وسير سليمان سرية فظفروا بإحدى عشر شذات وقتلوا أصحابها.

(٣) ما بين المعقوفين زيادة درج عليها المؤلف من بداية الكتاب فأضفتها لاحتمال سقوطها من الناسخ، ومذكور نحوها من الكامل.

(٤) لم أقف على تلك القرية في معجم البلدان لياقوت الحموي.

كر عليهم مع جماعة من رجاله، فاشتد القتال وترجل علي بن أبان فباشر القتال بنفسه راجلاً، وبين يديه غلام يقال [له][١]: فتحاً. وبُصر بعلي بن أبان قوم فعرفوه، وأنذروا الناس به، فانصرف هارباً حتى لجأ إلى المسرقان فألقى نفسه فيه وتلاه فتح.

ولحق علي بن أبان نصر الرومي فخلصه من الماء وكان أصاب ساقه سهم، فانصرف مغلولاً وقتل من أنجاد السودان وأبطالهم عدد كثير[٢].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق واحسبه سقط من المخطوط.

(٢) ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل بنحو مما هنا ولكنه أطول من ذلك بكثير.
ثم ذكر من الأحداث التي لم يذكرها ابن مسكويه ما يلي:
وفيها: كان أحمد بن عبد الله الخجستاني ـ من خجستان، وهي من جبال هراة من أعمال باذغيس ـ وكان من أصحاب محمد بن طاهر. فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور على ما ذكرناه، ضم أحمد إليه وإلى أخيه علي بن الليث.
وكان بنو شركب ثلاثة إخوة: إبراهيم، وأبو حفص يعمر، وأبو طلحة منصور، بنو مسلم. وكان اسنهم إبراهيم، وكان قد أبلى بين يدي يعقوب عند مواقعة الحسن بن زيد بجرجان فقدمه.
فدخل عليه يوماً نيسابور ـ وهو يوم فيه برد شديد ـ فخلع عليه يعقوب وبرسِمو كان على كتفه، فحسده عليه الخجستاني فقال له: إن يعقوب يريد الغدر بك، لأنه لا يخلع على أحد من خاصته خلعة إلاّ غدر به. فغم ذلك إبراهيم وقال: كيف الحيلة في الخلاص؟
قال: الحيلة أن نهرب جميعاً إلى أخيك يعمر فإني خائف عليه أيضاً.
وكان يعمر قد حاصر أبا داود الناهجوزي ببلخ ومعه نحو من خمسة آلاف رجل.
فاتفقا على الخروج ليلتهم فسبقه إبراهيم إلى الموعد، فانتظره ساعة فلم يره. فسار نحو سرخس، وذهب الخجستاني إلى يعقوب فأعلمه، فأرسله في أثره، فلحقوه بسرخس، فقتلوه ومال يعقوب إلى الخجستاني.
فلما أراد يعقوب العودة إلى سجستان استخلف على نيسابور عزيز بن السري وولي أخاه عمرو بن الليث هراة.
فاستخلف عمرو عليها طاهر بن حفص الباذغيسي وسار يعقوب إلى سجستان سنة إحدى وستين ومائتين وأحب الخجستاني التخلف لما كان يحدث به نفسه، فقال لعلي بن الليث إن أخويك قد اقتسما خراسان وليس لك بها من يقوم بشغلك، فيجب أن تردني إليها لأقوم بأمورك.
فاستأذن أخاه يعقوب في ذلك، فأذن له. فلما حضر أحمد يعود يعقوب، أحسن له القول، ورده وخلع عليه.
فلما ولّى عنه قال يعقوب: أشهد أن قفاه قفا مستعص، وأن هذا آخر عهدنا بطاعته.
فلما فارقهم جمع نحواً من مائة رجل، فورد بهم بشت نيسابور فحارب عاملها وأخرجه عنها، وجباها.
ثم خرج إلى قومس، فقتل ببسطام مقتلة عظيمة، وتغلب عليها، وذلك سنة إحدى وستين ومائتين.
وسار إلى نيسابور وبها عزيز بن السري، فهرب عزيز، وأخذ أحمد أثقاله، واستولى على نيسابور يدعو إلى الطاهرية، وذلك أول سنة اثنتين وستين ومائتين. وكتب إلى رافع بن هرثمة يستقدمه فقدم عليه فجعله صاحب جيشه.
وكتب إلى يعمر بن شركب وهو يحاصر بلخ يستقدمه ليتفق على تلك البلاد. فلم يثق إليه يعمر لفعله بأخيه، وسار يعمر إلى هراة فحارب طاهر بن حفص فقتله، واستولى على أعمال طاهر.
فسار إليه أحمد فكانت بينهما مناوشات وكان أبو طلحة بن شركب غلاماً من أحسن الغلمان، وكان عبد الله بن بلال يميل إليه، وهو أحد قواد يعمر، فراسل الخجستاني وأعلمه أنه يعمل =

....

= ضيافه ليعمر وقواده، ويدعوهم إليه يوماً ذكره ويأمره بالنهوض إليهم فيه فإنه يساعده، وشرط عليه أن يسلم إليه أبا طلحة، فأجابه أحمد إلى ذلك.
فصنع ابن بلال طعاماً، ودعا يعمر وأصحابه، وكبسهم أحمد، وقبض على يعمر وسيره إلى نائبه بنيسابور فقتله.
واجتمع إلى أبي طلحة جماعة من أصحاب أخيه فقتلوا ابن بلال وساروا إلى نيسابور، وكان بها الحسين بن طاهر أخو محمد بن طاهر، قد وردها من أصفهان طمعاً أن يخطب لهم أحمد كما كان يظهره من نفسه، فلم يفعل فخطب له أبو طلحة بها، وأقام معه.
فسار إليه الخجستاني من هراة في اثني عشرة ألف عنان، فأقام على ثلاثة مراحل من نيسابور، ووجه أخاه العباس إليها، فخرج إليه أبو طلحة فقاتله فقتل العباس، وانهزم أصحابه.
فلما بلغ خبرهم إلى أحمد عاد إلى هراة ولم يعلم لأخيه خبراً، فبذل الأموال لمن يأتيه بخبره، فلم يقدم أحد على ذلك، وأجابه رافع بن هرثمة إليه، فاستأمن إلى أبي طلحة، فأمنه وقربه، ووثق إليه، وتحقق رافع خبر العباس فأنهاه إلى أخيه أحمد، وأنفذه أبو طلحة إلى بيهق وبست ليجبي أموالهما لنفسه، وضم إليه قائدين فجبى رافع الأموال فبقي على القائدين وسار إلى الخجستاني إلى قرية من قرى خواف فنزلها، وبها حليّ بن يحيى الخارجي، فنزل ناحية عنه.
فبلغ الخبر إلى أبي طلحة، فركب مُجِدّاً فوصل إليهم ليلاً، فأوقع بحليّ وأصحابه، وهو يظنه رافعاً، وهرب رافع سالماً، وعلم أبو طلحة بحال حليّ بعد حرب شديدة، فكف عنه وأحسن إليه وإلى أصحابه.
ثم وجه أبو طلحة جيشاً إلى جرجان وبها ثابت الحسن بن زيد، ومعه الديلم.
وكان في جيش أبي طلحة إسحاق الشارب، فحاربوا الديلم بجرجان، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأجلوهم عنها، وذلك في رجب سنة ثلاث وستين ومائتين.
ثم عصى إسحاق على أبي طلحة وسار إليه أبو طلحة واشتغل في طريقه باللهو والصيد، فكبسه إسحاق وقتل أصحابه، وانهزم أبو طلحة إلى نيسابور، فاستضعفوا أهلها، فأخرجوه منها، فنزل على فرسخ عنها، وجمع جمعاً فحاربهم.
ثم افتعل كتاباً على إسحاق يستقدمونه إليهم، ويعدونه المساعدة على أبي طلحة، فاغتر إسحاق بذلك.
وكتب أبو طلحة عن إسحاق كتاباً إلى أهل نيسابور يعدهم أنه يساعدهم على أبي طلحة ويأمرهم بحفظ الدروب وترك مقاربة البلد إلى أن يوافيهم.
فاغتروا بذلك، وظنوه كتابه، ففعلوا ما أمرهم.
وسار إسحاق مجداً، فلما قارب نيسابور لقيه أبو طلحة فغافصه (أي آذاه) فطعنه أبو طلحة، فألقاه عن فرسه في بئر هناك فلم يعلم له خبر. وانهزم أصحابه، ودخل بعضهم إلى نيسابور، وضيق عليهم أبو طلحة، فكاتبوا الخجستاني، واستقدموه من هراة، فأتاهم في يومين وليلتين وورد عليهم ليلاً ففتحوا له الأبواب ودخلها، وسار عنها أبو طلحة إلى الحسن بن زيد، فأمده بجنود، فعاد إلى نيسابور، فلم يظفر بشيء.
فسار إلى بلخ، وحصر أبا داود الناهجوزي واجتمع معه خلق كثير، وذلك سنة خمس، وقيل ست وستين ومائتين، وسار الخجستاني إلى محاربة الحسن بن زيد لمساعدته أبا طلحة، فاستعان الحسن بأهل جرجان، فأعانوه، فحاربهم الخجستاني، فهزمهم وأغار عليهم وجباهم أربعة آلاف ألف درهم، وذلك في رمضان سنة خمس وستين.
واتفق أن يعقوب بن الليث توفي سنة خمس وستين أيضاً وولي مكانه أخوه عمرو، فعاد إلى سجستان، وقصد هراة.
فعاد الخجستاني من جرجان إلى نيسابور ووافاه عمرو بن الليث، فاقتتلا وانهزم عمرو، ورجع =

....

= إلى هراة، وأقام أحمد بنيسابور. وكان كيكان ـ وهو يحيى بن محمد الذهلي ـ وجماعة من المتطوعة والفقهاء بنيسابور يميلون إلى عمرو لتولية السلطان إياه. فرأى الخجستاني أن يوقع بينهم ليشتغل بعضهم ببعض، وأحضر منهم جماعة من الفقهاء القائلين بمذاهب أهل العراق.
فأحسن إليهم وقرّبهم وأكرمهم وأظهروا الخلاف على كيكان ونابذوه.
وكان كيكان يقول بمذهب أهل المدينة، فكفى شرهم وسار إلى هراة فحصر بها عمرو بن الليث سنة سبع وستين، فلم يظفر بشيء فسار نحو سجستان فحصر في طريقه رمل (سي) فلم يظفر بشيء منها.
فاحتال حتى استمال رجلاً قطاناً كانت داره إلى جانب السور، ووعده أن ينقب إلى العسكر من داره، ويخرج أصحابه إلى البلد.
فاستأمن رجلان إلى البلد من أصحاب الخجستاني وذكر الخبر لصاحبه، فأخذ القطان، وأخربت داره، وبطل ما كان الخجستاني عزم عليه.
وكان خليفة الخجستاني بنيسابور قد أساء السيرة وقوّى العيارين وأهل الفساد، فاجتمع الناس إلى كيكان، فثار على نائبه، وأعانهم عمرو بن الليث بجنده، فقبضوا على خليفة الخجستاني.
فأقام أصحاب عمرو بنيسابور، فبلغ الخبر إلى أحمد فوافى نيسابور، فخرج عنها كيكان وغيره، فردهم أصحاب أحمد الخجستاني، فقتل منهم جماعة. وغيب كيكان، فلم يظهر إلاّ بعد مدة ميتاً، قد بني عليه حائطاً فمات فيه. وأقام أحمد بنيسابور تمام سنة سبع وستين ومائتين.
ثم إن عمراً كاتب أبا طلحة، وهو يحاصر بلخ يستقدمه إلى هراة، فأتاه، فأكرمه، وأعطاه مالاً عظيماً، ووعده وتركه بخراسان، وعاد إلى سجستان.
فسار أحمد إلى سرخس وبها عامل عمرو، فأتاه أبو طلحة، فقاتله، فانهزم أبو طلحة ومَرَّ على وجهه، وسار أحمد خلفه فلحقه بخُلم فحاربه، فهزمه أيضاً، وسار نحو سجستان، وأقام أحمد بطخارستان.
وكان ناسرار عباس القطان، قد أتى طلحة فسار نحو نيسابور فأعانه أهلها، فأخذوا والدة الخجستاني وما كان معها، وأقام بنيسابور ولحق به أبو طلحة، فمنعه أهل نيسابور من دخولها.
واتصل الخبر بالخجستاني وهو بطايكان من طخارستان، فسار مجداً نحو نيسابور. ولما أيس الطاهرية من الخجستاني وكان أحمد بن محمد بن طاهر بخوارزم والياً عليها فأنفذ أبا العباس النوفلي في خمسة آلاف رجل ليخرج أحمد من نيسابور.
فبلغ خبره أحمد فأرسل إليه ينهاه، عن سفك الدماء، فأخذ النوفلي الرسل، فأمر بضربهم وحلق لحاهم، وأراد قتلهم، فبينما هم يطلبون الجلادين والحلاقين ليحلق لحاهم، أتاهم الخبر بقرب جيش أحمد منهم.
فاشتغلوا وتركوا الرسل، فهربوا إلى أحمد وأعلموه بالخبر، فعبى أصحابه وحملوا على النوفلي حملة رجل واحد، فأكثروا فيهم القتل، وقبضوا على النوفلي، وأحضروه عنده.
فقال له: إن الرسل لتختلف إلى بلاد الكفار فلا تتعرض لهم، أفلا استحيت أن تأمر في رسلي بما أمرت؟!
فقال النوفلي: أخطأت.
فقال: ولكني سأصيب في أمرك، ثم أمر به فقتل.
وبلغه أن إبراهيم بن محمد بن طلحة بمرو قد جبى أهلها في سنتين خمسة عشر خراجاً، فسار إليه في أبيورد في يوم وليلة، فأخذه على فراشه.
وأقام بمرو فجبى خراجها، ثم ولاها موسى البلخي.
ثم وافاه الحسين بن طاهر، فأحسن فيهم السيرة ووصل إليه نحو عشرين ألف ألف درهم.
وفيها: قتل الخجستاني وذلك: لما كان الخجستاني بطخارستان وافاه خبر أخذ والدته من نيسابور وسار مجداً، فلما قارب هراة أتاه غلام لأبي طلحة يعرف بـ: ينال ده هزار، مستأمناً فأتاه قبل =

....

= وصوله، وكان للخجستاني غلام اسمه رامجور على خزائنه، فقال له كالممازح: إن سيدك ينال ده هزار قد استأمن إليّ كما علمت فانظر كيف يكون برك به؟
فحقدها عليه رامجور، وخاف أن يقدم ذلك الغلام عليه ويطلب الفرصة ليقتله.
وكان لأحمد غلام يدعي قتلغ ـ وهو على شرابه ـ فسقاه يوماً فرأى في الكوز شيئاً فأمر به فقلعت إحدى عينيه.
فتواطأ قتلغ، ورامجور على قتله، فشرب يوماً بنيسابور عند وصوله من طايكان فسكر ونام فتفرق عنه أصحابه، فقتله رامجور، وقتلغ. وكان قتله في شوال سنة ثمان وستين ومائتين وأخذ رامجور خاتمه فأرسله إلى الاصطبل يأمرهم بإسراج عدة دواب ففعلوا، فسير عليها جماعة إلى أبي طلحة وهو بجرجان يعلمه الحال ويأمره بالقدوم.
ثم أغلق رامجور الباب على أحمد واختفى، وبكر القواد إلى باب أحمد وجدوا باب حجرته مغلقاً فانتظروه ساعة طويلة فرابهم الأمر ففتحوا الباب فرأوه مقتولاً، فجثوا عن الحال وأخبرهم صاحب الاصطبل خبر رامجور في إنفاذ الخاتم فطلبوه فلم يجدوه، ثم وجدوه بعد مدة.
وكان سبب اطلاعهم عليه أن صبياً من أهل تلك الدار التي هو بها طلب ناراً فقيل له: ما تعملون بالنار في اليوم الحار؟
فقيل: نتخذ طعاماً للقائد.
قيل: ومن القائد؟
قال: رامجور.
فأنهوا خبره إلى بعض القواد، فأخذوه وقتلوه. واجتمع أصحاب أحمد بعد قتله على رافع بن هرثمة وسنذكر أخبار رافع سنة ثمان وستين ومائتين. وكان أحمد بن عبد اللّه لما عاد من طايكان بعد قتل والدته نصب رمحاً طويلاً من صحن داره وقال: يحتاج أهل نيسابور أن يضعوا الدار حتى يغمروا هذا الرمح فخافوا منه، واستخفى جمع من الرؤساء والتجار، وفزع الناس إلى الدعاء وسألوا أبا عثمان وغيره في أصحاب أبي حفص الزاهد إلى اللّه تعالى ليفرج عنهم.
وفعلوا فتداركهم اللّه بحرمته فقتل تلك الليلة وفرج اللّه عنهم.
وكان أحمد كريماً جواداً شجاعاً حسن العشيرة كثير البر لإخوانه الذين صحبوه قبل إمارته والإحسان إليهم ولم يتغير لهم عما كان يفعله من التواضع والأدب.
وفيها: ولي القضاء علي بن محمد بن أبي الشوارب.
وفيها: سار الحسين بن طاهر بن عبد اللّه بن طاهر إلى الجبل في صفر.
وفيها: مات الصلاني والي الري ووليها كيغلغ.
وفيها: نهب بن زيدون الطيب.
ومات صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور.
وولي إسماعيل بن إسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد فصار له قضاء الجانبين.
وفيها: تنافر أبو أحمد الموفق، وأحمد بن طولون أمير ديار مصر، وصار به بينهما وحشة مستحكمة.
وتطلب الموفق من يتولى الديار المصرية، فلم يجد أحداً لأن ابن طولون كانت خدمه وهداياه متصلة إلى القواد بالعراق، وأرباب المناصب، فلهذا لم يجد من يتولاها.
فكتب إلى ابن طولون يتهدده بالعزل، فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة.
فسيَّر إليه الموفق موسى بن بُغا في جيش كثيف، فسار إلى الرقة.
وبلغ الخبر ابن طولون، فحصن الديار المصرية وأقام ابن بغا عشرة أشهر بالرقة لم يمكنه المسير لقلة الأموال معه.
وطالبه الأجناد بالعطاء، فلم يكن معه ما يعطيهم، فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره عبد اللّه =

ودخلت سنة ثلاث وستين ومائتين

وفيها: ظفر يعقوب بن الليث بمحمد بن واصل.

أخذه ابن عزيز بن السري فجاء به إلى يعقوب أسيراً.

وملك يعقوب فارس، وسار إلى الأهواز إلى النُوبَنْدَجَانُ[١]. انصرف أحمد بن ليثويه عن تستر، وارتحل عن بلدان الأهواز كل من كان بها من قِبل السلطان.

ثم أقام علي بن أبان بنهر السدرة[٢] إلى أن دخل صاحب يعقوب الأهواز، واسمه الخضر. فجعل يَغِير، وأغار صاحب يعقوب عليه، ولم يزل كذلك الأمر مدة، ثم تحاين عليه ـ أعني علي بن أبان على الخضر ـ فسار إليه، وأوقع به، وقتل من أصحاب يعقوب خلقاً، وهرب الخضر إلى عسكر مكرم.

فلما استباح على عسكره، والأهواز رجع إلى نهر السدرة.

وكتب إلى هنود يأمره بأصحاب الصفار أن يوقع بهم وهم بالدورق[٣].

= ابن سليمان فاستتر واضطر ابن بغا إلى العودة إلى العراق، وكفى اللّه أحمد بن طولون شره، فتصدق بأموال كثيرة.

وفيها: قتل محمد بن عتاب، وكان سائراً إلى السيبين وهي من ولايته فقتله الأعراب.

وفيها: قتل القطان صاحب مفلح، وكان عاملاً بالموصل، فانصرف عنها فقتل بالرقة.

وفيها: عقد كفتمر علي بن الحسين بن داود على طريق مكة.

وفيها: وقع بين الخياطين والجزارين بمكة قتال يوم التروية، حتى خاف الناس أن يبطل الحج، ثم تحاجزوا إلى أن يحج الناس، وقد قتل منهم سبعة عشر رجلاً.

وحج بالناس: الفضل بن إسحاق بن الحسن بن العباس بن محمد.

وفيها: سَيَّر محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش إلى الجليقي، وكان بمدينة بطليوس، فلما سمع خبرهم، فارقها، ودخل حصن كركر فحوصر فيه، وكثر القتل في أصحابه في شوال.

وفيها: مات عمرو بن شبه النميري الأنباري، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين ومائة.

(١) قال ياقوت في معجم البلدان:

مدينة من أرض فارس من كورة سابور، قريبة من شِعب بوّان الموصوف بالحسن والنزاهة. وبينها وبين أرّجان ستة وعشرون فرسخاً وبينها وبين شيراز قريب من ذلك.

(٢) لم أقف على اسم هذا النهر بين الأنهر التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان ولا في السدرة بين البلدان والمواضع.

(٣) قال ياقوت:

دَوْرَقُ: بلد بخوزستان، وهو قصبة كورة سُرَّق، يقال لها دورق الفَرَس.

قال مسعر بن المهلهل في رسالته: ومن رامهرمز إلى دورق تمر على بيوت نار في مفازة مقفرة فيها أبنية عجيبة والمعادن في أعمالها كثيرة.

وبدورق آثار قديمة لقباذ دارا، وبها صيد كثير إلاّ أنه يتجنب الرعي في أماكن منها لا يدخلها بوجه ولا بسبب.

فمضى هنود إلى الدورق، وأوقع بأولئك، وكان علي يتوقع بعد ذلك سير يعقوب إليه، فلم يسير وأمد الخضر بأخيه الفضل وأمرهما بالكف عن قتال أصحاب الخبيث، والاقتصار على المقام بالأهواز. فأبَى ذلك على دون نقل طعام هناك، فتجافى له الصفار عن ذلك الطعام، وتجافى على الصفار عن علفٍ كان بالأهواز. فنقل عليّ الطعام، وترك يعقوب العلف، وتكاف الفريقان أصحاب علي، وأصحاب الصفار[1].

---

(١) هذا كل ما ذكر ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد ابن الأثير من أحداثها ما يلي فقال: لما انهزم علي بن أبان جريحاً كما ذكرناه، وعاد إلى الأهواز لم يقم بها ومضى إلى عسكر صاحبه يداوي جراحه، واستخلف على عسكره بالأهواز.
فلما برأ جرحه عاد إلى الأهواز ووجه أخاه الخليل بن أبان في جيش كثيف إلى أحمد بن ليثويه، وكان أحمد بعسكر مكرم فكمن أحمد، وخرج إلى قتالهم، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال.
وخرج الكمين على الزنج فانهزموا وتفرّقوا وقتلوا، ووصل المنهزمون إلى علي بن أبان فوجه مسلحة إلى المسرقان، فوجه إليهم أحمد ثلاثين فارساً من أصحابه من أعيانهم فقتلهم الزنج جميعهم.
وفيها: سلمت الصقالبة لؤلؤة إلى الروم وكان سبب ذلك:
أن أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل أن يلي مصر، فلما ولي مصر كان يؤثر أن يلي طرسوس ليغزو منها أميراً.
فكتب إلى أبي أحمد الموفق يطلب ولايتها، فلم يجبه إلى ذلك، واستعمل عليها محمد بن طرون التغلبي، فركب في سفينة في دجلة، فألقتها الريح إلى الشاطئ، فأخذه أصحاب مساور الشاري فقتلوه، واستعمل عوضه محمد بن علي الأرمني وأضيف إليه أنطاكية، فوثب به أهل طرسوس فقتلوه.
فاستعمل عليها أرخوز بن يولغ بن طرخان التركي فسار إليها.
وكان عزا جاهلاً فأساء السيرة وأخر عن أهل لؤلؤة أرزاقهم وميرتهم، فضجوا من ذلك، وكتبوا إلى أهل طرسوس يشكون منه ويقولون:
إن لم ترسلوا إلينا أرزاقنا وميرتنا وإلا سلمنا القلعة إلى الروم.
فأعظم ذلك أهل طرسوس، وجمعوا من بينهم خمسة عشر ألف دينار ليحملوها إليهم فأخذها أرخوز ليحملها إلى أهل لؤلؤة، فأخذها لنفسه.
فلما أبطأ عليهم المال سلموا القلعة إلى الروم.
فقامت على أهل طرسوس القيامة لأنها كانت شبحاً في حلق العدو، ولم يكن يخرج الروم في بر أو بحر إلا رأوه وأنذروا به. واتصل الخبر بالمعتمد فقلدها أحمد بن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو الروم ويحفظ ذلك الثغر.
وفي هذه السنة: مات مساور بن عبد الحميد الشاري، وكان قد رحل من البوازيج يريد لقاء عسكر قد سار إليه من عند الخليفة، فكتب أصحابه إلى محمد بن خرزاد ـ وهو بشهرزور ـ ليولوه أمرهم، فامتنع وكان كثير العبادة، فبايعوا أيوب بن حيان الوراقي البجلي.
فأرسل إليهم محمد بن خرزاد ليذكر لهم أنه نظر في أمره فلم يسعه إهمال الأمر لأن مساور عهد إليه.
فقالوا له: قد بايعنا هذا الرجل ولا نغدر به. فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم، فقتل أيوب بن حيان.
فبايعوا بعده محمد بن عبد اللّه بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام، فقتل أيضاً. فبايع أصحابه هارون بن عبد اللّه البجلي فكثر أتباعه وعاد عنه ابن خرزاد. واستولى هارون على أعمال الموصل وجبى خراجه.
وفيها: كانت وقعة بين موسى، والأعراب. =

ودخلت سنة أربع وستين ومائتين

وفيها: مات عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان من صدمة خادم له، وصلى عليه أبو محمد ومشى في جنازته، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد، ثم قدم موسى بن بُغا فهرب الحسن بن مخلد، واستوزر مكانه سليمان بن وهب(١).

وفيها: توجه جيش من قِبل الصفار إلى الصَّيْمَرَة(٢)، ونفذوا إليها، وأخذوا صيغون وحملوه أسيراً.

= فوجه الموفق ابنه أبا العباس المعتضد في جماعة من قواده في طلب الأعراب.
وفيها: وثب الديراني بابن أوس فكبسه ليلاً، فتفرق عكسره ونهبه ومضى ابن أوس إلى واسط.
وفيها: ظفر أصحاب يعقوب بن الليث بن محمد بن واصل فأسروه.
وفيها: عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد سقط عن دابته بالميدان من صدمة خادم له فسال دماغه من منخريه وأذنه فمات لوقته، وصلى عليه الموفق، ومشى في جنازته، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد.
فقدم موسى بن بغا سامرا فاختفى الحسن واستوزر مكانه سليمان بن وهب.
ودفعت دار عبيد اللّه إلى كيغلغ.
وفيها: أخرج أخو شركب الحسين بن طاهر عن نيسابور، وغلب عليها وآخذ أهلها بإعطائه ثلث أموالهم.
وسار الحسين إلى مرو وبها ابن خوارزم شاه يدعو لمحمد بن طاهر.
وفيها: سير محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش كثير، وجعل طريقه على ماردة، فلما جاز ماردة إلى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر، فخرج عليه جمع كثير من المشركين قد استظهر فاقتتلوا قتالاً كثيراً، صبروا فيه، وقتل من المشركين عدد كثير.
ثم استظهر ابن الجليقي ومن معه من المشركين على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم أكرمهم اللّه بالشهادة.
وفيها: ابتدأ إبراهيم أمير إفريقية ببناء مدينة رقادة.
وفيها: توفي أحمد بن حرب الطائي الموصلي أخو علي بن حرب، توفي بأذنة من بلد الثغر.
وحج بالناس هذه السنة: الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل.

(١) سبق أن ذكرت هذا الخبر ضمن أحداث السنة السابقة لهذه ذكره فيها ابن الأثير كما سبق الإشارة إليه في هامش السنة السابقة أي سنة ثلاث وستين ومائتين.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
هي موضعين أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل، وفيها عدّة قُرى تسمى بهذا الاسم...
والصيمرة: بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان، وهي مدينة بمهرجان قُذِفَ.
قال أبو الفضل: دخلتها ولم أجد بها من يحدث حينئذٍ، وقد حدث بها جماعة وهي للقاصد من همذان إلى بغداد عن يساره، وبها نخل وزيتون وجوز وثلج. وفواكه السهل والجبل.
وبينها وبين الطِّرحان قنطرة عجيبة بديعة تكون ضعف قنطرة خانقين تعد في العجائب. قال الاصطخري: وأما صيمرة والسيروان فمدينتان صغيرتان غير أن بنيانهما الغالب عليه الجص والحجارة، وفيها الليمون، والجوز، وما يكون في بلاد الصرود والجروم. وفيها مياه كثيرة وأشجار، وهما نزهتان يجري الماء في دورهم ومنازلهم.

وفيها: مات موسى بن بغا ببغداد، وحمل إلى سُرَّ من رأى ودفن بها.

وفيها: ولي محمد بن المولد واسطاً فحاربه سليمان بن جامع وهو قريب من تلك [١٢٥/أ] الناحية فهزمه وأخرجه من واسط، فدخلها سليمان.

السبب في ذلك

كان السبب في ذلك: أن علي بن أبان لما هزم باغرتمش وجعلان، أشار عليه أحمد بن مهدي الجبّائي[(١)] بتطرق[(٢)] عسكر البخاري، وهو على خمسة فراسخ من عسكر تكين، فلما وافى ذلك الموضع قال له الجبائي: الرأي أن تقيم هاهنا وأمضي أنا في السميريات[(٣)] فأخبر القوم فيأتوك آمنين، فتنال حاجتك. فأقام سليمان وعبى خيله ورجاله بموضعه، ومضى الجبائي فقاتلهم ساعة[(٤)]، وأعد تكين خيله، وتطارد له الجبائي.

وطال علي بن أبان انتظار الجبائي، فأقبل يقفو أثر الجبائي، فأنفذ غلاماً له إلى سليمان ابن جامع: أن أصحاب تكين واردون عليك بخيلهم.

فتلقاه الرسول فرده إلى معسكره، وجعل عليّ كميناً مما يلي الصحراء في ميسرة تكين وقال: إذا جاءتكم خيل تكين فأدرجوا من ورائهم. فلما علم الجبائي أن سليمان قد أحكم أمره، رفع صوته وقال لأصحابه ليسمع أهل تكين: غررتموني واهلكتموني وقد كنت أمرتكم ألاّ تدخلوا هذا المدخل، فأبيتم أن لا تلقوني وأنفسكم في هذه الورطة التي [لا][(٥)] نرى[(٦)] أنّا ننجو منها.

فطمع أصحاب تكين لما سمعوا كلامه وجدوا في طلبه، وجعلوا ينادونه. بلبل في قفصٍ[(٧)]. وسار الجبائي سيراً حثيثاً واتبعوه بجد يرشقونه حتى جاوز الكمين، وقارب عسكر سليمان، وهو أيضاً كان وراء الجند في خيله ورجله.

وزحف سليمان وخرج الكمين من وراء الخيل وعطف الجبائي فأتاهم الرّوع من الوجوه كلها، فانهزموا وركبهم الزنج فقتلوهم وأسروهم وسلبوهم حتى قطعوا ثلاثة فراسخ.

ثم وقف سليمان، وقال للجبائي: نرجع فقد غنمنا وسلمنا، والسلامة أفضل من كل شيء.

---

(١) كذا في المخطوط في كل المواضع وهو موافق لما في الطبري على ما ذكر محقق الكامل، وفي الكامل: الحياتي.
(٢) كذا هنا وفي الكامل: أن تتطرق.
(٣) في المخطوط: السهيريات. والتصويب من الكامل.
(٤) بعد هذه العبارة في الكامل: ثم تطارد لهم ساعة فتبعوه، فأرسل إلى سليمان يعلمه ذلك.
(٥) زيادة يتطلبها السياق.
(٦) في المخطوط: يرى، وهو تحريف.
(٧) العبارة في المخطوط أصابها تحريف وتصويبها من الكامل وهي في المخطوط بليل في نقصٍ.

فقال الجبائي: كلا قد نفذت حيلتنا فيهم ونحبت قلوبهم، والرأي أن تكبسهم في ليلتهم هذه، فلعلنا أن نفض جمعهم ونجتاحهم. فاتبع سليمان رأي الجبائي وسار إلى عسكر تكين وقاتل قتالاً شديداً حتى انكشف عنه سليمان، ثم وقف سليمان وعبى أصحابه ثانية، ووجه شبلاً في خيل ورجاله إلى الصحراء، وأمر الجبائي وسار في السميريات في بطن النهر.

فسار هو فيمن معه من أصحابه حتى وافى تكين، فلم يثبت له أحد، وانكشفوا وتركوا عسكرهم، فغنم ما فيه، وأحرق الباقي، وانصرف.

وكان استأذن صاحبه في الإلمام به فألقى في منصرفه ورود الإذن له، فاستخلف الجبائي، وحمل الأعلام التي أصابها من عسكر تكين، والشذات التي كان أخذها من خشيش وأصحاب أغرتمش، ومن كان معهم إلى عسكر الخبيث[1]. ثم كانت لعلي بن أبان، والجبائي وغيرهما من أصحاب الخبيث وقعات منكرات، وأمور هائلة، ما كتبتها لخلوها مما بنيت عليه كتابي هذا، إلى أن دخل أصحابه واسطاً[2].

---

(١) قال ابن الأثير: واستخلف سليمان الجبائي على عسكره وسار إلى صاحبه، وكان ذلك سنة ثلاث وستين ومائتين.

(٢) فسر ابن الأثير ما أجمل ابن مسكويه هنا فقال:
لما سار سليمان إلى الخبيث خرج الحياتي (سبق أن ذكرت أن الجبائي في الكامل الحياتي فيلاحظ). بالعسكر الذي خلفه سليمان معه إلى مازوران لطلب الميرة، فاعترضه جعلان فقاتله، فانهزم الحياتي، وأخذت سفنه.
وأتته الأخبار من منجورا، ومحمد بن علي بن حبيب اليشكري قد بلغا الحجاجية، فكتب إلى صاحبه بذلك فسيّر إليه سليمان فوصل إلى طهثا مجداً، وأظهر أنه يريد قصد جعلان، وقدم الحياتي، وأمره أن يأتي جعلان ويقف بحيث يراه ولا يقاتله.
ثم سار سليمان نحو محمد بن علي حبيب مجداً، فأوقع به وقعة عظيمة، وغنم غنائم كثيرة، وقتل أخاً لمحمد بن علي، ورجع، وكان ذلك في رجب في هذه السنة أيضاً. ثم سار في شعبان إلى قرية حسان، وبها قائد يقال له: حسن بن خمارتكين، فأوقع به، فهزمه، ونهب القرية وأحرقها وعاد.
ثم سار في شعبان أيضاً إلى مواضع فنهبها وعاد.
ثم سار في رمضان، وأظهر أنه يريد جعلان بمازوران، فبلغت الأخبار إلى جعلان بذلك فضبط عسكره، فتركه سليمان، وعدل إلى أبّا، فأوقع به - وهو غار - وغنم منه ست شذاوات.
ثم أرسل إلى الحياتي في جماعة لينتهب، فصادفهم جعلان، فأخذ سفنهم، وغنم منهم.
فأتاه سليمان في البحر فهزمه، واستنفذ سفنهم وغنم شيئاً آخر وعاد.
ثم سار سليمان إلى الرصافة في ذي القعدة فأوقع بمطر بن جامع وهو بها، فغنم غنائم كثيرة وأحرق الرصافة واستباحها، وحمل أعلاماً وانحدر إلى مدينة الخبيث، وأقام ليعيد هناك بمنزله.
فسار مطر إلى الحجاجية، فأوقع بأهلها وأسر جماعة، وكان بها قاض لسليمان، فأسره مطر وحمله إلى واسط.
وسار مطر إلى قريب طهثا، ورجع فكتب الحياتي إلى سليمان بذلك، فسار نحوه، فوفاه =

وفيها: خرج سليمان بن وهب، والحسن بن وهب إلى سُرَّ مَنْ رأى، فلما وصل إليها حبسه المعتمد وقيده وأنهب داره، ودور بنيه، واستوزر الحسن بن مخلد، وكان أبو أحمد الموفق حسن الرأي في وهب فشخص من بغداد ومعه عبيد اللّه بن سليمان بن وهب.

فلما قرب الموفق من سُرَّ مَنْ رَأى تحول المعتمد إلى العسكر الغربي فعسكر فيه. واختلفت الرُسُل بينهما، فلما كان بعد أيام سار المعتمد إلى حراقة في دجلة، وسار إلى رها أخوه الموفق في دلال، فخلع على الموفق وعلى مسرور البلخي، وكيغلغ، وأحمد بن موسى بن بُغا.

ثم عبر أهل عسكر أبي أحمد إلى عسكر المعتمد يوم التروية من ذي الحجة.

فأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق، وهرب الحسن بن مخلد، وأحمد بن صالح بن شيرزاد.

وكتب في قبض أموالهما وأسبابهما ومن يتصل بهما.

وهرب القواد المقيمون [الذين](١) كانوا بسر من رأى إلى تكريت، ثم شخصوا إلى الموصل ووضعوا أيديهم في الجباية.

وكان عبد اللّه بن سليمان كاتب الموفق، فأصلح بين فأصلح بين سليمان بن وهب وبين الحسن بن مخلد(٢).

= لليلتين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.
ثم صرف جعلان، ووافى أحمد بن ليثويه فأقام بالشديدية.
ومضى سليمان إلى نهرابان، وبه قائد من قواد أحمد، فأوقع به فقتله.
ثم سار سليمان إلى تكين في خمس شذاوات سنة أربع وستين، فواقعه تكين بالشديدية، وكان أحمد بن ليثويه حينئذٍ قد سار إلى الكوفة وجنبلاء فظهر تكين على سليمان، وأخذ الشذاوات بما فيها، وكان بها صناديد سليمان وقواده فقتلهم.
ثم إن أحمد عاد إلى الشديدية، وضبط تلك الأعمال، حتى وافاه محمد بن المولد، وقد ولاه الموفق مدينة واسط.
فكتب سليمان إلى الخبيث يستمده، فأمده بالخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارس، فلما أتاه المدد، قصد إلى محاربة محمد بن المولد، ودخل سليمان مدينة واسط فقتل فيها خلقاً كثيراً، ونهب وأحرق، وكان بها ابن منكجور البخاري، فقاتله يومه إلى العصر ثم قتل.
وانصرف سليمان عن واسط إلى جنبلاء ليعيث ويخرب، فأقام هناك تسعين ليلة، وعسكرهم بنهر الأمير.

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق ويبدو أنها سقطت من الناسخ.

(٢) ومما ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة ولم يذكره ابن مسكويه ما هو:
وفي هذه السنة: توفي أماجور مقطع دمشق، وولي ابنه مكانه فتجهز ابن طولون ليسير إلى الشام فيملكه، فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة قد أقطعه الشام والثغور. =

= فأجابه بالسمع والطاعة.
وسار أحمد واستخلف بمصر ابنه العباس، فلقيه ابن أماجور بالرملة، ، فأقره عليها، وسار إلى دمشق فملكها، وأقر قواد أماجور على أقطاعهم.
وسار إلى حمص فملكها، وكذلك حماه، وحلب، وأرسل سيما الطويل بأنطاكية يدعوه إلى طاعته ليقره على ولايته، فامتنع، فعاوده، فلم يطعه، فسار إليه أحمد بن طولون فحصره بأنطاكية وكان سيىء السيرة مع أهل البلد، فكاتبوا أحمد بن طولون، ودلوه على عورة البلد، فنصب عليه المجانيق، وقاتله، فملك البلد عنوة، والحصن الذي له.
وركب سيما وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل، ولم يعلم به أحد، فاجتاز به بعض قواده فرآه قتيلاً، فحمل رأسه إلى أحمد، فساءه قتله، ورحل عن أنطاكية إلى طرسوس، فدخلها وعزم على المقام بها، وملازمة الغزاة فغلا السعر بها، وضاقت عنه وعن عساكره فركب أهلها إليه بالمخيم، وقالوا له: قد ضيقت بلدنا، وأغليت أسعارنا، فإما أقمت في عدد يسير، وإما رحلت عنا؟ وأغلظوا له في القول، وشغبوا عليه.
فقال أحمد لأصحابه: لتنهزموا من الطرسوسيين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس خاصة العدو أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس فانهزم عنهم ليكون أهيب لهم في قلب العدو.
وعاد إلى الشام، فأتاه خبر ولده العباس وهو الذي استخلفه بمصر أنه قد عصى عليه، وأخذ الأموال وسار إلى برقة مشاققاً لأبيه، فلم يكترث لذلك ولم ينزعج له، وثبت وقضى أشغاله، وحفظ أطراف بلاده، وترك بحران عسكراً، وبالرقة عسكراً مع غلامه لؤلؤ. وكانت حران لمحمد بن أتامش، وكان شجاعاً، فأخرجه عنها، وهزمه هزيمة قبيحة، واتصل خبره بأخيه موسى بن أتامش، وكان شجاعاً بطلاً فجمع عسكراً كثيراً وسار نحو حران، وبها عسكر ابن طولون مقدمهم أحمد بن جيعويه.
فلما اتصل به خبر مسير موسى أقلقه ذلك وأزعجه، ففطن له رجل من الأعراب يقال له: أبو الأغر، فقال له: أيها الأمير مفكراً منذ أتاك خبر ابن أتامش، وما هذا محله، فإنه طياش قلق، ولو شاء الأمير أن آتيه به أسيراً لفعلت.
فغاظه قوله وقال: قد شئت أن تأتي به أسيراً. قال: فاضمم إليّ عشرين رجلاً اختارهم.
قال: افعل.
فاختار عشرين رجلاً، وسار بهم إلى عسكر موسى، فلما قاربهم كمن بعضهم، وجعل بينه وبينهم علامة إذا سمعوها ظهروا، ثم دخل العسكر في الباقين في زي الأعراب، وقارب مضارب موسى وقصد خيلاً مربوطة فأطلقها وصاح هو وأصحابه فيها، فنفرت، وصاح هو ومن معه من الأعراب وأصحاب موسى غارون وقد تفرق بعضهم في حوائجهم، وانزعج العسكر وركبوا، وركب موسى، فانهزم أبو الأغر من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من العسكر وجاز به الكمين فنادى أبو الأغر بالعلامة التي بينهم، فثار من النواحي وعطف أبو الأغر على موسى فأسروه، فأخذوه وساروا حتى وصلوا إلى ابن جيعويه، فعجب الناس من ذلك وحاروا، فسيره ابن جيعويه إلى ابن طولون، فاعتقله، وعاد إلى مصر، وكان ذلك في سنة خمس وستين ومائتين.
وفي هذه السنة: ظهر ببلاد الصين إنسان لا يُعرف مجمع جمعاً كثيراً من أهل الفساد والعامة، فأهل الملك أمره استصغاراً لشأنه فقوي وظهر حاله، وكثف جمعه، وقصده أهل الشر من كل ناحية، فأغار على البلاد، وأخربها، ونزل على مدينة خانقوا فحصرها وهي حصينة، ولها نهر عظيم وبها عالم كثير من المسلمين، والنصارى واليهود، والمجوس، وغيرهم من أهل الصين.
فلما حصر البلد اجتمعت عساكر الملك وقصدته، فهزمها وافتتح المدينة عنوة، وبذل السيف، =

ودخلت سنة خمس وستين ومائتين

وفيها: كانت بين أحمد بن ليثويه، وسليمان بن جامع قائد الزنج وقعة بناحية جُنْبُلاء[1] فقتل من أصحاب سليمان سبعة وأربعين قائداً، وخلق من الجند لا يحصى

= فقتل منهم ما لا يحصى كثرة.
ثم سار إلى المدينة التي فيها الملك، وأراد حصرها فالتقاه ملك الصين، ودامت الحرب بينهما نحو سنة ثم انهزم الملك وتبعه الخارجي إلى أن تحصن منه في مدينة من أطراف بلاده، واستولى الخارجي على أكثر البلاد والخزائن، وعلم أنه لا بقاء له في الملك إذ ليس هو من أهله فأخرب البلاد، ونهب البلاد، وسفك الدماء فكاتب ملك الصين ملوك الهند يستمدهم، فأمدوه بالعساكر، فسار إلى الخارجي، فالتقوا واقتتلوا نحو سنة أيضاً، وصبر الفريقان، ثم إن الخارجي أعدم.
فقيل: إنه قتل. وقيل: بل غرق.
وظفر الملك بأصحابه وعاد إلى مملكته ولقب ملوك الصين: يعفور - ومعناه ابن السماء - تعظيماً لشأنه وتفرق الملك عليه، وتغلبت كل طائفة على طرف من البلاد، وصار الصين على ما كان عليه ملوك الطوائف يظهرون له الطاعة، وقنع منهم بذلك، وبقي على ذلك مدة طويلة.
وفي هذه السنة: رابع عشر رمضان ملك المسلمون سرقوسة وهي من أعظم صقلية، وكان سبب ملكها: أن جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع قطانية، وطبرمين، ورمطة، وغيرها من بلاد صقلية التي بيد الروم.
ونازل سرقوسة فحصرها براً وبحراً، وملك بعض أرباضها ووصل مراكب الروم نجدة لها فسير إليها أسطولاً، فأصابوها فتمكنوا حينئذٍ من حصرها.
فأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر، فتحت، وقتل من أهلها عدة ألوف، وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى، ولم ينج من رجالها إلاّ الشاذ الفذ، وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين، ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون، فظفر بهم المسلمون، وأخذوا منهم أربع قطع، وقتلوا فيها، وانصرف المسلمون إلى بلدهم آخر ذي القعدة.
وفي هذه السنة: سيَّر محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش إلى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة، فقاتل أهلها، ثم انتقل إلى تطيلة، وجال في مواضع بني موسى، ثم دخل بنبلونة، فخرب كثيراً من حصونها وأذهب زروعها، وعاد سالماً.
وفيها: سار جمع من العرب إلى مدينة جليقية فكان بينهم وقعة عظيمة قتل فيها من الطائفتين كثير.
وفيها: فرغ إبراهيم بن محمد بن الأغلب صاحب إفريقية من بناء رقادة، وكان ابتداء عمارتها سنة ثلاث وستين ومائتين، ولما فرغت انتقل إبراهيم إليها.
وفيها: وجه يعقوب بن الليث جيشاً إلى الصيمرة مقدمه إليها وأخذوا صعون فأحضروه عنده، فمات.
وفيها: ماتت قبيحة أم المعتز.
وفيها: وقع الطاعون بخراسان جميعها، وقومس فأفنى خلقاً كثيراً.
وحج بالناس هذه السنة: هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى الهاشمي.
وفيها: توفي أبو زرعة الرازي، واسمه عبيد اللّٰه بن عبد الكريم، وكان حافظاً للحديث ثقة.
ومحمد بن إسماعيل بن عُلية، وكان موته بدمشق.
وفيها: مات أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي، وكان موته بمصر.
وعلي بن حرب الطائي، وكان إماماً في الحديث.

(١) قال ياقوت: جُنْبُلاء: كورة وبليد، وهو منزل بين واسط والكوفة منه إلى قناطر بني دار إلى واسط.

عددهم، واستباح عسكره، وأحرق سفنه، فمضى مغلولاً حتى وافى طميثا[١].

وفيها: لحق محمد المولد بيعقوب بن الليث فصار إليه، وقبض السلطان على أمواله وضياعه.

وفيها: قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبيد اللّه، وأمر بقبض ضياعهما وأسبابهما، وصولحا على تسعمائة ألف دينار.

واستكتب الموفق صاعد بن مخلد، واستوزر إسماعيل بن بلبل.

وفيها: مات يعقوب بن الليث بالأهواز وخلفه أخوه عمرو بن الليث، وكتب عمرو إلى السلطان أنه سامع ومطيع[٢].

---

(١) كذا جاء رسمها في المخطوط وفي الكامل: طهثا، قد أشرت إلى كثرة الاختلاف في رسم تلك البلد أو الموضع. وقد ذكر ابن الأثير سبب تلك الوقعة فقال: كان سببها أن سليمان كتب إلى الخبيث يخبره بحال نهر يسمى الزهري، ويسأله أن يأذن له في عمله، فإنه متى أنفذه تهيأ له حمل ما في جنبلا وسواد الكوفة.
فأنفذ إليه نكرويه لذلك وأمره بمساعدته والنفقة على عمل النهر.
فمضى سليمان فيمن معه، وأقام بالشريطة نحواً من شهر، وشرعوا في عمل النهر.
وكان أصحاب سليمان في أثناء ذلك يتطرقون ما حولهم فواقعه أحمد بن ليثويه وهو عامل الموفق بجنبلاء، فقتل من الزنوج نيفاً وأربعين قائداً. . .
وفيها سار جماعة من الزنوج في ثلاثين سميرية إلى جبل فأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا.

(٢) كذا جاء خبر موت عند ابن مسكويه، وفصل ابن الأثير الخبر فقال:
وفيها مات يعقوب بن الليث الصفار تاسع شوال بجنديسابور من كور الأهواز. وكانت علته القولنج، فأمره الأطباء بالاحتقان بالدواء، فلم يفعل واختار الموت. وكان المعتمد قد أنفذ إليه رسولاً وكتاباً. يستميله ويترضاه، ويقلده أعمال فارس، فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له وجعل عنده سيفاً، ورغيفاً من الخبز الخشكار ومعه بصل.
وأحضر الرسول فأدى الرسالة فقال له: قل للخليفة إنني عليل فإن متُّ فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتعقرني، وأعود إلى هذا الخبز والبصل.
وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات. وكان الحسن بن زيد العلوي يسمي يعقوب بن الليث: السندان، لثباته.
وكان يعقوب قد افتتح الرُّخج وقتل ملكها وأسلم أهلها على يده، وكانت مملكته واسعة الحدود، وكان اسم ملكها: كبتير، وكان يحمل على سرير من ذهب يحمله اثنا عشر رجلاً.
وابتنى على جبل عالٍ بيتاً وسماه: مكة، وكان يدَّعي الألوهية، فقتله يعقوب، وافتتح الخلجية، وزابل، وغير ذلك.
ولم أعلم أي سنة كان ذلك حتى أذكره فيها.
وكان يعقوب عاقلاً حازماً، وكان يقول: من عاشرته أربعين يوماً فلم تعرف أخلاقه، فلا تعرفها في أربعين سنة.
وتقدم من سيرته ما يدل على عقله، ولما مات قام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى الخليفة بطاعته، فولاّه الموفق خراسان وفارس، وأصبهان، وسجستان والسند، وكرمان، والشرطة ببغداد، وأشهد بذلك وسيره إليه مع الخلع.

وفيها: لحق العباس بن أحمد بن طولون مع من تبعه ببرقة، مخالفاً لأبيه أحمد.

وكان أبوه استخلفه على عمله بمصر لما توجه إلى الشام.

فلما انصرف أحمد عن الشام راجعاً إلى مصر حمل العباس ما في بيت المال بمصر، وما كان لأبيه هناك [١٢٥/ب] من مال وأثاث وغير ذلك ومضى إلى برقة.

فوجه إليه أبو جيشاً فظفروا به ووجهوا إلى أبيه، فحبسه عنده، وقتل بسببه وما كان منه جماعة كانوا شايعوا ابنه على ذلك(١).

---

(١) وفصل ابن الأثير الخبر أكثر من ذلك فقال في عصيان العباس لأبيه: وفيها عصى العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، وسبب ذلك: أن أباه كان قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس، كما ذكرناه.
فلما أبعد عن مصر حَسَّن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانشراح إلى برقة ففعل ذلك، وأتى برقة في ربيع الأول. وبلغ الخبر أباه، فعاد إلى مصر، وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه، فلم يرجع إليه. وخاف من معه، فأشاروا عليه بقصد إفريقية فسار إليها وكاتب وجوه البربر، فأتاه بعضهم وامتنع بعضهم.
وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول: إن أمير المؤمنين قد قلّدني أمر إفريقية وأعمالها.
ورحل حتى أتى حصن بلدة ففتحه أهله له، فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم، فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور النفوسي رئيس الأباضية هناك، فاستعانوا به، فغضب لذلك وسار إلى العباس ليقاتله.
وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً وأمره بقتال العباس، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً قاتل العباس فيه بيده.
فلما كان الغد، وافاهم إلياس بن منصور الأباضي في اثني عشر ألفاً من الأباضية، فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس، فقتل من أصحابه خلق كثير، وانهزم أقبح هزيمة، وكاد يؤسر فخلصه مولى له، ونهبوا سواده، وأكثر ما حمله من مصر، وعاد إلى برقة أقبح عودة وشاع بمصر أن العباس انهزم، فاغتم والده حتى ظهر عليه.
وسير إليه العساكر لما علم سلامته، فقاتلوه قتالاً صبر فيه الفريقان، فانهزم العباس ومن معه، وكثر القتلى في أصحابه.
وأخذ العباس أسيراً وحمل إلى أبيه فحبسه في مجرة في داره إلى أن قدم باقي الأسرى من أصحابه.
فلما قدموا أحضرهم أحمد عنده والعباس معهم، فأمره أبوه أن يقطع أيدي أعيانهم وأرجلهم، ففعل.
فلما فرغ منه، وبخه أبوه وذمه وقال له: هكذا يكون الرئيس والمقدم، كان الأحسن أنك كنت ألقيت بنفسك بين يدي وسألت الصفح عنك وعنهم فكان أعلى لمحلك، وكنت قضيت حقوقهم فيما ساعدوك، وفارقوا أوطانهم لأجلك.
ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ودموعه تجري على خدّه رقة لولده، ثم رده إلى الحجرة، واعتقله. وذلك سنة ثمان وستين ومائتين.

وفيها: دخل الزنج خَيْل[١] والنعمانية[٢]، فأحرقوا وسبوا إلى جَرْجَرَايا[٣]، ودخل أهل السواد بغداد.

وفيها: ولي أبو أحمد عمر بن الليث خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، وكرمان، والسند، وشهد له بذلك، ووجه إليه العهد، والخلع.

وفيها: سار مسرور البلخي إلى الليل وكان هناك عبد اللّه بن ليثويه وكان يظهر الخلاف على السلطان، فلما قصد مسرور، ومن معه تلقوه، وترجلوا له، وانقادوا له بالسمع والطاعة. وعبد اللّه بن ليثويه قد نزع سيفه ومنطقته وعلقهما في عنقه وهو يعتذر ويحلف أنه كان محمولاً على ما فعل.

فقبل منه وخلع عليه وعلى عدة من قواده[٤].

---

(١) قال ياقوت:
خَيْلٌ: كورة وبليدة بين الري وقزوين محسوبة من أعمال الري، وهي إلى قزوين أقرب، بينها وبين قزوين عشرة فراسخ ولها عدة قرى ومنبر وأسواق.

(٢) وقال عن النُّعمانية: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته وأهلها شيعة غالية كلهم وبها سوق وأرطال وافية، ولذلك صَبَحُ الذهب يخالف سائر أعمال العراق.

(٣) وقال ياقوت أيضاً: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي كانت مدينة وخربت مع ما خرب من النهروان.
وقد خرج منها جماعة من العلماء، والشعراء، والكتاب، والوزراء، ولها ذكر في الشعر قال ابزون العماني:

ألا يا حبذا يوماً جررنا ذيول اللهو فيه بجرجرايا

(٤) ذكر ابن الأثير مسرور في أحداث تلك السنة وذكر أنه فيها تولى على كور الأهواز من قِبل الموفق فقال في خبره:
وفيها: استعمل الموفق مسروراً البلخي على كور الأهواز، فولى مسرور ذلك تكين البخاري فسار إليها تكين، وكان علي بن أبان، والزنج قد أحاطوا بتستر فخاف أهلها وعزموا على تسليمها إليهم، فوافاهم في تلك الحال تكين البخاري، فواقع علي بن أبان قبل أن ينزع ثيابه، فانهزم عليّ والزنج، وقتل منهم كثير وتفرقوا، ونزل تكين بتستر. وهذه الوقعة تعرف بوقعة باب كورك وهي مشهورة.
ثم إن عليًا قدم عليه جماعة من قواد الزنج، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس، فهرب منهم غلام رومي إلى تكين وأخبره بمقامهم بالقنطرة، وتشاعلهم بالنبيذ، وتفرقهم في جمع الطعام. فسار تكين إليهم ليلاً، فأوقع بهم وقتل من قوادهم جماعة، فانهزم الباقون وسار تكين إلى علي بن أبان، فلم يقف له عليّ، وانهزم وأسر غلام له يعرف بجعفرويه. ورجع على الأهواز. ورجع تكين إلى تستر.
وكتب عليّ إلى تكين يسأله الكف عن قتل غلامه فحبسه.
ثم تراسل عليّ وتكين وتهاديا.
فبلغ الخبر مسروراً بميل تكين إلى الزنج، فسار حتى وافى تكين وقبض عليه وحبسه عند إبراهيم بن جعلان حتى مات. وتفرق أصحاب تكين، ففرقة سارت إلى الزنج وفرقة سارت إلى محمد بن عبيد اللّه الكردي فبلغ ذلك مسروراً فأمنهم فجاءه منهم الباقون. =

ودخلت سنة ست وستين ومائتين

وفيها: ولي عمرو بن الليث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر خلافته على الشرطة ببغداد، وسُرَّ مَنْ رَأَى [في صفر][1] وخلع أبو أحمد عليه، فلما سار عبد الله إلى منزله خلع عليه فيه خلعه عمرو بن الليث، وبعث إليه عمرو مع خلعته عموداً من ذهب.

وفيها: مات أبو الساج، [بجنديسابور][1] وكان منصرفاً من الأهواز عن عسكر ابن الليث إلى بغداد.

وفيها[2]: ولي عمرو بن الليث أحمد بن عبد العزيز بن دلف أصبهان:

= وكان بعض ما ذكرناه من أمر مسرور سنة خمس وستين وبعضه سنة ست وستين ومائتين.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث في تلك السنة لم يذكرها ابن مسكويه هي أن في هذه السنة:
وثب القاسم بن مهاة بدَلَف بن عبد العزيز بن أبي دلف بأصبهان فقتله.
ووثب جماعة من أصحاب أبي دلف بالقاسم فقتلوه، وريسوا عليهم أحمد بن عبد العزيز...
وفيها: قتلت الأعراب جعلان المعروف بالعيار بدمِمًا، وكان خرج يسيّر قافلة فقتلوه، فوُجّه في طلبهم، فلم يلحقوا.
وفيها: عسكر موسى بن أتامش وإسحاق بن كنداجيق، والفضل بن موسى بن بغا، وعبروا جسر بغداد، ومنعهم الموفق فلم يرجعوا، ونزلوا صَرصَر، فاستكتب أبو أحمد الموفق صاعد بن مخلد فمضى إلى أولئك القواد فردهم من صرصر فخلع عليهم.
وفيها: خرج خمسة بطارقة من الروم إلى أذنة فقتلوا وأسروا.
وكان أرجوز والي الثغور، فعزل عنها، فأقام مرابطاً وأسروا نحواً من أربعمائة، وقتلوا نحواً من ألف وأربعمائة، وذلك في جمادى الأولى.
وفيها: غلب أحمد بن عبد الله الخجستاني على نيسابور.
وسار الحسن بن طاهر بن عبد الله إلى مرو، وهو عامل أخيه محمد بن طاهر، وأُخربت طوس.
وفيها: استوزر أبو الصقر إسماعيل بن بلبل.
وفيها: وثب جماعة من الأعراب من بني أسد على عليّ بن مسرور البلخي، قبل وصوله إلى المغيثة بطريق مكة، وكان الموفق ولاه الطريق.
وفيها: بعث ملك الروم إلى أحمد بن طولون بعبد الله بن رشيد بن كاوس وعِدّة أسرى، وأنفذ معهم عدة مصاحف منه هدية إليه.
وحج بالناس: هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.
وفيها: كانت موافاة أبي المغيرة عيسى بن محمد المخزومي إلى مكة لصاحب الزنج.
وفيها: توفي أبو بكر أحمد بن منصور الزنادي، وعمره ثلاث وثمانون سنة. وإبراهيم بن هانئ، أبو إسحاق النيسابوري وكان من الأبدال، قد صحب أحمد بن حنبل، وعلي بن حرب بن محمد الطائي الموصلي، مولده سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: غير ذلك، وقد تقدم.
وعلي بن موفق الزاهد.
وفيها: قتل أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي، قتله الزنج بالبصرة، أخذ العلم عن أبي عبيدة، والأصمعي.

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل، والخبر هنا أتم مما في الكامل.
(٢) في المخطوط: وفي. وهو تحريف.

وولي محمد بن أبي السَّاج الحرمين، وطريق مكة.

وفيها: وجه مسروراً إلى الأهواز أغرتمش ومطر بن جامع، وأبا الحرب علي بن أبان، وصاحب الزنج، وكانت[١] بينهم بنهر السّدرة ثم ظفر علي بكمين كمنه، وأكبّ الزنج على السلطان فهزموهم وأسر مطر بن جامع فأُتي به علي بن أبان، فاستبقاه مطر.

فقال له علي: لو كنت أبقيت على صاحبنا جعفرويه بتستر لأبقينا عليك.

وكان جعفرويه محبوساً بتستر، فلما سار إليها مطر أخرجه وقتله.

فقام عليّ بيده إلى مطر فضرب عنقه.

وأفلت أغرتمش وأَبًا.

ووجّه بالرؤوس إلى الخبيث [العلوي][٢].

وفيها: كانت بين الأكراد وبين علي بن أبان وقعة، فغلب الأكراد وقتلوا من الزنج مقتلة عظيمة.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك: أنه كان بين محمد بن عبيد اللّه بن أزادمرد الكردي وبين علي بن أبان شحناء، ثم تلاقيا على الصلح.

وكان علي يرصده بشر، وقد عرف محمد بن عبيد اللّه، وكان يروم النجاة منه، وكاتب ابن الخبيث المعروف بأنكلاي [بن العلوي][٣] وسأله مسألة أبيه ضم ناحية إليه.

فأذن له الخبيث، فاستعدّ له علي وسار إليه وواقع برامهرمز ومحمد بن عبيد اللّه يومئذ مقيم بها، فلم يكن لمحمد فيه امتناع، فهرب.

واستباح علي رامهرمز، وكتب محمد إلى عليّ يطلب المسالمة على مال يحمله إليه. فكتب عليّ إلى الخبيث بذلك، فكتب إليه بقبول ذلك، وحمل المال، فحمله[٤]، وأمسك علي عن محمد وأعماله.

ثم كتب يسأله أن يعينه على جماعة من الأكراد بموضع يقال له: الداربان[٥] على

---

(١) في المخطوط: وكاتب. وهو تحريف.

(٢) زيادة من الكامل، وزاد ابن الأثير بعد أن ذكر هذا الخبر بنحو مما هنا، فقال بعد ذلك: وكان عليّ واغرتمش بعد ذلك في حروبهم على السواء.
وصرف صاحب الزنج أكثر جنوده إلى عليّ بن أبان، فلما رأى ذلك اغرتمش وادعه.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) في الكامل: فحمل إليه مائتي ألف درهم، فأنفذها إلى صاحب الزنج، وأمسك عن محمد بن عبيد اللّه وأعماله.

(٥) وفي الكامل: الدارنان: وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هنا.

أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم.

فكتب علي إلى الخبيث يستأذنه في النهوض إلى ذلك.

فكتب إليه: أن وجّه الخليل بن أبان، أخان[١] وبهبود، وأقم أنت لا تنفذ جيشك حتى تستوثق من محمد بن عبيد اللّه برهائن تكون في يدك تأمن بهم من غدره، فقد وترته وهو غير مأمون. فكتب عليّ إلى محمد بذلك، وسأله الرهائن فأعطاه محمد الأيمان والعهود ودافعه عن الرهائن[٢].

ذكر عجلة وحرص كانتا سبب ترك الحزم

فدعا على بن أبان الحرص على الغنائم التي أطمعه فيها محمد إلى أن نفذ الجيش قبل تحصيل الرهائن.

فساروا ومعهم رجال محمد حتى وافوا الموضع المقصود، فخرج إليهم أهله، فنشبت الحرب وظهر الزنج على الأكراد، ثم خذلهم أصحاب محمد بن عبيد اللّه، وصدقهم الأكراد، فانهزموا.

وكان محمد أعدّ لهم قوماً فعارضوهم وهم منهزمون، فأوقعوا بهم وسلبوهم وقتلوهم، فرجعوا بأسوأ حال. فكتب المهلبي إلى الخبيث بما ركبه محمد. فكتب إليه يعنفه ويقول: خالفتني وتركت الحزم وتبعث هواك، فذاك الذي أردى جيشك. وكتب الخبيث إلى محمد: أنه لم يخف عليّ تدبيرك على جيش علي بن أبان، ولن تعدم المكافأة على ما كان منك.

فارتاع محمد مما ورد عليه، وكتب إليه بالخضوع، وكتب:

إني أرتجع جميع ما ذهب من عسكر الخليل بن أبان، وتوعد من فعل ذلك وأقصده بكل مكروه. فأظهر الخبيث غضباً، وكتب إليه يتهدده. فأعاد محمد الكتاب بالاستكانة. وكتب إلى بهبود يتضمن له مالاً ولغيره ممن يقرب من الخبيث، فلم يزلوا حتى سألوا خيمته على محمد.

وأظهر الخبيث الرضا عن محمد وقال: لست أقبل ما يقول أو يخطب لي على منابر أعماله. فأجابه محمد إلى ما أراد، ثم راوغه. وقصد عليّ متوث، فلم يطقها[٣] لحصانتها، فاتخذ لها سلاليم وآلات الحرب، وكان مسرور عرف قصد عليّ متوث[٤]،

---

(١) كذا هذه الكلمة في هذا الموضع وربما سقط قبلها حرف الواو وكانت اسماً لشخص من القواد، فاللّه أعلم.

(٢) في الكامل: ومطله بالرهائن، وهذا طبعاً دليل أو علامة نية الغدر.

(٣) في المخطوط: يطلقا. وهو تحريف.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان: مَتُوث: قلعة حصينة بين الأهواز وواسط، قد نسب إليها جماعة =

فلما سار إليها عليّ وافاه مسرور قبل الغروب[١] وهو مقيم عليها.

فلما [١٢٦/أ] عاين أصحاب عليّ أوائل خيل مسرور انهزموا، وتركوا العسكر وجميع الآلات التي أعدوها، وقتل منهم خلق كثير. وانصرف علي مهزوماً[٢] مغلولاً. ولم يلبث حتى تتابعت الأخبار بأقيال أبي أحمد إلى سوق الخميس وطميثا.

وفتح أبي أحمد إياها، ثم ورد عليه كتاب يخفره خفراً شديداً بالمسير إليه في عسكره[٣].

= من أهل العلم والحديث.

قال أبو الفرج الأصبهاني: متوث مدينة بين سوق الأهواز وبين قُرْقُوب اجتزت بها سنة (٣٢٧).

(١) في المخطوط: المغروب. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: مذكوراً وهو تحريف.

(٣) ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث في هذه السنة لم يذكرها المؤلف هنا وهي أنه قال:

وفيها في صفر: غلب اساتكين على الشرطة، وهي الآن من أعمال سجستان، وعلى الري، وأخرج منها حظلخجور العامل عليها، ثم مضى إلى قزوين، وعليها أخو كيغلغ فصالحه، ودخل اساتكين قزوين، ثم رجع إلى الري.

وفيها: وردت سرية من سرايا الروم إلى تل يَسْهَى من ديار ربيعة، فأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنساناً، ومثلت بالمسلمين فنفر إليهم أهل الموصل، ونصيبين، فرجعت الروم...

وفيها: فارق إسحاق بن كنداج أحمد بن موسى بن بغا، وكان سبب ذلك:

أن أحمد لما سار إلى الجزيرة وولي موسى بن أتامش ديار ربيعة، فأنكر ذلك إسحاق بن كنداج، فارق عسكره، وسار إلى بلد، فأوقع بالأكراد اليعقوبية فهزمهم، وأخذ أموالهم.

ثم لقي ابن مساور الخارجي فقتله، وسار إلى الموصل فقاطع أهلها على مال قد أعدوه. وكان قائد كبير بمعلثايا اسمه: علي بن داود وهو المخاطب له عن أهل الموصل والمدافع فسار ابن كنداج إليه.

فلما بلغه الخبر فارق معلثايا، وعبر دجلة، ومعه حمدان بن حمدون إلى إسحاق بن أيوب بن أحمد التغلبي العدوي، فاجتمعوا كلهم فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر ألفاً. وسمع ابن كنداج باجتماعهم، فعبر إلى البلد وعبر دجلة إليه، وهو في ثلاث آلاف، وسار إلى نهر أيوب، فالتقوا بكراثا ـ وهي التي تعرف اليوم بتل موسى ـ وتصافوا للحرب.

فأرسل مقدم ميسرة بن أيوب إلى ابن كنداج يقول له: إنني في الميسرة فاحمل عليَّ لأنهزم.

ففعل ذلك فانهزمت ميسرة بن أيوب وتبعها الباقون.

فسار حمدان بن حمدون وعلي بن داود إلى نيسابور، وأخذ ابن أيوب نحو نصيبين فاتبعه ابن كنداج، فسار ابن أيوب عن نصيبين إلى آمد، واستولى ابن كنداج على نصيبين، وديار ربيعة.

واستجار ابن أيوب بعيسى ابن الشيخ الشيباني وهو بآمد فأنجده، وطلب النجدة من أبي المعز بن موسى بن زرارة ـ وهو بارزن ـ فأنجده أيضاً.

وعاد ابن كنداج إلى الموصل، فوصل إليه من الخليفة المعتمد عهد بولاية الموصل، فعاد إليها، فأرسل إليه ابن الشيخ، وابن زرارة، وغيرهم، بذلوا له مائتي ألف دينار ليقرهم على أعمالهم. فلم يجيبهم، فاجتمعوا على حربه.

فلما رأى ذلك أجابهم إلى ما طلبوا، وعاد عنهم، وقصدوا بلادهم.

وفيها: أمر محمد بن عبد الرحمن بإنشاء مراكب بنهر قرطبة، وحملها إلى البحر المحيط، وكان سبب عملها: =

....

= أنه قيل له: إن جليقية ليس لها مانع من جهة البحر المحيط، وأن ملكها من هناك سهل. فأمر بعمل المراكب، فلما فرغت وكملت برجالها وعدتها، سيرها إلى البحر المحيط. فلما دخلته المراكب تقطعت ولم يجتمع منها مركبان، ولم يرجع منها إلا اليسير.
وفيها: التقى اسطول المسلمين واسطول الروم عند صقلية، فجرى بينهم قتال شديد فظفر الروم بالمسلمين، وأخذوا مراكبهم، وانهزم من سلم منهم إلى مدينة بلرم بصقلية.
وفيها: كان بإفريقيا غلاء شديد وقحط عظيم كادت الأقوات تعدم.
وفيها: قتل أهل حمص عاملهم عيسى الكرخي.
وفيها: أسر لؤلؤ غلام أحمد بن طولون من رابية بني تميم إلى موسى بن أتامش وهو برأس عين، فأخذه أسيراً وسيره إلى الرقة، ثم لقي لؤلؤ أحمد بن موسى بن أتامش ومن معه من الأعراب، فانهزم لؤلؤ ورجع الأعراب إلى عسكر أحمد لينهبوه فعطف عليه لؤلؤ وأصحابه فانهزموا، فبلغت هزيمتهم قرقيسيا، ثم ساروا إلى بغداد وسامرا.
وقد ذكرت فيما تقدم أن الذي أسر موسى غير لؤلؤ على ما ذكره مؤرخو مصر.
وفيها: كانت بين أحمد بن عبد العزيز، وبكتمر وقعة، فانهزم بكتمر وسار إلى بغداد.
وفيها: أوقع الخجستاني بالحسن بن زيد بجرجان - وهو غار - فلحق بآمل، وغلب الخجستاني على جرجان وأطراف طبرستان. فكان الحسن لما سار عن طبرستان إلى جرجان استخلف بسارية الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن حسين الأصغر العتيقي. فلما انهزم الحسن بن زيد أظهر العقيقي بسارية أنه قتل ودعا إلى البيعة لنفسه فبايعه قوم، ووافاه الحسن بن زيد فحاربه، ثم ظفر به فقتله.
وفيها: كانت وقعة بين الخجستاني، وعمرو بن الليث، انهزم فيها عمرو، ودخل الخجستاني نيسابور، وأخرج منها عامل عمرو ومن كان يميل إليه.
وفيها: كانت فتنة بالمدينة ونواحيها بين العلويين والجعفرية... وغلا السعر بها حتى تعذرت الأقوات، وعم الغلاء سائر البلاد من الحجاز، والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، وغير ذلك إلاّ أنه لم يبلغ الشدة بالمدينة.
وفيها: وثب على كسوة الكعبة فانتهبوها وسار بعضها إلى صاحب الزنج، وأصاب الحجاج فيها شدة شديدة.
وفيها: خرجت الروم على ديار ربيعة، فاستفز الناس فنفروا في برد شديد لا يمكن فيه دخول الدرب.
وفيها: غزا سيما خليفة أحمد بن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس، فخرج عليهم نحو من أربعة آلاف من بلاد هرقلة.
فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل المسلمون خلقاً كثيراً من العدو، وأصيب من المسلمين جماعة.
وفيها: كان الناس في البلاد التي تحت حكم الخليفة جميعها في شدة عظيمة يتغلب القواد وأمراء الأجناد على الأمر وقلة المراقبة، والأمن من إنكار ما يأتونه ويفعلونه لاشتغال الموفق بقتال صاحب الزنج، ولعجز الخليفة المعتمد واشتغاله بغير ذلك.
وفيها: اشتد الحر في تشرين الثاني ثم اشتد البرد حتى جمد الماء.
وفيها: قدم محمد بن أبي السّاج مكة فحاربه المخزومي، فهزمه محمد، واستباح ماله وذلك يوم التروية.
وفيها: سار كيغلغ إلى الجبل وبكتمر راجعاً إلى الدينور.
وحج بالناس في هذه السنة: هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.
وفيها: توفي محمد بن شجاع أبو بكر الثلجي، وكان من أصحاب الحسن بن زياد اللؤلؤي صاحب أبي حنيفة الثلجي.
وفيها: توفي صالح بن أحمد بن حنبل، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

ودخلت سنة سبع وستين ومائتين

وفيها: غلب أبو العباس بن الموفق على عامة ما كان سليمان صاحب الزنج غلب عليه من قرى دجلة[١].

الخبر عن ذلك

أن الزنج لما دخلوا واسطاً كان منهم ما ذكرنا الخبر بأبي أحمد استعظمه فخف للنهوض ابنه أبو العباس، فلما استجمع أمره ركب أبو أحمد فعرض أصحابه، ووقف على عدتهم، وكان جميع الفرسان والرجالة عشرة آلاف رجل في أحسن زي، وأجمل هيئة، وأكمل عدة، ومعهم الشذات، والسميريات والمعابر وللرجالة.

فنهض أبو العباس[٢]، فانصرف أبو أحمد تشييعه، وأقام أبو العباس بالهزل حتى تكامل أصحابه وأقام أيضاً بالمدائن، ثم رحل إلى دير العاقول[٣] فوافاه كتاب نصر أبي حمزة صاحب الشذات والسميريات وكان أمضاه على مقدمته يعلمه أن سليمان بن جامع قد وافى خيله ورجاله، وشذاته، والجبائي يقدمه حتى نزل الجزيرة التي بحضرة بردودا[٤].

فرحل أبو العباس حتى وافى جرجرايا ثم فم الصلح[٥] ثم ركب الظهر حتى وافى الصلح، ووجه طلائعه ليعرف الخبر، فأخبروه بموافاة القوم وجمعهم، وأن أول جيشهم بالصلح، وآخرهم ببستان موسى بن بغا أسفل واسط. فلما عرف ذلك عدل سنن الطريق وسار معرضاً ولقي أصحابه أوائل القوم فتطاردوا لهم، وأمعن الزنج في طلبهم، فجعل الناس يقولون اطلبوا للحرب أميراً، فإن أميركم مشغول بالصيد. فلما قربوا من أبي العباس بالصلح خرج عليهم فيمن معه من الخيل والرجل فأمر ونودي نصير: إلى

---

(١) جاء بعد ذلك في الكامل تعريف بأبي العباس نصه:
وهذا أبو العباس هو الذي صار خليفة بعد المعتمد، فلقّب المعتضد باللّه.

(٢) في الكامل في التاريخ:
فسار في ربيع الآخر سنة ست وستين ومائتين وشيعه أبوه وسير معه عشرة آلاف من الرجالة والخيالة في العدة الكاملة.

(٣) قال ياقوت: دير العاقول: بين مدائن كسرى والنعمانية، وبينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً على شاطئ دجلة كان، فأما الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل، وكان عنده بلد عامر وأسواق أيام كون النهروان عامراً، فأما الآن فهو بمفرده في وسط البرية، وبالقرب منه دير قُنّي.

(٤) في الكامل: بردزويا، وأشار محققه إلى أنه في الطبري كما هنا، وقال في المعجم: بردرايا.

(٥) قال ياقوت: هو نهر كبير فوق واسط بينها وبين جَبُل عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون.
وفيه بنى المأمون ببوران، وقد نسب إليه جماعة من الرواة والمحدثين وغيرهم، وهو الآن خراب إلاّ قليلاً.

أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب؟ ارجع إليهم. فرجع نصير وركب أبو العباس في سميرية، وحمل الناس من كل جهة فانهزم الزنج، وأصحاب أبي العباس يقتلونهم إلى أن وافى بهم قرية عبد اللّه، وهي على ستة فراسخ من الموضع الذي لقوهم، وأخذوا عدة شذات وسميريات من قوم وغرق قوم. فكان ذلك أول فتح على يد أبي العباس. وأشار على أبي العباس قواده ونصحاؤه أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى، وقال: أين التيقظ؟ ونزل واسطاً.

ولما انهزم سليمان بن جامع وأصحابه فوافوا بنهر الأمير.

وكان القوم حين لقوا أبا العباس أجالوا الرأي بينهم، فقالوا:

هذا فتى حدث لم تطل ممارسته للحرب. والرأي أن نرميه بجدنا كله فإنه سيرتاع ويكون سبباً لانصرافه عنا، أو أسره.

ففعلوا ذلك وحشدوا، وكاد يتم لهم ما دبروه، ثم كانت الدبرة عليهم. ودخل أبو العباس واسطاً من غد يوم الوقعة في أحسن زي، واستأمن إليه القوم ثم انحدر إلى الغمر وهو على فرسخ من واسط فقدم فيه عسكره.

وكان الناس أشاروا عليه أن يعسكر فوق واسط، فأبى، ونزل الغمر.

ثم أخذ في بناء الشذات وآلات الماء، وأخذ يراوح القوم القتال ويغاديهم.

ثم إن سليمان استعدله مرة أخرى وحشر، فلقيهم أبو العباس فهزمهم، وقتل وأسر. ثم أتاه مخبر فأخبره: أن الزنج قد أجمعوا واستعدوا لكبس عسكره من ثلاثة أوجه، وأنهم قالوا فيما بينهم: إنه حدثٌ غِرّ قد خاطر فغرر بنفسه، فألقوا له ولا يتم له ذلك أبداً. فلما علم ذلك بتدبيرهم حذر، وكانوا كمنوا له عشرة آلاف في موضعين وطمعوه في أنفسهم.

فمنع أبو العباس [أصحابه][1] من اتباعهم. فلما علموا أن كيدهم لم ينفذ اجتمعوا له وكاثروه فهزمهم، وأفلت سليمان رجلاً ومضى جيشهم لا يلوي أحد على أحد.

ورجع أبو العباس إلى مكانه بالغمر.

ثم إن الجبائي كان تحته في الطلائع في كل ثلاثة أيام[2].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) الخبر في آخره في الكامل على النحو التالي: فلما علموا أن كيدهم لم يتم خرج سليمان في الشذاوات والسميريات، فأمر أبو العباس نصيراً أن يبرز إليهم، وركب هو شذاة من شذاواته سماها الغزال ومعه جماعة من خاصته، وأمر الخيالة بالمسير بإزائه من شاطئ النهر إلى أن ينقطع، فعبر دوابهم ونشبت الحرب بين الفريقين، فوقعت الهزيمة على الزنج، وغنم العباس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبائي، بعد أن أشفيا على الهلاك وبلغوا طهثا وأسلموا ما كان معهم.

ذكر حيلة للجبائي ما تمت له

أمر الجبائي بحفر آبار وصير فيها سفافيد حديد، وغشي بالبواري وواراها بالتراب، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنن مسير الجبل ليتهور فيها المجتازون. وكان يوافي متعرضاً ويهيج الناس، فجاء فطلبت الخيل، فتقطر فرس قائد في بئر منها، فوقف أصحاب أبي العباس على حيلته، فحذروا ذلك السمت، ولم يمتحن غير ذلك القائد الواحد[١] ثم عادوا التعرض للحرب في كل يوم إلى أن استجرأ عليهم جند أبي العباس فكان أبو العباس يقصدهم ويقتل ويأسر ويستنقذ نساء المسلمين وصبيانهم ويردهم إلى أهليهم إذ عرض لأبي العباس كركي يطير فرماه بسهم فشكه فسقط بين يدي الزنج، فأخذوه، ورأوا موقع السهم فعلموا أنه سهم أبي العباس، فاستشعروا الرعب منه، فكانوا إذا أعلا منه انهزموا ثم عزم أبو أحمد الموفق [١٢٦/ب] على المسير إلى الجيش، ومباشرة الأمر بنفسه.

فعزم أبو العباس على قصد نهر الخميس قبل موافاة أبيه.

فقال له نصير: إن ذلك النهر ضيق، فأقم أنت وأذن لي في المسير إليه، فأبى أن يدعيه حتى يعاينه.

---

(١) زاد ابن الأثير في الكامل بين هذا وبين قصة الكركي ما يلي:
واستمد سليمان صاحب الزنج فأمده بأربعين سميرية بآلاتها ومقاتلتها فعادوا للتعرض للحرب فلم يكونوا يثبتون لأبي العباس، ثم سير إليهم عدة سميريات فأخذها الزنج، فبلغه الخبر وهو يتغدى، فركب في سميرية، ولم ينتظر أصحابه وتبعه منهم من خفّ، فأدرك الزنج فانهزموا، وألقوا أنفسهم في الماء فاستنقذ سميرياته ومن كان فيها، وأخذ منهم إحدى وثلاثين سميرية، ورمى أبو العباس يومئذٍ عن قوس حتى دميت إبهامه.
فلما رجع أمر لمن معه بالخلع، وأمر بإصلاح السميريات المأخوذة من الزنج، ثم إن أبا العباس رأى أن يتوغل مازروان حتى يسير إلى الحجاجية ونهر الأمير ويعرف ما هناك.
فقدم نصيراً في أول السميريات، وركب أبو العباس في سميرية، ومعه محمد بن شعيب، ودخل مازروان، وهو يظن أن نصيراً أمامه، فلم يقف له على خبر، وكان قد سار على غير طريق أبي العباس، وخرج من مع أبي العباس من الملاّحين إلى غنم رأوها ليأخذوها، فبقي هو ومحمد بن شعيب فأتاهما جمع من الزنج من جانبي النهر، فقاتلهم أبو العباس بالنشاب ووافاه زيرك في باقي الشذاوات، فسلم أبو العباس وعاد إلى عسكره، ورجع نصير، وجمع سليمان بن جامع أصحابه، وتحصن بطهثا، وتحصن الشعراني وأصحابه بسوق الخميس، وجعلوا يحملون الغلات إليها.
وكذلك اجتمع بالصينية جمع كثير، فوجه أبو العباس جماعة من قواده على الخيل إلى ناحية الصينية، وأمرهم بالمسير في البر، وإذا عرض لهم نهر عبروه، وركب هو في الشذاوات والسميريات، فلما أبصرت الزنج الخيل خافوا، ولجأوا إلى الماء والسفن، فلم يلبثوا أن وافتهم الشذاوات مع أبي العباس، فلم يجدوا ملجأ، فاستسلموا، فقتل منهم فريق، وأسر فريق، وألقى نفسه في الماء فريق. وأخذ أصحاب أبي العباس سفنهم وهي مملوءة أرزاً، وأخذ الصينية وأزاح الزنج عنها، فحازوا إلى طهثا وسوق الخميس.

فقيل له: إن كنت لا بد فاعلاً، فلا تكثر عدد من تحمل معك في الشذوات فاستعد أبو العباس، وسار نصير بين يديه واستأذنه رجل من قواده يقال له: موسى وألحّ[١] أن يكون بين يديه، فأذن له. وسار حتى انتهى إلى فوهة النهر المؤدي إلى مدينة سليمان بن موسى الشعراني وغاب عنه نصير حتى خفي خبره، وخرج عليه في ذلك الموضع خلق. فتحدث من كان معه قال: لما حالوا بيننا وبين الانتهاء إلى السور فكان بيننا وبينه مقدار فرسخين حاربناهم فاشتد الحرب وخفي أمر نصير علينا، والزنج يهتفون بنا: قد أخذنا نصيراً، وأنتم في قبضتنا.

فاغتم أبو العباس لذلك ووجل منه، فاستأذنه محمد بن شعيب أن يأتيه بخبر نصير، فأذن له.

فمضى في سميرية بعشرين جندياً، فإذا هو بنصير وقد قرب من مكرٍ كانوا مكروه، فأضرمه بالنار وهو يحارب حرباً شديداً وقد رزق الظفر فرجع وأخبر أبا العباس وبشره بسلامة نصير ومن معه وأنه ظافر غانم فسُرَّ به سروراً شديداً.

وكان الزنج قد علقوا بشذاة، فركب أبو العباس في سميرية حتى وافى تلك الشذاة وخلَّصها.

قال محمد: فنزعنا من كير أبي العباس خمساً وعشرين نشابة، ومن لبابيد الملاّحين مثل ذلك وأقل وأكثر، وظفر أبو العباس بالزنج، وهزمهم، وعاد إلى معسكره بالعمر إلى أن وافى الموفق[٢]. وخرج الموفق من مدينة السلام قاصداً حرب الزنج[٣]، وذلك حين بلغه أن صاحب الزنج كتب إلى صاحبه علي بن أبان المهلبي يأمره بالمسير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن جامع ليجتمعا على حرب أبي العباس بن أبي أحمد الموفق.

فأعد أبو أحمد الشذاوات وآلات الماء، وسار في فرسانه ورجاله وغلمانه إلى أن نزل على فرسخ من واسط، فأقام هناك يوماً وليلة، فتلقاه أبو العباس ابنه[٤] في جريدة خيل قواده، ووجوه جنده.

فسأله أبوه عن خبر أصحابه فأثنى عليهم، ووصف نصحهم وبلاءهم فخلع عليهم وعليهم. وانصرف أبو العباس إلى معسكره ودخل أبو أحمد من غد ذلك اليوم في

---

(١) في المخطوط: الحّوا. وهو تحريف.
(٢) وبنحو من هذا جاء الخبر في الكامل.
(٣) في الكامل: وفيها في صفر سار الموفق عن بغداد إلى واسط لحرب الزنج.
(٤) في الكامل: فوصل إلى واسط في ربيع الأول.

الماء، وتلقاه أبو العباس وجميع الجند في هيئة الحرب. ثم سار أمامه إلى أن نزل أبو أحمد وولي ابنه أبا العباس مقدمته ووضع العطاء، فأعطى الجيش، ثم سار على تعبئة وإمامة أبي العباس، فأتاه بأسرى.

وذلك أنه وافى عسكر الشعراني قبل مجيء أبيه، فأوقع به وقتل منه مقتلة عظيمة.

فأمر الموفق بضرب أعناق الأسرى.

ثم رحل أبو أحمد يريد مدينة صاحب الزنج التي سماها: المنيعة من سوق الخميس(١) بمن معه من الجيش وآلات الماء.

فلما رأى سليمان ومن معه من الزنج مسير الخيل والرجالة على حافتي النهر وقد ملؤوا الأرض، ومسير الشذاوات، والسميريات في الماء انهزموا، وعلا أصحاب أبي العباس السور ووضعوا فيهم السيوف، ودخلوا المدينة، وقتلوا خلقاً وأسروا خلقاً وحووا ما في المدينة.

وهرب الشعراني، واتبعوهم حتى وقعوا في البطائح وغرق منهم خلق، ولجأ الباقون إلى الآجام.

واستنقذ من المسلمات خمسة آلاف امرأة سوى الزنجيات، وأمر أبو أحمد بحفظهن ليدفعن إلى أوليائهن.

وبات أبو أحمد بإزائها، فلما أصبح، أمر بأخذ جميع ما فيها، وهدم سورها، وطم خندقها وإحراق آلاتها وسفنها(٢).

وبلغ خبر الوقعة صاحب الزنج، فعظمت مصيبته، واشتد جزعه، وركب إلى سليمان ابن جامع يحذره مثل ما نزل بالشعراني، وأمره بالتيقظ.

وتعرف أبو أحمد خبر الشعراني، فقيل: إنه بالحوانيت(٣). فأنفذ إليه جيشاً فألقوا إليه قواده، ولم يصادفوه، فقتلوا قواده، وانتهبوا هناك غلات كثيرة.

---

(١) في الكامل:
ورحل الموفق بعده فنزل فوهة ابن مساور فأقام يومين، ثم رحل إلى المدينة التي سماها صاحب الزنج المنيعة من سوق الخميس يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الآخر من هذه السنة.
ولم أقف على هذه المدينة التي تدعى: المنيعة.
وكذا لم أقف على ما تسمى بسوق الخميس في معجم البلدان.

(٢) بعدها في الكامل: وأخذوا من الطعام، والشعير، والأرز، وغير ذلك ما لأحد عليه. فأمر ببيع ذلك وصرفه إلى الجند.

(٣) كذا بالحاء المهملة وفي الكامل بالجيم، وأشار محققه إلى أنه في الطبري بالحاء المهملة، ولم أقف على هذا الموضع في كلا الحرفين في معجم البلدان.

وتعرف أبو العباس خبر سليمان بن جامع فأعلم بمكانه من مدينته التي سماها المعودة[١] من الموضع المعروف بطميثا[٢]. فرحل إليها أبو أحمد بعد أن صلّح سفن الجنود، واستكثر من الضياع والآلات التي يسد بها الأنهار والطريق للخيل وتوطئة الأرض لسلوكها.

وفي هذه السنة: دخل أبو أحمد طميثا، وأخرج منها سليمان بن جامع، وقتل فيها أحمد بن مهدي الجبائي، وذلك بعد حروب كثيرة ولما حمل الجبائي إلى الخبيث اشتد جزعه عليه، وسار إليه حتى وَلِيَ غسله، وتكفينه، والصلاة عليه، والوقوف على قبره حتى دفن.

ثم أقبل على أصحابه وقال: قد علمت بوفاته وقبض روحه قبل وصول خبره إليّ، سمعت من زجل الملائكة بالدعاء والترحم عليه.

ثم إن أبا أحمد أمر أهل عسكره بالتحارس ليلتهم وصبح المدينة بكتائب يتلوا بعضها بعضاً ورتب أصحابه وغلمانه في المواضع التي يخشى خروج الزنج منها، ورتب الفرسان في المواضع التي يخاف خروج الكمناء منها.

وقدم ابنه وتتبعه [١٢٧/أ] بنفسه وحضر الغلمان على الحرب، وحشرهم على الأقدام، وقد كان حَصَّنَ الزنج السور بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق سوراً ووكلوا بها رجالهم.

فما أغنى جميع ذلك شيئاً عند الجدّ والجدّ، فهدمت الأسوار، وطمت الخنادق، وهجم على الزنج وكل ذلك بالمصاولة من غير حيلة، سوى أن الموفق كان إذا أتى بالواحد منهم عفا عنه وخلع عليه وأقامه حيث يراه أصحابه حتى استمالهم وكثر في أصحابه منهم، وأمر بالإحسان إليهم حتى فتح المدينة، وهدم أسوارها، وحوى ما فيها[٣]. ثم رحل نحو الأهواز بعد أن أحكم ما أراد إحكامه ليوقع بالمهلبي، واستخلف

---

(١) كذا في المخطوط، وأحسب أنها المعمورة. وفي الكامل: المنصورة، وربما كان ذلك صواب أيضاً.

(٢) كثر الكلام في رسم هذه البلدة أو الموضع فقيل: طهثا، وقيل طمثا، وقيل: طهيثا، وقيل: طميثا، فالله أعلم بالصواب.

(٣) فصل ابن الأثير في هذا الخبر بعد السيطرة والتغلب على موانع الأسوار والخنادق فقال:
فكشفهم أصحاب أبي العباس، ودخلت الشذاوات، والسميريات المدينة من النهر فجعلت تغرق كل ما مَرّت لهم به من سميرية وشذاة، وقتلوا من بجانبي النهر وأسروا، حتى أجلوهم عن المدينة وعما اتصل بها، وكان مقدار العمارة فيها فرسخاً، وحوى الموفق ذلك كله، وأفلت سليمان بن جامع، ونفر من أصحابه وكثر القتل فيهم والأسر.
واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط والكوفة والقرى وغيرها، وصبيانهم أكثر من عشرين ألفاً.
فأمر أبو أحمد بحملهم إلى واسط ودفعهم إلى أهليهم.
وأخذ ما كان فيها من الذخائر والأموال وأمر بصرفه إلى الأجناد.
وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة، وتخلص من كان أخذ من أصحاب الموفق ونجا جمع =

على عسكره بواسط ابنه هارون. وشخص خف من رجاله، وتقدم إلى ابنه هارون في أن ينحدر الجيش الذي يخلّفه في السفن إذا كاتبه بذلك.

وسار حتى أتى وادي السوس[١]، وقد عقد له جسر فعبره، ووافى السوس، وكاتب مسروراً في المبادرة إليه، فقدم إليه في جيشه. فخلع عليه وعلى قواده، وأقام ثلاثاً. وضلت حيل الخبيث، وانقض عليه تدبيره، فحمله فرط الهلع على أن كاتب المهلبي، وهو يومئذ بالأهواز، في ثلاثين ألفاً يترك ما قبله كله والإقبال إليه.

فترك ما كان جمعه من الميرة، والأموال، والأثاث وسار إليه، واستخلف محمد بن يحيى بن سعيد الكرماني.

فوجل من المقام وخرج يتبع المهلبي، وكان يجبي من الأهواز يومئذ من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم فخرجوا عن ذلك كله جنباً وإدبار.

فحوى جميعه الموفق فصار قوة له على الخبيث ولو أراد جميع ذلك الوقت ما قدر على شيء منه.

وكتب أيضاً الخبيث إلى بهبود ـ وإليه يومئذ عمل الفندوم[٢] الباسيان وما يتصل بهما من القرى التي بين الأهواز وفارس ـ يأمره بالقدوم عليه فترك بهبود أيضاً ما كان قبله من التمر والطعام وكان شيئاً عظيماً فحوى جميعه أبو أحمد وقوي به على الخبيث، وتخلف عن المهلبي قوم من الفرسان والرجالة، وكتبوا إلى أبي أحمد يسألونه الأمان لما انتهى إليهم عفوه عمن ظفر به بطهيثا فبذله لهم، وأحسن إليهم.

وأمر الموفق بجباية الأهواز من جميع كورها. ووجه إلى محمد بن عبد اللّه الكردي[٣] من يؤمنه[٤] وعفا عنه، وتقدم إليه في جمع الأموال وتعجيلها نحوه والسير إليه.

= كثير إلى الآجام.
فأمر أصحابه بطلبهم، فأقام سبعة عشر يوماً، وهدم سور المدينة، وطم خنادقها.
وجعل لكل من أتاه برجل منهم جعلاً فكان إذا أُتي بالواحد منهم عفا عنه وضمه إلى قواده وغلمانه، لما كان دبره من استمالتهم.
وأرسل في طلب سليمان بن جامع حتى بلغوا دجلة العوراء، فلم يظفروا به. وأمر زيرك بالمقام بطهثا ليتراجع إلى تلك الناحية أهلها ويأمنوا.

(١) السوس: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام. مما قاله ياقوت في معجم البلدان.
(٢) كذا في المخطوط، وفي معجم البلدان: الفَنْدَم: موضع بالأهواز لا أدري ما هو، من كتاب نصر.
والباسِيَان: قرية بخوزستان. قال الاصطخري: من أرجان إلى آسك مرحلتان ثم إلى ديران مرحلة، وديران قرية، وإلى الدورق مرحلة، ومن الدورق إلى خان مردويه مرحلة وهو خان تنزله السابلة ومنه إلى باسيان مدينة وسط في الكبر عامرة يشق النهر فيها فتصير نصفين.
(٣) كذا في المخطوط، وفي الكامل: محمد بن عبيد اللّه الكردي.
(٤) في المخطوط: يونسه. وهو تحريف.

وتأخرت الميرة عن أبي أحمد بالأهواز وغلظ الأمر، فسأل عن السبب.

فوجّه الجند وقد قطعوا قنطرة قديمة كانت بين سوق [الأهواز][١] ورامهرمز يقال لها: قنطرة ارتق فامتنع التجار من حمل الميرة لأجل ذلك. فركب إليها أبو أحمد وهي على فرسخين من سوق الأهواز، فجمع من كان في العسكر من السودان وأمرهم بنقل الصخر، وبذل لهم الأموال، فلم يزل[٢] حتى أصلحت القنطرة في يوم واحد، وردت كما كانت، فسلكها الناس، ووافت الميرة والقوافل فعاش أهل العسكر وحسنت أحوالهم.

وأمر أبو أحمد بجمع السفن لعقد جسر على دجيل فجمعت من كور الأهواز والآلات. فلما تم عقده وتراجعت نفوس الناس والدواب باتصال الميرة والأعلاف سار وقدم أبا العباس إلى الموضع المعروف بنهر المبارك ليجمع العساكر.

ونزل أبو أحمد بفورج العباس، ثم نزل الجعفرية، وهذه قرية ليس فيها ماء إلاّ ماء الآبار التي كان أبو أحمد تقدم بحفرها في عسكره فحفرت له.

وكان أعد بها ميراً فوافاها والأمور مصلحة ومعدة. ثم رحل حتى ورد نهر المبارك، واستأمن قوم إلى أبي أحمد طمعاً فيما بلغهم من إحسانه إلى المستأمنة.

فأبلغوا أن أصحاب الزنج قد جمعوا آلات الماء وفيها خلق من السودان ليقصدوا نصيراً وهم بنهر المرأة[٣]، ويسلكوا موضعاً يخرجهم من ورائه.

فأنفذ إلى نصير وأخبره بذلك.

فبادر نصير إلى شق سيرين، فلقي هناك القوم، فرزق الظفر بعد مجاهدة عظيمة، فقتل، وأسر، وأخذ ثلاثين سميرية.

وانصرف أصحاب أبي أحمد ظافرين إلى واسط، واستأمن إلى نصير زهاء ألفي رجل.

فكتب بالخبر إلى أبي أحمد، فأمره بقبولهم وإجراء الأرزاق عليهم وتفريقهم على أصحابه، ومناهضة العدو بهم[٤].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) في المخطوط: يزم. وهو تحريف.
(٣) قال ياقوت:
نهر المرأة: بالبصرة حفره أردشير الأصغر قال الساجي: صالح خالد بن الوليد عند نزوله البصرة أهل نهر المرأة، واسم المرأة طماهيج فكانت طماهيج هي التي صالحته على عشرة آلاف درهم.
وفي كتاب البلاذري: أن خالد بن الوليد أتى نهر المرأة ففتح القصر صلحاً صالحه عنه النوشجان بن جسنسماه، والمرأة صاحبة القصر كامور زاد بنت نرسى وهي بنت عم النوشجان.
(٤) والخبر في الكامل بنحو مما هنا مع تفصيلات أكثر مما هنا.

ثم كتب إليه بموافاة نهر المبارك، ففعل[١]. وكتب أبو أحمد إلى الخبيث يدعوه إلى الدخول في الأمان، والنزوع عما هو عليه من ادعاءات النبوة، وسبي المسلمات والمسلمين، والفساد في الأرض، فإن التوبة مبذولة، وطال الكتاب في هذا المعنى.

فلما وصل الخبيث رمى بالكتاب من يده ولم يجبه بشيء، وأقام على إصراره[٢].

فعرض أبو أحمد الشذاوات، وجميع آلات الماء، ورتب قواده، ومواليه، وتخير الرماة منهم فرتبهم في الشذاوات، وسار إلى مدينة الخبيث المختارة في نهر أبي الخصيب فأشرف عليها، وتأملها، فرأى من حصانتها وأسوارها، وخنادقها ووعورة الطرق المؤدية إليها من كل جهة وكثرة من أعد عليها من [١٢٧/ب] الرماة بالقسي الناوكيت، والمجانيق، والعرادات، وسائر الآلات ما لم ير مثله، فاستعظم أمره[٣] واستبعد الوصول إليه.

ولما عين الزنج أبا أحمد ارتفعت صيحتهم بما ارتجت له الأرض.

وقدم إلى بعض الشذاوات أن يقرب إلى السور من قصر الخبيث.

فتتابعت سهامهم وأحجار منجنيقهم، وغير ذلك من عراداتهم، ومقاليعهم حتى ما كان يقع طرف ناظر من الشذاوات إلا على سهم أو حجر فأمر أبو أحمد برد تلك الشذاوات ومعالجة من أصابه جرح أو وهن.

واستأمن في تلك الحال سميرياتان[٤] فيهما مقاتلة من السودان ومعهما آلات الماء فأمر أبو أحمد المقاتلين بخلع ديباج ومناطق محلاه ووصلهم، وأمر للملاحين بخلع حرير حُمر وثياب بيض وخضر، وأمر لهم بِصلات، وأمر بإدنائهم من الموضع يراهم منه نظراؤهم وكان هذا من أنجع المكائد التي كادهم بها.

وذلك أنهم لما رأوا ذلك حسدوهم على ما صاروا إليه من الإحسان من الدعة والأمن فتنافسوا فيه، وابتدروا إليه وحرضوا على المسارعة إليه فسار إلى أبي أحمد في يومه ذلك عدة سميريات، فأمر لأصحابها بمثل ما أمر لمن تقدمهم، فتتابع القوم إلى الأمان رغبة ورهبة، ثم استأمن أصحاب الشذاوات.

---

(١) ثم زاد ابن الأثير بعد هذا في الكامل:
وأمر الموفق ابنه أبا العباس بالمسير إلى محاربة العلوي بنهر أبي الخصيب. فسار إليه فحاربه من بكرة إلى الظهر، فاستأمن إليه قائد من قواد العلوي، ومعه جماعة فكسر ذلك الخبيث، وعاد أبو العباس بالظفر.

(٢) ذكر ابن الأثير نحواً من هذا.

(٣) في المخطوط: استغظ أميره. وهو تحريف.

(٤) في المخطوط: سميريات. وهو تحريف لما يتضح من باقي السياق بعدها.

وجاءه السودان والبيضان وكان يصلهم ويثبت أسماءهم، ويضمهم إلى ابنه أبي العباس.

ثم تقدم أبو أحمد إلى موضع يقرب إلى القصر يعرف بجَطّى[1] بعدما أصلح الطرق إليه، وعقد القناطر على أنهارها، وعسكر أبي أحمد في ذلك الوقت زهاء خمسين ألف، وعسكر الخبيث زهاء ثلاثمائة ألف ممن يقاتل أو يدافع من بين ضارب بسيف وطاعن برمح ورامٍ عن قوس، وقاذف بحجر عن منجنيق أو عواد أو مقلاع، وأضعفهم الرماة باليد وهمْ النظارة الذين يكثرون السواد، ومعنيون بالنعير والصياح.

فأمر أبو أحمد فنودي أن الأمان مبسوط للناس أسودهم وأحمرهم إلا الخبيث، وأمر بسهام فلفت عليها رقاع مكتوب فيها من الأمان مثل الذي نودي به.

فأقبل إليه المستأمنة تترى.

ورأى أبو أحمد حال الخبيث، وحصانة موضعه، وكثرة عدته ما لا بدّ له من المطاولة والمحاصرة.

فاستعد لذلك وفرّق أصحابه حول الخبيث، ووكل بكل ركن قواداً قواهم بالرجال والآلات وأنفذ إلى عماله في النواحي في حمل الميرة والأموال وسائر الأمتعة، وبنى مدينة سماها: الموفقية، وعمل فيها بيت مال، وأمر بحمل الأموال إليه من جميع البلدان.

وبنى دور الضرب، فضرب فيها دنانير ودراهم وجلب إليها الذهب والفضة، وأرسل إلى سِيراف[2] من يأتيه بآلات الماء ويبني فيها السفن والشذاوات ويجلب متاع البحر منذ أكثر من عشر سنين لإخافة الخبيث السبل.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان:
نهر جطى: نهر بالبصرة عليه قرى ونخل كثير وهو من نواحي شرقي دجلة.
وذكر ابن الأثير عند ذلك في الكامل أن أبا الموفق أقام في عسكره يومين ثم نقل عسكره لست بقين من رجب إلى نهر جطى فنزله وأقام به إلى منتصف شعبان، ثم ركب في منتصف شعبان في الخيل والرجال... ونودي بأمان للناس كافة إلاّ الخبيث وكتب الأمان في رقاع ورماها في السهام ووعد فيها بالإحسان، فمالت قلوب أصحاب الخبيث، واستأمن ذلك اليوم خلق كثير.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان:
سِيراف: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند.
وقيل: كانت قضبة كورة أردشير خُرّه من أعمال فارس، والتجار يسمونها شِيلاو وقد رأيتها وبها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج.
وهي من لحف جبل عال جداً وليس للمراكب فيها ميناء، فالمراكب إذا قدمت إليها كانت على خطر إلى أن تقرب منها إلى نحو من فرسخين موضع يسمى نابد هو خليج ضارب بين جبلين، وهو ميناء جيد غاية. وإذا حصلت المراكب فيه أمنت من جميع أنواع الرياح، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام.

وكتب بإثبات كل من يصلح للجندية إلى عماله في الأمصار ورغب في ذلك.

والمدينة الموفقية تبنى والكتب تنفذ بما يعمرها والتجار يجهزون إليها والأسواق تكثر، وأقبلت إليها مراكب البحر.

وبنى أبو أحمد مسجد الجامع فصارت مدينة كبيرة، وحملت إليها الأموال وأداء العطاء في أوقاته ورغب الناس في حلولها والمصير إليها من كل أوب.

والخبيث يرصد غرة يرى فيها فرصة من أبي أحمد، فلا يجد لتيقظ الناس وتحارسهم ولحفظ المتوكلين بالمواضع المخوف مواضعهم.

وكان أبو العباس لا يغفل ليلاً ولا نهاراً، وإذا أمكنه قصد ناحية أوقع بها وبمن رتب فيها من الزنج، وإن أتاه مستأمن قبله وأحسن إليه.

والخبيث ينفذ أصحابه ويثبت رجاله في اقتطاع ما يرد المدينة من السفن وغيرها، فربما أصاب من ذلك حاجته.

فيعوض أبو أحمد البحار، ويشحن المواضع التي يقصد منها بالرجال، وندب لحفظ الطرق أبا العباس، وكان يوقع بأصحاب الخبيث ويحمل رؤوسهم إلى الموفقية، ويرتب الرجال في الماء والبر، حتى ضاق الأمر بالخبيث، وعزم على كبس الموفق، فاستأمن بعض قواد الزنج وأخبر الموفق بذلك.

فأعد له قوماً، فلما أتاه البيان كان مستعداً، وظهر على الزنج وأصابه مثل ذلك مرات في كل مرة يجيئه من ينذره فيستعد لهم.

حتى ظفر يوماً برجال بيتوه وأسر وقتل من السودان نحواً من خمسة آلاف، ونصب الرؤوس على سور الموفقية.

فأشاع الخبيث في أصحابه أن ذلك زور وأن تلك الرؤوس رؤوس المستأمنة[١].

---

(١) يبين ابن الأثير في الكامل هذا الخبر بأكثر تفصيل في الكامل فيحكي قبله حكاية تؤدي إليه فيقول:
وفي رمضان عبر طائفة من أصحاب الخبيث يريدون الإيقاع بنصير، فنذر بهم الناس فخرجوا إليهم فردوهم خائبين.
وظفر بصندل الزنجي، وكان يكشف رؤوس المسلمات ويقلبهن تقليب الإماء.
فلما أتي به أمر الموفق أن يرمي بالسهام ثم قتله.
واستأمن إلى الموفق من الزنج خلق كثير، فبلغت عدة من استأمن إليه في آخر رمضان خمسين ألفاً.
وفي شوال انتخب صاحب الزنج من عسكره خمسة آلاف من شجعانهم وقوادهم، وأمر علي بن أبان المهلبي بالعبور لكبس عسكر الموفق، فكان فيهم أكثر من مائتي قائد، فعبروا ليلاً واختفوا في آخر النخل، وأمرهم إذا ظهر أصحابهم وقاتلوا الموفق من بين يديه ظهروا وحملوا على عسكره وهم غارون مشاغيل بحرب من أمامهم.
فاستأمن منهم إنسان من الملاحين فأخبر الموفق فسَيّر ابنه أبا العباس لقتالهم وضبط الطرق =

فأمر الموفق برمي تلك الرؤوس بالمنجنيقات والعرادات التي كانت منصوبة في السفن معمولة لأوقات الحرب، فتبين لأصحابه كذبه، وصار سبباً لضعف نياتهم.

ثم زحف الموفق بنفسه إلى المدينة المختارة.

ذكر السبب في خروجه

كان السبب في خروجه أن قواد الخبيث كاتبوا أبا أحمد الموفق يعلمونه أنهم على الخروج إليه في الأمان، وأنهم [١٢٨/أ] ليس يجدون السبيل إلى ذلك؛ وأنه لو قدم قوم إلى الحرب لخرجوا ووجدوا بهم سبيلاً إلى مفارقة الخبيث.

فأنهض الموفق أبا العباس في آلات الماء، والشذاوات، وانتخب له الرجال الشجعان وأهل النجدة والبأس وقدمه.

ثم سار بنفسه مع نصير ورشق، وزيرك. واستقبلهم أصحاب الخبيث في أكثر عدتهم وسلاحهم.

وخرج ابن الخبيث انكلاني ومعه علي بن أبان وسليمان بن جامع مع السفن التي فيها المجانيق والعرادات والقسي الناوكيت.

فلما التقى الجمعان أمر أصحابه بالحملة والدنو للركن الذي فيه الجمع الأكثر وبينه وبينهم نهر يعرف بنهر الأتراك، وهو نهر عريض غزير الماء.

فلما انتهوا إليه أحجموا فصيح بهم وحرصوا على العبور، فعبروا سباحة، والزنج يرمونهم بما استطاعوا من المجانيق، والعرادات، والمقاليع والسهام، وحجارة الأيدي.

فصبروا على جميع ذلك حتى عبروا النهر وانتهوا إلى السور.

ولم يكن لحقهم من الفعلة ما كان أعد لهدمه فتولى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح وتسلّقوه(١)، وحضرهم بعض السلاليم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة، ونصب هناك علم [من أعلام الموفق](٢).

= التي يسلكونها فقاتلوا قتالاً شديداً، وأسر أكثرهم، وغرق منهم خلق كثير، وقتل بعضهم، ونجا بعضهم.

فأمر أبو العباس أن يحمل الأسرى والرؤوس والسميريات ويعبر بهم على مدينة الخبيث ففعلوا ذلك.

وبلغ الموفق أن الخبيث قال لأصحابه:

إنّ الأسرى من المستأمنة، وأن الرؤوس تمويه عليكم.

فأمر بإلقاء الرؤوس في منجنيق إليهم.

فلما رأوها عرفوها، فأظهروا الجزع والبكاء وظهر لهم كذب الخبيث.

(١) في المخطوط: تستّموه، وهو تحريف، وفي الكامل بدل هذه الكلمة: وسهل اللّه تعالى ذلك.

(٢) زيادة من الكامل.

وأسلم الزنج سورهم، وأحرق ما كان عليه من منجنيق، وعراده، وآلة حرب، واستلحقوا الفعلة حتى وسعوا المدخل في عدة مواضع، وملكوا السور الأول بعد مدافعات هلك فيها من الفريقين خلق.

ولا يعدم كل يوم مستأمنة يحسن إليهم فيفتضحون ويأتون بالأخبار والتدابير التي يدبرها الخبيث فينتقض عليه أمره[١].

---

(١) والخبر في الكامل بنحو مما هنا غير أنه في الكامل أكثر تفصيلاً وكل تحرك بيوم معلوم من السنة.
ثم إن ابن الأثير ذكر عدة حوادث في هذه السنة لم يذكرها المؤلف وهي قوله:
وفي هذه السنة: كان بين هارون الخارجي، وبين محمد بن خرزاد، وهو من الخوارج أيضاً ـ وقعة ببعدرا من أعمال الموصل، وسبب ذلك:
أنّا قد ذكرنا سنة ثلاث وستين ومائتين الحرب الحادثة بين هارون محارباً له.
فنزل واسط ـ وهي محلة بالقرب من الموصل ـ وكان يركب البقر لئلا يفر من القتال، ويلبس الصوف الغليظ ويرقّع ثيابه. وكان كثير العبادة والنسك، ويجلس على الأرض ليس بينها وبينه حائل.
فلما نزل واسط خرج إليه وجوه أهل الموصل.
وكان هارون بمعلثايا يجمع لحرب محمد، فلما سمع بنزول محمد عند الموصل سار إليه.
ورحل ابن خرزاد نحوه فالتقوا بالقرب من قرية شمراخ، واقتتلوا قتالاً شديداً، كان فيه مبارزة وحملات كثيرة.
فانهزم هارون، وقتل من أصحابه نحو مائتي رجل منهم جماعة من الفرسان المشهورين. ومضى هارون منهزماً، فعبر دجلة إلى العرب قاصداً بني تغلب فنصروه، واجتمعوا إليه ورجع ابن خرزاد من حيث أقبل.
وعاد هارون إلى الحديثة، فاجتمع عليه خلق كثير.
وكاتب أصحاب ابن خرزاد واستمالهم فأتاه منهم الكثير ولم يبق مع ابن خرزاد إلاّ عشيرته من الشمردلية، وهم من أهل شهرزور.
وإنما فارقه أصحابه لأنه كان خشن العيش، وهو ببلد شهرزور، وهو بلد كثير الأعداء من الأكراد، وغيرهم وكان هارون ببلد الموصل قد صلّح حاله وحال أصحابه.
فلما رأى أصحاب ابن خرزاد بنواحي شهرزور الأكراد الجلالية وغيرهم فقتل.
وتفرد هارون بالرئاسة على الخوارج وقوي وكثر أتباعه وغلبوا على القرى والرساتيق.
وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة، وبثوا نوابهم في الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلات.
وفي هذه السنة: ابتدر ابن حفصون بالأندلس بالخلافة على محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس بناحية ريّة.
فخرج إليه جيش من تلك الناحية مع عاملها فقاتلهم، فانهزم الجيش، وقوي أمر عمر بن حفصون وشاع ذكره، وأتاه من يريد الشر والفساد.
فسير محمد صاحب الأندلس عاملاً آخر في جيش، فصالحه عمر، وطلب العامل كل من كان له أثر في مساعدة عمر، فأهلكه، وفيهم من أبعده.
فاستقامت تلك الناحية.
وفيها: كانت زلزلة عظيمة بالشام ومصر، وبلاد الجزيرة، وأفريقية والأندلس. وكان قبلها هدة عظيمة قوية.
وفيها: ولي جزيرة صقلية الحسن بن العباس فبث السرايا إلى كل ناحية، وخرج إلى قطانية، =

ودخلت سنة ثمان وستين ومائتين

وفيها: استأمن جعفر السجان[1]، وهرب ريحان بن صالح المغربي من عسكر الخبيث إلى أبي أحمد فأمر لهما بجوائز وصلات، وأقيمت لهما الأتراك وحملا حتى ظهر الأصحاب الخبيث وعليهم الخلع، فاستأمن من ذلك اليوم خلق كثير.

= فأفسد زرعها وزرع طبرمين، وقطع أشجارها، وسار إلى بقارة، فأفسد زرعها.
وانصرف إلى بلرم.
وأخرجت الروم سرايا فأصابوا من المسلمين كثيراً، وذلك أيام الحسن بن العباس.
وفيها: حبس السلطان محمد بن عبد الله بن طاهر وعدة من أهل بيته بعد ظفر الخجستاني بعمرو بن الليث، وكان عمرو اتهمه بمكاتبة الخجستاني.
والحسين بن طاهر حيث كان يذكر أنه على منابر خراسان.
وفيها: كانت بين كيغلغ التركي وبين أصحاب أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، حرب انهزم فيها أصحاب أحمد.
وسار كيغلغ إلى همذان فوافاه أحمد بن عبد العزيز فيمن اجتمع إليه من أصحابه، فانهزم كيغلغ، وانحاز إلى الصيمرة.
وفيها: في ربيع الآخر ماتت أم حبيب بنت الرشيد.
وفيها: كانت وقعة بين إسحاق بن كنداجيق، وإسحاق بن أيوب، وعيسى ابن الشيخ، وأبي المغراء، وحمدان بن حمدان، ومن اجتمع إليهم من ربيعة، وتغلب، وبكر، واليمن، فهزمهم ابن كنداجيق إلى نصيبين وتبعهم إلى آمد، وخلف على آمد من حصر عيسى.
فكانت بينهم وقعات عند آمد.
وفيها: دخل الخجستاني نيسابور، وانهزم عمرو بن الليث وأصحابه، فأساء السيرة في أهلها، وهدم دور معاذ بن مسلم، وضرب من قدر عليه منهم، وترك ذكر محمد بن طاهر ودعا للمعتمد، ولنفسه.
وفيها في شوال: كانت لأصحاب أبي الساج وقعة بالهيصم العجلي، قتلوا فيها مقدمته، وغنموا عسكره.
وفيها: أقبل أحمد بن عبد الله الخجستاني يريد العراق، فبلغ سمنان، وتحصن منه أهل الري، فرجع إلى خراسان.
وفيها: رجع خلق كثير من الحجاج من طريق مكة لشدة الحر، ومضى خلق كثير فمات منهم عالم عظيم من الحرّ والعطش، وذاك كله في البيداء.
وأوقعت فزارى فيها بالتجار، فأخذ فيما قيل سبعمائة حمل بر.
وفيها: نُفي الطباع من سامرا.
وفيها: ضرب الخجستاني لنفسه دنانير ودراهم.
وحج بالناس: هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.
وفيها: توفي محمد بن حماد بن بكر بن حماد أبو بكر المقرئ صاحب خلف بن هشام في ربيع الآخر ببغداد.

(١) في الكامل: في هذه السنة في المحرم خرج إلى الموفق من قواد الخبيث جعفر بن إبراهيم المعروف بالسحان.

ثم وقعت بعد ذلك وقعات كثيرة بعضها للزنج وبعضها للموفق[١]. إلى أن منع من ميرة السّمك الذي كان يأتيه من البطيحة، ومنع العرب من حمل الميرة من جهة البادية، وقتل منهم خلق، وسلبوا ما كان معهم ومن ظفر به ممن يسفر أو يعين عليه أخذ وعوقب وعذب، ثم قتل، حتى ضاق على الزنج الأمر وانقطعت عنهم كل مادة ضعفوا جداً، وكان الأسير أو المستأمن إذا سُئل عن الخبز تعجب، ويزعم بعضهم أن عهدهم به سنتين وأقل وأكثر.

فرأى الموفق أن يتابع الإيقاع بهم ليزيدهم فقراً وجهداً.

وأمر الموفق بعرض الزنج لما كثروا وصاروا أكثر من جنده[٢] فمن كان لا يصلح

---

(١) في الكامل: ثم أقام الموفق لا يحارب ليريح أصحابه إلى شهر ربيع الآخر، فلما انتصف ربيع الآخر قصد الموفق إلى مدينة الخبيث، وفرق قواده على جهاتها، وجعل مع كل طائفة منهم من النقّابين جماعة لهدم السور، وتقدم إلى جميعهم: أن لا يزيدوا على هدم السور ولا يدخلوا المدينة.
وتقدم إلى الرماة: يحموا بالسهام من يهدم السور وينقبه.
فتقدموا إلى المدينة من جهاتها وقابلوها، فوصلوا إلى السور وثلموه في مواضع كثيرة، ودخل أصحاب الموفق من جميع تلك الثُّلم وجاء أصحاب الخبيث يحاربهم فهزمهم أصحاب الموفق، وتبغوهم حتى أوغلوا في طلبهم، فاختلفت بهم طرق المدينة، فبلغوا أبعد من الموضع الذي وصلوا إليه في المرة الأولى وأحرقوا وأسروا.
وتراجع الزنج عليهم، وخرج الكمناء من مواضع يعرفونها ويجهلها الآخرون فتحيروا، ودافعوا عن أنفسهم، وتراجعوا نحو دجلة بعد أن قتل منهم جماعة، وأخذ الزنج أسلابهم.
ورجع الموفق إلى مدينته، وأمره بجمعهم، فلامهم على مخالفة أمره، والإفساد عليه من رأيه وتدبيره.
وأمر بإحصاء من فُقد، وأقر ما كان لهم من رزق على أولادهم وأهليهم.
فحسّن ذلك عندهم وزادهم في صحة نياتهم.

(٢) وضح ابن الأثير تفصيل هذا الخبر بأكثر مما هنا إلى أن وصل إلى هذا الموضع فقال:
وفي هذه السنة أوقع أبو العباس أحمد بن الموفق ـ وهو المعتضد بالله ـ بقوم من الأعراب كان يحملون الميرة إلى عسكر الخبيث، فقتل منهم جماعة، وأسر الباقين، وغنم ما كان معهم.
وأرسل إلى البصرة من أقام بها لأجل قطع الميرة، وسير الموفق رشيقاً مولى أبي العباس، فأوقع بقوم من بني تميم كانوا يجلبون الميرة إلى الخبيث فقتل أكثرهم وأسر جماعة منهم، فحمل الأسرى والرؤوس إلى الموفقية، فأمر بهم الموفق فوقفوا بإزاء عسكر الزنج.
وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والأعراب بجلب الميرة فقطعت يده ورجله، وألقى في عسكر الخبيث، وأمر بضرب أعناق الأسارى وانقطعت الميرة بذلك عن الخبيث بالكلية فأضرّ بهم الحصار وأضعف أبدانهم.
فكان يسأل الأثير والمستأمن عن عهده بالخبز فيقول: عهدي به منذ زمان طويل.
فلما وصلوا إلى هذا الحال رأى الموفق أن يتابع عليهم الحرب ليزيدهم ضراً وجهداً.
فكثر المستأمنون في هذا الوقت، وخرج كثير من أصحاب الخبيث فتفرقوا في القرى والأنهار البعيدة في طلب القوت.
فبلغ ذلك الموفق، فأمر جماعة من قواد غلمانه السودان، بقصد تلك المواضع، ويدعون من بها إليه فمن أبى قتلوه. =

للقتال مثل الشيخ، والضعيف والمجروح، والزَّمِن، ومن أشبه هؤلاء أن يوهب لهم شيء ويردون إلى عسكر الزنج.

فلما عادوا وصفوا خصب عسكر الموفق وإحسانه إلى المستأمنة، فخرج بهذا السبب خلق في الأمان.

ثم إن بهبوذ احتمل حتى ظفر بخيل للموفق فقتلهم، وأخذ شذاوات كثيرة ونقل ميرة كثيرة.

ذكر حيلته هذه

احتال بأن أخذ شذاوات كثيرة فنصب عليها أعلاماً كأعلام الموفق، وحمل فيها قوماً في زي قومه ورجله، ثم أشهد في أن وقع إلى معترض يؤدي إلى نهر اليهودي، ثم ملك نهر ناقد حتى خرج إلى نهر الأبله، فانتهى إلى الشذاوات والسميريات المرتبة لحفظ النهر وهم غارون، فأوقع بهم وقتل قتلاً ذريعاً، وأسر الباقين وأتى أصحابه في معترضات وأنهار غامضة.

ثم إنه طمع في المعاودة.

ذكر طمعه هذا

فأمر صاحبه أن يسلك في مواضع غامضة إلى أن يوافي القندل والترشان ففعل ذلك، فوقع على سميرية فيها طعام فقصدها بهبوذ فحاربه أهلها، فأصابته طعنة في بطنه

= فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأتاه أكثر منهم. فلما كثر المستأمنون عند الموفق عرضهم فمن كان ذا قوة وجلد أحسن إليه، وخلطهم بغلمانه.
ومن كان منهم ضعيفاً أو شيخاً أو جريحاً قد أزمنته الجراحة كساه، وأعطاه دراهم، وأمر به أن يحمل إلى عسكر الخبيث فيلقى هناك، ويأمره بذكر ما رأى من إحسان الموفق إلى من صار إليه، وأن ذلك رأيه فيهم.
فتهيأ له بذلك ما أراد من استمالة أصحاب الخبيث، وجعل الموفق وابنه أبو العباس يُلازمان قتال الخبيث تارة هذا وتارة هذا، وجرح أبو العباس، ثم برأ.
وكان من جملة من قتل من أعيان قواد الخبيث بهبود بن عبد الوهاب، وكان كثير الخروج في السميريات وكان ينصب عليها أعلاماً تشبه أعلام الموفق، فإذا رأى من يستضعفه أخذه وأخذ من ذلك مالاً جزيلاً فواقعه في بعض خرجاته أبو العباس فأفلت بعد أن أشفى ثم إنه خرج مرة أخرى فرأى سميرية فيها بعض أصحاب أبي العباس، فقصدها طامعاً في أخذها فحاربه أهلها، فطعنه غلام من غلمان أبي العباس في بطنه فسقط في الماء، فأخذه أصحابه فحملوه إلى عسكر الخبيث، فمات قبل وصوله، فأراح اللّه المسلمين من شره، وكان قتله من أعظم الفتوح وعظمت الفجيعة على الخبيث وأصحابه واشتد جزعهم عليه.
وبلغ الخبر الموفق بقتله، فأحضر ذلك الغلام، فوصله، وكساه، وطوقه، وزاد في أرزاقه، فعل بكل من كان معه في تلك السميرية بنحو ذلك، ثم ظفر الموفق بالدواويني، وكان ممائلاً لصاحب الزنج.

هلك منها فعظمت فجيعة الخبيث به، وأحضر الموفق الغلام فوصله وطوقه وزاد في أرزاقه وأمر لمن معه في سميريته بجوائز وصلات(١).

---

(١) ثم ذكر ابن الأثير أحداث أخرى في هذه السنة لم يذكرها المؤلف هنا وهي قوله:
ذكر أخبار رافع بن هرثمة.
لما قتل أحمد بن عبد الله الخجستاني على ما ذكرناه وكان قتله هذه السنة اتفق أصحابه على رافع بن هرثمة فولّوه أمرهم.
وكان رافع هذا من أصحاب محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور، وأزال الطاهرية صار رافع في جملته.
فلما عاد يعقوب إلى سجستان صحبه رافع وكان طويل اللحية كريه الوجه قليل الطلاقة فدخل يوماً على يعقوب، فلما خرج من عنده قال: أنا لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بما شاء من البلاد.
فقيل له ذلك ففارقه، وعاد إلى منزله بتامين ـ وهي من باذغيس ـ وأقام به إلى أن استقدمه الخجستاني ـ على ما ذكرناه ـ وجعله صاحب جيشه، فلما قتل الخجستاني اجتمع الجيش عليه فهو بهراة فأمَّرهُ ـ كما ذكرناه ـ.
وسار رافع من هراة إلى نيسابور ـ وكان أبو طلحة بن شركب قد وردها من جرجان ـ فحضره فيها رافع، وقطع الميرة عنه وعن نيسابور فاشتد الغلاء بها، ففارقها أبو طلحة ودخلها رافع فأقام بها وذلك سنة تسع وستين ومائتين.
وسار أبو طلحة إلى مرو وولّى محمد بن مهتدي هراة، وخطب لمحمد بن طاهر بمرو، وهراة.
فقصده عمرو بن الليث فحاربه فهزمه، واستخلف عمرو بمرو محمد بن سهل بن هاشم، وعاد عنها.
وخرج شركب إلى بيكند واستعان بإسماعيل بن أحمد الساماني، فأمده بعسكره، فعاد إلى مرو، فأخرج عنها محمد بن سهل، وأغار على أهل البلد، فخطب لعمرو بن الليث، وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين.
وقلد الموفق تلك السنة أعمال خراسان محمد بن طاهر، وكان ببغداد فاستخلف محمد على أعماله رافع بن هرثمة ما خلا ما وراء النهر، فإنه أقر عليه نصر بن أحمد، ووردت كتب الموفق إلى خراسان بذلك، وبعزل عمرو بن الليث ولعنه.
فسار رافع إلى هراة، وبها محمد بن مهتدي خليفة أبي طلحة شركب فقتله يوسف بن معبد، وأقام بهراة، فلما وافاه رافع استأمن إليه يوسف فأمّنه وعفا عنه، فاستعمل على هراة مهدي بن محسن فاستمد رافع إسماعيل بن أحمد.
فسار إليه بنفسه في أربعة آلاف فارس، واستقدم رافع أيضاً علي بن الحسين المروذي، فقدم عليه فساروا بأجمعهم إلى شركب، وهو بمرو، فحاربوه، فهزموه.
وعاد إسماعيل إلى محازل، وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائتين.
فجبى أموالها ورجع إلى نيسابور.
وفي هذه السنة: سيّر محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه المنذر إلى المخالفين عليه فقصد مدينة سرقسطة فأهلك زرعها وخرب بلدها وافتتح حصن روطة، فأخذ منه عبد الواحد الروطي ـ وهو من أشجع أهل زمانه ـ.
وتقدم إلى دير تروجة، وبلد محمد بن مركب بن موسى، فحاربه فأذعن إسماعيل بالطاعة، وترك الخلاف، وأعطى رهائنه على ذلك، وقصد مدينة أنقرة، وهي للمشركين، فافتتح هنالك حصوناً، وعاد.
وفيها: أوقع إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بأهل بلد الزاب، وكان قد حضر وجوههم عنده، =

....

= فأحسن إليهم ووصلهم وكساهم وحملهم.
ثم قتل أكثرهم حتى الأطفال وحملهم على العجل إلى حفرة، فألقاهم فيها.
وفيها: سارت سرية بصقلية مقدمها رجل يعرف بأبي الثور فلقيهم جيش الروم فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر.
وعزل الحسن بن العباس عن صقلية، فوليها محمد بن الفضل، فبث السرايا في كل ناحية من صقلية، وخرج هو في حشد، وجمع عظيم، وسار إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها، ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم، فأصاب فيهم فأكثر القتل.
ثم رحل إلى طبرمين، فأفسد زرعهم ثم رحل فلقي عساكر الروم، فاقتتلوا، فانهزم الروم وقتل أكثرهم، فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل، ووصلت رؤوسهم إلى بلرم. ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم بنوها عن قريب، وسموها مدينة الملك، فملكها المسلمون عنوة، وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها.
وفيها: سار عمرو بن الليث إلى فارس لحرب عاملها محمد بن الليث عليها، فهزمه عمرو، واستباح عسكره، ونجا محمد، ودخل عمرو اصطخر فنهبها وأصحابه.
ووجّه في طلب محمد فظفر به وأخذه أسيراً ثم سار إلى شيراز، فأقام بها.
وفيها: زلزلت بغداد في ربيع الأول ووقع بها أربع صواعق.
وفيها: زحف العباس بن أحمد بن طولون لحرب أبيه، فخرج إليه أبوه إلى الإسكندرية فظفر به، ورده إلى مصر، فرجع معه إليها ـ وقد تقدم خبره سابقاً ـ.
وفيها: أوقع أخو شركب بالخجستاني وأخذ أمه.
وفيها: وثب ابن شبث بن الحسين فأسر عمر بن سيما عامل حلوان.
وفيها: انصرف أحمد بن أبي الأصبغ من عند عمرو بن الليث، وكان عمرو قد أنفذه إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، فقدم معه بمال، فأرسل عمرو إلى الموفق من المال ثلاثمائة ألف دينار، وخمسين مسكاً، وخمسين مناً عنبراً، ومائتي مناً عوداً، وثلاثمائة ثوب وشي، وآنية ذهب وفضة، ودواب، وغلمان بقيمة مائتي ألف دينار.
وفيها: ولي كيغلغ الخليل بن رمال (ريمال) حلوان فنالهم بالمكاره بسبب عمر بن سيما، وأخذة بجريرة ابن شبث، وضمنوا له خلاص عمر، وإصلاح ابن شبث.
وفيها: كانت وقعة بين اذكوتكين بن اساتكين، وبين أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، فهزمه اذكوتكين وغلبه على قُم.
وفيها: وجه عمرو بن الليث قائداً بأمر أبي أحمد إلى محمد بن عبيد اللّه الكردي فأسره القائد وحمله إليه.
وفيها في ذي القعدة: خرج بالشام رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي يقال له: بكار بن سلمية، وحلب، وحمص، فدعا لأبي أحمد.
فحاربه ابن عباس الكلابي، فانهزم الكلابي فوجه إليه لؤلؤاً صاحب ابن طولون، قائداً يقال له: بوذر في عسكر، فرجع وليس معه كبير أمر.
وفيها: أظهر لؤلؤ الخلاف على مولاه أحمد بن طولون.
وفيها: قتل أحمد بن عبد اللّه الخجستاني في ذي الحجة، قتله غلام له.
وفيها: قتل أصحاب أبي الساج محمد بن علي بن حبيب اليشكري بالقرية بناحية واسط ونصب رأسه ببغداد.
وفيها: حارب محمد بن كيجور عليّ بن الحسين كغتمر، فأسر كغتمر، ثم أطلقه، وذلك في ذي الحجة. =

ودخلت سنة تسع وستين ومائتين

لما قتل بهبوذ طمع صاحبه في أمواله وكان قد صح عنده موضع مائتي ألف دينار وجواهر وصناعات ذهب لها قدر فطلب أمواله وذخائره وجلس أولياؤوه وضربهم بالسياط وأباد دوراً لهم، وهدم أبنية من أبنيته طمعاً في شيء يجده، فكان ذلك أشد ما أفسد قلوب اتباعه ودعاهم إلى الهرب منه والزهد في صحبته.

فأمر أبو أحمد بالنداء في أصحاب بهبوذ بالأمان، فسارعوا إليه ووصلهم.

ورأى أبو أحمد أن هدم السور الذي يفضي إلى الخبيث قد امتنع عليه، فأزمع أن يباشر [الحرب][1] بنفسه ليكون ذلك أدعى جدّ أصحابه، فباشر الحرب حتى وصل إلى السور، وأحرق قناطر كانت تحول بين أصحابه وبين السور يعتصم بها الزنج فاستظهر ذلك اليوم.

فبينا هو في جده وتشمره وقد ولج أصحاب السور وهدموا المسجد الجامع الذي كان جناه الخبيث ووصلوا إلى دواوينه وخزائنه فطهر تباشير الفتح إذ أتاه سهم غلام رومي كان مع الخبيث يقال له قرطاس فأصاب صدر الموفق[2] فستر ذلك عن أصحابه، وانصرف إلى موضعه من الموفقية، وعُولج تلك الليلة، فلما كان من الغد [١٢٨/ب] عاد [إلى][3] الحرب على ما به ليشد من قلوب أوليائه لئلا يدخلهم وَهَن.

فزاد ما حمله نفسه من الحركة في قوة الجراحة فعظم أمرها حتى خيف عليه.

واضطرب العسكر، والجند، والرعية وخافوا قوة الخبيث عليهم، فأشار الأطباء وأهل الشفقة بأن يرجع إلى مدينة السلام.

= وفيها: سار أبو المغيرة المخزومي إلى مكة وعاملها هارون بن محمد الهاشمي، فجمع هارون جمعاً نحواً من ألفين احتمى بهم فسار المخزومي إلى عين مشاش، فغور ماءها، وإلى جدة فنهب الطعام، وأحرق بيوت أهلها فسار الخبر بمكة أوقيتان بدرهم.

وفيها: خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلبية فنزل ملطية، فأعانهم أهل مرعش والحدث، فانهزم ملك الروم. وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية الفرغاني عامل ابن طولون، فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً، وغنم الناس، فبلغ السهم أربعين ديناراً.

وحج بالناس فيها: هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي، وابن أبي الساج على الأحداث والطريق.

وفيها: مات محمد بن عبد الله بن عبد الحكم البصري الفقيه المالكي، وكان قد صحب الشافعي، وأخذ عنه العلم.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

فأبى [إلاّ][١] أن ينتظر أمر الخبيث بعد ما وَهِيَ وبلغ الغاية ولم يبق في أمره إلا اليسير، فأقام على صعوبة علته وغلظ الحادثة في سلطانه إلى أن عوفي، فظهر لخاصته، وقد كان أطال الاحتجاب عنهم[٢].

والخبيث في تلك الأيام يَعِدُ أصحابه العِدَات ويُمَنِّيهم الأماني الكاذبة.

فلما استقل الموفق وتماثل وقوي على النهوض يجعل يحلف[٣] على منبره أن ذلك باطل لا أصل له، وأن الذي ظهر لهم في الشذاه مثال مموّه. وكان أعاد بناء ما خرب من مدينته ودواوينه ودوره.

فركب الموفق وعاود الموضع بالحرب، ووصل إلى تلك المواضع فهدمها ثانية.

ووصل أصحابه إلى قصر من قصوره، فانتهبوا خيلاً له ولم يبق إلاّ الوصول إلى قصره، فصعب مرام ذلك على الموفق[٤].

وكثر المحامون عليه، ودامت الحرب فطالت حتى وصل إلى الفريقين من القتلى والجرحى أمر عظيم، وحتى لقد عُدّ الجرحى في بعض الأيام فوجدوها زهاء ألفي جريح في أصحاب الموفق، وذلك لتقارب الفريقين في وقت القتال، ومنع الخناق كل واحد من الفريقين من الدنو من صاحبه.

وكانت الشذاوات إذا قربت من قصره رموا من السور، ومن أعلى القصر بحجارة المنجنيقات وغيرها، وبالنشاب وغيرها، وأذيب الرصاص وأُفرغ عليهم، حتى أعد الموفق للشذاوات أغطية طلاها [لتحميها][٥] من الإحراق وأحكمها، وحمل فيها شجعان أصحابه وفتاكهم[٦]، وأمر ابنه أبا العباس بقصد دار على شاطئ دجلة من نهر أبي الخصيب كانت بإزاء دار الخبيث وأمر أصحاب الشذاوات المطلية بما وصفنا أن يلصقوا شذاتهم بحائط القصر فحاربهم الفسقة أشد حرب بالنيران وغيرها[٧].

(١) ما بين المعقوفين أحسبه سقط من المخطوط والسياق يتطلبه.

(٢) في الكامل: وكان ظهوره في شعبان من هذه السنة.

(٣) أي الخبيث العلوي.

(٤) فصل ابن الأثير الحيلة التي اتخذها العلوي في تحصين قصره لئلا يسهل الوصول إليه، فقال: فلما أعيت الخبيث الحِيَل أشار عليه علي بن أبان بإجراء الماء على السباخ التي يسلكها أصحاب الموفق لئلا يجدوا إلى سلوكها سبيلاً، وأن يحفر خنادق في مواضع عدة يمنعهم عن دخول المدينة، ففعل ذلك.
فرأى الموفق أن يجعل قصده لطم الخنادق والأنهار والمواضع المغورة، فدام ذلك فحامى عنه الخبثاء، ودامت الحرب ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمر عظيم، وذلك لتقارب ما بين الفريقين.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

(٦) زاد في الكامل: ومن النفاطين جمعاً كثيراً.

(٧) ذكر ابن الأثير قبل هذا الخبر خبر مهم أدى إلى ذلك الخبر كما كان له أكبر الأثر في إحراز =

وصبر لهم من فيها حتى أزالوهم حتى الرواشين[١].

وأحرقها غلمان الموفق وسلم من كان فيها من الحجارة والرصاص المذاب، وتمكنوا من دار الخبيث، وأحرقوا البيوت التي كانت تشرع إلى دجلة من قصر الفاسق، واتصلت النار بالستائر، فقويت وأعجلت الخبيث ومن معه عن التوقف على شيء من أمواله وذخائره، وخرج هارباً على وجهه، واستنقذ جماعة من النساء اللواتي استرقهن.

وانصرف الموفق، وأبو العباس وقت المغرب، بأجمل ظفر[٢].

وغرق نصير في هذا اليوم.

ذكر الخبر عن ذلك وسببه

كان سبب غرقه: أنه كان دخل في أول المد نهر أبي الخصيب فحمل الماء شذاته فألصقها بالقنطرة، ودخلت خلفه عدة شذاوات فيها غلمان الموفق ممن لم يكن أمرهم[٣] بالدخول، فحملهم الماء فألقاهم على شذات نصير فصكت بعضها في بعض حتى لم يكن للأستامين والحذافين[٤] فيها عمل.

ورأى الزنج ذلك، فأحاطوا بها من جانبي النهر، فألقى الحذافون أنفسهم في الماء ذعراً.

ودخل الزنج الشذاوات، فقتلوا المقاتلة، وغرق بعضهم.

وحاربهم نصير في شذاته حتى خاف الأسر فقذف نفسه في الماء فغرق.

وأصاب الموفق علّة، فاشتغل بها عن الخبيث[٥].

= النصر وتحقق الهدف ألا وهو أنه قال: واستأمن إلى الموفق محمد بن سمعان كاتب الخبيث وكان أوثق أصحابه في نفسه. وكان سبب استئمانه أن الخبيث أطلعه على أنه عازم على الخلاص وحده بغير أهل ولا مال.

فلما رأى ذلك من عزمه، أرسل يطلب الأمان، فأمنه الموفق وأحسن إليه.

وقيل: كان سبب خروجه: أنه كان كارهاً لصحبة الخبيث، مطلعاً على كفره، وسوء باطنه، ولم يمكنه التخلص منه إلاّ الآن، ففارقه، وكان خروجه عاشر شعبان. فلما كان الغد بكر الموفق إلى محاربة الخبثاء فأمر أبا العباس بقصد.

(١) في المخطوط: الراشين، وهو تحريف والتصويب من الكامل. والرواشين جمع روشن. وقال صاحب لسان العرب في مادة رشن:
الرَّوْشَنُ: الرَّفُّ.
وقال أبو عمرو: الرفيف الرَّوشن، والرَّوْشَنُ: الكُوَّةُ.

(٢) زاد صاحب الكامل في آخر الخبر على ما أصاب الخبيث من المصائب أن قال: وجرح ابنه انكلاي في بطنه جراحة أشفى منها على الهلاك.

(٣) في المخطوط: أمر، والتصويب من الكامل.

(٤) أي الملاحين والقائمين على أمر تلك الشذاوات.

(٥) فَصَّل ابن الأثير الخبر المجمل هنا فقال بعد أن ذكر غرق نصيراً: =

فأعاد[١] القنطرة التي لجج فيها نصير وأحكم ما كان [تلف][٢] من قصره.

وأفاق الموفق من علته فعاود الحرب.

وخرج الخبيث بنفسه، خرج للقتال مع ابنه انكلاي، وعلي بن أبان، وسليمان بن جامع، واشتبكت الحرب وقاتلوا أشد قتال رُئي وقطعت القنطرة وأحرقت. واستعلى عند ذلك أصحاب الموفق، ونشط غلمانه فوسعوا الملك وظفروا بدوره وقصوره فأحرقوها.

وانتقل الخبيث من غربي نهر أبي الخصيب إلى شرقيه، وجمع عياله وولده حوله وضعف أمره ضعفاً شديداً.

وتهيب الناس جلب الميرة إليهم فبلغ الرطل من الخبز عشرة دراهم، فأكلوا أصناف الحبوب ثم لم يزل يتفاقم الأمر بهم إلى أن أكلوا لحوم الناس فكان الزنج يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي وثب عليه فأكله، ثم قوي ذلك فصار بعضهم يأكل بعضاً، ثم أكلوا لحوم أولادهم، ثم كانوا ينبشون الموتى فيبيعون أكفانهم ويأكلون لحومهم.

فقصدهم الموفق وأحرق الشرقي من جانب النهر كما أحرق الغربي، وقصده على ثلاثة أوجه فطرحوا فيها النيران فاحترق الناس من أصحاب الخبيث مع منازلهم وأسواقهم، وهرب من أطاق ذلك، فأخذته السيوف، وهرب الخبيث، وحاز أصحاب الموفق جميع ما كان في نهر أبي الخصيب من الشذاوات والمراكب البحرية والسفن الصغار والحرافات والزلالات وغيرها[٣].

وصار بعد ذلك أصحاب الخبيث إذا وكلهم بحراسة موضع سلموه واستأمنوا حتى استأمن الشعراني، وسنبل ـ وكان من قدماء أصحابه وذوي البصائر [١٢٩/أ] في طاعته ـ فأمرهما الموفق بمحاربة الخبيث لما علم أنه لا وجه لهما عنده، وضم إليهما قوماً.

فكانا يأتيانه من الوجوه التي يأمنها حتى كثر القتل في أصحابه، وذعره أمرهما،

= وأقام الموفق يومه يحاربهم وينهبهم، ويحرق منازلهم، ولم يزل يومه مستعلياً عليهم.
وكان سليمان بن جامع ذلك اليوم من أشد الناس قتالاً لأصحاب الموفق وثبت مكانه، حتى خرج عليه كمين للموفق، فانهزم أصحابه وجرح سليمان جراحة في ساقه، وسقط لوجهه في موضع كان فيه حريق، وفيه بعض الجمر، فاحترق بعض جسده، وحمله أصحابه بعد أن كاد يؤسر.
وانصرف الموفق سالماً ظافراً.
وأصاب الموفق مرض المفاصل، فبقي به شهر شعبان، وشهر رمضان، وأياماً من شوال، وأمسك عن حرب الزنج، ثم برأ وتماثل، فأمر بإعداد آلة الحرب.

(١) في المخطوط: فاد، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق أو ما هو في معناها.
(٣) ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل بما هو أكثر تفصيلاً.

ومنع ذلك أصحابه من النوم ودخلتهم وحشة عظيمة.

ثم جمع الموفق السفن وفيها عشرة آلاف من الملاحين وعرض الجند، وحرضهم على شحذ نياتهم وهجم على مدينة الخبيث، واستقبله الخبيث في جميع أصحابه، واشتد القتال، وحامى الخبثاء عن دياراتهم وعيالاتهم، فمنح اللّه الموفق النصر وهزم الزنج، وقتلوهم مقتلة عظيمة لم يقتتلوا مثلها.

وأسر منهم جمعاً كثيراً، وأتى الموفق بالأسرى فضرب أعناقهم، وقصد دار الخبيث، فدافع عنها ثم لم يغنه ذلك شيئاً فأسلمها فانتهب ما كان فيها من الأموال والأثاث وأخذوا حرمه وأولاده فبلغ عدتهم أكثر من مائة امرأة وصبي.

وتخلص الخبيث ومضى هارباً وأتى الموفق ببناته وأولاده، فوكل بهم وأمر بالإحسان إليهم، فحملوا إلى الموفقية[١].

وفي ذي الحجة من هذه السنة: وافى صاعد بن مخلد كاتب الموفق حضرمة منصرفاً إليه من سُرَّ من رأى، ووافى معه جيش كثيف بلغ الفرسان والرجالة فيها عشرة آلاف.

فأمر الموفق بإزاحة عللهم في أرزاقهم، وأمرهم بتجديد أسلحتهم والتأهب لحرب الزنج. فَهُم في ذلك إذ ورد عليهم كتاب لؤلؤ صاحب ابن طولون ـ وكان فارق صاحبه ـ يسأله في الإذن له في القدوم عليه ليشهد حرب الفاسق، فأجابه وأذن له[٢].

وأخر ما كان عزم عليه من مناجزة الخبيث انتظاراً للؤلؤ بالرقة في جمع عظيم من تحته أصحاب ابن طولون.

فشخص لؤلؤ حتى ورد مدينة السلام ثم وافى عسكر أبي أحمد، وحضر ابنه أبو العباس، وصاعد بن مخلد والقواد على مراتبهم، وأدخل عليه لؤلؤ في أحسن زي.

فأمر أبو أحمد أن ينزل عسكراً كان أعدّ له بإزاء نهر أبي الخصيب، ونزله في أصحابه ونقد إليه في مباكره دار المرفق ومعه قواده وأصحابه للتسلم، فغدا مع أصحابه في السواد،

---

(١) الخبر في الكامل بنحو مما هنا مع تقديم وتأخير وتفصيل في بعض أحداث الخبر من ذكر مواضع وأيام ومواقيت وأسماء أفراد وقادة وطرق حربية مفصلة وعدد مقاتله وسفن ومعدات وآلات حرب وما إلى ذلك من الأمور العسكرية.

(٢) في الكامل ذكر هذا الخبر مع بعض الاختصار وإن كان فيه بعضاً مما لم يذكر هنا فقال: وفيها: خالف لؤلؤ غلام أحمد بن طولون صاحب مصر على مولاه أحمد بن طولون، وفي يده حمص، وقنسرين، وحلب، وديار مضر من الجزيرة.
وسار إلى بالس فنهبها، وكاتب الموفق في المسير إليه واشترط شروطاً، فأجابه أبو أحمد إليها، وكان بالرقة.
فسار إلى الموفق فنزل قرقيسيا، وبها ابن صفوان العُقيلي فحاربه وأخذها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق، وسار إلى الموفق فوصل إليه وهو يقاتل الخبيث العلوي.

فوصل ومسلم وقربه وأدناه، ووعده وأصحابه الإحسان وأمره أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة من قواده، وحمل على خيل كثيرة بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة وحمل بين يديه من أصناف الكسي والأموال في اليد ما لا يحمله مائة غلام.

وأمر لقواده من الصِّلات والكسوة على قدر محل كل إنسان منهم، وأقطعه ضياعاً جليلة وصرفه إلى معسكره، وأعد له ولأصحابه الأتراك العلوفات.

وأمره برفع جرائد لأصحابه ليعطوا رسومهم عند رفع الجرائد.

ثم قدم إلى لؤلؤ في التأهب للعبور إلى غربي دجلة لمحاربة الجيش.

وكان الخبيث لما غلب على نهر أبي الخصيب أحدث سكراً[١] في النهر من جانبيه، وجعل في وسط السكر باباً ضيقاً ليحيد فيه جريه الماء فيمنع الشذاوات من دخوله في الجزر ويتعذر خروجها في المد.

فرأى أبو أحمد أن الحرب لا يتم إلاّ بقلع هذا السكر، فحاول ذلك، فرام أمراً صعباً بمحاماة الزنج عليه فهم يريدون فيه كل يوم وهو متوسط دورهم، فالمؤنة تسهل عليهم وتغلظ على من حاوله.

فرأى الموفق أن يحارب بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ ليصيروا لمحاربة الزنج ولينظروا إلى مقدار عنائهم وشدة بأسهم.

فأمر لؤلؤ بأن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر، وأمر بإحضار الفعلة لقلعه، ففعل.

فرأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه وصبرهم على ألم الجراح وثبات العدّة اليسيرة في وجوه الجمع الكبير من الزنج ما سره.

وكره أن يبذلهم فتكون الجرأة بهم ثم الظفر الأخير لهم، فيذهبوا باسم الفتح.

وأمر لؤلؤ أن يصرف أصحابه، وأظهر إشفاقاً عليهم، وضناً بهم، ووصلهم وردهم إلى معسكرهم.

ثم ألحّ الموفق على السكر، فهو يُخرّب، وهم يبنون والمستأمنة يكثرون إلى آخر هذه السنة[٢].

---

(١) أي سداً، قال صاحب لسان العرب:
سَكَرَ النهر يَسْكُرُه سَكْراً: سَدّ فاه، وكل شق سَدّ فقد سُكِرَ، والسِّكْرُ ما سُدّ له.
والسِّكْرُ: سد الشق ومنفجر الماء.
والسِّكْرُ: اسم ذلك السداد الذي يجعل سداً للشق.

(٢) جاء الخبر في الكامل على غير هذا النحو فقال ابن الأثير فيه تحت عنوان: ذكر إحراق قنطرة العلوي صاحب الزنج: =

....

= ولما اشتغل الموفق بعلته أعاد الخبيث القنطرة التي غرق عندها نصير، وزاد فيها، وأحكمها ونصب دونها أدقال ساج، وألبسها الحديد وسكر أمام ذلك سكراً من حجارة ليضيق المدخل على الشذا، وتحته جرية الماء في النهر.
فندب الموفق أصحابه، وسير طائفة من شرقي نهر أبي الخصيب، وطائفة من غربيه، وأرسل معهما النجارين والفعلة لقطع القنطرة وما جعل أمامها.
وأمر بسفن مملوءة من القصب أن يصب عليها النفط، وتدخل النهر ويلقى فيها النار ليحترق الجسر.
وفرق جنده على الخبثاء لمنعوهم عن معاونة من عِنْدَ القنطرة.
فسار الناس إلى ما أمرهم به عاشر شوال فتقدمت الطائفتان إلى الجسر ولقيهما انكلاي ابن الخبيث، وعلي بن أبان، وسليمان بن جامع، واشتبكت الحرب ودامت وحامى أولئك عن القنطرة لعلمهم بما عليهم في قطعها من المضَرّة، وأن الوصول إلى الجسرين العظيمين اللذين يأتي ذكرهما يسهل ودامت الحرب على القنطرة إلى العصر.
ثم إن غلمان الموفق أزالوا الخبثاء عنها فقطعها النجارون، ونقضوها، وما كان عمل من الأدقال الساج وكان قطعها قد تعذر عليهم، فأدخلوا تلك السفن التي فيها القصب والنفط، وأضرموها ناراً، فوافت القنطرة فأحرقوها، فوصل النجارون بذلك إلى ما أرادوا. وأمكن أصحاب الشذوات دخول النهر فدخلوه، وقتلوا الزنج حتى أجلوهم عن مواقفهم إلى الجسر الأول الذي يتلو هذه القنطرة، وقتل من الزنج خلق كثير، واستأمن بشر كثير.
ووصل أصحاب الموفق إلى الجسر المغرب أن يدركهم الليل، فأمرهم بالرجوع، فرجعوا وكتب إلى البلدان أن يُقرأ على المنابر:
أن يؤتى المحسن على قدر إحسانه. ليزدادوا جداً في حرب عدوه.
وأخرب من الغد بُرْجَيْن من حجارة كانوا عملوها ليمنعوا بهما الشذاوات من الخروج من النهر إذا دخلته، فلما أخربهما سهل له ما أراد من دخول النهر والخروج منه.
ثم ذكر ابن الأثير في أحداث تلك السنة أيضاً كيفية استيلاء الموفق على مدينة صاحب الزنج الغربية، فقال:
لما هدم الموفق دور الخبيث أمر بإصلاح المسالك لتتسع على المقاتلة الطريق للحرب، ثم رأى قلع الجسر الأول الذي على نهر أبي الخصيب لِمَا في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضاً، وأمر بسفينة كبيرة أن تملأ قصباً ويجعل فيها النفط، ويوضع في وسطها دقل طويل يمنعها من مجاورة الجسر إذا التصقت به.
ثم أرسل عند غفلة الزنج، وقوة المسد، فوافت الجسر، وعلم بها الزنج، فأتوها وطمُّوها بالحجارة والتراب، ونزل بعضهم في الماء فنقبها، فغرقت.
وكان قد احترق من الجسر شيء يسير فأطفأه الزنج.
فعند ذلك اهتم الموفق بالجسر فندب أصحابه، وأعد النفاطين، والفعلة والفؤوس وأمرهم بقصده من غربي النهر، وشرقيه وركب الموفق في أصحابه، وقصد فوهة نهر أبي الخصيب، وذلك منتصف شوال سنة تسع وستين.
فسبق الطائفة التي في غربي النهر فهزم الموكلين على الجسر، وهم:
سليمان بن جامع، انكلاي ولد الخبيث وأحرقوه، وأتى بعد ذلك الطائفة الأخرى ففعلوا بالجانب الشرقي مثل ذلك، وأحرقوا الجسر، وتجاوزوه إلى جانب حديقة كانت تعمل فيها سميريات الخبيث، وآلاته، واحترق ذلك عن آخره إلا شيئاً يسيراً من الشذاوات والسميريات، كانت في النهر.
وقصدوا سجناً للخبيث فقاتلهم الزنج عليه ساعة من النهار، ثم غلبهم أصحاب الموفق عليه، فأطلقوا من فيه، وأحرقوا كل ما مروا به، إلى دار مصلح ـ وهو من قدماء أصحابه ـ فدخلوها =

....

= ونهبوها وما فيها وسَبُوا نساءه، وولده، واستنقذوا خلقاً كثيراً.
وعاد الموفق وأصحابه سالمين، وانحاز الخبيث وأصحابه من هذا الجانب إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب واستولى الموفق على الجانب الغربي غير طريق يسير على الجسر الثاني، فأصلحوا الطرق وزاد ذلك في رعب الخبيث وأصحابه. فاجتمع كثير من أصحابه وقواده، وأصحابه الذين كان يرى أنهم لا يفارقونه على طلب الأمان فبذل لهم.
فخرجوا أرسالاً، فأحسن الموفق إليهم، وألحقهم بأمثالهم.
ثم إن الموفق أحب أن يتمرن أصحابه بسلوك النهر ليحرق الجسر الثاني فكان يأمرهم بإدخال الشذاوات فيه وإحراق ما على جانبه من المنزل فهرب إليه بعض الأيام قائد الزنج، ومعه قاض كان له، منبر، ففت ذلك في أعضاد الخبثاء. ثم إن الخبيث وَكَّل بالجسر الثاني من يحفظه، وشحنه بالرجا.
فأمر الموفق بعض أصحابه بإحراق ما عند الجسر من سفن، ففعلوا حتى أحرقوها.
فزاد ذلك في احتياط الخبيث، وفي حراسته للجسر لئلا يحرف، ويستولي الموفق على الجانب الغربي فيهلك.
وكان قد تخلف من أصحابه جمع في منازلهم المقاربة للجسر الثاني، وكان أصحاب الموفق يأتونه ويقفون على الطريق الخفية، فلما عرفوا ذلك عزموا على إحراق الجسر الثاني.
فأمر الموفق ابنه أبا العباس، والقواد بالتجهز لذلك، وأمرهم أن يأتوا من عدة جهات ليوافوا الجسر، وأعد معهم الفؤوس والنفط والآلات، ودخل هو في النهر بالشذاوات، ومعه أنجاد غلمانه ومعهم الآلات أيضاً.
واشتبكت الحرب في الجانبين جميعاً بين الفريقين واشتد القتال.
وكان في الجانب الغربي بإزاء أبي العباس ومن معه انكلاي ابن الخبيث، وسليمان بن جامع.
وفي الجانب الشرقي بإزاء راشد مولى الموفق ومن معه الخبيث، والمهلبي في باقي الجيش.
فدامت الحرب مقدار ثلاث ساعات، ثم انهزم الخبثاء لا يلوون على شيء، وأخذت السيوف منهم مأخذها، ودخل أصحاب الشذاوات النهر، ودنوا من الجسر، فقاتلوا من يحميه بالسهام، وأضرموا ناراً وكان من المنهزمين سليمان وانكلاي وكان قد أثخن بالجراح، فوافيا الجسر والنار فيه. فحالت بينهما وبين العبور، وألقيا أنفسهما في النهر ومن معهما، فغرق منهم خلق كثير، وأفلت انكلاي، وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك، وقطع الجسر، وأحرق، وتفرق الجيش في مدينة الخبيث في الجانبين، فأحرقوا من دورهم وقصورهم، وأسواقهم شيئاً كثيراً، واستنقذوا من النساء والصبيان ما لا يحصى، ودخلوا الدار التي كان الخبيث سكنها بعد إحراق قصره، فأحرقوها ونهبوا ما كان فيها مما كان سَلِمَ معه.
وهرب الخبيث، ولم يقف ذلك اليوم على مواضع أمواله.
واستنقذ في هذا اليوم نسوة من العلويات كن محبوسات في موضع قريب من داره التي كان يسكنها، فأحسن الموفق إليهن، وحملهن.
وفتح سجناً كان لهم، وأخرج منه خلقاً كثيراً ممن كان يحارب الخبيث ففك الموفق عنهم الحديد.
وأخرج ذلك اليوم كل ما كان في نهر أبي الخصيب من شذاوات، ومراكب بحرية، وسفن صغار وكبار، وحراقات، وغير ذلك من أصناف السفن إلى دجلة، فأباحها الموفق أصحابه مع ما فيها من السلب، وكانت له قيمة عظيمة.
وأرسل إليه انكلاي ابن الخبيث يطلب الأمان، وسأل أشياء، فأجابه الموفق إليها.
فعلم أبوه بذلك فعزله، وردّه عما عزم عليه، فعاد إلى الحرب، ومباشرة القتال.
ووجه سليمان بن موسى الشعراني ـ وهو أحد رؤساء الخبيث ـ يطلب الأمان، فلم يجبه =

....

= الموفق إلى ذلك، لما كان قد تقدم منه من سفك الدماء والفساد.
فاتصل به أن جماعة من رؤساء الخبيث قد استوحشوا المنع، فأجابه إلى الأمان.
فأرسل الشذاوات إلى موضع ذكره، وخرج هو وأخوه وأهله، وجماعة من قواده. فأرسل الخبيث من يمنعهم عن ذلك، فقاتلهم.
ووصل إلى الموفق فزاد في الإحسان إليه وخلع عليه، وعلى من معه.
وأمر بإظهاره لأصحاب الخبيث ليزدادوا ثقة. فلم يبرح من مكانه حتى استأمن جماعة من قواد الزنج منهم شبل بن سالم.
فأجابه الموفق، وأرسل إليه شذاوات، فركب فيها هو وعياله وولده، وجماعة من قواده، فلقيهم قوم من الزنج فقاتلهم، ونجا.
ووصل إلى الموفق، فأحسن إليه، ووصله بِصِلَةْ، وهو من قدماء أصحاب الخبيث.
فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه، لَمَّا رأوا من رهبة رؤسائهم في الأمان.
ولما رأى الموفق مناصحة شبل وجودة فهمه أمره أن يكفيه بعض الأمور.
فسار ليلاً في جمع من الزنج لم يخالطهم غيرهم إلى عسكر الخبيث يعرف مكانه، فأوقع به، وأسر منهم، وقتل وعاد، فأحسن إليه الموفق.
وسار الزنج بعد هذه الوقعة لا ينامون الليل ولا يزالون يتحارسون للرعب الذي دخلهم، وأقام الموفق ينفذ السرايا إلى الخبيث ويكيده، ويحاول بينه وبين القوت، وأصحاب الموفق يتدربون في سلوك تلك المضايق التي في أرضه ويوسعونها.
ثم ذكر استيلاء الموفق على مدينة الخبيث الشرقية فقال:
لما علم الموفق أن أصحابه قد تمرنوا على سلوك تلك الأرض وعرفوها، صمم العزم على العبور إلى محاربة الخبيث من الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلساً عاماً، وأحضر قواد المستأمنة، وفرسانهم، فوقفوا بحيث يسمعون كلامه، ثم كلمهم فعرفهم ما كانوا فيه من الضلالة، والجهل وانتهاك المحارم، ومعصية اللّٰه عز وجل، وأن ذلك قد أحل له دماءهم، وأنه غفر لهم زلتهم ووصلهم، وأن ذلك يوجب عليهم حقه وطاعته، وأنهم لن يرضوا ربهم ولسلطانه بأكثر من الجد في مجاهدة الخبيث، وأنهم يعرفون مسالك العسكر ومضايق مدينتهم ومعاقلها التي أعدها، وهم أولى أن يجتهدوا في الولوج على الخبيث، والوغول إلى حصونه، حتى يمكنهم اللّٰه منه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان، والمزيد ومن قَصَّر منهم، فقد أسقط منزلته وحاله فارتفعت أصواته بالدعاء له والاعتراف بإحسانه، وبما هَمَّ عليه من المناصحة والطاعة، وأنهم يبذلون دماءهم في كل ما يقربهم منه.
وسألوه أن يفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وطاعتهم، فأجابهم إلى ذلك، وأثنى عليهم ووعدهم.
وكتب في جمع السفن، والمعابر من دجلة، والبطيحة ونواحيها ليضيفها إلى ما في عسكره إذ كان ما عنده يكثر عن الجيش كثرته.
وأحصى من في الشذاوات، والسميريات، وأنواع السفن، فكانوا زهاء عشرة آلاف ملاّح ممن يجري عليه الرزق من بيت المال مشاهرة سوى سفن أهل العسكر التي يحمل فيها الميرة، ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لكل قائد من السميريات، والحربيات، والزواريق.
فلما تكاملت السفن تقدم إلى ابنه أبا العباس وقواده، وقصد مدينة الخبيث الشرقية من جهاتها، فسَيَّر ابنه أبا العباس إلى ناحية دار المهلبي أسفل العسكر، وكان قد شحنها بالرجال والمقاتلين.
وأمر جميع أصحابه بقصد دار الخبيث وإحراقها فإن عجزوا عنها اجتمعوا على دار المهلبي.
وسار هو في الشذاوات، وهي مائة وخمسون قطعة فيها أنجاد غلمانه، وانتخب من الفرسان =

وفي هذه السنة: دخل عيال صاحب الزنج وولده بغداد.

وفيها: شخص المعتمد يريد اللحاق بمصر وذلك قبل انحدار صاعد إلى الموقد.

وقدم قائد لابن طولون من الرقة في ذلك.

فلما سار المعتمد إلى عمل إسحاق بن كنداجيق وهو العامل على الموصل والجزيرة ورتب عليه ابن كنداجيق وهو العامل على الموصل، والجزيرة، ووثب[1] عليه ابن كنداجيق على جميع من معه فقيدهم وأخذ جميع ما صحبهم من مال ورقيق، وكان

= والرجال عشرة آلاف، وأمرهم أن يسيروا على جانب النهر معه إذا سار، وأن يقفوا معه إذا وقف ليتصرفوا بأمره.

وبكر الموفق لقتال الفاسقين يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين.

وكانوا قد تقدموا إليه يوم الاثنين، وواقعهم، وتقدم كل طائفة إلى الجهة التي أمرهم بها، فلقيهم الزنج، واشتدت الحرب، وكثر القتل والجراح في الفريقين، وحامى الفسقة عن الذي اقتصروا عليه من مدينتهم واستماتوا وصبروا.

فنصر اللّه أصحاب الموفق، فانهزم الزنج وقتل منهم خلق كثير، وأُسر من أنجادهم وشجعانهم جمع كثير.

فأمر الموفق بضرب الأعناق الأسرى في المعركة، وقصد بجمعه الدار التي يسكنها الخبيث، وكان قد لجأ إليها، وجمع أبطال أصحابه للمدافعة عنها، فلم يغنوا عنها شيئاً، وانهزموا عنها وأسلموها.

ودخلها أصحاب الموفق، وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله، وولده، وأثاثه.

فنهب ذلك أجمع، وأخذوا حرمه، وأولاده، وكانوا عشرين ما بين صبية وصبي.

وسار الخبيث هارباً نحو دار المهلبي لا يلوي على أهل ولا مال.

وأحرقت داره، وأُتي الموفق بأهل الخبيث وأولاده، فسيرهم إلى بغداد.

وكان أصحاب أبي العباس قد قصدوا دار المهلبي وقد قصد إليها خلق كثير من المنهزمين، فغلبوهم عليها واشتغلوا بنهبها، وأخذوا ما فيها من حرم المسلمين وأولادهم.

وجعل من ظفر منهم بشيء حمله إلى سفينته، فعلوا في الدار ونواحيها، فلما رآهم الزنج كذلك رجعوا إليهم، وقتلوا فيهم مقتلة يسيرة. وكان جماعة من غلمان الموفق الذين قصدوا دار الخبيث تشاغلوا بحمل الغنائم إلى السفن أيضاً، فأطمع ذلك الزنج فيهم، فأكبوا عليهم فكشفوهم، واتبعوا آثارهم، وثبت جماعة من أبطال الموفق، فردوا الزنج حتى تراجع الناس إلى مواقفهم، ودامت الحرب إلى العصر.

فأمر الموفق غلمانه بصدق الحملة عليهم، ففعلوا، فانهزم الخبيث وأصحابه، فأخذتهم السيوف حتى انتهوا إلى داره أيضاً.

فرأى الموفق عند ذلك أن يصرف أصحابه إلى إحسانهم، فردهم، وقد غنموا واستنقذوا جمعاً من النساء المأسورات، كن يخرجن ذلك اليوم إرسالاً فيحملن إلى الموفقية.

وكان أبو العباس قد أرسل في ذلك اليوم قائداً فأحرق ثَمَّ بيادر كانت ذخيرة للخبيث، وكان ذلك مما أُضعِفَ به الخبيث وأصحابه.

ثم وصل إلى الموفق كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون في القدوم عليه، فأمره بذلك، وأخر القتال إلى أن يحضر.

(١) في المخطوط: ورتب. وهو تحريف.

كتب إليه في القبض على المعتمد ومن معه[١].

وأقطع ضياع فارس بن بغا ومن صحب المعتمد من القواد.

فاحتال ابن كنداجيق، وأظهر أنه معهم، وفي طاعة المعتمد إذ كان الخليفة ولا يجوز له الخلاف عليه، وسار معهم.

فلما نزل موضعاً بينه وبين عمل ابن طولون منزلان ارتحل الاتباع ومن شخص مع المعتمد إلاّ القواد، وأشخص كنداجيق، فقال لهم [١٢٩/ب] ابن كنداجيق: إني أحب أن أخلو بكم وأشير عليكم بما في نفسي.

وقال لهم: قد قويتم من ابن طولون، والمقيم بالرقة من قواده، وأنتم إذا صرتم إلى ابن طولون فالأمر أمره، وأنتم من تحت يده، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه اليوم لواحد منكم؟

وأطال مناظرتهم حتى تعالى النهار.

فقال لهم ابن كنداجيق: قوموا بنا فإن الشمس قد ارتفعت حتى يتم حديثنا في غير هذا الموضع، ويكرم مجلس أمير المؤمنين عن ارتفاع الصوت.

وكان المعتمد في مضربه، ومضرب ابن كنداجيق، وسائر المضارب قد سارت.

فأدخلهم إلى مضرب نفسه، وكان قد تقدم قبل ذلك إلى قواده وغلمانه وحاشيته في ذلك اليوم أن لا يبرحوا.

فلما ساروا إلى مضربه دخل خالد غلمانه وأصحابه على القواد ومعهم القيود فقيدوهم.

فلما فرغ منهم مضى إلى المعتمد، فعدله عن شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، وفراقه أخاه على الحال التي هو فيها من حرب من يحاول قتله، وقتل أهل بيته، وإزالة

---

(١) ذكر ابن الأثير السبب في خروج المعتمد وذكر الخبر تفصيلاً فقال: وفيها سار المعتمد نحو مصر وكان سبب ذلك:
أنه لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا كثير، وكان الحكم كلّه للموفق، والأموال يُجبى إليه، فضجر المعتمد من ذلك وأنف منه.
فكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه حاله سراً من أخيه الموفق، فأشار عليه أحمد باللحاق به بمصر ووعده النصرة، وسير عسكراً إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم.
فاغتنم المعتمد غيبة أخيه الموفق عنه، فسار في جمادى الأولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد، فلما سار إلى عمل إسحاق بن كنداجيق ـ وكان عامل الموصل، وعامة الجزيرة ـ وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد على القواد فقبضهم وهم: نيزك، وأحمد بن خاقان، وخطارمش، فقيدهم، وأخذ أموالهم ودوابهم.
وكان قد كتب إليه صاعد بن مخلد وزير الموفق عن الموفق.

ملكهم، ثم حمله ومن معه مقيدين إلى سُرّ مَن رَأَى[١].

وفيها: خُلع على ابن كنداجيق، وقلد سيفين بحمائل أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره وسمي: ذا السيفين.

وخلع عليه أيضاً بعد ذلك بيومين قباء ديباج ووشاحان، وتوّج تاجاً وقُلِّد سيفاً، كل ذلك مرصع بالجواهر.

وشيّعه هارون بن الموفق، وصاعد بن مخلد، والقواد إلى منزله، وتغدوا عنده[٢].

---

(١) كذا جاء الخبر في الكامل كما هنا جملة وتفصيلاً بعد القدر الذي كنت قد ذكرت قبل.

(٢) لم يذكر ابن الأثير هذا الخبر ضمن كتابه الكامل غير أنه ذكر عدة حوادث أخرى في تلك السنة فقال:

وفيها: كانت وقعة بمكة بين جيش أحمد بن طولون، وبين عسكر الموفق في ذي القعدة، وكان سببها أن أحمد بن طولون سَيَّر جيشاً مع قائدين إلى مكة، فوصلوا إليها وجمعوا الحناطين والجزارين، فرقوا فيهم مالاً.

وكان عامل مكة هارون بن محمد إذ ذاك ببستان ابن عامر قد فارقها خوفاً منهم. ووافى مكة جعفر الناعمودي في ذي الحجة في عسكر، وتلقاه هارون بن محمد في جماعة، فقوي بهم جعفر، والتقوا هم وأصحاب ابن طولون، فاقتتلوا، وأعان أهل خراسان جعفراً، فقتل من أصحاب ابن طولون مائتي رجل، وانهزم الباقون في الجبال، وسلبوا، وأخذ أموالهم.

وأخذ جعفر من القائدين نحو مائتي ألف دينار وأمَّنَ المصريين، والجزارين، والحناطين، وقرأ كتاب في المسجد الجامع بلعن ابن طولون، وسلم الناس وأموال التجار.

وفي المحرم من هذه السنة: قطع الأعراب الطريق على قافلة من الحاج بين شور، وسميراء فسلبوهم وساقوا نحواً من خمسة آلاف بعير بأحمالها، وأناساً كثيراً.

وفيها: انخسف القمر، وغاب منخسفاً، وانكسفت الشمس فيه أيضاً آخر النهار وغابت منكسفة، فاجتمع في المحرم كسوفان.

وفيها في صفر: وثبت العامة ببغداد بإبراهيم الخليجي، فانتهبوا داره، وكان سبب ذلك: أن غلاماً له رمى امرأة بسهم فقتلها، فاستعدى السلطان عليه، فامتنع ورمى غلمانه الناس، فقتلوا جماعة وجرحوا جماعة، فثارت بهم العامة فقتلوا فيهم رجلين من أصحاب السلطان ونهبوا منزله ودوابه، وخرج هارباً.

وجمع محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وكان نائب أبيه دواب إبراهيم وما أخذ له فرده عليه.

وفيها: وجه إلى أبي الساج جيش بعدما انصرف من مكة فسيره إلى جدة فأخذ للمخزومي مركبين فيهما مال وسلاح.

وفيها: وثب خلف صاحب أحمد بن طولون بالثغور الشامية، وعامله عليها بازمار الخادم مولى الفتح بن خاقان، فحبسه، فوثب به جماعة من أهل الثغر، فاستنفذوا بازمار وهرب خلف، وتركوا الدعاء لابن طولون. فسار إليهم ابن طولون، ونزل أذنة، فاعتصم أهل طرسوس بها ومعهم بازمار، فرجع عنهم ابن طولون إلى حمص، ثم إلى دمشق فأقام بها.

وفيها: قام رافع بن هرثمة بما كان الخجستاني غلب عليه من مدن خراسان فاجتبى عدة من كور خراسان خراجها لبضع عشرة سنة، فأفقر أهلها وأخربها. =

ودخلت سنة سبعين ومائتين

وفيها: قتل الخبيث، وأُسر سليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمذاني.

وذلك بعد حروب كثيرة ومنازلات شديدة، مباشرة للحروب منه ومن الموفق بأنفسهما ومخاطرات منهما عظيمة لم يكن في جميعها ما يستفاد منه سوى احتمال المكاره في الحروب والصبر على شدائدها وأخطارها.

وحُمِلَ رأس هذا الخائن إلى الموفق في صفر من هذه السنة، وهو يحارب مع أهل الشدة وبالبأس من أصحابه، فقتل وهو يجاهد على حاله غير مستسلم، ولا معط بيده.

وكان قد بذل له الأمان مراراً فأباه، وأقام على حاله صابراً حتى أسلمه رجاله، وخانه ثقاته، وداب دوباً حتى هلك ومضى مقتولاً.

ثم تتابع مجن الزنج الذين كانوا أقاموا مع الخبيث إلى آخر أمره، وصبروا معه حتى وافى ذلك اليوم الذي قتل فيه ألف من الأبطال.

= وفيها: كانت وقعة بين الحسنيين، والحسينيين بالحجاز، والجعفريين.
فقتل من الجعفريين ثمانية نفر، وخلّصوا الفضل بن العباس العباسي، عامل المدينة.
وفيها في جمادى الآخرة: عقد هارون بن الموفق لابن أبي السّاج على الأنبار وطريق الفرات والرحبة.
وولي محمد بن أحمد الكوفة وسوادها، فلقي محمد الهيصم العجلي، فانهزم الهيصم.
وفيها: توفي عيسى ابن الشيخ بن السليل الشيباني وبيده أرمينية وديار بكر.
وفيها: لعن المعتمد أحمد بن طولون في دار العامة، وأمر بلعنه على المنابر.
وولى إسحاق بن كنداجيق على أعمال ابن طولون وفوض إليه من باب الشماسية إلى أفريقية، وولي شرطة الخاصة.
وكان سبب هذا اللعن:
أن ابن طولون قطع خطبة الموفق، وأسقط اسمه من الطرز.
فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعنه، ففعل مكرهاً لأن هوى المعتمد كان مع ابن طولون.
وفيها: كانت وقعة بين ابن أبي الساج والأعراب، ثم بيتهم فقتل منهم وأسر، ووجه بالرؤوس، والأسرى إلى بغداد.
وفيها في شوال: دخل ابن أبي الساج رحبة مالك بن طوق بعد أن قاتله أهلها فغلبهم وقتلهم، وهرب أحمد بن مالك بن طوق إلى الشام. ثم سار ابن أبي الساج إلى قرقيسياء فدخلها.
وحج بالناس: هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي.
وفيها: خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في عسكر إلى ناحية رمطة، وبلغ العسكر إلى قطانية، فقتل كثيراً من الروم وسبى وغنم، ثم انصرف إلى بلرم في ذي الحجة.
وفيها: توفي أحمد بن مخالد مولى المعتصم ـ وهو من دعاة المعتزلة ـ وأخذ الكلام عن جعفر بن مبشر.
وفيها: توفي سليمان بن حفص بن أبي عصفور الأفريقي ـ وكان معتزلياً يقول بخلق القرآن ـ وأراد أهل القيروان فسلم لذلك، وصحب بشر المريسي، وأبا الهذيل وغيرهما من المعتزلة.

فرأى الموفق أن يبذل لهم الأمان لما رأى من كثرتهم وشجاعتهم ولئلا يبقى منهم بقية يخاف معرتهم، ويجتمعون على رئيس يعظم خطبه بهم.

ثم وافى من الزنج في غد هذا اليوم خمسة آلاف زنجي، وانقطع منهم نحو ألفي زنجي إلى البر، فماتوا عطشاً.

وظفر الأعراب بقوم منهم فاسترقوهم.

فأما من قتل وغرق في الوقعة فخلق لا يوقف على عددهم.

وانتهى إلى الموفق خبر المهلبي وانكلاي ومقامهما بحيث أقاما فيه مع من تبعهما من جلة قوادهم ورجالهم.

فبعث أبطال أصحابه في طلبهم، فلما علموا أن لا ملجأ لهم، أعطوا بأيديهم، فظفر بهم الموفق، فلم يشد منهم أحد.

وأمر الموفق بحبس المهلبي وانكلاي والاستيثاق منهما[١].

---

(١) هذا كل ما ذكره المؤلف في مقتل الخبيث العلوي وأسر سليمان، وإبراهيم وجميع قواده، وقد فصل ابن الأثير الخبر فحكى تفاصيل المعركة ووقعة قتل وأسر أصحابه وقواده فقال بعد مقدمة شرح فيها إجمالاً لما تقدم:
وتقدم إلى أبي العباس ابنه أن يأتي الخصيب من ناحية دار المهلبي، وفرّق العساكر من جميع جهاته، وأضاف المستأمنة إلى شبل وأمره بالجد في قتال الخبيث.
وأمر الناس أن لا يزحف أحد حتى يحرك علماً أسود كان نصبه على دار الكرماني، وحتى ينفخ في بوق بعيد الصوت.
وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرم.
فعجل بعض الناس وزحف نحوهم، فلقيه الزنج فقتلوا منهم، وردوهم إلى مواقفهم، ولم يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم، وبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض.
وأمر الموفق بتحريك العلم، والنفخ في البوق، فزحف الناس في البر والماء يتلو بعضهم بعضاً.
فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجترأوا بما تهيأ لهم على ما كان يسرع إليهم، فلقيهم الجيش بنيات صادقة وبصائر نافذة، واشتد القتال والقتل وقتل من الفريقين جمع كثير، فانهزم أصحاب الخبيث وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون.
واختلط بهم ذلك اليوم أصحاب الموفق فقتل منهم ما لا يحصى عدداً وغرق منهم مثل ذلك.
وحوى الموفق المدينة بأسرها فغنمها أصحابه واستنقذوا من كان بقي من الأسرى من الرجال، والنساء، والصبيان وظفروا بجميع عيال علي بن أبان المهلبي، وبأخويه الخليل ومحمد وأولادهما، وعَبَرَ بهما إلى المدينة الموفقية.
ومضى الخبيث في أصحابه ومعه ابنه انكلاي، وسليمان بن جامع، وقواد الزنج، وغيرهم هرباً عامدين إلى موضع كان الخبيث قد أعده ملجأ إذا غلب على مدينته. وذلك المكان على النهر المعروف بالسفياني.
وكان أصحاب الموفق قد اشتغلوا بالنهب والإحراق، وتقدم الموفق في الشذاوات نحو السفياني، ومعه لؤلؤ وأصحابه.
فظن أصحاب الموفق أنه رجع فوافوا إلى سفنهم بما قد حووا. =

= وانتهى الموفق ومن معه إلى عسكر الخبيث ـ وهم منهزمون ـ واتبعهم لؤلؤ في أصحابه حتى عبر السفياني فاقتحم لؤلؤ بفَرَسِهِ واتبعه أصحابه، حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقربري، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فهزمهم حتى عبر نهر السفياني ولؤلؤ في أثرهم، فاعتصموا بجبل وراءه وانفرد وأصحابه باتباعهم إلى هذا المكان في آخر النهار.
فأمره الموفق بالانصراف، فعاد مشكوراً محموداً لفعله.
فحمله الموفق معه، وجدد له من البِرّ والكرامة ورفعة المنزلة ما كان مستحقاً له.
ورجع الموفق فلم ير أحداً من أصحابه بمدينة الزنج، فرجع إلى مدينته، واستبشر الناس بالفتح، وهزيمة الزنج وصاحبهم.
وكان الموفق قد غضب على أصحابه بمخالفتهم أمره، وتركهم الوقوف حيث أمرهم.
فجمعهم جميعاً ووبخهم على ذلك، واغلظ لهم فاعتذروا بما ظنوه من انصرافه، وأنهم لم يعلموا بمسيره، ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه، ثم تعاقدوا وتحالفوا بمكانهم على أن لا ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث حتى يظفروا به، فإن أعياهم أقاموا بمكانه حتى يحكم الله بينهم وبينه.
وسألوا الموفق أن يرد السفن التي يعبرون فيها إلى الخبيث ليتقطع الناس عن الرجوع. فشكرهم، وأثنى عليهم، وأمرهم بالتأهب، وأقام الموفق بعد ذلك إلى الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه.
وأمر الناس عشية الجمعة بالمسير إلى حرب الخبثاء بكرة السبت، وطاف عليهم هو بنفسه يُعَرِّف كل قائد مركزه، والمكان الذي يقصده.
وغدا الموفق يوم السبت لثلاثين خلت من صفر فعبر بالناس، وأمر برد السفن، فردت وسار يقدمهم إلى المكان الذي قدر أن يلقاهم فيه.
وكان الخبيث وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم، وأملوا أن تتطاول بهم الأيام، وتندفع عنهم المناجزة. فوجد الموفق المتسرعين من فرسان غلمانه والرجالة قد سبقوا الجيش، وأوقعوا بالخبيث وأصحابه وقعة هزموهم بها، وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، وانقطع الخبيث في جماعة من حماة أصحابه، وفيهم المهلبي، وفارقه ابنه انكلاي، وسليمان بن جامع، فقصد كل فريق منهم جمعاً كثيفاً من الجيش.
وكان أبو العباس قد تقدم فلقي المنهزمين في الموضع المعروف بعسكر ريحان، فوضع أصحابه فيهم السلاح.
ولقيتهم طائفة أخرى، فأوقعوا بهم أيضاً، وقتلوا منهم جماعة، وأسروا سليمان بن جامع، فأتوا به الموفق من غير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأمره وكثر التكبير، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحاب الخبيث عتاً عنه.
وأسر من بعده إبراهيم بن جعفر الهمذاني، وكان أحد أمراء جيوشه، فأمر الموفق بالاستيثاق منه، وجعلهم في شدة لأبي العباس.
ثم إن الزنج الذين انفردوا مع الخبيث حملوا على الناس حملة أزالوهم عن مواقفهم ففتروا، فأحسَّ الموفق بفتورهم، فجَدّ في طلب الخبيث، وأمعن، فتبعه أصحابه.
وانتهى الموفق إلى آخر نهر أبي الخصيب، فلقيه البشير بقتل الخبيث، وأتاه بشير آخر ومعه كفّ ذكر أنها كفّه، فقوي الخبر عنده. ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، وعرضه على جماعة من المستأمنة فعرفوه فخرَّ للّه ساجداً، وسجد معه الناس. وأمر الموفق برفع رأسه على قناة فتأمله الناس فعرفوه، وكثر الضجيج بالتحميد. وكان مع الخبيث لما أحيط به المهلبي وحده فولّى عنه هارباً، وقصد نهر الأمير، فألقى نفسه فيه يريد النجاة.
وكان انكلاي قد فارق أباه قبل ذلك وسار نحو الديناري. =

وفيها: استأمن درمويه الزنجي، وكان أحد الأنجاد والأبطال، وكان الخبيث قبل هلاكه بمدّة طويلة وجهه إلى أواخر نهر الفرج وهي من البصرة في غربي دجلة، فلما هلك الخبيث أقام درمويه هناك في موضع وعر كثير الدغل والآجام متصل بالبطيحة، وكان يقطع الطريق بمن معه في زواريق خفاف اتخذوها، فإذا طلبتهم الشذاوات ولجوا في الأنهار الضيقة، واعتصموا بالأدغال، وإذا تعذر عليهم مسلك نهر لضيقه خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم وولجوا إلى هذه المواضع الممتنعة، وفي خلال ذلك يعبرون على ما قرب منهم من القرى ويسلبون من ظفروا به، وقد كان ذلك دأب درمويه قبل هلال الخبيث وبعده.

وقد كان ابتداء شرار الناس ونشأتهم يصيرون إليه للمقام معه وعلى مثل ما هو عليه.

وكان الموفق عزم على المقام عليه حتى وافاه رسوله يطلب الأمان لنفسه وأصحابه.

فرأى الموفق أن يؤمنه ليقطع مادة الشر الذي كان فيه الناس من الخبيث وأشياعه.

ولما ورد عليه الأمان وافى منهم قطعة حسنة كثيرة العدد ولم يصبهم بؤس الحصار وضرّه لما كان يصير إليهم من أموال الناس.

فذكر أن درمويه لما أومّنَ وأحسن إليه وإلى أصحابه أظهر كل ما في يده وأيديهم من أموال الناس وأمتعتهم، وردّ كل شيء ردّاً ظاهراً مكشوفاً، فظهرت أمانته.

فاستدعاه الموفق وقربه، وخلع عليه وعلى وجوه أصحابه ووصلهم وضمهم إلى ابنه أبي العباس.

وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية حتى أنس الناس وعادوا إلى أوطانهم ووثقوا بالراحة من أسباب الخبيث.

وولي البصرة، والأبله، وكور دجلة من حُمد مذهبه، ووُقِف على حسن سيرته.

وولي قضاء البصرة والأبلة وكور دجلة محمد بن حَمّاد.

= ورجع الموفق، ورأس الخبيث بين يديه، وسليمان معه، وأصحابه إلى مدينته. وأتاه من الزنج عالم كثير يطلبون الأمان فأمنهم.
وانتهى إليه خبر انكلاي والمهلبي ومكانهم ومن معهما من مقدمي الزنج، فبث الموفق أصحابه في طلبهم، وأمرهم بالتضييق عليه فلما أيقنوا أن لا ملجأ أعطوا بأيديهم فظفر بهم وبمن معه، وكانوا زهاء خمسة آلاف، فأمر بالاستيثاق من المهلبي وانكلاي. وكان ممن هرب قرطاس الرومي الذي رمى الموفق بالسهم في صدره، فانتهى إلى رامهرمز، فعرفه رجل، فدَلّ عليه عامل البلد، فأخذه وسيره إلى الموفق. فقتله أبو العباس.

ثم قدم ابنه أبا العباس [١٣٠/أ] إلى بغداد ومعه رأس الخبيث، وطيف[١].

وكان خروج صاحب الزنج سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتل سنة سبعين ومائتين[٢].

وفيها:

مات أحمد بن طولون، والحسن بن زيد العلوي[٣].

---

(١) في الكامل:
وقَدِمَ ابنه العباس إلى بغداد ومعه رأس الخبيث ليراه السنة، فبلغها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة.

(٢) في الكامل: وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين.
وقُتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين.
وكانت أيامه أربع عشرة سنة وأربع أشهر وستة أيام.
وقيل في أمر الموفق وصاحب الزنج أشعار كثيرة... وقد انقضى أمر الزنج.

(٣) وقد ذكر ابن الأثير في الكامل في أحداث تلك السنة حوادث كثيرة لم تذكر هنا وذكر خبر وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه مفصلاً، ووفاة الحسن بن زيد وولاية أخيه وذكر خبر ظفر المسلمين بالروم وأخبار أخرى فقال:
وفي هذه السنة: خرجت الروم في مائة ألف فنزلوا على قَلَمْيَةِ ـ وهي على ستة أميال من طرسوس ـ فخرج إليهم بازمار ليلاً فبيتهم في ربيع الأول، فقتل منهم فيما يقال: سبعين ألفاً، وقتل مقدمهم وهو بطريق البطارقة. وقتل أيضاً بطريق الباطليق، وأفلت بطريق قرّة وبه عدة جراحات.
وأخذ لهم سبع صلبان من ذهب وفضة، وصليبهم الأعظم من ذهب مكلل بالجوهر. وأخذ خمسة عشر ألف دابة وبغل.
ومن السروج وغير ذلك، وسيوفاً محلاة، وأربع كراسي من ذهب، ومائتي كرسي من فضة وآنية كثيرة نحواً من عشرة آلاف علم ديباج، وديباجاً كثيراً، وبزيون وغير ذلك.
وفيها: توفي الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان في رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وستة أيام.
وولي مكانه أخوه محمد بن زيد، وكان الحسن جواداً امتدحه رجل، فأعطاه عشرة آلاف درهم.
وكان متواضعاً للّه تعالى، حُكي عنه أنه مدحه شاعر فقال: اللّه فرد، وابن زيد فرد. فقال: بفيك الحجر يا كذاب، هلا قلت:

اللّه فرد وابن زيد عبد

ثم نزل عن مكانه وخرّ للّه ساجداً وألصق خده بالتراب، وحرّم الشعر.
وكان عالماً بالفقه وبالعربية، مدحه شاعر فقال:

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعي ويوم المهرجان

فقال له: الواجب أن تفتتح الأبيات بغير: لا. فإن الشاعر المجيد يتخير لأول القصيدة ما يعجب السامع ويتبرك به، ولو ابتدأت بالمصراع الثاني لكان أحسن.
فقال له الشاعر: ليس في الدنيا كلمة أجل من قول: لا إله إلاّ اللّه، وأولها: لا. فقال: أصبت وأجازه.
وحكي عنه أنه غَنَّى عنده مغنٍ بأبيات الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب التي أولها: =

....

= وأنا الأخضرُ مَنْ يعرفُني أخضر الجلدَةِ من بيتِ العربِ
فلما وصل إلى قوله:
بـرسـولِ الـلَّـهِ وابـن عَـمِّـهِ وبعباس بن عبد المطلبِ
غَيَّر البيت فقال:
لا بـعـبـاس بـن عـبـد المطلب
فغضب الحسن وقال: يا ابن اللخناء تهجو بني عمنا بين يدي وتُحَرِّف ما مدحوا به، لئن فعلتها مرة ثانية لأجعلنها آخر غنائِكَ.
وفي هذه السنة: توفي أحمد بن طولون صاحب مصر، والشام، والثغور الشامية، وكان سبب موته: أن نائبه بطرسوس وثب على بازمار الخادم، وقبض عليه، وعصى على أحمد، وأظهر الخلاف.
فجمع أحمد العساكر وسار إليه، فلما وصل أذنة كاتبه وراسله يستميله، فلم يلتفت إلى رسالته، فسار إليه أحمد ونازله، وحصره فخرق بازمار نهر البلد على منزلة العسكر، فكاد الناس يهلكون.
فرحل أحمد مغيظاً حنقاً، وكان الزمان شتاء وأرسل إلى بازمار: إنني لم أرحل إلاّ خوفاً أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو.
فلما عاد إلى أنطاكية أكل لبن الجواميس فأكثر منه، فأصابه منه هيضة، واتصلت حتى صار منها ذرب، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سراً، فلم ينجع الدواء، فتوفي رحمه اللَّه.
وكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة، وكان عاقلاً حازماً، كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر، ومصالح المسلمين وهو الذي بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة.
وكان يميل إلى مذهب الشافعي ويكرم أصحابه. وولي بعده ابنه خمارويه، وأطاعه القواد، وعصى عليه نائب أبيه بدمشق، فسَيَّر إليه العساكر، فأجْلوه، وساروا من دمشق إلى شيزر.
ذكر مسير إسحاق بن كنداجيق إلى الشام:
لما توفي أحمد بن طولون، كان إسحاق بن كنداجيق على الموصل والجزيرة، فطمع هو وابن أبي الساج في الشام واستصغرا أولاد أحمد، وكاتبا الموفق باللَّه في ذلك، واستمداه.
فأمرهما بقصد البلاد ووعدهما إنفاذ الجيوش. فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد، فاستوليا عليه، وأعانهما النائب في دمشق لأحمد بن طولون، ووعدهما الانحياز إليهما.
فتراجع من بالشام من نواب أحمد بأنطاكية، وحلب، وحمص.
وعصى متولي دمشق، واستولى إسحاق على ذلك.
وبلغ الخبر إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد فسيّر الجيوش إلى الشام فملكوا دمشق وهرب النائب بها.
وسار عسكر خمارويه من دمشق إلى شيزر لقتال إسحاق بن إسحاق كنداجيق وابن أبي الساج، فطاولهم إسحاق ينتظر المدد من العراق.
وهجم الشتاء على الطائفتين وأضر بأصحاب ابن طولون، فتفرقوا في المنازل بشيزر. ووصل العسكر العراقي إلى كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق ـ وهو المعتضد باللَّه ـ فلما وصل سار مجدّاً إلى عسكر خمارويه بشيزر، فلم يشعروا حتى كبسهم في المساكن، ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة.
وسار من سَلِم إلى دمشق على أقبح صورة، فسار المعتضد إليهم فجَلُوا عن دمشق إلى الرملة وملك هو دمشق، ودخلها في شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين. وأقام عسكر ابن طولون بالرملة فأرسلوا إلى خمارويه يعرفونه الحال، فخرج من مصر في عسكره قاصداً الشام.
وفيها في جمادى الأولى: توفي هارون بن الموفق ببغداد يوم الخميس لليلتين خلتا من =

ودخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين

وفيها: كانت بين أبي العباس بن الموفق وبين خمارويه بن أحمد بن طولون وقعة بالطواحين[(١)]، فهزم[(٢)] أبو العباس خمارويه.

وركب خمارويه حماراً وهرب إلى مصر، ووقع أصحاب أبي العباس في النهب، وبدّل أبو العباس مضرب خمارويه وهو لا يدري أنه بقي له طالب.

فخرج كمين كان كمنه وأصحاب أبي العباس قد وضعوا السلاح فنزلوا.

فشد كمين خمارويه عليهم فانهزموا، وتفرق القوم.

= جمادى الأولى.

وفيها: كان فداء أهل سنديه على يد بازمار.

وفيها في شعبان: شغب أصحاب أبي العباس بن الموفق على صاعد بن مخلد ـ وهو وزير الموفق ـ وطلبوا الأرزاق وقاتلهم أصحاب صاعد، وكانت بينهم حرب شديدة قتل فيها جماعة، وأسر من أصحاب أبي العباس جماعة، ولم يكن أبو العباس حاضراً، كان قد خرج متصيداً، ودامت الحرب إلى بعد المغرب، ثم كف بعضهم عن بعض، ثم وضع العطاء من الغد واصطلحوا.

وفيها: كانت وقعة بين إسحاق بن كنداجيق، وبين ابن دعباش، وكان ابن دعباش بالرقة عاملاً عليها وعلى الثغور والعواصم لابن طولون، وابن كنداجيق على الموصل للخليفة.

وفيها: ابتدأ إسماعيل بن موسى بناء مدينة لاردة من الأندلس، وكان مخالفاً لمحمد صاحب الأندلس، ثم صالحه في العام الماضي.

فلما سمع صاحب برشلونة الفرنجي جمع وحشد وسار يريد منعه من ذلك، فسمع به إسماعيل فقصده، وقاتله، فانهزم المشركون، وقتل أكثرهم، وبقي أكثر القتلى في تلك الأرض دهراً طويلاً.

وفيها: توفي محمد بن إسحاق بن جعفر الصاغاني الحافظ، ومحمد بن مسلم بن عثمان المعروف بابن وارة الرازي، وكان إماماً في الحديث وله فيه مصنفات.

وفيها: توفي داود بن علي الأصبهاني الفقيه، إمام أصحاب الظاهر، وكان مولده سنة اثنتين ومائتين.

وفيها: توفي مصعب بن أحمد بن مصعب أبو أحمد الصوفي الزاهد، وهو من أقران الجنيد.

وفيها: مات ملك الروم، وهو ابن الصقلبية.

وحج بالناس: هارون بن محمد بن محمد بن إسحاق بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

وفيها: توفي خالد بن أحمد بن خالد السدوسي الزهلي الذي كان أمير خراسان ببغداد، وكان قد قصد الحج، فقبض عليه الخليفة المعتمد، وحبسه، فمات بالحبس. وهو الذي أخرج البخاري صاحب الصحيح من بخارى، وخبره معه مشهور، فدعا عليه البخاري، فأدركته الدعوة.

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان:
الطواحين: جمع طاحونة الدقيق: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام كانت عنده الوقعة المشهورة بين خمارويه بن طولون والمعتضد بالله في سنة (٢٧١) انصرف كل واحد منهما مغلولاً، كانت أولاً على خمارويه، ثم كانت على المعتضد.

(٢) في المخطوط: فانهزم. وهو تحريف.

ومضى أبو العباس إلى طرسوس منهزماً، وذهب كل ما في العسكرين عسكر أبي العباس وعسكر خمارويه من السلاح والكراع والأثاث والأموال وانتهب الجميع[(١)].

(١) هذا كل ما ذكره ابن مسكويه في الخبر وفي أحداث تلك السنة، وذكر ابن الأثير هذا الخبر بأتم من ذلك فقال فيه:
وفي هذه السنة: كانت وقعة الطواحين بين أبي العباس المعتضد، وبين خمارويه بن أحمد بن طولون، وسبب ذلك.
أن المعتضد سار من دمشق بعد أن ملكها نحو الرملة إلى عساكر خمارويه، فأتاه الخبر بوصول خمارويه إلى عساكره، وكثرة من معه من الجموع فهم بالعود، فلم يمكنه من معه من أصحاب خمارويه الذين صاروا معه.
وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداجيق وابن أبي الساج ونسبهما إلى الجبن حيث انتظراه ليصل إليهما، ففسدت نياتهما معه.
ولما وصل خمارويه إلى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين، فملكه، فنسبت الوقعة إليه.
ووصل المعتضد وقد عبى أصحابه، وكذلك أيضاً فعل خمارويه، وجعل له كميناً عليهم سعيداً الأيسر.
وحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت.
فلما رأى ذلك خمارويه ولم يكن رأى مصافاً قبله، ولَّى منهزماً في نفر من الأحداث الذين لا علم لهم بالحرب، ولم يقف دون مصر. ونزل المعتضد إلى خيام خمارويه، وهو لا يشك في تمام النصر.
فخرج الذين عليهم سعيد الأيسر، انضاف إليهم من بقي من جيش خمارويه، ونادوا بشعارهم، وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بنهب السواد.
ووضع المصريون السيف فيهم، وظن المعتضد أن خمارويه قد عاد فركب فانهزم ولم يلو على شيء.
فوصل إلى دمشق، ولم يفتح له أهلها بابها، فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس، وبقي العسكران يضطربان بالسيوف وليس لواحد منهما أمير.
وطلب سعيد الأيسر خمارويه، فلم يجده، فأقام أخاه أبا العشائر، وتمت الهزيمة على العراقيين، وقتل منهم خلق كثير، وأسر كثير.
وقال سعيد للعساكر: إن هذا أخو صاحبكم وهذه الأموال تنفق فيكم.
ووضع العطاء، فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال، وسيرت البشارة إلى مصر، ففرح خمارويه بالظفر، وخجل للهزيمة، غير أنه أكثر الصدقة، وفعل مع الأسرى فعله لم يسبق إلى مثلها قبله، فقال لأصحابه:
إن هؤلاء أضيافكم، فأكرموهم، ثم أحضرهم بعد ذلك وقال لهم: من اختار المقام عندنا، فله الإكرام والمواساة، ومن أراد الرجوع جهزناه وسيرناه.
فمنهم من أقام ومنهم من سار مكرماً.
وعادت عساكر خمارويه إلى الشام، ففتحته أجمع، فاستقر ملك خمارويه له.
ثم ذكر حوادث أخرى في هذه السنة فقال:
وفي هذه السنة عاشر ربيع الأول: كانت وقعة بين عساكر الخليفة، وفيها أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وبين عمرو بن الليث الصفار.
ودامت الحرب من أول النهار إلى الظهر فانهزم عمرو وعساكره، وكانوا خمسة عشر ألفاً بين فارس وراكب، وجرح الدرهمي مقدم جيش عمرو بن الليث، وقتل مائة رجل من حُماتهم، وأسر ثلاثة ألف أسير واستأمن منهم ألف رجل، وغنموا من معسكر عمرو من الدواب، والبقر =

ودخلت سنة اثنتين وسبعين ومائتين

وفيها: أخرج أهل طرسوس أبا العباس بن الموفق من طرسوس بخلاف وقع بين مازمار[(١)] وبينه.

فخرج يريد بغداد فقدمها[(٢)].

= والحمير ثلاثين ألف رأس، وما سوى ذلك فخارج عن الحد.
وفي هذه السنة: سَيّر محمد صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه المنذر إلى مدينة بطليوس، فزال عنها ابن مروان الجليقي وكان مخالفاً كما ذكرنا، وقصد حصن أشير غرة فتحصن، فأحرق المنذر بطليوس.
وسير محمد أيضاً جيشاً مع هاشم بن عبد العزيز إلى مدينة سرقسطة، وبها محمد بن لب بن موسى، فملكها هاشم، وأخرج منها محمداً وكان معه عمر بن حفصون الذي ذكرنا خروجه على صاحب الأندلس، فصالحه. فلما عادوا إلى قرطبة هرب عمر بن حفصون وقصد بربشتر مخالفاً، فاهتم صاحب الأندلس به على ما نذكره إن شاء اللّٰه تعالى.
وفيها: سارت سرية للمسلمين عظيمة بصقلية إلى رمطة، وخربت وغنمت، وسبت وأسرت كثيراً، وعادت.
وتوفي أمير صقلية، وهو الحسين بن أحمد فولي بعده سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي، وقدم إليها، فسار عسكر كبير إلى مدينة قطانية، فأهلك ما فيها، وسار إلى طبرمين، فقال أهلها وأفسد زرعهم، وتقدم فيها، فأتاه رسول بِطْريق الروم يطلب الهُدنة والمفاداة.
فهادنه ثلاثة أشهر، وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين، فرجع سواده إلى بلرم.
وفي هذه السنة: عقد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة، وطريق مكة.
فوثب يوسف بن أبي الساج، وهو والي مكة على بدر غلام الطائي، وكان أميراً على الحاج، فحاربه وأسره.
فسار الجند والحاج بيوسف فقاتلوه، واستنفذوا بدراً، وأسروا يوسف، وحملوه إلى بغداد.
وكانت الحرب بينهم على أبواب المسجد الحرام.
وفيها: خَرَّبت العامة الدير العتيق الذي وراء نهر عيسى، وانتهبوا ما فيه، وقلعوا أبوابه.
فسار إليهم الحسين بن إسماعيل صاحب شرطة بغداد من قِبل محمد بن طاهر، فمنعهم من هدم ما بقي منه.
وكان يتردد هو والعامة إليه أياماً حتى كاد أن يكون بينهم حرب.
ثم بنى ما هُدم بعد أيام، وكانت إعادة بنائه بقوة عبدون أخي صاعد بن مخلد.
وحج بالناس: هارون بن محمد بن إسحاق.
وفيها: توفي عبد الرحمن بن محمد بن منصور البصري.

(١) كذا في المخطوط: بالميم في أوله، وفي الكامل بالباء الموحدة في أوله، وفي الطبري بالياء المثناة في أوله.

(٢) وذكر ابن الأثير في أول أحداث هذه السنة الحرب بين أذكوتكين، ومحمد بن زيد العلوي فقال: في هذه السنة منتصف جمادى الأولى، كانت حرب شديدة بين أذكوتكين وبين محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان.
ثم سار أذكوتكين إلى الرّي ومعه أربعة آلاف فارس، وكان مع محمد بن زيد من الديلم، والطبرية، والخراسانية عالم كبير، فاقتتلوا، فانهزم عسكر محمد بن زيد، وتفرقوا، وقتل منهم ستة آلاف وأُسِرَ ألفان. =

وفيها: قدم صاعد بن مخلد من فارس، ودخل واسطاً.

فأمر الموفق جميع أصحابه من القواد أن يستقبلوه، فترجلوا له وقبلوا يده وكمه[١] ثم قبض عليه الموفق وعلى أصحابه[٢] كلهم ببغداد، وسُرَّ مَنْ رأى في يوم واحد -

---

= وغنم اذكوتكين وعسكره من أثقالهم وأموالهم ودوابهم شيئاً لم يروا مثله.
ودخل أذكوتكين الرّي، فأقام بها وأخذ من أهلها مائة ألف ألف دينار، وفرق عماله في أعمال الري.

(١) في الكامل بعدها: وهو لا يكلمهم كبراً وتيهاً.

(٢) في المخطوط: أسبابه والتصويب من الكامل وفيه: وعلى جميع أهله، وأصحابه، ونهب منازلهم بعد أيام، وكان قبضه في رجب، وقبض ابناه: أبو عيسى، وصالح، وأخوه عبدون ببغداد.
واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل واقتصر به على الكتابة دون غيرها.
ثم ذكر ابن الأثير في أحداث تلك السنة: مما لم يذكره ابن مسكويه ما يلي، فقال:
وفيها: توفي سليمان بن وهب في جيش الموفق في صفر.
وفيها: خرج خارجي بطريق خراسان، وسار إلى دِسكرة الملك، فقتل.
وفيها: دخل حمدان بن حمدون، وهارون الشاري مدينة الموصل، فصلى بهم الشاري في جامعها.
وفيها: نقب المطبق من داخله، وأخرج منه الدوباني العلوي، وفتيان معه، فركبوا دواب أُعدت لهم، وهربوا، وأغلقت أبواب بغداد.
فأخذ الدوباني ومن معه، فأمر الموفق، وهو بواسط أن تقطع يده ورجله من خلاف، فقطع.
وفيها: نزل بنو شيبان ومن معهم بين الزانين من أعمال الموصل، وعاثوا في البلد وأفسدوا وجمع هارون الخارجي على قصدهم، وكتب إلى حمدان بن حمدون التغلبي في المجيء إليه إلى الموصل، فسار هارون نحو الموصل، وسار حمدان ومن معه إليه، فعبروا إليه بالجانب الشرقي من دجلة، وساروا جميعاً إلى نهر الخازر، وقاربوا حلل بني شيبان، فوافقه طليعة لبني شيبان على طليعة هارون، فانهزمت طليعة هارون، وانهزم هارون، وجلى أهل نينوى عنها إلاّ من تحصن بالقصور.
وفيها: زلزلت مصر في جمادى الآخرة زلزلة شديدة، أخربت الدور والمسجد الجامع، وأحصى بها في يوم واحد ألف جنازة.
وفيها: غلا السعر ببغداد، وكان سببه: أن أهل سامرا منعوا من إعداد السفن بالطعام، ومنع الطائي أرباب الضياع من الدياس لتغلو الأسعار، ومنع أهل بغداد عن سامر الزيت، والصابون، وغير ذلك. واجتمعت العامة، ووثبوا بالطائي، فجمع أصحابه وقاتلهم فجرح بينهم جماعة.
وركب محمد بن طاهر وسكن الناس وصرفهم عنه.
وفيها: توفي إسماعيل بن برية الهاشمي في شوال، وعبيد اللّه بن عبد اللّه الهاشمي.
وفيها: تحركت الزنج بواسط، وصاحوا: انكلاي يا منصور، وكان هو والمهلبي، وسليمان بن جامع، وجماعة من قوادهم في حبس الموفق ببغداد.
وكتب الموفق بقتلهم فقتلوا، وأرسلت رؤوسهم إليه، وصلبت أبدانهم ببغداد.
وفيها: صلح أمر مدينة رسول اللّه ﷺ، وتراجع الناس إليها.
وفيها: غزا الصائفة بازمار.
وحج بالناس: هارون بن محمد بن إسحاق.
وفيها: سَيّر صاحب الأندلس إلى ابن مروان الجليقي - وهو بحصن أشير غرة - فحصروه وضيقوا عليه.
وسَيّر جيشاً آخر إلى محاربة عمر بن حفصون بحصن بَرْبُشْتَر.
وفيها: انقضت الهدنة بين سوادة أمير صقلية، والروم، فأخرج سوادة السرايا إلى بلد الروم =

واستكتب الموفق إسماعيل بن بلبل.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين

وفيها: قيد أبو العباس لؤلؤ القادم عليه من مصر ووجد له أربع مائة ألف دينار فذكر لؤلؤ أنه لا يعرف لنفسه ذنباً إلاّ كثرة ماله وأثاثه[1].

وفيها: كانت بين أبي الساج وبين إسحاق بن كنداجيق وقعة، فانهزم إسحاق ثم واقعه وقعة أخرى، فانهزم إسحاق أيضاً[2].

= بصقلية، فغنمت وعادت.
وفيها: قدم من القسطنطينية بِطْرِيق يقال له: أنجفور في عسكر كبير، فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين، فسلموها على أمان، ولحقوا بأرض صقلية.
ثم وجه أنجفور عسكراً إلى مدينة منتيه فحصروها حتى سلمها أهلها بأمان إلى بلرم من صقلية.
وفيها: مات أبو بكر محمد بن صالح بن عبد الرحمن الأنماطي المعروف بكنجلة وهو من أصحاب يحيى بن معين، وهو لقبه.
وفيها: توفي أحمد بن عبد الجبار بن محمد بن عطارد العطاردي التميمي وهو يروي مغازي ابن إسحاق عن يونس عن ابن إسحاق، ومن طريقه سمعناه.
وفيها: توفي إبراهيم بن الوليد بن الخشخاش.
وفيها: توفي شعيب بن بكار الكاتب، وله حديث عن أبي عاصم النبيل.

(١) زاد ابن الأثير في الكامل:
ولم تزل أموره في إدبار إلى أن افتقر، ولم يبق له شيء، ثم عاد إلى مصر في آخر أيام هارون بن خمارويه فريداً وحيداً بغلام واحد.
فكان هذا ثمرة العقل السخيف وكفر الإحسان.

(٢) هذا كل ما ذكره ابن مسكويه في أحداث تلك السنة وفي هذه الوقعة غير أن ابن الأثير ذكر أحداثاً أخرى وتوسع في هذا الخبر فقال:
في هذه السنة: فسد الحال بين محمد بن أبي الساج، وإسحاق بن كنداجيق، وكانا متفقين في الجزيرة، وسبب ذلك أن ابن أبي الساج نافر إسحاق في الأعمال، وأراد التقدم، وامتنع عليه إسحاق.
فأرسل ابن أبي الساج إلى خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر، وأطاعه، وسار معه وخطب له بأعماله، وهي قنسرين. وسَيّر ولده ديوداد إلى خمارويه رهينة.
فأرسل إليه خمارويه، مالاً جزيلاً ولقواده. وسار خمارويه إلى الشام، فاجتمع هو وابن أبي الساج ببالس، وعبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، فلقيه ابن كنداج، دارت بينهما الحرب، فانهزم فيها ابن كنداج، واستولى ابن أبي الساج على ما كان لابن كنداج.
وغير خمارويه الفرات، ونزل الرافقة، ومضى إسحاق منهزماً إلى قلعة ماردين، فحصره ابن أبي الساج، وسار عنها إلى زنجار فأوقع بها بقوم من الأعراب، وسار ابن كنداج من ماردين نحو الموصل.
فلقيه ابن أبي الساج ببرقعيد، فكمن كميناً، فخرجوا على ابن كنداج وقت القتال فانهزم عنها وعاد إلى ماردين، فكان فيها.
وقوي ابن أبي الساج وظهر أمره، واستولى على الجزيرة والموصل، وخطب لخمارويه فيها، ثم لنفسه بعده. =

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائتين

ولم تجر فيها حادثة تكتب(١).

= ثم ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة وقعة بين عسكر ابن أبي الساج وشراة فقال: لما سار ابن أبي الساج على الموصل أرسل طائفة من عسكره مع غلامه: فتح ـ وكان شجاعاً مقداماً عنده ـ إلى المرج من أعمال الموصل، فساروا إليها، وجبوا الخراج منها. وكان اليعقوبية الشراة بالقرب منه، فأرسل إليهم فهادنهم، وقال:
إنما مقامي بالمرج مدة يسيرة، ثم أرحل عنه.
فسكنوا إلى قوله، وتفرقوا، فنزل بعضهم بالقرب من سوق الأحد، فأسرى إليهم فتح في السَّحر، فكبسهم، فأخذ أموالهم، وانهزم الرجال عنه.
وكان باقي اليعقوبية قد خرجوا إلى أصحابهم الذين أوقع بهم فتح من غير أن يعلموا بالوقعة فلقيهم المنهزمون من أصحابهم، فاجتمعوا وعادوا إلى فتح، فقاتلوه، وحملوا حملة رجل واحد، فهزموه، وقتلوا من أصحابه ثمانمائة رجل.
وكان أصحابه ألف رجل، فأفلت في نحو مائة رجل، وتفرق مائة في القرى، واختفوا، وعادوا إلى الموصل متفرقين وأقاموا بها.
وفي هذه السنة: توفي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس سلخ صفر، وكان عمره نحواً من خمس وستين سنة.
وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة، وإحدى عشر شهراً.
وكان أبيض مشرباً بحمرة، ربعة أوقص يخضب بالحناء والكتم.
وخلف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً، وكان ذكياً فطناً بالأمور المشتبهة متعانياً منها. ولما مات ولي بعده ابنه المنذر بن محمد، بُويع له بعد موت أبيه بثلاث ليال، وأطاعه الناس وأحسن إليهم.
وفي هذه السنة: وثب أولاً ملك الروم على أبيهم فقتلوه، وملك أحدهم بعده.
وفيها: ثار السودان بمصر وحصروا صاحب الشرطة، فسمع خمارويه بن أحمد بن طولون الخبر، فركب وفي يده سيف مسلول وقصد دار صاحب الشرطة، وقتل كل من لقيه من السودان، فانهزموا منه، وأكثر القتل فيهم.
وسكنت مصر وأمن الناس.
وفيها: مات سليمان بن داود بن الأشعث السجستاني صاحب كتاب السنن، ومحمد بن زيد بن ماجه القزويني، وله أيضاً كتاب السنن، وكان عاقلاً إماماً عالماً.
وتوفي الفتح بن شحرف أبو داود الكشي الصوفي، وكان موته ببغداد، وهو من أصحاب الأموال الشريفة.
وتوفي حنبل بن إسحاق.

(١) كذا قال المؤلف رحمنا الله وإياه في أخبار وحوادث تلك السنة.
وقال فيها ابن الأثير في الكامل:
في هذه السنة: سار الموفق إلى فارس لحرب عمرو بن الليث الصفار، فبلغ الخبر إلى عمرو، فسيّر العباس بن إسحاق في جمع كبير من العسكر إلى سيراف، وأنفذ ابنه محمد بن عمرو إلى أرجان.
وسيَّر أبا طلحة شرْكب صاحب جيشه على مقدمته، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفق، وسمع عمرو ذلك، فتوقف عن قصد الموفق.
ثم إن أبا طلحة عزم على العود إلى عمرو، فبلغ الموفق خبره فقبض عليه بقرب شيراز، وجعل ماله لابنه المعتضد أبي العباس. وسار يطلب عمراً فعاد عمرو إلى كرمان، ومنها إلى سجستان =

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائتين

وفيها: حبس الموفق ابنه أبا العباس، فشغب أصحابه، وحملوا السلاح، وركب غلمانه، واضطربت بغداد.

فركب أبو أحمد الموفق حتى بلغ الرصافة، وقال لأصحاب أبي العباس:

ما شأنكم؟ أترونكم أشفق على ابني مني؟

هو ولدي واحتجت إلى تقويمه، وانصرف الناس وهدأت بغداد(١).

= على المفازة فتوفي ابنه محمد بالمفازة، ولم يقدر الموفق على أخذ كرمان وسجستان من عمرو فعاد عنه.

وفي هذه السنة: غزا بازمار، فأوغل في أرض الروم، فأوقع فيها بكثير من أهلها وقتل، وغنم وسبى، وأسر، وعاد سالماً إلى طرسوس.

وفيها: دخل صديق الفرغاني دور سامرا فنهبها، وأخذ أموال التجار منها، وأفسد. وكان صديق هذا يخفر الطريق ويحميه، ثم صار يقطعها.

وحج بالناس: هارون بن محمد.

وفيها: توفي أبو العباس بن الكبش بن المتوكل، وكان قد حبسه أخوه المعتمد ثم أطلقه.

وفيها: توفي الحسن بن مكرم، وعلي بن عبد الحميد الواسطي.

وفيها: جمع إسحاق بن كنداج جمعاً كثيراً وسار نحو الشام، فبلغ الخبر خمارويه فسار إليه وقد عبر الفرات فالتقيا.

وجرى بين الطائفتين قتال شديد، انهزم فيه إسحاق هزيمة عظيمة، لم يرده شيء حتى عبر الفرات وتحصن بها.

وسار خمارويه إلى الفرات، فعمل جسراً. فلما علم إسحاق بذلك سار من هناك إلى قلاع له قد أعدها وحصنها.

وأرسل إلى خمارويه يخضع له ويبذل له الطاعة في جميع ولايته ـ وهي الجزيرة وما والاها ـ فأجابه إلى ذلك، وصالحه ابن أبي الساج، وجمع جمعاً كثيراً، وسار نحو الشام قاصداً منازعة خمارويه حيث كان أبعد إلى مصر.

فبلغ الخبر خمارويه، فخرج عن مصر في عساكره فالتقيا في البثنية من أعمال دمشق، فاقتتلا قتالاً عظيماً، انهزم فيه ابن أبي الساج، وعاد منهزماً حتى عبر الفرات. فأحضر خمارويه ولد ابن أبي الساج، وكان رهينة عنده، فخلع عليه وأطلقه وسَيَّره إلى أبيه، وعاد إلى مصر.

(١) هذا كل ما ذكره في أحداث تلك السنة وتلك الحادثة، غير أن ابن الأثير ذكر غير ذلك كثير، وسأذكره إن شاء الله بعد ذكر سبب تلك الحادثة والتي قال فيها:

وفي هذه السنة في شوال: قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله أبي العباس أحمد، وسبب ذلك: أن الموفق دخل إلى واسط، ونزل بها، ثم عاد إلى بغداد، وتخلف المعتمد على الله بالمدائن.

وأمر الموفق ابنه أن يسير إلى بعض الوجوه، فقال: لا أخرج إلاّ إلى الشام لأنها الولاية التي ولايتها أمير المؤمنين.

فلما امتنع عليه أمر بإحضاره، فلما حضر أمر بعض خدمه أن يحبسه في حجرة في داره.

فلما قام المعتضد تقدم إليه الخادم وأمره بدخول تلك الدار، فدخل، ووكل به فيها.

وثار القواد من أصحابه، ومن تبعهم، وركبوا واضطربت بغداد لما رأوا السلاح والقواد. =

....

= فركب الموفق إلى الميدان، وقال لهم: ثم ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة ما يلي بادئاً بما سبق أن ختم به أحداث السنة السابقة من الخلاف بين خمارويه، وابن أبي الساج، فقال: قد ذكرنا اتفاق ابن أبي الساج، وخمارويه بن طولون، وطاعة ابن أبي الساج له، فلما كان الآن (أي في أول تلك السنة) خالف ابن أبي الساج على خمارويه.
فسمع خمارويه الخبر، فسار عن مصر في عساكره إلى الشام فقدم إليه آخر سنة أربع وسبعين، فسار ابن أبي الساج إليه، فالتقوا عند ثنية العقاب بقرب دمشق.
واقتتلوا في المحرم من تلك السنة، وكان القتال بينهما، فانهزمت ميمنة خمارويه، وأحاط باقي عسكره بابن أبي الساج ومن معه، فمضى منهزماً واستبيح معسكره، وأخذت الأثقال، والدواب، وجميع ما فيه. وكان قد خلف بحمص شيئاً كثيراً. فسير إليه خمارويه قائداً في طائفة من العسكر جريدة فسبقوا ابن أبي الساج إليها، ومنعوه من دخولها والاعتصام بها، واستولوا على ماله فيها.
فمضى ابن أبي الساج منهزماً إلى حلب، ثم منها إلى الرَّقة، فتبعه خمارويه، ففارق الرَّقة.
فعبر خمارويه الفرات، وسار في أثر ابن أبي الساج، فوصل خمارويه إلى مدينة بلد، وكان قد سبقه ابن أبي الساج إلى الموصل.
فلما سمع ابن أبي الساج بوصوله إلى بلد، سار عن الموصل إلى الحديثة.
وأقام خمارويه ببلد، وعمل له سريراً طويل الأرجل، فكان يجلس عليه في دجلة.
هكذا ذكر أبو زكريا يزيد بن إياس الأزدي الموصلي، صاحب تاريخ الموصل؛ أن خمارويه وصل إلى بلد، وكان إماماً فاضلاً عالماً بما يقول، وهو يشاهد الحال.
ثم ذكر ابن الأثير الحرب بين ابن كنداج وابن أبي الساج فقال:
لما انهزم ابن كنداج من ابن أبي الساج ـ كما ذكرناه ـ أقام إلى أن انهزم ابن أبي الساج من خمارويه، فلما وافى خمارويه بلداً أقام بها وسير مع إسحاق بن كنداج جيشاً كثيراً، وجماعة من القواد، ورحل يطلب ابن أبي الساج، فمضى بين يديه وابن كنداج يتبعه إلى كريت.
فعبر ابن أبي الساج دجلة، وأقام ابن كنداج وجميع السفن ليعمل جسراً يعبر عليه.
وكان يجري بين الفريقين مراماة، وكان ابن أبي الساج في نحو ألفي فارس، وابن كنداج في عشرين ألفاً.
فلما رأى ابن أبي الساج اجتماع السفن سار عن تكريت إلى الموصل ليلاً، فوصل إليها في اليوم الرابع، فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى.
وسار ابن كنداج يتبعه فوصل إلى العَزيق. فلما سمع ابن أبي الساج خبره، سار إليه فالتقوا، واقتتلوا عند قصر حرب، فاشتد القتال بينهم، وصبر محمد بن أبي الساج صبراً عظيماً لأنه كان في قلة فنصره اللّٰه، وانهزم ابن كنداج وجمع عسكره ومضى منهزماً.
وكان أعظم الأسباب في الهزيمة بغيه، فإنه لما قيل له: إن ابن أبي الساج قد أقبل نحوك من الموصل ليقاتلك.
قال: استقبل الكلب.
فعد الناس هذا بغياً وخافوا منه.
فلما انهزم سار إلى الرَّقة، وتبعه محمد إليها، وكتب إلى أبي أحمد الموفق يعرفه ما كان منه، ويستأذنه في عبور الفرات إلى الشام بلاد خمارويه.
فكتب إليه الموفق يشكره، ويأمره بالتوقف إلى أن يصله الإمداد من عنده.
وأما ابن كنداج، فإنه سار إلى خمارويه، فسير معه جيشاً فوصلوا إلى الفرات.
فكان إسحاق بن كنداج على الشام، وابن أبي الساج بالرقة، ووكل بالفرات من يمنع من عبورها، فبقوا مدة كذلك. =

....

= ثم إن ابن كنداج سَيّر طائفة من عسكره فعبروا الفرات في غير ذلك الموضع، وساروا فلم تشعر طائفة من عسكر ابن أبي الساج، كانوا طليعة إلا وقد أوقعوا بهم، فانهزموا من عسكر إسحاق إلى الرقة.
فلما رأى ابن أبي الساج ذلك سار عن الرقة إلى الموصل، فلما وصل إليها طلب من أهلها المساعدة بالمال: وقال لهم: ليس بالمضطر مروءة.
فأقام بها نحو شهر وانحدر إلى بغداد، فاتصل بأبي أحمد الموفق في ربيع الأول من سنة ست وسبعين ومائتين فاستصحبه معه إلى الجبل وخلع عليه ووصله بمال، وأقام ابن كنداج بديار ربيعة وديار مضر من أرض الجزيرة.
وفيها: ظهر فارس العبدي في جمع فأخاف السبيل، وسار إلى دور سامرا، ونهب.
فسار إليه الطائي مقاتلاً، فهزمه الطائي، وأخذ سواده.
ثم سار الطائي إلى دجلة ليعبرها، فدخل طيارة لهم، فأدركوا بعض أصحاب فارس فتعلقوا بكوثل الطيارة، فرمى الطائي نفسه في الماء، فلما خرج منه نفض لحيته وقال: إيش ظن العبدي أليس أنا أسبح من سمكة؟ ثم نزل الطائي السن، والعبدي بإزائه. وقال علي بن بسام في الطائي:

قد أقبل الطائي ما أقبلا بفتح في الأفعال ما أجملا
كأنه من لين ألفاظه صبية تمضع جهد البلا

وجهد البلا ضرب من النافط يتعلك.
وفيها: قبض الموفق على الطائي، وقيده وختم على كل شيء له، وكان يلي الكوفة وسوادها، وطريق خراسان، وسامرا، والشرطة ببغداد، وخراج بادوريا، وقطربل ومسكين.
وفي هذه السنة: سار الطائي إلى سامرا بسبب صديق فراسله وأمنه، ودخل سامرا في جماعة من أصحابه، فأخذهم الطائي وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف حملهم إلى بغداد.
وفيها: عزا بازمار في البحر، وغنم من الروم أربع مراكب.
وفي هذه السنة: سار رافع بن هرثمة إلى جرجان فأزال عنها محمد بن زيد.
وسار محمد إلى استراباز فحصره فيها رافع وأقام عليه نحو سنتين، فغلت الأسعار، بحيث لم يوجد ما يؤكل، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة.
وفارقها محمد بن زيد ليلاً في نفر يسير إلى سارية.
فسيّر إليه رافع عسكراً، فتحاربا، وسار محمد عن سارية، وعن طبرستان، وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين ومائتين.
واستأمن رستم بن قارن إلى رافع بطبرستان، فصاهره ابن قولة.
وقدم على رافع وهو بطبرستان علي بن الليث وكان قد حبسه أخوه عمرو بكرمان، فاختال حتى تخلص هو وابناه المعدل والليث، وأنفذ رافع إلى شالوس محمد بن هارون نائباً عنه، فأتاه بها علي بن كالي مستأمناً، فأتاهما محمد بن زيد وحصرهما بشالوس، وأخذ الطريق عليهما، فلم يصل منهما إلى رافع خبر، فلما تأخر خبرهما عنه أرسل جاسوساً يأتيه بأخبارهما، فعاد إليه، فأخبره بحصر محمد بن زيد إياهما بشالوس، فعزم عليه وسار إليهما، فرحل عنهما محمد بن زيد إلى أرض الديلم.
فدخل رافع خلفه أرض الديلم فخرقها، حتى اتصل بحدود قزوين، وعاد إلى الري، وأقام بها إلى أن توفي الموفق في رجب سنة ست وسبعين ومائتين.
وفيها في المحرم: توفي المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس، وقيل: في صفر.
وكانت ولايته سنة واحدة، وأحد عشر شهراً، وعشرة أيام. =

ودخلت سنة ست وسبعين ومائتين

وفيها: شخص أبو أحمد من بغداد إلى الجبل.

وكان السبب في ذلك

أن الماذرائي كاتب إذكوتكين أخبره أن له هناك مالاً عظيماً، وأنه إن شخص صار ذلك [إليه][١].

فشخص أبو أحمد، فلم يجد من ذلك شيئاً فشخص من هناك إلى الكرخ، ثم إلى أصبهان يريد أحمد بن عبد العزيز.

فتنحى له أحمد بن عبد العزيز عن البلد بجيشه وعياله، وترك له داره بفرشها وآلتها لينزلها إذا قدم.

وكان مع الموفق محمد بن أبي الساج، وذلك أنه قدم عليه هارباً من ابن طولون قبل شخوص الموفق عن بغداد كان بينه وبين ابن طولون وقعات كثيرة ضعف ابن أبي الساج في آخرها عن مقاومته لقلّة من كان معه وكثرت من مع ابن طولون فلحق بأبي أحمد، فخلع عليه أبو أحمد، وأخرجه معه إلى الجبل.

وفيها: ورد الخبر بانفراج تل بنهر الصِّلَّة[٢] يعرف بتل بني شقيف عن سبعة أقبر فيها أبدان صحيحة عليها أكان جُدد لها أهداب يفوح منها رائحة المسك، أحدهم شاب له جمه، وجبهته، وأذناه، وخدّاه، وأنفه، وشفتاه ورقبته، وأشفار عينيه صحيحة، وعلى

= وكان عمره نحواً من ستة وأربعين سنة، وكان أسمر طويلاً بوجهه أثر جدري جعداً كث اللحية.

وخلف ستة ذكور، وكان جواداً يصل الشعراء، ويحب الشعر.

ولما توفي بويع أخوه عبد اللّه بن محمد بويع له يوم موت أخيه، وكنيته أبو محمد، أمه: أم ولد اسمها عشار، توفيت قبل ابنها بسنة.

وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتى، وصار في كل جهة متغلب، ولم تزل كذلك طول ولايته.

وفيها: توفي أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المروروذي ـ وهو صاحب أحمد بن حنبل ـ، وعبد اللّه بن يعقوب بن إسحاق العطار الموصلي التميمي وكان كثير الحديث والرواية، وكان معدلاً عند الحكام.

وفيها: توفي أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد اللّه البكري، النحوي، اللغوي، المشهور صاحب التصانيف.

وقيل: توفي سنة سبعين، والأول أصح.

(١) ما بين المعقوفين زيادة مستوحاة من سياق الكامل للخبر.

(٢) قال ياقوت: بواسط أمر بحفره المهدي فحفر وأحيى ما عليه من الأراضي وجعلت غلته لصِلات أهل الحرمين ونفقتهم.

شفته بلل كأنه كان يشرب الماء. فأخرج الثقات لينظروا إلى ذلك، فأخبروا أنهم شاهدوا ذلك، وأن بعضهم جذب شعر بعضهم فوجده قوي الأصل قريباً من شعر الحيّ.

وكان هذا التل انفرج عن شبه حوض في حجر في لون المسن عليه كتاب لا يدري ما هو؟

فأحضر أصحاب الأديان، فلم يعرف أحد منهم الخط[١].

ودخلت سنة سبع وسبعين ومائتين

ولم يجر فيها ما يكتب[٢].

(١) الخبر في الكامل مختصر عما هو هنا وذكر ابن الأثير أحداث أخرى في هذا العام منها أنه قال:
في هذه السنة: جعلت شرطة بغداد إلى عمرو بن الليث، وكتب اسمه على الأعلام والترسة وغيرها.
وكان ذلك في شوال، ثم ترتب في الشرطة عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر من قبل عمرو، ثم أمره بطرح اسم عمرو عن الأعلام وغيرها في شوال من هذه السنة.
وفيها: استعمل الموفق باللّه على أذربيجان ابن أبي الساج فسار إليها، فخرج إليه عبد اللّه بن الحسن الهمذاني صاحب مراغة ليصده عنها، فحاربه فانهزم عبد اللّه وحصر وأُخِذَتْ منه سنة ثمانين ومائتين ـ كما نذكره ـ واستقر ابن أبي السَّاج لعمله.
وفيها: قتل عامل الموصل لابن كنداج إنساناً من الخوارج اسمه نعيم.
فسمع هارون مقدم الخوارج بذلك وهو بحديثه الموصل، فجمع أصحابه، وسار إلى الموصل يريد حرب أهلها، فنزل شرقي دجلة.
فأرسل إليه أعيانهم، ومقدموهم يسألونه ما الذي أقدمه؟
فذكر قتل نعيم، فقالوا: إنما قتله عامل السلطان من غير اختيار منا وطلبوا منه الأمان ليحضروا عنده يعتذرون ويتبرأون من قتله فأمنهم، فخرج إليه جماعة من أهل الموصل وأعيانهم وتبرأوا من قتله، فرحل عنهم.
وفيها: عاد حجاج اليمن عن مكة فنزلوا وادياً، فأتاهم السيل فحملهم جميعاً وألقاهم في البحر.
وفيها: توفي أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي البصري، وكان يسكن بغداد.
وحج بالناس: هارون بن محمد الهاشمي.
وفيها: توفي أبو محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة صاحب كتاب أدب الكاتب، وكتاب المعارف، وهو كوفي، وإنما قيل له: الدينوري لأنه كان قاضيها.
وقيل: مات سنة سبعين.
وأبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد اللّه اليشكري النحوي الراوية، وكان مولده سنة اثنتي عشرة ومائتين.
وفيها: توفي محمد بن علي أبو جعفر القصاب، وهو من أقران السريّ، وصحبه الجنيد كثيراً.

(٢) كذا قال ابن مسكويه، وذكر ابن الأثير من أخبار وأحداث تلك السنة ما يلي:
وفي هذه السنة: دعا بازمار بطرسوس لخمارويه بن أحمد بن طولون، وسبب ذلك:
أن خمارويه أنفذ إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف، وسلاحاً كثيراً.
فلما وصل إليه دعا له، ثم وجه إليه بخمسين ألف دينار.
وفيها في ربيع الآخر: كان بين وصيف خادم ابن أبي الساج، والبرابرة أصحاب أبي الصقر فتنة، فاقتتلوا، فقتل بينهم جماعة وكان ذلك ببلاد الشام. =

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

وفيها: انحدر وصيف خادم أبي الساج إلى واسط، بأمر أبي الصقر.

ذكر السبب في ذلك

كان سبب ذلك أن أبي الصقر أتلف ما في بيوت أموال أبي أحمد حتى لم يبق فيها شيء بالهبات والصلات العظام، التي كان يجيز بها القواد، والخلع التي يخلعها عليهم. فاستدعى وصيفاً هذا فيكون عدّة له إن طالبه أبو أحمد، وكان أصنع وصيفاً وأجازه بجزائر كثيرة وأدر على أصحابه أرزاقهم ولما نفذ ما في بيوت الأموال طالب أرباب الضياع بخراج سنة. . . .[1] عن أرضهم وحبس بذلك جماعة.

وكان الذي يتولى ذلك المعروف بالدغل، فعسف الناس.

وقدم الموفق قبل أن يقتطف آداء ذلك فشغل عنه بقدومه.

وانصرف أبو أحمد من الجبل إلى العراق، فاشتد به وجع النقرس[2] حتى لم يقدر على الركوب، فاتخذ له سريراً عليه قُبّة، فكان يقعد فيه يجلس معه خادم يُبَرِّد رجله بالأشياء الباردة بالثلج، ثم صار به داء الفيل، وكان يحمل [١٣٠/ب] سريره أربعون رجلاً يتناوب عشرون عشرون.

= فركب أبو الصقر، ففرقهم.

وفيها: ولي يوسف بن يعقوب المظالم وأمر من ينادي من كانت له مظلمة قبل الأمير الناصر لدين الله الموفق أو أحد من الناس، فليحضر.

وفيها في شعبان: قدم بغداد قائد عظيم من قواد خمارويه بن أحمد بن طولون في جيش عظيم.

وحج بالناس: هارون بن محمد بن عيسى الهاشمي.

وفيها: توفي أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي المثنى الموصلي، وكان كثير الحديث، وهو من أهل الصدق والأمانة.

وفيها: توفي أبو حاتم الرازي، واسمه محمد بن إدريس بن المنذر، وهو من أقران البخاري، ومسلم.

ومات فيها: يعقوب بن سفيان بن حَوَّان السّري، وكان يتشيع.

ويعقوب بن يوسف بن معقل الأموي والد أبي العباس الأصم.

وفيها: توفيت عُريب المغنية المأمونية وقيل: إنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وكان مولدها سنة إحدى وثمانين ومائة.

وفيها: توفي أبو سعيد الخراز واسمه أحمد بن عيسى.

وقيل: سنة ست وثمانين والأول أشبه بالصواب.

الخراز: بالخاء المعجمة والراء والزاي.

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها في المخطوط.

(٢) مرض مشهور باسم مرض الملوك يقال إنه ينتج عن كثرة أكل اللحوم هكذا يشاع وهو يصيب إبهام الرجل وقد يستفحل أمره عافانا الله وإياكم من كل بلاء وداء آمين.

فإذا اشتد به الألم أمرهم أن يضعوه، فقال يوماً للذين يحملونه وقد سمع منهم ما يدل على ضجر: قد ضجرتم لحملي وبودي أن أكون كواحد منكم أحمل[١] على رأسي وأنا وراء النهروان[٢]. وتلقاه الناس فركب الماء في النهروان ثم في نهر دالي، ثم في دجلة.

ودخل داره لليلتين خلتا من صفر، فأرجف الناس بموته، وكان تقدم في حفظ أبي العباس فغلقت عليه أبواب دون أبواب. وانصرف أبو الصقر إلى منزله، واعترت أبا أحمد غشية، فازداد أرجاف الناس بموته. فحمل المعتمد ولده فجيء بهم إلى داره ولم يصل أبو الصقر إلى الموفق.

فلما رأى غلمان أبي أحمد المائلون إلى أبي العباس والرؤساء من غلمان أبي العباس ما نزل بأبي كسروا الأبواب المغلقة على أبي العباس.

فذكر الغلام الذي كان مع أبي العباس في الحجرة: أن أبا العباس إذا سمع صوت الأقفال تكسر قال: إنّا للّه، ما يريد هؤلاء إلاّ نفسي فأخذ سيفاً كان عنده وقعد مستوقراً. فلما فتح الباب كان أول ما دخل عليه وصيف مُوشْكِير وهو غلامه، فلما رآه رمى بالسيف من يده، وعلم أنهم لم يقصدوه إلاّ بخير.

فأخرجوه حتى اقعدوه عند أبيه، وكان أبوه بعقب غشية فلما فتح عينه بعد إفاقته رآه، قربه وأدناه[٣]. ووافى المعتمد، وقد كان وجه إليه فحضر ومعه ابنه جعفر المفوض إلى اللّه ولي العهد، وعبد العزيز، وإسحاق، ومحمد بنوه، فنزل على أبي الصقر. ثم بلغ أبا الصقر: أن أبا أحمد مات، فوجّه إسماعيل بن إسحاق يتعرف له الخبر. وجمع أبو الصقر القواد والجند، وشحذ داره وما حولها بالرجال والسلاح.

فرجع إسماعيل، فأعلم أبا الصقر أن أبا أحمد حَيّ.

فأول من مضى إليه من القواد محمد بن أبي الساج، ثم جعل الناس يتسللون منهم من يعبر إلى باب أبي أحمد ومنهم من يرجع إلى منزله، ومنهم من يخرج إلى بغداد. فلما صح عند أبي الصقر حياة أبي أحمد، انحدر هو وابناه إلى دار أبي أحمد.

فما ذاكره أبو أحمد شيئاً مما جرى ولا سأله عنه وأقام هناك.

فانتهب دار أبي الصقر وكل ما حوته حتى خرج حرمه حفاة بغير أُزر، وانتهبت دور كتابه، وأسبابه، وكسرت أبواب السجون، فأخرج من كان في المطبق، وانتهب.

---

(١) في المخطوط: أحمد، وهو تحريف.

(٢) العبارة في الكامل أوضح وأدق مما هنا ونصها: قد ضجرتم من حملي بودّي أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسي وأَكِلُ (أتعب) وأنا في عافية.

(٣) وكذا جاء الخبر في الكامل.

ثم خلع أبو أحمد على ابنه أبي العباس، وعلى أبي الصقر، وركبا جميعاً، والخلع عليهما من سوق الثلاثاء إلى باب الطاق.

ومضى أبو الصقر مع أبي العباس إلى دار صاعد، ثم انصرف إلى منزله، فلم يجد فيه شيئاً يجلس عليه حتى أتوه من دار الشاه بحصير حتى جلس عليه.

وولى أبو العباس غلامه بدراً الشرطة على الجانب الغربي[١].

وفيها: توفي أبو أحمد الموفق، ودفن في الرصافة[٢].

وجلس أبو العباس للتعزية، وبايع الغلمان والقواد لأبي العباس بولاية العهد بعد المفوض، ولقب: المعتضد بالله.

وأخرج العطاء للجند، وخطب يوم الجمعة للمعتمد، ثم للمفوّض ثم للمعتضد.

وقبض على أبي الصقر وأسبابه وطلب بنو الفرات، وكان إليهم ديوان السواد فاختفوا. وخلع على عبد الله بن سليمان بن وهب وولي الوزارة.

وبعث محمد بن أبي الساج إلى واسط ليرد غلامه وصيفاً إلى بغداد، فأبى وصيف، ومضى إلى الأهواز، فعاث بالسوس وأنهب الطيب[٣].

وفيها: وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة. وقد كان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان سواد الكوفة فأظهر الزهد والتقشف، وكان

---

(١) بعد هذا في الكامل:
واستخلف محمد بن غانم بن الشاه على الجانب الشرقي.

(٢) في الكامل: ومات الموفق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر من هذه السنة، ودفن ليلة الخميس بالرصافة. وجلس أبو العباس للتعزية، وكان الموفق عادلاً حسن السيرة، يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم، فينتصف الناس بعضهم من بعض.
وكان عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك، وغير ذلك.
قال يوماً: إن جدي عبد الله بن العباس قال: إن الذباب ليقع على جليس فيؤذيني ذلك - وهذا نهاية الكرم - وأنا والله أرى جلسائي بالعين التي أرى بها إخواني، والله لو تهيأ لي أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان.
وقال يحيى بن علي: دعا الموفق يوماً جلساءه فسبقهم وحده، فلما رآني وحدي أنشد يقول:
واستصحب الأصحاب حتى إذا دنوا ... ومَلّوا من الادلاج جئتكم وحدي
فدعوت له، واستحسنت إنشاده في موضعه.
وله محاسن كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

(٣) ثم أكمل ابن الأثير الخبر وأضاف إليه غيره فقال:
وأبى الرجوع إلى بغداد.
وفيها: قتل علي بن الليث أخو الصفار، قتله رافع بن هرثمة، وكان قد يحنق به وترك أخاه.
وفيها: غار ماء النيل فغلت الأسعار بمصر.

يسفّ[(١)] الخوص ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة. فأقام على ذلك مدة، فإذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة حتى فشا ذلك عنه. ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول اللّه ﷺ، فلم يزل على ذلك يقعد إليه جماعة فيخبرهم من ذلك بما يعلق قلوبهم.

وكان يقعد إلى بقال في القرية بموضع يقال له: النهرين، وكان بالقرب من البقال نخل اشتراه من التجار، واتخذ حظيرة فيها ما صرموا من النخل.

وجاء التجار إلى البقال فسألوه أن يطلب لهم رجلاً يحفظ ما صرموا من النخل، فأومأ لهم إلى هذا الرجل، وقال: إن أجابكم إلى حفظه فإنه بحيث يحيون.

فناظروه في ذلك، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة، وكان يحفظ لهم ويصلي أكثر نهاره، ويصوم ويأخذ عند إفطاره من البقال رطل تمر فيفطر عليه، ويجمع نوى ذلك التمر.

فلما حمل التجار تمرهم ساروا إلى البقال، فحاسبوا أجيرهم هذا على أجرته فدفعوها إليه، فحاسب الأجير البقال على ما أخذه من التمر، وحط من ذلك ثمن النوى. ورآه أولئك التجار، فوثبوا عليه[(٢)] وضربوه وقالوا: ألم ترض إن أكلت تمرنا حتى بعت النوى؟

فقال لهم البقال: لا تفعلوا فإنه ما مَسَّ تمركم [١٣١/أ] فقص عليهم قصته. فندموا على ضربهم إياه وسألوه أن يجعلهم في حلٍّ ففعل.

وزاد بذلك نبلاً عندهم لما وقفوا عليه من زهده.

ثم مرض، فمكث مطروحاً على الطرق، وكان في القرية رجل يحمل على ثور[(٣)] له أحمر العينين، وكان أهل القرية يسمونه: كرميثه[(٤)] [لحمرة عينيه ـ وهو بالنبطية أحمر العين ـ فكلم البقال الكرميثه][(٥)] هذا أن يحمل العليل إلى منزله، ويوصي أهله بالإشراف عليه، ففعل، وأقام عنده حتى برأ. فكان يأوي إلى منزله، ودعا أهل القرية ووصف لهم

---

(١) أي يصنع منه الأشياء التي يستخدمها الإنسان في حمله أو الجلوس عليها وهو نسج الخوص.
وقال ابن منظور في لسان العرب: سففت الخوص أسُفُّه سَفًّا، واسففته إسفافاً أي نسجته بعضه في بعض، وكل شيء ينسج بالأصابع فهو الإسفاف.

(٢) في المخطوط: عليهم، وهو تحريف.

(٣) في الكامل: أثوار.

(٤) في الكامل: كرميتة، بالتاء المثناة من فوق.

(٥) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل والسياق يقتضيها لاحتمال سقوطها من الناسخ والسياق في الكامل أشبه بما هو هنا.

مذهبه، فأجابه أهل تلك الناحية. وكان يأخذ من الرجل إذا دخل في بيته، ويزعم أن ذلك للإمام.

فلما كثر أصحابه اتخذ منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى ابن مريم. فاشتغل أهل كور[١] تلك الناحية بالصلوات الخمسين التي وظفها عليهم.

وكان للهيضم في تلك الناحية ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل عن سبب ذلك، فأخبر بخبر هذا الرجل وأنه قد شغلهم بالصلاة وقطعهم عن أعمالهم.

فوجه إليه، وجيء به، فسأله عن أمره فأخبره فحلف أنه يقتله، وأمر به فحبس في بيت وأقفل عليه الباب ووضع المفتاح تحت وسادة وتشاغل بالشرب، وسمع بعض من في داره من الجواري منه فوقت له.

فلما نام الهيضم أخذت المفتاح من تحت وسادته، وفتحت الباب وأخرجته، وردت المفتاح إلى موضعه.

فلما أصبح الهيضم طلب الرجل، فلم يجده، وشاع الخبر، ففتن به أهل تلك الناحية وقالوا: رفع.

ثم ظهر في موضع آخر، فقصده قوم من أصحابه يسألوه عن قصته، فكتمهم، وقال: ليس يمكن أحد من البشر أن يبدأني بسوء.

فعظم في عيونهم، ثم خاف على نفسه، فخرج إلى الشام، فلم يعرف له خبر، وسمي باسم الرجل الذي كان في منزله كرميثه، ثم عرب وخفف، فقيل: قرمط[٢] ثم كثر مذهبه بسواد الكوفة، ووقف أحمد بن محمد الطائي، وكان النظر إليه في سواد الكوفة على أمرهم.

فوظف كل رجل منهم في كل سنة دينار فكان يجبي ذلك فيجتمع له منه مال جليل. ثم قدم قوم من الكوفة، فرفعوا إلى السلطان أمر القرامط، وأنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام، وأنهم يرون السيف في أمة محمد إلا من بايعهم على دينهم، وأن الطائي يخفي أمره عن السلطان.

فلم يلتفت إليهم، ثم جاؤوا بكتاب فيه مذهبهم ونسخته:

---

(١) في المخطوط: اكره. وهو تحريف والتصويب من الكامل وقد سقط حرفي الهاء واللام من الكلمة الأولى وتحرف الأخير من الكلمة الثانية.

(٢) في الكامل: هكذا ذكره بعض أصحاب زكرويه عنه. وقيل: إن قرمط لقب رجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة السواد على أثوار له، واسمه: حمدان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الفرج بن عثمان[١]:

«إنه داعية إلى المسيح وهو عيسى، والكلمة وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية وهو جبريل».

وحكى أن المسيح تصور له في جسم إنسان وقال له[٢]:

إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك روح القدس، وإنك يحيى بن زكريا.

ثم توظف صلاة، وتقرأ فيها شيئاً من القرآن. وتذكر قِبْلَة غير قِبْلَة المسلمين، وتحكي أشياء عن لسان الإمام، وتنسب إلى اللّه تسع أشياء، وتحرم النبيذ، ولا غسل من الجنابة، ولا صوم إلا يومين في السنة: يوم النيروز، ويوم المهرجان، وكل من حاربه وجب قتله[٣].

---

(١) بعده في الكامل تعريف ببلد هذا الرجل فقال:
وهو من قرية يقال لها: نصرانة.

(٢) في المخطوط: أنه. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

(٣) هذا ما جاء ذكر فيما زُعِمَ عنه في هذا المؤلَّف، وفي الكامل فُصِّلَ في هذه المزاعم فقال: وذُكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان وقال له:
إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدّابة، وإنك يحيى بن زكريا، وإنك روح القدس. وعرفه: أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها. وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن:
اللّه أكبر اللّه أكبر، أشهد أن لا إله إلا اللّه ـ مرتين ـ أشهد أن آدم رسول اللّه، أشهد أن نوحاً رسول اللّه، أشهد أن إبراهيم رسول اللّه، أشهد أن موسى رسول اللّه، أشهد أن عيسى رسول اللّه أشهد أن محمداً رسول اللّه، أشهد أن أحمد بن محمد ابن الحنفية رسول اللّه. وأن يقرأ في ركعة الاستفتاح وهي من المُنَزَّل على أحمد بن محمد ابن الحنفية. والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء.
والسورة الحمد للّه بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه. قُل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور، والأيام وباطنها أوليائي الذين عَرَّفُوا عبادي سبيلي اتقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي، وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي، واخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري وكذَّب رُسلي أخذته مهاناً في عذابي، وأتممت أجلي، وأظهرت أمري على ألسنة رُسلي، وأنا الذي لم يعلُ عَلَيَّ جبَّار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصر على أمري، ودام على جهالته، وقالوا: لن نبرح عليه عاكفين، وبه مقيمين أولئك هم الكافرون. =

وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج.

وحكي عن قرمط أنه قال: صرت إلى صاحب الزنج، وقلت له:

إني على مذهب وورائي مائة ألف سيف فتناظرني، فإن اتفقنا على المذهب ملت بمن معي كلهم إليك، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك، وطلبت منه الأمان، فأعطانيه.

فناظرته إلى الظهر فبيّن في آخر مناظرته أنه مخالف، فقام إلى الصلاة، وانسللت وخرجت من عنده إلى سواد الكوفة[1].

= ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربي رب العزة، وتعالى عما يصف الظالمون، يقولها مرتين.
فإذا سجد قال: اللّه أعلى اللّه أعلى، اللّه أعظم اللّه أعظم.
ومن شريعته: أن يصوم يومين في السَّنة وهما المهرجان، والنيروز.
وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة وأن من حاربهم وجب قتله، ومن لم يحاربه ممن يخالفه أخذ منه الجزية.
ولا يؤكل كل ذي ناب، ولا كل ذي مخلب.

(١) وزاد ابن الأثير في الكامل عدة حوادث حدثت في هذه السنة غير هذه فقال:
فيها في جمادى الآخرة: دخل أحمد العفيفي طرسوس، وغزا مع بازمار الصائفة، فبلغوا شكند، فأصابت بازمار شظية من حجر منجنيق في أضلاعه، فارتحل عنها بعد أن أشرف على أخذها، فتوفي في الطريق منتصف رجب، وحمل إلى طرسوس فدفن بها.
وكان قد أطاع خمارويه بن أحمد بن طولون فلما توفي خَلَفَه ابن عجيف، وكتب إلى خمارويه يخبره بموته.
فأقره على ولاية طرسوس، وأمده بالخيل، والسلاح والذخائر وغيرها. ثم عزله، واستعمل عليها ابن عمه محمد بن موسى بن طولون.
وفيها: ثار الناس بطرسوس بالأمير محمد بن موسى فقبضوا عليه، وسبب ذلك:
أن الموفق لما توفي كان له خادم من خواصه يقال له: راغب، فاختار الجهاد، فسار إلى طرسوس على عزم المقام بها.
فلما وصل إلى الشام سَيّر ما معه من دواب وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس. وسار هو جريدة إلى خمارويه يزوره، ويعرفه عزمه.
فلما لقيه بدمشق، أكرمه خمارويه، وأحبَّه وأنس به، واستحيا راغب أن يطلب منه المسير إلى طرسوس، فطال المقام عنده، فظن أصحابه أن خمارويه قبض عليه، فأذاعوا ذلك.
فاستعظمه الناس وقالوا: يعمد إلى رجل قصد الجهاد في سبيل اللّه فيقبض عليه؟
ثم شغبوا على أميرهم، محمد ابن عم خمارويه وقبضوا عليه وقالوا: لا يزال في الحبس إلى أن يطلق ابن عمك: راغباً، ونهبوا داره، وهتكوا حرمه.
فبلغ الخبر إلى خمارويه، فأطلع راغباً عليه، وأذن له في المسير إلى طرسوس.
فلما بلغ إليها، أطلق أهلها أميرهم، فلما أطلقوه قال لهم: قبّح اللّه جواركم، وسار عنهم إلى البيت المقدس فأقام به، ولما سار عن طرسوس، عاد العجيفي إلى ولايتها.
وفيها: ظهر كوكب ذو جمة، وصارت الجُمّة ذؤابة.
وحج بالناس هذه السنة: هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي.
وتوفي فيها: عبد الكريم الدير عاقولي.
وفيها: توفي إسحاق بن كنداج، وولي مكان إليه من أعمال الموصل، وديار ربيعة ابنه محمد.
وتوفي إدريس بن سليم الفقعسي الموصلي، وكان كثير الحديث والصلاح.

خلافة المعتضد

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

وفيها: توفي المعتمد[1]، وكان شرب على الشَّط في الحسني[2] شرباً كثيراً، وتعشى فأكثر، فاختنق ومات ليلاً.

وبويع لأبي العباس المعتضد بالخلافة فولّى غلامه بدراً الشرطة، وعبيد اللّه بن سليمان الوزارة.

ومحمد بن الشاه بن ميكال[3] الحرس.

وصالحاً الأمين حجبة الخاصة والعامة. فاستخلف صالحاً خفيفاً السمرقندي.

وفيها: قدم على المعتضد رسول عمرو بن الليث الصفار بهدايا وسأل ولاية خراسان، فوصلوا إليه في شهر رمضان من هذه السنة، فخلع عليه، ونصب اللواء في صحن داره ثلاثة أيام.

وورد الخبر بموت نصر بن أحمد [الساماني][4] وقام مكانه بما كان إليه من العمل

---

(١) في الكامل:
وفيها: توفي المعتمد على اللّه ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب ببغداد.

(٢) في الكامل بعدها:
ببغداد يوم الأحد.
وقال ياقوت عن الحَسَنِيّ المقصود هنا ما يلي: قصر في دار الخلافة منسوب إلى الحسن بن سهل وهو المعروف اليوم بالتاج وبه منازل الخلفاء ببغداد. ثم أتم الخبر بأكثر مما هنا عن وفاته فقال: وأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس، فنظروا إليه، وحمل إلى سامرا فدفن بها. وكان عمره خمسين سنة وستة أشهر، وكان أسن من الموفق بستة أشهر. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر.
وكان في خلافته محكوماً عليه قد تحكّم عليه أخوه أبو أحمد الموفق، وضيق عليه حتى أنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار، فلم يجدها ذلك الوقت، فقال:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قَلَّ ممتنع عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طُرّاً ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

وكان أول الخلفاء انتقل من سُرَّ مَنْ رأى مُذْ بُنِيَتْ، ثم لم يعد إليها أحد منهم.

(٣) كذا في المخطوط، وفي الكامل: مالك.

(٤) زيادة من الكامل.

وراء نهر بلخ أخوه إسماعيل بن أحمد(١).

وفيها: ورد من مصر الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصَّاص رسولاً لخمارويه بن أحمد بن طولون، ومعه هدايا من العين عشرون حملاً على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما تمران، وعشرون غلاماً على عشرين نجيب بسروج محلاّة بحلية فضة كثيرة، ومعهم حراب فضة، وعليهم أقبية الديباج، والمناطق المحلاة، وسبع عشرة دابة بجلال مشهرة، وخمسة أبغل بسروج ولُجُم وزرّافة.

فوصل المعتضد، فخلع عليه وعلى سبعة [١٣١/أ] نفر معه.

وسفر ابن الجصَّاص في تزويج بنت خمارويه من علي ابن المعتضد.

فقال: أنا أتزوجها، فتزوجها(٢).

وفيها: كتب إلى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف لمحاربة رافع بالري.

فزحف إليه أحمد، فالتقوا، فانهزم رافع، وجرى عن الري، ودخلها أحمد بن عبد العزيز(٣).

---

(١) زاد صاحب الكامل بعد ذلك: وكان نصر ديناً عاقلاً له شعر حسن منه ما قاله في رافع بن هرثمة:

أخوك فيك على خبر ومعرفة ... إن الذليل ذليل حيثما كانا

لولا زمان خؤون في تصرفه ... ودولة ظلمت ما كنت إنسانا

(٢) ذكر هذا الخبر في الكامل مختصر جداً.

(٣) سبق ابن الأثير هذا الخبر بأسبابه ثم ذكر تفاصيله فقال:

وفيها: عزل المعتضد رافع بن هرثمة عن خراسان، وسبب ذلك: أن المعتضد كتب إلى رافع بتخلية قرى السلطان بالري، فلم يقبل، فأشار على رافع أصحابه برد القرى لئلا يفسد حاله بكتاب، فلم يقبل أيضاً.

ثم ذكر نحواً مما ذكر هنا ثم قال: وكتب إلى عمرو بن الليث بتولية خراسان، ثم إن أحمد بن عبد العزيز لقي رافعاً، فقاتله فانهزم عن الري، سار إلى جرجان، ومات أحمد بن عبد العزيز سنة ثمانين ومائتين، فعاد رافع إلى الري، فلقاه عمرو، وبكر ابنا عبد العزيز، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عمرو، وبكر، وقتل من أصحابها مقتلة عظيمة. ووصلوا إلى أصبهان في جمادى الأولى سنة ثمانين.

وأقام رافع بالري باقي سنته، ومات علي بن الليث معه في الري.

ثم إن عمرو بن الليث وافى نيسابور في جمادى الأولى سنة ثمانين واستولى عليها وعلى خراسان، فبلغ الخبر إلى رافع، فجمع أصحابه واستشارهم فيما يفعل، فقال لهم: إن الأعداء قد أحدقوا بنا، ولا آمن أن يتفقوا علينا، هذا محمد بن زيد بالديلم ينتظر فرصة لينتهزها، وهذا عمرو بن عبد العزيز قد فعلت به ما فعلت، وهو يتربص الدوائر، وهذا عمرو بن الليث قد وافى خراسان بمجموعة، وقد رأيت أن أصالح محمد بن زيد، وأعيد إليه طبرستان وأصالح ابن عبد العزيز، ثم أسير إلى عمرو فأخرجه عن خراسان.

فوافقوه على ذلك، وأرسل إلى ابن عبد العزيز فصالحه، واستقر الأمر بينهما في شعبان سنة ثمانين.

ثم سار إلى طبرستان، فوردها في شعبان سنة إحدى وثمانين، وكان قد أقام بجرجان فأحكم أمرها، ولما استقر بطبرستان راسل محمد بن زيد وصالحه ووعده محمد بن زيد أن ينجده =

ودخلت سنة ثمانين ومائتين

وفيها: قبض المعتضد على عبيد اللّه[١] بن المهتدي ومحمد بن الحسن[٢] بن سهل المعروف بشميلة[٣].

= بأربعة آلاف رجل من شجعان الديلم، وخطب لمحمد بطبرستان وجرجان في ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين.
وبلغ خبر مصالحة محمد بن زيد ورافع إلى عمرو بن الليث، فأرسل إلى محمد يذكر ما فعل به ويحذره منه، وغدره إن استقام أمره فعاد عن انجاده بعسكر.
فلما قوي عمرو وعرف لمحمد بن زيد ذلك، وخلع عليه طبرستان.
ولما أحكم رافع أمر محمد بن زيد سار إلى خراسان، فورد نيسابور في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وجرى بينه وبين عمرو شديدة، فانهزم فيها رافع إلى أبيورد، وأخذ عمرو منه المعدل، والليث ولدا أخيه علي بن الليث، وكانا عنده بعد موت أخيه علي.
ولما ورد رافع أبيورد أراد المسير إلى هراة أو مرو، فعلم عمر بذلك، فأخذ عليه الطريق بسرخس.
فلما علم رافع مسير عمرو عن نيسابور سار على مضايق، وطرق غامضة غير طريق الجيش إلى نيسابور، فدخلها.
وعاد إليه عمرو من سرخس فحصره فيها، وتلاقيا.
واستأمن بعض قواد رافع إلى عمرو، فانهزم رافع وأصحابه، وسير أخاه محمد بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمده، ويطلب ما وعده من الرجال، فلم يفعل ولم يمده برجل واحد وتفرق عن رافع أصحابه وغلمانه.
وكان له أربعة آلاف غلام، ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله.
وفارقه محمد بن هارون إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ببخارى.
وخرج رافع منهزماً إلى خوارزم منهزماً على الجمازات، وحمل ما بقي معه من مال وآلة وهو في شرذمة قليلة، وذلك في رمضان سنة ثلاثة وثمانين ومائتين.
فلما بلغ رباط جبوه، وجه إليه خوارزمشاه أبا سعيد الدرغاني ليقيم له الأنزال، ويخدمه إلى خوارزم، فرماه أبو سعيد في قلة من رجاله وغَدَرَ به، وقتله لسبع خلون من شوال سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور، وأنفد عمرو الرأس إلى المعتضد باللّه، فوصل إليه سنة أربع وثمانين ونصب ببغداد، وصفت خراسان إلى شاطئ جيحون لعمرو.
وفيها: ملك أحمد بن عيسى ابن الشيخ قلعة ماردين، وكانت بيد محمد بن إسحاق بن كنداجيق.
وحج بالناس هذه السنة هارون بن محمد، وهي آخر حجة حجها.
وأول حجة حجها بالناس سنة أربع وستين ومائتين إلى هذه السنة.
وفيها: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي السلمي بترمذ في رجب، وكان إماماً حافظاً له تصانيف حسنة منها الجامع الكبير في الحديث، وهو أحسن الكتب، وكان ضريراً.
وتوفي إبراهيم بن محمد المدبر في شوال وكان يلي ديوان الضياع.

(١) في الكامل: عبد اللّه.
(٢) في الكامل: الحسين.
(٣) في المخطوط: شيلمة، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

وكان شميلة[١] هذا من أصحاب صاحب الزنج[٢].

وكان سبب قبضه عليهما

أنه سعى بهما ساع إلى المعتضد وقال: إنه يدعو إلى رجل لم يوقف على اسمه، وأنه قد استفسد جماعة من الجند وغيرهم.

وأخذ معه رجل صيدناني فقرره[٣] المعتضد فلم يقر شيء.

وسأله عن الرجل الذي يدعو إليه فلم يظهر عليه، وقال: لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه ولو جعلتني كرذياك[٤] ما أخبرتك به.

فأمر بنار فأوقدت، ثم شُدَّ على خشبة من خشب الخيم، وأدير على النار حتى تقطع جلده.

ثم ضرب عنقه وصلب على الجسر وحبس ابن المهتدي إلى أن وقف على رأيه، فأُطْلِقَ.

وقال لشميلة[٥]: بلغني أنك تدعو إلى ابن المهتدي؟

فقال: المأثور عني غير هذا، أنا أتولى آل أبي طالب.

وكان قرّر ابن أخيه، فأقرّ.

قال: قد أقرّ ابن أخيك؟

قال: هذا غلام حدث تكلم بهذا خوفاً من القتل، فلا تقبل قوله.

فأطلقهما بعد مدة[٦].

ثم شخص المعتضد من بغداد إلى بني شيبان، وكانوا بناحية من الجزيرة اتخذوها معقلاً.

فلما بلغهم[٧] قصده إليهم ضمّوا أموالهم وعيالهم.

فأسرى إليهم المعتضد، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير في الزابين. فأخذ النساء والذراري، وغنم أهل العسكر من أموالهم ما أعجزهم حمله.

---

(١) في المخطوط: شيلمة، وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٢) بعد هذا في الكامل: إلى آخر أيامه، ثم لحق بالموفق في الأمان فأمنه.
(٣) في المخطوط: فقره. وهو تحريف نتج عن سقط الراء الثانية من الناسخ، والتصويب من الكامل.
(٤) كذا في المخطوط، وأحسب إن لم يكن هذا اسم لعلم معروف أن يكون الصواب كزكريا. وقصة زكريا عليه السلام ويوحنا المعمدان معروفة ومشهورة.
(٥) في المخطوط: لشيلمة. وهو تحريف.
(٦) ذكر الخبر في الكامل مختصر عما هنا.
(٧) في المخطوط: بلغه، وهو تحريف، والتصويب من الكامل.

وأخذ من غنمهم وإبلهم حتى بيعت الشاة بدرهم، والجمل بخمسة دراهم.

وأمر بحفظ النساء والذراري.

ثم لقيه بنو شيبان وسألوه الصفح عنهم، وبذلوا رهائنهم.

فأخذ منهم خمسمائة رجل [وعاد إلى بغداد][١].

ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ بما فارقه عليه أحمد بن عيسى ابن الشيخ من المال الذي أخذه من مال إسحاق بن كنداجيق، وهدايا وبغال ودواب[٢].

وفيها: ورد الخبر بأن محمد بن أبي الساج افتتح المراغة[٣] بعد حصار شديد، وحرب عظيمة.

وأنه أخذ عبد اللّه بن الحسين بعد أن أمَّنَه وأصحابه، فقيده وحبسه، وقرره بجميع أمواله. ثم قتله.

وفيها: ورد الخبر بوفاة أحمد بن عبد العزيز ثم قام بالأمر [بعده أخوه][٤] عمر بن عبد العزيز.

وفيها: توفي جعفر بن المعتمد[٥].

وفيها: ورد الخبر بغزو إسماعيل بن أحمد بلاد الترك، وافتتاحه مدينة ملكهم وأَسْرَهُ وأباه وامرأته خاتون، ونحواً من عشرة آلاف، وقتل خلقاً لا يحصى. وغنم من الأموال والدواب ما لا يوقف على عدده.

وأصاب الفارس من المسلمين من الغنيمة في المقسم ألف درهم[٦].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل والسياق فيه بنحو مما هنا.

(٢) الخبر في الكامل على هذا النحو:
وأرسل إلى أحمد بن عيسى ابن الشيخ يطلب منه ما أخذه من أموال ابن كنداجيق بآمد فبعثه إليه ومعه هدايا كثيرة.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان: مَرَاغة: بلدة مشهورة عظيمة أعظم، وأشهر بلاد أذربيجان. . . قالوا: كانت المراغة تدعى: أفرازهروذ فعسكر مروان بن محمد بن الحكم وهو والي أرمينية، وأذربيجان منصرفه من غزو موقان وجيلان بالقرب منها وكان فيها سرجين كثير، فكانت دوابه ودواب أصحابه تتمرغ فيها، فجعلوا يقولون: ابنو قرية المراغة، وهذه قرية المراغة.
فحذف الناس القرية وقالوا: المراغة. وكان أهلها ألجأوها إلى مروان، فابتناها وتألّف كلاؤه أهلها، فكثروا فيها للتقرر وعمروها.

(٤) ما بين المعقوفين زيادة من الكامل.

(٥) في الكامل الخبر على النحو التالي: وفيها توفي جعفر بن المعتمد في ربيع الآخر وكان ينادم المعتضد.

(٦) وذكر ابن الأثير من الأحداث في هذه مما لم يذكره المؤلف هنا ما يلي:
وفي هذه السنة: خرج محمد بن عبادة ويُعرف بأبي حوزة وهو من بني زُهير من أهل قبراثا =

....

= من البقعاء ـ على هارون وكلاهما من الخوارج.
وكان أول أمره فقيراً، وكان هو وابناه له يلتقطان الكمأة، ويبيعانها إلى غير ذلك من الأعمال.
ثم إنه جمع جماعة وحكم فاجتمع إليه أهل تلك النواحي من الأعراب، وقوي أمره وأخذ عُشر الغلات، وقبض الزكاة. وسار إلى معلثايا، فقاطعه أهلها على خمسمائة دينار، وجبى تلك الأعمال وعاد.
وبنى عند سنجار حصناً، وحمل إليه الأمتعة وجعل فيه ابنه أبا هلال ومعه مائة وخمسون رجلاً من وجوه بني زهير وغيرهم. ووصل خبرهم إلى هارون الشاري، فاجتمع رأيه ورأى وجوه أصحابه على قصد الحصن أولاً فإذا فرغوا منه ساروا إلى محمد بن عبادة، فجمع أصحابه، فبلغوا مائة راجل وألف ومائتي فارس.
فسار إليه مبادراً، وأحدق به وحصره، ومحمد بن عبادة في قبراثا لا يعلم بذلك.
وجَدّ هارون في قتال الحصن، وكان معه سلاليم قد أخذها، وزحف إليه.
وكان أصحابه قد منعوا أحداً يخرج رأسه من أعلى السور، فلما رأى من معه من بني تغلب تغلّبه على الحصن، أعطوا من فيه من بني زهير الأمان بغير أمر هارون فشقّ عليه ولم يقدر على تغيير ذلك إلاّ أنه قتل أبا هلال بن محمد بن عبادة، ونفراً معه قبل الأمان، وفتحوا الحصن وملكوا ما فيه.
وسار محمد ـ وهو بقبراثا ـ فلقوه وهو في أربعة آلاف رجل، فاقتتلوا فانهزم هارون ومن معه.
فوقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً، وحملوا على ميمنة محمد بن عبادة فانهزمت الميمنة. وعادت الحرب، فانهزم محمد ومن معه، ووضعوا السيوف فيهم، فقتل منهم ألف وأربعمائة رجل وحجز بينهم الليل. وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه. وانهزم محمد إلى آمد فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى ابن الشيخ، بعد حرب، فظفر به، فأخذه أسيراً وسيّره إلى المعتضد فسلَخَ جلده كما يسلخ الشاة.
وفيها: افتتح محمد بن ثور عمان، وبعث برؤوس جماعة من أهلها.
وفيها: دخل عمرو بن الليث نيسابور في جمادى الأولى.
وفيها: وجّه محمد بن أبي السّاج ثلاثين نفساً من الخوارج من طريق الموصل فضربت أعناق أكثرهم وحُبِسَ الباقون.
وفيها: دخل أحمد بن أبًا طرسوس للغزاة من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون، ودخل بعده بدر الحمامي فغزوا جميعاً مع العجيني أمير طرسوس حتى بلغوا البلقسون...
وفيها: توفي راشد مولى الموفق بالدّينور وحُمِل في تابوت إلى بغداد في رمضان، وفي شوال مات مسرور البلخي.
وفيها: غارت المياه بالرّي، وطبرستان حتى بلغ الماء ثلاثة أرطال بدرهم وغلت الأسعار.
وفي شوال: انكسف القمر وأصبح أهل دُبيل والدنيا مظلمة ودامت الظلمة عليهم، فلما كان عند العصر هَبَّت ريح سوداء فدامت إلى ثلث الليل، فلما كان ثلث الليل زلزلوا، فخرجت المدينة ولم يبق من منازلهم إلاّ قدر مائة دار، وزلزلوا بعد ذلك خمس مرار.
وكان جملة من أخرج من تحت الردم مائة ألف وخمسون ألفاً كلُّهم موتى.
وحج بالناس هذه السنة: أبو بكر محمد بن هارون بن إسحاق المعروف بابن ترنجة.
وفيها: توفي محمد بن إسماعيل بن يوسف أبو إسماعيل الترمذي في رمضان وله تصانيف حسنة.
وأحمد بن سيار بن أيوب الفقيه المروزي، وكان زاهداً عالماً.
وأبو جعفر أحمد بن عمران الفقيه الحنفي بمصر.

ودخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين

وفيها: شخص المعتضد إلى الجبل فقصد ناحية الدينور[١]، وقلد ابنه أبا محمد علي[٢] بن المعتضد الرّي، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، والدينور[٣]، وقلد كتيبة[٤] أحمد بن أبي الأصبغ عسكره وقلد عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف أصفهان، ونهاوند والكرخ.

وتعجل الانصراف من أجل غلاء السعر.

وفيها: خرج المعتضد الخرجة الثانية إلى الموصل قاصداً لحمدان[٥] بن حمدون.

وذلك أنه بلغه أنه مائل إلى هارون الشاري داع له، فورد كتابه على نجاح الجري بذكر الوقعة[٦]:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي هذا وقت المعتمد ليلة الجمعة، وقد نصر اللّه وله الحمد على الأعراب والأكراد، وأظفرنا بعالم منهم، وبعيالاتهم، وقد رأيتنا نسوق البقر والغنم كما كُنّا نسوقها عام أول، ولم تزل السيوف والأسنة تأخذهم حتى حال بيننا وبينهم الليل، ومن غد يومنا يقع الاستتمام، وكان وقعنا بهم وقتلنا لهم خمسين ميلاً فلم يبق منهم مخبر، والحمد للّه كثيراً وصلى اللّه على محمد وآله وسلم».

وكانت الأعراب والأكراد، لما بلغهم خروج المعتضد تحالفوا أنهم يقتلون على دمٍ واحد. واجتمعوا وعبّوا عسكرهم بثلاثة كراديس، فكان من أمرهم ما ذكرت.

ثم قصد المعتضد قلعة ماردين، وكانت في يد حمدان بن حمدون، فلما بلغه خروج المعتضد إليها هرب وخلف ابنه فيها.

فنزل عسكر المعتضد على القلعة ذلك اليوم، فلما كان من الغد، ركب المعتضد، وصعد حتى وصل إلى باب العامة، ثم صاح بابن حمدان، فأجابه.

---

(١) في الكامل: ناحية الجبل وقصد الدينور.
(٢) في الكامل: وهو المكتفي.
(٣) في الكامل: وهمذان والدينور.
(٤) في المخطوط: كيتيه. والتصويب من الكامل بنحو هذا.
(٥) في المخطوط: أحمد، والتصويب من الكامل.
(٦) لم يرد ذكر الكتاب في الكامل، وكذا لم يرد نصه فيه.

فقال: افتح الباب، ففتحه، ولم يجر بينهما غير ذلك.

فقعد المعتضد في الباب ولم يدخل، وأمر من دخل فنقل ما في القلعة من المال والأثاث، ثم أمر بهدمها، فهدمت.

ويشبه أن يكون راسله قبل ذلك، ثم وجه خلف حمدان بن حمدون فطلب أشدّ الطلب، وأخذت أمواله، فكانت مودعة. ثم ظفر به بعد.

ثم قصد المعتضد مدينة يقال لها الحسينية، وفيها رجل يقال له: شداد في جيش عظيم يقال إنه عشرة [١٣٢/أ] آلاف، وكان له قلعة في المدينة فظفر به المعتضد، فأخذوه وهدمت قلعته[١].

ودخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين

وفيها: أحدث المعتضد النيروز الذي يقع في اليوم الحادي عشر من حزيران وأنشئت الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي كان للعجم.

وورد الكتاب على يوسف بن يعقوب يعلمه: أنه إنما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم، وأمر أن يقرأ كتابه على الناس. ففعل[٢].

وفيها: كتب المعتضد من الموصل إلى إسحاق بن أيوب، وحمدان بن حمدون

(١) كذا جاء ذكر الخبر في الكامل أيضاً، ومما زاد ابن الأثير في الكامل من أحداث تلك السنة ما يلي:
فيها: ورد تُرك بن العباس عامل المعتضد على ديار مضر من الجزيرة على بغداد ومعه نيف وأربعون من أصحاب ابن الأغر صاحب سُمَيْساط على جِمال، عليهم برانس، ودراريع حرير، فمضى بهم إلى الحبس، وعاد إلى داره.
وفيها: كانت وقعة لوصيف خادم ابن أبي السّاج لعمر بن عبد العزيز فهزمه، ثم سار وصيف إلى مولاه محمد بن أبي الساج.
وفيها: دخل طغج بن جُف طرسوس لغزو الصائفة من قِبَل خمارويه بن أحمد بن طولون، فبلغ طرابزون، وفتح بلودية في جمادى الآخرة.
وفيها: مات أحمد بن محمد الطائي بالكوفة. في جمادى.
وفيها: غارت المياه بالري وطبرستان. . .
وفيها: استأمن الحسن بن علي كُورَة عامل رافع على الري علي بن المعتضد في زهاء ألف رجل، فوجهه ومن معه إلى أبيه.
وفيها: دخل الأعراب سامرا، فقتلوا ابن سيما في ذي القعدة.
وفيها: غزا المسلمون الروم، فدامت الحرب بينهم اثني عشر يوماً، فظفر المسلمون، وغنموا غنيمة كثيرة، وعادوا.
وفيها: توفي عبيد اللّه بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة.

(٢) ورد الخبر في الكامل بنحو هذا دون ذكر أو تخصيص ليوسف بن يعقوب.

في المسير إليه [وهو في الموصل][١].

فأما إسحاق بن أيوب فسارع إلى ذلك.

وأما حمدان بن حمدون فتحصن في قلاعه، وغيب أمواله وحرمه.

فوجه إليه المعتضد الجيوش[٢]، فصادفوا الحسين بن حمدان، فلما رأى الحسين أوائل العسكر مقبلين، طلب الأمان، فأُمن، وسلم القلعة. وسار المعتضد فأمر بهدمها، وأعدّ الجيش في طلب حمدان.

وكان قد سار بباسورين من دجلة[٣] وهو نهر عظيم، وكان الماء زائداً، فعبر الجيش كله إليه، فهرب وقتل أكثر أصحابه. وألقى حمدان نفسه في زورق في دجلة مع كاتبه، وحمل معه مالاً وعبر إلى الجانب الغربي من دجلة، وقدر اللحاق بالأعراب لما حِيل بينه وبين الأكراد الذين كانوا معه في الجانب الشرقي.

وعبر في أثره نفر يسير من الجند فاقتفوا أثره حتى أشرفوا على دير كان نزله.

فلما أبصر بهم خرج هارباً ومعه كاتبه، وألقيا أنفسهما في زورق، وخلف المال في الدير، فحمل إلى المعتضد.

وانحدر أصحاب السلطان في طلبه على الظهر، وفي الماء، فلحقوه، فخرج من الزورق حاسراً إلى الضيعة التي له في شرقي دجلة.

فركب دابة لوكيله، وسار ليله أجمع حتى وافى مضرب إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضد مستجيراً به، فأحضره إسحاق مضرب المعتضد، فأمر بالاحتفاظ به.

وبث الخيل في طلب أصحابه، وظفر بكاتبه وكثير من قراباته وغلمانه. وتتابع الأكراد في الدخول في الأمان، [وكان ذلك في المحرم][٤].

وفيها: نقلت بنت خمارويه بن أحمد إلى المعتضد[٥]، ونودي في جانبي بغداد: أن يعبر أحد دجلة.

وغُلّقت الأبواب التي تلي الشط، ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة الشدائخ، ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس من أن يظهروا في دورهم على الشط. فلما صليت

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في الكامل: مع وصيف موشكير، ونصر القشوري وغيرهما فصادفا الحسن بن عليّ كورة وأصحابه متحصنين بموضع يعرف بدير الزعفران من أرض الموصل.

(٣) في الكامل: فصار في ديار ربيعة.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في الكامل: جاء الخبر مقتضب على النحو التالي:
وفيها: عاد المعتضد إلى بغداد، وزُفَّت إليه ابنة خمارويه في ربيع الآخر.

العتمة، وافت شذاة من دار المعتضد، وفيها خدم معهم الشموع، فوقفوا بإزاء دار صاعد، وكانت أعدت حراقات شدت مع دار صاعد، فلما جاءت الشذاة، حددت الحراقات، وصارت الشذاة بين أيديهم، وأقامت الحرة في يوم الاثنين في دار المعتضد، وحبست عليه يوم الثلاثاء[١].

وفيها: هرب يوسف بن أبي الساج فيمن أطاعه إلى أخيه محمد بالمراغة. ولقي مالاً للسلطان في طريقه فأخذه. فقال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، وكتب إلى المعتضد:

إمام الهدى أنصاركم [آل][٢] طاهر[٣] بلا سبب يجفون[٤] والدّهر يذهب
وقد خلطوا صبراً بشكر ورابطوا وغيرهم يُعطى ويُحبى ويهرب[٥]

وفيها: وجه محمد بن زيد العلوي من طبرستان إلى محمد بن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينار ليفرقها ببغداد، والكوفة والمدينة على أهله.

فسعى به وأحضر دار بدر، وسُئل عن ذلك، فاعترف به، وذكر أنه يوجّه إليه في

(١) قال محقق الكامل تعليقاً على هذا الخبر: قد تقدم أن خمارويه بعث إلى المعتضد بهدايا، فسأله أن يزوج ابنته قطر الندى لولده المكتفي باللّه.
فقال المعتضد: بل أنا أتزوجها، فتزوجها في سنة إحدى وثمانين ومائتين، ودخل بها هذه السنة، وأصدقها ألف ألف درهم.
قال صاحب النجوم الزاهرة:
يقال: إن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه في جهازها، وكذا وقع. فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها في جملة جهازها ألف هاون من الذهب.
وغرض خمارويه أن يجهز ابنته جهاز أيضاً هي به نعمة الخلافة، فكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة، إلى غير ذلك مما لم ير مثله، ولا يسمع به.
ولما دخل بها الخليفة المعتضد أحبها حباً شديداً لجمال صورتها وكثرة آدابها.
قيل: إنه خلا بها في بعض الأيام فوضع رأسه على ركبتها ونام وكان المعتضد كثير التحرز على نفسه، فلما نام تلطفت به وأزالت رأسه عن ركبتها ووضعتها على وسادة، ثم تنحت عن مكانها وجلست بالقرب منه في مكان آخر، فانتبه المعتضد فزعاً ولم يجدها، فصاح بها فكلمته بالحال فعتبها على ما فعلت من إزالة رأسه عن ركبتها وقال لها:
أسلمت نفسي لك فتركتيني وحيداً وأنا في النوم لا أدري ما يفعل بي؟
فقالت: يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت به علي، ولكن فيما أدبني به والدي خمارويه إني لا أجلس مع النيام، ولا أنام مع الجلوس.
فأعجبه ذلك منها إلى الغاية.
(٢) زيادة من الكامل.
(٣) في المخطوط: الطاهر، والتصويب من الكامل.
(٤) في المخطوط: يخفون. والتصويب من الكامل.
(٥) في المخطوط: ويرهب ـ والتصويب من الكامل.

كل سنة مثل هذا المال فيفرقه على من يأمره بالتفرقة عليهم من أهله. فأعلم بدر المعتضدي صاحبه المعتضد ذلك وأعلمه أن الرجل والمال في يده.

فقال المعتضد: يا بدر أما تذكر الرؤيا التي ذكرتك بها؟

فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال: ألا تذكر أن الناصر ـ يعني الموفق ـ دعاني، وقال: إني أعلم أن هذا الأمر سيصير إليك، فانظر[1] كيف يكون مع آل أبي طالب؟ ثم قال: رأيت[2] في النوم كأني خارج من بغداد أريد ناحية النهروان في جيش، وقد تشوّف الناس إليّ، إذ مررت على رجل واقف على تل يُصلي لا يلتفت إليّ، فعجبت منه، فلما فرغ من صلاته قال لي: أقبل، فأقبلت إليه.

فقال: أتعرفني؟

قلت: لا.

قال: أنا علي بن أبي طالب، خذ هذه المسحاة، فاضرب بها الأرض ـ المسحاة بين يديه ـ فأخذتها، فضربت بها ضربات. فقال: إنه سيلي من ولدك هذا الأمر بقدر ما ضربت، فأوصهم بولدي خيراً. قال بدر: فقلت: بلى يا أمير المؤمنين، قد ذكرت.

قال: فأطلق الرجل، وأطلق المال.

وتقدم إليه أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه ما يوجه به إليه ظاهراً، وأن يفرق هذا الرجل ما يفرقه ظاهراً، وتقدم بمعونته على ما يلتمسه.

وفيها: ورد الخبر على المعتضد من مصر في أحد عشر يوماً على طريق البر: أن خمارويه بن أحمد ذُبح على فراشه، ذبحه بعض خدمه[3].

وقتل[4]: من خدمه الذين اتهموا بقتله نيفاً وعشرين [١٣٢/ب] خادماً[5].

---

(١) في المخطوط: فأنكر. وهو تحريف على ما يبدو والله أعلم وأثبت ما أظنه الصواب.
(٢) في المخطوط: وأنت. وهو تحريف ظاهر.
(٣) بعدها في الكامل: في ذي الحجة بدمشق.
(٤) في المخطوط: قيل: وهو تحريف والتصويب من الكامل.
(٥) في الكامل بين ابن الأثير سبب قتله فقال:
وكان سبب قتله أنه سعى إليه بعض الناس، وقال له: إن جواري قد اتخذت كل واحدة منهن خصياً من خصيان داره لها كالزوج.
وقال: إن شئت أن تعلم صحة ذلك، فأحضر بعض الجواري، فأضربها وقرّرها حتى تعلم صحة ذلك.
فبعث من وقته إلى نائبه بمصر يأمره بإحضار عدة من الجواري ليعلم الحال منهن.
فاجتمع جماعة من الخدم وقرروا بينهم الاتفاق على قتله خوفاً من ظهور ما قيل له، وكانوا =

....

= خاصته، فذبحوه ليلاً وهربوا. فلما قُتل اجتمع القواد، وأجلسوا ابنه جيش بن خمارويه في الإمارة ـ وكان معه بدمشق ـ وهو أكبر ولده، فبايعوه، وفرقت فيهم الأموال، وكان صبياً غراً.
ومما ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة ولم يذكره المؤلف ما يلي، وليس على ترتيب ما ورد في الكامل:
خبر انهزام هارون الخارجي من عسكر الموصل: كان المعتضد باللَّه قد خلف بالموصل نصر القشوري يجبي الأموال، ويعين العمال على جبايتها.
فخرج عامل معلثايا إليها ومعه جماعة من أصحاب نصر، فوقع عليهم طائفة من الخوارج واقتتلوا إلى أن أدركهم الليل، ففرق بينهم وقُتل من الخوارج إنسان اسمه جعفر وهو من أعيان أصحاب هارون، فعظم عليه قتله، وأمر أصحابه بالإفساد في البلاد.
فكتب نصر القشوري إلى هارون الخارجي كتاباً يتهدده بقرب الخليفة، وإنه إن هَمَّ به أهلكه وأهلك أصحابه، وأنه لا يغترّ بمن سار إلى حربه.
فعاد عنه بمكر وخديعة، فكتب إليه هارون كتاباً منه:
أما ما ذكرت ممن أراد قصدي ورجع عني فإنهم لما رأوا جدّنا واجتهادنا كانوا بإذن اللَّه فراشاً متتابعاً، وقصباً أجوف ومن صبر لنا منهم ما زاد على الاستتار بالحيطان، ونحن على فرسخ منهم، وما غرّك إلا ما أصبت به صاحبنا فظننت أن دمه مطلول، أو أن وتره متروك لك كلاّ إن اللَّه تعالى من ورائك، وآخذ بناصيتك ومعين على إدراك الحق منك ولم تعيرنا بغيرك وتدع أن يكون مكان ذلك إبداء صفحتك، وإظهار عداوتك وأنا وإياك كما قيل:

فلا توعدونا باللقاء وأبرزوا ... إلينا سواداً نلقه بسواد

ولعمر اللَّه ما ندعو إلى البراز ثقة بأنفسنا ولا عن ظن أن الحول والقوة لنا، لكن ثقة بربنا، واعتماداً على جميل عوائده عندنا.
وأما ما ذكرت من أمر سلطانك؛ فإن سلطانك لا يزال منا قريباً وبحالنا عالماً فلا قدّم أجلاً، ولا أخره، ولا بسط رزقاً ولا قبضه، قد بعثنا على مقابلتك، وستعلم عن قريب إن شاء اللَّه تعالى.
فعرض نصر كتاب هارون على المعتضد فجدّ في قصده، وولي الحسن بن علي كورة الموصل، وأمره بقصد الخوارج، وأمر كافة مقدمي الولايات والأعمال بطاعته.
فجمعهم وسار إلى أعمال الموصل فخندق على نفسه، وأقام إلى أن رفع الناس غلاّتهم، ثم سار إلى الخوارج، وعبر الزاب إليهم، فلقيهم قريباً من المغلة، وتصافوا للحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانكشف الخوارج عنه ليفرقوا جمعه، ثم يعطفوا عليه.
فأمر الحسن أصحابه بلزوم مواقفهم، ففعلوا. فرجع الخوارج، وحملوا عليهم سبع عشرة حملة، فانكشفت ميمنة الحسن، وقتل من أصحابه، وثبت هو، فحمل الخوارج عليه حملة رجل واحد، فثبت لهم، وضرب على رأسه عدّة ضربات، فلم يؤثر فيه.
فلما رأى أصحابه ثباته، تراجعوا إليه، وصبر فانهزم الخوارج أقبح هزيمة، وقتل منهم خلق كثير، وفارقوا موضع المعركة ودخلوا أذربيجان.
وأما هارون فإنه تحير في أمره، وقصد البرية، ونزل عند بني تغلب، ثم عاد إلى معلثايا، ثم عاد إلى البرية، ثم رجع وعبر دجلة إلى حرة، وعاد إلى البرية.
وأما وجوه أصحابه، فإنهم لما رأوا إقبال دولة المعتضد، وقوته، وما لحقهم في هذه الوقعة راسلوا المعتضد يطلبون الأمان، فأمنهم، فأتاه كثير منهم يبلغون ثلاثمائة وستين رجلاً.
وبقي معه بعضهم يجول بهم في البلاد إلى أن قتل سنة ثلاث وثمانين على ما نذكره، إن شاء اللَّه تعالى.
وفي هذه السنة في ربيع الأول: قُبض على بَكْتَمَرَ بن طاشتمر، وقُيد، وأُخذ ماله وضياعه، =

وجاء المعتضد ابن الجصاص إلى خمارويه بهدايا، فلما بلغ سُرَّ مَنْ رَأى، اتصل مهلك خمارويه بالمعتضد، فكتب إليه يأمره بالرجوع فرجع.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين

وفيها: شخص المعتضد بسبب هارون الشاري إلى ناحية الموصل فظفر به.

ذكر هذا الظفر

وجه الحسين بن حمدان بن حمدون في خيل من الفرسان والرجالة إليه.

فقال الحسين: نعم يا أمير المؤمنين إن أنا جئت به فلي ثلاث حوائج يقضيها لي أمير المؤمنين؟ قال: اذكرها.

فقال: أولها: إطلاق أبي، وحاجتان أسألهما بعد مجيء أبي.

فقال المعتضد: ولك ذلك، فامض.

فقال الحسين: احتاج ثلاثمائة فارس انتخبهم أنا، فمكنه من ذلك، وأنفذهم مع موشكير. فقال: أريد أن يأمره أمير المؤمنين أن لا يخالفني فيما آمره به.

فأمر المعتضد موشكير بذلك.

فمضى الحسين حتى انتهى إلى محاضة في دجلة فتقدم إلى وصيف ومن معه بالوقف على المحاضة، وقال: ليس لهارون طريق إن هرب غير هذا، فلا تبرحن من هذا الموضع حتى يمر بك هارون[1]، أو أجيك، أو يبلغك أني قتلت.

ومضى حسين في طلب هارون، فلقيه وأوقعه، وكانت بينهما قتلى، وانهزم هارون.

= ودوره، وكان أميراً على الموصل، فاستعمل بعد عليها الحسن بن علي الخراساني، ويعرف بـ: كوره.

وفيها: سار المعتضد إلى الجبل فبلغ الكرخ وأخذ أموالاً لابن أبي دلف، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز يطلب جوهراً كان عنده، فوجه به إليه، وتنحى من بين يديه.

وفيها: أطلق لؤلؤ غلام ابن طولون وحمل على دواب وبغال.

وفيها: وجه المعتضد وزيره عبيد الله بن سليمان إلى ابنه بالري وعاد منها.

وفيها: توفي أبو طلحة منصور بن مسلم في حبس المعتضد.

وفيها: ولدت جارية اسمها شغب للمعتضد ولداً سماه جعفراً، وهو المقتدر.

وفيها: توفي عثمان بن سعيد بن خالد أبو سعيد الداري الفقيه الشافعي أخذ الفقه عن البويطي صاحب الشافعي والأدب عن ابن الأعرابي.

وفيها: توفي أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري اللغوي صاحب كتاب النبات وغيره.

وفيها: توفي الحارث بن أبي أسامة وله مسند يروى غالباً في زماننا هذا.

وأبو العيناء محمد بن القاسم، وكان يروي عن الأصمعي.

(١) بعدها في الكامل: فتمنعوه عن العبور.

وأقام هارون على المحاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه: قد طال مقامنا بهذا القفر وأضرّ بنا، واستأمن أن يأخذ الحسين الشاري فيكون الفتح له دوننا، والصواب أن نمضي في آثارهم، فأطاعهم.

ومضى هارون منهزماً إلى المحاضة فعبر، وجاء حسين في أثره، فلم ير وصيفاً، ولا أحداً من أصحابه، ولا عرف لهم خبراً، ولا رأى لهم أثراً وجعل يسأل عن خبر هارون حتى وقف على عبوره، فعبر في أثره.

وجاء إلى حيّ من أحياء العرب فسألهم عنه فكتموا أمره، فهَمّ بالإيقاع بهم.

ثم قال: إن المعتضد في أثري، فأعلموه أنه اجتاز بهم.

فأخذ بعض دوابهم، وترك دوابه عندهم - وكانت قد كَلَّت، وأعييت -.

فاتبع أثره، فلحقه بعد أيام، والشاري في نحو من مائة.

فناشده الشاري وتوعده، فأبى إلاّ محاربته ورمى حسين بن حمدان بنفسه عليه، وابتدره أصحاب الحسين، فأخذوه، وجاؤوا به إلى المعتضد سليمان بغير عهدٍ[1] ولا عقد. فأمر المعتضد حين بلغه الخبر بحل قيود حمدان بن حمدون، والتوسعة عليه إلى أن يقدم ابنه فيطلقه ويخلع عليه.

فلما وصل الشاري إلى المعتضد انصرف راجعاً إلى بغداد، فنزل باب الشماسية وعبى الجيش هناك، وخلع على الحسين بن حمدان وطوقه بطوق ذهب، وخلع على جماعة من أهله، وزين الفيل.

وأدخل الشاري عليه شهيراً ببرنس من حرير طويل[2].

وفيها: ورد الخبر من طبرستان أن الصقالبة غزت الروم في خلق عظيم، فقتلوا منهم وهزموا ملكهم حتى وصلوا إلى قسطنطينية وألجأوا الروم إليها.

ثم وجه ملك الروم إلى ملك الصقالبة: إن ديننا ودينك واحد، فعلام نقتل الناس بيننا؟

وأجابه ملك الصقالبة: إن هذا ملك[3] آبائي ولست منصرفاً عنك إلاّ بغلبة أحدنا الآخر. فلما [لم][4] يجد ملك الروم مخلصاً عنه جمع من عنده من المسلمين، وسألهم

---

(١) في المخطوط: بغير عبد. وهو تحريف.

(٢) جاء بآخر القصة بالكامل على النحو التالي: ولما أركبوا هارون على الفيل أرادوا أن يلبسوه ديباجاً مشهراً، فامتنع وقال: هذا لا يحل، فألبسوه كارهاً.
ولما صلب نادى بأعلى صوته: لا حكم إلاّ للّه ولو كره المشركون. وكان هارون صفرياً.

(٣) في المخطوط: ملكك. وهو تحريف.

(٤) زيادة يتطلبها السياق.

معونته على الصقالبة، فأجابوه إليه، فأعطاهم السلاح، فهزموا الصقالبة.

فلما رأى ملك الروم ذلك خافهم على نفسه، فبعث إليهم فردّهم، وأخذ منهم السلاح وفرقهم في البلدان فرقاً من أن يجثوا عليه[١].

وورد الخبر من مصر: أن الجند وثبوا على جيش بن خمارويه، وقالوا: لا نرضى بك أميراً علينا، فتنح عَنَّا حتى نولّي عمك، فكلمهم كاتبه علي بن أحمد الماردانى، وسألهم أن ينصرفوا يومهم ذلك.

فانصرفوا وعادوا من غد، فعدا جيش على عمه الذي ذكروا أنهم يأمرونه فضرب عنقه وعنق عَمٍّ له آخر، فرمى برؤوسهما إليهم فهجم الجند على جيش بن خمارويه فقتلوه، وقتلوا ابنه، وانتهبوا داره، وانتهبوا مصر وأحرقوها.

ثم أقعدوا هارون بن خمارويه مكان أخيه[٢].

وفيها: ورد كتاب بدر بن عبيد اللّه بن سليمان وكانا بالجبل فقُرئ في مسجد الجامع ببغداد:

أن عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف سار إليهما في الأمان[٣] منقاداً لأمير المؤمنين بالطاعة، وأن عبيد اللّه بن سليمان تلقاه وخلع عليه وعلى رؤساء أهل بيته وأخذ عليهم البيعة.

وكان بكر بن عبد العزيز قبل ذلك استأمن إليهما فولياه عمل أخيه عمر على أن

---

(١) ذكر الخبر بالكامل بنحو مما هنا مختصراً.

(٢) جاء الخبر في الكامل على النحو التالي: وفي هذه السنة خرج جماعة من قواد جيش بن خمارويه عليه، وجاهروا بالمخالفة، وقالوا: لا نرض بك أميراً، فاعتزلنا حتى نولي عمك الإمارة، وكان سبب ذلك: أنه لمّا وُلي وكان صبياً، فقرّب الأحداث والسُّفَّل، وأخلد إلى استماع أقوالهم، فغيروا نيته على قوّاده وأصحابه وصار يقع فيهم، يذمهم ويظهر العزم على الاستبدال بهم، وأخذ نعمهم وأموالهم.
فاتفقوا عليه ليقتلوه ويقيموا عمه، فبلغه ذلك، فلم يكتمه، بل أطلق لسانه فيهم ففارقه بعضهم، وخلعه طغج بن جف أمير دمشق، وسار القواد الذين فارقوه إلى بغداد، وهم: محمد بن إسحاق بن كنداجيق، وخاقان المفلحي، وبدر بن جف أخو طغج، وغيرهم من قواد مصر.
فسلكوا البرية، وتركوا أهليهم وأموالهم فتاهوا أياماً، ومات من أصحابهم جماعة من العطش.
وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين، وقدموا على المعتضد، فخلع عليهم وأحسن إليهم وبقي سائر الجنود بمصر على خلافهم ابن خمارويه.
فسألهم كاتبه علي بن أحمد الماردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا، فقيل جيش عَمَّيّ له، وبكر الجند إليه فرمى بالرأسين إليهم، فهجم الجند عليه فقتلوه، ونهبوا داره، ونهبوا مصر واحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون في الإمرة بعده.
فكانت ولايته تسعة أشهر.

(٣) في الكامل: في شعبان.

يمضي فيحاربه. فلما دخل عمر في الأمان قالا لبكر: إن أخاك قد دخل في طاعة السلطان، وإنما وليناك عمله على أنه عاص، والرأي لكما أن تمضيا إلى باب أمير المؤمنين ليرى رأيه في أمركما. وولي عيسى النوشري أصفهان على أنه من قبل عمر.

فهرب بكر، وكتب إلى المعتضد يخبره، فكتب إلى بدر يأمره بالمقام إلى أن يعرف خبر بكر.

وخرج الوزير عبيد اللّه بن سليمان إلى الري وبها علي بن المعتضد ولحق بالأهواز. فوجه المعتضد في طلبه وصيفاً موشكير[١]، فخرج إليه[٢]، فلما قرب منه رجع بكر، ومضى إلى أصبهان[٣] [١٣٣/أ] ورجع وصيف إلى بغداد. فكتب المعتضد إلى بدر يأمره بطلب بكر وحربه. فقدم بدر إلى عيسى النوشري بمحاربته. فخرج إليه وحاربه، وقتل أصحاب بكر وهزم بكر[٤]. ودخل عمر بن عبد العزيز قادماً من أصبهان

---

(١) في الكامل: وصيف بن موشكير، وهو الأصوب.

(٢) في الكامل: وارتحل بكر إلى أصبهان ليلاً فلم يتبعه وصيف بل رجع إلى بغداد، وسار بكر إلى أصبهان.

(٣) تكررت عبارة: ورجع بكر إلى أصبهان بأول الورقة [١٣٣/أ].
وأحسب ذلك للسقط الذي ذكرت في الفقرة السابقة من الهامش واللّه أعلم.

(٤) ذكر ابن الأثير في الكامل هذه الأبيات بعد ذلك من قول بكر حيث قال:
فأمر بدر عيسى النوشري بذلك فقال بكر:

عني مَلامُك ليس حين ملامِ ... هيهات أجدب زائد الأيام
طارت عنايات الصبا عن مفرقيَ ... ومضى أوان شراستي وعُزامي
ألقى الأحبة بالعراق عِصيهم ... وبقيت نَصب حوادث الأيامِ
وتقا ذمت بأخي النوى ورمت به ... رمي البعيد قطيعة الأرحامَ
فلأقرعن صفاة دهر نابهم ... قرعاً يهز رواسي الأعلامَ
ولأضربن الهام دون حريمهم ... ضرب القُدَارِ بقيعة القُدّامِ
ولأتركن الواردين حياضهم ... بقرارةٍ لمواطِئ الأقدامِ
يا بدر إنك لو شهدت مواقفي ... والموت يلحظ والسيوف دوامي
لذممت رأيك في إضاعة حرمتي ... ولضاق ذرعك في اطِّراح ذمامي
حركتني بعد السكون وإنما ... حركت من حصن الجبال تهامِ
وعجمتني فعجمت مني من حمى ... خشن المناكب كل يوم زحامِ
قل للأمير أبي محمدٍ الذي ... يجلو بغرته دُجى الأظلام
أسكنتني ظل العلا فسكنته ... في عيشة رغدٍ وعزٍ نامي
حتى إذا خليت عني نابني ... نوب أنت وتنكرت أيامي
فلأشكرن جميل ما أوليتني ... ما غردت في الأيك وُرْقُ حمام
هذا أبو حفص يدي وذخيرتي ... للنائبات وعُدَّتي وسنامي
ناديته فأجابني، وهززته ... فهززت حدّ الصارم الصمصام

=

فأمر المعتضد باستقباله، فاستقبله القاسم بن عبيد اللّه والقواد.

وقعد له المعتضد فوصل إليه وخلع عليه وحمل على دابة بسرج ولجام محلى بالذهب.

وخلع على ابنين كانا له، وعلى أخيه أحمد بن عبد العزيز، وعلى قوم من قواده، وأنزل في دار كانت لعبيد اللّه بن عبد اللّه بن الجسر، وكانت فرشت له[١].

وفيها[٢]: ورد كتاب من عمرو بن الليث بأنه وقع رافع بن هرثمة فهزمه ووجه في أثره بقواده وكان سار إلى طوس من نيسابور، فانهزم ولحق بخوارزم فقتل بخوارزم، وأنه يحمل رأسه[٣].

= من رام أن يغض الجفون على القذى ... أو يستكين يروم غير مرامي
ويخيم حين يرى الأسنة شُرَّعاً ... والبِيضُ مصلتة لضرب الهام

ثم أكمل ابن الأثير الخبر فقال: ثم إن النوشري انهزم عن بكر، فقال بكر يذكر هربه ويعير وصيفاً بالإحجام عنه ويتهدد بدراً في أبيات منها:

قد رأى النوشري حين التقينا ... من إذا أُشرع الرِّماح يفرُّ
جاء في قسطل لَهَام فصُلنا ... صولةً دونها الكماة تَهرُّ
وكوى النوشريَّ آثار نار ... رُؤيت عند ذلك بيض وسُمرُ
غرَّ بدر أحلمي وفضل أناتي ... واحتمالي للغر مما يَغُرُّ
سوف يأتيه من خُيولي قُبٌّ ... لاحقات البطون جُونٌ وشقرُ
يتنادُونَ كالسعالى عليها ... من بني وائل أسود تكرُّ
لست بكراً إن لم أدعهم حديثاً ... ما سرى كوكب وماكر دَهرُ

(١) ذكر هذا الخبر ابن الأثير في الكامل مختصراً.

(٢) في الكامل: فيها في رمضان.

(٣) هذا ما ذكره المؤلف في أحداث تلك السنة وزاد ابن الأثير في أحداثها ما يلي:
وفي هذه السنة: كان الفداء بين المسلمين والروم، فكان من جملة من فُدي به من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس.
وفي هذه السنة: أمر المعتضد بالكتابة إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام المواريث إلى ذي الأرحام، وأبطل ديوان المواريث.
وفيها: في شوال مات علي بن محمد بن أبي الشوارب القاضي، وكانت ولايته للقضاء بمدينة المنصور ستة أشهر.
وفيها: مات البحتري الشاعر، واسمه: الوليد بن عبادة بمنبج أو حلب، وكان مولده سنة ست ومائتين.
وفيها: توفي محمد بن سليمان أبو بكر المعروف بابن الباغندي.
وأبو الحسن علي بن العباس بن جريج الشاعر المعروف بابن الرومي.
وقيل: توفي سنة أربع وثمانين، وديوانه معروف، رحمه اللّه تعالى.
وفيها: توفي سهل بن عبد اللّه بن يونس بن رفيع السري.
ومولده سنة مائتين، وقيل: وثلاثين.

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائتين

وفيها: قدم رسول عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة في المحرم.

فأمر المعتضد برفعه ونصبه في الجانب الشرقي، ثم تحويله إلى الجانب الغربي إلى الليل، ثم رده إلى دار السلطان[١].

وفي هذه السنة:

عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس[٢].

فخوفه عبيد اللّه بن سليمان ذلك قال: إن العامة تضطرب، فلم يلتفت إليه. وكان أول ما ابتدأ به من ذلك: أن تقدم إلى العامة بلزوم أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية، والشهادات عند السلطان. وأن لا يسألوا عن شهادة كانت عندهم. ومنع القُصَّاص من الجلوس على الطرقات. وعمل بذلك نسخ قرئت في الجانبين بمدينة السلام، وفي الأذياع، والمحال، والأسواق. ثم منع يوم الجمعة أهل الجانبين من أهل الحلق والفتيا وغيرهم من القعود في المسجد. ومنع الباعة من القعود في رحالهم[٣].

ونودي في المسجد الجامع ينهى الناس من الاجتماع على قاضٍ وغيره.

ثم نودي في الجانبين والجامعين بأن الذمة بريئة ممن اجتمع على مناظرة أو جدل، وأن من فعل ذلك أخل بنفسه. وتقدم إلى من يسقي الماء وأمثالهم في الجامعين أن لا يترحموا على معاوية ولا يذكروه.

ثم تقدم المعتضد إلى من خارج الكتاب الذي كان المأمون أمر بإنشائه وفيه مثالب معاوية ولعنه بعد ذلك فأُخرج، وهو كتاب طويل.

فحكي أن عبيد اللّه بن سليمان أحضر يوسف بن يعقوب القاضي وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم عليه المعتضد خوفاً من فتنة تقع.

فمضى القاضي يوسف، وكلم المعتضد وقال: إني أخاف أن يحرك العامة.

---

(١) لم يرد ذكر هذا الخبر في أحداث تلك السنة في الكامل بل جاء الخبر بالتسيير إلى عمرو بن الليث وولايته الرّي، فقال ابن الأثير:
وفيها سَيّر المعتضد إلى عمرو بن الليث الخلع، واللواء بولاية الرّي وهدايا.

(٢) قال ابن الأثير: وهو كتاب طويل قد أحسن كتابته، إلا أنه قد استدل فيه بأحاديث كثيرة عن وجوب لعنه عن النبي ﷺ لا تصح، وذكر في الكتاب يزيد وغيره من بني أمية، وعملت منه نسخ قرئت بجانبي بغداد.

(٣) في المخطوط: رحاهلو. وهو تحريف.

[فقال][١]: إن[٢] نطقت وضعت سيفي فيها. فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يدرجون، ويميل إليهم خلق كثير؟

وما أثرهم في هذا الكتاب؟

وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألْسِنَة وأثبت حجة منهم اليوم فأمسك عنه المعتضد، فلم يرد عليهم جواباً، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء[٣].

وفيها: لحق بكر بن عبد العزيز بمحمد بن زيد العلوي بطبرستان وبدر مقيم بالجبل ينتظر أمر بكر إلى ماذا يوفك؟ فورده الخبر بعد زمان أنه مات بطبرستان وورد الخبر من أصبهان بوثوب ابن ليلى الحارث بن عبد العزيز على شفيع الخادم الموكل به فقتله.

ذكر الخبر عن ذلك

كان أخوه عمر أخذه فقيده وحمله إلى قلعة لأبي دلف بالزور، وحبسه فيها. وكان ما كان لأبي دلف من مال ومتاع نفيس وجوهر كان في هذه القلعة.

وشفيع مولاهم يحفظ القلعة وكل ما فيها[٤]، ومعه جماعة من غلمان عمر وثقاته. فلما استأمن عمر إلى السلطان، هرب بكر عاصياً للسلطان، بقيت القلعة بما فيها في يد شفيع، وأبو ليلى مقيد مسلم إليه. فكلّمه أبو ليلى في إطلاقه، فأبى، وقال: لا أخون صاحبي عمر.

فحكت جارية لأبي ليلى في الحبس: أنه كان معه غلام صغير يخدمه، وآخر يخرج في حوائجه ولا يبيت عنده، فأما الصغير فيبيت عنده. فقال أبو ليلى لغلامه الذي يدخل ويخرج في حوائجه: احتل لي في مبرد كيف شئت، ففعل الغلام، فأدخله في شيء من طعامه. وكان شفيع يجيء في كل ليلة إذا أراد أن ينام إلى البيت الذي فيه أبو ليلى حتى يراه، ثم يقفل عليه البيت هو بنفسه ويمضي فينام، وتحت فراشه سيف مسلول. وكان أبو ليلى قد سأل أن تدخل عليه جارية صغيرة السن، قد ذكر عن خلواء جارية أبي دلف ليلى عن هذه الجارية الصغيرة أنها قالت:

برد أبو ليلى مسمار قيده حتى كان يخرجه من رجله إذا شاء ويرده إذا شاء.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: أو. وهو تحريف.

(٣) جاء بعد هذا في الكامل:
وكان عبيد الله من المنحرفة عن عليّ رضي الله عنه.

(٤) في المخطوط: فيه. وهو تحريف.

قالت: وجاء شفيع عشية من العشايا إلى أبي ليلى، فقعد معه يحدثه.

فسأله أبو ليلى أن يشرب معه أقداحاً، ففعل. ثم قام الخادم لحاجته.

فأمرني أبو ليلى ففرشت فراشه فجعل عامة/ ثيابه في موضع الإنسان من [١٣٣/ ب] الفراش وصيره كهيئة الرجل النائم وغطاها وأمر أن أقعد عند رجل ذلك الشيء المعمول من الثياب كأني أغمزه، وقال: إذا جاء شفيع لينظر إلي فقولي: هو نائم ليغلق الباب على عادته، ويظن أني في الفراش. ثم خرج أبو ليلى واختفى في موضع متاع في صُفّة فيها باب، هذا البيت وجاء شفيع فنظر إلى الفراش، وسأل الجارية عن خبر أبي ليلى، فأخبرته أنه نائم، وأقفل الباب.

فلما نام الخادم ومن معه في الدار التي في القلعة، خرج أبو ليلى، فأخذ سيفاً من تحت رأس شفيع وضربه حتى برد، ووثب الغلمان الذين كانوا حوله نيام فزعين فاعتزلهم أبو ليلى والسيف في يده وقال لهم: أنا أبو ليلى، وقد قتلت شفيعاً، ولئن تقدم إليّ واحد منكم لأقتلنه، وأنتم آمنون فأجمعوا من في هذه الدار أُكلمهم بما أريد، ففتحوا باب القلعة واجتمع كل من كان في القلعة، فكلمهم ووعدهم بالإحسان وأخذ عليهم الأيمان.

فلما أصبح نزل ووجه إلى الأكراد، وأرباب الروم فجمعهم، وفرق فيهم مالاً، وخرج مخالفاً على السلطان.

ثم مضى إلى أصبهان فواقعه على النوشري فأصاب أبا ليلى سهم في حلقه فنحره فسقط إلى الأرض، وانهزم أصحابه فحمل إلى أصبهان[١].

(١) ذكر ابن الأثير هذا الخبر بنحو مما هنا وزاد في آخره: وحمل رأسه إلى أصبهان، ثم إلى بغداد.
ثم ذكر ابن الأثير عدة من حوادث تلك السنة، فقال:
وفي هذه السنة: كانت فتنة بطرسوس بين راغب مولى الموفق وبين دميانة.
وكان سبب ذلك أن راغباً مولى الموفق ترك الدعاء لهارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، ودعا لبدر مولى المعتضد، واختلف هو وأحمد بن طوغان.
فلما انصرف أحمد بن طوغان من الفداء الذي كان سنة ثلاث وثمانين ركب البحر ومضى ولم يدخل طرسوس، وخلف دميانة للقيام بأمرها.
وأمده ابن طوغان فقوي بذلك، وأنكر ما كان يفعله راغب، فوقعت الفتنة، فظفر بهم راغب، فحمل دميانة إلى بغداد.
وفيها في ربيع الأول: قلّد أبو عمر يوسف بن يعقوب القضاء بمدينة المنصور مكان علي بن محمد بن أبي الشوارب.
وفيها: أخذ خادم نصراني لغالب النصراني، وشهد عليه أنه شتم النبي ﷺ، فاجتمع أهل بغداد، وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله، وطالبوه بإقامة الحدّ عليه، فلم يفعل، فاجتمعوا =

....

= على ذلك إلى دار المعتضد فسُئِلُوا عن حالهم فذكروه للمعتضد فأرسل معهم إلى القاضي أبي عمر، فكادوا يقتلونه من كثرة ازدحامهم فدخل باباً وأغلقه ولم يكن بعد ذلك للخادم ذكر، ولا للعامة ذكر اجتماع في أمره.
وفيها: قدم قوم من أهل طرسوس على المعتضد يسألونه أن يولي عليهم والياً وكانوا قد أخرجوا عامل ابن طولون فسيَّر إليهم المعتضد بن الإخشيد أميراً.
وفيها في ربيع الآخر: ظهرت بمصر ظُلْمة وحُمْرة في السماء شديدة حتى كان الرجل ينظر إلى وجه الآخر فيراه أحمر وكذلك الحيطان فمكثوا كذلك من العصر إلى العشاء الآخرة، وخرج الناس من منازلهم يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه.
وفيها: فتحت قرة من بلد الروم على يد راغب مولى الموفق، وابن كلوب في رجب.
وفيها في شعبان: ظهر بدار المعتضد إنسان بيده سيف، فمضى إليه بعض الخدم لينظر ما هو، فضربه بالسيف فجرحه، وهرب الخادم، ودخل الشخص في زرع في البستان، فتوارى فيه، فطُلب باقي ليلته ومن الغد، فلم يعرف له خبر.
فاستوحش المعتضد وكثر الناس في أمره بالظنون حتى قالوا له: إنه من الجن.
وظهر مراراً كثيرة حتى وكَّلَ المعتضد بسور داره وأحكمه ضبطاً، ثم أحضر المجانين والمعزمين بسبب ذلك الشخص، فسألهم عنه.
فقال المعزمون: نحن نُعَزِّم على بعض المجانين، فإذا سقط سُئل الجِنّي عنه، فأخبر خبره.
فَعَزَّموا على امرأة مجنونة فصرعت، والمعتضد ينظر إليهم، فلما صُرعت أمرهم بالانصراف.
وفيها: وجه كرامة بن مر من الكوفة بقوم مقيدين ذكر أنهم من القرامطة، فقُرروا بالضرب، فأقروا على أبي هاشم بن صدقة الكاتب أنه منهم، فقبض عليه وحبسه.
وفيها: كان المنجمون يوعدون بغرق أكثر الأقاليم إلاّ إقليم بابل، فإنه يسلم منه اليسير، وأن ذلك يكون بكثرة الأمطار، وزيادة الأنهار، والعيون.
فقحط الناس وقلّت الأمطار، وغارت المياه، حتى احتاج الناس إلى الاستسقاء، فاستسقوا في بغداد مرات.
وفيها: ظهر اختلال حال هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون بمصر، واختلفت القواد وطمعوا، فانحل النظام، وتفرقت الكلمة، ثم اتفقوا على أن جعلوا مدبر دولته أبا جعفر بن أبان، وكان عند والده وجده مقدماً كبير القدر.
فأصلح من الأحوال ما استطاع، وكم جهد الصناع إذا اتسع الخرق.
وكان من بدمشق من الجند قد خالفوا على أخيه جيش كما ذكرنا.
فلما تولى أبو جعفر الأمور سَيّر جيشاً إلى دمشق، عليهم بدر الجمالي، والحسين بن أحمد الماردانى، فأصلحا حالها، وقرّرا أمور الشام، واستعملا على دمشق طغج بن جف، واستعملا على سائر الأعمال، ورجعا إلى مصر والأمور فيها اختلال، والقواد قد استولى كل واحد منهم على طائفة من الجند، وأخذهم إليه.
وهكذا يكون انتقاض الدول، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد لحكمه وهو سريع الحساب.
وحج بالناس هذه السنة: محمد بن عبد الله بن داود بن الهاشمي المعروف بـ: أترجه.
وفيها: توفي إسحاق بن موسى بن عمران أبو يعقوب الإسفرائيني الفقيه الشافعي.
والعتابي واسمه: عبد العزيز بن معاوية من ولد عتاب بن أَسِيد بفتح الهمزة وكسر السين.
وفيها أيضاً: توفي أبو عبد الله محمد بن الوضاح بن ربيع الأندلسي، وكان من العلماء المشهورين.

ودخلت سنة خمس وثمانين ومائتين

وفيها: خرج صالح بن مدرك على الحاج وجماعة من طيء بالأجْفُر[١] في المحرم. فحاربه الجني وكان أمير القافلة، فهزمه الأعراب وظفروا بالقافلة، فأخذوا جميع ما فيها، وأخذوا جماعة من النساء الحرائر[٢].

وبلغ قيمة ما أخذوا من الناس ألفي ألف دينار.

وحمل رأس أبو ليلى المقتول بأصبهان إلى بغداد.

فاستوهبه أخوه عمر من المعتضد، فوهبه له، فدفنه.

وخلع على ابن عمر في هذا اليوم.

وفيها: ورد الخبر بوفاة محمد بن عيسى ابن الشيخ، وقام ابنه محمد بن محمد بن عيسى بما كان في يد أبيه[٣] بآمد على سبيل التغلب، فخرج إليه المعتضد قاصداً لحربه[٤].

وفيها: وجه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ومعه رسلاً إلى المعتضد يلتمسون مقاطعتهم على ما في أيديهم من مصر والشام يسألونه إجراء هارون على ما كان يجري عليه مراتبه.

فرد المعتضد رُسله مع رسُول بمشافهات وشروط[٥].

---

(١) في المخطوط: الأحف. وهو تحريف، والتصويب من الكامل.
والأجْفُرَ بضم الفاء: جمع جَفر، وهو البئر الواسعة لم تُطْوَ.
وهو موضع بين فَيد والخزيمة، بينه وبين فيد ستة وثلاثون فرسخاً نحو مكة.
وقال الزمخشري: الأجفر: ماء لبني يربوع انتزعته منهم بنو جذيمة.

(٢) في الكامل: من النساء الجواري، والمماليك.
وأشار محقق الكامل إلى أنه في الطبري: جماعة من النساء الحرائر والمماليك.

(٣) في المخطوط: ابنه، وهو تحريف ظاهر.

(٤) وزاد ابن الأثير في الخبر فقال:
فسار المعتضد إلى آمد بالعساكر ومعه ابنه أبو محمد على المكتفي في ذي الحجة وجعل طريقه على الموصل، فوصل آمد وحصرها إلى ربيع الآخر من سنة ست وثمانين ومائتين، ونصب عليها المنجانيق.
فأرسل محمد بن أحمد بن عيسى يطلب الأمان لنفسه ولمن معه ولأهل البلد، فأمَّنهم المعتضد، فخرج إليه وسلَّم البلد.
فخلع عليه المعتضد، وأكرمه، وهدم سورها ثم بلغه أن محمد ابن الشيخ يريد الهرب فقبض عليه وعلى ماله.

(٥) في الكامل بنحو ماهنا، وذكر ابن الأثير غير ذلك من الحوادث في هذه السنة فقال:
وفيها: ولي عمرو بن الليث ما وراء النهر، وعزل إسماعيل بن أحمد. =

ودخلت سنة ست وثمانين ومائتين

وفيها: وجه محمد بن أبي الساج ابنه المعروف بأبي المسافر إلى بغداد رهينة بما ضمن له من الطاعة والمناصحة.

وقدم في المحرم منها ومعه هدايا، والمعتضد غائب.

وكان المعتضد في السنة المتقدمة قد حمل إليه الخلع وكتب الولاية على ما كان تغلب عليه من بلاد أذربيجان[(١)]

وفيها: وصل المعتضد إلى آمد، فأناخ بجنده عليها.

وأغلق محمد بن أحمد ابن شيخ أبواب آمد على من فيها من أشياعه.

ففرق المعتضد جيوشه حولها وحاصرهم وذلك لأيام بقيت من شهر ربيع الأول ثم جرت بينهم حروب، ونصب أهل آمد على سورهم المجانيق وتراصوا بها.

وفي يوم السبت لإحدى عشر بقيت من جمادى الأولى: توجه محمد بن أحمد بن شيخ في هذا اليوم ومن معه من أصحابه وأوليائه، فوصلوا إلى المعتضد، فخلع عليه وعلى رؤساء أصحابه، وانصرفوا إلى مضرب قد أعدّ لهم. وتحوّل المعتضد من عسكره إلى منازل ابن عيسى ابن الشيخ ودوره.

وكتب بذلك كتاباً إلى مدينة السلام، ووردت كتب هارون بن خمارويه ببدل

= وفيها: كان بالكوفة ريح صفراء، فبقيت إلى المغرب، ثم اسودت، فتضرع الناس، ثم مطروا مطراً شديداً برعود هائلة، وبروق متصلة، ثم سقط بعد ساعة بقرية تعرف بأحمد أباذ ونواحيها أحجار بيض وسود مختلفة الألوان في أوساطها طبق، وحمل منها إلى بغداد فرآه الناس.

وفيها: كان بالبصرة ريح صفراء، ثم عادت خضراء، ثم سوداء، ثم تتابعت الأمطار بما لم يُر مثله، ثم وقع برد كبار وزن البَرَدَة مائة وخمسون درهماً فيما قيل.

وفيها: مات الخليل بن رمال بحلوان.

وفيها: ولى المعتضد محمد بن أبي الساج أعمال أذربيجان، وأرمينية، وكان قد تغلّب عليها، وخالف، وبعث إليه بخلع.

وفيها: غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة، فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها، وأحرق المراكب، وفتح حصوناً كثيرة، وعاد سالماً ومن معه.

وفيها: غزا الأخشيد بأهل طرسوس ففتح الله على يديه، وبلغ إسكندرون.

وحج بالناس: محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي.

وفيها: توفي إبراهيم بن إسحاق الحربي ببغداد، وهو من أعيان المحدثين.

وإسحاق بن إبراهيم الدَّبَري صاحب عبد الرزاق بصنعاء، وهو آخر من روى عن عبد الرزاق.

وفيها: توفي أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي اليماني الخوي المعروف بـ: المبرد، وكان قد أخذ النحو عن أبي عثمان المازني.

(١) ورد الخبر في الكامل مختصراً عما هنا.

أعمال قنسرين وبالعواصم ويحمل إلى بيت المال بمدينة السلام في كل سنة أربعمائة وخمسين ألف دينار. فسأل أن يجدد له ولاية مصر والشام، وأن يوجه المعتضد بخادم من خدمه إليه بذلك.

فأجابه إلى ما سأل وسلم المعتضد أعمال قنسرين والعواصم من أصحاب هارون، وارتحل نحو الرّقة، وخلف ابنه عليًا[(١)] بآمد مع جيوش ضمهم إليه ليضبط الناحية، وأعمال قنسرين، والعواصم، وديار ربيعة، ومصر.

وكان كاتب علي بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصراني[(٢)].

وأمر المعتضد بهدم سور له فهدم.

وفيها: وافت هدية عمرو بن الليث من نيسابور، فكان مبلغ ما أنفذه أربعة آلاف ألف درهم، وعشرين من الدواب بالسروج واللجم المغرقة بالجلال المشهرة وكسوة وطيب بزادة[(٣)].

وفيها: ظهر أبو سعيد الجنابي بالبحرين على مذهب القرامطة، فاجتمع إليه القرامطة والأعراب، فقوي أمره، وكثر عبثه، وظهر أنه يريد البصرة. وكتب عامل البصرة إلى المعتضد بذلك. فكتب إليه بعمل سور على البصرة مقدرة النفقة عليه أربعة عشر ألف دينار، وأمر ببنائه، فبُني[(٤)]

---

(١) في الكامل: عليًا المكتفي.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل: فكان ينظر في الأموال، فقال الخليع في ذلك:

حسين بن عمرو وعدو القرآ	ن يصنع في العرب ما يصنع
يقوم لهيبته المسلمو	ن صفوفاً لفرد إذا يطلع
فإن قيل قد أقبل الجاثليـ	ق يحفّى له ومشى يظلع

(٣) لم أعرف معنى هذه الكلمة والخبر لم يرد في الكامل.

(٤) زاد ابن الأثير في هذا الخبر بعد أن ذكره على نحو مما هنا بأن قال:
وكان ابتداء أمر القرامطة بناحية البحرين أن رجلاً يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان مولى الزيديين، وكان يغالي في التشيع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين ومائتين.
وذكر أنه خرج إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره، وأن ظهوره قد قرب.
فوجه علي بن المعلى إلى الشيعية من أهل القطيف، فجمعهم، وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي إليهم من المهدي.
فأجابوه، وأنهم خارجون معه إذا ظهر أمره.
فوجه إلى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه.
وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي، وكان يبيع للناس الطعام، ويحسب لهم بيعهم، ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدّة، ثم رجع ومعه كتاب يزعم أنه من المهدي إلى شيعته فيه:
قد عرفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليه كل رجل منهم ستة دنانير وثلاثين، ففعلوا ذلك. =

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائتين

وفيها: غلظ أمر القرامطة بالبحرين، وأغاروا على نواحي هجر، وقرب بعضهم من نواحي البصرة.

وولي المعتضد العباس بن عمرو الغنوي اليمامة والبحرين، ومحاربة أبي سعيد الجنابي والقرامطة، وضم إليه زهاء ألفي رجل.

فشخص العباس إلى البصرة، ومنها إلى البحرين واليمامة[١].

= ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب فيه: أن ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم، فدفعوا إليه الخمس.
وكان يحيى يتردد في قبائل قيس ويورد إليهم كتباً يزعم أنها من المهدي، وأنه ظاهر، فكونوا على أهبة.
وحكى إنسان منهم يقال له إبراهيم الصائغ:
أنه كان عند أبي سعيد الجنابي، وأتاه يحيى، فأكلوا طعاماً.
فلما فرغوا خرج أبو سعيد من بيته وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى، وأن لا تمنعه إن أراد.
فانتهى هذا الخبر إلى الوالي، فأخذ يحيى وضربه، وحلق رأسه ولحيته.
وهرب أبو سعيد الجنابي إلى جنابة.
وسار يحيى بن المهدي إلى بني كلاب وعقيل والجريس.
فاجتمعوا معه، ومع أبي سعيد، فعظم أمر أبي سعيد.
ومما ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة أن قال:
وفيها: توفي ابن الأخشيد أمير طرسوس واستخلف أبا ثابت على طرسوس.
وفيها: سار إلى الأنبار جماعة أعراب من بني شيبان، وأغاروا على القرى، وقتلوا من لحقوا من الناس، وأخذوا المواشي.
فخرج إليهم أحمد بن محمد بن كمشجور متوليهم، فلم يطقهم.
فكتب إلى المعتضد بذلك، فأمده بجيش فأدركوا الأعراب وقتلوهم.
فهزمهم الأعراب، وقتلوا فيهم، وغرق أكثرهم وتفرقوا، وعاث الأعراب في تلك الناحية، وبلغ خبر الهزيمة إلى المعتضد فسير جيشاً آخر، فرحل الأعراب إلى عين التمر، فأفسدوا وعاثوا وذلك في شعبان ورمضان.
فوجه إليهم عسكراً آخر إلى عين التمر وسرقوا البرية إلى نواحي الشام. فعاد العسكر إلى بغداد ولم يلقهم.
وفيها: استدعى المعتضد راغباً مولى الموفق من طرسوس، فقدم عليه وهو بالرقة فحبسه، وأخذ جميع ما كان له، فمات بعد أيام من حبسه، وكان ذلك في شعبان.
وقُبض على بكنون غلام راغب، وأخذ ماله بطرسوس.
وفيها: قلد المعتضد ديوان المشرق محمد بن داود بن الجراح، وعزل عنه أحمد بن محمد بن الفرات.
وقلّد ديوان المغرب علي بن عيسى بن داود بن الجراح.
وفيها: توفي أبو جعفر محمد بن إبراهيم الأنماطي، المعروف بالمربع صاحب يحيى بن معين، وكان حافظاً للحديث. ومحمد بن يوسف الكريمي البصري.

(١) هذا كل ما ذكره المؤلف في هذا الشأن، وقال ابن الأثير في هذا الخبر في الكامل ما يلي: =

وفيها[١]: ورد الخبر على المعتضد بأن إسماعيل بن أحمد أسر عمرو الصفَّار [١٣٤/أ] واستباح عسكره.

= وفي هذه السنة في ربيع الآخر: عظم أمر القرامطة بالبحرين، وأغاروا على نواحي هجر وقرب بعضهم من نواحي البصرة.
فكتب أحمد الواثقي يسأل المدد، فسير إليه سميريات فيها ثلاثمائة رجل، وأمر المعتضد باختيار رجل ينفذه إلى البصرة.
وعزل العباس بن عمرو الغنوي عن بلاد فارس، وأقطعه اليمامة والبحرين، وأمره بمحاربة القرامطة، وضم إليه زهاء ألفي رجل.
فسار إلى البصرة، واجتمع إليه جمع كثير من المتطوعة والجند والخدم.
ثم سار منها إلى أبي سعيد الجنابي فلقوه مساء، وتناوشوا القتال، وحجز بينهم الليل.
فلما كان الليل انصرف عن العباس من كان معه من أعراب بني ضبة، وكانوا ثلاثمائة إلى البصرة، وتبعهم متطوعة البصرة.
فلما أصبح العباس باكر الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم حمل نجاح غلام أحمد بن عيسى ابن الشيخ من ميسرة العباس في مائة رجل على ميمنة أبي سعيد، فوغلوا فيهم فقتلوا عن آخرهم.
وحمل الجنابي ومن معه على أصحاب العباس فانهزموا، وأسر العباس، واحتوى الجنابي على ما كان في عسكره.
فلما كان من الغد أحضر الجنابي الأسرى فقتلهم جميعاً وحرقهم.
وكانت الوقعة آخر شعبان.
ثم سار الجنابي إلى هجر بعد الوقعة، فدخلها وأمَّن أهلها.
وانصرف من سَلِم من المنهزمين وهم قليل إلى البصرة بغير زاد، فخرج إليهم من البصرة نحو أربعمائة رجل على الرواحل، ومعهم الطعام والكسوة والماء، فلقوا بها المنهزمين. فخرج عليهم بنو أسد، وأخذوا الرواحل وما عليها، وقتلوا من سَلِم من المعركة، فأضربت البصرة لذلك.
وعزم أهلها على الانتقال منها، فمنعهم الواثقي وبقي العباس عند الجنابي أياماً، ثم أطلقه، وقال له: امض إلى صاحبك وعرِّفه ما رأيت، وحمله على رواحل، فوصل إلى بعض السواحل وركب البحر فوافى الأبلة، ثم سار منها إلى بغداد، فوصلها في رمضان.
فدخل على المعتضد، فخلع عليه.
بلغني أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال: عجائب الدنيا ثلاث:
جيش العباس بن عمرو يؤسر وحده وينجو وحده، ويقتل جميع جيشه.
وجيش عمرو بن الصفار يؤسر وحده ويَسْلَم جميع جيشه.
وأنا أنزل في بيتي وتولّى ابني أبو العباس الجسرين ببغداد.
ولما أطلق أبو سعيد العباس أعطاه درجاً ملصقاً، وقال له: أوصله إلى المعتضد، فإن لي فيه أسرار.
فلما دخل العباس على المعتضد عاتبه المعتضد، فأوصل إليه العباس الكتاب، فقال: والله ليس فيه شيء، وإنما أراد أن يعلمني إن أنفذتك إليه في العدد الكثير فردك فرداً.
ففتح الكتاب، وإذ ليس فيه شيء.
وفيها في ذي القعدة: أوقع بدر غلام الطائي بالقرامطة على غرة منهم بنواحي ميسان وغيرها وقتل منهم مقتلة، ثم تركهم خوفاً أن تخرب السواد وكانوا فلاحيه.
وطلب رؤساءهم، وقتل من ظفر به منهم.

(١) في الكامل: في ربيع الأول.

ذكر الخبر عن ذلك

كان عمرو سأل المعتضد أن يولّيه ما وراء النهر(١)، فولاّه ذلك، ووجهه إليه(٢) وهو بنيسابور بالخلع واللواء.

فخرج عمرو لمحاربة إسماعيل بن أحمد فكتب إليه إسماعيل:

إنك قد وليت دنيا عريضة، وإنما في يدي ما وراء النهر وأنا في [ثغر، فاقنع بما في] يدك [ثغر، فاقنع بما في](٣) يدك واتركني بهذا الثغر. فأبى.

فذكر لعمرو، وأصحابه شدة العبور بنهر بلخ(٤)، فقال:

لو شئت أن أُسكره ببدر الأموال وأعبره لفعلت.

فلما يئس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من الجند والبُنَّاء والدهاقين، وعبر النهر إلى الجانب الغربي.

وجاء عمرو، ونزل بلخ، وأخذ إسماعيل عليه النواحي، فصار كالمحاصر، وندم على ما فعل وطلب المحاجزة، فأتى إسماعيل عليه [وأتاه(٥) من] النواحي فلم يكن بينهما كثير قتال حتى هزم عمرو فولّى هارباً.

ومَرَّ بأجمة في طريقه قيل له: إنها أقرب [الطرق](٦).

فقال لعامة من معه: امضوا في الطريق الواضح.

ومضى في نفر يسير، فدخل الأجمة فوحلت(٧) دابته ولم يكن له في نفسه حيلة، ومضى من معه، ولم يلووا عليه، وجاء أصحاب إسماعيل وأخذوه أسيراً.

---

(١) في الكامل: أن عمراً أرسل إلى المعتضد برأس رافع بن هرثمة وطلب منه أن يولّيه ما وراء النهر.

(٢) في الكامل: ووجهه لمحاربة إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر، ومحمد بن بشير وكان خليفته وحاجبه وأخص أصحابه بخدمته وأكبرهم عنده وغيره من قواده إلى آمل.
فعبر إليهم إسماعيل جيحون، فحاربهم فهزمهم، وقتل محمد بن بشير في نحو ستة آلاف رجل، وبلغ المنهزمون إلى عمرو ـ وهو بنيسابور ـ وعاد إسماعيل إلى بخارى، فتجهز عمرو لقصد إسماعيل، فأشار إليه أصحابه بإنفاذ الجيوش ولا يخاطر بنفسه، فلم يقبل منهم، وسار عن نيسابور نحو بلخ، فأرسل إليه إسماعيل: إنك قد وليت دنيا عريضة...

(٣) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأثبته من الكامل.

(٤) العبارة في المخطوط على النحو التالي: فأجابته، فذكر أنه لم يلخ وشدة عبوره. والتصويب من الكامل.

(٥) زيادة يتطلبها السياق.

(٦) زيادة من الكامل وسقطت من المخطوط.

(٧) وحلت: أي غرست قوائمها في الطين فلم تستطع أن تخلصها فثبتت مكانها لا تتقدم ولا تتأخر.

وبلغ المعتضد(١) خبرهما فمدح إسماعيل وذم عمراً(٢).

وفيها: ورد الخبر على المعتضد بأن وصيفاً خادم أبي الساج هرب من برذعة ومضى إلى ملطية مراغماً لمحمد بن أبي السّاج في أصحابه وكتب إلى المعتضد يأمره بأن يسير إليه، فتباطأ، وكان يسأله بحضرة المعتضد، فذكر أن المعتضد أمره بتقرير الرسل ليخبروه عن السبب الذي من أجله فارق وصيف صاحب ابن أبي الساج وقصد

---

(١) في المخطوط: المعتمد. وهو تحريف.

(٢) ثم أتم ابن الأثير هذا الخبر فقال:

ثم إن إسماعيل خيّر عمرو بين مقامه عنده، أو إنفاذه إلى المعتضد.

فاختار المقام عند المعتضد، فسيّره إليه، فوصل إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائتين. فلما وصل ركب على جمل وأدخل بغداد، ثم حبس، فبقي محبوساً حتى قتل سنة تسع وثمانين على ما نذكره.

وأرسل المعتضد إلى إسماعيل بالخلع، وولاه مكان بيد عمرو، وخلع على نائبه بالحضرة المعروب بالمرزوباني.

واستولى إسماعيل على خراسان وصارت بيده.

وكان عمرو أعور شديد السُمرة عظيم السياسة قد منع أصحابه، وقواده أن يضرب أحد منهم غلاماً إلاّ بأمر، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه، أو أحد حجابه. وكان يشتري المماليك الصغار ويربيهم ويهبهم لقواده، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سراً ليطالعوه بأحوال قواده، ولا ينكتم عنه من أخبارهم عنهم، فكان أحدهم يحذره وهو وحده.

حكي عنه أنه كان له عامل بفارس يقال له أبو حصين فسخط عليه عمرو، وألزمه أن يبيع أملاكه، ويوصل ثمنها إليه، ففعل ذلك.

ثم طلب منه مائة ألف درهم، فإن أداها في ثلاثة أيام وإلاّ قتله.

فلم يقدر على شيء منها، فأرسل إلى أبي سعيد الكاتب يطلب منه أن يجتمع به فأذن له، فاجتمع به وعرّفه ضيق يده فسأله أن يضمنه فيخرج من محبسه ويسعى في تحصيل المبلغ المطلوب منه، ففعل.

وأخرجه، فلم يفتح عليه بشيء، فعاد إلى أبي سعيد الكاتب، فبلغ خبره عمراً فقال: واللّه ما أدري من أيهما أعجب، من أبي سعيد فيما فعل من بذل مائة ألف درهم أم من أبي حصين كيف عاد وقد علم أنه القتل؟ ثم أمر بإطلاق ما عليه، ورده إلى منزلته.

وحكي عنه أنه كان يحمل أحمالاً كثيرة من الجرب، ولم يعل أحد ما مراده، فاتفق في بعض السنين، أنه قصد طائفة من العصاة عليه للإيقاع بهم، فسلك طريقاً لا تظن العصاة عليه أنهم يؤتون منه.

وكان في طريقه وادٍ، فأمر بتلك الجرب فملئت تراباً وأحجاراً ونضد بعضها إلى بعض وجعلها طريقاً في الوادي، فعبر أصحابه عليها، وأتاهم وهم آمنون فأثخن فيهم وبلغ منهم ما أراد.

وحكي أيضاً أن أكبر حجّابه كان اسمه محمد بن بشير، وكان يخلفه في كثير من أموره العظام، فدخل عليه يوماً، وأخذ يعدده عليه ذنوبه، فحلف محمد باللّه. وبالطلاق والعتق أنه لا يملك إلاّ خمسين بدرة، وهو يحملها إلى الخزانة ولا يجعل له ذنباً لم يعلمه.

فقال عمرو: ما أعقلك من رجل أحملها إلى الخزانة.

فحملها فرضي عنه.

وما أقبح هذا الفعل وشره إلى أموال من أذهب عمره في خدمته.

الثغور؟ فأقروا بالضرب، وذكروا: أنه فارقه على مواطأة بينه وبين صاحبه على أنه إن استقر في موضعه الذي هو فيه لحق به صاحبه فسارا جميعاً إلى مضر[١] وتغلّبا عليها. وشاع ذلك في الناس، وتحدثوا به[٢].

وفيها: ولي حامد بن العباس أعمال فارس: الخراج، والضياع، وكانت في يد العباس بن عمرو الغنوي[٣].

وفيها: خرج العباس بن عمرو الغنوي عن البصرة، ثم ضم إليه من الجند مع من خفّ معه من مطوعة البصرة نحو أبي سعيد فلقيتهم طلائع أبي سعيد.

فخلّف العباس سواده، وسار نحوهم، فلقي أبا سعيد وأصحابه مساء فتناوشوا، ثم حجز الليل بينهم، فانصرف كل فريق منهم إلى موضعه.

فلما جنّ الليل انصرف من كان مع العباس من الأعراب والمطوعة، وأصبح العباس، فغادا القرامطة الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم إن صاحب ميسرة العباس حمل [في][٤] زهاء مائة من أصحابه على ميمنة أبي سعيد فوغلوا فيهم، فقتل هو وجميع من معه.

وحمل الجنابي وأصحابه على العباس، فانهزم أصحابه، واستأسر العباس، وأسر من أصحابه زهاء سبعمائة رجل.

---

(١) في المخطوط: مصر، بالصاد المهملة، وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٢) ثم أكمل ابن الأثير الخبر، فقال:

فسار المعتضد نحوه، فنزل العين السوداء، وأراد الرحيل في طريق المصيصية، فأتته العيون، فأخبروه: أن وصيفاً يريد عين زربة.

فسأل أهل المعرفة بذلك الطريق، وسألهم عن أقرب الطرق إلى لقاء وصيف، فأخذوه وساروا به نحوه.

وقدم جمعاً من عسكره بين يديه فلقوا وصيفاً فقاتلوه، وأخذوه أسيراً، فأحضروه عند المعتضد فحبسه، فأمر ونودي في أصحاب وصيف بالأمان، وأمر العسكر برد ما نهبوه منهم، ففعلوا ذلك وكانت الوقعة لثلاث عشرة بقيت من ذي القعدة.

فلما فرغ منه رحل إلى المصيصية، وأحضر رؤساء طرسوس، فقبض عليهم لأنهم كاتبوا وصيفاً، وأمر بإحراق مراكب طرسوس التي كانوا يغزون فيها، وجميع آلاتها. وكان من جملتها نحو من خمسين مركباً قديمة قد أنفق عليها من الأموال ما لا يحصى ولا يمكن عمل مثلها، فأضر ذلك بالمسلمين وفت في أعضادهم، وأمر الروم أن يغزوا في البحر، وكان إحراقها بإشارة دميانة غلام بازمار لشيء كان في نفسه على أهل طرسوس.

واستعمل على أهل الثغور الحسن بن علي كوره. وسار المعتضد إلى أنطاكية وحلب وغيرهما وعاد إلى بغداد.

(٣) هذا الخبر لم يرد في الكامل في التاريخ لابن الأثير في هذه السنة.

(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق، والخر سبق أن ذكرته بالهامش في أول أحداث تلك السنة.

واحتوى الجنابي على ما في عسكر العباس، فلما كان الغد من يوم الوقعة، أحضر الجنابي من أُسر من أصحاب العباس فقتلهم جميعاً، ثم أمر بحطب فطرح عليهم وأحرقهم.

وسار الجنابي إلى هجر وأمَّن أهلها، وانصرف فلّ العباس يريدون البصرة، ولم يكن أفلت منهم إلاّ القليل بغير زاد، فخرج عليهم جماعة من البصرة بنحو من أربعمائة راحلة عليها الأطعمة، والكسي، والماء، فخرج عليهم بنو أسد، فأخذوا تلك الرواحل بما عليها، وقتلوا جماعة من كان مع تلك الرواحل ممن أفلت من أصحاب العباس بن عمرو، فاضطربت البصرة لذلك اضطراباً شديداً، وهموا بأن ينتفعوا عنها، وخافوا هجوم القرامطة عليهم.

ثم وردت على السلطان خريطة من الأبلة بموافاة العباس بن عمرو في مركب من مراكب البحر، وأن أبا سعيد أطلقه وخادماً له.

ثم ورد العباس بن عمرو مدينة السلام، وسار إلى دار المعتضد بالثريا.

فذكر أنه بقي عند الجنابي أياماً بعد الوقعة، ثم دعا به، فقال: أتحب أن أطلقك؟

قال: نعم.

قال: امض وعرّف الذي وجه بك ما رأيت، وحمله على رواحل، وضم إليه قوماً من أصحابه، وحملهم ما يحتاجون إليه من الزاد والماء، وأمر الرجال الذين وجههم معه أن يؤدوه إلى مأمنه، فساروا به إلى بعض رواحل البحر، فصادف به مركباً فحمله حتى سار إلى الأبلة، فخلع عليه المعتضد وصرفه إلى منزله. فتحدث القاضي أبو الحسين محمد بن عبد الواحد الهاشمي قال: سمعت العباس بن عمرو الغنوي يقول:

لما أسرني أبو سعيد الجنابي القرمطي، وكسر العسكر الذي كان أنفذه المعتضد لقتاله، وحصلت أسيراً في يده يئست من النجاة فإني يوماً على ذلك إذ جاءني رسوله فأخذ قيودي وغيَّر ثيابي وأدخلني إليه، فسلمت وجلست.

فقال: أتدري لما استدعيتك؟

قلت: لا.

قال: أنت رجل عربي، ومن المحال أني أستودعك أمانة نحو هؤلاء ولا سيما مع مَنّي عليك بنفسك.

قلت: هو كذلك.

قال: إني نظرت في قتلك، فلم أر فيه طائلاً، وفي نفسي رسالة إلى المعتضد، ولا يجوز أن يؤديها غيرك، فرأيت إطلاقك وتحميلك إياها، فإن حلفت أن تؤديها سيرتك إليه.

فحلفت له.

فقال: تقول للمعتضد؛ يا هذا لِمَ تخرق هيبتك، وتقتل رجالك، وتطع أعداءك في نفسك بإنفاذ الجيوش إليّ، وإنما أنا رجل في فلاةٍ، لا زرع عندي ولا ضرع، ولا لي بلد، وقد رضيت بخشونة العيش، والأنف على المعتد الغرّ [١٣٤/ب] بأطراف الرماح، وانظر فإني ما اعتصبتك بلداً كان في يدك ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل، ومع هذا فواللّه لو أنفذت إليّ جيشك كله ما جاز أن تظفر بي ولا تنالني، لأني رجل نشأت في هذا القشف فتعوته أنا ورجالي، فلا مشقة علينا فيه ونحن في أوطاننا مستريحون، وأنت تنفذ جيشك من الثلج والجيوش والرياحين والند، ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق تتلف، وقد قتلهم السفر قبل قتالنا، وإنما غرضهم أن يبلوا عذراً في قتالنا ومواقعتنا ساعة ثم يهربون، فإن خفقوا مع ما لحقهم من وعثاء السفر وشدة الجهد كان ذلك أكبر أعواني عليهم، فما هو إلاّ أن حققت عليهم حتى ينهزموا، وأكثر ما يقدرون أن يجثوا مستريحين، ثم تكون عدتهم كثيرة، وبصيرتهم قوية، فحينئذ لا يكون لي بهم قِبَل فانهزم فلا يقدر جيشك أن يتبعوني إلاّ مسافة قريبة، فما هو إلاّ أن أبعد عشرين فرسخاً أو ثلاثين وأجول في الصحراء شهراً أو شهرين، ثم أكبسهم على غرة حتى أقتل جمعهم، وإن لم يتم لي هذا وكانوا متحوزين فما يمكنهم، إن حولي البراري، ولا ينبغي الطلب في البراري، ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد إن كانوا كثيرين، ولا بد أن ينصرف الجمهور ويبقى الأقل قتلى تستوفي في أول يوم نلتقي فيه، هذا إن سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها وهوائها الذي نشأ وافى غيره وضدّه.

ففكر في هذا ونحوه، فانظر هل يفيء بعثك وتغريرك بعسكرك وجيشك وإنفاقك الأموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الأخطار بطلبي، وأنا مع هذا خالي الزرع منها سليم النفس والأصحاب من جميعها، فأما هيبتك فتخرق، وأما الأطراف فتنتقض وأما الملوك من الأعداء فتتجاسر، ثم لا تظفر من بلدي بطائل، ولا تصل مني إلى حال أو مال فإن اخترت بعدها محاربتي، فأقدم على بصيرة، وأنفذ من شئت، واضطرب كيف أحببت، وإن أمسكت فذلك إليك. قال: ثم جهزني، وأنفذ معي عشرة من أصحابه إلى الكوفة، فسرت منها إلى الحضرة، ودخلت على المعتضد، فتعجب من سلامتي، وسألني عن خبري سؤالاً خفياً.

فقلت: أخبرك يا أمير المؤمنين سراً بشوق إليه، وخلاني، فلم أزل أقصّ عليه الخبر وهو يتمعظ غيظاً حتى ظننت أنه سيسير إليه بنفسه، وخرجت من بين يديه، فما رأيته بعد ذلك ذكره بحرف[1].

---

(١) كانت في رسالة الجنابي حقيقة عسكرية صريحة وناجحة وهزيمة محققة للمعتضد، وكان في سلوك المعتضد حكمة وسياسة ذات فراسة.

وفيها: ورد الخبر على السلطان بأن محمد بن زيد العلوي[١] قتل.

ذكر مقتله

ذكر أن محمد بن زيد العلوي لما اتصل به أسر إسماعيل بن أحمد عمرو بن الليث خرج في جيش كثيف نحو خراسان طامعاً فيها ظناً منه أن إسماعيل لا يتجاوز عمله الذي كان يتولاه، وأنه لو دافع له عن خراسان إذ كان عمرو قد أسر ولا عامل للسلطان بها.

فلما سار إلى جرجان واستقر بها كتب يسأله الرجوع إلى طبرستان، وترك جرجان. فأبى ذلك محمد بن زيد، فبدر إسماعيل له محمد بن هارون خليفة كان لرافع، وضم إليه جيشاً كثيفاً.

فشخص نحو ابن زيد، فالتقيا على جرجان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر محمد بن هارون.

ثم رجع محمد بن بكر وقد انتقضت صفوف العلوي، فانهزم عسكر محمد بن زيد، وقتل منهم بشر كثير، وأصابت محمد بن زيد، وأصابت محمد بن زيد ضربات، وأُسر ابنه زيد، وحوى محمد بن هارون وعسكره. ثم مات زيد من تلك الضربات، وحمل ابنه إلى إسماعيل.

ودخل محمد بن هارون جرجان، ثم شخص إلى طبرستان[٢].

---

(١) في الكامل: صاحب طبرستان، والدَّيلم.

(٢) وتوسع ابن الأثير في هذا الخبر أكثر مما هنا فقال:
ثم مات محمد بن زيد بعد أيام من جراحاته التي أصابته فدفن على باب جرجان، وحمل ابنه زيد بن محمد إلى إسماعيل بن أحمد، فأكرمه ووسع في الإنزال عليه، وأنزله بخارى.
وسار محمد بن هارون إلى طبرستان، وكان محمد بن زيد فاضلاً، أديباً، شاعراً، عارفاً، حسن السيرة.
قال أبو عمر الاسترابادي: كنت أُورد على محمد بن زيد أخبار العباسيين، فقلت له: إنهم قد لقبوا أنفسهم، فإذا ذكرتهم عندك أسميهم أو ألقبهم؟
فقال: الأمر موسع عليك سمعهم ولقبهم بأحسن ألقابهم وأسمائهم وأحبها إليهم. وقيل: حضر عنده خصمان، أحدهما اسمه معاوية، والآخر اسمه: علي.
فقال: الحكم بينكما ظاهر.
فقال معاوية: إن تحت هذين الاسمين خبراً.
قال محمد: وما هو؟
قال: إن أبي كان صادق الشيعة، فسماني معاوية ليكفني شر النواصب، وإن أبا هذا كان ناصبياً فسماه علياً خوفاً من العلوية والشيعة.
فتبسم إليه محمد وأحسن إليه وقربّه. وقيل: استأذن عليه جماعة من أضراء الشيعة وقرّائهم فقال: أدخلوا فإنه لا يحبنا إلاّ كلّ كسير وأعور. =

....

= ثم ذكر ابن الأثير من أحداث تلك السنة مما لم يذكره المؤلف فيها ما يلي:
ذكر ولاية أبي العباس صقلية:
كان إبراهيم ابن الأمير أحمد أمير أفريقية قد استعمل على صقلية أبا مالك أحمد بن عمرو بن عبد الله، فاستضعفه، فولي بعده ابنه أبا العباس بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب.
فوصل إليها غزة شعبان من هذه السنة في مائة وعشرين مركباً، وأربعين حربي، وحصر طرابلس، واتصل خبره بعسكر المسلمين بمدينة بَلَرَم، وهم يقاتلون أهل جرجان فعادوا إلى بلرم، وأرسلوا جماعة من شيخوهم إليه بطاعتهم، واعتذروا من قصدهم جرجان.
ووصل إليه جماعة من أهل جرجان وشكوا منهم، وأخبروه أنهم مخالفون إليه عليه، وأنهم إنما سيروا مشايخهم خديعة ومكراً، وأنهم لا أيمان لهم ولا عهد وإن شئت أن تعلم مصداق هذا، فاطلب إليك منهم فلاناً وفلاناً.
فأرسل إليهم يطلبهم، فامتنعوا من الحضور عنده، وخالفوا عليه، وأظهروا ذلك، فاعتقل الشيوخ الواصلين إليه منهم. واجتمع أهل بلرم وساروا إليه منتصف شعبان مقدمهم مسعود الباجي، وأمير السفهاء منهم ركمويه وصحبهم.
ثم أسطول في البحر نحو ثلاثين قطعة، فهاج البحر على الأسطول فعطب أكثره، وعاد الباقي إلى بلرم.
وأما العسكر الذين في البر فإنهم وصلوا إليه وهو على طرابلس، فاقتتلوا أشد القتال، فقتل من الفريقين جماعة، وافترقوا ثم أعادوا القتال في الثاني والعشرين، فانهزم أهل بلرم وقت العصر، وتبعهم أبا العباس إلى بلرم براً، وبحراً، فأعادوا قتاله عاشر رمضان من بكرة إلى العصر، فانهزم أهل البلد، ووقع القتل فيهم إلى المغرب.
واستعمل أبو العباس على أرباضها، ونهبت الأموال، وهرب كثير من الرجال والنساء إلى طبرمين، وهرب ركمويه وأمثاله من رجال الحرب إلى بلاد النصرانية، كالقسطنطينية وغيرها.
وملك أبو العباس المدينة ودخلها وأمَّنَ أهلها، وأخذ جماعة من وجوه أهلها، فوجههم إلى أبيه بأفريقية.
ثم رحل إلى طبرمين، فقطع كرومها، وقاتلهم ثم رحل إلى قطانية فحصرها، فلم ينل منها غرضاً، فرجع إلى المدينة، فأقام إلى أن دخلت ثمان وثمانين، فتجهز للغزو وطاب الزمان وعَمَّر الأسطول وسيره أول ربيع الآخر. ونزل على دمشق ونصب عليها المجانيق وأقام أياماً ثم انصرف إلى مسيني.
وجاز في الحربية إلى رَيُو، وقد اجتمع بها كثير من الروم، فقاتلهم على باب المدينة، وهزمهم، وملك المدينة بالسيف في رجب، وغنم من الذهب والفضة ما لا يُحَدّ، وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة، ورجع إلى مسيني وهدم سورها، ووجدها بها مراكب قد وصلت من القسطنطينية، فأخذ منها ثلاثين مركباً، ورجع إلى المدينة، وأقام إلى سنة تسع وثمانين.
فأتاه كتاب أبيه إبراهيم يأمره بالعودة إلى أفريقية فرجع إليها جريدة في خمس قطع شوابي.
وترك العسكر مع ولديه: أبي مَضَر، وأبي معد.
فلما وصل إلى أفريقية استخلفه أبوه بها، وسار هو إلى صقلية مجاهداً عازماً على الحج بعد الجهاد، فوصلها في رجب سنة سبع وثمانين ومائتين، وقد ذكرنا خبره سنة إحدى وستين ومائتين.
وفي هذه السنة: جمعت طيء من قدرت عليه من الأعراب، فخرجوا على قفل الحاج، فواقعوهم بالمعدن، وقاتلوهم يومين بين الخميس والجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة.
فانهزم العرب، وقتل كثير وسلم الحاج.
وفيها: مات إسحاق بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب العدوي عدي ربيعة أمير ديار =

ودخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين

وفيها: توفي محمد بن أبي السَّاج[(١)]، فاجتمع غلمانه، وجماعة من أصحابه فأمَّروا عليهم [ابنه][(٢)] ديوداد بن محمد، واعتزلهم [عمّه][(٢)] يوسف بن أبي السَّاج مخالفاً لهم[(٣)].

وفيها: جيء بعمرو بن الليث، وذكر أن إسماعيل بن أحمد خيّره بين المقام عنده وبين توجهه إلى باب أمير المؤمنين، فاختار توجيهه، فوجهه. وأرسل المعتضد رسول إسماعيل مع رسوله وحمل معه إليه هدية وتاجاً وسيفاً من ذهب مركب على جميع ذلك الجوهر، وهدايا وثلاثة آلاف ألف درهم ففرقها في جيوش خراسان.

وقيل: كان المال عشرة آلاف ألف وجه بعض ذلك من بغداد، وكتب باقيه على عمال الجبل وأمروا أن يدفعوا ذلك إلى الرسل.

وفيها: أوقع يوسف بن أبي الساج وهو بنفر يسير بابن أخيه ديوداد، فهزم عسكره، وبقي ديوداد وجماعة قليلة. فعرض عليه يوسف بن أبي الساج المقام معه، فأبى، وقال: امض إلى باب السلطان فحصل يسايره مدة ويسأله المقام معه فأبى، وأخذ طريق الموصل حتى وافى بغداد[(٤)].

= ربيعة من بلاد الجزيرة فولّى مكانه عبد اللّه بن الهيثم بن عبد اللّه بن المعتمر.

وفيها: توفيت قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر، وهي امرأة المعتضد.

وحج بالناس هذه السنة: محمد بن عبد اللّه بن داود.

وفيها: استعمل المعتضد عيسى النوشري وهو أمير أصبهان على بلاد فارس، وأمره بالمسير إليه.

وفيها: توفي فهد بن أحمد بن فهد الأزدي الموصلي، وكان من الأعيان.

وعلي بن عبد العزيز البغوي، توفي بمكة، وهو صاحب أبي عبيد القاسم بن سلاّم.

(١) في الكامل: الملقب بأفشين بأذربيجان في الوباء الكبير المذكور.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) زاد ابن الأثير بعد هذا:
فاجتمع إليه نفر يسير، فأوقع بابن أخيه ديوداد وهو في عسكر أبيه فهزمه.
وعرض عليه يوسف المقام معه، فأبى وسلك طريق الموصل إلى بغداد، وكان ذلك في رمضان.

(٤) ومما لم يذكره المؤلف في أحداث تلك السنة وذكره ابن الأثير قوله.
وفي هذه السنة: وقع الوباء بأذربيجان فمات منهم خلق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفنون به الموتى، وكانوا يتركونهم على الطرق غير مكفنين، ولا مدفونين.
وفيها في صفر: دخل طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث بلاد فارس في عسكره وأخرجوا عنها عامل الخليفة.
فكتب الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني إلى طاهر يذكر له: أن الخليفة المعتضد قد ولاه سجستان، وأنه سائر إليها. فعاد طاهر لذلك.
وفيها: ولى المعتضد مولاه بدراً فارس وأمره بالشخوص إليها، لما بلغه أن طاهر تغلب عليها.
فسار في جيش عظيم في جمادى الآخرة، فلما قرب من فارس تنحى عنها من كان بها من =

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائتين

وفيها: انتشر القرامطة بسواد الكوفة. فوجه إليهم شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فشخص إليهم، وظفر بجماعة منهم، وظفر برئيس منهم يعرف بأبي الفوارس[1]، فدعا به المعتضد سائله[2]، ثم أمر به فقلعت أضراسه، ثم خلع إحدى يديه بكره، وعلق في الأخرى صخره، وترك على حاله ثلاث ساعات، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد هذا اليوم وضربت عنقه وصلب.

= أصحاب طاهر، فدخلها بدر، وجبى خراجها، وعاد طاهر إلى سجستان كما ذكرناه من مراسلة إسماعيل الساماني إليه بأنه يريد أن يقصد سجستان.

وفيها: تغلب بعض العلويين على صنعاء وقصده بنو يعفر في جمع كثير، فقاتلوه فهزموه ونجا هارباً في نحو خمسين فارساً وأسروا ابناً له، ودخلها بنو يعفر وخطبوا فيها للمعتضد.

وفيها: سَيّر الحسين بن علي كورة، وصاحبه نزار محمد إلى صائفة الروم وغزا وفتح حصوناً كثيرة للروم، وعاد ومعه الأسرى ثم إنهم ساروا في البر والبحر إلى ناحية كيسوم، فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفاً، وعادوا.

وفيها: قرب أصحاب أبي سعيد الجنابي من البصرة فخاف أهلها، وهموا بالهرب منهم، فمنعهم من ذلك واليهم.

وفيها في ذي الحجة: قتل وصيف خادم ابن أبي الساج وصلبت جثته في بغداد. وقيل: إنه مات ولم يقتل.

وحج بالناس هذه السنة: هارون بن محمد المكنى أبا بكر.

وفيها في ربيع الآخر: توفي عبيد الله بن سليمان الوزير، فعظم موته على المعتضد، وجعل ابنه أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بعد أبيه في الوزارة.

وفيها: توفي إبراهيم الحربي.

وبشر بن موسى الأسدي، وهو من الحفاظ للحديث.

وفيها في صفر: توفي ثابت بن قرة بن سنان الصابئ الطبيب المشهور، ومعاذ بن المثنى العنبري.

(١) في المخطوط: بأبي القوس، والتصويب من الكامل.

(٢) ذكر صاحب الكامل تفاصيل تلك الأسئلة فقال:

فأحضره بين يديه وقال له: أخبرني هل تزعمون أن روح الله تعالى، وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال له: يا هذا إن حلّت روح الله فينا فما يضرُّك؟ وإن حلّت روح إبليس فما ينفعك؟ فلا تسأل عما لا يعنيك، وسل عما يخصك.

فقال: ما تقول فيما يخصني؟

قال: أقول إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حيّ، فهل طالب بالخلافة؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟

ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر، وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه.

ثم مات عمر، وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوصِ إليه، ولا أدخله فيهم.

فبماذا تستحقون أنتم الخلافة، وقد اتفق الصحابة علىَ دفع جدك عنها.

فأمر به المعتضد، فعذب وخلعت عظامه، ثم قطعت يداه ورجلاه، ثم قتل.

ومن سياسة المعتضد(١) **التي يستفاد منها [١٣٥/أ] تجربة**: ما حدث به أبو الحسين محمد بن عبد الواحد الهاشمي:

أن شيخاً من التجار كان له على بعض القواد مال جليل، فلما(٢) طلبه جحده.

قال: فعملت على التظلم إلى المعتضد لأني كنت تحملت عليه، وتظلمت إلى عبيد اللّه بن سليمان، فلم ينفعني ذلك.

فقال لي بعض إخواني: عليّ أخذ المال ولا يحتاج إلى الظلامة إلى الخليفة، قم معي الساعة.

قال: فقمت معه، فجاء بي إلى خياط في سوق الثلاثاء وهو جالس يخيط ويقرأ القرآن في مسجد، فقص عليه قصتي، فقام معنا.

فلما مضيت وتأخرت وقلت لصديقي: إنك عرضت هذا الشيخ ونفسك وإياي لمكروه عظيم.

قال: كيف؟

قلت: لأنه قد استخف بي مراراً وبجماعة من شفعائي مراراً كثيرة ولم يلتفت إلى مثل فلان وفلان ولا إلى الوزير، وأخاف أن يضعفنا ضعفاً وجيعاً ويطردنا.

فضحك الرجل وقال: لا عليك امض(٣) واسكت. فجئنا إلى باب القائد فحين رآه غلمانه أعظموه وأرادوا تقبيل يده، فمنعهم، وقالوا: ما جاء بك أيها الشيخ فإن صاحبنا راكب؟

فقال: ادخل واجلس إلى أن يحضر.

فبادروا إلى الإذن له، فأجلسوه في أرفع موضع، فقويت نفسي.

وجاء الرجل، فلما رأى الخياط أعظمه إعظاماً شديداً، وقال: ما أنزع ثيابي حتى تأمر بأمرك.

فخاطبه في أمري.

فقال: واللّه ما عندي إلاّ خمسة آلاف درهم فسله أن يأخذها في الوقت، ويأخذ رهناً بباقي المال إلى أن تجيئني غلتي. فبادرت إلى الإجابة.

فأحضر الدراهم وخرجنا، فلما بلغنا موضع الخياط طرحت المال بين يديه،

---

(١) في المخطوط: المعتمد. وهو تحريف.

(٢) في المخطوط: فما. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: أمر. وهو تحريف.

وقلت: يا شيخ، إن اللّه قد ردّ هذا المال عَلَيّ بسعيك وبركتك، فأحب أن تأخذ من المال نصفه أو ثلثه حتى تطيب نفسي.

فقال: ما أسرع ما كافأتني على الجميل بالقبيح، انصرف بمالك بارك اللّه لك فيه.

فقلت: قد بقيت لي حاجة.

قال: قل.

قلت: تخبرني عن سبب طاعته لك مع تهاونه بأكثر أهل هذه الدولة.

فقال: يا هذا قد بلغت مرادك فلا تقطعني عن شغلي ومعاشي.

فألححت عليه فقال: أنا رجل أؤم وأقري في هذا المسجد منذ أربعين سنة ومعاشي هذه الخياطة، وكنت منذ دهر قد صليت المغرب، فخرجت أريد منزلي، فإذا برجل تركي كان في هذه الدار قد تعلق بامرأة مجتازة، وكانت جميلة، وأدخلها إلى داره وهي تستغيث، وليس أحد يغيثها.

قال: فرفقت بالتركي، وسألته تركها، فضرب رأس بدبوس، وشجني وشتمني، ويئست من المرأة وخلاصها، وسرت إلى المنزل وغسلت الدم، وشددت الشجة، واستروحت، وخرجت أصلي العشاء الآخرة فلما فرغنا قلت لمن حضر: قوموا معي إلى عدو اللّه هذا التركي لننكر عليه، ولا نبرح حتى نخرج المرأة.

فقاموا معي، وجئنا وصحنا على بابه، فخرج إلينا مع عدّة من غلمانه، وقصدني من بين الجماعة، فضربني ضرباً مبرحاً كدت أتلف منه.

فحملني الجيران إلى منزلي، وعالجني أهلي، ونومت فلم أتم إلى نصف الليل، فقلت في نفسي: هذا قد شرب إلى الآن ولا يعرف الأوقات، فلو أذنت لوقع له أنه الفجر، فلعله يطلق عن المرأة ـ وكانت المرأة حين[1] تعلق بها قالت: إن زوجي حلف بطلاقي أن لا أبيت في[2] منزلي، وأعظم ما علي أن أطلق وأبين منه.

فطمعت أن تحلق المرأة بمنزلها قبل الفجر وتسلم من أحد المكروهين.

فخرجت متحاملاً حتى صعدت المنارة، فأذنت وجلست اطلع منها إلى الطريق أراقب خروج المرأة، فإن خرجت وإلاّ أقمت للصلاة لئلا يشك في الصبح ويخرجها. فما مضيت إلاّ ساعة، فإذا الشارع قد امتلأ خيلاً ورجلاً ومشاعلاً وشموعاً، وهم يصيحون من هذا الذي أذّن الساعة؟ أين هو؟ ففزعت وسكت.

---

(١) في المخطوط: لا. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: عن. وهو تحريف.

ثم قلت أخاطبهم ـ فلعلي استعين بهم على إخراج المرأة ـ فصحت من المنارة: أنا أذنت.

فقالوا: أنزل، فأجب أمير المؤمنين.

فقلت: قد دنا الفرج.

فإذا بدر مع الجماعة فحملني، وأدخلني على المعتضد، فلما رأيته هبته، وارتعدت، فسكن مني وقال: ما حملك على أن لا تقرّ المسلمين بأذانك في غير وقته فتخرج الحاجة في غير حينها، ويمسك المريد للصوم في وقت قد أبيح له الإفطار فيه، وينقطع امرؤ عن الطرق والحرص؟

قلت: يؤمني أمير المؤمنين لأصدق؟

قال: [أنت][1] آمن.

فقصصت عليه قصة التركي والمرأة وأريته الشجة، وآثار الضرب بي.

فقال: يا بدر، عَلَيَّ بالغلام والمرأة الساعة. فعزلت في موضع، ومضى بدر، وأحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة، فأخبرته بمثل ما قلته.

فقال لبدر: بادر بها الساعة إلى زوجها مع ثقة من الخدم، يدخلها دارها، ويشرح لزوجها خبرها، ويأمره حتى بالتمسك بها، والإحسان إليها.

ثم استدعاني، فوقفت، فجعل يخاطبني الغلام وأنا قائم أسمع، وكان فيما يخاطبه أن قال: كم جرايتك؟

فقال: كذا وكذا.

وقال: كم عطاؤك؟

قال: كذا.

قال: فما كان في حرائرك[2]، وجواريك[3] في هذه النعمة الواسعة كفاية لك عن معصية اللّه تعالى؟ وعن خرق هيبة السلطان حتى استعملت الغُجر وتجاوزت ذلك إلى [١٣٥/ب] الوثوب على أمرك بالمعروف.

فأسقط الغلام في يده، ولم يحر جواباً.

فقال: هاتوا جوالقاً، وقيداً، ومداق الجص.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) في المخطوط: جرائرك. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: جاريك. وهو تحريف.

فأُتي بها كلها وأدخله[١] الجوالق، وأمر الفراشين بدقه، وأنا أرى ذلك كله، وهو يصيح، ثم انقطع صوته ومات. وأمر به فغُرّق في دجلة.

فقدم إليّ بدر بحمل ما في داره، ووصلني بألف درهم.

ثم قال لي: يا شيخ، أي شيء رأيت من أجناس المنكر ولو على هذا، وأشار بيده إلى بدر، فأنكره، فإن لم يقبل، فالعلامة بيننا أن تؤذن في هذا الموقف فإني أسمع صوتك واستدعيك، وأفعل مثله بمن لا يقبل منك أو يؤذيك.

قال: فدعوت له وانصرفت، وانتشر الخبر في غلمان الدار، والحاشية، والأولياء، والجند والعامة.

فما خاطبت أحداً منهم بعدها في إنصاف لأحد، أو كف عن القبيح إلاّ طاوعني كما رأيت خوفاً من المعتضد.

وما احتجت أن أُوذن إلى الآن[٢].

(١) في المخطوط: أدخلها. وهو تحريف.

(٢) نعم صدق من قال: إذا صلح الراعي صلحت الرعية، وصدق من قال: أصلحت ما بيني وبين الله، فأصلح الله ما بين الذئب والغنم.

خلافة المكتفي

وفيها: توفي المعتضد ليلة الاثنين من ربيع الآخر، وفي صبيحتها أحضر دار السلطان عبد الحميد بن عبد العزيز أبو حازم ويوسف بن يعقوب، وأبو عمر محمد بن يوسف.

وتولى الصلاة عليه يوسف بن يعقوب.

وحضر الصلاة عليه الوزير القاسم بن أبي عبيد اللّه، وأبو حازم، وأبو عمر، والخدم، والخاصة.

وجلس القاسم بن عبيد اللّه بن سليمان في دار السلطان، وأذن للناس، فعزوه بالمعتضد، وهنؤوه بالمكتفي.

وتقدم في تجديد البيعة للمكتفي باللّه، ففعلوا.

وكتب بالخبر للمكتفي، وكان بالرقة.

فتقدم إلى كاتبه بأخذ البيعة على من في عسكره، ووضع العطاء لهم، ففعل.

وشخص إلى بغداد فدخلها وكنّى بلسانه القاسم بن عبيد اللّه وخلع عليه[1].

---

(١) كذا جاء الخبر في الكتاب، وقال صاحب الكامل: في هذه السنة من ربيع الآخر توفي المعتضد باللّه أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل، ليلة الاثنين لثمان بقين منه.
وكان مولده في ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين ومائتين.
ولما اشتد مرضه اجتمع القواد منهم: يونس الخادم، وموشكير، وغيرهما، وقالوا: للوزير القاسم بن عبيد اللّه: ليجدد البيعة للمكتفي، وقالوا: إنّا لا نأمن فتنة فقال: إن هذا المال لأمير المؤمنين ولولده من بعده، وأخاف أن أطلق المال، فيبرأ من علته فينكر عَلَيَّ ذلك.
فقال: أنا بريء من مرضه، فنحن المحتجون والمناظرون، وإن صار الأمر إلى ولده، فلا يلومنا ونحن نطلب الأمر له، فأطلق المال وجدد عليه البيعة.
وأحضر عبد الواحد بن الموفق وأخذ عليه البيعة فوكّل به، وأحضر ابن المعتزل، ومضى ابن المؤيد، وعبد العزيز بن المعتمد، ووكّل بهم.
فلما توفي أحضر يوسف بن يعقوب، وأبا حازم وأبا عمر بن يوسف بن يعقوب فتولى غسله محمد بن يوسف، وصلى عليه الوزير ودفن ليلاً في دار محمد بن طاهر.
وجلس الوزير في دار الخلافة للعزاء، وجدد البيعة للمكتفي.
وكانت أم المعتضد واسمها ضرار قد توفيت قبل خلافته.
وكانت خلافته سبع سنين، وتسعة أشهر، وثلاثة عشر يوماً.
وخلف من الولد الذكور علياً ـ وهو المكتفي ـ وجعفراً وهو المقتدر، وهارون.
ومن البنات إحدى عشر بنتاً، وقيل: سبع عشرة. =

وفي اليوم الثاني من مقدمه: هلك عمرو بن الليث الصفار.

ذكر الخبر عن هلاكه

كان المعتضد لما امتنع عن الكلام عند موته، أمر صافياً الجرمي بقتل عمرو بالإشارة والإيماء، ووضع يده على عينيه، وعلى رقبته، أي اذبح الأعور.

فلم يفعل ذلك صافي لقرب وفاة المعتضد، وكره قتله.

فلما دخل المكتفي سأل القاسم بن عبيد اللّه عمراً أحيٌّ هو؟

قال: نعم ـ فسُرَّ بحياته.

قال: أريد أن أحسن إليه، وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبره براً كثيراً فأراد مكافأته وكره القاسم ذلك، ودَسَّ إلى عمرو من قتله.

وفيها: كان مقتل بدر غلام المعتضد

ذكر السبب في ذلك كان سبب ذلك أن القاسم بن عبد اللّه [قد][1] هم بنقل الخلافة عن ولد المعتضد، فناظر بدراً في ذلك بعد أن استكتمه واستحلفه، فامتنع بدراً،

= ولما حضرته الوفاة أنشد:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى ... وخُذْ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنتُهُ ... فلم يبق لي خِلاّ ولا يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع ... عدواً ولم أمهل على طغيه خلْقا
وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزِ ورفعةٍ ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقّا
رماني الردى سهماً فأخمدَ جمرتي ... فها أنا ذا في حُفْرتي عاجلاً ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد ... لذي الملك والأحياء في حسنها رُفْقا
فيا ليت شعري بعد موتي ما ألقى ... إلى نعم الرحمن أم ناره ألقى

ثم ذكر ابن الأثير صفة المعتضد وسيرته فقال:
كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق، قد وخطه الشيب.
وكان شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم، وكان فيه شح.
بلغه خبر وصيف خادم ابن أبي الساج وعليه قباء أصفر، فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد، فدخل انطاكية وعليه القباء.
فقال بعض أهلها الخليفة بغير سواد.
فقال بعض أصحابه: إنه سار فيه ولم ينزعه عنه إلى الآن.
وكان عفيفاً، حكى القاضي إسماعيل بن إسحاق قال: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صِبَاح الوجوه، فأطلت النظر إليهم، فلما قمت أمرني بالقعود.
فجلست، فلما تفرق الناس قال: يا قاضي، واللّه ما حللت سراويلي على غير حلالٍ قط.
وكان هيباً عند أصحابه يتقون سطوته، ويكفون عن الظلم خوفاً منه.

(١) زيادة من الكامل.

وقال: ما كنت لأصرفها عن ولد مولاي وولي نعمتي.

فلما علم القاسم أن لا سبيل له إلى مخالفة بدر إذ كان بدر صاحب الجيش والمستولي على أمر المعتضد والمطاع في خدمه [وغلمانه][(١)] فحقدها[(٢)] على بدر.

فلما حدث الموت كان بدر بفارس، لأنه خرج إلى محاربة طاهر ابن محمد بن عمرو بن الليث، وكان طاهر قد تغلب على فارس.

فعقد القاسم للمكتفي عقد الخلافة وبايع له وهو بالرقة لما كان بين المكتفي وبين بدر وبعده بفارس.

وعمل القاسم[(٣)] في هلاك بدر حذراً على نفسه أن يطلع بدر المكتفي إذا قدم على ما كان هم به القاسم.

فوجه المكتفي جماعة من القواد برسائل وكتب إلى القواد الذين مع بدر، فأمرهم أن يفارقوا بدراً، ويسيروا حضرته، وذلك في السِّر من بدر، فوصلت الكتب إليهم.

ثم وجه إليه خادم الموفق ومعه عشرة آلاف ألف ليفرقها في عطاء أصحابه لبيعة المكتفي.

فخرج بها ياسر، فلما كان بالأهواز وجه إليه بدر من قبض المال منه، فرجع ياسر إلى بغداد.

ولما وصلت الكتب إلى القواد من المكتفي، فارق بدراً جماعة منهم وانصرفوا عنه إلى مدينة السلام، فلما دخلوا بغداد وصلوا إلى المكتفي وخلع على نيف وثمانين رجلاً، وأجاز جماعة من رؤساء كل واحد بمائة ألف، وأجاز قوماً بدون ذلك، وخلع على بعضهم، ولم يخبره بشيء[(٤)].

وانصرف بدراً قاصداً واسط، واتصل الخبر بالمكتفي بإقبال بدر، فوكل بدار بدر، وقبض على جماعة من أصحابه وقواده فحبسوا، مثل: تحرير الكبير، وغريب الختلي وغيرهما. وأمر بمحو اسم بدر من الأعلام والتراس، وكان عليها أبو النجم مولى المعتضد بالله.

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: اصطنها. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: فلما تقدم على القاسم. والتصويب من الكامل، وربما كان أصاب ما في المخطوط سقط.

(٤) في الكامل: فوجه المكتفي محمد بن كشتمر برسائل إلى القواد الذين مع بدر يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر، ففارقه جماعة منهم: العباس بن عمرو الغنوي، ومحمد بن إسحاق بن كنداج، وخاقان المفلحي، وغيرهم، فأحسن إليهم المكتفي.

ودعا المكتفي القواد وقال لهم: لست أُومر عليكم أحداً، فمن كانت له حاجة فليلق الوزير فقد تقدمت إليه في قضاء حوائجهم.

وكتب بدر إلى المكتفي كتاباً على يد الديداق وحمله على الجمازات.

فلما وصل إلى المكتفي قبض عليه، ووكل به وأشخص جيشاً إلى واسط.

وقيل: إنه قدمهم مقدمة له.

وكان المكتفي أرسل إلى بدر حين يصل من أرض فارس يعرض عليه أي النواحي شاء إن أحب أصبهان أو الرّي أو الجبل، ويأمره بالمسير إلى أي موضع أحب من هذه النواحي مع من أحبّ من الفرسان والرجال، فيقيم بها والياً عليها معهم.

فأبى بدر وقال: لا بد لي من المسير إلى باب مولاي.

فوجد القاسم مساغاً للقول فيه، وقال للمكتفي: عرضنا عليه الولايات، فأبى إلاّ المجيء، ثم خوفه غائلته، وحرض المكتفي على محاربته، وقال: لقد أظهر العصيان.

واتصل ببدر أنه قد وكل بداره، وحبس غلمانه فأيقن بالشر، فوجه من يحتال في تخليص ابنه هلال وحدره إليه.

فوقف القاسم بن عبيد اللّه على ذلك، فأمر بالتحفظ به، ودعا أبا حازم القاضي على الشرقية وأمره بالميسر إلى بدر ولقائه وتطييب نفسه، وإعطائه الأمان من أمير [١٣٦/أ] المؤمنين حتى أودّيه عنه.

فقال له: [لا][1] أنصرف حتى استأذن في ذلك أمير المؤمنين.

[فصرفه][2] ثم دعا بأبي عمر محمد بن يوسف وأمره بمثل الذي أمر به أبا حازم، فسارع إليه وإلى اجابته.

ودفع القاسم إلى أبي عمر كتاب أمان عن المكتفي فمضى به نحو بدر.

فلما فصل بدر عن واسط أرقص عنه أصحابه وأكثر غلمانه وساروا إلى المكتفي في الأمان. وخرج المكتفي إلى مضربه بنهر دبالي ومعه جميع جيوشه فعسكر هناك.

ولقي أبو عمر محمد بن يوسف بدراً بالقرب من واسط، فدفع إليه الأمان، وخبّره عن المكتفي، بما قال له القاسم، وصاعد معه في حراقة بدر، واستقر الأمر بين بدر وبين أبي عمر على أن يدخل بغداد سامعاً مطيعاً.

وعبر بدر دجلة، وسار إلى النعمانية، وأمر أصحابه وغلمانه الذين بقوا معه أن

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) زيادة من الكامل.

يطرحوا سلاحهم ولا يحاربوا أحداً، وأعلمهم ما ورد عليه أبو عمر من الأمان.

فبينا هو يسير إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداجيق في شذاة ومعه جماعة من الغلمان، فتحول إلى الحرافة، وسأله بدر عن الخبر فطيب نفسه، وقال قولاً جميلاً، وهم في ذلك يؤمرونه.

وكان القاسم وصاه وقال له: إذا اجتمعت مع بدر في موضع واحد فأعلمني.

فوجه[إلى][1] القاسم فأعلمه، فدعا القاسم لؤلؤاً أحد غلمان السلطان النجباء، فقال له: قد ندبتك لأمر.

فقال: سمعاً وطاعة.

فقال له: امض فتسلم بدراً من كنداجيق وجئني برأسه.

فمضى في طيار حتى استقبل بدراً ومن معه بناحية سيت سعيد كوما فتحول من الطيار إلى الحرافة وقال لبدر: قم.

قال: وما الخبر؟

قال: إنه لا بأس عليك فحوله إلى طيارة، ومضى به إلى جزيرة، ونحى الناس، ودعا بالسيف فاستلمه، فلما أيقن بدراً بالقتل سأله أن يمهله حتى يصلي ركعتين، فأمهله فصلاّهما، ثم قدمه فضرب عنقه.

وذلك يوم الجمعة قبل الزوال لست خلون من شهر رمضان، ثم أخذ رأسه، ورجع إلى طياره، وترك جثته هناك، فبقيت أياماً، ثم وجه عياله من أخذ جثته سراً فجعلوها في تابوت وحملوها أيام الموسم إلى مكة فدفنوه بها، وكان أوصى بذلك، واعتق قبل أن يقتل مماليكه كلهم.

وتسلم السلطان ضياع بدر ودوره ومستعملاته.

وورد الخبر على المكتفي بقتل بدر لتسع خلون من شهر رمضان، فرحل منصرفاً إلى مدينة السلام وجيء برأس بدر وأمر به فنظف ووضع في خزانة الرؤوس.

ورجع أبو عمر القاضي إلى داره حزيناً كئيباً، فتكلم الناس فيه، وقالوا أشعار كثيرة، فمما قيل فيه:

قل لقاضي مدينة المنصور ... بِمَ أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعهود ... وعقد الأمان في المنشور
أين أيمانك التي يشهد اللّه ... على أنها يمين فَجُور

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

يا قليل الحياء يا أكذب الأمه يا شاهداً شهادة الزور[١]
ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاة الجور

في أبيات كثيرة[٢].

وفيها: ظهر بالشام رجل جمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم فأتى بهم دمشق وبها طغج ابن جف من فل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، كانت بينه وبين طغج وقعات وقتل بينهما خلق كثير[٣].

ذكر القرامطة ومبدأ أمرهم ومآله

كان زكرويه بن مهرويه داعية لقرمط فلما تتابعت من المعتضد توجه الجيوش إلى سواد الكوفة وألح في طلب القرامطة، وأثخن فيهم القتل، فرأى أنه لا مدفع عن انفسهم عند أهل السواد ولا غنى له عن استغواء من قرب من الكوفة أعراب أسد، وطيء، وتميم وغيرهم، ودعاهم إلى رأيه، وزعم أن سواد الكوفة من القرامطة يطابقونهم على

---

(١) قبله في الكامل هذا البيت:
إن كفيك لا تفارق كفيه إلى أن ترى جليل السرير

(٢) ذكر ابن الأثير باقي الأبيات في الكامل فقال:
أي أمر ركبت في الجمعة الزهراء منه في خير هذي الشهور
قد مضى من قتلت في رمضان صائماً بعد سجدة التعفير
يا بني يوسف بن يعقوب أضحى أهل بغداد منكم في غرور
بدد الله شملكم وأراني ذلكم في حياة هذا الوزير
فأعدوا الجواب للحكم العدل ومن بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فدا لأبي حازم المستقيم كل الأمور

(٣) كذا الخبر هنا، وزاد ابن الأثير في الكامل عليه فقال:
كان ابتداء حال هذا القرمطي أن ذكرويه بن مهرويه الذي ذكرنا أنه داعية قرمط لما رأى أن الجيوش من المعتضد متتابعة إلى من بسواد الكوفة من القرامطة، وأن القتل قد أبادهم سعى في إغواء من قرب من الكوفة من الأعراب: أسد، وطيء، وغيرهما، فلم يجبه منهم أحد.
فأرسل أولاه إلى كلب بن وبرة فاستغووهم، فلم يجبهم منهم إلاّ الفخذ المعروف ببني القُلَيص بن ضمضم بن عدي بن خباب، ومواليهم خاصة، فبايعوا في آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة بن ذكرويه المسمى بيحيى المكنى أبا القاسم، فلقبوه: الشيخ، وزعم أنه: محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
وقيل: لم يكن لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله.
وزعم أن له بالبلاد مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا تتبعوها في مسيرها نصروا.
وأظهر عضداً له ناقصة، وذكر أنه ابنه. وأتاه جماعة من بني الأصبغ وسُمّوا الفاطميين ودانوا بدينه، فقصدهم شبل غلام المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه، فقتلوه، وأحرقوا مسجد الرصافة، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا ولاية هارون بن خمارويه التي قوطع عليها طغج بن جف، فأكثروا القتل بها والإغارة، فقاتلهم طغج فهزموه غير مرة.

أمره إن استجابوا له، فلم يستجيبوا له.

وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها، فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتسبوا[(١)] إلى علي بن أبي طالب، وإلى إسماعيل بن جعفر منهم، وذكروا أنهم خائفون من السلطان، وأنهم لجأوا إليهم، فقبلوهم على ذلك، ويوافقهم بالدعاء إلى رأي القرامطة، ولم يُقبل ذلك منهم إلاّ الفخذ المعروفة ببني العليص ومواليهم خاصة، فبايعوا في آخر سنة تسع وثمانين، ومائتين بناحية سماوة ابن زكرويه المسمى بيحيى والمكنى بالقاسم، ولقبوه الشيخ على ما موّه به وزعم لهم أنه أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع وأن ناقته التي يركبها[(٢)] مأمورة، وأنهم إذا اتبعوها في سيرها ظفروا.

وتكهن لهم، وانحازت إليه جماعة من بني الأصبغ وأخلصوا وتسموا بالفاطميين ودانوا بدينهم. فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بناحية الرصافة في غربي الفرات وديار مضر، فاغتروه وقتلوه، وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى اصعدوا إلى أعمال الشام، فأناخ عليها وهزم كل عسكر لقيه طغج حتى حصره في مدينة دمشق قائد المضريون إليه بدر الكبير وأوقعوهم قريباً من دمشق.

وقتل يحيى بن [١٣٦/ب] زكرويه.

ثم دارت الحرب على المضريين، فانحازت واجتمعت موالي بني القليص ومن معهم من الأصبغيين على نصب الحسين بن زكرويه أخي المقتول، وزعم لهم أنه أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد وهو ابن نيف وعشرين سنة فبايعوه بعد أخيه.

وأظهر له شامة في جهة ذكر أنها آية، وطرأ إليه ابن عمه عيسى ولقبه بالمدثر، وعهد إليه، وذكر أنه المعني بالسورة التي يذكرها بها المدثر.

وقلّد غلاماً له، قتل أسرى المسلمين ولقبه: المطوق.

وظهر على جند حمص وغيرها من أرض الشام، وسمي بأمير المؤمنين على منابرها.

وفيها: أوقع إسماعيل بن أحمد بمحمد بن هارون بالري فهزمه، وكان في ثمانية

---

(١) في المخطوط: وانتهوا. وهو تحريف ظاهر.
(٢) في المخطوط: أمه التي تركها. والتصويب من الكامل.

آلاف رجل، والمنهزمة إلى باب السلطان[١].

---

(١) كذا الخبر هنا، وفي الكامل بنحوه وفيه أيضاً: فانهزم محمد، ولحق بالديلم مستجيراً بهم ودخل إسماعيل الري.
هذا وقد ذكر ابن الأثير خبر استيلاء، محمد بن هارون على الريّ في نفس السنة فقال:
وفي هذه السنة: كاتب أهل الري محمد بن هارون الذي كان حارب محمد بن زيد العلوي وتولى طبرستان لإسماعيل بن أحمد.
وكان محمد بن هارون قد خلع طاعة إسماعيل، فسأله أهل الري المسير إليه ليسلموها إليه.
وكان سبب ذلك أن الوالي عليهم كان قد أساء السيرة فيهم.
فسار محمد بن هارون إليهم، فحاربه واليها وهو الدتمش التركي، فقتله محمد، وقتل ابنين له، وأخا كيغلغ وهو من قواد الخليفة. ودخل محمد بن هارون الريّ واستولى عليها في رجب.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث في تلك السنة لم تذكر هنا منها مثلاً ذكر ولاية أبي العباس عبد اللّه بن إبراهيم إفريقية وغير ذلك أذكره بعد ذكر ولاية أبي العباس إن شاء اللّه تعالى، فقال فيها:
قد ذكرنا سنة إحدى وستين ومائتين أن إبراهيم بن أحمد أمير إفريقية عهد إلى ولده أبي العباس عبد اللّه سنة تسع وثمانين ومائتين، وتوفي فيها.
فلما توفي والده قام بالملك بعده، وكان أديباً لبيباً شجاعاً، أحد الفرسان المذكورين مع علمه بالحرب وتصرفها، وكان عاقلاً عالماً، له نظر حسن في الجدل.
وفي أيامه عظم أمر أبي عبد اللّه الشيعي، فأرسل أخاه الأحول ـ ولم يكن أحول وإنما لُقِّب بذلك لأنه كان إذا نظر دائماً ربما كسر جفنه فلقب بالأحول ـ إلى قتال أبي عبد اللّه الشيعي ـ فلما بلغه حركته خرج إليهم في جموع كثيرة، والتقوا عند كموشة وقتل بينهم خلق عظيم، وانهزم الأحول إلا أنه أقام في مقابلة أبي عبد اللّه.
وكان أبو العباس أيام أبيه على خوف شديد من سوء أخلاقه، واستعمله أبوه على صقلية ففتح فيها مواضع متعددة وقد تقدم ذكر ذلك أيام والده.
ولما ولي أبو العباس إفريقية كتب إلى العمال كتاباً يُقرأ على العامة يعدهم فيه الإحسان، والعدل، والرفق، والجهاد، ففعل ما وعد من نفسه، وأحضر جماعة من العلماء ليعينوه على أمر الرعية، وله شعر، فمن ذلك قوله بصقلية وقد شرب دواء:

شربت الدواء على غربةٍ ... بعيداً من الأهل والمنزلِ
وكنت إذا ما شربت الدوا ... أطيب بالمسك والمنديلِ
وقد صار شربي بحار الدما ... ونقع العجاجةِ والقسطلِ

واتصل بأبي العباس عن ولده أبي مُضر زيادة اللّه والي صقلية له، اعتكافه على اللهو وإدمانه شرب الخمر، فعزله وولي محمد بن السرقوس وحبس ولده. فلما كان ليلة الأربعاء آخر شعبان من سنة تسعين ومائتين، قتل أبو العباس قتله ثلاثة نفر من خدمه الصقالبة بوضع من ولده، وحملوا رأسه إلى ولده أبي مضر وهو في الحبس، فقتل الخدم وصلبهم، وكان هو الذي وضعهم. فكانت إمارته سنة واثنتين وخمسين يوماً، وكان سكناه وقتله رحمه اللّه بمدينة تونس.
وكان كثير العدل، أحضر جماعة كثيرة عنده ليعينوه على العدل ويعرفوه من أحوال الناس ما يفعل فيه على سبيل الانصاف وأمر الحاكم في بلده أن يقضي عليه وعلى جميع أهله وخواص أصحابه، ففعل ذلك.
فلما قتل ولي ابنه أبو مُضر، وكان من أمره ما نذكره سنة ست وتسعين ومائتين إن شاء اللّه تعالى.
وفي هذه السنة منتصف رمضان: قتل عبد الواحد بن الموفق، وكانت والدته إذا سألت عنه قيل لها: إنه في دار المقتفي، فلما مات المقتفي أيست منه، فأقامت عليه مأتماً. =

ودخلت سنة تسعين ومائتين

وفيها: ورد كتاب علي بن عيسى من الرقة يذكر فيه:

إن القرمطي بن زكرويه وافى في جمع كثير، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان ورئيسهم سبك غلام المكتفي، فواقعوه، فقتل سبك، وانهزم أصحاب السلطان، ثم إن طغج بن جف اخرج من دمشق جيشاً إلى القرمطي عليه غلام يقال له يشير، فواقعه القرمطي، فهزم الجيش وقتل بشيراً.

ثم خلع السلطان على أبي الأغر وبعث به لحرب القرمطي بناحية الشام فمضى في عشرة الآف إلى حلب.

ووردت كُتب التجار من دمشق إلى بغداد أن القرمطي هزم طغج غير مرة، وقتل أصحابه إلا القليل وأنه بقي في قلة، وامتنع من الخروج وإنما يجتمع العامة، ثم يخرج للقتال، وأنهم قد أشرفوا على الهلكة.

فاجتمع التجار، ومضوا إلى يوسف بن يعقوب، فأقرؤوه الكتاب، وسألوه أن يخبر الوزير ذلك[1].

= وفيها: كانت وقعة بين أصحاب إسماعيل بن أحمد وبين بستان الديلمي بطبرستان فانهزم ابن جستان.

وفيها: لحق إسحاق الفرغاني وهو من أصحاب بدر بالبادية، وأظهر الخلاف على الخليفة المكتفي، وحاربه أبو الأغر فهزمه إسحاق، وقتل من أصحابه جماعة.

وفيها: سير خاقان المفلحي إلى الري في جيش كثيف ليتولاها.

وفيها: صلى الناس العصر بحمص وبغداد في الصيف، ثم هَبَّ هواء من ناحية الشمال فبرد الوقت واشتد البرد حتى احتاج الناس إلى النار، ولبس الجباب، وجعل البرد يزداد حتى جمد الماء.

وفيها: زادت دجلة قدر خمسة عشر ذراعاً.

وفيها: خلع المكتفي على هلال بن بدر وغيره من أصحاب أبيه في جمادى الأولى.

وفيها: هَبَّت ريح عاصف بالبصرة، فقلعت كثيراً من نخلها، وخسف بموضع منها هلك فيه ستة آلاف نفس، وزلزلت بغداد في رجب عدة مرات وتضرع أهلها في الجامع، فكشف عنهم.

وفيها حج بالناس: الفضل بن عبد الملك بن عبد الله العباس.

وفيها: مات أبو حمزة بن محمد بن إبراهيم الصوفي، وهو من أقران سرى السقطي.

(١) في الكامل.
فاجتمع جماعة من أهل بغداد، وأنهوا ذلك إلى الخليفة، فوعدهم النجدة، وأمد المصريون أهل دمشق ببدر وغيره من القواد، فقاتلوا الشيخ مقدم القرامطة فقُتل على باب دمشق رماه بعض المغاربة بمزراق وزرقه نفاط بالنار، فاحترق. وقتل منهم خلق كثير.
وكان هذا القرمطي يزعم أنه إذا أشار بيده إلى جهة من التي فيها محاربوه انهزموا. ولما قتل يحيى المعروف بالشيخ وقُتل أصحابه اجتمع من بقي منهم على أخيه الحسين، وسمى نفسه أحمد، وكناه أبا العباس، ودعا الناس، فأجابه أكثر أهل البوادي.

وفيها: قوطع صاحب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث على أموال فارس، وخلع على صاحبه وحمل إليه الخلع مع العقد(١).

وفيها: ورد الخبر، وكتاب قرئ في جوامع بغداد أن يحيى بن زكرويه قتله المصريون على باب دمشق بعد أن اتصلت الحروب بينه وبين جند دمشق ومددهم من أهل مصر وأسر لهم جيوشاً وقتل منهم خلقاً. وكان يحيى هذا يدعي النبوة والكهانة، فلما قتل يحيى انحاز أصحابه إلى أخيه الحسين بن زكرويه، فطلبوا أخاه في القتلى فلم يجدوه، وكان أخوه قد سبق إليه.

ودعا الحسين إلى مثل ما دعا إليه أخوه، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم من سائر الناس واشتدت شكوته وظهر(٢)، وسار إلى دمشق فصالحه أهلها على خراج دفعوه إليه، فانصرف عنهم.

وسار إلى أطراف حمص، فغلب عليها وخطب له على منابرها(٣).

ثم سار إلى حمص فأطاعه أهلها، وفتحوا له بابها خوفاً على أنفسهم فدخلها.

ثم سار إلى حماة، ومعرّة النعماني وغيرهما، فقتل أهلها، وقتل النساء والأطفال.

ثم سار إلى بعلبك، فقتل عامة أهلها حتى لم يبق منهم إلاّ اليسير...

ثم سار إلى سلمية، فحارب أهلها ومنعوه الدخول، ثم أعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها فدخلها.

فبدأ بمن فيها من الهاشميين فقتلهم أجمعين، وقتل بعدهم الرجال أجمعين، ثم قتل البهائم، وقتل صبيان الكتاتيب.

ثم خرج منها وليس فيها عين تطرف.

وسار فيما حولها بقتل ويسبي ويخيف السبيل وتكتب عنه حكايات في إباحة الفروج لأصحابه وأن جماعة منهم كانوا يجتمعون على امرأة واحدة إذا استحسنوها لا يتحامون ذلك فيما بينهم(٤).

---

(١) بنحو هذا ذكر ابن الأثير الخبر في الكامل.

(٢) كذا في المخطوط: وفي الكامل:
وأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آيته، وسار إلى دمشق... فربما كان ذلك قد سقط من الناسخ.

(٣) زاد صاحب الكامل بعد هذا: وتسمى المهدي أمير المؤمنين.
وأتاه ابن عمه عيسى بن المهدي المسمى عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل فلقبه المدثر وعهد إليه، وزعم أنه المدثر الذي في القرآن، ولقب غلاماً من أهله المطوّق وقلده قتل أسرى المسلمين... ثم ساق الخبر.

(٤) هذا وقد ذكر ابن الأثير بعضاً من تلك المآسي التي تعرض لها نساء هذه البلاد فقال بعد هذا =

ولليلتين خلتا من شهر رمضان من هذه السنة: أمر المكتفي باللَّه بإعطاء الجند أرزاقهم والتأهب للشخوص إلى حرب القرمطي بناحية الشام، فأطلق للجند في دفعة واحدة مائة ألف دينار. وذلك أن أهل مصر والشام كتبوا يشكون ما لقوا من ابن

= في الكامل:
ذكر عن متطبب بباب المحول، يدعى أبا الحسين قال:
جاءتني امرأة بعد ما دخل القرمطي صاحب الشامة ببغداد، وقالت: أريد أن تعالج جرحاً في كتفي.
فقلت: ههنا امرأة تعالج النساء، فانتظرتها فقعدت وهي باكية مكروبة، فسألتها عن قصتها.
قالت: كان لي ولد طالت غيبته عني، فخرجت أطوف عليه البلاد، فلم أره، فخرجت من الرّقة في طلبه، فوقعت في عسكر القرمطي أطلبه، فرأيته فشكوت إليه حالي وحال أخواته.
فقال: دعيني من هذا، أخبريني ما دينك؟
فقلت: أما تعرف ما ديني؟!
فقال: ما كُنَّا فيه باطل، والدين ما نحن فيه اليوم.
فعجبت من ذلك، وخرج وتركني، ووجَّه يخبز، فلم أمسّه حتى عاد فأصلحه.
وأتاه رجل من أصحابه فسألني: هل أحسن من أمر النساء شيئاً؟
فقلت: نعم.
فأدخلني دار، فإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلمها ولا تكلمني، حتى ولدت غلاماً، فأصلحت من شأنه، وتلطفت بها حتى كلمتني، فسألتها عن حالها فقالت: أنا امرأة هاشمية أخذنا هؤلاء الأقوام فذبحوا أبي وأهلي جميعاً وأخذني صاحبهم، فأقمت عنده خمسة أيام، ثم أمر بقتلي، فطلبني منه أربعة أنفس من قواده، فوهبني لهم فكنت معهم، فواللَّه ما أدري ممن هذا الولد منهم قالت: فجاء رجل، فقالت لي: هنيه، فهنيته، فأعطاني سبيكة فضة، وجاء آخر، وآخر أهنئ كل واحد منهم ويعطيني سبيكة فضة.
ثم جاء الرابع ومعه جماعة، فهنيته، فأعطاني ألف درهم.
وبتنا، فلما أصبحنا قلت للمرأة: قد وجب حقي عليك، فاللَّه اللَّه خلصيني.
قالت: ممن أخلصك؟
فأخبرتها خبر ابني.
فقالت: عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم.
فأقمت يومي، فلما أمسيت وجاء الرجل. قمت له وقبلت يده ورجله، ووعدته أنني أعود بعد أن أوصل ما معي إلى نياقي. فدعا قوماً من غلمانه وأمرهم بحملي إلى مكان ذكره وقال: اتركوها فيه وارجعوا. فساروا بي عشرة فراسخ فلحقنا ابني فضربني بالسيف، فجرحني ومنعه القوم وساروا بي إلى المكان الذي سماه له صاحبهم وتركوني، وجئت إلى ههنا.
قالت: ولما قدم الأمير بالقرامطة، وبالأسارى رأيت ابني فيهم على جمل عليه بُرنس، وهو يبكي.
فقلت: لا خفف اللَّه عنك ولا خلصك. ثم إن كتب أهل الشام ومصر وصلت إلى المكتفي يشكون ما يلقون من القرمطي من القتل والسبي، وتخريب البلاد. فأمر الجند بالنهب، وخرج من بغداد في رمضان، وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل، وقدَّم بين يديه أبا الأغر في عشرة آلاف رجل، فنزل قريباً من حلب فكبسهم القرمطي صاحب الشامة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وسلم أبو الأغر، فدخل حلب في ألف رجل، وكانت هذه الوقعة في رمضان، وسار القرمطي إلى باب حلب. =

زكرويه المعروف بصاحب الشامة وأنه قد أخرب البلاد، وقتل الناس، وحكموا الناس بأشياء عظيمة مما لقوه منه ومن أخيه قَبلَهُ، وقتله الرجال، وأنه لم يبق منهم إلاّ عدد قليل.

وأخرجت مضارب المكتفي فضربت بباب الشماسية ومعه: قواده، وغلمانه، وجيوشه، ثم رحل وسلك طريق الموصل.

ومضى أبو الأغر فنزل وادي بطنان قريباً من حلب فلما استقر فنزل معه جميع من معه، نزع أكثرهم ثيابهم ودخلوا الوادي بمائة، وكان يوماً شديد الحَرّ فبينا هم كذلك إذ وافاهم جيش القرمطي صاحب الشامة ـ وقد تقدمهم المطوّق فكبسهم على تلك الحال، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وانتهب العسكر، وأفلت أبو الأغر، فدخل حلب، وأفلت معه ألف رجل، وكانوا عشرة آلاف. وسار القرمطي إلى باب حلب، فحاربهم أبو الأغر فيمن بقي معه من أصحابه وأهل البلد، فذهبوا وانصرفوا عنه فأخذوا من عسكره من الكراع، والسلاح، والأموال، والمتاع بعد حرب كانت بينهم.

ومضى المكتفي بمن معه من الجيوش حتى انتهى إلى الرّقة فنزلها وسرح الجيوش إلى القرمطي جيشاً بعد جيش. ثم ورد كتابُ بدر الجماعي صاحب ابن طولون يخبر فيه: أنه واقع القرمطي صاحب الشامة فهزمه، ووضع في أصحابه السيف، ومضى من أفلت منهم نحو البادية وأن أمير المؤمنين [١٣٧/أ] وجه في أثره الحسين بن حمدان ابن حمدون، وورد كتاب آخر من البحرين من ابن بانو يذكر فيه: أنه واقع قرابة لأبي سعيد الجنابي وَوَلّي عهده من بعده فهزمه، وكان مقامه بالقطيف فوجد قتيلاً بين القتلى، فاحتز رأسه، وأنه افتتح القطيف فدخلها[١].

وفيها: وجه القاسم بن عبيد اللّه الجيوش إلى صاحب الشامة، وولّى حربه محمد بن سليمان الكاتب، وكان إليه ديوان الجيش، وضم إليه جميع القواد [وأمرهم][٢] بالانضمام إليه وأن يسمع الجميع له ويطيعوه[٣].

---

(١) وبنحو مما هنا ورد الخبر في الكامل.

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) ذكر نحوه ابن الأثير في الكامل، ثم إنه ذكر ضمن أحداث تلك السنة ما يلي، فقال:
وفيها: أخذ محمد بن هارون أسيراً وكان سبب ذلك:
أن المكتفي أنفذ عهداً إلى إسماعيل بن أحمد الساماني بولاية الريّ، فسار إليها، وبها محمد بن هارون، فسار عنها محمد إلى قزوين وزنجان، ثم عاد إلى طبرستان، فاستعمل إسماعيل بن أحمد على جرجان بارس الكبير وألزمه بإحضار محمد بن هارون قسراً أو صلحاً، وكاتبه بارس، وضمن هارون له إصلاح حاله مع الأمير إسماعيل، فقبل محمد قوله، وانصرف عن جستان =

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين

ولما توجه محمد بن سليمان مع جيوش المكتفي وتولى حرب صاحب الشامة والمكتفي بالرقة، وكتب إليه بمناهضة صاحب الشامة بمن معه فنهض إليه.

ذكر مسيره وظفره بالقرمطي

فلما صار بينه وبين حماة اثني عشر ميلاً[1] لقوا أصحاب القرمطي قدّم أصحابه وتخلّف هو في جماعة لأجل حفظ مال كان جمعه، وجعل سواده وراءه، فالتحمت الحرب بين العسكرين واشتدت، فهزم أصحاب القرمطي، فقتلوا وأسر منهم خلق كثير، وتفرق الباقون في البوادي، وتبعهم السلطان.

= الدّيلمي. وقصد بخارى، فلما بلغ مرو قيد بها، وذلك في شعبان سنة تسعين ومائتين. ثم حمل إلى بخارى، فأدخلها على جمل وحُبس بها، ومات بعد شهرين محبوساً.

وكان ابتداء أمره: أنه كان خياطاً، ثم إنه جمع جمعاً من الرعاة، وأهل الفساد، فقطع الطريق بمفازة سرخس مدة، ثم استأمن إلى رافع بن هرثمة، وبقي معه إلى أن هزم عمرو الصفار، فاستأمن إلى إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر بعد قتل رافع، فسيره إسماعيل إلى قتال محمد بن زيد، على ما تقدم ذكره.

وقد ذكره الخوافي في شعره فقال:

كان ابن هارون خياطاً له ابن ... وراية سامها عشر بقيراط
فانسل في الأرض يبغي الملك في عصب ... زط ونوب وأكراد وأنباط
أنّا ينال الثريا كف ملتزق ... بالترب عن ذروة العلياء هباط
صبراً أميرك إسماعيل منتقم ... منه ومن كل غدار وخياط
رأيت عيراً سما جهلاً على أسد ... يا عين ويحك ما أشقاك من شاطي

وفيها في ربيع الآخر: خلع على أبي العشائر أحمد بن نصر، فولي طرسوس، وعزل عنها مظفر بن حاج لشكوى أهل الثغور منه.

وفيها في جمادى الأولى: هرب القائد أبو سعيد الخوارزمي الذي استأمن إلى الخليفة، وأخذ نحو طريق الموصل، فكتب إلى عبد اللّه المعروف بغلام نون بتكريت ـ وهو يتولى تلك النواحي ـ فعارضه عبد اللّه، واجتمع به فخدعه أبو سعيد وقتله، وسار نحو شهرزور، واجتمع هو وابن الربيع الكردي وصاهره، واجتمعا على عصيان الخليفة.

وفيها: أراد المكتفي البناء بسمراء، وخرج إليها ومعه الصُنّاع، فقدروا له ما يحتاج إليه من المال، وكان مالاً جليلاً، وطولوا له مدة الفراغ.

فعظم الوزير ذلك عليه، وصرفه إلى بغداد.

وحج بالناس هذه السنة: الفضل بن عبد الملك بن عبد الواحد بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عباس بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس.

وفيها: توفي محمد بن علي بن علوية بن عبد اللّه الفقيه الشافعي الجرجاني، وكان قد تفقه على المزني صاحب الشافعي وتوفي عبد اللّه بن أحمد بن حنبل في جمادى الآخرة، وكان مولده سنة ثلاث عشرة ومائتين.

(١) في الكامل: لست خلون من المحرم.

فلما رأى القرمطي هزيمة أصحابه حمل فيما قيل: أخا له يكنى أبا الفضل مالاً وتقدم إليه أن يلحق البوادي إلى أن يظهر في موضع فيسير إليه.

فركب هو وابن عمه المسمى المدثر والمطوّق، وصاحبه، وغلام له رومي، وأخذ دليلاً وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية حتى انتهى إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال الفرات، وقد نفذ ما كان معهم من الزاد، فوجه بعض من كان معه ليأخذ لهم بعض ما يحتاجون إليه.

فدخل الدالية المعروفة بدالية ابن طوق ليشتري ما يحتاج إليه، فانكر زيّه وسُئل عن أمره، فحمم، واعلم المتولي مسلحة هذه الناحية، خبره، وكان يعرف بأبي حيرة خليفة ابن كشمرد عامل المكتفي بالرحبة وطريق الفرات فركب جماعة وسأل هذا الرجل عن خبره وهدده، فأخبره أن صاحب [الشامة][1] خلف رابية هنالك في ثلاثة نفر.

فمضى إليهم، فأخذهم وسار بهم إلى صاحبه، فوجه بهم ابن كشمرد إلى المكتفي بالرقة ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا أكثر أولياء القرمطي واشياعه. وكتب محمد بن سليمان بالفتح، وكان المباشر للحرب، وصاحب الظفر الحسين بن حمدان، وظفر محمد بن سليمان في كتاب الفتح وأثنى عليه وعلى أصحابه.

وأدخل[2] صاحب الشامة إلى الرقة ظاهراً للناس على فالج[3]، وعليه برنس حرير، ودرّاعة ديباج وبين يديه المدّثر والمطوّق على جملين. ثم إن المكتفي خلف عساكره مع محمد بن سليمان وشخص هو في خاصته وغلمانه، وشخص معه القاسم بن عبيد اللّه من الرّقة إلى بغداد وحمل معه: القرمطي، والمدثر، والمطوق[4]، وحمل من أسر في الوقعة، وذلك في أول صفر من هذه السنة.

وأراد المكتفي أن يدخل القرمطي إلى بغداد على دقل منصوب على ظهر الفيل، فلم يكن ذلك إلاّ بهدم طاقات الأبواب التي يجتاز بها الفيل مثل باب الطاق، وباب الرصافة فاستسمح الهدم، فعمل حينئذ كرسي نصب على ظهر الفيل وكان ارتفاع الكرسي ذراعين ونصفاً. ودخل المكتفي بغداد وقدم الأسرى بين يديه على جمال مقيدين عليهم دراريع حرير، وبرانس حرير، والمطوق وسطهم ما خرجت لحيته، وقد جعل في فيه خشبة مخروطة وشدت إلى قفاه كهيئة اللجام[5].

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط وأكملته من الكامل.
(٢) في الكامل: وفي يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم أُدخل.
(٣) في الكامل: فالج: هو الجمل ذو السنامتين.
(٤) في الكامل: وأدخل القرمطي بغداد على قيل.
(٥) الغرض من ذلك اسكاته ومنعه من قبيح القول لا نوعاً من التعذيب على الرغم مما فيه من التعذيب والامتهان.

وذلك أنه لما دخل الرقة [أخذ][١] يشتم الناس إذا دعوا عليهم، ويبصق عليهم [فخشي أن][٢] يفعل ذلك بغداد.

ثم أمر المكتفي ببناء دكة في المصلى العتيق من الجانب الشرقي تكسيرها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً، ارتفاعها نحو من عشرة أذرع وبنى لها درج يصعد إليها.

وكان محمد بن سليمان لما خلفه المكتفي بالرقة بلفظ من كان في تلك النواحي من قواد القرمطي وقضاته وأصحاب شرطه فأخذهم وقيدهم وانحدر مع من معه من الجيش إلى بغداد يتلقى محمد بن سليمان والدخول معه فدخل بغداد وبين يديه الأسرى حتى صار إلى الثريا فخلع عليه، وطوق بطوق من ذهب وخلع على جميع القواد وسوّروا.

ثم إن صاحب الشامة أخذ وهو في الحبس سكرجة عن المائدة التي تدخل إليه فكسرها وأخذ شظية منها فقطع بها بعض عروقه من يد نفسه فخرج منه دم كثير، ثم شدّ يده.

فلما وقف المتولي لخدمته على ذلك منه سأله لما فعل ذلك؟

فقال: هاج بي الدم فأخرجته.

فنزل حتى صلح ورجعت إليه قوته، ثم أمر المكتفي القواد والغلمان بحضور الدكة التي أمر ببنائها.

وخرج من الناس خلق كثير لحضورها، فحصروها فحمل الأسرى، وقوم كانوا ببغداد، على رأي القرامطة وقوم من الدفوع من سائر البلدان من غير القرامطة، فجيء بهم على حمال ووكل بهم على كل رجل اثنان ويقال إنهم كانوا ثلثمائة وستين.

وجيء بالقرمطي الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة وابن عمه المعروف بالمدثر على بغل عماريه وقد اسبل عليهما الغشاء ومعهما جماعة من الفرسان والرجالة فصعد بهما إلى الدكة وأقعد.

ثم قدموا[٣] بين يديه فقطعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم كان يؤخذ الواحد فيبطح على وجهه فيقطع يمنى يديه ويحلّق [١٣٧/ب] بها إلى أسفل ليراها الناس، ثم رجله اليسرى ثم يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، ويحلّق بها يقطع إلى أسفل، ثم يقعد فيمدّ رأسه فيضرب عنقه ويرمي رأسه وجثته، وكانت جماعة قليلة من الأسرى يصيحون ويستغيثون ويزعمون أنهم ليسوا من القرامطة.

ثم قدم المدثر ففعل به كذلك[٤].

(١) زيادة يتطلبها السياق.
(٢) زيادة يتطلبها السياق.
(٣) في المخطوط: قدم. وهو تحريف.
(٤) في المخطوط: بذلك. وهو تحريف.

ثم قدّم القرمطي فضرب مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه. وكوي[١] فغشي عليه، ثم أخذ خشب فاضرمت عليه النار ووضع[٢] على[٣] خواصره وبطنه، فجعل يفتح عينيه، ثم يغمضها، فلما خافوا أن يموت ضربت عنقه[٤].

وانصرف القواد، وأكثر النظارة، وأقام صاحب الشرطة إلى وقت العشاء الآخرة حتى ضرب أعناق باقي الأسرى ثم انصرف. فلما كان الغد حملت الرؤوس إلى الجسر بدر القرمطي هناك أعلى الجسر وحفرت للأجساد[٥] والقتلى آبار إلى جانب الدكة فطرحت فيها وطمت، ثم هدمت الدّكة عليها.

ثم استأمن قوم من القرامطة إلى القاسم بن سيما خوفاً من القاسم، فقتلوا واضربت[٦] لهم الأرزاق.

فلما أمنوا همّوا بالغدر، فوضعت فيهم السيوف وقتلوا كلهم ثم نزلوا، وارتدع قوم من بني العليص ولزموا أرض السماوة مدة حتى راسلهم الخبيث زكرويه وأعلمهم أن مما أوحي إليه أن المعروف بالشيخ وأخوه يقتلان وأن أمامه الذي يوحى إليه يظهر بعدهما، ويظفر[٧].

وفيها: خلع المكتفي على محمد[٨] بن سليمان كاتب الجيش، وعلى جماعة من القواد منهم محمد بن إسحاق بن كنداجيق وأبو الأغر خليفة بن المبارك، وابن كيغلغ وغيرهم وأمرهم بالسمع والطاعة لمحمد بن سليمان فخرجوا معسكرين نحو دمشق ومصر لقبض الأعمال من هارون بن خمارويه لما تبين من ضعفه وذهاب رجاله بقتل من قتل القرمطي.

وكان عدة [من][٩] مع محمد بن سليمان لما رحل من باب الشماسية عشرة آلاف رجل[١٠].

---

(١) في المخطوط: لوى. والتصويب من الكامل.
(٢) في المخطوط: وقع. والتصويب من الكامل.
(٣) في المخطوط: في. والتصويب من الكامل.
(٤) بعد هذا في الكامل: ورفعوا رأسه على خشبة فكبّر الناس لذلك، ونصب على الجسر.
(٥) في المخطوط: الأجساد. وهو تحريف.
(٦) في المخطوط: اضرمت. وهو تحريف.
(٧) بنحو مما هنا ذكر هذا الخبر أيضاً في الكامل.
(٨) في المخطوط: علي بن محمد بن سليمان ولفظ «ابن» الأولى بين علي ومحمد زائدة فحذفتها.
(٩) زيادة يتطلبها السياق.
(١٠) وذكر ابن الأثير عدة من الأحداث أخرى في هذه السنة هي قوله:
وفيها: جاءت أخبار أن جُبَى وما يليها جاءها سيل فغرق نحو من ثلاثين فرسخاً، وغرق في ذلك خلق كثير، وغرقت المواشي، والغلات، وخربت القرى، وأخرج من الغرقى ألف ومائتا نفس =

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين

وفي المحرم منها: سار محمد بن سليمان إلى حدود مصر لحرب هارون بن خمارويه[(١)].

ووجه المكتفي دميانه من بغداد، وأمره بركوب البحر والمضي إلى مصر، ودخول النيل، وقطع الموادعين بمصر.

ففعل ذلك وضيق عليهم.

= سوى من لم يلحق منهم.
وفيها: خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون إلى ما وراء النهر، وكان في عسكرهم سبعمائة قبة تركية، ولا تكون إلاّ للرؤساء منهم، فوجه إليهم إسماعيل بن أحمد جيشاً كثيراً وتبعهم من المتطوعة خلق كثير فساروا نحو الترك، فوصلوا إليهم وهم غارون، فكبسهم المسلمون مع الصبح فقتلوا منهم خلقاً عظيماً لا يحصون، وانهزم الباقون، واستبيح عسكرهم، وعاد المسلمون سالمين غانمين.
وفيها: خرج من الروم عشرة صُلبان مع كل صليب عشرة آلاف إلى الثغور فقصد جماعة منهم إلى الحدث، فأغاروا، وسبوا، وأحرقوا.
وفيها: سار المعروف بغلام زرافة من طرسوس نحو بلاد الروم، ففتح مدينة انطاكية وهي تعادل القسطنطينية، ففتحها بالسيف عنوة، فقتل خمسة آلاف رجل، وأسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف، وأخذ لهم ستين مركباً، فحمل فيها ما غنم لهم من الأموال، والمتاع، والرقيق. وقُدِّر نصيب كل رجلٍ ألف دينار، وهذه المدينة على ساحل البحر، فاستبشر المسلمون بذلك.
وحج بالناس: الفضلُ بن عبد الملك بن عبد اللّه بن العباس.
وفيها: توفي القاسم بن عبد اللّه وزير الخليفة في ذي القعدة، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً.
ولما مات قال ابن سيَّار:

أمات ليحيا فما أن حيي ... وأفنى ليبقى فما أن بقي
وما زال في كل يوم يرى ... إمارة حتفٍ وشيك وحي
وما زال يسلح من دبره ... إلى أن خرى النفس فيما خرى

وفيها: مات أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن سعيد بن عبد الرحمن الماستواي الفقيه بنيسابور.
ومحمد بن محمد الجزوعي قاضي الموصل ببغداد.
وفيها: توفي أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني النحوي، وكان عالماً بنحو الكوفيين وكان موته ببغداد.

(١) قال صاحب الكامل في هذا الخبر:
وسبب ذلك: أن محمد بن سليمان لما تخلف عن المكتفي، وعاد عن محاربة القرامطة واستقصى محمد في طلبهم.
فلما بلغ ما أراد عزم على العود إلى العراق فأتاه كتاب بدر الحمامي غلام ابن طولون وكتاب فائق ـ وهما بدمشق ـ يدعوانه إلى قصد البلاد بالعساكر، ويساعدانه على أخذها.
فلما عاد إلى بغداد أنهى ذلك إلى المكتفي، فأمره بالعود وسَيَّر معه الجنود والأموال.

وزحف محمد بن سليمان إليهم في الجيوش على الظهر حتى دنا من الفسطاط، وكاتب القواد الذين بها.

فكان أول من خرج بدر الحمامي، وكان رئيس القوم، فسكرهم ذلك.

ثم تتابع من يستأمن إليه من القواد المصريين فلما رأى ذلك هارون [خرج في][1] بقية من معه زحفوا إلى محمد بن سليمان، فكانت بينهم وقعات.

ثم وقع من أصحاب هارون عصبة فاقتتلوا، وخرج هارون، يسكنهم[2] فرماه[3] واحد بزانة[4] فقتله[5].

وبلغ الخبر محمد بن سليمان فدخل بمن معه الفسطاط واحتوى على آل طولون وأسبابهم ولم ينزل أحداً منهم بمصر ولا الشام. ففعل[6].

ثم إن قائداً من قواد مصر يعرف بالخلنجي تخلّف عن محمد بن سليمان في آخر حدود مصر واستمال جماعة من الجند وعاد إلى مصر وحشر في طريقه جماعة من محبي الفتنة حتى كثر جمعه، وواقع عامل السلطان بها وهو عيسى النوشري، فانحاز عنه، وأخلى مصر فدخلها الخلنجي.

فندب السلطان لمحاربة الخلنجي فاتكاً مولى المعتضد، وضم إليه بدر الحمامي وجعله مشيراً عليه يعمل به، وضم إليه قواداً وجنداً كثيراً، وأمر بسرعة المسير[7].

---

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: فسكنهم والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: فرمان. والتصويب من الكامل.

(٤) في الكامل: فرماه واحد من المغاربة بمزراق.

(٥) بعدها في الكامل:
فلما قتل قام عمه شيبان بالأمر من بعده وبذل المال للجند، فأطاعوه وقاتلوا معه. فأتتهم كتب بدر يدعوهم إلى الأمان، فأجابوه إلى ذلك.
فلما علم محمد بن سليمان بالخبر سار إلى مصر، فأرسل إليه شيبان يطلب الأمان فأجابه، فخرج إليه ليلاً، ولم يعلم به أحد من الجند، فلما أصبحوا قصدوا داره ولم يجدوه فبقوا حيارى.
ولما وصل محمد مصر دخلها واستولى على دور آل طولون وأموالهم، وأخذهم جميعاً، وهم بضعة عشر رجلاً، فقيدهم، وحبسهم واستقصى أموالهم.
وكان ذلك في صفر:
وكتب بالفتح إلى المكتفي، فأمره بأشخاص آل طولون وأسبابهم من مصر والشام إلى بغداد، ولا يترك منهم أحداً، ففعل ذلك.

(٦) هذه الكلمة تبين أنه قد حدث هنا سقط بالمخطوط، وقد ذكرت ما سقط بالهامش فيما ذكره ابن الأثير من تفاصيل الأحداث.

(٧) الخبر في الكامل بنحوه، وبعده:
فساروا في شوال نحو مصر.
ثم ذكر ابن الأثير عدداً من الحوادث في تلك السنة فقال:
=

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين

وفيها: ورد الخبر بأن الخلنجي المتغلب على مصر، واقع كيغلغ وجماعة من القواد بمصر من العريش فهزمهم أقبح هزيمة[(١)].

وفيها: ورد بغداد قائد من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار مستأمناً يعرف بأبي القابوس مفارقاً عسكر البحرية مع جماعة كثيرة من أصحابه.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث تشاغل باللهو والصيد، ومضى إلى سجستان للصيد والنزهة، فاستولى على فارس الليث بن علي بن

= وفيها: أُخذ بالبصرة رجل ذكروا أنه أراد الخروج، وأخذ معه ولده، وتسعة وثلاثون رجلاً، وحملوا إلى بغداد، فكانوا يبكون ويستغيثون، ويحلفون أنهم براء.
فأمر بهم المقتفي فحبسوا.
وفيها؛ أغار أنذرونقس الرومي على مرعش ونواحيها، ونفر أهل المصيصة، وأهل طرسوس، فأصيب أبو الرجال بن أبي بكار في جماعة من المسلمين.
فعزل الخليفة أبا العشائر عن الثغور، واستعمل عليهم رستم بن بردو.
وفيها: كان الفداء على يد رستم، فكان جملة من فودي به من المسلمين ألف نفس ومائتي نفس.
وحج بالناس: الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عباس بن محمد.
وفيها: زادت دجلة زيادة مفرطة حتى تهدمت الدور التي على شاطئها بالعراق.
وفيها في العشرين من أيار: طلع كوكب له ذَنَبٌ عظيم جداً في برج الجوزاء.
وفيها: وقع الحريق ببغداد بباب الطلق من الجانب الشرقي إلى طرق الصَّفَّارين فاحترق ألف دكان مملوءة متاعاً للتجار.
وفيها: توفي أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله الكجي، ويقال: الكشي.
وفيها: توفي القاضي عبد الحميد بن عبد العزيز أبو حازم قاضي المعتضد بالله ببغداد، وكان من أفاضل القضاة.

(١) كذا ورد الخبر بالكتاب، وذكر تفصيله صاحب الكامل فقال:
وفي هذه السنة في صفر: وصل عسكر المكتفي إلى نواحي مصر، وتقدم أحمد بن كيغلغ في جماعة من القواد، فلقيهم الخلنجي بالقرب من العريش فهزمهم أقبح هزيمة.
فندب جماعة من القواد إليهم ببغداد، وفيهم إبراهيم بن كيغلغ، فخرجوا في ربيع الأول فساروا نحو مصر، واتصلت الأخبار بقوة الخلنجي، فبرز المكتفي إلى باب الشماسية ليسير إلى مصر في رجب.
فوصل إليه كتاب فاتك في شعبان يذكر أنه والقواد رجعوا إلى الخلنجي، وكانت بينهم حروب كثيرة، قتل بينهم فيها خلق كثير، وأن آخر حرب كانت بينهم قُتل فيها معظم أصحاب الخلنجي، وانهزم الباقون، وظفروا بهم، وغنموا عسكرهم وهرب الخلنجي، فدخل فسطاط مصر، فاستتر بها عند رجل من أهل البلد، فدخلنا المدينة، فدلونا عليه، فأخذناه، ومن استتر عنده، وهم في الحبس.
فكتب المكتفي إلى فاتك في حمل الخلنجي ومن معه إلى بغداد.
وعاد المكتفي، فدخل بغداد، وأمر برد خزائنه، وكانت قد بلغت تكريت، فوجه فاتك الخلنجي إلى بغداد، فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان، فأمر المكتفي بحبسهم.

الليث، وسبكري[١] مولى عمرو بن الليث يدبر الأمور والاسم لطاهر.

فوقع بينهما وبين أبي قابوس خلاف فسار إلى بغداد[٢]، فقبله [الخليفة][٣] وخلع عليه وعلى جماعة معه، وأكرمه، وكتب طاهر إلى السلطان يسأله ردّ أبي قابوس إليه، ويذكر أنه استكفاه بعض أعمال فارس، وأنه جبى المال.

فخرج معه وتسلمه إن لم يرد إليه أن يحتسب له بما ذهب به من مال فارس مما صودر عليه.

فلم يجبه السلطان إلى شيء من ذلك.

وفيها: ظهر أخ للحسين بن زكروية، صاحب الشامة من طريق الفرات، واجتمع إليه نفر من الأعراب.

فسار إلى ناحية دمشق على طريق البر فغاب وسلك سبيل أخيه[٤].

فندب للخروج إليه الحسين بن حمدان، فخرج إليه في جماعة من الجند.

ثم ورد الخبر بمسير هذا القرمطي إلى طبرية، وأن أهلها امتنعوا عليه، فحاربهم، فقتل عامة من بها من الرجال والنساء[٥]، ونهبها. وكان له[٦] داعية بنواحي اليمن فسار إلى مدينة صنعاء فحاربه أهلها وظفر بهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلاّ القليل، وتغلب

---

(١) في المخطوط: سكرى. والتصويب من الكامل.

(٢) في المخطوط: باب. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) قال صاحب الكامل في هذا القدر من الخبر:
فيها أنفذ زكرويه بن مهرويه، بعد أن قتل صاحب الشامة رجلاً كان يعلم الصبيان بالزَّابُوقة من الفلوجة يسمى عبد اللّه بن سعيد، ويكنى أبا غانم، فسمي نصراً.
وقيل: كان المنفذ ابن زكرويه فدار على أحياء العرب من كلب وغيرها، يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد إلاّ رجل من بني زياد يسمى مقدام بن الكيال واستغوى طوائف من الأصبغيين، المنتمين إلى الفواطم وغيرهم من العليصيين وصعاليق من سائر بطون كلب. فقصد ناحية الشام، والعامل بدمشق والأردن أحمد بن كيغلغ، وهو بمصر يحارب الخلنجي.
فاغتنم ذلك عبد اللّه بن سعيد، فسار إلى بصرى وأذرعات والبثنية، فحارب أهلها ثم أمّنهم، فلما استسلموا إليه قتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم.
ثم قصد دمشق، فخرج إليهم نائب ابن كيغلغ وهو صالح بن الفضل. فهزمه القرامطة، وأثخنوا فيهم، ثم أمنوهم، وغدروهم بالأمان، وقتلوا صالحاً، وفضوا عسكره، وساروا إلى دمشق فمنعهم أهلها، فقصدوا طبرية، وانضاف إليه جماعة من جند دمشق افتتنوا به فواقعهم يوسف بن إبراهيم بن بغامردي وهو خليفة أحمد بن كيغلغ بالأردن، فهزموه وبذلوا له الأمان، وغدروا به وقتلوه. ونهبوا طبرية، وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها وسبوا النساء. فأنفذ الخليفة الحسين بن حمدان وجماعة من القواد...

(٥) في المخطوط: نساء. وهو تحريف.

(٦) في المخطوط: بها. وهو تحريف.

على سائر مدن اليمن[١]. ثم إن زكرويه بن مهرويه بعدما قتل ابنه صاحب الشامة أنفذ صاحباً له مُعلماً كان يُعلم الصبيان، يُسمى[٢] عبد اللّه بن سعيد ويكنى أبا غانم فسمّى[٣] نصرا آخي[٤] أمره، فاستغوى طائفة من بطون كلب وقوم من بني العليص فقصد [١٣٨/أ] وأحمد بن كيغلغ يحارب ابن الخلنجي الذي ذكرنا أمره.

فاغتنم ذلك عبد اللّه وسار إلى مدينتي بصرى، وأذْرِعَات من كور حوران والسند فحارب أهلها ثم أمَّنَهُم.

فلما استسلموا إليه قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم.

فقصدوا طبرية، فواقعهم عامل أحمد بن كيغلغ فسكروه، ثم بدلوا الأمان فلما سكن[٥] إليهم غدروا به، وانتهبوا مدينة الأردن وسبوا النساء والصبيان وقتلوا الرجال.

واتصل بهم سير الحسين بن أحمد نحوهم، فخرجوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في توبة السماواة، وهم ينتقلون من ماء إلى ماء ويغوورونه حتى انقطع الحسين عن اتباعهم لعدم الماء، فعادوا إلى الرحبة[٦].

وأسرى[٧] القرامطة إلى هِيت[٨] وانتهب ربضها وقتلت واحترقت وانتهبت السفن

---

(١) زاد صاحب الكامل في هذا الخبر فقال: ثم اجتمع أهل صنعاء وغيرها فحاربوا الداعية فهزموه فانحاز إلى موضع من نواحي اليمن. وبلغ الخبر الخليفة فخلع على المظفر بن الحاج في شوال وسَيَّره إلى عمل باليمن، وأقام بها إلى أن مات.

(٢) في المخطوط: فسمى. وهو تحريف والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: يسمى. والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط أخي. وهو تحريف.

(٥) قال ياقوت: أذريعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ينسب إليه الخمر. وقال الحافظ أبو القاسم: أذرعات مدينة بالبقاء. وقد ذكرتها العرب في أشعارها لأنها لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله، قال بعض الأعراب:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو دُجى الظلماء ذكرتني نجدا
وهيجتني من أذرعات وما أرى ... بنجد على ذي حاجة طربا بعدا
ألم تر أن الليل يقصر طوله ... بنجد وتزداد الرياح به بردا

(٦) في الكامل: وهم ينتقلون في المياه يغورونها حتى لجأوا إلى مائين يعرف أحدهما بالدمعانة، والآخر بالحبالة، وانقطع ابن حمدان عنهم لعدم الماء وعاد إلى الرحبة.

(٧) في المخطوط: أسر. والتصويب من الكامل.

(٨) قال ياقوت في معجم البلدان: قال ابن السكيت سميت هِيتُ هيتَ لأنها هُوّة من الأرض انقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.
وقال أبو بكر سميت هيت لأنها في هوة من الأرض، والأصل فيها هَوْت فصارت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها. وهذا مذهب أهل اللغة والنحو.
وذكر أهل الأثر: أنها سميت باسم بانيها وهو هيت بن السبندي ويقال: البلندي بن مالك بن دُغر بن بويب بن عنقا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. =

التي في الفرات، وأوقرت ثلاثة آلاف راحلة كانت معها زهاء مائتي كرّ حنطة ومن البر والقطر والسفط جميع ما احتاجوا إليه، وأقاموا بها يومين، ثم رحلوا عنها، وإنما أصابوا ما أصابوا من الربض، وتحصن منهم أهل المدينة بسورها.

وندب لهم محمد بن إسحاق بن كنداجيق، ثم اتبع بمؤنس الخازن.

فهرب القرامطة وكتب إلى الحسين بن حمدان من ناحية الرحبة ليجتمع هو وابني كنداجيق على الإيقاع بهم.

فلما أحس الكلبيون بالجند قد قصدوهم ائتمروا بينهم، فوثبوا على المسمى: نصراً وقتلوه، وتقربوا إلى السلطان ـ ورئيسهم رجل يعرف بالذئب [بن القائم][١] ـ فأثبت له الجائزة وكفّ عن الطلب قومه، فمكث أياماً ثم هرب. فكتب السلطان إلى الحسين بن حمدان في معاودتهم، واجتثاث[٢] أصولهم[٣].

فبعث إليهم زكرويه داعية لهم[٤] يعلمهم أن الذئب قد نفّره عنهم، وثقّل قلبه عليهم، وأنهم قد ارتدوا عن الدين، وأن وقت ظهورهم قد حضر، وقد بايع له بالكوفة أربعون ألفاً، وأن يوم[٥] موعدهم اليوم الذي ذكره اللّه تعالى، وهو يوم الزينة.

وأن زكرويه يأمرهم أن يخفوا أمرهم ويظهروا[٦] الانقلاع نحو الشام، ثم يسيروا إلى الكوفة حتى يصبحوها يوم النحر فإنهم لا يمنعون منها[٧].

وأنه يظهر لهم وينجز وعده الذي رسله كانت تأتيهم به وأن يحملوا داعيتهم وهو القاسم بن أحمد معهم.

وامتثلوا أمره، ووافوا باب الكوفة، وقد انصرف الناس عن مصلاهم.

وكان إسحاق بن عمران عامل السلطان بها، فأوقعوا بمن لحقوه وسلبوهم، وبادر

= وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية... وفيها قبر عبد اللّه بن المبارك رحمه اللّه.

(١) زيادة من الكامل.

(٢) في المخطوط: اجتناب. والتصويب من الكامل.

(٣) في المخطوط: أحوالهم والتصويب من الكامل.

(٤) في الكامل اسمه: القاسم بن أحمد ويعرف بأبي محمد.

(٥) في المخطوط: يوماً. وهو تحريف.

(٦) في المخطوط: طهروا. وهو تحريف.

(٧) في الكامل على النحو التالي: وقد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفاً، وأن يوم موعدهم الذي ذكره اللّه في شأن موسى ﷺ وعده فرعون إذ يقول: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

ويأمرهم أن يخفوا أمرهم وأن يسيروا حتى يصبحوا الكوفة يوم النحر سنة ثلاث وتسعين ومائتين فإنهم لا يمنعون منها.

الناس إلى الكوفة وتبادروا السلاح[١].

ونهض إسحاق بن عمران في أصحابه، فدخل مدينة الكوفة من القرامطة نحواً من مائة فارس من الباب المعروف بباب كندة.

واجتمعت العوام وأصحاب السلطان فرموهم بالحجارة، وألقوا عليهم الستر فقتل منهم جماعة، وأخرجوهم من المدينة بالتمارس فلم تزل[٢] الحرب قائمة إلى العصر، وانهزمت القرامطة، وأصلح أهل الكوفة السور والخندق، وكتب إسحاق يستمد السلطان، فأمده بجماعة من القواد فيهم: وصيف بن صوارتكين[٣] [التركي][٤]، والفضل بن موسى بن بُغا الصفواني وجماعة أمثالهم، فشخصوا إلى زكرويه وخلّفوا إسحاق بن عمران بالكوفة لضبطها.

وساروا إلى قريب من القادسية إلى موضع يعرف بالصوَّان وهو في العرض، فلقيهم زكرويه قد كمن كميناً، فخرج الكمين عليهم، فهزم أصحاب السلطان أقبح هزيمة، ووضع القرمطي فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤوا وصبر جماعة من غلمان الحجرية[٥] فقتلوا عن آخرهم بعدما أنكوا في القرامطة نكاية عظيمة.

وأخذ السلطان من الجمازات التي عليها السلاح والآلة ثلاثمائة جمازة ومن البغال خمسمائة بغل وقتل من أصحاب السلطان نحو ألفي رجل، فقوى القرمطي.

ثم تطرق البيادر فأخذ من الغلات ما حملت البغال.

ووافهم قوم من العرب بباب الكوفة، فدخلوا أبياتها، وكانوا ضربوا على الداعية

---

(١) في الكامل: فامتثلوا رأيه ووافوا باب الكوفة وقد انصرف الناس عن مصلاّهم، وعاملهم إسحاق بن عمران، ووصلوا في ثمانمائة فارس عليهم الدروع والجواشن والآلات الحسنة وقد ضربوا على القاسم بن أحمد قبة وقالوا: هذا أثر رسول الله ﷺ، ودعوا: يا لثارات الحسين - يعنون الحسين بن زكرويه المصلوب ببغداد - وشعارهم: يا أحمد، يا محمد يعنون ابني زكرويه المقتولين.
فأظهروا الأعلام البيض وأرادوا استمالة رعاع الناس بالكوفة بذلك، فلم يمل إليهم أحد. فأوقع القرامطة بمن لحقوه من أهل الكوفة، وقتلوا نحواً من عشرين نفساً.

(٢) في المخطوط: يرل. وهو تحريف.

(٣) في المخطوط: صوانكى. والتصويب من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل.

(٥) في المخطوط: الحجر. والتصويب من الكامل، ثم قال بعدها إتماماً للخبر.
وأما القرامطة فإنهم أنفذوا واستخرجوا زكرويه من جب في الأرض كان منقطعاً فيه سنين كثيرة بقرية الدُّرية، وكان على الجب باب حديد محكم العمل.
وكان زكرويه إذا خاف الطلب جعل تنوراً هنالك على باب الجب وقامت امرأة تسجره فلا يفطن إليه، وكان ربما أخفى في بيت خلف الدار التي كان بها ساكناً فإذا انفتح باب الدار انطبق على باب البيت فيدخل الداخل فلا يرى شيئاً. فلما استخرجوه حملوه على أيديهم وسموه ولي الله.

الذي يقال له القاسم بن أحمد فيه، ودعوا يا لثارات الحسين ـ يعنون الحسين بن زكرويه المصلوب ـ وشعارهم: يا أحمد، يا محمد ـ يعنون ابني زكريا المقتولين.

وأظهروا أعلاماً بيضاً وقدّروا أنهم يُسْتَتْبَعُون الرعاع بالكوفة، فلما أظهروه أسرع إسحاق بن عمران ومن معه نحوهم فدفعهم وقتل من ثبت له منهم، وعاونه أهل البلد، فانصرف عنهم القرامطة وما تمت حيلتهم.

وكان زكرويه قد ظهر في قرية الصفوان ينقلونه على أيديهم ويسمونه ولي اللّه، فلما رأوه سجدوا له[1].

فقال لهم: إن القاسم بن أحمد أعظم الناس مِنَّة عليكم فإنه ردكم إلى الدين بعد خروجكم، وتقدم إليهم أن يمتثلوا أمره فإنه حينئذٍ ينجز ما وعدهم ويبلغهم آمالهم[2]، وتلا عليهم آيات من القرآن رمزها لهم فاعترفوا به وقويت قلوبهم، وأيقنوا بالنصر وبلوغ الأمل[3].

وسار بهم وهو محجوب عنهم يدعونه السيد ولا يبرزونه لمن في عسكره والقاسم يتولى الأمر دونه يمضيها على رأيه.

وكان عنده أهل الكوفة وسوادها يخرجون إليه، فأعلم أصحابه بذلك.

وأقام نيفاً وعشرين يوماً ينتظر أهل السواد فلم يلحق به إلاّ خمسمائة ومن لحقته الشهوة بنسائهم وأولادهم.

وسَرّب إليه السلطان الجنود، وتسرع إليه جماعة من القواد منهم جني الصفواني، وبشر الأفشيني، ورائق[4] [الخزري مولى][5] أمير المؤمنين، والحجرية والغلمان، فأوقعوا بالقرامطة، وقتلوا جماعة من فرسانهم ورجالهم، فانهزموا دخلوا البيوت، وتشاغلوا فعطف القرامطة عليهم فهزموهم وأعظم [١٣٨/ب] الناس ما جرى على أصحاب السلطان بالصوان وغيرها.

وأهمّ السلطان أمر ابن الخلنجي، فأمر المكتفي بإخراج مضاربه إلى باب الشماسية

---

(١) بعدها في الكامل: وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته.
(٢) العبارة في المخطوط على النحو التالي: حينئذٍ يحرموا عنده وبلغهم آمالهم. والتصويب على ضوء ما في الكامل.
(٣) العبارة في الكامل على النحو التالي: ورمز لهم رموزاً ذكر فيها آيات من القرآن نقلها عن الوجه الذي أنزلت فيه، فاعترف له من رسخ حُبّ الكفر في قلبه أنه رئيسهم وكهفهم، وأيقنوا بالنصر وبلوغ الأمل، وسار بهم وهو محجوب. . .
(٤) في المخطوط: ورانلومى. والتصويب من الكامل.
(٥) زيادة من الكامل.

ووردت خريطة من قبل فاتك [في شعبان يذكر أنه والقواد رجعوا إلى][١] ابن الخلنجي فكانت بينهم وقعات وحروب، [كثيرة قتل فيها بينهم خلق كثير][٢]. وفي آخرها هزم الخلنجي وقتل أصحابه، وأنه هرب إلى مصر، ودخل الفسطاط، فاستتر بها عند رجل من أهل البلد.

واستثاروه[٣] وجميع من كان في البلد، فكتب إلى فاتك بحمل ابن الخلنجي ومن أسر معه إلى بغداد.

وردت مضارب المكتفي إلى بغداد، فحمل ابن الخلنجي إلى بغداد مع إحدى وعشرين رجلاً مطي الجمال مشهرين ببرانس ودراريع حرير[٤]. وخلع المكتفي على وزيره العباس بن الحسن خلعاً لحسن تدبيره في هذا الفتح

ثم حمل رأس القرمطي نصر الذي انتهب هيت على قناة وطيف به في الجانبين[٥].

---

(١) في المخطوط: من قبل فاتك يذكر أنهم إلى ابن الخلنجي. فأضفت ما سقط، وضبت العبارة وجعلتها بين معقوفين.

(٢) زيادة من الكامل.

(٣) ربما كانت الكلمة: فأسروه فحرفت، وفي الكامل فأخذناه ومن استتر عنده.

(٤) في الكامل: في شهر رمضان، فأمر المكتفي بحبسهم.

(٥) هذا ما ذكره ابن مسكويه في أحداث تلك السنة، وزاد عليه ابن الأثير في أحداثها أحداثاً فقال:
في هذه السنة: ولي المكتفي باللّه الموصل وأعمالها أبا الهيجاء عبد اللّه بن حمدان بن حمدون التغلبي العدوي.
فسار إليها فقدمها أول المحرم، فأقام بها يومه وخرج من الغد لعرض الرِّجال الذين قدموا معه والذين بالموصل.
فأتاه الصريخ من نينوى بأن الأكراد الهذبانية ومقدمهم محمد بن بلال قد أغاروا على البلد وغنموا كثيراً منه، فسار من وقته وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، فلحق الأكراد بالمعروبة على الخازر، فقاتلوه، فقتل رجل من أصحاب اسمه سيما الحمداني فعاد عنهم.
وكتب إلى الخليفة يستدعي النجدة، فأتته النجدة بعد شهور كثيرة.
وقد انقضت سنة ثلاث وتسعين، ودخلت سنة أربع وتسعين، ففي ربيع الأول منها [ذكرت هذه الأحداث على الرغم من تصريحه بأنها كانت في سنة أربع وتسعين لكونه لم يذكرها في أحداث السنة المذكورة] سار فيمن معه إلى الهذبانية، وكانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت، فلما رأوا جدّه في طلبهم ساروا إلى البابة التي في جبل السلق وهو مضيق في جبل عال مشرف على شهرزور فامتنعوا.
وغار مقدمهم محمد بن بلال وقرب من ابن حمدان وراسله في أن يطيعه ويحضر هو وأولاده ويجعلهم عنده يكونون رهينة ويتركون الفساد، فقبل ابن حمدان ذلك. فرجع محمد ليأتي بمن ذُكِرَ، فحثَّ أصحابه على المسير نحو أذربيجان وإنما أراد في الذي فعله مع ابن حمدان أن يترك الجدّ في الطلب ليأخذ أصحابه أهبتهم ويسيرون آمنين.
فلما تأخر عوده محمد عن ابن حمدان عَلِمَ مراده، فجرَّدَ معه جماعة من جملتهم إخوته سليمان، وداود، وسعيد، وغيرهم ممن يثق به وبشجاعته، وأمر النجدة التي جاءت من الخليفة أن =

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائتين

وفيها(١): ورد الخبر أن زكرويه بن مهرويه القرمطي ارتحل من موضعه(٢) يريد الحاج.

فذكر أنه مضى في البر من جهة الشرق قريباً من الواصقة، ووافت القافلة لسبع خلون من المحرم.

فأنذرهم(٣) أهل المنزل وأخبروهم أن بينهم وبين القوم أربعة ليال.

فلم يقيموا وارتحلوا، فخفوا، وأمضت القافلة في السير.

وسار القرمطي إلى واقصة، فسألهم(٤) عن القافلة، فأخبروه أنها لم تقم بواقصة،

= يسيروا معه فتثبطوا فتركهم، وسار يقفو أثرهم، فلحقهم، وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فقتل منهم جماعة، وصعدوا ذروة الجبل.

وانصرف ابن حمدان عنهم ولحق الأكراد بأذربيجان، وأنهى ابن حمدان ما كان من حالهم إلى الخليفة والوزير، فأنجدوه بجماعة صالحة.

وعاد إلى الموصل فجمع رجاله وسار إلى جبل السلق، وفيه محمد بن بلال ومعه الأكراد فدخله ابن حمدان والجواسيس بين يديه خوفاً من كمين يكون فيه، وتقدم من بين يدي أصحابه وهم يتبعونه، فلم يتخلف منهم أحد، وجاوزوا الجبل وقاربوا الأكراد وسقط عليهم الثلج، واشتد البرد وقلت الميرة والعلف عندهم، وأقام على ذلك عشرة أيام.

وبلغ حمل التبن ثلاثين درهماً، ثم عدم عندهم وهو صابر.

فلما رأى الأكراد صبرهم، وأنهم لا حيلة لهم في دفعهم لجأ محمد بن بلال وأولاده ومن لحق به، واستولى ابن حمدان على بيوتهم وسوارهم، وأهلهم، وأموالهم، وطلبوا الأمان فأمنهم وأبقى عليهم وردهم إلى بلدٍ حرة، ورد عليهم أموالهم وأهليهم، ولم يقتل منهم غير رجل واحد، وهو الذي قتل صاحبه سيما الحمداني.

وأمنت البلاد معه، وأحسن السيرة في أهلها.

ثم إن محمد بن بلال طلب الأمان من ابن حمدان، فأمنه وحضر عنده وأقام بالموصل. وتتابع الأكراد الحميدية، وأهل جبل داسن إليه بالأمان، فأمنت البلاد واستقامت.

وفيها: أغارت الروم على قورس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ثم انهزموا وقتلوا أكثرهم وقتلوا رؤساء بني تميم.

ودخل الروم قورس فأحرقوا جامعها، وساقوا من بقي من أهلها.

وفيها: افتتح إسماعيل بن أحمد الساماني ملك ما وراء النهر مواضع من بلاد الترك ومن بلاد الديلم.

وحج بالناس: محمد بن عبد الملك الهاشمي.

وفيها: توفي نصر بن أحمد الحافظ في رمضان، وأبو العباس عبد الله بن محمد الشاشاني الشاعر الكاتب الأنباري.

(١) في الكامل: في هذه السنة في المحرم.

(٢) في الكامل: من نهر المثنية.

(٣) في المخطوط: فآندهم، والتصويب من الكامل.

(٤) في المخطوط: فسأله. وهو تحريف.

فاتهمهم بإنذارهم، فقتل من العلافين بها جماعة، وأحرق العلف.

وتحصن أهلها في حصنهم، ثم ارتحل نحو زُبالة وسارت العساكر في طلب زكرويه مدّة ثم انصرف عنه وعن زكرويه في طريقه بطوائف من بني أسد، فأخذها معه وقصد الحاج المنصرفين عن مكة، وقصد الجادة، ثم اعترضهم يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من المحرم من هذه السنة، بالعقبة من طريق مكة، فحاربوه حرباً شديداً.

فسألهم: أفيكم السلطان؟

قالوا: نعم معنا سلطان، ونحن الحاج.

فقال لهم: فامضوا فلست أريدكم.

فلما سارت القافلة تبعها، فأوقع بهم وجعل أصحابه ينخثون الجمال بالرماح ويعجرونها بالسيوف فتعرن، فاختلطت القافلة، فأكب أصحاب زكرويه على الحاج فقتلوهم كيف شاؤوا فقتلوا الرجال والنساء وسبوا من النساء من أرادوا، واحتووا على القافلة، وقد كان لقي من أفلت من هذه القافلة علان بن كشمرد، وكان في قطعة من فرسان جيش السلطان أنفذ لقصد القرامطة.

فسألهم عن الخبر فأعلموه ما نزل بقافلة الخراسانية، وقالوا: ما بينك وبين القوم إلا قليل، والليلة أو في غد وافى القافلة الثانية، فإن رأوا علماً للسلطان قويت نفوسهم فاللّه اللّه فيهم.

فرجع علان من ساعته، وأمر من معه بالرجوع وقال: لا أعرض أصحاب السلطان للقتل.

ثم أصعد زكرويه، ووافته القافلة الثانية، والثالثة، ومن كان فيها من القواد والكتاب مع جماعة من الرسل، فتنكبوا طريق الجادة، وكتبوا بخبر الفاسق وفعله بالحجاج، ويعلمهم بالتحرز منه، والعدول عن الجادة نحو واسط، والبصرة أو الرجوع إلى فَيْد والمدينة، أو أن يلحق بهم الجيوش.

ووصلت الكتب إليهم، فلم يسمعوا ولم يلبثوا وتقدم أهل القافلة الثانية، وفيها المبارك التميمي، وأحمد بن نصر العقيلي، فوافوا الفجرة وقد رحلوا عن الواقصة وغوروا مياهها وملأوا بركها وآبارها بجيف الإبل والدواب التي كانت معهم مشققة بطونها[1].

---

(١) وأتم ابن الأثير فقال: والحجارة والتراب بواقصة والثعلبية، والعقبة وغيرها من المناهل في جميع طريقهم.
وأقام بالهبيرة ينتظر القافلة الثالثة، فساروا فصادفوه هناك فقاتلهم زكرويه ثلاثة أيام، وهم على غير ماء، فاستسلموا لشدة العطش، فوضع فيهم السيف وقتلهم عن آخرهم، وجمع القتلى كالتل.

وورد منزل العقبة لاثنتي عشرة خلت من المحرم. فحاربهم أهل القافلة، وكان أبو العشائر مع أصحابه في أول القافلة.

ومبارك القمي فيمن معه في ساقتها.

فجرت بينهم حرب شديدة حتى كشفوهم وأشرفوا على الظفر، فوجد الفجرة من ساقتهم غرة فركبوهم من جهتها، ووضعوا رماحهم في جنوب إبلهم وبطونها فحطمتهم[١] الإبل، فتمكنوا منهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم إلاّ من استبدوه.

ثم أنفذوا إلى ما دون العقبة فوارس لحقوا من كان أفلت من السيف، فأعطوهم الأمان فرجعوا فقتلوهم عن آخرهم.

وسبوا من اختاروا من النساء، وحملوا الأموال، والأمتعة، وقتلوا مبارك القمي، والمظفر ابنه، وأسروا أبا العشائر.

وجمع القتلى، فوضع بعضهم على بعض حتى صاروا كالتل العظيمة. ثم قطعت يدا أبا العشائر ورجلاه وضربت عنقه وأطلقوا من النساء من لم يرغبوا فيها[٢].

وأفلت من الجرحي قوم، ووقعوا بين القتلى فتحاملوا في الليل ومضوا فمنهم من مات في الطريق، ومنهم من نجا، وهم قليل.

وكانت نساء القرامطة مع صبيانهن يطفن [بالماء][٣] في القتلى فمن كلمهن[٤] منهم أجهزن[٥] عليه.

وكان في القافلة زهاء عشرين ألف رجل قتل جميعهم غير نفر يسير، ممن قوي على العدو بغير زاد.

ومن وقع في القتلى وهو جريح، فأفلت يعدو، ومن استعبدوه لخدمتهم.

وكانت كتب النصرانيين بالعراق ترد أنهم يستعتبون وذاك أن طولون والقواد، والمصريين الذين شخصوا إلى مدينة السلام ومن كان في مثل حالهم، قد وجهوا في حمل ما لهم من مصر إلى مدينة السلام، وقد سبكوا أواني الفضة والذهب والحلي قفازاً وحمل إلى مكة ليوافوا مدينة السلام مع الحاج.

فحمل إلى القوافل الشاخصة إلى بغداد، فذهب ذلك كله.

ولما فرغ القرمطي من الحاج وأخذ الأموال واستباح الحرم رحل من وقته من

---

(١) في المخطوط: فحطمهم. وهو تحريف.
(٢) في المخطوط: ما لم يرغبوا فيه. وما أثبته أقرب إلى الصواب مما هو مثبت بالمخطوط.
(٣) زيادة من الكامل.
(٤) في المخطوط: كلهم.
(٥) في المخطوط: أجهزوا.

العقبة بعد أن ملأ البرك والآبار بالجيف من الناس والدواب(١).

[١٣٩/أ] وورد الخبر بذلك على السلطان، فاستعظم الناس جميعاً ذلك.

وندب السلطان أيوب بن محمد صاحب الخراج والضياع بالمشرف للخروج إلى الكوفة والمقام بها لإنفاذ الجيش إلى القرمطي.

فخرج وحمل أموالاً كثيرة لإعطاء الجند.

ثم سار زكرويه إلى زُبالة فنزلها، وبث طلائع أمامه ووراءه خوفاً من أصحاب السلطان المقيمين بالقادسية أن يلحقوه ومتوقعاً ورود القافلة الثالثة، التي فيها الأموال والتجار.

ثم ساروا إلى التغلبية، ثم إلى الشقوق وأقام هناك ينتظر القافلة، وفيها جماعة من القواد نفيس ومعه الشمسة، وكان المعتضد جعل في الشمسة جوهراً نفيساً.

وكان في القافلة جماعة من وجوه الكُتاب وغيرهم فلما سار أهل هذه القافلة إلى فَيْد بلغهم خبر زكرويه وأصحابه، وأقاموا بفيد أياماً ينتظرون تقوية لهم من قِبل السلطان.

وسار زكرويه إلى فيد وبها عامل السلطان فلجأ منه إلى أحد حصنيها مع مائة رجل، وشحن الحصن بالآخر والرجال.

فجعل زكرويه يراسل أهل فيد في أن يسلموا عاملهم ومن فيهم من الجند وأنهم إن فعلوا ذلك أمَّنهم.

فلم يجيبوه إلى ما قال، فحاربهم فلم يظفر منهم بشيء.

فتنحى إلى النباح(٢) [ثم](٣) إلى جعفر أبي موسى.

ثم أنهض المكتفي وصيف بن صوارتكين ومعه من القواد جماعة [فتوجه](٤) إليه.

فلقيه يوم السبت لثمان بقين [من] شهر ربيع الأول، فاقتتلوا يومهم، ثم حجز بينهم الليل، فباتوا ليلتهم يتحارسون.

ثم عاودوهم القتال، فظفر بهم جيش السلطان فقتل منهم مقتلة عظيمة، وخلصوا إلى زكرويه فضربه بعض الجند بالسيف وهو مولٍ على قفاه ضربة اتصلت بدماغه، فأخذ أسيراً وجماعة من أقربائه وخاصته منهم ابنه وكاتبه وزوجته.

---

(١) في الكامل: وكان مبلغ ما أخذوه من هذه القافلة ألفي ألف دينار.
وكان في جملة ما أخذوا فيها أموال الطولونية وأنشابهم، فإنهم لما عزموا على الانتقال من مصر إلى بغداد خافوا أن يستصحبوها فتؤخذ منهم فعملوا الذهب والنقرة سبائك وجعلوها في حدائج وجميع ما لهم من الحُلي والجوهر، وسيروا الجميع إلى مكة سراً، وسار من مكة في هذه القافلة فأخذت.

(٢) في الكامل: الساج.

(٣) زيادة من الكامل.

(٤) زيادة من الكامل

وعاش زكرويه خمسة أيام ثم مات. . . .[١]

ثم حمل بهيئته وانصرف وصيف بمن كان جاء في يده من الأسرى.

ثم التقطت القرامطة، واستأمن قوم منهم[٢].

تم الجزء الرابع، ويليه الجزء الخامس

وأوله: خلافة المقتدر بالله

---

(١) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها هذا رسمها: «فسق». وقد تكون: فشق، لكن السياق بعدها لا يفيد ذلك.

(٢) في الكامل: وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسيرت جيفته والأسرى إلى بغداد، وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان، وحُمِلَ رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحجاج، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلما أخذوهما سيروهما إلى بغداد.
وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس.
ثم ذكر ابن الأثير عدة حوادث في هذه السنة لم يذكرها ابن مسكويه فقال:
وفي هذه السنة: غزا ابن كيغلغ الروم من طرسوس، فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبي ودواب ومتاعاً. ودخل بِطرِيق من بطارقة الروم في الأمان، وأسلم.
وفيها: غزا ابن كيغلغ الروم فبلغ شكند، وافتتح الله عليه، وسار إلى الليس فغنموا نحواً من خمسين ألف رأس، وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا سالمين.
وكاتب اندرونقس البطريق المكتفي بالله يطلب منه الأمان، وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم. فأعطاه المكتفي ما طلب. فخرج ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا في حصنه.
وكان ملك الروم قد أرسل للقبض عليه فأعطى المسلمين سلاحاً وخرجوا معه فقبضوا على الذي أرسله ملك الروم ليقبض عليه ليلاً، فقتلوا ممن معه خلقاً كثيراً وغنموا ما في عسكرهم.
فاجتمعت الروم على اندرونقس ليحاربوه فسار إليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين، فبلغوا قونية، فبلغ الخبر إلى الروم، فانصرفوا عنه وسار جماعة من ذلك العسكر إلى اندرونقس وهو بحصنه، فخرج ومعه أهله وماله إليهم، وسار معهم إلى بغداد.
وأخرب المسلمون قونية، فأرسل ملك الروم إلى الخليفة المكتفي فطلب الفداء.
وفيها: ظهر بالشام رجل يدعي أنه السفياني فأخذ وحمل إلى بغداد فقيل: إنه موسوس.
وفيها: كانت وقعة بين الحسين بن حمدان وبين أعراب من بني كلب وطيء واليمن، وأسد، وغيرهم.
وفيها: حاصر أعراب طيّىء وصيف بن صوارتكين بفيد، وقد سَيّره المكتفي أميراً على الموسم فحصروه ثلاثة أيام. ثم خرج فواقعهم فقتل منهم قتلى، ثم انهزمت الأعراب، ورحل وصيف بمن معه.
وحج بالناس هذه السنة: الفضل بن عبد الله الهاشمي.
وفيها: توفي صالح بن محمد الحافظ الملقب بجزره البغدادي.
وأبو عبيد الله محمد بن نصر المروزي الفقيه الشافعي، وكان موته بسمرقند وله تصانيف كثيرة.
وفيها: قتل محمد بن إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه بطرق مكة قتله القرامطة حين أخذوا الحاج.
قال سيد بن كسروي إلى هنا كان التمام من تحقيق ما وكل إليّ بتحقيقه من كتاب تجارب الأمم لمسكويه ابتداءاً من سنة أربع وثلاثين ومائتين إلى هذا الموضع شاكراً الله تعالى على الإتمام سائله سبحانه وتعالى لي ولسائر المسلمين حسن الختام بالموت على دين الإسلام اللّهم آمين. اللّهم آمين. اللّهم آمين.

فهرس المحتويات

تجارب الأمم

وتعاقب الهمم

تأليف

أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه

المتوفى سنة ٤٢١ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الخامس

يحتوي على الحوادث التي جرت منذ خلافة المقتدر بالله العباسي سنة ٢٩٥ هـ
حتى سنة ٣٦٩ هـ من خلافة الطائع لله العباسي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban


ISBN 2-7451-3414-0
90000>
9782745134141

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خلافة المقتدر بالله

وبويع جعفر بن المعتضد باللّه وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكنيته أبو الفضل

ذكر ما جرى في ذلك

لما ثقل المكتفي في علّته فكر العباس بن الحسن وهو الوزير فيمن يقلّده الخلافة وترجح رأيه وكان يركب من داره إلى دار السلطان ويسايره واحد من الأربعة الذين يتولّون الدواوين وهم أبو عبد اللّه محمد بن داود بن الجرَّاح وأبو الحسن محمد بن عبدون وأبو الحسن بن الفُرات وأبو الحسن علي بن عيسى فركب معه محمد بن داود فشاوره العباس فأشار بأبي العباس عبد اللّه بن المعتزّ فقرّظه ووصفه. ثم ركب معه في اليوم الثاني أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات فشاوره فقال له هذا شيء ما جرت به عادتي. واستعفاه وقال: إنما أشاور في العمال. فأظهر العباس غضباً وقال: هذه محاجزة وليس يخفى عليك الصحيح. وألحّ عليه فقال له: إن كان رأى الوزير قد تقرر على إنسان بعينه فليستخر اللّه ويمضي عزمه. قال ابن الفرات فعلم أني قد عنيت ابن المعتز لاشتهار الخبر به فقال لي: ليس أريد منك إلا أن تمحضني النصيحة. فقلت له: إذا أراد الوزير ذلك فإني أقول: «اتق اللّه ولا تنصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن لقي الناس ولقوه وعرف الأمور وتحنك وحسب حساب نعم الناس» قال فاستعاذ ذلك مني الوزير دفعات ثم قال: فبمن تشير فقلت بجعفر بن المعتضد فقال ويحك جعفر صبي قلت إلا أنه ابن المعتضد ولِمَ تجيء برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ولـِمَ لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت.

ثم شاور أبا الحسن علي بن عيسى في اليوم الثالث واجتهد به أن يُسمّي له أحداً فامتنع وقال: أنا لا أشير بأحد ولكن ينبغي أن يتّقي اللّه وينظر للدين فمالت نفس العباس ابن الحسن إلى رأي أبي الحسن بن الفرات ووافق ذلك ما كان المكتفي عهد به من تقليد أخيه جعفر الخلافة. فلما مات المكتفي آخر نهار يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة نصب الوزير العباس جعفراً في الخلافة على كراهية منه لصغر سنه. ومضى

صافي الحُرمي فحدره من دار ابن طاهر فلما اجتازت الحراقة التي حدر فيها وانتهت إلى دار العباس بن الحسن صاح غلمان العباس بالملاح أن ادخل. فوقع لصافي الحرمي أن العباس إنما يريد أن يدخله إلى داره لتغيّر رأيه فيه وأشفق أن يعدل عنه إلى غيره فمنع الملاح من الدخول وجرّد سيفه وقال للملاح: إن دخلت رميت برأسك. فانحدر وجهاً واحداً إلى دار السلطان.

فتم أمر جعفر ولقب المقتدر باللّه وأطلق السلطان يد العباس فأخرج المال للبيعة. وحكى القاضي أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي أن القاضي أبا عُمر محمد بن يوسف حدّثه أن العباس بعد إتمامه أمر المقتدر استصباه وكثر كلام الناس فعمل على أن يحلّ أمره ويقلّد أبا عبد اللّه محمد بن المعتمد على اللّه. وكان أبو عبد اللّه بن المعتمد حسن الفعل جميل المذاهب فوسّط الوزير أمره بينه وبينه القاضي أبا عُمر. وسامَهُ اليمين فقال ابن المعتمد: إن لم تصح نيّتهُ لم تغن فيه اليمين وإن صحت استغنى عنها. وله اللّه راع وكفيل على أني لا أغدر به ولا أنكبه.

وكان العباس ينتظر بأمره قدوم بارس الحاجب غلام إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان فإنه كان ورد كتابه وقدّر أنه يستظهر به وبمن معه على غلمان المعتضد، فتمادت الأيام بقدوم بارس. ووقع بين ابن عمرويه صاحب الشرطة ببغداد وبين أبي عبد اللّه محمد بن المعتمد منازعة فاجتمعا يومئذٍ في مجلس الوزير العباس بن الحسن وجرى بينهما خطابٌ، فأربى عليه ابن عمرويه في الكلام ولم يكن علم بما رشّح له ولم يمكن أبا عبد اللّه أن ينتصف منه لمحله فاغتاظ غيظاً شديداً كَظَمَهُ فغشي عليه وفُلجَ في المجلس فاستدعى العباس عمّاريّةً وأمر بحمله فيها إلى داره فحُمل ولم يلبث أن مات فعمل العباس على تقليد أبي الحسين من ولد المتوكل على اللّه مكانه فمات أيضاً، وتمّ أمر المقتدر.

ودخلت سنة ست وتسعين ومائتين

وفيها كانت فتنة عبد اللّه بن المعتز

ذكر الخبر عن ذلك

كان التدبير يقع بين محمد بن داود بن الجرّاح مع الحسين بن حمدان على إزالة أمر المقتدر باللّه ونصب عبد اللّه بن المعتز مكانه، وواطأ على ذلك جماعة من القوّاد والكُتّاب والقُضاة. فركب يوماً العباس بن الحسن يريد بُستانه المعروف ببستان الورد فاعترضه الحسين بن حمدان وعَلاهُ بالسيف وقتله وكان إلى جانبه فاتك المعتضدي يُسايره فصاح بالحسين منكراً عليه فعطف عليه الحسين وقتله. واضطرب الناس وركض

الحسين بن حمدان قاصداً إلى الحلبة مُقدّراً أن المقتدر هناك يضرب بالصوالحة فيقتله، فلما سمع المقتدر الضجة بادر بالدخول إلى داره وغلقت الأبواب دون الحسين. فانصرف إلى الدار المعروفة بسليمان بن وهب بالمخرم وبعث إلى عبد اللّه بن المعتزّ يُعرفه تمام التدبير، فنزل عبد اللّه من داره التي على الصّراة وعبر إلى المخرَّم. وحضر القواد والجند وأصحاب الدواوين ومنهم علي بن عيسى ومحمد بن عبدون وحضر القضاة ووجوه الناس سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر فبايع من حضر عبد اللّه بن المعتزّ وخوطب بالخلافة وانعقد له الأمر ولقب المرتضى باللّه واستوزر أبا عبد اللّه محمد بن داود بن الجرّاح. وقلد علي بن عيسى الدواوين والأصول ومحمد بن عبدون دواوين الأزِمة ونفذت الكتب إلى الأمصار كلها عن عبد اللّه بن المعتزّ ووجه إلى المقتدر باللّه يأمره بالانصراف إلى دار ابن طاهر مع والدته لينتقل هو إلى دار الخلافة فأجيب بالسمع والطاعة.

وعاد الحسين بن حمدان من غدٍ إلى دار الخلافة فقاتله من فيها من الخدم والغلمان والحشم ومن كان هناك من الرجَّالة من وراء السور ودفعوه عن الدار فانصرف في آخر النهار وحمل ما قدر عليه من ماله وحرمه وولده وسار بالليل إلى الموصل. ولم يكن بقي مع المقتدر من رؤساء القُوّاد غير مونِس الخادم ومونس الخازن وغريب الخال والحاشية فلما راسل ابن المعتز المقتدر بالانصراف إلى دار ابن طاهر قالت هذه الجماعة بعضها لبعض: يا قوم نسلّم الأمر هكذا؟ لِمَ لا نجرّد أنفسنا في دفع ما قد أظلنا فلعل اللّه أن يكشفه عنّا. فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في شذاءات ومعهم جماعة ففعلوا ذلك وألبسوا الجماعة الجواشن والخُوَذ والسلاح وصاروا إلى دار المخرّم. فلما قربوا منها وراءهم من كان فيها على شاطئ دجلة قالوا: شذاءات مصعدة من دار السلطان. ووقع الرعب في قلوبهم فتطايروا على وجوههم قبل أن تجري بينهم حرب وقبل وصول الشذاءات إلى الدار. وخرج عبد اللّه بن المعتز ومعه وزيره محمد بن داود وحاجبه يُمْن. وقد شهر يُمْن سيفه وهو ينادي معشر العامة ادعوا اللّه لخليفتكم. وأخذوا طريق الصحراء تقديراً منهم أن يتبعهم الجيش ويصيروا إلى سُرَّ مَن رأى فيثبت أمرهم فلم يتبعهم أحد. فلما رأى محمد بن داود نزل عن دابته لما حاذى داره ودخلها واستتر ونزل أبو عبد اللّه بن المعتز في موضع آخر ومشى إلى دجلة وانحدر إلى دار أبي عبد اللّه بن الجصاص ودخلها واستجار به. ففرّ الناس على وجوههم ووقعت الفتنة والنهب والغارة والقتل ببغداد وكان محمد بن عَمْرَويه صاحب الشُّرطة فركب وقاتله العامة لأنه كان من أكبر أعوان عبد اللّه بن المعتز فهزموه. وقلّد المقتدر مكانه من يومه مونساً الخازن.

وكان خرج في الوقت الذي خرج فيه ابن المعتز من داره أبو الحسن علي بن

عيسى ومحمد بن عبدون مع من خرج من دار عبد اللّه بن المعتز واستترا في منزل رجل يبيع البقل. ونذر بهما العامة فكبسوهما وأخرجوهما وسلّموهما إلى بعض خدم المقتدر المجتازين في الطرق فأركبهما جميعاً على بغل أكّاف كان معه ولحقهما في الطريق من العامة أذى شديد حتى حصلا في الدار ووكل بهما.

وقبض في ذلك اليوم على وصيف بن صوراتكين وخرطامش ويُمن وفاتك وجماعة ممن كان حاضراً دار ابن المعتز وفيهم القاضي أبو عمر محمد بن يوسف والقاضي أبو المثنى أحمد بن يعقوب والقاضي محمد بن خلف بن وكيع واعتقل الكل في دار الخلافة وسلّموا إلى مونس الخازن ثم أمر بقتلهم أجمعين فقتلهم تلك الليلة سوى علي بن عيسى ومحمد بن عبدون والقاضي أبي عمر والقاضي محمد بن خلف فإن هؤلاء سلموا.

وأنفذ المقتدر مونساً الخازن إلى دار أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات التي كان ينزلها بسوق العطش بعد أن أعطاه خاتمه وأعلمه أنه يريد أن يستوزره. وكان ابن الفرات مستتراً بالقرب من داره فلم يظهر له. فأعيد إليه مرّة أخرى فرفق بالجيران وأعلمهم أنه يستوزر فظهر له وقت العصر من ذلك اليوم وصار به إلى دار السلطان ووصل إلى المقتدر وقلّده وزارته ودواوينه وعاد إلى داره بسوق العَطَش. وبكّر يوم الاثنين وهو غد ذلك اليوم فخُلع عليه خلع الوزارة وسار بين يديه القوّاد بأسرهم. وخلع في ذلك اليوم على مونس الخازن بسبب تقلُّده الشرطة. وأطلق ابن الفرات للجند مالاً لصلةٍ ثانيةٍ وجدَّد البيعة للمقتدر.

ذكر الخبر عن الظفر بعبد اللّه بن المعتز

صار خادمٌ لأبي عبد اللّه بن الجصّاص يعرف بسوسن إلى صافي الحُرمي يسعى بأن عبد اللّه بن المعتز مستتر في دار مولاه فأنفذ المقتدر باللّه صافياً الحرمي في جماعة حتى كبس منزل أبي الجصاص واستخرج منه عبد اللّه بن المعتز فحمله وحمل معه أبا عبد اللّه بن الجصاص إلى دار السلطان. ثم صودر ابن الجصاص على مال بذلهُ وأطلقه إلى منزله بعد أن تكفل به الوزير أبو الحسن بن الفرات.

وسُلم علي بن عيسى ومحمد بن عبدون إلى أبي الحسن بن الفرات وناظرهما بمراسلة وصادرهما وخفف عن علي بن عيسى وثقلها على محمد بن عبدون لعداوة كانت بينهما وقال للمقتدر: لم يكن لهذين في أمر ابن المعتز صنع وتكفل بهما وبالقاضي محمد بن خلف بن وكيع وخلصهم. ثم نفى محمد بن عبدون إلى الأهواز وأمر بتسليمه إلى محمد بن جعفر العبرتايّ ونفى علي بن عيسى إلى واسط بعد أن افتداه من ماله بخمسة آلاف دينار دفعها إلى سُوسَن الحاجب واستكفّه بها عنه فإنه كان يغري

به ويقول: كان مطابقاً لِعَمّهِ. وظهر موت عبد اللّه بن المعتز في دار السلطان ودفع إلى أهله ملفوفاً في زلّي برذون. وتم ما كان في سابق علم اللّه عزّ وجلّ وحكم به من ثبات أمر المقتدر وبطل اجتهاد المخلوقين وحيلهم في إزالته.

فأما محمد بن داود فحكى أبو علي محمد بن علي بن مقلة قال: كنا بحضرة الوزير أبي الحسن في يوم هو فيه مُتخلٍ ودخل إليه بعض غلمانه فسارّه فظهر منه غم شديد. وإذا هو قد أبلغ قتل محمد بن داود وقال: كان مع عداوته لي رجلاً عاقلاً كثير المحاسن يجمع إلى صناعته كتابة الخراج والجيش والبلاغة والفقه والأدب والشعر وكان كريماً سخياً وقد جرى عليه من القتل أمر عظيم. ثم لعن علي بن الحسين القُنّاي النصراني وقال: هو غرّ هذا الرجل فإن ما كان بينه وبينه من المودّة مشهور فخلّص نفسه وقتل صديقه.

ذكر ما عمله القُنّاي في أمر محمد بن داود

كان سوسن عدوًّا لمحمد بن داود وكذلك صاف الحرمي فأغريا المقتدر باللّه وقالا له: إن علي بن الحسين القناي يعرف موضعه. فقبض عليه وهُدد بالقتل فحلف أنه لا يعرف الموضع الذي استتر فيه محمد بن داود وإنما تأتيه رقافة بيد امرأة تجيء إلى امرأة نصرانية تجيئه بها وضمن أنه يحتال في إثارته فأطلق. وكاتب محمد بن داود وأعلمه أنه قد سفر له مع سوسن في أمر يكون به خلاصه وإن ما جرى في ذلك لا يحتمله المكاتبة وإن الوجه أن يأذن له في المصير إليه في المواضع الذي هو فيه مستتر فإن لم يأذن في ذلك صاحب داره خرج مُتنكّراً وصار إليه فكتب إليه محمد بن داود أنه يصير إليه في ليلة ذكرها. فمضى علي بن الحسين برقعته إلى سُوسن وصاف فأقرأهُما إيّاها فترصّدا تلك الليلة وأمرا صاحب الشرطة أن يتقدّم إلى أصحاب الأرباع وأصحاب المسالح بترصُّدهِ فلما خرج تلك الليلة ظُفر به وسُلّم إلى مونس الخازن فقتله ثم طرحَهُ على الطريق حتى أخذه أهلُهُ فدفنوهُ.

وحكى أبو علي بن مُقلة وأبو عبد اللّه زنجي الكاتب أن محمد بن داود كتب إلى ابن الفرات رُقعةً وصلت إليه فلم يقدر أن يكتب الجواب بخطّه وقال لِمُوصلها وكان ثقةً عنده: تقرأ عليه السلام وتقول له: «ليس جُرمك يسيراً والعهد به قريبٌ والاستتار صناعة» فينبغي أن تصبر على استتارك أربعة أشهر حتى ينسي قصتك ثم دعني والتدبير في أمرك فإني بإذن اللّه أسفر بعد هذه المدة في صلاحك وآخذ لك أمان الخليفة بخطه. وأقول «إنه دخل فيما دخل فيه القوّاد وكُتّابهم وقد دعت الضرورة إلى الصفح عنهم ولهذا بهم أسوة وأشير عليه بما يصلح أمرك» فلم يصبر محمد بن داود فجرى ما حكيتُهُ.

وحكى أيضاً ابن زنجي أنه كان بحضرة أبي الحسن بن الفرات إذ كتب إليه صاحب

الخبر بأن متنصحاً حضر وذكر أن عنده نصيحة لا يذكرها إلا للوزير فتقدم الوزير إلى حاجبه أن يخرج إليه ويسأله عنها فخرج وسأله فأبى أن يخبره بها وقال: أريد أن أشافه بها الوزير قال: وكنا بين يديه جماعة فأومأ إلينا فقمنا وخلا به ثم دعا بحاجبه العباس الفرغاني وقال له: اجمع الرجال الذين برسم الدار. ثم دعا أبا بشر بن فرجويه وقال له سراً: إن هذا الرجل تنصّح إليَّ في أمر محمد بن داود وذكر أنه يعرف موضعه وأنه بات البارحة عنده والتمس أن أنفذ معه من يسلمه إليه وقد بذلت على ذلك ألف دينار إن كان صحيحاً أو نيله بالعقوبة إن كان باطلاً فصر على ذلك فاكتب إليه الساعة أن ينتقل عن موضعه فإني أبعث إلى مكانه من يكبسه ويلتمسه. ولم يزل يستعجل الحاجب في جمع الرجال فيقول: «قد فرّقت النقباء في طلبهم فإنهم في أطراف البلد منهم من ينزل في قصر عيسى ومنهم من ينزل بباب الشماسية» ولم يزل يدافع بالأمر إلى أن عاد الجواب إلى أبي بشر بشكره وأنه قد انتقل من موضعه إلى غيره. فتقدم حينئذ إلى المتنصح أن يمضي إلى الموضع مع القوم وتقدم بالاحتياط عليه وعلى ما يليه وكبسه بعد ذلك وحمله فإن لم يجده فتّش الدور التي تلي الموضع وأن يستظهر بحفظِ أفواه الدروب حتى لا تفوته الحُرَم ويأخذ معه السلاليم. فمضى العباس الحاجب والمتنصح والرجال ووكل بأفواه الدروب والدور المجاورة للموضع. ودخل الدار التي ذكرها المتنصح فلم يجده فقال المتنصح: في هذا الموضع واللّه العظيم خلفته وههنا كان بائتاً. وأقبل يسير إلى موضع موضع وما علمه فيه. ثم التمسه في الدار المجاورة فلم يجده وعاد به إلى حضرة الوزير فأنكر على المتنصح سعايته بالباطل وأمر بحمله إلى باب العامة وضربه مائتي مقرعة وأن يشهر على جمل وينادي عليه «هذا جزاء من يسعى بالباطل» وكتب إلى المقتدر وعرّفه الصورة وأنه كبس على محمد بن داود عدة دور فلم يجده فأوقع العقوبة بالساعي حتى لا يقدم نُظراؤه على السعاية بالباطل. فلما عاد الساعي إلى داره تقدم بأن يحمل إليه مائتي دينار وأن يُجدر إلى البصرة وقال لنا: قد صدق الرجل فيما حكاه وقد عاقبناه ولو لم أفعل ما فعلته لم آمن أن يمضي إلى دار السلطان. وكان أبو بشر يعرف موضع محمد بن داود بن الجرّاح وعرَّف الوزير موضعه فكتمَهُ الوزير ولم يظهره. وهذا مما لم ينكر من أبي الحسن بن الفرات مع كرمه وجلالة قدره ونبل أفعاله.

وفيها قبض على محمد بن عبدون وسوسن الحاجب وقتلا

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن سوسن الحاجب كان مع ابن المعتز في تدبيره وظن أنه يقرره على الحجبة فلما عدل عنه إلى يمن استوحش وصار إلى دار السلطان وكان سوسن يدخل مع العباس بن الحسن في التدبير بحضرة المقتدر باللّه فلما تقلد أبو الحسن بن الفرات الوزارة تفرد بالتدبير دون سوسن فظهرت الوحشة بين سوسن وبين

أبي الحسن بن الفرات لأجل ذلك. وذاع الخبر بصحة عزم سوسن على الفتك بابن الفرات بمواطأة عدة من الغلمان الحجرية على ذلك. ودبر أن يكون الوزير محمد بن عبدون وأشار بذلك على المقتدر بالله وبذل على ذلك مالاً عظيماً. وأنفذ بُنيّ بن نفيس إلى الأهواز لإحضار محمد بن عبدون بغير موافقة ابن الفرات وأظهر بني أنه إنما أنفذ لأخذ أموال كانت مودعة للعباس بن الحسن بالبصرة. ولم يصل محمد بن عبدون إلى واسط حتى ظهر الخبر لابن الفرات فقرر ابن الفرات في نفس المقتدر أن سوسناً عمل على الإيقاع به أولاً ثم به وأنه كان من أكبر أعضاد عبد الله بن المعتز وإنما خالفه أخيراً لمّا علم أنه قد استحجب غيره فوافق المقتدر على القبض عليه فقبض عليه وقتله من يومه. وكان المتولي لذلك تكين الخاصة وكان تكين هذا مرشّحاً للحجبة ومدبراً لها.

ثم أنفذ الوزير إلى محمد بن عبدون من أزعجه في الطريق واعتقله في دار السلطان وصادره مصادرة مجددة ثم سلم إلى مونس الخازن فقتله وقلق أبو الحسن علي ابن عيسى لذلك وهو بواسط فكتب إلى الوزير كتاباً يحلف فيه أنه على قديم عداوته لمحمد بن عبدون إلا أنه لا يدع الصدق من فعله وأن محمد بن عبدون لم يكن ليسعى على دم نفسه بتضمنه الوزارة بل كان راضياً بالسلامة بعد فتنة عبد الله بن المعتز وإن سوسنا عمل ذلك بغير رأيه ولا موافقته. وسأل في أمر نفسه أن يبعده إلى مكة ليسلم من الظِنة ولينسى السلطان ذكره. فأجابه ابن الفرات إلى ذلك وأخرجه من واسط إلى مكة على حال جميلة فشخص إليها على طريق البصرة. وكتب علي بن عيسى هذا الكتاب مقدراً أن يخلص به محمد بن عبدون من القتل ويسلم هو فوفاه الله في نفسه بجميل نيته وحضر أجل محمد بن عبدون فلم ينفعه اجتهاد علي بن عيسى في خلاصه.

ولما استقر أمر المقتدر بالله في الخلافة فوّض الأمور إلى أبي الحسن بن الفرات فدبرها أبو الحسن كما يدبرها الخلفاء. وتفرد المقتدر على لذاته متوفراً واحتشم الرجال واطّرح الجلساء والمغنين وعاشر النساء فغلب على الدولة الحُرم والخدم فما زال أبو الحسن ينفق الأموال من بيت مال الخاصة ويبذر تبذيراً مفرطاً إلى أن أتلفها. ومن محاسن ابن الفرات أنه افتتح أمره بإخراج أمر المقتدر بمكاتبة العمال في جميع النواحي بإفاضة العدل في الرعية وإزالة الرسوم الجائرة عنهم وإخراج أمره لجماعة بني هاشم بجار ثم أخرج أمره بزيادة جميعهم ثم أخرج أمره بالصفح عن جميع من كان خرج عن طاعته ووالى ابن المعتز وإلحاقهم في الصلة بمن لم تكن له جناية. وتلطف في أمر الحسين بن حمدان وإبراهيم بن كيغلغ حتى رضي المقتدر عنهما وقلدهما الأعمال وفعل ذلك بابن عمرويه.

ذكر التدبير الصواب في ذلك

أنه عرّف المقتدر بالله أنه متى عاقب جميع من دخل في أمر ابن المعتز فسدت

النيات وكثر الخوارج ومن يخشى على نفسه فيطلبون الحيل للخلاص بإفساد المملكة. وأشار بإحراق جميع الجرائد التي وجد فيها أسماء المتابعين لابن المعتز فاستجاب إلى ذلك وأمر ابن الفرات بتغريق الجرائد في دجلة ففعل ذلك وسكن الناس وكثر الشاكرون.

ذكر ما جرى في أمر القاضي أبي عمر

كان القاضي يوسف بن يعقوب شيخاً كبير السن يلزم ابن الفرات ويبكي بحضرته ويسأله تخليص ابنه أبي عمر من القتل فيذكر له أبو الحسن أنه لا يتمكن من ذلك إلا بإطماع المقتدر باللّه في مال جليل من جهته فبذل أبوه أن يفقر نفسه وابنه طلباً للحياة. فسأل ابن الفرات المقتدر باللّه الصفح عنه وأطمعه في ماله ومال ولده فسلمه المقتدر إليه فصادره على مائة ألف دينار واعتقله في ديوان بيت المال ليؤدي المال فأدى أكثره. ودخل فيما أداه وديعة قيل إنها كانت عنده للعباس بن الحسن مبلغها خمسة وأربعون ألف دينار فلما أدى تسعين ألف دينار أمر ابن الفرات بإطلاقه إلى منزله وترك له العشرة الآلاف الدينار وأمره بملازمة منزله وألا يخرج منه.

ذكر خيانة واتفاق سيىء اتفق فيها

كان سليمان بن الحسن بن مَخلد متحققاً بأبي الحسن بن الفرات ومدلاً بأحوال كانت بين أبيه وبين والد الوزير أبي جعفر محمد بن موسى بن الفرات وكان سليمان يختص لذلك بأبي الحسن بن الفرات ووجد أبو الحسن كتباً في البيعة لعبد اللّه بن المعتز بخط سليمان لتحققه كان بمحمد بن داود بن الجراح وللقرابة بينهما فلم يظهر أبو الحسن ذلك للمقتدر ولا ذكره. ونوّه باسم سليمان وقلده مجلس العامة رياسة. ثم إن سليمان جنى على نفسه بالسعي لأبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الحميد في الوزارة وعمل في ذلك نسخة بخطه عن نفسه إلى المقتدر باللّه يسعى فيها بأبي الحسن وبأمواله وضياعه وكتابه وأسبابه. وكانت الرقعة في كمه ودخل دار ابن الفرات وهي معه وقام ليصلي صلاة المغرب مع جماعة من الكتاب في دار ابن الفرات فسقطت الرقعة من كمه وظفر بها الصقر بن محمد الكاتب لأنه كان يصلي إلى جنبه فأقبل بها مبادراً إلى الوزير من وقته فقبض عليه وأحدره في زورق مطبق إلى واسط ووكل به وصودر. وجرى على طبعه وشاكلته فأحسن إليه وقلده.

وفيها كوتب أبو الهيجاء عبد اللّه بن حمدان في قصد أخيه الحسين ومحاربته وأمد بالقاسم بن سيما في أربعة آلاف فاجتمعا ولقيا الحسين فانهزما وانحدر إبراهيم بن حمدان لإصلاح أمر أخيه الحسين فأجيب إلى ما التمس وكوتب للحسين أمان وصار إلى الحضرة. ونزل في الصحراء من الجانب الغربي ولم يدخل دار السلطان وقلد أعمال الحرب بقمّ وحملت إليه الخلع فلبسها ونفذ إلى قمّ وانصرف عنها العباس بن عمرو.

وفيها قدم بارس غلام إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان في أربعة آلاف غلام أتراك وغيرهم وصار إلى بغداد مستأمناً. وكان مولاه اتبعه إلى الري مظهراً الاستيحاش من قبول السلطان غلامه فكاتبه ابن الفرات بما سكن منه حتى عاد إلى خراسان وقلد بارس ديار ربيعة فأنفذه إليها.

وقلد يوسف بن أبي الساج أعمال أرمينية وآذربيجان وعقد له عليها وضمنه إياها بمائة ألف وعشرين ألف دينار في كل سنة محمولة إلى بيت مال العامة بالحضرة فسار من الدينور إليها.

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين

وفيها أدخل طاهر ويعقوب ابنا محمد بن عمرو بن الليث بغداد أسيرين في قبة على بغل وقد كشف جلالها وهما بين يدي أبي الفضل عبد الرحمن بن جعفر الشيرازي كاتب سُبكري المتقلد فارس ووصل إلى حضرة المقتدر ووصلا معه بعد أن حلت قيودهما وخلع على عبد الرحمن بن جعفر ورتب في الفوج الأول وركب عبد الرحمن في الخلع وأنزل في دار في مربعة الخُرَسي وحبس طاهر ويعقوب في دار السلطان.

وكان سُبكري متغلباً على فارس فلما قدم عبد الرحمٰن كاتبه قرر أمر سبكري مع السلطان على شيء يحمله عن فارس ثم عاد إلى صاحبه فورد الخبر بعد ذلك بأن الليث ابن علي خرج من سجستان وقصد فارس فدخلها وخرج سبكري. فندب مونس الخادم للشخوص إلى فارس وخلع عليه وسار فوجد سبكري برامهرمز واجتمع مع مونس وسار بمسيره. وسار الليث إلى أرجان ليلقي مونساً.

ذكر عجلة واتفاق سيىء

ثم إنه بلغ ليثاً أن الحسين بن حمدان قد سار من قم إلى البيضاء فخاف أن تؤخذ منه شيراز فوجه أخاه مع قطعة من جيشه إلى شيراز ليحفظها وأخذ هو دليلاً يدله على طريق مختصرٍ قريب إلى البيضاء ليوقع بالحسين بن حمدان. فأخذ به الدليل في طريق الرّجالة وهو طريق صعب ضيق لا يحمل الجيوش فلقي في طريقه مشقة عظيمة حتى تلفت دوابه وتلف رجاله فقتل الدليل وعدل عن الطريق فخرج إلى خوابذان وقد وصل إليها مونس. فلما أشرف الليث على عسكر مونس قدر أنه عسكر أخيه الذي أنفذه إلى شيراز فكبر أصحابه فخرج إليه مونس فأوقع به وأخذه أسيراً. فلما حصل في يده أشار عليه قواده بالقبض على سبكري فلم يفعل. وألح عليه أصحابه فأظهر القبول منهم وقال: إذا صار إلينا في غد قبضنا عليه. وكان سبكري كل يوم يركب من مضربه إلى مونس فيسلم عليه فوجه إليه مونس سراً وعرفه ما أشار عليه قواده وأشار عليه بالمسير إلى شيراز والإسراع ففعل سبكري بما أشار به فلما أصبح وتعالى النهار قال: يا قوم ما جاءنا سبكري اليوم

فوجهوا إليه وتعرفوا خبره. وعاد الرسول وعرّفه أن سبكري قد سار إلى شيراز من أول الليل. فعاد باللوم على قُوّاده وقال لهم: من جِهَتكم شاع الخبر وبلغه فاستوحش. وسار مونس ومعه الليث راجعاً إلى مدينة السلام وانصرف الحسين إلى قُمْ.

ذكر تدبير فاسدٍ وما آل إليه

لما حصل سبكري بشيراز كان معه قائد يقال له القَتَّال فضرّبه على كاتِبه عبد الرحمن بن جعفر وأعلَمَه أنه في جنبة السلطان وأنه قد أحلف قُوّاده كلهم للسلطان وأخذ له البيعة عليهم وليس يتعذَّر عليه متى شاء أن يُورد كتاباً من السلطان بالقبض عليه. ففزع سبكري من هذه الحال وقبض على عبد الرَّحمٰن بن جعفر واستكتب مكانهُ رجلاً يعرف بإسماعيل بن إبراهيم التيمي فحمله إسماعيل هذا على الخلاف وقال له: قد انصرف عنك عسكر السلطان وليس يمكنه أن يعود إليك سريعاً فاربح ما كنت تحمله إلى السلطان واصلح أمورَك وأرض جندك ثم تنظر.

واحتال عبد الرحمن بن جعفر من محبسه حتى كتب إلى ابن الفرات بخبره وما جرى عليه وبخلاف سبكري على السلطان فكتب ابن الفرات إلى مونس (وقد صار إلى واسط) كتاباً يقول فيه: إن كنت فتحت فقد أغلقت وإن كنتَ قد أسرت قد أطلقت ولا بدّ من أن تعود تُحارب سُبكري. فعاد مونس إلى الأهواز وأخذ سبكري في مُلاطفة مونس ومُهَادَاته ومسألته أن يبذل للسلطان عن أعمال فارس وكرمان زيادة على ما كان مُقاطعاً عليه القاسم بن عبيد اللّه في أيام المكتفي باللّه فإنه كان مُقاطِعاً على أربعة آلاف ألف ففعل مونس ذلك وبذل عنه سبعة آلاف ألف. فلم يرضَ بذلك ابن الفرات فلم يزل يزيد ألف ألفٍ حتى بلغ تسعة آلاف ألف خالصة للحمل وذكر أن باقي الارتفاع يحتاج إليه سبكري لإعطاء الجند بفارس وكرمان وأعلمه كثرة المؤن هناك فأقام ابن الفرات على أنه لا يقنع إلاّ بثلاثة عشر ألف ألفٍ فأشار مونس على سبكري بأن يقارب السلطان والوزير فأبى سبكري أن يزيد على عشرة آلاف ألفٍ شيئاً فاغتاظ الوزير من تماتُن سبكري واتَّهم مونساً بالمَيْل إليه.

ودخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين

ذكر ما جرى على سبكري من الأسر

ثم إنه عدل إلى إنفاذ وصيف كأمّه مع عدّة قُوّاد من مدينة السلام وإنفاذ محمد بن جعفر العَبَرْتايَّ معهم وعوّل عليه في فتح فارس. وكتب إلى مونس أنه لا يثق بأحدٍ سواه في حفظ الليث وأن سبِيلهُ أن يوافى به إلى مدينة السلام ويدع أكثر قُوّاده وأصحابه مع محمد بن جعفر بالقرب من نواحي فارس لئلا ينجذبوا بأسرهم إلى بغداد قبل أن يتقرّر

الأمر مع سبكري في مال المفارقة فيطمع سبكري في السلطان.

فخرج مونس عن الأهواز وكتب الوزير حينئذ إلى محمد بن جعفر العبرتاي والقوّاد بالمبادرة إلى شيراز مع جماعة من بالأهواز من القُوّاد وانضمّ إليه وصيف كأمّه ثم أمدّه بسيما الخَزَري وفاتك المعتضدي ويمن الطولوني. فلما تكامل الجيش لمحمد بن جعفر سار إلى سبكري وواقعه على باب شيراز فانهزم سبكري إلى بمّ وتحصَنَ بها وتبعه إلى هُناك فهزمه أيضاً ودخل مفازة خراسان وأسر القتال. وورد الكتاب بالفتح فخلع السلطان على الوزير عند ذلك وقلد محمد بن جعفر العبرتاي فُتيحاً خادم الأفشين أعمال الحرب والمعاون بفارس وكرمان وكان يميل إلى فُتيح لحسن وجهه.

وفيها ورد كتاب أحمد بن إسماعيل صاحب خراسان بفتحه سجستان وأسره محمد ابن علي بن الليث ثم ورد كتابه بأسره سبكري فكتب إلى أحمد بن إسماعيل بحمل سبكري ومحمد بن علي بن الليث إلى الحضرة. فلما كان في شوال من هذه السنة أدخل سبكري ومحمد بن علي بن الليث مشهرين على فيلين فخلع على الوزير ابن الفرات ثم على المرزباني خليفة صاحب خراسان وحمل مع الرسل الذين حملوا سبكري ومحمد بن علي بن الليث هدايا وخلع وطيب وجواهر إلى صاحب خراسان.

وفيها ورد الخبر بوفاة العبرتاي ثم بوفاة فتيح وقلد عبد اللّه بن إبراهيم المسمعي أعمال المعاون بفارس.

وفيها غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر في يوم ريح عاصف وكانت زوّجت ابنتَيها من بُنَيّ بن نفيس وقَيصَر فحضرا جنازتها وحضرها خلق من القوّاد والقضاة. وجعلت السيدة مكانها أمّ موسى الهاشميّة قهرمانة فكانت تؤدي رسائلها ورسائل المقتدر إلى ابن الفرات.

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائتين

وفيها قُبض على الوزير ابن الفرات ووُكّل بداره وهتُك حرمه أقبح هتكٍ ونهبت داره ودُور كُتَّابه وأسبابه وافتتنت بغداد ونهب الناس وكان مونس الخازن يلي شرطة بغداد وتحت يده برسمها تسعة آلاف فارس وراجل فكان يركب إذا اشتدّت الفتنة وزاد النهب فيسكن الناس ويكفّ النهب هيبة له فإذا نزل من ركوبه عادت الحال إلى ما كانت عليه. فلقي الناس من ذلك شدّة شديدة ثلاثة أيام بلياليها ثم سكنت الفتنة.

فكانت مدة وزارة أبي الحسن بن الفرات هذه الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً. وقلّد أبو علي محمد بن عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان الوزارة وذلك في ذي الحجة سنة ٢٩٩ فقلّد أصحاب الدواوين ورتّبهم في مجالسهم، وردّ مُناظرة أبي

الحسن بن الفرات وأسبابه وكُتّابه إلى أبي الحسن أحمد بن يحيى بن أبي البَغْل وقلّده ديوان المصادرين وديوان الضياع العبّاسيّة وديوان زمان الفُراتيّة. واستتر من أصحاب ابن الفرات أبو علي محمد بن علي بن مقلة وأبو الطيب الكلواذي وأبو القاسم هشام وأبو بشر بن فرجويه وقبض على الباقين ونهبت دُورهم وهُدمت واعتقل هؤلاء الباقون وناظرهم أحمد بن أبي البغل وعذّبهم وناظر ابن الفرات غير أنه لم يُمكن من إيقاع مكروه به ومكّن من جميع أسبابه وكتّابه.

ذكر ما دبّره ابن أبي البغل وانعكاسه عليه

كان أبو الحسن بن أبي البغل مبعداً في أيام ابن الفرات بأصبهان فلما افتتنت بغداد وقلّد أخوه مُناظرة ابن الفرات وأسبابه سفر له أخوه لما تمكّن من ملاقاة أمّ موسى في الوزارة وبذل فيها مالاً جليلاً يثيره ويوفّره فأطمع المقتدر في ذلك فأرجف له بها وكاتَبَهُ أخوه بالإسراع إلى الحضرة ونفذ إليه أبو بكر أخو أمّ موسى. فخاطبه قومٌ بالوزارة في طريقه وتلقّاه القواد وغيرهم عند وروده بغداد.

فركب أبو علي الخاقاني في عشية من العشايا إلى دار السلطان والتمس الإذن في الوصول فأذن له وأوصل إلى المقتدر بالله. فوصف له أن الأمور قد اضطربت والأموال قد تأخّرت والدنيا قد خربت بكثرة الأراجيف به لأن ابن أبي البغل يذكر أنه قد استحضر للوزارة فخاطبه المقتدر بجميل وأذن له في إبعاد ابن أبي البغل وأخيه عن الحضرة فقبض عليهما وأبعدهما وتنكّرت أم موسى القهرمانة للوزير أبي علي الخاقاني فخافَها وأشفق أن تُفسد عليه أمرَهُ فأرضاها بأن قلد أبا الحسين منهما أعمال الخراج والضياع بأصبهان وقلّد أبا الحسن أخاه أعمال الصلح والمبارك.

وكتب الوزير بإطلاق أبي الهيثم العباس بن ثوابة وكان معتقلاً بالموصل وكان ابن الفرات نقلهُ إليها في نكبة محمد بن عبدون لقرابة بينهما. وكان ابن ثوابة هذا يكتب لمحمد بن ديوداذ وكان من الموصوفين بالشر فورد بغداد في سنة ٣٠٠ وقلّده الوزير أبو علي الخاقاني ديوان المصادرين والضياع العبّاسيّة والفُراتيّة وردّ إليه مُناظرة أبي الحسن ابن الفرات وأسبابه وكُتّابه فأسرف ابن توابة في إيقاع المكروه بهم وعذّبهم بأنواع العذاب فجرت بينه وبين أبي الحسن بن الفرات مُناظرات هاتر في بعضها ابن الفرات وشتمه بحضرة أم موسى فردّ عليه ابنُ الفرات أقبح رَدٍّ وشتَمَه أغلظ شتيمةٍ ونسبه في نفسه إلى كل حالٍ قبيحةٍ فراسل ابن ثوابة المقتدر بأن ابن الفرات لم يقدم على هذا إلاّ لشدّة بطره وكثرة أموالهِ واستأذن في مُعاقبته. فبسط يده عليه فقيّده وغلّه وألبسه جُبّة صوف وأقامه في الشمس مدة أربع ساعات وكاد يتلف فأنهى بدر الحُرمي في حاله إلى المقتدر فأنكرها وأمر بنقله إلى بعض الحُجر التي في يد زيدان القهرمانة للحُرم الخواصّ

وأحسن إليه ورفّهه وذلك بعد أن حلف له ابن الفرات بأغلظ يمين بأنه لم يبق له مال ولا ذخيرة ولا متاعٌ فاخرٌ إلاّ وقد أقرّ به وقت مناظرة ابن أبي البغل، فقبل المقتدر بالله قوله ومنع ابن ثوابة من مناظرته.

ثم صار المقتدر بعد ذلك يشاور ابن الفرات في الأمور ويقرئه رقاع الوزراء إليه ويجيبهم عنها برأيه ثم كثرت السعايات بأبي علي الخاقاني وتمكن أبو القاسم بن الحواري.

ذكر فساد تدبير الخاقاني لأمر الوزارة

كان أبو علي الخاقاني متشاغلاً بخدمة السلطان ومراعاة أعدائه لا يقرأ الكتب الواردة عليه ولا النافذة واعتمد على ابنه أبي القاسم عبد الله وقلّدَهُ مع العرض على الخليفة خلافته على الأعمال والتنفيذ للأمور.

وكان ابنه هذا متشاغلاً بالشراب إنما يُراعي أمر القوّاد والجيوش والولايات لِلعُمَّال ويدع ما سوى ذلك. وكان قد نصب لقراءة الكتب الواردة أبا نصر مالك بن الوليد ولِقراءة الكُتُب النافِذة أبا عيسى يحيى بن إبراهيم المالكي. وكانت لأبي علي الخاقاني وابنهِ الجوامع بما يرد ويُنفذ فلا يقرأها أحد منهم إلاّ بعد فوت الأمر الذي وردت فيه الكُتب وتبقى الكُتب بالحمول والسفائح في خزانتهما لا تُفَضّ ولا يُعرف حال ما فيها ففسدت الأمور بولاية أبي علي الخاقاني وضاعت.

وكان يقلّد في أسبوع واحدِ الكورة عِدّة من العمَّال حتى قيل إنه قد قلّد أعمال ماه الكوفة في مدّة عشرين يوماً سبعة من العُمّال واجتمعوا في خان بحلوان وقلّد أعمال قردى وبزيذي خمسة من العُمَّال اجتمعوا في خانٍ بعُكبرا في يوم واحدِ وسبب ذلك ارتفاق أولادهِ وكُتابه من العُمّال الذين يُولونهم فسُطرت الأحاديث وحفظت له النوادر.

وأطلق يده بالتوقيعات وفي الزيادات والنّفْل والإثبات يوقّع بذلك هو وابناه وبنان ويحيى بن إبراهيم المالكي وأحمد ومحمد ابنا سعيد.

وكان أبو علي الخاقاني يتقرّب إلى قلوب الخاصّة والعامَّة فمنع خدم السلطان ووجوه القوّاد أن يترجموا رِقاعهم بالتعبّد ويتقرَّب إلى العامّة بأن يصلّي معهم في المساجد التي على الطّرُق. فكان إذا رأى جمعاً من الملاّحين أو غيرهم من العامّة يصلّون في مسجد على الشطّ قدّم طيّارة وصعد وصلّى معهم فاتضعت الوزارة بأفعاله وذلّت.

وكان إذا سأله إنسان حاجة دق صدره وقال: نعم وكرامة: فسُمّي «دقّ صدره» وضاقت الأموال فقصّر في إطلاق أموال أصحاب التفاريق والقُوّاد القُدَماء ومن يجري مجراهم فشغبوا عليه وقصدوا المُصلّى فأقاموا فيه وأخرجوا معهم أكثر القوّاد واستفحل أمرهم وبسطوا فيه ألسنتهم فأمره المقتدر بإطلاق أرزاقهم فاعتذر بقصور الأموال ونقصان

الارتفاع وذكران الأموال المستخرجة من ابن الفرات وأسبابِهِ قد حصلت في بيت مال الخاصّة وأنه ليس ينفذ له صاحب بيت مال الخاصة أمراً فيها. فأمر بإخراج خمسمائة ألف دينار من بيت مال الخاصة لينفق في الجند المشغبين.

وقلّد ديوان البريد بمدينة السلام والإشراف على الوزير وعلى الجيش وأصحاب الدواوين والقضاة وأصحاب الشّرط شفيع اللؤلؤيُّ.

فلما رأى ابن ثوابة ضعف أمر الوزير تقرَّب إلى المقتدر برقاع أوصلتها أمُّ موسى يذكر فيها أنه يستخرج من العُمّال أموالاً جليلة أهملها الخاقاني وذكر أنه يستخرج من محمد بن علي الماذرائي وأخيه إبراهيم وحدَهُما سبعمائة ألف دينار فخرج الأمر إلى الخاقاني بتقوية يد ابن ثوابة ففعل ذلك واستخرج أموالاً بالعسف وتغلب على الأمور وكان يصرف عُمَّال الوزير ويولّي من يرى وتوصّل الأشرارُ إلى كتب الرقاع على يد أم موسى إلى المقتدر يخطبون الأعمال ويتضمّنون الأموال فخرج الأمر إلى الخاقاني بتقليدهم ذلك فانتشر أمره وشاركه الأشرار في النظر واستخرجوا الأموال من كل وجه بكل عسف.

وكان حامد بن العباس قد تضمّن أعمال واسط ونواحيها أربع سنين فعمل الكُتّاب له عملاً وحصّلوا عليه في كل سنة مائتي وأربعين ألف دينار وألفي وأربعمائة كُرّ بالمعدّل شعيراً لِلكراع في كل سنة يستوفي منه مع المال الذي ذكرنا مبلغهُ. وإنما كان حامد ضمن على عبرة السنة المتقدّمة وزيادة يسيرة وكان التقصير والإضاعة والتخليط يقع من الخاقاني وذلك أن الخاقاني كان يتقلد في أيام عبيد اللّه بن سليمان (وما بعدها إلى وقت استتاره في أيام وزارة ابن الفرات الأولى) أعمال البريد والمظالم والخرائط بماسبذان فلما ولي الوزارة تحير لِقلّة ونقصان المعرفة بالأعمال فشرع مونس في تقليد علي بن عيسى.

ودخلت سنة ثلاثمائة

ولما رأى المقتدر باللّه اضطراب الأمور وفساد التدبير وانتقاض المملكة شاور مؤنساً الخادم وعرّفه أن الصورة تقود إلى ردّ أبي الحسن بن الفرات وتقليده الوزارة. وكان مونس مستوحشاً من ابن الفرات لأمور حكينا بعضها في حكاية أمره مع سبكري وتقريره أمر فارس ونقض ابن الفرات عليه. فقال مونس للمقتدر باللّه إنه يقبح أن يعلم أصحاب الأطراف أن السلطان صرف وزيراً ثم اضطرّ إليه وردّه بعد شهور من صرْفه ثم لا ينسبون ذلكِ إلا إلى المطمَع في ماله فقط وقال: إن كُتَّاب الدنيا الذين دبروا المملكة دواوينها منذ أيام المعتضد باللّه هما ابنا الفرات وأبو العباس منهما قد مات وتقلّد الآخر الوزارة إلى أن صُرف عنها ومحمد بن داود ومحمد بن عبدون وقد قُتلا في فِتنة ابن

المعتز، وعلي بن عيسى بن داود بن الجرّاح ولم يبقَ من يصلح لتدبير المملكة غيره ووصفه بالثقة والأمانة والديانة والنزاهة والصيانة والصناعة فأمره المقتدر بإنفاذ يليق إليه لِيحمله إلى الحضرة وأظهر للخاقاني أنه يحضره ليستخلفه لابنهِ عبد اللّه على الدواوين. وكان الخاقاني يقول في مجلسه: إني قد كتبتُ بحمل علي بن عيسى إلى الحضرة لأستخلفهُ لِعبد اللّه، فلما كان يوم الاثنين لعشر خلون من المحرّم سنة ٣٠١ ركب الخاقاني إلى دار السلطان فقُبض عليه وعلى ابنيه عبد اللّه وعبد الواحد وأبي الهيثم بن ثوابة ويحيى بن إبراهيم المالكي وأحمد ومحمد ابني سعيد الحاجبَين وبُنان وسعيد بن عثمان النّفاط واعتقلوا في يد نذير الحرمي. وكان سعيد بن عثمان النّفاط أحد من سعى للخاقاني في الوزارة فقضى حقّه بأن قلّده أعمالاً كثيرة جليلة.

وفي هذه السنة صُرف عبد اللّه بن إبراهيم المسمعي عن أعمال المعاون بفارس وتقلّدها بدر الحمامي وكان بدر يتقلّد أعمال المعاون بأصبهان فنقل إلى أعمال فارس وكرمان وقُلّد مكانه علي بن وهسوذان الديلمي.

ودخلت سنة إحدى وثلاثمائة

وفيها تقلّد أبو الحسن علي بن عيسى الوزارة وقت قدومه من مكّة وخلع عليه وركب من دار السلطان إلى داره وركب معه مونس الخادم وغريب الخال وسائر القوّاد والغلمان. وسُلّم إليه في يوم الخلع محمد بن عبيد اللّه الخاقاني وابناه وجميع من سمّيتهُم فيما تقدّم فصادرهم مصادرات قريبة الأمر واستخرج منهم جميع ما صادرهم عليه ثم أطلق الخاقاني إلى منزله ووكّل به فيه وصان حرمه أتمّ صيانةٍ وأوقع بأبي الهيثم بن ثوابة مكروهاً. ثم صار ينظر في أمر الأعمال في دار الوزارة بالمخرّم، يبكر إليها في كلّ يوم ويعمل فيها إلى آخر أوقات صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرف إلى داره. وكتب إلى كل واحد من العُمّال بما جرت العادة به من تشريف أمير المؤمنين إياه بالخلع وردّ أمر الدواوين والمملكة إليه ويقرّرهم على مواضعهم ويأمرهم بالجدّ والاجتهاد في العمارة ويقول في آخر كتابه: وهذا عُنفُوان السّنة وأول الافتتاح ووقت جموم الخراج. ولست أعلمُ ما يجب أن أطالِبك به فأذكرَهُ وأخاطبك عليه ولكني آمرُك أن تحمل صدراً من المال يتوفر مقدارُهُ وتنفذ الرسائل بذلك مع الجواب عن كتابي هذا عند نظرك فيه. وتكتب إلي بشرح الحال في أمور نواحيك وتنفذ مُوافقةً تقف عليها وبها على موقع أثرك فيها ومخائل تدبيرك في توفيرها وتثميرها. وتتوقف عن إمضاء التسبيبات وما يجري مجراها إلى أن يرد عليك كُتُبي وتوقيعاتي في أستبار رأيك عما يكون عملك عليه وتمكّن في نفسك أنه لا رُخصة عندي ولا هوَادة في حق من حقوق أمير المؤمنين أغضى عنه ولا درهم من ماله أسامحُ فيه ولا تقصير في شيء من أمور العمل أصبر

لقريبٍ أو بعيدٍ عليه. ولا تكون بإظهار أثر جميل في ذلك أشدَّ عناية منك بإنصاف الرعيّة والعدل عليها ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها فإني أطالبك بذلك كما أطالبك بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها وتابع كتُبَك بما يكون منك وقتاً وقتاً لِأعرفهُ إن شاء اللّه.

وقلَّد بعد ذلك الدواوين جماعةً وعزل جماعةً وفعل مثل ذلك بالعُمّال ونظر إلى مَن تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقامة مُروّات نفسهِ منها وقصر في العمارة واعتمد غيره فعزل أمثال هؤلاء ثم عمر الثغور والبيمارستانات وأدرّ الأرزاق لِمن ينظر فيها وأزاح عِلل المرضى والقوَّام وعمر المساجد الجامعة وكتب إلى جميع البلدان بذلك ووقع إلى العُمّال به وكتب إلى العُمال في أمر المظالم كتاباً نسخته:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

سبيل ما يرفعه إليك كل واحد من المتظلمين قبل النوروز من مظلمته ويدعي أنه تلف بالآفة من غلّتِه أن تعتمد في كشف حاله على أوثق ثقاتك. وأصدق كفاتك حتى يصح لك أمره فيزيل بالظلم فيه فترفعه وتضع الإنصاف موضعه وتحتسب من المظالم بما يوجب الوقوف عليه حسبه وتستوفي الخراج بعده من غير محاباة للأقوياء ولا حيف على الضعفاء. فاعمل فيما رُسِم لك ما يظهر ويذيع ويشتهر ويشيع ويكون العدلُ به على الرعيَّة كاملاً والإنصاف لجميعهم شاملاً إنشاء اللّه.

وكتب بإسقاط مال التكملة بفارس كتاباً وفي جميع ما يشبه ذلك كُتُباً مشهورة مستحسنة فساس أبو الحسن علي بن عيسى الدّنيا أحسن سياسةٍ ورسم للعُمّال الرسوم الجميلة وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامةٍ وعفافٍ وتصوّنٍ وديانةٍ ونظر في المظالم وأبطل المكس بمكّة والتكملة بفارس وسوق بحر بالأهواز وجباية الخمور بديار ربيعة فبانت بركتُهُ على الدّنيا. وعمر البلاد وتوفر الارتفاع واستقام أمر السلطان وعادت هيبة الملك وصلح أمر الرعيّة.

ثم أسقط علي بن عيسى الوزير أكثر ما زاده الخاقاني في وزارته في دواوين الجند وإقطاعاتهم وكانت هذه الزيادة قد لحِقت القوّاد وسائر أصنافِ الجند ولحِقت الخدم والحاشية وجميع الكُتّاب والمتصرّفين وكانت كثيرةً فلما أسقطها عاداهُ أكثر الناس وشنعوا عليه بالضيق والشحّ وقطع الأرزاق وإنّما اضطرّ إلى ذلك لما رأى نفقات السلطان زائدةً على دخلِه زيادةً مفرطة تحوج إلى هدم بيوت الأموال وصرفها في نفقات يستغنى عنها.

وحكى ثابت بن شيبان عن علي بن عيسى أنّه قال: كنتُ عملتُ عملاً لارتفاع

المملكة وما عليَّ من الخرْج، فكانت الخرْج زائداً على الدخل بشيءٍ كثير فقال لي ابن الفرات يوماً بعد صرفه إياي وقد أُخرجتُ إليه في دار السلطان ليناظرني: أبطلتَ الرسوم وهدمتَ الارتفاع. فقلتُ له: أيّ رسم أبطلتُ؟ قال: المكس بمكة والتكمِلة بفارس. فقلتُ: وهذا وحده أبطلتُ؟ قد أبطلّتُ أشياء كثيرة فمنها ومنها (وعددتُ أشياء مبلغُ جميعها خمسمائة ألف دينار في السنة) ولم أستكثر هذا المقدار في جنبِ ما حططتُه عن أمير المؤمنين من الأوزار وغسلتُ به عن دولته من الدَرَن والعار ولكن أنظر مما حططتُ وأبطلتُ إلى ارتفاعي وارتفاعك ونفقاتي ونفقاتك. قال ثابت: فقلتُ: فبأيّ شيء أجابك؟ فقال: خرج الخادم ففرّق بيننا قبل أن يجيب.

قال: وحدّثني أحمد بن محمد بن سمعون وكان ينظر في أعمال النهروانات قال: مسحنا على الناس غلاّتهم فإذا ببعض التنّاء، قد ذهب إلى باب الوزير علي بن عيسى ونحن لا نعلم فتظلّم أنا زدنا عليه في مساحة قراحٍ له. فلم نشعر بشيء إلاّ وقد جاءنا عامل يعرف بابن البذّال ومعه فوج من مسّاح بادوريا وفرسان ورجّالة فلم نشك في أنه صارفٌ لنا فقال لي صاحبي. أحبُّ أن تتلقّاه وتتنسَّم الخبر. ففعلتُ وتلقيتهُ وعرفتُ خبر المتظلم، فعرفتُ صاحبي ذلك فقال لي: لا تدري كيف جرى أمر مساحته. فقلتُ لا. قال: فاخرج حتى تواقف وتجتهد. قال: فخرجتُ ومعي مسَّاح البلد الّذين مسحنا بهم واستقصيتُ معهم وما زلتُ الطف إلى أن تقرَّرت المساحة. وكنا مسحنا القراح باثنتين وعشرين جريباً فخرجت مساحتهُ إحدى وعشرين جريباً وقفيز. فاحتججتُ بأن القراحُ مسح وفيه غلة قائمة ومُسح في هذا الوقت بعد الحصاد وليس بمنكرٍ أن يكون بين المساحتَيْن في الحالتين هذا المقدار. وانصرف ابن البذّال وورد عليه كتاب علي بن عيسى بالصواعق في الإنكار والتوعُّد بأنه إن وقف على أن أحداً من الرعيَّة حيف عليه في معاملةٍ أو مساحة فعل وصنع. قال: فما جسرنا أن نستقصي على أحد في معاملة. فلما كان في السنة القابلة زاد الارتفاع في العشرة ثلاثة لأن الخبر انتشر بالعدل وقيل «قد وقع الحيف والظلم» فنشط الناس للازدياد من العمارة.

وفعل مثل ذلك في المظالم. وحكى ابن المشرف أن بعض عُمَّال بادوريا طالب بالخراج وبقايا عليهم وحبس أهلهُ فصبروا على الحبس فقيدهم فصبروا على القيد ولم يجسر أن يُوقِع بهم خوفاً من علي بن عيسى. فكتب بحضرتهم إلى علي بن عيسى يضربه عليهم غاية التضريب ويقول: إن هؤلاء قوم يُدِلّون بالجلد وعليهم أموالٌ وقد ألطّوا وصبروا على الحبس والقيد ومتى لم تطلق اليد في تقويمهم واستخراج المال منهم كسروه وتأسّى بهم أهل السواد فبطل الارتفاع والوزير أعلى عيناً وما يراه. قال القوم: فجزعنا وخفنا أن يطلق يده فينا فيتلفنا لما كان في نفسه علينا وهممنا بأن نذعن له ثم

اجتمع رأينا على التوقف إلى أن يرد الجواب. قال: فورد وإذا هو قد وقّع بخطّه على ظهر الرُّقعة: الخراج عافاك اللّه دين وليس يجب فيه غير الملازمة فلا تتعدَّ ذاك إلى غيره والسلام قالوا: ففرّج عنّا وأدّينا الصحيح مما علينا. فلما كانت السنة القابلة زاد ارتفاع بادوريا في العشرة اثنين وزرعنا حتى (على) السطوح ثقة بالعدل والإنصاف.

ولما صرف أبو علي الخاقاني عن الوزارة أكثر الناس التزويرات عليه وعُرضت توقيعاتُهُ على عليّ بن عيسى فأنكرها وجمعها وأنفذ بها إلى أبي علي الخاقاني وقال: انظر في هذه التوقيعات وعرّفني الصحيح منها والباطل الّذي زُوّر عليك. واتفق إن حضر رسولُه وأبو علي الخاقاني يصلّي فوضع الرسول التوقيعات بين يدي أبي القاسم ابنه أدّى الرسالة. فأخذ أبو القاسم يميزها ويفرد الصحيح منها. فأومأ إليه أبوه بالتوقف فتوقف فلما فرغ من الصلاة أخذها فتصفحها ثم خلطها ودفعها إلى الرسول وقال: تقرأ على الوزير السلام وتعرّفه أن هذه التوقيعات كلها صحيحة، وأنا أمرتُ بها فما رأيتَ أن تمضيه أمضيتهُ وما رأيتَ إبطالهُ أبطلتهُ. فلمّا انصرف الرسول قال لابنِه. يا بني أردتَ أن تبغضنا إلى الناس بلا معنى ويكون الوزير قد التقط الشوك بيدك نحن قد صرفنا فلم لا نتحبب إلى الناس بإمضاء كل ما زُوّر علينا فإن أمضاه كان الحمد لنا والضرر عليه وإن أبطلهُ كان الحمد لنا والذم له فاستحسن الناس هذا الفعل من أبي علي إلا أن علي بن عيسى تذمم إلى الخلق من الخاصة والعامة والحاشية بإسقاطه الزيادات التي صارت عند أصحابها كالأصول واطّراحِهِ النفقات التي تعود بتمزيق الأموال بغير فائدةٍ. فثقلت وطأتهُ وكره الناس أيامُه وقصدوا التشنيع عليه وثلبوهُ عند المقتدر باللّه وسعى قومٌ لأبي الحسن ابن الفرات في الوزارة.

وفي هذه السنة قبض على الحسين بن منصور الحلاّج بالسوس وأدخل بغداد مشهراً على جملٍ وكان حمل إلى علي بن أحمد الراسبي فحملهُ عليّ إلى الحضرة فصلب وهو حيّ وصاحبهُ وهو خال ولده معه في الجانبين جميعاً وحبس الحلاّج وحده في دار السلطان. وظهر عنه بالأهواز وبمدينة السلام أنه ادّعى أنه إلهٌ وأنه يقول بحلول اللاهوت في الأشراف من الناس.

وفيها أطلق الوزير أبا علي الخاقاني وأزال عنه التوكيل. وفيها مات علي بن أحمد الراسبي بدُور الراسبي وتقدم مونس الخادم بمشورة علي بن عيسى لقبض أمواله. وكتب إلى الغمر بن عبد اللّه بالمصير إليه والاجتماع معه على ذلك. فكتب أنه حصل منها نحو ألف ألف دينار.

وفيها خلع على الأمير أبي العبّاس بن المقتدر باللّه وقُلد أعمال الحرب بمصر والمغرب واستخلف له على مصر مونس الخادم. وقلّد الأمير علي بن المقتدر باللّه

الصلات وأعمال المعاون والأحداث والحرب بكور الريّ وديناوَند وقزوين وزِنجان وأبهر والطرْم.

وفيها ورد الخبر بقتل (أحمد بن إسماعيل) بن أحمد صاحب خراسان على شاطئ نهر بلخ قتله غلمانه وقام مقامه أبو الحسن نصر ابنه فنفذ العهد إليه من المقتدر بالله والكتاب بتقليده خراسان مكان أبيه.

وفيها ورد الخبر بأن خادماً لأبي سعيد الجنابي الحسن بن بهرام المتغلب على هجر قتلهُ. ثمّ إن ذلك الخادم خرج بعد قتله مولاهُ فدعا رجلاً من رُؤساء أصحابِه وقال: السيد يدعوك. فلما دخل قتلهُ وما زال يفعل ذلك بواحدٍ واحدٍ إلى أن قتل أربعة من الرؤساء ثم دعا بالخامس فأحسّ الخامس بالقتل فصاح واطلع النساء عليه وصحنَ فقبض على الخادم قبل أن يقتل الخامس وقتل الخادمُ وكان صقلابياً وقد كان أبو سعيد عهد إلى ابنه سعيد فلم يضطلع بالأمر فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان بن الحسن.

وقد كان القرامطة وافوا إلى باب البصرة في سنة ٢٩٩ وكان المتقلد لأعمال المعاون بالبصرة محمد بن إسحاق بن كنداجيق وكان يوم جمعة والناس في الصلاة فصاح صائح «القرامطة القرامطة!» فخرج إليهم الموكلون بالباب فوجدوا فارسَين قد نزل أحدُهما عند الميل فنظر إليه البوّابون جالساً متكياً قد وضع إحدى رِجليه على الأخرى والآخر بإزائهم فصاحوا به وبدر إليه رجل من الخول فطعنه القرمطي وقتله وتراجعوا فبكى أخوه فقالوا له: ارجع فجر برجله وخذه لعنكما الله. قالوا: ومن أنتما؟ قالوا: نحن المؤمنون. ثم تنحى فحبا حتى أخذ أخاه ودخلوا فأغلقوا الباب وركب ابن كنداجيق بمن معه من الجيش حتى صار إلى الموضع فنظر الديدبان عند صهاريج الحجاج إليهم فقالوا: إنهم نحو ثلاثين فارساً. فخرج إليهم عطارد بن شهاب العنبري وخواصه وغلمان من شحنة البصرة والمطوّعة فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلاّ من هرب قبل المعاينة وسلبوهم ولم يتركوا عليهم شيئاً إلا السراويلات بغير تكك ثم ضربوهم ضربات قبيحة. ورجع ابن كنداجيق وغلق الباب وجنهُ الليل فلما أصبح لم يرَ منهم أحداً. فكتب إلى ابن الفرات وكان هو الوزير في الوقت يستنجده، فأمدّه بمحمد بن عبد الله الفارقي في جيش كثيف وقائد من الرجال يعرف بقوروَيه وجعفر الزرنجي في نفر من الرجالة معونةً لابن كنداجيق.

فلمّا تقلّد أبو الحسن علي بن عيسى الوزارة شاوره المقتدر في أمر القرامطة فأشار بمكاتبة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجَنّابي فتقدّم إليه بمكاتبته وانفاذ الكتاب على يدي من يرى فكتب كتاباً طويلاً جداً يُذكّرهم بالله ويدعوهم إلى الطّاعة ويقول في آخره: إن أمير المؤمنين جعل هذا ظِهرياً عليك وحُجّة من الله بيّنةً فيك وقاطِعاً لعِلِلك وباباً

يعصمك إن صدقتَ عمّا أراده من الخير بك وعظُمت النعمة فيما بذلَهُ من العهد لك.

ونفذ الرُسُل فلمّا وصلوا إلى البصرة انتهى إليهم قتل أبي سعيد فتوقفوا عن المسير وكاتبوا الوزير علي بن عيسى بذلك واستطلعوا رأيه، فعاد الجواب إليهم بالمسير إلى أولاده ومن قام بعده مقامه فتمموا المسير وأوصلوا الكتاب وأدّوا الرسالة فأجابوا عن الكتاب. وأطلقوا الأسرى الّذين تكلم فيهم الرسل وعاد بهم الرسل إلى بغداد.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثمائة

وفيها قبض على أبي عبد اللّه الحسين بن عبد اللّه المعروف بابن الجصاص الجوهري وأنفذ إلى داره جماعةٌ حتى حملوه إلى دار السلطان فأخذ منه من المال والجوهر ما قيمته أربعة آلاف وكان هو يدعي أكثر من ذلك بكثيرٍ ويتجاوز في ذلك عشرين ألف ألف دينار وأكثر.

وفيها خرج الحسين بن علي العلويّ وتغلب على طبرستان ولقب الداعي فوجه إليه أخو صعلوك جيشاً فلم يثبتوا له وانصرفوا فعاد العلوي إليها.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بأن الحسين بن حمدان قد خالف وخرج عن طاعة السلطان. وكان مونس الخادم غائباً قد أخرج إلى مصر لمحاربة العلوي صاحب المغرب لما قصد مصر في نيف وأربعين ألفاً فندب له الوزير علي بن عيسى رائقاً الكبير وخلع عليه وكتب إلى مونس يعرّفه الخبر ويأمره بالمسير إلى ديار مُضر إذا انصرف من مصر وأن يجذب معه أحمد بن كيغلغ وعلي بن أحمد بن بسطام والعبّاس بن عمرو ليصلح الديار فيزيل الاختلاف ويحفظ الثغور وخاصّة الجزرية منها فقد كان جرى على حصن منصور من قصد الروم إياه وسبيهم كلّ من كان في نواحيه أمرٌ عظيمٌ لتشاغل الناس بالحسين بن حمدان عن الغزاة الصائفة. ولما صار رائق إلى الحسين بن حمدان أوقع به الحسين فصار رائق إلى مونس واتصلت كُتُب علي بن عيسى الوزير إلى مونس بالإسراع نحو الحسين فجد مونس في المسير ولما قرُب من الحسين جاءه هارون كاتب الحسين وجرت بينه وبينه خطوب كتب بها مونس إلى علي بن عيسى وذكر أن هارون أوصل إليه كتاباً من الحسين يتضمن خطاباً طويلاً قد افتتحه وختمه وكرّر القول في فصوله: إن السبب في خروجه عما كان عليه من الثقة والطاعة عدولُ الوزير أيده اللّه عما كان عليه في أمره إلى ما أوحشهُ وأنه لم يفِ له بضمانات ضمنها له وذكر أنه قد اجتمع له من قبائل العرب ورجال العشيرة ثلاثون ألف رجل. وأنه سأل الرسول عما حمله الحسين من الرسالة إليه فذكر أنه يسأله المقام بحرّان إذا كانت تحمل عسكره وأن يكاتب الوزير أعزّه اللّه في أمره ويسأله صرفه عما يتقلّده من الأعمال وتركه مقيماً في منزله وتقليد أخيه ديار ربيعة. وأنه عرّفهُ أن هذا متعذّر غير ممكن إذ كانت

كتب الوزير متصلة إليه بالانجذاب وإن مخالفته غير جائز وأنه لا يدع الكتاب فيما سأل ولا يثنيه ذلك عما رسمه الوزير أعزّه اللّه. فإن عزم على اللقاء فباللّه يستعين على كلّ من خالف السلطان أعزّه اللّه وجحد نعمته وإن انقاد للحق وسلك سبيله وصار إليه فنزع عما هو عليه كان ذلك أشبه به وإن أبى وأقام على حاله من التعزُّز والمخرقة لقيه بمضر بأسرها وصان رجال السلطان مع وفور عددهم عن التعرُّض لطغامه لا لنكول عنه منه لكن لاستهانته بأمره وأنه وكل بكاتبه هذا المترسل عنه وأنه لا يأذن له في الانصراف إلاّ بعد أن يعرف خبر الحسين.

ثم وردت الأخبار برحيل مونس حتى نزل بإزاء جزيرة ابن عمر ورحل الحسين نحو أرمينية مع ثقله وأولاده وأموالِه ثم انفلّ عسكر الحسين وصاروا إلى مونس أوّلاً أوّلاً. وورد كتاب مونس بأنه قد صار إليه من أمراء الحسين وغلمانه وثقاته ووجوههم سبعمائة فارس وأنه خلع على أكثرهم ونَفِدَ ما كان معه من الخِلَع والمال وأنه في احتيال باقي ما يحتاج إليه ثم ورد كتابه بأسر الحسين بن حمدان وجميع أهله وأكثر من صحبه وقبض على أملاك بني حمدان بأسرهم ودخل مونس ومعه الحسين وابنه بغداد.

فلمّا كان بعد يومين حُمل الحسين من باب الشمّاسية إلى دار السلطان مصلوباً على نِقْنِق منصوباً بأعلى ظهر فالِج وابنُه مشهور على جمل آخر والبرانس على رُؤُوسهما وسار بين يديه الأمير أبو العبّاس بن المقتدر باللّه والوزير أبو الحسن علي بن عيسى والأستاذ مونس الخادم وأبو الهيجاء عبد اللّه بن حمدان وإبراهيم بن حمدان وسائر القُوّاد والجيش والفيلة. فلما وصلوا إلى دار السلطان وقف الحسين بين يدي المقتدر باللّه ثم أمر بتسليمه إلى زيدان القهرمانة وحُبس عندها في دار السلطان.

وشغب الرّجالة الحجرية بعد حصول الحسين بن حمدان وأحرقوا اصطبل الوزير وطالبوه بالزيادة في أرزاقهم فزيد بكلّ غلام ثلاثة دنانير في كل شهر من شهورهم وزيد الرجّالة كلّ واحد نصف ورُبع دينار في كلّ شهر فسكن الشغب.

وقُبض على أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان وجميع إخوته وحبسوا في دار السلطان وكان هرب ابن للحسين بن حمدان في جماعة من أصحابه وبلغت هزيمته آمد فأوقع بهم الجزري وقتل ابن الحسين وجماعةً من أصحابه وحُملت رُؤوسهم إلى الحضرة وصُلب قوم من أصحاب الحسين بن حمدان.

ودخلت سنة أربع وثلاثمائة

وفيها لقي بأصبهان غلامٌ لعلي بن وهسوذان الديلمي. وكان يتقلّد أعمال المعاوِن بها أحمد بن سيّاه عامِل الخراج بها أنفذه صاحبه إليه في حاجةٍ واتّفق أنه لقيه وهو راكبٌ فكلّمه في الحاجة فاشتدّ ذلك على أحمد بن سيّاه وقال له: يا مُؤاجر تخاطبني في

حاجَةٍ على ظهر الطريق! فانصرف الغلام إلى مولاه مُحفظاً وحدّثهُ بما جرى فقال له: صدق فيما قال ولولا أنّك مُؤاجر لضربتَ رأسَه بالسيف لما خاطبك بذلك. فعاد الغلام ووجد أحمد ابن سيّاه مُنصرفاً فعلاه بالسيف وقتله. فأنكر السلطان ذلك عليه وصرف علي بن وهسوذان لأجل ذلك عن أصبهان بأحمد بن مسرور البَلخي. فاستأذن علي بن وهسوذان في الانصراف إلى بلد الديلم فأذن له ثم سأل بعد ذلك في أمره مونس الخادم فرضي عنه وأقام بنواحي الجبل.

وفيها قدم محمد بن علي بن صُعْلوك مدينة السلام وهو ابن عمّ صاحب خراسان مُستأمناً فخلع عليه.

وفيها في فصل الصيف تفزّعت العامّة من حيوان كانوا يُسمّونه الزَبزَب ذكروا أنهم يرونه في الليل على سطوحهم وأنه يأكل أطفالهم قالوا ورُبّما قطع يد الإنسان إذا كان نائماً أو ثدي المرأة فيأكله. وكانوا يتحارسون طول اللّيل ولا ينامون ويتزاعقون ويضربون الطُسوت والصواني والهواوين ليفزعوه وارتجّت بغداد لذلك حتى أخذ السلطان حيواناً غريباً أبلق كأنه من كلاب الماء وقال: «هو الزبزب» وأنه صيد فصُلب على نِقْنِق عند الجسر الأعلى وبقي مصلوباً إلى أن مات فلم يغن ذلك إلى أن انبسط القمر وتبين للناس أنه لا حقيقة لما توهّموه فأمسكوا إلا أن اللصوص وجدوا فُرصتهم بتشاغُل الناس في سطوحهم فكثرت النقوب.

وفيها تقرّر عند أبي الحسن علي بن عيسى الوزير أنه قد سعى لابن الفرات في الوزارة وتحققه فاستعفى منها ولم يُعفه المقتدر. وأظهر في دار السلطان أن ابن الفرات عليل شديد العلة واتفق إن مات الشاري الذي كان محبوساً في دار السلطان والتدبير في أمر الشراة أن يكتم موت من يؤخذ منهم ممن تسميه الشراة إماماً فإنه ما دام حيًّا فليس ينصبون إماماً غيره فإن صحّ عندهم موته نصبوا غيره. فأظهر في دار السلطان أن ابن الفرات مات وكفّن الشاري وأخرجت جنازتهُ على أنّها جنازة ابن الفرات وصلّى عليه الوزير علي بن عيسى ثم انصرف إلى منزله متوجّعاً وقال لخواصّه «اليوم ماتت الكتابة» ثم مضت الأيام ووقف علي بن عيسى من جهات كثيرة على تمام السعي لابن الفرات وأنه حيٌّ فقال لِخواصه: ليس ينبغي للإنسان أن يتحدّث بكلّ ما يسمعهُ.

وكان يضجر في أوقات من سوء أدب الحاشية والمطالبة بالمحالات ويستعفي من الوزارة ويخاطب المقتدر في ذلك فينكر عليه استعفاءَهُ إلى أن اتفق يوماً إن صارت إليه أُمّ موسى القهرمانة في آخر ذي القعدة من سنة ٣٠٤ لتواقفهُ على ما يطلق في عيد الأضحى للحرم والحاشية. وكان علي بن عيسى محتجباً فلم يجسر سلامة حاجبه عليه أن يستأذن لها فصرفها صرفاً جميلاً فغضبت من ذلك. وعلم علي بن عيسى بحضورها

وانصرافها فأمر أن تلتمس ويعتذر إليها لترجع فأبت أن تعود وصارت إلى المقتدر والسيدة فأغرت به وتخرّصت عليه الأحاديث فصرفه المقتدر بالله وقبض عليه غداة الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة سنة ٣٠٤ عند ركوبه إلى دار الخلافة ولم يتعرض لشيء من أملاكه وضياعه وضياع أسبابه ولا لأحد من أولاده واعتقل عند زيدان القهرمانة فكانت مدّة وزارته هذه ثلاث سنين وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوماً.

وزارة أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات الثانية

فيها تقلد أبو الحسن الوزارة والدواوين لثمان خلون من ذي الحجة وخلع عليه وصار إلى داره بالمخرّم التي كان أقطعها في وزارته الأولى وكتب إلى الأطراف والبلدان عن المقتدر بالله بخبر إعادته إلى الوزارة على نسخة أَنشأها أبو الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة وفي فصل منه: ولما لم يجد أمير المؤمنين غنًى عنه ولا للملك بداً منه وكان كُتّاب الدواوين على اختلاف أقدارهم وتفاوت ما بين أَخطارهم مقرين برياسته معترفين بكفايته متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا مذعنين بأنه الحول القلّب المحنك المجرّب العالم بدرّة المال كيف تحلب ووجوهه كيف تطلب انتضاه من غمده فعاد ما عرف من حدّه فنفّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ودبَّر الأمور كأن لم يخل منها. ورأى أمير المؤمنين ألاّ يدع سبباً من أسباب التكرمة كان قديماً جعله له إلا وفاه أباه ولا نوعاً من أنواع المثوبة والجزاء كان أخرّه عنه إلاّ حباه به وآتاه فخاطبه بالتكنية وكان وكان. . . .

وقبض ابن الفرات على أسباب علي بن عيسى وإخوته وكتابه وَجَميع عُمَّالِه بالسواد وبالمشرق والمغرب وصادرهم سوى أبي الحسين وأبي الحسن ابني أبي البغل فإنه أقرّهُما على ما كانا يَتَولَّيانه من أعمال أصبهان والبصرة لِعنايةِ أم موسى بهما وقبض على أبي علي الخاقاني وتتبّع أسبابهُ وأَلزم جميعهم مُصادَرَةً ثانية أَدّوها وطالب العُمَّال المصروفين بالمصادرة وأن يظهروا المرافق ويؤدّوها ونصب ديواناً للمرافق وكان ضمن للمقتدر ووالدته من هذه الجهة كل يوم ألفاً وخمسمائة دينار وكانت تنسب إلى تلك الخريطة فكان يحملها ولا يمكنه الإخلال بها وكان منها للمقتدر في كل يوم ألف دينار وللسيدة في كل يوم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ديناراً وثلث وللأميرين أبي العباس وهارون ابني المقتدر في كل يوم مائة وستّ وستُّون ديناراً وثلثا. .

وكان ابن الفرات قد اتَّسع بما كان استسلفهُ علي بن عيسى من الخراج فإنه قد كان جبى قطعةً منه قبل الافتتاح وابتدأ بذلك قبل صرْفهِ بعشرة أيام وأعدّ المال في بيت المال لينفقه في العيد في إعطاء الحشم والفرسان والأتراك فقويت نفس كاتب ابن الفرات به وانضاف إلى ذلك جملة عظيمة راجت له من مال المصادرات والضمانات وأموال سفاتج وردت من فارس وأصبهان ونواحي المشرق في درج كُتب بحمول كتِبت على أنها تصِل

إلى علي بن عيسى فأطلق جميع ذلك في الفرسان والحشم والخدم ومهم النفقات.

وكان الغالب على أمر الدواوين والأعمال في أيام وزارة ابن الفرات هذه من بين سائر كتّابه أبو بشر عبد اللّه بن فرجويه وكان السبب في ذلك أنه سلم من النكبة وقت القبض على ابن الفرات في الدفعة الأولى واستتر مدّة وزارة الخاقاني وعلي بن عيسى. وواصل بعد ما مضت سنة واحدة من وزارة علي بن عيسى مكاتَبَة ابن الفرات على يد عيسى المتطبب وكان ابن الفرات يجيبه عن رقاعهِ ويرسم له ما يكاتب به المقتدر عن نفسه في معايب علي بن عيسى وكتّابه وعُمّاله، وأنه ليس يصادر أحداً من عمّاله ويقول: « لا أخوّن عاملاً بعد أن ائتمنته » ويذكر تأخُّر أرزاق الولد والحُرم والحشم حتى أنه اقتصر بالولد والحُرم على جاري ثمانية أشهر في السنة والخدم والحشم بستة أشهر من السنة واقتصر بالفرسان من مائة وخمسين ألف دينار تطلَق لهم في الشهر على خمسين ألف دينار. وكان المقتدر يواقف ابن الفرات على تلك الرقاع فيُعَرِّفه أن ابن فرجويه خبر بالأمور وأنه صادق في كلّ ما ذكره فيهمّ المقتدر بصرف علي بن عيسى فإذا شاور مونساً في ذلك أشار عليه أن لا يفعل ووصف علي بن عيسى بالديانة والأمانة.

فلما خرج مونس إلى مصر لمحاربة العَلَويّ صاحب المغرب تمكن ابن فرجوَيه من الجد في السعي على عليّ بن عيسى وكان غريب الخال ونصر الحاجب يدفعان عن علي بن عيسى لما غاب مونس. فلما تبيّن لابن فرجويه دفع غريب ونصر عن علي بن عيسى كتب رُقعة بخطهِ إلى المقتدر يذكر فيها أنه إن صرف علي بن عيسى عن الوزارة وقلّد مكانَهُ علي بن محمد بن الفرات أطلق للولد والحُرم والحشم ولِمن بالحضرة من تفاريق الفرسان مثل ما كان يُطلِقه في أيام وزارته الأولى على التمام والكمال والإدرار وأن يوفّر بعد ذلك من مال مصادرات العُمّال ومال مرافقهم والاستثبات في النواحي في كلّ شهر من شهور الأهلّة خمسة وأربعين ألف دينار فواقف المقتدر ابنَ الفرات على هذه الرقعة فذكر أن جميع ما تضمّنته صحيح وبذل خطّه بضمانِه جميع ذلك. فكانت هذه الرقاع من أكبر أسباب التِحاقهِ على ابن فرجويه في وزارته هذه واختِصاصِه به.

واتفق له مع ذلك أن ابن الفرات أودع على يده عند جماعة من التجار والكتّاب أموالاً جليلة ولم يقُرّ ابن الفرات بما كان أودعَهُ ابن فرجويه لأنه لم يكن يعرف أسماءَ مَن أودع ذلك عنده فلما عاد إلى الوزارة استخرج له ابن فرجَويه جميع ما كان أودعَهُ له من غير أن يذهب له شيء منه.

وكان أبو علي بن مُقلةُ متعطّلاً في أيام وزارة الخاقاني وعلي بن عيسى مُلازماً منزله واستتر أيام الخاقاني ثم آمنهُ علي بن عيسى فلزم منزله فشكر له ابن الفرات واختصّ به لهذه الحال.

ذكر ما جرى من ابن أبي الساج عند تداول الوزارة الأيدي الكثيرة

لما وقف يوسف بن أبي الساج على الخبر في صرف علي بن عيسى عن الوزارة وكان مقيماً بآذربيجان ومُتقلّداً أيام وزارة ابن الفرات الأولى أعمال الصلاة والحرب والمعاون والخراج والضياع العامّة بأرمينية وآذربيجان ومُقاطعاً على مال يحملهُ في كلّ سنةٍ عنها إلى بيت المال بالحضرة وكان يُزيح العلة في ذلك المال مدّة أيام وزارة ابن الفرات الأُولى. فلما ولي أبو علي الخاقاني الوزارة ثم علي بن عيسى طمع فأخّر أكثر المال الذي كان يقاطع عليه واجتمع له من ذلك ما قوي به وحمله على العصيان

ذكر ما دبّره ابن أبي الساج واحتال به

أظهر أن علي بن عيسى أنفذ إليه اللواء والعهد عن المقتدر باللّه بتقليده أعمال الحرب بالريّ وقزوين وأبهر وزنجان قبل صرفه عن الوزارة وسار مبادراً إليها فلما قرُب منها انصرف عنها محمد بن علي صعلوك وهرب إلى نواحي خراسان وكان محمد بن علي هذا مُتغلّباً على هذه النواحي ثم قاطع عن الضياع والخراجُ مقاطعةً خفيفةً ولم يف بذلك أيضاً. فلما وقف ابن الفرات على ما فعلهُ ابن أبي الساج أنهى ذلك إلى المقتدر ثم ورد كتاب ابن أبي الساج بعد أيام يعتدّ فيه بما فعله من إخراج محمد بن علي صعلوك عن الريّ وما يليها ويبشّر السلطان بفتحهِ هذه النواحي ويصف أنه لما ورد عليه العهد واللواء من جهة علي بن عيسى سار إليها فرزقه اللّه الفتح والنصر فاغتاظ المقتدر باللّه من ذلك وتقدّم إلى ابن الفرات بمواقفة علي بن عيسى على ما كتب به ابن أبي الساج فأخرجه من محبسه ورفق به وخاطبهُ بجميل وقال له: قد يجوز أن تكون دبّرت بهذا الفعل على صعلوك وهذا غير منكر. فحلف أنه ما ولاّه ولا أنفذ إليه لواءً ولا عهداً وقال: لا بدّ لِلواءِ والعهدِ أن ينفذَ مع خادم من خدم السلطان أو قائد من قُوّاده وهؤلاء الخدم والقوّاد بين أيديكم سلوهم عن ذلك ولِديوان الرسائل كاتبٌ يتقلّده بكتب العهود والولايات سلوهُ هل كتب بشيءٍ فأخذ منه ابن الفرات خطأً بما حكاه وعرضه على المقتدر باللّه فازداد المقتدر غيظاً على ابن أبي الساج.

وكتب ابن الفرات عن المقتدر بالله وعن نفسه إلى ابن أبي الساج في هذا المعنى أغلظ كتب وتوعّده وأنفذ إليه من الحضرة لمحاربته خاقان المفلحي وضم إليه الرجال وأنفذ بعده عدة من القواد مدداً له وأنفق الأموال فيهم وكان فيهم مثل محمد بن سرور البلخي وسيما الخزري ونحرير الصغير وجماعة أمثالهم فواقعه ابن أبي الساج وهزمه وأسر جماعة من أصحابه وأدخلهم مشهرين إلى الريّ. وقدم مونس الخادم من الثغر فندب لحرب ابن أبي الساج وشخص إليه وكتب إلى جميع القوّاد في طريقه بالانضمام

إليه واستأمن إليه أحمد بن علي صعلوك فأحسن قبوله وصرف خاقان المفلحي عما كان إليه من أعمال الجبل وقلد مكانه نحرير الصغير.

واتصلت كتب ابن أبي الساج يلتمس الرضا عنه ويبذل سبعمائة ألف دينار عن أعمال الخراج والضياع بكورة الري وما يليها خالصةً سوى أرزاق الأولياء في تلك الأعمال وسوى النفقات الراتبة فلم يجبه المقتدر بالله إلى ما التمسه فكتب يبذل أن يقيم بالريّ متقلداً أعمال المعاون والحرب بها فقط حتى ينفذ السلطان إلى تلك النواحي من يتقلد أعمال الصّلاة والخراج والضياع والأحكام والبريد والخبر والخرائط والصدقات فأقام المقتدر على أنه لو بذل كلّ بذل لَمَا أقرّه على الريّ يوماً واحداً لإقدامه على أن سار إليها بغير أمر فلما رأى ابن أبي الساج هذه الحال انصرف عن الريّ وأعمالها بعد أن أخربها وجبى مالها لسنة ٣٠٤ في مدّة قريبة وقلد مونس الري وقزوين وصيفاً البكْتِمُريّ. ورضي ابن أبي الساج بأن يُجدِّد له العهد والولاية للأعمال التي كانت إليه أوّلاً وأشار ابن الفرات بقبول ذلك منه وضمن أن يلزمه بهذا السبب حمل جملة من المال إلى بيت المال يحسن موقعها فعارض ذلك نصر الحاجب وابن الحواري وقالوا: لا يجوز أن يقرّ على أرمينية وآذربيجان إلاّ بعد أن يرد الحضرة ويطأ البساط. ونسبوا ابن الفرات إلى مواطأته، فأقام المقتدر على أنه لا بدّ من محاربته أو يرد الحضرة وكتب إلى مونس بالتعجيل إليه لمحاربته.

فلما رأى ابن أبي الساج أن دمه على خطر حارب مونساً بسراة من بلد آذربيجان فانهزم مونس إلى زنجان وقتل من قواد السلطان سيما واستأسر ابن أبي الساج جماعة من قوّاد مونس فيهم هلال بن بدر وأدخلهم إلى أردبيل مشهرين. وأقام مونس بزنجان يجمع ليوسف وهو مع ذلك يكاتبه ويراسله وابن أبي الساج يلتمس منه الصلح ومونس لا يقبل منه إلاّ المصير إلى الحضرة. وكان ابن أبي الساج أبقى على مونس لما انهزم حتى سلم في ثلاثمائة غلام ولو أراد ابنُ أبي الساج لأسره فكان مونس يشكر ابن أبي الساج على هذه الحال.

فلما كان في المحرّم بعد ذلك في أيام وزارة حامد بن العباس واقَع مونس يوسفَ ابن أبي الساج الوقعة الأخرى بأردبيل فأسر يوسفَ وبه ضربات وانصرف به مونس إلى بغداد فلما كان سنة ٣٠٧ حمل يوسف بن أبي الساج على جملٍ من باب الشماسية وأدخل بغداد مشهراً على رأسه برنس وبين يديه الجيش إلى أن وصل إلى دار السلطان ووقف بين يدي المقتدر ثم حبس في دار السلطان في يد زيدان القهرمانة ووسع عليه ثم خلع علي مونس وطُوِّق وسُوِّر وخلع على جماعة من قواده وزيد الرجالة نصف دينار لكل واحدٍ في الشهر.

ولما بعد مونس من آذربيجان وانكفأ راجعاً إلى مدينة السلام ومعه يوسف بن ديوداذ غلب سبك غلام يوسف عليها. فأنفذ مونس إليه محمد بن عبد اللّه الفارقي وقلده البلد وكان في حدود أرمينية فسار إلى سبك وحاربه فانهزم الفارقي وصار إلى بغداد وتمكن سبك من البلد. ثم كتب إلى السلطان يسأل أن يقاطع عن الناحية فأجيب وفورق على أن يحمل في كل سنة مائتين وعشرين ألف دينار وأنفذت إليه الخلع والعقد ولم يفِ بما ووقف عليه وكان مونس لما ظفر بيوسف بن أبي الساج وقبل انصرافه عن آذربيجان قلد علي بن وهسوذان أعمال الحرب بالري ودیناوند وقزوين وزنجان وأبهر وسلمها إليه وجعل أموالها له ولرجاله وقلد أحمد بن علي صعلوك أعمال المعاون بأصبهان وقم وجعل مال الخراج والضباع بقم وساوة له ولرجاله مبلغه في كل سنة أكثر من مائتي ألف دينار.

ثم وثب أحمد بن مُسافر صاحب الطرم على ابن أخيه علي بن وهسوذان وهو معه مقيم بناحية قزوين فقتله على فراشه وهرب في الوقت إلى بلده وكان أحمد بن علي أخو صعلوك مقيماً بقُمّ فسار منها إلى الريّ ودخلها فأنكر عليه السلطان فعله وقلّد وصيف البكتمري أعمال علي بن وهسوذان وقلّد محمد بن سليمان صاحب الجيش أعمال الخراج والضياع وكوتب أحمد بن علي بالانصراف إلى قُمّ ففعل ثم جرت بينه وبين محمد بن بها سليمان وحشة فأظهر الخلاف وصرف عمّال الخراج والضياع عن قمّ وأخذ في الاستعداد للمسير إلى الريّ وكوتب نحرير الصغير وهو متقلد همذان بالمسير إلى الريّ والاجتماع مع وصيف البكتمري ومحمد بن سليمان على دفع أحمد بن علي وسار أحمد بن علي إلى باب الريّ فواقعوه وانهزم وصيف ونحرير إلى همذان وقتل محمد بن سليمان في الوقعة وحصلت الريّ في يد أحمد بن علي فشرع في إصلاح ما بينه وبين السلطان وعنى به نصر الحاجب فقاطع عن أعمال الخراج بالريّ ودیناوند وقزوين وزنجان وأبهر على مائة وستة وستين ألف دينار محمولة في كل سنة إلى الحضرة وقُلد الناحية وقُلّد محمد بن خلف النيرماني الضياع بهذه النواحي وأخرج أحمد بن علي عن قُمّ وقلّد من نظر فيها.

(ونعود إلى حديث ابن الفرات)

لما تبين الوزير أبو الحسن بن الفرات عداوة نصر الحاجب وأبي القاسم بن الحواري وشفيع اللؤلؤي ونسبهم إيّاه إلى مُواطأة ابن أبي الساج على العصيان عاداهم ومنعهم أكثر حوائجهم وصرف نصراً وشفيعاً عن أكثر أعمالهم. وكان ابن الفرات قلّد أبا علي بن مُقلة كتابة نصر الحاجب ثم استوحش أبو علي بن مقلة من ابن الفرات لِأجل استخدامه سعيد ابن إبراهيم التستري فذكر لنصر أن ابن الفرات قد استخرج من ودائعه التي سلِمت له

خمسمائة ألف دينار بعد أن حلف في وقت نكبتِه أنه ما بقيت له وديعة لم يُقربها فذكر نصر للمقتدر ذلك لِيُغيظه على ابن الفرات وغرّ نصر وابن الحواري أبا علي بن مقلة وأطمعاه في الوزارة ليستخرجا ما عنده من أخبار ابن الفرات التي يُضرِّبون بها المقتدر عليه حتى ظهر الأمر في ذلك واشتهر وكثرت به الأراجيف فذهب أبو الخطّاب بن أبي العباس بن الفرات إلى عَمّهِ فشرح له ما يتحدث به الناس فقال له: إن شككت في أبي علي بن مقلة مع تربيتي له ودفعي منه شككت في ولدي وفيك. ثم تبين ابن الفرات بعد ذلك صحّة ما نُسب إلى ابن مقلة واطلع أبا علي بن مقلة على بعض ما وقع إليه من الخوض في أمره على طريق التعجُّب لِيَصرِفه عما شرع فيه فاستوحش أبو علي منه وخاف معاجلته إياه بالنكبة فجدَّ في السعي عليه واعتصم بنصر الحاجب.

ودخلت سنة خمس وثلاثمائة

وفيها ورد رسولان لملك الروم إلى مدينة السلام على طريق الفرات بهدايا عظيمة والطاف كثيرة يلتمسان الهدنة وكان دخولهما يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرّم فأنزلا في دار صاعد بن مَخلْد وتقدم أبو الحسن بن الفرات بأن يُفرش لهما ويُعَد فيه كلّ ما يحتاجان إليه من الآلات والأواني وجميع الأصناف وأن يقام لهما ولِمَن معهُما الانزال الواسعة والحيوان الكثير والحلاوة حتى يتّسع بذلك كلّ من معهما. والتمسا الوصول إلى المقتدر باللّه لِيُبلّغاه الرسالة التي معهما فاعلما أن ذلك متعذِرٌ صعبٌ لا يجوز إلا بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصد إليه وتقرير الأمر معه والرغبة إليه في تسهيل الإذن على الخليفة والمشورة عليه بالإجابة إلى ما التمسا. فسأل أبو عمر عدي بن عبد الباقي الوارِد معهما من الثغر أبا الحسن بن الفرات الإذن لهما في الوصول إليه فوعده بذلك في يوم ذكره له.

وتقدَّم الوزير بأن يكون الجيش مُصطفًا من دار صاعد إلى الدار التي أُقطِعها بالمُخرّمِ وأن يكون غلمانه وحدَهُ وخلفاء الحجاب المرسومين بداره منتظمين من باب الدار إلى موضع مجلسه وبُسِط له في مجلسٍ عظيم مُذهب السقوف في دار منها يعرف بدار البستان بالفرش الفاخر العجيب وعُلِّقت الستور التي تشبه الفرش واستزاد في الفرش والبسط والستور ما بلغ ثمنه ثلاثين ألف دينار ولم يبقَ شيء تُجمَّل به الدار ويُفخَّم به الأمر إلا فُعِل وجلس على مصلّى عظيم من ورائه مسندٌ عالٍ والخدم بين يديه وخلفهِ وعن يمينه وشماله والقوّاد والأولياء قد ملؤوا الصحن ودخل إليه الرسولان فشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع ما هالهما.

ولما دخلا دار العامة أجلسهما الحاجب في رواقها والرجال قد امتلأت بهم الدار ثم أخذ بهما في ممرٍّ طويلٍ من وراء هذا الرواق حتى أخرجهما إلى صحن البستان ثم

عدل بهما إلى المجلس الذي كان الوزير جالساً فيه فشاهدا من بهاء المجلس والفرش الذي فيه وكثرة الجمع منظراً عجيباً جليلاً. وكان معهما أبو عمر بن عبد الباقي يترجم عنهما ولهما وحضر نزار بن محمد صاحب الشرطة في جميع رجاله فأقيما بين الوزير أبي الحسن بن الفرات فسلما وترجم لهما ابن عبد الباقي ما قالا فأجابهما بما ترجمه لهما. ورغبا إليه في إيقاع الفداء ومسألة المقتدر بالله الإجابة إليه فأعلمهُما له يحتاج إلى مخاطبته فيما ذكراه ثم العملُ فيه بما يرسمهُ والتمسا منه إيصالهُما إليه فوعدهما به. وأخرجا من بين يديه وأُخِذ بهما في الطريق الذي دخلا منه وعادا إلى دار صاعد والجيش منتظم طول الطريق بأحسن زيٍّ وأكمل هيأة. وكان زيهما دراريع ديباج ملكية ووقايات وفوق الوقايات قلانس ديباج محدودة الرؤوس.

وخاطب ابن الفرات المقتدر بالله في إيصالهما إليه وواقفه على ما يجيبهُما به وتقدّم إلى سائر الأولياء والقواد وسائر أصناف الجند بالركوب إلى دار السلطان وأن يكونوا منتظمين للظهر من دار صاعد إلى دار السلطان فركبوا ووقفوا في الطريق على هذا الترتيب في الزي الحسَن والسلاح التامّ وتقدَّم بأن تُشحن رحاب الدار والدهاليز والممرات بالرجال والسلاح وأن يفرش سائر القصر بأحسن الفرش ولم يزل يراعي ذلك حتى فرغ من جميعه ثم أنفذ إلى الرسولَين بالحضور فركبا إلى الدار على الظهر وشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرته وحسن زَيّهِ وتكامل عُدَّته أمراً عظيماً. ولما وصلا إلى الدار أُخِذ بهما في ممرٍّ يفضي إلى صحن من تلك الصحون ثم عدل بهما إلى ممرّ آخر وأخرجا منه إلى صحن أوسع من الأول ولم تزل الحجاب يخترقون بهما في الصحون والممرات حتى كلاّ من المشي وانبهرا. وكانت تلك الصحون والممّرات محشوة بالغلمان والخدم إلى أن قرُبا من المجلس الذي فيه المقتدر بالله والأولياء وقوفٌ على مراتبهم والمقتدر جالسٌ على سرير مُلكِهِ وأبو الحسن بن الفرات واقفٌ بالقرب منه ومونس الخادم ومن دونه من الخدم وقوفٌ عن يمينه ويساره. فلما دخلا إلى المجلس قبّلا الأرض ووقفا حيث استوقفهُما نصر الحاجب وأدّيا إليه رسالة صاحبهما في الفداء ورغبا إليه في إيقاعِهِ. فأجابهما الوزير عنه بأنه يفعل ذلك رحمةً لِلمسلمين ورغبةً في فكهِم وإيثاراً لطاعة الله عزّ وجلّ خلاصهم وأنه ينفذ مونساً لحضور ذلك ولما خرجا من حضرتِهِ خُلع عليهما مَطارِف خزٍّ مذهبة وعمائم خزّ وخُلع على أبي عمر أيضاً وانصرف على الظهر معهما والجيش على حالِهِ منتظم لِلفداء. فتأهّب لِذلك وابتيع من التمس الرُّسل ابتياعَهُ من الروم المطلوبين وأطلق له ولِلقوّاد الشاخصين معه من بيت المال بالحضرة مائة ألف وسبعون ألف دينار. وكتب إلى العُمّال في طريقه بإزاحة عِلَّته فيما يلتمسهُ وحُمل إلى كل واحد من الرسولين عشرون ألف درهم صِلةً لهُما وخرجا مع

مونس ومعهُما أبو عُمر. وتمّ الفداء في هذه السنة على يد مونس.

وفيها أُطلق أبو الهيجاء عبد اللّٰه بن حمدان وإخوته من الحبس في دار السلطان وخُلع عليهم خلعة الرضا.

وفيها مات العبّاس بن عمرو الغنوي وكان متقلّداً أعمال الحرب والمعاوِن بديار مضر فقلّد مكانه وصيف البكتمري. فلم يضبط العمل فقلد مكانه جنيّ الصفواني فضبطَهُ أحسن ضبطٍ.

ودخلت سنة ست وثلاثمائة

وفيها قُبض على الوزير أبي الحسن بن الفرات وكانت مدّة وزارته هذه الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب الظاهر في صرف ابن الفرات عن وزارته هذه الثانية أنه أخّر إطلاق أرزاق الفرسان الّذين مع القوّاد واحتجّ بضيق الأموال لأجل ما احتيج إليه من صرفها إلى مُحاربة ابن أبي الساج وأيضاً لأجل نقصان الارتفاع بأخذ يوسف مال الري. فشغب الفرسان في أول سنة ٣٠٦ شغباً عظيماً وخرجوا إلى المصلّى والتمس ابن الفرات من المقتدر باللّٰه إطلاق مائتي ألف دينار من بيت مال الخاصّة لِيضيف إليها مائتي ألف دينار يُنفق في الفرسان فغلُظ ذلك على المقتدر وراسله بأنه قد كان ضمن له أن يقوم بسائر النفقات على رسمِهِ كان في وزارته الأولى وبحمل ما ضمن حمْلَه إلى حضرته مفرداً وأنه لم يظنّ أنه يُقدِمُ عليه بطلب مال. فاحتج ابن الفرات بما ذكرتُه فلم يسمع حُجَّته وتنكّر له.

وكان عبد اللّٰه بن جُبَير لما أقام في وزارة علي بن عيسى بواسط وقد عرف مقدار ارتفاع أعمالها وما يحصل لحامد بن العبّاس من الفضل على الضمان شرح ذلك لابن الفرات وبين له وجوهه لما عاد إلى بغداد وعند عوده إلى مجلس الأصل في ديوان السواد. فعظم ذلك في نفس ابن الفرات فلما أتى على ذلك مدّة استأذن ابن جُبير ابنَ الفرات في أن يُكاتب حامداً في بعض ما كان أنهاه إليه من ضمان حامدٍ فأذن له فيه إذناً ضعيفاً. فكتب من مجلسِهِ (وهو مجلس الأصل في ديوان الخراج) إلى حامد وأجاب حامد وتردّدت بينهُما مُكاتبات في هذا المعنى. وتبع ذلك كتب بشر بن علي (وهو خليفة حامدٍ) يعتب على ابن جُبير لما كان يتكلم به في مجلسه. فاستوحش حامد من ذلك وتخوّف أن يكون ما يظهرهُ ابنُ جبير عن مواطأة الوزير ابن الفرات ولشيء قد عرفه من نيّته فأنفذ من يسفر له في الوزارة ويُخاطب له نصراً الحاجب. فسعى له في ذلك وعرّف نصراً سعة نفسِ حامد وضمن له تصحيح أموال جليلة من جهة ابن الفرات

وأسبابه وراسل أيضاً السيّدة في هذا الباب.

ووافق ما سعى له فيه وما بذله له سوء رأي نصر في ابن الفرات وتخوُّفه منه والإضافة التي عرضت في الوقت حتى طلب ما طلب فتمّ لحامد ما قدّره بما اجتمع من هذه الأحوال. فرُوسل حامد بالخروج إلى الحضرة من واسط وأن يكتب كتاباً بخروجِه على أجنحة الطيرِ. فلما وقف عليه المقتدر أنفذ نصراً الحاجب وشفيعاً المقتدري فقبضا على ابن الفرات وعلى ابنه المُحسِن وموسى بن خلف وعيسى بن جُبير وسعيد بن إبراهيم التُستَري وأم ولد له وابنها منه وحُملوا إلى دار السلطان فاعتقل أبو الحسن بن الفرات وحدهُ في يد زيدان القهرمانة واعتقل الباقون في يد نصر. ووصل حامد إلى مدينة السلام وأقام ليلته في دار الحجبة من دار السلطان وتحقّق به أبو القاسم بن الحواري.

وجلس حامد يتحدّث فبان للقوّاد وجميع خواصّ المقتدر حِدّتهُ وقلة خبرتِه بأمر الوزارة وحُدّث المقتدر بذلك فاستدعى أبا القاسم ابن الحواري وعاتبه على مشورته به. فوصفه ابن الحواري باليسار العظيم وباستخراج الأموال وهيبته عند العُمّال ونُبل النفس وكثرة الغلمان. وكان مع حامد لما قدم أربعمائة غلام يحملون السلاح فيهم عُدَّة يجرون مجرى وجوه القواد وأكابر أصحاب السلطان. وأشار ابن الحواري على المقتدر في عرض كلامِه بإطلاق علي بن عيسى وتقليده الدواوين بأسرها ليخلف حامداً عليها فامتنع المقتدر من ذلك إلاّ بعد أن يلتمسه حامدٌ منه فأحال ابن الحواري على حامدٍ وقال له: التمس ذلك من المقتدر إذا وصلت إليّ حضرته وعظّم عليه أمرَ الأعمال والدواوين وحوائج الحاشية وخوِّفه من سوء أدبهم. وصوَّر لحامد أنه إن لم يفعل ذلك فُعل مُراغَمَةً له وحلف أنه ناصِحٌ له. فلما وصل حامد إلى المقتدر بالله وتقلّد وزارته قبّل الأرض بين يديه وبعقب ذلك سأله إطلاق علي بن عيسى والإذن له في استخلافِه على الدواوين والأعمال فقال له المقتدر بالله: ما أحسب علي بن عيسى يجيب إلى ذلك ولا يرضى أن يكون تابعاً بعد أن كان متبوعاً رئيساً. فقال حامد بحضرة الناس: لِمَ لا يستجيب إلى ذلك؟ وإنما مثل الكاتب مثل الخياط يخيط ثوباً قيمته ألف دينار ويخيط ثوباً بعشرة دراهم. فضحك الناس منه.

ولما خلع على حامد خلع الوزارة صار إلى دار الوزارة بالمخرّم فنزلها وجلس فيها للتهنئة. ولم يقرّر شيئاً من الدواوين فتركها مختومةً ذلك اليوم وتحقق به أبو علي ابن مقلة واختصّ به واستحضر حامد أبا عبد الله زنجي الكاتب فألزمه داره ورد إليه مكاتبة العمال عنه على رسمه مع ابن الفرات. وتحقق بجميع الأمور ابن الحواري وصار هو السفير بين حامد وبين المقتدر بالله. وكتب عن المقتدر إلى جميع أصحاب الأطراف وعمّال المعاون بخبر تقليده حامداً الوزارة أنشأ ذلك أبو الحسن محمد بن

جعفر بن ثوابة. ثم قرر حامد وعلي بن عيسى أمر الدواوين على اتفاق منهما جميعاً ثم ابتدأ بعد ذلك يغير ما رأى تغييرَهُ.

وكان علي بن عيسى في أوّل أيام وزارة حامد بن العبّاس يحضر دار حامدٍ في كل يوم دفعتين مدّة شهرين ثم صار يحضر في كلّ أسبوعٍ دفعةً واحدة. ثم سقطت منزلة حامد عند المقتدر باللّه أوّل سنة ٣٠٧ وتبيّن هو وخواصُّهُ أنه لا فائدة في الاعتماد عليه في شيء من الأمور. فتفرد حينئذٍ أبو الحسن علي بن عيسى بتدبير سائر أمور المملكة وأبطل حامداً فصار لا يأمر في شيء بتّةً حتى قيل فيه:

هـــذا وزيـــر بـــلا ســـواد وذا ســـوادٌ بـــلا وزيـــر

فلما رأى حامد بن العبّاس نفسَه لا يأمر ولا ينهى ولا يزيد على لبس السواد والركوب في أيام المواكب إلى دار السلطان فإذا حضر لم يُدخِله المقتدر في شيءٍ من التدبير وكان الخطاب كلّه مع علي بن عيسى شرع في تضمُّن أعمال الخراج والضياع والخاصّة والعامّة المستحدَثَة والعبّاسية والفراتيّة بالسواد والأهواز وأصبهان وتردّدت بينه وبين علي بن عيسى في ذلك بحضرة المقتدر مُناظرات إلى أن تضمن هذه الأعمال. فضمّن حامد أبا علي أحمد بن محمد بن رُستَم أصبهان بزيادة مائة ألف دينار في كل سنة على ما كان يرتفع به على يده ويد ابن أبي البغل ويد أحمد بن سيّاه ولما زال ضمان حامد عقد علي بن عيسى على أبي علي بن رستم أصبهان بهذه الزيادة ثم شرح أبو الحسين بن أبي البغل عظيمَ ما يرتكب أبوْ علي بن رستم من الظُلم لأهل أصبهان فبحث عنه علي بن عيسى حتّى تحققه فاستشار ابن أبي البغل فأشار بعقد الضمان على صاحبين له كانا يتولّيان له بأصبهان مدّة تقلُّده إياها وهُما أبو مسلم محمد بن بحرٍ وأبو الحسين أحمد بن سعد فعقد ذلك عليهما بثمانين ألف دينار زيادة وحطّ من جملة المائة الألف عشرين ألفاً ليكون في ذلك ترْفِيه للرعيّة وسلّم إليهما ابن رستم.

ولما تبيّن حامد اتّضاع حاله عند المقتدر ورأى أنه لا يأمر ولا ينهى في شيءٍ من أمر المملكة استأذن في العود إلى واسط ليدبّر أمر ضمانِهِ الأول فأذن له المقتدر في ذلك وأقام بواسط وله اسم الوزارة فقط.

ذكر ما عامل به حامد بن العبّاس عليّ بن محمد بن الفرات وأسبابه

ركب حامد بن العبّاس وعلي بن عيسى ثالث يوم تقلّد حامد الوزارة إلى المقتدر ووصل الناس ودخلا إليه. والتمس حامد الإذن لِرجُل من الجند وذكر أنه وجده قبل تقلُّده الوزارة وأقرّ له بأنه كان رسول ابن الفرات إلى يوسف بن أبي الساج في العصيان فأحضره كتاباً منسوباً إلى ابن أبي الساج من ابن الفرات. فغلظ ذلك على المقتدر واغتاظ على ابن الفرات وأقبل على أبي عُمر القاضي وقال له ما عندك في هذا الفعل

من ابن الفرات؟ قال له: يا أمير المؤمنين لئن صحَ أنه أقدم على هذا الفعل لقد سعى في إفساد أمر المملكة. ثم أقبل بعده على أبي جعفر بن البهلول القاضي فقال له: ما عندك في هذا؟ قال له: عندي أن اللّه عزّ وجلّ قد أمر بالتثبُّت ونهى عن قبول قول الفاسق. ثم ناظر ابن البهلول الرجل مُناظرة أدت إلى أنه كذبٌ فأقرّ الرجل بالكذب فيما ادّعاه. فسلّم الرجل إلى صاحب الشرطة وأمر بضربه مائة سوطٍ فضُرب وحُبس في المطبق ثم نُفي إلى مصر.

ثمّ إن حامداً وعلي بن عيسى أحضرا أبا علي الحسين بن أحمد المادرائي مناظرة ابن الفرات في دار السلطان فكاشف الحسين بن أحمد المادرائي بن الفرات بأنه حمل إليه في وزارته الأولى أربعمائة ألف دينار من مال المرافق بأجناد الشام وإن أبا العباس ابن بسطام وأبا القاسم ابنه بعده حملا إليه ثمانمائة ألف دينار من مال الاستثناء والمرافق بكور مصرِ حساباً في كل سنة مائتي ألف دينار. وحضر المناظرة القضاةُ والكُتّابُ وجلس المقتدر بحيث يسمع ما يجري ولا يراهُ أحد واحتجّ ابن الفرات بأن قال: إن هذا العامِل قد تولّى أعمال مصر والشام في أيام وزارة علي بن عيسى وقد اعترف بأن هذه أموال واجبٌ استخراجها وادّعى أنه حمل بعضها إليّ حيث كان متقلداً أعمال أجناد الشام وإن ابني بسطام حملا إليّ ما ذكره. وقد ولي علي بن عيسى الوزارة مدّة أربع سنين وليس يخلو هذا المال من أن يكون حمل إلى علي بن عيسى فهو واجبٌ عليه أو لم يحمل فهو واجبٌ على هذا العامِل في نفسِهِ. ثم قد اعترف أنه قد جبى في أيام وزارتي الأولى ما قال وهو أربعمائة ألف دينار وادّعى حملها إليّ فصار مُقرّاً على نفسِه ومدّعياً عليّ. وأنا أقول إنه كاذبٌ في ادّعائِه عليّ وحكم اللّه تعالى ورسوله والفقهاء معروفٌ في أمثالِه. فأسمعهُ حامدُ ما يكره وشتَمهُ شتماً قبيحاً فقال له ابن الفرات: أنتَ على بساط السلطان وفي دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من ببدرٍ تقسمهُ ولا هو مثل أكار تشتمهُ ولا عامل تلاكمهُ. ثم أقبل على شفيع اللؤلؤي وقال له: يجب أن تكتب عني بما أقوله إلى مولانا أيده اللّه أن حامداً إنما حملهُ على الدخول في الوزارة وليس من أهلها إني أوجبت عليه أكثر من ألف ألف دينار من فضل ضمانِهِ أعمال واسط وجددتُ في مطالبته بها فقدّر بدخوله في الوزارة أن يفوز بذلك الفضل وبما يُحصّله مُستأنفاً وقد كان ينبغي له وهو وزير أمير المؤمنين أن يدع ضمان أعمال واسط حتى يتبيّن أمُربحٌ هو أم مخسِرٌ فيدبّرهُ أبو الحسن علي بن عيسى فإنه لا يشك أحدٌ في بُعد ما بينه وبين حامدٍ في الصناعة والاحتياط. فأما وهو وزير وهو ضامنٌ فهذا أوّل خيانتِه واقتطاعِه. فأمر حامد بن العبّاس أن ينتف لحيته فلم يمتثل أحدٌ أمره فوتب هو بنفسه إليه وجذب لحيته.

وكان الخطاب قد انتهى أن بذل الحسين بن أحمد المادرائي خطّه بخمسمائة ألف دينار إن سُلم إليه ابن الفرات وكان ذلك قبل شتيمة حامد له ومَدّ يده إلى لحيته وكان حامد أحضر أبا علي بن مُقلة ووافقَهُ على أن يواجِه ابن الفرات بأنه قد استخرج من ودائعه التي كتمها في وزارته خمسمائة ألف دينار فلم يبرز أبو علي صفحته لابن الفرات وراسله حامد في المجلس أن يفي بوعدِهِ ويواقفهُ في وجهِه فقال أبو علي: أنا أكتب خطي بذلك فأما أن أواجه ابن الفرات فلا أفعل. فغلظ ذلك على حامد وتنكر لابن مُقلة منذ هذا اليوم.

وكان علي بن عيسى لا يزيد على أن يُكلّم ابن الفرات في مواضع الحُجّة بكلام جميل وحامد مشغول بالسفهِ والشتمِ وكان ابن الحواري يُري ابن الفرات أنه مُتوسّط بينه وبين حامد وتبيّن في خطابه أنه متحامل على ابن الفرات ولما سمع المقتدر شتم حامدٍ لابن الفرات ووقف على مدّ يده إلى لحيته أنفذ خادماً أقام ابن الفرات من مجلسه وردّه إلى محبسِه. فقال علي بن عيسى وابن الحواري لحامد: قد جنيتَ علينا بما فعلته بابن الفرات. وكان الحسين بن أحمد المادرائي بعد مكاشفته لابن الفرات قال له: إن تأدّى إلى المصادرة تحمّلتُ عنك خمسين ألف دينار. فلما خرج من المجلس قال له نصر الحاجب وعلي بن عيسى وابن الحواري: دخلت لتناظر الرجل فلم تبرح حتى بذلت له مرفقاً وصانعتهُ. فقال لهم: أدخلتموني إلى رجل قال لي بعضكم لما دخلتُ إليه «انظر لِمن تُخاطِب» وقال آخر: «انظر بين يديك» وقال آخر: «اللّه اللّه في نفسك» فلم أجِد شيئاً أقرب إلى الصواب ممّا فعلتُ بعد أن سمعتُ كلامَهُ. فمن جميل ما عملهُ ابنُ الفرات أنه لمّا تقلد بعد هذا الوقت الوزارة وهي وزارته الثالثة قبض على ابن الحسين بن أحمد المادرائي وهو أكبر أولاده فأخذ خطّه بخمس وعشرين ألف دينار كانت واجبةً عليه من مال السلطان ولم يطالبه بها واعتقله إلى أن وافى أبوه من الشام. فذكّره ابن الفرات ما كان بذله من الخمسين الألف الدينار التي تحمّلها عنه وقال له: قد كنتَ مُخيَّراً أن تفعل وأن لا تفعل وإنما وعدتَ وعداً وهذه رُقعة بخطّ ابنك بخمسة وعشرين ألف دينار وهي واجبة عليه حاصِلة قبله ولا حجة له ولا لك فيها وقد رددتها عليك مكافأة لك على ما بذلتَ.

وقد كان أنفذ أبو أحمد بن حمّاد لمُناظرة ابن الفرات بحضرة شفيع اللؤلؤي وغيره فافتتح ابن حماد الخطاب بأن قال: إن الوزير والرئيس أدام اللّه عزّهما يقولان لك: «اصدق نفسك فقد وصل إليك من ضياعك وغلاّتك في كل سنة ألف ألف ومائتا ألف دينار ومن وجوه ارتفاقاتك مثلها وهذا مال عظيم فاكتبْ خطك بألف ألف دينار معجلة تُقدمها إلى أن ينظر في أمرك حتى تسلم نفسك وإلاّ سلَّمت إلى مَن يُعاملك بما يُعامل به

مثلك من الخونة الّذين دبروا على المملكة فقد صحّ عند السلطان أنك كاتبتَ ابن أبي الساج وأمرته بالعصيان» فقال له ابن الفرات: قد كان ينبغي أن يشغلك أمرك وما عليك في نفسك عن تحمل الرسائل قد تصرَّفتَ لعلي بن عيسى أربع سنين واقتطعت أموالاً فلما نظرتُ في الأمر استترت عني وكتب إليّ من تصرّف مكانك باستدراكات عليك وارتفاقات لك كثيرة والكتب بأعيانها في ديوان السلطان محفوظة. فأقبل شفيع على ابن حماد فقال له: لستَ من رجال ابن الفرات فقم إلى ابنه المحسن فناظِره. فقام وأخذ خطّ المحسّن بثلاثمائة ألف دينار.

ثم ناظر موسى بن خلف وسأله عن ودائع ابن الفرات وأموالِه فقال له موسى: ما له عندي وديعة ولا أعرفُ أخبار ودائعِه ولا جرى له على يدي مالٌ ولا وليتُ له عملاً سلطانياً وإنما كنت أنظر في نفقات داره. وكان موسى بن خلف شيخاً كبيراً قد أتت عليه نحو تسعين سنة وكان مع ذلك عليلاً به ذربٌ لا فضل له للمكروه فشتمه ابن حماد وكان يتردَّد بعد ذلك إلى أصحاب ابن الفرات ويُناظرهم فلا يرتفع له شيء وكان علَّق المحسن بفرد يد من حبل الستارة فلم يصح له من جهته شيء فلمَّا رأى ذلك استعفى منهم فأعفي. وأحضر حامدٌ موسى بن خلف فقال له: دُلَّ على أموال ابن الفرات فإنك تعرفها ولا تحُوج إلى مكروه يقع بك. فقال له: احلفُ بما شئت من الأيمان أني لا أعرفُ شيئاً من ودائعِه. فأمر بصفعه فصفع إلى أن سأل علي بن عيسى فيه وأشار إلى الغلمان بالكفّ. ثم عاودَهُ حامد بالمكروه مرَّات حتى أحضره ليلة بين يديه وضربه حتى مات تحت الضرب. فقيل له: إنه قد تلف. فقال: اضربوه. فضرب بعد موته سبعة عشر (سوطاً) فلما علم بموته أمر بجرّ رِجله فجرّ وتعلقت إذنه في زِرّ عتبة الباب فانقلعت وحمل إلى منزله ميتاً. واستحسن من فعل موسى بن خلف ووفائه أنه كان يقف على أموالٍ مودَعة لصاحبه عند جماعةٍ فلم يقرّ عليه إلى أن تلف.

وأحضر حامد المحسِّن وطالبه فذكر المحسّن أنه لا يقدر على أكثر من عشرين ألف دينار فأمر بصفعه فصفع فرأى على رأسه شعراً كثيراً فقال: هذا لا يتألم بالصفع هاتوا من يحلق شعره. فأُخرج من بين يديه فحُلق شعره ثم أعيد إليه فصفعهُ حتى كاد يتلف وذلك بين أيدي جماعةٍ كثيرةٍ. فشفع إليه علي بن عيسى وسأله أن يقتصر منه على خمسين ألف دينار فحلف أنه لا يقنع منه بدون سبعين ألف دينار فبذل خطهُ بها وألبسه جُبّة صوف وعذّبه ألواناً ثم سلّمهُ إلى أبي الحسن الثُعباني فأدّى ستين ألف دينار بعد أن استماحَ الناسَ وأسعفَهُ عليّ بن عيسى بعشرة آلاف درهم وأقام شهوراً كثيراً يستميح الناس حتى صحّح ما بذل خطَّهُ به وكثُرت الشفاعات فيه فردّه حامد إلى منزله.

وجهد حامد في أن يُسلّم إليه ابن الفرات فقال المقتدر: أنا أسلّمه إليك وأوكّلُ به

خادماً يحفظ نفسه. فقال حامد: إذا علم ابن الفرات أنه يُحرَس من المكروهِ نماتَنَ. فقال المقتدر: أنا أسلِّمُهُ إلى علي بن عيسى أو إلى شفيع اللؤلؤي فإني أثقُ بهما. وكان المقتدر يروّي في أمر ابن الفرات فتارة تشرهُ نفسه إلى المال وتارةً يكرهُ أن يتلف في يد حامدٍ فعرفَتْ زيدان القهرمانة هذه الحالة من المقتدر وأعلمتها ابن الفرات. فأظهر ابن الفرات أنه رأى أخاه أبا العبّاس في النوم ووصّاه وقال له: أدِّ المال فإن القوم ليس يريدون نفسك وإنّما يريدون مالك. وأنه قال: قد أدّيت إليهم جميعَ مالي. وإن أخاه أجابه بأن قال له: لم تُؤدِ إليهم المال الفلاني فقلتُ: إن معظم ذلك لورثتك فقال: أدّه فإنَّا جمعناه من أسلافهم وأذخرناه لِمثل هذا اليوم. ثم كتب إلى تاجرين بحمل ما عندهما وهو سبعمائة ألف دينار إلى حضرة المقتدر وكتب إلى أبي بكر بن قرابة بشيء آخر وإلى ابن إدريس الحمّال بشيء آخر فأنفذ المقتدر رقاعهُ إلى حامد وعلي بن عيسى فغلظ ذلك عليهما ويئسا معها من تسلم ابن الفرات؟ وقال علي بن عيسى وابن الحواري لحامد: أي شيء عندك فيما فعله ابن الفرات فقال حامد: هذا من إقبال مولانا أمير المؤمنين: فقال له علي بن عيسى: هذا لا شكٌ فيه كما قال الوزير أيده اللّه ولكن ما أشكُّ أن ابن الفرات ما فعل هذا حتى توثق بنفسه ولا سمح بهذا المال العظيم عفواً بغير مكيدةٍ وقد كان يجوز أن يقع منه ببعضه إلا لشروعه في تضمُّن أنفسنا وأحوالنا فقال حامد وابن الحواري: هذا لا شك فيه.

ثم تشاغل حامد وعلي بن عيسى باستحضار من عليه المال وأوصلوا إليهم رِقاع ابن الفرات فاعترفوا بصحته سوى ابن قرابة فإنه قال في عشرة آلاف دينار كان أودعهُ إيّاها: قد كان أودَعني هذا المال ثم ابتاع مني في أوّل سنة ٣٠٦ عنبراً ومسكاً كثيراً أهدى أكثرهُ إلى المقتدر باللّه واليسير منه لنفسه ومعي توقيعاتَهُ بخطه بتواريخ أوقاته واستدعى أن يجمع بينه وبين ابن الفرات فأنفذهُ حامد إلى دار السلطان وأوصله مفلح إلى ابن الفرات حتى ذكر له ذلك فصدّقه وقال له: لا تلمني على ما كتبتُ به فقد كنت أنسيت ما جرى فيه ولعمري لقد كنت جعلت مال الوديعة محسوباً لك في ثمن العطر وكتب ابن الفرات خطه بصحة ما قاله ابن قرابة فسلمت الدنانير لابن الفرات وكان هذا الفعل من ابن قرابة أوكد أسباب تحققه فيما بعد ذلك بابن الفرات.

وقد كان ابن الفرات أودع القاضي أبا عمر مالاً لابنه الحسن بن دولة فلحقت أبا عمر رهبة شديدة من حامد لبسطه يده على القضاة والشهود فاعترف أبو عمر القاضي أن لابن الفرات عنده وديعة لما سأله حامد هل عنده وديعة فأمر بإحضاره فأحضره وأدّاه وبلغ ذلك ابن الفرات فتنكر لأبي عمر فحكى أن أبا بكر بن قرابة قال: لما خلع على ابن الفرات للوزارة الثالثة كنت أول من لقيه في دهليز الحجبة المتّصل بباب الخاصة فقال: يا أبا بكر

تقرّب أبو عمر بوديعتي وعرّضني قال: فقلت: الوزير أيده الله صادقٌ فمن أخبره؟ فأومأ إلى زيدان القهرمانة وأن القاضي أبا عمر عرف تنكر الوزير له. ووصل إلى منزله وقت العشاء الآخرة فإذا بأبي عمر وابنه جالسين في مسجد على بابه فأكبر ذلك ونزل إليهما فخلفا عليه أن يدخل إلى منزله ودخلاه بدخوله فقالا له: خبر المجلس عندنا فما الذي ترى؟ فقال لهما: إزالة الاعتذار والاحتجاج وردُّ المال. فاستجابا وكان مبلغ المال ثلاثة آلاف دينار وسألاه التسكين عنهما لئلا يعاجلا فبكّر ابن قرابة إلى ابن الفرات فقال له: قد جاءني أبو عمر القاضي وابنه قلقين وذكرا أن المال بحاله فقال: الحمد للّه ربّ العالمين. فلمّا كان في اليوم الثّاني من ذلك حمل أبو بكر الثلاثة الآلاف الدينار في برنيّةٍ كانت ضُمّنت الوديعة فلمّا رآها ابن الفرات عجب وأمر بتسلمها.

وعدنا إلى خبر حامد في وزارته. ولما رأى حامد وعلي بن عيسى تمكن ابن الحواري من المقتدر باللّه خرج توقيع حامد بخط علي بن عيسى بتقليد ابن الحواري جميع أعمال العطاء في العساكر لسائر نواحي المغرب من حدّ هيت إلى آخر حدود مِصر وأن يقام له من الرزق مثل ما كان يقام لجميع من كان ينظر في ذلك في آخر أيام وزارة ابن الفرات الثانية وأن يقلد ابنه (وكانت سنّهُ في الحال نحو عشر سنين) ويُجرى عليه ما مبلغه في الشهر مائة وخمسون دينار وقلد ابنه هذا بيت مال العطاء بالحضرة بحقّ الأصل بجاري مائة وثمانين ديناراً في الشهر واستخلف له عليه المعروف بقاطرميز الكاتب. وزاد بعد ذلك اختصاص ابن الحواري وخدمته له في خلواته وكان يشاوره في أموره فقلد أعمالاً أخر وأجرى عليه واستخلف له عليها فكان يصل إليه مال عظيم ولا يباشر شيئاً من الأعمال ولا يدري ما يجري فيها. وصرف نزار عن الشرطة بمدينة السلام وقلد نجح الطولوني واستخلف عليها وأقام في الأرباع فقهاء يعمل أصحابه الشرط في أمر الجناة بما يفتون به في أمرهم فضعفت هيبة الشرطة بذلك واستلان اللصوص والعيّارون جانب نجح فكثرت الجراحات والفتن وتفاقم الأمر في اللصوص وكان العيارون يقولون: اخرجْ ولا تبالي ما دام نجح والي.

ودخلت سنة سبع وثلاثمائة

كان غرض حامد في الضمانات على النواحي التي ذكرناها تفرُّدُ على ابن عيسى بتدبير المملكة وإبطاله أمر حامد فتضمّن حامد بهذه النواحي ليكون له بالحضرة أمر ونهي وَلِيوفِّر من هذه الأعمال ما يبطل به السوق التي قامت لعلي بن عيسى عند المقتدر بالكفاية والعفاف. وإنما لم يدخل أعمال فارس في ضمانه لأنها كانت في ضمان أبي القاسم ابن بسطام وكان النُّعمان يُشير على حامد بترك الدخول في الضمان فإنه زعم أنه تسقط هيبته عند الناس ويصير علي بن عيسى المطالِبَ له بالأموال والمتحكّمَ عليه وكان

أبو عيسى أخو أبي صخرة قديم الصداقة لحامد وكان يشير عليه بالضمان لِيتبيّن أثرهُ وأن يتضمّن بعبرة سني علي بن عيسى خاصّة ليكون ما يُثيره وهو شيء كثير وافر استدراكاً على عليّ بن عيسى فمال حامد إلى هذا الرأي وخاطب علي بن عيسى بحضرة المقتدر وقال له: قد تفرّدت بتدبير الأمور دوني وليس ترى أن تُشاورني في شيء تعملُه ولا بدّ من صدق أمير المؤمنين فقد أضعت بالسواد والأهواز وأصبهان أربعمائة ألف دينار في كلّ سنة وأنا أضمن هذه الأعمال أربع سنين بعبرة المحمول والمسبّب في سني وزارتك وزيادة أربعمائة ألف دينار في كل سنة. فأجابَهُ علي بن عيسى بأنه لا يستصوب تضمينُه هذه الأعمال لأن مذهبُه في خبط الرعية وإحداث السُنن وضرب الإبسار معروف ومن عمل بهذه السيرة فهو لا محالة يوفر سنة أو أكثر ثم تخرب خراباً لا يتلافى في سنين فيبطل الارتفاع ويسيء الذكر. فتخاصما خصومة طويلة فقال المقتدر: هذا توفيرٌ من حامد ولا يجوز تركُه فإن ضمنتَ أنت هذه النواحي بما ضمنَهُ حامد ضمنتك. فقال علي ابن عيسى: أنا كاتِب ولست بعامِل وحامد أولى بالضمان لا سيّما وقد بذل ما بذل راغباً والأثر في ذلك بأمير المؤمنين لأني قد عمرتُ البلدان لِرفقي بالرعيّة وتقليدي من العُمّال من أزال المُؤن عنهم. وسنة سبع قد تناهت عمارتها قد انقضت منذ مدّة فأمر المقتدر بعقد الضمان على حامد وأخذ خطّه به فخرجا.

وتقدّم علي بن عيسى إلى أصحاب الدواوين بإخراج العِبَر من دواوينهم بعبر السنين القريبة لأنها أوفَر فأخرج عبرة المحمول والمسبّب مع مال النفقات الراتِبة في نواحي السواد والأهواز لسنةٍ من ثلاث سنين أولاهُن سنة ثلاث وأخراهُنّ سنة خمس وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ألف ألف درهم وأخرج عبرة الضياع الخاصّة والمستحدثة والعبّاسيّة والفراتيّة لِلمحمول والمسبّب ثمانية ألف ألف درهم وثمانمائة ألف درهم وأخرج عبرة مال أصبهان مع النفقات الراتِبة بقسط سنةٍ واحدةٍ من ثلاث سنين ستة آلاف ألف وثلاثمائة ألف درهم تصير الجميع لِسنة واحدة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ومائة ألف درهم والزيادة التي بذلها حامد وهي عن قيمة أربعمائة ألف دينار خمسة آلاف ألف وثمانمائة ألف درهم مبلغ الجميع ثلاث وخمسون ألف ألف وتسعمائة ألف درهم.

والتمس حامد بن العباس من المقتدر باللّه أن يأمر بتسليم جماعة من الكُتّاب إليه لِيُولّيهم كتابته على ديوان ضمانِه واختار عبيد اللّه بن محمد الكلواذي وأحمد بن محمد ابن زُرَيق وغيرُهما فتقدّم المقتدر بإجابته إلى ما سأله بعد أن عقد علي بن عيسى عليه الضمان باسم صاحبه محمد بن منصور وأخذ خطّ حامدٍ بتضمنه عنه ما عقده باسمه. واعتمد حامد بن العباس على عبيد اللّه بن محمد الكلواذي فكان يُنظِم الأعمالَ التي يخرجها كُتاب حامدٍ ويتولّى الموافقة عن حامدٍ في دار السلطان ويرفُق في المناظرة

ويستعمل الحجة فقط واعتمد علي بن عيسى على الصقر بن محمد في مناظرة كُتاب حامد فكان حامد إذا حضر لا يزيد على الشتم والسبّ لعلي بن عيسى وذكره بالقبيح في نفسه وأسلافِهِ واستعمل في ذلك ما فضح به المملكة وشاع في الخاصّ والعامّ الخبر به ثم أَصلَحَ المقتدر بينهما بحضرتِه.

وأسرف عليّ بن عيسى في الإلحاح على حامد في حمل المال واحتاج حامد إلى أن يستأذن في الخروج إلى الأهواز فأذن له وذكر أبو القاسم الكلواذي أنه يضعف عن مقاومة علي بن عيسى عند غيبته فنصب حامد صهرَه أبا الحسين محمد بن أحمد بن بسطام للنيابة عنه في دار السلطان عند المناظرة ولإغرار الكلواذي ليستوفي حجته وظهرت في ذلك الوقت صناعة الكلواذي وكفايته وصحة عمله فكان ذلك من أكبر أسباب نباهته. وجرى خلافٌ كثيرٌ بين كتاب حامد وبين كتّاب علي بن عيسى يطول ذكرها ورضي حامد بوساطة النعمان فيها وكتب بذلك وتوسط النعمان وقرّر الأمر من سائر أبواب الخلاف على مائة ألف دينار بقسط سنةٍ واحدةٍ وكتب ابن بسطام والكلواذي إلى حامد وهو بالأهواز بصورة ما تقرّرت عليه الحكومة فدبر حينئذ حامد في ذلك تدبير الشيوخ المجرّبين فكتب إلى المقتدر كتاباً وأنفذ مع غلام له فأوصل نصر الكتاب مختوماً إلى المقتدر فوجده قد ذكر فيه أنه لم يدخل في هذا الضمان لاستجلاب فائدة لنفسه ولا للربح على السلطان وإنما أراد أن يبين عن خبرته بالأعمال وحفظ الأموال وقبح آثار علي بن عيسى فيما تولاه قديماً وحديثاً وأنه كان بذل زيادة أربعمائة ألف دينار في كل سنة وأنه لما صار بالأهواز لاحت له زيادة مائتي ألف دينار في سنة سبع على أربعمائة ألف دينار فوفَّر ذلك وكتب كتابه بخطه حجَّةً عليه لينضاف ذلك إلى الزيادة الأولى ويثبت في الدواوين فسرّ المقتدر بذلك وأمر بتقوية يد حامد وأن يقتصر بعلي بن عيسى على النظر في حوائج القوّاد والحاشية والاحتياط فيما يطلق من الأموال في النفقات فإنه بذلك أبصر من حامد وبإفراد حامد بجباية الأموال والنظر في النواحي. وخاف علي بن عيسى أن تقوى يد حامد فيسلم إليه وأنفق بعقب ذلك إن تحرّكت العامة ثم الخاصة بسبب زيادة السعر وشغبوا شغباً عظيماً متصلاً أشفى به الملك على الزوال وبغداد على الخراب فادعى كُتّاب حامد وأسبابه ومن يميل إليه أن علي بن عيسى حمل العامة وأكثر الخاصة على الشغب لأن السعر لم يكن زاد زيادة توجب ما خرجوا إليه وإنما بلغ الخبز الحُوَّاري ثمانية أرطال بدرهم.

ذكر ما اضطرب لأجله أمر حامد بن العباس حتى فسخ ضمانه

تجمع الناس وقوم من أماثل العامة فتظلموا من زيادة السعر وضجوا في وجه علي بن عيسى لما ركب ثم نهب العامة دكاكين الجماعة من الدَقّاقين ببغداد ثم اجتمعوا إلى باب السلطان فضجوا فتقدّم المقتدر إلى ابن الحواري بأن يكتب إلى حامد بأن يبادر إلى

الحضور وينظر في أمر الأسعار فيزيل التربص ببيع الغلاّت لتنحطّ الأسعار فنفذ الكتاب بذلك فخرج حامد من الأهواز وأنفذ المقتدر ماهراً الخادم لاستعجاله وخرج أصحاب الدواوين والقوّاد لتلقّيه وخرج نصر وابن الحواري فتلقياه وخرج علي بن عيسى فتلقاه وخرج علي بن عيسى ووصل إلى المقتدر باللّه فخاطبه بجميل وعرّفه إحماده إياه على ما وفّره وأمر بأن يخلع عليه فخلع عليه وحمل على شهري وانصرف إلى منزله.

وتحرك الجند بعد ذلك اليوم في دار السلطان وضجوا لارتفاع السعر وتحركت العامة في المساجد الجامعة ببغداد وكسروا المنابر وقطعوا الصلاة بعد الركعة الأولَى واستلبوا الثياب ورجموا بالأجُرّ وكثرت الجراحات واجتمع منهم في المسجد الجامع الذي في دار السلطان عددٌ كثيرٌ على نصر الحاجب فوثبوا عليه ورجموه بالآجُرّ ثم صاروا في ذلك اليوم إلى دار حامد بن العباس فأخرج إليهم غلمانه فرموهم بالآجُرّ والنُشّاب وقُتل خلق من العامّة فحملوا على الجنائز وشنّعوا بهم ووجّه حامد جماعة من غلمانِه ومعهم ديوداذ بن محمد وهو ابن أخي يوسف بن أبي الساج فدخلوا المسجد الجامع بالجانب الغربي على دوابهم فقتلوا جماعةً وقُتل أيضاً من الجند عدّة وبات الناس ليلة السبت على صورة قبيحة من الخوف على أنفسهم وأموالهم وحُرمهم وضعف صاحب الشرطة عن مُقاومتهم لِكثرة من تجمع من العامّة فلما أصبحوا يوم السبت صار من العامّة عدد كثير إلى الجسور فأحرقوها وفتحوا السجون ونهبوا دار صاحب الشُّرطة ودار غيره فأنفذ المقتدر جماعة من الغلمان الحجريّة في شذاءاتٍ عدّةٍ لِمُحارَبَة العامّة وركب هارون بن غريب الخال في جيش عظيم إلى باب الطاق فأحرق مواضع وتهارب العامَّة من بين يديه إلى المسجد الجامع بباب الطاق ووكّل هارون بباب المسجد وقبض على جميع من وجدهُ فيه ولم يفرق بين المستور والعيّار وحملهم إلى مجلس الشرطة فضُرب بعضهم بالسوط وبعضهم بالدِّرَّة وقطع أيدي قوم عُرفوا بالإفساد ثم ركب يانِس الموفّقي يوم الأحد فسكّن الناس ونادى فيهم وزالت الفِتنةَ ثم ركب حامد في طيّارة يريد دار السلطان فقصده العامّة ورجموه بالآجُرّ فأمر المقتدر شفيعاً المقتدري بالركوب لتسكين العامة فركب وسار في الجانب الغربي وفيه كانت الفتنة فسكن الناس ثم قبض على جماعة من العامة فضرب بعضهم بالسوط وقطعت أيدي قوم عرفوا بالرجم. وضجت الرجالة المصافية في دار السلطان من زيادة السعر فتقدّم المقتدر باللّه بفتح الدكاكين والبيوت التي لحامد وللسيّدة والأمراء أولاد الخليفة والوجوه من أهل الدولة وبيع الحنطة بنقصان خمسة دنانير في الكرّ وبيع الشعير بحسب ذلك وبمطالبة التجار والباعة أن يبيعوا بمثل هذا السعر فركب هارون بن غريب ومعه إبراهيم بن بطحا المحتسب فسُعّر الكرّ المعدّل بخمسين ديناراً وتقدّم إلى الدقاقين بذلك فرضي العامة وسكنوا وانحلّ السعر.

وخرج توقيع المقتدر إلى حامد بن العباس بفسخه عنه الضمان لأجل الفتنة وضجيج العامة من زيادة السعر وتوقيع إلى علي بن عيسى بأن يدبر هو الأعمال بالسواد والأهواز وأصبهان وتقليدها العُمَّال من قبله وأن يكتب عنه كتاباً إلى العامة يقرأ في الشوارع والأسواق ثم على المنابر بأنه قد زال ضمان حامد بن العباس وحظر على جميع الوجوه والقوّاد والغلمان أن يتضمنوا بشيء من الأعمال وكتب حامد إلى عماله بالانصراف من الأعمال وتسليمها إلى عمال علي بن عيسى وانخزل حامد بن العباس لذلك.

ودخلت سنة ثمان وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر من مصر بحركة الفاطمي إليها فأخرج مونس الخادم إليها.

وفيها خلع على أبي الهيجاء عبد اللّه بن حمدان وقُلد طريق خراسان والدينور وخُلع على أخويهِ أبي العلاء وأبي السرايا

وفيها ورد رسول أخي صعلوك بالمال والهدايا فخُلع عليه.

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة

وفيها وردت الكُتُب وقُرئت على المنابر بهزيمة المغربي واستباحة عسكره وفيها لقّب مونس المُظفّر وأنشِئت الكُتُب به عن المقتدر باللّه إلى أمراء النواحي وعُقد له على مصر والشام.

وفيها دخل رسول صاحب خراسان برأس ليلى بن النعمان الديلمي الذي خرج بطبرستان.

وفيها اشتهر أمر الحلاّج واسمه الحسين بن منصور حتى قتل وأُحرق.

ذكر خبر الحسين بن منصور الحلاج وما آل إليه أمره من القتل والمثلة

انتهى إلى حامد بن العباس في أيام وزارته أنه قد موّه على جماعة من الحشم والحجاب وعلى غلمان نصر الحاجب وأسبابه وأنه يحيي الموتى وأن الجن يخدمونه فيحضرونه ما يشتهيه وأنه يعمل ما أحبّ من معجزات الأنبياء وادّعى جماعةٌ أن نصراً مال إليه وسعى قوم بالسّمريّ وببعض الكُتّاب وبرجل هاشمي أنه نبي الحلاج وأن الحلاج إله عزّ اللّه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً. فقبض عليهم وناظرهم حامد فاعترفوا بأنهم يدعون إليه وأنه قد صحّ عندهم أنه إله يُحيي الموتَى وكاشفوا الحلاج بذلك فجحده وكذّبهم وقال: أعوذ باللّه أن ادّعي الربوبيّة والنُبوّة وإنما أنا رجلٌ أعبدُ اللّه عزّ ذكره وأكثِرُ الصومَ والصلاةَ وفعْلَ الخير ولا غير. واستحضر حامد بن العباس أبا

عُمر القاضي وأبا جعفر بن البهْلول القاضي وجماعة من وجوه الفقهاء والشهود واستفتاهم في أمره فذكروا أنهم لا يفتون في قتله بشيء إلى أن يصحَّ عندهم ما يوجب عليه القتل وأنه لا يجوز قبول قولٍ من ادّعى عليه ما ادعاه وإن واجهَهَ إلا بدليل وإقرار منه فكان أوّل من كشف أمره رجل من البصرة تنصّح فيه وذكر أنه يعرف أصحابَهُ وأنهم متفرِّقون في البلدان يدعون إليه وأنه كان ممن استجاب له ثم تبيّن مخرقته ففارقَهُ وخرج عن جملته وتقرّب إلى اللّه بكشف أمره واجتمع معه على هذه الحال أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي الكاتب الأنباري وقد كان عمل كتاباً ذكر فيه مخاريق الحلاج وحِيلَه فيه وهو موجود في أيدي جماعة والحلاَّج حينئذٍ مُقيمٌ في دار السلطان مُوسَّع عليه مأذون لِمن يدخُل إليه وهو عند نصر الحاجب. ولِلحلاج اسمان أحدهما الحسين ابن منصور والآخر محمد بن أحمد الفارسي وكان استهوى نصراً وجاز عليه تمويهُهُ وانتشر له ذكرٌ عظيم في الحاشية.

فبعث به المقتدر إلى علي بن عيسى لِيُناظره فأحضر مجلسَه وخاطبه خطاباً فيه غلظة فحُكي أنه تقدّم إليه وقال له فيما بينه وبينه: قف حيث انتهيت ولا تزد عليه شيئاً وإلاّ قلبتُ عليك الأرض. وكلاماً في هذا المعنى فتهيَّب علي بن عِيسى مناظرته واستعفى منه ونقل حينئذٍ إلى حامد بن العباس. وكانت بنت السمَّريّ صاحب الحلاج قد أدخلت إلى الحلاّج وأقامت عنده في دار السلطان مدة وبعث بها إلى حامد ليسألها عما وقفت عليه من أخباره وشاهدته من أحواله فذكر أبو القاسم زنجي أنه حضر دخول هذه المرأة إلى حامد بن العباس وأنه حضر ذلك المجلس أبو علي أحمد بن نصر البازيار من قبل أبي القاسم بن الحوّاري ليسمع ما تحكيه فسألها حامد عما تعرفه من أمر الحلاج فذكرت أن أباها السمري حملها إليها وأنها لما دخلت إليه وهب لها أشياء كثيرة عدَّدت أصنافها. قال أبو القاسم: وهذه المرأة كانت حسنة العبارة عَذْبة الألفاظ مقبولة الصورة فكان مما أخبرت عنه أنه قال لها: قد زوَّجتك من سليمان ابني وهو أعزُّ أولادي عليَّ وهو مقيم بنيسابور وليس يحلو أن يقع بين المرأة والرجل كلام أو تنكر منه حالاً من الأحوال وأنت تحصلين عنده وقد وصيته بك فإن جرى منه شيء تنكرينه فصومي يومك واصعدي آخر النهار إلى السطح وقومي على الرماد والملح الجريش واجعلي فطرك عليهما واستقبليني بوجهك واذكري لي منه ما تنكرينه منه فإني أسمع وأرى قالت: وأصبحت يوماً وأنا أنزل من السطح إلى الدار ومعي ابنته وكان قد نزل هو فلما صرنا على الدرجة بحيث يرانا ونراه قالت لي ابنته: اسجدي له. فقلت لها: أو يسجد أحد لغير اللّه (قالت) فسمع كلامي لها فقال: نعم إله في السماء وإله في الأرض (قالت) ودعاني إليه وأدخل يده في كمه وأخرجها مملوءة مسكاً ودفعه إليَّ ثم أعادها ثانية إلى

كمه وأخرجها مملوءة مسكاً ودفعه إليَّ وفعل ذلك مرات ثم قال: واجعلي هذا في طيبك فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل احتاجت إلى الطيب (قالت) ثم دعاني وهو جالسٌ في بيتٍ على بواري فقال: ارفعي جانب البارية من ذلك الموضع وخذي مما تحته ما تريدين. وأومأ إلى زاوية البيت فجئت إليها ورفعت البارية فوجدت تحتها الدنانير مفروشة ملء البيت فبهرني ما رأيت من ذلك. فأُقيمت المرأة وحصلت في دار حامد إلى أن قتل الحلاّج.

وجدَّ حامد في طلب أصحاب الحلاج وأذكى العيون عليهم وحصل في يده منهم حيدرة والسمري ومحمد بن علي القنائي والمعروف بأبي المغيث الهاشمي واستتر ابن جماد وكبس منزله فأخذت منه دفاتر كثيرة وكذلك من منزل محمد بن علي القنائي فكانت مكتوبةٍ في ورقٍ صيني وبعضها مكتوب بماء الذهب مبطنة بالديباج والحرير مجلدة بالأدم الجيد. ووجد في أسماء أصحابه ابن بشر وشاكر فسأل حامد من حصل في يده من أصحاب الحلاّج عنهما فذكروا أنهما داعيان له بخراسان قال أبو القاسم بن زنجي: فكتبنا في حملهما إلى الحضرة أكثر من عشرين كتاباً فلم يرد جوابُ أكثرها وقيل فيما أجيب عنه منها أنهما يطلبان ومتى حصلا حملا ولم يحملا إلى هذه الغاية. وكان في الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه النافذين إلى النواحي وبوصيته إياهم بما يدعون إليه الناس وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة حتى يبلغوا الغاية القصوى وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه.

وحكى أبو القاسم بن زنجي قال: كنتُ أنا وأبي يوماً بين يدي حامد إذ نهض من مجلسه وخرجنا إلى دار العامة وجلسنا في رواقها وحضر هارون بن عمران الجهبذ بين يدي أبي ولم يزل يحادثه فهو في ذلك إذ جاء غلام حامد الذي كان موكلاً بالحلاّج وأومأ إلى هارون بن عمران أن يخرج إليه فنهض مسرعاً ونحن لا ندري ما السبب فغاب عنا قليلاً ثم عاد وهو متغير اللون جدّاً فأنكر أبي ما رأى منه فسأله عن خبره فقال: دعاني الغلام الموكل بالحلاَّج فخرجت إليه فاعلمني أنه دخل إليه ومعه الطبق الذي رسمه أن يقدّم إليه في كلِّ يوم فوجده قد ملأ البيت بنفسه فهو من سقفه إلى أرضه وجوانبه حتى ليس فيه موضع فهاله ما رأى ورمى بالطبق من يده وعدا مسرعاً وإن الغلام ارتعد وانتفض وحمّ فبينما نحن نتعجب من حديثه إذ خرج إلينا رسول حامد وأذن في الدخول إليه فدخلنا وجرى حديث الغلام فدعا به وسأله عن خبره فإذا هو محمومٌ وقصَّ عليه قصته فكذّبه وشتمه وقال: فزعتَ من نيرنج الحلاَّج (وكلاماً في هذا المعنى) لعنك

اللّه اعزُب عني. فانصرف الغلام وبقي على حالته من الحمّى مدّة طويلة ثم وجد حامد كتاباً من كتبه فيه: إن الإنسان إذا أراد الحجّ فلم يمكنه أفرد في بيته بناء مربعاً لا يلحقه شيء من النجاسات ولا يتطرّقه أحدٌ فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله وقضى من المناسك ما يقضي بمكة ثم يجمع ثلاثين يتيماً ويعمل لهم أسرى ما يمكنه من الطعام ويحضرهم ذلك البيت ويقدّم لهم ذلك الطعام ويتولّى خدمتهم بنفسه ثم يغسل أيديهم ويكسو كلّ واحد منهم قميصاً ويدفع إلى كل واحد سبعة دراهم أو ثلاثة دراهم (الشك من أبي القاسم بن زنجي) وإن ذلك يقوم له مقام الحج (قال) وكان أبي يقرأ هذا الكتاب فلما استوفى هذا الفصل التفت أبو عمر القاضي إلى الحلاّج وقال له: من أين لك هذا، قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. قال له ابن عمر: كذبت يا حلال الدم قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن البصري بمكة وليس فيه شيء مما ذكرت. فكلما قال له أبو عمر: «يا حلال الدم» قال له حامد: اكتب ما قلت. فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاّج فلم يدعه حامدٌ يتشاغل وألحَّ عليه إلحاحاً لم يمكنه معه المخالفة فكتب بإحلال دمه وكتب بعده من حضر المجلس فلما تبين الحلاج الصورة قال: ظهري حمى ودمي حرامٌ وما يحلُّ لكم أن تتأولوا عليَّ بما يبيحُه اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة ولي كتب في الورّاقين موجودة في السنة فاللّه اللّه في دمي ولم يزل (يردد) هذا القول والقومُ يكتبون خطوطهم حتى كمل الكتاب بخطوط من حضر فأنفذه حامد إلى المقتدر باللّه.

فخرج الجواب: إذا كان فتوى القضاة فيه بما عرضتَ فأحضرهُ مجلس الشرطة واضربهُ ألف سوط فإن لم يمت فتقدَّم بقطع يديه ورجليه ثم اضرب رقبته وانصبْ رأسه واحرقْ جثتُه. فأحضر حامد صاحب الشرطة وأقرأه التوقيع وتقدَّم إليه بتسلم الحلاّج وإمضاء الأمر فيه فامتنع من ذلك وذكر أنه يتخوّف أن ينتزعَ من يده فوقع الاتفاق على أن يحضر بعدُ العتمة ومعه جماعة من غلمانه وقوم على بغال يجرون مجرَى الساسة ليجعل على بغل منها ويدخل في غمار القوم وأوصاه بأن لا يسمع كلامه وقال له: لو قال لك: «أجري لك دجلة والفرات ذهباً وفضةً» فلا ترفع عنه الضرب حتى تقتله كما أُمِرتَ. ففعل محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة ذلك وحمله تلك الليلة على الصورة التي ذُكرت وركب غلمان حامد معه حتى أوصلوه إلى الجسر وبات محمد بن عبد الصمد ورجاله حول المجلس.

فلما أصبح يوم الثلاثاء لستّ بقين من ذي القعدة أخرج الحلاج إلى رحبة المجلس واجتمع من العامة خلق كثير لا يحصى عددهم. وأمر الجلاد بضربه ألف سوط فضرب وما تأوّه ولا استعفى (قال) فلما بلغ ستمائة سوط قال لمحمد بن عبد الصمد: ادعُ بي إليك فإن عندي نصيحة تعدل عند الخليفة فتح قسطنطينية. فقال: قد قيل لي

إنك ستقول هذا وما هو أكثر منه وليس إلى رفع الضرب عنك سبيل. فسكت حتى ضرب ألف سوط ثم قطعت يده ثم رِجلُه ثم ضرب عنقه وأحرقت جُثّته ونُصب رأسه على الجسر ثم حمل رأسه إلى خراسان.

وادعى أصحابه أن المضروب كان عدواً للحلاج ألقى شبهه عليه وادعى بعضهم أنه رآه وخاطبه في هذا المعنى بجهالات لا يكتب مثلها. وأحضر الوراقون وأحلفوا أن لا يبيعوا شيئاً من كتب الحلاج ولا يشتروها.

ودخلت سنة عشر وثلاثمائة

وفيها أطلق يوسف بن أبي الساج بمسألة مونس المظفر من الحبس وشفاعته ثم حُمِلَ إليه مال وكسوة ثم وصل إلى المقتدر بالله وكان ركب في واد فقبل البساط ثم يدَ المقتدر وخلع عليه الرضا وحمل على فرسٍ بمركب ذهب. ثم جلس المقتدر في دار العامة بعد أيام وعقد له على أعمال الصلاة والمعاون والخراج والضياع بالري وقزوين وأبهر وزنجان وآذربيجان وركب معه مونس المظفر ونصر الحاجب وشفيع ومُفلح وجميع من بالحضرة من القوّاد والغلمان وكانت الدار قد شحنت له بالرجال والسلاح واحتشد له. واستكتب يوسف بن أبي الساج محمد بن خلف النيرماني وقوطع عن الأعمال التي تقلدها على خمسمائة ألف دينار محمولة في كل سنة على أن عليه القيام بمال الجيش الذي في هذه الأعمال والنفقات الراتبة. وخلع على وصيف البكتمري وعلى طاهر ويعقوب ابني محمد بن عمرو بن الليث.

وفيها قلد نازوك الشرطة ببغداد وخلع عليه وعزل عنها محمد بن عبد الصمد وخلع على وصيف البكتمري خلعة أخرى وضمّ إلى يوسف بن أبي الساج وشخص يوسف بن أبي الساج إلى عمله على طريق الموصل فلما وصل إلى أردبيل وجد غلامه سبك قد مات.

وفيها وصل إلى بغداد هدية أبي زنبور الحسين بن أحمد المادرائي من مصر وفيها بغلة معها فلوٌّ وكان يتبعها ويرتضع منها غلام طويل اللسان يلحق طرف أرنبته.

وفيها قبض على أم موسى القهرمانة وعلى أختها وأخيها.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن أمّ موسى زوّجت بنت أخيها أبي بكر أحمد بن العباس من أبي العباس بن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله وكان من أولاد الخلفاء النجباء وكانت له نعمة حسنة ظاهرة وكان حسن المروءة واللبسة والدواب والمراكب وكان صديقاً لعلي بن عيسى حتى قيل إنه كان يُرشّحه للخلافة. فلما وقعت المصاهرة

بينه وبين أم موسى أسرفت فيما نثرت من المال وفيما أنفقت على دعوات دعت فيها الصغير والكبير من أهل المملكة في بضعة عشر يوماً. فتمكن أعداؤها من السعي عليها ومكّنوا في نفس المقتدر باللّه ووالدتِه السيّدة أنها إنما صاهرت ابن المتوكل ليزيلوا المقتدر باللّه عن الخلافة وينصبوا فيها ابن المتوكل فتمّت النكبة عليها وسُلّمت إلى ثمْل القهرمانة مع أختها وأخيها وكانت ثمل موصوفة بالشر لأنها كانت قهرمانة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف وكان أحمد يسلم إليها من يسخط عليه من جواريه وخدمه فاشتهرت بالقسوة والسرف في العقوبات واستخرجت ثمل منها ومن أختها وأخيها أموالاً عظيمةً وجواهر نفيسة ومن الثياب والكِسوة والفرش والطيب ما يعظم مقداره حتى نصب علي ابن عيسى لذلك ديواناً وسماه ديوان المقبوضات عن أم موسى وأسبابها أجرى فيها أمر ضياعهم وأملاكهم وقلده أبا شجاع المعروف بابن أخت أبي أيوب أبي الوزير وقلد الزمام عليه أبا عبد اللّه اليوسُفي الكاتب، ويقال إنه حصل من جهتهم نحو ألف ألف دينار. ولما قبض على أم موسى صرف علي بن عيسى ابن أبي البغل عن أعماله بفارس وقلدها أبا عبد اللّه جعفر بن القاسم الكرخي وصادره ثم لما تقلد ابن الفرات الوزارة الثالثة كتب إلى الكرخي بتجديد مصادرة ابن أبي البغل واعتقاله.

وفيها توفي محمد بن جرير الطبري وله نحو تسعين سنة ودُفن ليلاً لأن العامّة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً وادعت عليه الرفض ثم ادعت عليه الإلحاد.

وفيها دعا المقتدر مونساً المظفر فشرب بين يديه وخلع عليه خلع منادمة وكانت مثقلة بالذهب.

ودخلت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة

وفيها صرف حامد بن العباس عن الوزارة وعلي بن عيسى عن الدواوين

ذكر صرف حامد وعلي بن عيسى وردّ الوزارة إلى ابن الفرات

كانت لذلك أسباب كثيرة منها أن حامداً شرع في تضمن علي بن عيسى لما فسخ ضمانه لتلك الأعمال والبلدان التي ذكرناها وبذل أن يقوم بالأمور ويدبر الأعمال وكان الذي حمله على ذلك ما كان بلغه من عزم المتقدر باللّه على تقليد ابن الفرات لما كثر ضجيج الحاشية من علي بن عيسى لتأخيره عنهم أرزاقهم وأرزاق الحرم والولد واقتصر بالخدم والحاشية والفرسان على البعض من استحقاقاتهم وحطَّ من أرزاق العمال شهرين في كلّ سنة ومن أرزاق المنفقين وأصحاب الأخبار والبرد والقضاة أربعة أشهر فزادت عداوة الناس له وخشي حامد بن العباس من ابن الفرات لما سلف منه إليه ولما عامل به ابنه المحسن وسائر كتابه وأسبابه فأمره المقتدر أن يكتب رقعة بخطه بما يضمنه ويبذله

وبتسمية من يقلده الدواوين ففعل حامد ذلك وعرض المقتدر بالله رقعته على ابن الفرات وهو في حبسه وشرح له أمرُه.

فقال ابن الفرات: لو اجتمع مع حامد بن العباس الحسن بن مخلد وأحمد بن إسرائيل وسائرَ من شهر بالكفاية لما كان موضعاً لِتدبير المملكة ولا لِضبط أعمال الدواوين وأنه إن قلد ذلك انخرقت الهيبة وزالت الحشمة وإن علي بن عيسى على تصرُّف أحوالِهِ أقوم منه وأعرف بالأعمال والتدبير ثم إنه قال: أنا أتضمّنُ خمسة أضعاف ما ضمنَهُ حامدٌ إن أعاده ومكّنه مما يُريد فوعده المقتدر بذلك.

وكان حامد مقيماً ببغداد لا يدخُل نفسه في شيء من الأمور ولا يزيد على أن يحضر في أيام المواكب وينصرف وضجر حامد من مقامه ببغداد لقبح حاله في الذل ولأنه افتضح بما كان يُعامِلُه به علي بن عيسى في توقيعاتِهِ وذلك أنه كان يوقِّع إلى كُتاب الوزير حامد وإلى كتّاب الدواوين إذا ذكرهُ بما لا صبر له عليه وكان يُوقع «ليُطالب جهبذ الوزير أسعده اللّه بحمل وظيفة واسط وليكتب إلى الوزير أسعده اللّه بأن يُبادر بحمل شعير الكُراع» وإذا تظلَّم إليه مُتظلم من أعمال حامد وعُمَّالِهِ وقّع على ظهر رقعه «هذا مما ينظُر فيه الوزير أسعده اللّه» وذكر علي بن عيسى أنه يحتج في ذلك برسم قديم كان لِلوزراء فاستأذن حامد المقتدر في الخروج إلى واسط والمقام بها لِينظر في أمور ضمانه بنواحيها فأذن له وخرج.

ومنها ما جرى من أم موسى وما ذكرناه من خبرها وما تحدث به الناس من أمر ابن المتوكل وأن ابن الحواري دبّر ذلك لميل أم موسى إليه وكشفِها له أسرار الخلافة.

وكان بعض أسباب ابن الفرات طرح رُقعة في دار المقتدر فيها بيت شعر:

يُهنيك يُهنيك هذا يا ديك دار الخليفة

ولم يذكر في الرقعة غير هذا البيت وهي أبيات فاحشة ليس فيها أصلح من هذا البيت وتعمَّد أن جُعِلت الرقعة في مَمرّ الخليفة إلى دار حرمة له فقرأ المقتدر الرقعة وقبحت عنده صورة ابن الحواري جدّاً واعتقد فيه ذلك اليوم استحلال دمه وسفكه ونكبة أم موسى ويظن أن هذا البيت كان من أوكد أسباب نكبتها ونكبته.

ومنها أن المفلح الأسود كان شديد التحقق بالمقتدر مثابراً على خدمته ثم عظم أمره حتى أقطع الإقطاعات وملك الضياع الجليلة ووقعت بينه وبين حامد مماحكة وذكر مفلح حامداً بالقبيح وقال حامد: لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسمي كل واحد منهم مفلحاً وأهبهم لغلماني. فحقد مفلح ذلك عليه ووقف على ذلك المحْسنُ وعلى ما يشبه ذلك فوجَّه إلى كاتب مفلح واجتمع معه وضمن له الأعمال والأموال والولايات حتى عقد حالاً بينه وبين مفلح.

وكتب المحسن رقعة إلى المقتدر باللّه على يد مفلح يذكر فيها أنه إن سُلِم مِنه حامد وعلي بن عيسى ونصر الحاجب وشفيع اللؤلؤي وابن الحواري وأم موسى وأخوها والمادرائيون استخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وكان أبو الحسن بن الفرات لا يقصّر وهو في الحبس في التضريب على هؤلاء وإطماع المقتدر فيهم.

وكان من طريف ما عملَهُ وعجيبِه أن راسل المقتدر يوماً على يدي زيدان القهرمانة يلتمس منه قيمة اثني عشر ألف دينار أو هذا المقدار دنانير بعينها لشيء من أمره فتذمم المقتدر معما أخذه من أمواله أن يمنعه فحملها إليه ثم سأله أن يدخل إليه إذا اجتاز بموضعِه ليُلقي إليه شيئاً لا تحتمله المكاتبة ولا المراسلة وكان المقتدر كثيراً ما يدخل إليه ويُشاوره فدخل إليه فلما رآه ابن الفرات قام وأخذ الكيس التي فيه الدنانير ففتحهُ وفرّغهُ بين يديه وقال له: يا أمير المؤمنين قد عرّفتُك أن أموالك تنتهب وتضيَّع وتقضي بها الذمامات ما تقول في رجل واحد يرتزق في كلِّ شهر من شهور الأهلة هذا المقدار من مالك وهو اثني عشر ألف دينار؟ فاستعظم المقتدر ذلك واستهولهُ وقال: ويحَك من هذا الرجل؟ قال له: علي بن محمد بن الحواري وهذا سوى ما يصل إليه من مال المنافع لمكانِه منك وموضعه من الاختصاص بك وسوى ارتفاع ضياعِه وسوى المرافق التي تصل إليه من الأعمال التي يتولاها وسوى وسوى وردّ الدنانير إلى المقتدر باللّه وقال: إنما أردتُ أن تُشاهد ما يُصنَع بك وتراه بعينك فليس الخبر كالمُعاينة. فقام المقتدر باللّه وقد عظم عنده أمر ما يجري واعتقد لابن الحواري غاية المكروه. فلما اجتمعت هذه الأسباب قوي عزم المقتدر على ردّ الوزارة إلى ابن الفرات فلما كان يوم الخميس لتسع بقين من شهر ربيع الآخر وقد انحدر علي بن عيسى إلى دار السلطان قُبض عليه وحُبس عند زيدان القهرمانة في الحجرة التي كان فيها ابن الفرات فأخرج منها ابن الفرات ليقلد الوزارة.

قال أبو محمد علي بن هشام. كنت حاضراً مع أبي مجلس أبي الحسن بن الفرات فسمعتُه يتحدّث في وزارته الثانية قال: دخل إليّ أبو الهيثم العباس بن محمد بن ثوابة الأنباري في محبسي من دار المقتدر باللّه فطالبني أن أكتُب خطي بثلاثة عشر ألف ألف دينار فقلت: ما جرى قدر هذا على يدي للسلطان في طول ولايتي فكيف أصادر على مثله فقال: إني أحلفتُ بالطلاق أن تكتب خطك بذلك. فكتبتُ بثلاثة عشر ألف ألف من غير أن أذكر ما هي أو ضماناً فيها فقال: فاكتب ديناراً لتبرئني من يميني: فلما كتبت ديناراً ضربت عليه وأكلتُ الرقعة وقلتُ: قد برئت عن يمينك ولا سبيل لك إلى غير هذا. فاجتهد جهده فلم أجبهُ إلى شيء فلما كان من الغد دخل إلى الحبس ومعه أم موسى فطالب بذلك وأسرف في سبي وشتمي ورماني بالزنا فحلفت بالطلاق والعتاق

والأيمان المغلظة أني ما دخلت في شيء من محظور هذا الجنس منذ نيف وثلاثين سنة وسمته أن يحلف بمثل ذلك أن غلامه القائم على رأسِه لم يأته في ليلته تلك فأنكرت أم موسى هذه الحال وغطت وجهَها حياء منه فقال لها ابن ثوابة: هذا إنما تبطره الأموال التي وراءه ومثله في ذلك مثل المزين مع كسرى والحجام مع الحجاج بن يوسف فاستأمري السادة في إنزال المكروه به حتى يذعن بأموال (قال أبو الحسن يعني بالسادة المقتدر ووالدته وخالته وخاطف ودستنبويه أم ولد المعتضد لأنهم إذ ذاك يدبّرون الأمر معاً لحداثة المقتدر). قال ابن الفرات: فمضت أم موسى ثم عادت فقالت لابن ثوابة: يقولون لك قد صدقت ويدك مطلقة فيه. وكنت في حجرة ضيقة وحرّ شديد فأمر بكشف البواري حتى صرتُ في الشمس ونحّى الحصير من تحتي وأغلقت أبواب البيوت حتى حصلت في الشمس ثم قيّدني بقيد ثقيل وألبسني جُبة صوف قد نُقعت في ماء الأكارع وغلّني بغل وأقفل باب الحجرة وانصرف فأشرفت على التلف.

فلما مضت نحو أربع ساعات إذا صوت غلمان مُجتازين في الممرّ الذي فيه الحجرة التي أنا فيها محبوس فقال لي الخدم الموكلون: هذا بدر الخادم الحُرمي وهو لك صنيعة. فاستغثت به فصِحتُ: يا أبا الخير اللّه اللّه فيّ لك مكان من السادة ولي عليك حقوق وقد ترى حالي والموت أسهل عليّ مما أنا فيه فخاطب السادة وذكِّرهم حُرمتي وخدمتي في تثبيت دولتهم إذ خذلهم الناس وافتتاحي البلدان المنغلقة وإثارتي الأموال المنكسرة فإن كان ذنبي يوجب القتل فالموت أروح فرجع إليهم فخاطبهم ورقّقهم ولم يبرح حتى حلّ الحديد كّله عنّي ثم أذنوا في إدخالي الحمّام وأخذ شِعري وتغيير لباسي وتسليمي إلى زيدان وترفيهي فجاءني مُبشِّراً بذلك فلم يبرح حتى فعل جميع ذلك وقال: يقولون لك لن ترى بعدها بؤساً.

ذكر الخبر عن وزارة أبي الحسن بن الفرات الثالثة

وتقلّد أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات الوزارة الثالثة في ذلك اليوم وخُلع عليه واستدعى المقتدر باللّه المحسِّنَ ابنَهُ من منزله بسوق العطش فخلع عليه مع أبيه ولم يوصل المقتدر باللّه إليه في ذلك اليوم أبا القاسم بن الحواري وظهر أولاد ابن الفرات وأسبابُه واستتر بعض أسباب حامد وقبض المحسّن في طريقه على جماعة من أسباب حامد.

وكان أبو علي بن مقلة يتقلّد لِعلي بن عيسى زمام السواد طول أيام وزارة حامد فلما تقلّد ابن الفرات هذه الوزارة تجلّد ولم يستتر وصار إليه وظهر من إعراض ابن الفرات عنه ما غضّ منه ولم يقبض عليه للمودّة التي بينه وبين ابن الحواري فلما قُبض بعد ذلك على ابن الحواري قبض عليه. وانتقل ابن الفرات إلى داره الأولى التي بالمخرِّم وركب إليه ابن الحواري ليهنّئه فأطال عنده وآنسه ابن الفرات وشاورهُ وخلا به

فتحقق به وأظهر السرور بولايتِه معما يُبطنُه من الخوف الشديد منه وكان أسباب أبي القاسم بن الحواري قد أشاروا عليه بالاستتار وقالوا له: إن المقتدر بالله لم يأذن لك عند تقليدِه ابن الفرات مع علمه بالعداوة بينكما إلاّ لسوء رأيه فيك. فقال ابن الحواري: لو كان كذلك لقبض عليّ قبل تقليد ابن الفرات. فلما كان يوم الاثنين ركب ابن الفرات وركب ابن الحواري إلى دار السلطان فأذن لابن الفرات ولم يؤذن لابن الحواري فاستوحش ابن الحواري. ثم صرف الأمر إلى ابن الفرات وقد كان شرط على ابن الفرات أن يجريه على رسمِه في وزارته الثانية فإنه لم يكن يصلُ مع ابن الحواري ظاهراً وإنما كان يصلُ سرّاً فلما خرج ابن الفرات من عند المقتدر بالله وانفرد دخل إليه ابن الحواري فأقبل عليه وشاوَرَهُ في جميع أمورِه وقال: قد غبت عن مجاري الأمور منذ خمس سنين وأنتَ عارفٌ بها وأريد أن تعاضدني وتستعمل ما يلزمك بحقّ المودّة. فتلقى ابن الحواري قوله بالشكر وإظهار المناصحة وأنشأ ابن الفرات معه حديثاً طويلاً ونهض قبل أن يستتمّه ونزل إلى طيّاره وأنزل معه ابن الحواري وأحمد بن نصر البازيار ابن أخيه ومحمد بن عيسى صهرهُ وعلي بن مأمون الإسكافي كاتبه وعلي بن خلف النيرماني وكان أخوه محمد بن خلف مصاهراً له وأظهر لجماعتهم الإكرام والاختصاص وما زال يضاحِكهم إلى أن حصل في داره ثم أسرَّ إلى العباس الفرغاني حاجبه بأن يقبض على ابن الحواري وجميع أسبابه فقبض عليهم واعتقلهم في حجرة الدار واستحضر ابن الفرات في الوقت شفيعاً اللؤلؤي فأنفذهُ إلى دار ابن الحواري ليحفظها من النهب وضمّ إليه جماعة من الفرسان والرجالة وأمر بمُعامَلَته بالجميل في مطعمه ومشربه وأفردت له دار واسعة وفُرِّشت بفرش نظيفِ وأفرده عن كُتّابه ومن يأنس به. وراسلُه ابن الفرات في المصادر وتوسّط ابن قرابة بينهما وكان ابن قرابة مُتحقّقاً بابن الفرات وشديد الإنس بابن الحواري فتقرّرت مصادرتهُ بعد خطابِ كثيرِ على سبعمائة ألف دينار في نفسه دون كُتّابه وأسبابه واشترط إطلاق أحمد بن نصر البازيار لينصرف في أداء مال التعجيل وهو مائتان وخمسون ألف دينار فأطلق وأزيل التوكيل عن دار ابن الحواري وأسبابه وسُلّم جميعها إلى أحمد بن نصر.

وأمر ابن الفرات بكبس مواضع فيها أسباب حامد وكُتّابه فأثارهم وكان المحسّن يُسرف في المكروه الذي يوقعه بمن يحصل في يده منهم حتى أنه أحضر ابن حماد الموصلي وأخذ خطّة بمائتي ألف دينار وسلّمهُ إلى مستخرجه فصفعه المستخرج صفعاً عظيماً فلم يرض المحسن ذلك وأخرجهُ إلى حضرته وصفعه على رأسه حتى خرج الدم من أنفه وفمه ومات. ولم ينكره المقتدر وقد كان أشفق المحسّن من إنكاره وخافهُ خوفاً شديداً فلمّا كان بعد أيام أنفذ المقتدر إلى المحسّن خلع منادمته وأجرى عليه من الرزق

كلّ شهر ألفي دينار زيادة على رزق الدواوين فضري المحسّن على مكاره الناس وأسرف المقتدرُ في استصابة أفعاله إلى أن بلغ الأمرُ فيه إلى أن غنّى الجواري بحضرته «أحسن المحسّن أحسن».

وكان استتر أبو الحسين محمد بن أحمد بن بسطام صهر حامد بن العباس فاستخرجه واستخرج منه ستين ألف دينار وأخذ خطَّهُ بمائتي ألف دينار بعد مكروه غليظ وغضْبه على خادم يعرف بمرج كان مشهوراً بالميل إليه وقبض على جماعة فأخذ خدمهم وغلمانهم الرُوقة وأوقع بهم المكاره.

ذكر الخبر عن قبض الوزير ابن الفرات على حامد بن العباس

كان المقتدر قد شرط على ابن الفرات أن لا ينكب حامداً وأن يناظره على ما يجب عليه من فضل الضمان فإذا وجب عليه شيء بقول الكُتّاب والقضاة أخذ بعضه وقال: قد خدمني ولم يأخذ مني الأزرق سنة واحدة وشرط عليّ أن لا أسلمه لمكروه ولا أدعُ عليه حقاً. فاضطُرّ ابن الفرات إلى إقراره على أعمال واسط وخاطبه بأجلّ دعاء ثم عمل له الأعمال واستقصى عليه الحجّة وخرّج عليه أموالاً عظيمةً وكاتب أصحابه بمطالبته والإلحاح عليه فإن تقاعد بها وُكِّلَ به من يطالبه بالمال الواجب عليه للمصالح والبذور إذ كان ممّا لا سبيل إلى تأخيره «فإن أمير المؤمنين ليس يأذن في تضمينه مستأنفاً» فأظهر صاحب الوزير ابن الفرات هذا الكتاب في مجلسه وبلغ حامداً الخبر في الوقت فأظهر بواسط أن كتاب المقتدر ورد عليه يأمر فيه بالمسير إلى بغداد وخرج من واسط مع جميع كُتّابه وحاشيته ورجالته وحمل معه من الفرش والآلات والكسوة جميع ما كان يخدم به بعد أن احتاط في أمواله وأمتعته الفاخرة وأودعها عند ثقاته بواسط وضرب عند خروجه بالبوقات وأجلس غلمانه وحاشيته بأسرِهم في الزواريق والسُميريّات. وبادر بخبره على أيدي الفيوج وعلى أجنحة الطير إلى ابن الفرات وقاد دوابّه ودوابَ حاشيته وأصحابه على الشطّ فوصل خبره إلى ابن الفرات فاستشار ابنه المحسن ومن يختصه فيما يعمل به فأشاروا عليه بأن يبادر إلى المقتدر ويقرأه كتاب حامد ففعل ذلك وقال المقتدر: ما وقفت على ما عمله حامدٌ ولا كتبت بشيء مما ادّعاه عليّ. فقال ابن الفرات: فإن كان كذلك فالصواب أن ينفذ نازوك في جمع من الغلمان الحجريّة والفرسان والرجَّالة بعضهم في الماء وبعضهم في الظهر حتى يقبض على حامد وأسبابه. فأذن له في ذلك فانصرف ابن الفرات إلى داره وأنفذ نازوك وتقدم إليه بالمبادرة حتى يقبض على حامد وعلى أسبابه حتى لا يفوته أحدٌ منهم. فسار نازوك وأخطأ بأن قبض على أوّل من لقيه من أسباب حامد وعلى دوابّه وغلمانه وبلغ حامداً خبره فاستتر من الطريق ونهب أسباب نازوك بعض ما كان مع القوم من الأمتعة واستظهر نازوك على

الكتب والحسابات والأعمال وصار بالجميع إلى الحضرة.

فأمر المقتدر بتسليم جميع الكتب والأعمال إلى ابن الفرات وفرّق الأمتعة في خزائنه والدوابّ في اصطبلاتِه ووجد ابن الفرات في الكُتُب المحمولة إليه عجائبَ من كُتب مَن تقرَّب إليهم فقبض عليهم وكان حين ورد كتاب حامدٍ بالمسير من واسط استظهر بالتوكيل بجهبذِه إبراهيم الذي كان بالحضرة فلما تمّ قبضُ نازوك على أسباب حامد أمر ابن الفرات هِشاماً بالرفق بهذا الجهبذ مرّة وبالغلظة أخرَى وسئل عن ودائع. حامد ففعل هشام به ذلك فأقرّ عفواً أن لِحامد عنده مائة ألف دينار عيناً ثم حلف على أنه ليس عنده لِحامد ولا لأحدٍ من أسبابه وديعة غيرها فآمنه ابن الفرات على نفسِه وأن لا يسلِّمَهُ إلى المحسِّن ولم يُطلِع ابن الفرات المقتدر باللّه على خبر هذه المائة الألف إلا بعد أن تَسلَّم حامداً.

وانتشر الخبر في رجب أن حامداً إنّما استتر لأن المقتدر كتب إليه يُنكِر خروجَه من واسط على تلك الحال التي خرج عليها ويأمره أن يستتر ويوافي بغداد حتى يتوثّق منه ويأخذ خطَّهُ بما بذل أن يضمن به ابن الفرات والمحسّن وكُتابُهما وأسبابُهما ليسلّم الجماعة إليه فاستتر المحسّن والفضل والحسين والحسن أولاد أبي الحسن بن الفرات وحُرمهم وأكثر الكُتاب ولم يبق في دار ابن الفرات من كُتّابه الذين يحضرون مجلسه إلا أبو القاسم بن زنجي وحده. وكانت مدة سعادة حامدٍ قد انقضت فصار إلى دار السلطان في زيّ الرُّهبان ومعه مونس خادمه وصعد إلى دار الحجبة التي فيها نصر الحاجب فاستأذن له فارس بن رُنداق على نصر وقال: حامد بن العباس قد حضر الباب وهو يستأذن على الأستاذ. فقال: قُل له يدخُل. فلما دخل قال له قبل أن يجلس: إلى أين جئتَ؟ قال: جئتُ بكتابك. فقال له فإلى هاهُنا كتبتُ إليك أن تجيء ولم يقُم له واعتذر إليه أنه تحت سخط الخليفة. ووجّه نصر إلى مُفلِح يسأله الخروج إليه وكان مُفلح يتولى الاستِئذان على المقتدر إذا كان عند حُرمه فخرج مفلح وكلّمهُ نصر في أمر حامد وقال له: هو في هذا الوقت في حال رحمةٍ ومثلك من استعمل معه الجميلَ ولم يؤاخذه بما كان منه في تلك الأمور. ثم قال حامد لمفلح: تقول لمولانا أمير المؤمنين عنّي بأني أرضى أن أكون معتقلاً في دار أمير المؤمنين كما اعتقل فيها علي بن عيسى ويُناظرني الوزير والمحسّن والكُتّاب بحضرة الفقهاء والقضاة ووجوه القُوّاد فإن وجب عليّ مالٌ خرجتُ منه بعد أن أكون مالِكاً لاِستيفاء حُجّتي ومحروساً في نفسي ولم يمكّن المحسّن من دمي فيجازيني على المكاره التي كنتُ أوقعُها به في طاعة مولانا أمير المؤمنين وهو شابٌ وأنا شيخٌ قد بلغتُ هذه السِّنّ العالية واليسير من المكروه يتلفني. فوعدَهُ مفلح بذلك ودخل على المقتدر باللّه فخاطَبه في أمرِه بضدّ ما وعدَه به فتكلّمت السيّدة في أمر

حامد وقالت: لا يضرّ أن يُعتقل في الدار ويُناظر حتى تُحرس نفسُه. فقال مفلح: إن فُعل هذا لم يتمّ لابن الفرات عملٌ لأن الأراجيف قد كثرت به وخربت الدنيا وبطلت الأموال فقال المقتدر لمفلح: صدقتَ. وأمرَهُ أن يخرج إلى نصر فيأمره أن يُنفِذ حامداً إلى ابن الفرات فخرج مفلح إلى نصر بذلك فأخذ نصر يطيِّب نفس حامد بأن يقول: لا بدّ من أن تصير إلى حضرة الوزير مع ثقةٍ لي ثم أردُّك إلى دار أمير المؤمنين. فالتمس حامد من نصر ثياباً يغيِّر بها ما عليه من زيّ الرُّهبان فامتنع مفلح من الإذن له في ذلك وقال: قد أمرني مولاي أن أوجّه به في الزي الذي حضر فيه. فما زال نصر يشفع له حتى أذن له في تغيير زيّهِ وأنفذَهُ مع ابن رُنداق الحاجب وبادر مفلح بإنفاذ كاتِبه إلى ابن الفرات يُبَشِّره بحصول حامد وما أمر به المقتدر من تسليمه إليه وكان ابن الفرات على قلقٍ وانزعاج لما وقف على حصول حامد في دار السلطان واستتر كتابهُ وأولاده كلهم فلما جاءته رسالة مفلح سكن بعض السكون وصلى الظهر وجلس بين يديه غير ابن زنجي وهو ينظر في العمل نظراً خفيفاً إلى أن ذكر بعض الغلبان أن طيَّاراً من طيارات الخدمة قد أقبل ثم قدّم عند درجة داره وبادر البوابون يخبره ودخل ابن الرنداق ومعه حامد بن العبّاس فلما رآه ابن الفرات قال له: لمَ تركتَ عملك وجئتَ؟ قال: بكتابك جئتُ. قال: فلِمَ لم تقصد داري إن كنت جئت بكتابي؟ قال: حرمت التوفيق. ولم يزل يُخاطبه «بالكاف» من غير ذكر الوزارة وأخرج ابن الرُّنداق رُقعة نصر الحاجب إلى الوزير بإنفاذ حامد إليه فألقاها إلى ابن زنجي وقال: اكتبْ بوصوله. فكتب وسلم الجواب إلى ابنُ رنداق فنهض من المجلس.

فلما انصرف ضعفت نفس حامد وأقبل يُخاطِب ابن الفرات بالوزارة ولان كلامه وبان فيه الخضوع. وأمر ابن الفرات يحيى بن عبد اللّه قهرمان داره بأن يفرد لِحامد داراً واسعة في داره ويفرُشها فرشاً حسناً ويتفقّدهُ في طعامه وشرابه وطيبه حتى يُخدَم بمثل ما كان يخدَم به وهو وزيرٌ وأن يقطع له كسوةً فاخرةً ويجعل معه لخدمته إذا كان خالياً خادمين أسودين أعجميّين وأمرَه أن يؤنسه عند الأكل وأن يخدمه في تلك الحال من الخدم والفرّاشين من يوثق به ففعل يحيى ذلك.

ذكر ما عومل به حامدٌ وما عملَه هو

دخل إلى حامد وقت العصر من ذلك اليوم عبد اللّه بن فرجويه وأحمد بن الحجاج بن مخلد صهر موسى بن خلف وقد كان حامد استعمل معهُما في أيام وزارته من المكاره ما لم يسمع بمثله قط فوبّخَاهُ على ما فعل بهما فجحد أن يكون رآهما أو وقع بصره عليهما فلما أكثرا عليه قال لهما: قد أكثرتُما عليَّ وأنا أجمل القول لكما إن كان ما استعملتُه من الأحوال التي تَصِفان وما عاملتُ الناس به قد أثمرَ لي خيراً

فاستعملا مثلَه وزيدا عليه وإن كان قبيحاً وهو الذي أصارني إلى أن تمكنتم مني فتجنّبوه فإن السعيد من وُعظ بغيره. فذهبا وأعادا ذلك على ابن الفرات فاسترجح حامداً وقال: ما أدفع رجلته ولا أنكر دربته ولكنّه رجل من أهل النار يقدم على الدماء ومكارِه الناس.

قال ثابت في كتابه في التاريخ: ومن أعجب العجب أن يقول أبو الحسن بن الفرات هذا القول ويُصدّق قول حامد ويستجيدهُ ويقول إنه بأفعالِهِ القبيحة من أهل النار وهو لا يُنكِر مع كرم طبعهِ وجلالة قدره وسلامة أخلاقهِ وإيثاره الإحسانَ إلى كل أحدٍ على المحسِّن ابنهِ طرائقهُ المنكرة وأفعاله العظيمة التي أنكرها على حامد بن العباس وقد زاد عليها للواحد واحداً ولا ينهاه ولا يَعظهُ بما لحق حامداً فيرجع «ويكون السعيد الذي وُعظ بغيره» فإن مَنْ يُقدم على اللّه تعالى على بصيرةٍ وبعدَ التنبيه والتذكير خلاف من يقدِم وهو مغترٌ غافلٌ.

ثم راسل ابن الفرات حامدَ بن العباس في الإقرار بماله بمائتي ألف دينار منها المائة التي كانت له عند إبراهيم جهبذهِ لأنه قد كان وقف على حصول هذا المال من جهة الجهبذ في يد ابن الفرات وأخذ المحسن شيئاً آخر من جهة مونس خادمه إلى حضرة المقتدر باللّه وكتب إليه أنه أخذ ذلك عفواً بغير مناظرة ولا مكروه وأطمع المقتدر من جهة حامد في أموالٍ كثيرة واستخرج من مونس بعد ذلك بعد مكروه كثير أربعين ألف دينار وصُودر جماعة من حاشيته بأموال أخرى. واستحضر ابن الفرات حامد بن العباس بحضرة الفقهاء والقضاة والكُتَّاب وناظرهُ مناظرةً طالت واستوفى حامد حجتهُ إلى أن أخرج ابن الفرات عملاً وجده في صناديق غريب غلام حامد وكان هذا الغلام يتولى لحامد بيع غلاّته في الفُرضة. فواقف حامداً عليه وأحضر غريباً فاعترف بذلك العمل وكان حمله سهواً منه لأن حامداً كان في كل سنة يجمع جميع حسباناته ويغرّقها في دجلة فلما جرى المقدار على حامد بما جرى أنسي أن يطلب من هذا الغلام هذا العمل وكان في جملة الظهور فكان ما ثبت في ذلك العمل من أثمان الغلات لسنة واحدة خمسمائة ألف دينار ونيفاً وأربعين ألف دينار سوى شعير الكُرّاع المحمول إلى الحضرة فبان أن في الضمان من الفضل أكثر من الضعف وظهر أيضاً أن أسعار تلك السنة الثانية في العمل أسعار ناقصة وأن أسعار السنين التي بعدها بأسرها أزْيَدُ واتَّجَهَت حُجّة ابن الفرات على حامد وأخذ ابن الفرات خطوط القضاة والكتاب وسفيع اللولوي بما ظهر من الحجّة على حامد.

وكان ابن الفرات يرفق في المناظرة ولا يُسعهُ ولا يخرق به ولا يزيد على إيجاب الحجَّة عليه ويدعُه حتى يستوفي منه لنفسه الحجة وكان المحسّن ابنه يشتمه بحضرة الناس أقبح شتم ويقول: ليس يخرج المال منك إلا مثل المكاره التي كنتَ تُجريها على

الناس. ويقول: إني أعطي خطي إن سلم مني أن استخرج منه ألفي ألف دينار معجلة ويبذل دمه إن لم يف بذلك... ويستكفه أبوه وينهاه عن الشتم فلا ينتهي.

فقال حامد. أيها الوزير قد أكثر من شتمي واحتملْتهُ وليس الاحتمال له وإنما أكرم مجلس الوزير وليس بعد الحال التي أنا فيها شيء يُخاف أعظم من القتْل ولولا ما يلزمني من توقير بمجلس الوزير لرددت عليه. فحلف أبو الحسن لئن عاد المحسّن لشتم حامد لَيستعفينّ الخليفة من مُناظرته فحينئذٍ أمسك عن الشتم ثم أعاده إلى المناظرة مرّات وكان يحصل في آخره أنه لا مال له وكان قد باع ضياعَهُ ومستغلاّتَهُ وفرشَهُ ودارَهُ ولم يبق له حيلة.

فلما أعيت ابن الفرات الحيلةُ فيه خلا به في دار من دُور حرمه من حيث لم يحضر معهُما أحدٌ من خلق اللّه ورفق به وحلف له على أنه صدقَهُ عن أموالِهِ وذخائرهِ لم يُسلّمهُ إلى المحسّن ولم يُخرجهُ عن دارهِ وحفظ نفسه فإما أقام في داره مكرماً وإما خرج إلى فارس مُتقلّداً لها أو إلى أي بلدٍ أحبّ مع خادم من خدم السلطان يحفظ نفسه ووكّد اليمين على ذلك ثم قال له: أنت تعلم أنك ضمنتني من أمير المؤمنين لأسلّم إليك فافتديت نفسي بسبعمائة ألف دينار وأقررت بها عفواً من مالي حتى سُلمتُ منك وأنت فقد تناسبت كل جميل فعلتُه وفعله أخي بك والخليفة الآن مقيم على أن يُسلمك إلى المحسن وهو حدث وقد أسلفته من المكاره ما لم يستعمله أحدٌ مع وزير ولا مع ولد وزير وأنا أرى لك أن تفتدي نفسك بمالك حتى تلحقك الصيانة من التسليم إلى المحسن. ووكّد له الإيمان فعند ذلك ركن حامد إلى قوله ويمينه وأقر له من الدفائن في البلاليع احتفرها وتولى هو بنفسه دفن المال فيها بخمسمائة ألف دينار وأقر بأن له عند جماعة من الوجوه والشهود نحو ثلاثمائة ألف دينار وأقر بأن له كسوةً وطيباً مودوعة بواسط فأخذ ابن الفرات خطَّه بذلك وبادر بالركوب إلى المقتدر من غير أن يحضر معه المحسن ولا عرّفه شيئاً من الخبر فسر المقتدر بذلك ووعدَهُ أن يسلِّم إليه كل مَن ضمنَه من نصر الحاجب وشفيع اللؤلؤي وغيرهما وأشار ابن الفرات بإنفاذ شفيع ليسلم هذا المال بواسط فخرج شفيع فوجد تلك الأموال المدفونة واستخرج تلك الودائع وصار بها إلى المقتدر باللّه.

وما زال حامد في دار ابن الفرات مَصُوناً إلى أن توصل المحسن إلى المقتدر باللّه على يد مُفلح فالتمس منه أن يوقِّع إلى أبيه بأن يستخلفه على سائر الدواوين وجميع أمر المملكة فتردّد مفلح برسائل من المقتدر باللّه إلى أبي الحسن بن الفرات وتنكّر ابن الفرات لابنهِ وجرت فيه ألوان مناظرات إلى أن خُلع على المحسن وركب معه أبوه والقوّاد ثم انصرف أبوه إلى داره ومضى المحسن إلى داره. ثم ركب المحسن مع أبيه إلى دار السلطان وخاطب الخليفة بحضرة أبيه وقال: قد بقيت على حامد جملة وافرة من مال مصادرته وإن سُلّم إليّ استخرجت منه خمسمائة ألف دينار. فأمر المقتدر أبا

الحسن بتسليمه إليه فقال ابن الفرات: قد عاهدتُه أن لا أسلّمه إليه فراجع المحسن المقتدرَ إلى أن أمر المقتدر أمراً لم يمكن أبا الحسن مخالفته فيه فسلَّمَه إليه وحمله المحسن إلى داره. وطالَبه وأوقع به مكروهاً وأقام حامد على أنه لم يبق له مال ولا حال فأمر بصفعه فصفع خمسين صفعة وسقط كالمغشي عليه وما زال يُصفَع إلى أن تكلّم وقال: أي شيء تريد مني؟ قال: أريد المال. قال: ما بقي غير ضيعتي. قال: فاكتب بوكالة لابن مُكرم (وكان أحمد بن كامل القاضي حاضراً) تقرّ فيها أنّك قد وكلته في بيعها. فكتب ذلك ووقعت الشهادة على حامد. ثم إن المحسن عامله بعد ذلك بمعاملةٍ تجري مجرى السُخْف من إذلاله والوضع منه ثم سلَّمه إلى خادم له مع خمسة من الفرسان وعشرة من الرجالة لِيحدروا به إلى واسط ويبيع ضياعَه وأملاكَه.

وشاع ببغداد أن حامداً طلب ليلة انحداره بيضاً فحمل إليه وتحسَّى منه وقت إفطاره عشر بيضات وإن خادم المحسن الموكل به طرح فيه سماً فما استقر في جوفِهِ حتى صاح ولحقه ذرب عظيم ودخل واسط وهو لما به فسلمه الخادم إلى محمد بن علي البزوفَري وجعله في داره وبادر الخادم بالانصراف وقام حامد أكثر من مائة مجلس ولم يتغذّ إلاّ بسُوَيق السُلْت. وأراد البزوفري الاستظهار لِنفسه فاستحضر القاضي والشهود بواسط وكتب كتاباً يقول فيه «إن حامداً وصل إلى وساط وتسلَّمه البزوفري وهو عليل من ذرب شديد لحقه في طريقه بين بغداد وواسط وأنه إن تلف من ذلك الذرب فإنما مات حتف أنفه ولا صنعَ لِلبزوفري في شيء من أمره» ووجَّه بالكتاب إلى حامد فأظهر له حامد الاستجابة إلى الإشهاد على نفسِه بما فيه فلمّا دخل إليه القاضي والشهود قال لهم: ابن الفرات الكافر الفاجر المجاهر بالرفض عاهدَني وحلف لي بأيمان البيعة والطلاق على أني إن أقررت بجميع أموالي لم يُسلِّمني إلى ابنه المحسن وصانني عن كلِ مكروه وأطلقني إلى منزلي وولاّني أجلّ الأعمال فلما أقررت له بجميع ما ملكته سلَّمني إلى ابنه المحسن فعذبني بأصناف العذاب وأخرجني مع فلان الخادم واحتال عليّ وسقاني بيضاً وطرح فيه سما فلحقني الذرب ولا صنع للبزوفري في دمي في هذا الوقت ولكنه فعل وصنع ثم أخذ قطعةً من أموالي وامتعتي وجعل يحشوها في المساور البِزِّيون المخلقة فتباع المسورة بخمسة دراهم وفيها أمتعة تساوي ثلاثة آلاف دينار فيشتريها هو فاشهدوا على ما شرحتُهُ لكم. وتبين البزوفري حينئذٍ أنه أخطأ فيما فعله. وكتب صاحب الخبر بواسط إلى ابن الفرات بجميع ما تكلَّم به حامد.

وتوفي حامد بن العباس ليلة الثالثة عشر من شهر رمضان سنة ٣١١

ما جرى في أمر علي بن عيسى وتسليمه إلى ابن الفرات

لما قبض المقتدر على عليّ بن عيسى وجعله في يد زيدان القهرمانة راسله بأن يقرّ

بأمواله فكتب رُقعةً يقول فيها إنه لا يقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار. واتفق أن ورد الخبر بدخول أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنّابي إلى البصرة سحر يوم الاثنين لخمس بقين من شهر ربيع الآخر في ألف وسبعمائة راجل وأنه وصل إليها بسلاليم نصبها بالليل على سورِها وصعد إلى أعلى السور ثم نزل إلى البلد وقتل البوّابين الذين على أبواب السور وفتح الأبواب وطرح عن كلّ مصراعين منها حصى ورملا كان معه على الجمال لئلا يمكن إغلاق الباب عليه. وإنه لم يعرف سُبك المِفلَحي والي البصرة إلا في سحر يوم الاثنين ولم يعلم أنه ابن أبي سعيد الجنابي وقدّر أنهم أعراب فركب مغترّاً ولقيه وجرت بينهم حرب شديد وقتل سبُك ووضع أبو طاهر في أهل البصرة السيف وأحرق المِرْبَد وبعض المسجد الجامع ومسجد قبر طلحة ولم يعرض للقبر. وهرب الناس إلى الكلاء فكانوا يحاربونهم عدّة أيام ثم أخذهم السيف فطرحوا أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم. وأقام أبو طاهر بالبصرة سبعة عشر يوماً ويحمل على جماله كل ما يقدر عليه من الأمتعة والنساء والصبيان ثم انصرف إلى بلده. فأنفذ ابن الفرات في الوقت الذي ورد فيه خبر القرمطيّ بُنيّ بن نفيس وجعفراً الزرنجي إلى البصرة وقلد محمد بن عبد الله الفارقي أعمال المعاون بالبصرة وخلع عليه وانحدر في الطيّارات والشذاآت وورد الخبر بوصوله إليها بعد انصراف أبي طاهر الجنابي عنها فأقام فيها الفارقي رجالهُ وانصرف بُنيّ والزرنجي.

وكان بُنيّ بن نفيس أنفذ جماعةً من القرامطة إلى بغداد ذكرَ أنهم استأمنوا إليه وأنهم زعموا أن علي بن عيسى كاتَبهم بالمصير إلى البصرة وأنه وجَّهَ إليهم في عدّة أوقات بهدايا وسلاح فوافوا بغداد وأنهى ابن الفرات الحالَ في ذلك إلى المقتدر بالله.

ذكر مناظرة ابن الفرات عليَّ بن عيسى

عرض الكتاب بعينه عليه فأمره المقتدر بإخراج علي بن عيسى إليه لِيناظره والجمْع بينه وبين القرامطة حتى يواجهوه بما قالوا فيه ففعل ابن الفرات. فاحتجَّ علي بن عيسى بأن قال: إنه من كان في مثل حالتي وتحت سخط السلطان كاشفَهُ الناس بالكذب والباطل لا سيّما إذا كان الوزير منحرفاً ومُغتاظاً. ثم أحد ابن الفرات يُخاطِبه في أمر الأعمال وكان فيما ناظره عليه أمر المادرائيين وقال: قد أخذ ابن بسطام خطوطَهما في أيام وزارتي الثانية صلحاً عمّا وجب عليهما من خراج ضياعهما بمصر والشام وما أخذاه من المرافق بها مدة تقلُّدهما في أيامك الأولَى بألفي ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار وأدّيا في أيامي نحو خمسمائة ألف دينار. فصرفت على ابن بسطام ساعة وليتَ الدواوين وقلّدتَ هذين العاملَيْن المجاهرَيْن باقتطاع مال السلطان وأنشأتَ إليهما كتاباً عن أمير المؤمنين أطال الله بقاءهُ بإسقاط ذلك بأسره عنهُما. ثم ادّعيت أن أمير المؤمنين أمر بذلك وقد أنهيتُ هذه الحال إلى أَمير المؤمنين أطال الله بقاءه فقال: لم آمر بشيء من هذا ولا ظنَّ أن أحداً يُقدِم

عليه بمثلها. فأجاب علي بن عيسى بأنه كان في الوقت (كاتباً) لحامد بن العباس يخلفهُ على العمل: وكان أمير المؤمنين أمرني قبول قوله: وإن حامداً ذكر أن أمير المؤمنين أمر بإسقاط هذا المال عن هذين العاملين ووقّع بذلك توقيعاً فوقّعتُ تحت توقيع حامد بامتثال أمره كما يفعل خليفة الوزير فيما يأمره به صاحبهُ. فقال له ابن الفرات أنَت كنتَ تُعارض حامداً وتخاصمهُ أبداً في اليسير تخرجه عليه في عِبَره ما كان ضمنَهُ حتى جرى بينكما ما تحدث به الناس فكيف تركت أن تستأذن أمير المؤمنين في هذا المال العظيم الجسيم؟ فقال علي بن عيسى: كنتُ في أوّل الأمر كاتباً لِحامد مدة سبعة أشهر ثم بان لأمير المؤمنين ما أوجب أن يعتمد عليَّ وكان الذي جرى من أمر المادرائيين في صدر أيام حامد. فقال له ابن الفرات: فلما اعتمد عليك أمير المؤمنين إلاّ صدقته عن خطأ حامد في هذا الباب وتلافيته؟ فقال: أغضبتُ عن ذلك لأني كنتُ في ذي القعدة سنة ستّ أوصلتُ الحسين بن أحمد إلى حضرة أمير المؤمنين وأخذتُ خطّه في مجلسِه بما عقدته عليه من ضمان أعمال الخراج والضياع بمصر والشام بعد النفقات الراتبة وإعطاء الجيش في تلك النواحي وهو ألف ألف دينار في كلّ سنة خالصة لِلحمل إلى بيت المال لا ينكسر منه درهمٌ واحدٌ وذلك بعد أن أخذتُ خطّه بجميع ما تصرَف فيه من عَطاءِ الجيش والنفقات الراتبة في ناحيةٍ ناحيةٍ ووقفتُ عليه في كل سنة لما ينكسِر ويتأخّر في هذه الأعمال مائة وثلاثين ألف دينار وخطه بذلك في ديوان المغرب وهذا غاية ما قدرتُ عليه. فقال ابن الفرات: أنتَ تعملُ أعمال الدواوين منذُ نشأتَ وقد وليت ديوان المغرب سنين كثيرةٍ ثم ولّيتَ الوزارة ودبّرت أمر المملكة مدّة طويلة هل رأيت من يدع مالاً واجباً يُؤدِّي معجلاً ويأخذ عوَضاً منه مالاً مؤجَّلاً يُحَال به على ضمانٍ! وهَبْك أغضيتَ كما ذكرتَ ورأيتَ ذلك صواباً في التدبير فهل استوفيت مال هذا الضمان من هذا الضامِن في مدّة خمس سنين دبّرت فيها المملكة؟ فأجاب عن ذلك بأنه قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولَى حُلةٌ ثم سار العلوي من أفريقية حتى تغلّب على أكثر النواحي بمصر فنفذ مونس المظفّر إلى مصر لمحاربته فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند ونفقات العساكر وانكسر باقيه لأجل استخراج العَلَويّ ما استخرجَهُ من أموال النواحي المجاورة لِمصر. فقال ابن الفرات: فقد انهزم العلوي منذ صغر سنه تسع ووجب على هذا الضامِن مال سنتين كاملِتين بعد هزيمة العلوي فهل استخرجتَ من هذا الضامِن ألفي ألف دينار؟ فأجاب على ذلك ما لم يحفظ ثم قال له في آخر خطابه: فقد أمر أمير المؤمنين بمطَالبتك بالأموال التي جمعتَها وخُنُتهُ فيها فينبغي أن تقرّ بها عفواً وتصون نفسك عن المكروه. فقال علي بن عيسى. لستُ من ذوي المال وما أقدر على أكثر من ثلاثة آلاف دينار.

ثم ناظره على أموال الحاشية فقال لعلي بن عيسى: أنتَ قد أسقطتَ من أرزاق

الحرم والولد والحشم والفرسان الذين كنتُ أوفّيهم أرزاقهم على الأدرار في أيّامي الأُولَى والثانية مدّة خمس سنين دبّرتَ فيها أمر المملكة ما يكون مبلغُهُ في كل شهر مع ارتفاع الضياع التي هي ملك خاصةً خمسة وأربعون ألفاً يكون في السنة خمسمائة وأربعون ألف دينار وفي هذه المدّة ستّة ألف ألف دينار ولست تخلو من أن تكون احتجنتَها لِنفسك أو أضعتَها. فقال علي بن عيسى: ما استغللتُهُ من هذه الضياع ووفَّرتهُ من أرزاق من يستغني عنه تمّمتُ به عجْزَ الدخل عن النفقات المسرفة حتى اعتدلتْ الحال فلم أمد يدي إلى بيت مال الخاصَّة فأما الخمسة والأربعون الألف الدينار التي كنتَ تحملها من أموال المرافق فإني ما استصوبُ ما استصوبتَهُ أنت من أخذها والإذن لِلعُمَّال في أن يرتفقوا بل حظرتُها ورفعتُها فلم أعرض لها لأنها كانت طريقاً إلى تلف أموال السلطان وظلم الرعية وخراب البلاد وأنتَ كنتَ تُعوِّل في النفقات على ما كنتَ تحوّلُهُ من بيت مال الخاصَّة إلى بيت مال العامة فترضى به الحاشية وتخرب به بيت المال. وتكرّر الخطاب في هذا المعنى.

ثم ناظره على ما حملَهُ إلى القرامطة من الهدايا والسلاح وما تردّدت بينه وبينهم من المكاتبات مرّةً والمقاربات أخرى فقال: أردتُ استمالتهم وإدخالهم في الطاعة وكففتُهُم عن الحاج وأعمال الكوفة والبصرة مدّة ولايتي دفعتين وأطلقوا من الأسارى الذين كانوا من المسلمين عدة، فقال له ابن الفرات فأي شيءٍ أعظم من أن يشهد أن أبا سعيد وأصحابه الذين جحدوا القرآن ونبوّة النبي عليه السلام واستباحوا عُمان وقبلوا أهلها وسبوهم مسلمون وتكاتَبهم بذلك وتؤخر إطلاق أرزاق من يحفظ السور بالبصرة حتى أخلوا بمراكزهم فدخلها القرمطي وقتل أهلها. فاحتج بحجج يطول شرحها.

فسأل نصر الحاجب والمحسن أبا الحسن بن الفرات أن يدَعهما يخلوان به فخلوا وأشارا عليه بالمصادرة فاستجاب إليها وألزماهُ ثلاثمائة ألف دينار يُعجل منها في مدة شهرٍ مائة ألف دينار أوّلها يوم خروجه من دار السلطان إلى حيث يأمن فيه على نفسه ويصل إليه الناس فأخذ ابن الفرات خطه بذلك وأنفذه إلى المقتدر بالله فأمضاهُ ثم كتب ابن الفرات كتباً عن نفسه إلى كل واحدٍ من أصحاب الدواوين يذكر فيها خيانة علي بن عيسى وسَرقتهُ وما واجهه به وما بذله من المصادرة.

وحكى أبو الفرج بن هشام عن ابن المُطوِّق أن أبا الحسن علي بن عيسى كان سأل أبا الحسن بن الفرات أن يتجافى له عن ارتفاع ضِعته لسنة ٣١١ ليؤديه من جملة المُصادرة وأن ابن الفرات قال له: هو خمسون ألف دينار. فقال علي بن عيسى: قد رضيتُ بعشرين ألف دينار. وذكر أنه دون ذلك فلما نفي إلى مكة وجد في ضيعته نحو الخمسين الألف الدينار.

قال أبو الفرج: فسمعتُ الهماني الواسطي يقول: سمعتُ أبا الحسن علي بن عيسى يُوبِّخ أبا عبد اللّه البريدي ويقول له: يا أبا عبد اللّه أما خفتَ اللّه حيث حلفت بما حلفتَ به ونحن مُجتمعون في دار السلطان أطال اللّه بقاءه أن استِغلالك واستِغلال إخوتك من ضيعتكم بواسط عشرة آلاف دينار وقد وجدتُه من حساب رفعَهُ إليَّ (يعني الهُماني) ثلاثين ألف دينار. فقال أبو عبد اللّه: اقتديتُ بسيّدنا أيّده اللّه حيث سأله أبو الحسن بن الفرات عن ارتفاع ضيعتِه فلم يصدقْه وساتَرَهُ وعلِمتُ أنه مع ديانته لو لم يعلم أن التقية مباحة عند من يخاف ظلمه لَمَا حلف بتلك اليمين. فكأنّه ألقَم علي بن عيسى حجراً.

ونعود إلى تمام خبر علي بن عيسى مع ابن الفرات. امتنع المقتدر من تسليم علي ابن عيسى إلى ابن الفرات فذكر علي بن عيسى أنه لا يمكنه أن يؤدّي مال مصادرتِه إلا بعد أن يخرُج من دار الخليفة وأحضره المحسّن دفعتين وطالبهُ ورفق به فلم يؤدّ إلا ثمن دارٍ باعها فقيّده المحسّن فلما رأى نصر ذلك نهض عن المجلس وطالب المحسّن علي ابن عيسى فقال: لو كنتُ أقدرُ هاهُنا على أداء المال لَمَا قُيِّدتُ. فألبسه جُبةَ صوف وأقام على أمره فحينئذٍ صفعَهُ عشر صفعات فقام نازوك من المجلس فقال المحسّن: إلى أين تقوم؟ فقال: ما أحبُّ أن أحضُر مكروهَ هذا الشيخ. وأُعيد علي بن عيسى إلى محبسه وبلغ أبا الحسن بن الفرات ما عامَل به المحسّن علي بن عيسى فأقلقَهُ ذلك وقال لابنِهِ: قد جنيتَ علينا بما فعلتَهُ كان يجب أن تقتصِر على القيد. ثم كاتَبَ المقتدر باللّه يشفع لِعلي بن عيسى وذكر أنه لما وقف على ما جرى عليه لحقهُ من الغمّ أمرٌ لا يذكر مثله وأنه لم يطعم طعاماً مُنذ عرف خبره لأنه شيخ من مشايخ الكُتّاب وقد خدم أمير المؤمنين وتحرّم بداره ومثله يُخطِئ وأمير المؤمنين أوْلَى بالصفح وسأل أن يُزال عنه القيدُ والجُبّة الصوفِ فأجابَهُ المقتدر بأن علي بن عيسى مُستحقّ لأضعاف ما جرى عليه وأن المحسن قد أصاب فيما عاملَهُ به وأنه قد شفعَهُ في أمرِهِ وأمر بحلّ قيده ونزع جُبَة الصوف عنه وتقدّم بعد ذلك بتسليم علي بن عيسى إلى ابن الفرات ليؤدّي مال التعجيل من مُصادرتِه. فلما حُملَ إليه قال لستُ أحبّ أن يكون في داري لئلا يلحقه مرضٌ وهو شيخٌ فيُنسبُ إليَّ وأنا أسألُ أمير المؤمنين أن يأذن في تسليمه إلى شفيع. فقيل لِلمقتدر ذلك فقال: أنا أُسلِّمهُ إليك لأنك الوزير فأحفظ نفسهُ ولا تُسلْمهُ إلى المحسن فأما غير هذا فأنت أَولى وما تراهُ. فأنفذ ابن الفرات إلى شفيع وأحضره.

وأخذ ابن الفرات في توبيخ علي بن عيسى وعاتَبَهُ على أمر وقوفٍ وقَّع أميرُ المؤمنين بردّها عليه وأن مالها كان ينصرف إلى أشياء يتقرّب بها إلى اللّه عزّ وجلّ وينصرف بعضها إلى ولده وغلمانه وأن ما فعله لا يجوز في الدين ولا في المروءة. فأخذ علي بن عيسى يعترف بالتفريط الّذي وقع منه وسأله قبول عذْرِه وكان المحسن

حاضراً فأطنب في توبيخه وتقريعه على هذا الباب فأجابه بمثل ما أجاب به والدَهُ وزيادة وقال في عرض كلامه: أنا واللّه استجليك. فقامت على المحسن القيامة من هذه الكلمة وغلظت على أبيه أيضاً فأجابه المحسن بجواب فيه غلظة وأقبل أبوه يسكّنه ويرفق به ثم قال لعلي بن عيسى: أبو أحمد كاتبُ أمير المؤمنين وصنيعتُهُ (وأخذ يصفَ محلهُ منه وتفويضه إليه) وأخذ علي بن عيسى في الاعتذار من تلك الكلمة. ونهض علي بن عيسى مع شفيع فأجلسه شفيع في صدر طياره وحمله إلى داره.

وحكى أبو الحسن بن أبي هشام أنه كان حاضراً المجلس وأنه رأى الحسن بن دولة بن أبي الحسن بن الفرات خرج في تلك الحال فقام له علي بن عيسى وقبّل رأسه وعينه فاستكثر ذلك ابن الفرات وقال له: لا تفعل يا أبا الحسن هذا ولدُك. ثمّ فتح دواته ووقّع إلى هارون بن عمران الجهبذ أن يحمل إلى أبي الحسن علي بن عيسى بلا دُعاء ألفي دينار يستعين به على أمره في مصادرته وقال لابنه المحسّن: وقّع أنت أيضاً بشيء. فوقّع بألف دينار ثم أحضرا بشر بن هارون وكتب قبضاً لعلي بن عيسى من مال مصادرته بهذه الثلاثة الآلاف الدينار فانصرف علي بن عيسى شاكراً.

ولم يقبل علي بن عيسى من أحدٍ من الكُتاب معونةً في مصادرته مع بذل جماعتهم له وحملهم إليه ما أطلق كل واحد منهم إلا من ابن فرجويه وابني أبي الحسن ابن الفرات الفضل والحسين فإنه قبل من كلّ واحد منهُما خمسمائة دينار وحمل إليه أبو الهيجاء بن حمدان عشرة آلاف دينار فردها وقال: لو كنتَ متقلداً فارس لقبلتُها منك ولكني أعلمُ أن هذه جميع مالك وما أحبّ أن أثلِمك. فحلف أبو الهيجاء أن لا يرجع إلى ملكه ففُرّقت في الطالبيين وفي الصدقة على الضعفَي وبذل له شفيع اللؤلؤي ألفي دينار فامتنع من قبولها وقال: لا أجمع عليك مؤونتي ومعونتي في مصادرتي. وقبل من هارون بن غريب ومن نصر الحاجب وشفيع المقتدري.

فلمّا أدّى علي بن عيسى أكثر مال مصادرته قال ابن الفرات للمقتدر: إن في مقام علي بن عيسى في دار شفيع ضرراً عليه فإن الأراجيف قد كثرت وإن ردّ دار السلطان زاد الأرجاف. والتمس الإذن في إبعاده إلى مكة فأذن له المقتدر في ذلك فأطلق ابن الفرات لِما قدّر له من نفقته وما يحتاج إليه سبعة آلاف درهم فخرج إليها ثم كتب ابن الفرات بإبعاده إلى صنعاء من بلاد اليمن فأبعد إليها.

ثم استخرج ابن الفرات من أسباب علي بن عيسى وعماله وكتابه مالاً عظيماً بالمكاره وبسط يد ابنه فأنكر الناس أخلاقه وما كان يعرف من كرمه ونبله. فأما أبو علي ابن مقلة فإنه كتب إلى أبي عبد اللّه محمد بن إسماعيل بن زنجي رقعة وكانت بينهما مودّة وضمنها أبياتاً له ما أثبتها لأني لم أستجدها وكتب رقعة إلى ابن الفرات يذكره

بحرمته وقديم خدمته ويستعطفه وجعلها في درج تلك الرقعة وسأله إيصالها فلما وقف ابن الفرات عليها تقدّم بحلّ قيده وتقرّر مصادرته على ما ينهض به ثم خفف عنه بعد ذلك وأطلقه.

فأمّا ابن الحواري فإن ابن الفرات سلمه إلى ابنه المحسن فصفعه صفعاً عظيماً في دفعات وضربه بالمقارع ثمّ أخرجه إلى الأهواز مع مستخرج له فلمّا وصل إليها قتله المستخرج.

فأمّا المادرائيان فإنه كتب بإشخاصهما فحمل الحسين بن أحمد وهو أبو زنبور فاعتقله ابن الفرات في داره واستحضر القضاة وأصحاب الدواوين إلى داره وحضر المحسن وأحضروا أعمالاً عملوها لأبي زنبور وناظره ابن الفرات عليها وأخذ خطه من الأبواب التي نوظر عليها بألفي ألف وأربعمائة ألف دينار ثم استكثر ابن الفرات هذا المال فقرر مصادرته على ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وعرض خطه بذلك على المقتدر باللّه فاستصاب فعله وتناهى ابن الفرات في معاملته بالجميل وكان يسترجله ويصف فهمَهُ ويقول إنه ما خاطب عاملاً أفهم منه ولا أجلد وسَامَهُ أن يُواجه علي بن عيسى بأنه أرفقه في أيّام تقلُّده ديوان المغرب وفي أيام وزارته فاستعفاهُ من ذلك فقال له ابن الفرات؛ فكيف واجهتَني أنا بأمرِه ولا تُواجههُ بأمري فقال: ما حمدتُ معه تلك الحال ولا أستحسنها إلى أحد مع الظاهر من إساءة الوزير إليَّ بتسليمِه إياي إلى ابن بسطام وبسط يده عليَّ في أيّام وزارته الثانية فكيف تستحسنون لي هذه الحال في معاملة علي بن عيسى مع قديم وحديث إحسانه إليَّ فأعفاه ابن الفرات من ذلك.

ثم قدم محمد بن علي المادرائي ولم يكن تقلد في أيّام وزارة حامد بن العبّاس شيئاً من الأعمال فناظره ابن الفرات على المال الباقي عليه وعلى الحسين بن أحمد من ضمان أجناد الشام ومصر وعن حق بيت المال في ضمانه وهو حينئذٍ شريك للحسين بن أحمد في الضمان فاحتج في بعضه فقال له ابن الفرات: لست بأفهم من الحسين وقد احتجّ بأكثر ما ذكرتَ فلم تثبت له حجّةٌ. وأخذ خطّه بلا تهديد ولا مكروه بألف ألف وسبعمائة ألف دينار ثم سلّمه إلى المحسّن وكان في داره على أتم صيانةٍ وأقام فيها يوماً واحداً وكان المحسّن يتطاول عليه إذا حضر ثم أطلقَهُ وكان السبب في ذلك أنه حمل إليه مالاً جليلاً وثياباً فاخرة وجواهر نفيسة وخدماً رُوقة.

ذكر ما دبّره ابن الفرات في أمر مونس حتى أبعده

كان ورد مونس من الغزو بعد أن ظفر بالروم ظفراً حسناً فتلقّاه المحسّن ونصر الحاجب وشفيع ومفلح وسائر القوّاد ولقي المقتدر باللّه فتحدّث الناس أن مونساً أنكر ما جرى على الكتّاب والعمّال من المكروه العظيم من ابن الفرات والمحسن وما ظهر من

وفاة حامد بن العبّاس وإن أكثر الفرسان التفاريق بالحضرة قد عملوا على الانضمام إلى عسكر مونس المظفر لتروج أرزاقهم. فغلُظ ذلك على ابن الفرات وصار إلى المقتدر بالله بعد أسبوع من قدوم مونس المظفر فخلا به وأعلمَه ما عمل مونس عليه من ضمّ الرجال إليه وأنه إن تم له ذلك صار أمير الأمراء وتغلب على أمر المملكة ولا سيما والقوّاد والغلمان مُنقادون له. وعظم عليه الأمر وأغراه به إغراء شديداً فلما ركب مونس المظفر إلى دار المقتدر بالله قال له المقتدر بحضرة ابن الفرات: ما شيء أحب إليّ من مقامك لأني أجمع إلى الأنس بك والتبرّك برأيك الانتفاع بحضورك في أمر الحضرة كله ولكن أرزاق الفرسان برسم التفاريق عظيمة وما يتهيأ أن تطلق أرزاقهم على الإدرار ولا النصف من استحقاقهم وليس يطيعون في الخروج إلى نواحي مصر والشام لأنهم يحتجّون بقصور أحوالهم عن ذلك وقد علمتَ أن الريّ وأبهر وزنجان متغلقة بأخي صعلوك وكذلك أرمينية وأذربيجان بيوسف بن أبي الساج وإن أقمتَ ببغداد التمس الرجال الانضمام إليك فإن لم أُجبهم شغبوا وافتنوا البلد وإن أقمت لم يَرُج من مال ديار ربيعة ومضر والشام شيء وليس يفي مال السواد والأهواز وفارس بنفقات الحضرة ومال عسكرك والوجه أن تخرج إلى الرقة وتتوسط عملك وتُنفذ عُمالك في اقتضاء الأموال وتستخرج ما يجب على المادرائيين من الأموال العظيمة التي بذلوا بها خطوطهم وتهابك عمال المعاون والخراج بمصر والشام فيستقيم أمر الملك، ورسم له الشخوص من رقة في سائر الغلمان الحجرية والساجية برسمه.

فعلم مونس أن هذا من رأي ابن الفرات وتدبيره وعرف شدّة عداوته له فسأل المقتدر بالله أن يأذن له في المقام بقية شهر رمضان حتّى يُعيد ببغداد فأجابه إلى ذلك. فلما عيّد صار إلى ابن الفرات لوداعه فقام له قياماً تاماً فاستعفاه مونس وحلف عليه أن يجلس في المصلّى فامتنع وسأله مونس في عدّة أمور فوقع له بجميع ما التمسَهُ وأراد القيام عند خروجه من حضرته فاستحلفه برأس الخليفة ألا يفعل ثم ودّع الخليفة وخرج إلى مضربه في يوم مطيرٍ.

ما دبّره ابن الفرات بعد مونس في أمر الحاشية

ولمّا فرغ ابن الفرات من مصادرة جميع الكتاب وأخرج مونساً شرع في القبض على نصر الحاجب وشفيع المقتدري فوصف للمقتدر ما في جنب نصر خاصّة من الأموال والضياع وكثرة ما يصل إليه من الأعمال التي يتولاّها ثم من سائر وجوه مرافقه فأجابه المقتدر إلى تسليمه إليه واتّصل الخبر بنصر فلجأ إلى السيدة واستغاث إليها فكلّمت ابنها وقالت له: قد أبعدَ ابن الفرات مونساً عنك وهو سيفك وثقتك ويريد الآن أن ينكب حاجبك ليتمكن منك فيجازيك على ما عاملتَهُ به من إزالة نِعمه وهتك حُرمه

فليت شعري بمن تستعين عليه إن أراد بك مكروهاً من خلعك والتدبير عليك لا سيما مع ما أظهر من شرّه وإقدام ابنه المحسن على كل عظيمة! وقد كان نصر مضى إلى منزله واستظهر بتفريق ماله في الودائع واستتر فراسلته السيدة بالرجوع إلى داره فوثق وعاد وهو مع ذلك شديد التذلل لابن الفرات وابنه وابن الفرات يُعرّف المقتدر من أحواله ومن إفساده ابن أبي الساج حتّى ضيَّع على الخلافة خمسة آلاف ألف دينار من ارتفاع نواحيه ما يُهمّ معه المقتدر بتسليمه إليه.

فلمّا كان في ذي الحجة من هذه السنة ورد الخبر على ابن الفرات بإيقاع ابن أبي الساج بأحمد بن علي أخي صعلوك وقتله إياهُ وأنه أخذ رأسه وهو على حملِهِ إلى بغداد فركب المحسّن إلى المقتدر والتمس من مفلح أن يوصله إليه من غير حضور نصر الحاجب فأوصله وبشَّره بالفتح وأعلمهُ أن نصراً الحاجب يكره ذلك وأنه عدُوّ لابن أبي الساج وهو الّذي أفسدَهُ على السلطان فلذلك كتَمَهُ الخبر.

ودخلت سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة

فلمّا كان بعد أيّام ظهر في دارٍ للسيّدة كان المقتدر يكثر الجلوس فيها عند والدته رجل أعجمي على سطح مجلس من مجالسها وعليه ثياب فاخرة وتحتها مما يلي بدنه قميص صوف ومعه محبرَة ومقدحة وسكين وأقلام وورق وسويقٌ وحبل ويقال إنه دخل مع الصُناع فحصل في الموضع وبقي أيّاماً فعطش وخرج ليطلب الماء فظفر به وسُئل عن خبره فقال: ليس يجوز أن أُخاطب غير صاحب الدار. فأخرج إلى الوزير أبي الحسن بن الفرات فقال له: أنا أقوم مقام صاحب الدار فقل ما شئتَ. فقال: ليس يجوز غير خطابه في نفسه ومسألته عمّا احتاج إليه. فرفق به فلم يغن الرفق فلمّا لم تكن فيه حيلة أخذ الخدم يقرّونه بالضرب والعنف فعدل عن الكلام بالعربية وقال بالفارسية: «ندانم» ولزم هذه اللفظة فلم يزل عنها في كلّ ما يخاطب به وأخرج فعوقب حتى تلف وهو لا يزيد على «ندانم» فصُلب ولُف عليه حبل من قنبٍ ومشاقةٍ ولطخ بالنفط وضُرب بالنار.

وخاطب ابن الفرات نصراً الحاجب بحضرة المقتدر في أمر هذا الرجل وقال له: ما أحسبك ترضى لنفسك أن يجري عليك في دارك مثل هذا الّذي جرى على أمير المؤمنين وأنت حاجبُهُ وحافظ داره وما تمّ مثل هذا على أحد من الخلفاء في قديم ولا حديث وهذا الرجل هو صاحب أحمد بن علي أخي صعلوك لا محالة والدليل على ذلك أنه أعجمي فإما أن يكون أحمد بن علي قبل أن يقتل وأطأك حتّى أوصلتَهُ إلى هذا الموضع وإمّا أن تكون أنت دسستَهُ ليفتك بأمير المؤمنين لتخوُّفك على نفسك منه ولأجل عداوتك لابن أبي الساج وصداقتك لأحمد بن علي ولأجل عظيم ما وصل إليك من أحمد بن علي من الأموال. فقال له نصر الحاجب: ليت شعري أُدبّر على أمير

المؤمنين لأنه أخذ أموالي وهتك حُرمي أو قبض ضياعي أو حبسني عشر سنين. فقال المقتدر: لو تم هذا على بعض العوّام لكان عظيماً وتمكّن ابن الفرات منه واندفع عنه المكروه بما ورد به الخبر مما جرى على الحاجّ من القرمطي وسنشرحهُ فيما بعد فشغل ابن الفرات بنفسه وقوي أمر نصر وسلم من ابن الفرات.

وفي هذه السنة ورد الكتاب بشرح الخبر في مصير ابن أبي الساج من أذربيجان إلى الريّ ومحاربته أحمد بن علي وحمل رأس أحمد بن علي وجُثته إلى مدينة السّلام.

وفيها فرّق ابن الفرات على طلاّب الأدب مالاً وعلى من يكتب الحديث مثله وكان السبب في ذلك أنه جرى حديثهم في مجلسه فقيل: لعلَّ الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق فضة أو دونها ويصرفه إلى ثمن ورق وحبر. وكان ابن الفرات موصوفاً بسعة الصدر وحسن الخلق وكان فرّق في الشعراء مالاً فقال لما جرى حديث هؤلاء: أنا أولى من عاونهم على أمرهم. وأطلق لهم لما يصرفونه إلى ذلك عشرين ألف درهم.

فذُكر أنه لم يُسبق ابن الفرات إلى ذلك إلاّ ما حدث به الضّبعي عن رجاله أن مسلمة بن عبد الملك أوصى عند وفاته بالثلث من ثلثه لطلاب الأدب وقال: «هم مجفوون».

وكان يستعمل كلّ يوم في مطبخ ابن الفرات من لحوم الحيوان وفي دوره من الثلج الكثير ومن الأشربة الّتي تعرض على كل من دخل ومن الشمع ومن القراطيس ما لم يستعمله أحد قبله ولا بعده وكان إذا ولي الوزارة ارتفعت أسعار الشمع والثلج والقراطيس خاصة وإذا عزل رخصت. وكان أهدى إلى مونس المظفر عند موافاته من المغرب والي بُشرى ويلبق وإلى نازوك وغيرهم من الغلمان والخدم لما حضر النوروز هدايا عظيمة لم تسمح نفس أحد بمثلها وقدّر أنه يستكفهم بها فلم يقع موقعه الّذي أراد.

ذكر السبب في ضعف أمر ابن الفرات بعد تناهيه في القوّة والاستقامة

اتّفق أن ورد الخبر إلى بغداد على ابن الفرات بأن أبا طاهر بن أبي سعيد الجنابي ورد إلى الهبير ليتلقى حاجّ سنة ٣١١ في رجوعهم فأوقع بقافلة فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرها واتّصل خبره بهم وهم بفَيْد فأقاموا حتى فنى زاد من فيها وضاق بهم البلد فارتحلوا على وجوههم. وأشار عليهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وكان إليه طريق الكوفة وطريق مكة وبَذَرقَة الحاجّ لما بلغهم خبر الهجري أن يعدل بهم من فَيْد إلى وادي القرى لئلا يجتاز بالهبير فضجّوا من ذلك وامتنعوا عليه وساروا وسار معهم ضرورةً إلى الهَبير فلمّا قربوا من الهبير عارضهم أبو طاهر بن أبي سعيد الجنّابي وقاتلهم

فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأَسَر أبا الهيجاء عبد اللّه بن حمدان وأحمد بن كشْمَرْد ونحرير العُمَري وأحمد بن بدر عمّ السيّدة أمّ المقتدر وجماعة من خدم السلطان وحُرمِه وأخذ أبو طاهر جمال الحاجّ في سائر القوافِل وسبى ممّن كان فيها من اختار من النّساء والرّجال والصّبيان وسار بهم إلى هجَر وترك باقي الحاجّ في مواضعهم بلا زاد ولا جمال وكانت سنّ أبي طاهر في ذلك الوقت سبعة عشر سنة ومات أكثر من خلّف من الحاجّ بالعطش والحفا والرُجلة.

وانقلبت بغداد وطُرُقها في الجانبين وخرج النساء حُفاة مُنشّرات الشعور مُسوّدات الوجوه يلطمنَ ويصرخنَ في الشوارع وانضاف إليهن حُرم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات وذلك في يوم السبت لسبع خلون من صفر فكانت صُورةً فظيعة قبيحة شنيعةً لم يُر مثلها. وتقدّم ابن الفرات إلى نازوك بالركوب إلى المساجد الجامعة في الجانبين ببغداد بسبب حركة العامّة فركب في جميع جيشِه من الفرسان والرجالة والنفّاطين حتى سكن العامّة. ثم قدم سابقُ الحاجّ فشرح الصورة لابن الفرات فركب ابن الفرات آخر هذا اليوم وقد ضعفت نفسه إلى المقتدر وشرح له الحال واستدعى نصراً الحاجب وأدخله في المشاورة وتمكن نصر من خطاب ابن الفرات بحضرة المقتدر وانبسط لسانُه عليه وقال له: الساعة تقول: «أي شيء الرأي» بعد أن زعزعتَ أركان الدولة وعرّضتها للزوال بإبعادك مونساً الّذي يُناضِل الأعداء ويدفع عن الدولة فمن يمنع الآن هذا الرجل عن السرير ومن الّذي أسلَمَ رجال السلطان وقُوادَهُ وحُرمه وخدمه إلى القرمطي سواك؟ وقد ظهر الآن أمرُ الأعجميّ الّذي وُجد في دار السلطان وأنه إنما كان صاحب القرمطي. وأشار نصر على المقتدر بمُكاتبة مونس بالتعجُل إلى الحضرة فأمر أن يُكتب بذلك ووثبت العامّة على ابن الفرات ورجمَت طيارهُ بالآجُرّ وركب المحسن من داره يُريد طياره فرجموه وضجت العامّةُ في الطُرقات بأن ابن الفرات القرمطي الكبير وليس يقنعه إلا إتلاف أُمة محمدٍ وتحرّكت العامّة فامتنعت من الصلاة في المساجد الجامعة ذلك اليوم وارتجت بغداد بأسرِها من الجانبين.

وأشار ابن الفرات بإنفاذ ياقوتٍ إلى الكوفة لضبطها لئلا تردها الهجريّةُ ويضمّ الغلمان الحجرية ووجوه القوّاد إليه وإن كان الهجري مقيماً سار لمُحاربَته فتقدّم المقتدر إلى ياقوت بالشخوص وإلى ابن الفرات بإزاحة علتِه فالتزم ابن الفرات له ولوالدَيْهِ وهما المظفّر ومحمد وللزيادة في إقطاعهم وموائدهم ولمن ضمّ إليه أموالاً عظيمة.

وخرج ياقوت بمضربه إلى باب الكنّاسة وورد الخبر على ابن الفرات بانصراف الهجري إلى بلده فوقع إلى ياقوت بالرجوع فرجع وبطل نفوذه إلى الكوفة.

وأصلح المقتدر بين ابن الفرات وبين نصر وأمر الجماعة بالتضافر على ما فيه

الصلاح للدولة وكفاية الهجري. ودخل مونس بغداد وتلقاه النّاس فلم يتأخر عنه أحد وركب إليه ابن الفرات للسلام عليه ولم تجر له بذلك عادة ولا لأحد قبله فلما عرف مونس خبره خرج إلى باب داره وتلقاه وسأله أن ينصرف فلم يفعل وصعد إليه من طياره حتى هناه بمقدمه فلما خرج لينصرف خرج معه مونس إلى أن نزل إلى طياره.

ما عامل به المحسن المنكوبين لما اضطرب أمره وأمر أبيه

استوحش المحسن بعد إيقاع الهجري بالحاج من المنكوبين ونظر إلى سقوط حشمته فخاف أن يظهر ما أخذه وارتفق به وما أسقطه من أداء المصادرين وفاز به فنصب أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر وكان هذا يدّعي من حلول اللاهوت فيه ما ادّعاه الحلاج وكان المحسن قد عنى بهذا الرجل فاستخلفه بالحضرة لِجماعة من العمال وكان له صاحب يعرف بملازمته مقدَام على الدماء من أهل البصرة فسلم المحسن إلى صاحب ابن الفرات هذا البصري جماعة فيهم النعمان بن عبد اللّه وعبد الوهاب بن ما شاء اللّه ومونس خادم حامد وأظهر أنه يطالبهم بما بقي عليهم من المال فلما حصلوا في يده ذبحهم كما يذبح الغنم. وكان جماعة مستترين فكتب ابن الفرات إليهم كتباً جميلة حتى ظهروا ثم صادرهم واستخرج منهم أموالاً كثيرة.

ذكر القبض على أبي الحسن بن الفرات وهرب ابنه المحسن

واشتدّ الإرجاف بابن الفرات حتى استتر أولاده وكُتابه فراسله المقتدر على لسان نسيم. فحكى أبو القاسم بن زنجي أنه كان بين يديه إذ جاءه نسيمٌ فتقدّم إليه فأدى الرسالة الّتي كانت معه فسمعتُه يقول في جوابها قل له: أنت تعلم يا أمير المؤمنين إني عاديتُ في استيفاء حقوقك الصغير والكبير واستخرجتُ لك المال من الدَني والشريف وبلغتُ غاية ما أمكنني في تأييد دولتك ولم أفكر في أحدٍ مع سلامة نيّتك وما قرّبني منك واجتلب لي حُسن رأيك فلا تقبل فيّ قول من يريد إبعادي عن خدمتك ويُغريك بما لا فائدة فيه ويدعوك إلى ما تُذَمّ عواقبه وبعد فطالعي وطالعك واحدٌ وليس يلحقني شيء إلا يلحقك مثله فلا تلتفتُ إلى ما يُقال فقد علمت الخاصّة والعامّة أني أطلقت للرجال النافذين إلى طريق مكة ما لم يطلقهُ أحدٌ تقدّمني واخترت رؤساء الجند والقوّاد وشجعان الرجال وأزحتُ العِلة في كل ما التُمس مني فحدث من قضاء اللّه عزّ وجلّ على الحاج ما قد حدث مثله في أيام المكتفي باللّه رحمه اللّه فما أنكره على وزيره ولا ألزمَهُ جريرته ولا أفسدَ عليه رأيَه . . . وتكلم في هذا المعنى بما يُشاكله وانصرف نسيمٌ والغلمان بانصرافه.

واحتدت الأراجيف وكثرت بأبي الحسن بن الفرات والمحسن ابنه وأراد المقتدر أن يسكن منهما فكتب إليهما رُقعة يحلف فيها على ما هو عليه لهما وما يعتقده من الثقة

بهما وأنه ينبغي لهما أن يثقا بما تقرر في نفسه من مُوالاتهما وأمرَهُما أن يظهرا رُقعته إليهما لأهل الحضرة ويكتب بنسختها إلى جميع عُمّال الحرب والخراج في البلدان.

ثمّ ركب بعد ذلك ابن الفرات والمحسّن إلى الدار فوصلا إلى المقتدر في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرة ولما خرجا أجلسهُما نصر الحاجب وكان راسل الغلمان الحجريّة المقتدر في القبض عليهما فدخل مفلح برسالتهم ثم أشار عليه بتأخير الأمر وقال له: إن صرف الوزير بكلام الأعداء خطر وخطأ في التدبير وإطماع للغلمان. فأمره أن يقدّم إلى نصر بإطلاقهما ويُعرّف الغلمان أن الأمر يجري فيما راسلوه على محبّتهم فقدم مفلح وقال: لِينصرف الوزير. فأذن نصر للوزير وابنه في الانصراف فقام ابن الفرات في الممرّات كالمهزول حتى وصل إلى طيّاره وكذلك ابن المحسّن فلما وصلا إلى دار الوزير دخل إليه المحسّن فسارّهُ إسراراً طويلاً ثم خرج من عنده وانصرف إلى منزله وجلس فيه ساعةً وتقدّم بما أراد ثم خرج فاستتر. وجلس أبوه غير مكترثٍ ينظر في العمل وبين يديه وجوه الكتاب وانصرفوا آخر النهار وقد تشككوا فيما بلغهم من صورة الأمر لما رأوه من نشاطِهِ وانبساطِهِ وجريهِ على رسمه في الحديث والأنس والأمر والنّهي. وتحدّث بعض خواصه قال: سمعتُه يقول في آخر اللّيل وهو في مرقده يتمثّل بهذا البيت:

وأصبحَ لا يدري وإن كان حازماً أقـدّامُـهُ خـيـرٌ لـه أم وراؤهُ

فدل ذلك على سهرِهِ وتفكُّره في أمره. وجلس من الغد ينظر في أمره قال أبو القاسم ابن زنجي: فبينما هو كذلك إذ وردت رُقعة لطيفة مختومة فقرأها فما عرفت مِمّن هي في الوقت ثم عرفت أنها كانت من مفلح. ثمّ وردت رُقعة أخرى من رجل يجري مجرى الجند كان ملازماً لدار السلطان فلما قرأها أمسك قليلاً ثم دعا يحيى قهرمانه فأسرّ إليه بشيء وانصرف ثم صرف الناس ووعدهم البكور ونهض ابن الفرات عن مجلسه إلى دور حُرمه وتفرّق الناس. فلما صرت إلى الروشن ذكرت شغلا عليّ كان شغلني به فانصرفتُ وجلستُ لذلك فإذا بنازوك قد دخل عليه سيفُهُ وبيده دبُوسٌ وإذا بيلبق يتلوه وهُما بخلاف ما أعهدهُما من الانبساط ومع كل واحد منهُما نحو خمسة عشر غلاماً بسلاحٍ. فلما لم يجدوه في مجلسه دخلوا إلى دار حرمه فأخرجوه منها حاسراً وأجلس في طيّار وحُمل إلى دار نازوك وقبض معه على ابنيه الفضل والحسين ومن وُجد من كُتّابه.

ومضى نازوك ويلبق إلى مونس المظفّر وعرّفاه الخبر وكان قد خرج إلى باب الشَمّاسيَّة وأظهر أنه خرج للنزهة فانحدر معه هلال بن بدر وجماعة من قوّاده وذهب يلبق إلى دار نازوك وأخرج ابن الفرات من هُناك مع ولديه وأسبابه وأخرج نازوك من داره رداء قصب وطرحه على رأسه لأنه كان حاسراً. فلما رأى ابن الفرات مونساً أظهر الاستبشار بحصوله في يده فأجلسه معه في الطيار وخاطبه بجميل مع عتابٍ فتذلل ابن

الفرات وخاطبه بالاستاذية فقال له مونس: الساعة تخاطبني بالاستاذية وبالأمس تخرجني على سبيل النفي إلى الرّقة والمطر يُصبّ على رأسي ثم تذكر لمولانا أمير المؤمنين أني أسعى في فساد مملكته. وانحدر به إلى دار السلطان وتقدّم بحمل ولديه وكتابه إليها وتسليمهم إلى نصر.

فتكاثر العامّة على ابن الفرات ومعهم أسباب المنكوبين يدعون عليه ويضجون واجتهد مونس في دفعهم فما قدر على ذلك ورجموا طيار مونس لمكان ابن الفرات فيه وصاحوا «قد قبض على القرمطي الكبير وبقي القرمطي الصغير» ولما وصلوا إلى باب الخاصة صعد جمع عظيم من السميريات لرجم ابن الفرات وولديه وكتابه بالآجُرّ حتى حوربوا واحتيج إلى رميهم بالسهام وجرح بعضهم فانصرفوا وتسلّمهم نصر.

فكانت مدّة ابن الفرات في هذه الوزارة الثالثة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً. ثم اجتمع وجوه القوّاد إلى دار السلطان وأقاموا على أن ابن الفرات إن حبس في دار الخلافة خرجوا بأسرهم إلى المصلّى وأسرفوا في التهدُّد فدعا المقتدر مونساً ونصراً وشاورهُما فأشارا بتسكين القواد وبأن يخرج ابن الفرات ويسلَّم إلى شفيع اللؤلؤي ويعتقل عنده فاستحضر شفيع وسلم إليه.

ذكر توصُّل أبي القاسم عبد اللّه بن محمد بن عبيد اللّه الخاقاني إلى الوزارة

كان أبو القاسم عبد اللّه بن محمد الخاقاني استتر في أيام وزارة ابن الفرات الثالثة وأبوه أبو علي شديد العلة وقد أسنّ وتغير فهمه ولما اضطرب أمر ابن الفرات عندما جرى على الحاج ما جرى سعى عليه أبو القاسم الخاقاني وعلى ابنه المحسن وعمل لهما عملاً وسعى له في ذلك نصر الحاجب وثمل القهرمانة وغيرهما. وكان مونس أشار بأبي القاسم الخاقاني قبل ذلك فقال المقتدر: أبوه خرب الدنيا وهو شرّ من أبيه ولكن تقلد الحسين بن أحمد المادرائي. فعرّفه مونس أنه قد نفذ إلى مصر وأن استحضاره يبعد. ثم ساعده نصرٌ وابن الخال في ذلك ثم استحضره المقتدر وشافههُ بتقليده الوزارة والدواوين وخلع عليه وركب معه مونس المظفر وهارون بن غريب إلى داره.

ذكر ما جرى عليه أمر ابن الفرات وأسبابه بعد تقلد أبي القاسم الخاقاني الوزارة

ذكر أبو الحسن أنه سلّم إلى شفيع كما ذكرنا فراسلهُ شفيع على يد المعروف بالجمل كاتِبه فيما يبذلهُ من المصادرة عن نفسه ليسلم من أعدائه ومن تسليمه إلى الخاقاني وأبي العباس بن بعدشر وهو كاتب الخاقاني فأجابه ابن الفرات بأنه لا يفعل أو

يَثِق من المقتدر باللّه في حفظ نفسه من تسليمه إلى أحد من هذه الطبقة. وقال للكاتِب الملقَّب بالجمل: قل لصاحبك: «إني قد خلفتُ في يد هارون الجهبذ وابنه مائة ونيفاً وستين ألف دينار حاصلها قبلهما من مال المصادرين» ليعرف الخليفة ذلك ويتقدّم بحملها إلى بيت مال الخاصة من وقته هذا حتى لا يوهمه الخاقاني أنه هو استخرجه ثم يصرفه في النفقات التي سبيلها أن ينفق من بيت مال العامة. فركب شفيع للوقت وأنهى ذلك إلى المقتدر فوجه إلى الجهبذَيْن وكانا في دار الخاقاني لم يُكلّمهُما بعدُ لتشاغله بالتهنئة فأحضرا واعترفا بالمال وحملاه وصححاه في بيت مال الخاصة.

وتقدّم المقتدر إلى نصر الحاجب بتسليم أولاد ابن الفرات وكُتّابه وأسبابه إلى الخاقاني فسلمهم إليه وأخذ خطهُ بتسلمهم وسلمهم الخاقاني إلى أبي العبّاس بن بُعدشرّ فقيدهم وأجلسهم على الأرض في الحر الشديد. ثم أخذ خطّ كلّ واحدٍ من ولدي ابن الفرات بمائة ألف دينار وخطَّ سعيد بن إبراهيم بمائتي ألف دينار وخط أبي غانم كاتب المحسن بمائتي ألف دينار ووقع النداء على المحسن وهشام وابني فرجويه والتهديد لمن وُجدوا عنده بعد النداء بالنهب وإحراق المنازل وضرب ألف سوطٍ. وواقف أبو الحسن شفيعاً على أن يضمن عنده مالاً إن ردّ إلى دار السلطان ولم يسلّم إلى أحدٍ فذهب شفيع فخاطب في ذلك المقتدر فقال له المقتدر: إن مونساً ونصراً وهارون بن غريب قد اجتمعوا على أنه لا يمشي للخاقاني أمرٌ إلا بتسليم ابن الفرات إليه وضمن أن يستخرج منه ومن ابنه وأسبابه ألفي ألف دينار.

فانصرف شفيع ووجه إلى ابن الفرات بكاتبه يشرح الصورة له فقال هذا الكاتب وهو الملقَّب الجمل: كنتُ أدخل إلى ابن الفرات في كل يوم لتفقُّد أحواله فكنتُ أجده أقوى الناس نفساً وأصبرهم على نوائب الدهر قال ولقد سألني عمَّن تقلّد الوزارة فعرّفتُه أنه أبو القاسم بن أبي علي الخاقاني فقال: «السلطان نكب وما نكبتُ أنا» وسلني عمَّن تقلَّد الديوان (يعني ديوان السواد) فقلتُ: محمد بن جعفر بن حفص. فقال: «بحجرِه رُمي» وسألني عمَّن تقلد باقي الدواوين فعرَفته أنهم يحيى بن نُعَيم المالكي ومحمد بن يعقوب المِصري وإسحاق بن علي القُنَّائي فقال: «لقد أيَّد اللّه هذا الوزير بالكفاة».

وكان المُناظِر لابن الفرات ابن بُعدشرّ فرفَق به فوعده أن يتذكر ودائعَهُ ويُعرّفه إياها فعاوده بالرفق فأقرّ أن له عند التجار مائة وخمسين ألف دينار وكان المقتدر رسم أن يكون مال مُصادرة ابن الفرات وحده يُحصَّل في بيت مال الخاصَّة ومال مصادرة أسبابه في بيت مال العامَّة. ولما استُخرج ما ذكره ابن الفرات من التجار أعاد ابن بُعدشرّ مطالبة ابن الفرات فذكر أنه لم يبق له مالٌ فأوقع به مكروهاً يسيراً ولم يكن ابن الفرات مِمَّن يستجيب بالمكروه فتقاعَدَ وامتنع دفعةً واحدة من أداء شيءٍ. فمضى هارون بن غريب

إلى المقتدر وعرّفه أن الخاقاني جنى على السلطان بتسليمه ابن الفرات إلى ابن بُعدشرّ وأنه كان ينبغي أن يرفُق به ويُداريه فإنه ممَّن لا يستجيب بالمكروه فتقدَّم المقتدر إلى الخاقاني بأن تكون مُناظرة ابن الفرات بحضرة هارون بن غريب وأن يرفق به. وكان ابن بُعدشر قد ضيَّق على ابن الفرات في مطعمه ومشربه حتى أنه أدخلَ إليه خبز خُشكار وقثاء وماء الهواء فوجه إليه بطعام واسع وشراب وثلج كثير وفاكهة واعتذر إليه عمَّا جرى وحلف أنه لم يعلم بما عُوملَ به.

ثم إن الخاقاني راسله على يد خاقان بن أحمد بن يحيى برفق ومداراة بأن يقهر بماله ولا يلاجّ السلطان فليس ذلك بمحمود فأجابه بأن قال: قُل للوزير: لست حدثاً غرّاً فتحتال عليَّ في المناظرة ولست أقول إني لا أقدر على المال ولكن إذا وثقت لنفسي بالحياة فديتُها بالمال وإنما أثق بذلك إذا كتب أمير المؤمنين بخطّه لي أماناً وشهد الوزير والقُضاة بخطوطهم ويكتب لي الوزير أيّده اللّه أماناً بخطّه ويسلّمني إلى أحد رجلين إما مونس المظفّر وإن كان عدوي وإما شفيع اللؤلؤي فإن لم يفعل ذلك فقد وطئتُ نفسي على التلف. فوجّه إليه الخاقاني: بأني لو قدرتُ على التوثق لك لتوثَّقتُ ولكن إن تكلّمتُ في هذا المعنى عاداني خواصّ الدولة لأجلك ثم لم تنتفع أنت بذلك وقد ردّ الخليفةُ أمرَك إلى هارون بن غريب. فتواعدوا إلى دار الخاقاني بالمُخرّم واستحضر ابن الفرات وناظَرَهُ ابن بُعدشرّ بحضرته فتماتن ابن الفرات فبدأ ابن بُعدشرّ يُسمِعهُ المكروه فأنكره هارون وزبره وقال: بهذا تريدُ أن تستخرج مال ابن الفرات؟ وأقبل هو على ابن الفرات وداراهُ وخاطبَهُ بجميل وقال له: أنت أعرف بالأمور من كلّ من يخاطِبك والخلفاء لا يُلاجّهم وزراؤهم إذا سخطوا عليهم. فقال له ابن الفرات: أشِر عليَّ أيّها الأمير فإن من كان في مثل حالي عزب عنه الرأي. فلم يزل معه في مناظراتٍ إلى أن أخذ خطّهُ بمصادرة ألفي ألف دينار على أن يُعجّل منها الربع وعلى أن يحتسب له من الربع بما أدّاه وما أُخِذ بعد ذلك مما لعلّه استُخرج من ودائعه بغير إقرار منه ويطلق له بيعُ أملاكِه وما يستبيع من ضياعه وأمتعته وينقل إلى دار شفيع اللؤلؤي أو غيره من ثقات السلطان ويطلق الكلوذاني ليتصرَّف في جمع أمواله وتطلق له الدواة ليكاتب من يرى مكاتبتَه. فأخذ هارون بن غريب خطَّهُ بجميع ما كتب به وحمله إلى المقتدر باللّه.

ذكر اتّفاق سيئ اتّفق على المحسن حتى ظفر به وصودر وقتل

كان المحسن استتر عند حماتِهِ حنزابة وهي حماتُهُ ووالدة الفضل بن جعفر بن الفرات فكانت تحملهُ كلّ يوم بكرة إلى المقابر في زيّ النساء وتردّهُ إلى المنازل التي تثق بها باللّيل. فمضت به يوماً إلى مقابر قُريش في زيّ النساء على رسمِهِ وأمست فبعُد عنها الطريق إلى الكرخ. فوصفت لها امرأة كانت معها منزل امرأة تثق بها ليس معها رجل

لأن زوجها مات منذ سنةٍ فصارت حنزابة مع النسوة والمحسن إلى هناك فقالت لصاحبة الدار: إن معنا امرأةً لم تتزوّج بعد وقد عادت من مأتم وضاقت عليها فافردي لها بيتاً. فأفردت لها بيتاً في صُفَّةٍ وأدخلت إليه المحسن ثم ردّت عليه الباب وجلس النسوة مع المحسن في البيت. فجاءت جارية سوداء بسراج معها فوضعته في الصُفَّة وأدخلت حنزابة إلى المحسن بسُوَيق وسُكرٍ وكان المحسن قد نزع ثيابهُ فاطّلعت الجارية السوداء من حيث لا يشعُر المحسن ولا حنزابة في البيت وعلمت أنه رجلٌ فانصرفت وأخبرت مولاتها فلما جن الليل جاءت مولاتها وطالعت البيت فرأت المحسن. وكان ذلك من نحس المحسن وخذلان الله إياه لأن تلك المرأة كانت زوجة لمحمد بن نصر وكيل علي ابن عيسى وكان المحسن طلبهُ فأدخل إلى ديوانه فرأى ما يلحق الناس من المكارِه بحضرة المحسن فمات من الفزع فُجأةً من غير أن يكلمه المحسن. فمضت المرأة في الوقت إلى دار السلطان حتى وصلت إلى دار نصر الحاجب وشرحت له الصورة فأنهى نصر الحاجب الخبر إلى المقتدر بالله فتقدّم بالبعثة إلى نازوك ليركب إلى الموضع ويقبض على المحسن فركب نازوك من وقته إلى الموضع وكبسه وقبض على المحسن. وضُربت الدبادب لذلك نصف اللّيل عند الظفر به حتى ارتاع الناس ببغداد وظنُّوا أن القرمطي قد كبس بغداد.

وحمل المحسن إلى دار الوزارة بالمخرّم وتسلّمه ابن بُعدشرّ فأوقع به ابن بُعدشرّ وجرّعهُ في وقته مكروهاً عظيماً وأخذ خطه بثلاثة آلاف ألف دينار. وحضر هارون بن غريب دار المخرّم وناظر المحسن فوعدَهُ أن يتذكّر ودائعه ويقرّبها ولحقه في يومين متواليين مكروه عظيم فلم يذعن بدرهم واحدٍ وقال: ليس يجمع بين نفسي ومالي. وحضر بعد ذلك هارون بن غريب ومعه شفيع اللؤلؤي وأحضر المحسن والكتّاب وابن بعدشرّ وناظر المحسن وأوقع به مكروهاً عظيماً وقال له: هبك لا تقدر أن توفي المال الّذي أخذ خطّك به لا تقدرُ أن توفي مائة ألف دينار؟ فقال له: بلى إذا أمهلت وزال عني المكروه. فقال له: نحن نمهلك فاكتب خطك بمائة ألف دينار. وثبت بذلك خطه وأنه يؤدّيها في مدّة ثلاثين يوماً فلما قرأ هارون بن غريب الرقعة قال: كأنك ترجو أن تعيش ثلاثين يوماً. فخضع له المحسن وقال له: افعلْ ما يأمر به الأمير. قال: اكتبْ بأنك تؤدّيها في مدَّة سبعة أيام. فارتجع الرقعة ليكتب بدلها فلما حصلت في يده مضغها وبلعها وامتنع أن يكتب غيرها. فقيّد وغلّ وألبس جبة صوف وضرب على رأسه بالدبابيس على أن يكتب ما كان كتبه فلم يكتب فأعيد إلى محبسه وعذّب فيه بأنواع العذاب فلم يذعن بدرهم واحد.

فلما كان بعد ذلك حضر الأستاذ مونس ونصر الحاجب والقضاة والكتاب مجلس

الوزير الخاقاني وأحضر أبو الحسن بن الفرات وناظره الخاقاني ولم يكن الخاقاني من رجاله وكاد أبو الحسن بن الفرات أن يأكله فكان فيما قال له: إنك استغللت ضياعك في مدّة أحد عشر شهراً ألف ألف دينار. فقال: قد كانت هذه الضياع في يد علي بن عيسى عشر سنين أيام وزارته وأيام وزارة حامد بن العباس وما ارتفع له منها إلاً أربعمائة ألف دينار فقد ادَّعيتَ لي المعجزات. فقال له: أضفت حقوق ضياع السلطان إلى ضياعك. فقال: الدواوين لا يمكن أن يكتم ما فيها فتنظر في ارتفاع النواحي السلطانية في أيام نظري فيها وفي ارتفاعها أيام علي بن عيسى ووزارة حامد بن العبّاس ووزارة أبيك التي دبَّرتها أنت حتى تعلم هل زادت ارتفاع ضياع السلطان في أيّامي أم نقصت.

ونوظر فيمن قتل وشنع عليه بهم فقال: ليس يخلو ذلك من أحد أمرين إما أن يقال إني أنا قتلتهم فلم أغب عن الحضرة والقتل لم ينسب إليَّ والمدَّعي قتله بالبعدِ منها وإما أن يقال: «كتبتَ خطَّك بقتلهم» وهؤلاء أصحاب المعاون وثقات السلطان وعمَّال الخراج ووجوه متصرّفي عمَّال السلطان قد حكمتهم على نفسي. فقيل له: قد قتلهم ابنك. فقال: أنا غير ابني وأنتم تناظرونني. فقال له ابن بعدشرّ كذا: إذا قتل ابنك الناس فأنت قتلتهم. فقال له ابن الفرات: هذا غير ما حكم اللّه ورسوله فإنه عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقال النبيّ عليه السلام لرجل من أصحابه: «**أهذا ابنك.**» فقال: نعم. قال: « **أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه**». ومع هذا فهو في أيديكم سَلُوه فإن وجب عليه قودٌ بادّعاء قتلٍ في موضع ناءٍ عنه يقال فيه إن غيره تولّى قتله فالحكم في هذا معروف.

فتحير القوم في الجواب فقال عثمان بن سعيد صاحب ديوان الجيش لنصر الحاجب: إن رأى الحاجب أن يقول له: حيث كنت تقول لِمن تُطالبُه: «إن أدّيت وإلاّ سلّمتُكَ إلى المحسّن» أكنت تُسلّمهُ لِيسقيَه السويق والسكّر أو لِيُعذّبه ومن أطلق التعذيب فقد أطلق القتل لأن الإنسان قد يتلف بمقرعةٍ واحدةٍ يُضرَب بها فضلاً عن غيرها. فخاطَبهُ نصر بذلك فقال في الجواب: إن الخليفة أطال اللّه بقاءه وليّ المحسّن وأنا إذ ذاك محبوس وهو مُطلَقٌ فضمن ما ضمنه وجرى ذلك على يد مُفلِح وتوسطه جماعة من ثقات السلطان. ثمّ لما تقلّدتُ الأمر كنتُ أحبّ الرفق بالناس وإذا ناظرتُهم ورفقتُ بهم لم يذعنوا بما يلزمهم فإذا أقاموا على الامتناع سلّمتهم إلى من نصبَهُ السلطان وأمر بتسليمهم إليه. فقال له مونس: كأنك تُحيل على الخليفة في قتل الناس فإن الخليفة قال: «ما أمرتُ بقتل أحد سوى ابن الحواري فقط».

ثم أقبل نصر عليه فقال له: معي رسالة من الخليفة إليك فتسمعها وتُجيب عنها. قال: وما هي؟ قال: يقول سلّمتُ إليك قوماً بمال ضمنتهُ لي وأريد منك أحد أمرين إما

وفّيتَني المال أو رددت عليّ القوم. فقال ابن الفرات: أما المال فقد صح في بيت المال وأما الرّجال فما ضمنت أرواحَهُم ولا بقاءهم وقد تلفوا حتف إنافهم. فقال له مونس المظفر: هب أن لك في كل شيء عذراً وحجّة أي عُذر لك في إخراجي إلى الرقة حتى كأني من العُمّال المصادرين أو من أعداء دولة أمير المؤمنين. قال: أنا أخرجتُك! قال: فمن أخرجني؟ قال: مولانا أمرني بإخراجك. قال: مولاي لم يأمر بذلك. قال: معي حجة بخطِهِ كتب إليَّ رُقعة احتفظت بها لأنها بخطه يشكو فيها أفعالك وقتاً بعد وقتٍ وفتحك البلدان بالمؤن الغليظة ثم إغلاقك إياها بسوء تدبيرك وآثارك القبيحة. قال: وأين الرقعة. قال: في أيديكم في جملة المهمات التي أمرتُ بحفظها في السفط الخيزران المكتوب عليه بخطي بالتحفظ به من المهمات وفيها الأمر بإخراجك إلى الرقة والتوكل بك حتى تخرُج. فأمر الخاقاني بإحضار السفط فوجدهُ مختوماً بخاتم ابن الفرات ووجد فيه الرُقعة بعينها وفيها جميع ما ذكر ابن الفرات بخط المقتدر فأخذها. ومضى مونس من وقته إلى المقتدر حتى لقيه وأقرأه الرُقعة فاغتاظ المقتدر على ابن الفرات غيظاً شديداً فأمر هارون بضربه بالسوط فمضى هارون حتى ضرب ابن الفرات بين الهنبازَيْنِ خمس درر فقط وقال له: يا هذا أذعنْ بمالك. فأعطى خطَّه بعشرين ألف دينار وقال: هذا مالي.

ثم أخرج المحسن في الوقت فضربه ضرب التلف فلم يذعن بشيء بتة فصار هارون بن غريب إلى المقتدر بالله واستعفى من مناظرة ابن الفرات وابنه وقال: هؤلاء قوم ليس في عزمهم أن يُؤدُّوا شيئاً البتة وقد استقتلوا. فأمر بتسليمهما إلى نازوك وبسط المكروه عليهما فأوقع نازوك بالمحسن أنواع المكارِه حتى تدوّد بدنه ولم يبق فيه فضل لمكروه وضرب أبا الحسن بن الفرات ثلاث دفعات بالقلوس فلم يذعن بدرهم واحدٍ واستبطأ المقتدر بالله أبا القاسم الخاقاني الوزير وقال له: ما رأيت شيئاً مما ضمّنتهُ من أموال ابن الفرات وابنه صحّ. فقال: لأنه لم يترك والتدبير وأن ابن الفرات لما عدل به عن مناظرة الكتاب وسلم إلى أصحاب السيوف يئس من الحياة فضنَّ بالمال ونظر إليه ابنه فاقتدى به. وقال نازوك للمقتدر. قد انتهيت بهؤلاء القوم من المكارِه إلى الغاية حتى أن المحسن مع ترَفه قد تدوّد بدنهُ وصبر بعد ذلك على مكارهِ عظام لم يُسمَع بمثلها وقد مضت له الآن أيام لم يطعم طعاماً وإنّما يشرب الماء شرباً يسيراً وهو في أكثر أوقاته مغشي عليه، فقال المقتدر بالله: إذا كان الأمر كذلك فلا بد من حملهما إلى داري. فأظهر مونس والجماعة أن الصواب في ذلك وقال الخاقاني: قد وفق الله رأي أمير المؤمنين. وخرجت الجماعة من حضرته.

فأسرَّ الخاقاني إليهم وهم بعد مجتمعون في دار السلطان وقال: إن حمل ابن

الفرات إلى دار الخليفة بذل أسبابه عنه وعن ابنه الأموال وإذا وثق مع ذلك بالخليفة وحصل في داره أخرج أمواله وتوثق لنفسه ولابنه. فإذا أمن على نفسه تضمن الجماعة وحمل الخليفة على تسليمها إليه ويطمعه في أن يوفر أرزاقها وإقطاعاتها وضياعها ويجمع له أموالاً جليلة خطيرة. والوجه أن يقع التجمّع من القوّاد واليمين على أنهم إن وقفوا على أن ابن الفرات وابنه حملا إلى دار الخليفة خلعوا الطاعة. فقال مونس: هذا شيء إن لم نفعله لم يصف لنا عيشٌ. وتجرد لهذه الحال هارون بن غريب ونازوك فجمعا القوّاد ووجوه الغلمان الحجريّة وكان يلبق يستحلفهم.

ذكر مقتل أبي الحسن بن الفرات وابنه المحسن

ثم اجتمعوا بأسرهم إلى مونس ونصر وأظهروا ما في نفوسهم فأشار مونس بأن يلتمس القوّاد نقل ابن الفرات وابنه إلى دار مونس فإن مات المحسن استبقى أبوه فقال له هارون بن غريب: إذا مات المحسن لم يصلح أن يستبقي أبوه وكيف يوثق به وقد قتل ابنه حتى يؤمن على الملك؟ ثم كاشفوا المقتدر بالله وقالوا بأجمعهم: إن لم يقتل ابن الفرات وابنه خلع الأولياء بأسرِهم الطاعة. وواصل هارون بن غريب مخاطبة المقتدر في قتل هذين وقال: لستُ آمنُ أن يجتمع الأولياء على البيعة لبعض بني هاشم ثم لا يتلافى الأمر. وأرادت الجماعةُ من الوزير الخاقاني التجريد في ذلك فقال: لستُ أدخل في سفك الدماء وإنما أشرتُ بألاّ يحملا إلى دار السلطان فأما قتلُهُ فخطأ لأنه ليس ينبغي أن يُسهَّل على الملوك ولا يُحسَّن لهم قتل أحدٍ فإنهم متى فعلوا ذلك خَفَّ عليهم قتل خواصهم حتى يأتوا عليهم بأدنَى ذنبٍ وخطأ يكون منهم.

فلما كان يوم الأحد لاثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع الآخر قُدّم إلى ابن الفرات طعامهُ فأمر برفعِهِ وقال: أنا صائمٌ. وحضر وقت الإفطار فقدّم إليه لما حضر وقت الطعام فقال: لستُ أفطر الليلة. فحضر عنده من اجتهد به أن يفطر فقال: أنا مقتول في غد لا محالة. فقيل له: أعيذك بالله. فقال: بلى رأيتُ البارحة أخي أبا العباس رحمه الله في النوم وقال لي: «أنت تفطر عندنا يوم الاثنين بعد غدٍ» وما قال قط في النوم شيئاً إلاّ صحّ وغداً الاثنين وهو اليوم الذي قُتل فيه الحسين بن علي صلوات الله عليه. فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين انحدر الناس إلى دار الخليفة فلم يصلوا فكتب هؤلاء الرؤساء بقتل ابن الفرات وابنه فأجابهم المقتدر: أن دعوني أنظرُ في ذلك. فكتبوا إليه: أنه إن تأخَّر قتل ابن الفرات وابنه عن هذا اليوم جرى على المملكة ما لا يتلافى.

وكتب المقتدر إلى نازوك بأن يضرب أعناقهما ويحمل رؤوسهما إلى حضرته فقال نازوك: هذا أمر عظيم لا يجوز أن أعمل فيه بتوقيع. فأمر المقتدر الأستاذين والخدم بالخروج إليه برسالتهِ بإمضاء ما كتب به فخرجوا إليهِ بذلك فقال: لا أعملُ على رسالة

ولا بدّ من مشافهة بذلك. وابن الفرات يراعي الخبر فلما قيل له إن الناس قد انصرفوا وأن نازوك انصرف إلى منزله سكن قليلاً ثم قيل له: إن نازوك قد عاد إلى دار السلطان. فاضطرب جدًا وصار نازوك إلى دار الوزارة بعد الظهر من ذلك اليوم فجلس في الحجرة التي كان ابن الفرات معتقلاً فيها ووجّه بعجيب خادمهِ ومعه السودان حتى ضرب عنق المحسّن. وصار برأسه إلى أبيه فوضعهُ بين يديه. فارتاع لذلك ارتياعاً شديداً وعُرض هو على السيف فقال لنازوك: يا أبا منصور ليس إلا السيف؟ راجِع أمير المؤمنين في أمري فإن لي أموالاً عظيمة وودائع كثيرة وجواهر جليلة. فقال له نازوك: قد جلّ الأمر عن هذا. وأمر به فضُربت عنقهُ وحمل رأسه ورأس ابنه إلى المقتدر باللّه فأمر بتغريقهما فغُرقا في الفرات وغُرّقت الجثّتان في الثمانين ببغداد. وكان سنُّ أبي الحسن بن الفرات رحمَهُ اللّه يوم قتل إحدى وسبعين سنة وشهوراً وسنُّ ابنه المحسّن ثلاثاً وثلاثين سنة وقد كان حكم العاصمي المنجّم في تلك السنة أنه يخاف فيها على ابن الفرات نكبةً وتلفاً بالسيف وذكر ذلك في مولده الذي كان بين يديه وحكم على مولد المحسّن أن عُمرَهُ ثلاث وثلاثون سنة فصحّ حكمه.

وفي هذه السنة ورد كتاب الفارقي من البصرة يذكر أن كتاب أبي الهيجاء بن حمدان ورد عليه من هِجر يذكر أنه كلّم أبا طاهر القرمطي في أمر من استأسر من الحاجّ وسأل إطلاقهم فوعده بهم وأنه أحصى من عنده منهم فكانوا من الرجال ألفين ومائتين وعشرين رجلاً ومن النساء نحو خمسمائة امرأة. ثم وردت الأخبار بورود قوم بعد قوم إلى أن كان آخر من ورد منهم أبو الهيجاء وأحمد بن بدر عمّ السيّدة. وقدم بقدوم أبي الهَيجاء رسول أبي طاهر القرمطي يستدعي الإفراج عن البصرة والأهواز ونواحٍ أخر فأنزل الرسول وأكرم وأقيمت له الأنزال الواسِعة ثم صرف ولم يقع إجابة إلى شيء ممّا التُمس.

وفيها خلع على نجح الطولوني ورُدَّ إلى أصبهان لولاية أعمال المعاون بها.

وفيها ورد رسول ملك الروم ومعه أبو عُمَير بن عبد الباقي ووصل إلى السلطان وأوصلهُ معه هدايا والتمس الهُدنة والفِداء فأجيب إلى ذلك بعد الغزاة الصائفة وخلع عليهما ورجع الرسول إلى بلد الروم.

وفيها خلع على جني الصَفْواني وكان ورد من ديار مُضر واستدعى محاربة أبي طاهر القرمطي.

وكان سليمان بن الحسن بن مخلَد وأبو علي بن مقلة مبعدَين بشيراز في يد أبي عبد اللّه جعفر بن القاسم الكرخي فذكر أبو علي أنه كان مجتمعاً مع سليمان في دار واحدة مصونَيْن مُكرَمَيْن. فورد عليه الخبر بالقبض على ابن الفرات وكان أبو الحسين بن أبي البغل معتقلاً في يد صارِفه جعفر بن القاسم الكرخي قال: فاطّلعت الجماعة على الخبر

وكان ابن أبي البغل قد وقف على ما كان رسمه ابن الفرات والمحسّن في أمره فحين وقف على الخبر وقّع في حاشية التقويم: وفي هذا اليوم وُلد محمد بن أحمد بن يحيى وله إحدى وثمانون سنة. ولما وقف الكرخي على الخبر أطلق أبا علي بن مقلة وسليمان بن الحسن وهنَّأهما بالسلامة قبل أن يرد عليه كتاب بإطلاقهما. ثم ورد كتاب الخاقاني على المسمعي والكرخي بإطلاقهما ومراعاتهما حتى لا يخرجا من شيراز فأقام سليمان مدَّة أسبوع حتى أحكم أمره. ودعا المسمعي جعفر بن القاسم الكرخي دعوة عظيمةً وأقام على حال سرور يومين متواليين فخفي عنهُما الخبر في خروج سليمان وكان خرج في زيّ الفيوج فلما كتبا إلى الخاقاني بهرب سليمان عظُم عليه واشتدّ الأراجيف بوزارة سليمان ودخل سليمان بغداد مُستتراً. وأقام أبو علي بن مقلة بشيراز إلى أن توصّلت زوجتُه إلى أسباب الخاقاني وعنى به شفيع المقتدري وأمر الخاقاني بإطلاقه والإذن له في المصير إلى الأهواز وكتب له بإجراء مائتي دينار في كلّ شهر عليه ومنعه من الخروج فأقام مدّة ثم أذن له في قدوم بغداد بشفاعات الناس له.

وفيها خاطب مونس المظفّر الوزيرَ الخاقاني في أمر علي بن عيسى وأن يكتب إلى أبي جعفر صاحب اليمن بالإذن له في الرجوع إلى مكة فكتب إليه بذلك فأذن له أبو جعفر وحمل إليه طيباً وكسوة وآلات نحو خمسين ألف دينار وعاد علي بن عيسى إلى مكة مع حاجّ اليمن فلما حصل بها قلّده الخاقاني بمسألة مونس الإشراف على مصر والشام. وكتب علي بن عيسى لما وصل إلى مكة وقبل تقلُّده الإشراف على مصر والشام إلى الوزير الخاقاني كتاباً يهنّئه فيه بالوزارة ويُعزّيه بأبي علي أبيه ويسأله صيانة أهله وولده والعناية بهم في ضيعته ومعيشته فأجابه الخاقاني بجوابٍ جميل وأنه قد رعى حقَّهُ في أهله وولده وحاشيته غير معتدّ عليه ولا مُتحمّدٍ به.

ذكر الأسباب الّتي اتّفقت على الخاقاني حتى صرف عن الوزارة

كان أبو العباس بن الخصيبي وقف على مكان زوجة المحسّن بنت حنزابة فسأل أن يولّى النظر في أمرها واستخراج مالها ففُعل ذلك واستخرج منها سبعمائة ألف دينار وصحّحها في بيت مال الخاصّة فتمهدت له بذلك حال جليلة عند المقتدر ورشّحه للوزارة. وبلغ ذلك الخاقاني فحمل ابن بعد شرّ على أن بذل خطه أنه يستخرج من الخصيبي مائة ألف دينار معجلة وصل إليه من مال المحسّن وزوجته زيادة على ما صححه من هذه الجهة وعرض الخاقاني الرُقعة فلم تقع موقعها واتصل الخبر بأبي العباس الخصيبي فكتب إلى المقتدر رُقعَة يذكر فيها معايب الخاقاني وابنه وكتابه وضياع الأموال وفساد التدبير وسلمها إلى من يعرضها على المقتدر والسيدة. وبلغ ذلك الخاقاني واشتدَّت به الأراجيف وضعفت نفسه وكان عليلاً فزادت عليه حتى أقام شهوراً

لا يقدر على أكل لحم حمل ولا طائر وكان يأكل كل يوم وزن أربعين درهماً خبزاً ثم صار عشرين درهماً وظهر به ورَمٌ في بدنه ورجليه ووجهه وكان يتجلّد ويركب في كل شهر مرة أو مرّتين إلى دار السلطان وينوب عنه ابنه في أيام المواكب. فشغب الفرسان لطلب أرزاقهم وخرجوا إلى المصلّى فوُعدوا به وتأخر عنهم فعادوا وطمعوا في النهب وأشرفت بغداد على فتنة عظيمة وخرج إليهم ياقوت بتوقيع المقتدر باللّه إلى الخاقاني بإطلاق رزقةٍ تامةٍ لهم وضمن ياقوت ذلك. فراسل المقتدر الوزير الخاقاني بإطلاق نفقاتهم فذكر أنه لا يقدر على ذلك وكان عليلاً فعاوده برسالة يأمره فيها أن يحتال في مائة ألف دينار ليضيف إليها مائتي ألف دينار ينفق فيهم. فأقام على أنه لا يقدر على احتيال مائة ألف درهم وأن له في توجيه مال النوبة للرجالة ومال الغلمان الحجرية والحشم وخلفاء الحجّاب شغلاً طويلاً. فتقدّم المقتدر بإخراج ثلاثمائة ألف دينار من بيت مال الخاصة واعتمد على ياقوت في تَفرِقَتها.

وكان مونس المظفر بواسط فاستدعاه المقتدر لما شغب الفرسان فوافى وتلقّاه الأمير أبو العبّاس والوزير الخاقاني ونصر وسائر الأستاذين والقوّاد ولقي المقتدر فعرَّفه ضيق الأموال وتبلُّح الخاقاني وشاوره في صرفه فأشار عليه بالتوقف ليلقاه ويُواقفه فلقيه مونس فعرفه الخاقاني أنه لا حيلة له في شيء يصرفه في المهمّ واحتجّ بأنه عليل لا فضل فيه للعمل فأشار مونس لما رأى تبلح الخاقاني الشديد باستحضار علي بن عيسى وتقليده الوزارة فاستبعد المقتدر ذلك فأشارت السيدة والخالة بأبي العباس الخصيبي فقبض على الخاقاني واستتر ابنه عبد الوهاب وإسحاق بن علي القُنَّائي وأخوه وابن بعدشرّ وخاقان بن أحمد بن يحيى بن خاقان وظهر الباقون فكانت مدة وزارته سنة واحدة وستة أشهر.

ذكر سبب وزارة أبي العبّاس الخصيبي

واستحضر المقتدر أبا العباس الخصيبي وهو أحمد بن عبيد اللّه يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان فقلده الوزارة والدواوين وخلع عليه وركب معه هارون بن غريب وياقوت ونازوك وأكثر القواد واستكتبت ثمل القهرمانة مكانه على ديوان ضياع السّيدة أبا يوسف عبد الرحمن بن محمد وكان قد تاب من عمل السلطان فلما أسند إليه هذا العمل الجليل كسر التوبة فسماه الناس «المرتد» واستدرك أموالاً جليلة كان الخصيبي أضاعها فتنكرت ثمل للخصيبي في الباطن.

وكان أبو العبّاس الخصيبي يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها وإذا انتبه يكون مخموراً لا فضل فيه للعمل فردّ فض الكتب الواردة من عمّال الخراج والمعاون وقرامتها والتوقيع عليها وإخراجها إلى الدواوين وقراءة الكتب النافذة

والتعليم عليها إلى مالك بن الوليد ويعمل جوامع مختصرةً للمهمّ مما يرد وينفذ فيعرضه عليه إذا انتبه فربما قرأه وربما لم يقرأه فيقرأه أبو الفرج إسرائيل ويوقّع فيه على حسب رأيه. وكانت الجوامع تعمل بخط أبي سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ فتبقى أياماً بحضرته فإذا كثرت تقدم بأن يقرأ عليه ويتقدم بالتوقيع تحت كل فصل بما عنده فيه ويخرج ذلك الجامع إلى مالك بن الوليد فيبقى عنده يوماً أو يومين ثم يخرج إلى صاحب الديوان فيقرأه ويوقع تحته بما يراه ويجاب عن الكتاب من الديوان بما ينفذ إلى صاحب الديوان فيقرأه ويعلم عليه وإلى أن ينفذ الجواب ما قد تمرّدت البثوق واتسعت الفتوق واحتملت الأعراب الغلات وحدثت الحوادث المفسدة لمعنى ذلك الكتاب.

فلما رأى الكلوذاني ذلك ورأى الضرر يزيد والخطأ لا يتلافى كتب إلى العمال بأن ينفذوا نسخة لما يكتبونها إلى الوزير إليه فكانوا يكتبون إليه نسخاً بما ينفذ منهم إلى الوزير فيوقع على ظهرها بما يجابون به وتخرج إليه الكتب المكتوبة عن الوزير بعد جمعة وأكثر.

وتقدّم الوزير الخصيبي إلى أبي الحسن بن ثوابة بأن يقرأ قصص المتظلمين ويوقع عنه فيها في غير يوم المظالم ويجمع القصص في يوم المظالم ويختصر ما في الرقعة فإذا قرأها وقّع بحسبه وكان أكثر اعتماده على أموال المصادرين وكان أول المصادرين أبو القاسم الخاقاني واعتنق مونس أمره وذكر للمقتدر أنه لا فضل فيه للحركة وأنه قد قرر أمر مصادرته عن نفسه وابنه وكتابه المختصين به على مائتي ألف وخمسين ألف دينار. فأمضى المقتدر ذلك وأنفذ خطه به إلى الخصيبي ووضع الخصيبي يده على العمال والكتاب وجاذفهم فيما صادرهم عليه فصادر جعفر بن قاسم الكرخي على مائة وخمسين ألف دينار وقبض على المالكي وعلى هشام وعلي بن الحسين بن هندي وورثة أبي أحمد الكرخي والحسن بن أبي الحسن بن الفرات ويحيى بن عمرويه وأبي الحسن بن مابنداذ وإسحاق بن إسماعيل النوبختي ومحمد بن يعقوب المصري وورثة نصر بن الفتح صاحب بيت المال وابن عبد الوهاب وعبد الله بن جُبَير وكثرت الأراجيف بالخصيبي وأنه مصروف عن الوزارة لأنه حمار لا يُحسِن شيئاً غير المصادرات وهو مشغول بالشرب واللعب وأن الأمور كلّها ضائعة والمهمّات واقِفة وأرجف بالوزارة لجماعةٍ.

وفيها كانت وقعة أبي طاهر سليمان بن الحسن القرمطي بالكوفة وأسر قُوّاد السلطان.

ذكر الخبر عن دخول القرمطي الكوفة

كان جعفر بن ورقاء يتقلّد أعمال الكوفة وطريق مكة فلما شخص الحاجّ من بغداد تقدّمهم خوفاً من أبي طاهر القرمطي وكان معه ألف رجل من بني عمّه من بني شَيْبان. ثم خرج في القافلة الأولى ثمل صاحب البحر وفي قافلة الشمسة جنّي الصَفْواني

وطريف السُبكري وسِياشِير الديلمي فكانت عدة من بذْرَقَ بالقوافل من أصحاب السلطان ستة آلاف رجل. فتلقاهم أبو طاهر الجَنّابي وكان أوّل من لقِيَ جعفر بن ورقاء فناوشه قليلاً ثم طلع على جعفر قوم من أصحاب أبي طاهر على نُجَبٍ يقودون خيلاً فنزلوا عن النُّجب وركبوا الخيل وخالطوا جعفر بن ورقاء فلم يثبت لهم وانهزم بمن معه من بني شيبان فلقي القافلة وقد نزلوا من العَقَبة فردّهم وأخبرهم الخبر فولّوا مُبادرين حتى دخلوا الكوفة. وتبع أبو طاهر رجال السلطان والقوافل حتى بلغ باب الكوفة فخرج قُوّاد السلطان الّذين ذكرناهم فأوقع بهم وهزمهم وأسر جنيّاً الصفواني. وأقام أبو طاهر بظاهر الكوفة ستة أيام يدخل البلد بالنهار ويخرج بالليل فيبيت في معسكره ويحمل كل ما قدر على حمله فكان في جملة ما حمل أربعة آلاف ثوب وشي وثلاثمائة راوية زيت. فلما حمل كلّ ما قدر عليه رحل إلى بلده.

ودخل جعفر بن ورقاء وجماعة المُنهزمين إلى بغداد فتقدّم المقتدر باللّه إلى مونس بالخروج إلى الكوفة لمحاربة القرمطي. واضطرب أهل بغداد اضطراباً شديداً وانتقل أكثر أهل الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ودخل مونس الكوفة وقد رحل أبو طاهر الجنّابي عنها فاستخلف مونس بها ياقوتاً وسار هو إلى واسط. ولم يتمّ الحجّ لأحدٍ.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بمسير علي بن عيسى إلى مكة حاجاً في هذه السنة من مصر وورد سلامة حاجبهُ بغداد ومعه سفاتِج بمائة ألف وسبعة وأربعين ألف دينار وبآثارٍ واستدراكات أَثَرَها وكان الخصيبي قد أقرّ عليّ بن عيسى على ما كان إليه من الإشراف على مصر والشام.

وفيها فتح إبراهيم المسمعي ناحية القُفص وأسر منهم خمسة آلاف إنسان وحملهم إلى فارس.

وفي هذه السنة كثرت الأرطاب ببغداد حتى عُمل منها التُمور وحُملت إلى البصرة فنُسبوا إلى البغي.

وفيها كتب ملك الروم إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول: إن فعلتم ذلك طائعين وإلاّ قصدتكم فقد صح عندي ضعفُكم.

ودخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة

وفيها دخل الروم ملطية فأخربوا وسبوا وأقاموا ستّة عشر يوماً وفيها وصل ثمل إلى عمله من الثغور عند انصرافه من بغداد.

وفيها مات أبو القاسم عبد اللّه بن محمد الخاقاني وكان أطلق إلى منزله فلما

ارتفعت الصرخة بوفاته كبست داره لطلب عبد الوهاب ابنه فلم يُوجد.

وفيها دخل أهل ملطية بغداد مستغيثين مما نزل بهم من الروم.

وفيها خرج أهل مكة منها ونقلوا حُرمهم وأموالهم لاتصال خبر القرمطي بهم وأنه قريب منهم فتخوّفوا على أنفسهم وأموالهم منه.

وكتب الكلوذاني إلى الخصيبي بأن أبا طالب زيد بن علي النوبندجاني قد صار يجري مجرى أصحاب الأطراف وأنه قد تغلب على ضياع السلطان وأنه يلزمُهُ ممّا استغلّهُ منها ثلاثة آلاف ألف درهم. وعمل بذلك عملاً أحال فيه على ما كان كتبه أبو القاسم علي بن أحمد بن بسطام وقت تقلُّده فارس وكتب إلى الحسن بن إسماعيل وكان شخص لِيُقرّرِ خلافاً كان بين المسمعي والكرخي بأن يُصادره على مائة ألف دينار فاستدعى الحسنُ بن إسماعيل أبا طالب زيد بن علي وأخذ خطّه بمائة ألف دينار.

ذكر تدبير سيئ دبره الخصيبي أخرج به أكثر المماليك عن يده ولم يمكن تلافيه

دبر الوزير أبو العبّاس الخصيبي أن يقلد يوسف بن ديوداذ جميع واحي المشرق لِيُسلّم أموالها إليه فيكون مع مال ضمانه أرمينية وأذربيجان مصروفة إلى قوّادِه وجنده وغلمانِه وكاتَبَهُ في المصير إلى واسط لِيُنفذه إلى هجر لمحاربة أبي طاهر الجنّابي وأشار بتكنيتِه وبأن يكون مونس المظفّر ببغداد ليقوى بمكانه أمر الخلافة وتعظُم الهيبة في قلوب الأعداء. فلمّا قرب ابن أبي الساج من واسط وكان فيها مونس المظفّر رحل مونس إلى بغداد ودخل ابن أبي الساج واسط. وأنفذ قبل وصوله إليها أبا علي الحسن ابن هارون كاتبه وكان يخدمه في خاصّ أمره على سبيل الخلافة لأبي عبد اللّه محمد بن خلف النيرماني كاتبه واختصّ به وخف على قلبه فصار إلى بغداد ليواقف الخصيبي على مال رجاله وأموال الأعمال التي كانت معقودة عليه والأموال التي جعل مالها مصروفاً إلى رجاله زيادة على الأموال المتقدّم ذكرها فإن الخصيبي جعل أموال الخراج والضياع بنواحي همذان وساوه ورُوزه وقمّ وماه البصرة وماه الكوفة والإيغارين وماسبذان ومهرجانقذق لابن أبي الساج لمائِدتِه لمحاربة الجنابي. فأمضى المقتدر ذلك وتقدّم بتقليده أعمال الصلاة والمعاون والخراج والضياع بسائر كور الجبل وأنفذ إليه اللواء وكنّاه فكان يوسف يتكنّى على جميع الناس إلا على الوزير ومونس المظفر. والتمس الحسن بن هارون أن يجعل لابن أبي الساج مائدة مبلغها في الشهر خمسة ألف دينار وقال: ليس هو بدون أحمد بن صُعلوك. وكان قد جعلت له مائدة في أيام وزارة حامد ابن العباس مبلغها ثلاثة آلاف دينار في الشهر وجعل له عشرة آلاف دينار في كل شهرين

من شهور المماليك لأرزاق غلمانٍ لا يحضرون. وسام الكُتّاب الحسن بن هارون أن يشرط على نفسِه أن ينفذ السلطانُ منفقاً يُنفِق أموال تلك النواحي في رجاله وغلمانه فاستجاب إلى جميع ما طالبوه به وأعطى خطه إلا بأمر المنفق فإنه زعم أن صاحبهُ لا يصوّر نفسه عند أصحاب الأطراف بصورة من لم يوثق به على مال رجاله. ولما عقد لابن أبي الساج على الجبل وندب لمحاربة القرمطي عقد لصاحب خراسان على الريّ فصار إلى الريّ وأنفذ إليه من يخاطبه على المال الذي وقف على حمله من الريّ. وصار ابن أبي الساج إلى الريّ وحمل إليه المقتدر خِلعاً سلطانية وسيفاً ومنطقة ذهب وخيلاً بمراكب ذهب وفضة وطيباً وسلاحاً.

ذكر الخبر عن القبض على الخصيبي وتقليد علي بن عيسى الوزارة

أضاق أبو العباس إضاقة شديدة واضطرب أمره وأشار مونس بعلي بن عيسى. فأنفذ ضحوة نهار يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة إلى الخصيبي حتى قبض عليه وعلى ابنه وكتّابه وحُملوا إلى دار السلطان وحُبسوا عند زيدان القهرمانة. وفرّق بين الخصيبي وبين ابنه وحمل باقي المعتقلين إلى دار الوزارة بالمُخَرّم فاعتقلوا فيها وأنفذ نازوك وقت قبضه على الخصيبي حتى حفظت داره القديمة من النهب واستدعى المقتدر أبا القاسم عبيد اللّه بن محمد الكلوذاني وأوصله إلى حضرته وعرّفهُ أنه قد قلّد أبا الحسن علي بن عيسى الوزارة وأنه قد استخلفه له ويقدم إليه بالنيابة عنه واستحضر سلامة الطولوني وتقدّم إليه بالنفوذ في البرية إلى دمشق واستحضار علي ابن عيسى منها وانصرف أبو القاسم الكلوذاني من دار السلطان في الطيار الذي قُبض على الخصيبي إلى دار الوزارة بالمخرّم ونظر في الأعمال وكتب إلى العمال في النواحي وإلى جميع الأمراء وأصحاب البُرد والخبر والقضاة بما قلد علي بن عيسى من الوزارة واستخلاف أمير المؤمنين إياه. وأمر ونهى وصرف وولي.

وظهر في ذلك اليوم أبو علي بن مقلة وأبو الفتح الفضل بن جعفر بن حنزابة وصارا إلى الكلوذاني وسلما عليه.

ذكر خلافة أبي القاسم الكلوذاني لعلي بن عيسى وتمشيته للأمور

قد كان جمع الخصيبي عنده جميع رقاع المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب وكان عنده خط كاتب المسمعي عن مال فارس بما يعجّله عن الزيادة في ضمانه وهو ألف ألف درهم وخطّ سليمان بن الحسن بما استدركه على ابني عبد الوهاب وهو أربعمائة ألف دينار وكسر وما ضمن حملهُ عن أعمال الشام وهو خمسمائة ألف دينار وخطوط ضمناء

واسط والبصرة وطريق خراسان والنهروانات ونهر بوق والذئب الأسفل وجازر والمدينة العتيقة وغيرهم فحفظ جميع ذلك الكلوذاني إلى أن قدم علي بن عيسى فسلّمَهُ إليه.

وأدّى نُصير بن علي إليه مائتي ألف درهم وأحمد بن إسحاق بن زرَيق عشرة آلاف دينار وورد بعد أسبوع من صرف الخصيبي فيج بكتُب سليمان بن الحسن وفي درجها سفاتج بثمانين ألف دينار وورد ما كان حملَهُ علي بن عيسى على الظهر من مال مصر ووصل من جِهةِ البرجمَالي من قُمّ عشرة آلاف دينار ووردت من جهة أبي علي بن رُستم من مال الضمان سفاتج بأربعمائة ألف درهم فكان ذلك سبب تمشيتِهِ للأمور. وأنفق الكلوذاني في سائر المرتزقة وفي الفرسان قبل العيد ولم يزل أبو القاسم الكلوذاني يدبر الأمور وقد تمكّنت الهيبة لعلي بن عيسى في الصدور فاستعان بذلك على أمرِه. وسار علي بن عيسى من دمشق إلى جسر منبج ثم انحدر في الفرات إلى بغداد وشخص الناس في استقباله سنة خمسة عشرة فمنهم من أبعد إلى الرقة.

ودخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة

ذكر ما دبَّره علي بن عيسى في وزارته هذه وما جرى في أيّامه

وصل علي بن عيسى إلى بغداد وبدأ بدار المقتدر ووصل إلى حضرته بعد عشاء الآخرة ومعه مونس فخاطَبهُ أجمل خطاب وانصرف إلى منزله ووجَّه المقتدر إليه في ليلته بكسوة فاخرة وفرش ومال يقال إنه بقيمة عشرين ألف دينار وخلع عليه من الغد وسار معه مونس المظفر إلى أن بلغ داره وحلف عليه علي بن عيسى فنزل في داره وسار بين يديه هارون بن غريب وشفيع ومفلح ونسيم وياقوت ونازوك وجميع القواد حتى وصل إلى داره بباب البستان.

وكان قد ضرّب عليُّ بن عيسى على هشام فتأخر عنه واستوحش فكاتبه وونَّسَهُ حتى حضر مجلسه ثم قال له: ما مذهبي أن أذكرَ إساءة لأحدٍ من الناس ولما خلّصني اللّه من صنعاء وعدتُ إلى مكة عاهدت اللّه على ترك الإساءة إلى أحدٍ ممن سعى عليّ في ولايتي ونكبتي ووكّلت جميعهم إلى اللّه ولك خدمة متقدّمة توجب لك حقاً وعليك أضعافه فإن كنت لا ترعى ذلك فلن أدع رعايتهُ.

وقلد علي بن عيسى الكلوذاني ديوان السواد وقال له: هذا أجلّ الدواوين ومتى تشاغلت بخلافتي اختلَّ وليس يقوم به أحد كقيامك. ثم نظم الأعمال وقلَّد العُمَّال ورتَّب الدواوين واعتمد على إبراهيم بن أيوب في إثبات أمر المال بحضرتِه وفي موافقة صاحب بيت المال على ما يُطلقه وينفقه في كلّ يوم ومطالبته بالروزنامجات في كل أسبوع لِيُتعجَّل معرفة ما حلّ وما قبض وما بقي. وكان الرسم إذا عُملت الختمة لم يُرفَع

إلى الديوان للشهر الأوّل إلا في النصف من الثاني.

وقلّد أبا الفتح الفضل بن جعفر بن حنزابة ديوان المشرق وأبا بكر محمد بن جنّي ديوان المغرب وأبا علي بن مقلة ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة وأبا محمد الحسين ابن أحمد المادرائي ديوان الضياع الفراتيَّة وأبا محمد بن روح ديوان زمام الخراج والضياع العامة بالسواد والأهواز وفارس وكرمان وما يجري فيه. وقلّد أبا القاسم بن النفَّاط ديوان زمام النفقات والخزائن وأبا جعفر القمّي ديوان الدار وأبا أحمد عبد الوهاب ابن الحسن ديوان البز وديوان الصدقات وأبا الفتح محمد بن أحمد قلنسوه ديوان زمام الجيش ومحمد بن عيسى ديوان الحرَم وأبا يوسف ديوان الفص والخاتم.

وقلد أيضاً كفاة العمَّال واقتصر في أرزاقهم على عشرة أشهر في كل سنة وبأصحاب البرد والمنفقين على ثمانية أشهر في كل سنة. وحطّ من مال الرجالة برسم النوبةِ ومن مال الفرسان وجميع أرزاقَ من كان يرتزق بهذين الرسمين من الكتَّاب والتجار ومن لا يحمل السلاح وحط أولاد المرتزقة الّذين في المهود وحطّ من مال الخدم والحشم وجميع أرزاق الجلساء والندماء والمغنّيين والتجار وأصحاب الشفاعات وحط أرزاق غلمان وأسباب أصحاب الدواوين. ولازم النظر بنفسه في العمل ليلاً ونهاراً والجلوس لأصحاب الدواوين في الليل وكان يسهر أكثر الليل حتى استقامت الأمور وتوازن الدخل والخرجُ وكان إلى أبي عبد اللّه البريدي في الوقت الضياع الخاصَّة ضماناً وإقطاع الوزراء وكان أبو يوسف البريدي يتولى لعلي بن عيسى الخراج برامهرمز سهلها وجبلها.

شرح ما جرى بين الوزير أبي الحسن علي بن عيسى وبين أبي العباس أحمد بن عبيد اللّه من المُناظرة

تقدّم المقتدر إلى أبي الحسن علي بن عيسى بمُناظرة أبي العباس الخصيبي فأخرج إليه وناظره في دار السلطان بحضرة الأستاذين والقُوَّاد والقضاة مُناظرة جميلةً وسأله عن مبلغ ما صحّ له من الخراج والضياع وسائر النواحي فلم يعرفه وسأله عن مبلغ ما أنفق بالحضرة من بيت المال فلم يحفظه وسألهُ عمَّا صحّ له من مال المصادرين وعن رقاعهم بالمصادرات وعن كفالات من كفل منهم وعن ضمانات ما يضمنه عنهم فقال: أمّا المصادرات فقد صحّ لي منها في مدّة أربعة عشر شهراً تولّيتُ فيها الوزارة نحو ألف ألف دينار. فقال له: كم منها من جهة الخاقاني فإن أمير المؤمنين عرّفني أنك ضمنتهم بخمسمائة ألف دينار. فقال: دفع عنه مونس المظفّر. فردت الجماعةُ قولَهُ وقالوا له: قد سُلم إليك حتى شُنّع عليك بأنك سممتَهُ ثم أطلقتَهُ. ثم قال له علي بن عيسى: لأيّ شيءٍ استحضرتَ يوسف بن أبي الساج إلى واسط وسلّمتَ إليه أعمال المشرق بأسرِها سوى أصبهان وكيف وقع لك أنه يجوز أن يخرُج هو مع قومٍ اعتادوا الجبل والمقام فيه

في طريق البرّ يقصدون طريق السواحل في بلدان حوالى هجر. قال: كان عندي أن هذا صوابٌ. فقال له: فحيث فعلتَ ذلك لِمَ لم تقتصر على أن يعرض رجالَهُ وغلمانَهُ ويُجري مال عسكره مجرى مال عسكر مونس المُظفَّر فإنه يُسبَّب له مالٌ ويُطلق على أيدي مُنفِقين من قبل السلطان ويُرفَع الحساب بذلك إلى دواوين الجيش ولا يقتصرون على ديوانٍ منها دون جميعها ولا يُزاد أحدٌ ولا يُنقل عنه من رسم إلى رسم إلا على استقبالٍ معروفٍ ثم يُوفر المُعطون كل شهرٍ من التوفيرات بسبب الغُرْم ولأجل سُقوط من يسقط جُملة من المال ولِمَ لم تترك الأعمال في أيدي عُمَّال السلطان ويُسبَّب له عليهم مال رجاله كما يُسبَّب مال رجال أبي الحسن مونس المُظفَّر؟ قال: لم أفعل هذا لأنه تكلَّف من هذا الأمر عظيماً احتيج معه إلى فضل مُسامحةٍ. فقال له: فلأيّ سببٍ ضمَّنتَ إبراهيم بن عبد اللّه المِسمَعي أعمال فارس وكرمان؟ فقال: لأجل زيادة بذلها. فقال له: أما علمتَ أن حفظ الأصول أولى من طلب الأرباح؟ وهبكَ رغبتَ في الزيادة لِمَ لم تستدعه إلى الحضرة فإذا ورَدَها واردت تضمينه أقام بها واستعمل على العمل خُلفاءهُ وأقام لك الضُمناء الثقات بالمال ومضى بعد ذلك. فقال: إنما رغب في الضمان لِيعملهُ بنفسه. فقال علي بن عيسى: أرجو أن يسلّم اللّه. ثمّ قال: لِمَ قبضتَ جاري ابنك محمد ألفي دينار في كل شهر وهو لا يقرأ كتاباً ولا يحضر ديواناً ولا يحسن أن يعمل شيئاً؟ قال: سألتُ أمير المؤمنين له رزق المُحسن وعبد الوهَّاب بن الخاقاني فأجابني إليه. قال: المحسن رُبّي في الدواوين ودبَّر الأمور وكان مع شرّه واستحلاله وقبح ديانته كاتباً وابن الخاقاني كان ينوب عن أبيه ويأمر وينهى ويخدم وهو فَهِمٌ وابنك لا يجري مجرى واحد منهُما فاكتب خطك إنك تردّ ما قبضَهُ. فقال: كيف أردُّ مالاً قبضه ابني وأنفقَهُ؟ فقال له: على أي شيء أنفقهُ؟ قال: على ما ينفق مثله الأحداث.

ثم سأله عن أموال المصادرين وما صح من جهتهم فقال: لا أحفظهُ إلاّ أنه ثابتٌ في ديوان المصادرين. قال: فعَنْهُ أسألك. قال: هو عند هشام وإن سئل عنه خبّر به فإن رِقاع المصادرين والكفالات والأعمال في يده. فقال له: ما سبقك أحدٌ إلى تسليم خطوط المصادرين إلى صاحب ديوان المصادرات لأن سبيل الخطوط أن تكون في خزائن الوزراء محفوظة يتسلمها وزيرٌ بعد وزير فإن كنت أردت عمارة الديوان فكان ينبغي أن تأخذ الخطوط على نسختين نسخة للديوان ونسخة تكون عندك. فلو باع صاحب الديوان رقاع المصادرين والكفالات وضمانات الضُمناء هل كان على السلطان مضرَّة في هذا المال أعظم منك؟ وإذا كان هذا تدبيرك فيما لم تكن تحسن سواهُ فأيّ شيءٍ دبّرت غيره من أعمال الدواوين؟ فإمّا أن تكون خُنتَ الأمانة وإما إن لم تُحسن ضبط شيء من الأعمال. وكلّ ذلك يُخاطبه به عن غير إسماع مكروهٍ ولا صياح.

ثم قال: غررت المملكة فضرب النساء والحُرم بالمقارع وهتكتَ الستور بما فعلتَ من تسليمهنّ إلى الرجال فلأيَّة حالٍ سلمتَ بنت جعفر بن الفرات إلى أفلح وهو رجلٌ شاب جميل الوجهِ يتصنَّعُ حتى تزوج بها في حبسك ولأيَّة حالٍ ضربتَ دولةَ وابنها بحضرتك ثم لم ترض بذلك حتّى اعتقلت الجماعةَ في يد غلمانك وحجَّابك عِدّة شهور؟ ثم قال: ارتزقتَ لنفسك خمسة آلاف دينار في الشهر يكون في مدّة أربعة عشر شهراً سبعين ألف دينار سوى ما ارتزقه ابنك وأخذت من إقطاعِك في مدّة سنة وشهرين ما ثبت في الختمات الموجودة لِجهبذك في ديوانك مائة وثمانين ألف دينار يصير الجميع مائتين وخمسين ألف دينار. ثم أخرج عملاً بخط علي بن محمد بن روح بهذا المبلغ وبأنه أنفق في كلّ شهر من النفقات الراتِبة ألفي وخمسمائة دينار تكون في أربعة عشر شهراً خمسة وثلاثين ألف دينار وفي النفقات الحادِثة والصِلات والمؤونة مع ثمن الطيب والكِسوة عشرين ألف دينار وفي ثمن عقارات أضافَها إلى داره مع ما أنفقَهُ على البناء أربعين ألف دينار وفي ثمن الهدايا في النورُوز والمِهرجان إلى الخليفة وإلى الأميرين أبي العبّاس وهارون ابنَيْه وإلى السيدة والخالة وزيدان ومُفلِح خمسة وثلاثين ألف دينار وفي ثمن بغالٍ ودواب وجمال وخدم وغلمان عشرة آلاف دينار وفيما يحتاج إلى إنفاقِه وصرفهِ إلى مَن برسم دار الوزارة من خلفاء الحُجّاب والبوّابين وأصحاب الرسائل وإنزال الفُرسان والرجَّالة عشرين ألف دينار.

فقال في الجواب: هذا عملٌ صحيحٌ وليس كلّ ما أنفقتُهُ كتبتُه فقد كنتُ أصُوغ لِحُرمي وأولادي وانفِق نفقات أستُرها عن كاتبي وما سرقتُ ولا خُنتُ. فقال له علي بن عيسى: ما يقول أحد إنك سرقتَ أو خُنتَ ولكنّك أضعتَ وأسأت التدبير ودخلتَ فيما لا تحسِنه ولو أخذتَ أضعاف ما أخرجناه عليك لما ناظرك أمير المؤمنين فيه لا سيّما وهو منسوبٌ إلى أرزاقك وإقطاعك ونفقات معروفةٍ لك وكيف نُناظرك في ذلك وما نعيش ولا أحدٌ من كتّاب أمير المؤمنين إلا في نِعمتِه وإحسانِه؟ ولنا ضياعٌ استفدناها في خدمته وخدمة أسلافِه رضي اللّه عنهم.

ولم يزل يرفق به إلى أن أخذ خطَّه بأربعين ألف دينار يؤدّيها في مدَّة أربعين يوماً بعد أن حلف أنه لا يتّجهُ له حيلة في غيرها وسلم علي بن عيسى رُقعته بها إلى مفلح وقال له: تعرضها على أمير المؤمنين وتقول: إن هذا وإن كان قد غرَّ من نفسه وأضاع وأهملَ فقد تحرم بخدمة أمير المؤمنين وحلف بأيمان بيعتِه على أنه غاية ما يقدر عليه وليس له ذنبٌ وإنما الذنب لمن غرك منه ولم ينصحك في أمرِهِ. ثم كتب رُقعة إلى المقتدر بقبول ما بذله الخصيبي وبحمله إلى ثمل القهرمانة إلى أن يُؤدّي ما فُورقَ عليه.

ذكر ما دبّره علي بن عيسى من الأمور في وزارته هذه

لما نظر علي بن عيسى في الأمور وجد أهمَّ ما يحتاج إليه أمر الرجّالة المصافية وكان مبلغ ما لهم في أيّامه ثمانين ألف دينار ومال رجال مونس المظفر وهو ستمائة ألف دينار في كلّ سنة سوى مال الرجّالة معه ومال الحجريّة برسمهِ فإنه يطلق مع أرزاق نُظرائهم. وكان يُسبَّب مالُ رجال مونس على نواح اختارها مونس فإذا أزاح العلّة فيما ذكرناه نظر بعد ذلك في أمر مال خلفاء الحجّاب والحشم والمتطبّبين والفرسان برسم التفاريق والمنجّمين والفرّاشين والطباخين والساسة وسائر المرتزقة من الخدم. فخرج علي بن عيسى يوماً من حضرة المقتدر بالله ليركب في طياره فوثب به الخدم والحشم بألسنتهم وثوباً قبيحاً.

وورد الخبر على علي بن عيسى بأن إبراهيم بن المِسمَعي اعتلَّ علَّةً حادّةً وتوفي بالنوبَنْدَجان فأشار علي بن عيسى بتقليد ياقوت أعمال الحرب والمعاون بفارس وتقليد أبي طاهر محمد بن عبد الصمد أعمال المعاوِن بكرمان فخلع عليهما وعقد لهما لواءان. وكتب علي بن عيسى إلى القاسم بن دينار بالمبادرة إلى فارس وقلَّدَهُ أعمال الخراج والضياع بها وقلّد ما كان إليه من أعمال الأهواز أبا الحسن أحمد بن محمد بن مابنداذ وابن السلاسل.

فحكى أبو الفرج بن أبي هشام قال: لما بلغ أبا عبد الله البريدي ما تقلّده هؤلاء من أعمال الأهواز وما حولها قال: يقلّد هؤلاء هذه الأعمال ويقتصر بأخي أبي يوسف على سُرْق وبي على ضمان الضياع الخاصّة! خذ يا أبا هشام هذا الكتاب (يعني الكتاب الوارد عليه بما قلّد) واعطِه ابنك حتّى يمثّل عليه ويتعلَّم منه الخط فإن لطبلي صوتاً سوف تسمعُهُ بعد أيّام. وكان أبو عبد الله البريدي أنفذ أخاه أبا الحسين إلى الحضرة لما بلغه اضطراب أمر علي بن عيسى ووافقه على أن يخطب له عمل الأهواز إذا تجددت وزارة لمن يرتفق: فإن علي بن عيسى يعفّ ولا يرتفق.

فلما تمت الوزارة لأبي علي بن مقلة صار أبو الحسين إلى أبي أيّوب السمسار وبذل له عشرين ألف دينار فقلّد أخوه أبو عبد الله البريدي أعمال الأهواز سِوى السُوس وجنديسابور وقُلد أبو الحسين الفراتيّة وأبو يوسف الخاصة والأسافل على أن يكون المال في ذمته إلى أن يقع الوفاء لهم فوفى لهم وقبض المال وكتب أبو علي بن مقلة في القبض على أبي السلاسل فخرج أبو عبد الله بنفسه إلى تستر حتى حصلهُ وأسبابه. ووجد له في صناديقه وعند جهبذه عشرة آلاف دينار فأخذها ووافقه على أن يصك بما كان عند الجهبذ بنفقات باطلةٍ وأخذ من كاتبه ألفي دينار ومن خليفته ثلاثة آلاف دينار

ومن حاجبه ألفي دينار. وكان أبو عبد اللّه البريدي أحد دَجالي الدنيا وشياطينها ثمّ كُثّر على أبي علي بن مقلة بأنه أهلّهُ لما لا يستحقه فصرفَهُ بأبي محمد الحسين بن أحمد المادرائي وقلدَه أشرافاً وقلد الأصل جماعة من العمال فما أحلى أبو محمد ولا أمر وكان كاتبه علي بن يوسف وخليفته صحبته من الحضرة فبان من تجلفه وسقوطه ما صار به نكالاً وحديثاً.

وحسبك أن أبا عبد اللّه البريدي أخذ عليك الطرقات فكان كل ما كتب به يؤخذُ من رسله فما قرئ له كتاب منذ دخل الأهواز إلى أن صرف عنها. ثم صرفه بعد ذلك أبو علي بأبي عبد اللّه البريدي وقال: اغتررت بطلل ذلك الشيخ وما كل من يصلح للكتابة ينفذ في العمالة.

وعدنا إلى تمام حديث علي بن عيسى وما دبره به المملكة. ولما أخرج إليه الارتفاعات كان فيها مبلغ ارتفاع لضياع أقطاع الوزراء بعد نفقاتهم الراتبة مائة وسبعين ألف دينار فكتب إلى المقتدر بأنه غني عن هذا الإقطاع وأنه قد وفر ماله فإن أمر ضيعته قد صلح وكذلك وقفه بإعادته إياه إلى خدمته وأنه يُوفَّر أيضاً رزق الوزارة وهو مع ألفي دينار أجريت لابن الخصيبي سبعة آلاف دينار في كل شهر. وكتب إليه المقتدر بالشكر وأنه لا بد من أن يقبض الرزق على الرسم فحلف علي بن عيسى أنه لا يقبض رزقاً لهذه الخدمة لأن مذهبه ترك التنعم.

وفيها شغب الفرسان برسم التفاريق وخرجوا إلى المصلّى فنهبوا القصر المعروف بالثُّريَّا وذبحوا الوحش الذي في الحاير وذبحوا البقر التي لأهل القرى التي حوله وخرج إليهم مونس وضمن لهم أرزاقهم فرجعوا إلى منازلهم وفيها خلع على مونس للخروج إلى الثغر لأن ملك الروم دخل سميشاط وضرب في مسجد الجامع بالنواقيس وصلى فيه الروم صلواتهم.

وفيها ظهرت وحشة مونس المظفر

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن خادماً من خدم المقتدر باللّه حكى لمونس أن المقتدر تقدم إلى خواص خدمه بحفر زُبية في الدار المعروفة بدار الشجر من دار السلطان حتى إذا حصل مونس فيها عند الوداع إذا أراد الخروج إلى الثغر حجب الناس وأدخل مونس وحده إلى ذلك الصحن فإذا اجتاز على تلك الزبية وهي مغطاة وقع فيها ونزل إليه الخدم وخنقوه ويظهر أنه وقع في سرداب فمات. فامتنع مونس من دار السلطان وركب إليه جميع القواد والغلمان والحاشية وعبد اللّه بن حمدان وإخوته وأكثر العرب وخلت دار

السلطان من الجند. وقال عبد اللّه بن حمدان: نقاتل بين يديك أيها الأستاذ إلى أن تنبت لك لحية. فوجه إليه المقتدر بنسيم الشرابي ومعه رقعة بخطه إليه يحلف له فيها على بطلان ما بلغه فصرف مونس جميع من اجتمع إليه من الجيش وأجاب عن الرقعة بما يجب في مثل ذلك وأنه لا ذنب له في حضور من حضر عنده لأنه لم يستدعهم. وامتنع ابن حمدان من الانصراف وحلف أنه لا يبرح من دار مونس ليلاً ونهاراً إلى أن يركب معه إلى دار السلطان ويطمئن إلى سلامته ولازم مونساً أياماً كثيرة. وانضاف إلى ذلك أن إسحاق بن إسماعيل كان يسبب عليه مال مونس ومال رجاله فبلّح فيها. وكان علي بن عيسى متنكراً له لأشياء بلغته عنه في غيبته فشغب الفرسان لتأخّر أموالهم فجد علي بن عيسى بإسحاق بن إسماعيل واعتقله وأخذ خطه بخمسين ألف دينار من مال ضمانه واعتقل أحمد بن يحيى الجلخت كاتبه وعدّة من أصحابه حتى استوفى ذلك ثم صرفه عن أعماله.

وجدّ بعمال السواد حتى صح له في مدة ثلاثة أيام ما أنفقه في أصحاب مونس. وكتب المقتدر إلى جماعة من وجوه القواد بأنه قد صفح عما كان منهم في نهب الثريا وإحراقها وقرئت عليهم فشكروا وسألوا أن يضم جماعة منهم ممن اتهم بذلك إلى مونس المظفر لينحدر معهم إلى حضرته فانحدر معهم ووصل إلى المقتدر باللّه وقبل الأرض بحضرته وحلف المقتدر له على صفاء نيته وودّعه مونس.

وقرأ عليه علي بن عيسى كتاباً ورد عليه من وصيف البكتمري بأن المسلمين عقبوا على الروم وظفروا بهم وبجميع من في عسكرهم وقتلوا منهم وغنموا غنائم جليلة. وخرج مونس من داره إلى مضربه بباب الشماسية وشيَّعه الأمير أبو العباس والوزير علي ابن عيسى ونصر الحاجب وهارون بن غريب.

وورد رسول ملك الروم ومعه كتاب من وزير الملك وهو اللغثيط إلى الوزير علي ابن عيسى يلتمس فيه الهدنة

ظهور الديلم

وفي هذه السنة ظهر الديلم وكان أول من غلب على الريّ منهم بعد خروج ابن أبي الساج منها ليلى بن النعمان ثم ماكان بن كاكي ودخل هذا الرجل في طاعة صاحب خراسان لأنه كتب إليه واستدعاه فمضى إليه وغلب على الريّ أسفار بن شيرويه وكان مرداويج بن زيار أحد قواده. وكان أسفار بن شيرويه لما غلب على قزوين ألزم أهلها مالاً جليلاً وعسفهم عسفاً شديداً وخبطهم وأحل بهم من تسليط الديلم على مهجهم وأموالهم واستباحتهم وتعذيب عمالهم ما استعظمه هو في نفسه فضلاً عن غيره ورقت القلوب منه وضاقت النفوس وبلغت الحناجر ويئس الناس من الحياة وتمنّوا الموت

فخرج الرجال والنساء والأطفال إلى المصلّى مستغيثين إلى اللّه تعالى وراغبين إليه في كشف ضرّهم فمضى لهم يومٌ على ذلك.

وأنهى الخبر إلى أسفار فتهاون بالدعاء فلما كان في اليوم الثاني خرج عليه مرداويج فواقعهُ وهزمَهُ فمرّ على وجهه فتبعه يومه أجمَعَ فلم يظفر به ولحقت أسفار مجاعة في اليوم الثاني فأوى إلى رحى طحان في قرية وسأله أن يُطعمه فأخرج إليه خبزاً ولبناً وكان يأكل وأطلّ مرداويج على الموضع فوجد آثار الحافر قد انقطع هُناك فوقف يتأمّل فرأى أكّاراً فتشبّث به وسأله عن أسفار فأنكر وأرهبَهُ فقال له: ما أعرفُهُ ولكني رأيتُ فارساً قد دخل إلى هذه الرحى وكبس مرداويج الموضع فوجده يأكل خبزاً فاحتزّ رأسَهُ وعاد إلى قزوين فسكّن أهلها وتلافاهم وأزال تلك المُطالبة عنهم ووعدهم بالجميل وانصرف عنهم ووهب دعاءهم.

ثم إن مرداويج ذهب فتغلب على الريّ وأصبهان وأساء السيرة بأصبهان خاصّة وتبسّط في أخذ الأموال وانتهاك الحُرم وطغى وجلس على سرير ذهب دونه سرير فضة يجلس عليه من يرفع منه وأقام جندهُ يوم السلام عليه صُفوفاً بالبُعدِ منه وسام مرداويج رجاله الخسف وكانوا يرهبونه رهبة عظيمة وكان يقول: أنا سليمان بن داود وهُؤلاء الشياطين. وكان يغضُّ من الأتراك غضاً شديداً فساءت نيَّاتهم له فطلبوا كيداً يكيدونه به وتمكّنت له في نُفُوس الخاصّ والعامّ البغضاءُ وضجروا منه وضعُفت نفوس أهل مملكته في أيّامه قال وركب يوماً في موكب عظيم وخرج إلى الصحراء وكان ينفرد عن جيشه ويسير وسطاً لا يجسر أحدٌ على القرب منه فكان العالَمُ يتعجبون منه ومن تمرّدِهِ وطغيانِهِ إذ اشتقّ العسكرَ رجلٌ شيخٌ لا يُعرَف على دابة فقال: زاد أمر هذا الكافِرِ واليوم تكفنونه قبل تصرُّمِ النهار ويأخذه اللّه إليه فلحقت الجماعة دهشة وتبلدوا قال أبو مخلد عبد اللّه ابن يحيى: وكنتُ في الموكب فنظر بعض الناس إلى بعض ولم ينطق أحدٌ منهم بحرف ومرّ الشيخ كالريح ثم قال الناس: لِمَ لا نتبعه ونستعيدهُ الحديث ونسألهُ من أين علِمَ أو نأخذه ونمضي به إلى مرداويج لئلا يبلغه الخبر فيلومنا على تركِهِ. فركضوا يميناً وشمالاً إلى كلّ طريق وسبيل في طلبِهِ فلم يُوجَد وكأن الأرض ابتلعتهُ.

ثم عاد مرداويج ولم يلو على أحدٍ ودخل داره ونزع ثيابه ثم دخل الحمَّام وأطال. وكان كورتكين قريباً منه وخصيصهُ يحرسُهُ ويراعيه في خلواته وحمَّامِهِ فأمره أن لا يتبعه وتأخّر عنه مُغضباً. فتمكّن منه الأتراك وهجموا عليه في الحمّام فقتلوه بعد أن مانع عن نفسه وقاتل بكرنيب فضّة كان في يده فشقَّ بعض الأتراك بطنَهُ فلما خرجت حشوتهُ ظنّ أنه قد قتله فلمّا خرج إلى أصحابه قالوا له: أين رأسهُ؟ فعرّفهم أنه قد شق بطنه فلم يرضوا بذلك وعاودوه لِحزّ رأسهِ. فوجدوهُ قد قام على سريرين في الحمام وردّ حشوة

بطنِهِ وأمسكها بيده وكسر جامة الحمام وعاونه قيّم الحمام وهمّ بالخروج من ذلك الموضع إلى سطح الحمَّام فلما رأوه كذلك حزّوا رأسَهُ. فظهر أمرُهُ بين الظهر والعصر بخروج الأتراك الذين كانوا معه إلى رُفقائهم وإخبارهم إيَّاهم بخبرِهِ وركوبِهم إلى الاصطبلات للنهب.

وفيها ارتفع ذكر أبي جعفر بن شيرزاد وعنى به علي بن عيسى ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن ابن شيرزاد كان يكتب لهارون بن غريب وينظر في جميع أموره فأطمع هارون فيه وقُرّف بجنايات عظيمة فقبض عليه يوم الثلاثاء لِثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣١٥ وسلَّمه إلى خادمه مونس وأمره بالتضييق عليه ومنعَهُ من الدواة. فتأخَّرت رُقعته عن أخيه أبي الحسن زَكريا وكان يكتب للخالة على ديوان ضياعها فعرف الخالة صورة أخيه فشكت الخالة ذلك إلى السيّدة فوجهت السيّدة بخادم لها إلى هارون حتى انتزعَهُ من يده وحمله إلى دار السلطان وتقدَّمت بإطلاقه. وخاطب هارون بن غريب علي بن عيسى في أمر ابن شيرزاد وقال له: قد كان اقترض مني للخاقاني أموالاً كثيرة وأخذ بها تسبيبات وفاز بها وقد عمل له المؤمَّل كاتبي بمال عظيم وأنا أرضى بنظر ثقةٍ من ثقات الوزير في العمل. فتقدَّم الوزير علي بن عيسى إلى أبي يوسف كاتب السيدة بالمصير إلى دار هارون وحضر المؤمَّل وكُتَّابه فنظروا في العمل.

فكان أوَّل باب فيه أنه وُجد في دفترٍ من دفاتر ديوانه ثبت ما قبض من التسبيبات التي سبّبها الخاقاني لابن شيرزاد من مال القُروض التي اقترضها من مال هارون بن غريب وقد حكي فيه أنه قبض خمسة عشر ألف دينار وأنه لم يجد هذا المال في ختمات الجهبذ الثابتة في الديوان. وكان كاتب ابن شيرزاد على ذلك الديوان ابن أبي الميمون فقال ابن أبي الميمون: قد صحّ في ختمة الجهبذ ومع صاحبي خطّ الأمير بقبضِه إيَّاه لأنه حمله إلى حضرته وصرفه في ثمن دار المُحسّنِ التي ابتيعت من وكيل الخليفة في وزارة أبي القاسم الخاقاني. فأُخرجت الختمة بعينها فوُجد ذلك فيها ووجد مُحرّر هذه الختمة قد كتب هذا المال كأنّه تفصيل المال المتقدم وكان سبيلُهُ أن يكون مُخرجاً بارزاً عن التفصيل الأوّل فوجد أبو يوسف ومحمد بن جنّي الأمر على ما قال كاتِب ابن شيرزاد وأخرج ابن شيرزاد خط هارون بن غريب بصحَّة هذا المال منسوباً إلى تلك الجهة وأنه أُدّي في بيت المال لِثمن الدار وأُحضر قبضُ صاحب بيت المال به.

ثم نظر في الباب الثاني أن المُطلق للفرسان في عسكر هارون من مالهم فيه الرُبعُ دراهمُ تساوي ستَّة عشر درهماً بدينار وأنه لم يضع الصرف من مال الرجال وأنه يلزمهُ منه في مدّة ولايتهِ كتابة هارون نيفٌ وعشرون ألف دينار. فأخرجوا الختمات فوجدوا

الجهبذ قد احتسب بما صرفهُ في أعطيات الرجال ورقاً من غير أن يُوضَع منه شيء لِفضل الصرف فاحتجَّ كاتب ابن شيرزاد بأن فضل الصرف في ختمةٍ تورد في أصول الأموال في آخر بابٍ من أبواب الأصول وهو ما يتوفر من هذا الباب وغيره من سائر نفقات هارون بن غريب فأخرج ذلك من الختمات.

فلما بطل هذان البابان وهما معظم ما كان في العمل نهض أبو يوسف ومحمد بن جني وقام معهما ابن شيرزاد وأقبل عليه هارون فقال: قد هتكني كاتبي هذا الجاهِل الناقِص قبَّحهُ اللّه وقد جنيتُ على نفسي بصرفك ولكن إن تصرَّفتَ لأحدٍ فعلتُ وصنعتُ... وتهددَه فذهب ابنُ شيرزاد وشرح لعلي بن عيسى ذلك فصار ذلك سبباً لِعناية علي بن عيسى به واشتهر حديثهُ وفاض في الكتّاب.

وفيها ورد الخبر وكتابُ الفارقي من البصرة بأنه قد اجتاز بباب البصرة مما يلي البرية جيش للقرمطي كثير العدد يقصد الكوفة فكتب المقتدر إلى مونس المُظفَّر يأمرهُ بالرجوع إلى بغداد فرجع من تكريت ودخل بغداد بعد صلاة العصر بعد أن أُنفذ قطعة من جيشه إلى الثغر.

وخرج ياقوت إلى مضربه بالزعفرانية متوجهاً إلى عمله بفارس.

وفي هذه السنة قبض يوسف بن أبي الساج على كاتِبه أبي عبد اللّه محمد بن خلف النيرماني وقلَّد مكانه أبا علي الحسن بن هارون وقيَّد محمد بن خلف بقيود ثقالٍ وأخذ منه يوم قبض عليه من المال والفرش والكِسوة والغلمان ما قيمته مائة ألف دينار وأخذ خطَّهُ بخمسمائة ألف دينار مُصادرة عن نفسه.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك ما استعمله بواسط من السرف في التكبر والتجبر والتوسُّع في النفقات حتى أنه جعل في داره بواسط في شراب العامة ثلاثين غلاماً وفي شراب الخاصة عشرين غلاماً وكان يخرج من داره إلى دار صاحبه يوسف ويبكر إليه جميع قوّاد ابن أبي الساج ورُؤساء غلمانِه ورؤساء العمال ويسلمون عليه كما يفعل الناس ببغداد بالوزراء في أيام المواكِب. وكان قبل ذلك في مسير ابن أبي الساج من الريّ إلى واسط قد لبس القباء والسيف والمنطقة إلا أنه لم يكن يركب إلى دار صاحبه بسواد فرقاً بينه وبين وزير السلطان واحتمله ابن أبي الساج على ذلك. ثم أطمع نفسه أيام مقامه بواسط في الوزارة للسلطان وتبين عداوة نصر الحاجب لابن أبي الساج فكاتَبه ووجه إليه بِمن يثق به يلتمس منه أن يشير على المقتدر بتقليده الوزارة مكان علي بن عيسى وضمن أن يستخرج من علي بن عيسى وأخيه وسليمان بن الحسن وأبي زنبور المادرائي والكلوذاني

وأسبابهم ألف ألف دينار. ويقوم بنفقات السلطان وأرزاق الأولياء.

وسعى بصاحبِهِ وقال إنه كان يستر عنه مذهبَهُ في الدين وأنه لما سار إلى واسط أنِس به وانبسط إليه فكشف له أنه يتديَّن بأن لا طاعة عليه للمقتدر ولا لبني العباس على الناس طاعة وإن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان وإن أبا طاهر الهجري صاحبُ ذلك الإمام وأنه قد صح عنده أنه يتديَّن بدين القرامطة وأنه إنما صير العَلَوي مُتحققاً به وبجميع أسراره بهذا السبب وأنه ليس له نية بالخروج إلى هجر وأنه إنما يحتال بالوعد بالخروج إلى هجر حتى يتمَّ له أخذ الأموال وأنه قال له في شهر ربيع الآخر: أي شيءٍ بقي لنا على الخليفة ووزيره من الحجة ولِمَ ليس تخرج إلى هجر ولا أراك تستعدّ لذلك. فقال له في الجواب: لِمَ لا تكون لك معرفةٌ بالأمور من في نيَّتِهِ الخروج إلى هجر، وأنه قال له: فلِمَ غررت السلطان من نفسك ووعدتَهُ بهذه الحال حتى سلَّم إليك جميع أعمال المشرق فأجابه بأنه يرى انتقاض الخليفة وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق فرضاً لِلَّه عزَّ وجلَّ عليه وإن طاعته طاغية الروم أصْلَح من طاعته الخليفة وأنه قال فهبك فعلت ذلك ما الذي يؤمنك من القرمطي أن يوافي إلى واسط وإلى الكوفة فلا تجد بدّاً من لقائه ومحاربتِه؟ فقال في الجواب: ويحك كيف أحارب رجلاً هو صاحب الإمام وعدّة من عدده! فقال له: فإن أراد هو حربك أيّ شيءٍ تعمل؟ فقال له: ليس لهذا أصلٌ وقد ورد عليه كتاب الإمام من القيروان بأن لا يطأ بلداً أكون فيه ولا يحاربني بوجه ولا سبب. وأنه ختم القول بأن قال: إني إنما أنتظر أن يقبض رجالي بأسرهم أموال سنة ٣١٤ فإذا قووا بذلك منعت أولاً من أعمال واسط والكوفة وسقي الفرات وأنفذت إليها العمال فلا بدّ للسلطان أن ينكر حينئذٍ ما أفعله فأكاشفه وأخطب للإمام وأظهر الدعوة وأسير إلى بغداد فإن من بها من الجند قوم يجرون مجرى النساء قد ألفوا الدور على دجلة والشراب والثلج والخيش والمغنيات فآخذ نعمهم وأموالهم ولا أدع الهجري يفوز بالاسم وأكون أنا سائق الدولة إلى الإمام فإن أبا مسلم خراز النعال لم يكن له أصلٌ وقد بلغ ما بلغ ولم يكن معه لما ارتفع النصف ممَّن معي وما هو إلا أن أظهر الدعوة حتى قد اجتمع مائة ألف ضارب سيف ويقول محمد بن خلف: قد صدقت أمير المؤمنين عن هذا الأمر فإن ولاني الوزارة انقمع ابن أبي الساج وبطل عليه تدبيره. وأخبب حينئذ رجاله وغلمانه فإما أسروه وإما هرب طائراً على وجهه إلى أذربيجان فإني إذا وليت الوزارة جدّدت به في المطالبة بالخروج إلى هجر فإن كاشف دبَّرت عليه.

فأنهى نصر الحاجب كلَّه إلى المقتدر وعرّفه أن محمد بن خلف قد كتب إليه يحلف له على أنه ما حملَهُ على هذا الفعل إلاّ الغضب للدين أوّلاً ثم الأنفة من أن يتمّ لهذا القرمطي على الخليفة وسائر الخاصّة والعامَّة ما دبَّرهُ. وكان الحسن بن هارون

يخلف محمد بن خلف ويقف دائماً بين يديه على رِجله ويخدمُه كما يخدم ابن أبي الساج فلما رأى اختصاصَهُ بابن أبي الساج تنكّر له وعمل على القبض عليه وإتلافه وأظهر ذلك لأبي بكر بن المُنتاب وكان قد اختصّ به وغلب عليه. فاتّفق أن شرب ابن المُنتاب مع جماعةٍ من إخوانهِ بواسط وفيهم عبد اللّه بن علي الجَرجَرائي عامِل الصلح والمبارك فسأله عبد اللّه بن علي أن يشكر له أبا علي الحسن بن هارون لما يوليه من الجميل وقال له: تعرضُ لي رُقعةً على سيّدنا أبي عبد اللّه محمد بن خلف أسأله فيها أن يُعرّفه شكري ويأمره بالزيادة فيما شكرتُهُ عليه. فقال له ابن المُنتاب: اتّقِ اللّه في نفسك ولا تفعل فإن أبا عبد اللّه على غاية التنكُّر لِلحسن بن هارون ولن يبعد أن يقبض عليه ويبلغه فحفظ ذلك عبد اللّه بن علي وتقرب به إلى الحسن بن هارون. ووقعت بين محمد بن خلف وبين عبد اللّه بن علي مُماحكة فيما سُبِّب عليه لقوم يعتني بهم محمد بن خلف فشتمهُ محمد بن خلف وهدَّدهُ وأمر بإخراجهِ من مجلسه على أقبَح صورةٍ. فاجتمع عبد اللّه بن علي والحسن بن هارون على التدبير على محمد بن خلف ونصبا عليه أصحاب الأخبار إلى أن وقفا على ما عملَهُ في السعي في تقلُّد الوزارة للمقتدر وسعايته بصاحبِهِ فاطلع عبد اللّه بن علي بن أبي الساج على ذلك وتقرّب إليه. فنصب يوسف بن أبي الساج أصحابَ أخبارٍ على محمد بن خلف إلى أن وقف على أن خادماً له يثقُ به قد أنفذه دفعاتٍ إلى بغداد وأظهر أنه إنما ينفذه لابتياع كِسوةٍ وفرشٍ ودواب وغلمان له وأنه هو السفير بينه وبين نصر الحاجب في التدبير على ابن أبي الساج. فتقدّم ابن أبي الساج إلى عبد اللّه بن علي في أخذ الطُرُق على هذا الخادم وإلى الحسن بن هارون بمراعاة الوقت الذي ينفذ فيه الخادمَ فلما نُفذ من واسط عرّفهُ الحسنُ ذاك فوجّه بثقاته وأمرهم أن يرصدوا الخادمَ في الطريق فإذا عاد من بغداد قبضوا عليه وسلّموه إلى صاحب عبد اللّه بن علي بجرجرايا وتقدّم إلى عبد اللّه بن علي بأنِ يوجّه بمن ينتظره بجرجرايا. وأنفذت الكُتُب التي معه إلى ابن أبي الساج فوجدها بخطّ كاتِبِ نصرٍ جوابات عن كُتُب محمد بن خلف إليه تدلّ على إشارات ورموز وتراجم وفيها كلّ مكروه وسعى على دم ابن أبي الساج وحالهِ وإطماع في مالهِ وحالهِ وتحذير من تأخُر القبض على عليّ بن عيسى. فبادر ابن أبي الساج في إنفاذ الحسن بن هارون إلى الحضرة بكتب ورسائل إلى علي بن عيسى على رسمهِ ووجّه بتلك الكُتُب بعينها وقال له: تقول للوزير عني: قد سعى هذا الرجل على دمي ودمك ودماء أصحابك وأريد أن أقبض عليه وأكثر ذنوبه عندي سعيهُ عليك. فلما وقف علي بن عيسى على جميع كُتبهِ ورسائلهِ تعجّب وقال له: تقول لأخي أبي القاسم: إن كنتَ تريد أن تفعل ذلك لتُرِيح نفسك من هذا الرجل الخائن المُستحلّ فاللّه يوفقك ويُحسِن معونتك وإن كنتَ تفعل هذا بسببي فواللّه ما أشكرُ أحداً كما أشكرُ من يسعى في صرفي عن الوزارة فالحبس والنفي أسْهَل ممَّا أقاسيه منها.

وزوّر عبد اللَّه بن علي عن الخادم كُتباً على أنها من بغداد إلى محمد بن خلف بأنه «قد أحكم أكثر ما تحتاج إليه وأنه سريع العود إلى واسط» فسكنت نفس محمد بن خلف إلى ذلك. وصار عبد اللَّه بن علي إلى محمد بن خلف وترضّاهُ وبذل له أن يحمل إليه من ماله مائة ألف درهم مرفقاً ليزول ما في نفسه عليه فظنّ محمد بن خلف أن ذلك صحيحٌ ودعا عبد اللَّه بن علي وواكلهُ وشاربَهُ.

ولم يلبث الحسن بن هارون أن عاد من بغداد فبدأ بدار محمد بن خلف ووقف بين يديه فقال محمد بن خلف: يا عاضّ قد بلغني أنك شنَّعتَ عليَّ عند علي بن عيسى وذكرتَ له أني أطلب الوزارة مكانَهُ وأنك مع ذلك قد ضربتَ عليَّ حاشية الأمير وغلمانَهُ واللَّه يا كلب لأَضربنك خمسمائة سوطٍ ولآخذنّ منك ثلاثين ألف دينار قد أبطرَتْك. والحسن بن هارون لا يزيد على أن يقول له: اللَّه بيني وبين من أغرى مولاي ومن أنا عبده وغرسهُ. ومحمد بن خلف يشتمهُ إلى أن قال له: لقيت الأميرَ. فقال الحسن بن هارون: ما لقيتُهُ بعد. فقال له: فامضِ إلى لعنة اللَّه فالقَهُ وعُد إليَّ فمضى إلى ابن أبي الساج وشرح له جميع ما وقف عليه من سعي محمد بن خلف عليه وما خاطبَهُ به لما لقِيهُ بعد قدومهِ من بغداد.

فقال ابن أبي الساج لخازنه الذي يتسلَّمُ من محمد بن خلف: الأموال المحمولة إليه التي ينفقُها في رجالهِ وغلمانهِ ونفقاتهِ: قد كنتَ أحضرتَني مُنذ مدّة مالاً نصفه غَلَّة ودراهم بهرجة وخُراسانية وذكرت أن ابن خلف حملهُ إليك لِتنفقهُ في الأولياء وغيره وذكرتَ أن الأمر مُسرفٌ في فضل الصرف وأنه كثير فعرّفني الآن الحال فيما يحملُهُ إليك. فقال: الذي يحمله الآن شرٌّ من كلّ ما تقدّم وقد أخرجتُ من مائة ألف درهم حملها اليوم ألف وخمسمائة درهم جديد وألفي درهم صحاح لا سيّئة واثنين وأربعين ألف درهم غَلّة ردية. وعظم عليه الأمر في فضل الصرف في ذلك فقال له: فإذا حضر محمد بن خلف العشيَّة فادخل إليّ واحمل المال كهيئته وعرّفني أن جميع غلماني ورجالي قد فسدت نيّاتهم بهذا السبب. ففعل الخازن ذلك فقال ابن أبي الساج: يا أبا عبد اللَّه أنت تعلم أن هذا المال لا يجوز لأحدٍ أن يقبض مثلَهُ وإذا فوتَ رجالي شهراً وأعطيتَهم مالاً جيداً أو مُقارباً لِلجودة كان أصلح من هذا. فغضب محمد بن خلف وقال له: ما جرَّأ هذا الكلب على خطابي بحضرتك في هذا الباب إلاّ لأنه قد وقف على فساد رأيك فيَّ وإنما أفسدك عليّ من قدّر أن يتولّى كتابتك وهو هذا العلج الحسن بن هارون وأهوّن به وبهذا الخازن وبجميع غلمانك ورجالك عليّ وأنا عقدتُ لك هذه الحال وهذا الأمر والآن فواللَّه لا نظرتُ في شيء من أمرك فاعمل ما شئت.

ونفض يده في وجهه وخرج من مجلسه فجعل ابن أبي الساج يحلف عليه أن يعود

فلا يفعل ويحلف أنه لا يرجع. فلما طال ذلك بينهما وبلغ أن يعطف إلى دهليز يغيب به عن عينه قال ابن أبي الساج لِغلمانِه: ضعوا أيديكم في قفا الكلب اللأّحد الخنزير فاسمعوني صوتَهُ بالصفع. فصُفع نحو من مائة صفعة وأخذ سيفهُ ومِنطقتُهُ. واستدعى ابن أبي الساج عبد اللّه بن علي وأحضر لِلوقت فوجّه به إلى دار محمد بن خلف ليحفظها ويقبض على سائر غلمانه وأسبابه وخزائنه. وكان عبد اللّه بن علي مشهوراً بالعفاف والثقة وتقدم إلى الحسن بن هارون بأن يتقلّد كتابته مكانه واستحلفه أن يدخل إلى الحجرة التي اعتُقل فيها ويقيّده بخمسين رطلاً ويلبسه قميص باياف ففعل به الحسن ابن هارون ذلك فقال له: يا محمد بن خلف أخبرني أغرّك أني أقول لك «يا مولاي» إنما كنتُ أسخر منك أيّنا كان أبعد غوراً وتدبيراً أنا أم أنت؟ وأخذ الحسن بن هارون خطَّهُ بستمائة ألف دينار بعد أن أهانهُ وصفعهُ وضربهُ بالمقارع فأدّى نحو خمسين ألف دينار إلى أن رحل ابن أبي الساج من واسط إلى الكوفة لِمحاربة الهِجري وحملهُ معه مُقيَّداً وشُغل عنه بالحرب وأسر فأفلَت محمد بن خلف.

ذكر وقعة ابن أبي الساج مع القرمطي وما استعملهُ من ترك الحزم واستهانته بالعدوّ حتى أسر وما اتفق عليه بعد الأسر حتى قُتل

كتب يوسف بن ديوداذ من واسط إلى الوزير أبي الحسن علي بن عيسى يلتمس منه حمل مال إليه ليصرفهُ فيما يحتاج إليه من إعداد الأنزال والعُلوفات بين واسط والكوفة ويحتجّ بأن أموال المشرق متأخّرة عنه وأن الأمر ليس يحتمل مع قرب مُوافاة الهِجري بأن ينتظر ورود مال من الجبل ويقول إنه لا يُقنعه لذلك أقل من مائة ألف دينار. فعرض علي بن عيسى كتابَهُ على المقتدر فتقدم بأن يحمل من بيت مال الخاصَّة سبعون ألف دينار ويُنفَذ إليه.

وورد الخبر بخروج أبي طاهر من هجر بنفسه يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان فنزل في الموضع المعروف بالحس وبينه وبين الإحساء مسيرة يومين وأقام به إلى يوم السبت ورحل من غد. وكتب السلطان إلى ابن أبي الساج بما ورد من خبره ويأمره بالمبادرة إلى الكوفة. وكتب علي بن عيسى إلى عُمّال الكوفة بإعداد الميرة والعُلوفات ليوسف. وسار يوسف من واسط يوم الأربعاء لليلة بقيت من شهر رمضان نحو الكوفة وعاد سلامة الطولوني منصرفاً من عنده وكان حمل إليه المال.

ولما قرُب أبو طاهر الهجري من الكوفة أطلق جميع من كان معه من أسارى الحاجّ وهرب عُمّال السلطان من الكوفة فأخذ أبو طاهر جميع ما أعدّ ليوسف من المير

والعُلوفات وهو مائة كرّ دقيقاً وألف كرّ شعيراً وقد كان خفّ ما مع أبي طاهر من الميرة ولحقَهُ وأصحابه شدة فقَوِي ومن معه بما صار إليهم. ووافى يوسف إلى ظاهر الكوفة يوم الجمعة لثمان خلون من شوّال وقد سبقه أبو طاهر إليها بيوم واحد فحال بينها وبينه.

وحكي عن أبي طاهر أنه قال إن عسكره قرُب من عسكر يوسف في الطريق بين واسط والكوفة؟ وكان يوم ضباب فلم ير أحدُهما صاحبهُ وأنه أحسّ به ولو شاء لأوقع به. ووجّه يوسف إلى أبي طاهر يدعوه إلى الطاعة فإن أبى فإن الوعد للحرب يوم الأحد. فحكى الرسول أنه لما صار إليه حُمل إلىٰ موضع فيه جماعة متشاكلو الزيّ وقيل له: تكلّم فإن السيّد يستمع. ولم يعرف من هو منهم فأدّى الرسالة فأجيب بأنه غير مُستجيب لِما دعاهُ إليه ولا لِتأخير المُناجزة فكانت الحرب بينهما يوم السبت لِتسع خلون من شوّال سنة ٣١٥ على باب الكوفة. فيقال إنه ابن أبي الساج لما عاين عسكر أبي طاهر ووقف على عِزّته أزرى عليه واحتقرهُ وقال: مَن هؤلاء الكلاب؟ هؤلاء بعد ساعة في يدي. وتقدّم بأن يكتب كتاب الفتح قبل اللقاء تهاوناً به وزحف كلّ واحد منهُما إلى صاحبه.

فلما سمع الهجريّ صوت البوقات والدبادب والزعقَات عن عسكر ابن أبي الساج وكانت عظيمة جدّاً التفت رجل منهم إلى رفيق له وهو يُسايرهُ فقال له: ما هذا الزَجَل؟ فقال له رفيقهُ: فَشَلٌ، فقال له: أجل. ما زادَه لفظة ورسم عسكر أبي طاهر أن لا تكون فيه بوقات ولا دبادب ولا صياح. وعبّى ابن أبي الساج رجالَه وانفرد هو مع غلمانه على عادة له في الحرب وكان ابتداء الحرب بينهُما مذ ضحوة نهار يوم السبت إلى وقت غروب الشمس. وما قصّر ابن أبي الساج في الثبات وأثخن أصحاب أبي طاهر بالنُشاب وجرح منهم خلقاً فلما رأى أبو طاهر ذلك وكان واقفاً في عمّاريةٍ له مع من يثق به من أصحابه نحو مائتي فارس بالقرب من حيطان الحِيَز نزل من العمَّارية فركب فرساً له وحمل بنفسه مع ثقاته وحمل يوسف بنفسهِ وغلمانهِ عليه واشتبكت الحرب بينهُما فأُسر ابن أبي الساج آخر النهار وبه ضربه على جبينه بعد أن اجتهد به غلمانه أن ينصرف فامتنع عليهم وحصل أسيراً في يد أبي طاهر مع جماعة من غلمانه بعد أن قُتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ وانهزم الباقون.

ولما أُسر يوسف وقت المغرب حُمل إلى معسكر أبي طاهر وضُربت له خيمة وفُرش له فيها ووكل به. وأحضر رجل مُعالج يعرف بابن السُبيعي فقال ابن السُبيعي هذا: لما دخلتُ إليه إلى الخيمة التي حُبس فيها وجدته جالساً وعليه دُرّاعة ديباج فِضّي وجُرّبانها ولبنتها من ديباج أحمر وقد تلوّنت بالدم الذي سال من الضربة التي في جبينه. ووجدت الدم قد جمد على وجههِ فالتمست ماءً حارًا فقال لي بعض أصحاب أبي طاهر: والله ما ذاك عندنا ولا عندنا ما يُسخن فيه. وكانوا خلّفوا سوادَهم بالقُرب من

القادسيَّة وتجردوا لِلقتال فغسلتُ وجهه بماء بارد وغسلت موضع الضربة وعالجتُه. وسألني عن اسمي وبأيّ شيء أعرَف فذكرتُ له ذلك فوجدته يعرف أهلي أيَّام كان بالكوفة وهو صبيّ مع أخيه الأفشين وكان يتقلّد الكوفة. فعجبتُ من ذِكره وفهمهِ وقلَّة اكتِراثهِ بما هو فيه.

وورد خبر الوقعةِ وأسْرِ ابن أبي الساج على علي بن عيسى فراح إلى دار السلطان واجتمع مع نصر الحاجب ومونس المُظفَّر على إنهاء الخبر إلى المقتدر باللّه. وانتشر الخبر فدخلت الخاصَّةَ والعامَّةَ لأبي طاهر هيبةٌ عظيمةٌ ورهبة شديدة. وعملت الجماعة على الهرب إلى واسط ثم إلى الأهواز وابتدأ المنهزمون بالدخول إلى بغداد وأخرج مونس المظفَّر مضربه إلى ميدان الأشنان وخرج على أن يمضي إلى الكوفة. وورد كتاب العامِل بقصر ابن هبيرَة على علي بن عيسى بأن أبا الطاهر وأصحابه رحلوا عن الكوفة يوم الثلاثاء لاثني عشرة خلت من شوَّال قاصدين عين التمر وورد كتابه بعد ذلك بنزولهم عين التمر. فبادر علي بن عيسى باستئجار خمسمائة سميريَّة وجعل فيها ألف رجل ومعها عِدّة من شذاءات وطيارات وحوّلها من دجلة إلى الفرات وفيها جماعة من الغلمان الحجريَّة لمنع الهجري من عبور الفرات وتقدَّم إلى جماعةٍ من القوَّاد بالمسير على الظهر من بغداد إلى الأنبار لِضبطِها.

فلما كان يوم الجمعة رأى أهل الأنبار ومنَ بها من القوَّاد خيلَ أبي طاهر مقبلةً من الجانب الغربي فبادروا إلى قطع جسر الأنبار وأقام أبو طاهر إلى أن أمكنه العبور بالسفن فعبر يوم الثلاثاء نحو مائة رجل ولا يعلم بهم أصحابُ السلطان إلى أن حصلوا بالأنبار ونشبت الحرب بينهم وبين جماعة من القوّاد. فلمّا خلا البلد من أصحاب السلطان عقد أبو طاهر جسرَ الأنبار وعَبَر وخلّف سوادَهُ في الجانب الغَربي وفيه ابن أبي الساج. ولما علم من في الشذاءات من أصحاب السلطان أن أبا طاهر قد عقد الجسر ساروا إليه بالليل فضربوه بالنار فبقي أبو طاهر في جماعة من أصحابه في الجانب الشرقي من الفُرات وسواده في الجانب الغربي منه وحالت الشذاءات والطيّارات بينهم. ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار وقتله من بها من القُوّاد خرج نصر الحاجب ومعه الحجريّة والرّجالة المصافيّة وجميع من كان بقي ببغداد من القوّاد وبين يديه عَلَمُ الخلافة وهو شبيه باللواء أسودُ وعليه كتابة ببياض «محمد رسول اللّه».

وكان مونس قد صار بباب الأنبار واجتمع مع نصر وكان عدد من معهُما من الفُرسان والرجّالة وغيرهم يزيد على أربعين ألف رجل. وخرج أبو الهيجاء ومن إخوتِهِ أبو الوليد وأبو العلاء وأبو السرايا في أصحابه وإعرابه وسار نصرٌ وسبق مونساً على قنطرة النهر المعروف بِزُبارا بناحية عقرقوب على نحو فرسخين من بغداد ولَحق به

مونسٌ واجتمعا على النهر. وأشار أبو الهيجاء على نصر الحاجب بقطع قنطرة نهر زُبارا وألحّ عليه في ذلك فلما رآه يتثاقل عن قبول رأيه قال له: أيها الأستاذ اقطعها واقطع لحيتي معها. فقطعها حينئذٍ.

وسار أبو طاهر ومَن حصل معه من أصحابه من الجانب الشرقي من الفرات قاصدين نهر زُبارا فلما صار على فرسخ واحد من عسكر السلطان آخر يوم الاثنين لِعشر خلون من ذي القعدة بات بموضعه ليلته وباكر المسير إلى قنطرة نهر زُبارا. وتقدّم من رجّالته راجلٌ أسود يقال له صُبح فكان أمام عسكره فما زال نُشّاب أصحاب السلطان تأخذه وهو يتقدم ولا يهوله وقد صار بالنُشَّاب كالقُنفُذ فلما صار إلى القنطرة ورآها مقطوعة رجع وما زال أصحاب أبي طاهر يمتحنون غورَ الماء في النهر فلمّا علموا أنه ليس يُخيض انصرفوا راجعين القهقرى من غير أن يولّوا ظُهُورهم وصاروا إلى الحسينية فوجدوا الماء قد أحاط به لأن نصراً ومونساً وجها قبل ذلك بمَن بثق هناك بُثوقاً كباراً فصار ماء المخر محيطاً بعسكر أبي طاهر. فأقام هناك يوم الثلاثاء وسار هو وأصحابهُ إلى الأنبار ولم يجسر أحدٌ من أصحاب السلطان أن يتبعُهُ أو يُصلح قنطرة زُباراً أو يعبُرها. وكان ما أشار به أبو الهيجاء من قطع هذه القنطرة توفيقاً من اللّه فإنها لو كانت صحيحة لعبر أصحاب القرمطي عليها وما هالَهُم وفور عسكر السلطان ولانهزم أصحاب السلطان وملك القرمطي بغداد. وذاك أن أكثر أصحاب السلطان كروا إلى بغداد منهزمين لمّا بلغهم وصول أبي طاهر إلى النهر من غير أن يروهم أو يقع عينٌ عليهم لعظيم ما تداخل القلوب من الرعب بعد الحارث بابن أبي الساج ولم يحدّث أحدٌ نفسه بعد ذلك أن يجوز له أن يثبت في وجهه.

وكان مع أبي طاهر جماعة من الأدلاَّء فعدلوا به عن المخر وسار نحو الأنبار ولما ولّي أبو طاهر وأصحابُهُ عن موضع العسكر بزُبارا ارتفع التكبير والتهليل من أصحاب السلطان ليذيع الخبر به وبادر أصحاب الأخبار إلى علي بن عيسى بالسلامة وبانصراف أبي طاهر ورجوعهِ إلى الأنبار وبأنه لا طريق له ولا مخاضة ولا حيلة في الوصول إلى مُعسكر عسكره ولا إلى نواحي بغداد. وطمع مونس في الظفر بسواده وباقي رجاله الذين خلّفهم في الجانب الغربي من الأنبار وفي تخليص ابن أبي الساج فأنفذ يلبق حاجبَهُ وجماعة من القوّاد ومن غلمان ابن أبي الساج في ستّة آلاف رجل وظنوا أنه لا يتم لأبي طاهر العبور إلى خيلهِ وسواده وبلغ أبا طاهر ذلك فاحتال حتى انفرد عن رجالهِ ومشى مشياً طويلاً حتى خرج عن الأنبار إلى الصحراء التي تتصلُ بالفرات ثم عبر في زورق صيادٍ يقال إنه دفع إليه ألف دينار حتى عبر به إلى سواده فلما حصل في سواده واجتمع مع أصحابه حارب يلبق ومن معه فلم يثبت له يلبق وانهزم ومن معه وقتل

جماعة من أصحابه. وبصر أبو طاهر في الوقت بابن أبي الساج وقد خرج من خيمته التي كان معتقلاً فيها متطلعاً إلى الطريق لينظر ما يكون من حال الوقعة فوقع له أنه أراد أن يهرب فدعا به إلى حضرته وقال: أردت الهرب. ويقال إن غلمانه كانوا نادوه فقال له القرمطي: طمعتَ أن يخلّصك غلمانك. فأمر به فضربت عنقه بحضرته وضرب أعناق جماعةٍ كانوا في الأسر.

واحتال بعد ذلك أبو طاهر حتى عبر جميع أصحابه الذين كانوا معه في الجانب الشرقي من الفرات بالأنبار فحصلوا معه في الجانب الغربي الذي يلي البريّة. وعاد يلبق منهزماً مفلولاً إلى مونس المظفر.

وحكى أبو القاسم بن زنجي أنه كان عدة أصحاب أبي طاهر ألف وخمسمائة رجل منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل وأنه عرف ذلك من رجل أنباريّ كان يقيم له ولِرجاله الخبر وقد قيل إنهم كانوا الفي وسبعمائة قال: وسمعت بعض مستأمنة أبي طاهر وقد سُئل عن السبب في سرعة هزيمة أصحاب السلطان وثباتهم هم فقال: السبب في ذلك أن أصحاب السلطان يُقدّرون أن السلامة في الهرب فيقدّمونَهُ ونحن نقدّر أن السلامة في الصبر فنثبت ولا نبرح.

ورتب علي بن عيسى بين بغداد ونهر زُبارا المرتبين وسلم إليهم مائة طير إلى مائة رجل منهم يكتبون على أجنحتهم كتباً بخبر العدو في كلّ ساعة. وكان السبب في سلامة بغداد وأهلها يوم قصد القرمطي زُبارا مع كثرة العيارين والمتشبهة بالجند وتشوُّفهم إلى النهب أن علي بن عيسى تقدّم إلى نازوك بمواصلة الركوب والتطواف في جميع جيشهِ كلَّ يوم غدوةً وعشية في الجانبين ففعل ذلك ثم تقدم إليه في يوم مُوافاة أبي طاهر إلى نهر زُبارا أن يُبكّر إلى باب حرب بجميع جيشه ويُقيم فيه إلى وقت العتمة وأن يُواصل النداء في الجانبين بأنه: من ظهر من العيارين والمتشبهة بالجند ومن وُجد معه حديدٌ ضرب عنقهُ. فانجحر العيارون وأغلق أهلُ باب المحوّل ونهر طابِق والقلائين وغيرهم دكاكينهم وتحرَّز الناس فنقلوا أمتعتهم إلى منازلهم. وأما وجوه الناس فأكثروا الزواريق وجعلوها في الشوارع في دجلة ونقلوا إليها أمتعتهم ومنهم من حدرها إلى واسط. ونقل قومٌ من المجهَّرين أمتعتهم إلى حلوان ليحمل إلى خراسان مع الحاج ولم يكن عند أحد من الخواصّ والعوامّ شكٌّ في أن القرمطي يملك بغداد. وأقام نازوك في ذلك اليوم كما رسم له علي بن عيسى على ظهر دابّته من أول النهار إلى أن مضى صدر من الليل لا ينزل هو ولا أحد من أصحابه عن دوابّهم إلا للصلوات وضربت له ولهم الخِيَم فنزلوها بالليل وكان ذلك سبباً لسلامة البلد.

وقصد القرمطي إلى هِيت وبادر هارون بن غريب وسعيد بن حمدان إلى هيت لدفعه

عنها فسبقا القرمطي إلى هيت وصعدا إلى سورها وقويت بهما قلوب أهل هيت فلمّا وصل القرمطي إليها قاتلوهُ بالمنجنيقات فقُتل من القرامطة جماعةٌ وانصرف أبو طاهر عنها. وورد الخبر بذلك إلى بغداد فسكنت النفوس واطمأنّت القلوب وتصدّق المقتدر والسّيدة لمّا بلغهُما خبر انصرافه بمائة ألف درهم. وكان مونس ونصر أحضرا جرائد جميع الرجال الذين اجتمعوا على نهر زُبارا مما يلي بغداد سوى الأعراب فوجدوهم اثنين وأربعين ألف رجل سوى غلمانهم وأسبابهم فإنهم كانوا أضعاف هذه العِدّة.

وكان علي بن عيسى لما بلغه أسرُ ابن أبي الساج بادر في الوقت إلى المقتدر وقال له: إنّما جمعَ الخلفاء المتقدّمون الأموالَ ليقمعوا بها أعداء الدين والخوارج وليحفظوا بها الإسلام والمسلمين ولم يلحق المسلمين مُنذ قُبض النبي ﷺ شيء أعْظَم من هذا الأمر لأن هذا الرجل كافرٌ وقد أوقع بالحاج في سنة ٣١٢ فجرى ما لم يُعهَد مثلُهُ وقد تمكّنت له هيبة في قلوب الأولياء والخاصّ والعامّ. وإنما جمع المعتضد والمكتفي في بيت مال الخاصة ما جمعوا لِمثل هذه الحوادث والآن فلم يبق في بيت مال الخاصّة كبير شيء فاتّقِ اللّه يا أمير المؤمنين وتخاطِب السيّدة فإنها ديّنة فاضلة فإن كان عندها مالٌ قد ذخرته لِشدّة تلحقها أو تلحق الدولة فهذا وقت إخراجهِ وإن تكن الأخرَى فاخرجْ أنت وأصحابك إلى أقاصي خراسان فقد صدقُك ونصحتُك. فدخل إلى والدته ثم عاد فأخبر أن السيّدة استرأتهُ وأمرت بإخراج خمسمائة ألف دينار من مالها إلى بيت مال العامة لِينفَق في الرجال. وسأل علي بن عيسى عن مقدار ما بقي في بيت مال الخاصة من المال فعرّفَهُ علي بن عيسى أن فيه خمسمائة ألف دينار.

وتجرّد علي بن عيسى لحفظ الأموال وتقدّم ألاّ يُضيَّع منها درهمٌ واحدٌ في قضاء الذمامات وجَمَع أموال النواحي وأنفذ المُستحثين إلى العُمّال فاجتمعت له جملة أخرى. وتنصّح إلى علي بن عيسى رجل من التجار بأنه وقف على خبر رجل شيرازي يتخبر للقِرمطي ويكاتبهُ فأنفذ معه جماعةً فقبض عليه وحُمل إلى دار السلطان. وناظرهُ علي بن عيسى بحضرة القاضي أبي عمر والقوّاد وقال: أنا صاحب أبي طاهر وما صحبتُهُ إلا على أنه على حق وأنتَ وصاحبك ومن يتبعكم كفّار مبطلون ولا بدّ للّه في أرضهِ من حُجّة وإمام عدلٍ وإمامنا المهدي فلان بن فلان بن إسماعيل بن جعفر الصادق وليس نحن مثل الرافضة الحمقى الذين يدعون إلى غائب منتظر. فقال له علي بن عيسى: اصدقني عمن يكاتب القرمطي من أهل بغداد والكوفة. قال: ولِمَ أصدقك عن قوم مؤمنين حتى أسلّمهم إلى قوم كافرين فيقتلونهم لا أفعلُ ذلك أبداً. فأمر بصفعهِ بحضرتِه وضربه بالمقارع وقيَّدَهُ وغلَّهُ بغل ثقيف وجعل في فمه سلسلة وسلّمه إلى نازوك وحبسَهُ في المطبق فمات بعد ثمانية أيّام لأنه امتنع من أن يأكل ويشرب حتى مات. وشغب الجند.

ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة

ودخل مونس المظفر بغداد من الأنبار ودخل بعد نصرٍ وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرّم وكان الجندُ قد شغبوا بالأنبار لطلب الزيادة في أرزاقهم فأقاموا ببغداد على مطالبتهم فزيد كلّ واحد منهم ديناراً وأنفق فيهم على الزيادة.

وورد الخبر بدخول أبي طاهر القرمطي الدالِية من طريق الفرات فلم يجد فيها شيئاً وقتل من أهلها جماعة. ثم سار إلى الرَحْبة فدخلها بعد أن حارَب أهلها ووضع السيف فيهم بعد أن ملكهم ونُدب مونس المُظفَّر للخروج إليهم بالرقة. وكان أهل قرقيسيا وجّهوا إلى القرمطي يطلبون الأمان منهم ووعدهم بجميل ثم أنفذ إليهم من نادى بقرقيسيا ألاّ يظهر بها أحدٌ بالنهار فلم يجسر أحد بها أن يظهر. فعبرت سرية له إلى الأعراب على جسر عقدهُ بالرحبة فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذ جمالهم وأغنامهم فرهبه الأعراب رهبة شديدة وصاروا لا يسمعون بذكره إلاّ تطايروا وجعل عليهم إتاوة إلى هذه الأيام وهي من كلّ بيت دينار في السنة ثم أصعد من الرحبة إلى الرقة. وسار مونس المظفَّر إلى الموصل ومنها إلى الرقة فانصرف أبو طاهر عن الرقة على طريق الفرات ووصل إلى الرحبة فحمل ما معه من الزاد وغيره في زواريق وانحدر في الماء وعلى الظهر ليعاود هيتاً. وكان أهلها قد نصبوا على سورها عرّادات ومنجنيقات فحاربوه وقتلوا من أصحابه فانصرف عنها إلى ناحية الكوفة وزاد الخبر بذلك فأخرج بَنيّ بن نفيس وهارون بن غريب على مقدّمة نصر.

وجاءت خيل القرمطي ومعها ابن سنبر إلى قصر ابن هبيرة وعبروا الفرات بِمَخاضَة فقتلوا جماعة من أهل القصر فخرج نصر الحاجب ومعه القوّاد والرجَّالة المصافّية يريدون مُواقعة أبي طاهر وحُمَّ نصر حمى حادَّة فلم يمنعهُ ذلك من المسير إلى سُورا. ووافى أبو طاهر إلى شاطئ سورا وقت المغرب فلم يكن في نصرٍ نُهوضٌ لِلركوب لِشدّة علته فاستخلف أحمد بن كيغلغ وأنفذ معه الجيش فانصرف القرمطي قبل أن يلقاه أحمد بن كيغلغ. واشتدَّت علَّة نصر وجفّ لِسانهُ من شدّة اللحُمى فرُدّ إلى بغداد في عمارية ومات في الطريق. فخرج شفيع المقتدري برسالة المقتدر إلى الجيش الذي كان مع نصر بأنه قد جُعل الرئيس عليهم مكانَ نصرِ هارون بن غريب فدخل هارون بن غريب مع الجيش بغداد.

ذكر الحال التي أدّت إلى صرف علي بن عيسى وتقليد أبي علي بن مقلة

لما رأى علي بن عيسى اختلال النواحي في أيّام وزارة الخاقاني والخصيبي ونقصان الارتفاع وزيادة النفقات وما لحق من زيادة الرجالة بعد انصرافهم من الأنبار من

حرب القرمطي وإن زيادتهم بلغت مائتي وأربعين ألف دينار في السنة مضافةً إلى النفقات المفرِطة هالَهُ ذلك واستعظمهُ ووجد رجال السلطان قد ضعفوا عن القرمطي وتبين انحراف نصر الحاجب عنه وذلك لميل مونس إليه استعفى المقتدرَ من الوزارة فأمرَهُ بالصبر وقال له: أنت عندي بمنزلة المعتضد بالله ولي عليك حقوقٌ. فواصَل الاستعفاء فشاور المقتدر مونساً المُظفَّر وأعلمَهُ أنه قد سُمي له ثلاثة الفضل بن جعفر بن حَنزابة فلم يشر به لأجل من قُتِل من آل الفرات وأبو علي بن مقلة فلم يشر به لِحداثتهِ وقال: لا يصلح للوزارة إلا شيخٌ له ذِكر وفيه فضل ومحمد بن خلف النيرماني فلم يشر به وعرفَه أنه جاهلٌ لا يحسن أن يتهجَّى اسمهُ وأنه متهوّر وأشار بمداراة علي بن عيسى. ثم لقي مونس علي بن عيسى ورفق به وداراهُ فقال له علي بن عيسى: لو كنت مقيماً بالحضرة لاستعنتُ بك وعملتُ ولكنّك خارجٌ إلى الرقة. وبلغ أبا علي بن مقلة ذلك فجدّ في السعي وشاور المقتدر نصراً الحاجب في أمر الثلاثة فقال: أما الفضل بن جعفر فلا يدفع عن صناعةٍ ومحلّ ولكنَّك بالأمسِ قتلتَ عمَّهُ وبنو الفرات يدينون بالرفض وأما ابن مقلة فلا هيبة له. وأشار بمحمد بن خلف لما كان بينهما مما ذكرناه فيما تقدّم ففر المقتدر منه لما عرفهُ من جهلهِ وتهوُّرِه. وواصلَ ابن مقلة مداراة نصر الحاجب فأشار على المقتدر به وقال: يُقلد فإن قام بالأمر كما يجب وإلاّ فالصرفُ العاجلُ بين يديه. واضطرَّ المقتدر إلى أن استوزر أبا علي بن مقلة.

وكان ما مال به المقتدر إلى أبي علي أن أبا طاهر القرمطي لما قرُب من الأنبار تشوَّف إلى علم خبرهِ ولم يكن يكاتب بشيء من خبره غير الحسن بن إسماعيل الإسكافي عامِل الأنبار فلما عرف أبو علي بن مقلة الصورة طلب أطياراً وأنفذها إلى الأنبار وكُوتب عليها أخبار القرمطي وقتاً بعد وقتٍ فكان ينفذها إلى نصر لوقته ويعرضها نصر على المقتدر ووجد بذلك نصر السبيل إلى تقريظ ابن مقلة وقال للمقتدر: إن كان هذه مُراعاتُهُ لأمورك ولا تعلُّق له بخدمتك فكيف يكون إذا اصطنعتَهُ.

ذكر القبض على علي بن عيسى وتقليد ابن مقلة

فلما كان يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأوَّل سنة ٣١٦ أنفذ هارون بن غريب للقبض على علي بن عيسى فصار هارون إلى دار علي بن عيسى ومعه أبو جعفر بن شيرزاد وكان أبو جعفر متعطّلاً في الوقت فوجَّه بأبي جعفر إليه لأنه استحيا منه وعرّفه ما أمر فيه فلما أدّى إليه الرسالة قال له: أنا جالِس متوقِّع له. وكان قد لبس علي بن عيسى خُفًّا وعمامةً وطيلساناً وفي كمّه مُصحفٌ ومقراض وسأل هارون أن يصون حُرَمهُ وولدَهُ ففعل وحملَه مع أخيه أبي على عبد الرحمٰن إلى دار السلطان فسلّم علي بن عيسى إلى زيدان القهرمانة واعتقل عبد الرحمن عند نصر فكانت وزارته هذه سنة واحدة وأربعة أشهر ويومين.

فلما كان في آخر نهار يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر أحذر أبو علي بن مقلة إلى دار السلطان ولم يصل إلى المقتدر وأقام عند نصر الحاجب في دار السلطان. وجدّ محمد بن خلف في طلب الوزارة وضمن ثلاثمائة ألف دينار مُعجَّلةً غير أموال النواحي فقلق أبو علي بن مقلة لذلك وحضر من غد دار السلطان ولم يصل أيضاً. واجتمعت الألسُن على المقتدر بإمضاء أمرِهِ وبالذمّ لمحمد بن خلف فأمضاه وحضر يوم الخميس للنصف من الشهر ووصل وخلع عليه وحمل إليه من دار السلطان طعام على رسم الوزراء إذا تقلّدوا.

وكان أبو الحسن علي بن عيسى قبل صرفه عن الوزارة بعشرين يوماً كتب إلى أبي عبد اللّه البريدي يأمره باستخراج ما كتب به ابن مابنداذ أنه قد اجتمع في بيت مال الأهواز من مال الأهواز وهو ألف ألف وخمسون ألف درهم وانضاف إلى ذلك ما حمله القاسم بن دينار من مال فارس وكرمان على الظهر وهو سبعمائة ألف درهم سوى ما حمله أبو علي بن رستم من مال أصبهان وهو أربعمائة وخمسون ألف درهم فيصير الجميع ألفي ألف ومائتي ألف درهم. وكان في أبي عبد اللّه البريدي حركة ورجلة يحتاج إليهما في ذلك الوقت فكتب إلى ابن مابنداذ يطالبه بالمال فكتب بأن المال حاصل. وكان ابن مابنداذ بتستر فوجّه إليه يستعجله ولم ينتظره واستحضر كاتبه فحمل في الشذاءات ألفي ألف ومائتي ألف درهم وكتب أنه إن عادت الشذاءات حمل فيها باقي المال فصرف علي بن عيسى قبل موافاة بقية المال.

وقد كنا ذكرنا انحراف نصر الحاجب عن علي بن عيسى لِمَيْل مونس المُظفَّر إليه فلمّا نكب علي بن عيسى ادّعى نصر الحاجب أنه وجد رجلاً يعرف بالجوهري أقرّ أنه صاحب القرمطي وأنه جعله سفيراً بينه وبين علي بن عيسى وحكى عنه أن علي بن عيسى كان يكاتب القرمطي على يده. وجمع بينه وبين علي بن عيسى حتى واجهه بذلك فقال له علي بن عيسى: بهتني وما خلق اللّه لما يقوله أصلاً. وعاون أبو علي بن مقلة نصراً الحاجب في هذه القصة إلى أن كاد يتمّ المكروه على عليّ بن عيسى وهمّ المقتدر أن يضربه بالسوط على باب العامة بحضرة الفقهاء والقضاة وأصحاب الدواوين فاحتالت السيّدة واستكشفت الحال فيما ادّعى عليه فوقفت على بطلانه وقررت ذلك في نفس ابنها وأزالت ما كان أمره به فيه.

وأخذ أبو علي بن مقلة خطوط العُمال والضُمناء بنحو مائة ألف دينار وبلغ أبا عبد اللّه البريدي وهو بالأهواز تقلُّد أبي علي بن مقلة الوزارة وكان بينهُما مُودة فأنفذ إليه من وقته سفاتج بثلاثمائة ألف دينار من حمله الباقي بالأهواز بعد ما كان حمله. وكان

القاسم بن دينار وأحمد بن محمد بن رُستم قد حملا إلى علي بن عيسى سفاتج بستمائة ألف درهم فوصلت بعد صرفه فقبضها ابن مقلة فمشى أمر أبي علي بن مقلة بهذه الاتّفاقات. وكتب أبو علي بن مقلة كتاباً برفع كلّ الجنايات والمصادرات وسكّن من الناس لِينبسطوا في أعمالهم.

وفي هذه السنة وقعت حربٌ بين نازوك وهارون بن غريب الخال

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن سُوّاس هارون بن غريب وسُواس نازوك تغايروا على غُلام أمرد ووقع الشرّ بينهم وأخذ نازوك سُوّاس هارون بن غريب وأودعهم حبس الجرائم بعد أن ضربهم. فصار أصحاب هارون بن غريب إلى مجلس الشرطة ووثبوا على أبي الجود خليفة نازوك وانتزعوا أصحابهم من يده وركب نازوك إلى المقتدر وشكى إليه هذه الحال فلم يكن من المقتدر إنكار رضيه نازوك فانصرف محفظاً وجميع رجاله. وجمع هارون بن غريب رجاله وباتا جميعاً مستعدين فلما أصبحوا زحف أصحاب نازوك إلى دار هارون بن غريب وأغلق هارون بابه دونهم وخارج الباب جماعة من غلمان هارون وأصحابه فقتل منهم قوم وفتح بابُ هارون حينئذ وخرج أصحابه واستحكمت الحرب بينهم واشتدت فوجه نازوك إلى أصحابه بمن صرفهم. ثم ركب الوزير أبو علي ومعه مفلح الأسود لتوسط القصة فبدأ بابن الخال وأدى إليه رسالة المقتدر بالكف ثم صار إلى نازوك فأدى إليه مثل ذلك فسكنت القصة واستوحش نازوك وأقام في داره وفيها غلمانه وأصحابه ورجاله وظهر في ساقه توتة وقلعها وجعلها سبباً في ترك الركوب وبعد ثلاثة أيام صار إليه هارون بن غريب بدراعة فاصطلحا وأقام نازوك في داره وصار هارون بن غريب إلى البستان النجمي فأقام فيه ليبعد عن نازوك وكثر الناس عليه وأرجفوا له بإمرة الأمراء. فاشتد ذلك على أسباب مونس المظفر وكتبوا به إليه وهو بالرقة فأسرع الشخوص منها على طريق الموصل إلى بغداد ووصل إليه ولم ينحدر إلى المقتدر ولا لقيه وصاعد إليه الأمير أبو العباس والوزير أبو علي فسلما عليه وانحدر نازوك.

ظهور الوحشة بين مونس والمقتدر

وأقام هارون بن غريب في دار السلطان منابذاً لمونس المظفر ودخل أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان من الجبل وصار إلى مونس المظفر. وما زالت المراسلات تتردد بين مونس والمقتدر.

ودخلت سنة سبع عشر وثلاثمائة

ذكر فتنة نازوك وأبي الهيجاء التي أدت إلى خلع المقتدر وذكر قتلهما ورجوع المقتدر بالله إلى الخلافة

لما كان يوم السبت لثمان خلون من المحرم خرج مونس المظفر إلى باب الشماسية وخرج الجيش معه. وركب نازوك من داره في غلمانه وأصحابه في السلاح فلما وصل إلى الجسر وجده مقطوعاً فأقام بمكانه إلى أن أصلح وعبر هو وأصحابه عليه وصاروا إلى مونس وخرج أبو الهيجاء بن حمدان إليه وسائر القوّاد ثم انتقلوا من باب الشماسية إلى المصلى. وشحن المقتدر داره بهارون بن غريب وأحمد بن كيغلغ والحجرية والرجالة المصافية فلما كان آخر النهار انفضّ أكثر من كان في دار السلطان وصاروا إلى مونس وصرف مونس نحرير الصغير عن الدينور وردها إلى أبي الهيجاء مضافة إلى أعماله.

وراسل مونس المقتدر بأن الجيش عاتبٌ منكرٌ للسرف فيما يصير إلى الخدم والحرم من الأموال والضياع ولدخولهم في الرأي والتدبير ويطالبون بإخراجهم من الدار وإبعادهم وأخذ ما في أيديهم فكتب المقتدر إلى مونس رقعة نسختها: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم: أمتعني اللّٰه بك ولا أخلاني منك ولا أراني سوء فيك. تأملت الحال التي خرج أولياؤنا وصنائعنا وشيعتنا إليها وتمسكوا بها وأقاموا عليها فوجدتهم لم يريدوا إلا صيانة نفسي وولدي وإعزاز أمري وملكي واجتلاب الخير والمنفعة من كل جهة وتطلبها بكل سبيل بارك اللّٰه عليهم وأحسن إليهم وأعانني على صالح ما أنويه فيهم. وأما أنت يا أبا الحسن المظفر لا خلوت منك فشيخي وكبيري ومن لا أزول ولا أحول عن الميل إليه والتوفر عليه والتحقق به والإيجاب له اعترض ما بيننا هذا الحادث أم لم يعترض وانتقض الأمر الذي يجمعنا أم لم ينتقض وأرجو ألا تشك في ذلك إذا صدقت نفسك وحاسبتها وأزلت الظنون السيئة عنها أدام اللّٰه حراستها والقوة باللّٰه. والذي خاض لأصحابنا فيه من أمر الخدم والحرم الذين يخرجون من الدار ويباعدون عنها وتسقط رسومهم في الخدمة ويمنعون منها ويبرّؤون من نعمهم ويحال بينهم وبينها إلى أن يفرجوا عما في أيديهم من المال والضياع ويردّوها إلى حقوقها قول إذا تبيَّنوه حق تبيّنه وتصفحوه كنه تصفّحه علموا أنه قول جافٍ والبغي عليّ فيه غير مستتر ولا خاف. ولإيثاري موافقتهم واتباعي مسرَّتهم ما أجبتهم إلى المتيسر في أمر هذه الطبقة خاصة فأتقدم بقبض بعض إقطاعاتهم وحظر تسويغاتهم وبسط إيغاراتهم وإخراج من يجوز إخراجهُ من داري ولا أطلق لِلباقين الدخولَ في تدبيري ورأيي وأوعز بمكاتبةِ العُمال في

استيفاء حقّ بيت المال في ضياعهم الصحيحة الملك دون ما يقال إنه قد لابَسَهُ الريبُ والشك وانظرُ بنفسي في أمر الخاصّة والعامّة وأبلغُ في إنصافها والإحسان إليها الغاية. ولا أعتمد في ذلك على وزير ولا سفير البتّة وانتصبُ لإثارة الأموال وجمعِها ووضعِها في مواضِعها وأنفيها من كلّ ما يثلمها وينتقضها واشمّرُ في ذلك وأبلغ في مناهضة الأعداء قُرباً وبُعداً. وهذا إنما قعدتُ عنه اعتماداً عليكم وتفويضاً إليكم وثقة بأنكم شركائي وسُهمائي والمخصوصون بخير أيّامي وشرّها وحُلوها ومُرّها. ولو علمتُ أنه يُجعل ذلك ذنباً لي وجُرماً يتجنّى به عليَّ لَكُنت أوّل شاخص إلى كل تعبٍ وأوّل مُبادِرٍ نحوه من غير إبطاءٍ عنه ولا ريثٍ. فأما أنتم فمعظم نعمكم منّي وما كنت لأغور عليكم في شيء سمحت به لكم ورأيته في وقته وأراه الآن زهيداً في جنب استحقاقكم وأنا بتثميره أولى وبتوفيره أخرى واللّه المطّلع على جميل معتقدي للجماعة فيها والشاهد على محبّتي لإيصالها إلى أقصى أمانيها ونازوك فلست أدري من أيّ شيء عتب ولا لأيّة حال استوحش واضطرب لأني لم ألمه على محاربة هارون بن غريب الخال ولم أمنعه من الانتصار منه والأخذ بثأره عنده ولا أمرت بمعاونة هارون عليه ولا قبضت يده عما كانت طويلة إليه منبسطة فيه متمكنة منه ولا غيرت له حالاً ولا حزت له مالاً ولا سمع مني ولا بلغه عني ما يسوء موقعه وينفر منه واللّه يغفر لنا وله. وعبد اللّه بن حمدان فالذي أحفظه صرفه عن الدينور وقد كان يتهيأ إعادته إليها إن كان راغباً فيه فيسعف بمسألته وأن يستدعي تعويضه من الأعمال ما هو أعظم خطراً من الدينور فلا نقصر عن إرادته وما عندي له ولنازوك وللعصاة كلها إلا التجاوز والإبقاء والإغضاء وقبل هذا وبعده فلي في أعناقكم بيعة قد وكّدتموها على أنفسكم دفعةً بعد دفعةٍ ومن بايعني فإنما بايع اللّه ومن نكث إنما نكث عهد اللّه ولي أيضاً عليكم نعَمٌ وأياد وعندكم صنائع وعوارف آمل أن تعترفوا بها وتلتزموها ولا تكفروها تشكروها وإن راجعتم الجميل وتلافيتم هذا الخطب الجليل وفرّقتم جموعكم ومزّقتموها وعدتم إلى منازلكم واستوطنتموها وأقبلتم على شؤونكم وتشاغلتم بها وأجريتم في الخدمة على عادتكم فلم تقصروا فيها كنتم بمنزلة من لم يبرح من موضعه ولم يأت بما يعود بتشعث محله وموقعه وكنت الذي تعرفونه في الثقة بكم والإيثار لكم والسكون إليكم والاشتمال عليكم لكم بذلك عهد اللّه إن عهده كان مسؤولاً. وإن أبيتم إلاّ مكاشفة ومخالفة وإثارة فتنة وتجديد محنة فقد وليتكم ما توليتم وأغمدت سيفي منكم وتبرأت إلى اللّه إن أمدّ باعي إلى أحد منكم ولجأت في نصري ومعونتي وكفايتي إلى اللّه عزّ وجلّ. ولم أخرج من منزلي ولم أسلم الحق الذي جعله اللّه لي إلاّ كما خرج عثمان بن عفّان عن داره وكما سلم حقه لما خذله عامة ثقاته وأنصاره وكان ذلك حجة فيما بين اللّه عزّ وجلّ وبيني ومعذرة وسبباً بإذن اللّه لما أؤمّلِهُ من الفوز في الدنيا والآخرة. واللّه بصيرٌ بالعباد

وللظالمين بالمرصاد وحسبي اللّه ونعم الوكيل.

ولما وصلت هذه الرقعة إلى مونس ووقف نازوك وأبو الهيجاء على ما تضمّنت عدلوا إلى مكاتبته بإخراج هارون بن غريب عن بغداد فأجابهم إلى ذلك وقلّد هارون الثغور الشاميّة والجزرية وخرج من يومه ومضى إلى قطربلّ فأقام بها.

ولما كان يوم الاثنين لِعشر خلون من المحرّم دخل مونس المظفر والجيش بغداد وعدلوا عن دار السلطان كراهيةً لِمعرّة الجند. وظهر عند الناس ظهوراً بيّناً وأرجفوا إرجافاً قوياً إن نازوك وأبا الهيجاء واقفاً مونساً المظفر على الاستبدال به ونصب غيره في الخلافة. فلمّا كان يوم الأربعاء لاثني عشرة ليلة خلت من المحرَّم خرج مونس إلى باب الشماسيّة دفعةً ثانية وخرج معه أبو الهيجاء ونازوك وبُنَيّ بن نفيس وجميع القوّاد والجيش وزحفوا إلى دار السلطان.

ذكر الخبر عن خلع المقتدر باللّه وتقليد القاهر باللّه الخلافة

لما زحَف القوم بأسرهم إلى دار السلطان هرب المظفر بن ياقوت وسائر الحجّاب والحشم والخدم والوزير أبو علي بن مقلة منها ودخل مونس من باب الزاوية وحصل الجيش كله في دار السلطان. فلما كان بعد عتمة بساعة أُخرج المقتدر ووالدتهُ وخالتهُ وخواصّ جواريه من الدار وأُصعد بهم إلى دار مونس المظفر ودخل هارون بن غريب من قطربلّ سرًّا إلى بغداد واستتر بها.

ومضى أبو الهيجاء عبد اللّه بن حمدان إلى دار ابن طاهر ليحدر منها محمد بن المعتضد باللّه فلم يفتح له كافور الموكّل بحفظ الدار وطالبهُ بعلامة من مونس فلم تكن معه فانصرف. وأصعد ونازوك بعد أن أخذ العلامة وطرح في طريقه النار في دار هارون ابن غريب وأحدر محمد بن المعتضد ووصل إلى دار السلطان في الثلث الأخير من ليلة السبت للنصف من المحرّم وسُلّم عليه بالخلافة وبايعَهُ مونس والقُوَّاد ولقب القاهر باللّه.

وأخرج مونس علي بن عيسى من الحبس في دار السلطان وأطلقهُ إلى منزلِهِ وأحضر أبا علي بن مقلة وقلّده وزارة القاهر باللّه وقلّد نازوك الحجبة مضافة إلى ما إليه من الشرطة بمدينة السلام وأضاف إلى ما كان إلى أبي الهيجاء من أعمال طريق خراسان وحلوان والدينور وطريق سُرّ من رأى وبُزُرْج سابُور والراذانَيْن ودَقوقاً وخانِيجان كذا والموصل أعمال المعاون بهَمَذَان ونهاوَنْد والصَيْمَرة والسِيروان وماسَبَذَان ومِهْرِجانقَذق وارْزن.

ووقع النهب في دار السلطان ومضى بُنَيُّ بن نفيس إلى تربة السيدة بالرصافة فوجد لها هناك ستّمائة ألف دينار فحملها إلى دار السلطان. وخلع المقتدر باللّه من الخلافة

يوم السبت النصف من المحرّم وأشهد على نفسه بذلك القضاة وسُلم الكتاب بذلك إلى القاضي أبي عمر محمد بن يوسف.

ذكر حَزم استعمل وانتفع به

فحدّث أبو الحسين بن أبي عمر أن أباه سلم الكتاب إليه بالخلع وقال له: يا بُنَيَّ احفظْهُ واسترْهُ ولا يراه أحدٌ من خلق اللّه عندك. قال: فقلت له: وما الفائدة في كتمانه وقد علم به الخلق؟ قال: فقال لي: وما الفائدة في إظهارِه ومن أين تعلم ما يكون؟ قال: فامتثلت أمره. فلما أعيد المقتدر باللّه إلى الخلافة بعد يومين أخذ القاضي أبو عمر ذلك الكتاب فسلمه إلى المقتدر باللّه من يده إلى يده وحلف له على أنه ما رآه أحد من خلق اللّه عنده غيري فحسن موقع ذلك من المقتدر جدًّا وشكرَه له وقلَّده بعد مديدة قضاء القضاة قال فقال لي: يا بَنيَّ ما ضرّنا كتمان الكتاب وستره شيئاً.

وانصرف الناس من دار السلطان يوم السبت ولما كان من غدٍ وهو يوم الأحد جلس القاهر باللّه وحضر الوزير أبو علي بن مقلة ووصل إليه وأمره بالجلوس بين يديه وسكن النهب وكتب أبو علي بن مقلة بخبر تقليد القاهر باللّه الخلافة كتاباً أنشأه إلى الولاة في النواحي. وأمر نازوك الرجالة المصافية بقلع خيمهم من دار السلطان وأقام رجّالته مكانهم فاضطربوا من ذلك ثم تقدّم إلى خلفاء الحجاب والبوّابين ألاّ يدخل الدار إلاَّ من كانت له مرتبة فاضطربت الحجرية من ذلك وتكلَّموا وصار ذلك سبباً لِردّ المقتدر إلى الخلافة.

ذكر السبب في ردّ المقتدر إلى الخلافة

فلما كان يوم الاثنين السابع عشر من المحرَّم بكّر الناس إلى دار السلطان لأنه يوم موكب ودولة جديدة فامتلأت الدهاليز والممرّات والرحاب وشاطئ دجلة منهم وحضر الرجّالة المصافية بالسلاح يطالبون بالبيعة ورزق سنةٍ ولم ينحدر مونس إلى دار السلطان ذلك اليوم وأقام في منزله. وارتفعت زعقات الرجّالة وسمعها نازوك وأشفق أن يجري بين أصحابهِ وبينهم قتال فتقدَّم إلى غلمانهِ وأصحابهِ ألاّ يعرضوا لهم. وزاد شغب الرجّالة وهجموا يريدون الصحن التسعيني فلم يمنعهم أحد لما كان نازوك تقدم به إلى أصحابه ودخل منهم من كان على الشط من الروشن بالسلاح المشهور وقربت زعقاتهم من مجلس القاهر باللّه وكان جالساً في رواق التسعيني وبين يديه أبو علي بن مقلة ونازوك وأبو الهيجاء فوجه بنازوك ليخاطبهم. وكان نازوك مخموراً كالسكران قد شرب طول ليلته فلما برز إلى الروشن ونظر إليه الرجالة أسرعوا نحوه فخافهم لأنهم شهروا السلاح عليه فولّى منهم وعدا. وأطمعهم في نفسه وعدوا خلفه وانتهى به الهرب منهم

إلى باب كان هو سدّه أمس ذلك اليوم بالآجر والجصّ ولم يمكنه النفوذ ووصلوا إليه وقتلوه وقد كانوا قتلوا قبله عجيباً وصاحوا: مقتدر يا منصور. فتهارب كل من في الدار من الوزير والحجاب والحشم وسائر الطبقات حتى بقيت الدار خالية.

وصلب الرجّالة نازوك وعجيباً على خشب الستارة التي على شاطئ دجلة. ثم صار الرجّالة إلى دار مونس يُطالبون بالمقتدر بالله وبادر الخدم في دار السلطان فغلقوا أبوابها وكان جميعهم خدم المقتدر وحاشيته وصنائعهُ وأراد أبو الهيجاء أن يخرج من الدار فتعلّق به القاهر وقال: يا أبا الهيجاء تُسلمني فدخلت أبا الهيجاء الحمية والآنفة فرجع معه وقال: والله لا أسلمتك وعاد فوجد الأبواب مغلقة فدخلا دار السلم وارتفعت ضجة وتكبير فقال فائق وجه القصعة لِبعض الخدم الصغار الرسائلية. انظر ما هذه الضجة. فمضى وعاد وقال: قُتل أبو الهيجاء. فقال له: انظر ويلك ما تقول. فأعاد ذلك ثلاثاً فقال: أبو الهيجاء هو ذا لنا ويلك. فقال الخادم: غلطت قُتل نازوك. فقال القاهر لِوجه القصعة: افتح لي الباب لأخرج إلى الشطّ. فقال: إن وراءه أبواباً كثيرة يتعذر منها الوصول إلى الشطّ ولكن نفتحه على كلّ حال. ففُتح فأفضى بالقاهر المشي إلى دَرَجة الدواليب المنصوبة على دجلة فوق موضع التاج فصعدها ويده في يد أبي الهيجاء بن حمدان وأشرفا على دجلة فرأيا الرجّالة في السلاح من نهر المُعلّى مُنتظمين مُتراصين إلى التاج وإلى باب الخاصة لا يحصيهم العدد فنزل مُبادراً فقال له أبو الهيجاء: امضِ يا مولاي فَوَتُربة حمدانَ لا فارقتُكَ أو أقتل دونك. ومضيا حتى دخلا الفردوس وخرجا من باب الفردوس إلى الرحبة فلقيا غلاماً لمقبِل الخادم راكباً فلما رآهُما ترجّل وقالا له: من أين جئت؟ قال: من باب النوبى. فنزع أبو الهيجاء سوادهُ ومنطقتَه ودفعها إلى الغلام وقال له: اعطني جُبتك. وكانت عليه جبة صوف مصري فأعطاه إياها فلبسها وركب دابة الغُلام وترك القاهر مع الخدم وقال: يا مولاي قف بمكانك حتى أعود إليك. فلم يظل أبو الهيجاء حتى عاد فقال له القاهر: ما وراءك، فقال: صرتُ إلى باب النوبى فلقيني جعفر البوّاب فقلت له: افتح الباب. فقال: لا يمكنني لأن وراءه من الرجّالة والجيش من لا يحصى لأنه قد جيء برأس نازوك إلى هاهُنا. ثم قال للقاهر: هذا أمر من السماء فعُد بنا. ودخلا الفردوس فجالا فيه ثم خرجا إلى القُرب من القلاّية ثم دخلا الصحن الحسنى الصغير ثم دخلا إلى دار الأترجة وخفّ من معهما من الخدم وتأخّر هُناك فائق وجه القصعة وقال لمن وقف بوقوفه من الخدم: ادخلُوا إليهما فافرغوا من عدوّ مولاكم. فدخل نحو عشرة منهم بعضهم بقسي وبعضهم بدبابيس فلما رآهم أبو الهيجاء صاح بهم وجرّد سيفَهُ ونزع الجُبة الصوف التي كانت عليه فلفّها على يده وأسرع نحوهم فانجفلوا من بين يديه ودهشوا وسقط بعضهم في البركة وغشيهم فرموه ضرورةً فرجع ودخل بيت ساج في بُستان دار الأترُجة فلما حصل في

البيت خرج من كان في البركة من الخدم وصاروا إلى قُرب البيت وأحس بهم فخرج إليهم بسيفهِ فولّوا بين يديه إلى جانب من الصحن وفتحوا باباً من زاوية هذا الصحن فدخل منه خمارجويه أحد أكابر الغلمان الحجرية ومعه قُوس ونُشّاب ومعه غلامان أسودان بسيفين ودرقتين وأقبل على الخدم وقال لهم: أين هُو يا أصحابنا؟ فقالوا: هو في البيت الساج: فقال لهم: تحرشوا به حتى يخرُج. فشتموه فخرج كالجمل الهائج وقال: يا آل تغلب أأقتلُ بين الحيطان! أين الكميتُ أين الدهماء؟ فرماهُ خمارجويه بسهم أصابَهُ تحت ثديه واتبعَهُ بسهم آخر فأصاب ترقوته ورماه بسهم ثالث وقد اضطرب فشكّ فخذيه.

قال بُشرى وهو الحاكي لهذه الصورة عن مشاهدة: فقد رأيت أبا الهيجاء وقد ضرب السهم الذي شك فخذيه فقطعَهُ وجذب السهم الذي أصابه تحت ثديه فانتزعه ورمى به ومضى نحو البيت فسقط قبل أن يصل إليه على وجهه فأسرع إليه أحد الأسودين فضرب يده اليُمنى فقطعها وفيها السيف وأخذ السيف وغشيَهُ الأسود الآخر فحزّ رأسه فأسرع بعض الخدم فانتزع الرأس من يد الأسود ومضى مُبادراً به.

وكان الرجّالة لما انتهوا إلى دار مونس وسمع زعقاتهم قال: ما الذي يريدون؟ فقيل له: يريدون المقتدر بالله. فقال: سلموه إليهم. فلما قيل للمقتدر «امض معهم إلى الدار حتى تعود إلى أمرك» خاف أن يكون حيلة عليه فامتنع فحمل حملاً على رقاب الرجال من دار مونس إلى الطيار ومن الطيار إلى درجة الصحن التسعيني فحين وضع رجله في الدار صار إلى دار زيدان القهرمانة وقال: ما فعل أبو الهيجاء؟ فقيل: هو في دار الأترجة. فدعا بدواة فأبطأ بها الغلمان ولم يزل يطلبها حتى جاؤوه بها فكتب له أماناً بخطه ودفعها إلى بعض الخدم وقال: ويلك بادر به لئلا يحدث عليه حادثة. فلقي الخادمُ الخادمَ الذي معه الرأس فعاد معه فلما رآه قال له: ويحك ما وراءك. قال: عمر الله أمير المؤمنين. فقال: ويلك من قتله؟ فغمزهُ مفلح الأسود فقال: لا أدري من قتله ولا يعرَف قاتلهُ فإن أخلاط الرجالة قاتلوه. قال: فإنا لله. وأقبل يكرّرها وقال: ما كان يدخل إليّ في هذه الأيام وأنا في دار مونس من يسليني ويظهر لي الغمّ حتى كأنه بعض أهلي سواه هذا إلى ماله ولأهله من الحقوق. وظهر فيه من الكآبة أمرٌ عظيمٌ.

فبينما هو كذلك إذ ارتفعت ضجة فشغل عن أمر أبي الهيجاء وقال: ما هذا؟ فجاءه خادمٌ يعدُو وقال: محمد (يعني القاهر بالله) وقد أخذ وجيء به فأحضر القاهر بالله فأجلسه بين يديه واستدناه ثم جذبه إليه وقبّل جبينه وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك وقد علمتُ أنك قهرت. والقاهِر باركٍ يقول: نفسي نفسي الله الله يا أمير المؤمنين. فلما كرر ذلك قال له: وحقّ رسول الله ﷺ لا جرى عليك سوء مني أبداً ولا وصل أحدٌ إلى مكروهك وأنا حيٌّ ولأحرصنّ على انصرافك إلى منزلك من دار ابن طاهر في

هذه الليلة فطبْ نفساً ولا تجزع.

واخرج رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشهراً في الشوارع ونودي عليهما «هذا جزاء من عصى مولاه وكفر نعمته» وسكن الهَيْج وعاد أبو علي بن مقلة إلى وزارتِه وكتب عن المقتدر بالله برجوع الخلافة إليه وتجديد البيعة له إلى الولاة في النواحي.

ولما تمكّن المقتدر من دار الخلافة وأقرّ أبا علي بن مقلة على وزارته أطلق لِلجند البيعة أمّا للرجّالة فسِتّ نوائب وزيادة دينارٍ لكلّ راجل وأمّا الفرسان فثُلث رزق وزيادة ثلاثة دنانير لكلّ فارس ولما نفدت الأموال في ذلك أخرج ما في الخزائن من الكسوة وغيرها فباع ذلك. ثم أطلق لهم بها العُهَد بالأشريَّة على وكيل نصبَهُ المقتدر وهو علي ابن العباس النُوبَختي وأشهد على نفسه بتوكيلِه إيّاه في البيع وشرط للمبتاعين في كتب الأشرية أن يحملوا في حقّ بيت المال فيما اشتروهُ على معاملة القطائع المعشورة ثم بيع منهم بالصلة فضل ما بين المعاملتين في أملاك الرعيّة وهو فضل ما بين الأستان والقطيعة ووقعت لهم الشهادة بذلك على عليّ بن العباس وحسبت عليهم الضياع والأملاك بأرْخَص الأثمانِ.

فحكى ثابت بن سنان أنه حضر مجلس الوزير أبي علي بن مقلة ولم يكن له شغل غير التوقيع لِلجند ببيع الضياع وفضل ما بين المعاملتين بالصلة ولا كان لأصحاب الدواوين عَمل غير إخراج العبر لما يباع وكان الناس مجتمعين عليه وهو يُوقِّع إذا استُؤذن لِعليّ بن عيسى عليه فأذن له فلمّا رآه قام له قياماً تامّاً وأجلسَه معه على دستِه وأقبل عليه وترك ما كان فيه. فلما سأله عن خبرِه رأى الناس مُنكبين عليه فقال له: يشتغل الوزير أيّده الله بشُغلِه. وأقبل أبو علي بن مقلة على الناس يُوقِّع لهم فَلَمَحَ علي بن عيسى خرجاً قد أرج بعبرةِ ضياع جِبريل والد بختيشوع فوجد الثمن بالإضافة إلى ما اشتريت نزراً يسيراً فقال: لا إله إلاَ اللّه بلغ الأمر إلى هذا فترك ابن مقلة ما كان في يده وأقبل عليه فقال: حدَّثني شيخنا أبو القاسم رحمه اللّه (يعني عيسى بن داود) أن المتوكل على اللّه لمّا غضب على بختيشوع المُتطبّب أنفذ إلى داره لإحصاء ما في خزائنه فوجد في خزانة كِسوته رقعةً فيها ثبتُ ما اشتراه من الضياع وهو ببضعة عشر آلاف ألف درهم فقد آل أمرها إلى أن تُباع بهذا القدر النزر. فعجبا جميعاً من ذلك وعاد ابن مقلة إلى شُغله وقام علي بن عيسى لينصرف فقام له الوزير أبو علي كما قام لدخوله.

وفي هذه السنة خلع على أبي علي بن مقلة وكُنّي وكُتب إلى جميع النواحي وفيها قلد أبو عُمر قضاء القضاة وكتب عهده.

وفيها أوقع القرمطي بالحاجّ في البيت الحرام بمكة وقتل أميرها.

ذكر الخبر عن إيقاع القرمطي بالحاجّ وتخريبِه مكة

كان منصور الديلمي بَذْرَق بالحاجّ في هذه السنة فسلِموا في طريقهم فلمَّا وصلوا إلى مكة وافاهم أبو طاهر الهجري إلى مكة يوم التروية فقتل الحاجّ في المسجد الحرام وفي فِجاج مكة وفي البيت قتلاً ذريعاً. وقلع الحجر الأسود وقتل ابن مجلب أمير مكة وعرَّى البيت وقلع الباب واصعد رجلاً من أصحابِه ليقلع المرزاب فتردّى الرجل على رأسه ومات وأخذ أموالَ الناس وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن باقيهم في مَصارِعهم في المسجد الحرام وغيره من غير أن يصلي عليهم وأخذ أسلاب أهل مكة وانصرف إلى بلده وحمل معه الحجر الأسود.

وفيها قلد ابنا رائق شرطة بغداد مكان نازوك

ودخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة

وشغَّب الفرسان وتهدَّدوا بأمور عظيمةٍ فأحضر المقتدر قُوَّادهم وخاطبهم بجميلٍ ووعدهم بإطلاق أرزاقهم في الشهر الجديد فانصرفوا ويكنوا. وشغَّب الرَّجالة فأطلقت أرزاقهم.

وفي شوَّال منها خلع المقتدر على الأمير هارون ابنِه وركب معه الوزير والجيش وكانت ولاية فارس وكرمان وسجستان ومكران إليه. وفي ذي القعدة منها خلع المقتدر على ابنه الأمير أبي العباس وركب معه الوزير ومونس المظفَّر وجميع الجند وكان مرسوماً بولاية المغرب ومونس يخلفه عليه وفيها صرف ابنا رائق عن الشرطة وقلَّدها أبو بكر محمد بن ياقوت.

وفي هذه السَّنة كان هلاك الرجَّالة المصافية ذكر السبب في هلاكهم

كان قد عظم الأمر في تسحُّب الرجَّالة المصافية وأدلوا بأنهم كانوا السبب في ردّ المقتدر إلى الخلافة بعد ما خلع وثقل ما لهم واحتدّت مطالبتهم وكثر شغبهم وزاد تعدّيهم وبلغ مالهم في كلّ شهر من شهور الأهلة مائة وثلاثين ألف دينار. فاتفق أن شغَّب الفرسان وطالبوا بأرزاقهم وناوشهم الرجَّالة فقتل منهم جماعة. واحتجَّ السلطان على الفرسان بأن المال منصرفٌ إلى الرجالة فحاربوهم حتى طردوهم من دار السلطان وركب محمد بن ياقوت فنادى فيهم ألا يقيموا ببغداد وكان من وجد منهم بعد النداء قبض عليه وأودع حبس الجرائم. وهدمت دُور عرفاء الرجَّالة وركب في ذلك ابنُ ياقوت وجدّد النداء فيهم ثم ظفر بنفر منهم فضربوا وشهروا وقبضت أملاك الرجالة المصافية وهدمت دُورهم. ثمُ هاج السودان بباب عمَّار فركب محمد بن ياقوت والقوّاد الحجرية

فأوقعوا بهم وضربوا الصقع بالنار. وكانت لأبي العلاء سعيد بن حمدان فيهم نكاية مشهورة وهربوا متفرّقين ثم اجتمع منهم جماعة من البيضان من رجّالة المصافية وغيرهم فكثر عددهم وانحدروا إلى واسط ورأسوا على أنفسهم رجلاً من الفرسان يعرف بنصر الساجي وطردوا عمّال السلطان بواسط. فانحدر إليهم مونس وأوقع بهم بواسط وقتلهم فلم يرتفع لهم رايَة بعد ذلك.

وفيها قبض على الوزير أبي علي بن مقلة

ذكر السبب في القبض عليه

كان المُقتدر مُتّهماً لابن مقلة لممايلة مونس المظفر وكان مستوحشاً من مونس يظهر له الجميل وانحرف عنه يقاوت لميل مونس إليه. واتفق أن خرج مونس المظفر إلى أوانا متنزهاً وانحدر أبو علي بن مقلة إلى دار السلطان فتغنّم المقتدر باللّه فيه غيبة مونس فقبض عليه. وكان محمد بن ياقوت معادياً له فلما قبض عليه أنفذ إلى داره بالليل من أحرقها.

وكان المقتدر قد عمل على أن يستوزر الحسين بن القاسم بن عبيد اللّه فرحل مونس من أوانا ودخل بغداد وراسل المقتدر باللّه بكراهتِه للحسين بن القاسم وسأله ردَّ أبي علي ابن مقلة فاغتاظ المقتدر وعزم على قتل ابن مقلة وكان السفير علي بن عيسى فكان يداريه إلى أن سكنه وقال: ما ذنب وزيرك في شفاعة مونس له. ولم يزل به حتى انصرف عن رأيه. وكان المقتدر من محبتِه لأن يستوزر الحسين بن القاسم استحضرَهُ وبيتُه عنده وخلع عليه ووعدَه أن يَصل في غد تلك الليلة بحضرة الناس ويخلع عليه الوزارة. فلما اتصل ذلك بمونس غلظ عليه أن يتفرَّد المقتدر بهذا التدبير ولا يشاوِره فيه وقد كان طعن عليه قديماً وقال: لا يصلح للوزارة. فتردّدت الرسائل بينه وبين المقتدر على لسان علي بن عيسى فاستشار المقتدر علي بن عيسى فأشار بردّ أبي علي بن مقلة موافقةً لمونس وذلك بعد أن سأَله أن يتقلَّدها هو فامتنع فقال المقتدرُ: هذا غير ممكن فاذكرْ سِواهُ. فذكر سليمان بن الحسن وأشار به أو عبد الرحمن بن عيسى فمال المقتدر إلى سليمان لِما كان قدّمه من الطعن على ابن مقلة وما ظهر من عداوته له فأمر بإحضاره وانصرف الحسين بن القاسم من دار السلطان واستتر وكانت مدَّة وزارة أبي علي محمد ابن علي بن مقلة سنتين وأربعة أشهر.

ذكر ما جرى في أمر الوزارة بعد أبي علي وتقلُّد سليمان بن الحسن لها

أحضر سليمان بن الحسن يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى

دار السلطان ولم يوصله المقتدرُ بالله إليه في ذلك اليوم وعاد من غدٍ وهو يوم الخميس فوصل وخلع عليه وتقدّم المقتدر إلى علي بن عيسى بالإشراف على سائر الأمور من الأعمال والدواوين وبمُعاضَدَة سليمان وإلا يتراخى في ذلك فصار يصل مع سليمان إلى المقتدر ولا يقلّد سليمان أحداً ولا يصرفُهُ ولا يعمل شيئاً إلاّ بمُوافَقَةِ علي بن عيسى.

وفيها قُبض على البريديين وصُودروا

ذكر الخبر عن ذلك

حكى أبو الفرج بن أبي هشام قال: كان أبي يكتب لأحمد بن نصر القُشوري وكان أحمدُ يطمَع أن يُجعل مكان أبيه نصر ويُستحجَب قال: فبينما نحن بين يدي أحمد بن نصر بالأهواز وكان يتولّى أعمال المعاوِن بها إذ ورد عليه توقيع من المقتدر بالله بخطِّه مع ركابيّ يعرفه سراً يقول فيه: يا أحمد قد عرفتَ ذنبك الذي جنيتُه وحرمت به نفسك رأيي وقد تيسّر لك تلافيه بامتثال أمري فيما أضمّنهُ توقيعي هذا فاقبض على البريديين الثلاثة وحصِّلهم في دارك وإياك أن تفرج عنهم إلا بتوفيع يَرد عليك بخطِ كهذا الخط الذي في هذا التوقيع وثِقْ مني بالعود لك إذا فعلتَ ذلك إلى ما يرفع منك ويصلح حالك ويعيد منزلتك. قال: فاقرأني أحمد بن نصر هذا التوقيع وسجد شكراً للّه على ثِقة المقتدر به وعبر في الوقت إلى دار أبي عبد اللّه وأنفذ حاجبَهُ أبا يعقوب إلى دار أبي يوسف وأنفذ أحمد بن مقبل إلى دار أبي الحسين فوجدوهم قد خرجوا قبل ركوبه بلحظة وركبوا طياراتهم. وكان الخبر قد سبق إليهم فأظهروا أنهم يريدون مسجد الرضا المُتصل بالشاذروان بالأهواز فاتبعهم وعرف أنهم ساروا إلى البصرة فقامت قيامته من ذلك.

وأنفذ أبا يعقوب والغلمان وراءهم فاتّفق إن عصفت الريح على البريديين فمنعتهم عن السير ولحقهم الطلبُ فأخذوا.

وبذل أبو عبد اللّه لأبي يعقوب خمسين ألف دينار على أن يفرج عنهم فما أجابه ثم سأله أن يفرج عن أحد أخويه ويقبل منه عشرين ألف دينار فأبى وردّهم وحصلوا في دار أحمد بن نصر. ولم تمض خمسة أيام حتى ارتفعت ضجة فقال لي أحمد بن نصر: اخرج فاعرف ما سبب هذه الضجة قال: وكان سلَّم إليهم داره الشطية واعتزل في حجرة فخرجتُ مُبادراً فرآني أبو عبد اللّه فقال: قُل له وبشّرهُ أن الفرج قد أتى وأن هذا كتاب الوزير بالإطلاق وإقراري وأن أنظر في الأعمال. وأعطاني الكتاب وبادرتُ به إلى أحمد ابن نصر فقرأهُ وخرج إليه وإلى أخوَيه وقال: هذه نعمة يلزمني فيها الشُّكر والصدقة والوفاء بالنذر ولكن هذا خط أمير المؤمنين إليَّ بما رسمَهُ وأريد خطاً مثلَهُ بما ينقضهُ. فتغيرت وجوهُ الإخوة من ذلك واضطربوا حتى ظهر على وجوههم ما في قلوبهم ثم أخذوا في مُداراته ومسألته الرفق.

فلما كان من الغد شغَّب الرجَّالة بالأهواز تعصُّباً لهم وقالوا: لا بدّ من إطلاقهم. وحملوا السلاح وكان مع أحمد بن نصر طوائف من البصرية وعدّه كثيرة من السودان والغلمان الحجرية فجمعَهم ثم حلف بالطلاق أنه إن هجم على داره أحدٌ منهم قتلهم وأخذ رؤوس الثلاثة وحملها إلى الخليفة وقال: هذا كتاب مُزوَّر وإلا فلِمَ لا يقع تثبيت وإنما ضرّبتُم عليَّ الرجَّالة وراسلتموهم في حمل السلاح وأخذكم من منزلي لئلا يظهر ما زوّرتموه وتتعجَّلون الخروج والهرب. فلما رأوا المَصدوقة اعتذروا ووضعوا جنوبهم له وراسلوا الرجَّالة في الانصِراف بعد أن حلفوا أنهم يتبرَّءوا بالتعصب لهم وأقاموا بمكانهم.

ووافى بعض عشرة أيام ابن موسى دانجو بتوقيع مثل ذلك التوقيع وذلك الخطّ فتسلمهم وحملهم وعلم أنهم كانو زوروا واحتالوا وتأكّدت الوحشة بينهم وبين أحمد بن نصر القشوري ولم يزالوا عليها حتى فرق بينهم الدهر.

ولما ورد البريديون الحضرة نوظروا على المُصادرة فقال أبو زكريا يحيى بن سعيد السوسي وكان في الوقت عدواً لهم: بكرت إلى أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وقلتُ له: الأهواز خِطة القاسم أبيك وهي دارك ودار أخيك وأنتم تتصرّفون فيها منذ ستين سنة فلِم تركتموها لِهؤلاء الفعلة الصنعة وهَلاً سعيتَ على سحقِهم وسحبهم حتى لا يبقى لهم جناح يطيرون له؟ فقال: يا أبا زكريا ما الذي تقدِّرهُ في مصادرتهم التي تؤدّيهم إلى هذه الحال؟ فقلتُ: معظماً ثلثمائة ألف دينار يزهق اللّه به نفوسهم. فقال لي: يا أخ قم بنا حتى نعبر إلى دار الوزير. (وكان يومئِذٍ أبو القاسم سليمان بن الحسن) فخرجت معه فنزلنا الطيّار فلما وصلنا وتوسّطنا الدار وجدنا أبا القاسم الكلوذاني في جانبٍ منها والبريديين بين يديه والكُتّاب فقال لي أبو جعفر: ترى أن نقضي حقَّه ونُعرِّج عليه ونعرف الصورة من أمرهم فنبني ما نُخاطِب الوزير به بحسبِه؟ فقلتُ: صواب. فعدلنا إلى أبي القاسم وجلسنا عنده فقال لأبي جعفر: قد فصلنا أمرَ أصحابنا وأنت وجهُ الحضرة وتاجُها وحُرُها وهم إخوتك وما أحقك بمعونتهم فقال: إن أَيْسَر ما يكون لهم أيَّدهم اللّه مُشاركتهم في المِحنة فأما المعونة فما أقنعُ من نفسي بها فعلى كم انفصَلَ أمرُهُم؟ فقال: على تسعة آلاف ألف درهم. قال أبو زكريا: فنظر إليَّ أبو جعفر وقد بُهِتُ. ونهضنا فقال: يا أبا زكريا هذا خِلاف ما كان عندك. فقلتُ: هذا الأمر يُراد واللّه ما يملكون هذا المال فإني أعرف بمكاسبهم ولكن لأبي عبد اللّه نفس أبية وهمة علية فعرفت نفسه على سلطانِه فأعطاه أكثر مما أطمع فيه ومما سعى به أعداؤه متربصاً بالأيام والأوقات ومتوقعاً للدوائر وأن يسمع الخليفة التزامه هذا المال الجليل فيستكثر قدره ويرغب في تجديد الصنيعة عنده وما كل أحدٍ يغرر هذا التغرير وما هذا آخر أمره وسيكون له شأن عظيم كفانا اللّه شَرَّهُ. قال أبو زكريا: وعدلتُ مذ ذلك اليوم إلى مداراته وخدمتِه واستصلاحِه.

وتقدّم المقتدر بالله إلى سليمان بن الحسن وأبي الحسن علي بن عيسى بمناظرة أبي علي بن مقلة فاختارا لذلك أحمد بن محمد بن صالح العكبري وأنفذه إلى دار السلطان فناظرُه ولم يزد على توبيخه وموافقته على قبيح آثاره. فالتمس أبو علي بن مقلة أن يكون المناظر له عيسى بن عيسى فاجتمع الوزير سليمان وعلي بن عيسى على مناظرته في دار الحجبة بحضرة ياقوت الحاجب فأغلظ له سليمان في الخطاب والتخطئة والاحتقار ونسبُه إلى التضريب بين السلطان وأوليائه إلى أن قرّر علي بن عيسى أمرَهُ على مائتي ألف دينار على جمل يُعجَّل منها النصف ويودِّي الباقي من نجوم المصادرات وكانت تلك النجوم إنما هي رسمٌ لا يطالب من يؤخَذ خطه بها. فكتب مونس المظفر إلى المقتدر يشفع لابن مقلة ويسأله أن يعفيه من المصادرة وأن يكون معتقلاً في يد مرشد الخادم فأجابه إلى ذلك.

ودخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة

وفي هذه السنة استوحش مونس المظفر زيادة استيحاش

ذكر السبب في استيحاش مونس وخروجه

كان محمد بن ياقوت منحرفاً عن سليمان ومائلاً إلى الحسين بن القاسم ومونس المظفر وأسبابه يميلون إلى سليمان لمكان علي بن عيسى وثقتهم به وينحرفون عن الحسين بن القاسم وقوي أمرُ محمد بن ياقوت وقلّد مع الشرطة الحِسبة واستضمّ رجالاً وقويت بهم شوكتُهُ فشقّ ذلك على مونس وسأل المقتدر صرفه عن الحِسبة وتقليد ابن بطحاء ففعل ذلك. وتقدّم مونس إلى أصحابه بالاجتماع إليه فلما فعل ذلك جمع ياقوت وابنُهُ الرجال في دار السلطان وفي دار محمد بن ياقوت. وقيل لمونس إن محمد بن ياقوت قد عمل على كبس داره بالليل وما فارقَهُ أصحابه حتى أخرجوه إلى باب الشمَّاسيّة وخرجوا معه. وصار إليه علي بن عيسى فعرّفه خطأ هذا الرأي وأشار عليه بأن يعود إلى داره فلم يقبل منه وأقام على أمره.

وطالب بصرْف محمد بن ياقوت عن الحِسبة والشرطة وياقوت عن الحجبة وإبعادهما عن الحضرة فوجّه المقتدر قاضي القضاة أبا عمر وابنَهُ الحسن وابن أبي الشوارب وجماعة من شيوخ الهاشميين أصحاب المراتب إلى مونس برسالةٍ يرفق فيها ويسألهُ الرجوع إلى دارهِ. فقال قاضي القضاة: الوجه أن يكتب رُقعة بما حمَّلناه من الرسالة نرجع إليها ونثني الكلام على معانيها فإنا جماعة والقول يختلف والنسيان غير مأمونٍ. فقال الوزير: وما معنى هذا؟ فقال علي بن عيسى: هذا هو الصواب. وكُتب بذلك رُقعة.

وقعد الوزير وعلي بن عيسى في دار السلطان ينتظران عودَ الجماعة فعادوا وذكروا

أنهم لم يصلوا إلى مونس وأنهم أجلسوا في الحديدي وراسلهم مونس في إعلامِهِ بما وردوا فيه فذكروهُ له فصار إليهم كتابُهُ يخاطبونهم خطاباً جميلاً عنه. فبينما هم كذلك إذ هجم الجيش على الحديدي فكادوا يغرقونُه وقالوا: لا نرضى إلاّ بإخراج ياقوت وابنيه. وتكلموا بكلام قبيح فراح في آخر النهار الوزير سليمان بن الحسن وعلي بن عيسى ومن معهُما من خدم الخاصّة إلى باب الشمّاسيّة فشافهوا مونساً بالرسالة فلم يبعد عليهم وخرجوا من عنده فقبض عليهم عند مغيب الشمس وحبسَهُم في الحديدي. فخرج ياقوت في تلك الليلة ونزل المدائن ومعه أبناء فلما كان من غد ذلك اليوم وعرفت المونسيَّة أن ياقوتاً وابنيه قد خرجوا عن الحضرة أفرجوا عن الوزير والجماعةِ وانصرفوا إلى منازلهم.

وقلَّد المقتدر ياقوتاً أعمال الخراج والمعاوِن بفارس وكرمان وكتب إلى أبي طاهر محمد بن عبد الصمد بالانضمام إليه وانضم إليه وخاطبه بالأستاذيَّة وقلَّد المظفر بن ياقوت أصبهان وتقلَّد ابنا رايق إبراهيم ومحمد مكان ياقوت وأقام ياقوت بشيراز مدّة. وكان علي بن خلف بن طناب متضمناً أموال الضياع والخراج بها فتظافرا وتعاقدا فقطعا الحمل عن السلطان إلى أن ملك علي بن بُوَيه الديلمي فارس يوم السبت سنة ٣٢٢.

وفيها دخلت قوافل الحاجّ من مكة سالمين مع مونس الورقائي فاستبشر الناس بتمام الحج وانفتاح الطريق وضربت له القبابُ ببغداد. وفيها قبض على الوزير سليمان ابن الحسن.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن سليمان أضاق إضاقة شديدة وكثرت عليه المطالبات وبلَّح واتصلت الرِقاع ممن يلتمس الوزارة بالسعاية فقبض على سليمان بن الحسن وأبي القاسم عبيد اللّه بن محمد الكلوذاني فشق من ذلك وجزع جزعاً عظيماً وحملا إلى دار السلطان. وكان المقتدر شديد الشهوة لتقليد الحسين بن القاسم الوزارة فامتنع عليه مونس وأشار بتقليد الكلوذاني فاضطر المقتدر إلى تقليده وكانت مدّة وزارة سليمان سنة واحدة وشهرين وأياماً.

واستحضر المقتدر أبا القاسم عبيد اللّه بن محمد الكلوذاني من دار مونس يوم السبت لخمس بقين من رجب وخرج إليه مفلح برسالة المقتدر بأنه قد قلَّده وزارته ودواوينه ولم يوصله إليه وتقدّم إليه بأن ينحدر إليه يوم الاثنين لِيخلع عليه. فخاف الكلوذاني من حيلة تتمّ للحسين بن القاسم في تقلُّده الوزارة لأنه بلغُه أن الحسين قد جدَّ بعد القبض على سليمان وراسل مونساً المظفر وقال: لا يؤمن أن يحتجّ الخليفة في تأخر الخلع على الكلوذاني بأنه لم تعدّ له الخلع. وأشار بأن يوجّه مونس بخلع من عنده إلى دار السلطان ليخلعها عليه ففعل مونس ذلك وخلع المقتدر على أبي القاسم عبيد اللّه بن محمد الكلوذاني يوم الاثنين وخاطبُه

بتقليده الوزارة والدواوين وتقدّم إليه بأن يقلّد الحسين بن القاسم دِيواناً جليلاً ليظهر ويزول عنه الأراجيف بالوزارة. ووصل علي بن عيسى بوصول الكلوذاني فأمره المقتدر بحضرة الكلوذاني بأن يجري على عادتِه في الأشراف على الأمور والحضور معه وعرّفه أنه قد أفرده بالنظر في المظالم دون الكلوذاني فركب الكلوذاني في الخلع من دار السلطان إلى داره فأخذ خط سليمان بن الحسن بمائتي ألف دينار.

وقدم أبو الفتح الفضل بن جعفر من الشام وأبو جعفر محمد بن القاسم بن عبيد اللّه من نواحي جند قنسرين والعواصم وكان أبو الفتح منصرفاً إلى ناحية قومس فأشار مونس بتقليده ديوان السواد فقلّده الكلوذاني مكرهاً وانقطعت بتقليدِه موادّ كانت تصل إلى الكلوذاني وأبي الفياض من أرزاق قوم لا يحضرون وتسبيبات بأسماء قوم لم يخلقوا وما كان يسبب للغلمان والوكلاء في الدار والحاشية برسم الفقهاء والكتّاب وما كان يستطلق لهم من الورق والقراطيس ويبتاع ببعضِه ما يحتاج إليه وأشياء تشبهُ هذه ولم تنبسط يد الكلوذاني على قوم لِعناية مونس المظفر بهم.

وكان أبو بكر بن قرابة متحققاً بمفلح الأسود فأوصلُه مفلح إلى المقتدر وجعلَهُ واسطة للمرافق التي أخلق بها الخلافة. وكان ابن قرابة ذكر له أن الوزراء كانوا يرتفقون بها وأن الضمناء قد بذلوا أن يرفقوا به الخليفة ليصرفه في مُهمّ نفقاتِه لِشدّة الإضافة. وكان ابن قرابة يظهر للمقتدر ولمفلح الأسود أنه يمشي أمر الوزارة وأن الوزراء لا يتمُّ أمرهم من دونه وكان يلزم دار الكلوذاني ويقرِضه عن بني البريدي وغيرهم بربح درهم في كلّ دينار فأقرضه مائتي ألفَ دينار مشى بها أمرُ الكلوذاني وبمال المصادرات.

وفيها ورد الخبر بوقعة كانت بين هارون بن غريب وبين مرداويج بنواحي همذان وأن هارون انهزم وملك مرداويج الجبل بأسرِه إلى حلوان. ونزل هارون بدير العاقول.

وفيها قصد لَشكري الديلمي أصبهان وحارَبَهُ أحمد بن كيغلغ فانهزم أحمد وملكَ لشكري أصبهان وهذا لشكري من أصحاب أسفار بن شيرويه فلما قصد هارون بن غريب ابن الخال أسفار استأمن إليه لشكري ثم لما انهزم ابن الخال انهزم لشكري بانِهزامه إلى قنسرين فلما تأهّب ابن الخال ثانياً وجُهِّزَت إليه العساكرُ من بغداد لِحرب مرداويج أنفذ لشكري إلى نهاوند من الدينور مع جماعة من الغلمانِ لِحمل مالٍ إليه ورسم أن يحمل المال إلى هَمذان ويقيم بها حتى يلحقه هناك فلما صار لشكري إلى نهاوند رأى يسار أهلِها وكثرة أموالها وطمِع فيهم وصادرهم على نحو ثلاثة آلاف ألف درهم واستخرجها في مدّة أسبوع وأثبَتَ جنداً ثم خرج إلى الكرج ففعل مثل ذلك واتّصل الخبر بابن الخال فطلبَهُ فرحل من بين يديه وسار حتى وقع إلى أصبهان والوالي عليها أبو العباس أحمد بن كيغلغ.

ذكر اتّفاق حسنٍ لِأَحمد بن كيغلغ بعد هزيمته ودخول أصحاب لشكري أصبهان

حكى أبو الحسن المافروخي أنه كان بأصبهان في الوقت وأن أحمد بن كيغلغ انهزم أقْبَح هزيمة ثم لجأ إلى بعض القُرى في ثلاثين نفساً معه وراء حصنها. ودخل أصحاب لشكري أصبهان ونزلوا في الدُّور والخانات والحمّامات وتأخّر لشكري بنفسه عن العسكر ثم سار قليلاً ونزل عن دابتِه لإهراق ماءٍ فرأى كَوكبةً أنكرَها وقال: ما هذه؟ فقيل: شرذمةَ من الكيغلغية. فركب في الوقت يريدُها فلما قرُب منها أسرع أحمد بن كيغلغ إليه بعد أن علم أنه هو فتناوشا وكاد لشكري يَستأسِره فخرج أهل تلك القرية فزعقوا به فضَعفت نفس لِشكري وتقارب هو وأحمد فضربه أحمد بسيفِه ضربة قدَّ المِغفَر والخُوذة ونزل السيف في رأسه فقتَلَهُ وخر لشكري ساقطاً فنزل أحمد إليه وحزّ رأسَهُ وعرف أصحابُهُ الخبر فطاروا هاربين وكان فتحاً طريفاً واتفاقاً عجيباً وكانت سنُّ أحمد بن كيغلغ يومئذ تجاوز سبعين سنة.

وفيها صُرف الكلوذاني عن الوزارة وقُلِّدها الحسين بن القاسم.

ذكر السبب في تقلّد الحسين بن القاسم الوزارة وما تمّ له من الحيلة فيها

كان أبو القاسم بن زنجي يحكي في توصُّل الحسين بن القاسم إلى الوزارة خبراً طريفاً ويقول: كان أبو علي الحسين بن القاسم يُعرف بأبي الجمال وكان لي صديقاً يسكن إليّ ويستدعيني إلى الموضع الذي كان مُستتراً فيه ويشاوِرني فألزمني بذلك حقاً وحُرمة فاجتهدتُ في السعي له والتوصُّل بكلِّ سبب وحيلة إلى أن تقلَّد الوزارة. فكان من أنْجَع ما عمِلتُهُ أن رجلاً بمدينة السلام يُعرف بالدانيالي كان يلزمني ويبيت عندي ويخرجَ إليَّ بسرِّه ويحدثني أنه يظهر كتباً ينسبها إلى دانيال بخطٍ قديم ويودع تلك الكتب أسماء قوم من أرباب الدولة على حروف مُقطَّعة إذا جُمعت فُهمت واستوى له بذلك جاه وقامت له به سوقٌ. ووصلت إليه جُملة من القاضي أبي عُمر وابنه أبي الحسين ووجوه الدولة وغلب على مفلح واختص به لأنه عرّفَهُ أنه وجد في الكتب أنه من ولد جعفر بن أبي طالب فجاز ذلك عليه ووصل إليه منه برٌّ كثير. فانفتح لي أن سألتُهُ إثبات فصل في كتُب يكتُبها بشرح ما أسألُهُ فأجابني إلى ذلك فوصفتُ له الحسين بن القاسم واقتصرتُ من وصفِهِ على ذكر قامته وآثار الجدري في وجهه والعلامة التي في شفته العليا وخِفة الشعر هُناكَ وأنه إن وزر لِلثّاني عشر من خلفاءِ بني العباس استقامت أموره كلّها وعَلا على أعدائِه وانفتحت البلاد على يده وعمرت الدنيا في أيامه. ودفعت النسخة إلى

الدانيالي وواقفني على عمل دفتر يذكر فيها أشياء ويجعل هذا الباب في تضاعيفها فسألتُهُ تقديم ذلك ولم أزل أطالِبُه حتى أعلمني أنه لا يستوي على ما يريد حتى لا يشك في قِدَمه وعِتْقه في أقلّ من عشرين يوماً وأنه يحتاج أن يجعلُه في التبن أياماً ثم يجعله في الخُفّ ويمشي فيه أياماً وأنه يصفرّ ويعتق. فلما بلغ المبلغ الذي قدّر صار إليَّ وهو معه وأرانِيه فوقفتُ على الفصل ورأيتُ دفتراً لولا ما عرفتُه من الأصل فيه لحلفتُ على أنه قديمٌ لا شك فيه. ومضى بذلك إلى مفلح فقرأه عليه في جملة أشياء قرأها فقال له مِفلح: أعِد عليَّ هذا الفصل. فأعاده ومضى مفلح إلى المقتدر باللَّه فذكر له ذلك فطلب لدفتر منه فأحضرهُ إياه فقال له: من تَعرِف بهذه الصفة؟ وأقبل المقتدر يكرّرها فذكر مفلح أنّه لا يعرف أحداً بها وحرص المقتدر على أن يعرف إنساناً يوافِق هذه الصفة صفته فقال مفلح: لستُ أعرفُ بهذه الصفة إلاّ الحسين بن القاسم الذي يقال له أبو الجمال. فقال له المقتدر: إن جاءك صاحبٌ له برقعةٍ فخذها منه وإن حملك رسالة فعرّفنيها واكتمْ ما يجري في أمره ولا تعلم أحداً به. وخرج مفلح إلى الدانيالي فقال له: هل تعرف أحداً بهذه الصفة؟ فأنكر أن يعرف ذلك وقال: إنما قرأتُ ما وجدتُهُ في كتب دانيال ولا علم لي بغير ذلك.

وانصرف إليَّ فحدثني بهذا الحديث فقمتُ من فوري إلى الحسين بن القاسم فأعدتُه عليه فسر به غاية السرور وابتهج نهاية الابتهاج وظهر في وجهِه استبشارٌ عظيم وقال لي: اعلم أن أبا بشر الكاتب كان أمس عند مفلح برسالة لي إليه فانصرف كاسف البال ظاهر الانخزال مغموماً بما شاهده من إعراضِه عنه فغمني ذلك. فقلتُ: الآن يتبين لنا صدقُ الدانيالي من كذبِه ابعثْ بأبي بشر في غد إلى مفلح برسالة منك فإنه سيتبين له فيما يعاملُه به صحة ما حكاهُ من بطلانه. فدعا أبا بشر النصراني كاتبه وحمّله إليه رسالة ووكّد عليه في البكور إليه فلما كان من غد آخر النهار مضيت إليه أتعرَّفُ خبره وما جرى فدعا أبا بشر وقال له: أعِد عليه خبرك. فأعلمني أنه دخل إليه وفي مجلسِه جماعة فرفعَهُ عليهم فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه يحدثه ثم استدناهُ وسأله سرّاً عن خبر الحسين بن القاسم واستمع رسالته وقال: «تقرأ عليه سلامي وتعرّفه تكفُّلي بأمره وقيامي به» وكلاماً في هذا المعنى وأن ينفذ إليه رُقعة ليوصلها وينوب معه. قال لي أبو بشر: وانصرفت وأنا في نهاية قوة النفس والثقة باللَّه عزّ وجلّ وبتمام ما يسفر فيه. فأعلمتُ الحسين أن الرجل قد صدق فيما ذكره وقد بان لنا أثرهُ.

قال: ثم إن الدانيالي طالبني بالمكافأة فطيبتُ نفسُه واستمهلته إلى أن تقلّد الحسين الوزارة فأذكرته حق الرجل فقلّده الحسبة ببغداد وأجرى له مائة دينار في كل شهر واختصَّ به وكان يحضر مجلسَهُ فيجلسه إلى جانب مِسوَرَتِه ثم مضت أيّام فقال: لا

يقنعني ما أجرى لي. وسأل زيادة فكلّمتُ الحسين بن القاسم في أمرِه فأجرى له مائة دينار أخرى تسبب برسم الفقهاء. وكان ما ذكرتُه من حديث الدانيالي من أوكد الأسباب في تقليد الحسين الوزارة مع كثرة الكارهين له والمعارضين في أمرِه.

وانضاف إلى هذا الخبر الذي أخبر به أبو القاسم بن زنجي أن الكلوذاني عمل عملاً لِما يحتاج إليه من مُهمّ النفقات وأخذ خطّ صاحبي ديوان الجيش والنفقات بأعمال أخر مفردة عملوها لما يحتاج إليه بزيادة مائتي ألف دينار على ما عمل هو حتى تبين للمقتدر باللّه وقوع الاحتياط منه فيما عمل واقتصر عليه فكان العجز سبعمائة ألف دينار وعرض ذلك على المقتدِر وقال له: ليس لي معوّلٌ إلاّ على ما يطلقه أمير المؤمنين لا نفقهُ. فعظم ذلك على المقتدر فلما بلغ الحسين بن القاسم خبر العمل الذي عملُه الكلوذاني كتب رُقعةً إلى المقتدر يضمن فيها القيام بجميع النفقات من غير أن يطلب منه شيئاً وأنه يستخرج سوى ذلك ألف ألف دينار يكون في بيت مال الخاصة. فأنفذ المقتدر رُقعته إلى الكلوذاني وقال: هذه رُقعة فلان ولستُ أسومك الاستظهار بالمال وما أريد منك إلا القيام بالنفقات فقط. فقال الكلوذاني: قد يجوز أن يتمّ لهذا الرجل ما لم يتمّ لي. وسأله تقليد من ضمن هذا الضمان فإعفاءه من الأمر. فلمّا وقف المقتدر على تبلح الكلوذاني وحصل في نفسهِ ما بذله الحسين بن القاسم عمل على أن يستوزرُه وعلم شدة كراهية مونس المظفر لذلك فراسلُه على يد مفلح بأن يجتهد في إصلاح أعدائه. فابتدأ الحسين ببني رائق فكان يمضي بنفسه إلى كاتبهم إبراهيم النصراني ويضمن لهم الضمانات حتى صلحوا له ثم فعل ذلك بأبي نصر الوليد بن جابر كاتب شفيع ثم فعل مثله باصطفن بن يعقوب كاتب مونس وقال له: إن تقلّدتُ الوزارة فأنتَ قلّدتنيها. فأشار عليه بملازمة أبي علي يحيى بن عبد اللّه الطبري كاتب يلبق ففعل ذلك وكان يلبق قد سمع أنه متّهم في دينه شريرٌ فجمع أبو علي الطبري بينه وبين يلبق حتى حلف له الحسين بكلّ يمين يحلف مسلم ومعاهدٌ أنه مكذوبٌ عليه في كلّ ما يطعن به عليه في ديانتهِ أوّلا ثم في عداوتِه لمونس وخاصتِه وأصحابه لا ينوي لأحد من الناس سوأً ولا يأخذ الأموال إلا من بقايا صحيحة على تجار ملإٍ كسروا مال السلطانِ من أثمان الغلاّت ومن ضُمناء قد ربحوا ربحاً عظيماً. وضمن الحسين ليلبق ضياعاً جليلة كذلك لكاتبه فسعى له يلبق وسأل مونساً في أمره وسأل مونس المقتدر فتقرّرت الوزارة له وبلغ ذلك الكلوذاني فواصل الاستعفاء.

واتفق أن دخل خمسمائة فارس كانوا مقيمين بالجبل في ماء الكوفة وحلوان وهذه نواح لم يتغلب عليها مرداويج وكانت أرزاقهم قد تأخرّت فطالبوا الكلوذاني وأمرهم الكلوذاني بالرجوع لينفق فيهم هُناك فلم يسمعوا ورجموه بالآجُرّ وهو مُنصرف في

طيَّاره. فجعل ذلك حجة وأغلق بابَهُ وحلف على أنه لا ينظر في أَعمال الوزارة فكانت مدّة وزارته شهرين وثلاثة أيام.

وكتب المقتدر إلى الحسين بن القاسم توقيعاً بتقليد الوزارة وركب إليه وجوه الكتاب والعمال والقوَّاد وبلغ ذلك أبا الفتح الفضل بن جعفر فصار إليه مع قاضي القضاة أبي عمر محمد بن يوسف وابنه والقاضي ابن أبي الشوارب وكتب عن المقتدر بخبر تقليده الوزارة إلى خراسان وجميع النواحي والأطراف وكان تقلده للوزارة يوم الجمعة لِليلتين بقيتا من شهر رمضان. فعدل عن الجلوس لِلتهنئة وتشاغل بالنظر في أَمر المال وما يحتاج إليه في نفقة العيد ولزمه الفضل بن جعفر وهشام بن عبد اللّه لأنهما كانا يتوليان ديوان المشرق وزمامَهُ وديوان بيت المال وأخذ خطوط عدة من العُمّال والضُمناء بسبعين ألف دينار. وصار إليه علي بن عيسى آخر النهار فهنأهُ وقد كان الحسين شرط لنفسِه ألا ينظرُ علي بن عيسى في شيء من الأمور ولا يجلس للمَظالم فأجيب إلى ذلك.

وتبسط كاتب بني رائق وكلّ مَن كان سعى له في الوزارة في طلب الأموال حتى قبضوا علي شذاةٍ وردت من الأهواز فيها مال الأهواز وأصبهان وفارس فكتب الحسين الوزير إلى المقتدر يشكو هذه الحال فلم يُنكِر كلّ الإنكار فوقع الاتفاق بين الحسين وبين ابني رائق على أن يأخذوا من المال النصفَ ويفرجوا عن الباقي ففعلوا ذلك.

وكانت دِمنَة جارية المقتدر حظِيَّةً عنده وكانت تُوصِل رِقاع الحسين إلى مولاها وتقوم بأمرِه فحمل إليها جملة عظيمة من المال وبعث إلى ابنها وهو الأَمير أبو أحمد إسحاق أيضاً جملة واستأذن المقتدر أن يستكتب له ابنَهُ القاسم بن الحسين فأذن له في ذلك وضمن لدِمنةِ أن تحمِل إلى ابنِها في كلّ يوم مائة دينار وتدفَعُ عن صرفِه.

واختصّ به بنو البريدي وأبو بكر بن قرابة وقدَّم له جُملة من المال عن الضمناء بربح درهم في كلّ دينار على رسمِه. واختصّ به من القُوّاد جعفر بن ورقاء وأبو عبد اللّه محمد بن خلف النيرماني وقلَّده أعمال الحرب والخراج والضياع بحلْوان ومرج القلعة وماه الكوفة والبَسه القباء والسيف والمِنطقة وتسمى بالأمارة وخوطب بها وضمن أن يجمع الرجال ويفتح أعمال كُوَر المشرق وينتزعها من يد مرداويج وكان قد احتجن أموال السلطان من بقايا ضمانٍ كانت عليه في أيام سليمان بن الحسن لأعمال الضياع والخراج الخاصّة والعامة وكانت جملة عظيمة. وكان تقلد كرمان في بعض الأوقات واستخرج من مالها شيئاً كثيراً فحملها وانصرف فكتب صارِفُهُ أنه ما أنفق منها درهماً واحداً واتفقت له أشياء تجري هذا المجرى. وتجرّد الحسين بن القاسم لإخراج علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن إلى مصر والشام فراسل المقتدر علي بن عيسى في ذلك ودفع عنه مونس المُظفر وقال: هذا شيخٌ يُرجَع إلى رأيه ويُعتضد بمكانِه. إلى أن تقرّر أمرُهُ

على أن يخرج إلى الصافية فخرجَ.

وابتدأ مونس في الاستيحاش والتنكر في يوم السبت لثلاث خلون من ذي الحجّة.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك ما بلغه من اجتماع الوزير الحسين بن القاسم مع جماعةٍ من القُوَّاد على التدبير عليه. وبلغ الحسين تنكُّر مونس له وأنه عزم على كبسِه بجماعةٍ من خواصِه في الليلِ لِلقبض عليه فتنقل في مدّة عشرة أيام في نحو عشرة مواضع وكان لا يُعرَف له دارٌ ولا موضع يلقاهُ فيه أحد وكان لا تلقاه أصحاب الدواوين إلا إذا طلبهم ثم ختم الأمر بأن أقام في دار الخليفة وراسل مونس المظفر المقتدر باللّه في صرف الحسين ابن القاسم عن الوزارة فأجابه إلى صرفه والتقدُّم إليه بلزوم منزلِه فلم يقنع مونس بذلك وطالب بالقبض عليه ونفيه إلى عُمان فامتنع المقتدر من ذلك وتردّدت بينهما فيه رسائل. وأوقع الحسين بن القاسم للمقتدر أن مونساً قد عمِل على أَخذ الأمير أبي العباس من داره بالمُخرِّم والخروج به إلى مِصر والشام ليعقد له الأمر في الخلافة هُناك وأشار بردّ الأمير أبي العباس إلى داره من دار الخلافة ففعل المقتدر ذلك. ووقف الأمير أبو العباس على ما فعلَهُ الحسين بن القاسم فحقده عليه في نفسه إلى أن أفضت إليه الخلافة فأنزل به من المكروه ما سنشرحُهُ في موضعه إن شاء اللّه.

وكتب الحسين بن القاسم إلى هارون بن غريب وهو بدير العاقول بعد هزيمته من بين يدي مرداويج بالمُبادرة إلى الحضرة فزادت وحشة مونس بهذه الأحوال وصحَّ عنده أن الحسين بن القاسم في تدبير عليه فخرج من داره لِخمس خلون من المحرَّم وجلس في حديدي وامتدَّ إلى باب الشماسية وخرج أكثر رجاله وضربوا مضاربهم هُناك. وكتب مونس إلى المقتدر بأن مفلحاً الأسود مُطابق للحسين بن القاسم في التدبير عليه وأن نفسه لا تسكن إلا بإنفاذ مفلح إليه ليُقَلِّده أجلَّ الأعمال ويخرج فكتب المقتدر بأن مفلحاً خادمٌ يثق به في خدمته وأنه ليس ممّن يُدخل نفسه فيما ظنَّهُ به. وبلغ مونساً أن الحسين قد جمع الرجال والغلمان الحجريَّة في دار السلطان وأنه قد ابتدأ بالنفقة فيهم وأن هارون بن غريب قد قرُب من بغداد فأظهر الغضب وسار إلى الموصل. ووجهٌ ببُشرى خادِمه لِيؤدي رسالة إلى المقتدر فلما حصر بُشرى في دار السلطان بحضرة الحسين بن القاسم قال له الحسين: هات الرُّقعة التي معك. فقال له: ليس معي رُقعة وإنما معي رسالة. قال: فتذكرها. فقال: قد أمرتُ ألا أذكرها إلا للخليفة. فوجّه الحسين إلى المقتدر باللّه وعرَّفُه ذلك فوجّه المقتدر إلى بُشرى يأمره أن يؤدي الرسالة إلى الحسين فقال بشرى: حتى أمضي واستأذن صاحبي في ذلك وأعود. فشتمَهُ الحسين وشتم صاحبَهُ وأمر به فقُبض عليه وضربه بالمقارع وقال: لا أرفع عنك الضرب أو تكتب خطك بثلاثمائة ألف دينار.

فكتب وأمر به إلى الحبس ثم وجه لِلوقت إلى داره وقبض على امرأته وصادرها وحمل ما فيها. ولما بلغ مونساً ما جرى على خادمه بشرى امتدّ واصعد ومعه من كان برسمه من قُوَّادِه وأصحابه وكتب الحسين بن القاسم إلى من كان معه من القُوَّاد والغلمان بالانصراف عنه والمصير إلى باب السلطان فانصرف عنه جماعة منهم ومضى مونس في خواصه وغلمانه مسرعاً إلى الموصل. ووقّع الحسين بقبض أملاك مونس وضياعه وضياع أسبابه وأفرد لها ديواناً سماه ديوان المخالفين وردّهُ إلى محمد بن جني.

وزاد محلّ الحسين بن القاسم عند المقتدر وأنفذ إليه طعاماً من بين يديه وأمر بأن يكنّى ويلقَّب عميد الدولة وأن يضرب لقبُهُ على الدنانير والدراهم ففعل ذلك وخلع عليه يوم الاثنين لأربع بقين من المحرّم وأنشأ في ذلك كتاباً نفذ إلى جميع الأعمال والأطراف. وصرف قوماً وقلّد قوماً فكان فيمن قلّد أبو يوسف يعقوب بن محمد البريدي وذلك بمسألته فقلَّده أعمال البصرة من الخراج والضياع والمراكب وسائر وجوه الجبايات بها فضمنه ذلك بمقدار نفقات البصرة وفضل له بعده ثلاثون ألف دينار وقَّع بتسبيبها على مال الأهواز. فلمّا وقف أبو الفتح الفضل بن جعفر على ذلك استعظم ألا يفي ارتفاع البصرة بنفقاتها حتى يحتاج إلى أن يسبب على غيرها وتقدم بإخراج الجماعات والحسبانات إليه وتقدّم إلى كلّ واحد من أصحاب المجالِس أن يخرج إليه ما عنده من ارتفاع البصرة لِثلاث سنين وأخرجت الجماعات إليه وهو ينظر فيها وفي أعمال كُتَّاب المجالِس ويضيف من عمل إلى عمل ويعمل بيده من صلاة الغداة إلى بعد العتمة إلى أن انتظم العملُ على ما أراد. ثم أحضر أبا يوسف البريدي وواقفه عليه ولم يتهيأ له إنكار شيءٍ مما أخرجه فأعطاه خطَّه بالقيام بجميع ما يجب للأولياء وأن يثبت لحفظ السور ألف رجل زيادة على رسم من يحفظه ومن ينضم إليه وسائر النفقات الراتبة ويحمل إليه بعد ذلك كله ستين ألف دينار إلى بيت المال بالحضرة. فصار الفضل بن جعفر بالخطّ إلى الوزير الحسين بن القاسم متبجحاً به وعرضه عليه وعرَّفه ما جرى بينه وبين ابن البريدي حتى تقرّر على ما كتب به خطَّهُ.

فلم يقع ذلك من الحسين بن القاسم الموقع الذي قدَّره الفضلُ وتبين منه تكرُّه له وظنّ أنه كالتوبيخ والتقريع وكالزيادة على عملِهِ فلما تبين الفضل الصورةَ راسل المقتدر بما فعله فوقع ذلك عنده أحسن موقع وشاع ما عمله في الدواوين وتناقلته الرؤساء والكتَّاب بينهم. واتصل ذلك بالحسين فغلظ عليه وأراد أن يضع منه فواقف ابن جبير على مهاترته في المجلس والغضّ منه ففعل ابن جبير ذلك حتى تكلَّم بما لم تجر العادة بمثلِهِ والحسين ممسكٌ عن الجميع لا يكفّ أحدَهما عن الآخر فلما تبين أبو الفتح ذلك وعرف الغرض نهض عن المجلس وقال: ليس المكلم لي أنت بل المكلم غيرك. فلما

ولي خارجاً عرفَ الحسين الخطأ فيما جرى فقال لأبي عبد اللّه زنجي: إن أبا الفتح صديقك وهو يطيعك وما أحبّ أن يخرج على هذه الجملة فأحبّ أن تلحقه وترضيه وتردّه. فبادر إليه أبو عبد اللّه وما زال يرفق به حتى ردّه واعتذر إليه الحسين من خطاب ابن جبير له. وانصرف وهو مستوحش واستتر عند أبي بكر بن قَرابة وبقي ديوانه شاغراً إلى أن يئس الحسين من ظهورِهِ فقلّد أبا القاسم الكلوذاني الديوان ولم يزل أبو الفتح يسعى له في طلب الوزارة حتى تمّ له كما سنذكرُهُ. ولما لم يعد مونس إلى بغداد وجّه الحسين إلى ابن مقلة فصادره وكان معتقلاً فأعطى خطَّهُ بمائتي ألف دينار وأنفذ إلى علي ابن عيسى وهو بالصافية يستحضره وأطمع المقتدر من جهتهِ في مائتي ألف دينار فلمّا وصل الرسول إلى الصافية وجد بها هارون بن غريب وكان هارون شديد العناية بعلي بن عيسى فمنعه من حمله وقال: أنا أخاطب أمير المؤمنين في أمره. فلمّا وقف الحسين على عناية هارون بعلي بن عيسى أمسك عنه.

ولمّا وصل هارون بن غريب إلى دار السلطان وصل إليه في خلوة وانصرف إلى داره فقصدَهُ الوزير وابنا رائق ومحمد بن ياقوت ومفلح وشفيع وعظم أمره. فخاطب المقتدر في أمر علي بن عيسى فأعفاه من المصادرة وخاطبه في أمر أبي علي بن مقلة فحط من مُصادرته خمسين ألف دينار وأمر بحمله إليه. ثم لم يستصوب ذلك وخاف أن يكاتب مونساً أو يُراسِله فسأل ابنُ مقلة هارونَ أن يُعاود الخطاب في بابه ويستحلفه بأيمان مغلظة إلاّ يكاتب ولا يراسل مونساً ولا أحداً من أسبابه ففعل ذلك وحُمل إليه قال: فحدّثنا أبو علي بن مقلة في وزارته لِلراضي أنه أخذ في استماحة الناس وأدى المال كلّه بما وصل إليه من المال من الجِهات وفضل له عشرون ألف دينار وأنه اشترى بها ضياعاً باسم عبد اللّه بن علي النِفّري ووقفها على الطالبيين.

وكتب الحسين إلى ياقوت بالقبض على الخصيبي وحملهِ وكان بشيراز فبادر خليفة علي بن محمد بن روح بالخبر إليه فخرج من يومهِ من شيراز مستتراً حتى وافى بغداد واستتر عند أبي بكر بن قرابة وكان الفضل بن جعفر مستتراً عنده أيضاً فلم يعلم أحدهُما خبر صاحبه وقدم محمد بن ياقوت من الأهواز. وقُبض على محمد بن المعتضد باللّه وعلى أبي أحمد بن المكتفي باللّه وحدرا إلى دار السلطان واعتقلا فيها ولم تقصر السيّدة في التوسعة على محمد بن المعتضد وفي إكرامه وأهدت إليه عدّة من الجواري.

وابتدأ أمر الحسين الوزير بالاضطراب

ذكر السبب في ذلك

اشتدت الإضاقة فباع الحسين من الضياع نحو خمسمائة ألف دينار واستسلف من مال سنة ٣٢٠ شطره قبل افتتاحها بشهور ولم يبق له وجه حيلةٍ لتمام نفقات سنة ٣١٩

الخراجيّة. وعرف هارون بن غريب ذلك فصدق المقتدر عنه فعزم على تقليد الخصيبي الوزارة وكتب له أماناً فظهر فخوطب في تقلد الوزارة فذكر أنه لم يبق لِلسلطان في النواحي من مال سنة ١٩ شيء وقد بقي منها نحو ثلاثة أشهر وأن الحسين قد استسلف من مال سنة ٢٠ قطعةً وافرةً وأنه لا يغرّ السلطان من نفسه. فأشار عليه هارون أن يتقلّد أزِمّة الدواوين من قبل المقتدر وتكون دواوين الأصول في يد الحسين لِيَضبط الأموال مُستأنفاً فرضي الحسين بذلك وتقلّد الخصيبي دواوين الأزِمّة وأجرى عليه وعلى كُتابه ألفي وسبعمائة دينار في كل شهر وخلع المقتدر على الحسين ليزول عنه الإرجاف.

ثم إن الحسين بن القاسم عمل أعمالاً أخذ فيها خطوط أصحاب الدواوين الأصول والأزِمَّة بصحّتها وفيها ارتفاع الأموال من النواحي وما يُرجى حصولُهُ منها. وقدّر النفقات تقديراً مُتقارباً للارتفاع فسكن بذلك قلب المقتدر فسلَّم المقتدر ذلك العمل إلى الخصيبي وأمره بتتبُّعه فوجد الخصيبي الحسين بن القاسم قد احتال بأن أضاف إلى ما يقدّر حصوله من النواحي أموال نواحٍ قد خرجت عن يد السلطان بتغلُّب من تغلَّب عليها مثل الديلم على أعمال الري والجبل ومونس على أعمال الموصل وديار ربيعة وما لم يُحمَل من ديار مُضَر ومن مِصر والشام منذ أربع سنين وذلك جملة عظيمة وأسقط من النفقات الزيادات التي زادها هو للجند والحاشية وغيرهم ولم يُسقط من الأموال التي يقدّر حصولها من النواحي ارتفاع ما باع من الضياع فعمل الخصيبي عملاً عرضهُ على المقتدر فأمر المقتدر أن يواقف عليه الوزير فاجتمع الكُتَّاب وأمره المقتدر بمُناظرتهم. فلما خاطبوه أخذ في التشنيع عليهم وأنهم سعوا به وقال: في أي شيء غالطتُ السلطان؟ أليس هذه خطوط الضمناء؟ فقالوا: معاذ اللّه أن يقول أحد في الوزير ذلك ولكن العمل أخرج بما اضطر الوزير أيّده اللّه إلى التسبيب به على مال سنة ٣٢٠ من الأموال المستحقة في سنة ١٩ وقد رفع الضمناء إلى ديوان الزمام أعمالاً لِما أطلقوه من مال سنة ٢٠ وما كانوا ضمنوا اطلاقَهُ من مال هذه التسبيبات عند إدراك الغلات ولِهذا أحضرنا. فقال الحسين: أفتعلم كم مبلغه؟ فقال: نعم. وأحضر عملاً كان عملهُ بمبلغ ذلك فوجد أن الذي سُبّب على مال السواد والأهواز وفارس لسنة ٣٢٠ قبل افتتاحها بشهور أربعون ألف ألف درهم وإن الذي يبقى إلى آخر سنة ٢٠ على الضمناء إلى افتتاح سنة ٣٢١ عشرون ألف ألف درهم. وقد كان قيل في العمل إن هذا ما لم يجر به في قديم الدهر ولا حديثه رسمٌ بمثله.

فلما وقف الحسين على ذلك استعظمه وأراد أن يقطع المجلس بالمشاغبة وقال: يكتَب في الأعمال التي عملت ما لم يعملهُ أحد من الوزراء قط ثم يُعرض عليّ. فقال هشام: هذا غلط كتب على سبيل السهو وليس مما يزيد في المال ولا ينقص منه. وضُرب على تلك الحكاية وقال: إنما أحضرنا لننظر في أمر المال ونصدق الوزير عنه. فعدل إلى الخصيبي يُهاتِره فترك الحجة فنهض الخصيبي عن المجلس لما ظهرت الحجَّة

على الحسين وصار مع الضمناء ومع أبي جعفر بن شيرزاد إلى هارون بن غريب فشرحوا له ما جرى. وأعيد المجلس كهيئته إلى المقتدر ثم شافَه الخصيبي بمثله الحسين بحضرة المقتدر فانحلَّ أمر الحسين وقُبض عليه فكانت وزارته سبعة أشهر.

وزارة أبي الفتح الفضل بن جعفر

واستوزر أبو الفتح الفضل بن جعفر وخلع عليه يوم الاثنين لليلتين بقيتا في شهر ربيع الآخر فركب في الخلع وركب معه القُوّاد وخواصّ المقتدر. وسلم المقتدر الحسين ابن القاسم إلى الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر فأجمل عشرته وقرر أمره على أربعين ألف دينار فلما أدّاها استأذن الوزير أبو الفتح المقتدر في تقليده الإشراف على مصر والشام فأذن له في ذلك. ثم ظهر أنه أراد أن ينقُب الموضع الذي كان فيه وقال الخصيبي: هذا رجل في جنبِهِ للسلطان مالٌ عظيمٌ وليس يصلح أن يخرج وأن يدبر شيئاً من الأعمال. فتأخر أمره وصودر أيضاً ثم تسلمه الوزير فبقي عنده مدة ثم أبعده إلى البصرة وأقام له في كل شهر خمسة آلاف درهم.

وفي هذه السنة حضر من ناظر عن مرداويج بن زيار والتمس أن يُقاطَع عن الأعمال التي غلب عليها من أعمال المشرق وتكفل هارون بن غريب بأمره فقرّرهُ على أن يسلم إلى السلطان أعمال ماه الكوفة وهمذان ويُقلّد باقي الأعمال ويحمل عنها مالاً وكُتب له العهد وأنفذ إليه اللواء ومعه خِلعٌ.

ثم أن المقتدر همَّ بتقليد أبي علي بن مقلة الوزارة وبلغ ذلك هارون بن غريب فكره ذلك لِمَيل أبي علي إلى مونسٍ فاجتمع مع الوزير أبي الفتح وألزما أبا عبد اللّه البريدي مائة ألف دينار وسلّم ابنُ مقلة إليه فمشى أمر الوزير أبي الفتح وحمل ابن مقلة إلى شيراز مع رشيق الأيسر.

وفيها مات أبو عمر القاضي فأغرى أبو بكر بن قرابة بورثتِهِ إغراءً شديداً وقال لِلمقتدر: ينبغي لابنه أن يحمل مائة ألف دينار فإنه من ورائها وإلا حضَرَ من يتقلّد قضاء القُضاة ويُوفِّر هذا المال من جهته. فرسم المقتدر لِهارون بن الخال أن ينفذ كاتِبه ولِلوَزير أن يضمّ إليه ثقتهُ حتى يصيرا مع ابن قرابة إلى أبي الحسين بن أبي عُمر ويخاطِبه بحضرتهما. فمضى أبو بكر بن قرابة ومعه أبو جعفر بن شيرزاد وأبو على أحمد بن نصر البازيار فلمّا حصلوا عند أبي الحسين القاضي وجدوا عنده عالماً من الناس مُعزّين له فعزّوه وجلسوا وأمسكوا كما يحسن أن يعمل في المصائب فقال ابن قرابة: ما لهذا حضرنا قُم يا أبا الحسين معنا حتى نخلو. فنهض واستوفى عليه ابنُ قرابة استيفاء شديداً فقال أبو الحسين: إن نعمتي ونعمة والدي من أمير المؤمنين المقتدر ولستُ ادخر دونه شيئاً. وسأل أن يمهل يومَهُ حتى يُحصِلَ أمرَهُ ويبكر فيصدقُ عنه وكان شهر رمضان فلمّا

جنّه الليل قصد أبا بكر بن قرابة وقت الإفطار فاستأذن عليه ودخل والمائدة بين يديه فدعاه إلى الإفطار فغسل يده وسمى وأكل ومصيبتُهُ طرية وإنها لِيومه ولكنه لِيستكفي شرَّهُ فلما انقضى الإفطار قال له: يا سيدي قد جئتك مُستسلماً إليك فدبّرني بما تراه. فقال له: قم فامض بسلام وما بك حاجة إلى أن توصيني ولا تفكر في أمرك فإني أفصلُهُ وأعملُ فيه ما يرضيك. وكان على مائدة أبي بكر بن قرابة أبو عبد اللّه وأبو يوسف ابنا البريدي فلمّا فرغوا من الأكل قرُب البريديان من القاضي أبي الحسين كالمتوجعين له ووصفا مُشاركتهُما إياه واستصوبا قصدَهُ أبا بكر وإفطارَهُ معه وقالا له: أنت مقبل. وعرض عليه أبو يوسف ثلاثة آلاف دينار وقال: إن احتجت إليها فخُذها وافتد نفسك وإن أوجبَت الصورة أن تستتر فأنفقها في استِتارك فلم ينفد حتى يأتيك الفرج. ولم يحتج أبو الحسين إلى الاستتار وتعطف عليه المقتدر باللّه وعاونه البريديون وإخوانه أحسن مُعاوَنةٍ فقلّدهُ قضاء القضاة فقويت نفسه ومشى أمرُهُ.

ثم إن المقتدر وصف لابن قرابة الإضاقة فقال له: يا أمير المؤمنين لِمَ لا يُعاوِنك هارون بن الخال وعنده آزاج مملوة مالاً. فأعاد المقتدر ذلك على ابن الخال فقال. يا أمير المؤمنين إن كنتُ أملكُ ما قال فلستُ أبخلُ عليك به لأني أسلمُ بسلامتك وفي جيشك أنفِقُهُ وإليك مَعادهُ وابن قرابة معه من المال ما لا يحتاج أبداً إليه وأنا استخرجُ لك منه خمسمائة ألف دينار وليس بينه وبين أمير المؤمنين الذي يجمعني وإياه فلم يُترك عليه وأنا أؤدّيها من مالِهِ إليك. فقال له: اذهب فتسلمه. فقبض عليه وجرى عليه من المكروه ما أشفى به على التلف حتى قتل المقتدر باللّه فتخلص ولا عجب من أمر اللّه.

وكان قد وقع الوزير أبو الفتح بأن يُعمل لابن قرابة عملٌ بما صار إليه من الربح في الأموال التي قدمّها عن الضُمناء وبقايا مُصادرتهِ في أيام عبد اللّه الخاقاني وما يجب عليه من الفضل فيما ابتاعَهُ من الضياع فأخرج عليه من هذه الجهات ألف ألف دينار فصح له من هذه الجملة تسعون ألف دينار. ثم شغل الوزير وهارون بورود الخبر عليهما بانحدار مونس من الموصِل وكان هارون قيّده وسلّمَه إلى حاجبه وعِدّة من غلمانه ليخرجوه إلى واسط فقتل المقتدر في ذلك اليوم فهرب من كان مُوكلا به وبقي معه غلامان كان هو اشتراهُما لابِن الخال فعُنيا به وصارا معه إلى فُرضة جعفر وأدخلا إلى مسجدٍ وأحضرا حداداً وحلاّ قيوده وأطلقاه فمشى إلى منزله بسويقة غالب ووهب لهُما خمسمائة دينار.

وحكى ثابت بن سنان في كتابه أن أباه سنان بن ثابت كانت بينه وبين أبي بكر بن قرابة مودّة. فصرنا إليه لنُهنئه بخلاصه فقال لوالدي: يا أبا سعيد قد اجتمع لي فيك المحبة والعقل وجودة الرأي وأريد أن أستشيرك في أمري. فقال له أبي: قل فإني امحضك النصيحة. فقال: أنت تعلم أني كنت في بحار من التخليط وكانت عليَّ تبعاتٌ فيما كنتُ أدخلُ فيه وأُقدِّمهُ من مالي عن الضمناء لم يكن على أحد مثلها وقد غسلت

هذه النكبة وما اذّيتُ فيها من المصادرة دون ما كنتُ فيه وقد حصل لي الآن ما يرتفع منه عشرون ألف دينار خالصة وحصل لي من البساتين والمستغلات بعد ذلك ما ليس لأحد مثله ولي من الفرش والآلات والبلور والمخروط والصيني والجوهر والطيب والكسوة ما ليس لأحد مثلهُ ومن الرقيق والخدم والروقة والغلمان والكراع ما ليس لأحد مثلهُ ولي بعد ذلك كله ثلاثمائة ألف دينار صامت لا أحتاجُ إليها. وبيني وبين هذا الوزير (يعني أبا علي بن مقلة وقد كان القاهر استوزره وهو بفارس) مودّة وكيدة فهل ترى لي إذا قدم أن اقتصر على لقائه في الأوقات لعمارة الحال بيني وبينه ولا أداخله ولا أعاوِد ما كنت فيه أو أعاود وأرجع إلى التخليط؟ فقال له والدي: ما رأيت أعجب من هذه المشاوَرَة وإنما يشاوَر في المشكل من الأمر فأما الواضِح فيستغني فيه عن الرأي. انظر أعزك اللّه فإن كان ذلك التخليط أثمر لك ما تحب فارجع إليه وإن كان إنما أثمر ما تكره وعرضك لزوال المهجة وزوال النعمة فلا تعاوده. ومع هذا فإن الإنسان إنما يكدُّ ويكدح ويتعرَّض للمكاره ليحصل له بعض ما حصل لك فاحمد اللّه وتمتع بالنعمة وقد حصل لك من الجاه ما يحرسها واربح الصيانة وحسن العافية. فسمع ذلك كله وقال: قد علمت واللّه إنك قد نصحتَ وبالغتَ ولكن لي نفساً مشؤومة لا تصبر وسأعاوِد ما كنت فيه. فقال له والدي: خار اللّه لك. وانصرفنا فقال لي والدي: يا بنيّ ما رأيت قط أجهل من هذا الرجل ولا يموت مثله إلا مقتولاً أو فقيراً بأسوأ حالٍ.

فكان الأمر على ما قدّر وأدّاه التخليط إلى أن قبض عليه القاهر فأزال نعمته وقبض أملاكه وهدمت داره وأراد قتله حتى زال أمر القاهر ثم عاد أيضاً إلى التخليط ومضى إلى البريديين لما خالفوا السلطان ثم مضى إلى أبي الحسين أحمد بن بويه لما غلب على الأهواز ثم وقع أسيراً لما انصرف الأمير أبو الحسين من نهر ديالي وصودر حتى لم يبق له بقية واضطر إلى أن يخدم ناصر الدولة أبا محمد بن حمدان برزق مائة دينار في كل شهر فكثرت في عينِه وكان ينفق مثلها كلّ يوم ومات بالموصل ونعوذ باللّه من الجهل والإدبار.

ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة

فيها انحدر مونس من الموصل إلى بغداد وقتل المقتدر باللّه

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك ما ذكرناه من استيحاش مونس فلما تمّ له الانصراف إلى الموصل كتب الحسين بن القاسم إلى داود وسعيد ابني حمدان والحسن بن عبد اللّه بن حمدان بمحاربة مونس ودفعه عن الموصل فإنه عاصٍ. وكان مونس يكتب في طريقه إلى رؤساء العرب في ديار ربيعة بأن السلطان أنفذه لمحاربة بني حمدان يريد بذلك أن يقعدهم عنهم فامتنع داود من لقاء مونس لإحسانه إليه فإنه كان عظيماً جدًّا فما زال أهله

به حتى فتؤوا رأيه وقالوا له: نحن بعد ما غسلنا قبيح ما عمله الحسين بن حمدان ثم ما عمله أبو الهيجاء بالأمس نريد أن نعملَ لنا حديثاً ثالثاً. وما زالوا به حتى استجاب على تكرُّهٍ شديدٍ وقال: يا قوم بأيّ وجه ألقى مونساً مع إحسانه العظيم إليَّ؟ وكان يعدِّدها ثم يقول: واللّه ما آمن أن يجيئني سهمٌ عائرٌ فيقع في هذا الموضع مني (يعني حلقه) فيقتلني. (قال) فواللّه ما هو إلا أن لقيه مونس حتى أتاه السهم العائر فوقع في موضع أصبعه فذبحه ولم يقتل غيره.

وكان بنو حمدان في ثلاثين ألفاً ومونس في ثمانمائة رجل فانهزموا وقتل داود وكان مونس إذا قيل له: قد أقبل داود لمحاربتك. يعجب ويقول: يا قوم يلقاني داود وفي حجري طُهر ولي عليه من الحق ما ليس لوالده. فلما ملك مونس أموال بني حمدان وغلاَّتهم وضياعهم واستولى على أعمال الموصل خرج إليه الناس من الأولياء إرسالاً وكثروا عنده فحملوه على الخروج من الموصل وقصد بغداد وكان أقام بالموصل تسعة أشهر. فانحدر مونس وبلغ الجندَ بالحضرة ذلك فشغبوا وطالبوا بالرزق فأطلق المقتدر المال وجلس في الجوسق وأنفق فيهم وأخرج مضرباً له يسمى مضرب الدم إلى باب الشمَّاسيَّة. ووافى مونس وأصحابه إلى باب الشمَّاسية وكان المقتدر قد وجّه أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافياً البصري في خيل إلى سر من رأى ثم أنفذ أبا بكر محمد بن ياقوت في ألفي فارس ومعه الغلمان الحجرية إلى المعشوق. ثم أنفذ مونساً الورقائي على سبيل الطلائع فلمَّا قرب مونس أقبلوا يراجعون حتى اجتمعت الجماعة بعكبرا فلما قرب مونس من عكبرا انكفأت الجماعة مع محمد بن ياقوت إلى البردان فلما نزل مونس عكبرا انكفأت الجماعة إلى باب الشمَّاسية فعسكروا هناك واضطرب الأمور وتقاعد الضمناء والعمال بحمل الأموال. واجتهد المقتدر بهارون أن يشخص إلى حرب مونس فتقاعد واحتجَّ بأن معظم أصحابه ممن انضمّ إليه من رجال مونس أو ممن كان معه في وقت محاربتِهِ مرادويج في المشرق أو من استأمن إليه من عسكر الديلم وقد عرف محاربتهم وأنهم ينهزمون ولا يثبتون لِلحرب وليس يثق بأحد منهم لأنه يعلم أنهم يستأمنون ويسلمونهُ ودافع بالخروج إلى أن صار أصحاب مونس بباب الشمَّاسية بإزاء عسكر محمد بن ياقوت. فجاء محمد بن ياقوت إلى الوزير الفضل بن جعفر فانحدر إلى المقتدر ومعهما ابنا رائق ومفلح فشرح محمد بن ياقوت الصورة وقال له: إن الرجال لا يقاتلون إلاَّ بالمال وأن أخرج استغني عن القتال واستأمن أكثر رجال مونس ودفعت الضرورة مونساً إلى الهرب أو الاستتار. وقال له: إن الوزير أطلق مالاً لم يعمّ. وسألوه أن يحتال مائتي ألف دينار من جهته وجهة والدته ليصرف في المهمّ فعرّفه أنه لم يبق له ولا للسيدة حيلة في مال يطلق وتقدَّم الشذات والطيارات لينحدر هو وحرمه إلى واسط ويسلم البلد إلى مونس ويكتب من واسط إلى من بالبصرة والأهواز وفارس يستنجدهم

ويستحضرهم لقتال مونس ودفعه. فقال له محمد بن ياقوت: اتق اللّه يا أمير المؤمنين في جماعة غلمانك وخدمك ولا تسلم بغداد بغير حرب. وجعل يفثأه عن رأيه ويشير بأن يخرج بنفسه إلى المعسكر حتى يراه الناس ويقاتلون وقال له: إن رآك رجال مونس أحجموا عن محاربتك. فقال له المقتدر: أنت واللّه رسول إبليس، ثم أمر هارون على لسان الوزير الفضل بن جعفر أن يخرج ووبخه فمضى إليه ووافقه على أن يخرج يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوّال إلى دار السلطان. وركب المقتدر وهم معه وعليه البردة التي توارثها الخلفاء وبيده القضيب وبين يديه الأمير أبو علي بن المقتدر والأنصار ومعهم المصاحف المنشورة والقرّاء يقرؤون القرآن وحوله جميع الحجرية رجالة بالسلاح وخلفه جميع القوّاد مع الوزير. واشتق بغداد إلى الشمّاسيّة وكثر دعاء الناس له جدًّا وسار في الشارع الأعظم إلى المعسكر. فلما وصل إليه أشير عليه أن يقوم إلى موضع عال بعيد عن موضع الحرب واشتدّت الحرب بين أصحاب مونس وأصحاب المقتدر باللّه وكان مونس مقيماً بالراشديّة لم يحضر الحرب وثبت محمد بن ياقوت وهارون بن غريب واشتبكت الحرب. وصار أبو العلاء سعيد بن حمدان إلى المقتدر باللّه برسالة هارون بن غريب ومحمد بن ياقوت بأن حضر الحرب وقال له: إن رآك أصحاب مونس استأمنوا. فلم يبرح من موضعه ومضى أبو العلاء ووافاه صافِ البصري فقال له مثل هذا القول فلم يسمع منه ثم حضر محمد بن أحمد القراريطي كاتب محمد بن ياقوت فاستدعى الوصول إلى المقتدر باللّه فأوصل إليه وهو واقفٌ على ظهر دابته فقبل الأرض وقال له: يا أمير المؤمنين القوّاد وعبدك محمد بن ياقوت يقول: «يا مولانا أمير المؤمنين اللّه اللّه سِر بنفسك إلى الموضع فإن الناس إذا رأوك انفلوا» فلم يبرح وبقي واقفاً على دابته وخلفه الوزير أبو الفتح ومفلح الأسود وجماعة من الغلمان الخاصّة. فهم على تلك الحال إذ وافت رسالة القوّاد المحاربين فتقدم بعضها بأن ينادي بين يديه «من جاء بأسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير» فنودي بذلك. ثم جاءته رقعة فسلمت إليه فقرأها ثم استدعى مفلحاً والقراريطي فسارّهما ثم استدعى الوزير فسارّهُ وأجابه بشيء ما سمع به ثم وردت رقعة أخرى فقرأها ثم وافته الرسائل علانية من القواد تؤدي إليه ويسمع الناس أن الرجال في الحرب يقولون: «نريد أن نرى مولانا حتى نرمي بأنفسنا على هؤلاء الكلاب» ولم يزل القراريطي وغيره يسهلون عليه ويسألونه المسير حتى سار مع مفلح ومن بقي معه. وتخلف الفضل بن جعفر عنه وسار نحو الشطّ وانكشف أصحاب المقتدر وانهزموا من قبل أن يصل المقتدر إلى موضع المعركة وكان آخر من ثبت وحارب حرباً شديداً محمد بن ياقوت واستؤسر أحمد بن كيغلغ وجماعة من القوّاد.

ولقي علي بن يلبق المقتدر وهو في الطريق لم يصل إلى المعركة في صحراء منبسطة فلما وقعت عينه عليه ترجل وعليه سلاحه وقال: مولاي أمير المؤمنين. وقبل

الأرض ثم قبل ركبته. ووافى البربر من أصحاب مونس فأحاطوا بالمقتدر وضربَهُ رجل منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض وقال: ويحكم أنا الخليفة. فقال البربري: إياك اطلب. وأضجعه فذبحه بالسيف وكان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذبح أيضاً ووقع رأس المقتدر على سيف ثم على خشبة وسلب ثيابه حتى سراويله وتُرك مكشوف العورَة إلى أن مر به رجل من الأكِرة فستر عورته بحشيش ثم حفر له في الموضع ودُفن حتى عفا أثَرهُ.

ونزل يلبق وعلى ابنه في المضارب وأنفذ لِلوقت إلى دار السلطان من يحفظها وانحدر مونس من الراشدية إلى الشماسية فبات بها ومضى عبد الواحد بن المقتدر ومفلح وهارون بن غريب ومحمد بن ياقوت وابنا رائق على الظهر إلى المدائن. فكان ما فعلَهُ مونس من ضربه وجه المقتدر بالسيف وقتله إياه ودخوله بغداد على تلك السبيل سبباً لجرأة الأعداء وطمعهم فيما لم تَكن أنفسهم تحدّثهم به من الغلبة على الحضرة وانخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة مذ ذلك وتفاقم حتى انتهى إلى ما نشرحه فيما بعد إن شاء اللّه.

وحكى ثابت حكاية في تبذير المقتدر للأموال ما رأيت أن أثبته مشروحاً لئلا يغترّ أحدٌ من الملوك ومدبِّري أمر المملكة بكثرة الأموال فيترك تثميره ويعدل عن التعب به إلى الراحة اليسيرة فإنه حينئذٍ يبتدر ولا يلحق. ويكون مثلهِ مثل البثق الذي ينفجر بمقدار سَعة الدرهم ثم يتسع فلا يضبط.

قال صاحب الكتاب: ولقد وعظتُ أنا بذلك بعض مدبِّري الملك فأكثرتُ عليه فتبسم تبسم المدِلّ بكثرة الذخائر والأموال فما أتت عليه سنتان حتى رأيته في موضع الرحمة حيث لا ينفعه الرحمة. وسأشرح خبره وحالهُ إذا انتهيتُ إليه بمشيئة اللّه.

فأما المقتدر فإنه أتلف نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في موضعهِ وأخرجهُ في وجوهه وهذا أكثر مما جمعه الرشيد وخلفه ولم يكن في ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد فإن القاسم بن عبيد اللّه قال للمعتضد وقد سأله عن مقدار ما خلفه واحدٌ واحدٌ من ولد العباس من المال أنه لم يكن فيهم من خلّف أكثر مما خلّفه هارون الرشيد فإنه خلّف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار. وهذه نسخة لِما أثبته بعض كتاب أبي الحسن بن الفرات لما وزّره المقتدر باللّه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الذي كان في بيت مال الخاصّة لما تقلّد المقتدر الخلافة: أربعة عشر ألف ألف دينار. وافتتح أبو الحسن بن الفرات أعمال فارس وكرمان سنة ٢٩٩ فارتفع من مال

الخراج والضياع العامة والمعروف بالأمراء في كلّ سنة: ثلاثة وعشرون ألف ألف درهم وثمانمائة ألف درهم. منها من مال فارس: ثمانية عشر ألف ألف درهم. ومن مال كرمان: خمسة آلاف ألف درهم يكون ذلك في مدّة إحدى وعشرين سنة آخرها سنة ٣٢٠ الخراجية بعد وضع ثمانمائة ألف درهم كانت تنكسر في كلّ سنة من مال البقايا: أربعمائة ألف ألف درهم وثلاثة وثمانين ألف درهم. وإذا وضع من ذلك ما كان يحمله من يتغلب على فارس وكرمان إلى بيت مال العامة بالحضرة وهو نحو أَربعة آلاف ألف في السنة ومبلغه في هذه السنين: ثلاثة وثمانين ألف ألف درهم. كان الباقي بعد ذلك أربعمائة ألف ألف درهم قيمتها ثمانية وعشرون ألف ألف دينار.

ومن أموال مصر والشام في هذه السنين زيادة على ما كان يحمل منها في أيّام المعتضد: ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف دينار.

وأخذ المقتدر من أموال علي بن محمد بن الفرات في مصادرته ومصادرات كتّابهِ وأسبابهِ: أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار. منها في الدفعة الأولى: ألفي ألف وثلاثمائة ألف دينار. وفي الدفعة الثانية: ألف ألف ومائة ألف دينار. وفي الثالثة مع ما أخذ من زوجة المحسن دولة: تسعمائة ألف دينار. وما حصل من ارتفاع ضياع ابن الفرات الملك سوى الإقطاع والإيغار في مدّة سبع عشرة سنة مع ما انصرف في ذلك من المبيع والمقطع والموغر للحاشية حساباً في السنة: مائتي وخمسين ألف دينار أربعة آلاف ألف ومائتي وخمسون ألف دينار.

وما صحّ مما أخذ لأبي عبد الله الجصاص الجوهري دون ما كان يذكره وهو يتكثر به من العين: ألفي ألف دينار.

وما حصل من ضياع العباس بن الحسن بعد قتله في مدّة أَربع وعشرين سنة حِساباً في السنة: مائة وعشرين ألف دينار. ألفي ألف وثمانمائة ألف دينار.

وما أخذ من أموال حامد بن العباس وأسبابه ومع ما يرتفع من ضياعهِ إلى أن ردّت على ولده ألفي ألف ومائتي ألف دينار.

وما أخذ من أموال الحسين بن أحمد ومحمد بن علي المادرائيين في أيام وزارة أبي علي الخاقاني ووزارات ابن الفرات الثلاث وأيام أبي القاسم الخاقاني وأبي العباس الخصيبي وأبي الحسن علي بن عيسى الثانية وأبي علي بن مقلة: ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار.

وما أخذ من أموال علي بن عيسى وابن الحواري وسائر الكتاب ووجوه العمال المصادرين: ألفي ألف دينار.

وما أخذ من تركة الراسبي: خمسمائة ألف دينار.

وما أخذ من تركة إبراهيم المسمعي: ثلاثمائة ألف دينار.

وما حصل من ثمن المبيع في أيّام الوزراء وازداده الفضل بن جعفر: ثلاثة آلاف ألف دينار.

وما حصل من أموال أمّ موسى وأخيها وأختها وأسبابها: ألفي ألف دينار.

فصار الجميع من العين: ثمانية وستين ألف ألف وأربعمائة وثلاثين ألف دينار. وضع من ذلك لارتفاع ما خرج من المبيع منذ سنة ٣١٧ إلى آخر سنة ٣٢٠ حساباً في السنة على التقريب: تسعمائة ألف دينار. ثلاثة آلاف ألف وستّمائة ألف دينار.

الباقي بعد ذلك مما حصل في خزانة المقتدر زائداً على ما كان يحْمل إلى بيت مال الخاصة في أيام المعتضد والمكتفي من أموال الضياع والخراج بالسواد والأهواز والمشرق والمغرب: أربعة وستين ألف ألف وثمانمائة وثلاثين ألف دينار. وقد كان كل واحد من المعتضد والمكتفي يستفضل في كلّ سنةٍ من سِني خلافته من أموال النواحي بعد الذي يُصرف في أعطيات الرجال والغلمان والخدم والحشم وجميع النفقات الحادِثة مع ما كان يحصّلهُ في بيت مال الخاصة: ألف ألف دينار.

وكان سبيل المقتدر أن استفضل مثلها فيكون مبلغهُ في خمسة وعشرين سنة خمسة وعشرين ألف ألف دينار. فيكون جملة ما يجب أن يحضر في بيت مال الخاصة للمقتدر بالله في هذه السنين إلى آخر سنة عشرين تسعة وثمانين ألف ألف دينار وثمانمائة ألف وثلاثين ألف دينار. خرج من ذلك ما ليس يجري مجرى التبذير وهو ما أطلق في البيعة ثلاث دفعات وما أنفق على فتح فارس وكرمان: بضعة عشر ألف ألف دينار. وبقي بعد ذلك ما بُذر وأتلف نيّف وسبعون ألف ألف دينار.

وكانت مدة وزارة أبي الفتح الفضل بن جعفر لِلمقتدر خمسة أشهر وتسعة وعشرين يوماً.

خلافة القاهر بالله أبي منصور محمد بن المعتضد سنة عشرين وثلاثمائة

لما قُتل المقتدر بالله وحمل رأسه إلى بين يدي مونس بكى وقال: قتلتموه والله لنقتلنّ كلنا فأقلُّ ما يكون أن تظهروا بأن ذلك جرى بغير قصدٍ منكم ولا أمر به وأن تنصبوا في الخلافة ابنَهُ أبا العباس فإنه تربيتي وإذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدّتهِ والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه بإخراج المال. فعارض هذا الرأي أبو يعقوب إسحاق ابن إسماعيل النوبختي لِحسنهِ وما سبق له في حكم الله تعالى وقال: بعد الكد استرحنا ممن له والدة وخالة وخدمٌ فنعود إلى تلك الحالة! وما زال بمونس وأسبابه حتى فثأ رأيهم عن أبي العباس وعدل به إلى محمد بن المعتضد بالله ليتمّ المقدار من جزْيِ قتلهِ على يده. وحضر فائق وجه القصعة الحرمي فذكر لمونس أن والدة المقتدر لما بلغها قتل ابنها أرادت الهرب وأنه وكل بها وتوثّق منها وذكر أن محمد بن المعتضد ومحمد بن المكتفي معتقَلان في يده فوجه به مونس وأمره بإحضارهما وأصعد بهما إلى دار مونس بعد أن أطلق بُشرى خادمه.

وابتدأ مونس بخطاب محمد بن المكتفي فامتنع من قبول الأمر وقال: عمي أحقّ به. فخاطب حينئذٍ محمد بن المعتضد فاستجاب واستُحلف لمونس المظفَّر وليلبق ولعلي ابنه وليحيى بن عبد الله الطبري كاتب يلبق. فلما توثقوا منه بالإيمان والعهود بايعوه وبايعه من حضر من القضاة والقوّاد ولقب القاهر بالله وكان ذلك سحر يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال. وأشار مونس بأن يستوزر له عليّ بن عيسى ووصف سلامته واستقامة أموره ومذهبه ودينه فقال يلبق وابنه: الحال الحاضرة لا تحمل أخلاقَ علي بن عيسى وأنه يحتاج إلى مَن هو أسمح منه وأوسع أخلاقاً. فأشار بأبي علي بن مقلة وبأن يُستخلف له إلى أن يقدم من فارس أبو القاسم الكلوذاني فأمضى مونس ذلك وكتب إلى أبي علي بن مقلة بالإسراع وإلى ياقوت بحمله وتعجيله.

وانحدر القاهر إلى دار الخلافة وصعد الدرجة وانحدر مونس وأسبابه إلى دورهم وصرف محمد بن المكتفي إلى داره في دار ابن طاهر واستحجب القاهر بالله علي بن يلبق واستكتب علي بن يلبق أبا علي الحسن بن هارون. ووجّه مونس المظَفرّ فاستقدم علي بن عيسى من الصافِيَة فراسله القاهر على يد الحسن بن هارون واستدعاه فلقي

مونساً ثم انحدر إلى القاهر فوصل إليه وخاطبه بجميلٍ وذلك قبل ورود ابن مقلة. واستحضر مونس أبا القاسم الكلوذاني وانحدر معه إلى دار السلطان وأوصله إلى القاهر فعرّفه أنه قد استوزر أبا علي بن مقلة واستخلفه له إلى أن يقدم وأمره أن ينتقل إلى دار مفلح ليقرُب عليه إذا طلبه ففعل ولقيه أصحاب الدواوين وهنؤوه وأمر ونهى.

وتشاغل القاهر بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحُرمه وبمناظرة والدته وكانت في علة عظيمة من فساد مزاج وابتداء استسقاء ولما وقفت على ما لحق ابنها من القتل وأنه لم يدفن جزعت جزعاً شديداً ولطمت رأسها ووجهها وامتنعت من المطعم والمشرب حتى كادت تتلف ورفق بها رفقاً كثيراً إلى أن اغتدت بيسير من الخبز والملح وشربت الماء. ثم دعاها القاهر فقررها بالرفق مرة وبالتهديد مرة فحلفت له على أنه لا مال لها ولا جوهر إلا صناديق فيها صياغات وثياب وفرش وطيب وأن هذه الصناديق في دار تتصل بالدار التي كان تسكنها من دار السلطان ووقفته على تلك الدار وتلك الصناديق وقالت: لو كانت عندي مال لما سلمتُ ولدي للقتل. فضربها حينئذٍ بيده وعلقها بفرد رجلٍ وأسرف في ضربها على المواضع الغامضة من بدنها ولم يرع لها إحسانها وقتَ اعتقال المقتدر إياه ولما أوقع بها المكروه لم يجد زيادة على ما اعترفت به طوعاً. فلما كان مستهل ذي القعدة حضر يلبق وعلي ابنهُ ومعهما أبو القاسم الكلوذاني دار السلطان فأوصلهم إلى حضرته فطالبوهُ بحمل مال إلى مونس المظفَّر لِيُنفق في صِلة البيعة فحدثهم بما فعله بوالدة المقتدر وأنه ضربها بيده مائة مقرعة ضرب التقرير على المواضع الغامضة من بدنها فما أقرت بدرهم واحدٍ غير ما كانت أقرت به عفواً وقال لهم: هي بين أيديكم. ثم أدخلهم إلى الدار التي فيها الصناديق فإذا فيها ثياب وشي وديباج رومي وتُستريّ مثقَّلة بالذهب وفرش أدمي وخزّ رقم وديباج وصناديق فيها ثياب فاخرة وصياغات يسيرة ذهب وصياغات كثيرة فضة وطيب كثير من عودٍ هنديّ وعنبر ومسك وكافور وتماثيل كافور قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار وقيمة التماثيل نحو ثلاثمائة ألف درهم فتسلم أكثر ذلك مونس المظفَّر ليباع فتركوا بعضه ليخدم به القاهر.

وصودر جميع أسباب المقتدر وظهر الفضل بن جعفر فعنى به مونس ويلبق وابنه وخاطبوا فيه القاهر فقال: هذا كان وزير المقتدر ولا بدّ من مصادرته. فبذل عشرين ألف دينار عاجلة فقال مونس: أنا أزن هذا المال عنه فإنه ثقة عفيف كاتب دين. ورسم أن يقلد ديوان الضياع المقبوضة عن والدة المقتدر وديوان أولاد المقتدر وما قبض عنهم وعن سائر الأسباب وأكرم كل إكرام وصار إلى الكلوذاني فقام له لما حضر ولما انصرف ووقّع له القاهر بجميع تلك الدواوين التي ذكرتها فتسلم الدواوين ولم يؤثر فيها شيئاً لأنه

لم يستحسن وكان بالأمس وزير المقتدر أن يتقلد اليوم ديوان المقبوضات عن والدته وأولاده وأسبابه فاستحضر الكلوذاني هشاماً وقلده ذلك أزمةً وقلد أبا محمد المادرائي ديوان الأصول فكانت مدة ولاية الفضل هذه الدواوين سبعة عشر يوماً.

وكانت مصادرة أبي بكر بن ياقوت قد اشتهرت وأنه لم يؤدّ منها إلا تسعين ألف دينار فطولب بتمامها. وأخرج القاهر والدة المقتدر لتشهد على نفسها القضاة والعدول بأنها قد حلت وقوفها ووكلت في بيعها علي بن العباس النوبختي ونوظرت على ذلك فامتنعت منه وذكرت إنها وقفته على مكة والثغور على الضعفاء والمساكين ولا أستحل حلها «فأما أملاكي الطلق فقد وكلت علي بن العباس في بيعها» فنهض القاضي عمر بن محمد والشهود إلى حضرة القاهر فأشهدهم على نفسه بأنه قد حل وقوفها ووكل في بيعها علي بن العباس النوبختي وفي بيع سوى ذلك من الضياع الخاصة والفراتية والعباسية والمستحدثة والمرتجعة وما يجري مجراها في سائر النواحي ووكل أبا طالب النوبختي وإسحاق بن إسماعيل وأبا الفرج جلخت في بيع المستغلات بالحضرة المقبوضة وما أمكنهم بيعه من فضل ما بين المعاملتين. ورأى أسباب مونس أنه لا يتم البيع إلا بأن يبتدئوا بالشراء منهم فابتاعوا أشياء بنحو خمسمائة ألف دينار.

وقدم أبو علي بن مقلة من شيراز في يوم النحر وكان كتب إلى القاهر باللّه ويسأله أن يجلس له في الليل لأنه كان اختار لنفسه أن يلقاه بطالع الجدي وفيه أحد السعدين والآخر في وسط السماء فوصل في الوقت الذي قدره وصادف القاهر ينتظره فلقيه وخرج من عنده وقد أعدت له دار هارون بن المقتدر وفرشت فدخلها ووقّع فيها بتقليد قومٍ وخلع عليه من الغد خلع الوزارة وصار إلى دار مونس المظفر فسلم عليه وانصرف إلىٰ داره. وحضر الناس للتهنئة وراح إليه في آخر النهار علي بن عيسى فلم يقم له واستقبح الناس له ذلك وصار إليه أبو بكر بن قرابة ووفى بوعده في مداخلته إياه والعود إلى التخليط كما كنا شرحناه من أمره.

ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة

كان أبو علي بن مقلة عاتباً على الكلوذاني وذاك أنه لم يعرف خبر أحد من إخوته وولده وحرمه وأسبَابه بعد تقليده خلافته ولا صار إلى داره ولا قلد أحداً من أسبابه شيئاً من الأعمال ولا تفقد حرمه وولده بشيء وأعظم من هذا كله أن أبا عبد اللّه بن ثوابة استأذن أبا القاسم الكلوذاني في وقت خلافته أبا علي في ذكر كنيته على الكتب النافذة إلى العمال فلم يأذن له. فقبض على الكلوذاني وأسبابه وكان هذا أول ما وبخه به وأخذ خطه بمائتي ألف دينار ونقله مع كاتبه وأسبابه إلى أبي بكر بن قرابة ثم قبض على جماعة من العمال وكتاب الدواوين وقبض على إسحاق بن إسماعيل النوبختي وعلى بني البريدي

وضمن أعمالهم من محمد بن خلف النيرماني بما كانت عليهم وزيادة ثلاثمائة ألف دينار وضمن أيضاً أن يصادرهم على ستمائة ألف دينار وتسلمهم وحملهم إلى داره وجميع ذلك بتوسط ابن قرابة فاعتقلهم محمد بن خلف في داره وفرق بينهم. وجمع أبو علي بن مقلة لمحمد بن خلف مع هذه الأعمال أعمال المعاون فخاف إسحاق بن إسماعيل وبنو البريدي على أنفسهم لما يعرفونه من شدة إقدام محمد بن خلف وقهوره فأما أبو عبد الله البريدي فإنه دارى محمد بن خلف ورفق به وأوهمه أنه يعمل من قبله ويقوم بمال النواحي وبالزيادة التي بذلها وأن يطيعه في المال كله ويعمل بما يأمره فيه ولا يخالفه فرفهه من بين الجماعة وأوقع بأخويه وعلق عليهما الجرار المملوءة ودهقهما فلم يذعنا بشيء وضيق على إسحاق بن إسماعيل ولم يوقع به مكروهاً.

وكانت بين أبي جعفر بن شيرزاد وبين إسحاق بن إسماعيل مودة وكيدة فخاطب أبو جعفر الوزير أبا علي في لقاء إسحاق وقال: احتاج أن أواقفه على ما سبب لصاحبي هارون بن غريب عليه في أيام المقتدر وما أطلقه حتى لا يحيل عليَّ بما لم يطلقه. فوجه معه بحاجب من حجاب الوزارة فأوصله إلى إسحاق فلما وقعت عين إسحاق عليه قال له: يا سيدي اللَّه اللَّه في أمري بادر إلى الأستاذ المظفر ولا تفارقه حتى يخلصني من يد هذا المجنون. فمضى أبو جعفر إلى مونس ولم يزل يسأله حتى دعا يلبق وأمره أن يمضي إلى أبي علي بن مقلة ويخاطبه في أمره فإن أطلقه وإلا انتزعه من يد محمد بن خلف وحمله إليه. فمضى يلبق إلى ابن مقلة فخاطبه فلم يجد ابن مقلة بدا من الاستجابة لتقريب أمر إسحاق.

فحكى أبو الفرج بن أبي هشام عن أبي سعيد بن قديدة أن السبب فيما لحقهم عَتبُ أبي بكر بن قرابة عليهم لتأخيرهم مالاً كان له عليهم وهو الذي قدّمه عنهم فتقاعدوا عن الوفاء له فعاهد محمد بن خلف يوم تضمُّنهم من أبي علي بن مقلة بستمائة ألف دينار على أن يستوفي له من جماعتهم ما قدّمه عنهم ويردّه عليه فلما حصلوا في يد محمد بن خلف استخرج من أبي عبد اللَّه وأخويه عشرين ألف دينار وأنفذ قبْضَ بعض الصيارف بدرب عون إلى أبي بكر بن قرابة بها وجعل ذلك من دينه عليهم وجدًّ بهم. واستسلم له أبو يوسف وأبو الحسين ولحقهما منه مكاره عظيمة وأطمعهُ أبو عبد اللَّه اطماعاً لم يصح ورفق به. فلما كان في اليوم الثالث ركب محمد بن خلف إلى أبي علي ابن مقلة فقال له أبو علي: يا أبا عبد اللَّه غررتَنا والقوم في يدك فنفذت مخاريقهم عليك وذهبت بربحك. فخجل محمد واغتاظ وقال: قد حملتُ من جهتهم عشرين ألف دينار وإنما ضمنتُ المال في مدة ثلاثة أشهر فأيّ عتب للوزير عليّ حتى يخاطبني بهذا الخطاب البشع! فقال الوزير: ما سمعتُ بهذا إلا منك فإلى من سلمتَ المال، قال: إلى

ابن قرابة. فدعا بابن قرابة وهنأ له عما ذكر محمد بن خلف فقال: أنفذ أيها الوزير هذا الخط ووالله ما قبضت ماله من الصيرفي وزعم أنه من دين لي عليهم ولو قال إنه من الحمل لأنهيتُ حاله في الوقت وإذ قد بدا له فها هي الرقعة بارك الله له فيها. وسلمها إلى محمد بن خلف فقال محمد: لا والله ما جعلتها من دينك وكيف يجوز أن أقدّم مالك على مال السلطان؟ فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه وبلغ أبا عبد الله البريدي خبر المجلس فسرّى عنه واجتهد في أن يكتب رقعة إلى ابن قرابة يسأله فيها المصير إليه فلم يجد دواة ولا من يحملها واتفق أن أنفذ أبو سعيد بن قديدة غلامه أحمد ليشاهد حاله فاستأمن إليه أبو عبد الله ورغّبه في الاصطناع والإحسان ووعده أن يغنيه إذا أوصل رُقعة له إلى ابن قرابة فاستجاب له الغلام واحتال له في جوفة جعل فيها كرسفاً وأحضره قلماً صغيراً وقطعة من كاغد فكاتب أبا بكر بن قرابة وحلف له أنه إن أخذه إليه وفَاه ماله عن آخره وخدمه أحسن خدمة. فبكر أبو بكر بن قرابة إلى محمد بن خلف وأظهر له أنه قد قصده لمعاتبته حتى استوفى المفاوضة معه ثم قال له: أخرج ابن البريدي إليَّ فإنه يستقيم إلى كلامي حتى أقرر مصادرته وأعرف ما عنده في ديني. فأخرجَ إليه أبا عبد الله فقال أبو عبد الله: أول إقبالي إن قلت لمحمد بن خلف «لم يبق من السحر إلا السرار فيتفضل الأمير ويخلي لنا مجلسنا» فنهض محمد بن خلف من مجلسه وسلمه إلي برفاعته وقال: أنا داخل إلى دار الحرم. فتخاطبنا وجلست مجلسه وقعدت مقعده فتفاءلتُ وقلتُ: «هذا مجلس كان لي فانتقل إليه وقد عاد إليَّ» فاستصلحتُ أبا بكر بن قرابة ووعدني بتخليصي ووفى ومضى ففصل أمرنا وضمن الوفاء عنا. فلما كان في اليوم الثاني رضي عنا أبو علي بن مقلة واستدعاني وإخوتي فدعانا محمد بن خلف وسكّن بنا وأنفذنا إليه فلما أردتُ الخروج قلتُ لمحمد بن خلف: أيها الأمير أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل خادمك ومونس يعتني به وسينفذ الساعة من يأخذه فدعني حتى أستصلحه لك وأعقد بينك وبينه عهداً ويميناً. فقال: افعل. فخلوت بإسحاق بن إسماعيل وقلتُ له: قد سخرتُ من هذا النفس وأنا منصرف فعاقِدهُ واحلف له ثم قل له: «بيننا الآن عهد ولا بدّ من صدقك ابنُ مقلة يبغضك ويتهمك بأنك تطلب الوزارة وإنما أراد أن يستنفر لك الأعداء ويأخذ أموالنا بيدك ثم يحملنا على أن نتضمنك وقد ضمنك أبو عبد الله البريدي بثلاثمائة ألف دينار وحدثني بهذا فلا تركب أياماً فإن كان الوزير سأل عنك فقد حماك منه الخليفة وإن طلبك فإنما يريد أن يسلمك إليه» ثم انعطفتُ إلى محمد بن خلف وقلتُ: قد فرغتُ من القصة والرجل يخدم الأمير كما يريد. وخرجنا فأعاد عليه إسحاق ما سمعه مني فانصرف قبل العصر بعدي.

فلما جلس محمد بن خلف في منزله ولم يركب إلى أبي علي بن مقلة مضى أبو

عبد اللّه البريدي إلى ابن مقلة وقال له: قد عرفتُ من دار محمد أنه يطلب الوزارة وأن رسله منبثُّون إلى أسباب مونس وإلى القاهر فلا تدعه يقيم في البلد. وكان ابن مقلة جباناً فطلبه وكان ذلك القول الأول قد تقدم إلى محمد بن خلف فوثب بخدم ابن مقلة وغلمانه وحاجبه وضربهم وحصّلهم في بيت وقفل الباب عليهم وتسوّر السطوح وهرب فلم يظهر إلا في وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد اللّه للقاهر باللّه. وكان أبو عبد اللّه البريدي مقيماً بالأهواز وعرف محمد بن خلف من بعد أن الحيلة تمت عليه فقال لمن بلّغ أبا عبد اللّه البريدي: ظننت بك ظناً جميلاً ولم أعلم أنك في الحيلة عليَّ وكنت قد صدقت عنك فلم أقبل. فقال أبو عبد اللّه البريدي لأبي علي الكاتب: اكتب إلى فائق الغلام أن يقول لمحمد بن خلف: هذه الحيلة يجوز أن تخفى عليك فقد خفي مثلها على من هو أكبر منك ولكن أعظم من ذلك أنه كان لنا من الموضع الذي حبسنا فيه طرق إلى دور حمرتك وذهبت عليك ولم تعرفها فاحترس منها في المستأنف.

وتوسط أبو بكر بن قرابة أمور الجماعة وفصلها مع ابن مقلة فوقع ابن مقلة بإعادة ابني البريديين إلى أعمالهم فاستقامت أمورهم. ولما بطل ضمان محمد بن خلف ما كان ضمنه من ضمانات البريديين وإسحاق بن إسماعيل صُرف أيضاً عن أعمال المعاون في هذه النواحي وطلبه ابن مقلة (وكان من وثوبه برسله وحاجبه واستتاره ما ذكرناه) ووجه ابن مقلة إلى دار محمد بن خلف ثم فتح الباب عن خدمه وغلمانه وحاجبه وانصرفوا.

وكان أبو علي بن مقلة يعادي أبا الخطاب بن أبي العباس بن الفرات ولم يكن يجد إلى القبض عليه طريقاً ديوانياً لأنه كان ترك التصرف عشرين سنة ولزم منزله وقنع بدخل ضيعته وكان سبب عداوة أبي علي له أنه كان استسعفه أيام نكبته فاعتذر بالإضافة ولم يسعفه. ثم إن أبا الخطاب طهر أولاده فتجمل كما يتجمل مثله ودعا أولاد أبي علي ابن مقلة فشاهدوا مروة تامة وآلات جليلة وصياغات كثيرة وكان بعضها عارية فانصرفوا وحدّثوا أباهم الحديث وعظموا وكثروا وصار أبو الخطاب بن أبي العباس بن الفرات إلى الوزير أبي علي بن مقلة طي رسمه يوم الموكب للسلام عليه فقبض عليه. فحكى أبو الفرج بن أبي هشام أن أبا زكريا يحيى بن أبي سعيد السوسي حدثه أنه كان حاضراً حين قبض على أبي الخطاب وأن الوزير أبا علي أنفذ إليه وسائط وأنه كان فيهم وطالب بثلاثمائة ألف دينار وأن أبا الخطاب قال: بماذا يتعلق الوزير عليَّ وقد تركت التصرف منذ عشرين سنة ولما تصرفت كنت عفيفاً سليماً ما آذيت أحداً ولي على الوزير حقوق وليس يحسن به أن يتناساها مع اشتهاره بالكرم ويقبح بي أن أهجّنه بخطوط له عندي قبل هذه الحال الغالية فقولوا له: أيها الوزير أبو علي ذكّرتك بما لو طالبتك برعايتها أو بالمجازاة على ما أسلفتك في أوقات انحراف الزمان عنك أو سألتك ولاية أو إماحة أو

إحساناً في معاملة في ضيعة أو إرفاد وهل من الجميل إلا أجد عندك إذا رفَّهتك من هذا كله سلامة في نفسي فيما قد ركبته مني مما إذا صدقت نفسك خفت العقوبة من اللّه عزّ وجلّ ثم قبح الأحدوثة من الناس أما ما ظننته عندي فما الأمر كما وقع لك لأن هذا المال إن كان موروثاً عن أبي رحمه اللّه فلست وارثه وحدي ولو كان لاقتسمناه ونحن عدة فلم يكن بد من أن يشيع ويعرف خبره وإن ظننته من كسبي فتصرفي وما وصل إلي منه معروف وما خفيت عنك نزارته ومن بحضرتك من أصحاب الدواوين يشهدون لي بأني ما حظيت ببعض مروءتي وإن ظننته من استغلال فما استغلّه مقسوم بين الورثة وإن رجعت إليهم بالمسألة لم تجد ما يخصني في زمان تصرفي إلا بعض ما أتصرف إلى مؤنتي ومروءتي. وقد خلف الوزراء والأكابر أولاداً مثلي في كفايتي ودوني فتعرضوا لمواقف واستشرفوا لِرُتب وراسلوا وروسِلوا فهل رأيتني إلا في طريق التسلم وراضياً بامتداد ستر اللّه تعالى والزهد في هذه الدنيا؟ فأي شيء تقول للّه تبارك اسمه ثم لِعباده إذا أسأتَ إلي؟ فلما أعيد هذا الكلام على ابن مقلة من غير جهتنا (فإنه كان أنفذ من يتسمع) خجل وتبلد وتحير ثم قال: هذا يدِلُّ علي بالفُراتيَّة وأمير المؤمنين ليس يمكنني من رعاية حقوق أمثاله وأنا أنفذهُ إلى الخصيبي فإنه أعرف بدوائه. فقمنا وجئتُ إلى الخصيبي فحدّثته بما جرى في المجلس وقلتُ له: أعيذك باللّه أن تنتصب لِلتشرُّر على الناس وأن يقال إن النعم تزال بك وأنت وزير ابن وزير وقد رفع اللّه قدرك من ذلك وأجلك بصناعتك وعفافك وأبوّتك. فقال: أحسن اللّه جزاءك ستعلم أني أرده إليه بعد أن أعزر باليسير إليه.

ثم إن أبا علي بن مقلة استدعى الخصيبي وسلمه إليه بعد أن اضطرّه إلى كتب خطِّه بثلاثمائة ألف دينار يصححها في مدة عشرين يوماً فأحضر له الخصيبي صاحبَ الشرطة وجرّدهُ وضربهُ عشر دررٍ وخُلع تخليعاً يسيراً ثم ضربهُ بالمقارع فأقام على أنه لا مال له وأن ضياعه قد وقفها ولا يمكنه بيعها فاستعفى الخصيبي منه وردّه إلى دار ابن مقلة فحبسه. ثم سلمه إلى المعروف بابن الجعفري النقيب وأحضر له غلاماً من غلمان القاهر وذكر له أنه قد أمر بضرب عنقه إن لم يودّ صدراً من المال فما زال يعللهم إلى آخر الوقت ولم يودّ شيئاً. فلما حضر الوقت أحضره السيف وشدّ رأسه وعينيه فقال له أبو الخطاب: وجهني رحمك اللّه إلى القبلة. فوجهه ثم قال له: برفق. وتشاهدَ فبادر بالخبر ابن الجعفري إلى ابن مقلة فقال ابن مقلة: لا يجوز أن يكون بعد هذا شيء. وقال مونس المظفر لابن مقلة: أيّ طريق على رجل لم يعمل عملاً منذ آخر سنة ٢٩٩ فأخذه ابن مقلة وسلمه إلى حاجبه وأمره أن يعتقله فأقام فيه يومين وحضر أبو يوسف البريدي فشكا إليه ابن مقلة ما أقام عليه أبو الخطاب من التجلد ووسّطه بينه وبينه فصار

إليه أبو يوسف وقرّر أمرَهُ على عشرة آلاف دينار فحلف أبو الخطاب ألا يودّي منها درهماً ولو قتل أو يطلق إلى منزله فوجه إليه ابن مقلة بخلعة من ثيابه وحملهُ على دابة بمركب واستدعاهُ ووثب إليه حتى كاد أن يقوم له ثم قال له: كثر على الخليفة في أمرك وعزيز عليّ ما لحقك فامضِ مصاحباً إلى منزلك. فانصرف وأدّى المال في مدّة عشرة أيام وأطلق ضياعهُ وأملاكهُ.

وأحضر ابن مقلة إسحاق بن إسماعيل وأخذ خطهُ بأن يحمل في كلّ شهر من شهور الأهلة مثل ما كان يحمله إلى المقتدر بالله لخريطته على سبيل المرفق وهو ألفا دينار وأخذ خطَّ أبي عبد الله البريدي بحمل ثلاثة آلاف دينار في كلّ شهر على هذه السبيل وخط أبي يوسف وأبي الحسين أخويه بألف وخمسمائة دينار في كلّ شهر.

ذكر ما جرى في أمر الذين هربوا من قوّاد المقتدر وما آل أمرهم إليه

كتب هارون بن غريب إلى أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد من واسط بأن يقطع أمره على مصادرة ثلاثمائة ألف دينار على أن يطلق له ضياعه المِلكُ في سائر النواحي ومستغلاّته دون الإجارات والوقوف التي كانت في يده وعلى أن يودّي حقوق بيت المال على الرسوم القديمة ويرتجع إقطاعاته وعُني به مونس المظفر وأسبابه وكتب له القاهر أماناً وقبلت مصادرته التي بذلها وقلد أعمال المعاون بماه الكوفة وماسبذان ومهرجانقذق.

وخرج عبد الواحد بن المقتدر ومحمد بن ياقوت الباهلي وابنا رائق وسرور ومفلح من واسط مفارقين لِهارون بن غريب من واسط إلى السوس وجنديسابور فأفسدوا أمر الأعمال هناك وعاثوا وخرَّبوا ومدّوا أيديهم إلى التنّاء والتجار ثم خرجوا على الظهر إلى سوق الأهواز فلما طال مقامهم بالأهواز شخص يلبق والجيش معه نحوهم فلقيه هارون ابن غريب بجرجرايا ثم نفذ لحرب القوم.

فأما ما حكاهُ أبو الفرج بن أبي هشام عن مشاهدةٍ وعِيان فإنه قال: إن الهاربين من قوّاد المقتدر مع عبد الواحد ابنه دخلوا سوق الأهواز من طريق الطيب وما دخلوا السوس ولا جنديسابور واستبدّ محمد بن ياقوت بالأمور على ابني رائق والجماعة. وقلد أبا إسحاق القراريطي كاتبه النظر فاستخرج وأمر ونهى وكانت الأموال تنصبّ إلى ابن ياقوت ويعطى منها ابنا رائق وغيرهما ما يريد فتغيرت له القلوب واعتقدوا الخلاف عليه.

وتحقق أبو عبد الله البريدي بأبي علي بن مقلة وكانت الكتب ترد عليه من الأهواز بجميع ما يجري فأشار بأن يتلاحق أمرهم وقال: إن القوم متخاذلون وابن ياقوت مستبدٌ عليهم وقلوبهم شتى وإن ابني رائق صديقاهُ فإن أخرج إليهم جيشٌ اختلفت كلمتهم وإن

تركوا قويت شوكتهم بأموال الأهواز وعقدوا لعبد الواحد الخلافة وطلبوا الحضرة. فأنفذ أبو علي بن مقلة أبا عبد اللّه البريدي إلى مونس حتى شافههُ بذلك كله فقال مونس: قد ترى الحيرة في مال البيعة وقد استحق الناس رزقة لأن الحادثة بالمقتدر منذ ثلاثة أشهر فمن أين المال؟ فقال أبو عبد اللّه البريدي: أنا أضمنه ويسبب عليَّ وأقدّم بالحضرة ثلاثين ألف دينار وأصحح بالسوس خمسين ألف دينار وبتستر عشرين ألف دينار والباقي بالأهواز. وأحضر صاحب ديوان الجيش وعمل جريدة لمن تجرَّد مع يلبق وأجمل مالهم فبلغ مائتي وخمسين ألف دينار فحمل أبو عبد اللّه الثلاثين الألف الدينار التي ضمن تعجيلها بالحضرة وخوطب القوّاد وتكاثرت العساكر مع يلبق وأبو عبد اللّه البريدي معه. وخرج بدر الخرشني في الماء وكوتب أحمد بن نصر القشوري وكان يتقلد البصرة أن يسير معه فلما تحصلت الجيوش بواسط تغيرت القلوب على محمد بن ياقوت وتبين ذلك فقال للجماعة: أنا واحدٌ منكم ولستُ أخالفكم في رأيٍ ولكن الوجه أن نجتمع بتستر فإنها حصينة منيعة وندبر أمرنا بما يوفق اللّه عزّ وجلّ له ولا نحارب. وواقفهم على مال يعطيهم وساروا للوقت إلى عسكر مكرم وأفرجوا عن قصبة الأهواز فعمل القراريطي بها ما لا يعمله الدمستق وفتح الدكاكين بالليل وبعث إليها البغال وحمل منها أمتعة التجار وصادر الأسود والأبيض ولما ورد الخبر بنزول يلبق السوس نفذت الجماعة إلى تستر وورد البريدي وسلك طريق القراريطي وزاد وما زال يحتال حتى وفّى الخمسين الألف الدينار ثم وافى يلبق والجيوش جسر تستر فوجده مقطوعاً وحال بينه وبين تستر دُجيل.

فحكي عن أبي عبد اللّه البريدي بعد ذلك أنّه قال: هممتُ بالتغلب ووضعتُ في نفسي الإمرة وتدبير الرجال منذ ذلك لمّا رأيتُ انحلال يلبق وسقوط ابن الطبري كاتبه لأني رأيتهما متخلفين ساقطين. وكان الشارد قد طار وضجَّ يلبق واضطرب رجالهُ فهمّ بالانصراف فثبتهُ أبو عبد اللّه البريدي وما زال يتردّد إلى القوّاد ويهزّهم ويهاديهم ويسكنهم ويكاتب ابني رائق بالمودة ويشير عليهما بمفارقة ابن ياقوت ويذكر لهما سوء أخلاقه وشدة عجبه وتطاوُله عليهما حتى استجابا إلى تقلد البصرة والانصراف عن تستر. فما عرف ابن ياقوت الخبر حتى ضربا بالبوق بكرةً ورحلا فلم يكن له بهما يدان لأنه لو كاشفهما لَعبر العسكر الذي بإزائه إليه وقتل أو أسر.

ولما توجه ابنا رائق إلى البصرة استأذن مفلح وسرور في العبور بعبد الواحد إلى يلبق وقالوا لمحمد بن ياقوت: قد ضعفت نفوسنا وأنت معتصم برجالك ونحن فلا عدة لنا ولأصحابنا إلا غلماننا. فردّ الاختيار إليهم كاتبوا وتوثقوا لنفوسهم من يلبق وعبروا إليه وتحير محمد بن ياقوت فراسل يلبق في أن يحلف بسلامة نيته إذا لقيه ليعبر إليه ويفاوضه ويعود إلى معسكره فأجابه وحلف له على ذلك وعبر إليه محمد بن ياقوت

بدُرّاعة بيضاء وعمامة وجمشك في رجله ومعه غلام واحد وقت العصر فقام له يلبق وتفردا وتطاولا حديثاً ما عرف في الوقت. واشتعلت النيران في ثياب البريدي وتردّد دفعات إلى ابن الطبري يشير بالقبض على ابن ياقوت وراسل ابن الطبري يلبق بذلك وقال له: البريدي خليفة الوزير وثقة الأستاذ مونس يشير بذلك ولست أقول أنا شيئاً. فقال يلبق: ما كنت بالذي أخفر أمانتي وأحنث في يميني ولو ذهبت نفسي. وحضر وقت الصلاة فقام محمد بن ياقوت تحت الفازة في موضع فسح فأذن وأقام وتقدم للصلاة يلبق وأكثر العسكر وراءه ولما استتم المكتوبة انثنى إلى يلبق معانقاً له فقام إليه وودع كل واحد منهما صاحبه وعاد محمد بن ياقوت إلى عسكره. وظهر السر وكان تعاتبهما أولاً ثم تحالفا وتعاقدا واصطلحا على أن يسيرا إلى الحضرة بشروط الأمان على أن يكون بينهما في المسير منزلٌ فمنزل.

ورحل محمد بن ياقوت بعد ثلاثة أيام من تستر إلى عسر مكرم ودخل يلبق تستر فعمل بها البريدي أعظم مما عمل القراريطي بكثير لأن الناس توقوا منه فلما رأوا أصحاب السلطان أنسوا. فأتى البريدي عليهم وكبس اليهود وهم معظم التجار وتجاوز كل قبيح ووفى بالمائة الألف الدينار وسار يلبق إلى الأهواز وأهلها هاربون من محمد بن ياقوت فسلموا لأنهم مضوا إلى البصرة. وابتلى البريدي أهل عسكر مكرم وتستر فأيسر ما عمل أن ركب إلى دور الصيارف فأخذ ما وجد من الأموال لهم ولمن يضاربهم وخسف بالسواد حتى صحح ليلبق مائتي ألف دينار وبقيت على البريدي خمسون ألف دينار وعنى به ابن الطبري لأن البريدي خدمه خدمة تامة حتى أنه كان يحضر أبواب البيع في البلدان ويجلس على غاشيته ينتظر خروجه فإذا خرج سأله أن يعطيه برشائه فإذا أعطاه قبله وجعله في كمه وأشهد له بضياع ارتفاعها عشرة آلاف دينار فكان ذلك سبب عناية ابن الطبري به. وخاطب له يلبق وقال له: أبو عبد اللّه ثقة ونجعل هذه الخمسين الألف الدينار فيما يخص الأمير (وكان مالهُ في الجملة) وقد خدم وبيّض وجه الأمير فيما خدم ودبر وبدّد شمل هؤلاء وإنه لأحقُّ بمجلس أبي علي بن مقلة منه وأنفذ في التدبير والأمور. فأجابهُ يلبق إلى ما سأل وخلف غلاماً عند البريدي يقال له إيتاخ.

ورحل ابن ياقوت إلى شابرزان وتبعهُ يلبق ودخلوا مدينة السلام. وأطلقت أملاكُ ابني رائق ومحمد بن ياقوت ومُفلح وسرور دون اقطاعاتهم وأطلق لعبد الواحد بعض أملاكه القديمة وأعفي هو ووالدته من المصادرة وعادت يد ابن البريدي إلى عمالة الأهواز واستقامت الأمور. وخلع القاهر على يلبق وطوّقه وسوّرَهُ بطوقين وسوارَيْن مرصّعَيْن بالجوهر.

وخرج أمر القاهر ببيع دار المخرّم التي كانت برسم الوزارة وكانت قديماً لِسليمان

ابن وهب فقطعت وبيعت من جماعةٍ من الناس بمال عظيم لأن ذرعها يشتمل على أكثر من ثلثمائة ألف ذراع وصرف ثمنها في ماله الصلة لبيعة القاهر باللّه.

وورد الخبر بموت تكين الخاصة بمصر فأشار الوزير أبو علي بن مقلة بإنفاذ علي ابن عيسى إليها للإشراف عليها فابتدأ بالاستعداد للخروج ثم صار إلى أبي علي بن مقلة في بعض العشايا وصادفهُ خالياً فعرَّفهُ كبر سنهِ وضعف حركتهِ ونقصان قوَّتهِ وأنه لا يستشفع إليه بغير كرمه ولا يوسط بينه وبينه أحداً غيره وحلف على موالاتهِ إيماناً أكَّدها وسأله إعفاءهُ من الشخوص وتذلل له وانكبّ على يده ليُقبلِها فمنعه من ذلك وخاطبه بمعرفته بحقهِ وعلمهِ بمكانه فأعفاه من الشخوص فانصرف علي بن عيسى شاكراً. وورد كتاب محمد بن تكين يخطب مكان أبيه فأجيب إلى ذلك وحُمل إليه الخلع والعهد.

وكتب القاهر رُقعةً بخطه إلى أبي علي بن مقلة بالتكنية وبزيادة في التشريف والرتبة وأمره أن يكتب بذلك إلى الأمصار والأعمال كلها ففعل ذلك ثم حمل إليه خلعةً بعد خلعة للمنادمة وحمل إليه صينية فضةٍ مذهبة فيها ند وعنبر وغالية ومسك وصينية أُخرى فيها رَطلية بلور فيها شرب مطبوخ عتيق وقدح بلور وكوز ومغسل فضة.

وشغب الجند بمصر على محمد بن تكين فقاتلهم وهزموه.

وفي هذه السنة استوحش مونس المُظفر ويلبق وعليّ ابنه والوزير أبو علي بن مقلة من القاهر باللّه فضيَّقوا عليه وعلى أسبابه.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك انحراف الوزير أبي علي بن مقلة عن محمد بن ياقوت فمكَّن في قلب مونس المُظفَّر ويلبق وعلى ابنهِ أنه في تدبير عليهم مع القاهر باللّه وأن عيسى المتطبب يترسل لِلقاهر إليه فوجه مونس بعلي بن يلبق إلى دار السلطان وسأل عن عيسى فَعُرِّف أنه بحضرة القاهر فهجم عليه غلمان على ابن يلبق فوجدوه واقفاً بحضرة القاهر فقبضوا عليه وأخرجوهُ إليه فنفاه من وقته إلى الموصل. واجتمع رأي مونس ويلبق وابنه والوزير أبي عليّ على الإيقاع بمحمد بن ياقوت والنداء في أصحابه ألا يقيموا ببغداد.

فلما كان يوم الأربعاء لِليلة خلت من جمادى الآخرة خرج علي بن يلبق في الجيش ومعه طريف السبُكري للإيقاع بمحمد بن ياقوت وبلغ محمد بن ياقوت ذلك فانكشف من معسكرِه من ميدان الأشنان وطلبهُ علي بن يلبق فلم يقف على خبره وذلك أنه دخل إلى بغداد واستتر بها وتفرق رجالهُ وانصرف علي بن يلبق من فوره إلى دار السلطان وأوقع التشدّد على القاهر ووكل بالدار أحمد بن زيرك وأمره أن يفتش كل مَن يدخل ويخرج من الرجال والنساء والخدم ويفتش كل ما يدخل إلى القاهر ففعل أحمد

ابن زيرك ما أمره به حتى بلغ الأمر به أن فتش لبناً حُمل إلى القاهر وأدخل يده فيه لئلا يكون فيه رقعة. ونقل علي بن يلبق المحبوسين في دار السلطان إلى داره من والدة المقتدر وغيرها ومُنع القاهر أرزاق حشمِه وأكثر ما كان يقام له وطالَب علي بن يلبق القاهر إن يسلم إليه ما بقي عنده من الفرش وأمتعة والدة المقتدر وابن الخال فسلَّم ذلك إليه وبيع وحُصّل ثمنه في بيت المال وأطلق للجند. وباع أبو علي بن مقلة من الضياع وأملاك السلطان لتمام الصلة لِلبيعة بألفي ألف وأربعمائة ألف دينار مع ما باعهُ الكلوذاني أيام خلافته إيّاه قبل قدومه من شيراز. ومكثت والدة المقتدر عند والدة علي بن يلبق مكرمةً مرفَّهةً مدّة عشرة أيام وماتت لستّ خلون من جمادى الآخرة لزيادة العلة عليها ولِما جرى عليها من مكاره القاهر فحملت إلى تُربتها بالرصافة ودفنت فيها.

وفيها همَّ علي بن يلبق والحسن بن هارون كاتبه بلعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر فاضطربت العامة من ذلك وتقدم علي بن يلبق بالقبض على البربهاري رئيس الحنبلية فنذِر به وهرب وقبض على جماعة من كبار أصحابه وجُعلوا في زورق مطبق وأحدروا إلى البصرة.

وفيها نفذت حيلة القاهر على مونس المظفر وانعكس ما دبره الوزير أبو علي بن مقلة من القبض على القاهر حتى قبض على مونس ويلبق وابنه وهرب أبو علي بن مقلة والحسن بن هارون.

ذكر انعكاس هذا التدبير

لما ضيَّق علي بن يلبق على القاهر وعومل بما ذكرناه أخذ القاهر في الحيلة على مونس وأصحابه وبلغه فساد نيَّة طريف السبكري وبشر ليلبق وابنه ومنافستهما إياهما على مراتبهما الجليلة ثم علم أن مونساً ويلبق أكثر اعتمادهما إنما هو على الساجيَّة وكانا وعداهم بالموصل إذا دخلا بغداد أن يجعلاهم برسم الحجرية وإنهما ما وفيا لهم بذلك وإن نيَّاتهم متغيرة لهما. فراسل القاهر الساجية وهزّ بهم على مونس ويلبق وضمن لهما أن ينقلهم إلى رسم الحجرية (وكان الساجية يقبضون في كل ستين يوماً برسم المماليك والحجرية يقبضون في كل خمسين يوماً) وأن يلحقهم في النزل والعلوفة بالحجرية.

وكان بين اختيار القهرمانة وبين أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد اللّه معرفة قديمة وبينها وبين والدته مخالطة فأشارت على القاهر بمكاتبته وأن يعده بوزارته ليعاونه على التدبير على مونس وأصحابه وأشارت على محمد بن القاسم بأن يكاتب القاهر ويصدقه عن تدبير أبي علي بن مقلة وابن يلبق عليه. وكانت اختيار هذه تخرج من دار السلطان إلى دار القاهر القديمة التي في دار ابن طاهر وتظهر أن خروجها في حوائج حرم القاهر وولده فإذا كان بالليل صارت إلى محمد بن القاسم ولقيته. وبلغ أبا علي بن مقلة أن

القاهر قد جدّ في التدبير عليه وعلى مونس ويلبق وابنه والحسن بن هارون وحملهم على الجد والمبادرة إلى خلعه من الخلافة واتفق رأيهم على تقليدها أبا أحمد بن المكتفي باللّٰه وواقفوا شاذ مروز حماة إبراهيم بن خفيف صاحب ديوان النفقات وكانت متحققة بأبي أحمد على ما دبروه وعقدوا الأمر سرّاً لأبي أحمد ابن المكتفي باللّٰه وحلف له يلبق وابنه وأبو علي بن مقلة والحسن بن هارون ثم كشفوا ما فعلوه لِمونس فقال لهم مونس: لست أشكّ في شر القاهر وقد أسرفتم في الاستهانة به وأخطأتم في تقليد الأمر فلا تعجلوا الآن وترفّقوا حتى تؤنسوه ويأنس وينبسط إليكم ثم حينئذ تقبضون عليه فقال علي بن يلبق والحسن بن هارون: الحجبة إلينا والدار في أيدينا وما نحتاج أن نستعين بأحد في القبض عليه لأنه بمنزلة طائر في قفص. وعملوا على معاجلتِه.

فاتفق أن ركب يلبق إلى الميدان فصدمه خادم له فسقط واعتلّ ولزم منزله وتمكن علي بن يلبق من متابعة ابن مقلة وحسنوا الأمر عند مونس وهوّنوه عليه وعلى يلبق حتى أذنا فيه. فلما كان يوم السبت سلخ رجب انصرف أبو علي بن مقلة من دار السلطان واجتمع إليه كتابه وأخوه ومن جرى عادته بمواكلتِه وفيهم أبو بكر بن قرابة فلما فرغ من طعامِه التفت إلى أبي بكر بن قرابة فقال له: قد وافى صديقك القرمطي إلى الكوفة في ثلاثة آلاف راحلة ومعه صاحبه فلان ودخل الكوفة ونادى بأنه قد آمن الرعية سوى أصحاب المعروف بمحمد المتلقّب بالقاهر. فقال ابن قرابة: أيها الوزير هذا باطل لأن ابن بسر الكوفي جاري واليوم كان عندي وقد وقعت عليه أطيارٌ بأخبار السلامة. فقال أبو علي: سبحان اللّٰه أنت وابن بسر أعرف من صاحب المعونة بالكوفة وقد سقط من عنده طائرٌ على أبي الحسن بن يلبق وقد جاءني سعيد بن حمدان ومعه رجل من الأعراب قد قتل نفسه وقطع عدّةً من الأفراس فخبر عن معاينة ومشاهدةٍ. وكان ابن مقلة قد واطأ سعيد بن حمدان على ذلك. ثم دعا بالدواة وثلث قرطاس وكتب بخطِّه إلى القاهر رُقعة يقول فيها: إن القرمطي الهجري المعروف بأبي طاهر قد وافى الكوفة في ثلاثة آلاف راحلة فنزلها وسقط عليّ من عامل الخراج وعلى عليّ بن يلبق من عامل المعونة طائران بكتابين بتاريخ يومنا هذا بنزوله ونزول أصحابه بها وإني أنا ويلبق سترنا ذلك عن القوّاد والجند وخواص الدولة لئلا يذيع الخبر وتضعف قلوب الأولياء وقد اتفقتُ مع مونس على إخراج علي بن يلبق مع أكثر قوّاده وقوّاد أبيه إلى نواحي الكوفة ليدفع القرمطي عن الرحيل منها إلى بغداد وهو يخرج في سحر غد مارًا إلى صَرصَر من حيث لا يضرب بباب بغداد مضرباً حتى يلحق به الرجال وقد وجه النقباء في عشية يومنا وقد وافقت عليّ بن يلبق على الرواح إلى دار مولانا أمير المؤمنين ليصل إليه ويودّعهُ وعملتُ على التأخر لئلا يشيع الخبر بحضوري في غير وقت حضور مثلي الدار ويفسد

التدبير في خروج علي بن يلبق بكرة غد وأنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين ليقف عليه ويسكن إلى ما دبرتُه وينعم بإيصال عليّ بن يلبق إذا حضر العشية إن شاء اللّه. وأنفذ الرقعة ونام فكتب القاهر في جوابها: وأنه استصوب فعلُه وبأنه يوصل ابن يلبق إذا حضر. ولما انتبه ابن مقلة من النوم لم ينتظر ورود جواب رقعتِه إلى القاهر وأعاد إليه رُقعةً ثانيةً بمثل ما كتب به فلما وصلت الثانية إلى القاهر ولم تكن الحالُ تقتضيها لنفوذ جوابه عن الأولى استراب وخاف أن تكون حيلة عليه. ثم نم إليه الخبر من جهة طريف السبكري بما عمل عليه علي بن يلبق من القبض عليه إذا أوصله إليه فأخذ القاهر حذرَهُ وراسل الساجية بالحضور وعرّفهم أن علي بن يلبق يحضر لِحيلة يوقعها فحضروا متفرّقين. فلما كان بعد العصر حضر علي بن يلبق وفي رأسه نبيذ ومعه عدد يسير من غلمانه بسلاح خفيف في طيارِه وأنفذ جماعة من غلمانه بسلاح إلى دار السلطان وصعد من طيّاره في الروشن وراسل القاهر يسأله إيصاله إليه فدافعه القاهر إلى أن حضر الساجيَّة كلهم بالسلاح. فبرزوا إليه وشتموهُ وعملوا على القبض عليه وحامى عنه غلمانه وحاجبُه ابن خندقوقي وحالوا بينه وبينهم ونادى بهم وطرح نفسه من الروشن إلى الطيّارة وعبر واستتر من ليلته. وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر من ليلته واستتر الحسن بن هارون وأبو بكر بن قرابة وانحدر يلبق إلى دار السلطان وانحدر بانحداره جميع من حضر دار مونس من القوّاد. وقدّر يلبق أنه يمسح القاهر ويعتذر لابنه فلما حصل في الدار قبض عليه وحبس وقبض على أحمد بن زيرك وعلى يمن الأعور صاحب الشرطة وحصل الجيش كله في دار السلطان.

فراسل حينئذ القاهر مونساً وسأله الانحدار إليه ليشاوره فيما يعمل وقال له: أنت عندي كالوالد وما أُحبُ أن أعمل شيئاً ولا أمضي عزماً إلا عن رأيك فاعتذر مونس بثقل الحركة عليه وألح القاهر في طلبه وسأله الحمل على نفسه فاستقبح له طريف السبكري التأخر وحمله على الانحدار فلما حصل في الدار قبض عليه وحبس.

وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم

فكانت وزارة علي بن مقلة لِلقاهرة تسعة أشهر وثلاثة أيام ووجه القاهر إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد اللّه فاستحضره يوم الأحد مستهل شعبان فلقيه وقلد وزارته ودواوينه وخلع عليه من غد وهو يوم الاثنين خلع الوزارة ووجَّه القاهر من يومِه بمن استقدم عيسى المتطبب من الموصل وطرحت النار في دار أبي علي بن مقلة بباب البستان وأحرقت ووقع النهب ببغداد. وظهر محمد بن ياقوت وصار إلى دار السلطان وخدم فيه الحجبة يومه ذاك ثم وقف على كراهية طريف السبكري والساجيَّة والحجريَّة إياه فاحتال إلى أن تمّ له الهرب واستتر وانحدر إلى أبيه وهو بفارس فلم يتجاوز كورة

ارّجان ولا لقي أباهُ. وكان جلس في الماء بزيّ أصحاب المحابر وركب البحر ووافى مهروبان وجاء ليلاً إلى ارّجان فنزل على أبي العباس بن دينار. وحمل إليه أبوه مالاً وكسوة ودوّاب وكانت له على فارس تسبيبات فاستوفاها ولحق به رجالُه وكاتبهُ القاهر بما يسكّنُه منه وأعلمه أنه عجل على نفسه واستوحش وقلده المعاون بكور الأهواز فأقام بارّجان حتى اعتل وكان يفسد مزاجه ثم انتقل إلى رامهرمز. وكان القاهر قد كاتب مرداويج بالإفراج عن أصبهان ليقلّده الريَّ والجبل ويصير في جملة الأولياء ويزول عنه العصيان فأتم له. وكاتب وشمكير بالانصراف عن أصبهان فانصرف وبقيت شاغرة سبعة عشر يوماً خالية من مدبر وكاتب القاهر محمد بن ياقوت بتقليده أصبهان وأمره أن يسير إليها وكان ذلك بعقب هزيمة المظفر بن ياقوت وبعد انصراف علي بن بويه من أصبهان. فأخذ محمد بن ياقوت في التأهب فبقي هو كذلك إذ ورد عليه الخبر بخلع القاهر فانتكث أمرهُ.

ولما استتر علي بن يلبق وهرب محمد بن ياقوت استحجب القاهر سلامة الطولوني وطلب المستترين وقلّد أبا العباس أحمد بن خاقان الشرطة ببغداد وطلب أبا أحمد بن المكتفي فوجده مستتراً في دار عبد اللّه بن الفتح فقبض عليه وتقدّم القاهر بأن يقام في فتح باب ويسدّ عليه بالجص والآجرّ وهو حيّ ففعل وأمر بنهب دور بني مقلة ودار الحسن بن هارون ودار أبي بكر بن قرابة. ووُجد علي بن يلبق مستتراً بقُرب باب المقبرة وكبس وأخذ من تنور كان دخله لما أحس بالكأس وأطبق على نفسه بغطاء التنور وقد كان خفي أمره وخرج من كان يفتش عنه حين لم يجده فاتفق إن تأخر بعض الرجالة لطلب شيء يأخذه من الدار فانتهى إلى التنور وطلب فيه خبزاً يابساً فلما كشفه وجد علي بن يلبق فصاح حتى رجع القوم وأخذوه وحملوه إلى دار السلطان. وضرب بحضرة القاهر ضرباً مبرحاً فأقر بعشرة آلاف دينار فوجدت وصُحّحت في بيت المال ثم أعيد الضرب عليه فلم يوجد له غيرها وحبس.

وكان الحسين بن القاسم بن عبيد اللّه مستتراً فراسله أخوه الوزير محمد بن القاسم ابن عبيد اللّه وسأله أن يظهر ويعينه حتى يقلده ديوان السواد وديوان الجيش وديوان النفقات ويستخلف له الكلوذي وإبراهيم بن خفيف وعثمان بن سعيد وحلف له بحضرة السفير الذي كان بينهما باللّه العظيم وبسائر إيمان البيعة بعتق مماليكه وبطلاق نسائه على صحة ضميره له وبان باطنه له مثل ظاهره فيما بذله له وكتب له بذلك رقعة بخطه أشهد فيها اللّه على نفسه وتسلم ذلك السفيرُ وحمله إلى الحسين فأعاد عليه ما جرى ولم يزل محمد يتوقع أخاه إلى آخر النهار. فحكى ابن أخيه القاسم ابن الحسين أن عمّه الوزير أبا جعفر صار في الليلة إلى الحسين أخيه وليس معه غلام فخاطبه في الظهور وسأله معاونته

بنفسه وأعاد عليه تلك الايمان حتى وعده بالرواح إليه وعرف الحسين أصحابُه فاجتمعوا بالعشي له وركبوا بركوبه وصار إلى أخيه وكان الوزير أخوه قد أعدّ له زورقاً مطبقاً فلما حصل عنده أمر بتحصيله في الزورق. فوقفت والدتُه على خبره فجاءت حتى وقفت له على شاطئ دجلة في الموضع الذي ينزل منه إلى طيارة وهناك خلق من الناس فاستغاثت إليه وكشفت شعرها بين يديه وأظهرت ثديها وحلّفته بكل حق لها عليه أن يطلق ابنها فلم يلتفت إليها ولا يفكر فيها وجلس في طيّاره وانحدر إلى دار السلطان فلم يبق أحد ممن حضر إلا استقبح فعله ودعا عليه وذهب فحكى للقاهر أنه إنما طلب أخاه الحسين ونفاه إلى الرقة لِما كان يعتقد من مذهب ابن أبي العزاقر وأنه خاف منه على الدولة. فوكل القاهر بدور بني بسطام لما كان يذكر عنهما في اعتقادهما لدين ابن أبي العزاقر.

ذكر مقتل مونس ويلبق وعليّ ابنه

اضطرب حال مونس ويلبق وشغبوا وشغب معهم سائر الجيش وخرجوا إلى الصحراء ثم قصدوا دار الوزير أبي جعفر محمد بن القاسم وأحرقوا روشنه ونادوا بذكر مونس فكان ذلك سبب القتل لمونس. ودخل القاهر إلى الموضع الذي كان فيه مونس ويلبق وابنه معتقلين فذُبح علي بن يلبق بحضرته ووجه برأسه إلى أبيه فلما رآه جزع وبكى بكاء عظيماً ثم ذبح يلبق ووجه برأسه ورأس أبيه إلى مونس فلما رآهما لعن قاتلهما فأمر به فجرَّ برجله إلى البالوعة وذُبح كما يذبح الشاة والقاهر يراه. وأخرجت الرؤوس الثلاثة في ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس وطيف برأس علي بن يلبق في جانبي بغداد ثم رُدّ إلى دار السلطان وجُعل مع سائر الرؤوس في خزانة الرؤوس على الرسم.

قال ثابت: فحدثنا سلامة الطولوني الحاجب أنه لما أخرِجَ إليه رأس مونس ليصلحه فرّغ الدماغ منه ووزنه فكان ستة أرطال وسمعت أنا ذلك من الجُفني وكان حاضرُه.

ومما جرى في ذلك أنه كبس جماعة من الفرسان والرجالة أبا بكر بن نباتة العدْلَ الدقاق في درب الريحان وأظهروا أن السلطان وجَّه بهم لطلب الحسن بن هارون وأخذوا من منزلِه ثلاثين ألف دينار وطرحوا منديلاً على رأس واحدٍ منهم وأخرجوه وأظهروا أنه الحسن بن هارون فركب أحمد بن خاقان في طلب القوم فظفر بواحدٍ منهم وقرَّره فاقرّ على جماعةٍ ظفر ببعضهم ووجد اليسير من المال وقتل من وُجد من هؤلاء الكباسين.

وفيها خرج أمر القاهر بتحريم القيان والخمر وسائر الأنبذة وقبض على من عرف بالغناء من الرجال والمخانيث والجواري المغنيات فنفى بعضهم إلى البصرة وبعضهم إلى الكوفة وبيع الجواري على أنهن سواذج وكان القاهر مع ذلك مولعاً بشرب الخمر ولا يكاد يصحو من السكر ويسمع الغناء ويختار من جواري القيان من يريد.

وسعى بأبي عبد اللّٰه بن مقلة فوجد وقبض عليه ووُجد عنده خطوط أخيه أبي علي في رقاع فحمل إلى دار الوزير أبي جعفر فسأله عمن كان يوصل إليه الرقاع فذكر أن أبا عبد اللّٰه محمد بن عبدوس الجهشياري كان ينفذها إليه فقبض عليه وعلى أخيه وسئل عما يعرفان من خبر أبي علي بن مقلة فحلفا أنهما لا يعرفان له خبراً منذ استتر وعرّف القاهر أنهما من قواد السلطان وسهُل أمرهما فأطلقا ولم يستترا وكانا يركبان في أيام المواكب إلى دار السلطان.

وقبض الوزير أبو جعفر على أبي جعفر محمد بن شيرزاد واحتج عليه بأنه قد تقلد أعمالاً جليلة وابتاع من المبيع ضياعاً كثيرة وأن ارتفاعه قد بلغ ألف ألف درهم في السنة فتوسط بينه وبينه إسحاق بن إسماعيل وأخذ خطه بعشرين ألف دينار وأطلق إلى منزله من يومه.

ذكر السبب في تقليد أبي العباس الخصيبي الوزارة

كان بنو البريدي بعد استتار ابن مقلة والجماعة استتروا فقلد الوزير مكانهم على أعمالهم أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي فتوسط إسحاق بن إسماعيل أمرهم فأخذ لهم أماناً من الوزير حتى ظهروا: ثم أشار إسحاق على الوزير أبي جعفر بأن يخاطب القاهر في أمر بني البريدي ويعرفه أن الوجه ردهم إلى ضمانهم بالبصرة والأهواز فقبل الوزير مشورته وخاطب الخليفة وعرفه أنه ذامٌّ لمحمد بن القاسم الكرخي لتقصيره في أمر استخراج الأموال وحملها وإن البريديين أقوم بذلك وأطمعه في أن يزداد عليهم في مقدار مال الضمان فوعده القاهر وقال: حتى أنظر في ذلك. واستدعى القاهر عيسى المتطبب وأعاد عليه ما جرى وكان عيسى كارهاً للوزير محمد بن القاسم لأنه لم يكن له مدخل في تقليده الوزارة لغيبته بالموصل فطعن على هذا الرأي وعلى الوزير أبي جعفر وأشار بتقليد الخصيبي الوزارة فأمره القاهر بلقاء الخصيبي ومسألته عما عنده في أمر البريديين وغيرهم فصار إليه وتقرر الأمر معه وضمن استخراج أموال جليلة.

وكتب إلى القاهر على يد عيسى أنه متى ظهر أنه تقلد الوزارة استتر من عنده الأموال التي وعد باستخراجها وأن الوجه أن يتقدم إلى الوزير بالقبض على جماعة سماهم على مهل فإذا قبض عليهم وجه القاهر فحملهم إلى داره وانتزعهم من يد الوزير فتركهم معتقلين أياماً ثم قبض على الوزير محمد بن القاسم. ففعل القاهر ذلك وتقدم إلى سابور الخادم بالمصير إلى دار الوزير والقبض على بني البريدي وإسحاق بن إسماعيل فوجه سابور بثقة له إلى دار الوزير لينظر هل يجدُ فيها بني البريدي وإسحاق بن إسماعيل فيرجع إليه بالخبر. وكان بنو البريدي قد نصبوا أصحاب أخبار على سابور وسلامة وأصحاب القاهر فبلغهم ما تقدم به سابور إلى الرجل الذي وجه به يتعرف أخبارهم فاستتروا. وكان سابور قد قال لثقاته: إن

الخليفة أمرني بتفتيش دار إسحاق لأنه قد بلغه أن جواريه قد سترن جماعة من جواري القيان. وأمرهم أن يستعدوا للركوب معه فبلغ الخبر إسحاق من وقته ولم يقع له أن ذلك لمكروه يراد به فقال لجواريه: إن صار إليكم سابور بطلب المغنيات فلا تمنعوه ودعوه يفتش. وانحدر هو إلى دار الوزير وصار سابور إلى دار الوزير أبي جعفر فوجد إسحاق بحضرته فقبض عليه وحمله إلى دار السجان.

ووجه القاهر بمن كبس دُور البريديين فلم يوجدوا وكبست دُور إسحاق في النوبختية وعلى شاطئ دجلة وتهارب حرَمه وولده وسلموا وقبض على أحمد بن الكوني كاتبه. واستحضر القاهر علي بن عيسى وعرّفه أنه ليس لوزيره نظرٌ في أعمال واسط وسقي الفرات وكانت في ضمان إسحاق وقلده هذه الأعمال واعتمد في تدبير المعاون فيها عليه ووقع له بخطه فتقلده علي بن عيسى.

وورد الخبر بموت أبي علي أحمد بن محمد بن رستم بأصبهان وأن المظفر بن ياقوت مدَّ يده إلى ماله ودوابه فحازها لِنفسه وكان المظفر إليه أعمال المعاوِن بأصبهان فتنكر القاهر له ولأبيه ولأخيه. وسُعي بأبي يوسف البريدي فكبس عليه وأخذ وحمل إلى دار الوزير محمد بن القاسم فأجمل عِشرته وكتب القاهر إلى الوزير بأن يقرَّر معه مصادرته ومصادرة أخوَيه فأَحضره الوزير وخاطبه وسامَهُ أن يقرّر الأمر معه في مصادرتهم فقال له أبو يوسف: إذا وثقنا بأن الأمر لك وإنك مقرّ على الوزارة قررنا الأمر معك فأما ونحن نتحقق أن الوزارة لِغيرك فلا يجوز فصل الأمر معك. فلما كان يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة انكسف القمر وقبض القاهر على الوزير محمد بن القاسم أنفذ إليه سابور الخادم فأخذه وأخذ من وجد في داره وفيهم أبو يوسف البريدي وغيره فنقلهم إلى دار السلطان فكانت مدّة وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد اللّه بن سليمان لِلقاهر ثلاثة أشهر واثني عشر يوماً.

ووجه القاهر إلى إسحاق بن علي القنَّائي وأحضره وأحضر معه عبد الوهاب بن عبد اللّه الخاقاني على أن يقلّد أحدهما الوزارة والآخر الدواوين فلما حضرا قبّل القوّاد أيديهما وجلس بين أيديها سلامة الحاجب فلم يلبث أن خرجت رسالة القاهر بالقبض عليهما وإدخالهما الحبوس الغامضة. ثم وجَّه القاهر إلى سليمان بن الحسن واستحضره لِلوزارة وحضر في طيَّاره وتلقاه القوّاد والنَّاس وقبّلوا يده وجلس الأستاذون بين يديه في دار السلطان ووجّه القاهر من قبض عليه وأدخله الحبوس الغامضة. ووجه إلى الفضل ابن جعفر لِلوزارة وقد ظهر ما عمله بالخاقاني وبسليمان فاستتر الفضل ولم يتقرّر الوزارة لأحدٍ في ذلك اليوم.

فلمّا كان من الغد تقدَّم القاهر إلى عيسى المتطبب أن يحضر الخصيبي يوم

الخميس ويأمره بالتأهُّب للوزارة وأن يحضر بسوادٍ وسيف ومنطقة فراسله عيسى بذلك فحضر كما رُسم له وخلع عليه خلع الوزارة وركب فيها إلى داره ولقيه الناس فهنؤوه ونظر في الدواوين وقلّدها من استصلحَهُ. ونصب ديواناً للمبيع وأحضر الناس وناظرهم وألزمهم لفضل ما بين المعاملتين خمسين ألف دينار وكتب لهم شروطاً ووقع لهم فيها بالإمضاء وصادر الناس وقبض على خلقٍ.

وتوسط عيسى وسلامة الحاجب أمر البريديين بعد مكاره عظيمة لحقت أبا يوسف على اثني عشر ألف ألف درهم وكتبت الأمانات لأحمد وعليّ ابني البريدي بخطّ الخليفة والوزير وأشهدا القضاة والعدول فيها على أنفسهما فظهرا. فحكى أبو زكريا السوسي وأبو سعيد بن قديدة أن أبا عبد اللّه البريدي حضر عند أبي العباس الخصيبي بطيلسان وعمامةٍ وخفّ وهما معه فاستخلاهُ المجلس فأخلاهُ له فعاتبه عتاباً طويلاً وذكَّرَهُ بحقوق كثيرة وضروب من الخدمة خدَمهُ بها في أوقات مختلفة عند نكبات كانت للخصيبي وقال له في آخر كلامه: إنما أعددتك بجميع هذا للدنيا لا للآخرة وأنت معذور في أمر المال لأنك تزعم أنه بأمر الخليفة وطاعتهُ واجبة وفي ضربك أبا يوسف لأنه تماتن عليك لِمَ ذكرتَ أمَّ أبي يوسف وهي أمّي ولِمَ استحسنتَ قذفَها أما استحققتُ عليك بجميع حقوقي هذه أن تصونها عن الذكر بالقبيح لأجلي؟ فخجل الخصيبي وقال: صدقتَ كان يجب أن أفعلَ ذلك ولكن لم أضبط نفسي عند الغيظ وأنا معتذر إليك ودع ما مضى الخليفة مقيمٌ على أنه لا بدّ من ألف ألف دينار وقد وصفتك لأمير المؤمنين وقلتُ: « أبو يوسف حرجُ الصدر وأبو عبد اللّه أخوه رحب الصدر ولا يخالف أمير المؤمنين » ولولا ذلك لنقل أبا يوسف إليه ولما أمنتُ عليه فأحِبُّ أن تكفيني أمركما فحسبي حيائي مما مضى واكتب خطك بزيادة ألفي ألف درهم. فقال أبو عبد اللّه: لقد أغنيتني أيها الوزير وما قصّرتَ وأحسنتَ العذر والتلافي. فقال له: بحياتي لما كتبت. فقال: اكتب وأنا آمن أيّها الوزير مما أقول واللّه ما أملك ولا إخواني هذا المال فإن عطف اللّه بقلب الخليفة وقلبك علينا تصرّفنا وأدّينا وإن حرمنا ذلك استدفعنا القتل إلى مدّة فإن اللّه قد أجرى عادتنا بالكفاية ونحن نرجو تفضلهُ. فقال الخصيبي ولم يكن في المجلس إلاّ أبو زكريا وابن قديدة مستخرجُ الخصيبي: يا أبا عبد اللّه قد قسمت ووفيت الرأي...

وضحك وأخذ خطهُ بألفي ألف درهم زيادة وانصرف.

وكان أبو عبد اللّه البريدي قد تحقق بأبي بكر محمد بن رائق وتناهى أبو بكر في إكرامه وواقفه أبو بكر على أن يتنجز تسبيباته وتسبيبات رجاله على الأهواز ويخرج إليها ويتغلب عليها. وشخص هو عن البصرة لئلا يتمّ هذا الرأي بمقامه عنده فينسب إليه فلما وافى واسطاً وجد بها أبا الحسن علي بن عيسى وقد عَمر واسطاً فعقدها عليه القاهرُ

(لأنه كان من قبله لا من قبل الوزير) بثلاثة عشر ألف ألف درهم. وأشهد على أبي عبد الله البريدي بالضمان واستخلف أبو عبد الله أبا الحسن محمد بن حمد بن حمدون الواسطي وأقام مدّة خمسين يوماً بالنعمانية ينظر في أعمال الموفقي ثم مضى إلى بغداد وركب يوماً هو وأخوه إلى سوق الثلاثاء ينتظرون خروج الخصيبي فراسله عيسى المتطبّب بأن القاهر قد عزم على القبض عليهم فانحطّوا عن دوابّهم وغيّروا زيّهم واستتروا فما ظهروا حتى خلع القاهر من الخلافة وتقلّدها الراضي بالله.

وفي يوم الاثنين لأربع خلون من ذي الحجّة من هذه السنة ورد كتاب علي بن خلف بن طناب إلى الخصيبي يذكر فيه مصير رجلٍ من وجوه قوّاد الديلم الذين كانوا مع مرداويج إلى نواحي ارّجان يقال له علي بن بُوَيه وأن هذا الرجل كان ضامناً لنواحي ماه البصرة فانكسر عليه مالٌ لمرداويج ففزع منه وعصى عليه وصار في أربعمائة من الديلم إلى أرّجان وتغلّب عليها.

ذكر السبب في ظهور علي بن بويه والاتفاقات التي اتفقت له حتى ملك ما ملك

كان أبو الحسن علي بن بويه وأخوه أبو علي الحسن بن بويه من قوّاد ماكان بن كاكي ولم يزل الحال بين ماكان وبين مرداويج جميلاً منذ اتفقا على قصد أسفار بن شيرويه وانصرافه عن قلعة سميران بالطرم. وكانا يتهاديان ويتلاطفان إلى أن قتل مرداويج أسفار كما كتبنا أخبارهما فيما تقدم وملك نواحي الري والجبل واستعلى أمره وقوي بالمال والرجال. وقصد ما كان نواحي آمل وطبرستان فملكها وامتدّ إلى نيسابور عند انصراف نصر بن أحمد صاحب خراسان عنها واشتغاله بأخويه الخارجين عليه فلما فرغ من استصلاح خراسان عاد إلى نيسابور وراسل ما كان يسأله أن يعود إلى مكانه وأن يفرج عن نيسابور ويلطف له ويستبقي الحال بينهما ففعل ما كان ذلك وعاد إلى جرجان وطبرستان.

وابتدأت الحال تنقدح بينه وبين مرداويج على طريق التحاسد والتباغي فاستدعى مرداويج خلفاءه بالجبل وأصبهان وسائر نواحيه وجميع جيوشه وسار إلى ما كان فثبت له ما كان واستظهر عليه مرداويج وهزمهُ وملك طبرستان ورتب فيها بلقسم بن بالحسن وكان اسفهسلاره ومدبر جيشه وكان رجلاً نجداً جيد الرأي في الحرب. ثم مضى إلى جرجان وكان فيها من قبل ما كان شيرزيل بن سلاّر وباعلي بن تركي فهربا جميعاً وملكها مرداويج ورتب فيها سرخاب بن بلوس على خلافة بلقسم بن بالحسن لأن سرخاب خال ولد بلقسم فجمع لِبلقسم جرجان وطبرستان وعاد إلى أصبهان ظافراً غانماً. ثم قصد ما كان أبا الفضل الثائر مستنجداً له فأكرمَهُ وعظمه ثم سار معه بنفسه إلى طبرستان وبها بلقسم بن بالحسن وكان مستعداً لهما فبرز إليهما وتحاربوا فانهزم

الثائر وما كان جميعاً. فأما الثائر فعاد إلى بلده بالديلم وأما ما كان فامتدّ على طريق الساحل مفلولاً ضعيفاً حتى ورد جرجان ثم منها إلى نيسابور قاصداً بها أبا علي أحمد ابن محمد بن محتاج صاحب جيش خراسان فدخل في طاعته واستنجده. وأقام بلقسم ابن بالحسن بجرجان إلى أن بلغهُ مسير أبي علي أحمد بن محمد بن محتاج إليه مع ما كان فكتب إلى مرداويج يستمدُّهُ فأمدّهُ بأكثر عسكره ووجوه أصحابه وبالغ في تقويته ووافى ابن محتاج وما كان فبرز إليهما وواقعهُما فظهر عليهما وهزمُهما فانصرفا إلى نيسابور. ثم كرّ ما كان كرةً أخرى على نواحي الدامغان طامعاً في أن يستولي عليها وكان فيها من قبل مرداويج الجيش بن اوميذوار فسار إليه بلقسم بن بالحسن حتى اجتمعا على دفع ما كان فانهزم ثانياً ويئس من هذه الأعمال فأنفذه صاحب خراسان إلى كرمان وقلّده إياها وكان بها أبو علي محمد بن إلياس بن اليسع وواقعَهُ وهزم أبا علي وملك كرمان على طاعة صاحب خراسان.

فأما أبو الحسن علي بن بويه وأخوه أبو علي الحسن فإنهُما عند هزيمة ما كان الأولى وضعفه انحازا إلى مرداويج بعد أن استأذناه وقالا: إن الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفّ عنك مؤونتنا ويقع كلُّنا على غيرك فإذا تمكنتَ عاودناك. فأذن لهُما واقتدى بعلي ابن بويه جماعة من القوّاد لما صار علي بن بويه وأخوه أبو علي إلى مرداويج فقبلهُما وأكرمهُما وخلع عليهما وقلّد كل واحد من قوّاد ما كان ناحية من نواحي الجبل أما علي ابن بويه فإنه قلّده الكرج وأما اللشكري بن مردى فإنه ردّهُ إلى عمله وكان متقلّداًديناوند وأما سليمان بن سركلة فإنه قلّدَهُ همذان وكذلك سائر القوّاد.

ذكر سبب تمّ به لعلي بن بويه ولايتُهُ وصُرف الباقون بأجمعهم قبل وُصولهم إلى أعمالهم

كان السبب في ارتفاع علي بن بويه وبلوغه ما بلغ سماحة كثيرة كانت في طبعه وسعة صدره. واقترن بهذا الخلق الشريف خلق آخر أشْرَف منه وهي شجاعة تامّة كانت له واتصل بجميع ذلك اتفاقات محمودة ومولد سعيد. فمن ذلك أنه لما قلّد الكرج وقلّد الجماعة المستأمنة معه النواحي الّتي ذكرناها وكتبت لهم العهود ووردوا الريَّ وبها وشمكير وأبو عبد اللّه الحسين بن محمد الملقّب بالعميد (وهو والد أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة) وكان ناظراً في الأمور بالريّ فعُرضت عليه بغلة حسنة كانت لعلي بن بويه أراد بيعها والاستعانة بثمنها وكان ثمنها ثلاثة آلاف درهم قيمتها مائتي دينار فاشتراها وحمل المال إليه فظهر لعلي بن بويه أنها تشتري لأبي عبد اللّه العميد فقادها إليه وحلف ألاّ يأخذ ثمنها ثم تابع ذلك بملاطفات كثيرة إلى أن غمرَهُ بالبرّ. ثم أوجب الرأي عند مرداويج أن يتعقب ما أمر به من تولية أولئك القوّاد وكتب إلى أخيه وشمكير

وإلى أبي عبد الله العميد بمنعهم من الخروج من الريّ وإن كان بعضهم خرج مُنع من بقي. وكانت الكتب تصدر أولاً إلى العميد فيقف عليها ثم تعرض على وشمكير جملها فحين وقف على الكتاب تقدّم إلى علي بن بويه سرًّا أن يبادر إلى عمله فسار من وقته وساعته وطوى المنازل وأصبح العميد من الغدِ فأظهر الكتب فلما عرضها على وشمكير كان قد صار علي بن بويه على مسافةٍ بعيدة فمُنع من لم يكن خرج من أولئك القوّاد. وفاز علي بن بويه بالولاية التي كانت سبب ملكهِ وتمكنهِ وليس يُعرف لجميع ذلك بعد قضاء الله عزّ وجلّ سببٌ إلاّ سخاءهُ وسعة صدرهِ.

فلما وصل إلى الكرج ابتدأ بالإحسان إلى الرجال وملاطفة عامل البلد فكان العامل يكتب يشكره وضبطه الناحية وحمايته. واتفق أن افتتح قلاعاً كانت في أيدي الخُرّميَّة في تلك الأطراف ووقع بين أربابها خلافٌ فانحاز بعضهم إليه وأظهرَهُ على ذخائر جليلة صرفها كلها إلى استمالة الرجال واستعطاف القلوب. فلما عاد مرداويج إلى الريّ سبّبَ أموال جماعةٍ من قوّاده على ناحية الكرج وفيهم إبراهيم بن سيارَهى المعروف بكاسك وجماعة أكبر منهم فاستمالهم علي بن بويه وأفضلَ عليهم حتى أوجبت الجماعةُ طاعتهُ. فاتصل ذلك بمرداويج فأوحشهُ ذلك وندم على إخراج أولئك القوّاد الأكابر إليه وكاتبهُ بالمصير إليه وكاتب القوّاد بمثل ذلك. فدافعهُ وتعلل عليه ورفق به إلى أن أخذ العهود والمواثيق عليهم وعلم استيحاش الجماعة وخوّفهم من غدر مرداويج وسطوته فحينئذٍ خرج بهم عن الكرج وجمع أكثر ما قدر عليه من المال. واستأمن إليه من جرباذقان شيرزاد أحد قوّاد الديلم في أربعين رجلاً فقويت نفسه وعرض رجالهُ فكانوا ثلاثمائة رجل وكسرا لكنهم أعياناً ونخب مستظهرين بالآلات والعدد وتوجّه إلى أصبهان وبها أبو الفتح ابن ياقوت في نحو عشرة آلاف وأبو علي بن رُستم يلي الخراج فقدّم إليها كتباً جميلةً وعرّفهما أنه ينحاز إليهما داخلاً في طاعة السلطان فدافعاهُ عن ذلك. وكان أبو علي بن رستم أشدّ الناس كرهاً له وإنكاراً لقدومه واتفق موت أبي علي بن رستم وبرز أبو الفتح ابن ياقوت حتى صار من أصبهان على ثلاثة فراسخ. وكان في أصحاب ابن ياقوت ديلمٌ وجيل كثير مقدارهم ستمائة رجل وكانوا يسمعون فضلَ علي بن بويه وعطاءهُ وسعة صدره فاستأمنوا إليه وواقعهُ الوقعة وانهزم ابن ياقوت لما ضعف باستئمان هؤلاء ولما ظهر له من ثبات الديلم واضطراب أصحابه ومضى نحو فارس. وملك علي بن بويه أصبهان فقوي شأنه وكبر في عيون الناس لأنه هزم بمائتين من أصحابه ألوفاً وألوفاً من أصحاب السلطان وبلغ ذلك مرداويج فأقلقهُ ودبّر في أمرهم تدبيراً لم يتم له.

ذكر حيلة مرداويج التي لم تتمّ له

أشفق مرداويج أن يستأمن أصحابه إلى علي بن بويه لما يسمعون من إقباله ولما

انتشر من صيته وفيض عطائه ولأن سيرة مرداويج كانت سيرة صعبة لا يسكن إليها أحدٌ ولا يصبر عليها من له نفس أبية فرأى أن يراسل علي بن بويه بعتابٍ وتأنيسٍ ويرفق به ويستدعي جوابهُ وضمن ضمانات له يرغب في مثلها ووجه في أثره أخاه وشمكير في عسكر عظيم كثيف قوي فعلم علي بن بويه أن الرسالة لا تشبه التأهب له فنذر به فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهراً وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم بين يديه إلى رامهرمز من غير حرب ودخلها علي بن بويه واستخرج منها أموالاً قوي بها.

ووردت عليه كتب أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهوّن عنده أمرَ ياقوت وأصحابه لتهوره في جباية الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة جنده وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وخورهم. فأشفق علي بن بويه أن يلقى ياقوتاً مع صيته وكثرة رجاله وأمواله وحصول ابنه أبي بكر بن ياقوت من ورائه فأبى علي بن أبي طالب وتمنع عليه ولم يقبل مشورته. فشجَّعه أبو طالب وأعلمه أنه إن توقف لم يأمن أن يتفق بين ياقوت ومرداويج أمرٌ يجتمعان له عليه وأن أعداءه كثير ومتى اجتمعوا عليه لم يقم لهم وتمكنوا بطول الزمان من التدبير عليه وربما لحق مدد السلطان فتجتمع الجيوش من كل وجه والصواب لمن كان في مثل صورته أن يبادر ويعاجل من بين يديه ولا ينتظر بهم الاحتشاد وإنشاء التدابير عليه ولم يزل يراسل علي بن بويه ويهوّن عليه الخطب إن بادر ويعظّمه إن توانى وتأخر إلى أن سار نحو النوبندجان. وسبقه مقدَّمة ياقوت وهي في نحو ألفي رجل وفيهم وجوه أصحابه وشجعانهم مثل المعروف بكور مرد الخراساني وابن خركوش وكانا شديدين مذكورين بالبأس ومعهما أشباههما من أهل النجدة فوافاهم علي بن بويه إلى النوبندجان فلم يثبتوا وانهزموا إلى كركان وجاءهم ياقوت وأصحابه إلى هذا الموضع. فنصب أبو طالب النوبندجاني وكلاءه وثقاته لخدمة علي بن بويه وتنحى بنفسه إلى ضيعة له مغالطةً لياقوت وراسل ياقوتاً أن الخوف الذي شمله والناس ألجأه إلى الهرب والتباعد واستشاره فيما يعمل وهو مع ذلك مجتهد في نصيحة علي بن بويه وإرشاده إلى صواب الرأي وإهداء الأخبار إليه ودلالته على المسالك والطرق. وأقام لمؤنته وإنزاله من يزيح علته في الجميع حتى أضافه وجميع عسكره أربعين يوماً ولزمته مؤونة عظيمة يذكر أن مبلغها مائتا ألف دينار. وأنفذ علي بن بويه أخاه أبا علي إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس فاستخرج منها أموالاً عظيمة وأثار ذخائر جليلة كانت للأكاسرة يتوارثها قوم هناك فزاد استخراجه على استخراج أخيه. وأنفذ ياقوت عسكراً ضخماً إلى الحسن بن بويه فواقعهم بالنفر اليسير الذين معه فهزمهم وصار موفوراً إلى أخيه علي بن بويه. ثم اتفق أن تتم عليه مواطأة ياقوت ووشمكير ومرداويج وبلغه من ذلك ما أوجب أن يسير إلى كرمان فتوجه من

النوبندجان إلى اصطخر ومنها إلى البيضاء وياقوت يتبعه بجميع عسكره ويقفو أثره وانتهى بعلي بن بويه المسير إلى قنطرة كان الطريق عليها إلى كرمان فسبقه ياقوت إلى القنطرة وحال بينه وبين عبورها واضطرّه إلى الحرب.

دخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

وابتدأت الحرب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٢٢ وأصبحوا يوم الأربعاء على أشد ما تكون الحرب. فاستدعى علي بن بويه أصحابه ليلة الخميس وأعلمهم أنه يترجل معهم ويقاتل كأحدهم ووعدهم ومنّاهم واستوثق منهم الإيمان في الثبات والجهاد والجد.

ذكر اتفاق جيد اتفق لعلي بن بويه ورديء جداً على ياقوت مع تدبير سيئ وتسرع من ياقوت غير صواب

أما التدبير السيئ الّذي استعمله ياقوت وتسرع فيه فإنه استأمن إليه من أصحاب علي بن بويه رجلان من وجوه الديلم فحين وقفت عينه عليهما أمر بضرب أعناقهم وتيقن الديلم أنه لا أمان لهم عنده فشحذ ذلك بصائرهم وجاهدوه جهاد المستقتلين.

وأما الاتفاق الذي اتفق عليه فإنه باكر الحرب يوم الخميس وقدم على مصافه رجالة كثيرة من أصحابه يحاربون بمزاريق النفط والنيران فانقلبت الريح واشتدت للوقت فاحترق شيء من مصافّ ياقوت وأكبّ الديلم على أولئك الرجالة فقتلوهم وانهزم الفرسان وزحف الديلم على تعبيتهم.

ذكر تدبير دبره ياقوت في حال الهزيمة فلم ينفذ له واحترز منها علي بن بويه فظفر

لما أشرف الديلم على سواد ياقوت عند هزيمته وهزيمة أصحابه طلب نشزاً من الأرض عالياً في طريقه فصعد إليها وركز عليها رأيته فاجتمع إليه نحو من أربعة آلاف رجل. وظن أن الديلم يتسرعون إلى خزائنه ويشتغلون بالنهب فيضطرب نظامهم ويكرّ عليهم (وهذه لعمرى مكيدة طال ما صارت سبباً لظفر قوم بعد هزيمتهم) فقال لأصحابه: لا تفرقوا وتأهبوا للكرّة فإنها الظفر لا محالة. وأحسّ علي بن بويه بذلك فبرز أمام مصافه ونادى أصحابه وقال لهم: لا تبعدوا ولا تنقضوا تعبيتكم فإن الخصم واقف ينتظر اشتغالكم بالنهب ثم يعطف عليكم ولم يبق له غير هذه المكيدة. وأعلمهم أن الغنيمة لا تفوت فلما رأى ياقوت ثباتهم وامتناعهم من النهب واحترازهم من مكيدته مضى على وجهه منهزماً وملك علي بن بويه جميع ذلك السواد. ووجد لياقوت صناديق فيها برانس وقيود وما أشبه ذلك كان أعدها للأسارى فأشار جماعة من قوّاد علي بن بويه

بأن يجعل ذلك لأسارى رجال ياقوت وأن يجعل البرانس على رؤوسهم والقيود في أرجلهم ويشهر بهم في المعسكر ثم في البلد فأبى ذلك علي بن بويه وقال: بل نعدل عن هذا إلى العفو عمن أظفرنا اللّه بهم من أعدائنا ونشكر اللّه على هذه النعمة فإنه ادعى للمزيد وأبعد من البغي والطغيان.

ثم امتد إلى الزرقان يوم الجمعة وإلى الدينكان يوم السبت وتولّت المستأمنة والشحنة وأكابر الناس إليه وتتابعوا فتقبل الجميع وأحسن إليهم قولاً وفعلاً وصفح عن كل من بلغه عنه فحشٌ في الخطاب أو إساءة في عمل وأحسن في سيرته حتى اطمأن إليه الناس وأمِنهُ أعداؤه. وعسكر بظاهر شيراز ونادى فيها ببثّ العدل وأمان للناس من جميع ما يكرهون وأمر العامة بالانتشار في معائشهم والخروج إلى مصالحهم آمنين ففعل الناس ذلك.

ثم اضطرّ بعد ذلك إلى سيرة أخرى لكثرة مطالبات الجند واقتراحاتهم وبلغ من أمره ما سنكتبه في موضعه بمشيئة اللّه وعونه.

وفيها ورد كتاب أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكان يتقلد أعمال الخراج والضياع بالبصرة والأهواز بتاريخ يوم الثلاثاء لأربع خلون من المحرم بأن الكتب وردت عليه بدخول أصحاب مرداويج أصبهان وأنه خرج من جملة مرداويج قائد جليل كان يتقلد ماه البصرة وفاز بمال جليل وهرب إلى أرجان يقال له علي بن بويه وأنه كتب إليه أنه في طاعة السلطان وهو يستأذن الوزير في ورود الحضرة أو النفوذ إلى شيراز لينضم إلى ياقوت مولى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة صار أصحاب أبي طاهر القرمطي إلى نواحي توّج وسينيز في مراكب وخرجوا منها إلى البلد فلما بعدوا من المراكب أحرقها صاحب لياقوت كان يتقلد البلد ثم اجتمع مع أهل البلد وأوقع بالقرامطة وقتل منهم وأسر ثمانين رجلاً فيهم رجل يعرف بابن الغمر. فقدم رسول محمد بن ياقوت بهؤلاء الأسارى فأدخلهم مشهرين فوضع على رأس ابن الغمز منهم قروناً وكانوا على جمال بدراريع ديباج وبرانس حتى دخلوا دار السلطان فاعتقلوا بها.

وفيها قتل القاهر إسحاق بن إسماعيل وأبا السرايا نصر بن حمدان.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في قتله إسحاق أنه كان أراد شراء الجارية المعروفة برتبة قبل الخلافة وكانت موصوفة بالجمال والغناء فزايده إسحاق بن إسماعيل فيها واشتراها. وسبب قتله أبا السرايا أنه كان أراد شراء جارية أخرى قبل الخلافة فاشتراها أبو السرايا. فحكى ثابت

عن خادم حضر قتلهما قال: جاء القاهر فوقف على رأس بئر كانت في موضع ذكره ثم استحضر إسحاق فأحضر وهو مقيّد فأمر بطرحه في تلك البئر فرمينا به فيها بقيده وهو حي. ثم أمر بإحضار أبي السرايا فأحضرناه وهو مقيّد فأمر بطرحه في تلك البئر فما زال أبو السرايا يتضرع إليه ويسأله العفو وهو لا يلتفت إليه وتعلق بسعف نخلة كانت بقرب البئر فأمرنا بضرب يده فضربناها فخلى عن السعفة ودفعناه في البئر ثم أمر بطم البئر فطرحنا عليهما التراب حتّى امتلأت وهو واقف. فسبحان اللّه العظيم ما أعجب أمر المقادير! أراد مونس لما قتل المقتدر أن ينصب في الخلافة أبا العبّاس بن المقتدر فما زال إسحاق بن إسماعيل مجتهداً قائماً قاعداً إلى أن عدل بها إلى القاهر باللّه وهو لا يعلم أنه إنما يسعى في حتف نفسه ليتم الأمر المقدور.

وفيها حضر دار سلامة الحاجب أبو بكر بن مقسم وقيل إنه ابتدع قراءة لم تعرف للقرآن. وأحضر ابن مجاهد والقضاة وناظروه فاعترف بالخطأ وتاب فأحرقت كتبه.

وفيها خرج رجل من الصغد يعرف بأبي علي محمد بن إلياس واجتاز بكرمان حتى بلغ باب اصطخر وأظهر لياقوت أنه يريد أن يستأمن إليه ثم عرف ياقوت أن ذلك حيلة منه فخرج إليه ياقوت فلم يثبت له ابن إلياس وانكفأ راجعاً إلى كرمان وصار إليه من قبل صاحب خراسان ماكان بن كاكي الديلمي فواقعه وانهزم ابن إلياس وصار إلى أعمال فارس فواقعه ياقوت وانهزم ابن إلياس.

وفيها استوحش الحجرية والساجية من القاهر فدبروا عليه وتم لهم القبض عليه.

ذكر السبب في القبض على القاهر

كان السبب في ذلك أن أبا علي بن مقلة كان يراسل الساجية والحجرية في استتاره ويضرّ بهم على القاهر ويوحشهم منه والحسن بن هارون يفعل مثل ذلك ويلقاهم بالليل وهو يتزيا بزيّ السؤال وفي يده زبيل وفي وقت بزيِّ النساء إلى أن شحذ نياتهم وجمع كلمتهم على قصد القاهر والفتك به وحذَّرهم منه وعرَّفهم أنه قد بنى لهم المطامير واحتال من جهة منجم كان لسيما حتى لقَّنه أن يقول لسيما من جهة النجوم أنه يخاف عليه من القاهر ويحذّره منه. وأعطى الحسن بن هارون هذا المنجم مائتي دينار فملأ عينه حتى مكَّن في نفس سيما الخوف من القاهر وكان سيما يقبل منه ويستحسن إصاباته ثم دسَّ إليه من جهة مناماتٍ يدعيها أشياء حتى اشتدَّ خوف سيما من القاهر. فلما كان يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر وقع بين الغلمان الحجرية وبين الغلمان الساجية خلاف وذكر الساجية أن القاهر يريد أن يفتك بسيما وهو رئيس الساجية وخرج سيما من دار السلطان مبادراً إلى داره واجتمع إليه الساجية. بأسرهم والقوّاد في السلاح وأقاموا عنده إلى آخر النهار ثم انصرفوا وباكروه فاجتمع قوّاد الساجية مع قوّاد الحجرية

وتحالفوا أن تكون كلمتهم واحدة ثم استحلفوا باقي الحجرية والساجية. واتصل ذلك بالقاهر وبالوزير وبالحاجب فوجهوا من يسألهم عما أوحشهم فقالوا: قد صحَّ عندنا أن القاهر عزم على القبض على سيما وعلى حبسنا في مطامير قد بناها لنا. وكان الفضل بن جعفر يتولى بناء مطامير من ماله ويحتسبها من مال مصادرة عليه فعرّف القاهر ما يقولونه فتقدّم إلى سلامة بالخروج إليهم. وحلف القاهر له على أنه لم يفعل ذلك ولا همّ به وإنما بنى حمامات رومية للحرم وخرج سلامة لذلك.

وخلا الخصيبي وعيسى المتطبب بالقاهر فذكرا له أن الآفة في هذا كله الفضل بن جعفر وأنه هو الّذي قال للساجية والحجرية ذلك لأنه شيء لم يعرفه غيره. وكان سلامة أشار بالفضل حتى أعفي من المصادرة عنايةً منه واقتصر منه على ما ينفقه على المطامير فتقدَّم القاهر بالقبض على الفضل بن جعفر وطالبه الوزير الخصيبي بحضرة عيسى بثلاثمائة ألف دينار فقال الفضل: لو كنتُ ذا مالٍ لكانت لي ضياع ودُور وخدم ومروءة بحسبها. فاغتاظ الخصيبي وظن أنه قد عرض به وخاطبه بمخاطبة فيها جفاء فاستوفى الفضل عليه الجواب. فهمَّ الوزير الخصيبي أن يوقع به فقال سابور الخادم: أمرتُ بصيانته وألا يلحقهُ مكروهٌ. وردَّهُ إلى دار السلطان وحبس في الموضع الذي كان إسحاق ابن إسماعيل محبوساً فيه.

وورد يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأخرى كتاب أبي جعفر الكرخي وكتاب أبي يوسف عبد الرحمن بن محمد الّذي كان يكتب للسيدة بأن أصحاب ابن رائق كبسوا سوق الأهواز وأنهم استولوا على سائر عمل الأهواز وصار كلّ من يتقلد المعاون في أعمال الأهواز من قبله سوى محمد بن ياقوت فإنه كان يتقلد المعاون بالسوس وجنديسابور فلم ينفذ لابن رائق لأنه نظيرُهُ فكتب الخصيبي رُقعة بما ورد عليه من ذلك إلى القاهر. وكان القاهر قد ابتدأ بشرب فدعا بسلامة وأقرأهُ الكتاب وقال له: امضِ إلى الخصيبي واجتمع معه على التدبير في ذلك. وعاود شربَهُ فمضى سلامة وعيسى معه إلى الخصيبي وأطالا عنده إلى نصف الليل ولم يتقرر لهم رأي على شيء فانصرف سلامة إلى منزله لعلمه بأن القاهر قد سكر ولا فضل فيه باقي ليلته. وصدر نهار الغد وبكَّر سلامة إلى الخصيبي فوجد عنده عيسى المتطبب وبلغهم خبر الساجية والحجرية واجتماعهم لِقصد دار السلطان فتقدّم الخصيبي إلى عيسى بأن يبادِر إلى دار السلطان ويعرّف القاهر الخبرَ ليتحرّز وإن وجده نائماً أنبهه فمضى عيسى واجتهد في أنباه القاهر فلم تكن فيه حيلة وقيل له كان يشرب إلى أن طلعت الشمس وأنه لو أنبه لما فهم عنه ما يقوله لشدة سكره.

وكانت الحجرية والساجية قد اجتمعوا عند سيما وتحالفوا على اجتماع الكلمة في

كبس دار الخليفة والقبض على القاهر فقال لهم سيما: إن كان قد صح عزمكم على هذا فقوموا بنا الساعة حتى نمضيه. فقالوا: بل نؤخره إلى غد فهو يوم الموكب ويظهر لنا فقبض عليه. فقال لهم سيما: إن تفرقتم الساعة وأخرتموه إلى ساعة أخرى اتصل الخبر به فتحرز ودبر علينا فأهلكنا كلنا. فقبلوا رأيه وركبوا معه إلى دار السلطان بالسلاح فرتب سيما على كل باب من أبوابها غلاماً من الساجية وغلاماً من الحجرية ومعهما قطعة وافرة منهما فلما أحكم أمر الأبواب كلها وقف على باب العامة وأمر بالهجوم فهجموا كلهم من جميع الأبواب في وقت واحد. وبلغ سلامة والخصيبي الخبر وهما مجتمعان في دار الخصيبي فخرج الخصيبي في زي امرأة واستتر وانحدر سلامة إلى مشرعة الساج واستتر.

ولما دخل الساجية والحجرية الدار لم يدخلها سيما وأقام بمكانه من باب العامة إلى أن قبض على القاهر فلما قبض عليه دخل.

ولما علم القاهر بحصول الغلمان في الدار انتبه من سكره وأفاق وهرب إلى سطح حمام في دُور الحرم فاستتر فيه ولما دخل الغلمان إلى المجلس الذي كان فيه لم يجدوه وأخذوا من كان بالقرب مثل زيرك الخادم وعيسى المتطبب واختيار القهرمانة فوكلوا بهم. ووقع في أيديهم خادم صغير فضربوه بالطبرزينات حتى دلهم على موضعه فدخلوا فوجدوه على سطح الحمام على رأسه منديل دبيقي وفي يده سيف مجرد واجتهدوا به على سبيل الرفق أن ينزل إليهم وقالوا: نحن عبيدك وما نريد بك سوءاً وإنما نتوثق لأنفسنا فأقام على الامتناع من النزول إلى أن فوّق إليه واحد منهم بسهم وقال: إن لم تنزل وضعته في نحرك. فنزل حينئذٍ وقبضوا عليه وكان ذلك ضحوة نهار يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ وصاروا به إلى موضع الحبوس وقصدوا البيت فيه طريف السبكري ففتحوه ووجدوا فيه طريفاً فكسروا قيده وأطلقوه وأدخلوا القاهر إلى موضعه وحبسوه فيه ووكلوا بالباب جماعة من الساجية والحجرية ووقع النهب ببغداد وانقضت خلافة القاهر بالله.

خلافة الراضي بالله أبي العباس محمد بن المقتدر في سنة ٣٢٢

واستدلَّ الغلمان الساجيَّة والحجريَّة حين قبضوا على القاهر على الموضع الذي فيه أبو العباس بن المقتدر فدلهم عليه خليفة لزيرك الخادم ففتحوا عنه الباب ودخلوا عليه وسلَّموا عليه بالخلافة وأخرجوه وأجلسوه على السرير وبايع له قوَّاد الساجيَّة والحجرية وطريف السبكري وبدر الخرشني ولقب الراضي باللّه. وتقدّم بإحضار علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن وأحضرا فوصلا إليه وشاورهُما واعتمد عليهما فيما يعمل. فعرّفهُ علي ابن عيسى أن سبيلهُ أن يعقد لواء لنفسه على الرسم في ذلك فاستحضر اللواء وعقده بيده ثم أمر بالاحتفاظ به. وأشار عليه بتسلُّم خاتم الخلافة فسلمها من كان في يده وهو خاتم فضّة فصُّهُ من حديد صيني وعليه كتابة ثلاثة أسطر: محمد رسول اللّه. وأشار عليه بتسلُّم خاتم الخلافة من القاهر باللّه فوجَّه إليه الراضي ثم فتح عنه الباب وطالبه بخاتمه فسلَّمَهُ وكان فصُّهُ ياقوتاً أحمر وعليه منقوشٌ: باللّه محمد الإمام القاهر باللّه أمير المؤمنين يثقُ. وصار به إلى الراضي فأمر أن يسلَّم إلى حاذق من حُذّاق الخزانة ليمحو ذلك النقش منه ففعل ذلك ونقش له خاتم آخر عليه: الراضي باللّه.

وتقدّم علي بن عيسى بأن يُحضر القاضي أبو الحسين عمر بن محمد والقاضي أبو محمد بن أبي الشوارب والقاضي أبو طالب البهلول وجماعة من الشهود وممن يقرب من دار السلطان فحضروا. فحكى القاضي أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي ابن أمّ شيبان أنه لما استُدعي القاضي أبو الحسين عند القبض على القاهر باللّه وجم وجمع أطرافه وأخذ معه خمسين ديناراً في حجزة سراويله استظهاراً واستخلفه في داره ومضى وانصرف بعد أن مضى أكثر الليل إلى منزله قال: فقال لي: أنا أعرفُ ضيق صدْرِك وتطلُّعك إلى معرفة حديثنا فاسمعه اعلم أني مضيتُ فأدخلتُ إلى حجرةٍ فيها القاهر باللّه ومعي ثلاثة من الشهود وطريف السبكري فقال له طريف: تقول يا سيّدي. وكرّر ذلك دفعات فقال له: اصبر. ثم التفت إليَّ فقال: ألست تعرفني؟ فقلتُ: بلى. فقال: أنا أبو منصور محمد بن المعتضد باللّه رحمة اللّه عليه ثم القاهر باللّه بيعتي في عنقك وأعناق أهلي وسائر الأولياء ولستُ أبرّئكم منها ولا أحلُّكم بوجه ولا سبب فانهضوا: فقُمنا فلما بعدنا عذلتُ طريفاً ولمتُه ملاماً كثيراً وقلتُ: أيّ رأي كان إحضارنا إلى رجل لم يوطّأ ولم يؤخذ خطُّهُ ويشهد عليه الكتّاب والجند؟ كان ينبغي أن تقدّم ذلك ثم تحضرنا له.

وعدل بنا إلى علي بن عيسى فسألنا عما جرى فحدثناه به فقطّب وجهَهُ ثم قال: يخلع ولا يفكّر فيه فإن أفعاله مشهورة وأعماله معروفة. وما يستحقه غير خاف. فقلتُ له: بنا لا تعقد الدوَل وإنما يتمُّ بأصحاب السيوف ونصلح نحن ونراد لشهادة واستيثاق وقد سمعتُ من الرجل ما حدّثتك به ولم يكن الرأي أن يجمع بيننا وبينه إلاَّ بعد إحكام أمره فتغاضب وحضر وقت الصلاة فقمنا. فقال القاضي أبو الحسن محمد بن صالح: فسمعتُ ذلك منه وبكرنا إلى دار السلطان فقيل له إن القاهر سمل البارحة.

فلما حضر أبو علي بن مقلة استُدعينا وكنتُ مع القاضي أبي الحسين وثلاثة من الشهود واجتمعنا بحضرة الراضي بالله فأومأ إلى مفلح الأسود فأحضر ثلاثة من إخوته فأجلسهم عن يمينه وأخرج أبو علي بن مقلة قرطاساً من كُمّه ونشره فاستحلفهم على البيعة. ثم أومأ الراضي إلى مفلح إيماءً ثانياً فأحضر اثنان آخران من إخوتِه فأجلسهُما عن شماله وأخذت البيعة عليهما. ثم أعطى أبو علي القرطاسَ القاضي أبا الحسين فأخذ عليه البيعة وكتبنا خطوطنا في ذلك القرطاس على من بايع وانصرفنا.

وكان سيما أشار بسمل القاهر تلك الليلة فستر الراضي ذلك عن علي بن عيسى واستحضر بختيشوع بن يحيى المتطبب وسأله عمن يحسن أن يسمل فذكر له رجلاً فأحضره وسمل القاهر.

وما زال علي بن عيسى يوم الأربعاء إلى الليل يأخذ البيعة للراضي بالله على القضاة والقُوّاد وكتّاب الدواوين والغلمان وطالبه الراضي أن يتقلّد الوزارة فامتنع وذكر أنه لا يفي بالأمر فأشار سيما بأبي علي بن مقلة قال: هو يضمن أن يقوم بسائر الأمور. فقال علي بن عيسى: قد أشرتُ به على أمير المؤمنين وما يصلح للوقت غيره وكان علي ابن عيسى يسأل في الفضل بن جعفر فأطلق بمسألتِه ووقّع الراضي إلى أبي علي بن مقلة فبكر يوم الخميس لِسبع خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ وحضر علي بن عيسى وأخوه عبد الرحمن ووقفا بين يديه يستحلفان من يحضر ويأخذان البيعة عليه وتأخّر الفضل بن جعفر والحسن بن هارون. وخلع على أبي علي بن مقلة خلع الوزارة وركب معه سيما وطريف السبكري وسائر القوّاد والغلمان والخدم الخاصّة. وظهر الحسن بن هارون وأبو بكر بن قرابة وصاروا إلى أبي علي بن مقلة ثم انصرفوا إلى منازلهم.

واستأنف أبو علي بن مقلة سيرة حسنة وقال: قد عاهدتُ الله في استتاري ألا أسيء إلى أحدٍ ونذرت نذوراً فوفى وأطلق كلّ من كان في حبس القاهر من كاتب وجنديّ وأطلق عيسى المتطبب وإسحاق بن علي القنائي وكان الراضي أنفذهم إليه. ثم تعقب الرأي في عيسى المتطبب فصادَرهُ وكان القاهر قد اعترف بوديعة أودعها إيَّاهُ من العين والورق والطيب فاستخرج كلّه منه. وسأل في أمر أبي العباس الخصيبي فكُتب له

أمانٌ وقَّع الراضي فيه بخطّهِ وتسلّمهُ الوزير أبو علي وأنْفذه في درج رقعة منه بخطِه إلى الخصيبي وخاطبه أجمل مخاطبة وظهر الخصيبي فقلّده دواوين الضياع الخاصّة والمستحدثة والعباسيَّة والفراتيَّة والمقبوضة عن أمّ موسى ونذير وشفيع اللؤلؤي وضياع المخالفين وضياع البرّ وضياع الجدّة والدة المقتدر وديواني زمام المشرق والمغرب وأجرى عليه لنفسه سوى أرزاق كتّابه في هذه الدواوين ألف دينار في كلّ شهر وقلّد الراضي بدراً الخُرشي الشرطة بمدينة السلام.

ولما تقلّد الراضي الخلافة وردت كتب أبي جعفر الكرخي وأبي يوسف كاتب السيّدة بتخلصهما من الأهواز إلى نواحي دور الراسبي هاربين من محمد بن رائق. وكان بنو البريدي يستترون في أنهار الأهواز نهر بعد نهرٍ ووصل الخبر إلى ابن رائق وهو بالباسيان أن القاهر خلع من الخلافة وتقلّدها الراضي باللّه وأنه قد ندب للحجبة فرجع منكفئاً إلى واسط ولم يدخل البصرة ورجع الكرخي إلى البصرة ثم عاد إلى غيلة بالأهواز فنظرَ وعمل إلى أن ضمن ابنُ مقلة بني البريدي أعمال الأهواز.

ذكر ابتداء أمر أبي الحسن علي بن بويه الديلمي

كنا كتبنا فيما تقدَّم أن أبا الحسن علي بن بويه لحق بمرداويج وهو في حدود طبرستان فقوّدهُ وضمّ رجالاً إليه فلمّا أنفذه إلى الري (وكان أخوه وشمكير بها) اتّفق أن عامل الكرج طمع في مالها فأنفذ علي بن بويه ليتلافى أمر الكرج ومعه دون مائة رجل من أصحابه فأقام بها. وتلفق إليه من الأطراف ديلم فصار في نحو ثلاثمائة رجل فأنكر مرداويج أمرَهُ وكاتبهُ بالانصراف فتأخر ورُوسِل فتعالل وكان قد استخرج من مال الكرج نحو خمسمائة ألف وفوقها في مدّة يسيرة واستوحش مرداويج وهدَّدهُ ففزع وأخذ مرداويج ووشمكير في تدبير القبض عليه.

وكان علي بن بويه قد استخلف بحضرة وشمكير وهو بالريّ عند خروجه أحمد حاجبه (وهو والد أبي إسحاق الطبري الشاهد) في هذا الوقت فكتب إليه أحمد بما فيه مرداويج ووشمكير من الخوض في سيئه وكان مرداويج قد صار إلى عند أخيه بالري بهذا السبب ولتسريب الجيوش إليه فخرج من الكرج إلى أصبهان خائفاً ليستأمن إلى المظفر بن ياقوت وكان عند المظفر بن ياقوت في الوقت سبعمائة رجل من الديلم ووجهم فناخسره والد الحسن الديلمي الذي كان ببغداد ونظر في الشرطة بها فلمّا قرُب من أصبهان خرج إليه المظفر ليمنعه ومعه نحو أربعة آلاف رجل فتخاذل أصحابه ووقع بين أصحابه من الديلم خلاف لأن فناخسره كان له عدُوّ من الديلم يضارّهُ فتقاعد المولدون أيضاً وافترقت كلمتهم وانهزم المظفر بن ياقوت إلى فارس وبها أبوه ياقوت. واستأمن إلى علي بن بويه نحو من أربعمائة رجل من الديلم فصارت عدّتهُ سبعمائة رجل

وملك أصبهان وهو في ثلاثمائة رجل. وبلغ الخبر مرداويج فسير أخاه وشمكير لطلبه في الوقت لما قرُب من أصبهان رحل عنها علي بن بويه وصار إلى أرجان وكان قد تهيَّبها لحصوله بين ياقوت وهو بفارس وبين ابنه محمد وهو برامهرمز فصُوّر عنده بالمهانة واضطراب الرأي والرجال فدخل أرجان واستوطنها وكاتب ياقوت واستخرج من مال أرجان خراجاً نحو ألفي ألف درهم ووصل مع ذلك إلى ودائع ونظم أمرُه للمسير إلى كرمان وبها ماكان بن كاكي الديلمي ليستأمن إليه. فلم يجبه ياقوت عن كتابه ولم يقبله فكاتبه علي بن بويه وخاطبَهُ بالإمارة والتعبد وعرّفه أنه يسأله أحد أمرين إما أن يقبله أو يأذن له في المصير إلى باب السلطان فلما لم يقبله ياقوت وسار إليه مع ابنه المظفر ليحاربه سار علي بن بويه إلى النوبندجان وقدّر أن تكون الحرب بها وقدّم كتبه إليه وطلب منه الأمان واستعفاه من الحرب فحذره ياقوت وخشي إن يغتاله وكان قيل له أن علي بن بويه يريد الحيلة عليه ليحصل بفارس ويخدعه عنها. وكان علي بن بويه قد حصل أيام مقامه بكازرون وبلد سابور وذلك عند خروجه من أرجان نحو خمسمائة ألف دينار مع كنوز كثيرة وجدها فقويت شوكته وزاد رجاله فلما صار إلى النوبندجان قام بأمره أبو طالب زيد بن علي ونكفل بنفقاته فلزمه عليه في كل يوم خمسمائة دينار وأقام عنده مدة فلما خرج إليه ياقوت تهيبه هيبة شديدة. وذلك أن جيش ياقوت كانوا سبعة عشر ألف رجل من جميع الأصناف ساجية وحجرية والرجالة المصافية وغيرهم من الديلم وأصناف العسكر وعلي بن بويه في ثمانمائة رجل فسأله أن يفرج له عن الطريق لينصرف عنه ويجتاز إلى حيث يجتاز فمنعه ياقوت وطمع فيه لقلة عدده ولوفور ما وصل إليه من المال. فلم يثبت له علي بن بويه وسار إلى البيضاء فمنعه ياقوت وواقعه على باب اصطخر يومين فكانت لياقوت. فاشتد طمع ياقوت فيه وزاد تهيب علي بن بويه وحنق عليه المسألة في الإفراج له لينصرف عنه فامتنع عليه فلما كان يوم الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ واقعه مستقتلاً.

فحدّثني من شهد الوقعة من الديلم أنه ترجل ستة نفر من الديلم وصفوا تراسهم وتقدموا زحفاً واستأخر من واجههم من أصحاب ياقوت فاشتلموا وتقدموا وحمل أبو الحسين أحمد بن بويه في نحو ثلاثين رجلاً فانهزم ياقوت وجميع من معه وذلك وقت الظهر من ذلك اليوم وانصرف إلى شيراز. فقدر علي بن بويه أن انصرافه مكيدة منه لا هزيمة فتوقف في موضعه ولم يتبعه إلى وقت العصر فلما صح عنده أنها هزيمة سار إلى شيراز فنزل أول منزل قرية يقال لها الزرقان على ستة فراسخ من شيراز وبكر منها يوم السبت فنزل قرية يقال لها الدينكان وعنده أنه سيحارب عن البلد ويدفع عنه لأن الجيش الذي انهزم عنه كانوا قد انصرفوا عنه موفورين لم يحاربوه ولا وقفوا بين يديه. فنزل

على فرسخ من شيراز في مضاربه وبلغه أن ياقوتاً وعلي بن خلف بن طناب قد خرجا عن شيراز والبلد شاغر خال فوجه بجماعة من الديلم وأخلاط من الجند إلى شيراز للمقام بها وضبطها فبادر إليهم العامة بشيراز مع جماعة من الرجالة السودان ومماليك للتُناء. وكان الديلم قد تفرقوا في الأسواق فقتلوا منهم نحو سبعين رجلاً فبلغ علي بن بويه ذلك ووجه بأخيه أبي الحسين أحمد وكان سنه إذ ذاك تسع عشرة سنة وهو أمرد وهو حينئذٍ صحيح اليدين وأنفذ معه ثمانين رجلاً من الديلم فقتل من السودان نحو ألف رجل ونادى في البلد ألا يقيم فيه أحد من أصحاب ياقوت ولا من الجند وأن من وجد بعد النداء فقد أباح دمه وماله فلم يبق في البلد أحد منهم.

ودخل علي بن بويه شيراز واتفقت له بها ضروبٌ من الاتفاقات عجيبة كانت سبباً لثبات ملكه. فمنها أن أصحابه اجتمعوا وطالبوه بالمال ونظر فإذا القدرُ الّذي معه لا يرضيهم وأشرف أمرُهُ على الانحلال فاشتغل قلبه واغتمّ غماً شديداً. فبينما هو مفكرٌ قد استلقى على ظهره في مجلس ياقوت من داره وقد خلا فيه للفكرة والتدبير إذ رأى حيةً قد خرجت من موضع من سقف ذلك المجلس ودخلت موضعاً آخر منه وخاف أن تسقط عليه وهو نائم فدعا بالفرّاشين وأمرهم إحضار سُلم وإخراج تلك الحية ففعلوا. ولما صعدوا وبحثوا عنها وجدوا ذلك السقف يفضي إلى غرفة بين سقفين فعرّفوه ذلك فأمرهم بفتحها ففتحت ووجد فيها عدّة صناديق فيها من المال والصياغات خمسمائة ألف دينار فاستوى جالساً وحمل إلى بين يديه ذلك المال فسرّ به وأنفقهُ في رجاله وثبت أمرُهُ بعد أن أشفي على الانحلال.

وحكى أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي أن علي بن بويه أراد قطع ثياب وسأل عن خياط حاذق فوُصف له خياط لياقوت فأمر بإحضاره وكان أطروشياً ووقع له أنه قد سعى به إليه في وديعة كانت لياقوت وأنه طلبه بهذا السبب فلما خاطبَهُ حلف أنه ليس عنده إلاّ اثنا عشر صندوقاً لا يدري ما فيها. فعجب علي بن بويه من جوابه ووجّه معه بمن حملها فوجد فيها أمراً عظيماً من المال والثياب.

والّذي كان يكتب لعلي بن بويه في ذلك الوقت رجلٌ نصراني من أهل الري يعرف بأبي سعد إسرائيل بن موسى ثم قتله بعد مدّة بسبب سنفرد له خبراً واستكتب مكانه أبا العباس أحمد بن محمد القُمّي المعروف بالحنّاط. وسفر الأمير أبو الحسن علي بن بويه بعد تمكُّنه من البلد في أن يقاطع السلطان عنه ويتقلّدهُ من قبل الراضي فأجيب إلى ذلك وقُنع منه بما بذل وهو في كل سنة بعد جميع المؤن والنفقات الراتبة والحادِثة ثمانية آلاف ألف درهم خالصة للحمل. وكتب إلى الوزير أبي علي بن مقلة يحلف له بأغلظ الأيمان على موالاة الوزير أبي علي بن مقلة وابنه أبي الحسين

ومعاضدتهما وما يقال في هذا المعنى وأكّدهُ. فأنفذ إليه الوزير أبو علي بالخلع واللواء في شوّال سنة ٣٢٢ ورسم للرسول وهو أبو عيسى يحيى بن إبراهيم المالكي الكاتب ألاّ يسلّم اللواء والخلع إلاّ بعد أن يتسلّم المال ووقف عليه. فلما قرب المالكي من البلد تلقّاهُ علي بن بويه على بعد وسار معه إلى ظاهر شيراز وطالبه بأن يسلم إليه اللواء والخلع فعرّفه ما رُسم له وأنه لا يمكنه من ذلك إلاّ بعد تسلُّم المال الّذي ووقف عليه فخاشنهُ علي بن بويه وأزهمَهُ حتى سلَّم إليه الخلع ولبسها ودخل بها إلى شيراز وبين يديه اللواء وأقام المالكي مدّة يطالب بالمال فلم يدفع إليه شيئاً بتة وحصل على المواعيد والمطل والتوقُّف ثم اعتلَّ المالكي ومات بشيراز وحمل تابوته إلى بغداد في سنة ٢٣.

وانفتح لعلي بن بويه وجوه الذخائر والودائع ووزيره أبو سعد النصراني فضمن له بقايا مال السنة أبو الفضل العباس بن فسانجس وابن مرداس وأبو طالب زيد بن علي وغيرهم من وجوه البلد بأربعة آلاف ألف درهم واستخرجت له الذخائر وانفتحت له كنوز وودائع عمرو بن الليث ويعقوب بن الليث وياقوت وابنه وعلي بن خلف ورجال السلطان وكثرت أموال علي بن بويه وعمرت خزائنهُ واستأمن إليه رجال ماكان بن كاكي من كرمان وكثر جمعهُ واستفحل أمرهُ. وانتهى خبره إلى مرداويج فقامت قيامته ووافى أصبهان وبها وشمكير أخوهُ لأنه لما خلع القاهر من الخلافة وتأخَّر محمد بن ياقوت عنها وبقيت سبعة عشر يوماً خالية أعاد مرداويج أخاهُ إليها فلما استقرَّ بها وورد مرداويج لتدبير علي بن بويه عند استعصائه عليه ردّ أخاهُ وشمكير إلى الريّ لخلافته عليها. وأنفذ شيرج ابن ليلى اسفسهلاّره مع حاجبه الشابشتي ومعهما ألفان وأربعمائة رجل من الجيل والديلم ووجوه القوّاد مثل بكران وإسماعيل الجيلي إلى الأهواز وكان غرضه أن يملكها فيأخذ الطريق على عليّ بن بويه ويحجز بينه وبين السلطان حتى إذا قصده بعد ملكه الأهواز لم يكن له منفذ إلا إلى تخوم كرمان والتيز ومكران وأرض خراسان.

ولما نزلت عساكر الجيل ايذج خاف ياقوت أن يحصل بينهم وبين علي بن بويه فوافى الأهواز ومعه ابنهُ وقلّده السلطان أعمال الحرب والمعاون بها. وارتسم أبو عبد اللّه أحمد بن محمد البريدي بكتابة ياقوت مصافة إلى ما إليه من أعمال الخراج والضياع بالأهواز وصار أخوه أبو الحسين يخلف أخاه وياقوتاً بالحضرة. وحصل رجال مرداويج برامهرمز في غرّة شوال من سنة ٣٢٢ وصلّوا العيد بها وخطبوا لمرداويج وساروا إلى الأهواز فعسكر ياقوت بقنطرة أربق وقطعها والماء الّذي تحت هذه القنطرة حاد الجرية. فأقام رجال مرداويج بإزاء ياقوت أربعين يوماً لا يمكنهم العبور إليه وسار ياقوت إلى بغداد على طريق دُور الراسبي وسار علي بن خلف بن طناب في البحر من ساحل مهروبان إلى البصرة. ورحل جيش مرداويج عن قنطرة أربق وضمن لهم طائفة من

العيَّارين أن يعبروا بهم نحو المسرُقان بعسكر مكرم حتى يصير الطريق بينهم وبين الأهواز جداً فعدلوا إليها. واجتمع البريدي وياقوت فتشاوروا وقرّر الرأي على إنفاذ مونس غلام ياقوت في أربعة آلاف رجل إلى عسكر مكرم لدفعهم عن عبور المسرقان وكانا حسبا أن القوم بعد منزلة أربعين يوماً قد ضجروا وانصرفوا وأنهم لا يلبثون بعسكر مكرم إلاّ يومين أو ثلاثة فلمّا حصلوا بها عملوا أطوافاً من خشب وشاشاً من قصب وعبر منهم خمسون رجلاً عليها فانهزم مونس لوجهه وعاد إلى مولاه فأخبره الخبر. وكان قد ورد إليه مددٌ من بغداد وخيلٌ عظيمة فرحل لوقته من قنطرة أربق بعد اجتماع الجيل إليه بيومين وصاروا بأجمعهم إلى قرية الريح وهم بالحقيقة قد حصلوا من أمرهم على الريح. وصار ياقوت ومن تبعه وهم عدة وافرة كثيرة إلى باذاورد ومنها إلى واسط فأفرج له محمد بن رائق عن غربيها فنزله بعسكره. وعرف علي بن بويه حصول عسكر مرداويج بالأهواز وشرح ما جرى وتملق لكاتب مرداويج واستصلحه وأقام الخطبة وواقفه على مال وأنفذ إليه رهينة فسكن مرداويج وقلّد عليّ بن بويه أرجان بعد انصراف ياقوت وعلي بن خلف عنها إبراهيم بن كاسك.

واستقرت كتابة ياقوت لأبي عبد اللّه البريدي فورد عليه الخبر وهو بالبصرة في بستان المؤمَّا يريد المسير في طياره إلى واسط بقتل مرداويج في الحمام بأصبهان فأنفذ للوقت أبا عبد اللّه بن جني الجرجرائي إلى الأهواز بخلافته عليها وقال له: اقصد ظاهر البلد بل أقم على فرسخ منه فإذا صح عندك خروج الجيل والديلم فأدخله واثبت عند دخولك الفرسان والرجالة فإني أنفذ من واسط أبا الفتح بن أبي طاهر وأبا أحمد الجستاني في ألف رجل لضبط البلد وكور الأهواز. ثم وافى أبو علي غلام جوذاب كاتب البريدي في طريق الماء وترتب ابن أبي طاهر بالأهواز وأبو أحمد الجستاني بعسكر مكرم. ووافى إبراهيم بن كاسك من أرجان إلى رامهرمز طمعاً في الأهواز لما خلت فكاتبه علي بن بويه بالتوقف وألا يبرحها حتى يمده بالجيش فمن قبل ورود الجيش عليه من فارس ما وافى ياقوت إلى عسكر مكرم على طريق السوس فلما بلغ إبراهيم بن كاسك خبره رحل من رامهرمز إلى أرجان. وكانت مع ياقوت قطعة من الديلم والأتراك والخراسانية فظن أنهم يثبتون وأنه مستظهر بهم ووافاه أبو عبد اللّه البريدي والتقيا بعسكر مكرم وأنفق فيه وفي رجاله ثلاثمائة ألف دينار على يد ابن بلوى وابن سريج المنفقين وسيرهم إلى أرجان ووافاهُ علي بن بويه وحاربه بها فانهزم ياقوت هزيمة ثانية لم يفلح بعدها ولا شد منها حزاماً ولم ينفعه عدد العجم والديلم ولا عجب من أمر اللّه. وتبعه علي بن بويه إلى رامهرمز وخيف على الأهواز منه فراسله أبو عبد اللّه البريدي في الصلح فاستجاب وكاتب الوزير أبا علي ابن مقلة فيما قرره من الصلح فعرضه على الراضي باللّه فأمضاه. فانصرف علي بن بويه

إلى شيراز وعقدت فارس على عليّ بن بويه بما ذكرناه ونفذ إليه أبو عيسى المالكي باللواء والعهد وكان من أمره ما قدّمتُ ذكره.

وقتل أبو الحسن علي بن بويه أبا سعد إسرائيل كاتبه

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن أبا سعد كان مكيناً عند علي بن بويه يتبرك به ويكرمه جداً وكان يقود الجيش وله غلمان أتراك ولبس القباء والسيف والمنطقة وكان قد حارب في وقت ياقوتاً فهزمه. فكان أبو العبّاس الحنّاط القمي يضرّب عليه دائماً ويجتهد في إفساد رأي صاحبه فيه فلا يقبل منه وينهاه عن ذكره فلا ينتهي إلى أن قال يوماً وقد أكثر عليه في الإغراء به: يا هذا إن هذا الرجل صحبني وحالي صغيرة وقد بلغتُ ما ترى ولستُ أدري هل ما وصلت إليه بدولته أم بدولتي وليس إلى تغيير أمره طريق فإياك أن تعاودني فيه. فما أغنى ذلك منه ولا أنتهي عن الوقيعة فيه وثلبه.

وكان بين أبي سعد هذا وبين حاجب لعلي بن بويه يقال له خطلخ (وإليه مع الحجبة رياسة الجيش) عداوة فاتفق إن دعى أبو سعد دعوة عظيمة دعا فيها علي بن بويه والقواد وأنفق فيها في الخلع والحملان ما له قدر كثير ودعا خطلخ فلم يستجب إلى المصير إليه واجتهد به فلم يكن له فيه حيلة وأصبح أبو سعد من غد يوم الدعوة فأقام على أمره ودعا من يأنس به. وانتبه خطلخ من نومه وهو مغتاظ يزعم أنه لا بد له من أن يركب إلى أبي سعد فيقتله لأنه رأى في نومه أبا سعد يريد قتله فاجتهد به خواصُّهُ في أن يؤخِّر ذلك فامتنع وحمل في خفه دشنيا وركب. وقيل لأبي سعد إن خطلخ قد ركب على أن يجيئه فأنكر ذلك لأنه كان دعاه فامتنع فلم يعرف لمجيئه إليه بغير استدعاء وجهاً فاستعد ليستظهر وقال لغلمانه: تأهبوا بالطبرزينات وكونوا مستترين في المجالس حوله فإن أنكر من خطلخ أمراً صاح بهم فخرجوا ووضعوا عليه. وحضر خطلخ فتلقّاه أبو سعد وجاء حتى جلس وأخذ يتجنّى ويُعربد إلى أن ضرب يده إلى خفهِ وأخرج الدشنيّ فصاح أبو سعد بالغلمان فخرجوا بالدبابيس والطبرزينات ووضعوا على خطلخ ووقع في رأسه دبوس فدوَّخه وسقط وقدّر أنه مات وحمل إلى منزله فعاش يومين ومات. فبادر أبو العباس الحنّاط إلى الأمير في الوقت فوجده نائماً فقال للغلمان: انبهوه. فلم يجسروا فصاح وجلب إلى أن أنبههُ ودخل إليه وقال له: إن أبا سعد قتل حاجبك خطلخ. فلم يصدّقه وانتهرَه فقال: وجه وانظر. فورد عليه الخبر بصدقهِ فاستعظم ذلك ووجم ساعة. ودخل أبو سعد فلم يظهر له أنه أنكر شيئاً ولا أنه استوحش وسأله عن السبب فيما فعله فعرّفه الصورة واستشهد من حضر فاستصوب ما فعله. وخاف أبو سعد ووجد أبو العباس الحناط فرصته وأقبل يقول: هو ذا يأخذ البيعة على القواد وهو خارج

عليك لا محالة. فوجه الأمير إلى أبي سعد فأنسهُ غاية التأنيس وحلف له إيماناً مؤكّدة على ثقته به وأنه لا يلحقه سوء من جهته. واتفق إن أخرج أبو سعد صناديقه من البيوت إلى صحن داره ليسترها استظهاراً وخلا بموسى فياذة يشاوره فمضى الحناط إلى الأمير علي بن بويه فقال له: قد استحلف أبو سعد قوادك وآخر من استخلفهُ موسى فياذة وها هو قد أخرج صناديقه وهو خارج الساعة. فوجه الأمير بمن عرف خبرَهُ فرأى الرسولُ الصناديق وموسى فياذة خارجاً من عنده فعاد إليه بالخبر فلم يشكّ الأمير حينئذٍ في صحة قول الحنَّاط. فقبض عليه وعلى جميع ماله من سائر الأصناف واعتقله. وكان في الاعتقال إلى أن ورد بعض قُوّاد الأتراك من بعض أعمال فارس فواطأهُ الحناط على الدخول مع أصحابه وهم خمسون رجلاً مخرقي الثياب مسودّي الوجوه يضجّون بما جرى على خطلخ من أبي سعد ويتهددون إن لم يقتل أبو سعد ففعل القائد ذلك ودخل والأمير على شرب فأمر بقتل أبي سعد ثم وقعت الندامة عند الصحو وبعد فوت الأمر واستكتب الأمير بعده أبا العباس الحناط وبقي معه إلى أن مات الأمير علي بن بويه.

ونعود إلى ذكر الأحوال الجارية بمدينة السلام. لما حصل محمد بن ياقوت بالحضرة وحصلت له الحجبة ورياسة الجيش أدخل يده في تدبير أعمال الخراج والضياع ونظر فيما ينظر فيه الوزراء وطالب أصحاب الدواوين بحضور مجلسه وألاّ يقبلوا توقيعاً بولاية ولا صرفٍ ولا غير ذلك من سائر الأحوال إلا بعد أن يوقّع فيه بخطِه. وتجلّد أبو علي واحتمل ذلك والزم نفسه المصير إليه فإذا صار إليه دفعتين صار هو إليه دفعةً واحدة. فكان أبو علي كالمتعطّل لا يعمل شيئاً ملازماً لمنزله ويجيئه أبو إسحاق القراريطي كاتب محمد بن ياقوت فيطالعه بما يجري وما يعمل.

وفي هذه السنة قتل هارون بن غريب الخال

ذكر السبب في قتله

كان سبب ذلك أنه لما بلغ هارون بن غريب تقليد الراضي الخلافة وكان مقيماً بالدينور وهي قصبة أعمال ماه الكوفة وهو متقلّد أعمال المعاون بها وبماسَبَذان ومِهرجانَقذق وحلوان وتدبُّر أعمال الخراج والضياع بها وهي النواحي التي كانت بقيت في يد السلطان من نواحي المشرق بعد الذي غلب عليه مرداويج رأى أنه أحقُّ بالدولة من كل أحد فكاتب جميع القوّاد بالحضرة وأنه إن صار إلى الحضرة وتقلد رياسة الجيش وتدبير الأمور أطلق لهم أرزاقهم على التمام ولم يؤخر عنهم شيئاً منها. وسار إلى بغداد حتى وافى خانقين فغلظ ذلك على الوزير أبي علي بن مقلة وعلى محمد بن ياقوت وعلى الحجريَّة والساجيَّة والمونسية وخاطبوا بأجمعهم فقال الراضي: أنا كارهٌ له فامنعوه من دخول الحضرة وحاربوه إن أحوج إلى ذلك.

فلما كان يوم السبت لسبع خلون من جمادى الآخرة استحضر أبو بكر بن ياقوت أبا جعفر بن شيرزاد وأوصله إلى الراضي بالله حتّى حمّلهُ رسالة إلى هارون بن غريب بأن يرجع إلى الدينور وكتب معه كتاباً فنفذ من وقته ووجد هارون قد صار إلى جسر النهروان وأدّى الرسالة وأوصل الكتاب فأجاب هارون بأنه قد انضم إليه من الرجال من لا يكفيهم مالُ عمله وعاد أبو جعفر بالجواب وأدّاه إلى الراضي بالله بحضرة الوزير أبي علي والحاجب أبي بكر محمد بن ياقوت. فبذلوا له أن يقلدوه أعمال طريق خراسان كلها ويكون مالُها مصروفاً إليه زائداً على ما يأخذه وقال الراضي بالله: سبيلُه أن يقتصر على بعض من معه من الرجال. فنفذ أبو جعفر ومعه أبو إسحاق القراريطي بهذا الجواب فلما أدّيا إليه الرسالة امتنع وقال: إن الرجال لا يقنعون بهذه الزيادة. ثم قال: ومن جعل ابن ياقوت أحق بالحجبة والرياسة مني؟ الناس يعلمون أنه كان في آخر أيام المقتدر يجلس بين يديّ ويمتثل أمري ومن جعلهُ أخصّ بالخليفة مني وأنا نسيب أمير المؤمنين وقريبه وابن ياقوت ابن غلام من غلمانه؟ فقال القراريطي: لو كنت تُراعي ما بينك وبينه من القرابة لما عصيته. فقال: لولا أنك رسول لأوقعت بك قم فانصرف. ووضع هارون يده في الاستخراج فاستخرج أموال طريق خراسان وقبض على عمال السلطان وجبى المال بعسفٍ وخبطٍ وظلم وتهور وكان الوقت قريباً من الافتتاح. فلما اشتدت شوكتُهُ شخص محمد بن ياقوت من بغداد في سائر الجيوش بالحضرة ونزل في المضارب بنهربين واستظهر بإنفاذ أبي جعفر محمد بن شيرزاد دفعةً ثانية برسالة جميلة ووعدهُ أن يوافقه على عدّة الرجال الذين يتقرر الأمر معه على كونهم في جملته وينظر في جرائدهم وأرزاقهم لسنة خراجية فإن وفى مالُ أعماله بماله ومالهم رجع إلى الدينور وإلاّ سبَّب له بالباقي على أعمال طساسيج النهروانات ونفذ إليه بهذه الرسالة يوم الاثنين. وقد وقعت طلائع عسكر هارون على طلائع عسكر محمد بن ياقوت وأصحاب هارون هم المستظهرون وكثر مضيُّ الجند من عسكر محمد بن ياقوت إلى هارون بن غريب مستأمنة إليه فتبين أبو جعفر من هارون أنه اتَّهمهُ بالمَيل إلى محمد بن ياقوت وابن مقلة فلما رأى منه ذلك استأذنه في الانصراف بالجواب فقال: إني أخاف عليك منه أن يعتقلك وإنما بيننا وبين الوقعة وانكشاف الأمر بيننا ليلةٌ واحدةٌ.

فلما كان في يوم الثلاثاء لستّ بقين من جمادى الآخرة تزاحف العسكران وكان المبدأ من أصحاب هارون واشتدّ القتال واستظهر أصحاب هارون لأن عددهم أضعاف عدد ابن ياقوت وانهزم أكثر أصحاب ابن ياقوت وقطعة من الغلمان الحجرية ونهب أصحاب هارون أكثر سواد ابن ياقوت ونكسوهم عن دوابهم وأثخنوا فيهم الجراحات وقتلوا منهم عدّةً فركب حينئذٍ محمد بن ياقوت وسار حتى عبر قنطرة نهربين. ولم تزل

الحرب غليظة إلى أن قارب انتصاف النهار وركب هارون بن غريب مبادراً وسار منفرداً عن أصحابه على شاطئ نهربين يُريد قنطرتُه لما بلغه أن ابن ياقوت قد عبر القنطرة وقدّر أنه يقتله أو يأسرهُ فتقطر به فرسهُ فسقط منه في ساقيه فلحقهُ يمن غلامهُ فضربه حتى أثخنه بالطبرزينات ثم سلّ سيفهُ ليذبحهُ فقال له هارون: يا عبد السوء أنت تفعل هذا وتتولى بيدك قتلي! أي شيء أذنبتُ به إليك؟ فقال له: نعم أنا أفعلُ بك هذا. وحزّ رأسه ورفعه وكبر فتبدّد رجال هارون ودخل بعضهم من طُرق أُخَر إلى بغداد ونُهب سواد هارون وأصحابه وأسر قوم وسار محمد بن ياقوت إلى موضع جثة هارون فأمر بحملها إلى مضربه فحملت وأمر بتكفينه ودفنه وأنفذ بمن يحفظ دار هارون من النهب ودخل بغداد وبين يديه رأس هارون وعدّة من قوّاده فأمر الراضي بنصب الرؤوس على باب العامة وخلع على ابن ياقوت وطوّق وسوّر.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

وفيها قلد الراضي ابنيه الأمير أبا جعفر وأبا الفضل المشرق والمغرب واستكتب لهما أبا الحسين علي بن أبي علي بن مقلة وخلع على أبي الحسين لذلك يوم الاثنين لخمس خلون من المحرّم واستخلف أبو الحسين على كتابتهما أبا الحسن سعيد بن عمرو بن سنجلا وكتبت به الكتب.

وفيها ورد الخبرُ بغداد بأن غلمان مرداويج بن زيار الجيلي قتلوه في الحمام بأصبهان. فتبجح محمد بن ياقوت وزعم أن التدبير في ذلك كان له وأنه كاتب غلاماً كان له واستأمن إلى مرداويج بضعة عشر كتاباً مع فيوج ذكرهم وسماهم من حيث لا يعلمُ أحد وأظهر كتباً من الغلام إليه في هذا المعنى وأنشأ كتباً قرئ بعضها في المسجد الجامع بهذا الخبر والشرح وكتب إلى أصحاب الأطراف وأعلمهم. أن التدبير كان له وكل ذلك كذبٌ فإنا سمعنا من شرح الصورة ما اقتضاه الأمر من أوّله إلى آخره ما نعلم أنه لم يكن من تدبير بشريّ.

ذكر السبب في قتل مرداويج

قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه أدام اللّه نعمته:

حدّثني الأستاذ الرئيس حقاً أبو الفضل ابن العميد رحمه اللّه أنه لما حضرت ليلة الوقود التي تعرف بالسذق كان يقدم مرداويج قبل ذلك بمدة طويلة أن تجمع له الأحطاب من الجبال والنواحي البعيدة وأن ينقل له في الوادي المعروف بزر بن رُوذ وما قرب من الغياض والمحتطب فكان يجمع ذلك من كل وجهٍ. وأمر بجمع النفط والنفاطين والزرّاقات ومن يحسن معالجتها واللعب بها وتقدم بإعداد الشموع العظام المجلّسة ولم

يبق جبل مشرف على جرّين أصبهان ولا تلّ ظاهر إلا عبّيت عليه الأحطاب والشوك وعمل على مسافة بعيدةٍ من مجلسه بحيث لا يمكن أن يتأذى بالوقود كهيئة قصور عظيمة من الأجذاع وضُبّت بالحديد الكثير حتى تماسكت. وحشيت بالشوك والقصب وصيدت له الغربان والجدأ وعلق بمناقيرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقةً ونفطاً. وعمل بمجلسه الخاصّ تماثيل من الشمع وأساطين عظام منه لم ير مثلها ليكون الوقود في ساعة واحدةٍ على الجبال ورؤوس اليفاعات وفي الصحراء وفي المجلس على الطيور التي تطلق. ثم عمل له سماطٌ عظيم في الصحراء التي تبرز إليها من داره وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم ألوف كثيرة وزيّن واحتُشد له بما لم تجر العادة بمثله. فلما فرغ من جميع ذلك وضربت مضاربهُ قريباً من السماط وحضر الوقت الذي ينبغي أن يجلس فيه مع القوم للطعام ثم للشرب خرج من منزله وطاف على سماطه وعلى الآلات التي ذكرتها للوقود فاستحقرها كلها واستصغر شأنها قال: وذلك لأجل سعة الصحراء ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحقرها وإن كانت عظيمة فاغتاظ وتداخله من النخوة والجبرية ما سكت معه ولم يتكلم بحرف ودخل إلى خركاه في خيمةٍ عظيمة واضطجع ثم حوّل وجهه إلى خلاف الباب والتفَّ بكسائه لئلا يكلمه أحد. واجتمع الأمراء والكبار والقوّاد وسائر الجند والنظّارة ولم يجسر على خطابه أحد ولا على تحريكه وأبطأ على الناس خروجه حتى فات الوقت. وأخذ الناس في الإرجاف به فتحدثوا سراً وهمساً وخيفت الفتنة فحينئذٍ مشى العميد حول الخركاه ودمدم بكلامه المقتضي للجواب فلم يتكلم بحرف ولم يزل يداري في الكلام ويدعوا له إلى أن اضطره إلى الجلوس ثم دخل إليه فقال: أيها الأمير ما هذا الكسل في وقت النشاط وحضور الأولياء وفرح الصديق وانخزال العدوّ؟ فقال: يا أبا عبد اللّه وأي نشاطٍ يحضرني مع الاستخفاف والاستهانة وقصور الأمر! واللّه لقد افتضحتُ فضيحة لا يغسلها عني شيء أبداً. قال العميد: ودهشت ساعةً ثم قلت: أيها الأمير وما ذلك؟ فقال: أما ترى نزارة ما أمرت به من الاستكثار منه وقلَّتهُ ووتَاحتَهُ من الطعام والسماط ثم من جميع آلات الوقود والأشياء المتصلة بها. فقلت: واللّه أيها الأمير لقد عمل من هذه الأشياء ما لم يسمع بمثله فضلاً عن أن يُرى فقم إلى مجلس أنسك وعاوِد النظر. فأبى ولجَّ إلى أن قلتُ: فإن الأعداء يرجفون بكيت وكيت فاتق اللّه اركب وطف طوفةً لتزول الأراجيف ثم اعمل ما بدا لك فإنَّا سنعتذر عنك. فزَادَه ما حكيتُه له من أراجيف الناس به غيظاً وحَنقاً ثم قام فركب كارهاً متحاملاً وطاف مغضباً مغتاظاً بقدر ما رآه الناس وانصرف إلى موضعِه ولزم حالته الأولى. وجمع الناس الذين دُعوا على خبطٍ فأبى أكثرهم وانصرف من كان حاضراً وقالوا: لا نأمن إلا يأنس الأمير.

وبقي في معسكره ثلاثاً لا يظهر ولا يرى إلا أنه يعلمُ أنه حاصلٌ في قصر أبي علي بن رستم فلما كان اليوم الثالث تقدّم بإسراج الدواب ليعود من جرين إلى داره وهي التي كانت لأبي علي بن رستم بالمدينة ولها باب إلى الصحراء وباب إلى المدينة فأسرج الغلمان واجتمعوا بالباب وذلك بعد الظهر فنعس نعسة ونام فأبطأ ودخل وقت العصر واتفق أن شغبت دَواب الغلمان وارتفعت أصواتها وأصوات من يزجرها ولم يمكن أن يفرق بينها لازدحامها بالباب ولأن أكثرها بأيدي غلمان الغلمان ينتظرون ركوب الأمير فركب الغلمان بركوبه. فانتبه مرداويج مذعوراً لما كان في نفسه من إقدام الناس عليه بالأراجيف وسأل من يليه عن السبب فلم يعرفوا صورة الأمر فقام بنفسه واطلع على الدواب والشاكرية وإذا هم بأسرهم يصيحون لزجر الدوابّ والدواب قد سقط بعضها على بعض ولها أصوات هائلة منكرة فارتاع ساعة حتى عرف حقيقة الأمر ثم سكن فسأل عن أصحاب الدواب فقيل: «هم الغلمان الأتراك» فأمر أن تحط السروج عن ظهور الدواب وتُجعل على ظهور الغلمان مع جميع آلتها ويدفع الدواب بأرسانها إليهم ليقودوها بأنفسهم إلى الاصطبلات ففعلوا ذلك وكانت صورة قبيحة يتطيّر من مثلها ويتشاءم بها. ثم ركب هو بنفسه مع خاصته وهو يتوعد الغلمان حتى صار إلى منزله قرب العشاء وكانت طشة من مطرة بلته فلما دخل دارهُ كانت كالخالية ليس فيها إلا صبيان الأصاغر وخادم أسود كان أستاذ أولئك الغلمان فدخل الحمام يغير ثيابه. وقد كان قبل ذلك بطش بغلمان أتراك كبار فحقدوه ولكن لم يكونوا يجدون أعواناً فلما فعل بالجماعة ما فعل اغتنموا الصورة وانتهزوا الفرصة وقال بعضهم لبعض: ما وجهُ صبرنا على هذا الشيطان. فاتفقوا على الفتك به ولما دخل الحمام سألوا الغلام الذي يلي خدمته في الحمام ألا يحمل معه سلاحه (وكان رسمه أن يدخل معه إلى الحمام دشنيا ملفوفاً في منديل) فقال الغلام: لا أجسر أن أتقدم بين يديه وليس معي الدشنيّ. فاتفقوا على أن يكسروا حديدته ويتركوا النصاب في الجفن ثم يلف في المنديل حتى لا ينكر الصورة ويتركه في زاوية الحمام على الرسم ثم هجم عليه جماعة والخادم الأسود جالس على كرسيّ بباب الحمام فلما رآهم ثار في وجوههم وصاح بهم فضربه بعضهم بسيفه فاتقاهُ بيده فطاحت من الذراع وسقط وهجم القوم وارتفعت الضجة. فأحس مرداويج بالشر فبادر فسند الباب من داخل بسرير وكان يجلس عليه بعد أن طلب الدشنيّ فلم يجده ودفع الغلمان الباب فتعذر عليهم فصعد نفر منهم إلى قبة الحمام فكسر الجامات ورموه بالنشاب فدخل البيت الحارّ وأخذ في مداراتهم وضمن لهم كل جميل فكأنهم تهيبوه ساعة ثم علموا أن الغاية التي بلغوها منه ليس يجوز أن يكون بعدها صلح فحمل بعضهم على ناحية الباب الذي وراءه السرير حتى كسروه ودخلوا عليه فشق بعضهم جوفه بسكين معه وضرب هو وجه بعضهم بكرنيب فضة في يده فأثر فيه أثراً

قبيحاً وخرجوا من عنده وعندهم أنه قد فرغوا منه فقال لهم رُفقاؤهم الذين كانوا خارج الحمام: ما صنعتم؟ قالوا: شققنا جوفهُ. فقال أحدهم: عودوا إليه فحزوا رأسهُ. وإنما فعلوا ذلك لأنه كان اتفق في تلك الأيام أن بعض الفرَّاشين في الدار شق بطنه بجراحة فخيط الجرح وعولج فسلم فخافوا أن يجري ذلك المجرى فحزوا رأسهُ.

وقيل إنه لما عاودوه قد جمع حشوة بطنه وردها وقبض عليها بشماله وقاتل بكرنيبه ساعة حتى فُرغ منه. فلما طرحوا رأسه في الدار بادروا إلى الاصطبلات فأسرجوا الدواب وأوكفوا البغال واحتملوا من الخزائن ما أمكنهم من المال والسلاح ورحلوا.

وفي خلال ذلك تهيأ لبعض من في الدار تسوُّر الحيطان فدخلوا المدينة وقد (جهنّم) الليل فخبّروا الجند والقوّاد بما جرى وهم سكارى متفرقون واجتمع بعضهم وأوقدوا النيران وضربوا بالبوقات وأسرجوا الدواب وأخذوا السلاح وساروا إلى الصحراء لينقلبوا إلى الباب الذي منه المدخل فإلى أن يفعلوا ذلك فاتهم الغلمان ولم يجدوا غير غليمة أصاغر لا ذنب لهم فقتلوا منهم عدة ثم كفّوا عنهم. وخشي أهل الرأي من حشمه أن تنتهب الخزائن فأشار العميد بإحراقها وهدم البنيان عليها فسلم المال وأكثر الذخائر لأن المتّهمين حضروا والنار والدخان ثائرة في الموضع فلم يصلوا إلى شيء.

وكان ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه رهينة عند مرداويج من جهة أخيه علي ابن بويه عماد الدولة فلما أحسّ بالصورة دارى الموكلين به وضمن لهم ضمانات كثيرة فساعدوه حتى هرب بعد ليلة من قتل مرداويج.

اتفاق عجيب اتفق له في هربه

لما خرج بقيوده إلى الصحراء وجلس ليكسرها أقبلت بغال عليها (تبن) وعليها أصحابُه فنكسهم وركب هو ومن معهُ البغال وحثها حتى سلم وفات الطلب.

فأما الأتراك فافترقوا فرقتين أما فرقة فسلكوا نحو فارس مستأمنين إلى علي بن بويه (وفيهم خجخج الذي سمله توزون لما ملك العراق) وأما فرقة فسلكت الجبل وهي الأكثر عدداً وفيهم بجكم الذي ملك الأمر بالعراق وتقلد أمارة الأمراء بها في أيام الراضي وسنذكر من أخباره ما يليق بهذا الكتاب فأما ما جرى عليه أمر أصحاب مرداويج فإن أبا مخلد كان يتحدث وكان من خدم مرداويج وصاحب دولته أن تابوت مرداويج حمل إلى الري قال: فما رأيت يوماً أعظم من اليوم الذي دخل فيه تابوته الريَّ وذاك أن الجيل والديلم بأجمعهم ساروا مشاةً حفاةً معه أربعة فراسخ. وذكر أنه كان أخوه وشمكير ماشياً معهم ثم مضوا من أصبهان على مكبرة أبيهم معه إلى الريّ وكان الناس لا يشكون أنهم يستأمنون إلى علي بن بويه. فبطل هذا الظن وقال: لم أر قط عسكراً

هلك صاحبهُ فوفى له رجالهُ وجندهُ بغير درهم ولا دينارٍ ذلك الوفاء فإنهم صاروا إلى أخيه وشمكير على هذه الحال. وعرف شيرج أن أصبهان خالية وكان بالأهواز من قبله فسار للوقت إلى عسكر مكرم وستر الخبر وكان بها هرجام الجيلي فأسر إليه بالخبر وأخذه معه ثم سار إلى تستر وبها جيليّ وكان وجهاً كبيراً فحدثهُ وأخذهُ معه وقصد جنديسابور وبها إسماعيل الجيلي وكل واحد من هؤلاء نظير لشيرج فاطلعه على الأمر وسار بمسيره فصارت الجماعة إلى السوس وبها عبد اللّه بن وهبان القصباني البصري عامل كور الأهواز من قبل مرداويج والشابشتي الحاجب وكان ثقة مرداويج وكان رتبهم مرداويج على ما ذكر أبو مخلد على أن يتوجه شيرج إلى واسط ثم إلى بغداد وكان مرداويج ينتظر خروج الشتاء في سنة ٢٣ فيقصد أرجان أولاً ثم يناجز علي بن بويه فإذا فرغ منه عدل إلى الأهواز ثم منها إلى السوس وينفذ معظم خيله إلى شيرج ليتقدمه إلى واسط وكان في نفسه أن يملك بغداد ويعقد التاج على رأسه ويعيد ملك الفرس فعوجل بالقتل. فسار عسكره كله كما ذكرنا مع شيرج والشابشتي وابن وهبان من السوس إلى الري على طريق شابرخواست والكرج يريدون وشمكير أخاهُ ما عارضهم معارض ولا أقدم أحد على منابذتهم والإفساد عليهم ولما حصلوا بها بايعوه. واستوزر وشمكير ابن وهبان وشكر له حسن تصرفه لأخيه بالأهواز.

وكان مرداويج يوم قلَّدَهُ الأهواز أرزقه ألفي دينار في الشهر وقال له: إن نصحتَ وأديت الأمانةَ استوزرتكَ بالحضرة ونصبت الرايات بين يديك إلى باب نصيبين وإن خنتني وشرِهَت نفسك فإن كركرتك كبيرة ومعدتك عظيمة والحلاوات بالأهواز كثيرةٌ فهذا دشني ترى انبساطه وحدَّهُ واللّه لأشقنَّ به بطنك هذه الكبيرة. فقال له: ستعلم أيها الأمير كيف أنصح وأؤدي الأماني وإني مستحق لاصطناعك. وكان هذا الرجل من أهل البصرة وله أبٌ قصباني وإنما تقلّد في أيام ابن الخال همذان فلما انهزم ابن الخال من وقعة مرداويج وقصد الحضرة لانتزاع الرياسة من محمد بن ياقوت وجرى عليه ما جرى حصل مرداويج بهمذان ووقع في يده ابن وهبان فعفا عنه واستعملهُ فنفق عليه. وكانت كُتب مرداويج ترد على ابن وهبان أن يُعِدّ له إيوان كسرى منزلاً إذا تقدّمه إلى الحضرة ويعمرهُ ويعيده كهيئته قبل الإسلام وأنه معتقد للمقام بواسط إلى أن يُستتمّ ذلك وأنه يراه وشيرج مع من معهما أكفاءُ لمن بالحضرة من ابن ياقوت والحجرية والساجية وسائر الأصناف وأنه مُستغن عن أن يلقاهم بنفسه. وكان قد صاغ تاجاً عظيماً ورصَّعهُ بالجوهر وذكر أبو مخلد أنه رآهُ قبل الحادثة بأيام جالساً على سرير ذهبٍ قد جعل عليه مِنصَّةً عظيمة وتفرّد بالجلوس عليه وجعل دونه سريرَ فضّةٍ وعليه فرش مبسوط ودون ذلك كراسي كبارٌ مذهبة وغير ذلك ليرتِّب أصحاب الأوزار مراتبَهم في الإجلاس قال: وكان

الكافة من الناس بالبعد قياماً ينظرون إليه ما ينطقون إلا همساً إعظاماً له وإكباراً لقدره.

وفيها وقع بين أصحاب ياقوت ومحمد بن رائق شر فاقتتلوا وقتل بينهم خلق.

وفيها قبض على المظفَّر ومحمد ابني ياقوت بتدبير أبي علي بن مقلة

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن أبا علي كان قلقاً من غلبة محمد بن ياقوت على تدبير الأمور ونظره في جباية الأموال وحضور أصحاب الدواوين مجلسه وتفرده بما يعمله الوزراء وعطلته هو إلى أن تمّ تدبيره عليه فلما كان يوم الاثنين لستّ خلون من جمادى الأولى ركب القواد إلى دار السلطان على رسمهم في أيام المواكب وحضر الوزير أبو علي بن مقلة وأظهر الراضي أنه يريد أن يقلد جماعة من القواد عدَّة نواح من المملكة. ويخلع عليهم وحضر محمد بن ياقوت للخدمة وأبو إسحاق القراريطي كاتبه معه وجلسوا على رسمهم في الصحن التسعيني ثم خرج الخدم إلى محمد بن ياقوت فعرفوه أن الخليفة يطلبه فقام مبادراً فلما دخل عدل به إلى حجرة قد أعدّت له وأخذ سيفه ومنطقته ووكل به ثم خرج الخدم إلى أبي إسحاق القراريطي فعرفوه أن صاحبه يطلبه فلما دخل عدل به إلى حجرة أخرى وحبس ووجه بقوم إلى دار المظفَّر بن ياقوت فقبض عليه وحمل إلى دار السلطان وحبس مع أخيه وكان وجد قريباً من السكر لأنه كان يشرب. ونفذت حيلة الوزير أبي علي عليهم وتقدّم إلى الغلمان الحجريَّة والساجيّة أن يصيروا إلى دار السلطان وأن يضربوا مضاربهم في بابي الخاصَّة والعامَّة ليحفظوا الدار. وأمر مُفلح الأسود أن يصير إلى دار محمد بن ياقوت.. وخلع عليه وسلم القراريطي إلى الوزير أبي علي فأخذ خطه بخمسمائة ألف دينار ثم تقرّر أمره على ثلاثة آلاف ألف درهم.

وانحدر ياقوت من واسط إلى السوس بجميع أصحابه وكتب إلى الراضي باللّه كتاباً في أمر ابنيه يستعطفه فيه لهما ويرقق قلبه عليهما ويسأله الإحسان إليهما وتجديد الصنيعة عندهما وعنده فيهما وأن يلحقهما ليعاوناه على أمره ويكونان معه في حروبه.

ولما زال أمر محمد بن ياقوت وتفرد أبو علي بالتدبير استخلف ابنه أبا الحسين على جميع الدواوين والأعمال وصارت مكاتبة جميع أصحاب الدواوين له وإنفاذهم الأعمال إليه فصار يعزل ويولي ويحل ويعقد. وصار إليه أبو عبد اللّه أحمد بن علي الكوفي وطرح نفسه عليه وارتسم بكتابته وكان يكتب لأبي إسحاق القراريطي وكان مستولياً عليه فقبله أبو علي واختص به وبابنه.

وشغب الجند وطالبوا بأرزاقهم وصاروا إلى دار الوزير أبي علي ونهبوا اصطبلاته

وأخذوا من بابه من كان في مجلسه ونكسوا جماعة ممن لقيهم من الكتاب عن دوابهم وأخذوها منهم فأطلق لهم أرزاقهم وسكنوا.

وفيها قوي أمر أبي عبد اللّه البريدي واستفحل أمره.

ذكر أسباب ذلك

كان أبو عبد اللّه البريدي ضامناً أعمال الخراج والضياع بالأهواز فلما وافاها شيرج ابن ليلى الديلمي من قبل مرداويج خرج إلى البصرة بعد هزيمة ياقوت وغلامه مونس كما كتبناه فيما قبل وأقام يدبر أسافل الأهواز إلى أن قرر له محمد كتابة ابنه فخرج معه إلى واسط. فبينما هو معه يدبر أمره إذ ورد بالقبض على محمد والمظفر ابني ياقوت فارتاع ياقوت من ذلك ارتياعاً شديداً. وكتب أبو علي بن مقلة إلى أبي عبد اللّه البريدي أن يسكّنه ويعرّفه أن الجند اضطربوا وتطيروا لهما وشغبوا مراراً «كما بلغك» ثم أرسلوا للخليفة بأنه إن لم يقبض عليهما أحدثوا في الملك حادثة عظيمة واضطر إلى أن يرضيهم بما أمضاه فيهما وأنه يتلافى أمرهما عن قرب وينفذهما إليه وأن الرأي أن يبادر هو لفتح فارس. فخرج ياقوت من واسط على طريق السوس إلى عسكر مكرم وأخرج أبو عبد اللّه البريدي معه أبا الحسن بن حميد البصري ليخلفه على كتابته وكان صنيعته وأخرج أبا زكريا يحيى بن سعيد السوسي لخدمته في بلده فدخل ياقوت عسكر مكرم وهما معه ثم وافى أبو عبد اللّه البريدي من طريق الماء إلى الأهواز وورد بعده أبو يوسف أخوه وكان إليه السوس وجنديسابور شركة بينه وبين أخيه أبي الحسين. وادّعيا أن مال سنة ٣٢٢ احتمله شيرج بن ليلى وأن النواحي معطّلة الارتفاع في السنة التي بعدها فأنفذ أبو علي ابن مقلة بن عينويه لكشف ذلك وطابقهما وكتب يصدقهما.

فكانت هذه الفتنة نعمة على أبي عبد اللّه وأبي يوسف البريديين فإنه تحصّل لهما بها ومما بعدها إلى وقت انهزامهما من الأهواز على ما حدّث به أبو الفرج بن أبي هشام أربعة آلاف ألف دينار خرجا بها على السلطان. ثم قصدا عسكر مكرم للاجتماع مع ياقوت فوافياها وتلقاهما في الموضع المعروف بفوهة النهرين وسيّراهُ إلى أرجان لفتح فارس.

وفيها خرج توقيع الراضي باللّه بأن تكون المخاطبة والمكاتبة من جميع الناس لأبي الحسين علي بن محمد بن مقلة بالوزارة وكان سنُّه إذ ذاك ثماني عشرة سنة وأن يكون الناظر في الأمور صغيرها وكبيرها وتقدم إلى جميع أصحاب الدواوين بذلك وخلع على أبي الحسين خلع الوزارة وخوطب بها وحمل على شهري وانصرف من دار السلطان على الظهر ومعه القوّاد والجيش والخدم وأصحاب الدواوين. وانصرف أبو علي في طياره إلى منزله وصار إليه ابنه بالخلع وطُرح له مصلًّى في مجلس أبيه ودخل الناس معه وهنؤوا أبا علي وأنشده الشعراء وأمر أبو الحسين ونهى ووقع وصار طرحُ

المصلّى في مجلس أبيه رسماً له. وخرج رسم أبيه إلى جميع أصحاب الدواوين ألاَّ ينفذوا توقيعاً له إلا بعد عرضهم إيَّاه على ابنه أبي الحسين واستئماره فيه وأخذ توقيعهُ بخطّه فيه بامتثاله.

وشغب الفرسان شغباً بعد شغب وكانوا يأخذون دواب الناس من باب الوزير.

وفيها ركب بدر الخرشني فنادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري الحنبلية ألا يجتمع منهم نفسان في موضع واحد وحبس جماعة منهم واستتر البربهاري وكان سبب ذلك كثرة تشرُّطهم على الناس وإيقاعهم الفتن المتصلة. وخرج توقيع الراضي بالله إلى الحنبليين بما نسختهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

من نافق بإظهار الدين وتوثب على المسلمين وأكل به أموال المعاهدين كان قريباً من سخط رب العالمين وغضب الله وهو من الضالين: وقد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم وكشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم زُيّن لحزبه المحظور ويُدلِّي لهم حبل الغرور. فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في ربّ العزّة تباركت أسماؤه وفي نبيه والعرش والكرسيّ وطعنكم على خيار الأمَّة ونسبكم شيعة أهل بيت رسول الله ﷺ إلى الكفر والضلال وإرصادهم بالمكاره في الطرقات والمحال. ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن ولا يقتضيها فرائض الرحمن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم وتشنيعكم على زوّارها بالابتداع. وإنكم مع إنكاركم ذلك تتلفقون وتجتمعون لقصد رجل من العوامّ ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله ﷺ وتأمرون بزيارة قبره والخشوع لدى تربته والتضرُّع عند حفرته فلعن الله ربًا حملكم على هذا المنكرات ما أرداهُ وشيطاناً زيَّنها لكم ما أغراهُ. وأمير المؤمنين يقسم الله قسماً جهداليّةٍ يلزمه الوفاء به لئن لم تنصرفوا عن مذموم مذهبكم ومعوّج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً ويستعملنَّ السيف في رقابكم والنار في محالّكم ومنازلكم فليبلغ الشاهد منكم الغائب فقد أعذر من أنذر وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

وفيها شغب الجند وصاروا إلى دار الوزير فوقع النهب في خزانة له فيها زجاج مخروط وبلور وصيني وغير ذلك فدخلوا الدار وشغبوا فيها وخرج الوزيران عن دُورهما وصارا إلى الجانب الغربي. وكان الوزير أبو علي نفى الخصيبي وسليمان بن الحسن إلى عُمان وكاتب صاحب عمان بحبسهما والتضييق عليهما فأطلقهما ووردا بغداد مستترين

فورد على الوزير من ذلك ما أقلقهُ وكبس عليهما عدّة مواضع فلم يظفر بهما.

وفيها قتل الحسن بن عبد اللّه بن حمدان عمَّهُ أبا العلاء سعيد بن حمدان وخرج لذلك أبو علي بن مقلة إلى الموصل

ذكر السبب في ذلك

كان أبو العلاء شرع في تضمن الموصل وديار ربيعة فضُمن ذلك سرّاً وخلع عليه وأظهر أنه ينفذ إلى الموصل لموافقة ابن أخيه أبي محمد على ما عليه من مال الضمان ومطالبته بحمله وشخص في نحو خمسين غلاماً من غلمانه فدخل الموصل. وعرف ابن أخيه خبر موافاته فخرج نحوه مظهراً لتلقيه واعتمد أن يخالفه الطريق فلا يراه ومضى أبو العلاء إلى دار أبي محمد فنزلها وسأل عن خبره فعرّف أنه خرج ليتلقاهُ فجلس ينتظره. فلما علم أبو محمد أن عمهُ قد حصل في داره وجه بغلمانه فدخلوا إلى أبي العلاء إلى البيت الذي كان فيه فقبضوا عليه وقيدوهُ ثم وجّه بقوم علوهُ بأسيافهم وقتلوهُ ولم يقع بينه وبين ابن أخيه لقاءٌ وورد الخبر بذلك إلى الراضي فأنكره وتقدم إلى الوزير أبي علي بالتأهب للخروج إلى الموصل والإيقاع بالحسن بن عبد اللّه بن حمدان والنائب عنه بالحضرة.

فذكر أن علي بن عيسى كتب إلى الحسين بن عبد اللّه بن حمدان بخطه عن أمير المؤمنين الراضي باللّه بالانفراج عن ضمانه وألا يحمل شيئاً إلى الحضرة من ماله وأن يمنع من حمل الميرة إلى بغداد فأخذ أبو علي بن مقلة خطهُ بذلك وأحضر جماعة من الشهود حتى شهدوا عليه. وسلم الوزير الكتاب إلى ابن سنجلا ليعرضه على الراضي باللّه فلما كان من غد وهو يوم الأربعاء انحدر الوزير أبو علي إلى دار السلطان وانصرف إلى منزله. فوجه الراضي براغب وبشرى خادميه إلى علي بن عيسى فحملاه إلى الوزير أبي علي فلم يُوصله إليه واعتقله في حجرة من داره وراسله علي بن أحمد بن علي النوبختي وعرّفه ما أشهد به سهل بن هاشم على نفسه وإن الخليفة أنكر فعله وما زالت المراسلات تتردد بينهما إلى أن ألزمه أبو علي مصادرة خمسين ألف دينار على أن يجعل في باب أبي جعفر بن شيرزاد صاحب ديوان النفقات للأتراك عشرة آلاف دينار وتؤخذ منه عقار وضياع بعشرة آلاف دينار فالتزم أبو الحسن ذلك فيقال إن طليباً الهاشمي كان قال لعلي بن عيسى عن الراضي باللّه أن يكاتب الحسن بن عبد اللّه عنه ويتوسط بينهما على أن يحمل إليه سراً سبعين ألف دينار في نجوم وشرط عليه الحسين أن يحميهُ ويمنع منه ومن تشعيث أمرِهِ ويقرّره على ضمانه ولا يقبلَ زيادة عليه فحمل بعض تلك النجوم وأخر باقيها. وأنكر الخليفة كل ما جرى في هذا الباب وذكر أنه لم يصل إليه شيء.

وأخرج مضرب الوزير أبي علي وخرج على مقدمته نقيط الصغير وابن بدر

الشرابي وجماعة من الحجرية وغيرهم وخلَّف ابنه الوزير أبا الحسين بالحضرة في خدمة السلطان وتدبير الأمور. وقبل شخوصه أطلق أبا الحسن علي بن عيسى وأخرجه إلى ضيعته بالصافية وأحلفه على أنه لا يسعى في مكروهه ولا يتكلم فيه بما يقدح في حاله ولا فيما يفسد أمره ولا يسعى في الوزارة لنفسه ولا لغيره من سائر الناس فحلف وخرج من وقته إلى الصافية.

ولما قرب الوزير أبو علي من الموصل رحل عنها أبو محمد وتبعه الوزير إلى أن صعد جبل التنين ودخل بلد الزوزان فعاد حينئذٍ أبو علي إلى الموصل وأقام بها يستخرج مال البلد ويستسلف من التجار المجهّزين للدقيق مالاً على أنه يطلق لهم به غلات البلد فاجتمع له من ذلك أربعمائة ألف دينار. ولما طال مقام الوزير بالموصل احتال سهل بن هاشم كاتب أبي محمد بن حمدان فبذل للوزير أبي الحسين ابن الوزير أبي علي عشرة آلاف دينار حتى كتب إلى أبيه بأن الأمور بالحضرة قد اضطربت عليه وأنه متى تأخر وروده الحضرة لم يأمن حدوث حادثة يبطل بها أمرهم فانزعج الوزير من ذلك وقلد علي بن خلف بن طناب أعمال الخراج والضياع بالموصل وديار ربيعة وقلد أعمال المعاون بها ما كرد الديلمي من الساجية. وتقدّم بتوفية التجار ما استسلفه منهم من المال وانحدر إلى الحضرة وخرج لِتلقيه الأمير أبو الفضل وأصحاب الدواوين والقوّاد ولقي الخليفة وانصرف إلى منزله وخُلع عليه من الغد وعلى ابنه خلع مُنادمة وحُمل إليهما ألطافٌ وشراب وطيب وبلَّور.

وكان الوزير أبو علي كتب إلى الوزير ابنه قبل أن ينحدر من الموصل بإزالة التوكيل عن أبي الحسن علي بن عيسى وأن يكتب إليه أجْمَل خطاب ويُخيّرهُ بين الإنصراف إلى مدينة السلام وبين المقام بالصافية فكتب إليه الوزير أبو الحسين بذلك. وكان السبب فيما كتَب به الوزير أبو علي من ذلك أنه كان كتب إلى أبي محمد الحسن ابن عبد اللَّه بن حمدان كتاباً يدعوه فيه إلى الطاعة ويبذل له الأمان فقبل الكتاب وقال للرسول: ليس بيني وبين هذا الرجل عمل (يعني ابن مقلة) ولا أقبل ضمانه لأنه لا عهد له ولا وفاء ولا ذِمة ولا أسمع منه شيئاً اللهم إلا أن يتوسط أبو الحسن علي بن عيسى بيني وبينه ويضمن لي عنه فأسكن إلى ذلك وأقبلُهُ.

وكان أبو عبد اللَّه أحمد بن علي الكوفي مقيماً بالحضرة في وقت خروج أبي علي ابن مقلة إلى الموصل ويلزم مجلس الوزير أبي الحسين يظهر له النصيحة والموالاة ويجتهد في التخلُّص منه والبعد عنه إلى أن ورد كتاب أبي عبد اللَّه البريدي يوئس فيه من حمل مال إلى الحضرة في ذلك الوقت فغلظ على الوزير أبي الحسين ذلك لأنه كان أعدّ ما يحمله لوجوه فأقرأ أبا عبد اللَّه الكوفي كتاب البريدي فاستعظم ما فيه وأشار بأن

يخرج هو إلى الأهواز ليواقف البريدي على أمر الرجال الذين أحال بصرف المال إليهم ويعرضهم ويطلق ما يجب لهم ثم يحمل إلى الحضرة مالاً عظيماً ويحمل ساعة وصوله مائة ألف دينار. فكتب الوزير أبو الحسين إلى أبي عبد اللّه البريدي بأنه لا يقبل في تأخُّر المال عنه عُذرَهُ وقد أحوجهُ إلى إنفاذ أبي عبد اللّه أحمد بن علي الكوفي لِمواقفته على أمر المال ومطالبته بحمله ونُفذ الكتاب وتبعه أحمد بن علي إلى الأهواز. فلما حصل عند أبي عبد اللّه البريدي لم يمكنه مخالفته على ما يُريد وكتب أنه لم يتمكن من عرض الرجال ولا المواقفة على أمر المال وأقام عنده إلى أن نظر أبو بكر بن رائق في الأمور بالحضرة.

واستوحش أبو عبد اللّه الكوفي من البريدي وخافهُ وأراد البعد منه وخاف بَوَادِرهُ فأطمعهُ في إفساد أمر الحسين بن علي النوبختي مع ابن رايق. وكان الحسين بن علي من أعدى الناس للبربريديين فقبل منه وأطلقهُ ووافقهُ على ما يعمل به ويبذله من المال لإزالة أمر الحسين بن علي النوبختي. وكان أبو عبد اللّه الكوفي عند مقامه عند أبي عبد اللّه البريدي يُصغّر في نفسه أمر الحضرة ويَصف له إدبارها بسوء تدبير ابن مقلة وإبطاله مال واسط والبصرة بابن رائق وبإيقاعه ببني ياقوت وما دبر في أمر الحسن بن عبد اللّه ابن حمدان وباجتثاثه أصل الخلافة دفعة واحدة وقال في ذلك وأكثر وقال في عرض ذلك: هو الذي جرّأ الغلمان الحجرية على ابن ياقوت فهم بعد أشدّ جرأة عليه وإن هلاكهُ ليس يبعد. فوقع ذلك من البريدي أحسن موقع واختصَّ الكوفي ولم يستكتبه بل كان يشاوره ويكرمه ويعاشره.

فذكر أبو الفرج بن أبي هشام أن أبا عبد اللّه الكوفي قال له بواسط في أيام سيف الدولة: ما مرّ لي عيش أطيب من عيشي مع البريدي فإني أقمتُ عنده نحو سنة غير متصرّف ولا داخل تحت تبعةٍ ولا تعب بنظر في عمل ولقد عاشرني أجمل عشرة ووصل إليّ منه عيناً وورقاً ومن قيمة العروض التي أنفذها إليَّ خمسة وثلاثون ألف دينار ولم أخرج من الأهواز إلا وأنا متقلد كتابة ابن رائق. وقد كفيت أمر ابن مقلة بالقبض عليه وكان غير مأمون والحمد للّه الذي لم يخرجه من الدنيا حتى دمر عليه كتدميره على الدنيا ألحق اللّه ابنه به فإنه شرّ منه لأن ما كان في أبيه فهو فيه من وقاحة وقساوة وخسة وكان الأب على عيوبه ربما رحم وأكرمَ على حاشيته وأهل داره دون الغرباء ولكن هذا ناصر الدولة مجتهد في أن يغرّه ويحصِّلِه وإن حصل رجوتُ أن يسلمه فإن في نفسه عليه وعلى ابنه العظائم. وأطلق الكوفي لسانهُ بهذا كلّه في مجلسهِ وليس بين يديه غيري وغير أبي علي بن صفية كاتبه النصراني.

وأظهر أبو عبد اللّه البريدي بالأهواز كتاباً من أبي علي بن مقلة بخطه إليه يقول

فيه: الويل لِلكوفي الغاضّ مني أنفذتهُ ليصلحك لي فأفسدك عليَّ وأطمعك وأصغيتَ بالشرَهِ إليه والله لأقطعنّ يديه ورجليه فأما أنت فأرجو ألا تُصِرّ على كفر نعمتي وإحساني إليك وأن تُنيب بك الروية إلى رعاية حقوق اصطناعي لك فترضيني من نفسك وتعينني في مثل هذه الحالة الصعبة التي لم يدفع من جلس مجلسي في دولة من الدُول إلى مثلها وأن تجيرني مما قد أظلّني بمال تحمله فتحفظ به نعمتيك التي إحداهما في يدي والأخرى في يدك إن شاء الله.

ولما انحدر أبو علي بن مقلة من الموصل عاد أبو محمد عن الزوزان إليها وحارب ما كرد الديلمي وانهزم الحسن بن عبد الله ثم عاود محاربته وكانت الوقعة بينهما على باب الروم من أبواب نصيبين فانهزم ماكرد إلى الرقة وانحدر منها في الفرات إلى بغداد. وانحدر علي بن خلف بن طناب وتمكن الحسن بن عبد الله من الموصل وديار ربيعة وكتب إلى السلطان يسأل الصفح عنه وأن يضمن نواحيه فأجيب إلى ذلك وضمنها.

ووافى التجار الذين استسلف أبو علي مالهم ولم يُوفوا الغلات التي ابتاعوها فطالبوا أبا علي برد أموالهم عليهم فدفعتهُ الضرورة إلى أن يسبب لهم على عمّال السواد بعضَ مالِهم ودافعهم ثم باع عليهم بالباقي ضياعاً سلطانيَّة. فلم يُحصل لِخرَجتهِ كبير فائدة بعد الذي رد على التجار وبعد الذي أنفق على سفره والجيش الخارج معه.

وفي هذه السنة حجّ الناس فلما بلغوا القادسيّة اعترضهم أبو طاهر القرمطي وكان مع الحاج من قبل السلطان لؤلؤ غلام المتهشّم فظنَّ لؤلؤ أنهم أعراب فحاربهم أهل القوافل . . . .[1] شيئاً كثيراً وسأل عمر بن يحيى العلوي فيمن دخل القادسية فآمنهم ثم تسلَّلوا من القادسية وبطل الحجُّ في هذه السنة وصار أبو طاهر إلى الكوفة وأقام بها.

وفي تلك الليلة بعينها انقضت الكواكب من أول الليل إلى آخره ببغداد والكوفة وما والاهما انقضاضاً مسرفاً جداً لم يعهد مثله ولا ما يقاربهما.

وشغب الجند وصاروا إلى دار الوزير فنقبوا عدّة مواضع ولم يصلوا لأن غلمان الوزير دفعوهم ورموهم بالنشاب من فوق السور.

وفيها مات أبو بكر محمد بن ياقوت في الحبس في دار السلطان بنفث الدم فأحضر القاضي أبو الحسين عمر بن محمد ومعه جماعة وأخرج إليهم محمد بن ياقوت حتى فتشوه ومدوا لحيته وعلموا أنه مات حتف أنفه ثم تسلم إلى أهله وباع الوزير ضياعهُ وأملاكهُ وقبض على أسباب محمد بن ياقوت كلهم.

---

(١) بياض بالأصل.

وفي هذه السنة قلد الوزير أعمال الجبل أبا علي الحسن بن هارون وخرج إليها فلما حصل بها استأمن إليه غلمان مرداويج الأتراك الذين قتلوه في الحمام فقبلهم وكانوا ثلاثمائة غلام فلما كان بعد مدّة شغبوا عليه وطالبوه بالأرزاق وقبضوا عليه وقيدوه ثم أطلقوه. ولما ورد الخبر بالقبض عليه قلد الوزير مكانه أبا عبد اللّه محمد بن خلف النيرماني وبلغ ذلك الحسن بن هارون فخافه للعداوة بينهما واستتر وصار إلى بغداد مستتراً وأقام على استتارهِ مدة ثم راسل الوزير أبا علي وقرّر أمره على مصادرة أوقعها بخمسة عشر ألف دينار فلما تقرر أمره ظهر وأقام محمد بن خلف في الجبل مُديدة.

وأقبل غلمان مرداويج وفيهم بجكم إلى جسر النهروان وراسلوا السلطان فأمرهم بدخول الحضرة فدخلوا وعسكروا بالمصلّى. واضطربت الحجريَّة وظنوا أنها حيلة عليهم فاجتمعوا وطالبوا الوزير أبا علي بأن يرضيهم ويردّهم فاستدعى جماعة من وجوههم ووافقهم على أن ينضموا إلى محمد بن علي غلام الراشدي (ويقلده الجبل) ويُطلق لهم أربعة عشر ألف دينار نفقات لهم ثم يسبب مالهم على أعمال الجبل فقالوا: ننصرف ونعلم باقي أصحابنا ذلك. فلما انصرفوا لم يقنعوا وكان خبرهم قد اتصل بأبي بكر بن رائق بواسط وهو متقلد أعمال المعاون بها وبالبصرة فكاتبهم فراسلهم واستدعاهم ووعدهم الإحسان فمالوا إليه واختاروه وساروا إليه فقبلهم وأثبتهم وأسنى لهم بالرزق ورأس عليهم بجكم وسماهُ بجكم الرائقي ورفع منه وموَّلهُ وأحسن إليه وأفرط في ذلك وضمّ جميع الغلمان إليه وتقدّم إليه بأن يكاتب كل من بالجبل من الأتراك والديلم بالمصير إليه ليثبتهم فصار إليه عدة وافرة منهم فأثبتهم وضمهم إلى بجكم.

ودخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

وفيها أطلق المظفر بن ياقوت من حبسه في دار السلطان إلى منزله بمسألة الوزير أبي علي عنه وحلف الوزير بالأيمان الغليظة على أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له في مكروه.

وفيها قلد الوزير محمد بن طُغْج أعمال المعاون بمصر مضافةً إلى ما يتقلد من أعمال معاون الشام وأدخل الراضي القضاة والعدول حتى عرّفهم تقليده محمد بن طغج وأمرهم بمكاتبة أصحابهم وخلطائهم بذلك لئلا ينازعه أحمد بن كيغلغ فإنه كان يتولى مصر.

وفيها قطع محمد بن رائق حمل مال ضمانه عن واسط والبصرة إلى الحضرة واحتج باجتماع الجيش عنده وحاجته إلى صرف المال إليهم.

وفيها تمت حيلة المظفر بن ياقوت حتى قبض على الوزير أبي علي بن مقلة لأنه صح عنده أنه هو قتل أخاه وكان السبب في حبسهما وإزالة أمرهما.

ذكر هذه الحيلة على أبي علي بن مقلة

لم يزل يحب التشفي والأخذ بالثار منذ أطلقه الوزير ولكنه يكتم ذلك إلى أن واقف الحجرية وضرّبهم عليه وبلغ الوزير ذلك فأخذ يعتضد ببدر الخرشني صاحب الشرطة فقوي أمر بدر ووافقه على أن يستولي على دار السلطان فيحصل فيها ويمنع الغلمان الحجرية منها لأنه بلغه أنهم قد عملوا على المصير إلى الدار والمقام ففعل بدر ذلك وحصل هو وأصحابه بالسلاح في الدار ومنع الغلمان الحجرية من دخولها ولم يظهر الوزير أن الذي فعله بدر كان عن رأيه ثم جمع بين الساجية وبين بدر حتى تحالفوا على معاونة بعضهم بعضاً. فلما وقف المظفر بن ياقوت على ذلك ضعفت نفسه وأشار الحجرية بالخضوع للوزير والتذلل له ولم يزالوا يلطفون للوزير ويتحققون بخدمته إلى أن أنس بهم. وسألوه صرف بدر وبذلوا له كل ما أراد من الطاعة والموالاة له إلى أن انخدع وصرف بدراً وأصحابه فلما خلت دار السلطان منهم ومن الساجية تحالف الحجرية على أن تكون كلمتهم واحدة فصاروا بأجمعهم إلى دار السلطان وضربوا خيمهم فيها وحولها وملكوها وصار الراضي في أيديهم وحزبهم. فندم الوزير وعلم أن الحيلة تمت عليه فتقدم إلى بدر بأن يخرج إلى المصلى في أصحابه من غير أن يعلم أحدٌ أنه فعل ذلك برأي الوزير وأمره فخرج بدر وأثبت زيادة من الرجَّالة. وبلغ ذلك الحجرية فطالبوا الراضي باللّه أن يخرج معهم إلى المسجد الجامع في داره فيصلي بالناس ليراه الناس معهم فيعلمون أنه في حيزهم فخرج الراضي يوم الجمعة إلى المسجد الجامع الذي في داره ومشى الغلمان بأسرهم بين يديه وحولهُ بالسلاح رجالة وصلى بالناس وصعد المنبر وخطب وقال في خطبته: اللهمَّ إن هؤلاء الغلمان بطانتي وظهارتي فمن أرادهم بسوء فأرِده به ومن كادَهم فكده.

وقلد بدر الخرشني دمشق وأمره بالخروج إليها من المصلى وألاّ يدخل البلد. وكان المظفّر بن ياقوت في هذا كلّه يظهر للوزير أنه مجتهد في الصلح ويظهر له الخضوع وهو في الباطن يسعى في حنقهِ وقد قوي أمره بما فعله الراضي. ثم إن الصلح تمَّ بين بدرِ الخرشني وبين الحجرية فدخل من المصلى إلى منزله وأقرّ بدرٌ على الشرطة.

فلما انقضت هذه القصة أشار الوزير على الراضي باللّه سرّاً أن يخرج بنفسه ومعه الجيش والحجرية والساجية ليدفع محمد بن رائق عن واسط والبصرة وقال له: قد انغلقت عليك هذه البلدان وهي بلدان المال بما فعله محمد بن رائق من الامتناع من حمل مال ضمانِه ومتى رأى غيره أن ذلك قد تمّ له واحتمل عليه تأسي به فذهب مال الأهواز فبطلت المملكة. فعمل الراضي على ذلك وتقدم إليه بالعمل عليه فافتتح الوزير

الأمرَ مع ابن رائق بأن ينفذ إليه ينال الكبير من الحجرية وماكرد الديلمي من الساجية برسالة من الراضي باللّه يأمره فيها أن يبعث بالحسين بن علي النوبختي ليواقف على ما جرى على يده من ارتفاع واسط والبصرة. فلم يستجب ابن رائق إلى إنفاذ الحسين ووهب للرسولين مالاً وأحسن إليهما وسألهما أن يحتملا له إلى الخليفة رسالةً في السرّ وهي أنه: إن استدعى إلى الحضرة وفوّض إليه التدبير قام بكل ما يحتاج إليه من نفقات السلطان وأرزاق الجند ومشى الأمورَ أحسن تمشيةٍ وكفى أمير المؤمنين الفكر في شيءٍ من أمره. فلما قدم الرسولان خلوا بالراضي باللّه بعد تأديةِ الرسالة الظاهرة فأدّيا الرسالة السرّية فلم ينشط الراضي لتسليم وزيره وأمسك.

ولما رأى الوزير امتناع ابن رائق من تسليم الحسين بن علي على عمل على أن يكون ظاهر خروجه إلى الأهواز لا إليه ولا لقصده ودبر أن ينفذ إليه القاضي أبا الحسين برسالة من الراضي ليعرفه ذلك وأنه لم يأمن أن يقع له أن الخروج إنما هو إليه فيستوحش وأنه أنفذ القاضي ليكشف ما في نفسه وعزمه وتوثق له بما يسكن إليه. فلما كان يوم الاثنين لأربع عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى وانحدر الوزير إلى دار الراضي باللّه ومعه القاضي أبو الحسين ليوصله فيسمع من الراضي باللّه الرسالة فلما حصل في دهليز التسعيني قبل أن يصل إلى الخليفة وثب الغلمان الحجرية ومعهم المظفرين ياقوت به فقبضوا عليه ووجهوا إلى الراضي باللّه يعرفونه قبضهم عليه إذ كان هو المفسد المضرب ويسألونه أن يستوزر غيره فوجّه إليهم يستصوب فعلهم ويعرفهم أنهم لو لم يفعلوا ذلك لفعَلَهُ هو وردّ الخيار إليهم فيمن يستوزره فذكروا علي بن عيسى ووصفوه بالأمانة والكفاءة وأنه ليس في الزمان مثله فاستحضره الراضي بالله وخاطبه في تقلد الوزارة فامتنع وتكرّه ذلك فراجعَهُ الراضي باللّه وخاطبه الغلمان فيه وطال الخطبُ معه فأقام على الامتناع فقالوا: فتُشِير بمن تراه. فأومأ إلى أخيه عبد الرحمن.

فأنفذ الراضي باللّه المظفر بن ياقوت إلى عبد الرحمن فأحضره وأوصله إلى الراضي وعرّفه أنه قلّده وزارته ودواوينه وخلع عليه وركب في الخلع ومَعه الجيش إلى داره. وأحرقت دار أبي علي.

وزارة عبد الرحمن بن عيسى

لما تقلد عبد الرحمن غلب علي بن عيسى على التدبير فَعَلِمَ أبو العباس الخصيبي وأبو القاسم سليمان بن الحسن وقد كنا ذكرنا أمرهما وما كان من تفي علي بن مقلة إياهما إلى عمان وتقدمه إلى يوسف بن وجيه صاحب عمان بحبسهما وأن يوسف بن وجيه أطلقهما فصارا إلى بغداد واستترا بها إلى أن قُبِضَ على بن مقلة.

فلما كان في هذا الوقت أكرمهما عبد الرحمن الوزير وكانا يصلان معه إلى الراضي

بالله مع أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وأبي علي الحسن بن هارون وعلي بن عيسى لا يتأخر أيضاً عن الحضور معهم وسلم أبو علي ابن مقلة إلى الوزير عبد الرحمن فضربه بالمقارع وأخذ خَطَّه بألف ألف دينار ثمَّ سلمه إلى أبي العباس الخصيبي فجرت عليه من المكاره والضرب والرهق أمر عظيم وحضر أبو بكر بن قرابة بعد مدة فتوسط أمرُه وضمن ما عليه وتسلمه وكان أدى إلى الخصيبي نيفاً وخمسين ألف دينار.

وصرف بدر الخرشني عن الشرطة لانحراف الحجرية عنه وولى أعمال المعاون بأصبهان وفارس لأن الحجرية كرهوا مقامه بالحضرة فخلع عليه وأخرج مضاربه إلى ميدان الاشنان وأنفذ إليه اللواء وضم إليه الحسن بن هارون لتدبير أمر الخراج بهذه النواحي ثم توقف عن إمضاء هذا الرأي فبطل خروجه.

وعجز عبد الرحمن عن تمشية الأمور وضاق المال حتى استعفى عبد الرحمن عن تمشية الأمور للراضي بالله ومن الوزارة وسأله أن يقرضه عشرة آلاف دينار إذ كانت وجوه المال قد تعذرت عليه فقبض عليه الراضي في هذه السنة وقلَّد وزارته الكرخي.

ذكر وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي

لما قلد أبو جعفر الكرخي الوزارة وخلع عليه وانصرف إلى منزله ومعه الجيش كلف مناظرة علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن وحملا إلى داره فصادر علي بن عيسى على مائة ألف دينار وصادر أخاه على سبعين ألف دينار وأقاما على حال صيانة وتكره إلى أن أدّى علي بن عيسى سبعين ألف دينار وأدى أخوهُ ثلاثين ألف دينار ثم صرفا إلى منازلهما.

وكان الوزير أبو جعفر الكرخي قصيراً فاحتيج بسبب قصره إلى أن ينقص من ارتفاع سرير الملك فنقص منه أربع أصابع مفتوحة وفيها قتل ياقوت بعسكر مكرم.

ذكر مقتل ياقوت

قد ذكرنا أمر ياقوت في خروجه إلى أرّجان لحرب علي بن بويه في قضه وقضيضه وديلمه وأتراكِه وسائر خيلِه. وكان معه من الرجال السودان ثلاثة آلاف رجلٍ وانهزم من بين يدي علي بن بويه بباب أرَّجان بعسكره كله وكان على الساقة في الهزيمة لأنه ثبت وسار علي بن بويه خلفه إلى رامهرمز وحصل ياقوت بعسكر مكرم في غربيّها وقطع الجسر المعقود على المسرقان وأقام علي بن بويه برامهرمز إلى أن وقع الصلح بينه وبين السلطان.

وكتب أبو عبد الله البريدي إلى ياقوت أن يقيم بعسكر مكرم إلى أن يستريح ويقع التدبير لأمره من بعد وكان غرضه ألا يجمعه وإياه بلدٌ فقبل ياقوت. وأتاه أبو يوسف البريدي متوجعاً بما جرى عليه من الهزيمة ومهنئاً له بالسلامة وتوسط بينه وبين أخيه أبي

عبد اللّٰه على أن يطلق له خمسين ألف دينار يعلل بها عسكره إلى أن يكتب إلى السلطان ويستأمره فيما يطلقُه له ولرجاله. وعرفه أن الرجال المقيمين بالأهواز فيهم كثرة ويطالبون بما لهم وهم البربر والشفيعية والنازوكية واليلبقية والهارونية وكان أبو علي بن مقلة ميز هؤلاء وأنفذهم إلى الأهواز لتخفّ مؤنتهم عن الحضرة وتتوفر أموال الساجية والحجرية فذكر أبو يوسف أن هؤلاء لا يطلقون مالاً يخرج من الأهواز إلى سواهم وأنهم إن أحبُّوا شغبوا فاحتاج أبو عبد اللّٰه إلى مفارقة الأهواز إشفاقاً على نفسه منهم. ثم تؤول الحال إلى حرب تقع بعد الهزيمة الأرّجانية ولا يدري كيف تكون الحال فيها وأن السلطان مع ذلك مطالب بحمل مال إليه وقال له: إن رجالك مع سوء أثرهم وقبح بلائهم وهزيمتهم دفعة بعد دفعةٍ إذا أعطوا اليسير قنعوا به وصبروا عليه. فقبل ياقوت ذلك وسبَّب له بهذا المال على عسكر مكرم وتستر فارضي ببعضه الحجرية وببعضه وجوه القواد وأنفق في سودانه في المسجد الجامع بعسكر مكرم ثلاثة دراهم لكل رجل ومضى الأمر على ذلك شهوراً. وافتتح مال سنة ٣٢٤ فضجّ رجاله وطالبُوه وقالوا: إنه لا صبر لهم على الضرّ وأن المنافسة على خيرات الدنيا في الطبع والجبلة لو كانوا أغنياء فكيف بهم مع اختلالهم وأنهم لا يرضون أن يقبض نظراؤهم بالأهواز على الإدرار ويحرموهم وأن يتجرعوا الأسف والحسرات وأنهم قد سئموا الفقر ومعاناة المجاعة.

وقد كان استأمن من أصحاب علي بن بويه إلى ياقوت طاهر الجيلي وكان ممن يرشح نفسه للأمور الكبار ويرى أنه نظير لشيرج وطبقتِه واجتمع إليه نحو ثمانمائة رجل من العجم فشغب على ياقوت ثم رحل مع أصحابه وانصرف عنه وقدَّر أنه يملك ماه البصرة وماه الكوفة. فكبسه علي بن بويه ثم سجنه فنجا بنفسه مع بعض غلمانه وأبو جعفر الصيمري كاتبُهُ في الأسر وخلّصه الحناط فخرج إلى كرمان فكان سبباً لإقباله واتصاله بالأمير أبي الحسين أحمد بن بويه. فضعفت نفس ياقوت بخروج طاهر الجيلي وأصحابه واستطال باقي رجاله عليه وخاف أن يعقدوا لبعض قواده الرياسة وينصرفوا عنه فكاتب أبا عبد اللّٰه البريدي بالصورة وأعلمه أنه كاتبه ومدبر أمره وأنه قد فوّض إليه الرأي والتدبير في رجاله ليمضي عليه وعليهم ما يستصوبُه.

ذكر الخديعة التي نفذت على ياقوت

كان ياقوت واثقاً برجل ساقط يعرف بأبي بكر النيلي يجريه مجرى الأب وينحطُّ إلى رأيه وقوله مع ضعة في النيلي وخساسته في همته وقدرِه فاستصلحه أبو عبد اللّٰه البريدي ووسع عليه فكان النيلي رسول ياقوت إلى أبي عبد اللّٰه بما قد ذكرته. فكتب أبو عبد اللّٰه البريدي أن عسكره قد فسدوا وفيهم من ينبغي أن يُميّز ويخرج لأن علي بن خلف بن طناب خانه واقتطع أموالاً باسم هؤلاء القوم وزاد قوم زيادات كثيرة وأن

الصواب أن ينفذوا إليه ليعرفهم أن هذه الزيادات تفوّتهم الأصول السلطانية ويشافههم بأن الصواب أن يسقطوها ليتوفَّر عليهم الأصول وقال: إنما يتمّ هذا بالأهواز لأنهم يردونها أفواجاً وزمراً فإن أساؤوا آدابهم وامتنعوا قوّموا بالجيش المقيمين بالأهواز وأنهم إن خوطبوا بهذا الكلام وهم بعسكر مكرم تظاهروا وتضافروا وتعاقدوا فلم يتمّ عليهم ردّهم من الكثير إلى القليل. وأكثر في هذا المعنى حتى قال: يا أبا بكر سبيلُ العرض أن يقع بحيث الهيبة والخوفُ لا بحيث الحكم والاستطالة. فما قال له النبلي: الهيبة حيث يكون الأمير لا أنتَ. ولا كانت له منَّة لأن يرُدُّ عليه شيئاً.

وسأل أبو عبد اللّه البريدي أن ينفذ إليه أبا الفتح بن أبي طاهر وأبا أحمد الجستاني ليشاوِرهما في التقرير ويتعرَّف منهما منازل الرجال واستدعى أبا بكر النقيب الذي كان مع أبي طاهر محمد بن عبد الصمد ليعرف منه أحوالهم وأنفذ إليه ياقوت مَن التمس وتقدَّم إلى رجاله بالخروج للعرض. فلما حصلوا عند البريدي استصلح الرجال لنفسه وانتخب منهم من أراد ووعدهم أن يجريهم مجرى من معه بالأهواز فأجابوه وصاروا إلى عسكره وردّوا الأرذال إلى ياقوت بعد أن أسقط زياداتهم. فلما استتمّ العرض وجد نصف الياقوتيَّة قد انحازوا عنه فقيل لياقوت ذلك ووبّخ وعذل فقال: قد اجتمع لي بمقام من أقام بالأهواز خفَّة المطالبة عني وحصولهم مع كاتبي وليس يصلح ابنُ البريدي لما أصلحُ له فأخافهُ وإن احتجتُ أو احتيج إلى حرب فالجماعة بالضرورة يعودون إليَّ وهم عدّة لي عنده. وعاد رجال ياقوت إليه فقالوا له: ما حصلنا من الغرض إلا على أن خرج شطرُنا وهيضَ جناحنا وضعفت شوكتنا فاكتب إلى البريدي أن يحمل ما قررهُ لنا. فكتب ياقوت بذلك فأجابُه أبو عبد اللّه بأنه يحتال ويَحمل.

ثم زاد الإلحاح على ياقوت فخرج بنفسه إلى الأهواز في ثلاثمائة رجل وقلل العدّة لئلا يستوحش البريدي وقدّر أنه إلى كاتبه يمضي فتلقاهُ أبو عبد اللّه البريدي بالسواد الأعظم واخرج معه كلّ من بالأهواز من الجيش فلما رأى ياقوتاً ترجل له وانكبَّ ياقوت عليه حتى كاد ينزل عن دابتِه ثم سار وانزله داره وخدمُه بنفسه وقام بين يديه إلى أن طعم وغسل يده فناوله الماء ورد والمنديل وبخَّرهُ بيده فهو في ذلك قبل أن يفاوضه إذ ارتفعت ضجةٌ عظيمة وشغب الجند وقالوا: إنما وافى ياقوت إليه! فقال البريدي: أيها الأمير اللّه اللّه اخرج وبادر وإلاً قتلنا جميعاً. فخرج ياقوت من وقتِه خائفاً يترقب من طريقٍ يخالف طريق المشغبين وعاد إلى عسكر مكرم كما بدا منها. ثم ورد عليه كتاب البريدي بأن الرجال بالأهواز قد استوحشوا منه وأن الوجه أن يخرج إلى تستر فإن بينها وبين الأهواز ستَّة عشر فرسخاً وعسكر مكرم فهي على ثمانية فراسخ وإذا نأتِ الدار زال الاستيحاش وسبّب له على عامل تستر بخمسين ألف دينار فخرج إليها.

فقال له مونس (وكان مونس هذا تربية ياقوت وثقته): أيها الأمير إن البريدي يحزُّ مفاصلنا مفصلاً مفصلاً ويسخر منا وأنتَ مغترٌّ به وقد حاز شطر رجالنا ووجوه قوادنا إلى نفسه وضمن لنا اليسير من المقرَّر وليس يطلق ذلك أيضاً ليستأمن إليه الباقون ثم يأتي على أنفسنا وقد اتصلت كتب الحجريَّة إليك بأنه لم يبق لهم شيخ غيرك فأما دخلت بغداد وجميع من بها يسلّم لك الرياسة وأوّلهم محمد بن رائق بالضرورة لِسنِّك وأنك نظير أبيه وإما خرجتَ إلى الأهواز حتى تطرد البريدي عنها وتقيم أنتَ بها فإنَّا وإن كانت عدَّتنا يسيرة دون عِدَّتِه فهو كاتبٌ ونحن في خمسمائة رجل وهو في عشرة آلاف رجل وقد أحصيت من عندنا فوجدتهم نحو خمسة آلاف رجل وفيهم كفاية والعسكر بصاحبه وأنت أنتَ. وقد قال عدُوُك على ابن بويه: «لو كان في عسكر ياقوت مائة رجل مثلُه ما قاومتُه» فاللّه اللّه يا مولاي لم تضيّع نفسك وتضيِّعنا. فقال: سأنظر وأفكر. فخرج مونس مغضباً من عنده وركب في ثلاثة آلاف رجل شاذّاً عن مولاه ياقوت ووافى عسكر مكرم يريد الأهواز وقال لنا: لا أعصي مولاي فإنه اشتراني وربَّاني واصطنعني ولكني أفتح الأهواز وأسلّمها إليه. فما استقرّ بعسكر مكرم ثلاث ساعات من النهار حتى ورد كتاب ياقوت على دَرك (وكان والي الشرطة بعسكر مكرم) يعرّفه أن مونساً غلامُه خرج بغير إذنه وشرح له صورتُه وسأله أن يجتمع معه ويخوفه اللّه عزّ وجلّ ويحذّره كفر نعمته ويستوقفه إلى أن يلحق به. فعبر دَرك من شرقي عسكر مكرم إلى غربيها ووعظ مونساً وعظاً كثيراً وخاطبه خطاباً بليغاً وكان دَرك شيخاً مقدّماً إلا أن السنَّ قد أخذت منه وحضر بحضوره أصحابُه فقال لمونس خادِمٌ كان معه مكيناً منه وكان معقّلاً: يا مونس إن مولاك قبض على ابنيه وهما تاجان ودُرّتان فلم يستحلّ أن يعصي مولاهُ ولا يكفر نعمته وسلّمها ولم يحارب فيهما ولا طلب بهما أفأنتَ تعصي مولاك فترسل يدك عن طاعتِه أما تخاف العقوبة، وأن تخذل في هذه الحرب ويظفر بك فتخسر الدنيا والآخرة ولا سيما وقد بذل أن يوافيك ويساعدك على ما تريده انتظر رَيث نفوذ كتابنا وورود جوابِه. فأقام مونس لما أخذه العذْل والتأنيب من درك وأصحابه ووافى ياقوت في اليوم الثاني واجتمع مع غلمانِه.

ووافى عسكر البريدي بأسره فنزلوا في صحراء خان طوق ومعهم غلام البريدي يرؤسهم ومعه القُوّاد الكبار وأكبرهم أبو الفتح بن أبي طاهر. ووقعت المنازلة بين ياقوت وأبي جعفر الجمَّال وتثبت ياقوت بعسكر مكرم عن المسير إلى الأهواز وتهيب الصورة وقال لِمونس: السلطان لنا على النيَّة التي عرفناها وكان منه إلى ابني ما لا يجوز أن يصلح لي أبداً وفارس فقد عرفتَ صورتنا بها ولا مذهب لنا في الدنيا ولا لنا موضع نأويه إلا هذا البلد والحرب سجالٌ وقد كثر عسكر الرجل فإن نحن حاربناهُ وانهزمنا كُنَّا

بين الأسر والحمل إلى الحضرة وشهرتُ بها واركبتُ الفيل. ثم يظنُّ بي أني كفرت نعمة ومولاي فليعنني الناس وبين أن أقتل والوجه المداراة والمقاربة لهذا الرجل وأن نعود إلى تستر ونصير منها إلى الجبل فإن استقام لنا بها أمرٌ وإلاّ لحقنا بخراسان. وشاع هذا الكلام فضعفت نفوس أصحابه وطالت الأيام في منازلة عسكر البريدي فكان كلَّ يوم يستأمن عدة من أصحابه إلى البريدي. فكان مونس يبكّر إليه في كلِّ يوم ويقول له: يا مولاي مضى البارحة من أصحابنا ثلاثمائة أو أكثر أو أقلّ. فلا يزيده على أن يقول: إلى كاتبنا يمضون وإذا كانت هذه نيَّاتهم لنا فما الانتفاع بهم؟ ولأن يبقى معنا ألف رجل يحصلون فنمضي بهم إلى حيث نقصد أصلحُ من جميع هذا اللفيف الذي هم كلٌّ في الرخاء وأعداء يوم اللقاء وقد جرّبناهم بباب فارس وباب ارَّجان. فلم يزل كذلك حتى بقي في ثمانمائة رجل فلما علم البريدي أنه قد استظهر الاستظهار التامَّ راسلهُ في الموادعة بأبي القاسم التنوخي القاضي وقال: إني لك على العهد والميثاق. وأنه كاتبه وأن الإمارة لا تصلح له وأن البلوى والشقاء قد حلاً به وصارت مطالبة الرجال عليه وأنه يلاقي الموت صباح مساء ويخاف على نفسه منهم وأنه لا رغبة له في ارتباطهم وإنما جرَّ سببٌ سبباً حتى اجتمعوا عنده وأنه يصاهره حتى يزداد ثقة به ووكل القاضي في تزويج ابنته من أبي العباس أحمد بن ياقوت. فوافاه القاضي أبو القاسم التنوخي وأدّى إليه الرسالة وقبلها وانعقد الصهر ورحلِ للوقت إلى تستر.

ووافاه بعقب ذلك غلام للسلطان من الحجريَّة ومعه المظفَّر ابنه بكتاب إليه يذكر فيه أنه قد وهب ابنُه هذا له ومنّ به عليه فالتقيا بتستر فأشار عليه ابنه المظفر بالخروج إلى حضرة السلطان ليشكرهُ على إنفاذه ويقيم بدَير العاقول ويستأذنه في الدخول فإن أذن له فقد تمّ له ما يحب ووجد الحجريَّة مسرعين إليه وإن لم يأذن له تقلد الموصل وديار ربيعة وخرج إليها وإن منع من ذلك جعل مقصدَهُ الشام. فخالف ابنه ولم يرتض رأيه وقال: أنا أتأمل ما ذكرتَه فأقم عندي لنتشاور. فاستعفاه من ذلك وسأله أن يأذن له في المقام بعسكر مكرم فأذن له. فأطمع البريدي المظفر في أن يجعله أسفهسلار عسكره وأن يتدبر بتدبيره حتى فارق أباه واستأمن إليه فحصل في بستانه المشهور بالأهواز وأحاط بالبستان من يراعيه ويحفظه من حيث لا يعلم.

ولما استوثق البريدي لنفسه واستظهر تخوف من الياقوتية الذين عنده وأن يراسلوه بلون من الألوان المنكرة من التدبير عليه أو أن يتداخلهم التعصب له فيشغبوا عليه ويدعوا بشعار ياقوت. وكتب إلى ياقوت بأن السلطان قد أمره بالخروج عن تستر إلى الحضرة في خمسة عشر غلاماً أو النفوذ إلى الجبل متقلداً لها وبأن يقصده إلى تستر ويخرجه منها قهراً فتحيَّر ودعا مونساً غلامه فقال له: أي شيء ترى؟ فقال له: الآن وقد

مضى ما مضى واللّه لأصحبك إلى الحضرة ولا إلى الجبل أحد ممن معك ولا لهم نفقات تنهضهم فإن أردت أن تمضي في عشرين غلاماً إلى السلطان فذاك إليك. فأجاب البريدي عن كتابه بأنه يروي ويذكر له ما عنده بعد أن استمهلهُ شهراً ليتأهب لِلسفر الذي يقصده فعاد إليه من جواسيسه واحدٌ كذبه فأخبرُه بأن الجيش وافى عسكر مكرّم ونزلوا الدور وانبسطوا في المدينة فأحضر غلامُه مونساً وقال له: ظفرنا والحمد للّه بعدوِّنا وكافر نعمتنا فنسير من تستر وقت عتمة ونصبّح عسكر مكرم والقوم غارّون في الدور فنكبسهم ونشردهم ونمتد إلى الأهواز فلا يثبت لنا البريدي بل يكون همَّه الهرب لوجهه. فقال مونس: أرجو أن يكون هذا صواباً.

وسار ياقوت ووصل إلى عسكر مُكرم وقد بدأت الشمس من مطلعها وامتدَّ مشتقّاً المبار إلى ناعورة السبيل ونهر جارود فلم ير لِرجال البريدي أثراً فخيَّم ونزل عند النهر ومضى يومه إلى آخره وهو متعجب من الغرور الذي غرّهُ جاسوسه فلما كان وقت العصر ظهرت الطلائع ثم أقبل العسكر وأميرهم أبو جعفر الجمال فنزل على فرسخ من ياقوت وحجز الليل بين العسكرين. وأصبح فكانت بينهم مناوشة ومبارزة واتّعدوا للحرب في اليوم الذي يليه لأن عسكر البريدي كانت منتظراً عسكراً قد سيره البريدي على طريق دجيل ليدخل من ضفته كميناً على ياقوت حتى يصير وراءه. ثم أصبحوا في اليوم الثالث من ورود ياقوت عسكر مكرم فابتدأت الحرب منذ وقت طلوع الشمس إلى وقت الظهر وثبت ياقوت ومعه ممن نصره مثل مونس وآذريون ومشرق وغيرهم في دون ألف رجل فأعيا من بإزائهِ من أبي جعفر الجمال وغيره على كثرة عددهم حتى كادت البريدية تنهزم. وجاءت الظهر وقد بلغت القلوب الحناجر فطلع الكمين وهم ثلاثة آلاف رجل جامين فأبلس ياقوت وقال: لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم. وأومأ إلى مونس أن يقصدهم ويكفيه إياهم فعدل مونس مع ثلاثمائة رجل إليهم وبقي ياقوت في خمسمائة رجل فما مضت ساعة حتى وافى منهزماً فرمى ياقوت نفسه من دابته ونزع سلاحه وما عليه من ثيابه حتى بقي بسراويل وقميص سينيزي ثم أوى إلى رباط يعرف برباط الحسين بن دبار فاستند إليه ولو دخل الرباط واستتر فيه لا نستر أمرُه ولجنَّهُ الليل ولجاز أن يسلم. فجلس بحيث ذكرت وهو بقرب ناعورة السبيل وغطّى وجهه ومدّ يدَه يسأل ليقدّر فيه أنه من أرباب النعم افتقر وهو يطلب هدية فركب إليه قوم من البربر ورأوه بهذه الصورة فطلبوه بكشف وجهه فامتنع وأومأ إليه أحدهم بمزراق فقال: أنا ياقوت احملوني إلى البريدي. فاجتمعوا عليه وحزوا رأسه وانهزم مونس ومشرق وآذريون إلى تستر واتبعهم الأعراب والبربر فأسروهم وردوهم. وأطلق أبو جعفر الجمال طائراً بالخبر إلى البريدي يستأذن في رأس ياقوت فردّ إليه في الجواب مع غلام يركض

بأن يجمع الرأس والجثة ويدفن الجميع في الموضع الذي قتل فيه وقبض البريدي على المظفر ابنه مدة ثم أنفذه إلى الحضرة.

وطغى البريدي بعد ذلك وشهر نفسه بالعصيان وقد كانت نفسه ضعيفة فيما ارتكبه من أمر ياقوت فقواها أخوه أبو يوسف حتى جهز إليه العساكر وقتله فحكى أبو زكريا يحيى ابن سعيد السوسي أنه سمع أبا يوسف البريدي يخاطب أبا عبد اللّه أخاه فقال أبو عبد اللّه: يا أخي أخاف أن تتعصب الحجرية علينا فيقتلونا إن دخلنا الحضرة يوماً وفي العاجل لستُ آمن على أخي أبي الحسين وهو بالحضرة أن يقتل بثأره. فقال أبو يوسف: أما أبو الحسين فنحن نكتب إليه بالخبر حتى يأخذ لنفسه ويستظهر وأما الحجرية ودخولنا الحضرة بعد أن وسمنا بمصادرة اثني عشر ألف ألف درهم فهيهات من ذلك أبعد تخلُّصنا من القاهر ومن الخصيبي الملعون وسلامة أرواحنا نحدّث أنفسنا بدخول الحضرة بلى ستهدم منازلنا وإلى لعنة اللّه ما نعود إلى الحضرة فنحتاج إليها وقد دبرت ودع يا أبا عبد اللّه ما اعتدت فإنك لا ترى مثله مع خلوقة الزمان وإدبار الملك وفقر الخلافة وقد كنا نتكسب من السلطان وهو اليوم مثلنا نحن بل نحن مكسب له يريد أن يجتاحنا ويأخذ مالنا ومتى لم نعتصم بهذه العساكر المجتمعة ونخرج ياقوتاً منها سقطنا ثم يطول علينا أن نجد من أيامنا يوماً وواللّه ما أشرت عليك بما تسمع إلا بعد أن استعددت له ما يعينني عليه وقد واقفتك على هذا سراً وجهراً وأبو زكريا ممن لا نحتشمه. (قال أبو زكريا) وإنما أومأ أبو يوسف بهذا القول إلى مال السوس وجنديسابور فإن أبا عبد اللّه كان أجمَّه عنده استظهاراً وأناخ في النفقات وأرزاق الأولياء وما كان يعلّل به السلطان على أموال كور الأهواز الباقية وكان يجتذب القطعة فالقطعة منها ويجعل ذلك وراءه ولم يكن له نفقة ولا بذخ حينئذٍ. وما وهب قط لطارق ولا شاعر ولا ولد نعمة شيئاً وكان عارفاً بورود الأموال وخرجها وجميعها تجري على يده فإن شذّ منها شيء عنه إلى إسرائيل بن صلح وسهل بن نظير الجهبذين لم يخف عليه مبلغه قال واستخرج أبو عبد اللّه وأخوه أبو يوسف من كور الأهواز بعد تقليد الراضي إياهما لسني اثنتين وثلاث وأربع وعشرين وثلاثمائة وإلى شعبان من سنة خمس (فإن بجكم هزمهم وأخرجهم عنها في هذا الشهر) ثمانية آلاف ألف دينار وجميع ما خرج عنها في جميع وجوه النفقات دون أربعة آلاف ألف دينار حاصلة وسمعت يعقوب الصيرفي اليهودي يقول: سمعت أبا عبد اللّه يقول: نمضي إلى البصرة فإن تم لنا بها أمر فقد كفينا وإن حزبنا أمر لا نطيقه قصدنا عمان واستجرنا بصاحبها (يعني يوسف بن وجيه) فإنه حُرّ ودبرنا أمرنا فأما إن عبرنا إلى فارس واستجرنا بعلي بن بويه فإن دولة الديلم قوية والحضرة مدبرة وأما إن عبرنا إلى التيز ومكران وقصدنا صاحب خراسان فالطريق إليها جدد.

وعدنا إلى ذكر أخبار الحضرة وتدبير الوزراء لها. كان الوزير غير ناهض بالوزارة وما زالت الإضاقة تزيد ومن في يده مال من المعاملين يطمع وقطع ابن رائق الحمل من واسط والبصرة والبريديون من الأهواز وعلي بن بويه قد تغلب على فارس وابن الياس على كرمان. فتحيّر أبو جعفر الكرخي واعتدت المطالبات عليه وانقطعت الموادُ عنه ونقصت هيبته فاستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وقت تقلده. ووجد في خزانته سفاتج لم تفض وما يجري هذا المجرى من العجز وقلة النفاذ في العمل.

وزارة سليمان بن الحسن

ولما استتر الكرخي استحضر الراضي سليمان بن الحسن أبا القاسم فقلده الوزارة والدواوين فكان في التحيُّر وانقطاع المواد عنه على مثل حال الكرخي فدفعت الضرورة الراضي بالله إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط وأذكره بما ضمن من القيام بالنفقات وإزاحة علة الجيش والحشم ومسألته عما عنده من المقام على ذلك أو الانصراف عنه. فتلقى أبو بكر محمد بن رائق الرسول بالجميل ووصله بألف دينار وأجاب عن الكتاب بأنه مقيم على ما ضمنه.

ذكر استيلاء ابن رائق على الخلافة وسائر الممالك

فأنفذ إليه الراضي ماكرد الديلمي من الساجية وعرفه أنه قلده الإمارة ورياسة الجيش وجعله أمير الأمراء وردّ إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون في جميع النواحي وفوض إليه تدبير المملكة وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك وبأن يكنّي وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ماكرد الديلمي وخادم من خدم السلطان وانحدر إليه أصحاب الدواوين كلهم وجميع قواد الساجية والحسن بن هارون. فلما حصلوا بواسط قبض على الساجية وعلى الحسن بن هارون قبل أن يصلوا إليه وحبس الساجية ونهبت رحالاتهم وقيل للحجرية: إنما فعلنا ذلك بالساجية لتتوفر أموالكم. وورد الخبر بذلك إلى بغداد وكان قد بقي من الساجية ببغداد خلق فخرجوا إلى الموصل وإلى الشام. واستوحش الحجريَّة ببغداد لما جرى على الساجيَّة بواسط فقصدوا دار السلطان وأحدقوا بها وضربوا خيمهم حولها ووجَّه ابن رائق بمونس الأفلحي وبارس الحاجب إلى بغداد فضربوا خيمهم في باب الشماسيَّة وقلَّد لؤلؤ الشرطة ببغداد. ثم أصعد محمد بن رائق من واسط يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجّة ومعه بجكم فرُتب محمد بن رائق فوق الوزير وخلع عليه وركب إلى مضربه في الحلبة وحمل إليه من دار السلطان الطعام والشراب والفواكه عدَّة أيام وخدمه في ذلك خدَم السلطان. واجتمع إليه الغلمان الحجريَّة وسلَّموا عليه وأمرهم بقلع خيمهم من دار السلطان والانصراف إلى منازلهم ففعلوا.

وبطل منذ يومئذٍ أمر الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ولا كان له غير اسم الوزارة فقط وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان بسوادٍ وسيف ومنطقة ويقف ساكتاً وصار ابن رائق وكاتبهُ ينظران في الأمر كلّه وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الأمراء فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون وبطلت بيوت الأموال.

وفي هذه السنة ملك ابن إلياس كرمان وصفت له بعد حروب جرت له مع جيش خراسان.

وفي هذه السنة جرت الحادثة على أبي الحسين أحمد بن بويه وأصيب بيده ووقع بين القتلى ثم تخلص وأفضى أمره إلى ملك العراق.

ذكر السبب في ذلك

لما تمكن علي بن بويه بفارس وتمكن أخوه الحسن بن بويه بأصبهان نظر في أمر أخيه الأصغر أبي الحسين أحمد بن بويه فتقرّر الأمر بينهما مكاتبةً ومراسلةً على أن يتوجه إلى كرمان فضمّ إليه علي بن بويه عسكراً فيه من كبار الديلم ومذكوريها ألف وخمسمائة رجل ونحو خمسمائة رجل من الأتراك ومن يجري مجراهم. وكان يكتب لأبي الحسين في ذلك الوقت رجل يعرف بأبي الحسين أحمد بن محمد الرازي وكان ممتعاً بإحدى عينيه ويعرف بكوردفير ولم تكن له صناعة ولكنه كان واسع الصدر شجاعاً فورد السيرجان واستخرج منها مالاً وأنفقه في عسكره. وكان إبراهيم بن سمجور الدواتي من قبل صاحب خراسان محاصراً لمحمد بن إلياس بن اليسع الصغدي فلما بلغ ابن سمجور خبر الديلم رجع إلى خراسان ونفّس عن خناق محمد بن إلياس فتخلص وانتهز الفرصة وخرج عن القلعة التي كان فيها إلى مدينة بمّ وهي على مفازة تتصل بسجستان. فسار أحمد بن بويه إليه فرحل إلى سجستان من غير حرب فانصرف من هناك وتوجَّه إلى جيرفت وهي قصبة كرمان واستخلف على بمّ بعض قوَّاده. فلما أشرف على جيرفت تلقاهُ رسول علي بن الزنجي وكان رئيس القفص والبلوص وهو المعروف بعلي بن كلويه وكان هو وأسلافه متغلبين على تلك الأعمال إلاّ أنهم يجاملون كلّ سلطان يَرِد عليهم ويذعنون له ويحملون إليه مالاً معلوماً ولا يطؤون بساطهُ. فبذل لأحمد بن بويه ذلك المال على الرسم فأجابه بأن الأمر في هذا إلى أخيه علي بن بويه وأنه لا بدَّ له من دخول جيرفت فإذا دخلها كاتبهُ وراسلهُ في ذلك وأمره أن يبعد عن البلد فاستجاب ورحل إلى نحو عشرة فراسخ من البلد في موضع وعر صعب المسلك. وتردَّدت المراسلات بينهما إلى أن تقرّر الأمر بينهما على أن ينفذ إليه رهينته ففعل

وقاطعهُ عن البلد على ألف ألف درهم يحملها في كل سنة وحمل في الوقت مائة ألف درهم منسوبة إلى الهدية وغير محسوبة من مال المقاطعة وأقام له الخطبة ثم حمل شيئاً من مال التعجيل وسلك سبيل الوفاء معه. فأشار كوردفير الكاتب على أحمد بن بويه بأن يسري إليه ناقضاً ما بينهما من العهود فإنه سيجدهُ غير متحرّز وأصحابه غارّين لسكونهم إلى وقوع الاتفاق وزوال الخلاف فيفوز بأموالهم وذخائرهم ويستولي على ديارهم ويتمّ له ما لا يتمّ لأحد قبله.

ذكر ما كان من عاقبة هذا الغدر والنكث

أصغى أبو الحسين أحمد بن بويه إلى كاتبه ووقع بوفاقِه لحداثة سنِّهِ واغترارِهِ فحمل نفسهُ على مفارقة ما يجب عليه في الدين والمرُوءة. وجمع صناديد عسكره وخلّف سوادَهُ وما يجري مجراهُ وأسرى للوقت إلى القوم وذلك عند صلاة العصر ليصبّحهم بياتاً. وكان علي بن كلويه متيقظاً قد وضع عيونه عليه فسبق إليه الخبر فجمع أصحابه ورتبهم على مضيق بين جبلين كان الطريق فيه فلما توسط أبو الحسين في الليل مع أصحابه ثأروا به من جميع الجوانب فقتلوا وأسروا رجال العسكر فلم يفلت منهم إلاّ اليسيرُ. ووقعت بأبي الحسين أحمد بن بويه ضربات كثيرة كانت ظاهرة فيه وطاحت يده اليسرى وبعض أصابع يده اليمنى وأثخن بالضرب في رأسه وسائر جسدِهِ وسقط بين القتلى وورد الخبر بذلك إلى جيرفت فهرب كاتبه كوردفير ومن تأخّر من أصحابه: ولما أصبح علي بن كلويه أمر بتتبع القتلى والتماس أحمد بن بويه فوجدوه حيًا إلاّ أنه قد أشفى على التلف فحمل إلى جيرفت وأقبل علي بن كلويه على علاجه وخدمته وبلغ في ذلك كلَّ مبلغ واعتذر إليه وأظهر الغمّ بما أصابهُ. واتصل الخبر بعلي بن بويه فاشتدّ غمّهُ وقبض على كوردفير وأنفذ مكانه أبا العبّاس وخطلخ حاجبه في ألفي رجل ليجمعا ما بقي من سواد معزّ الدولة (أعني أحمد بن بويه) بالسيرجان ويضُما من بقي من فلّ العسكر. وأنفذ علي بن كلويه رُسله وكتبه إلى علي بن بويه بالاعتذار مما جرى ويوضح له الصورة ويبذل من نفسه الطاعة ويذكر أنه ما فارقها ولا خرج عنها فأنفذ إليه علي بن بويه قاضي شيراز وأبا العباس الحنّاط وأبا الفضل العباس بن فسانجس وجماعة من الوجوه وأجابهُ بالجميل وبسط عذره وأمضى ما كان قرّره وردَّ رهينتهُ وجدّد له عهداً وعقداً. فحينئذٍ أطلق علي بن كلويه أبا الحسين أحمد بن بويه وأطلق معه اسفهدوست وسائر من كان أسيراً في يده بعد أن أجمل معاملتهم وخلع عليهم وحمل إليهم آلات وألطافاً. فلما وصل أحمد بن بويه إلى السيرجان وجد كاتبهُ مقبوضاً عليه وقد جرى عليه مكاره عظيمة أشرف منها على التلف فاستنقذهُ ونصرَهُ وبرّأهُ من الذنب وشفع إلى أخيه فيه فشفّعهُ وأطلقه.

وتأدّى إلى أبي علي بن إلياس ما جرى على أبي الحسين وطمع فيه وسار من سجستان حتى نزل البلد المعروف بخُناب فتوجه إليه أبو الحسين واشتدّت الحرب بينهما أيّاماً إلاّ أن عاقبة الأمر كانت لأبي الحسين فانهزم ابن إلياس وعاد أبو الحسين ظافراً. وتتبعت نفسه التشفي من علي بن كلويه وطلب الثأر عنده فتوجه إليه واستعدّ علي بن كلويه واحتشد ثم سار إليه فلما صار بين العسكرين نحو من فرسخين نزل وعملوا على مباكرة الحرب فأسرى علي بن كلويه في جماعة من أصحابه وهم قوم رجّالة قادرون على العدو والمعابرة فيه فوقع على عسكر أبي الحسين ليلاً. واتفق إن تغيّمت السماء بمطر جود واختلط الناس فلم يتعارفوا إلا باللغات فأثروا في عسكر أبي الحسين وقتلوا ونهبوا وانصرفوا وبات عسكر أبي الحسين بقية ليلتهم يتحارسون فلما أصبحوا ساروا إلى القوم فأوقعوا بهم وقتلوا منهم عدّة وانهزم علي بن كلويه ورجع أبو الحسين وقد تقع بعض غلّته إلا أن في صدره بعدُ حزازات. وكتب إلى أخيه علي بن بويه بالبشارة والظفر بابن إلياس وانهزامه وبعلي بن كلويه وهربه فورد عليه الجواب بأن يقف حيث انتهى ولا يتجاوزه وأنفذ إليه المرزبان بن خسرة الجيلي أحد قوّاده الكبار ليبادر به إلى حضرته ويمنعه التلوُّم والمراجعة وكاتب سائر القوّاد بمثل ذلك فرجع إلى حضرته كارهاً لأنه ما كان بلغ ما في نفسه من علي بن كلويه وأصحابه فلما وصل إلى اصطخر أقام.

ذكر ما اتفق له من الخروج إلى بلدان العراق حتى ملكها

واتفق أن أبا عبد اللّه البريدي وافى فارس في البحر لاجئاً إلى علي بن بويه وذلك أن محمد بن رائق وبجكم استظهرا عليه في عدّة حروب وانتزعا الأهواز من يده وأشرفا على انتزاع البصرة منه. فخلّف أخاه أبا يوسف وأبا الحسين علي بن محمد بها. فلما ورد حضرة علي بن بويه مستصرخاً به أكرمه وأحسن ضيافته وبذل له أبو عبد اللّه إذا ضم إليه الرجالَ أن يمكّنه من أعمال العراق ويصحّح له أموالاً عظيمة من الأهواز ويسلّم إليه ولدَين له رهينة. واستقدم علي بن بويه أخاه أبا الحسين من اصطخر فلما قرُب منه تلقّاه في جميع عسكره وقربهُ ورتبهُ فوق ما كان في نفسه تسليةً له عن مصيبته ثم أنهضهُ مع أبي عبد اللّه البريدي في عسكر قوي وعدة تامة وسار. واتصل خبره بمحمد بن رائق وبجكم فأما بجكم فإنه عاد إلى الأهواز وكان مع ابن رائق بعسكر أبي جعفر محاصرين البصرة وأراد أن يمنع الديلم من تورُّد الأهواز وأما ابن رائق فعاد إلى واسط والتقى عسكر بجكم وعسكر أبي الحسين بالقرب من رامهرمز وانحاز بجكم إلى عسكر مكرم بعد حروب سنذكرها إن شاء اللّه في سنة ست وعشرين.

ودخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

وفيها أشار أبو بكر محمد بن رائق علي الراضي باللّه أن ينحدر معه إلى واسط

ليقرب من الأهواز ويراسل البريدي فإن انقاد إلى ما يراد منه وإن مرق عليه قصده. فاستجاب الراضي إلى ذلك وانحدر يوم السبت غرة المحرم واضطربت الحجرية وقالوا: هذه تعمل علينا ليعمل بنا ما عمل بالساجية ونحن نقيم ببغداد. فلم يلتفت ابن رائق إليهم وانحدر بعضهم وتأخر أكثرهم ثم انحدر الجميع فلما صاروا بواسط عرضهم ابن رائق وبدأ بخلفاء الحجاب وكانوا نحو خمسمائة حاجب فاقتصر منهم على ستين وأسقط الباقين ونقص ابن رائق من أقرَّ منهم. وأخذ يعرض الحجرية ويسقط منهم الدخلاء والبدلاء والنساء والتجار ومن لجأ إليهم فاضطربوا من ذلك ولم يستجيبوا إليه ثم استجابوا وعرضهم وأسقط منهم عدداً كثيراً ثم اضطربوا وحملوا السلاح فحاربهم ابن رائق يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم حرباً عظيمةً فكانت على الحجرية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وانهزم الباقون إلى بغداد فركب لؤلؤ صاحب الشرطة ببغداد وأوقع بالمنهزمين واستتروا فنهبت دورهم وأحرق بعضها وقُبضت أملاكهم. فلما فرغ ابن رائق من حرب الحجرية وقهرهم تقدم بقتل من كان اعتقلهم من الساجية فقتلوا سوى صافي الخازن والحسن بن هارون.

فلما فرغ من الساجيَّة والحجريَّة عمل الراضي باللّه وأبو بكر بن رائق على الشخوص إلى الأهواز ودفع البريدي عنها وأخرجت المضارب إلى ياذبين وبلغ البريدي ذلك فقلق قلقاً شديداً وأُنفذ إليه أبو جعفر بن شيرزاد وأبو محمد الحسن بن إسماعيل الإسكافي برسالة من الراضي باللّه ومن ابن رائق يعرّفان أنه قد أخّر الأموال واستبدَّ بها وأفسد الجيوش وحسَّن لها المروق وأنه ليس بطالبيّ يسارع على الملك ولا بجنديّ فيبتغي الإمارة ولا من حملة السلاح فيؤهل لفتح البلاد المنغلقة وأنه كان كاتباً صغيراً فرفع بعد خمول وعاملاً من أوسط العمال فاصطنع وأهّل لجليل الأعمال فطغى وكفر النعمة وجازى عن الإحسان بالسوء وخلع الطاعة وأنه إن سلَّم الجند وحمل المال أقرَّ على العمال وإلاّ قُصِد وعومل بما يستحقُّ.

فوافياهُ وأخبراهُ بما تحمّلاه ونصحا له فعقد على نفسه كور الأهواز بثلاثمائة وستين ألف دينار يحمل منها في كلِّ شهر من شهور الأهلة ثلاثين ألف دينار وأن يسلّم الجيش ممن يؤمر بتسليمه إليه ممن يؤمَّر عليهم ليخرج بهم إلى فارس للحرب إذ كانوا كارهين للعود إلى الحضرة لضيق الأموال بها ولاختلاف كلمة الأولياء فيها ولأنهم لا يأمنون الأتراك والقرامطة. وكاتبا ابن رائق بذلك فعرضهُ على الراضي باللّه وشاور فيه الحسين بن علي النوبختي فأشار بألاّ يقبل منه ذلك وأن يتمم ما شرع فيه من قصده ما دام قلبه قد نخب وأن يخرج الأهواز من يده ولا يقارّ بها. وأشار أبو بكر بن مقاتل بقبول ما بذلهُ وإقراره في ولايته فمال ابن رائق إلى الهوينا وقبل رأي ابن مقاتل وكان

الرأي الصحيح مع النوبختي وكتب إلى ابن شيرزاد وابن إسماعيل وأذن لهما في العقد والإشهار ففعلا وانصرفا. فأما المال فما حمل منه دينار واحدٌ وأما الجيش فإنه أنفذ جعفر بن ورقاء لِتسلُّمه والنهوض إلى فارس به فوافى جعفر بن ورقاء الأهواز وتلقَّاهُ أبو عبد اللّه البريدي في الجيش كلّه كوكبةً بعد كوكبة حتى ملأ الأرض بهم واسودّت منهم حافّين بأبي عبد اللّه حوله فورد على جعفر بن ورقاء ما حيرَهُ. ثم أنفذت الخلع السلطانيّة إلى أبي عبد اللّه البريدي بالولاية وعُمالة الأهواز فلبسها في جامع الأهواز وانصرف إلى داره فمشى العسكر قوّادهم وفُرسانهم وصميمهم وعبيدهم ورجالتهم بخفاقهم وراياتهم وأسلحتهم بين يديه فيئس جعفر بن ورقاء وكان راكباً معه وانخزل وسقطت نفسه فلما بلغ داره احتبسهُ واحتبس القوّاد معه والناس وكان يوماً عظيماً. ثم أقام جعفر بن ورقاء أياماً فدسّ عليه البريدي الرجالَ فشغبوا وطالبوه بمال يفرق فيهم رزقة تامَّة للنهوض فاستتر واستجار بالبريدي فأخرجه وعاد إلى الحضرة. وعُني ابن رائق بأبي الحسين البريدي قبل هذه الحال حتى انحدر من بغداد ولحق بأخويه ولما تقرّر أمر البريدي أصعد الراضي باللّه وابن رائق إلى بغداد.

ودخل أبو عبد اللّه الحسين بن علي كاتب الأمير ابن رائق بغداد.

ذكر حيلة أبي بكر بن مقاتل على الحسين بن علي النوبختي حتى عزله عن كتابة ابن رائق

وكان أبو بكر محمد بن مقاتل متمكناً من ابن رائق التمكُّن المشهور منحرفاً عن الحسين بن علي النوبختي بعد المودّة الوكيدة وكان هو أوصلهُ إلى ابن رائق وأدخله في كتابته فلهذا ولأن الحسين بن علي فوقه ومتفرّد بابن رائق (وهو المدبّر للملك والّذي بنى لابن رائق تلك الرتبة العظيمة والذي ساق إليه تلك النعمة وجمع له تلك الأموال التي كان مستظهراً بها من ضمان واسط والبصرة) أشار على ابن رائق أن يعتضد بأبي عبد اللّه البريدي وأن يستكتبه ليتفق الكلمة ويجتمع جيش الأهواز إلى جيشه وقال له: أيُّها الأمير لك في ذلك جمالٌ عظيم لأنه اليوم كالنظير لك فإذا تواضع وصار تابعاً جاز حكمك عليه. وسيقال لك إن البريدي غدر بالسلطان وبياقوت فكيف تثق به؟ فالجواب عن هذا أنه ليس يجمعكما أرضٌ فتتمّ حيلته عليك كما تمت على ياقوت وأنت غير قادِرٍ عليه إلاّ بحرب وقد يجوز أن تظفر به لو يظهر هو فإذا كنا قد انتهينا إلى هذه الحال معه فحطُّهُ من الإمارة إلى الكتابة وتصييره تابعاً ثم جذْبُ رجاله وجيشه بالخدعة أو إنفاذهُ مع بجكم ليفتح لنا فارس وأصبهان أولى من دفعه عمّا سأل وإيحاشه فيحتاط لنفسه ويخبب الرجال وقد حمل إلى الأمير مع هذا ثلاثين ألف دينار هدية هي في منزلي. وقال له ابن رائق: ما كنتُ لأصرف الحسين بن علي مع نصحه لي وتبركي به ولو فتح لي فارس وأصبهان

وساقهُما إليّ خصوصاً وأهداهُما لي دون غيري. قال: أيها الأمير فإن كرهتَ هذا فضمِنهُ واسطاً والبصرة. فقال: هذا لفعلتهُ إن أشار به أبو عبد اللّه الحسين بن علي. قال: فتكتمهُ أيّها الأمير خوضنا في الكتابة ولا تذكرها.

وحضر أبو عبد اللّه الحسين بن علي بعد ذلك وعرض عليه هذا الرأي فضجّ منه وعدد مساوي البريديّ وغدرَهُ وكفرَهُ الصنائع منذ ابتداء أمرهم وإلى أن كاشفوا بالعصيان وأعاد حديث ياقوت ثم التفت إلى ابن مقاتل فقال: ما قضيتَ حقّ هذا الأمير ولا نصحته. ثم قال: أنا عليلٌ أيها الأمير فإن عشتُ وأنا معك فهيهات أن يتمّ عليك وإن مضى في حكم اللّه فنشدتك اللّه أن تأنس بالبريدي أو تسكن إليه بشيء من أصناف حِيله. فدمعت عين ابن رائق وقال: بل يحييك اللّه ويهلكهُ (وكان الحسين بن علي عليلاً من حُمى وسعال) ثم انصرف الحسين بن علي وابن مقاتل مغضبٌ فقال لابن رائق: قد حمل الرجل إليك ثلاثين ألف دينار ولا بدّ من أن تعمل به جميلاً فأقبل أحمد بن علي الكوفي خليفة لنا بحضرتك ونائباً عنه إلى أن ترى رأيك. فقال: أما هذا فنعم.

وكتب ابن مقاتل إلى البريدي بما جرى وأنفذ أحمد بن علي الكوفي ووافى حضرة أبي بكر محمد بن رائق بمدينة السلام واختلط به نيابة عن أبي عبد اللّه البريدي ونقل الحسين بن علي النوبختي فتأخّر عن الخدمة أياماً. وكان له ابنُ أخ قد صاهرهُ فهو يخلفه في مجلس ابن رائق ويوقع عنه فقال أبو بكر بن مقاتل للأمير ابن رائق: حُسن العهد من الإيمان وهو من الأمير أحسَنُ لأنه عائذٌ بالسلامة عليّ ولكن إضاعة الأمور ليس من الحزْم والحسين بن علي ميّتٌ فانظرْ لنفسك فإن الأمور قد اختلّت. فقال: يا هذا الساعة واللّه سألتُ سِنان بن ثابت عنه فقال: «قد صلح وخفّ النفث وأنه أكل الدُرّاج» فقال: سنان رجل عاقل ولا يحبُّ أن يلقاك فيمن تعزّ بما تكرهُ ولا سيّما هو وزير الزمان اليوم ولكن صهرُهُ وابن أخيه خليفته احضرْهُ وحلّفهُ أن يصدقك. قال: افعلْ. وانصرف ابن مقاتل ودعا علي بن أحمد ابن أخي الحسين بن علي وقال له: قد مهّدتُ لك كتبة الأمير وواقفتهُ على تقلُّدك إياها وهي وزارة الحضرةِ وعمك ذاهبٌ فإن سألك فعرّفه أنه ميتٌ لا محالة فإني أعود إليه وأُناجزهُ فيخلع عليك قبل أن يطمع فيها غيرك. فاغترّ علي بن أحمد وسأله محمد بن رائق من غد بعد أن أخلى نفسه عن خبر عمِّهِ فكان جوابه إن بكى وقال: أعظم اللّه أجرك أيها الأمير في أبي عبد اللّه عُدّهُ من الأمواتِ. ثم لطم وجهه فقال ابن رائق: لا حول ولا قوة إلاّ باللّه أعزز عليّ به لو فدى حيٌّ ميتاً لفديتهُ بملكي كلّه. واستدعى ابن مقاتل فقال له: كان الحقّ معك قد يئسنا من الحسين بن علي فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون فأي شيءٍ نعملْ فقال: هذا أبو عبد اللّه أحمد ابن علي الكوفي نظير الحسين بن علي وكانا صنيعتي إسحاق بن إسماعيل النوبختي هو

في نهاية الثقة والعفاف وهو خصيص بأبي عبد اللّه البريدي وإن أنت استكتبتَهُ اجتمعت لك كفاية إلى عفافه واستقصائهِ وانضاف إلى ذلك كلّه حصول أولئك في جملتهم وانقطاعهم إليك ونعتدّ على أبي عبد اللّه أنّا قد أجبناهُ إلى ما سأل من كتابتك واستخلفنا صاحبه أبا عبد اللّه الكوفي فقال: استخر اللّه وافعلْ ولكن عهدة أبي عبد اللّه الكوفي عليك ألاّ يغشّني ويوثر البريدي في حالٍ من الأحوال. فقال: أنا الضامنُ عن أبي عبد اللّه الكوفي كلّ ما شرطهُ الأمير. فاستكتبهُ فدبَّر الأمور كلها كما كان يُدبِّرها الحسين بن علي وأسقط من الكتب التي تكتب عن ابن رائق وكتب «فلان بن فلان» وكان الحسين ابن علي يكتب ذلك على رسم الوزارة فكانت مدّة تدبير الحسين بن علي النوبختي لأمور المملكة ثلاثة أشهر وثمانية أيام. وكتب أبو بكر بن رائق إلى أبي عبد اللّه البريدي يعتدّ عليه بما احتال له حتى زحزح الحسين بن علي وساق الأمر إليه واستخلف له أبا عبد اللّه الكوفي فحمل إليه أبو عبد اللّه البريدي عشرة آلاف دينار التي قدمنا ذكرها واستقلّ الحسينُ بن علي النوبختي وصحّ جسمهُ وعوفي فكتم ذلك عن ابن رائق وتمكن البريديون حتى غلبوا على البصرة.

ذكر الخبر عما احتالوا به واتفق أيضاً لهم

لم يمض شهرٌ من استكتاب ابن رائق أبا عبد اللّه الكوفي حتى شرع لأبي يوسف البريدي في ضمان البصرة وواسط فأشار علي بن رائق بذلك فقال: لا أفعلُ ولا أثقُ بهما. قال له: ولِمَ أيها الأمير؟ أما واسط فأنا مُدبرُها وليس يرد لهم إليها ولا راجل وعليّ توفية مالها وأما البصرة فقد قرّرتُ أمرَها على أربعة آلاف ألف درهم على أن يقيم لي بها ضمناء ثقات. وأشار أبو بكر بن مقاتل بمثل ذلك فأذن ابن رائق في العقد عليه فقلد أبو يوسف أبا الحسن بن أسد أعمال الخراج بالبصرة (وكان والي الحرب بها محمد ابن يزداد) فخرج أهل البصرة بأجمعهم إلى سوق الأهواز لتهنئة البريدي بالولاية وكان جمعهم عظيماً جداً. وكان أبو الحسين بن عبد السلام الهاشمي وجيه البصرة قد شذ عن ابن رائق لأنه قصر به وحط منه بالبصرة فقصد أبا عبد اللّه البريدي وأبا يوسف أخاهُ فطرح نفسه كلّ مطرح عندهما وأشار إليهما بالغلبة على البصرة وإنفاذ العساكر إليها وذكر طاعة الخَوَل وأهل الأنهار له فأخذ أبو عبد اللّه في بناء الشذاآت والزبازب والطيّارات والاستكثار منها حتى اجتمعت له مائة قطعة في نهاية الوثاقة والجودة. فحين وافاهُ أهل البصرة للتهنئة قرّبهم وأكرمهم ورفع منهم وقال: قد اطّلع أبو الحسين بن عبد السلام على نيّتي الجميلة فيكم ومحبتي لصلاحكم وإعداد آلة الماء للجيوش الذين أحصن بهم بلدكم من القرامطة وكنت مستغنياً عن ضمان البصرة إذ لا فائدة لي فيها وإنما امتعضتُ لكم من ظلم ابن رائق ومحمد بن يزداد خليفته لكم وتحملت في مالي

أربعة آلاف دينار في كلّ شهر بإزاء ما كان يؤخذ من الشرطة والمآصير والشوك تخفيفاً عنكم وقد أزلت جميعها وهذا خطي برفعها عنكم. ووقع بذلك توقيعاً وسلمه إليهم وكثر الدعاء والضجيج بشكره ثم قال لهم: إنه سيبلغ هذا ابن رائق فينكره ويوحشه مني ويصير سبباً للعداوة بيني وبينه ووالله ما أبالي أن يعاديني أخواي أبو يوسف وأبو الحسين وابني أبو القاسم في صلاحكم لأني أعلم أن فيكم بني هاشم وطالبيين وأولاد المهاجرين والأنصار ومن حرمة الإسلام صيانتكم وإني لأقدر أن الله عزّ وجلّ يغفر لي كل ذنب بإزالة الأذيّة عنكم وسيروم ابن رائق ردّ ما قد أزلته عنكم من هذا الحُطام الذي كان يأخذه فأين السواعد القويّة والنفوس الأبيّة التي حاربت علي بن أبي طالب صلوات الله عليه! فمتى رام ابن رائق نقض ما عملت فاضربوا وجهه ووجوه أصحابه بتلك السواعد والسيوف وأنا من ورائكم. ثم ذكر أهل البصرة بأيامهم مع عبد الرحمن بن الأشعث ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن بن حسن وقال: لتكن قلوبكم قوية وآمالكم فسحة ونفوسكم شديدة في مجاهدة عدوكم. ثم وقع للنفقة على المسجد الجامع بالبصرة بألفي دينار وقال: بلغني أنه خراب. وعرضت عليه الرقاع بالحاجات فوقع بحطائط ونظر وصلات وتخفيف في المعاملات بألفي ألف درهم وانصرفوا عنه وقد صاروا سيوفه. وسير إقبالاً غلامه وحاجبه وكانت له نوبة مع أبي جعفر الجمّال وضم إليه ألفي رجل وقال: أقيموا بحصن مهدي إلى أن نكاتب إقبالاً الحاجب بالمسير بهم إلى البصرة. واتصل ذلك بابن يزداد فقامت قيامته.

وفي هذه السنة قلد محمد بن رائق أبا الحسين بجكم الشرطة بمدينة السلام وقلد الحسين عمر بن محمد قضاء القضاة مع الأعمال التي إليه.

وأمر الغلمان الحجرية المستترين ببغداد فظهروا وصاروا إليه بالسلاح فعرضهم وامضى من جملتهم نحو ألفي رجل وأثبتهم برزق مستأنف على ما رآه وأسقط الباقين وأخرج من أمضاه وقرر رزقَهُ إلى الجبل فلما صاروا بطريق خراسان أجمع رأيهم على المضي إلى الأهواز فمضوا إلى أبي عبد الله البريدي فقبلهم وأضعف أرزاقهم وخاطبهم بالترثّي لهم مما جرى عليهم من ابن رائق والتعجب منه ووعدهم الإحسان التامّ وأظهر للسلطان وابن رائق أنه لم يكن به طاقة لما صاروا إليه أن يدفعهم وأنه اضطرَ إلى قبولهم وجعلهم حجة في قطع ما كان ووُقِف على حمله واحتج بأنهم اجتمعوا مع الجيش ومنعوه من حمل مال البلد وغلب على الأهواز والبصرة. فصارت الدنيا في أيدي المتغلبين وصاروا ملوك الطوائف وكلّ من حصل في يده بلد ملكه ومنع ماله.

فصارت واسط والبصرة والأهواز في أيدي البريديين وفارس في يد علي بن بويه وكرمان في يد أبي علي بن الياس وأصبهان والري والجبل في يد أبي علي الحسن بن

بويه ويد وشمكير يتنازعونها بينهما والموصل وديار ربيعة وديار بكر في أيدي بني حمدان ومصر والشام في يد محمد بن طغج والمغرب وأفريقية في يد أبي تميم والأندلس في يد الأموي وخراسان في يد نصر بن أحمد واليمامة والبحرَين ومجر في يد أبي طاهر بن أبي سعيد الجنّابي وطبرستان وجرجان في يد الديلم. ولم يبق في يد السلطان وابن رائق غير السواد والعراق. ولما حصلت ديار مضر خاليةً قد خرِبت وضاق مالها عن كفاية السلطان خرج عنها بدر الخرشني وكان يتولى الحرب بها وعاد إلى الحضرة فلما خلت من صاحب معونةٍ قصدها علي بن حمدان فغلب عليها. وزاد في مرض أبي عبد اللّه الحسين بن علي النوبختي ما رآه من انتقاض كلَ ما كان نظمَهُ وما تم عليه من الحيلة فآل أمرُهُ إلى السِلّ.

وفي هذه السنة انكشفت الوحشة بين محمد بن رائق وبين البريديين.

ذكر السبب في ذلك

اتفق أن وافى أبو طاهر القرمطي الكوفة فدخلها في شهر ربيع الآخر من سنة ٢٥ فخرج ابن رائق من بغداد ونزل في بستان ابن أبي الشوارب بقنطرة الياسريَّة وأنفذ أبا بكر ابن مقاتل برسالة إلى أبي طاهر الهجري وكان أبو طاهر يطالب بأن يحمل إليه السلطان في كل سنة مالاً وطعاماً بنحو مائة وعشرين ألف دينار ليقيم في بلده وبذل له ابن رائق بأن يجعل ما التمسهُ رزقاً لأصحابه على أن يكسر لهم السلطان جريدة وينفق فيهم ويدخلوا في الطاعة ويستخدموا. وجرت خطوبٌ بينهما ومخاطباتٌ انصرف معها أبو طاهر إلى بلده من حيث لم يتقرّر له أمرٌ مع ابن رائق. وبلغ ابن رائق إلى قصر ابن هبيرة ثم عاد منها إلى واسط وكاشف البريدي واستوزر أبا الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات.

ذكر السبب في ذلك

كان ظنَّ ابن رائق أنه إذا استوزر أبا الفتح جذب له الأموال من مصر والشام فقدم أبو الفتح من الشام ولزم سليمان بن الحسن منزله. وكان حمل إليه الخلع قبل وصوله إلى بغداد فوصلت إليه وهو بهيت فلبسها ثم دخل بغداد وأقرّ أبا القاسم الكلواذي على ديوان السواد واستخلف بالحضرة أبا بكر عبد اللّه بن علي النفَّري وهو زوج أختهِ وكتب السلطان في استيزارهِ أبا الفتح كتاباً نفذ إلى أصحاب الأطراف.

ولما بلغ ابن رائق ما خاطب البريدي به أهلَ البصرة قلق وتغير للكوفي واتَّهمهُ وهمْ بالقبض عليه فحامى عنه أبو بكر بن مقاتل ثم رأى أنه يغالط ابن البريدي بكتاب إليه فقال للكوفي. إنه بلغني أن صاحبك خاطب أهل البصرة بما أنا معرض عنه فإنه ربما وقع التزيد في مثله ولكن أكتب إليه. أن الذي أنكرته قبولك الحجرية فإما أن

تردهم وإما أن تطردهم وإن استأذنوكَ في ناحية يقصدونها فاضممْ إليهم من رأيتَ من قوّادك وأنفذْهم إلى الجبل وهذا العسكر الذي أنفذتَهُ إلى حصن مهدي فأنا أعلمُ أنه لما اتصل ورود الهجري إلى الكوفة استظهرت بإنفاذهِ لِيعين من فيها عليه إن احتيج إلى ذلك وقد استغنى الآن عنهم وفي مقامهم بالحصن مع الاستغناء عنهم تسليط الظنون السيئة عليك وإيجاد أعدائك سبيلاً إلى التضريب بيني وبينك.

وبلغني أنك قد كنتَ أنفذتَ أبا جعفر محمداً غلامك إلى السوس (وكان قد أنفذه على الحقيقة) وأمرتَهُ أن يقصد الطيب ويقيم بها إشفاقاً من أن يلحقني وهنٌ من القرامطة فإنّ احتيج إليه لحماية واسط كان قريباً وإني لما وافيتُ كاتبتهُ بالانصراف فعاد إلى الأهواز وهذا مشكورٌ فاعملْ في أمر إقبال ومن أنفذتَهُ إلى حصن مهدي كهذا العمل ثم أنا لك على الوفاء. فكتب الكوفي بهذا كله فكان الجواب: أن جيشه القديم متشبثون بالحجرية لأنهم أقاربهم وبين القوم وصلٌ ورحمٌ وبلديةٌ ولا يمكن إخراجهم جملةً واحدةً ولكنه على الأيام يفرّق شملهم وإن الأخبار تواترت بأن القرمطي لما انصرف عن الكوفة قصد البصرة واستجار به أهلها فأنفذ هذا العسكر إشفاقاً عليها وإنهم قد حصلوا بها.

وكان البريدي ساعة ورود الخبر عليه بنزول ابن رائق واسط أنفذ إلى من بحصن مهدي بدخول البصرة فدخلوها بعد أن أنفذ من الحجرية قطعةً وافرة لمعاضدتهم على دخولها. وأخرج محمد بن يزداد مكان الصغدي وتكين وكانا تُركيين من شحنة البصرة لِحربهم فوقعت بينهم وقعة في نهر الأمير انهزم بها الرائقية ثم زاد محمد بن يزداد في عدّتهم بالإثبات وبغلمان نفسه فكانت الوقعة الثانية بكسر أبان وبينها وبين الأبلّة فرسخٌ فانهزم الرائقيَّة هزيمة ثانية ودخل إقبال وجيش البريدي البصرة. وأما محمد بن يزداد صاحب ابن رائق فإنه فتح باب البصرة وهرب على طريق البرّ إلى الكوفة وأما مكان وتكين ورجال الماء الرائقية فإنهم اهتدوا في زبازبهم إلى واسط. وورد الخبر على ابن رائق بحصول إقبال غلام البريدي وأصحابه بالبصرة وجواب كتاب الكوفي في أيام متقاربة فأنفذ رسولاً إلى البريدي برسالة قسمها بين إرغاب وإرهاب ووعد ووعيد فكان من جوابه: أنه لا يمكنه ردَّ رجالهِ من البصرة لأن أهلها قد أنسوا بهم واستوحشوا من قبيح ما عاملهم به ابن يزداد في أيامهِ لأن القرمطي طامعٌ في البلد وليس يأمن متى كاتبهم بالانصراف أن يدخل القرامطة إلى البصرة ضرورة لئلا تعود المعاملة بين أهلها وبين ابن يزداد بعد أن كاشفوه.

وقد كان لعمري أهلُ البصرة في نهاية الاستيحاش من ابن رائق ومحمد بن يزداد فإن محمد بن يزداد سار بهم سيرة سدُوم وظلمهم في معاملاتهم ظلماً مفرطاً وسامَهم الخسف وكانوا قد اعتادوا العزّ وقدّروا بالبريدي خيراً ثم رأوا منه ومن أخويه ما ودّوا

أنهم أكلوا الخرشف والخرنوب وصبروا على محمد بن رائق ومحمد بن يزداد ومعاملته. ولما عاد الرسول بالجواب كان ابن رائق قد استدعى بدراً الخرشني وأكرمَهُ وخلع عليه خِلعاً سلطانيَّة وحملهُ. وترجح الرأي في تسيير الجيوش إلى الأهواز والبصرة ثم استقرّ الرأي على أن يقلَّد بجكم الأهواز بعد حديث لبجكم في ذلك مع ابن مقاتل سنذكرهُ فيما بعد إن شاء اللّه. وخلع عليه ابن رائق لذلك وسيرهُ وبدراً الخرشني إلى الأهواز وضمَّ إليه ابن أبي عدنان الراسبي دليلاً ومعيناً وأنفذ حاجبه فاتكا وعبد العزيز الرائقي وأحمد بن نصر القشوري وبرغوثاً وأمرهم أن يقيموا بالجامدة ويحصل جيش البريدي بين حلقتي البطان فبادر بجكم ولم يتوقف على بدر الخرشني ونفذ أمامهُ فوصل إلى السوس وأخرج البريدي محمداً غلامهُ المعروف بأبي جعفر الجمّال في عشرة آلاف رجل بأتمِّ آلة وأكمل سلاح للحرب فوقعت الحرب بظاهر السوس ومع بجكم مائتان وتسعون غلاماً من الأتراك فانهزم البريدية يوم نزول بدر بالطيب وقال بجكم: إنما بادرتُ وحملتُ على نفسي ما حملتُ ولاقيتُ هذه العدة العظيمة بهذه العِدَة اليسيرة لئلا يشركني بدلٌ في الفتح.

وعاد أبو جعفر الجمَّال إلى أبي عبد اللّه البريدي فصفعهُ بخفّه وقال: انهزمتَ مع عشرة آلاف من بين يدي ثلاثمائة غلام. فقال له: أنتَ ظننتَ أنك تحارب ياقوتاً المدبِر وجيشَهُ المدابير قد واللّه جاءك من لتّ بجكم والأتراك خلاف ما عهدت من سودان باب عمان والمولَّدين. فقام إليه فلكمهُ بيده ثم قال له: قد أنفذتُ أبا الخليل الديلمي ومن معي من العجم ومن كان يخلّف بالأهواز في ثلاثة آلاف رجل إلى تستر فأنفذ الساعة مع من صحبك إليها حتى تجتمع معهم وتعاود الحرب. فقال: افعلُ وسنعود إليك هذه الكرَّة بأخزى من الكرّة الأولى لأن هيبة بجكم قد تمكنت في نفوس أهل العسكر. ونفذ للوقت في ثلاثة آلاف رجل ووافى بجكم إلى نهر تستر فطرح نفسهُ وغلمانهُ أنفسهم في الماء للعبور سباحة وكان الماء قليلاً فانهزم القوم بغير حرب وعادوا إلى أبي عبد اللَّه. فخرج في الوقت مع أخويه وجلسوا في طيَّارٍ ومعهم حديديّ فيه ثلاثمائة ألف دينار كانت في خزائنهم فغرقت بالنهروان وغرِقَ الطَّيار وأخرجهم الغوّاصون وأخرج لبجكم بعضُ المال. فقال أبو عبد اللّه: ما نجونا واللّه من الغرق بصالح أعمالنا ولكن لصاعقة يريدها اللَّه بهذه الدنيا. فقال له أبو يوسف: ويحك ما تدعُ التنادُر في هذه الحال! ثم وافوا البصرة ودخل بجكم الأهواز وكتب إلى ابن رائق بالفتح.

ولما وصل أبو عبد اللّه إلى الأبلّة ومعه أخواهُ أنفذ إقبالاً غلامَهُ إلى مطارا وأقام هو وأخواهُ في طيَّاراتهم وأعدّوا ثلاثة مراكب للهرب منها إلى عمان إن اتفق على إقبال بمطارا من الهزيمة مثل ما تمَّ على أبي جعفر بالسوس. وأخرج أبو عبد اللَّه البريدي أبا

الحسين بن عبد السلام لمعاضدة إقبال فانهزم الرائقية وأسر برغوث وحمل به إلى البريدي فأطلقه وكتب إلى ابن رائق كتاباً يستعطفه فيه وأنفذه إليه مع برغوث ودخل البريديون الثلاثة إلى الدور فنزلوها وسكنوا واطمأنوا ولم يمكن بجكم أن يسير من الأهواز لخلو الأهواز من آلة الماء وشغب رجال بدر عليه فانصرف إلى واسط وملك بجكم الأهواز ولما عرف ابن رائق ما جرى على رجاله في الماء أنفذ أبا العباس أحمد ابن خاقان وجوامرد الرائقي إلى المذار على الظهر لمحاربة البريدي وإخراج أصحابه وسير بدراً الخرشني إلى البصرة في الماء في شذاءات مقيرة بناها بواسط فانهزم الرائقية من المذار وأسر أبو العباس بن خاقان ورجع جوامرد إلى واسط وأحسن البريدي إلى ابن خاقان واستحلفه ألا يعود لمحاربته ولا يشايع عليه وأطلقه. واتصل خبر هذه الهزيمة بابن رائق فسار بنفسه من واسط إلى البصرة على الظهر وكتب إلى بجكم أن يلحق به إلى عسكر أبي جعفر فاتفق أن سار بدر الخرشني في الماء إلى نهر عمر ووافى إلى البصرة وملك شاطئ الكَلاّ وحصل إقبال غلام البريدي في حدود واسط لما عرف خروج ابن رائق عنها وبلغ ابن رائق ذلك فرد فاتكاً حاجبه إلى واسط ليحفظها.

ولما ملك بدر الخرشني الكلا هرب أبو عبد اللّه البريدي للوقت إلى جزيرة أوال وخرج من كان بالبصرة من الجند لدفع بدر وانضاف إليهم عالم عظيم من العامة فاضطر بدر إلى الإفراج عن شاطئ الكَلاّ وحصل بالجزيرة التي بإزائه واستتر أبو يوسف البريدي وركب أخوه أبو الحسين يحضّ الجند والعامة ووافى بجكم إلى ابن رائق وهو في عسكر أبي جعفر يوم ورود بدر الكلا ولما كان وقت العصر عبر ابن رائق وبجكم دجلة البصرة ودخلا نهر دبيس وتبعهما أحمد بن نصر القشوري فرمي بالحجارة وغرق زبزبه واجتمع بدر وابن رائق وبجكم في الجزيرة فشاهدوا أمراً عظيماً وخطباً جليلاً من العامة وتكاثرهم عليهم فقال بجكم لابن رائق: ما الذي عملت بهؤلاء القوم حتى قد أحوجتهم إلى ما خرجوا إليه؟ فقال: لا واللّه ما أدري وانصرف بجكم وابن رائق إلى عسكر أبي جعفر ولما جنّ الليل وجاء المد انصرف بدر إليهما. وبلغ إقبالاً خبر بدر في نفوذه في الماء إلى البصرة من الجامدة ومخالفته إياه الطريق فكرّ راجعاً ووافى في اليوم الثاني وقت العصر إلى شاطئ الكلاّ ونفذ إلى شاطئ الأبلة وحال بين ابن رائق وبجكم وبدر وبين الأبلّة وصارت الحرب في دجلة وطالت المنازلة.

ونفذ أبو عبد اللّه البريدي من جزيرة أوال إلى فارس واستجار بعلي بن بويه فأنفذ معه أخاه أبا الحسين أحمد بن بويه لفتح الأهواز وورد الخبر بذلك على ابن رائق وأصحابه فتقدم ابن رائق إلى بجكم بالمبادرة إلى الأهواز لحمايتها فقال بجكم: لست أحارب الديلم وأدفعهم عن الأهواز إلا بعد أن تحصل لي أمارتها حرباً وخراجاً وأنت

تعلم أني ما صبرت لأبي العباس الخصيبي لما قلدته الأهواز حتى صرفته أصبر لعلي بن خلف بن طناب أن يتحكم في بلد أحارب عنه؟ (وكان علي بن خلف بالأهواز من قبل الوزير أبي الفتح) فضمن ابن رائق بجكم الأهواز وكورها بمائة وثلاثين ألف دينار محمولة في السنة على أن يوفي رجاله مالهم ويستوفي ما يخصه وغلمانه وأقطعه إقطاعاً بخمسين ألف دينار. ولما كان بعد شهر أو دونه من نفوذ بجكم إلى الأهواز انصرف ابن رائق أيضاً من عسكر أبي جعفر ومضى إلى الأهواز وأحرق ما بقي من سواده لاتفاق سيئ اتفق عليه.

ذكر اتفاق سيئ اتفق على ابن رائق حتى انهزم إلى الأهواز وأحرق سواده

كان طاهر الجيلي وافى إلى واسط مستأمناً إلى ابن رائق فلم يجده بها وقصدَهُ إلى عسكر أبي جعفر فتلقاهُ في طريقه كتاب ابنه وجاريته بحصولهما في يد ابن البريدي لأن أبا عبد الله كان بفارس فقبل ابنه وجمع بينه وبين الجارية فعبر بالليل في مائتي رجل. وزعق بابن رائق وبدر الخرشني ووازرَهُ جميع أصحاب البريدي من عسكر الماء فأما بدر فإنه انهزم إلى واسط وأما ابن رائق فإنه مضى إلى الأهواز وأكرمه بجكم وخدمه وأشير على بجكم بالقبض عليه فلم يفعل وأقام أياماً حتى وافاه من واسط فاتك غلامه ثم سار إليها وخلف بجكم بالأهواز.

وأما حديث بجكم مع ابن رائق الذي وعدنا به فهو ما حكاه ثابت بن سنان عن والده سنان.

ذكر حكاية عن بجكم تدل على حصافة وبعد غورٍ وكبر همةٍ

قال ثابت: حدّثني والدي أن بجكم قال له بعد أن ملك الحضرة وأزال أمر ابن رائق في عرض حديث جرى بينهما: سبيل الملك إذا حزبهُ أمرٌ من الأمور أن يكون جميع ما يملك من مال وغيره أقل في عينه من التراب وأن يحذف جميعه كما حذفتُ هذه الحصاة فيما يقدر به زوالُ ما قد أظلهُ فإن دولته إذا ثبتت أمكنه أن يستخلف أضعاف ما خرج عن يده وإن هو بخل وشحَّت نفسُهُ وتهيَّب إخراج ما في يده ذهب ما بخل به وذهبت معه نفسه. اذكُر وقد قلَّدني ابن رائق الأهواز ولم يكن ما فعلهُ من ذلك برأي أبي بكر بن مقاتل ولا شاوره فيه فلما بلغ ابن مقاتل الخبر شق عليه ذلك جدّاً وبادر إلى ابن رائق وقال له: أيّ شيء عملتَ قد عزمت على أن تقلّد بجكم الأهواز؟ قال ابن رائق: نعم. قال: قد أخطأت على نفسك نهاية الخطأ أنتَ لا تقوى ببني البريدي وهم كتّابٌ أصحاب دراريع ولا يمكنك صرفهم ولا انتزاع المال من أيديهم تقلّد رجلاً تركياً

صاحب سيف! إنما صحبك قريباً مثل الأهواز ما هو إلاّ أن تحصل الأهواز في يده ويرى جلالتها وحسنها وكثرة أموالها وما يحصل عنده من الجيش بها حتى تحدّثه نفسه بالتغلُّب عليها ثم لا يقتصر عليها حتى يطمع في غيرها وتنازعُهُ نفسه إلى أن ينازعك أمرك ويزيلك عن موضعك ويصير هو مكانك ليأمن على ما حصل له ولا يكون له منازعٌ عليه وأنتَ الساعة على طمع في أن تنتزع البلد من يد البريدي فإن قلَّدتهُ بجكم فاحسم طمعكَ عنها وأخرجها من قلبك واصرف همتك إلى حِفظ غيرها وليته ينحفظ! واحفظ مهجتك فقد عرّضتها للتلف. ففتأ رأي ابن رائق وصرفهُ عما عزم عليه في أمري ولعمري لقد صدقَهُ ونصحهُ وأشار بالرأي الصحيح.

وبلغني ما جرى بينهما فقامت قيامتي منه ورأيتُ أنه يفوتني ما حدّثت نفسي به من الملك فقلقت وشاورتُ محمد بن ينال الترجمان فلم يكن عنده رأي فأخذ يسلّيني ويقول لي: أنت في نعمة وراحة ومحلك من هذا الملك محلّ الأخ. فقلتُ له: أنتَ أحمقُ امض حتى تعدّ سميريَّة في هذه الليلة المقبلة. وعملت على قصد ابن مقاتل وعلمتُ أنه تاجر عامّي صغير النفس وأن الدرهم ليعظم في نفوس أمثاله فلما كان الليل ونام الناس حملتُ معي عشرة آلاف دينار ونزلت إلى السميريَّة وأخذت معي محمد بن ينال وحدَهُ ولم آخذ غلاماً وصرتُ إلى بابه فوجدتُهُ مغلقاً ودققتُ فخاطبني بوّابهُ من وراء الباب وأعلمني أن الرجل نائمٌ وأن الأبواب بيني وبينه مغلقة فقلت له: دُق الباب وانبههُ فإني حضرت في مهمّ. ففعل ودخلتُ إليه وقد انزعج عن فراشه لحضوري في مثل ذلك الوقت فقال: ما الخبر؟ فقلتُ: خيرٌ وأمرٌ أردتُ أن ألقيه إليك على خلوة فانتظرتُ نوم الناس وخلوَّ الطريق ولم آخذ معي غير الترجمان ولولا أني أردتُهُ ليترجم بيني وبينك لما أحضرته ولا أطلعتُه على ما أخاطبك به. قال فقال: قل ما تحبّ. قلتُ: قد علمت ما كان عزم عليه الأمير في بابي من تقليدي الأهواز وبلغني أنه توقف عن ذلك ولستُ أعرفُ سبب توقُّفه وفي إبطاله ما عزم عليه بطلان جاهي بعد اشتهاره وغضّ مني ولا يشك أحدٌ أنه لسوء رأي. وأنا صنيعتك وصنيعته وغرسكما وإن لم أحظ في أيّامكما فمتى أحظى وأيّ مقدار يكون لي عند الناس؟ وهذه عشرة آلاف دينار قد حملتها إلى خزانتك وأنا أعلم أنه يقبل منك وأريد أن تشير عليه بإمضاء ما كان عزم عليه. فلما رأى الدنانير تخربق وقال: دعني وانصرف في حفظ اللّه. فتركت الدنانير بحضرته وانصرفت وأنا واثق بحصول الأهواز لي فلما كان بعد ثلاثة أيام صار ابن مقاتل إلى ابن رائق فقال له: أشرتُ بذلك الرأي على الهاجس وظاهر النظر فلما تأملت الحال وجدتُ الصواب معك لأنك إن تركتَ الأهواز في يد ابن البريدي وإخوته بعدما حصل لهم من الأموال ازداد كلَّ يوم قوّة وطمعاً ومدّوا أيديهم إلى غيرها من أعمالك وبلدانك ودبّ فسادهم إلى عسكرك بكثرة ما

يبذل ويعطي ولا يبعد بعد ذلك منازعتهم لك على أمرك هذا وإن خرجت إليهم بنفسك فهي حرب ولا تدري كيف تكون فإن كانت عليك لم تشدّ منها حزاماً أبداً. وإن وجهت بغير بجكم استضعف وغلب وكسر ذلك قلوب أصحابك ولأن تصدمهم بمثل بجكم وهم لا يطمعون في مقاومته أصلحُ فإن حصل له البلد استأصل شافتهم ثم أنت مالك أمرك إن شئتَ أقررته وإن شئتَ صرفته قبل أن يتمكن وقبل أن يجتمع أمره ويحدث نفسه بشيء تكرهه فاستخر اللّه وامض أمرَهُ. فقبل رأيه وامض أمري وقلّدني ولم أستقل ولاية الأهواز بذلك المال. وباع ابن مقاتل روحه وروح صاحبه ونعمته بعشرة آلاف دينار واستخلفت أنا مكانَ الدنانير أضعافها وحصل لي ملك ابن رائق.

شرح حال أبي الحسين أحمد بن بويه وأبي عبد اللّه البريدي في قصدهم الأهواز لمحاربة بجكم وذلك في سنة ٣٢٦

ودخلت سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة

قد ذكرنا حال أبي عبد اللّه البريدي وقصده علي بن بويه وأنه تقدّم إلى أخيه أحمد ابن بويه بالمسير إلى الأهواز معه. وخلف أبو عبد اللّه البريدي عند علي بن بويه ابنيه أبا الحسن محمد وأبا جعفر الفيّاض رهينة وسار مع الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه إلى الأهواز. وورد الخبر على بجكم بنزول أحمد بن بويه أرَّجان فخرج بجكم لحربه فانهزم من بين يديه وكان أوكد الأسباب في هزيمته أن المطر اتصل أياماً كثيرة فعطلت القسيّ ومنع ذلك الأتراك أن يرموهم بالنشاب فعاد بجكم وأقام بالأهواز. وقطع قنطرة أربق وأنفذ محمد بن ينال الترجمان إلى عسكر مكرم ووقعت المنازلة بينه وبين محمد بن ينال الترجمان ثلاثة عشر يوماً. ثم عبر أحمد بن بويه بخمسة من الخاصة في سميريَّة إلى مشرعة يعرف بمشرعة الحاس (كذا) فهزموا من كان رتّب فيها وما زال يعبر بقوم بعد قوم حتى حصل ثلاثمائة رجل في الجانب الغربي ثم ضربوا بالبوق واشتلموا فانهزم الترجمان وأخذ إلى تستر. وبلغ الخبر بجكم فعبر دجلة الأهواز وقبض على الوجوه بها وفيهم ابن أبي علان وأبو زكريا السوسي وحمل الجميع معه والتقى مع الترجمان بالسوس وسار بجميع عسكره إلى واسط.

ولما حصل بالطيب كتب إلى ابن رائق بالخبر وأنه قد حرب هو ورجاله فلم يبق لهم حالٌ وأن الرجال سيطاولونه وإن كان عنده مائتا ألف دينار ينفقها فيهم فإنهم فقراء فالوجه أن يقيم وإن كانت متعذّرة فالصواب أن يصعد إلى بغداد فإنه لا يأمن أن يقع شغب ولا يدري عن أي شيء ينكشف. فرهب ابن رائق هذه الحال وبادر وخرج إلى بغداد بعسكره ودخل بجكم وأصحابه واسطاً وأقاموا بها. واعتقل الأهوازيين وطالبهم

بخمسين ألف دينار فقال أبو زكريا يحيى بن سعيد: أردت أن أسبر ما في نفسه من طلب العراق فراسلته وقلت له: أيها الأمير أنتَ مطالب بملك ومرشح نفسك لخدمة الخلافة تعتقل قوماً منكوبين قد سلبوا نعمهم وتطالبهم بمال في بلد غربة وتأمر بتعذيبهم حتى جعل في أمسنا طشت فيه جمر على بطن سهل بن نظير الجهبذ أو لا تعلم أن هذا إذا سمع به أوحش منك وحاربك وعاداك من لا يعرفك ولا سمع بخبرك فضلاً عمن تحقق فعلك هذا أو ما تذكر إنكارك على الأمير ابن رائق بالأمس إيحاشه أهل البصرة وعوامُّ بغداد أضعافهم؟ وقد حملت نفسك في أمرنا على مثل ما كان يعمله مرداويج بأهل الجبل. وهذه بغداد ودار الخلافة لا الريّ وأصبهان ولا تحتمل هذه الأخلاق. فلما سمع ذلك انحلّ وأمر بحلّ القيود وأزال المطالبة ثم شفع ابن رائق وابن مقاتل والكوفي في يحيى بن سعيد السوسي فأطلقه واختصّهُ لعقله ولما تبينه من نفاقه على كل أحدٍ وشفّع يحيى بن سعيد في الباقين وكفّل بهم فأطلقهم.

ولما عرف علي بن بويه حصول طاهر الجيلي بالبصرة وفي نفسه عليه ما كان عاملهُ به بأرّجان كتب إلى أخيه أبي الحسين أن يطالب أبا عبد اللّٰه البريدي به ويقبض عليه ففعل ذلك وأنفذ إلى فارس. ولما انهزم الترجمان عبر أحمد بن بويه إلى غربي عسكر مكرم وجلس على شاطئ المسرقان ومعه أبو عبد اللّٰه البريدي حتى عقد الجسر الأعلى بها وعبر بباقي رجاله من غد. وعاد إليه جواسيسه من سوق الأهواز وعرّفوه أنه لم يبق بها أحدٌ ونزل البريدي داراً على شاطئ نهر المسرقان ووافاهُ أهل الأهواز بأجمعهم مهنئين وداعين. وكان يحمّ الربع وفيمن حضرهُ يوحنا الطبيب وكان متقدّماً في صناعته فقال له أبو عبد اللّٰه البريدي: أما ترى يا أبا زكريا حالي؟ فقال له: خلّط (يعني في المأكول) لترمي بالأخلاط فقال له: أكثر بما خلطتُ يا أبا زكريا قد أرهجتُ ما بين فارس والحضرة فإن أقنعك ذلك وإلاّ ملت إلى جانب الآخر وأرهجتُ إلى خراسان.

ولما كان في اليوم الخامس رحل أحمد بن بويه إلى الأهواز وخلف بعسكر مكرم ثلاثة من القواد فأقام أبو عبد اللّٰه معه خمسة وثلاثين يوماً ثم هرب منه في الماء إلى الباسيان وأقام بها وكاتبه بعتب كثير وتصرف في ضروب من القول إقامة لحجة نفسه فيما استعمله ولم يكره المقام عنده لضيق المال فإنه كان سلم إلى أبي علي العارض ضمانات وخطوطاً فصح في شهرين بخمسة آلاف ألف درهم وصح منها إلى يوم هربه صدر كثير.

ذكر السبب في هرب البريدي

كان طولب بإحضار عسكره من البصرة على أن ينفذهم إلى أصبهان لمضامة الأمير أبي علي الحسن بن بويه على حرب وشمكير فوافى بأربعة آلاف رجل وقال للأمير أبي الحسن أحمد بن بويه: إن أقاموا بالأهواز وقعت فتنة عظيمة بينهم وبين الديلم والرأي

أن يخرجوا إلى السوس مع محمد المعروف بالجمال حاجبي وأسبب بمالهم عليها وعلى جنديسابور حتى يقبضوا وينفذوا على طريق البنيان إلى أصبهان. فأجابه إلى ذلك ثم طالبه أن يحضر رجال الماء إلى حصن مهدي حتى يشاهدهم فإذا عاينهم سيرهم في الماء إلى واسط وسار أحمد بن بويه بالديلم على طريق السوس إليها. فاستوحش البريدي من ذلك استيحاشاً شديداً وظن أنه إنما يريد أن يفرق بينه وبين عسكره وقال: هكذا عملت بياقوت فإني أخذت رجاله ثم أهلكته فلو لم أتعلم إلا من نفسي لكفاني استبصاري والله المستعان. وكان الديلم أيضاً يستخفون به ويشتمونه إذا ركب ويزعجونه من فراشه وهو محموم وتلقى منهم ما لم تجر عادته بمثله. وكانت الكرامة متوفرة عليه من الأمير أبي الحسين ومن أبي علي العارض فأما الباقون فكانوا يهينونه إهانة عظيمة.

ولما أراد الهرب قدم كتابه في صبيحة الليلة التي خرج فيها وعرف أبا جعفر الجمال غلامه ما عزم عليه وأمره أن يسير إلى الباسيان ومنها إلى نهر تيري ثم إلى الباذاورد والبصرة وتم ذلك على ما نظمه وحصل جيشه بالبصرة موفورين. واتصلت المراسلات بينه وبين أحمد بن بويه في الإفراج عن قصبة الأهواز حتى يردها ويقوم بما عقده للأمير علي بن بويه على نفسه من ضمان الأهواز والبصرة وهي ثمانية عشر ألف ألف درهم لسنة خراجية ولإشفاق الأمير أحمد بن بويه من إنكار أخيه علي بن بويه هرب البريدي استجاب إلى حكمه. وانتقل إلى عسكر مكرم وأقام بها في ظاهر داراباز وكتب إلى البريدي كتاباً أنه قد أخلى الأهواز فانتقل البريدي من الباسيان إلي بناتاذر وأنفذ إلى سوق الأهواز من يخلفه بها. وكتب إلى الأمير أن نفسه لا تسكن إلى أن تقيم في بلد على ثمانية فراسخ منه لأنه لا يأمن كبسه ليلاً وسامه أن ينتقل إلى السوس فتبعد الدار بينهما فترسل في ذلك القاضي أبو القاسم التنوخي وأبو علي العارض واستقرت الحال على أن يحمل البريدي ثلاثين ألف دينار إليه لينهضه فرد غلامي هذين الرسولين مع غلام له بأربعة عشر ألف دينار وكتب بأنه يوفيه تتمة الثلاثين الألف الدينار بالسوس. فاجتمع دلان وكان كاتب جيش الأمير أحمد ابن بويه وأبو جعفر الصيمري وكان تابعاً لدلان وأبو الحسن المافروخي وكان يتولى عسكر مكرم للأمير ويجزف ويأخذ المال من حيث لاح له فقالوا للأمير أبي الحسين: قد سلك معك البريدي طرقه مع ياقوت وأخذ يبعدك إلى السوس ويضايقك حتى يفل الرجال عنك ثم يأخذ المعابر إلى نفسه وبين الأهواز وبين عسكر مكرم وتستر وبين السوس دجلة ويحتال في تحصيلك إن استوى له. فاقشعر الأمير أبو الحسين من ذلك وامتنع أن يخرج من عسكر مكرم وقال: هي على سمت الطريق إلى فارس ولستُ أبعدُ عن الأمير الكبير هذا البعد حتى يقطع بيني وبينه دِجلة أولاً ثم المسرقان. وعرف البريدي ذلك فمنع العارض والتنوخي من الرجوع واستحكمت الوحشة.

واتصل ذلك ببجكم فأنفذ قائداً من قوّاده يقال له بالبا في ألفي رجل من الأكراد والأعراب والحشر والأثبات والمولَّدين إلى السوس وجنديسابور للغلبة عليها وكاتباً يعرف بالفيَّاضي. وأقام البريدي ببناتاذر غالباً على أسافل الأهواز وتغلب المخلدية على تستر وبقي الأمير أحمد بن بويه لا يملك من كور الأهواز إلا عسكر مكرم قصبها دون ما سواها فإن أبا محمد المهلبي (وكان في هذا الوقت وكيل أبي زكريا السوسي) قطع المعابر وغلب على الحميدية والمسكول وقتل عاملاً كان هناك بيد الأعراب والرُّجالة الذين أثبتهم. فكانت الصورة فيما دهم أحمد بن بويه غليظة جداً واضطرب رجاله وفارقوه بأجمعهم وعملوا على الرجوع إلى فارس فعاضده أسفهدوست وموسى فياذة حتى تلافوهم وردوهم وضمنوا لهم أن يرضوهم بعد شهر. وكتب أحمد بن بويه إلى أخيه بالصورة فأنفذ قائداً من قواده كان ساربان حماله عظيم المحل من أهل البأس والنجدة ثقة عنده يعرف بِبُلّ في ثلاثمائة رجل من الديلم ومعه خمسمائة ألف درهم ووافى معه كوردفير لأن الأمير أبا الحسين استدعاه لأنه كان وزيره بكرمان فلما حصل عنده كوردفير استكتبه للوقت وخلع عليه. وأبو علي العارض معتقل ببناتاذر في يد البريدي واتهمه بمطابقة البريدي على جميع ما عمله أولاً وآخراً وكان الأمير مبغضاً له وإنما ضمه إليه أخوه الأمير علي بن بويه لأنه كان شاهده وزيراً لما كان الديلمي وكان كبيراً في نفسه وكان بجكم مملوكاً له فطلبه منه ما كان فأهداه إليه.

وتقرر الرأي أن ينفذ بُلُّ إلى السوس في خمسمائة رجل ومعه أبو جعفر الصيمري عاملاً عليها وينفذ موسى فياذة إلى بناتاذر في ثلاثمائة رجل فهرب بالبا لما سمع خبر بُل وهرب البريدي إلى البصرة. وسار موسى فياذة إلى حصن مهدي فملكها وكانت من أعمال البصرة وصارت الأسافل وراءه ودخل الأمير سوق الأهواز فنزل دار أبي عبد اللّه البريدي وانتظمت له الأمور. وحصل البريدي بالبصرة واستقامت لهم واستقر بجكم بواسط ينازع الملك ببغداد وجمع ابن رائق أطرافه وأقام بها.

ولما رأى الوزير أبو الفتح اضطراب الأمور بالحضرة وما تؤذن به أحوالها أطمعَ ابنَ رائق في أن يحمل إليه الأموال من مصر والشام ويمدُّهُ بها وعرَّفه أن ذلك لا يتمّ له مع بعدِه عنها ووافقه على الشخوص وعقد بينه وبينه صهراً بأن زوَّج ابنهُ أبا القاسم بابنة ابن رائق وعقد بين ابن رائق وابن طغج صهراً وخرج مبادراً إلى الشام على طريق الفرات.

وقلَّد أبو بكر بن رائق عليّ بن خلف بن طناب أعمال الخراج والضياع بكور الأهواز وواقفهُ على النفوذ إلى عمله وأن يبتدئ بأبي الحسين بجكم ويلطف له حتى ينفذ معه لمحاربة الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه ودفعه عن الأهواز وأن يوافقه على أن يكون عدَّته خمسة آلاف رجل على أن يكون ماله ومال رجالِه إن أقام بواسط ولم ينفذ إلى الأهواز ثمانمائة ألف دينار في السنة يأخذها من مال واسط وإن نفذ إلى الأهواز

وفتحها ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار في السنة يأخذها من مال الأهواز.

ولما وصل علي بن خلف إلى واسط ولقي بجكم رأى بجكم أن يستكتبه ورأى علي بن خلف أن يكتب له فخلع عليه وأقام عنده بواسط وأخذ جميع مالها.

وسفر أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد في الصلح بين ابن رائق وبني البريدي فتمّ ذلك وأخذ ابن رائق خطَّ الراضي بالله للبريديين بالرضا عنهم وقطعت لهم الخلعة على أن يقيموا الدعوة لابن رائق بالبصرة ويجتهدوا في فتح الأهواز وضمنوا حمل ثلاثين ألف دينار وأطلقت ضياعهم وكتب عن الراضي في هذا المعنى كتابٌ. وورد الخبر بمسير جيش البريدي إلى واسط فخرج إليه بجكم وأوقع بناحية الدر مكان به وهزمه فجلس ابنه رائق ببغداد في داره للتهنئة بذلك وأقام بجكم بموضعهِ مدّةً ثم بالمدار مدّة ثم عاد إلى واسط. وكانت نيّة بجكم إذلال البريديين وقطعهم عن ابن رائق ونفسه متعلقة بالحضرة. فأنفذ ثاني يوم الهزيمة علي بن يعقوب كاتب الترجمان المتولي كان للعرض عليه إلى البريدي يعتذر إليه مما جرى ويقول: أنت بدأتَ بمراسلة ابن رائقَ وتعرّضتَ لي وهذه كرَّتك الثانية فإنك حملتَ الديلم إلى الأهواز وأعقبتَ ذلك بمراسلة ابن رائق وبذلت له مضافرته عليّ وقد عفوتُ وأنا أعاقدك وأعاهدك على أن أقلدك واسطاً إذا ملكتُ الحضرة. وجرى في أثناء ذلك قول في المصاهرة قال علي بن يعقوب: فرأيتُ أبا عبد الله البريدي وقد سجد شكراً لله تعالى لبجكم على ما ابتدأه به ثم استجاب لكل ما أرادهُ منه ولما سمتهُ إيّاه وأحضر القاضيين أبا القاسم التنوخي وأبا القاسم بن عبد الواحد وحلف بحضرتهما وأشهد على نفسه في خطّ كتبه بالوفاء بجميع ما عقدته معه وبرَّني بثلاثة آلاف دينار وقال لي: «سأحمل إليه وألاطِفُه حتى يعلم أني أصلح لخدمته» وعدتُ إلى بجكم وخبرته بما جرى فقال لي: يا أبا القاسم كلُوتته على رأسِه؟ فقلتُ: أيها الأمير ما معنى هذا وكيف سألتَني عنها؟ فقال لي: إني كنت رأيتها فعرّفني. قلتُ: نعم قد رأيتها. فقال: يا أبا القاسم هي على رأس شيطان لا على رأس بشر. فقلت: أيها الأمير أنتَ ما رأيتُه فكيف قلتَ هذا؟ قال: بلى رأيتُه يوم وقعتنا بأرَّجان وقد تعمَّم على كلُوتته وعزمت على أن أفوّت إليه سهماً ففطن لما أردته وإنما لمح طرْفي من بعيد فنزع تلك العمامة والكلوتة وجعلها على رأس غيره وتنحى هو وأقامهُ مقامُه فقلتُ «ذلك المسكين بلا ذنب» وأفلت هو لعنُه الله فإنه كاذبٌ في جميع ما قاله وحلف عليه ولكن تقبل ذلك منه لحاجتنا إلى قبوله. وانصرف بجكم إلى واسط وأخذ في التدبير على ابن رائق.

وفي هذه السنة قطعت يد أبي علي بن مقلة ثم لسانُه

ذكر السبب في ذلك

كان ابن رائق لما صار إليه تدبير المملكة قبض ضياع أبي علي بن مقلة وابنِه. فلما

صار إلى الحضرة لقيه أبو علي بن مقلة ولقي أبا عبد اللّه الحسين بن علي النوبختي ثم بعده أبا عبد اللّه الكوفي وأبا بكر بن مقاتل فاستحيوا منه وتذلّل للجماعة وسأل ردَّ الضيعة المقبوضة عليه فوُعد بذلك ومطل مطلاً متصلاً. فلما رأى أبو علي المطل متصلاً والوفاء لا يصحُّ أخذ في السعي على ابن رائق من كل جهةٍ فكتب إلى بجكم يطمعُه في الحضرة وفي موضع ابن رائق وكتب بمثل ذلك إلى وشمكير بالري. وكتب إلى الراضي باللّه يشير عليه بالقبض على ابن رائق وأسبابه ويضمن أنه متى فعل ذلك استخرج له ثلاثة آلاف دينار ويصحِّحها وأشار باستدعاء بجكم ونصبه مكان ابن رائق فإنه أكثر طاعةً وكانت مكاتبته للراضي على يد علي بن هارون ابن المنجم النديم. فأطمعه الراضي في ذلك فكتب ابن مقلة إلى بجكم يعرفه أن الراضي قد استجاب إلى أمره وأن الأمر تامٌ ويستحثُّهُ على التعجل. فلما توثّق ابن مقلة عند نفسه من الراضي وافقه على أن ينحدر إليه سرّاً ويقيم عنده إلى أن يتمّ التدبير على ابن رائق. فركب من داره في سوق العطش في سميرية وعليه طيلسان وخفٌ وصار إلى الأزج بباب البستان وركب السميرية ليلة الاثنين لليلة تبقى من شهر رمضان وإنما تعمّد تلك الليلة لأن القمر تحت الشعاع وهو يختار للأمور المستورة. فلما وصل إلى دار السلطان لم يوصله الراضي إليه واعتقله في حجرة ووجّه من غد بابن شنجلا إلى ابن رائق وأخبره بما جرى وأنه احتال على ابن مقلة حتى حصله عنده وما زال المراسلات تتردّد بين الراضي وبين أبي بكر بن رائق. فلما كان يوم الخميس لأربع عشرة خلت من شوال أظهر الراضي باللّه أمر ابن مقلة وأخرجه وحضر فاتك حاجب ابن رائق وجماعة من القوّاد فقطعت يده اليمنى ورُدّ إلى محبسه وانصرف فاتك إلى ابن رائق فأخبره بما شاهد من قطع يد ابن مقلة.

قال ثابت: فلما كان في آخر هذا اليوم استدعاني الراضي وأمرني بالدخول إليه وعلاجه فصرتُ إليه فوجدتُه في حجرة مقفّلة عليه ففتح الخادم الباب فدخلتُ فرأيته بحال صعبة فدمعت عينه حين رآني ووجدت ساعده قد ورمَ ورماً عظيماً وعلى موضع القطع خرقة غليظة كردواني كحيلة مشدودة بخيط قنب فحللتُ الشدَّ ونحيتُ الخرقة فوجدت تحتها على موضع القطع سرجين الدوابّ فنفضته عنه وإذا رأس الساعد أسفل القطع مشدود بخيط قنب قد غاص في ذراعه لشدّة الورم وابتدأ ساعده يسود. فعرّفته أن سبيل الخيط أن يحلّ ويجعل موضع السرجين كافور ويطلي ذراعه بالصندل وماء الورد والكافور قال: فافعلْ. فقال الخادم الذي دخل معي: حتى استأذن مولانا. ومضى يستأذن ثم خرج ومعه مخزنة كافور وقال لي: قد أذن مولانا أن تعمل ما ترى وأن ترفق به وتقدّم العناية به وتلزمه إلى أن يهب اللّه عافيته. فحللتُ الخيط وفرّغت المخزنة في موضع القطع وطليتُ ساعدَهُ فعاش واستراح وسكن الضربان ولم أفارقه حتى اغتدى

بشيء يسير من فرّوج ثم حلف أنه ليس يسوغ له شيء آخر وشرب ماءً بارداً فرجعت إليه نفسه وانصرفتُ. ثم ترددتُ إليه أياماً كثيرة إلى أن عوفي وكنتُ إذا دخلتُ إليه يسألني عن خبر ابنه أبي الحسين فأعرِّفه استتاره وسلامته فتطيب نفسه ثم ينوح ويبكي على يده ويقول: قد خدمتُ بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء وكتبتُ بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع أيدي اللصوص: أتذكرُ وأنت تقول لي: «أنت في آخر نكبة وأن الفرج قريب» فقلت: بلى والآن ينبغي أن تتوقع الفرج فإنه قد عمل بك ما لم يعمل بنظير لك وهذا انتهاء المكروه وما بعد الانتهاء إلا الانحطاط. فقال: لا تفعل فإن المحنة قد تشبّثت بي كما تشبَّثت حُمّى الدّق بالأعضاء فلا تفارقني حتى تؤدّيني إلى الموت: ثم تمثّل بهذا البيت:

إذا مات بعضك فابكِ بعضاً فبعض الشيء من بعض قريب

فكان الأمر على ما قال.

ومن عجائبهِ أنه كان يُراسل الراضي من الحبس بعد قطع يده ويطمعه في المال ويشير بأن يستوزره ويقول إن قطع يده ليس ممَّا يمنع من استيزارِه لأنه يمكنه أن يحتال ويكتب. وكانت تخرج له رقاع بعد قطع يده وقبل التضييق عليه فيقال إنه كان يشدّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب به.

ولما قرُب بجكم من بغداد نقل من ذلك الموضع إلى موضع أغمض منه فلم يُوقف له على خبر ومنعت من الدخول إليه.

ثم قطع لسانه وبقي مدة طويلة في الحبس ثم لحقه ذِرب ولم يكن له من يعالجه ولا مَن يخدمُه حتى بلغني أنه كان يستسقي الماء لِنفسه من البئر بيده اليسرى وفمه ولحقه شقاء شديد إلى أن مات ودُفن في دار السلطان ثم سأل بعد مدة أهله فنبش وسلم إليهم.

وفي هذه السنة دخل بجكم العراق أعني بغداد ولقي الخليفة وقلده إمرة الأمراء مكان محمد بن رائق.

ذكر الخبر عن ذلك

ابتدأ بجكم بالمسير من واسط إلى الحضرة مُراغماً لابن رائق فأزال اسمه ومحى أعلامه وتراسه وترك الانتساب إليه وذاك أنه كان يكتب عليها «بجكم الرائقي» وأخذ ابن رائق يستعدّ لِلقائه وقتاله وعمل على أن يتحصن في دار السلطان ثم رأى أن يبرز إلى ديالي وفتح من النهروان إليه بثقاً ليكثر ماؤه فلا يخيض وقطع الجسر عليه ليصير خندقاً. وطالب ابن رائق الراضي أن يكتب إلى بجكم كتاباً يأمره فيه بالرجوع إلى واسط فكتب وسلم إلى ابن رائق فأنفذه مع ابن سرخاب إليه أحد خلفاء الحجاب فقرأه ولم يلتفت

إليه وسار إلى بغداد. ووافى بجكم وجيشه إلى نهر ديالي وعبر بعض أصحابه سباحة فانهزم ابن رائق وصار إلى عكبرا وتقطع أصحابه واستتر أبو عبد اللّه أحمد بن علي الكوفي وأبو بكر بن مقاتل ودخل بجكم يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من ذي القعدة ووصل إلى الراضي باللّه فأكرمه ورفع منه وخلع عليه وسار بالخلع إلى مضربه بديالي فأقام فيه يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء. وأنفذ سريّة في طلب ابن رائق وكاتب الجيش الذي معه عن الراضي بالتخلية عنه والوصول إلى حضرة السلطان فانفضّ الجيش عنه ورجع ابن رائق إلى بغداد سراً واستتر بها. فلما كان يوم الخميس للنصف من ذي القعدة خلع الراضي على بجكم خلعة ثانية وانصرف إلى دار مونس بسوق الثلاثاء وهي التي كان ينزلها ابن رائق. فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من ذي القعدة خلع الراضي على بجكم خلعة ثالثة وعقد له لواء وجعله أمير الأمراء فكان مدة إمارة ابن رائق سنة واحدة وعشرة أشهر وكسر.

ولما كان يوم الجمعة لسبع بقين من ذي القعدة أنفذ الراضي إلى بجكم خلع منادمة وكناه وأنفذ إليه مع الخلع شراباً وطيباً وتحيات وتمت له الرئاسة تمت المجلدة الخامسة من كتاب تجارب الأمم ويتلوها في المجلدة السادسة حكاية عن بجكم تدل على دهاء ونكر والحمد للّه وصلى اللّه على محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين أجمعين.

فرغ من انتساخه محمد بن علي أبو طاهر البلخي في المحرم سنة ٦٠٥.

حكاية عن بجكم تدل على دهاء ونكر

حكى أبو زكريا يحيى بن سعيد السوسي قال: لما ترسلت بين بجكم وبين ابن رائق أشرت على بجكم بأن لا يكاشف ابن رائق. فسألني عن السبب الذي من أجلِهِ أشرت عليه بذلك فقلت: لأن بغداد في يده والخليفة معه والرياسة ولأن الجيش معه كثير والأعمال والأموال في يده والمال في يدك قليل وعدّة من معك يسير. فقال لي: أما كثرة رجاله فهم جوز فارغ قد خرقتهم وسرفتهم وما أبالي كثروا أم قلوا وكون الخليفة معه لا يضرّني عند أصحابي فأما ما توهمتَهُ من قلة المال معي فليس الأمر فيه كما ظننته وقد وفيت أصحابي استحقاقاتهم وما لأحد عليّ منهم مطالبة وفي صناديقي معي مال يستظهر به فكم تظنّ مبلغه؟ قلت: لا أدري. فقال: على كلّ حال. فقلت: مائة ألف درهم. فقال. غفر اللّه لك معي خمسون ألف دينار لا أحتاج إليها. (قال) فقلت له: أنتَ أعلم وما تختار. (قال) فلما هرب ابن رائق وملك بجكم قال لي يوماً: أتذكر وقد قلت لك إن المال معي كثير وظننتَ أنه مائة ألف درهم فعرَّفتك أنه خمسون ألف دينار؟ فقلت: نعم. قال: أفتدري كم كان بالحقيقة معي؟ قلت: لا. قال: خمسين ألف درهم. قلت: هذا يدلّ على أنك لم تثق بي ولم تصدقني. قال: لا ولكنك

صاحبي ورسولي فكرهت أن تعلم صحته في القلةِ فيضعف قلبك وإذا ضعف قلبك ضعف كلامك فيطمع ذلك في خصمي وأَردت أن تمضي إليه بقلب قويّ فتخاطبه بما ينخب قلبه ويضعف نفسه.

وفي هذه السنة تغلَّب اللشكري بن مردي على آذربيجان. وهذا غير اللشكري الذي تقدّم خبره وكان أوجه من ذاك وأكبر مرتبة وكان من أصحاب وشمكير وخليفته على أعمال الجبل. فجمع مالاً كثيراً ورجالاً وخلف صاحبه وسار إلى آذربيجان ليستولي عليها. وكان بها يومئذٍ ديسم بن إبراهيم فجمع ديسم عسكراً كثيراً من الأكراد وأصناف أخر وأحرز سواده في بعض الجهات وأقبل إلى اللشكري فواقعه دفعتين في مدّة شهرين وانهزم ديسم فيهما جميعاً. واستولى اللشكري على بلاده إلا أردبيل فإن أهلها أجلاد ولهم بأس شديد وهم حملة سلاح ومدينتهم محصنة بسور وهي قصبة آذربيجان ودار المملكة. فراسلهم اللشكري ورفق بهم ووعدهم الإحسان فأبوا عليه لما كان عندهم من أخبار الجيل ومعاملتهم أهل همذان وغيرها بأنواع الألم فحاصرهم اللشكري وطالت الحرب بينه وبينهم إلى أن تمكن طائفة من أصحابه يوماً من السور فصعدوه ونقبوا أيضاً عدّة نقوب فيه وفتحوا الباب وتمكنوا من الدخول وأدركهم الليل.

ذكر إضاعة حزم من اللشكري بعد هذه الحال حتى هرب وقتل أكثر أصحابه

إن اللشكري لما تمكن من أردبيل سكنت نفسه إلى الظفر وأشفق أن ينتهب البلد وتذهب الأموال عن يده وعن أيدي أصحابها. فرأى أن ينصرف إلى معسكره وكان على ميل من البلد فيبيت ثم يصبح فيدخل المدينة نهاراً فلما فعل ذلك بادر أهل المدينة إلى سدّ تلك الثلم وإحكامها وأغلقوا الأبواب وعاودوا الحرب. فتحيَّر اللشكري وعلم أنه فرط حين لم يدخل المدينة ليلاً أو يوكل بالثلم من يحفظها وأقبل قوّاده عليه يلومونه ويستعجزونه فلم يكن عنده إلاّ الاعتراف بالخطأ. وبادر أهل المدينة برسلهم إلى ديسم يعرفونه الصورة ويشيرون عليه بالمبادرة في يوم يعينه حتى يخرجوا لمحاربته ويكب ديسم من ورائه فتمَّت لهم الحيلة وأقبل ديسم في ذلك اليوم بجموع كثيرة من الصعاليك والأكراد وخرج أهل المدينة بزي الديلم معهم التراس والزوبينات وهم نحو عشرة آلاف رجل فصافهم الحرب وخرج ديسم من ورائه فحمل عليهم فانهزم أقبح هزيمةٍ وقتل أصحابه مقتلة عظيمة وذهب نحو موقان محروباً مسلوباً ليس معه كراع ولا سلاح. فخرج إليه أصفهبذ موقان ويعرف بابن دلوله متلقياً فأضافه مع قوَّادِهِ فشكره اللشكري وسأله أن يقيم بضيافة أصحابه إلى أن يمضي هو إلى بلده وكانت بينه وبينها مسيرة أربعة أيام فيستخرج ذخائره ويخرج معه ابنه وأخاه ويجمع الرجال فأجابه ابن دلوله. ومضى

اللشكري مخفاً وعاد سريعاً ومعه ابنه وابن أخيه وألف رجل من أحداث الجيل مستظهرين بالسلاح والآلات وعطف على آذربيجان طالباً ديسم وساعده ابن دلوله الأصفهبذ في أصحابه فهرب ديسم وعبر نهراً يقال له الرسُ وماؤه شديد الجرية وأخذ المعابر إلى الجانب الذي حصل فيه ونازله اللشكري مقيماً بإزائه مدّة لا يصل إليه. فاجتمع إليه ابنه وابن أخيه وأحداث الجيل وجميعهم سباح لأن بلادهم على شاطئ البحر وأعلموه أنهم تتبعوا هذا النهر من أعلاهُ إلى أسفلِهِ فوجدوه على ثلاثة فراسخ من معسكرهم موضعاً منه ساكن الجرية واستأذنوه في المخاطرة والعبور فأذن لهم. فصاروا إلى الموضع ليلاً ومعهم جماعة من البوقيين فسبحوا ومدوا حبالاً متيناً بين أوتاد محكمة في الجانبين وأمسكوها وعبر الباقون بتراسهم وأسلحتهم وزحفوا إلى عسكر ديسم وضربوا بالبوقات وقتلوا نفراً فانهزم ديسم واستولى الجيل على أموالهم وسوادهم واستغنوا بما حصل لهم وتم الظفر للشكري.

وقصد ديسم وشمكير وهو بالريّ فأعلَمهُ ما جرى عليه من اللشكري وأنه قد تمكن من آذربيجان وطابقه ابن دلوله أصفهبذ موقان وإن بلاد الجيل قريبة منه والاستمداد سهل عليه وأنه لا يلبث أن يقصد الريَّ وينازعه إياها ويلتمس منه عسكراً من الجبل والديلم ليكون بإزاء اللشكري وأصحابه وواقفه أن يجمع إليه من الأكراد وغيرهم عشرة آلاف رجل فرساناً وأن يقوم بنفقة العسكر يوم دخوله الخونِج وهو أول حدود آذربيجان من ناحية الري وأن يقيم الخطبة على منابر آذربيجان كلها ويحمل إليه في كل ستة مائة ألف دينار خالصة ويرد إليه العسكر الذي يجرد معه بعد فراغه من أمر اللشكري. فلما سمع وشمكير ذلك أهمه هذا الخطب واستجاب ديسم إلى كل ما يلتمسه وأخذ كل واحد منهما على صاحبه العهد والميثاق بالوفاء وابتدأ بتجريد العسكر. فإلى أن يتكامل ذلك ورد الخبر بوفاة ابن دلوله الأصفهبذ وخلق كثير من أصحابه بعلة الجدري وأقام بقية أصحابه مع اللشكري فأنفذ اللشكري بقائد كبير من أصحابه يقال له بلسوار بن ملك بن مسافر وهو ابن أخي محمد بن مسافر اللشكري إلى نواحي الميانج وهي تجري مجرى الثغر بينه وبين وشمكير وأمره أن يحفظ الطرق ويتتبع المجتازين، ويفتشهم ويقرأ كتبهم تحرزاً واستظهاراً فلم يلبث بلسوار أن ظفر بفيج معه كتب من قواد عسكر اللشكري إلى وشمكير بالاعتذار إليه من دخولهم في طاعة اللشكري وإنهم إنما دخلوا معه وعندهم أنه على طاعتهم وأنهم إن رأوا راية من راياته قد أقبلت إليهم انحازوا إليها وصاروا بأجمعهم عليه فلما وقف اللشكري على هذه الكتب طواها وستر خبرها. وورد عليه انفصال ديسم عن الري في عسكر وشمكير مع حاجبه الشابشتي فركب إلى الصحراء وجمع قواده وعرفهم إقبال العسكر إليه وأنه يتخوف أن يشتغل

بحرب الجيل والديلم فيأتيه ديسم من ورائه ويجري الأمر كما جرى في وقعة أردبيل وأنه قد عزم أن يرحل بهم إلى بلاد الأرمن فيغزوهم ويستبيح أموالهم ويبعد عنهم إلى الموصل وديار ربيعة فإنها بلاد كثيرة الغلات والأموال واسعة والرجال بها قليل. فساعدوه على ذلك ورحل بهم إلى أرمينية وأهلها غارون فنهبهم واستباح أموالهم ومواشيهم وسبى خلقاً كثيراً وانتهى إلى زوزان وفي يده وأيدي قواده من المواشي التي غنموها شيء كثير لا ينضبط ولا يعرفون مبلغها وقد وكلوا بها الرعاة فكانوا يخرجونها إلى مسارحها بكرة ويردونها عشية إلى معسكرهم. وكان بالقرب من زوزان قلعة للأرمن فيها عظيم من عظمائهم يقال له أطوم بن جرجين وهو قريب لابن الديراني ملك الأرمن فسأل اللشكري بمراسلة لطيفة أن يكف عن الأرمن فإنهم معاهدون يؤدون الإتاوة وأطمعه في مال يحمل إليه صلحاً فأجابه إلى ما طلبه.

ذكر حيلة تمت لهذا الأرمني على اللشكري حتى قتله ومعظم أصحابه

كان هذا الأرمني عرف سرعة ركاب اللشكري وخفته وأنه يقدم بلا روية ويتسرع بلا تدبير فكمن كمينا على جبلين بالقرب من موضعه الذي كان معسكراً فيه بينهما مسلك مضيق ثم دس إلى المواشي التي معه جماعة من الأرمن حتى قتلوا رعاءها واستاقوها في ذلك المضيق. وهرب بعض الرعاء إلى اللشكري مجروحاً فصادفه خارجاً من الحمام في سوق زوزان فأخبره الخبر فسار لوقته وأخذ ذلك الراعي بين يديه ليدله على الطريق وليس معه إلا ستة نفر من غلمانه أخذهم فتح اللشكري (وهو أحد قواد السلطان بمدينة السلم وقد شاهدته) وكان موصوفاً بالبسالة والشجاعة وراسل باقي أصحابه في العسكر أن يلحقوه.

ذكر اتفاق حسن اتفق لفتح هذا الغلام (حتى سلم وحده من القتل)

اتفق أن غمزت دابة كاتبه لما قضاه الله من سلامته فنزل لينظر ويصلح حافرها فسبقه اللشكري ولم يعرج عليه ومضى مع الخمسة النفر الذين بقوا معه فوصل إلى المضيق قبل أن يلحقه أصحابه الذين استدعاهم من المعسكر وولج الموضع. فلما توسطه ثار إليه الكمناء فقتلوه والغلمان الذين معه وأخذوا رؤوسهم وأشلاءهم وتركوا جثثهم ومضوا. ثم وصل العسكر إلى الفتح بهذا الغلام وتبعوا اللشكري فلما رأوا جماعتهم عرفوهم فانصرفوا معتزلين. واجتمع أهل عسكره فعقدوا الرياسة لابنه لشكرستان وتقرر الرأي بينهم على أن يسيروا بأجمعهم في طريق عقبة صعبة شاقة تعرف بعقبة التنين ليحرزوا سوادهم وأثقالهم وغنائمهم من ورائها ويرجعوا إلى بلد أطوم بن

جرجين فيدركوا نارهم منه ويأتوا عليه قتلاً ونهباً.

ذكر حيلة تمت عليهم ثانية حتى قتلوا بأجمعهم إلا نفر يسير جدّاً وذلك لقلة احتراسهم من المضائق وجهلهم المسالك واغترارهم بالشدة

كان أطوم بن جرجين بث جواسيسه لِيعرف أخبارهم واطلع على هذه العزيمة منهم فسبقهم بأن رتب على رؤوس الجبال في طريقهم جموعاً من الأرمن يرمونهم بالحجارة وكان طريقهم من هذه الجبال على موضع عرضهُ نحو خمسة أذرع وعلى يسرته الجبل وعن يمينه نهرٌ عظيم جار والمهوي إليه أكثر من مائة ذراع ووقف الأرمن مُتمكنين على هذا الموضع وسار أطوم بنفسه من قلعته في نفر فكمن على طريق المضيق حتى أن أفلت إنسان منهم أوقع به. فلما انتهى الجيل والديلم إلى ذلك المضيق أرسلوا عليهم الحجارة فكانت الصخرة تأتي فتصدم الراكب والمركوب والرجالة والبهائم والجمال فلا يمتنع منها شيء ويسقطون إلى النهر ويتلفون. فترجل قوم من الفرسان ودخلوا من قوائم الدواب فربما سلم الواحد بعد الواحد فهلك في ذلك الموضع أكثر من خمسة آلاف رجل. وسلم جماعة وسلم لشكرستان فيمن سلم ومضى بمن معه إلى ناصر الدولة وهو بالموصل لائذين به فنزلهم بشيء من الأرزاق يسير. فاختار بعضهم أن يقبض نفقة وينصرف عنه واختار بعضهم أن يقيم مع لشكرستان فأما الذين قبضوا النفقات فأخذوا جوازات وانحدروا إلى واسط لاحقين ببجكم وأما الباقون فإنهم كانوا خمسمائة رجل فجردهم ناصراً الدولة مع ابن عمه أبي عبد اللّه الحسين بن حمدان من آذربيجان لما أقبل إليها ديسم الكردي وكان ديسم هذا من قواد ابن أبي الساج وكان أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان مقلداً من قبل ابن عمه أبي محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان ناصر الدولة أعمال المعاون بآذربيجان.

وفيها اختص قاضي القضاة أبو الحسين عمر بن محمد بالراضي باللّه حتى حل محل الوزراء وصار الراضي يشاوره في الأمور ويدخله في التدبير ويصل إليه مع عبد اللّه ابن علي النفري خليفة الوزير الفضل بن جعفر ولا ينفد أمراً إلا بعد مشورته.

وفيها قصد الراضي باللّه وبجكم معه ديار ربيعة والموصل

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن ناصر الدولة أخّر ما اجتمع عليه من مال الحمل الذي كان في ضمانه للموصل وأخر مال الضياع التي في عمله بخدمة الراضي باللّه فكان الراضي

مغيظاً عليه فاجتمع رأيه مع بجكم على قصده.

ودخلت سنة سبع وعشرين وثلثمائة

فلما كان يوم الثلاثاء لثلاث خلون من المحرّم خرجا وأقام الراضي بتكريت ونفذ بجكم إلى الموصل في الجانب الشرقي من دجلة. فتلقت زواريق أنفذها ناصر الدولة فيها دقيق وشعير وحيوان هدية إلى الراضي فأخذها بجكم وفرق ما فيها على حاشيته وأصحابه وفرغها وعبر فيها إلى الجانب الغربي وسار حتى لقي ناصر الدولة بالكحيل. وجرت بينهما وقعة وانهزم فيها أصحاب بجكم ثم حمل بجكم بنفسه على ناصر الدولة حملة حقق فيها فانهزم وتبعه بجكم ولم ينزل الموصل إلى أن بلغ نصيبين. ومضى ابن حمدان على وجهه إلى آمد وأقام بجكم بنصيبين وكتب إلى الراضي بالله بالفتح فلما ورد كتابه بالفتح على الراضي بالله سار من تكريت يريد الموصل وكان مسيره في الماء.

وكان قبل ورود كتاب بجكم بالفتح قد لحق القرامطة الذين مع الراضي بتكريت مضائقة في أرزاقهم فانصرفوا مغضبين إلى بغداد فلما وصلوا إليها ظهر ابن رائق من استتاره ببغداد وانضموا إليه ويقال إن انصرافهم من تكريت كان بمراسلة منه إليهم ومكاتبة في اجتذابهم وورد الخبر بذلك مع طائر إلى تكريت فخاف الراضي أن يسري إليه ابن رائق والقرامطة فيأخذونه فخرج من الماء مبادراً وركب الظهر وسار إلى الموصل ودخلها ومعه علي بن خلف بن طناب كاتبه وهو قلق من ابن رائق. ولما بلغ الحسن بن عبد الله بن حمدان انصراف بجكم من نصيبين سار من آمد إليها فانصرف عنها وعن أعمال ديار ربيعة من كان خلفه بجكم فيها من قواده وصاروا إلى الموصل وحصلت ديار ربيعة في يد ابن حمدان. فزاد ذلك في قلق بجكم وأخذ أصحاب بجكم يتسللون ويخرجون من الموصل إلى بغداد حتى احتاج بجكم إلى أن يسد أبواب دروب الموصل ويحفظ أصحابه وزاد ذلك في اضطراب بجكم إلى أن قال: حصلنا على أن يكون في يد الخليفة وأمير الأمراء قصبة الموصل فقط.

وأنفذ ابن حمدان قبل أن يتصل به خبر ابن رائق وظهوره ببغداد أبا أحمد الطالقاني الذي كان أسره إلى بجكم يلتمس الصلح ويبذل أن يقدم خمسمائة ألف درهم معجلة. فلما ورد الرسول وأدى الرسالة فُرّج عن بجكم وفرج بأن ابتدأه بنو حمدان بمسألة الصلح وكان فكر في تسليم الموصل إليه والانحدار لدفع ابن رائق. فبادر وركب من وقته إلى الراضي وعرفه ما ورد به الطالقاني واستأذنه في إمضاء الصلح. فامتنع الراضي لشدة غيظه على ابن حمدان فعرفه أن الصواب في إجابته إليه والمبادرة إلى بغداد التي خرجت عن يده وهي دار الملك فأذن له في المصالحة فرد من يومه الطالقاني بالصلح وأنفذ معه الخلع واللواء والقاضي أبا الحسين بن أبي الشوارب ليستحلف ابن

حمدان ورجع مع مال التعجيل.

وبعد نفوذ الطالقاني جاء جعفر بن ورقاء وتكينك من عند بجكم إلى الموصل ثم تبعهما محمد بن ينال الترجمان في مُرقعة منهزمين من يد ابن رائق ووصفوا أنه لما ظهر من استتاره ببغداد انضمَّ إليه ثلثمائة رجل من القرامطة فلقيه بديع غلام جعفر بن ورقاء وانهزم بديع وخرج إلى ابن رائق وهو بالمصلّى جماعة من الجند والحجرية وخلق من العامة وقالوا: نحن نقاتل بين يديك. فأعطاهم خمسة دراهم وثلاثة دراهم. وكان جعفر بن ورقاء وأحمد بن خاقان وابن بدر الشرابي في دار السلطان وما يليها فراسلهم ابن رائق وسألهم الإفراج له ليمضي إلى داره التي هي دار مونس فأنزلها بجكم فمنعوه من ذلك فقاتلهم وانهزموا وقتل ابن بدر واستأمن إلى ابن رائق جماعة من الرجال فوعدهم بالعطاء وأعطاهم خواتيم طين تذكرة بالمواعيد وصار إلى دار السلطان وكتب الأمانة لمن فيها وراسل والدة الراضي باللّٰه وحُرمه برسالة جميلة وصار إلى دار مونس التي كان ينزلها بجكم فقاتله تكينك عنها وانهزم تكينك وملك ابن رائق الدار. ثم أقبل محمد بن ينال الترجمان من واسط في أربعة آلاف من الأتراك والديلم وغيرهم لِيدفع ابن رائق عن بغداد فتلقاه ابن رائق بالنهروان وجرت بينهم حرب شديد وانهزم الترجمان وصار في مُرقعة إلى الموصل.

وأقبل ابن رائق يثير ودائع بجكم وأمواله وأنفذ أبا جعفر بن شيرزاد إلى بجكم بجواب الصلح منه فتقدم إليه بجكم المقام وأنفذ بجواب الرسالة قاضي القضاة أبا الحسين عمر على أن يُقلد طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم وينفذ إليها. ورجع الطالقاني وابن أبي الشوارب القاضي من عند ابن حمدان بتمام الصلح وبعض المال فانحدر الراضي وبجكم من الموصل. ولما صار قاضي القضاة إلى ابن رائق لقيه وقرر أمره على تقلد الأعمال التي تقدم ذكرها فخرج ابن رائق من بغداد متوجهاً إلى أعماله ووصل الراضي وبجكم إلى بغداد يوم السبت لتسع خلون من شهر ربيع الأول.

وفيها مات الوزير أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بالرملة وكان الراضي أنفذ خادماً يستدعيه فوصل الخادم وقد مات فكانت مدة وقوع اسم الوزارة عليه سنة واحدة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوماً وقلد مكانه أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد وسلم إليه علي بن خلف فصادره على خمسين ألف دينار وسفر أبو جعفر بن شيرزاد في الصلح بين بجكم وبين البريدي فتم ما شرع فيه وضمن أبو عبد اللّٰه البريدي أعمال واسط بستمائة ألف دينار في السنة.

ولما اتفق موت الوزير أبي الفتح وصولح البريدي شرع أبو جعفر بن شيرزاد في تقليد أبي عبد اللّٰه البريدي الوزارة وأشار بذلك فأنفذ الراضي باللّٰه أبا الحسين إلى أبي عبد اللّٰه البريدي في تقلد الوزارة فامتنع منها ثم استجاب إليها وتقلد الوزارة وخلفه عبد

الله بن علي النفري بالحضرة كما كان يخلف الفضل بن جعفر.

وكان بجكم قلد بالبا التركي أعمال المعاون بالأنبار فكاتبه يلتمس منه أن يقلده أعمال طريق الفرات بأسرها ليكون في وجه ابن رائق وهو بالشام فقلده ذلك فنفذ إلى الرحبة وغلب عليها وكاتب ابن رائق وأقام له الدعوة في إعمال طريق الفرات وعظم أمره بها واتصل خبره ببجكم.

ذكر سرعة تلافي بجكم أمر بالبا قبل أن يستفحل

أنفذ بجكم غلامه بوستكين وعدلا حاجبه وقطعة من جيشه نحو أربعمائة رجل فوصلوا إلى الأنبار وقت العصر من يومهم وساروا من سحر ليلتهم إلى هيت وأخذوا منها الإدلاء فسلكوا طريق البرية ووصلوا إلى الرحبة في خمسة أيام فدخلوها من بابين من أبواب الرحبة وجميع ذلك بوصية بجكم ورسمه فعملا بما رسم. فعرف بالبا الخبر وهو على طعامه فوثب إلى سطح واستتر عند بعض الحاكة وأخذ من عنده وانحدروا به إلى الأنبار. ثم أدخلاه بغداد مشهراً على جمل عليه نقنق وهو مصلوب ثم خفي أمره فيقال إن بجكم سمه.

ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلثمائة

وفيها تزوج بجكم سارة بنت الوزير أبي عبد الله أحمد بن محمد البريدي بحضرة الراضي على صداق مائتي ألف درهم.

واشتد أبو جعفر بن شيرزاد في معاملة التناء وزاد في المساحة واحتج عليهم بعلو الأسعار ووفورها وطالبهم بالتربيع والتسعير والسلف وأظهر ظلمه.

وفيها سار الأمير أبو علي الحسن بن بويه إلى واسط وكان البريديون بها فأقام الأمير أبو علي في الجانب الشرقي منها والبريديون في الجانب الغربي.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو عبد الله أنفذ جيشاً إلى السوس وقتل قائداً من الديلم واضطر أبا جعفر الصيمري إلى التحصن بقلعة السوس وكان متقلداً أعمال الخراج بها. وخاف أبو الحسين أحمد بن بويه أن يصير البريدي إلى الأهواز من البصرة وكان أبو علي الحسن ابن بويه أخوه مقيماً بباب اصطخر فكتب إليه أبو الحسين أخوه يستنجده فوافاهُ يطوي المنازل طياً في عشرة أيام. وكانت الضرورة دعت أبا الحسين أحمد بن بويه إلى أن خرج من السوس فلما وصل أخوه أبو علي إلى السوس دخل أبو الحسين أحمد بن بويه الأهواز. وكان أصحاب وشمكير قد تغلبوا على أصبهان فسار الأمير أبو علي الحسن بن بويه إلى واسط طمعاً في أن يحصل له فاضطرب رجالهُ لأنه ما كان أنفق فيهم منذ سنة

واستأمن من أصحابه مائة رجل إلى البريديين. وسار بجكم والراضي من بغداد لحربه فأشفق أن يقع التضافر عليه ويستأمن رجاله فانصرف إلى الأهواز ومنها إلى رامهرمز ثم سار إلى أصبهان ففتحها واستأسر بضعة عشر قائداً من قوّاد وشمكير ورجع الراضي بالله وبجكم إلى بغداد.

وفيها خرج بجكم إلى الجبل فلما بلغ قرميسين عاد إلى بغداد ومعه مستأمنة الديلم.

ذكر السبب في خروج بجكم إلى الجبال ورجوعه عنها وسبب فساد الحال بينه وبين البريدي بعد الوصلة والصلاح

لما صاهر بجكم البريدي وخلَّص ما بينهما كاتبه أن ينفذ إلى الجبل لفتحها وأن يخرج هو إلى الأهواز لفتحها ودفع أبي الحسين أحمد بن بويه عنها وأنفذ إليه حاجبه عدلاً في خمسمائة رجل نجدة ليضمهم إلى رجاله. قال أبو زكريا السوسي: وأخرجني معه لأن أزعجهُ وأحثه على المسير مع الجيش كله إذ كان ابتداؤهم بالسوس. (قال) فحصلتُ بواسط وأظهر البريدي بما وددت وعدل الحاجب له حتى إذا حصل بجكم بحلوان طمع البريدي في المسير إلى بغداد وأخذ الدفائن التي لبجكم في داره والعود بها إلى واسط وكانت عظيمة فما زال يتربص ويدافع ويقدّم رجلاً ويؤخر أخرى تارة تشرهُ نفسه إلى المال وتارة يرهب من مكاشفة بجكم ويتوقع مع ذلك دائرة على بجكم من قتل أو هزيمة فيتمكن مما يريد. وامتدّت أيامنا حتى أقمنا زيادة على شهر وكتب بجكم ترد علينا بأن نعرِّفه ما علمناهُ فإذا أقرأناها البريديّ قال: أنا سائر غير متلوّم. ثم يتراخى ففطنا لما في نفسه وقلتُ لعدل سرّاً: أنفذ إلى بجكم من يعرِّفه الخبر. فبادر إليه بركابيّ يثق به فلما وصل إلى بجكم لم يلبث أن ركب الجمازات ووافى مدينة السلام وخلف عسكره وراءه.

وسقطت الأطيار على البريدي بدخول بجكم بغداد وأنه لا يدري أهو منهزم أم مجتازٌ فأبلس ودهش وتحير وهمّ بالقبض عليّ وجذبني إلى البصرة وعملتُ أنا على الاستتار فخفتُ أن يثيرني ويخرجني لأن واسط بلدٌ صغيرٌ فكنتُ على ذلك أتردّدُ إليه متجلداً. ثم دعاني وقت عصر بعدّة غلمان فلم أشك في أنه للقبض عليّ فوصلتُ إليه وقت المغرب وقد قام فدخل إلى كلة له هرباً من البق فقال لي: عرفتَ الخبر؟ قلتُ: ماذا. فقال: سقط طائر قبل العصر بأن بجكم قد سار إلى واسط. فقلتُ: هذا باطل متى ورد بغداد ومتى خرج؟ فقال: دَع هذا عنك فإني لا أشك فيه قم اخرجْ الساعة إليه وأزل ما أوحشه مني وهات يدك. فناولتهُ إياها وجعلها على أذنه وقال: خذني إلى النخاسين وبعني فإني لا أخالفك واكفني هذا الباب ولا تسألني عما تعمل. فقبلتُ يده ورجله والأرض بين يديه وقلتُ له: امضي أتأهبُ. فقال: قد تأهبتُ لك وقُدّم لك طيارٌ

وجرّدتُ خمسين غلاماً لِبذرقتك وانزل إلى الطيار ففيه زاد يكفيك إلى الحضرة وغلمانك يتلاحقون بك. فلم أتمالكُ سروراً ثم خشيتُ أن يكون قد اغتالني وإني أخرج فيؤخذ بي إلى البصرة ونهضتُ من عنده فما ثاب إليّ عقلي إلاّ بفم الصلح فلما وصلتُ إلى نهر سابس لقيني خادم من داري ببغداد برسالة بجكم إليّ أني أستتر وأسر بذلك إليَّ. وسألني من معي من غلمان البريدي عما ورد به الخادم فعرفتهم أنه أخبرني بحال عليلة لي وأنها مشفية وسرتُ مبادراً. وأصبح البريدي نادماً على إنفاذه إياي ووجه خلفي من يطلبني لأن طائراً سقط عليه بما آيسه من صلاح بجكم له وأغرى بي في الكتاب فكفاني اللّه. ووصلتُ إلى دير العاقول وبها أحمد بن نصر القشوري فخرجت إليه وأراد أن يأخذ الطيَّار ويوقع بالغلمان فلم أتركهُ ندوتُ للغلمان ورددتهم في الطيار وجلستُ أنا في طيار أحمد بن نصر ووافيت الزعفرانية ولقيت بها بجكم وصعدتُ إليه فحدثته بالحديث. واجتهدت في إصلاحه للبريدي ورده إلى بغداد فأبى فقال: لو لقيني وأنا على درجة من داري لما تهيأ لي أن أعود فإنها تكون هزيمة فكيف وقد سرتُ ووصلتُ إلى ههنا. وانحدرت معه.

فقبض على أبي جعفر بن شيرزاد بواسط لأنه كان سبب البريدي عنده وهو الذي أشار بوصُلتهِ. وأظهر بجكم صرف أبي عبد اللّه البريدي عن الوزارة وأزال اسمها عنه وأوقعَهُ على أبي القاسم سليمان بن الحسن فكان اسم الوزارة عليه وخلع عليه خلع الوزارة والأمور يدبرها كاتب بجكم وهو ابن شيرزاد إلى أن قبض عليه. فكانت مدّة وقوع اسم الوزارة على أبي عبد اللّه البريدي سنة واحدة وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً.

وكان بجكم عند إخراج مضربه إلى الزعفرانيّة متوجّهاً إلى البريدي أحبّ أن يكتم خبر انحدارِه وكان انحدارهُ في حديديّ فضبط الطرُق ومنع من نفوذ كتابِ لأحدٍ لئلا يكتب بخبر انحدارِهِ.

ذكر اتفاق ظريف غريب

كان معه في الحديديّ كاتب له على أمر داره وجرايات حاشيته وكان له أخ في خدمة البريدي. فلما جلس بجكم في الحديدي سقط على صدر الحديدي طائر فصادَه غلمان بجكم وجاؤوا به إلى مولاهم فوجد على ذنبه كتاباً فقرئ فإذا هو كتاب من كاتبه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار بجكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش وسائر أسراره وعزائمه. فلما وقف عليه بجكم عجب واغتاظ وأحضر هذا الكاتب ورمى إليه بالكتاب فسقط في يده ولم يمكنه جحده لأنه بخطه المعروف فاعترف به فأمر به فرُمي بالزوبينات بحضرته إلى أن قتله ورمى به في الماء وسار إلى واسط فوجد البريدي قد انحدر منها ولم يقف.

وفي ذي الحجة من هذه السنة ورد الخبر بأن ابن رائق أوقع بأبي نصر بن طغج أخي الإخشيد فانهزم أصحاب أبي نصر بن طغج واستؤسر وجوه قوّاده وقتل أبو نصر بن طغج فأخذه ابن رائق وكفنه وحنطه وحمله في تابوت إلى أخيه الإخشيد وأنفذ معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق وكتب إلى الإخشيد معه كتاباً يعزّيه فيه بأخيه ويعتذر مما جرى وأنه ما أراد قتله وأنه قد أنفذ إليه ابنه ليقيده به إن أحبّ ذلك. فتلقى الإخشيد فعله ذلك بالجميل وخلع على أبي الفتح مزاحم ورده إلى أبيه واصطلحا على أن يفرج ابن رائق للإخشيد عن الرملة ويكون باقي الشام في يد ابن رائق ويحمل إليه الإخشيد عن الرملة مائة وأربعين ألف دينار.

وفيها دخل أبو نصر محمد بن ينال الترجمان من الجبل منهزماً من الديلم واتصل خبر هزيمته ببجكم وهو بواسط فوجه بمن ضربه في منزله بالمقارع وقيده وحبسه مدة ثم رضي عنه.

ودخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

وفيها كان القبض من بجكم على كاتبه ابن شيرزاد واستكتب أبا عبد اللّه الكوفي فكانت مدّة كتابة ابن شيرزاد لبجكم وتدبيره الملك وقيامه مقام الوزراء تسعة عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً. وحين أراد القبض عليه كاتب تكينك خليفته على يد مسرع بأن يحض أبا القاسم الكلواذي وأصحاب الدواوين والعمال والمهندسين ويتقدم إليهم بأن يتوافقوا على أمر المصالح بالسواد وأن يعملوا عملاً بما يحتاج إليه ناحية ناحية فإذا فرغ منه تسلمه منهم وقبض على فلان وفلان (قوم أسماهم له من الكتاب) فلما حصلوا كتب على عِدّة أطيار بخبر حصولهم. فأحضرهم تكينك وناظرهم في دار بجكم على أمر المصالح فلما فرغوا من ذلك وأرادوا الانصراف اعتقل من أسمى له منهم وفيهم أبو الحسن طازاذ بن عيسى ومحمد بن الحسن بن شيرزاد والمعروف برهرمه وجماعة من الكتاب والعمال وكتب بخبر القبض عليهم. فلما عرف خبرهم وحصولهم في القبض قبض حينئذٍ على أبي جعفر بن شيرزاد وزيره.

ومما يستدلّ به على دهاء بجكم ما حكاهُ ثابت عن أبي عبد اللّه الكوفي قال: قال بجكم بعد قبضه على أبي جعفر بن شيرزاد: كان يقال لي إن أبا جعفر موسر كثير المال وكنتُ أظن أن أعداءه يكثرون عليه فأردتُ أن أمتحن صحة ما يقال فيه فقلت له يوماً: قد أودعت الأرض مالاً كثيراً وعملت على أن أودع الناس شيئاً آخر ولست أثق بأحد ثقتي بك وأريد أن أودع عندك شيئاً فهل تنشط لذلك؟ فقال لي: وكم مبلغه؟ فقلت: مائة ألف دينار. فقال لي مسرعاً «نعم» ولم يستكثرها ولا رأيت في وجهه إعظاماً لها. فلما رأيت قوة قلبه ونشاطه للأمر وأن المقدار لم يهلهُ ولا عظم في نفسه علمت أن

الذي قيل في يساره وكثرة ماله حقٌّ. فسلمت إليه مائة ألف دينار وتركته مدة طويلة ثم قلت له: قد احتجت إلى تلك الدنانير فينبغي أن تردّها. فقال: «نعم» وحمل بعد أيام جزءاً منها ثم اقتضيته فحمل شيئاً آخر ثم اقتضيته فحمل جزءاً آخر فأظهرتُ غضباً وقلت له: دفعتها إليك جملة وتردها تفاريق! فارتاع لغضبي وصياحي عليه ودهش فخجل وقال: أنا أصدق الأمير ليس لي من أثق به في هذه الأحوال إلاّ أختي وليس تطيق حمل الجميع ولا لها حيلة إلاّ أن تحمله شيئاً بعد شيء. فسكت وقلت: «يجوز» وحصّلت من كلامه أن الذي يجري على يده أمر ودائعه هو أخته فلما قبضت عليه وطالبته أخذ يتماتن فوجهت إليه: لا تماتن فإن أختك قد وقعت في يدي. ولم تكن قد وقعت وإنما أردتُ أن أرعبهُ (قال) فانحل وبلغ ما أردته.

وفيها في ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول مات الراضي بالله وكان قد انكسف القمر كله وكان موته بالاستسقاء الزقيّ واستتر كاتبه أبو الحسن سعيد بن عمرو ابن سنجلا وانقضت أيامه. وكان رجلاً أديباً شاعراً حسن البيان يحب محادثة الأدباء ومعاشرتهم ولا يفارق الجلساء وكان سمحاً سخياً واسع النفس. وطمع بجكم في جماعة من ندمائه وظنّ أنه ينتفع مع عجمته بآدابهم فلما نظر لم يجد من يُفهمه ما ينتفع به إلاّ سنان بن ثابت فإن سناناً كان ينادمه الراضي بالله قال سنان: دعاني بجكم ووصلني وأكرمني ثم قال لي: أريد أن أعتمد عليك في تدبيري وأمور جسمي ومصالحي وفي أمر آخر هو أهم إلي من أمر بدني وهو أمر أخلاقي فقد وثقتُ بعقلك وفضلك وقد غمني غلبة الغضب والغيظ عليّ وإفراطها في حتى أخرج إلى ما أندم عليه من ضرب وقتل فأنا أسألك أن تتفق ما أعملهُ ثم تعالجني مما تكرهه وإذا عرفتَ لي عيباً لم تحتشم أن تذكره لي ثم ترشدني إلى علاجه ليزول عني. (قال) فقلت له: السمع والطاعة ولكن في العاجل اسمع مني جملةً علاج ما أنكرته من نفسك إلى أن يجيء التفصيل. اعلم أيها الأمير بأنك قد أصبحتَ وليس فوق يدك يد لمخلوق وأنه لا يتهيأ لأحد منعك مما تريد ولا أن يحول بينك وبين ما تهواه أيّ وقت أردته وأنك متى أردتَ شيئاً بلغته في أي وقت شئتَ لا يفوتك منه شيء ثم اعلم أن الغيظ والغضب يحدث في الإنسان سكراً أشد من سكر الشراب المسكر بكثير فكما أن الإنسان يعمل في وقت السكر من النبيذ ما يندم عليه وما لا يعقل به ولا يذكره إذا صحا كذلك يحدث في حال السكر من الغضب بل أشد فيجب كما يبتدئ بك الغضب وتحس بأنه قد ابتدأ يغلبك ويسكرك وقبل أن يشتد ويقوى ويتفاقم ويخرج من يدك. فضع في نفسك أن تؤخر العقوبة على الذنوب وتتركها تغبّ ليلة واثقاً بأن ما تريد أن تفعله في الوقت لا يفوتك عمله في غد. وقد قيل: «من لم يخف فوتاً حلم» فإنك إذا فعلتَ ذلك وبتَّ ليلتك

وسكنتَ فلا بدّ لفورة الغضب من أن تبوخ وتسكن وتصحو من السكر الذي أحدثه لك الغضب وقد قيل إن أصح ما يكون الرأي إذا استدبر الإنسان ليلته واستقبل نهاره. فإذا صحوت من سكرك فتأمل الأمر الذي أغضبك فإن كان مما يجوز فيه العفو ويكفي فيه العتاب والتهديد أو التوبيخ أو العزل فلا تتجاوز ذلك فإن العفو أحس بك وأقرب لك إلى اللّه عزّ وجلّ وليس يظن بك المذنب ولا غيره العجزَ ولا تعذر القدرة. وإن كان مما لا يحتمل العفو عاقبتَ حينئذ على قدر الذنب ولم تتجاوزه إلى ما يقبح ذكرك ويزيغ دينك ويمقت عليه نفسك. وإنما يشتد هذا عليك عند تكلفه أوّل دفعة وثانية وثالثة ثم يصير عادة فيسهل لك ثم تستلذهُ إذا عملت فضيلة. فاستحسن ذلك بجكم ووعد أنه يفعله وما زال ينبهه على شيء شيء حتى صلحت أخلاقه وكفّ عن القتل والعقوبات الغليظة واستحلى ما كان يشير به من استعمال العدل والإنصاف ورفع الجور والظلم وعمل به حتى قال: قد تبينتُ أن العدل أربحُ للسلطان بكثير وأنه يحصل له دنيا وآخرة وأن مواد الظلم وإن كثرت وتعجلت سريعة النفاذ والفناء والانقطاع وهو مع ذلك كأنه لا يبارك فيها وتحدث حوادث يحرمها ثم يعود بخراب الدنيا وفساد الآخرة فقلت له: وبالضد فإن موادَّ العدل تنمي وتزيد وتدوم وتبارك فيها عند ابتداء العمل به. وعمل بواسط وقت المجاعة دار ضيافة وببغداد بيمارستان وعدل في أهل واسط وأحسن إلى أهلها إلا أن مدّتهُ لم تطل فقتل عن قرب. وللّه تدبير في أرضه وله أمر هو بالغه.

خلافة المتقي لله أبي إسحاق إبراهيم ابن المقتدر بالله

لما مات الراضي بالله بقي الأمر في الخلافة موقوفاً انتظاراً لقدوم أبي عبد الله الكوفي من واسط واحتيط على دار السلطان وانتظر أمر بجكم فيمن يُنصب للخلافة فورد كتابه على أبي عبد الله الكوفي يأمر فيه أن يجتمع مع الوزير الذي كان يزر للراضي بالله وهو أبو القاسم سليمان بن الحسن وكل من تقلّد الوزارة مع أصحاب الدواوين والقضاة والعدول والفقهاء والعلويين والعبّاسيين ووجوه البلد وشاورهم فيمن يُنصب للخلافة ممن يرتضي مذاهبهُ وتحمد طرائقه فمن وُجِدت فيه هذه الأحوال عُقدت له الخلافة. فلما اجتمعوا ذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر فتفرق الناس عن هذا ذلك اليوم من غير تقرير لأمر فلما كان اليوم الثاني دُفع كتاب بجكم إلى كاتبٍ فقام وقرأه على الناس وذكر إبراهيم: فقال محمد بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي: هذا الرجل من ولد المقتدر فقُل لنا هذا الرجل المذكور في الكتاب يجب أن يكون من ولد المقتدر أو من غيرهم؟ فقال أبو عبد الله الكوفي: من كانت فيه هذه الأوصاف نُصب في الخلافة كائناً من كان. فقال له: يحتاج أن يكون الخطاب في هذا سرّاً. فقام أبو عبد الله فدخل إلى بيتٍ وأقبل يدخل إليه الناس اثنان اثنان ويقول لهما: قد وُصف لنا إبراهيم بن المقتدر فأيّ شيء تقولون؟ فإذا سمعنا ذلك لم يشكّا في أنه شيء قد تقرّر وورد فيه أمر بجكم فيقولون: هو موضع لما أهّل له. وكلاماً في هذا المعنى فلما استوفى كلام الجماعة تقدّم بحمله ليعقد له الأمر في دار بجكم ثم يحمل إلى دار السلطان. وانحدر أبو عبد الله الكوفي وعُرضت الألقاب على المتقي لله فاختار منها هذا اللقب وأخذت البيعة على الناس وأنفِذ الخلعة واللواء إلى بجكم مع أبي العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني إلى واسط فانحدر بها وخلع عليه وأخذ البيعة عليه للمتّقي لله.

وأطلق بجكم لأصحابه صلة البيعة نصف رزقه أو دون ذلك ولم يُطلق للكتّاب ولا للنقباء وأشباههم شيئاً. ووجّه بجكم قبل استخلاف المتقي فحمل من دار السلطان فرساً كان استحسنهُ وآلاتٍ كان اشتهاها. وخلع المتّقي لله على سلامة الطولوني وقلّده

حجبته وأقر سليمان بن الحسن على وزارته وإنما كان له من الوزارة الاسم فقط والتدبير إلى أبي عبد اللّٰه الكوفي.

وفيها ورد الخبر بدخول أبي علي بن محتاج في جيش خراسان إلى الري وقتله ماكان الديلمي وهزيمته لوشمكير إلى طبرستان.

ذكر السبب في ذلك

كان ماكان مستقرّاً بكرمان من قبل صاحب خراسان حتى بلغه قتل مرداويج فاجتمع عليه استئمان رجاله إلى عماد الدولة علي بن بويه ومجاورته إيَّاه وطمعه في معاودة أعماله الأولى من جرجان وطبرستان فصار إلى خراسان واستعفى من ولاية كرمان وسأل ولاية جرجان فوليها وسار إليها وفيها بُلقسم بن بالحسن من قبل وشمكير. فقدم ما كان كتاباً إلى وشمكير يُداريه فيه ويستنزله عن أعماله التي كانت في يده ويستعيده إلى حال المودة والموادعة. وكان الإجماع قد وقع من الجيل والديلم أنه لم ير فيهم أشجع ولا أنجد ولا أفرس من ماكان وأقرّ له بذلك كل شجاع مذكور وكل متقدّم مشهور فصادفت رسالته من وشمكير ضعف قلبه بقتل أخيه مرداويج وقرب عهده بالمصيبة وإشفاقهُ من صاحب خراسان ومن جهة عماد الدولة علي بن بويه فاستجاب له إلى النزول عن جرجان وكتب إلى صاحبه بلقسم بن بالحسن بتسليمها إليه. فلما مضت له مدة استنزله ما كان أيضاً عن سارية فنزل له أيضاً عنها فتأكدت الحال بينهما واستحكمت المودّة واستوحش صاحب خراسان من تضافُرهما وآل الأمر إلى أن خلع ماكان طاعتهُ وأسقط خطبته. فسار حينئذٍ أبو علي بن محتاج إلى جرجان لمواقعته في عسكر كثيف أمدّهُ به صاحب خراسان وكتب ماكان إلى وشمكير بالصورة واستنجده فأنجدهُ بعسكر قويّ ثم اتبعهُ أيضاً بعسكر ثان مع شيرج بن ليلى. وحاصر ابن محتاج ماكان واشتدّ به الحصار إلى أن أكل أصحابه لحوم الجمال والبغال.

فانتهز هذه الفرصة ركن الدولة الحسن بن بويه واغتنم شغل وشمكير بما كان فطمع في الريّ وكاتب أبا علي بن محتاج صاحب جيش خراسان وأشار عليه بمُناجزة القوم ووعده بالمعاونة وكذلك فعل عماد الدولة كاتبه وأشار عليه بالمناجزة ووعدهُ بأن يسير أخاهُ إلى الريّ في عسكر قويّ وعرف وشمكير الخبر وكتب إلى ماكان بالصورة وأشار عليه بتسليم جرجان إلى الخراسانيَّة وكتب إلى شيرج وإلى سائر عسكره بالانصراف ففعل ماكان ذلك وعاد الجيش بأجمعه إلى الريّ وحصل ماكان بسارية وتمكن ابن محتاج من جرجان. واتصلت المكاتبة بينه وبين عماد الدولة وركن الدولة واستحكمت المودة بينهم واتفقوا على حرب وشمكير حين اختلط عسكراهما وصارا عسكراً واحداً واشتملت عدة العساكر على سبعة آلاف من الديلم والجيل سوى الأتراك والعرب وأظهرا من السلاح

والجُنن والآلات والدواب أمراً عظيماً. فترافدا في التدبير لأن وشمكير كان منفرداً بإطلاق النفقات والأموال وإقامة الانزال والعلوفات وتفقُّد القُواد والرجال لأن الري وأعمالها كانت في يده فأما ماكان فإنه تفرَّد بمباشرة الحرب وترتب منها في القلب.

فسار ابن محتاج على طريق الدامغان حتى قرُب منها وأقام الديلم والجيل مصافّها وبات الفريقان على أهبة لمباكرة الحرب والمناجزة وكان وشمكير ضرب عدّة خركاهاتٍ للمصافّ ونصب المطارد والأعلام وأحضر الطعام للناس وأجلس ماكان في الصدر يأكلُ ويُطعم ويُجلس من يرى ووشمكير قائم متردّدٌ على رسمهم في ذلك؟ فكان ماكان يقول: يا أبا طاهر لِمَ لا تأكل معنا ثم تتوقّر على النظر بعد ذلك؟ فيقول: يا أبا منصور نحن بإزاء أمرٍ قد قرُب انفصاله فإن كان لنا فسوف نأكل معاً ونطعم وإن كان لغيرنا فسوف يأكل ويُطعم. (وكانا يتعاملان مُعاملة النظراء ويتخاطبان بالكُنى ويتساويان في جميع أحوالهما) فما استتموا طعامَهُم حتى ورد عليهم الخبر بأن ابن مُحتاج رحل عن موضعهم عادلاً عن سمتهم إلى إسحاقاباذ ليجتمع معه العدد الذي أنفذه ركن الدولة لأنه كان سار على طريق قُم وقاشان فارتحلا جميعاً في الوقت إلى هذه القرية وأعاد المصافّ بها ووافى ابن مُحتاج وقد عبّى جيشَهُ كراديس.

ذكر حيلة في الحرب تفرّق بها الجيش المجتمعون ودخل بينهم الغدر فأزال تعبئتهم وهزمهم

تقدم ابن مُحتاج إلى أصحابه أن يطرقوا القلب ويلحّوا عليه وكان فيه ماكان وجُمرة العساكر وأن يتطاردوا لهم ويستجرّوهم. ثم وصّى الكراديس التي بإزاء الميمنة والميسرة أن يناوشوهم مناوشةً خفيفة بمقدار ما يشغلهم عن أن يصيروا مدداً لمن في القلب ولا يطلبوا المناجزة بل يقفوا بإزائهم على هذا السبيل ففعلوا ذلك وألحّوا على القلب ثم تطاردوا لهم كالمنهزمين فطمع ماكان وأصحابه الّذين كانوا في القلب فيهم فاتبعوهم وفارقوا مصافَّهم وبعدوا عن ميمنتهم وميسرتهم وصار بينهم فضاء كثيرٌ. فحينئذٍ أمر ابن محتاج الكراديس الّتي بإزاء الميمنة والميسرة أن يتركوا من بإزائهم ويدخلوا في الفضاء الذي اتسع لهم وراء القلب وأمر الذين كانوا بإزاء الحرب أن يحملوا ويحقّقوا عليه مواجهين له فانكسر الديلم وحصلوا بين الكراديس ولم يكن لهم مهرب فقتلوهم كما شاؤوا. وكان ماكان قد ترجل وأبلى بلاء حسناً وظهرت منه آثار لم ير مثلُها فوافاهُ سهمٌ عائرٌ وقع في جبينه فنفذ الخوذة والتراس حتى طلع من قفاه وسقط ميتاً وأفلت وشمكير وقوم من أصحاب الخيل إلى سارية وأسر الباقون وقتلوا بأجمعهم.

وملك ابن محتاج الريّ وأخذ رأس ماكان بخوذته والسهم فيه وحُمل على هيئته وحالته إلى خراسان مع الأسارى ورؤوس القتلى وكانوا عدداً جماً يقال إنهم نحو ستة

آلاف. ثم حمل بعد ذلك رأس ماكان إلى بغداد بعد مقتل بجكم لأن بجكم ينتسب إلى ماكان ويزعم أنه تربيته وقد كان أظهر حزناً وغماً شديداً لما سمع بقتله وجلس للعزاء. فلما قتل بجكم ورد أبو الفضل العباس بن شقيق المرسوم كان بالترسُّل بين وُلاة خراسان وبين السلطان ومعه رأس ماكان وفيه السهم وعليه الخوذة وذلك في سنة ٣٢٩.

ذكر غلطة وقعت من ابن محتاج في استنامته إلى جيش غريب حتى قتل خلق من أصحابه وانتهب سوادُه ونجا بنفسه

كان الحسن بن الفيرزان ابن عمّ ماكان وصنيعتهُ وكان قريباً في الشجاعة إلاّ أنه كان شرساً متهوّراً زعِر الأخلاق فلما قتل ماكان التمس منه وشمكير أن يدخل في طاعته وينحاز إليه فلم يفعل ثم لم يقتصر على التثاقل عنه حتى أطلق لسانَهُ فيه وقال هو الذي أسلم ماكان إلى القتل وخذلَهُ ونجا بنفسه. فأفسد ما بينه وبين وشمكير بهذا الضرب من الكلام والوقيعة فيه فقصده وشمكير وهو يومئذٍ بسارية فانصرف عن سارية وصار إلى ابن محتاج داخلاً في طاعته ومستنهضاً له على وشمكير فقبله ابن محتاج وأحسن إليه وساعده على قصد وشمكير. فلقيه بظاهر سارية واتَّصلت الحرب بينهما أياماً إلى أن ورد الخبر على ابن محتاج بوفاة نصر بن أحمد صاحب خراسان فصالح وشمكير وأخذ ابناً له يقال له: سالار رهينة ووافقه على أمور تقررت بينهما وانصرف إلى جرجان وجذب الحسن بن الفيرزان معه وهو غير طيب النفس بما فعله وأراد منه أن يتمّم الحرب ثم يستخلف الحسن ويمتدّ بعد ذلك إلى خراسان فلما لم يفعل ابن محتاج ذلك انجذب الحسن بن الفيرزان معه على هذا الحقد ودبَّر أن يطلب غِرته في طريقه ويفتك به فلما صارا إلى الحدّ بين أعمال جرجان وخراسان وثب الحسن على ابن محتاج وأوقع بعسكره ليقتله فأفلت منه وقتل حاجبه وانتهب سواده واسترجع رهينة وشمكير أعني ابنه سالار وعاد إلى جرجان فاستولى عليها وعلى أعمال الدامغان وسمنان والقلعة التي كان يعتصم بها. وكان وشمكير صار إلى الريّ فملكها فلما فعل الحسن بابن محتاج ما فعل عاد إلى مواصلة وشمكير وبدأه بالمجاملة وردَّ عليه ابنه الذي كان رهينة عند ابن محتاج وأراد بذلك أن يستظهر على الخراسانية به إن عاودوا حربهُ فتسلَّم وشمكير ابنه وحاجزهُ في الجواب ولم يصرّح له بما ينقض شرائط ابن محتاج عليه.

ثم إن ركن الدولة قصد الري وحارب وشمكير فانهزم وشمكير واستأمن أكثر رجاله إلى ركن الدولة وصار إلى طبرستان. فاغتنم الحسن بن الفيرزان ضعف وشمكير فسار إليه واستأمن إلى الحسن بقية أصحابه وانهزم وشمكير إلى خراسان على طريق جبل شهريار. فلما حصل وشمكير بخراسان رأى الحسن بن الفيرزان أن يواصل أبا علي ركن الدولة وينحاز إليه فراسلهُ ورغب في مواصلته فأجابه إلى ذلك وتمت المصاهرة بينهما بوالدة

الأمير على ابن ركن الدولة أعني فخر الدولة وهي بنت الحسن بن الفيرزان.

وفي هذه السنة فرغ من مسجد براثا وجمع فيه.

وفيها اشتد الغلاء ببغداد وبلغ الكرُّ من الدقيق مائة وثلاثين ديناراً وأكل الناس الحشيش وكثر الموت حتى كان يدفن في قبر واحد جماعة من غير غسل ولا صلاة وظهر من قوم ديانة وصدقة وتكفين ومن آخرين فجورٌ وغضب وهم الأكثر.

وفيها انبثق نهر الرُفَيل ونهر بوق فلم يقع عناية بتلافيهما حتى خربت بادُوريا بهذين البثقين بضعة عشر سنة.

وفيها قتل بجكم.

ذكر سبب قتله

كان ورد جيش البريدي إلى المذار وأنفذ بجكم بوشتكين وتوزون في جيش للقائه فكانت بينهما وقعة عظيمة كانت أولاً على أصحاب بجكم فكتبا إلى بجكم يسألانه أن يلحق بهما فخرج بجكم من داره بواسط يوم الأربعاء لأربع عشرة خلت من رجب للمسير إلى المذار ليلحق عسكره وأصحابه. فورد كتاب توزون ونوشتكين بظفرهما وهزيمة جيش البريدي وأنه قد استغنى عن انزعاجه فأنفذ بجكم بالكتاب إلى بغداد وكتب به كتاب هناك قرئ على المنابر.

وهمَّ بجكم بالرجوع من حيث وصل إليه الكتاب بالخبر وكانت خزائنه قد سارت فأشار عليه أبو زكرياء السوسي بأن لا يرجع وقال له: تمضي وتتصيّد. فعمل على ذلك فلما بلغ نهر جور عرف أن هناك قوماً من الأكراد مياسير فشره إلى أموالهم وقصدهم متهاوناً بهم في عدد يسير من غلمانه وعليه قباء طاق بلا جبة فهرب الأكراد من بين يديه وتفرّقوا. ورمى واحداً منهم فأخطأ ورمى آخر فأخطأ واستدار من خلفه غلام من الأكراد وهو لا يعرفه فطعنه بالرمح في خاصرته فقتله وذلك بين الطيب والمذار يوم الأربعاء لتسع بقين من رجب. واضطرب عسكره جداً ومضى ديلمهُ خاصّةً إلى البريدي وكانوا ألف وخمسمائة رجل فقبلهم وأضعف أرزاقهم في دفعة واحدة.

وكان بنو البريدي عملوا على الهرب وقد ضاقت عليهم البصرة لمراسلة بجكم أهلها بما سكّن نفوسهم فكانوا مجتمعين بمطارا فلما بلغ بني البريدي قتل بجكم فرَّج عنهم ونفَّس خناقهم. وعاد أتراك بجكم إلى واسط وسار تكينك بهم إلى بغداد ونزلوا في النجمي وأظهروا طاعة المتَّقي للّه وصار أحمد بن ميمون كاتب المتَّقي للّه قديماً هو المدبر للأمور وصار أبو عبد اللّه الكوفي من قبله فكانت مدَّة تقلُّد أبي عبد اللّه الكوفي كتابة بجكم وتدبيره المملكة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ومدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ووجّه المتقي بجماعة من حجابه فوكلهم بدار بجكم ولم يتعرض لشيء مما فيها حذراً من أن يرد خبر لبجكم يبطل الخبر الأول فلما صح عنده قتله أحضر يكاق صاحب تكينك فأثبت المواضع التي فيها المال مدفوناً فسئل عن سبب معرفته بها فذكر أنه كان يخرُج من الخزانة ويستدلُّ على أنه لدفين ثمّ يتتبع الأثر سراً فلما عرف البيت الذي فيه الدفين والموضع المظنون فيه المال طلب له ثقةً وضمَّ إلى نجاح خادم المتقي فاستخرج شيءٌ كثير في قدور كبار منها عين ومنها ورق فلما فرغ مما وجد بذل للحفارين أن يأخذوا التراب بأجرتهم فامتنعوا فأطلق لهم ألفي درهم ثم تقدّم بغسل التراب فغسل وأخرج منه ستة وثلاثون ألف درهم. وكان بجكم قد دفن في الصحارى ولم يقتصر على ما دفنهُ في البيوت فكان الناس يتحدثون أنه إذا دفن في الصحراء شيئاً ومعه من يعاونه قتلهُ لئلا يدل على ما يدفنه في وقت آخر فبلغ بجكم ما يقوله الناس فعجب منه.

فحكى سنان بن ثابت قال: قال لي بجكم: فكرت فيما دفنته في داري من المال وقلتُ: قد يجوز أن يحال بيني وبين الدار بحوادث تحدث فلا أصل إليها فيتلف مالي وروحي إذ كان مثلي لا يجوز أن يعيش بغير مال فدفنت في الصحراء وعلمت أنه لا يحال بيني وبين الصحراء. فبلغني أن الناس يشنعون عليّ بأني أقتل من يكون معي ولا واللّه ما قتلت أحداً على هذه السبيل وأنا أحدّثك كيف كنتُ أعملُ. كنت إذا أردت الخروج للدفن أحضرت بغالاً عليها صناديقُ فرَّغ إلى داري فاجعل في بعضها المال وأقفِل عليها وأدخِل من أريد أن يكون معي من الرجال إلى باقي الصناديق التي على ظهور البغال وأطبق عليهم وأقفل وأسير بالبغال. ثم آخذ أنا مِقْود القطار وأسير إلى حيث أريد وأرُدّ من يخدم البغال وأنفرد وحدي في وسط الصحراء ثم أفتح عن الرجال فيخرجون ولا يدرون أين هم من أرض اللّه وأخرج المال فيدفَن بحضرتي وأجعل لنفسي علامات ثم أرد الرجال إلى الصناديق وأطبقها عليهم وأقفلها وأقود البغال إلى حيث أريد وأخرج الرجال فلا يدرون إلى أين مضوا ولا من أين رجعوا واستغنى عن القتل.

واستوزر المتقي للّه أبا الحسين أحمد بن محمد بن ميمون وخلع عليه واستخلف أبا عبد اللّه الكوفي. وطلب تكينك فاستتر.

وقدم الترجمان من واسط فأقره المتّقي للّه على الشرطة ببغداد وفيها أصعد البريديون من البصرة بعد قتل بجكم.

ذكر الخبر عن إصعادهم وما آلت إليه أمورهم

لما قُتل بجكم اختلف أهل عسكره فأما الديلم فعقدوا الرياسة لِبلسوار بن مالك بن مسافر الكنكري فهجم عليه الأتراك وقتلوه. فانحدر الديلم بأسرهم إلى البصرة مستأمنين إلى أبي عبد اللّه البريدي وكانوا ألفاً وخمسمائة رجل مختارين منتجبين ليس فيهم حشوٌ

فقوي البريدي بهم وعظمت شوكته واستظهر بهم على السلطان وانضاف عسكرهم إليهم فبلغوا سبعة آلاف رجل فأصعد البريديون من البصرة إلى واسط فراسلهم المتّقي للّه وأمرهم ألاّ يصعدوا وأن يقيموا بواسط فأرسلوا: إنَّا محتاجون إلى مال الرجال فأنفذ إلينا ما يرضيهم به ونحن نقيم. فوجّه المتّقي للّه أبا جعفر بن شيرزاد بعد أن ردَّ عليه ضيعتَهُ مع عبد اللّه بن يونس صاحب بيت المال وانحدر في جملته تكينك سرًّا من المتّقي للّه.

وقال الأتراك البجكميَّة والجنكاتي الذي كان استأمن من جهة البريدي للمتّقي للّه: نحن نقاتل بني البريدي إن جاؤوا فأطلق لنا مالاً وانصب لنا رئيساً. فأنفق فيهم وفي رجال الحضرة القدماء أربعمائة ألف دينار من المال الذي وُجد لبجكم وجعل الرئيس عليهم سلامة الطولوني الحاجب وبرزوا مع المتّقي للّه إلى نهر ديالي. وعاد عبد اللّه بن يونس بجواب الرسالة من البريديين يلتمسون المال فحمل إليهم معه من مال بجكم أيضاً مائة وخمسين ألف دينار فأخذها وقال: أنا أحتاج إلى خمسمائة ألف دينار للديلم فإن حُملت إليَّ وإلا فإن الديلم لا يمهلوني وعلى كل حال أنا سائر فإن تلقَّاني المال انصرفت وإلاَّ دخلت الحضرة فقال المتقي للّه لما أدّيت رسالته: أنا قد أنفقت في الأتراك أربعمائة وخمسين ألف دينار وفي غيرهم جملةً فمن أين أعطيه ما طلب؟ دعهُ يرد الحضرة ويعمل ما شاء فإني أرجو أن أكفي أمرَه. وسار أبو عبد اللّه البريدي من واسط نحو الحضرة فلما قرب منها اضطرب الأتراك البجكمية وقلعوا خيمهم واستأمن بعضهم إلى البريدي وسار بعضهم إلى الجنكاتي إلى الموصل ودخل سلامة بغداد واستتر أبو عبد اللّه الكوفي وسلامه الحاجب ومحمد بن ينال الترجمان وتقلد الشرطة مكان الترجمان أحمد بن خاقان وتأسف الوزير أبو الحسين على أربعمائة ألف دينار ذهبت ضياعاً. ورهب الناس البريدي رهبة عظيمة لعسفه وتهوُّره وطمعه فهمّ أرباب النعم بالانتقال.

فتحدّث بعض المختصين بأبي الحسن علي بن عيسى قال: كنت بين يديه أنا وأولادُه وأخوه وخواصه في تلك الأيام ونحن نتحدّث بأمر البريدي وموافاته الحضرة ونتجارى جُرأَتَهُ وإقدامَهُ وقلة اكتراثه وأنه ينعل الناس بنعال الدواب وأشارت الجماعة عليه بألاّ يقيم ببغداد وأن يخرج هو وعياله إلى الموصل إلى أبي محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان وفزعناهُ وهوّلنا عليه وهو لا يُصغي إلى رأينا فلما أكثرنا عليه ترجّح رأيه. ثم أطلق لي مائتي دينار على أن أبكرَ واكترى له بها زواريق ليصعد هو فيها وعياله إلى الموصل فباكرني رسوله مع السحر يأمرني بالمصير إليه وجئت وسألني فعرَّفتهُ أني ما مكَّنت من امتثال أمره بمُباكرة رسوله واستدعائه إياي فقال: ويحك لفكرتُ البارحة فيما أشرتم به فوجدته خارجاً عن الصواب مفسداً للدين أيهرب مخلوقٌ إلى مخلوق؟ اصرف تلك إلى وجوه الصدَقة فإني مُقيم. فرددتُها إلى خزائنه وأقام فلما قرُب البريدي انحدر

إليه وتلقاهُ فأكرمه أبو عبد اللّه غاية الإكرام ووفَّاهُ حقَّهُ وأعظمهُ ومنعه من أن يخرُج من طيَّاره وانتقل هو إليه وشكر برّهُ وخاطبه بنهاية الإكرام والتعظيم.

ودخل أبو عبد اللّه البريدي بغداد ومعه أخوه أبو الحسين وابنه أبو القاسم وأبو جعفر بن شيرزاد يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان فنزلوا البستان الشفيعيّ وتلقّاهُ الوزير أبو الحسين بن ميمون والكتّاب والعمّال والقضاة والوجوه وكان معه من الشذاءات والطيارات والحديديّات والزبازب ما لا يُحصى كثرةً. فوجّه المتقي إليه يُعرّفه أنسهُ بقربهِ وحمل له الطعام والشراب والألطاف عدّة ليال وكان يخدم في ذلك كله خدمة الخلافة. وظهر محمد بن ينال الترجمان وكان الناس يخاطبون أبا عبد اللّه البريدي بالوزارة ويخاطبون أبا الحسين بن ميمون أيضاً بالوزارة ويصير أبو الحسين إليه بسيف ومنطقةٍ وقباء ويخاطب كلّ واحدٍ منهما صاحبهُ بالوزارة. ثم لبس أبو الحسين الدرّاعة وأزال عن نفسه اسم الوزارة بمواطأة الخليفة وذلك لست خلون من شهر رمضان فكانت مدّتهُ فيها ثلاثة وثلاثين يوماً وتفرّد أبو عبد اللّه البريدي باسم الوزارة.

فلمّا كان يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان حضر أبو الحسين بن ميمون ومعه ابنه أبو الفضل مجلس الوزير أبي عبد اللّه وكان الوزير قد واطأ القوّاد إن أحضر أبو الحسين مجلسه أن يجتمعوا ويكلموهُ ويتوثبوا عليه ويتهددوه بالقتل ويقولوا إنه: «يضرّب علينا الخليفة ويُفسد علينا رأيَهُ» ففعل الديلم ذلك في هذا اليوم فما زال الوزير يسكّنهم ويعرّفهم كذب ما بلغهم عنه ثم قال لأبي الحسين وابنه: قُوما ادخُلا الرواق، يوهمهما أنه يريد أن يخلصهما من القتل فدخلا الرواق ووكّل بهما وانصرف القوّاد وحصلا في قبضه. ثم قال لهما بعد أيام: يا أبا الحسين قد قلدتُك الإشراف على واسط وأجريتُ لك ألف دينار في كل شهر فامض إلى عملك مع ابنك. فحملا إلى واسط ومنها إلى البصرة ولما قبض عليه استكتب المتّقي للّه على خاص أمره أبا العباس أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني واعتل أبو الحسين بعد مدة بالبصرة ومات بها.

ولم يلقَّ الوزير أبو عبد اللّه طول مقامه ببغداد المتقي للّه ولا دخل دار السلطان وذهب إليه الأمير أبو منصور بن المتقي للّه وهو في النَجمي ليسلّم عليه فلبس أبو عبد اللّه البريدي قباء أسود وعمامة سوداء وتلقّاه في أحسن زيٍّ وأوفر عُدة ونثر عليه دنانير ودراهم. وراسل الوزير أبو عبد اللّه البريدي المتّقي للّه على يد القاضي أحمد بن عبد اللّه بن إسحاق الخِرَقي وأبي العباس الأصبهاني يطالبهُ بحمل مال فحمل إليه مائة وخمسين ألف دينار فأخذها وراسله بأنه لا بد من خمسمائة ألف دينار فالتوى المتّقي للّه فقال للقاضي: انصحه وقل له: «أما سمعت خبر المعتز باللّه والمهتدي باللّه والمتوكل على اللّه؟ واللّه لئن خلّيتك والأولياء لتطلبنَّ نفسك فلا تجدها وأنت أبصرُ إنما الديلم

وافوا لأجل المال الذي أخذتُه لا إلى بغداد وعندهم أنهم أحق به منك ولا يعرفون البيعة ولأمنن لك في رقابهم» وكان الجواب عن هذه الرسالة الإنعام وحمل إليه خمسمائة ألف دينار فاستوفاها عن آخرها في سلخ رمضان ووهب للقاضي الخرقي منها خمسة آلاف دينار. ولما حصلت الأموال عند البريديين انصرفت أطماع الجند كلهم إليه وكان البريدي يبعث الجند على طلب الأموال من الخليفة ويحملهم على الشغب فلما استصفى مال السلطان رجعت المكيدة عليه وتشغب الجند عليه. وكان الديلم قد اجتمعوا يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان فرأسوا على أنفسهم كورنكيج بن الفاراضي الديلمي فرأس الأتراك على أنفسهم تكينك غلام بجكم وانحاز الديلم بأجمعهم إلى دار السلطان وأحرقوا دار أبي الحسين البريدي التي كان ينزلها.

ونفر الجيش عن أبي عبد اللّه البريدي وصار تكينك إلى الديلم وتضافروا وكان سبب ذلك أن تكينك لم يكن كبيراً في نفوس الأتراك فأرسل إليه كورنكيج وخدعهُ وقال له: إن تفرَّد كل واحد منَّا عن صاحبه ضعفَ وأرى أن نجتمع وتصير أيدينا واحدة. فانخدع له وصار إليه فاجتمعوا فلما تمكن منه عاجله بالقبض عليه إلا أنه استعان به في العاجل لما اجتمعوا ووافقه على قصد البريدي ونهب ما حصل عنده فاتفقوا على ذلك وقصدوا بأجمعهم النجمي وعاونهم العامة. فقطع الوزير أبو عبد اللّه الجسر ووقعت الحرب في الماء ووثبت العامة في الجانب الغربي بأسباب أبي عبد اللّه البريدي وقُتل نعجة القرمطي فهرب الوزير أبو عبد اللّه البريدي وأخوه وابنه وانحدروا إلى واسط في الماء ونهبت داره في النجمي ودُور قوّاده ونهب بعض المال الذي كان حمله إليه المتّقي في ذلك اليوم لأن هربه كان يوم الاثنين سلخ رمضان وآخر ما حمل إليه من بقيَّة المال في ذلك اليوم واستتر أبو جعفر بن شيرزاد ونُهبت داره وظهر سلامة الطولوني وبدر الخرشني. فكانت مدَّة وقوع اسم الوزارة عليه أربعة وعشرين يوماً. ولما هرب البريدي حصلت الإمارة لكورنكيج يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شوال.

ذكر إمارة كورنكيج

فلما كان يوم الخميس لثلاث خلون منه لقي كورنكيج المتقي للّه فقلدهُ إمارة الأمراء وعقد له لواء وخلع عليه. وكان يكتب له رجل من أهل أصبهان يُعرف بأبي الفرج بن عبد الرحمن واستدعى المتقي للّه أبا الحسن علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن فدبر الأمر عبد الرحمن من غير تسمية بوزارة. وقبض الأمير أبو شجاع كورنكيج على تكينك يوم السبت لخمس خلون من شوال وغرَّقه ليلاً. وفي يوم الجمعة اجتمعت العامة في الجامع من دار السلطان وضجّوا وتظلموا من الديلم ونزولهم في دُورهم بغير أجرة وتعديهم عليهم في معاملاتهم فلم يقع إنكارٌ لذلك فمنعت العامة الإمام من الصلاة

وكسرت المنبر. وشغب الجند فمنعهم الديلم من ذلك فقتل بين الفريقين جماعة.

واستوزر أبو إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي المعروف بالقراريطي للمتقي للّه فكانت مدّة نظر علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن تسعة أيام.

ذكر السبب في وزارة القراريطي

حكى أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي قال: كنتُ بحضرة كورنكيج مع كاتبه أبي الفرج وفي مجلسه علي بن عيسى وعبد الرحمن أخوه والقراريطي فطالب كورنكيج أبا الحسن علي بن عيسى بالمال وعرّفه حاجته إليه لإعطاء الرجال فبلّح هو وأخوه وذكرا أن المال قد استنظف من النواحي وأنه لا وجه له قال: فقال القراريطي: ونحن في المجلس؟ فيما بيني وبينه: إن رُدّ الأمر إليَّ أقمت به واستخرجت ما يدفع إلى الرجال ويفضل بعده جملةٌ وافرة. فاجتمعتُ مع أبي الفرج كاتب كورنكيج وعرّفتُه ما خاطبني به فالتمس أن يصير إليه في خلوة ليسمع كلامه فأحضرتهُ في غد فأعاد عليه ما قاله لي وأراه وجوهاً لجملة من المال. فذهب إلى صاحبه كورنكيج فعرفه أن علي بن عيسى وأخاه قد بلّحا وأن القراريطي قد حضر وذكر أنه يقوم بالأمر ويزيح علل الرجال حتى لا يقع إخلال بشيء يحتاج إليه فاستروح كورنكيج إلى ذلك وأمره بإحضاره ليلاً فأحضره وخلا به وبكاتبه وجعله على ثقة من القيام بكل ما يحتاج إليه ولم يبرح حتى انعقد له الأمر ووقّف المتقي للّه عليه.

وأخرج أصبهان الديلمي إلى واسط من قبل الأمير أبي شجاع كورنكيج لمحاربة البريدي وكان أبو يوسف قد أصعد من البصرة إلى واسط فلما سمعوا بانحدار أصبهان الديلمي انحدر البريديون إلى البصرة. وظهر ابن سنجلا وسَلِفُه علي بن يعقوب من استتارهما وصارا إلى دار الوزير أبي إسحاق القراريطي ليسلّما عليه فقبض عليهما من داره قبل أن يصلا إليه وحملهما إلى دار السلطان وكتب فيهما رقعة إلى المتقي للّه وأمر بحبسهما ونالهما مكروهٌ غليظ بالضرب والتعليق وصودرا على مائة وخمسين ألف دينار.

وفي هذه السنة سار محمد بن رائق من الشام إلى مدينة السلام لما بلغه قتل بجكم.

ذكر الخبر عن مسير ابن رائق من الشام ودخوله بغداد وما آل إليه أمره

كان الأتراك البجكمية مثل توزون وخجخج ونوشتكين وصيغون وكبارهم لما انصرفوا من بغداد بعد قتل بجكم وإصعاد البريدي صاروا إلى المؤصل فحاد عنهم أبو محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان وراسلوه في إطلاق نفقاتهم فأطلق لهم ربع رزقة فتقدّموا إلى ابن رائق بالشام. فصح عنده قتل بجكم بمصير الأتراك إليه وكتب إليه

المتقي يخبره بقتل بجكم ويخاطبه بخطاب جميل ويستدعيه إلى الحضرة فسار من دمشق فلما قرُب من الموصل كتب كورنكيج إلى أصبهان الديلمي بأن يصعد من واسط فأصعد ودخل بغداد وخرج لؤلؤ إلى واسط متقلداً لها ولم يتمّ أمره ورجع من الطريق. ولما وصل ابن رائق إلى الموصل حاد عنه أبو محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان وجرت بينهما مراسلةٌ تقرر فيها أن يحمل أبو محمد إلى ابن رائق مائة ألف دينار فأخذها وانحدر إلى بغداد وعاد أبو محمد بن حمدان إلى الموصل.

ولما كان يوم الأحد لخمس بقين من ذي القعدة قبض كورنكيج على القراريطي فكانت مدّة وزارته ثلاثة وأربعين يوماً وقلد الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي ولقي المتقي للّه في هذا اليوم وخُلع عليه.

وورد الخبر بدخول بني البريدي واسطاً لما انصرف عنها أصبهان الديلمي وخطبوا بواسط والبصرة لابن رائق وكتبوا اسمه على أعلامهم.

وفيها دخل ابن رائق بغداد وانهزم كورنكيج واستتر.

ذكر الخبر عن هزيمة كورنكيج واستتاره باتفاق وحرب

لما قرب ابن رائق من بغداد خرج كورنكيج منها وانتهى إلى عكبرا وقلد لؤلؤ الشرطة ببغداد وخلع عليه وانتهى ابن رائق إلى كورنكيج وابتدأت الحرب واتصلت أياماً متتابعة كانت على ابن رائق. فلما كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة دخل ابن مقاتل بغداد ومعه قطعة من جيش ابن رائق وفي ليلة الخميس لتسع بقين منه دخل ابن رائق بجميع جيشه من الجانب الغربي ونزل في النجمي وعبر في غداة غد هذا اليوم إلى دار السلطان ولقي المتقي للّه وسلم عليه واستركبهُ فركب معه في دجلة إلى زقّة الشمّاسية وانحدرا من وقتهما إلى دار السلطان فصعد المتّقي للّه إليها وعبر ابن رائق إلى النجمي. ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وافى كورنكيج في جيشه من عكبرا على الظهر بغداد هو وأصحابه وهم في نهاية التهاون بابن رائق ومن معه وكانوا ينهرون ويقولون: «أين نزلت هذه القافلة الواردة من الشام» ولما وصل كورنكيج إلى دار السلطان دُفع عنها وكان فيها لؤلؤ وبدر الخرشني فانصرف كورنكيج ونزل في الجزيرة التي بين يدي اصطبل مربط الجمال وخزانة الفرش ويعرف اليوم بدار الفيل.

فتحدث أبو بكر بن رائق بعد ذلك أنه كان عمل على الانصراف والرجوع إلى الشام لما دخل كورنكيج بغداد وأنه حمَّل ثقلهُ وابتدأ بالمسير قال: ثم قلت في نفسي: «أنصرف وأسلّم هذا الأمر» فلم تَطِب نفسي وقلت لفاتك حاجبي: استوقف الناس. فاستوقفهم فلم يقفوا حتى بادر إلى بغل من بغال النقل فعرقبه فوقف حينئذٍ الناس.

وعبرت نحو من مائة رجل من أصحابي مع محمد بن جعفر النقيب على الظهر إلى الجانب الشرقي وعبرت أنا في سُميرية ومعي سباشي الخادم التركي ونحو من عشرين سميرية فيها غلمان واتفق مجيئي مجيء أصحابي على الظهر في وقت واحد فلما رشقنا الديلم بالنُشّاب سمعوا من ورائهم الزعقات من أصحابي ومن العامة فاضطربوا ونخبت قلوبهم وقدَّروا أن الجيش قد وافاهم من خلفهم وأنهم قد ملكوا ظهورهم فانهزموا وأخذهم الرحمة من العامة وطُرحت السُتر عليهم وهرب كورنكيج واستتر وقيل ما عرف أصحابه أي طريق أخذوا وثبت أمرنا.

ذكر الخبر عن قتل الديلم وإمارة ابن رائق

لما استتر كورنكيج وتقطع جيشه وبطل أمره ظهر أبو عبد اللّه أحمد بن علي الكوفي لابن رائق وعاد إلى خدمته. وأمر ابن رائق بقية الديلم المستأمنة بطرح أسلحتهم وأنفذ خاتمه إلى جماعة منهم كانوا تحصنوا في حصن بالقرب من جسر النهروان فرجعوا ودخلوا الدار المعروفة بدار الفيل فكانوا نحو أربعمائة رجل لم يجسروا أن يتفرقوا. فلما كان يوم الاثنين لخمس بقين من ذي الحجة وجَّه ابن رائق برجَّالته السودان إلى دار الفيل ووضعوا السيف فيمن اجتمع هناك من الديلم فقطعوهم فلم يسلم منهم إلا رجل يقال له خذاكرد وقع بين القتلى وحُمل في جملة المقتولين في الجوالقات إلى دجلة ورمي به مع غمرة فعاش مدة طويلة بعد ذلك. وكان ابن رائق استأمر من قواد الديلم بضعة عشر قائداً فوجَّه بهم إلى دار فاتك حاجبه وأمره بضرب أعناقهم فضربت أعناقهم صبراً في داره. وكان من المنهزمين من الديلم قوم مضوا في الهزيمة إلى طريق خراسان فلما تجاوزوا جسر النهروان باتوا في بعض الخانات فسقط عليهم الخان بالليل فمات أكثرهم.

ولما كان يوم الثلاثاء لأربع بقين من ذي الحجة خلع المتقي للّه على ابن رائق وطوَّقهُ وسوره بطوق وسوار مرصَّعين بالجوهر وعقد له لواءً وقلده إمرة الأمراء وألزم أبو جعفر الكرخي بيتَهُ وكانت وزارته هذه ثلاثة وخمسين يوماً. ودبر الأمور أبو عبد اللّه أحمد بن علي الكوفي كاتب الأمير أبي بكر بن رائق من غير تسمية بوزارة وأطلق أبو إسحاق القراريطي إلى منزله ووجد كورنكيج فأخذ وحُمل إلى دار السلطان.

ودخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

واستوحش ابن رائق من بني البريدي لأنهم ما حملوا شيئاً من مال واسط والبصرة فلما كان يوم الثلاثاء لعشر خلون من المحرَّم انحدر ابن رائق وهرب البريديون إلى البصرة. وسفر بينهم الكوفي إلى أن ضمن البريدي البقايا بواسط بمائة وسبعين ألف دينار ثم بستمائة ألف دينار في كل سنة مستأنفة وأصعد ابن رائق إلى بغداد.

وفيها دخل العباس بن شقيق ومعه رأس ماكان بن كالي الديلمي مع هدايا صاحب خراسان إلى المتقي للّه من غلمان أتراك وطيب وشهابي وشُهر رأس ما كان في شذاءات وكان على الرأس خوذة وفيه سهم قد نفذ في الخوذة والرأس؟ ومرَّ من الجانب الآخر من الخوذة.

وفيها شغب الأتراك على ابن رائق وخرجوا إلى المصلّى ومعهم توزون ونوشتكين وأخذوا في طريق التجنّي عليه ورحلوا سحر يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر إلى البريدي بواسط فلما وصلوا إليه قوي بهم جانبهُ واحتاج ابن رائق إلى مداراته.

ذكر وزارة أبي عبد اللّه البريدي

فكاتب أبا عبد اللّه البريدي بالوزارة للنصف من شهر ربيع الآخر وأنفذ إليه الخلع مع الطيب بن سوسن واستخلف له أبا جعفر بن شيرزاد بالحضرة وأوصلهُ إلى المتقي للّه إلا أن المدبر للأمور كلها أبو عبد اللّه الكوفي ووردت الأخبار بعزم البريدي على الإصعاد إلى بغداد فأزال ابن رائق عنه اسم الوزارة وعزله بأبي إسحاق القراريطي ولزم أبو جعفر بن شيرزاد منزله واستتر. وركب المتقي على الظهر ومعه ابنه أبو منصور وابن رائق والوزير أبو إسحاق القراريطي والجيش وساروا على الظهر وبين أيديهم المصاحف المنشورة والقراء واستنفر العامة لقتال البريديين ثم انحدروا إلى داره في دجلة من باب الشمَّاسية. واجتمع خلق من العيارين بالسكاكين المجرَّدة في جميع محال الشرقي من بغداد وفي يوم الجمعة لُعِّن بنو البريدي على المنابر في المساجد الجامعة ببغداد.

ذكر أبي الحسين البريدي في إصعاده إلى بغداد

خرج أبو الحسين من واسط مصعداً في الجيش إلى بغداد ومعه غلمان أخيه أبي عبد اللّه والأتراك والديلم فلما قرُب من بغداد استأمن كل من كان معه من القرامطة إلى ابن رائق. واستعد ابن رائق للقتال وعمل على أن يتحصن في دار السلطان فسدَّ أكثر أبواب دار السلطان والثلم في سورها ونصب العرّادات والمنجنيقات على السور وعلى شاطئ دجلة في فناء الدار وطرح حول الدار الحِسك والحديد واستنهض العامة وفرض بعضهم فصار ذلك سبباً لتوزُّع العصبيات بينهم واتصال الحروب. وافتتن الجانب الغربي وأحرق نهر طابق مما يلي دار البطيخ واتصلت الكبسات بالليل والنهار على قوم ذوي أموال واستغفر الناس نهاراً وليلاً وقتل بعضهم بعضاً قتلاً ظاهراً وفتح الحبس ودامت الفِتنة. وبرزت خِيم السلطان إلى نهر ديالي وخرج ابن رائق إلى الحلبة والقوّاد معه. فلما كان يوم الاثنين للنصف من جمادى الآخرة عبر أصحاب أبي الحسين البريدي نهر ديالي وكان لؤلؤ مقيماً على شاطئ النجمي وبدر الخرشني بالمُصلّى وما زالت الحرب بين البريدي وابن رائق إلى وقت الظهر وما زالت الحرب في الماء منذ ذلك اليوم إلى

يوم السبت لتسع بقين من جمادى الآخرة فاشتدت الحرب على الظهر وفي الماء وأوقع الديلم بالعامة الذين فرضوا ودخل الديلم من أصحاب البريدي دار السلطان من جهة الماء وملكوا الدار. فخرج المتقي وابنه منها هاربين في نحو عشرين فارساً فخرجا إلى باب الشمَّاسيَّة ولحق بهما ابن رائق وجيشه ولؤلؤ ومضوا إلى الموصل. واستتر القراريطي الوزير فكانت مدة وزارته أحد وأربعين يوماً. وقتل الديلم من وجدوا في دار السلطان ونهبوها نهباً قبيحاً ودخل الديلم دُور الحرم وأقام البريدي أبو الحسين في حديديَّة أياماً على باب الخاصة ووُجد في دار السلطان ابن سنجلا وعلي بن يعقوب فأطلقا وأما كورنكيج فقيده وحدره إلى أخيه أبي عبد اللّٰه فكان آخر العهد به ووُجد القاهر في محبسه فأقِرَّ فيه من دار السلطان.

فلما كان بعد أيام صعد أبو الحسين البريدي ونزل في دار مونس وهي التي كان ينزلها ابن رائق وقلَّد أبا الوفاء توزون الشرطة في الجانب الشرقي ونوشتكين الشرطة في الجانب الغربي. وأخذ الديلم في النهب والسلب وكُبست الدور وأخرج أهلها ونُزلت ولم يزل الناس على ذلك إلى أن تقلد توزون ونوشتكين الشرطة فإن الفتنة سكنت قليلاً. وأخذ أبو الحسين البريدي حُرم توزون وابنيه وعيالات أكثر القوّاد والأتراك وأنفذهم إلى أخيه ليكونوا رهائن في يده.

وغلت الأسعار ببغداد وظلَم البريدي الظُلم المعروف لهم وافتتح الخراج في آذار فخبط التُنَّاء حتى تهاربوا وافتتح الجوالي وخبط أهل الذمة وأخذ الأقوياء بالضعفاء ووظف على كرّ من الحنطة سبعين درهماً وعلى سائر المكيلات وعلى الزيت وقبض على نحو خمسمائة كرّ كان للتجار ورد من الكوفة وادّعى أنه للحسن بن هارون المتقلد كان للناحية وهرب خجخج إلى المتّقي للّٰه وكان أخرج إلى بزرج وسابور والراذانين. وكان توزون ونوشتكين والأتراك تحالفوا على كبس أبي الحسين البريدي فغدر نوشتكين بتوزون ونمى الخبر إلى أبي الحسين البريدي فتحرَّز وأحضر الديلم داره واستظهر بهم وقصد توزون دار أبي الحسين فحاربه من كان فيها من الديلم وغُلقت الأبواب دونه. وانكشف لتوزون غدر نوشتكين فلعنهُ وانصرف ضحوة يوم الثلاثاء ومضى مع قطعة وافرة من الأتراك إلى الموصل واضطرب العامة وقاتلوا البريدي.

ولما صار توزون وخجخج والأتراك إلى الموصل وقوي بهم ابن حمدان عمل على أن ينحدر مع المتقي للّٰه إلى بغداد وبلغ ذلك أبا الحسين البريدي وكتب إلى أخيه يستمدُّه فأمدّه بجماعة من القواد والديلم. وأخرج أبو الحسين مضربه إلى باب الشماسيَّة وأظهر أنه يحارب ابن حمدان إن وافى وذلك كله بعد أن قتل أبو محمد بن حمدان ابن رائق وسنشرح خبره على أثر هذا الحديث. فلما قرُب المتقي وأبو محمد بن حمدان من بغداد انحدر أبو الحسين هارباً وجميع جيشه وأخذ معه من كان معتقلاً في يده يطالبهُ

مثل ابن قرابة وأبي عبد اللَّه بن عبد الوهاب وعلي بن عثمان بن النفَّاط ومن أشبههم فاضطربت العامة ببغداد زيادة اضطراب ونهبت الدور وتسلح الناس في الطرقات ليلاً ونهاراً. وكانت مدَّة أبي الحسين البريدي ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً.

ولما وصل المتّقي للَّه وابناه ومحمد بن رائق ومن معهم إلى تكريت وجدوا هناك وهم مصعدون إلى الموصل بعدُ أبا الحسن علي بن عبد اللَّه بن حمدان وذاك أن ابن رائق لما قرُب البريدي من بغداد كتب إلى أبي محمد بن حمدان يسأله مدداً ومعاونة على قتاله فأنفذ أبو محمد أخاه فلم يلحقهم إلاّ بتكريت وقد انهزموا وأخذوا طريق الموصل. فلما التقوا أقام علي بن حمدان للمتّقي للَّه وابنه وابن رائق والقوَّاد كل ما يحتاجون إليه من الميرة والثياب والفرش والدراهم وما قصر في أمرهم وساروا بأجمعهم إلى الموصل. فلما وصلوا إليها حاد عنها أبو محمد الحسن بن عبد اللَّه بن حمدان وعبر إلى الجانب الشرقي ومضى إلى نواحي معْلثايا فما زالت الرُسل تتردد بينه وبين محمد بن رائق إلى أن توثّق بعضهم من بعض بالأيمان والعهود والمواثيق حتى أنس أبو محمد وعاد فنزل في الشرقي بإزاء الموصل.

ذكر الخبر عن مقتل ابن رائق

فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتّقي للَّه ومعه أبو بكر بن رائق يوم الاثنين لتسع بقين من رجب ليسلّموا عليه فلقيهم أجمل لقاء ونثر على الأمير أبي منصور الدنانير والدراهم. فلما أراد الانصراف من عنده ركب الأمير أبو منصور ثم قُدّم فرس ابن رائق ليركب من داخل المضرب فأمسك أبو محمد بن حمدان كمَّهُ وقال له: تُقيم اليوم عندي لتحدّث فإن بيننا ما نتجاراه. فقال له ابن رائق: اليوم لا يجوز لأني أريد أن أرجع مع الأمير ولكن يكون يوماً آخر. فألحَّ عليه ابن حمدان إلحاحاً استراب به ابن رائق فجذب كمهُ من يده حتى تخرَّق وكان رِجله في الركاب فشب به الفرس فوقع وقام ليركب فصاح أبو محمد بغلمانِه وأمرهم بالإيقاع به وقال: ويلكم لا يفوتكم. فوضعوا عليه السيوف وقتلوه وأرسل أبو محمد بن حمدان إلى المتّقي للَّه أنه وقف على أن ابن رائق أراد أن يغتاله ويوقِع به فجرى في أمره ما جرى فردّ المتّقي عليه الجواب يعرّفه أنه الموثوق به ومن لا يشك فيه ويأمره بالمصير إليه فعبر ولقيه.

ذكر إمارة أبي محمد الحسن بن عبد اللَّه بن حمدان

فخلع عليه المتقي وعقد له لواء ولقَّبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وكنّاه وكان ذلك مستهل شعبان وخلع على أخيه عليّ وعلى أبي عبد اللَّه الحسين بن سعيد بن حمدان وكتب إلى القراريطي بتقليده الوزارة وذلك في شوَّال وجلس في داره وقلّد

وعزل وأمر ونهى وضبط الأمر إلى أن وافى المتّقي وناصر الدولة أبو محمد.

خبر محاربة البريدي مع ابن حمدان

دخل المتّقي بغداد مع ناصر الدولة أبي محمد وأخيه علي وجميع الجيوش وعملت لهم العامة القباب ونزل ناصر الدولة وأخوه في البستان الشفيعي ولقي الوزير القراريطي المتقي للّه وناصر الدولة وتقلد أبو الوفاء توزون الشرطة في جانبي بغداد وخلع المتّقي على الوزير أبي إسحاق القراريطي خلع الوزارة يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة وفي يوم الخميس خلع المتّقي للّه على ناصر الدولة وأخيه وطُوّقا وسوّرا بطوقين طوقين وأربعة أسورة ذهبا وعلى أبي عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان وطوّق بطوق واحد وسوارين ذهباً.

وورد الخبر بأن أبا الحسين علي بن محمد البريدي قد أصعد من واسط يُريد الحضرة فاضطرب الناس ببغداد وعبر المتّقي إلى الزُبيدية ليكون مع ناصر الدولة وقَدَم حُرمه إلى سر من رأى وهرب جماعة من وجوه أهل بغداد وعبر جيش ناصر الدولة من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي منها وسار أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن حمدان في الجيش. وكان مع أبي الحسين البريدي لما أصعد من واسط أبو جعفر بن شيرزاد وأبو بكر بن قرابة والديلم وجيش عظيم فكانت الوقعة بين أبي الحسن علي بن حمدان وبين البريدي يوم الثلاثاء انسلاخ ذي القعدة ويوم الأربعاء مستهلّ ذي الحجة ويوم الخميس ويوم الجمعة لثلاث وأربع خلون من ذي الحجة في القرية المعروفة بكيل أسفل المدائن بفرسخين. ومع ابن حمدان توزون وخجخج والأتراك فكانت أولاً على عليّ بن عبد اللّه بن حمدان وانهزم أصحابه فردّهم ناصر الدولة وكان ناصر الدولة بالمدائن ثم صارت على أبي الحسين البريدي فانهزم واستُوسر من أصحابه يانس غلام البريدي أبي عبد اللّه وأبو الفتح بن أبي طاهر ومحمد بن عبد الصمد ومذكر البريدي والفرج كاتب جيش البريدي واستأمن إلى ابن حمدان محمد بن ينال الترجمان وإبراهيم بن أحمد الخراساني وحصل له جمعُ الديلم الّذين كانوا في عسكر البريدي. وقتل جماعة من قوّاد البريدي وعاد البريدي إلى واسط مهزوماً مفلولاً ولم يبق في علي بن حمدان وأصحابه فضل لاتباعه لعظيم ما مرّ بهم ولكثرة الجراح فيهم.

ولسبع خلون من ذي الحجة عاد المتّقي للّه من الزُبيدية إلى دار الخلافة على ثلاث ساعات ونصف وعاد الحُرم من سر من رأى ومن كان هرب إليها من بغداد. ودخل ناصر الدولة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة بغداد وبين يديه يانس غلام البريدي وأبو الفتح بن أبي طاهر والمذكر البريدي مشهرين على جمالٍ وعلى رؤوسهم برانس وكُتب عن المتّقي كتاب الفتح إلى الدنيا ولقّب المتّقي للّه أبا الحسن

علي بن عبد اللّه بن حمدان لما فتح هذا الفتح سيف الدولة وأنفذ إليه خلعاً وكتب فيه كتاباً وانحدر سيف الدولة إلى واسط فوجد البريديين قد انحدروا منها إلى البصرة وأقام بها ومعه الأتراك والديلم وسائر الجيش.

ذكر حيلة ابن مقاتل على ناصر الدولة

وراسل أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل ناصر الدولة على يد أبي زكريا السوسي فأخذ له أماناً من ناصر الدولة واشترط فيه ابن مقاتِل إن استقرّ بينه وبين ناصر الدولة مصادرة ينهض بها ويطيب نفسه لها أقام على ظهوره وإن لم يستقر عاد إلى استتاره فلما ظهر تباعد ما بينهما فقال له ناصر الدولة: عد إلى استتارك. فقال ابن مقاتل: لم أحُدَّ إلي ذلك حداً فإذا شئتُ فعلتُ. فضجِ ناصر الدولة من ذلك لأنه مضطر إلى الوفاء بعهده وعلِمَ أن الحيلة قد تمت عليه فاضطر إلى أن فصل أمرَهُ على مائة وثلاثين ألف دينار.

ونظر ناصر الدولة في أمر النقد والعِيار فأمر بتصفية العين والورق وضرب دنانير سماها الأبريزية من أجود عيار وكتب في ذلك كتاباً وفي هذه السنة استولى الديلم على آذربيجان.

ذكر السبب في ذلك

إن دَيسم بن إبراهيم لما تمكن من آذربيجان وقد كتبنا خبره فيما تقدَّم كان معظم جيشه الأكراد إلاّ طائفة يسيرة من بقية عسكر وشمكير اختاروا المقام معه حين ردّ عسكر وشمكير إليه فتبسَّط عليه الأكراد وزاد أمرهم في الإدلال والتحكُّم إلى أن صاروا يتغلبون على حدود أعماله. فنظر في أمره فلم يجد من يستظهر عليهم بهم إلا الديلم فاجتذب جماعة من أكابرهم منهم صعلوك بن محمد بن مُسافِر وأسفار بن سياكولي؟ وجماعة من أمثالهم وصار إليه جماعةٌ من الموصل وفيهم رجل كان من قوّاد بجكم (فنفاه بجكم من عسكره لشيء أنكره منه) يقال له علي بن الفضل الصولي فأفضل عليه ديسم وموَّلهُ وعظَّم محلَّه فاجتذب الديلم إليه فلما قويت شوكة ديسم بهم انتزع من يد الأكراد ما كانوا تغلبوا عليه وقبض على جماعةٍ من رؤسائهم وازداد من عِدَّة الديلم واستظهر بهم. وكان مُتولّي وزارته أبو القاسم علي بن جعفر وكان من كتَّاب آذربيجان وكثرت سعاية أعدائه به فأخافه ديسم وأوحشه حتى هرب منه إلى الطرم ليعتصم بمحمد بن مسافر فوافق وصوله إليه الوقت الذي استوحش فيه ابناهُ منه وهسوذان والمرزبان وملكا عليه قلعته المعروفة بسميران. وكان السبب في وحشتهما قبح سيرته وسوء معاملته لأهل بيته وقبضهُ عليهم لغير ذنب كبير وذلك لشرّ كان في طبعه. وكان استوحش منه وهسوذان فصار إلى أخيه المرزبان وكان في قلعة من قلاع أبيه بالطر فعلم محمد بن مسافر أنه لا

يتمكن من القبض عليه إلا بعد أن يفرق بينه وبين م أخيه فكتب إلى المرزبان يستدعيه فقال وهسوذان له: إني لا أقيم في القلعة بعدك. وأعلمهُ أنه إن فارقه تمكن منه وقبض عليه فقال له المرزبان: فاخرج معي. فلما صاروا في بعض الطريق ظفرا برسول لأبيهما كان أنفذه سراً إلى المقيمين في القلعة يأمرهم إذا خرج المرزبان أن يقبضوا على وهسوذان والاحتياط عليه وعلى القلعة فعجبا من ذلك وجمعهما الاستيحاش من أبيهما فوصلا إلى قلعة أبيهما وقد خرج أبوهما إلى قلعة أخرى فعرّفا أمهما خراسوية ما كتب أبوهما فيهما وكانت أمهما هذه جزلةً فساعدتهما على القلعة وفيها ذخائر محمد بن مسافر وأمواله فاستوليا عليها وتمكنا منها فلما عرف محمد بن مسافر ذلك تحيَّر في أمره وحصل في القلعة التي كان قصدها وحيداً قد فرق بينه وبين نعمته. فلما وصل علي بن جعفر كاتب ديسم إلى هذه الصورة اعتصم بالمرزبان وأطمعه في آذربيجان فضمن له أن يملكه إياها فيوصِلهُ إلى أموالٍ جليلة من ارتفاعها من وجوه يعرفها فنفق عليه وقرُب من قلبه وقلدهُ وزارته. واتفقا مع ذلك على عصمة في الدين وذاك أن علي بن جعفر كان من دُعاة الباطنيَّة وكان المرزبان معهوداً فيهم فأذن له المرزبان أن يدعو إلى هذا المذهب ظاهراً فاجتمع له كل ما أرادهُ.

وكاتب عسكر ديسم وكان يعرف من استوحش من دَيسم ومن هو غير راض عنه ومن لا يرضى مذهب ديسم لأن ديسماً كان يرى رأي الشراة وكذلك كان أبوه وكان يصحب هارون الشاري أعني أباه فلما قتل هرب إلى آذربيجان وتزوج إلى رئيس من أكرادها فوُلد ديسم فاصطنعه ابن أبي الساج وارتقى معه إلى ما ارتقى إليه.

ولم يزل علي بن جعفر يصعصع أركانه ويفسد قلوب أصحابه وخاصة الديلم إلى أن استجاب له أكثر أصحابه وكاتبوه وقالوا: إن صار إلينا المرزبان فارقنا ديسماً بأجمعنا. فلما وثق المرزبان بذلك من ثبات أصحاب ديسم سار إلى آذربيجان وسار إليه ديسم فلما صافَّه الحرب قلب الديلم تراسهم في وجهه وصاروا إلى المرزبان وكانوا نحو ألفي رجل واستأمن معهم كثير من الأكراد وحمل عليه المرزبان ففرق عنه من بقي معه وانهزموا وهرب في طائفة يسيرة إلى أرمينية واعتصم بجاجيق بن الديراني لمودّة كانت بينهما فأحسن ضيافته وحمل إليه ما يحمل إلى مثله. فاستأنف ديسم يألف الأكراد وعرف خطأهُ في الاستكثار من الديلم وكان أشار عليه بعض النصحاء الفضلاء أن لا يرتبط من الديلم أكثر من خمسمائة رجل بعصاهُ. وملك المرزبان آذربيجان وجرى أمره على سداد بتدبير كاتبه علي بن جعفر إلى أن أفسد ما بينه وبينه.

ذكر السبب في ذلك

كان له كاتب يعرف بأبي سعيد عيسى بن موسى ويعرف بعيسكوَيه فسعى عليه

وأطمع المرزبان في ماله وكان علي بن جعفر قد أوحش جماعة من حاشية المرزبان فتضافروا عليه وعارضوه في تدبيره وأحسَّ علي بن جعفر بذلك فاحتال على المرزبان بأن أطمعهُ في أموال عظيمة يثيرها له من بلد تبريز وتبريز هذه مدينة جليلة وعليها سور حصين وحواليها غياض وأشجار مثمرة وهي حصينة وأهلها ذو بأس ونجدة ويسار. فضمّ إليه المرزبان جستان بن شرمزن ومحمد بن إبراهيم ودلّير بن أورسفناه والحاجب الحسن بن محمد المهلبي في جماعة من ثقاته فسار علي بن جعفر إلى تبريز. فلما تمكن بها استمال أهل البلد وكتب إلى ديسم يتلافاهُ ويستدعيه ويعدهُ من نفسه أن يقتل الديلم ويوازرهُ حتى يعود إلى مملكته. فأجابه ديسم بأنه لا يثق به إلا بعد أن يوقع بالديلم فواطأ أهل البلد على الإيقاع بهم وأعلمهم أنه إنما حضر لطمع المرزبان فيهم وأن الديلم لا يساعدونه على صلاح أمرهم وهم لا يرضون إلا باستئصالهم. فواطأهُ أهل البلد على الوثوب بهم في يوم ذكره وأحضر القوّاد المذكورين في ذلك اليوم فقبض في داره عليهم وقتل الديلم فصار إلى ديسم في العسكر الذي أجمع له.

وكان المرزبان أساء إلى الأكراد الذين استأمنوا إليه فوافق ذلك ظهور ديسم بتبريز فصاروا بأجمعهم إليه واتصل بالمرزبان ما جرى على الديلم فندم على إيحاش علي بن جعفر واستماع كلام أعدائه فيه واستوزر أبا جعفر أحمد بن عبد اللّه بن محمود وخلع عليه ولقبه المختار. ثم استعد وسار إلى تبريز وقد سبقه ديسم فجرت بينهما حروب وثبت الديلم وانهزم الأكراد فعاد ديسم إلى تبريز متحصناً بها وحامى أهلها عليه وذلك لما سبق من فعلهم بالديلم وحاصرهم المرزبان. وابتدأ في استصلاح علي بن جعفر ومراسله وإعطائه عهد اللّه وميثاقه والعصمة التي بينهما من الدين على أن يعود له فأجابه علي بن جعفر بأنه لا يريد من جميع ما بذله له إلا السلامة وأنه ما فارق ديسماً حين فارقهُ إلا هرباً من المكروه ولا فارقه الآن وعاد إليه إلا هرباً من مثل ذلك وأن الّذي يلتمسه منه أن يعفيه من العمل ويصونه في نفسه وحاله ليلزم منزله ويروح ويغدو إليه فأجابه إلى ذلك وسفر بينهما من الثقات الذين يجمعهم الدينُ من وثق له بجميع ما أراد فسكن إليه. واشتدّ الحصار على ديسم فثلم ثلمةً في سور المدينة ليلاً وخرج منها هو وأصحابه إلى أردبيل ولم يجسر المرزبان على اتباعه في الوقت خوفاً من أن يعطف عليه في صعاليكه ويخرج من ورائه أهل تبريز فتأخر عنه. وخرج إليه علي بن جعفر فوفى له وأقام أهل تبريز على ممانعتِه.

ذكر ما آل إليه أمر ديسم بعد حصوله بأردبيل

لما عرف المرزبان حصول ديسم بأردبيل خلف على تبريز بعض جيشه وصار في معظم العسكر إليه واستدعى أخاهُ وهسوذان إليه في جماعةٍ من أطاعهُ وجد في محاصرة

ديسم. وكان ديسم استوزر بعد مفارقة علي بن جعفر أبا عبد اللّه محمد بن أحمد النعيمي فراسله المرزبان وتلطف له ووعده أن يستوزره فاستجاب له وآثره على ديسم وواطأه على التدبير عليه.

ذكر حيلة النعيمي على ديسم حتى فارق الحصار وخرج إلى المرزبان

أخذ النُعيمي في المشورة على ديسم بأن يُنفذ إلى المرزبان وجوه أردبيل ليسألوهُ الصلح ويعاهدوه ويستوثقوا منه بالأيمان المؤكدة على أن يؤمنه ليدخل في طاعته وخوَّفه من طول الحصار واستيحاش أهل البلد وأنهم سيواطئون المرزبان ويسلمونه بأن يفتحوا له الباب وأعلمهُ أنه قد وقف من ذلك على أمر سيظهر له إن لم يبادِر بالصلح. ونظر ديسم في أمره فوجد الصورة قريبة مما خوَّفه منه وذلك أن الحصار كان قد اشتد وانقطعت الميرة عنه وعن جنده وعن أهل البلد فالجميع في شدة والدمدمة كثيرة والناس مستوحشون وهم على يأس من الصلاح وخوف من زيادة المكروه. وأنفذ ديسم إليه وجوه البلد وأعيانهم ومذكوريهم ليتوثقوا له بالأيمان والعهود حتى يأنس بها ويخرج إليه ففعل القوم ذلك وتوثقوا له نهاية التوثيق. وراسل أبو عبد اللّه النعيمي المرزبان بأن يحتبس هؤلاء الوجوه ولا يردهم إلى البلد إلا بعد خروج ديسم إليه لئلا يتغير الأمر أو يحدث ما ينقض رأيه ولأن أهل البلد إذا حبس عنهم وجوههم ورؤساؤهم اجتمعوا عليه ولم يمهلوه وعرَّفوه أنه قد أمن على نفسه بالأيمان التي سألها وسكن إلى ما بذل له وليس لتأخره عن الخروج وجهٌ ويشيّد هو أيضاً كلامهم ويؤيده ولا يقنع منه إلا بالخروج إليه في أسرع وقت وأقربه. ففعل المرزبان ذلك واضطرب أهل البلد على ديسم لحصول رؤسائهم في يد المرزبان فخرج إليه فلما أتاه خبره تلقاه وأكرمهُ وأعظمه ووفى له بكل ما وافقه عليه وقلد أبا عبد اللّه النُعيمي وزارته وقبض على ابن محمود وسلمه إليه فصادرهُ وجميع أصحابه وصادر وجوه البلد واستخرج أموالاً عظيمة. واستقامت أمور المرزبان وخُطب له على جميع منابر آذربيجان.

فليعتبر الناظر في هذا الكتاب هل أُتِي هؤلاء الملوك إلا من سوء تحفظهم واشتغالهم عن ضبط أمورهم وتفقُّدها بلذاتهم وشهواتهم وإغفالهم أمر أصحاب الأخبار وتركهم تعرُّف نيات وزرائهم وقوّادهم وأمور عساكرهم وتعويلهم على الاتفاقات والدول التي لا يوثق بها وقلة تصفُّحهم أحوال الملوك قبلهم ممن استقامت أمورهم كيف كانت سيرتهم وكيف ضبطوا ممالكهم ونيات أصحابهم بضروب الضبط أولاً بالدين الّذي يحفظ نظامهم ويملك سرائرهم ثم بأصحاب الأخبار الثقات والعيون المذكاة على مُدبري أمورهم والتفقُّد لهم يوماً يوماً وحالاً فحالاً وترك إيحاشهم ما أمكن ومداراة من تجب مداراتهُ والبطش بمن لا حيلة في استصلاحِه ولا دواء لسريرته. وقد كان حُصفاء

الملوك يخرجون من خزائنهم الأموال العظيمة جداً إلى أصحاب الأخبار ولا يستكثرونها في جنب ما ينتفعون به من جهلتهم..

فأما ما انتهى إليه أمر ديسم فإنه خاف بعد ذلك على نفسه وسأل المرزبان أن يخرجه إلى قلعته بالطرم ليقيم فيها مع أهله ويقبض على ارتفاع ضياعه وهو ثلاثون ألف دينار في السنة وهو دون ما كان يبذله المرزبان له ويتكلفه من مؤونته فأجابه إلى ذلك وحصل في القلعة مصوناً في أهله ونفسه وضياعه.

ودخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

وفيها وافى الأمير أبو الحسين أحمد بن بويه إلى عسكر أبي جعفر بإزاء البصرة وأظهر أن السلطان كاتبهُ في حرب البريدي فأقام مدة يحاربهم ثم استأمن جماعة من قوّاده إلى البريديين مثل روستاباش وغيره فاستوحش من المقام وعاد إلى الأهواز بعد أن استأمن إليه جماعة من عسكر البريدي.

وفيها زوّج ناصر الدولة ابنته من الأمير أبي منصور بن المتقي ووقع الأملاك والخطبة بحضرة المتقي ولم يحضر ناصر الدولة وجعل العقد إلى أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي وكان الخاطب القاضي الخِرقي فلحن في مواضع وجعل الصداق والنحلة واحداً وجعلهما صداقاً وكان الصداق خمسمائة ألف درهم والنحلة مائة ألف دينار ولم يُحسن أن يعقد التزويج فعقده ابن أبي موسى.

وفي رجب من هذه السنة عبر الوزير أبو إسحاق القراريطي إلى ناصر الدولة على رسمه فقبض عليه وعلى جماعة معه فكانت مدّة وزارته ثمانية أشهر وستة عشر يوماً وجعل اسم الوزارة على أبي العباس أحمد بن عبد الله الأصفهاني وخلع عليه المتقي لله خلع الوزارة في دار السلطان لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب وانصرف بها إلى دار الأمير ناصر الدولة فكان يلبس القباء والسيف والمنطقة في أيام المواكب والمدبر للأمور أبو عبد اللّه الكوفي وصودر القراريطي والكُتّاب والمتصرفون.

وكان ناصر الدولة ينظر في قصص أصحاب الجنايات من العامة وفيما ينظر فيه صاحب الشرطة وتقام الحدود الواجبة عليهم من ضرب وقطع يد ورجل بحضرته وتُعرض عليه الأيدي والأرجل إذا قطعت وتُعد بحضرته ويستوفي العدد عليهم لئلا يرتفق أصحاب الشرطة من الجناة ويطلقوا من غير علمه.

ذكر ما آل إليه أمر سيف الدولة بواسط مع الأتراك وما اتصل بذلك من خبر ناصر الدولة ببغداد

كان سيف الدولة أبو الحسن مقيماً بواسط مفكراً في أن يسير بالجيش والأتراك

إلى البصرة ليفتحها وكان أخوه ناصر الدولة يدافعه بحمل المال ويضايق الأتراك خاصةً وكان توزون وخجخج يُسيئان الأدب على سيف الدولة بواسط ويتحكمان عليه حتى ضاق ذرعاً بهما. وكان ناصر الدولة قد أنفذ أبا عبد اللّه الكوفي إلى سيف الدولة أخيه ومعه ألفي ألف درهم وخمسين ألف دينار لينفق في الأتراك فوثب توزون وخجخج به بحضرة سيف الدولة وأسمعاه مكروهاً فضمهُ سيف الدولة إلى نفسه ثم ستره في بيت وقال لهما: أما تستحيان مني فتجاملاني في كاتبي! ثم وافق سيف الدولة كاتب خجخج أن يسير خجخج إلى المذار ويُسوّغه ارتفاعها إذا حماها ووافق أبا علي المسيحي كاتب توزون على المسير بتوزون إلى الجامِدَة ويوهب له ارتفاعها وعليه حمايتها وانتظم هذا التدبير وعاد الكوفي إلى مجلسه بحضرة سيف الدولة ورهب أن يعود إلى منزله وعبر خجخج إلى غربي واسط للمسير واستعد توزون أيضاً للمسير إلى الجامدة. فوافى أبو عمرو المسيحي وقت الظهر لثلاث بقين من شوّال هارباً من ناصر الدولة إلى أخيه أبي علي المسيحي وكان معه توقيع من ناصر الدولة بخطه إليه يقول فيه: قد اتصل طمعُك فيَّ وانبساطك عليّ وأنا محتمِل وأنت مغترٌ وبلغني إدخالك يدك في وقف فلان وواللّه لئن لم تخلّصها وتُقصر عن فعلك المذموم لأقطعن يديك ورجليك. فزعم أبو عمرو المسيحي أنه قرأه وانحدر وذكر أنه قال له قبل ذلك بأيام: يا مسيحي أنت مجتهد في أن تجعل توزون أميراً وعلى رأسك تحثُو التراب إن بلغ ما تؤمّلهُ له لم يرضك كاتباً لنفسه وطلب ابن شيرزاد أو مثله وشبهَهُ فاستكتبهُ وأنفَ منك فصادرك.

فتلافى سيف الدولة أبا عمرو المسيحي وواراه وراسل توزون وسكّنه. وكان سيف الدولة كثيراً يُزهّد الأتراك في العراق ويحملهم على قصد الشام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر ويُضرّب بينهم وبين أخيه فكانوا يصدقونه في أخيه ويأتون عليه في البعد من العراق وكانوا يتسحبون على سيف الدولة ويطالبونه باستحقاقاتهم وينصّون على أن يوفيهم يوم الستين من أيامهم استحقاقهم ويستصغرونه وأخاه. فلما وافى أبو عمرو المسيحي قالوا له: نحتاج أن تحمل مالَ قائدٍ قائد ورجاله وتوفّينا ذلك بالقبّان وزنةً واحدة مالاً مالاً. فأجاب إلى ذلك قطعاً للِحُجَّة وساموه أن يكون الوزن بالليل والنهار فصبر على ذلك كله وأذن فيه. وأخرج سيف الدولة أبا عبد اللّه الكوفي ليلاً وضم إليه ابن عمّه أبا وليد في جماعة من العرب وأصعد معه بنفسه إشفاقاً عليه ثم وصّى العرب حتى بلغوا به المدائن. فلما كان ليلة الأحد انسلاخ شعبان كبس الأتراك سيف الدولة بالليل وهرب من معسكره ولزم نهراً بقرب معسكره فأداهُ إلى قرية تعرف ببرقة ولزم البرية حتى وافى بغداد. وأضرم الأتراك النار في عسكره وقد كان بقي من المال المحمول إليه مع الكوفي من عند أخيه شيء لم يفرّق فيهم فنهبوه ونُهب جميع سواده فهذا خبر سيف الدولة بواسط.

فأما خبر ناصر الدولة ببغداد فإن أبا عبد اللّه الكوفي وصل إلى بغداد ولقي ناصر الدولة ووصف له الصورة فبرز ناصر الدولة إلى باب الشمَّاسية وركب إليه المتقي للّه في دجلة يسأله التوقف عن الخروج من بغداد فعبَّر ناصر الدولة غلمانهُ إلى الجانب الشرقي من بغداد وأكثر جيشه ليوهم الأتراك أنه يعبر ويسير في الجانب الشرقي فلما حصل جيشه في الجانب الشرقي قطع الجسر. وسار ناصر الدولة في الجانب الغربي فنُهبت داره وأفلت يانس غلام البريدي وأبو الفتح بن أبي طاهر من الحبس وعادا إلى البصرة واستتر أبو عبد اللّه الكوفي وخرج من بقي من الديلم ببغداد إلى المصلّى وعسكروا هناك وضبط الأتراك الذين كانوا ببغداد دار السلطان ورحل الديلم من المصلَّى ودبَّر الأمور بالحضرة أبو إسحاق القراريطي من غير تسمية بوزارة وانعقدت الرياسة بواسط لتوزون. فكانت مدة إمارة ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان ثلاثة عشر شهراً وثلاثة أيام.

ذكر ما جرى من أمر توزون بواسط مع الأتراك بعد هزيمة سيف الدولة حتى تمت له الإمارة

لما انصرف سيف الدولة من واسط على تلك الصورة وعاد توزون وخجخج إلى معسكرهما وقع الخلاف بينهما وتنازعا الرياسة ثم استقرّت الحال على أن يكون توزون الأمير وجيء بالآس والريحان إليه على رسم العجم إذا ترأس واحد منهم وعلى أن يكون خجخج صاحب جيش وهو الاسفهسلار وأمضى القوّاد ذلك عليهما بغير رضى جماعة ثم صاهر القُوّاد بينهما وطمع البريدي بواسط فأصعد إليها وتقدّم توزون إلى خجخج أن ينحدر إلى نهر أبان ويُراعي من يرد من أصحاب البريدي ويُطالعهُ فنفذ. ووافى عيسى بن نصر برسالة البريدي إلى توزون يهنئهُ بالإمارة ويسألهُ أن يضمّنه أعمال واسط ويُعرفه عنه أن الرأي تعجُّلهُ إلى الحضرة لإخراج ابن حمدان عنها فأجابه جواباً جميلاً وامتنع من التضمين وقال: إذا استقرت الأمور تخاطبنا في الضمان فأما وأنا بصورتي هذه وأنت تظن أني مطلوب خائفٌ من بني حمدان فلا وعسكري عسكر بجكم الذي قد جرّبت وخبرت وطائفة منهم تفي بك. وانصرفت عيسى بن نصر واتبعهُ توزون جاسوساً.

ذكر سبب قبض توزون على خجخج وسمله إياه

فعاد إليه الجاسوس وأعلمه أنه اجتمع مع خجخج وتخاليا طويلاً وإن خجخج على الاستئمان إلى البريدي. فسار إليه توزون للثاني عشر من رمضان ومعه مائة غلام من الأتراك ومائة من الخاصة واشكورج وجماعة من الكبار وكبسه في فراشه فلما أحس به ركب دابة النوبة بقميصه وفي يده لتّ ودفع عن نفسه سُوَيعة ثم أخذوه وجاؤوا به إلى واسط وسمله توزون وهدأت نار خجخج.

وسعى أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة في الوزارة وراسل المتّقي للّه واستصلح قبل ذلك الترجمان وضمن له مالاً فبعث المتّقي إليه: إني راغبٌ فيك مائل إليك محبٌّ لتقليدك ولكن ليس يجوز أن أبتدي بذكرك فأصلح أمرك مع الترجمان وقل له يسميك مع جماعةٍ فإني أختارك من بينهم. ففعل ذلك ولقي المتّقي للّه وقلّده وزارته وانصرف إلى منزله.

وورد الخبر بنزول سيف الدولة المروفة.

ذكر الخبر عن مصير سيف الدولة إلى بغداد بعد هزيمته وما انتهت إليه حالته

لما بلغ سيف الدولة خلاف توزون وخجخج بواسط طمع في بغداد فوافى المروفة وظهر المستترون من أصحابه من الجند وخرجوا إليه. وانحدر أبو عمرو المسيحي كاتب توزون إلى واسط مستتراً هارباً إلى صاحبه وانحدر أيضاً الترجمان. وأرجف الناس بانحدار المتّقي واضطرب الناس وأصبحوا على خوف شديد فأمر المتّقي للّه بالنداء ببراءة الذمة ممن أرجف بانحداره وجاء سيف الدولة في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان إلى باب حرب فنزل في المضارب وعليه وعلى أصحابه أثر الضرّ الشديد لما لحقهم في البرّية وخرج إليه أصحابه ومن يُريد الإثبات وجرت بينه وبين المتّقي للّه رسائل على يد أبي زكرياء السوسي وطالب بأن يُحمل إليه مالٌ ووعد أن يقاتل توزون إن ورد الحضرة. فحمل إليه المتّقي أربعمائة ألف درهم في دفعات وانضمّ إليه كل من بقي بالحضرة من القوّاد وما زال يقول في مجلسه: ما أنصفنا أبو الوفاء توزون حيث كبسنا في الليل ونحن نِيامٌ وإلا فليحضر نهاراً ونحن مستيقظون. ونحو هذا من الكلام.

وخلع المتّقي للّه على الوزير أبي الحسين بن مقلة يوم السبت لاثني عشر بقيت من شهر رمضان.

ولما بلغ توزون وصول سيف الدولة إلى بغداد خلف بواسط كيغلغ في ثلاثمائة غلام وأصعد مبادراً من واسط إلى بغداد ولما اتصل بسيف الدولة خبر إصعاده رحل من باب حرب مع من انضمّ إليه من قوّاد الحضرة وفيهم أبو علي الحسن بن هارون ومضى على وجهه. ودخل محمد بن ينال الترجمان آذنا لتوزون إلى بغداد لست بقين من شهر رمضان ودخل توزون من الغد ونزل دار مونس واغتنم البريدي بُعد توزون من واسط فوافاها لثلاث بقين من شهر رمضان فنهب وأحرق واحتوى على الغلات وأخذ جميعها. وقبض توزون على أبي عمرو المسيحي كاتبه وقلّد كتابته أبا جعفر الكرخي وسُلّم أبو إسحاق القراريطي إلى الوزير أبي الحسين بن مقلة فصادَره.

ذكر الخبر عن تقليد توزون إمرة الأمراء

لما حصل توزون ببغداد خلع المتّقي عليه وعقد له لواءً وقلده إمرة الأمراء. وصار أبو جعفر الكرخي كاتب توزون ينظر في الأمور كما كان الكوفي ينظر فيها فأما الكوفي فإنه لحق بسيف الدولة وهرب معه. فكان مدّة نظر الوزير أبي الحسين بن مقلة في الأمور إلى أن ينظر فيها أبو جعفر الكرخي نحو شهر.

وقد كان كيغلغ لما استخلفه توزون بواسط أمرهُ بقتال أبي الحسين البريدي فعجز عنه فأصعد إلى بغداد. ولم يمكن توزون المبادرة بالرجوع إلى واسط إلى أن تستقرّ الأمور بالحضرة وتجهيز جميع ما يحتاج إليه فأقام مدة شوّال وأكثر ذي القعدة إلى أن توطأت الأمور واستقامت.

وكان وقت هزيمة سيف الدولة من واسط أسر غلاماً له يقال له ثِمل عزيزاً على سيف الدولة فأطلقهُ ووهبه لسيف الدولة وأكرمه وأنفذه إليه في هذا الوقت لما حصل ببغداد فحسن موقع ذلك منه ومن ناصر الدولة حتى قال بالموصل: توزون صنيعتي وقد قلدتُه الحضرة واستخلفتهُ بها. فسكنت نفس توزون إلى ذلك.

وكان مغيظاً على البريدي لِقبح ما عاملهُ به فانحدر توزون إلى واسط وخلّف الترجمان ببغداد وتقدّم إلى أبي جعفر الكرخي أن يلحق به وضمَّن ضياعه أبا الحسين بن مقلة برغبة منه إليه بمائة وثلاثين ألف دينار في السنة. ووافى في هذا الوقت أبو جعفر بن شيرزاد إلى توزون هارباً من البريدي فتلقاه توزون في دجلة وسُرَّ به وقال له: يا أبا جعفر كملت أمارتي بك وتمّت النعمة عندي لأجلك أنتَ أبي وهذا خاتمي (فنزعه من يده وأعطاه إليه) فدبّرني وصرّفني على رأيك. فقبل أبو جعفر يده وسأله أن يُمهله فلم يجبه وكان أبو الحسن الأسمر واقفاً وجماعة فقال الأسمر: باللّه يا سيدي أجب الأمير وتصدّق بصدقة وانظر في أمره! ففعل ونظر في أمره وأنفذ طازاد بن عيسى آخر ذلك اليوم إلى الحضرة لخلافته. فكان مدَّة كتابة أبي جعفر الكرخي ونظره نيفاً وعشرين يوماً.

ذكر سبب مفارقة ابن شيرزاد البريدي والاتفاق الغريب له في ذلك

كان يوسف بن وجيه صاحب عمان وافى (في) ذي الحجة في مراكب وشذاءات يُريد البصرة يحارب بني البريدي وكان معه من يحارب بقوارير النار فأحرق شذاءاتهم وزبازبهم فملك الأبلّة وضغطهم فهرب في تلك الوهلة أبو جعفر بن شيرزاد ومعه طازاذ وغيره. فأما سبب هزيمة يوسف بن وجيه بعد تمكُّنه فسنذكره.

ذكر حيلة تمّت على يوسف بن وجيه

كان قد استظهر استظهاراً شديداً وقارب أن يملك البصرة وكان مع البريدي ملاحٌ يعرف بالزياديّ فلما ضغط يوسف بن وجيه البريديين وأشرفوا على الهلاك قال هذا الملاح: إن أنا هزمت العدوّ وأحرقتُ مراكبه ما تصنع بي؟ فوعده الإحسان إليه إن فعل ذلك ولم يعرّفه الملاح ما يريد أن يعمل وكتم أمره ومضى فأخذ بالنهار زورقين وليس يعلم أحد لماذا يريدهما ولم يأخذ معه أحداً من أسباب البريدي ومضى فملأ الزورقين سعفاً (ومثل هذا لا ينكر بالبصرة) وحدرهما في أول اللّيل (ومثل ذلك بالبصرة كثير لا يستراب به) وكان رسم مراكب ابن وجيه أن تُشدَّ بعضها إلى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر فلما كان في الليل ونام الناس وكلّ من في المراكب أشعل ذلك الملاّح السعف وأرسل الزورقين والنار فيهما فوقعا على تلك المراكب والشذاءات فاشتعلت واحترقت قلوسها وتقطعت واحترق من فيها ونهب الناس منها مالاً عظيماً. وانقلع يوسف بن وجيه ومضى هارباً على وجهه وانكشف وجه البريدي ووفى للملاح بما وعد له.

وفيها استوحش المتّقي من توزون.

ذكر السبب في الوحشة بين توزون والمتّقي وما آل إليه الأمر فيه

كان الترجمان قد نفر من توزون لشيءٍ بلغه عنه وكان أبو الحسين بن مقلة خائفاً من توزون لأنه خسر في مال ضمانه وأشفق أن يطالبه به ويهلكه؟ وزاد في نفوره تقلُّد أبي جعفر بن شيرزاد كتبة توزون. وما شك أحدٌ أن أبا جعفر بن شيرزاد وافى عن موافقة البريدي فطارت نفس ابن مقلة خوفاً من ابن شيرزاد وأن يطالبه بمال ضمانه وإقطاع توزون وخاف الترجمان وغيره وساءت الظنون. وغلب القنُوط على الكافة من أهل الحضرة فوقع التدبير بين أبي الحسين بن مقلة وبين الترجمان على مكاتبة ناصر الدولة في إنفاذ من يُشيع المتّقي ويخرجه إليه وقيل للمتّقي: ثبتّ للبريدي بالأمس فجرى ما ندمت عليه وأخذ منك خمسمائة ألف دينار وخرجت إلى ناصر الدولة في دفعته الثانية فأظفرك اللّه وعدت موفوراً وقد ضمنك بخمسمائة ألف دينار أخرى وقال لتوزون: «هي باقية في يدك من تركة بجكم» وهذا ابن شيرزاد وارد لتسليمك بعد خلعك. فانزعج واعتبر بما مضى على مستأنف أمره وأصعد بعد ذلك أبو جعفر بن شيرزاد إلى الحضرة في ثلاثمائة غلام.

وفيها ورد الخبر بموت نصر بن أحمد بخراسان وانتصاب نوح ابنه مكانه.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

ووافى أبو جعفر بن شيرزاد لخمس بقين من المحرم فدخل بغداد فلم يشك المتّقي للّه والجماعة في أنّه إنما وافى لما أرجف به ولقي المتّقي للّه في اليوم الذي وصل إلى بغداد فيه وحمل الوزير أبو الحسين والترجمان المتّقي للّه على القبض عليه فلم يفعل. وبادر أبو جعفر بالانصراف وأمر ونهى وأطلق القراريطي من الاعتقال ونظر فيما كان ينظر فيه الوزير.

ووافى أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان فنزل باب حرب في جيش كثير فخرج إليه المتّقي للّه وحُرمه والوزير أبو الحسين بن مقلة والترجمان واستتر ابن شيرزاد وخرج وجوه أهل الحضرة وكتّابُها. فلما بلغ المتّقي تكريت ظهر ابن شيرزاد وطالب الناس وخبطهم.

وانحدر سيف الدولة من الموصل ومعه الجيش وبلغ توزون وهو بواسط ما جرى بالحضرة من خروج المتّقي والوزير من بغداد فجرّد موسى بن سليمان في ألف رجل وبادر به إلى بغداد. وامتدّ موسى إلى باب الشمّاسية وعسكر هناك وأقام توزون حتى عقد واسطاً على البريدي ثم أصعد ودخل بغداد وقلد الشرطة غلامه صافياً. وانحدر ناصر الدولة ومعه الجيش ووصل إلى تكريت فتلقاه الخليفة وسار توزون إلى عكبرا وعبر من الجانب الشرقي إلى قصر الجصّ بسرّ من رأى. وصاعد المتّقي للّه إلى الموصل ومعه أبو الحسين الوزير وأبو إسحاق القراريطي وأبو زكريا السوسي.

وسار سيف الدولة للقاء توزون فاشتبكت الحرب بينهما أسفل من تكريت بفرسخين وناصر الدولة بتكريت فدامت الحرب بين سيف الدولة وتوزون يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فلما كان يوم الخميس انهزم سيف الدولة. وأصعد معه ناصر الدولة ونهب الأعراب بعض سوادهما وملك توزون وشغّب أصحاب توزون فانحدر إلى بغداد. وتأهّب سيف الدولة للقاء توزون ثانية فانحدر إلى تكريت وخرج توزون إلى باب الشمّاسية ثم سار إلى ناحية أخرى وواقعهُ هناك فانهزم سيف الدولة وتبعه توزون. فلما وصل سيف الدولة إلى الموصل سار منها وسار ناصر الدولة والمتّقي والوزير وسائر من معهم إلى نصيبين ودخل توزون الموصل ومعه ابن شيرزاد وأبو عبد اللّه بن أبي موسى الهاشمي واستخرج ابن شيرزاد من الموصل نحو مائة ألف دينار.

ورحل المتّقي وحُرمه ومن معه من نصيبين إلى الرقة ولحق بهم سيف الدولة وقد كان توزون عند خروجه من بغداد زوّج ابنته من أبي عبد اللّه البريدي وعقد الأملاك بالشمّاسية وأنفذ المتّقي للّه أبا زكرياء السوسي إلى توزون في رسالة يقول فيها: إني استوحشت منك

لأجل البريديين لقبح ما يفعلونه دفعة بعد دفعة وأبلغتُ أنكما اجتمعتُما وصرتما يداً واحدة فخرجت من الحضرة والآن فقد مضى ما مضى فإن آثرت رضائي فصالِح ناصر الدولة وارجع إلى الحضرة فإني إذا رأيتك مطيعاً لي عدت واستقامت لك الأمور بي وبرضائي وكان اللّه عونك. قال أبو زكرياء: فلما وردت حضرة توزون اتّهمني وهمّ بقتلي فخلصني ابن شيرزاد وقال: أيها الأمير أنا واللّه سألت أبا زكرياء الخروج مع الخليفة لمِيلِه إلينا وليكون خليفتنا بحضرتِه فإن كان متَّهماً فأنا متَّهمٌ. ثم أديتُ الرسالة فتقبلها ابن شيرزاد وأشار على توزون بالإجابة وسفرتُ في الصلح إلى أن تمّ وصح لأبي جعفر بن شيرزاد قبل الصلح وبعده زيادة على مائتي ألف دينار. وعقد البلد على ناصر الدولة ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وانصرف توزون إلى بغداد.

وتواترت الأخبار بنزول الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه واسطاً وكان على وعد من البريديين بعسكر الماء فأخلفوه وانحدر إليه توزون محارباً له والتقيا في الموضع المعروف بقباب حميد وطالت الحرب بينهما بضعة عشر يوماً على اجتهاد شديد بين الفريقين إلا أن توزون كان يتأخر كل يوم ويتقدّم الديلم على سبيل الزحف وعلى عادتهم في مثل ذلك وكثر القتلى من الجانبين إلى أن عبر توزون نهر ديالي يحصل في الجانب الذي يلي بغداد وقطع جسوراً كان عقدها عليه فلما صار بينهما النهر ثبت الأتراك وكان مع توزون زبازب وخيل في الماء فيها غلمان رماة فكانوا يستولون في كل يوم على قطعة من خزائن أحمد بن بويه وزواريق عسكره ثم يحولون بين العسكر وبين الماء فيعطشون هم ودوابهم فرأى معزّ الدولة أن يُصعد على ديالي إلى نحو جسر النهروان ليبعد عن دجلة ويقرب من الماء ويحتال للميرة فقد كانت ضاقت عليه وأحسّ توزون بذلك.

ذكر حيلة تمت على معزّ الدولة حتى انهزم بعد استظهار منه

وعبر توزون بخمسمائة من الأتراك مع تكين الشيرزادي وألف فارس من العرب فيهم إبراهيم المطوّق وقطينه وأمثالهم من حيث لم يشعر بهم معز الدولة فلما سار وسار سواده في أثره خرج عليهم القوم فحالوا بينه وبين السواد ووقعوا في العسكر على غير تعبيةٍ. وتعجل توزون فعبر بجماعة من أصحابه سباحة ولم يزل يقتل ويأسر حتى ملّ. وأفلت معزّ الدولة مع الصيمري ونفر يسيرٍ معه بأسوأ حال وحصل بالسوس واجتمع إليه نفر من الفلّ بعد أيام وعاد توزون إلى بغداد.

وفي صفر من هذه السنة ظهر لصّ يقال له ابن حمدي وكان أعيى السلطان فخلع عليه ابن شيرزاد وأثبتهُ برسم الجند ووافقه على أن يصحح في كل شهر خمسة عشر ألف دينار مما يسرقه وأصحابه وأخذ خطه بها فكان يستوفيها منه ويأخذ البراءات وروزات الجهبذ بما يؤدّيه أولاً أولاً.

وفي هذه السنة قتل أبو عبد اللّه البريدي أخاه أبا يوسف.

ذكر السبب في قتل البريدي أخاه وما جرى بعد قتله إياه وعاقبة أمره

كان أبو عبد اللّه البريدي لما حاصره سيف الدولة أيام مقامه بواسط أحد عشر شهراً ثم توزون بعده ضاقت به الأمور فاضطربت رجاله وعملوا على الاستئمان إلى أبي يوسف أخيه ليساره. واستقرض من أبي يوسف قرضاً بعد قرض فكان يعطيه النزر اليسير وذكر تخلُّفه وتضييعه وأنه بالإقبال تمَّ له ما تمّ لا لتدبير ثم تعدى ذلك فصار يذكر جنونهُ وعجلتهُ. وصح عند أبي عبد اللّه أن أبا يوسف يريد القبض عليه واعتقاله لأن يجري عليه جراية على نقم فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه.

فحكى إسرائيل الجهبذ وكان خصيصاً بأبي عبد اللّه أنه استدعاهُ وشكا إليه حاله في الإضاقة ثم قال: قم إلى أبي يوسف أخي (وأومأ إلى درج بين يديه وفتحه فإذا فيه حبّ لؤلؤ وياقوت أحمر وأزرق يبهر الناظرين) وقال: احمل هذا إليه وسله أن يقرض عليه عشرة آلاف دينار. وكان ما في الدرج قد وهبه بجكم لابنته سارة التي تزوج بها وكان بجكم أخذه من دار الخليفة فأخذه أبو عبد اللّه منها قال إسرائيل: فمضيت إلى أبي يوسف وحدّثتهُ بجميع ما خاطبني به أخوه وأخرجت الدرج إليه فقال لي: يا أبا الطيب من سوء تحصيله يُرى ولو مدّت دجلة مالاً لبدّده هذا رجل حصّل له من واسط في كرّانه التي تولاها ثمانية آلاف ألف دينار أما وجب أن يستظهرَ بألف ألف دينار. فقلتُ: يا سيدي ومن أولى به منك على تصرّف كل حال؟ فتفضل بما طلب. فقال: إني قد أعطيتهُ إلى هذا الوقت ومنذ انصرف من واسط خمسين ألف دينار وما تمتلي عينه! ابعث إلى الجوهريين وأحضرهم حتى يقوّموا هذا الجوهر وأعطيه قيمته. فوجه إليهم وحضروا وأخرجه إليهم فقالوا: لا قيمة له تُحدّ وإذا حضر ملك يرغب بحكم صاحبه ولو انتهى في السوم إلى أقصى غاية. فاشتطّ وقال: يا جهّال من قال لكم إني مروان الأمويّ (فإنه كان راغباً في الجوهر وحضر للابتياع) أو خمارويه بن أحمد وابن الجصّاص؟ قوموه بما إذا طالبتكم به بكرة صحّحتموه العصر. فقوّموه خمسة آلاف دينار فقال: اعطوني خطوطكم بها. فتثبّتوا ثم ردوها إلى خمسين ألف درهم وضمنوها فقال: هذا أعطيك. فقلتُ: يا سيدي اجعلها خمسة آلاف دينار. فقال: قم ودع في القيمة فضلاً لِطلبهِ فإنه سيعاود ويطلب. فانصرفت بخمسين ألف درهم إلى أبي عبد اللّه وحدّثته الحديث فقال: لا إله إلا اللّه قل له: يا أبا يوسف جنوني الذي ذكرته وقلة تحصيلي أقعدك هذا المقعد وصيَّرك كقارون. ثم عدّد ما عمله معه ودمعت عينهُ وتبين الشر في وجهه. فلما كان بعد أيام نحو العشرة أقام غلمانه وفيهم يانس وإقبال وربيب وملاّح يانس في مخترق قد سُقّف بين باب داره (وكانت دار فضلان الساجي) بالأبلّة وبين الشط فتكمَّن له هؤلاء ووثبوا عليه بالسكاكين وما زال يصيح «يا أخي قتلوني قتلوني» وأبو عبد اللّه يقول «إلى لعنة اللّه»

فخرج أبو الحسين أخوه وكان ينزل في جواره إلى روشن دجلة وقال: يا أخي قتلتهُ! فقال: يا فاعِل خربتَ اسكت وإلا ألحقتُك به. فجمع أبو الحسين نفسه وشغَّب الجند وظنوه حياً فنبشهُ وأظهره لهم فسكنوا ثم أعاده إلى قبره.

وانتقل إلى الدار بمسماران فساعة ملكها طلب الجوهر فأحضره قال إسرائيل: دخلتُ إليه فقال لما رآني: يا غلام هات الدرج. فأحضره إياه فقال لي: يا أبا الطيب أخذنا المال والجوهر ومضى الفاعل بن الفاعل إلى لعنة اللّه. ثم أودع أبو عبد اللّه هذا الجوهر ابنَهُ أبا القاسم سراً وأمره أن يستره فلما توفي أبو عبد اللّه وملك الأمر بعده أخوه أبو الحسين طلب هذا الجوهر طلباً شديداً فلم يجد له أثراً وقيل: «أودَعهُ مَن لا يُعرَف» ولما خرج ابنه إلى هَجر أخذه معه فسأله الهجريّون أن يُريهم إيّاهُ ففعل ذلك ووهب لهم منه حبةً واحدة فلما حضر مدينة السلام في أيام أبي الحسين معزّ الدولة طلبه منه لِيراه فأحضره عنده ووسَّط أبا مخلد عبد اللّه بن يحيى ليبتاعه منه فامتنع من بيعه ثم رأى الوجه في بيعه فاستجاب فقُوِّم بما قوّمه تجار البصرة فقال أبو مخلد: حط منه ثمن الحبة التي أخذها الهجريون. فأُعطي ثلاثة آلاف دينار عن قيمة خمسة وأربعين ألف درهم وأحالَهُ بذلك على كار التمر واستوفاهُ.

وكان أبو عبد اللّه البريدي يتّهم أبا الحسن بن أسد بالتضريب بينه وبين أخيه وقيل له: إن عنده ستة عشر ألف ألف درهم. فلما ملك الأمير أخرج إليه دفترٌ فيه ثبت ودائع أبي يوسف بخطه فلم يجد فيه وديعة عند أحد إلا ما عند ابن أسد فطالبهُ بها وبسط منه وأقرّه على ما كان يتولاهُ. فمضى إلى منزله وحمل إليه ألفي ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ولم يظهر له وعرّفه أنه لا وجه للباقي وأن أخاه حصل عليه ذلك من عجز بعد عجز لحقه في مدّة سنة معه وأخذ خطَّهُ بها أنها وديعة له عنده. وكان في أسفل التثبت الذي وُجد له عمل لكلّ سنة عملاً بالضمان وما صحَّ منه بالأمانة وما تحصّل من العجز الذي أخذ خطهُ به وجمع ذلك وكان بإزاء العجز وهو ثلاثة عشر ألف ألف وخمسمائة ألف درهم. فقامت قيامة أبي عبد اللّه وقال: دم أخي في رقبة ابن أسد فإني قتلتهُ طمعاً في المال. فمضى ولم يصل إليه ثم آمنه فظهر وقام بحجته شفاها وذكر أن له بقايا هذه السنة في النواحي زيادة على أربعة آلاف ألف وله أصحاب منهم أبو العلاء صاعد بن ثابت وأبوه وأخوه وأبو علي الأنباري وقد هرب فتوسط أمره القاضي أبو الحسين بن نصرويه.

وصحّ لأبي عبد اللّه من جميع الوجوه على أحوال قبيحة مع الألفي الألف والخمسمائة الألف الدرهم الموجودة عشرة آلاف ألف درهم وتاه الباقي وذهبت نفس أبي يوسف.

وفيها قبض أبو العباس اشكورج الديلمي وكان توزون قلده الشرطة ببغداد على

ابن حمدي اللص وضرب وسطهُ فخفَّ مكروه اللصوص عن الناس وانقطع شرّهم بعد أن تحارس الناس بالليل بالبوقات وامتنع عنهم النوم خوفاً من كبساته.

وفيها ورد الخبر بدخول الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه واسط وانحدر من كان بها من أصحاب البريدي إلى البصرة.

وفيها صار محمد بن ينال الترجمان إلى سيف الدولة وهو بالرقَّة فعاتبَهُ سيف الدولة على أشياء بلغته عنه وكان اتّهم بأنه عقد الرئاسة لنفسه على العجم وواطأ المتّقي للّه على الإيقاع بسيف الدولة فجحد محمد بن ينال ذلك فلما خرج من حضرته بعد العتاب وثب به غلمان سيف الدولة بسيوفهم فقتلوه.

وفيها ورد الخبر بموت سليمان بن الحسن أبي طاهر القرمطي وأنه جدّر ومات وصار الأمر لإخوته بعده.

ذكر الخبر عن الأصبهاني الّذي احتال لقتل القرامطة بأيديهم حتى كاد يفنيهم

كان ابن سنْبر يعادي المعروف بأبي حفص الشريك فاحتال في حياة أبي طاهر بأن أحضر رجلاً من أهل أصبهان فكشف له أسراراً كان أبو سعيد الجنّابي كشفها له في حياته ولم يكشفها لغيره وعرَّفه مواضع دفائن له لم يعلم بها غيره ولم يعلم أبو طاهر أن أباه أبا سعيد كشف ذلك لابن سنبر فقال ابن سنبر لهذا الرجل الأصبهاني: امض إلى أبي طاهر وعرّفه أنك الرجل الذي كان أبوهُ وهو يدعوان إليه فإذا هو سألك عن العلامات والدليل أظهرت له هذه الأسرار. وشرط ابن سنبر على هذا الأصبهاني أن يكون إذا تمكن من الأمر قتل أبا حفص الشريك، فضمن له الأصبهاني ذلك فمضى إلى أبي طاهر وأعطاه العلامات وحدثه بالإسرار فلم يشك في صحة تلك العلامات فوثب أبو طاهر وقام بين يديه وسلَّم الأمر إليه وقال لأصحابه: هذا هو الذي كنت أدعوكم إليه والأمر له. فتمكن الرجل من الأمر وثبت ووفى بما كان ضمنه لابن سنبر وقتل أبا حفص الشريك. ثم كان يأمر أبا طاهر وإخوتهُ بقتل من يشاء ويقول «قد مُرض» يعني أنه قد شك في الدين فيقتل وأخذ يقتل واحداً واحداً من رؤساء القوم وأهل البصائر منهم والنجدة وأمرُهُ ممتثل مُطاع لا يُخالف إلى أن أتي على عدد كثير منهم. وكان إذا أمر الرجل أن يقتل أخاه أو أباه أو ابنهُ لم يتوقف وبادر إلى امتثال أمره فخافه أبو طاهر وبلغه أنه عمل على قتله فقال لإخوته: قد وقع عليَّ غلط وشبهة في أمر هذا الرجل وليس هو صاحب الأمر الذي يعرف ضمائر القلوب ولا تخفى عليه الأسرار ويمكنه أن يُبرئ المريض ويعمل كل ما يريد. وجاؤوا إلى الرجل فعرَّفوه أن والدتهم عليلة وسألوه أن

يدخل إليها ونوَّموا والدتهُم على فراش وغطوها بإزار فدخل إليها فلما رآها قال لهم: هذه عِلة لا يبرأ صاحبها فطهّروها (معناه اقتلوها). فلما قال لهم ذلك قالوا لأمّهم: اجلسي. فجلست وقالوا: إنها لفي عافية وأنت كذّاب. فقتلوه.

وكان لهم سبعة من الوزراء أكبرهم ابن سنبر وكان أبو طاهر له أخوان أبو القاسم سعيد بن الحسن وأبو العباس الفضل بن الحسن ولهم أخ آخر لا يدخل معهم في أمورهم يقال له أبو يعقوب إسحاق مُقبل على الشرب والقصف وأمر الثلاثة واحد وكلمتهم واحدة لا يخلفون فكانوا إذا أرادوا عقد أمراً وورد عليهم أمرٌ ركبوا وأصحروا واتفقوا على ما يعملون ولا يطلعون أحداً على أمرهم فإذا انصرفوا أمضوا ما اتفقوا عليه.

وفي هذه السنة مات أبو عبد اللّه البريدي بحمّى حادّة مكث فيها سبعة أيام فكان بين قتله أخاهُ أبا يوسف وبين موته ثمانية أشهر وثلاثة أيام فتبارك اللّه رب العالمين. فتحدّث أبو القاسم بن أبي عبد اللّه البريدي بعد زوال أمره ومصيره إلى بغداد أن أباه لما مات بالبصرة انتصب أخوه أبو الحسين مكانه. وكان لأبي عبد اللّه عسكر مقيم بنهر الأمير بإزاء الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه وعسكر آخر بمطارا وكان ديلم أبي عبد اللّه مضمومين إلى يانس غلامه وكانوا يميلون إليه وكان بين يانس وبين أبي الحسين مباينة في الباطن وعداوة ولما تمكن أبو الحسين من الرئاسة أخذ في الاستطالة على الديلم والأتراك ويستخف بهم فنفرت قلوبهم منه. وأحس يانس بذلك فمضى إلى أبي القاسم مولاه وابن مولاه أبي عبد اللّه فقال له:

إن كان عندك مالٌ أصلحت لك قلوب الرجال وعقدت لك الرئاسة. فاعترف له أبو القاسم أن عنده ثلاثمائة ألف دينار فأصلح له قلوب الديلم والرجال وواطأهم على الإيقاع بأبي الحسين وعقد الرئاسة لأبي القاسم وضمن لهم عنه الإحسان. فسار الجيش الذي كان بنهر الأمير إلى مسماران وكان أبو الحسين بها فكبسوه وهو نائم فخرج من تحت الكِلَّة ومضى ماشياً متنكراً إلى الجعفرية وكاتب الهجري يستجير بهم وقصدهم فقبلوه أحسن قبول وسألهم أن يعاونوه على الرجوع إلى البصرة وردّهُ إلى أمره فضمنوا له ذلك وأقام عندهم نحو الشهر وتقررت الرئاسة بالبصرة لأبي القاسم بن أبي عبد اللّه. ثم سار أبو الحسين من هجر ومعه من إخوة أبي طاهر اثنان وصاروا إلى سور البصرة فوجدوا أبا القاسم قد حفظه بالرجال واحترس منه فلم تكن لهم حيلة في الوصول إلى البلد وطال مقامهم فضجر الهجريون وكاتبوا أبا القاسم وسفروا بينه وبين عمه في الصلح وسألوه أن يؤمنه ويأذن له في الدخول إلى البصرة واحتاط أبو القاسم في أمره إلى أن تأهب واختار الشخوص إلى بغداد فأذن له وأطلقه فخرج وصار إلى مدينة السلام.

ثم طمع يانس في الرئاسة وإزالة أبي القاسم عنها فواطأ روستاباش فلما انعقد

الأمر بينهما تحرك روستاباش والديلم واجتمعوا في دار روستاباش. وآثر روستاباش الإيقاع بيانس والتفرد بالرئاسة فلما خرج يانس من عنده أتبعهُ بمن يُوقع به فتحرك يانس ورماه الديلمي بزوبين ووقع في ظهره وهرب وصار إلى خراب بقرب دار أبي القاسم ولم يعرف له أحدٌ خبراً وكان ليلاً وسار روستاباش إلى دار لشكرستان وكان نقيب الديلم والمدبّر ليانس. وكان قد جزع أبو القاسم لما عرف الخبر وهمَّ بالجلوس في طيّاره والخروج عن داره فلما عرف لشكرستان أن روستاباش قد أوقع بيانس وعزم على التفرُّد بالرئاسة لم يطعه وصاح الديلم وزبرهم فتفرقوا ومضى بعضهم في الوقت معتذراً وهرب روستاباش باللّيل عند تفرق الناس عنه واستتر وأصبح أبو القاسم وقد استقام أمره. وعرف خبر يانس فحمله إلى داره مكرماً ووجد روستاباش فنفاه إلى حيدة وعولج يانس إلى أن برأ وأبو القاسم مُتَّهم له فلما كان بعد أيام قبض عليه وعلى لشكرستان وصادر يانساً على مائة ألف دينار ثم نفاهُ إلى عُمان فلما حصل على الحديدي لينزل به خرج إليه بعض غلمان أبي القاسم فقتله وقُتل لشكرستان وتمكن أبو القاسم من الرئاسة.

وفيها عرض لتوزون يوماً وهو جالس للسلام والناس وقوفٌ بين يديه صرعٌ فوثب ابن شيرزاد وموسى بن سليمان ومدًّا في وجهه رداءً كان على رأس موسى وحجزوا بينه وبين الناس لئلا يروه على تلك الصورة وصُرف الناس وقيل لهم إن الأمير قد ثار المرار به من خُمار لحقهُ.

وفي هذه السنة خرج عسكر الأمة المعروفة بالروس إلى آذربيجان وقصدوا برذعة وملكوها وسبوا أهلها.

شرح أخبار الروسيَّة وما آل إليه أمرهم

هؤلاء أمة عظيمة لهم خِلَق عظام ولهم بأس شديد لا يعرفون الهزيمة ولا يولّي الرجل منهم حتى يقتُل أو يُقتل. ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح ويُعلق على نفسه أكثر آلات الصنَّاع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها ويقاتل بالحربة والترس ويتقلد السيف ويُعلق عليه عموداً وآلة كالدشنيّ ويقاتلون رجالةً لا سيما هؤلاء الواردين. وذلك أنهم ركبوا البحر الذي يلي بلادهم وقطعوه إلى نهر عظيم يعرف بالكُرّ يحمل من جبال آذربيجان وأرمينية ويصب إلى البحر وهو نهر برذعة الذي يشبّهونه بدجلة. فلما وصلوا إلى الكُر توجه إليهم صاحب المرزبان وخليفته على برذعة وكان معه ثلاثمائة رجل من الديلم ونحو من عددهم صعاليق وأكراد واستنفر العامة فخرج معه من المطوَّعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء وكانوا مغترّين لا يعرفون شدتهم وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والروم. فلما صافوهم الحرب لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكرة فهزموا العسكر وولت المطوّعة بأسرهم وسائر العسكر إلا الديلم فإنهم ثبتوا ساعة

فقُتلوا كلهم إلا من كان بينهم فارساً واتبعوا الفلَّ إلى البلد فهرب كل من كان له مركوب بجملة من الجند والرعية وتركوا البلد فنزلتهُ الروسية وملكوه.

فحدثني أبو العباس بن نُدار وجماعة من المحصّلين أن القوم بادروا إلى البلد ونادوا فيه وسكّنوا الناس وقالوا لهم: لا منازعة بيننا وبينكم في الدين وإنما نطلب المُلكَ وعلينا أن نُحسن السيرة وعليكم حُسن الطاعة. ووافتهم العساكر من كل ناحية فكانوا يخرجون إليهم ويهزمونهم وكان أهل برذعة يخرجون معهم فإذا حملوا عليهم المسلمون كبّروا ورجموهم بالحجارة فكانت الروسية تتقدّم إليهم بأن يضبطوا أنفسهم ولا يدخلوا بين السلطان وبينهم فيقبل أهل السلامة منهم خاصة فأما العامة ومُعظم الرعاع فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويظهرون ما في نفوسهم ويتعرضون لهم إذا حمل عليهم أصحاب السلطان. فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بألا يُقيم في البلد أحد من أهله وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم ندائهم فخرج كل من كان له ظهر يحمله ويحمل حُرمَهُ وولدهُ وهم نفر يسير وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون فوضعت الروسية فيهم سيوفهم فقتلوا خلقاً عظيماً لا يحصى عددهم وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وغلام مع حرمهم ونسائهم وبناتهم وجعلوا النساء والصبيان في حصن داخل المدينة وهي شهرستان القوم وكانوا نزلوه وعسكروا به وتحصنوا فيه. ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكلوا بأبوابه وقالوا لهم «اشتروا أنفسكم».

ذكر تدبير صواب أشار به بعضهم فلم يقبلوا منه حتى قتلوا بأجمعهم واستبيحت أموالهم وذراريهم

كان بالبلد كاتب نصراني له رأي سديد يعرف بابن سمعون وكان يسعى في السفارة بينهم ووافق الروسية أن يُبتاع كل رجل منهم بعشرين درهماً فتابعهُ على ذلك عقلاء المسلمين وخالفهُ الباقون وقالوا: إنما يُريد ابن سمعون أن يلحق المسلمين بالنصارى في أداء الجزية. فأمسك ابن سمعون وتوقف الروسية عن قتل الرجال طمعاً في هذا القدر اليسير أن يحصل لهم من جهتهم فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف فقتلوهم عن آخرهم إلا عدداً يسيراً أخرجوا في قناةٍ ضيقة كانت تحمل الماء إلى المسجد الجامع وإلا من اقتنى نفسه بذخيرة كانت له. فربما وافق الواحد من المسلمين الروسيّ على مال يقتني به نفسه فحضر معه إلى منزله أو حانوته فإذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على مال موافقته لا يمكن صاحبها منها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه وعطف بالمطالبة حتى يجتاحه فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جوهر ولا فرش ولا كسوة أفرج عنه وأعطاه طيناً مختوماً يأمن به من غيره فاجتمع لهم من البلد شيءٌ عظيم يجل قدره ويعظم خطرهُ وكانوا قد حازوا النساء والصبيان ففجروا بهنّ وبهم واستعبدوهم.

فلما عظمت المصيبة وتسامع المسلمون في البلدان بخبرهم تنادوا بالنفير وجمع المرزبان بن محمد عسكره واستنفر الناس وأتاهُ المطوّعة من كل ناحية فسار في ثلاثين ألف رجل فلم يقاوم الروسية مع إجماع هذه العدَّة ولا أمكنه أن يؤثّر فيهم أثراً فكان يناديهم القتال ويراوحه وينقلب عنهم مفلولاً واتصلت الحرب بينهم على هذه الصورة أياماً كثيرة فكانت الدبرة أبداً على المسلمين. فلما أعيى المسلمين أمرهم ورأى المرزبان الصورة التجأ إلى الحيلة والمكيدة واتفق له أن الروسية لما حصلوا بالمراغة تبسَّطوا في الفاكهة وهناك أنواع كثيرة منها فمرضوا ووقع فيهم الوباء لأن بلادهم شديدة البرد ولا ينبت فيها شجر وإنما يحمل إليهم الشيء اليسير من البلاد الشاسعة عنهم. فلما تمحق عددهم وفكر المرزبان في الحيلة وقع له أن يكمن لهم ليلاً وواطأ عسكره أن يُبادروا الحرب فإذا حمل عليهم القوم انهزم هو وانهزموا معه وأطمعهم بذلك في العسكر والمسلمين فإذا تجاوزوا موضع الكمين عطف المرزبان ورجاله عليهم وصاحوا بالكمين بشعار اتفقوا عليه فإذا حصل الروسية في الوسط تمكنوا منهم. فلما أصبحوا على هذه المكيدة تقدّم المرزبان وأصحابه وبرز الروسية وأميرهم راكب حمار وخرج رجاله واصطفوا للحرب فجروا على عادتهم وانهزم المرزبان والمسلمون واتبعهم الروسية حتى تجاوزوا موضع الكمين واستمر الناس على هزيمتهم.

فحكى المرزبان بعد ذلك أنه لما رأى الناس كذلك وصاح بهم واجتهد بهم أن يراجعوا الحرب فلم يفعلوا لما تمكن في قلوبهم من هيبتهم علم أنه إن استمر الناس على هزيمتهم عاد القوم فلم يخف عليهم موضع الكمين فيكون ذلك هلاكهم قال: فرجعت وحدي مع من تبعني من أخي وخاصتي وغلماني ووضعت في نفسي الشهادة فحينئذٍ استحيا أكثر الديلم فرجعوا وكررنا عليهم ونادينا «الكمين» فخرجوا من ورائهم فصدقناهم الحرب وقتلنا منهم سبعمائة نفس فيهم أميرهم وحصل الباقون في الحصن الذي كانوا فيه من البلد وقد كانوا نقلوا إليه غلاَّت كثيرة ومِيراً عظيمة وحصلوا فيه السبي والأموال. فبينما المرزبان في مُنازلتهم وهو لا يقدرُ لهم على حيلة سوى المصابرة إذ ورد عليه الخبر بدخول أبي عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان آذربيجان وانتهائه إلى سلماس واجتماعه مع جعفر بن شكُويه الكردي في جماهير الهدايانية واضطرَّ إلى أن خلف على حرب الروسية أحد قوّاده في خمسمائة من الديلم وألف وخمسمائة فارس من الأكراد وألفين من المطوَّعة وسار إلى أوران ولقي أبا عبد اللّه فاقتتلا قتالاً خفيفاً وسقطت ثلجة عظيمة واضطرب أصحاب أبي عبد اللّه لأن معظمهم أعراب وساروا عنه فسار بسيرهم إلى بعض المُدن الحصينة فلقيه في طريقه كتاب من ابن عمه ناصر الدولة يُعلمه فيه وفاة توزون بمدينة السلام واستئمان رجاله إليه وأنه قد عمل على الانحدار

معهم إلى بغداد ومحاربة معزّ الدولة لأنه كان دخلها فاستولى عليها بعد إصعاد توزون عنها ويأمره بالتخلية عن أعمال آذربيجان والانكفاء إليه ففعل.

فلم يزل أصحاب المرزبان عن قتال الروسية وحصارهم إلى أن ضجروا واتفق أن زاد الوباء عليهم فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحهُ وثيابه وآلته وزوجته أو غيرها من النساء وغلامه إن كان يحبه على سنة لهم فاستثار المسلمون بعد زوال أمرهم مقابرهم فاستخرجوا منها سيوفاً يتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها. فلما قلّ عددهم خرجوا ليلاً من الحصن الذي كانوا فيه وحملوا على ظهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة وأحرقوا الباقي وساقوا من النساء والصبيان والصبايا ما شاؤوا ومضوا إلى الكُرّ وكانت السفن التي خرجوا فيها من بلادهم معدّة فيها مع ملاّحهم وثلاثمائة رجل من الروسية كانوا يمدونهم بأقساطهم من غنائمهم فجلسوا فيها ومضوا وكفى اللّه المسلمين أمرَهم.

فسمعت ممن شاهد هؤلاء الروسيَّة حكايات عجيبة من شدتهم وقلة مبالاتهم بمن يجتمع عليهم من المسلمين فمن ذلك خبر شاع في الناحية وسمعتهُ من غير واحد أن خمسة نفر من الروسية اجتمعوا في بستان ببرذعة وفيهم غلام أمرد وضيء الوجه من أولاد رؤسائهم ومعهم نسوة من السبي وأن المسلمين لما عرفوا خبرهم أحاطوا بالبستان واجتمع عدد كثير من الديلم وغيرهم على حرب أولئك النفر الخمسة واجتهدوا في أن يحصل لهم أسير واحد فلم يكن إليه سبيل لأنه كان لا يستسلم أحد منهم ولم يمكن قتلهم حتى قتلوا من المسلمين أضعافاً كثيرة لعدتهم وكان ذلك الأمرد آخر من بقي فلما علم أنه يؤخذ أسيراً صعد شجرة كانت بالقرب منه ولم يزل يجرح نفسه بخنجر معه في مقاتله إلى أن سقط ميتاً.

وفي هذه السنة ظهر للمتّقي من بني حمدان ضجرٌ به وبمقامه عندهم وشهوة لمفارقته فراسل توزون في الصلح فتلقى توزون ذلك بنهاية الرغبة فيه والحرص عليه ووردت رسالة المتّقي للّه إلى توزون مع الحسن بن هارون وأبي عبد اللّه بن أبي موسى الهاشمي وتوثّقا من توزون واستحلفاه أيماناً مؤكدة للمتّقي وللوزير أبي الحسين بن مقلة وأحضر توزون القضاة والعدول والعباسيين والطالبيين ومشايخ الكتَّاب حتى حلف بحضرتهم للمتّقي للّه وكتب بذلك كتابٌ وأحكِم ووقعت فيه الشهادة من جميع من حضر على توزون.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ولما كان يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرَّم وصل الإخشيد إلى حضرة المتّقي للّه وهو بالرقة ولقيه بها وأعظمه المتقي نهاية الإعظام ووقف الإخشيد بين

يديه وقوف الغلمان وفي وسطه سلاح ثم ركب المتّقي فمشى بين يديه الإخشيد فأمره أن يركب فلم يفعل ولم يزل على تلك الحال مختلطاً بالغلمان إلى أن نزل من ركوبه وحمل إليه هدايا ومالاً وحمل إلى أبي الحسين بن مقلة عشرين ألف دينار ولم يدع كاتباً ولا حاجباً إلاّ برَّهُ. واجتهد بالمتّقي للّه أن يسير معه إلى مصر والشام فيكون بين يديه فلم يجبه إلى ذلك وأشار عليه بالمقام مكانه فلم يقبل فلما امتنع عليه من الأمرين عدل إلى الوزير أبي الحسين وأشار عليه بأن يسير معه إلى مصر وضمن له إنفاذ أمره وترك الاعتراض عليه في شيء يدبّره فخالفهُ. وكان أبو الحسين بعد ذلك يظهر التندُّم ويقول: «نصحني الإخشيد فلم أقبل» وكانت دنانير الإخشيد في صندوق أبي الحسين إلى أن انتهبت لما قُبض على المتّقي للّه.

ولمّا توثَّق المتّقي للّه من توزون انحدر من الرقَّة يُريد بغداد في الفرات ومعه غلامان من غلمان الإخشيد ومحمد بن فيروز ونقط فلما وصل إلى هيت أقام بها وأنفذ القاضي الخِرَقي وابن شيرزاد حتى جدّدا على توزون الأيمان والعهود والمواثيق وأكرم المتّقي للّه توزون ولقَّبهُ المظفّر وعاد القاضي إلى هيت وعرّف المتّقي أنه قد أحكم الأمر مع توزون. وخرج توزون لليلة بقيت من صفر إلى البثق الّذي كان بالسندية ونزل الوزير أبو الحسين على شاطئ الفرات وبين توزون والمتّقي نحو فرسخ فلما همَّ بالانحدار استقبله توزون وترجل له وقبل الأرض بين يديه ووكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزل بهم في مضرب نفسه مع حُرم المتّقي للّه وارتجت الدنيا فسمله وحكى ثابت أن توزون سمله بحضرة قهرمانة المستكفي باللّه. وانحدر توزون من الغد وفي قبضه الجماعة فكانت مدَّة وزارة أبي الحسين بن مقلة سنة واحدة وخمسة أشهر واثني عشر يوماً.

ذكر السبب في القبض على المتّقي وخلافة المستكفي بالله

قال ثابت: حدّثني أبو العبّاس التميمي الرازي وكيله قال: وكان خصيصاً بتوزون مستولياً عليه قال: كنت أنا السبب فيما جرى على المتّقي وذاك أن إبراهيم بن الربنذ الديلمي لقيني يوماً وسألني أن أصير إلى دعوته فاستأذنت توزون في ذلك فأذن لي فيه ومضيت إليه وهو ينزل في دار القراريطي على دجلة فوجدت داره مفروضة مُنضَّدة فسألتُهُ عن السبب في ذلك وقلت: أحسبك قد تزوّجت. فقال: أنا أحدّثك عن أمري أعلم أني خطبتُ إلى قوم وتجمَّلتُ عندهم بأن ادعيت أن لي محلاً من الأمير واختصاصاً به فقالت لي المرأة: إذا كنت بهذه المنزلة فهل لك أن تسفر في شيء يجمع صلاح الأمير وصلاحك وصلاح المسلمين؟ فقلت لها: نعم. قالت: هذا الخليفة (يعني المتّقي للّه) قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم وكاشفتموه وليس يجوز أن تصفو نيته لكم آخر الدهر وقد اجتهد في بواركم فلم يتم له فمرّة ببني حمدان ومرَّة ببني بويه وههنا رجل من ولد الخلافة من فهمه وعقله ودينه ورجلته كيت وكيت تنصبونه في الخلافة وتزيلون المتّقي للّه وهو يثير لكم أموالاً جليلة لا يعرفها غيره ولا يقدر عليها سواهُ وتكونون أنتم قد استرحتم من عدوّ تريدون أن تحرسوه وتحترسون منه وتخافونه ويخافكم وتقيمون رجلاً من قبلكم يرى أنكم قد أحسنتم إليه وأن روحكم مقرونة بروحه. وأطالت الكلام في هذا المعنى فهوَّستَني ودار كلامها في نفسي وعلمت أن محلي لا يبلغ الكلام في مثله والسفارة فيه وكرهت أن أكذب نفسي عندها لما ادعيتُهُ من المحلّ والمنزلة فأطمعتُها في ذلك وعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلاّ بك ولا يقدر عليه غيرك وقد أطلعتك عليه فأي شيء عزمك أن تعمل؟ فقلت: أريد أن أسمع كلام المرأة.

فجاءني بامرأة تتكلم بالعربية والفارسية من أهل شيراز جزلة شهمة فهمة فخاطبتني بنحو ما خاطبني به الرجل فقلت لها: لا بد من أن ألقى الرجل وأسمع كلامه. فقالت: تعود غداً إلى ههنا حتى أجمع بينك وبينه. فلما كان من غد عدتُ فوجدت الرجل قد أخرج من دار ابن طاهر في زي امرأة وحصل في دار ابن الربنبذ فلقيتهُ وعرَّفني أنه عبد اللّه بن المستكفي باللّه. وخاطبني رجل حصيف فهمٌ ووجدتهُ مع هذا يتشيّع ورأيته عارفاً بأمر الدنيا وضمن لي ستمائة ألف دينار يستخرجها ويُمشّي بها الأمر ومائتي ألف دينار للأمير توزون وقال: أنا رجل فقير وإنما أعرف وجوه أموال لا يعرفها غيري وأعرف من ذخائر الخلافة في يد قوم لا يعرفهم غيري. وكرَّ أن وجوهها صحيحة لا شك فيها ولا

يقدر غيره عليها فلما سمعت ذلك وعرفت صحتهُ صرت إلى توزون. وفكّرت في أن الأمر لا يتم بي وحدي فلقيت في طريقي وأنا أصعد إلى توزون أبا عمران موسى بن سليمان في الحديدي الذي على باب توزون فأخذت بيده واعتزلنا. واستحلفته على كتمان ما أطلعهُ عليه فحلف ثم حدثتهُ به كله وسألتهُ معاونتي على تمامه فقال: هذا أمر عظيم لا أدخل فيه. فلما أيسني من نفسه سألتهُ أن يُمسك ولا يعارضني فقال: افعل. فدخلت إلى توزون وأدخلتهُ إلى حجرة وخلوت به واستخلفتهُ بالمصحف وبأيمان مؤكدة أن يكتم ما أحدثه به فحلف فلما حلف حدثتهُ الحديث من أوله إلى آخره فوقع بقلبه وقال: صواب ولكني أريد أن أرى الرجل وأسمع كلامه. فقلت: عليّ ذلك ولكن إن أردت تمام هذا الأمر فلا تطلع عليه أبا جعفر بن شيرزاد فإنه يفثأ عزمك ويصرفك عنه. فقال: افعل. وبلغ أبا جعفر خلوتي بالأمير فاتهمني أني سعيتُ عليه ومضيت إلى القوم ووعدتهم بحضور الأمير ليرى الرجل ويكون الاجتماع في منزل موسى بن سليمان.

قال: وتشددنا في الطوف بالليل في دجلة فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر وافى عبد اللّه بن المكتفي باللّه إلى دار موسى بن سليمان ولقيه توزون هناك وخاطبه وبايع له في تلك الليلة وكتمنا القصة. فلما وافى المتّقي للّه من الرقة ولقيه توزون وسلم عليه قلتُ لتوزون: عزمك على ما كنا اتفقنا عليه صحيح؟ فقال: بلى. قلت: فافعله الساعة فإنه إن دخل داره بعد عليك مرامه قال: فوكل به وجرى ما جرى. وكانت المرأة التي سفرت في هذا الأمر المعروفة بحسن الشيرازية حماة أبي أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي فلما تمت للمستكفي الخلافة غيرت اسمها وجعلته «علَم» وصارت قهرمانة المستكفي واستولت على أمره كله.

ذكر مصير الأمير أبي الحسين إلى ديالي

وقد كان قبل خلافة المستكفي صار الأمير أبو الحسين أحمد بن بويه إلى واسط وقت مصير توزون إلى الموصل فلما صالح توزون ابن حمدان وعاد إلى الحضرة عمل على الانحدار لدفعه. فخرج في ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين وورد عليه خبر الأمير أبي الحسين بن بويه بأنه نزل بسيب بني كوما ولقيه جيش توزون وما زالت الحرب بينهما تسعة أيام في قباب حُميد وهي في كل يوم على توزون يتأخر توزون إلى خلف ويتقدم الأمير أبو الحسين إلى قدام إلى أن بلغ توزون نهر ديالي وعبره إلى جانب بغداد وقطع الجسر الذي عليه وأقام. ووافاه أحمد بن بويه إلى الجانب مقابلاً له وبينهما الماء فلما كان يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة انصرف الأمير أبو الحسين راجعاً إلى الأهواز.

ذكر السبب في انصرافه مع استظهاره وبعدما هزم توزون

كان مع الأمير أبي الحسين سواد عظيم وكراع كثير وجمال وافرة فكان إذا سار

جعل سوادَهُ بينه وبين دجلة وله خيمة تُضرب على رسم لهم فما دامت الخيمة منصوبة فالقتال واقع ومتى قلِعت كان ذلك علامة الهزيمة. فلما كان يوم مسيره إلى ديالي أخذ السواد يسير على طول ديالي واجتهد أن يضبطه ويستوقفه فلم يمكن ذلك. وأراد أن يضرب الخيمة على الرسم فلما تباعد الديلم وصار بين السواد والديلم فرجة دخل أصحاب توزون وأعرابه بين السواد والديلم وأوقعوا بالسواد ولم يكن عنه دافع فدفعت الضرورة إلى أن ينصرف وصارت هزيمة. واضطر الديلم إلى أن يستأمنوا إلى توزون لأنهم رحالة فاستأمن أكثرهم إلى توزون وأخذ الأمير على طريق بادرايا وباكسايا إلى الأهواز. وقد كانت الميرة أيضاً ضاقت على الأمير أبي الحسين حتى اضطر في الليلة التي انصرف فيها من غد إلى أن ذبح خمسين جملاً من جماله وفرق لحمها على أصحابه ورجاله وأخذ له بقر فذبحها ونهب في وقت هزيمته نهباً عظيماً. واستؤسر من وجوه قوّاده سبعة عشر قائداً فيهم ابن الداعي العلوي وأسر أبو بكر بن قرابة واستأمن من الديلم أكثر من ألف رجل. وأقام توزون وعاوده الصرع يوم هزيمة الأمير أبي الحسين وشغل بنفسه عن الطلب فعاد إلى داره.

ونعود إلى تمام خبر المستكفي بالله. قلد وزارته أبا الفرج محمد بن علي السامري ولم يكن له من الوزارة إلا اسمها والمدبر للأمور أبو جعفر بن شيرزاد. وخلع على توزون وطوق ووضع على رأسه تاج مرصع بجوهر وجلس بين يدي المستكفي بالله على كرسي وانصرف بالخلع والتاج والطوق والسوار إلى منزله. وطلب المستكفي بالله الفضل بن المقتدر طلباً شديداً فاستتر وأمر بهدم داره وكان الفضل طول أيام المستكفي بالله مستتراً.

شرح قصة أبي الحسين البريدي ومصيره إلى بغداد مستأمناً إلى توزون وما آل إليه أمره من القتل

كنا ذكرنا حاله إلى وقت خروجه إلى بغداد ولما وصل إلى بغداد ولقي توزون وأنزله أبو جعفر بالقرب من داره في دار طازاذ التي في قصر فرج على شاطئ دجلة. ثم شرع أبو الحسين في مسألة توزون أن يعاونه على فتح البصرة وضمن له إذا فتحها أن يحمل إليه مالاً رغبة عن كثرته فكان يطمع في المال ويعلل بالمواعيد. وسأل أن يوصل إلى المستكفي بالله فوصل إليه مع توزون وابن شيرزاد فخلع المستكفي بالله عليه خلعة الرضاء وانصرف إلى منزله. وبلغ الخبر ابن أخيه أبا القاسم وأن عمهُ يسعى في أمر البصرة فوجَّه بمن أصلح أمره مع توزون وابن شيرزاد وحمل مالاً فأقِرَّ على عمله وأنفذت الخلع إليه. ووقف عمه أبو الحسين على ذلك ويئس مما كان شرع فيه ولم يقطع توزون أطماعه فيه.

ذكر الخبر عن قتل أبي الحسين البريدي

لما يئس أبو الحسين البريدي من معاونة تلحقه في فتح البصرة سعى في أن يكتب

لتوزون ويقبض على ابن شيرزاد وصح ذلك عند ابن شيرزاد فاستوحش من أبي الحسين ومن توزون فجلس في منزله أياماً وما زال توزون يراسله ويترضاه حتى كتب إليه وأخذ في التدبير عليه. فلما كان يوم السبت لستّ خلون من ذي الحجة أنفذ أبو العباس وكيله وصافي حاجب توزون إلى أبي الحسين البريدي فقبضا عليه وأحدراه إلى دار صافي وضرب هناك ليلة الأحد ضرباً عنيفاً وقيد وأحدر إلى دار السلطان وبسط ابن شيرزاد لسانه فيه أقبح بسط وذكر معايبه وأذكر بذنوبه. وكان أبو عبد اللّٰه محمد بن أبي موسى الهاشمي أخذ في أيام ناصر الدولة فتوى الفقهاء والقضاة بإحلال دمه فأظهرها في هذا الوقت فلما كان بعد أسبوع من القبض عليه استحضر الفقهاء والقضاة وأحضر أبو الحسين البريدي وجمعوا بين يدي المستكفي باللّٰه وأحضر السيف والنطع ووقف السيّاف بيده السيف وحضر ابن أبي موسى الهاشمي ووقف فقرأ ما أفتى به واحد واحد من إباحة دمه على رؤوس الأشهاد وكلما قرأ فتوى واحد منهم سأله هل هي فتواه فيعترف بها حتى أتى على جماعتهم وأبو الحسين البريدي يسمع ذلك كله ويراه ورأسه مشدود والسيف مسلول بإزائه في يد السيّاف فلما اعترف القضاة والفقهاء بالفتوى أمر المستكفي باللّٰه بضرب عنقه فضُربت من غير أن يحتج لنفسه بشيء أو يعاود بكلمة أو ينطق بحرف وأخذ رأسه وطيف به في جانبي بغداد ورد إلى دار السلطان وصلبت جثتهُ حيث كان حديديه مشدوداً فيه لما ظفر بدار السلطان فبقي مصلوباً هناك أياماً. ثم قرأتُ صكاً على الجهبذ بثمن بواري ونفط اشتريت بتسعة دراهم لإحراق جثّته فأحرقت للنصف من ذي الحجة.

وقبض على الوزير أبي الفرج السامري وصودر على ثلاثمائة ألف درهم فكانت مدة وقوع اسم الوزارة عليه اثنتين وأربعين يوماً.

وفي هذه السنة طالب المستكفي باللّٰه القاهر بأن يخرج من دار السلطان ويرجع إلى دار ابن طاهر فامتنع فسأل فيه أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن وهو يومئذٍ يكتب للمستكفي باللّٰه على خاص أموره ورفق بالقاهر وضمن أن ينزله عنده ولا يردَّه إلى دار ابن طاهر. قال أبو أحمد: فلما قلت له ذلك استجاب بعد أن سألني عن منزلي في أي جانب هو فقلت: «في الشرقي ناحية سوق يحيى» فسكنت نفسه إلى ذلك واستجاب حينئذٍ وأنزلت به إلى طياري بعد أن غيرتُ زيَّه فإني وجدته ملتفاً في قطن محشوّ جبة وفي رجله نعل خشب مربعة فلما حصل في الطيار عبَّرت به من إزاء داري وأومأت إلى الملاحين إيماء من غير أن أنطق بحرف فلما وضع صدر الطيار للعبور فطن وقال: «هوذا يعبر بي إلى دار ابن طاهر» وأراد أن يرمي بنفسه إلى الماء فتقدمت إلى غلماني بضبطه فضبطوه إلى أن أصعدت به إلى داره من دار ابن طاهر فأقام فيها مدة ثم خرج في يوم جمعة إلى المسجد الجامع في مدينة المنصور وأخذ في أن يتصدق فرآه أبو

عبد اللّه بن أبي موسى الهاشمي فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم وردَّه إلى داره.

وفي هذه السنة ورد الخبر بأن قوماً يعرفون بالروس يكونون وراء بلدان الخزر خرجوا إلى آذربيجان وملكوا برذعة. وهم قوم لا دين لهم وإنما طلبوا الملك وليس يعرفون الهزيمة وسلاحهم وربهم تشبه سلاح الديلم وفيهم قوة شديدة ولهم أبدان عظام. ثم أوقع بهم المسلمون فلم يبق منهم كبير أحدٍ وكان للمرزبان بن محمد بن مسافِر في ذلك أثر كبير وعناء عظيم وقد ذكرناه في موضعه.

ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

وفي المحرم منها مات توزون في داره ببغداد فكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً ومدة كتابة ابن شيرزاد له سنتان وستة عشر يوماً. وورد الخبر على ابن شيرزاد وهو بهيت وكان خرج إليها لموافقة أبي المُرجَّى بن فيان على مال ضمانه وكان قد أخره وطمع في ناحيته بموت توزون واضطرب العسكر ثم اجتمعوا على عقد الرياسة لابن شيرزاد. وكان أبو جعفر قد عزم على عقد الأمر لناصر الدولة فانحدر ابن شيرزاد فلما وصل إلى باب حرب وذلك في مستهل صفر أقام هناك في معسكره وخرج إليه الأتراك والديلم وأنفذ إليه المستكفي باللّه خِلَع ثياب بياض وحمل إليه طعاماً عِدَّة أيام.

فلما كان يوم الجمعة لليلتين خلتا من صفر أجمع الجيش بأسره على عقد الرياسة له وحلفوا له وأخذ البيعة عليهم لنفسه وحبوه بالريحان على رسم العجم. ووجّه ابن شيرزاد إلى المستكفي باللّه يسأله أن يحلف له يميناً بحضرة القضاة والعدول تسكن نفسه إليها ففعل المستكفي ذلك ثم سأله إعادة اليمين بحضرة وجوه الأتراك والديلم فاشتد ذلك عليه ثم فعله. فدخل ابن شيرزاد من مُعسكره على الظهر بتعبِيَةٍ إلى دار السلطان ووصل إلى الخليفة وانصرف مُكرّماً.

وزاد ابن شيرزاد الأتراك والديلم في أرزاقهم زيادات كثيرة فاشتدت الإضاقة فأنفذ إلى ناصر الدولة يطالبه بحمل المال ويطمعه في رد الإمارة إليه فحمل إليه دقيقاً وسفاتج بخمسمائة ألف درهم فلم يكن لها موقع مع الإضاقة فنقض ما عزم عليه من عقد الإمارة لناصر الدولة وأقام على أمره وقلد أبا السائب القاضي مدينة المنصور وقلّد جماعة القضاة في نواحي بغداد وأخذ في المصادرات وقسط على الكُتّاب والعُمّال والتجار وسائر طبقات الناس ببغداد مالاً لأرزاق الجند. وكان الغمازون يغمزون بمن عنده قوت من حنطة أو عدة لِعيالِه فكبسَه وأخذه وكان قد انتصب للغمز بذلك وغيره وبمن يرمق بنعمة رجلان من السعاة يعرفان بهاروت وماروت فكانا يصلان إلى ابن شيرزاد في الأسحار والخلوات ويمضيان أيضاً إلى دار المستكفي باللّه فلحق الناس منهما أمر عظيم وكذلك من الضرائب فإنها كثرت حتى تهارب التجار من بغداد وعاد هذا الفعل بالخراب وفساد الأمر وزيادة

الإضاقة فاحتيج إلى مصادرة ابن عبد العزيز الهاشمي وإخوته. وكثرت كبسات اللصوص فكان إذا ظفر السلطان بلص قتلته العامة قبل أن يصل إلى الوالي.

وقلد أبو جعفر بن شيرزاد ينال كوشه أعمال المعاون بواسط والفتح اللشكري أعمال المعاون بتكريت فأما الفتح اللشكري فإنه خرج إلى عمله بتكريت فلما وصل إليها امتد إلى ناصر الدولة بالموصل فقبله وأكرمه وقلده تكريت من قبله وردَّه إليها. وأما ينال كوشه فكاتب الأمير أبا الحسين بن بويه.

وأخرج ابن شيرزاد تكين الشيرزادي إلى الجبل فهزمه أصحاب أبي علي بن محتاج وانصرف إلى بغداد.

ذكر الخبر عن مسير أبي الحسين أحمد بن بويه إلى بغداد

ورد الخبر بدخول ينال كوشه في طاعة الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه وأن الأمير قد تحرك من الأهواز يريد الحضرة فاضطرب الأتراك والديلم ببغداد وأخرجوا مضاربهم إلى المصلّى وعسكروا هناك وأخرج أبو جعفر مضربه معهم. ثم ورد الخبر بنزول الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه باجسري فزاد الاضطراب ببغداد واستتر ابن شيرزاد واستتر المستكفي باللّه فكانت إمارة ابن شيرزاد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً. فلما وقف الأتراك على استتارهما عبروا إلى الجانب الغربي وساروا إلى الموصل فلما سار الأتراك ظهر المستكفي باللّه وعاد إلى دار الخلافة.

وورد أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي صاحب الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه ولقي ابن شيرزاد حيث هو مستتر وفاوضه ثم انحدر إلى دار السلطان ولقي المستكفي باللّه فأظهر المستكفي باللّه سروراً بموافاة الأمير أبي الحسين أحمد بن بويه وأعلمه أنه إنما استتر من الأتراك لينحلّ أمرهم فيحصل الأمر للأمير أحمد بن بويه بلا كلفة. فلما كان يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة نزل الأمير أبو الحسن في معسكره بباب الشماسية ووصل إلى المستكفي باللّه ووقف بين يديه طويلاً وأخذت عليه البيعة للمستكفي باللّه واستحلف له بأغلظ الأيمان وأدخل في اليمين الصيانة لأبي أحمد الشيرازي كاتبه ولعلم قهرمانته ولأبي عبد اللّه ابن أم موسى وللقاضي أبي السائب ولأبي العباس أحمد بن خاقان الحاجب ووقعت الشهادة على المستكفي باللّه وعلى الأمير أبي الحسين فلما فرغ من اليمين سأل الأمير أبو الحسين المستكفي باللّه في أمر ابن شيرزاد واستأذنه في أن يستكتبه فآمنه وأذن له في ذلك. ثم لبس الأمير الخلع وكنى ولقب بمعز الدولة ولقب أخوه أبو الحسن علي بن بويه بعماد الدولة وأخوه أبو علي الحسن بن بويه بركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وانصرف بالخلع إلى دار مونس ونزل الديلم والجيل والأتراك دور

الناس فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة وصار رسماً عليهم إلى اليوم.

ذكر كتابة ابن شيرزاد لمعز الدولة أبي الحسين

ظهر أبو جعفر بن شيرزاد من استتاره ولقي معز الدولة ودبر أمر الخراج وجباية الأموال. وقبض الأمير أبو الحسين على أبي عبد اللّه الحسين بن علي بن مقلة وذلك لوصول رقعة له إليه يطلب فيها مكان ابن شيرزاد.

ذكر الخبر عن قبض معز الدولة على المستكفي باللّه

كان السبب الظاهر أن علماً قهرمانته دعت دعوة عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم فاتهمها الأمير معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي باللّه وأن ينقضوا رياسة معز الدولة عليهم ويطيعوه دونه فساء ظنه لذلك ولما رأى من جسارتها وإقدامها على قلب الدول. ثم قبض المستكفي باللّه على الشافعي رئيس الشيعة من باب الطاق فشفع فيه أصفهدوست فلم يُشفّعه فاحفظه ذلك وذهب إلى معز الدولة وقال: راسلني الخليفة في أن ألقاه متنكراً في خف وإزار. فنتج من ذلك وغيره مما لم يظهر خلعه من الخلافة فلما أن كان يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة انحدر الأمير معز الدولة إلى دار السلطان وانحدر الناس على رسمهم فلما جلس المستكفي باللّه على سريره ووقف الناس على مراتبهم دخل أبو جعفر الصيمري وأبو جعفر بن شيرزاد فوقفا في مرتبتهما ودخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ثم قبل يد المستكفي باللّه ووقف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسي وأذن لرسول كان ورد من خراسان ورسول ورد من أبي القاسم البريدي فتقدَّم نفسان من الديلم فمدّا أيديهما إلى المستكفي باللّه وعلا صوتهما فارسية فظن أنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما فجذباه بها وطرحاه إلى الأرض ووضعا عمامته في عنقه وجرّاهُ. فنهض حينئذٍ معز الدولة واضطرب الناس وارتفعت الزعقات وقبض الديلم على أبي أحمد الشيرازي وعلى ابن أبي موسى الهاشمي ودخلوا إلى دار الحرم فقبضوا على علم القهرمانة وابنتها وتبادر الناس إلى الباب من الروشن فجرى أمر عظيم من الضغط والنهب.

وساق الديلمان المستكفي باللّه ماشياً إلى دار معز الدولة واعتقل فيها ونهبت دار السلطان حتى لم يبق فيها شيء وانقضت أيام خلافة المستكفي باللّه.

وأحضر معز الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر باللّه إلى دار الخلافة في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ وخوطب بالخلافة وبويع له ولقب المطيع للّه.

ذكر خلافة المطيع لله وما جرى عليه من الأمور

وقام له ابن شيرزاد في تدبير الأمور والأعمال بمقام الوزراء من غير تسمية بوزارة واستخلف على كتابته على خاص أمره أبا الحسن طازاذ بن عيسى واستحجب المطيع للّه أبا العبّاس ابن خاقان. وأقام له الأمير معز الدولة لنفقته كل يوم ألفي درهم وكتب بخبر تقلده الخلافة إلى الآفاق.

وتم الصلح بين الأمير معزّ الدولة وبين أبي القاسم البريدي وتسلم ابن البريدي واسطاً وضمن البقايا بها بألف ألف وستمائة ألف درهم واستخلف بالحضرة أبا القاسم عيسى بن علي بن عيسى.

وطلب الأمير معز الدولة ابن شيرزاد برهينة لأنه تبين منه تبليحاً في أمر المال ولم يأمن أن يهرب واضطرب أبو جعفر وسأل الأمير أن يقرضه ما يمشي به أمره فدفع إليه عدة من مراكب ذهب وفضة على أن يردَّ مكانها فتسلم أبو جعفر ذلك وسلم أخاه أبا الحسن زكريا رهينة.

وكان وصف للأمير معز الدولة كفاية أبي الفرج بن أبي هشام وشهامته فأوصله إلى حضرته وأنس به ولطف محله ورد إليه أمر الضياع الخراب بالسواد وكلفه عمارتها. قال ثابت: وأخبرني أبو الفرج أنه قال لمعز الدولة: لججت أيها الأمير في أمر أبي جعفر بن شيرزاد في أن يكتب لك وراجعت الخليفة المستكفي باللّه دفعات حتى أذن بأن نستكتبه لك ليس هذا لرغبة في صناعته فإنه ما كان صانعاً أمر كتاب الرسائل وأمر كتاب الخراج وإنما ولي ديوان النفقات مرة وكتب لابن الخال وكان امرأً متوسطاً وما عدَّه كتاب الحضرة وأصحاب دواوينهم في الكفاة وأهل الصناعة قال: فقال: أنت صادق فإني ما سألتُ عنه أحداً فقال فيه إلا مثل قولك ولما رأيت لحيتهُ قلت: «هذا بأن يكون قطاناً أولى منه أن يكون كاتباً» ولكن وجدتهُ وقد تقلد الإمارة ببغداد واستولى على الخلافة وصار لي نظيراً ولملوك الأطراف وتصوّره الرجال بصورةٍ من يصلح أن يرؤسهم ومن يعقدون له على نفوسهم فأردت أن أحطهُ من هذه الحال إلى أن أجعله كاتباً لغلام لي أو عاملاً على بلد.

وكان الأمير معز الدولة قد أخرج موسى فياذة وينال كوشه في يوم الجمعة لتسع

بقين من رجب إلى عكبرا مقدّمة له إلى الموصل فلما سارا أوقع ينال كوشه وابن البارد بموسى فياذة وأخذوا سواده ومضوا إلى ناصر الدولة.

وفي يوم الاثنين لتسع خلون من شعبان استتر أبو جعفر بن شيرزاد وأسلم أخاهُ أبا الحسن زكرياء.

ونزل ناصر الدولة ومعه الأتراك بسر من رأى لأربع بقين من شعبان وابتدأت الحرب بينه وبين أصحاب معز الدولة بعكبرا وسار معزّ الدولة يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان ومعه الخليفة المطيع للّه إلى عكبرا. وظهر أبو جعفر بن شيرزاد ومضى فتلقى أبا العطّاف جبير بن عبد اللّه بن حمدان أخا ناصر الدولة فإنه وافى بغداد ونزل باب قطربل فنزل معه أبو جعفر بن شيرزاد ولؤلؤ وجماعة من العجم. ولقيه أهل بغداد ودبر الأمور أبو جعفر بن شيرزاد من قبل ناصر الدولة والحرب متصلة بين معز الدولة وناصر الدولة بسر من رأى ونواحيها.

فلما كان يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان وافى ناصر الدولة إلى بغداد فنزل في الجانب الغربي أسفل قطربل بعد أن أحرق خزائن نفسه وأصحابه التي في الزواريق لظهور الديلم عليه وخلف أبا عبد اللّه الحسين بن حمدان في الحرب. ثم عبر أصحاب معز الدولة الديلم من الجانب الشرقي من سر من رأى إلى الجانب الغربي من دجلة وساروا إلى تكريت ونهبوها ثم صار بعضهم إلى سر من رأى ونهبوها ثم عبر جميعهم مع معز الدولة إلى الجانب الغربي من دجلة والخليفة معهم وساروا منحدرين إلى بغداد وبإزائهم أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد والأتراك في الجانب الشرقي. فلما حصل معز الدولة في الجانب الغربي عبر ناصر الدولة إلى الشرقي ونزل في رقة الشماسية واجتمع مع الأتراك وما خطب ناصر الدولة للمطيع للّه ولا ذكر اسمه ولا كنيته في الخطب. وفي يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان أوقع أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد بعسكر معز الدولة في الماء فغرق منهم وملك آلات الماء التي كانت معهم.

ولما كان يوم الخميس لليلتين خلتا من شوال وجّه ناصر الدولة بخمسين رجلاً من الديلم الذين كانوا في جملته إلى الجانب الغربي من بغداد في جملة الجيش الذين عبر بهم لمحاربة معزّ الدولة. فلما صاروا على الخندق الذي في قطيعة أم جعفر وخاطبوا الديلم الذين مع معزّ الدولة أوهموا جيش ناصر الدولة الذين كانوا معهم أن جماعة من ديالمة معز الدولة يريدون أن يعبروا الخندق ليستأمنوا إلى ناصر الدولة فأفرجوا لهم عن الخندق حتى عبروه وقلبوا تراسهم على جيش ناصر الدولة وحاربوه وأوقعوا به فانهزم أصحاب ناصر الدولة بأسره. وحصل القرامطة من أصحاب ناصر الدولة وتكين الشيرزادي وغيره من قوّاده محدقين بعسكر معزّ الدولة في الجانب الغربي فلم يكن يقدر معز الدولة على تناول شيء من علف ولا غيره فلحق أهل الجانب الغربي غلاء شديد

وعدموا الأقوات. وكان أبو جعفر الصيمري لتشاغله بأمر الحرب قد رد خدمة معز الدولة والقيام بما يحتاج إليه هو وحاشيته وأسبابه إلى أبي علي الحسن بن هارون فحدّثني أبو علي هذا أنه اشترى للأمير معز الدولة كرّ دقيق حُوّاري بعشرين ألف درهم وتعذر على الناس العبور من الجانب الغربي إلى الشرقي ومن الشرقي إلى الغربي لمنع ناصر الدولة من ذلك ولحق الناس في السواد من الجانبين ضرر عظيم بتسلط الجند على غلاتهم فإنهم كانوا يحصدونها ويدرسونها ويحملونها إلى معسكرهم.

وكان السعر في الجانب الشرقي خمسة أرطال خبز بدرهم لورود الزواريق من الموصل بالدقيق وبقي السعر في الجانب الغربي غالياً بعد إدراك الغلات لما ذكرنا فكان الرطل الواحد من الخبز بدرهم وربع إذا وجد وذلك لمنع ناصر الدولة ما يرد من الموصل أن يصل إلى الجانب الغربي ولأن أعرابهُ منتشرون في الجانب الغربي يحولون بين أصحاب معز الدولة وبين الغلات. وضرب ناصر الدولة دنانير ودراهم بسكة سنة ٣٣١ باسم المتقي لله وناصر الدولة وسيف الدولة.

واستعان ابن شيرزاد بالعامة والعيارين من بغداد على حرب معز الدولة والديلم وفرض قوماً منهم وكان يركب كل يوم في الماء ومعه عدة زبازب فيها أتراك فينحدر ويُصعد في دجلة ويرمي من على الشطوط في الجانب الغربي من الديلم بالنشاب وكان ناصر الدولة عبر بصافي التوزوني في ألف رجل لكبس معز الدولة وعسكره فلقيه اصفهدوست وأبو جعفر الصيمري فهزماه. فكان جعفر بن ورقاء يقول وكان معهما: كنت أسمع أن رجلاً واحداً يفي بألف رجل فلا أصدق حتى شاهدت اصفهدوست وحملتَهُ وهزيمته صافي وزمرته فصدقت بذلك.

وكان معز الدولة بنى زبازب في قطيعة أم جعفر وعددها نيف وخمسون فخرجت يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة إلى دجلة وكان غلمان معز الدولة يحاربون فيها من في زبازب ناصر الدولة من أصحابه وذكر أبو جعفر الصيمري أن الجهد كان قد بلغ منهم والحيل قد أعيتهم وضاق بهم الأمر حتى عزم معز الدولة على الرحيل إلى الأهواز وحمل أثقاله وقال: ترون في طريقنا العبور فإن أمكننا حيلة فيه وإلا جعلنا وجهنا إلى الأهواز. وتهيأ إن عبر الصيمري واصفهدوست وبهما تسعة نفر في سحر يوم السبت انسلاخ ذي الحجة إلى الجزيرة التي بإزاء المخرّم وأرادوا العبور منها إلى الجانب الشرقي فعارضهم ينال كوشه معارضة يسيرة وتهيأ لهم العبور وتبعهم أصحابهم فعبروا.

ذكر الحيلة التي تم بها عبورهم

كان معز الدولة رتب هذه المعابر في الصراة ثم حدرها في الليل على شاطئ دجلة إلى موضع الثمانين لأنه أضيق موضع في دجلة ووافق وزيره الصيمري واصفهدوست

وخواص ديلمه على العبور وأظهر هو أنه يعبر من أعلى قطربُل. فمضى بالليل في وقت موافقتهم وضرب البوقات وسار بالمشاعل وحمل بعض تلك المعابر بالأوهاق على الظهر. فلما رأى أعداؤه ذلك سار أكثرهم بإزائه لممانعته فتمكن الصيمري ومن معه من العبور وكان الصيمري أول من بذل نفسه لأن أصحابه تهيَّبوا العبور فلما سبقهم أنفوا وتبعوه. ثم عاد معز الدولة إلى هذا الموضع وقد أحس القوم بحيلته فتكاثروا بالزبازب ومنعوهم من العبور وغرّقوا ركوتين واشتدت الحرب وانهزم الأتراك. وكان ينال كوشه قد شرب ليلته ولما حصل جماعة من الديلم في الجانب الشرقي زعقوا بينال كوشه فانهزم ومضى أصحابه إلى باب الشماسيَّة. واضطرب عسكر ناصر الدولة فوجَّه ابن شيرزاد إلى ناصر الدولة: أن الصواب أن تركب لتلقى من عبر من الديلم. فرد عليه في الجواب: أن العادة قد جرت بأني إذا ركبت انهزم الناس. وأن الصواب أن يركب هو فركب أبو جعفر ورأى الناس قد ركب بعضهم بعضاً وليس يلوي أحد على أحد ولا يقف فانهزم هو أيضاً معهم وانهزم ناصر الدولة وملك الديلم الجانب الشرقي وأحرقوا ونهبوا وقُتل من العامة جماعة ومات منهم عددٌ كثير من رجال ونساء وصبيان لأن الخوف حملهم على الهرب لما كانوا قدّموه إلى الديلم من الشتم والحرب في أيام الفتنة فخرجوا حفاة في الحر الشديد ومشوا إلى عكبرا فماتوا في الطريق وجرى معز الدولة على عادته في الرأفة فأمر برفع السيف والكف عن النهب وأمن الناس وملك الجانبين. ولما منعهم معز الدولة ونادى بالكف لم ينتهوا ولا كانت له قدرة على منعهم حتى ركب الصيمري فقتل جماعة وصلب بعض غلمان الديلم وواصل الطوف والحماية بنفسه حتى أمكنهُ تسكين الجند وحزر ما انتهب فكان مقداره عشرة آلاف ألف دينار وذاك أن القصد وقع على مواضع التجار وحيث الأموال والأمتعة.

ومضى ناصر الدولة وابن شيرزاد والأتراك التوزونيّة مصعدين إلى عكبرا فلما استقروا بها راسل ناصر الدولة الأمير معز الدولة يلتمس الصلح في آخر المحرم سنة ٣٣٥ وكان ناصر الدولة فعل ذلك بغير علم الأتراك فلما وقفوا على ذلك أرادوا الوثوب به وهمّوا به فرُقِي إليه الخبر وصح عنده ما عزموا عليه فهرب منهم ومضى مغِذّاً مسرعاً نحو الموصل وتركهم. وكتب معز الدولة بالفتح عن المطيع للّه كتاباً نفذ إلى الأمير عماد الدولة وإلى سائر الأطراف.

حيلة غريبة ينبغي أن يحترز من مثلها

ومن أطراف الأمور وأعجَبها أن رجلاً قصد مضرب ناصر الدولة وهو بباب الشمَّاسيَّة بإزاء معسكر معز الدولة فدخله بالليل ودخل خيمته وهو نائم فيها ولم يشعر به الحُرّاس ولا الحجّاب ولا البوّابون ولا الخدم ومضى حتى عرف موضعه وشاهده وهو نائم وعرف موضع رأسه من المخدّة ورجع ليطفئ السراج وشمعة كانت بقُربه خارج

الخيمة فيعود فيضع السكين في موضع حلته. فاتَّفق أن انقلب ناصر الدولة في نومه ولما رجع الرجل لإطفاء الشمعة من جنب إلى جنب فأطفأ الرجل الشمعة وعاد وقد أظلم الموضع فوضع سكّينه في الموضع الذي كان فيه تقديره وما شكَّ أن السكين يقع في حلقه فبقي السكين مغرّزاً في المخدة مكان رأس ناصر الدولة وعند الرجل أنه قد قتله وخرج من المضرب ولم يعلم به أحدٌ وانتبه ناصر الدولة ورأى السكين وطُلب الرجل فلم يُلحق وشاع الخبر فصار الناس إلى ناصر الدولة للتهنئة بالسلامة. ومضى الرجل إلى معز الدولة ليبشره بأنه قد قتله واستشرحه ما عمل فشرحه له فقال معز الدولة: مثل هذا لا يؤمن. وسلمه إلى الصيمري ليحبسه فقتله الصيمري.

وفي هذه السنة أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة وأكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف وكانت الدابة إذا راثت اجتمع على الروث جماعة ففتشوه ولقطوا ما يجدون فيه من شعير وأكلوه وكان يؤخذ بزر قطونا ويضرب بالماء ويُبسط على طابق حديد ويجعل على النار حتى نقب ويؤكل ولحق الناس من ذلك في أحشائهم أورام ومات أكثرهم ومن بقي كان في صورة الموتى. وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضراً فيصيح الجوع الجوع إلى أن يسقط ويموت وكان الإنسان إذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه وإلاّ استُلب منه ولكثرة الموتى وأنه لم يكن يُلحق دفهم كانت الكلاب تأكل لحومهم. وخرج الضعفي إلى البصرة خروجاً مُفرطاً متتابعين لأكل التّمر فتلف أكثرهم في الطريق ومن وصل منهم مات بعد مُديدة. ووجدت امرأة هاشمية قد سرقت صبياً فشوته وهو حيّ في تنّور فأكلت بعضه وظفر بها وهي تأكل البعض الباقي فضُربت عنقها. وكانت الدُور والعقارات تُباع برغفان ويأخذ الدلال بحق دلالته بعض ذلك الخبز. ووجدت امرأة أخرى تقتُل الصبيان وتأكلهم ثم فشا ذلك فقُتلت عدّة منهنّ. ولما زالت الفتنة ودخلت الغلات الجديدة انحل السعر.

ولما استتر ابن شيرزاد نظر أبو جعفر فيما كان ينظر فيه ابن شيرزاد ثم قلد الأمير معز الدولة والصيمري الحسن بن علي بن مقلة ما كان أبو جعفر ينظر فيه من أعمال الخراج وجباية الأموال.

وفي هذه السنة شغب الديلم على معز الدولة شغباً قبيحاً وكاشفوه بالاسماع وخرقوا عليه بالسفه الكثير فضمن إطلاق أموالهم في مدة ضربها لهم فاضطرّ إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها. فأقطع قوّاده وخواصّه وأتراكَهُ ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد وحق بيت المال في ضياع الرعية وصار أكثر السواد مُغلَقاً وزالت أيدي العمَّال عنه وبقي اليسير منه من المحلول فضمّن واستغنى عن أكثر الدواوين فبطلت وبطلت أزِمّتها وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد.

ذكر ما انتهى إليه هذا التدبير من سوء العاقبة وخراب البلاد وفساد العساكر وسوء النظام

إن التدبير إذا بُنِي على أصول خارجة عن الصواب وإن خفي في الابتداء ظهر على طول الزمان. ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادّة الطريق انحرافاً يسيراً ولا يظهر انحرافهُ في المبدأ حتى إذا طال به المسير بعُد عن السمِت وكلّما ازداد إمعاناً في السير زاد بعدُه عن الجادة وظهر خطأهُ وتفاوت أمره. فمن ذلك أنه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته. ثم سامح الوزراء المقطعين وقبلوا منهم الرُشَى وأخذوا المصانعات في البعض وقبلوا الشفاعات في البعض فحصلت الإقطاعات لهم بعبر متفاوتة. فلما أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها بزيادة الغلاّت ونقص في بعضها بانحطاط الأسعار (وذلك أن الوقت الذي أقطع فيه الجند الإقطاعات كان السعر مُفرط الغلاء للقحط الذي ذكرناه) فتمسَّك الرابحون بما حصل في أيديهم من إقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة. وردَّ الخاسرون إقطاعاتهم فعُوّضوا عنها وتممت لهم نقائصها واتّسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح. وقُلّدت الإقطاعات المرتجعة من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع في عمارتها ثم صار المقطعون يعودون إلى تلك الإقطاعات وقد اختلط بعضها ببعض فيستقطعونها بالموجود بعد تناهيها في الاضمحلال والانحطاط. وكانت الأصول تذوب على ممر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب وبطلت المصالح وأتت الجوائح على التناء ورقت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شرّه ويوافقه. فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وامحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها ومتى تولى أخذهم شيئاً منها كان فيه دخيلاً متجلفاً. واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم. وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان ووقع الاقتصار في عملها على أن يقدّر ما يحتاج إليه لها ويقسط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها وإن أدوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها. وقل حفل الناظرين بالحوادث تعويلاً على أخذ ما صفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة وردّ ما تخرب على أيديهم من الإقطاعات وفوض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم فاتخذه مسكناً وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة وصار غرض أحدهم الترجية والتمشية والدفع

من سنة إلى سنة. وعقدت النواحي الخارجة من الإقطاعات على طبقتين من الناس إحداهما أكابر القواد والجند والأخرى أصحاب الدراريع والمتصرفون فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم. ولما كثرت أموالهم وانفتقت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج وإن سومحوا استشرى طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية. وأما أصحاب الدراريع فكانوا أهدى من الجندي إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجري عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس حكم واحد. وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلوا بمعامليهم فمن مستضعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال ويتخذه الضامن عضداً في شدائده وعند مناظرة سلطانه ويصطلم المستضعفين. فبطل أن ترفع الدواوين جماعة أو تعمل لعامل مؤامرة أو يسع لأحد ظلامة أو يقبل من كاتب نصيحة واقتصر في محاسبة الضمناء على ذكر أصول العقد وما صح منه وبقي من غير تفتيش عما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة من غير إشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة وجبايات تحدث على غير رسم ومصادرات ترفع على محض الظلم وإضافات إلى الارتفاع ليست بعبرة وحسبانات في النفقات لا حقيقة لشيء منها ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك فكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف. وإن كان ذا فاقة وخلة أرضى باليسير فانقلب وصار عوناً للخصم ولم يكن بذلك بملوم لأن سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال.

فهذه جملة الحال في ضياع الدخل فأما الخرج فإن النفقات تضاعفت وسوق الدواوين أزيلت والأزمة بطلت إلى غير ذلك من أمور يتسع فيها القول ويقتضي بعضها سياقة بعض فاقتصرنا على الإشارة دون التطويل.

ثم ركب معز الدولة الهوي في أمور غلمانه فتوسع في إقطاعاتهم وزياداتهم وأسرف في تمويلهم وتخويلهم فتعذر عليه أن يذخر ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تزل مؤونته تزيد ومواده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفاً على حد منه بل يتضاعف تضاعفاً متفاقماً وأدى ذلك على مر السنين إلى الإخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم. وقادت الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير في أمور أولئك فسدت النيات وفسد الفريقان أما الأتراك فبالطمع والضراوة وأما الديلم فبالضر والمسكنة واشرأبّوا إلى الفتن وصارت هذه المعاملة لقاحاً لها

وسبباً لوقوع ما وقع فيها مما سنذكر جملاً منه في مواضعها بمشيئة اللّه.

وفي هذه السنة سملت علم القهرمانة وقطع بعد ذلك لسانها.

وفيها ورد الخبر بأن نوحاً صاحب خراسان قبض على إخوة أبي علي بن محتاج وقتل بعضهم.

ذكر السبب في ذلك

لما انهزم ابن لما انهزم ابن محتاج من بين يدي ركن الدولة بعد أن كان ضمن لصاحب خراسان فتح الري أمده صاحبه بابن ملك وجماعة من نظرائه وقواده وبالغ في تقويته فسار في عدة وعُدة وافرة. فكاتب ركن الدولة عماد الدولة وسأله المدد فأمره أن يخلي لهم الطريق ويصير إليه وأعلمه أن له تدبيراً في ذلك ففعل ركن الدولة ذلك ودخل الخراسانية الري. فراسل عماد الدولة صاحب خراسان سراً يعرفه قلة جدوى الري عليه مع ما يلتزمه من النفقات على العساكر العظيمة وأن الاستيحاش بينهما زائد مع ذلك ويسأله أن يزيل هذه الوحشة بأن يضمنه أعمال الري عشر سنين بمثل ما تقرر عليه بينه وبين ابن محتاج وزيادة مائة ألف دينار في كل سنة على أن يسلفه مال سنة. وسأله إنفاذ ثقة من ثقاته ليوقع العهد معه ويحمل المال على يده وأنه يعاونه بعد ذلك على ابن محتاج حتى يظفر به. فوردت هذه الرسالة على نوح بن نصر ونيته فاسدة لابن محتاج وتطلعت نفسه إلى تحصيل المال فشاور ثقاته وكلهم أضداد وأعداء لابن محتاج فأشاروا عليه بقبول ما بذله عماد الدولة فأظهر حينئذٍ ما كان في نفسه وقبض على إخوة أبي علي بن محتاج وأهله وأسبابه وقتل بعضهم. وأنفذ إلى عماد الدولة علي بن موسى المعروف بالزرار وكان من قواده وأكابر حاشيته فسار على الجمازات واستقبله عماد الدولة وأكرمه وواصل إليه العطايا والتحف وماطله فيما ورد له. وراسل أبا علي بن محتاج يعلمه خبر هذا الرسول ويطلعه على ما ورد له وقرر في نفسه أنه على عهده محافظ على وده وحذره من غدر نوح وخوفه منه فحينئذٍ أنفذ ابن محتاج رسوله إلى إبراهيم بن أحمد وهو عم نوح وكان إذ ذاك بالموصل أحد قواد ناصر الدولة فعرفه أنه قد عقد له الرياسة وأخذ له البيعة على أصحابه على أن يكون إليه خراسان ويمضي معه فيحاربان نوحاً ويؤكد عليه أن يعجل إليه فرغب إبراهيم بن أحمد في ذلك واستأذن ناصر الدولة في المضي فقال له: نحن على المصير إلى بغداد فانتظر حتى ندخلها فإذا دخلناها قلدك الخليفة وخلع عليك من داره وعقد لك لواء فيكون أعز لك وأقوى لأمرك. وكان هذا في آخر أيام المستكفي باللّه فعمل إبراهيم بن أحمد على ذلك فلما طالت المدة وحدث على المستكفي باللّه الحادثة وانحدر ناصر الدولة إلى بغداد تتابعت رسل أبي علي بن محتاج إلى إبراهيم فعبر تكريت في سبعين غلاماً ومضى إلى دقوقا

ومنها إلى طريق خراسان. ثم وردت كتبه من الريّ على ناصر الدولة بأنه سائر إلى نيسابور لمحاربة ابن أخيه نوح فأنفذ إليه ناصر الدولة خلعاً سلطانية ولواء عقده له عن الخليفة المطيع للّه وحمل إليه ذلك مع خجخج المسمول فتطير الناس له من ذلك وقالوا إنه لا يتم أمره. ولما بلغ أبا علي مسير إبراهيم تلقاه إلى همذان وعاهده على السمع والطاعة والنصيحة وعاد معه إلى الري ثم نهضا جميعاً إلى خراسان وكتب كتاباً إلى ركن الدولة بأنه سائر إلى خراسان وأنه قد أفرج له عن الري فكتب عماد الدولة إلى أخيه ركن الدولة بالمسير إليها فبادر إلى ذلك واضطرب خراسان على نوح بن نصر.

ذكر ما تم من الحيلة لعماد الدولة في تلك الحال

لما فرغ عماد الدولة من التضريب بين ابن محتاج وبين صاحبه وتمت المكاشفة بالعداوة بينهما بادر بردّ الزرار رسول صاحب خراسان على نوح برسالة يقول فيها: إنه قد ظهر ما كان ينذره به من سوء نية ابن محتاج وسعيه عليه وأنه لما كاشفه بالحرب مع عمه إبراهيم أنفذ أخاه ركن الدولة إلى عسكره حتى إذا سارت جيوش نوح بن نصر إلى عمه وإلى ابن محتاج واحتاج إلى أن يسير ركن الدولة من ورائهم مُعاوناً له عليهما فعل ذلك. وأقبل نوح إلى نيسابور في عساكره وجميع من معه من أصحاب جيوشه ورجاله فبرز له إبراهيم وابن محتاج فحارباهُ وكسراهُ وأسرا إبراهيم بن سمجور ومنصور بن قراتكين وعدداً كثيراً من قوّاده واستأمن أكثر جيشه وانصرف نوح مفلولاً على حال سيّئةٍ من الضعف والحيرة واتبعهُ إبراهيم وابن محتاج وحملا معهما إبراهيم بن سمجور ومنصور بن قراتكين أسيرَين واستمرّت بنوح الهزيمة إلى سمرقند فدخل إبراهيم بن أحمد بُخارى واشتمل على الخزائن والذخائر وذلك في سنة ٣٣٥. وكتب ابن محتاج إلى عماد الدولة يبشره بما جرى ويسأله تجديد أمر السلطان لإبراهيم بن أحمد بالخلع والعقد له على خراسان.

ذكر ما انتهى إليه أمر إبراهيم وابن محتاج مع نوح بن نصر وما اتفق من الأسباب التي أعادت نوحاً إلى سريره ومقرّ عزه بخراسان

كان سبب ذلك أن إبراهيم أصغى إلى قوم حساد لأبي علي بن محتاج فكانوا يوهِمونه أن أبا علي إنما استعان به ليجتمع له جيوش خراسان فإذا فرغ من نوح عطف عليه فعامله بمثل ما عامل به نوحاً وأن الصواب له أن يحترز منه. فوقر ذلك في نفس إبراهيم وأطلق ابن سمجور وابن قراتكين وخلع عليهما من غير رأي أبي علي بن محتاج فاستوحش ابن محتاج وانقبض عن إبراهيم وتمكن ابن سمجور وابن قراتكين من استمالة الجند وكاتبا نوحاً وترددت الرسل بينهم سراً. ثم إن نوحاً سار إلى ثغور خراسان فجمع منها جيشاً واستخرج أموالاً وعاد إلى بُخارى فملكها وقهر عمَّهُ وحصل أسيراً في يده

فسمله وسمل جماعة من أهل بيته.

ذكر الحيل التي تمت لنوح على عمه حتى تمكن منه ومن عسكره

كان إبراهيم وابن محتاج خرجا إلى ظاهر بُخارى وعسكرا بموضع يقال له ريكستان فبينما هم نزولٌ إذ صاح صائح في الميدان الذي بحذاء دار الإمارة ببُخارى «نوح يا منصور» واجتمع إليه طائفة من الحشم ثم إن نوحاً زحف إلى عمه إبراهيم وكان يدبّر أمره ابن أبي داود البلخي فاحتال على تقوية قلوب أصحابه بأن أعلمهم أن مدداً كثيراً قد أقبل إليهم وهم يلحقون في الليل وكانت الحرب قد وقعت في ذلك اليوم فكانت على نوح. فلما كان في الليل أنفذ طائفة من عسكره مع مراكبهم وأمرهم بالإبعاد فإذا كان في الثلث الآخر من الليل ضربوا بطبولهم وبوقاتهم ودبادبهم ودخلوا العسكر في صورة المدد ففعلوا ذلك فلم يزالوا إلى الصبح يدخلون العسكر على هذه الصورة فلما أصبحوا وتصافوا للحرب استأمن الديلم الذين كانوا مع إبراهيم وانهزم قوم من أصحابه وانهزم أبو علي بن محتاج وظفر نوح بإبراهيم وعاملهُ بما ذكرتُ.

وفي هذه السنة مات أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وتقلد مكانه ابنه أبو القاسم أنوجور وغلب كافور الخادم الأسود وكان خادم الإخشيد على الأمر.

وفيها مات علي بن عيسى عن تسعين سنة.

ودخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

لما اجتمع لمعز الدولة أمر بغداد في هذه السنة زاد في التوثُّق من أمير المؤمنين المطيع للّه فاستحلفه بيمين عظيمة ألاّ يتغيَّب عن معز الدولة ولا يبغيه سوءاً ولا يُمالئ له عدواً فلما حلف أزال عنه التوكيل وعاد إلى دار الخلافة واعتزل أبو علي الحسن بن هارون النظر في الأمور لِتحامُل الصيمري عليه ومصادرة كاتبه فردَّ النظر في الأعمال إلى أبي الحسين علي بن محمد بن مقلة من قبل أبي جعفر الصيمري ورعى له معز الدولة مكاتبته له أيام مقامهِ في الجانب الغربي فلما عبر معز الدولة ولقيه لزمه ثم ردَّ في هذا الوقت إليه النظر في الأمور وقُلّد كتبة الخليفة أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي وسُلّمت إليه ضياع الخدمة ارتفاع مائتي ألف دينار في السنة.

وفيها ورد الخبر في المحرّم بدخول الأمير ركن الدولة الريّ وأنه ملك الجبل بأسره.

وفيها ورد أبو بكر بن قرابة من عكبرا برسالة ناصر الدولة يلتمس فيها من معز الدولة الصلح وقد كان تردد قبل هذه الوقعة مرات فتقرَّر أمر الصلح على أن يكون في يد ناصر الدولة من حد تكريت إلى فوق ويضاف إلى أعماله مصر والشام على أن لا يحمل عن الموصل وديار ربيعة شيئاً مما كان يحمله من المال ويكون الذي يحمله عن مصر والشام ما

كان يحمله الإخشيد محمد بن طغج عنهما وعلى أن يدرّ ناصر الدولة الميرة إلى بغداد ولا تؤخذ لها ضريبة وحلف معز الدولة بحضرة الخليفة والقضاة على ذلك والوفاء به.

وأنفذ القضاة مع ابن قرابة إلى معز الدولة لالتماس الصلح بغير موافقة منه للأتراك ولا علم منهم فلما علموا بذلك وظهر أمر الصلح اجتمع الأتراك للإيقاع به وأحس ناصر الدولة بذلك فخرج بالليل وعبر إلى خيمة ملهم. وكان ملهم والقرامطة في الجانب الغربي والأتراك وناصر الدولة في الجانب الشرقي واستجارهُ فأجاره وسيّره في الجانب الغربي ومعه ابن شيرزاد وبقي الأتراك في الجانب الشرقي. فلما فاتهم ناصر الدولة اجتمعوا على تأمير تكين الشيرزادي وقبضوا على أبي بكر بن قرابة بعد أن نزل به مكروه عظيم وقبضوا على كُتّاب ناصر الدولة وأسبابه وساروا يطلبونه واستأمن ينال كوشه ولؤلؤ إلى معز الدولة وأسرع ناصر الدولة في سيره فلم يلحقه الأتراك. ولما صار إلى مرج جهينة قبض على ابن شيرزاد وسلّمه وعلى طازاذ وعلى أبي سعيد وهب بن إبراهيم وجوهر خادم ابن شيرزاد وأنفذ جماعتهم إلى القلعة. ولم يتلبَّث ناصر الدولة ومضى إلى نصيبين ورحل تكين الشيرزادي والأتراك إلى الموصل وغلبوا عليها ثم ساروا في طلبه فمضى إلى سنجار فتبعوه وكتب إلى معز الدولة يستصرخه فأنفذ إليه معزّ الدولة جماعةً من قوّاده ثم أنفذ أصفهدوست بعدهم ثم أخرج الصيمري. ولما سار تكين الشيرزادي إلى سنجار في طلب ناصر الدولة سار من سنجار إلى الحديثة فتبعه تكين إلى الحديثة فلما قرُب منه سار ناصر الدولة إلى السن وهناك لحق به جيش معز الدولة وأبو جعفر الصيمري واصفهدوست فساروا بأسرهم إلى الحديثة للقاء تكين الشيرزادي. ووقعت الوقعة بالحديثة وكانت شديدة فانهزم تكين وتقطع أصحابه واستؤسر منهم وجوه القوّاد وجماعة من الأصاغر وقتل منهم خلقٌ بعد أن كان استعلى واستظهر في الحرب.

ذكر السبب في هزيمة تكين والظفر به بعد استعلائه

كانت العرب على كثرة عددهم في عسكر الصيمري ينقضون صفوف الديلم ولا يصدقون اللقاء فقال لهم الصيمري: اعتزلوا عنا ولا تدخلوا بيننا وانظروا فإن انهزم واحد منهم فاتبعوه وإن ثبت فدعونا وإياه ما دام ثابتاً واعلموا أنكم إذا قربتم منا واختلطتم بمصافنا بدأنا بكم قبل أعدائنا. ففعلوا واعتزلوا وصبر الفريقان وحمل الأتراك حملات شديدة ثبت لها الديلم ثم وثبوا في وجوه الأتراك فلما ولوا حمل عليهم العرب ووضعوا الرماح بين ظهورهم ونكسوهم فأكثروا القتل والأسر. ثم استأسر جنود تكين الشيرزادي فتقربوا به إلى ناصر الدولة فسمله للوقت وأنفذه إلى قلعة من قلاعه وسار ناصر الدولة وأبو جعفر الصيمري إلى الموصل فنزل الصيمري في الجانب الشرقي بإزاء الموصل ودخل إليه ناصر الدولة وحصل عنده في خيمته وخرج من عنده وعبر إلى الموصل ولم يعد إليه بعدها.

فحكى عن ناصر الدولة أنه قال: لما حصلتُ مع أبي جعفر الصيمري في خيمته ندمتُ وعلمتُ أني قد أخطأت وغررت فبادرت إلى الانصراف. وحكى عن الصيمري أنه قال: لما خرج من عندي ناصر الدولة ندمت على تركي القبض عليه وعلمت أني قد ضيعت الحزم وأخطأت بعد أن فاتني الصواب.

ثم تسلم أبو جعفر الصيمري طازاذ ووهباً وجوهراً وألف كر حنطة وشعيراً وانحدر بهم إلى بغداد مع ابن لناصر الدولة رهينة يقال له هبة اللّه وأدخل ابن شيرزاد بعده بيوم إلى بغداد موكلاً به وصادره معزّ الدولة على خمسمائة ألف درهم ثم حمل ناصر الدولة تكين الشيرزادي مسمولاً إلى معزّ الدولة فأحسن إليه معز الدولة وأطلقه واقطعه إقطاعاً.

وفيها خرج لشكررور بن سهلان في جيش إلى الأهواز ومعه عامل خراج وظهرت الوحشة بين الأمير معز الدولة وبين أبي القاسم البريدي.

وقبض معزّ الدولة على ينال كوشة وكان استحجبه وعلى أرسلان كور وعلى فتح اللشكري وحملهم إلى قلعة رامهرمز.

وفي يوم الأحد لثمان خلون من شوال ضرب الصيمري ابن شيرزاد بحضرته بالمقارع وطالبه بمال المصادرة وانحدر الصيمري إلى الأهواز.

وفيها جرت وقعة بين أصحاب البريدي وبين أصحاب معزّ الدولة فكانت على البريدي وأسر منهم نحو مائتي رجل من وجوه الديلم.

ودخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة

وفيها سار المطيع للّه والأمير معز الدولة إلى البصرة وانتزعاها من يد أبي القاسم البريدي فسارا من واسط في البرية على الطفوف فلما صاروا في البرية ورد على الأمير معز الدولة رسول الهجريين القرامطة من هجر بكتاب منهم إليه بالإنكار عليه في سلوك البريَّة من غير أمرهم إذ كانت لهم فلم يجب عن الكتاب وقال للرسول: قل لهم: «ومن أنتم حتى تستأذنوا في سلوك البرية وكأني أنا أقصدُ البصرة إنما قصدي بلدكم وإليكم بعد فتحي إياها وستعرفون خبركم» وكلام في هذا المعنى فانصرف الرسول. وانحدر أبو جعفر الصيمري وموسى فياذة في الماء فملك مسماران ودخل دار البريدي بها بعد حرب يسيرة ووصل الخليفة والأمير معز الدولة إلى الدرهمية فاستأمن إليه جيش البريدي بأسره وهرب أبو القاسم البريدي إلى هجر وملك معز الدولة البصرة فانحلت الأسعار كلها ببغداد انحلالاً شديداً. وقبض معز الدولة على جميع قوّاد البريدي بالبصرة واستخرج أمواله وودائعه وقبض خزائنه وأحرق كل ما وجد له من آلات الماء من الشذاءات والطيارات والزبازب واستدعى لؤلؤاً من بغداد فقلده أعمال البصرة والحرب. ووصل معز الدولة من البصرة إلى الأهواز ليلقى أخاه عماد الدولة وتأخر الخليفة والصيمري

بالبصرة. وتأخر كوركير عن صحبة معز الدولة من غير مواقفة وقيل إنه في التدبير عليه وعقد الرياسة لنفسه فوجه إليه بأبي جعفر الصيمري فامتنع عليه وحاربه في داره فظفر به أبو جعفر وقبض عليه وصار به إلى معز الدولة فأنفذه إلى القلعة برامهرمز.

ولقي معز الدولة أخاه عماد الدولة فقبل الأرض بين يديه واجتهد به عماد الدولة أن يجلس بين يديه فلم يفعل وكان يتردد إليه كل يوم بالغداة والعشية فيقف ولا يجلس. وقيل للأمير معز الدولة إن عماد الدولة يريد أن يسأله في الإفراج عن رامهرمز وعسكر مكرم فحكى أبو الحسن المافروخي أنه كان مع معز الدولة وكان عماد الدولة ورد أرجان فالتقيا بها قال: فدعاني عماد الدولة وقال: بلغني أنه حكي لأخي أني وافيت إلى هذا الموضع لأرتجع منه بعض أعمال الأهواز. وضرب بيده إلى لحيته وقال: سوءة لها إن أنا تواضعتُ لهذه الحال! من لي حتى احتاج إلى استكثار البلاد وادخار المال له: هذا وأخوه ابناي وإنما أريد الدنيا لهما واللّه ما وافيتُ إلا لأعقد ما بينهما من الرياسة حتى لا يجري خلاف إن حدثت بي حادثة فإني عليل كما ترى وأسأله أن يقدم الكبير على نفسه كما جرت العادة وبارك اللّه له في بلاده ولو أراد بعض فارس لوهبتهُ له ولقد أصبحتُ وأمسيتُ وما مناي على اللّه إلا العافية وسلامتها وإبقاؤهما فإنهما أخواي بالنسب وابناي بالتربية وصنيعتاي بالولايات ومن لي غيرهما فيقدر ما يقدر. قال: فعدتُ إلى معزّ الدولة وحدَّثته بالحديث فبكى وحضر في آخر النهار عند عماد الدولة فأسرف في الشكر والدعاء وتذكر الكلام فبكى بحضرته حتى ضمه عماد الدولة إلى نفسه.

ثم انصرف إلى بغداد وامتدَّ إلى باب الشماسية وقدم الخليفة فنزل بالزبيدية. وأظهر معز الدولة أنه يريد الموصل وكتب عن المطيع للّه كتاباً إلى ناصر الدولة وورد أبو بكر بن قرابة إلى هناك بجواب الرسالة وتردد مرات ثم حمل المال وتم الصلح.

ودخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بوقعة للروم مع سيف الدولة انهزم فيها سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس.

وفيها قبض معزّ الدولة على أصفهدوست وحمله إلى قلعة رامهرمز.

ذكر السبب في ذلك

كان أصفهدوست خال ولد معز الدولة وولد له من أخته الحبشي وكان يكثر الدالة عليه ويقل الهيبة له وكان يزري عليه في كثير من أفعاله وبلغ معز الدولة عنه أنه يراسل المطيع للّه في الإيقاع به وأنه قد استجاب له إلى ذلك فلما كثر عليه ذلك قبض عليه.

وفيها ورد الخبر بأن ركن الدولة هزم العلوي الذي كان بجرجان وطبرستان.

وفيها دخل أبو القاسم البريدي في الأمان إلى بغداد ولقي معز الدولة وقبل الأرض بين يديه وأنزله وأقطعه بمائة وعشرين ألف درهم ضياعاً.

وفيها ورد الخبر بمسير السلار وهو المرزبان بن محمد إلى الريّ طامعاً فيها وفي دفع ركن الدولة عنها فحاربه ركن الدولة وأسره مع ثلاثة عشر قائداً من قوّاده وحمله إلى القلعة بسميرم وحبسهُ فيها وعاد الأمير ركن الدولة إلى الريّ وقد شرحنا أمرهُ على الاستقصاء فيما بعد.

وفيها خرج الأمير معزّ الدولة إلى الموصل ودخلها وجرت مراسلات بين ناصر الدولة ومعز الدولة استقرّ آخرها على أن يحمل عن الموصل وديار ربيعة وديار مضر والرحبة والشام في كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويقيم الخطبة لعماد الدولة ومعز الدولة وبختيار بن معز الدولة وأخذ الفضل والحسين ابني ناصر الدولة رهينة وانصرف إلى بغداد. ولم يكن الصيمري أخذ خط ناصر الدولة بهذه المفارقة وذلك لأن ابن قراتكين غلام صاحب خراسان قصد الريّ واضطرب معز الدولة فبادر إلى بغداد لينفذ منها جيشاً إلى أخيه فعسف أبا جعفر عسفاً شديداً في فصل القصّة. فقال الصيمري تسكيناً له: ارحل إذا شئت فقد أخذتُ الخط بثمانية آلاف ألف درهم. ونما بعض الخبر إلى ناصر الدولة فامتنع على أبي جعفر من بذل الخط وخاف أبو جعفر أن يخبر الأمير معز الدولة بالصورة بعد الاعتراف فلا يقيله العثرة وانحدر إلى بغداد.

فقال أبو محمد المهلبي وكان يخلف الصيمري: قلت لأبي جعفر: بأي شيء تحتج على الأمير إذا طالب بهذا الخط فلم تحضره إياه؟ فقال: أطالب ابن قرابة حتى يكتب خطه عنه فإنه لا يقدر على مخالفتي ثم إن أنكر ناصر الدولة قلت إنه خليفته وما كتب عنه يلزمهُ. قلت: فإن لم يكتب ابن قرابة خطه وهذا مما لا يجوز أن تكرهه عليه؟ قال: نزور على خط ابن قرابة. (وكان ببغداد من بزور على الخطوط عجباً) قلت: فإذا صح رأيك على هذا فلا تطالِب ابن قرابة بكتب الخط فإنه إن امتنع عليك بطل التزوير به ولكن نزور. فزورنا واللّه على خط ابن قرابة ضماناً بثمانية آلاف ألف درهم وخرج الصيمري لحرب عمران ثم حدثت الحادثة من موت عماد الدولة وشخص وكانت كرّته التي ما عاد بعدها. ووافى ابن قرابة وطالبتهُ بالمال فأبى وأريتهُ الخط فجحده وحلف بالطلاق أنه ما كتبه ثم قال: ما أشك أنه خطي ولكن ما كتبته. ثم هذا يا هذا أنا قد شككت فكيف غيري ممن تشتبه عليه الخطوط؟ وأنت تعلم يا محمد أن ناصر الدولة امتنع من كتب الخط علي بن جعفر وأن أبا جعفر خرج وما أخذه وقد أحاطت بي البلوى وليس هذا حقي عليك. فقلتُ: الأستاذ أبو جعفر غائب وكلامك فيه لا يقبل والأمير ينصر وزيره ولا ينصرك ويشهد ونحن معه أن هذا خطك لئلا يبطل ماله ويصير

محصوله مخاصمة وزيره ولكن الرأي أن تقول للأمير: «لما حدث أمر ابن قراتكين وخرج الجيش إلى الري طمع ناصر الدولة وجحد الضمان والوجه مقاربته حتى يصح من جهته بعض المال وإلا بطل الأصل ثم إذا زال هذا الشغل بعد سنة صار الكلام لسنة مستأنفة ويعجل شيئاً يؤخذ منه فإن هذه السنة أصلح فأعاد ذلك على الأمير معز الدولة ودعاني على خلوة وقال لي: أي شيء ترى؟ فقلت: الوجه أن نقارب ونأخذ ومتى تمكنا من قصد الموصل فالضمان معنا ونحن نستوفي تمام الثمانية آلاف الألف الدرهم. قال: فافعل. وقررنا الأمر على ثلاثة آلاف ألف درهم لسنة واستوفيناها. وكان الصيمري لما انصرف من عند ناصر الدولة بالصلح صار ناصر الدولة إلى الموصل وعسف الناس وطالبهم بمال التعجيل.

وفي هذه السنة خرج سبكتكين الحاجب ومعه أكثر الجيش والقرامطة إلى الري مدداً لركن الدولة ثم أتبعه معز الدولة بروزبهان وعليكان وجماعة من الديلم ولحقوا به.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب فيه أن جيش خراسان تحرك فورد الخبر على ركن الدولة وكان ابن عبد الرزاق من كبار أصحاب الجيوش بخراسان إلا أنه كان مستوحشاً من صاحبه فكاتب ركن الدولة بأنه صائر إليه في الجيش الذي معه فاستعدّ له ركن الدولة وأعدّ أصناف الكرامات له. وكاتب أخاه أبا الحسين أحمد بن بويه معز الدولة وأخاه أبا الحسن علي بن بويه عماد الدولة فحمل كل واحد منهما إليه شيئاً كثيراً من المال والدواب والثياب والألطاف فصرفها كلها إليه مع ما أضاف إليه من جهته وذلك بعد أن حضره ووطئ بساطه ورده إلى الدامغان فوصل إليه شيء لا عهد له بمثله وإنما رده إلى الدامغان لئلا يتضايق الري بالعساكر وقيل له: فرّق من الأموال ما ترى على من ترى. ثم استقر الرأي بين الأمراء الثلاثة أعني عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة على تقليد ركن الدولة خراسان والعقد له عليها ليكون محاربته إياهم على الأصل والولاية. ثم وردت الأخبار بحركة المرزبان بن محمد بن مسافر وهو السلار وأنه عازم على قصد الري لمحاربة ركن الدولة مغتنماً ورود جيش خراسان وأنه سيشغله ذلك عنه. فندب عند ذلك معز الدولة سبكتكين الحاجب للمسير إلى ركن الدولة مدداً له بعد أن عظم أمره وفخم شأنه وضم إليه جماهير عسكره وأكابر قواده وفيهم بورَرِيش وروزبهان ومن يجري مجراهما وقطعة وافرة من الأتراك وثلاثة آلاف من شجعان العرب المعروفين فيهم إبراهيم بن المطوّق المعروف بابن البارد وعمار المجنون وأحمد بن صالح الكلابي وطبقتهم وأطلق الأموال وأزاح العلل في الخيل والسلاح وغيرها. وكتب عهد ركن الدولة على خراسان وعقد لواءه وحملت الخِلع إليه معه وخرج بذلك أحد حجاب السلطان مع سبكتكين الحاجب فسارت الجماعة معه

على أتم أهبة. فلما وصل العسكر إلى ظاهر الدينور خلع بورريش الطاعة وأنف من متابعة سبكتكين والمسير تحت رايته وجمع إلى نفسه الديلم الذي في العسكر فاستجابوا له جميعاً وبكروا عليه في غداة غدٍ وهو فيها غافل جالس في خيمة له فغافصوه ورماه بزوبين أثبته في كتفه وولى من موضعه وخرج مجروحاً من تحت ذيل خيمته وركب جنيبة النوبة فبرز إلى الصحراء وتلاحق به غلمانه وسائر الأتراك مع العرب وتمكن الديلم من رحله وسواده فنهبوه ونهب رحل حاجب السلطان الذي معه الخلع فذهبت في النهب. وتحيز الديلم كلهم مع بورريش إلاّ روزبهان ونفراً قليلاً معه فإنهم اختاروا طاعة سبكتكين على طاعة بورريش ومرّ بورريش هائماً على وجهه ورجع عنه الديلم إلى سبكتكين فقبلهم سبكتكين وبسط عذرهم ولم يسيء إلى أحد منهم. وأمر العرب بطلب بورريش فلم يكن بأسرع من أن يوافي به إبراهيم بن المطوق المعروف بابن البارد أسيراً مسلوباً فأقيم بين يدي سبكتكين فخاطبه بما يجري مجرى التشفي وأسمعه القبيح ثم أمر بتقييده ورحل إلى همذان واستأنف تجديد الخلع التي انتهبت حتى أقام العوض عنها ثم تمم المسير إلى حضرة ركن الدولة فوجده نازلاً بباب الري فسلم بورريش إليه فكان آخر العهد به. ولبس الخلع فبرز فيها للناس وقرئ عهده على خراسان بمشهد من القضاة والقواد ووجوه الناس ووافاه المدد من شيراز واستدعى محمد بن عبد الرزاق من الدامغان لمناجزة المرزبان فإنه كان أهم وأولى بالابتداء فلما واقعه ظفر به وأخذ أسيراً كما حكينا في أخباره.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة

وفيها انحدر أبو جعفر الصيمري لمحاربة عمران بن شاهين وكان هذا الرجل من أهل الجامدة وجنى جناية فهرب إلى البطيحة من سلطان الناحية فأقام بين القصب والآجام واقتصر على ما يصيده من السمك قوتاً ثم اضطر إلى معارضة من يسلك البطيحة متلصصاً وعرف خبره جماعة من صيادي السمك فاجتمعوا إليه مع جماعة من المتلصصة هناك حتى حمي جانبه من السلطان فلما أشفق من أن يقصد استأمن إلى البريدي فقلده أبو القاسم الجامدة للحماية والأهواز التي في البطائح فما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوي فغلب على تلك النواحي.

وفيها ورد الخبر بأن ابن قراتكين غلام صاحب خراسان انصرف إلى نيسابور وتفرقت جموعه عنه وبقي وشمكير بطبرستان فسار إليه ركن الدولة يريده فلما قرب منه انصرف بغير حرب وعارضه علي بن سرخاب أحد قواد ركن الدولة فأوقع بسواده واستأمن أكثر أصحاب وشمكير إلى ركن الدولة ودخل ركن الدولة آمل.

وفيها أوقع الصيمري بعمران بن شاهين دفعةً بعد دفعةٍ واستأسر أهله وعياله وهرب عمران بن شاهين واستتر. ثم ورد الخبر بموت عماد الدولة علي بن بويه

فاضطرب الجيش هناك وكتب معز الدولة إلى الصيمري بالمبادرة إلى شيراز لإصلاح الأمور بها فترك الصيمري ما كان فيه من طلب عمران بن شاهين وبادر إلى شيراز. ووافى ركن الدولة إلى شيراز واجتمعا على تقرر الأمور وضبط البلد وإصلاح أمر الجيش فلما استقام الأمر وصلح البلد سلماه إلى الأمير أبي شجاع فنّاخسره بن ركن الدولة وانصرفا عنه.

وكانت علة عماد الدولة التي مات فيها قرحة في كُلاه طالت به ونهكت جسمه ولما مات نفذت كُتب الخليفة بأنه قد نصب أخاهُ الأمير ركن الدولة مكانه وجعله أمير الأمراء. وتغيرت نيّة الأمير معز الدولة على أبي الحسن المافروخي وقبض على أبي محمد علي بن عبد العزيز ابن عمه بالبصرة ثم على أبي الحسن بعده لما عجزا عن ضمان البصرة والأسافل فإن أمرها كان مُشتركاً وكتب إلى أبي جعفر الصيمري وهو بشيراز بأن يُنفذ إليه أبو الفضل العباس بن فسانجس فأنفذه وقلده الدواوين التي كانت إلى أبي الحسن المافروخي ويسألها منه قبل أن يستكتب الأمير معز الدولة أبا محمد المُهلّبي بأسبوع ثم حاول أن يُدخل يده في ديوان السواد ليجري في ديوانه فمنعهُ أبو محمد المهلبي واحتجّ عليه بأن هذا الديوان كان يجري في ديوان الصيمري ثم حاول أن يُدخل يده في ديوان النفقات وكان يتولاّهُ أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وفي ديوان الجيش وكان إلى سهل بن برديشت وفي حساب الخزانة الذي يتولاّه أبو علي الحسن بن إبراهيم الشيرازي فمنعه معز الدولة من ذلك لخصوص هذه الطائفة به وسكونه إليها.

وفيها ورد الخبر بأن كوركير وينال كوشه قتلا الموكلين بقلعة رامهُرمز وكسرا قيودهما وخرج ينال كوشة وهرب فلقيه الأكراد ومانعهم فقتلوه ولم يخرج كوركير ولا فتح اللشكري ولا أرسلان كور ولا أصفهدوست وكتب معز الدولة إلى أبي جعفر الصيمري وهو بشيراز أن يبادر إلى القلعة وحفظها فبادر وكان أصفهدوست عليلاً من قولنج فمات بها. ولما بعُد الصيمري عن عمران وشغل بهذه الأسباب بعد أن لم يبق في أمره شيءٌ تنفّس وخرج من استتاره وعاد إلى أمره وجمع إليه من كان تفرق عنه من رجاله وقوي أمره.

وفي هذه السنة أحس علي بن بويه عماد الدولة بالموت لمخالفة العلل إياه وخاف لِبُعد أخيه عنه وكثرة من في جملته من كبار الديلم أن يطمع في مملكته بعده فاستدعى فناخسره بن ركن الدولة من أبيه ليرشّحه للأمر بعده ويأنس به القوّاد والجيش ففعل ذلك وسار فناخسره بن ركن الدولة إلى شيراز وضم عسكره إليه أبوه حاشيته الثقات ولما قرب من شيراز تلقاهُ عماد الدولة في جمع وأجلسه في داره على السرير وأمر الناس بالسلام عليه ووقف بحضرته لئلا يمتنع أحدٌ فكان يوماً عظيماً مشهوداً ثم عهد إليه بعد ذلك ومات.

ذكر استعمال حزم واستظهار من عماد الدولة قبل موته

كان عماد الدولة يتهم جماعةً من أكابر قوّاده ويعرفهم بطلب الرياسة لأنفسهم وكانوا يرون أنفسهم أكرم منهُ منصباً وأحق بالولاية فنظّف عسكره منهم وقبض على جماعة. فكان ممن قبض عليه شيرنجين بن جليس فخوطب فيه وتشفّع فيه وجوه حاشيته وثقات أصحابه فقال لهم: إني أحدّثكم عنه بحديث فإن رأيتم بعد استماعه إن أطلقهُ فعلت. ثم ابتدأ يُحدّثهم أنه كان بخراسان في خدمة نصر بن أحمد قال: ونحن يومئذٍ في شرذمة من الديلم وكان يجلس نصر بن أحمد للسلام في كل أسبوع مرّتين فجلس ذات يوم وحواليه من مماليكه ومماليك أبيه بضعة عشر آلاف غلام سوى سائر العسكر فرأيت شيرنجين هذا قد جرد دشنيا واشتمل عليه بكسائه فقلت له: ما هذا؟ قال: أريد أن أصنع اليوم ما أذكُر به آخر الدهر. قلتُ: وما هو؟ قال: ادنو كأني متظلم أو طالب حاجةٍ فأقبَل الأرض ولا أزال أدنو حتى إذا وثقت بالوصول إلى هذا الغلام (يعني نصر بن أحمد) فتكتُ به ثم لا أبالي أن أقتل بعده وقد أنفت من القيام بين يدي صبي (وكان لنصر بن أحمد يومئذٍ عشرون سنة وقد خرجت لحيته) فعلمت أنه إن فعل لم يُقتل وحده حتى نُقتل كلنا معه معاشر الديلم فأخذت بيده وقلت له: بيني وبينك حديثٌ. وجمعت عليه الديلم وحدثتهم بما همَّ به وما يجيء علينا كلنا إن تم له ما يُريد فقبضوا على يده وأخذوا منه الدشنى. أفتريدون من بعد أن سمعتم رأيه في نصر بن أحمد إن أمكنه من الوقوف بين يدي هذا الصبي؟ فأمسكوا عنه وقالوا: الأمير أعلم بجيشه. ولم يزل محبوساً حتى توفي في محبسه.

وفي هذه السنة قلّد أبو السائب عُتبة بن عبيد اللّه قضا القضاة.

ودخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بدخول ابن قراتكين غلام صاحب خراسان إلى الري وانصراف من كان بها من أصحاب ركن الدولة وكان ركن الدولة بطبرستان واستولى أصحاب ابن قراتكين على الجبل كله.

وفيها مات أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمري في حُمى حادَّة بالبزبوني من الجامدة لما عاد لمحاربة عمران بن شاهين.

وفيها استكتب معز الدولة أبا محمد الحسن بن محمد المهلّبي ولما ورد الخبر بموت أبي جعفر الصيمري أرجف لجماعة بأن الأمير معز الدولة يستكتبه فمنهم أبو علي الطبري ومنهم أبو علي الحسن بن هارون ومنهم أبو محمد المهلبي واجتمع أبو محمد المهلبي وأبو علي الحسن بن هارون فتحالفا على أن من صح له الأمر منهما كان لصاحبه

على مودة ومشاركة. وسعى أبو علي الطبري وكان رجلاً أمياً في أول أمره نخَّاساً يبيع الرقيق فخطب كتبة الأمير أبي الحسين مكان أبي جعفر الصيمري وبذل مالاً فأطمعه معز الدولة فيما قدَّر وتقدَّم إليه بحمل المال فحمل إلى الخزانة مالاً فلما صح المال عدل عنه إلى أبي محمد المهلبي فقلده كتابته وتدبير أعمال الخراج وجباية الأموال وخلع عليه لذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من جمادى الأولى. وزوج أبو محمد المهلبي ابنته من أبي علي الحسن بن محمد الأنباري الكاتب واستخلفه بالحضرة وانحدر إلى الأهواز.

ذكر السبب في اختيار معز الدولة أبا محمد المهلبي وإيثاره إياه على وجوه الكتاب من الحضرة وغيرهم مع وفور عدد الكفاة يومئذٍ

سبب ذلك أنه وجده جامعاً لأدوات الرياسة وكان لا يجمعها غيره وإن كان فيهم من هو أرجح كتابة وأيضاً فقد أَنِسَ به على طول الزمان وأنه خلف الصيمري على الوزارة فعرف غوامض الأمور وأسرار المملكة وكان الباقون لا يعرفون ذلك ولا يخرج إليهم ولا يوثق بهم فيها. وكان مع ذلك حسن الأنباء عن نفسه فصيحاً مهيباً متوصلاً إلى إثارة الأموال عارفاً برسوم الوزارة القديمة سخياً شجاعاً أديباً يفصح بالفارسية فتلافى أكثر ما دارس من رسوم الكتابة واستدرك كثيراً من العمارات وأثار وجوه الأموال من مواضعها فحسنت آثاره. وتوفر مع ذلك على أهل الأدب والعلوم فأحيا ما كان درس ومات من ذكرهم ونوَّه بهم ورغَّب الناس بذلك في معاودة ما أهمل منها. ثم خرج إلى الأهواز فجمع أموالاً كان قد طمع فيها العمال من بقايا وزيادات زادها في العقود عليهم ومن مؤامرات ناظر عليها العمال والضمناء فألزمهم أموالها فاتصلت حموله وظهر فضله على من تقدّمه. ثم انتقل من الأهواز إلى البصرة فكان أثره فيها أوفر وإثارته للأموال منها أكثر كما سنذكر بعضه.

وفي هذه السنة ورد الخبر بأن سيف الدولة غزا وأوغل في بلاد الروم وفتح حصوناً كثيرة من حصون الروم وسبى عدداً فلما أراد الخروج من بلد الروم أخذ الروم عليه الدرب الذي أراد الخروج منه فتلف كل من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً وارتجع السبي الذي كان سباه وأخذ سواده وكُراعه وخزائنه وأمواله وسلاحه وغنم الروم منه غنيمة لم يروا مثلها وأفلتَ في عدد يسير.

وفيها خرج الحاجب سبكتكين إلى همذان مدداً لركن الدولة فلما دخل قرميسين أسر من كان بها من أصحاب ابن قراتكين.

وفيها رد القرامطة الحجر الأسود إلى موضعه من البيت الحرام بمكة وكان أخذه

أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنَّابي من البيت الحرام وكان بجكم بذل في رده خمسين ألف دينار فلم يرُدّ وقيل: إنَّا أخذناه بأمر وإذا ورد الأمر برده رددناه. فلما كان في ذي القعدة من هذه السنة كتب إخوة أبي طاهر كتاباً يذكرون فيه أنهم ردوا الحجر بأمر ممن أخذوه بأمره ليتم مناسك الناس وحجهم. وكان الذي جاء به أبو محمد بن سنبر ثم سار به إلى مكة ورده إلى موضعه.

ذكر الآثار الجميلة التي أثّرها الوزير أبو محمد المهلبي حتى عمرت الخراب وتوفّر دخلها واتصل الحمل منها بعد انقطاعه

قد كان معز الدولة لما فتح البصرة ودخلها تظلّم إليه الرعية من سوء معاملات البريديين فعرف أكثرها وذلك أن أبا يوسف البريدي خاصَّة تفرَّد بالنظر في أعمال البصرة وجباية أموالها فرسم لأبي الحسن بن أسد الكاتب أن يُطالب ملاّك الأرضين التي يؤخذ منها حقُّ العشر (وتعرف بصدقات أراضي العرب) بالبصرة عن كل جريب من الحنطة والشعير عشرين درهماً وإنما فعل ذلك بسبب زيادة الأسعار بالبصرة وأن الكُر بالمعدّل من الحنطة بلغ بها مائتي دينار ولم يُستعمل ذلك إلا على تدريج. فلما قتل أبو عبد اللَّه البريدي أخاهُ أبا يوسف أقرَّ ابن أسد على العمل وأجرى الناس على ذلك الرسم. وكانت العمارة تنقص في كل سنة لأجل جور البريديين وعُمَّالهم وهم يُطالبون بالعبرة فنقص مال العبرة عن جربان العمارة فزاد ذلك ما يلزم كل جريب في السنة على ما كان يلزمه في السنة التي قبلها. وكان قد قحط أهل البصرة بالمحاصرات التي لحقتهم فالزموا أن يزرعوا تحت النخل حنطة وشعيراً فلما فعلوا الزموا عن كل جريب أربعين درهماً فقصروا في العمارة فجعل ما كان يرتفع عبرة عليهم واستوفى من ملاّك أرض العشر فتهارب الناس فزاد ذلك على من بقي. فلما تقلد أبو محمد المهلبي وزارة معز الدولة ودخل البصرة وتظلّم إليه أهل البصرة من العبر التي جُعلت عليهم في أرضي الحنطة والشعير فوعدهم بكل ما أنسوا به. ثم قرر أمرهم على أن يردّوا إلى رسمهم القديم في أخذ العُشر حبًّا بعينه من غير تربيع ولا تسعير ونظر فيما بين ذلك وبين ما يؤخذ منهم على تقريب فأشار على أرباب العُشر أن يبتاعوا فضل ما بين المعاملة على الظلم والمعاملة على الإنصاف بثمن يرغب فيه معز الدولة عاجلاً فيسهُل عليه ما ينحط من الارتفاع مع ما يتعجَّل له من المال ثم يضاف إلى ذلك ما يثمّره العدل وموقعُهُ من قلوب الناس مع الرجاء في المستقبل لزيادة الارتفاع. فاستجابوا وتقرر الأمر بينهم على ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم وكتب لهم بذلك وثيقة ثم حط من الجميع عن الضعفي مائتي ألف درهم وكتب إلى معز الدولة بأن في ذلك حظاً عاجلاً وصلاحاً ووفوراً في ارتفاع الناحية في المستقبل فحسن موقع فعله من معز

الدولة فأمضاه. وحضر البصريون فاشهدوا على المطيع لله بالبيع وسجّلوا بالابتياع ونسب المبتاع إلى فضل ما بين المعاملتين في العبر فعمر الناس وتضاعف الارتفاع للسلطان وزال عن البصرة تلك الرسوم وصار يرتفع عن المراكب ما يعدل ألفي ألف درهم فكان هذا من الآثار الجميلة لأبي محمد المهلبي.

وفي هذه السنة ورد الخبر بشغب جرى في عسكر الحاجب سبكتكين وأن القرامطة انصرفوا عنه مع الأتراك بعد أن أوقع بهم ركن الدولة.

ذكر السبب في ذلك

كان الاجتهاد شديداً في استصلاحهم لأنهم كانوا بإزاء حرب فلما تعذر قال ركن الدولة: هؤلاء أعداء معنا في عسكرنا وهم أشد علينا من أعدائنا الذين بإزائنا والوجه أن نحاربهم ونطردهم. فحاربهم وهزمهم فأما العرب فصاروا إلى معز الدولة وأما الأتراك فمضوا إلى الموصل ولما سار ركن الدولة إلى همذان ارتحل ابن قراتكين من الري إلى أصبهان.

وفي هذه السنة واقع أبو محمد المهلبي عمران بن شاهين ومع أبي محمد المهلبي روزبهان فكانت على المهلبي وروزبهان واستؤسر أكثر قوّادهما وقتل أبو الفتح بن أبي طاهر بعد أن استظهر المهلبي واستعلى.

ذكر السبب في ذلك وفي هزيمة المهلبي بعد الاستظهار على عمران

كان السبب في ذلك أن معز الدولة كان عول على روزبهان في محاربة عمران فبنى آلات الماء وأثبت الرجال واحتشد فطاوله عمران وتحصن في مكامنه من البطائح فضجر روزبهان وأقدم عليه طلباً لمناجزته فاستظهر عليه عمران وهزمه وهزم أصحابه وغنم جميع آلاته وسلاحه فقوي بها. وتضاعف طمعه في السلطان وضري أصحابه على جند السلطان واستخفوا بهم فكان بعد ذلك إذا اجتاز بهم الحجاب الكبار المحتشمون والقوّاد والأمراء من الديلم والأتراك سفهوا عليهم وطالبوهم بحق المرصد والبذرقة فإن تأبى عليهم أحد تناولوه بالشتم القبيح والضرب المهين وكان الجند لا يستغنون عن الاجتياز بهم لحاجتهم إلى ضياعهم ومعاملاتهم بالبصرة والأهواز ثم انقطع طريق البصرة إلا على الظهر. فشغل ذلك قلب معز الدولة وكثر بكاء الأمراء والحجاب والقواد بين يديه بما يجري عليهم من الهوان في اجتيازاتهم فكتب إلى الوزير المهلبي بالإصعاد إلى واسط لتلافي الحادثة والتجرد لطلب عمران ومعاودته الحرب وجرد إليه عسكراً جراراً فيه ابن أبي طاهر ووجوه قواده وغلمانه وحمل إليه سلاحاً كثيراً وأطلق يده في إنفاق الأموال فزحف إلى عمران وسد عليه مذاهبه وانتهى إلى مضيق في البطيحة شعب لا

يعرف مسالكها إلا عمران وأصحابه. فأحب روزبهان أن يلحق المهلبي مثل ما لحقه من الهزيمة ولا يستبد بالظفر فأشار عليه بالاقتحام والهجوم وتوثق المهلبي وأراد سد تلك المضايق فأخذ روزبهان في التضريب عليه وعارضه في كل ما دبره ومنعه من هذا الاستظهار وسد الشعب وكتب إلى معز الدولة يستعجزه ويذكر أنه إنما يحجم ويجنح إلى المطاولة ليحتسب بالأموال في النفقات ولم يزل بذلك وشبهه إلى أن وردت كتب معز الدولة بالاستبطاء فترك المهلبي الحزم وركب الخطا وعدل عما يدبره كله ودخل بجميع عسكره هاجماً على عمران وتأخر روزبهان ليصير أول الخارجين عند الهزيمة. وقد كمّن عمران كمناءه في تلك المعترضات وشحنها بالآلات الموافقة لتلك المضايق فخرجوا على العساكر وهم متزاحمون متضايقون في طريق الماء لا يعرفونها فوضعوا فيهم الحراب فقتلوا وأسروا وانصرف روزبهان موفوراً ونجا الوزير المهلبي سباحة وحصل القواد والوجوه في الأسر. فاضطربت الحال إلى مصالحة عمران فقوي واستفحل أمره وأجيب إلى كل ما اقترح.

وقد كنا ذكرنا ورود الخبر بمسير السلار المرزبان إلى الري ووعدنا هناك باستقصاء خبره والآن حين نبدأ بذلك.

ذكر الأسباب التي بعثت السلار المرزبان على قصد الري وما انعكس عليه من تدابيره حتى أسر وحبس في القلعة بسميرم

كان المرزبان أنفذ رسولاً إلى معز الدولة في أمور حمله إياها فورد مدينة السلام وقد رحل عنها إلى البصرة فافتتحها وأقام هذا الرسول منتظراً له إلى أن عاد فأدى إليه الرسالة وكان فيها ما غاظه فتقدم بحلق لحيته ففعل وأسمع نهاية ما كره وانصرف على هذه الحال. فحكى للمرزبان ما جرى عليه فامتعض وأخذ في جمع الرجال والاستعداد ورأى أن يبتدئ بالري فراسل ناصر الدولة سراً يبذل له المعاونة بنفسه وأولاده ورجاله وماله وأشار عليه بأن يبتدئ بقصد بغداد فخالفه وأجابه بجميل وأعلمه أنه يرى الصواب في الابتداء بالري فإن تم له ما يريد طلب بعد ذلك بغداد وغيرها. وكان استأمن إليه من قواد الري علي بن جوانقوله فعرفه نية القواد الذين وراءه بالري وأنهم على المصير إليه فزاده ذلك طمعاً واستدعى أباه محمد بن مسافر وأخاه أبا منصور وهسوذان فلما وافاه أبوه تلقاه وقبل الأرض بين يديه وأجلسه في صدر الدست ووقف بحضرته وامتنع من الجلوس حتى حلف عليه أبوه دفعات كثيرة فجلس وامتنع وهسوذان من الجلوس فلما جنّ الليل خلوا جميعاً وتفاوضوا فلما عرف أبوه صحة عزمه في قصد الري فثأ عزمه

وعرفه أحوالاً توجب الامتناع من قصدها فأبى عليه وقال: قد وردت عليَّ كتب وأكثر القواد هناك مستعدون للانحياز إليّ. فلما كان وقت الوداع بكى أبوه وقال: يا مرزبان أين أطلبك بعد يومي هذا. فقال مجيباً له: أما في دار الإمارة بالري وأما بين القتلى.

وقد كان ركن الدولة حين عرف خبره كتب يستمد من أخويه عماد الدولة ومعز الدولة وخشي أن يعاجله المرزبان قبل ورود المدد فكتب إليه على سبيل المكر والخديعة يعظمه ويستخذي له ويسأله أن ينصرف عنه على شريطة أن يفرج له عن أبهر وزنجان وقزوين. ولم تزل الرسائل تتردد بينهما إلى أن ورد حضرة ركن الدولة بارس الحاجب في ألفي رجل من جيش عماد الدولة وورد سبكتكين الحاجب في ألفي رجل من جيش معز الدولة وكان قد صار إليه محمد بن عبد الرزاق مستأمناً من عسكر خراسان ومحمد بن ماكان مدداً من جهة الحسن بن الفيروزان فلما تناهى استظهاره قبض على جماعة من قواده الذين شك فيهم واتهمهم بمكاتبة المرزبان وسار إلى قزوين في جميع هذه الجيوش. فعلم المرزبان أنه لا طاقة له به ولكنه أنف من الرجوع فعمل على محاربته وكان مع المرزبان يومئذٍ خمسة آلاف من الديلم والجيل والأكراد فحملت ميمنة ركن الدولة وميسرته على ميمنة المرزبان وميسرته فانهزمتا جميعاً وثبت هو في القلب إلى أن قتل بين يديه حموه بلى ووونداسفحان بن ميشكي وأسر علي بن ميشكي المعروف ببُلَّط ومحمد بن إبراهيم وعدة من أكابر قواده وأحاطت الرجال به فأسر وحمله ركن الدولة إلى الري ومنها إلى أصبهان وحمل من أصبهان إلى قلعة سميرم.

فلما انفصل من الري مع جماعة من قواد ركن الدولة وخواصه وكانوا مضمومين إلى الأستاذ الرئيس حقاً أعني أبا الفضل بن العميد رحمه اللّه وكان هو المتولي حفظه والاستظهار عليه إلى أن يحصل في القلعة.

ذكر تدبير تم على المرزبان حتى حصل بأصبهان بعد أن كان واطأ الديلم الذين أخرجوا معه على الفتك بأبي الفضل بن العميد والهرب به

حدّثني الأستاذ الرئيس أبو الفضل قال: لما كنا بين الري وأصبهان تحقق عندي مراسلة الديلم إياه واجتماعهم على أن يأخذوه قهراً ويحلوا قيوده ويفتكوا بي وظهر ذلك حتى كادت المكاشفة تقع. فلما خفت فوت التدبير سايرته وهو في عمارية وحادثته وهو ينتظر في ذلك اليوم أن يتم له ما يريد وجعلت أقاربه وألين له فأظهر التوجع والتألم مما حصل فيه فلما أطمعته في نفسي (وكان لا يطمع في ذلك من قبل) أمال إليَّ رأسه وقال: أنت مقبل فإن كنت صادقاً فابدأ بحل قيودي وعليَّ لك كيت وكيت. وضمن الضمانات التي تبذل في مثل ذلك الوقت قال: فأوهمته أني لا أعرف شيئاً من مواطأة الديلم له وقلت:

أخشى ألاّ يساعدني من معي على ذلك. فقال: غفر اللّه لك أنت لا تعرف الصورة جميع من معك قد عملوا على فك قيودي والفتك بك وأنا أريد ذلك الساعة إن شئت. فقلت: يكفيني أن أثق بذلك ثم أنا أول عبد خدمك وناصحك وتابعك حتى يتم لك ما تريده. وحدثته بأشياء أنكرتها من صاحبي وحقود في قلبي عليه فاستدعى واحداً بعد واحد من القواد الذين كانوا معي وأسر إليهم أني معه وموال له ووصل حديثه معهم بأن أدخلني معهم في التدبير فأظهرت سروراً شديداً بذلك وتواعدنا النزول في المنزل القريب وإتمام التدبير. فلما نزلنا وضربت خيمتنا وخركاهاتنا وحصل في موضعه راسلني وأخلاني بنفسه ثم قال لي: ابعث إلى فلان وفلان (يعني جماعة ممن يثق بهم) حتى يحضروا. فقلت: أيها السلار إن ههنا تدبيراً يجب أن تسمعه فإن وقع بوفاقك وإلا فما تأمر به ممتثل. فقال: وما هو. فقلت: إن حرم ركن الدولة وأولاده وخزائنه كلها بأصبهان وأنا وزيره وثقته والمتولي للجميع فلو امتددنا على صورتنا هذه حتى لانتهم لتمكنت من القبض على الجميع وحصلنا في مدينة عامرة نتمكن فيها من التدبير ومع ذلك فإن حرم جميع القواد بأصبهان وكذلك أولادهم فإذا قبضنا عليهم لم يبق في واحد منهم فضل لمحاربتك واستسلم الجميع لك وانهدّ جانب ركن الدولة انهداداً لا انجبار له وتمكنا أيضاً من قلاعه وذخائره وأخرجناها ولم يكن له بقية وإن نحن عاجلنا الأمر وخرجنا من هذا المكان طلبنا الخيول وأحدقت بنا ولم نأمن مع ذلك تقرب بعض من هو الآن معنا إلى تلك الجنبة ونحن في عدة يسيرة وحوالينا أصحابه ورجاله ولا نثق بالسلامة إلى المأمن. قال: فرأيته قد تهلل وجهه ولم يملك نفسه لما استخفه من السرور وقال: ليس الرأي إلا ما رأيت. قلت: فإني منصرف عنك فراسل أنت كل من واطأك على رأيك الأول بما حدث لك من الرأي. قال: نعم. وقمت عنه وليس عنده شك في حصول الملك له بمواطأتي وأنه قد أقبل جده وتمت سعادته بتمام تدبيري وشاع في أصحابه ومن كان واطأه أنا في تدبير فسكنوا بعد أن كانوا هموا بما هموا به. وسرت آمناً حتى حصلت بأصبهان فلما تمكنت من الرجال والتدبير بدأت بالقبض على أولئك القواد واستظهرت على المرزبان بثقاتي حتى حصلته في القلعة بقيوده.

ذكر ما جرى في أمر عسكر المرزبان في آذربيجان بعد حصوله في الأسر

اجتمع من أفلت من عسكره وقوّاده وفيهم جستان بن ثيرمزن وعلي بن الفضل وشهفيروز بن كردويه وجماعة من الرؤساء مع ألفي رجل من الفلّ إلى الشيخ محمد بن مسافر فعقدوا له الرياسة عليهم وصاروا إلى أردبيل فملك آذربيجان وهرب ابنه وهسوذان منه وتحصن في قلعته بالطرم لما كان يعرفه من حقده وسوء رعايته. فلم تأت الأيام على محمد بن مسافر حتى تجبر وعاد إلى أسوأ أخلاقه مع الديلم فاجتمع الديلم على الوثوب به فشغبوا وهموا بقتله فالتجأ بالضرورة إلى ابنه وهسوذان وعنده أنه يعصمه فقبض عليه

وحبسهُ في قلعة شيسجان التي كان فيها وضيق عليه فلم تنبسط له يدٌ ولا نفذ له أمر حتى توفي وكانت وفاته قبل خلاص ابنه المرزبان من قلعة سميرم. وقلد ركن الدولة محمد بن عبد الرزاق أعمال آذربيجان بعد أسر المرزبان وأنفذه إليه فتحير وهسوذان في أمره واضطرّ إلى إخراج ديسم بن إبراهيم من القلعة لطاعةِ الأكراد إياه ولرياسته القديمة على آذربيجان فأطلقهُ وخلعه عليه وقوّاهُ ومكنه ووافقه على جمع أكراد آذربيجان ومن يطيعه من غيرهم ويقصد محمد بن عبد الرزاق. وكان الديلم بعد محمد بن مسافر اجتمعوا إلى علي بن الفضل ورأسوهُ فتوسط وهسوذان بينهما حتى أطاعهُ علي بن الفضل وتم أمره وسار ديسم إلى أردبيل واستكتب أحمد بن عبد اللّه بن محمود وورد ابن عبد الرزاق فانحاز عنه إلى ورثان من نواحي برذعة ليستخرج الأموال وترد عليه عساكر الأكراد.

ذكر خطأ ديسم في إيحاش وزيره حتى فارقه وثلمه فهزمه عدوه

كان بنواحي خوَيّ وسلماس كاتب نصراني يعرف بابن الصقر من جهة المرزبان قبل أسره فلما بلغه خبر ديسم صار إليه وحمل إليه ما كان جباهُ فحسن موقعهُ من ديسم فأكرمه وبالغ في إكرامه حتى صار يخلو به ويشاوره فاستوحش وزيره ابن محمود واتقاه. فلما استعدّ ديسم للقاء ابن عبد الرزاق سلم إلى ابن محمود خزائنه ونقله وأمره بالمصير إلى جبال موقان للتحصن بها استظهاراً إلى أن ينكشف الأمر فتسلم ابن محمود ذلك كله وعدل إلى أردبيل وأرسل ابن عبد الرزاق بأنه صائر إليه وسأله أن يستقبله بطائفة من عسكره ففعل ذلك ووقع ذلك من ابن عبد الرزاق أحسن موقع. وفتَّ في عضد ديسم وبلغه ذلك يوم القتال فضعفت نفسه واضطرب رأيه وتبين ذلك منه أصحابهُ فاضطربوا واستظهر عليه ابن عبد الرزاق فهزمه.

ودخلت سنة أربعين وثلاثمائة

وفيها لحق ركن الدولة بابن قراتكين غلام صاحب خراسان وواقعه بروذبار من خان النجان سبعة أيام متوالية فانهزم ابن قراتكين وذلك في المحرم من هذه السنة.

قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه صاحب هذا الكتاب: أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة فهو عن مشاهدة وعيان أو خبر محصل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته وذلك أن مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد رضي اللّه عنه خبرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبره وما اتفق له فيها فلم يكن أخباره لي دون مشاهدتي في الثقة به والسكون إلى صدقه ومثل أبي محمد المهلبي رحمه اللّهٍ خبّرني بأكثر ما جرى في أيامه وذلك بطول الصحبة وكثرة المجالسة. وحدّثني كثير من المشايخ في عصرهما بما يستفاد منه تجربة وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذكره منه وما

شاهدته وجربته بنفسي فسأحكيه أيضاً بمشيئة اللّه.

فحدّثني الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد رضي اللّه عنه عن هذه الوقعة وأنا أحكي أولاً السبب في ورود ابن قراتكين.

ذكر السبب في ورود ابن قراتكين الري

كان ركن الدولة عند وفاة أخيه عماد الدولة بنواحي جرجان وذلك أنه قصد وشمكير وهزمه وتبعه إلى جالوس فلما بلغه وفاة أخيه اضطرب وجزع وعلم أن فارس ستضطرب على ابنه فسارع إلى المسير إليها لتوطئة الأمور وانصرف إلى الريّ فاستخلف بها علي بن كامه واتسع خناق أعدائه ببعده عن ممالكه وكل حدّث نفسه بأمرٍ. وكتب ركن الدولة إلى معز الدولة بما عزم عليه ومما كان من وفاة أخيهما فكتب معز الدولة إلى وزيره أبي جعفر الصيمري وهو يومئذٍ مُنازلٌ لعمران بن شاهين بالبطائح بأن يُخلي ما هو بسبيله ويصير إلى فارس لخدمة ركن الدولة ففعل وسبق وصوله وصول ركن الدولة فحُسن موقعُ ذلك من ركن الدولة. فلما وصل إلى شيراز ابتدأ بزيارة قبر أخيه بباب اصطخر فمشى حافياً حاسراً ومشى أهل عسكره وعسكر فارس على تلك السبيل ولزم المصيبة ثلاثة أيام إلى أن خاطبه الرؤساء وسألوه أن يرجع إلى المدينة ففعل وأقام ستة أشهر. وأنفذ نصيباً من تركة عماد الدولة إلى أخيه معز الدولة وكان في جملتها مائة وسبعون غلاماً ومائة وقر من السلاح ثم ما يجري مجرى ذلك من الثياب والآلات واقتطع من أعمال فارس أرجان وهي كورة من كوَر فارس إلى أعماله وخلّف وزيره هناك وانقلب إلى الريّ. وحدّت أطماعُ من ذكرت وامتدّت إلى الريّ والجبل وأصبهان وتسرّبت العساكر إليها فمن ذلك مسير صاحب جيش خراسان إلى الري ومعه محمد بن ماكان من جهة الحسن بن الفيروزان وسار شيرج بن ليلى من قبل وشمكير ثم جمهور عسكر خراسان وكان أبو الحسن علي بن كامه قد انحاز إلى أصبهان وتفرق قوّاد عسكر ابن قراتكين في ولايات أعمال الجبل وكان منهم بهمذان ينال قام وفي كل بلد من بلدان الجبل مثله. وكان ركن الدولة قد كاتب أخاه معز الدولة وهو بعد بفارس يستدعي من يدفع معرّات هؤلاء فأمدّه بسُبكتكين الحاجب في عسكر ضخم من الأتراك والديلم وفيهم جماعة من الأتراك القدماء التوزونيّة وجماعة من العرب وكان مسيره من بغداد سنة ٣٣٩ فدبَّر سبكتكين تدبيراً جيداً.

ذكر تدبير صواب تمكن به سبكتكين من أول عدوّ لقيه بقرميسين

رأى سبكتكين أن يخلّف عسكره وما ثقل من سواده وينتخب من الفرسان من يثق به ويسري إلى قرميسين وكان فيها قائد من قواد الأتراك الخراسانية يقال له بجكم الخمارتكيني

وكان ينال قام أنفذهُ إلى همذان والياً عليها فكبسه سبكتكين وهو في الحمَّام وأخذه أسيراً وأوقع برجاله وأصحابه وأنفذه إلى معز الدولة فاعتقله مدّة طويلةً ثم أطلقه. ولما بلغ وُلاة أعمال الجبل ما جرى على بجكم هذا فارقوا مراكزهم واجتمعوا إلى ينال قام بهمدان فلما سار سبكتكين نحوهم ساروا من همدان بأجمعهم فلم يحاربوا وورد سبكتكين همذان وأقام بها منتظراً ركن الدولة وذاك أن كُتُب ركن الدولة كانت تردُ عليه أنه يسير من فارس على طريق الجبل ثم تأخر انتظاراً لانحسار الثلوج ثم ورد همذان وتقدم إلى سبكتكين بالمسير على مقدمه. فشغب الصنف من الأتراك التوزونية وأظهروا التضجُّر بالمقام الطويل فتوسط الأستاذ الرئيس أبو الفضل رحمه اللّه بينهم وداراهم وسكّنهم فسكنوا في الوقت ثم عاودوا من الغد وطال ذلك منهم حتى اتهموا. فسمعت أبا الفضل بن العميد رحمه اللّه يقول: إني قلتُ للأمير ركن الدولة: هؤلاء أعداؤنا وقد كاشفونا فكيف نسير بهم إلى أعدائنا؟ فاتفق الرأي بيننا أن نُسكّنهم فإن سكنوا وإلاّ حاربناهم وفرغنا من العدو الأقرب فلما عملنا على ذلك عملوا على الحرب فأوقعنا بهم ومضوا مفلولين وسبق خبرهم إلى معز الدولة فكتب إلى ابن أبي الشوك الكردي وسائر وجوه الأكراد المقيمين في أعمال حلوان بطلبهم والإيقاع بهم ففعلوا ذلك وطلبوهم وأسروا منهم وقتلوا فأما الأسارى فأنفذهم إلى بغداد وأما الفلّ فصاروا إلى الموصل بحال سيئة.

وأقام ركن الدولة بهمذان لتعرُّف خبر ابن قراتكين إلى أن صح عنده مسير ابن قراتكين من الريّ نحو همذان فبثَّ جواسيسَهُ وطلائعه لتعرُّف خبره فأتاهُ الخبر بأنه عدل عن سمت همذان وأخذ على طريق يؤدّي إلى أصبهان فسار ركن الدولة في أثره يقفوهُ حتى انتهى إلى جرباذقان ووصل ابن قراتكين إلى أصبهان فعاث بها عيثاً كثيراً مدة ما أقام ثم عرف قُرب ركن الدولة منه فسار إلى طرف مفازة بقرب من أصبهان فنزل منها على زرين روذ ليكون وصول ركن الدولة إليه مع عسكره. وقد قطعوا المفازة ومسَّهم التعب والعطش ولا يصلون إلى الماء فرأى ركن الدولة أن يعدل إلى خان النجان ليلزم سمت قُرى زرين روذ ولا يعدم الماء واتصل ذلك بابن قراتكين فانقلب عن موضعه معترضاً له لئلا يملك عليه ظهره فالتقيا في الموضع المعروف بالروذبار وبينهما زرين روذ ولكنه يُخيض ولا يمنع الراجل ولا الفارس العبور وذاك أن الفصل كان ضيقاً. فدامت الحرب بينهما سبعة أيام واشتدت في اليوم السادس خاصة ثم انهزم ابن قراتكين في اليوم السابع.

وعاد الحديث إلى حكاية أبي الفضل بن العميد رضي اللّه عنه عن هذه الوقعة حكى أنه لحقه وركن الدولة وسائر الجيش من الإضاقة وعوز الميزة والعلوفات وتعذر جميع الأقوات ما لم يلحقها مثله وذاك أن الأكراد أحدقوا بنا فلم يتمكن أحد من اطلاع رأسه عن المعسكر وانقطعت عنا المواد وكنا نصل إلى أقواتنا مما تحمله الأكراد إلينا

ويبيعوناه بأوفر الأثمان وكذلك العلوفات فكان يجيئنا الكردي بجراب أو مخلاة أو وعاء فيه دقيق فيبيعناهُ بحكمه فإذا أخذناه ونفضناه وجدنا قدر الدقيق فيه مقدار ما رأيناه في رأس الوعاء وأسفله كله تراب ثم يختلط ذلك القدر اليسير بالتراب فلا ينتفع بشيء منه وكذلك يفعل بالشعير والحنطة وكانت لهم حِيل تجري هذا المجرى كثيرة قال: فكنا ننحر الجمل أو الدابة فنتوزع لحمه بين عدد كبير ونتبلغ به على عادة الديلم وصبرهم على المجاعة والشدة في الحرب وكان أعداؤنا الأتراك في مثل حالنا إلا أنهم لا يصبرون كما نصبر ولا يقنعون بما نقنع فإذا ذبحنا نحن جزوراً ذبحوا أضعافاً كثيرة ثم إن أصحابنا يعودون إلى نشاطهم في الحرب ويتسخط أولئك ويشغبون على صاحبهم ولا يناصحونه في الحرب إلى أن ملوا. وأصبحنا يوماً وقد رحلوا من معسكرهم فتركوا خيمهم بإزائنا وأتانا الخبر برحيلهم فما صدقنا به حتى عبر عنا جماعة وتلاهم العسكر أولاً أولاً وأشفقنا أن يكون لهم كمين أو مكيدة فلم يكن إلا هزيمة وذهبوا على وجوههم.

ذكر خبر عجيب واتفاق غريب

حكى الأستاذ أبو الفضل بن العميد نضر اللّه وجهه أن ركن الدولة دعاه في اليوم السابع وقد نفذ صبره وصبر أصحابه: وشكا إليَّ شدة الأمر وصعوبته عليه وكأنه يفكر في حيلة للانهزام وإن كانت متعذرة عليه فقلت: أيها الأمير إنك كنت منذ أسبوع مالك أكثر تملك سرير الخليفة فينفذ أمرك في أكثر بلاد الإسلام ومن لم يكن من الملوك في سائر الأرض تحت أمرك وولايتك فهو أيضاً تحت حكمك حشمة لك يقبل أمرك تجملاً ويطيعك تهيباً وقد أصبحت اليوم وأنت لا تملك من الأرض إلا ما عليه مضربك وقد اجتمع عليك هؤلاء الأعداء ليغصبوا عليه ويمنعوك منه ولا مفزع لك إلا إلى اللّه عزّ وجلّ فأخلص نيتك له واعقد عزيمتك على ما بينك وبينه تعالى يطلع على صدقها ويعرف صحتها وانوِ للمسلمين خيراً ولكافة الناس مثله وعاهده على ما تعمله وتفي به من الأعمال الصالحة والإحسان فيما تلي إلى من تلي عليه فإن الحيل البشرية كلها انقطعت بنا ولم يبق لنا إلا هذا الذي نصحتك به. قال فتبسم وقال: يا أبا الفضل قد سبقتك إلى ما أشرت به. وجرى في هذا الباب ما يجري مثله من النذور وصدق النية. وبتنا تلك الليلة على حالنا فلما كان في الثلث الأخير من الليل جاءتني رسله متقاطرة فصرت إليه وهو مسرور قوي النفس بخلاف ما عهدته وقال: يا أبا الفضل أنت تعرف مناماتي وصدقها وقد رأيت ما أرجو أن يكون تأويله قريباً غير بعيد. قلت: وما ذاك. قال: رأيت كأني على دابتي المعروف بفيروز وقد انهزم عدونا وأنت تسير إلى جانبي وتذكر لي نعمة اللّه علينا فيه وأن الفرج جاءنا من حيث لا نحتسب فبينا نحن في هذا الحديث وشبهه حتى مددت عيني بين غبرة الموكب إلى الأرض فرأيت خاتماً يتلألأ قد سقط إلى الأرض عن صاحبه بين التراب

فقلت للركابي الذي بين يدي «يا غلام هات ذاك الخاتم» فتطأطأ ورفعه إليّ فإذا خاتم فيروزج فأخذته وجعلته في أصبعي السبابة وتبركت به وانتبهت وقد تفألت به وأيقنت بالظفر (وذاك أن الفيروزج معناه الظفر إذا عُرب وكذلك لقب دابته الذي رآه فيروز). قال أبو الفضل بن العميد رحمه الله: فوالله ما أضاء الصبح حتى جاءنا الخبر والبشرى بأن العدو قد رحل فما صدقنا به ولا التفتنا إليه حتى تواترت الأخبار وعبر سرعان الخيل وعادوا إلينا مستبشرين فقمنا حينئذٍ وركبنا متعجبين لا نعرف سبب هزيمته حتى عبرنا على حذر من كمين أو مكيدة فبينا نحن نسير وأنا إلى جانب ركن الدولة وقد تعمد ركوب دابته فيروز ليصدق رؤياه إذ صاح الأمير بغلام بين يديه «يا غلام ناولني ذلك الخاتم» فتطأطأ وناوله من الأرض خاتم فيروزج فأخذه ولبسه في سبابته والتفت إلي وقال: هذا بلا تأويل هو الخاتم الذي حدثتك بحديثه منذ ساعة. فهذا من طرائف الأخبار ولولا صدق محدثه وجلالة قدر من حكاه لي وبعده عن التزيد لما سطرته في كتابي هذا.

وفيها تم الصلح بين معز الدولة وبين عمران بن شاهين وقلده معز الدولة البطائح وأطلق إخوته وعياله وأطلق عمران بن شاهين من استأسر من القواد وغيرهم.

فأما ابن قراتكين فإنه عاود حرب الأمير ركن الدولة وجرت بينهما وقائع عظيمة بناحية الري ومات ابن قراتكين فجأة وكان سبب وفاته أنه كان شرب أياماً متوالية بلياليها فأصبح يوماً ميتاً وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

وفيها انهزم صاحب عمان من باب البصرة من بين يدي أبي محمد المهلبي وأسر جماعة من أصحابه وأخذت عدة من مراكبه ودخل أبو محمد المهلبي بغداد ومعه المراكب والأسارى.

ودخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة

وفيها ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وأحرقوا مساجدها.

وفيها ضرب الأمير معز الدولة أبا محمد المهلبي بحضرته بالمقارع وحمله إلى داره وأقره على كتابته.

ذكر السبب في ذلك

كان السبب في ذلك أن أبا محمد المهلبي لما خرج إلى عمان وأنفق في ذلك الوجه ما أنفق ثم انهزم تنكر له معز الدولة وهم بالقبض عليه فلما حدث بالري ما حدث من ورود جيش خراسان إليها شغله ذلك عما في نفسه منه. وكان ورد أبو العباس الحناط إلى الحضرة برسالة ركن الدولة يطالب بمال يحمل إليه فدفعت الضرورة إلى مكاتبة الوزير المهلبي وهو بواسط قد وافاها منهزماً وأمر بالعدول إلى الأهواز وتسليم

ألف ألف درهم إلى أبي العباس الحناط من القلعة ورد العوض مما يستخرجه وأن يواصل الحمل إلى الحضرة ويسرب الجيوش إلى الأهواز على طريق أصبهان إلى الري فنفذ لذلك كله وفي نفس الأمير معز الدولة عليه ما فيها. فلما أصعد المهلبي إلى الحضرة أثر في أمر يوسف بن وجيه صاحب عمان أثراً كبيراً وذاك أنه كان قصد البصرة فسبقه أبو محمد المهلبي إليها وحاربه وهزمه وأسر أصحابه وأخذ مراكبه كما ذكرنا.

ذكر السبب في طمع ابن وجيه في البصرة ثم انهزامه منها

كنا ذكرنا ما كان من استيحاش القرامطة من معز الدولة ومن جوابه إياهم عن رسالتهم واستخفافه بهم فلما عرف ابن وجيه ذلك كاتبهم وأطمعهم في البصرة وسألهم أن يمدوه من ناحية البر فأمدوه بأخيهم أبي يعقوب في سرية قوية فورد باب البصرة وأنهض ابن وجيه رجاله في مراكبه من ناحية البحر ونهض هو بنفسه. ووافق ذلك فراغ المهلبي من الأهواز فبادر إلى البصرة وأخرج معه من القواد والرجال والزبازب والطيارات وآلات الماء كفايته وشحنها بالرجال وأزاح عللهم في الجيش والسلاح وأنفذ إليه معز الدولة مدداً من بغداد. وكان المهلبي رتب على سور المدينة بالبصرة الرجال يحمونه وجمع إلى نفسه وجوه القواد مثل نشكرورز بن سهلان وموسى فياذه وموسى بن ماكان وأشباههم من وجوه الناس وطبقات الغلمان وحارب ابن وجيه أياماً ثم هزمه وظفر المهلبي بمراكبه ورجاله وأسر جماعة من وجوه أصحابه فخف بذلك بعض ما كان في قلب معز الدولة وانجلى هم كثير كان في نفسه.

فلما قدم بغداد تلقاه معز الدولة وجاملَهُ مُديدة ثم وقف على طازاذ مال من ضمانه له قدر وكان سُبّب عليه للأتراك والمهمات فردّ التسبيبات وطالب أصحاب المال باستحقاقاتهم وأضجر ذلك معز الدولة فطالب أبا محمد المهلبي وهزّ المهلبي طازاذ فاستسلم وأظلمت القصة. فدخل المهلبي إلى معز الدولة فصدقه عن الصورة فاغتاظ من جريته في الأمر وأثار ما كان في نفسه منه فزبره وطرده من بين يديه وأمره ألاّ يعود إليه إلا بعد أن يستدعيه فانصرف كئيباً. وحرك بطازاذ فصحح له مالاً ونهض إلى الأمير مُعجّباً له من طازاذ بغير استدعاء من الأمير له فلما حصل بين يديه وأخبره بالصورة بطش به وضربه مائة وخمسين مقرعةً ترازح منها ثم أمر بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبّخه ويبكّته بذنوبه منذ استخدامه ثم يعيد عليه الضرب إلى أن تفسّخ وثقل وقيل له إنه كالتالف وأراد أن يرمي به إلى دجلة ثم تماسك ورده إلى منزله ووكل به. وفي اليوم الثاني استدعى طازاذ أيضاً وضربه وعمل على صرف المهلبي فلم يرتض خدمة أحد ممن كان بحضرته في الوقت فترجّح رأيه وصعّد وصوّب فلم يقم أحد مقام أبي محمد وكان أبو محمد المهلبي شهماً قويّ النفس لا يتحرّك لشيء من نوائب الدهر فعمل عملاً

يشتمل على ثلاثة عشر ألف ألف درهم باقية في الممالك والأعمال وأنفذه إليه وذكر أنه يقيم باستخراجه وأنه إن تمادت الأيام في التوكيل به تمزّقت وطمع فيها فشاور معز الدولة من حضره وكان فيهم أبو مخلد عبد اللّه بن يحيى وقال: هل يجوز أن أستنيم إلى هذا الرجل وقد لحقه مني هذا المكروه العظيم؟ فقال أبو مخلد: قد ضرب مرداويج وزيره أبا سهل أعظم من هذا الضرب ولحقه ما لحقك من السوء عنه ثم خلع عليه ورده إلى أمره وكان لا يطيق المشي لما حل به من الضرب فركب عماريّة ونثر عليه في الطريق مال ولا يمكنه أن يستقلّ بالجلوس وبقي كذلك مدة ثم عاود مرداويج الإنكار عليه فنكبه وأتى على نفسه. فعند ذلك راسله معز الدولة بالركوب إليه إذا استقل وأزال عنه التوكيل فتجلد المهلبي وركب بعد أيام يسيرة فخلع عليه وعاد إلى أمره.

وكان معز الدولة حديداً سريع الغضب بذيّ اللسان يكثر سبَّ وزرائه والمحتشمين من حشمه ويفتري عليهم فكان يلحق المهلبي رحمه اللّه من فحشه وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه فيحتمل ذلك احتمال من لا يكترث له وينصرف إلى منزله وكنت أنادمه في الوقت فلا أرى لما يسمعه فيه أثراً ويجلس لأنه نشيطاً مسروراً حتى لقد سمعت أبا العلاء صاعد بن ثابت وكان يخلفه ويأنس به يعاتبهُ ويقول في عرض كلامه: إن الأمير إذا اتصل به أنسك وقلةُ اكتراثك لغضبه وما يلحقك من شتيمته نسبك إلى الاستهانة به فيزيد ذلك في ضرره عليك فإن أظهرت الانخزال والاستكانة حتى يبلغهُ تحرُّمُك وانقباضُك كان أحرى أن يقصِّر ويندم ولا . . . .[1] معك وغضهِ منك. فقال له أبو محمد المهلبي: ما يذهب عليّ ما تقول ولكن هذا أمير خِرقٌ عجول لا يملك لسانه فإن ذهبتُ أظهرُ الاستيحاش من هذياناتِه وقع له إني قد تنكرت له وإني لا أناصحه وأنه يتهمني بما لا يدور في فكري فيكون سبباً لجائحة ونكبة وليس له غير التغافل والتبسم في وجهه إذا أمكن فإن لم يكن ذلك خوفاً من غضبه فليس إلا قلة الفكر فيه فكان الأمر على ذلك.

وحدثني أبو بكر بن أبي سعيد رحمه اللّه أن معز الدولة وقت مقامه بالبصرة وهزيمته للبريدي افترى على المهلبي وذكر جرمهُ وأفحش عليه وكان المافروخي حاضراً فلما انصرفنا من عنده قال لي المافروخي: قد ساءني أن أجري هذا الفحش القبيح بحضرتي على الوزير فكيف الطريق إلى تسليته؟ (وإنما أراد ألاَّ يتهمه بالشماتة ولا يراه بعين من علم استهانة الأمير به) فقلتُ: الإمساك في مثل هذا أولى من الكلام. فأمسك أياماً لا يركب إليه إلا مع الناس وقت الأذن ثم اتفق إن دخل المافروخي وأنا معهُ لمهم فوجدناه واجماً مطرقاً فقال المافروخي: أرى الوزير واجماً فهل تجدّد أمرٌ؟ فقال: ويحك إني أرى الأمير منذ أيام قد أمسك عما كان يتعاهدنا به من برّه بلسانه وأخاف أن يكون

(١) في الأصل كلام غير مقروء

مشغول القلب بطارق تطرقه وأنا مفكرٌ في ذلك. قال أبو بكر بن أبي سعيد: فلما خرجنا من عنده قال لي المافروخي: هل رأيت أدهى من هذا الرجل وأذكر منه؟ فقلت: لا.

وفيها خرج أبو مخلد وأبو بكر عبد الواحد بن أبي عمرو الشرابي حاجب الخليفة المطيع للّه إلى صاحب خراسان في الصلح بينه وبين أمراء بني بويه وكتب معهما كتاب عن الخليفة.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة

وفيها مات أبو الفضل العباس بن فسانجس بالبصرة وقلد الديوان بعده أبو الفرج محمد ابنه وأجرى على رسم أبيه.

وفيها ليلة الجمعة للتاسع من جمادى الآخرة ولد الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن معز الدولة بطالع السنبلة.

وفيها وافى أبو سالم ديسم بن إبراهيم الكردي منهزماً من آذربيجان هزمه السلار المرزبان وهو الذي حكينا أن ركن الدولة أسره وحبسه في قلعة سميرم فاحتال حتى فكّ قيدُه وقتل صاحب القلعة وخرج منها وسنحكي حيلته هذه فيما بعد. وعاد إلى آذربيجان واجتمع إليه من كان مع ديسم من الديلم وانصرف ديسم عنها وصار إلى الحضرة مستجيراً بمعزّ الدولة ومستنصراً فأكرمه معز الدولة جداً ووقع منه وأنس به وعاشره وحمل إليه مالاً وثياباً وكان يسميه في كتبه «الأخ أبو سالم».

ذكر السبب في خروج ديسم عن آذربيجان بعد تمكنه منها وانهزامه من بين يدي المرزبان

كنا ذكرنا خبر ابن عبد الرزاق وتمكُّنه من آذربيجان من قبل ركن الدولة واتفق أن أوحش كاتباً له كان صحبه من خراسان واعتمد لوزارته ابن محمود لخدمته إياه بالأموال قديماً ولخبرته بالبلدان فاستوحش الكاتب وتركه إلى أن أشخصه لجباية الأموال في نواحي ديسم وضم إليه جيشاً فلما وجد الفرصة كاتب ديسماً وهرب إليه بذلك الجيش كله. فنفرت نفس ابن عبد الرزاق من آذربيجان وعاد إلى الريّ وأخذ معه ابن محمود وسار ديسم إلى أردبيل واستأذنه الكاتب الخراساني في العود إلى بلده فأذن له وأحسن إليه بالخلع والجوائز. ودبّر أمرَهُ أبو عبد اللّه النعيمي وابن الصقر النصراني وتوافر إليه الديلم والأكراد فملك آذربيجان وبلادها وجبى الأموال وأعطى البلاد له باليد فتمكن من نَشَوا ودبيل وكان عليهما الفضل بن جعفر الحمداني وإبراهيم بن الضابي على سبيل التغلب فصلحت حاله وانتظمت. واتفق إن مات ابن الصقر النصراني فوصل من تركته إليه مائة ألف درهم سوى ما أغضى عنه وهو شيء كثير فتفرّد النعيمي بوزارته. ولم يزل

أمره منتظماً إلى أن شره إلى مال النعيمي وطمع فيه فقبض عليه ونصب في موضعه كاتباً له يقال له علي بن عيسى فاحتال النعيمي إلى بذل خطّه بكلّ ما اقترحه عليه ولم يُحالفه وسلك سبيل المداراة ثم قال له: إن رددتني إلى العمل وسلمت إليّ خليفتي عليّ بن عيسى صححتُ لك من جهته وجهتي سوى مال الموافقة ألف ألف درهم. فشرهت نفسه إلى ذلك ورده إلى موضعه وقبض على عليّ بن عيسى وسلمه إليه.

وكان المرزبان بن محمد في تلك الأيام قد ملك القلعة التي حبس فيها بسميرم وقتل الموكل به وهو شيراسفار وكان أيضاً قد أفلت علي بن ميشكي المعروف ببُلكا المأسور معه من حبس ركن الدولة وصار إلى الجبل وجمع جمعاً كثيراً وكاتب الديلم الذين كانوا مع ديسم واستمالهم وسار حتى قرب من وهسوذان أخي المرزبان فكانا جميعاً يدبران على ديسم. ثم وصلت كتب المرزبان إليهما بخلاصه من القلعة وكاتب سائر الديلم بآذربيجان وليس عند ديسم من الخبر كله إلا خبر علي بن ميشكي وظنّ أنه وحده يقاتله. فلحق بأردبيل ابن أخت له يقال له غانم مضموماً إلى وزيره النعيمي ومستوفياً عليه المال الذي ضمنه عن نفسه وعن علي بن عيسى خليفته وسار على اغترار بمن معه من الديلم فوجد النعيمي الفرصة لما كان في نفسه وأفسد غانماً على خاله ديسم وقتل علي بن عيسى بالمكروه العظيم واستأمن إلى علي بن ميشكي واحتمل معه كل ما قدر عليه من المال. وبلغ الخبر ديسماً فعاد إلى أردبيل بعد أن كان بلغ إلى زنجان وشغب الديلم عليه فأخرج كل ذخيرة له من الصياغات وغيرها وتوجه إلى برذعة على سبيل النزهة والصيد وهو يظن أن خصمهُ علي بن ميشكي وليس عنده خبر المرزبان. وكان أنفذ إلى أرمينية من يوطّئ له نيات ملوكها من ابن الديراني وابن جاجيق وأخيه حمزة وابن سباط وغيرهم ليلجأ إليهم أن حزبهُ أمر وورد عليه خبر علي بن ميشكي بتوجهه إلى أردبيل مع عدَّة يسيرة ثقة بأن الديلم الذين مع ديسم سيستأمنون إليه فانكفأ ديسم إلى أردبيل ووقعت الحرب فقلب الديلم تراسهم في وجهه وانحازوا إلى ابن ميشكي سوى جستان بن شرمزن فإنه أخلص مودة ديسم فقبض الديلم عليه وانهزم ديسم في نفر من الأكراد إلى بلد الأرمن فحمل إليه ملوكها ما تماسك به. وورد عليه خبر المرزبان هناك في مسيره عن قلعة سميرم التي كان محبوساً فيها وحصوله بأردبيل وتسلُّمه القلاع والأموال وإنفاذهُ علي بن ميشكي في جيش لطلب ديسم فلم يمكنه المقام فهرب إلى الموصل ثم صار إلى بغداد وذلك في سنة ٣٤٢ فتلقاهُ معز الدولة وأكرمه ورتبه في أعلى مرتبة وقضى حقه وواصل إليه المبارّ والألطاف وبذل له خمسين ألف دينار إقطاعاً في كل سنة على أن يقيم بحضرته فأقام مديدة في أطيب عيش وأرخى بال فكان يقول ذلك لكتابه وأسبابه ويقول: أرغد عيش لي وأهناهُ أيام مقامي ببغداد.

ثم كاتبه أسبابه من آذربيجان بما اغترّ به فنزع إلى الإمرة والاستبداد فرحل من بغداد وزوده معز الدولة مالاً كثيراً وثياباً ودواب ومراكب فسار إلى الشام زائراً سيف الدولة في طريقه ثم انقلب من عنده إلى أرمينية وقصد ابن الديراني وابن جاجيق لثقته كانت به وأنه كان أودعه ذخيرة له وكتب المرزبان إليه يلزمه القبض عليه فدافعه ثم اضطر إلى أن أطاعه في القبض عليه وسأله ألا يلزمه تسليمه إليه فأجابه المرزبان إلى ذلك فأوقع ابن الديراني الحيلة على ديسم حتى قبض عليه وحصله عنده فلما فعل ذلك كتب إليه المرزبان يلزمه حمله إلى حضرته ناقضاً الشرط فدافعه مدة ثم اضطر إلى تسليمه فحبسه عنده ثم سمل عينه فلما توفي المرزبان قتله بعض أسبابه خوفاً من غائلته.

ذكر حيلة المرزبان على صاحب قلعة سميرم وما تم عليه حتى أفلت من موضعه وعاد إلى مملكته بآذربيجان

لما حصل المرزبان في القلعة امتنع من الطعام والشراب خاصة اللحوم وما أشبهها واقتصر على القوت اليسير من الحنطة التي يستظهر منه أيضاً فبلغ خبره ركن الدولة فأمر أن يوصل إليه طباخه الذي يثق به ليتولى له ما كان يتولاه من المأكل والمشرب فحصل الطباخ في القلعة معه وأخذ المرزبان في تدبير الخلاص على يده. وكان الطباخ خفيفاً أحمق وظهر منه ما في نفسه وعرف خبره شيراسفار صاحب القلعة فرمى به من قُبلة القلعة فهلك وضيق على المرزبان. وكانت والدة المرزبان خراسويه بنت جستان بن وهسوذان الملك تبذل الأموال في تعرّف أخباره وتحتال في خلاصه وكان إبراهيم المعروف بابن الضابي (وقد تقدم ذكره) في حبس ديسم فتخلص معه ولم يجد مفزعاً الأخراسوية فقصدها ولاذ بها وضمن لها أن يتوصل إلى المرزبان فأطلقت له مالاً وأنفذته. وكانت المراغة بها رجل يعرف بتوبان يصارع ويقامر ويدخل في كل منكر فطلبه أصحاب الشرط بها فخاف وهرب من المراغة وقصد خراسويه وضمن لها السعي لها في أمر ابنها فطمعت في جلادته وأطلقت له مالاً وعرَّفته خبر ابن الضابي وأنه نفذ قبله فاجتمعا ولبسا لباس التجار وأظهرا الستر والدين والورع ولزما فناء القلعة وراسلا شيراسفار وعرّفاه أنهما تاجران وأنهما كانا فيما مضى يعاملان المرزبان وأنه أخذ بضائعهما وأمتعة التجار وسألاه أن يجمع بينهما وبين المرزبان ليتنجرا كتبه وعلاماته بإزاحة علتهما فيما يستحقانه وتستحقه التجار عليه وواصلا الدعاء له وعلى المرزبان وأكثرا لعنه وشتمه وكانا يقولان: الحمد للّه الذي كفى الناس شر هذا الظالم الذي لا يعرف اللّه ولا يؤمن بنبيه ﷺ. وما أشبه هذا حتى رق شيراسفار لهما وأوصل واحداً واحداً منهما إليه من غير اجتماع فقال المرزبان: لا أعرفهما. فأغلظا له وواجهاه بالقبيح وخوفاه باللّه وسوء العاقبة وقال: إني لا أعرف حسابهما ولكني أكتب بأن يحاسبا. وكثر

ترددهما إليه فضمت والدته إليهما وصيفاً الديلمي للتنقب وكان في عسكر السلطان قديماً ورجلاً آخر يعرف بأبي الحسن بن جني وجماعة من أهل الطرم على هيئة التجار وحملوا الألطاف إلى شيراسفار وأسبابه وإلى بواب القلعة وكانوا يشترون منهم الحوائج ويعدونهم إلى أن يصلوا إلى أموالهم وبضائعهم أنهم يبذلون لهم أموالاً جليلة وفي خلال ذلك يبكون ويشكون ظلم المرزبان وعدوانه وكانوا يصلون إلى المرزبان فرادى ويوصلون الكتب ويتنجزون الأجوبة ويدسون إليه في خلال ذلك الدنانير الكثيرة ليبذلها وينفقها فيما يحتاج إليه.

وكان لشيراسفار الموكل بالقلعة غلام أمرد وضيء الوجه يحمل ترسه على مذهب الديلم فأظهر المرزبان عشقاً له ومحبة مفرطة فكان يعطيه سراً الشيء بعد الشيء ويعده إن هو تخلص بأمور عظيمة وولايات كبار حتى طمع الغلام وواطأه على كل ما أحب وأوصل إليه درعاً في زنبيل فيه تراب وعدة سكاكين وأوصل إليه شموعاً فيها مبارد واجتمع معه على وجوه الحيل. وأظهر أولئك القوم الذين كانوا في زي التجار النسك والتأله والخشوع فصاروا يصلون إلى باب القلعة ويوصلهم البواب واحداً واحداً إلى أن تمت الحيلة بموافقة هذا الغلام للأسير سراً وكان اتفق معه على يوم بعينه إذا دخل إليه شيراسفار يناوله الترس والزوبين الذي لصاحبه إذا استدعاه منه ووافق بعض أولئك التجار أن يكونوا مع البواب ليفتكوا به إذا صاح بهم. فلما كان في ذلك اليوم وصل إليه توبان وكان أجلدهم وجلس آخر مع البواب ليفتك به إذا سمع الصوت وجلس الباقون قريباً من الباب ليدخلوا عند التمكن فلما صار إليه شيراسفار على رسم كان له وكان المرزبان قد برد مسمار قيده على مر الأيام ولبس في ذلك اليوم درعهُ والتف بكسائه وكان يخاطب شيراسفار قديماً ويسأله أن يطلقه ويعده المواعيد العظام فيمتنع عليه شيراسفار ويقول: لا أخون ركن الدولة أبداً ولكن أساعدك على كل ما يخفف عنك غير هذا الباب. فلما كان في ذلك اليوم عاد المرزبان في مسألته وكان توبان حاضراً فقال لهم توبان: باللّه إلا خلصتموني من الديون عليكم ثم عودوا لشأنكم. فقال المرزبان لشيراسفار: قد أطلت عنائي. ونهض من موضعه وقد أخرج رجله من القيد وبادر إلى الباب فتسلم الترس والزوبين من الغلام ونهض شيراسفار ليتعلق به فوثب توبان إليه وعاركه وصرعه ثم وجاهُ بسكين كان معه حتى قتله وصاح المرزبان اشتلم على عادة الديلم فوثب الرجل الذي كان في الدهليز على البواب فقتله ودخل القوم الذين كانوا بالقرب فأحدقوا بالمرزبان وكان منغمساً في دم شيراسفار. وكان الموكلون في القلعة على تفرق ولعب بالنرد فتداخلهم العرب واجتمعوا وطلبوا الأمان فجمعهم المرزبان في بيت وأخرج حرم المقتول شيراسفار وحرم الجماعة ثم طلب سلاح القوم الذين في

البيت فملكه ثم أخرجهم من القلعة وتوافى إليه الرجال حتى خرج ولحق بمأمنه.

وفي هذه السنة تم الصلح بين ركن الدولة وابن محتاج بعد حروب كثيرة على باب الري ومنازلة ثلاثة أشهر وانصرف ابن محتاج إلى خراسان.

ذكر السبب في ذلك

كان استمد وشمكير على عادته صاحب خراسان فأمده بأبي علي بن محتاج في جموع كثيرة وتوجهوا إلى الري وظنوا أنه الاستيصال وأنه لا ثبات لركن الدولة ولا بقية له وجاء وشمكير على ثقة بذلك فعلم ركن الدولة أنه لا يقوم لهؤلاء الجمع الكثير إلا بالمطاولة والتحصن بحيث يكون القتال من وجه واحد فجعل بلد الري خلفه وحارب في الموضع المعروف بطبرك فدامت الحرب وصبر الفريقان إلى أن قرب الشتاء ومل الخراسانية فلم يصبروا وخافوا أيضاً سقوط الثلج عليهم فأخذوه في العتاب والتراسل ورق أمر الحرب. وكان الواسطة من قبل الخراسانية أبو جعفر الخازن وهو صاحب الكتاب المعروف بزيج الصفائح وله تقدم في علوم الرياضة ومرّ بينهما كلام كثير انتهى إلى الموادعة والصلح.

فأشير على ركن الدولة بأن يجهز على الجرح ولا ينفس عن خناق عدوه فإنه إنما جنح للسلم عن ضرورة وقد نفد صبره وماله وشغب عليه جنده «ووراءك بلدة مثل الري وأنت وادع جامّ بها» ولم ير له أحد من نصحائه أن يجيبهم إلى الصلح وذاك أن النكول كان قد ظهر فيهم. فلم يقبل ركن الدولة هذا الرأي من أحد على سداده ووضوحه ولو صدقهم بصدمة يصدمهم بها لأتى عليهم واللّه أعلم بعواقب الأمور فقبل الصلح وشق ذلك على وشمكير وبلغ منه مبلغاً عظيماً وذلك أنه كان لا ينتظر ولا يرجو أن يجمع أكثر مما جمع ولا يحتشد أكثر من هذا الاحتشاد. فلما انصرف ابن محتاج طلب ركن الدولة وشمكير فانهزم من بين يديه ولم يقف فاتبعه حتى أخرجه من طبرستان وجرجان وحصل بأسفرايين. وكتب إلى نوح بن نصر يعرفه ما جرى ويغريه بابن محتاج فاغتاظ نوح وتحرك منه ما كان في نفسه على ابن محتاج فعزله من الجيش ببكر بن مالك وأنفذه في جيوش عظيمة فصار ذلك سبباً قوياً ضرورياً لمكاتبة أبي علي بن محتاج ركن الدولة وعدوله إلى طاعته بعد أن أصابه في نفسه وأسبابه وأحواله مكاره عظيمة أزالت ثقته بصاحبه وثقة صاحبه به ولم يبق بينهما حال يرجى معها الصلاح.

وكتب الخليفة في هذا الصلح كتاباً نفذ على يد ابن أبي عمرو الشرابي حاجب الخليفة وأبي مخلد عبد اللّه بن يحيى صاحب معز الدولة واتفق موت نوح قبل أن يؤدي الرسالة والكتاب وقعد مكانه عبد الملك بن نوح. ولما قدم أبو مخلد من خراسان عائداً ومعه أبو بكر عبد الواحد بن أبي عمرو الشرابي اعترضهما ابن أبي

الشوك الكردي من الشاذنجان وكان متقلداً أعمال المعاون بحلوان وإليه الحماية والطريق وأظهر الخدمة وخرج معهما مبذرقاً بهما ثم غدر فنهبهما ونهب القافلة التي كانت معهما وأسر أبا مخلد وأفلت أبو بكر عبد الواحد بن أبي عمرو الشرابي فطالب ابن أبي الشوك معز الدولة بإطلاق رهائنه ووعد أنه إن أطلقوا أطلق أبا مخلد فضمن له ذلك وأطلقوا وأطلق أبا مخلد ثم خرج الحاجب سبكتكين إلى حلوان للإيقاع بالأكراد فدخل حلوان وقرر أمر الأكراد وابن أبي الشوك وعاد.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة

وفيها خرج أبو سالم ديسم من بغداد وذلك لما يئس من نصرة معز الدولة.

ذكر السبب في يأس ديسم من نصرة معز الدولة إياه

سبب ذلك أن ركن الدولة صالح المرزبان بن محمد السلار وصاهره وتمكن سلار من آذربيجان فانصرف ديسم من حضرة معز الدولة وودعه وظن أنه يجد عند ناصر الدولة عوناً فقصده وأقام عنده بالموصل مدّة ثم مضى من عنده بعد اليأس منه إلى سيف الدولة أخيه وأقام علته أيضاً مدة.

وفي هذه السنة قصد أبو علي بن محتاج ركن الدولة للضرورة التي ذكرناها وجاء على طريق جبل ونَداز هُرمز فاستقبله ركن الدولة وبالغ في إكرامه وأضافه وجميع من معه وأقام لهم الأنزال الواسعة والتمس ابن محتاج عهداً يُكتب له من جهة الخليفة على خراسان فكوتب معز الدولة في ذلك فتكفل له حتى فعل.

وفيها وصل رسول ابن محتاج إلى بغداد ولقي معز الدولة فاحتشد له احتشاداً كثيراً وأوصله إلى الخليفة حتى عقد لأبي عليّ على خراسان وقلده إياها مكان نوح بن نصر وسلم إليه العقد والخلع وضم إليه أبا مخلد وأبا بكر بن أبي عمرو الشرابي وأنفذ معهم معز الدولة أبا منصور لشكرورز نجدة لأبي علي بن محتاج ومُعاونة له على نوح فلما كان بعد مدّة ورد كتاب أبي علي بن محتاج بأنه قد خطب لأمير المؤمنين المطيع للّه بنيسابور ولم يكن خُطب له إلى هذه الغاية في شيء من بلدان خراسان وذكر في كتابه صحة موت نوح. وورد الخبر بأن نوحاً لما حضرته الوفاة كان بحضرته ابن مالك وهو أحد قواده الكبار فغلب على الأمور وعقد الأمر لعبد الملك بن نوح في ولاية خراسان وتقلد هو رئاسة الجيش مكان أبي علي بن محتاج. وسار يطلب ابن محتاج وانفل عن ابن محتاج رجالهُ وعادوا إلى صاحب خراسان وبقي أبو علي في مائتي رجل من أصحابه سوى من ضم إليه من الديلم فاضطر إلى الهرب من بين يدي ابن مالك. وورد خبره من الدامغان بأنه صائر إلى ركن الدولة مستجيراً به فقبله ركن الدولة أحسن

قبول وأقام عنده بالريّ. ونزل ابن مالك بنيسابور وتتبع أسباب ابن محتاج.

وفيها صُرف الأبزاعجي عن الشرطة ببغداد واعتقل وصودر على ثلاثمائة ألف درهم وقلد الشرطة مكانه تكينك نقيب الأتراك وقد كان طولب قبل صرفه بأربعين ألف درهم على أن يقرّر في عمله من الشرطة ووعد بإقطاع فلم يفعل.

ذكر الرأي الخطأ من الأبزاعجي حتى استمرت عليه النكبة وعظمت بعد أن كانت خفيفة

كان الإبزاعجي منقطعاً إلى أبي علي الخازن فاستشاره وكان أبو علي يعتني به فأشار عليه ألا يلتزم شيئاً ولا يدخل تحت شيء مما يُطالب به وقال له: هذا يطمع فيك ويسير رسماً عليك فإن امتنعت انحسم الطمع فيك وفيما بعده. فقبل رأيه فأداه ذلك إلى النكبة وما أراد به أبو علي إلا الخير ولكنه أخطأ الرأي كما يخطئ الإنسان ولما أدى هذا المال وانصرف إلى منزله قبض أيضاً عليه ونُكب نكبة ثانية وسُلّم إلى تكينك فجرى عليه مكروه عظيم وصودر على مائتين وخمسين الفاً فأدّاها.

وفيها دخل ركن الدولة إلى جرجان ومعه أبو علي بن محتاج بغير حرب وانصرف وشمكير عنه ودخل خراسان.

وفيها خُطب بمكة والحجار لِركن الدولة ومعزّ الدولة وبختيار وبعدهم لابن طغج وذلك بعد حرب جرت بين أصحاب معز الدولة وبين المصريين وكان أبو علي بن محمد بن عبيد اللّه صاحب الحاج من قبل السلطان بمكة وقاتل وقتل ابن له بين يديه.

ودخلت سنة أربع وأربعين وثلثمائة

وفيها عقد معز الدولة لابنه أبي منصور بختيار الرياسة وقلدهُ إمرة الأمراء وذلك في المحرم من هذه السنة وكان سبب ذلك أنه عرض لمعز الدولة علّة يقال له فريافسمس وهي علة الإنعاظ الدائم ويكون معه وجع شديد مع تواتر القضيب وكان معز الدولة خواراً في أمراضه فأوصى وقلد ابنه كما حكينا إمرة الأمراء.

وبلغ عمران بن شاهين أن معز الدولة قد مات واجتاز به مال يحمل إلى معز الدولة من الأهواز ومعه كار كبير فيه للتجار أمتعة عظيمة وكان مقدار المال المحمول لمعز الدولة مائة ألف دينار وما للتجار أضعاف ذلك. فمد عمران يدهُ إلى المال والكار على رسمه في مثل ذلك فأخذ الجميع وقبض على المزعبل ملاح معز الدولة الذي كان مع المال فصادره وضربه ضرباً عظيماً ودهقه إلى أن أزمنه ثم أنفذ إليه معز الدولة أبا الحسين الكوكبي نقيب الطالبيين برسالة إلى أن رد المال وذهبت أمتعة التجار وانتفض الصلح وتأدى الأمر إلى الوحشة.

وكان الحاجب سبكتكين أخرج إلى شهرزور في جيش كثير ومعه عرادات ومنجنيقات فأقام مدة عليها ولم يمكنه فتحها واتفق أن جيشاً ورد من صاحب خراسان إلى الري فاحتيج إلى إنفاذ سبكتكين إلى ركن الدولة مدداً له فانصرف من شهرزور ولم يصنع شيئاً.

وفيها ورد ابن ماكان اصبهان وكان مسيره إليها على طريق المفازة من خراسان فهجم هجوماً واضطر أبو منصور بويه بن ركن الدولة وعيال ركن الدولة وجميع أصحابه أن يخرجوا على وجوههم إلى خان النجان ومنها إلى الرباط على أقبح صورة واستولى ابن ماكان على أصبهان. وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد رفع اللّه درجته بأرجان فبادر مع قطعة من العرب ونفر يسير من الديلم كانوا معه فوجد ابن ماكان قد تبع أبا منصور بويه بن ركن الدولة ومن معه من الحرم فلحق سواده وملك خزائنه وتخلص الأمير بويه والحرم علي. وقد أشرف هو والحرم على الفضيحة والأسر فلحقه الأستاذ الرئيس فعارض ابن ماكان ودافعه بخان النجان فأوقع به واستأسره وبه ضربات وأسر جميع قواده وقتل أصحابه قتلاً ذريعاً. وحمل الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن ماكان وقواده إلى القلعة بالخان ثم صار إلى أصبهان فأوقع بمن فيها من أصحاب ابن ماكان وورد الأمير أبا منصور بويه بن ركن الدولة مع الحرم إلى أصبهان مصونين وتلافى ذلك الخطب العظيم أحسن تلاف.

وكان يحدثني رحمه اللّه بخبر هذه الوقعة مرات فيقول: لما التقينا بالخان انهزم عن أصحابي واشتغل أصحاب ابن ماكان بالنهب والغارة وثبت آنفة فقط من غير رجاء مني في ظفر بل وقفت وقوف المستسلم للقتل والأسر. وذلك أني فكرت في تلك الحالة وقلت «إن انصرفت بنفسي سالماً ومثلت بين يدي صاحبي أي وجه يكون لي عنده وأي لسان يدور بعذر لي بحضرته بعد أن أسلمت أعزته وأولاده وحُرمه بالجملة ملكه!» ونظرت فإذا القتل عليّ في حالتي تلك أهون من هذه الحال التي تصورتها فصرت لأن أقتل كريماً قال فكنت واقفاً وراء خيمة لي بعمودين وأنا أرى أطنابها تقطع وما فيها يخرج ومن يراني لا يظن أني أثبت في ذلك الموضع مع تلك الصورة فبينما أنا كذلك وأصحاب ابن ماكان مشغولون عني بالنهب إذ ثاب إليّ غلامي روين وفلان وفلان وراءهم العرب فثاب منهم جماعة يسيرة فحملت بهم وصاح الناس الكرَّة فقتلنا وأسرنا ولم يفلت أحد ولما كان بعد ساعة من النهار لم يبق من جيش ابن ماكان عين تطرف إلا من أخذ أسيراً وحمل اليَّ ابن ماكان وبه ضربة وبه ضربة في يده وقد تعلق منها اصبعان بجلدة رقيقة شدّها حتى قطعها قال فهو على ذلك بين يدي حتى شق الزحمة إليه مكار أو ركابي فصفعهُ صفعة طنَّ بها الموضع وغاص فلحقني غيظ عظيم وأمرتُ بطلبه

وهممت بالمثلة به وقطع يده فما وُقف له على أثر ولا عُرف له خبر إلى اليوم.

وكان ابن ماكان مع عظم قدره في نفوس الديلم وشدة بأسه محارباً عظيم القوة ورأيت أنا جوشنه وهو رزين جداً يعرض على فتيان الديلم وأشدائهم أن يلبسه فسيتعفي منه لثقله على اليد.

وفي هذه السنة أنجد سيف الدولة ديسماً وعاضده بعض الأكراد فقصد سلماس وملكها وخطب لسيف الدولة بها وكان السلار غائباً بناحية باب الأبواب مشغولاً بقوم خرجوا عليه هناك فلما عاد من باب الأبواب وأصلح أمره هناك وظفر بعدوّه فقصد ديسماً فاستأمن رجالهُ إلى سلاًر وهرب ديسم ومضى إلى ابن الديراني صاحب أرمينية مستجيراً به فقبله ثم غدر به وقبض عليه وقيده وحمله إلى السلار. فيقال إن السّلار سمله ثم قتله وفيها مات أبو علي بن محتاج وابنه بالري في وبأ حدث هناك.

وفيها تم الصلح بين ركن الدولة وصاحب خراسان.

وفيها ورد أبو الفضل القاشاني صاحب ركن الدولة مع ابن أخت ابن مالك برسالة عبد الملك بن نوح صاحب خراسان يلتمس أن ينفذ إليه خلع ولواء على خراسان فعقد له الخليفة اللواء وسلمه مع الخلع إلى ابن أخته الوارد برسالته ورده مع أبي الفضل القاشاني وقاد أيضاً إليه فرساً وأضاف إلى خلع الولاية خلع منادمة.

ودخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة

وفيها خوطب أبو محمد المهلبي بالوزارة وأمر بذلك معز الدولة وخلع عليه وزاد في إقطاعه.

وفيها خرج روزبهان بن ونداذ خرشيد الديلمي على معز الدولة وخرج أخوه المسمى ببلكا بشيراز وكاشفا بالعصيان وفعل مثل ذلك أخوه الآخر أسفار بالأهواز وجاء روزبهان إلى الأهواز وكان بها الوزير المهلبي ليحاربه فاستأمن رجاله إلى روزبهان وانحاز الوزير عنه. وورد الخبر بذلك على معز الدولة فلم يكن يصدق بذلك لشدة ثقته به فإنه هو الذي اصطنعه ونوّه باسمه فكان خاملاً وعظم قدره وكان صغيراً قبل ذلك من رجال موسى فياذه وصغار أصحابه. وأنفذ معز الدولة شيرزيل على مقدمته للحرب واضطرب الديلم بأجمعهم على معز الدولة اضطراباً شديداً وأظهروا أشياء كانت في نفوسهم عليه من العتب والإستبطاء وكاشفوه وواجهوه بكل ما كره وأخذوا يستأمنون. فقلد معز الدولة الابزاعجي الشرطة بواسط وأنفذه إليها وفي يوم الخميس لخمس خلون من شعبان خرج معز الدولة من داره ببغداد متوجهاً إلى قتال روزبهان وزاد الأمر في استئمان الديلم إلى روزبهان. وخرج الخليفة المطيع للّه منحدراً إلى معز الدولة وذلك

أن ناصر الدولة لما بلغه خبر روزبهان وما عمله هو وإخوته حدث نفسه ببغداد فوجه بابنه أبي المُرجَّى وآخر من أولاده إلى بغداد وبلغ ذلك معز الدولة فرد الحاجب سبكتكين من واسط لضبطها وكتب إلى مسافر بن سهلان وكان بنهاوند متقلداً لها يأمره بالتعجل إلى بغداد لمضامة الحاجب سبكتكين ببغداد. فشغب الديلم المقيمون ببغداد لطلب أرزاقهم فبعث إليهم مسافر وسبكتكين ولشكرورز ووعدهم بالمال فسكنوا وكان مسافر نزل في أعلى القطيعة وخرج سبكتكين الحاجب فنزل بباب الشماسية وهم على قنوط من معز الدولة. ومنع معز الدولة جميع الديلم من العبور لقنطرة أربق معه لما رأى من استئمانهم إلى روزبهان ووكل بالقنطرة من يمنعهم من عبورها قلة ثقة بهم وخوفاً من أن يغدروا به ويشوشوا باقي عسكره لأنه كان ينفق فيهم فإذا قبضوا النفقات صاروا إلى روزبهان من فورهم فما عبر معه من الديلم إلا ليلى بن موسى فياذه وشيرزيل ابن وهرى والحسن بن فناخسره فقط.

وكان اعتماد معز الدولة على غلمانه الأتراك فحارب روزبهان يوم الاثنين انسلاخ شهر رمضان نهاره كله إلى أن سقط القوم ثم حمل بنفسه في غلمان داره وحضهم بأن قال: يا أولادي قد ربيتكم تربية الأولاد فأروني غناءكم الساعة. فحملوا معه حملة الصبيان الأغمار فلم يردهم شيء وانهزم روزبهان وأصحابه وأسر روزبهان وبه ضربات وأسر كوركير وفتح اللشكري وأرسلان كور.

شرح صورة هذه الحرب على سياقة من شاهدها

استوحش الديلم من منع معز الدولة إياهم من العبور فاجتمعوا عليه وقالوا له: إن كنا رجالك فأخرجنا نقاتل بين يديك فإنا لا نصبر أن نجلس مع الصبيان لحفظ سوادك ونرى الأتراك يقاتلون عنك فمتى ظفرت بعدوك خرجنا من المحْمدة ومتى ظفر عدُّوك فلحقنا العار والسبَّة. وكأنهم سلكوا في هذا الكلام مسلك الحيلة لِيُطلق لهم العبور فيتمكنون من كسر عسكره والاستئمان إلى عدوه فسألهم التوقُّف وقال: إنما أريد أن أشام القوم ولا أناجزهم فيما فعلت بالأمس فإذا كان في غد باكرناهم بأجمعنا على تعبية واستعناً بالله وناجزناهم. وكان يدرّ عليهم النفقات ويواصل العطايا ويكثر المداراة فامسكوا عنه وعبر معز الدولة وعبّى غلمانه كراديس تتناوب في الحملات إلى وقت غروب الشمس فهناك فشل الأتراك وانقطعت حيلهم وفني نُشّابهم وشكوا إلى معز الدولة وقالوا: ليس فينا فضل وقد أمسينا فنستريح الليلة وتفرق فينا النشاب ونباكرهم الحرب. فعلم معز الدولة أنه إن رجع عن هذه الحالة زحف روزبهان والديلم وثار من خلّف وراءه من أصحابه الديلم الذين كان يتهمهم فلا يمكنه الهرب وكان الهلاك فبكى بين أيدي غلمانه وكان سريع الدمعة ثم سألهم أن تجمع الكراديس كلها ويحملوا وهو في

أولهم فإما أن يظفروا وإما أن يُقتل أول من يقتل فطالبوه بالنشاب فقال: قد بقي مع الغلمان الأصاغر نشّاب فخذوه وتوزعوه وكانت عدة من الغلمان الأصاغر تحتهم الخيل الجياد العتاق وعليهم الجُبب والتجافيف وكانوا سألوا معز الدولة أن يأذن لهم في الحملة نوبة في الكراديس فلم يأذن لهم وقال لهم: إذا كان الوقت الذي يصلح لكم ما سألتم اذنتُ فيه. فوجّه إليهم بنقيب وأومأ بيده أن اقبلوا ما يقول النقيب ليأخذ النشاب منهم فلم يشكوا أنه إنما أومأ اذناً لهم فيما كانوا يسألونه ووعدهم به فحملوا وهم مستريحون. كذلك خيلهم فصدموا صفوف الديلم فكسروا بعضهم فوق بعض وصاروا من ورائهم وحمل معز الدولة فوضع فيهم اللتوت فكانت إياها وكتب بالظفر إلى بغداد.

فورد على الديلم المقيمين ببغداد ما أدهشهم ولم يصدّقوا به وقدّروا أنه أرجف بذلك ارجافاً فكانوا يستهزئون استهزاءً ظاهراً ويقولون «نعم كانوا دجاجاً وضع عليهم مكبّة فما أفلت أحد» وكانت نفوسهم اشرأبت إلى روزبهان فلما صح عندهم الخبر ضعفت نفوسهم وانخذلوا. وأسرع معز الدولة الانصراف ليلحق بغداد قبل ورود أصحاب ناصر الدولة إليها فدخل بغداد يوم الجمعة لاثني عشرة ليلة بقيت من شوال ودخل داره ثم سار في يومه ذلك في الماء إلى معسكر الحاجب بباب الشماسية في زبزب ومعه روزبهان في زبزب آخر مكشوفاً ليراه الناس وكوركير في زبزب آخر واجتمع الناس على الشطوط فدعوا له وعلى روزبهان. وقد كانت العامة محبين لأيام معز الدولة وذلك لماكان منه في سد بثق نهر الرفيل وسد بثق بادوريا فإنه خرج بنفسه حتى سد هذا البثق وحمل التراب بنفسه في برّكة قبائه حتى فعل جميع العسكر مثل فعله وسد ذلك البثق ثم خرج إلى النهروانات فسد بثقابها وكانت النهروانات قد بطلت وكذلك بادوريا فلما سد بثوقها عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم فمالت العامة إلى أيام معز الدولة وأحبوه.

ومضى الأمير معز الدولة ممتداً إلى عسكره بقطربل وكان أبو المُرجّى وأخوه قد وصلا إلى عكبرا ووصلت خيولهما إلى البركان فلما بلغهما قدوم معز الدولة وما جرى على روزبهان انصرفا من عكبرا إلى الموصل وتبعهما الحاجب سبكتكين فلم يلحقهما لإغذاذهما السير.

وحبس روزبهان بالصراة في حصن كان هناك فكان الديلم يحدّثون أنفسهم بكبس موضعه وإخراجه وأشار أبو العباس مسافر على معز الدولة بقتله فأبى وكره ذلك إلى أن قال جماعة من ثقاته: إنك إن لم تبادر إلى قتله أخذه الديلم غصباً وزالت الدولة وذهبت أرواحنا. فأخرج حينئذ بالليل وغُرّق في سُميريةً أسفل دار الخليفة وورد الخبر بعد ذلك بظفر الأستاذ ابن العميد ببلُكَّا أخي روزبهان وردّه الملك على أبي شجاع فناخسره بن

ركن الدولة. فانطوى ذكر روزبهان وأخويه بعد أن اشتعل اشتعال النار وانحاز إليه وإلى أخيه بلُكًا الديلم وظنوا أنهم قد نقلوا مُلك بني بويه ولله الأمر من قبل ومن بعد، ثم إن معز الدولة أسقط الديلم الروزبهانية وقبض على جماعة من قواده وأعرض عن سائر الديلم وأقبل على الأتراك واصطنعهم وكتب بالفتح إلى الأمصار.

ودخلت سنة ست وأربعين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بموت السلار المرزبان بآذربيجان في شهر رمضان وكانت وفاته بفساد المزاج فلما يئس من نفسه أوصى إلى أخيه وهسوذان على أن يكون الرياسة له ثم من بعده لابنه جستان وكان قد تقدم إلى أصحاب قلاعه الموكلين بحفظها أن حدث عليه حدث الموت ألا يسلّموها إلا الى جستان ابنه فإن حدث به حدث الموت فإلى ابنه إبراهيم فإن مات فإلى ابنه ناصر. وكان له ولد رابع يقال له كيخسره فلم يذكره لصغره وقال «فإن لم يبق من هؤلاء أحد فسلموها إلى أخي وهسوذان» ولما وصى إلى أخيه وصيته هذه عرّفه علاماته التي بينه وبين أصحاب قلاعه فأنفذ وهسوذان بعلاماته وخاتمه إلى المرتبين في القلاع في تسليمها إليه فأبوا عليه وأظهروا وصيته المستورة. وكان إبراهيم بن المرزبان متزوجاً بابنة ولكين بن خرشيد وهو من أكابر الديلم وكان ولكين هذا محبوساً من جهة المرزبان بأردبيل فلما مات المرزبان خاطبته زوجته في أبيها وحملَته على أن يمضي بنفسه ويُخرجه من محبسه فركب وأخرجه من غير استئذان عمّه وهسوذان فاستوحش وهسوذان وفكر في مُخاتلة أخيه له في الوصية وفي إقدام ابن أخيه إبراهيم عليه وإخراجه ولكين من محبسه بغير إذنه فساء ظنُّه وخرج من أردبيل كالهارب إلى الطرم فاستولى جستان على ممالك أبيه وأطاعه أخواه إبراهيم وناصر وقلد وزارته أبا عبد اللّه النعيمي وتوافى إليه قُواد أبيه الأجستان بن شرمزن فإنه تأخر عنه وفكّر في التغلُّب على ناحية أرمينية وكان والياً بها. وأخذ وهسوذان في التضريب بين أولاد أخيه وتفريق كلمتهم وإطماع أعدائهم فيهم والتشفّي بما عومل به حتى اضطرب عليهم عسكرهم وطالبوهم بما لا يتسعون له حتى تمكن منهم وقتل بعضهم وحرض على من لم يمكنه قتله حتى بلغ ما أراد واشتفى وزاد.

وفي هذه السنة كثر ببغداد أورام الحلق والماشرا وكثر الموت بهذين الضربين وموت الفجأة وكل من افتصد انصبت إلى ذراعه مادّة حادّة عظيمة يتبعها حمى حادّة فيحتاج إلى بطّ وما سلم أحد ممن افتصد. وكانت شتوة هذه السنة دفيَّة عادمة الأمطار وحكى أهل البحر أن البحر نقص في هذه السنة ثمانين باعاً وأنه ظهر لهم جبال وجزائر لم يعرفوها ولا سمعوا بها قط وكانت زيادة دجلة في هذه السنة يسيرا نحو عشرة أذرع وكان بالريّ ونواحيها زلازل عظام مات فيها من الناس ما يعظم مقداره ويكثر عدده.

ودخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

وفيها كثرت الزلازل ببغداد وحلوان وبلدان الجبل وعظم أمرها بالجبل خاصة فخربت الأبنية وقتلت الخلق.

وفيها شغب الأتراك والديلم بالموصل على ناصر الدولة وزحفوا إلى داره وأرادوا الفتك به فحاربهم بغلمانه وبالعامة وظفر بهم وقتل بعضهم في الوقعة وقبض على جماعة وهرب الباقون إلى بغداد.

وفيها ورد الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة إلى بغداد يخطب ابنة معز الدولة ومعه أبو علي بن أبي الفضل القاشاني وزيراً ومعه أبو القاسم اسمعيل بن عبَّاد يكتب له على سبيل الترسل. فلما كان ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى زُفَّت بنت معز الدولة إلى أبي منصور بويه ثم حملها إلى أصبهان.

وفيها خرج معز الدولة نحو الموصل يوم الخميس لأربع عشرة خلت من جمادي الآخرة وعبر من باب الشماسية إلى قطربل وضرب مضاربه هناك وعزم على قصد الموصل لمحاربة ناصر الدولة وأولاده لما كان منهم في قصد ممالكه والطمع فيها بعد الصلح والموادعة وتردَّدت الرسل فأمر معز الدولة أن تُكتب عنه توبيخات وتهجينات عنيفة شديدة وأمر أن تُقرأ وتُستوفى أجوبتها.

ذكر هذه التوبيخات

قال فيها: أنت ذاكر ما جرى عليك من تكين الشيرزادي فإنه أخرجك من نعمتك وكاد يأتي على مهجتك فلجأت إليّ بعد عداوة سبقت امنك لي ومنازعة نازعتنيها عن بلاد لم يكن في يدك منها شيء فاطرحت لأحقاد واغتفرتُ الذنوب وآثرتك على تكين وهو إذ ذاك يبذل لي الخدمة والطاعة وحمل المال وإقامة الخطبة ولا يلتمس مني إلا ترك الدخول بينك وبينه والانصراف عن النصرة لك عليه فآثرتك. وأنفذت كاتبي وعسكري بأموال أنفقتُها ومؤن تكلَّفتها حتى أخذت بناصيته وسلمتهُ إليك فشفيت صدرك منه وعدّت إلى وطنك. ثم حصلت في يد وزيري الصيمري حصول المستجير الذليل فوفي لك ولو شاء لأَسرك واشتمل على بلادك وقلاعك. وظننت أنك تعرف لي حقّ هذه النعمة وتُطالب نفسك عليها بالمجازاة فأبيت إلا غدراً بي وتقبيحاً في معاملتي. وليتك لما لم تعمل عمل الأصدقاء الأوفياء عملت عمل الأعداء الحزماء فكاتبتني تعرض نفسك علي في النائبة العظيمة التي نابتني في أوثق الناس عندي وتبذل لي معاونتك فكنتَ تنفذ عسكرك التي تكريت على أنه مددٌ لي فإن لاح لك استظهار مني تحمَّدت عليَّ وتودَّدت إليَّ وإن لاح لك استظهار عليَّ أظهرت ما في نفسك حيث تكون فيه أعذر وأقل ملامة. ثم اتبع هذا القول

بالتوعُّد والتهدُّد بالمسير إلى أعماله واستيصاله.

الجواب عن هذه الرسالة

إنك قد صدقت في جميع ما عددت وأني معترف به ووالله ما كان عن رأي ولا أمرت به ولكني شيخ لي أولاد أحداث يخالفونني في تدبيرهم فيركبون الهوى في أمورهم ولا رأي لمن لا يطاع. وتمت الموافقة بينه وبينه على تعجيل ألفي ألف درهم فعجلها له والتزم مثلها في كل سنة فأظهر معز الدولة الرضاء ضرورة لأنه كان غير واثق برجاله ولأن أعماله اختلت بتلك الفتنة فعاد إلى داره. ثم أخر ناصر الدولة المال الثاني لأن الأول كان في سنة ست فخرج معز الدولة إليه وسار ناصر الدولة إلى نصيبين ودخل معز الدولة الموصل وسار إلى نصيبين وخلف سبكتكين بالموصل. وأنفذ سريَّة إلى سنجار لأنه بلغه أن أبا المرجَّى وهبة اللّه ابني ناصر الدولة بها وبلغهما خبر السرية فانصرفا وقد كان أعجلهما الأمر فتركا خيمهما وجميع معسكرهما بحاله ولم يمكنهما حمل شيء فأسرع الديلم الذين كانوا في السرية إلى الغارة والنهب.

ذكر عجلة وإضاعة حزم

إن الديلم نزلوا في خيم أبي المرجَّى وأخيه فعادا وكبسا العسكر واستأسرا جماعة وقتلا جماعة وكان ممن قتل ابن ملك الديلمي المعروف بسياجشم قتله هبة اللّه ووقع في الأسر شيرزاد وشيرمردي وعدد كثير.

ذكر السبب في هذه النكبة وضعف معز الدولة بعد الاستعلاء

كان من عادة ناصر الدولة إذا تنحى من بين يدي معز الدولة ألا يترك في البلد لا كاتباً ولا دليلاً ولا أحداً ممن يعرف نفع السلطان وضره ويحشرهم إلى قلاعه مع حسباناته ودواوينه ثم يأمر الصعاليك والعرب أن يتطرفوا البلد ويمنعوا العلافة ومن يخرج لطلب العلف والطعام إلا أن يكون معهم عسكر قوي فإذا رأوا عسكراً قوياً لم يظهروا ولم يتعرضوا وكان غرضه في ذلك أن يضيق المير والعلوفات فينصرف عنه معز الدولة ففعل ذلك في هذا الوقت. وبلغ معز الدولة كثرة الغلات بنصيبين وكانت للسلطان فقصدها وخلف حاجبه سبكتكين بالموصل فلما صار ببرقعيد بلغه أن أبا المرجى وهبة اللّه ابني ناصر الدولة مقيمان بسنجار فعمل على كبسهما وندب لذلك جماعة من القواد الكبار وجعل الرئيس عليهم تكين الجامدار وكان غلاماً أمرد وضيء الوجه منهمكاً في الشرب لا يعرف الصحو ولا تقدمت له حُنكة فأشار الوزير المهلبي ألاّ يخرجه في مثل هذا الوجه وأن يعدل إلى أحد مشايخ القواد فلم يقبل منه وأنفذه في خمسمائة رجل فأشرفوا على أبي المّرجىّ وهبة اللّه فأرهقوهما عن تقويض الخيم واستصحاب شيء من رجالهما وافلتا على ظهور دوابهما وتركوا جميع مالهم فانتهبه

العسكر. ثم تعجل أصحاب معز الدولة إلى الخيم وتركوا الحزم فنزلوها واستقروا فعطف عليهم أولئك وصارت الكبسة لهم فقتلوا وأسروا وغنموا ما شاؤوا. وبقي معز الدولة في عدد يسير ببرقعيد في طريقه إلى نصيبين فكتب إلى بغداد يستدعي العساكر فتعجلوا وتلاحقوا إليه فلما قويت عدته سار من برقعيد إلى نصيبين وسار ناصر الدولة من نصيبين إلي ميّافارقين وفضّ جيشه عنه بأسره وصرفهم فصار جميعهم إلى معز الدولة في الأمان واستأمن أبو زهير أخو ناصر الدولة إلى معز الدولة ورحل ناصر الدولة من ميّافارقين إلى حلب مستجيراً بأخيه سيف الدولة فتلقاه أخوه بأجمل تلق وقبله أحسن قبول وخدمه بنفسه حتى تولى نزع خفُه بيده. وكان حامد بن النمس توجه من قبل معز الدولة إلى الرحبة فهزم من كان بها من جيش ناصر الدولة.

وكان طريف الخادم وهزارمرد وهما غلاما ناصر الدولة يتطرفان الموصل في الجانب الشرقي منها كل يوم ويلتقطان عمال معز الدولة ويأخذان العلافة من عسكر الحاجب ويمنعان ورود شيء إلى الموصل حتى صارت محاصرة وأخذا من الثرثار من عمال معز الدولة رجلاً يعرف بعلي بن الصقر وحملاه إلى القلعة ثم كبسا الحديثة وكان فيها محرز حاجب الوزير أبي محمد المهلبي وأبو العلاء بن شاذان يتقلد عمالتها فقبضا عليهما ثم أطلقا محرزاً وحملا أبا العلاء إلى القلعة.

وكان معز الدولة راسل كافور الخادم بمصر يأمره بحمل مال إلى الحضرة فحبس كافور الرسول حبساً جميلاً وطاوله وبث جواسيسه لتعرف الأخبار فلما عرف انصراف معز الدولة عن ذلك الوجه إلى بغداد رد الرسول خائباً.

وورد عمرو النقيب من قبل ناصر الدولة إلى نصيبين وسفر في الصلح وطال الخطب بينه وبين معز الدولة فلم يتم الصلح فلما رأى عمرو الصورة استأمن إلى معز الدولة وأقام بحضرته ولم يعد إلى ناصر الدولة. ثم ترددت رسائل بين معز الدولة وبين سيف الدولة وتوسط بين أخيه وبينه حتى تقرر ما بينهما ورجع معز الدولة من نصيبين قاصداً الموصل.

ذكر اتفاق صعب غير محتسب

لما صار معز الدولة بين المونسية وآذرمة في اليوم الخامس عشر من شباط هبت ريح باردة مغربية ووقع دمق فتلف في ساعات يسيرة من النهار عدد عظيم من عسكره ولحق معز الدولة غشية وكاد يتلف من كثرة ما عليه من الوبر والخز. فقلع أهل العسكر سقوف آدرمه وأبوابها وأوقدوها فاطلق معز الدولة لأهلها ثلاثة آلاف درهم ليبتاعوا بها مكان ما أخذ من أنقاضها.

ذكر تدبير سيىء ورأي ظاهر الفساد رآه معز الدولة بعد فراغه من روزبهان أدى إلى تخريب المملكة وسوء عاقبة الأولاد والرعية

دبر معز الدولة عند فراغه من حرب روزبهان أن يطرد الديلم الروزبهانية يمسك من لم يفارقه منهم وإن كانوا متهمين عنده وكان وعدهم للعشرة ثلاثة في أصول أموالهم وظن إنه إن وفى للكل لم يتسع له مع أن الفتح للأتراك وكان مائلاً إليهم بالهوى قبل الاستحقاق فكيف بعد هذا الأثر العظيم! فابتدأ يجازي الأتراك بالإحسان فقود منهم جماعة واستحجب جماعة ونقب جماعة ورفع كل طبقة إلى ما هو أعلى منها ونفى الديلم الروزبهانية ليتوفر عليهم ما لهم ويصير ذلك بإزاء ما يلزمه لأصحابه الديلم من الزيادات. فأخرجهم إلى الأهواز وكتب إلى وزيره المهلبي بجمعهم من جميع النواحي والأعمال والتوكيل بهم والمسير معهم إلى آخر الحدود ليتفرقوا حيث شاؤوا. فدفع الوزير من ذلك إلى خطة صعبة وحال مخاطرة عظيمة لأن القوم كانوا ذوي عدد وعدة إلا أنه تلطف وأحسن التدبير حتى أخرجهم زمرة بعد زمرة. ثم حمل معز الدولة الأتراك على التحسب على الديلم وتعييرهم بشق العصا وخلع الطاعة وتقريعهم بهذا ونحوه وإن عدد الأتراك مع قلته وفوا بهم حتى قهروهم وأذلوهم. ثم رسم للأتراك رسوماً صار سبباً لضراوتهم وطلب الأموال والتغلب على الأعمال والتسحب على العمال وذاك أنه أمر بتسبيب ما يستحقونه على واسط والبصرة والأهواز وأخرجهم طبقة بعد طبقة على النوبة لاستيفاء أموالهم ولمن وراءهم من رفقائهم المقيمين وأن يقام لهم نزل يأخذونه راتباً في كل يوم إلى أن يستوفي ماله ومبلغه عشرة دراهم لكل غلام في كل يوم وعشرون درهماً لمن كان نقيباً وأراد أن ينفعهم عاجلاً لا مؤبداً. وانفتح عليه من ذلك باب من الفساد كان أضر عليه من زيادة أوزارها في أصول استحقاقاتهم وذلك أنهم أثروا أن تتأخر أموالهم المسببة لتكثر أيام مقامهم وصيروا أصول أموالهم بضائع يتجرون فيها وإذا راج لهم من مال تسبيباتهم لم ينسبوا شيئاً منه إلى الأصل وقد بقي لهم درهم واحد ويستروح العمال إلى إطلاق الشيء بعد الشيء لئلا يرهقوا بالمال جملة فربما أقاموا سنتين وثلاثة. وحلت التجارات في صدورهم وإجازة ما يحصل لهم في الطريق بغير ضريبة ولا مؤونة ثم تجاوزه إلى الدخول في التلاجئ فملكوا البلاد واستطالوا على العمال وحاموا على التجار ومن اعتصم بهم فضعفت أيدي العمال واستعبدوا الناس واستمر ذلك وازداد إلى اليوم.

ودخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

وفيها وافى أبو محمد الفياضي كاتب سيف الدولة إلى الموصل في المحرم وتقرر الأمر على أن عقدت الموصل وديار ربيعة والرحبة على سيف الدولة بألفي ألف درهم

وتسعمائة ألف في السنة وذلك لأن معز الدولة لم يستجب إلى عقدها على ناصر الدولة وعلى أن يقدم من ذلك ألف ألف درهم ويطلق الأسارى الذين أسروا بسنجار. فلما تقرر هذا انحدر معز الدولة وتأخر الوزير المهلبي والحاجب سبكتكين بالموصل والجيش بأسره معهما إلى أن يحمل مال التعجيل ثم وردا مع الجيش ومع أبي محمد الفياضي كاتب سيف الدولة.

ذكر انحدار معز الدولة والسبب فيه بعد تمكنه من ديار ربيعة ومضر

كان السبب في إصعاده الإضاقة الشديدة التي لحقته بعد الأمور التي ذكرناها وتأخر أموال الحمول عنه فعلم ناصر الدولة بذلك فانهزم من بين يديه وقال لأصحابه: اذهبوا حيث شئتم فإني لا أقف للحرب. فاستأمن أصحابه إلى معز الدولة كما كتبنا فيما تقدم فازدادت إضاقة معز الدولة ولم يمكنه ضبط النواحي ولا الحماية وتقاعد الناس بأداء الخراج احتجاجاً بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية واضطر معز الدولة إلى الانحدار ولكنه أنف وأقام على كره ومشقة فلما ورد عليه رسالة سيف الدولة استراح إليها وأجابه بالشكر الجميل وشكا إليه أخاه وقلة وفائه والغدر به مرة بعد مرة وقال له: إن ضمنته أنت أجبت. فضمنه وانحدر معز الدولة.

وفي هذه السنة انقطعت الحمول من واسط إلى البصرة والأهواز

ذكر السبب في ذلك

السبب في ذلك ما كنا ذكرناه من استيلاء الأتراك واستضامتهم العمال ومضايقتهم إياهم حتى اضطروهم إلى بذل المرافق الكثيرة لهم فاقتنوا الأملاك وحاموا على قوم على سبيل التلاجئ فتغلبوا على حقوق بيت المال وصار العمال يعولون على الغلمان الأتراك في أخذ حقوقهم على التناء فيتنجزونها كما يتنجزون تسبيباتهم وتشبه بهم الديلم واصطلح الفريقان على هذا السبيل فكسروا على السلطان حقوقه. واجتمع العمال بذلك فكسروا أصول العقود وسألوا إزالة ما دهمهم فلم يمكن ذلك وصارا بمنزلة الداء الذي لا يرجى حسمه لأن الديلم كانوا مستوحشين ومتفرقين والأتراك متطاولين مدلين فلو قمعوا لصارت كلمتهم مع الديلم واحدة. فجرى الرسم بأن ينقل ما رفعه العمال من فاضل ما عليهم إلى السنة التي بعدها وحصل الوزير وكل من دبر فيه تدبيراً متعرضاً لسفك دمه وذهاب نفسه إلا أن هذا الفساد كان في أيام معز الدولة كالطفل الناشئ لهيبته وبقية حشمته ثم ظهر الإفراط بعد على أولاده ولما أتى عليه الزمان بعد وفاته.

وفيها خلع السلطان على الأمير أبي منصور بختيار بن معز الدولة وعقد له لواء وقلده إمرة الأمراء ولقبه عز الدولة.

وفيها أنفذ لواء وعهد إلى أبي علي محمد بن الياس وكان السفير في ذلك كله القاضي أبو بكر أحمد بن سيار الصيمري وفيها مات أبو الحسن محمد بن أحمد المافروخي وكان يكتب لمعز الدولة وكتب له بعده أبو محمد علي بن عبد العزيز المافروخي مدة شهر ثم استعفي وانصرف وتقلد مكانه أبو بكر بن أبي سعيد.

وفيها كانت وقعة بين علي بن كامه ابن أخت ركن الدولة وبين بيستون بن وشمكير فكانت على بيستون.

وفيها غرق الحاج الواردون من الموصل وكانوا في بضعة عشر زورقاً كباراً فيها من الرجال والنساء نحو ألف نسمة.

وفيها غزا الروم المسلمين فأسروا وقتلوا وسبوا وانصرفوا وذلك في طرسوس والرها.

ودخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بأن صاحب خراسان قتل رجلاً من قواده يسمى بختكين وكان من وجوه قواد الأتراك فاضطربت خراسان لأجله.

وفيها ورد الخبر بأن ابناً لعيسى بن المكتفي بالله ظهر بناحية أرمينية وتلقب بالمستجير بالله يدعو إلى المرتضى من آل محمد رسول الله ﷺ ولبس الصوف وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وكان هذا الرجل مضى إلى بلد الجيل فاستنصر بجماعة من الديلم المعروفية والمسودة والمنتسبين إلى مذهب السنة من مذاهب المسلمين فخرجوا معه وصاروا إلى آذربيجان فغلب على عدة بلدان منها ما كان في يد سلاء الديلمي. ثم ورد الكتاب في شهر رمضان من جهة ابن سلار بأنه أوقع بهذا الرجل المتلقب بالمستجير بالله فأسره وقتله.

ذكر السبب في خروجه وسرعة هلاكه

كان السبب فيه أن جستان بن المرزبان ترك طريقة أبيه في سياسة الجيش وتوفر على النساء واللعب ثم أدخلهن في التدبير. وكان جستان بن شرمزن تحصن بسور أرمية وكان وهسوذان بالطرم ويضرب بين أولاد المرزبان كما حكينا فيما تقدم. وكان جستان بن المرزبان قبض على وزيره النعيمي وأنفق بين النعيمي وبين كاتب جستان بن شرمزن وهو أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه مصاهرة فلما قبض جستان بن المرزبان على النعيمي استوحش صهره أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه وحمل صاحبه على مكاتبة أخي جستان وكان يومئذٍ بأرمية وأطمعه في أموال عظيمة ووعده أن يقوم بين يديه وينصره بجيشه الذين جمعهم ويقيم مقام أخيه فعمل إبراهيم على ذلك وأشار عليه

نصحاؤه بألاّ يفعل فخالفهم وركب هواه وسار إلى أرمية واجتمع مع جستان بن شرمزن وكاتبه أبو الحسن عبيد اللّه بن حمدويه ووعدهما بكل ما سكنا إليه فصاروا إلى المراغة واستولوا عليها. وقد كان جستان بن المرزبان صار إلى برذعة فلما عرف خبر أخيه إبراهيم وانحيازه إلى جستان بن شرمزن عاد إلى أردبيل فراسل ابن شرمزن وكاتبهما ومناهما ووعدهما بإطلاق النعيمي وبذل لهما كل ما اقترحاه فعاد إلى موالاته وتركا إبراهيم وانصرفا عنه إلى أرمية وأخلفاه في كل ما كانا بذلاه فلما رأى إبراهيم ذلك عاد إلى أرمية وبقي جستان بن شرمزن وكاتبِه يطمعان كل واحد من الأخوين أعني إبراهيم وجستان ابني المرزبان أنهما معه حتى استكملا بناء سور أرمية وقلعة في داخلها منيعة واستكثرا من جمع الأقوات والآلات. وظهر للأخوين معاً نية ابن شرمزن في النفاق والعداوة فتراسلا وتصالحا وعملا على أن يجتمعا ويقصداه. واتفق أن هرب أبو عبد اللّه النعيمي من حبس جستان بن المرزبان وصار إلى موقان وكاتب ابن عيسى بن المكتفي باللّه المتلقب بالمستجير باللّه وأطمعه في الخلافة وأن يجمع له من الرجال من يستولي بهم على آذربيجان فإذا قوي بالمال والرجال قصد العراق. فسار المستجير باللّه في نحو ثلاثمائة رجل من المسودة ولم يكن بعد تمكن ولا اجتمع له من الرجال ما أراد فلما أطمعه النعيمي صار إليه واجتمع معه وصار أيضاً إليه جستان بن شرمزن في عسكره فقوي به وقلده أمر عسكره وبايعه الناس. وسار إليه جستان وإبراهيم ابنا المرزبان في جموعهما فلما عبى جستان عسكره تقدم إليهم بأن يلزموا مصافهم ويحفظوا نظامهم ولا يحملوا حتى يأذن لهم وكان معهم الفضل بن أحمد الكردي القحطاني وهم صنف من الأكراد ومع جستان الصنف الآخر من الأكراد الذين يعرفون بالهدايانية وتلقاهم الهدايانية وابتدأوا بالحرب فانتقض على جستان بن شرمزن صفوفه فخرج من موضعه الذي كان فيه مع الديلم لينكر على الفضل مخالفته إياه ويرده إلى موضعه فوجده قد أبعد فاتبعه فما شك أصحابه في انهزامه فاقتفوا أثره وصحت الهزيمة. وركب الهدايانية وأصحاب جستان وإبراهيم أكتافهم واضطر جستان بن شرمزن إلى الانصراف إلى أرمية وظفر بإسحاق بن عيسى بن المكتفي باللّه ولم يدر ما فعل به إلا أني سمعت بقتله وسمعت بموته حتف أنفه في الحبس.

وتم لوهسوذان تفريق كلمة بني أخيه وذلك أنه استزار إبراهيم فلما صار إليه أكرمه ووصله بجوائز كثيرة وحمله على دواب وكاتب ناصراً واستغواه حتى صار إلى موقان مفارقاً لأخيه ووجد الجند سبيلاً إلى إقامة سوقهم والمطالبة بالأموال ففارق أكثرهم جستان وصاروا إلى ناصر فقوي وسار إلى أردبيل فملكها وألجأ أخاه جستان إلى القلعة المعروفة بالنير. ثم اجتمع الديلم والأكراد على ناصر يطالبونه بما لا يفي به وقعد به عمه وهسوذان فعلم حينئذٍ أن وهسوذان عمه كان يغويه وعرفا جميعاً مغزاه فتراسلا وتصالحا وسلم ناصر الأمر إلى أخيه جستان فنزل من قلعته وصارا جميعاً إلى أردبيل

على إضاقة شديدة لنفاد الأموال وكثرة المتغلبين على الاطراف فاضطرا إلى الخروج إلى عمهما وهسوذان مع والدة جستان بعد أن توثقوا منه بالأيمان الغليظة والعهود فلما حصلوا تحت قبضته حبسهم ونكث واستولى على العسكر وعقد الإمارة لابنه إسماعيل بن وهسوذان وسلم إليه أكبر قلاعه شميران وأخرج الأموال وأرضى الجند وجعل أبا القاسم شرمزن بن ميشكي صاحب جيشه وأخرجه إلى أردبيل. وكان إبراهيم قد صار إلى أرمينية فتأهب لمنازعة إسماعيل ومحاربته ولاستنقاذ أخويه جستان وناصر من محبس عمهما وهسوذان وكان وهسوذان قد ضيق عليهما وأساءَ كل الإساءة إليهما فلما عرف وهسوذان اجتماع إبراهيم على حرب إسماعيل واجتماع خلق من الديلم معه بادر بقتل جستان وناصر وأمهما وأتى على كل من يقرب منهم ويخاف ناحيتهم وكاتب جستان بن شرمزن والحسين بن محمد بن الرواد بقصد إبراهيم وأنفذ إليهما مدداً من جهته فاستجابا له وزحفا إليه وزحف إسماعيل فهرب إبراهيم إلى أرمينية وكان جستان بن شرمزن قريباً منه فاستولى على عسكره وملك المراغة وأضافها إلى أرمية.

وفيها غزا سيف الدولة في جمع كثير فأثر في بلدان الروم آثاراً عظيمة وأحرق وفتح حصوناً وحصل في يده سبي كثير وأسارى وانتهى في غزوه إلى خرشنة فلما أراد الخروج أخذ الروم عليه المضايق فما تهيأ له أن يتخلص إلا بجهد عظيم هو ونحو ثلاثمائة غلام وهلك باقي أصحابه أسراً وقتلاً وارتجع منه السبي كله والأسارى والغنيمة وأخذ جميع خزائنه وسلاحه وكراعه وقتل من الوجوه الذين كانوا معه حامد بن النمس وموسى بن سياكان والقاضي أبو حصين وكان معه من المسلمين ثلاثون ألفاً وخرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا.

ذكر السبب في سلامتهم ومصاب سيف الدولة

كان هذا الرجل أعني سيف الدولة معجباً يحب أن يستبد برأيه وألا تتحدث نفسان إنه عمل برأي غيره وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال فلم يقبل منهم ولج فأصيب المسلمون بأرواحهم وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه.

وفيها استأمن أبو الفتح المعروف بأبي العربان أخو عمران بن شاهين وصار إلى واسط بحرمه وعياله وولده لأنه خاف أخاه ودخل بغداد في ذي القعدة ولقي معز الدولة.

وفيها أملك أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي بابنة الوزير أبي محمد المهلبي.

وفيها مات أبو القاسم عبد اللّه بن أحمد بن البريدي.

وفيها أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاه.

وفيها انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجهم فنزلوا في واد بمكة فلما كان بالليل حملهم الوادي وهم لا يشعرون فغرق أهل مصر وكانوا عدداً كثيراً جداً وكبسهم الماء مع امتعتهم إلى البحر.

ودخلت سنة خمسين وثلاثمائة

فيها اشتدت علة معز الدولة وامتنع عليه البول فاشتد جزعه وقلقه واستدعى الوزير أبا محمد المهلبي في الليل والحاجب سبكتكين فأصلح بينهما عن وحشة قديمة وبكى وندب على نفسه على عادة الديلم فلما كان آخر الليل بال دما بشدة ثم تبعه رمل وخف ألمه فلما كان من الغد وهو يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سلم داره وكراعه وغلمانه إلى ابنه عز الدولة وفوض إليه الأمور وجمع المهلبي الوزير والحاجب سبكتكين على الوصاة به وخرج في عدة يسيرة من غلمانه وخاصته ليمضي إلى الأهواز.

ذكر سبب هذه الحركة والخروج بعد ظهور الصلاح والبرء من المرض

كان سبب ذلك استشعاره أن بغداد هي التي أحدثت له الأسقام وهي التي أفسدت عليه صحته وتذكر أيام مقامه بالأهواز وهي أيام شبابه ووفور قوته وظن أن الأهواز هي التي كانت تجلب له الصحة وأنها توافقه فوصى الحاجب سبكتكين والوزير المهلبي بابنه عز الدولة وبالجيش وغيره مما كان في نفسه وانحدر إلى كلواذى. فلما صار بها أشار المهلبي بأن يقيم ويتأمل أمره ويفكر فيه ولا يعجل فأقام بكلواذى وأخذ في تقدير بناء قصر ثم انتقل إلى الشفيعي وقدر هناك البناء ثم انتقل منه إلى قطربل لأنها أعلى بغداد والهواء والماء هناك أصفى وأعذب وعمل على أن يبني من حد قطربل إلى باب حرب قصراً ثم صاح من علته وأبو محمد المهلبي في كل ذلك يعلله ويصرف رأيه لعلمه بكثرة المؤن والنفقات التي تلزمه وبكراهة الجند والحاشية لانزعاجهم من أوطانهم ومألفهم ولكراهية تخريب بغداد بانتقال الملك عنها فلم يزل به حتى صرف رأيه. ولما علم أنه لم يكن من البناء بد فيجب أن يكون متصلاً ببغداد من أعاليها ليكون هواؤه وماؤه أصح وأنظف أنزله في البستان المعروف بالصيمري وهو في أعلى بغداد من الجانب الشرقي بقصر فرج وأخذ في هدم ما يليه من العقارات وابتياعها من أهلها إلى حدود ربيعة الدور وكلف أبا القاسم بن مكرم وأبا القاسم بن جستان العدلين ابتياع العقارات المجاورة له. وأصلح ميداناً على طول دجلة وبني الاصطبلات على نهر مهدي وقلع الأبواب الحديد التي على المدينة (مدينة أبي جعفر المنصور) والتي بالرصافة وعلى شارع نهر المعلى

ونقلها إلى داره ونفض قصور الخلافة بسر من رأى وسور الحبس المعروف بالحديد وبنى به داره وبالآجر الذي استعمله وطبخه في الأتاتين ووثق البناء واختيرت له الآلات والجص والنورة وبالغ في الأحكام وجلب له البناؤون الحذاق المشهورون من جميع البلدان الكبار من الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها. ونزل سفلاً في الأرض لبعض الأساسات ستاً وثلاثين ذراعاً ورفعها إلى وجه الأرض بالنورة والأجر إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع. ولزمه على هذا البناء إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم صادر فيها أسبابه سوى ما لم يشتره من الآلات التي ذكرناها والتي لم نذكرها. وكان مقيماً طول المدة في بستان الصيمري ثم انتقل إلى الدار التي بناها في يوم الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة سنة ٣٥ قبل أن يستتم بناؤها.

وفيها مات أبو بكر أحمد بن كامل القاضي رحمه اللّه ومنه سمعت كتاب التاريخ لأبي جعفر الطبري وكان صاحب أبي جعفر قد سمع منه شيئاً كثيراً ولكني ما سمعت منه عن أبي جعفر غير هذا الكتاب بعضهُ قراءة عليه وبعضهُ إجازة لي وكان ينزل في شارع عبد الصمد ولي معه اجتماع كثير.

وفيها مات قاضي القضاة أبو السائب عُتبة بن عبيد اللّه وقُبضت أملاكه وصودر محمد الحاجب غلامه وضربه الوزير أبو محمد المهلبي بحضرتي ضرب التلف لما كان بلغه عنه من التخرم والتهتك في أيام أبي السائب ولم يكن به إلا التشفي منه فنثر كعابهُ ضرباً. وكان هذا الرجل عاهراً يتعرض لحرم الناس وكان مرسوماً بحجبة قاضي القضاة فكان لا يمتنع عليه من لها خصومة أو حاجة عند قاضي القضاة وكان جميلاً مقبول الصورة ويتصنع مع ذلك ويتهم بفواحش مع صاحبه.

وفيها مات أبو نصر إبراهيم بن علي بن عيسى كاتب الخليفة فجأة وتقلّد كتبة الخليفة عن خاص أمره أبو الحسن سعيد بن عمرو بن سنجلا.

وفيها قبض معز الدولة على أبي علي الخازن وأبي مخلد وأبي الفرج محمد بن العباس صاحب الديوان وعلى أبي الفضل العباس بن الحسين الشيرازي وأبي سهل ديزويه صاحب ديوان الجيش وحملهم إلى دار الوزير المهلبي وسلمهم إليه.

ذكر السبب في ذلك

احتيج إلى النفقة على البناء وكان الوزير المهلبي رحمه اللّه يقصد أبا علي الخازن لشيء كان بلغه عنه قديماً وكذلك أبا مخلد وأبا الفرج فذكر لمعز الدولة أنه يلزم مالاً ويلزم كل واحد من هؤلاء مما ادخره واحتجنه ولا يحتاج إليه مالاً يتم به أمر البناء وكان معز الدولة شديد الثقة بأبي علي الخازن وكان أبو علي كثير التمويه متفاقراً يظهر من

الفقر والاقتصاد أكثر مما يحتمل مثله فقال معز الدولة للوزير أبي محمد: ما تريد من هذا البائس الذي قد قنع منا بالقوت اليسير؟ فقال له الوزير: أنا أستخرج منه وحده ما يحتاج إليه للبناء. وتكلم على غيره بقريب من ذلك فسُلّم الجميع إليه فحضرتُ مناظرة الوزير أبي محمد للجماعة.

أما أبو مخلد فإنه لما خوطب والتمس منه مال قال: إني خدمت الأمير معز الدولة ولا أملك إلا طنفسة وكساء ودواة وأنا اليوم نظير أكبر ملك من ملوك الأطراف مالاً وضياعاً وأثاثاً وغلماناً رُوقة وفرشاً فإلى أن أعود إلى رأس مالي فأنا على الربح. فألزمه الوزير خمسمائة ألف وجزاه الخير وصرفه إلى منزله بعد أن أخذ خطهُ بها فلما خرج التفت الوزير إلينا وقال: هذا رجل مقبل كنت أظنه يتماتن ويخاطبني بحسب دالّته وموضعه من الأمير فقد اتَّقاني بما قال وحمى نفسه وعِرضَهُ وماله وهكذا يصنع الإقبال بصاحبه.

وخاطب أبا علي الخازن فسلك سبيله المعروف وزعم أنه لا يستبيت ولم يستجب إلى شيء بتة فنُحي من بين يدي الوزير ووُكّل به في ناحية من الدار.

وأما أبو سهل ديزويه فتمارض وشد رأسه بخرقة فأحضر كرَّازاً ووضعهُ عند رأسه وقال: أنا غريب. فأضحك الناس من نفسه وأعرض الوزير عنه ذلك اليوم.

وأما أبو الفضل فلحقته عناية الوزير لما بينهما من الوصلة فأخذ خطه بثلاثمائة ألف درهم وصرفه إلى منزله وكذلك فعل بأبي الفرج صاحب الديوان أجراه مجرى أبي الفضل وأخذ خطه بثلاثمائة ألف فلما كان بعد أيام راسله ديزويه وسأله أن يعفو عنه ويُجريه مجرى أبي الفضل ففعل ذلك به.

وبقي أبو علي الخازن على لجاجه لا يلتزم شيئاً ثم أنعم بعد التهديد بشيء وراسل أخت معز الدولة يستقرض منها ما يشتري به نفسه من مكروه الوزير ونظن أن ذلك يبلغ الأمير فيكون سبب إطلاقه فخاطب معز الدولة الوزير فيه وقال: ألم أقل لك إنه لا يملك شيئاً. فقال: أيها الأمير لا تلتفت إلى مخاريقه وخدائعه ودعني أستخرج منه مالاً عظيماً. فسكت عنه وراسل أبو علي الخازن كل من عرفه فاستقرض منه حتى شاع خبره في الدولة بالفقر وأن الوزير يقصده فلما كان في بعض الليالي لسعهُ في ظهره شيء أدماه وتألم منه وكان موضعه الذي وكِّل به فيه من دار الوزير موضع غنم فيما تقدم فظنه الناس لسع طبُّوع وقالوا: ليس شيء من الهوام يُخرج بلسعته الدم إلا هذا الحيوان أو الأفعى. فاتفق إن مات أبو علي الخازن بعد أيام قلائل في اعتقاله وقلعت على الوزير أبي محمد المهلبي القيامة وخاف أن يتهم به ومع ذلك فلم يكن ارتفع من جهته إلا شيء نزر قليل ثم عرف أنه قد وصل إليه من القروض ضعاف ما أداه في مصادرته فتعجب من جلادته وتوقَّع عتب الأمير معز الدولة في بابه ووطَّن نفسه على كل مكروه. ثم رأى أن يبتدئ معز الدولة ويستأذنه في

البحث والتنقير عن أسبابه وأظهر أنه على ثقة من تلك الأموال التي وعده بها من جهته حتى سكَن من معز الدولة وأخذ إذنه في ذلك (ولم يكن يثق بشيء مما ضمنه من جهته ولكنه يردّ عن نفسه في الحال). ثم أخذ في التفتيش فأثار له أموالاً كثيرة بعضها جرى بحضرتي فكان من ذلك أن قبض على غلمانه وأسبابه وخلا بواحد واحد منهم فأرهبه وأرغبه وسأله هل يتّهم موضعاً من داره بدفين أو يتّهم مُحاملاً له بوديعة فقال له: إن هذا الرجل كان أدهى من أن يعمل شيئاً مما تطلبه وتبحث عنه بحضرة أحد ولست أتّهم أحداً إلا أنه طرد غلاماً له مزيناً من حجرة مرسومة به وجلس في حجرته للخلوة أياماً. فعبر الوزير بنفسه إلى دار أبي علي الخازن والتمس حجرة المزيّن وكان غلاماً حبشياً أو نوبياً فجلس فيها فحفر مواضع فيها فظفر بمال لم أعرف مبلغه وكان في جملة المدفون آلة شبيهة بميزان أعني بيت الميزان من خشب الساج له طبق كطبق الميزان وليس فيه موضع كفة ولا موضع السنج بل هو محفور من ترابيعه شبيهاً بحوض وعليه طبقة مهندماً عليه وهو خال لا شيء فيه فعجب منه ثم قلب ذلك الطبق ووجد عليه كتابة فحمل تلك الآلة إلى منزله وحمل المال إلى خزانة معز الدولة.

فعهدي به يقلّب تلك الآلة ويتأمل تلك الكتابة وكانت بخطه خط رديء فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شيء وكانت تلك الأسماء مفردة لا يقترن بها شيء يستدل به على صاحبه. فما شك الوزير أن تلك الأسماء أسماء قوم مودعين وأن تلك الرموز مبلغ ما عندهم من المال فاستعمل دهاءه فيه وقال: أجد هذا الاسم وهو «عليّ» مكرراً فإن استخرجناه أخرج لنا باقي الأسماء. فقيل له: كم من رجل اسمه عليّ كان يواصل هذا الرجل. فقال: لا تفعلوا فإن المعاملين الذين هذا اسم لهم قليلون فمن كان منهم يصلح للوديعة أقل منهم. ثم تجاوز ذلك إلى اسم أظنه «أحمد» فقال: هذا اسم صيرفي في دار أبي علي (وهو في درب عون) فأحضرونيه. فأحضر وقال له الوزير: قد وجدنا ثبتاً باسمك وبخط أبي علي بمبلغ ما عندك فأنفذ الساعة صاحبك ليحضره. فاضطرب الرجل وأنكر أن يكون له عنده مال فبطش به ولحقه أذى ومكروه ثم أمر به فحبسه وقيده بقيد ثقيل فيه ثلاثون منا فتفسخ فيه الرجل ودخل إليه المستخرج وهدَّده فاعترف. وكان باسمه سبعة أنوكي ولم يكن فينا أحد يعرف معنى «أنوكي» فقال الوزير: فطالبوه بسبع بدر دنانير استظهاراً. ففُعل ذلك فوافق تخمينه صحة الأمر وأدى خمسين ألف دينار. ثم لم يزل يتتبع تلك الأسماء وقد صحت له الرموز فاستخرج نحو مائتي ألف دينار من هذه الوجوه سوى دفائنه. وقامت حرمة الوزير أبي محمد عند معز الدولة وانبسط لسانه وجاهه وصار مقبول القول عنده بعد أن ظن أن الذي فاته من خازنه شيء لا عوض له منه أمانة وثقة ودينا. وتقلد مكان أبي علي الخازن أبو محمد علي بن

العباس بن فسانجس للنصف من شعبان وأقطع أقطاع أبي علي.

وفيها تقلد القاضي أبو العباس عبد اللّه بن الحسن بن أبي الشوارب القضاء في جانبي بغداد ومدينة أبي جعفر المنصور وقضاء القضاة وخلع عليه من دار السلطان من حيث امتنع الخليفة من أن يصل إليه وركب بالخلع من دار معز الدولة وبين يديه الدبادب والدرك والبوقات وفي موكبه الغلمان الأتراك والجيش وكان توصل إلى تقلد ذلك بأن خدم أرسلان الجامدار فتى معز الدولة ووافقه على أن يحمل إلى خزانة الأمير في كل سنة مائتي ألف درهم وكتب عليه بها كتاب وجعلت على نجوم معروفة ولم يأذن الخليفة أن يصل إليه هذا القاضي في يوم موكب ولا غيره. وكان فعل القاضي ما فعله من سماجته وقبح ذكره سبباً لأن ضُمِّنت الحِسبة ببغداد وضمنت الشرطة بعشرين ألف درهم في كل شهر من شهور الأهلّة وهذا القاضي مع قبح فعله قبيح الصورة مشوَّهها.

وفيها وافى أبو القاسم أخو عمران مستأمناً.

وفيها ورد الخبر بأن عبد الملك بن نوح صاحب خراسان تقطر به فرسه فمات وافتتنت خراسان ونُصب مكانه أخ له يسمى منصوراً.

وفيها حُمل إلى إبراهيم السلار من دار السلطان خلع وعقد له على آذربيجان.

ودخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

وفيها نقل الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي سنة خمسين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

وفيها دخل الأمير ركن الدولة سارية من بلد طبرستان وانصرف عنها وشمكير إلى جرجان واستأمن من أصحابه إلى ركن الدولة ثلاثة آلاف رجل.

وفيا: ورد الروم عين زربة في مائة وستين ألفاً وهي في سفح جبل والجبل مطل عليها فلما جاءه الدمستق في هذا الجمع العظيم أنفذ ....[1] من جيشه إلى الجبل ونزل هو على بابها فملك جيشه الجبل فلما رأى أهل عين زربة أن الجبل قد مُلك عليهم وإن جيشاً آخر قد ورد إلى باب المدينة وأن مع الدمستق دُبَّابات كثيرة وأنه قد أخذ في نقب السور طلبوا منه الأمان فآمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها. فوجد خيله الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إعطائهم الأمان فنادى في البلد من أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع وأن من تأخر في منزله قُتل فخرج من أمكنه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألف رجل وكل من وجدوه في

(١) في الأصل كلمة غير واضحة.

منزله قتلوه فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجُمع منه أمر عظيم وكان في جملته أربعون ألف رمح وقُطع ما في البلد من النخل فقطع نحو خمسين ألف نخلة. ونادى فيمن حصل في المسجد الجامع من الناس بأن يخرجوا عن البلد إلى حيث شاؤوا وأن من أمسى ولم يخرج قتل فخرج الناس مبادرين وتزاحموا في الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون إلى أين يتوجهون فماتوا في الطرقات ومن وُجد في المدينة آخر النهار قتل وأخذ كل ما خلَّفه الناس من أمتعتهم وأموالهم وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل. وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الإسلام أحد وعشرون يوماً وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصناً منها بالسيف ومنها بالأمان.

فكان في بعض الحصون التي فتحت بالأمان حصن أمر أهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض بعض الأرمن للنساء اللواتي خرجن منه فلحق رجالهن غيرة عليهن فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق منهم وأمر بقتل الجميع وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا جارية حدثة أو من يصلح أن يسترق.

فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد الفطر وزعم أنه يخلف جيشه بقيسارية. وكان ابن الزيات صاحب طرسوس خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين فأوقع به الدمستق وقتل جميع من كان معه وقتل أخاه وكان ابن الزيات قد قطع الخطبة لسيف الدولة وأنفذ إليه رسلاً فلما وقف ابن الزيات على ذلك لبس سلاحه واعتمَّ وخرج إلى روشن داره وكانت داره على شاطئ نهر فرمى بنفسه من داره إلى النهر فغرَّقها.

وفيها دخل ركن الدولة جرجان وذلك في المحرم.

وفيها ورد الخبر بأن صاحب خراسان أنفذ جيشاً كثيفاً إلى غلام له شذَّ عنه يقال له الفتكين وإن الفتكين أوقع بالجيش وهزمه واستأسر وجوه القوّاد وفيهم خال صاحب خراسان.

وفيها لقَّب الخليفة الأمير أبا شجاع فناخسرو ابن ركن الدولة عضد الدولة وكتب به كتاب.

وفيها أسر الروم أبا فراس بن أبي العلاء بن حمدان من منبج وكان متقلداً لها.

وفيها ورد الخبر بأن الدمستق ورد إلى حلب وملكها وكان الدمستق وافاها ومعه ابن أخت الملك ولم يعلم سيف الدولة ولا أحد بخبره لأنها كانت كبسةً فلما علم سيف الدولة به أعجله الأمر فخرج نحوه وحاربه قليلاً فقتل أكثر من معه وقتل جميع ولد داود بن حمدان وابنٌ للحسين بن حمدان فانهزم سيف الدولة في نفر يسير وظفر الدمستق بداره وهي خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلاثمائة وتسعون بدرة فأخذها

ووجد له ألف وأربعمائة بغل فتسلمها ووجد له من خزائن السلاح مالاً يحصى كثرة فقبض جميعها وأحرق الدار وملك الربض. وقاتله أهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجارة وسقطت ثلمة من السور على قوم من أهل حلب فقتلهم وطمع الروم في تلك الثلمة فأكبوا عليها ودفعهم أهل البلد عنها فلما جنّهُم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها وأصبحوا وقد فرغوا وعلوا عليها وكبروا وبعد الروم قليلاً إلى جبل هناك يعرف بجبل جوشن. وذهب رجالة الشرطة بحلب إلى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها وقيل للناس «الحقوا بمنازلكم فإنها قد نهبت» فنزلوا عن السور وأخلوه ومضوا إلى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها فلما رأى الروم السور خالياً وطالت المدة وتجاسر الروم صعدوا وأشرفوا على البلد ورأوا الفتنة فيه والنهب فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا فوضعوا السيف في الناس فقتلوا كل من لقيهم ولم يرفعوا السيف إلى أن كلوا وضجروا. وكان في البلد من أسارى الروم ألف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين وكان سيف الدولة قد أعد من الروم سبعمائة رجل ليفادي بهم فأخذهم الدمستق وسبى من البلد من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحد ولا يوصف كثرة فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه أحرق الباقي بالنار وعمد إلى الحباب التي يحرز فيها الزيت فصب فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض وأخرب المساجد وأقام فيها تسعة أيام.

وكان بذل لأهل البلد قبل أن يفتحه الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ويحملوا إليه مالاً وأمتعة حدّها وينصرف عنهم فلم يستجيبوا له إلى ذلك. وذكر أن عدَّة رجاله كانت مائتي ألف رجل وإن عدة أصحاب الجواشن فيهم ثلاثون ألف رجل وفيهم ثلاثون ألف صانع للهدم ولتطريق الثلج أربعة آلاف بغل عليها حسَك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل وخركاهات عليها لبود مغربية فمن صعد قلعة حلب تخلص بحشاشته فلما كان بعد تسعة أيام أراد الدمستق أن ينصرف بما فاز به وحصل في يده فقال له ابن أخت الملك: هذا بلد قد حصل في أيدينا وليس بإزائنا من يدفعنا عنه ومن كان فيه من العلوية وبني هاشم والوزراء والكتاب ومن لهم أموال مقيمون في القلعة فبأي سبب ننصرف عنه قبل فتح القلعة؟ فقال له الدمستق: قد وصلنا إلى ما لم نكن نقدره ولا يقدرها الملك وقتلنا وسبينا وأسرنا وأحرقنا وهدمنا وخلصنا أسراءنا وأخذنا من أردنا أن نفادي به بلا فدية وغنمنا غنيمة ما سمع بمثلها ومن حصل في القلعة فهم عُراة وإذا نزلوا هلكوا لأنهم لا يجدون قوتاً والرأي أن ننصرف عنهم فإن طلب النهايات والغايات ردى. فأقام ابن أخت الملك على أمره ولحَّ وقال: لا أنصرف أو أفتح القلعة. فلما لح قال له الدمستق: فأنزل عليها وحاصرها فإن الصورة والضرورة تقود من فيها

إلى فتحها. فقال: لا أفتحها إلا بالسيف. فقال له: شأنك وما تريدُ فإني أنا مقيم في عسكري على باب المدينة. فلما كان من غد ترجل وأخذ سيفاً ودرقة وصعد راجلاً والمسلك إلى باب القلعة ضيق لا يحمل أن يسلكه أكثر من واحد فصعد وتبعه أصحابه واحداً واحداً. وقد أصحابه واحداً واحداً. وقد كان حصل في القلعة الجماعة من الديلم فتركوه حتى إذا قرب فتحوا الباب وأرسلوا عليه حجراً فوقع عليه وانقلب ثم وثب وهو مدوخ فرماهُ واحد من الديلم بخشب فأنفذ صدره وركب رأسه فأخذه أصحابه وانصرفوا إلى الدمستق فلما رآه مقتولاً أحضر من كان أسر من المسلمين فضرب أعناقهم بأجمعهم. وسار إلى بلد الروم بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التي حولها وقال لأهلها: هذا البلد قد صار لنا فلا تقصروا في العمارة فإنا بعد قليل نعود إليكم.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بأن قوماً من رجالة الأرمن صاروا إلى الرها فاستاقوا خمسة آلاف رأس من الغنم وخمسمائة رأس من البقر والدواب واستأسروا نفراً من المسلمين وانصرفوا موفورين.

وفيها قلد القاضي أبو بشر عمر بن أكثم القضاء بمدينة السلام على أن يتولى ذلك بلا رزق وأعفى مما كان يحمله أبو العباس بن أبي الشوارب وخلع عليه وأمر بألا يمضي شيئاً من أحكام وسجلات ابن أبي الشوارب ثم قلد قضاء القضاة.

ومنها خرج الوزير أبو محمد المهلبي ومعه الجيش لفتح عمان وذلك يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الآخرة فانحدر وبلغ إلى هلتي من فم البحر واعتل فكنت أسمع من طبيبه فيروز بأنه مسموم لا محالة وكنت أسأله عمن سمَّه فلا يصرح باسمه إلى أن كان بعد ذلك بمدة وانقضت تلك الأيام فذاكرته بذلك فقال: كان خرج معه فرج الخادم وكان أستاذ داره والمستولي على خاص أمره ومعه جماعة من الخدم يطيعونه وكان قد فارق نعمة ضخمة وخرج من خيش وثلج وتنعمٍ إلى حر شديد وشقاء كثير وتوجه إلى عمان فواطأ الخدم على سمه وقتله والراحة من ذلك السفر وظنوا أنهم يسلمون ويعودون إلى نعمهم. وكان فيروز الطبيب لما أحس بذلك استأذن في العود إلى بغداد وزعم أنه لا يركب البحر فأرغب في مال كثير فامتنع ثم أرهب بالحبس فصبر وقال: لا أخرج البتة. فأذن له وانصرف. فلما كان في النصف من شعبان ثقل ورد إلى الأبله زائل العقل مسبوقاً فيئس منه وعملت له آلة شبه المحفة يحمله أربعون رجلاً يتناوبون عليه وينام فيها ورد على طريق البر فلما كان يوم السبت لثلاث بقين من شعبان وقت العصر مات رحمه الله بزاوطا.

وكان معز الدولة لما سمع بخبر علته أنفذ أبا علي حمولى إليه لتعرف خبره وتقدم إليه إن وصل إليه وقد توفي أن يحتاط على تركته وأسبابه ففعل ذلك وقبض على كتابه

وأسبابه وحمل جميعه إلى الحضرة. وورد تابوته مدينة السلام يوم الأربعاء لخمس خلون من شهر رمضان وقبض على عياله وولده ومن دخل يوماً إليه مثلاً وصودروا حتى المكارين والملاحين الذين كانوا يخدمون حاشيته وجرى من ذلك ما لا جرى مثله إلا على عدو مكاشف واستفظع الناس ذلك واستقبحوه لمعز الدولة. وكانت مدة وزارته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ومات بموته عن الكتاب الكرم والفضل رحمه اللّٰه. ولما مات الوزير أبو محمد المهلبي رحمه اللّٰه نظر أبو الفضل وأبو الفرج في الأمور من غير تسمية لواحد منهما بالوزارة.

وفيها ورد الخبر بأن الطرسوسيين غزوا ودخلوا من درب من دروب الروم إلى بلد الروم ودخل نجا غلام سيف الدولة من درب آخر فغنم أهل طرسوس غنيمة يسيرة وأقام سيف الدولة على درب آخر ولم يدخل لأنه كان عليلاً من فالج لحقه قبل ذلك بسنتين فلما خرج نجا والطرسوسيون عاد سيف الدولة إلى حلب وهو عليل ولحقته غشية ظن منها أنه قد تلف. وجاء أبو الحسين بن دنحا إلى هبة اللّٰه بن ناصر الدولة ليسلم عليه ويهنئه بعيد الفطر وكان هبة اللّٰه راكباً فاستجر أبا الحسين بن دنحا الحديث إلى إزاء صخر ثم رماه بخشب كان في يده فوقع في لبته ومضى يركض يريد الهرب فلحقه هبة اللّٰه وإنما فعل ذلك لغيرة لحقته من تعرض ابن دنحا لغلام من غلمانه. وبلغ هبة اللّٰه أن عمه لم يمت وأنه أفاق من غشيته فخافه واستوحش مما فعله بابن دنحا فجد في السير إلى حران.

وابن دنحا هذا هو الذي كان استأمن إلى معز الدولة ثم انصرف عنه إلى سيف الدولة لأنه لم يصل ببغداد إلى ما كان يرجوه وما جسر أن يعود إلى ناصر الدولة فساقه الحين إلى ما ذكرت. فتبع نجا غلام سيف الدولة هبة اللّٰه فلم يلحقه ولحق سواده فأخذه وانصرف به إلى سيف الدولة ودخل هبة اللّٰه حران وأوهم أهله أن عمه قد مات فإنه قد كتب إلى أبيه ناصر الدولة يستنجده لينجده بالرجال ويقيم بحران ويدفع كل من نازعه عليها وطالب أهل حران بأن يحلفوا له أن يكونوا معه حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه وظن أهل حران أن الذي خبرهم به صحيح فحلفوا له على ما أراد واستثنوا في يمينهم إلا أن يكون الذي يحاربه عمة سيف الدولة فإنهم لا يحاربونه ورضي بذلك منهم. فلما كان بعد أيام وافى نما أخو نجا غلام سيف الدولة فأغلق هبة اللّٰه وأهل حران أبواب حران في وجوههم وعلم نما أنه لا يمكنه فيهم حيلة فأظهر أنه لم يرد (أبواب) حران وإنما أراد قصد أرزن وميافارقين فانصرف عن حران إليها وكتب إلى أخيه نجا (يعرفه ما جرى ويغريه بأهل حران فسار نجا إلى حران فلما قرب منها هرب هبة اللّٰه إلى أبيه وأسلم أهل حران فنزل نجا) خارج حران وخرج إليه وجوه أهلها وأشرافها وهم سبعون شيخاً ليسلموا عليه فوكل بهم وتهددهم بالقتل وطالبهم عن البلد بألف ألف

درهم أرش ما عملوه من غلق الأبواب في وجه أخيه ولم يسمع لهم عذراً وجرت لهم معه خطوب إلى أن قنع منهم بثلاثمائة ألف درهم وعشرين ألف درهم ووجه معهم بالفرسان والرجالة وألزمهم الأجعال الثقيلة ورسم أن يستخرج له المال في يوم واحد وبعد الجهد إلى أن يكون المدة خمسة أيام وقسط المال على أهل البلد وأدخل فيه الملي والذمي والسوقة والنساء الأرامل وغيرهم ووضع عليهم العُصِيَّ والضرب في دورهم بحضرة حرمهم وعيالاتهم فأخرجوا أمتعتهم وباعوا ما يساوي ديناراً بدرهم ولم يجدوا من يشتري لأن أهل البلد كلهم كانوا يبيعون فاشترى أصحاب نجا الأمتعة والحلي بحكمهم وبما أرادوا. ولزم أهل البلد من الأجعال أمر عظيم وخرب بذلك البلد وافتقر أهله وانصرف عنهم نجا إلى ميافارقين بعد أن استوفى جميع المال وترك البلد شاغراً بلا سلطان فتسلط عليهم العيارون. وأظهر نجا الخلاف على مولاه سيف الدولة والخروج عن طاعته ولم يزرع في هذه السنة أحد بديار مُضَر كبير شيء للجور الذي كانوا فيه.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر من حرَّان بأنه اجتاز بهم الغازي الوارد من خراسان في نحو خمسة آلاف رجل ماضين إلى حلب إلى سيف الدولة وهذا الرجل وافى من خراسان على طريق آذربيجان ثم إلى أرمينية ثم إلى ميافارقين ثم إلى حران ثم إلى حلب ثم ورد بأن هذا الغازي اجتمع مع نجا غلام سيف الدولة. وكان ببلاد أرمينية وملازجرد رجل يعرف بأبي الورد قد استولى عليها فطمع نجا فيه ولم يلتفت إلى حديث الغزو ولا إلى الخراساني وقصد أبا الورد فأوقع به وملك قلاعه وبلده وحصل في يده من أمواله ما يكثر قدره فأقام في القلعة وحصل في يده من بلدان أرمينية وملازجرد وخلاط وموش. ومضى الغازي الخراساني إلى سيف الدولة فلما اجتمع معه نفر إلى المصيصة وورد الخبر بنزول الروم على المصيصة في جيش ضخم وفيه الدمستق وأنه أقام عليها سبعة أيام ونقب في سورها نيفاً وستين نقباً ولم يصل إليها ودفعه أهلها عنها ثم انصرف لما ضاقت به المير وغلا السعر وبعد أن أقام في بلاد الإسلام خمسة عشر يوماً. وأحرق رستاق المصيصة وأذنة وطرسوس وذلك لمعاونتهم أهل مصيصة فظفر بهم الروم وقتل منهم خمسة آلاف رجل وقتل أهل أذنة من الروم عدداً قليلاً وكذلك أهل طرسوس. ولما مضى سيف الدولة والخراسانية إلى المصيصة وجد جيش الروم قد انصرف عنها وتفرقت جموع الخراساني لشدة الغلاء في الثغور وبحلب ورجع أكثرهم إلى بغداد وعادوا منها إلى خراسان. وقبل انصراف الدمستق عن المصيصة وجه إلى أهلها بأني منصرف عنكم لا لعجز عنكم وعن فتح مدينتكم ولكن لضيق العلوفة وأنا عائد إليكم بعد هذا الوقت فمن أراد منكم الانتقال إلى بلد آخر قبل رجوعي فلينتقل ومن وجدته بعد عودي قتلته.

وفيها اجتمع الأكراد على قافلة الحاج الصادرة إلى خراسان فملكوها واجتاحوها فوق حلوان ورجع الحاج إلى حلوان.

وورد الخبر بأن الغلاء اشتد بأنطاكية وجميع الثغور حتى لم يقدر أحد على الخبز وأكل الناس الرطبة والحشيش وانتقل قوم من الثغور إلى الرملة ودمشق وغيرها نحو خمسين ألف إنسان هرباً من الغلاء فإن الدمستق قد جمع الجموع للخروج إلى بلدان الإسلام وإن السلطان بحران مقيم بعد الذي جرى على أهلها من نجا على ظلمهم وطرح الأمتعة عليهم والجور في معاملتهم وأن الغلاء بها وبالرقة شديد جداً.

وفيها استهدى الهجريون من سيف الدولة حديداً فقلع سيف الدولة أبواب الرقة وهي من حديد وسد مكانها وأخذ حديداً بديار مضر حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين ثم كتبوا إليه: إنا قد استغنينا عن الحديد. فأخذ القاضي أبو حصين الأبواب فكسرها وعمل منها أبواباً لداره. ثم كتب الهجريون يلتمسون الحديد فأخذ الأبواب التي عملها أبو حصين وسائر ما قدر عليه من الحديد وحمله في الفرات إلى هيت ثم منها إليهم في البرية.

وفيها ورد أبو الحسين الباهلي برسالة ناصر الدولة ليقرر ما بينه وبين معز الدولة فتقرر على أن يحمل ناصر الدولة عن سنة ٣٥٢ ألف ألف درهم يقدم منها ثلاثمائة ألف درهم وعن سنتي ثلاث وأربع ألفي ألف درهم يقدم منها مائتي ألف درهم والباقي في نجوم. ولما تقرر الأمر بذل ناصر الدولة زيادة عشرة آلاف دينار على أن يعقد لابنه أبي تغلب فضل اللّه الغضنفر فلم يستجب معز الدولة إلى ذلك فلما كان مستهل جمادى الآخرة وردت الخمسمائة الألف الدرهم التي وقع الاتفاق عليها مع الباهلي وقبضت وصحت في الخزانة. وأظهر معز الدولة الإصعاد إلى الموصل وأخذ يستعد له فسأله الباهلي التوقف عن المسير إلى أن يمضي برسالة إلى ناصر الدولة ويعود فقيل له: تمضي وتلتمس رد ما لزم من النفقة على التأهب للسفر. فمضى وأخرج معز الدولة مضاربه إلى باب الشماسية وخرج الحاجب سبكتكين وجماعة من القواد على المقدمة إلى الموصل وتبعه معز الدولة. ومد الجسر الذي ببغداد إلى السن وعقد هناك وعبر عليه مع الجيش إلى الجانب الغربي وسار على الظهر إلى الموصل.

وكان الباهلي قد عاد بجواب الرسالة وبذل أن يحمل ثلاثمائة ألف درهم عوضاً عما لزمه من النفقة على السفر فلم يقبل منه وانصرف الباهلي من تكريت وتمم معز الدولة المسير. ولما بلغ ناصر الدولة أن معز الدولة قد قرب من الموصل ولم يكن له عزم على لقائه رحل من الموصل إلى نصيبين ورحل معز الدولة من الموصل إلى بلد في آخر النهار وخلف بالموصل أبا العلاء صاعد بن ثابت ليحمل الغلات ويستخرج الأموال وخلف بكتوزون وسبكتكين العجمي ووهرى وجماعة من الأتراك والديلم لضبط البلد. ولما بلغ

ناصر الدولة مسير معز الدولة نحوه سار من نصيبين إلى ميافارقين (يوم السبت للنصف من شعبان وسار خلفه الحاجب الكبير فلما قرب من ميافارقين) رحل ناصر الدولة عنها ورجع الحاجب إلى نصيبين وعرف معز الدولة أن العدو قد رحل لما قرب منه وأنه لا يدري أين قصد فرحل معز الدولة للوقت من نصيبين يريد الموصل خوفاً من مخالفة ناصر الدولة إليها وخلف الحاجب وجماعة من القواد بنصيبين. وكان صار أبو تغلب بن ناصر الدولة وإخوته إلى الموصل ووقع بينهم وبين من خلفهم معز الدولة بها حرب شديدة وكانت على أولاد ناصر الدولة وانصرفوا إلى الموصل وأحرقوا زبازب معز الدولة التي كانت ببلد وزواريق العسكر التي كانت بالموصل وبلغ ذلك معز الدولة فسكنت نفسه إلى ظهور أصحابه بالموصل على بني حمدان. فلما كان بعد ذلك اجتمع ناصر الدولة مع أولاده وقصدوا الموصل فأوقعوا ببكتوزون وسبكتكين العجمي وعسكر معز الدولة الذي كان خلفه بالموصل واستأمن الديلم إلى ناصر الدولة فأخذ تراسهم وأحرقها ووهب لكل واحد منهم عشرة دراهم وصرفهم وأسر بكتوزون وسبكتكين وسائر الأتراك ووهرى وصاعداً وأحمد الطويل غلام موسى فياذه وكان قد أصعد من الأهواز ليتظلم إلى معز الدولة من وضيعة لحقته في ضمان كان في يده وأخذ بنو حمدان ما كان لمعز الدولة بالموصل من كراع وسلاح وثياب خز ومائتي ألف درهم كانت (حملت إليه من بغداد ومائتي ألف درهم كانت) للحاجب وحمل جميع ذلك مع الأسارى إلى القلعة. وبلغ ناصر الدولة وأولاده مسير معز الدولة من نصيبين فلم يقيموا ومضوا إلى سنجار وصار معز الدولة إلى برقعيد ولم يكن عنده ما جرى على أصحابه بالموصل وبلغه ببرقعيد أن ناصر الدولة قد صار بالجزيرة فعدل من برقعيد إلى الجزيرة. فبلغه إقبال حمدان بن ناصر الدولة إليه فوقف له فإذا هو مستأمن إليه مع علوان القشيري وسار معز الدولة إلى الجزيرة فلم يجد بها ناصر الدولة فسار إلى الموصل وبلغه في طريقه ما جرى على أصحابه بالموصل فكتب إلى الحاجب وهو بنصيبين أن يصير إلى بلد وعبر هو إلى بلد وأنفذ سواده إلى تكريت. ووافاه الحاجب وأبو الهيجاء حرب بن أبي العلاء بن حمدان مستأمناً وسار يريد نصيبين ووافاه أبو جعفر العلوي النصيبيني برسالة ناصر الدولة يلتمس الصلح فلم يجبه. وكان أبو تغلب قد صار إلى الموصل ونزل في الدير الأعلى ولم يهج في أيام مقامه أسباب معز الدولة ولا عرض لهم وأظهر جميلاً.

ومضى حمدان إلى الرحبة وكان بها الفتكين فحاربه هناك وأقبل معز الدولة إلى الموصل فرحل أبو تغلب من الدير الأعلى وجاء معز الدولة فنزل مكانه واستأمن إليه هزارمرد الصغير من غلمان أبي تغلب وجاء المسيَّب والمهيَّأ بكشمرد أسيراً فخلع على المسيب والمهيأ وطُوّقا وسُوّرا. وراسل أبو تغلب معز الدولة بصاحبه أبي الحسن علي بن

عمرو بن ميمون وجرت له خطوب استقرَّت على أن ضمن أبو تغلب ما كان في يد أبيه ناصر الدولة من الموصل وديار ربيعة والرحبة على أن يحمل عن بقايا سنة ٣٥٣ ستمائة ألف درهم وعن أربع سنين مستأنفة آخرها سنة ٥٧ لكل سنة ستة آلاف ألف ومائتي ألف درهم وأن يعجِّل حمل الستمائة الألف مع الأسارى الذين في يده إلى الحديثة إذا حصل الأمير معز الدولة بها وضمن أن يرد من جملة ما حصل في أيديهم من المال والأمتعة التي أخذت في وقت الإيقاع ببكتوزون ما حصل في يده بقسطه ووعد بطلب الباقي وحمله وتقرر ذلك وأشهد معز الدولة على نفسه القواد والعدول وقاضي البلد بإمضاء ذلك وكتب إلى الفتكين بالانصراف من الرحبة. وكتب علي بن عمرو خطه بضمان ما تقرر عليه الأمر ورهن نفسه على إمضاء أبي تغلب ذلك وسار معز الدولة إلى الحديثة وورد صاحب أبي تغلب بالمال ثم وافاه بكتوزون وسبكتكين العجمي وسار إلى بغداد.

وفيها ورد الخبر بالموصل بأن أبا عبد اللّه محمد بن الحسين المعروف بابن الداعي الحسني خرج من بغداد سراً إلى بلد الديلم وخلف والدته وابنه وعياله في داره ببغداد ظاهرين.

وصار سيف الدولة إلى ميَّافارقين واحتال أصحابه على القلعة التي كانت حصلت له من أبي الورد وهرب نجا فحصل لسيف الدولة القلاع وأسارى الروم وأخ لنجا.

وأقام الدمستق على المصيصة وهادى سيف الدولة ببغال ودواب وثياب ديباج رومية وصياغات ذهب وقابله سيف الدولة بهدايا فصار سبباً لمقام الدمستق في بلدان الإسلام ثلاثة أشهر لا ينازعه أحد ولا يمكنه فتح المصيصة وانصرف عنها لأن البلد لم يحمله ووقع في أصحابه الوبأ فاضطر إلى الانصراف بعد أن حُمل إليه مال من المصيصة.

وفيها ظهر بالكوفة رجل ذكر أنه علَويٌّ وكان مبرقعاً فوقعت بينه وبين أبي الحسن محمد بن عمر العلوي وقائع فلما دخل معز الدولة بغداد هرب المبرقع.

وورد الخبر بأن نجا صار إلى مولاه سيف الدولة فأعاده إلى مرتبته.

ودخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة

وفيها فتك غلمان سيف الدولة بحضرته على نجا بالسيوف فقتلوه ولحق سيف الدولة في الوقت غشية مكث فيها نحو الساعة فأمرت زوجته وهي بنت أبي العلاء سعيد بن حمدان أن يُجر برجل نجا ففعل ذلك إلى أن أخرج من قصرها وفيه كان جرى على نجا ما جرى وطُرح في مجرى ماء ينصب إليه المياه والأقذار وبقي فيه إلى الغد وقت العصر ثم أخرج وكُفِّن ودُفن.

وفيها وصل أبو أحمد خلف بن أبي جعفر بن بانو إلى الخليفة أوصلهُ معز الدولة

فقلده سجستان وخلع عليه وعقد له لواء.

وورد الخبر بأن الأتراك نزلوا على بلد الخزر واستنصروا أهل خوارزم فامتنعوا من نُصرتهم وقالوا: أنتم يهود فإن أحببتم أن نعاونكم فأسلموا. فاسلموا إلا ملكهم.

وورد الخبر بأن أبا عبد اللّه ابن الداعي لما وصل إلى بلد الديلم اجتمع إليه منهم عشرة آلاف رجل وأن ابن الناصر العلوي هرب من بين يديه. ثم أوقع بقائد كبير من قواد وشمكير وأنه تلقَّب بالمهدي لدين اللّه.

وورد الخبر بأن نقفور ملك الروم بنى بقيساريَّة مدينة وهي تقرب من بلاد الإسلام فأقام بها ونقل إليها عياله ليقرب عليه ما يريد من بلدان الإسلام وأن أهل المصيصة وطرسوس أنفذوا إليه رسولاً يسألونه أن يقبل منهم إتاوة يؤدونها إليه على أن ينفذ إليهم صاحباً له ليقيم فيهم فعمل على إجابتهم إلى ذلك. فورد عليه الخبر بأن أهل هذه البلدان قد ضعفوا جداً وأنه لا ناصر لهم ولا دافع له عنها وأنه لم تبق أقوات وأنه قد آل الأمر بأهل طرسوس إلى أكل الكلاب والميتة وإنه يخرج منها في كل يوم ثلثمائة جنازة فانصرف رأيه عما كان عمل عليه وأحضر رسولهم وضرب له مثلاً وقال: مثلكم مثل الحية في الشتاءِ إذا لحقها البرد وذبلت وضعفت حتى يقدّر من رآها أنها قد ماتت فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ولدغته وأنتم إنما بخعتم بالطاعة لما ضعفتم وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذَّيت بكم. وأخذ الكتاب الذي أورده فأحرقه على رأسه فاحترقت لحيته وقال: امض إليهم وعرِّفهم أنه ليس عندي إلا السيف. فانصرف وجمع الملك جيوشه وعمل على أن ينفذ جيشاً إلى الشام وجيشاً إلى الثغور وجيشاً إلى ميافارقين وكان سيف الدولة بميَّافارقين قد تخلَّص البطارقة الذين في يد نجا وكان بميافارقين نحو ألف كُرّ حنطة فمزقها وفرقها لئلا تأخذها الروم.

ثم أن ملك الروم أنفذ إلى المصيصة قائداً من قواده فأقام عليها يحارب أهلها ثم جاء الملك بنفسه فأقام عليها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف وأمر أن يُساق من بقي في المدينة من الرجال والنساء والصبيان إلى بلد الروم وكانوا نحو مائتي ألف إنسان ثم سار عنها إلى طرسوس فحاصرها فأذعن أهلها بالطاعة فأعطاهم الملك الأمان وفتحوا له أبوابها فدخلها ولقي أهلها بالجميل ودعا رؤساءهم إلى طعامه فأكلوا معه وأمرهم بالانتقال عنها وأن يحمل كل واحد من ماله وسلاحه ما أطاق حمله ويُخلِّف الباقي ففعلوا وساروا وسيّر معهم ثلاثة نفر من البطارقة يحمونهم فعرض لهم قوم من الأرمن فأوقع الملك بهم وعاقهم وقطع أنافهم لمخالفتهم أمرهُ. ولم يزل طول طريقهم يتعرَّف أخبارهم بكتُبه ورسله إلى أن عرف سلامتهم وحصولهم بأنطاكية وحمل بعضهم في البحر في شلنْديَّات له إلى حيث أرادوا.

ثم جعل الملك المسجد الجامع بطرسوس اصطبلا لدوابّه ونقل ما كان فيه من قناديل إلى بلده وأحرق المنبر وقلد البلد بطريقا من بطارقته في خمسة آلاف رجل وقلد المصيصة بطريقاً آخر وتقدم بعمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة إليها من كل جهة فعمرت ورخص السعر بها حتى صار الخبز بها رطلين بدانق فتراجع أهلها إليها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم وعمل الملك على أن يجعلها حصناً ومعقلاً له لحصانتها ولِيقرُب عليه ما يريد من بلدان الإسلام.

وكان معز الدولة قد أنفذ كردك النقيب إلى عمان فلقي أميرها نافعاً ووافقه على الدخول في طاعة الأمير معز الدولة وإقامة الخطبة له وكتب اسمه على الدنانير والدراهم واستجاب نافع إلى ذلك وكتب اسم معز الدولة على الدراهم والدنانير. فلما انصرف كردك عنه وقف أهل البلد على ما عمله نافع من ذلك فوثبوا به وأخرجوه من البلد وأدخلوا أصحاب الهجريين القرامطة وسلموا البلد إليهم فهم يقيمون فيه نهارهم ويروحون إلى معسكرهم في آخر النهار وكتبوا إلى أصحابهم بهجر يعرفونهم الخبر ليرد عليهم الأمر بما يعملون به.

وورد الخبر بأن نقفور ملك الروم عاد إلى قسطنطينية وأن الدمستق وهو ابن الشمسقيق كتب إليه يستأذنه في قصد سيف الدولة إلى ميافارقين فكتب إليه بالتوقف إلى أن يلحق به بقسطنطينية فمضى إليه وكان سيف الدولة قلد رشيقاً النسيمي وهو من وجوه أهل طرسوس فلما حصل سيف الدولة بديار بكر وسلم رشيق هذا طرسوس في جملة من سلمها إلى ملك الروم خرج إلى أنطاكية. فالتصق به إنسان صغير القدر يعرف بابن الأهوازي كان يتضمن الأرجاء بأنطاكية وكان قد اجتمع عنده مال فأغوى رشيقاً وسلم إليه ما اجتمع عنده من المال وأطمعه في أن سيف الدولة لا يعود إلى الشام وخرج معه إلى حلب. وجرت بينه وبين قرغويه حروب كثيرة وصعد قرغويه إلى قلعة حلب فتحصن فيها فانفذ سيف الدولة خادماً له أسود ويعرف ببشارة ليكون مع قرغويه في القلعة فنزل هذا الخادم في بعض الأيام وانضم إليه قطعة من الأعراب كانوا قد وافوه وجماعة من الجند والغلمان فلما أحس بهم رشيق انهزم وسقط عن دابته فنزل إليه رجل من الأعراب من بني معاوية عرفه فحز رأسه وصار به إلى قرغويه وبشارة وانهزم أصحاب رشيق وتركوا كل ما لهم في ظاهر حلب وهرب ابن الأهوازي إلى أنطاكية وكان أخوه مقيماً بها. فنصب رجلاً من الديلم اسمه دِزْبَر وسماه الأمير واعتضد برجل علويّ أفطسي ووعده العلوي إن تم له الأمر أن يجعله الرئيس والمدبر وتسمى بالأستاذ فظلم الناس بأنطاكية وجمع الأموال وقصده قرغويه إلى أنطاكية وجرت بينهما وقعة فكانت على الأهوازي أكثر الليل وقطعة من النهار ثم صارت له على قرغويه لأن أهل البلد عاونوه.

وقد كان سيف الدولة كتب إلى قرغويه ألا يخرج إلى أنطاكية فانهزم قرغويه وعاد إلى حلب وانصرف سيف الدولة من الفداء ودخل حلب وأقام بها ليلة وخرج من غد فواقع دزبر وأضر دزبر وابن الأهوازي في ضيعة في طريق بالس يعرف بتسعين فانهزم أصحاب دزبر وأسر دزبر ومضى ابن الأهوازي فطرح نفسه في بيوت بني كلاب فوجه إليهم سيف الدولة يطالبهم به ووهب لهم ثلاثين ألف درهم فسلموه إليه وقتل دزبر واعتقل ابن الأهوازي مدة. ثم خرج ملك الروم إلى الشام واشتغل سيف الدولة به وأمر بإحضار ابن الأهوازي فقتل بحضرته.

وفي هذه السنة أنفذ أبو تغلب بن ناصر الدولة إلى الأمير معز الدولة شيئاً كثيراً من المال والثياب التي كانت أخذت بالموصل وقت القبض على بكتوزون فأما المال فإنه قبله وأما الثياب فإنه ردها عليهم وقال: لعل فيها شيئاً استحسنتموها وقد وهبتها لكم. وكانت لها قيمة عظيمة ولكنه ترفع عن ارتجاعها.

ودخلت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر بأن بني سليم قطعوا الطريق على قافلة المغرب ومصر والشام الحاجة إلى مكة في سنة ٣٥٤ وكانت قافلة عظيمة وكانت فيها من الحاج والتجار والمنتقلين من الشام إلى العراق هرباً من الروم ومن الأمتعة التي لهم نحو عشرين ألف حمل منها دق مصر ألف وخمسمائة حمل ومن أمتعة العرب اثني عشر ألف حمل وكان في الأعدال الأمتعة من العين والورق ما يكثر مقداره جداً. وكان فيها لرجل يعرف بالخواتيمي قاضي طرسوس مائة وعشرون ألف دينار عيناً وإن بني سليم أخذوا الجمال مع الأمتعة فبقي الناس رجالة منقطعاً بهم كما أصاب الناس في الهبير سنة القرمطي فمن الناس من عاد إلى مصر ومنهم وهم الأكثر تلف.

وورد الخبر بأن أبا عبد اللّه العلوي ابن الداعي لبس الصوف وأظهر النسك والصوم وتقلد المصحف وواقع ابن وشمكير فهزمه وأسر جماعة من أصحابه وقواده وعمل على المسير إلى طبرستان وكتب إلى العراق كتاباً يدعوهم فيه إلى الجهاد.

وفيها لقب الحبشي بن معز الدولة بسند الدولة وكتب به كتاب عن الخليفة.

ذكر ما جرى في عمان

كنا حكينا من أمر عمان ما جرى في أمرها إلى وقعت دخول القرامطة إليها باختيار أهلها وكان مع القرامطة كاتب يعرف بعلي بن أحمد وكان هو الذي ينظر في أمر البلد والجيش. وكان قاضي البلد رجلاً له عشيرة وعزّ منيع فرأى مع وجوه البلد بعد نفي نافع من البلد أن ينصبوا في الإمرة رجلاً يعرف بابن طغان وكان من صغار القواد بعمان

وأدناهم مرتبة فخاف من القواد الذين فوقه في المرتبة والمحل أن يغلبوه على أمره فقبض على ثمانين قائداً منهم وقتل بعضهم وغرق بعضهم. وقدم إلى البلد ابنا أخت لرجل ممن غرق وسألا عن حاله فعرفا أنه غرق فأمسكا وأقاما مدة فلما كان يوم من أيام السلام دخلا في جملة المسلمين على ابن طغان فلما تقوض المجلس فتكا به وقتلاه. فأجمع رأي الناس على عقد الأمر لعبد الوهاب بن أحمد بن مروان قرابة القاضي فوجهوا يلتمسونه فاستتر فألزموا القاضي إحضارَهُ وإلزامه تقلد إمارة البلد ففعل القاضي ذلك وراسله فظهر وتقلد الأمر وبويع له واستكتب له علي بن أحمد الكاتب الذي كان وافى مع الهجريين ووافق علي بن أحمد الجيش على أن يطلق لهم رزقتين صلة فأخرجت الأموال وابتدأ علي بن أحمد ينفق في الناس رزقتين فلما انتهى إلى الزنج وهم ستة آلاف رجل لهم بأس وقوة وقال لهم: إن الأمير عبد الوهاب أمرني أن أطلق لكم أنتم رزقة واحدة فقط. واضطربوا من هذا فقال لهم: امضوا إليه وخاطبوه. فمضوا فلما بعدوا منه قليلاً استردهم إلى مجلسه وقال لهم: إنكم إذا مضيتم لم يوصلكم إليه ولم يزدكم على رزقة واحدة فهل لكم أن تبايعوني وأطلق لكم رزقتين وتكون الإمارة لي؟ فقالوا: نعم. فأطلق لهم رزقتين فاضطرب البيضان من ذلك ووقع بينهم وبين الزنج مناوشة فقتل من البيضان جماعة فسكنوا وصارت كلمتهم وكلمة الزنج واحدة وبايعوا علي بن أحمد ثم راسلوا عبد الوهاب بن أحمد بن مروان: بأنا قد عقدنا الأمر لغيرك فاخرج عن البلد. فخرج وحصل الأمر لعلي بن أحمد.

وفيها خرج الأمير معز الدولة إلى واسط لمحاربة عمران بن شاهين وأنفذ جيشاً إلى عمان وكان خروجه من بغداد يوم الثلاثاء الحادي عشر من رجب ورحل إلى واسط وهو محموم فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من رجب وافى نافع الأسود مولى يوسف بن وجيه مستأمناً إليه فقبّله. ونظر معز الدولة فيما يحتاج إليه من أمر عمان مما سنذكره وانحدر من واسط إلى الأبلة ونزل في شاطئها في شاطئ عثمان في دار البريديين وأخذ في الاستعداد لإنفاذ جيش إلى عمان وبنى الشذاءات والمراكب قبل ذلك وطالب الديلم بالخروج إلى عمان فاستجابوا إلا قوماً وهم بضعة عشر رجلاً فإنهم امتنعوا فأمر بطردهم فانقاد الديلم والأتراك إلى ما أراد وندب أبا الفرج محمد بن العباس للخروج مع الجيش إلى عمان لرياستهم وتدبير الحرب وولاية البلد إذا فتحه.

فلما كان يوم الخميس للنصف من شوال نفذ الجيش في المراكب والشذاءات وهي مائة قطعة ومعهم المعروف بأبي عبد اللّٰه جبّ ونافع الأسود فلما صاروا بسيراف انضم إليه جيش عضد الدولة في مراكب وشذاءات وكان أعدهم هناك نجدة لعمه فلما وصل أبو الفرج إلى عمان مع الجيش دخلها وملكها وقتل بها مقتلة عظيمة وأحرق

مراكب أهل عمان وهي تسعة وسبعون مركباً. فأما عمران بن شاهين فإنه أنفذ معز الدولة إليه أبا الفضل العباس بن الحسين الشيرازي مع جيش فابتدأ أبو الفضل يسد الأنهار عن البطائح وأصعد معز الدولة إلى واسط ومنها إلى بغداد وخلف بواسط عسكره وغلمانه والحاجب الكبير على أن يعود إلى واسط بعد عشرين يوماً فيستتم ما شرع فيه من أمر عمران فلما وصل إلى بغداد مات فدفعت الضرورة إلى مصالحة عمران كما سنشرحه من أخباره في سنة ٣٥٦.

وفي هذه السنة انهزم إبراهيم السلار من بين يدي أبي القاسم بن ميشكي بآذربيجان وورد حضرة ركن الدولة بدابته وسوطه ولم يفلت معه أحد فأكرمه ركن الدولة للوصلة التي كان عقدها المرزبان وكان ركن الدولة قد رزق من أخت إبراهيم ابنه أبا العباس وبالغ ركن الدولة في إعظام إبراهيم وأجزل له العطاء وحمل إليه من كل صنف يكون عند الملوك وفي خزائنهم. وكنت حاضراً بالري فركبت للنظر إلى الهدايا المحمولة إلى إبراهيم فوقفت مع جماعة النظارة قريباً من دار الإمارة وابتدأت الهدايا تحمل من تخوت الثياب والرزم والإسفاط من جميع أصناف الثياب فكانت مع مائة رجل يحملونها على رؤوسهم ثم ابتدأت هدايا الطيب وكانت على صواني فضة وآلاتها من الأدراج وغيرها وكانت على أيدي ثلاثين رجلاً ثم ابتدأت بدر الأموال فكانت على صدور الرجال مع صرار الذهب أما أكياس الدراهم فكانت مع خمسين رجلاً وأما صرر الدنانير فكانت من حرير أحمر مع عشرين رجلاً ليفرق بينهما وكانت أكياس الورق بيضاء ثم ابتدأت خزائن الفرش على البغال فلم أحصها وتبعها جنائب الدواب بمراكب ذهب وفضة وجلال ثم تبعها الجمال مزينة موقرة بآلات الفرش الثقيل والخيم والخركاهات والشرع والسرادقات فكانت كثيرة حسنة لم أر مثلها هدية في وقت واحد يسمح بها.

ذكر السبب في هزيمة إبراهيم من آذربيجان على تلك الصورة القبيحة وروده إلى حضرة ركن الدولة

لما انهزم إبراهيم من بين يدي إسماعيل بن وهسوذان وأبي القاسم بن ميشكي إلى أرمينية ابتدأ في أهبة أخرى واستعداد آخر فبالغ واجتهد وكاتب ملوك أطرافه من الأرمن وغيرهم وجمع الأكراد واستصلح ناحية جستان بن شرمزن ورغب الناس في الولايات والإقطاعات وبذل خطه لهم بها. واتفق أن توفي إسماعيل بن وهسوذان فسار إبراهيم إلى أردبيل وملكها وانصرف ابن ميشكي مع جماعة إلى طاعة وهسوذان فزحف إبراهيم إلى الطرم منازعاً عمه وطالباً بثأر أخويه جستان وناصر فأحجم وهسوذان عن لقائه والثبات له وشجعه أبو القاسم بن ميشكي فأبى عليه ورأى أن يسير إلى بلاد الديلم فسار معه أبو القاسم بن ميشكي ودخل إبراهيم إلى أعماله فخبط أسبابه ودوخ دياره وبحث عن أمواله

وبالغ في الإضرار به مدة ثم عاد إلى آذربيجان. وجمع وهسوذان وابن ميشكي الرجال من سائر بلدان الديلم فاحتفلا واحتشدا ورجعا إلى الطرم وسار أبو القاسم بن ميشكي إلى آذربيجان وقد قواه وهسوذان بالمال والرجال فنزل إليهم إبراهيم وجرت بينهما حروب كانت على إبراهيم فانهزم على تلك الحال وتبعه الطلب من قبل عمه وهسوذان فتقطع الناس عنه حتى بلغ الري إلى حضرة ركن الدولة على حاله لائذاً به.

وفي هذه السنة تم الفداء بين سيف الدولة والروم وتسلم سيف الدولة أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وأبا الهيثم ابن القاضي أبي حصين.

وفيها لقب الخليفة أبا منصور بويه بن ركن الدولة بمؤيد الدولة وكتب بذلك إلى الأمصار.

وفيها ورد جيش من خراسان عظيم

ذكر خبر الغزاة الواردين من خراسان وما دبروه بالري على الديلم وما انعكس عليهم من الأمر بعد استعلائهم

ورد الخبر على ركن الدولة بالري بخروج قوم من خراسان يحزرون عشرين ألفاً ويظهرون أنهم غزاة واستراب بهم صاحب الحد وهو لسفوزن بن إبراهيم وذلك أنهم عاثوا لما دخلوا الحد وخاطبهم وراسل رؤساءهم فلم يجد عندهم نكيراً ولم ير سيرتهم سيرة الغزاة ولم يكن لهم رئيس واحد بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس منهم فلما ورد كتاب أسفوزن بصورتهم أشار الأستاذ الرئيس حقاً على ركن الدولة ألا يأذن لهم في دخولهم مجتمعين وأن يراسلهم في أن تصير منهم عدة في نحو ألفي رجل إلى الري فإذا خرجت هذه العدة منها ورد مثلها حتى يتتابعوا على ذلك فلا تكون منهم معرة ولا يحدثوا أنفسهم بسوء أدب فامتنع ركن الدولة من قبول رأيه «ولا يتحدث الملوك إني احترزت من لفيف خراسان وخشيت نايرتهم» فقال له وزيره أعني الأستاذ الرئيس حقاً: فإن لم تفعل هذا فكاتب عساكرك فإنهم متفرقون عنك بالجبل وأصبهان وغيرها حتى تتوافى إليك فإن معك بالري عدة يسيرة وأنت غير مستظهر بالرجال ولا آمن أن يكون لهؤلاء القوم مواطأة مع صاحب خراسان وعددهم كثير وهم مستعدون بعلة الغزو ونحن على غير أهبة ولا استعداد. فأبى عليه في هذا الرأي ولم يحفل بالقوم وكاتب صاحب الحد بأن يأذن لهم ويفرج عن وجوههم ولا يُصيّر للشر مبدأ.

فسار القوم بأجمعهم ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة حتى نزلوا بالري واجتمع رؤساؤهم إلى مجلس الأستاذ الرئيس يخاطبونه في مسألة الأمير ركن الدولة أن يطلق لهم ما لا يستعينون به على أمرهم فوعدهم بذلك وظن أن القليل يسعهم على رسم الغزاة فإذا هم

يطمعون في شيء كثير وقالوا: نحتاج إلى مال خراج هذه البلدان كلها التي في أيديكم فإنكم إنما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة إن نابتهم ولا نائبة أعظم من طمع الروم والأرمن فينا واستيلائهم على ثغورنا وضعف المسلمين عن مقاومتهم. وسألوا مع ذلك أن يخرج معهم جيش ينضمون إليهم وأخذوا في هذا النحو من الكلام وتبسطوا في الاقتراح ورفع الأصوات وكان معهم فقهاء خراسان وشيوخها مثل المعروف بالقفال وغيره. فتبين الأستاذ الرئيس خبث سرائرهم وتيقن ما كان ظنه بهم من الشر وطلب الفتنة ولكنه كان يداريهم ويرفق بهم. فلما لم يجدوا سبيلاً من طريق القول إليه والشغب به عدلوا إلى مشافهة الديلم فكانوا يكفرونهم ويلعنونهم وكان ذلك في شهر رمضان وكانوا يخرجون ليلاً ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسي والسهام ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم وإذا تمكنوا من تفتيشه وأخذ جميع ما معه لم يقصروا فيه والناس مع ذلك يدارونهم. فاتفق أن وقعت بينهم وبين بعض أصحاب إبراهيم بن بابي خصومة لم يحتملها منهم فتأدى إلى القتال فقتل ذلك الرجل الديلمي واجتمع رفقاؤه للقتال فاجتمع من الغزاة نحو ألف رجل على باب إبراهيم بن بابي فخرج إليه محامياً على أصحابه وقاومهم مدة إلى أن راسله ركن الدولة بالكف وراسلهم بمثل ذلك فأبوا فتسرع الديلم ومن كان قريباً لنصرة الديلم فاشتبكت الحرب وحجز بينهم الليل ورجع الخراسانية إلى معسكرهم يضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون للقتال. فلما أصبحوا باكروا الحرب ودخلوا المدينة من ناحية أجران وفيها دار الأستاذ الرئيس (وبرز للقائهم وبين يديه حاجبه روين وكان شهماً شجاعاً فحمل عليهم في غلمان دار الأستاذ الرئيس) فحاربهم وكسرهم حتى رجعوا إلى الدرب الذي دخلوا منه ثم كثروا عليه ولم يول عنهم حتى طعنه بعضهم بحربة دخلت في كم درعه وأفضت إلى ساعده فخرقته وكثر الناس عليه وحامى عليه الأتراك الذين معه حتى رد إلى منزله وقد نزفه الدم وضعف وانكسر الأستاذ الرئيس ومضي كل من معه وثبت بنفسه على عادته. فتعلق به السلار وكان حاضراً معه وقال له: أيها الأستاذ ارجع إلى الأمير ولا تفجعه بنفسك فإنه لم يبق حواليك أحد. وأخذ بلجامه ورده وسمعته يقول: عصبها بي وأنت بريءٌ من عارها. فرجعا إلي دار الإمارة واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة جامة إلى أن أتى الليل وانصرفوا وكان إليَّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرض لها. فلما انصرف إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء فأنفذ إليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة. واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعزّ عليه منها وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقرٍ وزيادة فلما رآني سألني عنها فقلت: هي بحالها لم تمسها يد. فسرّى عنه وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها. ورأيته قد أسفر وجهه وقال: باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني. ففعلت

وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله.

واجتمع الخراسانية من غد ذلك اليوم وكانوا قد كسروا ركن الدولة في آخر نهار أمسه وقويت نفوسهم وكانوا قصدوا باب روين الحاجب لينتهبوا داره وكان طريحاً فيها غير مستقل فأمر غلمانه بطرح الحطب المعد للشتاء خلف الباب وإشعاله بالنار ففعل ذلك فلم يصلوا إلى الدار من نحو الباب وراموا أن يتسوَّروا سورها فرماهم الغلمان بالسهام فتراجعوا عنها. وعمِلوا على مباكرتها من الغد فلما أصبحوا راسلهم ركن الدولة وداراهم وعرض على أن ينقلعوا من مملكته فلم تكن فيهم حيلة وكان الأمر قد أبرم معهم بخراسان وكانوا ينتظرون مدداً يلحقهم. وأشار على ركن الدولة نصحاؤه بالمسير إلى أصبهان مع أولاده وحرمه ويترك هؤلاء والري حتى يجتمع إليه عساكره ويقصدهم بعديد وعباد فأبى عليهم وخاطر بنفسه ودولته فإنه كان في خمسمائة من قواده وخواصه ونحو ثلاثمائة من الغلمان وباقي عسكره كما ذكرنا متفرقون في ولاياتهم فلما كان من غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء للنصف من شهر رمضان تفرق الخراسانية على أبواب المدينة وهجموا من كل وجه فامتلأت منهم الشوارع والمحال ونادوا في البلد بما يسكن الناس والرعية وقصدوا دار الإمارة وفيها الأمير وأولاده وخزائنه. وكان الأستاذ الرئيس أمر بتحميل ما أمكن والمبادرة بالحرم وصغار الأولاد إلى طريق أصبهان لينتظروا ما يكون من أمر الحرب وهم على ظهور الدواب مستعدين للتوجه إلى حيث شاؤوا فاغتص الميدان الذي في الدار بالبغال التي عليها صناديق الخزائن والعماريات فلم يكن للأمير ركن الدولة مخلص من بينها وكان قد ركب في غلمان داره والأستاذ الرئيس معه وجماعة من قواده وحاشيته فلم يجدوا طريقاً إلى الخروج لتزاحم من ذكرت فوضع بينهم الدبابيس وكسرت عدّة من الصناديق والبغال حتى أفرج للفرسان على ضغط شديد وزحمة منكرة فخلصوا إلى الطريق وكنت مع القوم. وكان الخراسانية قد دنوا من الباب ومعهم السلاليم وعندهم أن ركن الدولة يتحصن في داره فخرج ركن الدولة من نحو الميدان وخرج حجابه من الأبواب الأُخر وصدموا القوم وصدقهم الديلم في المضايق حتى ردوهم إلى الصحراء من الناحية المعروفة بالشجرة بعد أن أشرفنا على ذهاب النفس وزوال الدولة فلما حصلوا في السعة صافوا رجالهم للحرب.

ذكر مكيدة لركن الدولة في الوقت نفذت له

كان ديلم ركن الدولة ضعفت نفوسهم لما رأوا كثرة الرجال من أعدائهم وقلة عددهم وأقبلوا يقولون: أتينا من ورائنا. فأشفق ركن الدولة إشفاقاً شديداً وقال لأصحابه: طيبوا نفساً فإن الذين وراءنا هم أصحابنا. وبشرهم بورود علي بن كامه وتقدم إلى الركابية والمجرين أن يبادروا إلى نحو طريق علي بن كامه الذي يقبل منه

وأمرهم أن يركضوا هناك ويثيروا الغبرة ما استطاعوا ففعل القوم ذلك وارتفع الرهج وكبر الناس وقالوا: هذا علي بن كامه. ونشط الناس ركن الدولة وقال لهم: احملوا حملة قبل وروده. فحمل الديلم بنشاط واستبشار بورود المدد فكانت إياها وركب الخراسانية بعضهم بعضاً فدس ركن الدولة إلى بعض رؤساء الخراسانية بالانحياز إليه فأمنه وبذل له ففعل وتحطم ذلك العسكر وقتلوا كل مقتلة وطلبوا الأمان فأمنهم على أن يتخلى لهم الطريق فأجابهم إلى ذلك. وكان قد حصل منهم عدد كثير بالبلد يذبحون كل من وجدوه على زي الديلم فإذا ذبحوه كبروا كما يفعل في بلد الكفر بالكفار فبينما هم كذلك إذ انكفأ إليهم الديلم ظافرين فهموا بهم وقتلوا بعضهم حتى نادى فيهم ركن الدولة بالأمان وأمر الديلم بالكف فلما كان بالليل تحملوا وانصرفوا على سمت قزوين هائمين على وجوههم لا يلوي بعضهم على بعض.

ثم وردت بعدهم خيل أخرى نحو ألفي رجل بالعدة والسلاح ولم يلحقوا أصحابهم إلا مفلولين هاربين فراسلهم ركن الدولة بأن يتوقفوا ولا يرحلوا وأشفق أن يكون لهم بقزوين أو في بعض الممالك عبث واجتماع آخر فلم يفعلوا وتعجلوا بالرحيل في أثر أصحابهم فأسرع في طلبهم وركض خلفهم حتى أدركهم فصافوا الحرب فقتل منهم عدداً كثيراً ورد الباقين إلى الري بعد أن طلبوا الأمان. ثم أذن لهم في الخروج وأطلق أساراهم وأقر لهم بنفقات فخرجوا. وقد ذهبت حشمتهم وزالت هيبتهم عن صدور الناس ولو أنهم خرجوا بالماء الذي كان لهم لبلغوا من الروم كل مبلغ ولكثرت غزاة المسلمين معهم ولله أمر هو بالغه.

فسمعت الأستاذ الرئيس رحمه الله بعد ذلك يقول: لم أر قوماً أشد من هؤلاء وما فرق جمعهم إلا كثرة رؤسائهم وتحاسدهم وقد كانت لهم فرص لو انتهزوا بعضها لتم لهم أمرهم. منها يومهم الذي دخلوا فيه الري فإنهم اجتازوا بأجمعهم وفي مواكبهم على باب الأمير وهو غار وليس ببابه كبير أحد فلو هجموا عليه ما حال بينهم وبينه أحد. ومنها ليلة دخلوا البلد لو أقاموا وقصدوا دار الإمارة ما تحرك في وجوههم أحد وكانت ليلة مقمرة وهي ليلة النصف وهي كنهار غدها إشراقاً وإضاءة ولكن القوم عملوا على دخول البلد يوم عيد الفطر والناس مشغولون (بالصلاة) بمصلاهم غارون وانتظروا أيضاً المدد الذي وعدوا به وكانت الأخبار والرسل تأتيهم بقربهم منهم فعملوا على ذلك. وأبت المقادير إلا صنع الله لركن الدولة وذلك بحسن نيته ودعاء رعيته له ونظر الله تعالى للناس.

وكان لإبراهيم السلاّر في هذه الأيام مواقف حسنة وآثار جميلة وأصابت بطنه حربة لم تصل إلى أحشائه لكثرة شحمه لأنه كان سميناً بطيناً ولكنها صارت فتقاً فكان يشدها بعصائب ورفائد إلى أن توفي بعد ذلك بسنين.

وفي هذه السنة أخرج ركن الدولة الأستاذ الرئيس مع إبراهيم السلار مددا له في نخب الرجال من الديلم والعرب وأصناف العسكر حتى فتح بلاد آذربيجان وأصلح الأستاذ الرئيس له قلوب أصحاب الأطراف وطوائف الأكراد وقاد جستان بن شرمزن إلى طاعته فلما فرغ من جميع ذلك ووطأ له النواحي ومكنه منها خرج عائداً إلى حضرة ركن الدولة (بالري).

ذكر تدبير جيد ورأى صواب رآه الأستاذ الرئيس ابن العميد ولم يقبل وعاقبة ذلك

لما صار الأستاذ الرئيس حقاً إلى آذربيجان رأى زكاء أرضها وكثرة ريعها وسعة مياهها واحتمالها للعمارة وحسب ما يرجى من ارتفاعها فوجده مالاً عظيماً مثل ارتفاع ممالك ركن الدولة أو قريباً منه ونظر إلى ما تحصل لإبراهيم السلار منه فوجده شيئاً نزراً قليلاً جداً وذلك لسوء تدبير إبراهيم وإهماله الأمور واشتغاله باللعب والنساء والسكر الدائم وطمع ضروب المعاملين فيه ولا سيما الأكراد الذين قد استأكلوا تلك النواحي. ثم قد عرف بالتزيد وقلة الوفاء فليس يوثق بيمينه ولا عهوده فعلم الأستاذ الرئيس أنه إذا فارق الناحية عادت الصورة مع إبراهيم إلى ما كانت ولم يلبث أن يطمع فيه ويخرج من المدينة ثم من الناحية كلها أو يقتل فيضيع سعي ركن الدولة وسعيه. فكتب إلى ركن الدولة بصورة الناحية وصورة إبراهيم فيها وعرفه مقدار ما يصل إليه منها وأشار عليه أن يدبر الناحية لنفسه ليرفع له (منها خمسون ألف ألف درهم ويعوض إبراهيم مما يحصل له وكان مقدار ما يرتفع له) من هذه الجملة بعد ما يخرج في إقطاعات الديلم والأكراد وبعد ما يستولي عليه قوم متعززون لا يتمكن من استيفاء الحقوق عليهم وبعد ما يضيع بالإهمال وترك العمارة أقل من ألفي ألف درهم فرأى أن يعوض إبراهيم من ارتفاع الري أو أصبهان أو همذان هذا المقدار ويجلس آمناً فارغ البال ويشتغل بما يوثره من صحبة المغنين والمساخر ويتسلم الأستاذ الرئيس آذربيجان فيرفع منها لركن الدولة ما ذكرت مبلغه وكان يرجو أكثر منه ولكنه استظهر عليه. فأبى عليه ركن الدولة وفكر في شيء يفكر فيه مثله من أصحاب الهمم الكبار وقال: يتحدث الناس أني افتتحت البلاد لرجل لجأ إليّ ثم طمعت فيه! وأمر الأستاذ الرئيس بالانصراف إليه مع عسكره وتسليم البلاد إلى إبراهيم.

فاذكر يوماً كنت جالساً فيه بين يدي الأستاذ الرئيس وهو يحدثني بالشدة التي قاساها هو وعسكره في سفرته وقلة جدواها وثمرتها وأنها لو أثمرت نعمة باقية عند إبراهيم لكان محتملاً لها وراغباً فيما ينشر من الأحدوثة الجميلة عنه بعدها ثم قال: ولكني سأضرب لك مثلاً لما نحن فيه وتأمله الآن لتتذكره فيما بعد. أما شهدت من يغزل الإبريسم ويفتله بالمغازل الكثيرة المعلقة بالصنارات على شبيه الصوالجة من

الزجاج. قلت: بلى. قال: أما تعلم أن الصانع إنما يتعب حتى ينصب هذه الآلة وينظمها ثم يكفيه بعد ذلك أن يتتبع أذناب تلك المغازل ويتعاهدها بالفتل؟ فنحن قد أحكمنا الآلة والمغازل دائرة والإبريسم ممدود والفتل مستمر به فإذا فارقنا الموضع ابتدأت القوة التي في الدوران تضعف وليس لها من يمدها بحركة فيبتدئ في الاسترخاء وتضعف سرعة دوران المغازل ثم تبتدئ في الانتكاث وتنقلب راجعة بعكس ما كانت تدور ثم لا تجد أيضاً من يتعاهدها فيتساقط أولاً أولاً حتى لا يبقى منها شيء. فكأن هذا المثل كان وحياً فإنه ما أخطأ شيئاً من صورة إبراهيم بعد خروجنا وانتهى أمره بعد ذلك النظم الذي نظم له إلى أن طمع في ملكه حتى انسلخ منه شيئاً بعد شيء إلى أن أسر وحبس في بعض تلك القلاع كما سنحكيه فيما بعد إن شاء الله.

ودخلت سنة ست وخمسين وثلاثمائة

وفيها قصد معز الدولة عمران بن شاهين صاحب البطائح وكان قد صمم على مناجزته وأبى أن يقبل منه صلحاً ومالاً أو يرضى منه إلا بحضور بساطه. فاتفق أن اعتل من ذرب لحقه وأحس بالضعف فعاد إلى واسط وخلّف على عسكره سبكتكين الحاجب وظن أنه يتماثل فيعاود واشتدت به العلة وكان لا يثبت في معدته طعام وأحس بالموت ورجع إلى بغداد. وعهد إلى ابنه بختيار عز الدولة وأظهر التوبة وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء وسألهم عن حقيقة التوبة وهل تصح له فأفتوه بصحتها ولقّنوه ما يجب أن يقول ويفعل وتصدّق بأكثر ماله وأعتق مماليكه وردّ شيئاً كثيراً من المظالم وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ وكانت له أخبار وأحوال منها إنفاذه جيش الماء والديلم إلى عمان حتى فُتحت له ولم يكن فيها ما يستفاد منه تجربة فطويناها.

وكان اتفق عند موته اتفاق حسن لعز الدولة فرأينا إثباته ليكون معدوداً في جملة أمثالها من الاتفاقات العجيبة.

ذكر اتفاق حسن

لما مات معز الدولة ألحّ المطر ببغداد ثلاثة أيام بلياليها إلحاحاً شديداً منع الناس من الحركة ولم يتمكن الديلم من اطلاع رؤوسهم ومنع سائر الناس من البروز وتردّد النقباء إلى رؤسائهم فأرضى كل أحد بما سكن إليه وانجلت السماء عن سكون الجند ورضاء الكافة. فكاتب عز الدولة سبكتكين وسائر العسكر بمصالحة عمران بن شاهين والانصراف عنه إلى بغداد ففعل ونُفِّس خناق عمران. وصولح صاحب الموصل واستقرت الأمور بيده.

وفيها وردت الأخبار بإقبال جيش قويّ من خراسان مع ابن سمجور ليجتمع مع وشمكير.

ذكر السبب في ذلك

لما اعتل أبو علي محمد بن الياس وفُلِج بكرمان وخالفه أولادهُ وقصده عضد الدولة رحل إلى خراسان ولقي صاحب خراسان وبرىء بعض البرء وصار نديماً له يعاشره ويؤانسه فسوّل له قصد ممالك الديلم وأطمعه فيها وزعم أن أصحاب جيوشه ليس يناصحونه ويقبلون الهدايا والرشى. فوافق ذلك ما كان يشكوه إليه وشمكير حالاً بعد حال فاتصلت المكاتبة بين وشمكير وبين صاحب خراسان وكذلك الحسن بن الفيرزان إلى أن وقعت المعاضدة والموافقة على أن يدبّر جميع الجيوش وشمكير. وأنفذ صاحب خراسان إلى وشمكير وإلى الحسن بن الفيرزان هدايا كثيرة من دوابّ وغلمان وآلات وسرّب إليهما أمداد الجيوش مع صاحب جيشه محمد بن إبراهيم بن سمجور وعلى أن يكون الرئيس على الجميع وشمكير. فورد من ذلك على ركن الدولة ما لم يكن في الحساب وعلم أن الأمر قد بلغ الغاية وليس إلا الفيصل فكاتب عضد الدولة يستمدّه الرجال والمعونة وكاتب عز الدولة بمثل ذلك. فأما عضد الدولة فأمدَّه بخيل عليها أبو جعفر بن روزمان وشخص بنفسه إلى إصطخر ليسير إلى خراسان وسير أحد حجّابه في جيش المقدَّمة إلى طُريثيث وأظهر في عسكره أن جيش خراسان قد ساروا بأجمعهم مع لفيف البلدان وغُزاتهم إلى الري وخراسان خالية وليس دون ملكها شيء واتصل ذلك بالقوم فأحجموا قليلاً. واتفق سقوط وشمكير بضربة الخنزير وموته فانتقض ذلك الأمر كله.

ذكر هذا الاتفاق العجيب

اتفق أن استعرض وشمكير خيله وما قيد إليه من جهة صاحب خراسان فكان في جملها فرس أدهم حسن الصورة فأعجبه وأمر بإسراجه وعزم على ركوبه والتصيُّد في ذلك اليوم. فدخل إليه منجّمهُ فنهاه عن الركوب فخالفه فلما أصحر عارضهُ خنزير قد أفلت من أصحابه وقد رُمي بحربة فثبتت فيه فحمل الخنزير على وشمكير وهو كالغافل فضربه وفرسهُ فشبَّ الفرس وسقط وشمكير على دماغه فخرج من أنفه وأذنيه دم وحمل ميتاً وذلك يوم السبت في أول يوم المحرَّم سنة ٣٥٧.

وقد كان بختيار عز الدولة اجتهد في إخراج سبكتكين مع جيش كثيف على الرسم فامتنع سبكتكين عليه فأوحشه بذلك واضطرب بختيار لأنه لم يجد من يطيعه في الخروج إلى أن انتدب الفتكين وقد كان يتلو سبكتكين في المرتبة وأحب أن يظهر في تلك الحالة فضلاً وحسن طاعة للمنافسة التي كانت بينه وبين سبكتكين فضم إليه جيشاً وورد الريّ وقد استغنى عنه فعاد.

ذكر سوء تدبير بختيار لمملكته ولنفسه حتى فسد جنده وطمعوا فيه ثم طمع أعداؤه أيضاً فيه وأفضى أمره إلى الهلاك

كان أبوه معز الدولة حسين أيقن بالتلف وصاه بطاعة ركن الدولة واستشارته في كل ما يعرض له من مهمٍّ وكذلك بطاعته لابن عمه عضد الدولة لأنه أسن منه وأقوم بالسياسة. ووصّاه بإقرار كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس فإنهما أكفى من غيرهما وأعرف بوجوه الخدمة. ووصاه بمداراة الديلم وإزاحة عللهم عند أوقات استحقاقاتهم لئلا يخرقوا هيبته بالشغب وطلب الفتن. ووصاه بالإحسان إلى الأتراك فإنه جمرة عسكره وإذا رابهُ من الديلم ريبٌ أمكنه أن يقمعهم به. ووصاه بعد الإحسان إلى الأتراك بكبار الحاشية وصغارهم وأن يجريهم على عادتهم ورسومهم. فخالف هذه الوصايا كلها واشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء وأوحش كاتبيه وضرَّب بينهما حتى استوحشا جميعاً منه وطمع في إقطاعات كبار حاشيته وفي سبكتكين خاصة وهو صاحب جيشه وكان معز الدولة وصاه بألاّ يقطع أمراً دونه وكان ذا إرب وسياسة وله رئاسة في العسكر قديمة متمكنة يهابهُ الجميع ويطيعونه واحتجب عن عسكره بما ذكرته من الشغل باللعب والسكر الدائم. وابتدأ بمناوأة عضد الدولة وذلك أنه منع صاحبه المقيم ببغداد من شري الدواب وآلات خدمته التي كان يستدعيها وجرت عادته بالتمكن منها وترك استشارة عمه ركن الدولة في كل ما عرض له. فكان من عاقبة ذلك أن سبكتكين صاحب جيشه لما أحسَّ بطعمه فيه وفي نعمته انقبض عنه فصار لا يركب إليه ولا يثق به واقتصر على التراسل على أيدي المتوسطين وكان لسبكتكين أصحاب أخبار في العسكر وفي دار بختيار خاصة وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطانته فكان لا يخفى عليه شيء من حركاته فضلاً عن تدابيره. فأما كاتباهُ أبو الفضل العباس بن الحسين وأبو الفرج محمد بن العباس فإنهما لما عرفا قصدَهُ في إفساد نية بعضهما لبعض (فقد كان بينهما قبل ذلك منافسة في المرتبة وتحاسد في النعمة) أخذا جميعاً أهبة التحرُّز منه وأخذ هو في الحيلة عليهما حتى أزال بأحدهما نعمة الآخر. ثم قبض عليه بأصاغر الحاشية وأداني الحشم ومكّن منهما الأوغاد والسفلة فاضطربت أحوال المملكة واضطر إلى الاستعانة بمن رفعه من السُقَّاط ومن لا يكمل للنظر في قرية ولا يصلح للتوسط بين نفسين فضلاً عن العسكر المضطرب فاحتلت أصول أمره وفروعها.

وأما كبار الديلم ووجوههم فإنه نفاهم عن مملكته طمعاً في إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فتبسَّط أصاغرهم واستلانوا جانبهُ وتحالفوا عليه وطالبوه بزيادة في رسومهم واضطر إلى النزول على حكمهم ثم عجز عن إرضائهم. وأما الأتراك فإنهم نظروا إلى ما تمَّ للديلم من التحكُّم فعملوا مثل عملهم من الاشتطاط والتسحُّب

والمواجهة بالمخاطبة الغليظة واضطر إلى التدبير عليهم والراحة منهم. وابتدأ بسبكتكين وكان متحرزاً متيقظاً فما تم له عليه شيء من تدبيراته فتحزب الأتراك وصاروا يداً واحدة. وتحركت الأحقاد والحفائظ التي كانت في نفوس الديلم على معز الدولة فبرزوا إلى الصحراء مع الأسلحة والجنن وساموه أن يثبت من أسقطهُ معز الدولة وأن يعطيهم أرزاقهم ويعجل لهم رزقة منسوبة إلى البيعة غير محسوبة. فجمع بختيار الأتراك إلى داره مع أسلحتهم ليعتصم بهم وترك الديلم في الصحراء ثلاثة أيام فغاظهم ذلك وازدادوا تباعداً في الاشتطاط عليه وفي الاشتداد بالمطالبة إلى أن نزل على بعض حكمهم وأعطاهم ثلث رزقة غير محتسب به.

وخيَّر أصحاب الإقطاعات بين الإقامة في أيديهم والتمسك بنواحيهم وبين تعريضهم منها وأثبت من الديلم الساقطين كل من كان صريحاً في الديلم أو صريحاً في الجيل دون من اختلط بهم ممن ليس منهم. فلما تمَّ لهم ودخلوا البلد اجتمع الأتراك أيضاً على الشغب فخرجوا إلى الصحراء واستدعوا الأصاغر من غلمان الحجر في دار بختيار حتى برزوا معهم وتحالفوا وتعاهدوا أن تكون كلمتهم متفقة وأن ينصر كبيرهم صغيرهم وقويُّهم ضعيفهم وقد كانت اجتمعت لهم أموال مسببة من تلك الزيادات المضافة إلى الأصول التي زادها معز الدولة فطالبوا بتوفيتهم ذلك كله وأن يسلك فيهم سبيل أبيه في الاستحجاب والتقويد والتنقيب والزيادة في المنازل والمراتب. ثم اتفق الديلم والأتراك على ألاّ يعارض كل فريق منهم صاحبه جميع ما التمسوه وإزاحة العلل فيه ولم يتسع لذلك ولا لبعضه فاضطر إلى مناظرة وزرائه على الاحتيال لهذا المال والنظر في جمعه من أين كان وكيف كان.

وكان أبو الفضل العباس أشد جسارة وإقداماً من أبي الفرج فضمن ذلك لهم واستعان بكاتب الفارسية شيرزاد بن سُرخاب وكان متمكناً من بختيار قريباً منه يسمع كلامه ويتدبر برأيه وضمن له مرفقاً على ذلك ومالاً يحمله إليه في كل سنة فسعى له شيرزاد في الوزارة ووعد بها وقيل له «إذا ظهرت كفايتك فيما ضمنته من إرضاء الجند وغيره كانت الوزارة مقصورة عليك» فأخذ في مصادرة الحاشية وألزمهم أموالاً علم أنهم يفون بها ولا يُجحف بهم وافتتح الخراج واجتهد حتى وفّى الديلم ما ضمن لهم وفرّق الأتراك في النواحي لتنجز تسبيباتهم فتم لهم أيضاً ما التمسوه وذلك لجمام الأمر وأنه كان مبدأ فوجد أموال الحاشية جامة النواحي في بقايا العمارة فمشى أمره في هذه السنة.

واتصل خبره بأبي الفرج محمد بن العباس وهو يومئذ بعمان وكان خرج إليها في حياة معز الدولة وكانت له بها وقائع بين العمانيين حتى استوسقوا له فلما عرف وفاة معز الدولة وطمع أبي الفضل في الوزارة وسعى شيرزاد له فيها لم يلبث أن سلَّم الناحية إلى

رجل من أهل عمان يعرف بابن نبهان وأظهر أن الأمر ورد عليه بالإفراج عن البلد وتسليمه إلى صاحب عضد الدولة وأقبل مسرعاً إلى العراق فلما قرب منها استقبله أصحاب أخيه أبي محمد علي بن العباس الخازن وكتّابه وكتُبه يشيرون عليه بالمبادرة وترك التأخر عن الحضرة قبل أن يتم لأبي الفضل العباس بن الحسين تقلد الوزارة فورد وصار الناس حزبين وطلب كل واحد منهما عثرات صاحبه وخطب الوزارة لنفسه. ثم تمكن أبو الفضل بمعاونة شيرزاد إلى أن تمت له الوزارة.

ذكر رأي صواب لبني حمدان رآه ناصر الدولة فخولف

لما سمع أولاد ناصر الدولة باضطراب بختيار وسوء سياسته وشغله عن تدبير الملك باللعب والسكر الدائم وشغب جنده وانخراق هيبته هموا بإخراج الأموال والانحدار إلى بغداد ومقارعه بختيار عن سرير الملك فقال لهم أبوهم ناصر الدولة: لا تعجلوا فإن معز الدولة قد خلف لابنه خميرة من المال يسيرة وسيفرّقها على جنده هؤلاء وسيجذب أيضاً كتّابه وعمّاله أيضاً من نواحيه ومن مصادرات أسبابه ما أمكنهم ولستم بمستظهرين عليه ولا متمكنين من دولته إلا بعد أن تفنى حِيلَه وتخلو يدهُ فإذا كان ذلك الوقت فانحدروا إليه وكاثروه بالمال وأفسدوا عليه قلوب الرجال فإنكم تملكونه لا محالة. وكان الرأي ما قال فإن معز الدولة كان أتلف ماله على البناء الذي أحدثه وعلى الأتراك الذين اصطنعهم وكان مقدار ما خلفه أربعمائة ألف دينار فأخرجها بختيار شيئاً بعد شيء عند الضرورات وعند اجتداد المطالبات. وكان كتّابه يستقرضون منه لهذه المهمات على أن يردّوا العوض عنه ثم لا يتمكنون من الوفاء حتى استغرقت النفقات والنوائب جميع ذلك بعد مديدة يسيرة.

واختلفت كلمة بني حمدان فشغلوا عن مشورة أبيهم وكان مبدأ الشر بينهم أن أبا تغلب قبض على أبيه ناصر الدولة لما رآه قد كبر ولم يبق فيه بقية غير سوء ....[1] والتقتير على أولاده وعلى حاشيته فلما قبض عليه أصعده إلى قلته ووكل به من يخدمه ويزيح علته في حاجاته. فامتنع بعض إخوته وانتشر النظام الذي كان يجمعهم فشغلهم حفظ ما في أيديهم عن طلب ما ليس لهم. واحتاج أبو تغلب إلى مداراة السلطان وتجديد عقد الضمان والتماس الخلع والعهد والعقد ليحتج بذلك على الجند ويستظهر به على إخوته المخالفين والموافقين فأنفذ كاتبهُ أبا الحسن علي بن عمرو بن ميمون حتى أخذ له من السلطان ذلك وبذل لبختيار ألف ألف ومائتي ألف درهم في كل سنة على الرسم وانصرف إلى صاحبه بقضاء حاجاته قرير العين بما تم على يده غير مفكر في شيء مما كان يهم به.

وفي هذه السنة تلاحق مشايخ الملوك بالموت وتتابعوا وكان مدخل القرن التاسع

(١) في الأصل كلمة غير واضحة.

فهلك معز الدولة أحمد بن بويه وقبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة وهلك سيف الدولة وهلك نقفور ملك الروم وهلك كافور صاحب مصر وهلك وشمكير بن زيار وهلك الحسن بن الفيرزان وهلك أبو علي محمد بن الياس وجماعة أمثالهم وبقي ركن الدولة من بينهم وعُمّر إلى أن استوفى أجله.

ودخلت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة

ذكر ما دبر كل واحد من الكاتبين في خطبة الوزارة وسعي كل واحد منهما على صاحبه

قد ذكرنا ما كان من أبي الفضل العباس بن الحسين من تمشيته للأمور في السنة التي مد يده فيها إلى الحاشية وما وجده في النواحي وما تأول به على العمال حتى أرضى الجند. فاستطال على بختيار وانطلق لسانه وزعم أنه قد أظهر الكفاية التي وعده بها وذكر أن دخل المملكة يعجز عن خرجها وأنه إن قلد الوزارة جبر هذا العجز وقام بالأمر كما قام به في تلك السنة وضمن لشيرزاد إذا تمم له الوزارة مآلاً. وشخص إلى الكوفة لتقرير أمور المقطعين بسقي الفرات فاجتهد له شيرزاد في الوزارة حتى أنعم له وبلغ أبا الفرج ذلك فشمر عن ساقه في فسخ نية بختيار وزعم أن الذي ذكره أبو الفضل من عجز الدخل عن الخرج لا حقيقة له وأن الأموال التي استخرجها ومشى بها الأمور إنما كانت من مصادرات الناس ومن بقايا في النواحي وأنه لم يؤثر أثراً ولا فتح فتحاً ولا استحق من المراتب ما لا يستحق مثله واتصل ذلك بأبي الفضل فوافى من الكوفة ركضاً وجرت بينهما مناظرات استقرت على أن يعمل كل واحد منهما عملاً لأصول الارتفاعات وما ينضاف إليه وعملا لأصول النفقات الراتبة وما ينضاف إليها من الحوادث لتعرف الصورة فيما اختلفا فيه ولازما الديوان مع كتابهما حتى ارتفعت هذه الأعمال. فأما أبو الفرج محمد بن العباس فإنه أورد في عمله أصول العقود على عبرها وأبواباً ينكسر بعضها ثم خفف النفقات الحادثة وحذف الاستظهار لها حتى لم يظهر العجز وقام الدخل بالخرج. وأما أبو الفضل فإنه وضع من الأصول ما نسبه إلى المنكسر وما ينظر به للضمناء واعتد بالزاجي دون التاوي واستظهر في تقدير النفقات الحادثة وزاد في مبلغه حتى أوجب في عمله عجزاً في الدخل عن الخرج. ثم حكى في عمله أنه يقيم وجوهاً لهذا العجز وأنه إن بقيت منه بقية نقلها في كل سنة إلى التي تليها على الرسم الجاري في ذلك. وتقابلا على حسابهما وتناظرا على الخلاف بينهما ووقف الكلام بين المتوسطين وفيهم شيرزاد على إبطال الوزارة والتراضي بالاشتراك في الكتابة. ثم جد شيرزاد سراً في أوقات خلواته ببختيار في السعي لأبي الفضل وبذل عنه لبختيار مالاً على سبيل الهدية وأعلمه أن فيه إقداماً وبسالة

يحتاج إليهما في الوقت وأنه ذو مال ويسار يزيد على مال أبي الفرج أضعافاً وأنه ذو حيلة وتأول وبطش وأبو الفرج صاحب تقشف وتوقف وتعقد وأن الأمر بمثله لا يمشي فلم يزل بهذا وأشباهه حتى أمضى بختيار العزيمة.

وقلد أبا الفضل الوزارة وخلع عليه القباء والسيف والمنطقة المحليين بالذهب وحمله على فرس بمركب ذهب وأقطعه إقطاعاً بخمسين ألف دينار على رسم الوزارة وضم إليه عدداً كثيراً من الديلم على رسوم الوزراء. فصار إليه أبو الفرج مسلماً وأظهر الامتناع من العمل وكره أبو الفضل ذلك لأنه أحب أن يجري على رسمه في تقلد الديوان ليشغله عن تتبعه والطعن عليه وأيضاً ليراه بعين من يعدو ويروح إليه وينحط عن رتبة المساواة التي كان فيها إلى رتبة الاتباع. وكره أبو الفرج جميع ذلك فخوطب فيه واعلم أنه إن لم يصبر على هذه الحال والقناعة بها انقطعت العلائق بينه وبين صاحبه بختيار ونصب للديوان غيره ثم يكون مطَّرحاً بعرض النكبة وربما تأدى الأمر إلى أكثر من ذلك من تسلط أعدائه عليه وانبساط أيديهم فيه وفي أعزته فاستجاب إلى عمل الديوان واستونف بتقليده إياه وخلع عليه الدراعة على رسم الكتابة. وكان مما وفره أبو الفضل في وزارته إقطاعات استرجعها من قوم مثل أبي الفتح أخي عمران بن شاهين ومثل أبي عبد اللّه الأيسر المعروف بالجبّ ثم تجرد للأهواز ومحاسبة آزاذرويه وكتابه.

واتفق في وزارته أن أظهر الحبشي بن معز الدولة عصيان أخيه وطمع في البصرة والتفرد بها.

ذكر السبب في عصيان الحبشي وتمكن أبي الفضل منه وحصول أمواله وذخائره وأسبابه له

لما توفي معز الدولة احتوى على الحبشي ابنه بالبصرة جماعة من حاشيته وجند البلد وأطمعوه في البصرة وأقاموا في نفسه أن المال الذي يرتفع من البصرة ينصرف معظمه إلى الجيش المقيمين بها وباقيه مصروف إلى نفقاته وليس يبقى بعد ذلك إلا ما لا يستكثر أن يجعل حظه من ميراث أبيه ويغضي عنه. ثم أوهموه مع ذلك أن أخاه بختياراً لا يتمكن من الوصول إليه مع حصانتها لوهم بذلك فابتدأ يستبد بالأموال والأمور ويستولي على العمال ويتحيفهم. وكان مغيظاً على عامل البصرة الحسين بن الحسن المكني أبا طاهر فعمل على القبض عليه والتشفي منه وإزالة الحشمة فيه ونمى الخبر إلى العامل فهرب إلى الحضرة. وكتب الحبشي في أثره إلى بختيار يذمه ويطعن عليه وينسبه إلى الخرق والجهل وأنه لم يخف شيئاً أنكره ولكن قصد التشنيع وذكر في الكتاب أنه قد تقدم بحفظ الأعمال والأموال إلى أن يعود فيجري على رسمه في التدبير لها. ثم سأل في هذا الكتاب أن تسلم إليه المدينة ويخلي بينه وبين تدبيره وأن يواقف على ارتفاعه

ويحتسب له بنفقاته التي تخصه وبأموال الجند المقيمين بحضرته وإن بقيت بقية سُبّب عليه ليزيح العلّة فيها فأجابه بختيار بالتصديق لقوله ووعده أن يعمل بمحبته. ثم زاد تبسط الحبشي حتى كان يشرق الأمر ويظهر الخلاف وكتب إليه بختيار بالتأنيس والاستمالة والمعاتبة اللطيفة وأعلمه أن وزيره العباس بن الحسين شاخص إلى الأهواز وأنه سيراسله منها ويبلغ محابه في الأمور التي التمسها. وندب وزيره العباس للشخوص وأمره بالحيلة عليه حتى ينتزع البصرة من يده إما مكراً وخديعةً وإما حرباً ومكاشفة فاستخلف أبا العلاء صاعد بن ثابت النصراني بالحضرة وانحدر وأخذ معه أبا الفرج محمد بن العباس صاحب الديوان وأبا سهل ديزويه العارض وجرد معه عسكراً وأزاح علته في السلاح والجنن والآلات سراً. فلما وصل إلى واسط أقام بها شهراً ونظر في أمورها ومصالح أعمالها ومظالم أهلها وأظهر أنه راحل إلى الأهواز وكتب إلى ليلى بن موسى فياذه وكان بالأهواز يأمره بالاستعداد لقصد البصرة والمسير إلى بيان وقدم حديدياته وسفنه على أن فيها أثقاله وكانت مملوة بالسلاح وأمر أصحابه المنحدرين فيها بأن يتجاوزوا الأبلة ولا يدخلوها ويقصدوا بيان ويظهروا أنهم يحملون ما معهم إلى الأهواز على طريق حصن مهدي وحدر الطيارات والزبازب تفاريق. وكتب إلى أحمد بن محمد المعروف بالطويل بأن يصير إلى بيان وكان يتقلد حصن مهدي وأن يحفظ هذه الآلات واطلعه على التدبير.

وكتب إلى الحبشي بن معز الدولة من واسط بأنه يفعل كل ما يوثره ويهواه ويتحمد عليه بأن مصيره عاجلاً إلى الأهواز ليستدعي كاتبه إليها ويوافقه على ارتفاع البصرة ويسلمها إليه وأومأ في آخر الكتاب إلى التماس صلح منه على ذلك ويقول في جملة تعريضاته « أنه قد التزم عن الوزارة غرماً ثقيلاً » ويسأله معونة بما يحمله إليه فسكن الحبشي إلى قوله ووعده وحمل إليه عاجلاً مائتي ألف درهم ولم يشك أنه قد اشترى بها منه البصرة فلما وصلت إليه أنفذها إلى بختيار. ورحل كأنه يريد الأهواز إلى الحويزة ونهر العباس ثم عدل عنها إلى البصرة وكان للحبشي رسل قد أنفذهم بأطيار ليكاتبوه بخبره فأرسلت الأطيار إليه بخبره فثار الحبشي وهاج ولم يملك نفسه وأظهر المنابذة والخلاف.

واستوحش من كان بالبصرة مقيماً من الغلمان الأتراك في تسبيباتهم فهربوا إلى بيَّان فصادفوا بها عسكراً قوياً مع ليلى بن موسى فياذة وأحمد الطويل فانضموا إليهما وكانت قد حصلت الزبازب عندهم والملاحون والجنن والآلات والسلاح. وأخرج الحبشي عسكره إلى الأبلة ورتب غلمانه وأثبت من عشائر العرب قوماً رتَّبهم على أفواه الأنهار وقلد حاجباً له تركياً يقال له بكتيجور رياسة عسكر الماء وجعل اسفهسلار الديلم في عسكر الظهر صعلوك بن با طاهر أحد وجوه قواد البصريين. فلما ورد الوزير أبو الفضل عسكر أبي جعفر وجّه إلى ليلى بن موسى فياذة وإلى أحمد الطويل ومن معهما يأمرهم أن يشحنوا تلك الزبازب والطيارات بالرجال والسلاح ويصعد إليه على تعبية من جانب

دجلة الشرقي المعروف بالفرات ولا يعبروا في طريقهم إلى الأبلة ولا يقاتلوا أصحاب الحبشي ولا يهيجوهم إلى أن يصلوا إليه فيضيف إليهم من معه من الخواص والغلمان وقد كانوا مستقلين بنفوسهم ومن حصل عندهم من الأتراك الذين هربوا إليهم من البصرة وأقام ليلته ينتظرهم وتعذرت الميرة عليه وانقطعت المادة عن عسكره وتحير في أمره حتى لو تأخر الفتح يوماً لما أمكنه المقام ولاحتاج إلى الرحيل فتكون هزيمة عليه. فلما كان الغد أصعد ليلى بن موسى والجماعة على أهبة وتعبية وعملوا على امتثال الأمر وترك التعرض لمن في طريقهم من أصحاب الحبشي فلما جازوا الأبلة خرج أولئك نحوهم وبدأوهم بالحرب فعدل حينئذٍ ليلى بن موسى ومن معهم إليهم وواقعوهم وغرقوا عدة من زبازبهم واستأمنت عدة أخرى وهرب بكتيجور صاحب الحبشي ناجياً بحشاشته واشتملوا على بقية عسكر الماء. ثم طمعوا في الظهر فتقدموا إلى الديلم هناك وقاتلوهم ساعة ثم تهيأ لطائفة أن صعدوا إلى شاطئ الأبلة وصاروا في ظهورهم فاضطربوا وانهزموا وقتل منهم نفر وانهزم قوم واستأمن آخرون وملكت الأبلة.

وأنفذ ليلى غلاماً له في بعض الزبازب إلى الوزير أبي الفضل مبشراً بالفتح فالتمس السفن والزبازب وعبر إلى قرية فوق الأبلة وعسكر بها وكتب إلى الحبشي يشير عليه بالخروج إلى الأهواز فالتمس منه الأمان والتوثقة فآمنه على النفس والولد والحرم وتوقف عن ذكر المال والحال فتنبه الحبشي على ذلك وترددت فيه الرسل فلم يسكن ولم يخرج. فعبى الوزير أبو الفضل عسكره وزبازبه وزحف إلى البصرة وملك منها الموضع المعروف بالسيالجة ولم يزل ينفذ إليه رسولاً بعد رسول من شجعان الأتراك والديلم ويأمرهم أن يقيموا عنده ويتوكلوا به ولا ينصرفوا بالجواب إلى أن أحاط به منهم بضعة عشر رجلاً بالسلاح ثم أنفذ أبا سهل ديزويه العارض في طائفة وافرة من العسكر فدخلوا إليه وأخرجوه إخراجاً بين الجميل والقبيح وحمل معه أهله وولده وما خف من ماله وجواهر كانت له فلم يوصله الوزير إليه وأمر بأن يسلم إلى أحمد الطويل ليصير به إلى حصن مهدي ففعل ذلك وأقام هناك معتقلاً أياماً ثم حمل إلى الأهواز وبقي مدة أخرى ثم إلى رامهرمز واعتقل بها اعتقالاً جميلاً ثم أزيل التوكيل عنه وحمل إلى عمه ركن الدولة بحديث يطول ولا فائدة في ذكره ثم حصل عند عضد الدولة فأقطعه اقطاعاً يسعهُ ومن معه وأمره أن يحصل بسابور وهي كورة من كور فارس نزهة كثيرة العيون والأشجار والصيد فأقام بها إلى أن توفي في آخر سنة ٣٦٩.

وملك الوزير أبو الفضل البصرة عنوة وأنفذ إليه بختيار خلعاً جليلة فلبسها وركب فيها ونصبت له القباب فانبسطت يده وقوي سلطانه وصادر أصحاب الحبشي وكتابه وحاشيته ومعامليه وارتجع منه منه كان حمله معه من المال والجواهر واستخرج من

الأموال شيئاً كثيراً وظفر بخزائنه كلها فكان في جملتها خزانة كتبه وفيها خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء والمشرس غير المجلد ووجد له من خزائن الأسلحة والفرش والثياب الفاخرة والآلات شيئاً يستكثر لمثله فحمل ذلك كله إلى بختيار وقلد بختيار ابنه المرزبان البصرة وسنه ثمان سنين واستكتب له أبا الغنائم المفضل بن أبي محمد المهلبي وهو خال ولد الوزير أبي الفضل.

وفي هذه السنة ظهرت دعوة بين الخاص والعام يدعي فيها إلى محمد بن عبد اللّه القائم من أهل بيت رسول اللّه ﷺ وقيل إنه الرجل الذي ورد بذكره الخبر وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد أعداء المسلمين ويجدد ما عفا من رسوم الدين فتطلعت إليه نفوس العامة وجعل دعاته يأخذون البيعة على الرجل بعد الرجل فمن كان من أهل السنة قيل له إنه عباسي ومن كان من أهل التشيع قيل له إنه علوي وكتبت عنه رسالة على عدة نسخ وطرحت في المساجد والمحافل يدعو فيها إلى مثل ما حكيناه عنه فحصلت نسخة منها عند الوزير أبي الفضل في أول وزارته فتقدم بإذكاء العيون على الطائفة الخائضة في هذا الباب والقبض على من يوجد منها ثم انحدر قبل أن يظفر بأحد منهم وتقدم إلى خليفته أبي العلاء صاعد بن ثابت بالجد في طلبهم. فلما نظر في ذلك وجد جماعة من وجوه الكتاب وأماثل الناس قد دخلوا في هذا الأمر وبايعوا الدعاة إليه وكذلك وجدوا خلقاً كثيراً من الديلم والأتراك والعرب قد بايعوه وكان فيهم سبكتكين العجمي أحد أكابر القواد قواد معز الدولة ممن قاد الجيوش وتقلد الأعمال وكان شجاعاً مطاعاً جواداً نازلاً عند الأتراك بمنزلة من لا يخالف في الرضاء والسخط وكان يتشيع وقيل له إن الرجل علوي وإنه يقلدك إمرة الأمراء فاستجاب واستفحل أمر القوم.

ذكر السبب في اضمحلال أمره حتى ظفر به وبأسبابه ودعاته وجميع من دخل معه في بيعته

كان هذا الرجل محمد بن المستكفي طرأ إلى مصر فتقبله كافور الإخشيدي الخادم وأحسن إليه وأجرى عليه رزقاً سنياً فكاتب جماعة من أصحابه بالدعاء إليه فجرى أمره كما حكيناه فلما كثر المستجيبون له وهم لا يعرفونه وتقووا بمكان سبكتكين العجمي كاتبوه بالحضور وكتب إليه سبكتكين: إني أقوم لك بالأمر. فورد هيت وهو لا يشك أن الأمر مستقر له ومستتب على إرادته. وخرج سبكتكين العجمي وكان يتقلد حماية طريق الفرات إلى الأنبار وأظهر للسلطان أنه ينظر في مصالح عمله فتلقاه وترجل له وأكرمه ثم أدخله البلد مستتراً وأنفذ إليه فرشاً فاخراً وثياباً نفيسة وطعاماً كثيراً وشراباً. وعمل على إيقاع حريق وفتنة في ليلة النيروز المعتضدي لتشاغل الناس بذلك ويهجم على بختيار ويوقع به وواطأه على ذلك خلق من الجند فظهر له قبل النيروز أنه عباسي وليس بعلوي فتغيرت نيته وتصوره بصورة المحتال وواجه بعض أولئك الدعاة بذلك وأعلمه أنه كذاب مموّه وتثاقل

عن نصرته وأظهر الندم. وخاف محمد بن المستكفي أن يقبض عليه وأحس أصحابه ودعاته بذلك فاستوحشوا وتفرقوا فبعضهم هرب إلى ناحية السواد وبعضهم أمعن في الهرب وعرف السلطان خبرهم فكاتب العمال بالتيقظ في طلبهم وإذكاء العيون عليهم فظفر ببعضهم فأمر بتقريره بالسوط فأقر على جماعة أخذوا ولم يزل التتبع يقع حتى حصل محمد بن المستكفي وأخوه فأوصله بختيار إليه واستشرحه الأمر فشرحه بعد أن آمنه على نفسه. فالتمس المطيع للّه من بختيار أن يسلمه إليه مع أخيه فأبى عليه ودافع عنه وقال: قد آمنته. فبذل المطيع للّه لهما الأمان على النفس فلما حصل الجميع في يده تقدم بجدع أنف محمد بن المستكفي وقطع أنف أخيه وحبسهما مدة ثم هربا وخفي خبرهما ووقع الاستقصاء على كل من دخل في بيعته فصودروا وأدّبوا ضروب التأديب ولم يقع الإقدام على سبكتكين العجمي ولا على أحد من وجوه الجملة وإنما خوطب سبكتكين خطاباً خفيفاً فجنح في الجواب إلى الإنكار وأغضى عنه وعن الجند.

وفي هذه السنة صفت كرمان لعضد الدولة وملكها وفتح قلعة بردسير وهي خزانة أبي علي بن الياس التي جمع فيها ذخائره على مر السنين من الأموال والجواهر والأمتعة الفاخرة.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو علي بن الياس لما عاود كرمان بعد إبراهيم بن كاسك جرى مجرى بعض المتصعلكين وآمن ناحية عماد الدولة علي بن بويه لما ذكرناه فيما تقدم فشارك اللصوص وصعاليك القفص والبلوص فحصل عنده على طول السنين من جهتهم مال عظيم في القلعة التي وصفناها. ولما مات علي بن بويه عماد الدولة وترعرع عضد الدولة فناخسره كان في نفسه من هذه القلعة مالاً يظهره فلما استوحش اليسع بن محمد بن الياس من أبيه صار إلى عضد الدولة وأقام عنده حتى أصلح له نية أبيه وعاد إليه فوعده بولاية العهد ورياسة العسكر. ولما كان في هذه السنة وقع القفص على قافلة عظيمة وغنموا أموالاً عظيمة للتجار فخرج إليهم محمد بن الياس يطلب نصيبه من غنيمتهم فأصابه في الطريق علة الفالج ورُدّ إلى منزله واستمرت به العلة فجمع أكابر أولاده وهم ثلاثة اليسع وسليمان والياس فخاطبهم بما ظن أنه يجمع كلمتهم واعتذر إلى اليسع من النبوة التي سبقت منه حتى فارقه ثم جمع إليه تدبير عسكره وولاية عهده ومن بعده اليأس فأما سليمان فإنه أشار عليه بأن يرجع إلى بلده وهو الصغد وأظهر له تذكرة فيها ثبت دفائنه وودائعه هناك وأراد بذلك إبعاده عن اليسع لعداوة كانت بينهما فأظهرت الجماعة قبول أمره والانتهاء إلى رأيه. وشخص سليمان نحو الصغد بما قسمه له فلما صار بظاهر المدينة عدل عن ذلك السمت وقصد القفص وطلب منهم ذلك القسم الذي كان أبوه شخص لتسلمها فتم له الوصول إليه وأخذ منهم مالاً جليلاً واستضم إلى نفسه جماعة

منهم ليقوى بهم ثم عاد إلى السيرجان وكان يتولاها من جهة أبيه. فلما بلغ أباه ما صنع غضب من مخالفته إياه واغتاظ منه فأمر اليسع بطلبه وقواه بالرجال وقد كان العسكر مطيعين له وأمره أن يضطره إلى الخروج إلى الصغد أو معاودة حضرته ليقبض عليه ووصاه إن خرج نحو الصغد أن يخلي له الطريق ولا يتبعه. فخرج اليسع إلى السيرجان وتحصن سليمان منه واقتتلا أياماً ثم استظهر اليسع فحمل سليمان جميع ما كان حصل له وخرج من باب من أبواب المدينة قاصداً خراسان فتركه اليسع امتثالاً لأمر أبيه وعاقب جماعة من أهلها الذين كانوا عاونوا سليمان عليه ثم صفح عنهم.

ذكر اضطراب أمر اليسع مع أبيه حتى استبدل به وما آل إليه أمره حتى أخرج أباه إلى خراسان مكرهاً

كان في جملة محمد بن الياس رجل يعرف بعبد اللّه بن مهدي ويقل ببسُّوَيه شديد الغلبة عليه والتمكن منه وبينه وبين اليسع وحشة متأكدة فخافه على نفسه فاجتمع مع إسرائيل المتطبب وكان أيضاً مكيناً عنده ومهندس كان معه يقال له المرزبان على إفساد نية أبي علي بن الياس على ابنه اليسع وشككوه فيه وحركوا ما كان في نفسه قديماً منه وأشاروا عليه بأن ينقض ما عقده له من تدبير جيشه ويجعله لحاجب من حجابه يقال له ترمش ليكون الأمر غير خارج عن يده ما دام حياً وليكن غلامه صاحب جيشه فيتصرف معهم على رأيه فقبل منهم هذا الرأي وكتب إلى اليسع بأن ينكفي إليه واستدعاه إلى القلعة وكان لا يصعدها إلا وحده دون كل أحد على رسم القلاع. فلما حصل عنده وليس فيها إلا هو وهؤلاء الثلاثة ونفر من ثقات أصحابه وجماعة حرمه وجواريه قبض عليه وقيده وفوض أمر الجيش إلي ترمش الحاجب فلم يجتمعوا عليه ولا رضوا به. فمشت والدة اليسع إلى والدة الياس وقالت لها: إن صاحبنا كان عقد لولدينا عقداً هو الصواب لكنه قد اختل عقله وعزب رأيه بهذه العلة وغلب عليه هؤلاء الثلاثة وتم لهم على ابني ما سيتم مثله على ابنك وحينئذٍ تخرج هذه المملكة عن آل الياس وتنتقل إليهم وإلى من نصبوه (يعني ترمش الحاجب) والصواب أن تساعديني على تخليص ولدي ليكون الأمر جارياً مجراه الأول فساعدتها وقبلت رأيها.

وكان ابن الياس ربما أغمي عليه في علته فاتفقت المرأتان على أن جمعتا الجواري وكان عددهن كثيراً وقصدن عبد اللّه بن مهدي بسوية ليوقعن به فاتفق له أن أفلت وهرب واستنقذن اليسع وعالجن قيده فلم يكملن لكسره وخشين فوت الأمر فاتخذت له أمه حبالاً متينة من ثياب ديباج حتى تدلي من القلعة إلى الأرض لأنها لم تتمكن من إخراجه من باب القلعة فلما حصل في الأرض رآه بعض الجند فكسر قيده وأعطاه دابته فركب وتوسط العسكر فاستبشروا به وعادوا إلى طاعته وخدمته. وهرب ترمش الحاجب وجمع اليسع الجيش ليسير بهم إلى تحت القلعة ويحاصرها ويتغلب عليها وكان الشيخ في جميع

ذلك مغمي عليه لا يعقل شيئاً مما جرى فلما أفاق من غمرته وعرف الصورة راسل اليسع واطلع عليه وسأله أن يكف عنه ويؤمنه على نفسه وحرمه ومن معه حتى يسلم إليه القلعة مع جميع أعمال كرمان ويرحل إلى خراسان ويكون عوناً له هناك متى احتاج إليه. فأجابه ابنه إلى ذلك ومكنه من جميع ما أراد فاحتمل مائة وقر من المال والثياب والجوهر وفاخر المتاع واستصحب ثلاثمائة غلام من غلمانه وما احتاج إليه من الآلات والكراع وشعّث القلعة وأحرق بقية ما كان فيه من الآلات والكسوة ورحل فلم يؤاخذه اليسع بما فعل بل احتمله ووفى له بالأمان الذي بذله له وتركه حتى نفذ إلى مقصده. وتسلم اليسع القلعة وظفر بأولئك النفر الثلاثة وسلمهم إلى كاتبه ومدبر أمره أبي نصر محمد بن إسماعيل البمّي وأمره بمطالبتهم فاستخرج منهم مالاً عظيماً. وتلف إسرائيل الطبيب ثم وجه للمعروف ببسويه كتاباً كتبه إلى خراسان فيه الإغراء به والدم له وكان قد عفا عنه فأعاده إلى العقوبة حتى هلك فيها.

وابتدأ فناخسره عضد الدولة في نخبيب رجال ابن الياس فاستأمن إليه أكثر الديلم والأتراك وكان حينئذٍ أبو علي بن الياس بخراسان يطمع صاحبها في مملكة الديلم فكان من عاقبته ما شرحناه من موت وشمكير وغير ذلك. وتفرّغ عضد الدولة لقصد كرمان ودس إلى كل من له رأي أو نجدة من خبّبه وأصلح قلبه له ثم توجه إليها فافتتحها ودخلها في شهر رمضان سنة ٣٥٧ واستولى على جميع أعمالها وملك قلعة بردسير وهي عظيمة فيها عدة قلاع متصلة بعضها ببعض وانهزم اليسع إلى خراسان وصادف وصول اليسع إلى خراسان موت والده فاحتوى صاحب خراسان على ما سلِم معه من بقية ماله وكراعه. ولما تمّ لعضد الدولة فتح كرمان واتصل خبره بصاحب سجستان كاتبه وترددت بينهما الرسل حتى صالحه وخطب له وهو أبو أحمد خلف بن أبي جعفر المعروف بابن بانويه. وأنفذ إلى عضد الدولة من الحضرة ببغداد عهد الخليفة وخِلعهُ من الطوق والسوارين والعقد على أعمال كرمان كلها فقلد عضد الدولة هذه الأعمال أكبر أولاده أبا الفوارس شيرزيل واستخلف له عليها كوركير بن جستان وكان وجه قواد عسكره وانصرف إلى شيراز.

ودخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

وفيها استأمن حمدان بن ناصر الدولة إلى بختيار ودخل إلى مدينة السلام.

ذكر السبب في ذلك

كان ناصر الدولة قلد حمدان ابنه الرحبة وسوّغه ارتفاعها وكان أبو تغلب وأخوه أبو البركات وأختهما المسماة جميلة بني زوجته فاطمة بنت أحمد الكردي وكانت مالكة أمر أبيهم فاستولى أبو تغلب على مالها وأموال ناصر الدولة وقلاعه وكانت هي مدبرة جميع ذلك وتطابقت الجماعة على الشيخ وغلبوه على جميع ذلك ولم يكن له بهم طاقة لتناهيه

في الكبر والضعف فابتدأ يدبر القبض عليهم وكاتب ابنه حمدان ليستظهر به ويعتمده فيما همّ به فظفروا بكتابه هذا ولم ينفذوه وزاد ما بينهم شروقاً وانفراجاً حتى خافوه ودخل معهم في الخوف كاتبه وأكابر غلمانه الذين تابعوا أبا تغلب فاجتمعوا وقبضوا عليه ليلاً وحملوه إلى القلعة. واتصل ذلك بحمدان فامتعض لأبيه وكان عدوّا مبايناً لإخوته هؤلاء وهو أشجع أولاد ناصر الدولة وأفرسهم وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها ثم سار من الرقة إلى نصيبين. واستفز على أبي تغلب من أطاعه من أهله وإخوته وجندهم وطالبهم بالإفراج عن أبيه وردّه إلى منزله وأمره فتوجه إليه أبو تغلب فانهزم حمدان من بين يديه قبل اللقاء وتحصن بالرقة ومنها في الرافقة ونازله أبو تغلب عليها طويلاً ثم اصطلحا على ذحل وعاد كل واحد منهما إلى موضعه.

وعاش ناصر الدولة شهوراً ومات في سنة ٥٨ واستعمل أبو تغلب وعمّاله كل قبيح مع حمدان في ضياعه وأملاكه وطرد عنها وكلاؤه وانخرقت الحشمة بينهما فأنفذ إليه أخاه أبا البركات في جيش كثيف فلما قرب منه استأمن إليه معظم أصحاب حمدان فخرج عن البلد منهزماً واحتمل حرمه وعياله وغلمانه ومن تبعه وورد هيت مستأمناً إلى بختيار وكتب إليه يستأذنه في الدخول فأجابه بالإذن والقبول وخرج فتلقّاه ومعه سبكتكين الحاجب وجماعة جيشه وأنزله في دار حسناء وفرشها فرشاً فاخراً وحمل إليه هدايا من مال وافر وثياب فاخرة وطيب وفرش وبغال ودواب بمراكب ذهب وفضة وتكفل بالتوسط بينه وبين أخيه أبي تغلب وأنفذ إليه أبا أحمد الحسين بن موسى الموسوي نقيب الطالبيين برسالة في الصلح فتم بينهما وحلف لكل واحد صاحبه وشخص حمدان إلى الرحبة وحمل إليه بختيار هدية مثل الأولى وزيادة مع جمال وآلات السفر فرحل وشيعه بختيار مع جيشه ثم عاد مستأمناً دفعة ثانية على ما سنذكره.

وفي هذه السنة ورد الخبر بدخول جوهر صاحب أبي تميم العلوي صاحب المغرب مصر فاشتمل عليها وتقطع جيش كافور وجماعة الإخشيدية وتمزّقوا.

وفيها نفي شيرزاد بن سرخاب كاتب الفارسية عن مدينة السلام

ذكر السبب في ذلك

كان شيرزاد مستولياً على بختيار كما حكيناه وأسرف في التجبر وحلف بختيار على أن لا ينفذ عزماً ولا يقرر أمراً إلا بعد مشاورته ورضاه وتحقق بالجندية وادّعى الشجاعة وأعاره الناس من ذلك ما لم يكن عنده تقرباً إليه وكثر تعلقه بالأموال والتلاجي وشره إلى اكتساب الأرباح من غير وجوهها ولم ينقبض عن شيء همّ به ولم يمكن أحد أن يعتصم منه. ومنع بختيار من عطاياه التي كان يبذلها للديلم والأتراك وقوّي عزيمته على الثبات والتماسك وخاض معه في إيقاع حيلة على سبكتكين الحاجب وقيل إنه واطأ

بعض الديلم على الفتك به إذا حضر الدار ليتسع بأمواله ونعمته. وعزم على تقلد الجيش والتسمية بالإسفهسلار فبلغ ذلك سبكتكين وامتنع أن يلقى بختيار أو يدخل داره إلا في الأحايين البعيدة على تحرُّز واستظهار. وثقل أمر شيرزاد على الجند لأن بختيار كان عوّدهم ألا يردهم عن شيء يلتمسونه من واجب ومحال وقليل وكثير فمنعه شيرزاد من ذلك وناصبه الكُتَّاب أيضاً العداوة للخوف من شره وانقباض أيديهم عمن يلتجي إليه وكثر الدعاء عليه من أفناء الناس. واجتمع الأتراك على عداوته وصاروا ينسبون كل حال يكرهونها وينكرونها إليه وأخذ الوزير أبو الفضل يتحرز منه لما فسد بينه وبينه ويستميل الأتراك ويوسع عليهم فمشى بعضهم إلى بعض وتوافقوا على الفتك به ثم رأوا أن يستأذنوا سبكتكين الحاجب فقصده جماعة لذلك. ونمى الخبر إلى بختيار فتقدم إليه بالمصير إلى سبكتكين واستصلاحه وطرح النفس عليه ومسألته كفّ القوم وضم إليه الوزير أبا الفضل ليعاونه وبينهما إذ ذاك منافقة لم ينهتك سترها فقصدا سبكتكين ووجدا طائفة كثيرة من الأتراك عنده يستأمرونه في قتل شيرزاد فلم يأذن لهم ولكن أمرهم بتخويفه حتى يهرب وإلا يقارّوه بالحضرة فأمسكوا عن قتله بعد أن هموا به. وكان يجري أمره مجرى صالح بن وصيف بسرّ من رأى أيام المهتدي بالله.

فلما وصل شيرزاد وأبو الفضل الوزير إليه وخاطباه وتضرعا إليه صدقهما عن الصورة وأعلمهما أنه لولا خطره على الأتراك لقُتل شيرزاد ولما تركوه أن يصل إليه وأشار عليه بالرحيل من ساعته إلى حيث شاء. فخرج وهو يائس من صلاح حاله وخائف على مهجته فصادف الأتراك مجتمعين في دار سبكتكين يموجون في أمره ويتوعدونه ويغلظون له ويشتمونه فأسرع الخروج إلى حضرة بختيار وعرّفه ما جرى ثم التف إلى الوزير فأسمعه غليظ ما يكره وقال له: هذا من عملك وتدبيرك. فحلف له بالطلاق على براءته مما ظنه به فأجابه بيمين الطلاق أنه كاذب في جحوده.

ثم خلا بختيار بشيرزاد فحذره شيرزاد من الوزير أبي الفضل وعقد معه عقداً وعهداً إليه عهداً في صرفه عن الوزارة والقبض عليه واستصفاء نعمته ونِعَم أسبابه ووافقه على أن يحرس عليه بعد خروجه دارهُ وأهله وولده وضياعه وأن يوقع عليه اسم ابنه سلار بن بختيار لتنحسم عنها اطماع الديلم والجند إلى أن يستصلح نيات الأتراك ونيات سائر العسكر ثم يعود إلى حاله ويجري على رسمه في الخدمة وانحدر في الوقت إلى الأهواز ثم صار منها إلى أرجان وبها يومئذ الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد. وكان حاجبه روين قريباً لشيرزاد وكان قد توفي ففجع به جداً ووجد به وجداً شديداً فلما وصل إليه شيرزاد رأى فيه شبهاً منه وتخيل فيه شمائله فعطف عليه وتحفّى له وأكرمه وحمل إليه مالاً وكسوة وكتب له إلى ركن الدولة كتباً مؤكدة ووعده بتوسط أمره وأشار

عليه أن يخرج إلى حضرة ركن الدولة بكتبه ويقيم ببابه إلى أن يرد بنفسه فيتوسط أمره فاتفق أن خرج إلى الري وتوفي بها.

وكان من سوء ملكة بختيار وقلة وفائه إنه ثاني يوم خروجه قبض اقطاعه وضياعه وأملاكه وجواريه ودوره ونكب كاتبه وأسبابه واستثار أمواله وودائعه ونقل ابنه سلار إلى داره وسلم إليه اقطاعه لا على الأصل الذي قرره معه شيرزاد بل على أن يصير له ذلك خاصة يتوفر عليه. وحكى أيضاً أن نفي شيرزاد كان في سنة ٣٥٩ ثم إنه بعد شهرين من نفي شيرزاد قبض على وزيره أبي الفضل العباس بن الحسين وكتّابه وأسبابه واستصفى أموالهم وقلد الوزارة أبا الفرج محمد بن العباس وقلد الدواوين أبا قُرة الحسين بن محمد القنّائي.

ودخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

ذكر السبب في القبض عليه

كان أبو الفضل الوزير استخدم أبا قرّة وهو رجل من دير قُنّى حسن الذكاء قد نشأ بين كتاب واسط وعمّالها وتخرّج معهم واختص بأحمد بن علي القُنّائي فتمهر ولم يزل يتدرّج في التصرف حتى تقلد واسط رئاسة من قبل السلطان فاقتنى أموالاً جليلة وصارت له نعمة ضخمة وكان شديد الجرأة على السلطان يقدم على أمواله إقداماً لا يقدم عليها غيره هذا مع اهتداء إلى وجوه الحيل عليه ومعرفة بوجوه الارتفاق والإرفاق فإنه كان يُرفق الوزراء والعمال باليسير ويتوصل به إلى الارتفاق الكثير. فاضطر أبو الفضل في وزارته لبختيار عند الحاجة والإضاقة إلى معاملته وكان يشتري منه غلات القضيم بالثمن الزائد ويحتسب له بالمال غلات ضمانه يسعرها في وقت البيدر فربما قام عليه السكر بثلاثة أكرار هذا إلى أمثال ذلك في معاملات الحنطة وغيرها وعظمت نعمته وتمكن من رعيّته بواسط فانبسطت يده عليهم فتأوّل عليهم وقوي بأموالهم. وكان الواحد منهم إذا تظلّم منه لم ينصف وردّ إليه أمره فيبسط المكروه عليه فصارت رعيته تشكره على طريق الخوف منه.

ولما غاب أبو الفضل الوزير إلى الموصل أيام معز الدولة مكّنه واستخلفه ببغداد ووصل بينه وبين شيرزاد كاتب الفارسية ليعزه ويمنع منه مراغمة أبي الفرج محمد بن العباس. فكان أبو قرة يُهدي إلى شيرزاد ويلاطفه ويكثر وجوه المرافق والمبارّ له ليمنع من الاستيفاء عليه وتأكدت الحال بينهما حتى انقطع إليه ولم يتمكن أحد من الرجلين منه أعني أبا الفرج وأبا الفضل وكانا يومئذٍ كاتبين لا يتسمى أحد منهما بالوزارة طول أيام معز الدولة. وكان أبو قرّة يرفع حسابه على ما يريد ولا يتمكن أحد من الكتّاب أن يستوفيها عليه فيقرر بأكثر ارتفاع ضمانه سوى الأرباح التي ذكرناها وسوى ما يستغلّه من أملاكه وسوى ما يستخرجه من المصادرات والمصانعات. وكان شيرزاد يطالب الوزير أبا

الفضل بما كان وافقه عليه إذا تمَّم له الوزارة وكان أبو الفضل يعتدّ عليه بما يصل إليه من جهة أبي قرة وقال له: هذا الرجل عاملي وإنما ضممته إليك لينوب عني عند غيبتي عن مدينة السلام وقد حصل لك من جهته ما ينبغي أن احتسب به عليك وتعتدهُ لي. ويستجيبه شيرزاد بأنه لا يحتسب له إلا بما يصل إليه من صلب ماله وخاص إقطاعه وارتفاقاته ولم يزل ذلك يتردد بينهما حتى استوحش كل واحد من صاحبه واستوحش أبو قرة أيضاً واختص زيادة اختصاص بشيرزاد. فطمع في المنازل العالية لما يرجع إليه من الكفاية في نفسه ثم للحال المتأثلة واليسار العظيم واضطر الوزير إلى مغالطته عن نفسه وإيناسه والاستعانة به على شيرزاد وهو كان سبب اتصاله به فلما تم على شيرزاد ما تم من النفي همَّ الوزير بالقبض عليه ثم أمهله ودبر أمره على أن تدرك غلاتهُ وخشي في الحال أن مدّ يده إليه أن تنقطع مادة ما كان يقيمه من قضيم الكراع ووافق بختيار على أنه يستخرج منه عند حضور الوقت مائتي ألف دينار.

وكان بختيار لا يضبط لسانه ولا يكتم شيئاً من أسرار نفسه ولو فيما جرّ عليه ذهاب النفس والملك فأخرج حديثه وسرَّه فبلغ أبا قرة ما جرى وكان يخشى عداوة أبي الفرج فصار يخشى عداوة الوزير ولم يكن له وَزَرٌ غير شيرزاد وكان قد نفي فاضطرب واحتال حتى توصل إلى سبكتكين الحاجب وبذل له على يد أبي بكر الأصبهاني صاحبه وثقته ذلك المال الذي كان يرتفق به شيرزاد بن سرخاب فنصره سبكتكين نصرة زادت على نصرة شيرزاد فصار في ظل أحصن من الظل الأول وتعذر على الوزير أن يملأ عينه منه فضلاً عن أن يمدّ يده إليه. فحينئذ اجتمعت على أبي الفضل الوزير أمور منها الإضاقة وانقباض يده عن استيفاء الحقوق ومنها مطالبة بختيار له بالقرض التي كان اقترضها ولم يتسع لردّها عليه ومنها عداوة سبكتكين له وخوفه من حِيلِهِ ومكايده ومنها حسده له على ظاهر حاله وما جمع من الغلمان والحجاب والمروءة الظاهرة ومنها استمالته وجوه الأتراك ومكاثرته إياه في الإحسان إليهم ومنها عداوة بختكين آزاذرويه وكاتبه سهل بن بشر إياه لقصده إياهما بالأهواز واستقصائه عليهما ومصادرته إياهما ومنها عداوة صاحب الديوان أبي الفرج وأخيه علي بن العباس على قديم الأيام ومنها انقلاب أبي قرة عليه للأسباب التي ذكرناها فخلا من كل صديق ومعين واصطلحت هذه الطائفة عليه. ثم اضطر أبو الفرج محمد بن العباس إلى مصادقة أبي قرَّة ليتعاضد على أبي الفضل لا لمودّة حقيقية فاتفقا على أن يخاطبا سبكتكين الحاجب في مراسلة بختيار وموافقته على القبض على أبي الفضل وضمنه أبو الفرج محمد بن العباس تسعة آلاف ألف درهم يستخرجها منه ومن خلفائه وكتَّابه وجميع المتصلين به على أن يتقلد الوزارة ويتقلد أبو قرَّة الديوان ففعل ذلك وقبض على أبي الفضل كما سبق القول فيه.

فلم يلبث محمد بن العباس أبو الفرج في وزارته إلا يسيراً حتى اضطربت أموره ولم يف بما ضمنه لبختيار وتمكن أبو قرة من السعي عليه وردَّ أبي الفضل إلى وزارته وضمن لبختيار تصحيح سبعة آلاف ألف من جهته بضمان سبكتكين عنه.

شرح الحال في ذلك وسبب تمكن أبي الفضل بعد نكبه حتى أعيد إلى الوزارة ومكن من أبي الفرج

لما خلع على أبي الفرج الخلعة التي تخلع على الوزراء ومكن من أبي الفضل وسلم إليه مع جميع أسبابه والمتصلين به اتسع بما راج له من جهاتهم وحبس أبا الفضل في داره وضيق عليه وبحث عن أمواله وأموال أهله وحرمه بغاية ما أمكنه فلما وقف عليه الأمير طالبه بالمال وناظره فاستقر ما بينهما على أن التزم ثلاثة آلاف ألف درهم يحتسب منها بما صح من خاص أمواله وأثمان غلاته وآلاته وكراعه ويوفي ما يبقى واشترط أن يوسع عليه ويسهل الأذن لمن دخل إليه ليستعفهم ويقرض منهم. فأحجم أبو الفرج محمد بن العباس عن التنفيس عنه خوفاً من نفاذ حيلته عليه وأعاده إلى الحبس والتضييق وانفسخ ما قرره معه وعطف على أسبابه فثنى المصادرات عليهم وعسفهم وأرهقهم وجازفهم ومات في حبسه صهر لأبي الفضل العباس بن الحسين يقال له إبراهيم بن محمد الدهكي فاتهم به وأنه قتله بالعذاب والمطالبة. وخلع على أبي قرة لتقلد الديوان بعد أن أرفق بختيار بمال على ذلك وأقرت واسط في يده فصار ضامناً لها خاصة مستوفياً على غيره من الضمناء وتلقب بالرئيس لأن أبا الفرج كان أيام تقلده الديوان متلقباً بهذا اللقب فأنكر أبو الفرج ذلك على أبي قرة وأمر الناس أن يخاطبوه بالوزير الرئيس تحصيناً لهذا اللقب عن أبي قرة.

ذكر فساد الحال بين الوزير وبين أبي قرة وما تم له من عزله وتولية أبي الفضل

وابتدأ أبو قرة يطالب بجميع مراتب أبي الفرج التي كانت له قبل الوزارة وزعم أنها من حقوق صاحب الديوان ويجب أن يستوفيها فاضطربت الحال بينه وبين الوزير أبي الفرج ولم يزل يتزيد حتى ترامت إلى نهاية الفساد وضمن أبو قرة عن هذا اللقب مالاً ثانياً حتى أمضى له وخرج الأمر بأن يخاطب به. وكان معز الدولة اطلق لأبي الفرج وأبي الفضل عند إخراجه إياهما إلى جهتي عمان والبطيحة للحرب عليهما أن يضربا على أبوابهما بالدبادب في أسفارهما عند حضور أوقات الصلوات فصار ذلك رسماً لهما استمرا عليه ولم يقطعاه عند انصرافهما من وجه الحرب فلما تقلد أبو قرة الديوان أجراه مجرى حقوق العمل التي تستوفي وأحب أن يضرب على بابه بالدبادب فسأل بختيار ذلك فأجابه

إليه ومنعه أبو الفرج الوزير منه وأنكر ثم بذل فيه أبو قرة مالاً فخرج أمر بختيار بأن يطلق له ذلك. ثم خرج الوزير أبو الفرج وأبو قرة في التنافس إلى أبعد غاية وفي العداوة إلى أقصى نهاية وكان صاحبهما لاهياً عنهما واتصلت المنازعة بينهما في أمثال هذه الأشياء ولم تحفظ مرتبة الوزارة وفضلها على غيرها حتى لم تتميز من سواها.

فتقدم الوزير أبو الفرج إلى كتابه بعملٍ لأبي قرة ومؤامرة تشتمل على ما يجب عليه في مردود حسباناته التي عملها في سنيِ ضمانه وإثارة جميع ما غبن فيه السلطان ومرافقه القديمة والحديثة فعملت هذه المؤامرة واشتملت على ستة آلاف ألف درهم ونسبت هذه الأموال إلى جهاتها وعرضت على بختيار وأطمع في وجوبها وأن حاله تفي بها فأمر بمطالبته. واعتصم بسبكتكين الحاجب فحامى عليه واغتاظ بختيار من تعززه عليه ووجد خصومه الطريق إلى إغرائه به وأقاموا في نفسه أنه سيحمل سبكتكين على خلع طاعته وإزالته عن مملكته فأنفذ بختيار إليه نقيباً ووكله به في دار سبكتكين ثم أنفذ ثانياً يستدعيه وضعف سبكتكين عن مقاومة صاحبه بختيار ومنابذته وكان شاع عنه أنه إنما يحامي على أبي قرة لمرفق يأخذه منه فترك الإغراق في نصرته وسلمه إلى بختيار على موجدة في نفسه وحمية في قلبه ووعد أبا قرة أنه سيتكلم فيه ويستنقذه. فلما صار عند بختيار سلمه إلى الوزير أبي الفرج وأمره باستخراج المال فضعف الوزير عن منابذة سبكتكين فيه ولم يقدم على عسفه ولم يسكن إلى إطلاقه فحصل معتقلاً اعتقالاً جميلاً ووقفت الأمور التي كان ينظر فيها من إقامة القضيم للكراع ومهمات التسبيبات عليه. وندم سبكتكين على تقليد أبي الفرج الوزارة ومساعدته على نكبة أبي الفضل وتذكر ما كان يعامله به من المجاملة والنفاق ورأى أنه على عِلاّته كان أصلح له من أبي الفرج وضعف قلب أبي الفرج بفساد رأيه.

وكان أخوه أبو محمد علي بن العباس الخازن مستولياً على بختيار مالكاً لقياده لا يفارق مجلسه عند الأنس والمنادمة فأشفق أن يجري عليه من سبكتكين ما جرى على شيرزاد منه فاتفقا على إرضاء سبكتكين بإطلاق أبي قرة وتقرير أمره على مال قليل لا يؤثر في حاله وأن يصير إلى واسط على رسمه الأول ويعتزل الديوان فلما أفرج عنه أقام القضيم ونفذ الأمور المتعلقة به وانحدر إلى واسط بعد أن واطأ سبكتكين على السعي لأبي الفضل في الوزارة وإنقاذه من محبسه والقبض على أبي الفرج وأبي محمد علي بن العباس وأسبابهما.

وقد كان الوزير أبو الفرج عطّل ديوان أبي قرة ونقل الأعمال عنه واستبد بمكاتبة العمال وكان له كاتب أهوازي يعرف بابن السكر قد اتسعت حاله فشرع في تقلد هذا الديوان وبذل لبختيار مالاً يصححه له في كل سنة من حقوق المحاسبات وأعلمه أن هذا

الديوان زمام له على الوزراء وأن الوزير الآن مستبد بالجميع وفي ذلك ضياع الدخل والخرج وفساد الأصل والفرع. واتصل الخبر بأبي الفرج فغلظ عليه وعظم في نفسه وراسل بختيار بأنه لا يصبر على أن يتقلد كاتبه هذا الديوان على مراغمته فأجابه بأنه لا بدّ من صاحب ديوان يكون معه «فاختر أنت من تحب» فهان عليه رد أبي قرة إلى نفسه وكان أخفّ على قلبه وأيسر محملاً من نظر ابن السكر فيه فكوتب بالإصعاد فورد وجددت له الخلع وقلد الديوان. وكانت المراسلات بينه وبين أبي الفضل متصلة وذلك أن أبا الفضل كان واسع الصدر فأفضل على الموكلين به من غلمان الوزير أبي الفرج ووسع عليهم وأكثر في برهم والإحسان إليهم فلم يمنعوه من مكاتبة من يريد مكاتبته وواصلوا إليه كتب من كاتبه فاحتال ضروب الحيل وتم له أكثر ما حاوله فلما ورد أبو قرة بغداد تمكن من إتمام أمره والسعي له.

واشتدت الإضاقة بأبي الفرج ووقفت عليه أموره ومطالبه لأن واسط انغلقت عليه بأبي قرة والبصرة والأهواز انغلقتا عليه بالأتراك الذين استبدوا بأموالهما في تسبيباتهم ولم ينهض بما ضمنه عن أبي الفضل لأنه اقتصر على أخذ ظاهره وخاف أن يطلقه ليضطرب فيحتال عليه ويسعى في الوزارة (وهو لا يعلم أنه قد سعى وفرغ) واجتمعت عليه مطالبات كثيرة وصارت حاله في انحراف بختيار عنه وعداوة سبكتكين الحاجب له ولأخيه وتعصب الجند عليهما كحال أبي الفضل لما قبض عليه.

ذكر ما احتال به في هذه الحال وما عرض له من سوء الاتفاق

لما أحس باضطراب أمره خاف أن يعاجله بختيار بالقبض عليه فأحال على أموال وقفت عليه بالأهواز وأنه يريد الشخوص إليها فمنعه بختيار من الخروج إلا بعد إقامة الوجوه للنفقات التي بحضرته لئلا تتوجه عليه المطالبات بعد خروجه ويقع إخلال بالإقامات فاحتاج أن يستخلف أخاه بحضرته حتى ضمن له ذلك. ووافقه على وجوه ظن أنها راجية وأضاف إليه ابن أخته المعروف بأبي القاسم علي بن الحسين المشرف على أنه ناظر في الدواوين والحسبانات وشخص إلى واسط. وشخص أبو قرة على أثره بعد أن قرر أمر أبي الفضل وفرغ منه ولكن تعلق طمع بختيار بالمواعيد التي وعده بها أبو الفرج والضمانات التي ضمنها أخوه فلما حصلا بواسط ضايقه أبو قرة في الأمور وعارضه في التدبير وكان مستولياً على البلد بالضمان ثم على سائر الأعمال بحق النظر في الديوان ثم بالعناية التي كانت له من سبكتكين فخفف الوزير أبو الفرج المقام بواسط وبرز عنها يريد الأهواز. فحدث عند تدبيره وعمله على المسير أن توفي رجل كان متغلباً على أسافل واسط وهي أعمال نهر الصلة ونهر الفضل وكان يعرف هذا الرجل بأحمد بن خاقان وهو جار محمد بن عمران بن شاهين واستولى على هذه النواحي وكان يقاطع عنها السلطان

كما يريد ولا يمكن الاستيفاء عليه وله حال قوية ونعمة عظيمة فقدر محمد بن العباس الوزير أن يصل إلى أمواله فانتقل إلى هذا الوجه وسبقه ابن له يقال له خاقان فاحتمل غلات أبيه وأمواله ودخل إلى مضايق البطيحة. ووجد أبو قرة فرصته فأخذ في مراسلته وتقويته وتشجيعه وأعلمه أنه معه وعونه ثم عمل أعمالاً أوجب بها لنفسه بحق الضمان الذي له في واسط على هذا المتوفى شيئاً كثيراً من الغلة والمال ثم قال للوزير أبي الفرج محمد بن العباس أنه لا حق له في شيء مما يصل إليه من أموال هذا المتوفى إلا بعد أن يستوفي منه هذه البقايا أو يحتسب بها له من مال ضمانه. فسار الوزير أبو الفرج إلى بلاد لم يجد فيها شيئاً ولو وجده لنازعه فيه أبو قرة وحصل منازلاً لخاقان بحيث لا يمكنه الدخول إليه ولم يصادف في تلك الأعمال إنساناً يكلمه ولا حبة من غلة ولا أثراً من مال فجنح إلى مراسلة خاقان والتماس مصالحته فامتنع عليه ونازله أياماً كثيرة حتى مل وساءت حاله وحال من معه وانقطعت عنهم المواد فاضطر إلى الرحيل ورضي بمال يسير لم يتمكن من استيفائه وحصل من هذا اليسير شيء يسير ووقعت المنازعة فيه بينه وبين أبي قرة حتى اتفقا على اقتسامه وبادر بالخروج إلى الأهواز.

وكاتب أبو قرة بختيار يعلمه أنه ليس له وجه درهم واحد وأنه خرج «مستروحاً إلى البعد عنك لتندفع عنه النكبة التي خافها من جهتك» وكتب إلى بختكين آزاذرويه يحذره منه فكتب بختكين إلى بختيار بأنه لم يبق عليه شيء وأن تسبيبات الأتراك وانزالهم تستغرق الواجب وزيادة كثيرة وإن محمد بن العباس الوزير إنما يصير إلى أعماله ليتأول عليه بالمحالات ويعمل له المؤامرات ويمد يده إلى أموال السنة المقبلة. ووافق ذلك أن أخاه أبا محمد علي بن العباس الخازن صحح البعض من تلك الوجوه التي أقيمت بالحضرة ووقف عليه الباقي لضعف يده ولكثرة الأراجيف بأخيه وبه وبأن بختيار قد تمت الموافقة بينه وبين أبي الفضل على إعادته إلى الوزارة وأخذ خطه في أبي الفرج وأبي محمد أخيه وأسبابهما بسبعة آلاف ألف درهم وأنه يطلق الاستحقاقات ويدر النفقات. فكتب بختيار إلى بختكين بالقبض على أبي الفرج ومن معه في يوم وصولهم إلى الأهواز وكتب إلى أبي قرة بمثل ذلك وبالاحتياط عليهم حتى لا يفوت أحد منهم وقبض بختيار على أبي محمد الخازن أخيه وكان جالساً معه يشرب على رسم كان له في منادمته وأطلق أبو الفضل العباس بن الحسين من محبسه وكان في دار أبي الفرج وخلع عليه للوزارة.

وفي هذه السنة خرج الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد إلى الجبل في خيل عظيمة لتدبير أمرها وتقرير أمر حسنويه بن الحسين الكردي.

ذكر السبب في ذلك

كان حسنويه بن الحسين الكردي قد قوي واستفحل أمره لما وقع من الشغل عنه

بالفتوح الكبار ولأنه كان إذا وقع حرب بين الخراسانية وبين ركن الدولة أظهر عصبية الديلم وصار في جملتهم وخدم خدمة يستحق بها الإحسان إلا أنه مع ما أقطع وأغضى عنه من الأعمال التي يتسط فيها والإضافات التي يستولي عليها ربما تعرض لأطراف الجبل وطالب أصحاب الضياع وأرباب النعم بالخفارة والرسوم التي يبدعها فيضطر الناس إلى إجابته ولا يناقشه السلطان فكان يزيد أمره على الأيام وتتشاغل الولاة عنه إلى أن وقع بينه وبين سهلان بن مسافر خلاف ومشاحة تلاحا فيها إلى أن قصده ابن مسافر بالحرب فهزمه حسنويه وكان يظن ابن مسافر أنه لا يكاشفه ولا يبلغ الحرب بينهما إلى ما بلغت إليه فلم تقف الحرب حيث ظن وانتهى الأمر بينهما إلى أن اجتمع الديلم وأصحاب السلطان بعد الهزيمة إلى موضع شبيه بالحصا ونزل الأكراد حواليهم ومنعوهم من الميرة وتفرقوا بإزائهم. ثم زاد الأمر وبلغ إلى أن أمر حسنويه الأكراد أن يحمل كل فارس منهم على رأسه رمحه ما أطاق من الشوك والعرفج ويقرب من معسكر سهلان ما استطاع ويطرحه هناك ففعلوا ذلك وهم لا يدرون ما يريد بذلك فلما اجتمع حول عسكر سهلان شيء كثير في أيام كثيرة تقدم بطرح النار فيه من عدة مواضع فالتهب وكان الوقت صيفاً وحميت الشمس عليهم مع حر النهار فأخذ بكظمهم وأشرفوا على التلف فصاحوا وطلبوا الأمان فرفق بهم وأمسك عما هم به. وبلغ ذلك ركن الدولة فلم يحتمل هذا كله له وتقدم إلى وزيره أبي الفضل محمد بن الحسين العميد وهو الأستاذ الرئيس بقصده واستئصال شافته وأمره بالاستقصاء والمبالغة. فانتخب الأستاذ الرئيس الرجال وخرج في عدة وزينة وخرج ركن الدولة مشيعاً له وخلع على القواد ووقف حتى اجتاز به العسكر قائد بعد قائد وكوكبة بعد كوكبة ورضي العدة والقوة فودع حينئذٍ الوزير ابن العميد وعاد إلى الري.

وسار الوزير ومعه ابنه أبو الفتح وكان شاباً قد خلف أباه بحضرة ركن الدولة وعرف تدبير المملكة وسياسة الجند فهو بذكائه وحدَّه ذهنه وسرعة حركته قد نفق نفاقاً شديداً على ركن الدولة وهو مع ذلك لقلة حنكته ونزق شبابه وتهوره في الأمور يقدم على ما لا يقدم عليه أبوه ويحب أن يسير في خواص الديلم ويمشون بين يديه ويختلط بهم اختلاط من يستميل بقلوبهم ويخلع عليهم خلعاً كثيرة ويحمل رؤساءهم وقوّادهم على الخيول الغُرَّة بالمراكب الثقال ويريد بجميع ذلك أن يسلموا له الرئاسة حتى لا يأنف أحد من تقبيل الأرض بين يديه والمشي قدامه إذا ركب وكان جميع ذلك مما لا يؤثره الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه.

ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل مالاً يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر

عليهم ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالاً وأن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعي على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به ذلك الوقت. وكان يورد عليه مثل هذا الكلام حتى يظن أنه قد ملأ قلبه رعباً وأنه سيكف عن السيرة التي شرع فيها فما هو إلا أن يفارق مجلسه ذاك حتى يعاود سيرته تلك فأشفق الأستاذ الرئيس في سفرته هذه أن يتركه بحضرة صاحبه فيلج في هذه الأخلاق ويغتر بما يراه من احتمال ركن الدولة حتى ينتهي إلى ما لا يتلافاه فسيره معه واستخلف بحضرة ركن الدولة أبا علي محمد بن أحمد المعروف بابن البيع وكان فاضلاً أديباً ركيناً حسن الصورة مقبول الجملة حسن المخبر خلقاً وأدباً.

فلما كان في بعض الطريق وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه التفت حوله فلم ير في موكبه أحداً وسأل عن الخبر فلم يجد حاجباً يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غيري فسألني عن الخبر فقلتُ له: إن الجماعة بأسرهم مالت مع أبي الفتح إلى الصيد فأمسك حتى نزل في معسكره ثم سأل عمن جرت العادة باستدعائه للطعام وكان يحضره كل يوم عشرة من القوّاد على مائدته التي تخصه وعدة من القواد على أطباق توضع لهم وذلك على نوبة معروفة يسعى فيها نقباؤهم فلما كان في ذلك اليوم لم يحضره أحد واستقصى في السؤال فقيل «إن أبا الفتح أضافهم في الصحراء» فاشتط من ذلك وساءه أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه. وقد كان أنكر خلوّ موكبه وهو في وجه حرب ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتتم عليه حيله فدعا أكبر حجابه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح وأن يوصي النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته وظن أن هذا المبلغ من الإنكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر. وعاد الفتى إلى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه إلى اللعب والصيد والأكل والشرب وكان لا يخليهم من الخلع والألطاف فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جداً ولم يجب أن يخرق هيبة نفسه بإظهار ما في قلبه ولا أن يبالغ في الإنكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه فدارى أمره وتجرع غيظه وأداه ذلك إلى زيادة في مرضه حتى هلك بهمذان وهو يقول في مجلس خلواته: ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه: ما قتلني إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه.

ومما حصلته عنه في وجهه هذا وقد سألته عن عاقبة أمر حسنويه معه وهل إلى استئصاله سبيل فقال: أما بهذه السرعة وفي هذا الزمان فلا ولكنا سنعود عنه ونحن كما كنا وزيادة شيء ويعود حسنويه وهو كما كان ونقصان شيء ثم يُدبر أمره على الأيام.

فلما حصل بهمذان اشتدت علته فتوفي بها رحمه اللّه وانتصب ابنه أبو الفتح مكان أبيه وكان العسكر كما ذكرت مائلاً إليه فزاد في بسطهم وتأنيسهم ووعدهم ومنّاهم وبذل لهم طعامه ومنادمته وأكثر من الخلع عليهم وراسل حسنويه وأرغبه وأرهبه وحضه على الطاعة وأومأ إلى مصالحته على مال يحمله يقوم بما أنفق على ذلك العسكر وتتوفر بعد ذلك بقيته على خزانة السلطان ويضمن إصلاح حاله إذا فعل ذلك مع ركن الدولة. وكان يشق على سهلان بن مسافر لما في نفسه من حسنويه ولأنه يحب الانتقام منه ويكره أن ينصرف مثل ذلك العسكر عنه ولم يؤثر في أمره أثراً يسمع به وليّه وعدوه إلا إن أبا الفتح كان يرى أن مقاربة حسنويه والعود إلى صاحبه ببابه لم يثلم عسكره ولا خاطر بهم وأن يلحق مكانه من الوزارة قبل أن يطمع فيه غيره أولى وأشبه بالصواب (وقد كان أبو علي محمد بن أحمد خليفة أبيه قد تمكن من ركن الدولة وقبل ذلك ما عرفه بالكفاية والسداد) فسفر المتوسطون بينه وبين حسنويه إلى أن تقرر أمره على خمسين ألف دينار ينكسر بعضها وجبى كورة الجبل وجمع من الدواب والبغال وسائر التحف ما بلغ مقداره مائة ألف دينار ووردت عليه كتب ركن الدولة بما قوى نفسه وشد مُنّته وأحمد جميع ما كان دبره وأمر بالعود إلى الحضرة بالري.

وكانت وفاة الأستاذ الرئيس بهمذان في صفر ليلة الخميس السادس منه سنة ستين وثلاثمائة ففُقد به الفضل اجمع وعدمت المحاسن التي ما اجتمعت لغيره في الإسلام.

ذكر جملة من فضائل أبي الفضل بن العميد وسيرته

كان هذا الرجل قد أدى من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه حتى أذعن له العدو وسلم الحسود ولم يزاحمه أحد في المعاني التي اجتمعت له وصار كالشمس التي لا تخفى على أحد وكالبحر الذي يتحدث عنه بلا حرج ولم أر أحداً قط زادت مشاهدته على الخبر عنه غيره. فمن ذلك أنه كان أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. ولقد حدّثني أبو الحسن علي بن القاسم رحمه اللّه قال: كنت أروي أبي أبا القاسم القصائد الغريبة من دواوين القدماء لأن الأستاذ الرئيس كان يستنشده إذا رآه وكان لا يخلو إذا أنشده من رد عليه في تصحف أو لحن مما يذهب علينا فكان ذلك يشق عليَّ وأحب أن تصح له قصيدة لا يعرفها الأستاذ الرئيس أو لا يرد عليه فيها شيئاً فأعياني ذلك حتى وقع إليَّ ديوان الكميت وهو مكثر جداً فاخترت له ثلاث قصائد غريبة ظننت أنها ما وقعت إلى الأستاذ الرئيس وحفظته إياها وتوخيت الحضور معه فلما وقع بصره عليه قال: هات أبا القاسم أنشدني شيئاً مما حفظته بعدي. فابتدأ ينشده فلما استمر في قصيدة من هذه القصائد قال له: قف فقد تركت من هذه القصيدة عدة

أبيات. ثم أنشده إياها فخجلت خجلة لم أخجل مثلها. ثم استزاد فأنشده القصيدة الأخرى فأسقط فيها كما أسقط في الأولى واستدركه عليه أيضاً. قال: فعلمت أن الرجل بحر لا ينزف ولا يؤتى ما عنده. فهذا ما حدّثني به هذا الرجل وكان أديباً كاتباً.

وأما ما شاهدته منذ مدة صحبتي إياه وكانت سبع سنين لازمته فيها ليلاً ونهاراً أنه ما أُنشد شعر قط لم يحفظ ديوان صاحبه ولا غرب عليه بشعر قديم ولا محدث ممن يستحق أن يحفظ شعره ولقد سمعته ينشد دواوين قوم مجهولين أتعجب من تعاطيه حفظ مثلها حتى سألته يوماً وقلت: أيّها الأستاذ كيف تفرغ زمانك لحفظ شعر هذا الرجل. فقال: وكأنك تظن أني أتكلف حفظ مثل هذا إنما ينحفظ لي إذا مر بسمعي مرة. وقد صدق رحمه اللّه فإني كنت أنشده لنفسي الأبيات التي تبلغ عدتها ثلاثين وأربعين فيعيدها بعد ذلك مستحسناً وربما سألني عنها ويستنشدني شيئاً منها فلا أقوم بإعادة ثلاثة أبيات منتظمة على نسق حتى يذكرنيها ويعيدها. وحدّثني غير مرة أنه كان في حداثته يخاطر رفقاءه والأدباء الذين يعاشرهم على حفظ ألف بيت في يوم واحد وكان رحمه اللّه أثقل وزناً وأكثر قدراً من أن يتزيد فقلت له: كيف كان يتأتى لك ذلك. فقال: كانت لي شريطة وهي أن يقترح عليّ من شعر لم أسمع به ألف بيت في يوم واحد يكتب واحفظ منه عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين أعيدها وأبرأ من عهدتها. فقلت وما معنى البراءة عن عهدتها. قال: لا أكلف إعادتها بعد ذلك. قال: فكنت أنشدها مرة أو مرتين وأسلمها ثم اشتغل بغيرها حتى أفرغ من الجميع في اليوم الواحد.

وأما كتابته فمعروفة من رسائله المدونة ومن كان مترسلاً لم يخف عليه علو طبقته فيها وكذلك شعره الذي جد فيه وهزل فإنه في أعلى درجات الشعر وأرفع منازله. فأما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيها أحد. فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم دون المذاكرة وقد رأيت بحضرته أبا الحسن العامري رحمه اللّه وكان ورد من خراسان وقصد بغداد وعاد وعنده أنه فيلسوف تام وقد شرح كتب أرسطاطاليس وشاخ فيها فلما اطلع على علوم الأستاذ الرئيس وعرف اتساعه فيها وتوقد خاطره وحسن حفظه للمسطور برك بين يديه واستأنف القراءة عليه وكان يعدّ نفسه في منزلة من يصلح أن يتعلم منه فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ودرسه إياها.

وكان الأستاذ الرئيس رضي اللّه عنه قليل الكلام نزر الحديث إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه فإنه حينئذٍ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره مع عبارة فصيحة وألفاظ

متخيرة ومعان دقيقة لا يتحبس فيها ولا يتلعثم. ثم رأيت بحضرته جماعة ممن يتوسل إليه بضروب من الآداب والعلوم فما أحد منهم كان يمتنع من تعظيمه في ذلك الفن الذي قصده به وإطلاق القول بأنه لم ير مثله ولا ظن أنه يخلق، وكان رحمه اللّه لحسن عشرته وطهارة أخلاقه ونزاهة نفسه إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه حتى إذا طاوله وأتت الشهور والسنون على محاضرته واتفق له أن يسأله عن شيء أو يجري بحضرته نبذ منه فرغب إليه في إتمامه تدفق حينئذٍ بحره وجاش خاطره وبهت من كان عند نفسه أنه بارع في ذلك الفن والمعنى وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بأنفسهم ولكن بعد أن يمد لهم في الميدان ويرخي من أعنتهم ويمسك عنهم مدة حتى ينفد ما عندهم ويجزل لهم العطاء عليه. فهذه كانت مرتبته في العلوم والآداب المعروفة ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مراكز الأثقال وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل وعمل آلات غريبة لفتح القلاع والحيل على الحصون وحيل في الحروب مثل ذلك واتخاذ أسلحة عجيبة وسهام تنفذ أمداً بعيداً وتؤثر آثاراً عظيمة ومراي تحرق على مسافة بعيدة جداً ولطف كف لم يسمع بمثله ومعرفة بدقائق علم التضاوير وتعاط له بديع ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجري مجراها فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها وعليه صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة وفي الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتى له مثلها.

فإذا حضر المعارك وباشر الحروب فإنما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ولا يدخل في غباره ولا يناويه قرن ولا يبارزه بطل مع ثبات جأش وحضور رأي وعلم بمواضع الفرص وبصر بسياسة العساكر والجيوش ومعرفة بمكايد الحروب.

فأما اضطلاعه بتدبير الممالك وعمارة البلاد واستغزار الأموال فقد دلت عليه رسائله ولا سيما رسالته إلى أبي محمد بن هند والتي يخبر فيها باضطراب أمر فارس وسوء سياسة من تقدمه لها وما يجب أن يتلافى به حتى تعود إلى أحسن أحوالها فإن هذه رسالة يتعلم منها صناعة الوزراء وكيف تتلافى الممالك بعد تناهي فسادها وما منعه من بسط العدل في ممالكه وعمارة ما يدبره منها إلا أن صاحبه ركن الدولة مع فضله على أقرانه من الديلم كان على طريقة الجند المتغلبين بتغنم ما يتعجل له ولا يرى النظر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه وكان مضطراً إلى فعل ذلك لأنه لم يكن من أهل بيت

الملك ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمتثل جميع أمره وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه ومسامحة في أشياء لا يحتملها أمير عن مأمور وهذه سيرة إذا عوَّدها الجند لم يمكن أن يفطموا عنها بل تزداد على الأيام وتتمادى حتى ينتهي إلى ما انتهى إليه جند عصرنا من نسبهم على الملوك واقتراحاتهم ما لا يفي به دخل المملكة وخروجهم في سوء الأدب إلى ما يخرج إليه السباع التي تضرأ ولا تقتل الأدب.

ثم كان الأستاذ الرئيس ابن العميد رحمه اللَّه مع هذه السيرة قد دارى جنده ورعيته وصاحبه مداراة لو ادعى له فيها المعجزة لاشتبه على قوم وذلك أنه لما استوزر لركن الدولة كان تقدمه قوم عجزة وباشروا مع عجزهم أموراً مضطربة وجنداً متحكمين والدنيا في أيديهم يملكونها كيف شاؤوا لا يمنعهم أحد منها وإنما أميرهم يسمى بالإمرة ما دام يستجيب لهم إلى اقتراحاتهم ومتى خالفهم استبدلوا به. وكان ركن الدولة وقبله عماد الدولة يوسعان عليهم في الإقطاعات ويبذلان لهم من الرغائب ما لا يبقى لهم معها حجة ولا موضع طلبة وهم مع ذلك يتحكمون ويبسطون أيديهم ويطمعون فيما لا مطمع فيه وكان قصارى الوزير والمدبر أن يقيم كل يوم وجهاً لنفقة الأمير يومه ذلك من مصادرة العامة أو قرض من الخاصة أو حيلة على من يتهم بيسار كائناً من كان وربما تعذر عليهم قضيم الكراع يوماً ويومين فأما نفقات الحشم وجراياتهم وما يقيم أرماقهم فكانت تتمحل وربما امتنع عليهم إقامتها أياماً ومع ذلك فإن هؤلاء المدبرين كانوا لا يتمكنون من الفكر في وجوه الحيل لكثرة من يزدحم عليهم من الجند أعني الديلم والأتراك وخاصة من يطالبهم بالمحالات فيهربون منهم ويتواعدون من الليل إلى مواضع غامضة يجتمعون فيها وربما خرجوا إلى الصحراء ويجتمعون على ظهور دوابهم ويثنون أرجلهم على أعناقها بقدر ما يدبرون الرأي في وجه الحيلة وإقامة وظيفة ذلك اليوم فإذا تم لهم ذلك فهو عيدهم ونشاطهم وغاية كفايتهم في صناعتهم. فلما تولى الأستاذ الرئيس ابن العميد رحمه اللَّه وزارة الأمير ركن الدولة استقام الأمر حتى رأيناه يركب إلى ديوانه من دار السلطان ولا يلقاه غير خاص كتابه ثم يلقى صاحبه فلا يدور بينهما إلا عوارض المهم الذي لا يخلو من مثله ملك ووزير وضبط أعماله ونظم أموره ورتب أسباب خدمته حتى كان أكثر نهاره مشغولاً بالعلم وأهله. وبسط عدله وأقام هيبته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء وتسترخي المفاصل وقد شاهدت من ذلك مواقف كثيرة لو شرحتها لأطلت هذا الفصل إطالة تخرج عن غرض الكتاب. ولولا أن صاحبه كان لا يستجيب إلى عمارة نواحيه كما حكيته في أول هذا الجزء خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت ويرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد فلذلك لا يمنعهم من العيث ولا يطلق يد حماة

الأطراف في قصدهم ويرضى أن يقال له «قطعت القافلة وسيقت المواشي» فيقول: «لأن هؤلاء أيضاً يعني الأكراد يحتاجون إلى القوت» ولقد قيل مرة إن الأكراد وقعوا على بغال له خرجت للعلوفة فساقوها وذلك بالقرب من البلد وبحيث يلحقون إن طلبوا فقال في الجواب: كم كانت البغال. فقيل: ستة. فقال: وكم كانت عدة الأكراد. فقيل: سبعة. فقال: سبعة بينهم الخلاف كان يجب أن تكون البغال سبعة بعددهم. فإذا كان هذا رأيه في الإنكار على أهل العيث وذلك رأيه في توفير العمارات واستغزار الأموال فما حيلة وزيره ومدبره. فتأمل هذه الصورة وانظر إلى سيرة ملك قد عوّر وزراءه هذه العادات ورضي منهم بما تقدمت حكايتهم من تمشية أمره يوماً بيوم.

ثم آلت الحال إلى النظام الذي ذكرته واطردت الأمور اطرادها المشهور الذي دبره الأستاذ الرئيس ابن العميد رحمه اللّٰه أي كفاية كانت له وأي سياسة مشت بين يديه ولكنه رحمه اللّٰه لما حصل بفارس علّم عضد الدولة وجوه التدابير السديدة وما تقوم به الممالك وصناعة الملك التي هي صناعة الصناعات ولقنه ذلك تلقيناً فصادف منه متعلماً لقنا وتلميذاً فهماً حتى سمع من عضد الدولة مراراً كثيرة أن أبا الفضل بن العميد كان أستاذنا وكان لا يذكره في حياته إلا بالأستاذ الرئيس وربما قال الأستاذ ولم يقل معه الرئيس ولا يحفظ عليه أنه ذكره قط بعد موته إلا بالأستاذ وكان يعتد له بجميع ما يتم من تدابيره وسياسته ويرى أن جميع ذلك مستفاد منه ومأخوذ عن رأيه وعلمه. ولعلنا نذكر منه طرفاً إذا انتهينا إلى سيرة عضد الدولة وما تم له من حيازة الممالك وحفظ الأطراف وقمع الأعداء والحرص على العمارة مع الشدة على المريب وإطفاء نائرة الأكراد والأعراب وإعادة الملك إلى رسومه القديمة إن أخّر اللّٰه في الأجل، ولعل من يطلع على هذا الفصل من كتابنا ممن لم يشاهده يظن أنا أعرناه شهادة أو ادعينا له أكثر من قدر علمه ومبلغ فضله لا والذي أنطقنا بالحق وأخذ علينا ألا نقول إلا به.

ودخلت سنة ستين وثلاثمائة

وفي هذه السنة رأى بختيار ورئي له أن يعقد بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التي نشأت بينهم فابتدئ بعقد مصاهرة بين المرزبان بن عز الدولة وبين بختكين المعروف بآزاذرويه مولى معز الدولة وثنى بمصاهرة بين سالار بن عز الدولة وبين بكتجور مولى معز الدولة وفعل مثل ذلك بجماعة وأصلح بين الديلم والأتراك واستحلف كل فريق منهما لصاحبه فحلفوا جميعاً على موالاة عز الدولة بختيار بن معز الدولة وسبكتكين الحاجب وحلف بختيار لسبكتكين الحاجب وسبكتكين لبختيار بعد وحشة كانت بينهما فزال الظاهر ولم يزل الباطن. ثم غلبت علة الفالج على المطيع للّٰه فثقل لسانه وجانبه الأيمن وذلك في يوم السبت لليلة خلت من صفر سنة

٢٦٠ ثم تماثل وتماسك وعاش على هذه الحال إلى الوقت الذي سلم فيه الأمر إلى أمير المؤمنين الطائع لله.

وفي هذه السنة ورد حاجب لأبي تغلب بن حمدان وهو عدة الدولة فعقد مصاهرة بين أبي تغلب بإحدى بناته وبين عز الدولة بختيار على صداق مائة ألف دينار وجدد على أبي تغلب عقد أعماله لأربع سنين حساب كل سنة ستة آلاف ألف درهم ومائتا ألف درهم وأنفذت إليه الخلع.

وفي هذه السنة كانت وزارة أبي الفضل العباس بن الحسين الثانية لعز الدولة والقبض على أبي الفرج محمد بن العباس.

ذكر السبب في ذلك

قد كنا ذكرنا فيما تقدم أن عز الدولة كتب إلى آزاذرويه بالقبض على أبي الفرج ومن معه في يوم وصولهم إلى الأهواز وأنه كتب أيضاً إلى أبي قرة بمثل ذلك وأنه قبض على أبي محمد الخازن أخي أبي الفرج في مجلسه وكان يحضره للمنادمة وأطلق أبو الفضل العباس بن الحسين من محبسه وخلع عليه للوزارة وذلك يوم الثلاثاء آخر ليلة بقيت من رجب سنة ٣٦٠. فلما تمكن من الوزارة لم تكن له همة إلا استصلاح سبكتكين وعول عليه وعلى كاتبه أبي عمرو بن أدمي وصاحبه أبي بكر محمد بن عبد الله الأصبهاني وتقرب إليه في مظاهرة أبي قرة ومساعدته. وقلد أخاه الحسن بن محمد القنائي خزانة عز الدولة مضافاً إلى ما كان يتولاه من خلافة أخيه أبي قرة على الدواوين وقلد أبا أحمد بن حفص ديواناً كانت تجري فيه نواح اختصها بختيار لنفسه وسماه ديوان الخاص وكتب إلى أبي قرة يستدعيه من الأهواز إلى الحضرة وأمر بإنفاذ أبي الفرج محمد بن العباس إلى البصرة موكلاً به. فورد أبو قرة بغداد ومعه أسباب أبي الفرج المقبوض عليهم فبلغ الوزير أبو الفضل في إكرامه كل مبلغ وعظمه وتجددت بينهما معاهدة ومحالفة بأمر عز الدولة وسبكتكين إياهما واتفقت كلمة الجماعة.

ثم نظر الوزير أبو الفضل في أمره وزيادة خرجه على دخله وقلبه ظهراً لبطن فلم يروجها غير إطماع عز الدولة في أموال عمران فحرضه عليه وقرب عليه أمره واتفق ورود أبي قرة وقد تمت العزيمة. فشخص بختيار متقدماً وسار في الجانب الغربي على الظهر والوزير أبو الفضل وأبو قرة انحدرا في الماء واجتمعت الجماعة بواسط وذلك في شوال سنة ٣٦٠.

وفي هذه السنة ارتفع أمر ابن بقية مع عز الدولة وعلا شأنه حتى بلغ الوزارة كما سنحكيه بإذن الله.

ذكر ارتفاع ابن بقية

كان هذا الرجل من القرية المعروفة بأوانا وكان أبوه مزارعاً وجدّه بقية وإليه كان ينتسب ونشأ في أيام الفتنة وغلبه أهل الرستاق على طريق دجلة العليا ودخل في غمارهم وانتسب إلى بعض عياريهم وكان جرى رسمه بتقلد المآصير. واتفق له إن اتصل بصاحب مطبخ معز الدولة المعروف بمملة وكان ضامناً لتكريت وما يجري معها من المآصير العليا وأبواب المال فلما خدم مملة توجه معه وخف على قلبه فتدرج من حال إلى حال حتى استعمله على هذه الأعمال كلها وفوضها إليه وكان فيه سماحة نفس وخفة مع إقدام وتهور استفادهما من الحال التي نشأ عليها. واتفق على مملة اتفاق سيئ من علل اتصلت به وإعراض من معز الدولة عنه فشرع أبو طاهر بن بقية في ضمان أعماله وعني به جماعة من الكتاب لأجل ما كان يبذله لهم فعقدت الأعمال عليه إلا أنه لم ينفق على معز الدولة ولا وثق به على مطبخه فقلده غيره ووفى بمال ضمانه وأقبلت حاله تتزايد وصدره يتسع للبذل حتى غلب على الوزير أبي الفضل وقرب منه وتعلق منه بعناية. وتوفي معز الدولة فنفق على عز الدولة بختيار وبذل له مرفقاً يوصله إليه مما ينظر فيه فقبل بختيار منه ذلك وردت إليه الوكالة وقلد المطبخ فبلغ بالمرفق الذي بذله لبختيار عشرة آلاف درهم في كل شهر واشترط أن ينصره على الكتاب وأصحاب الدواوين ومنعهم من الاستقصاء عليه ويشد على يده في استيفاء أموال تسبيباته من الوكالة فوفى له وكان يحمل إليه هذا المرفق الذي ذكرته مشاهرة ثم أنس به في خلواته ومجالس لهوه وانبسط إليه بأنواع من المزاح كان يستعملها في مجالسه مع ندمائه فلطف موقعه ودخل معه كل مدخل. ثم صار يهاديه بالخيل والبغال والجوارح والألطاف والجواري والعبيد ودخل في جلالة العز فعرض جاهه عنده حتى صار يتوسط بينه وبين كل رافع ظلامة وطالب حاجة فلما أفضت هذه الوزارة الثانية التي نحن في ذكرها إلى أبي الفضل كان ابن بقية قد استولى غاية الاستيلاء وصار في مثل منزلة شيرزاد اختصاصاً ومنزلة وغلبة على أمره واحتاج الوزير أبو الفضل إليه ليحفظ غيبه وانحدرت الجماعة إلى واسط لحرب عمران.

واستدعى الوزير أبو الفضل أبا الفرج محمد بن العباس إلى واسط وكان معتقلاً بالبصرة وأخذ خطه بمال عظيم لا ينهض به وأنفذه إلى بغداد ليصححه هناك وكذلك فعل بأخيه أبي محمد فجرى عليهما ببغداد أمر قبيح يجري مجرى التشفي من غير ضرب ولا مكروه في الجسم بل بضروب من الاستخفاف والإهانة والإسماع فتم لهما الهرب واستترا عند بعض أسباب سبكتكين. فعادت الوحشة بين أبي الفضل وبين سبكتكين واتهم بأنه يسفر له في العود إلى الوزارة والجأته الحال إلى مطالبة عز الدولة بختيار باليمين الغموس

على ألا يستوزره أبداً ولا يستعين به في شيء من الأعمال إن لم يظهر بعد شهر من تاريخ اليمين فحلف له عز الدولة بحضرة القواد والقضاة والشهود ووجوه الحاشية وكان في اليمين كل ما يكون في أيمان البيعة ولقنه بنفسه حرفاً حرفاً وبقي الأمر كذلك وأبو الفرج مستتر إلى أن عاد عز الدولة إلى بغداد بعد سنتين وأخذ له ولأخيه أمان فظهرا بعناية سبكتكين. وضعف أمر الوزير أبي الفضل وضعفت مُنته وتأدى أمره إلى النكبة التي هلك فيها ووفى بختيار باليمن وقلد أبا طاهر بن بقية الوزارة فكف عن أبي الفرج لأنه علم أنه لا يستوزر ولا يشرع في شيء من فساد حاله ونفى أخاه أبا محمد إلى واسط وأجرى عليه رزقاً. ثم إن أبا محمد أصعد إلى بغداد بغير أمره وذلك لإرجاف أرجف عنده بالقبض على ابن بقية فاغتاظ لذلك وقبض عليه ونفاه إلى البطيحة فحصل عند عمران مدة ثم أصعد سراً واستتر ببغداد في عرض الفتن التي كانت تجري ثم تمكن ابن بقية منه ومن أخيه وطالبهما ثم نفاه ونفى أبا الفرج إلى سر من رأى واعتقله بها.

ذكر ما انتهى إليه أمر أبي قرة بعد حصوله بواسط وقوة أمره وعناية سبكتكين وأصحابه به

لما أنس أهل واسط بقرب عز الدولة منهم وطال مقامه بينهم تظلموا إليه سراً ولقيه نفر منهم فأعلموه أنه قد أخرب بلادهم وأفقرهم وظلمهم وغشمهم وصادرهم وملك عليهم ضياعهم وأنه استحل منهم ما حرمه اللّه وصححوا عنده سعة حاله وكثرة ماله وجلالة ضياعه فاستعظم بختيار ذلك وغاظه فعله وتمكنه من النعم الكثيرة حتى أزالها واستبد بها فصرفه عن واسط وتقدم إلى ابن بقية أن ينظر فيها على سبيل الأمانة. فاتهم أبو قرة الوزير أبا الفضل بأنه عن رأيه ومساعدته ولم يكن كما ظن فكتب إلى سبكتكين الحاجب يعرفه ما جرى ويحرضه على أبي الفضل ويعلمه أنه قد حنث في يمينه وعقوده التي بينهما وعاد إلى أسوأ فعله واعتقاده. ثم عطف أبو قرة على أبي طاهر بن بقية فخاطبه بكل ما كره وتوعده وهدده بالنكبة وطالبه بالحسبانات لما يجري على يده دخلا وخرجا فاستطال عليه ابن بقية وانتصف منه ونصره بختيار فانخزل أبو قرة. واتصل بسهل بن بشر النصراني كاتب بختكين آزاذرويه وهو بالأهواز ما جرى على ابن قرة وضعف أمره وكانت بينهما عداوة قديمة فكتب إلى بختيار يضمنه بمال عظيم وساعده ابن بقية فقبض على أبي قرة وأسبابه واستبيح ماله وقبضت ضياعه وغلاته فسارع إلى التزام مصادرة ثقيلة عن نفسه وأسبابه وبذل بعد ذلك أموالاً عظيمة يثيرها من محاسبات الضمناء واستمال ابن بقية وعاهده على أن يكون كل واحد منهما ناصراً لصاحبه. ثم إن بختيار مال إلى ما بذله أبو قرة فأمر بأن يخلع عليه ولم يكره الوزير أبو الفضل ذلك لتزول التهمة التي سبقت إلى سبكتكين في أمره.

ذكر السبب في انتقاض أمر أبي قرة بعد تماسكه وبعد إشرافه على الخلاص من النكبة

كانت الخلع أحضرت ليلبسها فكره المنجمون له الوقت وأشاروا عليه بالتوقف ليختار له يوم فورد للوقت غلام لسهل بن بشر على البريد برسالة منه ومن بختكين آزاذرويه صاحبه يسألان تسليم أبي قرة إليه بزيادة بذلها وضمنه بها وصادف ذلك خوف الناس من عوده بعد سعايتهم به وأنه عدو لهم يستأصلهم فسعوا إلى ابن بقية به حتى أشار على عز الدولة بتسليمه إلى سهل بن بشر وعرفه أنه إنما ضمن تلك الأموال حيلة في الخلاص والعود إلى التعزز عليه بسبكتكين فسلمه إلى رسل سهل بن بشر وحمل من ليلته إلى الأهواز وصودر هناك وتشفى منه وتلف في أنواع المكاره التي جرت عليه وقلد ديوانه أبو أحمد بن حفص ثم أفضت الوزارة إلى ابن بقية فضعفت يده وقل نظره لاستيلاء ابن بقية على المملكة فلم يبق من هذا الديوان إلا الاسم.

وفي هذه السنة قتل حمدان أخاه أبا البركات.

ذكر السبب في ذلك والاتفاق الحادث عن قصد وغير قصد

كنا ذكرنا ورود حمدان ورجوعه إلى الرحبة وتمام الصلح بينه وبين أخيه أبي تغلب ولم يلبث الأمر بينهما أن عاد إلى فساده فأنفذ أبو تغلب أخاه المكني بأبي البركات إليه حتى دفعه عن الرحبة فسلك طريق البرية يريد دمشق وملك أبو البركات الرحبة فخلف بها طائفة من جيشه مع غلام من غلمانه وعامل من عماله ورحل منصرفاً.

وانتهى حمدان إلى بعض طريق البرية ولحقه وأصحابه عطش ولم يمكنه الإتمام فرجع مخاطراً بنفسه ووصل إلى باب الرحبة ليلاً والقوم الذين فيها غافلون نيام وتهيأ لنفر من غلمانه أن دخلوا البلد من ثلمة في السور غامضة كانوا يهتدون إليها وفتحوا له باب الرحبة فدخلها واستتر وراء السور وضرب بالبوق فبادر القوم إلى الباب منقطعين متفرقين وليس يعلمون بحصول حمدان من داخله فكان يوقع بهم أولاً أولاً وأسر عاملي الخراج والمعونة ووجد في أيديهم غلات قد وردت في السفن فغنمها وغنم سوادهم وآلاتهم وسلاحهم وكراعهم وصادرهم وأصعد على الفرات في الجانب الشامي إلى قرقيسيا. واتصل خبره بأبي البركات وهو سائر إلى الموصل فعطف عليه وحازاه من الجانب الجزري وتخاطبا وتراسلا فلم يتم بينهما صلح ولا اتفاق ولم يمكن أبا البركات المقام لضيق الميرة على عسكره فرجع يريد الخابور. فاتفق أن صار إلى حمدان مائتا فارس من بني نمير مستأمنة وكانت عدته ثلاثمائة غلام فصار في خمسمائة فارس فتتبعت نفسه العبور في أثر أخيه والتصعلك على عسكر وكان فيه جرأة وإقدام فخاطر وعبر في

جريدة خيل وسار حتى أدركه بمنزل يقال له ماكسين وهو راحل مجتاز فنزل منه على فرسخين وبكر في الغلس فزحف إليه فصادفه قد سبق بسواده وبعض جيشه وهو ماض على غير استعداد لأنه لم يقع في ظنه أن حمدان يقدم عليه مع التفاوت بين عدتيهما. فلما قيل له إنه قد وافى عطف إليه في طائفة من الرجال ليتلاحق به الباقون فبث حمدان أولئك العرب في الإغارة على سواده ومنع العسكر أن ينتظم شمله وحقق على أبي البركات في الحملة مع غلمانه فوجده متسرعاً في أول الناس فاجتمعا متصادمين وعرف كل واحد منهما صاحبه فتضاربا بالسيوف ولم تكن على أبي البركات جُنّة فضربه حمدان على رأسه فسقط إلى الأرض وأخذه أسيراً وبه رمق، واستباح سواده واستأمن إليه جماعة من أصحابه وأسر جماعة وقتل بعض الأسارى واستبقى البعض وانكفأ إلى قرقيسيا ليعالج أخاه من ضربته وظن أنه ينجو فتلف بعد ثلاث فأنفذه في تابوت إلى الموصل واستحكمت العداوة بينه وبين أخيه أبي تغلب.

واختلف باقي الإخوة وتخاذلوا وتنافسوا وكانوا متفرقين في أعمالهم فبلغ أبا تغلب أن محمداً من بينهم المكني أبا الفوارس وكان يتولى نصيبين قد كاتب حمدان وعمل على اللحاق به والاجتماع معه عليه فاحتال عليه واستدعاه وأطمعه في الإحسان والزيادة فاغتر محمد وصار إليه فقبض عليه واعتقله في قلعة أردمشت وضيق عليه هناك وثقله بالحديد حتى أطلقه عضد الدولة لما ملك تلك الديار وكنت مندوباً لنقل ما في تلك القلعة من الذخائر مأموناً على ما فيها فجرى ما سأذكره إذا انتهيت إليه.

واستوحش باقي إخوة أبي تغلب لما جرى على أخيهم محمد وأقبل أبو تغلب يستميلهم فخدعهم واحداً واحداً فصاروا إليه بعد أحوال تتقلب بهم سوى أبي طاهر إبراهيم فإنه لم يسكن إليه ورحل إلى بغداد مستأمناً إلى عز الدولة بختيار على طريق دجلة. وسار أبو تغلب إلى قرقيسيا وأنفذ منها أخاه أبا القاسم هبة اللّه سرية في جيش كثيف إلى الرحبة تقديراً أن يكبس أخاه ويأخذه أسيراً فما أحسن به حتى أطل عليه فخرج هارباً واتبعه ابنه وطائفة من غلمانه ولحقه هبة اللّه فأبقى عليه حتى نجا. ثم وقعت عليه سرية للقرامطة كانت سائرة إلى الشام لقتال صاحب المغرب فأرادوا الإيقاع به فتعرف إليهم وكان متعلقاً بينهم بذمام فكفوا له وبذلوا له من نفوسهم ما أحبه فسألهم أن يسير معه نفر منهم إلى طريق عانة ففعلوا وعدل إلى مدينة السلام فاستقر الإخوان بها في ذي الحجة سنة ٣٦ وكتب بختيار إليهما بالانحدار إليه إلى واسط فانحدرا ووصلا إليه في صفر سنة ٣٦١ وتلقاهما وأكرمهما وأمر بحمل إنزال كثيرة إليهما وردّهما إلى بغداد بعد أن حمل إلى كل واحد عند رحيلهما هدايا كثيرة من الثياب والورق والطيب والدواب والبغال والمراكب. وسنذكر ما انتهت إليه أحوالهما بعد ذلك إن شاء اللّه.

ذكر تدبير دبره الوزير أبو الفضل على سبكتكين لما استوحش منه فانعكس عليه

قد قلنا إن أبا الفضل اتهم سبكتكين بأنه ستر أبا الفرج وأبا محمد وحامى عليهما وأنه يريد أن يسعى لأبي الفرج في الوزارة وكان سبكتكين اتهم أبا الفضل بأنه دبر على أبي قرة حتى قتل بعد ذلك بالعذاب الطويل فشرع أبو الفضل في استصلاح سبكتكين بكل وجه وحيلة فلم يجد إلى ذلك سبيلاً فصبر حينئذٍ على عداوته وأخذ في التدبير عليه. فكان من ذلك أن أشار على بختيار بأن يستدعي آزاذرويه من الأهواز ويزيد في حاله ومحله ويقيمه كالضد لسبكتكين لينجذب الأتراك إلى هذا ويفلّهم عن ذلك فقبل بختيار بما أشار به عليه. وورد بختكين واسطاً فعظم أتم تعظيم وفخم أمره أشد تفخيم وعقدت عليه واسط مضافة إلى الأهواز فلم يتم ما قدر من انفضاض الأتراك عن سبكتكين وذاك أنهم تنبهوا على المقصد وعلموا أنه إنما دبر على تفريق شملهم وإيقاع التنافر بينهم وكانوا قد تحالفوا على المعاضدة وألا يتفرقوا. وأشفق بختكين آزاذرويه من أن يعتزلهم وينفرد عنهم فصار واحداً منهم فانعكس تدبير الوزير أبي الفضل واضطر إلى العود إلى بابه والنزول تحت حكمه وطلب سلمه بعد معاتبات ومراسلات. ولما عاد بختيار إلى بغداد زاد في منزلة سبكتكين وأمر بأن يخاطب بالإسفهسلار وتموهت الوحشة واندرجت على غير وثيقة. ولما عزم بختيار والوزير على الإصعاد عن واسط قدما أبا طاهر بن بقية إلى سبكتكين ليصلح ما تشعث بينه وبين الوزير أبي الفضل ويستعيد له جميل رأيه فجرى الأمر أيضاً في ذلك على نفاق ووحشة في السر واندمل الجرح على فساد إلى أن تم على الوزير الصرف والنكبة واتصل بقتله وإبادته.

وفي هذه السنة هلك أبو طاهر الحسين بن الحسن عامل البصرة وكل من اتصل به وعفت آثارهم وزالت نعمهم ولم يبق منهم على وجه الأرض نافخ ضرمة.

ذكر السبب في اجتياح الزمان له ولهم

كان هذا الرجل فيه شهامة وكفاية وتهور مع ذلك ومخاطرة ولما حصل بختيار بواسط أكثر الناس من حديثه وما وصل إليه من الأموال حتى اتسعت فيه الظنون. وكان الوزير أبو الفضل يعلم أن ذلك باطل وليس يجب أن يفسد نظام أمور البصرة بصرفه والطمع في يسير ماله وكانت البصرة معتدلة الحال مستقيمة الأمور. فأغرى بختيار بالمصير إلى البصرة وأقيم في نفسه أنه يصل منها إلى مال كثير ولم يكن وراءها فسار إليها ولم يجد بها ما كان مولعاً به من المتصيدات ولا تمكنت البزاة والجوارح من الصيد لكثرة نخلها وشجرها ولاطفه هذا العامل بالهدايا والتحف ووافقه على مرفق يرفقه به

ومشاهرة يقيمها له وتجاوز ذلك إلى أن ضمن له إثارة مال من البصرة على طريق التأويلات على التجار والمعاملين وأراد بذلك الدفع عن نفسه. ووافى الوزير أبو الفضل البصرة بعد أن رتب عساكره على طفوف البطيحة لأن المد وافى وكثر فلم يمكن طلب عمران بن شاهين واحتيج إلى الانتظار إلى وقت النقصان فأمره بختيار بالخلع على أبي طاهر العامل وتقبل ما بذله له. ولم يستطب البصرة لعدم الصيد الذي ذكرته فعاد إلى واسط ووصى الوزير بتقوية يد العامل والزيادة في بسطه والرفع منه فاضطر الوزير إلى امتثال ما رسم له وهو لا يختاره ولا يستصوبه. فبسط أبو طاهر العامل يده في القبض على التجار والعوام وتأول عليهم بالمحال واستخرج منهم أموالاً كثيرة وظن أنه قد تمسك من بختيار بعهد يثق به وإنه ممن يعتمد على قوله وذمامه وحدث نفسه بمنزلة أبي قرة وأن يرتقي منها إلى منزلة الوزارة فساء رأي الوزير أبي الفضل فيه وأخذ في التدبير عليه والسعي على دمه فكتب إلى بختيار يعرفه أنه قد أخرب البصرة وأفسد نيات أهلها وأنهم عرب لا يحملون ما يحمله غيرهم ويزعم أن أموالهم الآن قد حصلت والصواب يقتضي إرضاءهم بالقبض على هذا العامل والاستبدال به ومصادرته على مال ينضاف إلى مصادرتهم ثم دس إلى عز الدولة من يغريه به ويعظم عليه جناياته ويطمعه في ماله إلى أن أمر بالقبض عليه فقبض الوزير عليه وعلى أخيه والمتصلين به حتى زوجته وعياله وأقاربه وأسبابه كلهم وعقد البصرة على علي بن الحسين المعروف بأبي القاسم المشرف وسلمه إليه لعداوة كان يعرفه بينهما وأخذ خطه بأن يستخرج منه ومن أسبابه مالاً عظيماً وأصعد عن البصرة لاستتمام منازلة عمران بن شاهين. وكان هذا العامل (أعني أبا طاهر) من أهل الشر فكثر خصماؤه وطلاب الطوائل عنده فعسفه علي بن الحسين وسلمه إلى مستخرج كان قد وتره فنالته منه مكاره عظيمة خاف معها أن يسلم فيكون بواره على يده فأتى على نفسه ثم ألحق به أخاه وأقاربه وزوجته فأتلف الجماعة بأسرها وعفى آثارها. ثم عطف علي بن الحسين على معامليه ومخاطبيه وقوم تأول عليهم فصادرهم لصحة المال الذي ضمنه فما صح له من جميع الجهات إلا البعض وانكسر الباقي وانمحت آثار أبي طاهر من الأرض فلم يبق له بقية.

ذكر سوء تدبير بختيار لأمر عمران منذ انحدر من بغداد إلى أن خرج عائداً إليها وما تم لعمران من الطمع فيه والاستظهار عليه

كان بختيار لما خرج عن بغداد لمحاربة عمران أظهر أنه يريد الخروج إلى التصيد بناحية النعمانية مغالطة لعمران وظن أنه يرهقه عن التحرز منه والاستعداد له. وقد تفعل الملوك مثل هذا ولكن مع إتمام العزائم والصبر على مطاولة العدو بالمكايد التي تشبه هذا الابتداء لا بأن يكون مبدأ التدبير صواباً يشبه الآراء الوثيقة ثم يتبعه باللعب والاشتغال عنه

بالعبث وبترك الاستظهار وإهمال الجند حتى تخرق الهيبة وتزول الحشمة ويظهر للعدو عصيان الجند وقلة النظر في الحرب والتعويل على الجد دون الجد حتى يطلع على الحيرة والتبلد ومكان العورة والضرورة الداعية إلى مقاربته في طلب الصلح منه والجنوح إلى السلم بعد النزاع إلى الحرب فإن بختيار عمل في المبدأ ذلك العمل الواحد ثم اتبعه بجميع ما ذكرته وذلك أنه استطاب التصيد الذي أظهره مكيدة لعدوّه وأقام بالنعمانية شهراً مع عساكره التي علم معها عمران أن قصده بهم إياه لا غيره. ثم أمر وزيره أبا الفضل أن ينحدر إلى الجامدة وطفوف البطيحة وبنى أمره معه على أن يسد أفواه الأنهار ومجاري المياه إلى البطيحة ويعدل بها إلى غيره وأن يبني مسنّاة عظيمة يمكن سلوك الديلم عليها مشياً إلى معقله وهذا ضد ما بنى عليه أمره في الابتداء ولا يشبه الحيلة التي تؤدي إلى إرهاق العدوّ ومنعه من الفكر فإن الهجوم والكبس والبيات يتم بالمعاجلة والركض إلى الغاية دون التمهل والأخذ والتدابير البعيدة والأعمال الطويلة.

فلما طالت المدة في عمل هذه السدود وجرت في إضعافها وقائع لحقت المدود وغلب الماء والسيل علاج السكور فاحتيج إلى الإمساك عنها والانصراف عن إتمامها إلى حفظ ما عمل منها بالرجال حتى لا يفسدها العدو لا سيما وعمران متدرب بذلك قد اعتاد في جميع حروبه أن يمسك عن عدوه حتى ينفق ماله ويكد رجاله فإذا أحس بالمد ومجيء السيول احتال في تخريب ما يبني له من السكور وإنما يكفيه إيقاع ثلمة يسيرة في أحد نواحي السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته في الهدم والتخريب فربما أفسد في ساعة من الليل أو النهار تعب سنة أو نحوها. وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يُقام في وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها فإذا وردت المياه القوية ومنعت من حدورها كفي منها اليسير من المعونة حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضاً وربما كان سبب انبثاق الماء نقب فأرة ثم بوسعه الماء وينتهي فيه إلى حيث لا حيلة في سده ولما عمل بختيار ووزيره ما ذكرته من السدود وأتى المد كان قصاراهما حفظ ما عمل بالرجال حتى لا يتم لعمران حيلة في هدمه فعدل عمران عن هدم سكوره إلى الانتقال إلى معقل آخر من معاقل البطيحة ونقل غلاّته وزواريقه وجميع أمتعته إلى هناك فلما انحسر الماء وجاءت أيام الجفاف من السنة الثانية وجد مكان عمران خالياً منه ولم تكن له آلة يطلبه بها فطلب غلاّته فلم يجد فيها شيئاً فانصرف خائباً. وضجر العسكر من المقام على الشقاء ولم يصبروا على أذيَّة البق وحر الهواء وانقطاع المواد التي ألفوها فشغبوا عليه وتناولوا الوزير بألسنتهم وهموا بالإيقاع به وتحالف الديلم والأتراك على التعصب واتفاق الكلمة وأبوا أن يقيموا أكثر مما أقاموا فاضطر بختيار إلى طلب مصالحته على مال يلتمسه منه (وقد كان هابه في أول الأمر فبذل له خمسة آلاف ألف درهم) فلما

طلب هذا المال بعد اضطراب الجند وطول المقام وانقطاع الحيلة امتنع عليه منها وبذل ألفي ألف درهم بوساطة سهل بن بشر كاتب بختكين آزاذرويه وكانت بينه وبين عمران صداقة فنجَّم عليه هذا المبلغ ثم تماسك عمران وامتنع من التوثقة بما وافق عليه واقتصر منه على اليمين أيضاً فاضطر الوسائط إلى أن يقولوا لبختيار إنه قد حلف وما حلف. وانصرف بختيار عنه مع عسكره خائبين عليهم الزلة.

وحدث للعسكر زيادة على المعهود من سوء الخدمة وقلة الطاعة والاستطالة حتى وثبوا على سهل بن بشر مرة لأجل مال كان حمله معه فأحسوا به وطمعوا فيه ونهبوه واجتهد بختيار في ارتجاع شيء منه فما أمكنه ذلك. ثم وثبوا أيضاً على محمد بن أحمد الجرجرائي (وكان ينظر في أمورهم ويخلف الوزير عليهم) لأشياء كانوا نقموها عليه وأبوا أن يكون متولياً عليهم فأرضاهم الوزير بصرفه عنهم ووجد السبيل إلى مصادرته فاستخرج منه عشرة آلاف دينار كانت سبب حقده حتى صار في جملة من سعى به ودبر في هلاكه.

وقد كان قبل هذه السنة ندب عضد الدولة كوركير بن جستان لمحاربة سليمان بن محمد بن الياس وكان سليمان هذا بخراسان وأطمع صاحبها في كرمان والقفص والبلوص في طاعته فضم إليه صاحب خراسان جيشاً وجاء إلى كرمان فاستغوى هاتين الطائفتين وغيرهم من الأمم المفارقة لطاعة السلطان الأكبر فصارت هذه الطوائف يداً واحدة في شق العصا. فلقيه كوركير بين جيرفت وبَمّ وجرت بينهما حرب أجلت عن قتل سليمان وبكر والحسين ابني اليسع أخيه وعدد كثير من قواد خراسان والرجال المضمومين إليه وحملت رؤوسهم إلى شيراز وأنفذها عضد الدولة إلى حضرة أبيه ركن الدولة.

واجتمعت المنوجانية وسائر القفص والبلوص وفيهم أبو سعيد البلوصي وأولاده وغيرهم من الرؤساء على كلمة واحدة في الخلاف وتحالفوا على الثبات والاجتهاد فضم عضد الدولة إلى كوركير عابد بن علي فسارا إلى جيرفت فيمن معهما من العساكر فوقعت الوقعة يوم الأربعاء لعشر ليال خلون مِن صفر سنة ٣٦٠ وأجلت عن هزيمتهم وقتل خمسة آلاف رجل من أشدائهم ووجوههم وقتل ابنان لأبي سعيد البلوصي وحصل المعروف بأبي الفوارس المنوجاني في الأسر وابن أخيه أبو الليث وجماعة يجرون مجراهم ثم صعد عابد بن علي لقَصّ آثارهم والتولج إلى مكانهم ليبيد غضراءهم فتابع الإيقاع بهم والاثخان فيهم وانتهى إلى هرموز فملكها واستولى على بلاد النيز ومكران وحصل في يده بعد من هلك في الحروب ألفا أسير من رجالهم ونسائهم وذراريهم فلاذوا بطلب الأمان وبذلوا تسليم المعاقل والجبال على أن يدخلوا في السلم وينزعوا شعار الحرب ويقتنعوا بالأقوات التي تحل وتطيب ويتحلوا بسيماء المسلمين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا شهر رمضان ويتمسكوا بسائر شروط الإيمان فعقدوا على

أنفسهم بذلك عقداً وثيقاً. ثم عدل عابد بن علي إلى طوائف أخر من الأمم المخالفة في حال تصاقبهم يعرفون بالخرَّمية والجاشكية يُخيفون السبل في البر والبحر وكانوا ضامّوا سليمان بن محمد بن الياس فأوقع بهم وقتل كثيراً منهم وحصل في يده رئيسهم أبو علي بن كلاب فضرب عنقه وقبض على خلق منهم فأنفذهم إلى شيراز فتوطأت تلك الأعمال وصلحت مدّة من الزمان.

ثم لم يلبث البلوص وكانوا أشد هذه الطوائف بأساً وأوعدهم جانباً وأشدهم كفراً أن اشتاقوا إلى عاداتهم من إخافة السبل وسفك الدماء الحرام ونقض ما كانوا تمسكوا به من تلك العهود فلما فعلوا ذلك اعتقد عضد الدولة إلا حيلة في صلاحهم ويئس منهم فرأى ألا يبقي عليهم وعزم على المسير بنفسه إلى كرمان فسار في ذي القعدة سنة ٣٦٠ فلما انتهى إلى السيرجان وجد البلوص قد تبسطوا في الأعمال وسعوا فيها بالفساد ونصبوا للرئاسة عليهم علي بن محمد البارزي ولقي الناس منهم عنتا شديداً في جميع طرقات كرمان وسجستان وخراسان فجرد عابد بن علي في عسكر كثيف من الديلم والجيل والأتراك والأعراب والأكراد والزطّ والرجال السيفية وأنفذه إليهم فلما أحسوا بإطلاله عليهم أوغلوا في الهرب وسلكوا طرقاً ضيقة شاقة ظنوا أن العسكر لا يمكنه سلوكها ولا اتباعهم فيها ثم إن عابداً أنفذ أخاه في سريَّة قوية خلفهم وسار هو في باقي الجيش من طريق آخر إلى بلادهم التي يأوونها إلى جبال البارز ففتحها عنوة واستنزل عنها محمد بن علي البارزي وظفر بصهره أبي دارم وقد كانوا أنفذوا طلائع لهم وعيوناً ليأتيهم بالأخبار فنذر بهم وقبض على جماعتهم فلم يرجع إليهم مخبر منهم فكانوا ساكنين غارّين إلى أن أطل الجيش في الموضع الذي ظنوا أنهم آمنون فيه فلم يجدوا مهرباً ولا معدلاً عن المجاهدة فثبتوا سحابة يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ منذ طلوع الشمس إلى غروبها ثم انجلت الوقعة عن قتل الرجال المقاتلة إلا القليل وعن الإحاطة بحرمهم وذراريهم وأملاكهم ونجا في الوقت رئيسهم المعروف بابن أبي الرجال البلوصي مع جماعة من الوجوه ثم ظفر بهم من بعد فقتلوا جميعاً ودخل نفر يسير ممن بقي تحت الأمان وتشبثوا بالعهد والذمام فنقلوا عن تلك الجبال وأسكن عضد الدولة مكانهم إلا كرة المزارعين والمستورين من أجناس الرعية حتى طبَّقوا تلك المواضع بالعمارات وطهرت تلك الجبال من معرَّة أولئك المفسدين. ثم عاد عابد بن علي إلى الأمة المعروفة بالجاشكية ومن يجري مجراها من الدعار وكانوا وراء جبال القفص مما يلي التيز ومكران والسواحل إلى حدود عمان ولهم معرَّة شديدة وفساد كثير وجنايات عظيمة على الناس وأنفذ عابد أخاه في عسكر قوي من الديلم والأتراك والعرب وغيرهم وحمل معه الزاد على الجمازات في البر وعلى

الشذاآت والمراكب في البحر من سيراف إلى مكلّي هرموز وسواحل كرمان فقطع عدَّة مضايق حتى وصل إليهم وهم غافلون لا يظنون أن أحداً يصل إليهم فأوقع بهم وقتل وأسر واصطلم ولم يبق من طبقات الدعار في تلك النواحي أحداً.

وفي هذه السفرة تنكر عضد الدولة لكوركير فقبض عليه وردّه إلى سيراف واعتقله اعتقالاً جميلاً فيه بقية للصلح.

ودخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة

وفيها تمكن الأستاذ الجليل أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد رحمهما اللَّه من الوزارة بعد أبيه وفوض إليه ركن الدولة تدبير ممالكه ومكنه من أعنة الخيل فصار وزيراً وصاحب جيش على رسم والده إلا أن والده باشر هذه الأمور في كمال من أدواته وتمام من آلاته على ما شرحناه فيما تقدم وكان لوفور عقله يداري أمره مع صاحبه ومع عسكره ثم يسوس رعيته والممالك التي يراعيها ويدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته موافقاً لزمانه فلا يظهر من الزينة وأبَّهة الوزارة إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس ثم يتواضع تواضعاً لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه في جاهه أو تحطه عن المنزلة العالية التي يرقى إليها وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم وقيام هيبته وتمام سياسته متصلة تزيد على الأيام ثناء وثباتاً. فأما ابنه أبو الفتح فكان فيه مع رجاحته وفضله وأدب الكتابة وتيقظه وفراسته نزق الحداثة وسكر الشباب وجرأة القدرة فتطلعت نفسه إلى إظهار الزينة الكثيرة واستخدام الديلم والأتراك والاحتشار في المواكب التي يركب فيها واتخاذ الدعوات لصاحبه وسائر عسكره التي يلتزم فيها الخلع والحملان على الدواب والمراكب والإسراف في الصلات والنفقات تشبهاً بوزراء عز الدولة بختيار الذين لا خبرة لهم بعواقب الأمور ولا نظر لهم في مصالح الملك وإنما همة أحدهم في تناول شهواته والوصول إلى لذاته وإثارة غيظ حسادهم بإظهار الزينة التي فوق طاقته. وليس يعلم أن أول من ينكر ذلك في نفسه وإن لم يبده له صاحبه فهو يحسده على مساواته له وعلى تمكنه مما يتمكن هو منه ثم مزاحمته له في الاستظهار والجمع وتبذير الأموال التي يرى أنه أحق بها منه ثم خوفه من ميل الجند إليه وإجماعهم على جوده وسخائه واعتدادهم بما يصل إليهم له دون صاحبهم وولي نعمهم. فكان أبو الفتح بن العميد يسرف في ركوب هذه الأهواء ويحب أن يبلغ غاية ما يقدر عليه منها فجلب عليه ذلك ضروب الحسد من ضروب السلاطين وأصحاب السيوف والأقلام فكان صاحبه ركن الدولة قد شاخ وسئم ملابسة أمور الجند وأحب الراحة والدعة ففوض إليه الأمور ورآه شاباً قد استقبل الدنيا استقبالاً فهو يحب التعب الذي قاساه ركن الدولة ثم ملهُ ويستلذ فيه الانتصاب للأمر والنهي ومخالطة الجند

والركوب إلى الصيد ومشى خواص الديلم وكبار الجند بين يديه ثم مشاربتهم ومؤانستهم والإحسان إليهم بالخلع والحملان. فأول من أنكر عليه هذا الفعل عضد الدولة ومؤيد الدولة ابنا ركن الدولة وكتابهم ثم سائر مشايخ الدولة ورأوه يركب في موكب عظيم ويغشي الدار والديوان فإذا خرج تبعه الجميع وخلت دار الإمارة حتى لا يوجد فيها إلا المستخدمون من الاتباع والحاشية فقط. ثم ترقى أمره في قيادة الجيش والتحقق بها إلى أن ندب للخروج إلى العراق في جيش كثيف من الري والإجماع مع عضد الدولة لنصرة بختيار بن معز الدولة في الخلاف الذي وقع بينه وبين الأتراك المستعصين عليه كما سنشرحه فيما بعد بإذن اللّه. فأقام هناك ونظم أمور بختيار وتلقب بذي الكفايتين من جهة الطائع للّه وأخذ الخلع وواطأ بختيار على أمور خالف فيها عضد الدولة وأوحشه وتأدى أمره إلى الهلاك. وإنما ذكرنا هاهنا جملة من سوى تدبيره لنفسه ونحن نشرحها مفصلة في الأمور التي حدثت في سنة ٣٦٥ ليعتبر بها المعتبرون ويجري مجرى تجارب الأمم التي يتكرر مثلها فيتحرز منها. فأما الآن فإنا نشرع في الأمور التي حدثت في هذا الزمان الذي نحن في ذكره ونستقصي أخبار بختيار وما عمله في عوده من البصرة إلى واسط ليتصل حديثه ولا ينقطع بدخول حديث غيره فيه.

ذكر السبب في تجاسر العامة على السلطان والفتن الثائرة بهم حتى خربت بغداد

وذاك أن الكتب وردت عليه بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها وأحرقوها وقتلوا الرجال وسبوا الذراري ثم ورد خلق من ديار ربيعة وديار بكر مدينة السلام واستنفروا المسلمين في المساجد الجامعة والأسواق وحكوا انفتاح الطريق للروم وأنه لا مانع لهم من تورد ديارهم وهي متصلة بالعراق فلما تجمع معهم خلق من أهل بغداد صاروا إلى دار المطيع للّه وحاولوا الهجوم عليها وقلعوا البعض من شبابيكها فأغلقت الأبواب دونهم بعد أن كانوا يصلون إليه ويأتون عليه فأسمعوه ما كره ونسبوه إلى العجز عما أوجب اللّه على الأئمة وتجاوزوا ذلك إلى ما يقبح ذكره. وكان بختيار في هذا الوقت بالكوفة مظهراً زيارة المشهد وغرضه التصيد فخرج إليه وجوه أهل بغداد منكرين عليه اشتغاله عن مصالح المسلمين. وانصرافه عن تدبيرهم إلى مجاهدة عمران وهو من أهل القبلة وإمهاله الروم وهم أعداء الملة ثم تشاغله بالصيد واللهو عن جميع مهمات المملكة ووعدهم بالعود إلى واسط ومصالحة عمران والانكفاء إلى الثغور فسكنوا وانصرفوا. فلما عاد كاتب أبا تغلب وهو صاحب الموصل يعلمه فيه أنه عامل على الغزو ويلزمه أن يعد له من الزاد والعلوفة ما يسعه وجنده في الطريق وأنفذ في ذلك بعض خواصه فقضى ابن حمدان حقه ورده بالإنعام والمسارعة إلى ما سأل وهو يعلم أنه

لا يفي بوعد ولا وعيد وأنه يقول ولا يفعل.

ثم أنفذ محمد بن بقية برسالته إلى سبكتكين الحاجب وهو ببغداد يستصلحه لوزيره العباس بن الحسين ويستنهضه للغزو معه ويأمره بأن يستنفر من يرغب في الجهاد فتقبل سبكتكين ذلك تقبل المنافق ثم ركب ببغداد في الجيش واستنفر المسلمين فثار من العامة عدد كثير بأصناف السلاح والسيوف والرماح والقسيّ حتى استعظم ما شاهده منهم ولم يوفق لتربيتهم وضمهم إلى رئيس يقوم بهم بل جعلهم كالعدة لنفسه فصاروا وبالاً عظيماً وضروا على المحارمات بينهم وأظهروا ضروب العصبية وأثاروا الفتن وأقدم بعضهم على بعض بالقتل واستباحة الأموال والهجوم على الحرم والفروج وتفاقم الأمر بينهم وبلغ كل المبلغ في الشر وعجز السلطان عن إصلاحهم وإطفاء ما أثاره من نائرتهم حتى صار ذلك سبباً لخراب بغداد وسنذكر شرح هذه الأحوال عند دخول سنة ستة بعون الله.

وصالح بختيار عمران كما حكينا أمره فيما تقدم وطمع في مال الصلح واستضعفه ورجع بختيار إلى بغداد وهي خراب بكثرة الفتن واستطالة العامة وحدوث الحروب فيها وإغارة بعضها على بعض وكثرة رؤسائهم الناجمين فيهم حتى حصل في كل محلة عدة رؤساء من العيارين يحامون على محلتهم ويجبونهم الأموال ويحاربون من يليهم فهم لذلك متحاقدون يغزو بعضهم بعضاً نهاراً وليلاً ويحرق بعضهم دور بعض ويغير كل قوم على إخوانهم وجيرانهم. فأما الأتراك فمتسحّبون مقترحون ما لا تمكن منه متجاوزون حدود العامة في سفك الدماء والطمع في الأموال والفرج حتى قتلوا صاحب شرطة كان لبختيار يقال خمار لشيء حقير كان حقده على بعض أصاغر الأتراك فلقيهم راكباً في موكبه فحملوا عليه وألجأوه إلى الهرب والدخول إلى دار بختكين المعروف بجعدويه وكان رئيساً معظماً في الأتراك فهجموا عليه وأخرجوه وقتلوه قتلة الكلاب خفقاً بالسيوف واللتوت ثم سلموا جثته إلى العامة ففصلوه آراباً حتى أخذ كبده بعض السفهاء وقلبه آخر وكل جارحة منه وجد في يد سفيه ثم أحرقوا باقي جثته بالنار. وفتحوا السجون وأطلقوا أهل الدعارة منها وقلعوا أبوابها ونقضوا حيطانها وعجز بختيار عن تدبير أمرهم وخاف معرة الأتراك فاستدعى الديلم إلى داره فحضروه بالسلاح وتكلموا في أمر المقتول أعني خمار وأنكروا تبسط الأتراك وتحركت الأحقاد بينهم وعمل الديلم على قصد دار سبكتكين الحاجب ومنازل الأتراك وأحسوا بهم فتحرزوا واستعدوا وتعصبت العامة معهم فسكن بختيار تلك الثورة وأغضى عن قتل صاحبه خمار ثم عول على الحاجب سبكتكين في تسكين العامة لأن هيبته كانت في نفوسهم أكبر وقلد سبكتكين الشرطة ببغداد حاجباً له فسكنت الفتنة مدة أيامه إلا أنه تعصَّب للطائفة المنتسبة إلى السنة على الشيعة فثار أهل التشيع وعادت الحروب والفتن كأعظم ما كانت. فكانت الأموال تنتهب والقتل بين العامة يستمر في كل

يوم حتى صار لا ينكر ولا يمكن حسمه وظهر نقصان الهيبة وعجز السلطان.

وعطف بختيار على وزيره أبي الفضل العباس بن الحسين بمطالبة الأموال وإعطاء الرجال وإرضاء طبقات الجند وكان لا ينظر في دخل ولا خرج وإنما يلزم وزيره تمشية الأمور من حيث لا يعنيه ولا ينصره ولا يمنع أحداً من جنده شيئاً يلتمسه ولا يقبض يده ولا لسانه عن كل ما يفسد حاله وشأنه ويحب أن تقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والقباج فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الأمر أن يعود من الالتياث والانحلال إلى أسوأ ما كان. فلما بلغ الأمر بوزيره أبي الفضل هذا المبلغ ولم تبق له حيلة في درهم يأخذه من وجهه عدل إلى طلب الأموال من الوجوه المذمومة التي تقبح الأحدوثة بها وتحرم ولا تحل في شيء من الأديان.

فبعث بختيار على مطالبة المطيع للّه بمال يوهمه أنه من وراء ثروة ومال وأنه يحتاج إلى إخراجه في طريق الغزو وأن ذلك واجب على الإمام.

ذكر الرسائل والجوابات التي دارت بين المطيع وبين بختيار وما آل إليه أمر أبي الفضل من الهلاك

أجابه المطيع للّه بأن: الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم فإن أحببتم أن اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله. وترددت المخاطبات في ذلك والمراسلات حتى خرجت إلى طرف من أطراف الوعيد واضطر إلى التزام أربعمائة ألف درهم باع بها ثيابه وبعض أنقاض داره. وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وعند من ورد من حاج خراسان وغيرهم من الواردين عن الأقطار أن الخليفة صودر وكثرت الشناعات.

وعول أبو الفضل الوزير فيما يحتاج إليه من مال الجند والإقامات التي تلزمه للاتباع والحاشية على مصادرات الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال وابتدأ بأهل الذمة ثم ترقى إلى أهل الملة فأخذ أموال الشهود ووجوه البلد من أهل الستر وبث السعاة والغمازين وسماهم العمال وأجرى عليهم الأرزاق وكثر الدعاء عليه في المساجد الجامعة وفي الكنائس والبيع وفي المحافل والمجالس وزادت العامة على ما ذكرت من حالها في الإغارة والإقدام على النهب والحرق وأسرفت في ذلك حتى بطلت الأسواق وانقطعت المعايش وتعذر على أكثر الناس الوصول إلى ماء دجلة حتى شربوا ماء الآبار وحصلوا في شبه الحصار. ورام الوزير أبو الفضل تسكينهم فتعذر عليه حتى أركب

إليهم طائفة من الجيش فواقعوهم وكسروهم ونقصت الهيبة أكثر مما كانت عليه وركب أبو الفضل بنفسه لقتال العيارين وواقعهم فلم يقدر عليهم.

وكان في حجابه رجل يعرف بصافي ذميم الأخلاق دني النفس يتعصب لأهل السنة فضرب محلة الكرخ وهي مجمع الشيعة ومعظم التجار بالنار فعظم الحريق وتلفت البضائع وصارت المضرة على الرعية فيما دبره سلطانها أعظم مما جناه سفهاؤها. وكان بين أبي أحمد الموسوي (وهو الحسين بن موسى ويتولى نقابة الطالبيين) وبين أبي الفضل الوزير مناظرة فيما جرى على الشيعة فأظهر امتعاضاً وخرج في المناظرة إلى المهاترة فصرفه الوزير عن النقابة بأبي محمد بن الناصر وهو الحسن بن أحمد العلوي وحصل أبو أحمد الموسوي من أعداء أبي الفضل المكاشفين له المثربين عليه وحصل أبو الفضل فريداً لا ناصر له أما سبكتكين فيطلب عنده ثار أبي قرة وفي نفسه عليه ما كان منه في استدعاء بختكين آزاذرويه من الأهواز إلى واسط ليقيم مقامه ويجعله ضداً له وشيء آخر كان عظيماً عنده قبيحاً وهو أن سبكتكين كان يختص غلاماً تركيا من غلمانه فغضب عليه وأمر ببيعه في السوق فنصب الوزير أبو الفضل من اشتراه له بضعف قيمته وتحظاه ونزل عنه منزلة من كان في نفسه منه عشق ثم موله وأعطاه شيئاً كثيراً حتى صار أجل وأيسر من غلمان سبكتكين فلحقت سبكتكين من ذلك غيرة شديدة وفسد عليه غلمانه الذين في داره بما وصل إليه هذا الغلام. فهذه أسباب عداوة سبكتكين وقد حكينا عداوة الجرجرائي له وعداوة أبي أحمد الموسوي النقيب له ثم عداوة محمد بن بقية له وكان ابن بقية قد ملك قيادة بختيار وكان سبب عداوته له أن أبا نصر المعروف بابن السراج (واسمه إبراهيم بن يوسف وهو من الأشرار المعروفين بالسعاية) قد جمع بالمكسب الخبيث مالاً عظيماً وأعقد ضياعاً جليلة فشعثها أبو الفضل تشعيثاً يسيراً أخرجه به إلى عداوته والسعي على دمه وكان يجتمع مع المعروف بمحمد بن أحمد الجرجرائي كاتب شرمزن (الذي قدمنا خبره وسبب عداوته لأبي الفضل) ويداخلان محمد بن بقية ويعرضانه للمكاسب الجليلة والفوائد العظيمة ولم يزالا به حتى غيرا رأيه في الوزير أبي الفضل وأوهماه أنه ساء عليه وأنه لن يبعد أن يضمنه من بختيار بمال عظيم ثم تجاوزا ذلك إلى أن أشار عليه بتقلد الوزارة وأن يسبقه إلى القبض عليه والراحة منه.

ذكر السبب في تقلد ابن بقية الوزارة

لم يكن ابن بقية يستقل ولا يكمل لحمل دواة بين يدي وزير ولا يطمع في شيء من هذه المراتب ولكنه تقدم عند بختيار وقت خلافته لصاحب المطبخ في توفير وفّره وخدمة في جملتها تمسخر وكان مستخرجاً عسوفاً شديد القسوة جاهلاً وفيه مع ذلك سماحة وسعة صدر وهو في هذه السيرة متشبه بأهل الشطارة والفتاك والدعار وليس يسلك طريقة أهل الكرم والرياسة ولما أشار عليه هذان بالدخول في الوزارة والقبض

على أبي الفضل قبل أن يسبقه إلى ذلك دهش وعلم أنه يعجز عما أشارا به عليه.

ذكر كلام سديد لابن بقية في تلك الحال

أنه أجابهما بأن قال: لا صناعة لي ولا توجه فيما تدعواني إليه ولي عند صاحبي منزلة كبيرة تحتاج الوزراء إليَّ معها وأخاف أن أدخل فيما ليس من عملي وأتهجن ويقدح في منزلتي واحط عنها من غير أن أنتفع بالوزارة. فشجعاه وجسراه وضمن له محمد بن أحمد الجرجرائي أن يخفه ويكفيه العمل كله ثم صارا إليه سبكتكين الحاجب وذكراه بأفعال الوزير أبي الفضل وحملاه على الشروع في صرف أبي الفضل ونكبته فقال لهما: إني لم أزل معتقداً لذلك وإنما كان توقفي عنه طلباً لمن يقوم مقامه ويسد مسده إذ كان محمد بن العباس قريب العهد بالصرف ولم يكن مرضيّاً في وزارته ولا ناهضاً بها وقد حفظت على الأمير بختيار أيمان البيعة بأن لا يقلده وزارته. فخاطباه في تقليد ابن بقية وضمنا عنه أن ينهض ويغني ويكفي وأنهما يعضدانه ويشدان منه في التدبير والنظر في الأمور فاستروح سبكتكين إلى ذلك وجمع به التشفي من أبي الفضل وفساد أمر بختيار وتجشم احتمال الغضاضة في توفية محمد بن بقية حقوق الوزارة بعد أن لم يكن ممن يجوز أن يعده من أصاغر خدمه ولا يطمع في دخول داره وإنما تجرع ذلك وطابت به نفسه لعظيم ما كان في قلبه من أبي الفضل فراسل بختيار في ذلك وقد كان بختيار ساء رأيه في أبي الفضل جداً فاستجاب إليه.

وقد كان أبو سهل ديزويه العارض مرموقاً بمال عظيم ولم يتمكن منه لمصاهرة كانت بينه وبين شيرزاد بن سرخاب فلما نفى شيرزاد احتيج إليه في تسكين الجند مديدة فتدافعت نكبته ثم إن أبا الفضل هم في هذا الوقت بالقبض عليه فأحب ابن بقية أن يتولى أبو الفضل القبض عليه ثم يتسلمه هو ويستخرج أمواله. فجرى الأمر على ذلك فقبض أبو الفضل على أبي سهل ديزويه في يوم الخميس وقبض ابن بقية على أبي الفضل يوم الأحد فكان بينهما ثلاثة أيام واستتم القبض على جميع كتابهما ومن يتصل بهما من أسبابهما وكان ذلك في سنة ٣٦٢.

وفي سنة ٣٦١ وقع الصلح بين عضد الدولة وبين أبي صالح منصور بن نوح صاحب خراسان ووقعت المصاهرة فتزوج منصور بن نوح بابنة عضد الدولة ونفذ في ذلك عابد بن علي مع عشرة أنفس مختارين من الأشراف والقضاة والشيوخ المذكورين وتكلف صاحب خراسان مؤونة عظيمة للرسل والشيوخ وحمل هدايا كثيرة لم تحمل مثلها قط إلى عضد الدولة وكتب بينهما كتاب اتفاق بين الجهتين وكتب فيه شهود العراق الحاضرون وشهود خراسان خطوطهم.

وفي سنة ٣٦٢ خلع المطيع للّه على أبي إسحاق إبراهيم بن معز الدولة وكنّاه

ولقبه عمدة الدولة.

وفي هذه السنة جرت وقعة بين الدمستق وبين هبة اللّه بن ناصر الدولة بناحية ميّافارقين وكانت عدة الدمستق عظيمة كثيفة لكنه اتفق أن لقيه في مضيق لا تجول فيه العساكر وكان الدمستق في أول عسكره على غير أهبة تامة فانهزم الروم وأخذ الدمستق أسيراً وتمكن المسلمون منهم وأعز اللّه دينه وكثر القتل والأسر حتى أنفذ إلى بغداد الرؤوس والأيدي وكانت كثيرة فشهرت وكانت هذه الوقعة في آخر يوم شهر رمضان سنة ٣٦٢ وحبس أبو تغلب الدمستق إلى أن جرح به جراح عظيم فبطّ وتأدت الحال به إلى الموت بعد إن كان أحسن ضيافته واجتهد في علاجه وقدّر إن يبلغ به من ملك الروم ما يريد.

وفي هذه السنة خلع ثاني يوم قبضه على أبي الفضل وهو يوم الاثنين السابع من ذي الحجة سنة ٣٦٢ على محمد بن بقية وكان إلى هذا اليوم يقدم الطعام إليه ويحمل الغضائر بيده ويتشح بمناديل الغمر ويذوق الألوان عند تقديمه إياها على رسم من يخدم في المطبخ خدمته فلما وزر عاد يريد الخدمة في ذلك فنهاه بختيار. وتعجب الناس من وزارته فإنه كان دنياً لا يقع عينه إلا على من كان فوقه ولا يرى نفسه إلا دون كل أحد فازدادت دولة بختيار به سقوطاً وأخلاقاً وتضاحك صغار الناس به قُرباً وبعداً. واستخلف حين وزر محمد بن أحمد الجرجرائي وناط الأمور به وبالمعروف بأبي نصر السرّاج واستقصى على أبي الفضل في المطالبة بالمال حتى تقرر أمره على مائة ألف دينار فلما صح أكثرها سُلّم إلى أبي الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوي الكوفي على أن يخرجه إلى الكوفة ويحبسه عنده فتسلمه وعاش عنده مديدة وتلف فلم يشك أحد أنه مات مسموماً.

وقبل ذلك توفيت زينة بنت أبي محمد المهلبي رحمه اللّه وقد كان أخوها أبو الغنائم تقدمها وأكثر أهلها وانقرضت الجماعة ثم تتبعهم جميع من اشترك في دم أبي الفضل قتلاً من غير إن طال بهم الأعمار وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء اللّه.

ذكر ما دبّر به ابن بقيّة أمره حتى تماسك مديدة

أنه جدّ في مطالبة أبي الفضل وأسبابه من خلفائه وحجابه وغلمانه وكل من انتسب إليه وإلى ديزويه العارض حتى استصفى أموالهم واتسع بما وصل إليه مديدة ومشت الأمور بين يديه فتبجّح بذلك وادعى حسن الأثر وتوصل إلى أن كناه المطيع ولقبه الناصح فخلع عليه الخلع السلطانية بأمر بختيار وإذنه. وكثر ذمه لأبي الفضل والطعن عليه وادّعى العدل والانصاف فلم تمض إلا أيام حتى ارتكب من الظلم والغشم وإثارة الفتن ما صارت أيام أبي الفضل بالقياس إلى أيامه جاريةً مجرى أيام العمرين وكل ذلك لسوء نظر بختيار وإهماله الأمور وإقباله على الشهوات واستثقاله مباشرة التدبير حتى سقطت الهيبة وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض وظهرت الأهواء المختلفة

والنيات المتعادية وفشا القتل حتى كان لا يعدم في كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلوهم وإن عرفوا لم يتمكن منهم فانقطعت مواد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة وظهر في كل قرية رئيس منها مستول عليها وتباغوا بينهم وحصل السلطان صفر اليد والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون.

ذكر تدبير دبره الترك وأكابر الحاشية والجند حتى سكن أمرهم مديدة ثم عادت الحال كأسوأ ما كانت

شرع ابن بقية في إصلاح ما بين بختيار وسبكتكين وتوسطه الوجوه والأكابر فترددت المراسلات ووجوه الكتاب والقواد وأخذ لكل واحد منها على صاحبه يمين مؤكدة على التصافي والتآلف فلما تم الاتفاق بينهما ركب سبكتكين إلى بختيار مع جماعة من الأتراك فلقيه وسلم عليه وانصرف. ولم يعد إليه ولا اجتمعا إلا في الموكب وعلى سبيلهما الأولى في التحرز ونشأت بينهما ظنون سيئة وبلاغات منكرة ووجد الأعداء والمتسوقون طريقاً سهلاً في الشر فسلكوه فعادا إلى التنافر.

ذكر سبب قوي في عودهما إلى الحال الأولى من العداوة

اجتاز ديلمي من سقط الجند سكران في فنا دار سبكتكين الحاجب فيما يلي دجلة وهو نائم فرمى الديلمي أحد صوالجة الروشن بزوبين كان معه فأثبته فيه على سبيل العبث فظن سبكتكين أنه مدسوس عليه ليرميه فتقدم بأخذه فأخذ وسئل واستقصى عليه فلم يكن لذلك الظن أصل فأمر بإنفاذه إلى بختيار وتعريفه ما كان منه فلما حصل بحضرته أمر بقتله فقتل وتحرك الديلم وأنكروه واستشنعوا فعله وشغبوا وحملوا السلاح ولزموا موضع الشغب ثلاثة أيام ثم استعطفوا فرجعوا إلى منازلهم والقلوب نافرة.

ودخلت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة

وفيها خرج بختيار إلى الموصل طمعاً في تناول بعض ما في تلك الأعمال والاتساع به وحرصاً على التصيد في طريقه.

شرح هذه الأسباب وذكرها على التفصيل

قد كان أبو الفضل قبل صرفه عن الوزارة الأخيرة أطمع بختيار في الموصل وقدر أن خروجه إليها يشغله عن نفسه وقصده ويدفعه عن نكبته وليتغلل بما يتناوله من تلك الأعمال غلة وما لا يستعين بها في القضيم والأقوات فلما تقلد محمد بن بقية الوزارة سلك هذا السبل في بعثه على الخروج وحرص ابن بقية على الموصل.

ذكر سبب ذلك

وردت كتب أبي تغلب على ابن بقية مع علي بن عمرو كاتب أبي تغلب ووزيره بمخاطبة دون ما كانت تكاتب به الوزراء قبل ذلك لانحطاط منزلته في نفوس الناس وأبت نفس أبي تغلب أن يوفيه جميع ذلك الحق فاغتاظ ابن بقية من ذلك وذكر علي بن عمرو وصاحبه أبا تغلب بالقبيح وتوعدهما بالمسير فتلافاه بالمكاتبة المستوفاة فلم ينصرف ابن بقية عن عزيمته. وأحب بختيار الخروج إلى الموصل للأمور التي ذكرناها وقد كان أبو المظفر حمدان وأبو طاهر إبراهيم ابنا ناصر الدولة حصلا ببغداد وطمع أبو تغلب في استصلاح أخيه إبراهيم ولم يطمع في حمدان لوكيد العداوة بينهما فكاتب إبراهيم وأرغبه ليقطعه عن مضامة حمدان وصادف ذلك تقصيراً من بختيار. ونظر إبراهيم فإذا أحوال إخوته الذين أقاموا مع أبي تغلب مستقيمة منتظمة وكاتبه «بأني سائر إليك» واستدعى منه نفراً من الفرسان والأعراب ليصحبوه فأنفذهم إلى قرب بغداد على سمت البرية فهرب إليهم وأخذ معه أخاه المسمى ذا القرنين وكان رهينة في يد معز الدولة ثم في يد بختيار وهرب من محبسه ليلاً وخرج مع أخيه فلما كان الصبح عرف بختيار الخبر فلم يكن له فيه حيلة وجعل ذلك سبباً ظاهراً للخروج إلى الموصل والباطن ما تقدم ذكره. وكان حمدان بن ناصر الدولة من أشد الناس بعثاً له على الشخوص إلى تلك البلاد وطمعاً في التشفي من أبي تغلب فاستحلفه بختيار بغموس الأيمان بعد هرب إبراهيم على الثبات معه والنصيحة له وتمت العزيمة فخرج بختيار وسبكتكين الحاجب ومحمد بن بقية الوزير وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ثلاث.

ذكر الحال في هذه الخرجة وما آل إليه الأمر

وقع التدبير على أن يخرج سبكتكين في الجانب الشرقي على المقدمة ويتلوه بختيار سائراً على أثره وبينهما مرحلة واحدة فإذا صاروا بإزاء تكريت عبر بختيار وسار في الجانب الغربي واستمر سبكتكين سائراً في الشرقي ففعلا ذلك وسبق بختيار إلى الموصل وقد رحل عنها أبو تغلب إلى سنجار بعسكره كله وأخلاها من كل ميرة وكل كاتب ومتصرف ثم توجه من سنجار إلى مدينة السلام وهو من الجانب الغربي. وتأخر سبكتكين بالحديثة وأظهر التشاغل بعبور السفن فاتصل خبر أبي تغلب وخروجه إلى بغداد ببختيار فكتب إلى سبكتكين يرسم له العبور إلى الجانب الغربي والمسير في أثر أبي تغلب وأنفذ إليه شطر عسكره وحمدان بن ناصر الدولة وجمهور العسكر وأنفذ محمد بن بقية في الطيارات والزبازب راجعاً إلى بغداد بعد أن استخلف بحضرته محمد بن أحمد الجرجرائي. فسبق أبو تغلب وانتهى إلى قرية تعرف بالفارسية على نهر الدجيل بينها وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ فعسكر بها وعامل من اجتاز به من أهل

السواد بالجميل ولم يأخذ منهم شيئاً إلا بالثمن الوافر وأظهر العدل والإنصاف. وصارت طلائعه ترد إلى بغداد وخرج إليه جماعة من عوام الناس وأوباشهم مستقبلين له مظهرين السرور بمقدمه وبرز أبو إسحاق بن معز الدولة وكان يخلف أخاه بختيار إلى باب الشماسية وانتقل المطيع لله ووالدة بختيار وجماعة الحرم والأولاد إلى القصر الذي بناه معز الدولة بباب الشماسية على طريق التحصن وعقد أبو إسحاق جسراً في هذا الموضع على دجلة وعبر بطائفة من الجيش الذي كان معه وأظهر أنه يريد الحرب والمدافعة من غير عزيمة صحيحة وإنما أراد التماسك إلى أن يصل سبكتكين الحاجب. فتعجل وصول محمد بن بقية سابقاً في آلات الماء فشد من أبي إسحاق وافتتن الجانب الغربي وعاد العوام إلى حمل السلاح والحرب وطلب الطوائل واستتر التجار وتعطلت الأسواق وعبر أهل النباهة من الغربي إلى الشرقي ونزل سبكتكين باوانا بإزاء عكبرا. فعدل أبو تغلب من موضعه راجعاً إليه فنزل في قرية بينهما نحو نصف فرسخ وتصاف العسكران ووقع الطراد بين سرعان الخيل وطوائف من الأعراب ثم تكافأ وجنحا إلى الصلح.

ذكر مكيدة جرت في هذه الحرب واجتماع من سبكتكين وأبي تغلب على بختيار وحيلة بينهما لم يتممها سبكتكين وضيع فرصته فيها

كانت الموافقة في السر تجري بين أبي تغلب وسبكتكين على الموادعة وإظهار الخلاف إلى أن يتمكن سبكتكين من القبض على الخليفة ووالدة بختيار وحُرمه ومحمد بن بقية وإظهار العصيان عند ذلك ثم يعود إلى بغداد ويعود أبو تغلب إلى الموصل قاصداً بختيار وهو في عدد قليل فيتمكن منه ويقلب دولته سريعاً. ففكر سبكتكين في سوء السمعة ولم يقدم على حرم مولاهُ وعلى الخليفة وخاف عاقبة ذلك. وبادر محمد بن بقية من بغداد إلى سبكتكين فاجتمع معه وحضرهما رسل أبي تغلب وتقرر الصلح على المبلغ الأول وزيادة ألف كرّ من الحنطة في كل سنة وعلى أن يطلق أبو تغلب لبختيار ثلاثة آلاف كر حنطة عوضاً عن مؤونة سفره: وانكفأ أبو تغلب إلى الموصل قاصداً بختيار وهو في خف من عسكره فأيقن الناس أن أبا تغلب لم يقدم على القرب من سبكتكين إلا على ثقة من أنه لا يحاربه وإن ذاك الطراد الذي وقع بين أوائل العسكرين إنما كان تمويهاً.

ودخل سبكتكين وجميع العسكر بغداد وأسلم بختيار وقامت القيامة على محمد بن بقية من ذلك وطالبت سبكتكين بمعاودة المسير واللحاق بصاحبه بختيار فتثاقل عن ذلك واحتج بأن الرجال لا يستجيبون للعود ثم فكر في العواقب فانكفأ على

مضض ورحل وقد ظهر للناس ما كان همّ به إلا أنه ما فعل ولو هم وفعل لكانت فرصة عجيبة وكان لا يمتنع عليه شيء من التدبير الذي ذكرناه. ثم جد سبكتكين وابن بقية وسائر الجند في المسير مصعدين وقد كان بختيار حين عرف خبر رجوع أبي تغلب إليه جمع إليه أطرافه وردّ قواده من النواحي التي كان غرقهم فيها وخاف خوفاً شديداً وعبى مصافه في الموضع المعروف بالدير الأعلى على من ظاهر الموصل وقرب أبو تغلب ونزل أسفل الحصبا على حالة الأهبة والتعبية ولم يبق بينهما في المسافة إلا طول قصبة الموصل فقط وأحجم كل واحد عن صاحبه وعن المناجزة إلا أن أبا تغلب كان الأظهر لكثرة عدده وتعصب أهل الموصل له وخاض الناس بينهما في حقن الدماء وتتميم الصلح الذي تقدم ذكره فاشتط أبو تغلب في الحكم والتمس النقصان والحطيطة وطالب بتسليم زوجته بنت بختيار إليه وأن يلقب لقباً سلطانياً فأجابه بختيار إلى ذلك كله تفادياً من اللقاء. وجرى كلام في معنى حمدان وأن يفرج عن ضياعه وأملاكه بغلاتها وعن القلعة المفردة له المسماة وهي قلعة ماردين. وكانت هذه القلعة مسماة لحمدان ومفردة له منذ أيام أبيه وقد رتب أخاه من أمه مع ثقات له فيها فاحتال أبو تغلب على هذا الأخ حتى رغب في مال يتعجله وخان أخاه وسلمها. فامتنع أبو تغلب من ذلك كله ولم يدخل في شرائط الصلح شيئاً منه وكان غائباً عن هذا الأمر وحاصلا ببغداد مع سبكتكين الحاجب. فضعف بختيار عن الاستيفاء وكان غرضه المفالتة وأن يفرج له أبو تغلب فخرج إلى موضع يقال له قرن الآئل على خمسة فراسخ من معسكره في عرض الموصل بعد أن حلف كل واحد منهما لصاحبه يميناً أخذها عليهما أبو أحمد الموسوي وجماعة من السفراء وانحدر بختيار إلى الحديثة وأهل الموصل يتبعونه باللعن والدعاء عليه ويتبعون أصحابه ويتوثبون عليهم وذاك أن محمد بن أحمد الجرجرائي خليفة ابن بقية ظلمهم وعسفهم فكان انصراف بختيار عن هزيمة ظاهرة. فلما تحرك من موضعه وانحدر دخل أبو تغلب الموصل وظفر بجماعة كانوا مالوا إلى بختيار من أصحابه وأهل الموصل فسمل عيونهم. ووجد رجلاً عقيلياً يعرف بابن العجَّاج كان استأمن من عسكره إلى بختيار ولم يخرج عن البلد تعويلاً على ما جرى من الصلح فضرب رقبته.

ولما وصل سبكتكين ومحمد بن بقية وحمدان والجيش واجتمعوا مع بختيار اضطرب حمدان من خروجه عن الصلح وأنف محمد بن بقية من الحال التي انصرف عليها بختيار واتفقوا على أن يجعلوا ضرب رقبة هذا العقيلي وسمل العمال ووثوب أهل الموصل على حاشية بختيار واتباعه عذراً في الرجوع وحجة على أبي تغلب في الفسخ فعطفت الجماعة بجميع العسكر إلى الموصل. فهرب أبو تغلب عنها إلى ناحية يقال لها تل اعفر وردّ كاتبه المعروف بأبي الحسن علي بن عمرو بن ميمون برسالته إلى بختيار

يعاتبه فيها على النقض وينسبه إلى الغدر فقبض محمد بن بقية عليه واعتقله وامتهنه واحتج عليه بما ذكرنا فجحد أن يكون ما جرى من القتل والسمل بأمر أبي تغلب وأحال فيه على بعض غلمانه ثم تقرر الأمر بعد خطوب جرت على إتمام الصلح وقومت الغلة وردت إلى الورق ووضع عنه ما استخرجه بختيار من الموصل وأعمالها ونجم الباقي على تعجيل وتأجيل وشرط الإفراج عن ضياع حمدان خاصة دون قلعة ماردين ودون ما أخذ منها ومن ارتفاع الضياع وأن يسلّم القوم الذين قتلوا العقيلي وسملوا العمال لينفذ فيهم بختيار حكمه فأنفذهم أبو تغلب إليه على ثقة بأنه لا يسيء إليهم لعلمهم جميعاً أنهم مأمورون (فعفا عنهم بختيار) وعلى أن يلقب أبو تغلب ويزف إليه زوجته وجددت الإيمان والعهود على الفريقين وانصرف بختيار وتشاغل في طريقه بالتصيد وكان وروده مدينة السلام لعشر خلون من رجب من هذه السنة وورد كاتب أبي تغلب فأنجز له بختيار المواعيد وسأل المطيع للّه في تلقيبه فلقب عُدّة الدولة وأنفذ إليه خلع سلطانية ونقلت إليه زوجته ووقع البدار به ليصح المال.

وفي هذه السنة هلك محمد بن أحمد الجرجرائي وتلف في المصادرة

ذكر السبب في ذلك

كان ابن بقية لا يبقى على أحد يتهمه أو يسبق إلى قلبه منه شيء بل يعاجله قبل التأمل ويقتله من غير تثبت وكان أهلك قوماً من أهل الكفاية والكتابة بالظن والتهمة وأنهم سيصلحون لمكانه. ولما أفضت إليه الوزارة وكان المتولي للبصرة علي بن الحسين الشيرازي المعروف بأبي القاسم المشرف وكان يعاديه ويعتقد أنه ذو كفاية فأراد القبض عليه واستصفاء ماله وإتلافه فتدافع ذلك إلى أن عاد من الموصل فعمل على أن ينفذ محمد بن أحمد الجرجرائي في ذلك طلباً لإبعاده عن الحضرة ولأن حاله كانت تمهدت عند بختيار لتقدمه على ابن بقية في الكتابة ولأنه عقد بينه وبين قهرمانة بختيار التي يقال لها تحفة فكانت تحامى عليه وتتعصب له وكان مع ذلك يتكلم بالفارسية وابن بقية لا يعرف منها شيئاً فتطاول بهذه الأشياء على ابن بقية واستهان ببعض ما كان يأمره به ثم بلغه أنه مهد لنفسه حالاً عند بختيار أيام تفرُّده بخدمته بالموصل. فلما اجتمعت عليه هذه الأشياء أراد إبعاده عن الحضرة وإخراجه في القبض على علي بن الحسين والنظر فيما كان ينظر فيه فلما خاطبه في ذلك نفر منه وأحس بتغيّر نيته له واجتهد في أن يعفيه فلم يفعل فانحدر وقد نبا كل واحد منهما عن صاحبه. ولو صبر على أن يكون عامل البصرة لما خرج به ابن بقية إلى ما خرج ولكنه لما رآه يأبى إلا التشبث بالحضرة والتمسك بما كان ناظراً فيه دون ما سواه اتهمه وازداد شكا فيه.

وكان ابن بقية قدَّم كتابه إلى صاحب له ينوب عنه بالبصرة يقال له عبد العزيز بن محمد الكُراعي وهو من الأوغاد الأصاغر الذين ارتفعوا بارتفاعه وأمره يعرّفه نيته في علي بن الحسين ويأمره بالقبض عليه فانحدر الجرجرائي على أن يصادره وينصب مكانه ضامناً له أو عاملاً غيره ويعود فلما استقر بالبصرة وافق علي بن الحسين على مال التزمه وأضافه إلى أصل ضمان البصرة وجدد إيقاع العهد عليه ورده إلى عمله من غير استئذان لمحمد بن بقية وكتب إليه بأن الصواب أوجب ذلك عنده وأنه مصعد إلى الحضرة فاغتاظ من فعله ورآه بصورة من يستهين به ويؤثر المقام بالحضرة فكتب إلى عبد العزيز بن محمد الكراعي بالقبض عليه وعلى علي بن الحسين ففعل ذلك فأما علي بن الحسين فإنه قرر أمره على بعض المقاربة ورده إلى العمل بعد خطوب جرت فيه وأما الجرجرائي فإنه أخذ خطه بمال ثقيل فصح له بالبصرة شيء يسير واشترط لنفسه أن يحمل إلى بغداد ليصح المال إذ كان وطنه بها وفيها نعمته وإنما كان غرضه بالقهرمانة التي كانت تعزه فسابقه محمد بن بقية إليها فاشتراه بخمسين ألف درهم منها فأسلمته وخلت بينه وبينه وكتب بحمله وتقدم إلى عامله بواسط وهو محمد بن أحمد المكنى أبا غالب الصريفيني بأن يتسلمه حتى يصل إليه ويتولى من أمره ما اللَّه مسائله عنه. فتسلمه أبو غالب ومكث في يده أياماً وأظهر أنه اعتل ومات وحساب الجماعة على اللَّه الحكم العدل.

وفي هذه السنة بدأت فتنة الأتراك بالأهواز ثم عمت جميع العراق

ذكر السبب في هذه الفتنة كيف نشأت

قد كانت الإضاقة في المال والتسحب من الرجال زاد على بختيار حتى نبت به الديار وتعذر عليه الاستقرار فكان وزراؤه وكتَّابه يحتالون له فلا يجدون طريقاً لمصلحة ولا يتجه لهم وجه الصواب وكلما أمَّلوا أملاً خابوا أو قصدوا عدواً نكبوا ونكصوا لأن الأبنية كانت تُوضع على أصول غير مستقرة وقواعد غير قوية فلا يبعد أن يتقوَّض فيعتاص عليهم المذاهب. فاعتقد بختيار ومحمد بن بقية عند منصرفهم من الموصل بالخيبة أن يخرجا إلى الأهواز فيستقصيا على بُختكين آزاذرويه ويصرفاه عن البلد ويعملا له أعمالاً ويطالباه بمال ويمرا عليه النكبة ثم يفرقا الأتراك عن سبكتكين ويخففا عدد من يبقى منهم ببغداد ويحتالا عليه من البعد ليستريحا منه ويُحصّلا أمواله وإقطاعه ونعمته ويتسعا بذلك. فانحدرا إلى الأهواز في شعبان سنة ٦٣ فلما صارا بواسط أنفذ إليهما بختكين ثلاثمائة ألف درهم ثم نزلا الأهواز فحمل إليهما ما يحمل إلى الأصحاب وخدمهما وبذل من نفسه الطاعة في المحاسبة والموافقة. فلم تمض على ذلك أيام حتى

ثارت فتنة بين الأتراك والديلم في سبب صغير قد كان يجوز أن يستدرك قبل أن يستفحل ويستصعب فاغتنماه وجعلاه ذريعة إلى إتمام ما كانا هما به وأجرياه على تخليط وفساد من غير تحرز ولا احتياط.

ذكر الخطأ الفاحش والتخليط الذي استعمل في التدبير حتى انعكس وعاد وبالا

إن بختيار خلف ببغداد والدته وإخوته وأولاده وحُرمه وخزائنه وأكثر سلاحه وقطعة من خيله في قبضه سبكتكين عدوه الذي هو في طريق التدبير عليه ومكاشفته بالعداوة ثم أخذ يتطلب عورة الأتراك الذين معه وينتهز الفرصة الضعيفة فيهم ليفسدهم على نفسه وينبه سبكتكين على تدبيره عليه. فكان مبدأ هذا الفساد أن غلاماً من الأتراك نزل بسوق الأهواز داراً تجاور بعض الديلم وكان على بابها لَبِنٌ مشرَّج فأراد أن يبني به معلفاً لدوابه واحتاج ذلك الديلمي أيضاً إلى شيء منه فوجه غلامه ليأخذه فمنعه غلام التركي فلم يمتنع وخرجا إلى التنازع والتهاتر فخرج التركي من داره لينصر صاحبه وبنع صاحب الديلمي وخرج أيضاً الديلمي لنصرة غلامه فأربى على التركي واستطال عليه فركب في الوقت واستنهض الأتراك فثاروا بالديلم وتبادر الديلم وحملوا السلاح واجتمعوا على باب بختيار وبالباب ساحة واسعة قد ضرب فيها وجه من وجوه الأتراك مضاربه وذلك لعزة المنازل فأحاطوا به وهو سكران وسمع الصياح فنهض وركب وعمل على أن يلحق برفقائه فعارضه أحد الديلم وشتمه فثنى عنانه إليه وهو بغير جبة فرماه الديلمي فقتله فاستحكمت حينئذ الفتنة وطالب الأتراك بثأر صاحبهم هذا ورموا الديلم بنشاب كثير حتى قتلوا رجلاً وجرحوا عدة وبرزوا بأسرهم عن البلد إلى الصحراء وتبعهم غلمانهم وأتباعهم وقعد عنهم القواد والأكابر في منازلهم على طريق التوقف عن الفتنة والتمسك بالطاعة.

واجتهد بختيار في تسكين الثائرة فلم يمكنه ذلك بعد انتهائها فاستدعى قواد الديلم وشاورهم وقد كانوا يعرفون اعتقاده في سبكتكين الحاجب والأتراك فقالوا: هذا أمر قد انتشر وفي نفسك منه ما فيها والصواب أن تقبض على رؤساء الأتراك المقيمين وتستولي على هذه البلاد التي كانت في يد بختكين وتنهض إلى بغداد لتقلع عنها سبكتكين وتستريح منه ومن الأتراك. وكانت عادة بختيار أن يسمع من كل مخاطب ويتحدث مع كل كاذب فتسرع إلى قبول ما رأوه ووجه إلى بختكين آزاذرويه وسهل بن بشر كاتبه وسباشي الخوارزمي وبكتيجور وكان حما لسبكتكين الحاجب

فأحضرهم من منازلهم وقبض عليهم وقيدهم وأدخل يده في إقطاعات سبكتكين بالأهواز وصرف أسبابه عنها وكتب إلى البصرة بالنداء في الأتراك والإيقاع بهم فنودي فيهم ونهبت منازلهم وهربوا عنها.

ذكر حيلة احتالها بختيار فلم تتم له

كان بين بختيار وبين والدته اتفاق على أن تظهر عند بعده عن بغداد إلى الأهواز وخفة الأتراك المقيمين بحضرة سبكتكين أن بختيار قد توفي ليصير سبكتكين إليها معزياً ومشاركاً في المصيبة ووافق أخاه أيضاً على مثل ذلك فإذا حضر أوقعا به وقبضا عليه فكتب إليهما ساعة قبض على رؤساء الأتراك على الأطيار بالعمل على ذلك الاتفاق. فأشاعا ورود نعيه وظنا أن سبكتكين لا يتأخر عنهما وكان أرزن وأرجح من أن يصير إليهما ولو صار إليهما لما حضر إلا على نهاية الاستظهار فإن غلمان داره المماليك أربعمائة سوى أتباعهم وسوى الديلم برسمه وسوى حجابه ومن في جملتهم.

وكان هذا الرأي من بختيار بعيداً من الصواب خليقاً بالانتقاض فاقتصر سبكتكين على مراسلتهم بالمسألة عن الخبر ومن أين صح وتوقف عن الركوب إلى أن وردت رسل أصحابه وكتبهم بشرح ما جرى على حقيقته فجمع حينئذ الأتراك المقيمين ببغداد وأعلمهم ما عومل به رفقاؤهم وأن الستر قد انخرق وانهتك وأن دماءهم قد أحلت وأبيحت فدعوه إلى أن يتأمر عليهم ليطيعوه فتوقف عن ذلك وراسل أبا إسحاق ابن معز الدولة يعلمه أن الحال بينه وبين بختيار أخيه منفرجة انفراجاً لا الشام له وأن أكثر الجيش نافر عنه وأنه ليس يستحسن أن يعدل عن طاعة مواليه وأن عقوه وباينوه وأنه يعقد الأمر له ويجمع الأتراك على متابعته وينقل الديلم عن بختيار إليه ويتكفل له بالأمر حتى يستقر عليه.

ذكر انتقاض هذا التدبير بعد استمراره حتى ثارت الفتنة العظمى

لما قبل أبو إسحاق ابن معز الدولة هذا الرأي ودخل تحته علم أن بختيار إما أن يصير جالساً في بيته مزاح العلل فيما يحتاج إليه أو يصير إلى حضرة عمه ركن الدولة فذهب إلى والدته وقص عليها القصة فمنعته من هذه الحال وأشفقت من أن يؤول إلى هلاك أحد ولديها. وصار إليها من كان مقيماً بمدينة السلام من الديلم فأطمعوها في الاستقلال بمحاربة سبكتكين ومن معه من الأتراك فجمعتهم إلى دارها بالسلاح وأصبح سبكتكين وقد نقض عليه إبراهيم ذلك الاتفاق. فركب في يوم الجمعة لثمان خلون من ذي القعدة من سنة ثلاث مع جميع الأتراك قاصداً الحرب وناصباً لها فبقي يومين يحاربهم تباعاً فلما كان في الثالث أحرق جوانب الدار بعد أن حاصرها ونفد زاد من كان

فيها واستسلم إبراهيم ووالدته وكذلك أبو طاهر ومن كان معه وسألوه أن يفرج لهم عن الطريق لينحدروا إلى واسط ولا يفضح حرم مولاه وأولاده فاستحيا وتذمم فاجتمعوا جميعاً في حديدي وانحدروا وتفرق الديلم هاربين في مرقعات إلى بختيار وأقامت منهم شرذمة في طاعة سبكتكين.

وكان المطيع للّه أعد لنفسه حديدياً استظهر به عند حدوث الفتنة فانحدر مع المنحدرين فأنفذ سبكتكين عدة من الزبازب حتى ردوه إلى داره ووكل به فيها توكيلاً جميلاً. واستولى على ما كان لبختيار بمدينة السلام من السلاح والدواب والآلات والمنازل فنزل الأتراك في دور الديلم وتتبعوا حرمهم وودائعهم وسائر أسبابهم. وثارت العامة من أهل السنة ناصرة لسبكتكين فقوّد من رؤسائهم القواد وعرّف العرفاء ونقّب النقباء وخلع عليهم وحملهم على الدواب واستصحبهم وبسطهم وصار له منهم جند.

خلافة الطائع لله

ذكر خلع المطيع وتسليم الأمر إلى ولده

كان المطيع للّه بعقب علة من الفالج يسترها وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى تسليم الأمر إلى ولده الطائع للّه ففعل وعهد إليه فبرئ من الخلافة وخلعها وأشهد على نفسه سنة ٦٣ يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة.

ذكر أسباب الفتن الهائجة بين العامة حتى أدت إلى بوار بغداد

لما انبسطت العامة الذين ذكرنا حالهم مع سبكتكين وهم الفرقة المعروفة بالسنة استضاموا الشيعة وناصبوهم الحرب وتحزب الفريقان وكانت عدة الشيعة قليلاً فتحصنوا في أرباض الكرخ من الجانب الغربي واتصلت الحروب حتى سفكت الدماء واستبيحت المحارم وأحرق الكرخ حريقاً ثانياً بعد الحريق الأول في وزارة أبي الفضل فافتقر التجار وغلبهم العيارون على أموالهم وبضائعهم وحرمهم ومنازلهم واحتاجوا أن يتخفروا منهم وأي فريق كانت الخفارة له قصد الفريق الآخر. وانتثر النظام وانخزل السلطان وصارت العصبية بين هذين الصنفين في أمر الدين والدنيا بعد أن كانت في أمر الدين خاصة وذلك أن الشيعة ثاروا بشعار بختيار والديلم وأهل السنة ثاروا بشعار سبكتكين والأتراك.

شرح الحال فيما تأدى إليه أمر بختيار بالأهواز وما دبر به أمره

أدخل يده في إقطاعات جماعة الأتراك وظفر بذخيرة كانت لبختكين آزاذرويه بجنديسابور واجتمع الأتراك المشغبون بسواد الأهواز ثم صار بعضهم إلى سبكتكين وتلافى بختيار بعضهم.

ذكر السبب في ضرورة بختيار إلى استصلاح الأتراك بعد استفسادهم

استوحش غلمان دار بختيار منه واضطربوا عليه وقصده الأتراك الذين هربوا من البصرة وعاتبوه على ما ارتكب منهم من غير ذنب وقال له الديلم: إنه لا بد لنا في الحرب من فرسان وأتراك. فاضطرب بختيار في الرأي وترجح فيه ثم قرره على أن أطلق بختيار آزاذرويه وجعله في موضع سبكتكين وسماه حاجب الحجاب وقدّر أن الأتراك يأنسون به

ويعدلون عن سبكتكين إليه وكتب إلى البصرة بإيقاع النداء بأنهم آمنون وألاّ يعرض لهم وأن يُرَد ما أخذ منهم وأطلق سباشي الخوارزمي وأقر بكتيجور على حمله الاعتقال لمصاهرته سبكتكين. وبلغه خبر والدته وإخوته وعياله في انحدارهم إلى واسط فسار إليها.

وكتب إلى الحضرتين بفارس والري يشكو ما نزل به ويسأل أن يكشف عنه وتابع المكاتبات وزاد في تأكيدها بحسب تزايد الفتنة وكتب إلى أبي تغلب بن حمدان فسأله إنجاده بنفسه وعسكره وعمل على أن يعتصم بعمران بن شاهين فأنفذ إليه خلعاً وفرساً بمركب ذهب وتوقيعاً بإسقاط ما بقي عليه من مال الصلح الذي كان صالحهُ عليه وخطب إليه إحدى بناته وسأله أن ينفذ إليه عسكراً في الماء يستعين به على حرب الأتراك وترسّل إليه في ذلك حاجب له يعرف بإبراهيم بن إسماعيل فلما أدّى إليه الرسالة قال له: يا هذا قد جئتنا في أمور غير متوجهة عندنا ولا لائقة بأحوالنا.

جواب عمران بن شاهين عن رسالته واتباعه إياه بكلام وافق قدراً فجرى كما قال وقدّر

أما هذا الدَين المتروك فالتحمد علينا به مع علمنا بأنه ساقط باطل لا يحسن لكنا نقبل ذلك. وأما الوصلة فأنا رجل لا أداخل أحداً من خلق اللّه إلا أن يكون الذكر من عندي والأنثى من عنده وقد خطب إليّ الطالبيون مع أنهم موالٍ فما أجبتُ أحداً منهم إلى ذلك لأن نفسي لا تسمح له وهؤلاء أولاد أخي هم أكفاء بناتي ما واصلت أحداً منهم ولكن إن شاء أن نتصاهر على السبيل الأخرى فعلتُ. وأما الخلعة والفرس فلست ممن يلبس لباسكم ولا أركب الخيل لأن دوابي هذه السفن لكن أبا محمد ابني يقبل ذلك ولا يرده. وأما عسكري وإنفاذه فليس تسكن رجالي إلى مخالطتكم لكثرة من قتلوا من رجالكم على مر السنين والوقائع. ثم قال للرسول: قل له: ينبغي أن تتوفر وتترزن ولا تستعمل هذه الخفة والنزق فقد قصدتني محارباً لي فرجعت عني منهزماً وقصدت الأهواز فرجعت منهزماً على هذه الحال والصورة من الفتنة وأنا أعلم أن أمرك سيتأدّى إلى أن تجيئني وتلوذ بي وتحصل عندي وسأذكرك هذا وتعلم حينئذٍ أني أعاملك بالجميل وبخلاف ما عاملتني به أنت وأبوك قبلك. فتعجَّب الناس من موافقة كلام عمران هذا المقدور الكائن فإن الحال ببختيار آلت إلى المصير إليه والحصول عنده مستجيراً به ومستذماً على ما سنذكره إن شاء اللّه.

جواب ركن الدولة عن رسالته إليه

فأما ركن الدولة فإنه أجاب بجواب صدر عن نية صحيحة وشفقة عليه وهو أن قال: إن الفتق الذي انفتق عليه عظيم يحتاج إلى رجال ومال وسلاح وتدبير وهيبة

وطاعة وأنه قد شاخ وثقلت عليه الحركة وأنه بإزاء أشغال عائقة وأمور قاطعة ولكنه قد عول في هذه الحال على ابنه عضد الدولة إذ كانت تلك الأدوات التي عددتها مجتمعة له وحاصلة عنده وأنه سائر من فارس إليه مع جيش كثيف ويخرج إلى نصرته من عنده الوزير أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد. وإنما بنى ركن الدولة هذه الرسالة على ما كان يكاتبه به ابنه عضد الدولة فإنه كان يعرف أخبار العراق يوماً يوماً ويطمع أن يملكها لما يرى من سوء تدبير بختيار لها ولاضطراب الأمور هناك بسوء تأتي الوزراء وسقوط الهيبة وانتشار الحيل وفساد الرعية وكان مع ذلك فاسد الرأي في بختيار مضطغناً أشياء كان تقدم بينهما من مناقشة جرت في وقت ومنافسة في مرتبة ومنع مما كان يلتمسه عضد الدولة منه خاصة من دفاتر عزيزة كان يضن بها بختيار وجوار صوانع محسنات كان لا يسمح بها ومن خيل عراب كان يمنع من شرائها له ويحب أن يستبد بها من البادية وكانت هذه الأشياء مجتمعة في نفس عضد الدولة فهو يحب أن تستحكم الفتن ويستشري البلاء حتى يزول أمر بختيار ثم يقصد بنفسه وخيله وأمواله ويدبر أمر تلك الممالك لنفسه ويضمها إلى ممالكه. فراسل أباه ركن الدولة: بأنك قد كبرت عن لقاء الحروب ولا مال عندك وعندي منه كيت وكيت في القلاع والخزائن. وعظّم عليه ما جمعه ولعمري لقد كانت عظيمة وكانت له مع ذلك هيبة في أصحابه وتدابير مصيبة ولكنه أحب أن يبذلها في خاصة نفسه لا في معاونة ابن عمه الذي يتصوره بصورة التجلف وتضييع الأمور وإهمالها وتفويض الوزارة وتدابير المملكة إلى من لا يُرجع منه إلى روية صادقة ولا تدبير صائب ولا صناعة قوية ولا ذكر بين الناس جميل وهو مع ذلك يظهر له المنافسة ويمنعه من مطالبه وبغض من أقدار أصحابه الواردين عليه في مهماته. وكان يكاتب أباه ركن الدولة بمثل ذلك الظاهر الجميل الذي يجمع الشفقة عليه والمحاماة عنه وتفديته بنفسه ورجاله في نصرة ابن أخيه الذي هو ابن عمه وباطن رأيه أن ذلك الأمر سيضطرب اضطراباً لا تبقى معه بقية إلا باستصلاحه لنفسه دون غيره.

جواب عضد الدولة عن رسالته إليه

قد كان حبس أباه ركن الدولة عن الحركة بنفسه وأطمعه في النيابة عنه وكفايته هذا الشغل فأجاب بختيار يشير عليه بأن يقف حيث انتهى وألا يزيد الأمر فساداً ولا يبرح من واسط حتى يلحقه ويدبر نواحيه وأقبل يماطله بالمسير وزحف إليه الأتراك ومن انحاز إليهم من سائر أنواع الجند فحوصر وبلغ منه كل جهد. ولعمري لقد صبر لهم وطاولهم ولكن مصابرة من يحتشمه عدوه ويبقى عليه وذلك أنه لما اشتد به الحصار وكان نازلاً بين النخيل لا مجال لخيل الأتراك فيه وأصحابه ديلم ورجاله يستندون إلى الخيل ويراوغون فيه ولا يخلو في خلال ذلك من مواقف يصل إليه فيها التركي المداخل

المصالت فإذا علم أنه قد تمكن منه عدوه يذكره باللّه وبالنعمة وأنه صنيعته وصنيعة أبيه ويخاطبه بما يرق له القلب وتستحي منه العين فينصرف عنه التركي بعد التمكن منه ويحب أن يجري قتله على يد غيره. فلم تزل هذه حاله من الصبر على الجوع والعري ونفاد السلاح والخوف من إقدام من لا يقيله ولا يحتشمه عليه ويكاتب عمه وابن عمه. وعضد الدولة يتوقف ويعده بالمسير مدافعة المماطل المنتظر به الهلاك وركن الدولة يضج من ذلك ويبعث ابنه ويستبطئه إلى أن لم يجد عضد الدولة من المسير بدا فسار من فارس وسار أبو الفتح بن العميد من الري وكانت عدة أبي الفتح الوزير التي استصحبها يسيرة بالإضافة إلى ما استظهر به عضد الدولة كثرةً وقوة ومدداً وذلك أنه بالغ جداً ولم تبق بقية في الاحتشاد ولم تكن صورته في ذلك صورة من ينصر ابن عمه على طريق المعاونة والانجاد ثم الانصراف بل صورة من يجاهد ويدافع ويقيم بعد الظفر. ولم تخف على الناس هذه الحال منه لكثرة ما استصحبه من آلات خيم المقيم التي يريد أن يستقر بها ويتمكن في كل بلد بالآلات المعدة لها من الفرش الكثير والزينة التامة التي لا يستعملها المتوجه إلى معاونة المنصرف بعد الفراغ من نصرة من توجه لنصرته.

فأما جواب أبي تغلب بن حمدان عن رسالته فإنه أجاب بالمسارعة والإنعام وأنفذ أخاه أبا عبد اللّه الحسين بن ناصر الدولة إلى تكريت في جمع من جيشه فأقام بها مدة طويلة انتظاراً بما يكون من انحدار الأتراك عن بغداد إلى محاربة بختيار فيردها. ولما تمادى الأمر وانحدر بعد ذلك سبكتكين كما سنحكيه سار أبو تغلب يجمع جيشه إلى مدينة السلام ليوجب على بختيار الحجة فيما بذل له خطه من إبطال ما تقرر بالموصل وعمل ببغداد ما سنصفه إن شاء الله.

ذكر الرسائل التي ترددت بين سبكتكين وبختيار

ثم إن سبكتكين راسل بختيار: بأنك قد جنيت على نفسك جناية عظيمة بما ارتكبته ودبرته وأن كل ما تعمله وتتصرف فيه خطأ وغلط وأن الأمر الآن قد خرج عن اليد فافرج لي عن واسط حتى تكون هي وبغداد في يدي بإزاء أموال الأتراك التي قد حصلت عليَّ وتكون البصرة والأهواز ونواحيها في يدك بإزاء أموال الديلم واجعل أمري وأمرك واحداً ولا تدخلنّ بيننا أحداً ولا تفتح للحرب باباً فلست من رجالها وأنا ناصح لك مشفق عليك حافظ وصية مولاي فيك التي ما حفظت مثلها فيَّ. فعرض بختيار هذه الرسالة على الديلم فأنكروها وأكبروها واستخفوا بقائلها والتحمل لها وردوه بالخيبة والمنابذة فجد سبكتكين واستعد للحرب وقدم كتاباً من الخليفة إلى بختيار ينذره فيه وأجيب عنه بما ليس هذا موضعه ووصل جواب هذا الكتاب إلى الطائع للّه وإلى سبكتكين وقد انحدرا عن بغداد وانتهيا إلى دير العاقول ومع وصوله توفي المطيع للّه

وكان انحدر مع ابنه الطائع للّه وحدث بسبكتكين علة الموت فمكث فيها بدبر العاقول أربعة أيام وتوفي فحمل إلى مدينة السلام.

وتماسك الأتراك وثبتوا واجتمعوا على الفتكين مولى معز الدولة وكان يتلو سبكتكين عند معز الدولة وله رياسة في الأتراك وحشمة قديمة ولقاء في الحروب للأعداء فعقدوا له الرياسة عليهم وعمل على إتمام العزيمة في اللقاء وكان عبر بختيار إلى جانب واسط الغربي وأخلى الشرقي وجمع السفن والزواريق إليه ولم يترك من آلات الماء شيئاً في الجانب الشرقي ونقل الثُنّاء وطبقات الناس إليه وضرب مصافه في منازل واسط وعمل على مناجزة الأتراك ولقائهم بالديلم إما مناجزة إن ثبتوا له وإما مصابرة إلى أن يأتيه الغوث من الري وشيراز وكان استبشر بما اتفق على الأتراك من موت زعيمهم وقدر أنهم يضطربون وينتشر أمرهم ثم عرف انتظام أمرهم فتوقف عن الإصعاد. واجتمع الأتراك وزحفوا وعقدوا جسراً بسفن كانت معهم من بغداد وكانت معهم أيضاً زبازب كثيرة وجيش للماء وعلى مقدمتهم حمدان بن ناصر الدولة فاستأمن حمدان إلى بختيار بكل من معه وعبر من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي فأكرمه بختيار ووصله.

ذكر السبب في تسييرهم حمدان مقدمة والسبب في استئمانه إلى بختيار

كان حمدان بن ناصر الدولة ببغداد عند حدوث هذه الفتنة فدعاه سبكتكين إلى طاعته فأجابه وأخذ عليه العهود والمواثيق بالنصيحة والموالاة وإنما سكن إليه للعداوة التي بينه وبين أبي تغلب ولأن أبا تغلب حافظ على مودة بختيار وواصله ونصره وظاهره فأنفذه سبكتكين على مقدمته. فلما توفي سبكتكين كتب إليه الفتكين يعرفه وفاته وانتصابه في موضعه ويستدعيه إليه ليستأنفا إيقاع التدبير ويتفقا على المسير. فاعتقد حمدان حين وقف على هذا الكتاب أن أمر الأتراك قد اختل نظامه بوفاة سبكتكين وعزم على المصير إلى بختيار وكان عرف أيضاً مسير عضد الدولة وخيول ركن الدولة فأنفذ كتاب الفتكين الوارد عليه إلى بختيار وأعلمه أنه سيعود إلى الفتكين ثم ينحدر إليه واشترط شروطاً واقترح اقتراحات. فورد ذلك على بختيار وقد عبر إلى الجانب الغربي ولما اجتمع حمدان الفتكين ردّه على مقدمته كما كان في أيام سبكتكين. فوافى بمن معه من غلمانه وأسبابه وعبر مستأمناً إلى بختيار فتلقاه وأكرمه وحمل إليه مالاً كثيراً وثياباً فاخرة وعدّة وافرة من الخيل والمراكب والبغال والجمال. وضعفت نفوس الأتراك فتوقفوا يوماً ثم زحفوا بأسرهم ونزلوا على دون الفرسخ من واسط وعبروا على جسرهم وتقدموا إلى مصاف بختيار فكانوا يواقعونه بنوائب واتصل ذلك نحو خمسين يوماً. وتجاسر العوام من الجانبين على استعمال المشاتمة الفاحشة والمسابّة المقذعة واتفق

على حمدان أنه حمل على الأتراك في بعض هذه الأيام فرموه ووقع بعض سهامهم في صماخ فرسه فرمى به ونهض ليركب غيره وعليه الحديد فلم يتمكن من ذلك وعرفه الأتراك فأكبوا عليه بالدبابيس حتى أثخنوه وكاد يتلف ثم أخذوه أسيراً لا فضل فيه فعولج وبرأ إلا أنه لحقه عرج ظاهر من وركه الأيمن وبقي على ذلك بقية عمره ثم منّ عليه الفتكين وأطلقه وأخذ منه رهينة وأعاده إلى حاله فشهد معه الحرب يوم ديالي إلى أن انهزم الأتراك وانحاز إلى عضد الدولة.

ولم تزل الحرب بين الديلم والأتراك متصلة بواسط والاستظهار للأتراك وأشرف الديلم على الانكسار والهرب دفعات وقتل من الديلم خلق كثير لنقصان جننهم واستظهار الأتراك عليهم بالأسلحة واشتد على بختيار الحصار وأحدق به وصار في مثل كفة الحابل وأحاط به الأتراك من كل وجه وكانت صورته كما ذكرت فيما تقدم. واتصلت كتبه إلى أبي تغلب يسأله الانحدار وإلى عضد الدولة يسأله اللحاق ويُعلمه أن مملكته قد خرجت من يده وأنه أحق بها ممن غلب عليها حتى أنه كتب إليه في بعض كتبه البيت الذي كتب به عثمان إلى أمير المؤمنين عليّ صلوات اللّه عليه:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل   وإلا فأدركني ولما أمزّق

فأما أبو تغلب فسار بجميع عسكره بعد أن كان قدّم أخاه الحسين كما كتبنا خبره فيما تقدم وصار إلى مدينة السلام فألفاها مفتتنة بالعيارين فقمعهم وقتل جماعة منهم وحمل من بغداد إلى الموصل أشياء كثيرة ظفر بها من آلات فاخرة وأنقاض جليلة وذخائر وودائع.

وأما عضد الدولة فإنه سار بعدما ذكرتهُ من التوقف والإبطاء واجتمع مع أبي الفتح بن العميد بالأهواز.

ذكر السبب في رجوع الفتكين إلى بغداد وهرب أبي تغلب عنها إلى الموصل

لما سمع الفتكين بخبر عضد الدولة وحصوله بالأهواز نخب قلبه ورأى أن يحصل ببغداد ويجعلها وراء ظهره وتكون حربه على ديالي. قال صاحب هذا الكتاب: كنت في جملة السائرين من الريّ في صحبة أبي الفتح بن العميد وما كان إشفاقنا ولا حذرنا كله إلا من سبق الأتراك إيانا إلى أسفل واسط إلى الموضع المعروف بباذبين وأن يجعلوا النهر وراءهم مع المدينة والميرة وأن يتركونا حتى نقطع إليهم مفازة بنج وبنج ونلقاهم على إعياء وكلال وليس وراءنا عمارة ولا نجد ما ننزل عليه فإن طاولونا أياماً كان الهلاك وإن ناجزونا حين ورودنا كانوا جامّين مستريحين ونحن على حال تعب وضعف وكنا من كثرة

العدد على ما وصفت فيما تقدم. فلم يوفَّق الأتراك لذلك وانصرفوا إلى بغداد ورأوا من الصواب لهم أن يملكوا بغداد ويجعلوها وراء ظهورهم وتكون حربهم على ديالي فكانت الخيرة لنا فيه ودخلنا واسطاً بغير مانع. وقد كان بختيار وأخواه ومحمد بن بقية تلقوا عضد الدولة لما انصرف الأتراك عنهم وترجلوا له وأعظموه كما يستحق وسار عضد الدولة في الجانب الشرقي وتقدم إلى بختيار أن يسير بإزائه من الغربي ممتدين إلى بغداد.

فأما الفتكين فإنه لما توسط في مسيره إلى بغداد أنفذ سرية في أربعمائة غلام من الأتراك لكبس أبي تغلب فأرهقوه وشغب مع ذلك جنده عليه فهرب إلى الموصل هرباً قبيحاً وتقطع عسكره. وحصل الفتكين ببغداد في حصار شديد قد أحدقت به الخيول من كل وجه وذاك أن بختيار كاتب ضبّة بن محمد الأسدي وهو رجل من أهل عين التمر كثير العشائر وقد جرت عادته بالتبسط بأن يشنّ الغارات على أطراف بغداد ويمنع من جلب الميرة إليها ففعل ووجد الطريق إلى بغيته فنهب السواد وقطع السبل. ثم أنفذ في الجانب الشرقي ابن أخ لمحمد بن بقية وزيره يعرف بأبي الحمراء وهو لقب غلب عليه مع طائفة من بني شيبان ليتطرف بغداد ويحاصرها من ذلك الوجه وكانت خيول عضد الدولة والري وبختيار متوجهين إليه سائرين لحروبه وكان أبو تغلب من ناحية الموصل يمنع الميرة وينفذ إليه سراياه ورجاله فاشتد الحصار به وعزّت الميرة وانحسمت موادّها وثارت الرعية فنهبت الموجود في المدينة وامتنع الناس بالفتنة أن يتسوقوا أو يتعيشوا وأعيت الفتكين الحيلة في التماس ما يحتاج إليه وصار يتتبع المواطن التي يظن فيها قوتاً أو بذراً أو عدة يتناول ذلك حتى انتهى به الأمر إلى أن ركب بنفسه إلى منزل بعض الأشراف فكبسه وأخذ ما فيه.

وسار عضد الدولة كما حكينا في الجانب الشرقي وبختيار بإزائه في الغربي فلما صار بدَير العاقول عبّى عسكره تعبية اللقاء وجعل موكب خاصته في القلب وفي ميمنته أبا الفتح ابن العميد وجيش الري وفي ميسرته أبا إسحاق إبراهيم بن معز الدولة ومحمد بن بقية وطائفة من عسكر بختيار ونزل المدائن على هذه الحالة من الترتيب. وورد خبر الفتكين بأنه برز إلى ديالي ونزل عليه مستعداً للحرب وعقد عليه جسوراً ليعبر عليها واعتقد أن يلقى العساكر في فضاء بين ديالي والمدائن وظن أنه يتمكن بالجولان فيه مما يريده وذلك في (سنة أربع وستين وثلاثمائة).

وعبر الفتكين تلك الجسور ولم يقع في الظن أنه يعبر ديالي ولا أنه يترك التحصن به والقتال من ورائه فسار عضد الدولة على تعبية وهيئة حتى انتهى إلى قرية هناك وتراءت مواكب الفتكين وقد عبّاها كراديس واعترض نهر صغير في هذه القرية فوقع التشاغل به إلى أن عبرته العساكر وصاروا مع تلك الكراديس في أرض واحدة.

ذكر عجلة وقعت وحرص ظهر من جيش بختيار الذين كانوا في ميسرة عضد الدولة فكانوا يكسرون العسكر

تقدم الجيش البختياري المرتب في الميسرة مع أبي إسحاق وابن بقية زحفاً بغير أمر وفارق المصاف وخرج عن النظام حرصاً على إظهار فضل وغناء وتشوقاً إلى اللقاء فراسلهم عضد الدولة ونهاهم فلم ينتهوا على ما اعتادوه من الاستبداد حتى لحّجوا واستجرّهم الأتراك حتى صاروا بالبعد من العسكر فعطف الأتراك عليهم وقتلوا خلقاً منهم وتابعوا الحملات عليهم وأكثروا النكاية فيهم فحينئذٍ عرفوا الخطأ الذي ركبوه وأنفذ عضد الدولة طائفة من الرجال إليهم فلم يغنوا عنهم وحصلوا في مثل حالهم فلما رأى ذلك زحف على نظامه وهيأته حتى اتصلوا بهم بعد أن أشرفوا على الهلاك فلما قرب من جمرة القوم ومجتمعهم حمل عليهم فلم يثبتوا واستأمن بعضهم وحكم السيف في الباقي فقتل خلق منهم وألجأتهم الهزيمة إلى تلك الجسور التي عقدوها على ديالي فازدحموا عليها وأرهقهم الأمر فهلك منهم ومن العيَّارين الذين وازروهم بالقتل والغرق خلق كثير وركب عسكر عضد الدولة أكتافهم وعبروا تلك الجسور على آثارهم فاستباحوا عسكرهم وسوادهم وألقوا النار في خيمهم وخركاهاتهم وأدركهم الليل فبات هؤلاء وهرب أولئك لا يلوي أحدهم على صاحبه.

وأنفذ عضد الدولة في ساعة الفتح بشيراً إلى بختيار وذلك يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ٣٦٤ وأقام على ظاهر المدينة إلى أن عرف خبر الأتراك ثم دخل المدينة في أحسن زيّ وعدّة وطواه متجاوزاً إلى باب الشماسية وبختيار يسير بإزائه ويعسكر بحياله وأقام بموضعه إلى أن بعُد الأتراك وورد عليه خبرهم من تكريت وأنهم وصلوا إليها على حال قبيحة من التقطع والتمزق واختلاف الكلمة فحينئذٍ انثنى إلى النزول في داره. واشتغل قلبه بالطائع للّه وحصوله مع الأتراك وتصرُّفه على ما يحبون والتنقل معهم فبث إليه رُسله وقد كان راسله قبل ذلك ولم يزل معه بالتلطف والرفق حتى ردّه إلى دار الخلافة وموطن الأئمة.

ذكر ما جرى بين بختيار وبين جيشه وما كان من اعتزاله إياهم وما كان من إنكار ركن الدولة لذلك وما تمَّ من الحيلة عليه من انتقاضه وعوده إلى منزلته وحالته

لما تمَّ هذا الفتح لعضد الدولة لم يشك أحد ممن دنا وبعُد في أنه يستولي على هذه المملكة ويضيفها إلى مملكته لضعف بختيار عنها واشتغاله بضروب اللهو واللعب

وتجاسر الديلم والأتراك عليه ففكّر في حديث الناس وعلم أن أباه ركن الدولة لا يصبر على ذلك ولا يحتمله له. فاتخذ دعوة دعا إليها بختيار وإخوته ومحمد بن بقية وسائر عسكر بغداد وخلع عليهم ضروب الخلع على مقدار مراتبهم وجعل ذلك كالوداع وأظهر الرحيل إلى فارس وأمر بإعداد الميرة في المنازل. ووافق في السر رؤساء الجند أن يثوروا ببختيار ويشغبوا عليه ويطالبوه بأن يطلق أموالهم ويغير أحوالهم ويحس مجازاتهم عن صبرهم عليه وثباتهم معه وبذلهم الأنفس في محاربة الأتراك دونه ففعلوا ذلك وبالغوا في الشغب والاقتراحات وبختيار صفرُ اليد لا يملك ذخيرة ولا تصل يده مع خراب النواحي واتصال الفتن إلى درهم واحد. فراسله عضد الدولة سراً ووافقه على مقابلتهم بالتشدد والغلظة والصدق عن الحال وأنه لا يعدهم بما لا يقدر عليه وأن يفصح لهم بالاستعفاء عن الرياسة وأنه قد برىء إليهم منها ووعده أن يتوسط حينئذٍ بينهم ويقرره على ما يحب. فلم يجد بختيار عدولاً عن ذلك ولا عرف وجه حيلة سوى ما أشار به عليه فبادر إليه واستعفاهم من رياسته وأغلق أبوابه وصرف كتابه وأسبابه وراسله في الظاهر بمقاربة القوم وتدبيرهم فأجابه: بأني لست أميراً عليهم ولا معاملة بيني وبينهم فلينظروا لأنفسهم وليعقدوا لمن شاؤوا. واتصلت هذه الرسائل ثلاثة أيام والشغب يزيد إلى أن أعلنوا بالقبيح وكادوا يزحفون إليه ويأتون عليه فاستعاذ بعضد الدولة وطلب منه ما كان وعده به من التوسط فراسلهم عضد الدولة بما سكن منهم وأمرهم بالتفرق ووعدهم بالنظر في أمرهم. ثم استدعى بختيار إلى داره وقد كان خائفاً مرعوباً واستدعى أخويه على طريق الإشفاق عليهم والحذر من أن ينصبوا أحدهما علماً للفتنة فيفتحوا به باباً إلى الفرقة وراسلهما بختيار أيضاً بمثل ذلك حتى حضرا جميعاً. ثم جمع الرجال وجماعة الجند وأعلمهم أن استيفاء بختيار من النظر واعتزاله إياهم وافق محبة منه للنظر في أمورهم وضمهم إلى نفسه وأنه يخلطهم بعسكره ويشملهم بإحسانه وأنه المتولي للأمر وأن بختيار إنما كان خليفة له ولركن الدولة وأنه الآن قد استعفى فأعفي وبرىء فأبرئ فسكنوا وتفرقوا ووثقوا بوفائه وأنه من وراء ذلك. وأمر باستظهار على بختيار وأخويه ووكل بهم ثقاته وذلك يوم الجمعة لأربع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ وجمع بينهم وبين الوالدة.

فأما الخليفة الطائع للَّه فإنه كان نافراً من بختيار للحروب التي جرت بينه وبينه ولأن انتصابه في الخلافة جرى على يد غيره في غير أيامه وسكن إلى عضد الدولة وذمامه. فلما اتصل به ما اختاره بختيار لنفسه من الخلع سكنت نفسه وهو حينئذٍ مع الأتراك وعند الفتكين بتكريت فجرت بينه وبينهم مناظرات في الرجوع إلى بغداد فسألوه الامتداد معهم إلى الشام فلم يمكن ذلك لأن القوم منهزمون وعلى حال اضطراب

فوعدهم من نفسه إذا ثبتت أقدامهم وكان له قوة وفيهم منعة أن يحتال لهم ويعود إليهم أو يدبر لهم في الاجتماع معهم فاتفقوا على ذلك. وانكفأ الطائع للّه إلى داره ورحل الأتراك إلى الشام.

وتقدم عضد الدولة بعمارة دار الخلافة وتطريتها وتجديد فرشها وآلتها وترتيب أسباب الخدمة فيها والتزم في ذلك مالاً جليلاً وأخرج الجيش إليه متلقين واستقبله بنفسه يوم الخميس لثمان خلون من رجب سنة ٦٤ وكان أول اجتماعهما وانحدر معه في حديديّ كان أنفذه إليه ودخلا بغداد. وكان طرح لعضد الدولة بين يديه كرسيّ وقد كان قبّل عضد الدولة الأرض له وجلس على الكرسيّ وأطافت بهما الزبازب والطيارات في الماء وسار الجيش على شاطئ دجلة ودخل الخليفة داره واستقر على سريره. وأنفذ عضد الدولة إلى خزائنه مالاً كثيراً وثياباً وفرشاً جليلاً من جميع الأصناف وعدة من الخيل والمراكب والرقيق والآلات وقرّر يده في ضياع الخدمة المرسومة بالخلفاء وقد كانت مُتشذبة قد تحيفها أسباب معز الدولة ثم أسباب بختيار فمنهم من تغلب على حدودها ومنهم من استقطع الخليفة بعضها ومنهم من ضمن منها ما لم ينصفه من نفسه فيه ولم يسهل إخراج يده عنه فردّ عضد الدولة ذلك كله إلى حقه. فأمر الطائع للّه بإنشاءِ الكتب عنه إلى النواحي باستقامة أحوال السلطان وتعفى آثار الفتنة وتألف الشمل وكتبت وفرقت في الممالك كلها.

خبر عصيان المرزبان بن بختيار بالبصرة وعصيان ابن بقية بواسط

أما المرزبان فإن عضد الدولة سام بختيار أن يكاتبه بالإصعاد وكان متولياً البصرة ليرضى بما رضي به أبوه من خلوّ الذرع من تدبير الجند والرعية فكاتب وأنفذ كتابه على يد ثقة من ثقاته يعرف بعلي بن محمد الجوهري وكان صحبه من شيراز ووصاه بموافقة محمد بن دربند وكان اسفهسلار جيش البصرة وهو قريب للحسين بن إبراهيم وهو متقدم في جيش عضد الدولة. ولم يقع في نفس أحد أن المرزبان يمتنع ويحدث نفسه بالعصيان لصباه وصغر سنه ولأن جيشه من الديلم وهذا المدبر للجيش الذي ذكرناه يهوى هوى عضد الدولة ويرى رأيه. فلقي علي بن محمد الجوهري في طريقه صاحب دواة لعز الدولة بختيار يقال له عيسى بن الفضل الطبري قد كان أصعد عن البصرة فعرّفه الصورة واستعمل في إخراج هذا الحديث إليه غير الحزم والصواب فثنى وجهه عائداً إليه إلى البصرة وسبق إلى المرزبان بالخبر فأشعره الوحشة وأعلمه أن أتاه مكرهة ولقّنه العصيان. فلما ورد الجوهري على أثره البصرة بدأ بمحمد بن دربند وأوصل ما كان معه من الكتب إليه فصار به وبها إلى المرزبان وعندهما أنه غافل فوجده مستعداً للخلاف وقبض عليهما جميعاً وأظهر الخلاف وكاتب ركن الدولة بالبكاء والنوح وأعلمه ما جرى

على أبيه بختيار وعمومته وأن جميع ما يكاتب من جهة عضد الدولة ووزيره أبي الفتح بن العميد عن بختيار إنما هو تمويه وأن الحيلة استمرت وتمت لهما على القبض على أبيه وأنه امتنع ثقة بتداركه إياه ومعه وأنفذ قاصدين عدّة بكتب متوالية.

وكان لمحمد بن بقية خليفة بالأهواز من جنسه في الانسلاخ من صناعة الكتابة ومن كل فضيلة يقال له محمد بن عبدان الأهوازي فلما بلغه ما جرى احتوى على ما قدر عليه من المال وأثبت عدة من الرجال وصار إلى البصرة داخلاً في سوَّار أهل العصبية فغلب على المرزبان وشحذ بصيرته في العصيان ودخل في وزارته ووعده الكفاية. وأما محمد بن بقية فقد ذكرنا حاله في البعد من كل فضيلة وكان يتموّه أمره في أيام بختيار فأما في دولة عضد الدولة فما كان أبعده من أن يكون عريفاً من عرفاء الرجالة ببابه فضلاً عن أن يختلط بوزرائه وكتابه ولكن أظهر مساعدة كثيرة لعضد الدولة فيما كان يدبره وخدمة فيما كان يراه وإنما فعل ذلك حذراً على نفسه وخوفاً أن يُرد إلى مرتبته وعلماً بأن بختيار إن عادت يده في التدبير قبض عليه وطمع فيه وعامله بما عامل به وزراءه الكفاة عند حاجته إلى المال وكره عضد الدولة أن يخلطه بوزرائه الكفاة مثل نصر بن هارون وكان معه في هذه الوقعة وهو شيخ الكتاب قد سُلّم له صناعة الحساب خاصة فينسبه الناس إلى قلة المعرفة بالرجال ونقصان الرعاية لأهل السابقة والتقدم في الكفاية وكره أيضاً أن يصرفه صرفاً قاطعاً فيكون قد خيَّب ظنه وأكذب تأميله فاستوزره لابنه أبي الحسين بن عضد الدولة وعرض عليه ما يشاء أن يتقلده من الأعمال فاختار واسطاً وتكريت وعكبراً وأواناً وقاطع على هذه الأعمال ووفر على ما كان العمال يدخلون فيه زيادة عظيمة فأمر عضد الدولة أن يعقد عليه جميع ذلك. واقترح ابن بقية إقرار اللقب والتكنية السلطانية ولباس القباء عليه فأجيب إلى ذلك وخلع عليه خلعاً نفيسة وحمل على دواب بمراكب ذهب وأقطع خمسمائة ألف درهم ورسم له حضور مجالس المؤانسة والمنادمة ولم ينقصه من جميع عاداته إلا اسم الوزارة لأنه بالحقيقة لم يكن يتولاها على رسوم الوزراء فيخاطب بها فأظهر سروراً عظيماً وشكراً كثيراً ودعاء متصلاً وكل ذلك على ذحل وغل قد أضمره وانحدر إلى واسط.

وقد كان عمران صاحب البطائح مستوحشاً فأحب أن يتعلق مع تجدد ملك عضد الدولة بذمام فأنفذ كاتبه يلتمس عهداً ومنشوراً وعقداً وتقريراً فأجيب إلى ذلك. والتمس أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل مثل ذلك وضمن حمل المال الذي كان يحمله قديماً إلى بختيار فأجابه عضد الدولة إلى ما سأل وأعفاه من حمل المال لمكاتبة قديمة كانت بينهما ومودة سالفة وعقدت أعمال الأهواز على سهل بن بشر النصراني وخلع عليه فشخص إليها وكان محبوساً في يد بختيار وقد جازفه وصادره. وفرقت أعمال

السواد على العمال ودبر الأمور كلها أبو منصور نصر بن هارون.

ولم يبق في نفس عضد الدولة شيء يتعلق به نفسه إلا انتزاع البصرة من يد المرزبان فلما حصل ابن بقية بواسط خلع الطاعة وأظهر الخلاف وقبض على من ضم إليه من القواد وأظهر أنه امتعض لصاحبه بختيار وكان هو المشير بجميع ما جرى متابعة لرأي عضد الدولة. ثم كاتب عمران بن شاهين يستدعي منه المعاضدة ويحذّره تدابير عضد الدولة وأنه ليس ممن يصبر له على محاورته بتلك الحال فأجابه عمران إلى ما سأل. وكاتب المرزبان ابن بختيار يلتمس منه أن يمده بالرجال والمال والسلاح فلم يجد عنده ما يحب لتهمته بالانحراف عنه وعن أبيه وعلم أنه يريد أن يقيم سوقاً لنفسه وأحجم ابن بقية عن المصير إليه لتقلد الأهوازي وزارته فبنى أمره على أنه متى وقع الطلب له هرب إلى عمران وقصد أعمال نهر الفضل فيتغلب عليها وكتب إلى سهل بن بشر ما أغواه حتى استجاب له وسلك سبيل إرادته. وقد كان عضد الدولة عزم على انفاذ عسكر الماء لفتح البصرة فلما عصى ابن بقية جعل همه كله واسطاً فأنفذ إليه عسكراً قوياً فخرج إليه في آلات الماء فيمن أمده بهم عمران من رجاله.

ووردت كتب ركن الدولة على المرزبان بأن يتماسك بالبصرة وشجعه على مقاومة عضد الدولة ووعده بالمصير إلى بغداد بنفسه لازعاجه وتمكين بختيار وكذلك فعل في مكاتبة ابن بقية وأبي تغلب بن حمدان فاضطربت هذه النواحي على عضد الدولة وضاق به الأمر وتجاسر عليه الأعداء من كل وجه وانقطعت عنه مواد فارس والبحر ولم يبق في يده إلا قصبة بغداد وتجاسرت العامة عليه وأشرف على صورة قبيحة. فرأى أن ينفذ أبا الفتح بن العميد إلى أبيه ركن الدولة متحملاً رسالة عنه يصدقه فيها عما جرى ويُعلمه فيه بعده عن ممالكه وتضييعه الأموال التي أنفقها وأنه قد خاطر مع ذلك بنفسه وجنده كما خاطر هو بوزيره وأكثر جنده وأنه قد هذّب مملكة العراق واستعاد الخلافة إلى ممالكه وأن بختيار ليس ممن تستقر بنظره دولة ولا تعتدل على يده مملكة وأنه إن خرج عن العراق على تلك الصورة لم يبعد أن تضطرب الممالك كلها ثم لا يمكن تلافيها ويسأله المدد والإمساك عن نصرة من تفسد على يده مملكته وممالكنا معاً وقال لأبي الفتح بن العميد انظر فإن تيقظ للأمر ونجع فيه هذا القول وأشباهه فاقتصر عليه وإن رأيته: مقيماً على رأيه فزد في الرسالة وقل له: إني أقاطعك على أعمال العراق وأحمل إليك عنها ثلاثين ألف ألف درهم وأنت فقير لا مال لك ولا عدة عندك لمثل هذه الحال إن عادت إليك وأنا أعجل لك من جملتها عشرة آلاف ألف درهم وأبعث بختيار وإخوته إليك لتجعلهم بالخيار فإن شاؤوا أقاموا في أوساط ممالكك ومكنتهم من أي البلدان اختاروه وإن شاؤوا أن يصيروا إلى فارس فيختاروا من أعمالها أي البلدان أحبوه إلى

ذلك ووسعت عليهم في النفقات وأرغدت عيشهم في أوساط ممالكنا. ولم تتركه في هذه الديار التي استضعفه أهلها وعرف جنده سيرته فيها وأن الخلافة تخرج عن يده وأيدينا وهو يضعف عن سياسة جنده ويعتمد في التدبير على الجبايات والمصادرات وتمكين من يرتفع له في الوقت على يده ما لا يقع موقعاً من حاجته ثم يضطر إلى نكبته واعتماد غيره على أن هذا الباب أيضاً قد انسدَّ ولم يبق فيه بقية مما عمله قديماً وقد عرف ذلك من نفسه ولذلك استعفى من الأمر. وإن أحببت أن تحضر بنفسك العراق لتلي التدبير وتكون سائس الخلافة وبيت الملك ووليت الأمر وترد بختيار إلى الرّي فانصرف إلى فارس كان ذلك وجهاً من الرأي صحيحاً. وقال لابن العميد: وينبغي أن تتبسط في هذا المعنى فإنك تجد فيه مقالاً واسعاً فإن لان لك وعرف صواب قولك وإلاّ فزد في الرسالة فصلاً ثالثاً تجبهه به وهو: إنك أيها الوالد السيد مقبول القول والرأي والحكم ولكن لا سبيل إلى إطلاق القوم بعد مكاشفتهم والقبض عليهم وإظهار العداوة لهم فإنهم لا يصلحون لي أبداً ولا تنقي جيوبهم ولا تصح نياتهم وسيقابلونني بغاية ما يقدرون عليه فيضطرب الحبل وتنتشر كلمة أهل هذا البيت أبداً. وإن أبيت أن تقبل إحدي الخصال التي عددتها لك وخيرتك فيها وحكمت بانصرافي على هذه الجملة فإني سأضرب أعناق هؤلاء الثلاثة الإخوة (يعني بختيار وأخويه) وأقبض على من اتهمه من حزبه وأخرج وأترك العراق شاغرة ليدبرها من اتفقت له.

فقال له أبو الفتح بن العميد: هذه رسائل صعبة لا يمكنني أن أتلقى ركن الدولة بها وأنا صاحبه ومدبر أمره فإني أعرف نصرته لمن ينصره من الغرباء وتصميمه عليه وبلوغه غاية جهده فيه فكيف ابني أخيه! ولكن الصواب أن يتقدمني إليه من يفرغ جميع ذلك في إذنه من جهتك ثم أتلوه شافعاً له ومتمماً ومشيراً. فتقرر الأمر على ذلك ونفذ فيه من جهة عضد الدولة ومن جهة أبي الفتح بن العميد أبو العباس بن بندار وكان الأمير ركن الدولة يأنس به قديماً فتوجهت الرسل وشخص ابن العميد على جمازات عددها مائة يتلوهما، فلما بلغ الرسولان الأولان إلى ركن الدولة وشرعا في تأدية الرسالة وعرف الغرض الأخير منهما لم يمكنهما من إتمام الرسالة ووثب إلى الحربة التي تلي مجلسه فتناولها وهزها وهرب الرسولان إحضاراً من بين يديه.

فلما سكن غضبه استعادهما وقال: قولا لفلان (يعني عضد الدولة وسماه بغير اسمه) خرجت إلى نصرة ابن أخي أو الطمع في مملكته؟ أما عرفت أني نصرت الحسن بن الفيروزان وهو غريب مني مراراً كثيرة أخرج فيها كلها عن ملكي وأخاطر بنفسي وأحارب وشمكير وصاحب خراسان حتى إذا ظفرت وتمكنت من البلاد سلمتها إليه وعدت من غير أن أقبل منه ما قيمته درهم فما فوقه طلباً للذكر الجميل ومحافظة على الفتوّة؟ أتريد أن

تمتنّ أنت عليّ بدرهمين أنفقتهما عليَّ وعلى أولاد أخي ثم تطمع في ممالكهم! وخرج هؤلاء الرسل لا يملكون أرواحهم إشفاقاً مما رأوا منه ومما ظهر من غيظه وغضبه.

وبلغ ابن العميد الري وهو الوزير المقرب والأمين المتمكن وعند نفسه أن صورته كما كانت فحُجب عن دار الإمارة ورُدَّ عنها أقبح رَدّ وروسل: بأنك خرجت من عندنا ناصراً لبختيار ومدبراً عسكرنا وعسكر فناخسره حتى يستقيم أمر أولاد أخي ثم تأتيني الآن في صورة قبح تتحمل رسالة فناخسره فيما يهواه حتى يكون مكان أخي وأولاده ويطمع مني في أن أرخص له في القبض عليهم وإزالة نعمهم ويتهددني بالعصيان! أما أنت فقد عرفت أنك اخترته عليَّ وسوّلت لك نفسك وزارة العراق ونزهة دجلة! ارجع إليه على حالك فواللّه لأصلبن أمك وأهلك على باب دارك ولأبيدنّ عشيرتك ومن يتصل بك عن وجه الأرض ولأتركنك وذلك الفاعل (يعني ابنه) تجتهدان ثم لا أخرج إليكم إلا بنفسي في ثلاثمائة جمازة لا يصحبني إلا من عليها من الرجال ثم اثبتوا لي إن شئتم. وحلف ركن الدولة محلوفة: إني إذا بلغت بعض طريقي في قصدي إياكم لا يبقى معكم رجل واحد إلا تلقاني وحصل عندي وأنه لا يتقرب بك وبعضد الدولة إلا أخص أوليائكما وأوثق عبيدكما في أنفسكما وإنما أتركك الآن وأنت في يدي لتعود إلى موضعك وتعيد رسالتي وكلامي وتنتظر صحة وعدي ووعيدي. وأمر من هذا الكلام ما هذا جملته وإن كان أكثر من هذا وأشنع.

وكان ركن الدولة قبل هذه الحال وعند سماع حال أولاد أخيه من القبض عليهم رمى بنفسه عن سريره وأقبل يتمرغ ويزبِّد ويمتنع من الأكل والشرب أياماً ومرض من ذلك مرضاً لم يستقل منه باقي حياته وكان يقول: أني أرى أخي معز الدولة متمثلاً إزائي يعضّ عليَّ أنامله ويقول: «يا أخي هكذا ضمنت لي أن تخلفني في أهلي وولدي!» وكان ركن الدولة يعز أخاه عزّاً شديداً فيراه بصورة الولد لأنه رباه ومكنه مما تمكن منه.

وتوسط الناس بينه وبين أبي الفتح بن العميد يشفعون له ويقولون إنه لم يرد فيما ظننته وإنما احتال في الخلاص من عضد الدولة بتحمل رسالته وغرضه أن يجتمع معك لتدبير الأمر بما تراه وهو يضمن ضماناً يدخل في تبعته أنه يقرر الأمر على رضائك بعد أن تسمع كلامه وتمضي له بما يعمل به في هواك. فأذن له حينئذٍ وجرى بينهما خطاب طويل تقرر على أن يعود ويفرج عن بختيار وإخوته ويقرر الملك في أيديهم وينصرف كل واحد من عسكر الري وعسكر فارس إلى مركزه وموضعه على صورة جميلة وعلى أكثر مما يمكن أن يعمل من الحيلة في مثل هذه الحال فأذن له حينئذٍ ورجع إلى عند عضد الدولة بخلاف ما خرج وخلا به وعرفه حقيقة الأمر وأنه ليس ممن يطمع في إصلاحه من جهة ركن الدولة فلما رأى عضد الدولة انخراق الأمر عليه من كل وجه ونفد ما صحبه من

الأموال ولم يصل إليه شيء من ممالكه اضطر إلى الخروج إلى فارس والإفراج عن بختيار وأخويه ففعل ذلك. وتوسط ابن العميد بينه وبين بختيار وخرج من دار عضد الدولة بعد أن خلع عليه وقبل بساطه وشرط عليه أن يخلفه في تلك الأعمال ويخطب له وخلع على أبي إسحاق بن معز الدولة على أن يلي أمر الجيش وذلك لما كان اعتقده الجند من ضعف بختيار وسوء تدبيره لهم وزوال هيبته مرة بعد أخرى عن قلوبهم فلما خرجوا من داره وأصعدوا إلى منازلهم في طيّاره خلعوا الطاعة من غير انتظار ساعة. واجتمع إلى بختيار جيشه وعوامّ البلد والعيّارون وأثاروا الفتنة وارتفع عياطهم وصياحهم وقد كان عضد الدولة (حفظ) عليهم خزائنهم وجميع ما وجد لهم من الدواب والأثاث فما شذ منها شيء حتى تسلموها كهيئتها يوم فارقوها. وبرز عضد الدولة يوم الجمعة لخمس ليال خلون من شوال سنة ٣٦٤ عن مدينة السلام قاصداً أعماله بفارس ووافق ابن العميد على المسير في أثره وألا يقيم ببغداد بعده أكثر من ثلاثة أيام.

ذكر ما جناه أبو الفتح بن العميد على نفسه وميله إلى الهوى واللعب حتى تأدى أمره إلى الهلاك

لما خرج عضد الدولة إلى فارس طابت بغداد لأبي الفتح بن العميد وأحب الخلاعة والدخول مع بختيار في أفانين لهوه ولعبه ووجد خلوّ ذرع من أشغاله وراحة من تدبير أمر صاحبه ركن الدولة مدة وحصلت له زبازب ودور على الشط وستّارات غناء محسنات وتمكن من اللذات. وعرف بختيار له ما صنع من الجميل في بابه وأنه خلصه من مخاليب السبع بعد أن افترسه وأن سعيه بين ركن الدولة وبينه هو الذي رد عليه روحه وملكه فبسطه وعرض عليه وزارته وتمكينه من ممالكه على رسمه وألا يعارضه في شيء يدبره ويراه فلم يجبه إلى ذلك وقال: لي والدة وأهل وولد ونعمة قد ربّبت منذ خمسين سنة وهي كلها في يد ركن الدولة ولا أستطيع مفارقته ولا يحسن بي أن يتحدث عني بمخالفته ولا يتم أيضاً لك ذلك مع ما عاملك به من الجميل ولكني أعاهدك إذا قضى اللّه على ركن الدولة ما هو قاضٍ على جميع خلقه أن أصير إليك مع قطعة عظيمة من عسكره فإنهم لا يخالفوني وركن الدولة مع ذلك هامة اليوم أو غد وليس يتأخر أمره. واستقر بينهما ذلك سراً لا يطّلع عليه إلاّ محمد بن عمر العلوي فإنه توسط بينهما وأخذ عهد كل واحد منهما على صاحبه ولم يظهر ذلك لأحد حتى حدثني به محمد بن عمر بعد هلاك أبي الفتح بن العميد. ولكن الغلط القبيح من أبي الفتح كان أنه أقام مدة طويلة ببغداد وطمع في أملاك اقتناها هناك واقطاعات حصّلها وأصول أصّلها على العود إليها. ثم التمس لقباً من السلطان وخلعاً وأحوالاً لا تشبه ما فارقه عليه عضد الدولة ثم استخلف ببغداد بعض أولاد التناء بشيراز يعرف بأبي الحسين بن أبي شجاع الأرجاني من غير اختبار له ولا خلطة قديمة

تكشف له أمره فلما خرج كانت تلك الأسرار التي بينه وبين بختيار والتراجم بينهما تدور كلها على يده ويتوسطها ويهدي إلى عضد الدولة جميعها ويتقرب إليه بها. فلما عرف عضد الدولة حقيقة الأمر ومخالفة أبي الفتح بن العميد له ودخوله مع بختيار فيما دخل فيه مع اللقب السلطاني الذي حصله وهو ذو الكفايتين ولبسه الخلع وركوبه ببغداد مع ابن بقية في هذه الخلع عرف مكاشفته إياه بالعداوة وكتم ذلك في نفسه إلى أن تمكن منه فأهلكه كما سنذكره في موضعه إن شاء اللّه.

ذكر ما جرى عليه أمر ابن بقية

كان محمد بن بقية مستوحشاً من بختيار لما يعرف من سوء معتقده له فتوقف بواسط وترددت بينهما كتب ورسائل على يد أبي الحسن محمد بن عمر العلوي وأبي نصر بن السراج فاستحلفا كل واحد منهما لصاحبه فأصعد حينئذٍ وامتنّ على بختيار بأنه إنما استعصى على عضد الدولة بسببه ومن أجله فقل منه وزاد في إكرامه وتجددت بين ابن بقية وبين أبي الفتح بن العميد مودة ومعاهدة.

وفي هذه السنة لُقب أبو الحسن علي بن ركن الدولة فخر الدولة ولقب المرزبان بن بختيار إعزاز الدولة ولقب عمران بن شاهين معين الدولة ولقب محمد بن بقية نصير الدولة مضافاً إلى لقبه الأول ولقب أبو الفتح بن العميد ذا الكفايتين وخلع على من حضر من هؤلاء من جهة أمير المؤمنين وأنفذت الخلع إلى من غاب.

وبنى محمد بن بقية أمره على تمكين الوحشة وتوكيد العداوة بين بختيار وبين ابن عمه عضد الدولة وأكثر من التسوّق والتنفُّق والبذخ والتبجح وأطلق لسانه اطلاق من لا يترك للصلح موضعاً وثارت الفتن بين العامة وزالت السياسة التي أسسها عضد الدولة من قمع العيارين وظفر ابن بقية بالمعروف بابن أبي عقيل صاحب الشرطة الذي كان من قبل سبكتكين وكان من أهل السنة وقد قتل طائفة من أهل الشيعة فأمر بقتله فقتل في وسط الكرخ بين العامة فزادت ضراوة العيارين وعاد الفساد وخاف التجار على أنفسهم وأموالهم. وأخذ ابن بقية في خدمة الطائع للّه ومناصحته وعقد مصاهرة بينه وبين بختيار.

وتجددت لبختيار نية في الخروج إلى الكوفة على أن الظاهر فيه زيارة المشهد بالغري والباطن التصيد فشخص إليها وصحبه الحسين بن موسى النقيب ومحمد بن عمر العلوي وأقام محمد بن بقية ببغداد وقد كان تنكر لمحمد بن عمر وقبض عليه لينكبه فلم يطلق ذلك بختيار ولم يتركه في يده إلا ساعة من النهار حتى انتزعه منه فلما دخل الكوفة نزل على محمد بن عمر وفي ضيافته فخدمه ولاطفه وجرت بينهما مؤانسات وخلوات واتصل ذلك بمحمد بن بقية وقيل له: «قد سعى بك ووافق بختيار على نكبتك» فاستوحش ابن بقية واستعدّ للانحدار إلى واسط على سبيل المقاطعة والمخالفة

وساعده على ذلك بعض الجند فشرعت والدة بختيار في إصلاح الحال وكوتب بختيار بالصورة فثنى وجهه مبادراً إلى بغداد وقدم أمامه كتبه ورسائله مع الحسين بن موسى الموسوي بالتلافي وإنكار كل شيء بلغه عنه وأخذ لكل واحد منهما على صاحبه يميناً على التصافي والتراضي فخرج حينئذٍ محمد بن بقية متلقياً له عائداً إلى طاعته.

واتصل بمحمد بن بقية وبختيار أن عضد الدولة يريد العود إلى العراق فخرج ابن بقية إلى واسط لجمع المال وإعداد زاد وعتاد واستعمل ضروباً من القبيح في الكلام والهجر ومنع شذاآت كانت هناك من الاجتياز وواطأ عمران على منع إجازتها وغير ذلك من ضروب الجهل وذلك للحين المتاح له والشقاء المصبوب عليه حتى تأدى أمره إلى أقبح صورة في الهلاك بأنواع العذاب والمثلة كما سنذكره في موضعه إن شاء اللّه.

وتجددت بينه وبين بختيار وحشة أخرى بعد عوده إلى بغداد واقتضت الحال القبض على سهل بن بشر النصراني ضامن الأهواز ونكبته التي تأدت إلى القتل.

ذكر السبب في ذلك

كان ابن بقية لا يثق ببختيار على تصرف كل حال ولا يدع التحرز منه ونصب العيون عليه وأشد ما يكون نفوراً منه إذا حلف ووثق له فاتهمك في استمالة الجند ومتابعة الخلع عليهم والصلات لهم ونصب الموائد وعمل الدعوات وأمر أن يحمل المال إلى خزائنه. ووافق بختيار على شيء يُقيمه له وصار كالحاجر عليه فمتى طالبه بزيادة على ذلك بعث الجند على مطالبته وأحالهم عليه. فضاق ذرع بختيار به وخاطب جماعة من حاشيته وشيوخ قواده في تدبير يوقعه عليه حتى يتمكن من نكبته ويستكتب سهل بن بشر وسهل يومئذٍ في عمله بالأهواز فأخرج إليه جماعة من كبار قواده فيهم الحسن بن أحمد بن بختيار والحسن بن فيلسار وتكيدار الجيلي وجماعة مثلهم وراسله على أيديهم بإيقاع الحيلة عليه. فلما وصل إليه هؤلاء القواد برسائل بختيار وعلاماته تقرر الرأي على أن يفل الجيش عنه الذين ببغداد ويظهر سهل ومن معه بالأهواز الشغب عليه وترك الرضاء به. وورد الخبر بذلك إلى بغداد وقد ضعف بختيار عن إمضاء تلك العزيمة وقد استصلح ابن بقية الجند وملك الأمر فأظهر حينئذٍ ما في نفسه وعاتب بختيار ووبخه وذكره الأيمان التي لا زال يحلفها ثم يعود ناقضاً لها وتغاضب عليه وتثاقل عنه فرق بختيار في يده وأنكر أن يكون ما أجرى إليه الأهوازيون بأمره وعلمه فقال: فأطلق يدي فيهم. فأجابه إلى ذلك وأمضى حكمه عليهم فألزمه أن يقبض على سهل بن بشر ويسلمه إليه وأن ينفي القواد الذين أظهروا ما أظهروه ففعله وأنفذ إبراهيم بن إسماعيل الحاجب إلى الأهواز وأمره أن يحتال على سهل بن بشر حتى يقبض عليه ويبادر به إلى الحضرة فمضى مسرعاً ووصل إلى الأهواز واحتال حتى حضر سهل بن بشر في منزل

أحد القواد فقبض عليه وعرفه فساد جميع الأمر الذي كان خائضاً فيه وحمله للوقت فسلمه إلى ابن بقية. وقد كان الحسن بن فيلسار سبق إلى مدينة السلام فتلافى محمد بن بقية واستصلح نيته وأما الحسن بن أحمد بن بختيار وتكيدار فإنه استدعاهما فلما قربا من بغداد طردا وبقيا عن العسكر فعاد الحسن إلى بلده ولحق تكيدار بعضد الدولة. وجد محمد بن بقية في مطالبة سهل بن بشر بالأموال وبسط عليه المكاره واستخرج منه كل ما أمكنه ثم قتله بالعذاب مع جماعة من الناس سنذكرهم.

وفي أثر القبض على سهل بن بشر قلد بختيار أخاه أبا إسحاق أعمال الأهواز وأنفذه إليها مع طائفة من الجيش وذلك بسفارة محمد بن بقية لأنه كان استعان بأبي إسحاق ووالدته على بختيار فأعاناه وبلغاه ما أحب فقضى حقهما بهذا التقليد.

وقبض ابن بقية على صاحبه أبي نصر السرَّاج وعذّبه حتى قتله.

ذكر السبب في ذلك

هجمت على ابن بقية علة من حرارة فقصد منها في اليوم الثاني فما أمسى إلا ذاهب العقل مسجى يخور خوار الثور ولا يسيغ طعاماً ولا شراباً ولا يسمع كلاماً ولا يحير جواباً وظهرت في فمه رغوة واختلج وجهه وعلا نفسه ولحقه الفواق الشديد واجتمعت فيه أعراض الموت التي لا رجاء معها. وقد كانت لأبي نصر السراج نعمة فاتسعت في أيامه وعظمت بالدخول في الأمور المنكرة وضروب الشر والسعايات وأعداؤه كثيرون. وكان ابن بقية اصطنع رجلاً يقال له الحسن بن بشر الراعي وكان في الأصل نصرانياً من رأس عين فصحب بني حمدان بالموصل فدخل في الإسلام لشيء ظهر منه وخاف فأسلم ثم خاف خوفاً ثانياً فهرب إلى بغداد واتصل بمحمد بن بقية وحظي عنده فقرب منه ورفعه من حال إلى حال حتى قلده واسطاً ثم استدعاه إلى بغداد فقلده خلافته. وتولدت بينه وبين أبي نصر السراج منافسة ومضاغنة فلما وقع اليأس من محمد بن بقية استتر ابن الراعي وبادر أبو نصر بن السراج إلى بختيار فضمن له من جهة أسباب بن بقية أموالاً عظيمة وكتب أسماء أقاربه وأصحابه وكتابه وسائر أسبابه فركب بختيار إلى ابن بقية حتى شاهده في علته.

ذكر اتفاق ظريف في سلامة ابن بقية من علته ثم من قبض بختيار عليه

إن بختيار أدركته رقَّة شديدة له مع اجتهاده كان في هلاكه وتبرمه به لاستبداده بالأموال والعساكر فأشار عليه ابن السرَّاج بالقبض على الجماعة قبل أن يستتروا فتوقف عن ذلك وألح عليه إلحاحاً شديداً فلم ينفعه ذلك وأحس عيال ابن بقية وأسبابه بما فعله

ابن السراج فحذروا منه ثم تماسك محمد بن بقية في اليوم الرابع من علته بعد أن تردد إليه بختيار دفعتين في كل يوم في مدة الحذر عليه وسكنت أطرافه ورجى رجاء ضعيفاً وتزايد ذلك الرجاء إلى أن أفاق وهو ساكت ومضت أيام يسيرة فنهض وتراجع إلى عاداته. وظهر ابن الراعي صاحبه واجتمع أسبابه المتحققون به فصدقوه عن فعل ابن السراج وضمنه ابن الراعي منه بمائة ألف دينار فقبض عليه فصح من أمواله وودائعه وأثمان غلاته والمأخوذ من أسبابه أكثر مما ضمنه ابن الراعي ثم بسطت عليه المكاره وأصناف العذاب وحبس في صندوق ومُنع الطعام حتى مات أقبح ميتة.

وفي هذه السنة اضطربت كرمان على عضد الدولة.

ذكر السبب في ذلك

كان في أعمال كرمان خلق من الرجالة الجرومية لهم بأس شديد وهم متمسكون بالطاعة وأحد وجوههم رجل يقال له طاهر بن الصِمَّة وكان واسع الحال والمعاملة فدخل في ضمانات ضمنها وثمار ابتاعها فحصلت عليه أموال طمع فيها وشره إلى كسرها. وكان عضد الدولة قد سار إلى العراق للإيقاع بالأتراك وخرج وزيره أبو القاسم المطهر بن عبد اللّه إلى عمان فلم يبق بفارس من العساكر إلا شيء يسير فخلع طاهر بن الصمة الطاعة وجمع إلى نفسه هؤلاء الرجالة بالأسلحة التامة واستكثر من عددهم. واتفق إن كان في نواحي خراسان أمير وجيه من أمراء الأتراك السامانية يقال له يوزتمّر عظيم المنظر جبار البنية معروف بالبأس والشدة وقد استوحش من محمد بن إبراهيم بن سمجور صاحب جيش خراسان ونفر منه فكاتبه طاهر بن الصمة وأطمعه في أعمال كرمان فسار إليه وصارا يداً واحدة في الاستيلاء إلا أن الإمارة ليوزتمر. فبعد مدة شغب الرجال الجرومية فاتهم طاهر أنه بعثهم على الهيج ففسدت الحال بينهما وزاد الفساد حتى اقتتلا قتالاً شديداً فظفر به يوزتمر وأخذه أسيراً وقتل خلقاً من رجاله. واتصل ذلك ببعض أولاد الياس وهو الحسين بن محمد بن إلياس وهو في بعض أعمال خراسان وطمع في الاستيلاء على كرمان وجمع جمعاً وصار إليها وانضم هؤلاء الرجال الجرومية إليه وأمثالهم من كل ضرب من الدعار. وقد كان المطهر الرجال الجرومية إليهوأمثالهم من كل ضرب من الدعار. وقد كان المطهر بلغ من إصلاح عمان ما أراد وفتح جبالها وأوقع بالشراة وانكفأ راجعاً إلى أرجان عاملاً على المسير إلى حضرة عضد الدولة بالعراق فورد عليه الأمر بالمسير إلى كرمان ليتلافى تلك الحادثة فعاد إلى شيراز وبرز عنها لتسع ليال بقين من رجب سنة ٦٤ وسار لطيَّته مسير السرايا لا يلوي ولا ينثني فأوقع بكل من وجد في طريقه من أهل التهمة وقتل وصلب وسمل العيون ومثل بكلّ مثلة وبالغ في القسوة إقامةً للهيبة وأسرع المسير حتى انقضّ على يوزتمر فلم يعرف

خبره إلا مع وصوله فبرز إليه وواقعه فانهزم إلى البلدة وهو ببمّ وتحصّن في قلعة وسطها حصينة فحاصره فيها مطهر إلى أن أعطى بيده واستأمن وأحضر معه طاهر بن الصمة أسيراً فتسلمه المطهر ثم أمر به فشهر ونودي عليه ثم ضرب عنقه وأعناق جماعة يجرون مجراه وأنفذ يوزتمر إلى بعض القلاع فاعتقله بها وكان آخر العهد به.

ثم خرج المطهر في طلب الحسين بن محمد بن إلياس وكان قد جمع عشرة آلاف رجل في أسلحة تامة مستعدين للقتال فلما أشرف عليهم استكثر عدّتهم وهاله أمرهم ولم يجد من الحرب بدأ فناصبهم الحرب على باب جيرفت فحملوا عليه حملة ثبت لها ثم حملت ميمنته فأثرت فيهم وألجأتهم إلى سور المدينة واختل نظامهم فأكب العسكر عليهم بالنشاب ولم يجدوا مهرباً فقتلوا بأسرهم وهرب الحسين وطُلب فجيءَ به أسيراً ولم يعرف خبره بعد ذلك وتطهرت كرمان منه.

ودخلت سنة خمس وستين وثلاثمائة

قد ذكرنا مرض ركن الدولة وسبب ذلك وحكينا انصراف عضد الدولة من بغداد على الحال التي وصفناها واستيحاشه من أبيه لما كان منه في مكاشفته ونصرة بني أخيه ورأى تجاسر الأعداء عليه واختلال هيبته في صدور أوليائه ولم يأمن أن يموت ركن الدولة على تلك الحال فينتشر ملكه ولا يجتمع له ما يحب. فراسل أبا الفتح بن العميد وكان قطع مكاتبة أبيه استيحاشاً منه وتجنياً عليه وسأله أن يتوسط بينه وبين أبيه حتى يعود له كما كان وتلطف مع ذلك في أن يجتمعا ويعهد إليه ويشهر ذلك في ممالكه وبين وجوه الديلم والجند. وكان أبو الفتح بن العميد متمكناً من ركن الدولة ومن الجند أيضاً فكان يحب أن يتلافى قلب عضد الدولة لما كان منه إليه وهو مع ذلك لا يأمنه ويخشى بادرته ومكايده فخاطب ركن الدولة وأعلمه ما يخشى من اضطراب الحبل وفساد ما بين أهل بيته باستيحاش عضد الدولة وحذّره من ترك هذه الصورة حتى تستمر وتتمكن من النيات والقلوب ولم يزل به حتى رق ولان وعرف صلاح حال أولاده وممالكه وممالك بني أخيه فيما دعاه إليه ثم أشار عليه بأن يأذن له في الورود عليه حتى يجتمع معه ويراه فقد كان فارقه صبياً ويشاهده الجند بحضرته ويزول ما خامر قلبه وقلوب الناس من اعتراض الوحشة ويجعله ولي عهده إذ كان أكبر أولاده وأنجبهم وأوسعهم مملكة وأكثرهم مالاً وعدة ورجالاً. فأجابه ركن الدولة بأن هذا رأي صواب ولكن ليس في خزائنه ما يتسع لعضد الدولة ومن يرد معه من الخيل والقواد والغلمان وإن لم يلاطف الجماعة بإقامة الأنزال واتخاذ الدعوات وإفاضة الخلع والحملانات والهدايا على الجماعة افتضح وتهجن فقال له أبو الفتح: فتسير أنت إليه لتجدد النظر في تلك الممالك التي طال عهدك بها وتشاهد أولئك العسكر الذين رتبتهم قديماً وحديثاً فيها ويلتزم عضد الدولة لك ولجندك

وجميع حاشيتك ما أشفقت من التزامه لهم وتقيم السياسة التي لا بدّ لك من إقامتها بين أولادك وممالكك فقال له: هذا يقبح في الأحدوثة وعند ملوك الأطراف وفيمن يأتي بعدنا من الأمم أن يتحدث الناس أن فلاناً أوحش ابنه في أمر رأى إيحاشه به وتأديبه فيه ثم قصده يترضاه. فكوتب عضد الدولة بجميع هذه الفصول فكتب: إن ههنا خلة أخرى يسلم فيها من جميع هذه الأشياء التي ينكرها وهو أن يقصد أصبهان فإنها من أعماله وأنهض أنا من فارس فأقصده لخدمته وعيادته من مرضه ويلزمني حينئذٍ تفقد أسبابه وحاشيته ولا يلزمه لي ولا لأحد ممن يصحبني شيء ولا يتحدث بأنه قصدني أو زارني. فتقرر الرأي على ذلك وتشمر أبو الفتح بن العميد له حتى تمت العزيمة ونهض ركن الدولة مع ضعفه ومرضه وحضر أصبهان واستدعى الأمير فخر الدولة وهو ابنه عليّ وكان مؤيد الدولة في ولايته مقيماً بأصبهان وهو ابنه بويه وحضر عضد الدولة وخرج ركن الدولة في تلقّبه فلما قرب من البلد وقف على نشز من الأرض حتى ترجّل له عضد الدولة ابنه وقبّل الأرض مرات ثم تقدم إليه فقبل يده ثم تتابع القواد والأمراء وكبار الحاشية بتقبيل الأرض والخضوع له. فرأى لنفسه منظراً يسر مثله الآباء في أولادهم ثم سار حتى نزل ونزل كل واحد حيث رسم له ونزل عضد الدولة معه في دار الإمارة في الأبنية التي كان استحدثها مؤيد الدولة. ثم دعا أبو الفتح بن العميد دعوة جمع فيها ركن الدولة وجميع أولاده ووجوه الأمراء والقواد والحاشية وخاطبهم ركن الدولة بأن عضد الدولة وليّ عهده وخليفته على ممالكه وأن مؤيد الدولة وفخر الدولة خلفاؤه في الأعمال التي رتبهم فيها. ولزمت أبا الفتح مؤونة عظيمة وحمل إلى كل واحد من ركن الدولة والأمراء من أولاده وقواده وحاشيته ما يليق به وكان في جملة ما خلع على الخواص من الديلم ومن يجري مجراهم ألف قباء وألف كساء.

وانصرف القوم وقد تقررت الرئاسة من بين أولاد ركن الدولة على عضد الدولة واعترف له مؤيد الدولة وفخر الدولة به وخدماه بالريحان على الرسم المعروف لهم وخدمه بعدهما كل أمير وقائد ممن حضر وكتب بذلك عهد قرئ وكتب فيه القوم خطوطهم.

وكان بختيار سيئ الظن شديد الحذر مما تقدم له ولجنده من مكاشفة عضد الدولة فهو يحب أن يصلح أمره معه فتتابع كتبه إلى ركن الدولة ويسأله أن يعصمه من الحال التي خافها وأنفذ إليه عيسى بن الفضل صاحب دواته ووافق ذلك هذا الوقت الذي كنا في ذكره من اجتماع الجماعة بأصبهان فتكلم ركن الدولة في ذلك وأظهر عضد الدولة في الحال الإغضاء عنه وشرط عليه أن يقلع عما يوحشه من بعد ولا يعاود شيئاً مما ذمه منه فعلاً وقولاً وكان بختيار سكن قليلاً إلى ذلك إلا أن محمد بن بقية مقيم على خوفه وحذره ويحمل بختيار على مكاتبه سهلان بن مسافر وكان وجه عسكر فخر الدولة

وحسنويه بن الحسين البرزيكاني وكان مجاوراً لأعماله ومصاهراً له وبحمله أيضاً على استمالة فخر الدولة حتى يدخل في منابذة أخيه عضد الدولة فترددت الرسل بينهم فتأكدت العهود بينهم واستعدوا جميعاً للمعاونة واتفقوا على التعاضد والتوازر إن نابت أحداً منهم نائبة. وحضر كتاب لهم وجرت موافقة في أمور مشهورة ظهر منها تقليد كل واحد من فخر الدولة وسهلان بن مسافر ما في أيديهما من الأعمال رئاسة من قبل السلطان وكتب لهما العهد ولقب سهلان عصمة الدولة وكنّى وأنفذت الخلع إلى الجهتين ووُعد حسنويه بمثل ذلك إذا سار فلما وردت عليهم هذه الخلع أحجموا عن لبسها وتوقفوا عن إظهار المنابذة لعضد الدولة فمكثت الخلع مع الرسل مطّرحاً لا يلبس ولا يتلقب سهلان ولا يتكنى وجرى الأمر على غاية الأخلوقة والفضيحة.

وواصل بختيار وابن بقية عدة الدولة أبا تغلب بن حمدان ومعين الدولة عمران بن شاهين وقطعت الخطبة ببغداد وجميع منابر العراق عن اسم عضد الدولة وزعم بختيار أن الرياسة له بعد ركن الدولة. وشرع ابن بقية في تلقيب ثان مضاف إلى لقبه الأول وأن ينشأ كتاب عن الخليفة بالزيادة في المقاطعة والمكاشفة وأشيع ذلك على المنابر وأطلق للناس الكلام القبيح وعظم بختيار وأنزل منزل ركن الدولة بالعراق والممالك المجاورة له وزعم أنه يلتمس تلك المنزلة من عضد الدولة ومن دونه وتلاه ابن بقية في هذه المراتب ووجد من جهال الجند مساعدة له ورغبة في حطام يتناولونه منه ويأكلون عده وإسراراً للبراءة منه وإسلامه. وكان يظن أنه إن بلغ ما يحب بالتدبير الذي دبره فقد فاز وإن انعكس عليه كان بختيار الهالك وهو الناجي فيظن ظناً خطأ لأن من سلك مسلكه لم ينج ولم يخل من ورطة يقع فيها تكون سبب هلاكه.

ودخلت سنة ست وستين وثلاثمائة

وفي هذه السنة تحرك عضد الدولة نحو العراق ورحل من فارس فجد محمد بن بقية وبختيار في مكاتبة الجماعة المذكورة. وكان حسنويه بن الحسين الكردي خاصة يغرّ بختيار من نفسه ويطمعه في أنه سائر إليه لمعاونته بنفسه وأهل بيته ومن يطيعه من الأكراد وكان يحب أن يشتت الألفة ويفرق الكلمة لأن نظام أمره كان في انتشار أمر هؤلاء الملوك.

وكان بروز بختيار وابن بقية يوم الاثنين لليلة بقيت من جمادى الأولى يريدان الزيارة والتصيد ثم الانقلاب إلى واسط قاصدين الأهواز على نية المحاربة فانتهيا إلى واسط في انسلاخ جمادى الآخرة ووقعت بينهما وبين عمران بن شاهين مصاهرات وتزوج بختيار بابنة عمران بن شاهين وتزوج الحسن بن عمران بابنة بختيار.

وفي هذا الوقت أهلك ابن الراعي بأمر ابن بقية خلقاً ممن كان يتهمهم فيهم

المعروف بابن عروة وهو ابن أخت أبي قرة وكان من وجوه العمال وفيهم علي بن محمد الزطّي وكان إليه شرطة بغداد ومنهم المعروف بابن العروقي وكان أيضاً إليه الشرطة بواسط وجماعة يجرون مجراهم وهمَّ بقتل صاعد بن ثابت وكان قبض عليه ونكبه ولكنه سلم من القتل.

وراسل بختيار من واسط الطائع لله وراسله ابن بقية يسألانه الانحدار إليهما والمسير معهما فامتنع من ذلك وترددت المكاتبات في ذلك إلى أن قرر عنده أنه إنما يسأل تجشم العناء للصلح والإلفة فحينئذٍ انحدر إلى واسط وسارت الجماعة عنها إلى الأهواز. والمكاتبات تتردد في خلال ذلك بين القوم وبين حسنويه بن الحسين وهو يعد بالمسير. فبينما هم كذلك إذ ورد خبر عضد الدولة في نزوله أرجان في جميع عساكره فاضطربت القلوب وكتب عن الخليفة كتاب في معنى الدعاء إلى السلم والكف عن الحرب وأنفذ الكتاب مع خادم من خدم بختيار على أنه من خدم الخليفة. وكان الطمع في الصلح في هذا الوقت محالاً، فاستقرَّ الرأي بعد مناظرات بين بختيار وأصحابه على أن تكون الوقعة بالأهواز والتحصن بالنهر المعروف بسوراب والقتال من ورائه فبرزوا وضربوا مضاربهم على شاطئ سوراب ونفذ أبو إسحاق بن معز الدولة في طائفة من الجيش إلى عسكر مكرم لضبطها وحفظت المعابر على المسرقان وجردت العساكر من الأعراب والأكراد وغيرهم إلى رامهرمز وذلك أن المقيم كان بها والضامن لها وهو الحسن بن يوسف استأمن إلى عضد الدولة. ولما رأى الطائع للّه أن الحال أفضت إلى الحرب امتنع من المقام وبرز متوجهاً إلى بغداد فاجتهد بختيار وابن بقية الجهد كله في أن يقيم فأبى ذلك وسار إلى دجلة البصرة وأصعد فيها إلى مدينة السلام مجتازاً في أعمال البطيحة.

ثم ورد خبر نزول عضد الدولة رامهرمز وهزيمة ذلك العسكر الذي نفذ إليها فزاد قلوب القوم ضعفاً وانتقض عليهم رأيهم في لزوم شاطئ نهر سوراب فرجعوا منهزمين إلى أفنية سوق الأهواز وقطعوا قنطرة اربُق وكوتب إبراهيم بن معز الدولة بالعود من عسكر مكرم فعاد واجتمع جيشهم. واتصل ببختيار أن سلار بن باعبد اللّه سُرخ هو مع جماعة من وجوه قواده وجماعة أخرى عاملون على أن يستأمنوا ويفضوا عسكره وأشير عليه بالقبض عليهم وتقييدهم وحملهم إلى واسط فضعفت نفسه عن ذلك وخشي اضطراب باقي عسكره وضعف عن المحاربة بالأهواز وعمل على أن يرجع إلى واسط موفوراً فيجعل الحرب فيها فمنعه ابن بقية وجميع القواد عليه وألزموه المقام. وطالبه العسكر بالمال فظهرت خلته وفاقته وابتدأ ابن بقية بمصادرة أهل البلد وكسر بختيار أواني الذهب والفضة من الحلي والمراكب وضربت عيناً وورقاً فضعفت آمال جنده. وعقد على دجيل جسراً ضيقاً ضعيفاً في أسفل البلد وعلى طريق لا يصلح للعساكر عدَّة للهرب.

ووردت أخبار عضد الدولة باستظهار شديد ومال كثير وكراع وسلاح وجمال موفرة بالأزواد والآلات وعدة فيول مقاتلة وكان على ثقة من استئمان جماعة من البختيارية إليه منهم سلار سرخ الذي ذكرناه وذلك أن كتبه وصلاته كانت متصلة إليهم. وقدم عضد الدولة إقامة أبا الوفاء طاهر بن محمد بن إبراهيم وضم إليه جماعة فيهم المعروف بالكاروي الأهوازي مع جيش من رجاله القفص وغيرهم فوردوا الباسيان وجمعوا السفن وصاروا بها إلى الناحية المعروفة. . . فعقدوا جسراً وورد عضد الدولة فعبر عليه وجميع عساكره والأخبار ترد مع ذلك على بختيار وابن بقية فلا يكون فيهما فضل للممانعة عن العبور ويثبتان ثبات التحيين وذلك أن من عجز عن رد بعض العساكر عن العبور والزحف في المواضع التي يمكن فيها الممانعة كيف يثبت لجميع العساكر في الفضاء!

وتمسك عضد الدولة بالماء فنزل على شاطئ النهر لأن الوقت كان مدخل تموز فنزل من القوم على نحو الفرسخ وبكر يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ٣٦٦ على تعبية ونظام وعدّة واستظهار واحتياط وصافَّهُ بختيار مصافة مضطربة وجعل الفرسان أمام الرجالة (وهذا شيء ما فعله أحد قط ولا تجهله عوام الناس حتى لعاب الشطرنج) فاستأمن سلار سرخ والحسن بن خرامذ ونيباك بن شبرك وهو من أشد الديلم وشجعانهم وعدد كثير من الخواص وكان دبيس بن عفيف رئيس بادية بني أسد في ميسرة بختيار فاستأمن وانهزم جيش بختيار وتبعتهم الأعراب والأكراد بالنهب والسلب والقتل والأسر واستأمن تحت السيف خلق وانهزم الفلّ يطلبون الجسر الذي وصفناه فغرق أكثرهم بالمضايقة والمزاحمة. وأفلت بختيار وأخوه أبو إسحاق ووزيره ابن بقية وعبروا دجيلاً واختلفت بهم المذاهب فلم يعرف بعضهم خبر بعض حتى التقوا بمطارا وكان بختيار ألقى سلاحه عن نفسه وتلثم وفيه عدة طعنات بالزوبينات فأما أخوه وابن بقية وجماعة من كبار قواده فإنهم وردوا الحويزة نصف الليل في نحو خمسمائة رجل وباتوا فلحق بهم تمام الألف على صورة قبيحة من الاختلال ولما أمسوا ساروا نحو نهر الأمير ومن هناك إلى مطارا واجتمعوا مع بختيار. وقد كان ابن بقية عبر بصاحبه ابن الراعي مع خزانته وخزانة بختيار وعُدة كانت معه إلى المأمونية التي بإزاء سوق الأهواز وعول في حفظه على بعض بني أسد فنهب جميعه.

فأنفذ عمران بن شاهين ابنه الحسن وكاتبه وقواده في عدة زواريق وآلات إلى بختيار وحمل إليه وإلى ابن بقية مالاً وثياباً وحمل المرزبان بن بختيار إلى أبيه من الأبلّة وقد كان برز إليها مالاً وثياباً وصارت الجماعة إلى الأبلّة في الماء بعد أن تأثثوا وتزودوا إلى واسط. وصادف بختيار وابن بقية البصرة مفتتنة بالحروب بين ربيعة ومضر فإن مضر كانت داخلة في طاعة عضد الدولة بتدبيرات دبرها وأصول قدمها وأما ربيعة فأقامت على

طاعة بختيار ولا لرغبة فيها ولكن مضاغنة لخصومهم من مضر فاتصلت الفتن ودامت الثورة وأحرقت المحال وانتهبت البضائع ودخل ابن بقية إلى البصرة لتسكين هذه الفتنة فزادها اشتعالاً وفساداً وأحرق بعض خطط المضريين وانصرف والشر باق. وأشفقت الجماعة من أن يسير عضد الدولة إلى واسط فيحصل بها فيفوتهم الهرب إن أرادوا فأصعدوا في الماء واخترقوا البطائح فتلقاهم عمران بن شاهين في عسكره وآلاته وقبل يد بختيار وتطاول بختيار له وعطف به إلى دار ابنه الأكبر وهو أبو محمد الحسن فأنزله فيها للوصلة بينهما ولأنها كانت أحسن دار بالبطيحة وأنزل محمد بن بقية عليه فأقاموا عنده أضيافاً ثلاثة أيام فعجب الناس من موافقة ذلك ما كان عمران سبق إليه بالحكم كما حكيناه فيما تقدم. ثم رحلوا ورحل الحسن بن عمران معهم إلى واسط.

وفي هذه الحال هرب المرزبان بن بختيار من البصرة إلى واسط لاحقاً بأبيه في الشذاءات والزبازب والسفن بكليته وحرمه وأسبابه.

ذكر السبب في ذلك

ظهرت مضر على ربيعة وضعفت نفوس ربيعة بهزيمة بختيار وانخزل المرزبان وخاف أن يؤخذ فبادر إلى واسط موفوراً وحينئذٍ كتب وجوه البصريين إلى عضد الدولة بإنفاذ من يتسلم البصرة فأنفذ أبا الوفاء طاهر بن محمد فدخلها.

ولما حصل بختيار بواسط تنكر لابن بقية وذم مشورته وندم على قبوله منه وقال: قد كنت عملت على الانصراف عن الأهواز قبل الحرب بجيش كثيف وأمر مستقيم وعسكر وآلة وسلاح فإن تمكنت من المقام بواسط أو ببغداد ولحقتني المعونات التي انتظرها من سائر الجهات وإلا كان أقل ما في يدي أن أنصرف عن هذه البلاد بعسكر لم يثلم ولم ينكب فلم يتعذر على أن أغلب على غيرها فأبيت إلا إخراجي من جميع نعمتي ومملكتي وإفساد ما بيني وبين أجل أهلي. فثبت ابن بقية وقال: قد ينال الملوك مثل ما نالك وأعظم منه فيتماسكون وعليَّ أن أصلح أمورك وأبذر نفسي دونك ومساعدة الجند على ذلك. وتراجع إلى بختيار كثير من الديلم والأتراك واستدعى كراعاً كان له ببغداد واستجد سلاحاً وخيماً وخركاهات وصار إليه من كان بالبصرة وبغداد من الجند وأحوالهم جامة فصار في عسكر قوي. وورد عليه كتب حسنويه بن الحسين الكردي يغره غروراً ثانياً ويعتذر إليه في التأخر عنه ويعده بأن ينفذ إليه أولاده واحداً بعد آخر ثم يصير إليه بنفسه في جميع رجاله. وعادت المكاتبة بينه وبين فخر الدولة علي بن ركن الدولة وأبي تغلب بن حمدان ورجع ابن بقية إلى ذخيرة كانت له بواسط فتأثث منها وجرى على عادته في استمالة الجند وبذل الخلع حتى مالوا إليه وآثروا على بختيار.

ذكر بلوى بلي بها بختيار في تلك الحال حتى أسلم بقية ملكه

من عجائب ما اتفق على بختيار في تلك الحال أنه كان أسر له في الوقعة بالأهواز غلام تركي يعرف ببايتكين لم يكن من قبل يميل إليه ولا تظهر منه محبة له فجن عليه جنوناً وتسلّى عن كل شيء خرج عن يده إلا عنه وحدث له من الحزن عليه ما لم يسمع بمثله فامتنع من الطعام والشراب والقرار والسكون وانقطع إلى النحيب والشهيق والعويل واحتجب عن الناس إخلاداً إلى البكاء وتضجر بالجيش وتبرّم بحضورهم واطّرح التدبير وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة. ثم إذا كان وصل إليه وزيره. وكتابه وقواده وخواصه في المهم قطعهم عن ذلك بالشكوى بما حل به والبوح بما في نفسه ونقصت أوقاته ومجالسه بهذا الخطب الجليل عنده دون ما سواه وامتنع من الجلوس في الدست ومن استعمال التمهد بالمخاد وما أشبه ذلك فخف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم فلم يبال بذلك. وصار القواد يجتمعون إلى ابن بقية ويقولون: دبر أنت أمورنا فإنّا معك ومطيعوك. فاستهان به ابن بقية واستعجزه وجاهر بذلك بعد أن كان يستره وعدل إلى الأخذ بالحزم لنفسه وأما بختيار فإنه أسقط التجمل في أمر هذا الغلام عند كل أحد حتى كتب إلى عضد الدولة والحرب قائمة بينهما وهو يطلب ملكه ونفسه يسأله رد هذا الغلام عليه وكتب إلى جماعة خواصه المطيفين به وبخدمته يسألهم معاونته فيما رغب فيه إليه فاستزاد بذلك فضيحةً في العساكر والأمصار وعاتبه الأقارب والأباعد. فما ارعوى بل تمادى وأنفذ أبا أحمد الحسين بن موسى الموسوي رسولاً إليه في هذا الباب وبذل له على يده في فدية الغلام جاريتين عوادتين محسنتين كانتا عنده ولم يكن لهما نظير في الحذق والبراعة وقد كان أبو تغلب بن حمدان بذل بإحديهما مائة ألف درهم فأبى أن يبيعها. وقال له: إن وقف عليه الأمر في هذا الفداء فزد أبداً ولا تفكر في شيء مما بيني وبينه فقد رضيت أن آخذه وأمضي إلى أقصى الأرض وأسلم إليه ما في يدي. فشخص وأدى الرسالة وقد وجد ذلك الغلام قد اختلط مع غيره من رفقائه المأسورين يوم الوقعة ولم ير له فضل ولا ميّز من بينهم وأنفذوا إلى شيرزاد هدية للأمير أبي الفوارس بن عضد الدولة. فلما أديت الرسالة وعرف الملك ما عند بختيار من الفجيعة به عجب كل العجب وأمر برد الغلام إلى حضرته فرُدَّ ثم أعاد أبا أحمد الموسوي بجواب الرسالة وضم إليه أبا سعد بهرام بن أردشير الكاتب رسولاً وأعلمه أنه مجيب له إلى ما سأل وأرشده مع ذلك إلى بعثه على الطاعة وحمَّله رسائل أخر أمرهما أن يؤديها إلى بختيار سراً عن ابن بقية وعلى غير مشهد منه ولا من أحد. فلما وردا امتثلا الأمر وطويا عنه ما حضرا فيه وأدياه إلى بختيار

وحده على انفراد به فاستوحش ابن بقية استيحاشاً شديداً واتهم أنه التمس القبض عليه وتسليمه إليه عوضاً عن الغلام وأن بختيار يفعل ذلك لشغفه به فهم بالقبض على الرسولين جميعاً ومكاشفة بختيار وأن يظهر العصيان. وكان نازلاً من واسط في الجانب الغربي ومعه المال والسلاح والثياب والآمال متعلقة به وبختيار في الجانب الشرقي خال من ذلك كله وإنما كان ابن بقية يجري عليه قوته ويعوله كما يعال من لا أمر له وعمل على أن يراسله باعتزال التدبير وأن يصعد إلى بغداد ويخلي بينه وبين الحرب فإن فعل وإلا جاهره وطرده وكان ذلك ممكناً منه لو أمضاه فعدل بختيار إلى تلافيه والرفق به وأظهره على الرسالة المطوية عنه وسكنت نفسه وطيب قلبه وأراه أنه راجع إلى رأيه ومتدبر بتدبيره وغير خارج عن إرادته إلى أن تم له القبض عليه.

ذكر السبب في قبض بختيار على ابن بقية

كان إبراهيم بن إسماعيل صاحب بختيار تمكن منه ووثق به صاحبه وكان نقيباً خاملاً فتقدم عنده إلى أن استحجبه وذلك بعد رحيل عضد الدولة إلى فارس. ولما اطَّلع على الحال التي عليها ابن بقية من التنكر أعلم بختيار أنه على خطر من وثبة يثبها عليه إشفاقاً على نفسه وانتهازاً لفرصته مع تمكنه من الجند والمال فقال له بختيار: إني أخاف شغب الجند وأن يستنقذوه من يدي ويطالبوني بالأموال. فتضمن له ألا يجري شيء من ذلك وإن جرى كان عليه أن يسكنهم ويرضيهم بما يوجد من أموال ابن بقية وأسبابه وأطمعه في كثرتها وفي أن تسفر الحال في القبض عليه فيما بينه وبين عضد الدولة ويصير ذاك طريقاً إلى انعطافه وصلاح رأيه وأشار عليه ألا يستوزر وزيراً بعده وأن يقر الكتَّاب على أعمالهم ودواوينهم ويخرج أبا العلاء صاعد بن ثابت النصراني من محبسه فيردَّ إليه استخراج الأموال والاستيفاء على العمال من غير وزارة. فقبل بختيار مشورته واطلع بختكين آزاذرويه عليها فاستصوبها وكان في ضنك شديد حتى أنه احتاج إلى الثلج فالتمس من ابن بقية ثلجاً فحمل إليه ثلاثين رطلاً ووجد في خزانة شرابه يوم القبض عليه ستة آلاف رطل كان أعدها لسماط يتخذه للجند.

فلما كان وقت العصر من ذي الحجة سنة ٣٦٦ عبر ابن بقية في زبزبه إلى بختيار فوجه في الوقت جماعة قبضوا على الحسن بن بشر المعروف بابن الراعي صاحبه فحين حصل في أيديهم أمر بالقبض على ابن بقية من غير أن يصل إليه وقبض على جميع ما وجد له من مال وكراع واستخلص أبا العلاء صاعد بن ثابت من محبسه وكان أمر ابن الراعي بقتله في الليلة المقبلة فكفاه الأجل والمقدار. ووُجد في حبس ابن بقية صاحبه المعروف بالكراعي وكان صادره ولم يبق فيه بقية فأطلقه بختيار وسلم إليه ابن الراعي ليطالبه ثم أخذه من يده فاستوحش الكراعي وهرب إلى البطيحة. فتحرك الجند بعد أيام

يسيرة من القبض على ابن بقية وطالبوا بأموالهم وعرَّضوا بذكره والتأسف عليه فهمّ بختيار بقتله في الوقت فلما تفرق الجند عنه أنفذه في الليل مقيداً إلى بغداد موكلاً به وأخرج معه أبا العلاء صاعد بن ثابت ليطالبه ولم يكن الاحتياط وقع على أقاربه لأن بختيار عاجله كما حكيت ثم كتب على الأطيار إلى مدينة السلام بتحصيلهم فسبق أحد الأطيار وحمله صاحب البرج إلى أسباب ابن بقية على الرسم في خدمة الناس لهم فوقفوا عليه وأنذر بعضهم بعضاً فهرب من هرب واستتر من استتر فالتجأ أخوه وابن أخيه المعروف بأبي الحمراء مع جماعة منهم إلى بني شيبان ثم إلى بني عقيل وأقاموا في البادية.

تمام خبر بختيار وما عمله بواسط إلى أن صاعد إلى بغداد

كان قبضه على ابن بقية قبل ردِّه أبا أحمد النقيب وبهرام بن أردشير الرسولين إلى عضد الدولة فشهدا ذلك عياناً ثم أنفذهما وأنفذ الجاريتين ليفتدي بهما غلامه بايتكين ووافق أبا أحمد العلوي على أن يبذل جميع ملكه إن دعته إلى ذلك حاجة. فجرت خطوب استقرت على أن تسلم الجاريتان ويسلم الغلام وتواترت البشائر بحصول الغلام بالبصرة فأظهر بختيار السرور العظيم بذلك وأنه جرى عنده مجرى الظفر بجميع خيرات الدنيا والآخرة واستشعر أن نعمته قد عادت إليه وهمّ بالعود إلى بغداد على ما شرط عليه عضد الدولة. وجاء إبراهيم بن إسماعيل حاجبه وأشرف عليه في اللوم والتقريع وأشار عليه أن يقيم بواسط للمقارعة والمدافعة وجاءه عبد الرزاق بن حسنويه ثم أخوه أبو النجم بدر بن حسنويه في نحو ألف فارس ووردت كتب حسنويه بأنه سائر على أثرهما فأظهر المقام بواسط على مباينة عضد الدولة. فاتصل ذلك به وأنه نقض الشرط فبادر برسله إلى أبي أحمد النقيب العلوي يرسم له أن يتوقف بالبصرة مع الغلام إلى أن يرحل بختيار عن واسط ويتمسك بالشرائط التي شرطت عليه فوردت كتب العلوي بذلك فاضطرب واجتهد وكاتب وراسل فلما لم ينفعه شيء من ذلك أمر بتقديم سواده وعمل على الإصعاد ليلاً وأعلم عبد الرزاق وأبا النجم أنه قد رأى أن تكون الحرب ببغداد لأن أبا تغلب بن حمدان صائر إليه لمعاونته وسألهما الإصعاد معه ففعلا ذلك على استضعاف الرأي فيه وقد كانا اطّلعا على حديث هذا الغلام فكتبا إلى أبيهما حسنويه يصدقانه عن الصورة فلما حصل عبد الرزاق بجرجرايا رحل منصرفاً وتوقف أبو النجم بدر على سبيل التذمّم والحياء. وتلوّم بختيار في طريقه حتى لحقه أبو أحمد العلوي وبهرام بن أردشير ومعهما بايتكين فسلماه إليه فتمم المسير إلى بغداد.

وقد كان ابن بقية والمعروف بابن الراعي أظهرا التبلح في المطالبة بعد مكاره عظيمة لحقتهما والتمس ابن بقية كتب الأمانات لأهله الهاربين فكتبت وحضروا. وتجدد لابن بقية طمع في أن يخطب الوزارة ويبذل لبختيار ثلاثمائة ألف دينار يصححها من

جهات كتابه وأسبابه وذويه ومن البقايا في النواحي وأن يردّ إلى مرتبته ليقوم بأمر الحرب ويدبر العسكر فبلغ ذلك أصحاب بختيار والقواد الذين أشاروا بالقبض عليه فاضطربوا واجتمعوا إلى بختيار وأعلموه أنه إنما يحتال بما يبذله للخلاص وأن يتمكن من الانسلال ثم يثير الفتن التي لا تتلافى.

وفي هذه السنة قبض على أبي الفتح بن العميد بالري.

ودخلت سنة سبع وستين وثلاثمائة

ذكر السبب في المثلة بابن بقية وابن الراعي وسمل عيونهما

كان بهرام رسول عضد الدولة يخاطب بختيار في تسليم ابن بقية إليه ليحمله إلى عضد الدولة ويعوضه عنه مالاً من خزانته واتصل ذلك بهؤلاء القوم أعني القواد فحضروا عند بختيار وأقاموا في نفسه أنه إن سلمه إليه صحيحاً لم يؤمن أن يصطنعه ويبقى عليه فيكون قد حصل له بحضرته عدوٌّ من قبله وكثر المشيرون بقتله والراحة منه فتقرر الرأي على سمله وتسليمه مسمولاً. فسمل ليلة الجمعة لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة ٦٧ وجدَّ أبو إسحاق بن معز الدولة في إلحاق صاحبه المعروف بابن الراعي به لشيء كان في نفسه عليه ولم يكن له شافع لما كان ارتكبه من مكاره الناس فسمل أيضاً.

وترجح الرأي ببختيار بين الدخول في طاعة عضد الدولة وبين المقام على معصيته ومحاربته وكان الرسولان مع جماعة من نصحائه يشيرون عليه بطريق السلامة ويعرِّفونه عجزه عن مقاومته وقلة عدته من المال والرجال وكان جماعة أخرى من قواده وخواصه فيهم الحسن بن فيلسار يشيرون عليه بالثبات والمقارعة ثم تقرر الأمر واختار السلامة والطاعة من طريق الضرورة فدخل في الطاعة وحلف عليها وأعطى صفقة يمينه بها ولبس خلع عضد الدولة وعبر إلى الجانب الغربي على أن يسير إلى الشام ويثبت على أعلامه وراياته اسم عضد الدولة ويقيم الخطبة له في أي بلد دخله ولما فعل ذلك انصرف عنه بدر بن حسنويه آيساً منه ولحق بأبيه. وبذل له عضد الدولة مالاً جليلاً على أن يقيم في كنفه ويلقاه ثم يسير إلى حيث يختار فلم يفعل ذلك ولم يسكن إليه فاشترط عليه شروطاً كثيرة كان فيها ألا ينابذ أبا تغلب ولا يعرض له إلا بقدر الاجتياز في أعماله فقط لمراسلة كانت بينه وبين عضد الدولة ولمقامه على العهد القديم وأطلق لبختيار مالاً وقاد إليه جمالاً ودواب معونة له على نهضته ووقع النداء بمدينة السلام برجوعه إلى طاعة عضد الدولة وأنه سِلْم غير محارب وخرج نحو الموصل.

فأول ما نقض من شروط عضد الدولة إن اعترض على أبي تغلب بن حمدان وعمل على لقائه ومحاربته ودفعه عن الديار.

ذكر السبب في ذلك

كان حمدان بن ناصر الدولة خرج معه وسار بمسيره فلما صار إلى عكبرا ذكّره أمر نفسه ووعده بأموال ابني ناصر الدولة وما جمعه في القلاع وما خلّفه لهم ناصر الدولة وكان بالحقيقة كثيراً جداً وزعم أنه لا يلابس مملكة هي أسهل شوكة من مملكة أبي تغلب وأنه يتولى حربه ويثق بمصير خلق من رجاله إليه وكذلك من إخوته وأسبابه فعاهد حمدان على أنه يمنعه من جميع ما يمنع نفسه ذباً وحماية وحلف له بأيمان البيعة وجرت بينهما شروط التزماها ودخلا فيها. فلما صار بتكريت صار إليه علي بن عمرو كاتب أبي تغلب بهدايا يسيرة وإنزال من قضيم وطعام وسار معه إلى الحديثة وخلا به ودعاه إلى القبض على حمدان وتسليمه إلى أبي تغلب على أن يجتمع معه وينفق أمواله ويبذل سلاحه وآلاته وذخائره وعسكره ورجاله ويعود معه إلى بغداد ويستخلص له ملكه من يد عضد الدولة. فالتوى بختيار واضطرب وذكر أنه لا يستجيز ذلك مع ما حصل لحمدان في عنقه من اليمين الغموس ومع ما عليه من عهد عضد الدولة فلم يزل يعاوده ويستعين عليه بوالدته وأخيه أبي إسحاق وحاجبه إبراهيم بن إسماعيل وبجماعة من استولى عليه من أسبابه. واستولى كاتب أبي تغلب هذا أعني أبا الحسن علي بن عمرو على بختيار وتسمّى بالوزارة وجمع لنفسه كتابة بختيار مع كتابة أبي تغلب واستخلف عليه ابنه. واجتهد في أمر حمدان وإسلامه وذلك أن أبا تغلب وأخته المسماة جميلة كانا طالبين عنده بثأر أخيهما أبي البركات.

وأقام بختيار على الامتناع إلى أن صار أبو إسحاق إلى الموصل واجتمع مع أبي تغلب وتقرر الأمر بينهما على القبض على حمدان من حيث لا يدخل بختيار في ذلك لئلا يحنث في يمينه فرجع إلى الحديثة. وعسف بختيار في المخاطبة وأعلمه أنه متى لم يفعل ذلك قصده أبو تغلب وحاربه ولم يقاومه وأنه إن ساعده صافاه وواخاه وأعاده إلى بغداد وأنفق أمواله وذخائره واستدعى الرجال إلى ذلك من كل وجه مع ما عنده من الاستقلال بعسكره ورجاله. فضعف بختيار في يده على رسمه في ضعف العزيمة ولين العريكة فقُبض على حمدان وأسلم إلى خصومه وحبس في قلعة وهرب ابنه المكنى أبا السرايا إلى عضد الدولة. وجمع أبو تغلب الرجال وفتح قلاعه واجتهد وبالغ واجتمع مع بختيار على ظهور الدواب فتحالفا وتعاهدا فلما فرغا من الاستعداد انحدرا من الموصل وكانت عدّة أصناف الرجال معهما خمسة وعشرين ألف رجل. وبلغ عضد الدولة أخبار الجماعة ولم يكن ممن تخفى عليه أمور أعدائه وأوليائه يوماً بيوم فبرز عن مدينة السلام في جيوشه المنصورة وقدّم مقدّمته مع أبي القاسم سعد بن محمد الحاجب إلى تكريت. وكان أولئك أنفذوا إليها جيشاً مع إبراهيم بن إسماعيل حاجب بختيار فأوقع به أبو القاسم وقتل كثيراً

من رجاله وكاد إبراهيم يؤخذ أسيراً إلا أنه نجا إلى تكريت واستتر عند بعض أهلها ثم هرب منها ولحق بأصحابه. وفي هذا الوقت قتل ابن بقية وصلب ببغداد.

ذكر الحال في ذلك

كان حمل مسمولاً على ما ذكرناه إلى عضد الدولة عند نزوله بالزعفرانية فتقدَّم بأن يشهر في العسكر على جمل ثم طولب بالمال فلم يذعن بشيء منه فطُرح بحضرة العسكر بباب حرب إلى الفيلة وأضريت عليه فقتلته شر قتلة وصلب لوقته على شاطئ دجلة في رأس الجسر بالجانب الشرقي وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٦٧ ثم نقل إلى الجانب الغربي فصلب بإزاء ذلك الموضع من الشرقي وبقي فيه.

وعاد الحديث إلى تمام خبر الوقعة بين بختيار ومن جمع وبين عضد الدولة بقصر الجص

اتصل بعضد الدولة أن القوم أجمعوا على أن يتفرقوا بعد عبور النهر المعروف بالإسحاقي ويأخذوا في عدَّة وجوه إلى بغداد فسار بجميع عساكره إلى قصر الجص حتى نزل فوق الغاية التي عزموا على أن يتفرقوا منها وذلك بعد أن استخلف وزيره أبا القاسم المطهر بن عبد الله في جيش كثيف ببغداد والتقى القوم غداة يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال واشتدَّت الحرب وثبت القوم بعضهم لبعض وتصابر الفريقان من الديلم فحمل عضد الدولة حملة صادقة فانهزموا وتبعهم الجند يقتلون ويأسرون وقد كان بختيار عمل على الهزيمة فمنعه أصحابه وخاف من الحصول في الأسر أو القتل فلما تحققت الهزيمة ظفر به بعض الأكراد من العسكر فأخذ سلبه وهو لا يعرفه ثم عرفه غلام تركي يقال له أرسلان كورموش فضربه بلت وأراد أن يثني عليه فتعرَّف إليه باسمه واستأسر له وقال: احملني إلى حضرة ابن عمي وخذ جائزتك. ولحقه في الحال تركي آخر فحملاه إلى القرب واستأذناه فتوقف وكان أبو الوفاء طاهر بن إبراهيم حاضراً فأشار بالفراغ منه فلم تطب نفس عضد الدولة به ولحقته دهشة وأراد استبقاءه فألحّ عليه أبو الوفاء وقال: ما تنتظر به أن يعود ثالثاً وإلى متى يثير علينا هذه الفتن التي لعلنا نكون من صرعاه في بعضها أفرغ منه! وعلا صوته وأظهر من النصيحة في هذا الباب والمراجعة الشديدة ما لو قصَّر فيه لجاز. فرفع عضد الدولة يده إلى عينه يمسحها من الدموع وقال: أنتم أعلم. وكان هناك أبو القاسم سعد الحاجب حاضراً فبادر إليه مع صاحب له واحتز رأسه وكان قد جهده العطش حتى كاد يأتي عليه الموت لو ترك لحظة.

وقتل في هذه الوقعة خلق كثير من القواد والأمراء ومن واساه بنفسه وفيهم إبراهيم بن إسماعيل صاحبه وحاجبه وأسر خلق كثير سوى من قتل. ولحقت أبا تغلب

ضربة في منهزمه ولم يكن باشر الحرب بل طلب تلعة بالقرب فوقف عليها وكان دبَّر عسكره بأن يقفو كراديس فكلما حمل منها كردوس وأبلى وتعب عاد وحمل كردوس آخر وغرَّه كثرة القوم وكان بختيار عبَّى خيله تعبية الديلم ليلقى بنفسه ويباشر الحرب وتلحقه المعونة من كل وجه فجرى الأمر على ما ذكرت.

ومن عجيب ما جرى قبل ذلك أن أحد الأمراء من عسكر بختيار يعرف بالحسن بن فيلسار أشار عليه وهو ببغداد ألا يخرج عنها ولا يسلمها إلا بحرب وإبلاء كثير فأبى عليه بختيار فاعتزله وشخص إلى جسر النهروان مع طائفة كانوا يرون رأيه فلما اجتمعوا هناك عقدوا له الرئاسة على أنفسهم وحدَّث نفسه بالمسير إلى جهة شعباناً أو طرف من الأطراف فبلغ عضد الدولة خبره فلما بلغ إلى القرب من بغداد جرَّد خلفه خيلاً فلحقوه ووقف للحرب فانجلت عنه أسيراً وبه ضربات فلبث يسيراً ومات وأسر كثير من أصحابه وانفضّ ذلك الجمع.

فأما عضد الدولة فإنه لما فرغ من وقعة قصر الجص تمم المسير إلى الموصل فملكها وسائر ما يتصل بها من الأعمال والديار وظن أبو تغلب أنه يلبث فيها يسيراً ثم يضطر إلى العود إلى بغداد على سيرة من كان قبله. وذلك أن رسم الحمدانية إذا ضعفوا عن مقاومة من يقصدهم أن ينقلوا الغلاّت والميرة وسائر الأموال والذخائر إلى قلاعهم وينقلون الكتاب والدواوين أيضاً إليها ويخرجون في أصحابهم إلى حول الموصل متفرقين في أعمالها فإذا حصل بالموصل عدوّهم المتغلب عليهم لم يجد بها شيئاً غير ما عند الرعية فيضطرون إلى العلوفات والمير ويخرج من يخرج في طلبهم وينقضُّون عليهم من أمكنة غريبة وطرق لا يعرفها الغرباء من العساكر فيأخذون بغالهم وجمالهم ويقتلون ويأسرون من يمانعهم فإذا صبروا على ذلك أياماً يسيرة وجهدوا ولم يجدوا حيلة ولا معيناً من كاتب بلديّ ولا غيره طلبوا الصلح وقاربوهم للضرورة التي ذكرتها وانصرفوا عنه فيعودون إلى ممالكهم. ولم يكن عضد الدولة ممن يسلك هذه السبيل بل احتاط ونقل من الميرة والعلوفة والأزواد ما تمكن منه وحمل من رجال الموصل وكتابها الموجودين ببغداد وبتكريت وسائر الأطراف من يرشد ويخدم وكذلك كتاب بغداد كان فيهم من أقام بالموصل وعرف وجوه الأعمال فصبر وأقام إلى أن صار أبو تغلب إلى الشام بعد نوائب نابتة وقُتل هناك كما سنشرح أمره إن شاء اللّه.

وفي هذه السنة خرج الطائع للّه مع عضد الدولة لمشاهدة الحرب بينه وبين أولئك الذين قدَّمنا ذكرهم أعني بختيار وأبا تغلب وكان بروز عضد الدولة إلى معسكره بباب حرب من أعلى الجانب الغربي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شوال سنة ٦٧ وبرز الطائع للّه يوم الخميس لخمس خلون منه فلما انهزم بختيار وأبو تغلب من الوقعة بحضرة قصر

الجص عاد الطائع لله إلى منزله ببغداد وسار عضد الدولة كما ذكرنا فيما قبل إلى الموصل فنزل بظاهرها يوم الأربعاء العاشر من ذي القعدة ودخل الدار يوم الجمعة الثاني عشر.

وترددت الرسل من أبي تغلب إلى عضد الدولة في التماس الصلح وحمل مال فامتنع عضد الدولة وقال: إنا إذا ملكنا ناحية بالسيف وبعد الحرب والمقارعة لم نصالح عليها. وتشدد في ذلك حتى صرح لرسله بأن الموصل وديار ربيعة أحب إليه من العراق وأنه ليس يبيعها أبداً. وكانت الموصل وأكثر أعمالها ملكاً لأبي محمد ناصر الدولة وكان رسمه أن يضايق أصحاب المعاملات من التّناء وأصحاب العقار من أهل البلد ويخاشنهم ويتأول عليهم حتى يلجئهم إلى البيع ويشتري أملاكهم بأوكس الأثمان وطالت حياته وامتدت أيامه حتى استولى على الناحية ملكاً ومُلكاً فلما صار جميع ذلك في قبض عضد الدولة لم يفرج عنها وطلب أبو تغلب وأسريت إليه السرايا فلم يمكنه المطاولة ولا أن يسير بسيرته التي حكيناها فيما تقدم فسار إلى نصيبين وسير عضد الدولة خلفه أبا الوفاء طاهر بن محمد على طريق سنجار. وكان في جملة من انهزم معه المرزبان بن بختيار ووالدة بختيار وابناها أخوا بختيار ومن أفلت من وقعة قصر الجصّ فلما لحقهم أبو الوفاء نهضوا منهزمين إلى ميافارقين ثم افترقوا فأما والدة بختيار وأخواه وابنه ومن نهض معهم من أسبابهم وبقية الديلم والأتراك المرسومين بهم فإنهم ساروا إلى دمشق لائذين بالفتكين المعزي وهو الذي حارب عضد الدولة بديالي وانهزم من بين يديه فلما بلغه مسير أولاد مولاه وحرمه وأسبابه إليه تلقاهم وقضى حقوقهم. وظن أنه يتكثر بهم ويزيد في عدته بمكانهم ويتقوى بهم فجرى الأمر بالضد وذاك أنه لما انهزم من العراق إلى دمشق وتغلب عليها تماسك فيها نحو أربع سنين ودفع جيش المغرب عنها وثبت لعساكر صاحب مصر التي جهزها إليه واستولى استيلاء قوياً وهابهُ العرب وطار اسمه هناك. فلما صار إليه هؤلاء المنهزمون قصدته عساكر مصر على الرسم متضاعفة على العدة التي تقدمت فسار إليها إلى الرملة ومعه الجماعة للحرب والمقارعة فحين توافت الفرقتان استأمن المرزبان بن بختيار فظهرت المغاربة على الفتكين وكثروه بعددهم فانهزم وقتل أبو طاهر ابن معز الدولة واستأمن أبو إسحاق بن معز الدولة في آخر الأمر. ووقع الطلب على الفتكين فلحقه المفرج بن دغفل بن الجرّاح الطائي وجاء به أسيراً: وكان صاحب مصر قد عرف منه ومن الأتراك الذين معه على طول الممارسة بأساً وشدة فأبقى عليهم وعليه وأحسن إليه وإليهم واتخذهم عدة وصاحبه ثم اشترى منه ولاءه وصار كالعبد له وحصل أصحابه محصل الجند وأحسن إليهم.

وأما أبو تغلب فإنه أقام بميافارقين ومعه أخته جميلة وكانت وحدها شريكة له في الأمر والنهي وسائر أخواته الباقيات وحرمه وعياله معه فلما بلغه مسير أبي الوفاء إليه قدم

الحرم والعيال والأموال والسواد إلى حصن بدليس وتوجه بنفسه لاحقاً بأسبابه ووصل أبو الوفاء إلى ميافارقين وهي مغلقة دونه ولها سور وثيق من حجارة سود لا يعمل فيها الحديد وهي من حصون الروم وأبنيتهم القديمة فطواها أبو الوفاء طالباً أبا تغلب وانتهى أبو تغلب إلى أرزن ونزل على نهر يعرف بخويبور ثم عدل من هناك إلى ناحية الحسنية ووصل إلى قلاعه واستنزل منها مالاً على سبيل المخالسة فعاد الشيخ أبو الوفاء إلى ميافارقين لمنازلتها وافتتاحها. واتصل بعضد الدولة مخالفة أبي تغلب إلى قلاعه وأخذه ما أخذ منها فنهض من الموصل بنفسه وهرب أبو تغلب من بين يديه وفارقه جمهور عسكره وأعيان رجاله مستأمنين إلى عضد الدولة منهم بختكين آزاذرويه وبقايا الغلمان المعزية والغلمان السيفية فعاد إلى الموصل وقد ترك أبا تغلب مسلوب القوة والعُدَّة.

وسلك أبو تغلب في هزيمته هذه طريق الجزيرة فجرد عضد الدولة في أثره أبا حرب طُغان الحاجب وأمره باتباعه ومناجزته فتنكب أبو تغلب الطريق وتعسف الرجوع إلى بدليس وظن أنه لا يتتبع فكوتب طغان باتباعه وجرّد أبو سعد بهرام بن أردشير في عسكر مدداً له فسار خلفهُ فهرب من بدليس ودخل بلاد الروم قاصداً ملك الروم المعروف بورد الرومي وهذا رجل تملك على الروم ثم اختلف الجيش عليه بقسطنطينية ونصبوا أخوين من أولاد ملوكهم وافترقت كلمة الروم وطالت الحرب والمنازعات بين الفريقين وكان وزد هذا قد صاهر أبا تغلب وواصله واعتضد به على خصومه فانعكست الحال بأن صار أبو تغلب هو اللاجئ إليه.

واتفق لأبي تغلب إن كان مسيره في مضايق بين جبال ولحقه عسكر عضد الدولة هناك.

ذكر غلط اتفق بجناية جناها أبو سعد بهرام على العسكر حتى كسر وهزم بعد التمكن من أسر أبي تغلب والظفر به وبمن معه

كان عسكر عضد الدولة على نهاية الحرص على الظفر بسواد أبي تغلب واشتد طمعهم فيه لعلمهم بما معه من المال الصامت الذي أخرجه من القلعة وأنه لم يترك ذخيرة هناك من جوهر نفيس أو در ثمين أو متاع أو عين يخف محمله إلا وهو معه ورأوا الصناديق بعينها التي وصفت لهم أنها محمولة من القلعة فحمل الأتراك وفرسان العسكر ومن يوثق بفرسه وسلاحه متسرعين إلى غنيمة تلك الأموال. فناداهم أبو سعد بهرام: يا فتيان العسكر احفظوا تلك الصناديق فإنها لمولانا. وكرر ذلك وتابعه فانكسر القوم ففتروا في الطلب ونظر إليهم أعداؤهم منخزلين وهم لا يعرفون السبب فحمل

عليهم أبو تغلب في عسكره فانهزموا ووقع بعضهم على بعض فقتل منهم خلق كثير. وضرب طغان ضربات تعطّل منها كثير من أعضائه وأفلت مع أبي سعد وقد أشرفوا على الهلاك بعد أن أشرفوا على الغنيمة والظفر.

وذلك عند دخول سنة ثمان وستين وثلثمائة

ثم إن أبا تغلب بعد كسره طغان وأبا سعد أمن وصار إلى حصن زياد وأقام. وكانت جيوش قسطنطينية قد سارت إلى ورد فشغل عنه بنفسه وأنفذ إليه ميرة كثيرة وأشار عليه بأن يلحق به ليجتمعا على حرب خصومه فإذا انهزموا واستظهر عليهم عاد فنصره. ولم تسكن نفس أبي تغلب إلى أن تلقاه فأنفذ إليه طائفة من عسكره على سبيل النجدة والمعونة وأقام بحصن زياد ينتظر فالتقى الجيشان من الروم وانهزم ورد واتصل ذلك بأبي تغلب فيئس منه وعاد إلى بلاد الإسلام ونزل بآمد شهرين إلى أن فتحت ميافارقين.

شرح الحال في ميافارقين وفتحها

قد كنا ذكرنا تجاوز أبي الوفاء ميافارقين طالباً لأبي تغلب فلما هرب إلى بلاد الروم وتفرد أبو حرب طغان الحاجب بطلبه والمسير في أثره عاد إليها فبرز إليه هزارمرد على أن يواقعه فلم تكن له به طاقة فعاد إلى التحصن في المدينة. فاقتضى الرأي عند أبي الوفاء أن كر إلى أرزن فحاصرها ثلاثة أيام وضعف من فيها عن المقاومة ففتحوها له ودخلوا في أمانه وطاعته ولم يزل بسائر الحصون المقاربة لها حتى استغرقها وانكفأ حينئذٍ إلى ميافارقين وناصبه من فيها الحرب ثلاثة أشهر وكسراً وهجم البردُ عليه وسقطت الثلوج فاحتمله وصبر. ونُصب عليه وعلى عسكره من داخل السور منجنيقات فثبت لها وقابلها بمنجنيقات مثلها ورماهم بالنار والحجارة وهو في خلال ذلك يفتح الحصون المقاربة لها ويستأمن أهلها ومن فيها من غلمان أبي تغلب المرتبين حتى قضى اللّه وفاة هزارمرد فكوتب أبو تغلب بذلك فكتب بأن ينصب مكانه غلام من الحمدانية كان مضموماً إليه يقال له مونس. وكان بالبلد قاض جاهل متهور ليس فيه من أدوات القضاء شيء يقال له أبو الحسين المبارك بن ميمون ويعرف بابن أبي إدريس فاستولى على تدبير أمر مونس هذا وجمع كلمة أهل البلد ومن كان فيه من المطوّعة وحملة السلاح على الثبات والمدافعة فكاتبه أبو الوفاء ودعاه إلى الطاعة وبذل له الرغائب فأبى إلا العناد. وكان يصعد إلى برج من أبراج السور فينادي العسكر ويسمي القواد وصاحب العسكر ومن يلي أمرهم ويشتمهم ويبالغ في ذكرهم بالقبيح ويتجاوز ذلك إلى ما لا يحسن ذكره فعدل أبو الوفاء عنه إلى مكاتبة شيخ من ميافارقين كان وجيهاً ومطاعاً فيها يقال له أبو الحسين أحمد بن عبيد اللّه.

ذكر الحيلة التي تمت لأبي الوفاء في فتح ميافارقين

وجد أبو الوفاء لأبي الحسين أحمد بن عبيد اللّه خارج البلد غلاماً كان مقيماً في ضيعة له فراسله به ورفق بالغلام ووصله ثم جعله وليجة إلى صاحبه ولم يزل به حتى استجاب للطاعة فأخذ العهد والميثاق على أهل البلد سراً فنمى خبره إلى القاضي الذي ذكرناه فسعى في الفتك به وكاد يتم له ذلك لولا أن أهل البلد حاموا عليه ومنعوا منه ولم يزل أمرهُ يقوى وأهل البلد يجتمعون إليه وقد ملوا الحصار والضيق حتى استظهر بهم. فلما كان يوم الجمعة لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٣٦٨ ثاروا مشغبين على أصحاب أبي تغلب فالتجأ مونس ومن معه إلى منازلهم وقبض أحمد بن عبيد اللّه على القاضي ابن أبي إدريس وعلى جميع من كان في حصن ميافارقين من أصحاب بختيار وحاشيته وفيهم غلام أهوج معروف بالتهور والجهل كان قد داخل بختيار على طريق المنادمة التي تليق بمثله يعرف بابن الطبري فساعد القاضي على سيرته وجهله في ذكر الملوك وبسط اللسان فيهم ووجه إلى مونس الحمداني يلتمس مفاتيح الباب منه ويتهدده متى أخرها وساعدته الجماعة على ذلك فأنفذها والتمس الأمان فكتب أحمد بن عبيد اللّه إلى أبي الوفاء يعرفه ما عمله ويلتمس الأمان لمونس ومن معه من الحمدانية فآمنه واستثنى بهذا القاضي وبالمعروف بابن الطبري وأنفذ أبا الفتح المظفر بن محمد الحاجب في قطعة من الجيش فدخل إلى البلد وملكه وأحسن أبو الوفاء إلى أهله وفرق فيهم أموالاً وتصدق على ضعفائهم بأمر عضد الدولة إياه. وحمل إلى حضرته القاضي وابن الطبري فأمر بضرب رقابهما وصلبهما من السور على البرج الذي كان يظهر منه ويسيء أدبه فيه.

فتح آمد

كان أبو الوفاء أنفذ إليها في أول الأمر أبا علي التميمي الحاجب لافتتاحها فتعذرت عليه لحصانتها ووثاقة سورها الذي هو أشد من سور ميافارقين فرجع عنها ثم عاد إليها أبو تغلب من بلاد الروم على ما ذكرنا وظن أنه يقيم فيها ويمتنع بها فلما فتحت ميافارقين علم أن الجيش سائر إليه وأنه لا يثبت مع الحصار ومع ما استمر عليه من الجوائح فأنفذ أخواته سوى جميلة مستأمنات إلى أبي الوفاء وتبين أصحابه ضعفه فالتاثوا عليه فهرب إلى الرحبة ومعه أخته جميلة ومن يمسه أمره من حرمه. وقعد عنه المعروف بانجوتكين وهو من نجباء الأتراك المعروفين بالشدة والثبات في المعارك وله قوة على حمل لت له ثقيل يعجز عنه غيره وإذا حمل به لم يثبت له أحد وقعد معه جماعة من الأتراك وقصدوا حضرة عضد الدولة مستأمنين إليه ثم تتابع الناس الذين كانوا مع أبي تغلب من الغلمان والجند والكتاب والولاة والاتباع. وسلك حينئذٍ أهل آمد بعد

انصراف أبي تغلب عنها سبيل أهل ميافارقين ففتحوها سلماً وطوعاً.

واشتمل أبو الوفاء على ديار بكر بأسرها وعاد إلى الموصل ومعه الأسارى بعد أن رتب في الحصون من يحفظها من ثقات عضد الدولة ورتب في البلدان عمال الخراج والمعاون.

ذكر ما عمله أبو تغلب بعد مسيره من آمد

لما انصرف من آمد وقصد الرحبة أنفذ من طريقه أبا عبد اللَّه الحصين بن ناصر الدولة وسلامة البرقعيدي وهو من كبار الحمدانية إلى عضد الدولة برسالة تتضمن الاستعطاف ويسأله الصلح والاصطناع ووصل إلى الرحبة وأقام بها على انتظار الجواب. فورد أبو عبد اللَّه وسلامة البرقعيدي الموصل وأدّى أبو عبد اللَّه ما تحمله فتلقاه عضد الدولة بالجميل وقبل منه تنصله وبذل له اقطاعاً وفضلاً على أن يطأ بساطه ويدخل في ذمامه وتبين أبو عبد اللَّه حزم عضد الدولة وذاك أنه مع إحسانه إليه وتوسعته عليه منع أحداً من الوصول إليه فلم يشاهد بعينه إلا الموكلين به فقط وعرف من أخيه أنه لا يستجيب لما دعاه إليه عضد الدولة فأخذ بالحزم لنفسه وتعلق بعصمة باطنة اختص بها واعتقد أن يفارق أخاه ويعود إلى حضرة عضد الدولة فمضى إليه فأعاد الجواب عليه. فكان الأمر على ما ظنه من مخالفة أخيه لمرسوم عضد الدولة فتوجه إلى الشام لاجئاً إلى صاحب المغرب وسار معه أخوه الحسين إلى بعض الطريق ثم فارقه قبيل تذمر على غير استئذان فأنفذ خلفه من يتتبعه فشعَّث سواده ولم يلحقه في نفسه فنجا وحصل بحضرة عضد الدولة على حال جليلة.

فتح ديار مضر

كان الوالي عليها سلامة البرقعيدي فأنفذ إليه سعد الدولة وهو ابن سيف الدولة جيشاً لينزله عنها فجرت بين الفريقين حرب. وكان سعد الدولة هذا قد كاتب عضد الدولة وعرض نفسه وتعلق منه بعصمة فأنفذ عضد الدولة أبا أحمد الموسوي النقيب إليها فسلمها بعد حرب ودخل أهلها في الطاعة. ولما استولى عليها سلطان عضد الدولة استصفى منها الرقة وأعمالها خاصة وفوض باقيها إلى سعد الدولة وجرت مجرى سائر ما في يده من أطراف الشام.

ثم فتح الرحبة فتفرغ لفتح قلاع أبي تغلب وهذه القلاع هي في جانب دجلة الشرقي وهي عدّة كثيرة فمنها أردمشت ومنها الشعباني وقلعة أهرور وقلعة مليصي وقلعة برقي وكانت أردمشت خاصة مملوءة بالأمتعة الفاخرة من أصناف الثياب والفرش والجواهر والصياغات والحلي وسائر أصناف العدد وكان أبو تغلب رتب فيها رجلاً من الأكراد بينه

وبينه قربى من جهة والدته فاطمة بنت أحمد الكردية يعرف بابن بادويه وضم إليه مملوكاً له كان من غلمان أبيه يثق به يقال له طاشتم فأنفذ إليه عضد الدولة أبا العلاء عبيد اللّٰه بن الفضل بن نصر النصراني لمنازلة القلعة والاحتيال في فتحها وأنفذ أبو القاسم سعد بن محمد الحاجب إلى الشعباني وأنفذ صاحباً لأبي نصر خرشيد يزديار الخازن إلى أهرور فعرف أبو العلاء حال أقارب لابن بادويه الكردي خارج القلعة فدعاهم إلى خدمة عضد الدولة ورغبهم فيها وعرفهم اضمحلال أمر أبي تغلب ووقوع اليأس منه وكاتبهم عضد الدولة بمشورة أبي العلاء فرغبوا في الخدمة وصاروا على ثقة مما وُعدوا به ثم حُملوا على مكاتبة صاحب القلعة وأشاروا عليه بالقبض على طاشتم وتسليم القلعة وذلك أن طاشتم كان شديد الطمع في عود صاحبه ويحب أن تظهر أمانته عنده ففعل ابن بادويه ذلك وبذل للحراس وسائر من يحفظ القلعة البذل الكثير وحكّموا فتم القبض على طاشتم والتقييد وحصلت القلعة بما فيها وظهرت نجابة أبي العلاء واجتهاده وحسن تلطفه وكان قيمة ما في القلعة على ما حررناه (وكنت فيمن أخرج إليها لنقل ما فيها مما يصلح الخزانة) ومع ما يباع وتبقية ما يبقى في القلعة نحو عشرين ألف ألف درهم.

قال صاحب هذا الكتاب: كان عضد الدولة أمرني أن أصير مع خواشاذه إلى هذه القلعة وأحضر إحصاء ما فيها ثم تسلَّم طاشتم مقيداً وأحمله على بغل بإكاف مجرداً لا وطاء عليه ومعه أصحابه الذين قيدوه وسلموا القلعة بالخلع والدواب والمراكب التي حملوا عليها وبين أيديهم البدَر والثياب التي حبوا بها ثم أطوف به تحت القلاع الممتنعة التي لم تفتح بعد لينظر من فيها إلى حال طاشتم فيحذروا مثلها ويروا أحوال الباقين فيطمعوا في مثلها ففعلت ذلك وتحملت رسائل إلى أصحاب تلك القلاع. وجرت أحوال يطول شرحها إلا أن جملتها أن القوم لما نظروا إلى هيئة طاشتم وأصحابه دخلهم الرعب من جانب وتجددت لهم الرغبة من جانب وكانوا قبل ذلك لا يصدقون الرسل بأن هذه القلعة التي كان فيها طاشتم فتحت فلما رأوه عياناً وخاطبوه عرفوا وهاء أمر أبي تغلب وقوة عضد الدولة وسلموا القلاع بعد مدة.

ورأيت أنا من طاشتم هذا في طريقي حصافة وإقبالاً على الصلوات ودعاء كثيراً (وقد كان أومن على روحه فقط) فسألني في الطريق المعونة وحسن المحضر عند عضد الدولة فلما عدنا إلى الموصل وفرغنا من استقراء القلاع على ما وصفت نُبتُ عن طاشتم هذا بحضرة عضد الدولة وعرّفتهُ سداده وأنه يصلح لخدمته فقال: هو كما تقول ولكن السياسة لا توجب اصطناعه. فقلتُ: وكيف؟ قال: لأنه مانعنا ثم تقرب به إلينا غيره فإن وقع إحسان إليه سوّينا بينه وبين من خدمنا بالقبض عليه فخبثت نيّات من يخدمنا في أعدائنا وظنوا أنا لا نميّز في الإحسان بين الولي والعدو وبين المجيب والممتنع ومع ذلك

فإن بين أيدينا قلاعاً ما فتحت بعد وإن بلغ أصحابها الممتنعين فيها إحساننا إلى هذا زالت الرهبة عن قلوبهم وطمعوا في مثل عاقبة هذا بعد حصولهم في أيدينا إن حصلوا وسلامتهم في مواضعهم إن سلموا. ثم قال: ولأن لي فيه رأياً وهو أن أنفذه إلى صاحبه أبي تغلب فإنه سيُموّه على صاحب مصر به وبقلعته ويدّعي أنها في يده وفيها ذخائره وثقاته وأن ماله في هذه القلاع يفي بمؤونته أن أمدَّ بالرجال ولا تزال مخاريقه مشتبهة وجائزة هناك إلى أن يطلع عليه هذا وتتقدمه الأخبار بما جرى عليه فحينئذٍ تبطل تمويهاته وتظهر فاقته وأنه طريد سيوفنا وإنما أفلت بحشاشته وليس وراءه عُدة ولا ذخيرة ولا قلعة. فلما سمعت هذا الجواب علمت أنه صواب في سياسة الوقت وأن معارضته فيه خطأ فأمسكت. وبلغ طاشتم ما عزم عليه من تسبيره إلى صاحبه مقيداً بحالته تلك فقلق جداً وراسلني يسألني المصير إلى محبسه فصرت إليه تذمماً فوجدتهُ كثير البكاء لا يستقرّ على الأرض قلقاً فقلتُ: ما شأنك؟ فقال: إن الملك كان آمنني على نفسي وأراهُ الآن قد بذلني لمن لا يبقى عليَّ. وأطال هذا المعنى وسألني معاودة عضد الدولة ومخاطبته في الأمان الذي معه فحملت نفسي على معاودته فلم يرجع عن رأيه الأول وقال: إنما آمنته على نفسه مني وألا أصيبه بمكروه وأنا له على ذلك ولستُ أضمن ألاّ يصيبه صاحبه بمكروه. وتبرأ مما يجري عليه من صاحبه وتقدم بالإسراع به. فلما بلغ أبا تغلب خبره من موضع يقرب منه تلقَّاه بمن قتله واللّه أعلم بصحة ذلك إلاّ أن موته شاع بعد زمان قليل.

ذكر ما دبره عضد الدولة من أمر هذه الممالك وعوده إلى بغداد

خلف أبا الوفاء بالموصل لتهذيب المعاملات وترتيب العمال في الأعمال وتقنين القوانين وتدوين الدواوين وعاد إلى مدينة السلام يوم السبت انسلاخ ذي القعدة سنة ٣٦٨. وخرج الطائع للّه في تلقيه مع جماعة الجيش والمقيمين وسائر الخوَّاص والعوام ودخل يوم الأحد لليلة خلت من ذي الحجة واجتاز في الجانب الغربي على تعبية من الجيش وبعد أن ضُربت له القباب متصلة منتظمة بين عسكره من باب حرب وبين الموضع الذي ينزله من آخر البلد وهو البستان المعروف بالنجمي وعبر في يوم الاثنين له إلى داره فاستقرَّ فيها.

ذكر ما أكرم به عضد الدولة من جهة الطائع للّه

خرج أمر الطائع للّه إلى خلفائه على الصلاة في جوامع مدينة السلام بأن يقيموا لعضد الدولة الدعوة تالية لإقامتها له على منابرها ونفذت به الكتب إليهم ورسم أن يضرب على بابه بالدبادب في أوقات الصلوات. وهذان الأمران من الأمور التي بلغها عضد الدولة واختص بها دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها.

ودخلت سنة تسع وستين وثلثمائة

وفي هذه السنة ورد الحضرة أخ لسقلاروس الرومي المعروف بوَرد وقد ذكرنا خبر هزيمته عن جيوش قسطنطينية وكان صار إلى ديار بكر وأنفذ أخاه هذا إلى عضد الدولة مستنصراً ومستنجداً وباذلاً من نفسه الطاعة والمعاهدة ولما كان الملكان الأخوان اللذان بقسطنطينية عرفا ما فعله أنفذا رسولاً وجيهاً إلى عضد الدولة لنقض ما شرع فيه ورد واجتمع هذان الرسولان على بساطه خاضعين يتنافسان فيه ويتزايدان في التقرب إليه ويستبقان إلى التماس الذمام منه ولم ينصرفا إلى أن انسلخت سنة تسع وذلك ما لم يكن مثله قط وهو من مآثر عضد الدولة.

وفيها توفي عمران بن شاهين صاحب البطيحة فجأة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم وكان ركب في غداة هذا اليوم للتنزه على عادة كانت له فلما عاد إلى داره تشكى دون ساعة وفاظت نفسه بعد أن نصبت له الأرصاد أربعين سنة وأنفقت على حروبه الحرائب وبعد أن أذل الجبابرة وأرباب الدول وطواهم أولاً أولاً وقدمهم أمامه على غصص يتجرعونها وذحول يتحملونها وهو ممنوع الحريم محصَّن الساحة محمي من غوائلهم ومكايدهم فلما أطرَقهُ اللّه لم يكن له مستقدم ولا مستأخر.

وفيها جرّد عضد الدولة جيشاً مع صاحبه وثقته أبي القاسم علي بن جعفر الواذاري وضم إليه أبا العلاء النصراني لطلب بني شيبان.

ذكر السبب في ذلك

كانت هذه القبيلة أعني بني شيبان مستعصين قد تعودوا النهب والغارة والتلصص وأعيت الحيلة في طلبهم وذاك أن لهم خيولاً جياداً يعولون عليها في الهرب إذا طلبوا فكانت سراياهم تبلغ في الليلة الواحدة ثلاثين فرسخاً وربما زادوا على ذلك فيمسون بموضع ويصبحون على هذه المسافة البعيدة وكذلك يصبحون في مكان ويمسون منه على مثل ذلك ولا يصح للسلطان خبرهم ولا يتأتى له طلبهم. وكان لهم رئيس يعرف وكانوا مع ذلك قد عقدوا بينهم وبين أكراد شهرزور المتغلبين عليها مصاهرات وأذمّة وشهرزور هذه لم تزل ممتنعة على السلطان لا يذعن أهلها لحصانة المدينة ولأنهم في أنفسهم عتاة ذوو باس وجلد. فأراد عضد الدولة أن يبدأ بشهرزور ليقطع بين أعراب بني شيبان وأكرادها فاتفق شخوص أبي القاسم الواذاري وهو عقيب علة طالت عليه ولحقته نكسة في طريقه فمات وورد خبره على عضد الدولة وكاتب أبا العلاء وأقامه مقامه وأمره باستكمال الخدمة فيما توخاه. ففعل ووفى وظهرت نجابته المعروفة منه ونهض نهوضاً كفى المهم به وشفى الصدور ولما وصل إلى شهرزور وعسكر على ظاهرها فتحت له

فدخلها في عدة يسيرة على موادعة لأهلها وقبول الطاعة منهم ولم يكن القصد الأول إليهم ولا المراد بلدهم. فهرب بنو شيبان في البر مصعدين إلى نواحي الزوابي على رسمهم في الأجفال إذا طلبوا.

ذكر ما دبره أبو العلاء من أمرهم حتى ظفر بهم

سار أبو العلاء إلى دقوقا وأقام بها أربعة أشهر وكسراً يعمل ضروباً من الحيل والمكايد والمكاتبات المتصلة بضروب من الاستمالة والرفق والاطماع حتى سكنوا إليه وأنسوا به ولم يعجل مع ذلك حتى قربوا بإحيائهم منه فأسرى حينئذٍ إليهم وأوقع بهم وقعة عظيمة أتت على نفوسهم وأموالهم وذراريهم وأعزتهم وغنم غنيمة عظيمة وقتل من مقاتلتهم خلقاً كثيراً وانصرف بمائتي رأس من رؤوس القتلى وثمانمائة رجل من الأسرى فيهم جماعة من وجوههم ورؤسائهم. فدخل بغداد يوم الخميس لثمان خلون من رجب وشهر هؤلاء الأسارى على الجمال بالبرانس الطوال والثياب الملونة لأربع عشرة ليلة خلت منه وأودعوا الحبوس والمطابق وتفرق أولئك الذين نجوا منهم في الأطراف البعيدة وطفئت جمرتهم وزالت عن أعمال بغداد والسواد مضرتهم.

وفيها قبض على أبي أحمد الموسوي نقيب الطالبيين وعلى أخيه أبي عبد اللَّه وعلى قاضي القضاة أبي محمد عبيد اللَّه بن أحمد بن معروف وأنفذوا إلى فارس وقلد قضاء القضاة أبو سعد بشر بن الحسين وهو شيخ كبير مقيم بفارس واستخلف له ببغداد أربع خلفاء على أرباع بغداد وهم أبو بكر محمد بن عبد اللَّه المعروف بابن صبر وكان خليفته على الجانب الشرقي من حد المخرَّم وإلى الطرف الأعلى منه وأبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الخرزي وصير خليفته على ما بقي من الجانب الشرقي من حدِّ المخرَّم إلى الطرف الأسفل وأبو محمد عبد اللَّه بن محمد المعروف بابن الأكفاني خليفته على مدينة أبي جعفر المنصور وما يتصل بها من الجانب الغربي إلى طرفه الأعلى وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد العماني خليفته على المدينة التي تعرف بالشرقية وهي على غربي دجلة إلى طرفه الأسفل وقسمت نواحي السواد على هذه الحصص بينهم.

ذكر شرح الحال في قتله وحرقه

كنا قد ذكرنا خبره في توجهه من الرحبة إلى دمشق وكان بلغه أن عضد الدولة كاتب سعد الدولة بن سيف الدولة وجميع البوادي هناك من بني كلاب وغيرهم بمعارضته في مسيره وأخذه وحمله إلى حضرته فاستوحش وعدل عن نهج الطريق وأوغل في البرية فنالته مشقة عظيمة ووصل إلى دمشق من ورائها فوجد فيها من أهمها رجلاً يقال له قسام قد تحصن بها وغلب عليها وخالف صاحب المغرب فلم يتمكن من دخولها فنزل في ظاهرها

وأنفذ كاتبه علي بن عمرو إلى مصر يستدعي من صاحب المغرب النجدة. ووقعت بين أصحابه وبين أصحاب قسام هذا ثورة فرحل إلى موضع يقال له نُوى وفارقه من ههنا ابن عمه أبو الغطريف مستأمناً إلى عضد الدولة وعيَّد عيد الفطر بنوى وورد عليه كتاب من كاتبه من مصر بأن صاحب المغرب تقبله ووعدهُ بكل ما أحبه وأنه التمس منه أن يسير إليه زائراً فامتنع أبو تغلب من ذلك وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما. فرحل عن نُوى إلى منزل يقال له كفر عاقب على بحيرة طبرية وفارقه من هناك أخوه أبو طاهر بن ناصر الدولة على اتفاق واستئذان مستأمناً إلى عضد الدولة. وكان صاحب المغرب أنفذ وجهاً من وجوه غلمانه يقال له الفضل إلى دمشق ليحتال على قسام ويفتتح البلاد فصار إلى طبرية وقرُب من أبي تغلب وتراسلا في الاجتماع فسار الفضل إليه وتلقَّاه أبو تغلب وتفاوضا في الموكب ووعده عن صاحب المغرب بكل ما أحب وبذل له أبو تغلب المسير معه إلى دمشق لفتحها. فكره ذلك للنفرة التي كانت جرت بينه وبين قسام لئلا يوحشه وكان يسلك في أمره اللطف والحيلة لا طريق الخوف والمقارعة فافترقا وعاد كل واحد منهما إلى موضعه ثم رحل الفضل إلى دمشق فلم يتمّ له ما قدره فيها. وكان بالرملة دغفل بن المفرّج بن الجرّاح الطائي وهو رجل بدوي استولى على هذه الناحية وأظهر طاعة صاحب المغرب من غير أن يتصرف على أحكامها واستفحل أمرهُ وكثرت البوادي معه فسار إلى إحياء عُقيل المقيمة بالشام ليواقعها ويخرجها عن تلك البلاد فلجأت إلى أبي تغلب وسألته نصرتها ومتَّت إليه بالرحم النزارية وكتب ابن الجراح إليه يسأله ألاّ يفعل ذلك ومتَّ إليه بالحلف الذي وقع قديماً في الجاهلية بين ربيعة واليمن فتوسط بين الجهتين على التكافّ إلى أن يرجع إلى صاحب المغرب ويمتثل ما يرد منه في الأمر الذي شجر بينهما. ورحل فنزل في جوار عقيل على أنه مانع لها المسير والابتداء بالشر فأوحش ذلك ابن الجرّاح والفضل صاحب صاحِب المغرب وخافاه وظناً أن اجتماعه مع بني عقيل لتدبير على أعمالهم فسار الفضل عن باب دمشق على طريق الساحل إلى الرملة. وضجر أبو تغلب من طول مقيل واتصال كُتب كاتبه إليه بالتسويف والتعليل فسار إلى الرملة مع إحياء عقلتي وذلك في المحرم سنة ٣٦٩ فهرب ابن الجراح والفضل من بين يديه . . . .[1] بعد وكتب الفضل يستنجد ويجمع إلى نفسه جيوش السواحل وولاته وجمع أيضاً ابن الجراح الرجال واحتشد فتوافت إليهما طوائف كثيرة واستأمن إلى أبي تغلب ممن كان معهما اسختكين التركي المغربي وغيره من الأتراك وقطعة من الرجال الإخشيدية والمغاربة وعطف إليه الفضل وابن الجراح فيمن جمعا فوقعت الوقعة على باب الرملة يوم الاثنين لليلة خلت من صفر سنة ٣٦٩ فلما عاينت عقيل كثرة الناس انهزمت فضعف أمر أبي تغلب وفارقه

(١) في الأصل كلمة غير واضحة.

اسختكين المغربي طالباً العراق ومستأمناً إلى عضد الدولة وعاد باقي المستأمنة من المضَريّين إلى الفضل وإلى ابن الجرّاح ولم يبق مع أبي تغلب إلا نحو سبعمائة رجل وهم غلمانه الحمدانية فانهزم وانهزموا ولحقهم الطلب فثنوا وجوههم يحامون عن نفوسهم بالمكافحة والمجالدة فضرب بعض الصعاليك أبا تغلب على رأسه وعرقب آخر فرسه فسقط إلى الأرض وبادر إليه ابن عم لابن الجراح يقال له مشيَّع الطائي وقتل بعض غلمانه وأسر أكثر أصحابه وحصل أبو تغلب في عشية تلك الليلة في يد ابن الجراح فبَكر مرتحلاً بإحيائه وعسكره وسيَّره بين يديه على ناقة وقد شدَّ رجليه بسلسلة إلى بطنها واعتقد أن يأتي عليه ولا يبقى فبلغ ذلك الفضل فبكر ليأخذه من يد ابن الجراح فألفاه قد سار فاتبعه فلما قرب خاف ابن الجراح أن يتسلمه منه ويصير به إلى مصر فيجري معه مجرى الفتكين في اصطناع صاحب المغرب له واستصحابه إياه وقد وترهُ بالحرب والأسر وأناخ الناقة وضربه بيده ضربتين بالسيف فسقط قتيلاً وأخذ رأسه وقطع بعض الشيوخ من العرب يديه ورجليه لأنه كان ضرب يد ابن له عند ممانعته عن نفسه فأطنَّها. ولحق الفضل وقد قضي الأمر فأخذ رأسه وأنفذه إلى مصر ثم صلب جثته ثم أحرقت. وقد كان خلف أختهُ جميلة وزوجته وهي بنت سيف الدولة في إحياء بني عقيل فلما قُتل حملوها مع سائر عياله إلى حلب فأخذ سعد الدولة أخته إليه وأنفذ جميلة إلى الرقة وحدرها منها إلى عانة وعدل بها من عانة إلى الموصل وسلمت إلى أبي الوفاء فكانت في يده إلى أن انحدر إلى بغداد فحدرها معه وحصلت معتقلة في الدار في بعض حجرها مع جواري عضد الدولة ونسائه.

ذكر تلافي بغداد بالعمارة بعد الخراب

وفي هذه السنة أمر عضد الدولة بعمارة منازل بغداد وأسواقها وكانت مختلة قد أحرق بعضها وخُرِب البعض فهي تل وابتدأ بالمساجد الجامعة وكانت أيضاً في نهاية الخراب فأنفق عليها مالاً عظيماً وهدم ما كان مستهدماً من بنيانها وأعادها على أحكام وشيدها وأعلاها وفرشها وكساها وتقدم بإدرار أرزاق قُوَّامها ومؤذنيها والأئمة والقرَّاء فيها وإقامة الجرايات لمن يأوي إليها من الغرباء والضعفاء وكان ذلك كله مهملاً لا يُفكر فيه. ثم أمر بعمارة ما خرب من مساجد الأرباض المختلة وأعاد وقوفها وعوَّل في هذه المصالح على عمَّال ثقات أشرف عليها نقيب العلويّين ثم الزم أرباب العقارات التي احترقت ودثرت في أيام الفتنة أن يعيدوها إلى أفضل أحوالها في العمارة وفي الحسن والزينة فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت ماله لِيُرتجع منه عند الميسرة ومن لم يوثق منه بذلك أو كان غائباً أقيم عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج إليه فعمرت بغداد وعادت كأحسن ما كانت.

ثم وقع التتبع على الدور والمساكن التي على جانبي دجلة فبنيت مسناتها وجددت

رواشنها بعد أن كان الخراب شاملاً لها وتقدم إلى من سميت له دار على الشط من كبار الأولياء والحاشية أن يجتهد في عمارتها وتحسينها. وكان السبب في خراب هذه الدور والقصور على الشط أن بختيار كان نقض دار أبي الفضل العباس بن الحسين الشيرازي التي كانت على الصراة ودجلة حين قبضها عنه ولم يكن لها نظير ببغداد في الاتساع والحسن وكان اتخذ فيها بستاناً نحو سبعة أجربة مملوءاً بالنخل والأشجار والرياحين والأنوار وطرائف الغروس الغريبة وأنشأ فيها المجالس البهية والمساكن الفسيحة فارتفع له من أثمان النقض جملة استكثرها واستطاب بعد ذلك بيع الأنقاض فهدم المنازل الجليلة التي لا يمكن أو يصعب إعادتها. فأمر عضد الدولة برفع سنة الإخراب وبيع الأنقاض وإعادة عمارة بستان عرصة دار العباس بن الحسين وكذلك عمارة البستان بالزاهر المتوسط الشرقي من بغداد ففعل ذلك فامتلأت هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار وجلبت إليها الغروس من فارس وسائر البلاد.

وكان ببغداد أنهار كثيرة مثل نهر العبارة ونهر مسجد الأنباريين ونهر البزّازين ونهر الدجاج ونهر القلايين ونهر طابق وميزابها إلى دجلة والصراة ونهر عيسى ونهر بناحية الحربية يأخذ من الدجيل وكان منها مرافق للناس لسقي البساتين ولشرب الشفة في الأطراف البعيدة من دجلة فاندفنت مجاريها وعفت رسومها ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة في المسافة الطويلة فأمر بحفر عمدانها ورواضعها وقد كانت على عمدانها الكبار المعروفة بنهر عيسى والصراة والخندق قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها وقل الفكر فيها فربما انقطعت بها السبل أصلاً وربما عمرتها الرعية عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم وعلى حسب الاقتصاد والترجية فلم تكن تخلو من أن تجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون فبنيت كلها جديدة وثيقة وعملت عملاً محكماً. وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه فاختيرت له السفن الكبار المتقنة وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة وحُصّن بالدرابزينات ووكل به الحفظة والحراس.

فأما مصالح السواد فإنها قلدت الأمناء ووقع الابتداء بذلك في السنة المتقدمة لهذه التي نحن في ذكرها فغلبت الزيادات وجمعت العدد من القصب والتراب وأصناف الآلات وأعيد كثير من قناطر أفواه الأنهار والمغايض والآجرّ والنورة والجصّ وطولب الرعية بالعمارة مطالبة رفيقة واحتيط عليهم بالتتبع والإشراف وبلغ في الحماية إلى أقصى حد ونهاية.

وأخر افتتاح الخراج إلى النيروز المعتضدي وكان يؤخذ سلفاً قبل إدراك الغلات

وأمضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت عنها الزيادات والتأويلات ووقف على مظالم المتظلمين وحملوا على التعديل ورفعت الجباية عن قوافل الحجيج وزال ما كان يجري عليهم من القبائح وضروب العسف وأقيمت لهم السواني في مناهل الطريق وأحفرت الآبار واستفيضت الينابع. وحملت إلى الكعبة الكسوة المستعملة الكثيرة وأطلقت الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة وأدِرَّت لهم الأقوات من البر والبحر وكذلك فعل بالمشهدين بالغري والحائر على ساكنهما السلام وبمقابر قريش فاشترك الناس في الزيارات والمصليات بعد عداوات كانت تنشأ بينهم إلى أن يتلاعنوا وتواثقوا وخرست الألسن التي كانت تجر الجرائر وتشب النوائر بما أظلها من السلطان القامع والتدبير الجامع. وبسطت رسوم للفقراء والفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحدثين والنسابين والشعراء والنحويين والعروضيين والأطباء والمنجمين والحساب والمهندسين وأفرد في دار عضد الدولة لأهل الخصوص والحكماء من الفلاسفة موضع يقرب من مجلسه وهو الحجرة التي يختص بها الحجاب فكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة وأقيمت لهم رسوم تصل إليهم وكرامات تتصل بهم فعاشت هذه العلوم وكانت مواتاً وتراجع أهلها وكانوا أشتاتاً ورغب الأحداث في التأدب والشيوخ في التأديب وانبعثت القرائح ونفقت أسواق الفضل وكانت كاسدة وأخرج من بيت المال أموال عظيمة صرفت في هذه الأبواب وفي غيرها من الصدقات على ذوي الحاجات من أهل الملة وتجاوزهم إلى أهل الذمة. وأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم.

وكنا بعرض الزيادة من هذه البركات إلى أن أتى أمر اللّه الذي لا يدفع وإنما شرحناها لينظر فيها من يأتي بعدنا ويقرؤها الملوك أو تقرأ بين أيديهم فيعملون بمثل ذلك ويسيرون بها لينتشر ذكرهم بالجميل ويطلع اللّه عزّ وجلّ على نياتهم فيمكّن لهم ويحسن معونتهم فلولا خلال كانت في عضد الدولة يسيرة لا استحسن ذكرها مع كثرة فضائله لبلغ من الدنيا مناه ورجوت له من الآخرة رضاه واللّه ينفعه بما قدمه من العمل الصالح ويغفر له ما وراء ذلك.

وفي هذه السنة شخص المطهر بن عبد اللّه عن مدينة السلام إلى أسافل واسط لطلب الحسن بن عمران فأقام على منازلته والتاث عليه أمره فقتل نفسه.

ذكر شرح الحال في قتل المطهر نفسه

لما توفي عمران بن شاهين وفرغ عضد الدولة من الأعداء الكبار وقتل بختيار وأبو تغلب وملك ديارهم ورجالهم وحصل بمدينة السلام وكانت نفسه تنازع إلى مصر خاصة وإلى ديار الكفر بعد ذلك من الروم وما والاها كره أن يجاوره النبط مستعصية

ويطاوله صغار أصحاب الأطراف ومن يلوذ بالقصب والغياض والآجام ولا يستأصله فعرَّض في مجلسه بذكر الحسن بن عمران والبطيحة وطلب من يكفيه هذا الخطب فانتدب له أبو الوفاء والمطهر وأظهر كل واحد منهما كفاية فيه. وتقرر الرأي على انفاذ المطهر فجرد معه عسكراً فيه أصناف من الرجال وأزاح علته في السلاح والأموال والعدد والآلات وضم إليه أبا الحسن محمد بن عمر العلوي الكوفي وكان في هذا الوقت بها فانقلب منها إلى واسط حتى اجتمع معه بها فخلع على المطهر وأكرم وسار يوم السبت للنصف من صفر واستخلف له عضد الدولة على الوزارة وتدبير الأعمال وجمع الأموال أبا الريان حمد بن محمد الأصبهاني وذلك لدربته لا لصناعته ولأنه عرف بطول الممارسة موارد الأمور ومصادرها وكان واسطة بين عضد الدولة ووزرائه وكان كالشريك لهم فيما ينفذونه ويمضونه من أوامره. فلما استقر المطهر بالبريوني من أعمال الجامدة شاور الناس ومحض الرأي فتقرر الأمر على تدبير فاسد قد كان جربه من درج قبله مراراً فلم ينتفع به وهو إيقاع السدود على أفواه الأنهار لتنشف البطيحة التي يلجأ إليها عسكر النبط وأنشأ مسناة يسلك عليها بالإقدام إلى نفس معاقلهم فأطلقت في ذلك أموال ضاعت وانقطعت المسالك في دجلة وبطل ارتفاع الكار ولزمت مؤن الحصار وإثبات الرجال وجاءت المدود فحملت على السدود. وتوصل الحسن بن عمران إلى بعض تلك السدود فبثقها فامتلأت البطائح بالمياه وكان المطهر إذا سدَّ جانباً انثلمت عليه جوانب وإذا حفظ وجهاً أتاه الخلل من وجوه واتفق مع ذلك إن جرت بينه وبين الحسن بن عمران وقعة في الماء فلم يتم له ما قدره من اصطلامه. وكان المطهر قد ألف فيما كان باشره من الحروب المناجزة واعتاد المفاصلة ولم يدفع إلى مصابرة قط ولا مطاولة فشق ذلك عليه وبلغ منه وكان يتهم أبا الحسن محمد بن عمر العلوي بمراسلة تجري بينه وبين صاحب البطيحة وهدايا وملاطفات في السر منه وأنه يطلعه على أسرار التدبير عليه ويهديه إلى مصالحه. وكانت أخلاق المطهر معروفة بالشراسة والخشنة وكانت أفكاره سيئة فأوجس في نفسه خيفة واستشعر وحشة وتوهم أن استصعاب ما استصعب عليه من هذا الأمر عائد عليه بانخفاض منزلة وانحطاط عن رتبة الوزارة وأن أبا الوفاء يجد مساغاً للطعن عليه وإظهار معايبه لما كان بينهما من العداوة والمنافسة في المرتبة واختار الموت على تسلط الأعداء عليه وتمكنهم منه. فلما كان يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شعبان جلس في مجلسه من عسكره ودخل إليه الكتاب والقواد وطبقات الناس مسلمين عليه فتقدم إليهم بالتخفيف والانصراف ونهض إلى خيمة كان يخلو فيها واستدعى طبيبه وأمره بأن يفصده وظن أنه إذا انصرف الطبيب حلّ شداد الفصد واستنزف دمه إلى أن يتلف وكان قريب العهد بإخراج الدم وشرب الأدوية المسهلة من

أجل علة نالته قبل حركته من الحضرة فأعلمه الطبيب أنه غير محتاج إلى الفصد فزجره وطرده ثم صرف من كان واقفاً بين يديه من غلمانه حتى خلا بنفسه وأخذ سكين دواته فقطع بها شرايين ذراعيه جميعاً وأدخلها إلى باطن ثيابه فخرج نفسه في مقاتله ودخل إليه فراش كان يختص به فرأس دستَهُ الذي كان جالساً فيه مملوءاً دماً فصاح وتوافى إليه الناس فأدركوه وبه رمق وظنوا أن إنساناً أوقع عليه ثم تكلم بما بان لهم أنه تولى ذلك من نفسه وحفظت عليه ألفاظ يسيرة منها أن محمد بن عمر العلوي حمله على ما ارتكبه من نفسه وكلمات يسيرة في هذا المعنى وغيره ومات من ساعته وحمل إلى بلده بكارزين من أعمال فارس فدفن هناك. وكانت هذه الحادثة من عجائب الزمان إذ فتك هذا الرجل بنفسه خوفاً من تغير صاحبه له ونسأل اللّه التوفيق والعصمة والستر الجميل برحمته.

وأنفذ عضد الدولة عبيد اللّه بن الفضل إلى معسكر المطهر لحفظ أسبابه وتقرير أمر صاحب البطيحة على أمر في العاجل من حمل مال وموادعة له إلى أن ينظر في أمره وكان ذلك عقيب عوده من الإيقاع ببني شيبان فانحدر ووفى بما أمر وحمل مالاً من قبل الحسن بن عمران وتسلم منه رهينة وانكفأ بجميع ذلك ودخل الحضرة يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة.

وفيها انفرد نصر بن هارون بالوزارة لأن أصل الوزارة كانت له ثم شورك بينه وبين المطهر فلما مضى المطهر لسبيله وتفرد نصر بن هارون بوزارته وكان مقيماً بفارس يدبر أعمالها استخلف له عضد الدولة أبا الريان حمد بن محمد.

وفيها ورد رسول لصاحب المغرب برسائل أدّاها وكان دخوله في شعبان وانصرافه في ذي القعدة ورد معه القاضي أبو محمد العماني لتأدية الجواب.

وفيها توفي حسنويه بن الحسين في قلعته المعروفة بسرماج.

وفيها قبض على محمد بن عمر العلوي بالبطيحة وأنفذ إلى فارس وكان السبب فيه ما حفظ من كلام المطهر قبل وفاته فيه وأنفذ أبو الوفاء طاهر بن محمد إلى الكوفة لقبض أمواله وأملاكه فوصل إلى شيء عظيم يستكثر من المال والسلاح وضروب الذخائر التي لا يظن بمثلة أنه يجمعها ودخلت اليد في ضياعه وكانت كثيرة تشتمل على جل سقي الفرات بل قد تجاوزت ذلك إلى غيره من أعمال السواد واصطنع أخوه أبو الفتح أحمد بن عمر وقلد الحج بالناس وأقطع إقطاعاً سنياً.

وفي هذه السنة أخذ عبد العزيز بن محمد المعروف بالكراعي أسيراً وشهر بالبصرة وبمدينة السلام ثم قتل وصلب إلى جانب صاحبه.

شرح الحال في الحيلة التي تمت عليه حتى أسر وقُتل

كان هذا الرجل وضيعاً ساقطاً طبقته عن كل رتبة واستخدم في وقت في تفرقة قضيم الكراع ولذلك عرف بالكراعي ثم وصل بمحمد بن بقية وجمعتهما عاهة النقص ومناسبة السقوط فارتفع معه حتى قلده خلافته بالبصرة وجعله مستوفياً على العمال فأثرى وتموَّل وكان منه في أيام عصيان ابن بقية بواسط سوء أدب كثير وذكر الملوك بما لا يليق بالملوك بعضهم في بعض. ثم تنكَّر له ابن بقية فقبض عليه ونكبه فلما قبض بختيار على ابن بقية استخدمه ولما عزم بختيار على الهرب منهزماً هرب منه وصار إلى البطائح وكان هناك يجري على سوء عادته في سوء الأدب. فدبر عضد الدولة تدبيراً ثم شطَّره عليه ولو قبل جميعه لتم أيضاً على صاحب البطيحة ما يُستغنى معه عن محاربة ومكافحة وذلك أنه ووقف جماعة من أهل البصرة ووجوهها أن يخدموا عضد الدولة في مكاتبة يُوقِعونها إلى هذا الكراعي ويوهمونه أنهم يوالونهُ ويضافرونهُ فإذا قربوا منه أثاروا الفتنة بمواطأة من سلطان البصرة ثم سلموا إليه البصرة حتى إذا اغترَّ استدعى الحسن بن عمران ليتقوَّى به فإذا صار في دجلة حيل بينه وبين الرجوع إلى البطيحة وحاشته الكمناء من أعلى وأسفل. وأخذ فبلغ به الجهل أن صدق بهذا الوعد وعجل فخرج وأخرج معه الحسن بن عمران وسائر عسكره وقال: لي بالبصرة أولياء وإخوان قد كاتبوني والبصرة في أيدينا. فاغترّ به الحسن بن عمران وخرج مع عسكره فلما صاروا بمطارا ثار بهم من كان فيها من الرجال وقاتلوهم. وأخطأوا لأن تمام التدبير كان في أن يتركوهم حتى يُوغلوا إلى البصرة فأقام القوم يقاتلونهم ثم ظفر بالكراعي وانهزم الحسن بن عمران بعد أن مُلكت عليه قطعة وافرة من سفنه ورجاله. وحمل الكراعى إلى البصرة فشُهر وعوقب وطولب بالمال ثم أنفذ إلى بغداد فشهر منصوباً على نقنق في سفينة وعلى رأسه برنس وذلك يوم الخميس لعشر ليال بقين من شعبان فلما كان يوم الجمعة لليلتين خلتا من ذي الحجة طُرح إلى الفيلة فخبطته وصلب إلى جانب ابن بقية.

وفي هذه السنة نفذ عسكر إلى عين التمر في طلب ضبة بن محمد الأسدي (وقد مرَّ ذكرُه وأنه ممن يسلك سبيل الدعار ويسفك الدماء ويُخيف السبل وينهب القرى ويبيح الأموال والفروج) وانتهك حرمة المشهد بالحائر فلما أظل عليه العسكر المجرَّد هرب بحشاشته إلى البادية وأسلم أهله وحرمهُ فحصل أكثرهم في الأسر ومُلكت عين التمر.

وفيها دبَّر عضد الدولة أن يقع بينه وبين الطائع للّه وصلة بابنته الكبرى ففعل ذلك وعقد العقد بحضرة الطائع للّه وبمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق مائة ألف دينار وبنى الأمر فيه على أن يرزق ولداً ذكراً منها فيولّي العهد وتصير الخلافة في بيت

بني بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية.

وفي هذه السنة سار عضد الدولة إلى الجبل وأعمالها ودوَّخ همذان والدينور ونهاوند لافتتاح قلاع حسنويه بن الحسين الكردي وتدبير فخر الدولة في قصده ومقابلته على ما كان منه في مكاشفته والاجتهاد في تشتيت شمل الدولة وتفريق الكلمة ومعاضدة بختيار وابن بقية وقد كان أظهر مباينة مؤيد الدولة وكاتب قابوس بن وشمكير.

ولما هلك حسنويه بن الحسين أمَّل عضد الدولة أن يكون الشيطان الذي نزغ بينه وبين إخوته قد زال وأنفذ أبا نصر خرشيد بزديار الخازن برسائل إلى مؤيد الدولة وإلى فخر الدولة وإلى قابوس بن وشمكير أما إلى مؤيد الدولة فبإحماده على طاعته التي ما غيَّرها ولا كدَّرها وأما إلى فخر الدولة فبالمعاتبة والمداراة والزيادة في الأخذ بالحجة وأما إلى قابوس بن وشمكير فبالمشورة عليه بحفظ الذمة التي تعلق بها وحفظ نعمته وترك التعرُّض لما يُورطه ويُهلكه. فأما مؤيد الدولة فإنه أجاب جواباً سديداً وأنه واقف على حدود طاعته وتابع له في رضاه وغضبه. وأما فخر الدولة فأجابه جواب النظير الذي لا يرى لرتبة الملك مزيَّة ولا لِكبر السن وعهد الأب فضيلة ولا في المعاودة إلى جميل الطاعة نيَّة. وأما قابوس فأجاب جواب المتهيِّب المحجم المراقب.

وافترق أولاد حسنويه فرقاً واختلفت بهم المذاهب وهم أبو العلاء وعبد الرزاق وأبو النجم بدر وعاصم وأبو عدنان وبختيار وعبد الملك فطائفة منهم انحازت إلى فخر الدولة مُظهرة لمشاقّة عضد الدولة وطائفة وردت. حضرته فأما بختيار من بينهم فإنه نافر إخوته وكان مقيماً في قلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر فابتدأ بمكاتبة عضد الدولة وبذل تسليم ذلك إليه وذكر رغبته في الاعتصام به والدخول في كنفه ثم تلوَّن ولم يف، فتشوَّف عضد الدولة للمسير إلى الجبل وتهذيب أعمالها فابتدأ فقدَّم عساكره يتلو بعضها بعضاً فجرد أبا الفتح المظفَّر بن محمد الحاجب وأبا نصر خواشاذه وأبا الوفاء طاهر بن محمد وبرز عن داره إلى المعسكر بالمصلى من الجانب الشرقي بعد أن أقرّ أبا الريان بالحضرة على جملته من خلافة الوزارة ولكن زاد في منزلته وناط به جميع أمور المملكة وطال مقامه بالمعسكر الذي برز إليه إلى أن أوغلت تلك الجيوش السائرة على مقدمته. وقد كان أبو نصر خواشاذه وطأ الأمور عند خروجه لتأدية الرسائل فواقف القواد والوجوه أن يخدموا عضد الدولة بنياتهم فإذا سار استأمنوا إليه وضمن لهم الإقطاعات السنية وحمل إلى بعضهم الهدايا والألطاف في السر فلما سار تلقته في طريقه البشائر بدخول جيشه همذان واستئمان العدد الكثير من قوّاد فخر الدولة ورجال حسنويه وتلقيهم رايته منحازين إليها وتلقاه أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه وزير فخر الدولة ومعه جماهير حاشيته وبقية قواده وغلمانه فانحل أمر فخر الدولة واحتاج إلى مفارقة

موضعه واللحاق ببلد الديلم فمضى ونزل داراً كان بناها معز الدولة بهوسم ولجأ إلى الداعي العلوي المستولي على ذلك الصقع وعرّج عضد الدولة إلى نهاوند وافتتح قلعة سرماج واحتوى على ما فيها وملك غيرها من قلاع تلك البلاد وألقت إليه الحصون مقاليدها وأخرجت الأرض أثقالها.

ولحقته في هذه السفرة علة عاودته مراراً وكانت شبيهاً بالصرع وتبعه مرض في الدماغ يعرف بليترغس وهو النسيان إلا أنه أخفى ذلك.

ويقال إن مبدأ ذلك به كان بالموصل إلا أنه لم يظهر أمره لأحد.

وهذا آخر ما عمله الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد
ابن يعقوب مسكويه رضي اللّه عنه

والحمد للّه وصلواته على محمد النبي وآله أجمعين وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.
فرغ من انتساخه محمد بن علي بن محمد أبو طاهر البلخي في منتصف شهر ربيع الأول سنة ست وخمسمائة.

نقله وقابله علي بن حنظلة سنة عشرين وخمسمائة.

فرغ من نقله الحسن بن منصور في مستهل المحرم سنة ثمان وثلاثين حامداً للّه ومصلياً على نبيه.

فرغ ابنه محمد بن الحسن في ربيع الأول سنة اثنين وخمسين وخمسمائة.

تم الجزء الخامس، ويليه الجزء السادس
وهو ذيل تجارب الأمم للوزير أبي شجاع

فهرس المحتويات

ذيل

تجارب الأمم

للوزير أبي شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله
الملقب بظهير الدين الروذراوري
المتوفى سنة ٤٨٨ هـ

ويليه

الجزء الثامن

من

تاريخ الصابي

أبي الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم
المتوفى سنة ٤٤٨ هـ

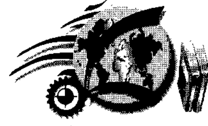
ألحقناه بذيل الوزير أبي شجاع لكونه تكملة

الجزء السادس

يحتوي على بعض حوادث سنة ٣٦٩ هـ زمن خلافة الطائع لله العباسي
حتى سنة ٣٨٩ هـ من خلافة القادر بالله العباسي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban



ISBN 2-7451-3414-0
9782745134141 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف عن تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي

قال صاحب تاريخ الإسلام في ترجمة سة ٤٨٨: محمد بن الحسين بن عبد اللّه بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري وزر للمقتدي باللّه بعد عزل عميد الدولة منصور بن جهير سنة ٧٦ وصرف سنة ٨٤ وأعيد ابن جهير ولما عزل قال:

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق

ثم إنه حج وجاور بالمدينة إلى أن مات بها كهلاً وكان ديناً عالماً من محاسن الوزراء قال العماد الكاتب: لم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين والشرع مثله وكان عصره أحسن العصور رحمه الله. وقال صاحب المرآة: ولما ولي وزارة المقتدي كان سليماً من الطمع في المال لأنه كان يملك حينئذ ستمائة ألف دينار فأنفقها في الخيرات والصدقات قال أبو جعفر الخرقي: كنت أنا واحداً من عشرة نتولى إخراج صدقاته فحسبت ما خرج على يدي فكان مائة ألف دينار وكان يبيع الخطوط الحسنة ويتصدق بها ويقول: أنا أحبّ الأشياء إليّ الدينار والخط الحسن فأنا أتصدق بمحبوبي للّه. وجاءته قصة بأن امرأة وأربعة أيتام عرايا فبعث من يكسوهم وقال: واللّه لا ألبس ثيابي حتى ترجع. وتعرى فعاد الغلام وهو يرعد من البرد. وكان قد تركك الاحتجاب ويكلم المرأة والصبي ويحضر مجالسة الفقهاء والعوام لا يمنع أحداً. وأسقطت المكوس في أيامه وألبس الذمة الغيار ومحاسنه كثيرة وصدقاته غزيرة وتواضعه أمر عجيب فرحمه اللّه تعالى.

ووردت ترجمة أبي شجاع الروذراوري في وفيات الأعيان لابن خلكان ٢: ٩١ وفيها أنه عمل ذيلاً على كتاب تجارب الأمم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

مقدمة المؤلف

أما بعد حمد اللّه سبحانه والثناء عليه أهل الحمد والثناء. المفرد بالوحدانية والبقاء الذي لا يحيط به مكان. ولا يغيره زمان. لا إله إلا هو مبدع المكان وموجده. ومحدث الزمان ومنفذه. خالق الخلق أطواراً. وجاعل الظلمة والضياء ليلاً ونهاراً. كتب على الخلائق تقلب الأحوال لأنه لا يحول. وقضى على الأزمنة لحكم الزوال لأنه لا يزول. والصلاة على رسوله محمد الذي بعثه بالرسالة. وهدى به من الضلالة. وأنقذ بمعرفته من الجهالة. ودل على نبوته بأفضل الدلالة. واختاره من أشرف البلاد وطناً وداراً. واصطفاه من أكرم العباد حسباً ونجاراً. حيث المشعر الحرام والمعشر الكرام. وجعله آخر الأنبياء بعثاً في الدنيا إلى العباد. وأولهم بعثاً إلى المعاد. وجعلنا أمته الذين جعلهم أمة وسطاً. وأبان لهم من الإسلام نهجاً جدداً. ووفقهم في الدين فتحروا رشداً. فقولهم سديد. وفعلهم رشيد. وهم شهداء على الناس والرسول عليهم شهيد. وعلى آله الذين سبقوا إلى مصاحبته وسعدوا بمرافقته. وشرفوا بمتابعته في هجرته. وكرموا بإيوائه ونصرته. فهم معالم الهدى. ومصابيح الدجا. كدراري النجوم تهدي الساري بنورها. وتفي الغاوي من فتنة الدنيا وغرورها.

والدعاء لخليفته الإمام المقتدي بأمر اللّه أمير المؤمنين صاحب العصر المؤيد بالنصر المختار من شجرة طيبة الشرف والعلاء. أصلها ثابت وفرعها في السماء. شربت من ماء النبوة الطاهرة عيدانها. وتفرعت بالخلافة الظاهرة أفنانها. كما قال جده العباس لبعض أصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين: كان رسول اللّه ﷺ دوحة نحن أغصانها. وأنتم جيرانها. وهو المنصب العظيم. من المحتد الصميم. والبيت الكريم. الذي أول درجاته النبوة والكرامة. وثانيهما الخلافة والإمامة. ولا ثالث لها بعد ذلك إلى القيامة توارثها إمام عن إمام. وقام بها أمير المؤمنين المقتدى بأمر اللّه خير قيام.

إن الذي رفع السماء بنى لهم ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

شدّ اللّه عضده بذخر الدين. وولى عهده في المسلمين. وبإخوته الغر الميامين.

وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين. وأيد دولته بجلالها الذاب عن حماها. المناضل عن علاها. جمال الملة مغيث الأمة معز الدنيا والدين يمين أمير المؤمنين الملك العادل المحبب إلى القلوب. والركن الشديد المعد لدفع الخطوب. ودبر ملكه بنظامه المبارك في أيامه. قوام الدين رضى أمير المؤمنين الوزير الظهير. الموفق بحسن التدبير.

وبعد أداء الفروض المقدمة الواجبة. والسنن المؤكدة الراتبة. وقضاء حقوقها المستثبتة الأزلية وسلوك طرقها المستقيمة اللاحبة. فإن أولى ما صنفه المفيد. وعنى بقراءته المستفيد. جمع أخبار الأمم الخالية. وحفظ تواريخ الأزمان الماضية. لأنها أوفى المصنفات فائدة وأكثرها عائدة. وأحسنها أثراً. وأطيبها ثمراً. إذ كان أنفع العلوم ما أدت مقاصده إلى التوحيد. ووقفت موارده على تثبيت قدرة الخالق في نفوس العبيد. وفي تدبر اختلاف الليل والنهار. وتأمل مجاري الأقدار وتقلب الأدوار. في توالي الأمم وتعاقبها. وتداول الدول وتناوبها. قال اللّه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. أكبر دليل على وحدانية من ينبتهم ثم يحصدهم ويشقيهم ويسعدهم. وينشئهم ويبيدهم. ويعيدهم. ويحييهم ويميتهم وهو على جمعهم إذا يشاء قدير. تبارك اسمه وجل ثناؤه. وعظمت قدرته وكثرت آلاؤه. مرجع الخلق والأمر إليه وبيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه له الحمد كله وبتوفيقه يتضح في الرشاد سبله فلا عبادة إذاً أرقى من التوحيد فموقعه من العبادات موقع الرأس من الجسد به اعتداله وبقاؤه. ومحله من الاعتقادات محل الروح من الجسم بها حياته ونماؤه. ولو لم يكن علم القصص عظيماً لما من اللّه تعالى به على نبيه عليه السلام فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣] وقال سبحانه: ﴿طسٓمٓ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ١ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩]، ولو لم يكن في ذلك إلا ما ينتفع به المعتبر من قلة الثقة بالدنيا الفانية. وكثرة الرغبة في الآخرة الباقية. لكفى ما تنتجه هذه البصيرة من جميل الأفعال. وتحث عليه هذه النتيجة من صالح الأعمال. فكيف وأولى ما يعتمده أولو الأمر وأصحاب الزمان. ومن بأيديهم مقاليد الملك والسلطان. وأوجب ما يتشاغل به من إليهم أزمة الأمور. وعليهم سياسة الجمهور. إدمان النظر في كتب التواريخ وإحسان التتبع للأخبار. والآثار والتفكر في حال من مضى من الأخيار والأشرار. ليعلموا ما بقي للمحسن من الصيت الحميد الذي صار له حياة مخلدة وبالأجر الذي اكتسبه. وللمسيء من الذكر القبيح الذي جعل صحيفته مسودة بالوزر الذي احتقبه. ويتصفحوا حال الحازم في حزمه وعقله. والمضيع في

تفريطه وجهله. فيسلكوا من الطرائق أوضحها وأمثلها. ويتقبلوا من الخلائق أشرفها وأفضلها. ويردوا من المشارب أصفاها وأعذبها. ويرعوا من المراتع امرأها وأخصبها. ويأخذوا من الأمور بأحزمها. ومن التجارب بأحكمها. فمهما يكن من حسنة اقتبسوا منها. ومهما يكن من سيئة ارتدعوا عنها. فالسعيد من انتفع بالأدب فيما دأب غيره فيه من التجارب. والرابح من حظي بالراحة فيما تعب به سواه من المطالب. لأن العقل غزيرة في الإنسان. والتجارب مكتسبة في الزمان. والرأي لقاح العقل والتجربة نتاجه. والخير مقصد الحجي والاجتهاد منهاجه. ومن أين للإنسان من العمر الطويل. ما يحصل فيه على تجربة الدقيق والجليل. وقيل: العمر قصير والعلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه.

فإذا تأمل المرء سيرة الماضين من الأقوام. جنى مع تقارب الشهور والأيام. ثمرة ما غرسوه على تطاول الدهور والأعوام. وعلم علل الأحوال وفوائدها. وحيل الرجال ومكايدها. وعرف مبادئ الأمور ومصائرها. وقاس عليها أشباهها ونظائرها. وعمل بأنفع ما حبي به من الفهم والعلم. وانتفع بأصوب ما عمل به في الحرب والسلم. وأقدم على المواطن التي يرتجي في أمثالها الظفر. وأحجم عن الأماكن التي يتوقى في أشكالها الحذر. وتسلى بمن تدرع الجلد عند حدوث النوائب. وتأسى بمن توقع الفرج حين ظهور العجائب. وذكر مصير العاقبة إذ أرخت يد الغفلة عنان أشره. ونظر بالبصيرة الثاقبة إذ غطى غرور الدنيا على بصره.

فهذان القسمان يجمعان الدين والدنيا. ويبلغان بصاحبهما الدرجة العليا. فأما ما في ذلك من حسن المفاوضة والمذاكرة. وأنس المحادثة والمسامرة. فقد خففت القول فيه لأنه يصغر في جنب ما قدمت ذكره من القسمين العظيمين. والأمرين الجسيمين. كما قال النبي ﷺ: **«كل الصيد في جوف الفراء»**.

وإنني تأملت كتاب تجارب الأمم. وعواقب الهمم. الذي صنفه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه) فوجدت فوائده غزيرة. ومنافعه كثيرة. وعلمه جماً. وبحره خضماً. فراقني تأليفه. وأعجبني تصنيفه. فرحم اللّه مصنفه وأجزل في الآخرة أجره. كما طيب في الدنيا ذكره. فلقد اختار فأحسن الاختيار. ومخض فأنى يزيد الأخبار. وسلك سبيلاً وسطاً بين التطويل والاختصار. ثم لم يقنع بذلك حتى قرب مسالك الطرق البعيدة. وبرز من أثناء الاختيار ذكر الآراء السديدة. ونبه فيها على مقامات حميدة. وبين ما جرى في كل وقت من خدعة ومكيدة. لئلا يبعد من يد المتناول قطف الثمرة اليانعة. ولا يطول على فكر المتأمل وجود الزبدة النافعة. وأحر به ذلك فإن فضله وإن لم يدرك زمانه باقي النفع بادي الأثر. والروض ينبئ عن فضيلة

الغيث وإن ولى أوان المطر. فدعاني وقوف همتي عليه إلى اقتفاء أثره. وسلوك ما سنه في ورده وصدره. ووصل مسلك الذي بنا بنظامه. ونيابة عنه في تشييد ما بناه بعد انقضاء أيامه. وسنة لمن بعدنا يستمر الآتي منها على سيرة الغابر. ويتصل بحبل الأول فيها حبل الآخر. لا تعاطياً منا للمساجلة. ولا تمادياً في المماثلة. لا مجاراة في المضمار. ولا مساواة في الاختيار. ولا ما قاله زهير:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا

فهيهات كيف الطمع في اللحاق. وقد شأى المتقدم في السباق. لا سيما وطرف الفصاحة تحت كاب. وحد البلاغة في يدي ناب. فأين المصلى. من المجلى. وأين الكهام. من الحسام. وأين السنبح من المعلى. وأين العاطل من المحلى. أريها السها وتريني القمر ولكني أقول ما قاله في البيت الثاني.

أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

هذا لعمري أقرب إلى الصواب. وأليق بهذا الباب. فأحسنت القياس وسلمت قصبة السباق وأعطيت القوس باريها. وأنشدت الضالة باغيها.

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة إذاً لشفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فكان الفضل للمتقدم

ثم إن للتصنيف رجالاً عنوا بأمره وعاموا في بحره. وأنسوا بجمع شارده. وتفردوا بنظم فرائده. وصاروا بصدده واستولوا على أمده. فهم لقسيه براة. وإلى غرضه رماة. وفي طرقه هداة. وقد ربيت في غير هذا الوكر. وسقيت من غير هذا الدر. وتحليت بغير هذه الصناعة فإن قصرت عن بلوغ معانيه. فاحذوا العذر في العجز وإن وقع سهمي دون مراميه. فاعذر فالنزع في القوس لين فلمن سبقنا فضيلة الجمع والاستكثار. ولنا من بعدهم وسيلة الاختيار والاختصار. وكل مجتهد مصيب. وله من حسن الذكر نصيب.

فسلمت إلى من تقدمنا الفضل في زمانهم لمحاسن تلك العلوم المشهورة ولو أنهم أدركوا زماننا لسلموا الفضل إلينا بمحاسن هذه الدولة المنصورة. دولة الإمام المقتدي بأمر اللّه أمير المؤمنين ذي الكرم والفخار. والحلم والوقار. والأخلاق الطاهرة. والأفعال الباهرة. والكرامات العجيبة في المنشأ والمولد. والدلالات الصحيحة في المغيب والمشهد. به أنقذ اللّه الرجاء من أسر اليأس وألقى عليه محبة قلوب من الناس. بعد أن فجعوا بذخيرة الدين (وليس للقائم رضوان اللّه عليهما عقيب سواه. ولا للبيت أحد يصلح للعهد فيولاه) فتقطعت النفوس حسرات. وترجعت الأنفاس زفرات. وبكت الملة واستولت الوحشة والغمة فأتى الحمل الميمون به لتمام. وبدا وجهه المنير فجلا كل ظلام. وسارت «البشرى» بذكره في سائر الآفاق. وزهت أعواد المنابر باسمه

حتى كادت تعود للإيراق. ثم كلاه في الفتنة الحادثة أحسن كلاءة بين أعاديه. وألحفه جناحاً من الحياطة ستره بين قوادمه وخوافيه. فكانت قصته كقصة موسى عليه السلام حين ألقي صغيراً في اليم. ونجا كبيراً من الغم. وأعاد القائم بأمر اللّٰه رضوان اللّٰه عليه إلى مقر سلطانه. وفسح في مدته وبارك في زمانه. لإتمامه عهده. وإنجاز وعده حتى يسلم الأمر منه على حين السن المستحقة لتسلم أسبابه. وتقمص جلبابه. فكان ذخيرة الدين خلفاً لنجله. وكان القائم بأمر اللّٰه عاد في تلك النوبة لأجله. فاستحق بنفسه وارثه شرف الخلافة العظيمة. وحوى في شرخ الشبيبة جميع محاسن الأخلاق الكريمة وارتقى من المجد ما لا تبلغ الأوهام ذروته. واجتنى من الحلم ما لا تحل الأيام حبوته. وساس الأمور بهمة علية. وسيرة رضية. وخلافة جاءت كالنصر من السماء. ولم يكن مثل ذلك لأمثاله من الخلفاء وكأنما عناه أبو العتاهية بقوله:

أتـتـه الـخـلافـة مـنـقـادة ... إلـيـه تـجـرر أذيـالـهـا
فـلـم تـك تـصـلـح إلا لـه ... ولـم يـك يـصـلـح إلا لـهـا
ولـو رامـهـا أحـد غـيـره ... لـزلـزلـت الأرض زلـزالـهـا

فما خلا متقلد للخلافة في عصر ممن ينازع في ردائها ويجاذب على عنانها. ويترشح لمحلها ويتطاول لمكانها. إلى أن يستقر الرأي في قراره. ويجتمع الأمر من أقطاره. إلا إمام عصرنا المقتدي بأمر اللّٰه أمير المؤمنين فإنه تفرد في عصره بهذا الاستحقاق. واجتمعت الكلمة عليه لوقتها بالاصطلاح والاتفاق. فلم يخطر منازعته بخلد ولا بال. ولو كان الزمان ذا لسان لقال: «هذا صاحبي بلا مراء ولا جدال» لا جرم أن سعادته مخصوصة بأوفى كمال. محروسة بإذن اللّٰه تعالى عن نقصان وزوال. ودولته محوطة بأكرم ظهير وموال.

وأنى يكون للدول الأولى مثل جلال الدولة بن عضد الدولة الهمام ابن الهمام الملك عضد الدولة المعظم من الأخوال والأعمام. الحامي حوزة الإسلام. الملبي لدعوة الإمام. الذي كرم طرفاه. وعظم شرفاه. ودانت لصولته الأمم. وانكشفت بدولته الظلم. وجرت بنصرته الأقدار. وانفتحت على يديه الفتوح الكبار. أطول الملوك باعاً. وأحسنهم في الدنيا ذباً ودفاعاً. فهو تاج على جبين الأيام الزاهرة المقتدية يزيد في أنوارها. وركن الدولة القاهرة العباسية يدفع عن أقطارها. زاد على أنوشروان بفضله وبمعدلته. وأوفى على بهرام ببأسه ونجدته. وفضل أردشير بتدبيره وسياسته. وساوى الإسكندر بملكه وبسطته. فالشرق والمغرب مذعنان لطاعته. والبدو والحاضر منقادان لتباعته. كل ذلك ببركات مخالصته لإمامه. وحسن نيته في محبة أيامه.

وأين كان لتدبير الأقاليم وزم أمورها. وحفظ الممالك وصد ثغورها. مثل نظام

الملك قوام الدين الذي أعد للخطوب أقرانها. حين عجم بالتجربة عيدانها. وجمع رياسة السيف والقلم. لما كفل بسياسة العرب والعجم. بنقيبة في الدولة ميمونة. وسريرة في النصيحة مأمونة. وحزم لا يشان بهفوة. وعزم لا يخان بنبوة. وخلق لا تجد فيه عنفاً ورأي لا ترى فيه ضعفاً. وهيبة مع طلعة بشر. وتواضع مع رفعة قدر. فإذا قيل له اتق اللّه سمع وأطاع. وإذا خوف باللّه خاف وارتاع. فأفعاله أفعال العباد. وأخلاقه أخلاق الزهاد. مع انقياد الدنيا. له في الإصدار والإيراد. ونفاذ أمره على الرعايا والأجناد. وجمعه في منهل العدل بين الظباء والآساد.

فأي دولة تباهي هذه الدولة القاهرة في مناقبها ومآثرها. وأي أيام تضاهي هذه الأيام الزاهرة في محاسنها ومفاخرها. وأي قول ينتهي إلى حد وصفها وإن امتد وطال. وأي بليغ يبلغ أمد فضلها وإن أسهب وقال.

فأعود الآن إلى ذكر ما أنا قاصده من الاختيار. متبرئاً من عهدة ما أورده من الأخبار. لأني أتبع في كتاب التاريخ مسطورها. فأختار بحسب المعرفة عقودها وميسورها. وما عساه يندر من خبر شاذ تلقف من أفواه الرجال. وخلا التاريخ من ذكره إما بخفاه أو نسيان أو إغفال. فإنه يثبت في بواطنه. وينظم مع قرائنه. وإذا انتهيت إن شاء اللّه سبحانه إلى أخبار زماننا اتسع المجال. وأمكن المقال. وعمدت حينئذ إلى ما شاهدناه وخبرناه فأخبرت به على وجهه وذكرته مجتهداً في التحري وبحسب الإمكان الذي لا أقدر على سواه. وبقدر الوسع الذي لا يكلف اللّه نفساً إلا إيّاه.

وأول ما أبدأ به الآن في كتابي هو آخر ما ختم أبو علي مسكويه رحمه اللّه به كتابه في سنة ٣٦٩ واللّه تعالى ولي حسن التوفيق. والهادي في جميع المقاصد إلى سواء الطريق. وبه أعوذ من الخطل. وأعتصم من الزلل. وإياه أسأل خاتمة جميلة. بالمغفرة كفيلة. إنه غفور رحيم.

انتهت المقدمة

ذكر ما جرى عليه أمر عضد الدولة عند توجهه إلى الجبل

رحل بالعسكر من المصلى في يوم السبت لثلاث خلون من ذي الحجة وقد استصحب أبا عبد الله الحسين بن سعدان ينفذ الأمور بين يدي عضد الدولة وإليه عرض العسكر. فلما حصل بين حلوان وقرميسين عاده المرض الذي كان عرض له من قبل وحجب الناس عنه حجاباً وقع به الإرجاف والاضطراب ثم أفاق وظهر وركب إلى قرميسين. ووافاه بنو حسنويه وقد كانوا راسلوا وبذلوا الطاعة بوساطة أبي نصر خواشاذه إلا أنه لم يقدر أنهم يأنسون إلى الحضور بأجمعهم.

ذكر القبض على بعض أولاد حسنويه واصطناع بعضهم

حضروا المعسكر فأقعدوا في خركاه من وراء السرادق ووكل بهم خواص الديلم وغلمان الخيول ورتب الأعراب والأكراد والرجالة (و) الفرس من حوالي المعسكر وبظاهر البلد لئلا يفلت منهم أحد أو من أصحابهم وقبض منهم على عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان وبختيار وعلى كتابهم وأسبابهم ووجوه الأكراد الذين معهم. واستدعى بدر عاصم وعبد الملك ووصلوا إلى حضرة عضد الدولة وخاطبهم بما رآه من اصطناعهم وحملوا إلى الخزانة فخلع على بدر القباء والسيف والمنطقة الذهب وحمل على فرس بمركب ذهب وقلد زعامة الأكراد البرزيكاني ومن يجري مجراهم وخلع على كل واحد من عاصم وعبد الملك الدراعة الديباج والسيف بالحمائل وحملا على دابتين بمركبين مذهبين ووضع على كل من كان مع المقبوض عليهم من الأكراد السيف ونهبت حللهم بما فيها. ونفذ أبو الوفاء طاهر بن محمد إلى قلعة سرماج فافتتحها وأخذ ما كان فيها من ذخائر حسنويه.

ودخلت سنة سبعين وثلاثمائة

وسار عضد الدولة إلى نهاوند وأقام بها ورتب العمال في النواحي وجدّ في تناول الموجود لأنه كان من رأيه أن يجعل همذان ونهاوند لمؤيد الدولة ويستضيف الدينور وقرميسين وما يجري مجراهما إلى أعمال العراق. ثم انتقل في صفر من نهاوند إلى همذان ونزل دار فخر الدولة بها.

ذكر ورود الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد

في هذا الشهر ورد الصاحب ابن عباد الخدمة عن مؤيد الدولة وعن نفسه فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد وبالغ في إكرامه ورسم لأكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك حتى أنهم كانوا يغشونه مدة مقامه مواصلة ولم يركب هو إلى أحد منهم وكان غرض عضد الدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب.

ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب أموره ببعده فوقع الشروع في تقرير ارتفاع همذان ونهاوند معهما عليه وتولى أبو عبد اللّه محمد بن الهيثم عمل العمل بالارتفاع.

ذكر عمل رتب في تكثير اعتداد بارتفاع

صدر العمل بأن قال: مبلغ ارتفاع النواحي الفلانية. وتمم الحكاية عن كذا وكذا ورقا صحاحاً. من الورق ينفذ الخرج كذا وكذا. وأضاف إليه الربع اعتماداً للتكثير. وأنفذ العمل مع أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبي الوفاء طاهر بن محمد وأبي عبد اللّه بن سعدان إلى صاحب أبي القاسم ورسم لأبي عبد الله الحضور معهم عنده وموافقته على أبوابه ففعل واستوفى مناظرته وكمل الارتفاع بزيادة على موجوده.

ذكر عود عضد الدولة إلى مدينة السلام

برز عضد الدولة إلى ظاهر همذان في شهر ربيع الآخر للعود إلى مدينة السلام وخلع على الصاحب الخلع الجليلة وحمله على فرس بمركب ذهب ونصب له دستاً كاملاً في خركاه يتصل بمضاربه وأجلسه فيه وأقطعه ضياعاً جليلة من نواحي فارس وحمل إلى مؤيد الدولة في صحبته ألطافاً كثيرة وضم إليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة

ذكر ما جرى عليه أحوال أولاد حسنويه بعد وما جرّه الحسد من إلقاء من نجا منهم بيده إلى التهلكة

لما قدم بدر وفضل بالسيف والمنطقة احفظ ذلك عاصماً وأوحشه وأقام قليلاً ثم انحاز إلى الأكراد المخالفين خالعاً للطاعة منابذاً لبدر. فاخرج إليه أبو الفضل المظفر بن محمود في عدة من الأولياء حتى أوقع بمحمود وأخذه أسيراً وأدخله همذان راكب جمل بدراعة ديباج ولم يعرف له خبر بعد ذلك وتفرد بدر بالخدمة والانتساب إلى الحجبة. وقتل جميع أولاد حسنويه.

وفي هذه السنة ورد الكتاب بأن أبا علي الحسن بن محمان أخذ المعروف بالصيداوي وقتله.

ذكر حيلة تمت على الصيداوي حتى أخذ وقتل

كان هذا الرجل أحد قطاع الطريق في أعمال سقي الفرات فاحتال أبو علي بن محمان في أخذه بأن دسّ عليه جماعة من الصعاليك أظهروا الانحياز إليه فلما خالطوه قبضوا عليه وحملوه أسيراً إلى الكوفة فقتله وأنفذ رأسه إلى مدينة السلام فشهره بها.

وفي هذه السنة ورد كتاب أبي علي الحسن بن علي التميمي بالقبض على ورد الرومي.

ذكر السبب في ذلك

لما توفي أرمانوس ملك الروم اتفق أن نقفور الدمستق وهو رجل ذو سياسة وصرامة كان قد خرج إلى بعض بلاد الإسلام ونكأ فيها ثم عاد فعرف خبر وفاة أرمانوس حين قرب من القسطنطينية فاجتمع إليه وجوه الجند وقالوا له: إن الملك قد مضى وخلف ولدين لا غناء عندهما مع صغر سنهما وما يصلح للنيابة عنهما في تدبير الملك غيرك ونحن نرى ذلك من المصلحة للناس والمملكة. فامتنع فراجعوه حتى أجابهم ودخل إلى الملكين وخدمهما وأظهر الحجبة لهما والنيابة عنهما ثم لبس التاج وتزوج بوالدتهما ثم وقع منه جفاء لها استوحشت به منه.

ذكر تدبير دبرته المرأة حتى تم لها قتل نقفور لقلة حزمه

راسلت ابن الشمشقيق وأطمعته في قتل نقفور وإقامته مقامه في التدبير واستقر الأمر بينهما على أن صار هو وعشرة نفر من خواصه سراً إلى البلاط التي تنزلها هي ونقفور فأدخلته ليلاً وكان نقفور يجلس أكثر الليل للنظر في الأمور وقراءة السير ويبيت على باب البيت الذي يأوي إلى فراشه فيه خادمان فلما حصل ابن الشمشقيق داخل البلاط هجموا على الموضع وقتلوا الخادمين وأفضوا إلى نقفور وقتلوه ووقعت الصيحة وظهرت القصة واستولى ابن الشمشقيق على الأمر وقبض على لاون أخي نقفور وعلى ورد بن لاون فأما لاون فإنه كحله وأما ورد فإنه حمله إلى قلعة في البحر واعتقله.
وسار إلى أعمال الشام وفعل فيها الأفاعيل وانتهى إلى طرابلس فامتنع عليه أهلها فنزل عليهم ونازلهم.

فكان لأم الملكين أخ خصيّ وإليه وزارة الملك منذ أيام الملك أرمانوس واسمه بركموس فقيل إنه دس على ابن الشمشقيق سما في طعام أو شراب فأحس به ابن الشمشقيق في بدنه فسار عائداً إلى قسطنطينية وتوفي في طريقه واستولى بركموس على الأمر.

وكان ورد بن منير كبيراً من كبراء أصحاب الجيوس ومقيماً في بعض الأعمال فطمع في الأمر وجمع الجموع واستجاش بالمسلمين من الثغور وكاتب أبا تغلب بن حمدان وواصله وصاهره. وأخرج الملكان إليه عسكراً بعد عسكر فكسرهم واستظهر وسار إلى القسطنطينية ودهم الملكين ما ضاقا به ذرعاً فأطلقا ورديس بن لاون واصطنعاه واستحلفاه على المناصحة وأنفذاه للقاء ورد في الجيوش الكثيرة وجرت بينهما وقائع أبلى كل واحد منهما بلاء ظاهراً حتى تبارزا وتضاربا باللتوت إلى أن وقعت خُوذُهُما عن رؤوسهما.

ثم انهزم ورد ودخل إلى بلاد الإسلام مفلولاً وحصل بظاهر ميافارقين على نحو فرسخ منها (وأبو علي الحسن بن علي التميمي الحاجب إذ ذاك بها) وراسل عضد الدولة وأنفذ أخاه إليه فأحسن تقبّله ووثق إليه بخطه وأعاده عليه بوعد جميل في إنجاده.

وتلاه رسول ملك الروم يلاطف عضد الدولة في أمره فقوي في نفسه ترجيح جانب ملك الروم على ورد وبدا له رأي في تدبير القبض عليه فكاتب أبا علي التميمي بالتوصل إلى تحصيله. فخرج أبو علي إليه بعد مراسلة ترددت بينهما في الاجتماع وقبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعة من أصحابه وحملهم إلى ميافارقين ثم أنفذهم إلى مدينة السلام.

رأي صواب رآه أصحاب ورد وأشاروا عليه فأهمله واستبد برأيه

كان وجوه أصحاب ورد اجتمعوا إليه قبل القبض عليه وقالوا: لسنا نرى أمرنا مع عضد الدولة مستقراً عن نصرة ومعونة وقد تردد بينه وبين ملكي الروم في معنانا وأنا لا نأمن أن يرغباه فينا فيسلمنا والوجه الاستظهار وترك الاغترار وأن نفارق موضعنا عائدين إلى بلاد الروم على صلح إن أمكننا أو حرب نبذل فيه جهدنا فإما ظفرنا أو مضينا أعزاء كراماً. فقال: ما هذا رأي ولا رأينا من عضد الدولة إلا الجميل ولا يجوز أن نقصده ثم ننصرف عنه من قبل أن نبلو ما عنده. فلما خالفهم وتركهم تركه كثير منهم وفارقوه.

فأقام ورد وأخوه وولده وتحصلوا في الاعتقال إلى أن أفرج عنهم صمصام الدولة في آخر أيامه على ما يأتي ذكره فيما بعد إن شاء اللّه.

ذكر ما جرى عليه أمر فخر الدولة

لما صار إلى قزوين بعد هزيمته من همذان قفل عنها إلى بلاد الديلم وحصل بهوسم وأقام بها مدّة. وتردَّدت بينه وبين قابوس بن وشمكير مراسلات وأيمان وعهود سببها الاجتماع على عداوة عضد الدولة ومؤيدها ثم سار إلى خراسان لاستنجاد صاحبها.

ودخلت سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

كان عضد الدولة أنفذ أبا نصر خرشيد يزديار إلى قابوس برسالة يستصلحه فيها فعاد

بجواب ظاهره المغالظة وباطنه المباينة فسأل عضد الدولة الطائع للّه أن يعقد لمؤيد الدولة أبي منصور على أعمال جرجان وطبرستان وينفذ إليه العهد واللواء والخلع السلطانية فأجابه إلى ذلك. وجلس في محرم هذه السنة وجرّد أبا حرب زيار بن شهراكوية إلى مؤيد الدولة مع عدد كثير وضُمّ إليه أبو نصر خواشاذه وأصحاب خزائن المال والثياب والسلاح فوصلا إلى مؤيد الدولة وهو معسكر بظاهر الري وأوصلا إليه الخلع السلطانية فلبسها وركب في العسكر وسار. فلما انتهوا إلى استراباذ وبينها وبين طبرستان عشرة فراسخ وقابوس مقيم بها حفر بظاهرها خندقاً أجري فيه المياه وبنى عليه أبراجاً رتب فيه الرماة وعمل على المطاولة ولم يهمل مع ذلك الاستعداد للمواقعة إن دعته ضرورة إليها ونزل مؤيد الدولة على فراسخ من البلد في موضع ماء وجده وأنفذ إلى طبرستان من دخلها وملكها لأن قابوس أخلاها وجمع العساكر عنده واحتشد بغاية جهده.

وطلعت طلائع العسكرين وتمسك قابوس بموضعه وتوقف مؤيد الدولة عن مقاربته إشفاقاً من تعذُّر الماء وأقام الفريقان على هذه الحال أياماً.

ذكر حرب جرت على غير ترتيب آل عقباها إلى الخبر والاتفاق

لم يزل مؤيد الدولة يجيل الرأي ويعمل التدبير إلى أن عرف خبر واد بظاهر البلد يجتمع إليه مياه الأمطار في أيام الشتاء وأنه متى سدّت أرجاء تقاربه وأسيح ماؤها إليه أمكن النزول عليه فركب هو وجماعة من خواصه في عدد قليل من الغلمان لمشاهدة الموضع وتقدم إلى من كان خرج للمناوشة بالتوقف في ذلك اليوم وأقام على الجبل من يمنع ويرد. فما هو إن بعد عن العسكر حتى زحف الديلم منازعين إلى لقاء القوم وقابلهم عسكر قابوس بمثل حالهم واشتد القتال وبلغ مؤيد الدولة ذلك فقامت عليه القيامة وأنفذ جماعة من الحجاب والنقباء فوجدوا الأمر قد فات عن حد القبول فانكفأ حينئذ إلى موضع المعسكر. ولم تزل الحرب قائمة على ساق إلى أن صوَّبت الشمس للغروب.

ذكر غلط جرى من قابوس في رد أصحابه بعد أن لاح له الضعف من مؤيد الدولة

وردَّ قابوس أصحابه وعاد مؤيّد الدولة إلى معسكره وقد قتل من أصحابه خلق وجرح أكثر ممن قتل من أصحاب قابوس وخرج فأنفذ مؤيد الدولة بدر بن حسنويه في عدد كثير من الأتراك والأكراد إلى الجبل الحاجز بين الفريقين ليضبطه إشفاقاً من أن يسير قابوس على أثرهم فإنه لو تبعهم لنكا فيهم وبلغ مراده منهم. واحتاج مؤيد الدولة إلى المقام أسبوعاً حتى ثاب أصحابه واستراحوا وأجرى الماء إلي الوادي ثم سار ونزل

عليه ثم استعد أربعة أيام وزحف بعدها في جميع العسكر. واشتبكت الحرب وحملت ميمنة مؤيد الدولة على ميسرة قابوس فكسرتها وفيها جمرة عسكره فانهزم ودخل البلد مخترقاً إلى جانبه الآخر وثبت القتال من ميمنة قابوس وفيها أخوه جركاس ساعتين بعد الهزيمة لأنهم كانوا من وراء غيضة ولم يعلموا الصورة فلما عرف جركاس هزيمة قابوس انهزم لاحقاً به. وأنفذ مؤيد الدولة جماعة فرسان من عسكره لاقتصاص أثره فنكب قابوس عن الذريق وسار مارّاً على القلاع معتقداً لصعود أحدها متى أرهقه طلبٌ إلى أن حصل بنيسابور واجتمع مع فخر الدولة هناك.

ولما ملك فخر الدولة استراباذ رتب أمورها واستخلف أحد أصحابه فيها وسار إلى جرجان فنزلها وأقام بها وأنفذ أبا نصر خواشاذه إلى الحضرة ببغداد في رسائل ووردها في شهر رمضان مع الأسارى من أقارب قابوس ووجوه أصحابه فأعرض عضد الدولة عنه وأظهر الشكر له وأخرج أبا علي الحسن بن محمد إلى جرجان.

ذكر خيانة في مشورة جرّت نكبة

كان عادة أبي نصر إذا أنفذ إلى الري وقرب منها أن يتلقاه الصاحب أبو القاسم بن عباد وإذا رآه أبو نصر أن يترجل له فلما خرج في هذا الوقت مع زيارا أحب أن يفعل زيارا مثل فعله لئلا يكون له في الامتناع منه زيادة رتبة عليه فقال له زيارا قول المستشير: ما الذي ترى أن تفعل في خدمة الصاحب إذا لقيتَهُ؟ فقال: أنت أعلم إلا أن عضد الدولة ينزله المنزلة الكبيرة ويؤثر أن يقضي حقه والذي أفعله أنا الترجل له ومتى فعلت ذلك لم تأمن أن يفعل مثل ذلك. فحمل زيارا على أن يترجل له عند خروجه لتلقيه ولم يترجل الصاحب ولا كان ممن ينقاد لهذا أو يسمح به وإنما خدعه أبو نصر حتى تم غرضه. وبلغ عضد الدولة ذلك فغاظه غيظاً عظيماً أسرّه اشفاقاً من أن يتأدى إلى الصاحب أبي القاسم فيه ما يوحشه فلما ورد أبو نصر وفي قلب عضد الدولة من هذا الأمر ما فيه اطَّرحه وأعرض عنه ثم قبض عليه بعد مدة وحمله إلى بعض القلاع بفارس.

ولقابوس أبيات قالها بعد الهزيمة مستحسنة:

قل للذي بصروف الدهر عَيَّرَنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطرُ
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف ... ويستقر بأقصى قعره الدررُ
فإن تكن نشبت أيدي الخطوب بنا ... ومسنا من توالي صرفها ضررُ
ففي السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

وفيها سخط على القاضي أبي علي المحسّنِ بن علي التنوخي وألزم منزله وصرف عما كان يتقلدُه.

ذكر السبب في ذلك

كان التنوخي مع عضد الدولة بهمذان فاتفق يوماً أنه مضى إلى أبي بكر بن شاهويه وكان صديقه ومعه أبو علي الهائم فجلسا يتحدثان في خركاه وأبو علي على بابها وقال ابن شاهويه للتنوخي : أيها القاضي اجعل في نفسك المقام في هذا البلد مدة هذه الشتوة. فقال: لِمَ؟ قال: لأن عضد الدولة يدبر في القبض على ابن عباد وكان قد ورد إلى حضرته فانصرف التنوخي من عنده فقال له أبو علي الهائم: قد سمعت ما كنتما فيه وهذا أمر ينبغي أن تطويه ولا تخرج إلى أحد به ولا سيما إلى أبي الفضل بن أبي أحمد الشيرازي. فقال التنوخي: افعل. ونزل إلى خيمته وجاءه من كانت عادته جارية بملازمته ومؤاكلته ومشاربته وفيهم أبو الفضل بن أبي أحمد الشيرازي فقال له: ما لي أراك أيها القاضي مشغول القلب؟

تفريط في إذاعة سر عاد بوبال

فاسترسل إليه وقال له: أما علمت أن الملك مقيم وقد عمل على كذا في أمر الصاحب وهذا دليل على تطاول السفر. ولم يتمالك أن انصرف واستدعى ركابياً من ركابية القاضي التنوخي وقال له: أين كنتم اليوم؟ فقال: عند أبي بكر بن شاهويه. فكتب إلى عضد الدولة رقعة يقول فيها: كنت عند التنوخي فقال لي كذا وكذا وذكر أنه عرفه من حيث لا يشك فيه وعرفت أنه كان عند أبي بكر بن شاهويه وربما كان لهذا الحديث أصل فإذا ذاع السر فيه فسد ما دبرته في معناه. فلما وقف عضد الدولة على الرقعة وجم وجماً شديداً وقام من سماط كان عمله للديلم على منابت الزعفران مغيظاً واستدعى التنوخي وقال له: بلغني عنك كذا وكذا. فخجل التنوخي ثم جمع بينه وبين أبي الفضل الساعي به فواقفه فأنكره وأحضر ابن شاهويه وسئل عن الحكاية فأنكرها وسئل أبو علي الهائم عما سمعه فقال: كنت خارج الخركاه وما وقفت على شي. فَمُدَّ وضُرِب مائتي مقرعة وأقيم فنفض ثيابه وقال: أكثر اللّه خيركم. واتصل ذلك بعضد الدولة فأمر بضربه مائة مقرعة أخرى واندفعت القصة فرجع التنوخي إلى خيمته بعد أن ظن أنه مقبوض عليه وبقي يتردد إلى خدمة عضد الدولة مدة وهو معرض عنه حتى عاد له إلى بعض الإقبال عليه.

ثم رحلوا إلى بغداد فرآه عضد الدولة وعليه ثياب جميلة وتحته بغلة بمركب ثقيل فقال له: من أين هذه البغلة؟ فقال: حملني عليها الصاحب بمركبها وأعطاني عشرين قطعة ثياباً وسبعة آلاف درهم. فقال: هذا قليل لك ما تستحقه عليه. فعلم التنوخي أنه اتهمه بذلك الحديث.

وورد عضد الدولة إلى بغداد فحكى له أن الطائع للّه متجاف عن ابنته وأنه لم يقربها فثقل ذلك عليه فقال للتنوخي: تمضي إلى الخليفة وتقول له عن والدة الصبية أنها مستزيدة لإقبال مولانا عليها. فعاد التنوخي إلى داره ليلبس أهبة دار الخلافة.

ذكر اتفاق رديء جاء بالعرض

فاتفق أن التنوخي زلق عند عوده إلى داره ووثئت رجله فأنفذ إلى عضد الدولة فعرَّفه عذره فلم يقبله وأنفذ إليه من يستعلم ما جرى فرأى غلمانه روقة وفرساً جميلة وعاد إليه فقال: إنه يتعلل وليس بعليل وشاهدته على صورة كذا والناس يغشونه ويعودونه. فاغتاظ غيظاً مجدداً حرّك ما في نفسه أولا فراسله بأن: الزم منزلك ولا تخرج عنه ولا تأذن لأحد في الدخول إليك إلا نفر من أصدقائه استأذنه فيهم واستمر السخط عليه إلى حين وفاة عضد الدولة.

وفي هذه السنة أطلق أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الكاتب من الاعتقال وكان القبض عليه في سنة ٣٦٧.

ذكر السبب في القبض عليه والإفراج عنه

كان قد خدم عضد الدولة عند كونه بفارس بالمكاتبة والشعر والقيام بما يعرض من أموره بالحضرة فقبله وأرفده في أكثر نكباته بمال حمله إليه ولما ورد بغداد في سنة أربع وستين ازداد اختصاصه به حتى أشفق من المقام بها بعد عوده. فاستظهر له عضد الدولة يذكره في الاتفاق الذي كتب بينه وبين عز الدولة وعمدتها أخيه واليمين التي حلفا بها وشرطاً عليهما حراسته في نفسه وماله. فلما انحدر عضد الدولة لم يأمن على نفسه فاستتر حتى توسط أبو محمد بن معروف أمرهُ وأخذ له الأمان من عز الدولة وابن بقية وظهر فتركه مديدة ثم قبض عليه بإغراء من ابن السراج لهما به وما زال مقبوضاً عليه حتى فسد أمر ابن السراج.

ذكر اتفاق عجيب في خلاص أبي اسحاق وهلاك ابن السراج

قد تقدم في كتاب تجارب الأمم ذكر السبب في القبض عليه عند إفاقة ابن بقية من علته التي أشفى فيها فلما قبض عليه نقل القيد من رجل أبي اسحاق إلى رجله وعاد أبو اسحاق إلى خدمة عز الدولة وكتب عنه في أيام المباينة بينه وبين عضد الدولة الكتب التي تضمنت الوقيعة فيه فنقم عليه ذلك. فلما ورد عضد الدولة في الدفعة الأخيرة وحصل بواسط خرج أبو اسحاق بما في نفسه من الحذر إلى أبي سعد بهرام بن أردشير وهو يتردد في الرسائل والوساطة وسأله إجراء ذكره وإقامة عذره والاحتياط له بأمان يسكن إليه نفسه وكتب على يده كتاباً. ففعل أبو سعد ذلك وتنجز له جواب كتابه وفيه توقيع عضد الدولة

بالتوثقة والأمان ودخل عضد الدولة بغداد فأجراه على رسمه. فلما حصل بالموصل كتب إلى أبي القاسم المطهر بن عبد اللّه فقبض عليه على مضض منه وكراهية.

ذكر السبب في ذلك

لما أخرج إلى الديوان ما وجد في قلاع أبي تغلب من الحسبانات والكتب لتتأمل كان فيها الشيء الكثير من كتب عز الدولة إلى أبي تغلب بخط أبي اسحاق الصابي فحملت إلى عضد الدولة فلما وقف عليها حرَّكت ما في نفسه فكتب من هناك بالقبض عليه. فبقي في الإعتقال يكتب إلى عضد الدولة ويستعطفه بأشعاره إلى أن تقدم عضد الدولة إلى أبي القاسم المطهر بالانحدار إلى البطيحة فسأل حينئذ في إطلاقه والاذن له في استخلافه بحضرته لعناية أبي القاسم به فقال: أما العفو عنه فقد شفَّعناك فيه وعفونا له عن ذنب لم نعفُ عما دونه لأهلنا يعني الديلم ولا لأولاد نبينا ﷺ يعني أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي ولكنا وهبنا إساءته لخدمته وعلينا المحافظة فيه على الحفيظة منه وأما استخلافك له بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط عليه والنكبة له إلى النظر في الوزارة؟ ولنا في أمره تدبير وبالعاجل فاحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وأطلق ولديه وتقدم إليه بعمل كتاب في مفاخرنا. ففعل المطهر ذلك وعمل أبو اسحاق الكتاب الذي سماه التاجي في الدولة الديلمية فكان إذا عمل منه جزءاً حمله إلى عضد الدولة حتى يقرأه ويصلحه ويزيد فيه وينقص منه فلما كان تكامل ما أراده حرَّر وحمل كاملاً إلى خزانته.

وهو كتاب بديع الترصيف حسن التصنيف فإن أبا اسحق كان من فرسان البلاغة الذين لا تكبو مراكبهم ولا تنبو مضاربهم. ووجدنا آخره موافقاً لآخر كتاب تجارب الأمم حتى أن بعض الألفاظ تتشابه في خاتمتها وانتهى القولان في التاريخ بهما إلى أمد واحد والكتاب موجود يغني تأمله عن الإخبار عنه.

أن الجواد عينهُ فرارُهُ

ومن العجب كيف نكبه عضد الدولة وهو الموصوف بحسن السيرة والإنصاف في السياسة مع ما سبق إليه من خدمته وعرفه أولاً من خلوص نيته وأعطاه أخيراً من أمانته وموثقته. أن كان الذي نقم عليه منه هو ما ذكر في تاريخ من حال الكتب التي كتبها عن عز الدولة فغير مستحسن من الملوك أن ينقموا بغير حق وأن ينقضوا الأمان من غير موجب. فلو أن عضد الدولة أمره بمثل ما كان عز الدولة أمرهُ به هل كان يقدر على خلافه مع كونه في قبضة سلطانه؟ واللّه تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وربما خفي السبب أو أخطأ القياس والأشخاص تفنى والذكر يبقى والشاعر يقول:

وكذاك الزمان يذهب بالنا س وتبقى الديار والآثار

ولو قال «ويبقى الحديث والأخبار» لكان أقرب إلى الصواب فإن الديار تدرس والآثار تذهب والحديث يبقى والأخبار تُروى على أن عضد الدولة أبقى عليه في اعتقاله وعاود الحسنى في إطلاقه وبدأ باستئناف الجميل معه:

ولو أن المنايا أنسأتهُ لياليا

ووجدت رواية أخرى في سبب إطلاقه وهو أن عضد الدولة رق له لما طال حبسه وأن أبا الريان وأبا عبد اللّه بن سعدان توليا الإفراج عنه ثم شغلت عضد الدولة علته عن النظر في أمره وإظهار آثار الرضاء عليه بالإحسان إليه وقد حكينا ما رأينا.

وفي هذه السنة ورد من أبي القاسم نوح بن منصور صاحب خراسان رسول يكنى بأبي الغنائم فخرج أولاد عضد الدولة مع سائر الجيش لتلقيه وأكرم غاية الإكرام.

وفيها أخرج معه أبو الغنائم نصر بن الحسين والقضاة وأبو محمد الجهرمي وأبو عقبة وأبو محمد بن عقبة وسالم إلى أبي الغنائم يذكره بما يعتمده ويورده من جملتها العتاب على فخر الدولة وقابوس وايوائهما وأنه: إن كان الوفاء بالمعاهدة التي جرت مع السلف واقعاً فيجب أن يسلموها يداً بيد إلى مؤيد الدولة ليحمل إليكم مال الموافقة سالفاً وآنفاً على العادة فإن أردتم استئناف الصلح بيننا وهدر ما تقدم وأن تجعلوا إيواء العاق وقابوس يعني بالعاق فخر الدولة عوضاً عن المال بعناكم إياهما بالثمن الذي استرخصتموهما به فيبين على ممر الأيام الرابح منا ومنكم. وإن قال أبو العباس إنه يكلمنا في أمر قابوس وما كان يجب في جواب شفاعتنا التسرع إليه قيل له: قد اعترفت وقلت أنت وأبو الحسين العتبي بأن الرجل أحد أصحابنا وأنه جان علينا مستحق للعقوبة وأنكم شافعون في بابه ومعلوم أن الصلح معقود عن جرجان وطبرستان وعن غيرهما من قومس بدامغان وكرمان وما يلزم واحداً منا ولا من صاحبك أن شفاعتهما. . .ثم إنا نقول في الجواب: إنه ما كان يجب التسرع في باب أبي الحسن بن سمجور وقد شفعنا فيه فإن كان ذلك واجباً علينا فهذا واجب عليكم وإن كان بكم التجني فهو ما لا يستعمله أصحاب التحصيل ولسنا ممن يتجنى عليه. وإن اخترتم استئناف الصلح على أن تطردوا العاق وقابوس طرداً على أن لا يكونا في بلادكم ويذهبا حيث شاءا من أرض اللّه قبلنا وإن سألتم أن نرضى بمقامهما عندكم رضينا على أن ينفذا إلى بخارا وينفض عنهما أصحابهما وإن لم يفضوا عنهم فإنهم سينفضون من ذات أنفسهم. وإن سألتم أن نؤمنهما ليعودا إلى جملنا هدرنا ما تقدم من الموافقة واستقبال الوقت الذي يقع فيه الصلح فنحن نفعل ذلك كرامة لذلك الكبير ولكن على أن يردوا حضرتنا ويكون ما نفعله معهم تبرُّعاً منَّا ومؤكَّلا إلى رأينا من غير اشتراط فذلك خير لهما: وإن اخترتم بيعنا بمقامهما عندكم

فإننا نسمح لكم بهذين المقبلين المباركين ومال الصلح الذي تأخذونه منا مستأنفاً فإنه سيذهب لكم عليهما وأكثر فليس يحسن بكم أن تعطوهما أكثر من ذلك فإن أحسنتم إليهما خسرتموهما والمال جميعاً ولم تحصلوا منهما على طائل وإن لم تحسنوا إليهما فارقاكم عن قِلى وعادا إلينا بلا منةٍ لكم علينا في بابهما وتكون مفارقتهما لكم على ما يليق بهما إلى حيث يرمي بهما جدّهما الغار إليه.

وقد كنا نقول لقابوس «لا تقبل العاق ولا تؤوه فقد سمعت ما كان من أبي تغلب بن حمدان حين قبل بختيار الشقي ورأيت عاقبتهما فإن كان محموداً فسترى مغبة فعلك وسيرى العاق مغبة فعله» ورأيتم فيهما ما يليق بهما ولله الحمد وقد اجتمعا عندكم وأنتم على بصيرة من أمرهما. فإن استقر الصلح بنيسابور فليخرج إلى بخارا لعقد الوثيقة وإحكام الأمر على حسب ما رسمناه وبمحضر من القضاة والشهود ووجوه الحاشية والقواد والغزاة وأماثل البلدان وإن أحب أن يتم ما خرج له القضاة الثلاثة من حضرتنا استخار الله فيه وتممه وإذا عاد إلى نيسابور أحكم عقد الصلح فيها بشهادات الأماثل وأن رأي الصواب في أن يشهد على أبي العباس في نسخة العهد الذي يتولى تجديده ببخارا أو يأخذ خطه فيها فعل.

وقد كان عضد الدولة متوقفاً عن انفاذ أبي غنائم وقال له: إن القوم قد غدروا ونكثوا العهد ورفضوا الودّ ولم يبق بعد إيواء فخر الدولة وقابوس هوادة وقد سبق منهم في قصة ابن سمجور ما قد سبق مما يدل على فساد الدخائل. فما زال أبو غنائم يراجعه ويعرض عليه ما يصله من كتبهم الدالة على بذل الموافقة حتى أذن له في الخروج على ما تقدم ذكره إبلاءً للعذر.

فأما قصة ابن سمجور وتنكر آل سامان عليه فالسبب في ذلك

إنه كان رجلاً قد حنكته التجارب وهذبته الأيام ورأى الدولة الديلمية وهي في ابتدائها تسري في البلاد سري النار في الهشيم فكان يرقع الخرق ويعتمد الرفق ويسلك طريق المفارقة فعرف عند آل سامان بالمداهنة والصغو إلى غيرهم وسعى بفساد ذات البين واغمار حتى آل الأمر إلى إزالة قدمه عن مستقرها. وأخبرنا من نثق به عن صدر عظيم في زماننا هذا أنه قال وضربه مثلاً في غرض له: إن ابن سمجور كان كالسد لبلاد سامان يواري عوراتهم ويغطي هناتهم وكان يصرف ما يحصل من مال البلاد التي في يديه في مصالحها ومحارسها وأنفذوا يلتمسون منه مالاً ويتجنون عليه أقوالاً وأفعالاً فقال في الجواب: اعلموا أن مثلي معكم مثل ستر من خرق على باب دار خراب فدعوه بحاله مسبلاً على الباب فإنكم إن رفعتموه بانت آثار الخراب. فلم يقبلوا منه وكان الأمر كما زعم ونعود إلى سياقه التاريخ.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة

وفيها أخرج أبو القاسم سعد الحاجب وقراتكين مدداً لمؤيد الدولة عند ورود فخر الدولة وقابوس وعساكر خراسان.

شرح الحال في ذلك

قد تقدم ذكر اجتماع فخر الدولة وقابوس بنيسابور ولما حصلا بها أقام قابوس ومضى فخر الدولة إلى صاحب خراسان فاستجار به وسأله المعونة وأقام عنده إلى أن جرد معه ناس وجماعة من أكابر القوّاد وسارت الجماعة حتى نزلت على باب جرجان ومؤيد الدولة بها. ووقعت الحرب بين الفريقين أياماً كانت بينهم سجالاً ثم وقع الخلف بين عساكر خراسان وانصرفوا ورجع فخر الدولة وقابوس إلى نيسابور مفلولين

وفيها خرج أبو الفوارس بن عضد الدولة من بغداد إلى كرمان للمقام بها والولاية عليها والإبعاد عن الحضرة وقد كانت علة عضد الدولة قويت واستحكمت.

وفيها ورد أبو اسحق محمد بن عبد اللّه بن محمد بن شهرام ومعه رسول ملك الروم.

ذكر ما جرى بين عضد الدولة وملك الروم
فيما ترددت به الرسالة

كان سبب هذه الرسالة ما تقدم ذكره من دخول ورد إلى بلد الإسلام فخاف ملك الروم وأنفذ رسولاً إلى عضد الدولة في أمره. فأخرج أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني بجواب الرسالة فعاد ومعه رسول يعرف بابن قونس فأعيد وأنفذ معه أبو اسحق بن شهرام فاستثنى على ملك الروم بعدة حصون ووصل معه رسول يعرف بنقفور الكانكلي بهدية جميلة.

نكت من جملة مشروح وجد بخط ابن شهرام دلت منه
على دهاء وحزم وقوة رأي

قال: لما حصلت بخرشنة عرفت أن الدمستق خرج من القسطنطينية آخذا في الاحتشاد والاستعداد ومعه رسول حلب المعروف بابن مامك وكليب حَمو أبي صالح السديد فأما كليبُ فإنه كان مع ورد وحصل في جملة العصاة الذين أومنوا وأقروا في بلد الروم بعد أن صودروا وهم الروم بمصادرته أسوة بغيره وارتجاع الضياع التي سلمت إليه حين سعى في تسليم قلعة برزوية إليهم فتوصل كليب إلى البركموس والدمستق بما

أرضاهما به وضمن لملك الروم وفي أمر حلب وغيرها ضمانات دفع بها الشر العاجل وبذل تعجيل ما يتعلق بخراج حلب وحمص لما كان صهره وأنه لا يخالفه فتخلص بهذه الحجة وأما رسول حلب فإنه لم يفعل معه أمر إلا أنه طولب بخراج ما مضى من السنين.

وحصل الدمستق بموضع عادل عن جادّة البريد فعدل ابن قونس إليه ووجدته حدث السن معجباً بنفسه لا يؤثر تمام الهدنة لأحوال منها أنه يستغني عنه في العاجل فتبطل سوقه ومنها أن يقع الطمع فيه من ملك الروم «ولا نأمن بوائقه» والثالثة ما يرجوه ويشتهيه لنفسه إلا أنه أظهر جميلاً وقبل الهدنة وشكر عليها.

ثم سألني عما وردتُ فيه فذكرت جملته وواقفه ابن قونس على نسخة الشرط فلما وقف عليه قال: لو تمّ للرؤساء أن نخلّي لهم عما يريدونه من البلدان والحصون باللطف والرفق لكان كل رئيس يتلطف ويستغني بذلك عن جميع الرجال وبذل الأموال. قلت: إذا كان اللطف والرفق من وراء قوّة وقدرة فهو دليل الفضل ويجب تلقيه بالقبول. قال: أما حلب فليست ببلدكم ولا يريدكم صاحبها وهذا رسوله وكليب يبذلان لنا خراجها ويسألان الذب عنها وأما الحصون فإنها أخذت في زمان عمّي نقفور وغيره من الملوك ولا فسحة في النزول عنها فإن كان معك غير هذا وإلا فلا تتعب نفسك بطول الطريق. فقلت: إن كان أمرك ملك الروم بانصرافي فعلت وإن كنت قلته من تلقاء نفسك فيجوز أن يسمع الملك كلامي وأسمع جوابه وأعود بحجة. فأذن لي في السير.

فسرت إلى القسطنطينية ودخلتها بعد أن تلقّاني من أصحاب ملكها من أحسن صحبتي إليها فأكرمت وأنزلت في دار نقفور الكانكلي الذي وصل الآن معي رسولاً وهو خصيص بملك الروم ثم استدعيت فدخلت إلى البركموس فقال: قد وقفنا على الكتب وقد أحيل فيها على ما تقوله فاذكر ما عندك. فأخرجت الشرط الظاهر فلما وقف عليه قال: أليس قد تقرر الأمر مع محمد بن الطيب يعني أبا بكر الباقلاني على ما طلبتموه من ترك خراج بلد أبي تغلب الماضي والمستأنف ورضي بما شرطناه عليه من رد الحصون التي أخذت منا والقبض على ورد وقد رضي مولاك بما شرطنا وفعل ما أردنا وطلبنا أن خطه معك بتمام الهدنة. فقلت: ما عقد محمد بن الطيب معكم شيئاً. فقال: ما خرج من عندنا إلا على تقرير ما شرطناه عليه وأن ينفذ خطّ مولاكم بإتمامه فقد كان أحضر كتابه بالرضا بجميع ما يمضيه هو. فاحتجت إلى أن أتطلب مجالاً أقاوم به مجالهم.

ذكر بديهة جيدة انقدحت لابن شهرام في دفع حجة الخصم

فقلت: ما عقد محمد بن الطيب معكم شيئاً ولكن ابن قونس قرر هذا الشرط وأخذ نسخته بالرومية. فاشتطّ البركموس وقال لابن قونس: من أمرك بهذا؟ فقال: ما قررت شيئاً ولا محمد بن الطيب: قرر شيئاً. وانصرفت.

فاستعادني بعد أيام وعاود قراءة الشرط ووقف عند فصل كان قيل فيه: «ما تقرر مع شهرام على ما في النسخ الثلاث» فقال: هذه واحدة وأين الأخريان؟ فرجعت إلى الموضع فوجدت السهو قد وقع في ترك ذلك فقلت: معنى هذا اللفظ أن يكون الشرط على ثلاث نسخ إحداها تكون عند ملك وأخرى بحلب والثالثة تكون بالحضرة. قال ابن قونس: ليس كذا قيل لي «أملِ عليَّ تفسير الشرط» قال البركموس: لا ولكن هذه النسخة هي الظاهرة والأخرى: بترك الحصون والثالثة بترك ذكر حلب وإمضاء الشرط على ما قرره محمد بن الطيب وإنما أنفذ هذا ليأخذ خط الملك وخاتمه بذلك. فقلت: هذا محال وما عندي إلا ما ذكرته من حال حلب والحصون على ما تضمنه الشرط الذي وقفت عليه. فقال: لو كان ورد في عسكره وقد أخذتمونا كلنا أسرى ما زاد على هذا فكيف ذاك أسير.

جواب سديد لابن شهرام

فقلت: أما قولك: «لو كان ورد في عسكره»، فهو غلط لأنك تعلم أن أبا تغلب (وأقل تابع لعضد الدولة أكبر منه) عاون ورداً فأهلك مُلك الروم سبع سنين فكيف لو أمدّه عضد الدولة بعساكره وهو اليوم وإن كان أسيراً في أيدينا فإننا لم نفعل به ما تفعلون أنتم بأسراكم من المثلة وكونه بالحضرة أحوط لنا لأننا لم نستأسره لربما كان يضيق صدره بمدافعتنا إياه أو ييأس منا فيستوحش ويمضي الآن فهو متصرف على أمرنا وساكن إلى ما شاهده بالحضرة من العز والأَمن والحبل في أيدينا بأطرافه فاشتد عليه خطابي ووجم منه وعرف صحته وقال: الذي تطلبه لا طريق إليه فإن أردت إمضاء ما تقرر مع محمد بن الطيب وإلا فانصرف. فقلت: إن إردت أن أنصرف من غير أن أسمع كلام ملك الروم فعلت: فقال: ما أقوله أنا عنه ولكن استأذنه في ذلك.

ثم استدعيتُ بعد أيام فحضرتُ فاستعاد ملك الروم ما جرى فأعيد عليه بمحضري فقال: يا هذا قد جئت بأمر منكر لأنه جاءنا رسول لكم فشرط علينا ما أجبناه عليه وشرطنا عليه رد الحصون التي أخذت أيام العصيان وتريد حصوناً أخر وبلاد أخذها الملوك من قبلي فإن رضيتم بما تقرر أولاً فامض بسلام. فقلت: أما محمد بن الطيب فما قرر شيئاً وأما الشرط الذي قد ورد معه فقد قطعتم فيه نصف بلدنا فكيف يجوز أن نقرر علينا أمراً فإن الحصون التي في ديار بكر منها شيء في قبضك وإنما هو في أيدينا وليس لك فيها غير المنازعة ولا تدري ما يحصل منها. فقال: البركموس: هذا رجل ذو جدل وتمويه للأقوال والموت خير من الدخول تحت هذا الحكم فدعه ينصرف إلى صاحبه. وقام فانصرفت.

فاستدعاني البركموس بعد أن تكاملت مدة مقامي شهرين في القسطنطينية وأحضر القربلاط والد الدمستق وهو مكحول وعدداً من البطارقة وتناظرنا في أمر الحصون. وبذلوا خراج حصن كيفا الذي في يد والدة أبي تغلب وهو يؤدي الخراج إليها فقلت:

أنا أدع لكم خراج سمند فقالوا: ما معنى هذا؟ فقلت: إنما نذكر الأطراف في الشرط لتعلموا أن ما وراءها داخل في الهدنة معها وحصن كيفا داخل من دون آمد بخمسة أيام فكيف تذكرونه؟ وجرى جدل في أمر حلب حتى قال القربلاط: إن حمل صاحب حلب الخراج إلينا علمنا حينئذ أنك مبطل في قولك وأنه يريدنا دونكم. قلت: وما يؤمنني أن تحتالوا على كاتبه كليب حميه حتى يعطيكم شيئاً تجعلونه حجة؟ فأما بغير حيلة فأنا أعلم أنه لا يكون. وانصرفت.

ثم أحضرني ملك الروم بعد ذلك وقد وصل خراج حلب فوجدت كلامهم غير الأول قوة وتحكُّماً فقالوا: هذا خراج حلب قد حضر وصاحبها قد سألنا أن نشارطه على حران وسَرُوج ومعاونته عليكم وعلى غيركم. فقلت: أما الخراج وأخذكم إياه فأنا أعلم أنه بحيلة لأن عضد الدولة ظنّ أنكم لا تستجيزون ما قد فعلتموه فلم ينفذ عسكراً يمنع عسكركم وأما ما تحكونه عن صاحب حلب فأنا أعرف بما عنده وكل ما يقال لكم عنه غير صحيح والدعوة فيها فهي قائمة لعضد الدولة. قالوا: هل معك شيء غير هذا؟ قلت: لا. قالوا: فيودّع ملك وتنصرف مصاحباً. قلت: الساعة. وأقبلت بوجهي نحوه لتوديعه.

رأي سديد رآه ابن شهرام في تلك الحال

قال: ثم تأملت الحال فوجدت البركموس والقربلاط وجماعة معهما ليس يؤثرون الهدنة وأصحاب السيوف يخافون لئلا تبطل سيوفهم وتنقص أرزاقهم على رسم الروم إذا هادنوا ولم يبق لي طريق سوى مداراة ملك الروم والرفق به فقلت: أيها الملك يجب أن تتأمل ما فعله عضد الدولة معك ولم يعاون عليك عدوك ولم يتعرض لبلاد أيام اشتغالك بمن عصى عليك وتعلم أنك إن أرضيته وحده وهو ملك الإسلام وإلا احتجت أن ترضي ألوفاً من أصحابك ثم لا تدري هر يرضون أم لا ثم إن لم يرضوا ربما احتجت إلى رضائه من بعد. وتعلم أن كل من حول عضد الدولة لم يرغبوا في هدنتك وإنما هو وحده أراد ففعل ما أراد ولم يقدم أحد على مراجعته وأراك تريد هدنته ولعل من حولك لا يساعدونك على مرادك. فاهتز لخطابي وبان في وجهه الامتعاض من علمي بالاعتراض عليه من أصحابه وقام وانصرفت.

وكان المشرف عليّ الخصيص بملك الروم (وهو الذي يوقع عنه بالحمرة ولا يمضي أمر دونه) نقفور الكانكلي الذي وصل معي رسولاً فسألته أن ينصرف معي ففعل.

ذكر ما رتبه ابن شهرام مع خصيص ملك الروم حتى بلغ به غرضه

فلما خلوت به قلت: أريد أن تتحمل عني رسالة إلى ملك الروم فقد طال مقامي

وتعرفني آخر ما عنده فإن فعل ما أريده وإلا فلا وجه لمقامي. ولاطفتُ هذا الكانكلي بشيء حملته إليه ووعدته عن عضد الدولة بجميل وكان مضمون رسالتي: إنه يجب عليك أولاً أن تحفظ أيها الملك نفسك ثم ملكك ثم أصحابك ولا تثق بمن صلاحه في فسادك فإن بمعاونة أبي تغلب عليك تمّ في بلد الروم ما جرى وكيف تكون الحال مع عضد الدولة أن عاون عليك أيها الملك؟ وإني أرى أصحابك لا يريدون تمام الهدنة بينك وبين أوحد الدنيا وملك الإسلام والإنسان لا يخفى عليه إلا ما لم يجربه وأنت فقد جربت سبع سنين عند عصيان من عصى عليك لملكك وملكك لا يبقي نفسك الروم فما يبالون هذا إن لم يتحرك هو بنفسه. وقد نصحت لما رأيت من ميل صاحبي إليك وإيثاره لك فتأمل خطابي واعمل بعد ذلك برأيك. فعاد نقفور وقال: يقول لك: الأمر كما ذكرت ولكن ليس يمكن مخالفة الجماعة ويروني بصورة من قد خانهم وأهلكهم ولكن سأتمم الأمر وأفعل ما يمكن فعله.

ومن الاتفاق الحميد أن البركموس مرض مرضاً شديداً فتأخر عن الركوب وترددت الرسالة بيني وبين ملك الروم. ثم استدعاني أياماً متوالية وتولى خطابي بنفسه وساعدني الكانكلي بغضاً للبركموس ومنافسة له إلى أن أجاب إلى الهدنة على جميع ما تضمنه الشرط بعد مراجعات جرت لإخراج حلب فإنه ما أجاب إليه. فلما ضايقته فيه وقلت: هذا كله بغير حلب لا يتم. فقال: دع هذا فلا نسلم غير ما سلمنا ولا نخلي عن بلد نأخذ خراجه إلا بالسيف ولكني أحملك رسالة إلى صديقي ومولاك فإني أعلم أنه فاضل وإذا عرف الحق لم يعدل عنه. ثم قال لمن حوله: تباعدوا. وقال لي سراً من كل أحد: قل له: والله إني أشتهي رضاك ولكني أريد حجة فيه فإن أردتم أن نحمل إليكم الخراج عن حلب أو أتركه لكم تأخذونه على أن تصرفوا ابن حمدان عنها فافعلوا ما بذلتموه على لسان ابن قونس (إشارة إلى تسليم ورد). فقلت: ما سمعت هذا ولا حضرته وإنني أستبعد فعله. فتنكر عليّ وقال: دع التطويل فما بقي شيء تراجعني فيه وأمر أن تكتب جوابات فكتبت وأحضرت لتوديعه.

واقع جيد وقع لابن شهرام

وأشفقت أن يعرض من المقادير في موت من قد طلبوا تسليمه ما يعرض مثله فنخرج من الجميع بغير منية وتحصل الهدنة عن بلدنا إلى دون الفرات وبلد باد بغير حلب فقلت: أنتم تعلمون أني عبد مملوك ولست مالكاً وما أقدر أن أزيد على ما أمرت به وقد صدقتك عنه والذي شرطته الآن في أمر حلب فقد حلفت لك أنني ما سمعته بالحضرة. فهل لك أيها الملك في أمر قد وقع لي أنه صواب؟ قال: ما هو؟ قلت: تكتب كتاباً بالهدنة بيننا وبينك عن جميع ما في أيدينا من حمص إلى بلد باد ولا نذكر

فيه حديث من قد التمست تسليمه ولا غيره وتحلف بدينك وتوقع فيه خطك وتختمه بخاتمك بحضرتي ويخرج به صاحبك معي إلى الحضرة فإن رضي به وإلا عاد صاحبك. قال: فاكتب أنت شرطاً مثله. قلت: إن سلمت أنت شرطك بما طلبت. قال: إن ذكرت في خطك تسليم الرجل. قلت: لا أقدم على ذكر ما لم يُرسم لي. قال: فإنني أكتب شرطين أحدهما عما قطع الفرات وبلد باد والآخر بذكر حمص وحلب على الشرط فإن اختار مولاك ما قطع الفرات على إبعاد ورد كان إليه وإن اختار الآخر فعل ما يختاره. قلت: فيكتب الشرط ولا يذكر فيه شيء من هذا. قال: فتكتب أنت أيضاً ما أعطى خطاً بغير خط آخذه قلت: ولكن يكتب ترجمانك نسخة ما أقوله فإذا رضي عضد الدولة بما تقوله كتبته بحضرته ووقع فيه بخطه. فرضي بهذا وكتبتُ الشروط والكتب عليه وتقررت الهدنة على عشر سنين. ولما فرغت من ذلك قلت له: لا تجعل رسولك مثل فيج ووافقه على ما تحب أن يفعله بعد ما تقرر معي بحسب ما يشاهده وامض كلما يمضيه. فقال: قد فعلت. وكتب ذكر ذلك في الكتب.

وركب البركموس من داره لما برىء وقامت قيامته لأحوالٍ منها انفراد الكانكلي بصاحبه ومنها إتمام الأمر بغير حضوره ومنها أمر حلب وحمص وما ضمنه له كليب.

كلام لملك الروم استمال به قلب البركموس

قال له على ما حدثني به بعض خواصهم: يا بركموس ما معي أحد يشفق عليّ مثلك ولا من يحل مني محلك لأنك مني بأدنى نسب وسبب وهؤلاء فكما قال الرسول لا يبالون من كان ملكاً كنت أنا أو غيري ويجب أن تحفظ نفسي ونفسك ولا تسمع كلام القربلاط ولا تثق به ولا برأيه لنا فقد علمت ما حدثنا به إبراهيم عنه وعن ابنه من إضمار الغش لملكنا وخبث نياتهما في أمرنا. قلت لمن حدثني: ومن إبراهيم؟ قال: رسول كان للدمستق إليكم جاء إلى الملك ناصحاً وعرفه أنه أنفذه إليكم يطلب منكم إعانته على العصيان. فقبل البركموس هذا القول من ملك الروم واستدعاني ورأيت من خطابه وانبساطه معي غير الأول إلا أنه لم تكن تخفى على وجهه كراهية لهذا الأمر ورتّب معي هذا الكانكلي رسولاً بعد امتناعه لكن ملك الروم لم يجد أحداً يجري مجراه في ثقته فألزمه وساعده البركموس عليه فقال له: ليس بحضرة الملك أكبر مني ومنك فإنا أن تسير أو أسير. وجدَّ في الأمر حتى ظننت أنه فعل ذلك إيثاراً لإبعاده وحسداً لما رأى من اختصاصه.

فهذه نكت معان من ألفاظ ابن شهرام. وعضد الدولة عليل والناس عنه محجوبون فأمر بشرح ما جرى عليه أمره ليعرض (فإن علة عضد الدولة التي توفي فيها كانت في هذا الوقت) وحضر رسول ملك الروم المذكور مجلس صمصام الدولة بعد وفاة عضد الدولة

وتسلمت الهدايا منه وتمم معه ما ورد فيه وكتب شرطان أحدهما الهدنة التي قررها ابن شهرام على إتمام مبانيها وإلقاء مراسيها والشرط الآخر بما تقرر آنفاً مع نقفور.

ذكر ما تقرر في أمر ورد وأخيه وولده

جرت مخاطبات تقرر آخرها على أن يقيم نقفور وينفذ صاحباً له مع رسول من الحضرة ليأخذ خط ملك الروم وخاتمه لأخي ورد وابنه والأمان والتوثقة لهما بضمان الإحسان وإعادتهما إلى مراتبهما القديمة وأحوالهما المستقيمة فإذا وصل ذلك أقدما حينئذ على ملك الروم مع نقفور ويكون ورد مقيماً في هذه البلاد ممنوعاً من طروق بلد الروم بإفساد فإذا عرف ما يعاملان به من الجميل في الوفاء بالعهد المبذول لهما اتبعا حينئذ وردا في السنة الثالثة بعد أخذ التوثقة لهما بما يرضيهم حسب ما فعل مع ابنه وأخيه وأن يكون ما يحمله الآن ابن حمدان من حمص وحلب إلى ملك الروم من مال المفارقة عنهما محمولاً على استقبال إطلاق ورد إلى بلد الروم إلى خزانة صمصام الدولة فإن دافع ابن حمدان حينئذ عن حمل ألزمه ملك الروم ذلك لئلا يتكلف صمصام الدولة تجهيز عسكر إليه وأن يجري أمر بلد باد على ما كان عليه من الملاطفة التي كان يحملها إلى ملك الروم على أن لا يعاون باداً ولا يجيره إن التجأ إلى الروم. وأنفذ الشرطان جميعاً وعاد الجواب عنهما بإمضاء ما تقرر ثم تجدد في أمر ورد وإطلاقه من الاعتقال ما سيأتي ذكره من بعده.

وفي الثامن من شوال من هذه السنة توفي عضد الدولة وأخفى خبره.

وفي التاسع منه قبض على أبي الريان فلما قبض عليه أخذت من كمه رقاع مشددة ومنها رقعة فيها.

أيا واثقاً بالدهر غرا بصرفه ... رويدك أني بالزمان أخو خبر
ويا شامتاً مهلاً فكم ذي شماتة ... تكون له العقبى بقاصمة الظهر

فلما وقف أبو عبد الله بن سعدان عليها قال لحاجبه: امضِ وسله عنها. ففعل فقال: هذه رقعة أنفذها أبو الوفاء طاهر بن محمد إليّ عند القبض عليه ولست أحسن قول الشعر ولكن أقول لها كانت من أبي الوفاء من قبل.

ونختار الآن طرفاً من سيرة عضد الدولة ونورده ههنا عن ذكر خاتمة أيامه فإنه أحفظ لترتيب القول ونظامه.

أخبار من سيرة عضد الدولة

كان ملكاً كامل العقل شامل الفضل حسن السياسة كثير الإصابة قليل السقطة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي صائب التدبير محباً للفضائل مجتنباً للرذائل باذلاً في

مواطن العطاء كأن لا سخاء بعده مانعاً في أماكن الحزم حتى كأن لا جود عنده يستصغر الكبير من الأمر ويستهون العظيم من الخطب. وكان يقول على ما يحدِّث عنه: الأرض أضيق عرصة من أن تسع ملكين.

فأما أفعاله في تدبير نفسه وترتيبه في قسمة زمانه

فإنه كان يباكر دخول الحمام فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة ودخل إليه خواصه وحواشيه فجلس منهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف بحضرته ويضع دواته بين يديه ثم يؤذن لأبي القاسم المطهر بن عبد اللّه وزيره ومن قام مقامه بعده فيسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه فيخبره بذلك ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه في كل أمر فيوعز إليه بما يعتمده فيه ويفعل مثل ذلك مع أبي الحسن علي بن عمارة وأبي عبد اللّه بن سعدان عارضي الجيش ذاك للديلم وهذا للأتراك والأعراب والأكراد. فإذا ترحَّل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب ولها وقت معلوم تصل فيه وتُراعي من ساعات النهار فإن اتفق أن تتأخر قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم. ولقد ذكر بعض الطراد أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي. فتوقف بقدر ما أكل وتأخرت النوبة ذلك المدى فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة.

وقيل إن بعض أصاغر الحواشي حمل في النوبة من همذان في كتابة دنانير يسيرة إلى منزله وقد كان عادتهم جارية بذاك فقصرت عن أهلها وعرف عضد الدولة الخبر فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر للخرائطي آخذ الدنانير فأمر بقطع يده.

فإذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه ويخرج الباقي إلى ديوان البريد فيفرّق على أربابه. ثم يقرأ الكتب إليه كتاباً كتاباً ويطرحه إلى أبي القاسم عبد العزيز فإذا تكامل وقوفه عليها جدّد أبو القاسم قراءتها عليه فيأمره في جواب كل فصل بما يوقع به تحته وأخرج منها ما يأمر بإخراجه ليواقف عليه المطهر بن عبد اللّه أو من يجري مجراه في تذكرة وهي أبداً بين يديه يعلق فيها ما يعرض له. ثم يسأله عن الطعام عند فراغه من ذلك فإذا حضر الوقت الذي رسمه بالأكل فيه استدعاه فأصاب منه وطبيب النوبة قائم على رأسه وهو يسأله عن شيء شيء من منافع الأغذية ومضارّها ثم يغسل يده وينام فإذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والملهون.

ووافى أبو القاسم عبد العزيز فقعد بحضرته على رسمه وعرض عليه ما كتبه الكُتّاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة فربما زاد فيها أو نقص منها ثم تصلح وتختم وتجعل في اسكدارها وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها. ومتى غاب أبو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر في داره واحتيج إلى كتاب يكتب يستدعي كاتب النوبة فأجلس بين يديه وتقدم بما يرده إليه أو أملأه عليه وهو مع ذلك يشرب ويسمع الغناء ويسأل عما يمضي من أشعاره وما يجب معرفته من أخباره ولا يزال على ذلك إلى أن يمضي صدر الليل ثم يأوي إلى فراشه.

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء ولقيهم ببشر وتأنيس تعلوهما هيبة ووقار وأجاب كل ذي حاجة بما يجب في السياسة من بذل ومنع وتفرق الناس عند انتصاف النهار وأقام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس. فأما عموم الأيام فإن الأمر يجري على ما تقدم ذكره.

فيقال إنه مال في بعض الأيام إلى جارية ميلاً دعاه إلى أن خلا معها خلوة أطالها وانقطع بها عن مراعاة ما كان يراعيه من الأعمال فلما حاول النظر في ذلك من غد وجده قد تضاعف فشق عليه تلافي ما مضى. ثم دعاه الشغف بالجارية إلى أن خلا معها نوبة ثانية كالأولى في الإطالة فوقف من الأمور أكثر مما كان وتأمل الصورة فرأى الخلل قد استمر فأحضر شكر الخادم وتقدم إليه بأخذ الجارية وتغريقها فأخذها شكر وراعى ما عرفه من شدة وجده بها فاستبقاها ولم يحدث حدثاً في بابها فلما مضت على ذلك أيام قال له: يا شكر لقد عجلنا على تلك الجارية وكان التثبت أولى. فقال: يا مولاي قد واللّه تثبت في أمرها خوفاً من ندمك على ذهابها فاستبقيتها. قال: فرُدها إلى موضعها. فردها وعاود عضد الدولة الخلوة بها والانقطاع إليها وعاد الخلل إلى حاله السالفة فاستدعى شكراً وأمره بتغريقها وقال: ما يساوي طاعة النفس في شهوتها ترك الدنيا وإفساد سياستها. فغرقت ومضت إلى حال سبيلها. هذه الحكاية وجدناها في كتاب التاريخ كما سطرناها وهي حكاية مستفاضة قد سمعناها مختلفة النسبة إلى عدة ملوك واللّه أعلم بالصحيح.

وكان ضبطه لداره أشد ضبط ونظره في أمر الصغير من أمر الخزائن والمطابخ والإقامات والوظائف مثل نظره إلى الكبير من أمور الممالك فلا يطلق درهماً في غير وجهه ولا يمنع أحداً مما يستحقه.

فأما ما ذكر في أمر تدبيره لجنده فقد كانت أموالهم مطلقة في أوقاتها متتبعة في تصرفاتها وأكثر كتابهم وأصحابهم عوناً له عليهم وطبل العطاء يضرب في كل يوم ويحضر من ينتهي إليه الدعوة من القواد ومعه أصحابه بأحسن رتبة فقبض ماله والزيادات في الأصول محظورة على العموم إلا عند الفتوح وما تدعو السياسة إليه من استمالة

القلوب. فقيل إن طغان الحاجب (وكان أكبر الأتراك في دولته) راسل عضد الدولة وقد جرده إلى بعض الثغور وسأله زيادة عشرة أرطال خبزاً في خزانته فدفعه عن ذلك وحمل إليه خمسة آلاف درهم صلة وقال له: هذا ثمن ما استزدتناه للسنين الكثيرة ولو أجبناك إلى مرادك على ما طلبتنا به لا تفتح علينا باب لا يمكننا سده. وحدث أبو الحسن بن عمارة العارض قال: ورد إلى عضد الدولة فلان الديلمي (وأسماه) من أرباب البيوتات المذكورة بديلمان فأكرمه وعظمه وخلع عليه وحمله على فرس بمركب ذهب. واتفق أن دعا قائداً من أقاربه بالحضرة كانت له مروءة حسنة فشاهد من آلته ومروءته وزيِّه وتجمله ما كثر في عينه فاستقصر حاله عندما شاهده فأحضر كاتباً كان عضد الدولة قد استخدمه له وقال له: قد دعاني ابن عمي ورأيت من مروءته ما استحسنته وشاهدت عليه فرجية ورداء من حالهما كيت كيت وأريد أن تبتاع لي مثلها. فقال: نحتاج لثمن ذلك إلى ما تقصر عنه أيدينا في هذا الوقت. فقال: خذ المركب الذهب فارهنه. فصار الكاتب إلى عضد الدولة فعرفه ما جرى فاستدعاني (يعني أبو الحسن بن عمارة العارض نفسه) وقال لي: أحضر فلاناً القائد الذي دعا الديلمي الوارد من ديلمان. فأحضرته وعرفته حضوره فقال: اخرج إليه وقل له: ليس يكفيك بطرك بالنعمة الخالصة لك وتشاغلك بالترف عن الجندية وشروطها حتى تريد أن تفسد عسكرنا علينا وتعمل الدعوات وتظهر الزينة الآن قد ندبناك للخروج إلى البلد الفلاني فتأهب واخرج. قال: فلما أوردت عليه هذا القول قبَّل الأرض وتنصل وكاد يموت وانصرف على عزم الخروج. ثم رسم بعد ذلك إحضار الديلمي الوارد من ديلمان فلما حضر أمر أن يفرش له بساط منجرد ويطرح عليه صدر مثله وثلاث مخاد مخلقة ولبس جبة رثة وعمامة شهجاني وجلس وأوصل الديلمي وتشاغل عنه ساعة إلى أن علم أنه قد شاهد فرشه وثيابه وسأله عن حاله وخاطبه خطاب موانس له: أراك يا فلان تتأمل فرشنا وثيابنا ولعلك تقول: «كيف يقنع ملك الدنيا بهذا» نعم إن الشرف والجمال بالأصول والأفعال والمواقف في التدبير والحروب. والثياب الحسان والترفه والنعمة للنساء والمخانيث وتاللّه إن الرجل ليدخل عليّ وهو متصنع متعمل فأتصور أنه فارغ عاطل ويدخل وهو مقتصد مسترسل فأراه بصورة من له نفس وهمة. ثم حادثه بعد ذلك ساعة وانصرف (قال) وعاد الكاتب فقال له عضد الدولة: أي شيء جرى بعد انصراف صاحبك؟ قال: لما عاد من حضرة مولانا سألني عما كان واقفني على ابتياعه من الرداء والثوب للفرجية فأحضرتهما له فقال: ردهما على صاحبهما وارتجع المركب ورده إلى موضعه. فتبسم عضد الدولة.

وحدث أبو نصر خواشاذه قال: كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة فلما كان في آخر شهر قد بقي منه ثلاثة أيام استدعاني وقال لي: تقدم إلى الخازن في بيت المال بأن يزن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها إلى

أبي عبد اللّه بن سعدان ليحملها إلى نقيب الغلمان بالقصر. فقلت: السمع والطاعة. فأنسيت ذلك وسألني عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخاطبني بأغلظ خطاب فقلت: أمس كان استهلال الشهر والساعة تحمل المادة وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر. فقال: المصيبة بما لا تعلم ما في فعلك من الغلط أكثر منها فيما استعملته من التفريط ألا تعلم أنا إذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان مالهم وقد بقي في الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم وإذا انقضى الشهر ولمستهل الآخر حضروا عند عارضهم فاذكروه فيعدهم ثم يحضرونه في اليوم الثاني فيعتذر إليهم ثم في الثالث فتبسط في اقتضائه ومطالبته ألسنتهم فتضيع المنة وتحصل الجرأة ونكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح. ولعل عضد الدولة نظر في هذا الوقت إلى ما وجد في سيرة المعتصم رضوان اللّه عليه وهل ينكر لبني هاشم أن يقتدي بأقوالهم أو يهتدي بأفعالهم وهم الأصدقون أقوالاً والأكرمون أفعالاً والأشرفون أنساباً جبال الحلوم وبحار العلوم وأعلام الهدى وساسة الدين والدنيا وفرسان الحروب والمحاضر وأملاك الأسرة والمنابر إلى مكارمهم ينتهي الكرم وبمآثرهم تنجلي الظلم المعتصم بينهم المعتصم.

خبر مأثور في سياسة جند

يقال إن جنداً كانوا بدمشق فطالبوا عاملها برزق استحقوه وشكوا إليه ضيقة وحاجة فاحتج بأن المال الحاصل للحمل وأنه لا يقدم على أخذ شيء منه وسيقيم لهم وجوهاً من بعد ودعتهم حاجتهم إلى أن مدّوا أيديهم وأخذوا بعض ما يستحقون وكتب العامل على البريد إلى الحضرة بذلك.

وكان المعتصم بنيّة الغزو وقام يكتب جوابه وقال: انتفيت من الرشيد لئن لم يعيدوا المال الذي أخذوه ساعة وصول هذا الأمر لأجعلن وجه الغزاة إليهم ولأجعلنهم حصائد السيوف. فعاد الجواب أسرع ما يكون إلى العامل فأحضر الجند وقرأ عليهم الكتاب ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هو المعتصم وأنه يقول ويفعل. وتبادروا إلى رد ما أخذوه فما كان طرفة عين حتى اجتمع المال كأنه لم يبرح وسألوا العامل التنصل عنهم إلى المعتصم وذكر صورتهم التي أحلت في أمثالها المحرّمات فكتب بذلك إلى الحضرة فأمر المعتصم بالجواب وذم فعل العامل وتبين خطيئته كيف جنى على السياسة وجرأ الجند بتأخير أعطيتهم عن أوان وجوبها ويحذره أمثالها وأمره بإطلاق ما اجتمع لهم من مال استحقاقهم وإسلافهم عطاء آخر لحسن طاعتهم.

ونعود إلى ذكر ما نختاره من كتاب التاريخ

وحدث أبو الحسن ولد عمارة قال: دخل بعض الأتراك الخواص إلى ديوان

الجيش ومعه صك يريد أن يثبته فقال للكاتب: اثبته. فقال: أنا مشغول بعمل استدعاه الملك وما أنا متفرغ لعمل صكك اليوم. فأخذ الحساب من يده ووضعه في الأرض وقال له: قدم أمرى أولاً. فكتب صاحب الخبر بذلك في وقته فلم يستتم الكاتب إثبات الصك حتى استدعاني عضد الدولة وقال. قد جرى من فلان الديلمي كذا وكذا فاخرج إلى ديوانك واستدع الصك من كاتبك وحرّقه بين يديك وتقدم بأن تجر رجل الديلمي من موضعه إلى باب العامة ووكل به من النقباء من يطالبه بالخروج الليلة من البلد إلى ديلمان. ففعلت ذلك وتقدم فيما بعد إلا تعمل أعمال الجند ألا في أيدي المديرين

وقيل إنه كان رفع أسفار بن كردويه عن قبول الظلامات فيه ومطالبة كتّابه بحضور مجالس الحكم فيما يتعلق به إجلالاً له. وأن أحد التناء تظلم منه في معاملة ورفع قصة إلى عضد الدولة فوقّع على ظهرها: أخونا أبو زهير يرتفع عن مثل هذا الفعل والدعوى عليه بذلك باطلة. وأن التوقيع حمُل إلى أسفار فأنصف الرجل.

وحكي عن بعض التناء أنه قال: حصلت ضيعتي في أيام عضد الدولة في إقطاع أسفار بن كردويه وكان من الظلم على حال معروفة وكان عضد الدولة قد رفع عنه وعن زيار بن شهراكويه العدوي في كل فعل وتتابعت عليّ جوائح ولم تحصل لي ما يفي بالخراج فاجتمع لأسفار على ثلاثة آلاف وستمائة درهم اعتقلني بها وأساء إليّ وقيدني وأدخل يده في نيابتي فأقمت في حبسه سبعة أشهر. فأنس بي الموكل وعلم أن لا أتمكن من الهرب مع القيد الذي في ساقي فكان يستخلفني موضعه عند خلو الباب وانتصاف النهار ويمضي إلى منزله فيتشاغل بشغله ويعود. وضاق صدري فانتهى بي سوء الحال وشدَّة القنوط إلى أن اخترت الموت على الحياة فحملت نفسي في بعض الأيام عند مضي البواب وخلوّ الباب على أن خرجت أمشي بالقيد. وكان أسفار ينزل في دار صاعد بن مخلد بدرب الريحان والزمان صائف والماء ناقص فلزمت شاطئ دجلة حتى وصلت إلى الميدان الذي تحت دار عضد الدولة والناس يروني في طريقي فمن منكر لي يقول: «مجنون وقد أفلت» ومن عارف بي قد علم أني هارب. فلما وقفت في الميدان رأيت الستائر ممدودة وعضد الدولة قائم على الروشن وأنا لا أعلم وعلي بن بشارة الفراش على قرب منه فصحت ودعوت فبادر إليَّ علي بن بشارة وأومى إليَّ: «أن اسكت وصر إلى باب البستان». فصرت إليه وخرج إليَّ وقال: من أنت وما قصتك؟ فشرحت له حالي وظلامتي من أسفار فأجلسني عند البوابين وعاد وإذا به قد خرج فأدخلني وقال: إن الملك كان واقفاً وقت مجيئك وهو الذي رآك فإذا رأيته فقبّل الأرض بين يديه وأكثر الدعاء له. فمشيت وأنا أحجل في القيد حتى قربت منه في الموضع الذي شاهدته أولاً فيه فتداخلني من الهيبة والجزع ما لم أملك نفسي معه فقبلت الأرض مراراً

ودعوت له دعاء كثيراً وبكيت وسكت فقال لعلي بن بشارة: قل له حتى يشرح صورته. فقلت: ما لي لسان يطاوعني على القول لعظم ما قد تداخلني من الرهبة والخوف. فقال: تكلم ولا تخف. فقلت: إن أسفار قبض ضيعتي وطالبني بما لا قدرة لي عليه وحبسني في القيد منذ سبعة أشهر. فأطرق ساعة ثم قال لي: عد إلى دار أبي زهير وأعلمه أنك جئتنا وشرحت حالك لنا وإنا أمرناك بالعود إليه. فقلت: يا مولانا أخافه وجهلت في قولي هذا، فقال: لا تخف فأنا من ورائك وعد لتعرف ما ينتهي إليه أمرك. فقبلت الأرض وخرجت أجر نفسي وأحجل في قيودي حتى وافيت باب أبي زهير فإذا البواب قد عاد فلم يجدني وبث الركابية والغلمان في طلبي وعرف أبو زهير خبري فضرب البواب مائة مقرعة والدنيا قائمة على ساق. فلما رآني الغلمان صاحوا «هاهوذا» وقالوا: أين مضيت؟ فقلت: مضيت إلى الملك عضد الدولة فأوصلني وشكوت إليه أمري فأمرني بالعود إلى القائد وعدت. فلما سمع الغلمان ذلك ذكروه لأسفار فأحضرني وقال: أين كنت؟ قلت: يا صاحب الجيش لما ضاق صدري وغلب يأسي صبري قصدت باب الملك فوجدته قائماً على الروشن وبين يديه الأستاذ علي بن بشارة فدعوت له وشكوت إليه حالي فأوصلني وحدَّثته حديثي فأمرني بالعود إليك فقلت «أخاف أن أعود» فقال «عُد فإننا من ورائك» وقد جئت. فقال أسفار: تؤاخذ إذا. وأحضر من فك القيد وأعطاني عمامة وثوباً ومائة درهم وقال: انصرف مصاحباً. فقلت: ضيعتي. فقال: اخرج إليها وتصرَّف فيها ولا تطمع مستأنفاً في كسر خراجها. فدعوت له وخرجت من عنده فمضيت من فوري ذلك إلى روشن عضد الدولة وصحت ودعوت له فدنا خادم من الروشن وأومى إلى أن «تقدم إلى الباب» فتقدمت إليه وجاءني الخادم فقال: من أنت؟ فقلت: المحبوس الذي كان منذ ساعة بحضرة مولانا. وتقدم إلي بالعود فدخل وخرج إلى علي بن بشارة فأدخلني ورأيت الملك جالساً على عتبة البيت الذي بناه على دجلة وغلمان وقوف بالقرب منه فقبلت الأرض ودعوت له فقال: كيف جرى الأمر؟ فشرحت له الحال وأريته الثياب والدراهم التي أعطانيها أسفار فاستدنى علي بن بشارة وأسرَّ إليه شيئاً لم أسمعه ثم قال لي: كم عليك لأبي زهير؟ فقلت: ثلاثة آلاف وستمائة درهم قال: نحن نؤديها إليه عنك لتبرأ منها في ديوانه وتكون مقابلة له على الجميل الذي عاملك به. فقبلت الأرض ودعوت له وأخذ علي بن بشارة بيدي ودخلت إلى الخزانة فأخذ ثلاثة آلاف وستمائة درهم في كيس واستدعى أحد نقباء النوبة وقال له: امض مع هذا الرجل فاحمل هذا الكيس إلى أبي زهير أسفار وقل له «هذه الدراهم التي أنفذناها إليك لعوض عملك على هذا الرجل فأثبتها في ديوانك باسمه» فخرجت والنقيب معي والكيس معه وصرنا إلى دار أبي زهير ودخلنا إليه فلما وضع النقيب الكيس بين يديه وأدى الرسالة قام قائماً وقبل الأرض ثلاث دفعات وقال: أنا عبد وخادم وهذا مال

مولانا. وهب لي خمسمائة درهم وللنقيب خمسمائة وانصرفنا.

الذي مضى في هذين الخبرين هو تدبير لطيف وتوصل جميل إلا أن رفع العدوى عن أحد الأتباع وإن كان عظيم القدر مضر بالسياسة أي إضرار والقاعدة إذا وضعت على ذلك كانت «على شفا جرف» هار. ولقد رأينا في زماننا من سياسة ملك الإسلام عضد الدولة البارسلان رحمه اللّه وكان أقوى جنداً ما هو أوفى جداً. وأين كان من الملوك من يصول كصولته ويهاب كهيبته! ونقتصر ههنا على إيراد خبر واحد من أخباره التي ينتهي القول بنا إلى ذكر أيامه بمشيئة اللّه سبحانه.

ذكر خبر في إقامة سياسة

حكي أن غلاماً خصيصاً بسنكلو أخذ من بعض المزارعين بطيخاً على قارعة الطريق بغير رضاه وانتهى الخبر إلى عضد الدولة رحمه اللّه فطلبه فأخفى شخصه رجاء أن يسكن غضبه ويعفو عنه أو يقتصر من عقوبته على السوط دون السيف. فاستدعى بسنكلو إلى بين يديه وأقسم لئن لم يحضر الغلام ليقيمن السياسة فيه بدلاً عنه (وسنكلو يومئذ صاحب الجيش ومعه جمرة العسكر وأمره قوي وجانبه منيع وهو أشد الترك بطشاً وأخشن الجند جنباً) فملكه الرعب وكان قصاراه البدار بإحضار الغلام فلما أحضر وسّطه بالسيف وأجرى الفرس بين شلويه على سنة لهم في قتالهم. ويوشك أن يكون لهذه السياسة باطن بأن تكون قد سبق للغلام جريمة يستحق بها القتل وأتبعها بهذه الصغيرة التي يجري في مثلها التعزير فقتله عضد الدولة رحمه اللّه بالجريرة الكبيرة التي أوجبت قتله وأظهر للعامة أنه قتله بصغيرته الظاهرة لهم اقتداء بخبر وجدته في بعض الكتب مروياً عن المعتضد باللّه رضي اللّه عنه وهو أنه كان سائراً في موكبه فتظلم أحد الرعية من بعض الجند فيما يقارب قصة البطيخ فأمر بإحضاره وسحبه إلى السجن وحبسه إلى أن يعود إلى مستقر عزه فيأمر فيه. فلما كان في اليوم الثاني وأصبح الناس رأوا رجلاً مصلوباً فتحدثوا بقتل الجاني بالأمس وصلبه. فدخل أحد خواص المعتضد إليه وقال له عند خلو مجلسه: يا أمير المؤمنين قد كان التعزير فيما جرى يقنع من غير صلب. فقال له: أتعرف الرجل. قال: نعم. قال: فامض إلى السجن فانظر. فلما دخل رأى الرجل حياً وهو مقيد فعاد وقال: قد وجدته حياً. قال المعتضد: إنما أمرت بإخراج غيره من المفسدين الذين قطعوا الطريق وأخذوا المال وقتلوا ووجب صلبهم فهو الذي رأيتموه مصلوباً وظهر للعامة أن المصلوب هو الجاني بالأمس إيداعاً للرهبة في قلوبهم فما تعديت حدود اللّه. ولقد وُفق المعتضد باللّه رضي اللّه عنه وهل يدافع عن حسن سياسة يضرب بها المثل؟

وبلغني أن بعض أمراء مصر كثر المفسدون في أيامه فقتل وتعدّى حدود اللّه التي أتت بها الشريعة فتضاعف الفساد حتى وقف أمره فأشير عليه باتباع الشرع فأحضر أحد

الفقهاء المجتهدين وشاوره واستفتاه وعرض عليه من في السجون وذكر له أحوالهم فافتاه بما أمر اللّه تعالى به فأقام الحدود فيهم بالعدل من غير زيادة ولا نقصان وسلك هذه الطريقة الحميدة فيمن ظفر به من المفسدين فما مضى من الزمان إلا قليل حتى استقامت له الأحوال فانقطع الفساد فأمنت البلاد وليس للمخلوقين أن يحتاطوا بصلاح الأمة بزيادة على أمر الخالق رب العالمين سبحانه وتعالى.

وما أحسن سيرة هذه الدولة التركية فإن مندوباً للمظالم قد وسموه «بأمير داذ» معناه أمير العدل يجلس للمظالم وإلى جانبه حاكم من أهل العلم يرجع ذلك الأمير إلى رأيه وكلمه وينفذ ما تأمر الشريعة في الجند والرعية. وكل عبد من عباد اللّه تعالى في إمداده بحسن التوفيق لم يهذِّب بسياسة الأقرب فالأقرب ولم يذلل بهيبته الأصعب فالأصعب. نسب إلى احدى خطتين إما ظلم في طبعه وإما عجز في نفسه وكلتاهما غير حميدة. لم يكن مثل ذلك يخاف على عضد الدولة بن بويه مع كمال فضله ولعله سمح لأسفار وزيار بهذا الفعل أن الخبر صحيح لمداراة عاجلة ليتلافاها من بعد بسياسة شاملة فإن غوره كان بعيداً وصبره لمداواة كل خطب عتيداً. وهو من الملوك الذين لا يقدح الثلم في سياستهم بحال ولا يجد العيب في سيرهم أدنى مجال.

ونعود إلى سياقة الأخبار

حدث أبو اسحاق إبراهيم بن هلال الصابي قال: لما ورد عضد الدولة في الدفعة الثانية خرجت لاستقباله إلى المدائن وخدمته وخفت أن يتطرق على داري الشاطئة الترك في سورة الدخول لأنني من حواشي البختيارية وسألته انفاذ من يحرسها فأنفذ معي أحد النقباء الأصاغر وتقدمت عائداً والنقيب معي. فكان يمضي أكثر النهار في أشغاله فاتفق أن هجم على الدار أحد القواد الأكابر وطرح أصحابه أحمالهم وفرشوا فرشهم وربطوا دوابهم وتقدموا إلينا بالانتقال فأيسنا من دورنا ومضى غلماني يطلبون النقيب فلما حضر سلم على القائد وقبل يده ووقف بين يديه وأخذ يحادثه ثم قال له الديلمي: فيم جئت؟ قال: أنفذني الملك لأحفظ هذه الدور ممن يتعرض لها. فقال له: هذا كاتب من أصحاب بختيار فأيُّ شيء بينه وبين الملك؟ قال: كان يخدمه وله موضع عنده. قال أبو اسحق: فواللّه ما استتم النقيب كلامه حتى نهض القائد الديلمي ورمى بكرسي كان جالساً عليه وقال لغلمانه: ارفعوا. وركب في الحال وخرجوا بعده فما رأيت هيبة أعظم من هيبته.

وأما ذكر ما فعله في أمر الحماية

فإنه حمى البلاد من كل مفسد وحفظ الطرق من كل عائث وهابه الحواضر والبوادي.

وكان منه في قتل داود بن مصعب العقيلي آمر بني عقيل وسيدها بأبي القاسم بن الباهلي ما شاع ذكره

ذكر مكيدة في قتل داود بن مصعب

وكان من خبره أن عضد الدولة أنفذ أبا القاسم بن الباهلي إلى داود برسالة يدعوه فيها إلى الطاعة والدخول إلى بغداد وضم إليه عشرين رجلاً من الحمدانية وواقفه على الفتك أن وجد غرة منه. فلما حصل عنده وكان نازلاً بالقرب من سنجار أورد عليه ما تحمله ورغبه في الخدمة فقال له داود: أما الطاعة فأنا ألزمها وأما الدخول إلى الباب فما جرت لي عادة به. فلم يزل يراوضه وهو مقيم على أمره فيما بذله وامتنع عنه. وعول ابن الباهلي على اغتياله وواقف فراشاً كان معه على ذلك وطلب الغرة فوجدها عند رواح الجمال والبقر والغنم فإن الصياح يكثر والرجال والنساء مشغولون بإبلهم ومواشيهم وضمها إلى بيوتهم وحلب ألبانها فعمل على فعل ما يريد فعله في هذا الوقت واستأذن على داود في بعض العشايا وحضر عنده وأخذ فراشه معه وقد خرج إليه بسره ورسم له أن يمسك داود إذا خلا مجلسه وغمزه بعينه واستصحب سكيناً ماضية في كمه. وراحت الإبل والمواشي فارتجت الحلة بأصواتها وضوضاء الناس وحادثه ساعة ثم غمز الفراش فوثب وأخذ يدي دواد ومسكهما وضربه ابن الباهلي بالسكين في صدره وكرر ذلك حتى أصاب مقتله وخرج غير عجل ولا مضطرب والفراش خلفه طالباً للصحراء والبعد عن البيوت كأنه قاضي حاجة وقد أعد له وللفراش فرسين فركباهما وسارا سيراً رفيقاً حتى أوغلا في الصحراء ثم حثا وعدلا عن طريق الموصل وتعسفا الطريق إلى برقعيد ونزلا منها إلى دجلة وانحدرا في سفينة. ودخل أصحاب داود عليه بعد ساعة فوجده طريحاً قتيلاً ولم يجدوا ابن الباهلي فعلموا أن الفعل له ومضى قوم من الفرسان يتبعون أثره في الطريق المؤدية إلى الموصل فلم يجدوه فأخذ من كان معه من الحمدانية فقتلوا صبراً ومضت على ذلك السنون وقتل ابن الباهلي بالكوفة قتله بنو عقيل.

وقد قيل «كل قاتل مقتول» وهو أسهل الأمرين لأن ما جاء من الوعيد في القرآن وفي الآثار عن رسول الله ﷺ لمن قتل نفساً بغير حق مع ما يلقاه في الدار الآخرة أشد نكالاً وأعظم عقاباً وأدوم عذاباً نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

وذكر أبو الحسن محمد بن عيسى الهيتي قال: أخرجت إلى هيت لتقرير ارتفاعها وارتفاع الأنبار على أبي العلاء الحسن بن محمد الأسكافي فورد علينا في بعض الأيام كتاب من عضد الدولة يرسم فيه المسألة عن أعرابي من بني عقيل تناول شيئاً من بعض زواريق المعادن والمطالعة باسمه وحاله. فأحضرت الملاحين وسألتهم عن هذه الحال فلم يعرفوها فكتبت بذلك وورد الجواب بأن نزيد في البحث فلم أزل أتعرف وأسأل كل

واحد حتى ذكر لي بعض الملاحين أن فلاناً العقيلي اعترض سفينة من سفن المعادن وهي مصعدة والتمس من بعض المدادين قطعة من شاروفة فأخذها قهراً من صدره وأنه لم يجر سوى ذلك فأحضرنا المسيب بن رافع وطالبناه بالأعرابي فقال: ما تريدان منه. فأعلمناه أن الملك طلبه. قال أبو الحسن الهيتي. وكان بيني وبين المسيب أنسة ومودة فأقسم على أن أطلعه على الصورة فذكرتها له فانصرف واجماً وغاب عنا يومين ورجع ومعه جماعة من أهل المطلوب وبني عمه وسألونا الإمساك عنه وانتهى الأمر فيما بيننا وبينهم إلى أن تصححوا ذنبه. قال أبو الحسن: فلم أتجاسر على مكاتبة عضد الدولة بذلك وكتب به أبو العلاء وعنده أنه قد أثر أثراً منه فعاد الجواب إليه بإنكار ما كان منه في قبول ما قبله من المال وإطماع القوم في الرضاء عنهم وأن الغرض حسم مواد الفساد في الطرق وقيل له فيما خوطب به: لولا أنها أول جناية لك لأنفذنا من يحسن تقويمك وتأديبك. وكوتبت أنا بالتماس الأعرابي وأخذ المسيب بتسليمه وإطماعه وإطماع بني عمه في الصفح عنه إذا سلموه فأعدتُ خطاب المسيب والقوم في إحضار الرجل فأحضروه وسلموه فاعتقلته وكتبت بحصوله فورد الكتاب بأن أطالبه بالشاروفة التي أخذها فإذا أحضرها خنق بها في الموضع الذي أخذها منه وصلب ففعلت ذلك. ثم راسل عضد الدولة المسيب ووجوه بني عقيل بأنه! متى لم يضمن أكابركم أصاغركم ويلزموا عهدتهم ويضبطوا الطرق ويحموا مواد الفساد صرفناكم من ممالكنا. فحملهم الخوف على العبور إلى الجانب الشامي وأوغلوا في البرية.

ومن العجب من حسن سياسة عضد الدولة إطماع المطلوب في الصفح عنه إذا حضر وإطماع بني عمه في مثل ذلك إذا أحضروه ثم الغدر به بعد تسليمه. قال اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤] واستجابة الرجل إلى الحضور طمعاً في الأمان قبل القدرة عليه هو توبة فالغدر به بعد بذل الإطماع في العفو قبيح إن كان ما ذكر في هذه القصة صحيحاً.

ومن بعض توصله ما وجدنا في عين التاريخ وهو أن عضد الدولة أنفذ أحمالاً من الأمتعة إلى مكة مع تجار أو حاج فلما انتهوا إلى بعض الطريق عند بعض أحياء العرب خرج عليهم قوم منهم فقطعوا عليهم فقال المأخوذ: هذه الأحمال لعضد الدولة الملك. فسبوه عند ذكره وعاد المأخوذ إلى حضرة عضد الدولة وحكى ذلك. فتقدم بعمل شيء كثير من الحلاوات المسمومة وأعاد المأخوذين وأصحبهم أمتعة وجعل تلك الحلاوة المسمومة في جملتها وقال: : : تعمدوا لقاء القوم فإذا وقعوا عليكم فقولوا «إن هذه الأمتعة والحلاوات أنفذها عضد الدولة لفقراء مكة» فإذا أخذوا الأحمال فعودوا لوقتكم. ففعلوا ذلك وصادفوا القوم فأخذوا ما صحبهم وأكلوا من تلك الحلاوات فهلكوا.

فإن كان هذا الخبر صحيحاً فإنه كيد يأباه كل ذي دين ويأنف منه كل سلطان مكين فذو الدين يراه من أعظم الآثام وذو السلطان يراه عجزاً وضعفاً في الانتقام. وفيه تغرير نفوس من لا ذنب له فهل كان يأمن أن يأكل من ذلك النساء والولدان ومن عسى أن ينزل بالحي من ضيف بريء الساحة قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]. واستفتى رجل ابن عباس رضوان اللّه عليه في قتل أولاد المشركين فقال: إن علمت منهم ما علمه الخضر عليه السلام من الغلام الذي قتله فاقتلهم إيجاباً للحجة عليه بأنه لا يجوز له قتل من لم يبلغ الحلم منهم.

ومن غَريب مكايده التي تتداولها الألسن ما كاد به طائفة من القفص والبلوص حين أوغل في بلاد كرمان لتنظيفها منهم فإنه انتهى إليه أن قوماً منهم بيوتهم من وراء جبل بحيث لا يمكن الوصول إليهم إلا بعد سلوك مضيق إذا وقف فيه عدد قليل منع عسكراً كثيراً فلما أيس من الوصول إليها بالقوة أعمل الفكر في الحيلة وراسلهم بأني لا أنصرف عنكم إلا بأتاوة. فقالوا: ما لنا مال نؤديه إليك. فقال: أنتم أصحاب صيد وأريد من كل بيت كلباً. فهان عليهم ذلك فأنفذ من عدَّ بيوتهم فأخذ منهم كلاباً بعددها. ومن شأن الكلب أن يلوذ بصاحبه ويبصبص له وحوله. ويحتك به ويألف بيته حتى أنه إذا أفلت من فراسخ كثيرة عاد إلى مربضه. فأمر بأن يشد في أعناقها حلق النفط الأبيض وتجتمع عند مضيق الجبل ثم تضرب النار في النفط ويخلى سبيلها ويتبعها العسكر ففعلوا ذلك وأسرعت الكلاب عدواً وأحس القوم بركوب العسكر فلقوهم في المضيق وطلب كل كلب صاحبه لائذاً به من حرق النار فكلما احتك بالرجل أسرت النار إليه وأفرجوا عن الطريق والكلاب تتبعهم وتعدّت النار إليهم فاحترق عدد كثير منهم. وهجمت الكلاب على البيوت فخلا أهلها وأسرع العسكر وراءهم ووضعوا السيف فيهم واستأصلوا شأفتهم.

فأما ما أقامه من الهيبة وأودعه صدور الرعية من الرهبة فإنه كان قد منع كل واحد من حمل السلاح بالحضرة إلا من كان مستخدماً في المعونة أو مرتبطاً في جملة الرجال المرتزقة فإن وجد مع غيرهم سلاح أخذ وحبس وألزم جناية وحظر أيضاً أن يضرب واحداً واحداً أو يمد إليه يده فمن فعل ذلك أخذ وعوقب وحبس وأغرم فكانت أيدي الناس مقبوضة. قال صاحب التاريخ: وإنني لأذكر في درب أبان من الجانب الشرقي وأبو إسحاق جدي إذ ذاك في الاعتقال وكان في هذا الدرب رجل شيرازي رث البزَّة يذهب في أمره مذهب التطايب ويضحكنا إذا جلس معنا فبينما هو في بعض الأيام قاعد مع والدي على باب دارنا ومعنا رجل يعرف بابن مواتة من أولاد الشهود والجيران إذ اجتاز بائع رمان فدعاه ابن مواتة وسامه وجرى بينهما ما رفع له ابن مواتة يده فلطمه.

فقبض الرجل الشيرازي يده على كم ابن مواتة وقال: قم إلى دار الملك. قال له: أصنع ماذا؟ قال: أطالع بما فعلته من لطم الطواف ويؤخذ بحقه منك ثم يجري حكم السياسة فيك. لقد مات ابن مواتة خوفاً وجزعاً وعطف والدي على الشيرازي يسأله الإمساك والطواف يقول عندما شاهده من الحال: قد وهبت وسامحت. وهو يقول له: إذا وهبت حقك وهب السلطان حقه. ويقول لوالدي: لا أتمكن من الإمساك لأن خبرنا قد رفع الساعة إلى الحضرة وإذا أمسكت صار لي ذنب أهلك به وتنقطع معيشتي وأنا أرتزق رزقاً سلطانياً على نقل هذه الأشياء. وانتهت الحال إلى أن قبل والدي وابن مواتة يده فخلى عنه وقال: قد دخلت معكم في خطر أسأل اللّه تعالى السلامة منه. وصرنا بعد ذلك نخافه ونرهبه. وكان معلمو الصبيان موافقين على أن يسألوا أولاد الجند الذين في مكاتبهم عن أمور آبائهم ومتصرفات أحوالهم في منازلهم ويكتبون بذلك إلى ديوان البريد ولهم على ذلك رزق دارٌ.

ذكر حيلة لطيفة عادت بإقامة هيبة عظيمة بين رعية بعيدة خبر الحلاوي

كان أحد جواسيس عضد الدولة العائدين من مصر ذكر لعضد الدولة في جملة ما أخبر به أنه تقدم إلى شيخ حَلاوي في زقاق القناديل بمصر فدفع إليه درهماً تاجياً ليبتاع به شيئاً مما بين يديه فردّه عليه وتنازعا فيه فشتمه وشتم الآمر بضرب الدرهم وأنه سأل عن اسم الحلاوي حتى عرفه وسماه. قال أبو عبد اللّه بن الحسين بن محمد الحلاوي الموصلي: بينما أنا في منزلي في بعض الليالي إذ طرق بابي نقيب ومعه نفَّاط فجزعت منه وخرجت إليه فقال لي: ابن محمان يستدعيك. فمضيت معه إليه فلما حضرت بين يديه وجدت عنده فراشاً من دار عضد الدولة فقال لي: إن مولانا سأل عن صانع حاذق فوصفت له ورسم إنفاذك إلى الدار فصر مع هذا الفراش إليها. فقلت السمع والطاعة. فنزلنا سمارية من سماريات النوبة كانت مقدمة في المشرعة وانحدرنا وصعدنا إلى الدار فوقفني في الصحن ودخل ثم خرج فأدخلني إلى الحجرة التي في ظهر القبة الخضراء وإذا عضد الدولة جالس وشُكر قائم فلما رأيته قبلت الأرض مراراً فقال الملك: قد أزعجت فلا بأس عليك وما دعوناك إلا لخير. فقبلت الأرض ثم قال: قد احتجنا إلى استخدامك في أمر تنفذ فيه إلى الموصل وتقدمنا بإطلاق نفقة لك تخلفها لعيالك فخذها من أبي الثناء (يعني شكراً) فقلت: السمع والطاعة. فقال: انصرف وانظر في أمرك وادفع النفقة إلى أهلك ولا تعرض أنت لأخذ شيء منها فما بك في طريقك حاجة إليها. فخرج شكر وأعطاني عشرين ديناراً وانصرفت بها إلى أهلي وذكرت لهم الصورة ووصيتهم بما أريد. فلما كان من غد آخر النهار وحضر من يستدعيني فصرت معه إلى

الدار ووصلت إلى حضرة عضد الدولة بين العشاء والعتمة فقال لي: اخرج في هذه الساعة مع من نسلمك إليه إلى مصر فإذا حصلت بها فاقصد باب الجامع وسل عن منير الخادم الأبيض فإنه يكون هناك يبيع الفراخ المسمنة وهو معروف فإذا رأيته فقل له: «صديقك يقرئك السلام» فسيقوم من موضعه ويمشي فاتبعه إلى منزله فإذا دخلت فانزع ثياب سفرك التي عليك والبس الثياب التي يسلمها إليك وخذ منه ما تريده لنفسك واقصد بعد ذلك زقاق القناديل فإنك سترى شيخاً حلاوياً اسمه كذا ويعرف بكذا فاسأل عنه لتتحقق أنه هو ثم اجلس عنده فاذكر له صنعتك ومعرفتك بأمر الحلواء وتوصل إلى أن تعمل عنده من يومك والزمه وخفف مؤنتك عليه وإن دعاك إلى منزله فامض معه فإذا عملت معه خمسة عشر يوماً أو أكثر وعرفك الناس واشتهر عنك جودة الصنعة فاستأجر بإزاء دكانه دكاناً وابتع ما تريده من آلة ومتاع واستدع ثمن ذلك من منير الخادم فإن زبون الحلاوي سيعدل إليك ويقف أمره ويسألك الشركة فإذا سألكها فأجبه إليها وشاركه وأقم فيها معه شهراً. ثم أظهر له شوقك إلى بغداد وإلى عيالك الذين بها وصفها عنده وعظّم الكسب بها في عينه وابعثه على الخروج إليها وعده المواعيد الكثيرة فإن احتج عليك بأهله وولده فقل له: «معي دنانير وأنا أدفعها إليك لتجعلها نفقة لهم مدة غيبتك عنهم» واعلمه أنك تفعل ذلك إيثاراً لصحبته وأنه إذا حصل ببغداد أنزلته دارك وجعلته في دكانك وأعطيته قسماً وافراً من الربح مما تتجر فيه من مالك فإن أحب بعد ما يشاهده المقام أقام وإن آثر العود إلى مصر زوَّدته من طريق العراق ما يعود به إلى أهله واجهد في حمله معك إلى حضرتنا واخدم في ذلك خدمة تحظ بحسن العاقبة فيها وتناول من منير ما تحتاج إليه لنفسك وله واحفظ السر واحترس من حيلة تتم عليك واجتز على طريق الموصل في عودك. فلما سمعت ذلك كله قلت: السمع والطاعة وأرجو أن يوفقني اللّٰه لما أهّلت له. فأخذ شكر بيدي وعدل بي إلى موضع ونزعت ثيابي وألبست مبطنة ودفعت إليَّ عشرون ديناراً وقال: هذه نفقة طريقك. ثم استدعى أعرابياً اسمه حسان جالساً في الصحن وسلمني إليه وقال له: هذا الرجل فاحفظه وأوصله إلى حيث وقفت عليه. فأخذ الأعرابي بيدي ونزلنا فجلسنا في سمارية من سماريات النوبة وصعدنا باب خراسان ومشينا إلى وجه الجامع فإذا هناك أربعة أجمال ورجلان من العرب وركبا وركب الأعرابي وركبت وسرنا وما زلنا من موضع إلى موضع آخر حتى وصلنا إلى مصر في سبع وعشرين ليلة فحطني القوم وقال لي صاحبي منهم: امض في حفظ اللّٰه وهات علامة بوصلك. فقلت: العلامة إن مولانا قال لي: «إذا عدت فخذ على طريق الموصل» ولا واللّٰه ما سألوني من أنا ولا في أي شيء توجهت.

وقصدت باب الجامع فإذا الخادم الأبيض فسلمت عليه وقلت له ما وصيت به

فرحب بي ونهض معي في الحال إلى منزله ونزع ثيابي وأعطاني ثياباً نظافاً من عنده. وجرى الأمر مع عضد الدولة مدة مقامي بمصر على ما كان مثله عضد الدولة حتى كأنه حاضر معنا وما زلت أرفق بالحلاوي وأعده وأمنّيه حتى أجاب إلى الخروج. فعدت إلى الخادم وودّعته ونزعت الثياب التي أعطانيها ولبست المبطنة التي وصلت بها وأخذت نفقة وتوجهت أنا والشيخ الحلاوي معي وما زلنا ننتقل من مكان إلى مكان حتى وصلنا الموصل وأقاربي بها فنزلنا عند بعضهم. واستأجرنا في كورة البريد وما زلنا ننتقل إلى أن وصلنا إلى بغداد وانحدرنا إلى منزلي والشيخ معي لنجدد الوضوء ونصلي ونعبر. فما استقررت حتى حضر نقيب من الدار يستدعيني ومن معي فعجبت من ذلك وكان صاحب الخبر قد كتب يخبرنا فبادرت ومعي الشيخ وعبرنا إلى الدار وجلسنا في موضع منها إلى أن خلا وجه عضد الدولة. ثم أدخلت والشيخ معي وقد طار لبه وعظم رعبه وهو يحتسب اللّه عليّ وأنا أسكن منه وقد تداخلني له الرحمة الشديدة وعدل بي إلى موضع فيه شكر فنزعت ما كان عليّ من الثياب وأنا أراها قد أخذت وحملت إلى حضرة الملك فأعطيت ثيابي التي نزعتها عند خروجي ومثلت بين يديه أنا والشيخ فقال: كيف جرى الأمر؟ قلت: كما مثله مولانا. قال للشيخ: أأنت فلان بن فلان الحلاوي؟ قال: نعم. قال: لا تخف وإن كنت قد أسأت إلى نفسك وجشّمتها السفر عن منزلك بالفضول من قولك وفعلك. فبكى الشيخ بكاء شديداً فتركه قليلاً ثم قال: يا هذا هبك رددت الدرهم الذي من ضربنا ولم تحب أخذه من الرجل الغريب الذي وقف بك فما بالك شتمته وشتمت الذي أمر بضربه؟ ولولا أن في تأديبك والفتك به وأنت شيخ غريب ولعل وراءك من يتوقعك ومادته منك بعض الإثم واللوم لأمرنا بتقويمك لكنا تهب جنايتك لمن خلفك من عيالك وقد تقدمنا بإطلاق نفقة لك تردك إلى بلدك فلا تعاود مثل ما كان منك وتحدث في بلدك تصفحنا عنك وعن جرمك ومنتنا عليك. فبكى الشيخ حتى كاد يموت ولم يكن له لسان يجيب به وخرجنا وأعطاني شكر عشرين ديناراً وقال: اصرفها في نفقتك. وأعطى الشيخ دنانير وحملته إلى منزلي وأكرمته واستأجرت له ما ركبه في بعض القوافل إلى الموصل. فذكر أن الشيخ لما عاد إلى مصر تحدث بحديثه وشاع ذلك هناك فكان الغريب إذا جلس إلى بعض أهل البلد صاحوا: الحذر الحذر. فتمسك الناس عن ذكر عضد الدولة وقال الحسين الحلاوي: كانت في المبطنة التي لبستها ملطفات وما علمت بها إلا بعد عودي.

وأما ذكر مراعاته للقوانين وحفظها في الأحوال جميعاً فإنه كان لا يعول في الأمور إلا على ذوي الكفايات ولا يقضي فيمن لا غناء عنده حقوق ذوي الشفاعات ولا يجعل لمن حوله من ذوي المناصب ولا لأحد من الأقارب والأباعد مساغاً في الجنس

المفوض إلى كل فرقة منهم ويجري الأمر في ذلك على أحسن نظام ويزمه بأحسن زمام. قال أبو محمد الحسن بن أبي الفرج بن مسلمة الشاهد قال: أحب أبو العباس محمد بن نصر بن أحمد بن مكرم الشاهد أن تقبل شهادة أبي يعلى محمد ابنه وكان أبو عمر محمد بن عبد اللّه بن أيوب القطان صهره على ابنته ومعاملاً لأبي زهير أسفار بن كردويه ومختصاً به. وقال أبو العباس لأبي عمر: أنا أعلم نبوك عن أبي يعلى ابني لما تنكره من أخلافه وقد أحببت أن تقبل شهادته وشرعت في أخذ الخطوط بتزكيته وهذا أمر هو في يدك فإن ساعدتني عليه مشى وإن وقف فما يقف إلا بك. فقال له: واللّه لا تركت ممكناً. فقال أبو العباس: القائد أبو زهير كثير القبول منك قليل الخلاف عليك وإن خاطب عضد الدولة على ذلك مع حصول التزكية لم يقع امتناع عليه فيه وأريد أن تجعل هذه الحاجة أكبر حوائجك إليه. فقال: افعل. قال أبو عمر: فدخلت إلى أسفار وقلت له يا صاحب الجيش قد خدمتك الخدمة التي وجب بها الحق لي عليك ولي حاجة فيها قيام جاهي في البلد قد جعلتها ثمرة أملي فيك. فقال لي: ما هي؟ فقلت: أبو العباس يريد أن تقبل شهادة أبي يعلى ابنه واستشفع بي إليك في خطاب عضد الدولة. فقال: افعل وقد جرت العادة فيما بيني وبين الملك بأن أراسله فيما أريدهُ على لسان ثقة. وأحضر الرجل الذي أشار إليه فحمله في ذلك رسالة استوفاها فمضى وعاد وقال: يقول لك الملك: ما لك وللخطاب في مثل هذا الأمر؟ قال أبو عمر: فاستدعاني أسفار حتى سمعت الجواب فقلت: يا صاحب الجيش واللّه ما يقبل مني أبو العباس ذلك ولا يقدر إلا أني قد قصرت في مسألتك مع علمه بموضعي منك وموضعك من الملك وأنك لا ترد في الكبير فضلاً عن الصغير. فقال: ما جرت لي عادة بمعاودته ولكني أعاوده بعد أيام. ومضت على ذلك مديدة فأعاد الرجل الرسالة وجدد السؤال فعاد مثل الجواب الأول. فأظهرتُ الوجوم والانكسار ومضت أيام وهو يراني كاسف البال فقال لي: يا أبا عمر قد عملت على الركوب إلى الدار في غد. ووصل إلى حضرة عضد الدولة ووقف ساعة ثم قال: قد راسلت مولانا في أمر أبي يعلى بن مكرم دفعتين وعاد الجواب يرسم فيه الإمساك ولي في تمام هذا الأمر جاه والقوم الذين سألوني في ذلك في اختلاط وأمل قوي ومتى وقف انكسر جاهي عندهم وعند الناس. فضحك وقال: يا أبا زهير ما لك وللخطاب في مثل هذا وفي الشهادة والشهود؟ إنما يتعلق بك الخطاب على زيادة قائد أو تقويد خاصة نقل رتبة إلى رتبة فأما قبول الشهادة فليس لنا ولك قول فيه وهو متعلق بالقضاة ومتى عرفوا من إنسان ما يرون معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير أمر ولا شفاعة شافع إليهم وإلينا وإذا أقمت عذر نفسك عند من سألك بمثل ما قلنا لك عرف صحة ذلك. وانصرف أسفار بهذا الجواب وحدث أبا عمر به ووقف الأمر في قبول شهادة أبي يعلى إلى أن توفي عضد الدولة.

وأما ما ذكر من صدقاته ومبرّاته وما تأدى ذلك من فضل احتياطه ومراعاته فإنه كان يخرج عند افتتاح مال كل سنة شيئاً كثيراً في البر والصدقة ويكتب إلى العمال في النواحي بتسليمه إلى قضاتها ووجوه أهلها ليصرفوه إلى ذوي الحاجة والمسكنة قال أبو نصر خواشاذه: أعطاني عضد الدولة في بعض الأيام توقيعاً على أنه بثلاثين ألف درهم للصدقة ورسم وزن ذلك وتفرقته بحسب ما جرت به العادة وكان قد غلط وكتب «يخرج من الخزانة ثلاثون بدرة للصدقة» فرددته وقلت: يا مولانا المال ثلاثون ألف درهم والتوقيع ثلاثون بدرة فقال أرنيه، فقال: لن أعود فيها فأخرجها فأخرجتها فأطلقت في الصدقات.

وقد شوهد في كثير من تذاكيره وما كان يوقعه في تقاويمه «نذرنا للأمر الفلاني كيت وكيت وكذا وكذا ألف درهم للصدقة» في مواضع كثيرة فكان لا يهم بعزم ولا يكون في سرور أو همّ وهو يقدم نذراً أما في السرور فلكماله وأما في الهم فلزواله وذلك مبنيٌّ على جميل اعتقاد وحسن يقين وصحة إيمان وإقرار بالمعاد.

وكان يطلق للكتاب والعمال المتعطلين إذا شكوا أحوالهم وقصورهم أو اطلع على ذلك منها ما ينسب إلى الأسلاف التي لا يحاسبون بها عند استعمالهم واستخدامهم. وكان المستخدمون يستسلفون من أبي يعلى سليمان بن الحسن الناظر في التمور والأمتعة البصرية على ما يسبّب به أرزاقهم ما يأخذون به منه التمر وما يجري مجراه يفضل في ثمنه فيرغب الطالب في الأخذ للحاجة والاتساع بالسلف ويرغب المعطي في الأسلاف للزيادة في الأثمان والفائدة مردودة للسلطان. وتوفي عضد الدولة وعلى المتصرفين والمتعطلين من هذه الأسلاف مال جزيل كثير. وبإزاء ذلك من احتياطه ما ذكره أبو نصر خواشاذه قال: حضر نيروز وأراد أن يقطع عضد الدولة فيه قباء سقلاطون يجلس فيه للتهنئة فقال لي: احضر من الخزانة ثوباً يصلح للقباء. فمضيت فاخترت منها ثوباً حسناً مستعملاً فجئته به فلما وضعته بين يديه تأمله وأخذه ورماني به وقال: ليس من هذا طلبت. فظننت أنه قد استرذله وأراد ما هو أرفع منه فعدت وأخرجت من بابة أخرى ما هو أجود منه فأحضرته فلما ملا عينه منه قال لي: يا أعمى القلب ليس من هذا. فبقيت متحيراً لا أدري ما أصنع ورجعت إلى الخزانة فقال لي أبو نصر بندار: ما لي أراك ضيق الصدر وقد أخذت ثوبين ورددتهما. فعرفته الصورة فضحك وقال لو أعلمتني لكفيتك ما اشتغل قلبك به. وقام وفتح سفطاً فيه ثياب سقلاطونيات متقاربات يسوي الثوب منها خمسة دنانير وأخذ ثوباً واحداً منها فتركه بين يديَّ وقال: احمله إليه فإنه يرضيه. فأخذته وحملته فلما وضعته بحضرته وشاهده وأدخل يده فيه وقلّبه قال: هذا جيد. فتقدم بقطعه وإعداده ولبسه في يوم ذلك الفصل ووهبه لبعض الديلم.

فأما محبته للعلوم وتقريب أهلها فإنه كان يكرم العلماء أوفى إكرام وينعم عليهم

أهنأ إنعام ويقربهم من حضرته ويدنيهم من خدمته ويعارضهم في أجناس المسائل ويفاوضهم في أنواع الفضائل فاجتمع عنده من كل طبقة أعلاها وجنى له من كل ثمرة أحلاها. وصنفت في أيامه المصنفات الرائقة في أجناس العلوم المتفرقة فمنها كتاب الحجة في القراآت السبع وهو كتاب ليس له نظير في جلالة قدر واشتهار ذكر ومنها كتاب الإيضاح في النحو وهو مع قلة حجمه يوفي على الكتب الكبار التي من جنسه في قوة عبارة وجودة صنعة وحكى أبو طالب أحمد بن بكر العبدي صاحب كتاب شرح الإيضاح إن عضد الدولة كان ضنيناً بهذا الكتاب محباً للاختصاص بقراءته دون كل أحد وإن رجلاً توصل إلى كتبه بخطه بحيلة فأمر عضد الدولة بقطع يده لنفاسة الكتاب في نفسه وحلاوته في قلبه حتى سئل في أمره فعفى عنه. ومنها الكناس العضدي في الطب المؤلف في أيامه. الموفي على غيره بياناً وحسن ترتيب وكمالاً وغير ذلك من المقالات الرياضية والرسائل الهندسية.

وأما ما عمله من الآثار الجميلة فإنه جدد بفارس وخوزستان منها ما هو باقي الأثر عند الناظر شائع الخبر عند السامع. وعمد إلى مصالح بغداد فأوجدها بعد العدم وأعادها إلى ريعانها بعد الهرم واستدر أفاويق الأعمال بعد أن كانت متصرمة واستمد ينابيع الأموال بعد أن كان مستهدمة وفعل في تجديد العمران وبناء البيمارستان ووقف الوقوف الكثير عليه ونقل أنواع الآلات والأدوية من كل ناحية إليه ما يدرك العيان بعضه إلى الآن. وعمل السكور وأنفق فيها الأموال وأعد عليها الآلات ووكَّل بها الرجال وألزمهم حفظها بالليل والنهار وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة المدود الجوارف وأزمنة الغيوث الهواطل وأوقات الرياح العواصف. فقيل إنه لما سدَّ المطهر بن عبد اللّه بثق السهلية رتب عليه إبراهيم المعروف بالأغرّ وأمره بالمقام عليه ومواصلة تعليته إلى حين انقضاء المدود. قال إبراهيم: فأقمت على هذا السكر زماناً طويلاً والرجال معي وشقيت شقاء طويلاً وكان لي منزل بجسر النهروان وبيني وبينه مدى قريب فكنت لا أتجانبه على الإلمام به ولا على دخول الحمام إشفاقاً من أن يكتب صاحب الخبر بجسر النهروان بخبري. فلما مضت المدة الطويلة على هذه الجملة من حال عصفت ريح في بعض الليالي وورد معها مطر شديد فدخلت القبة المبنية على السكر أستتر بها من الريح والمطر واجتهدنا في أن نشعل سراجاً فلم يدعنا عصوف الريح وضجرت وضاق صدري ونازعتني نفسي أن أقوم فأمضي في الظلمة إلى جسر النهروان وأبيت في منزلي وأعاود بكرة موضعي. فبينما أنا في ذلك وقد حققت عزمي عليه إذ سمعت كلاماً على باب القبة فقلت لغلامي: انظر ما هو. فخرج وعاد وقال: إنسان على جمل قد أناخ عندنا. ودخل الرجل وسلم فرددت عليه وقلت للغلام: اشعل سراجاً. فقدح

وأشعل وجاء بالنار في نفاطة فإذا الرجل من خواص عضد الدولة عربي قد ورد من بغداد فقلت له: ما تشاء. فقال: استدعاني الساعة الأستاذ شكر وقد خرج من حضرة الملك فقال: أمر مولانا وإن تمضي على جمازة وتقصد سِكر السهلية وتدخل إلى القمة التي على ظهر المروحة فإن وجدت إبراهيم الأغرَّ هناك فاعلمه أننا نجازيه على خدمته وطول ملازمته وادفع إليه هذا الكيس ففيه ألف درهم ليصرفه في نفقته وإن لم تجده وكان قد دخل إلى داره بجسر النهروان فاقصد واهجم عليه في منزله وخذ رأسه واحمله. واترك الكيس بين يديّ وقال: احمد اللّه على ما كفاك إياه. وعاد من وقته فبقيت حيران وعزمت على نفسي إلا أدخل جسر النهروان.

وأما ذكر ما رتبه في تربية أولاده ودبر به دار مملكته بفارس عند غيبته عنها

فإن له من محاسن التدبير في أمثلته التي مثلها لأصحابه في تذاكير وُجدت له ما يدل على علو همته وحسن سياسته في تربية أولاده وقسمة أيامهم بين آداب البراعة والشجاعة وأوقات الجد واللعب والاقتصاد فيما يجري بينهم من الترافه والتهاجر وتهذيب من يلوذ بهم ويكون في جملتهم فإن الأخلاق بالممازحة تعدي وبالمجاورة تسري. وترتبت الأمور بدار مملكته بفارس في حال غيبته بالعراق وغيرها لتجري على السداد وتستمر على الاستقامة والاطّراد فكان إذا بعد عنها بجثمانه لم يبعد عنها بسلطانه كالشمس التي يبعد جرمها عن العالم وضياؤها فيه موجود. والقليل من ذكر سيرته ينبئ عن الكثير فنجتنب الإطالة والإكثار إذ قد شرطنا الاقتصار والاختصار.

ونذكر الآن طرفاً مما رواه صاحب التاريخ من أخبار أضافها إلى جملة محاسنه وهي بضدها أشبه فأفردناها عنها إذ لا تستوي الحسنة ولا السيئة ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور.

ذكر الرسوم التي أحدثها عضد الدولة

زاد في المساحة واحداً في عشرة بالقلم وأضافه إلى الأصول وجعله رسماً جارياً واستمر إلى هذه الغاية في جميع السواد. وأحدث جنايات لم تكن ورسوم معاملات لم تعهد وأدخل يده في جميع الأرجاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]... فأزاله صمصام الدولة بعده وأطلق الارتفاع للملاّك. وجعل للمراعي وفرائض الصدقات ديواناً وأفرد له عمالاً وكتّاباً وجهابذة فارتفع من أعمال السواد ما زاد على ألف ألف درهم في السنة. وأدخل يده في وقوف السواد ورتب لها ناظرين

متصرفين وقرر لأربابها إجارة تطلق لهم عنها فتحصل منها جملة كثيرة وصارت في المقبوض وخرجت في الإقطاعات من بعد ذلك. وقرَّر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذاك وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه على الرسوم القديمة وحظر عمل الثلج والقزّ وجعلهما متجراً للخاص وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما.

ولعل صاحب التاريخ قصد بإيراد هذه الأخبار في محاسنه الفضيلة في إقامة وجوه المال واستنباط ينابيعه. ولا خير في مال يسيء ذكراً ويحبط أجراً وكلما يجمع من أشباه تلك الوجوه فإنه جمع تُبديد وما يشرب من أمثال هذه المناهل فإنه شرب تصديد والخبر المشهور المروي عن النبي ﷺ قوله: «من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ذكر أخبار ضبط مسرف لا يليق بملك

حدَّث أبو علي بن مكيخا صاحب ديوان الخزائن قال: سأل عضد الدولة في بعض الأيام وقد صادفت منه طيب نفس وإقبالاً على زيادة في عادته وذكرت له تضاعف مؤنتي وقصور مالي عن كفايتي فقال لي: أليس الموجب لك في كل شهر كذا وكذا ولك من رسم الكسوة كذا وكذا في الفصلين؟ قلت: نعم. قال: فأنت تحتاج لراتبك ومؤنك وغلمانك ودوابك إلى كذا وكذا فما وجه الاستزادة هذا فأنت تأكل في كل أيامك مع أبي منصور نصر بن هارون. فقبلت الأرض وتأخرت فإذا هو يحاسبني ويعتد عليَّ بما آكله على مائدة أبي منصور.

وحكى أبو علي أيضاً أن عضد الدولة رأى له يوماً بغلة بمركب حديد ثقيل فتركه مدة وقبض عليه وألزمه مالاً فعرض في جملة ما يبيعه من رحله دست ديباج كان له وبلغ عضد الدولة خبره فاستدعاه ليشاهده ويحتسب له بما يقوَّم به قال أبو علي: وقد كنت أعطيت فيه ألفاً وخمسمائة درهم فقال: احتسبوا له بألف ومائتي درهم. فقلت: قد دفع به ألف وخمسمائة درهم وثمنه عليَّ أكثر من ذلك. فغاظته هذه المراجعة وتقدم إلى الخادم بأن يسلِّم إليَّ دستا دونه بكثير إلا أنه شبيه به فأخذته ولم يمكني أن أقول شيئاً في أمره فاجتهدت أن يحتسب لي بألف ومائتي درهم المبذولة فقال: لا حاجة بنا إلى دسته. وكان قصاراي أن بعتُ هذا المسلم بتسعمائة درهم.

وحدث أبو الحسن رستم بن أحمد قال: استكتبني عضد الدولة لأبي جعفر الحجاج بن هرمز عند وروده من ديلمان ورسم لي أن أعمل تذكرة بما يحتاج إليه راتبهُ في كل يوم ونفقاته في كل شهر فعملت وأحضرت التذكرة وكان فيها رطلية شمع في كل ليلة فوقف عليها ونقص كثيراً منها وزاد في أبواب وقال: رطل شمع في كل ليلة سرف وينبغي

أن يكون في كل أسبوع رطلية وأن يواقف الفراش على أن يتركها في تورها وتُقدم بين يديه المنارة عليها سراج بفتيلتين فإن حضر من يحتشم رُفعت وأحضر التور والشمعة فأوقدت فإذا انصرف شيلت وأعيدت المنارة فقلت: السمع والطاعة وجرى الأمر على ذلك.

وحدث أبو الحسن علي بن أبي علي الحاجب قال: كان لعضد الدولة فرجية سقلاطون مبطنة بقماقم فكان يلبسها كثيراً في الطريق بين بغداد وهمذان. وكان أحد الديلم قد أغرى بطلبتها وواصل المسألة في بابها وعضد الدولة يعده ويدفعه حتى زاد لجاجه فعارضه يوماً في موكبه وقال: يا مولانا قد طال الوعد بهذه الفرجية وأسأل إنجازه اليوم. فاغتاظ وقال: نعم. وكان يمشي في ركابه أصحاب الركاب ومن جانبه الأيمن أحمد بن أبي حفص وفي جانبه الأيسر ابن فارس فقال لهما سراً وأرسل كمي الفرجية: اقربا مني وافتقا البطانة من الظهارة واجذباها وسلماها إلى الوكبدار. ففعلا ذلك ونزل عضد الدولة وحضر الديلمي مذكراً فأخرجت إليه في الحال طاقاً بغير بطانة فبقي متعجباً وأخذها وأمسك.

فلما خلا الملك استدعاهما وقال لهما: أنا أعلم أنكما فضوليان وكأني بكما وقد قلتما: «ما أشح هذا السلطان! طلب منه بعض خواصه فروة منذ أمد ودافعه بها فلما أراد عطاءها له أمره بكذا بخلاً بالبطانة» فقبلا الأرض وقالا: لا إله إلا اللّه يا مولانا إن تتصورنا بهذه الصورة. فقال: بلى أنتما كذلك فاعلما أن في جوانبنا من الثياب السقلاطون ما يمكننا أن نعمّ به عسكرنا لو أردنا أن نعطي جميعها وهذه البطائن الوبر قليلة وإنما تحمل إلينا منها في السنة من البلاد البعيدة الخارجة عن ممالكنا العدَّة اليسيرة ولو وهبنا لهذا الديلمي بطانة الفرجية لرفعناه إلى منزلة لا يستحقها لأنه أقل من أن يدفَع إليه مبطناً ثم طلب منا غدا من هو أجل منه جبة مبطنة بوبر فخرج ما في خزائننا من هذا الجنس إلى نفر قليل.

وقد ذكر أرسطاطاليس في رسالته المشهورة: إن الملوك ملك سخيٌّ على نفسه سخي على رعيته وملك شحيح على نفسه شحيح على رعيته وملك سخي على نفسه شحيح على رعيته وملك شحيح على نفسه سخي على رعيته فسابقهم إلى الفضل من كان سخياً على نفسه سخياً على رعيته وتاليه من كان شحيحاً على نفسه سخياً على رعيته وعضد الدولة كان كذلك إلا أن طلب الدرجة العليا أعبق بذوي الكرم وسبب الغاية القصوى أولى بأولى الهمم. ولعل بعض من يقرأ كتابنا يقول: «إما كان يسع طيّ هذا البساط وقطعه هذا الرباط فكم قد طوى من خبر ومحا من أثر» بلى ولكنا أردنا الخير وقصدنا النفع حتى إذا تأمل المتأمل ذلك وتلك الأحاديث الجميلة والأفاعيل الشريفة استلذ من طيبها واستروح من نسيمها إلى كل ما يهزُّ أريحيته لفعل الخير وبناء

المجد وإطالة الذكر واقتناء الحمد. فإذا انتهى إلى ما قد ذكر أخيراً وجد من الكدر في المنهل والشرق بالزلال الذي شربه ما يحذّره إهمال اليسير من رياضة أخلاقه فيصفيها تصفية الذهب الخالص. والسعيد من تأدب بغيره والكمال عزيز في كل حال وقد قيل:

لأسلم من قول الوشاة وتسلمي «سلمت» وهل حيٌّ من الناس يسلم

ذكر وفاة عضد الدولة سامحه اللّه

توفي عن سبع وأربعين سنة وأشهر وعلته التي توفي بها مشهورة. ولم تكن أمثال هذا العمر عمله ولا في أضعافه أمله ولكن في خفاء مواقيت الآجال مشغلة بأكاذيب الآمال. وما أحسن قول عدي بن زيد.

ليس شيء على المنون بباق غير وجه المهيمن الخلاق

ذاك عضد الدولة سامحه اللّه أعجب بصحة عقله وفيه دهاء وهذا عضد الدولة البارسلان رحمه اللّه أعجب بقوة بأسه ومنه ليعلم أن البشر لا يملك شيئاً وأن الملك للّه الواحد القهّار.

ونورد ههنا كلمات قيلت عند وفاة عضد الدولة فيها حكمة بالغة وموعظة نافعة.

ذكر أبو حيان التوحيدي في كتاب الزلفة أنه لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند أبي سليمان السجستاني وكان القومسي حاضراً والنوشجاني وأبو القاسم غلام زحل وابن المقداد والعروضي والأندلسي والصيمري فتذاكروا الكلمات العشرة المشهورة التي قالها الحكماء العشرة عند وفاة الإسكندر فقال الأندلسي: لو قد تقوَّض مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يؤثر عنكم ذلك. فقال أبو سليمان: ما أحسن ما بعثت عليك أما أنا فأقول: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها وأعطاها فوق قيمتها وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه في الدنيا. وقال الصيمري: من استيقظ للدنيا فهذا نومه ومن حلم بها فهذا انتباهه. وقال النوشجاني: ما رأيت غافلاً في غفلته ولا عاقلاً في عقله مثله لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرم ويغرم وهو يرى أنه غانم. وقال العروضي: أما إنه لو كان معتبراً في حياته لما صار عبرة في مماته. قال الأندلسي: الصاعد في درجاتها إلى سفال والنازل من درجاتها إلى معال. وقال القومسي: من جد للدنيا هزلت به ومن هزل راغباً عنها جدت له انظر إلى هذا كيف انتهى أمره وإلى أي حظ وقع شأنه وإني لأظن أن الرجل الزاهد الذي مات في هذه الأيام ودفن بالشونيزية أحفظهما. وأعز ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة. وقال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهاراً بحسن نظره وقوته ولكن غلبه ما منه كان وبمعونته بان. وقال ابن المقداد: إن ماء أطفأ هذه النار. لعظيم وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف. فقال أبو سليمان: ما عندي في هذا الحديث أحسن مما سمعت أبا إسماعيل

الخطيب الهاشمي لما نعاه على المنبر يوم الجمعة يقول في خطبته: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك وهلا اتخذت دونه جنة تقيك. ماذا صنعت بأموالك والعبيد ورجالك والجنود وبخولك العتيد وبدهرك الشديد هلاً صانعت من عجلَ على السرير وبذلت له من القنطار إلى القطمير من أين أتيت وكنت شهماً حازماً وكيف مكنت من نفسك وكنت قوياً صارماً من الذي وطأ علي مكروهك وأناخ بكلكله على ملكك لقد استضعفك من طمع فيك ولقد جهلك من سلم العز لك! كلا ولكن ملكك من أخسرك بالتمليك وسلبك من قدر عليك بالتهليك إن فيك لعبرة للمعتبرين وإنك لآية للمستبصرين جافى اللّٰه جنبك عن الثرى وتجاوز عنك بالحسنى ونقل روحك إلى الدرجات العلى وعرفنا من خلفك خيراً وعدلاً يكثر من أجلهما الدعاء وثناؤنا عليك إنه على ذلك قدير وهو عليه بصير.

ذكر ما جرى عليه الأمر في قيام صمصام الدولة بالملك

كانت سعادة عضد الدولة قوية في أحواله حتى في موته فإنه انكتم أمره مع عظم قدره للسياسة التي قدمها في الأمور والهيبة التي أودعها بنات الصدور واختياره من الأصحاب كل من كان بحسن التدبير خبيراً وبخدمة الملوك جديراً فلما توفي أخفي خبره فأحضر الأمير أبو كاليجار المرزبان إلى دار المملكة كأنه مستدعى من قبل عضد الدولة فلما حضر أخرج الأمر إليه بولاية العهد والنيابة في الملك واستخلاف أخيه أبي الحسين أحمد بن عضد الدولة بفارس على أعمالها. وكتبت عن عضد الدولة كتب بذلك إلى كل صقع حسب العادة وضمنت ذكر القبض على أبي الريان حمد بن محمد وذم أفعاله واستدعاء أبي منصور نصر بن هارون إلى الحضرة ليقوم مقامه في أعماله وأنفذ مع كل كتاب نسخة يمين بالبيعة لتؤخذ على الأمراء والقواد وأتباعهم من الأصحاب والأجناد. وروسل الطائع للّٰه في ذلك وسئل كتب عهد له مقرون بالخلع والألقاب واللواء وإمضاء ما قلده عضد الدولة من النيابة عنه فأنعم بالإجابة ولقبه صمصام الدولة وشرَّفه بالعهد واللواء والخلع السلطانية وجلس صمصام الدولة جلوساً عاماً حتى قرىء العهد بين يديه وهناه بما تجدد لديه. ونظر أبو عبد اللّٰه بن سعدان فيما كان أبو الريان ينظر فيه من أمور الأعمال واستمرت الحال في إخفاء وفاة عضد الدولة إلى أن تمهد الأمر لصمصام الدولة.

وفي هذا الوقت أزيل ما كان قرر على الأرحاء والطحون وأجرى الناس على رسومهم القديمة.

وفيه خلع على أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروزشاه ابني عضد الدولة للتوجه إلى شيراز وأعمالها وخرج معهما أبو الفتح نصر أخو أبي العلاء عبيد اللّٰه بن الفضل برسم النيابة عن أخيه في مراعاة أمرهما.

ذكر ما جرى عليه أمرهما

لما أفضى الأمر إلى صمصام الدولة قبض على الأمير أبي الحسين في الدار ببغداد ووكل به. وكانت والدته ابنة ملك الديلم وشوكة الديلم قوية فعزمت على قصد الدار متنكرة عند اجتماع الديلم فيها فإذا حصلت فيها استغاثت بهم وهجمت على صمصام الدولة وانتزعت ابنها منه. فعرف صمصام الدولة ذلك فخاف وراسلها رسالة جميلة ووعدها بالإفراج عنه وتقليده أعمال فارس وفعل ذلك ووافقه على المبادرة ليصل إلى شيراز قبل وروده شرف الدولة أبي الفوارس إليها وأزاح علته في جميع ما يحتاج إليه. فسار إلى الأهواز وعليها إذ ذاك أبو الفرج منصور بن خسره فلما وصل إليها طالبه بمال والتمس منه ثياباً وأشياء أخر فمنعه إياها ظاهراً وحملها إليه باطناً مراقبة لصمصام الدولة وانتسجت بينهما حالة جميلة واستقر أن يستوزره عند تمهد أموره فأشار عليه أبو الفرج بالتعجيل إلى أرجان فإن وصلها وقد سبق شرف الدولة إلى شيراز أسرع الكرة إلى الأهواز. فلما وصل إلى أرجان ورد الخبر بحصول شرف الدولة بشيراز وكر راجعاً ودخل الأهواز وعول على أبي الفرج في مراعاة الأمور وتدبير الأعمال وأظهر المباينة وارتسم بالملك وتقلب بتاج الدولة وأقام الخطبة لنفسه وعرف صمصام الدولة ذلك فجرد إليه أبا الحسن علي بن دبعش الحاجب في عسكر كثير. وندب الأمير أبو الحسين أبا الأعز دبيس بن عفيف الأسدي للقائه فالتقيا بظاهر قرقوب ووقعت بينهما وقعة أجلت عن هزيمة ابن دبعش فأسر وحمل إلى الأهواز وشهره بها. فاستولى الأمير أبو الحسين على ما كان معداً بالأهواز وبقلعة رامهرمز من الأموال وفرقها في الرجال وصرف همته إلى جمع العساكر وأرغبهم فمالوا إليه وانثالوا عليه فاشتد أمره وسار إلى البصرة فملكها ورتب أخاه أبا طاهر فيروز شاه بها ولقبه ضياء الدولة. وجرى أمره على السداد ثلاث سنين إلى أن انصرف إلى أصبهان وقبض عليه شرف الدولة وحمله إلى قلعة في بعض نواحي شيراز.

وفي هذه السنة سار شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل من كرمان إلى شيراز واستولى على الأمر.

شرح الحال في ذلك

لما توفي عضد الدولة كتب بعض الخواص بالخبر إلى كرمان فسار شرف الدولة عند وقوفه على ذلك إلى فارس كاتماً أمره.

ذكر رأي سديد في كتمان أمر حتى تم

فلما وصل إلى اصطخر قدم إبراهيم ديلمسفار أمامه وأمره بالإسراع إلى شيراز وإخفاء خبره والقبض على أبي منصور نصر بن هارون ففعل إبراهيم ذلك ودخل دار أبي منصور

على غفلة من أهلها ووجده في مجلس نظره فقبض عليه ووكل به وقال الديلم: هذا أبو الفوارس فأخرجوا لخدمته. فتلقاه العسكر ودخل البلد واستقر. ثم أظهر وفاة عضد الدولة وجلس للعزاء وأخذ البيعة على أوليائه وأطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وأزال التوكيل عن كورتكين بن جستان وقلده اصفهسلارية عسكره وأفرج عن الأشراف أبي الحسن محمد بن عمر وأبي أحمد الموسوي وأخيه أبي عبد اللّه وعن القاضي أبي محمد بن معروف وعن أبي نصر خواشاذه بعد أن طال بهم الاعتقال وضعفت في خلاصهم الآمال وكما تطرق النوائب من حيث لا يحتسب فقد يأتي الفرج من حيث لا يرتقب. فأما أبو منصور بن هارون فإنه وكل أمر مطالبته إلى المعروف بالشابشتي الحاجب فعسفه حتى أنه انتهى به إلى أن ملأ طستاً بالجمر ووضعه على صدره فمات.

ذكر اتفاق عجيب

كان أبو منصور بن هارون يبغض هذا الشابشتي في أيام نظره ويبعده من بين يديه ويقول: إني أكره هذا الرجل كرهاً لا أعرف سببه. حتى كان هلاكه على يده وبان أن تلك الكراهية لعلة خافية.

ذكر اغترار بسلامة عاجلة آلت بصاحبها إلى هلاك

كان سبب سوء رأي شرف الدولة في نصر بن هارون اغترار نصر بيومه وترك النظر لغده وأنه كان يضايقه في أيام عضد الدولة في آرابه ويستقصي عليه في أسبابه ثم لعداوة كانت بينه وبين أصحابه فهم لا يزالون يوغرون صدره عليه ويقبحون أثره لديه. ومن سوء التدبير التقصير بأهل بيت الملك فكم قد جرَّ ذلك! ولم يكن سبب هلاك محمد بن عبد الملك الزيات الوزير على يد المتوكل على اللّه إلا ما سبق من تقصيره في أيام أخيه الواثق باللّه ولشهر مشهور.

وفي هذه السنة اغتال أبو الفرج بن عمران أبا محمد أخاه وانتصب في موضعه وكتب إلى الحضرة يظهر الطاعة ويسأل التقليد والولاية.

ذكر حسد حمل صاحبه على قطيعة رحم

كان أبو الفرج جاهلاً متهوراً فحسد أبا محمد على موضعه فأعمل الحيلة في الفتك به. واتفق أن أختهما اعتلت فقال أبو الفرج لأبي محمد: إن أختنا مشفية فلو عدتها. ففعل وركب إليها ورتب أبو الفرج في دارها قوماً ووافقهم على مساعدته فلما دخل أبو محمد وقف أصحابه لأنها دار حرم. وحمل أبو الفرج سيفه على عادته ومشى

من ورائه فلما تمكن منه جرد السيف وضربه وخرج القوم الذين رتبهم فساعدوه على الإجهاز عليه ووقعت الصيحة فصعد أبو الفرج إليهم مطلعاً عليهم من سطح الدار وقال: قد فات الأمر ولكم عندي الإحسان. فسكتوا ثم وضع فيهم العطايا فأطاعوه وأمّروه.

وفي هذه السنة قتل أبو علي الحسن بن بشر الراعي بنصيبين وكان واليها وعاملها.

ذكر سيرة عادت بخسران دنيا وآخرة

كان هذا ابن الراعي ظالماً شريراً وخبره في سمل عينه قد تقدم في كتاب تجارب الأمم ثم ولي نصيبين فأساء إلى أهل البلد واستحل محارمهم فلما شاعت الأراجيف بعلة عضد الدولة وبعد ذلك بموته ثار العامة وقصدوا داره للفتك به فخرج في لباس امرأة وغمز عليه فأخذ وقتل ومثل به ثم أحرق. واستولى أحد الأكراد على البلد وورد الخبر بذلك فأخرج أبو سعد بهرام بن أردشير لتلافي الأمر فلما وصل إلى الموصل تقاعد به أبو المطرّف عاملها وانزاح المستولي عليها منها ولحق بباد. وكان أمر باد قد قوي بميافارقين فعجل بهرام إلى قصده واستهان بأمره وواقعه فأجلت الوقعة عن هزيمة بهرام وأسر جماعة من الديلم الذين معه. وشمت أبو المطرَّف به وكتب إلى أبي القاسم سعد الحاجب يطعن على بهرام ويقول: إنه قد جنى على الدولة وأطمع باداً وإنني قد عملت على مكاتبة باد وإعلامه موقع الخطأ في المكاشفة. فأجابه سعد بجواب يقول فيه: أنا وارد «والسيف أصدق أنباء من الكتب». فلما وصل إلى أبي المطرف الجواب قال:

سيوف لعمري يا لوي بن غالب حداد ولكن أين بالسيف ضارب

فبلغ ذلك سعداً فاحفظه وأسرَّ في نفسه عليه.

ذكر خبر باد ومبدأ أمره

باد لقبٌ وهو أبو عبد اللّه الحسين بن دوشنك من الأكراد الحميدية وكان يتصعلك كثيراً ويمضي إلى الثغور ويغزو بها دائماً وكان فظيع المنظر عظيم الهيكل. فلما حصل عضد الدولة بالموصل حضر على الباب بوساطة زيار بن شهراكويه ثم هرب.

ذكر فراسة دلت على دهاءٍ

يقال أنه لما خرج من يدي عضد الدولة مضى على وجهه هارباً فسأله أصحابه عن سبب هربه فقال: شاهدت رجلاً ظننت أن لا يبقى عليّ بعد حصولي في يده: وطلبه عضد الدولة في أثر خروجه آمراً بالقبض عليه وقال: هذا رجل ذو باس وبطش وشرّ وغدر ولا يجوز الإبقاء عليه. فأخبر بهربه وحصل بثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره. ثم خرج إليه أبو القاسم سعد الحاجب فكان من أمره معه ما سيأتي ذكره في موضعه.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

وفيها ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء وسُوّر وطُوّق وتُوّج وعُقد له لواءان وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه مثله وقرئ عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوة من جميع الممالك وعاد إلى داره. وجددت له البيعة وأطلق رسومها وأقيمت الدعوة وغُيِّرت السكة.

وفيها خلع على أبي عبد اللّه الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة وكان رجلاً باذلاً لعطائه مانعاً للقائه فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزبه ومع ذلك فلا يخيَّب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه لكن يسير البشر أملك للقلوب من كثير البر. فبسط يده في الإطلاقات والصلات وتقرير المعايش والتسويفات وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشي من أموالهم وأرزاقهم والتوقيع في آخر الصكاك إلى العمال بمقاصّة أربابها به وجمعه عليهم وأخذه منهم وصرفه في مشاهرات غلمان الخيول ونفقاتهم. وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق في وقت نظره من غلاء سعر فتطيرت العامة ورجموا زبزبه وشغبوا الديلم عليه لأجله وهجموا على نهب داره وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردَّهم.

وفيها ورد زيار بن شهراكويه وأبو القاسم سعد بن محمد الحاجب عائدين من جرجان فندب أبو القاسم إلى الموصل لقصد باد وتلافي خطئه وجدد معه عسكراً اجتهد في عِدَّته وعُدَّتِه.

ذكر ما جرى عليه أمر سعد بن محمد مع باد

سار سعد فلما حصل بالموصل قبض على أبي المطرّف عاملها وفي نفسه عليه تمثله بالبيت الذي تقدم ذكره واعتقله بالموصل. ويمم سعد إلى لقاء باد وهو واثق باقتناصه وربَّ واثق خجل فتواقعا على خابور الحسينية فانهزم سعد واستولى باد على جميع الديلم فأسر بعضاً وقتل بعضاً ثم ضرب رقاب الأسرى صبراً وسار إلى الموصل. وقد كان سعد سبقه إليها عند الهزيمة فثار العامة به وخرج ناجياً بنفسه حتى بلغ تكريت وكتب إلى الحضرة بخبره فأجيب بأن يقيم في موضعه.

ذكر حصول باد بالموصل وإفراجه عن أبي المطرَّف

لما حصل باد بالموصل أفرج عن أبي المطرف واستوزره. وقويت شوكته بما تم له من كسر عساكر السلطان دفعة بعد أخرى واستولى على الأعمال وجبى وجوه الأموال

وخرج عن حكم البوادي والمتطرفين وصار في أعداد الخوارج المتجوفين وأرجف بأنه محدّث نفسه بأخذ سرير الملك وقامت له هيبة في النفوس وعظم ذلك على صمصام الدولة وابن سعدان وزيره وقطعهما لهم به عن سائر الأمور. ولم يبق في الحضرة من ينتدب لهذا الأمر مع استفحاله إلا زيار بن شهراكويه فوقف على المسير إليه وخلع عليه واستظهر له في العدد والعُدد وأخرج معه شُكراً في الغلمان الأتراك وسار إلى الموصل وانضم إليهما أبو القاسم الحاجب من تكريت وواقعوا باداً في صفر سنة أربع وأجلت الوقعة عن انهزام باد وأسر كثير من أقاربه وأصحابه وورد الخبر بذلك فسكن ما عليه الناس من الأراجيف به. ثم وصل الأسارى إلى بغداد فشهروا.

ذكر ما جرى عليه أمرُهُ بعد الهزيمة

لما انهزم باد وخيَّم زيار بظاهر الموصل خرج سعد الحاجب إلى الجزيرة من الجانب الشرقي في عدد وافر وحصل باد في أطراف بلاده يجمع الرجال إلى نفسه ليقصد ديار بكر. فرأى ابن سعدان إن كتب إلى سعد الدولة بن حمدان وبذل له تسليم ديار بكر إليه على ما كانت مع أبيه واستدعى منه تجريد أصحابه إليها قبل استيلاء باد عليها فأنفذ ابن حمدان أصحابه إلى ميافارقين فأقاموا مديدة ثم انصرفوا ولم يكن لهم طاقة بمقاومة باد وملك باد ميافارقين وسار إلى تل فافان مرهباً وراسل في الصلح وتثاقل العسكر الذي مع سعد عن المسير معه إلى لقائه فعمل على العدول إلى الحيلة ودس رجلاً لقتل بادغيلة.

ذكر حيلة جيدة لو وافقت قضاء

يقال إن الرجل الذي دسَّه دخل على باد في خيمته ليلاً ووصل إلى موضع منامه وضربه بالسيف ضربة على رجله ظن أنها على رأسه وصاح باد وهرب الرجل فلم يُلحق ومرض باد لتلك الضربة حتى أشفي واجتهد سعد في انتهاز الفرصة منه عند مرضه فلم يطاوعه من معه. وكان شُكر قد توجه مع الأتراك إلى نصيبين على أن يكون مسيرهم ومسير سعد من الجانبين فاضطرب من كان معه من الأتراك عليه. وراسل باد زيارا وألقى عليه نفسه وردّ أمره إليه فمال زيار للصلح غير مظهر للميل مراقبة لأبي القاسم سعد وأشار على باد بسلوك سبيل الاستصلاح معه أيضاً. فلما أعيت سعداً الحيل وكثرت عليه الأسباب والعلل وعلم أن كثير الاجتهاد مع معاندة الأيام ضائع وقليله مع مساعدتها نافعٌ صالح باداً على أن تكون له ديار بكر والنصف من طور عبدين من غربيها وعاد سعد إلى الموصل وزيار بها وانحدر زيار إلى الحضرة وأقام سعد بمكانه. وكان أمر هذه الوقعة والصلح في سنة أربع ولكن سياقة الحديث اقتضت إيراده ههنا في أخبار سنة ثلاث.

وفي هذه السنة قتل المظفر بن علي الحاجبُ أبا الفرج محمد بن عمران وأجلس أبا المعالي بن أبي محمد الحسن بن عمران في الإمارة ثم استولى المظفر على الأمر بعد.

ذكر ما جرى عليه الأمر في ذلك

قد تقدم ذكر ما كان من أبي الفرج في قتل أخيه أبي محمد فلما جلس في الإمارة قدم القوم الذين ساعدوه وجفا مشايخ القواد فأحفظ الأكابر تقدُّم الأصاغر. وكان المظفر أحد قواد عمران الذين أبلوا معه في حروبه فاتفق هو والمعروف بابن الشعراني اصفهسلار الجند وقالا لشيوخ القواد: قد فعل هذا الرجل ما فعل من استحلال محرَّم أخيه وصبرنا عليه مع وجوب حقّه وحق أبيه ولم يقنعه سوء فعله حتى استأنف حط منازلنا وتقديم أراذلنا ولا نأمن أن يتعدى الأمر من بعد إلى إزالة نعمتنا واطّراح حرمتنا. فاتفقت كلمة الجماعة على كراهيته ثم تكفل المظفر لابن الشعراني بأمر قتله وتكفل ابن الشعراني بأمر جنده وتواعدا على ذلك.

ذكر تهوُّر سلم صاحبُه بالاتفاق

ثم إن أبا الفرج ركب من دار الإمارة إلى بناء استحدثه وعرف المظفر خبره فقصده إلى الموضع ودخل عليه فلما رآه أبو الفرج قال له: فيم حضرت؟ قال: علمتُ ركوب الأمير فأحببت خدمته. وحضر من أعطاه كتاباً فلما أخذه وتشاغل بقراءته جرد المظفر سيفه وثار إليه فضربه. وبادر من كان بين يديه من خواصه إلى المظفر بسيوفهم وهو كالجمل الهائج يدافعهم عن نفسه وأكبَّ على أبي الفرج ضرباً حتى فرغ منه وقد أصابته جراحة في يده وضربات في ذباب سيفه. ونزل في ورجيته إلى المنصورة التي بها دار الإمارة وأخرج أبا المعالي بن أبي محمد بن عمران وهو صغير السن فأقامه أميراً وأطلق المال وأرضى الجند. ومضى أبو الفرج بعد أخيه سريعاً صرع أخاه فأصبح بعده صريعاً وباع دينه بدنياه فخسرهما جميعاً وكذلك كل قاتل مقتول وكل خاذل مخذول وكن كيف شئت فكما تدين تُدان.

ونعود إلى ذكر ما جرت عليه الحال بعد ذلك

لما فعل المظفر ما فعله أظهر الصرامة وقيل له في التوثقة من العسكر بالإيمان فقال: التوثقة سيفي من استقام عمدتهُ عنه ومن اعوجَّ سللتهُ عليه. وكتب إلى الحضرة بما فعله من أخذ ثأر أبي محمد وإعادة الأمر إلى ولده وسأل في تقليده وأنفذ من استحلف صمصام الدولة له ولنفسه فأجيب إلى ذلك جميعه وأخذ المظفر أمره بالرهبة وقتل الشعراني مع بضعة عشر نفساً من القواد الذين ساعدوه في يوم واحد. ومضت أيام والمظفر يتولى الأمور وأبو المعالي صبي لا فضل فيه ولا تدبير ثم نازعت المظفر نفسه

إلى التردي برداء الإمارة والتفرُّد بها لفظاً ومعنى.

ذكر منصوبة عملها المظفر في إظهار إمارته

أمر كاتبه أن يكتب كتاباً عن السلطان إليه بالتعويل في تدبير الأمور عليه ثم أمره بإحضار ركابي غريب وتسليم الكتاب إليه ومواقفته على الدخول بالكتاب عند احتفال المجلس بالناس مغبَّر الثياب والوجه كأنه بشعث الطريق ففعل ذلك. فلما كان في غد ذلك اليوم واجتمع الناس دخل الركَّابي على تلك الصورة وأوصل الكتاب إليه فلما أخذه المظفر قبَّله ودفعه إلى الكاتب فقرأه وأظهر الاستبشار وقال لأبي المعالي في الوقت: قُم إلى أمك. وتظاهر بالإمارة ثم أحضر الجند وتوثَّق منهم وقد كان أبادَ من خاف جانبه ولم يبق إلا من أمن بوائقهُ وتلقب بالموفَّق واستمال القلوب وعدل عن الطريق الأول.

ذكر ما اعتمده من حسن السيرة

لما استتب له الأمر على ما أراد حمل الناس على محجة العدل وخفض لهم جناح اللين وكف يده عن القتل واستعمل الرأفة بعد تلك الفظاظة والرحمة بعد تلك القساوة. ورد على أرباب الضياع ما كان قبضه عمران وولده منهم وأجرى على أبي المعالي وأمه جراية واسعة وأقرهما في دارهما مدة طويلة ثم أمرهما بالانصراف فانصرفا إلى واسط وكانت جرايته دارَّة عليهما مع بعدهما عنه. ومضت مدة فعهد في الأمر إلى أبي الحسن علي بن نصر الملقب أخيراً بمهذب الدولة ولقبه إذ ذاك بالأمير المختار وإلى أبي الحسن علي بن جعفر من بعده وهما ابنا أختيه.

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة مؤيد الدولة بجرجان وجلس صمصام الدولة للعزاء به وجاءه الطائع للّه معزياً.

ذكر ما جرى عليه الأمر في وفاة مؤيد الدولة وإلى ان استقرت الإمارة لفخر الدولة من بعده

لما انصرفت عساكر خراسان الواردة مع فخر الدولة وقابوس الانصراف الذي تقدم ذكره استقر مؤيد الدولة بجرجان وجعلها داره وأقام أبو الحسن علي بن كامة عنده. واتصلت الأخبار باشتداد علة عضد الدولة والعهد على صمصام الدولة في الملك من بعده وأخذ البيعة له على جنده وتفرقة الأموال بالحضرة على الرجال فشغب الجيش بجرجان وأفردوا خيمهم إلى ظاهر البلد والتمسوا الزيادة والإحسان وتوسط زيار بن شهراكويه والحسن بن إبراهيم الأمر معهم حتى سكنوا واعادوا. فاستأذن بعد ذلك زيار ومن كان معه في المسير إلى بغداد فرفق مؤيد الدولة بهم إيثاراً لمقامهم فلم يفعلوا نزاعاً إلى أوطانهم مع ما تجدد لهم من أمر صمصام الدولة على ما قد ذكر فقضى عند ذلك

حقوقهم وأذن لهم في الانصراف فانصرفوا شاكرين.

ذكر ما دبره مؤيد الدولة في الاستيلاء على الملك وحالت المقادير دونه

لما علم مؤيد الدولة بوفاة عضد الدولة سَمَت نفسه للاستيلاء على الممالك والقيام مقامه فيها وكان قد أنفذ أبا علي القاسم إلى فارس متحملاً لرسالة إلى الأمير أبي الفوارس بن عضد الدولة فورد كتاب أبي علي هذا عليه بوقوع الخطبة له في بلاد فارس وثبوت اسمه على الدينار والدرهم. وقدم أبو نصر خواشاذه ورسول من الأمير أبي الفوارس إليه فلبث عنده أياماً وعاد بالجواب ثم راسل أخاه فخر الدولة بالوعود الجميلة وبذل له ولاية جرجان وتقويته بما يحتاج إليه من الأموال فلم يسكن فخر الدولة إلى قوله وأقام بموضعه. وبينما الحال على ذلك إذ جاءه الأمر الذي لا يغلب والنداء الذي لا يحجب فخضع لأمر الآمر مطيعاً ولبّى دعوة الداعي سريعاً قضية اللّه سبحانه في الأولين والآخرين ومشيئته في الذاهبين والغابرين قال اللّه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]

ذكر كلام سديد للصاحب ابن عبَّاد

ولما عرضت لمؤيد الدولة علة الخوانيق واشتدت به قال له الصاحب: لو عهد أمير الأمراء عهداً إلى من يراه يسكن إليه الجند إلى أن يتفضل اللّه تعالى بعافيته وقيامه إلى تدبير مملكته لكان ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه. فقال له: أنا في شغل عن هذا وما للملك قدر مع انتهاء الإنسان إلى مثل ما أنا فيه فافعلوا ما بدا لكم. ثم أشفي فقال له الصاحب: تُب يا مولانا من كل ما دخلت فيه وتبَّرأ من هذه الأموال التي لست على ثقة من طيبها وحصولها من حلها واعتقد متى أقامك اللّه وعافاك صرفها في وجوهها وردَّ كل ظُلامة تعرفها وتقدر على ردها. ففعل ذلك وتلطف به وقضى نحبه ولعل الصاحب اقتدى في هذا القول بقصة ابن أبي دؤاد مع الواثق باللّه رضي اللّه عنه إلاَّ أن تلك قول وفعل.

خبر حسن فيه تنبيه على فعل خير

يقال إنه لما اشتدت علة الواثق التي توفي فيها وكان في حبسه جماعة من الكتاب والعمال وهم في ضنك شديد من المطالبة دخل ابن أبي دؤاد عليه وسأله عما يجد فشكا الواثق باللّه شدة ما به إليه فقال: يا أمير المؤمنين إن في حبسك جماعة وراءهم عدد كثير من العيال وهم في ضر وبؤس ولو أمرت بالإفراج عنهم لرجوت لك الفرج من هذه الشدة. فقال له: أصبت. وأمر بذلك فأفرج عنهم فلما أصبح حضر ابن أبي دؤاد عنده

على رسمه فقال له الواثق: إني وجدت البارحة بعض الخف. فقال ابن أبي دؤاد: وفق اللَّه لأمير المؤمنين فلقد رفعت البارحة ألوف من الأيدي بالدعاء له كانت ترفع من قبل بالدعاء عليه هذا وقد عاد من أفرج عنهم إلى دور شعثة وعيال جياع وأحوال مختلَّة ولو قد أطلقت ضياعهم المقبوضة وأعيدت إليهم أموالهم المأخوذة لكان الدعاء أكثر والأجر أعظم. فأمر الواثق عند ذلك بتسليم ضياعهم إليهم وإعادة ما أخذ من أموالهم وخرج الأمر بذلك على يد ابن أبي دؤاد فقام بتمامه في يومه وأحيا اللَّه أقواماً على يده. ولم يكن قد بقي للواثق أجل فمضى لسبيله واستصحب أجر ذلك الفعل معه وفاز ابن أبي دؤاد بهذه المنقبة بقية الدهر. ونعود إلى سياقة الحديث.

ذكر ما دبره ابن عباد بعد وفاة مؤيد الدولة

كتب في الوقت إلى فخر الدولة بالإسراع وأرسل أخاه وبعض ثقاته ليستوثق منه باليمين على الحفظ والوفاء بالعهد. وتجرد الصاحب لضبط الأمر ووضع العطاء في الجند ونصب أبا العباس خسر فيروز بن ركن الدولة في الإمارة تسكيناً للفتنة وإزالة للخلف في عاجل الحال وكتب الناس مثنى وفرادى إلى فخر الدولة بالطاعة وهو يومئذ بنواحي نيسابور على حالة مختلفة وإضاقة شديدة.

وقد أنفذ نصر بن الحسن بن فيروزان إلى الصاحب ببخارا مع من نفذ من جهة قابوس من وجوه قواده حين استدعاهما صاحب بخارا للخلف الواقع بينه وبين ابن عمه عبد الملك بعقب انهزام عساكره بباب جرجان فاعتذر إليه في تأخرهما عنه بنفوسهما وأنفذ إليه أصحابهما المذكورين فلما ورد إلى فخر الدولة كتاب ابن عباد وتلاه كتب وجوه العساكر أولاً فأولاً سار على الفور وعرف قابوس الخبر فأرسل إليه: أن بيننا ما أريد مفاوضتك فيه. فأجابه: بأنني قد توجهت ولا قدرة لي على العود بعد التوجه ومهما أردت فاكتب به. وبادر يطوي المنازل نحو جرجان.

ذكر وصول فخر الدولة إلى جرجان واستقراره في دار الإمارة

لما ورد الخبر بقرب وصول فخر الدولة إلى جرجان قال الصاحب ابن عباد للجند: إنما أخذت البيعة عليكم لأبي العباس خسر فيروز على أنه خليفة أخيه فخر الدولة فبادروا إلى تلقيه وخدمته. فندبوا عند ذلك أبا الحسين محمد بن علي بن القاسم العارض للاستيثاق بجماعتهم فسار إليه ولقيه بالتعزية بأخيه والتهنئة بالملك والتوثق للأولياء فأكرمه فخر الدولة وتقبل منه ما أورده. وبادر الناس بعد أبي الحسين إلى خدمته فوجاً فوجاً وهو يقربهم ويدنيهم ثم تلقاه الصاحب أبو القاسم ابن عباد مع الأمير أبي العباس خسر فيروز وأكابر القواد فرحب به فخر الدولة وبالغ في إكرامه وتناهى في اعظامه ونزل بظاهر المدينة

في الموضع الذي كان مؤيد الدولة معسكراً فيه عند قتال عسكر خراسان ثم دخل البلد من غده وأخذت البيعة له بالطاعة والمخالصة واستقرت الإمارة عليه.

وكذلك الدهر يتقلب من حال إلى حال وينتقل بأهله بين أسفل وعال والبؤس والنعيم فيه إلى زوال.

ذكر كلام اختبر به ما في نفس فخر الدولة

لما انتظم الأمر لفخر الدولة قال له الصاحب: قد بلغك اللّه يا مولاي وبلغني فيك ما أملته لنفسك وأملته لك ومن حقوق خدمتي عليك إجابتي إلى ما أوثره من ملازمة داري واعتزال الجندية والتوفر على أمر المعاد. وقال له: لا تقل أيها الصاحب هذا فإنني ما أريد الملك إلا لك ولا يجوز أن يستقيم أمري إلا بك وإذا كرهت ملابسة الأمور كرهت ذاك بكراهيتك وانصرفت. فقبل الأرض شكراً وقال: الأمر أمرك. وتلا ذلك أنه خلع عليه خلع الوزارة وأكرمه منها بما لم يكرم وزير بمثله ثم عمل فخر الدولة والصاحب جميعاً على أخذ علي بن كامة والإستيلاء على ماله وأعماله وعلما أنهما لا يقدران عليه لجلالة قدره فعدلا إلى أعمال الحيلة في أمره.

ذكر حيلة تمت في قتل علي بن كامة

اجتمع رأيهما على مواقفة شرابي كان له على سمه فتوصلا إليه وقررا أمور ذلك واتفق أن علي بن كامة عمل دعوة واحتفل فيها واحتشد وسأل فخر الدولة والصاحب الحضور عنده فواعداه بذلك وراسلا الشرابي بفعل ما تقرر معه في هذا اليوم وأعطياه سماً موجباً. ودخل علي بن كامة خزانة الشراب يتخير الأشربة ويذوقها فطرح الشرابي السم في بعض ما ذاقه فأحس في الحال باضطراب جسمه فدخل بيتاً وطرح نفسه فيه وألقى عليه كساء وعلم فخر الدولة خبره فتأخر عن الحضور. وأطعم الناس وسقوا وتركه أصحابه في موضعه وعندهم أنه نائم ولم يقدموا على إنباهه فلما كان من غد رأوه على خملته فدخلوا إليه فوجدوه ميتاً. فأنفذ فخر الدولة إلى داره من توكل بها وإلى خزانته من استظهر عليها وإلى قلاعه من أخذها والى أعماله من تولاها وكان لعلي بن كامة أولاد فلم يتم لهم الأمر مع فخر الدولة.

وليس العجب من فخر الدولة في سم الرجل كالعجب من الصاحب الذي سال بالأمس في الخبر الذي تقدم هذا الخبر في الإذن له في ملازمة داره والتوفر على أمر المعاد.

ووصل أبو نصر شهريسلار بن مؤيد الدولة إلى حضرة فخر الدولة في هذا الوقت فأكرمه.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو نصر بأصبهان مقيماً نائباً عن أبيه مؤيد الدولة في ولده وحرمه فلما عرف خبر وفاته بادر بمن خفّ معه يريد جرجان فبلغه في بعض الطريق خبر استقرار فخر الدولة في الإمارة فأقام بموضعه وكاتبه يستأذنه في الإتمام إلى حضرته فأجابه بالجميل وصلة الرحم وأمره بالإتمام والمسير فسار ووصل إلى جرجان فأكرم غاية الإكرام.

وقدم أبو علي القاسم بن علي بن القاسم عائداً مع فارس مع المال المحمول وقد كان مؤيد الدولة أنفذه إليها حسب ما تقدم ذكره. وأنفذ فخر الدولة أبا القاسم القاضي العلوي رسولاً إلى الأمير أبي الفوارس بن عضد الدولة وأقام بجرجان يجمع الأموال ويملأ بها القلاع إلى أن ورد إليه تاشى هارباً من خراسان فأنزله بجرجان وقرر عليه ارتفاعها وانصرف هو إلى الري وأقام تاشى بها إلى أن توفي وقيل مات مسموماً.

وفي هذه السنة شغب الأتراك ببغداد وبرزوا متوجهين إلى شيراز بعد أن كانت طائفة منهم قد سارت قبلهم ولحقت بفارس. فركب زيار بن شهراكويه في أثر هؤلاء وردَّ أكثرهم وأخذ أبا منصور بن أبي الحسن الناظر وكان قد خرج هارباً وولده مع شرف الدولة لم يقبض عليه فرد بعد أن جرح لأنه مانع عن نفسه واعتقل. وكان خالد ولد أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف فلما عرف عبد العزيز هربه من الليل خاف أن يسعى أبو عبد الله بن سعدان به إلى صمصام الدولة ويوغر صدره عليه وينسب هربه إليه فرأى أن يسبق بإظهار إبراء الساحة قبل أن ينتهز عدوه الفرصة.

ذكر رأي سديد وقع لعبد العزيز بن يوسف أمن به ما خاف وقوعه

وذلك أنه غلس في صبيحة تلك الليلة إلى الدار وجلس في الدهليز وراعي قيام صمصام الدولة من منامه وانتظر حضور علي بن أبي علي الحاجب وكان له صديقاً فلما حضر الحاجب خرج إليه عبد العزيز بما في نفسه وسأله الاستئذان له على خلوة قبل كل أحد فدخل الحاجب وأعلم صمصام الدولة بحضوره فأذن له فلما حضر قبل الأرض وبكا بكاء شديداً وقال: قد خدمت عضد الدولة وخدمتك ولم تعهد مني إلا الصدق والمناصحة. وحلف بطلاق صاحبته أخت أبي منصور وبالأيمان المغلظة إن كان عرف خبر أبي منصور فيما عمل عليه من الهرب أو شاوره فيه. فسكن منه صمصام الدولة وخاطبه بما طابت نفسه به وانصرف من بين يديه وقد زال اشفاقه وخوفه. وحضر من الغد ابن سعدان وأشار إلى أبي القاسم عبد العزيز في هرب أبي منصور في أثناء كلامه إشارة لم يتقبلها منه صمصام الدولة وقال: أبو القاسم بريء من هذا الأمر ولا علقة له فيه. فأمسك حينئذ ابن سعدان وزادت العداوة بينهما وجدّ أبو القاسم في إفساد حال ابن سعدان حتى

تم له القبض عليه والانتصاب في مكانه حتى يأتي شرح ذلك من بعد بإذن اللّه تعالى.

ودخلت سنة أربع وسبعين وثلثمائة

وفيها شرف فخر الدولة من حضرة الطائع للّه بالخلع السلطانية والعهد واللواء وزيادة اللقب وسلم جميع ذلك إلى أبي العلاء الحسن بن محمد بن سهلويه رسول فخر الدولة.

شرح ما جرى عليه الأمر في ذلك

لما توفي مؤيد الدولة وانتصب فخر الدولة في موضعه شرع أبو عبد اللّه بن سعدان في إصلاح ما بين صمصام الدولة وبينه وكاتب الصاحب أبا القاسم بن عباد في ذلك وتردّد بينهما ما انتهى إلى ورود أبي العلاء بن سهلويه للسفارة في التقرر وتنجز الخلع السلطانية لفخر الدولة فأكرمه أبو عبد اللّه بن سعدان إكراماً بالغ فيه وأقام له من الإنزال وحمل إليه من الأموال ما جاوز به حدَّ مثله. واتصلت مدة مقامه من المكاتبات ما دل على إظهار المشاركة بين الجندين في كل تدبير وتقرير وتجديد السّنة التي كانت بين الإخوة عماد الدولة وركنها ومعزّها من الاتفاق والألفة. وسدَّى الصاحب في ذلك قوله وألحم وأسرج فيه عزمه وألجم حتى أنه كان لا يجري أمر ولا بال بحضرة فخر الدولة إلا كتب به مساهماً ولا يعرف حالاً يتعلق بمصلحة صمصام الدولة إلا أشار بها مناصحاً.

فمن جملة ما كتب الصاحب بشرحه إلى الحضرة

ذكر وصول أبي سعيد أحمد بن شبيب صاحب جيش خوارزم رسولاً من أمير خراسان متحملاً من الرسالة ألطف الأقوال وورود كتب أبي العباس تاش مشتملة من القرب والإخلاص على أجمل الأقوال وأن الخطاب دارّ مع الرسول الوارد في الصلح على قواعد أولها طاعة الخلافة فهي التي لا دين إلا بها ولا دنيا إلا معها ثم أن لا يفرج لهم عن شيء من هذه البلاد ولا يكون منهم في باب قابوس قول أو فعل في معونة وإسعاد وأن يُردَّ إلى بخارا ويستخدم في أبعد الأطراف وأن يقتصر على المال المبذول الذي يجري مجرى المعونة من أمير المؤمنين لهم على ما سدَّ إليهم من الثغور. وأنه قد أخرج مع الرسول العائد أبو سعد صالح بن عبد اللّه فإذا استتب التقرير واستحصف العقد أنفذت نسخته على شروطه إلى بغداد حسب ما يقتضيه التمازج بين الحضرتين.

ومما نطقت به الكتب من المشورة والرأي

الحث على استمالة الأمير أبي الحسين واستخلاص طاعته وأن فخر الدولة قد راسله وخاطبه في ذلك بما يجري مجرى التقدمة والتوطية ومتى أريد التكفل بالتمام فهو

على غاية الطاعة. وقد أثبت على الدينار والدرهم اسم فخر الدولة وكتب من البصرة بإقامة الدعوة كما أقامها بالأهواز وليس يتجاوز ما ينهج له ولا يتعدّى ما يحكم به والصواب طلب التوازر والتعاطف وترك التباين والتخالف. ولا يقال هذا إلا من طريق ابتغاء المصالح لصمصام الدولة وجمع الأهواء المتفرقة إليه ورد القلوب النافرة عليه.

ثم لما طال مقام ابني سهلويه وتمادت به الأيام ساء ظن فخر الدولة والصاحب ووردت كتب على ابن سعدان بالمعاتبة. وكان السبب في تأخر ذلك خطبُ باد واتساع الخرق فيه وشغل ابن سعدان به عن كل أمر ينجزه وأربٍ يقتضيه فلما ورد الخبر بهزيمة باد واستقر الأمر في ذلك وأسفر الخطب عن المراد كما قد تقدم ذكره خلا درع ابن سعدان وخوطب الطائع للّه على ما يجدده لفخر الدولة من الخلع السلطانية فأجاب. وجلس على العادة في أمثالها وحضر أبو العلاء الرسول وأحضرت الخلع السبع والعمة السوداء والسيف والطوق والسواد واللواء والدابتان بمركبي الذهب وقرئ العهد بتولية الأعمال التي في يده وأضيف إلى لقبه الأول فلك الأمة وسُلّم جميعه إلى أبي العلاء. وضُم إليه أبو عبد اللّه محمد بن موسى الخازن وخرجا إلى جرجان وسلما ذلك وعادا وأقام أبو العلاء برسم النيابة عن فخر الدولة بالحضرة إلى آخر أيام صمصام الدولة.

وفي هذه السنة ورد كتاب أبي بكر محمد بن شاهويه مبشراً بإقامة الدعوة لصمصام الدولة بعمان.

ذكر ما جرى عليه الأمر بعُمان إلى أن عادت إلى شرف الدولة

كان المتولي بها في الوقت أبو جعفر أستاذ هرمز بن الحسن من قبل شرف الدولة فما زال ابن شاهويه يفتل له في الذروة والغارب حتى أماله إلى الحملة وأزاله عما كان عليه من الانحياز إلى شرف الدولة وكان صغوه مع من ببغداد لكون أبي علي الحسن ولده بها فجمع الأولياء والرعية بعمان على طاعة صمصام الدولة وخطب له على منابر تلك الأعمال. ووصل الخبر إلى بغداد فأظهرت المسرة وجلس صمصام الدولة للتهنئة وكتب كُتب البشائر إلى أصحاب الأطراف على العادة وأنفذ إلى أستاذ هرمز العهد بالتقليد مع الخلع والحملان. وأُحضر ابنه أبو علي الحسن وخلع عليه ونقله من رتبة النقابة إلى رتبة الحجبة. ولما عرف شرف الدولة عصيان أستاذ هرمز أخرج إليه أبا نصر خواشاذه في عسكر استظهر فيه ووقعت بينهما وقعة أجلت عن ظفر أبي نصر وحصول أستاذ هرمز أسيراً تحت اعتقاله واستيلائه على رجاله وأمواله. وعند بلوغ أبي نصر ما أراده من ذلك رتَّب بعمان من يراعيها ويشحنها بمن يحميها وعاد إلى فارس ومعه أستاذ هرمز فشهر بها ثم قرَّر عليه مالاً ثقيلاً وحمل إلى بعض القلاع مطالباً بتصحيحه.

وفي هذه السنة أفرج شرف الدولة أبو الفوارس عن أبي منصور محمد بن

الحسن بن صالحان وعن أبي القاسم العلاء بن الحسن وعن أبي الحسن الناظر أخيه واستوزر أبا منصور من بينهم وردّ الأمور إلى نظره.

ذكر ما جرى عليه الأمر في اعتقالهم والإفراج عنهم والتعويل على أبي منصور في الوزارة

ولما وصل شرف الدولة أبو الفوارس إلى شيراز قبض على نصر بن هرون كما تقدم ذكره واستوزر أبا القاسم العلاء بن الحسن فقصر أبو القاسم في أمور الحواشي والخواص وهم أفسدوا رأي شرف الدولة فيه وأغروه به وبأخيه أبي الحسن الناظر على سخيمة كانت في نفس فخر الدولة على أبي الحسن فقبض بعد مدة يسيرة عليهما وعلى أبي منصور محمد بن الحسن بن صالحان معهما وأمر بحملهم إلى بعض القلاع. ورد النظر إلى أبي محمد علي بن العباس بن فسانجس وإلى أبي الحسن محمد بن عمر العلوي فإنه أشار به للمودة البغدادية التي جمعتهما وبقي أشهراً ثم قبض عليه. وأفرج في هذا الوقت عن هؤلاء المعتقلين وعول على أبي منصور في الوزارة من بينهم فاتفق له بالعرض ما صار سبباً لثباته فيها.

ذكر اتفاق حميد صار سبباً لثبات قدم

حكى أبو محمد بن عمر أن شرف الدولة أنفذ رسولاً إلى القرامطة فلما عاد الرسول من وجهه سأله عن مجاري الأحوال فقال له في جملة الأقوال: إن القرامطة سألوني عن الملك فوصفت لهم حسن سياسته وجميل سيرته فقالوا: من حسن سيرة الملك أنه استوزر في سنة واحدة ثلاثة لغير ما سبب. فحصل هذا القول في نفس شرف الدولة ولم يغير على أبي منصور أمراً وبقي في خدمته إلى أن توفي.

وأما أبو الحسن الناظر فإنه أنفذ إلى جرجان برسالة وتوفي بها.

وأما أبو القاسم العلاء فإنه أقام في داره إلى أن خرج شرف الدولة إلى الأهواز فخرج معه على ما سيأتي ذكره في موضعه.

وفي هذه السنة قبض على أبي عبد اللّه الحسين بن أحمد بن سعدان ومن يليه وعلى أبي سعد بهرام وأبي بكر بن شاهويه وسائر أصحابهم ونظر أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف في الأمور ودبَّرها مديدة.

ودخلت سنة خمس وسبعين وثلثمائة

فيها شورك بين أبي القاسم وبين أبي الحسن أحمد بن محمد بن برمويه في الوزارة وتنفيذ الأمور وخلع عليهما جميعاً.

شرح الحال فيما جرى عليه أمر هذه الوزارة المشتركة

كانت الحال فيما بين أبي القاسم وبين أبي الحسن بن برمويه ثابتة على الإخاء جائزة على الصفاء وكانا يتجاوران في منازلهما ويتزاوران في مجالسهما فهما أبدا عاكفان إما على معاشرة وإما على مشاورة فلما توفي أبو الحسن علي بن أحمد العماني كاتب والدة صمصام الدولة سعى أبو عبد اللّه بن سعدان لأبي نصر والده في كتابتها فعمل أبو القاسم عبد العزيز في عكس ذلك للعداوة التي بينهما.

ذكر كلام سديد لعبد العزيز بن يوسف في تحذير صمصام الدولة من الحجر عليه

قال له: إن عبد اللّه قد استولى على أمورك وملك عليك خزائنك وأموالك وإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه وهذا أبو الحسن بن برمويه رجل قد خدم عضد الدولة وهو أسلم خبية وأطهر أمانة وأليق خدمة الحرم لأنه كان خصياً خصاه ابن الياس واشتراه عضد الدولة من البلوص عند حصوله في أسرهم. فوقر هذا القول في سمع صمصام الدولة وقبله وقلد أبا الحسن كتابة والدته. فلما نظر أبو القاسم بعد أبي عبد اللّه بن سعدان استخلف أبا سعد الفيروزابادي وأبا عبد اللّه بن الحسين بن الهيثم فاستوحش أبو الحسن بن برمويه بعدوله عنه بعد أن قدر أن الأمور تكون مفوضة إليه للحال التي بينهما فواصله أياماً على رسمه ثم انقطع عنه وصار يجتاز ببابه ولا يدخل إليه. وشرع مع والدة صمصام الدولة في طلب الأمر لنفسه فتغير أبو القاسم عليه واعتقد كل واحد منهما عداوة صاحبه.

ذكر رأي ضعيف أشارت به والدة صمصام الدولة عليه فعمل به

خاطبته على أن يجمع بين أبي القاسم وبين أبي الحسن في الوزارة فأجابها إليه وخوطب أبو القاسم في ذلك فامتنع وجدت السيدة في الأمر وتردد من الخطاب ما انتهى آخره إلى إلزامه الرضا به فخلع عليهما وسوى في الرتبة والخطاب بينهما وجلسا جميعاً في دست واحد في دست الوزارة المنصوب وتقرر أن يكون اسم أبي القاسم متقدماً في عنوانات الكتب عنهما. فلم يتم ذلك واستعلى أبو الحسن بقوة سره واستظهاره بعناية السيدة به وخوف الناس منه وصار الأمر سخيفاً بهذا الرأي الضعيف. والدولة إذا كفلها النساء فسدت أحوالها ووهنت أسبابها وبدأ اختلالها وولّى إقبالها والأمر إذا ملكته انتقضت قواه وانهدم بناه ولم تحمد عقباه والرأي إذا شاركن فيه قل سداده وضل رشاده وعند ذلك يكون الفساد إلى الأمور أسرع من السيل إلى الحدور. لا جرم أن أبا القاسم

احفظه ذلك وما عاملته السيدة من نصرة أبي الحسن عليه ولما رأى أن أبا الحسن أشد بطشاً في عداوته من ابن شهراكويه شرع في إخراج الملك من يدي صمصام الدولة واستغوى أسفار بن كردويه ووافقه على ذلك.

ذكر ما جرى عليه الأمر في عصيان أسفار

كان قد ردد بين صمصام الدولة وبين زيار بن شهراكويه أسرار اطلع عليها أبو القاسم بحكم امتزاجه بالخدمة وخرج بها إلى أسفار وخاض فيها الغمرات وأشعر قلبه وحشةً أخرجته من أنس الطاعة. وتقرر بينهما في ذلك ما أحكما عقده ودخل معهما في هذا الرأي المظفر أبو الحسن عبيد اللّه بن محمد بن حمدويه وأبو منصور أحمد بن عبيد اللّه الشيرازي كاتب الطائع يومئذ وقد كان صمصام الدولة اعتل علة أشفى فيها فواقف أسفار أكابر العسكر وأصاغرهم على خلع صمصام الدولة وإقامة الأمير أبي نصر (وسنه في الوقت خمس عشرة سنة) خليفة لأخيه شرف الدولة ووعدهم بمواعيد الإحسان واستظهر عليهم بمواثيق الإيمان وابتدأ الفتنة بالتأخر عن الدار واستعمال التخبيّ وترددت إليه من صمصام الدولة مراسلات التأنيس والتسكين فما زادته إلا إغراء وتغميراً. فصار إليه أبو القاسم عبد العزيز وأبو الحسن بن برمويه وأبو الحسن بن عمارة العارض برسالة من صمصام الدولة هي ألطف مما تقدم فلما حصلوا عنده امتنع من لقائهم وقبض عليهم وجمع العسكر وأحضر الأمير أبا نصر ونادى بشعار شرف الدولة وأفرج عن أبي القاسم لأن القبض عليه كان بموافقة منه واجتمعوا على تدبير الأمور وترتيبها وتولى المظفر بن الحسن بن حمدويه وأبو منصور الشيرازي أخذ البيعة على الجند. وبلغ صمصام الدولة الخبر وقد أبلَّ من مرضه فتحير في أمره وجمع غلمان داره وراسل الطائع للّه في الركوب فاستعفى وامتنع منه.

ذكر رأي سديد واتفاق حميد اتفقا لصمصام الدولة أسفر بهما الأمر عن الظفر

لما رأى الخطب معطلاً استنصر فولاذ بن مانادر مستصرخاً وبذل له المواعيد الكثيرة على ذلك وكان فولاذ مع القوم فيما عقدوه لكنه أنف من بعد رتبة الانحطاط لأسفار عن رتبة المتابعة. وكان من حميد الاتفاق إطلال المساء وحجاز الليل ولو سار أسفار في الوقت الذي أظهر فيه ما أظهره إلى صمصام الدولة لأخذه ولم يكن له دافع عنه لكنه ظن أن لن يفوته الأمر وكان قدراً مقدوراً. فأصبحوا وقد خالفهم فولاذ وانحاز إلى صمصام الدولة فحضر لديه وأكّد العهد والعقد عليه وتنجز منه توقيعاً بجميع ما التمسه من جهته وتكفل له بالذب عن دولته والقيام بخدمته. وانضاف إلى صمصام

الدولة فولاذ ورجاله والجيل وهم أقاربه وأخواله وغلمان داره وعدتهم كثيرة وشوكتهم قوية ففتح خزانتي السلاح والمال وعجّل لهم وأعطاهم ووعدهم من بعد ومنّاهم وسار بهم فولاذ مصعداً للقاء القوم.

ذكر تدبير جيد دبره فولاذ في أمر الحرب

نزل إلى زبزب صمصام الدولة وجلس على كرسيه في دسته وعلى رأسه علامته ومن ورائه وأمامه الزبازب والطيارات حتى ظن الناس أن صمصام الدولة قد خرج بنفسه. وسير العسكر بإزائه على الظهر فلما انتهى إلى الجزيرة بسوق يحيى وجد الجيل وعدتهم قليلة يقاتلون ديلم أسفار وقد ثابتوهم وصابروهم. فصعد من الزبزب وعبى المصاف وسار قليلاً قليلاً حتى صدم عسكر أولئك (وعندهم أن تحت العلامة صمصام الدولة) فانكسروا. ورآهم أسفار من روشنه مولّين فأيقن بالهزيمة فركب وولى هارباً وتبعه طائفة من أقاربه وشيعته وأبو القاسم عبد العزيز وأفلت أبو الحسن بن عمارة العارضي جريحاً وأخذ الأمير أبو نصر وحمل إلى صمصام الدولة. فرق له لما شاهده وعلم أنه كان لا ذنب له فلم يؤاخذه وتقدم باعتقاله وترفيهه فكان في الخزانة محروساً مراعى. ونهبت دور الديلم والأتراك العاصين ودور أتباعهم وأشياعهم.

وقتل في اللية التي وقعت في صبيحتها الهزيمة أبو عبد اللّه بن سعدان

ذكر مكيدة لعبد العزيز في أمر ابن سعدان صارت سبباً لقتله

لما قبض أسفار على أبي القاسم وأبي الحسن بن برمويه وأبي الحسن بن عمارة انتهر أبو القاسم الفرصة وأرسل في الحال إلى صمصام الدولة يغريه بابن سعدان ويوهمه أن الذي جرى كان من فعله وتدبيره وأنه لا يؤمن ما يتجدد منه في محبسه فسبق في هذا القول إلى ظنه. وكان أحمد بن حفص المحرى عدوّاً له فزاد بالإغراء به فأمر حينئذ بقتله وقُتل معه أبو سعد بهرام على سبيل الجرف وقد كان خليفته وقت نظره وقُتل أبو منصور غيظاً لأبي القاسم. قال اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وكان أبو بكر بن شاهويه معتقلاً فسلم لحسن اتفاق.

ذكر اتفاق عجيب سلم به ابن شاهويه من القتل

كان محبوساً في حجرة تتصل بالحجرة التي فيها هؤلاء لكن بابها خلف الأخرى فإذا فتح ذلك غطّى هذا فلا يُوبَهُ له فانستر لهذه العلة وسكنت سورة الفتنة فأفرج عنه من بعد. وأطلق أبو الريان حمد بن محمد من الاعتقال وعول عليه في الوزارة وعلى أبي الحسن علي بن طاهر في كتابة السيدة وكتب الكتب بذكر البشارة إلى فخر الدولة وسائر

الأطراف وقبض على أخوي أبي القاسم وكتَّابه وأصحابه. وكان المظفر أبو الحسن بن حمدويه وأبو منصور الشيرازي هربا من دار أسفار يوم الهزيمة فظفر بهما وقرر أمرهما على مال صودرا عليه.

وخلع الطائع للّه على صمصام الدولة وجدد له له تشريفاً وإكراماً وخلع على أبي نصر فولاذ بن ماناذر الخلع الجميلة وخوطب بالاصفهسلارية بعد أن استحلف على الوفاء والمناصحة.

ومضى أسفار بن كردويه وأبو القاسم ومن معهما إلى الأهواز مغلولين.

ذكر ما جرى عليه أمر أسفار وعبد العزيز بن يوسف والأتراك الخارجين من بغداد

خرجوا من بغداد إلى جسر النهروان وساروا إلى الأهواز فلما حصلوا بها تلقاهم الأمير أبو الحسين وأرغبهم في المقام فأما الأتراك فإنهم أظهروا الموافقة وأسرُّوا غيرها ثم ركبوا في بعض الأيام غفلة وساروا. فتقدَّم الأمير أبو الحسين إلى سابور بن كردويه بتتبعهم وردّهم فركب وراءهم ولحقهم بقنطرة أربق فلم يكن له بهم طاقة وجرت بينهم مناوشة ورموه فأصابوا بعض أصحابه ومضوا هم وعاد هو. وأما أسفار بن كردويه فإنه أقام بالأهواز مكرماً وكان أخوه سابور زعيم الجيش فقدم عليه أسفار لكبر سنه وجلالة قدره وأقام على ذلك إلى أن أقبل شرف الدولة من فارس فأنفذه الأمير أبو الحسين إلى عسكر مكرم لضبطها في خمسمائة رجل من الديلم فلما حصل شرف الدولة بالأهواز صار أسفار إليه فأمر بالقبض عليه وحمل إلى بعض القلاع بفارس. وكان بها إلى أن توفي شرف الدولة وأفرج عنه عند الإفراج عن صمصام الدولة وأقام بفارس مديدة ومضى إلى الري. وأما أبو القاسم عبد العزيز فإن أبا الفرج منصور بن خسرو تكفل بأمره وأعظم منزلته وعرف له حق تقدمه فجازى أبو القاسم إحسانه بسوء النية فيه وحدَّث نفسه بطلب مكانه وألقى ذلك إلى بعض من عوَّل عليه فيه فأحس أبو الفرج واستظهر لنفسه بالتوثيق من الأمير أبي الحسين ومن والدته باليمين على إقراره في نظره وترك الاستبدال به. ولم يزل يتوصل حتى غيَّر نية الأمير أبي الحسين في أبي القاسم ونقصه في المنزلة التي كان أنزله إياها في ابتداء وروده واطّرح الرجوع في شيء من الأمور إلى رأيه وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها والبادئ أظلم. وبقي على هذه الحال إلى أن ورد شرف الدولة فقبض عليه مع أسفار وأنفذ إلى القلعة وأفرج عنه بعد وفاته.

وفي هذه السنة ورد إسحاق وجعفر الهجريان في جمع كثير وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة فملكا الكوفة وأقاما بها الخطبة لشرف الدولة. فوقع الانزعاج

الشديد من ذلك بمدينة السلام لما كان قد تمكن في قلوب الناس من هيبة هؤلاء القوم وقوة بأسهم ومسالمة الملوك لهم لشدة مراسلهم حتى أن عضد الدولة وعز الدولة قبله أقطعاهم إقطاعات بواسط وسقي الفرات فكانت مآربهم تقضى ومطالبهم تُمضى وأبو بكر بن شاهويه صاحبهم يجري بالحضرة مجرى الوزراء في حاله والإصغاء من الملوك راجع إلى أقواله وأكابر الناس يخشونَهُ مجتملين لكبره منقادين لأمره ولا سبب إلا اعتزاؤه إلى هؤلاء القوم.

ذكر ما جرى عليه أمر إسحاق وجعفر القرمطيين

لما ورد الخبر باستيلائهما على الكوفة بداهما أبو الريان بالمكاتبة وسلك معهما طريق الملاطفة والمعاتبة ودعاهما إلى الموادعة والمقاربة وبذل لهما ما يحاولانه. وعول على أبي بكر بن شاهويه في الوساطة معهما وكان قد أطلقه من الاعتقال وتلافى بالإحسان إليه والإجمال. فعدلا في الجواب إلى التعليل والتدفيع وجعلا ما كان من القبض على ابن شاهويه حجة في اللوم والتقريع وزاد الخطب معهما في بث أصحابهما في الأعمال ومد أيديهما إلى استخراج الأموال حتى لم يبق للصبر موضع ولا في القوس منزع وحصل المعروف بأبي قيس الحسن بن المنذر وهو وجه من وجوه قوادهم بالجامعين في عدد كثير فجرد إليهم من بغداد أبو الفضل المظفر بن محمود الحاجب في عدة من الديلم والأتراك والعرب وأخرج أبو القاسم بن زعفران إلى إبراهيم بن مرح العقيلي لتسييره في طائفة من قومه. وحصل أبو الفضل الحاجب بجسر بابل والقوم بإزائه فعقدوا جسراً على الفرات فإلى أن فرغ منه وصل إبراهيم وابن زعفران وحصلا مع القرامطة على أرض واحدة وتناوشوا وتطاردوا وفرغ الجسر وعبر سرعان الخيل من الأتراك وفرسان الديلم وحملوا مع إبراهيم بن مرح وأصحابه على القوم حملة واحدة انكشفت عن هزيمتهم وأسر أبو قيس زعيمهم مع جماعة من قوادهم وأسرع إليه إبراهيم بن مرح فضرب عنقه لثار له عنده وعاد الفل إلى الكوفة. وجاء البشير إلى بغداد فأظهرت البشارة بها.

ذكر ما كان من القرمطيين بعد قتل أبي قيس صاحبهما

لما عاد الفل إليهما هزتهما الحمية (وللقرامطة نفس أبية) فجهزا جيشاً جعلا عليه قائداً من خواصهما يعرف بابن الجحيش واستكثروا معه من العُد والعِدة: ووصل الخبر بذلك إلى بغداد فأخرج أبو مزاحم بجكم الحاجب في طوائف من العسكر وعبر القوم وهم بغربي الجامعيين وواقعهم وقعة أجلت عن قتل ابن الجحيش وأسر عدد من قوادهم وانتهاب معسكرهم وسوادهم ونجا من نجا منهم هارباً إلى الكوفة فرحل القرمطيان فيمن تخلّف عندهما وولوا أدبارهم. ودخل أبو مزاحم الكوفة وقص آثارهم حتى بلغ القادسية فلم يدركهم وعاد إلى الكوفة وزالت الفتنة وبطل ناموس القرامطة عند ذلك وذهبت

الهيبة التي اشرأبّت النفوس منها. ولكل قوم سعادة تجري إلى أجل معدود وتنتهي إلى أمل محدود ثم تعود إلى نقصان وزوال وتغير من حال إلى حال إلا سعادة الدين فإنها إلى نماء فإذا انفصلت من دار الفناء اتصلت بدار البقاء.

وفي هذه السنة أفرج عن ورد الرومي ومن معه من الأسرى بسفارة زيار بن شهراكويه

شرح ما جرى عليه أمر ورد في الإفراج عنه وإصعاده إلى بلد الروم

قد تقدم ذكر القبض عليه في أيام عضد الدولة وبقي في الاعتقال إلى هذا الوقت فسفر زيار في إطلاقه وخاطب صمصام الدولة على اصطناعه فاشترطت عليه وله شروط وتوثق منه فيها ووثق له على الوفاء بها. وأما ما اشترط عليه فهو أن يعترف لصمصام الدولة بالصنيعة ويكون حرباً لمن حاربه سلماً لمن سالمه من المخالفين في الدين والموافقين عليه وأن يفرج عن جماعة المسلمين بين من أحاطت ربقة الأسر بأرقابهم أو طالت يد الحصر في أعناقهم ويعينهم على النهوض إلى بلادهم وحراستهم على طبقاتهم في نفوسهم وأموالهم وحرمهم وأولادهم وأن لا يجهز جيشاً إلى ثغر ولا يغضي العين لأحد من أصحابه في مثل ذلك على غدر وأن يسلم سبعة من حصون الروم برساتيقها ومزارعها آهلة عامرة وأن يفي بقية ما عاش بجميع ما قرر معه واشترط عليه. وأما ما شرط له فالتخلية عن سبيله وحمايته من الأيدي الخاطفة حتى يخرج هو ومن في صحبته موفورين من البلاد التي تضمّها مملكة صمصام الدولة وأن يكون أمر الحصون إذا سلمها مجرى العادة المستمرة في حراسة أهلها وإقرارهم على أملاكهم وحقوقهم وإجرائهم في المعاملات والجبايات على رسومهم وطسوقهم. واستوثق من أخيه قسطنطين ومن ابنه أرمانوس بمثل ما استوثق منه وكتب بذلك كتب وسجلات استؤذن الخليفة الطائع للّه في إمضائها فأذن فيها وأمر بإحكام قواعدها ومبانيها. فلما استقرت القاعدة أفرج عنه وحمل إليه مال وثياب وجلس صمصام الدولة للقائه.

ذكر ترتيب جلوس صمصام الدولة بحضور ورد

قال صاحب التاريخ: عهدي بصمصام الدولة وجلس حتى يلقاه ورد ويشاهده ويخدمه ويشكره وقال: كان الوقت شتاء والدار ومجالسها مملوءة بالفرش الجليلة وستور الديباج النسيجة معلقة على أبوابها وغلمان الخيل بالبزّة الحسنة والأقبية الملونة وقوف سماطين بين يدي سدّته وكانت قد نصبت في السَّدلِيّ الذهب الذي تفتح أبوابه إلى البستان وإلى بعض الصحن والديلم من بعدهم على مثل ترتيبهم وزيهم إلى دجلة. وعبر ورد وأخوه وابنه في زبزب أنفذ إليهم يمشون بين السماطين إلى حضرة صمصام

الدولة وبحضرته كوانين من ذهب موضوعة فيها قطع العود توقد فلما قرب منه ورد طأطأ رأسه قليلاً وقبل يده ووضع له كرسي ومخدَّة فجلس عليهما. وسأله صمصام الدولة عن خبره فدعا له وشكره بالروصية والترجمان يفسّر عنه وله وقال قولاً معناه: قد تفضلت أيها الملك ما لا أستحقه وأودعت جميلاً عند من لا يجهله وأرجو أن يعين اللّٰه على طاعتك وتأدية حقوق فعلك. وقام ومشى الحجاب والأصحاب بين يديه كفعلهم عند مدخله وعبر في الزبزب إلى داره.

ذكر ما جرى عليه أمر ورد بعد إصعاده من بغداد

لما توجه تلقاء بلده استمال كثيراً من البوادي وأطمعهم في العطاء والإحسان وأخذ في المسير حتى نزل على ملطية وبها كليب عاملاً لملكي الروم عليها وكليب من أصحاب ورد (كما قد تقدم ذكره في المشروح الذي وجد بخط ابن شهرام) فأطاعه وحفظ عهده وسلم إليه ما كان معداً عنده فلمّ به شعثه وقوي به حزبه وعمل على المسير إلى ورديس بن لاون مظهراً حربه فترددت بينهما رسائل انتهت إلى تقرير قاعدة في الصلح على أن يكون قسطنطينية وما والاها من جانبها لورديس بن لاون وما كان في الجانب الآخر من البحر لورد واتفقا بعد توكيد الإيمان بينهما على الاجتماع وسار كل واحد منهما للقاء صاحبه فاجتمعا على ميعاد فلما تمكن منه ابن لاون قبض عليه.

ذكر غدر ورديس بن لاون بورد وقبضه عليه ثم مراجعته الحسنى بالإفراج عنه

كان ورد قد وثق بما أكده من العهود التي اطمأن إليها واعتقد ورديس بالبديهة أنه فرصة قد قدر عليها فغدر به وقبض عليه وحمله إلى بعض القلاع. فلما راجع رويته علم أنه أقدم على خطة شنعاء تبقى عليه سمة الغدر وتجلب إليه وصمة في الذكر وأجرى إلى فعله نكراً ينفر كل قلب عن معاهدته ويحمل كل قريب على مباعدته فاستدرك الأمر بتعجيل الإفراج عنه والاعتذار إليه وتجديد المواثيق معه فعادا إلى ما كانا عليه من الإلفة والاتفاق ودفعا أسباب الفرقة والشقاق. وانصرف ورديس فنزل بإزاء قسطنطينية منازلاً لباسيل وقسطنطين ملك الروم وقد اجتمعت الكلمة عليه وانضوى العساكر وأهل البلاد إليه وبقي الملكان في قل من الناس متحصنين بالمدينة وبحصينها.

ذكر تدبير لملكي الروم عاد به أمرهما إلى الاستقامة بعد الاضطراب

لما انتهت الحال منهما إلى الضعف راسلا ملك الروسية واستنجداه فاقترح عليهما الوصلة بأختهما فأجاباه إلى ذلك وامتنعت المرأة من تسليم نفسها إلى من يخالفها في دينها وتردد من الخطاب في ذلك ما انتهى إلى دخول ملك الروسية في النصرانية وتممت

الوصلة معه وهديت المرأة إليه فأنجدهما من أصحابه بعدد عديد وهم أولو قوة وأولو بأس شديد. فلما حصلت النجدة بقسطنطينية عبروا البحر في السفن للقاء ورديس وهو يستقلهم في النظر ويهزأ بهم كيف أقدموا على ركوب الغرر فما هو إلا أن وصلوا إلى الساحل وحصلوا مع القوم على أرض واحدة حتى نشبت الحرب بينهم واستظهر فيها الروسية وقتلوا ورديس وتفرقت جموع عساكره وثاب أمر الملكين إلى الاستقامة والاعتدال واشتد ملكهما بعد التضعضع والانحلال وراسلا وردا واستمالاه وأقراه على ولايته فأقام على جملته مديدة ثم توفي وقيل إنه سُم. وتقدم بسيل في الملك وظهر منه حسن سياسة وأضاء له رأي وقوة عزم وثبات قلب حتى أنه صبر على قتال بلغر خمساً وثلاثين سنة يواقعهم ويواقعونه والحرب لم تزل بينهم حتى ظفر بهم وملك ديارهم وأجلى عنها الجم الغفير منهم وأسكنها الروم بدلاً عنهم. وشاع ذكره في عدله ومحبته للمسلمين وطال أعده في بلادهم وملكه بالكف عن بلادهم وإحسان معاملته مع من يحصل في ممالكه منهم.

وفي هذه السنة هم صمصام الدولة بأن يجعل على الثياب الإبريسميات والقطنيات التي تنسج ببغداد ونواحيها ضريبة العشر في إتمامها.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو الفتح الرازي كثَّر ما يحصل من هذا الوجه وبذل تحصيل ألف ألف درهم منه في كل سنة. فاجتمع الناس بجامع المنصور وعزموا على المنع من صلاة الجمعة وكان المدن تفتتن فأعفوا من أحداث هذا الرسم.

وفيها مات أبو العباس بن سابور المستخرج تحت المطالبة بالتعذيب والمعاقبة. فقيل إنه عرضت فتوى على أبي بكر الخوارزمي الفقيه مضمونها ما يقول الشيخ في رجل مطالب معاقب قد ترددت عليه مكاره هونت عليه الموت هل له فسحة في قتل نفسه وإراحتها مما تلاقيه. فكتب في الجواب: أنه لا يجوز ولا يحل فعله والصبر على ما هو فيه أدعى إلى تضاعف ثوابه وتمحيص ذنوبه. فلما انصرف حاملها قال بعض الحاضرين لزهير بن أبي بكر: هذه فتوى ابن سابور المستخرج. قال أبو بكر: رُدوا حاملها. فردوه فسأله عنها فأخبر أنها لابن سابور فقال أبو بكر: قل له: إن قتلت نفسك أو أبقيت عليها فعاقبتك إلى الخسارة ومصيرك إلى النار.

وفيها اتصلت الأخبار بحركة شرف الدولة من فارس طالباً للعراق فأخرج إليه أبو عبد اللّه محمد بن علي بن خلف رسولاً وسفيراً في تقرير الصلح. فورد كتابه من الأهواز يذكر فيه أنه صادف شرف الدولة بها فبلغ ما تحمله من الرسالة فقوبل بالجميل الدالّ على حسن النيّة ووعد بإحسان السراح وضم رسول إليه ليقرر أمر الصلح والصلاح.

وبعد ذلك قبض على أبي الريان حمد بن محمد وعلى أصحابه وأسبابه.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو الحسن علي بن طاهر قد استولى على أمور والدة صمصام الدولة بحكم كتابتها وعظمت حاله ومنزلته عندها وعند صمصام الدولة لأجل خدمتها. وقد تقدم القول بأن تملُّك النساء لأمور الدولة عائد عليها بعظيم الخلل فلا يزال بهن النقض والإبرام حتى تزيغ القلوب وتزل الأقدام. وكان ابن طاهر هذا وأبو عبد اللّه ابن عمه قد استوحشا من أبي الريان فأفسدا حاله عند صمصام الدولة واستعانا بالسيدة عليه وقرفاه بالميل إلى شرف الدولة وإن نفوذ ابن خلف لإصلاح أمره معه وما زالا يعملان الحيلة حتى تم القبض عليه.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي الريان

حضر الدار على رسمه وجلس ينظر فيما جرت عادته بالنظر فيه. ومن غريب الاتفاق أنه فقد خاتمه في تلك الحال ولم يعلم كيف سقط من يده وطلب فلم يوجد ثم استدعى إلى حضرة صمصام الدولة وعدل به إلى الخزانة ووقع القبض عليه فكانت مدة وزارته هذه سبعة أشهر وأياماً. واستولى أبو الحسن وأبو عبد اللّه ابن عمه على الأمور وكان إليهما مصادر الأوامر في الأصول ونصبا أبا الفتح بن فارس وأبا عبد اللّه بن الهيثم لمراعاة الفروع وكانا يحضران في حجرة لطيفة في دار المملكة ويوقعان بإخراج الأحوال وإطلاق الصكاك واستيفاء الأموال وجرت الحال على ذلك إلى أن زال صمصام الدولة. وورد في أثر القبض على أبي الريان أبو نصر خواشاذه رسولاً عن شرف الدولة ومعه أبو عبد اللّه بن خلف فتلقاه صمصام الدولة في خواصه وقواده وأكرمه.

ذكر ما جرى عليه الأمر في وروده

قد كان أبو نصر هذا وأبو القاسم العلاء بن الحسن وأكثر الحواشي الذين مع شرف الدولة يحبون المقام بفارس لأنها وطنهم وبها أهلهم ونعمهم وفي جبلَّة البشر حب الأوطان واختيار الثواء بين الأهل والإخوان. وكان أبو الحسن محمد بن عمر يشير على شرف الدولة بقصد العراق وهم لا يتابعونه في الرأي على هذا الاتفاق ويقولون: غرضه العود إلى مستقر قدمه والرجوع إلى بلده وأملاكه ونعمه أن عضد الدولة منذ أعرض عن فارس وأقبل على العراق لم يكن له بال رخيّ ولا عيش هني. وكان شرف الدولة يوعيهم لهذا الأمر سمعاً ويحب المقام بشيراز طبعاً لأن فيها مولده وبها منشاه ولما قيل:

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

فلذلك كانت كلمة هذه الجماعة عنده قوية ومشورتها لديه مقبولة مرضية. فلما

ورد عليه ما ورد من كتب صمصام الدولة ووالدته وأبي الريان ببذل الطاعة والبخوع بالتباعة والإذعان بإقامة الدعوة والتظاهر بشعار النيابة وجد هذا القول من قبله قبولاً وأنفذ أبو نصر خواشاذه لإتمام هذه القاعدة رسولاً وأصحبته تذكرة تشتمل على التماس الخلع السلطانية واللقب وإقامة الخطبة وانفاذ الأمير أبي نصر مكرّماً واستدعاء آلات وفرش وخدم وجوار عازماً على القناعة بذلك فلما حصل بالأهواز وأتته الدنيا طوعاً بإقبالها وألقت البلاد مفاتيح أقفالها بدا له من ذلك الرأي فعزم على قصد العراق مصمماً وسار نحو بغداد متمماً. وسيأتي ذكر ذلك في موضعه بإذن اللّٰه تعالى.

شرح الحال في مسير شرف الدولة من فارس واستيلائه على الأهواز وانصراف الأمير أبي الحسين عنها

لما عزم شرف الدولة على المسير من فارس كتب إلى الأمير أبي الحسين بالجميل والإحسان وبذل له إقراره على ما في يديه من الأعمال والبلدان وأعلمه أن مقصده بغداد لاستخلاص الأمير أبي نصر أخيه وأنه لا يحدث في الاجتياز في بلاده أمراً يضره أو يؤذيه. فلم يقع هذا القول من الأمير أبي الحسين موقع التصديق وعرض له من سوء الظن ما يعرض للشقيق. واتفق أن والدته توفيت وهي بنت ملك ماناذر ملك الديلم ولها الحسب الصميم والخطر العظيم وكانت تكاتب شرف الدولة وتجامله وشرف الدولة يجلها لبيتها الجليل ويراقبها لإذعان طوائف الديلم لها بالتبجيل فلما مضت لسبيلها خلا سابور بن كردويه بالأمير أبي الحسين فثناه عن هذه الطريقة.

ذكر رأي أشار به سابور على الأمير أبي الحسين في هذه الحال

قال له: إن هذه الكتب الواردة هي على وجه الخديعة والمكر وإذا اغتررت لم تأمن أن تحصل معه في حبائل الأسر فما سار من فارس إلا لطلب الممالك جميعها والاحتواء على عاصيها ومطيعها ولا يبدأ إلا بك وما لنا لا نحاربه ونقاتله ولنا من العسكر والعدة ما نقاومه ونماثله؟ فأصغى إلى قوله وعمل لأمر المحاربة معدّاً وشمر عن ساق المباينة مُجداً. فبينما هو في ذلك إذ ورد الخبر بنزول قراتكين الجهشياري أرجان على مقدمة شرف الدولة ونزل شرف الدولة أرجان وسار قراتكين إلى رامهرمز. وتبرّز الأمير أبو الحسين إلى قنطرة أربق وأنفذ أسفار بن كردويه إلى عسكر مكرم لضبطها وبدأ الديلم يتسللون إلى شرف الدولة لواذاً وتقطعت الكلمة المجتمعة جذاذاً وتحيَّز الغلمان الأتراك إلى جانب من العسكر ونادوا بشعار شرف الدولة فأشرف الأمير أبو الحسين وسابور بن كردويه وأبو الفرج بن خسره على أن يوخذوا ويسلموا فعرَّج الأمير أبو الحسين إلى فورة الاختلاط على الجبل وسار من ورائه طالباً صوب المأمونية وراسل سابور بن كردويه

باللحاق به فلحقه بعد هنات جرت له حتى خلص إليه وثلثهما أبو الفرج أبن خسره وتبعهما غلام من غلمان داره فسار هو ومن معه طالبين حضرة فخر الدولة حتى وردوا أصفهان. فكتب منها إلى فخر الدولة وهو يومئذ بجرجان يشكون إليه أمره ويرجو منه نصره وكتب في جوابه وعداً لم يعقبه وفاء وأظهر له وداً لم يتبعه صفاء. ووقع له على الناظر بأصفهان بما قدرُهُ في الشهر مائة ألف درهم فاجتمع عنده بتطاول مقامه فل من الديلم الذين كانوا في جملته. وتبين له سوء رأي فخر الدولة فألبس عليه أمره وضل طريق الصواب عنه.

ذكر تدبير سيىء ألقى به نفسه إلى الهلاك

لما يئس من صلاح حاله أظهر لمن كان بأصفهان من الأولياء ما لا حقيقة له وأعلمهم أن بينه وبين شرف الدولة مراسلة استقر معها النداء بشعاره والانضواء إلى أنصاره واستمال قوماً من الجند المقيمين بها وعمل على التغلب على البلد. وكان المتولي لتلك الأعمال أبو العباس أحمد بن ابراهيم الضبي وندَّ الخبر إليه فعاجل الأمر وقصد دار الأمير أبي الحسين في عدة قوية وأوقع به وانهزم من كان حوله من لفيفه وأسر هو وأبو الفرج بن خسره واعتقلا في دار الإمارة. وأما أبو الفرج فإنه قتل من يومه وأما الأمير أبو الحسين فإنه صفد وحمل إلى الري واعتقل بها مدة يسيرة ثم نقل إلى قلعة ببلاد الديلم ولبث فيها عدة سنين فلما اشتدت بفخر الدولة العلة التي قضى فيها نحبه أنفذ إليه من قتله. ويروي له بيتان قالهما في الحبس وكان يقول الشعر وهما:

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت ومن لي بما قد فات في الحبس من عمري

وسار شرف الدولة من أرجان ودخل الأهواز وقد تمهَّدت الأمور فاطلق من كان اعتقله الأمير أبو الحسين من أصحابه وقبض على أسفار وعبد العزيز بن يوسف وعلى أصفهان بن علي بن كامة الوارد معه وأخرج العلاء بن الحسن إلى البصرة للقبض على الأمير أبي طاهر بن عضد الدولة وعلى من كان في جمله من الخواص فقبض عليه وعاد العلاء بن الحسن بعد تقرير أمر البصرة وأعيد إلى شيراز للمقام بها. واستدعي أبو منصور محمد بن الحسن بن صالحان وعول على أبي نصر سابور بن أردشير في مراعاة الأمور إلى أن يصل أبو منصور وأزمع شرف الدولة على المسير إلى العراق.

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة ابن مؤيد الدولة فجلس صمصام الدولة للعزاء وبرز الطائع للّه لتعزيته.

قال صاحب التاريخ: عهدي بالطائع للّه وهو في دسته منصوب على ظهر حديدي وهو لابس السواد والعممة الرصافية السوداء وعلى رأسه شمسة وبين يديه الحجاب والمسودَّة وحول الحديدي الأنصار والقراء والأولياء في الزبازب. وقد قدم إلى مشرعة

دار المملكة من باب الميدان فنزل صمصام الدولة إليه وقبل الأرض بين يديه وردَّه بعد خطاب جرى بينهما في العزاء والشكر.

ودخلت سنة ست وسبعين وثلثمائة

فيها وقع الخوض مع أبي نصر خواشاذه في انجاز ما وعد به وإحكام قواعده ومبانيه فأجيب إلى جميع ما تضمنته التذكرة إلا انفاذ الأمير أبي نصر فإنه أرجى أمره إلى أن يستبين أمر الصلح.

ذكر ما تقرر الأمر عليه مع أبي نصر خواشاذه في ذلك

قررت أقسام الصلح على أقسام ثلاثة قسم منها يعم الفريقين وقسمان يخص كل فريق قسم منها. فأما الأمر الذي يعم فهو: تألف ذات البين حتى لا يدرك طالب نبوة مقصداً في تنفير وتصافي العقائد حتى لا يجد جالب وحشة مطعماً في تكدير فإن ظهر عدو مباين لأحدهما ناضلاه جميعاً عن قوس الموافقة والمساعدة ودافعاه بمنكب المظاهرة والمعاضدة. وأن يمنع كل واحد من تعرض ببلاد الآخر ولا يطمع فيها جنداً ولا يقطع منها حداً ولا يجبر منها هارباً ولا يأوى متحيزاً أو موازياً.

وأما ما يخص شرف الدولة: فهو أن يوفيه صمصام الدولة في المخاطبة ما يقتضيه فضل السن والتقديم ويلتزم من طاعته ما يوجبه حق الإجلال والتعظيم ويقيم له الخطبة على منابر مدينة السلام وسائر البلدان التي في يديه ويقدم بعد إقامة دعوة الخليفة دعوته عليه. وأما ما يخص صمصام الدولة: فهو أن يكف شرف الدولة عن سائر ممالكه وحدودها ويمنع أصحابه كافة عن طرقها وورودها وأن يراعيه في كل أمر يستمد فضله فيه مراعاة الأخ الأكبر لأخيه وتاليه.

وصدر كتاب المواضعة بالاتفاق على تقوى اللّه تعالى وطاعة الخليفة الطائع للّه وامتثال ما أمرهما به من الألفة على الشروط المذكورة. وجعل على نسختين ختم أحدهما بيمين حلف بها صمصام الدولة معقودة بأن يحلف بمثلها شرف الدولة.

فلما تحرر ذلك جلس الطائع للّه وحضر الأشراف والقضاة والشهود ووجوه أصحاب صمصام الدولة وأبو نصر خواشاذه وقرئ كتابه إلى شرف الدولة وزين الملة بالتلقيب والتقليد وسلمت الخلع الكاملة واللواء. وندب أبو القاسم علي بن الحسن الزينبي الهاشمي وأحمد بن نصر العباسي الحاجب ودعي الحاجب للخروج من قبل الطائع للّه بذلك وأبو علي بن محمان من قبل صمصام الدولة برسالة جميلة مشتملة على خفض الجناح والاستمالة إلى الصلاح والإذعان بالطاعة والولاء والترقيق بالرحم والإخاء وسارت الجماعة على هذه القاعدة المذكورة. ووجد فيما خلفه أبو الحسن ابن حاجب

النعمان نسخة أخرى بمثل الذي تقدم ذكره واتصلت بها يمين واشتمل آخرها على لفظ شرف الدولة بذلك وأنه قد ألزم ذلك وأشهد اللّه عليه به وحلف باليمين المذكورة فيه. وعلى ظهرها بخط أبي الحسن ابن حاجب النعمان:

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم: ثبت بحضرة سيدنا ومولانا الإمام الطائع للّه أمير المؤمنين أطال اللّه بقاه وأعز نصره وأدام توفيقه وكبت عدوه ما تضمنه الاتفاق المكتوب في باطن هذا الكتاب وصح عنده التزام شرف الدولة وزين الملة أبي الفوارس أمد اللّه تأييده لصمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار مولى أمير المؤمنين أعز اللّه نصره ما شرح فيه بعد أن ألزم له مثله. فحكم مولانا أمير المؤمنين أعز اللّه نصره عليهما به وجمعهما إلى الائتلاف عليه في طاعته وخدمته وقطع به بينهما الفرقة والاختلاف. وأمر بهذا التوقيع تأكيداً لما تصافيا عليه والزاماً لهما الوفاء به وأنعم بعلامة بخط يده الكريمة في أعلاه والحكم الشريف النبوي في منتهاه واللّه عون مولانا أمير المؤمنين على ما التزماه وتوخياه. وكتب علي بن عبد العزيز بالحضرة الشريفة وعن الاذن السامي والحمد للّه حمد الشاكرين. علامة الطائع للّه «الملك للّه وحده» نقش الخاتم في الأسر نجم المسك والعنبر «الطائع للّه».

وأمر هذه النسخة عجيب لأن هذا الصلح لم يتم وما عاد به أبو نصر خواشاذه ونفذ فيه أبو علي بن محمان لم يلتئم وربما يكون ذلك فيما كتب بالأهواز وأنفذ إلى بغداد ثم انتقض واللّه أعلم.

ذكر ما جرى عليه أمر الرسل الخارجين إلى شرف الدولة

انحدرت الجماعة إلى واسط ومدبرها قراتكين الجهشياري فأكرمهم الكرامات الوافية وأقام لهم الإقامات الكافية وسار أبو علي على طريق الظهر. فورد كتاب شرف الدولة في أثر ذلك إلى قراتكين بالقبض عليه وحمله إلى الأهواز فركب في جماعة من الغلمان متبعاً له فلحقه بباذبين وقد نزل بها فقبض عليه وعلى جميع ما صحبه مما كان حمل إلى شرف الدولة ورده إلى واسط واعتقله ثم أنفذه وما كان معه على طريق البصرة. وتوجه أبو نصر خواشاذه في الماء إلى البصرة مع رسل الطائع للّه وتمم منها إلى حضرة شرف الدولة فوجده وقد تغير عما فارقه عليه من حاله وانقادت له الأمور انقياداً ألواه عما كان مائلاً إليه. وخلا به أبو الحسن محمد بن عمر فثناه إلى ما أراده فلم يكن لأبي نصر موضع قول إلا فيما علاّ بناء هذا الرأي وشيده. وقد كان العمال والمتصرفون مضوا إلى شرف الدولة من كل بلد من أعمال العراق وتقدم أبو علي التميمي من واسط وتلاه أبو عبد اللّه بن الطيب من النهروانات وأبو محمد الحسن بن محمد بن مكرم من الكوفة وقصد الناس حضرته على طبقاتهم من كل فج عميق ووافاه

الديلم والأتراك فوجاً بعد فوج وفريقاً إثر فريق. وكان نفوذ قراتكين الجهشياري إلى واسط على مقدمته بعد وصول أبي عبد اللّه بن الطيب فضمه إليه ناظراً في البلد وأعماله ومقيماً لنفقات قراتكين الجهشياري ورجاله. فمد ابن الطيب جناحه على الأعمال ويده إلى الأموال فلما حصل أبو محمد بن مكرم بالأهواز كثرت الأقوال على ابن الطيب فيما أخذه من النهروانات عند مفارقته لها وبواسط عند حصوله بها فأخرج أبو محمد بن مكرم للقبض عليه والنظر بواسط.

ذكر ما جرى الأمر عليه في ترتيب القبض على ابن الطيب واخفاء الحال فيه إلى أن تم

أنفذ أبو محمد من الأهواز وفي الظاهر أنه رتب في إقامة المير لشرف الدولة وعساكره بين الأهواز وواسط وفي الباطن قرر معه النظر بواسط والقبض على أبي عبد اللّه بن الطيب وإخوته فاصحب كتباً باطنة وظاهرة بذلك. فلما حصل بواسط واجتمع مع قراتكين وواقفه على ما ورد فيه قبض على الجماعة الحاضرين والغائبين في يوم واحد بتدبير دبره وبقوم قدم انفاذهم إلى كل من عاتباً على ميعاد قرره ومقدار وقته. ورأى أن يسلك مع أبي عبد اللّه على طريق المياسرة والمقاربة فاحتسب له بجميع الظاهر المأخوذ منه في جملة مال المطالبة واعتمد مع إخوته إظهار بعض التشديد والاستقصاء ثم سهل أمورهم عند التحقيق والاستيفاء وعلم أن أعمال السلطان عواريّ فتساهل وقارن وجامل وقارب. فمن أحسن فإنما يحسن لنفسه ومن أساء إنما يسيء إليها والعارية في الحالين مردودة وأيام لبثها عند المعار معدودة ومهما سلكه الإنسان من طريق فنجاحه فيه بهداية وتوفيق.

ذكر مسير شرف الدولة من الأهواز لما استتبت له الأمور بواسط

سار إليها في عساكر كثيرة بالجموع الظاهرة التجمل وكانت زينته وأهبته في صاحته من كل نوع على أحسن ما شوهد فقيل إن جماله كانت ثلاثة عشر ألف رأس وجمال عسكره أكثر من هذا العدد وغلمان خيوله مع الخدم الف وثمانمائة ما بين غلام وخادم إلى ما يتبع ذلك ويشاكله من كل ما يكون للملوك المخولين والسلاطين الممولين. يقول صاحب التاريخ هذا القول ويستكثر هذا القدر ولو أدرك هذه الدولة القاهرة ورأى سلطانها وغلمانها وأركانها وعدتها ورجالها وزينتها وأموالها لعلم أن الذي استكثره في قبيل الإقلال ولأقرّ أن البحر لا يقاس بالأوشال.

فلما استقر شرف الدولة بواسط سار قراتكين إلى دير العاقول ولما أجلت الأحوال بمدينة السلام حدر بالأمير أبي نصر بن عضد الدولة إلى حضرة شرف الدولة مع غلام من

الخواص. وزادت أمور صمصام الدولة اختلالاً وتناقصت حالاً فحالا وشغب الديلم حتى أحاطوا بداره مطالبين بالمال ورفعوا سجف المراقبة ونادى سلار سرخ بشعار شرف الدولة وثار العامة في عرض هذه الفتنة وكبسوا حبس الشرطة فأطلقوا من فيه وأذنت دولته بزوال وعقدته بانحلال ولم يزل الأولياء والحواشي والنظار والعمال يصيرون إلى حضرة شرف الدولة بالأهواز وواسط من غير احتشام ويقدمون من غير احجام فلما رأى صمصام الدولة ووالدته وأبو حرب زيار وفولاذ بن ماناذر ما قد انتهى الأمر إليه أجالوا الرأي بينهم.

ذكر رأي سديد رآه زيار في تلك الحال وأشار به على صمصام الدولة فلم يعمل به

أشار بالإصعاد إلى عكبرا ليعرف بذلك من هو معهم ممن هو عليهم ويتميز الآنس بهم من النافر عنهم وقال: إن الجيل كلهم في طاعتنا مخلصون وفي سلكنا منخرطون ولا بد من أن ينضاف إليهم قوم آخرون فإن رأيتم عدتنا كثيرة وشوكتنا قوية بحيث تنكافي في المقارعة أخرجنا ما في أيدينا من المال وأطلقناه للرجال وإن ضعفنا عن القراع وعجزنا عن الدفاع تممنا إلى الموصل وينضم أبو القاسم سعد الحاجب ومن العساكر إلينا ويكثر جمعنا ويقوى أمرنا. فإن الديلم والأتراك سيكثرون عند شرف الدولة ثم لا يزال بهم التنافس والتحاسد حتى يحدث بينهم التباين والتباعد وبإزائهم منك ملك تعلق به آمالهم وتطمح نحوه أبصارهم وهي الأيام والغير والقضاء والقدر والأمر يحدث بعده الأمر.

ذكر رأي آخر سديد أشار به فولاذ فلم يقبل منه

قال فولاذ: الصواب المسير إلى قرميسين والحصول في أعمال بدر بن حسنويه ومكاتبة فخر الدولة وكان في صلح صمصام الدولة بحسب ما نسجه ابن عباد بينهما واستمداد عسكر والمسير على طريق أصفهان إلى فارس والتغلب عليها. وفيها أخر: أين شرف الدولة وذخائره فليس بإزائنا في تلك الأعمال أحد يقاومنا ويدافعنا وإذا حصلنا بها لم يستقر لشرف الدولة قدم بالعراق ولم يستمر له على الاتساق ويضطرب أمره وتنحل قراه وينزل في الصلح على حكم اختياره ورضاه.

فمال صمصام الدولة إلى رأي زيار في الإصعاد ووقع الشروع في ترتيب أسبابه ثم بدا له من ذلك

ذكر رأي خطأ استبد به صمصام الدولة في إسلام نفسه إلى شرف الدولة

لما رأى الخرق قد اتسع والأمر قد التبس ضاق صدره وقل صبره. وكل ملك لم

يكن صدره في النائبات رحيباً وصبره في الحادثات عتيداً ونفسه في المعضلات مديداً أوشك أن يضمحل شأنه ويولي زمانه. فعمل على اطراح ذلك كله والانحدار إلى شرف الدولة ونزل إلى زبزبه مستبداً برأيه غير ناظر في بصائره ووارداً على أمر غير عالم بمصادر. فلما حصل تحت روشن زيار قدَّم إلى فنائه وتقدم باستدعائه فنزل إليه وعنده أنه يصعد إلى داره فلما لم يبصر لصعوده أثراً قال: إلى أين أيها الملك؟ قال: إلى أخي. قال: أوَ قَد تغير رأيك عما كنا عليه. قال: نعم: قال: لا تفعل فإن الملك عقيم والخطب عظيم والملوك لا تصل أرحامها ولا ترعى للقربى ذمامها وفي إسلام النفوس أخطار وحسن الظن في مثل هذه المواطن اغترار فراجع فكرك وتبصر أمرك. فقال له: ما أرى لنفسي رأياً صواباً إلا ما عملت عليه. قال له: خار اللّه لك. ثم قال له صمصام الدولة: فعلى ماذا عملت أنت؟ قال: إذا كنت قد رأيت ذلك رأياً وأنت أنت لم أرغب بنفسي عن نفسك ولم يكن خوفي أعظم من خوفك. فقال له: أما أنت فلا أرى لك أن تضع يدك في يد شرف الدولة. وودعه وانحدر. فلما قرب من معسكر شرف الدولة وقد خيَّم بنهر سابس أنفذ من يؤذن بوصوله فوافى أبو نصر خواشاذه في زبزب وقرب من زبزبه وخدمه ثم قال له: الملك يتعرَّف خبر الأمير والحمد للّه على ما وفَّقه من هذا العزم الذي يبلغ فيه مراده. ثم صار إلى المشرعة وهناك دابة قد قدمت لأجله فركبها ونزل عند خيمة شرف الدولة وهو واقف ينتظره وبين يديه حواشيه وخواصه وقد ارتجَّ المعسكر بالخبر. فلما وصل إليه قبل الأرض ثلاث مرات بين يديه وقرب منه فقبل يده فسأله شرف الدولة عن حاله في طريقه فاستصوب رأيه في وروده فأجابه صمصام الدولة جواباً شكره فيه وأراه قوة نفسه به. فوقف قليلاً ثم قال له شرف الدولة: تمضي وتغير ثيابك وتتودع من تعبك. فخرج من حضرته وحمل إلى خيمة وخركاه قد ضُربتا له بغير سرادق وفي صدر الخركاه ثلاث مخاد فدخل وجلس على المخدتين وأطرق اطراق الواجم وأبصر أمر غلطه فبان عليه أسف النادم: وأخرج أبو الحسن نحرير وأبو بكر البازيار إلى بغداد للاحتياط على ما في دار المملكة والخزائن والاصطبلات.

ذكر ما جرى عليه أمر زيار وفولاذ

لما انحدر صمصام الدولة ولم يبق لهما ملجأ أعيتهما الحيل وضاقت بهما السبل فحدَّثا نفوسهما بالانحدار ووقع في قلوبهما حسن الظن لتبين مواقع الأقدار فغابت عنهما الآراء وظلت عليهما تلك الانحاء. وقام الرشيد فانحدر بعد صمصام الدولة على الأثر وحملا أمرهما على الغرر فأما زيار فإنه قُبض عليه بعيد وصوله وقتل وأما فولاذ فاعتُقِل ثم حمل إلى قلعة نهر. وسار أبو علي التميمي من دير العاقول إلى مدينة السلام بعد انحدار صمصام الدولة فدخلها وسكَّن البلد وورد شرف الدولة ونزل الشفيعي في شهر

رمضان واجتمع في عسكره من الديلم الواردين والمقيمين تسعة عشر ألف رجل ومن الأتراك ثلاثة آلاف غلام فاستطال الديلم على الأتراك فوقعت بينهم مناوشة.

ذكر الفتنة التي جرت بين الديلم والأتراك

كان الديلم قد أعجبهم كثرتهم وغرَّتهم قوَّتهم فجرت منازعة بين نفر من الطائفتين في دار واصطبل جرَّت خطباً عظيماً

فإن النار بالعودين تذكى وأن الحرب أولها كلام

فاجتمع الديلم بالحلبة وركب الغلمان وجرت بينهم حرب كانت اليد فيها للديلم وقيل إنهم ذكروا صمصام الدولة وهموا بانتزاعه

ذكر اتفاق سلم به صمصام الدولة من القتل بعد إشرافه عليه

قال أبو منصور أحمد بن الليث: حدثني صمصام الدولة قال: كنت في خركاه بالشفيعي وليس بيني وبين شرف الدولة إلا لِبدُها وثوب خيمة تجاورها وقد ثارت الفتنة وذكرت في الديلم فسمعت نحرير الخادم يشير على شرف الدولة بقتلي ويقول: نحن على شرف أمر عظيم فما يؤمننا أن يهجم الديلم علينا وينتزعونه من أيدينا فيصير إلى الملك ونصير إلى الأسر. وشرف الدولة يمتنع عليه وعلى من كان يشدّ رأيه فلما زاد الأمر أقيم على باب الخركاه التي كنت فيها غلام بسيف وأظنه وُصي بقتلي إن هجم الديلم فارتعت وأقبلت على القراءة في مصحف كان في يدي واستخلصت في الدعاء إلى اللّه تعالى بالخلاص ففضَّل اللّه بالسلامة وتفرق جمع الديلم.

ذكر تفريط جرى من الديلم في هذه الحرب حتى آل أمرهم إلى التشرد والهلاك

كان الاستظهار للديلم على الأتراك في أول الأمر لأنهم أفلتوا من أيديهم مولين فحملهم الحنق والطمع فيهم حين قلّوا في أعينهم على تتبع آثارهم وتشوّشت مصافهم والديلم إذا اضطربت تعبيتهم بانت عورتهم فوجد الأتراك مجالاً من ورائهم وأمامهم فحملوا عليهم من وجوههم وظهورهم وكانت الدائرة على الديلم ولم يمض إلا ساعة حتى قتل منهم زُهاء ثلاثة آلاف رجل وكرّ الغلمان إلى البلد فنهبوا دُورهم واحتووا على أموالهم وقتلوا كل من أدركوه منهم وتشرد الديلم فبعض أصعد إلى عكبرا وبعض مضى إلى جسر النهروان ولاذ الأكثر منهم بخيم شرف الدولة.

وبان سداد الرأي الذي كان رآه زيار لصمصام الدولة في الإصعاد إلى عكبرا فلو أنه قبل منه لكان مع هذه الفتنة قد ثاب أمره إلى الصلاح لكن القدر غالب والتسليم للقضاء واجب.

ودخل شرف الدولة في ثاني هذا اليوم والديلم اللائذون به قد أحدقوا بركابه ونزل في المضارب تحت الدار الملكية. وركب الطائع للّه في غد في الحديدي مهنئاً له بالسلامة وتلقاه شرف الدولة إلى آخر دار الفيل فقبل الأرض بين يديه وعاد الطائع لله إلى الدار. ووقع الشروع في إصلاح ما بين الديلم والأتراك فيسَّر اللّه إتمامه وأخذت العهود على الطائفتين فتصالحوا وتواهبوا وتهذبت الأمور وجرت على الإرادة وكان ذلك من أقوى دلائل الإقبال والسعادة.

ذكر جلوس شرف الدولة للتهنئة وما جرى أمر صمصام الدولة عليه في الاعتقال

لما حضر عيد الفطر جلس شرف الدولة جلوساً عاماً ودخل الناس على طبقاتهم وجاء صمصام الدولة فقبل الأرض بين يديه ووقف من جانب السرير الأيمن وجاء بعده الأمير أبو نصر بن عضد الدولة وفعل مثل ذلك ووقف. وحضر الشعراء فأنشدوا وعرَّض بعضهم بذكر صمصام الدولة بما فيه غميزة عليه فأنكر شرف الدولة ذلك ونهض من المجلس. ولم يعرف لصمصام الدولة خبر بعد ذلك الموقف حتى قيل إنه حمل إلى فارس فاعتقل في القلعة وسيأتي ذكر ما جرى عليه الأمر في كحله ثم عود الملك إليه بفارس في موضعه بإذن اللّه.

ولما حصل شرف الدولة بمدينة السلام سأل عن أبي الريان وطُلب فوجد ميتاً مدفوناً بقيوده في دار أبي الهيجاء عقبة بن عتَّاب الحاجب وكان سلم إليه بعد القبض عليه وأمر بقتله فقتله فأُخرج من مدفنه وسُلِّم إلى أهله.

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة أبي القاسم المظفَّر بن علي الملقب بالموفّق أمير البطيحة واستقرار الأمر بعده لأبي الحسن علي بن نصر بالعهد الذي عهده إليه حسب ما تقدم ذكره وكتب إلى شرف الدولة ببذل الطاعة والخدمة ويسئل التقليد والتلقيب والخلع فأجيب إلى ذلك جميعه ولقب بالمهذب أولاً ثم بمهذب الدولة من بعد.

ذكر استقرار الإمارة بالبطيحة على الملقب بمهذب الدولة

لما توفي المظفر انتصب أبو الحسن علي بن نصر في موضعه. وكان أبو الحسن علي بن جعفر يفوته في كثير من الخلال سخاء وشجاعة وأبوة ولكنه قدمه ووطىء عنقه تمسكاً بالوصية التي أحكم المظفر عقدها وقلدهما عهدها. وكان مع تقديمه إياه ينزل نفسه منه منزلة المشارك في الأعمال والمشاطر في الأموال فأبقاه علي بن نصر وقاربه وأفرد له النواحي الكثيرة والمعايش الجليلة وخلَّى بينه وبين ارتفاعها. واستمرت الحال على ذلك (إلى) أن توفي علي بن جعفر فارتجع علي بن نصر ما كان في يديه سوى

أملاكه الصحيحة فإنه أقرَّها على ولديه. وتدرجت الأحوال لعلي بن نصر الملقب بمهذب الدولة في أفعاله الرضية إلى الرتبة العلية حتى عظم قدره وسار ذكره واستجار به الخائف فأجاره بأمانه ولاذ به الملهوف فوطَّأ له كنف إحسانه وسلك بالناس طريقة جميلة في العدل والإنصاف وصارت البطيحة معقلاً لكل من قصدها من الأطراف واتخذها الأكابر وطناً فبنوا فيها الدور وشيَّدوا فيها القصور وقصدها المسترفد والشعراء من كل صوب وفج إلى بابه فأوسعهم جوداً ونوالاً وإكراماً وإفضالاً. وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه وقاربهم وقاربوه وزوجه بهاء الدولة ابنته ونقلها إليه واستعان به في عدة أوقات فأعانه واستدان منه فأدانه وخطب له بواسط والبصرة وأعمالها وصرفت إليه الدنيا أعِنَّة إقبالها. وتوَّجت الأيام مفرق مفاخره بمقام القادر باللّه رضوان اللّه عليه في جواره فضاعفت له هذه المنقبة حسباً وصارت له إلى استحقاق المدح سبباً ولولا كرم نفسه وخيرها لما مدحت البطيحة ولا أميرها:

نفس عصام سوَّدت عصاما وعوَّدته الكر والإقداما

وهذه عقبى أفعال الخير فإنها تبلغ بصاحبها درجة تُوفي على آماله وتنتهي به إلى منزلة لا تخطر بباله فالسعيد من قدَّم عملاً صالحاً لأخراه وخلف ذكراً جميلاً في دنياه. وسيأتي ذكره ما تصرفت به الأمور في مواضعه بعون اللّه تعالى وحسن توفيقه.

ذكر ما اعتمده شرف الدولة من الأفعال الجميل عند استقراره بمدينة السلام

رُدّ على الشريف أبي الحسن محمد بن عمر جميع ما كان له في سائر البقاع من الأملاك والضياع وجدد عنده آثار النعمة والاصطناع فاستضاف ضياعاً إلى ضياعه وتضاعفت موارد ارتفاعه فكان خراج أملاكه في كل سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم يصححها في ديوان السلطان وناهيك بذلك ثروة حال وكثرة استغلال.

وردّ على الشريف أبي أحمد الموسوي أملاكه وأقر ابن معروف على قضاء القضاة وراعى لكل من الكتاب والمتصرفين معه وأدرّ عليه معيشة ورزقة ورفع أمر المصادرات وقطع أسبابها وذم طرق السعايات وسد أبوابها.

ذكر اتفاق عجيب دل على حسن نية وعاد بصرف أذية

ذكر أبو الفضل مهيار بن حاتم المجوسي أستاذ الدار أنه سلم إلى شرف الدولة مدرجاً فيه سعاية فوقف عليه وطواه وتركه على كرسي مخادّه ونهض من مجلسه وأنِسُه فلما كان بعد أيام ذكره فقال لي: يا أبا الفضل امض إلى ذلك المجلس واطلب مدرجاً تركتُه هناك. فمضيت إلى المكان فلم أجده وسألت عنه فلم أعرف خبره فعدت إليه

فأخبرته فشق عليه وشدد عليَّ في الكشف عنه فخرجت من بين يديه وأنا قلق لما رأيت من شغل قلبه وأحضرت كل حاضر في الدار وغائب عنها من الحواشي والفراشين وبالغت في الوعيد والتهديد وكدت أوقع ببعضهم. فبينما أنا في ذلك إذ حضر فرَّاش ومعه قطعة من قرطاس وقال: وجدت الغزلان عند المخاد وقد أكل أكثره وبقيت منه بقية هي هذه: فدخلت إلى شرف الدولة وشرحت له ما قال الفراش وأريته القطعة الموجودة فلما تأملها سرى عنه وقال: هذه قطعة من المدرج وقد كنت عازماً على تعفية أثره لئلا يقف أحد على خبره فإذا كان الغزال قد كفانا أمره فقد أراد اللّه تعالى بذلك صرف الأذى عن الناس ولعن اللّه الشر وأهله. فانظر إلى آثار الخير ما أحسن موضوعها واصغ إلى أخبار العدل ما أطيب مسموعها وقسها بضدها من الشر والظلم تجد لهما منظراً فظيعاً ومسمعاً شنيعاً. فطوبى لمن حكَّم في التمييز سمعه وبصره ثم وُفّق في الاختيار للأحسن وتتبع أثره .

ونظر أبو نصر سابور بن أردشير في الأعمال والمعاملات وغمس يده فيما انحل عن الديلم من الإقطاعات ونظر في الأمور ونفذها إلى حين ورود أبي منصور محمد بن الحسن بن صالحان على ما يأتي ذكره.

ودخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

فيها ورد الأمير أبو منصور وتلقاه الناس كافة من مدينة السلام إلى المدائن ثم تلقاه شرف الدولة إلى الشفيعي فدخل البلد على غاية الإكرام. وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام وطالب العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة فرتب نقل الغلاَّت من بلاد فارس في البحر وجدّ في حملها من كل بلد. واستتر سابور بن أردشير مدة ثم توسط أبو بكر الفرّاش حاله على أخذ الأمان له من أبي منصور فآمنه.

ذكر بعض أخلاقه وطرائقه

كان الغالب عليه فعل الخير وإيثار العدل وحسن الطريقة في الدين فإذا سمع الأذان بالصلاة ترك جميع شغله ونهض من مجلسه لأداء فرضه ثم عاد بعد ذلك إلى أمره. قال صاحب التاريخ: ما رأينا وزيراً دبَّر من الممالك ما دبره فإن مملكة شرف الدولة أحاطت بما بين الحد من كرمان طولاً إلى ديار ربيعة وبكر وعرضاً إلى الأحساء والرقة والرحبة وحلوان. وكانت له تجارات وحمولات بنيسابور تقبل توقيعاته عليها في المعاملات وأنه عرضت عليه رحال باستحقاق بعض الجند والحواشي فوقَّع بمالها على الموصل وعمان نصفين.

ونحن نقول كيف به لو أدرك زماننا ورأى هذه الدولة القاهرة التي تجول عساكرها وجُند ملكها في الأقطار نافذ بأمره فترد مشارع الخليج كما ترد مشارع جيحون وسراياها الآن بالخفار قاربة لورد النيل وكفي بما بين هذه الموارد الثلاث ممالك واسعة الطول والعرض. وأوامر وزيره نافذة فيها بالإبرام والنقض والدهماء ساكنة في جميعها برأيه وتدبيره والهيبة ضابطة لجميعها بسياسته وتقريره. وأين من يوقِع على الموصل وعمان ممن يوقع على أعمال الشام وأقاصي خراسان! إن الفرق بينهما بعيد.

تـريـنـي الـسـهـا وأريـه الـقـمـر

وأي فخر في أن يقبل في بلاد المخالفين خط يكتب على معاملة تاجرية فإن يكن ذلك من جملة المناقب فأمرُ التجار إذاً أنفذ في المشارق والمغارب لأنهم يكتبون بالأموال الجمَّة على معاملاتهم فيكون أسرع في الرواج من مال الجباية والخراج. وإنما الفخر في نفاذ الأحكام على البلاد التي مهَّدتها السيوف للأقلام والملك ما قطر الدم من الصفائح في افتتاح أعماله ثم جرى المداد في الصحائف بإطلاق أمواله. وليس هذا موضع بسط المقال في ذكر هذه الفضائل ولكنا ننتهز الفرصة أولاً فأوّلاً في إقامة الشواهد والدلائل على تفصيل والدليل على تفضيل زماننا حسب ما قدَّمنا ذكره في صدر كتابنا هذا لتكون أقوالنا محققة بالبيان ودعاوينا مصدَّقة بالبرهان. فأحسن القول ما صاحبَهُ الصدق فزانه وأسوأه ما مازجه الكذب فشانه والله تعالى وليُّ حسن التوفيق بمنه.

ونعود إلى سياقة التاريخ. وفي هذه السنة ندب قراتكين الجهشياري لقتال بدر بن حسنويه وخلع عليه الخلع الجليلة وفيها السيف والمنطقة الذهب وخرج شرف الدولة إلى معسكره لوداعه.

ذكر ما جرى عليه أمر قراتكين في هذا الوجه

كان شرف الدولة مغيظاً على بدر بن حسنويه لانحرافه عنه وتحيُّزه إلى فخر الدولة فلما استقرت قدمه وقرُب من طاعته كل جامح شرع في تدبير أمر بدر. وكان قراتكين قد جاز الحد في التبسط فرأى أن يخرجه في هذا الوجه فإما أن يظفر ببدر ويشفي منه صدره وإما أن يستريح من قراتكين فيلغي أمره فجرد معه من العساكر وأصحابه من الخزائن ما استظهر فيه وعرف تداريجه فاستعد واحتشد وتلاقيا على الوادي بقرميسين.

ذكر خدعة تمت لبدر على قراتكين وعسكره وتفريطهم وقلة حزمهم

لما تواقعوا انهزم بدر حتى توارى عنه وظن قراتكين وعسكره أنه قد مضى على وجهه فنزلوا عن خيولهم وتفرقوا في خيمهم فلم يلبثوا ساعة حتى كر بدر راجعاً وأكب عليهم إكباباً أعجلهم من الاستعداد والتجمع وقتل منهم مقتلة عظيمة واحتوى على جميع ما في معسكرهم. وأفلت قراتكين بحشاشة نفسه في شرذمة من غلمانه وعاد في يومين إلى

جسر النهروان وتلاحق الفل به واحد بعد واحد وحُمل إليه من بغداد ما لمَّ به شعثه ودخل إلى داره. واستولى بدر بعد ذاك على أعمال الجبل وما والاها وقويت شوكته.

ذكر ما جرى عليه حال قراتكين بعد عوده في سوء تدبيره وما انتهى أمره إليه حتى آل إلى قتله

قد تقدم القول فيما كان حصل في نفس شرف الدولة منه لإسرافه في استعمال الدالّة واستيلاء كتابه وأصحابه والتجاء كل متعزز إلى بابه. وعاد من الهزيمة المذكورة وقد زاد تجنيه وتغضُّبه وتضاعفت تبسُّطه وتسحبه وأغرى الغلمان بالتوثب في دار المملكة على الوزير أبي منصور حتى لقوه بالصعب وقالوا له: أنت كنت السبب في هزيمتنا بتأخيرك المال والسلاح والنجدة عنا. فلوطفوا ودُفعوا عنه ثم وقع الشروع في إصلاح الحال بين الوزير وبين قراتكين فتم. وأسرَّ شرف الدولة من ذلك غيظاً فكتمه في قلبه وأمسك مُروِيًا في تدبير خطبه فلم تمض أيام حتى قبض عليه وقُيِّدَ ثم قتل من يومه وأنفذ إلى داره من قبض على أصحابه وكتابه واحتاط على معاملاتهم وأسبابهم. وخاض الغلمان في الشغب لأجله فلما أيقنوا بقتله وأرضى أكابرهم تبعهم أصاغرهم فأمسكوا.

وقُدم طغان الحاجب بينهم وأقيم مقامه فيهم فلزموا بعد ذلك الطريقة السوية واستشعروا المراقبة والتقيَّة.

ومن أعظم الأغلاط دالَّة الاتباع على السلاطين وإن سبقت خِدمهم وسلفت حُرَمهم فإنها مؤذنة بزوال نعمهم منذرة بورود مناهل الحمام. ومثل المدال على السلطان بتمكنه منه كمثل راكب الأسد فبينما تراه عزيزاً رفيعاً إذ صار بين براثنه ذليلاً صريعاً ألا وإن ذلك لمن أخطر المراكب وأحقها بسوء العواقب. وكفاك بقصة قراتكين تذكرة وتبصرة.

ولما تمهدت الأمور عُقد مجلس حضره الأشراف والقضاة والشهود وجُددت التوثقة فيه بين الطائع للّه وبين شرف الدولة واستقر ركوب شرف الدولة إلى دار الخلافة.

ذكر ما جرى عليه الأمر في جلوس الطائع بحضور شرف الدولة

ركب شرف الدولة في الطيار بعد أن ضربت له القباب على شاطئ دجلة وزينت الدُّور التي عليها في الجانبين بأحسن زينة وجلس الطائع للّه جلوساً عاماً وخلع عليه الخلع السلطانية وتوجَّهُ وسوَّرهُ وطوقه وعقد له بيده لواءين أسود وأبيض وقُرئ عهده بين يديه. وخرج من حضرته فدخل عليه أخته المتصلة بالطائع للّه وأقام عندها إلى وقت العصر ثم انكفأ إلى داره والناس مقيمون على انتظاره. ولما حمل اللواء تخرَّق وانفصلت منه قطعة فتطيَّر من ذلك فقال له الطائع للّه: إنما حملت الريح منه قطعة وتأويل ذلك أن تملك مهبَّ الريح.

وكان أبو عبد اللّه محمد بن أحمد معروفاً في جملة من حضر مع شرف الدولة فلما رآه الطائع للّه قال له

مرحباً بالأحبة القادمينا أو حشونا وطال ما آنسونا.

فقبل الأرض وشكر ودعا

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة سعد الحاجب بالموصل

ذكر ما جرى عليه أمر سعد بعد انحدار زيار من الموصل إلى أن توفي

لما أراد زياد الانحدار أقر سعداً على الحرب وأبا عبد اللّه بن أسد على الخراج فلم يلتأم ما بينهما وحصلا على وحشة. وورد شرف الدولة مدينة السلام فكاتب سعداً بإقراره على الأمر تأنيساً له وكان من عزمه أن يَضرِبه بأبي علي التميمي بوعد سبق من شرف الدولة إليه فمات أبو علي وبطل ذلك. وعرف شرف الدولة ما يجري بين سعد وأبي عبد اللّه بن أسد من الخلف في الأمور فأمر باستدعاء ابن أسد وترتيب ابن أخيه في مكانه نائباً عنه وكتب سعد يذكر تضاعف ما تأخر للأولياء من أرزاقهم وفرط مطالبتهم بما اجتمع في استحقاقهم فعوّل به في الجواب على بقايا للموصل وأعمالهم بحسب ما ذكره ابن أسد بالحضرة. وأخرج إليه أبو سعد الحسن بن عبد اللّه الفيروزأبادي وأمر بمناظرة الديلم على النزول عن الفائت جميعه أو معظمه فما وصل أبو سعد إلى الحصباء خيّم بها فحمل إليه سعد إنزالاً فلم يقبلها.

ذكر رأي سَيىء لأبي سعد من رَدّ ما حمله ومكيدة لسعد تمت عليه

كان من غلط الرأي ما اعتمده أبو سعد من رد ما حمله إليه سعد من الإنزال فإن ذلك عاد بسوء ظنه فيه وأوجس في نفسه أنه لم يفعل ذلك إلا عن قاعدة أحكمت في طلب مكروهه. وكان الديلم يميلون إلى سعد ويطيعونه فأوحشهم من أبي سعد ووضعهم باطناً على الإيقاع به فشغبوا وراسلوا سعداً: بأنك لم تزل تعدنا وتمطلنا بورود من يرد من حضرة السلطان للنظر في أمورنا وقد ورد هذا الرجل وما رأينا وجهاً لما كنا نتوقعه وبلغنا أنه معوّل على المسير إلينا لاستنزالنا عن أموالنا وإرضائنا من البقايا وهذا مما لا نقنع به. فأجابهم جواباً ظاهراً أسكتهم به وراسل أبا سعد بأن: الصواب أن ترفق بهم إذا راسلوك رفقاً لا تلين لهم فيه وتستوفي عليهم استيفاء لا تنفّرهم به. فلما حضرهُ رُسلهم غلظ في جوابهم فوثبوا به وهموا بقتله فهرب وألقى نفسه إلى دجلة فاستنقذ منها إلى بعض السفن وهو مجروح وعبر إلى الجانب الشرقي إلى أن سكنت النائرة ثم ردّه

سعد الحاجب وأنزله دارُه وأمر بمداواته مما به. ومضت أيام فاعتل سعد الحاجب وقضى نحبه (وقيل إن أبا سعد الفيروزأباذي واطأ بعض خواصِه على سمه) فلما توفي ظهر أبو سعد وجلس في داره واحتاط على ماله وتولى الأمور إلى أن وصل إليه من الحضرة من اجتمع معه على تحصيل التركة وحملها.

وأخرج أبو نصر خواشاذه إلى الموصل لحفظ أكنافها وزمَّ أطرافها.

وتجدد لباد بن دوشنك مع وفاة سعد الحاجب طمع في التغلب على البلاد فصار إلى طور عبدين وهو جبل مطل على نصيبين.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي نصر خواشاذه مع باد عند إصعاده من الموصل

لما عرف أبو نصر الخبر دعته الضرورة لقصد نصيبين لدفع باد فكتب إلى الحضرة يستمد ويستنجد فأمدّ وأنجد بما هو غير كاف وخاف أن يجري حاله مع باد على ما جرت عليه حال أبي سعد بهرام وأبي القاسم سعد فاستدعى بني عقيل واستدناهم وعوَّل في حرب باد عليهم لأنهم أخف خيولاً وأسرع خروجاً وقفولاً والأكراد خيولهم بطاء وعددهم للحرب ثقال.

ذكر رأي رآه أبو نصر في إقطاع البلاد حين تعذرت عليه وجوه الإطلاق

كان الوزير أبو منصور يقصده لشغب بينهما فأخَّر أمره وعلَّله بالمواعيد ثم كان قدَّر ما حمله له بعد تلك المواعيد المكررة ثلاثمائة ألف درهم وأين يقع ذلك القدر من مثل هذا الخطب! وكان أبو نصر يعلل من معه بوصول الحمل فلما عرف مبلغه رأى أن يكتم أمره خوفاً أن يظهر فتنقطع الآمال وتتفرق الآجال ويهجم عليه باد فينهزم بأسوأ حال. فعدل إلى تفرقة البلاد على العرب وتسليمها إليهم وقال: هذه بلاد بإزاء عدُوّ وقد استفحل أمره وإذا حصلت لهؤلاء العرب دفعوا عنها في عاجل الحال لنفوسهم دفع القوم عن حريمهم فإن قوي أمر السلطان كان انتزاعها من أيديهم أسهل من انتزاعها من يد باد. فكان الواحد منهم يكتب قصة ويسأل فيها إقطاعُه الخرِبَة الفلانية (وتكون ضيعة جليلة) فيوقِّع له بها من غير إخراج حال ولا تعرُّف ارتفاع وارتفق كاتبه على ذلك أموالاً جمة.

ذكر حيلة سحر بها باد عين من بإزائه واسترهبهم

كان يقيم البقر على رؤوس الجبال ويجعل بينها رجالة يبرقون بالسيوف والحراب فإذا شوهدوا من بعد ظنوا رجالاً فلا يقدم العسكر على الصعود إليهم. فاتفق أنه نزل أخ

لباد وقاتل قوماً من العرب فقُتل وبلغ قتله من باد كل مبلغ وضعف أمره فبينما هو في ذلك إذ ورد الخبر على أبي نصر بوفاة شرف الدولة فكتمه وعاد إلى الموصل فأظهر فيها العزاء به. وانفسخ باد وأصحابه وتمكن من طور عبدين واستضافها إلى ديار بكر ولم يقدم على الإصحار خوفاً من العرب فصار الجبل له والسهل لبني عقيل ونمير. وكان أبو نصر على إصلاح أمره ومعاودة حرب باد إذ أصعد إبراهيم وأبو عبد اللّه الحسين ابنا ناصر الدولة إلى الموصل. وسيأتي ذكر ما جرى عليه أمرهم من بعد بإذن الله تعالى.

ودخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة

فيها قبض على شكر الخادم من الموضع الذي كان مستتراً فيه وحمل إلى حضرة شرف الدولة وعلى أبي منصور أحمد بن عبيد اللّه بن المرزبان الشيرازي لأجله.

شرح الحال في ذلك

كان شكر قد أسلف إلى شرف الدولة ما أوحشه وتولى إبعاده عن بغداد إلى كرمان في حياة عضد الدولة وقام بأمر صمصام الدولة فحقد عليه شرف الدولة فلما انحل أمر صمصام الدولة ووقع اليأس منه خاف شكر. وكان أبو منصور أحمد بن عبيد اللّه بن المرزبان الشيرازي صديقاً خصيصاً له فقال له: شرف الدولة قد أقبل وأرى الاستظهار لنفسي بالاستتار ثم اعمل الحيلة في الخروج عن البلد فأعدّ لي موضعاً عندك لأَصير إليك. فقال له أبو منصور: أما حصولك في داري فلا يخفى لكثرة من يطرقها ولكن اختار لك مكاناً منه. فلما كان في الليلة التي انحدر فيها صمصام الدولة إلى شرف الدولة استدعي من قبل أبي منصور من يصير به ليلاً إلى الموضع الذي أعدّه. فأنفذ إليه زوجته بنت أبي الحسين بن مقلة ونزل شكر في سمارية وأصعد إلى الجسر كأنه ماض إلى عكبرا ثم انتقل إلى سمارية أخرى مع المرأة ولبس خفاً وإزاراً كان قد استصحبهما وصارت به إلى دار أبي بكر محمد بن موسى الخوارزمي الفقيه فأقام عنده مديدة. ففطن به فانتقل إلى دار رجل بزّاز في رحبة خاقان يعرف بابن هارون وكان أبو منصور الشيرازي يثق به.

ذكر رأي سديد رآه البزّاز وقبله شكر ثم خالفه فيه من بعده

قال له: أيها الأستاذ ملاك أمرك وأمري في سترك أن أتولى خدمتك ولا يدخل إلى بيني وبينك وبين هذه المرأة (إشارة إلى زوجته) رابع. فقال: افعل. فقام الرجل بخدمته فلما مضت مدة راسل شكر أبا منصور وقال له: لي جارية حبشية وأنا أثق بها وأريد أن تتولى خدمتي. فأجابه: بأنني لا آمن عليك. فراجعه حتى استقرَّ الأمر على إحضارها فأُحضرت وأقامت معه. وكان قد علق قلبها بهوى فكانت تأخذ من الدار المأكول وغيره وتخرج إلى حيث يدعوها هواها وربما احتبست في أكثر الأوقات فلحق

شكراً ضجر من فعلها ومنعها من الخروج فلم تمتنع.

ذكر فساد رأي شكر فيما دبر به أمره

لم يقنع بما غلط فيه من الخروج بسيره إلى غير أهله وقد قيل في المثل «لا تفش سرك إلى أمَةٍ» حتى غلط ثانياً بالضجر في غير وقته فإنه لما كثر ضجره منها رماها في بعض الأيام بحميدي أصاب به وجهها فخرجت من الدار غضبى ومضت إلى باب شرف الدولة وصاحت «النصيحة النصيحة» فسئلت عنها فقالت: لا أقولها إلاَّ له. فأدخلت الدار وأخرج إليها بعض خواص الحاشية فأخبرته بحال شكر فرتب مع صاحب المعونة من الخواص من يمضي للقبض عليه فقالت: قد جرى بيني وبينه نفرة وربما استوحش وانتقل فابدؤوا بدار أبي منصور الشيرازي. ففعلوا ذلك فما شعر أبو منصور وهو قاعد في داره عند حرمه إلا بهجوم القوم عليه بغتة فقبض عليه وفتشت الدور والحُجر فلم يوجد شكر. فمضوا إلى دار البزّاز وكبسوها وأخذوا شكراً منها وحملا جميعاً إلى حضرة شرف الدولة فأما شكر فإن نحريراً استوهبه قبل وصوله فوهبه له وعدل به إلى داره وأحسن إليه. ومضت مديدة وحضر وقت الحج فسأله الاستئذان له في الحج فأذن له وخرج ثم عدل عن مكة إلى مصر وحصل عند صاحبها. وأما أبو منصور فإنه اعتقل فتلطف الوزير أبو منصور بن صالحان في أمره.

ذكر تدبير لطيف عمله الوزير أبو منصور في خلاص أبي منصور الشيرازي

قال لشرف الدولة: هذا رجل إليه ديوان الضياع وعليه علقٌ وحسبانات وأنا آخذه إلى الديوان وأتولى محاسبته ومطالبته بما عليه. فسلم إليه ونقله إلى حجرة تجاور داره وأولاه الجميل ثم توصل إلى اطلاقه بعد شهور.

ولم يوجد في بقية أحداث هذه السنة ما فيه ذكر تدبير وسياسة.

ودخلت سنة تسع وسبعين وثلثمائة

فيها أنفذ الطائع أبا الحسن علي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان كاتبه إلى دار القادر باللّه رضوان اللّه عليه وهو أمير للقبض عليه فخباه اللّه تعالى منه.

ذكر السبب في ذلك وما جرى عليه الأمر فيه

لما توفي اسحٰق بن المقتدر باللّه والد القادر باللّه رحمة اللّه عليهم جرى بينه وبين أخته آمنة بنت معجبة منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما وعرضت للطائع للّه علة أشفى منها ثم ابلَّ. فسعت آمنة بأخيها القادر باللّه إلى الطائع للّه وقالت له: إنه شرع في

تقلد الخلافة عند علتك. فظن ذلك حقاً وتغيَّر رأيه فيه وأنفذ أبا الحسن ابن حاجب النعمان وأبا القاسم بن أبي تمام الزينبي العباسي الحاجب للقبض عليه فاصعدوا في الماء إلى داره بالحريم الطاهري. فحكى القاضي أبو القاسم التنوخي عن صفية بنت عبد الصمد بن القاهر باللّه قالت: كنت في دار الأمير أبي العباس تعني القادر باللّه يوم كبست بمن أنفذه الطائع للّه وقد جمع حرمه في غداة هذا اليوم وكنت معهن فقال لنا: رأيت البارحة في منامي كانَّ رجلاً يقرأ عليّ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] وقد خفت أن يطلبني طالب. وهو في حديثه إذ شاهد زبزب بن حاجب النعمان قد قدم إلى درجة داره فقال: إنا للّه هذا حضور مريب بعقب هذا المنام. وصعد القوم من الزبزب إليه وتبادرنا إلى وراء الأبواب فقالوا له: أمير المؤمنين يستدعيك. فقال: السمع والطاعة. وقام فقال له أبو الحسن: إلى أين؟ فقال: ألبس ثياباً تصلح للقاء الخليفة. فعلق بكمه ومنعه فبرزنا إليه وأخذناه من يده ونزل إلى سرداب في الدار ووقفنا في صدره حتى تخلص وعاد القوم إلى الطائع للّه وعرَّفوه الحال.

وانحدر القادر باللّه بعد ذلك مستخفياً إلى البطيحة فأقام عند مهذب الدولة إلى أن عقدت له الخلافة. وجعل علامته حين تقلد الأمر ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ تبرُّكاً بالرؤيا التي رآها.

ومن بعد هذه الحكاية نقول إن اللّه تعالى إذا اصطفى عبداً أظهر عليه آثار الكرامات ودل على اصطفائه بالآيات والعلامات وإذا اختاره لأمر هيأ له أسبابهُ وفتح عليه أبوابه ونجّاه من كل سوءٍ يخشاه وجعل إلى الخير مآله وعقباه. قال سبحانه في محكم التنزيل ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١].

وفي هذا الوقت أخرج محمد الشيرازي الفراش لكحل صمصام الدولة.

ذكر ما جرى عليه الأمر في ذلك

كان نحرير الخادم يحض شرف الدولة على قتل صمصام الدولة ويقول له: إنه ملك قد قعد على السرير ولا يؤمن الدهر وحوادثه ودولتُك مع بقائه على خطر. فيعرض شرف الدولة عن هذا القول فلما اعتلَّ وأشفى الحَّ عليه في ذلك وقال له: إن لم تر القتل فالكحل إذاً. فاخرج محمد الفرَّاش لسمل صمصام الدولة وسلم إليه شيئاً أمر بأن يكحله به ثلاثة أيام كحلا ويشد عليه عينيه فمضى الفرّاش فقبل أن يصل توفي شرف الدولة. فحصل الفراش بسيراف والقلعة التي فيها صمصام الدولة كانت من أعمالها وعاملها رجل يهودي يسمى روزبه فذكر الفراش للعامل ما ورد فيه فقال: هذا أمر قد بطل حكمه مع وفاة شرف الدولة ولا يجوز تمكينك منه إلا بعد إعلام أبي القاسم

العلاء بن الحسن الناظر. فكتب إليه يستأذنه فعاد جوابه بتمكينه مما ورد فيه فقصد القلعة وكحل صمصام الدولة بما صحبه فذهب ناظره.

ذكر قلة حزم في استرسال عاد على صاحبه بوبال

كان في جملة الموكلين بصمصام الدولة فراش يسمى بنداراً وقد أنس به لتطاول المدة فقال له قول المترثي: كيف الملك؟ فقال له بالاسترسال: قد بقيت من نظري بقية أبصرُ بها من تلك الكوَّة. فأعاد بندار قوله على محمد فاجتمعا على أن يحصا عينيه بمبضع. فلما عاد صمصام الدولة إلى الملك بفارس رام بندار أن يخدمه على رسمه فأمر صمصام الدولة بأن يكون مع الستريين بالبعد منه فقال بندار. هكذا أستحق من الملك بعد خدمتي له وصحبتي معه؟ فأعيد قوله عليه فقال: أما يرضى بالإبقاء عليه حتى يدلَّ بهذه الدالة. واتصل الحديث بالأمير أبي طاهر واطلع على قصته فأمر بأخذه وصلبه فصلب. وكان صمصام الدولة يقول: ما سلمني إلا العلاء بن الحسن فإنه أمضى في أمر ملك قد مات. ولما قبض عليه واقفه على ذلك ثم عفا عنه. وحصل محمد الفراش ببغداد فلما ورد عميد الجيوش أبو علي الحسن ابن أستاذ هرمز من العراق قال: أريد أن أشفي صدري بقتله جزاء له على سوء فعله. فهرب منه إلى مصر وأقام بها إلى أن مات عميد الجيوش.

وفي هذه السنة توفي شرف الدولة وقام الأمير أبو نصر مقامه في الملك.

ذكر ما جرى عليه الأمر في علة شرف الدولة واستقرار الأمر للأمير أبي نصر بعده

اعتل شرف الدولة العلة التي توفي فيها وكانت من استسقاء فلما اشتدت به ندب أبا علي ولده إلى الخروج إلى فارس للنيابة عنه بها وأخرج معه والدته وجماعة من حرمه وأصحبهُ جلّ عدده من مال وسلاح وضم إليه عدداً كثيراً من وجوه الأتراك. وعلى أثر انحدار ولده غلب عليه المرض حتى غلب اليأس منه على الرجاء فيه فاجتمع وجوه الأولياء وراسلوه باستخلاف الأمير أبي نصر فيهم إلى أن يبلّ من مرضه فأجابهم إلى سؤالهم وروسل الأمير أبو نصر بالحضور فامتنع وأظهر القلق والجزع. واستقرت الحال على إظهار استخلافه في غد ذلك اليوم وغدا الناس إلى دار المملكة لذلك. فجرى من بعض القواد والخواص مطالبة باستحقاقهم خرجوا فيها إلى التشديد فتقوّض الجمع من غير تقرير أمر. وعاجلت شرف الدولة منيتهُ فقضى نحبه وكُتم أمره ليلة واحدة وأصبح الناس وعند أكثرهم خبره واجتمع العسكر فطلبوا الأمير أبا نصر برسم البيعة وتردد الخوض معهم في أمر العطاء ومبلغ ما أطلق لكل واحد منهم. فتولّى خطابهم بنفسه وأعلمهم خلو الخزائن من المال الذي يعمهم ووعدهم بكسر ما فيها من الأواني

والصياغات وضربها عينا وورقا وصرفا إليهم وأطل المساء وراحوا إلى منازلهم من غير استقرار وباكروا الغدو إلى الدار فوجدوا الأمير أبا نصر قد أظهر المصيبة وجلس للتعزية فأمسكوا عن الخطاب.

وخرج تابوت من شرف الدولة وتقدم للصلاة عليه أبو الحسن محمد بن عمر العلوي وحمل إلى المشهد بالكوفة. فكان مقام شرف الدولة ببغداد سنتين وثمانية أشهر وأياماً وعاش ثماني وعشرين سنة وخمسة أشهر ثم بلغ الكتاب أجله ودعاه الداعي فاستعجله وبزَّته المنية ثوبي ملكه وشبابه واختطفته من بين حشمه وأصحابه فمضى غضاً طرياً إما سعيداً وإما شقياً في سبيل لا بد للخلائق من سلوكها ولا فرق فيها بين سوقتها وملوكها ولربما كانت السوقة أخف ظهوراً وأسرع في تلك الغمرات عبوراً. فأفّ لدار هذه صورة سكانها ولشجرة هذه ثمرة أغصانها لقد ضل من اتخذ هذه الدار قراراً واستطاب من هذه الشجرة ثماراً فطوبى لمن قصَّر في الدنيا أمله وأصلح للآخرة عمله. قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وترددت بين الأمير أبي نصر وبين الطائع للَّه مراسلات انتهت إلى أن حلف كل واحد منهما لصاحبه على الصفاء والوفاء وركب الطائع للَّه من غد للعزاء.

ذكر ما جرى عليه الأمر في ركوب الطائع للَّه للتعزية

قدم الطيَّار على باب الدرجة وفرش سطحه بدبيقى وعليه مقرمة ديباج حمراء منقوشة ووسطه بديباج أصفر وعليه مقرمة دبيقية ووقف الغلمان الأتراك الأصاغر بالسيوف والمناطق في دائر المجلس الأوسط ووافى حجاب شرف الدولة الأتراك والمولَّدون في الزبازب بالثياب السود والسيوف والمناطق وكل منهم قائم في زبزبه واجتمع من السفن التي فيها العامة عدة كثيرة. وخرج الطائع للَّه من داره وتحته فرس صنابي بمركب خفيف وسرج مُغرى أحمر وعليه قباء ملحم أسود وعمامة خزّ سوداء على رُصافية وهو متقلد بسيف وبين يديه خمسة أرؤس فوق سروجها جلال الديباج ونزل إلى الطيار فجلس في المجلس الأوسط على المقرمة في الدست على خلاف عادة الخلفاء فإنهم كانوا يجلسون على سطح حرَّاقة وبين يديه مجلس طيار وقيل إنه فعل ذلك لأنه كان في عقيب علة وأراد أن يخفى ما بوجهه من آثارها.

فوقف بين يديه أبو الحسن علي بن عبد العزيز كاتبه ودُجي خادمه والعباس حاجبه وسار الطيار إلى دار المملكة بالمخرم فنزل الأمير أبو نصر متشحاً بكساء طبري والديلم والأتراك بين يديه وحواليه إلى المشرعة التي قدّم إليها الطيار وقبل الأرض وصعد أبو الحسن بن عبد العزيز إلى الأمير أبي نصر فأدى إليه رسالة عنه بالتعزية فقبل الأرض ثانياً ودعا وشكر. وعاد أبو الحسن إلى حضرة الطائع للَّه وأعلمه شكره ودعاءه

وعاود الصعود إلى الأمير أبي نصر لوداعه عن الطائع للّه فأعلمه شكره ودُعاءه فقبل الأرض ثالثاً وانحدر الطيار على مثل ما أصعد وعاد الأمير أبو نصر إلى داره.

ثم ركب الأمير أبو نصر بعد خمسة أيام إلى حضرة الطائع للّه فخلع عليه الخلع السلطانية ولقَّبه بهاء الدولة وضياء الملة وقرئ عهدُه بين يديه بالتقليد وقدم إليه فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه آخر بمثل مركبه وسار العسكر حواليه إلى باب الشماسية في القباب المنصوبة ونزل إلى الطيار وانحدر إلى دار المملكة.

ذكر ما دبره بهاء الدولة عند قيامه بالملك

أقر الوزير أبا منصور بن صالحان على الوزارة وأصحاب الدواوين وغيرهم على ما كان إليهم ثم صرف أبا سعد بن الخياط عن ديوان الإنشاء مع مدّ يده وعوَّل فيه على أبي الحسن علي بن محمد الكوكبي المعلم وخلع عليه الطائع للّه وكناه ولقبه بالكافي وكانت الخلعة دُرَّاعة دبيقية وعمامة قصب وحمله على فرس بمركب. وقبض على نحرير الخادم وأبي نصر بن كعب فاعتقلا ثم قتلا.

فأما نحرير فكان هلاكه على يد الحسين الفراش فأما أبو نصر بن كعب فعلى يد أبي الحسن الكوكبي.

شرح الحال في ذلك

كان بهاء الدولة شديد الميل إلى نحرير كثير الثناء عليه فلما توفي شرف الدولة أراد منه أن يجري في خدمته على ما كان عليه في خدمة شرف الدولة فامتنع نحرير وتظاهر بلبس الصوف واجتهد معه كل الاجتهاد مراسلة بالشريف أبي الحسن محمد بن عمر والوزير أبي منصور محمد بن صالحان ومشافهة بنفسه فما أجدى معه نفعاً.

ذكر ما ارتكبه نحرير من اللجاج حتى آل به شر مآل

لم تزل الحكماء وأولو العقول الراجحة يحذرون ركوب مطية اللجاج فإنها كثيرة الكبوة والنفور تلقي صاحبها إلى الورطة والثبور. قال أبو نصر الحسين بن الحسن المعروف بالاستاذ الفاضل: كنت قائماً بين يدي بهاء الدولة وهو يخاطب نحريراً ويقول له: لا تزهد فيَّ مع رغبتي فيك فأنا أولى بك على ما كنت عليه من قبل. ونحرير يقبل الأرض ويستعفي إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية وقد دمعت عيناه: افعل للّه. فأقام نحرير على أمر واحد في اللجاج الذي لا يقابل الملوك بمثله وانصرف من بين يديه ودخل الحسين الفراش بعد ساعة وقال: قد طلب نحرير عشرين ألف درهم من الخزانة. فقال: احملوها إليه.

ذكر حيلة عملها الحسين الفراش نفَّر بها قلب بهاء الدولة من نحرير حتى أمر بالقبض عليه

لما حملت الدراهم إلى نحرير عاد الحسين الفراش وقال: عرفت أنه معول على الهرب في هذه الليلة وأنه أخذ الدراهم وجعلها في أكياس نفقة الطريق. فانزعج بهاء الدولة لذلك وسهر ليلته يراعيه وينفذ فراشاً بعد فراش إلى داره ليعرف ما هو فيه إلى أن أسفر الصبح ولم يكن لما ذكره الحسين الفراش أصل وإنما أراد الإغراء به. وعطفت الجماعة بعد ذلك على بهاء الدولة باللوم له ولا سيما أبو الحسن بن عمرو فإنه كأنه كان عدواً لنحرير وقال: أيها الملك قد أسرفت في مداراة هذا الخادم أسرافا يشيع ذكره وأصرَّ على مخالفتك اصراراً يصغر عنه قدره. وما زالوا بهذا القول وأمثاله حتى غيروا رأيه في نحرير وزادوا غيظه منه. فحضر نحرير بعد أيام ومعه أبو نصر بن كعب وكان خصيصاً به وأبو الحسن محمد بن عمر وأبو منصور الوزير وأبو سعد بن الخياط في الحجرة مجتمعون فأذن بهاء الدولة في القبض عليه. ورأى أبو نصر أمارات التغير والتنكُّر فأشار إليَّ بيده وقال: ما الخبر. فأومأت إليه بالقيام فقام وتبعه أبو سعد بن الخياط وأخذ أبو نصر بن كعب إلى الخزانة فاعتقل فيها. وبقي أبو الحسن محمد بن عمر ونحرير فقال له محمد بن عمر: يا هذا قد أسرفت في الدولة ومن أنت وما قدرك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم؟ فأغلظ له في القول ونحرير مطرق فلما زاد الأمر عليه رفع رأسه وقال له: أيها الشريف أين كان هذا القول منك في أيام مولاي وأنت ترى أفضل آمالك إذا تبسمت في وجهك؟ فأما الآن وأنا على هذه الحال فاستعمال ما أنت مستعملهُ لؤم قدرة وسوء ملكة وكيف ألامُ على ترك الدنيا بعد ملك ابتاعني بألف درهم ثم رفعني إليه إن كنت تخدمني ولا أخدمك وتحتاج إليَّ ولا أحتاج إليك؟ فاغتاظ أبو الحسن أبن عمر وانصرف: وأخذت بيد نحرير فأقعدتهُ على الفراش من الأرض فقال لي: أريد أن أتحمل إليَّ مصحفاً وأن تقول لمولانا الملك «ما كان امتناعي عليك إلا ما جرت به الأقدار من أدباري وقد خدمتك وخدمت أخاك وأوجبت عليك حقاً بذلك وأسألك أن لا تسلمني إلى عدو يشتفي مني وأن تكون أنت الآمر بما تفعل بي» وأعدتُّ قوله على بهاء الدولة فقال: ارجع إليه واحمل إليه مصحفاً كما طلب وقل له «هذه ثمرة لجاجك فإلى من تريد أن أسلمك» وحملت إليه المصحف وأعدت عليه القول فقال: إلى أبي جعفر الحجاج. وعدتُ إلى بهاء الدولة فأعلمته فاعترض الحاضرون على ذلك فلم يصغ بهاء الدولة إلى أقوالهم وتقدم بحمله إلى أبي جعفر فحمُل.

ذكر مكيدة أخرى عملها الحسين الفراش سكن بها من قتل نحرير

جاء الحسين الفراش بعد أيام فقال لبهاء الدولة: أيها الملك قد بلغني عن ثقة

صادق أن أبا جعفر الحجاج معول على الركوب في غد ومسئلتك في أمر نحرير فإن أجبته إلى ذلك أفرجت عن عدُوّ لا تأمنه فيما عاملته به وقد علمت طاعة الأتراك له وأن منعته أضفت إلى استيحاش نحرير استيحاش أبي جعفر. قال: فما الرأي. قال: أن تسبقه إلى أخذه من داره. قال: فإلى أين يُحمل. قال: إلى داري التي نأمن فيها على مثله. فأمر عند ذلك بإنفاذ من يأخذه فنُقل واعتُقل في غرفة. ومضت أيام واتفق أن بهاء الدولة خرج يوماً في آخر النهار من الحجرة والحسين الفراش يسارّ أخاه وظهرُهُ إلى الموضع الذي خرج منه بهاء الدولة فلم يشعر به حتى رآه أخوه فأنذره فأقبل إليه فقال له بهاء الدولة وقد رأى في وجهه وجوماً وتغيراً: في أي شيء أنت؟ قال: يا مولانا ذكر أخي أن جماعة من الغلمان الشرفية اجتازوا على داري ورآهم نحرير من الغرفة فصاح إليهم وقال لهم «أنا نحرير فاهجموا على الدار واستخلصوني» فخاف الموكلون به أن يؤخذ من أيديهم فقتلوه. فقال: ويلك ما تقول. قال: ما يسمعه مولانا. فورد على بهاء الدولة من ذلك ما أزعجه وعرف بعد ذلك أن ما حكاه الحسين الفراش باطل وأنه هو الذي أمر الموكلين بقتله فأسرّها في نفسه ولم يبدها له.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي نصر بن كعب في قتله

كان أبو الحسن الكوكبي نقله إلى داره وأخذ منه مالاً فلما قُتل نحرير خاف أن يظهر ما وصل إليه منه. قال أبو نصر المعروف بالاستاذ الفاضل: كنت في بعض الأيام جالساً مع الكوكبي فوافاه بعض غلمان الخزانة وأسرَّ إليه شيئاً لم أسمعه وعاد فقال لي الكوكبي: أتدري ما نحن فيه. قلت: لا. قال: قد أسقي ابن كعب السم دفعتين وما عمل فيه وسقي ثالثاً وكان غاية فعله أن أظهر نفخاً في وجهه. فوجمتُ من قوله فلما كان في غد قال لي: أعندك خبر ابن كعب؟ قلت: لا. قال: لم ينفع ذلك السم حتى أعنَّاه بالسيف وهو يضحك.

ذكر مقابلة عجيبة فيها عبرة وتذكرة

لما تجرَّأ الفراش والكوكبي على ما تجرأ عليه عجَّل اللّه الانتقام منهما جميعاً. فأما الفراش فإنه اعتُقل في دار نحرير وقتل بعد قليل وأما الكوكبي فإنه سُقي السم عند قتله مراراً فلم يعمل فيه حتى خنق بحبل الستارة وحضر بعض الأتراك فوجاه بسكين كانت معه.

فانظر إلى هذه المقابلة الوجيعة الشريفة كيل الصاع بالصاع

وكن كيف شئت فكما تدين تدان

وإذا كانت هذه حال الدنيا التي عود اللّه فيها للمقابلة إمهالاً فما ظنك في الآخرة

التي جعل اللَّه فيها لكل ذرة مثقالاً؟ فتعساً للظالم ما أشقاه وتباً له ما أجهله وأعناه أتظن أنه ظلم غيره؟ كلا إنه ما ظلم إلا نفسه أما تعلم أن الحاكم عدلٌ وأن القضاء الفصل فهلاً أعد لموقف سؤاله جواباً في اليوم الذي قال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٤٠].

وفي هذا الوقت جرت منافرة بين الديلم والأتراك أثارت من الصدور اضغاناً ولقحت بينهم حرباً عواناً. وتحصن الديلم بالدروب وعظمت القصة واستمر القتال أياماً حتى برز بهاء الدولة إلى معسكر الأتراك وخيَّم عندهم لأنهم كانوا أخشن في القوة جانباً وألين في الطاعة عريكة. فتلافى الأمر وراسل الديلم ورفق بالأتراك حتى ألقت الحرب أوزارها ووقع الصلح وعاد الأتراك إلى البلد وتواهبوا وتصافحوا وحلفت كل طائفة للأخرى. وقويت شوكة الأتراك وعلت كلمتهم وضعف أمر الديلم بعد هذه الوقعة وتفرَّق جمعهم وتسللوا في كل طريق ومضى فريق بعد فريق.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي علي بعد انحداره

انحدر الأمير أبو علي ومن في صحبته على ما تقدم ذكره فلما حصلوا بواسط استعجمت عليه أخبار شرف الدولة وانقطعت النوبة المترددة بالكتب فساءت الظنون ثم ورد عليهم ما دل على اليأس منه فسار الأمير أبو علي والأتراك على الظهر وانحدرت الخزائن والحُرم والاثقال إلى البصرة ووقع الاجتماع بمطارا. ووردت الكتب بوفاة شرف الدولة وانحدر أبو شجاع بكران بن أبي الفوارس والحاجب أبو علي بن أبي الريان ليرد الجماعة فأشير على الأمير أبي علي بالتعجيل إلى ارجان ففعل وصحبه خواص الحرم في عمَّاريات واستصحب ما خف محمله وعول على طاهر بن زيد صاحب عبادان في توجيه بقية الحشم والأثقال التي معهم في البحر إلى أرجان فقدَّم بتنفيذ شيء منها. ووصل بكران وابن أبي الريان فاستوقفا كل من كان تأخر مع بقية الأثقال وقالا لهم: إنما وردنا لتطييب قلوبكم. ثم ورد الأمير أبو علي إلى حضرة بهاء الدولة عمه ليقضي فيه حق شرف الدولة عليه وأعاد الجماعة من عبادان إلى البصرة.

ثم شغب الديلم بالبصرة وطلبوا رسم البيعة ولم يكن للمال وجه فأخذ بكران على سبيل القرض من تلك الثياب والصياغات شيئاً كثيراً وصرفه إليهم ثم وقع اليأس من عود الأمير أبي علي فتسلم البقية. وحصل الأمير أبو علي بالرجال وكان أبو القاسم الرضيع بها على ما رتبه شرف الدولة من النيابة عنه وحصل معهما عدد الأتراك وفيهم مثل خمارتكين الحمصي وأبو الغارات والبكي ومن يجري مجراهم وكانوا جمهور العسكر فعملوا على المسير إلى فارس.

ذكر رأي رآه أبو القاسم العلاء بن الحسن بالبادرة
وندم عليه بعد الرويّة

لما انتهى إليه تميُّز القوم خاف أن يستقيم الدولة للأمير أبي علي ولا يكون له فيها قدم فاستعجل بمكاتبة الأمير أبي علي وأبي القاسم الرضيع وعرفهما ما اعتمده من جمع كلمة الديلم على الطاعة. وكان المرتَّب في القلعة التي فيها صمصام الدولة والأمير أبو طاهر قد أطلقهما وكذلك المرتبة التي فيها فولاذ بن ماناذر أيضاً وحصل الثلاثة. . . كلمة الديلم على تمليك صمصام الدولة وأبي طاهر ونادوا بشعارهما وقام فولاذ بتقرير ذلك.
وندم أبو القاسم العلاء بن الحسن على مكاتبة الأمير أبي علي وعلم أن أبا القاسم الرضيع باستيلائه سيستعلي عليه ويستبد بالأمر دونه فكاتب صمصام الدولة وأبا طاهر وفولاذ واستدعاهم ووعدهم ومنَّاهم. وسار الأمير أبو علي حتى نزل على ثلاثة منازل من شيراز.

ذكر ما دبره أبو القاسم العلاء بن الحسن في أمر
الرضيع حتى قبض عليه

اختار ستين رجلاً من وجوه الديلم وواقفهم على أن يلتقوا الأمير أبا علي ويخدموه ويعرّفوه عن الأولياء طاعتهم له ويطالبوه بالقبض على أبي القاسم الرضيع قبل الدخول إلى البلد وترتيب من يقوم مقامه بعد الاستقرار فيه. وضمن العلاء بن الحسن لهؤلاء الوجوه اقطاعات الرضيع بفارس وكانت كثيرة فطمعوا فيها وبالغوا في خطابهم حتى أجيبوا إلى القبض على الرضيع وحمل إلى العلاء بن الحسن فأنفذه إلى القلعة.
وتمم الأمير أبو علي والأتراك إلى شيراز فخيَّموا بظاهرها.

ذكر حيلة رتبها العلاء بن الحسن أفسد بها الحال
بين الديلم والأتراك حتى بلغ غرضه

أحضر غلاماً من الأتراك يعرف بأنوشتكين وخدعه وقال له: هل فيك لاستخدامك في أمر يكون فيه رفع لقدرك وتقديم لمنزلتك؟ قال: نعم. قال: تعرض للديلم فتقتل منهم رجلين أو ثلاثة على سبيل الغيلة وتهرب لأظهرك من بعد وأوفي لك بما وعدتك به. فانخدع الغلام لجهله وخرج وصعد إلى حائط بستان ورمى رجلين من الديلم جازا تحته بفردات أصابت مقاتلهما وثارت الفتنة بين الديلم والأتراك ثم وقع الشروع في إصلاح ما بين الفريقين وتم على ذحل. وعدل العلاء بن الحسن إلى مراسلة الأمير أبي علي ووالدته ويحذرهما من الديلم وبوادرهم لما ظهر من ميلهم إلى صمصام الدولة وأبي طاهر فخرج الأمير أبو علي من دار الإمارة مستخفياً بالليل إلى مخيَّم الأتراك

وتبعته والدته. وأصبح الديلم قد اجمعوا رأيهم على الابتداء بالأمير أبي علي والاحتياط عليه فوجدوهم قد برزوا إلى المعسكر فكشفوا القناع ونابذوا الأتراك وجرت بينهم مناوشات في عدة أيام. ثم ارتحل الأتراك بالأمير أبي علي وساروا إلى فسا فوجدوا بها أبا الفضل بن أبي مكتوم عاملاً وتحت يده مال معدٌّ يريد حمله إلى شيراز وعنده نحو أربعمائة من الديلم فراسلوه واستمالوه فمال إليهم واستوزره الأمير أبو علي وفرَّق المال المجتمع عليهم وحاصروا الديلم المقيمين بها في دار لجؤوا إليها فلما فتحوها قتلوهم بأسرهم وقوي أمر الأتراك بما حصل في أيديهم من أسلابهم. وعاد الأمير أبو علي مع علافهم إلى أرجان ومضى البكي ومعه جمرة العسكر إلى باب شيراز وقد حصل فيها صمصام الدولة فأقاموا بظاهرها مدة يقاتلون الديلم وينهبون السواد. ثم ضجروا من المقام فانصرفوا إلى ارجان.

ذكر سوء تدبير ابن أبي مكتوم في عداوة البكي حتى هلك

كان قد جرى بين ابن أبي مكتوم وبين البكي تنافر أصرَّ البكي على عداوته فيه فلما قرب من البلد تلقاه أبو علي وابن أبي مكتوم معه يسير على جانبه فحين وقف للقاء الواردين سبقوا إليه وخدموه والبكي بمعزل عنهم. ثم تقدم أحد الأتراك إلى ابن أبي مكتوم فجذبه بكم دراعته وساعده الباقون على سحبه إلى البكي فضرب عنقه. وسار البكي لوقته إلى الأمير أبي علي وقد ماج الناس وتوارى أكثر الحواشي فحين بصر به قبَّل الأرض بين يديه واعتذر إليه وقال: إن عبيدك ما أقدموا على قتل هذا الرجل إلا لما عرفوه من سوء نيته فيك وفيهم واطلعوا عليه من مكاتبة صمصام الدولة وتسليمك وتسليمهم ونحن خدمك ومماليكك ورؤوسنا ونفوسنا دونك. فأجابه بما أظهر به الرضاء عنه.

ومضت مديدة ووافى أبو علي الحسن بن محمد بن نصر رسولاً من حضرة بهاء الدولة بالمواعيد الجميلة فكاثر الأتراك وكاثروه واستمالهم في السر حتى اتفقت كلمتهم على الانكفاء إلى حضرة بهاء الدولة بواسط. فلما قرب منها تُلقى وأكرم ووصل إلى حضرة بهاء الدولة وهو في مجلس أنسٍ فقرَّ به وأدناه وباسطه وسقاه ثم قبض عليه بعد أيام وحدر إلى البصرة واعتقل بها. وسار بهاء الدولة إلى فارس فلما عاد إلى العراق استدعاه وتولى أبو الحسن الكوكبي المعلم قتله خنقاً بيده.

ذكر ما جرى عليه أمر صمصام الدولة في خلاصه وعوده إلى الملك بفارس بعد شرف الدولة

قد تقدم ذكر خلاصه وخلاص أبي طاهر وحصولهما بسيراف فلما ارتحل الأمير أبو علي والأتراك من باب شيراز كتب أبو القاسم العلاء بن الحسن إليهما بما فعله من تمهيد

الأمور وأشار عليهما بتقديم السير فساروا ونزلوا بدولتا باذ ثم دخلا البلد. فاستولى الأمير أبو طاهر على الأمر بقوة نفسه وشدة بأسه وتقلد فولاذ بن ماناذر أمور الديلم ومايله العلاء بن الحسن فتعاضدا وصارت كلمتهما واحدة. ثم مات الأمير أبو طاهر وقيل إنه سُمَّ فغلب فولاذ على الأمور واستبد بالتدبير وعرض من فساد الحال بينه وبين العلاء ما صار سبباً لانفصاله عن فارس وحصوله بالري وسيرد ذلك في موضعه إن شاء اللّه.

وفي هذا الوقت ورد الخبر بمسير فخر الدولة من همذان طالباً أعمال خوزستان ومحدّثاً نفسه بقصد العراق.

ذكر السبب في حركة فخر الدولة لطلب العراق

كان الصاحب بن عباد على قديم الأيام وحديثها يحب بغداد والرياسة فيها ويراصد أوقات الفرصة لها فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا المراد وظن أن الغرض قد أمكن. فوضع على فخر الدولة من يعظّم في عينيه ممالك العراق ويسهل عليه فتحها وأحجم الصاحب عن تجريد رأي ومشورة بذلك نظراً للعاقبة وتبرّئا من العهدة إلى أن قال له فخر الدولة: ما الذي عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه. فقال: الأمر لشاهانشاه وما يذكر من جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به وسعادته غالبة فإذا همَّ بأمر خدمتُه فيه وبلغتهُ أقصى مراميه. فعزم حينئذ على قصد العراق وسار إلى همذان ووافاه وبدر بن حسنويه وأقام بها مدة يجيل الرأي ويقلبه ويدبر الأمر ويرتبه حتى استقر العزم على أن يسير الصاحب وبدر بن حسنويه على طريق الجادة ويسير فخر الدولة وبقية العسكر على طريق الأهواز ورحل الصاحب مرحلة.

ذكر رأي أشير به على فخر الدولة اقتضى رد الصاحب من الطريق

قيل لفخر الدولة: من الغلط مفارقة الصاحب لك لأنك لا تأمن أن يستميله أولاد عضد الدولة فيميل إليهم. فاستعاده وسارت الجماعة إلى الأهواز وكان أبو منصور بن عليكا والياً للحرب بالأهواز وأبو عبد اللّه بن أسد ناظراً في الخراج على ما رتبهما شرف الدولة فلما توفي شرف الدولة عمل أبو الحسن الكوكبي المعلم في تغيير أمر أبي منصور بن عليكا والقبض عليه. وندب لذلك أخا للحسين الفراش وانتهى الخبر إلى أبي منصور من أصحابه بالحضرة فترك داره ورحله وأكثر كراعه ومضى مع بعض العرب قاصداً حضرة فخر الدولة ونهب الديلم بعد انصرافه رحله وكان شيئاً كثيراً.

ذكر رأي سديد لأبي عبد اللّه بن أسد استرجع به المأخوذ وحفظ فيه السياسة

جمع قواد الديلم وقال لهم: إن هذا الرحل والكُراع المأخوذ هو اليوم لبهاء الدولة

وإذا أُخذ ونُهب كان ذلك خروجاً على الطاعة فإما أن تردُّوا المأخوذ وإما أن تخلوا عني لأفارق موضعي وأنتم بشأنكم أبصر. فقالوا: إنما فعل ذلك أصاغرنا الذين لا قدرة لنا على انتزاع ما في أيديهم. فراجعهم وراجعوه حتى التزموا ردَّ المنهوب وتحالفوا على استخلاصه ففعلوا ذلك فأعادوه. ثم عدلوا إلى المطالبة بمال البيعة فجمع أبو عبد اللّه صدراً من مال الارتفاع وقوّم بقية الرحل والكراع على القوم وأرضاهم به.

وشاع خبر مسير فخر الدولة فوقع بين الديلم والأتراك تنافر أدَّى إلى حرب بينهما أياماً ثم سار الأتراك ومن مال إلى بهاء الدولة من الأهواز على سمْتِ العراق.

ذكر ما جرى عليه أمر فخر الدولة عند حصوله بالأهواز وما اعتمده من سوء التدبير والسياسة حتى عاد بالخيبة

كان الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد سبق إلى الأهواز وملكها ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً وخيَّم ببستان البريدي. وتشوَّف الجند إلى ما يكون من عطائه وإحسانه فلم يكن منه في ذلك ما اقتضته الحال ولا بعض ما كانت عليه الآمال. وحضر المهرجان فقاد القواد الخوزستانية خيلاً برسم خدمته على ما جرت به العادة في مثل هذا الفصل فردَّها عليهم وسامهم أن يمكنوا المخيّرين من اختيار ما يرتضونه لمراكبه وأخذ من خيلهم جيادها فنفرت قلوبهم لذلك. ثم حظر على اقطاعاتهم ومنعهم التصرف في ارتفاعها وإن لم يظاهرهم بحلها وارتجاعها ومدَّ العمال في أثناء الخطر أيديهم في تناول موجودها فضاقوا صدوراً وازدادوا نفوراً.

فأما وجوه الديلم الذين وصلوا مع فخر الدولة فإن نياتهم ساءت أيضاً لأن اقطاع كل واحد منهم بالري وأعمال الجبل كان من عشرين ألف درهم إلى ثلاثين ألف درهم ورأى كل واحد من قواد الديلم الخوزستانية واقطاعه ما بين مائتي ألف درهم إلى ثلاثمائة ألف درهم فكثر تحاسدهم وظهر تحاقدهم. وكان من عجيب الاتفاق ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] أن دجلة الأهواز زادت في تلك الأيام زيادة لم تجربها العادة ودخل الماء إلى الخيم فأخذ بعضها فرحل فخر الدولة وعسكره وعظم في أعينهم ما رأوه لأنهم ألفوا المدود وقال بعضهم لبعض: إنما حملنا الصاحب إلى هذه البلاد طلباً لهلاكنا. فاشمأزَّت قلوبهم وساءت ظنونهم وتقلقل الأمر ولاح من كل وجه وهي أسبابه. واتصلت الأخبار إلى بغداد بحصول فخر الدولة بالأهواز.

ذكر ما دبره بهاء الدولة في تجهيز العسكر للقاء فخر الدولة

لما عرف وصول فخر الدولة إلى الأهواز انزعج انزعاجاً شديداً وندب الحسين بن علي الفرَّاش للخروج في هذا الوجه والقيام بتدبير الحرب وقدمه وعظمه ولقبه

«الصاحب» مغايظة لابن عباد وخلع عليه خلعاً توفي على قدر من هو أوفى منه وأصحبه من المال والسلاح والآلات كل خطير كثير وجرد معه أبا جعفر الحجاج بن هرمز والفتكين الخادم ومعهما عسكر جرَّار. وسار بعد أن خرج بهاء الدولة لتوديعه فرتَّب نفسه في طريقه ترتيب الملوك في مجالسه ومواكبه وانخرق في العطاء وأسرف في التدبير. وكان السبب في بلوغه هذه المرتبة مع عناية بهاء الدولة تجرد أبي الحسن الكوكبي المعلم لتشييد أمره لا عن صفاء له وإنما قصد بمساعدته على ذلك إبعادُه عن الحضرة والاستراحة منه فإنه كان شديد الاستيلاء على بهاء الدولة. فلما حصل بواسط وبعد حكيت عنه حكايات وأقوال ووجد في تغُّير رأي بهاء الدولة متسع ومجال.

ذكر السبب في تغير رأي بهاء الدولة في الحسين الفراش وما جرى عليه الأمر في القبض عليه ورده من الطريق إلى بغداد وقتله في دار نحرير

قال أبو نصر المعروف بالاستاذ الفاضل: لما أراد الحسين الفراش التوجه قال لي بهاء الدولة: أريد أن أشاهده إذا ركب في موكبه وبرز إلى مضاربه. فقلت: الأمر لك. فخرج ووقف من باب الحطَّابين ينظر إلى الطريق فاجتاز للحسين عدَّة غلمان أتراك بالسيوف والمناطق وتحتهم الخيل بالمراكب الجميلة فقال لي: يابا نصر هذه المراكب من الخزانة؟ قلت : نعم لما بيعت ابتاعها وطرًّاها. واجتازت بعد ذلك جنائبه بمراكب ذهب وغير ذهب وفيها بغلة عليها مركب كان يحبه بهاء الدولة فأخرج فيما بيع وحصل له فقال: يابا نصر هذا مركبي الفلاني؟ قلت: نعم. ولم يزل يسأل عن شيء شيء ويقول: متى جمع هذا وحصَّلهُ! فلما مضى الحسين عاد بهاء الدولة إلى مجلسه. ورأيت وجهه قد تغيَّر ونشاطه قد فتر ودخل الحجرة فنام إلى العصر ولم يطعم طعاماً إلى آخر النهار ثم راسله الحسين الفراش على لساني يسأله الإذن في ضرب طبول القصاع فامتنع عليه من ذلك وقال: هذا لا يجوز. وعدت إليه بهذا الجواب فاشتطَّ وقال: بمثل هذه المعاملة يُراد مني أن أدفع فخر الدولة وقد استولى على المملكة مما ذهب فيه مذهب الجهل، واتفق إن أعد الفراش كان حاضراً معي وسامعاً لما يجري وقمنا وسبقني أحمد الفراش فحدَّث بهاء الدولة بما جرى ثم جئت من بعد فسألني عما كان من الجواب فقلت: قد كان أحمد الفراش حاضراً وتقدّمني إلى حضرتك ولعله قد شرحه.. فقال: أعدهُ. فحسنتُ ما أوردهُ فقال: ما كان هكذا. قلت: إذا كان مولانا قد عرف الأمر على صحته فما الفائدة في تكرير اعادته؟

ثم تتابعت الأخبار بما يفعله الحسين في طريقه من الأفعال التي تجاوز الحدَّ

فوجد أبو الحسن الكوكبي سبيلاً إلى تقبيح آثاره وحكى عنه الحكايات التي أدت إلى بواره. فقال له بهاء الدولة في بعض الأيام وقد جاراه ذكره: أنفذ من يقبض عليه. فانتهز أبو الحسن الكوكبي الفرصة وبادر بإنفاذ أبي الفتح أخي أبي عبد اللّه محمد بن عليان وأبي الحسن علي بن أبي علي لذلك.

ذكر اتفاق عجيب انكتم به الأمر عن الحسين الفراش حتى قبض عليه

ذكر الثلاثة المنحدرون أنهم لما وصلوا إلى مطارا والحسين بها ساء ظنه بورودهم فانفذ إلى زبازبهم من فتشها وأخذ ما وجده من الكتب فيها فلحسن الاتفاق لهم وسوء الاتفاق عليه كانوا قد استظهروا بترك الملطَّفات المكتوبة بالقبض عليه في سمارية كانت في صحبتهم إلا أنها مفردة من جملة ما يخصهم فلم يجدوا إلا الكتب الظاهرة التي كانت إليه فأنس وسكن. ثم اجتمعوا مع أبي جعفر والفتكين فاوضلوا إليهما الملطفات ووقفوهما على ما رسم فيها وصاروا إلى الحسين واجتمعوا في خركاه له وحادثوه ساعة ونهضوا من عنده وأطبقوا عليه بابها ووكلوا به وبخزانته ثم حملوه مقيداً إلى البصرة وسلموه إلى بكران بن أبي الفوارس وأبي علي بن أبي الريان فحمل منها إلى بغداد. وقد أوغر عليه صدر بهاء الدولة فحبس في دار نحرير وأمر بإخراج لسانه من قفاه فمات ورُمي من بعد إلى دجلة. فكان بين استخدامه في الكنس والفرش وبين الخلع عليه مدة يسيرة وبين الخلع عليه وبين قتله مدة أيسر من الأولى.

وأن من صعد من الحضيض الأوهد إلى محل الفرقد ولم يكن ليديه بأسباب الخير تعلُّق ولا لقدميه في أبواب البر تطرُّق يوشك أن يهوى سريعاً ويخرّ صريعاً فتنبتَّ حاله وتنقطع أوصاله فتحول حاله إلى الفساد وتحور نارُه إلى الرماد فالنار في الحلفاء أعجل وقوداً وصعوداً ولكنها أسرع خموداً وهموداً وهي في جزل الغضا أبطأ عملاً لكنها أبقى جمراً وأفسح مهلاً. والمعوَّل في كل حال على العاقبة فعندها تبين الناجية من العاطبة وعول بهاء الدولة بعد أخذ الحسين الفراش على أبي العلاء عبيد اللّه بن الفضل في هذا الوجه وأنجح فيه ما يأتي شرحه بإذن اللّه تعالى.

ذكر ما رتبه فخر الدولة في تجهيز الجيش إلى الأهواز

لما عرف فخر الدولة دنوَّ عسكر بهاء الدولة من أعمال خوزستان جرَّد العساكر للقائهم فسار ابن الحسن خاله وشهفيروز بن الحسن وغيرهما في ثلاثة آلاف من الديلم وبدر بن حسنويه في أربعة آلاف من الأكراد ودبيس بن عفيف الأسدي وكان قد انحاز إليه في عدة كثيرة من العرب فلما تلاقى العسكران أجلت الحرب عن هزيمة عسكر أصحاب فخر الدولة.

ذكر اتفاقات كانت سبباً لهزيمة عسكر فخر الدولة

لم يكن في التقدير وظن النفس ورأي العين أن يثبت لهم عسكر بهاء الدولة لولا النصر فإنه من عند اللّه. فاتفق أن المعركة كانت بقرب أنهار وجاءت زيادة مد أخذ الصحارى وظن عسكر فخر الدولة أنها مكيدة عملت بفتح بثق عليهم يغرقون فيه ولم يكن لهم علم بحال المدود ولا هي عندهم من المألوف والمعهود فولوا أدبارهم ونكصوا على أعقابهم إلى الأهواز واستأسر أناسٌ من أكابرهم واستأمن كثير من أصاغرهم. وقيل إن بدر بن حسنويه وقف بنجوة من الأرض واعتزل الحرب وأن دُبيس بن عفيف انصرف قبل اللقاء. وربما كان سبب هذا الفعل من الصاحب على ما اعتمده فخر الدولة معه من الارتياب به وردِّه حين سار من همذان على جادَّة العراق خوفاً من ميله إلى أولاد عضد الدولة ومثل ذلك ما أثر في القلوب وأقام البريء مقام المريب ثم ما استمر من مخالفته إياه في آرائه.

فلما عاد الفل إلى الأهواز قلق فخر الدولة وتقلقل رأيه وتململ.

ذكر رأي سديد رآه الصاحب لم يساعده عليه فخر الدولة

قال له: أمثال هذه الأمور تحتاج إلى توسع في العطاء وضايقت الناس مضايقة وأضعفت فينا آمالهم وقطعت منا حبالهم فإن استدركت الامر بإطلاق المال واستمالة الرجال ضمنت لك ردَّ أضعاف ما تطلقه بعد سنة من ارتفاع هذه البلاد. فلم يكن منه اهتزاز لهذا القول وكان قصارى ما فعل تلافي القواد الأهوازية بإزالة الحظر عن اقطاعاتهم فلم يقع هذا الفعل موقعاً منهم مع ذهاب ارتفاعها في تلك السنة. ولم تسمح نفس فخر الدولة بعطاء للشح الغالب عليه وأخذ الناس في التسلل لاحقين بأصحاب بهاء الدولة حتى كان النقباء يطوفون في صبيحة كل يوم على الخيم فيجدون كثيراً منها قد خلا من أصحابها. واتسع الخرق على الراقع وأعضل الداء على الطبيب:

كما أن الأديم إذا تفرى ... بلى وتعفنا غلب الصباحا

فضاق فخر الدولة ذرعاً بالمقام مع انتشار الحبل في يديه وتفرُّق الناس عنه وانصرف عائداً إلى الري وقبض في طريقه على جماعة من القواد الرازية وقتلهم. ووافي أبو العلاء عبيد اللّه بن الفضل فدخل الأهواز وملك الأعمال.

وأما أبو عبد اللّه بن أسد فإن الديلم قبضوا عليه قبل وصول الصاحب إلى الأهواز وتوفي في الاعتقال من علة عرضت له ومرض الصاحب بالأهواز مرضاً أشفى منه ثم أقيل فتصدق بجميع ما كان في داره من المال والثياب والأثاث ثم استأنف عوض كل شيء من بعد

ذكر ما حفظ على الصاحب في مقامه بالأهواز

قيل إن قوماً تظلموا إليه من حيف لحقهم فوقَّع على ظهر قصتهم: يظلمون شهراً وينصفون دهراً. وهذا توقيع طريف فهل يجوز الغفول عن الظلم ساعة فكيف شهراً وما يدريه لعل اللَّه يُحدث قبل الشهر أمراً.

وقيل إنه رسم لكتاب البلد عمل حساب بارتفاع كل كورة فعملوه وحملوه إليه. فأمر بجمع العمال والمتصرفين وأن يخرج ارتفاع كل ناحية ويعرض عليهم ويزايد بينهم فكان ينادي على النواحي بين العمال كما ينادي على الأمتعة بين التجار. وهذا الحديث مستطرف في حكم النظر.

وقيل إنه غير مستنكر عند كتَّاب الري وتلك البلاد لأن معاملاتهم جارية على عقود وقوانين. فأما العراق وما والاها فلم نسمع بمثل ذلك فيها إلا ما كان من قديم الناس من المزايدة بين التجار في غلات السلطان.

ذكر خبر مستحسن في ذلك

قيل إن أحد الوزراء وأظنه علي بن عيسى واللَّه أعلم جمع التجار إلى مجلس نظره في بعض السنين ليبيع الغلات عليهم فتقاعدوا بالأسعار على اتفاق بينهم فبرز أحدهم فزاد زيادة توقف عنها الباقون ظناً منهم أنه لن يقنع بذمة رجل واحد دون الجماعة لأنه مال عظيم فأمضى الوزير البيع له. فلما خافوا فوت الأمر زادوه عشرة آلاف دينار فقال الوزير: قد نفذ السهم وسبق القول والغلات للرجل والثمن لنا وله الاختيار في قبول الزيادة منكم أو ردّها عليكم فهي له خالصة دوننا. فسألوا الرجل قبول الزيادة أو المشاركة فقبل الزيادة وولاَّهم البيع وبرئت ذمته من الثمن وعاد إلى منزلته بعشرة آلاف دينار.

فما أحسن هذا الفعل الكريم والمذهب المستقيم وكم في أثناء الوفاء بالعقود والثبات على الشروط والصدق في الوعود من مصلحة خالصة وسياسة شاملة! وإن لاح في أولاها بعض الغرم ففي عواقبها كل النعم وإذا لم يوثق بأقوال الصدور فعلام تُبنى قواعد الأمور؟ والسياسة بنيان والصدق قاعدة والبنيان يشد بعضه ببعض فإذا اضطربت القاعدة آل البنيان إلى النقض. ونعود إلى سياقة التاريخ.

وفي هذه السنة أفرج عن أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف وعاد إلى بغداد ناجياً من الهلاك بعد أن كان أشرف عليه.

ذكر أناءة اعتمدها العلاء بن الحسن في بابه أدت إلى خلاصه

كان قد حصل في القلعة معتقلاً على ما تقدم ذكره والعلاء بن الحسن يراعيه مراعاة مستورة. فورد عليه في آخر أيام شرف الدولة من يأمره بقتله فانزعج لهذه الحال لما كان بينهما من حرمة الاتصال وثبت في إمضاء ما ورد. وتجدد من وفاة شرف الدولة وما تجدَّد فأنفذ في تلك الفترة من أخرجه من الحبس وأشار عليه بقصد العراق فسار إلى البصرة واستأذن في الإصعاد فأذن له.

وفيها قُبض على أبي الحسن محمد بن عمر العلوي وعلى كاتبه أبي الحسن علي بن الحسن.

ذكر ما جرى عليه الأمر في ذلك

كانت حال أبي الحسن محمد بن عمر قد تضاعفت في أيام شرف الدولة وقد تضاعف ارتفاع أملاكه حتى أن أبا الحسن علي بن طاهر لما خرج إلى نواحي سقي الفرات لتأمل أحوالها في أيام شرف الدولة عمل في عرض ما راعاه عملاً بارتفاع ضياعه اشتمل على عشرين ألف ألف درهم. وعرف الشريف أبو الحسن ذلك فضاق صدره وساء ظنه.

ذكر رأي سديد رآه ابن عمر في تلك الحال استمال به قلب شرف الدولة

استدعى علي بن الحسين الفراش الملقب بالخطير فلما أحضر عنده قال له: احمل عني رسالة إلى الملك وقل له: يا مولانا ما لأحد عليَّ نعمة كنعمتك ولا منَّة كمنتك أطلقتني من حبسي ومننت عليَّ بنفسي ورددت أموالي وضياعي إليَّ وزدت في الإحسان إليَّ. وبلغني أن ابن طاهر عمل بضياعي عملاً بعشرين ألف ألف درهم وهذه الضياع هي لك ومنك وقد أحببت أن أجعل نصفها للأمير أبي علي هدى ونحلة طيّبة عن طيب نفس وانشراح صدر. فأعاد علي بن الحسين الفراش الرسالة على شرف الدولة.

ذكر جواب لشرف الدولة عن رسالة أبي عمر تدل على شرف نفس وعلو همة

قال شرف الدولة في الجواب: قل له: قد سمعت رسالتك وكل جميل اعتددت به فاعتقادي يوجب لك أوفى منه واللّه لو أن ارتفاعك أضعاف ما ذكرته لكان قليلاً لك

عندي. وقد وفَّر اللّه عليك مالك وأملاكك وأغنى أبا علي عن مداخلتك في ضياعك فكن في السكون والطمأنينة على جملتك.

فانظر إلى هذه الهمة ما أشرفها وأعلاها وانصت إلى هذه الأحدوثة ما أطيبها وأحلاها وتلك مواهب من اللّه يخص بها من يشاء من عباده والمرء يصيب بحسن التوفيق لا بحوله واجتهاده.

فلما توفي شرف الدولة وانتقل الملك إلى بهاء الدولة استولى أبو الحسن المعلم على الأمور وامتدت عينه إلى حاله وأشار على بهاء الدولة بأخذ نعمته وقبض أملاكه فقبض عليه وعلى وكلائه وكتَّابه وبقي في الاعتقال الذي يرد ذكره فيما بعد.

وفي هذه السنة خرج أمر بهاء الدولة بإسقاط ما يؤخذ من المراعي من سائر السواد.

وفيها عاد أبو نصر خواشاذه من الموصل بعد اصعاد ابني حمدان إليها.

ذكر خروج ابني حمدان من بغداد وذكر ما جرى عليه أمرهما في حرب أبي نصر خواشاذه

لما توفي شرف الدولة شرع أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد اللّه الحسين ابنا حمدان في الخروج إلى الموصل واستأذنا في ذلك فوجدا رخصة انتهزا بها الفرصة فاصعدا بأهلهما أجمعين وعلم من بالحضرة وقوع الغلط في إصعادهما فكوتب أبو نصر خواشاذه بدفعهما وردّهما. فلما وصلا إلى الحديثة راسلهما أبو نصر بالرجوع من حيث جاءا فهما إن خالفاه ودخلا البلد قبض عليهما فأجاباه جواباً جميلاً ببذل الطاعة وقبول ما يُؤمران به وعاد الرسول وسارا على أثره حتى نزلا بالدير الأعلى. وثار أهل الموصل على الديلم والأتراك فنهبوا أرحالهم وأخذوا أموالهم وخرجوا إلى ابني حمدان وأظهروا المباينة والعصيان. فأنفذ أبو نصر من كان معه من العسكر لقتالهم فقامت الحرب بينهم إلى العصر ثم انهزم أصحاب السلطان وهلك منهم عدد كثيرة قتلاً وغرقاً ولحق الباقون بأبي نصر فاعتصموا بدار الإمارة التي هو نازل فيها وتبعهم ابنا حمدان والعامة فغُلقت الأبواب دونهم واستوعب القتال بقية النهار ثم حجز الليل بينهم وعاد ابنا حمدان إلى مخيمهما.

ذكر رأي سديد رآه ابنا حمدان فأحسنا فيه الظن علماً للعاقبة

لما جرى ما جرى وعلما أن العامة لا تقنع إلا بقتل الديلم وأن السلطان لا يغمض على مثل هذه الجناية خافا عواقب الأمر وراسلا أبا نصر في ليلتهما وقالا له: نحن خدم السلطان وقد جرت الأقدار بغير الاختيار ولا قدرة لنا الآن على ضبط العامة لما في نفوسهم من الديلم وهم في غد يحرقون الدار ويسفكون الدماء فإما أن تصير إلينا وإما

أن تعلم أنك مُهلك نفسك. فعرف أبو نصر خواشاذه أنهما قد نصحاه وخرج إليهما ليلاً فأكرماه ثم عدلا إلى تدبير أمر العامة فأحضرا شيوخهم ووجوههم وقالا لهم: إن كنتم تؤثرون مقامنا بين ظهرانيكم فولُّونا أموركم ولا تشفوا بقتل أصحاب السلطان صدوركم فإنه شفاء يعقب داء عضالاً ولا تجدون من السلطان في ذلك أغضاء وأجمالاً. والذي نراه أن تكفُّوا أحداثكم عن القتل وانصراف هؤلاء القوم عنكم صرفا جميلاً ويتلطف السلطان إقدامنا عندكم. فأجابوه بالسمع والطاعة وبذل المكنة والاستطاعة وبكر العوام إلى الدار فلم يزل ابنا حمدان والمشيخة بهم رفقاً ولطفاً حتى استقر الأمر بعد هناة على أن يهبوا الدم وينهبوا الأموال وأن يصعد الجند إلى السطوح ويقف على الدرج من الشيوخ من يمنع العامة من الصعود. ودخلوا الدار وخرجوا بنهب الموجود ثم غُلقت الأبواب وصار جند السلطان محبوسين أياماً إلى أن انحدروا بأسوأ حال في الزواريق إلى بغداد وأفرج عن أبي نصر وأحسن إليه وعاد إلى الحضرة.

وتشاغل ابنا حمدان بالنظر في أمورهما وانثال عليهما من بني عقيل العدد ولم يكن لهما من الجند إلا العامة وثلاثون ألف من الحمدانية.

ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمائة

فيها كانت الوقعة بين باد وبين أبي طاهر وأبي عبد اللّه ابني ناصر الدولة بن حمدان وبين بني عقيل بظاهر الموصل.

ذكر ما جرى عليه الحال في هذه الوقعة من قتل باد وهزيمة أصحابه

لما حصل أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا ناصر الدولة بظاهر الموصل استضعفهما باد وطمع في قصدهما وأخذ البلد منهما. وعلم أن لا جند لهما سوى العامة فكاتب أهل الموصل واستمالهم فأجابه بعضهم وسار في ستة آلاف رجل من أصناف الأكراد ونزل في الجانب الشرقي. فخافه ابنا حمدان وعلما أنه لا طاقة لهما به فلجأ إلى بني عقيل وراسلا أبا الدواد محمد بن المسيب وسألاه النصرة وبذلا له النزول على حكمه فالتمس منهما الجزيرة ونصيبين وبلد وعدّة مواضع فأجاباه إلى ملتمسه. فلما استقرت بينهم هذه القاعدة سار إليه أبو عبد اللّه بن حمدان ووافى به في ألفي فارس إلى بلد وهي في أعلا الموصل في الجانب الغربي وعبرا دجلة وحصلا مع باد على أرض واحدة وباد عنهما غافل وبحرب أبي طاهر وأهل الموصل متشاغل. فجاءته طليعة من طلائعه تخبر بعبورهما فخاف أن يعبر إليه من بإزائه ويكبسه أبو عبد اللّه وبنو عقيل من ورائه فتقدم إلى أصحابه بالانتقال واللوذ بأكناف الجبال واضطربوا واخلطوا ما بين سابق مستعجل ولاحق مرتحل وثابت في المعركة مستقبل.

ذكر اتفاق عجيب آل إلى هلاك باد بعد انقضاء مدته

بينما الحال على ما ذكر من اختلاط أصحاب باد إذ قتل عبد اللّه حاجبه المعروف بعروس الخيل ففُجع به وانزعج لفقده وأراد الانتقال من فرس إلى فرس فحوَّل رجله من ركاب إلى ركاب ووثب فسقط إلى الأرض بثقل بدنه فاندقت ترقوته والحرب قائمة بين الفريقين حتى عرف أبو علي الحسن بن مروان أن أخته خبره فصاروا إليه فقالوا له: احمل نفسك كي تلحق الخيل. فقال لهم: لا حراك بي فخذوا لنفوسكم. فانصرفوا في خمسمائة فارس طالبين الجبل عرضاً حتى خلصوا إليه من السهل. وجدَّل بنو عقيل منهم فرساناً وسلم بنو مروان وأكثر من معهم وساروا في لحف الجبل إلى ديار بكر. وحصل باد في جملة القتلى وبه رمق فعرفه أحد بني عقيل فأخذ رأسه فحمله إلى ابني حمدان وأخذ عليه منهما جائزة سنية ودل على جثته فحُمل الى الموصل وقطعت يده ورجله وحُملت إلى بغداد وصُلب شلوُه على باب دار الإمارة بالموصل. فثار العامة وقالوا: هذا رجل غاز فلا تحل المثلة به. فحط وكفن وصلّي عليه ودفن. وظهر من محبة العامة له بعد هلاكه ما كان طريفاً بل لا يستطرف من الغوغاء تناقض الأهواء ولا يستنكر للرعاع اختلاف الطباع وهم أجرأ الخلق إذا طمعوا وأخبثهم إذا قُمعوا ومضى أبو علي بن مروان من فوره إلى قلعة كيفا وهي قلعة على دجلة حصينة جداً وبها زوجة باد الديلمية.

ذكر حيلة لابن مروان ملك بها القلعة

لما وصل إلى باب القلعة قال لزوجة باد: قد أنقذني خالي إليك في مهمَّات. فظنته حقاً فلما صعد وحصل عندها أعلمها بهلاكه ثم تزوج بها ورتَّب أصحابه فيها ونزل فقصد حصناً حصناً حتى رتب أمر جميع الحصون وأقام ثقاته فيها وصار إلى ميافارقين. ونهض أبو طاهر وأبو عبد اللّه ابنا حمدان إلى ديار بكر طمعاً في فتح القلاع وحملا معهما رأس باد فوجدا الأمر ممتنعاً وقد أحكم بن مروان بناه وحمى حماه فعدلا إلى قتاله ووقعت بينهما وقعة كان الظفر فيها لابن مروان وحصل أبو عبد اللّه بن حمدان أسيراً في يده.

ذكر جميل لابن مروان إلى أبي عبد اللّه عند أسره لم يشكر عليه فساءت عاقبة أمره

لما أسر ابن مروان أبا عبد اللّه أحسن إليه وأكرمه وأفرج عنه فصار إلى أخيه أبي طاهر وقد نزل على آمد فأشار عليه بمصالحة ابن مروان وموادعته والانكفاء عن ديار بكر فأبى أبو طاهر إلا معاودة حربه مع جمع كثير من بني عقيل ونمير واضطر أبو عبد اللّه

إلى مساعدته كما ينصر الأخ أخاه ظالماً ومظلوماً. وسارا إلى ابن مروان فواقعاه وكان النصر له قهرهما وأسر أبو عبد اللّه أسراً ثانياً فأساء إليه وضيّق عليه واعتقله زماناً طويلاً إلى أن كاتبه صاحب مصر في بابه فأطلقه بشفاعته وخطابه ومضى إلى مصر وتقلد منها ولاية حلب وأقام بتلك الديار حتى توفي وله بها عقب.

وأما أبو طاهر فإنه انهزم ودخل نصيبين وقصده أبو الدواد محمد بن المسيَّب فأسره وعليًا ابنه والرغفير أمير بني نمير فقتلهم صبراً. وملك محمد بن المسيب الموصل وأعمالها وكاتب السلطان وسأل انفاذ من يقيم عنده من الحضرة فأخرج المظفر أبو الحسن عبيد اللّه بن محمد بن حمدويه وذلك عند غيبة بهاء الدولة عن بغداد ومقام أبي نصر خواشاذه بها في النيابة عنه. فلم تدخل يد المظفر إلا في أبواب المال وفيما كان له ولأبي نصر خواشاذه من الأموال والاقطاع في النواحي فاستولى بنو عقيل على سوى ذلك.

وفي هذه السنة قبض على أبي الفرج محمد بن أحمد بن الزُطي صاحب المعونة ببغداد.

ذكر ما جرى عليه أمره في القبض عليه إلى أن قتل

كان هذا الرجل قد تجاوز حد الناظرين في المعونة وأسرف في الاساءة إلى الناس حتى وترهم وبالغ في أيام صمصام الدولة بعد فتنة أسفار في منع أسباب أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف وتطلُّب حُرمه واستيصال أمواله ونعمه وأغرق في الفعل القبيح معهم ومع غيرهم. وكثرت الطوائل لديه واجتمعت الكلمة عليه وأطمع بهاء الدولة وأبو الحسن الكوكبي المعلم في ماله وكثر عندهما مبلغ حاله فقُبض عليه واعتقل في الخزانة وكرِّر الضرب عليه أياماً. ووقع الشروع في تقرير أمره فاجتمع أبو القاسم عبد العزيز وأبو محمد بن مكرم على نصب الحبائل لهلاكه ووضعا أبا القاسم الشيرازي على أن يضمنه بمال كثير.

ذكر مكيدة تمت لعبد العزيز بن يوسف في أمر الزُطي حتى هلك

قال أبو نصر الحسين بن الحسن المعروف بالأستاذ الفاضل: إن أبا القاسم عبد العزيز وهو الذي سعى واجتهد في أمر ابن الزطي وذكره عند المعلم بكل ما خوَّفه منه وقال: نحن بصدد حرب والمسير للقاء عدوٍ والحوادث لا تؤمن ومتى استبقيت هذا الرجل لم نأمنه جميعاً على من نخلفه وراءنا من حرمنا وأولادنا وفي الراحة منه قُربة إلى اللّه تعالى وأمن في العاقبة. قال المعلم: إن الملك قد أطمع في مال كثير من جهته. فقال عبد العزيز: لعمري إنه ذو مال ولكنه لا يذعن به طوعاً ولا يعطيه عفواً وهذا أبو القاسم الشيرازي يبذل فيه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ويقول إن المال لا يصح

وهو حيٌّ تخافه أصحاب الودائع. وحضر الشيرازي وبذل مثل ذلك بلسانه.

قال الأستاذ الفاضِل: فقلت له: هل أنت على ثقة مما بذلته؟ فقال لي سراً: على الاجتهاد فإن بلغتُ المراد وإلا حملتُ إلى زوجة هذا (وأشار إلى المعلم) عشرة آلاف درهم وقد خلصتني من يده. وضحك وضحكت.

ولم يزل عبد العزيز بالمعلم حتى تقرر الأمر على قتله واستؤذن بهاء الدولة وتحقق عنده المال المبذول عنه فأذن في ذلك وعُبر بالرجل إلى الجانب الغربي وحمل رأسه إلى المعلم فأنفذه إلى محمد بن مكرم فوضعه في غد في دهليزه ليشاهده الناس.

وهذه حكاية عجيبة وليس العجب من قتل ابن الزطي فإنه كان من الأشرار وما آل إليه الأشرار من البوار وإنما العجب من استيلاء المعلم على بهاء الدولة واستيلاء المرأة على المعلم حتى يلعبا بالرجال ويتحكما بالدماء والأموال وإن أمثال هذه الأحوال لتكسو الدول من العار بروداً وتنظم لها من المساوي عقوداً. فإذا أحب اللّه صلاح دولة طهَّرها من مثل هذه الأدناس وقيَّض لتدبيرها أخيار الناس فتكون ما بقيت منصورة مؤيدة ثم تبقى محاسنها في الصحف محفوظة مؤبَّدة.

وعوَّل بعد قتل ابن الزطي على أبي محمد الحسن بن مكرم الحاجب وخلع عليه فأبان فيها أثراً جميلاً وأخذ العيارين والدُّعَّار أخذاً شديداً بعد أن كان قد استشرى أهل الفساد. فقامت الهيبة واستقامت الأمور على السداد وأمن البلد وهرب كل ذي ريبة. ثم استعفى منها وخرج في الصحبة إلى واسط.

ذكر السبب في ذلك

كان رأي أبي الحسن المعلم فاسداً في الوزير أبي منصور وإنما أقرَّه على الوزارة تأنيساً لأبي القاسم العلاء بن الحسن وتقريراً لحيلة تتم عليه. فلما فعل بفارس ما فعله ووقع اليأس من خداعه بعد كشف قناعه قدَّم على القبض على الوزير أبي منصور ما كان أخَّر وعول على أبي نصر سابور بن أردشير في النظر وخلعت عليه الوزارة ونُقل الوزير أبو منصور إلى الخزانة ونزل أبو نصر سابور داره.

وعلى ذا مضى الناس! منصور ومخذول وموِلّي ومعزول ومختار ومردود ومشتهي ومملول وأعمال السلطان عواري لا بد من استرجاعها وملابس لا بد من انتزاعها. والسعيد من حسنت من تلك العواري حاله وكرمت في خلال تلك الملابس خلالُه فإذا ارتجعت منه بقي له من المجد حظ موفر وإذا انتزعت منه صفا عليه من الحمد بُرد محبَّرٌ فختمت بالصالحات أعماله وذكرت بعده بالخيرات أفعاله.

وفيها سار بهاء الدولة متوجهاً إلى شيراز بعد استتباب أبي نصر خواشاذه في

خلافته ببغداد وخلع عليه وطرح له دستاً كاملاً في دار المملكة الأولى وثلاث مخاد في الدار الداخلة وما رؤي أحد من الوزراء والأكابر جلس في هذه الدار على مثل ذلك وكتب له عهد ذُكر فيه «بشيخنا» وهو أول من خوطب بهذا الاسم من الحواشي. وعوَّل على أبي عبد اللّه بن طاهر في النيابة عن الوزير أبي نصر سابور ببغداد فلم يستقم ما بينه وبين أبي نصر خواشاذه واستمر الفساد بينهما إلى أن عاد بهاء الدولة فقبض عليهما على ما يأتي ذكره في موضعه.

ذكر ما جرى عليه أمر بهاء الدولة في هذه السفرة

انحدر ومعه أبو الحسن المعلم والوزير أبو نصر سابور والأمر لأبي الحسن في الكبير والصغير وهو الغالب على الرأي في التدبير. وأقام بواسط أياماً وسار ونزل بمعسكر أبي جعفر بن الحجاج ودخل البصرة فشاهدها وعاد إلى مخيمه. وورد عليه خبر وفاة أبي طاهر أخيه فجلس لعزائه ثم توجه إلى الأهواز وسيَّر أبا العلاء عبيد اللّه بن الفضل على مقدمته ومعه جمهور عسكره فصار إلى أرجان ودخلها وفتح القلعة بالجند وملكها كان فيها من أصناف الأموال شيء كثير. فلما وصل الخبر إلى بهاء الدولة سار إلى أرجان ونزلها وأمر بحط جميع ما كان في القلعة من المال وغيره وتسليمه إلى الخُزَّان وكان من العين ألف ألف دينار ومن الورق ثمانية آلاف ألف درهم ومن الجوهر والثياب والآلات والأسلحة ما يذَّخر الملوك مثله.

ذكر ما جرى في أمر هذا المال حتى تفرق أكثره

لما حصل المال في الخزائن أحب بهاء الدولة تنضيده بأجناسه في مجلس الشرب فنضَّد جميعه على أحسن تنضيد ووكل الحفظة والخزان به في موضعه أياماً فكان منظراً أنيقاً إلا أنه شاع من ذلك ما صار إلى التفرقة طريقاً. فعند ذلك شغب الأتراك والديلم شغباً متتابعاً فأطلقت تلك الأموال حتى لم يبق منها بعد مديدة غير أربعمائة ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم حملت إلى الأهواز. وتوجه أبو العلاء بن الفضل من أرجان إلى النوبندجان وهزم من كان بها من عساكر صمصام الدولة وأثبت أصحابه في نواحي فارس. وبرز أبو منصور فولاذ بن ماناذر من شيراز وسار على مقدمة صمصام الدولة وواقع أبا العلاء بخواباذان فهزمه.

ذكر هذه الوقعة والمكيدة التي كانت سبباً لهزيمة عسكر بهاء الدولة

لما حصل أبو العلاء والأتراك بإزاء فولاذ والديلم في وداي خواباذان وقنطرة حجاز بين الفريقين تطرَّق قوم من الغلمان إلى جمال الديلم فساقوها وعادوا بها إلى معسكرهم ورآهم بقية الغلمان الأتراك فطمعوا في مثل ذلك وركب من الغد منهم سبعون

غلاماً من الوجوه وعبروا القنطرة. وكان الديلم قد أرسلوا جمالاً مهملة لا حماة معها على سبيل المكر والخديعة فاستاقهم الغلمان وكرّوا راجعين. ووقعت الصيحة فركب في أثرهم فرسان من الديلم والأكراد كانوا معدّين ووصل الغلمان إلى القنطرة فوجدوا من دونها خمسمائة رجل من الديلم كان فولاذ قد رتبهم وراء جبل بالقرب فلما عبر الغلمان بأموالهم رأوهم على القنطرة بالرصد فلم يكن للغلمان سبيل إلى العبور ولحقهم الفرسان فأوقعوا بهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم وأخذوا رؤوس أكابرهم فأنفذوها إلى شيراز وكان ذلك وهناً عظيماً وثلماً كبيراً في عسكر بهاء الدولة. وراسل فولاذ أبا العلاء فأطمعه وخدعه ثم سار إليه وكبسه فانهزم من بين يديه وعاد إلى أرجان مفلولاً. ولما وصل الخبر بذلك إلى صمصام الدولة سار من شيراز.

وغلت الأسعار بأرجان ونواحيها وضاقت الميرة والعلوفة ثم وقع الشروع في الصلح وترددت فيه كتب وُرُسل فتم على أن يكون لصمصام الدولة فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان والعراق وأن يكون لكل واد منهما أقطاع في بلاد صاحبه. وعقدت العقود وأحكمت العهود وحلف كل واحد منهما الآخر على التخالص والتصافي بيمين بالغة وشُرطت وحُررت على النسختين وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز.

وورد أبو عبد اللّه الحسين بن علي بن عبدان نائباً عن صمصام الدولة بالحضرة وناظراً فيما أفرد له من الإقطاع بالعراق وعوَّل على أبي سعد بندار بن الفيروزان في النيابة عن بهاء الدولة بفارس.

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة أبي الفرج يعقوب بن يوسف وزير صاحب مصر الملقب بالعزيز.

ذكر حاله وما جرى عليه أمر الوزارة بمصر من بعده

كان أبو الفرج كبير الهمة عظيم الهيبة فاستولى على الأمر ونصح صاحبه فيه فقرُب من قلبه وتمكن من قربه ففوضت الأمور إليه واستقامت على يديه. فلما اعتل علة الوفاة ركب إليه صاحب مصر عائداً ووجده على شرف اليأس فحزن له وقال: يا يعقوب وددت أن تُباع فابتاعك بملكي أو تُفدى فأفتديك فهل من حاجة توصي بها فبكى يعقوب وقبل يده ووضعها على عينه وقال: أما فيما يخصني فلا فإنك أرعى لحقي من أن أسترعيك وأرأف بمخلفي من أن أوصيك ولكني أقول لك فيما يتعلق بدولتك سالِم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تُبق على المفرّج بن دغفل بن الجراح متى أمكنت فيه الفرصة. ولم يشغله ما كان فيه من فراق دنياه عن نصح صاحبه ومحبته وهواه وكذلك حال كل ناصح صدوق. ثم توفي فأمر صاحب مصر بأن يدفن

في قصره في قبة كان بناها لنفسه وحضر جنازته فصلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف من مدفنه حزيناً لفقده وأغلق الدواوين أياماً من بعده.

واستخدم أبا عبد اللّه الموصلي مدة ثم صرفه وقلد عيسى بن نسطورس وكان نصرانياً فضبط الأمور وجمع الأموال ومال إلى النصارى وولاهم الأعمال وعدل عن الكتّاب والمتصرفين من المسلمين واستناب بالشام يهودياً يعرف بمنشا بن إبراهيم بن الفرار فسلك منشا مع اليهود سبيل عيسى مع النصارى واستولى أهل هاتين الملتين على جميع الأعمال.

ذكر حيلة لطيفة عادت بكشف هذه الغمة

كتب رجل من المسلمين قصة وسلمها إلى امرأة وبذل لها بذلاً على اعتراض صاحب مصر بالظلامة وتسليمها إلى يده وكان مضمونها: يا مولانا بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت في أمري. وكانت لصاحب مصر بغلة معروفة إذا ركبها مرت في سيرها كالريح ولم تلحق فوقفت له المرأة في مضيق فلما قاربها رمت بالقصة إليه ودخلت في الناس. فلما وقف عليها أمر بطلبها فلم توجد وعاد إلى قصره متقسم الفكر في أمره. واستدعى قاضيه أبا عبد اللّه محمد بن النعمان وكان من خاصّته وأهل أنسِه فشاوره في ذلك فقال ابن النعمان: أنت أعرف بوجه الرأي. فقال: لقد صدقت المرأة في القصة ونبهت من الغفلة. وتقدم في الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس وسائر الكتّاب من النصارى وكتب إلى الشام بالقبض على منشا بن الفرار وجماعة المتصرفين من اليهود وأمر بردّ الدواوين والأعمال إلى الكتّاب المسلمين والتعويل في الإشراف عليهم في البلاد.

ذكر تدبير توصل به عيسى بن نسطورس إلى الخلاص والعود إلى النظر

كانت بنت المتلقب بالعزيز المعروفة بست الملك كريمة عليه حبيبة إليه لا يردّ لها قولاً فاستشفع عيسى بها في الصفح عنه وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار. وكتب إليه يذكره بخدمته وحرمته فرضي عنه وأعاده إلى ما كان ناظراً فيه وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله.

وفي هذه السنة كثرت فتن العيَّارين بعد انحدار بهاء الدولة ورفعت الحشمة وجرى من الحرب بين أهل الدروب والمحالّ نوبة بعد نوبة ما أعيا فيه الخطب وتكرر الحريق والنهب تارة على أيدي العيَّارين وتارة على أيدي الولاة وولي المعونة عدة فما أغنوا شيئاً واستمر الفساد إلى حين عود بهاء الدولة.

ودخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

فيها قبض على أبي نصر سابور الوزير بالأهواز ونظر أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف في الأمور.

ذكر السبب في ذلك

لما عاد بهاء الدولة بعد الصلح إلى الأهواز شغب الديلم والأتراك وطالبوا بإطلاق المال وذكروا أبا الحسن المعلم وأبا نصر سابور وأبا الفضل محمد بن أحمد عارض الديلم وعلي بن أحمد عارض الأتراك وجاهروا بالشكوى منهم وظاهروا بالكراهية لهم. وترددت بينهم وبين بهاء الدولة مراسلات انتهت إلى أن استوهب منهم أبا الحسن المعلم وأبا القاسم علي بن أحمد وأرضاهم بالقبض على أبي نصر سابور وأبي الفضل محمد بن أحمد وقلد أبا القاسم عبد العزيز الوزارة وخلع عليه.

ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذَّب الأفعال محمود الخصال موصوفاً بالخير والعقل معروفاً بالصلاح والعدل فإن الملك لا تخالطه العامة ولا أكثر الجند وإنما يرون خواصهُ فإن كانت طرائقهم سديدة وأفعالهم رشيدة عظمت هيبة الملك في نفس من يبعد عنه لاستقامة طريقة من يقرُب منه. فقد ورد عن الاسكندر أنه قال: إنَّا إذا فتحنا مدينة عرفنا خيارها من شرارها قبل تجربتهم. قيل له: كيف. قال: لأنَّا نرى خيارهم يتصافون إلى خيارنا وشرارهم إلى شرارنا.

وروي عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال: ما شيءٌ أدلُّ على شيء ولا الدخان على الدخان من الصاحب على الصاحب. قال عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي

وإذا كان خواص الملك ممن يُقدح فيهم وتذكر مساويهم قلَّت الهيبة في النفوس فأظهر الجند استقلالاً لأمره ثم صار الإضمار نجوى بينهم ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلاناً فعند ذلك تقع المجاهرة وترتفع المراقبة ويتحكمون عليه تحكُّم الآمر لا المأمور والقاهر لا المقهور.

وفي هذه السنة أنفذ خلف بن أحمد عمراً ابنه إلى كرمان ودفع تمرتاش عنها.

شرح عليه أمر خلف بن أحمد صاحب سجستان في إنفاذ عمرو ابنه إلى كرمان ويتصل هذا الحديث بما جرى بعد هذه السنة من أحوال تلك البلاد

كان أبو أحمد خلف بن أحمد المعروف بابن بنت عمرو بن الليث الصفار قد ورد

العراق في أيام معز الدولة وخلع عليه بالحضرة الخلع السلطانية لولاية سجستان. وكان رديء الدخيلة في الباطن جيد الناموس في الظاهر شديد الطمع في الأموال متوصلاً إلى أخذها باللطف والاحتيال ويقول: «ليس يجب أن يكون للرجال من الرعية أكثرة من عشرة آلاف درهم لأنها ذخيرة لذي الحاجة وبضاعة لذي التجارة».

ذكر الحيلة التي استمر عليها خلف بن أحمد في أخذ أموال رعيته

كان يتبع أمور أهل البلاد في مكاسبهم ومتاجرهم وبضائعهم وذخائرهم فإذا عرف استظهار قوم منهم عمل ثبتاً بأسمائهم. وخرج على وجه التنزه والتصيُّد ونصب رجلاً من أصحابه في النيابة عنه ووافقه على أخذهم ومطالبتهم بالفضل الذي يقدِّر أنه في أيديهم فإذا علم أن المال معظمه قد صح من جهتهم رجع فيشكونَ إليه ما عُوملوا به فيظهر لهم التوجع ويتقدم بالإفراج عن من بقي منهم في الاعتقال ومسامحتهم بما تأخر عليهم من المال ويحضر صاحبه الذي استنابه فيجلله بالإنكار وربما ضربه بمشهدهم ليزول ما خامر قلوبهم من الاستشعار. وكان يمشي إلى المسجد الجامع في كل جمعة بالطيلسان وربما خطب وصلى بالناس وأملى الحديث وله إسناد عال ورواية عن شيوخ العراقيين ومحدّثي الحرمين.

وكان عضد الدولة عند حصوله بكرمان قرر معه هُدنة على أن لا يتعرض كل واحد منهما ببلاد صاحبه وكتبا بينهما كتاباً بذلك شاع ذكره عند أمراء ساسان وكبراء أهل خراسان وجرى الأمر على المسالمة مدة أيام عضد الدولة.

فلما توفي وملك شرف الدولة وانصرف أبو علي الحسين بن محمد الحاجب عن كرمان وتقلدها تمرتاش وسار شرف الدولة إلى العراق تحدّثت نفس خلف بالغدر ثم أحجم عن الأمر. فلما توفي شرف الدولة وملك صمصام الدولة فارس ووقع الخلف بينه وبين بهاء الدولة قوي طمعه وجهز جيشاً مع عمرو ابنه فلم يشعر تمرتاش بهم حتى نزلوا بعيص أردشير ليلاً وكان هو وعسكره في موضع يعرف بتركياباد من أبنية أبي عبد الله بن الياس، ومعهم أموالهم وعلاهم فكان قصاراهم إن تركوا الدور وما فيها من الأموال ودخلوا بردشير بما أمكنهم حمله وحصلوا في الحصار وملك عمرو بن خلف جميع أعمال كرمان سوى بردشير وجبى الأموال وصار تمرتاش إلى فارس.

وكانت بينه وبين العلاء بن الحسن عداوة من أيام شرف الدولة فوجد العلاء في هذا الوقت الفرصة التي كان يتوقعها في أمره.

ذكر الحيلة التي رتبها العلاء بن الحسن في القبض على تمرتاش وقتله من بعد

قال العلاء بن الحسن لصمصام الدولة: إن تمرتاش في جنبه بهاء الدولة ولا يؤمن أن يميل إليه ويقيم الخطبة له. وقرر معه تجهيز عسكر كثير من الديلم لمعونته وموافقة وجوههم على القبض عليه عند الحصول ببردشير فأخرج أبا جعفر نقيب نقباء الديلم وتقدم إليه بذلك. وسار أبو جعفر إلى كرمان وعرف عمرو بن خلف حصوله بالشيرجان فعاد إلى بَمّ ونرماشير. وتمم أبو جعفر إلى بردشير فاستقبله تمرتاش مبعداً في استقباله وسارا جميعاً إلى الخيم التي ضربت لأبي جعفر فلما وصلا إليها قال أبو جعفر لتمرتاش: بيني وبينكم ما يجب أن نتواقف عليه في هذا العدو والصواب أن نقدّمه. فعاد إلى مضاربه وكان أبو جعفر قد رتَّب فيها قوماً من الديلم لما يريده فحين نزلا قبض عليه وقيده فأنفذ إلى داره من احتاط على خزائنه واصطبلاته وكان مموَّلاً فوجد له ما عظم قدره. وحمل تمرتاش إلى شيراز فحبسه العلاء ثم قتله.

ولما فرغ أبو جعفر من أمر تمرتاش سار بالعسكر الذي صحبه وبمن كان مقيماً ببردشير يطلب مواقعة عمرو بن خلف.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي جعفر في هزيمته

لما التقى الفريقان بدارزين وهي في سهل من الأرض يتسع فيها اطراد الفرسان استظهر ابن خلف عليه بكثرة من الفرسان وضاقت المِيَر على أبي جعفر ومن معه فهرب ليلاً وعاد على طريق جيرفت. وبلغ الخبر صمصام الدولة ومدبّري أمره فانزعجوا منه ثم أجمعوا أمرهم وأخرجوا العباس بن أحمد الحاجب إلى هذا الوجه في عدد كثير من طوائف العسكر وسار متوجهاً للحرب.

ذكر ما جرى عليه أمر عمرو بن خلف في هذه الوقعة وهزيمته وما آل حاله إليه من القتل

لما حصل العباس بن أحمد الحاجب بقرب الشيرجان برز إليه عمرو بن خلف ووقعت الوقعة على باب البلد فكانت الدائرة على عمرو وأسر الفتكين وكان وجيهاً في عسكره والمعروف بابن أمير الخيل صهر خلف وعدد كثير من السجزية وذلك في محرم سنة اثنتين وثمانين. وعاد عمرو إلى سجستان مفلولاً مع نفر من أصحابه ولما دخل إلى أبيه قيَّده وأزرى به وعجزه في هزيمته وحبسه أياماً ثم قتله بين يديه وتولى غسله والصلاة عليه ودفنه في القلعة

فليت شعري ما كان مراده من قتل ولده! أما كان عذره في قطع يده بيده أتراه ظن أنه يشفي غلته أو يجبر وهنه بفَت عضده؟ كلا بل خاب ظنه وزاد وهنه وطال حزنه لقد فعل في الدنيا نكراً وحمل للآخرة وزراً فويل للقاسية قلوبهم ما أبعدهم من الصواب وأقربهم من العذاب.

ووصل أبو علي بن أستاذ هرمز إلى فارس وقرب من خدمة صمصام الدولة فشرع في إنفاذ أستاذ هرمز أبيه إلى كرمان وقرر الأمر معه واستعيد العباس وتوجه أستاذ هرمز.

فقال أبو بكر بن عمرو بن يعقوب كاتبه: لما انتهى الخبر إلى خلف بن أحمد وجَم لذلك الجند ورأى أنه قد رُمي بحجره حين لا قدرة له على الذب عن حريمه لتمزُّق رجاله واضطراب حاله وعلم أنه متى قصده في عقر داره وهو على هذه الصورة انتهز فيه الفرصة فعمد إلى أعمال الحيلة.

ذكر حيلة عملها خلف بن أحمد في تعليل أستاذ هرمز عن قصده

كتب كتاباً غير معنون أقام فيه العذر لنفسه وجعل حجَّته في نقض الهدنة العضدية اختلاف صمصام الدولة وبهاء الدولة إذ كان من شروط الهدنة أنها ماضية بينهما مدة حياتهما ومنتقلة إلى أولادهما بعدهما ما لم يختلفوا وأن نقضه لها كان لهذا العذر وأنه متى استونف معه الصلح أجاب إليه وأنفذ الكتاب على يد أحد الصوفية قال أبو بكر: فلما وصل الكتاب قرأته على أستاذ هرمز وعرَّفته ما في الصلح من الصلاح فتقدَّم إلى بكتب جوابه على نحو ما وقع الابتداء ففعلت. واستمر خلف على هذه الطريقة في مواصلة المكاتبة وتقرير أمر الهدنة حتى استقرت وكتب بها كتاباً أخذ فيه خطوط الشهود وتوثَّق بالأيمان والعهود. واتصلت المهاداة والملاطفة بين الجهتين وخلف في أثناء هذه الأحوال يجمع المال ويثبت الرجال ويتجدد العهد حتى إذا قويت شوكته نقض عهده. وأظهر كتاباً من المعتضد باللّه رحمة اللّه عليه ببلاد كرمان إقطاعاً لجده عمرو بن الليث الصفار وجعل ذلك عذراً عند ملوك الأطراف العارفين بما استقر من تلك المعاهدة.

ذكر مكيدة لخلف أراد بها إساءة سمعة أستاذ هرمز

كان بسجستان قاض يعرف بأبي يوسف البزَّاز مقبول القول بين الرعية يعظمونه غاية الإعظام ويجرونه عندهم مجرى الإمام فاستدعاه خلف وأخرجه رسولاً إلى أستاذ هرمز وضمَّ إليه رجلاً من الصوفية يعرف بالحلبي كالمؤانس له وسلم إلى المتصوف سما ووافقه على أن يقتله في طعام يحمل إليه من دار أستاذ هرمز وفي عقب حضوره على طبقه لينسب الناس قتله إليه ورتَّب للصوفي جمازات بين سجستان وبَمّ وقال له: إذا قضيت الإرب فاهرب. فتوجه أبو يوسف غافلاً عما يُراد به ووصل إلى أستاذ هرمز وهو

ببمّ فأكرمه وسمع منه ما أورده عليه ووعده بالجواب عنه. ودخل الصوفي بينهما في السفارة وحصلت له بها قدم عند أستاذ هرمز فأنس به فأشار عليه باستدعاء أبي يوسف إلى طعامه ليشاهد فضل مروءته فيتحدث به في بلده. فقبل منه واستدعى أبا يوسف لذلك فاستعفاه وامتنع فصار الصوفي إلى أبي يوسف وقال له: إن في امتناعك عليه إيحاشاً له. ولم يزل به حتى لبَّى دعوته وحضر عنده في بعض ليالي شهر رمضان. واتخذ الصوفي شيئاً كثيراً من القطائف فمنه ما عمله بالفانيد السجزي على عادة تلك البلاد ومنه ما عمله بالسكر الطبرزد واللوز على رسم أهل بغداد وجعل السم في البغدادي. فلما انصرف أبو يوسف من دار أستاذ هرمز بعد إفطاره معه سأله الصوفي عن حاله وما شاهد من مروءته فما زال أبو يوسف يذكر شيئاً شيئاً حتى أفضى الحديث إلى ذكر القطائف فوصف أبو يوسف جودة ما أحضر منه على الطبق فقال الصوفي: ما أظن القاضي أكل مما يصلح عندنا في العراق وقد عملت منه شيئاً ليأكله ويعلم أن لبغداد الزيادة على كل بلد. وقام وأحضر ما أودعه السم. فاستدعى أبو يوسف جماعة من أصحابه ليأكلوا معه فقال له الصوفي: هذا شيء نحب أن يتوفَّر عليك وقد عملت لأصحابنا ما يصلح لهم. وأحضر ما كان عمله على رستم تلك البلاد ودعا القوم إليه وأكل أبو يوسف من المسموم وأمعن فيه. وخرج الصوفي من الدار وقصد باب البلد وركب جمازة معدَّة ودخل المفازة متوجهاً إلى سجستان ونام أبو يوسف فما مضت ساعة حتى عمل السم فيه وطلب الصوفي فلم يلحق ولا عرف له خبر فأحس بالحيلة.

قال أبو بكر الكاتب: فجاءني رسوله في جنح الليل يستدعيني فجئته وهو كما به يتقلب على فراشه ويحتسب اللّه على خلف فوصاني بحفظ ما يخلفه ومعاونة أصحابه على حمله إلى بلده وتسليمه إلى ورثته وبقي ساعة وقضى نحبه وعرف أستاذ هرمز الخبر فقلق لأجله ثم رأى كتمان الأمر وأحسن إلى أصحاب أبي يوسف وأعادهم موفورين.

ووصل الصوفي إلى خلف وحدثه الحديث فقرر معه أن يقول في المحفل الذي يجتمع الناس فيه: إن أستاذ هرمز غدر بأبي يوسف وسمه وقتله وأراد أن يفعل بي مثل ذلك فخرجتُ على وجهي هارباً منه وأنه قد نقض العهد وعزم على المسير إلى هذه البلاد. ثم عقد مجلساً فيه القضاة والشهود ووجوه الخاصة والعامة وأحضر الصوفي حتى أورد ما توافقا عليه فما استتم الصوفي كلامه حتى أجهش خلف بالبكاء والنحيب وقال: واأسفاه على القاضي الشهيد. ونادى: النفير لغزو كرمان. فكتب محاضر بذلك وأنفذها إلى أصحاب الأطراف وشنَّع على أستاذ هرمز بالغدر والنكث. وندب ولده طاهراً المعروف بشيربابك مع أربعة آلاف غلام وخمسة آلاف رجل من السجزية إلى كرمان.

فسبحان من خلق أطواراً وجعل منهم أخياراً وأشراراً ما كان أجرى هذا الرجل

على فعل المحظور وقول الزور، أتراه ما سمع قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢]. إن الإنسان لظلومٌ. كفّار ولقد أقدم على ظلم عظيم.

ذكر ما جرى عليه أمر طاهر بن خلف بكرمان

سار طاهر مع عسكره إلى نرماسير وبها شهفيروز ابن بنت ملكا بن نداخرشيد في عدة من وجوه الديلم والجيل وفيهم سراهنك بن سياهجيك الجيلي قريب زيار بن شهراكويه وكان فارساً شجاعاً فوصلوا إلى باب البلد سحراً فما شعر الناس إلا بنعرة الأتراك. وبادر الديلم عند ذلك إلى ميدان في البلد فاجتمعوا فيه وتشاوروا فيما بينهم فيما يدبرون به أمرهم مع قصورهم عن مقاومة من نزل بساحتهم. فبينما هم في تراجع القول إذ أحرق السجزية أحد أبواب البلد وصعدوا السور واستقر رأي الديلم على الخروج من باب يفضي إلى البساتين والحيطان وسلوك طريق بينهما تضيق عن مجال الفرسان وتوجهوا على هذه النية. فلما وصلوا إلى الباب صادفوا السجزية داخلين منه فتلاقوا وكان يقدم الديلم سراهنك بن سياهجيك فرمى مليلين الدواتي أحد قواد خلف بزوبين سقط منه صريعاً ورمى آخر فقتله وثلّث فانهزم السجزية ناكصين على أعقابهم إلى الصحراء. وخرج الديلم بأهلهم وأموالهم ولزموا حيطان البساتين وقصدوا جبلاً كان قريباً منهم وصعدوا فيه حتى خلصوا ومضوا إلى جيرفت. ولم يقدم فرسان ابن خلف على اتباعهم في تلك الطريق ودخل طاهر بن خلف نرماسير بعد انصرافهم منه.

وبلغ أستاذ هرمز الخبر وهو ببمّ وكان في القلعة التي هو بها سلاح كثير له خطر كبير.

ذكر ما دبر به أستاذ هرمز أمره عند وصول الخبر إليه

جمع إليه من كان معه من الديلم وشاورهم في الأمر فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بهذا الرجل مع قوة شوكته لا سيما وقد انقطع عنا العسكر الذين كانوا بنرماسير والصواب أن نحمل من هذه الأسلحة ما نقدر على حمله ونحرق الباقي لئلا يستظهر العدو به علينا ونمضي إلى جيرفت ونقرر رأينا هناك. فاستصوب رأيهم وعمل به وبادر إلى جيرفت وأقام بها يستكثر من الرجال ويستعدّ للقتال.

وسار ابن خلف إلى بردسير لأنها قطب كرمان ومن ملكها وقلعتها تمكنت قدمُه واستقام ملكه.

ذكر ما جرى عليه أمر ابن خلف في قصد بردسير وما آل أمره إليه من الهزيمة

كان الحامي ببردسير في ذلك الوقت أبو بكر محمد بن الحسن قريب أبي الوفاء طاهر بن محمد فجاهد في الذب عن البلد ثلاثة أشهر ثم ضاقت الميرة فكتب إلى أستاذ هرمز يعلمه اشتداد الحصار به وأنه متى لم يدركه سلم البلد. فبلغ ذلك من أستاذ هرمز كل مبلغ وخاف أن تتم الحيلة فيه فسار من جيرفت في سنة أربع وثمانين والزمان شات ولاقى عسفاً في طرق سلكها وأخطار ركبها فلما قرب من بردسير أخذ في لحف الجبل حتى صار بينه وبين القلعة ثلاثة فراسخ ثم رتب مصافه وسار. وعرف من في القلعة وروده فضربوا البوقات والطبول وبرزوا وتلاقى السجزية وعسكر أستاذ هرمز واقتتلوا عامة النهار وأستاذ هرمز زحف بعسكره إلى باب البلد حتى إذا شارفه قلع السجزية مضاربهم من موضعها وتأخروا واختلطوا محاصرين لعسكر أستاذ هرمز. وقوي بعضهم ببعض وهابهم السجزية وأحجموا عن الإقدام عليهم وأقاموا يوماً واحداً ثم أوقدوا النيران ليلاً يوهمون بها أنهم مقيمون ورحلوا. وعرف أستاذ هرمز خبر انصرافهم سحراً فأنفذ أبا غالب ابنه في جماعة من الفرسان لاقتصاص آثارهم فسار مجداً في طلبهم وقتل جماعة ظفر بهم منهم. ورحل أستاذ هرمز يطوي المنازل إلى نرماسير فوصلها وقد دخل طاهر بن خلف المفازة عائداً إلى سجستان. ونعود إلى سياقة التاريخ.

وفي هذه السنة عاد بهاء الدولة من الأهواز إلى مدينة السلام وقبض على أبي نصر خواشاذه وأبي عبد اللّه بن طاهر.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو الحسن المعلوم يتوقع في كل ناظر خدمة وهدية وكان أبو نصر فيه شحٌّ يمنعه عن ذلك فإذا أشير عليه قال: إنما يفعل هذا الفعل من يرتزق أو يرتفق. فقد رأى أبي الحسن فيه فساداً عرفه كل أحد وبلغ أبا نصر فخافه وهمّ بالهرب عن قرب بهاء الدولة واستدعى من العرب من يخرج معه. ثم توقف وأشار عليه أهل أنسه بتلافي أبي الحسن بما يحمله إليه فنازلهم إلى ألف دينار فقالوا له: تكون وزناً يلقى بها بواسط. فلم يفعل وأخذ خط بعض الباعة به وأنفذه إليه فلم يقع موقعه إلا أنه قبله تأنيساً له. وورد مدينة السلام فقبض عليه وأخذ له عند القبض عليه من عدة مواضع ما بلغ قيمته ألفي ألف دينار وأفرج عنه بعد ذلك بمدة.

فانظر إلى هذا الشح المطاع كيف ألقى صاحبه في المهالك وأخرجه إلى ضيق المسالك فإنه ضيَّع الكثير من حيث حفظ القليل. والجوَّاد أملك لماله من الشحيح لأن

ذلك يبدله إما لنفع عاجل وإما لذخر آجل وهذا يحزنه إما لحادث وإما لوارث فذاك محظوظ وهذا محروم وذاك مشكور وهذا مذموم. وقد قيل: أنفق في حالتي الإقبال والإدبار والإنفاق في زمن الإقبال لا ينقص حالاً والإمساك في زمن الإدبار لا يحفظ مالاً قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فأما أبو عبد اللّه بن طاهر فإنه كان نائباً عن أبي نصر سابور إلا أنه أقر على أمره عند القبض على سابور بالأهواز لأنه أعطى أبا الحسن المعلم ما أرضاه ثم يدفع عنه كراهة منه لإيحاش أبي القاسم عبد العزيز فقبض عليه وقرر أمره على مال صححه وخلى عنه.

وفيها سكنت الفتنة وتتبع العيارون وأخذوا وقُتلوا واطمأن الناس وقامت الهيبة. وكان في جملة العيَّارين المأخوذين إنسان يعرف بابن جوامرد من وجوههم وكان قد أبقى في أيام صمصام الدولة وحرس الأسواق فسئل بهاء الدولة في أمره فأمنه ومن أبقى أبقى عليه ومن أساء أساء إليه ومن أحسن أحسن إليه.

وفيها هرب أبو منصور فولاذ بن ماناذر من شيراز.

ذكر السبب في هرب فولاذ

لما استفحل أمره بفارس وزاد على حد أصحاب الجيوش حصل صمصام الدولة تحت حكمه وجعل اسمه مقترناً باسمه في المناشير وكتب فيها: هذا كتاب من صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار بن عضد الدولة يمين أمير المؤمنين ومن عبده وصاحب جيشه نجم الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين. وكانت بينه وبين العلاء بن الحسن المودة التي تقدم ذكرها ثم استحالت عداوة ثبتت على الأيام أصولها وبسقت فروعها فعمل فولاذ على القبض عليه وخاطب صمصام الدولة على ذلك فأجابه إلى مراده منه.

ذكر الحيلة التي رتبها فولاذ على العلاء بن الحسن وانعكاسها حتى صارت الدائرة على فولاذ

صار فولاذ إلى دار الإمارة وفيها أبو القاسم العلاء بن الحسن على عادته فقدم إليه واستقبله وقضى حقه وأخذه بيده وماشاه وحادثه ثم وقف على باب بيت ودفع في صدره حتى حصل بالبيت وأغلق بابه عليه ووكل به قوماً. فاشتغل فولاذ بلقاء الديلم وسلامهم وخطابهم على أمورهم وكان البيت الذي حصل فيه له باب آخر قد سمر فعالجه حتى فتحه وخرج منه ودخل على صمصام الدولة في حجرة خلوته فقال له: قد قبض هذا الرجل عليَّ وغرضه في ذلك أن لا يترك بين يديك من يخدمك وفي نفسه أن يعلو على الملك. قال: فما الرأي. قال: أن تقبض عليه إذا دخل إليك الساعة وعليَّ أن لا يجري من العسكر قول في معناه. ففعل وتقدم إلى بعض الحواشي بالقبض عليه إذا أقبل إلى

حضرة صمصام الدولة والعدول به إلى بعض البيوت. وسمع على الأرزناني النديم الحديث وكان يتجسس على صمصام الدولة لفولاذ فلما وافى فولاذ أومى عليٍّ إليه بيده أن «ارجع فإنك مأخوذ» فرجع فولاذ نافراً وانصرف إلى داره. وخُرج العلاء بن الحسن إلى وسط العسكر على أثره وأظهر لهم عصيانه ونادى للركوب إليه والقبض عليه فعرف فولاذ ما عول عليه العلاء فأخذ ما خف من ماله على الجمازات وسار. وتبعه العلاء مغذّاً في طلبه قانعاً بما تم عليه من هربه ومضى فولاذ إلى الأكراد الخسروية فنزل عليهم وعاد العلاء وأقطع الديلم إقطاعات فولاذ واستقام الأمر به. وكاتب الأكراد وطالبهم بفولاذ وسبق إليهم بالوعيد إن لم يسلموه وكانوا قد طمعوا في مال فولاذ وانضاف إلى الطمع فيه الخوف من العلاء فنهبوه وأفلت بنفسه منهم وحصل بالري وأقام عند فخر الدولة إلى أن توفي. فأما علي الأرزناني فإن صمصام الدولة أمر بقتله فقُتل.

وفيها قبض على أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف وعلى أصحابه وأسبابه وكانت مدة نظره ببغداد شهرين ونصفاً. وقلد أبو القاسم علي بن أحمد الأبرقوهي الوزارة وخلع عليه.

وفي هذا الوقت قبض على الطائع للّٰه وقد جلس لبهاء الدولة.

ذكر السبب في القبض على الطائع للّٰه رضوان اللّٰه عليه

كان أبو الحسن المعلم (وبئس القرين هو) قد كثر عند بهاء الدولة مال الطائع للّٰه وذخائره وأطمعه فيها وهوَّن عليه أمراً عظيماً وجرّأه على خطة شنعاء فقبل منه وقبض عليه. ثم لم يحظ من ذلك إلا بسوء الذكر إلى آخر الدهر ولولا أن حسنات أيام القادر باللّٰه رضوان اللّٰه عليه أسبلت على مساوي هذا الفعل ستراً لما وجد عند اللّٰه تعالى ولا عند المخلوقين عذراً لكن محاسن ذلك الإمام التقي الرضي أعادت وجه الدين مشرقاً وعُود الإسلام مورقاً. فأما شرح ما جرت عليه الحال يوم القبض فلم نذكره إذ لا سياسة فيه فتحكى ولا فضيلة فتروى إلا أبياتاً للرضي أبي الحسن الموسوي رحمه اللّٰه فإنه كان في جملة من حضر فلما أحس بالفتنة أخذ بالحزم وبادر الخروج من الدار وتلوَّم من تلوَّم من الأماثل فامتهنوا وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال:

أعجب لمسكة نفسي بعد ما رميت ... من النوائب بالأبكار والعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق النجم منكدرا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طلاع ثنيتها ... ومن ورائي شرٌّ غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسماً ... إليَّ أدنيه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضلّ ولاّج أبواب السلاطين

وباللّه تعالى نستعين من شر الفتن وانقلاب الزمن وإياه نسأل سلامة شاملة وعاقبة حميدة بمنه.

ولما انصرف بهاء الدولة إلى داره (وقد حُمل الطائع للّه قبله إليها واعتقل فيها) أظهر أمر الخليفة القادر باللّه أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر باللّه رضوان اللّه عليهم ونادى بشعاره في البلد. وكتب على الطائع كتاباً بالخلع وتسليم الأمر إلى القادر باللّه رضي اللّه عنه وشهد الشهود فيه عليه وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام. وانحدر إلى حضرة القادر باللّه من خواص بهاء الدولة من يهنّيه بالخلافة ويصعد في خدمته إلى مدينة السلام.

وشغب الديلم والأتراك مطالبين برسم البيعة ومنعوا من الخطبة باسم الخليفة في يوم الجمعة فقيل: «اللهم اصلح عبدك وخليفتك القادر باللّه» الخليفة في يوم الجمعة فقيل: «اللهم اصلح عبدك وخليفتك القادر باللّه» ولم يسم. وترددت الرسل بين بهاء الدولة وبين العسكر فأرضى الوجوه والأكابر ثم قرر لكل واحد ثمانمائة درهم وأخذت البيعة على الجماعة واتفقت الكلمة على الرضا والطاعة. وأقيمت الخطبة باسم أمير المؤمنين القادر باللّه أبي العباس أحمد رضوان اللّه عليه في يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان وقيل إن القادر باللّه رضوان اللّه عليه رأى رؤيا قبل ورود الخبر إليه بمصير الأمر إليه.

ذكر الرؤيا التي رآها القادر باللّه رضوان اللّه عليه

قال هبة اللّه بن عيسى كاتب مهذب الدولة: كنت أغشى مجلس القادر باللّه في مقامه بالبطيحة في كل أسبوع يومين فإذا حضرت رفعني وإذا رمت تقبيل يده منعني. فدخلت إليه يوماً فوجدته قد تأهب تأهباً لم تجر عادته بمثله ولم أر منه ما عوّدنيه من الإكرام وجلست دون موضعي فما أنكر ذلك مني ورمت تقبيل يده فمدها إليَّ فاختلفت بي الظنون لزلة مني فإن تكن فاسأل إعلامي بها فإما أن أطلب مخرجاً منها بالعذر أو ألوذ فيها بالعفو فأجابني بوقار أن أسمع: رأيت البارحة في منامي كان نهركم هذا (وأومى إلى نهر الصليق) قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات وكأني متعجب من ذلك وسرت على حافته مستعظماً لأمره ومستطرفاً لعظمه فرأيت دستا هيج قنطرة عظيمة فقلت «ترى من قد حدث نفسه بعمل قنطرة في هذا الموضع على مثل هذا البحر الكبير؟» وصعدته فكان بثقاً محكماً ومددت عيني وإذا بإزائه مثله وزال الشك عني في انهماد دستاهيج قنطرة وأقبلت أصعد وأصوّب في التعجب. فبينما أنا واقف عليه إذ رأيت شخصاً قد تأملني من ذلك الجانب وناداني يا أحمد أتريد أن تعبر. قلت: نعم.

فمد يده حتى وصلت إليّ وأخذني وعبر بي فهالني فعله فقلت له وقد تعاظمني أمره: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب هذا الأمر صائر إليك ويطول عمرك فيه فأحسن إلى ولدي وشيعتي. فما انتهى الخليفة هذا المقال من قوله حتى سمعنا صياح ملاّحين وضجيج ناس فسألنا عن ذلك فقيل: ورد أبو علي بن محمد بن نصر وجماعة معه. فإذا هم الواردون للإصعاد به فقد تقررت الخلافة له. فعاودت تقبيل يده ورجله وخاطبته بإمرة المؤمنين وبايعته.

ثم قام مهذب الدولة بخدمة الخليفة في إصعاده وانحداره أحسن قيام وحمل إليه من المال والثياب والآلات ما يحمل مثله إلى الخلفاء وأعطاه الطيار الذي كان صنعه لنفسه وشيعه إلى بعض الطريق وأنفذ هبة اللّه بن عيسى في خدمته. فلما وصل إلى واسط اجتمع الخدم بها وطالبوا برسم البيعة وجرت لهم خطوب انتهت إلى أن وعدوا بإجرائهم مجرى البغداديين. فلما تقررت أمورهم عليه ورضوا سار فلما بلغ الجبل انحدر بهاء الدولة ووجوه الأولياء وأماثل الناس لتلقيه وخدمته دخل دار الخلافة ليلة الأحد ثاني عشر رمضان.

خلافة القادر بالله

ذكر جلوس القادر بالله أمير المؤمنين رضوان الله عليه على سرير الخلافة

جلس ثاني يوم حصوله في الدار جلوساً عاماً وهُني بالأمر وأنشد المديح بالشعر وكان من ذلك قصيدة للرضي أبي الحسن الموسوي أولها:

شرف الخلافة يا بني العباس — اليوم جدده أبو العباس
هذا الذي رفعت يداه بناءها الـ — ـعالي وذاك موطد الأساس
ذا الطوْد بقَّاه الزمان ذخيرةً — من ذلك الجبل الأشم الراسي

وتمامها مثبت في ديوان شعره ولقد صدق الموسوي في قوله إن القادر بالله جدد معاهد الخلافة وأثار أعلامها وكشف غمم الفتنة وجلى ظلامها ويقولون لئن كان لكل من الأئمة رضوان الله عليهم مناقب مروية وطرائق مرضية فإن لأربعة منهم فضائل أفردوا بمزاياها وحظوا بمرباعها وصفاياها: قام أمير المؤمنين السفاح سفح دماء الأعداء وتاخى كشف الغمَّاء وتفرّد وتفضل بفضيلة الابتداء: والمنصور بالله أيد بالنصر في توطيد قواعد الأمر فذلل كل صعب وأزال كل شعب وثقف كل مناد ومهَّد لمن بعده أحسن مهاد: ثم المعتضد بالله عضد الدولة بحسن تدبيره وسياسته وتلافاها بشرف نفسه وعلو همته وأعادها بعد الضعف إلى القوة وبعد اللين إلى الشدة وبعد الأَود إلى الاستقامة وبعد الفتنة إلى السلامة: ثم القادر بالله قدَرَ من صلاحها على ما لم يقدر عليه سواه وسلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه. فكان راهب بني العباس حقاً وزاهدهم صدقاً ساس الدنيا والدين وأغاث الإسلام والمسلمين واستأنف في سياسة الأمر طرائق قويمة ومسالك مأمونة سليمة هي إلى الآن مستمرة والقاعدة عليها مستقرة لم تعرف منه زلة ولا ذمت له خلة: فطالت أيامه وطابت أخباره وأقفيت آثاره وبقيت على ذريته الشريفة أنواره رضي الله عنه رضاه عن الأئمة المتقين وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين.

وحمل إلى القادر بالله بعض ما كان أخذ من دار الخلافة من الأثاث والأواني والآلات وجعل كُتَّابه وحجَّابه وحواشيه جميعهم من أصحاب بهاء الدولة ثم أعاد القادر بالله بعد ذلك حاشية الدار القدماء إلى مواضعهم. وكان مدة مقامه بالبطيحة من يوم وصلها إلى يوم خرج منها سنتين وأحد عشر شهراً.

فأما أخت بهاء الدولة التي كانت في حبال الطائع للّه فإن دارها حرست يوم القبض من النهب ثم نقلت إلى دار بمشرعة الصحراء أقامت فيها موقرة إلى أن توفيت.

وفي هذه السنة ورد الخبر بوفاة سعد الدولة أبي المعالي بن سيف الدولة بعد قتله بكجور غلامه.

شرح الحال في عصيان بكجور وما آل إليه أمره القتل ونُبذ من أخبار المصريين تتصل بها في هذه السنة وما بعدها

كان لسعد الدولة غلام يعرف ببكجور فاصطنعه وقلده الرقة والرحبة واستكتب له أبا الحسن علي بن الحسين المغربي. فلما طالت مدته في ولايته جحد الإنسان وحدَّث نفسه بالعصيان واستغوى طائفة من رفقائه فصاروا إليه وخرج إلى أبي الحسن المغربي بسره فأشار إليه بمكاتبة صاحب مصر الملقب بالعزيز والتحيز إليه فقبل منه وكاتبه واستأذنه في قصد بابه فأذن له. وسار عن الرقة بعد أن خلف عليها سلامة الرشيقي غلامه وأخذ رهائن أهلها على الطاعة. فلقيتُه كُتب صاحب مصر وخِلعه وعهده على دمشق فنزل بها وتسلمها ممن كان والياً عليها. ووجد أحداثها وشبانها مستولين ففتك بهم وقتل منهم وقامت هيبته بذلك وترددت بينه وبين عيسى بن نسطورس الوزير مكاتبات خاطبه فيها بكجور بخطاب توقَّع عيسى أوفى منه ففسد ما بينهما وأسرَّ عيسى العداوة له وأساء غيبُه وقطع بكجور مكاتبة عيسى وشكاه إلى صاحب مصر فأمر عيسى باستئناف الجميل معه فقبل ظاهراً وخالف باطناً. وخاف بكجور عيسى ومكيدته فاستمال طوائف من العرب وصاهرهم فمالوا إليه رغبة وعاد إلى الرقة وكتب إليه صاحب مصر يعاتبه على فعله فأجابه جواب المعتذر الملاطف.

ذكر السبب في مسير بكجور إلى حلب لقتال مولاه

كان لبكجور رفقاء بحلب يوادونه فكاتبوه وأطمعوه في الأمر وأعلموه تشاغل سعد الدولة باللّذة فاغترَّ بأقوالهم وكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتح حلب ويطلب منه الإنجاد والمعونة فأجابه إلى كل ملتمس وكتب إلى نزال الغوري وإلى طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير معاودة وكان نزَّال هذا من قواد المغاربة وصناديدهم ومن صنائع عيسى وخواصه.

ذكر الحيلة التي رتبها عيسى مع نزال في التقاعد ببكجور حتى ورطه

كتب عيسى إلى نزال سراً بأن يظهر لبكجور المسارعة ويبطن له المدافعة فإذا تورّط مع مولاه وصادمه تأخر عنه وأسلمه. فرحل بكجور عن الرقة وكتب إلى نزال بأن يسير من طرابلس ليكون وصولهما إلى حلب في وقت واحد وسار إليها. ورحل نزال وأبطأ في

سيره وواصل مكاتبة بكجور بنزوله في منزل بعد منزل وقرب عليه الأمر في وصوله. وقد كان سعد الدولة كتب إلى بسيل عظيم الروم وأعلمه عصيان بكجور عليه وسأله مكاتبة البرجي صاحبه بأنطاكية بالمسير إليه متى استنجده فكاتبه بسيل بذلك فلما وافى بكجور كتب سعد الدولة إلى البرجي بالمسير إليه فسار. وبرز سعد الدولة في غلمانه وطوائف عسكره (ولُؤلؤ الجراحي الكبير يحجبه) ولم يكن معه من العرب إلا عمرو بن كلاب وعدَّتهم خمسمائة فارس إلا أنهم أولو بأس ومن سواهم من عِدَّته وعُدته فنزل إلى الأرض وصلَّى وعفر خديه وسأل اللَّه تعالى النصر. ثم استدعى كاتبه وأمره بأن يكتب إلى بكجور عنه ويستعطفه ويذكره اللَّه ويبذل له أن يقطعه من الرقة إلى باب حمص ويدعوه إلى الموادعة ورعاية حق الرق والعبودية. ومضى بالكتاب رسول فأوصله إليه فلما وقف عليه قال: الجواب ما يراه عياناً. فعاد الرسول وأعاد على سعد الدولة قوله وأخبره أنه سائر على أثره. فتقدم سعد الدولة وتقارب العسكران ورتب المصاف ووقع الطراد.

ذكر جود عاد على سعد الدولة بحفظ دولته وشح آل ببكجور إلى ذهاب مهجته

كان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد إليه وقد طُعِن أو جُرِح خلع عليه وأحسن إليه وكان بكجور شحيحاً فإذا عاد إليه رجل من رجاله على هذه الحال أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفاً في أمره. وقد كان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور وأمنهم ووعدهم ورغبهم فلما حصلت كتُبه بالأمان معهم عطفوا على سواده ونهبوه واستأمنوا إلى سعد الدولة. ورأى بكجور ما تم عليه من تقاعد نزال به وانصراف العرب عنه وتأخر رفقائه الذين كانوا كاتبوه ووعدوه بالانحياز إليه إذا شاهدوه فاستدعى أبا الحسن المغربي كاتبه وقال له: لقد غررتني فما الرأي الآن؟ قال له: أيها الأمير لم أكذبك في شيء قلته ولا أردت إلا نصحك والصواب مع هذه الأسباب أن ترجع إلى الرقة وتكاتب صاحب مصر بما اعتمده نزَّال معك وتعاود استنجاده. وكان في العسكر قائد من القواد يجري مجراه في التقدم فسمع ما جرى بينهما فقال لبكجور: هذا كاتبك إذا جلس في دسته قال: «الأقلام تنكس الأعلام» فإذا تحققت الحقائق أشار علينا بالهرب واللَّه لا هربنا. وحلف بالطلاق على ذلك وسمع أبو الحسن المغربي قوله فخاف وكان قد واقف بدوياً من بني كلاب على أن يحمله إلى الرقة متى كانت هزيمة وبذل له ألف دينار على ذلك فلما استشعر ما استشعر قدَّم ما كان أخَّره وسأل البدوي تسييره إلى الرقة فسيَّره.

ذكر ما دبره بكجور بفضل شجاعته فحالت المقادير دون إرادته

لما رأى الأمر معضلاً عمل على أن يعمد إلى الموضع الذي فيه سعد الدولة من

المصاف ويحمل عليه بنفسه ومن ينتخبه من صناديد عسكره موقعاً به فاختار وجوه غلمانه وقال لهم: قد حصلنا من هذه الحرب على شرف أمرين صعبين من هزيمة وهلاك وقد عوَّلت على كيت وكيت فإن ساعدتموني رجوت لكم الفتح. فقالوا: نحن طوعك وما نرغب بنفوسنا عن نفسك. فغدر واحد من الغلمان واستأمن إلى لؤلؤ الجراحي وأعلمه بما عوَّل عليه.

ذكر ما فعله لؤلؤ من افتداء مولاه بنفسه فنجاهما اللّه بحسن النية

أسرع لؤلؤ إلى سعد الدولة وأخبره الحال وقال: قد أيس بكجور من نفسه وهو لا شك فاعل ما قد عزم عليه فانتقِل من مكانك إلى مكاني لأقف أنا في موضعك وأكون وقاية لك ولدولتك. فقبل سعد الدولة رأيه ووقف لؤلؤ تحت الراية وجال بكجور في أربعمائة غلام شاكين في السلاح ثم حمل في عقيب جولته حملة أفرجت له العساكر ولم يزل يخبط من تلقَّاه بالسيف إلى أن وصل إلى لؤلؤ وهو يظنه سعد الدولة فضربه على الخوذة ضربة قدَّها ووصلت إلى رأسه ووقع لؤلؤ إلى الأرض. وحمل العسكر على بكجور وبادر سعد الدولة عائداً إلى مكانه مظهراً نفسه لغلمانه فلما رأوه قويت شوكتهم وثبتت أقدامهم واشتدوا في القتال حتى استفرغ بكجور وسعُه ثم انهزم في سبعة نفر.

ذكر ما جرى عليه أمر بكجور بعد الهزيمة إلى أن قُتل

كان تحته فرس ثمنه ألف دينار فانتهى إلى ساقية تحمل الماء إلى رحا الطريق سعتها قدر ذراعين فجهد الفرس على أن يعبرها خوضاً أو وثباً فلم يكن فيه ووقف ولحقته عشرة فوارس من العرب فرَجلتهُ وأصحابه وجرَّدوهم من ثيابهم وآبوا عنهم بأسلابهم ونجا بكجور ومن معه إلى الرحا فاستكنوا فيه ثم خرجوا من بعد إلى قراح فيه زرع فمرَّ بهم قوم من العرب وكان فيهم رجل من بني قطن كان بكجور يستخدمه كثيراً في مهماته فناداه «أن ارجع» فرجع وهو لا يعرفه فأخذ ذمامه. ثم عرَّفه نفسه وبذل له على إيصاله الرقة حمل بعيره ذهباً فأردفه وحمله إلى بيته وكساه. وكان سعد الدولة قد بثَّ الخيل في طلبه وجعل لمن أحضره حكمه فساء ظن البدوي وطمع فيما كان سعد الدولة بذله واستشار ابن عمه في أمره فقال له: هو رجل بخيل وربما غدر في وعده وإذا قصدت سعد الدولة به حظيت برفده. فأسرع البدوي إلى معسكر سعد الدولة وأشعره بحال بكجور واحتكم عليه مائتي فدان زراعة ومائة ألف درهم ومائة راحلة محملة براً وخمسين قطعة ثياباً فبذل له سعد الدولة ذلك جميعه. وعرف لؤلؤ الجراحي الخبر وتقرَّر أن يمضي البدوي ويحضره فتحامل وهو مثخن بالضربة التي أصابته ومشى يتهادى على أيدي غلمانه حتى حضر عند سعد الدولة.

ذكر حزم أخذ به لؤلؤ دل منه على أصالة رأي

لما حضر سأل عما يقوله البدوي فأخبر به فقبض لؤلؤ على يده وقال له: أين أهلك. فقال: في المرج على فرسخ. فاستدعى جماعة من غلمانه وأمرهم أن يسرعوا إلى الحلة ويقبضوا على بكجور ويحملوه فتوجهوا وهو قابض على يد البدوي والبدوي يستغيث. فقدم لؤلؤ إلى سعد الدولة. وقال: يا مولانا لا تنكر عليَّ فعلي فإنه مني عن استظهار في خدمتك فلو عاد هذا البدوي إلى بيته لم نأمن أن يبذل له بكجور مالاً جماً فيقبل منه وتطلب منه بعد ذلك أثراً بعد عين والذي طلبه البدوي مبذول وما ضر الاحتياط. فقال له سعد الدولة: أحسنت يا أبا محمد للّه درك. ولم يمض ساعات حتى أحضر بكجور فشاور سعد الدولة لؤلؤاً في أمره فأشار عليه بقتله خوفاً من أن تسأل أخت سعد الدولة فيه فيفرج عنه فأمر عند ذلك بضرب عنقه.

فسار سعد الدولة إلى الرقة فنزل عليها وفيها سلامة الرشيقي وأبو الحسن المغربي وأولاد بكجور وحرمه وأمواله ونعمه فأرسل إلى سلامة يلتمس منه تسليم البلد فأجابه: بأني عبدك وعبد عبدك إلا أن لبكجور عليَّ عهوداً ومواثيق لا مخلص لي عند اللّه منها إلا بأحد أمرين إما أنك تذم لأولاده على نفوسهم وحرمهم وتقتصر فيما تأخذه منهم على آلات الحرب وعددها وتحلف لهم على الوفاء به وإما بأن أبلى عذراً عند اللّه تعالى فيما أخذ عليَّ من عهد وعقد معي من عقد. فأجابه سعد الدولة إلى ما اشترطه من الذمام وحلف له بيمين مستوفاة الأقسام ودخل فيها الأمان لأبي الحسن المغربي بعد أن كان قد هدر دمه إلا أنه أمنه على أن يقيم في بلاده فهرب إلى الكوفة وأقام بمشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ذكر ما جرى عليه أمر سلامة الرشيقي وأولاد بكجور في خروجهم من الرقة وغدر سعد الدولة

لما توثق سلامة لنفسه ولأولاد بكجور سلَّم حصن الرافقة وخرجوا منها ومعهم من الأموال والزينة ما كثر في عين سعد الدولة فإنه كان يشاهدهم من وراء سرادقه وبين يديه ابن أبي الحصين القاضي وقال له: ما ظننت أن حال بكجور انتهت إلى ما أراه من هذه الأثقال والأموال. فقال له ابن أبي الحصين: إن بكجور وأولاده مماليك وكلما ملكه وملكوه هو لك لا حرج عليك فيما تأخذه منهم ولا حنث في الأيمان التي حلفت بها ومهما كان فيها من وزر وإثم فعليّ دونك. فلما سمع هذا القول أصغى إليه وغدر بهم وقبض على جميع ما كان معهم.

فما كان أسوأ محضر هذا القاضي الذي حسَّن لسعد الدولة تسويل الشيطان وأفتاه

بنقض الأيمان ثم لم يقنع بما زين له من غدره ولبَّس عليه من أمره حتى تكفل له بحمل وزره. وهل أحد حامل وزر غيره أما سمع قول اللّه تعالى في أهل الضلالة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢].

وكان أولاد بكجور كتبوا إلى العزيز بما جرى على والدهم وسألوه مكاتبة سعد الدولة بالإبقاء عليهم.

ذكر ما جرى بين صاحب مصر وسعد الدولة من المراسلات وما اتفق من وفاة سعد الدولة بعقب ذلك

كتب صاحب مصر إليه كتاباً يتوعده فيه ويأمره بالإبقاء عليهم وتسييرهم إلى مصر موفورين ويقول في آخره: فإن خالفت كنت خصمك ووجَّهت العساكر نحوك. وأنفذ الكتاب مع فائق الصقلبي أحد خواصه وسيَّره على نجيب إسراعاً به فوصل فائق إلى سعد الدولة وقد وصل من الرقة إلى ظاهر حلب وأوصل إليه الكتاب فلما وقف عليه جمع وجوه عسكره وقرأه عليهم ثم قال لهم: ما الرأي عندكم. قالوا له: نحن عبيد طاعتك ومهما أمرتنا به كنا عند طاعتك منه. فأمر بإحضار فائق فأهانه وقال له عد إلى صاحبك وقل له: «لستُ ممن يستفزه وعيدك وما بك حاجة إلى تجهيز عسكر إليّ فإنني سائر إليك وخبري يأتيك من الرملة. وقدَّم قطعة من عسكره إلى حمص أمامه وعاد فائق إلى صاحبه فعرَّفه ما سمعه ورآه فأزعجه وأقلقه. وأقام سعد الدولة بظاهر حلب أياماً ليرتب أموره ويتبع العسكر الذي تقدَّمه فعرض له القولنج أشفي منه وعاد إلى البلد متداوياً وأبلّ وهنّي بالسلامة. وعول على العود إلى المعسكر فحضرتَ فراشه في الليلة التي عزم على الركوب في صبيحتها إحدى حظاياه وتبعتها النفس الشهوانية المهلكة فواقعها وسقط عنها وقد جف نصفه وعرفت أخته الصورة فدخلت إليه وهو يجود بنفسه واستدعى الطبيب فأشار بسجر الند والعنبر حوله فأفاق قليلاً فقال له الطبيب: أعطني يدك أيها الأمير لآخُذَ محبسك. فأعطاه اليسري فقال: يا مولانا اليمين. فقال: أيها الطبيب ما تركت لي اليمين يميناً. فكأنه تذكَّر ما فرط من خيانته وندم على نقص العهد ونكثه».

ومضت عليه ثلاث ليال وقضى نحبه بعد أن قلَّد عهده لولده أبي الفضائل ووصَّى إلى لؤلؤ الجراحي به وببقية ولده.

ذكر قيام أبي الفضائل بن سعد الدولة بعد أبيه وما جرى له مع العساكر المصرية

جدَّ لؤلؤ نصب أبي الفضائل في الأمر وأخذ له البيعة على الجند. وتراجعت

العساكر إلى حلب واستأمن منها إلى صاحب مصر وفاء الصقلي وبشارة الأخشيدي ورباح وقوم آخرون فقبلهم وأحسن إليهم وولّى كل منهم بلداً.

وقد كان أبو الحسن المغربي بعد حصوله في المشهد بالكوفة كاتب صاحب مصر وصار بعد المكاتبة إلى بابه فلما توفي سعد الدولة عظّم أمر حلب عنده وكثّر له أموالها وهون عليه حصولها وأشار باصطناع أحد الغلمان وإنفاذه إليها. فقبل منه إشارته وقدّم غلاماً يسمى منجوتكين فخوّله وموّله ورفع قدره ونوّه بذكره وأمر القواد والأكابر بالترجل له وولاه الشام واستكتب له أحمد بن محمد القشوري وسيّره إلى حلب وضمّ إليه أبا الحسن المغربي ليقوم بالأمر والتدبير.

ذكر مسير منجوتكين من مصر إلى حلب ونزوله عليها

لما وصل إلى دمشق تلقاه قوادها وأهلها وعساكر الشام كلها فأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب وقد استعد واحتشد ونزلها في ثلاثين ألف رجل وتحصن أبو الفضائل بن سعد الدولة ولؤلؤ بالبلد. وقد كان لؤلؤ عند معرفته بورود العساكر المصرية كتب إلى بسيل عظيم الروم وذكّره ما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة والمعاقدة وبذل له عن أبي الفضائل ولده الجري على تلك العادة وحمل إليه ألطافاً كثيرة واستنجده وأنفذ إليه ملكوثا السرياني رسولاً. فوصل إليه ملكوثا وهو بإزاء عساكر ملك البلغر مقاتلاً فقبل ما ورد فيه وكتب إلى البرجي صاحبه بأنطاكية يجمع عساكر الروم وقصْد حلب ودفْع المغاربة عنها. فسار البرجي في خمسة آلاف رجل ونزل بجسر الحديد بين أنطاكية وحلب وعرف منجوتكين وأبو الحسن ذلك فجمعا وجوه العسكر وشاوراهم في تدبير الأمر.

ذكر مشورة أنتجت رأياً سديداً كان في أثنائه الظفر بالروم

أشار ذو الرأي والحصافة منهم بالانصراف عن حلب وقصد الروم والابتداء بهم ومناجزتهم لئلا يحصلوا بين عدوين فأجمعوا على ذلك وساروا حتى صار بينهم وبين الروم النهر المعروف بالمقلوب. فلما تراءى الجمعان تراموا بالنشاب وبينهم النهر وليس للفريقين طريق إلى العبور. فبرز من الديلم الذين في جملة منجوتكين شيخ في يديه ترس وثلاث زوبينات ورمى بنفسه إلى الماء والمسلمون ينظرون إليه والروم يرمونه بالنبل والحجارة وهو يسبح قدماً والترس في يده والماء إلى صدره وشاهد المسلمون ذلك وطرحوا نفوسهم في أثره وطرحت العرب خيولهم في النهر وهجم العسكر عن المخاض وحصلوا مع الروم على أرض واحدة ومنجوتكين يمنعهم فلا يمتنعون. وأنزل اللّه تعالى النصر عليهم وولّى الروم أدبارهم بين مقتول ومأسور ومفلول. وأفلت البرجي في عدد قليل وغنمت منهم الغنيمة الكثيرة وجمع من رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس وحملت إلى مصر. وتمّم منجوتكين إلى أنطاكية ونهب رساتيقها وأحرقها وكان

وقت إدراك الغلة فأنفذ لؤلؤ وأحرق ما يقارب حلب منها إضراراً بالعسكر المصري وقاطعاً للعيرة عليهم. وكرَّ منجوتكين راجعاً إلى حلب.

ذكر تدبير لطيف دبره لؤلؤ في صرف العساكر المصرية عن حلب

لما رأى لؤلؤ هزيمة الروم وقوَّة العساكر المصرية وضعفه عن مقاومتهم كاتب أبا الحسن المغربي والقشوري ورغبهما في المال وبذل لهما منه ما استمالهما به وسألهما المشورة على منجوتكين بالانصراف عن حلب في هذا العام والمعاودة في العام القابل لعلة تعذُّر الأقوات والعلوفات. فأجاباه إلى ذلك وخاطبا منجوتكين به فصادف قولهما منه شوقاً إلى دمشق وخفض العيش وضجر من الأسفار والحروب وكتبت الجماعة إلى صاحب مصر بهذه الصورة واستأذناه في الانكفاء فقبل أن يصل الكتاب ويعود الجواب رحلوا عائدين وعرف صاحب مصر ذلك فاستشاط غضباً ووجد أعداء أبي الحسن المغربي طريقاً إلى الطعن عليه فصرفه بصالح بن علي الروذباري.

ذكر ما دبره المتلقب بالعزيز في إمداد العسكر بالميرة وإعادتهم إلى حلب

آلى على نفسه أن يمدّ العسكر بالميرة من غلاَّت مصر فحمل مائة ألف تلِّيس (والتليس قفيزان بالمعدَّل) في البحر إلى طرابلس ومنها على الظهور إلى حصن أفامية. ورجع منجوتكين في السنة الثانية إلى حلب ونزل عليها وصالح بن علي الروذباري المدبر فكان يوقع للغلمان بجراياتهم وقضيم دوابهم إلى أفامية على خمسة وعشرين فرسخاً فيمضون ويقبضونها ويعودون بها وأقاموا ثلاثة عشر شهراً وبنوا الحمامات والخانات والأسواق وأبو الفضائل ولؤلؤ ومن معهما متحصنون بالبلد وتعذَّرت الأقوات عندهم فكان لؤلؤ يبتاع القفيز من الحنطة بثلاثة دنانير ويبيعها على الناس بدينار رفقاً بهم ويفتح الأبواب في الأيام ويخرج من البلد من تمنعه المضرتان عن المقام وأشير على منجوتكين بتتبع من يخرج وقتله ليمتنع الناس من الخروج ليضيق الأقوات عندهم فلم يفعل. وأنفذ لؤلؤ في أثناء هذه الأحوال ملكوثا إلى بسيل عظيم الروم معاوداً لاستنجاده وكان بسيل قد توسط بلاد البلغر فقصده ملكوثا إلى موضعه وأوصل إليه الكتاب وقال له: متى أخذت حلب فُتِحت أنطاكية بعدها وأتعبك التلافي وإذا سرت بنفسك حفظت البلدين جميعاً وسائر الأعمال.

ذكر مسير بسيل إلى الشام لقتال العساكر المصرية وما جرى عليه أمره في ذلك

لما سمع بسيل قول ملكوثا سار نحو حلب وبينه وبينها ثلثمائة فرسخ فقطعها في ستة وعشرين يوماً وقاد الجنائب بأيدي الفرسان وحمل الرجالة على البغال. وكان الزمان

ربيعاً وقد أنفذ منجوتكين وعسكره كراعهم إلى المروج لترعى فيها وقرب هجوم بسيل عليهم من حيث لا يشعرون.

ذكر ما دبره واعتمده لؤلؤ من رعاية حرمة الإسلام وإنذار منجوتكين بخبر هجوم الروم

أرسل إلى منجوتكين يقول له: إن عصمة الإسلام الجامعة لنا تدعوني إلى إنذاركم والنصح لكم وقد أظلّكم بسيل في جيوش الروم فخذوا الحذر لأنفسكم: وجاءت طلائع منجوتكين بمثل الخبر فأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي كان استحدثها ورحل في الحال منهزماً. ووافى بسيل فنزل على باب حلب وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ثم عاد ورحل في اليوم الثالث إلى الشام. وفتح حمص ونهب وسبى ونزل على طرابلس فمنعت جانبها منه فأقام نيفاً وأربعين يوماً فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم.

وانتهى الخبر إلى صاحب مصر فعظم ذلك عليه وأمر فنودي بالنفير فنفر الناس.

ذكر مسير المتلقب بالعزيز من مصر لغزو الروم وما اتفق من موته وجلوس ولده المتلقب بالحاكم في موضعه

خرج من داره مستصحباً جميع عساكره وعدده وأمواله وسار منها مسافة عشرة فراسخ حتى نزل بلبيس وأقام بظاهرها. وعارضته علل كثيرة أيس منها من نفسه فأوصى إلى أرجوان الخادم الذي كان خصيصاً به ومتولياً لأمر داره بولده المتلقب بالحاكم من بعده ثم قضى نحبه. وقام أرجوان بأمر الحاكم ودعا الناس إلى البيعة وحالفهم على الطاعة وأطلق لهم العطاء وذلك في شهر رمضان سنة ٣٨٦ وانكفأ الحاكم إلى قصر أبيه وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة.

وتقدم أبو محمد الحسن بن عمّار وكان شيخ كُتامة وسيدها ويلقب بأمين الدولة وهو أول من لقّب في دولة المغاربة ونفذت أوامره في الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء حتى على جواري القصر هبة وعتقاً واستولى أصحابه وقلّت مبالاتهم وأشاروا عليه بقتل الحاكم فلم يعبأ به استصغاراً لسِنّه واستهانة بأمره. وأرجوان في أثناء ذلك يحرس الحاكم ويلازمه ويمنعه الركوب والظهور من قصره.

واتفق شكر العضدي معه فتعاضدا وصارت كلمتهما واحدة حتى تمَّ لهما ما أراداه.

ذكر ما دبره أرجوان في أمر ابن عمار ومكاتبة منجوتكين والاستنصار به عليه

لما زاد أمر ابن عمار في تمكُّنه كتب أرجوان إلى منجوتكين وشكا إليه ما هم فيه

ودعاه إلى قصد مصر ومقابلة نعمة العزيز عنده وكشف هذه الغمة عن ولده. فتقبل منجوتكين كتابه وركب إلى المسجد الجامع بثياب المصيبة وجمع الناس وذكرهم جميل العزيز إليهم ثم خرج إلى ذكر ما له عليه خاصة من الاصطناع وما يلزمه من خدمة ولده بعده ثم ذكر تغلُّب ابن عمار على الملك وسوء سيرته وما يلقاه أئمتنا المقيمون بمصر من الذلة والهوان وبكى بكاء شديداً رقّت له القلوب وخرَّق ثيابه واقتدى الناس به في البكاء وتخريق الثياب وأجابوه إلى الطاعة وبذل المهج من غير التماس عطاء ولا مؤونة. فشكرهم وعاد إلى داره وأجمع أمره للمسير فسار إلى الرملة.

ذكر ما دبره ابن عمار في تجهيز الجيش وما آل إليه أمر منجوتكين من الهزيمة

لما وصل الخبر إلى ابن عمار بما فعله منجوتكين عظم عليه وقمع وجوه كتامة وأخبرهم بما تجدد وأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم فبذلوا الطاعة والانتهاء إلى ما يأمرهم به. وأحضر أرجوان وشكر العضدي واستمالهما واستحلفهما على المساعدة والمعاضدة فخلفا له اضطراراً. وندب العساكر لقتال منجوتكين وقدَّم أبا تميم سالم بن جعفر عليها وأمدَّه من الأموال والعدد ما أسرف فيه. وكان عيسى بن نسطورس على حاله في الوزارة فبلغه عنه ما أنكره فضرب عنقه.

وسار أبو تميم من مصر ورحل منجوتكين من الرملة بعد أن ملكها والتقيا بعسقلان وتواقعا فأجلت الوقعة عن هزيمة منجوتكين وأصحابه وتتبعوا. وجعل أبو تميم لمن يأتيه بمنجوتكين عشرة آلاف دينار ومائة ثوب فانبثّت العرب في طلبه وأدركه علي بن الجراح فأسره وجاء به إلى أبي تميم فسلمه إليه وقبض المال منه. فحُمل إلى مصر وأبقى ابن عمار عليه واصطنعه وأحسن إليه استمالة للمشارقة بذلك. وسار أبو تميم فنزل طبرية وأنفذ أخاه علياً إلى دمشق فاعتصم أهلها عليه ومنعوه الدخول وكاتب أخاه بعصيانهم واستأذنه في قتالهم فكتب أبو تميم إلى متقدميهم من الأشراف والشيوخ وحذرهم عواقب فعل سفهائهم فلما وصل الكتاب إليهم خافوا وخرجوا إلى علي مذعنين بالطاعة ومنكرين لما فعله أهل الجهالة فلم يعبأ بقولهم وزحف إلى باب البلد فملكه وأحرق وقتل وعاد إلى معسكره. ووافى أبو تميم في غد فأنكر على أخيه ما فعله وتلقاه وجوه الناس فشكوا إليه ما أظلهم فأحسن لقاءهم وأمن جناتهم فسكنوا وعادوا إلى معايشهم.

ذكر ما اعتمده أبو تميم الكتامي من حسن سيرة ملك بها قلوب الرعية

ركب إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة بزي أهل الوقار واجتاز في البلد بسكينة

وبين يديه القُرّاء وقوم يفرّقون الدراهم على أهل المسكنة وصلّى الجمعة وعاد إلى القصر الذي نزله بظاهر دمشق وقد استمال قلوب العامة بما فعله. ثم نظر في الظلامات وأطلق من الحبوس جماعة من أهل الجنايات فازدادوا له حباً واستقرت قدمه واستقام أمره. وعدل من بعد إلى النظر في أمور السواحل فهذّبها وولّى أخاه طرابلس وصرف عنها جيش بن الصمصامة وكان جيش هذا من شيوخ كُتَّامة أيضاً إلا أنه كانت بينه وبين أبي تميم عداوة. فلما عزله عن طرابلس مضى إلى مصر وجهاً واحداً واجتمع مع أرجوان سراً ورمى نفسه عليه فقبله وبذل له المعاونة. ورأى أرجوان الفرصة قد أمكنت ببعد كتامة عن مصر إلا العدد القليل منهم فقرر مع الأتراك المشارقة الفتك بهم وأحكم الأمر في الاستيثاق. وأحسَّ ابن عمار بذلك فعمل على الفتك بأرجوان وسبقه إلى ما يحاوله منه.

ذكر ما همَّ به ابن عمار من الفتك بأرجوان وشكر وما دبراه في التحرُّز منه حتى سلما منه وتورَّط هو

رتب ابن عمار جماعة في دهليزه ووافقهم على الإيقاع بأرجوان وشكر إذا دخلا داره. وكان لأرجوان عيون على ابن عمار فصاروا إليه وأخبروه بما قد رتبه فاجتمع أرجوان وشكر وتفاوضا الرأي في التحرُّز مما بلغهما وقررا بينهما أن يركبا عند ركوبهما جماعة من الغلمان يتبعوهما فإن أحسَّا على باب ابن عمار بما يريبهما رجعا القهقهرى وفي ظهورهما من يمنع عنهما. فرتبا ذلك وتوجها إلى دار ابن عمار فلما قربا من الباب بانت لهما شواهد الشر وما كانا أخبرا به فكرّا راكضاً ومنع عنهما الغلمان الذين كانوا وراءهما ودخلا قصر الحاكم باكيين صارخين وثارت الفتنة. واجتمع المشارقة وعبيد الشرى على باب القصر وركب الحسن بن عمار في كُتامة ومن انضاف إليهم من القبائل إلى الصحراء وفتح أرجوان الخزائن ففرق الأموال وحثَّ الرجال. وبرز ثلاثة من وجوه الأتراك في خمسمائة فارس لقتالهم فواقعوهم وكسروهم وهرب ابن عمار واستتر عند بعض العامة.

ذكر ما دبر به أرجوان أمر الملك

لما تمَّ له الظفر فتح باب القصر وأخرج الحاكم وأجلسه وأخذ له بيعة مجدّدة على الجند وأمن وجوه كُتامة وقوادها فحضروا وأعطوا أيديهم بالطاعة ومهد الأمور في يومه وليلته. وكتب الملطفات إلى الأشراف وإلى وجوه العامة بدمشق بالإيقاع بأبي تميم ونهبه والي المشارقة بمعاونتهم عليه.

ذكر ما تم على أبي تميم من أهل دمشق قلة حزمه وضعف رأيه

كان أبو تميم مع سياسته مستهتراً باللذات ووصلت الملطَّفات وأبو تميم مشغول بلهوه فلم يشعر إلا بهجوم المشارقة والعامة على قصره فخرج هارباً على ظهر فرسه

ونهبوا خزائنه وأوقعوا بمن كان فيه من كتامة وعادت الفتنة بدمشق واستولى الأحداث. وكان فهد بن إبراهيم النصراني المكنى بأبي العلاء يكتب لأرجوان من قبل فلما صار الأمر إليه استوزره. ولم يزل أرجوان يتلطف للحسن بن عمار حتى أخرجه من استتاره وأعاده إلى داره وأجراه على رسمه في إقطاعاته واشترط عليه إغلاق بابه واستحلفه على لزوم الطريقة المستقيمة.

وكان أهل صور قد عصوا وأمَّروا عليهم رجلاً ملاحاً يعرف بالعلاَّقة وكان المفرّج ابن دغفل بن الجراح قد نزل على الرملة وعاث في البلاد وانضاف إلى هذين الحادثين نزول الدوقس صاحب الروم في عسكر كثير على حصن أفامية، فاصطنع أرجوان جيش بن محمد بن الصمصامة وقدَّمه وجهز معه عسكراً وسيَّره إلى دمشق وبسط يده في الأموال ونفذ أمره في الأعمال.

ذكر ما جرى عليه أمر جيش بن الصمصامة في هذا الوجه إلى أن توفي

سار جيش ونزل على الرملة وعليها وحيد الهلالي والياً فتلقاه طائعاً وصادف أبا تميم بها فقبض عليه قبضاً جميلاً. وندب أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر إلى صور بعد أن كان أنفذ إليها مراكب في البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساكر بها براً وبحراً. وضعف أهل صور عن القتال وأخِذ العلاقة فحمل إلى مصر فسلخ وصلِب بها وأقام ابن حمدان بصور والياً عليها.

وسار جيش لقصد المفرِّج بن دغفل بن الجراح فهرب من بين يديه وأتبعه حتى كاد يدركه فضاقت الأرض على ابن الجراح وعاذ بالصفح وأنفذ إليه عجائز نسائه يطلب الأمان فكف جيش عنه وأمنه واستحلفه على ما قرره معه وعاد سائراً إلى عسكر الروم النازل على حصن أفامية. فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها في أشرافها ووجوه أحداثها مذعنين له بالانقياد راغبين إليه في استصحابهم للجهاد فجزاهم خيراً.

ذكر مكيدة بدأ جيش بها في هذه النوبة مع أحداث دمشق إلى أن أمكنته الفرصة منهم في الكرَّة الثانية

أقبل على رؤساء الأحداث وبذل لهم الجميل ونادى في البلد برفع المؤن وإباحة دم كل مغربي يتعرض لفساد فاجتمعت الرعية وشكروه وسألوه دخول البلد والنزول بينهم فلم يفعل وأقام ثلاثة أيام وسار بعد أن خلع على رؤساء الأحداث ووصلهم ونزل بحمص واجتمعت عساكر الشام وتوجه إلى حصن أفامية. فوجد أهلها وقد اشتد بهم الحصار فنزل بإزاء عسكر الروم وبينه وبينهم النهر المعروف بالمقلوب ويعرف

بالعاصي. ثم التقى الفريقان من بعد وتنازعا الحرب وكان المسلمون يومئذ في عشرة آلاف من الطوائف وألفِ فارس من بني كلاب فحملت الروم على المسلمين فزحزحوهم عن مصافهم وانهزمت الميمنة والميسرة واستولى الروم على كراعهم وعطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه وثبت بشارة الأخشيدي في خمسمائة فارس، ورأى من في حصن أفامية من المسلمين ما أصاب إخوانهم فأيسوا من نفوسهم وابتهلوا إلى اللّٰه تعالى يسألونه الرحمة فاستجاب لهم.

ذكر ما أنزل اللّٰه تعالى على المسلمين من النصر فقتِل زعيم الروم على يد أحدهم

كان الدوقس قد وقف على رابية وبين يديه ولد له وعشرة غلمة وهو يشاهد ظفر أصحابه وأخذهم للغنائم فقصده كردي يعرف بأحمد بن الضحاك السليل على فرس جواد وبيده اليمنى من خشت فظنه الدوقس مستأمناً إليه أو مستجيراً فلم يحفل به فلما دنا منه حمل عليه فرفع الدوقس يده متقياً وضربه الكردي بالخشت فأصاب خللاً في الدرع فخرقه ونفذ في أضلاعه وسقط إلى الأرض ميتاً. وصاح المسلمون «إن عدو اللّٰه قد قتل» ونزل النصر فانهزمت الروم وتراجع المسلمون ونزل من كان في الحصن وقتل من الروم مقتلة عظيمة. وباتوا غانمين مستبشرين بنعمة من اللّٰه وفضل وإن اللّٰه لا يضيع أجر المحسنين.

ثم سار جيش بن الصمصامة إلى باب أنطاكية فسبى وأحرق وانصرف عائداً إلى دمشق وقد عظمت هيبته في النفوس.

ذكر تمام هيبته في المكيدة التي كان بدأ بها جيش في تسكين إحداث دمشق حتى ظفر بهم

لما عاد إلى دمشق استقبله أهلها مهنئين داعين فتلقاهم بالبشاشة والبشر وزادهم من الكرامة والبر وخلع على وجوه الأحداث وحملهم على الخيل والبغال ووهب لهم الجواري والغلمان. وعسكر بظاهر البلد وسألوه الدخول والجواز في الأسواق وقد كانوا زينوها إظهاراً للسرور فلم يفعل وقال: هذه عساكر وإذا دخلت لم آمن أن تثقل وطأتهم. والتمس منهم أن يخلوا قرية على باب دمشق ليكون مقامه فيها فأجابوه إلى ذلك وتوفر على استعمال العدل وتخفيف الثقل فاستخص رؤساء الأحداث واستحجب جماعة منهم. وكان يعمل لهم سماطاً يحضرونه في كل يوم للأكل عنده ويبالغ في تأنيسهم فلما اطمأنوا ومضت مدة على ذلك أحضر قواده وتقدم بأن يكونوا على أهبة لما يريد استخدامهم فيه وتوقُّع ما يأمرهم به في رقاع مختومة والعمل بما فيها. ثم كتب رقاعاً بقسمة البلد وعيَّن لكل من قواده الموضع الذي يدخل منه ويفتك فيها وختمها

وأعدَّها ثم رتب في حمام داره قوماً من المغاربة وتقدم إلى أحد خواصه بأن يراعي حضور رؤساء الأحداث طعامه فإذا أكلوا وقاموا إلى المجلس الذي جرت عادتهم بغسل أيديهم فيه أغلق بابه عليهم وأمر المتكمنين في الحمام بالخروج على أصحابهم والإيقاع بهم. وحضر القوم على رسمهم وبادر جيش بإنفاذ الرقاع إلى قواده وجلس معهم للأكل فلما فرغ وفرغوا نهض إلى حجرته ونهضوا إلى المجلس فأغلق الفراش عليهم بابه وخرج من في الحمام فأوقعوا بأصحابهم وقتلوهم بأسرهم. وركب القواد ودخلوا البلد فقتلوا قتلاً ذريعاً وثلموا السور من كل جانب ونزلت المغاربة دُور دمشق وركب جيش فدخل دمشق وطافها واستغاث الناس به ولاذوا بعفوه فكفّ عنهم واستدعى الأشراف استدعاء حسن ظنهم فيه فلما حضروا أخرج رؤساء الأحداث وأمر بضرب رقابهم بين أيديهم ثم صلب كل واحد منهم في محلته حتى إذا فرغ من ذلك قبض على الأشراف وحملهم إلى مصر واستأصل أموالهم ونعمهم ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار.

ثم جاءه أمر اللّه الذي لا يُغلب وقضاؤه الذي لا يوارب ولاقتة المنية التي تجعل العزيز ذليلاً والكثير قليلاً فما أغنت عنه عندها قدرة ولا حيلة ولا نفعته معها فدية ولا وسيلة. وكان سبب منيته علة باطنة حدثت به.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تنوعت الأسباب والداء واحد

وورد الخبر إلى مصر بموته فقلد محمد ولده مكانه.

واستقامت الأمور على يد أرجوان وجرت بينه وبين بسيل عظيم الروم مراسلات وملاطفات انتهت إلى تقرير الهدنة مدَّة عشر سنين وصلحت الحال مع العرب.

وكان يواصل النظر في قصر الحاكم نهاره أجمع إلا ساعة في وقت الظهر ثم يعود إلى منتصف الليل ويوفي السياسة حقها وفهد بن إبراهيم بين يديه ينفذ الأمور أحسن تنفيذ فلم يزل على هذه الوتيرة إلى أن قتل.

ذكر السبب في قتل أرجوان وشرح الحال في ذلك

كان أرجوان يأخذ الحاكم بتهذيب الأخلاق وينصحه (والنصح مرّ المذاق) ويمنعه كثرة الركوب لفرط الإشفاق ويصده عن التبذير في غير موضع الاستحقاق فصارت له هذه الأحوال ذنوباً ثم لأن لكل امرئ أجلاً مكتوباً. وكان مع الحاكم خادم يعرف بريدان الصقلبي قد خصَّ به فأنس في شكوى أرجوان إليه فزاده ريدان إغراء به وقال: إنه يريد أن يجعل نفسه في موضع كافور الأخشيدي ويجريك مجرى ابن الأخشيد في الحجر عليك. ولم يزل بالحاكم حتى حمله على قتل أرجوان واستقر بينهما أن يستدعي أرجوان في وقت الظهر بعد انصرافه إلى داره وأن يؤمَر الناس بالركوب إلى الصيد ليتفرقوا فإذا حضر أمر بقتله ففعل ذلك

وقال الحاكم لريدان إذا حضر أرجوان وتبعني إلى البستان فاتبعهُ فإذا التفتُّ إليك فاغتله بالسكين: فبينما هما في الحديث إذ دخل أرجوان فقال: يا مولاي الحر شديد والبزاة لا تصيد في مثله. فقال: صدقت ولكنا ندخل البستان ونطوف ساعة ونخرج. فقام ومشى أرجوان خلفه وريدان بعده فأهوى ريدان عند التفات الحاكم إليه بالسكين إلى ظهر أرجوان فاطلعها من صدره فقال أرجوان: يا مولاي غدرت. وصاح الحاكم بالخدم وتكاثروا وأجهزوا عليه وخرج الخدم الكبار فردوا الجنائب وبغال الموكب والجوارح. فسألهم شكر العضدي عن الحال فلم يجيبوه فجاء الناس أمر لم يفهموه وعاد شكر والموكب وشهر الجند سيوفهم وظنوا حيلة تمت لابن عمار على الحاكم وأحاطوا بالقصر وعظم الأمر واجتمع القواد والوجوه. فلما رأى الحاكم زيادة الاحتياط ظهر من منظرة على أعلى الباب وسلم على الناس فترجلوا له وخدموه وأمر بفتح الباب وأنفذ على أيدي أصحاب الرسائل رقاعاً بخط يده إلى شكر وأكابر الأتراك والقواد مضمونها: إني أنكرت من أرجوان أموراً أوجبت قتله وقتلته فالزموا الطاعة وحافظوا على ما في أعناقكم من الإيمان. فلما وقفوا عليها أذعنوا وسلموا واستدعى الحسين بن جوهر وكان من شيوخ القواد فأمره بصرف الناس فصرفهم وعادوا إلى دورهم والنفوس خائفة وجلة من فتنة تثور بين المشارقة والمغاربة. ثم جلس الحاكم بعد عشاء الآخِرة واستدعى الحسين بن جوهر وفهد بن إبراهيم وتقدم بإحضار الكتَّاب فحضروا وأوصلهم إليه وقال لهم: إن فهداً كان كاتب أرجوان وهذا اليوم وزيري فاسمعوا له وأطيعوا. وقال لفهد: هؤلاء الكتَّاب خدمي فاعرف حقوقهم وأحسن إليهم. وأمر بأن يكتب إلى سائر وُلاة البلاد بقتل أرجوان وتسكيتهم في أعمالهم ونفِّذت الكتب وسكن الناس وأمن ما خيف من الفتنة. وكان ذلك في سنة ٣٨٩.

ومضى أرجوان كأنه لم يكن ولو علم أن هلاكه على يد الحاكم لأقصر عن ذلك الاجتهاد في حفظه. ورب حافظ دواء داؤهُ فيه وحامل سلاح حتفه به وضنين بذُخرٍ وبالُه منه ومع الأحوال كلها فالإفراط في منع الملوك عن شهواتهم جناية والإقصار عما يلزم من نصحهم خيانة لكن بشرط الاقتصاد وقد قيل: كثرة المراقبة نفاق وكثرة المخالفة شقاق. وكم من شفيق على الملوك قد هلك بفرط شفقته وحبيب صار بغيضاً بكثرة نصحه. ولم يبعد العهد بما شوهد من فعل الملك أبي كاليجار بخادمه المتلقب بالمؤيد وقصته مناسبة لقصة أرجوان.

وما أحسن الرواية التي تُروى عن المأمون رضوان اللّه عليه حين سأل جلساء عن أرفه الناس عيشاً فقال كل واحد منهم قولاً لم يعجبه فقال المأمون أرفه الناس عيشاً رجل أتاه اللّه كفاية لا يعرفنا ولا نعرفه. وقال بعض العقلاء: مثل السلطان كمثل النار فلا تقرب منها قرباً تباشر فيه لهبها ولا تبعد عنها بعداً تفقد معه ضوءها. وجملة القول

إن القرب من الملوك عز مع تعب والبعد منهم ذلٌّ مع راحة والعيش في الخمول وتختلف الطباع في هذا الاختيار وكل امرئ ميسَّر لما خلق له.

ذكر ما جرت عليه الأمور بعد قتل أرجوان

استوزر فهد بن إبراهيم وقدم الحسين بن جوهر ولقَّبه بقائد القواد ثم استمر الفتك منه بالناس فقتل في المدة اليسيرة العدد الكثير.

واستحضر بعد أربعة أشهر الحسن بن عمار من داره فلقيه بالإحسان وأعطاه يده بالأمان وانصرف مسروراً إلى داره وركب الناس إليه يهنئونه بالعفو عنه ثم قتله بعد أسبوع. ثم قتل فهد بن إبراهيم بسعاية كاتبين من كتَّاب الدواوين به وولاَّهما الأعمال ثم قتلهما ثم قتل الحسين بن جوهر ولم يكن في شرح أحوال قتلهما ما يستفاد منه تجربة لأنه اختباط واختلاط. ثم قتل علياً ومحمداً ابني المغربي وأمر بإحضار أبي القاسم الحسين بن علي صاحب الشعر والرسائل الذي وزر ببغداد وأخويه فظفر بأخويه فقتلا واستتر الوزير أبو القاسم وما زال يعمل الحيلة حتى هرب مع بعض البادية وحصل عند الحسَّان بن المفرج بن الجراح واستجار به وأجاره.

وقد كان في نفس الحاكم ما جرى على عساكر مصر بباب حلب فعول على يارختكين العزيزي للخروج إلى الشام وقدمه وكثر أمواله ونعمه وأمر وجوه القواد بتبجيله والترجل في موكبه. وكان في جملة من أمر بخدمته والترجل له علي ومحمود ابنا المفرج وجاءا إلى أبيهما وعرَّفاه ما أمرا به من الترجل ليارختكين والمشي بين يديه وما لقياه من ذلك من المشقة وأن نفوسهما تأبى الصبر على هذه المذلة ثم حذَّراه يارختكين وتوجهه وقالا: إنك لا تأمن أن ينتهز فيك فرصة ويستفحل أمره فينبوا بك وبنا المقام في هذه الديار فدبر أمرك في فسحة من رأيك وعاجله في الجفار قبل وصوله إلى الرملة واعتضاده بعساكرها. وكان يارختكين سار في عدة قليلة على أن يجمع عساكر الشام ويسير بها إلى حلب وصحبه أهله وماله وعدد كثير من التجار فلما توسّط الجفار أشار أبو القاسم المغربي على حسان بن المفرج بلقائه وانتهاز الفرصة فيه فسار حسان إلى أبيه وسهل عليهما الأمر فاجتمع رأيهما على ذلك. وجمعا العرب ورصدا وصول يارختكين إلى غزَّة وعرف يارختكين الخبر فجمع ذي الرأي من أصحابه وشاورهم.

ذكر رأيين كل منهما سديد لو ساعد القدر فيه

قال أحدهم له: إنك من الرملة على عشرة فراسخ وبها خمسة آلاف رجل وعندك خيول مضمَّرة ولو أسريت ليلاً لصبحت الرملة وحصلت في قصرك آمناً وعرفت العرب خبرك فهابوك وراقبوك وسرنا بعدك على طمأنينة. فاعترض آخر وقال: هذا المرء اليوم

في ابتداء أمره فإذا شاع بين الناس أنه أشفق وهرب لم تبق له هيبة في النفوس ولكن الرأي أن يستدعي قائداً من قواد الرملة في ألف فارس ليلقانا بعسقلان. فاستقر الأمر على ذلك وكتب يارختكين إلى قائد يعرف بابن سرحان يستدعيه وأنفذ الكتاب مع رسول قدر لوصوله وخروج ابن سرحان ثلاثة أيام. فاتفق أن الرسول أخذ في الطريق قبل وصوله إلى ابن سرحان.

ذكر عجلة ضاع الحزم بها

لما مضى يومان من الثلاثة التي قدَّرها يارختكين سار على طريق الساحل وهو لا يشك في تعجيل ابن سرحان إليه. وكان حسان بن المفرج قد عرف خبره فبث الخيل من كل جانب فوقعت على يارختكين وجرت بين الفريقين حرب شديدة كانت الغلبة فيها للعرب وأسر يارختكين وأخذ ولده وحرمه وأموال التجار وجعل أكثر ذلك في يد حسان وعادت العرب إلى الرملة وشنوا الغارة على رساتيقها وخرج العسكر الذي بها فقاتلوهم قتالاً همت العرب معه بالانصراف.

ذكر رأي أشار ابن المغربي في تلك الحال

قال لهم الوزير أبو القاسم بن المغربي: إن رحلتم على هذه الصورة وقع الطمع فيكم وإن صبرتم حتى تفتحوا البلد خافكم الحاكم وملكتم الشام والرأي أن تبادروا وتنادوا في السواد وتسمعوا الشراة في الجبال بإباحة النهب والغنيمة. فقبلوا منه وحشروا فنادوا فوافى خلق كثير وزحفوا إلى البلد وملكوه وأساؤوا الملكة بالفتك والهتك. وتأدى الخبر إلى الحاكم فانزعج وكتب إلى المفرج بن دغفل كتاباً عاتبه فيه وحذره سوء العاقبة وطالبه بانتزاع يارختكين من يد حسان وحمله إلى مصر ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار.

ذكر رأي لابن المغربي قصد به تأكيد الوحشة بين حسان وصاحب مصر

قال لحسان: إن والدك سيركب إليك ولا يبرح من عندك إلا بيارختكين ومتى أفرجتم عنه وعاد إلى الحاكم رده إليكم في العساكر التي لا قِبَل لكم بها. فلما سمع حسان ذلك (وكان في رأسه نشوة) أحضر يارختكين بقيوده فضرب عنقه صبراً وأنفذ رأسه إلى المفرج. فشق عليه ما جرى وعلم فوت الأمر فأمسك.

ثم اجتمع الوزير أبو القاسم مع المفرج وأولاده وقال لهم: قد كشفتم القناع في مباينة الحاكم ولم يبق من بعد للصلح موضع. وأشار عليهم بمراسلة أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي واستجذابه به إليهم ومبايعته على الإمامة فإنه لا مغمز في نسبه وسهل الخطب عليهم في ذلك.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي الفتوح العلوي

كان أبو الفتوح بمكة أميراً فمضى إليه ابن المغربي وأطمعه في الأمر فطمع فيه وجمع بني حسن وشاورهم فصبوا إلى العز وأعطوه أيْديهم بالبيعة ثم عاد الناس إليه وتلقب بالراشد بالله وصعد المنبر وخطب لنفسه. واتفق أن إنساناً موسراً توفي تلك السنة بجدة ووصى لأبي الفتوح من تركته بمال لكي يسلم الباقي لورثته فمد يده إلى التركة فاستوعبها بمشورة ابن المغربي عليه بذلك وسار لاحقاً بآل الجراح فلما قرب من الرملة تلقوه وقبلوا الأرض بين يديه وسلموا عليه بإمرة المؤمنين ونزل الرملة. ونادى في الناس بأمان الخائفين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونسي نفسه في أخذ تركة التاجر بجدَّة إلا أن الناس تراجعوا إلى معايشهم وظهروا من استتارهم وركب في يوم الجمعة والمفرج وأولاده وسائر أمراء طي مشاة بين يديه حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة الخطيب وأمره بصعود المنبر وأسرَّ إليه بما لا يبدأ به فصعد وقد طالت الأعناق فحمد اللّه وأثنى عليه وقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ١-٦].

ولما فرغ أبو الفتوح من الصلاة عاد إلى دار الإمارة.

ونرى أن أبا الفتوح اتبع في هذا الاستشهاد بهذه الآيات محمد بن عبد اللّه بن حسن فيما جرى بين المنصور باللّه وبينه من المكاتبات فإنه استشهد بها. ويتضمن كتاب الكامل الذي صنفه أبو العباس المبرد ذكرها وقد نظر المنصور فيها ولولا شرط الاختصار لذكرناها فإنها عجيبة جداً وقد قارعا على الأحساب «والنبع يقرع بعضه بعضاً». وما أحسن أدب القائل حين دخل إلى المنصور باللّه بعد قتل إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن حسن أخي محمد والناس ينالون من إبراهيم والمنصور يكره كثيراً من ذلك فقال: أجرك اللّه يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما استحله من قطيعتك أو ما هذا معناه فتهلل وجه المنصور سروراً بصوابه وقرَّبه إليه من دون أصحابه. واللّه تعالى يقول: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ذكر ما دبره صاحب مصر عند وصول الخبر إليه

لما تأدى إلى الحاكم شرح ما جرى عظم عليه وكبر لديه وكتب إلى حسان

ملطّفات وبذل له بذولاً كثيرة وإلى المفرج بمثل ذلك واستمال آل الجراح جميعهم وحمل إلى علي ومحمود ابني المفرج أموالاً جزيلة حتى فلّهما عن ذلك الجمع وجعلهما في حيّزه مع جماعة من العرب. وبدأ أمر الحاكم يقوى وأمر أبي الفتوح يضعف وبان له تغيُّر آل الجراح عليه وانضاف إلى ذلك ورود الخبر بنزول ابن عمه على ملكه طالباً موضعه.

ذكر تحاسد بين الأهل عاد بوبال

كان لأبي الفتوح ضد من بني عمه يعرف بابن أبي الطيب يخاطب بالإمرة وبينهما تحاسد وتنازع فكتب إليه الحاكم في هذا الوقت وقلده الحرمين وأنفذ له ولشيوخ بني حسن مالاً وثياباً. فسارع مع من انضوى إليه من بني عمه إلى مكة وبها صاحب أبي الفتوح فنازله وأسرعت النجب إلى أبي الفتوح بالخبر فازداد قلقاً وخاف خروج الحرمين من يده.

وكان حسان قد أنفذ والدته في أثناء هذه الخطوب إلى مصر بتذكرة تتضمن أغراضه وسأل في جملتها أن تُهدي له جارية من إماء القصر فأجابه الحاكم إلى جميع ما سأل من إقطاع وتقرير وأمضاه وكتب له أماناً بخط يده وأهدى له جارية جهزها بما بلغ قيمته مالاً عظيماً. فعادت والدة حسان إليه بالرغائب له ولأبيه فسر بذلك وأظهر طاعة الحاكم ولبس خلعه.

وعرف أبو الفتوح الحال فأيس معها من نفسه فركب إلى المفرج مستجيراً به وقال: إنما فارقت نعمتي وأبديت للحاكم صفحتي سكوناً إلى ذمامك وأنا الآن خائف من غدر حسان فأبلغني مأمني وسيرني إلى وطني فحفظ المفرج ذمامه وضم إليه من أجازه وادي القرى فتلقاه بنو حسن وأصحابه ومضوا إلى مكة واستقامت أموره بها وكاتب الحاكم واعتذر إليه فقبل عذره. وأما الوزير أبو القاسم فإنه استجار بالمفرج حتى سيره إلى العراق.

وصبر الحاكم مدة يسيرة ثم جرد العساكر مع علي بن جعفر بن فلاح أخي أبي تميم ولقبه قطب الدولة وسار في عشرين ألف وتلقاه علي ومحمود ابنا المفرج طائعين. وكان الحاكم قد خدع كاتباً للمفرج يعرف بابن المدبر وبذل له بذولاً على قتل المفرج بالسم فتوصل الكاتب إلى أن سقاه سماً فمات وهرب ابن المدبر إلى مصر ووفى له الحاكم بما وعده ثم قتله من بعد.

وكذلك عاقبة من خان مولاه وباع دينه بدنياه فهو يخسرهما جميعاً ويحتقب إثماً عظيماً.

واضمحل أمر حسان وأخذت معاقله وصار طريداً شريداً مدة حتى ضاقت عليه

أرضه فأنفذ والدته والجارية إلى مصر لائذاً بالأمان واستشفع إلى الحاكم بأخته فشفعها فيه وأعطى والدته خاتمهُ وثياب صوف كانت على بدنه وعمامة على رأسه والحمار الذي يركبه فعادت الجارية بجميع ذلك إليه وأقامت والدته. فبادر حسان إلى الورود ودخل البلد على ذلك الحمار بتلك الثياب فعفا عنه وأعطاه أرضه واصطنعه وأقطعه وأعاده إلى الشام ولم يتعرض حسان بعدها بفساد إلى أن قتل الحاكم. ونعود إلى سياقة التاريخ.

وفي هذه السنة المقدم ذكرها وردت كتب أهل الرحبة والرقة إلى الحضرة باستدعاء من يسلمون إليه البلاد فندب خمارتكين الحمصي للمسير.

ذكر ما جرى عليه أمره في ذلك

سار إلى الرحبة وملكها وأقام بها أياماً ثم سار إلى الرقة وبها سعد السعديّ فاعتصم بالرافقة وجرت بينه وبين خمارتكين وقعات ولم يتم فتحها وعاد إلى الرحبة. وقد بلغه اضطراب الأمور ببغداد فرجع واعترضه قوم من العرب في رجوعه فأخذوه أسيراً في أيديهم حتى افتدى منهم بمال.

وفيها خرج أبو جعفر الحجاج بن هرمز إلى أعمال الموصل مع عدد كثير من العسكر وحصل بها. واجتمعت بنو عقيل وزعيمهم يومئذ أبو الذؤاد محمد بن المسيب على حربه فجرت بينهما وقائع ظهر من أبي جعفر فيها شجاعة سار ذكره بها حتى أنه كان يضع كرسياً في وسط المصاف ويجلس عليه والحرب قائمة بين يديه وتمكنت له في قلوب العرب هيبة بذلك. واستنجد من الحضرة فأنجد بالوزير أبي القاسم علي بن أحمد واستقر الصلح مع العرب على المناصفة فيما قرُب من أعمال الموصل وبقي أبو جعفر هناك إلى أن توفي محمد بن المسيب وعاد بنو عقيل فأخذوا منه البلد.

وفيها وصل الأشراف والقضاة والشهود إلى حضرة القادر بالله رضوان الله عليه وسمعوا يمينه لبهاء الدولة بالوفاء وخلوص النية وتقليده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة وذلك بعد أن حلف له بهاء الدولة على صدق الطاعة والقيام بشروط البيعة.

ودخلت سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة

وفيها خلع على الوزير أبي القاسم علي بن أحمد وندب إلى الخروج إلى الموصل وقتال بني عقيل.

ذكر السبب في ذلك وما انتهى إليه الأمر فيه

كانت الحال بين أبي القاسم وبين أبي الحسن المعلم قد بدأت في الفساد ودخلت بينهما بلاغات حلت عُرى الوداد وكان أبو القاسم يجري نفسه معه مجرى الكاتب حتى أنه نزل يوماً معه في زبزبه فجلس على الكهوار بين يديه والناس يشاهدونه ويتعجبون

منه. ووردت كتب أبي جعفر الحجاج باجتماع بني عقيل عليه فأشار أبو الحسن على بهاء الدولة بإخراج أبي القاسم.

فتقدم إليه بذلك وجرّد معه عدداً كثيراً من طوائف العسكر وسار بعد أن ركب إليه بهاء الدولة وودعه. فوصل إلى الموصل وخيَّم بظاهرها واجتمع مع أبي جعفر وانصرف بنو عقيل وبدأ بإحكام قواعد الأمور فلم يمهله أبو الحسن المعلم حتى كاتب أبا جعفر بالقبض عليه.

ذكر رأي سديد لأبي جعفر نظر فيه للعاقبة

علم أبو جعفر أنه إن فعل ذلك اضطرب الأمور وطمعت العرب ولم يمكنه الثبات فتوقف وراجع أبا الحسن وأعلمه وجه الغلط فيما رآه. واتصل الخبر بأبي القاسم بما يجري من الخوض في بابه من عيون له على بهاء الدولة وأبي الحسن وخواصهما وعول على مهادنة بني عقيل وأخذ رهائنهم وعمل على الانكفاء إلى بغداد ولما رأى أبو الحسن أن أبا جعفر قد توقف عما كاتبه فيه فأخرج أبا الفتح محمد بن الحسن الحاجب إليه ليلزمه إمضاء العزيمة فيما أمره به.

فحكى أبو نصر محمد بن علي بن سياجيك وكان كاتب أبي القاسم يومئذ قال: لما وصل الخبر إلينا بما تقرَّر من خروج أبي الفتح محمد بن الحسن على القاعدة المذكورة ثم تلاه كتاب من تكريت بوصوله إليها خاف أبو القاسم وأشار عليه من يثق به بالهرب ففرقت نفسه عنه وعزم على الانكفاء إلى بغداد ولم يأمن أن يظهر فيمنعه أبو جعفر.

ذكر ما رتبه أبو القاسم من الحيلة حتى تم له الانحدار

راسل أبا جعفر وقال له: قد توقف محمد بن المسيب عن تفرقة العرب من حوله وتسليم ما ووقف على تسليمه من النواحي وقال: «لست فاعلاً ذلك إلا بعد أن تنحدر أنت ومن معك من العسكر وآمن انتقاض ما تقرر» وقد عزمت على أن أنتقل بمعسكري من موضعه وأظهر الانحدار فليكن أدعى إلى سكونه. فاستصاب أبو جعفر رأيه وأمر أبا القاسم بالرحيل ليلاً وأصبح على عشرة فراسخ من الموصل. فراسله أبو جعفر وعاتبه على فعله فرد عليه جواباً معللاً بالاعتذار وقال: إن الأولياء طالبوني بالانحدار ولم يمكن مخالفتهم. ووصل إلى الحديثة وقد نزلها أبو الفتح الحاجب فخرج وتلقَّى الوزير وخدمه وأعطاه كتاباً من بهاء الدولة مضمونه: إن الأمور قد وقفت ببعدك وخيل لنا أن أبا جعفر منعك من العود ولم يقف عند ما تدبره به فأنفذنا أبا الفتح ليواقف أبا جعفر على طاعتك والرضاء بما تقرره ليتعجل عودك. فوقف أبو القاسم على الكتاب فلما نزل مخيَّمهُ استدعى أبا الفتح وراوضه على أن يصدقه عن باطن الأمر وبذل له ثلاثة آلاف

دينار فحلف له أبو الفتح على تقابل الظاهر والباطن فيما أوصله إليه فقال أبو نصر: فاستدعاني الوزير بعد خروج أبي الفتح من عنده وقال لي: قد ورد هذا الكتاب بما قد علمته وقد كتب أصدقاؤنا ونصحاؤنا بما عرفته فما الرأي؟ قلت له: ليس إلاً مراسلة أبي الدؤاد فإنه نازل بإزائنا وأخذ الذمام منه والعبور إليه والمقام عنده ثم تدبير الأمر مع الأمن. فقال: لعمري إن هذا هو الرأي الذي توجبه الخبرة في حراسة النفس ولكني أستقبح ذلك وسأدخل بغداد متوكلاً على الله تعالى. ثم ورد الخبر في أعقاب ذلك بالقبض على أبي الحسن المعلم وقتله فدخلت إلى الوزير فأقرأني الكتاب الوارد بذكر ذلك وعنده من يحتشمه فأظهرتُ وجوماً. فلما خلا عدت إليه وفي وجهي آثار الاستبشار ووجدته مفكراً مطرقاً فلما رآني قال: أظنك قد سررت بما ورد. قلت: نعم. قال: وما ذاك مما يسرّ لأن ملكاً قرب رجلاً كما قرب بهاء الدولة أبا الحسن وفوَّض إليه التفويض الذي رأيته ثم أسلمه للقتل بمرأى عينه لحقيق بأن تخاف ملابسته.

وفيها ورد أبو العلاء عبيد الله بن الفضل قادماً من الأهواز وكان أبو الحسن المعلم قد مد عينه إلى حاله وماله واستدعاه للقبض عليه.

ذكر تدبير جيد سلم به أبو العلاء عبيد الله بن الفضل

لما أحس أبو العلاء بما همَّ به أبو الحسن ملأ عينه بالتحف والملاطفات وعمل الدعوات المترادفات وسلك معه سبيل التذلل والمخادعة حتى اندفعت عنه النكبة وتجدد من قتل المعلم ما كفى به أمره.

وفيها أفرج عن أبي الحسن محمد بن عمر العلوي.

وفيها قبض على أبي الحسن المعلم وقتل.

شرح حال أبي الحسن المعلم في القبض عليه وقتله

كان قد استولى على الأمور الاستيلاء الذي تقدم ذكره ووتر القريب والبعيد وخنق أبا علي بن شرف الدولة بيده وأفسد نيات وجوه العسكر والرعية وفعل الأفاعيل المنكرة وأملى له حتى امتلأت صحيفته. فشغب الجند في هذا الوقت وبرزوا إلى ظاهر البلد وراسلوا بهاء الدولة بالشكوى منه وطالبوه بتسليمه إليهم فأخذهم باللطف ووعدهم بإزالة شكواهم وأن يتولى بنفسه أمورهم ويقتصر أبو الحسن المعلم على خدمته فيما يخصه. فلم يقنعوا فبذل لهم أن يبعده عن مملكته إلى حيث يأمن على مهجته ويبلغ الجند مرادهم ببعده ولا يتقبح هو بتسليمه وقتله فكان جوابهم أخس من القول الأول. فقال بكران لبهاء الدولة وكان السفير بينه وبين العسكر: أيها الملك إن الأمر على خلاف ما تقدّره وأنت مخيَّر بين بقاء أبي الحسن وبين بقاء دولتك فاختر أيهما شئت. فقبض عند

ذلك على أبي الحسن وعلى جميع أصحابه وأسبابه وظن أنهم يرضون ويعودون فلم يفعلوا وأقاموا على المطالبة بتسليمه إليهم فتذمّم من ذلك وركب بنفسه ليسألهم العود والاقتصار على ما جرى من القبض على المعلم فلم يقم أحد منهم إليه ولا خدمه وأبو أن يرجعوا إلا بعد تسليمه. فسُلم حينئذ إلى أبي حرب شيرزيل وسُقي السم دفعتين فلم يعمل فيه فخنق بحبال الستارة ودهمه أحد الغلمان بسكين فقضى نحبه وأخرج ودفن. ثم عاد الجند إلى منازلهم وسكنت الفتنة.

ولو أن بهاء الدولة اقتصد في أمر هذا المعلم لكان ذلك أحسن بداية وأجمل توسطاً وأحمد عاقبة وآمن مغبّة وأطيب أحدوثة ولكنه أخطأ باختيار من لا خير فيه ثم أفرط في تقريبه ثم أسرف في تمكينه لا جرم أن السمعة ساءت والرقبة رفعت والحشمة ذهبت والوصمة بقيت ولم يسلم المعلم مع ذلك كله. فيا قرب ما بين ذلك العز وهذا الهوان وذلك الإكرام وهذا الإسلام! ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

وفيها سُلم الطائع إلى الخليفة القادر بالله رضوان الله عليه وأنزله في حجرة من حجر خاصته ووكل به من يحفظه من ثقات خدمه. وأحسن ضيافته ومراعاة أموره حتى أنه كان يطالب من الخدمة بمثل ما كان يطالب به أيام خلافته وكان القادر بالله رضوان الله عليه يتفقد ما يقام له ويقدم بين يديه أكثر تفقُّد مما يخص به نفسه. وأقام على ذلك إلى أن توفي رضوان الله عليه.

وفيها ورد الوزير أبو القاسم علي بن أحمد والعسكر في صحبته.

ذكر ما جرى عليه أمر الوزير أبي القاسم وما استقر في أمر النظر بعد القبض عليه

ورد وعنده أنه قد كفى ما يحاذره بهلاك المعلم وكان بهاء الدولة قد نقم عليه لأسباب أكَّدها المعلم في نفسه أحدها ما كان منه بمقاربة بني عقيل ثم صح في نفسه أن الشغب الواقع من العسكر كان بكتبه ورسائله إليهم. فقبض عليه وخلع على أبي عبد الله الحسين بن أحمد ورد إليه العرض وأقر أبا الحسن علي بن سهل الدورقي على رسمه في نيابة الوزارة. وخوطب أبو منصور بن صالحان على تقلُّد الأمر فاستعفى فاستقر الأمر على استدعاء أبي نصر سابور وكان قد صار إلى البطيحة مستوحشاً من المعلم فكوتب بالحضور فحضر. وأشير على بهاء الدولة بالجمع بينه وبين أبي منصور بن صالحان في الوزارة فأمر بذلك بعد أن قرَّره معهما وخلع عليهما جميعاً وطرح لهما دستاً كاملاً وكانا يتناوبان في تقديم اسم أحدهما على الآخر في المكاتبات.

وفيها قبض صمصام الدولة على أبي القاسم العلاء بن الحسن بشيراز.

ذكر ما جرت عليه الحال في ذلك

كان العلاء بن الحسن غالباً على أمر صمصام الدولة ووالدته كثير الإفضال على أصحابه وحاشيته ولم يكن مع ذلك مغضياً لهم على أمر يحلّ عُرى السياسة. وكان قد اصطنع أبا القاسم الدلجي واستصحبه من الأهواز لما أعاده شرف الدولة إلى شيراز وقدّمه وقرّبه ثم ولاّه ديوان الإنشاء حين حصل صمصام الدولة بشيراز وخلع عليه ورتبه في ذلك ترتيب الوزراء ومضى الأمر على هذا زماناً. وتبسط الرضيع وسعادة وكُتاب السيدة والدة صمصام الدولة واستولوا وطالبوا العلاء بما تقصر المادة عنه وتضطرب الأمور معه. فضاق مجال قدرته عن اقتراحاتهم ففسدت الحال بينه وبينهم لأجل ذلك وشرعوا في فساد أمره فوجدوا عند أبي القاسم الدلجي مساعدة لهم عليه عند صمصام الدولة طمعاً في حاله وحال من دونه فقبض عليه وعلى كتّابه وحواشيه وعلى ابنته زوجة العلوي الرازي وطولبوا أشدَّ مطالبة وعوقبوا أشد معاقبة حتى تلفت ابنته وجماعة من أصحابه تحت الضرب. وبقي العلاء معتقلاً في بعض المطامير لا يعرف له خبر إلى أن فسد أمر أبي القاسم الدلجي فتغير رأي السيدة والدة صمصام الدولة وقُبض عليه في سنة ثلاث وثمانين وأفرج عن العلاء بن الحسن ورُدَّ إليه النظر.

ذكر ما جرى عليه أمر العلاء بن الحسن في عوده إلى الوزارة

أخرج من محبسه وقد ضعف بصره وحصل في دار السيدة وعولج حتى برئ وخلع عليه ورُدَّ إلى الوزارة وصحب صمصام الدولة إلى الأهواز ثم رجع إلى أرجان فأقام بها على النظر في أمور فارس. فلما جرى ما جرى بتل طاؤوس وعاد الديلم منهزمين وانهزم صمصام الدولة إلى شيراز فسار العلاء إلى الأهواز وقاتل عسكر بهاء الدولة ثم مات بعسكر مكرم.

ولم تخلص نيته لصمصام الدولة بعد ما لحقهُ وابنته وأهله بل أهلك دولته بإقطاع الإقطاعات وإيجاب الزيادات وتمزيق الأموال وتسليم الأعمال وتأدّت أمور صمصام الدولة إلى الاضطراب وأحواله إلى الاحتلال. وهكذا لعيسى في فساد الأمور كل حنق موتور.

وفيها ورد الخبر بنزول ملك الروم على خلاط وأرجيش وأخذهما وانزعج الناس لذلك. ثم ذكر من بعد استقرار الهدنة بين أبي علي الحسن بن مروان وبينه مدة عشر سنين وانصرف عن الأعمال.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

وفيها ورد الخبر باستيلاء أولاد بختيار على القلعة التي كانوا معتقلين فيها ومسير

أبي علي الحسن بن أستاذ هرمز من شيراز إليهم والقبض عليهم وقتل نفسين منهم.

ذكر الحال في ذلك وما انتهى إليه أمرهم

قد تقدم ذكر حال هؤلاء القوم وإحسان شرف الدولة إليهم بالإفراج عنهم ولما همَّ بقصد العراق أخرجهم إلى بعض دُور شيراز وجعل معايشهم وإقطاعاتهم منها. فلما تُوفي قُبض عليهم وحبسوا في قلعة خرْشَنة فكانوا فيها إلى أن مضى صدر كبير من أيام صمصام الدولة.

ذكر حيلة عملها أولاد بختيار ملكوا بها القلعة

استمالوا حافظ القلعة ومن كان معه من الديلم فطاوعوهم فأفرجوا عنهم ثم أنفذوا إلى أهل تلك النواحي المطيفة بالقلعة وأكثرهم رجَّالة أصحاب سلاح ونجدة فاجتذبوا منهم عدَّة كثيرة واجتمعوا تحت القلعة. وعرف صمصام الدولة الخبر فأخرج إليهم أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكر وسار فلما قرب من القلعة تفرق من كان اجتمع تحتها من الرجال وتحصن بنو بختيار والديلم فيها ونزل أبو علي عليها محاصراً ومحارباً.

ذكر ما دبره أبو علي بن أستاذ هرمز في فتح القلعة

راسل أحد وجوه الديلم الذين في القلعة وأطمعه في الإحسان والزيادة في المنزلة فاستجاب له وواقفه على أن ينزل إليه حبلاً من أعلى القلعة ليرتقي به الرجال إلى بابها وكان على سن من الجبل. فلما دنا الحبل خاطب أبو علي بن أستاذ هرمز جماعة من الذين معه على الصعود فتوقفوا حتى ابتدر أحد أصحابه فصعد. فلما دنا يقرب من الباب اضطربت يده على الحبل فخرَّ متردياً وأحجم الباقون فصب بين أيديهم أموالاً وبسط منهم آمالاً وابتدر قوم من أصحابه فيهم لوثة وجُزأة فصعدوا إلى القلعة واحد بعد واحد حتى حصل عدد منهم على الباب ففتح لهم ودخلوا القلعة وملكوها فقبض على أولاد بختيار وكانوا ستة. وكتب كتاباً بالفتح إلى صمصام الدولة فأنفذ فرَّاشاً تولَّى قتل نفسين من أولاد بختيار وأنفذ الباقون إلى قلعة الجنيد فاعتقلوا فيها.

وفيها ندب أبو العلاء عبيد اللّه بن الفضل للخروج إلى الأهواز وخلع عليه.

ذكر السبب في ذلك

كانت بين الشريف أبي الحسن محمد بن عمر وبين أبي العلاء عبيد اللّه عداوة ومباينة وتقدم أبو العلاء عند بهاء الدولة وقرب منه بخدمته له. فاجتمع أبو الحسن محمد بن عمر وأبو نصر سابور الوزير واتفقا على الشروع في إبعاده فأرسل الوزير أبو نصر سابور الأستاذ الفاضل أبا نصر الحسين بن الحسن إلى بهاء الدولة وقال له. قل

للملك: أنا أعلم ما في نفسك من أمر فارس وقد انحلَّ أمر صمصام الدولة ومضى أكثر أعوانه ولك عشرون ألف ألف درهم معدَّة منها ما آخذه من أبي محمد بن مكرم والمتصرفين بالأهواز ومنها ما وجوهه لائحة والتدبير في هذا الأمر أن يخرج أبو العلاء إلى الأهواز كأنه عائد إليها للمقام بها ويجرد معه قطعة من العسكر ثم نتبَعُه بعد مدة بطائفة أخرى فإذا تكاملت العساكر هناك أظهرنا حينئذ ما نظهره وسار أبو العلاء من الأهواز فأعجل القوم عن أهبة واستعداد فأعاد الأستاذ الفاضل أبو نصر على بهاء الدولة ما ذكره سابور فتشوَّفت نفسه إليه وتعلق طمعه به وأمر في الجواب بما يجب ترتيبه وكتب بالقبض على أبي محمد بن مكرم وأصحابه وتقدم إلى أبي العلاء بالمسير بعد أن أعلم بباطن التدبير واستكتمه.

ذكر تفريط من أبي العلاء في إذاعة سر عجل به

قال الأستاذ الفاضل: فوالله لقد خلع عليَّ وسرت في موكبه إلى داره فما استقر في مجلسه حتى دخل أبو الحسين شهرستان بن اللشكري لتهنئته فقال: يا أبا الحسين أي دار تريدها بشيراز. فغمزته فتنبه واستدرك وقال لشهرستان: إنما أردت بالأهواز. ولم يخف الخبر وشاع فإن القول كالسهم إذا نفذ على كبد القوس فات.

وأقام أبو العلاء في معسكره أياماً كثيرة ولم يخرج معه أحد وبطل ما كان سابور بذله في أمر المال وحصوله. وخرج أبو العلاء بعد ذلك في شرذمة قليلين فسار إلى الأهواز فما وصلها إلا وقد عرف الخبر بفارس ووقع الشروع من هناك في المسير إلى العراق.

وفيها جلس القادر بالله رضوان الله عليه لأهل خراسان عند عودهم من الحج وخوطبوا على أمر الخطبة وإقامتها وحملوا رسالة وكتباً إلى صاحب خراسان في المعنى.

وفيها شغب الديلم لأجل النقد وفساد السعر وغلائه وتأخُّر العطاء ونهبوا دار الوزير أبي نصر سابور وأفلت منهم ناجياً بنفسه. وراسلوا بهاء الدولة بتسليمه وتسليم أبي الفرج محمد بن علي الخازن وكان ناظراً في خزانة المال ودار الضرب وتردد القول بينهم إلى أن وُعدوا بالإطلاق وتجويد النقد وسكنت الفتنة. واستمر سابور على استتاره وروسل وهو مستتر بتسليم أبي القاسم علي بن أحمد وكان سُلّم إليه ليعتقله عنده فسلمه وحمل في هذا الوقت إلى الخزانة في دار المملكة.

ولما جرى على سابور ما جرى استعفى أبو منصور بن صالحان من التفرُّد بالنظر وأظهر العجز عنه. وكانت الإقامات قد زادت على قدر المادة وأحوجت النظَّار إلى التسكع فيها وصارت الهمة جميعها مصروفة إلى ما يحصل لأبي العباس أحمد بن علي وهو الوكيل في هذا الوقت. فبدأ عند ذلك أبو القاسم علي بن أحمد في طلب العود

إلى الوزارة وراسل بهاء الدولة وبذل له أن يكفيه الاهتمام بأمر الإقامة متى مكنه وبسط يده فاشرأبّت نفس بهاء الدولة لذلك فأحاله إليه واستوزره وخلع عليه.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي القاسم علي بن أحمد في هذه الوزارة

قبض على جماعة من الكتاب والمتصرفين وأخذ منهم مالاً مبلغه ستة آلاف درهم وأحضر أبا العباس الوكيل وقرَّر عليه تقريراً صالحاً عن نفسه وأعطاه وأقام له وجوهاً بالإقامة لمدة أربعة أشهر وأخذ خطه باستيفاء ذلك وأنفذه إلى بهاء الدولة فحسن موقعه عنده وملك به رأيه وقلبه لكنه أفسد قلوب الحواشي وأبعد بعضهم ومضت على ذلك مدة وحاله تزداد عند بهاء الدولة تمكناً واستقراراً وتزداد قلوب الحواشي منه استيحاشاً ونفاراً.

وكان قد قلد أبا محمد الحسن بن مكرم البصرة حرباً وخراجاً في إعجاز نكبته بالأهواز وأمره بالقبض على أبي عبد اللّه بن طاهر وكان ناظراً بالبصرة فقبض عليه وحبسه.

ذكر سبب وجد به الحواشي طريقاً إلى فساد حال الوزير أبي القاسم

ورد الخبر أن أبا عبد اللّه بن طاهر قُتل في محبسه وأنه وضع عليه قوماً دخلوا إليه وفتكوا به فوجد الحواشي سبيلاً إلى الوقيعة في الوزير وعرفوا بهاء الدولة من قتل أبي عبد اللّه على الوجه القبيح ما غيَّر رأيه فقال: قد قتل في تلك الكرة المعلم وفي هذه الكرة ابن طاهر أفتراه بمن يثلث؟ وانتهى هذا القول إلى أبي القاسم من عيون كانت له في الدار بحضرة بهاء الدولة فخاف وهرب في ليلة يومه.

ذكر ما جرت عليه الأمور بعد هرب الوزير أبي القاسم علي بن أحمد وعود أبي نصر سابور

قصد أبو نصر سابور دار بكران واستعاذ به حتى أصلح له قلوب الديلم وأمن جانبهم وظهر من داره. وأفرج عن الجماعة الذين اعتقلهم الوزير أبو القاسم ورتب في كل من الدواوين كاتباً يتولى أمره ونظر هو في الخبر والبريد والحماية ظاهراً وفي تدبير الأمور وتقريرها وتنفيذها باطناً فكانت الجماعة يصدرون عنه ويوردون إليه وجرت الحال على هذا الترتيب أشهراً ثم تظاهر بالعمل.

وفيها وردت كتب أبي العلاء عبيد اللّه بن الفضل ويذكر فيها مسير عساكر فارس مقبلة إلى الأهواز ويحث على إمداده بالعساكر.

ذكر ما دبره بهاء الدولة في ذلك

ندب أبا طاهر دريده شيرى للخروج إلى الأهواز في جماعة من الديلم وجرد أبا حرب شيرزيل إلى البصرة. وورد الخبر بانفصال عسكر فارس من أرجان فأمر بهاء الدولة

بإخراج مضاربه ثم ورد الخبر بحصولها برامهرمز. فندب طغان الحاجب في عدد كثير من الغلمان وخلع عليه وأخرج معه عيسى بن ماسرجس ناظراً في خلافة الوزارة وأخرج ما في الخزائن من الأواني الذهب والفضة فكسرت وضربت دنانير ودراهم وفرقت عليهم. ثم ورد الخبر بدخول عساكر فارس وعليهم أبو الفرج محمد بن علي بن زيار إلى الأهواز وهزيمة أبي العلاء عبيد الله بن الفضل وحصوله أسيراً في أيديهم.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي العلاء بعد الأسر والاتفاق الذي سكن به

لما أسره أبو الفرج بن زيار حمله إلى شيراز وصمصام الدولة بدولتا باد للتوجه على سمت العراق فأدخل المعسكر على جمل وقد ألبس ثياباً مصبَّغة وطيف به وكل أحد لا يشك إنه مقتول. فاتفق أنه أجيز على خيم السيدة والدة صمصام الدولة فأومى بيده كالمستغيث المسترحم فبدرتهُ قهرمانة من الديلميات بالسب فسمعتها السيدة فأنكرت قولها عليها وتقدمت بحطه عن الجمل ونزع الثياب المصوغة عنه وإلباسه غيرها وحمله إلى القلعة واعتقاله بها وإحسان مراعاته فيها. فكان فعل هذه المرأة سبب حياته والإبقاء عليه.

ولما ورد على بهاء الدولة خبر كسر عسكره بالأهواز وأسر أبي العلاء انزعج انزعاجاً شديداً وتقدم إلى طغان بالمسير. ورأى خلو خزائنه من المال وحاجته إليه فأمر الوزير أبا نصر بالانحدار إلى واسط واجتذاب ما يلوح له وجه منه ومراسلة مهذب الدولة والاستدانة منه على رهن يجعل له عنده وسلم إليه من الجوهر والآلات كل خطير.

وفيها عقد القادر بالله رضوان الله عليه على ابنة بهاء الدولة بصداق مائة ألف دينار بحضرته والولي الشريف أبو أحمد بن موسى الموسوي وتوفيت قبل النقلة.

ودخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

وفيها وقع العقد لمهذب الدولة أبي الحسن على ابنة بهاء الدولة وللأمير أبي منصور بن بهاء الدولة على ابنة مهذب الدولة وكل عقد منهما كان على صداق مائة ألف دينار وحمل المهذب بالمبلغ مالاً وغلة وخطب له بواسط وأعمالها واحتسب له من مال ضماناته بأسفل واسط بألف ألف وثلاثمائة ألف درهم غياثية منسوبة إلى الإقطاع. وكان عيار الدرهم الغياثي ثمانية ونصف حرفاً في كل عشرة.

وفيها أشار أبو نصر خواشاذه على بهاء الدولة بمراسلة فخر الدولة باستصلاحه واستكفافه عن مساعدة صمصام الدولة فاستصوب ذلك ورسم له السفارة فيه. فاختار أبا الحسن الأقسيسي العلوي للخروج في الرسالة نيابة عن أبي نصر خواشاذه وخرج الأقسيسي فقبل أن يصل إلى مقصده قُبض عليه.

ذكر السبب في ذلك

كان بين أبي نصر خواشاذه وبين أبي نصر سابور صداقة ومخالطة فلما انحدر أبو نصر سابور إلى واسط هرب إلى البطيحة فوجد أعداء أبي نصر خواشاذه طريقاً إلى السعي فحسَّنوا لبهاء الدولة القبض عليه.

فتأمل هذه الآراء الطريفة والأهواء العجيبة في تقارب ما بين القبض والإطلاق والعزل والتولية حتى صار الأمر عجباً والجد لعباً على أن الحياة الدنيا لعب ولهو ولكن في اللعب مستقيم ومختلّ. وهذا من المختل الذي تخالفت أعجازه وبواديه وتناقضت أواخره ومباديه فهل ترى في جميع ما شرد من أخبار الدولة البهائية نظاماً مستقيماً تحمد سلوك مذاهبه وتدبيراً جيداً ينتفع بمعرفة تجاربه؟ كلاّ فجميعه واهي الأسباب وما يجري فيه من صواب فإنما هو بالاتفاق. ونعود إلى سياقة التاريخ.

وفيها سار طغان والغلمان من واسط إلى خوزستان.

شرح ما جرى عليه أمره في هذا الوجه وظفرهم بعساكر صمصام الدولة وانهزامه من بين أيديهم

لما شارفوا السوس انهزم أصحاب صمصام الدولة عنها ودخلوها وتقدم أرسلان تكين الكركيري في سريَّة من الغلمان إلى جندي سابور ودفعوا من كان بها وانتشرت الأتراك في أعمال خوزستان وعلت كلمتهم وظهرت على الديلم بسطتهم. ووصل صمصام الدولة إلى الأهواز وقد اجتمعت معه جيوش الديلم وبنو تميم وبنو أسد فلما حصل بدستر رحل ليلاً على أن يسري فيكبس معسكر الأتراك.

ذكر اتفاق سيىء عاد بضد التقدير

ضل الأدلاَّء الطريق وساروا طول ليلتهم على حيرة وأسفر الصبح عنهم وبينهم وبين معسكر الأتراك مدى بعيد. وشاهد بعض طلائع طغان بسواد العسكر فكرَّ إليه راجعاً وأخبره وقال: تأهب لأمرك فإن الديلم قد صبحوك موكباً. فركب وتلاحق به الغلمان واستعاد كل من كان قد ذهب ممتاراً فاجتمعوا حوله فكانوا نحو سبعمائة غلام والديلم ومن معهم في ألوف كثيرة. فصعد أرسلان تكين الكركيري تل طاؤوس فوقف عليه وقسم طغان الغلمان كراديس وأنفذ كردوساً مع يارغ وقال له: سر عرضاً واخرج على الديلم من ورائهم وبلبلهم في سوادهم لنشاغلهم نحن عن إمامهم فإذا حملت حملنا عليهم، فسار على ذلك ووقف طغان والغلمان بين يديه يطاردون الفرسان وزحف الديلم فملكوا التل ونزل أرسلان تكين الكركيري عنه ووقف صمصام الدولة عليه ووقع

يارغ وكردوسه على السواد وحمل على المصاف وحمل طغان والغلمان وكانت الهزيمة. ووقف سعادة وعنان صمصام الدولة في يده متحيراً ما يدري ما يصنع فقال له يارغ بالفارسية: ما وقوفك يا حجّام خذ صاحبك وانصرف. فولى عند ذلك صمصام الدولة ومضى ولم يتمكن رجالة صمصام الدولة من الهرب مع إرهاق الأمر واشتداد الطلب وكدّ السير فاستأمن منهم أكثر من ألفي رجل وتقطّع الباقون وغنم الأتراك غُنماً عظيماً.

ذكر ما دبره الغلمان في قتل المستأمنة إليهم من الديلم

لما اجتمع الديلم المستأمنون إلى خيم ضربها طنان لهم يشاور الغلمان فيهم فقالوا: هؤلاء قوم موتورون وعدّتهم أكثر من عدتنا وإن استبقيناهم معنا خفنا ثورتهم وإن خلينا عنهم لم نأمن عودتهم. فاستقر رأيهم على القتل وطرحوا الخيم عليهم ودقوهم بالأعمدة حتى أتوا عليهم.

فكانت هذه الوقعة أخت وقعة الحلبة في كثرة من قُتل من الديلم ووردت الأخبار بذلك على بهاء الدولة بواسط وأظهرت البشارة على حسب العادة في أمثالها وسار طغان إلى الأهواز فدخلها واستولى على جميع أعمالها وعادت طائفة من الغلمان إلى مدينة السلام.

ذكر ما فعله بهاء الدولة عند حصوله بواسط

استقرض من مهذب الدولة مالاً بعد القرض الأول واستقر بينهما في أمر البصرة أن يحدر بهاء الدولة عسكراً ويضم مهذب الدولة إليهم عدداً من رجاله فجرد أبا كاليجار المرزبان لذلك في طائفة من الجند ورتب مهذب الدولة أصحابه معهم وانحدر الجماعة.

وكان أبو الطيب الفرُّخان قد وصل من سيراف في البحر وملك البصرة فواقعوه بنهر الدير وكان الظفر لهم ودخل المرزبان بن شهفيروز البصرة وخطب لمهذب الدولة بها تالياً لبهاء الدولة.

ولما ورد الخبر على بهاء الدولة بهزيمة صمصام الدولة رحل سائراً إلى الأهواز وآثر أن يبتدئ بالبصرة فقصدها ونزل بها.

ذكر ما جرى عليه أمر الوزارة في البصرة في هذه السنة

استوزر بهاء الدولة عند حصوله بها أبا الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه ونظر في السابع من شعبان واعتزل في الثالث والعشرين منه. وبان من ركاكة أفعاله في هذه الأيام القريبة كل أمر سخيف منها أنه كان في مجلس نظره يوماً وهو حفل بالناس وأبو العباس الوكيل حاضر فقال: ادعوا لي أبا العباس الوكيل. فقال له أبو العباس: ها أنا أيها الوزير. فتشاغل ساعة ثم قال: ألم أطلب أبا العباس فأين هو؟ فقال: ها أنا يا مولانا. فقال: نعم. والحاضرون يتغامزون عليه. ومنها أنه ركب إلى دار الفاضل يعوده

فوقف على مزمَّلة العامة فاستسقى منها ماءً. ثم لما وصل إلى باب الفاضل حجب وانكفأ وعرف الفاضل حضوره فأنفذ أصحابه إليه حتى لحقوه في بعض الطريق فأعادوه ودخل إليه فشكا في أثناء الحديث حاله إليه وأراه قميصاً رثاً تحت ثيابه يلتمس بذلك مراعاة من بهاء الدولة ومعونة.

ثم استعفى بعد أيام من النظر وشرع أبو العباس عيسى بن ماسرجس في خطبة الوزارة وراسل الفاضل أبا نصر في السفارة فيها بعد أن كان قد بذل أبو علي الحسن الأنماطي لبهاء الدولة عنه بذولاً ووعده بملاطفات يحملها وعشرة آلاف دينار يخدمه بها.

ذكر رأي سديد أشار به الفاضل على ماسرجس فلم يعمل به

أشار عليه في جواب رسالته بأن يلاطف أبا علي الحسن بن محمد بن نصر صاحب البريد وأبا عبد اللّه الحسين بن أحمد العارض ومكاتبتهما ويسألهما النيابة عنه ويخاطب أبا عبد اللّه العارض بسيدنا ليكون عوناً له على تقرير أمره فلم يقبل. قال الفاضل: فما راعني إلا حضور من أخبر بوروده ونزوله في بعض البساتين ثم جاءني رسوله يستقرض مني مائة دينار فحملتها إليه في الحال وعجبت من التماسه هذا القدر النزر مع ما بذل عنه أبو علي لبهاء الدولة. ثم حضر عند بهاء الدولة وترك بين يديه ديناراً ودرهماً وخدمه وانكفأ فأنكر بهاء الدولة ذلك من فعله فقال للأنماطي: أين ما وعدتنا به؟ فعنوان خدمته يدل على ما وراءه. فقال الأنماطي: يحمل ما أعده من بعد. فمضى ذلك اليوم وغيره ولم يحمل شيئاً وكاتب أبا عبد اللّه العارض بمولاي ورئيسي فاجتمع هو وأبو علي الحسن بن محمد بن نصر على إفساد أمره.

ذكر ما رتباه من الحيلة في أمره حتى انحل

وضعا منصور بن سهل وكان هو العامل في الوقت على أن أشاع في البلدان ابن ماسرجس قد بذل بذولاً كثيرة في مصادرات التجار وفتح المخازن وأخذ أمتعة المجهزين والبحرانين فماج الناس وكادت الفتنة تثور ورفع أبو علي ذلك الخبر إلى بهاء الدولة وعظم الأمر في نفسه. واتفق أن الفاضل أبا نصر غاب أياماً في بعض الأشغال فخلا أبو عبد اللّه وأبو علي ببهاء الدولة وقالا له: قد ورد هذا الرجل بيد فارغة وما وفى بشيء مما بذله والبلد على ساق خوفاً منه ولا يؤمن حدوث فتنة يبعد تلافيها وأبو الحسين بن قاطرميز يبذل أن يأخذ منه ما لا يخفف به عنك أثقالاً. وسهلا عليه الأمر في ذلك فأحالهما على الفاضل أبي نصر في الجواب وقال: اجتمعا به إذا عاد وقرّرا الأمر. فلما عاد الفاضل اجتمعا معه وقالا: إن الملك قد أمرنا بالقبض على أبي العباس. فقال: لأيّة حال. قالا: لما ظهر من نفور الرعية منه ولنكوله عما كان بذل عنه. فقال لهما: هذا

مما لا يسوغ فعله وكيف يصرف اليوم رجل مستدعى بالأمس بغير سبب يقوم به الغدر وهل يجلب ذلك إلا سوء المقالة من الناس فينا ونسبتهم إيانا إلى سخافة الرأي وضعف النحيزة وإن خدمة هذا الملك لا تستقيم على أيدينا؟ وأنا أحضر عند الملك وأعرّفه في ذلك. فقالا له: تعرفه ماذا؟ وقد أنفذنا أبا الحسن الكراعي كاتبك وأصحابك إلى الرجل ووكلنا به. فوجم أبو نصر وأطرق ونفذ السهم وسلِم الرجل إلى الحسن بن قاطرميز فطالبه واستقصى عليه.

ذكر ما جرى عليه أمر صمصام الدولة بعد انصرافه من الوقعة

لما انصرف به سعادة من المعركة سار عائداً إلى الأهواز فلما عبر به وادي دستر كاد يغرق فاستنقذه أحد بني تميم ووصل إلى الأهواز في عدد قليل من الديلم وترحَّل عنها طالباً أرجان. فتلقاه أبو القاسم العلاء بن الحسن وحمل إليه من الثياب والرحل ما رمّ به شعثه وسيَّره إلى شيراز ومعه الصاحب أبو علي بن أستاذ هرمز وتلقتهُ والدته بما يجب تلقيه به من المراكب والثياب والتجمل. وكان بينها وبينه نفرة فلما رأته بكت بكاء شديداً وكان صمصام الدولة في عمارية وعليه ثياب سود حزناً وكآبة لا يطعم في الأيام إلا اليسير من الطعام فسكنت والدته منه وقالت له: ما زالت الملوك تُغلب وتَغلب وإذا سلمت المهجة رجوت الأوبة. فغيَّرت ثيابه وأصلحت حاله وحصل بشيراز ثم تلاحق الناس به وتكامل الديلم عنده من بعد. ولم نجد في بقية شهور هذه السنة ما يستفاد منه تجربة.

ودخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

فيها توفي الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبَّاد بالري ونظر في الأمور بعده أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي ويلقب بالكافي الأوحد.

شرح ما جرت عليه الحال في ذلك

لما اعتلَّ ابن عباد كان أمراء الديلم وكبراء الناس يروحون إلى بابه ويغدون ويخدمون بالدعاء وينصرفون. وعاده فخر الدولة عدَّة مرات فيقال إنه قال لفخر الدولة أول مرة وهو على يأس من نفسه: قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرتُ في دولتك سيرة جلبتُ لك حسن الذكر بها فإن أجريت الأمور بعدي على نظامها وقررت القواعد على أحكامها نسب ذلك الجميل السابق إليك ونسيت أنا في أثناء ما يثنى به عليك ودامت الأحدوثة الطيبة لك. وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنت أنا المشكور على السيرة السالفة وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك. فأظهر فخر الدولة قبول رأيه.

وقضى ابن عباد نحبه في يومه. وكان أبو محمد خازن الكتب ملازماً داره على

سبيل الخدمة له وهو عين لفخر الدولة عليه فبادر بإعلامه الخبر فأنفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن. ووجدوا كيساً فيه رقاع أقوام بمائة وخمسين ألف دينار مودوعة له عندهم فاستدعاهم وطالبهم بالمال فأحضروه وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة. فرجّمت الظنون في ذلك فمن مقبح لآثاره ينسبه إلى الخيانة فيه ومحسن لذكره يقول: «إنما أودعه مؤيد الدولة لأولاده» ونقل جميع ما كان في الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة.

وجهز ابن عباد وأخرج تابوته وقد جلس أبو العباس الضبي للصلاة عليه والعزاء به فلما بدا على أيدي الحمالين قامت الجماعة إعظاماً له وقبّلوا الأرض ثم صلوا عليه وعُلق بالسلاسل في بيت إلى أن نقل إلى تربة له بأصفهان.

وقال القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد إنني لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت عليه فنسب عبد الجبار في هذا القول إلى قلة الرعاية. ثم قبض فخر الدولة عليه وعلى المتعلقين به وقرَّر أمرهم على ثلاثة آلاف ألف درهم فباع في جملة ما باع ألف طيلسان وألف ثوب من الصوف المصري.

فهلاّ نظر هذا القاضي في شأن نفسه ثم أفتى في شأن غيره مثل ابن عباد الذي قدم قدمهُ وأثّل نعمته وراش جناحه ومهد أحواله! صدق المثل «تبصر القذى في عين غيرك وتدع الجزع المعترض في حلقك» فرحم اللّه من أبصر عيب نفسه فشغل بستره عن عيب غيره.

وبلغنا أن رجلاً من الصالحين لقي أخاً له فقال له: إني أحبك في اللّه. فقال الآخر: لو تظهر لك عيوبي لأبغضتني في اللّه. فقال له: عيبي يشغلني عن تأمل عيب غيري. نسأل اللّه توفيقنا بما يعصم جوارحنا وقلوبنا وصنعا جميلاً يستر مساوينا وعيوبنا.

وقلد فخر الدولة أبا الحسن بن عبد العزيز قضاء القضاة وطالب أبا العباس الضبي بتحصيل ثلاثين ألف ألف درهم من الأعمال ومن المتصرفين فيها وقال له: إن الصاحب أضاع الأموال وأهمل الحقوق وقد ينبغي أن يستدرك ما فات منها. فامتنع أبو العباس من ذلك مع تردد القول فيه. وكتب أبو علي بن حمولة يخطب الوزارة وضمن عنها ثمانية آلاف ألف درهم وأجيب إلى الحضور فلما قرب قال فخر الدولة لأبي العباس: قد ورد أبو علي وقد عزمت على الخروج في غد لتلقيه وأمرت الجماعة بالترجل له فلا بد أن تخرج إليه وتعتمد مثل ذلك معه. فثقل ذلك على أبي العباس وقال له خواصه ونصحاؤه: هذا ثمرة امتناعك عليه وقعودك عما دعاك إليه وسيكون لهذه الحال ما بعدها. فراسل فخر الدولة وبذل ستة آلاف ألف درهم عن إقراره على الوزارة وإعفائه من أن يلقى أبا علي وخرج فخر الدولة وتلقاه ولم يخرج أبو العباس. ورأى فخر الدولة أن من الصلاح الإشراك بينهما في النظر فسامح أبا علي بن حمولة بألفي ألف درهم من

جملة الثمانية التي بذلها وسامح أبا العباس بمثلها من الستة وقرر عليهما جميعاً عشرة آلاف ألف درهم وجمع بينهما في النظر وخلع عليهما خلعتين متساويتين ورتَّب أمرهما على أن يجلسا في دست واحد ويوقعا جميعاً فيوماً يوقّع هذا ويعلّم ذاك ويوماً يوقع ذلك ويعلم هذا ووقع التراضي بذلك ونظراً في الأعمال.

وقبضا على أصحاب ابن عباد وتتبعا كل من جرت مسامحة باسمه في أيامه وقررا المصادرات في البلاد وأنفذا أبا بكر بن رافع إلى استراباذ ونواحيها بمثل ذلك فقيل إنه جمع الوجوه وأرباب الأحوال وأخّر الإذن لهم حتى تعالى النهار واشتد الحر ثم أطعمهم طعاماً أكثر ملحهُ ومنعهم الماء عليه وبعدَهُ وطالبهم بكتب خطوطهم بما يصححونه فلم يزل يستام عليهم وهم يتلهفون عطشاً إلى أن التزموا عشرة آلاف ألف درهم.

واجتمع لفخر الدولة في الخزائن والقلاع ما كثّره المقللون ثم تمزَّق بعد وفاته في أقرب مدة فلم يبق منه بقية. وكذاك مال كل ثروة ذميمة المكاسب ومصير كل زهرة خبيثة المنابت فلئن عمر خزائنه لقد خرب محاسنه ولئن جمع المال الجزيل لقد ضيع الذكر الجميل. ثم لم يحظ من ذلك إلا بالأوزار التي احتقبها والآثام التي اكتسبها وقبح الأحدوثة التي علقت بأخباره سماتها وبقيت على الأيام عظاتها إذ لم يبق من عظامه رُفاتها. وما يغني عنه ماله إذا تردّى فيا ندم النادم إذا ترك ما اكتسبه وراء ظهره وانقلب بثقل الوزر وسوء الذكر إلى قبره. وأصعب من ذلك ما بعده ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وفيها أمر صمصام الدولة بقتل من بفارس من الأتراك فقتل قوم منهم بشيراز وأجفلت طائفة منهم فعاثوا في بلاد فارس فجرَّد صمصام الدولة إليهم من دفعهم عنها وانصرفوا إلى كرمان وبها أبو جعفر أستاذ هرمز فدفعهم أيضاً فدعتهم الضرورة إلى قصد بلاد السند واستأذنوا ملكها في دخول بلده.

ذكر الحيلة التي عملها صاحب السند على الأتراك حتى قتلهم

أظهر لهم القبول وخرج لاستقبالهم ورتب أصحابه صفين وهم رجالة ووافقهم على الإيقاع بهم إذا دخلوا بينهم ففعلوا ذلك ولم يفلت منهم إلا نفر حصلوا بين القتلى وهربوا تحت الليل.

وفيها توفي أبو نصر خواشاذه بالبطيحة وسبب حصوله بها أنه لما قبض عليه خرج في الصحبة إلى واسط واعتقل بها فتوصل إلى الهرب. قال صاحب الخبر: فاذكر وقد انحدرت إلى مهذب الدولة واجتمعت مع أبي نصر فرأيت كتب فخر الدولة وصمصامها وبهائها وبدر بن حسنويه إليه يستدعيه كل واحد منهم ويبذل له من المعيشة والإحسان

ما يرغب في مثله لكن فخر الدولة قال له في كتابه: لعلك تسيء الظن بمعتقدنا للقبيح الذي قدمته في خدمة عضد الدولة عندنا وما كنا لنؤاخذك بطاعة من قدَّمك واصطنعك ومناصحة من كان يصنعك ويرفعك وأن نعتدَّ لك من وسائلك لم نجعله ذنوبك وقد علمت ما عملنا به أبو القاسم إسماعيل بن عباد وإننا طوينا جميع ما كان بيننا وبينه واستأنفنا معه من الإكرام والتفويض ما لم يقدره ويظنه. ولك علينا عهد اللّٰه وميثاقه في إيماننا من كل ما تخافه وتحذره وإنا لك بحيث تحبه وتؤثره فإن أردت الخدمة قدمناك إلى أعلى رتبها وأرفع درجها وإن رأيت الاعتزال والدعة أوجبنا لك مائة ألف درهم معيشة من أصفهان ووفرناك على المقام في دارك بها. فقلت له: فإلى أي جهة ميلك. فقال: ما كنت أنفر إلا من جهة فخر الدولة وقد وثقت به ولم يعلق قلبي إلا به وأنا عازم على قصد الري عند ورود من أستدعيه من أصحاب بدر بن حسنويه. فعاجلته المنية المريحة من الخل والترحال القاطعة للحاجات والأشغال.

وفيها ورد الخبر بمسير العلاء بن الحسن والديلم من أرجان ووفاة طغان بالأهواز فسار بهاء الدولة على سمت الأهواز.

ذكر ما جرى عليه الأمر مع العلاء بن الحسن واستيلائه على الأهواز

لما توفي طغان الحاجب كوتب بهاء الدولة بخبره وبما عول عليه الغلمان وما حدّثوا به أنفسهم من العود إلى بغداد فانزعج لذلك وعلم ما في أثنائه من ذهاب الدولة مع استعداد العلاء للمقارعة وقدم تسيير أبي كاليجار المرزبان بن شهفيروز إلى الأهواز للنيابة عنه ورمّ العسكر بها وكان بينهما تذمماً في جميع الأمور مستقلاً للتوقيع والتدبير. وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى الفتكين الخادم للمقام بموضعه وكان حصل برامهرمز منصرفاً مرتين إلى عساكر فارس فلم يستقر بالفتكين قدم وانكفأ إلى الأهواز وكوتب أبو محمد بن مكرم بالنظر في الأعمال والجد في استخراج الأموال وإرضاء الجند. وقرب العلاء بن الحسن فعرج على عسكر مكرم ونزل بهاء الدولة بطلاً وترددت بينه وبين العلاء مراسلات ومكاتبات سلك فيها العلاء سبيل اللينة والإطماع والمكر والخداع ثم سار على نهر المسرقان لازماً له إلى أن حصل بخان طوق. ووقع الحرب بينه وبين أبي محمد بن مكرم والفتكين ومن في جملتهما من الغلمان وصدق الفريقان وزحف الديلم بين البساتين والنخيل حتى دخلوا البلد ودفعوا أبا محمد والفتكين منه. وأرسل أبو محمد والفتكين إلى بهاء الدولة وأشاروا عليه بالعبور والبدار فتوقف عن ذلك ووعد وسوّف ثم أمدّهما بثمانين غلاماً من غلمان داره مع خدم للخيل فعبروا وحملوا على الديلم من ورائهم بغرّة الصبوّة وقلة التجربة فأفرج الديلم لهم حتى توسطوهم ثم انطبقوا عليهم فقتلوهم. وعرف بهاء الدولة ما جرى على غلمانه فضعفت نفسه وهمَّ

بالهزيمة وخاف أن يظهرها فيطمع فيه بنو أسد فتقدَّم بأن تُسرج الخيل ويطرح عليها السلاح وتحمل الأثقال وأظهر أنه يقصد الأهواز. فلما رتب ذلك جميعه ركب وأخذ سمت الأهواز قليلاً ثم عطف فتوجه تلقاء الجزيرة وأمن ما خافه من اختلاط العسكر عند الهزيمة وتعسف في طريقه حتى عاد إلى عسكره بظاهر البصرة.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي محمد بن مكرم والغلمان

لما عرف أبو محمد والغلمان خبر بهاء الدولة في انصرافه ساروا إلى عسكر مكرم وتبعهم العلاء بن الحسن والديلم ورفعوهم عنها فارتفعوا ونزلوا براملان بين عسكر مكرم ودستر. وتكررت الوقائع بين الفريقين مدة لأن الأتراك كانوا يركبون إلى باب البلد ويخرج الديلم إليهم ويقاتلونهم قتال المحاجزة لا المناجزة ومع الأتراك دُستر وسوادها يمتارون منها. ثم سار الأتراك إلى رامهرمز ومنها إلى أرجان واندفع من كان فيها من بين أيديهم واستولوا عليها واستخرج أبو محمد لهم الأموال منها وأقاموا بها ستة أشهر ثم كروا راجعين إلى الأهواز.

وبلغ العلاء خبرهم حين قربوا فأنفذ إلى قنطرة أربق من قطعها ووصل أبو محمد والغلمان إليها فطرحوا الأجذاع وأعمدة الخيم عليها وعبروها وحصلوا مع الديلم على أرض واحدة ونزلوا بالمصلى وخيَّم العلاء نحو شهرين ثم رحل الأتراك من معسكر مكرم وتبعهم العلاء فوجدهم قد امتدوا واسطاً وكان العلاء بن الحسن قد رتب مناجزة أبي جعفر بالسوس عند مصير الأتراك إلى أرجان وفرَّق مقطعي كل كورة فيها.

فلما عاد بهاء الدولة إلى واسط على ما يأتي ذكره ولم يبق بينه وبين الديلم من يحول دونه جرَّد قُلَّج في عدة من الغلمان وسيره إلى السوس. وكتب إلى أبي محمد بن مكرم ومن في جملته من الغلمان بالتوقف عن الإتمام فلقيهم قلج والكتب في الطريق فرجعوا وحصل المعسكر جميعه مع أبي محمد وأقاموا ببصنى.

وفيها عاد أبو القاسم علي بن أحمد من البطيحة إلى حضرة بهاء الدولة للوزارة.

ذكر ما جرت عليه حاله في هذه النوبة

قال الأستاذ الفاضل أبو نصر: لما عاد بهاء الدولة إلى معسكره بظاهر البصرة وقفت أموره فترددت بينه وبين أبي القاسم مراسلة في العود إلى خدمته فاستقر ذلك بوساطة مهذب الدولة بعد أن اشترط على بهاء الدولة أنه إن مشى الأمر على يديه وإلا أعاده محروساً إلى البطيحة. وكان السفير بينهما الشريف أبو أحمد الموسوي ولم أعرف ذلك إلا بعد استقراره وكنت في بقايا علة واستأذنت بهاء الدولة في الإصعاد إلى بغداد للمداواة فلم يأذن فلما ورد الرجل ومضى على وروده ثلاثة أيام راسلني الملك وقال:

كنت استأذنتنا في الإصعاد إلى بغداد للعداوة وقد أذنا لك. فعلمت أن هذا القول على أصل وأن الغرض إبعادي فقبّلت الأرض وقلت: السمع والطاعة وانصرف الرسول.

ذكر رأي سديد رآه الفاضل في استمالة قلب بهاء الدولة

قال الفاضل: أخذت دواة ودرجاً وأثبت ما كان لي بالبصرة من صامت وناطق حتى لم أترك إلا ما كان على جسدي وحملت جميعه على التذكرة به إلى الخزانة وقلت: هذا ما أملكه وأنا مع إصعادي مستغن عنه والخزانة مع كثرة الخرج محتاجة إليه. واستأذنت في الحضور للوداع فوقع ذلك موقعاً جميلاً وأذن لي في الحضور. وجاءني في أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوي وكان يتهمني بالميل إلى الشريف أبو الحسن محمد بن عمر ويستوحش مني لأجله فقال: قد بلغني أنك تصعد الليلة إلى بغداد وما كنت أوثر البعد عن سلطانك ولو وقفتَ وتركتني أتوسط ما بينك وبين هذا الوزير الوارد وأتوثق لكل واحد من صاحبه لكان أولى. فقلت: قد كنت على العزم الذي بلغ الشريف وإذ قد رأى لي الصواب في المقام أقمت يومين أو ثلاثة معولاً على تفضله فيما يقرره. وأردت بهذا القول كتمان حقيقة أمري عنه إشفاقاً من أن يعرف الوزير خبري فراسل بهاء الدولة فيما تعرفني به وربما بلغ غرضه في تعاجل الحال.

وانصرف الشريف أبو أحمد ولم تقلني الأرض حتى مضيت إلى المضرب وودعت بهاء الدولة وقبلت الأرض وبكيت فبكى لبكائي وقال: لا تشغل قلبك فإنني لك على أجمل نية وما أنفذتك إلا إلى مملكتي وأين كنت فإنك على بال من مراعاتي وملاحظتي. وخرجت فاتبعني بعض خواصه وقال: إن الملك يأمرك أن تتوقف ليسلم إليك رهوناً تحملها إلى مهذب الدولة وتستقرض عليها مهما أمكنك. فأشفقت من أن أتريّث فتتجدد من الوزير في أمري مراسلة بهاء الدولة بما أتقيه فقلت للرسول: تقول لمولانا إنني قد أحسست بأول دور الحمى وأنا أصعد وأتوقف بنهر الدير إلى أن يلحقني ما يرى إنفاده. فدخل وخرج وقال: امض فإنا نحمل على أثرك ما يصحبك. فاغتنمت الفرصة وأسرعت ولم أتوقف ووصلت إلى واسط فما استقررت بها حتى ورد على الطائر كتاب من عبد العزيز بن يوسف يقول فيه إن الرجل (يعني الوزير أبا القاسم علي بن أحمد) وقف أمره وعاد إلى البطيحة فبادرت في الحال إلى الإصعاد علماً بأن الكتب سترد بالعود إليَّ فما بلغت فم الصَلح حتى صاح بنا ركابيان وردا من البصرة ومعهما كتاب بهاء الدولة إليَّ بالانحدار. فاعتذرت في الجواب بقربي من مدينة السلام وإنني أدخلها وأحصل من المال والثياب ما أعلم أن الحاجة داعية إلى تحصيله وأعود.

فأما سبب فساد أمره فإنه عامل أبا العباس الوكيل بما أوحشه به واستشعر أبو عبد الله العارض وأبو الفرج الخازن منه واجتمعت كلمة الحاشية عليه وتطابقوا على

فساد أمره خوفاً من بوادره. وعول بهاء الدولة على القبض عليه فذكره الشريف أبو أحمد العهد الذي استقر مع مهذب الدولة بالقبيح وأخرج عن اليد فعند ذلك فسح في عوده مع الشريف أبي أحمد إلى بغداد.

ودخلت سنة ست وثمانين وثلاثمائة

وفيها ملك لشكرستان بن ذكي البصرة وانصرف أصحاب بهاء الدولة عنها.

شرح الحال في ذلك

كان لشكرستان ذا نفس أبية وهمة علية ولم يزل يلوح من شمائله في بدء أمره ما يدل على ارتفاع منزلته وقدره وهو من جملة من انحاز عن بهاء الدولة إلى صمصام الدولة وحصل مع العلاء بن الحسن بالأهواز فلما انصرف الأتراك إلى أرجان على ما تقدم ذكره حدثته نفسه بالخروج إلى البصرة ودفع بهاء الدولة عنها والتمس من العلاء بن الحسن مساعدة على ذلك فأحجم العلاء عن أفراد بعض العسكر عن نفسه لحاجته إلى الاستظهار بكثرة العدد. فبينا تردد الخطاب بينهما إذ ورد إليهما نحو أربعمائة رجل من الديلم مستأمنين من ديلم بهاء الدولة فضمهم لشكرستان إليه وفرَّق فيهم خمسة آلاف دينار من ماله وسار بهم إلى حصن مهدي. وجرد بهاء الدولة أبا مقاتل خمارتكين البهائي لقتاله فجرت بينهما مناوشات واعتصم الديلم بالبلد ولم يقدر خمارتكين على مواقعتهم فيه. فلما كان في بعض الأيام عاد منهم وخرج لشكرستان على أثره وحمل نفسه على الصعب وسار على التعسُّف حتى حصل هو ومن معه بلشكراباذ. وتسلل إليه من بقي مع بهاء الدولة من الديلم ولم تكن لأصحاب بهاء الدولة قدرة عليهم لاعتصامهم بالبساتين والمياه التي يضيق مجال الفرسان فيها ثم ضاقت عليهم الميرة وانقطعت عنهم المادَّة فقطعوا النخل وأكلوا جمَّارها وأكلوا الزرع.

وكان أبو العباس بن عبد السلام وطائفة من أهل البصرة مائلين إلى بهاء الدولة ونزلوا بإزاء الديلم يصدقونهم القتال. وكان أبو الحسن بن أبي جعفر العلوي مائلاً إلى لشكرستان بن ذكي مضادة لابن عبد السلام لما بين الفريقين من المباينة فحمل العلوي إلى الديلم في السماد دقيقاً أمارهم به ونفَّس عنهم كربهم وعرف بهاء الدولة ذلك وظفر ببعض السفن التي حملت فيها الميرة فأنفذ من يقبض عليه فهرب وكبست داره ونُهبت. وطُلبت هذه الطائفة فاستوحشوا وصار منهم عدد كثير مع أبي جعفر إلى لشكرستان وقويت بهم شوكته وجمعوا له سُفناً وحملوا الديلم فيها على ركوب أخطار وشدائد حتى جعلوهم على أرض البصرة ووافوا بهم إلى محالهم وواقعوا أصحاب بهاء الدولة فهزموهم ونهبوا دورَ بني عبد السلام وطائفته وخربوها وجلا ناس كثير من البصرة ونبا

ببهاء الدولة مكانه وخرج البلد عن يده وأصعد إلى واسط على الظهر فوصل إليها وقد تقطع عسكره وتمزَّق سواده.

ذكر ما جرى عليه أمر لشكرستان بالبصرة إلى أن استقر ما بينه وبين مهذب الدولة من الصلح

لما حصل لشكرستان بالبصرة بطش بأهلها فقتل وسفك وخرج الناس على وجوههم لفرط الهيبة الواقعة في نفوسهم ومد يده إلى أموال التجار فحرب البلد وتشرد كل من فيه وكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة يقول له: إذا كان لشكرستان قد غلب على البصرة فأنت أحق بها منه فاستعد مهذب الدولة للقتال وجرد أبا عبد اللّه بن مرزوق إليه في عدة كثيرة من الرجال وكاتب أبا العباس بن واصل وكان بعباداان وغيره من أصحاب الأنهار بالاحتشاد والاستظهار والاجتماع مع ابن مرزوق على حرب لشكرستان وانحدر ابن مرزوق ودفعه عن البصرة.

فاختلفت الرواية في دفعه عنها فقيل إن أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم وانصرف لشكرستان من غير حرب إلى أسافل دجلة وقيل بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجل وقال: الديلم يرمون كل من يرد من نهر عمر. وجعل أمامه سلسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر إلى الأخرى ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشات القصب المضرمة بالنار تغوص بثقلها فتعبر الشاشات عليها فتغرقها. فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً بعرض النهر وأرسلوه مضرماً بالنار وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه فوقع على السلسلة وتقطعت وعلى السفن الصغار فاحترقت ووصل إلى الجسر ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدُمهم ابن مرزوق وعسكره إلى الجزيرة. وحصل لشكرستان بسوق الطعام وهي فسيحة واستمر القتال بين الفريقين وكان للديلم الاستظهار في الحرب ولهؤلاء قطع الميرة. فراسل لشكرستان مهذب الدولة وسأله المصالحة والموادعة وبذل له الطاعة والمتابعة على أن يقيم له الخطبة ويسلم ابنه إليه رهينة فمال مهذب الدولة إلى الصلح وسلم لشكرستان ابنه أبا العز واتصل الصفاء واستمر الوفاء زماناً طويلاً.

وأظهر لشكرستان طاعة صمصام الدولة وبهائها وأمَّر نفسه واعتضد بما عقده بينه وبين مهذب الدولة من المودة وعسف أهل البصرة مدة ثم عدل فيهم وأحسن السيرة بهم وخفف الوطأة عنهم بعد أن قرر نصف العشر عليهم وكان يؤخذ من سائر ما يتبايع حتى من المأكولات وعاد البصريون إلى دورهم ومنازلهم. والذي تكثر به العشرة وتطول فيه الفكرة ويستفاد منه التبصر وتنتفع بمثله التجربة خامل حالتي بهاء الدولة ومهذبها كيف اختل أمر ذلك وهو عريق في الملك صاحب مملكة لسوء سيرته! وكيف استقام أمر هذا

وهو دخيل في الإمارة صاحب بطيحة لحسن طريقته!

لقد ضل من ظن أن الملك يستقيم بالظلم والمال يثمر بالجور أو الارتفاع يكثر بالحيف أو الضرع يدُرّ بالعسف لا ورافع السماء ومؤتي الملك من يشاء ما يصلح الملك إلاً بإحسان السيرة وإحكام السياسة وترتيب الخاصة وتهذيب العامة والهيبة في الجند والعدل في الرعية. وهيهات أن يصلح الملك تدبير مملكته إلا بعد تدبير مدينته أو تدبير مدينته إلا بعد تدبير داره أو تهذيب رعيته إلا بعد تهذيب جنده أو تهذيب جنده إلا بعد تهذيب حاشيته أو تهذيب حاشيته إلا بعد تهذيب نفسه. ولولا أننا لا نباهي أصحاب عصرنا أطال اللّه بقاءهم من الملوك والوزراء الماضين إلا كلٌ من كان عالي الرتبة في العلاء والمجد طيب الأحدوثة بالثناء والحمد لأوردنا في هذا الفصل ما تتبين به مقادير التفاوت والفضل ويقوى معه الدليل على ما قدمناه في صدر كتابنا هذا من تفضيل زماننا بهم. لكنا لا نقيس الفاضل بالناقص ولا المخدج بالكامل ولا العاجز بالقادر ولا النابي بالباتر لأن الشيء يقاس بما يناسبه ويشبَّه بما يقاربه. ونعود إلى سياقة التاريخ.

وفيها عاد أبو نصر سابور بن أردشير إلى الوزارة ونظر نحواً من شهرين ثم هرب.

ذكر ما جرى عليه أمر أبي نصر سابور في هذه النوبة

كان بهاء الدولة أنفذ أبا عبد اللّه العارض وأبا نصر الفاضل إلى مهذب الدولة واستقرضا منه قرضاً وتطيبا إلى سابور وقررا معه العود إلى الوزارة. فلما حصلا بالبطيحة وقررا الأمر مع سابور حضرا عند مهذب الدولة ليعلماه بحال ما استقر فقال مهذب الدولة: أنتما في طرف والملك في آخر وأخرج كتاباً بخط بهاء الدولة يسأله إنفاذ أبي القاسم علي بن أحمد فلما شاهداه وجما وقالا: قد يجوز أن يكون هذا قد بدا له بعدنا رأي آخر. وانصرفا فقال أبو عبد اللّه العارض للفاضل: ما فعل الملك ما فعله إلا على أصل والصواب القعود هاهنا والأخذ بالحزم. فقال له الفاضل: لا يضعف قلبك واصعد معي ودعني ألقى الملك وأحل ما عقد بعدنا معه فإني أعرف بأخلاقه منك ومتى تأخرنا بلغ أعداؤنا منا مرادهم. وما زال به حتى أصعد معه فلما وصلا إلى بهاء الدولة قال لهما: ما وراءكما. قالوا: كنا قررنا مع مهذب الدولة أمر القرض ومع سابور أمر النظر فوافى كتابك باستدعاء أبي القاسم علي بن أحمد فانتقض جميع ذلك وانصرفنا بعد النجاح بالخيبة. فلما سمع ذلك وجم (ولم يكن لأكثر ما قالاه من أمر القرض حقيقة لكنهما قصدا بذلك تقديمه) فقال لهما: ما كتبت ما كتبته إلا بما ألزمنيه أبو أحمد الموسوي وإذا كنتما قد قررتماه فالرأي العدول إليه. وأمر بكتب الكتب إلى مهذب الدولة بالشكر على ما أورداه عنه وبإخراج سابور إلى الحضرة وتطييب نفسه وحثه على البدار. وانصرف الفاضل إلى داره ليغير ثياب السفر وواقف أبا عبد اللّه على المقام

بحضرة بهاء الدولة إلى أن تنفذ الكتب لئلا يدخل إليه من يثنيه.

ونفذت الكتب وورد أبو نصر سابور وقد استوحش الشريف أبو أحمد الموسوي منه لما أسلفه إليه فقال لبهاء الدولة: بيني وبين العلاء بن الحسن مودَّة وأنا أخرج إليه وإلى صمصام الدولة وأستأنفُ أمر الصلح.

فمال بهاء الدولة إلى قوله واستروحت الجماعة إلى بعدهِ وأذن له في ذلك ونظر سابور إلى الأمور.

وبدأ أبو القاسم علي بن أحمد يكتب إلى بهاء الدولة ويشرع معه في تقلد الأمر وبلغ أبا نصر من ذلك ما انزعج منه وأراد الاختبار لما عند بهاء الدولة فيه.

ذكر الحيلة التي عملها سابور في اختبار بهاء الدولة

خلا به وقال له: أيها الملك قد علمت أنني قصير اللسان في خطاب الجند وقد استشعروا فيّ الطمع واستشعرت منهم الخوف ولو استدعيت أبا القاسم علي بن أحمد وعوَّلت عليه في منابذتهم ومعاملتهم ووفرتني على جمع المال وإقامة وجوهه لكان ذلك أدعى إلى الصواب. فقال له بهاء الدولة: هذا هو الرأي وقد أردت أن أبدأك به فإذ قد سبقت إلى القول فيه فهذا كتاب أبي القاسم يخطب الخدمة وقد تقرر الأمر معه على هذه القاعدة. فسمع أبو نصر ذلك وانصرف من حضرته وأطلق يده للتوقيعات في الجند ولم يبق وجهاً إلا أحال عليه أكثر مما فيه فلما علم أنه لم يبق بواسط ما تمتد إليه يد فارق مكانه وهرب إلى الصليق وكتب بهاء الدولة إلى أبي القاسم يستدعيه.

وأنفذ إليه أبا الفضل الإسكافي رسولاً بما بذله له من بسط اليد والتمكين وانحدر أبو الفضل واجتمع معه وأصعدا. فلما حصلا في بعض الطريق عدل أبو القاسم علي بن أحمد عن السمت فقال له أبو الفضل: إلى أين أيها الوزير قال: إلى حيث أبعد به عنكم أما علم بهاء الدولة أن أبا نصر فرَّق أمواله وأفسد أمره وأبطل مملكته؟ وإنما رغبتُ فيما رغبتُ فيه أولاً لأنه كان هناك ما يمكن تمشية الأمور به فأما الآن فلم يبق إلا شجي الحلوق وقذى العيون ولقاء المكروه فما أنشط لذلك. وفارقه ومضى إلى الجبل وبقي مجلس النظر خالياً حتى ورد أبو العباس عيسى بن ماسرجس ونظر في الأمور.

وفيها استكتب القادر بالله رضوان الله عليه أبا الحسن علي بن عبد العزيز حاجب النعمان.

ذكر السبب في ذلك

كان رجلان من التجار خرجا للحج فتبايعا عقاراً في الكرخ وهما بمكة وأشهدا إنساناً من الذين حضروا الموسم وردّ المشتري إلى مدينة السلام فحاول ثبوت كتابه عند

القضاة الأربعة وهم أبو عبد اللّه الضبي وأبو محمد بن الأكفاني وأبو الحسين بن معروف وأبو الحسين الجوزي بشهادة من شهد من التجار. وقد كان القادر باللّه رضي اللّه عنه أمرهم أن لا يقبلوا في مثل ذلك إلا شهادة الشهود المعدَّلين. فتنجَّز المشتري كتباً من بهاء الدولة إلى القضاة باستماع قوله وإلى الشريف أبي الحسن محمد بن عمر والوزير أبي منصور بن صالحان (وكان نائباً عن بهاء الدولة ببغداد) بإلزامهم ذلك فخاطباهم فقالوا السمع والطاعة: إلا أبا عبد اللّه الضبي فإنه امتنع واحتج بما رُسم له من دار الخلافة. وغاظ الشريف أبا الحسن فعله فأطلق لسانه بالوقيعة فيه. وفارق الضبي داره بالكرخ وعبر إلى الحريم معتصماً به. وسمع أبو محمد الأكفاني شهادة القوم وعزم القاضيان الآخران على مثل ذلك فاستدعوا إلى دار الخلافة وأغلظ القول عليهم واعتيقوا إلى آخر النهار ثم أذن لهم في الانصراف والعود من غد.

وكان قوم من الشهود زكوا التجار الذين شهدوا في الكتاب منهم ابن النشاط وأبو إسحاق بن أحمد الطبري فطعن الضبي عليهم عند الخليفة فخرج التوقيع بإسقاطهم وأمر بقراءته على المنبر في المسجد الجامع. وعرف الشهود ذلك ومضى أبو إسحاق الطبري إلى أبي الحسن محمد بن عمر مستصرخاً وكان خصيصاً. وبلغ أبا الحسن علي بن عبد العزيز ما يجري من الخوض في الأمر.

ذكر تدبير لطيف توصل به ابن حاجب النعمان إلى خدمة دار الخلافة

استدعى القاضي أبا محمد بن الأكفاني وأبا إسحاق الطبري سراً وقال لهما: قد علمت ما أنتم عليه وإن طويتموه عني ومتى روسل الخليفة بي توصلت إلى مرادكم فصار أبو إسحاق إلى ابن عمر وأشار عليه بإنفاذ علي بن عبد العزيز إلى دار الخلافة فراسل أبا منصور بن صالحان في ذلك فكان جوابه: إنك عارف بما وردت به كتب بهاء الدولة من منع ابن حاجب النعمان عن دار الخلافة وإخراجه إلى حضرته فكيف يجوز أن تنفذه فيما هذه سبيله؟ فعاد مراسلة ثانية وسهل الأمر فأذن أبو منصور في ذلك من غير اختيار. وانحدر أبو الحسن علي بن عبد العزيز إلى دار الخلافة ووصل إلى حضرة القادر باللّه رضي اللّه عنه وأعاد ما حمله من الرسالة وكانا قالا له تخدم الحضرة الشريفة عنا بالدعاء وتقول: «إن الذي جرى في هذه القصة مما يوحش بهاء الدولة ويشعرُه التغير له والعدول عنه فيما كان مستخدماً فيه» وأتبع ما يورده عنهما من نفسه بأن قال: يا أمير المؤمنين ما الذي فعل هؤلاء القضاة مما خرجوا به عن حكم الشريعة أو حدث من الشهود حتى أسقطوا الإسقاط الذي يقرأ على المنابر؟ أو ليس ابن النشاط أحد الشهود الذين شهدوا على المخلوع بخلع نفسه وتسليمه الأمر إلى أمير المؤمنين؟ ولو أردنا اليوم شهادة حاضرة بذلك لما وجدنا غيره فيها فإن الشريف أبا أحمد الموسوي غائب بشيراز

وأبا القاسم بن أبي تمام قد مضى لسبيله وأبا محمد بن المأمون من أهلك وأبا الغنائم محمد بن عمر ممن لا تقوم به بينة. ونحن إلى الآن نزكي هذا الشاهد ونعدّ له أولى من أن نقدح فيه ونجرحه وهذا أبو إسحاق الطبري وأحد القرَّاء المتقدمين وأهل العلم المشهورين ولم يبق من يحضر الحرمين ويصلي فيها بالناس مثله وهو إلى هذه الدولة منسوب وفي شعبها محسوب والباقون منهم أقل من أن يعرفهم أمير المؤمنين ويسميهم فضلاً عن أن يذكرهم على المنابر ويقع فيهم. وما الذي يؤمننا من أن ينفذ إلى الجامع من ينفذه فيعترض بما يحول بينه وبين ما يحاوله ويلحقنا من ذلك ما لا خفاء به؟

فلما سمع القادر باللّه رضي اللّه عنه ما قاله بين الصواب فيه فأضرب عما عزم عليه وهمَّ وردَّه بجواب جميل سكن إليه القضاة والشهود وتوقيع فيه علامته بإجرائهم على رسومهم.

وعاد أبو الحسن إلى الشريف والوزير فأعلمهما بما فعل وبزوال ما كان الخوض واقعاً فيه وأشار بأن يعود برسالة ثانية محدودة تتضمن الشكر والدعاء والاستئذان في حضور القضاة. فتقدّما إليه بذلك ومضى وعاد بالإذن في حضور القضاة ورجع ثالثاً والقضاة معه فجمع بينهم وبين القاضي أبي عبد اللّه الضبي واستطال أبو عبد اللّه في القول عليهم فمنهم من أجاب ومنهم من أمسك عنه. وانصرف القوم وتأخر أبو الحسن فأقام في الدار وقرر أمر نفسه واستعطف الشريف أبا الحسن بن عمر واستكفَّ كل من كان يقصده واستصلح فتم له الأمر واستتب.

وفيها عاد أبو جعفر الحجاج من الموصل.

ذكر السبب في ذلك وما جرى الأمر عليه

لما توفي أبو الدواد محمد بن المسيب طمع المقلد أخوه في الإمارة فلم تساعده العشيرة لأن من عادتها تقديم الكبير من أهل البيت وكان على أسن منه فأجمعوا عليه وولوه. وأيس المقلد من الإمارة فعدل إلى طلب الموضع وبدأ باستمالة الديلم الذين كانوا مع أبي جعفر واستفسادهم عليه وثنى برسالته بهاء الدولة خاطباً لضمان الموصل بألفي ألف درهم في كل سنة وبذل تقديم مال عنها واستصلح قلوب الحاشية.

ثم عدل إلى علي أخيه وأظهر له أن بهاء الدولة قد ولاّه الموصل وأن أبا جعفر يدافعه عنها وسأله النزول معه بالحلل عليها فإن أبا جعفر إذا علم اجتماع الكلمة خاف واندفع عنها. فلبى علي دعوة أخيه وأجابه إلى سؤاله قاضياً حقه فيه فلما نزلت الحلل على باب الموصل استأمن عدد من الديلم الذين استفسدوا من قبل وعلم أبو جعفر أن لا طاقة له بالقوم فاعتصم بقصر كان استحدثه ملاصقاً إلى دار الإمارة مع سبعين رجلاً من

خاصته وسألهم أن يفرجوا له عن الطريق ليسلم الديلم إليهم فأجابوه إلى ذلك.

ذكر مكيدة عملها أبو جعفر سلم بها في انحداره

واعدهم في خروجه يوماً معلوماً واستظهرهم عليه وكانوا أجمعوا أمرهم على أن يأخذوه يوم مسيره فاستذمَّ أبو جعفر من علي بن المسيب وأنفذ إليه كراعه ليسير من عنده ثم جمع سفناً حطَّ فيها رحله وصناديقه وسلاحه وأصحابه فجاءة وانحدر قبل اليوم الموعود وما عرفوا خبره إلا بعد انحداره فتبعوه ودافعهم عن نفسه حتى خلص ووصل إلى مدينة السلام.

ذكر ما جرى عليه الأمر بالموصل بعد انحدار أبي جعفر

لما خرج أبو جعفر من البلد تقدم المقلد إلى أصحابه بالدخول وعمل علي بن المسيب في الرحيل فحسن له أبو الفضل طاهر بن منصور وكان كاتبه ووزيره وجماعة من أصحابه أن يلتمس من المقلد مشاركته في البلد فتذمَّم عليٌّ من ذلك حياء من أخيه فقالوا له: إذا كان البلد لأخيك كان هو الأمير وكنت أنت الصعلوك. وما زالوا به حتى راسلوه واستقرت الحال بينهما تذكرة من المقلد على إقامة خطبة لهما جميعاً وتقديم علي بحكم الإمارة وإقامة عامل من قبلهما لجباية الأموال وجرى الأمر على ذلك مديدة.

ثم زاد التشاجر والتجاذب بين أصحابهما وانتهى إلى الإفراط واتصلت الشكاوى من الفريقين وسيأتي ذكر ما جرت عليه الحال من بعد إن شاء اللّٰه.

ذكر الحال في ذلك

كان أبو علي خدم بهاء الدولة في أيام إمارته فلما ولي الملك قدَّمه وكاد ينوِّه به فنكبه أبو الحسن الكوكبي المعلم وبقي على العطلة ثم استخدم في الخواص بمدينة السلام. فلما عاد بهاء الدولة إلى واسط على الصورة التي ذكرت من اختلال الحال كاتب أبا منصور بن صالحان والشريف أبا الحسن بن عمر وأبا على هذا يذكر بما هو عليه من الإضاقة واستدعى منهم ملتمسات من ثياب وغيرها. فأجاب أبو منصور وأبو الحسن جميعاً بالوعد والتعليل وحصَّل أبو علي أكثر الملتمس بعد أن طلب من أبي علي بن فضلان اليهودي قرضاً يُرد عوضه عليه فلم يسعفه وانحدر إلى حضرة بهاء الدولة بما صحبه. فوقع فعله موقعاً جميلاً ازداد به عنده قبولاً وقرَّر معه في أخذ اليهود ومصادرتهم تقريراً معلوماً وفي أمر أبي الحسن محمد بن عمر وأبي منصور بن صالحان ما كان مستوراً مكتوماً وأصعد على هذه القاعدة فلما حصل ببغداد قبض على جماعة من اليهود وعسفهم في المطالبة والمعاقبة.

وأما الشريف أبو الحسن بن عمر وأبو منصور بن صالحان فإنه بدا لهما خبر ما

أبطن في أمرهما فخرج ابن عمر إلى القصر وصار منها إلى البطيحة واستقر أمر ابن صالحان وكاتب بهاء الدولة واستصلحه وانحدر إليه.

ودبر أبو علي الأمور ببغداد واستمال الجند وقرر مع الأتراك عن أثمان إقاماتهم ورقاً يطلق لهم مسابعة ثم نقله إلى المشاهرة ونسبه إلى القسط وسلك أيضاً بالديلم هذه الطريقة فصار ذلك سنة مستمرة من بعد في الأقساط وسقطت كلف الإقامات وكانت قد انتهت إلى الإفراط. ومشت أموره على السداد إلى أن جرى من المقلد بن المسيب ما صار سبباً للقبض عليه.

ذكر ما جرى من المقلد بن المسيب في هذه السنة

كان المقلد يتولى حماية القصر وغربيّ الفرات متصرفاً على أمر العباس بن المرزبان فاستناب المقلد أبا الحسن بن المعلم أحد أصاغر المتصرفين ببغداد وكان فيه تهوُّر وإقدام فتبسَّط وانتهى عنه إلى ابن المرزبان ما غاظه وعول على القبض عليه. ولم يأت الحزم من أقطاره في أخذه فاستوحش ابن المعلم واستظهر وجرت مناوشات أدت إلى كشف القناع واستنجد ابن المعلم صاحبه فوافى من الموصل في عدَّته وعديده وحصل مع ابن المرزبان على أرض واحدة وجرت بينهما حرب أجلت عن هزيمة ابن المرزبان وأخذه أسيراً وحبسه وأمر بقتله من بعد.

وملك المقلد القصر وأعماله وكتب إلى بهاء الدولة بأعذار مختلفة وأقوال متفقة وسأل إنفاذ من يعقد عليه البلاد بمبلغ من المال يؤديه عنها. وكان بهاء الدولة مشغولاً بما هو بصدده والضرورة تدعوه إلى المغالطة والمداراة فأنفذ إليه أبا الحسن علي بن طاهر وجرت بينهما مناظرات ومواقفات كُتب بها تذكرة عاد بها ابن طاهر استأمر في أبوابها. ولما انفصل ابن طاهر عنه زاد في بسط يده في الأعمال واستضاف ما فيها من الأموال فضج المقطعون بالشكوى إلى أبي علي بن إسماعيل فاستعد للخروج إليه واستدعى محمد بن عباد وخاطب أبا موسى خواجة بن ساكيل على البروز فبرز وخيَّم بظاهر البلد.

ذكر الغيلة التي عملها المقلد

لما انتهى الخبر إليه ببروز من برز من السندية أنفذ أصحابه ليلاً فكبسوا معسكر ابن ساكيل وضربوا الخيم فبادر ابن سياهجنك إلى زبزبه وعبر إلى داره واستنفر الديلم فإلى أن اجتمعوا قطع أصحاب المقلد الجسر لئلا يتكاثر عليه الجند. وركب أبو علي بن إسماعيل وابن عبَّاد والأولياء فإلى أن أعيد سد الجسر مضى أصحاب المقلد عائدين وتبعهم أبو علي فلم يلحقهم. وهم بالإتمام إلى السندية لمواقعة المقلد فأشاروا عليه بالعود فعاد وقد تمَّم لما ثبت له.

وكان الشريف أبو الحسن بن عمر قد حصل بالبطيحة على ما تقدَّم ذكره فلما ورد أبو جعفر الحجاج توسط حاله مع بهاء الدولة وأصلحها وجدًّا جميعاً في السعي على أبي علي وذلك قبل أن يحدث من أمر المقلد ما حدث. وشد منهما ابن ماسرجس وكان هو الوزير يومئذ وبذل ابن عمر لبهاء الدولة عشرة آلاف دينار عن تسليمه إليه وكان بهاء الدولة سريع القبول شديد الميل إلى هذه البذول وكل ما يُعقد معه محلول وكل ما يبنى لديه مهدوم.

ومن شرط السياسة أن يفي الملك بقوله وعهده وأن يصدق في وعيده ووعده وأنه متى أخلف استولت على المحسن الخيبة وزالت عن المسيء الهيبة ومن قارب بين التولية والعزل لا يعقل. فنعود إلى تمام الحديث.

فخاضوا في تدبير أمر أبي علي ولم يكن ببغداد من يكاتب بالقبض عليه ويوثق به في الخروج بالسر إليه لأن ابن سياهجنك كان من خاصته والقهرمانة معه وفي كفته وكل من وجوه الجند مائلاً إلى جنبته ويخافون أن يخرجوا إنساناً من واسط فربما شاع الخبر وظهر.

ذكر المكيدة التي رتبت في القبض على أبي علي

أحضروا أبا الحسن محمد بن الحسن العروضي وكان بواسط وواقفوه على أن يكاتب أبا علي ويشكو إليه حاله ويسأله استدعاءه إليه وضمه إلى جملته ودبروا الأمر أنه إذا عاد الجواب إليه بالإصعاد أصعد وقرروا معه القبض عليه. وكتب أبو الحسن كتاباً بهذا الذكر فإلى أن عاد الجواب إليه حدث من أمر المقلد وهجوم أصحابه على مدينة السلام ما حدث وورد الخبر بذلك على بهاء الدولة فانزعج واستدعى أبا جعفر الحجاج في الوقت ورسم له المبادرة إليها وتلافى الحادث بها ومصالحة المقلد والقبض على أبي علي بن إسماعيل. ووجد أبو جعفر الفرصة فسار ووصل إلى مدينة السلام في آخر ذي الحجة وسيأتي ذكر ما جرى الأمر عليه بمشيئة اللّه تعالى.

وفيها قبض على الفاضل أبي نصر فاستُقصي عليه في المطالبة. وهرب أبو عبد اللّه العارض إلى البطيحة وأقام إلى أن أصلح حاله.

ذكر السبب في ذلك أولاً وما جرت عليه الحال ثانياً

كان جرى بين أبي عبد اللّه العارض وبين أبي طاهر سباشي المشطب المعروف بالسعيد كلام تنابزا فيه وجنايات اللسان عظيمة وصراعاته أليمة فأمر بهاء الدولة بالقبض على أبي طاهر لأجل ذلك واعتقاله. فاجتمع عدد كثير من الغلمان وصاروا إلى باب الخيمة الخاص وجبهوا بهاء الدولة بما فيه بعض الغلظ وقالوا: إن لم تفرج عنه أخذناه. فدعت الضرورة إلى إطلاقه فأطلق ثم لم يرضوا بالإفراج عن المشطب حتى اقترحوا إزالة أبي عبد اللّه عن ولاية العرض وإبعاد الفاضل أبي نصر وخاف بهاء الدولة

مخالفتهم فاعتقل العارض والفاضل اعتقالاً جميلاً ثم أذن لهما في الإصعاد إلى بغداد بعد أن قرر أمر الفاضل على مبلغ من المال. فأما الفاضل فإنه صحح المال المقرر بعد إصعاده وأقام في داره إلى أن وافى أبو جعفر.

ونظر أبو الحسن العروضي في نيابة الوزارة عن ابن ماسرجس فخافه الفاضل وكاتب بهاء الدولة يسأله حسن التعطف والحراسة فعاد جوابه بالجميل ورُسم له الانحدار فانحدر ولما وصل إلى المعسكر قُبض عليه وسلم إلى ابن ماسرجس فاستقصي عليه في المطالبة لما أخذ عليه من نوبة البصرة ونسبها إليه وكان بريئاً منها.

وأما أبو عبد اللّه العارض فإنه خاف بعد إصعاده فاستشار نصحاءه في أمره وقال: لست أحب الحرب فاجعل لنفسي حديثاً ولا الاسترسال. فأطرق غلبتها.

ذكر رأي سديد أشير به على العارض فكان سبباً لنجاته

قال له علي بن عيسى صاحب البريد: إذا كان هذا اعتقادك فكيف تسمح بذهاب ما في دارك من الآلات ومن الغلمان؟ قال: نعم. قال: فاعبر إلى الجانب الشرقي كأنك زائر والدتك ودع دارك وحاشيتك على ما هي وهم عليه وأنا أحضر في كل يوم وألقى الناس فيها عنك واكتب كتب النوبة إلى بهاء الدولة وإذا حضر من يجوز الاعتذار إليه وأنا قاعد اعتذرت إليه بنومك أو صلاتك ومن وجب أن أقوم وأدخل الحجرة كأني أستأذنك وأخرج إليه بمثل العذر قمت وإذا رأى الناس ذلك ظنوك حاضراً وأنت في الباطن مستظهر. فاستصوب ذلك وعمل به واندرج الأمر على هذا أياماً ثم كبست الدار لطلبه والقبض عليه فلم يوجد. ودبر أمره في الخروج من البلد مستتراً وحصل بالبطيحة وأقام بها مدة وأصلح حاله مع بهاء الدولة وأصعد إلى واسط ونظر في دواوين الإنشاء والبريد والحماية.

وفيها حج بالناس أبو عبد اللّه بن عبيد العلوي.

وحمل بدر بن حسنويه خمسة آلاف دينار مع وجوه القوافل الخراسانية لتنصرف في خفارة الطريق عوضاً عما كان يجيء من الحاج في كل سنة وجعل ذلك رسماً زاد فيه من بعد حتى بلغ تسعة آلاف دينار. وكان يحمل مع ذلك ما ينصرف في عمارة الطريق ويقسم في أولاد المهاجرين والأنصار بالحرمين ويفرّق على جماعة من الأشراف والفقراء والقراء وأهل البيوتات في مدينة السلام بما تكمّل به المبلغ عشرين ألف دينار في كل سنة. فلما توفي انقطع ذلك حتى أثّر في أحوال أهله ووقف أمر الحج.

ونحن نذكر ههنا طرفا من أفعال بدر وآدابه يستدل به على حزم الرجل ودهائه. فنقول إن من شرط الولاية المستقيمة أن يكون صاحبها عالماً بالسياسة قامعاً للجند عادلاً

بين الرعية خبيراً بجمع المال من حقوقه بصيراً بصرفه في وجوهه راغباً في فعل الخير ملتذاً بطيب الذكر ثابت الرأي في الخطوب رابط الجأش في الحروب على أن انتفاع ذوي الولاية بالرأي السديد أكثر من انتفاعهم بالبأس الشديد فإن ذا البأس يقاوم رجالاً وعشيرة وذو الرأي يقاوم أمة كثيرة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة   بلغت من العلياء كل مكان

وقد كان بدر جامعاً لهذه الخلال الحميدة والأفعال الرشيدة فإنه ساس قومه وهم البرزيكان شر طائفة في ظلمهم وعدوانهم وبغيهم وطغيانهم سعياً في الأرض بالفساد وقطعاً للسبل واستباحة الأموال وسفك الدماء ولي عليهم وقد استولوا على تلك الأعمال يسومون أهلها سوء العذاب ويذيقونهم مرارات البلاء والعقاب على طريقة من قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]. فداوى داءهم وكف بلاءهم واستدنى من الأكراد من كانوا ضداً لقومه فاستعان بهم عليهم فطهر الأرض من ظلمهم غير مبق على آصرة ولا ملتفت إلى رحم متشاجرة فبدَّد شملهم وفرَّق جمعهم.

ذكر مكيدة عملها بدر لقومه

قيل إنه لما طالت أسباب الفساد وكاد الحرث يبطل في تلك البلاد عمل سماطاً وأمر بأن يقدم عليه من جميع الألوان المطبوخة باللحمان (وكانوا أصحاب أغنام) وأن لا يترك على السماط خبز بتة ثم أحضرهم فجلسوا وأيديهم لا تصل إليه توقُّعاً للخبز فلما طال الأمر بهم قال لهم: ما لكم لا تأكلون. قالوا: ننتظر الخبز. قال: فإذا كنتم تعلمون إنه قوت لا بد منه فما لكم قد أهلكتم الزرع قبحاً لوجوهكم وتباً لأفعالكم! وأقسم لأن تعرض أحد منكم لصاحب زرع ليقابلنه بسفك دمه. وأبرَّ قسمه بقتل العدد الكثير منهم وأخذ الباقين بالهيبة وساسهم بالغلظة ولم يغض لهم عن الخيانة اليسيرة حتى تهذبت الأمور.

ذكر سياسة بليغة من أفعاله

قيل إنه اجتاز في بعض مرتحلاته برجل متحطب قد حط حمله عن ظهره على طريق وإن بعض الفرسان أخذ منه رغيفين كانا معه فلما حصل بإزائه قال: أيها الأمير إني رجل متحطب وقد كانت معي رغيفان أعادتهما لأتغدى بهما فيقوياني على حمل الحطب إلى البلد فأبيعه فأعود بثمنه إلى العيال وقد اجتاز بي أحد الفرسان وغصبني إياهما. فقال له: هل تعرف الرجل؟ قال: نعم بوجهه. فجاء به إلى مضيق جبل وأقام عنده حتى أجتاز عليه العسكر جميعه وجاء صاحبه فعرفه فأمر بدر بحطه عن فرسه

وإلزامه حمل الحطب على ظهره إلى البلد والدخول به إلى السوق وبيعه وتسليم ثمنه إلى صاحبه جزاء على فعله. وكان الرجل موسراً فرام أن يفتدي نفسه بمال وزاد حتى بذل بوزن الحطب دراهم فلم يقبل منه وألزمه فعل ما عزم به عليه فقامت الهيبة في النفوس فلم يقدم بعدها أحد من أصحابه على أذية.

وأما بصره بوجوه المال فإنه عمّ وعدل فدرَّت عليه ضروع الأعمال وجمع من الذخائر والأموال من بلاد محدودة محصورة ما لا يكاد يجمع مثله من ممالك واسعة. ولو لم يكن إلا ما أخذه فخر الملك أبو غالب بن خلف من قلعته لكان عظيماً.

ذكر رأي سديد في تدبير الأعمال

كان من حسن تدبيره أنه يحفظ الارتفاع من كل ثلم ثم يفرُد العشر منه ويجعله موقوفاً على المصالح والصدقات. وأخذ عمَّاله بتوفية أمواله أشد أخذ ويخلدهم الحبس على الخيانة فإن علم أن عجز المال كان عن آفة وأن العامل نقيّ الجيب من خيانة أعطاه من مال الصدقة ما تبرأ به ذمته من الضمان ويستعين ببعضه على الزمان فلا يقدم أحد على تجاوز الطريقة المرضية في أداء الأمانة وتجنُّب الخيانة. وأما بصيرته بصرف الأموال في وجوهها فقد تقدم ذكر ما كان يحمله في كل سنة بطريق مكة وكانت له صدقات كثيرة في بلده وأنفق أموالاً جمة في اتخاذ المصانع وعمل القناطر واستخراج الطرق في الجبال لوارد وصادر فتذللت بعد أن كانت مانعة ودنت المسافات بعد أن كانت شاسعة مع حزم كامل في الإنفاق.

ذكر ما دبره في أمر النفقات على القناطر والطرقات

كان إذا بدأ بعمل من هذه الأعمال أقام من قبله عنده سوقاً جامعة لسائر ما يبتاع في البلدان وجلب إليها جميع ما يحتاج إليه من الأصناف بأرخص الأثمان فإذا قبضت الرجال سلفاً من الورق صرفوه في تلك السوق على اختلاف أجناس ما يبتاعونه بالثمن الوافي فيجمع جميعه. فكان ما يخرج في أول الأسبوع من الخزانة يعود إليها في آخر الوقت اليسير الذي يتصل مع بعض الرجال ممن يقدر على نفسه في النفقة.

فبقيت له الآثار الحميدة والأحاديث الجميلة قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤]. وأما حسن تدبير الخطوب فله في ذلك أخبار مشهورة منها ما دبره عند وصول رسول يمين الدولة أبي القاسم محمود بن سبكتكين رحمه اللّه إلى الري.

ذكر رأي سديد في إقامة هيبة

قيل إن رسولاً لمحمود وصل إلى الري عند استيلاء السيدة على الأمر مهدِّداً

بالمسير إليها وكانت لا تحل ولا تعقد إلا بمشاورة بدر فكتبت إليه بما تجدد فأشار عليها بإنفاذ الرسول إليه ليتولّى هو جوابه. ثم رتب طوائف الأكراد وأصناف العساكر وأمرهم أن ينزلوا بحللهم بطول الطريق من باب الري إلى سابور خواست ويظهروا عند اجتياز الرسول بهم عددهم وأسلحتهم ويأخذوا زينتهم ويسيروا به من حلة إلى حلة ومن عسكر إلى عسكر حتى يوصلونه إليه ففعلوا ذلك.

ورأى الرسول في طريقه من العساكر ما هاله فلما وصل إليه رأى من حزمه ودهائه وحسن تدبيره ورأيه ما ازدادت به هيبته في صدره. وأجاب عن الرسالة بما أشار به إلى الاستمرار على طريق المسالمة وإجراء الأمر على ما كان عليه من قبل مع أصحاب خراسان فعاد الرسول إلى الري وكتب الأجوبة حسب ذلك وانصرف إلى خراسان وأخبر بما شاهده فكان ذلك طريقاً إلى الكف والموادعة.

وأما مكايده في الحروب وبصيرته بأمورها فقد تقدم من ذكر الوقعة التي جرت بينه وبين قراتكين الجهشياري على أخذ شرف الدولة ما يدل على صرامته وله بعد ذلك مقامات مشهورة. فلما انقضت مدته وتناهت سعادته لم ينفعه ماله ولا رجاله ولم تدفع عنه حزامته ولا احتياله قتله أقل الجند وأذلهم ومضى رخيصاً.

الحُوَّل القلَّب الأريبُ ولا يدفع ريبَ المنيَّةِ الحِيلُ

وإذ قضينا من ذكر أخباره الشاذّة وطراً مع التبرىء من عهدة صحتها فقد عدنا إلى سياقة التاريخ.

ودخلت سنة سبع وثمانين وثلثمائة

وفيها تغير أمر أبي علي بن إسماعيل ووكِّل به في دار المملكة ثم أفرج عنه واستتر.

ذكر ما جرت عليه الحال في ذلك

لما ورد أبو جعفر الحجاج ساء ظن أبي علي بن إسماعيل ثم اتصل به من واسط ما حقق ظنه فأقام في دار المملكة ملتجئاً إلى القهرمانة وتلطف أبو جعفر له طمعاً في أن يصير إليه فلم يفعل فأنفذ من وكل به في موضعه. وتردد بينه وبين القهرمانة قول كثير انتهى آخره إلى أن كتبت خطاً بتسليمه وأنها تمتثل ما يرد إليها في معناه فصرف التوكيل حينئذٍ عنه. وأنفذ ابن إسماعيل إلى بارُسطغان وبدرك ووضعهما على أن جمعا جمعاً كثيراً من الغلمان وصاروا إلى تحت دار أبي جعفر وراسلوه وقالوا له: قد كانت أحوالنا مختلّة وأموالنا متأخرة إلى أن جاء هذا الرجل فتلافى أمورنا بحسن التدبير وقد حاولتَ الآن بورودك القبض عليه وإزالة هذا الترتيب ونحن لا نمكِّن منه ونكاتب الملك بشرح الأحوال

وإن دعتنا حاجة إلى الانحدار إليه انحدرنا. وتردد في ذلك ما طال وأفضى آخره إلى رد خط القهرمانة إليها والاتفاق على خروجه ونظره ومكاتبة الملك بما عليه الأولياء من إيثاره. فلما كان من غد خرج أبو علي من الدار وقصد أحد وجوه الأتراك واستتر عنده.

ونظر أبو الحسن العروضي في النيابة عن أبي العباس بن ماسرجس وتشاغل أبو جعفر بتقرير ما بينه وبين أبي حسان المقلد بن المسيب.

ذكر ما جرت عليه الحال في ذلك

أنفذ المقلد إلى أبي جعفر في أمر الصلح وبذل له البذول على حكمه فيه. فاستقر بعد مراجعات ومنازعات على أن يصحح المقلد عشرة آلاف دينار وتحمَل إلى الخزانة بواسط ويقود معها خيلاً ويرفع يده عن الاقطاعات ويقنع بما يقرَّر له من رسوم الحماية عنها ويمكن العمال من المحلول ويشد منهم في استيفاء الحقوق السلطانية ويفرج عن الديلم المأسورين ويخطب لأبي جعفر بالموصل بعد بهاء الدولة ويحمل في كل سنة ألف ألف درهم غياثية عنها وعلى أن يخلع على المقلد الخلع السلطانية من دار الخلافة ويكنّى ويلقَّب بحسام الدولة ويحمل له اللواء ويعقد له بهاء الدولة على الموصل والكوفة والقصر والجامعين ويقلّد زعيم العرب ويقطعه بألف ألف درهم غياثية من المحلول. فأجيب إلى ما التمسه وجلس القادر باللّه رضوان اللّه عليه لذلك على العادة.

ولم يف المقلد بجميع ما أشرطه على نفسه إلا بحمل المال المعجل وإطلاق الديلم المأسورين ثم استولى على البلاد فقصده الكتّاب والمتصرفون والأماثل وخدموه ونبل قدره واستفحل أمره.

وفيها توفي العلاء بن الحسن بعسكر مكرم وورد أبو الطيب الفرخان وبعده أبو علي بن أستاذ هرمز شيراز.

ذكر ما جرى عليه الأمر بعد وفاة العلاء بن الحسن

قد تقدم ذكر خروج العلاء إلى عسكر مكرم في أثر الغلمان العائدين من أرجان مع أبي محمد بن مكرم ومقامه بها مرتباً للأمور ثم جاءه أمر اللّه الذي لا يدفعه وورد المنهل الذي لا محيد للبشر عنه. فلما انتهى الخبر إلى صمصام الدولة أنفذ أبا الطيب الفرخان بعد أن استوزره لِسدّ مسدّه فورد ولم يكن منه ما ظن فيه فبان منه العجز والقصور وتقاعد به الديلم وملك أصحاب بهاء الدولة السّوس وجنديسابور. وعرف صمصام الدولة ما جرى فأنفذ الصاحب أبا علي بن أستاذ هرمز وأصحبه مالاً ففرَّقه على الديلم وسار بهم إلى جنديسابور ودفع الأتراك عنها وجرت مع الأتراك وقائع كثيرة كانت اليد الطويلة لأبي علي فيها حتى أزاحهم عن بلاد خوزستان وعادوا إلى واسط. فخلت

له البلاد ورتب فيها العمال وجمع منها الأموال وتأمل حال الاقطاعات بها. فجرى بين سيامرد بن بلجعفر وبين عامل لأبي عليّ تنازع في حدٍّ وارتفع النزاع فيه إليه فأربى سيامرد في القول بمجلسه فغاظهُ.

ذكر تدبير يدل على قوة نفس وشهامة

أمر أبو علي أن يعمل عملاً بما في يد سيامرد وداود ولده وأبي علي بن بلعباس فاشتمل العمل على مائة ألف دينار وزيادة فأحضر الثلاثة المذكورين وكتّابهم للموافقة ثم عدل بهم إلى حجرة وقبض عليهم وقيّدوا وأخرِجوا بعد أيام على النفي إلى بلاد الديلم. وجعل اقطاعهم لخمسمائة رجل من الديلم الأصاغر وثلاثمائة رجل من الأكراد بعد أن أفرد منه شيئاً للخاص فتمكنت هيبته في الصدور وتضاعفت قوّته في الأمور وتألّف قلوب الديلم وراسل وجوه الأتراك الذين مع بهاء الدولة واستمالهم فأجابه بعضهم وصار إليه من جملتهم قراتكين الريحي فملأ عينه وقلبه بالإحسان.

واستمرت أحواله على الانتظام والتمكن من أعمال خوزستان من غير منازعة إلى أن عاد أبو محمد بن مكرم والأتراك من واسط. فلما عرف أبو علي بن أستاذ هرمز رجوعه استعد للحرب وجرت بينهم مناوشات ووقائع. ولم يكن للغلمان قدرة على إزالة الديلم من قصبات البلاد وأشرفوا على الانصراف ثانياً إلى واسط حتى خرج أبو علي بن إسماعيل من البطيحة وسيَّر بهاء الدولة من القنطرة البيضاء وكان من الأمر ما يأتي ذكره في موضعه.

وفيها كوتب أبو جعفر الحجاج بالمسير من بغداد لقصد أبي الحسن علي بن مزيد وسار ابن ماسرجس من واسط لذلك.

ذكر ما جرى عليه الأمر مع أبي الحسن علي بن مزيد

كان علي بن مزيد قد استوحش من بهاء الدولة بسبب مال طولب به فكاشفه بالخطاب وانتسب إلى طاعة صمصام الدولة وأقام الخطبة له وأطلق لسانه بكل ما يوجب السياسة الإمساك عنه وانبسطت بنو أسد في الغارة على نواحي واسط. فغاظ بهاء الدولة فعلهُ وعرض من أمر المقلد ما استقل به عن غيره فلما استقرت الحال معه كتب بهاء الدولة إلى أبي جعفر بالمسير إلى ابن مزيد من بغداد وسيَّر أبا العباس بن ماسرجس من واسط فاجتمعا. واندفع أبو الحسن علي بن مزيد من بين أيديهما معتصماً بالآجام وتتبعاه فراسلهما واستعطفهما وسأل إصلاح أمره مع بهاء الدولة وبذل على ذلك بذلاً. وكان الأمر قد ضاق بهما في المقام وتعذّر عليهما وعلى العسكر نقل المير لبعدهم عن السواد فكاتبا بهاء الدولة في أمره وسألاه الصفح عنه وإقراره على ما يتولى الخدمة فيه فأجاب إلى

ذلك وسار أبو جعفر وابن ماسرجس إلى الكوفة فأما أبو جعفر فإنه عاد إلى بغداد وأما ابن ماسرجس فإنه أقام بالكوفة مستوحشاً ثم صار إلى المقلد ومضى من عنده إلى البطيحة.

وفيها توفي فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة بالري.

ذكر ما جرى عليه الأمر بعد وفاة فخر الدولة

لما اشتدت العلة به أصعد إلى قلعة طبرك فبقي أياماً يعلل ثم مضى لسبيله. وكانت الخزائن جميعها مقفلة ومفاتيحها قد حصلت عند أبي طالب رستم ولده الملقب من بعده بمجد الدولة فلم يوجد ليلة وفاته ما يكفَّن به لقصور الأيدي عما في الخزائن وتعذر النزول إلى البلد لشدة الشغب حتى ابتيع له من قيّم الجامع الذي تحت القلعة ثوب لفَّ به. وجاء من الشغل بالجند ومطالبتهم العنيفة ما لم يمكن معه حطه سريعاً فأراح حتى لم يمكن القرب من تابوته فشُدَّ بالحبال وجُر على درجة القلعة حتى تكسَّر وتقطع.

وذكر أنه خلَّف من العين والورق والجواهر سوى الثياب والسلاح والآلات ما يزيد على عشرة ألف ألف درهم فكان نصيبه من أمواله الثوب الذي كفِّن فيه وعاقبته من أيامه اليوم الذي حطَّ فيه. فما أقله من نصيب مبخوس وأشأمه من يوم منحوس فما أغني عنه ماله وما كسب ثم ربه أعلم بما صار إليه من شقاوة أو حوقق أو سعادة أو سومح.

ورتب أبو طالب رستم ولده في الأمر وسنهُ إذ ذاك أربع سنين فأخذت له البيعة على الجند وأطلقت له الأموال الكثيرة حتى قيل إن الأمر أعجلهم عن حط المال من القلعة على رؤوس الرجال فحطوه بالزبل والبكر والحبال.

والوزيران يومئذٍ هما أبو العباس الضبي المتلقب بالكافي الأوحد وأبو علي بن حمولة المتلقب بأوحد الكفاة وبينهما أشد عداوة. فبسط أبو علي بن حمولة يده في إطلاق الأموال واستمالة الرجال فمالت قلوب الجند إليه ووقعت أهواؤهم عليه وامتنع أبو العباس الضبي عن مثل ذلك إلا أنه معظم لمنزلته المتأثّلة وقدمه المتقدمة.

فتجدد من ورود قابوس بن وشمكير إلى جرجان واستيلائه عليها ما وقع الخوض في تدبير خطبه.

ذكر عود قابوس إلى جرجان وما جرى الأمر معه عليه

كان فخر الدولة عند استقراره في الملك عزم على رد قابوس إلى أعماله قضاءً لحقه ومقابلة على إحسانه فصدَّهُ ابن عباد عن رأيه وكثَّر ارتفاعها في عينه فوقر هذا القول في سمعه لشحٍّ مطاع كان في طبعه. فلما مات كتب أهل جرجان إلى قابوس وهو بنيسابور يستدعونه فصار إلى بلادهم وملكها وورد الخبر إلى الري بذلك فجرت في ذلك منازعات في الرأي وكوتب بدر بن حسنويه بسببه.

ذكر جواب سديد لبدر خولف رأيه فيه

قال: إن الأمير الذي ورث هذا الملك حدث السن ولا ينبغي أن يضيع ماله وذخائره فيما لا تتحقق عواقبه ومصايره والصواب أن نترك الأمر على حاله فإن يك نجيباً على ما عهد من خلائق آبائه قدر على ارتجاع ما أخذ منه وإن ضعف عن ذلك لم تكونوا جمعتم عليه (ذهاب) ماله وذهاب أعماله. فخالفوا رأي بدر وجردوا العساكر وأشار أصحاب أبي علي بن حمولة ونصحاؤه عليه بالخروج في هذا الوجه واستصحاب الخزائن والأموال وقالوا: إنك إذا حصلت بجرجان وملكتها كنت أميراً لا وزيراً وكانت الحاجة إليك داعية والآمال بك متعلقة وبعدتَّ عن الحضرة التي أنت فيها مجاذب على المنزلة. وغبى أن قاعدة غيره التي يبني عليها أمره هي بتلك الحضرة وإلى من يزاحمه في الرتبة يترقب به الفرصة في نقصها لكن هيهات قيامه عليها وإذا بعد عنها أسرعت اليد الهادمة إليها. فعمل فيه قول هؤلاء النصحاء المجتمعين عليه وسار بالخزائن والأموال لأمر تسوقه المقادير إليه وحصل بين عدوَّين أحدهما أمامه لا يعلم ما يكون منه معه وأخر وراءه يقصد مقاتله.

ووافى قابوس وتصافا في الحرب فما كانت إلا حملة واحدة من أصحاب قابوس حتى انهزم أصحاب أبي علي بن حمولة وغنم قابوس وأصحابه غنيمة كثيرة وعاد إلى جرجان. وثبتت قدمه بأحسن السيرة ورفع الرسوم الجارية والضرائب المأخوذة.

وعاد أبو علي إلى الري مفلولاً ووقع الشروع في تجريد العساكر ثانياً إلى جرجان فقال أبو علي: قد خرجت نوبة وهذه نوبة أبي العباس الضبي. وتردد في ذلك قول كثير ثم أجمع رأي السيدة ورأي بدر بن حسنويه على صرف أبي علي بن حمولة والقبض عليه.

ذكر ما جرى الأمر عليه في القبض على ابن حمولة

حضر أبو عيسى سافري بن محمد كاتب بدر مظهراً تجديد العهد بالخدمة واجتمعت الجماعة في دار الإمارة وخلوا في الحجرة الركنية لتقرير أمر من يخرج إلى جرجان فاتفق أن ابن حمولة نهض لحاجة يقضيها فاتبع بمن عدل به إلى موضع في الدار وقُيد وانصرف أبو العباس الضبي إلى داره وأبو عيسى إلى دار علي بن كامة وكانت برسمه وهي طرف البلد. وشاع خبر القبض على ابن حمولة فثار الديلم وقصدوا دار أبي عيسى ليهجموا عليه فهدم حائطاً منها يلي الصحراء وخرج منه وركب وتبعه أصحابه ووقف على قرب من البلد حتى أخرج إليه ابن حمولة فسار به إلى بلاد بدر وحبسه في بعض القلاع وأنفذ إليه من الري بعد أيام من تولى قتله.

وأقام الديلم على شغب ونهبوا دار أبي العباس وطالبوا بتسليمه واقتضت الحال عند تفاقم الأمر القبض عليه ففعل ذلك وحُمل في عمارية وهو مقيد وقد أخرجت رجلهُ

منها ليشاهد القيد فيها بحضرة العسكر وأصعد إلى قلعة طبرك. وكان الجند قد هموا بالفتك به وكفَّ اللّٰه سبحانه وتعالى أيديهم عنه وألقى في قلوبهم هيبة منه فلما حصل في القلعة راسل أكابر الديلم واستمالهم وأصلحوا له قلوب أصاغرهم واجتمعوا بعد ثلاثة أيام وتشاوروا بينهم وقالوا: قد مضى ذاك الوزير الذي قد فعلنا هذا الفعل لأجله ولا يجوز أن نتعوض عن أبي العباس مع رياسته المأثورة وكفايته المشهورة بغيره. فصاروا إلى دار الإمارة وخاطبوا السيدة على ذلك فاستقر الرأي على خروجه ونظره فخرج في اليوم الرابع من القلعة وتلقاه الناس على طبقاتهم بتقبيل الأرض وإظهار السرور. وسيأتي ذكر ما جرى عليه أمره من بعد في موضعه.

وفيها قبض المقلد بن المسيب على أخيه بالموصل.

ذكر القبض على علي بن المسيب والإفراج عنه وما جرى في ذلك من الخطوب في هذه السنة وما بعدها ليتسق الحديث

قد تقدم ذكر ما تقرر بين عليّ والمقلد في أمر الموصل والمشاركة فيها وما وقع من الخلف بين أصحابهما. فلما عاد المقلد من سقي الفرات إلى الموصل عزم على الفتك بأصحاب أخيه ثم علم إنه متى فعل ذلك بهم فعل علي بأصحابه مثله فقوي رأيه في القبض على أخيه. وكان مع المقلد من الديلم والأكراد وغيرهم نحو ثلاثة آلاف رجل تطلق لهم الأرزاق في كل شهر فحين عزم على ما عزم عليه جمعهم إلى داره وأظهر بأنه يريد المسير إلى دقوقا وحلفهم على الطاعة واستوثق منهم.

ذكر الحيلة التي عملها المقلد في ذلك

كانت دار المقلد متصلة بدار علي ولم يكن مع علي إلا نحو مائة رجل من خاصته فأمر بالنقب إلى الموضع الذي هو فيه في ليلة علم فيها إنه سكران ودخل إليه ومعه عدة من خواصه فحمله على ظهر أحد الفراشين وحصّله في خزانته ووكل به جماعة من غلمانه الأتراك. واستدعى في الحال غلامين من البادية وسلم إليهما فرسين جوادين وأرسلهما إلى صاحبته يقول لها: إني قد قبضت على عليّ فخذي حذرك واسرعي في الحال بولديك قرواش وبدران إلى تكريت فإن أحمد بن حماد صديقي وهو يدفع عنكم ولا تخلفي ما تخلفينه وراءك في الحلة قبل أن يعرف أخي الحسن الخبر فيبادر إليك ويقبض على ولديك. فكد الغلامان فرسيهما ركضاً وتقريباً ووصلا إلى تكريت في يومهما عند غروب الشمس وجلسا من تكريت في ركوة وانحدرا إلى موضع الحلة وكانت على أربعة فراسخ منها فأنذرا المرأة وأديا إليها الرسالة. فركبت فرساً وأركبت ولديها فرسين وهما يومئذٍ صغيران وساروا في الليل إلى تكريت فدخلوها. وعرف الحسن بن المسيب حال القبض على أخيه من غلام أسرع إليه من الموصل بالخبر فبادر

الحسن إلى حلة المقلد ليقبض على ولديه وأهله وعنده أنه يسبق إليهم ففاتوه وبطل عليه ما قدره من ذلك.

وقام المقلد بالموصل يستدعي وجوه بني عقيل ويخلع عليهم ويقطعهم إلى أن اجتمع عنده زهاء ألفي فارس. وقصد الحسن حلل العرب بأولاد علي وحرمه يستغيثون ويستنفرون ويقولون «إن المقلد قطع الرحم وعادى العشيرة وقبض على أميرها وانحاز إلى السلطان» فنفر منهم نحو عشرة آلاف رجل وراسل المقلد وقال: إنك قد احتجزت عنا بالموصل وأقمت فإن كان لك قدرة على الخروج فاخرج. فأجابه بأنه يخرج ولا يتأخر وسار على أثر الرسول وأخرج معه علياً أخاه في عمارية وهو محروس في نفسه مراعي في أحواله إلا أنه مستظهر عليه بالتوكيل. وقرب من القوم حتى لم يبق بين الفريقين إلا منزل واحد بإزاء العلث وجد في أمر الحرب فحضره وجوه العرب واختلفت آراؤهم فقوم دعوه إلى الصلح وصلة الأرحام وقوم حضوه على المضي والإقدام. وكان في القوم غريب ورافع ابنا محمد بن مقن فتنازعا القول عند المقلد وظهر من رافع حرص على الحرب وخالف غريب.

ذكر كلام سديد لغريب

قال لرافع: ما قولك هذا بقول ناصح أمين ولا ناصر معين فإن كنت في هذا الرأي عليه فقد أخفرت الأمانة وأظهرت الخيانة وإن كنت معه فقد سعيت في تفريق الكلمة وهلاك العشيرة وإطماع السلطان. والمقلد ممسك لا يتنفس فدخل عليه داخل وقال له: أيها الأمير هذه أختك رهيلة بنت المسيب (وكانت عند جعفر بن علي بن مقن) قريبة منك تريد لقاءك. فامتدت الأعين إليها فإذا هي في هودج على بعد فركب المقلد وسار حتى لحق بها وتحادثا طويلاً ولا يعلم أحد ما جرى بينهما إلا أنه حكى فيما بعد أنها قالت له: يا مقلد قد ركبت مركباً وضيعاً وقطعت رحمك وعققت ابن أبيك فراجع الأولى بك وخل عن الرجل واكفف هذه الفتنة ولا تكن سبباً لهلاك العشيرة ومع هذا فإنني أختك ونصيحتي لاحقة بك ومتى لم تقبل قولي فضحتك وفضحت نفسي بين هذا الخلق من العرب. فلان في يدها ووعدها بإطلاق علي وعاد في وقته فأمر بفك قيده ورد عليه جميع ما كان أخذه منه وأضاف إليه مثله ورتب له مخيماً جميلاً ونقله إليه واستكتب له أبا الحسن بن أبي الوزير وجعله عيناً عليه متصرفاً على أمره بين يديه.

فأصبح الناس مسرورين بما تجدد من الصلح وزال من الخلف واجتمع المقلد مع علي وتحالفا ومضى علي عائداً إلى حلته والمقلد سائراً إلى الأنبار لقصد أبي الحسن علي بن مزيد ومقاتلته. فقد كان تظاهر بمعصية علي حين قبض عليه المقلد وطرق أعمال سقي الفرات واجتذب شيئاً منها.

ولما انفصل علي بن المسيب اجتمع إليه العرب وحملوه على مباينة المقلد فامتنع عليهم وقال: إن كان قد أساء فإنه قد أحن من بعد فما زالوا حتى غلبوه على رأيه وأصعد إلى الموصل مبايناً واعتصم من كان معه من أصحاب مقلد بها بالقلعة فنازلها وفتحها واستولى على ما كان فيها. فطار الخبر إلى المقلد فكر راجعاً واجتاز في طريقه على حلة الحسن وهو فيها فخرج إليه وشاهد من قوة عسكره ما خاف على أخيه منه فقال له: دعني أصلح ما بينك وبين أخيك وأضمن لك العهد فيما تريد منه ورفق به حتى استوقفه وسار في الوقت إلى علي من غير أن يعود إلى حلته فوصل إليه آخر النهار وقد جهد نفسه وفرسه وقال لعلي: إن الأعور قد أقبل بقضه وقضيضه وأنت غافل. ثم شاوره فأشار عليه أن يستميل كل من بالموصل من أهالي الجند الذين هم في جملة المقلد ويضعهم على توسط ما كان بينهم واستمالتهم فإن قبلوا وفارقوا المقلد قاتله وإن امتنعوا وأقاموا معه صالحه ففعل ذلك.

وكان المقلد قد قرب من الموصل وبات وهو متيقظ قد رتب الطلائع فظفر بقوم قد وردوا بالملطفات إلى أصحابه فحملوهم إليه ووقف على ما معهم من الكتب فأصبح وقد عبى عسكره وزحف إلى الموصل وأيس علي والحسن من فساد جند المقلد عليه فخرج إليه ولاطفه ثم دخل البلد وعلي عن يمينه والحسن عن شماله. وناوش العرب بعضهم بعضاً طلباً للفتنة فخرج الحسن حلا وأرهب قوماً وحسم الفتنة وحصل جميع الناس بالموصل على صلح.

ثم خوف علي من المقام فخرج هارباً في الليل وتبعه الحسن وترددت الرسل بينهما وبين المقلد واستقر أن يكون دخول كل واحد منهما البلد عن غيبة الآخر وجرت الحال على ذلك إلى بقية سنة ٣٨٩. وسار المقلد إلى الأنبار ممضياً لما كان عزم عليه من حرب علي بن مزيد فدخل بلده واندفع علي بن مزيد إلى الرصافة ولجأ إلى مهذب الدولة فقام بأمره وتوسط ما بينه وبين المقلد حتى أصلحه وانصرف المقلد إلى دقوقا ففتحها. وعدل إلى تدبير أمر الحسن أخيه فإن علياً مات في أول سنة ٣٩٠ وقام الحسن في الإمارة مقامه. فجمع المقلد بني خفاجة بحللهم وبيوتهم وأصعد بهم إلى نواحي برقعيد يظهر طلب بني نمير ويبطن الحيلة على أخيه. وعرف الحسن خبره فخاف ومضى في السر هارباً على طريق سنجار إلى العراق فأسرى خلفه طمعاً في اللحاق ففاته وعاد المقلد إلى الموصل وأقام بها ثلاثة أيام وانحدر يقص آثاره فمضى الحسن إلى زاذان واعتصم بالعرب النفاضة وتمم المقلد إلى الأنبار وعادت خفاجة معه. فاتفق في أمره ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء اللّه.

وفيها عاد الشريف أبو الحسن محمد بن عمر إلى بغداد نائباً عن بهاء الدولة.

وفيها استكتب ولد أبي الحسن بن حاجب النعمان للأمير أبي الفضل بن القادر باللّه رضي اللّه عنهما وجلس الأمير أبو الفضل وسنه يومئذٍ خمس سنين فدخل إليه الناس وخدموه.

ودخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

وفيها هرب عبد اللّه بن جعفر المعروف بابن الوثاب من الاعتقال في دار الخلافة.

شرح حاله وما انتهى إليه أمره بعد هربه

هذا الرجل كان يقرب بالنسب إلى الطائع للّه وكان مقيماً في داره فلما قبض عليه وخلع من الأمر هرب هذا وتنقل في البلاد وصار بالبطيحة وأقام عند مهذب الدولة فكاتبه القادر باللّه رضوان اللّه عليه في أمره فأخرجه من بلده. ثم صار إلى المدائن منتقلاً فأنهى إلى القادر باللّه خبره فأنفذ من اعترضه وأخذه مقبوضاً عليه وحبس في بعض المطامير. فأمكنه فرصة في الهرب من موضعه فهرب ومضى إلى كيلان وادعى أنه هو الطائع للّه وذكر لهم علامات عرفها بحكم أنسه بدار الخلافة فقبلوه وعظموه وزوجه محمد بن العباس أحد أمرائهم ابنته وشدَّ منه وأقام له الدعوة في بلده وأطاعه أهل نواح أخر وأدوا إليه العشر الذي جرت عادتهم بأدائه إلى من يتولى أمرهم في دينهم. وورد من هؤلاء الجيل إلى بغداد قوم وصلوا إلى حضرة القادر باللّه رضي اللّه عنه فأوضحت لهم حقيقة الحال وكتب على أيديهم بإزالة الشبه فلم يقدح ذلك فيه لاستقرار قدمه واعتضاده بحميه.

وكان أهل جيلان يرجعون إلى القاضي أبي القاسم بن كج في أمور دينهم وفتاويهم في أحكامهم وله وجاهة عندهم فكوتب من دار الخلافة ورسم له مكاتبتهم بما يزيل الشبهة عن قلوبهم في أمر عبد اللّه بن جعفر فكتب إليهم وصادف قوله قبولاً منهم وتقدموا إلى عبد اللّه بالانصراف عنهم فانصرف.

وفيها أصعد أبو علي بن إسماعيل من البطيحة إلى حضرة بهاء الدولة فانصرف الشريف أبو الحسن محمد بن عمر من بغداد مستوحشاً وعاد إلى البطيحة.

ذكر الحال في حصول أبي علي بن إسماعيل بواسط ناظراً وما جرى عليه أمر الشريف أبي الحسن بن عمر معه

قد تقدم ذكر ما جرى عليه أمره في استتاره ثم تنقل من موضع إلى موضع حتى حصل بالبطيحة وعرض له مرض حدث به منه استرخاء في مفاصله وصار إلى قرية

إبراهيم يطلب صحة الهواء بها. وراسل وروسل وكان بهاء الدولة جميل النية فيه وانضاف إلى ذلك قصور المواد عنه وخروج البلاد عن يده واحتياجه إلى من يدبر أمره واستقر النظر لأبي علي وأصعد إلى واسط. فلما حصل بها استوحش الشريف أبو الحسن بن عمر وانصرف بغداد إلى حلة مقلد ورتب أبا الحسن بن إسحاق كاتبه في ضياعه بسقي الفرات وتمم إلى البطيحة. وشرع أبو علي بن إسماعيل في تتبع أسباب الشريف أبي الحسن وأخرج ثلاثة من المتصرفين لقبض أملاكه ومعاملاته وتحصيل أمواله وغلاته فنظروا فيما كان له ببغداد دون ما كان له بسقي الفرات فإن المقلد دفعهم عنها ومكن أبا الحسن بن إسحاق كاتب ابن عمر منها فكان يتناول ارتفاعها ويحمله إليه وهو بالبطيحة فلما انصلح ما بين الشريف أبي الحسن وبين أبي علي ضمن منه المتصرفين الثلاثة بمال بذله عنهم وأطلق يده فيهم وكان ذلك لؤماً منه فما المؤتمر بالظلم بأظلم من الآمر.

ذكر السبب في صلاح ما بين الشريف أبي الحسن محمد بن عمر وأبي علي بن إسماعيل

كان أبو الحسن بن يحيى السابسي سعى في الصلح بينهما وانحدر إلى البطيحة وخلا بالشريف أبي الحسن بن عمر وقال له: أيها الرجل ما لك والتطرح والتشبث كلما تجدد ناظر ووزير مغرراً بنعمتك ونعمنا في معاداة من لا نصلح لموضعه ولا يصلح لموضعنا؟ وهذا أبو علي مخايل سعادته لائحة فسالمه ودعني أتوثق لكل واحد منكما من صاحبه. ولم يزل به حتى لانت عريكته للقبول.

واتفق أن مهذب الدولة تنكر على أبي علي بن إسماعيل بسبب تمور كانت لابن الحداد صاحبه فاستقصى أبو علي في استقضاء ضريبتها بواسط فأطلق مهذب الدولة لسانه فيه ومهذب الدولة يومئذٍ بحيث يحتاج إليه الملك ومن دونه فانحدر أبو علي إليه لاستلال سخيمته واستصلاح نيته وتقدمه أبو الحسن بن يحيى السابسي وقال للشريف أبي الحسن بن عمر: قد ورد أبو علي وأمكنت الفرصة في إصلاح الحال. وأشار عليه بتلقيه وقضاء حقه فتلكأ قليلاً ثم فعل ونزل في زبزبه وصار إلى أبي علي فلما صعد إليه أكرمه وقام له وأجلسه إلى المخدتين وحضر أبو نصر سابور فجلس إلى جانب أبي علي عن يمينه وسلم كل واحد منهما على صاحبه وسأله عن خبره ثم قام الشريف.

وانحدر أبو علي إلى مهذب الدولة واجتمع معه واعتذر إليه وأخذ معه منه خمسة آلاف دينار على وجه القرض وخرج من عنده إلى داره التي كان نزلها قبل الإصعاد. وجاء أبو الحسن بن يحيى إلى الشريف وألزمه العود إليه وقال له: تلك النوبة كانت للتلقي وهذه للصلح وتقرير القاعدة. فمضى إليه وتقرر بينهما على أن التزم الشريف عشرين ألف دينار

وحلف كل واحد منهما لصاحبه على الصفاء والوفاء. وكان الشريف أبو الحسن قد استوثق قبل ذلك من بهاء الدولة بيمين كتبها له بهاء الدولة بخطه واستظهر بأخذ خط مهذب الدولة في آخرها يقول: إن الوفاء للشريف مقرون بالوفاء لي والغدر به معقود بالغدر بي ومتى عدل به عن العهود المأخوذة فلا عهد لبهاء الدولة في عنقي ولا طاعة علي.

والتفت أبو علي إلى تقرير أمر أبي نصر سابور فواقفه على الإصعاد وآمنه من بهاء الدولة ومن كل ما يتخوفه وقرر أمر أبي غالب محمد بن علي بن خلف وغيره ممن كان قد بعد خوفاً على خمسة آلاف دينار فحصل معه من هذه الوجوه ثلاثون ألف دينار. وعاد إلى واسط وفي صحبته الشريف أبو الحسن وأبو نصر سابور وجماعة من كان بالبطيحة من المتصرفين وسكنت الجماعة إلى صدق وعد أبي علي وصحة عهده ولقب بالموفق.

وأشار على بهاء الدولة بالمسير إلى خوزستان ومباشرة الخطب بنفسه وجد في تجريد العساكر فخالفه أبو عبد الله العارض في هذا الرأي وقال: إن الملوك لا تغرّر ولا تخاطر ولا تضمن لها العاقبة في أمثال ذلك.

ذكر ما دبره أبو علي في نصرة رأيه

أرسل إلى الشريف أبي الحسن وقال: إني صائر إليك في هذه العشية وكانت في شهر رمضان ثم صار إليه ومعه أبو العلاء الإسكافي خاله وأبو نصر سابور فأفطروا عنده ثم خلوا وخامسهم السابسي فقال أبو علي لأبي الحسن بن عمر: قد علمت أيها الشريف ما عليه أمر هذا الملك من الاختلال وقصور المادة به وخروج البلاد عن يده وإننا من هذه الحروب والمطاولة على خطر ومتى لم يمدد أصحابنا (يعني أبا محمد بن مكرم والغلمان الذين معه) بالمال لم يثبتوا وإن عادوا فقد سلموا الدولة وإذا أمددناهم ضاق الأمر بهذا الملك ولم يكن له بد من مد اليد إلى مالك ومال ابن عمك هذا (وأشار إلى أبي الحسن السايسي) ومال كل ذي ثروة ولم يدفع عنكم ولا عنا دافع وإن ساعدتني على ما أشير به من مسير بهاء الدولة بنفسه كنا بين أن يأتي الله بنصر فقد بلغنا المراد أو يقضي الله بغير ذلك فقد أبلينا العذر وبذلنا الاجتهاد. وفي غد تستدعي إلى الدار وتشاور فيما قلته فإن ضربته فقد استرحت منا ببعدنا عنك وعسى الله أن يأذن بالفرج وإن ملت إلى من يشير بخلاف هذا الرأي فالحال تفضي والله إلى ما حسبته لك. فقال الشريف: كل هذا صحيح إلا أن المشورة القاطعة على الملوك بمثل ذلك لا تؤمن عواقبها ولكن سأتلطف فيما تريده. فانقضى المجلس.

واستدعي الشريف في صبيحة تلك الليلة إلى حضرة بهاء الدولة وجمع وجوه الأولياء وشوورت الجماعة في خروج بهاء الدولة بنفسه فقال الشريف: إنما جعل الله الملوك أعلى منا يداً وأفضل تأييداً بما خصهم من الرأي الصائب والنظر الثاقب وإذا كان

الملك قد عزم على التوجه بنفسه فاللّه تعالى يقرن ذلك بالخيرة والسعادة ويجعله سبباً لنيل الإرادة. فقال أبو علي بن إسماعيل: أيها الملك فقد وافق الشريف رأيي ولم يبق إلا إمضاء العزيمة وتقديمها. وتفرق الناس على ذلك.

ذكر مسير بهاء الدولة من واسط إلى القنطرة البيضاء

لما استقر الأمر على المسير بدأ أبو علي بإخراج أبي الحسن محمد بن عمر وأبي نصر سابور وأبي نعيم الحسن بن الحسين إلى بغداد على أن يكون إلى أبي الحسين حفظ البلد وإلى أبي نصر ملاحظة الأمور وإلى أبي نعيم جمع المال وإقامة وجوه الأقساط. ثم جد في تسيير بهاء الدولة وتحصيل ما يزجي به الأمر من الآلات والظهور حتى استعان ببغال الطحانين وسار على اختلال في أهبته وإقلال من عدته حتى نزل الموضع المعروف بالقنطرة البيضاء وثبت أبو علي بن أستاذ هرمز بإزائه وجرت بين الفريقين وقائع كثيرة وضاق ببهاء الدولة وبعسكره الميرة فاستمد من بدر بن حسنويه فأمدَّه بدر بما قام ببعض الأوَد وأشرف الأمر على الخطر. ووجد أعداء أبي علي بن إسماعيل مجالاً في الطعن على رأيه بتعريض الملك وأوغر صدر بهاء الدولة عليه حتى كاد يبطش به فتجدد من خروج ابني بختيار وقتل صمصام الدولة ما يأتي ذكره وجاء من الفرج ما لم يكن في الحساب وانقلب الرأي الذي كان خطأ إلى الصواب.

ربما تجزع النفوس من الأمر لـه فـرجـة كـحـل الـعـقـال

فاجتمعت الكلمة على بهاء الدولة ودخل أبو علي بن أستاذ هرمز ومن معه من الديلم في طاعته وسيأتي شرح ذلك من بعد بمشيئة اللّه تعالى.

وفيها جلس القادر باللّه رضوان اللّه عليه للرسولين الواردين من أبي طالب رستم بن فخر الدولة وأبي النجم بدر بن حسنويه وكنى أبا النجم بدراً ولقَّبه نصرة الدولة وعهد لأبي طالب على الري وأعمالها وعقد له لواء وحمل إليه الخلع السلطانية الكاملة وعهد لبدر على أعماله بالجبل وعقد له لواء وحمل إليه الخلع الجميلة وذلك بسؤال بهاء الدولة وكتَّابه. فأما مجد الدولة فإنه لبس الخلع وتلقب وأما بدر فإنه كان سأل أن يلقب بناصر الدولة فلما عُدل به عنه إلى نصرة الدولة توقف عن اللقب ثم أجيب فيما بعد سؤاله فلقب بناصر الدين والدولة فقبله وكتب وكوتب به.

وفيها حدثت بفارس أمور كانت سبباً لانتقاض ملك صمصام الدولة وقتله في آخرها.

شرح الحال في الأمور التي أدت إلى قتل صمصام الدولة

قد تقدم ذكر ما كان العلاء بن الحسن اعتمده بعد تلك النكبة التي صار بها موتراً من السعي في هلاك الدولة بإطماع الجند وإيجاب الزيادات التي تضيق المادة عن القيام بها ثم مضى لسبيله وقد اضطربت أمور صمصام الدولة وطال تبسط الديلم عليه وقصرت مواده

عما يرضيهم به. فامتدت عيونهم إلى اقطاع السيدة والرضيع والحواشي فبدأ الديلم الذين كانوا بفسا وطالبوا عاملها بما استحقوه وألزموه مد اليد إلى الاقطاعات للمذكورين وإرضائهم بها فأبى عليهم فثاروا وشغبوا وحملوه إلى باب شيراز على غضب وشغب فلم يقدم أحد من أصحاب صمصام الدولة على الخروج إليهم وأقاموا ثلاثة أيام ثم قتلوا العامل وذكروا الحواشي بما أزعجهم فبعدوا عن مواضعهم خوفاً منهم. وخرج صمصام الدولة بنفسه إليهم فلقوه بالغلظة ولقيهم بالرفق واشتدوا عليه ولان لهم وأجابهم إلى ملتمساتهم وسكنوا وعادوا إلى مواضعهم بفسا فاستولوا على اقطاعات الحواشي جميعها.

ومضت على ذلك مدة وزاد الأمر على صمصام الدولة في انقطاع المواد عنه واجتماع الديلم عنده ومطالبتهم له فضاق بهم ذرعاً.

ذكر رأي خطأ لم تحمد عواقبه

أشار على صمصام الدولة نصحاؤه بعرض الديلم في جميع الأعمال وإمضاء كل من كان صحيح النسب أصيلاً وإسقاط كل من كان متشبهاً بالقوم دخيلاً والاتساع بما ينحلّ من الاقطاعات عنهم بهذا السبب فعمل هذا القول فيه وعزم على العمل به وتقدم إلى مدبري أمره بذلك فقيل له: إن ديلم فسا يتميزون بكثرة العدد وشدة البطش ولا يقدر على عرضهم إلا أبو جعفر أستاذ هرمز بن الحسن فإن له معرفة بالأنساب والأصول وهيبة في العيون والقلوب. فاستقر الأمر على استدعائه من كرمان وإخراج أبي الفتح أحمد بن محمد بن المؤمل ليقوم مقامه بها ففعل ذلك وعاد أبو جعفر فأخرج إلى فسا فلما حصل بها وأظهر ما رسم له وبدأ بالعرض ومسير الصفاء من الأوباش فما استتم العرض حتى سقط بها ستمائة وخمسين رجلاً وفعل أبو الفتح بن المؤمل مثل ذلك فأسقط نحو أربعمائة رجل. وحصل هؤلاء المسقوطون وهم أرباب أحوال وأولو قوة وبأس متشردين متلددين يطلبون موضعاً يقصدونه ومنشراً يصعدونه.

واتفق أن ابني بختيار وهما أبو القاسم إسبام وأبو نصر شهفيروز قد خدعا الموكلين بهما في القلعة فِساعدوهما وأفرجوا عنهما فجمعا إلى نفوسهما من لفيف الأكراد من قوي به جانبهما واتصل خبرهما بمن أسقط من الديلم فصاروا إليهما فوجاً بعد فوج. فلما استحكم أمرهما سارا لأخذ البلاد وصار أبو القاسم إسبام إلى أرجان فملَكها ودفع أصحاب صمصام الدولة عنها وتردد أبو نصر شهفيروز في الأعمال مستمداً للأموال ومستميلاً للرجال. وتحير صمصام الدولة في أمره ولم يكن بحضرته من ينهض بالتدبير ليقضي اللّه أمراً سبق في التقدير.

وكان أبو جعفر أستاذ هرمز مقيماً بفسا على ما تقدم ذكره فلما تجدد من ابني بختيار ما تجدد اجتمع إليه نسوة من نساء أكابر الديلم المقيمين بخوزستان عند أبي علي

ولده وكنّ يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير.

ذكر رأي سديد أشرن به على أبي جعفر فلم يقبله

قلن له: أنت وولدك اليوم صاحبا هذه الدولة ومقدماها وقد لاحت لنا أمور نحن مشفقات منها ومعك مال وسلاح وإنما يراد مثل ذلك للمدافعة عن النفس والجاه. فالصواب أن تفرق ما معك على هؤلاء الديلم الذين هم عندك وتأخذهم وتمضي إلى شيراز وتسير صمصام الدولة إلى الأهواز وتخلصه من الخطر الذي قد أشرف عليه فإنك إذا فعلت ذلك أحييت الدولة وقضيت حق النعمة وتقربت الرجال إلى قلوب رجالنا المقيمين هناك. ومتى لم تقبل هذه المشورة وثب هؤلاء الديلم عليك ونهبوك وحملوك إلى ابني بختيار فلا المال يبقى ولا النفس تسلم. فشح أستاذ هرمز بما معه وغلب عليه حب المال فغطى على بصيرته حتى صار ما أخبر به حقاً فنهب داره واصطبله ونجا بنفسه واستتر في البلد فدل عليه وأخذ وحمل إلى ابن بختيار ثم احتال لنفسه فخلص من يده.

ذكر ما جرى عليه أمر صمصام الدولة بعد خروج ابني بختيار إلى أن قتل

لما أظله من أبي نصر بن بختيار ما لا قوام له به أشار عليه خواصه ونصحاؤه بصعود القلعة التي على باب شيراز وقالوا له: إنك إذا حصلت فيها تحصنت بها وكان لك من الميرة والمادة ما يكفيك الشهر والشهرين ولم تخل من أن ينحاز إليك من الديلم من يقوى به أمرك. فعزم على ذلك وحاول الصعود إليها فلم يفتح له المقيم فيها فازداد تحيراً في أمره فقال له الجند وكانوا ثلثمائة رجل: نحن عدة وفينا قوة ومنعة وينبغي أن تقعد أنت ووالدتك في عمارية لنسير بك إلى الأهواز ونلحقك بأبي علي بن أستاذ هرمز وعسكرك المقيمين معه ومن اعترضنا في طريقنا دافعنا برؤوسنا عنك وبذلنا مهجتنا دونك. فقال الرضيع: هذا أمر فيه غرر والوجه أن نستدعي الأكراد ونتوثق منهم ونسير معهم. فمال إلى هذا الرأي وراسل الأكراد واستدعاهم وتوثق منهم وخرج معهم بخزينته وجميع ذخائره. فلما بعدوا عن البلد عطفوا عليه ونهبوا جميع ما صحبه وكادوا يأخذونه فهرب وصار إلى الدودمان على مرحلتين من شيراز. وعرف أبو نصر بن بختيار خبر انفصاله فبادر إلى شيراز ونزل بدولتا باذ وطمع طاهر الدودماني رئيس القرية في صمصام الدولة واستظهر عليه إلى أن وافى أصحاب ابن بختيار فأخذوه وقتلوه وذلك في ذي الحجة سنة ٣٨٨ وكانت مدة عمره خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر.

وما أقلها من مدة وأسوأها من عاقبة أمر فلقد كانت حلاوة دولته يسيرة ومرارة مصائبه في ملكه ونفسه كثيرة فما وفى شهده بصابه ولا عوافيه بأوصابه ولم يكن له في أيامه يوم زاهر ولا من ملكه نصيب وافر:

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

وقبض على والدته وعلى الرضيع وقوم من الحواشي. وجاءت امرأة من الدودمان تسمى فاطمة فغسلت جثته وكفنتها ودفنتها وأحضر رأسه في طست بين يدي أبي نصر بن بختيار فلما رآه قال مشيراً إليه «هذا سنة سنها أبوك» وأمر برفعها.

وأما والدته فإنها سلمت إلى لشكرستان كور فطالبها وعذبها فلم تعطه درهماً واحداً فقتلها وبنى عليها دكة. وأما الرضيع فإنه قتل بعد ذلك وبعد أن صودر واستصفى ماله.

ودخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

وفيها دخل أبو علي بن أستاذ هرمز والديلم في طاعة بهاء الدولة واجتمعت الكلمة عليه وملك شيراز وكرمان فاستتبت أموره واستقامت أحواله واستقرت دولته واهتزت سعادته.

شرح ما جرى عليه الحال في ذلك

قد تقدم ذكر نزول بهاء الدولة بالقنطرة البيضاء وتكرر الوقائع بين الفريقين وأقام بهاء الدولة شهرين وأكثر يطلب مناجزة الديلم وهم يقصدون مدافعته ومحاجزته وطال الأمر بينهم. وكان أبو علي بن إسماعيل الملقب بالموفق يباشر الحرب ويتولى التدبير وكان معه مناح صاحب محمد بن عباد مع مائة فارس من السادنجان فرتبهم في الطلائع وأمرهم أن يقتصوا أمر كل من يخرج من السوس أو يدخلها فيأخذوه. وضاق الأمر بالديلم من هذا الحصار وببهاء الدولة من تعذُّر الميرة وتطاول الأيام وأشرف على العود حتى أنه لو تأخر ما تقدم من أمر ابني بختيار وقتل صمصام الدولة لانهزم بهاء الدولة.

ذكر حيلة رتبها أبو علي بن أستاذ هرمز برأيه فكشفها أبو علي بن إسماعيل بألمعيته ودهائه

وكان بهاء الدولة وكَّل رجاله الفرس لأخذ من يوجد في الجواد فظفروا برجل معه زنبيل دستنبوا فحملوه إلى المعسكر وسئل عن أمره فقال: أنا عابر سبيل أتعيش بحمل هذا المشموم من موضع إلى موضع. فهدد وخوّف حتى أقر بأنه رسول الفرخان إلى الصاحب أبي علي بن أستاذ هرمز بملطف معه «إنا سائرون من طريق عند قرب وصولنا فتصمد للقاء القوم» فلما وقف بهاء الدولة على ذلك قلق قلقاً شديداً وقال: كل من يطعن على رأي أبي علي بن إسماعيل ويعاديه... وإن قصدنا من هذا الجانب فقد حصلنا في أيدي القوم أسارى وأعوزنا الهرب وضاق بنا المذهب فتابع بهاء الدولة الرسل إلى أبي علي بن إسماعيل وكان في الحرب يستدعيه فحين حضر أعلمه الحال وأعطاه الملطف فلما قرأه قال: هذا محال. وخرج من بين يديه وأحضر الرجل المأخوذ

وقال له: اصدقني. وعاصه بالجميل فلم يزده على القول الأول فأمر بشده وعمد إليه بدبوس فضربه بيده ضرباً مفرطاً فلما برَّح به الضرب قال: خلوني أصدقكم أنا رجل من أهل السوس استدعاني أبو علي بن أستاذ هرمز وسلم إليَّ هذا الملطف وقال لي: امض وتعرض للوقوع في أيدي أصحاب بهاء الدولة فإذا وقعت وسئلت عن أمرك فقل: «إني رسول الفرخان إلى الصاحب ومعي هذا الملطف» وأصر على قولك وأصبر للمكروه إن أصابك فإني أحسن إليك. فعاد أبا علي بن إسماعيل إلى حضرة بهاء الدولة وأخبره بالصورة وإنها منصوبة فسكن قليلاً وقال للحواشي: إن القول الأول هو الصحيح وإن الضرب والمكروه أحوجا الرجل إلى هذا القول الثاني.

ذكر حزم اعتمده أبو علي بن إسماعيل في تلك الحال

رأى أن الأخذ بالحزم أصوب على كل حال وأنفذ ابن مكرم والفتكين الخادمي مع عدد من الأتراك إلى دستر وأمرهما بالنزول على الوادي للمنع حتى إن حضر من يحاول العبور دفعاه فسارا إلى حيث أمرهما وخيما به وأقاما أياماً ووافى خرشيد بن باكليجار والكوريكي في عدة كثيرة من الديلم والرجالة فتقدم ابن مكرم والفتكين إلى أصحابهما بقلع الخيم والتحمل لأن عدتهم كانت قليلة وساروا حتى غابوا عن مطرح النظر ثم كمن الفتكين الخادمي والغلمان في بعض المكامن إلى أن عبر الديلم والرجالة وحصلوا معهم على أرض واحدة فحمل الفتكين وصاح الغلمان وارتفع الغبار وظن القوم أنهم في عدد كثير فتواقعوا في الوادي منهزمين وقتل خرشيد والكوريكي وجماعة من أصحابهما. وكان ذلك في اليوم الذي أصلح ما بين الديلم والسوس وبين بهاء الدولة ووقع التحالف ووصل من غد وقد اختلط الفريقان.

وأما ما جرى عليه الأمر في دخول الديلم في طاعة بهاء الدولة فإن أبا علي بن إسماعيل كان قد اعتمد ما يعتمده من الرأي الأصيل وشرع في استمالة قوم من العسكر إلى طاعة بهاء الدولة. وترددت بينه وبين شهرستان مراسلات بوساطة بهستون بن ذرير وقرر الأمر في اجتذابه وإمالته ثم اتفق أن المعروف بمناح الكردي المرتب في الطلائع ظفر بركابي ورد من شيراز فأخذه وأحضره عند أبي علي بن إسماعيل فسأله عن حاله فأخبره بالخطب الحادث بشيراز وأخرج كتاباً كان معه من بني زيار إلى شهرستان يشرح ما جرت عليه الحال في قتل صمصام الدولة فلما وقف أبو علي بن إسماعيل على الكتاب طالع بهاء الدولة مضمونه ثم أعاده على الركابي ليتمم إلى حيث بعث ثم قال أبو علي لبهستون: إنه لم يبق لشهرستان بعد اليوم عذر فإن كان على العهد فليقدم الدخول في الطاعة. فمضى بهستون إلى شهرستان وقرر معه أن يتحيز في غد ذلك اليوم مع ثلاثمائة رجل من الجيل إلى بهاء الدولة وتفارقا على هذا الوعد. فأحس فناخسره بن أبي جعفر بما عزم عليه شهرستان فقصده وخلا به.

ذكر كلام سديد لفناخسره بن أبي جعفر

قال لشهرستان: قد بلغني ما أنت عازم عليه وحالي عند بهاء الدولة الحال التي لا تخفى ونيته في النية التي تخالف وتحتمي ومتى عجلت في الانحياز إليه هلكت وهلك الديلم بأسرهم ويلزمك على كل حال صلاح أمرهم فأنظرني ثلاثة أيام لأسبر جرح هذه القصة بمراسلة بهاء الدولة فإن رجوت لها برأ واندمالاً اتفقت معك في إمضاء العزيمة واجتماع الكلمة وإن تكن الأخرى أخذت لنفسي وتوجهت أنا وأهلي إلى بلدي ثم افعل ما بدا لك فأجابه شهرستان إلى ذلك.

وبكر أبو علي بن إسماعيل على رسمه إلى الحرب متوقعاً من شهرستان انجاز الوعد فراسله بالعذر المتجدد فضاق أبو علي بذلك ذرعاً واعتقد أنه كان سخرية ودفعاً فقال له بهستون: إن مصداق هذا القول يبين عند غسق الليل فإن جاء رسول فناخسره فقد صدق شهرستان ووفى وإن تأخر فقد كذب وغدر والموعد قريب. فلما جن الليل ورد رسول فناخسره برسالة يعتذر فيها من سابق الأفعال ويطلب الأمان على استئناف الخدمة في مستقبل الحال فأجيب بما يسكن إليه ووثق به.

ووصل في أثناء ذلك كتاب ابني بختيار إلى أبي علي بن أستاذ هرمز يذكران فيه سكونهما إليه وتعويلهما عليه ويبسطان أمله كما يفعله مبتدئ بملك يروم أحكام قواعده وأركانه واستمالة أعضاده ويأمر أنه يأخذ البيعة لهم على الديلم قبله والمقام على الحرب التي هو بصددها. فأشفق أبو علي بما سلف له من الدخول إليهما ولم يثق بوفائهما بعد قتل أخويهما وحقيق بمن قتل للملوك شفيقاً أن يكون على نفسه شقيقاً. وبقي متلدداً في أمره متردداً في فكره مجيلاً للرأي في صدره فرأى أن الدخول في طاعة بهاء الدولة أصوب والتحيز إليه أدنى من السلامة وأقرب.

ذكر ما دبره أبو علي بن أستاذ هرمز في صلاح حاله مع بهاء الدولة

جمع وجوه الديلم وشاورهم فيما ورد عليه من كتاب ابني بختيار فأجمعوا رأيهم على الاعتزاء إلى طاعتهما والثبات في حرب بهاء الدولة على ما هم عليه فلم يوافقهم على رأيهم وقال: إن وراثة هذا الملك قد انتهت إلى بهاء الدولة ولم يبق من يجوز له منازعة بهاء الدولة فيه وإن نحن عدلنا عنه إلى من داره منا نائية ونيته عنا جافية أضعنا الحزم والصواب الدخول في طاعة بهاء الدولة بعد التوثق منه. فامتنعوا وقالوا: كيف نسلم نفوسنا للأتراك وبيننا وبينهم ما تعلم من الطوائل؟ فقال لهم: إذا كان هذا رأيكم فإني أسلم ما معي من المال والعدة إليكم وأنصرف بنفسي عنكم وأنتم لشأنكم أبصر وتقوض المجلس ثم وضع أكابرهم على ما يقولونه ويفعلونه.

وكان قد أنفذ إلى أبي علي بن إسماعيل من يلتمس منه شراباً عتيقاً للعلة التي به

فقال أبو علي بن إسماعيل لبهاء الدولة: إنه ما طلب منا شراباً ولكنه أراد أن يفتح لنا في مراسلته باباً. فأنفذ بهاء الدولة رسولاً يقول: إنه قد كنت أنت والديلم معذورين قبل اليوم في محاربتي حين كانت المنازعة في الملك بيني وبين أخي فأما الآن فقد حصل ثاري وثاركم في أخي عند من سفك دمه واستحل محرمه فلا عذر لكم في القعود عني في المطالبة بالثار واستخلاص الملك وغسل العار. فكان من جواب أبي علي بن أستاذ هرمز بعد السمع والطاعة لقوله: إن الديلم مستوحشون والاجتهاد في رياضتهم واقع وسأل في انفاذ أبي أحمد الطبيب لمعرفة قديمة كانت بينهما فأنفذ إليه.

ذكر كلام سديد لأبي علي بن أستاذ هرمز

لما حضر الطبيب عنده قال له: قد علمت اصطناع صمصام الدولة إياي وإحسانه إلي وما وسعني إلا الوفاء في خدمته وبذل النفس في مقابلة نعمته وقد مضى لسبيله وصارت طاعة هذا الملك واجبة علي ونصيحته لازمة لي وهؤلاء الديلم قد استمرت بهم الوحشة والنفور واستحكمت بينهم وبين الأتراك الترات والذحول وبلغهم أن الاقطاعات عنهم مأخوذة وإلى الأتراك مسلمة ومتى لم يظهر ما يزول به استشعارهم وتسكن إليه قلوبهم وبادرهم لم يصحب جنبهم فمضى الطبيب إلى بهاء الدولة بالرسالة وعاد بالجواب الجميل الذي تسكن إلى مثله وتردد من الخطاب ما انتهى آخره إلى حضور جماعة من وجوه الديلم إلى بهاء الدولة لاستماع لفظ بيمين بالغة في التجاوز عن كل إساءة سالفة وأخذ أمان وعهد بزوال كل غل وحقد. فلما طابت نفوس هؤلاء بالتوثق كاتبوا أصحابهم المقيمين بالسوس بشرح الحال.

وركب بهاء الدولة في ثاني اليوم إلى باب السوس يتوقع دخول الكافة في السلم فخرج الديلم فقاتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله معهم فيما تقدم فضاق صدره وظن أن ذلك عن فساد عرض أو لأمر انتقض فقال له الديلم: طب نفساً فالآن ظهر تسليمهم الأمر إليك فمن عادتهم أن يقاتلوا عند التسليم أشد قتال لئلا يقدر أنهم سلموا عن عجز أو ضعف. وكان الأمر على ذلك لأنهم استوثقوا في اليوم الثالث بنسخة يمين نفذوها إلى بهاء الدولة فحلف بها هو ووجوه الأتراك.

والتمس الديلم لأبي علي بن إسماعيل أن يحلف لهم فامتنع وقال: هذه يمين يدخل فيه الملوك وجندهم فأما الحواشي فهم بمعزل عنها. فلم يقنعوا بذلك فألزمه بهاء الدولة الحلف فحلف. وجلس بهاء الدولة للعزاء بأخيه ثم ركب بالسواد فتلقاه الناس وخدموه وصار إليه أبو علي بن أستاذ هرمز واختلط العسكران ومن قبل ذلك بيوم أو يومين قتل الديلم أبا الفتح بن الفرج نقيب نقبائهم.

ذكر السبب في ذلك وما كان من مكيدة أبي علي ابن أستاذ هرمز في أمره

كان هذا الرجل مقدماً في العسكر فاستدعى أبو علي بن إسماعيل أخاه سهلان من بغداد وجعله وسيطاً معه ليستميله فلما استقر معه الدخول في طاعة بهاء الدولة قال لهم أبو علي بن أستاذ هرمز: هذا أبو الفتح رجل شرير وهو خبير بأموركم وأسبابكم وأصولكم وأنسابكم فإن اجتمع مع أبي علي أظهر له من أسراركم ما لم يطلع عليه ودله من أموركم على ما لا يهتدي إليه. فقالوا: سندبر أمره. ثم أجمعوا رأيهم على قتله فقتلوه.

ولما اختلط العسكران سار بهاء الدولة إلى السوس ومعه أبو علي بن إسماعيل وحوله الديلم والأتراك.

ذكر رأي طريف رآه أبو علي بن إسماعيل لا يعلم موجبه

لما قرب بهاء الدولة من مضربه عدل أبو علي إلى خيمته المختصة به ولم يتمم معه حتى ينزل على ما جرى به رسمه. ونزل بهاء الدولة وطلب الديلم أبا علي فلم يجدوه وقالوا: من يكلمنا. وانتهى الخبر إلى بهاء الدولة فأرسل إلى أبي علي يستدعيه فاحتج بعارض عرض له ولم يحضر فخرج بهاء الدولة بنفسه إليهم وكلمهم حتى انصرفوا.

وأظهر أبو علي بن إسماعيل الاستعفاء وأقام على أمر واحد فيه حتى وقعت الإجابة إليه وكتب له منشور بمعيشة التمسها فأذن له في العود إلى بغداد والمقام في داره وشاع هذا الخبر بين العسكر فركب وجوه الأتراك إلى مضرب بهاء الدولة فأخرج إليهم الحجاب ليسألوهم عن حاجتهم فطلبوا لقاء الملك فأخرج إليهم أبا عبد اللّه العارض ليستعلم منهم مرادهم فما زادوه على القول الأول فأوصلهم.

ذكر ما جرى بين الأتراك وبين بهاء الدولة من الخطاب

لما دخلوا إلى حضرته وقفوا وقالوا: يا أيها الملك قد خدمناك حتى بلغت مناك ولم تبق لك علينا حجة ولا بك إلى مقامنا حاجة وما فينا إلا من نفذت نفقته ونقصت عدته ونسأل الإذن لنا في العود إلى منازلنا لنصلح حالنا ومتى احتيج إلينا من بعد رجعنا. فأنكر هذا القول منهم وسألهم عن سببه فراجعوه وراجعهم حتى قالوا: هذا وزيرك الموفق الذي عادت الدولة إليك على يده واستقامت أحوالنا بيمن نقيبته قد صرفته وما لنا من يشهد بمقاماتنا المحمودة عندك سواه ولا نجد في الوساطة بيننا وبينك من يجري مجراه وليس من السياسة صرف مثله ولا قبول قول من يشير عليك ببعده. قال بهاء الدولة: ومن يريد ذلك. قالوا: الذي كتب له المنشور عنك وهوَّز.

خطبه عندك (إشارة إلى أبي عبد اللّه العارض) قال: معاذ اللّه أن أقبل فيه قولاً ولكنه لج فوافقته وسأل فأجبته والرأي ما رأيتموه من التمسك فكونوا الوسطاء معه في تطبيب قلبه فانصرفوا عن حضرة بهاء الدولة إلى مخيم أبي علي بن إسماعيل وقد عرف خبرهم فحجهم فراجعوه حتى أوصلهم فلما دخلوا عليه عاتبهم على ما كان من خطابهم في معناه وقال: ليس من حقي عليكم أن تعترضوا علي بما لا أهواه. فقالوا: دع عنك هذا القول فإن حراسة دولة صاحبنا التي بها ثباتنا وفيها حياتنا أولى من قضاء حقك في موافقتك على غرضك. وما زالوا به حتى ركب إلى مضرب بهاء الدولة فلقي منه ما أحبه وعاد إلى عادته في تدبير الأمور وتنفيذها.

وأذن لجماعة من الأتراك في العود إلى مدينة السلام وتوجه مع بهاء الدولة إلى الأهواز.

ذكر ما دبره أبو علي بن إسماعيل بالأهواز

أول ما بدا بالنظر فيه أمر الاقطاعات وتقريرها بين الديلم والأتراك وعول في ذلك على أبي علي الرخجي الملقب من بعد بمؤيد الدولة واستقرت المناصفة ثم امتنع ديلم دستر عن الدخول في هذا الحكم وكادت القاعدة تنتقض والاستقامة تضطرب والشر بين الفريقين يعود جذعاً. فقام الرخجي في التوسط بينهم مقاماً محموداً على أن تكون أبواب المال في قصبات البلاد مقرة على من هي بيده وتكون المناصفة فيما عداها من الضياع والسواد فتراضوا بذلك وأفردت له خيمة كان يحضر فيها ومعه فناخسره بن أبي جعفر والفتكين الخادمي ومن يتبعهما من وجوه الطائفتين فتولى تقرير المناصفات وإخراج الاعتدادات واشتراك طائفة مع أخرى وكتب الاتفاقات فلم تمض أيام قلائل حتى انتجز الأمر على المراد.

وكان الفرخان قد فارق الأهواز ومضى إلى إيذج مستوحشاً وأنفذ أبو محمد بن مكرم إليه بما وثق به من الأمان فأمنه وعاد به فلما ورد الفرخان خلع عليه أبو علي بن إسماعيل واستخلفه مدة بين يديه ثم سيره أمامه إلى بلاد سابور والسواحل.

وأخرج شهرستان بن اللشكري في عدة كثيرة من العسكر مقدمة إلى أرجان فصار إليها ودفع ابن بختيار عنها فلحق بأخيه المقيم بشيراز.

ذكر رأي أشار به أبو علي بن إسماعيل على بهاء الدولة

أشار عليه بأن يستدعي الأمير أبا منصور ولده ويرتبه بالأهواز ويضم إليه أبا جعفر الحجاج وأن يسير بنفسه إلى فارس وإذا فتحها استدعى الأمير أبا منصور وأقامه فيها وانكفأ إلى الأهواز فجعلها للأمير أبي شجاع وقصد البصرة فإذا ارتجعها جعلها للأمير

أبي طاهر وعاد إلى بغداد فاستوطنها ودبر أمر الموصل منها. فلم يعجب بهاء الدولة هذا الرأي وكان أبو علي قبل أن يفاوض بهاء الدولة في ذلك فاوض أبا الخطاب حمزة بن إبراهيم فيه (وأبو الخطاب يومئذٍ ينوب عنه بحضرة بهاء الدولة) فقال له أبو الخطاب: أنا أعرف بأخلاق الملك وأغراضه والصواب لك أن تدعه بالأهواز وتسير أنت والعسكر إلى فارس فإذا فتحتها أقمت بها ورتبت للنظر في الأمور بحضرة بهاء الدولة من تأمنه وترتضيه فإنك إذا بعدت عنه حصلت من تلك البلاد في مملكة واسعة وتصرفت على اختيارك من غير معارضة مانعة. فإنه متى سار معك كنت بين أن تستبد برأيك أو تخالفه فتوغر صدره عليك ولا تأمن ما يكون من بوادره إليك وبين أن تصبر على معارضته لك فتجرع الغيظ منه بالاحتمال أو تظهر من الاستعفاء ما يؤدي إلى فساد الحال. فلم يقبل أبو علي منه واستبد برأيه وعمل أبو الخطاب بالأحوط لنفسه وانحرف عن أبي علي ومال إلى مطابقة بهاء الدولة فيما ينفق عليه.

قد استمررنا على النهج في ذكر ما وجدناه في التاريخ ونحن نرى أن أبا علي أصاب في رأيه ولا نرى حزماً فيما أشار به أبو الخطاب عليه من البعد عن حضرة ملك سريع التقلب في الأحوال كثير القبول للأقوال إذا بنى معه أمر نقض وإذا عقد معه عهد نكث فإذا كان الباني مع حضوره يخاف انتقاض بنائه فكيف يثق ببنائه إذا غاب عن فنائه؟ وهل مجال الأعداء في الطعن على الوزراء وهم مقيمون في منصب عزهم كمجالهم إذا خلت الحضرة منهم ببعدهم؟ كلا إن لسان الغيبة يطول عند الغيبة مع البعد عن بساط المراقبة والهيبة وكل مجر في الخلاء يسر. فما أخطأ أبو علي فيما رآه وما عليه إن خانه مقدور فالقدر حتم والمرء معذور:

غلام وغى تقحمها فأبلى ... فخان بلاءه الزمن الخؤون
وكان على الفتى الإقدام فيها ... وليس عليه ما جنت الظنون

وأطرف من ذلك مشورة أبي الخطاب عليه باستخلاف من يأمنه بالحضرة ليحفظ عنه وأين الأمين الذي يرعى العهد إذا لابس الحل والعقد؟ أليس أبو الخطاب وكان نائبه وصنيعته جحد إحسانه وطلب مصلحة نفسه فتبرأ منه وخانه؟ وكذلك كل ذي ثقة إذا استحلى الدنيا صار ظنيناً وكل ذي مقة إذا حسد صار عدواً مبيناً. ورب أخ قد شاق في الحسد أخاه بل بما ولد عقَّ في طلب الرتبة أباه ومثل ذلك موجود نشهده ونراه. وإنما كان خطأ أبي علي في إفراط إعجابه وكثرة إدلاله وشكاسة أخلاقه ومنافسته لولي نعمته فالملوك لا يشاكسون وأولياء النعمة لا ينافسون. ومع ذلك فلكل أجل كتاب والصواب مع الشقاوة خطأ والخطأ مع السعادة صواب:

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولام المخطئ الهبل

ونعود إلى سياقة الحديث.

ولما استفر ما بين الديلم من المناصفات عول على أبي جعفر الحجاج في المقام بالأهواز وسار بهاء الدولة وأبو علي إلى الموفق إلى رامهرمز وتقدم أبو علي مع العسكر وصار إليه أبو جعفر أستاذ هرمز في بعض الطريق هارباً من ابن بختيار.

ذكر خلاص أبي جعفر أستاذ هرمز

قد تقدم ذكر حصوله في قبضة ابن بختيار فقرر أمره على ألف ألف درهم وأدى أكثرها ثم حصل عند لشكرستان كورمو كلابه مطالباً بالبقية فاحتال صاحب له طبري في الهرب به إلى دار أحد الجند ثم أحضر قوماً من الأكراد وأخرجه إليهم فساروا به وألحقوه بأبي علي بن إسماعيل. وطوى أبو علي المنازل حتى نزل بباب شيراز.

ذكر فتح شيراز

لما نزل أبو علي بظاهر البلد برز ابن بختيار في جنده ورجالته وعسكر بإزائه ووقعت الحرب بينهما فتضعضع ابن بختيار في اليوم الأول وصادف عساكر بهاء الدولة وغدر به كثير من الغلمان ودخلوا البلد ونهبوا بعضه ونادوا بشعار بهاء الدولة.

وكان أبو أحمد الموسوي بشيراز على ما تقدم ذكره في مسيره من واسط إليها وظن أبو أحمد أن أمراً قد تم فاستعجل وركب إلى المسجد الجامع وكان يوم الجمع فأقام الخطبة لبهاء الدولة. ثم ثاب ابن بختيار وعسكره فخاف أبو أحمد واحتال لنفسه وقعد في سلة وحمل مغطى حتى أخرج إلى معسكر أبي علي بن إسماعيل.

وعادت الحرب في اليوم الثالث بين الفريقين فلم يمض من النهار بعضه حتى استأمن الديلم إلى أبي علي وهرب ابن بختيار ناجياً بنفسه وتبعه أخوه في الهرب فأما أحدهما وهو أبو نصر فإنه لحق ببلاد الديلم وأما الآخر فإنه مضى إلى بدر بن حسنويه ثم تنقل من عنده إلى البطيحة وملك أبو علي البلد وكتب إلى بهاء الدولة بالفتح وإتمام المسير فسار إلى شيراز واستقر في الدار بها.

ذكر ما جرى عليه الأمر بعد هذا الفتح

لما حصل بهاء الدولة بفارس أمر بنهب قرية الدودمان وحرقها وقتل كل من وجد بها من أهلها حتى استأصل شافتهم. وكشف عن رمة صمصام الدولة وجددت أكفانها وجملت إلى التربة بشيراز فدفنت بها وأحسن إلى فاطمة الدودمانية خاصة وبرها ووصلها. وذلك ثمرة فعلها الجميل فإن المعروف شجرة مباركة أصلها زكي وعودها رطيب وورقها نضير وما خاب من غرسها وسقاها ولا ندم من حفظها ورعاها.

فاجتمع ديلم فارس جميعهم بشيراز وجرى الخوض في أمر الإقطاعات وارتجاع ما يرتجع منها وإقرار ما يقرر وترددت في ذلك مناظرات.

ذكر تقرير الاقطاعات وتوفير في المصارفات

تقرر أن تجعل أصول التقريرات مصارفة ثلاثمائة درهم بدينار وأن ينظر ما لكل رجل من الإيجاب الأصلي فيعطى به من الاقطاع الذي في يده ما يكون ارتفاعه بقدره على هذا الصرف ويرتجع الباقي وأن يبطل كل ما كان وقع به في آخر أيام صمصام الدولة. وجرى الأمر على ذلك في معاملته الأواسط والأصاغر فأما أكابر الديلم فإن أبا علي بن إسماعيل أعطاهم حتى ملأ عيونهم. وعرفوا مذهبه في العجب والكبر فوضعوا له خدودهم وخدموه خدمة لا يستحقها الملوك فضلاً عن الوزراء فكانوا يقبلون الأرض إذا بصروا به وإلى أن يصلوا إليه عدة مرات ويمشون بين يديه إذا ركب كما تمشي أصاغر الديلم. وزاد الأمر به فيما أعطاهم من الأموال وأعطوه من الطاعة والانقياد وكل زيادة تجاوزت حد الاستحقاق فهي نقصان وكل عطية سلبت نفع الارتفاق فهي حرمان.

وعول على أبي غالب محمد بن علي بن خلف في النيابة عنه وقدمه واصطنعه وفرق العساكر في النواحي وأخرج أبا جعفر أستاذ هرمز إلى كرمان والياً عليها وقبض على الفتكين الخادمي.

ذكر السبب في القبض على الفتكين

كان أبو علي بن إسماعيل يرعى لفلح ما أسداه إليه من جميل في استتاره ببغداد فقدمه ونوّه بذكره وثقل ذلك على للفتكين وأضمر به استيحاشا منه. واتفق أن أبا علي في بعض مواقفه باب السوس قال للفتكين: يا حاجب الحجاب قد عزمت على أن أمضي في قطعة من الجيش إلى وراء السوس وأدخل أطراف البلد فإن الديلم إذا عرفوا خبرنا اضطربوا وانصرف قوم منهم إلينا فتشوشت تعبيتهم فإذا بدت ذلك الفرصة وأمكنتك الحملة فأصنع ما أنت صانع. وقرر ذلك معه وترك أبو علي علامته بحالها ودار من وراء الديلم ومعه نجب من الغلمان وغيرهم ودخل شوارع السوس فانفصل من العسكر الصمصامي شهرستان في خمسمائة رجل وتلقاهم واقتتلوا قتالاً شديداً واضطرب مصاف الديلم ولاحت الفرصة للفتكين في الحملة فتوقف عنها غيظاً من أبي علي الموفق لأنه كره أن يتم أمر على يده فنقم أبو علي هذا الفعل عليه وأسره في نفسه.

وحصل على باب شيراز بإزاء ابن بختيار فظهر من الفتكين من التقاعد قريب مما تقدم فلما تم أمر الفتح وورد بهاء الدولة واستقرت الأمور عمل في إبعاده فندبه للخروج إلى بعض الكور وأمره بالتأهب وحمل إليه عشرين ألف درهم نفقة. فأحضرها النقيب

والفتكين.شارب ثمل فتكلم بقبيح أعيد على الموفق فاغتاظ منه وقال لبهاء الدولة: هذا الغلام كالعاصي علينا والصواب القبض عليه وإقامة الهيبة في نفوس الغلمان به. فأذن له في ذلك فقبض عليه وحمله إلى القلعة.

ذكر حيلة لطيفة كانت سبباً لسلامة الفتكين

اجتمع الغلمان ليخاطبوا في أمره فانتدب أحد وجوههم لأبي علي وقال له: نحن عبيدك وأمرك نافذ في صغيرنا وكبيرنا وما نطالبك بالإفراج عنه وقد أنكرت ما أنكرت منه ولكنا نسألك أن تهب لنا دمه وتعطينا يدك على حراسة نفسه. فقال: أما هذا فنعم. وأخذوا يده على ذلك وتوثقوا منه فلما عرض لأبي علي المسير في طلب ابن بختيار حين عاد من بلاد الديلم إلى كرمان اجتمع إليه خواصه ونصحاؤه وقالوا: ليس من الرأي أن تخرج في مثل هذا الوجه وتترك وراءك مثل هذا العدو. وأشاروا إلى الفتكين فقال: ما كنت لأبذل قولي في أمر ثم ارجع عنه.

ذكر أغلاط لأبي علي بن إسماعيل كانت سبباً لفساد حاله

أدل أبو علي بعد فتح شيراز على بهاء الدولة إدلالاً أفرط فيه وتجبر تجبراً لا توجبه السياسة ولا تقتضيه واطرح ما يلزم في خدمة الملوك من التقرب إليهم والتوفر عليهم وسلك خلاف هذه الطريقة وخرج من حد المتابعة والموافقة إلى المنافقة والمضايقة من غلطاته أن أحد النبهاء قال لبهاء الدولة في مجلس أنسه على سبيل الدعابة. زينك اللّه يا مولانا في عين الموفق وبلغه ذاك فطالبه بتسليمه إليه ودوفع عنه فلم يندفع وأقام على الاستعفاء حتى سلم إليه فبالغ في عقوبته. ومنها أنه وقع بين غلمان داره وبين غلمان الخيول الخاصة ما يقع من أمثالهم بين أمثالهم عند اللعب بالصوالجة فغلق بابه ومنع العسكر من لقائه ولم يقبل مشورة أحد من خواصه وراسل بهاء الدولة فقال للرسول: يا هذا إن المخاطبة لي على غلمان داري قبيح وأن التعصب عليَّ لأجل منابذة جرت بينه وبين غلمانه أقبح وتسليمهم إليه ليشفي صدره منهم أقبح وأقبح فأرجع إليه بالمعاتبة اللطيفة وعرفه ما عليه في هذه المراسلة الطريفة فمضت معه خطوب حتى أمسك. ومنها أن بهاء الدولة كان يجلس في الجوسق الذي في دار الإمارة بشيراز وهو مشرف على الميدان ويجتاز أبو علي فيه راكباً وبين يديه أكابر الديلم مشاة فلا يرى أن يترجل وبهاء الدولة يراه وينفطر غيظاً منه. ومنها أنه أنفذ إليه بعض خواصه في ليلة نيروز يلتمس منه ثلاثة آلاف درهم فقال للرسول: لأي حاجة يريدها للخبز أو للحم أم للشعير؟ فقال له الرسول: أيها الوزير لا يحسن أن يكون جواب الرسالة غير حمل الدراهم. فقال له: ما ههنا مال. وخاف الرسول أن تجري منافرة يكون هو سببها فحمل الدراهم من ماله وعرف بهاء الدولة ذلك من بعد.

فانظر إلى عجب الزمان وتقلب الأعيان: هذا أبو علي هو الرجل الذي تكلف واستدان وحمل إلى بهاء الدولة من بغداد ما امتنع من حمله ابن عمر وابن صالحان فقربت من قلبه منزلته وعلت لديه درجته ورتبته ثم ينتهي الأمر به إلى أن يطلب منه بهاء الدولة في ليلة نيروز هذا القدر النزر مع اتساع حاله وتبذخه على الديلم بعطائه ونواله فيمنعه. هل ذلك إلا لحادث قد يغطى على كل بصيرة وبصير؟ فشتان بين ابتداء السعادة وانتهائها لقد أحسنت أيامه في إقبالها وأساءت في انفصالها والخبر المأثور مشهور إذا أقبلت الدنيا على قوم كستهم محاسن غيرهم وإذا ولت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم.

وكان أبو غالب بن خلف في خلال هذه المضايقات يحول إلى بهاء الدولة الدنانير الكثيرة في الأوقات المتفرقة سراً فتمهدت له بذلك حال راعاها وكانت أكبر وسائله عنده وتأكدت الوحشة بين بهاء الدولة وأبي علي وجرى أمره على ما يأتي من بعد ذكره بمشيئة اللّه تعالى.

وفي هذه السنة قبض بكران بن بلفوارس على الحسين بن محمد بن مما نقيب نقباء الديلم ببغداد ثم أفرج عنه.

ذكر الحال في القبض عليه

كان بكران مستناباً من قبل بهاء الدولة ببغداد على أمور الديلم فاستوحش من ابن مما وسعى بينهما سعاة بالفساد فقبض عليه بغير أمر من بهاء الدولة واعتقله في داره ووكل به كوشيار بن المرزبان مع جماعة من الديلم وضيق عليه وقلد أبا الحسين بن راشد نقابة النقباء وأنزله في دار ابن مما وقيل إنه همَّ بالفتك به. فتوسط أبو الفتح منصور بن جعفر أمره وضمن عنه عشرين ألف دينار وأخذه إلى داره وأقام خطوطاً وكفالات بالمبلغ. وعرف الشريف أبو الحسن بن عمر ما أقدم عليه بكران فأنكره وأطلق لسانه في بكران وفي ابن راشد بكل عظيمة وكتب إلى بهاء الدولة وإلى أبي علي بن إسماعيل بذلك.

ذكر سياسة قامت بها الهيبة في الإفراج عنه

لما وصلت الكتب إلى أبي علي بن إسماعيل امتعض الامتعاض الشديد وكتب إلى بكران بما أغلظ القول فيه وإلى الشريف أبي الحسن بانتزاع ابن مما من يده وارتجاع الكفالات المأخوذة بالمال منه وكتب إلى أحمد الفراش بملازمة بكران إلى أن يفرج عن الرجل. فامتثلت الجماعة مرسومة وأفرج عن ابن مما ورُدَّت عليه الكفالات وانحدر إلى الأهواز وجدد عهداً بالخدمة وعاد موفوراً. واستدعى بكران وأنفذ شيرزيل أخوه إلى بغداد ليقوم مقامه وقبض على كوشيار وحل إقطاعه ووفيت السياسة حقها في ذلك.

وفيها توجه الأمير أبو منصور بن بهاء الدولة إلى الأهواز.

وفيها استولى الأمير أبو القاسم محمود بن سبكتكين على أعمال خراسان بعد أن واقع عبد الملك بن نوح بن منصور ومن في جملته من توزون وفائق وابن سمجور بظاهر مرو وهزمهم وأقام الدعوة لأمير المؤمنين القادر بالله رضي الله عنه على منابر تلك البلاد وكان آل سامان مستمرين على إقامتها للطائع لله.

وورد كتاب أبي القاسم محمود إلى القادر بالله رضي الله عنه يذكر الفتح على ما جرت به العادة في أمثاله.

انقضت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وبانقضاء أخبارها ختمنا هذا الكتاب ومن الله تعالى نرجو أحسن التوفيق والهداية للصواب وبه سبحانه نعوذ من شر القصد وخيبة المنقلب وآفة الإعجاب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

آخر ما صنفه الوزير أبو شجاع رضي الله عنه وأرضاه والحمد لله كثيراً.

تم الجزء السادس، ويليه الجزء السابع

وهو قطعة من تاريخ هلال الصابي

فهرس المحتويات

الجزء الثامن

من

تاريخ الصابي

أبي الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم

المتوفى سنة ٤٤٨ هـ

ألحقناه بذيل الوزير أبي شجاع لكونه كالتكملة

الجزء السابع

يحتوي على بعض حوادث سنة ٣٨٩ هـ زمن خلافة القادر بالله العباسي

حتى سنة ٣٩٣ هـ من خلافته

مع الفهارس العامة للكتاب

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

شرح الحال في قبض أبي شجاع بكران بن بلفوارس على أبي القاسم الحسين ابن مما نقيب النقباء

استوحش أبو شجاع بكران من أبي القاسم بن مما وسعى بينهما سعاة بالفساد فقبض عليه بغير أمر بهاء الدولة والموفق واعتقله وقيده ووكل به أبا العباس كوشيار بن المرزبان وجماعة من الديلم وضيق عليه ومنع كل أحد من الوصول إليه. وقلد أبا الحسين محمد بن راشد نقابة النقباء وأنزله في دار أبي القاسم بسوق السلاح وتتبع أسبابه وأصحابه وهم على ما قيل بالفتك به وطالبه بما يصححه ويقرره على نفسه وتوسط أمره أبو الفتح منصور بن جعفر وضمن عنه عشرين ألف دينار وأخذه إلى داره. وعرف أبو الحسن محمد بن عمر ما جرى فأمسك إمساك لا راض ولا منكر فلما قيل له إن أبا الحسين بن راشد يتقلد موضعه قامت القيامة عليه غيظاً منه وتذكرا لما كان عامله به وأطلق لسانه في أبي شجاع بكران وابن راشد بكل قول وكتب إلى الموفق بمثله وجاءه ابن راشد فحجبه واجتهد في استعطاف رأيه فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ونفذت الكتب إلى الموفق بالصورة فامتعض الامتعاض الشديد منها وكاتب أبا شجاع بكران بما أغلظ له فيه والشريف أبا الحسن بانتزاع أبي القاسم بن مما من يده وارتجاع الكفالات التي أخذهما منه بالمال الذي قرره عليه. وكتب إلى أبي العباس أحمد الفراش باعتناق هذا الأمر والمضي إلى أبي شجاع بكران وملازمته إلى أن يفرج عنه ويرد عليه خطوط الكافلين به وفعلت الجماعة ما رسم لها وأفرج عن أبي القاسم في يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول وردت عليه الكفالات بالمال المذكور ثم انحدر من بعد إلى الأهواز وجدد عهداً بخدمة بهاء الدولة والموفق. وأنفذ الموفق أبا الحرب شيرزيل بن أبي الفوارس إلى بغداد للقيام مقام أبي شجاع وبكران أخيه فكان وروده يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الآخر وردّ أبا القاسم بن مما فكان وروده يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الأولى وقبض على أبي العباس كوشيار وأقطع إقطاعه وكان من أكبر الأسباب فيما جرى على أبي القاسم.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول برز الأمير أبو منصور بويه بن بهاء الدولة إلى المعسكر بالأتانين متوجهاً إلى الأهواز وسار في يوم الجمعة بعده.

ووجدت في بعض التقاويم أنه انقض في يوم الأحد المذكور كوكب كبير ضحوة النهار.

وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الآخر أحرق العامة دار الحمولى فمضت بأسرها ولم يبق فيها جدار قائم واحترق ما كان فيها من حسبانات الدواوين.

ذكر السبب في ذلك

كان أبو نصر سابور قد حاول وضع العشر على ما يعمل من الثياب الأبريسميات والقطنيات بمدينة السلام فثار أهل العتابيين وباب الشام من ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة يوم الجمعة العاشر من الشهر ومنعوا الخطبة والصلاة وضجوا واستغاثوا وباكروا الأسواق على مثل هذه الصورة فلما كان في يوم الثلاثاء صاروا إلى دار أبي نصر سابور بدرب الديزج فمنعهم أحداث العلويين منها وخرجوا من درب الديزج إلى دجلة وطلبوا من جري رسمه بالكون في دار الحمولي من الكتاب والمتصرفين فهربوا من بين أيديهم وطوحوا النار في الدار وأهمل إطفاؤها فأتت على جميعها وورد أبو حرب شيرزيل ناظراً في البلد على ما قدمنا ذكره فقبض على جماعة من القامة اتهموا بما جرى من الحريق وصلب أربعة أنفار على باب دار الحمولى وذلك في يوم الخميس الذي دخل فيه. واستقر الأمر على أخذ العشر من قيم الثياب الأبريسميات خاصة ونودي بذلك بالجانب الغربي في يوم الأحد الرابع من جمادى الأولى وبالجانب الشرقي في يوم الاثنين وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرون ومتولون وأفرد له ديوان في دار بالبركة ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويختم. واستمرت الحال على ذلك إلى آخر أيام عميد الجيوش أبي علي ثم أسقطه وأزال رسمه على ما سنذكره في موضعه.

وفي يوم الجمعة لست بقين منه توفي أبو القاسم بن حبابة المحدث وصلى عليه أبو حامد الإسفراييني بمسجد الشرقية.

وفي يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى خلع على الشريف أبي الحسين محمد بن علي بن الحسن المريني من دار الخلافة ولقب نقيب النقباء.

وفي يوم الاثنين الثاني من جمادى الآخرة توفي أبو الحسين المتطبب تلميذ سنان.

وفي رجب قلد أبو العلاء الحسين بن محمد الإسكافي الخزائن والاستعمال فيه وفيه انحدر أبو شجاع بكران إلى واسط.

وفي يوم الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من شعبان توفي أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن عبد اللّه العلوي بالكوفة.

وفي يوم السبت الرابع من شهر رمضان توفي أبو محمد حسان بن عمر الحريري الشاهد.

وفي ليلة الجمعة مستهل شوال قتل أبو عبد اللّه محمد بن علي بن هدهد الحاجب الناظر في المعونة.

شرح الحال في ذلك

جرت بين ابن هدهد وبين أبي الحسن بن رهزاذ الأحول نبوة لأمر سأله فيه ورده عنه وتزايد ما بينهما إلى أن بذل أبو الحسن فيه بذلاً كثيراً فقبض أبو نصر سابور عليه وسلمه إليه واعتقل أبو الحسن في داره فلما كان في ليلة يوم الجمعة كبسه العيارون وقتلوه واتهم ابن رهزاذ بأنه وضعهم على ذلك فقبض عليهم وهم الشريف أبو الحسن محمد بن عمر بأن يقيده به فسأله أبو القاسم بن مما في بابه وأخذه إلى داره وكتب إلى الموفق بما جرى ووقف الأمر على ما يعود من جوابه ثم أفرج عنه.

وفي يوم الثلاثاء لخمس خلون منه قلد أبو الحسن علي بن أبي علي المعونة بجانبي مدينة السلام وخلع عليه. وفي هذا الشهر قصد أبو الحسن علي بن مزيد أبا الفوارس قلج بدير العاقول فانهزم من بين يديه ونهب البلد وفي يوم الأحد لليلتين خلتا من ذي القعدة ضربت الدراهم التي سميت «الفتحية».

وفي يوم الاثنين العاشر منه ورد قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد وأبو الحسين علي بن ميكال حاجين وتلقاهما القضاة والفقهاء والشهود ووجوه الناس وأبو القاسم بن مما وأصحاب الشريف أبي الحسن محمد بن عمر وأبي نصر سابور وروعيا بالإنزال والملاطفات.

وفي ذي الحجة قتل أصحاب أبي الفتح محمد بن عناز زهمان بن هندي وأولاده دلف ومقداد وهندي.

شرح الحال في ذلك

حدثني أبو المعمر إبراهيم بن الحسين البسامي قال: كان زهمان مستولياً على خانقين وما يجاورهما فلما قتل المعلم عليا ابنه ضعف أمره ولان غمزه وعاد أبو الفتح محمد بن عناز من حرب بني عقيل بالموصل مع أبي جعفر الحجاج فقلد حماية الدسكرة وجرت بينه وبينه مجاذبات ومنازعات والأيام تقوي أبا الفتح وتضعف زهمان وكان منه في قصده ونهبه مع أبي علي بن إسماعيل ما قدمنا ذكره.

وانتهت الحال بينهما إلى الصلح والموادعة والاختلاط والألفة وأرخى أبو الفتح

من عنانه وأعطاه من نفسه كل ما تأكد به أنسه فصار إليه هو وأولاده وتمكن منهم فقبض عليهم ونقلهم إلى قلعة البردان فاعتقلهم فيها وتفرق أصحابه وملك عليهم نواحيهم. ومضت على ذلك مدة فثار أولاد زهمان وكسروا قيودهم وحاولوا الفتك بالموكلين بهم والاستيلاء على القلعة فصاح الموكلون واجتمع إليهم من عاونهم فقتلوا الثلاثة المذكورين من أولاد زهمان بحضرته وأخذوه فجعلوه في بيت وسدوا بابه وكانوا (يدخلون) من كوّة فيه قرصة من شعير وقليل ماء فبقي أياماً ومات.

وقد جرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق بنصب القباب وتعليق الثياب وإظهار الزينة في يوم الغدير وإشعال النار في ليلته ونحر جمل في صبيحته. فأرادت الطائفة الأخرى من السنة أن تعمل لأنفسها وفي محالها وأسواقها ما يكون بإزاء ذلك فادعت أن اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذي حصل فيه النبي ﷺ وأبو بكر رضي اللّٰه عنه في الغار وعملت مثل ما تعمله الشيعة في يوم الغدير وجعلت بإزاء يوم عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيام نسبته إلى مقتل مصعب بن الزبير وزارت قبره بمسكن كما يزار قبر الحسين بن علي رضي اللّٰه عنهما بالحائر. وكان ابتداء ما عمل من يوم الغدير في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة.

وحج بالناس في هذه السنة أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر. وحج فيها الوزير أبو منصور محمد بن الحسن بن صالحان والشريف المرتضي أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي والرضي أبو الحسن أخوه والوزير أبو علي الحسن بن أبي الريان حمد بن محمد.

وفي هذه السنة حصل عمدة الدولة أبو إسحاق إبراهيم بن معز الدولة بالموصل وارداً من مصر وكثر الإرجاف له وبه وأقام مديدة ثم سار إلى الري وقصد ابرقويه وتلك الأعمال وعاد بعد ذاك إلى مصر فكانت وفاته بها وفيها وافى برد شديد مع غيم مطبق وريح مغرب متصلة فهلك من النخل في سواد مدينة السلام ألوف كثيرة وسلم ما سلم ضعيفاً فلم يرجع إلى جلاله وجملته إلا بعد سنين.

وفيها استولى الأمير أبو القاسم محمود بن سبكتكين على أعمال خراسان بعد أن واقع عبد الملك بن نوح بن منصور وتوزون وفائق وابن سيمجور بظاهر مرو وهزمهم وأقام الدعوة لأمير المؤمنين القادر باللّٰه أطال اللّٰه بقاءه وقد كان القائمون بالأمر من بني سامان مستمرين على إقامتها للطائع للّٰه وورد من الأمير أبي القاسم محمود بهذا الذكر كتاب نسخته بعد التصدير الذي جرت العادة به في مكاتبة الخلفاء:

«بسم اللّٰه الرحمن الرحيم».

«أما بعد فالحمد للّٰه العلي مكانه الرفيع سلطانه الواحد الأحد الفرد الصمد العزيز

القهار القوي الجبار الذي يكفل بإعلاء الحق ورفعه وإخزاء الباطل وقمعه الحائق بشيع البغي والعدوان مكره اللاحق بفرق الطغيان قهره وقسره الحاكم لأوليائه بالعلو والاقتدار الحاتم على أعدائه بالثبور والتبار المتفرد بجلاله أن يمانع المتعالي بكبريائه أن يدافع يمهل المغتر بأناته استدراجاً ولا يمهل ويُملي المخدوع بحلمه احتجاجاً ولا يغفل بيده الخلق والأمر ومن عنده الفتح والنصر فتبارك اللّه رب العالمين رب السموات والأرضين والحمد للّه الذي اصطفى محمداً عليه السلام واختار له دين الإسلام وفضله على من تقدمه من الرسل وأنار به مناهج الآيات والسبل وأرسله إلى الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً فهدى إلى القرآن والتوحيد ودل على الأمر الرشيد وأهاب بالبرية إلى مستقيم الدين وأناف بهم على العلم اليقين فصلوات اللّه عليهم أتم صلاة نماء وأكملها بهاء صلاة ترتقي إليه جل جلاله في أعلى الدرجات وتحيي روحه في السموات وعلى آله أجمعين».

«والحمد للّه الذي أنشأ سيدنا ومولانا أمير المؤمنين الإمام القادر باللّه أطال اللّه بقاءه من ذلك السنخ الزكي والعرق النقي أحسن منشأ وبوأه من خلافته في أرضه أكرم مبوأ وجعل دولته عالية والأقدار لإرادته مؤاتية فلا يخالف رايته عدو إلا حان حينه وسخنت عينه ولا يجيب دعوته وليٌ إلا كان قدحه في القداح فائزاً وسعيه للنجاح حائزاً بذلك جرت عادة اللّه وسننه ولن تجد لسنة اللّه تحويلاً. وقد علم مولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه حال الماضين من السامانية فما كانوا فيه من نفاذ الأمر وجمال الذكر وانتظام الأحوال واتساق الأعمال بما كانوا يظهرونه من طاعة أمير المؤمنين ومبايعتهم وينتحلونه من موالاتهم ومشايعتهم ولما مضى صالح سلفهم وبقي خلف خلفهم خلعوا ربقة الطاعة وشقوا مخالفة لمولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه عصاه الجماعة واخلوا منابر خراسان عن ذكره واسمه وخالفوا في إفاضة القول وحسم عادية الجور والخبل عالي أمره ورسمه وعم البلاد والعباد فسادهم وبلاؤهم ونهك الرعايا ظلمهم واعتداؤهم. ولم استجز مع ما جمع اللّه لي في طاعة مولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه من عدة وعدة وشكة وشوكة وقوة أقران وإمكان وكثرة أنصار وأعوان إلا ادعوهم إلى حسن الطاعة ولا ابذل في إقامة الدعوة لمولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه تمام الوسع والاستطاعة. فدعوت منصور بن نوح إليها وبعثته بجدّي واجتهادي عليها ولم يصغ إلى أعذار وتذكير ولم يلتفت إلى إنذار وتبصير ونهض من بخارا بخيله ورجله وحشده وحفله يجمع على أهل الضلالة من أشياعه ويحشر من في البلاد من اتباعه. فكان من شؤم رأيه وسوء أنحائه إن اصطلمه جنده فكحلوه وبايعوا أخاه عبد الملك وملكوه وجريت على عادتي مع هذا الأخير أوفد إليه مرة بعد أخرى وثانية عقب أولى من يدعوه إلى الرشاد ويبصره من التمسك بطاعة مولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه

سبل الرشاد فلم يزده ذلك إلا ما زاد أخاه استعصاء واستغواء وتهوُّراً في الضلال واستشراء فلما أيست من فيئه إلى واضح الجدد ورجوعه إلى الأحسن والأعود ورأيته متتابعاً في عمايته ومتكسعاً في مهاوي غوايته نهضت إليه بمن معي من أولياء مولانا أمير المؤمنين أدام اللّه علوّه وأنصار الدين في جيوش يشرق بها الفضاء ويشفق من وقعها القضاء تزحف في الحديد زحفاً وتخد الأرض جرفاً ونسفاً إلى أن وردت مرو يوم الثلاثاء لثلاث بقين من جمادى الأولى وهو البلد الميمون الذي به ابتدأ إشاعة الدولة العباسية وزالت البدعة الأموية على أحسن تعبية وأكمل عتاد وأجمل هيئة ووليت أمر الميمنة عبد مولانا أمير المؤمنين أخي نصر بن ناصر الدولة والدين في عشرة آلاف رجل وثلاثين فيلاً وجعلت في الميسرة من الموالي الناصرية اثني عشر ألف فارس وأربعين فيلاً ووقفت في القلب بقلب لا يتقلب وطاعة مولانا أمير المؤمنين شعارُهُ عن أضداده وعزم لا ينتقض ودعوة أمير المؤمنين عتاده في إصداره وإيراده ومعي عشرون ألف فارس من سائف ورامح ودارع وتارس وسبعون فيلاً وبرز عبد الملك بن نوح وعن يمينه ويساره بكتوزون أحد غواته وفائق رأس طغاته وعتاته وابن سيمجور وغيرهم من مساعديه على ضلالته مستعدين للكفاح مستلئمين في شكك السلاح وتلاقت الصعوف بالصفوف واصطلت السيوف بالسيوف وتوقدت الحرب واحتدت واضطرمت نيرانها واشتدت واختلط الضرب بالطعن وكبا القرن بالقرن ولم ير إلا تهاوي الصوارم على حجب الجماجم وأوداق النبال في أحداق الكماة والأبطال. وأهب اللّه ريح الظفر لأوليائه وكشفوا مقانب الأعداء وحملوا فيهم الحتوف وأرووا من دمائهم السيوف وانجلت المعركة عن الفي قتيل من شجعانهم وأبطالهم وألفي وخمسمائة أسير من مشهوري ذادة رجالهم وصناديدهم واقتفى الأولياء أثار الفل من عباديدهم يقتلون ويأسرون ويسلبون ويغنمون إلى أن ألقت الشمس يمينها وأبرزت ظلمة الليل جنينها وعاد الأولياء إلى معسكرهم في وفور من السلامة وتمام من النعمة وقد ملأوا أيديهم من الغنيمة والنفائس الجمة ثم ما نضب منهم أحد ولم ينتقص لهم عدد. وكتابي هذا وقد فتح اللّه تعالى لمولانا أمير المؤمنين بلاد خراسان قاطبة وجعل منابرها تذكر اسمه متباهية وكلمة الحق به عالية والأهواء في موالاته متهادية. وبعد فلم أجدد رسماً في حل وعقد وإبرام ونقض إلى أن يرد من عالي أمره ورسمه ما أبنى الأمر ببنائه واحتدى إلى حدائه بإرادة اللّه سبحانه وتعالى فالحمد للّه العزيز المنان العظيم السلطان الذي لا يضيع لمحسن عملاً ولا يغفل عن مسيء وإن أرخى له أجلاً ولا يعجزه متغلب بقوته وحوله ولا يمتنع ممتنع عن سطوته وصوله ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين راد ولا يصد نقمته عن الظالمين صاد حمداً يمتري المزيد من إحسانه ويقتضي الصنع الجديد من امتنانه وإياه أسأل أن يهنئ مولانا أمير المؤمنين الإمام القادر باللّه خير هذا الفتح الجليل خطره

الواضح على وجه الزمان غرره وأن يواصل له الفتوح قرباً وبعداً وغوراً ونجداً وبراً وبحراً وسهلاً ووعراً وأن يوفقني للقيام بشرائط خدمته والمناضلة عن بيضته إنه على ما يشاء قدير وبه جدير. فإن رأى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه أن ينعم بالوقوف عليه وتصريف عبده بين أمره ونهيه فعل إن شاء اللّه تعالى».

سنة تسعين وثلاثمائة

أولها يوم الأربعاء والثالث عشر من كانون الأول سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف للإسكندر وروز اسمان من ماه آذر سنة ثمان وستين وثلاثمائة ليزدجرد.

في يوم الاثنين السادس من المحرم توفي أبو الحسين علي بن المؤمل بن ميمان كاتب ديوان السواد.

وفي يوم الجمعة لعشر خلون منه توفي أبو بكر أحمد بن علي السمسار المعروف بأبي شيخ البزاز.

وفي يوم الخميس لسبع بقين منه توفي القاضي أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي موسى الهاشمي.

وفي هذا الشهر احترق أرسلان البستي وذاك أنه كان نائماً في خركاه له وبه نقرس مزمن قد منعه الحركة والقدرة على النهضة وفرّاشوه وغلمانه بعيدون منه فسقطت شرارة من شمعة كانت في الخركاه على فراشه فأحرقته وانتبه ولا فضل فيه للقيام من موضعه والنجاة بنفسه فصاح صياحاً حجز الليل ونوم الغلمان عن سماعه وعملت النار في الفراش والخركاه فما عرف الخبر إلا بعد احتراقه وهلاكه.

وفيه خرج الموفق أبو علي إلى جبل جيلويه في طلب أبي نصر بن بختيار وانتهى إلى ابرقويه وعاد في صفر وفي هذه الخرجة لقب بعمدة الملك مضافاً إلى الموفق وأذن له في ضرب الطبل أوقات الصلوات الخمس ولقب أبو المعمر ولده بربيب النعمة.

وفي صفر ورد الكتاب من شيراز بتلقيب المشطب أبي طاهر سباشي بالسعيد والإشراك بينه وبين المناصح أبي الهيجاء تختكين الجرجاني في مراعاة أمور الأتراك في مدينة السلام.

وفي يوم الخميس السابع منه توفي أبو منصور محمد بن أحمد بن الحواري بالأهواز.

وفي يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول توفي أبو الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوي ودفن في حجرة من داره بدرب منصور مدة ثم نقل إلى المشهد بالكوفة وحضر جنازته أبو نصر سابور بن أردشير وأبو حرب شيرزيل بن أبي الفوارس والمناصح أبو الهيجاء تختكين الجرجاني وسائر طبقات الناس.

ذكر ما جرى عليه الأمر في تركته وضيعته

لما توفي أنفذ أبو نصر سابور فحظر على ما في داره وخزانته ووكل باصطبلاته وطلب كتابه وجهابذته فلم يجد أحداً منهم لأن أبا الحسن علي بن الحسن بن إسحاق هرب وهرب الجهبذ معه واستتر الباقون من أصحابه. وأحضر أبا عبد اللّه البطحاني العلوي وطالبه بما عنده من وصيته وماله فامتنع من تسليم ذاك وأخلد فيه إلى الاعتلال والإنكار واعتقله اعتقالاً جميلاً. ونفذت الكتب إلى بهاء الدولة والموفق بما تجدد وكتب أبو الحسن محمد بن الحسن بن يحيى العلوي وقد كان عاد من الأهواز إلى واسط بعد الفتح في أمر الورثة والتركة فعاد الجواب إليه بالإصعاد إلى بغداد والقيام بها مقام أبي الحسن محمد بن عمر. وتقرر أمر التركة على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة.

فحدّثني أبو القاسم بن المطلب قال: تقرر الأمر بفارس على خمسين ألف دينار صلحاً عن التركة وأن يكون النصف من الأملاك للخاص والنصف للورثة. ثم أفرد قسط السلطان فحصل له به الثلثان لأنه أخذ عيون الضياع وجمع موجود التركة فلم يف بالتقرير حتى تُمم بأثمان أملاك بيعت من جملة ما حصل للورثة من الضياع على أبي علي عمر بن محمد بن عمر وأبي عبد اللّه الحسين بن الحسن بن يحيى وأبي محمد علي وابن محمد بن الحسن بن يحيى وأبي علي عمر بن محمد بن الحسن بن يحيى. وأصعد أبو الحسن بن يحيى إلى بغداد فكان دخوله إياها في يوم الأربعاء الثاني من جمادى الأولى ومعه أبو علي عمر بن محمد بن عمر وأبو الحسن بن إسحاق الكاتب وكان انحدر إلى واسط فلقيه في الطريق وعاد في صحبته وأطلق أبو عبد اللّه البطحاني وسلم إليه وراعى أبو الحسن القسط السلطاني من المعمريات وتولى أبو الحسن بن إسحاق النظر فيه وارتفع في هذه السنة وهي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة الخراجية على ما ذكره أبو القاسم بن المطلب مع حق الورثة وسوى حقوق بيت المال بألفي كرونيف حنطة وشعيراً وأصنافاً وتسعة عشر ألف دينار وكسر.

وفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر ربيع الأول قبل القاضي أبو محمد بن الأكفاني شهادة أبي القاسم بن المنذر وأبي الحسين بن الحراني وفي يوم الجمعة لليلتين بقيتا منه قبل شهادة أبي العلاء الواسطي.

وفي ليلة يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر وُلد الأمير أبو الفوارس بن بهاء الدولة بشيراز والطالع كوكب من العقرب.

وفي يوم الخميس لخمس بقين منه توفي أبو عمر أحمد بن موسى العلاف الشاهد بالجانب الشرقي.

وفي يوم الجمعة الثامن عشر من جمادى الأولى خلع على الموفق أبي علي بفارس بالقباء والفرجية والسيف والمنطقة والدستي المذهب وحمل على دابة بمركب ذهب وقيد بين يديه دابة بمركب مذهب وبغلة بجناغ نمور ومركب بقبل مذهب وثلاثة أفراس بجلال ديباج وأعطى دواة محلاة بالذهب وحمل معه ترس من ذهب وسائر السلاح وخلع على أبي نصر كاتبه وثلاثة من حجابه ودواتيه وأستاذ داره وخرج لقتال أبي نصر بن بختيار ومعه العساكر بعد أن استناب أبا غالب محمد بن خلف بشيراز على مراعاة الأمور وأبا الفضل الإسكافي بحضرة بهاء الدولة.

شرح الحال في عود ابن بختيار وما جرى عليه أمر الموفق في قصده إياه وظفره به وأمر عسكر ابن بختيار بعد قتله

لما انهزم أبو نصر بن بختيار من باب شيراز صار إلى الأكراد وانتقل إلى أطراف بلاد الديلم. وكاتب الديلم بفارس وكرمان لما استقرت به الدار هناك وكاتبوه واستدعوه واستجروه فصار إلى أبرقويه واجتمعت معه طائفة كبيرة من ديلم وأتراك وزط وأكراد وتردد في نواحي فارس وتنقل في أطرافها وظهر أمره وشاع خبره وواصل مكاتبة الديلم ومراسلتهم واجتذابهم واستمالتهم. وخرج الموفق أبو عليّ في طلبه إلى جبل جيلويه وانتهى في اتباعه إلى أبرقويه وكان يهرب ويراوغ ويدافع ولا يواقف ومضى إلى السيرجان. فحدثني أبو عبد الله الفسوي قال: لما قصد ابن بختيار السيرجان لم يقبله الديلم الذين بها وكرهوا حصوله عندهم ومقامه بينهم. وكان أبو جعفر أستاذ هرمز بن الحسن بجيرفت فنبا بابن بختيار المقام بهذا المكان وسار إلى خانين والفرخان وهما ناحيتان بين فارس وكرمان وفيهما خلق كثير من حملة السلاح وفي أكنافهما حلل الزط الذين هم أشد الرجالة الفارسيين شوكة وأكثرهم عدة واستمال منهم طائفة كثيرة وأقبل الديلم وغيرهم إليه إرسالاً من نواحي كورة درابجرد ومن سائر الأصقاع. وعمل أستاذ هرمز على قصده قبل استفحال أمره فجمع عساكر كرمان وتوجه لطلبه وسبقه ابن بختيار إلى دشتير والتقيا في موضع يعرف بزيرل من ظاهرها واستأمن إلى ابن بختيار كثير من الديلم الذين كانوا مع أستاذ هرمز فانهزم أستاذ هرمز في خواصه وأقاربه من القوهية وصار إلى السيرجان. ومضى ابن بختيار إلى جيرفت ورتب العمال وجبى الأموال وأنفذ إلى شق بم من استغوى له الجند الذين فيها ودعاهم إلى طاعته وملك أكثر كرمان واستولى عليها وانتشر أصحابه فيها يطرقون أعمالها ويستخرجون ارتفاعها وأستاذ هرمز بالسيرجان ينفذ السرايا إلى النواحي ويكبس أصحاب ابن بختيار ويسلك سبيل الغيلة والمكيدة في طلبهم والإيقاع بهم. ثم ورد عليه كتاب الموفق بأنه سائر ورسم له قصد بردشير وسبق ابن بختيار إليها ففعل ذاك وحصل بباب بردشير وصعد من كان بها من ديلم ابن بختيار إلى قلعتها

ومنعوا نفوسهم فيها وتوجه الموفق إلى كرمان على طريق درابجرد. فلما وصل إلى فسا عسكر بظاهرها وعرف أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن يوسف وهو عامل كورة درابجرد خروجه من شيراز فبادر لاستقباله وخدمته فوافق وصوله إلى معسكره إن كان نائماً فما انتبه إلا بصهيل الخيل وضجيج الأتباع والحشم فشاهد من كثرة حواشيه وضعفه وسعة كراعه ورجله ما عظم في نفسه وحمله حسده عليه على أن قبض عليه وعلى أصحابه وأخذه معه محمولاً على جمل بعد أن احتوي على جميع ماله. فكان إذا نزل في المنزل أحضره وطالبه وضربه وعذبه حتى تقدم في بعض الأيام بأن يعلق بإحدى يديه في بعض أعمدة الخيم وأن يحمل على الجمل معلقاً وهو مع هذه المعاملة لا يستجيب إلى التزام درهم ولا يذعن بقليل ولا كثير وكان أكثر ما انتهى به الموفق إليه لغيظه من تقاعده وتماتنه. فذكر أبو عبد اللّه أنه عرف من بعض أصحابه (يعني الموفق) أنه قال: ما رأيت أشد نفساً من هذا الرجل فقد عذب اليوم بكل نوع من العذاب وحلّ الساعة عن الشد والتعليق وهو جالس يسرح لحيته بيده وما عنده فكر في كل ما لحقه.

وعرف ابن بختيار مسير الموفق فاستخلف الحسين بن مستر قرابة ملك ديلمان بجيرفت في جماعة من رجاله وسار طالباً لبردشير وعاملاً على التحصن بها إلى أن تلحق به أصحابه ببم ونرماسير وقد كان كاتبهم واستدعاهم وهم جمرة قوية. فلما توسط الطريق إليها بلغه حصول أستاذ هرمز بها وصعود أصحابه إلى القلعة فعدل إلى طريق بمّ ونرماسير وكاتب من بهما من عسكره بالمصير إلى دارزين وتمم هو إليها فنزلها منتظراً لوصولهم إليه ورحل الموفق من فسا وطوي المنازل حتى أطل على جيرفت واستأمن إليه من بها من الديلم لأنهم لم يجدوا مهرباً ولا منصرفاً وكانوا نحو أربع مائة رجل. فاستوقف عندهم أبا الفتح بن المؤمل وأبا الفضل محمد بن القاسم بن سودمند العارض وقال لهم قد أقمتهما عندكم ليعرضاكم ويقررا أموركم ووصاهما بأن يقتلاهم فجمعاهم إلى بستان في دار الإمارة على أن يعرضوا فيه من غد ذلك اليوم ثم جمعا الرجالة الكوج واستدعيا واحداً واحداً على سبيل العرض وقتلاه وكان هذا الفعل منهما ليلاً. ثم خافا أن ينقضي الليل ويدرك الصباح قبل الفراغ فرموا بقيتهم في بئر كرد كانت في البستان وطرح التراب فوقهم. وعرف الموفق من جيرفت خبر ابن بختيار وأخذه طريق بم ونرماسير فخلف أثقاله وسواده واتبعه فيمن خف ركابه وثبتت دوابه وخاطر بنفسه وبالمملكة في هذا الفعل منه.

فحدّثني أبو منصور مردوست بن بكران وكان معه وإليه خزانة السلاح السلطانية التي في صحبته وهو داخل في ثقاته وخاصته قال: كلت أجسامنا ودوابنا من مواصلة السير وإغذاذه وترك الإراحة في ليل أو نهار ووصلنا إلى جيرفت وما نعرف لابن بختيار خبراً. وقعد الموفق وجمع الوجوه من الديلم والأتراك واستشارهم فكل أشار بالتوقف والتثبت

وتجنب المخاطرة بالإقدام والتهجم فامتنع من قبول ذاك فأقام على أمره في الإسراء وراء ابن بختيار واستدعى منجماً كان صحبه من شيراز فقال له: أليس حكمت بأنني آخذ ابن بختيار وأظفر به في يوم الاثنين الآتي. قال: نعم. قال: أين ذاك ونحن على هذه الصورة والرجل مستعجم الخبر وإنما بقي من الأيام خمسة أيام؟ فقال: أنا مقيم على قولي في حكمي ومتى لم تظفر في اليوم الذي ذكرته فدمي لك حلال وإن ظفرت فأي شيء تعطيني؟ قال: (أبو منصور) فتضاحكنا به وهزئنا منه وسار فكان الظفر في اليوم الذي نص عليه.

وحدّثني أبو نصر السني كاتب الموفق قال: لما عظم أمر ابن بختيار وملك كرمان واجتمع عليه الديلم قلق بهاء الدولة بذلك وطالب الموفق بالخروج لقصده وحربه وكان مخاطباً له على الاستعفاء وقال له: لو أجبتك إلى الاستعفاء لما حسن بك أن تتقبله في مثل هذا الوقت وقد علمت أنني لم أخرج من واسط إلا برأيك ولا وصلت إلى ما وصلت إليه من هذه الممالك إلا برأيك واجتهادك وإذا قعدت بي في هذه الضغطة فقد أسلمتني وضيعت ما قدمته في خدمتي ولكن تمضي في هذا الوجه وتدفع عني هذا العدو وتجعل للاستعفاء والخطاب عليه وقتاً آخر فيما بعد. فلم يمكنه في جواب هذا القول إلا الطاعة والقبول وخلع عليه وسار والديلم والأتراك يخرجون معه إرسالاً بغير مطالبة ولا تجريد حتى أنه كان يرد قوماً منهم فيسألونه ويضرعون إليه في استصحابهم.

ولما حصل بفسا وجد بها جوامرد أبا ذرعاني معتقلاً عند أبي موسى خواجه بن سياهجنك وهو إذ ذاك والي فسا وقد كان جوامرد عند افراج الموفق عنه بشيراز حصل في خمارتكين البهائي وفارقه وهرب إلى ابن بختيار عند وروده وحصل معه واختص به. ثم أنفذه إلى الغلمان بفسا ليختبرهم له وأنفذ وتدرين بن بلفضل هركامج إلى الديلم ووندرين ممن كان بفسا وهو وجه متقدم وأصحبهما رقاعاً وخواتيم.

فحدّثني الحسين أبو عبد اللّه بن الحسن قال: أنفذ ابن بختيار وندرين بن الفضل إلى الديلم بفسا لاستمالتهم وإفسادهم وموافقتهم على الانحياز إليه والنداء بشعاره فوصل واستتر في دار حبنة بن الاسبهسلار ولامج وكان يحضر عنده طوائف الديلم سراً ويستجيبون له إلى ما يدعوهم إليه ويتسلمون الرقاع والخواتيم منه.

وكان أبو الفضل أحمد بن محمد الفسوي في الوقت متصرفاً على باب دخول دار (كذا) خواجه بن سياهجنك لأنه كان والي الكورة. فحدّثني غير واحد أن أبا الفضل كان يعشق خادمة في دار حبنة الذي قدمنا ذكره وتواصله وتزوره في أكثر الأوقات فتأخرت عنه لأن حبنة وكلها بخدمة المستتر عنده فراسلها أبو الفضل يعاتبها ويستبطئ عادتها في زيارته فحضرته فأخبرته بعذرها وكان عارفاً بالديلم فاستوصفها الرجل فوصفته وعرفه وسألها أن تتلطف في إدخاله الدار ليلاً وخبئه ليشاهد من يجتمع به. ففعلت ذلك

وحضر الدار سراً وشاهد وندربن وخرج من فوره إلى وندرش بن خواجه بن سياهجنك فقال له: عندي نصيحة تتعلق بالدولة وفيها لوالدك زيادة جاه ومنزلة فإن أحسن إلي وقربني وجعلني من خواجائية الديلم وخلع عليَّ وقدمني أخبرته بها فحمله وندرش إلى خواجه أبيه حتى توثق منه فيما اشترطه لنفسه ثم حدّثه حديث وندرين وكان الوقت ليلاً فأشفق أبو موسى خواجه بن سياهجنك من تزايد الأمر وظهور الفساد وأنفذ وندرش وسياهجنك ابنيه وجماعة من خواصه إلى دار حبنة حتى كبسوها وقبضوا على وندرين وحملوه إليه فقتله. ووفى لأبي الفضل بما كان وعده وكان هذا ابتداء أمر أبي الفضل وتقدمه حتى انتهت به الحال إلى ما سنورده في موضعه.

وعرف أبو موسى خبر جوامرد أبي ذرعاني فقبض عليه واستأذن الموفق في أمره فرسم له اعتقاله قال أبو نصر: فلما حصل الموفق بفسا أحضر جوامرد ليلاً وقال له: قد علمت أنني مننت عليك بنفسك أولاً بشيراز وثانياً عند ما ظهر من إفسادك في هذه الدفعة والآن فإن كان فيك خير وعندك مقابلة لهذه الصنيعة فعلت بك المنزلة العالية الرفيعة. قال له: فيما أمرتني به وجدتني عند إيثارك ورضاك فيه. قال: أفرج عنك سراً وتمضي إلى ابن بختيار وتظهر له أنك جئته هارباً وتتوصل إلى أخذه أسيراً فإذا أطلت عليك أو الفتك به إن لم تتمكن من أخذه وتصير إليَّ لألحقك منازل الأكابر من نظرائك. قال: افعل. وواقفه وعاهده وشرط عليه أن يقلده حجبة حجاب الأمير أبي منصور وخلاه ليلاً وأشيع من غد بأنه هرب من الاعتقال وصار جوامرد إلى ابن بختيار وعاود خدمته.

وسار الموفق مجداً مغذّاً حتى أطل على جيرفت واستأمن إليه من بها من أصحاب ابن بختيار ودخلها ونزل بظاهرها واجتمع إليه أبو سعد فناخسره بن باجعفر وأبو الخير شهرستان بن ذكي وأبو موسى خواجه بن سياهجنك وغيرهم من الوجوه وقالوا له: قد أسرفت أيها الموفق في هذا السير الذي سرته وحملت نفسك فيه على ما لا تؤمن عاقبته وأنت في فعلك بين حالين إما أن تهجم هجوماً ينعكس علينا فقد أهلكت نفسك ونعوذ باللّه بيدك وأهلكتنا وإما أن تظفر بهذا الرجل فقد زال به ما كانت الحاجة داعية إليك وإلينا فيه ومتى أمن هذا الملك كان أمنه سبباً للتدبير علينا وامتداد عينه إلى نعمنا وأحوالنا وتركك الأمر على جملته ووقوفك فيه عند ما بلغته أولى وأصلح. فقال لهم: قد صدقتم في قولكم ونصحتم في رأيكم ولكني قد حملت هذا من قصد هذه البلاد على ما خالفت فيه كل أحد من نصحائه وأصحاب رأيه ولزمني بذلك وبحكم ما لبسته من نعمته إن أوفيه الحق في مناصحته وأبذل له الوسع في طلب عدوه ولا بد أن تساعدوني وتحملوا على نفوسكم في انجاز هذا النجاز معي فقالوا له: لم نقل ما قلناه لنخالف عليك أو نقعد عنك وإنما أوردنا ما وقع لنا أنه خدمة لك وإذا لم ترد ذلك فنحن طوعك.

وقال أبو نصر: وبينما هو في ذلك حضر من عرفه أن ابن بختيار بدرفاذ وهي

على ثمانية فراسخ من جيرفت فاختار ثلاثمائة رجل من الوجوه وذوي القوة والعدة من الديلم والأتراك وأخذ معه الجمازات والبغال والدواب عليها الرجل الخفيف والسلاح الكثير ومن لا بد منه من الركابية والاتباع وترك السواد والأثقال والحواشي والحشم بجيرفت وسار. فلما وصل إلى درفاذ لم يجد بها ابن بختيار وقيل إنه كان بها ومضى إلى سروستان كرمان فمضى على طيته ووافى سروستان وقد سار ابن بختيار إلى دارزين فاضطر إلى اتباعه وخبره على صحته كالمستعجم عليه. وكان في ذلك وقد تقدم بضبط الطرق وأخذ كل وارد وصادر إذ أحضر رجل رستاقي معه كتابان لابن بختيار بخط ابن جمهور وزيره أحدهما إلى أهل سروستان بأن يعدوا الإنزال والميرة فإنه على الانكفاء البهم عند وصول عسكره من بم للتوجه إلى بردشير والآخر إلى جانويه بن حكمويه أحد الدعاة بجبال جيرفت يقول فيه: بلغنا حصول ابن إسماعيل بالسيرجان وأنه على المسير إلى جيرفت وينبغي أن تأخذ عليه المضيق الفلاني (لطريق بين جبلين لا بد من سلوكه إلى جيرفت ويمكن فيه الاعتراض على العساكر بالعدة القليلة ومنعها الاجتياز).

قال أبو نصر: وسأل الموفق الرسول عن ابن بختيار وأين هو. قال: تركته بدارزين ينتظر وصول عسكره من بم ونرماسير. فسرَّ بما تحقق من خبره وسار من ليلته فيما بين العشاء والعتمة. فلما قطعنا فرسخين رأينا ناراً تلوح فظننا أن ابن بختيار قد عرف خبرنا وسار لتلقينا وحربنا وانزعجنا واضطربنا وبادر أبو دلف لشكرستان بن ذكي ونفر معه لتعرف الحال فعادوا بعد أبعاد وذكروا أنها نار صيادين وتثاقل الموفق في سيره إلى أن قدر أن يكون وصوله إلى دارزين عند الصبح فلما قربنا تسرَّع عسكرنا وبادر ابن بختيار فركب وجمع أصحابه وحمل على أحد الديلم رماه بزوبين أثبته في جبهته ورمى مرداويج بن باكاليجار فجرح فرسه وصاح واشتلم وتراجع أصحابنا عنه وتلاحقوا وصفوا مصافهم واجتمع أصحاب ابن بختيار ووقفوا يقاتلون ووصل الموفق (قال أبو نصر) فوقف على ظهر دابته ومعه الصاحب أبو محمد بن مكرم وأبو منصور مردوست وأنا وغلمان داره. فقال أبو محمد: انزل أيها الموفق واركب الفرس الفلاني (لفرس كان من عدده) فقال: إن نزلت لم آمن أن تضعف قلوب أصحابنا ويظنوا أن فعلي ذاك عن استظهار للهرب. قال: وتركنا وسار في غلمان داره حتى خرج على ابن بختيار من ورائه وحمل وصاح غلمانه صياح الأتراك فقدر ابن بختيار أن الغلمان كثيرون وارتفع الغبار وحمل أصحابنا من إزاء القوم فكانت الهزيمة. وركب ابن بختيار فرساً كان من عدده وسار طالباً للنجاة بنفسه ومعه جوامرد أبو ذرعاني فأراد أن يعبر نهراً بين يديه واعتقله جوامرد وضربه بلتّ كان في يده فسقط عن فرسه ونزل ليرفعه على الفرس ويحمله إلى الموفق فتكاثر عليه طلاب النهب وأخذوا فرسه وفرس جومرد وسلاحه فترك جوامرد ابن بختيار ومضى طالباً للموفق فلما لحقه قال: أنا فلان وقد

قتلت ابن بختيار. فاستهان بقوله ولم يصدقه وصار يقتص أثر ابن بختيار وعنده أنه قدامه وأنفذ مع جوامرد محمد بن أميرويه المجرى ليعرف حقيقة ما ذكره. وقد كان بعض الديلم عرف ابن بختيار فنزل إليه وشاله وأركبه دابة كانت تحته ليحمله إلى الموفق لأنه قال له: احملني إليه. وبينما الديلمي في ذلك اعترضه غلام تركي من غلمان قلج فقال له: تريد أن تبقى على من حاربنا ولو ملكونا لما أبقوا علينا. وعنده أن ابن بختيار أحد الديلم فقال له: يا بني هذا ابن بختيار وأريد أن أحمله إلى الموفق. فقال له: تحمله أنت ويكون الأثر والجعالة التي جعلت لمن يحضره لك. قال: لا ولكن نتشارك في ذلك. وتراضيا وعرف قوم من الساسة والاتباع ما هما فيه فقالوا: بل نحن أحق بحمله. ووقعت المنازعة فيه وقوعاً انتهى إلى قتله وحز رأسه وإن أخذه التركي وركب فرسه وحرك ولقيه محمد بن أميرويه وجوامرد أبو ذرعاني فعادا معه. فذكر أبو نصر أن ابن أميرويه بادر إلى الموفق وقد حصل على فرسخ من دارزين وأعلمه الصورة فانكفأ حينئذٍ عائداً وجلس على سطح دار وأحضر رأس ابن بختيار فطرح بين يديه. وصعد وجوه الديلم وهنوه بالظفر ودعوا له وفي وجوههم الوجوم وفي قلوبهم الغم إلا رزمان بن زريزاذ فإنه لما رأى الرأس رفسه برجله وقال للموفق: الحمد للّٰه الذي بلغك غرضك وأجرى قتله وأخذ الثأر منه على يدك وحقق رؤياي التي كنت ذكرتها لك. قال أبو نصر: وقد كان رزمان قال للموفق في بعض الأيام بشيراز: رأيت البارحة في المنام صمصام الدولة وهو يقول لي: امض إلى الموفق فقل له حتى يأخذ بثأري من ابن بختيار. ثم نزل الموفق من السطح إلى خيمة لطيفة ضربت له وكتب إلى بهاء الدولة بالفتح كتاباً بخط يده نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

«علقت هذه الأحرف غدوة يوم الاثنين لثلاث ليال بقين من جمادى الآخرة من الموضع المعروف بدارزين على خمسة فراسخ من بم وبين يدي رأس ابن بختيار وقد استولى القتل على أكثر من خمسمائة رجل من الديلم وأما الرجالة والزط فلم يقع عليهم إحصاء بلغ اللّٰه تعالى مولانا شاهانشاه في جميع أموره وسائر أعداء دولته نهاية آماله وآمال خدمه وكتابي ينفذ بالشرح ليوقف عليه ويعظم الشكر للّٰه عز اسمه على ما وفق له من هذا الفتح المبارك بمنه. وقد استوهب البشارة جماعة من الأوليا» المقيمين معي وذكرت ذلك لئلا يوهب شيء منها لغيرها إن شاء اللّٰه تعالى.

قال أبو نصر: وأمرني بإحضار هميان من جملة هماييين كانت على أوساط غلمانه الأتراك وفتحه وصب دنانير كانت فيه وقال: نادوا من جاء بديلمي فله كذا وبراجل كوجى أوزطي فله نصف ذلك. فكان يؤتى بالديلمي والراجل فيقتلان على بعد من

موضعه ومرأى من عينه حتى قتل عدداً كثيراً. وحضره نيكور بن الداعي وولد للفاراضي وسألاه في قريب لهما قد كان أخذ وحمل ليقتل ولم يزالا يخضعان ويقبلان الأرض وهو يقول لهما: قد عرفتم إحساني إليكم وما جعل لكم من الذنوب عند الملك بالتوفر عليكم وهؤلاء القوم طلبوا الملك وساعدوا الأعداء ولا يجوز الإبقاء عليهم والصفح عنهم. فبينما الخطاب يجري بينهما وبينه إذ دخل نقيب لهما فقال قد قتل الرجل. فنهضا من مجلسه وقعدا للعزاء به وصار إليهما معزياً.

وسألت أبا نصر عن المنجم الذي ذكر أبو منصور مردوست من حكمه ما ذكره فقال: نعم. هذا رجل يكنى بأبي عبد اللّه ويعرف ببرنجشير وكان يخدم صمصام الدولة فلما قتل صار في جملة رزمان بن زريزاذ بالصمصامية وكان رزمان يحضر كثيراً بين يدي الموفق ويؤاكله ويشاربه وينادمه ويؤانسه فجرى في بعض الليالي عند حصولنا بفسا ذكر للنجوم والأحكام فقال: معي منجم يدَّعي من علم ذلك طرفاً فإن رُسم إحضاره أحضرته فقال له الموفق: هاته. فاستدعاه فلما رآه قبلته عينه وقلبه وسقاه وقال له: ما عندك فيما قصدناه. قال: الظفر لك يا مولانا وأنت تملك وتقتل ابن بختيار في اليوم الفلاني. قال له الموفق: إن كنت تقول هذا رزقاً لتجعله فألا محموداً قبلناه وإن كان عن علم وعلى حكم من أين استدللت عليه؟ قال: ما هو رزق ولكنه قول على أصل ومعي مولد ابن بختيار وعليه قطع في اليوم الذي ذكرته لبلوغ درجة قسمة طالعه فيه تربيع المريخ. فقال له الموفق: إن صح حكمك خلعت عليك وأحسنت إليك واستخدمتك واختصصتك وإن بطل فبأي شيء تحكم على نفسك؟ قال: بما حكمت. قال: ولما حصلنا بجيرفت عاودت هذا المنجم الخطاب وقلت له: أنت مقيم على ذلك الحكم؟ قال: نعم. وكان قد جاءنا خبر ابن بختيار بأنه بدرفاذ فقلت له: الرجل على منزل منا ونحن سائرون إليه الليلة وقد بقي إلى اليوم الذي نصصت عليه خمسة أيام. فقال: أما ما حكمت به فأنا مقيم عليه ولست أعلم ما بقي بينكم وبين ابن بختيار. وكانت الوقعة وقتل ابن بختيار في اليوم الذي ذكره.

قال أبو عبد اللّه الفسوي. ودفن جسد ابن بختيار في قبة بدارزين دفن فيها أبو طاهر سليمان بن محمد بن إلياس لما قتله زريزاذ عند عوده من خراسان لقتال كوركير بن جستان ومضى من كان مع ابن بختيار من الأتراك إلى خبيص وراسلوا الأتراك الذين مع الموفق حتى خاطبوه في إيمانهم وقبولهم وأجابهم فوردوا واختلطوا بالعسكر.

قال أبو نصر: وسار الموفق طالباً لبردشير وأبو جعفر أستاذ هرمز مقيم فيها على حصار من في القلعة من أصحاب ابن بختيار فلما وردها وعرف القوم هلاك ابن بختيار راسلوا الديلم الذين مع الموفق وسألوهم أخذ الأمان لهم ليفتحوا القلعة ويدخلوا في

الطاعة فخاطبوه على ذلك فقال: لا أمان لهم عندي إلا على أن ينصرفوا بمرقعات ويخلوا عن أموالهم وأحوالهم. فاستجابوا له إلى هذا الشرط فكان الرجل ينزل هو وولده بمرقعات وكراريز ويركبون الطريق ووقع الاحتواء على ما في القلعة من المال والثياب والرحل والدواب.

قال أبو نصر: وأحضر إلى المعسكر ببردشير من لحقه الطلب وأسر من أصحاب ابن بختيار وفيهم بلفضل بن بويه فتقدم الموفق بأن ضربت له خيمة مفردة ثم استدعي أبا دلف لشكرستان بن ذكي وأبا الفضل بن سودمنذ العارض والوقت عتمة فقال لهما: امضيا إلى بلفضل ووبخاه على مفارقته هذه الدولة وخدمته ابن بختيار وبالغا له في القول والتعنيف. وخرجا من بين يديه وبين أيديهما الفراشون بالشموع وكانت الخيمة التي فيها أبو الفضل كذا ابن بويه قريبة من خيمته فنهض وقال لوندرش بن خواجه بن سياهجنك وكان عنده: قم بنا لنسمع ما تقوله رسلنا لبلفضل وما يجيبهم به. وقال لي: تعرف الطريق الذي يؤدي بنا إلى خيمته على الاصطبل: قلت؟ نعم. قال: كن دليلنا. ومنع الفراشين من اتباعه ومضى في الظلمة وهو متكئ على يد وتدرش وأنا بين يديه حتى حصلنا من وراء الخيمة ووقفنا وهو قاعد بيني وبين وندرش فسمع أبا دلف لشكرستان يعاتبه ويوبخه فقال له: يا أبا دلف دع هذا القول عنك فواللّه ما بقي أحد من أكابر عسكركم وأصاغرهم إلا وقد كاتب ابن بختيار واستدعاه وأطاعه ووالاه حتى لو قلت أنه ما تأخر عنه إلا كتاب الملك والموفق خاصة لكنت صادقاً. وعاد الموفق إلى خيمته وعاد أبو دلف لشكرستان وأبو الفضل بن سود منذ بعده ودخلا إليه فقال لشكرستان: يا مولانا قد اعتذر فيما كان منه وسأل إقالته العثرة فيه. فقال له الموفق: وما الذي قاله لكما وحدثكما به؟ فورّي لشكرستان ثم صدقه وقال: ما في عسكرك إلا من هو متهم وما يمكنك أن تأخذ الجماعة بما فعلوه ولا أن تظاهرهم بما استعملوه وطيّ هذا الحديث أولى في السياسة. وحمل بلفضل بن بويه والديلم المأسورون إلى شيراز عند عود الموفق فأما بلفضل ونفر معه فإنهم اعتقلوا إلى أن قبض على الموفق ثم أفرج عنهم وأما الباقون فإن وجوه الديلم سألوا الموفق فيهم فخلى سبيلهم.

ونرجع إلى ذكر ما فعله الموفق بعد ذلك ببردشير. قال أبو نصر: ثم جمع الديلم الكرمانية من سائر النواحي وقال لهم: من أراد المقام في هذه الدولة على أن يستأنف تقرير ديوانه ويوجب له ما يجوز إيجابه لمثله فليقم على هذا الشرط وعلى أنه لا ضيعة ولا إقطاع وإنما هو عطاء وتسبيب ومن أراد الانصراف فالطريق بين يديه. فاستقر الأمر معهم على أن يعرضوا وتُحل الإقطاعات التي في أيديهم وتستقبل التقريرات معهم كما تستقبل بالعجم الذين يردون من بلاد الديلم وجلس لذلك ووجوه الديلم عن يمينه ووجوه الأتراك عن يساره والعرَّاض والكتَّاب والجرائد بين يديه فكان يحضر الديلمي الذي له بكرمان السنون

الكثيرة وفي يده الإقطاعات الكثيرة وأقل المقرر له خمسمائة ألف درهم فيقبل الأرض ويقف ويسأل عن اسمه واسم أبيه وعن بلده ثم يقرر له التقرير القريب إلى أن حل الإقطاعات كلها ورد أصول التقريرات إلى بعضها وصرف الحشو وارتبط الصفو.

ولما فرغ من ذلك صرف أبا جعفر أستاذ هرمز عن كرمان وأخذ حاله الظاهرة لأنه ينقم عليه قبضه على أبي محمد القاسم بن مهدر فروخ لما كان مقيماً معه بغير إذنه ولا أمره وقلد أبا موسى خواجة بن سياهجنك الحرب وخلع عليه وحمله على فرس بمركب ذهب وعول على أبي محمد القسم في أمر الخراج وخلع عليه وأخذ خطه بتصحيح ثلاثة آلاف ألف درهم من النواحي في مدة قريبة قررها معه.

واتفق إن ورد عليه كتاب من أبي الفضل الإسكافي يخبره فيه ما غاظه من ذكر الحواشي له عند ورود كتابه بالفتح بالطعن عليه والقدح فيه فما ملك نفسه عند وقوفه على ذلك وتداخله من الامتعاض ما أقلقه وأزعجه واستدعى أبا منصور مردوست وأنفذه إلى شيراز وقاد معه خيلاً وبغالاً وحمله رسالة إلى بهاء الدولة يقول فيها: قد خدمت الملك أولاً وأخيراً ووفيته حق الصنيعة وحكم النصيحة ووجب أن ينجز لي ما وعدنيه من الإعفاء بعد الفتح فإني لا أصلح لخدمة ولا عمل بعد اليوم. وأظهر الانكفاء بعد إنفاذه أبا منصور مردوست فاجتمع إليه وجوه الديلم الذين يسكن إليهم ويعول عليهم وعرفوه غلط الرأي في عوده قبل أن يرتب الأمور ويمهدها ويسددها ويهذبها وأشاروا عليه بالتوقف والتوفر على إصلاح الأعمال من جمع الأموال وإذا تكامل له ما يريده بعد مدة حمل إلى بهاء الدولة ما يرضيه به. وكان بين أن يقيم بموضعه إن طاب له المقام فيه أو يسير إلى أصبهان ويأخذها وينتقل منها إلى الجبل أو إلى العراق وحذّروه من الاجتماع مع بهاء الدولة والكون عنده وأعلموه أنه غير مأمون عليه مع خلو ذرعه وأمنه الأعداء. فلم يقبل منهم ما صدقوه فيه ونصحوه به وحمله فرط الإدلال على أن عاد إلى شيراز وكان دخوله إياها في يوم الأربعاء الثاني عشر من شعبان.

فحدّثني غير واحد أن بهاء الدولة خرج لاستقباله فلما لقيه وخدمه ورجعا داخلين إلى الباد فارقه الموفق في وسط الطريق وعدل إلى داره والعسكر بأسره معه في موكبه وبقي الملك في غلمان خيله وخدمه وخاصته وأن ذلك شق على بهاء الدولة وبلغ كل مبلغ منه وتحدث به الناس وأكثروا الخوض فيه وامتنع بهاء الدولة بعد هذا الاستقبال من استقبال أحد من وزرائه.

ونعود إلى ذكر الحوادث على سياقة الشهور

وفي يوم الاثنين الرابع من رجب توفي أبو الحسن أحمد بن علي بن شجاع الشاهد.

وفي يوم الاثنين الحادي عشر منه توفي أبو حفص عمر بن إبراهيم الكتاني المقرئ.

وفي يوم الجمعة لثمان بقين منه توفي الأمير أبو سعد بن بهاء الدولة ببغداد وفي يوم السبت لسبع بقين منه خرج أبو الحسن علي بن الحسن البغدادي وأبو طاهر يغما الكبير إلى بادوريا دافعين لأصحاب قراد بن اللديد عنها.

ذكر السبب في ذلك وما جرت عليه الحال فيه

كان لأبي طاهر يغما إقطاع جليل ببادوريا وانضاف إليه أن يقلد ولايتها ونازع قراد بن اللديد فيها وأبو الحسن رشا الخالدي إذ ذاك كاتبه والمدبر لأموره وفيه استقصاء في المعاملة وغلظة ولجاج ومنافرة. فاستعمل الاستقصاء مع أبي طاهر يغما والمنافرة والغلظة مع أبي نصر سابور بن اردشير في أمور اعترض فيها وأوامر امتنع منها وثقل على المقطعين والأكرة ورد ما كان يؤخذ من مال الخفارة والحماية ورقا قيمة الدينار به مائة وخمسون درهماً إلى العين مصارفة عشرين درهماً بدينار عتيق فتضاعف التقرير وزاد التثقيل. وعملت لأبي نصر سابور الأعمال في بادوريا وأطمع في مال يحصل له منها إما على الحرب أو على الصلح وأدت الحال إلى خروج يغما والياً للحرب وأبي الحسن البغدادي ناظراً في استخراج الرسوم العربية وأقاما مدة على ذلك. ووافى قراد ورشا في جمع جمعاه ونزلا بالسندية ويغما وأبو الحسن البغدادي بالفارسية وبينهما أربعة فراسخ وتطرق أصحاب قراد فقتلوا ثلاثة غلمان من الأتراك يقال لأحدهما بايتكين الياروخي وللآخر الهاروني وللثالث المجدر وصلبوا الهاروني ببيذ على شاطئ نهر عيسى. فخرج أبو نصر سابور وأبو حرب شيرزيل بن بلفوارس بالعسكر إلى الفارسية وقرب قراد وأصحابه منها وتسرع سياهجنك بن خواجة بن سياهجنك في نفر من الديلم لمناوشة قوم من العرب فاستجروه حتى فارق العسكر وحصل عند القرية المعروفة بالكلوذانية على رمية سهم من الفارسية ثم خرج من ورائه جماعة منهم قد كانوا تكمنوا في ذرة قائمة هناك فأخذوه أسيراً واضطرب الناس بذاك وكاتب أبو نصر سابور قلج وكان ببغداد بالخروج فخرج في عدة من الغلمان والأكراد الذين برسمه وسارت الجماعة إلى السندية وخيموا في الجانب الشرقي بإزائها ومضى قراد إلى حديثة الأنبار وهي على أربعة فراسخ منها. فما مضت أيام يسيرة حتى غضب قلج من شيء سأله فتوقف أبو نصر سابور عنه وخلع خيمه وخلع الغلمان خيمهم معه وعادوا واضطر أبو نصر سابور وأبو حرب شيرزيل والديلم إلى العود بعودهم وذلك في شهر رمضان. فاذكر وقد ورد على كتاب أبي الحسن رشا يسألني توسط أمره واستئذان أبي نصر سابور في ورود صاحب له فصرت إليه وأقرأته الكتاب فتباعد في الجواب وقال: اكتب إليه وقل له: «واللّه لأقررت معك أمراً إلا بعد أن أشفي منك صدراً» وخرجت من حضرته وتوقفت في كتب الجواب ورد الرسول فلم تمض ساعة حتى قلع قلج والغلمان ورحلوا فاستدعاني أبو نصر وقال: ما الذي أجبت به رشا. قلت:

ما قلته. فقال: وقد مضى رسوله. قلت: لا. قال: ارتجع الكتاب واكتب إليه «بأن وطأة الأولياء ثقلت على النواحي ولم أحب إخرابها بتطاول مقامي فيها وإذا كنت قد ندمتَ على ما مضى واستأنفت الطاعة والخدمة فأنفذ صاحبك». وركب عائداً إلى بغداد وكَتبت الجواب قائماً على رجلي لأن الأمر أعجل عن التلبث والتثبت وخفنا أن يعرف العرب خبرنا فيكسبوا معسكرنا ويأخذوا من تأخر منا أو يعارضونا في طريقنا فيبلغوا أغراضهم منا مع تفرقنا ودخولنا كما يدخل المنهزمون. ووصل كتابي إلى أبي الحسن رشا فأنفذ أبا الفضل بن الصابوني الموصلي واستقر الأمر مع المنصرف القبيح والطمع المتجدد على إطلاق سياهجنك في الوقت وحده واندرجت القصة على تزايد الفضيحة وتضاعف الأخلوقة. وقد كانت الكتب نفذت إلى الموفق بذكر ما فعل وعاد جوابه ينكره ويمنع من التعرض لبني عقيل أو هياجهم.

وفي يوم الأحد لست بقين منه توفي أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الزجاج الشاهد وكان مولده في شهر رمضان من سنة خمس وتسعين ومائتين.

وفي يوم الخميس لليلتين بقيتا منة توفي أبو القاسم عبيد اللّه بن عثمان بن حنيقا المحدث.

وفي يوم الثلاثاء الرابع من شعبان توفي القاضي أبو الحسن محمد بن عبيد اللّه بن أحمد بن معروف.

وفي يوم الخميس السادس منه توفي أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن الفراء الفقيه الشاهد بالجانب الشرقي.

وفي يوم الخميس لعشر بقين منه قبض على الموفق أبي علي بن إسماعيل بشيراز.

شرح الحال في ذلك وفيما تقرر عليه أمر النظر بعده

لما عاد إلى شيراز على ما قدمنا ذكره أقام على الاستعفاء وأعاد القول فيه وكرره وكانت في قلب بهاء الدولة منه أمور قد ملأته وأوغرته وأحالت رأيه فيه وغيرته وزال عنه ما كان يراعيه ويراقبه ويحتمله لأجله وبسببه. وخافه الحواشي ومن كان بحضرة الملك لأنه ذكرهم وأطلق لسانه فيهم فأغروه به.

فحدّثني أبو نصر بشر بن إبراهيم السني قال: لما ورد الموفق قادماً من كرمان أقام على الاستعفاء وواصل مراسلة بهاء الدولة فيه والإلحاح في مسألته إياه فحضر عنده أبو سعد فناخسره بن باجعفر وأبو دلف لشكرستان بن ذكي وكانا يختصان به في الليلة التي قبض عليه من غدها وقالا له وأبو العلاء الإسكافي حاضر: أيها الموفق أي شيء آخر ما أنت عليه من ركوب الهوي ومخالفة الرأي في هذا الاستعفاء وما الذي تريده لنبلغه لك إما

بالملك أو بنفوسنا فإن كان قد غاظك من أبي علي بن أستاذ هرمز أو أبي عبد اللّه الحسين بن أحمد فعل أو تريد بهما أمراً فنحن نضع عليهما من يفتك بهما ونقود الملك إلى أخذهما وتسليمهما إليك أو كان في نفسك غير ذلك فأصدقنا عنه واطلعنا عليه لنتبع هواك فيه. فقال لهما: أما أبو علي بن أستاذ هرمز فبيني وبينه عهد منذ كوننا بالأهواز وما ارجع عنه وأما أن يكون في نفسي ما أطويه عنكما فمعاذ اللّه ولكنني قد خدمت هذا الملك وبلغت له أغراضه وما أريد الجندية بعدما مضى. فقالا: (وقال أبو العلاء الإسكافي) له: لا تفعل ودع ما قد ركبته من هذه الطريق وأقمت عليه من هذا اللجاج فإنه يؤدي إلى ما تندم عليه حين يتعذر الاستدراك ومتى قدرت أنك تعفي وتقيم في منزلك وينظر بعدك ناظر وقد بلغت من الدولة ما بلغته وتقدمت بك المنزلة إلى ما تقدمت إليه فقد قدرت محالاً والصواب أن تدعنا لنمضي إلى الملك ونعرفه عدولك عن رأيك ومقامك على خدمته والنظر في أموره. فأبى ثم قالوا له: فإذا كنت على ما أنت عليه فأخر ركوبك في غد وارجع فكرك ونحضر عندك ويستقر بيننا في غير هذا المجلس ما يكون العمل به فلم يقبل وركب من غد إلى دار المملكة ومعه العسكر فلما دخل وجلس في البيت الصلي كذا نظر فيما جرت عادته بالنظر فيه وأوصل جماعة القواد إليه وخاطبهم وقضى حوائجهم. ثم قال لأبي الفضل بن سودمنذ العارض والنقباء: اخرجوا إلى الناس وانظروا في أمورهم وتسلموا رقاعهم بمطالبهم وترددت المراسلات بينه وبين بهاء الدولة في حديث الإعفاء وبهاء الدولة يدفعه عن ذلك وهو مقيم عليه ومقيم على المطالبة به. ثم رأينا في الدار أموراً متغيرة ووجوهاً متنكرة فقال له الصاحب أبو محمد بن مكرم: قد أحسست بما أنا مشفق منه والرأي أن تقوم وتخرج فإن أحداً لا يقدم على منعك وإذا حصلت في دارك دبرت أمرك بما تراه صواباً لنفسك. فقال له: قد خفت أيها الصاحب وخرت فقم وانصرف. فراجعه القول قليلاً ثم انصرف وركب وتبين الموفق من بعد أمره.

قال أبو نصر: فقال لي: امض وخذ لنفسك. فقلت: بل أقيم وأكون معك. فزبرني وقال: اخرج كما يقال لك. فخرجت ولم يبق عنده إلا أبو غالب بن خلف وأبو الفضل الإسكافي: فحدّثت أن الحسين الساباطي الفراش خرج وقال لأبي غالب: يا أستاذ اخرج. وقال لأبي الفضل مثل ذلك وأغلق باب البيت وزرفنه ووكل الفراشين به وأخذ أبو غالب وأبو الفضل واعتقلا ووكلا بهما. وشاع الخبر بين الديلم الحاضرين في الدار فتسللوا واحداً واحداً وتفرقوا فريقاً فريقاً ولم يجر من أحدهم قول في ذلك. وأنفذ إلى دار الموفق من نقل جميع ما كان فيها من المال والثياب والرحل والسلاح والخدم والغلمان وإلى اصطبلاته فحوّل ما فيها من الكراع والحمال.

قال أبو نصر: وترشح الأمين أبو عبد اللّه للنظر وأمر ونهى في ذلك اليوم. فلما

كان آخره استدعى الصاحب أبو علي الحسن بن أستاذ هرمز (وقد كان بعد فتح الأهواز اعتزل الأمور وأقام في منزله واقتصر على حضور الدار في الأوقات التي يجلس فيها بهاء الدولة الجلوس العام): واستخلف له أبو الفضل بن ماوزند فوقفت الأمور ولم تكن له ولا لأبي الفضل دربة بالتمشية والتنفيذ وخلى أبو العباس الوكيل وقد كان قبض عليه وقرر أمره وأعيد إلى ما كان ناظراً فيه.

قال أبو نصر: وكان أبو الخطاب يكره أبا غالب بن خلف ولا يريده فقال له أبو منصور مردوست: أراك تكاتب الوزير أبا العباس بن ماسرجس وغيره في الورود ليرد إليهم النظر في الأمور وقد عولت من الصاحب أبي علي على من ليس يحلي ولا يمر فيما يراد منه وهذه أسباب تدعو إلى الوقوف والحاجة إلى رد الموفق وما كان يمشي الأمر ويخفف فيه إلا أبو غالب فلو أطلقته واستخدمته لترخَّى على يده ما لا يترخي على يد غيره وكفينا دخول من لا يؤمن بيننا. فقبل منه وأطلقه وجعله خليفة للصاحب أبي علي ونظر وكفى وكان بهاء الدولة يرعى له ما كان يخدمه به في أيام الموفق والحواشي يحتمونه لانبساطه في عطائهم وقضاء حوائجهم. ومضت مديدة فأعجب أبا الخطاب تخفيفه عنه واستمال الجند وتوفر عليهم وأعطته الكفاية والسعادة ما كان له في ضمنهما وتمسك بأبي الخطاب وتمسك أبو الخطاب به وتفرد بالأمور وتقلدها وزارة ورئاسة. وخرج الصاحب أبو علي من الوسط.

وفي ليلة الجمعة لليلتين بقيتا منه توفي أبو الحسين محمد بن عبد اللّه ابن أخي ميمي المحدث.

وفي يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان ورد الكتاب إلى أبي نصر سابور بذكر القبض على الموفق وأن يقبض على ولده وأهله وأصحابه وأسبابه فاستعمل الجميل وأنذر ولده وأقاربه حتى انصرفوا عن دورهم وأخذوا لنفوسهم ثم أنفذ إلى منازلهم فكانت خالية منهم وأجاب عن الكتاب بأن الخبر سبق إلى القوم قبل ورود ما ورد عليه به واقتصر على أن أدخل يده في ضياعه بطريق خراسان مديدة. ثم كتب من فارس بالإفراج لولده أبي المعمر وأقر أبو نصر سابور وأبو القاسم الحسين بن محمد بن مما وأبو نعيم المحسن بن الحسن على ما كانوا يتولونه.

وفي يوم السبت لليلتين بقيتا منه توفي أبو الحسين بن أبي الزيال الشاهد وفي روز أبان من ماه شهرير الواقع في هذا الشهر أخرج الصاحب أبو محمد بن مكرّم إلى عمان متقلداً لها.

وفي روزمهر من ماه شهرير الواقع فيه أخرج أبو جعفر أستاذ هرمز بن الحسن إلى كرمان.

وفي ليلة يوم الاثنين الثالث عشر من شوال احترق سوق الزرّادين بباب الشعير.

وفي يوم الخميس لسبع بقين منه قلد القاضي أبو عبد اللّٰه الحسين بن هارون الضبي مدينة المنصور رحمة اللّٰه عليه مضافة إلى الكرخ والكوفة وسقى الفرات وقلد القاضي أبو محمد عبد اللّٰه بن محمد الأكفاني الرصافة وأعمالها عوضاً عن المدينة التي كان يليها وقلد القاضي أبو الحسن الخرزي طريقي دجلة وخراسان مضافاً إلى عمله بالحضرة وقرئت عهودهم على ذلك.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بأن المقلد بن المسيب ملك دقوقا وخانيجار وأقر بها أبا محمد جبرائيل الملقب بدبوس الدولة نائباً عنه.

وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة ورد الكتاب من فارس بتقليد أبي علي بن سهل الدورقي ديوان السواد واستخلافه عليه أبا منصور عبد اللّٰه بن الاصطخري الكاتب فيه.

وفي يوم الأحد الرابع منه توفي أبو محمد القاسم بن الحسين الموسوي العلوي.

وفي يوم الاثنين الخامس منه تكلم الديلم في أمر النقد وفساده وكانت المعاملات يومئذٍ بالورق وقصدوا دار أبي نصر سابور بدرب الديزج على سبيل الشغب.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بأن بغرا خاقان قصد بخارا واستولى عليها ودفع ولد أبي القاسم نوح بن منصور عنها.

وحدّثني أبو الحسين بن زيرك قال: حدّثني أبو الحسين بن اليسع التميمي الفارسي وكان من أعيان التجار قال: كنت ببخارا حسين وردت عساكر الخانية فصعد خطباء السامانية إلى منابر الجوامع واستنفروا الناس وقالوا عن السامانية قد عرفتم حسن سيرتنا فيكم وجميل صحبتنا لكم وقد أظلنا هذا العدو وتعين عليكم نصرنا والمجاهدة دوننا فاستخيروا اللّٰه تعالى في مساعدتنا ومضافرتنا. وأكثر أهل بخارا حملة سلاح وأهل ما وراء النهر كذلك فلما سمع العوام ذلك قصدوا الفقهاء عندهم واستفتوهم في القتال فمنعوهم منه وقالوا: لو كان الخانية ينازعون في الدين لوجب قتالهم فأما والمنازعة في الدنيا فلا فسحة لمسلم في التغرير بنفسه والتعرض لإراقة دمه وسيرة القوم جميلة وأديانهم صحيحة واعتزال الفتنة أولى. فكان ذاك من أقوى الأسباب في تملك الخانية وهرب السامانية وانقراض ملكهم ودخل الخانية بخارا فأحسنوا السيرة ورفقوا بالرعية.

وفيه ورد أبو الحسن محمد بن أحمد بن علان العارض من فارس لتجريد الغلمان إلى هناك واجتمع الشريف أبو الحسن بن يحيى والمناصح أبو الهيجاء والسعيد أبو طاهر وأبو الحسن بن علان في دار أبي نصر سابور فأحضروا الغلمان وخاطبوهم على الخروج فطالبوا بما تأخر لهم من الأقساط والإقامات وبذل لهم سابور إطلاق القسط لمن يخرج دون من يقيم حتى إذا أعطي المجردين ننظر في أمر المقيمين وترجح القول ووقف الاستقرار.

وفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة توفي أبو الفرج المعافى بن زكريا المعروف بابن طرارا بالنهروان وكان رجلاً يعرف علوماً كثيرة وفي هذا يوم الجمعة لليلة بقيت منه توفي أبو عبد الله الحسين بن يحيى بن الحندقوقا الهاشمي عن ست وخمسين سنة وثلاثة أشهر.

وفي اليوم الثالث من الخمسة المسترقة خرج بهاء الدولة إلى كوار وسار منها إلى فسا.

وحج بالناس في هذه السنة أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر.

وفي هذه السنة ورد طاهر بن خلف المعروف بشيرياربك كرمان منافراً لخلف أبيه ثم تغلب عليها وملكها وانضوى إليه كثير من عساكرها وانتهى. أمره إلى الهزيمة والعود إلى سجستان.

شرح ذلك على ما حدّثني به أبو عبد الله الفسوي

وقد سقناه سياقة لم نذكر فيها أيام ما جرى وشهوره لإشكال ذلك عللنا إلا أن المدة على غالب ظني فيما بين سنة تسعين وثلاثمائة.

وصدر من سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

لما قلد الموفق أبو علي أبا موسى خواجة بن سياهجنك أعمال كرمان وصرف من صرف من الديلم على السبيل التي قدمنا ذكرها صار أبو موسى إلى جيرفت فتتبع أموال الديلم المبعدين واستثار ودائعهم وطالب حرمهم وأسبابهم وصادرهم وقبض على جماعة الباقين وقتلهم وطردهم وصلب نفسين من وجوه الكتاب لإنكاره عليهما تصرفهما مع ابن بختيار وأظهر الاستقصاء والغلظة. واتفق أن نافر طاهر بن خلف خلفا أباه ونازعه الأمر وجرت بينهما حروب أدت طاهراً إلى الهرب وقصد كرمان ملتجئاً إلى بهاء الدولة. فلما دخل المفازة التي بين سجستان وبينها ضل الطريق فيها ولحقه ولحق من معه جهد شديد ثم خلص على أسوأ حال. ولقيه الديلم الفل والمنفيون من أصحاب ابن بختيار فأطمعوه في أخذ كرمان والتغلب عليها وأعلموه أن من وراءهم من الديلم على نفور من بهاء الدولة وكراهية له لما عاملهم الموفق به وأنهم وإياهم يجتمعون على طاعته ويخلصون في مظاهرته. فصبا إلى ذلك وحدث نفسه به وعقد عزمه عليه ولم يكن له قدرة على إظهاره مع الشدة التي لاقاها في طريقه ونزل نرماسير وكتب إلى أبي الفتح عبد العزيز بن أحمد العامل بها وبم بأنه ورد منحازا إلى بهاء الدولة وداخلاً في جملته. فتلقاه أبو الفتح بالجميل وحمل إليه ما يحمل إلى مثله من الإنزال وواصله بذلك مدة من الأيام وكان يزيد له ولمن معه في كل يوم اثني عشر ألف درهم وكتب بخبره إلى أبي موسى خواجة بن سياهجنك وأبي محمد القاسم بن مهدر فروخ.

ثم بدت من طاهر بوادي الفساد ولاحت شواهد سوء الاعتقاد وبلغ ذلك أبا محمد القاسم وهو ببردشير فانزعج منه وكان يقاربه أكراد قتال يعرفون بالمالكية فاستدعاهم وتوجه معهم إلى دارزين وخرج إليهم بما يريده من قصد طاهر والإيقاع به فقالوا له: هذا رجل قد اجتمع إليه الديلم وكثرت عدته وقويت شوكته وما نستطيع لقاءه ومقاومته ولكننا نسلك سبيل الحيلة عليه ويمضي منا جماعة على وجه الاستئمان إليه فإذا حصلوا عنده طلبوا غرته في بعض متصيداته فإنه كثير الصيد مشغوف بالركوب إليه في كل وقت فتكون قد بلغت الغرض ولم تركب الخطر.

فكتب أبو محمد إلى أبي موسى خواجة بن سياهجنك بما جرى بينه وبين هؤلاء الأكراد واستشاره فيه فأجابه: بأني أعرف بهذه الأمور وأملك لها وأولى بها منك وينبغي أن تخلي بيني وبينها وتدعني وما أدبره منها وتتشاغل بشأنك وتتوفر على ما يتعلق بك. فاغتاظ من هذا الجواب وصرف الأكراد وأقام بموضعه من دارزين وصار أبو موسى خواجة من جيرفت إليه على أن يجتمعا ويقصدا طاهراً بنرماسير. فلما حصل على مرحلة من دارزين جمع ابن خلف عساكره فاستشارهم فيما يفعله فقالوا له: أحوالنا ضعيفة وعددنا قليلة ولا فضل فينا للحرب إلا بعد الاستظهار بالدواب والأسلحة. واستقر الرأي بينه وبينهم على أن يتوجهوا إلى الجروم ويعتصموا بأهلها وهم قوم عصاة متغلبون وفيهم بأس وقوة فصاروا إليها ورجع أبو موسى وأبو محمد إلى جيرفت واستعاد الأكراد المالكية فلم يعودوا. وجمعا من معهم من الجيل وأطلقا لهم المال ووافقاهم على النهوض لقصد الجروم وقصد ابن خلف وفي مضي ما مضى من الأيّام ثبت ابن خلف وحصل لنفسه وللديلم الذين معه عدة وسلاحاً وكراعاً. وتوجه أبو موسى وأبو محمد للقائه فلقياه في القرية المعروفة بنهر خره هرمز على مرحلة من جيرفت لأنه قد كان سار إليها وصفا مصافهما وكان من عادة ابن خلف في حروبه أن يتفرد في سرية من غلمانه بعد أن يطعمهم ويسقيهم ويتردد على مصافه فيسوي أصحابه ويرتبهم ويتأمل مصاف من بإزائه فإن وجد فيه خللاً حمل على موضعه فرأى في بعض تردده ضعفاً في جانب من مصاف أبي موسى فحمل عليه وكسر المصاف منه وقتل جماعة وأسر أبا موسى وقد أصابته ضربة في رأسه وأبا محمد القاسم وثلاثين رجلاً من القواد منهم وندرين بن الحسين بن مستر وشوزيل بن كوس كذا وشيرزيل بن علي ومن يجري مجراهم وكف عن القتل واستباح السواد وغنم هو وأصحابه منه ما تأثلت أحوالهم به وتمم إلى جيرفت ودخلها واستولى على معظم أعمال كرمان وملكها وطلبه الديلم وقصدوه وتكاثروا عنده وأرادوه. وصار الفل من جيش بهاء الدولة إلى السيرجان واجتمعوا فيها وكانوا عدداً كثيراً وكاتبوا بهاء الدولة بالصورة فانزعج منها وقد كان قبض

الموفق قبل هذا الحادث بمديدة. وعمل ابن خلف على قصد السيرجان فخرج عنها من فيها طالبين شيراز فلما حصلوا بقطرة ورد عليهم كتاب بهاء الدولة بالتوقف في موضعهم وأعلمهم تجريده أبا جعفر أستاذ هرمز بن الحسن إليهم لتدبير أمرهم وقصد عدوهم فتوقفوا ولحق بهم أبو جعفر فأخذهم وعدل إلى هراة اصطخر. فأدخل يده في إقطاعات الديلم بفارس وتناول ارتفاعها واستخرج أموالها وأطلق لمن معه ما أرضاهم به واستدعى من بهاء الدولة المدد فأنفذ إليه مرد جاوك التركي مع طائفة كبيرة من الأتراك وثلاثمائة رجل من الديلم الخوزستانية ووعده بأن يتبعه بعسكر آخر ورسم له قصد ابن خلف ومناجزته. فسار في نواحي كورة اصطخر ومد يده إلى كل موجود في الإقطاعات المحلولة وصار إلى السيرجان وأقام بها خمسة أيام على انتظار حانويه بن حلمويه كذا للزطي وكان قد استدعاه فوافاه في عدة وافرة من أصحابه ورحل إلى ناختة وهي على عشرين فرسخاً من السيرجان ونزل بها. ورتب في السيرجان ركابية وقوماً من المجمزين ليبادروا إليه بخبر العسكر الذي يتوقع خروجه من شيراز فورد إليهم أحدهم وأعلمه بانفصال القوم من شيراز وقربهم من السيرجان وأنهم على إغذاذ السير وطي المنازل.

وكان بنو خواجه بن سياهجنك وأقارب القواد المأسورين يتهجمون في كل يوم على بهاء الدولة ويطالبونه بتجريد العساكر مع صاحب جيش كبير لاستنقاذهم واستخلاصهم ويقولون إن أبا جعفر أستاذ هرمز شيخ كبير لم تبق فيه حركة ولا نهضة فجرد المظفر أبا العلاء عبيد اللّه بن الفضل وضم إليه وجوه الديلم والأتراك من شهرستان بن اللشكري وأمثاله وأرسلانتكين الكوركيري وخيركين (كذا) الطيبي ومن جرى مجراهما.

قال أبو عبد اللّه: فحدثني من كان حاضراً مجلس أستاذ هرمز يوم جاءه الخبر بانفصال أبي بالعسكر من شيراز وعنده جماعة من الديلم يأكلون على مائدته أنه لما عرف ذلك اضطرب وخفف الأكل ونهض وقد تقدم بضرب البوق للرحيل فاجتمع إليه مردجاوك ووجوه الأولياء وقالوا له: تغرر بنا وبدولة سلطاننا وتحمل نفسك وتحملنا على هذا الخطر الذي يوجب الحزم وتجنبه والتوقف على الاستظهار الذي هو أولى ما أخذنا به. (قال المحدث لأبي عبداللّه) وأبو جعفر يسمع أقوالهم ويقول اضربوا البوقات وحملوا. فلما تردد الخطاب منهم وقل إصغاء أبي جعفر إلى ذلك قال له مردجاوك: إذا كنت قد أقمت على أمرك فامض لشانك فإنني لا أتبعك فقال له أبو جعفر حينئذ: إذا وصلنا اسبهسلار أبو العلاء غداً وفتح كان الاسبهسلار وكنت أنت مردجاوك وصرت أنا أستاذ هرمز ورجعنا على أعقابنا إلى باب السلطان بالذل والخيبة وتصورنا بصورة من لم يكن عنده خير حتى جاء مجوسي فعمل وأغنى. هذا لفظ أستاذ هرمز فكان هذا القول

حرك مردجاوك وهزه وبعثه على متابعته فقال له: الأمر لك وسارا حتى نزلا بخشار وقد كان طاهر بن خلف أحسن معاملة أبي موسى خواجة بن سياهجنك ودعا أبا محمد القسم إلى وزارته والنظر في أموره فعلله ودافعه وواصل أبا جعفر أستاذ هرمز بالرسل والملطفات وعرفه أخبار طاهر ومجاري أموره ومتصرفات تدبيره ومتقررات عزائمه.

فلما حصل أبو جعفر بخشار وبينها وبين جيرفت عشرون فرسخاً وبين بم مثل ذلك وابن خلف بجيرفت وأفاده كتاب أبي محمد يذكر فيه ما عمل عليه ابن خلف بجيرفت من قصده بم ويشير عليه بسبقه إلى دارزين واعتراضه في طريقه ودارزين هذه في سهل يحيط به شعاب وجبال فأنفذ أبو جعفر قطعة من جيشه وأمرهم بأن يكمنوا لابن خلف وأصحابه في المواضع التي لا يحسون بهم فيها ثم يخرجوا عليهم منها عند تفرقهم في السير فيوقعوا بهم فمضوا وفعلوا ذلك وبلغوا فيه المبلغ الذي أدركوا بعض غرضهم به وأسروا جماعة من رجاله وقواده ثم عادوا إلى أبي جعفر وقد رحل من خشار إلى سروستان كرمان وهي على اثني عشر فرسخاً من بم.

وسار ابن خلف إلى بم وتوجه أبو جعفر للقائه وقد رتب المصاف وجعل سيره زحفاً على تأهب واستعداد حتى إذا حصل بدارزين وافاه من عرفه خروج ابن خلف لتلقيه وقتاله. فماج الناس وخافوا واضطرب الجند وحاروا واجتمعوا على أبي جعفر وقالوا له: غررتنا وغررت بنا وأشرنا عليك بالصواب فخالفتنا ولم تقبل منا وحملك العجب بنفسك والخوف على اسبهسلاريتك على التوجه في هذا الوجه قبل وصول المدد إلينا وتحصيلنا في هذا الموضع على مثل هذه الصورة.

وبادر الفرسان من الأتراك والأكراد ليعرفوا الخبر فصادفوا ابن خلف قد خرج من بم كالطليعة في عدة يسيرة ليشاهد عسكر أستاذ هرمز ويحزر عدته فواقعوه وعاد إلى بم وعادوا إلى دارزين. وأصبح أبو جعفر والعسكر مُشغِّب عليه وهو متحير في أيديهم فبينما هو يلاطفهم ويداريهم أحضره الأكراد رجلاً ذكروا أنه جاسوس لابن خلف فقال له: أنت جاسوس ابن خلف. قال: لا ولكني رسول ديررشت بن ماهويه لصاحبِ لأبي جعفر ببم وهذا كتابه إليك يخبرك فيه بانصراف ابن خلف إلى سجستان.

فلما سمع قوله ووقف على الكتاب أظهره عند العسكر فسكنوا وزالوا عما كانوا عليه من الهنجمة وسار بعد أن قدم جماعة من المعروفية إلى باب بم ليمنعوا الناس من دخولها ويعدلوا بهم إلى قرية تعرف بقرية القاضي على فرسخين منها في سمت نرماسير ونزل بقرية القاضي واستأمن إليه كثير من الديلم الكرمانية الذين انضووا إلى ابن خلف وكان الموفق قد طردهم فقبلهم ورد عليهم إقطاعهم.

ولما حصل بهذه الناحية اجتمع إليه وجوه العسكر وألحوا عليه في اقتفاء أثر ابن

خلف وانتزاع المأسورين من يده فعللهم ودفعهم من يوم إلى يوم إلى أن عقدوا هنجمة اقترحوا فيه النهوض بهم في طلبه فاستدعى الوجوه وقال لهم: قد أيدنا اللّٰه تعالى ونصرنا وبلغنا في الظفر غاية ما أمَّلنا وقدرنا وليس يجب أن نقابل ذلك بالبغي وطلب الغاية التي ربَّما أدَّت إلى الندامة وقد مضى العدو هارباً من بين أيدينا وإن اتبعناه إلى رأس المفازة ولزرناه في القتال والمكافحة ورأى المفازة أمامه والعسكر وراءه لم نأمن أن يحمل نفسه على الأشد ويقاتل قتال المستقتل وربما نصر ورجعنا على أعقابنا مفلولين فنكون قد أضعنا الحزم وحصلنا على الندم بعد الفوت. فكان هذا القول طريقاً إلى سكون القوم ورجوعهم عما كانوا عليه من المطالبة بالمسير. وعاد ابن خلف إلى سجستان ومعه أبو موسى خواجه بن سياهجنك وأبو محمد القسم بن مهدر فروخ والقواد المأسورون وانتقل أستاذ هرمز إلى بَمّ وأقام بها أياماً والكتب واردة عليه بأن المظفر أبا العلاء مجد في المسير إلى مستقره.

وحصل أبو العلاء بقرية الجوز وأنفذ حاجبين من حجابه برسالة إلى أبي جعفر والعسكر يعلمهم فيها قربه منهم وهم إذ ذاك بقرية القضي ويشير عليهم بالإتمام إلى بمّ ليقع الاجتماع بها. وكان غرضه في هذه الرسالة يعرف ما عند القوم وأن يروز الأمر فيما كان وقف عليه من صرف أبي جعفر ورده إلى شيراز مع الأولياء الشيرازيين والمقيم بكرمان ناظراً فيها.

وكان قد صحب أبا العلاء عبدُ اللّٰه بن عبد العزيز برسم خلافة الوزارة فلما وردت هذه الرسالة على أبي جعفر تبين المرد فيها واستدعى وجوه الديلم سراً وقرر معهم ما يجيبون به عنها. وحضر لرسولان في الحفل وأعادا القول فقام الوجوه وقالوا: هذه البلاد لنا ونحن فتحناها بعد تغلب السجزية عليها وهذا الرجل (وأومأوا إلى أبي جعفر أستاذ هرمز) اسبهسلاريتك ومن جاءنا فتكناه وفعلنا به وصنعنا ويجب أن تعيدا هذا الجواب وتنصحا لهذا المجوسي حتى ينصرف ولا يفسد أمراً قد صلح ويحل نظاماً قد ترتب. وكادوا يثبون بالرسولين حتى خلصهما أبو جعفر وصرفهما وعادا إلى أبي العلاء وعرفاه ما جرى فكتب إلى بهاء الدولة به وعلم أنه لا فائدة في مقامه فعاد مع العسكر إلى شيراز. وصار أبو محمد عبد اللّٰه بن عبد العزيز إلى أبي جعفر وأقام أبو جعفر والياً وأبو محمد موقعاً عن مجلس الوزارة ثم أنفذ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بدلاً من أبي محمد.

وكان الوزير أبو غالب محمد بن علي لانحرافه عن أبي علي بن أستاذ هرمز وأبي جعفر والده قال لبهاء الدولة: إن بكرمان إقطاعات محلولة وأموالاً موجودة وقد استولى عليها أبو جعفر وأقاربه وتوزعوها وتقسموها. وأشار بالاختيار من ينفذ للنظر في ذلك

ويقرر الأمر في الإقطاعات وإفراد ما يفرد للخاص واجتذاب ما يلوح من الأموال فعول على أبي الفضل محمد بن القسم بن سود منذ العارض في الخروج وتولى هذه الحال وخرج على طريق الكورة. فلما حصل في جيرفت حمل أبو جعفر الديلم على الهنجمة فعقدوا هنجمة قتلوا فيها علي بن أحمد بن يحيى وكان أحد الكتاب الكفاة الدهاة وإليه الأشراف على أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد ونهبوا دور الحواشي وبلغ أبا الفضل ذلك فقبض على أبي القسم الطويل الحاجب صاحب أستاذ هرمز وضربه ألف عصا وراسل أستاذ هرمز بالانكفاء إلى شيراز وأنه متن لم يفعل قبض عليه فخرج وصار إلى حضرة بهاء الدولة. وتوسط أبو الفضل الأعمال وأقام بها ستة أشهر وأقام الهيبة ورتب الأمور وأسقط جماعة من أكثرهم لديلم وطردهم وقرر للباقين أقساطاً وسلم بها إلي أكثرهم ضياعاً وأفرد للخاص ما كان له ارتفاع وافر وقبض على الإصفهبذ بن ذكي وكنجر بن العلوي وكانا خرجا في صحبته من شيراز.

قال أبو عبد اللّه: فحدثني بعض الحواشي المختصين أن أقوى الدواعي كان في إخراج أبي الفضل بن سودمنذ إلى كرمان ما كان في نفس بهاء الدولة على الإصفهبذ بن ذكي لأنه كان واجهه في سنة الصلح مع الديلم بالأهواز بالقول القبيح وامتنع من البيعة له إلا بعد المراوضة الطويلة والتعب الكثير وأنه دبر ما أراده من القبض عليه وشفاء صدره منه بإخراج أبي الفضل وإخراجه معه حتى تم له ببعده ما حاوله فيه. وعاد أبو الفضل إلى شيراز على طريق الروذان ومعه خمسمائة ألف درهم وشيء كثير من السلاح والثياب.

ذكر ما جرى عليه أمر طاهر بن خلف بعد عوده

لما انصرف من بم دخل المفازة وصار إلى سجستان ومعه أبو موسى خواجة بن سياهجنك وأبو محمد القسم بن مهدر فروخ والديلم المأسورون وحصل على باب البلد فخرج إليه خلف أبوه وقاتله وجرت بينهما وقائع كثيرة في أيام متتابعة ووقف الأمر في المناجزة. وراسل الديلم المأسورون طاهر بن خلف وكانوا من الأعيان المذكورين والشجعان المشهورين وبذلوا له فتح البلد وأخذه إذا أطلقهم وأعطاهم من السلاح ما يرضيهم وشرطوا عليه تخليتهم إذا بلغ مراده بهم ليرجعوا إلى منازلهم. فتقبل البذل منهم والتزم الشرط لهم وافرج عنهم وسلم إليهم سلاحاً اختاروه وقاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاءً كثيراً ونصرهم اللّه تعالى وأجرى الفتح على أيديهم وملك طاهر وصعد أبوه إلى قلعة له تعرف بقلعة الحبل على خمسة فراسخ من البلد وتحصن بها ووفى طاهر للديلم بما وافقهم عليه وأعطاهم وخلع عليهم وحملهم وزودهم وخلى لهم عن سبيلهم. وبقي أبو موسى وأبو محمد في يده فأما أبو موسى فإنه قرَّر عليه صلحاً صح له بعضه وكان أولاده على حمل باقيه وتوفيته فعاجلته المنية وترامى به جرح الضربة التي أصابته في رأسه إلى الوفاة لأنها وقعت في موضع ضربة قديمة واستقام أمر طاهر وأقام

أبو محمد القسم عنده. وشرع خلف في أن يفسد على ابنه ويصرف الديلم عنه فلم يتمّ له ذاك لأنهم كانوا مائلين إليه وحاول الفساد للرعية أيضاً فكانت رغبتهم في ابنه أفضل منها فيه لسوء معاملة الشيخ لهم وقبح سيرته بهم وإن أظهر من التمليس ما كان يظهر حتى إذا اعتاد الفساد على هذه الوجه عدل إلى أعمال الحيلة وراسل ابنه وقال له: قد أخذنا من المقاطعة بأكثر حظ وانتهينا فيها إلى أبعد حد وتأملت أمري فلم أجد لي ولداً باقياً غيرك ولا خلفاً مأمولاً سواك ووجدتني قد كبرت ويقضى عمري إلا القليل وقد رأيت إن أسلم الأمر والبلد والقلعة وما لي فيها إليك وأزيل الوحشة العارضة بيني وبينك وأتوفر على أمر اللّه تعالى في المدة الباقية لي معك واقتصر على البلغة من العيش في كنفك ومن يدك فإني لست آمن أن يقضي اللّه تعالى عليَّ قضاءه فيستولي على هذه القلعة من فيها ويخرج مالي ونعمتي وما جمعته طول تدبري إلى غير ولدي ومن بقاؤه بقاء ذكري. ولم يزل يراسله ويطمعه حتى استغره وخدعه وتقرر بينهما أن يركب ابنه إلى أسفل القلعة وينزل خلف ويجتمعا على قنطرة كانت لخندق من دونها ويشاهد كل واحد منهما صاحبه ويوصي خلف إليه ويعرفه ما له ومواضعه. وركب طاهر وحده وجاء إلى تحت القلعة ونزل خلف على مثل هذه الصورة والتقيا على القنطرة وقبل طاهر يد أبيه وعانقه أبوه وضم رأسه إلى صدره وكانت تحت القنطرة في حافات الخندق دغل كثير من بردى وحشيش يستتر فيه المستتر به وقد كمن له خلف مائة رجل في أيديهم سيوف فلما ضمه خلف إلى صدره بكى بكاء أجهش فيه حتى علا صوته وخرج القوم فأمسكوا طاهراً وأصعدوا به إلى القلعة وقتله خلف غسله بيده ودفنه. وتأدى الخبر إلى أصحاب طاهر فاستسلموا لخلف وسلموا البلد إليه وعاد إلى موضعه منه.

وتوصل أبو محمد القسم إلى أن أحضر جمازات وأكراداً وجعلها على قرب منه ثم خرج وركبها وهرب وصار إلى شيراز فقلد العرض ووزر بعد ذلك على ما نذكره في موضعه.

وكان أعداء خلف يراقبونه لأجل طاهر ابنه وما ظهر من نجابته ورجلته وشجاعته ونجدته. فلما هلك طمع فيه وجرد إليه يمين الدولة أبو القسم محمود عسكراً واستولى على بلده وقلعته وأخذه إلى خراسان فجعله بالجوزجان مخلى فيها كمعتقل ومطلقاً كمحبوس وأجري عليه ما احتاج إليه لإقامته ونفقاته ثم توفي بعد مدة وحصلت سجستان مع خراسان إلى هذه الغاية.

سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

أولها يوم الأحد وأول يوم من كانون الأول سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف للإسكندر وروز رام من ماه آذر سنة تسع وستين وثلاثمائة ليزدجرد.

في يوم الأربعاء الحادي عشر من المحرم حضر الأتراك دار أبي نصر سابور بن أردشير بدرب الديزج وتردد بينه وبينهم خطاب في أمر التجريد أدى إلى توثيبهم به على أبي الحسن بن علان العارض وهرب أبو نصر ووقع الفتنة بين الغلمان والعامة.

شرح الحالة في ذلك

قد ذكرنا ورود أبي الحسن بن علان لإخراج الغلمان إلى فارس وكان أبو نصر سابور قد حصل من المال ما سلمه إلى أبي الحسن وأعده عنده لينصرف في نفقاتهم وما يتقرر عليه أمورهم.

فلما كان في يوم الأربعاء المذكور حضر أبو الحسن دار أبي نصر وحضر الغلمان فجدد الخطاب معهم في الخروج وجد بهم فيه فامتنعوا منه إلا بعد أن توفوا استحقاقاتهم وتردد في ذلك ما انتهى إلى بذل أبي نصر للخارجين إطلاق الثلث مما وجب لهم بالحضرة والثلث بالأهواز والثلث الباقي بشيراز وأن يكون الإطلاق العاجل لمن يخرج خاصة فأغضبهم ذلك ووثبوا بأبي الحسن وهجموا على أبي نصر وهرب من بين أيديهم. وبادر العلويون والعامة فدفعوهم عن الدار ورموهم بالآجر من السطوح وخرج الأتراك مغيظين محفظين وثارت الفتنة بينهم وبين أهل الكرخ واجتمعوا من غد وصاروا إلى قتال العامة من القلايين وباب الشعير وعظم الأمر وانضوى إلى الأتراك أهل السنة من سائر المواضع وصار أهل الكرخ إلى أبي الحسن بن يحيى العلوي وشكوا إليه حالهم وما قد أطلهم فقال لهم: لا قدرة لي على هؤلاء القوم ولا طاقة لي بهم.

وأنفذ أبو القسم بن مما جماعة من الديلم فأجلسهم على القنطرة لمنع القتال من تلك الجهة وعبر أبو الحسن بن يحيى في اليوم الثالث إلى دار المملكة ومعه وجوه العلويين والفقهاء الذين بالقطيعة واجتمعوا مع وجوه الأتراك واعلموهم أنهم لا يعلمون لأبي نصر سابور خبراً ولا عندهم محاماة عنه وسألوهم كف الأصاغر عن الفتنة والإبقاء على المستورين من الرعية وأنفذوا بالمعروفية وصرفوهم. وطالب الأتراك أبا الحسن بن علان بإطلاق ما حصل من المال في يده في الأقساط والتمس الديلم ما يجب لهم فيه فسلم وذاك فرق وبطل التجريد.

وتصور أبو نصر سابور وهو في الاستتار وقوع التوازر عليه واتفاق الجماعة من أبي الحسن بن يحيى وأبي يعقوب أخيه وأبي القسم بن مما على التجعد منه والعداوة له فخرج عن بغداد إلى القصر ومنها إلى سورا ثم إلى البطيحة وكتب إلى بهاء الدولة بما أوغر به صدره عليهم ونسب فيه جميع ما جرى من الفساد وأخذ المال ووقف أمر التجريد وإثارة الفتنة إليهم.

وفي يوم السبت لليلتين بقيتا منه توفي مرماري بن طوبي الجاثليق.

وفي روز خرداذ من ماه ذي الواقع في هذا الشهر عاد بهاء الدولة من فسا إلى شيراز.

ولما فارق أبو نصر سابور موضعه ونظره وخاف أبو الحسن علي بن أبي علي لأنه كان صاحبه ومختصاً به فأخفى شخصه وبعد عن البلد. وزادت الفتنة وتسلط أهل الذعارة فقلد أبو الفوارس بهستون بن ذرير الشرطة ونزل دار أبي الحسن محمد بن عمر التي على دجلة وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم واستعمل السطوة وأقام الهيبة فاستقام الأمر به. وحدث من الأتراك معارضة له في بعض ما فعله فاستعفى وعاد إلى داره بالجانب الشرقي وأقام أبو القسم بن العاجز على النظر.

وفي ليلة الأربعاء لسبع بقين من صفر قتل حسام الدولة أبو حسان المقلد بن المسيب العقيلي بالأنبار غيلة.

ذكر الحال في ذلك

قد ذكرنا ما كان من غلمانه الأتراك في خروجهم من داره وأخذهم دوابه وهربهم منه وأنه تبعهم وظفر بهم وقتل وقطع أحد عشر غلاماً منهم وأعاد الباقين إلى خدمته وهم على خوف منه وإشفاق من عظم هيبته وسوء معاملته. فقيل إن أحدهم راعى الفرصة منه وذبحه في الليلة المذكورة وهو سكران وهرب وقد قيل إن أحد فراشيه فعل ذلك به إلا أن الغلام أثبت.

وقد كان المقلد راسل جماعة كثيرة من وجوه الأولياء ببغداد واستمالهم ووعدهم وأطمعهم وحدث نفسه بدخول الحضرة والاستيلاء على المملكة واصل في ذلك أصولاً كاد غرضه بها يتم فاتفق من أمر اللّه تعالى جل وعز ما لا يغالب فيه.

ذكر ما جرى عليه الأمر بعد قتله على ما حدثني به أبو الفتح عيسى بن إبراهيم

قال لما قتل المقلد لم يكن قرواش حاضراً بالأنبار وهو الأكبر من أولاده وكانت خزائنه بها وعساكره بسقي الفرات. وخاف أبو الحسين عبد اللّه بن إبراهيم بن شهرويه بادرة الجند ونهبهم فراسل أبا منصور قراد بن اللديد وكان قريباً منه بالسندية واستدعاه إليه وقال له: أنا أجعل قرواش ولداً لك وأزوجه ببعض بناتك وأقرر معه مقاسمتك على ما خلفه أبوه في خزائنه وتون عوناً له على الحسن عمه فإنه ربما طمع في الاستيلاء على الأمر بعد المقلد فأنفذ الرسل إلى قرواش يحثه على المبادرة واللحاق. وصار قراد إلى الأنبار ونزل في دار الأمارة بها وحرس الخزائن وحسم الإطماع وحضر قرواش بعد أيام واجتمعا وتقاسما على المال وتحالفا وتعاقدا على التعاضد وقد كان قرار قبل ورود

قرواش أطلق للجند شيئاً من ماله وارتجع عوضه بعد ذلك. فما عرف الحسن بن المسيب ما جرى واستبداد قرواش بقراد علم أن الأمر والغرض قد فاته وامتنع عليه من الأمر ما كان يقدره فشكا إلى عسكر بن أبي طاهر وأبي المعضاد كلاب بن الكلب وجماعة من المسيبين الحال وقال: يا قوم يرث قراد بن اللديد مال بني المسيب وهم أحياء؟ فقال له عسكر: هذا من عملك ولخوف ابن أخيك منك. فقال: ومن أي شيء خاف وما الذي يريده؟ قال: لو سكن منك إلى خلوص النية وصلة الرحم وحفظه فيما خلفه أبوه له لما أدخل بينك وبينه غريباً ولكنت أولى به وكان أولى بالمحاماة عنك. فقال له الحسن: أنا على ذاك ومهما سمتمونيه من توثقة عليه بذلته لكم.

وكتب عسكر بن أبي طاهر إلى قرواش بما جرى وترددت الرسل بينه وبينه فيه حتى استقر الأمر على أن يسير الحسن إلى الأنبار مظهراً فإذا وقعت العين على العين قبضا على قراد وارتجعا منه ما أخذه ولم يدخل أبو الحسين بن شهرويه في القصة ولا عرفها. وانحدر الحسن وقرب من الأنبار وبرز قرواش وقراد للقائه وبينما الفريقان متصافان متواقفان إذ جاء بعض العرب فأسر إلي قراد شيئاً فولى هارباً بطلب طريق البرية وتبعه قرواش والحسن وأصحابهما وجدوا في طلبه ففاتهم واجتاز بحلته فلم يدخلها ومضى على وجهه. وتلاقى الحسن وقرواش وتعانقا وبكى كل واحد منهما وقال الحسن لقرواش قولاً جميلاً استماله به وبذل له أن يكون بحيث يؤثره ويحبه واتفقا على ارتجاع ما أخذه قراد من الخزائن وأنفذا إلى زوجته بنت محمد بن مقن وأخت غريب ورافع وطالبها بما في بيوتها من ذلك فامتنعت عليهما وخاطبتهما خطاباً فيه بعض الغلظة وأجاباها بمثله وأدخلا إلى البيوت من أخرج المال والأعدال اللذين حصلا بقسم قراد من مال المقلد وأخذاها وانكفأ إلى الأنبار وأقاما أياماً. وحمل قرواش إلى الحسن عمه ثياباً وفرشاً وسلاحاً وغير ذلك وسار إلى الكوفة وواقع بني خفاجة بناحية زبارا وظفر بهم ومضوا بعد هذه الوقعة إلى الشام وكانوا هناك إلى أن استدعى أبو جعفر الحجاج أبا علي الحسن بن ثمال فورد ووردوا على ما نذكره من بعد في موضعه.

وفي ليلة يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول توفي أبو الحسن علي بن محمد الإسكافي.

وفي يوم الخميس لليلتين خلتا منه توفي أبو بكر بن حمدان البزاز.

وفي يوم الأحد الخامس منه جلس الخليفة القادر بالله أطال الله بقاءه للحاج الخراسانية وأعلمهم أنه قد جعل الأمير أبا الفضل ابنه ولي عهده ولقبه الغالب بالله وقرئت عليهم الكتب المنشأة بذلك.

شرح الحال في ذلك

جلس على السدة العالية بثياب سود متقلداً سيفاً بحمائل في البيت المعروف ببيت

الرصاص وبين يديه نهر يجري الماء فيه إلى دجلة ودخل إليه الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء وأهل خراسان العائدون من الحج وقرئ في المجلس على رؤوس الملأ كتاب بتقليده أبا الفضل ولده العهد بعده وتلقيبه الغالب باللّه تعالى ولا غالب إلا اللّه وحده لا شريك له وكان له من السن في هذا الوقت ثماني سنين وأربعة أشهر أيام. وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعدة على نسخة قررت بحضرته وكانت بعد إتمام الدعاء له:

«اللهم وبلغه الأمل في ولده أبي الفضل الغالب باللّه تعالى ولي عهده في المسلمين. اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الأقطار والبلاد وانصر من نصره بالحق والسداد واخذل من خذله بالغي والعناد. اللهم ثبت دولته وشعاره وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره».

ذكر السبب في تقليده العهد على هذه السن

قد ذكرنا فيما قدمناه من أخبار خراسان حال الواثقي ووقوعه إلى هارون بن أيلك بغراخاقان واستيلاءه عليه وتقدم منزلته عنده. وكان أبو الفضل التميمي الفقيه قصد بلاد الخانية واجتمع مع هذا الواثقي فاتفقا على أن افتعلا كتاباً عن الخليفة أطال اللّه بقاءه بتقليد الواثقي العهد بعده وأظهرا ذلك عند بغراخاقان وإن أبا الفضل ورد فيه. وصادف هذا الأمر رأياً جميلاً من بغراخاقان في الواثقي ومنزلة لطيفة له عنده فقواه وأكده وتقدم بأن يخطب له في بلاده بعد الخليفة أطال اللّه بقاءه. وشاع الحديث في أعمال خراسان ووردت به الكتب إلى الخليفة أطال اللّه بقاءه فأنكره وأكبره وغاظه ما تم منه وأزعجه. وأوجب الرأي عنده أن رتب الأمير أبا الفضل ولده في ولاية عهده وكتب إلى سائر الأعمال والأطراف بذلك وإلى أمراء خراسان والخانية بتكذيب الواثقي وتفسيقه وبعده عن استحقاق ما ادعاه لنفسه. فحدّثني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال كان هذا الرجل وهو عبد اللّه بن عثمان من ولد الواثق باللّه يشهد بنصيبين عند الحكام فيها وعند صدقة بن علي بن المؤمل خليفة القاضي أبي علي التنوخي والدي على القضاء بها وإليه مع الشهادة الخطابة في المسجد الجامع. وكان يفسد على صدقة ويحاول أن يقوم مقامه في خلافة والدي واجتمع صدقة وأهل نصيبين على أن كتبوا محضراً بتفسيقه وشهدوا بذلك عند صدقة شهادة سمعها وقبلها وأنفذ الحكم بها وكتب إلى والدي بالصورة وأنفذ إليه المحضر والسجل عليه فقبل ذلك والدي وأمضى الحكم به وأنفذه وأشخص الواثقي إلى بغداد. فلما ورد خاطبه خطاباً قبيحاً وواقع به مكروهاً واعتقله في حبس الشرطة حتى خاطبه في أمره أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الببغاء الشاعر للبلدية التي كانت بينه وبين الواثقي فأطلقه. ونزل غرفة في الفرضة بإزاء دار المملكة وذلك في أيام عضد الدولة (قال القاضي أبو القاسم) وكان يواصله أبو العباس

أحمد بن عيسى المالكي لصداقة بينهما وبلدية فحدث أبو العباس قال: حضرت عنده ليلة في غرفته وقلت له: «الصواب أن تستعطف القاضي أبا علي التنوخي وتوسط بينك وبينه أبا الفرج الببغاء وتصلح أمرك معه» قال: وأنا أخاطبه وأكرر هذا الرأي عليه وهو معرض عني فقلت له: أسمعت ما أشرت عليك به؟ فقال لي: يا أبا العباس أنت جاهل أنا مفكر كيف أطفئ شمع هذا الملك الّذي نحن بإزاء داره وأخذ ملكه وأنت تقول لي: «استصلح التنوخي» قال أبو العباس: فلما سمعت قوله قلت: «سلاماً» وقمت من فوري منصرف عنه وخائفاً من أذية تتطرق عليّ به وقطعته. قال القاضي أبو القاسم: فلما ظهر من حديثه فيما وراء النهر بخراسان ما ظهر وقلد الخليفة أطال اللّه بقاءه أبا الفضل ولده ولاية عهده وطعن علي الواثقي فأنكر أمره بلغه حال المحضر الذي كان أنفذ إلى والدي من نصيبين بتفسيقه من جهة بعض ما أخبر به بحديثه فاستدعيت إلى الدار العزيزة استدعاء حثيثاً لم تجر عادة به فمضيت ودخلت على أبي الحسن بن حاجب النعمان فقال لي: ما الذي جرى منك فإن الطلب لك ما ينقطع قلت: ما أعلم أنه حدث ما يقتضي ذلك. وكتب بخبري فخرج الجواب بأنه: بلغنا حال محضر أنفذ إلى والده من نصيبين بتفسيق الواثقي وأنه اسجل به فتطالبه بإحضاره وإحضار السجل عليه. فأقرأني ذلك وقلت: السمع والطاعة. وانصرفت وأنا خائف من أن يكون هذا المطلوب قد ضاع فيما ضاع لنا وتشاغلت بالتفتيش عنه فوجدته وحملته من غد وسلمته فلما حمل إلى حضرة الخليفة أطال اللّه بقاءه رده وقال للرئيس: سله هل حفظ على والده إقراره بما اسجل به. فسألني عن ذلك فقلت: نعم قد كان أقر عندي به. ورسم إحضار القضاة والشهود والفقهاء ففعل ذاك وحضر القوم ومنهم القاضي أبو محمد بن الأكفاني والقاضي أبو الحسن الخرزي وأبو حامد الإسفرايني والشهود بأسرهم وعمل كتاب على سجل والدي بإنفاذي ما سمعته من حكمه به وأشهدت الجماعة المذكورة على نفسي فيه وكان ذلك في جملة ما أنفذ إلى خراسان وجرح الواثقي به.

وحكى القاضي أبو القسم: إن هذا الواثقي دخل بغداد بعدما جرى له بخراسان ونزل داراً وراء داره بباب البصرة. ثم انتقل عنها لما عرف خبره وشاع أمره وأنه رآه في بعض الأيام بالكرخ وهو لا يعرفه قال: فرأيت رجلاً عليه قباء واذاري وعمامة شاهجانية وهو يمشي منحنياً ويداه معقودتان من ورائه كفعل الخراسانية. وكان معي أبو العباس المالكي فلما رآه سلم عليه وقبل كتفه فنهره وزبره بلفظ الفارسية الخراسانية فقال له المالكي: إنما سلمت عليك وعندي أنك صديقنا الذي يعرفنا ونعرفه فإذا أنكرت ذلك فاللّه معك. والتفت إلي وقال: تعرف هذا الرجل؟ قلت: لا. قال: هذا الواثقي الذي ادعى ولاية العهد بخراسان.

ذكر ما جرى عليه أمر الواثقي بعد ذلك على ما عرفته من القاضي أبي جعفر السمناني

لم يسمع بغراخاقان فيه قول قائل ولا أحاله عن العناية به والعصبية له محيل. فلما توفي وملك أحمد بن علي قراخان كاتبه الخليفة أطال اللّٰه بقاءه بإبعاده فلم يكن عنده الموضع الذي كان له عند بغراخاقان فأنفذه إلى موضع يعرف بأسفاكند وجعله كالمحبوس فيه بعد أن أقام له ما يحتاج إليه وأقام هناك مدة ثم صار إلى بغداد كاتماً نفسه ونزل بباب البصرة وانتهى إلى الخليفة أطال اللّٰه بقاءه خبره فتقدم بطلبه وانتقل إلى التوثة ولقيه جماعة من الفقهاء فأعطاهم وبرهم ووصلهم. ثم انحدر إلى البصرة ومضى منها إلى فارس وكرمان وعاود بلاد الترك فلم يتم له ما حاوله من قبل ونفذت كتب الخليفة أطال اللّٰه بقاءه بتتبعه وأخذه فهرب من هناك وصار إلى خوارزم وأقام بها ثم فارقها وقصد الأمير يمين الدولة أبا القسم محموداً وأخذه وأصعد به إلى بعض القلاع فكان فيها محبوساً محروساً موسعاً عليه إلى أن مات.

وفي شهر ربيع الأول توفي أبو شجاع بكران بن بلفوارس بواسط.

وفي يوم الأربعاء لليلة بقيت منه قبل القاضي أبو عبد اللّٰه الضبي شهادة أبي الحسن علي بن الحسن بن العلاف الواسطي.

وفي سحرة يوم الجمعة لليلة خلت من شهر ربيع الأول توفي أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح وصلى عليه القاضي أبو عبد اللّٰه الضبي وقد كان أبو القاسم جلس وحدث وصار إليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي وخلق كثير فسمعوا منه وكتبوا عنه وكان رجلاً فاضلاً يعرف علوماً كثيرة من علوم الدين والمنطق والفلسفة.

وفي هذا اليوم توفي أبو النضر كعب بن عمرو البلخي المحدث.

وفي يوم الخميس السابع منه قلد القاضي أبو حازم محمد بن الحسن الواسطي القضاء بواسط وأعمالها وقرئ عهده في الموكب بدار الخلافة.

وفي يوم الخميس لسبع بقين منه توفي أبو حفص عمر بن وهب المقرئ وكان شيخاً صالحاً.

وفي ليلة السبت لسبع بقين منه قتل أبو الحسن علي بن طاهر الكاتب.

شرح الحال في ذلك

قد كان مضى إلى مصر هارباً من أبي الحسن محمد بن عمر فأقام بها مدة وعاد

في هذا الوقت مع الحاج وتحدث الناس بأنه ورد بموافقة من صاحب مصر وللشروع له في الفساد على الدولة العباسية. فلما كان في الليلة المذكورة كبسه العيارون في داره بدرب المقير من سويقة غالب وعلوه بالسيوف ليقتلوه فقامت جاريته من دونه للمدافعة عنه فضربوا يدها ضربة أبانتها وضربوه عدة ضربات فاضت منها نفسه وأخذوا جميع ما وجدوه من ماله ورحله وانصرفوا وحضر أبو الحسن محمد بن أحمد بن علان من غد فتولّى تجهيزه ودفنه في داره.

وفي يوم الأحد لست بقين منه خرج أبو القسم الحسين بن محمد بن مما إلى شيراز بمرقعة.

ذكر السبب في ذلك وما جرى عليه أمره في خروجه إلى حين رجوعه

لما انحدر أبو نصر سابور من بغداد مستتراً على ما قدمنا ذكره وأخذ المال المجموع للتجريد وأطلق في الأقساط كتب أبو نصر إلى بهاء الدولة وأحال في جميع ما جرى على أبي الحسن بن يحيى وأبي يعقوب أخيه وأبي القاسم بن مما. وكان ينوب عن أبي القسم بفارس أبو الحسين بن عبد الملك بن علي النقيب وبين أبي القسم وبين أبي الخطاب والأمين أبي عبد اللّه مودة قديمة وهما إذ ذاك المتقدمان والمدبران وعلى عناية بأبي القسم ومحاماة عنه. فخرجا إلى أبي الحسين بن عبد الملك بما يكتب به أبو نصر سابور فيه وبما قد كوتب به أبو نصر من الاستدعاء إلى فارس ورسما له مكاتبة أبي القسم بذلك وبان يسبقه إلى الورود والحضور. فخرج متعجلاً بمرقعة ووصل في يوم الثلاثاء لخمس بقين من جمادى الأولى قبل أبي نصر سابور ونزل على الأمين أبي عبد اللّه فتكفل بأمره وخاطب بهاء الدولة فيه ونضح هو عن نفسه فيما كان قرف به وعاونته الجماعة عداوة لأبي نصر سابور وعناية به واستقامت حاله ورسم له المقام إلى أن يحضر أبو نصر ويصلح ما بينه وبينه ويعود إلى بغداد في جملته. فأقام ووصل أبو نصر وأبو جعفر الحجاج فقرر لهما النظر في أعمال العراق وأصلح أمر أبي القاسم معهما على دخل من رأي أبي نصر وباطنه فيه وأخرج أمامهما لتوطئة ما يجب توطئته قبل موردهما.

وفي هذا الوقت ورد الخبر بتقليد الصاحب أبي علي الحسن بن أستاذ هرمز أعمال الأهواز وأنه أخرج إليها ولقب بعميد الجيوش.

ذكر ما جرى في ذلك

حدّثني أبو الحسين فهد بن عبيد اللّه كاتب عميد الجيوش قال: لما دخل الصاحب أبو علي في طاعة بهاء الدولة بالسوس وسلم الأمر إليه اعتزل الأمور وسار في

صحبته إلى فارس وأقام على بابه. فلما مضت له سنة وكسر استأذن في المضي إلى خراسان فمنع من ذلك وروسل بما سكن منه به ووعد الوعد الجميل فيه. وقبض على الموفق أبي علي بن إسماعيل وكان نافراً منه فردت إليه الأمور بعده ومشاها بحسب طاقته ووسعه وأفرج عن أبي غالب بن خلف وجعل خليفته فتولى العمل وكان متدرباً به واستعفى الصاحب أبو علي وأقام في داره. ثم راسل بهاء الدولة بعد مدة يخطب إليه تقليده أعمال خوزستان ويعلمه أنه خبير بها وبما فيه استقامة أمرها وقد كانت اختلت بمقام أبي جعفر الحجاج فيها ونظر أبي القاسم بن عروة في عمالتها واستعماله المجازفة التي كانت عادته جارية بها فأجيب إلى ذلك وقلد وخوطب على قبول الخلع واللقب واستعفى من الخلع وقبل اللقب بعميد الجيش وسار إلى الأهواز في روزديبمهر من ماه اسفندارمذ الواقع في شهر ربيع الأول وقد كان أبو جعفر فارقها وتوجد إلى واسط. وأقام عميد الجيوش على أحسن سيرة وأقوم طريقة فأصلح الفاسد وضم المنتشر وتألف الرعية ورفع المصادرة وساس الجنود أفضل سياسة وجمع في أقرب مدة مالاً حمله إلى بهاء الدولة وأكد موضعه عنده به.

وفي يوم الثلاثاء الرابع من جمادى الأولى قبل القاضي أبو عبد اللّه الضبي شهادة أبي القاسم عمر بن إبراهيم بن الحسن بن إسحاق البزاز.

وفي يوم الأربعاء الخامس منه توفي أبو عبد اللّه محمد بن إسحاق بن المنجم المغني العواد بشيراز ولم يخلف بعده من يقاربه فضلاً عمن يشاكله.

وفي يوم السبت الثامن منه خرج أبو الحسن بن علان العارض عائداً إلى فارس وبطل ما ورد فيه من أمر التجريد.

وفي يوم الأحد التاسع منه استحجب أبو القسم علي بن أحمد الأمين أبا عبد اللّه للخليفة أطال اللّه بقاءه.

وفي يوم الخميس الثالث عشر منه ورد أبو جعفر الحجاج بن هرمز فيه واسطاً منصرفاً عن الأهواز ثم خرج منها سائراً إلى شيراز.

ذكر ما جرى عليه أمره في ذلك

لما عرف أبو جعفر حال عميد الجيوش في تقلده الأهواز سار إلى بصنى يوم الأحد الثاني من الشهر وأنفذ أبا الحسن رستم بن أحمد كاتبه برسالة إلى بهاء الدولة يتألم فيها من صرفه عن بلد بعد بلد وكسر جاهه في أمر بعد أمر ويعدد ما عومل به بالموصل وبغداد ويسأل الإذن له في اللحاق ببلد الديلم. فلما أعاد أبو الحسن على بهاء الدولة من ذلك ما أعاده ثقل عليه نفوره واستيحاشه ورده وأنفذ معه أبو سعيد زادانفروخ بن آزاد مرد بجواب

يسكنه فيه ويعرفه تأكد حاله عنده ولطف منزلته في ويرسم له التوجه إلى شيراز ليقرر معه أمر بغداد ويرده إليها مع أبي نصر سابور فسار ليلة يوم الاثنين لأربع بقين من شعبان ووصل وقد حصل أبو نصر سابور هناك وورد أبو نصر إلى حضرة بهاء الدولة فخلا به وأورد عليه في جماعة من بمدينة السلام من أبي الحسن بن يحيى العلوي وأبي يعقوب أخيه وأبي القاسم بن مما كل ما أوغر به صدره وضمنهم بمائتي ألف دينار فأذن له في القبض عليهم واستخراج المال منهم وقرر عليه ما يحمله إلى خزانته منه وخلع عليه وعلى أبي جعفر الحجاج ولقبه القسيم ذا الرئاستين وذلك في روزآبان من ماه مهر الواقع في آخر شوال وسارا. فكان وصولهما إلى واسط يوم الأربعاء سلخ ذي الحجة ونحن نذكر ما جرى عليه أمرهما بعد ذلك في أخبار سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

وفي يوم الجمعة الخامس من جمادى الآخرة توفي القاضي أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الخرزي وأقر ابنه أبو القاسم على عمله وقرئ عهده بذلك في يوم الاثنين لليلة بقيت منه ثم تعقب الرأي في بابه وصرف بعد مديدة قريبة.

وفي يوم السبت السادس منه قتل المعروف بأرسلان الذي كان يتصرف في الوقوف قتله العامة بالآجر وفدغوا رأسه.

وفي يوم الخميس الثامن عشر منه قتل بنوسيار أحد بطون بني شيبان أبا الفوارس بهستون بن ذرير.

شرح الحال في ذلك

كان بهستون صديقاً لأبي الفتح محمد بن عناز ومماثلاً له ومسارعاً إلى معونته في كل أمر ينوبه: فاتفق أن سار إليه من الجبل من يقصده ويطلبه فاستصرخ بجند الحضرة وسألهم الإنجاد والمعاضدة وخرج بهستون في جملة من خرج ومعه جماعة من أهله وأصحابه. فلما عاد نزل بالخالدية وهي أقطاعه وأغارت الخيل من بني سيار على بقر بهذه الناحية وطردت بعضها وعبرت بها إلى شرقي ديالي وسلكت طريق براز الروز. فركب بهستون في الوقت ومعه أخواه الفاراضي والأعرابي وثلاثة نفر من الديلم وطلبوا الخيل الغائرة فأدركها بهستون سابقاً ولحق به أخواه وأصحابه وعرفه القوم فأخرجوا له الطرد ومضوا فحمله من كان معه على اتباعهم والإيقاع بهم فسار ولحقهم وجرت بينه وبينهم مطاردة فطعنه أحدهم طعنة فاضت منها نفسه في موضعه وطعن الفاراضي أخوه طعنة أخرى في إحدى عينيه فذهبتا جميعاً عند علاجها. وحمل أبو الفوارس إلى الخالدية على ترس وجعل على بغل وأدخل إلى داره ببغداد فأقيمت عليه المناحات وعملت له المواتيم العظام وحضر جنازته والصلاة عليها سائر الوجوه والأكابر.

وفي يوم الثلاثاء لسبع بقين منه توفي أبو عبد اللّه الحسين بن أحمد الحجاج الشاعر في طريق النيل وهو عائد منها وورد تابوته إلى بغداد في يوم الخميس بعده.

ذكر حاله وطرف من أمره

هذا الرجل من أولاد العمال وكان أول أمره مرتسماً بالكتابة وكتب بين يدي أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي جدي مدة في أيام حداثته ثم تأتى له من المعيشة بالشعر ما عدل إليه وعول عليه وكان أكسب له مما كان متشاغلاً به. وتفرد بفن من السخف لم يسبقه إليه سابق وكان مع تعاطيه هذه الطريقة مطبوعاً في غيرها وقد اختار الرضي أبو الحسن الموسوي من شعره السليم قطعة كبيرة في غاية الحسن والجودة والصنعة والرقة ولم يزل أمره يتزايد وحاله تتضاعف حتى حصل الأموال وعقد الأملاك وصار محذور الجانب متقي اللسان مخشي التسكر مقضي الحاجة مقبول الشفاعة. وحمل إليه صاحب مصر عن مديح مدحه به ألف دينار مغربية على سبيل الصلة وشعره مدون مطلوب في البلاد. ووجدت له رقعة إلى أبي إسحاق جدي قد صدرها بأبيات فاستحسنت مذهبه فيها ونسختها لذاك وهي:

فداك اللّه بي وبكل حي ... من الدنيا دني أو شريفِ
يحل لك التغافل عن أناس ... تولوا ظلم خادمك الضعيفِ
ولست بكافر فيحل مالي ... ولا الحجاج جدي من ثقيف
فمر بدراهمي ضرباً وإلا ... جعلت سبال قوفا في الكنيف

قوفا هو أبو الحسن محمد بن الهماني.

هوذا يبلغ هؤلاء السفل مني مرادهم إضراراً بي أطال اللّه بقاء سيدنا ويدفعون عن إزاحة علتي عناداً وقصداً وواللّه لو كان مكان هذه الدريهمات ارتفاع بادوريا ما داهنتهم ولا ذاجيتهم ولا احتملتهم. وقد سار ما مضى من القول واتصل بهم وقوفا متعلق الحشاشة بالقدرة بين أوداجه وحلقومه وهو يوصي باذاي ويعهد إلى ابن العلاف في مكروهي. فإن أخذ سيدنا بيدي وتولى مطالبتهم ببعض الغلمان وأرهقهم حتى لا يجدوا منه محيصاً طمعت فيها وإلا استشعرت الإياس وبعت الأشهب واشتريت بثمنه ورقاً وحبراً وزيتاً للسراج وأحييت ليلتي بهجاء القرود فإن القائل يقول:

ما لي مرضتُ ولم يعدني عائد ... منكم ويمرض كلبكم فأعودُ

سمى شاعر الكلب وسأسمي أنا بسبب قوفا شاعر القرد. واليوم الثالث من ضمان ابن العلاف الدراهم لسيدنا وعرفني من رآه عند قوفا يستأمره فأظنه منعه من الإطلاق

وأعوذ باللّه من أن أكون أنا في طمع هذين النذلين وأبو جوّال بالسواء حسبي بهذا تحريصاً على صفع القوم وتحريكاً في مناجزتهم. وأنا منذ الغداة قرين الزبزب في مشرعة دار صاعد حتى نزل محمد الدواتي وعرفت خبر انحداره راكباً فانصرفت واللّه تعالى يودعني فيه السلامة. وقد أنفذت الأشهب بهذه الرقعة وتقدمت إليه إن لم يرَ وجهاً لتحريك أمره في تسببه أن يشد نفسه مع البغال ويعتلف إلى أن يفرج اللّه تعالى ثم يعود إلى اصطبله ثم لم يكن فيه نهوض للحضور فإن تأخر هذا الباب طرحته على الماء حتى ينحدر إلى المشرعة وربطته مع الزبزب إن شاء اللّه تعالى.

وله إلى أبي إسحاق من جملة مدائح له فيه كثيرة أبيات وجدتها في نهاية بالرقة والطبع فذكرتها وهي:

يا من وقفتُ عليه ... هواي سراً وجهرا
اللّه يعلم أني ... مذ غبتُ لم أعط صبرًا
ولا عصيت لداعي ال ... اسى ولا الوجد أمرًا
ولا اطرحت بشأيي ... عليك نظماً ونثرًا
ولا رأيتُ بعيني ... في الأرض بعدك بدرا
قدمت قبلك حتى ... تكون أطول عمرًا
هذا لغيبة عشر ... وكيف لو غبتَ شهرًا

ومما يغنّى فيه وإن كان كثيراً:

يا من مواعيد رضاه ظنون ... ما آن أن تخرج مما تخون
سألت عن حالي يا سيدي ... كل عدو لك مثلي يكون

ومنه:

ومدللٍ أما القضيب فقدُّهُ ... شكلاً وأما ردفه فكثيبُ
يمشي وقد فعل الصبي بقوامه ... فعل الصبا بالغصن وهو رطيب
متلون يبدي ويخفي شخصه ... كالبدر يطلع مرة ويغيب
أرمي مقاتله فتخطي أسهمي ... غرضي ويرمي مقتلي فيصيب
نفسي فداؤك إن نفسي لم تزل ... يحلو فداؤك عندها ويطيب
مالي وما لك لا أراك تزورني ... إلا ودونك حاسد ورقيب

ومنه:

أيا مولاي طاب لك اجتنابي ... وقلبي باجتنابك لا يطيبُ
وصرت إذا دعوتك من قريب ... تصيخ إلى الدعاء ولا تجيب
وأصدق ما أبثك إن قلبي ... بعهدك لا عدمتك مستريب

ومنه:

قـل لـمـن رفـقـتـهُ مـسـ ـك ونـد ومـدامُ
والـذي حـلـل قـتـلـي وهـو مـحـظـور حـرامُ
أيـهـا الـنـائـم غـمـزاً عـيـنـه لـيـس تـنـامُ
كـل نـار عـنـد نـاري فـيـك بـرد وسـلام

ومنه:

باحت بسري في الهوى أدمعي ودلت الواشي على موضعي
يا معشر العشاق إن كنتمُ مثلي وفي حالي فموتوا معي

ومن سخفه قوله في بعض قصائده:

رأيت ايراً مغلساً سجداً يرفل في حلتي دم وخرا
فقلت من أين؟ قال: من شرح أفلتُ منه كما ترى وأرا

ومنه في قصيدة:

جلس الاير سُرمها في خراها ذات يوم على سبيل اللجاج
فقصدت النواة في ذاك حتى أخذت لي التوقيع بغير فراج

وهو كثير وفيما أوردناه من أنموذج كل فن كفاية.

وفي يوم الخميس العشر من رجب توفي أبو الحسين أحمد بن الحسين بن أحمد بن الناصر العلوي.

وفي يوم الخميس لثمان بقين من شعبان قلد القاضي أبو محمد بن الأكفاني ما كان إلى أبي الحسن الخرزي من الجانب الشرقي فتكامل له جميعه.

وفي يوم السبت الثاني من شهر رمضان توفي أبو الحسن علي بن نصر الشاهد بالجانب الشرقي.

وفي يوم الاثنين الحادي عشر منه قبل القاضي أبو عبد اللّه الضبي شهادة أبي الحسن علي بن أحمد بن صبح.

وفي يوم السبت السادس عشر منه توفي القاضي أبو الحسن محمد بن محمد بن جعفر الأنباري صهر ابن سيار القاضي وكاتبه.

وفي يوم الاثنين العاشر من شوال قبل القاضي أبو عبد اللّه الضبي شهادة أبي القسم بن علان وأبي علي بن العلاف وأبي عبد اللّه بن طالب.

وفي يوم الخميس الثالث عشر منه قبض أصحاب قراد بن اللديد على أبي الحسن بن الحسن محمد بن يحيى النهر سابسي بباقطينا وحملوه إلى حلة قراد ثم أفرج عنه وعاد إلى بغداد.

شرح الحال في ذلك

كان الديلم قد طالبوا أبا الحسن بن يحيى بإطلاق أقساطهم لأن المعاملات التي كانت المادة منها انتقلت إلى نظره بعد هرب أبي نصر سابور فمنعهم واعتصم بالكرخ والعلويين والعيارين. . وجرت بين الفريقين حروب لأجل ذلك. واتفق أن دخل الديلم طاق الحراني فأحرق العامة ما وراءهم وأمامهم واحترق منهم جماعة وعظمت الفتنة واستحكمت الوحشة. فخرج أبو الحسن إلى باقطينا وهي من العمريات التي يدبر أمرها وعرف أصحاب قراد خبره فطمعوا فيه وصاروا إليه وأخذوه وحملوه إلى صاحبهم وعمل قراد على مطالبته بالمال والسوم عليه فيه. فركب قراوش وغريب إليه ولم يفارقاه إلا بعد استخلاصه وانتزاعه من يده وسيراه إلى المحول فوصل إليها يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شوال. وقد كان أبو القسم بن مما عاد من شيراز فتوطأ ما بينه وبين الديلم حتى صلح واستقام وأعطاهم ما رضوا به ودخل داره يوم الاثنين لثامن من ذي القعدة.

وفي الساعة الثالثة من يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة ولد الأمير أبو جعفر عبد اللّه بن القادر بالله أطال اللّه بقاءه والطالع العقرب على كدح والشمس في الميزان على كالو.

وفي يوم الاثنين الرابع عشر منه قبض معتمد الدولة أبو المنيع على أبي الحسن بن العروضي.

وفي يوم الأحد لعشر بقين منه توفيت زبيدة بنت معز الدولة بأصبهان وفي يوم الأحد السادس منه تقلد يوانيس الجاثليق.

وحج بالناس في هذه السنة أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي.

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة

أولها يوم الخميس والعشرون من تشرين الثاني سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف للإسكندر وروز اسفندار من ماه آذر سنة سبعين وثلاثمائة ليزدجرد.

قد ذكرنا ورود أبي جعفر الحجاج وأبي نصر سابور إلى واسط عائدين من شيراز ووعدنا بذكر ما جرى عليه أمرهما بعد ذلك. ولما ورد الخبر بنزولها واسطاً انحدر أبو القسم الحسين بن محمد بن مما إليهما متلقياً لهما ومعتداً بما فعله في إصلاح الجند وتوطئة الأمر. واستمال أبا جعفر بما حمله إليه ولاطفه به وعقد بين أخيه أبي علي وبين أبي شاكر أحمد بن عيسى كاتب أبي جعفر عقداً على بنت أبي شاكر استظهر لنفسه فيه

وأعطى أبا عبد اللّه أستاذ هرمز داره وملك أمره بما حصله في كفته به وعلم أن رأي أبي نصر سابور لا يخلص له فاعتضد بهذه الجهة وأظهر مداخلتها ومخالطتها. وكان أبو الحسن بن إسحاق قد فارق أبا الحسن بن يحيى على وحشة ومضى ليقصد شيراز فرده أبو نصر سابور من طريقه وعول عليه عند حصوله بواسط في خلافته وأنفذه إلى بغداد أمامه ورد معه أبا القاسم بن مما وقرر معهما القبض على أبي يعقوب العلوي النقيب وأصحاب أبي الحسن بن يحيى عند نفوذ كتابه إليهما بذلك وأصعدا. وانحدر أبو الحسن بن يحيى لخدمة أبي جعفر وأبي نصر والاجتماع معهما وقد كانت نفسه نافرة منهما لتقريره سوء الاعتقاد فيه منهما ولما وصل نزل داره بالزبيدية وكان أبو نصر سابور نازلاً في دار أبي عبد اللّه بن يحيى أخيه المجاورة لها وكتب على الطائر بالقبض على أبي يعقوب في يوم عين لأبي القسم بن مما وأبي الحسن بن إسحاق عليه وأمرهما بالمبادرة إليه بذكر ذلك ليقبض هو على أبي الحسن وأصحابه بواسط. فخرج أبو القسم إلى أبي يعقوب بالسر وراسله بالإنذار لمعاهدة كانت بينهما ولأنه لم يأمن أبا نصر متى استقامت حاله ومشى أمره واطرد له ما يريده. واستظهر أبو يعقوب وكبست (داره) فلم يوجد فيها وشاع الخبر وكتب أصحاب الشريف أبي الحسن إليه بالصورة على الطيور. وأخر أبو نصر إمضاء ما يريد أن يمضيه في أبي الحسن إلى أن يعرف حصول أبي يعقوب لأن أكثر غيظة كان عليه وأحس أبو الحسن فهرب ليلاً ومضى على بغلة متعسفاً إلى الزبيدية وأصبح أبو نصر وقد أفلت أبو الحسن. وورد عليه الكتاب بإفلات أبي يعقوب فقامت قيامته وتحير في أمره وندم على تفريطه وراسل أبا جعفر واستشاره فيما يفعله فقال له: لو عملت بالحزم لبدأت بمن عندك وكان بين يديك من غاب عنك ولكنك استبددت برأيك. وشرع أبو نصر في تتبع أموال أبي الحسن وتحصيل غلاته والاحتياط على معامليه ومعاملاته وختم على الدور والحانات واعتقد تفتيشها وأخذ ما يجده لأبي الحسن وإخوته ووكلائه وأسبابه فيها ثم عدل عن ذلك إلى تأنيسه ووافق أبا جعفر على مراسلته وتردد في ذلك ما انتهى إلى إجابة أبي الحسن إلى العود على أن يوثق له أبو جعفر من نفسه ويحلف له على التكفل بحراسته ومنع كل أحد عنه. فأذكر وقد ورد أبو أحمد الحسين بن علي بن أخت أبي القسم بن حكار رسولاً عن أبي الحسن من الزبيدية إلى أبي جعفر ليحلفه له فقال لي أبو جعفر: اجتمع معه على عمل نسخة لليمين. فقال أبو أحمد: قد عملها الشريف وأصحبنيها وهاهي ذه. وأخرجها من كمه وأخذها أبو جعفر من يده وأعطانيها ورسم لي قراءتها عليه فقرأتها وكان يفهم العربية ولكنه يجحدها. وخرج أبو أحمد من حضرته على أن يجتمع أبو جعفر مع أبي نصر ويقفه عليها ثم استدعاني أبو جعفر وأعطاني النسخة وقال لي: امض إلى أبي نصر سابور فأعرضها عليه وقل له: ما الذي تراه في هذا الأمر فإنني إن حلفت لهذا الرجل وأعطيته

عهدي لم أمكنك منه وحلت بينك وبينه فمضيت إلى أبي نصر سابور ووقفته على النسخة وأوردت عليه الرسالة فقال: أنا أروح العشية إليه ونتفاوض ما يجب أن يعمل عليه. فعدت إلى أبي جعفر بهذا الجواب وركب إليه أبو نصر آخر النهار واجتمعا وخلوا ثم استدعيا أبا أحمد وحلف له أبو جعفر وعاد. واصعد أبو الحسن بن يحيى وبات في داره ليلة ثم خرج ورجع إلى الزبيدية فيقال إنه أخذ دفيناً كان له في الدار وانحدر به حتى استظهر في أمره وعاد بعد يومين وانحل أمر أبي نصر سابور واستطال عليه أبو الحسن بن يحيى ثم اصعد أبو جعفر وأبو نصر إلى بغداد فكان وصولهما إليها آخر نهار يوم الخميس الثاني من جمادى الأولى. وصدرت الكتب إلى بهاء الدولة بما جرى عليه الأمر فغاظه سوء تدبير أبي نصر وفساده وطعن عليه من كان بحضرته من خواصه وقد كان أبو الحسن بن يحيى كاتب بهاء الدولة من الزبيدية واستعطفه واذكره بما قدمه في خدمته وأسلفه وبذل له في أبي نصر سابور بذلاً يقوم بتصحيحه من جهته وذكر ما عليه الجند والرعية من بغضه والنفور من معاملته وكتب إلى أبي جعفر بالقبض عليه وإلى أبي الحسن بن يحيى بتسلمه واستقر الأمر بين أبي جعفر وأبي الحسن بن يحيى وأبي القسم بن مما على ذاك. فتراخى أبو الحسن وأبو القاسم في القبض عليه لغرض اعتمداه في بعده والخلاص منه وعرف أبو نصر الصورة فاستظهر لنفسه وعلماً قوته فكبسا عليه دار بني المأمون بقصر عيسى ولم يوجد فيها وأراد أبو الحسن بما أغفله وأهمله من أخذه الاحتجاج على بهاء الدولة بهر به فيما كان بذله فيه وأبو القاسم بن مما الاستراحة من حصوله وما عسى أن يحمل عليه من ركوب الفشخ معه. ومضى أبو نصر إلى البطيحة ونظر في الأمر ببغداد بعده أبو الحسن علي بن الحسن البغدادي ثم أبو الفتح القنائي ثم أبو الحسين عبيد اللّه بن محمد بن قطرميز وخوطب بالوزير فتقبل ذاك وصار أضحوكة عند أبي جعفر والناس به وكان العمل كله أخذ الأموال من المصادرات والتسلق على التجار بالتأويلات.

لا جرم أن البلد خرب وانتقل أكثر أهله عنه فمنهم من مضى إلى البطيحة ومنهم من اعتصب بباب الأزج ومنهم من بعد إلى عكبرا والأنبار. ولقد حدّثني جماعة من الناس أنهم شاهدوا صينية الكرخ فيما بين طرف الحذائين والبزازين والفواخت والعصافر تمشي في أرضها انتصاف النهار وفي الوقت الذي جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان. فلما ورد أبو نصر وأبو جعفر إلى واسط كتباً وأعادا أبا الحسن علي بن أبي علي إلى النظر في المعونة.

وفي يوم السبت العاشر من المحرّم توفي أبو القسم إسماعيل بن سعيد بن سُويد الشاهد.

وفي يوم الأربعاء الثامن عشر منه انحدر أبو الحسن بن يحيى إلى واسط الانحدار المقدم ذكره .

وفي هذا الوقت توفي أبو الطيب الفرّخان بن شيراز بجويم السيف وخرج الوزير أبو غالب محمد بن علي بن خلف من شيراز لطلب أمواله وتحصيلها.

شرح حال أبي الطيب منذ ابتداء أمره وإلى حين وفاته وما جرى في طلب أمواله وذخائره على ما عرفنيه أبو عبد الله الحسين بن الحسن الفسوي

كان الفرّخان بن شيراز من أهل بعض القرى بكرّان وتصرف أول أمره في الداريجية وما شاكلها من الأعمال القريبة وتدرج إلى أن ولي كتابة الديوان بسيراف وانتقل عنها إلى عمالتها وبقي على ذلك زماناً طويلاً ثم قلد عُمان فعبر إليها وحسنت حاله فيها وجمع الأموال التي لم يسمع لمثله بمثلها وبنى بنائبنذ الدار المعروفة به وكانت من الدور التي تضرب الأمثال بها وحصل فيها من أصناف الفرش والأثاث والرحل الشيء الكثير الجليل ورتب بها من الحفظة والحراس وحملة السلاح خلقاً كثيراً لأن نائبنذ[1] على ساحل البحر وليس بها من الناس كثير أحد. وتحدث في البلاد بما جمعه في هذه الدار من الأموال فرمقتها العيون وتعلقت بها الأطماع وهمّ بقصدها وطلبها الخوارج وأصحاب الأطراف وكان في يد أبي العباس بن واصل عبادان والبحر وفي يد لشكرستان بن ذكي البصرة وفي يد السيفية والزط السواحل وقصب البلاد التي تجاورها. وكانت أكثر مادة صمصام الدولة بفارس من فرخان لأنه كان يمده بالأموال والحمل في كل وقت فسعى قوم في إفساد أمره عنده وقالوا له: إنه على العصيان ومنع جانبه وقطع ما جرت عادته بحمله والإمداد به. فكاتبه صمصام الدولة بالورود إلى بابه مختبراً بذاك ما عنده وقد كان الخبر انتهى إلى الفرخان بما تكلم به فيه فصار إليه بهدايا وأموال حسن موقعها منه فخلع عليه واستحجبه ورده إلى موضعه وجرى على رسمه في الخدمة والتزام شرائط الطاعة. وتوفي العلاء بن الحسن بعسكر مكرم فلم يكن في مملكة صمصام الدولة أوجه من الفرخان ولا أوسع حالاً وأعظم هيبة في نفوس الجند منه فاستقرت الوزارة له على أن يتوجه إلى الأهواز ويدبر أمورها وأمور الأولياء الذين بها ويستخلف له بشيراز أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد ومنصور بن بكر. فأقام أبو إسحاق بحضرة صمصام الدولة وصار منصور إلى فسا لتقرير أعمالها ولم يطل مقامه بها حتى استعيد وأنفذ إلى شق الروذان ثم لم يثبت هناك وانصرف من غير إذن إلى الباب فأنكر صمصام الدولة فعله وأمر بإحضاره وضربه فضرب وانصرف عن شركة أبي إسحاق وتفرد أبو إسحاق بالنظر. وورد الفرخان الأهواز فلم يمش الأمور بين يديه على ما كان يتقرر من ذاك وأنفذ أبو علي الحسن بن أستاذ هرمز وجرى أمره على ما تقدم ذكره في موضعه. ووصل بهاء الدولة إلى فارس والفرخان في جملة من صحبه من الناس فتكلم عنده على حاله وعظمها وأمواله وكثرتها فقبض عليه وألزم صلحاً وسلم إلى أبي العلاء عبيد الله بن الفضل ثم إلى الصاحب أبي محمد بن مكرم وأفرج عنه بعد

أدائه إياه وخروجه منه وأنفذ إلى جويم السيف لقتال الزط والسيفية وصار إلى فسا واستصحب أكثر الديلم الذين بها وجرد إليه مردجاوك في طائفة كثيرة من الغلمان العراقية وأقام بجويم مدة واستخرج أموالاً من النواحي الغربية وامتنع عليه من اعتصم بقلعة أو أوى إلى الجبال الحصينة. وقضى نحبه في أثناء ذلك ووقع الاحتياط على ما صحبه من مال وتجمل وحمل بأسره إلى شيراز وكان بهاء الدولة يعتقد في ثروته ويساره أمراً عظيماً.

فلما توفي كثر القول عليه فيما تركه من الحال وخلفه من الودائع وأودعه داره من الذخائر فندب الوزير أبا غالب للتوجه إلى نائبنذ وسيراف واستقضاء ذلك أجمع وإثارته وتحصيله ورسم له قصد الدار بنفسه وهي من سيراف على خمسة عشر فرسخاً وأن يبالغ في الكشف والفحص عنه ولا تقنع إلا بأن يتولى كل أمر تولى المشاهدة والمباشرة. وكان للفرخان ثقة يعرف ببابان مجوسي ويحيط علمه بكل ما يملكه الفرخان فوق الأرض وتحتها فقبض عليه الوزير أبو غالب واستدله على الأموال التي للفرخان فدله على أموال عظم الناس قدرها وجواهر تلك حالها وحصلها الوزير ثم عاقبه بعد ذلك عقوبة شديدة حتى ذبح نفسه في الحمام. وعاد الوزير أبو غالب إلى شيراز فتحدث أعداؤه بما أخذه من مال الفرخان ودفائنه وودائعه وواصلوا الخوض فيه وادعوا عليه أنه قتل بابان ليتستر بموته ما أخذه منه وعلى يده وأدت هذه الأقاويل وما اتصل ببهاء الدولة منها إلى القبض على الوزير أبي غالب وسنذكر ذلك في وقته وموضعه.

وفي يوم الاثنين العاشر من صفر قبل القاضي أبو عبد اللّه الضبي شهادة أبي القسم علي بن محمد بن الحسين الوراق.

وفي يوم الجمعة لليلتين بقيتا منه توفي أبو الفتح عثمان بن جني النحوي وكان أحد النحويين المتقدمين وله تصنيفات وقد فسر شعر أبي الطيب المتنبي تفسيراً استقصاه واستوفاه وأورد فيه من النحو واللغة طرفاً كبيراً ولقب ذلك بالفسر وهو من أهل الموصل وخدم عضد الدولة وصمصام الدولة وشرفها وبهاءها طرفاً كبيراً في دورهم برسم الأدباء النحويين.

وفي شهر ربيع الأول قتل أبو الحسين محمد بن الحسن العروضي بالأنبار.

وفي يوم الاثنين السابع من شهر ربيع الآخر ثار العامة بالنصارى ونهبوا البيعة بقطيعة الرقيق وأحرقوها فسقطت على جماعة من المسلمين رجالاً وصبياناً ونساء وكان الأمر عظيماً.

وفي ليلة يوم الخميس لست بقين منه كبس ابن مطاع وأصحابه حسون بن الخرما وأخاه العلويين بفم الأسناية وقتلوهما وكانت هذه الطائفة قد أسرفت في التبسط والتسلط وركوب المنكرات وإتيان المحظورات.

وفي يوم الاثنين الخامس من جمادى الأولى وهو اليوم الثالث والعشرون من آذار وافى برد شديد جمد الماء منه.

وفي يوم الجمعة التاسع منه خطب لبهاء الدولة ببغداد بزيادة قوام الدث صفي أمير المؤمنين وقد كان الخليفة أطال اللّه بقاءه لقبه بذلك وكاتبه به إلى شيراز.

وفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا منه استتر أبو نصر سابور الاستتار الذي ذكرناه في سياقة خبره.

وفي هذا الشهر بلغت كارة الدقيق الخشكار ثلاثه دنانير مطيعية ثم زادت في جمادى الآخرة فبلغت خمسة دنانير ولحق الناس من ذلك شدة ومجاعة.

وفي جمادى الآخرة خرج أبو طاهر يغما الكبير إلى جسر النهروان هارباً من أبي جعفر الحجاج بن هرمز فيه.

ذكر السبب في ذلك وما جرى عليه الأمر فيه

تأدى إلى أبي جعفر شروع يغما في قلب الدولة وإفساد الغلمان وتردد مكاتبات ومراسلات بينه وبين مهذب الدولة في ذاك ووعده إياه بحمل مال. فاستمال أبا الهيجاء الجماقي واجتذبه إلى نفسه وهمَّ مكاشفة يغما وأخذه وقد كان يغما وثب الغلمان عليه ووضعهم على مطالبته والخرق به. وأحس يغما باعتقاد أبي جعفر فيه وتدبيره عليه فتجعد عن لقائه والاجتماع معه ثم خاف بادرته وكان أبو جعفر مهيباً متقي فخرج إلى جسر النهروان ليفعل ما يفعله على الطمأنينة والأمان وعبر ديالي لإشفاقه من إسراء أبي جعفر خلفه وتبعه جماعة من وجوه الغلمان ثم فارقوه ورجعوا عنه. وتأخر المال الذي وعده مهذب الدولة بإنفاذه إليه ووعد هو الغلمان به فبطل أمره بذاك ومضى وعبر من الصافية إلى الجانب الغربي ولحق بأبي الحسن علي بن مزيد وأقام عنده وأقطع أبو جعفر إقطاعه وما كان في يده ببادوريا لأبي الهيجاء الجماقي.

وفيه فاض ماء الفرات على سكر قبين وغرق سواد الأنبار وبادوريا وبلغ إلى المحول وقلع حيطان البساتين واسود في الصراة.

وفي يوم الأحد لست بقين منه صلب أبو حرب كاتب بكران على باب حمام بسوق يحيى وجد فيه مع مزية جارية بكران على حال ريبة.

وفي يوم السبت مستهل رجب أخرج أبو جعفر الحجاج أبا الحسن علي بن كوجري في جماعة من الديلم والأكراد إلى المدائن لدفع أصحاب بني عقيل عنها.

شرح ما جرى عليه الأمر في ذلك وما اتصل به من خروج أبي إسحاق إبراهيم أخي أبي جعفر وهزيمته.

سار أبو الحسن علي بن كوجري إلى المدائن فنزلها وانصرف دعيج صاحب قرواش وأصحابه عنها وقبض ببغداد على أصحاب بني عقيل ومعامليهم وأخرج العمال إلى بادوريا

ونهر الملك. ونفذت الكتب إلى مرح بن المسيب وقرواش بن المقلد وقراد بن اللديد وهم بنواحي الموصل بما جرى فإلى أن يجمعوا العرب وينفذوهم ما جمع دعيج إلى نفسه جمعاً كثيراً وقصد أبا الحسن بن كوجري وحصره بالمدائن وكتب أبو الحسن إلى أبي جعفر يستمده ويستنجده فجرد المنجب أبا المظفر بأرسطغان لأنه كان والي البلد وخرج في عدة من الغلمان فاندفع دعيج من بين يديه وكتب إلى أبي الحسن علي بن مزيد يلتمس منه المعونة على أمره. وقد كان أبو الحسن استوحش من أبي جعفر وخافه فأنجده بأبي الغنائم محمد أخيه واجتمع دعيج وجمعه وأبو الغنائم بن مزيد ومن معه ونزلوا ساباط. وكتب المنجب أبو المظفر بأرسطغان وأبو الحسن علي بن كوجري إلى أبي جعفر بتكاثر القوم وقوة شوكتهم واستنهض الغلمان للخروج فتقاعدوا وتثاقلوا وتأخر المدد عن المنجب أبي المظفر وعلي بن كوجري فانكفآ إلى باقطينا وندب أبو جعفر أبا إسحاق أخاه للخروج وأنهض معه الديلم وساروا جميعاً مع المنجب أبي المظفر وعلي بن كوجري وتوجهوا طالبين للعرب. وكتب أبو الغنائم ابن مزيد ودعيج إلى أبي الحسن علي بن مزيد بذلك فصار إليهما واجتمع معهما ووقعت الوقعة بباكرمي يوم الأربعاء الثامن من شهر رمضان فانهزم أبو إسحاق واستبيح العسكر وأسر كثير من الديلم والأتراك وقتل أبو منصور بن حليس وشابا بن أوندا وجماعة وعاد الفل إلى بغداد على أسوإِ حال وغاظ ذاك أبا جعفر وأزعجه. وورد أبو علي الحسن بن ثمال الخفاجي بعقبه في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر رمضان في عدة قريبة من أصحابه فلم يشعر به حتى نزل صرصر.

ذكر الحال في وروده

كان أبو جعفر لاعتقاده ما يعتقده في بني عقيل وما عاملوه به قديماً لا يحلم إلا بهم ولا يفكر إلا في قصدهم وحربهم وأخذ الأهبة لشفاء صدره منهم واجتذاب من يجعله خصماً لهم. وكاتب أبا علي بن ثمال وحرص على أن يستدنيه وكان يبعد في الظن أن ينزل الشام ويرد إلى العراق. فأذكر وقد حضر عندي أبو القاسم بن كبشة وهو رجل كثير الدهمسة حامل نفسه على الأخطار العظيمة وممن خدم عضد الدولة في الترسل والتجسس المدة الطويلة وقال لي: أراكم تكاتبون الحسن بن ثمال وتستدعونه وهو يعدكم ويعللكم ولو أنفذني صاحب الجيش ببعض كتبه إليه لما فارقته حتى آخذه وأجيئكم به. فذكرت ذلك أيضاً لصاحب الجيش فقال: ابن كبشة كثير الكذب والفضول ولكن اكتب على يده وأنفذه وأرحنا منه. فكتبت له كتاباً واستطلقت له نفقة من الناظر في الأمور ومضى وليس عند صاحب الجيش أبي جعفر أنه يفلح ولا يرجع فلم تمض مديدة قريبة حتى ورد وقال: هذا أبو علي بن ثمال قد نزل صرصر. فسر أبا جعفر ذاك وكان عقيب ما لحق أبا إسحاق أخاه من ابن مزيد وبني عقيل وأنفذ إليه من تلقاه وأنزله

في الدار التي كانت للمعروفي وحمل إليه الإقامات وأطلق لأصحابه النفقات.

وورد على أبي جعفر خبر عميد الجيوش أبي علي في تقلده العراق وما هو عليه من المسير إليه فزادت هذه الحال في غيظه وشاعت بين الناس فتبسط عليه الأتراك وأساؤوا معاملته واجتمعوا في بعض الأيام على بابه ورموا روشنه بالآجر والنشاب فضجر وضاق صدراً بأمره وخرج إلى جسر النهروان في يوم الأحد لأربع بقين من شهر رمضان ومعه أبو إسحاق أخوه والظهير بن جستان وخسرشاه وخسرفيروز أخواه وأبو الحسن علي بن كوجري وأبو علي بن ثمال وأبو الحسين بن قطرميز ومن تبعه من الديلم البلراوحية وغيرهم. وراسل النجيب أبا الفتح محمد بن عناز وسأله المسير معه إلى أبي الحسن بن علي بن مزيد وبنى عقيل فدافعه وعلله ثم أجابه وساعده وسار إليه واجتمع معه وعبرت الجملة دجلة وكان انفصال أبي جعفر عن جسر النهروان يوم الأحد لعشر خلون من شوال وعبوره في يوم السبت مستهل ذي القعدة وتوقفه إلى أن لحق به أبو الفتح. وورد إلى دعيج أبو بشر بن شهرويه مدداً من الموصل في عدة كثيرة من بني عقيل واجتمع أبو الحسن بن مزيد معهم في خيله ورجله ووقعت الوقعة بينهم في يوم الخميس لثلث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة فقتل أبو بشر بن شهرويه وأسر دعيج وانهزم أبو الحسن بن مزيد وتفرقت جموعهم ونهب سوادهم وكراعهم وذلك في الموضع المعروف ببزيقيا.

فحدثني الحاجب أبو طاهر الحسين بن علي الظهيري قال: لما انهزم ابن مزيد وبنو عقيل من الوقعة ببزيقيا تمم صاحب الجيش أبو جعفر إلى القصر ونزل بباشمسا ورتب في البلد من منع من نهبه والتعرض لأهله وسار من غد طالباً للنيل ومقتصاً أثر ابن مزيد فكان قد مضى إلى موضع يعرف بشق المعزى بحلله وأهله. فنزل أبا الحسن علي بن كوجري بالنيل ومعه أثقاله ودعيج والرجالة الديلم وسار ومعه أبو الفتح بن عناز وأبو علي بن ثمال فلما قاربوا ابن مزيد وشاهدوا حلله وقفوا لأخذ أهبة الحرب وضرب المضارب وبرز ابن مزيد للتقال. وقد كان راسل أبا الهوا أسود بن سوادة الشيباني وهو في عدة كثيرة من بني شيبان مع أبي الفتح بن عناز ووعده وخدعه ووافقه على أن ينهزم إذا وقعت العين على العين ويفل أبا جعفر ففعل وانصرف وتبعه قوم من الأكراد وبقي أبو جعفر في ثلاثين رجلاً من أهله وأقاربه لأنه كان تقدم بالنيل أن يحمل بعض الديلم الرجالة على البغال والجمال فأغفل ذاك وأبو الفتح بن عناز في مائتي فارس من الشاذنجانية ومائتي فارس من الجاوانية كانوا صحبوا أبا جعفر.

واتفق أن مضى حسان بن ثمال أخو أبي علي مع أكثر بني خفاجة في طريق غير الطريق التي سلكها أصحابنا فبقي أبو علي في عدة قليلة ولما تبين أبو جعفر ما هو فيه وشاهد قلة ما بقي معه وحمل أبو الحسن بن مزيد عليه وكثرة بخيله ورجله وعبيد الحلة

وإمائها وملك عليه خيمه تحير في أمره. وأحس من أبي الفتح بن عناز بعمل على الهرب والانصراف فقال للظهير أبي القسم وأهله: احفظوا لي أبا الفتح ولازموه ولا تفارقوه لئلا يخاتلنا ويتركنا لا أنني أعول على النصرة به ولكنه متى رجع فلنا وكسرنا وأطمع عدونا. فلازمه الظهير وهجم أبو جعفر لما ضاق به الأمر على البيوت وعلا على تل كان في وسطها وعرف أبو الحسن بن مزيد ذلك وقد كان ملك مضارب أبي جعفر ونزل وصلى في أحدها شكراً للّه تعالى على الظفر فركب وقصده وحمل حملة نكس فيها نفراً من غلمان دار أبي جعفر وداسهم بحوافر خيله حتى سطح رؤوسهم ووجوههم وخلطها بأجسادهم واستظهر كل الاستظهار. وثبت أبو جعفر وحمل حملات متتابعة وطرح النار في بعض البيوت وحمل في أثر ذاك فانهزم ابن مزيد وملكت حلله وبيوته وأمواله وذلك في يوم السبت لثمان بقين من ذي القعدة.

قال الحاجب أبو طاهر: ونهب أصحابنا ذلك فأخذوا من العين والورق والحلي والصياغات والثياب الشيء الذي تجاوز الحصر وأرسل أبو جعفر إلى أبي علي بن ثمال؛ بأنك أحق النساء والحرم فأحرسهن وأمنع العجم منهن. فتشاغل أبو علي بجمعهن إلى بيوت أفردها لهن ولم يتعرض لشيء من النهب على وجه ولا سبب. واستغنى الشاذنجان والجاوان ومن حضر من بني خفاجة بما حصل من الغنائم وامتلأت أيدي الجميع وحقائبهم بالمال والجلال من الأثاث وانكفأ أبو جعفر إلى النيل.

وقد كان أبو الحسن علي بن كوجري لما رأى بني شيبان عائدين ومظهرين للهزيمة وسمع عنهم أنهم قالوا: «قد كسر صاحب الجيش» خاف وجمع الديلم الرجالة وحمل الأثقال وصار إلى الجبل وضرب رقبة دعيج وصلبه بالمدائن وعرف من بعد حقيقة الأمر واستحيا ودخل إلى بغداد كالمستوحش من أبي جعفر ثم كاتبه وعذره فرجع إليه. وصار أبو جعفر بعد ذاك إلى الكوفة ومعه أبو علي بن ثمال ورجع أبو الفتح بن عناز إلى طريق خراسان.

قال الحاجب أبو طاهر: ولما حصل صاحب الجيش أبو جعفر بالكوفة نزل في دار أبي الحسن محمد بن عمر ثم لم يبعد أن وردت الأخبار بانحدار قروَاش ورافع بن الحسين وقراد بن اللديد وغريب ورافع ابني محمد بن مقن في جمرة بني عقيل ومن استجاشوا به من طوائف الأكراد ونزولهم الأنبار عاملين على قصد الكوفة ولقاء أبي جعفر وأبي علي بن ثمال وعرف بنو خفاجة ذاك ففارقوا أبا علي وتوجهوا منصرفين. فقال أبو علي لأبي جعفر: يا صاحب الجيش أنفذ معي من يردهم. فأنفذ معه الظهير أبا القسم وخرجا حتى انتهيا إلى قريب من القادسية والقوم متفرقون قد أخذ كل قوم منهم طريقاً ومنهم من يريد البصرة ومنهم من يريد البرية فقال أبو علي للظهير لما شاهدهم:

تقدم بضرب البوقات. ففعل ذاك فلما سمعوا الصوت وكل إنسان منهم قد أخذ وجهته لووا رؤوس خيلهم واجتمعوا إلى أبي علي وقالوا له: ما الذي تريده منا. فقال لهم: يا قوم تخلوني وتخلون هذه البلاد وقد نزلناها وأخذناها بالسيف وصارت لنا طعماً ومعايش. فقالوا: نريد المال والعوض عن إسلام النفوس للرماح والسيوف. ولم يزل هو والظهير بهم حتى رجعوا على أن يفسح لهم في نهب النواحي عوضاً عن العطاء والإحسان واستعملوا من ذاك ما جرت عادتهم به وعظمت المعرة منهم.

وبرز صاحب الجيش إلى الموضع المعروف بالسبيع من ظاهر الكوفة وأراد أن يجعل انتظاره لبني عقيل ولقاءه لهم فيه فقال له أبو علي بن ثمال: يا صاحب الجيش قد أسأنا معاملة أهل البلد وثقلنا الوطأة عليهم وهم كارهون لنا وشاكون منا ومتى كانوا في ظهورنا عند وقوع الحرب لم نأمن ثورتهم من ورائنا ومعاونتهم لأعدائنا علينا والصواب أن نجعل بيننا وبينهم بعداً. فساروا ونزلوا في القرية المعروفة بالصابونية على فرسخين من الكوفة ومع أبي علي بن ثمال نحو سبعمائة فرس ومع صاحب الجيش أبي جعفر نحو العدة من الديلم. ولما خرج صاحب الجيش إلى هذا الموضع لم يتبعه من الديلم إلا دون ثلاثمائة رجل وتأخر الباقون عنه وطالبوه بالمال وإطلاقه لهم وقد كان عميد الجيوش وأبو القسم بن مما راسلاهم وأفسداهم فرد أبو جعفر الظهير أبا القسم إليهم حتى أخرج أكثر المتأخرين لأنهم استحيوا منه وتذمموا من الامتناع عليه. وورد بنو عقيل في سبعة آلاف رجل بالعدد والمنجانيقات والأسلحة والقزاغندات وطلعت راياتهم وضربت بوقاتهم ودبادب مواكبهم وزحفوا كما تزحف السلطانية. وقد كان أبو علي بن ثمال قصد المشهد بالغري على ساكنه السلام وزار وصلى وتمرغ على القبر وسأل اللّٰه تعالى العون والنصر وقال لأصحابه: هذا مقام الموت والذل بالفشل والخور ومقام الحياة والعز بالثبات والظفر. فوعدوه المساعدة وبذل نفوسهم في المدافعة. ورتب صاحب الجيش مصافه بين يدي بيوت الحلة وجعل الظهير أبا القسم في ميمنته وخسرشاه في ميسرته ووقف هو في القلب وبرز النسوان في الهوادج على الجمال وبين أيديهن الرجالة بالدرق والسيوف وتقدم أبو علي في الفرسان وصار بيننا وبينه أمداً بعيداً ووقع التطارد فلم يكن إلا كلا ولا حتى وافتنا الخيل المغنومة مجنوبة والرجال المأسورون يقادون والعرب من بني خفاجة وفي أيديهم الرماح المتدفقة. وأرسل أبو علي بن ثمال إلى صاحب الجيش بأن «سر وتقدم إلينا». فقال له: ما هذا مكان التقدم لمثلي ولا يجوز أن أفارق مصافي وأصحر للخيل في هذا البر. فراجعه دفعات وهو يجيبه بهذا الجواب حتى قال له أبو علي في آخر قوله: فأنفذ إلى جماعة من العجم ليشاهدهم القوم فتضعف نفوسهم ويعلموا أنك وراءنا. فأنفذ إليه الظهير أبا القسم في

عدة من فرسان الديلم وأتراك كانوا بالكوفة وخرجوا مع صاحب الجيش فما وصلوا إلى موضع المعركة حتى انهزم بنو عقيل وأسر منهم نحو ألف رجل وحملوا إلى البيوت بعد أن أخذت ثيابهم ودوابهم وأسلحتهم. وكف أبو علي عن القتل ومنع منه فلم يقتل إلا أبو علي بن القلعي كاتب رافع بن محمد. وقد كان نساء بن خفاجة وعبيدهم وإماؤهم عند تلاقي الجمعين ركبوا الخيل والجمال وصاروا إلى معسكر بني عقيل وبينه وبين موضع الحرب بعد وكبسوه ونهبوه وولّى بنو عقيل لا يلوي أول منهم على آخر وغنم بنو خفاجة أموالهم وسلاحهم وكراعهم وسوادهم.

فحدثني أبو علي الحسن بن ثمال أنه اتبع بني عقيل في عرض البرية مع فوارس من أصحابه إلى المشهد بالحائر على ساكنه السلام وهم منقطعون فلما تجاوزوه بات وزار وعاد إلى حلته من غد. فذكرت ذاك للحاجب أبي طاهر فقال: قد كان، ولما فقده أبو جعفر قلق قلقاً شديداً به وظن أن حادثاً حدث في بابه فقال له أصحابه: لو لحقه لاحق لعادت بنو عقيل. حتى إذا كانت صبيحة تلك الليلة وافى ومعه اثنا عشر فارساً. وحكي أنه اتبع المنهزمين حتى تجاوزوا المشهد بالحائر وباتوا هناك وأنه لو كان في عدة قوية لكشف نفسه وأخذ أموالهم ورؤساءهم. وعاد أبو جعفر وأبو علي إلى الكوفة فأقاما بها وسنذكر ما جرى عليه أمرهما من بعد في موضعه بإذن اللّه تعالى.

وفي شعبان قبض على الموفق أبي علي بن إسماعيل وأعيد إلى القلعة.

شرح الحال في هربه من القلعة عند اعتقاله أولاً فيها وحصوله عند الديواني وعوده إلى شيراز بعد التوثقة التي أعطيها وما جرى عليه أمره إلى أن قبض عليه ثانياً ورد إلى القلعة وكل ذلك على ما حدثني به أبو نصر بشر بن إبراهيم السني كاتب الموفق.

قال أبو نصر: لما حصل الموفق في القلعة أولاً ردَّ الأمر في التوكل به وحفظه إلى أبي العباس أحمد بن الحسين الفراش وكانت فيه غلظة وفظاظة وقد عرف من رأي بهاء الدولة ووسطائه فيه ما يدعو إلى التضييق عليه وإساءة المعاملة له فاعتقله في حجرة لطيفة وتركه في وسط الشتاء وشدة البرد بقميص واحد وكساء طبري حتى أشفى على التلف. ولما فعل هذا الفعل به اختار الموت على ما يقاسيه وحمل نفسه على الأشد في طلب الخلاص منه واستمال الموكلين المقيمين معه من قبل أبي العباس الفراش وخدعهم ووعدهم وأرغبهم وراسلني على أيديهم واستدعى مني طعاماً أمده به وثياباً ونفقة وكان يأتيه من جهتي ما يريده شيئاً شيئاً. وكان يتقدم الموكلين فراش يختص بأحمد الفراش ويتميز بفضل الثقة عنده ونفسه ساكنة إلى موضعه فطاوع الموفق وساعده وتردد في رقاعه وأجوبتها بيني وبينه واستقرت الموافقة معي على أن أحضر جماعة من أصحاب الديواني وأقيمهم ليلاً تحت القلعة ويتدلى الموفق والفراش في نقب ينقبانه في

بيت ما يتصل بالحجرة التي هو فيها ففعلت ذلك وأحضرت الفرسان بعد أن حصلت عند الموفق على يدي الفراش مبرداً يبرد به قيده وزبيلاً وحبلاً ينزل فيها وبرد القيد ونقب النقب ونزل الموفق والفراش بعده ليلة النوروز الواقع في شهر ربيع الآخر يوم الاثنين لليلتين بقيتا منه وقد أعددت له ما يركبه فركبه وسرنا فلم يصبح إلا ببلاد سابور وخرج الديواني فاستقبله وخدمه.

قال أبو نصر: فلما نزل وسكن جاشه قلت له: قد خلصت وملكت أمرك إلا أن بهاء الدولة خصمك والبلاد له والناس في طاعته واعتقاده فيك الاعتقاد الذي تعرفه والصواب أن تأخذ لنفسك وتسبق خبرك إلى حيث تأمن فيه من طلب يلحقك. وقال له الديواني قريباً من هذه المقالة ووعده أن يسير به حتى يوصله إلى أعمال بدر بن حسنويه وأعمال البطيحة فلم يقبل وقال: بل أراسل الملك واستصلح رأيه. وراجعناه وبينا له وجه الرأي فيما أشرنا به فأقام على المخالفة وألزمني أن أعود إلى شيراز وأجتمع مع أبي الخطاب وأستعلم رأيه له فيما يدبر به أمره وكتب كتاباً إلى بهاء الدولة: «بأنني لم أفارق اعتقالك خروجاً عن طاعتك ولا عدولاً عن استعطافك من تحت قبضتك ولكنني عوملت معاملة طلبت بها نفسي فحملني الإشفاق من تلفها على ما طلبت به خلاصها وها أنا مقيم على ما يرد به أمرك وما أريد إلا رعاية خدمتي في استبقاء مهجتي» إلى غير ذلك من القول الجاري في هذه الطريقة.

قال أبو نصر: وكلفني من هذا العود والرسالة ما حملني فيه على الغرر والمخاطرة ثم لم أجد بداً من القبول والطاعة ورجعت إلى شيراز وقصدت دار أبي الخطاب ليلاً فقال لي: ما الخبر فإن القيامة قد قامت على الملك بهرب الموفق وتصور له أنه سيتم عليه به فساد عظيم. فأعلمته ما جئت فيه فقال: ليس يجوز أن أتولى إيصال الكتاب وإيراد ما تحملته في معناه على الملك وهو يعلم ما بيني وبينكم ولكن امض إلى المظفر أبي العلاء عبيد الله بن الفضل وأسأله أن يكتم خبرك في ورودك وأن يوصل الكتاب كأنه وصل مع بعض الركابية ويستر الأمر ويعرف ما عند الملك فيه. فصرت إليه ووافقته على ما وافقني عليه أبو الخطاب فلشدة حرص المظفر على إعلام بهاء الدولة الخبر وإزالة قلقه به ما باكر الدار وعرض الكتاب ولم يكتم ورودي بل ذكره فسكنت نفس الملك إلى هذه الجملة فقال: فما الذي يريد. قال: التوثقة على يدي الشريف الطاهر أبي أحمد الموسوي. فأجاب إليها ووعد بها. وراسلني أبو الخطاب بأن أقتصر فيها ولا استوفيها ووعدت بذاك ثم لم أفعله وعملت لليمين نسخة استقصيت القول فيها وحضرت الدار بها وحضر الشريف الطاهر أبو أحمد والمظفر أبو العلاء فخرج إلي الأمين أبو عبد الله وقال لي: الملك يقول: «ما الذي تقترحه من التوثقة» فأخرجت

النسخة من كمي وسلمتها إليه وقلت: هذه نسخة أصحبنيها الموفق ورسم لي الرغبة إلى الكرم الفائض في أن تحرر بخط مولانا الأمين وأن تشرف بتلفظ الحضرة العالية بها بمحضر من الشريف الطاهر. فقال: أقوم وأعرضها. ودخل وعرضها فلما رأى الملك طولها وتأكد الاستيفاء فيها قال لأبي الخطاب: أليس رسمنا لك مراسلة أبي نصر بالاقتصار والتخفيف؟ قال: قد فعلت ووعد ثم لم يفعل. فتقدم إلى الأمين بتحريرها فحررها حرفاً حرفاً وأحضرت المجلس وحضر الشريف الطاهر أبو أحمد والمظفر أبو العلاء وأبو الخطاب والأثير أبو المسك عنبر والأمين أبو عبد اللّه وبدأ الملك بقراءتها فلما مضى شطرها قطعها بأن قال قولاً استفهم به شيئاً منها ثم عاد لاستتمامها فقبلت الأرض ورفع رأسه وقال: ما لك؟ قلت: الخادم الغائب يسأل الانعام بأن يكون قراءة هذا التشريف بغير عارض يقطعه. فاغتاظ غيظاً بأن في وجهه ثم أعاد قراءتها من أولها إلى آخرها فلما فرغ منها قبلت الأرض فقال: أي شيء تريد أيضاً؟ قلت: التشريف بالتوقيع العالي فيها. فاستدعى دواة وكتب «حلفت بهذه اليمين والتزمت الوفاء بها على ما اقترحه من ذلك» وأخذتها وخرج الشريف الطاهر أبو أحمد والمظفر أبو العلاء وخرجت إلى الموفق ليرد معنا.

وقد كان بهاء الدولة جرّد مع أبي الفضل بن سودمنذ عسكراً إلى سابور لطلب الديواني ودخل الديواني الماهور وأقام أبو الفضل على حصاره. فلما وصلنا أقام المظفر أبو العلاء عند العسكر ودخلت أنا والشريف أبو أحمد وصرنا إلى الموفق ومعي خيل وبغال وثياب ورحل أنفذ ذلك المؤيد أبو الفتح إذ كوتكين والمظفر أبو العلاء إليه على سبيل الخدمة له به واجتمعنا معه وعرف من الشريف الطاهر جملة الأمر ومني شرحه وسار وسرنا وسار المظفر أبو العلاء إلى شيراز وكان وصولنا في روز آبان من ماه أردبهشت الواقع في جمادى الآخرة. وأظهر الموفق لبس الصوف وخرج إلينا أبو الخطاب والأمين أبو عبد اللّه متلقين فلما أراد الانصراف قال لأبي الخطاب: أريد الخلوة معك فقال له: لا يمكنني ذلك مع كون الأمين معي ولكن أنفذ إلي أبا نصر الكاتب الليلة. ودخل الموفق البلد ونزل داراً أعدت له فيه.

ذكر ما جرى عليه أمره بعد دخوله

قال أبو نصر: وصرت إلى أبي الخطاب وقلت له: يقول لك الموفق بأي شيء ترى أن أدبر أمري؟ قال قل له: قد كنت أشرت عليك بآراء خالفتها فلم تحمد عقبى خلافها وأنا أعرف بأخلاق بهاء الدولة منك والصواب الآن أن تنفذ جميع ما حصل عندك من الدواب والبغال التي قادهما الأولياء إليك وتراسل الملك وتقول له: «من كان مثلي على الحال التي أنا معتقدها من اعتزال الأمور والرغبة عن العمل فلا حاجة به إلى

دواب وبغال وقد قدت ما قاده الأولياء إليّ إلى الإصطبل لأنه أولى به ومتى أردت مركباً أركبه استدعيت منه ما أريده في وقت الحاجة إليه وإن من شروط ما اعتزمته أيضاً أن أقبل الاجتماع مع الناس وأنفرد بنفسي والدعاء للملك واسأل أن يختار أحد ثقات السترين ويرتب على بابي لرد من يقصدني ومنع من يحاول الدخول إلي» فإنه إذا رأى مثل هذا الفعل وسمع عنك مثل هذا القول سكن وأنس وأمكنك وأمكننا أن نتلطف لك من بعد في إخراجك إلى منزلك ببغداد أو الاستئذان لك في قصد بعض المشاهد وتملك حينئذٍ نفسك فتصرفها على اختيارك.

قال أبو نصر: فلما سمعت من أبي الخطاب هذه المشورة علمت أنها صادرة عن النية الصحيحة وعدت إلى الموفق فأخبرته بما كان فكان من جوابه: أبو الخطاب يريد أن تردني إلى الحبس رداً جميلاً. ولم يقبل هذا الرأي ولا دخل له قلباً ولا خالط فكراً وأقام الدواب بين يديه على المراود والكرداخورات يسمنها ويضمرها وفتح بابه وقعد في ثلاثة مخاد بين اثنتين منهنا سيف وإلى جانبه ترس وزوبينات وعليه قميص صوف وكان يدخل إليه أبو طالب زيد بن علي صاحب الصاحب أبي محمد بن مكرم وأبو العباس أحمد بن علي الوكيل فيحدثهما ويحدثانه ويباسطهما ويباسطانه ويعيدان عليه ما يتسوقان عنده به ويعيدان عنه ما يتسوقان به عليه.

وورد الوزير أبو غالب قادماً من سيراف وقد كان خرج إليها بعد وفاة الفرخان بن شيراز لتحصيل أمواله وإثارة ودائعه وترددت المراسلات بينه وبين الموفق بالجميل الذي كنت أسدي وألحم فيه وأخذت لكل واحد منهما عهداً على صاحبه ومضى على ذلك زمان. فأعاد أبو العباس الوكيل وأبو طالب زيد على الوزير أبي غالب عن الموفق ما أوحشاه به وكان مخالفاً لما أورده عليه عنه وشك في قولهما وقولي وأراد امتحان صدقهما أو صدقي فاستدعى أستاذ الأستاذين أبا الحسن علمكار وكان الموفق شديد الثقة به والوزير أبو غالب على مثل هذا الرأي فيه فقال أريد أن أخرج إليك بسر أشرط عليك أولاً كتمانه ثم استعمال الفتوة والنصيحة فيه. فقال ما هو؟ قال إن أبا نصر الكاتب يجيئني ويورد عليّ عن الموفق الجميل الذي يسكن إلى مثله يجيئني بعده أبو طالب وأبو العباس فيحدثاني عنه ما يناقض ذلك ويقتضيني والنفور منه وأريد أن تمتحن ما في نفسه وتطاوله مطاولة يستخرج بها ما عنده وتصدقني عما تقف عليه لأعمل بحسبه. فوعده أبو الحسن وصار إلى الموفق وأقام عنده طويلاً وجاراه من الحديث ضروباً. ثم أورد في عرض ذلك ذكر الوزير أبي غالب فخرج إليه بالشكر له وسوء الرأي فيه وعاد أبو الحسن إلى الوزير أبي غالب فقال له: قد صدقك أبو طالب وأبو العباس ونصحا لك. فانقبض الوزير أبو غالب حينئذٍ منه وعلم أنه على خطر متى ثاب أمره.

قال أبو نصر: ومضت مديدة أخرى وأبو الفضل بن سودمنذ مقيم مع العسكر على حرب الديواني ومضايقته لأنه طولب بعد خروج الموفق من عنده بقصد الباب ووطء البساط فلم يفعل وعول على أن أمر الموفق يستقيم فيمنع منه ويرد العسكر عنه. فوضعت موضوعات وكتبت ملطفات على أنها من الموفق إلى الأولياء الذين بإزاء الديواني وروسلوا بالشغب وإظهار العود إلى شيراز وحملت الملطفات إلى بهاء الدولة وقيل له إن العسكر المقابل للديواني قد هجم وعمل على الانكفاء إلى الباب وهذا أمر قد قرره الموفق ورتبه وفيه من الخطر عليك وعلى دولتك ما لا خفاء به وإن ورد هؤلاء القوم أخرجوا الموفق وكاشفوا بالخلاف. فاغتاظ بهاء الدولة وشك شكا شديداً فظن ما قيل وعمل حقاً فتقدم عند ذاك بالقبض على الموفق ورده إلى القلعة. فأنفذ إليه أبو طالب الصغير في وقت العشاء من روزامرداذ من ماه تير الواقع في يوم الأحد السابع من شعبان حتى أخذه وحمله إلى القلعة.

ذكر ما جرى عليه أمره عند رده إلى القلعة

وكل به أبو نصر منصور بن طاس الركابسلار فأحسن معاملته ووسع عليه مقعده وملبسه ومأكله ومشربه وتحمل عنه جميع مؤنه وكلفه وكان يدخل إليه ويقول له: أنا خادمك ونفسي ومالي مبذولان لك ومضت على ذلك أيام ثم جاءه وخلا به وقال: أيها الموفق قد عرفت مخالفتي للسلطان في كل ما أعاملك به وأخدمك به ونفسي معرضة بك معه وإن وثقت إلي من نفسك بأنه لا تسلمني وأن تكون الحافظ لها دوني كنت على جملتي في خدمتك وتولي أمرك وإن كنت تحاول أمراً آخر فأخرج إلي بسرك لأكون بين أن أساعدك عليه أو أن استعفي استعفاء لطيفاً أتخلص به. فقال الموفق له لك علي عهد اللّه أنني لا أفارق موضعي ولا أخرج منه إلا بأمر سلطاني وما فارقته في الدفعة الأولى إلا لسوء معاملة أحمد الفراش لي وطلبه نفسي. فشكره أبو نصر ووثق بهذا الوعد منه وكان يتردد بينه وبين أبي الخطاب في رسائل يتحملها من كل واحد منهما إلى صاحبه ومضت مدة على هذه الحال. ورتب في القلعة اللشكري بن حسان لنانكيمح (كذا) فراسل الموفق يقول له أنت على هذه الصورة ورأي السلطان فيك فاسد وأعداؤك بين يديه كثيرون والأمر الآن في يدي وأنا آخذك وأخرجك معي إلى الري فإذا حصلت بها ملكت أمرك وبلغت هناك معما شاع من ذكرك وتحصل في نفوس الديلم لك أكثر مما بلغته هاهنا. فقال له: قد عاهدت أبا نصر الركابسلار على ألا أغدر به ولا أفارق موضعي وأسلمه. فعاود مراسلته وقال له دع هذا القول عنك واقبل رأيي فإن النفس لا عرض عنها وترك الفرصة إذا عرضت عجز. فلم يقبل.

قال أبو نصر: ثم إن أبا الخطاب أراد امتحان ما عند الموفق. فقال لأبي نصر

المجري: أريد أن تذمني إذا خلوت أنت والموفق وتستكتمه ما خرجت به إليك في أمري وتنظر ما يقوله لك فتعرفنيه. فجاءه أبو نصر وقال له في بعض ما يجاريه إياه: لك أيها الموفق عليَّ حقوق إحسان أوليتنيه ومن حكم ذلك أن أصدقك. أراك تعول من أبي الخطاب على من هو سبب فساد أمرك وتغير الملك عليك وسوء رأيه فيك فلو عدلت عنه لكان أولى وأصلح لك ومتى أردت أن أوصل لك رقعة إلى الملك سراً فعلت. فصادف هذا القول منه شكاً في أبي الخطاب وتهمة له وحمله الاسترسال واطراح التحفظ على أن أطلق لسانه فيه بكل ما كان مكنوناً في صدره وسأله أن يوصل له رقعة إلى الملك فبذل له ذاك. وكتب بخطه إليه كل ما استوفى اليمين على نفسه به في أنه الخادم المخلص الذي لم يتغير عن مناصحته ولا هم بخيانة وأنه وأنه. . . . وذكر ابن الخطاب بما طعن عليه فيه وقال إنني لم أهرب لما هربت إلا برأيه وموافقته وعلمه ومعرفته.

قال أبو نصر السني: وكان الأمر كذلك وأخذ أبو نصر الركابسلار الرقعة وجاء بها إلى أبي الخطاب فلما وقف عليها كتمها ولم يعد قولاً في معناها أدت الحال إلى ما سيرد ذكره في موضعه من قتله.

وفي شعبان توفي أبو عبد اللّه بن أيوب الشيرازي الكاتب.

وفي شهر رمضان عظمت الفتنة ببغداد بعد خروج أبي جعفر الحجاج عنها وزاد أمر العلويين العيارين وقتلوا النفوس وواصلوا العملات وأخذوا الأموال وأشراف الناس منهم على خطة صعبة.

وفيه ورد الأمين أبو عبد اللّه الحسين بن أحمد إلى واسط برسائل إلى أبي جعفر الحجاج في معنى أمر عميد الجيوس أبي علي وخروجه إلى العراق فلما عرف حصول أبي جعفر بسقي الفرات وتشاغله بحرب أبي الحسن بن مزيد وبني عقيل توقف.

وفي ليلة الأربعاء لثمان بقين منه طلع كوكب الذؤابة.

وفي هذه الشهر تواترت الأخبار بتعويل بهاء الدولة على عميد الجيوش في أمور العراق ثم سار من الأهواز في يوم الجمعة الثاني من شوال.

شرح الحال في ذلك

لما استقام بعميد الجيوش ما استقام من أمور الأهواز وأعادها إلى حال السكون والعمارة وساس الجند والرعية فيها السياسة الشديدة واضطربت أمور بغداد وانحل نظامها وعظمت أسباب الفساد والفتن فيها كوتب بقصد العراق وإصلاح أحوالها وإزالة ما عرض من انتشارها واختلالها وأنفذ الأمين أبو عبد اللّه إلى أبي جعفر الحجاج لتطييب قلبه واستدعائه إلى فارس. وورد عميد الجيوش واسطاً بعد أن أقام أبا جعفر

أستاذ هرمز بالأهواز والده ناظراً في الحرب ورتب أبا عبد اللّه الحسين بن علي بن عبدان في مراعاة الأمور والأعمال. فاستبشر الناس به لما بلغهم من حسن سياسته وزوال المجازفة والظلم عن معاملته وكتب إلى الفقهاء وأماثل التجار بمدينة السلام كتباً يعدهم فيها بالجميل ومحو أثار ما تقدم من المصادرت وتضاعفت المحبة له وتزايدت المسرة به. وكاتب أبا القاسم الحسين بن محمد بن مما بما تألفه وأمره بحفظ البلد وضبطه إلى حين وصوله وأنفذ إليه تذكرة بأسماء جماعة ورسم له قتلهم وأخذهم وكان منهم مرتوما بن قفي (كذا) النصراني التاجر لأنه ذكر عنده بالسعاية والغمز فاقتصر أبو القسم على أخذ المعروف بابن دجيم وقتله في وسط الكرخ وكان أحد الملاعين السعاة وأنذر الباقين لأنهم خدموه من قبل.

وسار عميد الجيوش من واسط فتلقاه أبو الفوارس قلج سابقاً إلى خدمته ثم تلاه الأولياء على طبقاتهم والناس على ضروبهم فبسط لهم وجهه ووفى كلامهم حقه ورأوا من لين جانبه وقرب حجابه وسهولة أخلاقه وعذوبة ألفاظه مع عظم هيبته ما لم يعهدوا مثله وعرف الأشرار والدعار قوته وما يأخذ به نفسه فذهبوا كل مذهب وهربوا كل مهرب. ونزل النجمي فزينت له الأسواق ونصبت القباب وأظهر من الثياب والفروش الفاخرة والأواني والصياغات الكثيرة ما كان مخبوءاً للخوف ودخل يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة وقد أقيم له في الأسواق الجواري والغلمان في أيديهم المداخن بالبخور وخلقت وجوه الخيل ونثرت عليه الدراهم في عدة مواضع ودعي له من ذات الصدور وعدل من طاق الحراني إلى دجلة ونزل في زبزبه وعبر إلى دار المملكة وخدم الأميرين أبا الشجاع وأبا طاهر وعاد فصعد إلى الدار بباب الشعير وهي التي كانت لأبي الحسن محمد بن عمر.

وطلب العيارين من العلويين والعباسيين وكان إذا وقعوا تقدم بأن يقرن العلوي بالعباسي ويغرقان نهاراً بمشهد من الناس وأخذ جماعة من الحواشي الأتراك والمتعلقين بهم والمشتهرين بالتصرف والتشصص معهم فغرقهم أيضاً وهدأت بذلك الفتن المستمرة وتجددت الاستقامة المنسية وأمن البلد والسبل وخاف الغائب والحاضر.

وكان ممن قتل المعروف بأبي علي الكرامي العلوي وقد هتك الحريم وارتكب العظائم ونجا إلى أبي الحسن محمد بن الحسن بن يحيى وظن أنه يعصمه ويمنع منه فركب أبو الحسن علي بن أبي علي الحاجب إلى داره حتى قبض عليه من بين يديه وهو يستغيث به فلا يجيبه وحمله إلى دار عميد الجيوش وقتله. وقد كان المعروف بابن المسافر العيار حصل في دار الأمين أبي عبد اللّه فآواه وستره ولم يزل أبو الحسن علي بن أبي علي يراصده حتى عرف أنه يجلس في دهليزه ثم كبس الدهليز والأمين أبو

عبد اللّه غائب فأخذه وضرب عنقه. وامتعض الأمين أبو عبد اللّه من ذلك فلم ينفعه امتعاضه وشكا إلى عميد الجيوش فلم يكن منه إلا الاعتذار القريب منه. وتتبعت هذه الطوائف في النواحي والبلاد فلم يبق لهم ملجأ ولا معقل ومضت إلى الأطراف البعيدة وكفى اللّه شرها وأزال عن الناس ضرها.

وحدّثني أبو الحسن علي بن عيسى صاحب البريد قال: كان ابن أبي العباس العلوي ممن سلك الطريق الذميمة وارتكب المراكب القبيحة فلما ورد عميد الجيوش هرب إلى ميافارقين وبلغه خبر حصوله فيها ومقامه فيها فبذل مائة دينار لمن يفتك به ويقتله ووسط ذاك بعض من أسر إليه وعول فيه عليه وأنهى الأمر إلى تعديل الدنانير عند بعض التجار في ذلك البلد وتقدم عميد الجيوش بأخذ سفتجة بها وإنفاذها وبينما هو في ذلك عرض عليه كتاب بوفاة ابن أبي العباس هذا فضحك وقال لي: قد بلغنا أيها الأستاذ المراد وربحنا الغرم ونحن نصرف الآن هذه الدنانير في الإراحة من مفسد آخر. وسلك مثل هذه الطريقة مع أهل الشر من الكتاب والمتصرفين وغرق منهم جماعة في أوقات متفرقة ومن جملتهم طاهر الناظر كان في دار البطيخ وله صهر من الأتراك يعرف بالأعسر من وجوههم ومفسديهم وأبو علي ابن الموصلية عامل الكار. فأذكر وقد جاءني ابن الموصلية هذا ليلاً وكان هارباً مستتراً وقال لي: قد خدمتك الخدمة الطويلة وأوجبت عليك الحقوق الكثيرة وفي مثل هذه الحال أريد ثمرة ذلك ورعايته. فقلت: ما الذي تريده لأبذل جهدي فيه. قال: عرفت حالي في وقوع الطلب لي ومتى ظفر بي قتلت أو بقيت على جملتي في التوقي والتخفي لم يكن لي مادة أمشي بها أمري واستر من ورائي وأريد أن تخاطب الصاحب أبا القاسم بن مما في بابي وتذكره بخدمتي وحرمتي وتسأله خطاب عميد الجيوش في إظهاري وإيماني. قلت: أفعل ولا أترك ممكناً في ذلك. فشكرني وانصرف وباكرت أبا القسم فقلت: جاءني البارحة أبو علي ابن الموصلية ورأيته على صورة يرحم في مثلها الأعداء فضلا عن الخدم والأولياء وله عليك حقوق وإنما أعدها لمثل هذا الوقت ومتى لم تخلصه وتلطف في أمره هلك في وقوعه واستتاره. فقال لي: لو كنت غائباً عن هذه الأمور لعذرتك فأما وأنت حاضرها فلا عذر لك. فراجعته وقال لي: أنت تلقى عميد الجيش دائماً وهو يميل إليك ويتوفر عليك فخاطبه وتحمل رسالة عني بما تورده عليه. فسررت بذلك وظننت أنني سأبلغ الغرض به ودخلت إلى عميد الجيوش في آخر نهار وهو خال فخاطبته في أمر ابن الموصلية ورققته وسألته كتب الأمان له فقال افعل وتبسم ثم قال لي لست عندي في منزلة من أعده ثم أخلفه وأقرر معه ما يقتضيه وأنا أصدقك عما في نفسي ليس لهؤلاء الأشرار عندي أمان ولا أرى استبقاءهم على كل حال فإن أردت أن تتنجز الأمان على هذا الشرط فما أمنعك

بعد أن يكون على بينة من رأيي واعتقادي. فقبلت الأرض بين يديه وشكرته على صدقه فيما صدقني عنه ورجعت إلى أبي القسم فعرفته بما جرى فقال: قد كنت أعلمه وإنما أحببت أن تشركني فيه وتسمعه بغير إسناد مني وربما اتهمته. وعاد إلى ابن الموصلية من بعد في مثل الوقت الذي قصدني أولاً فيه فشرحت له الحال على حقيقتها وقلت له ما توجب الديانة ولا المروءة أن أغرك. وفارقني وهو عاتب مستزيد على ما حدثت به من بعد ومضى إلى أبي عمرو بن المسيحي وأبي إسحاق صاحب أبي القسم بن مما فسألهما مثل ما كان سألنيه وعاودا خطاب أبي القسم وتنجزا له الأمان فما مضت مديدة حتى أخذه أبو الحسين بن راشد. وكان لعمري من أهل الشر إلا أن التأول عليه كان بمكاتبته أبا جعفر الحجاج عند حصوله بالنعمانية ولأن أبا القسم بن مما أغرى به للعداوة السابقة بينه وبينه. وأخذ أيضاً أبو الحسن محمد بن جابر وأبو القسم علي بن عبد الرحمن بن عروة ليفعل بهما مثل ما فعل بمن قدمنا ذكره. فتلطف مؤيد الملك أبو علي الحسين بن الحسن في خلاصهما واستنقاذهما وكان ذلك فيما بعد سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة إلا أننا أوردناه في هذا الموضع لاتصال بعض الحديث ببعض. وتقدم عميد الجيوش عند مورده بسمل أبي القسم بن العاجز وقد كان قبض عليه وأنفذ إليه إلى واسط فسمل وضربت رقبته بعد السمل وطيف برأسه في جانبي مدينة السلام وطرحت جثته في دجلة وذلك في يوم الأحد لثمان بقين من ذي الحجة.

ذكر ما عمله عميد الجيوش وأجرى أمور الأعمال والدواوين عليه

فوض إلى مؤيد الملك أبي علي أمور الأعمال وتقليد العمال وتحصيل الأموال وكان ورد معه نائباً عنه وله في الكتابة والكفاية القدم المتقدمة وفي العفة والأمانة الطريقة المعروفة فاستقام بنظره ما كان مضطرباً وانحرس بحفظه ما كان متشذباً واستمر على الخلافة له في مقامه وسفره. وجعل أمر الديلم إلى أبي القسم الحسين بن محمد بن مما وأبو نصر سعيد بن عيسى على الديوان وأمر الأتراك إلى أبي محمد عبد اللّه بن عبد العزيز وأبو غالب سنان بن عبد الملك يتولى الديوان واقرأ أبا علي الحسن بن سهل الدورقي على ديوان السواد وأبو منصور الاصطخري خليفته عليه وأبا الحسن محمد بن الحسين بن سابلويه على ديوان الزمام وأبا الحسن سعيد بن نصر على ديوان الخاصة وأبا منصور برادنفادار (كذا) ابن المرزبان على الأشراف في ديوان الجيشين وقلد أبا نعيم المحسن بن الحسن واسطاً وضرب ضرباً قرر قيمة الدينار الصاحبي به على خمسة وعشرين درهماً وباقي العقود على حسب ذلك واستعرض الجرائد وميز الناس وأسقط كثيراً من الحشوة ورد جميع الأقساط لسائر الطوائف إلى سبعة آلاف دينار في كل خمسة وثلاثين يوماً وامتنع من تسليم ما ينحل من الإقطاعات إلا بالأقساط وأقطع جماعة على

هذه القاعدة فلو تمادت به المدة على خلو الذرع والطمأنينة لسقطت الأقساط بالواحدة لكنه مني من أبي جعفر الحجاج بمن أفسد نظام أمره وأبطل عليه جميع ترتيبه وتدبيره وسيأتي ذكر ذلك في أوقاته ومواضعه. وما رأيت رجلاً أعف ولا أظلف نفساً من عميد الجيوش ولقد رفع المصادرات وأزال المجازفات رفعاً وإزالة اقتدى به جميع ولاة بهاء الدولة على بلاده فيها وصار له الاسم الكبير والذكر الجميل بها.

ونعود إلى ذكر الحوادث في الشهور الداخلة في هذه السياقة

وفي يوم الأربعاء السابع من شوال توفي أبو محمد عبد اللّه بن أبي أحمد يحيى الجهرمي القاضي.

وفي هذا الشهر توفي أبو بكر محمد بن محمد بن جعفر الدقاق الشافعي العارض المعروف بخباط.

وفيه توفي أبو الفتح القنائي الكاتب.

وفي يوم الاثنين لأربع بقين منه قتل أبو عبد اللّه بن الحيري أبا الحسين بن شهرويه وأبا عبد اللّه المستخرج وابنه في داره بالموصل.

ذكر الحال في ذلك

حدثني أبو الحسين بن الخشاب البيع الموصل قال: كان ابن الحيري يبيع الخزف بالموصلي ثم ضمن كوازكه وتنقل من حال إلى حال حتى نظر في جميع أبواب المال وتجاوز ذاك إلى أن كتب لأبي عامر الحسن بن المسيب. وكان ارتفاع البلد مشتركاً بين الحسن وبين معتمد الدولة أبي المنيع قرواش وكاتبه أبو الحسين بن شهرويه وكان ابن الحيري يستطيل على أبي الحسين بالإسلام وبأن صاحبه الأمير ويتبسط عليه في المعاملة والمناظرة. فأقام أبو الحسين أبا عبد اللّه المستخرج فيما يتعلق بمعتمد الدولة من البلد والارتفاع ورمى ابن الحيري منه بمن هو أشد قحة وثقل عليه أمره فعمل على الفتك به وبابن شهرويه وشرع في ترتيب أسباب ذلك. وكان معه جماعة من الرجالة الذين يحملون السلاح ويسلكون سبيل العيارة فواقف قوماً منهم على أن يلازموا داره (وكانت في بني هائدة) ليلاً ونهاراً ويترقبوا حضور ابن شهرويه وأبي عبد اللّه المستخرج فإذا حضرا أوقعوا بهما ووضعوا عليهما. وتقدم إليهم بأن يظهروا في منازلهم وعند رفقائهم أنهم مقيمون في الحلة وكان الحسن بن المسيب في حلته بظاهر الموصل ومعتمد الدولة مخيم بالحصباء يريد الانحدار إلى سقي الفرات وهو عليل قد بلغت العلة منه وأظهر ابن الحيري العلة وشكر له وتأخر في منزله. فركب إليه أبو الحسين بن شهرويه وأبو عبد اللّه لعيادته على عادة كانت لأبي الحسين في مغالطته ومنافقته فلما صاروا قريباً من داره فارقهما أبو ياسر النصراني وكان

معهما فقال له أبو الحسين: لم لا تساعد على عيادة هذا الصديق؟ فقال له مازحاً: يجوز أن يسلم منا من يعرف خبرنا. وتمم أبو الحسين وأبو عبد اللّٰه ونزلا ودخلا إلى الدار ومنها إلى حجرة عليها باب حديد وثيق وتأخر عنهما ابن أبي عبد اللّٰه المستخرج في الدار الأولى ونزل الرجالة من الغرفة التي كانوا فيها ووضعوا عليهما وقتلوا أبا الحسين وأبا عبد الله وأفلت ابن أبي عبد الله وصعد إلى السطح ورمى نفسه إلى دار قوم حاكة فاتبعه أصحاب ابن الحيري وأخذوه وقتلوه وأخرج الثلاثة من الدار وطرحوا على الطريق. وحل ابن الحيري رجله وخرج من سرداب قد عمله تحت الأرض في داره إلى درب يعرف بفندق عروة على بعد من بني هائدة واستتر وأخفى شخصه وقد كان استظهر بإخلاء داره وتحويل ما كان فيها من ماله وثيابه. وبلغ الخبر معتمد الدولة فركب في الحال على ما به وهاج الناس بين يديه وطلب ابن الحيري فلم يجده. وأظهر الحسن بن المسيب الإنكار لما فعله صاحبه وراسل معتمد الدولة يعده بالتماسه والأخذ بالحق منه. وكان كمال الدولة أبو سنان غريب قد نزل في ليلة ذلك اليوم على ابن الحيري كالضيف له فلما جرى ما جرى بادر هارباً على وجهه إلى البرية وانحدر معتمد الدولة إلى العراق. وظهر ابن الحيري وخرج إلى حلة الحسن وأقام عذره عنده فيما فعله وقبض على شيوخ أهل الموصل وصادرهم. واعتل الحسن علة قضى فيها وقام مرح أخوه في إمارة بني عقيل بعده وانتقل إليه النصف من معاملة الموصل وتوسط بينه وبين ابن الحيري حتى أذم له وعاهده واستكتبه وكانت بينه وبين أبي الحسن بن أبي الوزير عداوة لأنه سعى به إلى مرح حتى قبض عليه ونكبه. فاجتمع أبو الحسن وأبو القسم سليمان بن فهد وأبو القسم بن مسرة الشاعر علي بن الحيري وأغروا مرحاً به أوغروا صدره عليه وأفسدوا رأيه فيه فقبض عليه ووجدوا له تذكرة تشتمل على نيف وخمسين ألف دينار فأثاروا ذلك وحصلوه ثم سملوه فمات ودفن ونبشه أهل البلد من بعد وأحرقوه لسوء معاملته لهم وما قدمه من القبيح إليهم.

وحدّثني أبو الحسن بن الخشاب عن ابن الحيري بحديث استطرفته فأوردته قال: أراد أن يقتل الحسن بن المسيب بسم يطعمه إياه ويهرب إلى الشام فسأله أن يحضر في دعوته فحضر فقدم إليه بطيخاً مسموماً فقال له الحسن: تقدم يا أبا عبد اللّٰه وكل. فأظهر له السوم وقال لأبي الفتح ابنه: اجلس وكل مع الأمير فجلس وأكل ومات وتراخت مدة الحسن فعاش قليلاً ومات. وتجددت بين أبي الحسن بن أبي الوزير وأبي القسم بن مسرة وحشة فوقع فيه أبو الحسن عند مرح بن المسيب وكثر عنده حاله وماله وأغراه بنكبته ومصادرته فقبض عليه وقرر أمره على جملة أخذها منه وخاف عاقبة ما عامله به فقال لمرح: هذا شاعر وقد أسأت إليه وإن أفلت من يدك هجاك ومزق عرضك. فقتله وشق بطنه وملأه حصى ورمى به في دجلة فاتفق أن وجدته امرأة كانت

تغسل على الشاطئ فأخرج ودفن بالموصل.

وفي ليلة يوم الاثنين الثالث من ذي القعدة انقض كوكب في برج الحمل والطالع آخر الثور أضاء كضوء القمر ليلة التمام ومضى الضياء وبقي جرمه يتموج نحو ذراعين في ذراع برأي العين وتشقق بعد ساعة.

وفي آخر يوم الأحد التاسع من ذي القعدة كبس العيارون دار أبي عبد اللّه المالكي للفتك به وكان ينظر في المواريث وبعض معاملات أبواب المال وفيه جزف في المعاملة فلم يجدوه ووجدوا أبا طالب بن عبد الملك أخا عبد الملك سنان وكان صهر أبي عبد اللّه على ابنته فقتلوه. وقتل العيارون في هذا اليوم أيضاً حماد بن السكر الشهروني وكان وجهاً من وجوه الرستاقية وأهل الرفق والعصبية.

وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر منه تكامل دخول الحاج الخراسانية إلى بغداد وعبروا بأسرهم إلى الجانب الغربي ثم وقفوا عن التوجه لخلو البلد من ناظر وفساد الطرق ومقام أبي جعفر الحجاج بالكوفة وانتشار العرب من بني خفاجة وبني عقيل في البلاد وعادوا إلى بلادهم في يوم الخميس لعشر بقين منه وبطل الحج من المشرق في هذه السنة.

وفي يوم الاثنين الثاني من ذي الحجة ورد أبو القسم علي بن عبد الرحمن بن عروة مطلقاً من أسر بني عقيل.

ذكر الحال في أسره وإطلاقه

كان قد خرج مع أبي إسحاق إبراهيم أخي أبي جعفر الحجاج ناظراً في الأعمال وتمشية أمور العسكر فلما وقعت الوقعة بينه وبين أبي الحسن بن مزيد ودعيج وبني عقيل بباكرما وانهزم أسره أحد العرب وبقي في يده مدة. وابتاعه أبو الحسن رشا بن عبد اللّه الخالدي منه بمال قرره عليه وضمن أبو بكر الخوارزمي المال لرشا وأطلق.

وفي يوم الأحد الثامن منه قتل ابن بندار المستخرج والحسين بن بركسه غلام بن كامل وقبض على أبي طالب الصياد الهاشمي وابن زيد العلوي وغرقا.

وفي يوم الاثنين التاسع منه ولد الأميران أبو علي الحسن وأبو الحسين ابنا بهاء الدولة توأمين وعاش أبو الحسين ثلاث سنين وشهوراً ومضى لسبيله وبقي الأمير أبو علي وملك الأمر بالحضرة ولقب بشرف الدولة وأخباره تأتي في موضعها بإذن اللّه تعالى.

وفي يوم الأحد لثماني بقين منه ورد الأمين أبو عبد اللّه بغداد عائداً عن أبي جعفر الحجاج بن هرمز فيه ومعه أبو شاكر أحمد بن عيسى كاتبه وقد كان الأمين توقف بواسط لما وردها على ما قدمنا ذكره. فلما وصل عميد الجيوش أبو علي وأصعد أصعد

معه وعدل من النعمانية إلى أبي جعفر فلقيه بالكوفة.

وفي يوم الاثنين لسبع بقين منه خرج الصاحب أبو القسم بن مما إلى أبي الفتح محمد بن عناز فدعاه إلى طاعة عميد الجيوش وخدمته وقاده إلى الدخول في جملته ووعده عنه بما طابت نفسه وعاد من عنده وقد أصلحه ونسج ما بين عميد الجيوش وبينه.

وفي يوم الثلاثاء لست بقين منه توفي أبو يعقوب محمد بن الحسن بن يحيى العلوي الحسيني النقيب.

وفي هذه السنة هرب أبو العباس الضبي من الري وصار إلى بروجرد لاجياً إلى بدر بن حسنويه.

شرح الحال في ذلك وفيما جرى عليه أمر الوزارة بالري بعده على ما أخبرني به القاضي أبو العباس أحمد بن محمد البارودي

قد ذكرنا من قبل صلاح أمر أبي العباس مع الجند بالري ونزوله من القلعة في اليوم الرابع من القبض عليه وحمله إليها وعوده إلى النظر والتدبير ولما كان ذلك أقام مدة سنة والاستقامة جارية والأمور مترخية والحال بينه وبين بدر بن حسنويه عامرة والعصبية له منه واقفة. وكانت في أبي العباس شدة تغلب على طبعه وشح يفسد عليه كثيراً من أمره فاتفق أن توفي الأصفهبذ الأكبر ابن أخي السيدة والدة مجد الدولة وفاة اتهم أبو العباس بأنه دبر عليه وسمه وطلبت السيدة منه ما قدره مائتا دينار لإقامة رسم العزاية فقال في جوابها: لو اشتغلت بما يعطاه الجند المطالبون لكان أولى من تشاغلها بعمل المواتيم للموتى الماضين. فاغتاظت وقالت: صدق وكيف يقيم مأتمه من قتله. وبلغه قولها فأسر الاستيحاش منها وعلم ما وراءه من تغير رأيها فراسل أبا القسم بن الكج القاضي بالدينور واستدعى منه مطالعة بدر بن حسنويه بأمره واستئذانه في خروجه إلى بلاده وتجديد التوثقة عليه له فخاطب ابن الكج بدراً على ذلك فقال: الرأي له أن يقيم بموضعه ولا يفسد حاله بيده ويتلطف في إصلاح السيدة. فلم يقبل أبو العباس هذا الرأي منه لأنه خاف السيدة وعاود بدر بن حسنويه فقال: أما ما عندي من المشورة والنصيحة فقد قلتها وأما ما يراه لنفسه من غير ذلك فله عندي فيه كل ما يحبه ويوثره. وأقام أبو العباس بعد السنة الأولى سنة أخرى حتى حرز أموره وأنجز علائقه وأحرز أمواله. وكان يعتقد الثقة بأبي علي الحسين بن القاسم العارض الملقب بالخطير ففاوضه أمره وما قرر عليه عزمه. وكان أبو علي ذا حيلة ومكيدة وكراهية له وعداوة فقال له: الصواب فيما رأيته فإن أحداً لا يقوم مقامك فيما تقوم فيه وإذا فارقت مقامك تلقاك

بدر بن حسنويه بساوة وقام بمعونتك ونصرتك وتشييد أمرك وخاف السيدة والجند منه فنزلوا على حكمك وعدت جديد الجاه قوي الأمر. قال القاضي أبو العباس: فحدثني أبو الحسن البنداري وكان كاتب أبي العباس الضبي على مكاتباته وسره قال: جاراني الكافي أبو العباس ما أشار به عليه الخطير أبو علي فقلت: قد غشك وما نصح لك ومتى زالت قدمك عن موضعك تغيرت الأمور وحالت عن تقديرك. فقال ما كان أبو علي ليشير بغير الصواب مع إحساني إليه وتوفري عليه. فلما كانت ليلة خروجه ترك داره بما فيها من فرشه وآلاته ورحله وأثقاله وغلمانه وكانوا سبعين غلاماً وخرج ومعه أبو القاسم ابنه وأبو الحسن البنداري كاتبه وغلام تركي من غلمانه ونفر من حواشيه ممن احتاج إليهم لخدمته ونزل على فرسخ من البلد. وأصبح الناس وقد شاع الخبر فماجوا واجتمع الجند وانتدب الجند الخطير أبا علي لخطابهم وقال قد هرب هذا الرجل بعد أن فرغ الخزائن وأخذ الأموال ومزق الأعمال وحل النظام والمواد اليوم قاصرة والإضاقة ظاهرة والاستحقاقات كثيرة فإن قنعتم بما كان فخر الدولة يطلقه لكم قمت به وبذلت الاجتهاد فيه وفي تحصيله وتفرقته عليكم وإن أردتم غير ذلك فانظروا لنفوسكم واختاروا من يتولى أموركم. فلما سمعوا من هذا القول ما سمعوا وعرفوا من صحته ما عرفوه قالوا له قد رضينا بتدبيرك وقنعنا بما بذلته لنا من نفسك ولك علينا السمع والطاعة والانقياد والمساعدة. فتولى الأمر وأخذ ما كان في دار الكافي أبي العباس وكان كثيراً وتتبع أمواله وأموال أصحابه وأقطع أملاكه وإقطاعه وذكره في الكتب بأحمد بن إبراهيم المخل وعلى المنابر بالطعن والقدح والوقيعة والجرح وبالغ في كل ما اعتمد مساءته به والغض منه فيه ومشت الأمور بين يديه.

ووصل أبو العباس الضبي إلى بروجرد فلم يستقبله بدر بن حسنويه ولا أحد من أصحابه لكنه أنفذ إليه بمن يقيم له إقامة فكان يأخذ من ذلك يسيراً وينفق من عنده كثيراً حتى أخذ نحواً من خمسة آلاف درهم سوداً ثم سأل إعفاءه مما يقام له من جهة بدر بن حسنويه فأعفى. ووافاه أصحابه من البلاد لاحقين وانكسر جاهه وانتشر أمره ندوم الندم الشديد على فعله. قال القاضي أبو العباس. وكنت إذ ذاك ببروجرد فاستشارني أبو الحسن البنداري عنه في أمره فقلت: يريد أن يطيب نفساً عما أقطع من أملاكه وإقطاعاته وينزل عنه لمن جعل له فيلاطف السيدة ومجد الدولة ووجوه القواد بما يستميلهم فيه ويقلهم عن أبي علي الخطير به فإنه إذا فعل ذلك أطاعه القوم وبلغوا له مراده. فقال أبو الحسن يحتاج لهذا إلى نحو مائتي ألف دينار ونحن فارقنا مكاننا وأفسدنا أمرنا من أجل مائتي دينار وامتناعنا من إطلاقها.

ومضت للخطير مدة سبعة عشرة شهراً ثم قبض عليه فبادر أبو سعد محمد بن

إسماعيل بن الفضل من همذان إلى الري مدلاً بوصلة بينه وبين السيدة وبما له من الحال الكبيرة والضياع الكثيرة والمادة الواسعة والمكنة التامة. وكره بدر بن حسنويه أن يتم له أمر لسوء رأيه فيه وأنه كان ينقم عليه قبيحاً عامله به فأنفذ أبا عيسى شاذى بن محمد ومعه أبو العباس الضبي إلى الري في ثلاثة آلاف رجل ليعيده إلى نظره ويرده في الوزارة إلى أمره وكتب في ذلك بما أكده وأشار بالعمل عليه وترك خلافه فيه فلما نزلوا بظاهر البلد ووصلت الكتب من بدر بن حسنويه (وقد تردد في معناها ما تقدم من قبل) راسلت السيدة ومجد الدولة ووجوه القواد أبا العباس بأن: «أدخل فإن الأمر ممهد لك والرضا واقع بك» وأنفذت إليه ثقات كانوا له في القوم بأن «الباطن فيك غير الظاهر لك وقد رتب الأمر على الغدر بك والقبض عليك» فخاف ورجع.

وتقلد أبو سعد بن الفضل الوزارة وتوسع في نظره بماله واستغلال أملاكه وهادى مجد الدولة والسيدة بما ملأ عيونهما به وأعطاهما وأعطى الأكابر ما استخلص نياتهم فيه. وكان شديد العجرفة عسوفاً في المعاملة متهجماً على الجند بالمخاطبة الوحشة فكرهوه واجتمعوا وقصدوه فهرب إلى بروجرد بعد أن استصلح بدر بن حسنويه وعاد الخطير أبو علي إلى الوزارة وسام بدراً أن يخاطبه بالوزير فامتنع من ذلك وامتنع أبو علي من خطابه بسيدنا وانتهى ما بينهما إلى الشر والمباينة والمكاشفة بالقبيح والعداوة وكتب الخطير إلى أصحاب الأطراف يبعثهم على بدر بن حسنويه ويغريهم به ويهون عليهم أمره وواصل هلالاً ابنه وأفسده عليه وحمله على مباينته ومقاطعته فكان ذلك من أقوى الأسباب فيما خرج إليه معه. وسنذكر شرح هذه الجملة وما انتهت إليه الحال بين الخطير وبين بدر فيما نورده آنفاً بمشيئة اللّه تعالى.

ذكر السبب في فساد رأي بدر بن حسنويه على أبي سعد بن الفضل وما عامله به عند هزيمته من الري وقصده إياه

حدثني القاضي أبو العباس البارودي قال: كان أبو سعد بن الفضل ينظر في أعمال همذان والماهين وسهرورد وأبهر من قبل مجد الدولة ويعطي شمس الدولة من ارتفاع ذلك مالاً معيناً ومبلغاً مقنناً. فشرع بدر بن حسنويه في أن يبتاع خاناً بهمذان ويفرده باسمه ويقيم فيه بيعاً يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة في أعماله وكانت الحمولات كلها واصلة منها ومحمولة فيها وبذل له في ارتفاع هذا الخان إذا تقرر أمره ألف ألف ومائتا ألف درهم. وأنفذ أبا غالب بن مأمون الصيمري إلى همذان لترتيبه وعقده على الراغب في ضمانه. وشق على أبي سعد بن الفضل تمام ذلك وتصور أنه طريق إلى خروج ارتفاع البلد عن يده فوضع قوماً من الديلم على أن يقصدوا أبا غالب ويوقعوا به وكان نازلاً في دار أبي عبد اللّه مجمد بن علي بن خلف النيرماني لأنه يرسم النيابة عن بدر بهمذان فقصدوه وكبسوا الدار وهرب من بين أيديهم وعاد إلى بروجرد.

وادعى أنه قد نهب منه جملة كثيرة من المال الذي كان معه وكتب إلى بدر بالصورة واستأذنه الاعتراض على ضياع أبي سعد بن الفضل وأن يأخذ منها عوض ما أخذ منه فأذن له في ذلك واستخرج ما قدره خمسون ألف دينار. فقال أبو سعد لما بلغه الخبر: «احسب أن يحيى بن عنبر (لرجل قاطع طريق) أخذ مالي واعترض على ضياعي» وبلغ بدراً ذلك فاحفظه. وقبض على الخطير أبي علي بالري فبادر أبو سعد ابن الفضل طامعاً في الوزارة وكره بدر أن يتم له أمره فأنفذ أبا العباس الضبي مع أبي عيسى شاذي في ثلاثة آلاف رجل لتقرير الوزارة له وجرى في ذلك ما قدمنا ذكره. وتولى النظر أبو سعد بن الفضل فأقام عليه سنتين ثم وقف أمره وشغب الجند عليه فهرب وقيل إنه دلي في هربه في زبيل من سطح دار وقصد بدر بن حسنويه فما شعر به حتى حصل بالكرج وتمم إليه إلى سابور خواست فأحسن تقبله وأكرم منزله وحمله إليه ثلاثمائة رأس غنماً وأصنافاً كثيرة فيها حمل سكر أبيض ولم يكن حمل مثل ذلك إلى أبي العباس الضبي لأنه علم أن أبا سعد واسع المروءة كثير التجمل ووصل إليه من هذا المحمول ما وصل فما انقضى يومه حتى فرقه واستعمله وأقام عنده أياماً ثم صار إلى بروجرد.

قال القاضي أبو العباس: فتأخر أبو العباس الضبي عن استقباله واحتج بنقرس كان عرض له وأنفذ أبا القسم سعيداً ابنه للنيابة عنه في قضاء حقه وخرجت معه فسلم كل واحد من ابن أبي العباس وأبي سعد على صاحبه وسارا داخلين إلى البلد فتقدم عليه ابن أبي العباس. فلما كان في آخر ذلك اليوم ركب إليه أبو العباس الضبي في محفة ودخل داره وهو يخرج من بيت الماء ويشد سراويله وتلقاه وقبل صدره في المحفة وخاطبه أبو العباس بالوزير وقد كان أبو سعد كاتب أبا العباس من الري عند وزارته وخاطبه بالأستاذ الرئيس فلما التقيا هذا الالتقاء اعتمد أبو العباس في خطابه بالوزارة أن يعلمه أن الصرف لا يزيل اسمه من الوزارة ولم يجتمعا بعد هذه الدفعة.

وفي هذه السنة أنشأ مهذب الدولة داره بالصليق فوسع صحنها وعظم أبنيتها وكبر مجالسها وسلك مسالك الملوك فيها ونقل إليها من الآلات والساج الشيء. الكثير فجاءت أحسن دار وأفخمها وأجلها وأعظمها. وقد رأيتها في أيامه وكانت من أبنية الملوك وذوي الهمم الكبيرة منهم وما شاهدت صحناً كصحنها في انفساحه واتساعه وكانت راكبة لدجلة ولها روشن وشبابيك عليها. ونقضت هذه الدار في سنة سبع عشرة وأربع مائة حتى قلعت أساساتها وجعلت دكة في تعفي آثارها. وكان سبب ذاك أن باع العمال في أيام الفترة بعضها على أرباب الأقساط وطمع الجند بهذا الابتداء فأتوا على جميعها.

وفيها خرج أبو الحسن بن إسحاق كاتب أبي الحسن محمد بن عمر كان إلى فارس على استتار.

شرح الحال في ذلك وفيما جرى عليه أمره إلى أن قتل

لما أصعد أبو الحسن إلى بغداد مع الصاحب أبي القسم بن مما على القاعدة التي قدمنا ذكرها بدا من أمره ما كان مستوراً خافياً وقبض على جماعة من التجار وصادرهم وتأول عليهم وجازفهم واعتقل الجاثليق ووكل به وبالغ في الغض منه واستعمال القبيح معه. وحاول في القبض على أبي يعقوب العلوي ما حاوله فلما لم يتم له وعرف خبر أبي الحسن بن يحيى في عوده إلى واسط وانحلال أمر أبي نصر سابور وانتقاض قواعده استتر وخرج إلى أوانا وأقام بها مديدة. ثم توصل إلى الحصول بالبطيحة وتوجه منها إلى فارس بمرقعة تعويلاً على حال كانت بينه وبين أبي الخطاب. ونزل على أبي العلاء عبيد اللّٰه بن الفضل فأكرمه وشرع في مراسلة بهاء الدولة من داره في أمور كثر الكلام فيها عليه فتجعد أبو العلاء منه وخاف أن يتطرق عليه سوء به وانتقل أبو الحسن عنه متغضباً عليه. وقبله بهاء الدولة واعتقد فيه تأدية الأمانة فيما يقوم له به فأنفذه إلى ناحية شق الروذان وكانت يومئذ مفردة للخاص فدبرها وقرر ارتفاعها وحمل إلى بهاء الدولة منه ما قامت سوقه عنده به وثقل ذلك على أبي غالب محمد بن علي وهو إذ ذاك ناظر في الوزارة وعلى أبي الفضل ابن سودمنذ بعده. وتوجه بهاء الدولة إلى الأهواز لقتال أبي العباس بن واصل فقبض الوزير أبو غالب على أبي الحسن وحبسه في دار المملكة مدة حتى بلغت منه الضغطة والشدة.

ثم بلغ الوزير أن بهاء الدولة سأل عنه وقال ما فعل ذلك البائس ابن إسحاق. فأشفق أن يكاتبه بإنفاذه إلى حضرته فاحتال عليه بأن استدعاه من محبسه وخلا به وقال به قد استولى أبو غالب الحسن بن منصور على كرمان واستأكل أموالها ومنعني مما كنت أرجو حصوله منها وعملت على أن أخرجك إليها كالمقرر لارتفاعها فإذا ثبتت قدمك واستقرت الدار بك قلدتك وسلمت أبا غالب إليك لتستقصي أمره وترتجع منه ما أخذه واحتجنه وأعلم أن المحنة قد بلغت منك وأنك محتاج إلى ما تعيد به تجملك وقد وقعت لك إلى أبي عبد اللّٰه بن يوسف الفسوي بعشرين ألف درهم تصرفها في ذلك وينبغي أن تسبقني إلى فسا وتستوفي هذا المال وتبتاع به رحلاً وبهائم فإنني سأتبعك إلى هناك وأقرر ما بيني وبينك وأنفذك. وحمل إليه ثياباً من خزانته ونفقة فاغتر أبو الحسن وقدر هذا القول حقاً وما وراءه من الاعتقاد سليماً. وواقف قوماً من الزط على أتباعه والفتك به فمضوا واعترضوا القافلة التي كان فيها ومعهم من يعرف أبا الحسن فلما بصر به دلهم عليه فأرجلوه من دابته وقالوا له أنت قريب الوزير ولنا عنده رهائن ونحن نأخذك

ونعتقلك إلى أن يفرج عنهم. وعدلوا به عن الطريق إلى بعض الشعاب وذبحوه وخلوا عن القافلة ولم يعرضوا لها. وكان أحمد حاجب ابن إسحاق معه فاطلع على باطن القصة وتحدث به وبلغ الوزير أبا غالب فحاول فخاف أن يتصل ببهاء الدولة من جهته فأحضره ووعده الجميل ومعاملته به وأطلق له نفقة سابغة وكان يراعيه مدة كونه بفارس.

وهذا الخبر أرويه عن أبي عبد اللّه الفسوي وحدثني معه أنه بلغ من مراعاة بهاء الدولة لأمر ابن إسحاق وعنايته به أن أنفذ إليه بأحد خواصه من الفراشين وقد هجم غلمان الخيول بشيراز وكانوا ألفاً ومائتي غلام وانضاف إليهم الخارجون عن الدار وقال له احرس نفسك من أبي غالب بن خلف واحذر أن يتم له عليك حيلة. وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً.

سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة

أولها يوم الاثنين والتاسع من تشرين الثاني سنة أربع عشرة وثلاثمائة وألف للإسكندر وروز ماراسفند من ماه آبان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ليزدجرد.

منع عميد الجيوش أهل الكرخ وباب الطاق في عاشوراء من النوح في المشاهد وتعليق المسوح في الأسواق فامتنعوا ومنع أهل باب البصرة وباب الشعير من مثل ذلك فيما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير.

وفي رشن من ماه آذر الواقع يوم الخميس لخمس بقين من المحرم قبض على أبي غالب محمد بن علي بن خلف وتقلد الوزارة أبو الفضل محمد بن القسم بن سودمنذ في روز خرداد من ماه (. . . . . .) الواقع في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول.

ذكر حال أبي الفضل وما جرى عليه الأمر في تقليده

أبو الفضل هذا أحد الكتاب الذين وردوا العراق من فارس مع أبي منصور بن صالحان في أيام شرف الدولة وكان يكتب بين يديه في جملة كتاب الإنشاء ثم قلده عمالة عكبرا وانتقل منها إلى النظر في بعض الأعمال بالأهواز وتدرجت به الأحوال بعد ذلك إلى أن تقلد عرض الديلم وتقدم في أيام الموفق وخرج بعد وفاته إلى كرمان على ما قدمنا ذكره. ولما عاد الوزير أبو غالب بن خلف من سيراف وعرف عوده من كرمان بعد أن فعل في تقرير أمورها ما فعله وحمل إلى الخزانة من مالها ما حمله ووقوع ذلك من بهاء الدولة موقعه وتأكد حاله عنده به وموضعه شق عليه أمره وأغراه المفسدون به فقبض عليه ونكبه واضطره إلى التبذل والتسلم في تصحيح ما قرره عليه وطالبه به. وخرج من النكبة فكتب إلى بهاء الدولة رقعة جعل سفيره ووسيطه فيها الحسين المزين وامرأته وسعى بالوزير أبي غالب وبذل فيه بذلاً كثيراً. وقد كان تحصل في نفس بهاء

الدولة منه ما تكلم عليه به في أمر تركة الفرخان وما أخذه منها فأجابه إلى ما أراده ووافقه على القبض عليه فسلمه النظر في الأمور بعده. فلما كان في يوم القبض دخل أبو الفضل دار الوزير أبي غالب بقميصين ورداء على زي المتعطلين والمنكوبين وحضر مجلسه وخدمه ثم خرج من بين يديه وقعد في الدهليز. وكان قد رتب أمر القبض من الليل وواقف كل رجل من أصحابه على أخذ كل واحد من أصحاب الوزير أبي غالب فقبض عليه وعلى حواشيه وأصحابه وألزم الجماعة من المصادرة على قدر حاله وموجب تصرفه وقرر على أبي غالب مائة ألف دينار قاسانية قيمتها أربعة آلاف ألف درهم من نقد الوقت وجد به في الأداء والتصحيح جداً فخرج فيه إلى بعض العسف والإرهاق من غير أن يمكنه.

هذا كل ما ورد في النسخة التي حصلنا عليها وهي كما ترى مبتورة.

تم بعونه تعالى كتاب «تجارب الأمم» مع ذيوله،

ويليه الفهارس العامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفهارس العامة

فهرس الوقائع والأيام والأحداث التاريخية
مرتبة حسب التسلسل الزمني

الحدث التاريخي	السنة	الجزء والصفحة
فتح المدائن	١٦هـ	١/ ٢٢٨
وقعة جلولاء	١٦هـ	١/ ٢٣٢
يوم نهاوند	٢١هـ	١/ ٢٤٢
فتح الري	٢٢هـ	١/ ٢٥٣
فتح قومس	٢٢هـ	١/ ٢٥٤
فتح جرجان وطبرستان	٢٢هـ	١/ ٢٥٤
فتح أذربيجان	٢٢هـ	١/ ٢٥٤
فتح باب الأبواب	٢٢هـ	١/ ٢٥٥
ظهور السبائية	٣٥هـ	١/ ٢٧٧
خروج أهل مصر إلى المدينة لقتل عثمان	٣٥هـ	١/ ٢٧٧
يوم الدار وقتل عثمان بن عفان	٣٥هـ	١/ ٢٨٨
وقعة الجمل	٣٦هـ	١/ ٣٠٠
وقعة صفين	٣٧هـ	١/ ٣٧٨
يوم النهر	٣٧هـ	١/ ٣٦٢
وقعة الحرة	٦٣هـ	٢/ ٥٦
موت يزيد بن معاوية	٦٣هـ	٢/ ٥٨
مبايعة معاوية بن يزيد بن معاوية	٦٣هـ	٢/ ٥٨
وقعة عين الوردة	٦٥هـ	٢/ ٨٠
وقعة السبيع	٦٦هـ	٢/ ١١٦
وقعة دير الجماجم	٨٢هـ	٢/ ٢٢٩
موت عبد الملك بن مروان	٨٦هـ	٢/ ٢٥٦
خلافة الوليد بن عبد الملك	٨٦هـ	٢/ ٢٦١
فتح شومان وكس ونسف	٩٥هـ	٢/ ٢٧٢
فتح خوارزم	٩٥هـ	٢/ ٢٧٢
فتح السغد	٩٥هـ	٢/ ٢٧٣
موت الحجاج بن يوسف	٩٥هـ	٢/ ٢٨٠
موت الوليد بن عبد الملك	٩٦هـ	٢/ ٢٨٠

الحدث التاريخي	السنة	الجزء والصفحة
موت إياس بن معاوية بن قرة	١٢٢هـ	٢/ ٤٥١
وفاة هشام بن عبد الملك	١٢٥هـ	٢/ ٤٥٨
خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥هـ	٢/ ٤٦٢
قتل يحيى بن زيد بن علي	١٢٥هـ	٢/ ٤٦٩
قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٦هـ	٢/ ٤٧٢
خلافة يزيد بن الوليد (الناقص)	١٢٦هـ	٢/ ٤٧٣
قتل خالد بن عبد الله القسري	١٢٦هـ	٢/ ٤٨٣
وثوب أهل فلسطين والأردن على عاملهم	١٢٦هـ	٢/ ٤٨٨
خلافة مروان بن محمد بن مروان	١٢٦هـ	٢/ ٥٠٦
موت يزيد بن الوليد (الناقص)	١٢٦هـ	٢/ ٥٠٧
مسير مروان بن محمد إلى الشام	١٢٧هـ	٢/ ٥١٤
خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب	١٢٧هـ	٢/ ٥١٦
دخول الضحاك بن قيس الشيباني الكوفة	١٢٧هـ	٢/ ٥٢٢
خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان ابن محمد بن مروان	١٢٧هـ	٢/ ٥٢٦
قتل الحارث بن سريج	١٢٨هـ	٢/ ٥٣٥
قتل شيبان بن عبد العزيز، (أبو دلف اليشكري الحروري)	١٢٩هـ	٢/ ٥٤٥
مقتل جديع بن علي الكرماني	١٢٩هـ	٢/ ٥٦١
تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب على فارس	١٢٩هـ	٢/ ٥٦٥
دخول أبي مسلم الخراساني حائط مرو	١٣٠هـ	٢/ ٥٦٥
قتل شيبان الحروري	١٣٠هـ	٢/ ٥٧٠
وقعة قديد بين أبي حمزة الخارجي وأهل المدينة	١٣٠هـ	٢/ ٥٧٦
قتل عامر بن ضبارة	١٣١هـ	٢/ ٥٨٠

الحدث التاريخي	السنـــة	الجزء والصفحة
موت عبد الله بن علي (عم أبي جعفر)	١٤٧هـ	٣/ ١١٢
خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان	١٥٠هـ	٣/ ١٢٢
بناء المنصور الرصافة	١٥١هـ	٣/ ١٢٥
بناء المنصور مدينة الرافقة	١٥٥هـ	٣/ ١٣٤
موت أبي جعفر المنصور	١٥٨هـ	٣/ ١٣٩
خلافة المهدي العباسي	١٥٨هـ	٣/ ١٤٦
خروج حكيم بن المقنع بخراسان	١٦١هـ	٣/ ١٥٦
وفاة المهدي بن أبي جعفر المنصور	١٦٩هـ	٣/ ١٧٤
خلافة موسى الهادي	١٦٩هـ	٣/ ١٧٨
وفاة الهادي موسى بن المهدي	١٧٠هـ	٣/ ١٨٢
خلافة هارون الرشيد	١٧٠هـ	٣/ ١٩٣
وفاة محمد بن سليمان بالبصرة	١٧٣هـ	٣/ ١٩٨
وفاة الخيزران أم هارون الرشيد	١٧٣هـ	٣/ ١٩٨
خروج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي ابن أبي طالب	١٧٦هـ	٣/ ٢٠٠
هيجان العصبية بالشام بين النزارية واليمانية	١٧٦هـ	٣/ ٢٠٧
دخول الوليد بن طريف الثاري الجزيرة	١٧٩هـ	٣/ ٢١٨
هيجان العصبية بالشام	١٨٠هـ	٣/ ٢١٩
خروج ملك الخزر من باب الأبواب	١٨٣هـ	٣/ ٢٢٥
قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي	١٨٧هـ	٣/ ٢٣١
نكبة البرامكة	١٨٧هـ	٣/ ٢٣١
حبس الرشيد عبد الملك بن صالح	١٨٧هـ	٣/ ٢٤٠
انتقاض الصلح بين المسلمين وبين الروم	١٨٧هـ	٣/ ٢٤٥
قتل إبراهيم بن عثمان بن نهيك	١٨٧هـ	٣/ ٢٤٧
خروج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند	١٩٠هـ	٣/ ٢٥٢

الحدث التاريخي	السنة	الجزء والصفحة
وفاة المأمون ابن هارون الرشيد	٢١٨هـ	٣/ ٤١٧، ٤١٨
خلافة المعتصم بالله العباسي	٢١٨هـ	٤/ ٣
خروج محمد بن القاسم بن عمر بن علي ابن الحسين بالطالقان	٢١٩هـ	٤/ ٤
وقعة أرشق بين بابك الخرمي والأفشين	٢٢هـ	٤/ ٨
بناء المعتصم سرّ من رأى	٢٢٠هـ	٤/ ١١
وقعة بادية هشتادسر بين بغا الكبير وبابل الخرمي	٢٢١هـ	٤/ ١٥
غزو ملك الروم ملطية	٢٢٣هـ	٤/ ٣٩
حبس المعتصم العباس ابن المأمون	٢٢٣هـ	٤/ ٥٠
خروج مازيار بن قارن بطبرستان	٢٢٤هـ	٤/ ٥٧
خروج منكجور الأسروشني بأذربيجان	٢٢٤هـ	٤/ ٦٩
موت الأفشين (حيدر بن طاوس)	٢٢٦هـ	٤/ ٨٠
خروج المبرقع اليماني بفلسطين	٢٢٧هـ	٤/ ٨٤
وفاة المعتصم بالله العباسي	٢٢٧هـ	٤/ ٨٦
خلافة الواثق بالله العباسي	٢٢٧هـ	٤/ ٨٦
موت عبد الله بن طاهر بن الحسين	٢٣٠هـ	٤/ ٩٣
مبايعة أهل بغداد أحمد بن نصر الخزاعي	٢٣١هـ	٤/ ٩٥
وفاة ابن الأعرابي	٢٣١هـ	٤/ ٩٩
مسير بغا الكبير إلى بني نمير	٢٣٢هـ	٤/ ١٠١
وفاة الواثق بالله العباسي	٢٣٢هـ	٤/ ١٠٣
خلافة المتوكل على الله العباسي	٢٣٢هـ	٤/ ١٠٦
مقتل إيتاخ	٢٣٥هـ	٤/ ١١٦
أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليه السلام	٢٣٦هـ	٤/ ١٢٠
موت نجاح بن سلمة الكاتب	٢٤٥هـ	٤/ ١٣٢
مقتل المتوكل على الله العباسي	٢٤٧هـ	٤/ ١٣٦
خلافة المنتصر بالله العباسي	٢٤٧هـ	٤/ ١٤١
غزو وصيف التركي الصائفة	٢٤٨هـ	٤/ ١٤٢

فهرس القبائل والجماعات

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الذال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الضاد

باب الطاء

باب العين

باب الغين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

فهرس الأماكن

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الذال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الطاء

باب العين

باب الغين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

فهرس الأعلام

باب الألف

باب الباء

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الذال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الضاد

باب الطاء

باب الظاء

باب العين

باب الغين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الهاء

باب الواو

باب الياء

فهرس المحتويات